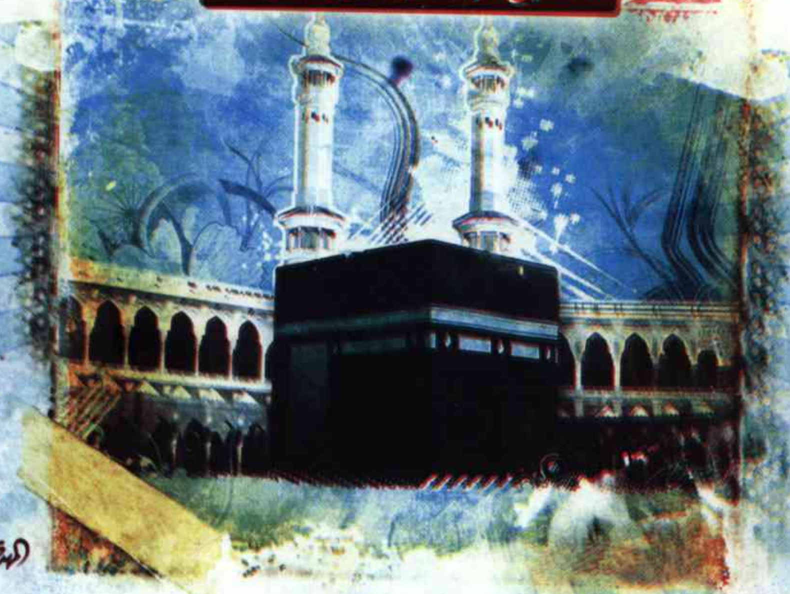


الموسوعة الجلية في شروح

العقيدة الواسطية

لشيخ الإسلام / ابن تيمية



جزء ١

لأصحاب الفضيلة

محمد بن صالح بن عثيمين
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
صالح بن فوزان الفوزان
صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
فيصل بن عبد العزيز آل مبارك
عبد العزيز بن عبد الله بن باز
عبد العزيز بن محمد بن مانع
زيد بن عبد العزيز آل الفياض
محمد بن إبراهيم آل الشيخ
عبد الرحمن بن ناصر البراك
عبد العزيز بن ناصر الرشيد
محمد خليل هراس

دار ابن الجوزي
القاهرة

وبهامشه تعليقات
الشيخ / إسماعيل الأنصاري

ومعه أسئلة وأجوبة
للشيخ / عبد العزيز بن محمد السلماني

هذه الطبعة تعتمد في تصحيحات وتضعيفات أحاديثها على أحكام الشيخ الألباني

الموسوعة الجلية في شروح العقيدة الواسطية

لشيخ الاسلام ابن تيمية

لأصحاب الفضيلة

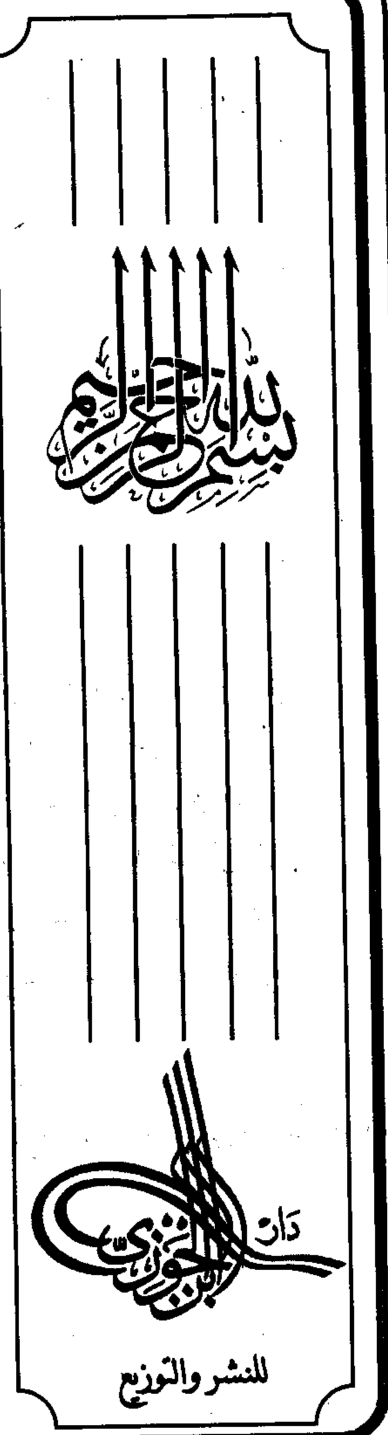
* فيصل بن عبد العزيز آل مبارك
* عبد الرحمن بن ناصر السعدي
* عبد العزيز بن محمد بن مانع
* محمد خليل هراس
* محمد بن إبراهيم آل الشيخ
* زيد بن عبد العزيز آل فياض
* عبد العزيز بن ناصر الرشيد
* عبد العزيز بن عبد الله بن باز
* محمد بن صالح بن عثيمين
* عبد الرحمن بن ناصر البراك
* صالح بن فوزان الفوزان
* صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

وبهامشه تعليقات
الشيخ إسماعيل الأنصاري

ومعه أسئلة وأجوبة
للشيخ عبد العزيز بن محمد السلماني

هذه الطبعة تعتمد في تصحيحات وتضعيفات أحاديثها
على أحكام الشيخ الألباني

الجزء الأول



الطبعة الأولى

٢٠١٢م

١٤٣٣هـ / ٢٠١٢

رقم الإيداع: ٥١٨٢/ ٢٠٠٥

دار ابن الجوزي

جمهورية مصر العربية - القاهرة
٥ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر
ت: ٠٠٢٠٢٢٥٠٦١٩٠٣
ت: ٠٠٢٠٢٢٥٠٦١٦٢١
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٥٠٦١٦٢٠
E-mail: dar_ebnelgawzy@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

إن الحمدَ للَّهِ نَحْمَدُه ونَستَعِينُه ونَستَغْفِرُه ، ونَعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا ، ومِن سيئاتِ أعمالِنا ، مَن يَهْدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له ، ومَن يُضْلِلْ فلا هاديَ له .

وأشهَدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شَريكَ له ، وأشْهَدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٠ - ٧١] .

أما بعدُ :

فقد اتسمت « العقيدة الواسطية » على اختصارها بأنها عقيدة مستندة إلى الكتاب والسنة وإجماع أهل العلم ، وقد قال في ذلك شيخ الإسلام : « إنه ما من لفظ في هذه العقيدة إلا وله دليل من الكتاب أو السنة أو إجماع السلف » .

وتميزت هذه العقيدة أيضًا بأنها قد استقرأت أقوال السلف وما قاله الأئمة من الصحابة ومَن بعدهم مِن القرون المفضلة ، فأجملت ذلك واختصرته بعبارة واضحة .

وقد تميزت أيضًا بتحرير ألفاظها تحريرًا بالغًا دقيقًا ، وقد أمهل الشيخ خصومه ثلاث سنين ليأتوا بشيء في هذه العقيدة يخالف ما عليه السلف ، فلم يجدوا ، فرجعوا خاسئين .

وقد تميزت أيضًا هذه العقيدة بأنها شاملة لأصول الدين ، وقد قال الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ - حفظه الله - في ذلك :

« وقد ذكر الشيخ في شرحه أن هذه العقيدة قد اشتملت على مباحث متنوعة منها مباحث أصلية في شرح أركان الإيمان الستة ، ومنها متممات لذلك ، ومنها الكلام على منهج التلقي والاحتجاج ، والكلام على النصوص والتسليم لها والإجماع ، وحجية ذلك ، وما ينضبط به الأمر والنهي وما يتصل بهذه المسائل » .

اهتمام العلماء بـ « العقيدة الواسطية » :

حظيت هذه العقيدة باهتمام العلماء قديمًا وحديثًا ، ونالت ثناءهم ، فكثر الحافظون لها والدارسون والمدرسون لها ، وكثر شارحوها ، فشرحها الكثير من العلماء ، ونظمها بعضهم شعرًا .

وكان كتاب « العقيدة الواسطية » لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كتابًا جامعًا لمنهج أهل السنة والجماعة ، وهو مما لا غناء لمسلم عنه ، خاصة وأن العقيدة هي أصل هذا الدين وركنه المتين ؛ فقمنا بحمد الله وتوفيقه بإخراج هذا العمل الضخم لـ « شرح العقيدة الواسطية » في ثوب جديد ، جمعنا فيه شروحًا لعلماء أجلاء وهم :

* الشيخ فيصل بن عبد العزيز آل مبارك
* الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي
* الشيخ عبد العزيز بن محمد بن مانع
* الشيخ محمد خليل هراس
* الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ
* الشيخ زيد بن عبد العزيز آل فياض
* الشيخ عبد العزيز بن ناصر الرشيد
* الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز
* الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين
* الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك
* الشيخ صالح بن فوزان الفوزان
* الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
* وبهامشه تعليقات الشيخ إسماعيل الأنصاري .
* ثم أسئلة وأجوبة للشيخ عبد العزيز بن محمد السلماني .
* وقام بتبويب « متن الواسطية » الشيخ صالح بن فوزان الفوزان .

وكان عملنا في هذا الكتاب (بإيجاز) على النحو التالي :

* تخريج الآيات القرآنية ، مع رسمها بالخط العثماني .
* تخريج الأحاديث النبوية ، مع ذكر أحكام العلامة الألباني رحمه الله عليها ، وهو تخريج مختصر يبين أصل ورود الحديث دون إطالة أو تقصير .
* إقامة النص وتصحيحه تصحيحًا لغويًا ، مع ضبط الألفاظ التي تُشكِل على القارئ ، وقمنا بإضافة بعض الكلمات التي لا يستقيم السياق إلا بها ، ووضعناها بين معكوفين [ ] .

وفي النهاية نتقدم بخالص الشكر لكل من شارك في إخراج هذا العمل ، ونخص بالذكر : الأستاذ / محمد سامح عمر ، والأستاذ / إبراهيم عبد الستار ، والأستاذ / نادي محمد ، فجزاهم الله خير الجزاء ، ونفع بهم ، ونسأل الله تعالى أن يرزقنا العلم النافع ، والفقه في دينه ، وأن يكون هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم .

والحمد لله رب العالمين .

ترجمة المصنِّف شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية رحمه الله

١- نسبه :

هو شيخ الإسلام الإمام : أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن محمد بن الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله بن تيمية ، الحراني ، ثم الدمشقي ، كنيته : أبو العباس .

٢- مولده ونشأته :

وُلد يوم الاثنين العاشر من ربيع الأول بـ « حران » سنة (٦٦١هـ) ، ولما بلغ من العمر سبع سنين انتقل مع والده إلى دمشق هربًا من وجه الغُزاة التتار ، وقد نشأ في بيت علمٍ وفقهٍ ودين ، فأبوه وأجداده وإخوته وكثير من أعمامه كانوا من العلماء المشاهير ، منهم : جده الأعلى (الرابع) محمد بن الخضر ، ومنهم : عبد الحليم بن محمد بن تيمية ، وعبد الغني بن محمد بن تيمية ، وجده الأدنى عبد السلام بن عبد الله بن تيمية مجد الدين أبو البركات صاحب التصانيف التي منها : « المُنتقى من أحاديث الأحكام » ، و« المحرر في الفقه » ، و« المُسَوَّدة في الأصول » وغيرها ، وكذلك أبوه عبد الحليم بن عبد السلام الحراني ، وأخوه عبد الرحمن ، وغيرهم .

ففي هذه البيئة العلمية الصالحة كانت نشأة ابن تيمية ، وقد بدأ بطلب العلم أولًا على أبيه وعلماء « دمشق » ، فحفظ القرآن وهو صغير ، ودرس الحديث والفقه والأصول والتفسير ، وعُرف بالذكاء وقوة الحفظ والنجابة منذ صغره ، ثم توسع في دراسة العلوم وتبحر فيها ، واجتمعت فيه صفات المُجتهد منذ شبابه ، فلم يلبث أن صار إمامًا يعترف له الجهابذة بالعلم والفضل والإمامة ، قبل بلوغ الثلاثين من عمره .

٣- إنتاجه العلمي :

وفي مجال التأليف والإنتاج العلمي ، فقد ترك الشيخ للأمة تراثًا ضخمًا ثمينًا ، لا يزال العلماء والباحثون ينهلون منه معينًا صافيًا ، توفرت منه الآن المجلدات الكثيرة ، من المؤلفات والرسائل والفتاوى والمسائل وغيرها ، هذا من المطبوع ، وما بقي مجهولًا أو مكنوزًا في عالم المخطوطات كثير .

ولم يترك الشيخ مجالًا من مجالات العلم والمعرفة التي تنفع الأمة ، وتخدم الإسلام إلا كتب فيه ، وأسهم بجدارة وإتقان ، وتلك خصلة قلما توجد إلا عند العباقرة النوادر في التاريخ .

فلقد شهد له أقرانه وأساتذته وتلاميذه وخصومه بسعة الاطلاع ، وغزارة العلم ، فإذا تكلم في علمٍ من العلوم أو فنٍّ من الفنون ظن السامع أنه لا يُتقن غيره ؛ وذلك لإحكامه له وتبحره فيه ، وإن المطلع

على مؤلفاته وإنتاجه ، والعارف بما كان يعلمه في حياته من الجهاد باليد واللسان ، والذّب عن الدين ، والعبادة والذكر ، ليعجب كل العجب من بركة وقته ، وقوة تحمله وجلده ، فسبحان من منحه تلك المواهب .

٤- جهاده ودفاعه عن الإسلام :

الكثير من الناس يجهل الجوانب العملية من حياة الشيخ ، فإنهم عرفوه عالِمًا ومؤلفًا ومُفتيًا ، من خلال مؤلفاته المنتشرة ، مع أن له مواقف مشهودة في مجالات أخرى عديدة أسهم فيها إسهامًا قويًا في نُصرة الإسلام وعزة المسلمين ؛ فمن ذلك : جهاده بالسيف وتحريضه المسلمين على القتال ، بالقول والعمل ، فقد كان يجول بسيفه في ساحات الوغى مع أعظم الفرسان الشجعان ، والذين شاهدوه في القتال أثناء فتح عكّا عجبوا من شجاعته وفتكه بالعدو .

أما جهاده بالقلم واللسان ؛ فإنه ﷺ وقف أمام أعداء الإسلام من أصحاب الملل والنحل والفرق، والمذاهب الباطلة والبدع كالطود الشامخ ، بالمناظرات حينًا ، وبالردود أحيانًا ، حتى فنّد شُبهاتهم ، ورد الكثير من كيدهم بحمد الله ، فقد تصدى للفلاسفة ، والباطنية ، من صوفية ، وإسماعيلية ، ونصيرية ، وسواهم ، كما تصدى للروافض والملاحدة ، وفند شُبهات أهل البدع التي تُقام حول المشاهد والقبور ونحوها ، كما تصدى للجهمية والمعتزلة ، وناقش المتكلمين والأشاعرة .

والمطلع على هذا الجانب من حياة الشيخ يكاد يجزم بأنه لم يبق له من وقته فضلة ، فقد حورب ، وطورد ، وأُوذي ، وسُجن مرات في سبيل الله ، وقد وافته منيته مسجونًا في سجن القلعة بدمشق .

ولا تزال - بحمد الله - ردود الشيخ سلاحًا فعالًا ضد أعداء الحق والمبطلين ؛ لأنها إنما تستند إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وهدي السلف الصالح ، مع قوة الاستنباط ، وقوة الاستدلال والاحتجاج الشرعي والعقلي ، وسعة العلم التي وهبها الله له .

وأكثر المذاهب الهدامة التي راجت اليوم بين المسلمين هي امتداد لتلك الفرق والمذاهب التي تصدى لها الشيخ وأمثاله من سلفنا الصالح ، لذلك ينبغي للدُّعاة المُصلحين ألا يغفلوا هذه الناحية ، ليستفيدوا مما سبقهم به سلفنا الصالح .

ولست مُبالغًا حينما أقول : إنه لا تزال كُتب الشيخ وردوده هي أقوى سلاح للتصدي لهذه الفرق الضالة والمذاهب الهدامة التي راجت وبدأت تخرج أعناقها اليوم من جديد ، والتي هي امتداد للماضي ، لكن منها تلك التي تزيّت بأزياء العصر ، وغيّرت أسماءها فقط ، مثل البعثية ، والاشتراكية ، والقومية ، والقاديانية ، والبهائية ، وسواها من الفرق والمذاهب ، ومنها ما بقي على شعاره القديم كالشيعة ، والرافضة ، والنصيرية ، والإسماعيلية ، والخوارج ، ونحو ذلك .

٥- خصاله :

بالإضافة إلى ما اشتهر به هذا الإمام من العلم والفقه في الدين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قد وهبه الله خصالًا حميدة ، اشتهر بها وشهد له بها الناس ، فكان سخيًّا كريمًا ، يؤثر المحتاجين على نفسه في الطعام واللباس وغيرهما ، وكان كثير العبادة والذكر وقراءة القرآن ، وكان ورعًا زاهدًا لا يكاد يملك شيئًا من متاع الدنيا سوى الضروريات ، وهذا مشهور عند أهل زمانه حتى بين عامة الناس ، وكان متواضعًا في هيئته ولباسه ومعاملته مع الآخرين ، فما كان يلبس الفاخر ولا الرديء من اللباس ، ولا يتكلف لأحد يلقاه ، واشتهر أيضًا بالمهابة والقوة في الحق ، فكانت له هيبة عظيمة عند السلاطين والعلماء وعامة الناس ، فكل من رآه أحبه وهابه واحترمه ، إلا من سيطر عليهم الحسد من أصحاب الأهواء ونحوهم .

كما عرف بالصبر وقوة الاحتمال في سبيل الله ، وكان ذا فراسة ، وكان مُستجاب الدعوة ، وله كرامات مشهودة ، رحمة الله رحمةً واسعة ، وأسكنه فسيح جناته .

٦- عصره :

لقد عاش المؤلف رحمه الله في عصر كثرت فيه البدع والضلالات ، وسادت كثير من المذاهب الباطلة ، واستفحلت الشُبهات ، وانتشر الجهل والتعصب والتقليد الأعمى ، وغُزيت بلاد المسلمين من قِبل التتار والصليبيين (الإفرنج) .

ونجد صورة عصره جلية واضحة من خلال مؤلفاته التي بين أيدينا ؛ لأنه اهتم بأجلِّ أمور المسلمين وأخطرها ، وساهم في علاجها بقلمه ولسانه ويده ، فالمتأمل في مؤلفات الشيخ يجد الصورة التالية لعصره :

- كثرة البدع والشركيات ، خاصةً حول القبور والمشاهد والمزارات المزعومة ، والاعتقادات الباطلة في الأحياء والموتى ، وأنهم ينفعون ويضرون ، ويُدعون من دون الله .

- انتشار الفلسفات والإلحاد والجدل .

- هيمنة التصوف والطرق الصوفية الضالة على العامة من الناس ، ومن ثم انتشار المذاهب والآراء الباطلة .

- توغل الروافض في أمور المسلمين ، ونشرهم للبدع والشركيات ، وتثبيطهم للناس عن الجهاد ، ومساعدتهم للتتار أعداء المسلمين .

- وأخيرًا ؛ نُلاحظ تَقَوِّي أهل السنة والجماعة بالشيخ وحفزه لعزائمهم ، مما كان له الأثر الحميد على المسلمين إلى اليوم ، في التصدي للبدع والمُنكرات ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،

والنصح لأئمة المسلمين وعامتهم .

وقد وقف الشيخ رحمه الله في عصره إزاء هذه الانحرافات موقفًا مشهودًا ، آمرًا وناهيًا ، وناصحًا ، ومبينًا ، حتى أصلح الله على يديه الكثير من أوضاع المسلمين ، ونصر به السنة وأهلها ، والحمد لله .

٧- وفاته :

إن من علامات الخير للرجل الصالح ، وقبوله لدى المسلمين : إحساسهم بفقده حين يموت ، لذلك كان السلف يعدون كثرة المصلين على جنازة الرجل من علامات الخير والقبو له ، لذلك قال الإمام أحمد : « وقولا لأهل البدع : بيننا وبينكم يوم الجنائز » . أي : أن أئمة السُّنَّة يفقدهم الناس إذا ماتوا ويكونون أكثر مُشيعين يوم يموتون ، ولقد شهد الواقع بذلك ، فما سمع الناس بمثل جنازتي الإمامين : أحمد بن حنبل ، وأحمد بن تيمية ، حين ماتا ، من كثرة من شيعيهما وخرج مع جنازة كل منهما ، وصلى عليهما ، فالمسلمون هم شُهداء الله في أرضه .

وقد توفي الشيخ رحمه الله وهو مسجون بسجن القلعة بدمشق ليلة الاثنين ٢٠ من شهر ذي القعدة سنة (٧٢٨هـ) ، فهب كل أهل دمشق ومن حولها للصلاة عليه ، وتشييع جنازته ، وقد أجمعت المصادر التي ذكرت وفاته أنه حضر جنازته جمهور كبير جدًّا يفوق الوصف .

رحمه الله ، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

❁ ❁ ❁

ترجمة الشيخ فيصل بن عبد العزيز آل مبارك رحمه الله

هو الشيخ فيصل بن عبد العزيز بن فيصل بن حمد المبارك، المحدث، الفقيه، الأصولي، المفسر، النحوي، الفرضي، العالم، العامل، الزاهد، الورع، ولد رحمه الله في «حريملاء» عام (١٣١٣هـ)، وطلب العلم على علماء «حريملاء» في وقته، ومنهم جده لأمه الشيخ العالم ناصر ابن محمد الراشد، وعمه العلامة الشيخ محمد بن فيصل المبارك.

ثم طلب العلم على علماء «الرياض»، فأخذ عن الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف مفتي بن فارس، وعلم الفرائض عن العلامة الديار النجدية، والعلامة سعد بن حمد بن عتيق محدث الديار النجدية، وأجازه الشيخ سعد في التفسير، وكذلك أجازه في تدريس أمهات كتب الحديث ومذهب الإمام أحمد رحمه الله وأجازه الشيخ عبد الله العنقري بجميع مروياته، وأجازه الشيخ عبد العزيز النمر إجازة الفتوى عام (١٣٣٣ هـ) وهو في العشرين من عمره، وأخذ علم النحو عن العلامة الشيخ حمد الشيخ عبد الله بن راشد الجلعود، وغيرهم من أفذاذ العلماء- رحمهم الله أجمعين-.

* **جهود الشيخ رحمه الله في نشر العقيدة الصحيحة:**

كان الشيخ رحمه الله يهتم بتقرير العقيدة السلفية الصحيحة لطلبة العلم، فكان طلبة العلم يبتدئون القراءة عليه في علوم العقيدة بـ «الأصول الثلاثة»، ثم «كشف الشبهات»، ثم «كتاب التوحيد» وجميعها لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، ثم يقرئون بعد ذلك «العقيدة الواسطية» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وغيرها من كتب العقيدة المهمة، وقد أوصى الشيخ فيصل رحمه الله في وصيته لطلبة العلم بالابتداء بهذه الكتب التي تقدم ذكرها.

* **جهود الشيخ رحمه الله في التأليف:**

ترك الشيخ رحمه الله العديد من المؤلفات في جميع العلوم الشرعية تصل إلى ثلاثين مؤلفًا هي:

١- «أقوال العلماء الأعلام على أحاديث عمدة الأحكام» مخطوط في مجلدين ضخمين- في سبعة ملازم- بدارة الملك عبد العزيز/ مكتبة الشيخ عبد المحسن أبا بطين، وهو مختصر عن شرح الشيخ الكبير على «عمدة الأحكام»، وسيأتي ذكره.

ومنه أيضًا نسخة أخرى وصل فيها المؤلف إلى منتصف الجزء الأول، وهي بدارة الملك عبد العزيز/ مكتبة الشيخ عبد المحسن أبا بطين.

٢- «بستان الأحبار باختصار نيل الأوطار» للشوكاني، في مجلدين، وقد طبع مرتين، أولاهما في حياة الشيخ عام (١٣٧٤ هـ)، وآخرهما عن دار إشبيلية عام (١٤١٩ هـ).

٣- « تجارة المؤمنين في المرابحة مع رب العالمين » مجلد في (٢٧١) صفحة ، طبع مرتين بـ « دمشق » ، أولاهما على نفقة الأمير عبد الرحمن السديري عام (١٣٧٢ هـ) ، وآخرهما على نفقة تلميذه الشيخ عبد الرحمن بن عطا الشايع عام (١٤٠٤ هـ) والطبعة الأولى هي الأتقن .

٤- « تطريز رياض الصالحين » ، وقد طبع الكتاب مؤخرًا في عام (١٤٢٣هـ) عن دار العاصمة ، بتحقيق الشيخ الدكتور عبد العزيز الزير .

٥- « التعليقات السنية على العقيدة الواسطية » .

٦- « توفيق الرحمن في دروس القرآن » في أربعة أجزاء ، وقد طبع مرتين ، أولاهما : عام (١٣٧٦هـ) ، وآخرهما عام (١٤١٦ هـ) عن دار العاصمة بالرياض ، بعناية الشيخ الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الزير ، في أربعة مجلدات .

٧- « تعليم الأحب أحاديث النووي وابن رجب » ، وقد طبع قديمًا ضمن « المختصرات النافعة » .

٨- « الحجج القاطعة في المواريث الواقعة » .

وهذه الرسالة قد طبعت ثلاث مرات - تحت اسم « الدلائل القاطعة »- ضمن مجموعة « المختصرات النافعة » ، وقد انتهى الشيخ محمد بن حسن المبارك من تحقيقه على نسخة خطية ، وقد طبع مؤخرًا .

٩- « خلاصة الكلام شرح عمدة الأحكام » ، مجلد في أربعمائة صفحة ، وهو اختصار لشرحيه على « العمدة الكبير » و« المتوسط » ، وقد طبع أربع طبعات :

- أولها عام (١٣٨٠ هـ) ، بمكتبة التوفيق بالرياض .

- وثانيها عام (١٣٨٠ هـ) ، في مكتبة البابي الحلبي بمصر ، في ثلاث سنوات متتاليات ، لما كان شرح الشيخ مقررًا على طلبة المعهد العلمي .

- وآخرها عام (١٤١٢ هـ) ، بمكتبة الرشد بالرياض .

١٠- « زُبدة المراد فهرس مجمع الجواد » مخطوط ، والموجود منه فهرست الجزء الأول من « مجمع الجواد » في تسع وعشرين ورقة- بخط الشيخ : إسماعيل البلال ، أحد تلامذة الشيخ ، وكان المخطوط لديه رحمه الله ، يقول المصنف رحمه الله في آخرها : « تم فهرس الجزء الأول من « مجمع الجواد ، بحمد الله تعالى » .

وعنه مصورة بدارة الملك عبد العزيز ، « مجموعة الشيخ فيصل بن عبد العزيز المبارك » .

١١- « السبيكة الذهبية على متن الرحبية » .

- صدرت هذه الرسالة في عام (١٣٧٩ هـ) عن المكتبة الأهلية، وقد تم طبعها آنذاك في مصر في مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

- وفي عام (١٤٠٦ هـ) قامت دار العليان بالقصيم بطباعتها بمطابع السلمان مرة أخرى.

- ثم في عام (١٤١٩ هـ) قامت دار الأرقم بطباعتها، بعناية وتحقيق الأستاذ عبد الله الزاحم- أثابه الله-.

- كما أن الرسالة قد طبعت قديمًا ضمن مجموعة الرسائل الكمالية.

وفي الطبعات الأخيرة اعتمد الناشرون على طبعة المكتبة الأهلية. وقد حققه الشيخ محمد بن حسن المبارك.

١٢- «صلة الأحباب شرح ملحة الإعراب»، وهو - فيما يظهر لي- مفقود.

١٣- «غذاء القلوب ومفرج الكروب»، طبع قديمًا ضمن مجموع «المختصرات النافعة».

١٤- «الغرر النقية شرح الدرر البهية»، طبع بتحقيق أخينا الشيخ محمد بن حسن المبارك- حفظه الله- عن دار إشبيلية بتاريخ (١٤٢٦ هـ).

١٥- «القصد السديد شرح كتاب التوحيد» في مجلد، طبع عام (١٤٢٦ هـ) عن دار الصُميعي بتحقيقي.

١٦- «القول الصائب في حكم بيع اللحم بالتمر الغائب»، رسالة وجيزة مخطوطة في مكتبة الملك فهد بدون تصنيف، وعنه مصورة بدارة الملك عبد العزيز/ «مجموعة الشيخ فيصل بن عبد العزيز المبارك».

١٧- «القول في الكرة الجسيمة الموافق للفطرة السليمة»، ومنه مخطوطة في مكتبة الملك فهد في مجلد- تصنيف رقم (٢٦١/٣)- وعنها مصورة بدارة الملك عبد العزيز/ مكتبة الشيخ فيصل بن عبد العزيز المبارك.

١٨- «كلمات السداد على متن زاد المستنقع» للحجاوي، وهو شرح لطيف في مجلد، طبع مرتين آخرهما عام (١٤٠٥ هـ) عن مكتبة النهضة.

١٩- «لباب الإعراب في تيسير علم النحو لعامة الطلاب» وهذه الرسالة عبارة عن متن مختصر في عدة أوراق في علم النحو، وقد حققها الشيخ محمد بن حسن المبارك وطبعت في عام (١٤٢٥هـ).

٢٠- «لذة القاري مختصر فتح الباري» في ثمانية مجلدات، ذكر الشيخ عبد المحسن أبا بطين أنه تحت الطبع، والشيخ عبد المحسن من أعرف الناس بكتب الشيخ فيصل؛ لأنه طبع أكثرها في

مكتبته الأهلية ، وبعضها طبعت بواسطته في غيرها من المكتبات مثل مكتبة مصطفى البابي بمصر ، وقال الزركلي : « شرع بعض الفضلاء بطبعه » . إلا أن هذا الكتاب- وللأسف الشديد- في حكم المفقود .

٢١- « مجمع الجواد حاشية شرح الزاد » مخطوط ، وهو شرح كبير مطول على « الروض المربع » ، وذلك أن الشيخ ﷺ في الشرحين التالين على « الروض »- كما سيأتي- انتقى مسائل خلافية معينة فشرحها ، أما في هذا المطول فقد وجه عنايته إلى غالب المسائل الخلافية في الروض .

إلا أن الشيخ رحمه لم يكمله ، إذ ابتدأ بتأليفه وقد ألم به المرض ، ولذلك يقول في كتاب البيوع منه : « لم نكتب من « مجمع الجواد » إلا هذا القليل من كتاب البيع إلى هنا ، فعسى الله أن ييسر تمامه في حياتنا أو بعد موتنا ، على كل شيء قدير . فيصل بن عبد العزيز آل مبارك » .

إلا أن الشيخ بعد ذلك أحسن من نفسه نشاطًا فكتب منه فصولًا ، وتوفي ﷺ وقد انتهى إلى (باب القرض) .

ولو تم هذا الشرح لكان كتابا ضخمًا جدًّا ؛ إذ أن فهرس الجزء الأول منه بخط مؤلفه يقع في تسع وعشرين صفحة ، أما « كتاب البيوع » منه- وهو الجزء الثالث من الشرح- فيقع في مجلد كبير ، وهذا القدر من الكتاب هو الموجود منه ، والباقي مفقود .

ومن الجزء الثالث نسخة مخطوطة في مكتبة الملك فهد تحتوي على كتاب البيوع فقط في مجلد ، وكذلك في خمسة ملازم صغيرة ، تصنيف رقم (٢٦٤/٣) (٢٦٥/٣) (٢٦٦/٣) (٢٦٧/٣) تحت اسم : حاشية على بعض عبارات الزاد وشرحه ، وعنها مصورة بدارة الملك عبد العزيز/ مجموعة الشيخ فيصل بن عبد العزيز المبارك .

٢٢- « محاسن الدين بشرح الأربعين النووية » طبع ضمن المجموعة الجليلة ، ثم طبع مفردًا عن دار الرشيد عام (١٤١٤ هـ) ، ثم عن دار إشبيلية بالرياض عام (١٤٢٠ هـ) .

٢٣- « مختصر الكلام شرح بلوغ المرام » لابن حجر ، طبع ضمن (المجموعة الجليلة) ، ثم طبع مفردًا عن المجموعة في الرياض عن دار إشبيلية عام (١٤١٩ هـ) .

٢٤- « مختصر المرتع المشبع » مخطوط في مجلد ، منه نسخة في مكتبة الملك فهد ، تصنيف رقم (٢٥٠/٣) ، وصل فيه إلى كتاب الجنائز ، وعنها مصورة بدارة الملك عبد العزيز/ مجموعة الشيخ فيصل بن عبد العزيز المبارك .

٢٥- « المرتع المشبع شرح مواضع من الروض المربع » مخطوط في أربعة أجزاء وستة مجلدات كبيرة ، في مكتبة الملك فهد ، تصنيف رقم (٢٢٣/٣) (٢٢٥/٣) ، (٢٢٦/٣) ، وعنها مصورة

بدارة الملك عبد العزيز/ مجموعة الشيخ فيصل بن عبد العزيز المبارك .

٢٦- « مفاتيح العربية على متن الآجرومية » ، وهو شرح ممتع متوسط على متن « الآجرومية » ، وقد طبع قديمًا ضمن مجموعة الشيخ المسماة « المختصرات الأربع النافعة » ، تحت اسم « مفتاح العربية على متن الآجرومية » .

وقد انتهى الأخ الشيخ : عبد العزيز بن سعد الدغيثر من تحقيق الكتاب ومقابلته على النسخة الخطية المذكورة وهو قيد الطبع عند دار الصميعي بالرياض .

٢٧ -« مقام الرشاد بين التقليد والاجتهاد » ، طبع ضمن « المجموعة الجليلة » ، ثم طبع مفردًا عام (١٤١٣ هـ) عن دار السلف ، بتحقيق الباحث الفاضل الشيخ : راشد بن عامر الغفيلي .

٢٨- « نصيحة المسلمين » وهي رسالة لطيفة طبعت في مكة المكرمة ، في عام (١٣٥٤ هـ) تقريبًا ، ثم طبعت في الكويت في أواخر حياة الشيخ تحت اسم : « نصيحة دينية » ، على نفقة الشيخ عطا الشايع الكريع الجوفي ، رحمهما الله .

٢٩- « نقع الأوام بشرح أحاديث عمدة الأحكام » ، وهو « الشرح الكبير على عمدة الأحكام » ، خمسة أجزاء كبار ، في إحدى عشرة مجلد .

ومنه مخطوطة كاملة ، بخط الشيخ فيصل رحمه الله في مكتبة الملك فهد/ تصنيف مكتبة حريملاء ، تحت الأرقام : (٣/٢٢٨) (٣/٣٤٧) (٣/٢٥١) (٣/٢٣١) (٣/٢٥٦) (٣/٢٥٥) (٣/٢٤١) (٣/٢٣٠) (٣/٢٦٠) (٣/٢٣٩) (٣/٢٣٨) .

٣٠ -« وصية لطلبة العلم » رسالة لطيفة ، في آخرها كتب الشيخ رحمه الله (وقع الفراغ منه في شهر جمادى الأولى سنة ١٣٥٤ هـ) .

وقد قام بتحقيق هذه الرسالة مع « نصيحة المسلمين » الدكتور: عبد العزيز الزير عام (١٤٢٤هـ) .

* وفاته :

توفي رحمه الله في منطقة « الجوف » عام (١٣٧٦ هـ) عن ثلاث وستين عامًا ، قضاها في الجهاد والتعليم والتنصيف .

* أهمية الكتاب :

لعل هذا الكتاب- كما يظهر لي- هو أول تعليق على « العقيدة الواسطية » وهناك شرح للواسطية لعالم معاصر للشيخ فيصل ومتوفٍ في نفس العام الذي توفي فيه الشيخ فيصل ، ألا وهو العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله ، وشرحه هو المعروف بـ « التعليقات المنيفة على ما في الواسطية

من المباحث الشريفة » ، وقد ألفه الشيخ السعدي عام (١٣٧٢ هـ) .

إلا أن كتابنا هذا فيما يظهر ألف قبل عام (١٣٧٢ هـ) ، إذ أن الشيخ فيصل رحمه الله ، وهو المتوفى عام (١٣٧٦ هـ) قد اهتم في آخر حياته بـ « الروض المربع » فشرحه في كتابه « المرتع المشبع » في أربعة مجلدات ضخمة ، وكان تأليفه لهذا الكتاب قبل عام (١٣٧١ هـ) ، كما يدل على ذلك رسالة مت الشيخ عبد الرحمن بن سعدي إلى الشيخ فيصل- رحمهما الله- بتاريخ الأول من رجب من عام (١٣٧١ هـ) .

ثم شرحه الشيخ فيصل « المرتع المشبع » بكتابه « مجموع الجواد » ، وهو كتاب ضخم وصلنا منه شرح كتاب البيوع في مجلد كبير ، مما يدل على تقدم تأليف الشيخ فيصل لشرح « الواسطية » ، لا سيما إذا علمنا أن الشيخ فيصل أدرج شرحه على « الواسطية » في موسوعته المسماة بـ « زبدة الكلام في الأصول والآداب والأحكام » ، وفيه عدة مؤلفات له ، وجلها من أقدم مؤلفاته ، والله أعلم .

❁ ❁ ❁

ترجمةُ الشيخ عبد الرَّحمن بن ناصر السَّعدي رحمه الله

هو العلّامة أبو عبد الله عبد الرَّحمن بن ناصر السّعدي ، من قبيلة تميم .

* مولده ونشأته :

ولِدَ في بلدة « عُنيزة » في « القصيم » ، بتاريخ ١٢ المُحرَّم عام ألف وثلاثمائة وسبع من الهجرة .

وتوفيت أمُّه وله أربع سنين ، ولحق بها أبوه وهو ابن سبع سنين فنشأ رحمه الله يتيمًا ، وكفلته زوجة أبيه ، وآثرته بالرِّعاية أكثر من أبنائها ، فنشأ رحمه الله نشأةً صالحةً كريمةً ، وعُرف مُنذ حداثته بالحرص على الصَّلوات في الجماعة والاجتهاد البالغ في طلب العلم ، وكان مُتوقِّد الذَّكاء ، قويّ الحفظ ، فقد أتمَّ حفظ القُرآن وهو ابن أحد عشر سنةً .

* طلبه للعلم :

اشتغل في التَّعلم على علماء بلده ، وعلى من قدم بلده من العلماء ، فاجتهد وجَدَّ حتى نال الحظَّ الأوفر من كل فنٍّ من فنون العلم ، ولمَّا بلغ من العمر ثلاثًا وعشرين سنة جلس للتدريس فكان يتعلم ويُعلِّم ، ويقضي جميع أوقاته في ذلك .

* شيـــوخـــه :

١- الشَّيخ إبراهيم بن حمد بن جاسر : وكان الشَّيخ السّعدي يصفه بحفظه للحديث .

٢- الشَّيخ مُحمَّد بن عبد الكريم الشِّبل : قرأ الشَّيخ عليه : الفقه ، وعلوم العربية وغيرها .

٣- الشَّيخ صالح بن عُثمان ، قرأ الشيخ عليه في : التَّوحيد ، والتَّفسير ، والفقه وأصوله وفروعه ، وعلوم العربية .

٤- الشَّيخ على النَّاصر أبو واداي : قرأ عليه في : الحديث ، وأخذ عنه الأمَّهات السّت ، وأجازه في ذلك .

٥- الشَّيخ محمد ابن الشَّيخ عبد العزيز بن المُحمد المانع : مُدير المعارف في المملكة السّعودية . وقد قرأ عليه الشَّيخ في عُنيزة .

٦- الشَّيخ مُحمَّد الأمين المُختار الشِّنقيطي : قرأ عليه في : التَّفسير ، والحديث ومُصطلحه ، وعُلوم العربية كالنَّحو والصَّرف .

٧- الشَّيخ عبد الله بن عايض .

٨- الشَّيخ صعب التَّويجري .

٩- الشَّيخ علي السناني .

* تلاميذه :

١ - العلاّمة محمد بن صالح العُثيمين ، الذي خلف الشَّيخ في إمامة الجامع الكبير بـ :« عُنيزة » ، وفي التَّدريس والوعظ والخطابة .

٢- الشَّيخ عبد العزيز بن مُحمَّد السَّلمان .

٣- الشَّيخ عبد اللَّه بن عبد الرحمن البسَّام .

٤- الشَّيخ سُليمان بن إبراهيم البسَّام .

٥- الشَّيخ محمد بن عبد العزيز المطوع .

٦- الشَّيخ محمد المنصور الزَّامِل .

٧- الشَّيخ علي بن محمد الزَّامل .

٨- الشَّيخ عبد اللَّه بن عبد العزيز بن عقيل .

٩- الشَّيخ عبد اللَّه المُحمد العُوهلي .

١٠- الشَّيخ عبد اللَّه بن حسن آل بريكان .

* أهم مؤلفاته :

للشَّيخ مؤلفاتٌ عديدة في كافة علوم الشَّرع ، كُلها نافعة لا يستغني عنها طالب علم ، منها :

* القرآن وعلومه :

- « تيسير الكريم الرَّحمن » : وهو من أعظم كُتب الشَّيخ وأكثرها فائدة ، وقد كتبه الشَّيخ وعمره (٣٤) عامًا .

- « تيسير اللطيف المنَّان خُلاصة تفسير القرآن » .

- « القواعد الحسان لتفسير القُرآن » .

* العقيدة :

- « فتح الرَّبِّ الحميد في أصول العقائد والتَّوحيد » .

- « القول السَّديد في مقاصد التوحيد » .

- « الأدلة والقواطع والبراهين في إبطال أصول المُلحدين » .

- « التَّوضيح والبيان لشجرة الإيمان » .

- « التَّنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة » .

- « توضيح الكافية الشَّافية » .

- « الحقُّ الواضح المُبين في شرح توحيد الأنبياء والمُرسلين » .

- « سؤال وجواب في أهم المُهمات ، تعليم أصول الإيمان ، وبيان موانع الإيمان » .
- « حوار مع علماني مُلحد » .
- « الدرة البهيَّة شرح القصيدة التَّائيَّة في حل المُشكلة القدريَّة » .

* الفقه وأصوله وقواعده :

- « القواعد والأصول الجامعة والفروق والتَّقاسيم البديعة النَّافعة » .
- « تُحفة أهل الطَّلب في تجريد أصول قواعد ابن رجب » .
- « حاشية على الفقه » .
- « منهج السَّالكين وتوضيح الفقه في الدِّين » .
- « إرشاد أولي البصائر والألباب لنيل الفقه بأقرب الطُّرق وأيسر الأسباب » .
- « نور البصائر والألباب في أحكام العبادات والمُعاملات والحقوق والآداب » .
- « حُكم شرب الدُّخان » .
- « المُناظرات الفقهيَّة » .
- « المُختارات الجليَّة من المسائل الفقهيَّة » .
- « منظومة في القواعد الفقهية » ، وله شرح لطيف عليها .
- « مُختصر في أصول الفقه » . ويُطلق عليه : « تيسير أصول الفقه » .

* الحديث ، والسِّير :

- « بهجة عيون الأبرار ، وقرة عيون الأخيار ، شرح جوامع الأخبار » .
- « قصص الأنبياء » .

* كتب جوامع :

- « فتح الرَّحيم الملك العلَّام في علم العقائد والتَّوحيد والأخلاق والأحكام المُستنبطة من القُرآن » .
- « نور البصائر والألباب في أحكام العبادات والمُعاملات والحقوق والآداب » .

* كتب مُتنوعة :

- « يأجوج ومأجوج وفتنة الدجال » .
- « السِّياسة الشَّرعيَّة » .
- « فوائد مُستنبطة من قصَّة يوسف عليه السلام » .
- « محاسن الإسلام » . المُسمَّى : « الدُّرَّة المُختصرة في محاسن الإسلام » .

- « الدِّين الصَّحيح يحُل جميع المشاكل » .
- « الطَّريق إلى الله والدَّار الآخرة » .
- « وجوب التَّعاون بين المُسلمين وموضوع الجهاد الدِّيني » .
- « الخُطبُ المنبريَّة على المُناسبات » .
- « الفواكه الشَّهيَّة في الخُطب المنبريَّة » .
- « تنزيه الدِّين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله » .

* كُتب القواعد والأصول المتنوعة :

- « طريق الوصول إلى العلم المأمول ، بمعرفة القواعد والضوابط ، والأصول » .
- « مجموع الفوائد واقتناص الأوابد » .

وله غير ذلك الكثير من المؤلفات القيِّمة التي يُنصح بقراءتها .

* وفـاتـه :

توفي رحمه الله في سنة ١٣٧٦هـ ، بعد عمر دام قُرابة ٦٩ عامًا في مدينة « عُنيزة » ، من بلاد « القصيم » .

❁ ❁ ❁

ترجمة الشيخ عبد العزيز بن محمد بن مانع رَحِمَهُ اللَّهُ

* هو : محمد عبد العزيز بن محمد بن مانع بن شبرمة الوهيبي التميمي .

* ولد بـ « عنيزة » سنة (١٣٠٠ هـ) ورحل في طلب العلم إلى « بريدة » فـ « البصرة » ، فـ « بغداد » ثم استقر بـ « الأزهر » .

* طلب العلم على عدد وفير من المشايخ مثل :

١- الشيخ محمد الذهبي ، أحد المدرسين برواق الحنابلة بالأزهر ؛ حيث قرأ النحو والعلوم السائدة في الأزهر آنذاك ، والشيخ جمال الدين القاسمي ، سمع عليه « صحيح البخاري » ، والشيخ محمود شكري الألوسي ، وأكثر من ملازمته والأخذ عنه ، وقرأ عليه كثير من مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية .

رجع إلى بلدته « عنيزة » سنة (١٣٢٩ هـ) ،ودعي للتدريس في « البحرين » بدعوة من أعيانها لمكافحة التبشير ، فأقام هناك أربع سنين قام فيها بشرح « العقيدة السفارينية » ثم دعي إلى « قطر » ، حيث تولى القضاء والخطابة والتدريس مدة أربع وعشرين سنة ، ودعاه الملك عبد العزيز آل سعود في سنة (١٣٥٨ هـ) للتدريس ، فدرس في الحرم المكي ثم عين مديرًا للمعارف في « مكة » ، وولي رئاسة هيئة تمييز القضاء الشرعي .

* كانت له اليد الطولى في الحث على نشر العلوم الشرعية ، والكتب النافعة ، وتحريض أهل الخير على طباعتها . كما ترك رَحِمَهُ اللَّهُ عدد من المؤلفات النافعة طبع منها :

١- « إرشاد الطلاب إلى فضيلة العلم والعمل والآداب » .

٢- و« إقامة البرهان في تحريم أخذ الأجرة على تلاوة القرآن » .

٣- « حاشية على دليل الطالب » في الفقه الحنبلي .

٤- « الكواكب الدرية لشرح الدرة المضية » طبع بتحقيقنا بمكتبة أضواء السلف .

سافر إلى « بيروت » طلبًا للعلاج فتوفي فيها سنة (١٣٩٤هـ) ، ودفن بالدوحة رحمه الله تعالى .

❁ ❁ ❁

ترجمة الشيخ محمد خليل هراس رحمه الله

* مولده :

ولد عام ١٩١٥م في بلدة الشين ، مركز قطور ، محافظة الغربية .

* تعليمه :

بدأ تعليمه في المدارس الأزهرية عام ١٩٢٦م .

تخرج من كلية أصول الدين جامعة الأزهر عام ١٩٤٠م .

حصل على درجة الدكتوراه عام ١٩٤٥م ، وكان موضوع الرسالة : « ابن تيمية السلفي ورده على مذاهب المتكلمين » .

* الوظائف التي شغلها :

- شغل وظيفة أستاذ بكلية أصول الدين بالأزهر .

- ورئيس قسم العقيدة بالدراسات العليا بجامعة أم القرى « بمكة المكرمة » ، وقد أُنشئ هذا القسم من أجل أن يشغله رحمه الله .

* وفاته :

توفي في سبتمبر عام ١٩٧٥م بعد حياة علمية حافلة ، إذ التقى خلالها بعلماء أجلاء من أمثال الشيخ محمد حامد الفقي ، مؤسس أنصار السنة المحمدية ، وكان له نشاط ملحوظ في العام الذي توفي فيه ، حيث ألقى عدة محاضرات في « طنطا » ، و« المحلة الكبرى » ، والمركز العام لجماعة أنصار السنة المحمدية .

* إنتاجه العلمي :

١- دعوة التوحيد .

٢- ابن تيمية السلفي ، درجة الأستاذية .

٣- شرح العقيدة الواسطية ، لابن تيمية .

٤- شرح القصيدة النونية ، لابن القيم ، الثمار الشهية في شرح النونية .

٥- رفع عيسى عليه السلام « فصل المقال في نزول عيسى حيًا وقتله الدجال » .

٦- الصفات الإلهية عند ابن تيمية .

٧- ادفع بالتي هي أحسن .

٨- شرحه على الترغيب والترهيب .

٩- شرحه لابن هشام السيرة .

١٠- الخصائص الكبرى للسيوطي ، تحقيق .

١١- الأموال ، تحقيق .

١٢- التوحيد لابن خزيمة ، تحقيق .

١٣- مجموعة رسائل ، منها : الإلحاد ، سرطان خبيث ، أنماط من الجدل القرآني ، الإسراء والمعراج .

١٤- سُبل السلام شرح بلوغ المرام ، للصنعاني ، تحقيق .

١٥- مجموعة مقالات في الهدي النبوي ، تحت عنوان : « عقيدة القرآن والسنة »

١٦- مجموعة مقالات في الهدي النبوي ، تحت عنوان : ركن السنة .

١٧- مجموعة حوارات في الهدي النبوي ، تحت عنوان : اللّٰه مستوٍ على عرشه ولو كره المعطلون .

فجزى اللّٰه الشيخ خير الجزاء ، وجعل مثواه الجنة .

ترجمة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ رحمه الله

* نسبه ومولده :

هو : العلامة الجليل الشيخ محمد ابن الشيخ إبراهيم ابن الشيخ عبد اللطيف ابن الشيخ عبد الرحمن ابن الشيخ حسن ابن إمام الدعوة محيي السنة مميت البدعة الشيخ (محمد بن عبد الوهاب) ابن الشيخ سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد بن بريد بن محمد بن بريد بن مشرف بن عمر بن معضاد بن ريس بن زاخر بن محمد بن علوي بن وهيب بن قاسم بن موسى بن مسعود بن عقبة بن سنيع بن نهشل بن شداد بن زهير بن شهاب بن ربيعة بن أبي سود بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد بن مناة بن تميم . ثم إلى نزار بن معد بن عدنان .

ولد في مدينة « الرياض » في (حي دخنة) في ١٧ من محرم عام ١٣١١ هـ .

بدأ رحمه الله من صغره في الأخذ بأسباب العلم والمعرفة ، فتلقى القرآن الكريم وهو بين الثامنة والعاشرة من عمره ، نظرًا على معلمه عبد الرحمن بن مفيريج . وفي السادسة عشرة من عمره أصيب بالرمد في عينيه فكف بصره . وكانت مدة مرضه سنة . وعلى أثر ذلك حفظ القرآن علي عبد الرحمن بن مفيريج عن ظهر قلب . وقد درس فن التجويد فيما بعد .

ثم أخذ في طلب العلم بمختلف فنونه ، فأخذ علم « الفرائض » عن والده الشيخ إبراهيم رحمه الله أولًا ، ثم عن الشيخ عبد الله بن راشد ، ومما قرأ عليه في ذلك « ألفية الفرائض » .

وتلقى علم « العقائد » عن عمه الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف رحمهما الله تعالى . ومنها في العقائد كتاب « التوحيد » ، و« أصول الإيمان » ، و« فضائل الإسلام » للشيخ محمد بن عبد الوهاب ، و« الدلائل » (حكم موالات أهل الشرك) للشيخ سليمان بن عبد الله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، و« العقيدة الواسطية » ، و« العقيدة الحموية » ، وكلاهما لشيخ الإسلام ابن تيمية .

وأخذ « الفقه » عن الشيخ حمد بن فارس أولًا ثم على الشيخين سعد بن حمد بن عتيق ومحمد بن محمود المتوفى عام (١٣٣٣ هـ) ، ومن كتبه (زاد المستنقع) .

وأخذ علم « العربية » عن الشيخ حمد بن فارس ، المذكور آنفًا ، ومما قرأ عليه في هذا الفن « الآجرومية » ، و« الملحة » ، و« القطر » ، و« الألفية » .

وفي « الحديث وعلومه » قرأ « بلوغ المرام » ، وثلث « المنتقى » على عمه الشيخ عبد الله ، ثم أعاد « بلوغ المرام » على الشيخ سعد بن عتيق . وعليه قرأ أيضًا « ألفية العراقي » في مصطلح الحديث .

هذا ؛ ومن المستفيض أن الشيخ رحمه الله كان كثير الدأب على المطالعة في مختلف الكتب

وتدريسها ، فكان هذا مصدرًا ثانيًا غنيًا بتنمية حصيلته العلمية وتوسيع أفقه ، أعانه على ذلك ما عرف عنه من حدة الذكاء ورجاحة العقل .

* اشتغاله بالتدريس :

لمس فيه مشايخه الألمعية النادرة المبكرة والنجابة الظاهرة ، فأدركوا أنه الخليفة لهم الذي يمكن أن يطمئن إليه في مجالس العلم ، فأوصى عمه الشيخ عبد الله الملك عبد العزيز رحمه الله بابن أخيه خيرًا ، وذكر له ما يتمتع به من المزايا الفذة التي لا تكاد تتوافر إلا في قليل من الرجال الذين وهبهم الله ذكاءً وفطنة وجلدًا وإخلاصًا . وحين توفى الشيخ عبد الله عام (١٣٣٩ هـ) أخذ ابن أخيه مجلسه ، فبدأ التدريس إلى جانب مشايخه الذين ما زالوا على قيد الحياة . ولما توفي شيخه سعد بن حمد بن عتيق عام (١٣٤٩ هـ) ، وتوفي قبله الشيخ حمد بن فارس عام (١٣٤٥ هـ) توسع في مجال التدريس ، واستقل بأكثرها إلى جانب أعمامه رحمهم الله ، وغيرهم من أفاضل العلماء الذين كانوا يقومون بالتدريس على فترات متعاقبة في بعض العلوم .

ولكن ينبغي أن نؤكد أن الشيخ محمد رحمه الله له النصيب الأوفر في كثرة المجالس وكثرة القاصدين له من طلبة العلم وغزارة العلم وعموم النفع ، فقد كان يعمر أكثر نهاره بالتدريس ، حيث كان يجلس ثلاث جلسات منتظمة . فالأولى بعد صلاة الفجر إلى شروق الشمس ، والثانية بعد ارتفاع الشمس مدة تتراوح ما بين ساعتين وأربع ساعات ، والثالثة من بعد صلاة العصر ، وهناك جلسة رابعة لكنها ليست مستمرة وهي بعد صلاة الظهر .

وكل هذه الجلسات كانت تتم في جامع الشيخ عبد الله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، المعروف الآن في (حي دخنه شمال الميدان) ، ما عدا جلسة الضحى ، فقد كانت في أول الأمر في هذا الجامع ، ثم نقلها إلى بيته .

وكان رحمه الله ينقطع بعد المغرب لمطالعة دروس الغد في الكتب التي كانت تدرس بعد الفجر ومنها « الروض المربع » ، و« سبل السلام » ، و« شرح ابن عقيل » على « ألفية ابن مالك » وما يعين عليها من المراجع .

وفيما يلي عرض للكتب التي كان يقوم رحمه الله بتدريسها :

١- أولًا : بعد صلاة الفجر : « ألفية ابن مالك » مع « شرح ابن عقيل » ، و« زاد المستنقع » مع شرحه « الروض المربع » ، و« بلوغ المرام » ، و« الآجرومية » ، و« الملحة » ، و« قطر الندى » ، و« عمدة الأحكام » ، و« أصول الأحكام » ، و« الحموية » ، و« التدمرية » ، و« نخبة الفكر » . الثلاثة الأول مستمرة ، وكان يقوم بتدريسها على ترتيبها المذكور . أما باقي الكتب فبالتعاقب على فترات

مختلفة طيلة أيام تدريسه .

٢- بعد شروق الشمس : يدرس في العقائد « كتاب التوحيد » ، « كشف الشبهات » ، « ثلاثة الأصول » ، « العقيدة الواسطية » باستمرار ، « مسائل التوحيد » ، « مسائل الجاهلية » ، « لمعة الاعتقاد » ، « أصول الإيمان » على فترات ، وفي الحديث : « الأربعين النووية » ، « عمدة الأحكام » باستمرار . وفي الفقه « آداب المشي إلى الصلاة » ، وقد يدرس غيرها ، لكنه نادر .

وبعد الانتهاء من هذه المختصرات تقرأ المطولات ، ومنها : « فتح المجيد » ، « شرح الطحاوية » ، « شرح الأربعين النووية » ، « صحيح البخاري » ، « صحيح مسلم » ، « السنن الأربعة » ، مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن القيم ، وابن كثير ، بدون استثناء ، وكل ما جد من كتب السلف والمحققين من العلماء ، ولكنها على فترات يتراوح ما يقرأ منها في اليوم ما بين خمسة وعشرة غالبًا .

٣- بعد صلاة الظهر ويدرس فيه : « زاد المستنقع » بشرحه « الروض المربع » ، « بلوغ المرام » .

٤- بعد صلاة العصر : ويدرس فيه « كتاب التوحيد » وشرحه ، وقد يقرأ في « مسند الإمام أحمد » ، أو « مسند ابن أبي شيبة » ، و« الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » أو نحوها .

وقد استمر يزاول التدريس بنشاط لا يفتر ، وهمة لا تكل إحدى وأربعين عامًا من عام (١٣٣٩ هـ- ١٣٨٠ هـ) .

* طريقته في التدريس :

كان ﷺ يعطي مجالس العلم حقها من الاحترام والتقدير ، ويحرص على إيصال الفائدة إلى قرارة قلوب الطلاب معنيًا بتثبيتها ، حتى إنه ليكاد يغني بشرحه عن مطالعة . وكان ﷺ إذا هم بالجلوس للتدريس توضأ إن لم يكون على وضوء بعد صلاة ، واستقبل القبلة إذا كانت الجلسة في المسجد ويبدأ شرحه باسم الله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه .

ويمكن تلخيص السمات الظاهرة لطريقته في التدريس في النقاط التالية :

١- يطلب من بعض الطلاب أن يبدأ بالبسملة ، والصلاة والسلام على رسول الله ، والترحم على المؤلف ، ثم يتلو حفظًا موضوع الدرس إذا كان الكتاب متنًا ، ويحرص جدًا على أن يحفظ جميع الطلاب المنتظمين المتون ولا يرضى بنصف حفظ ، ولا ينتقل الطالب من متن إلى متن أطول منه إلا بعد حفظ الأول وفهمه ، ولذا كان الطالب المجد منهم يتخرج في سبع سنوات .

٢- قبل أن يبدأ بالشرح يقرأ هو ما قرأ الطلاب .

٣- يشرع في شرح عبارات المتن بدقة ووضوح .

٤- يعرض بعض المسائل ويتكلم عليها .

٥- إذا عرض لمسألة خلاف ذكر رأي المؤلف أولًا وأدلته، ثم ذكر رأي المخالفين كلًّا على حدة، مع دليله.

وكان في ذلك كله يحترم كل ذي رأي من العلماء ولا يذكره بما يسوء، وكان يرجح ما يراه معتمدًا في ذلك على الدليل وأقوال المحققين، ولم يكن يعرض من الخلاف إلا ما كان ذا جدوى. وقد يصحح أحد القولين بدون سرد الأدلة، لقصر الوقت، أو نظرًا لحالة الطالب.

٦- كان يلتزم بالموضوع، ولا يستطرد إلى مسائل خارجة عنه.

٧- كان إذا فرغ من الدرس تلقى أسئلة الطلاب وأجاب. وقد يثير هو بعض الإشكالات ليقدح أذهان الطلاب.

٨- يختبر الطلاب فيما شرح لهم في بعض الأحيان بإلقاء الأسئلة عليهم ويعربون متن الألفية وشواهدها.

٩- فيما يتعلق بالعقائد لم يكن يحرص على ذكر آراء أهل البدع والإشراك، فإذا وجد ضرورة لذلك أو كان المؤلف ذكرها فإنه يتكلم عليها بتوسع، ويشتد في الرد عليها دون إفراط.

١٠- وبالنسبة لقراءة المطولات لم يكن يشرحها عبارة عبارة، وإنما كان يقف عند المهم منها أو ما يسأل عنه أحد الحاضرين.

١١- يلزم اللغة العربية في جميع مجالسه العامة.

١٢- يلتزم الهدوء أثناء شرحه للمتون أو تعليقه على المطولات، فلا تراه يلتفت أو يشير بيد أو يعبث بشيء.

١٣- لم يكن يسمح بإثارة الأسئلة التافهة أو الدخول في مناقشات عقيمة.

* أخلاقه:

لم يصل ﷺ إلى ما وصل إليه من مكانة في قلوب الناس بمجرد المصادفة، ولكن مرد ذلك إلى توفيق الله ﷻ أولًا، ثم إلى ما كان يتحلى به من أخلاق فذة التزم بها وحافظ عليها طوال أيامه. ولا بأس من الإشارة إلى بعض ما نعرفه عنه من الأخلاق الحميدة، فمن ذلك:

١- الحافظة النادرة التي كانت أقوى سبب في تحصيل ثروة علمية واسعة بنيت على محفوظاته التي علقت بذاكرته أثناء تعلمه ومطالعاته أثناء تدريسه، فكانت الأساس القوي لمقدرته على استنباط الأحكام ومعرفة الأدلة التي تبنى عليها. وقد مر بنا أنه حفظ «بلوغ المرام»، و«زاد المستنقع»، وغيرهما مما مر ذكره في فصلي شيوخه واشتغاله بالتدريس. ونزيد هنا أنه كان يحفظ كثيرًا من القصائد المطولة، وكان يصف وهو في أخريات أيامه مشاهداته قبل أن يكف بصره وأنت على علم أنه

فقد بصره في السادسة عشرة من عمره، وكان يحفظ المتن للقراءة الثالثة وربما الثانية، وكانت المعاملة الطويلة التي تبلغ ثلاثمائة صفحة تقرأ عليه، ثم يملي ما يرى مستحضرًا كل ما مر فيها من الجزئيات، ولم يكن غريبًا منه أن يدل القارئين على مواضع الأبحاث في كتبها ذاكرًا رقم الصفحة أحيانًا، ومثل ذلك لا يكون إلا لمن أتاه الله ذاكرة واعية.

٢- وقد رزق من الذكاء ما مكنه من إدراك محفوظاته العلمية عن فهم وبصيرة، وكان يدرك حقيقة ما يعرض عليه من المشكلات، فيكشف ما وراءها من الدوافع ببصيرته الفذة، ولم يكن ينطلي عليه كيد أو احتيال. وحياته كلها أمثلة من هذا النوع، لسنا في حاجة إلى الدخول في ضرب الأمثال لها، فأكثر العارفين به يدركون ذلك، ولكن الذي لا يعرفه كثير من الناس أنه ﷺ كان يدرك تقدير الوقت بالساعة لا يكاد يخطئ الحقيقة في بضع دقائق مع العلم بأنه لم يستعمل الساعة في حياته.

٣- وكان يطيل التأمل والتعمق ويبعد النظر فيما يعرض عليه من القضايا التي تجد تباعًا، ولم يكن يتعجل الأمر حتى يمعن في الدرس والتأمل والنظر في عواقب الأمور، فكان يصل بعد ذلك إلى الاستنتاج الدقيق الذي لا يكاد يختلف ولا يخالفه فيه ذو نصف، والأمثلة في هذا المقام كثيرة، لكن أسوق منها مثالين:

أحدهما: أنه سئل عن افتتاح حمام فني؟

فكتب ما نصه: «لا أرى فتح مثل هذا الحمام في هذا البلد؛ لأن الضرر سيكون أكبر من النفع، ومثل هذه الأشياء تكون عادة وسيلة لفساد لم يخطر على بال الذي أسسها، ومهما حرصت الآن على مراعاة الآداب الشرعية والأخلاقية فإنك لن تستطيع ذلك في المستقبل بعد فتح هذا الباب».

ثانيهما: أنه سئل عن إنشاء صندوق لسائقي السيارات؟

فقال في الجواب ما نصه: «إن اقتراح الذين اقترحوا جعل الصندوق مشروعًا خيريًّا يحتاج إلى تقييد؛ لأنه وإن كان طرق الخير مفتوحة أمام الراغبين إلا أنه ينبغي معرفة ما وراء ذلك؛ لئلا تكون وسيلة إلى استباحة أشياء لا تجوز تحت اسم الشيء المسموح».

٤- ومن أخلاقه البارزة الإخلاص في العمل، فلم يكن يومًا طالب شهرة ولا باحثًا عن سمعة، بل كان عمله كله لله يبتغي ما عنده يجتهد في تحرق الحق ويجتهد في الدفاع عن الحق لا يأخذه في ذلك ضعف ولا يعتريه طمع، ولم يعرف عنه أنه تحدث عن أعماله على جلالتها وكثرتها.

٥- طهارة قلبه؛ فكان لا يحمل ضغينة على من أساء إليه، ولا ينتقم من أحد ناله بأذى، بل كان ديدنه الصفح والتجاوز، بل المحافظة عليهم والدفاع عنهم أن ينالهم أحد بما يعرف أنه باطل.

٦- وكان ﷺ على حظ وافر من الشجاعة وقوة الشكيمة، لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يتردد

في إعلان الحق أيا كان المخاطب به ، ودافعه في ذلك مخافة الله وحرصه على أن يخلص ذمته مما علق به ، فمكانته ومسئوليته تحتم عليه نبذ التخاذل ، وكان يكره المتملقين ، وله في ذلك مواقف حفظها التاريخ .

٧- ومن السمات البارزة التي كانت تميزه ما أتاه الله من هيبة في نفوس الناس ، وهو أمر لا يرجع إلى مخافة منه ، ولكن إلى محبته وإجلاله ومعرفتهم عنه صرامته في الحق يحسب محدثه الحساب الدقيق ، حتى يزل في كلمة ، أو يخطئ في فكر ، ومع ذلك فقد كان أنيسًا عند مخالطته ، ألوفًا لمعاشريه ، لا يتصف بشيء من الغلظة أو الغضاضة ، وكان يحسن الفرق بين مجالس الجد والعمل ومجالس الراحة ، حيث يكون في سفر أو نزاهة .

٨- وكان يتنزه عن الغيبة والحديث في الآخرين بما يكرهون ، وعرف بذلك منذ حداثة سنه حتى فارق الدنيا ، ولم يكن يسمح لأحد أن يتحدث في مجالسه بمثالب الآخرين أو تنقصهم ، بل كان يقف دون ذلك ويزجر من حاوله .

٩- ومما لا يعرفه الكثيرون عنه ما يتصف به ﷺ من العفة والتورع عن أخذ ما ليس له أو ما يرى فيه شبهة ، فكان حريصًا على ألَّا يدخل نفسه في مداخل مشتبهة ، ولم يعرف أنه اشتغل بالبيع أو الشراء ، لا بالاستقلال ، ولا بالمشاركة ، بل كان مقتصرًا على ما يتقاضاه مقابل عمله ، بل إنه كان يشغل عدة أعمال كما هو معروف لا يتقاضى إلا ما كان يأخذه قبل إحداث هذه الأعمال ، ولم يكن يأخذ انتدابًا مقابل انتقاله إلى مدينة الطائف صيفًا ولم أعرف عنه أنه طلب من المسئولين شيئًا يخصه .

١٠- ومما لا ينكر من أخلاقه الظاهرة للعيان كراهيته الشديدة للمديح والثناء عليه ، فما كان يرضى من أحد أن يثني عليه أو يبالغ في مدحه ، سواء كان ذلك مشافهة أم كتابة . ومن الأمثلة التي تذكر في هذا المقام ما كتب به إلى أحد الناس ونصه : « ملحوظة : كثيرًا ما تكتب في خطاباتك ألقابًا لا يسوغ ذكرها ، كقولك شيخ الإسلام ، ومفتي الأنام . وهذا شيء لا نرضاه » .

وكتب في مناسبة أخرى ما نصه : « وما ذكرتم في خطابكم من الثناء نود ألَّا نسمعه ، فنحن نستغفر الله ونتوب إليه من تقصيرنا وضعفنا ، نسأله تعالى أن يوفق الجميع لما يحبه ويرضاه » وكتب لآخر ما نصه : « نفيدكم أنه جاء في خطابكم بعض العبارات ، مثل قولكم : عالم الوجود ، تلك العبارة التي لا يصدر مثلها إلا عن جاهل » .

١١- وكان ﷺ معروفًا بالبذل والسخاء في الحدود التي لا تصل إلى المبالغة المكروهة شرعًا والمؤدية إلى الإسراف وإضاعة الوقت ، وبالأخص ما يتعلق بإكرام العلماء والقضاة وطلاب العلم وذوي رحمه . وكان لا يترك مناسبة مهمة إلا أقام لها الوليمة الكبيرة ودعاهم .

١٢- خشيته لله ، كان رحمه الله من أكثر الناس استحضارًا لعظمة الله كثيرًا ما تسمعه يلهج بذكر الله والاستغفار وتغرورق عيناه بالدموع حينما يكون في موقف نجاة الله أو يسمع بعض ما يحرك القلوب ، ولقد كان ذلك يتجلى كثيرًا فيما يحييه من الليل بالصلاة التي كان يواظب عليها في إقامته وسفره ، وقد لا يعرف هذا كثير من الناس الذين لم يتصلوا به ، وقد صحبته زمنًا طويلًا وهو يقوم ما يقرب من ساعة ونصف آخر الليل ، لا يترك ذلك .

ولا غرو ، فقد كان رحمه الله يتحرى في جميع تصرفاته وأخلاقه الظاهرة والباطنة التأسي بالنبي ﷺ وصحابته ، وسلف هذه الأمة ، رضوان الله عليهم .

* الأعمال التي قام بها :

عرفنا في مناسبات كثيرة مما مضى في هذه الترجمة أنه رحمه الله باشر العمل منذ وفاة عمه عبد الله رحمه الله ، وقد كان العمل الرئيسي الذي شمل أكثر أيام حياته هو (التدريس) ، وقد تحدثنا عنه في فصل خاص لما له من الأهمية .

على أنه صاحب التدريس مهمة أخرى بدأت دون تنظيم رسمي وهي (الفتوى) ، فقد كان يشارك فيها حتى توفي الشيخ سعد بن عتيق ، ثم استقل بها حتى تحولت بآخرة إلى عمل منظم في دار الإفتاء ، حيث أنشئت في عام (١٣٧٤ هـ) .

وظل رحمه الله يقوم بالفتوى من خلال هذه الدار ، حتى وافته المنية إلى جانب ما كان يكتبه في هذا الميدان في بيته من فتاوى وردود على بعض الكاتبين في قضايا يرى بثاقب بصيرته أن السكوت عليها مسئولية أمام الله .

وإلى جانب هذين الأمرين هناك أمر ثالث لا يقل خطرًا عنهما ؛ وهو : (القضاء) ، فقد كان رحمه الله يقوم بتمييز الأحكام التي تحتاج إلى نظره ، وينظر فيما أحيل إليه من القضايا بأمر من ولاة الأمور .

ولما حول القضاء نظرًا لاتساعه إلى رئاسة أسندت إليه رئاسته في المنطقتين الوسطى والشرقية في عام (١٣٧٦ هـ) ، ثم ضمت إليه المنطقة الغربية بعد وفاة الشيخ عبد الله بن حسن رحمه الله في عام (١٣٧٨ هـ) ، وقد نصت المادة الحادية عشرة من نظام هيئة التمييز أن له رحمه الله حق النظر والبت فيما يختلف فيه القاضي وهيئة التمييز .

وإلى جانب ذلك كله ورغم ما كان يحمله إياه من أعباء فقد تولى (رئاسة المعاهد العلمية والكليات) منذ إنشائها عام (١٣٧٠ هـ) .

ووكل إليه الإشراف على (مدارس البنات) منذ افتتاحها في عام (١٣٧٩ هـ) .

وكلف برئاسة (الجامعة الإسلامية) في المدينة المنورة عام (١٣٨١ هـ) .

وتولى رئاسة « مجلس القضاء » الذي شكل في عام (١٣٨٨ هـ) وعقد في حياته مرتين .

وولي رئاسة (رابطة العالم الإسلامي) منذ إنشائها في عام (١٣٧٩ هـ) .

وإمامة جامع « حي دخنه » وخطابة المسجد « الجامع الكبير » المعروف الآن (في ساحة العدل بالرياض) .

وشكل هيئة تضم كبار العلماء ؛ لتكون مرجعًا لبحث ما يحصل من المشاكل العلمية العويصة ، وتقرير ما يلزم حيالها ، وللمذاكرة فيما بينهم ، والتصدي لنشر الدعوة الإسلامية ، والذود عنها ، ومحاربة التيارات الجارفة والمبادئ الهدامة . وبعبارة عامة ؛ فقد كان له رحمه الله الإشراف التام على جميع الشئون الإسلامية داخل المملكة وخارجها مما يتصل بالمملكة العربية السعودية وتعنى بتوجيهه .

ومثل هذا لا يقوم به العالم العادي ، ولكن من آتاه الله القوة والجلد ، وإن ذلك ليدل على ثقة الناس ، وبخاصة أولياء الأمور في حصافة عقله وسعة علمه ومقدرته الفذة ، وحاجتهم إليه في كل ما يعرض لهم من المشكلات .

* تلاميذه :

لا أظن أن من يعرفه رحمه الله يخفى عليه أمر الذين أخذوا عنه العلم واستفادوا منه الفائدة الكبرى . ولا أظن أن ذلك يخفى على من عرف المدة الطويلة التي قضاها مشتغلًا بالتدريس ، فقد مر به أفواج بعد أفواج ينهلون من علمه ويستنيرون بثاقب نظره ، وقد انتشروا في أنحاء المملكة السعودية بين عالم ، وقاض ، ومدرس ، وواعظ ، وخطيب مسجد ، ومتفرغ من الأعمال ، ولا أظن أن الحصر قادر على أن يأتي على جميع أسمائهم ، لذلك فإني أكتفي بعرض أسماء طائفة منهم وهم :

- الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد - رئيس المجلس الأعلى للقضاء حاليًا .
- الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز - رئيس إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد .
- الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم - صاحب المؤلفات المشهورة .
- الشيخ : عبد العزيز بن ناصر بن رشيد - رئيس محكمة هيئة التمييز حاليًا .
- الشيخ سعود بن رشود - قاضي الرياض سابقًا .
- الشيخ صالح بن غصون - عضو هيئة التمييز حاليًا .
- الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم - شقيق المترجم الفرضي المشهور .
- الشيخ عبد الملك بن إبراهيم - شقيقه رئيس هيئات الأمر بالمعروف في المنطقة الغربية .
- الشيخ عبد العزيز بن الشيخ محمد - نجل سماحته رئيس هيئات الأمر بالمعروف حاليًا .
- الشيخ إبراهيم بن الشيخ محمد - نجل سماحته وزير العدل حاليًا .

- الشيخ عبد الرحمن بن فارس- قاضي بمحكمة الرياض حاليًا .
- الشيخ محمد بن مهيزع- قاضي بمحكمة الرياض سابقًا .
- الشيخ عبد الرحمن بن هويمل- قاضي بمحكمة الرياض سابقًا .
- الشيخ عبد العزيز بن زاحم- قاضي بمحكمة الرياض .
- الشيخ عبد الرحمن بن سحمان- قاضي بمحكمة الدلم .
- الشيخ عبد العزيز بن صالح بن مرشد .
- الأمير محمد بن عبد العزيز بن سعود آل سعود .
- الشيخ عبد الله بن عقيل- عضو المجلس الأعلى للقضاء .
- الشيخ عبد الله بن غديان- عضو الهيئة الدائمة للإفتاء .
- الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين- مدرس بكلية الشريعة .
- الشيخ فهد بن حمين- مدرس بكلية أصول الدين .
- الشيخ حمود بن عقلاء- مدرس بكلية الشريعة .
- الشيخ عبد الرحمن بن فريان .
- الشيخ زيد بن عبد العزيز بن فياض .

* آثاره :

لم تكن في حياته رحمه الله فرصة يتفرغ فيها للتأليف ، فقد كان انشغاله بما علمت من الأعمال التي وصفناها قبل لا تدع فرصة للراحة ؛ إذ كان عمله يستمر أحيانًا إلى الساعة الخامسة ليلًا (بالتوقيت الغروبي) ، فضلًا عن أن تدع له فرصة يفرغ فيها ذهنه ويرجع إلى المراجع فيكتب وينشر ، كما نراه لكثير من أهل العصر ، ولأنه رحمه الله لم يكن بالشخص الذي يكتب كل ما عن له ، بل كان كما وصفناه طويل التأمل شديد المحاسبة لنفسه ، ومسئوليته تحتم عليه ألَّا يكتب إلا بعد تحر طويل ؛ لأن كلمة منه تعد حجة يتعلق بها العامة والخاصة ، ومع ذلك فإن حياته لم تخل من كثير من الرسائل والفتاوى التي كتبها في مناسبات مختلفة .

على أن أجل أثر من آثاره هذا الأثر الكبير الذي نقدمه هذا اليوم والمتمثل في فتاويه التي بلغت (عشرة أجزاء) لو لم يكن له أثر سواها لكفى به فخرًا لم يصل إليه غيره من أهل عصره .

ومما ينبغي التنويه عنه من آثاره أنه اختار ألف حديث في أبواب مختلفة .

* مرضه الأخير ووفاته :

في عام (١٣٨٩هـ) نزل به رحمه الله مرض ، سافر من أجله إلى لندن للعلاج ، فأقام بها أيامًا ، ثم عاد

دون أن يُكتب له شفاء ، فلزم البيت وأخذ المرض يشتد يومًا بعد يوم ، ولم يثمر ما بذل له من عناية طبية حتى دخل في غيبوبة تامة انتهت به إلى الوفاة في (١٣٩٨/٩/١٤هـ) .

وكان طيلة مرضه يكثر من ذكر الله والاستغفار حتى أخذته الغيبوبة . وقد صُلِّي عليه في المسجد «الجامع الكبير» مع صلاة الظهر ، أَمَّ الناس في الصلاة فضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله .

تغمد الله شيخنا برحمته ، وسدد خطى خلفائه ، ونفع بعلومه ، إنه سميع قريب مجيب .

❁ ❁ ❁

ترجمة الشيخ زيد بن عبد العزيز آل فياض رحمه الله

* مولده ونسبه :

هو الشيخ زيد بن عبد العزيز بن زيد بن عبد العزيز بن عبد الوهاب بن محمد بن ناصر بن فياض بن فارس بن محمد بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد بن بريد بن محمد بن بريد بن مشرف بن عمر بن معضاد بن ريس بن زاخر بن محمد بن علوي بن وهيب، فهو تميمي وهيبي، من المعاضيد من المشارفة، فالمترجم يجتمع بالشيخ محمد بن عبد الوهاب- رحمهما الله تعالى- بالشيخ (سليمان بن علي)، فجد المترجم (محمد بن سليمان) هو عم الشيخ محمد بن عبد الوهاب- رحمهم الله جميعًا- ونسبته إلى (الفياض) إلى جده السادس.

* مولده :

ولد في «روضة سدير» عام (١٣٥٠ هـ)، وفي عام (١٣٦٢ هـ)، أرسله والده إلى «الرياض» لطلب العلم.

* تعليمه ودراسته :

قرأ القرآن في سن مبكرة عند خاله عبد الله بن فوزان بن هديب القديري، حتى حفظ القرآن وهو ابن عشر سنين، ثم أرسله والده إلى الرياض لطلب العلم، فالتحق بمدرسة تحفيظ القرآن الكريم لدى علي بن عبد الله بن شاكر، ومحمد بن أحمد بن سنان، فقرأ القرآن بطريقة مجودة.

ودرس على عدد من العلماء والمشايخ، منهم: سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، وأخوه الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم آل الشيخ، والشيخ: سعود بن رشود، والشيخ إبراهيم بن سليمان، والشيخ عبد الرحمن بن قاسم.

وقد أجرى امتحان لراغبي الالتحاق بالمعهد العلمي الذي افتتح عام (١٣٧١ هـ) فتفوق فيه.

وفي عام (١٣٧٢ هـ) تخرج من القسم الثانوي بالمعهد، وكان ترتيبه الأول.

وفي عام (١٣٧٦ هـ) تخرج من كلية العلوم الشرعية (الشريعة حاليًا) بالرياض، وكان ترتيبه الأول أيضًا، وكان متقدمًا في دراسته باستمرار.

وفي المعهد والكلية درس على عدد من العلماء، منهم: الشيخ محمد الأمين الشنقيطي صاحب «أضواء البيان» في علوم التفسير والتاريخ واللغة، وسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ عبد العزيز بن ناصر الرشيد، والأساتذة: يوسف عمر، وعبد اللطيف سرحان، ويوسف الضبع،

وعبد الرازق عفيفي ، ومحمد عبد الرحيم ، والخمسة من مصر ، وغير هؤلاء .

وكان يكتب في بعض الصحف في مواضيع متعددة قبل أن يتخرج من الكلية ، كما كان مشتغلًا بتأليف وتنقيح كتابه « الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية » الذي طبع بعد تخرجه .

*** مؤلفاته :**

« الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية » ، وهو من أحسن شروحها ، وقد طبعه ، وحصلت الفائدة الكبيرة منها ، (وهو أول شرح مطبوع ، طبع في (١٣٣٧ هـ) ، (ولاقى استحسان سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم ، وسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ، وطبع ثلاث مرات في حياته رحمه الله) ، « نظرات في الشريعة » ، « واجب المسلمين في نشر الإسلام » ، « من كل صوب » ، « الوحدة الإسلامية » ، « قضية فلسطين » ، « حكم الله أولى » ، « صور من الجهاد » ، « في سبيل الإسلام » ، « الدين والعلم » ، « بحوث ومناقشات » ، « فصول في الدين والأدب والاجتماع » .

وللشيخ رحمه الله كتب لم تطبع في حياته ، وقد وفق الله - تعالى - لطبعها ، وبعضها تحت الطبع ، إضافة إلى إعادة طبع ما سبق طبعه ، ومنها :

١ - « تاريخ الوليد بن عبد الملك » ، « حقيقة الدروز » ، « كشف الحجاب ، نقد لكتاب الرسول القائد » ، « دفاع عن معاوية » ، « إقليم سدير في التاريخ » ، « قاهر الصليبيين صلاح الدين الأيوبي » ، « العلم والعلماء » ، « نصائح العلماء للسلاطين والأمراء » ، « رسالة في أصول الفقه » (مفقود) ، « أعلام بني تميم » ، « اليهود وفلسطين » (مفقود) ، « المنتخب من المقالات » ، مطبوع مع كتاب « نظرات في الشريعة » ، « اليهود والحركات السرية » ، « الرافضة » ، « الخميني » .

*** تلاميذه :**

١ - سماحة الشيخ عبد الله بن عبد العزيز آل الشيخ ، مفتي عام المملكة .

٢ - معالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ، الرئيس العام لرابطة العالم الإسلامي .

٣ - الدكتور محمد العجلان ، عضو مجلس الشورى ، ومدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سابقًا .

٤ - الشيخ عمر بن سليمان الأشقر .

٥ - د . صالح السدلان ، الأستاذ بكلية الشريعة ، وعضو هيئة كبار العلماء .

٦ - الشيخ فالح بن مهدي رحمه الله صاحب كتاب « التحفة المهدية شرح العقيدة التدمرية » ، وكان الشيخ زيد - يرحمه الله - كتب مقدمة الشرح .

٧ - الشيخ سليمان الرشودي ، المحامي المعروف .

٨- معالي الشيخ محمد المهوس ، رئيس هيئة التحقيق والادعاء العام .

٩- الشيخ د . سعود الشريم ، إمام الحرم المكي .

* صفاته :

كان رحمه الله زاهدًا في الدنيا ، فلم تشغله ، وكان متواضعًا جم الأدب ، رحيمًا مع الآخرين ، يتعامل معهم بعطف ومحبة .

وكان حريصًا على الدعوة إلى الله ، وهداية الناس إلى دين الله القويم ، وله مناقشات مع كثير من المسلمين أصحاب الانحرافات في العقيدة ، ومع غير المسلمين من نصارى عرب وأجانب ، وقد أسلم نصراني أمريكي بعد مناقشة في منزل الشيخ ، وقد أسلم الأمريكي بعد سفره من المملكة ، وأرسل رسالة يشكره فيها .

* وفاته رحمه الله :

وقد توفي رحمه الله ليلة الثلاثاء (٢١/١١/١٤١٦هـ) ، وصلي عليه من الغد ، وصلى عليه جمع غفير ، وشيعوا جنازته ، حيث اكتظت أرجاء المسجد ، وكان الزحام شديدًا ، وقد صلى عليه جماعة من العلماء وطلبة العلم ، وأمهم في الصلاة الشيخ العلامة عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين .

وكان يردد قبل وفاته : « الحمد لله » .

نسأل الله أن يتغمده برحمته ، وأن يغفر له ويرحمه ، وأن يوسع مدخله ، وأن يتقبله في الصالحين ، إنه سميع مجيب .

❁ ❁ ❁

ترجمة العلامة عبد العزيز الناصر الرشيد رحمه الله

هو أحد الذين حملوا مشعل العلم والمعرفة، وخدموا الدولة في عدد من المناصب القضائية والعلمية، وشاركوا في التأليف.

* فضيلة الشيخ عبد العزيز بن ناصر بن عبد الله الرشيد رحمه الله ينتمي إلى قبيلة آل محفوظ من العجمان، ومسقط رأسه بلدة «الرس»- إحدى كبريات بلاد «القصيم»- وكانت ولادته في سنة (١٣٢٣هـ).

* كان منذ ولادته وهو متجه إلى العلم والمعرفة، حيث درس القرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة في الكتاتيب المتواجدة في بلدة «الرس»؛ حيث درس على عمه محمد الناصر الرشيد، ثم درس على فضيلة قاضي «الرس» عمه الشيخ محمد العبد العزيز الرشيد، ثم توجه عام (١٣٥٥ هـ) إلى الرياض للتروي من ينابيع العلم والمعرفة، حيث درس العلم على عدد من العلماء الأعلام، أشهرهم:

١- الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ، حيث درس عليه في الفقه، والحديث، والتفسير، وأصولها.

٢- الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ، حيث درس عليه الفرائض.

٣- الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ قاضي الرياض.

حتى شهد له مشايخه وأقرانه بالنبوغ والمعرفة.

توجه إلى مكة المكرمة في أواخر عام (١٣٥٨هـ) ضمن مجموعة من العلماء وطلبة العلم الذين كانوا يدرسون على الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، حيث تقلد أول عمل له، وهو الوعظ والإرشاد والتدريس في الحرم المكي، ثم أضيف إليه عمل هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر برئاسة العلامة الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع وانتدب للتدريس في المعهد السعودي بمكة المكرمة.

* في عام (١٣٦١هـ) شكلت هيئة التمييز للنظر في قضايا الشكايات برئاسة العلامة الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع، وصار عضوًا في هذه الهيئة مع مجموعة من علماء مكة المكرمة الأجلاء وبإشراف رئيس القضاة آنذاك سماحة الشيخ عبد الله بن حسن، وكان أيضًا يواصل طلب العلم على بعض علماء المسجد الحرام. ثم انتهت أعمال هذه الهيئة.

* تولى رحمه الله العديد من المناصب القضائية، وهي:

أ- قضاء «غامد وزهران»- والتي كان مركزها في ذلك العهد بلدة «الظفير»- حيث مارس

عملها في (٢٤/٤/١٣٦٣ هـ) ، وله من العمر ثلاثون عامًا .

ب- قضاء « تربه »- جنوب « الطائف »- وقد باشر العمل بها في (١٣/٧/١٣٦٤ هـ) ، واستمر قاضيًا بها أربع سنوات .

ج- حوطة بني تميم- جنوب « الرياض »- حيث باشر العمل بها في (١/٤/١٣٦٩ هـ) ، واستمر بها قاضيًا إلى أواخر عام (١٣٧٠ هـ) ، وكان بالإضافة إلى الأعمال القضائية يقوم بأعمال الحسبة والإمامة والخطابة في المسجد الجامع الكبير في كل بلد تولى القضاء به ، بالإضافة إلى أعمال التعليم والتدريس ، حيث درس عليه كثير من طلبة العلم في المناطق التي تولى القضاء بها .

في بداية عام (١٣٧١هـ) أمر المغفور له الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود بافتتاح المعهد العلمي في مدينة الرياض ، وعهد بالإشراف عليه للشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ، وصار مديره الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم آل الشيخ ، وانتدب للتدريس فيه نخبة من العلماء ، من بينهم فضيلته ، واستمر في التدريس فيه حتى افتتحت كلية الشريعة في عام (١٣٧٣هـ) حيث تولى التدريس فيها .

* وفي بداية عام (١٣٧٧هـ) اقتضت المصلحة العامة تشكيل دار الإفتاء في المملكة برئاسة سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ، وعين فضيلته عضوًا في دار الإفتاء ، بالإضافة إلى التدريس في كلية الشريعة بالرياض ، واستمر في ذلك حتى نهاية عام (١٣٧٩هـ) .

* وفي بداية عام (١٣٨٠هـ) صدر أمر المغفور له الملك سعود بافتتاح مدارس البنات ، وعين فضيلته رئيسًا عامًّا لها ، واستمر في هذا المنصب حتى (١/٥/١٣٨١هـ) .

* عين رئيسًا لهيئة التمييز سنة (١٣٨١هـ) ، ولما افتتح المعهد العالي للقضاء انتدب للتدريس فيه مضافًا إلى عمله في هيئة التمييز ، وانتهى عمله منه لما تخرج أول فوج من الكلية عام (١٣٨٦ هـ) ، كما أنه أصبح عضوًا في مجلس القضاء الأعلى في بداية تشكيله ، واستمر في عمله بالهيئة والمجلس في عفة وأمانة ، حتى مرض رَحِمَهُ اللهُ ، فطلب الإحالة على التقاعد ، حيث وردت الموافقة السامية على طلبه ، وذلك اعتبارًا من (١/١/١٤٠٥هـ) .

* بالإضافة إلى أعماله التعليمية والقضائية ، اتجه إلى التأليف ، حيث ألف عددًا من الكتب الحديثة ، أهمها :

١- « عدة الباحث في أحكام التوارث » ، حيث طلب منه طلابه في المعهد العلمي بالرياض إعداد مذكرة مختصرة في درس الفرائض ، فأملى عليه هذه المذكرة ، ثم نقحها ونشرها في كتاب طبع ما يقارب العشر طبعات .

٢- « التنبيهات السنية في شرح العقيدة الواسطية » ، وهو كتاب ألفه لشرح « العقيدة الواسطية » لشيخ الإسلام ابن تيمية ، والتي كانت تدرس في المعهد العلمي بـ « الرياض » . فقد طلب منه تلامذته إعداد شرح لهذا الكتاب ، وقد طبع ما يقارب العشر مرات .

٣- « إفادة السائل إلى أهم الفتاوى والمسائل » ، حيث طلبت منه إذاعة القرآن الكريم من الرياض عددًا من المقالات التي أجاب بها على الكثير من الاستفسارات ، ثم جمعت هذه المقالات على شكل كتاب طبع الجزء الأول منه مرتين ، وبدأ يواصل نشر مقالاته بواسطة الإذاعة ، مما استلزم أن يعاد النظر فيه ، ويرتب على أبواب الفقه ، ويعاد طباعته من جديد . وهو في انتظار الطباعة .

٤- « القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى » ، وهو في انتظار الطباعة .

٥- « تفسير آيات الأحكام » ، وهو قيد التحقيق ثم الطباعة .

٦- ثم له العديد من الرسائل والبحوث والاهتمامات العلمية التي تنتظر دورها في التحقيق .

ثم اشتد عليه المرض ، حيث نقل إلى المستشفى العسكري ، وتوفي فيه في تمام الساعة الرابعة من يوم الاثنين (١٤٠٨/٣/٤ هـ) ، وصُلّي عليه ظهر يوم الثلاثاء في المسجد « الجامع الكبير » ، وحضر جنازته سمو الأمير سلمان بن عبد العزيز ، وعدد من أصحاب السمو الملكي الأمراء والعلماء ، وصلى عليه سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز صلاة الجنازة ، ثم نقل إلى مقبرة العود .

رحمه اللّه رحمة واسعة ، وغفر له ، وأسكنه فسيح جناته ، وأنزله منازل الصديقين والشهداء . وجعل ما قدم من عمل ، وألف من علم ؛ في ميزان أعماله يوم القيامة . إنه سميعٌ مجيب .

❁ ❁ ❁

ترجمة الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان رحمه الله

*** مولده ونشأته :**

هو : الشيخ الفقيه المدقق الزاهد عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن السلمان ولد سنة (١٣٣٧هـ) أو (١٣٣٩ هـ) على ما ذكره ابنه عبد الحميد نقلًا عن أبيه بخطه ، ولقد نشأ في بيت علم وصلاح وخير ، ونشأ بين أبوين كريمين ، ولكن أباه قد توفي وهو صغير فكفلته أمه واعتنت به أيما عناية ، وأدخلته مدرسة المعلم محمد بن عبد العزيز الدامغ لتحفيظ القرآن الكريم ، ومكث في هذه المدرسة ثلاث سنوات حفظ فيها القرآن الكريم ، بعد ذلك دخل مدرسة الأستاذ صالح بن ناصر بن صالح رحمه الله ، وتعلم في هذه المدرسة الكتابة والقراءة والخط والحساب وتخرج منها ، وقد انشغل في بداية شبابه بالتجارة وفتح محلًّا يقوم فيه بالبيع والشراء ، ثم لما حصل الكساد أثناء الحرب العالمية الثانية على العالم كله وخصوصًا الجزيرة العربية أصبحت التجارة ليس لها مردود جيد فترك الشيخ عبد العزيز مزاولة التجارة ، واتجه إلى طلب العلم .

*** طلبه للعلم :**

كانت الخطوة الأولى للشيخ رحمه الله إلى عالم العلم والعلماء هي مدرسة العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي (١٣٧٦ هـ) رحمه الله ؛ التي كانت في الحقيقة منارة العلم والمعرفة ، انضم الشيخ عبد العزيز إلى هذه المدرسة التي كانت تعقد غالبًا في جامع عنيزة الكبير كان ذلك سنة (١٣٥٣هـ) ، وكانت حلقة الشيخ عبد الرحمن السعدي أشبه بخلية نحل يتوافد عليها الطلبة من كل حدب وصوب ينهلون من علم الشيخ ابن سعدي رحمه الله ، حيث لازمه ستة عشر عامًا إلى سنة (١٣٦٩هـ) ، وقد قرأ على الشيخ مع زملائه علوم العقيدة ، والفقه ، والحديث ، واللغة العربية ، وقد عرف الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله بحرصه الشديد على تعهد تلاميذه بطريقته الفذة التي تميز بها عن بقية العلماء في طريقة التدريس ، وتوصيل المعلومات إلى ذهن التلميذ ، وجعل الاختيار له في الكتاب الذي يريده ، وأسلوب النقاش الذي يفتح لطالب العلم الكثير من أبواب العلم وفهم المسائل بشكل جيد .

ولقد تأثر شيخنا عبد العزيز رحمه الله بشيخه السعدي كثيرًا ، لا في طريقة تدريسه وتعامله مع التلاميذ والعطف عليهم والسؤال عن حالهم فحسب ، بل في التقلل من حطام الدنيا والعيش بالكفاف والقناعة وعدم الخوض في أعراض الناس ، وتركه ما لا يعنيه رحمه الله مع الانكباب على العلم وطلب المعرفة التي كانت شغله الشاغل ، لا من ناحية التدريس في معهد الرياض العالي أو التأليف الذي كان يفرغ له جل وقته عندما أحيل إلى التقاعد ، ولقد تعين رحمه الله في المعهد العلمي بالرياض إبان إنشائه سنة

(١٣٧٠هـ) ، رشحه الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ (١٣٨٩ هـ) رحمه الله ، وهذا دليل على كفاءته العلمية وقدرته المعرفية ، فلقد جاء إلى الرياض وهو قد ارتوى من العلم والمعرفة من حلقة شيخه عبد الرحمن رحمه الله ، الذي كان دائمًا يلهج بالثناء عليه والدعاء له ، وهذا دليل وفائه رحمه الله ، وهكذا كان دأب سلفنا الصالح مع شيوخهم وعلمائهم .

استمر الشيخ عبد العزيز مدرسًا في معهد إمام الدعوة حتى سنة (١٤٠٤ هـ) .

* ما قاله عنه تلاميذه ومحبوه :

قال عنه العلامة الشيخ صالح بن سعد اللحيدان المستشار القضائي بوزارة العدل أنه : (رجل تعلوه السكينة والبساطة ، جم الأخلاق ، واسع البال ، كان يشرح درسه مرتين بأسلوب شيق ، وكان يمازح تلامذته بمداعبة جادة وموزونة . وكان رحمه الله جادًا ، صبورًا ، واسع النظر ، وربما يذكرك بمن سلف من السلف ، وكان ذا طول في التأني والتحمل وحسن الأداء ، وتعلمنا منه النقاش والشعور بالمسئولية واستنطاق حال النص بشجاعة علمية وأدبية) .

وكما قال أيضًا الشيخ عبد المحسن بن محمد العجمي ، وهو أحد تلامذة الشيخ قائلًا : .. كنا نزوره رحمه الله في بيته القديم بحي الديرة شارع السويلم ، ونصلى معه في مسجده القديم ، فيستقبلنا بحفاوة ، ونحن بعد لم نناهز الحلم ، ويتحدث معنا ، وكأنه أب لنا ، يحرص ويهمه أن نسير على منهج الحق ونقتفي أثر السلف ، ثم يدخلنا في بيته ويزودنا بالكتب والمؤلفات القيمة له ولغيره ، لا سيما كتابه الزاخر بالعلم والأدب والأخلاق والمواعظ « موارد الظمآن » ، ثم يقوم رحمه الله بحثنا على طلب العلم والحرص في تحصيله ، والجد في تعلمه وحفظ أوقاتنا بما ينفعنا ، وكان يوصينا كثيرًا بقراءة كتب السلف مثل كتب شيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه الإمام ابن القيم ، وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ، وأئمة الدعوة السلفية رحمهم الله ، كل ذلك بتوجيه حكيم ومنطق رزين وشفقة وحب ، ومما ذكره الشيخ عبد الرحمن الرحمة عن الشيخ السلمان قائلًا : « فلقد رزئت الأمة الإسلامية بوفاة عالم من علمائها المخلصين ، ومجاهد من مجاهديها الصادقين ، نذر وقته ونفسه لنشر العلم الصافي وبيان أحكام الدين ؛ وذلك عن طريق التأليف والتصنيف » .

* مؤلفاته وآثاره العلمية :

الشيخ عبد العزيز السلمان من المكثرين في التأليف ، وأول كتاب ألفه هو « الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطة » ، سنة (١٣٨٢) ، وكتبه الوعظية لها قبول لدى الناس ، ويحرص عليها أئمة المساجد يقرءونها بعد صلاة العصر على المصلين وقبل صلاة العشاء ، وخصوصًا في ليالي شهر رمضان من كتاب « موارد الظمآن » وهو اسم على مسمى ، ففيه من المواعظ والرقائق ما يروي

الظمآن ، ووضع الشيخ السلمان ثقله العلمي كله في هذا الكتاب وصدر هذا الكتاب في ستة مجلدات كبار ضخام ، وبقية مؤلفاته كلها معروفة لدى الناس فلا حاجة لذكرها ، وقد تجاوزت طباعة بعض كتبه إلى ما يقارب (٣٦) طبعة ، وهو « كتاب محاسن الدين الإسلامي » ، والطبعة (٣٧) فسوف تصدر بعد فترة وجيزة ، وقد ترجمت جميع كتبه إلى اللغة الأوردية ، وحصل لها فتح عظيم وتأثير كبير عند الشعوب التي تتكلم بهذه اللغة ، والجدير بالذكر أن كثيرًا من دور النشر كانت تلح على الشيخ أن تطبع كتبه وعرضها للبيع ، فرفض رفضًا باتًا وقال : « هي وقف لله تعالى ، ولا أريد إلا الثواب من الله ﷻ في هذه الكتب » . ومع ذلك قامت بعض دور النشر بطبع كتبه بدون إذنه وعرضتها للبيع ، والكتاب الذي طبعته هو كتابه من « معجزات النبي ﷺ » .

* اللحظات الأخيرة للشيخ السلمان :

يقول ابنه عبد الحميد عن اللحظات الأخيرة قبل أن يتوفى والده بساعات : « كان الوالد رحمه الله في حياته لا يعاني من أمراض مستعصية سوى داء الركبتين ، حيث إنه في المدة الأخيرة أصبح لا يستطيع المشي إلا بصعوبة ، وكان يستعمل العكازين ، وكان يخدم نفسه بنفسه في داخل البيت ، وكان يستمتع بكامل قواه » . ويضيف ابنه قائلًا : « إن أبي عندما ألف كتابه الأخير « مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار » قال لي : يا عبد الحميد ، أريد أن أتأهب بهذا الكتاب- إن شاء الله ﷻ- لدخول دار القرار ، ولم يؤلف الشيخ بعد هذا الكتاب أي كتاب » .

ويقول ابنه عبد الحميد : « كان من عادة الوالد قبل أن ينام أن أجلس معه قليلًا وأسأله : هل يريد شيئًا أقضيه له ، وفي يوم وفاته في الساعة الثانية عشر ليلًا يوم الأحد التاسع عشر من شهر صفر لعام (١٤٢٢ هـ) وكالعادة ذهبت إليه وكان بجانبه شريط به تسجيل لأحد قراء القرآن الكريم يستمع إليه ، وكان هذا دأبه إما قارئًا للقرآن الكريم أو مستمعًا . وقلت له : هل تريد شيئًا يا أبي ؟ قال : لا ، وإذا أردت شيئًا سأطلبك ، ولمست يده ، فإذا هي مرتفعة الحرارة ، وذهبت إلى غرفتي وأنا غير مطمئن ، ورجعت له مرة ثانية ولمست يده فإذا هي أكثر حرارة ، وبلغ منه الجهد والإعياء وأصبح واضحًا ، فقلت له : سوف نحملك إلى المستشفى ، فرفض وقال : أعاني من ألم شديد « وهو يشير إلى صدره » لا يعلم مداه إلا الله ﷻ ، ولو كان الموت يشترى لاشتريته ولكن لا يجوز تمني الموت . ولعل ذلك مرض الموت وذكرت له أول الحديث عن رسول الله ﷺ : أريد معرفة ذاكرته ، وأكمل لي الحديث ، نصف الحديث بأكمله رحمه الله ، وأتت الوالدة – حفظها الله – وأسقته من ماء زمزم ، فشرب منه ، ثم استقبل القبلة رحمه الله وتشهد الشهادة كلمة التوحيد ، وفاضت روحه الطاهرة في الساعة الثالثة ليلًا في وقت تستجاب فيه الدعوات » .

ترجمة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله

* **اسمه ونسبه :**

هو الإمام العالم العلامة الصالح الورع الزاهد، أحد الثلة المتقدمين بالعلم الشرعي، انتفع به المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها في الفتوى والعلم، ناصر السنة وقامع البدعة، أبو عبد الله عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله آل باز- وآل باز- أُسرة عريقة في العلم إلى جانب التجارة والزراعة، معروفة بالفضل والأخلاق.

ومن أعيان هذه الأُسرة: الشيخ عبد المحسن بن أحمد آل باز المتوفى سنة ١٣٤٢هـ الذي تولى القضاء بالحوطة ثم الإرشاد في هجرة الأرطاوية. والشيخ مبارك بن عبد المحسن بن باز، والشيخ حسين بن عثمان بن باز، وقد تولوا القضاء في عدد من مناطق المملكة.

أمَّا أصلهم فمن المدينة المنورة، وقد انتقل أحد أجدادهم منها إلى الدرعية ثم انتقلوا بعد ذلك إلى حوطة بني تميم.

* يقول الشيخ عبد العزيز بن باز عن عائلته: إن أصلهم من الرياض، وطائفة منهم في الحوطة، وطائفة في الأحساء، وطائفة في الحجاز، وكلهم يرجعون لنفس العائلة، وهناك أُناس يقال لهم: آل باز في الأردن، ومصر وفي بلاد العجم ولا نعرف عنهم شيئًا، ولكن بعضهم يدَّعي أنه من آل البيت وهم الموجودون في الأردن.

* **مولده:**

ولد الشيخ في مدينة الرياض في ذي الحجة سنة ١٣٣٠هـ، وترعرع فيها وشب وكبر فيها.

* **نشأته:**

نشأ ابن باز في أسرة يغلب على الكثير من فضلائها طلب العلم وعلى بعضها عمل التجارة، والبعض العناية بالزراعة، ونشأ يتيمًا في حضانة والدته: هيا بنت عثمان بن عبد الله الخزيم، فوالده توفي في ذي القعدة من عام ١٣٣٣هـ وعمره ثلاث سنوات، وقد اعتنت به والدته، وخاصة في توجيهه إلى طلب العلم الشرعي منذ نشأته، وكانت البيئة التعليمية في ذلك الوقت عامرة بالعلم الشرعي عن طريق التعليم في المساجد والكتاتيب، فبدأ الشيخ تعليمه بحفظ القرآن الكريم كما هي عادة السلف الصالح، إذ يجعلون القرآن الكريم أول المصادر العلمية، فيحفظونه ويتدبرونه، ويعون أحكامه وتفاسيره، ومن ثم ينطلقون إلى بقية العلوم الشرعية، وقد كان الشيخ مبصرًا في أول حياته، ثم أصابه المرض في عينيه عام ١٣٤٦هـ ثم ذهب بصره بالكلية في عام ١٣٥٠هـ وهو ابن عشرين عامًا تقريبًا، ومع ذلك كله استمر

في طلب العلم، ثم فُجع بوفاة والدته عام ١٣٥٦ هـ ومع ذلك صبر الشيخ في طلب العلم والتزود من العلوم والمعارف.

* عبادته وزهده :

العبادة شأنها عظيم، فمن عباد الله من هو ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله. أما الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ فكان كثير التعبد والتنفل، وكان مثالًا يحتذى بـه في حرصه على العبادة، وفي تبكيره إلى المسجد، وفي محافظته على السنن والرواتب وعلى الأذكار في كل الأحوال.

فالشيخ: ولي صالح وعبد صادق، رقيق القلب كثير الذكر، سريع الدمعة يقول عنه الشيخ عبد الله المجلي أحد أبرز الملازمين له: «إن الشيخ ابن بـاز عابد زاهد ورع صوَّام قوّام، كثير العبادة والاستغفار، شديد الخوف من الله لا يترك باب طاعة إلا ويسلكه، ولا عمل خير إلا ويسير فيه، متمسك بالسنة مطبق لها في كل جوانب حياته، فهو بحق يمثل الإسلام كله في حياته.. فهو يداوم على قيام الليل، والسنن والرواتب، وسنة الضحى وغيرها وجميع الأذكار، حج اثنتين وخمسين حجة، وكان يزور المرضى ويشيع الجنائز ويصوم الاثنين والخميس من كل أسبوع، ويختم القرآن كل ثلاث أو أربع ليال على الرغم من كثرة مشاغله وأعبائه العلمية».

ومن حرصه على وقته أنه لا يجعله يذهب إلَّا وهو في عبادة تقربه من الله ﷻ سواء كان في السيارة، أو في العمل، أو في بيته.

* يقول الدكتور ناصر الزهراني إمام جامع الشيخ ابن باز في مكة المكرمة: «الشيخ ابن باز لا يفتر لسانه من ذكر الله أبدًا، بل لقد كنت أرقبه وهو يرد على المتصلين، فأراه في أثناء إنصاته لحديث المتصل يلهج بالذكر وبعد الصلوات لا يقوم من مصلاه إلا وقد أتى بالأذكار كلها، فلقد كانت محبة الله وعظمته والتعلق به ظاهرة جلية ينطق بها لسانه، ويخفق بها جنانه ويسطرها بنانه وهـذا سرٌّ من أسرار التوفيق في حياته، والبركة في عمره وعلمه».

عاش الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ زاهدًا معرضًا عن الدنيا، وزخارفها وزينتها ومتاعها.

* يقول أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري: «إن الشيخ لم يطمع لزينة الدنيا ومتاعها، عَرَض عليه أحد أمراء القرى في مناسبة زواج، أن يمنحه أرضًا كبيرة في تلك القرية، وكرر عليه ذلك كثيرًا، فصرفه الشيخ عن الحديث بلطف ودعا له وشكره».

* ومن زهده أيضًا: تبرعه بجائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام لدار الحديث الخيرية بمكة المكرمة. وقد نال الشيخ الجائزة عام ١٤٠٢هـ وذلك بقرار لجنة الجائزة رقم ٩٨/٦٨/١١ وتاريخ ١٣٩٨/٨/١٠ . وقد ذكرت لجنة أسباب نيل الجائزة وذلك لخدماته الجليلة المتمثلة

في خدمة الإسلام والمسلمين.

* وذكر عنه مدير مكتب منزله الشيخ محمد بن موسى فقال: «لا يكاد يُعرف في زماننا أزهد من سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، مع أن الدنيا تُقبل عليه وتتزين له إلا أنه زاهد فيها، مُشيح بوجهه عنها، فلا أذكر يومًا من الأيام أنه سأل عن راتبه، ولا عن مقداره، ولا عن زيادته، ولا عن وقت مجيئه، ولا أذكر أنه سأل عن انتدابه أو عن رصيده أو حسابه ولا أذكر أنه تكلم ببيع ولا شراء، أو أمر من أمور الدنيا، بل كان كثير الوصية بالتحذير من الاغترار بالدنيا وسماحته كان يعيش عيشة القناعة والزهد والكفاف، فلم يكن يتطلع إلى مال أو جاه أو منصب، بل كان ينفق إنفاق من لا يخشى الفقر، وكان زاهدًا بالجاه والمراتب والمديح وحب الذكر، وكان يكره الحديث في تغيير أثاث منزله أو سيارته، ومما يدل على زهده كثرة إنفاقه وإسقاط الدين عمن اقترض منه ولو كان كثيرًا، ومن صور زهده، زهده في المديح والإطراء فإذا قرأنا عليه الرسالة التي تفيض بالحب والدعاء والثناء على سماحته قال لنا: اتركوا المقدمة اقرءوا المقصود، وماذا يريد صاحبها؟ أنا لا أحب أن أسمع مثل هذا الكلام وإذا مُدح تغير وجهه وقال: الله المستعان، الله يتوب على الجميع، الله يستعملنا وإياكم فيما يرضيه.

* ولهذا قيل عنه:

وزهده في الدنيا لو أن ابن أدهم	رآه ارتأى فيه المشقة والعسرا
وكم رامت الدنيا تحل فؤاده	فأبدى لها نكرًا وأوسعها هجرا

* أخلاقـه وأعمـاله :

كان الشيخ على قدرٍ عظيم من حُسن الخلق، حتى أصبح من سجيته يتعامل به دون أي تكلف أو تصنع، فأخلاقه ربانية لا تهدف إلى مقاصد مادية بل هي موافقة للشرع المطهر، اتخذ من محمد ﷺ أُسوة وقدوة تمثلت في تطبيقه للسنة النبوية علمًا وعملاً، فقد تميز رحمه الله برحابة الصدر وسعة البال .

فكان يستقبل الناس صغيرهم وكبيرهم، جاهلهم وعالمهم، حاكمهم ومحكومهم بتواضع جم وأدب رفيع، فهو لا يغضب عند كثرة الأسئلة أو الاستفسارات ويتعامل مع الضعفاء والجهال بكل حلم، كما أنه يصبر على الزحام وعلى مضايقات بعض النفوسَ الضعيفة وعلى كثرة إلحاحهم، لأنه يحمل قلبًا رحيمًا عطوفًا على الجميع، لا فظًا ولا غليظًا، هين لين، خالقَ الناس بخلق حسن فالخلق صورة الإنسان الباطنية، وهو أساس الفضائل وينبوع المكارم وعين الكمال، ضبط الشيخ أخلاقه بضابط الشرع، ووزنها بميزان الدين.

* ومن أشهر مزاياه الأخلاقية :

إحسانه إلى الناس، وبذل المعروف، والصدق والوضوح، والصراحة مهما كان الأمر، وقد اشتهر

بالأمانة على دين الله، فإذا قال ابن باز قولًا اطمأنت النفوس وهدأت الجوانح إلى قوله، واشتهر بالأمانة على أموال الناس فكانت تدفع له الصدقات والتبرعات وغيرها ليصرفها لمستحقيها، وما ذلك إلا لثقتهم به، واشتهر أيضًا بالحلم فقد كان حليمًا صابرًا متجلدًا، يحبس نفسه ويكظم غيظه، ويضبط حنقه بالذكر والدعاء حتى ينطفي ما وقع له.

وبالجملة فقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ حريصًا على السنة ملازمًا للأدب، رحب الصدر، طويل الحلم، أريحي النفس، حسن الظن عظيم الرجاء واسع الفأل متوكلًا على الله، مجتهدًا في الأسباب، غيورًا على الحرمات رحيمًا بالناس رفيقًا بهم، لطيفًا معهم، عطوفًا عليهم، راغبًا في قضاء حوائجهم، ناصحًا لهم مكرمًا إياهم، محسنًا إليهم، حريصًا على هدايتهم مشتغلًا بنفعهم، فهو أنفع الناس للناس.

فهذه الأخلاق التي تجلت في شخص ابن باز مدارها على القرآن والسنة وسيرة السلف الصالح، حيث نشأ عليها متعلمًا وعاملًا ومعلمًا، فسارت في حياته كما يسير الدم في جسمه، وكيف لا! وسميره كتاب الله، ومبيته مناجاة لله، ونهاره دعوة إلى الله، فرحمه الله رحمة واسعة.

* أعماله :

كان للشيخ إسهامات عظيمة في كل أعماله التي تولاها، وبصمات واضحة منذ توليه القضاء حتى الإفتاء، وقد تدرجت مسيرته مع العلم والعطاء خلال عدة محطات رئيسة، قدَّم فيها القدوة والمثال، واكتسب كثيرًا من الخبرات التي أضافت لشخصيته أبعادًا أكثر شمولية، فأول عمل تولاه:

١ - القضاء في الدّلم عام ١٣٥٧ هـ في جمادى الآخرة واستمر فيه حتى عام ١٣٧١ هـ وكان طيلة تلك المدة بالإضافة إلى القضاء يقوم بإمامة الناس والإصلاح بينهم وتفقد أحوالهم وتدريس الطلبة، فتخرَّج على يديه الكثير من طلبة العلم الذين تبوأوا مناصب مهمة بعد ذلك.

٢- بعد افتتاح المعاهد العلمية بالرياض، انتقل للعمل مدرسًا فيها وذلك عام ١٣٧٢ هـ ولمدة سنة واحدة، وبعدها انتقل للتدريس في كلية الشريعة في الرياض عام ١٣٧٣ هـ ليمضي بها سبع سنوات، وكان في تلك الفترة يؤم المصلين في جامع الإمام تركي بن عبد الله، ويقوم بإلقاء الدروس في المسجد وفي بيته، ويلقي المحاضرات والكلمات المتنوعة في المناسبات وغيرها.

٣- في عام ١٣٨١ هـ انتقل إلى المدينة النبوية عند افتتاح الجامعة الإسلامية وذلك بأمر من شيخه محمد بن إبراهيم مفتي الديار السعودية آنذاك، ليكون نائبًا له في إدارة الجامعة، ثم تولى إدارة الجامعة نفسها في عام ١٣٩٠هـ بعد وفاة رئيسها الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ حتى عام ١٣٩٥هـ وكان خلال وجوده بالمدينة النبوية يلقي الدروس في المسجد النبوي بالإضافة إلى المحاضرات والكلمات والندوات ويشارك في الـ[illegible] من خلال الصحف والمجلات.

٤- وفي عام ١٣٩٥ هـ في شوال صدر الأمر الملكي بتعينه رئيسًا لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بمرتبة وزير، فرجع إلى الرياض وتولى إمامة جامع الإمام تركي، وكان في الوقت نفسه رئيسًا للمجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، ومجلس المجمع الفقهي، والمجلس الأعلى العالمي للمساجد.

٥- وفي عام ١٤١٣ هـ صدر الأمر السامي بتعينه مفتيًا عامًا للمملكة العربية السعودية، ورئيسًا لهيئة كبار العلماء، ورئيسًا للجنة الدائمة للبحوث العلمية ورئيسًا لرابطة العالم الإسلامي، بالإضافة إلى ترؤسه لدار الحديث الخيرية بمكة المكرمة.

هذه بعض أعماله الرسمية ، أما أعماله الخيرية التطوعية فله جهود دعوية كثيرة لجميع المؤسسات والمراكز الإسلامية المنتشرة في كافة أنحاء العالم، كما أن له دعمه الملموس للجهاد الإسلامي، واهتمامات بجمعيات تحفيظ القرآن الكريم الخيرية ودعم الدعاة ومساعدتهم وكفالتهم، كما أن له اهتمامًا بهيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمساهمة في بناء المساجد وغير ذلك.

كما تولى رَحِمَهُ اللهُ رئاسة العديد من المؤتمرات العالمية التي عُقدت بالمملكة العربية السعودية، والتي مهدت له ويسرت أمامه سُبل الاتصال بالكثير من الدعاة ورجال العلم، وزعماء التجمعات الإسلامية، والشخصيات البارزة في حقل الدعوة الإسلامية، ومعرفة قضايا المسلمين في كل أنحاء العالم.

* مرضه ووفاته:

من طبيعة الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أنه كان جلدًا صبورًا لا يشتكي ولا يتأوه مع ما مرَّ به من أمراض شديدة في أوقات مراحل عمره، ومع ذلك لم تثنه عما هو فيه من الجد والاجتهاد ومن الدعوة إلى الله والمثابرة على ذلك حتى إنه في مرضه الشديد أنجز كثيرًا من الأعمال الموكلة به.

فمرض وفاته رَحِمَهُ اللهُ بدأ منذ عام ١٤١٩ هـ في شهر رمضان حيث كان يشعر بألم في البطن، فاشتد به المرض، فشُكلت لجنة طبية بأمر خادم الحرمين الشريفين للنظر في حالته، وعُرض عليه السفر للعلاج في الخارج فرفض فأُحضر له أطباء من أمريكا وبلجيكا، فلما حضروا أوصوا بكيِّ المري، فخف الألم قليلًا، ثم عاوده بعد شهرين وهو في الرياض، فدخل المستشفي ثم خرج منه بعد فترة لاستقرار حالته، ثم أصبحت حالته تتدنى حتى شهر ذي القعدة فنصحه الأطباء بالبقاء في المستشفي ولكن كان قلبه معلقًا بالحج.

وبعد إلحاح شديد من ولي العهد الأمير عبد الله بن عبد العزيز، ترك الحج ووكل نائبه الشيخ عبد العزيز آل الشيخ ليقوم مقامه بالحج، ثم قام في تأريخ ١٤١٩/١٢/٢٢هـ بأداء العمرة وبقي في

مكة حتى نهاية ذي الحجة، ثم انتقل إلى مقره الصيفي بالطائف، فبدأت صحته بالتدني، ومع ذلك كانت همته وعزيمته ونشاطه وعمله، ومزاجه وتفكيره، وذاكرته ودروسه ومواعظه على ما هي عليه قبل مرضه.

وفي يوم الخميس ١٤٢٠/١/٢٠هـ اشتد به المرض فنقل إلى المستشفى العسكري بالهداء في محافظة الطائف، ومع هذا كانت المعامِلات تُقرأ عليه والمُستفتون والزوار يتوافدون عليه من كل مكان، وهو يستقبلهم بتهلل وفرح وسعة بال، واستمر على هذه الحال إلى يوم الثلاثاء ١٤٢٠/١/٢٥هـ فخرج من المستشفى فاستقبل الناس في بيته وجلس لهم بعد المغرب ليلة وفاته فقُرئت عليه المعاملات، وردّ على الفتاوى المباشرة والهاتفية وقبل الفجر من يوم الخميس الموافق ١٤٢٠/١/٢٧هـ يقول ابنه أحمد: صلى الشيخ ما شاء أن يصلي في تلك الليلة، فاضطجع ونام، وبعد ساعة جلس في فراشه، فالتفت يمينًا وشمالًا؛ فتبسم ثم اضطجع، وبعد ذلك ارتفعت نفسه وحشرجت، فنقلناه إلى مستشفى الملك فيصل بالطائف وهو يردد: سبحان الله والحمد الله ولا إله إلا الله والله أكبر.

* وفـاته:

في صباح الخميس الموافق ١٤٢٠/١/٢٧هـ لفظ أنفاسه وهو في طريقه إلى مستشفى الملك فيصل بالطائف، ثم نقل إلى ثلاجة القوات المسلحة في الهداء حتى جاء وقت تغسيله وذلك في صباح يوم الجمعة، فنُقل جثمانه إلى منزله بمكة المكرمة فغُسِّل، وصلى عليه أهل بيته يتقدمهم فضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ مفتي عام المملكة العربية السعودية، ثم صُلِّي عليه في المسجد الحرام بعد صلاة الجمعة وذلك بأمر من خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود.

وقد أعلن الديوان الملكي خبر وفاته يوم الخميس الذي مات فيه ومكان الصلاة عليه ووقتها، مع أمر جميع المسلمين في مساجد المملكة بإقامة صلاة الغائب على الشيخ يوم الجمعة الموافق ٢٨/ ١/ ١٤٢٠ هـ فتوافدت الجموع الحاشدة إلى مكة المكرمة لحضور الصلاة عليه، يتقدمهم ملك المملكة العربية السعودية الملك فهد بن عبد العزيز وولي عهده الأمير عبد الله بن عبد العزيز، والنائب الثاني الأمير سلطان بن عبد العزيز ووزير الداخلية الأمير نايف بن عبد العزيز، وأمير الرياض الأمير سلمان بن عبد العزيز، وجمعٌ كبير من الأُمراء والوزراء وأصحاب الفضيلة المشايخ وكبار المسئولين في الدولة، مع أعداد غفيرة من المواطنين والمحبين للشيخ وكل هذه الجموع حضرت لأن المصاب عظيم والفاجعة بموته كبيرة، والرزية به عظيمة، وأَمَّ المصلين إمام المسجد الحرام فضيلة الشيخ محمد بن عبد الله السبيل، حيث تحدث في خطبته عن فضل العلم والعلماء وذكر بعض مآثر الفقيد، وعزى الأمة به، وصبَّر الناس، وبعد صلاة الجمعة قُدِّمت الجنازة فعلا النحيب والبكاء والدعاء للشيخ، فما كادت

الجنازة تصل إلى المكان الذي هو أقرب للإمام إلا بشق الأنفس لكثرة الزحام ولقد شهدها آلاف مؤلفة من المسلمين حيث سارت في موكب مُهيب وسط الجموع الغفيرة إلى مقبرة العدل بمكة المكرمة يتقدمهم فضيلة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ وكان ذلك اليوم يومًا مشهودًا للجميع فرحم الله الشيخ رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته، وجعله في الفردوس الأعلى، وحشره في زمرة الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين.



ترجمة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله

*** نسبه ومولده :**

هو: صاحب الفضيلة الشيخ العالِم المُحقق ، الفقه المُفسر ، الورع الزاهد : أبو عبد الله محمد بن صالح بن عثيمين الوهيبي التميمي.

ولد في مدينة عُنيزة في السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك عام (١٣٤٧).

*** نشأته العلمية :**

قرأ القرآن الكريم على جده من جهة أمه عبد الرحمن بن سليمان آل دامغ رحمه الله فحفظه، ثم اتجه إلى طلب العلم فتعلم الخط والحساب وبعض فنون الآداب، وكان الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله قد أقام اثنين من طلبة العلم عنده ليدرِّسا للطلبة الصغار أحدهما الشيخ علي الصالحي، والثاني الشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع رحمه الله، قرأ عليه «مختصر العقيدة الواسطية» للشيخ عبد الرحمن السعدي، و«منهاج السالكين» في الفقه للشيخ عبد الرحمن أيضًا، والآجُرُّوميَّة والألْفِيَّة.

وقرأ على الشيخ عبد الرحمن بن علي بن عودان في الفرائض والفقه.

وقرأ على الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي الذي يعتبر شيخه الأول حيث لازمه وقرأ عليه التوحيد والتفسير والحديث والفقه وأصول الفقه والفرائض ومصطلح الحديث والنحو والصرف.

وكانت لفضيلة الشيخ منزلة عظيمة عند شيخه رحمه الله فعندما انتقل والد الشيخ محمد رحمه الله إلى الرياض رغب في أن ينتقل معه ولده الشيخ رحمه الله، فكتب له الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «إن هذا لا يمكن نريد محمدًا يمكث هنا حتى يستفيد».

يقول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «إنني تأثرت به كثيرًا في طريقة التدريس وعرض العلم وتقريبه للطلبة بالأمثلة والمعاني، وكذلك أيضًا تأثرت به من ناحية الأخلاق ؛ لأن الشيخ عبد الرحمن رحمه الله كان على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة، وكان رحمه الله على قدر كبير في العلم والعبادة، وكان يمازح الصغير، ويضحك إلى الكبير، وهو من أحسن من رأيتُ أخلاقًا».

قرأ على سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز حيث يعتبر شيخه الثاني، فابتدأ عليه قراءة «صحيح البخاري»، وبعض رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية وبعض الكتب الفقهية.

يقول الشيخ: «تأثرت بالشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله من جهة العناية بالحديث، وتأثرت به من جهة الأخلاق أيضًا وبسط نفسه للناس».

وفي عام (١٣٧١) جلس للتدريس في الجامع، ولما فتحت المعاهد العلمية في الرياض التحق بها عام (١٣٧٢).

يقول الشيخ رحمه الله: « دخلت المعهد العالمي من السنة الثانية، والتحقت به بمشورة من الشيخ علي الصالحي، وبعد أن استأذنت من الشيخ عبد الرحمن السعدي عليه رحمة الله، وكان المعهد العلمي في ذلك الوقت ينقسم إلى قسمين خاصّ وعام، فكنت في القسم الخاص، وكان في ذلك الوقت أيضًا من شاء أن يقفز - كما يعبرون - بمعنى أنه يدرس السنة المستقبلة له في أثناء الإجازة ثم يختبرها في أول العام الثاني، فإذا نجح انتقل إلى السنة التي بعدها وبهذا اختصرتُ الزمن » ا.

وبعد سنتين تخرج وعُيّن مدرسًا في معهد عنيزة العلمي مع مواصلة الدراسة انتسابًا في كلية الشريعة ومواصلة طلب العلم على يد الشيخ عبد الرحمن السعدي.

ولما توفي فضيلة الشيخ عبد الرحمن رحمه الله تولى إمامة الجامع الكبير بعنيزة والتدريس في مكتبة عنيزة الوطنية بالإضافة إلى التدريس في المعهد العلمي ثم انتقل إلى التدريس في كليتي الشريعة وأصول الدين بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم حتى الآن، بالإضافة إلى عضوية هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية، ولفضيلة الشيخ رحمه الله نشاط كبير في الدعوة إلى الله عز وجل وتبصير الدعاة في كل مكان وله جهود مشكورة في هذا المجال.

والجدير بالذكر أن سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله قد عرض بل ألحَّ على فضيلة الشيخ في تولي القضاء، بل أصدر قراره بتعيينه رحمه الله تعالى رئيسًا للمحكمة الشرعيّة بالإحساء، فطلب منه الإعفاء، وبعد مراجعات واتصال شخصي من فضيلة الشيخ سمح رحمه الله تعالى بإعفائه من منصب القضاء.

*** مؤلفاته:**

له - رحمه الله تعالى - مؤلفات كثيرة تبلغ (٤٠) ما بين كتاب ورسالة.

فمن هذه المؤلفات:

١- « فتح رب البرية بتلخيص الحموية »، وهو أول كتابٍ للشيخ، كتبه عام (١٣٨٠).

٢- « مجالس شهر رمضان ».

٣- « المنهج لمريد العمرة والحج ».

٤- « تسهيل الفرائض ».

٥- « شرح لمعة الاعتقاد ».

٦- « شرح العقيدة الواسطية ».

٧- «أقسام المداينة».

٨- «الضياء اللامع من الخطب الجوامع».

٩- «المجموع الثمين من فتاوى ابن عثيمين».

١٠- «أصول التفسير».

١١- «إزالة الستار عن الجواب المختار».

١٢- «رياض الصالحين».

١٣- «الشرح الممتع».

١٤- «القول المفيد شرح كتاب التوحيد».

١٥- «التعليقات على كشف الشبهات».

* وفاته:

تُوفي الشيخ رحمه الله يوم الأربعاء (١٥) شوال (١٤٢١)، وكانت وفاته في الساعة السادسة مساء بمستشفى الملك فيصل التخصصي بجدة إثر إصابته بسرطان القولون الذي ظل يعاني منه لفترة طويلة، ولم يكتشف إلا في شهر صفر من العام الحالي إثر مراجعة الشيخ لمستشفى الملك فهد في الحرس الوطني بالرياض.

وقد ظل الشيخ رحمه الله صابرًا محتسبًا رافضًا للعلاج الكيماوي، ونزوُلا عند رغبة ولاة الأمر بالإلحاح عليه بالعلاج، ثم سافر إلى أمريكا للعلاج، ولكنه عاد سريعًا ليواصل مهامه ووظائفه العلمية بالتدريس والإفتاء في مدينة عنيزة وفي المسجد الحرام بمكة المكرمة، ثم توفاه اللَّه عز وجل .

❁ ❁ ❁

ترجمة العلامة عبد الرحمن بن ناصر البراك حفظه اللّٰه

* اسمه ونسبه :

هو : عبد الرحمن بن ناصر بن براك بن إبراهيم البراك ، ينحدر نسبه من بطن العرينات من قبيلة سبيع .

* مولده ونشأته :

ولد الشيخ في بلدة البكيرية من منطقة القصيم في شهر ذي القعدة سنة (١٣٥٢ هـ) .

وتوفي والده وعمره سنة ، فنشأ في طفولته في بيت أخواله مع أمه ، فتربى خير تربية .

ولما بلغ الخامسة من عمره سافر مع أمه إلى مكة ، وكان في كفالة زوج أمه محمد بن حمود البراك .

وفي مكة التحق الشيخ بالمدرسة الرحمانية ، وفي السنة الثانية الابتدائية قدر اللّٰه أن يصاب الشيخ بمرض في عينيه تسبب في ذهاب بصره ، وهو في التاسعة من عمره .

* طلبه للعلم ومشايخه :

عاد من مكة إلى البكيرية مع أسرته ، فحفظ القرآن وعمره عشر سنين تقريبًا على عمه عبد اللّٰه بن منصور البراك ، ثم قرأ على مقرئ البلد عبد الرحمن بن سالم الكريديس رحمهم اللّٰه .

وفي عام (١٣٦٥ هـ) تقريبًا بدأ الشيخ في القراءة على العلماء ، فقرأ على الشيخ عبد العزيز بن عبد اللّٰه السبيل جملة من « كتاب التوحيد » ، و« الآجرومية » ، وقرأ على الشيخ محمد بن مقبل « الثلاثة الأصول » .

ثم قدر له السفر إلى مكة مرة أخرى في عام (١٣٦٦ هـ) تقريبًا ، ومكث بها ثلاث سنين ، فقرأ في مكة على الشيخ عبد اللّٰه بن محمد الخليفي إمام المسجد الحرام في « الآجرومية » ، وهناك التقى بعالم فاضل من كبار تلاميذ العلامة محمد بن إبراهيم ، وهو الشيخ صالح بن حسين العلي العراقي رحمه الله ، وكان من أصدقاء الإمام عبد العزيز بن باز رحمه الله فجالسه واستفاد منه ، ولما عين الشيخ صالح العلي العراقي مديرًا للمدرسة العزيزة في بلدة الدلم رغب أن يرافقه الشيخ عبد الرحمن البراك لطلب العلم على الشيخ ابن باز حين كان قاضيًا في بلدة الدلم ، فرحل معه في ربيع الأول من عام (١٣٦٩ هـ) ، والتحق بالمدرسة العزيزة بالصف الرابع ، وكان من أهم ما استفاده في تلك السنة الإلمام بقواعد التجويد الأساسية .

وفي نفس السنة سافر مع جمع من الطلاب مع الشيخ ابن باز إلى الحج ، وبعد عودته ترك الدراسة

في المدرسة العزيزة ، وآثر حفظ المتون مع طلاب الشيخ عبد العزيز بن باز ، ولازم دروس الشيخ ابن باز المتنوعة ، فقد كان يقرأ عليه في « كتاب التوحيد » ، و« الأصول الثلاثة » ، و« عمدة الأحكام » ، و« بلوغ المرام » ، و« مسند أحمد » ، و« تفسير ابن كثير » ، و« الرحبية » ، و« الآجرومية » .

ومكث في الدلم في رعاية الشيخ صالح العراقي ، فقد كان مقيمًا في بيته ، ودرس عليه علم العروض .

وحفظ في بلدة الدلم « كتاب التوحيد » ، و« الأصول الثلاثة » ، و« الآجرومية » ، و« قطر الندى » ، و« نظم الرحبية » ، وقدرًا من « ألفية ابن مالك » في النحو ، ومن « ألفية العراقي » في علوم الحديث .

وكانت مدة إقامته لها أثر كبير في حياته العلمية .

ثم التحق الشيخ بالمعهد العلمي في « الرياض » حين افتتاحه في محرم (١٣٧١ هـ) ، ثم تخرج فيه عام (١٣٧٤ هـ) ، والتحق بكلية الشريعة ، وتخرج فيها سنة (١٣٧٨ هـ) .

وتتلمذ في المعهد ، والكلية على مشايخ كثيرين من أبرزهم :

العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله ، ودرسهم في المعهد في التفسير ، وأصول الفقه ، والعلامة عبد الرزاق عفيفي رحمه الله ودرسهم في التوحيد ، والنحو ، وأصول الفقه ، والشيخ محمد عبد الرزاق حمزة ، والشيخ عبد العزيز بن ناصر الرشيد ، وغيرهم ، رحمهم الله جميعًا .

وكان في تلك المدة يحضر بعض دروس العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ في المسجد .

وأكبر مشايخه عنده ، وأعظمهم أثرًا في نفسه الإمام العلامة عبد العزيز بن باز رحمه الله الذي أفاد منه أكثر من خمسين عامًا بدءًا من عام (١٣٦٩ هـ) حين كان الإمام ابن باز في بلدة الدلم إلى وفاته في عام (١٤٢٠ هـ) ، ثم شيخه العراقي الذي استفاد منه حب الدليل ، ونبذ التقليد ، والتدقيق في علوم اللغة ، والنحو ، والصرف ، والعروض .

*** الأعمال التي تولاها :**

عمل الشيخ مدرسًا في المعهد العلمي في مدينة الرياض ثلاثة أعوام من سنة (١٣٧٩ هـ) ، ثم انتقل بعدها إلى تدريس العلوم الشرعية في كلية الشريعة بالرياض ، ولما افتتحت كلية أصول الدين عام (١٣٩٦ هـ) نقل إليها في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة ، وعمل مدرسًا فيهما إلى أن تقاعد عام (١٤٢٠ هـ) ، وأشرف خلالها على العشرات من الرسائل العلمية .

وبعد التقاعد رغبت الكلية التعاقد معه فأبى ، كما طلب منه سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله أن يتولى العمل في الإفتاء مرارًا فتمنع ، ورضي منه شيخه أن ينيبه على الإفتاء في دار الإفتاء في الرياض في فصل الصيف حين ينتقل المفتون إلى مدينة الطائف ، فأجاب الشيخ حياءً ؛ إذ تولى العمل في فترتين ثم تركه .

وبعد وفاة الشيخ ابن باز رحمه الله طلب منه سماحة المفتي الشيخ عبد العزيز آل الشيخ أن يكون عضو إفتاء، وألح عليه في ذلك فامتنع، وآثر الانقطاع للتدريس في المساجد .

*** جهوده في نشر العلم :**

جلس الشيخ للتعليم في مسجده الذي يتولى إمامته- مسجد الخليفي بحي الفاروق- ، ومعظم دروسه فيه، وكذلك التدريس في بيته مع بعض خاصة طلابه، وله دروس في مساجد أخرى، وله مشاركات متعددة في الدورات العلمية المكثفة التي تقام في الصيف، إضافة لإلقائه كثيرًا من المحاضرات، كما تعرض على الشيخ بعض الأسئلة من عدد من أشهر المواقع الإسلامية في الشبكة العنكبوتية .

*** طلابه :**

طلاب الشيخ كثر يتعذر على العاد حصرهم، وكثير من أساتذة الجامعات، والدعاة المعروفين، قد تتلمذوا عليه، وغيرهم من طلاب العلم .

*** احتسابه :**

للشيخ جهود كبيرة في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومناصحة المسئولين، والكتابة لهم، وتحذير الناس من البدع، وسائر الانحرافات، والمخالفات .. وله في ذلك فتاوى كثيرة، وله مشاركة مع بعض المشايخ في عدد من البيانات والنصائح لعموم المسلمين .

*** اهتمامه بأمور المسلمين :**

للشيخ- حفظه الله- اهتمام بالغ بأمور المسلمين في جميع أنحاء العالم، فهو كثير الحزن والتألم لما يحدث لهم في كثير من البلاد، وهو متابع لأخبارهم، وفي أوقات الأزمات يبادر بالدعاء لهم والدعاء على أعدائهم، ويبذل النصح والتوجيه لهم وللمسلمين فيما يجب نحوهم .

*** إنتاجه العلمي :**

الشيخ باذل معظم وقته لتعليم العلم، والإجابة على الأسئلة، وقد قرئت عليه عشرات الكتب في مختلف الفنون، وقد سجل بعضها، وما لم يسجل أكثر .

وقد صدر للشيخ من المطبوعات «شرح الرسالة التدمرية»، و«جواب في الإيمان ونواقضه»، و«موقف المسلم من الخلاف»، و«التعليقات على المخالفات العقدية في فتح الباري» طبع مع «فتح الباري» في دار طيبة .

وفي حياة الشيخ جوانب كثيرة مشرقة، أعلم أنه يكره ذكرها، أسأل الله أن يبارك في عمره، ويمد فيه على الطاعة، وينفع المسلمين بعلمه .

ترجمة الشيخ صالح بن فوزان الفوزان حفظه الله

* اسمه ، ونسبه :

هو : صالح بن فوزان بن عبد الله آل فوزان ، من أهل الشماسية ، من قبيلة الدواسر .

* مولده ونشأته زمانًا ومكانًا :

وُلد الشيخ - حفظه الله تعالى - عام (١٣٥٤هـ) في مدينة الشماسية في منطقة القصيم ، في المملكة العربية السعودية .

وتوفي والده وهو صغير ، فتربى في أسرته .

تعلم القرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة على يد الشيخ حمود بن سليمان التلال رحمه الله ، وهو إمام مسجد البلدة ، وكان قارئًا مُتقنًا ، وتولى القضاء في بلدة ضرية في منطقة القصيم .

وقد درس الشيخ الدراسة الأولية (الابتدائية) في بلدة بمدرسة الحكومة حين افتتاحها في الشماسية ، عام (١٣٦٩هـ) ، ثم أكمل دراسته الابتدائية في المدرسة الفيصلية ببريدة عام ١٣٧١هـ .

ثم التحق الشيخ بالمعهد العلمي ببريدة عند افتتاحها عام ١٣٧٣هـ ، وتخرج منه عام ١٣٧٧هـ ، ثم التحق بكلية الشريعة في الرياض ، وتخرج منها عام ١٣٨١هـ .

ثم نال شهادة الماجستير في الفقه عام ١٣٩٧هـ بأطروحته التي كانت بعنوان : « أهم المسائل الخلافية في المباحث القرضية » ، من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، كلية الشريعة ، وقد طُبع الكتاب باسم : « التحقيقات المُرضية في المباحث الفرضية » ، وكان المشرف عليه شيخه الشيخ العلّامة : عبد الرزاق عفيفي ، رحمه الله تعالى .

ثم حصل على درجة الدكتوراه عام ١٣٩٩هـ من نفس الكلية ، في موضوع : « أحكام الأطعمة : حِلًّا وحُرمةً ، واستدلالًا وترجيحًا » ، وقد طُبع باسم : « أحكام الأطعمة في الشريعة الإسلامية » .

* مشايخه :

تلقى العلم على يد جماعة من أنبل علماء العصر ، ومنهم :

١- الشيخ العلامة المفتي والقاضي : عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن حميد (ت : ١٤٠٢هـ) ، وكان يحضر دروسه في جامع بُريدة .

٢- الشيخ عبد العلامة : عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن باز ، مفتي الديار السعودية حينئذٍ (ت : ١٤٢٠هـ) .

٣- الشيخ العلامة : محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ، صاحب « أضواء البيان في

إيضاح القرآن بالقرآن » (ت : ١٣٩٣هـ) .

٤- الشيخ عبد الرزاق عفيفي (ت : ١٤١٥هـ) .

٥- الشيخ صالح بن عبد الرحمن بن إبراهيم السكيتي (ت : ١٤٠٤هـ) .

٦- الشيخ صالح بن إبراهيم بن محمد البليهي (ت : ١٤١٠هـ) .

٧- الشيخ عبد اللّٰه بن صالح بن عبد الرحمن الخُليفي (ت : ١٣٨١هـ) .

٨- الشيخ إبراهيم بن عبيد بن عبد المحسن (ت : ١٤٢٦هـ) .

٩- الشيخ حمود العقلا (ت : ١٤٢٢هـ) .

١٠- الشيخ صالح بن علي بن سليمان الناصر (ت : ١٤٠٦هـ) . رحمهم اللّٰه جميعًا .

كما تتلمذ الشيخ وأخذ العلم على عدد من شيوخ الأزهر الوافدين للتدريس في كلية الشريعة في جامعة الإمام .

* تلامذته :

تلقى عنه العلم جماعةٌ من أنبل وأشهر العلماء وطلاب العلم في العصر الحاضر ، منهم أساتذة في الجامعة وقُضاة وأئمة مساجد منتشرون هنا وهناك لنشر العلم والدعوة إلى اللّٰه تعالى .

* مكانته العلمية والاجتماعية :

- عمل مدرسًا في بلدته الشماسية .
- ثم مدرسًا في المعهد العلمي ببريدة .
- ثم مدرسًا في كلية الشريعة بالرياض .
- ثم مدرسًا في كلية أصول الدين .
- ثم مديرًا للمعهد العالي للقضاء وأستاذًا فيه .
- ثم عضوًا في اللجنة الدائمة للإفتاء ، وعضوًا في هيئة كبار العلماء ، وما يزال في المنصبين .

* مؤلفاته وآثاره العلمية :

شرحُ العقيدةِ الواسطيةِ ، والـمُلَخَّصُ الفِقْهيُّ ١/ ٢، وكتابٌ في المباحثِ الفَرْضيةِ ، وتنبيهاتٌ على أحكامٍ تَخْتصُّ بالـمُؤمِناتِ ، وتَعْقِيباتٌ على كتابِ السَّلَفيةِ ليست مذهبًا للبوطيِّ ، ومِن مشاهيرِ الـمُجَدِّدين في الإسلامِ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ وشيخُ الإسلامِ محمدُ بنُ عبدِ الوَهَّابِ ، والـمُنْتَقَى مِن فتاوَى الشيخِ صالحِ بنِ فَوْزانَ ١/ ٣، كما أنه دائمُ الإجابةِ على أسئلةِ الـمُسْتَمِعين في البَرْنَامَجِ الشَّهيرِ نورٌ على الدَّرْبِ .

جَزاه اللّٰهُ خيرًا عما يُقَدِّمُه للإسلامِ والمسلمين . آمِينَ .

ترجمة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه اللَّه

* **اسمه ونسبه :**

هو فضيلة الشيخ الإمام العالِم صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف ابن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب ، رحمهم اللَّه جميعًا ، وحفظ اللَّه الشيخ ورعاه ، والشيخ يرجع نسبه إلى قبيلة بني تميم المشهورة .

* **نشأته :**

نشأ الشيخ في دار علم وديانة - ولا نزكي على اللَّه أحدًا - .

* **مولده ، وتعليمه :**

ولد في مدينة الرياض سنة ١٣٧٨هـ ، وأكمل تعليمه الثانوي في الرياض ، ولحرصه - حفظه اللَّه - على أن يكون تعليمه الجامعي شرعيًا فقد التحق بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ممثلة في كلية أصول الدين بقسم القرآن وعلومه ، وبعد تخرجه فيها عمل ضمن هيئة التدريس فيها منذ ذلك الحين إلى عام ١٤١٦هـ ، حيث عُين نائبًا لوزير الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد .

وفي عام ١٤٢٠هـ صدر الأمر بتعيينه وزيرًا للشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ، إلى جانب إشرافه على المؤسسات الخيرية كمؤسسة الحرمين الخيرية ، وهيئة الإغاثة الإسلامية العالمية ، والندوة العالمية للشباب الإسلامي .

والشيخ حفظه اللَّه منصرف إلى طلب العلم وتحقيق المسائل على نحو ما كان عليه علماء الدعوة السلفية وكبار العلماء ، منذ نعومة أظفاره ، ودأب على نشر ذلك وتعليمه في دروسه ومحاضراته وتوجيهاته التي يلقيها في المساجد وفي غيرها .

والشيخ قارئ وباحث في فتاوى جده سماحة الشيخ العلَّامة محمد بن إبراهيم ، رحمه اللَّه تعالى ، حيث تفرغ لدراستها وفهم مقاصدها ، واصطلاحاتها الفقهية والعلمية ، ومقاصدها التي انفردت بها بحكم الزمان والمكان . وكان يستعين بعد اللَّه تعالى بكبار العلماء في ذلك ؛ كسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ، رحمه الله ، وسماحة والده الشيخ عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم ، حفظه اللَّه ، وسماحة الشيخ عبد العزيز آل الشيخ ، مفتي عام المملكة - حفظه اللَّه - وفضيلة الشيخ عبد اللَّه بن عقيل ، رئيس الهيئة الدائمة بمجلس القضاء الأعلى سابقًا ، حفظه اللَّه .

وقد تلقى الشيخ صالح - حفظه اللَّه - العلم على عدد من العلماء وهم :

١- سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله .

٢- والده سماحة الشيخ عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم ، حفظه اللَّه .

٣- فضيلة الشيخ عبد اللَّه بن عبد العزيز بن عقيل ، حفظه اللَّه .

٤- فضيلة الشيخ عبد اللَّه بن غديان ، عضو هيئة كبار العلماء ، حفظه اللَّه .

٥- فضيلة الشيخ عبد العزيز بن مرشد ، رحمه الله .

٦- فضيلة الشيخ أحمد المرابط الشنقيطي ، حفظه اللَّه ، نائب مفتي الديار الموريتانية ، درس عليه في علوم اللغة .

٧- الشيخ محمد بن سعد الدبل ، حفظه اللَّه ، درس عليه في النحو .

٨- وكان له جلسات ومباحثات علمية متكررة مع فضيلة المحدث حماد الأنصاري رحمه الله .

وقد حرص - رعاه اللَّه - على جمع الإجازات العلمية من شتى أنحاء الأرض ، حيث حصل على إجازات عدة من بعض علماء المملكة ، ورحل إلى تونس والمغرب وباكستان والهند وغيرها في سبيل ذلك .

وله من المؤلفات والتحقيقات التي يحرص على اقتنائها طلبة العلم ؛ لما فيها من الشمولية والتدقيق العلمي ما يقارب سبعة عشر عملًا علميًّا .

وشارك في عدد من المؤتمرات في داخل المملكة وفي أمريكا وأوربا ومصر وغيرها ، حفظ اللَّه الشيخ ، وسَدَّد على درب الخير خطاه . آمين .

* ثناء أهل العلم عليه :

أثنى عليه جملة من أهل العلم ، منهم : فضيلة الشيخ زيد بن هادي بن محمد المدخلي ، وفضيلة الشيخ محمد بن هادي المدخلي ، وفضيلة الشيخ ناصر الدين الألباني ، وفضيلة الشيخ مقبل بن هادي الوادعي .

□ وللشيخ صالح - حفظه اللَّه - من الكتب :

« التكميل لما فات تخريجه من إرواء الغليل » ، « موسوعة الكتب الستة » ، « التمهيد في شرح كتاب التوحيد » ، وغير ذلك .

* شروحاته :

نذكر منها : شرحه لـ : « كتاب الفرقان » ، « العقيدة الطحاوية » ، « نظم الورقات » ، « الأصول الثلاثة » ، « الأربعين النووية » ، « كتاب التوحيد » ، « كتاب الطهارة من بلوغ المرام » ، « كشف الشبهات » ، « كتاب فضل الإسلام » ، « مسائل الجاهلية » ، « لمعة الاعتقاد » ، « الفتوى الحموية الكبرى » ، وغيرها كثير .

مقدمـات العلمـاء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ

الحمد للَّه الموصوف بصفات العظمة، والكبرياء، والكمال، المنزه عن الشريك والنقص، والشبه، والمثال.

وأشهد أنه المتفرد بالوحدانية المستحق لإفراده بالعبودية في كل الأحوال.

وصلى اللَّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم في العقائد والأخلاق والأقوال والأفعال.

أما بعدُ:

فهذا تعليق لطيف على عقيدة شيخ الإسلام ابن تيمية المسماة بـ «الواسطية» التي جمعت- على اختصارها ووضوحها- جميع ما يجب اعتقاده من أصول الإيمان، وعقائده الصحيحة؛ وهي- وإن كانت واضحة المعاني محكمة المباني- تحتاج إلى تعليق يزيد في توضيح بعض ما فيها من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وتبين وجه دلالتها على المقصود.

وبيان وجه ارتباط بعض المسائل ببعض، وجمع ما يحتاج إلى جمعه في موضع واحد، والإشارة إلى بعض آثارها وفوائدها في القلوب والأخلاق، والتنبيه لكل ما يحتاج إلى التنبيه عليه.

وأرجو اللَّه أن يكون هذا التعليق على هذا الوصف، وأن يكون خالصًا لوجهه الكريم مقربًا إليه نافعًا، سهلًا في ألفاظه ومعانيه. آمين.

❁ ❁ ❁

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة العلامة محمد بن عبد العزيز بن محمد بن مانع رحمه الله

الحمد لله الذي خلق الخلق لعبادته، ووفق من أراد سعادته لطاعته، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحابته.

أما بعدُ:

فإن «العقيدة الواسطية» تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية، التي ألفها إجابة لطلب القاضي رضي الدين الواسطي، من أحسن ما ألفه الأئمة في بيان معتقد أهل السنة، فليس في يد الطلبة اليوم أحسن منها ولا مثلها.

فإنه رحمه الله بين فيها: القول الحق في مسألة القرآن، وأنه كلام الله منزل غير مخلوق، وأن ألفاظه وحروفه ومعانيه عين كلام الله، وأن الله يتكلم بمشيئته وإرادته.

كما أنه رحمه الله بين القول الصحيح في وجوب إثبات الصفات الإلهية؛ كاستواء الله على عرشه، وعلوه على خلقه، ونزوله إلى السماء الدنيا كل ليلة، ومجيئه يوم القيامة، ونظر المؤمنين إليه سبحانه في عرصات القيامة وبعد دخولهم الجنة.

ووضح: معنى قرب الله من عباده، ومعنى كونه معهم أين ما كانوا.

وبين: أن ذلك كله حق ثابت على ما يليق بعظمة الله تعالى.

وذكر: قول أهل الحق في الإيمان بالقدر، ورد قول المعتزلة والجبرية.

وبين: أصول أهل السنة التي بنوا عليها عقائدهم وأعمالهم.

إلى غير ذلك من قواعد العقائد، المؤيدة بنصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، فهي جديرة بالاعتناء بها تحفظًا ودرسًا ومطالعة.

فلهذا علقت عليها حواش، تفصل مجملها، وتوضح مشكلها، وتسهل فهمها لقرائها.

وقد امتازت هذه الطبعة الأخيرة بزيادات لم توجد في الطبعات التي قبلها سيما ما ذكرناه من نظم عبد العزيز بن عدوان النجدي أحد علماء الوشم رحمه الله؛ فإنه نظم هذه العقيدة من الطويل، جزاه الله خيرًا وأثابه الجنة بمنه تعالى وكرمه.

وسمت همة الفاضل النجيب الشيخ عمر عبد الجبار لطبعها فجزاه الله خيرًا ووفقه لنشر أمثالها من مؤلفات أهل السنة والجماعة؛ الذين هم الفرقة الناجية الذين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة؛ كما أخبر به النبي الصادق المصدوق ﷺ تسليمًا كثيرًا.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشيخ محمد خليل هراس رحمه الله

رب يسّر وأعِنْ

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد، عبد الله ورسوله وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فلما كانت «العقيدة الواسطية» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من أجمع ما كتب فى عقيدة أهل السنة والجماعة مع اختصار فى اللفظة ودقة فى العبارة، وكانت تحتاج فى كثير من مواضعها إلى شرح يجلى غوامضها ويزيح السّتار عن مكنون جواهرها، ويكون مع ذلك شرحًا بعيدًا عن الإسهاب والتطويل والإملال بكثرة النقول حتى يلائم مدارك الناشئين ويعطيهم زبدة الموضوع فى سهولة ويسر.

فقد استخرت الله تبارك وتعالى، وأقدمت على هذا العمل؛ رغم كثرة الشواغل وزحمة الصوارف، سائلًا الله عزَّ وجلَّ أن ينفع به كل من قرأه وأن يجعله خالصًا لوجهه إنه قريب مجيب.

محمد خليل هراس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشيخ زيد بن عبد العزيز آل فياض رحمه الله

الحمد لله الذي هو كما وصف به نفسه وفوق ما يصفه به خلقه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ربوبيته ولا في إلهيته ولا في أسمائه وصفاته تعالى عن مماثلة المخلوقات ، وتقدس عن النقائص والعيوب .

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله بعثه الله على حين فترة من الرسل ، ففتح به أعينًا عميًا ، وآذانًا صمًا ، وقلوبًا غلفًا ، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده ، حتى أتم الله به الدين وأكمل به النعمة ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ وحتى وقف في حجة الوداع يخاطب الحاضرين قائلًا : « هل بلغت ؟ » فيقولون : نعم ، فيرفع أصبعه الكريمة إلى السماء ويقول : « اللهم اشهد » . صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين حملوا مشعل الهداية ، وأناروا الطريق للسالكين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعدُ :

فإن رسالة « العقيدة الواسطية » لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، كانت على صغر حجمها وإيجازها ، عظيمة النفع جليلة الفائدة ، فقد ذكر فيها مذهب السلف الصالح في العقيدة ، سليمة من شوائب البدع وآراء أهل الكلام المضلة .

وقد لقيت هذه الرسالة قبولًا حسنًا ، وذيوعًا من حين ألفها مؤلفها ، تغمده الله برحمته ، إلى يومنا هذا ، وكانت بحاجة إلى شرح يوضح مقاصدها ، ويبسط موجزها ، من غير إسهاب ممل ، أو اختصار مخل ، وحيث لم أر من قام بذلك ، استعنت بالله ، وسعيت لتأليف شرح جمعت فيه طائفة من النقول عن علماء السنة الأعلام ، وأفاضل العلماء ، ولا سيما شيخ الإسلام (المؤلف) وتلميذه العلامة ابن القيم وشارح الطحاوية رحمهم الله ، وها أنذا أقدمه لك ، سائلًا المولى جل وعلا أن ينفع به ، وأن يوفقنا جميعًا ، ويهدينا سواء السبيل .

المؤلف

❁ ❁ ❁

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة العلامة عبد العزيز الناصر الرشيد رَحِمَهُ اللَّهُ

الحمد للَّه العلي الكبير، المتعالي عن التشبيه والنظير، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، أحمده سبحانه على فضله الغزير، وأشكره وشاكره بالمزيد جدير، وأصلي وأسلم على عبده ورسوله محمد البشير النذير، أعرف الخلق بربه وأنصحهم لأمته وأقدرهم على الإيضاح والتفسير، وعلى آله وأصحابه الذين اقتفوا آثاره واستضاؤوا بأنوراه وسلكوا السبيل المستنير، وعضوا على سنته بالنواجذ وحكموها في القليل والكثير، وعلى أتباعهم الذين ورثوا علمهم واقتفوا أثرهم بدون غلو ولا تقصير.

أما بعدُ:

فقد طلب مني بعض أبنائنا طلبة المعهد العلمي التعليق على «العقيدة الواسطية» لشيخ الإسلام ابن تيمية، فاعتذرت بقصر الباع، وقلة الاطلاع، فلم يفد فيهم معذرة ولا إقناع.

فإسعافًا لطلبتهم، ونزولًا على رغبتهم، أقدمت على التعليق، ملتقطًا ما نقلته من كتب أهل الإتقان والتحقيق، وكان غالب استمدادي من كتب الشيخين: شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن قيم الجوزية رحمهما اللَّه تعالى، وسميت هذا التعليق «التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية»، واللَّه أسأل أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، موجبًا للفوز لديه في جنات النعيم.

المؤلف

❁ ❁ ❁

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله

إن الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل ، فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا .

أما بعد ..

فقد مَنَّ الله تعالى علينا بشرح « العقيدة الواسطية » التى ألَّفها شيخ الإسلام ابن تيمية فى عقيدة أهل السنة والجماعة تقريرًا على الطلبة الذين درسوها علينا فى المسجد ، ومن أجل حرصهم على حفظ التقرير ، قاموا بتسجيله ثم تفريغه كتابة من أَشْرِطَةِ التسجيل .

ومن المعلوم أن الشرح المتلقى من التقرير ليس كالشرح المكتوب بالتحرير ؛ لأن الأول يعتريه من النقص والزيادة ما لا يعترى الثانى .

وقد تقدمت عدة مكاتب نشر بطلب طباعته .

ولكن ؛ لما كان الشرح المتلقى من التقرير ليس كالشرح المكتوب بالتحرير ، لذا رأيت من المهم أن أقرأ الشرح بتمهل من أجل إخراج الشرح على الوجه المرضى ، ففعلت ذلك ولله الحمد وحذفت ما لا يحتاج إليه ، وزدت ما يحتاج إليه .

وأسأل الله تعالى أن ينفع به كما نفع بأصله ، وأن يجعلنا من دعاة الحق وأنصاره ؛ إنه قريب مجيب .

محمد بن صالح بن عثيمين

١٤١٥/٣/٢٧هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشيخ صالح بن فوزان الفوزان حفظه الله

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمدٍ ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعدُ :

فهذا شرح مختصر على « العقيدة الواسطية » لشيخ الإسلام ابن تيمية ، جمعته من المصادر التالية :

١ - الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية ، للشيخ زيد بن عبد العزيز بن فياضٍ .

٢ - التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية ، للشيخ عبد العزيز بن ناصرٍ الرشيد .

٣ - التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة ، للشيخ عبد الرحمن بن ناصرٍ السعدى .

٤ - نقلت من فوائد علقتها على نسختى وقت الطلب .

٥ - وفيما يتعلق بتفسير الآيات نقلت من كتب التفسير ، كـ « فتح القدير » للإمام محمد بن عليّ الشوكانى ، و« تفسير القرآن العظيم » ، للشيخ إسماعيل بن كثيرٍ .

وكانت جامعة الإمام محمد بن سعودٍ الإسلامية قد طبعته عدة مراتٍ ، ووزعته على طلبة المرحلة الثانوية ، فشكر الله للقائمين عليها ، وزادهم من الخير والتوفيق لما فيه صلاح المسلمين .

كما أنى أسأل الله أن ينفع به ، ويجعله مؤديًا للمطلوب من توضيح هذه العقيدة العظيمة ، وأن يغفر لى ما وقع منى من أخطاء ، ويثيبنى على ما فيه من صوابٍ ، إنه سميع مجيب ، وصلى الله على نبينا محمدٍ وآله وصحبه وسلّم ، والحمد لله رب العالمين .

صالح بن فوزان الفوزان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه اللَّه

إن الحمدَ للَّهِ نَحْمَدُه ، ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه ، ونَعوذُ باللَّهِ من شرورِ أنفسِنا ، ومِن سيئاتِ أعمالِنا ، مَن يَهْدِه اللَّهُ فلا مُضِلَّ له ، ومَن يُضْلِلْ فلا هاديَ له ، وأشْهَدُ أن لا إلهَ إلا اللَّهُ وحدَه لا شَرِيكَ له ، وأشْهَدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه ، وصفيه وخليله ، صلى اللَّه عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين .

أما بعدُ : فأسأل اللَّه ﷻ لي ولكم العلم النافع والعمل الصالح ، وأن ينور بصائرنا بالعلم والهدى ، وأسأله أن يقيم أعمالنا بدين الحق الذي أرسل به رسوله ﷺ .

فهذا شرح « العقيدة الواسطية » التي كتبها شيخ الإسلام والمسلمين علم الدين وتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني ثم الدمشقي الإمام المعروف المتوفى سنة ٧٢٨ رحمه اللَّه تعالى وأجزل له المثوبة .

كتب هذه العقيدة إلى أهل « واسط » يبين لهم فيها اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة أهل السنة والجماعة من سلف هذه الأمة ومن تبعهم على هذا الاعتقاد إلى وقته رحمه اللَّه تعالى .

وهذه الرسالة على وجازتها واختصارها قد اعتنى بها العلماء بعد شيخ الإسلام ؒ لأنها قد شملت من أصول عقائد أهل السنة والجماعة على الخلاصة الوافية ، فقد ذكر فيها رحمه اللَّه ؛ أصول الاعتقاد ، ذكر فيها شرح أركان الإيمان الستة ، وذكر فيها ما يجب للَّه تعالى من صفات الكمال ، وما يوصف اللَّه ﷻ به ، والأصل في ذلك مخالفة المبتدعين والضالين في باب الأسماء والصفات ، وذكر ما يتصل بذلك من الإيمان بالأمور الغيبية ، والإيمان بالكتب والرسل وبالقدر خيره وشره .

وبيَّن فيها أن من أصول أهل السنة والجماعة الأحكام المتعلقة بالإمامة العظمى ، وكذلك ما يجب لولاة الأمر من حق السمع والطاعة مخالفة للخوارج وأشباههم ممن خالفوا أهل السنة والجماعة في ذلك .

وذكر اعتقاد السلف الصالح في صحابة رسول اللَّه ﷺ ، وأن ذلك من الواجبات الشرعية الاعتقادية ؛ لأن فيه مخالفةً لأهل البدع من الروافض ومن شابههم ، الذين لا يتولون جميع أصحاب رسول اللَّه ﷺ .

وذكر أحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وذكر أصول الأخلاق عند أهل السنة والجماعة .

وبهذا الذي ذكره في هذه الرسالة العظيمة المختصرة يتبين أن اعتقاد أهل السنة والجماعة يشمل ثلاثة أصول :

الأول : العقيدة العامة في اللّٰه جل جلاله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره .

الثاني : مسائل الإمامة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والكلام فيما يتصل بذلك من الكلام في الصحابة رضوان اللّٰه عليهم .

الثالث : الكلام في أخلاق أهل السنة والجماعة .

وهذه هي الأمور الثلاثة التي فصَّلَ فيها شيخ الإسلام ﷺ في هذه الرسالة العظيمة ، وهذه الرسالة وجيزة الألفاظ ، لكنها مدرسة للعلم بمنهج واعتقاد أهل السنة والجماعة .

وذلك الاعتقاد وتفصيله في كتب شيخ الإسلام ﷺ ، فكتب شيخ الإسلام تُعد شرحًا لهذه العقيدة الواسطية ، فأحسن شرح لهذه العقيدة ما نثره شيخ الإسلام ﷺ في كتبه وفصَّله وبيَّنه من أصول هذا الاعتقاد .

كذلك تلميذه العلامة ابن القيم ﷺ ، إذ لا أحسن في فهم كلام شيخ الإسلام من شرحه هو نفسه في مصنفاته الأخرى ، وكذلك في فهم تلميذه ابن القيم ﷺ .

هذه العقيدة المباركة لها شروحٌ كثيرة ، ومن أعظمها نفعًا وأدقها لفظًا الشرح المسمى بـ « التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية » للشيخ العلامة عبد العزيز بن رشيد ﷺ ، فإن هذا الشرح من أنفس شروح هذه العقيدة الواسطية ، فقد بين من مسائل هذه العقيدة ومن ألفاظها ما يكفي طالب العلم في هذا الباب ، أعني باب الاعتقاد ، لأنه ذكر فيها من العلم الواسع الغزير ما لو اكتفى به طالب علم في بيان عقيدة أهل السنة والجماعة لكفاه .

ولهذا أحض من أراد شرحًا لهذه العقيدة على هذا الكتاب ، ألا وهو « التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية » للشيخ ابن رشيد ، ﷺ .

من المقدمات المهمة قبل الشروع في شرح هذه العقيدة أن نبين أن هذه العقيدة المباركة ، وكذلك سائر كتب شيخ الإسلام ابن تيمية ، بيَّن فيها عقيدة السلف ، وفصَّل فيها ما ذكره السلف في كتبهم من الاعتقاد ، وكتب شيخ الإسلام تتميز على كتب السلف ، يعني من كتب أصحاب الإمام أحمد ، ومن تبعهم ومن تلاهم زمنًا ، تتميز هذه العقيدة وسائر كتب شيخ الإسلام ابن تيمية عن تلكم الكتب الكثيرة في الاعتقاد بمزايا منها :

أولًا : أن شيخ الإسلام ﷺ قد فهم ما قاله الأئمة من قبل ، فصاغه بصياغةٍ تجمع أقوالهم بأدلتها

وبيان معانيها ، فهو خيرُ مَنْ فهم كلام الأئمة من قبل .

ثانيًا : أنه ﷺ قد بلغ في فهم نصوص الكتاب والسنة المبلغ والدرجة التي شهد له بها أهل عصره ومن تلاهم ، ومن المعلوم أن أدلة الاعتقاد هي نصوص الكتاب والسنة ، ثم هو مع هذا اطلع على كلام الصحابة وكلام التابعين ومن تبعهم في تفسير معاني نصوص الكتاب والسنة ؛ ولهذا فإن كلام شيخ الإسلام في بيان معاني الكتاب والسنة يُعد أحسن كلامٍ للعلماء المتأخرين ، يعني بعد الأئمة المشهورين .

ثالثًا : أن شيخ الإسلام استحضر حين كتابتها أقوال أهل البدع والمخالفين وحججهم ، وهو يذكر ما يذكر من الاحتجاجات مستحضرًا تلك الأقوال وتلك الاعتراضات من أهل البدع ، أو تلكم الأقوال المنحرفة من أهل البدع على اختلاف أنواعهم . ومعلومٌ أن حال الكاتب أو المؤلف الذي يؤلف وهو على هذه الدرجة العظيمة من الاستحضار ، أنه يقول منبئًا عما يكون فصلًا في هذه المسائل .

رابعًا : أن شيخ الإسلام أوضح في هذه العقيدة كثيرًا من المجملات التي ربما كانت في كلام السلف ، فقد تجد في كلام المتقدمين من أهل القرون المفضلة كلامًا في الاعتقاد ، وربما أُجْمِلَ في مواضع وَفُصِّلَ في مواضع ، وشيخ الإسلام يستحضر هذا وذاك ، ويذكر الكلام المجمل والمفصَّل كُلٌّ في مكانه ، ويوضح ذلك ، بحيث إن من فهم كلام شيخ الإسلام وفهم كتبه ﷺ ، ثم بعد فهمه لذلك وبراعته فيه رجع إلى كتب السلف فإنه يفهمها فهمًا مصيبًا على ما ينبغي .

وأما من ترك التفقه في كتب شيخ الإسلام ﷺ فربما زلَّ في فهمه لبعض كلام السلف وكلام الأئمة ؛ لأن بعضهم ربما وقع في كلامه إجمال ، أو وقع في كلامه رعاية لحال السائل ، أو نحو ذلك من الأسباب التي لا يمكن المجيب معها أن يفصِّل التفصيل المطلوب .

لهذا نقول : إن العناية بهذه العقيدة مما حث عليه العلماء قديمًا وحديثًا ، فلا غرو أن يُوصَى طلبة العلم بهذه العقيدة ، وبفهم ألفاظها ومعاني تلك الألفاظ ، ومعاني ما فيها من الأدلة والاستدلال والحجج ؛ لأن فيها خيرًا عظيمًا .

❁ ❁ ❁

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة العلامة عبد العزيز المحمد السلمان رحمه الله

الحمد الله الذي تفرد بالجلال والعظمة والكبرياء والجمال ، وأشكره شكر عبد معترف بالتقصير عن شكر بعض ما أوليه من الإنعام والإفضال ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعدُ : فبما إن « الأسئلة والأجوبة الأصولية » مبسطة جامعة لأصول كثيرة ، وقد طلب مني بعض الإخوان اختصارها ، ونظرًا إلى ضعف الهمم ، وتزاحم الدروس على الطلاب- وقد كان عندنا الأساس الأول مختصرًا- فعزمت على التسبب في طبعه راجيًا من الله الحي القيوم العلي العظيم ، بديع السماوات والأرض أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم ، وأن ينفع به من قرأه ، ومن سمعه ، وأن يأجر من تسبب في نشره وبثه إنه جواد كريم ، رءوف رحيم ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

عبد العزيز المحمد السلمان
المدرس في معهد إمام الدعوة
بالرياض

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة في العقيدة للعلامة ابن عثيمين رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

أما بعدُ :

فإن هذا الكتاب الذي يسمى « العقيدة الواسطية » ألفه حبر الأمة في زمانه : أبو العباس شيخ الإسلام ، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني رحمه الله ، المتوفى سنة ٧٢٨هـ .

ولهذا الرجل من المقامات - التي يشكر عليها ، والتي نرجو من الله له المثوبة عليها - في الدفاع عن الحق ومهاجمة أهل الباطل ما يعلمه كل من تتبع كتبه وسبرها ، والحقيقة أنه مِن نعم الله على هذه الأمة ؛ لأن الله سبحانه وتعالى كفَّ به أمورًا عظيمة خطيرة على العقيدة الإسلامية .

وهذا الكتاب مختصر ، يسمى « العقيدة الواسطية » ، ألفه شيخ الإسلام ؛ لأنه حضر إليه رجل من قضاة واسط ، شكا إليه ما كان الناس يعانون من المذاهب المنحرفة فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته ، فكتب هذه العقيدة التي تعدُّ زبدة لعقيدة أهل السنة والجماعة فيما يتعلق بالأمور التي خاض الناس فيها بالبدع ، وكثر فيها الكلام والقيل والقال .

وقبل أن نبدأ الكلام على هذه الرسالة نحب أن نبين أن جميع رسالات الرسل ، من أولهم نوح ، عليه الصلاة والسلام ، إلى آخرهم محمد ﷺ ، كلها تدعو إلى التوحيد .

قال الله تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] .

وذلك أن الخلق خلقوا لواحد وهو الله ﷻ ، خلقوا لعبادته ؛ لتتعلق قلوبهم به ، تألهًا وتعظيمًا ، وخوفًا ورجاء وتوكلاً ، ورغبة ورهبة ؛ حتى ينسلخوا عن كل شيء من الدنيا لا يكون معينًا لهم على توحيد الله ﷻ في هذه الأمور ، لأنك أنت مخلوق ، لا بد أن تكون لخالقك ؛ قلبًا وقالبًا في كل شيء .

ولهذا كانت دعوة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - إلى هذا الأمر المهم العظيم ؛ عبادة الله وحده لا شريك له .

ولم يكن الرسل الذين أرسلهم الله ﷻ إلى البشر يدعون إلى توحيد الربوبية كدعوتهم إلى توحيد الألوهية ، ذلك أن منكري توحيد الربوبية قليلون جدًّا ، وحتى الذين ينكرونه هم في قرارة نفوسهم لا يستطيعون أن ينكروه ، اللهم إلا أن يكونوا قد سلبوا العقول المدركة أدنى إدراك ،

فإنهم قد ينكرون هذا من باب المكابرة .

وقد قسّم العلماء رحمهم اللّه التوحيد إلى ثلاثة أقسام :

أحدها : توحيد الربوبية :

وهو « إفراد اللّه سبحانه وتعالى في أمور ثلاثة ؛ في الخلق ، والمُلك ، والتدبير » .

دليل ذلك قوله تعالى : ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف : ٥٤] . ووجه الدلالة من الآية : أنه قدَّم فيها الخبر الذي من حقه التأخير ، والقاعدة البلاغية : أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر ، ثم تأمل افتتاح هذه الآية بـ « ألا » الدالة على التنبيه والتوكيد : ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ لا لغيره ، فالخلق هذا هو ، والأمر هو التدبير .

أما الملك ، فدليله مثل قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران : ١٨٩] ، فإن هذا يدل على انفراده سبحانه وتعالى بالمُلك ، ووجه الدلالة من هذه الآية - كما سبق - تقديم ما حقه التأخير ، إذن فالرب ﷻ منفرد بالخلق والملك والتدبير .

فإن قلت : كيف تجمع بين ما قررت وبين إثبات الخلق لغير اللّه ، مثل قوله تعالى : ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون : ١٤] ، ومثل قوله ﷺ في المصورين : « يُقال لهم: أحيوا ما خلقتم »[(١)] ، ومثل قوله في الحديث القدسي : « ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي »[(٢)] ، فكيف تجمع بين قولك : إن اللّه منفرد بالخلق ، وبين هذه النصوص ؟

فالجواب أن يُقال : إن الخلق هو الإيجاد ، وهذا خاص باللّه تعالى ، أما تحويل الشيء من صورة إلى أخرى ، فإنه ليس بخلق حقيقة ، وإن سمي خلقًا باعتبار التكوين ، لكنه في الواقع ليس بخلق تام ، فمثلًا : هذا النجار صنع من الخشب بابًا ، فيُقال : خلق بابًا ، لكن مادة هذه الصناعة الذي خلقها هو اللّه ﷻ لا يستطيع الناس كلهم مهما بلغوا في القدرة أن يخلقوا عود أراك أبدًا ، ولا أن يخلقوا ذرة ، ولا أن يخلقوا ذبابًا .

واستمع إلى قول اللّه ﷻ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج : ٧٣] .

« ٱلَّذِينَ » : اسم موصول يشمل كل ما يدعى من دون اللّه من شجر وبشر وملك وغيره ، كل الذين يدعون من دون اللّه ، ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج : ٧٣] ، ولو انفرد كل واحد

---

(١) البخاري (٢١٠٥) ، ومسلم (٢١٠٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) البخاري (٥٩٥٣) ، ومسلم (٢١١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

بذلك ، لكان عجزه من باب أولى ، ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج : ٧٣] ، حتى الذين يدعون من دون الله لو سلبهم الذباب شيئًا ، ما استطاعوا أن يستنقذوه من هذا الذباب الضعيف ، ولو وقع الذباب على أقوى مَلِكٍ في الأرض ، ومصَّ من طيبه ، لا يستطيع هذا الملك أن يستخرج الطيب من هذا الذباب ، وكذلك لو وقع على طعامه ، فإذن الله ﷻ هو الخالق وحده .

فإن قلت : كيف تجمع بين قولك : إن الله منفرد بالملك ، وبين إثبات الملك للمخلوقين ، مثل قوله تعالى : ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥ﴾ [النور : ٦١] ، ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون : ٦] ؟

فالجواب : أن الجمع بينهما من وجهين :

الأول : أن مُلك الإنسان ليس عامًا شاملًا ؛ لأنني أملك ما تحت يدي ، ولا أملك ما تحت يدك ، والملك ملك الله ﷻ ، فمن حيث الشمول : ملك الله ﷻ أشمل وأوسع ، وهو ملك تام .

الثاني : أن ملكي لهذا الشيء ليس ملكًا حقيقيًا أتصرف فيه كما أشاء ، وإنما أتصرف فيه كما أمرع الشرع ، وكما أن المالك الحقيقي هو الله ﷻ ، ولو بعت درهمًا بدرهمين ، لم أملك ذلك ، ولا يحل لي ذلك ، فإذن ملكي قاصر ، وأيضًا لا أملك فيه شيئًا من الناحية القدرية ؛ لأن التصرف لله ، فلا أستطيع أن أقول لعبدي المريض : ابرأ فيبرأ ، ولا أستطيع أن أقول لعبدي الصحيح الشحيح : امرض فيمرض ، لكن التصرف الحقيقي لله ﷻ ، فلو قال له : ابرأ ، برأ ، ولو قال : امرض ، مرض ، فإذن لا أملك التصرف المطلق شرعًا ولا قدرًا ، فملكي هنا قاصر من حيث التصرف ، وقاصر من حيث الشمول والعموم ، وبذلك يتبين لنا كيف كان انفراد الله ﷻ بالملك .

وأما التدبير ، فللإنسان تدبير ، ولكن نقول : هذا التدبير قاصر ، كالوجهين السابقين في الملك ، ليس له شيء يملك تدبيره إلا على وفق الشرع الذي أباح له هذا التدبير .

وحينئذٍ يتبين أن قولنا : «إن الله ﷻ منفرد بالخلق والملك والتدبير» : كلية عامة مطلقة ، لا يستثنى منها شيء ؛ لأن كل ما أوردناه لا يعارض ما ثبت لله ﷻ من ذلك .

القسم الثاني : توحيد الألوهية :

وهو إفراد الله ﷻ بالعبادة ، بألا تكون عبدًا لغير الله ، لا تعبد ملكًا ، ولا نبيًا ، ولا وليًا ، ولا شيخًا ، ولا أمًّا ، ولا أبًا ، ولا تعبد إلا الله وحده ، فتفرد الله ﷻ وحده بالتأله والتعبد ، ولهذا يسمى : توحيد الألوهية ، ويسمى : توحيد العبادة ، فباعتبار إضافته إلى الله هو توحيد ألوهية ، وباعتبار إضافته إلى العابد هو توحيد عبادة .

والعبادة مبنية على أمرين عظيمين ؛ هما المحبة ، والتعظيم ، الناتج عنهما : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟

يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فبالمحبة تكون الرغبة، وبالتعظيم تكون الرهبة والخوف.

ولهذا كانت العبادة أوامر ونواهي: أوامر مبنية على الرغبة، وطلب الوصول إلى الأمر، ونواهي مبنية على التعظيم والرهبة من هذا العظيم.

فإذا أحببت الله ﷻ رغبت فيما عنده، ورغبت في الوصول إليه، وطلبت الطريق الموصل إليه، وقمت بطاعته على الوجه الأكمل، وإذا عظمته خفت منه، كلما هممت بمعصية؛ استشعرت عظمة الخالق ﷻ، فنفرت، ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فهذه من نعمة الله عليك، إذا هممت بمعصية، وجدت الله أمامك، فهبت وخفت وتباعدت عن المعصية؛ لأنك تعبد الله رغبة ورهبة.

فما معنى العبادة؟

العبادة: تطلق على أمرين؛ على الفعل، والمفعول.

تطلق على الفعل الذي هو التعبد، فيقال: عبد الرجل ربه عبادة وتعبدًا، وإطلاقها على التعبد من باب إطلاق اسم المصدر، ونعرفها باعتبار إطلاقها على الفعل بأنها: «التذلل لله ﷻ حبًا وتعظيمًا، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه»؛ وكل من ذل لله عز بالله، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون: ٨].

وتطلق على المفعول، أي: المتعبد به؛ وهي بهذا المعنى تعرّف بما عرفها به شيخ الإسلام ابن تيمية، حيث قال رحمه الله: «العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة». هذا الشيء الذي تعبّدنا الله به يجب توحيد الله به، لا يصرف لغيره، كالصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، والدعاء، والنذر، والخشية، والتوكل.. إلى غير ذلك من العبادات.

فإن قلت: ما الدليل على أن الله منفرد بالألوهية؟

فالجواب:

هناك أدلة كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وأيضًا قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، لو لم يكن من فضل العلم إلا هذه المنقبة؛ حيث إن الله ما أخبر أن أحدًا شهد بألوهيته إلا أولو العلم، نسأل الله أن يجعلنا منهم: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾

[آل عمران : ١٨] ، بالعدل ، ثم قرر هذه الشهادة بقوله : ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران : ٦] ، فهذا دليل واضح على أنه لا إله إلا الله ﷻ ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنتم تشهدون أن لا إله إلا الله ، هذه الشهادة الحق .

إذا قال قائل : كيف تقرؤونها مع أن الله تعالى يثبت ألوهية غيره ، مثل قوله تعالى : ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص: ٨٨] ، ومثل قوله : ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [المؤمنون : ١٧] ، ومثل قوله : ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود : ١٠١] ، ومثل قول إبراهيم : ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات : ٨٦] ، إلى غير ذلك من الآيات ، كيف تجمع بين هذا وبين الشهادة بأن لا إله إلا الله ؟

فالجواب :أن ألوهية ما سوى الله ألوهية باطلة ، مجرد تسمية ، ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم : ٢٣] ، فألوهيتها باطلة ، وهي وإن عُبدت وتألّه إليها من ضل ، فإنها ليست أهلًا لأنْ تعبد ، فهي آلهة معبودة ، لكنها آلهة باطلة ، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢] .

وهذان النوعان من أنواع التوحيد لا يجحدهما ولا ينكرهما أحد من أهل القبلة المنتسبين إلى الإسلام ؛ لأن الله تعالى موحّد بالربوبية والألوهية ، لكن حصل فيما بعد أن من الناس من ادعى ألوهية أحد من البشر ، كغلاة الرافضة مثلاً ، الذين يقولون : إن عليًا إله ، كما صنع زعيمهم عبد الله بن سبأ ؛ حيث جاء إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقال له : أنت الله حقًا ، لكن عبد الله بن سبأ أصله يهودي ، دخل في دين الإسلام بدعوى التشيع لآل البيت ؛ ليفسد على أهل الإسلام دينهم ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، وقال : « إن هذا صنع كما صنع بولس حين دخل في دين النصارى ليفسد دين النصارى » .

هذا الرجل عبد الله بن سبأ قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : أنت الله حقًا . وعلي بن أبي طالب لا يرضى أن أحدًا ينزله فوق منزله ؛ حتى إنه رضي الله عنه من إنصافه وعدله وعلمه وخبرته كان يقول على منبر الكوفة : « خير هذه الأمة بعد نبيها : أبو بكر ، ثم عمر »[(١)].

يعلن ذلك في الخطبة ، وقد تواتر النقل عنه بذلك رضي الله عنه ، والذي يقول هكذا ويقر بالفضل لأهله من البشر ، كيف يرضى أن يقول له قائل : إنك أنت الله ؟ ولهذا عزرهم أبشع تعزير ، أمر بالأخاديد فخُدَّت ، ثم مُلئت حطبًا وأوقدت ، ثم أتى بهؤلاء فقذفهم في النار وأحرقهم بها ؛ لأن فريتهم عظيمة -

(١) البخاري (٣٦٧١) عن محمد ابن الحنفية قال : « قلت لأبي : أي الناس خير بعد رسول الله ﷺ ؟ قال : أبو بكر ، قال : قلت : ثم مَن ؟ قال : ثم عمر ... » .

والعياذ بالله - وليست هينة .

ويقال : إن عبد الله بن سبأ هرب ولم يمسكوه ؛ المهم أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أحرق السبئية بالنار ؛ لأنهم ادعوا فيه الألوهية .

فنقول : كل مَن كان مِن أهل القبلة لا ينكرون هذين النوعين من التوحيد ، وهما : توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وإن كان يوجد في بعضَ أهل البدع من يولّه أحدًا من البشر .

لكن الذي كثر فيه النزاع بين أهل القبلة هو :

القسم الثالث : وهو توحيد الأسماء والصفات :

هذا هو الذي كثر فيه الخوض ، فانقسم الناس فيه إلى ثلاثة أقسام ، وهم : ممثّل ، ومعطّل ، ومعتدل ، والمعطل : إما مكذب ، أو محرّف .

وأول بدعة حدثت في هذه الأمة هي بدعة الخوارج ؛ لأن زعيمهم خرج على النبي ﷺ وهو ذو الخويصرة من بني تميم ، حين قسم النبي ﷺ ذهبية جاءت فقسمها بين الناس ، فقال له هذا الرجل : يا محمد ، اعدل[1] ، فكان هذا أول خروج خرج به على الشريعة الإسلامية ، ثم عظمت فتنتهم في أواخر خلافة عثمان ، وفي الفتنة بين علي ومعاوية ، فكفروا المسلمين واستحلوا دماءهم .

ثم حدثت بدعة القدرية مجوس هذه الأمة الذين قالوا : إن الله سبحانه وتعالى لم يقدّر أفعال العباد ، وليست داخلة تحت مشيئته ، وليست مخلوقة له ، بل كان زعماؤهم وغلاتهم يقولون : إنها غير معلومة لله ، ولا مكتوبة في اللوح المحفوظ ، وأن الله لا يعلم ما يصنع الناس ، إلا إذا وقع ذلك ، ويقولون : إن الأمر أُنُفٌ ، أي : مستأنف ، وهؤلاء أدركوا آخر عصر الصحابة ، فقد أدركوا زمن عبد الله بن عمر رضي الله عنه وعبادة بن الصامت ، وجماعة من الصحابة ، وكان ذلك في أواخر عصر الصحابة .

ثم حدثت بدعة الإرجاء ، وأدركت زمن كثير من التابعين ، والمرجئة هم الذين يقولون : إنه لا تضر المعصية ! أنت مؤمن ، تقول : نعم ، يقول لك : لا تضرك المعصية مع الإيمان ، تزني وتسرق وتشرب الخمر ، وتقتل ما دمت مؤمنًا ، فأنت مؤمن كامل الإيمان ، وإن فعلت كل معصية !!

لكن قال شيخ الإسلام ابن تيمية : إن كلام القدرية والمرجئة حين رده بقايا الصحابة كان في الطاعة والمعصية ، والمؤمن والفاسق ، لم يتكلموا في ربهم وصفاته .

فجاء قوم من الأذكياء ممن يدعون أن العقل مقدم على الوحي ، فقالوا قولاً بين القولين - قول المرجئة ، وقول الخوارج - قالوا : الذي يفعل الكبيرة ليس بمؤمن كما قاله المرجئة ، وليس بكافر كما

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٠) ومسلم (١٠٦٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

قاله الخوارج ، بل هو في منزلة بين منزلتين ، كرجل سافر من مدينة إلى أخرى فصار في أثناء الطريق ، فلا هو في مدينته ، ولا في التي سافر إليها ، بل في منزلة بين منزلتين ، هذا في أحكام الدنيا ، أما في الآخرة فهو مخلد في النار ، فهم يوافقون الخوارج في الآخرة ، لكن في الدنيا يخالفونهم .

ظهرت هذه البدعة وانتشرت ، ثم حدثت بدعة الجهمة ، وهي بدعة جهم بن صفوان وأتباعه ، ويسمون « الجهمية » ، حدثت هذه البدعة وهي لا تتعلق بمسألة الأسماء والأحكام ، مؤمن أم كافر أم فاسق ، ولا في منزلة بين منزلتين ، بل تتعلق بذات الخالق ، انظر كيف تدرجت البدع في صدر الإسلام ، حتى وصلوا إلى الخالق جل وعلا ، وجعلوا الخالق بمنزلة المخلوق ، يقولون كما شاءوا ، فيقولون : هذا ثابت للّه ، وهذا غير ثابت ، هذا يقبل العقل أن يتصف اللّه به ، وهذا لا يقبل العقل أن يتصف به ، فحدثت بدعة الجهمية والمعتزلة ، فانقسموا في أسماء اللّه وصفاته إلى أقسام متعددة :

١- قسم قالوا : لا يجوز أبدًا أن نصف اللّه لا بوجود ولا بعدم ، لأنه إن وصف بالوجود ، أشبه الموجودات ، وإن وصف بالعدم ، أشبه المعدومات ، وعليه يجب نفي الوجود والعدم عنه ، وما ذهبوا إليه ، فهو تشبيه للخالق بالممتنعات والمستحيلات ؛ لأن تقابل بالعدم والوجود تقابل نقيضين ، والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان ، وكل عقول بني آدم تنكر هذا الشيء ولا تقبله ، فانظر كيف فروا من شيء فوقعوا في أشر منه !

٢- وقسم آخر قالوا : نصفه بالنفي ولا نصفه بالإثبات ، يعني : أنهم يجوزون أن تسلب عن اللّه سبحانه وتعالى الصفات لكن لا تثبت ، يعني : لا نقول : هو حي ، وإنما نقول : ليست بميت ! ولا نقول : عليم ، بل نقول : ليس بجاهل ... وهكذا . قالوا : لو أثبت له شيئًا شبهته بالموجودات ؛ لأنه على زعمهم كل الأشياء الموجودة متشابهة ، فأنت لا تثبت له شيئًا ، وأما النفي فهو عدم ، مع أن الموجود في الكتاب والسنة في صفات اللّه من الإثبات أكثر من النفي بكثير .

قيل لهم : إن اللّه قال عن نفسه : « سميع بصير » .

قالوا : هذا من باب الإضافات ، بمعنى : نسب إليه السمع ؛ لا لأنه متصف به ، ولكن لأن له مخلوقًا يسمع ، فهو من باب الإضافات ، فـ « سميع » ، يعني: ليس له سمع ، لكن له مسموع .

وجاءت طائفة ثانية ، قالوا : هذه الأوصاف لمخلوقاته ، وليست له ، أما هو فلا يثبت له صفة .

٣- وقسم قالوا : يثبت له الأسماء دون الصفات ، وهؤلاء هم المعتزلة ، أثبتوا أسماء اللّه ، قالوا : إن اللّه سميع بصير قدير عليم حكيم .. لكن قدير بلا قدرة ، سميع بلا سمع ، بصير بلا بصر ، عليم بلا علم ، حكيم بلا حكمة .

٤- وقسم رابع قالوا : نثبت له الأسماء حقيقة ، ونثبت له صفات معينة دل عليها العقل وننكر

الباقي ، نثبت له سبع صفات فقط والباقي ننكره تحريفًا لا تكذيبًا ، لأنهم لو أنكروه تكذيبًا كفروا ، لكن ينكرونه تحريفًا ، وهو ما يدعون أنه « تأويل » .

الصفات السبع هي مجموعة في قوله :

له الحياةُ والكلامُ والبصر سمعٌ إرادةٌ وعلمٌ واقتدرْ

فهذه الصفات نثبتها ؛ لأن العقل دل عليها وبقية الصفات ما دل عليها العقل ، فنثبت ما دل عليه العقل ، وننكر ما لم يدل عليه العقل ، وهؤلاء هم الأشاعرة ، آمنوا بالبعض ، وأنكروا البعض .

فهذه أقسام التعطيل في الأسماء والصفات ، وكلها متفرعة من بدعة الجهم ، « ومن سن في الإسلام سنة سيئة ، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة »[1] .

فالحاصل : أنكم أيها الإخوة لو طالعتم في كتب القوم التي تعتني بجمع أقاويل الناس في هذا الأمر ، لرأيتم العجب العجاب ، الذي تقولون : كيف يتفوه عاقل – فضلاً عن مؤمن – بمثل هذا الكلام ؟ ! ولكن من لم يجعل الله له نورًا ، فما له من نور ! الذي أعمى الله بصيرته كالذي أعمى الله بصره ، فكما أن أعمى البصر لو وقف أمام الشمس التي تكسر نور البصر لم يرها ، فكذلك من أعمى الله بصيرته لو وقف أمام أنوار الحق ما رآها ، والعياذ بالله .

ولهذا ينبغي لنا دائمًا أن نسأل الله تعالى الثبات على الأمر ، وألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ؛ لأن الأمر خطير ، والشيطان يدخل على ابن آدم من كل صوب ، ومن كل وجه ، ويشككه في عقيدته ، وفي دينه ، وفي كتاب الله وسنة رسوله ؛ فهذه في الحقيقة البدع التي انتشرت في الأمة الإسلامية .

ولكن – ولله الحمد – ما ابتدع أحد بدعة ، إلا قيض الله له بمنه وكرمه من يبين هذه البدعة ويدحضها بالحق ، وهذا من تمام مدلول قول الله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر : ٩] ، هذا من حفظ الله لهذا الذكر ، وهذا أيضًا هو مقتضى حكمة الله ﷻ ؛ لأن الله تعالى جعل محمدًا خاتم النبيين ، والرسالة لابد أن تبقى في الأرض ، وإلا لكان للناس حجة على الله ، وإذا كانت الرسالة لا بد أن تبقى في الأرض ، لزم أن يقيض الله ﷻ بمقتضى حكمته عند كل بدعة من يبينها ويكشف عورها ، وهذا هو الحاصل ؛ ولهذا أقول لكم دائمًا : احرصوا على العلم ، لأننا في هذا البلد في مستقبل إذا لم نتسلح بالعلم المبني على الكتاب والسنة ، فيوشك أن يحل بنا ما حل في غيرنا من البلاد الإسلامية ، وهذا البلد الآن هو الذي يركز عليه أعداء الإسلام ويسلطون عليه سهامهم ، من أجل أن يضلوا أهلها ، فلذلك تسلحوا بالعلم ، حتى تكونوا على بينة من أمر دينكم ، وحتى تكونوا مجاهدين بألسنتكم وأقلامكم لأعداء الله سبحانه وتعالى .

---

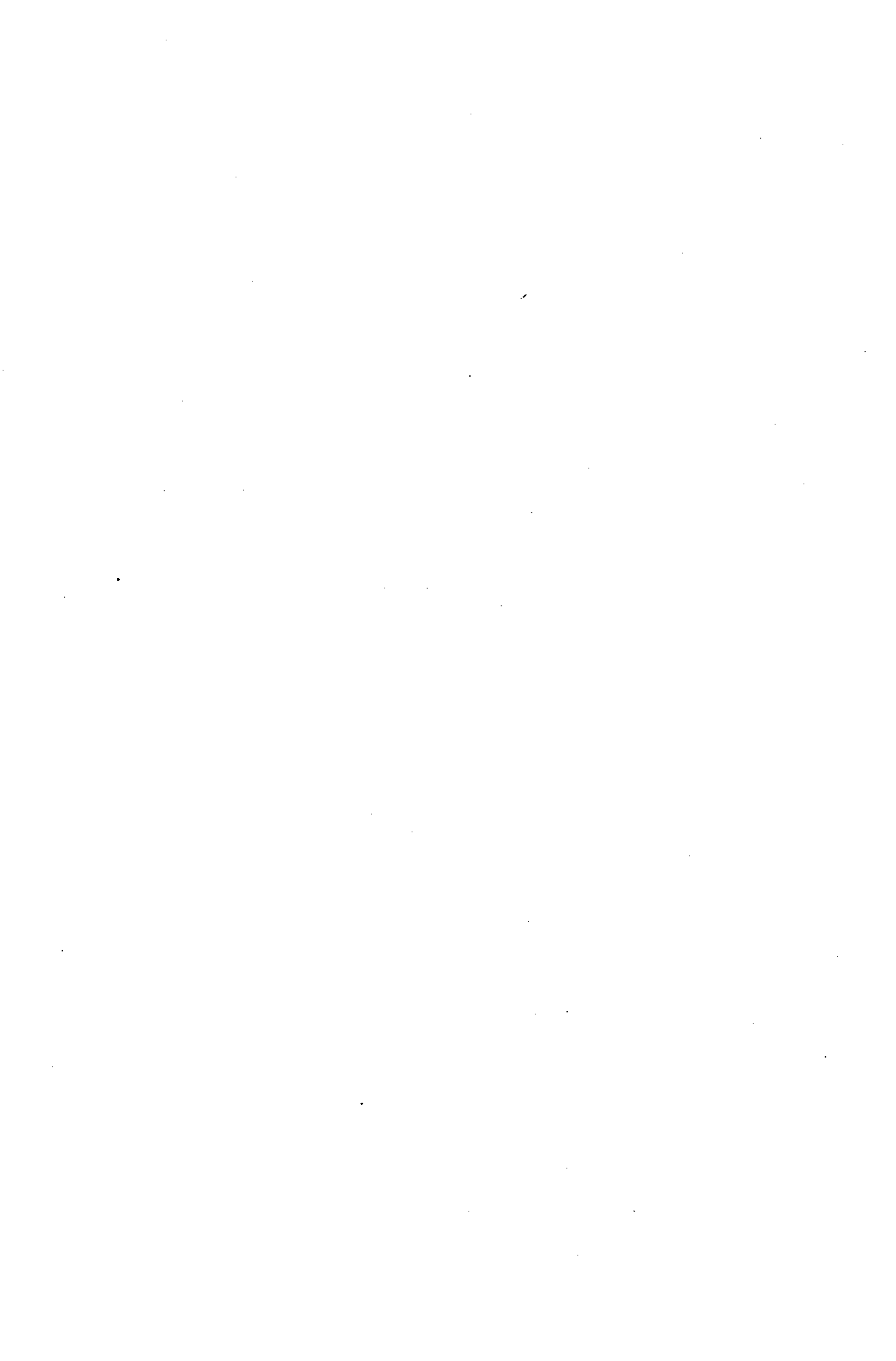
(١) مسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه .

وكل هذه البدع انتشرت بعد الصحابة ، فالصحابة ﭫ لم يكونوا يبحثون في هذه الأمور ، لأنهم يتلقون الكتاب والسنة على ظاهرهما وعلى ما تقتضيه الفطرة ، والفطرة السليمة سليمة ، لكن أتى هؤلاء المبتدعون ، فابتدعوا في دين الله تعالى ما ابتدعوا ، إما لقلة علمهم ، أو لقصور فهمهم ، أو لسوء قصدهم ، فأفسدوا الدنيا بهذه البدع التي ابتدعوها ، ولكن كما قلنا : إن الله تعالى بحكمته وحده ومنته وفضله ما من بدعة خرجت إلا قيض الله لها من يدحضها ويبينها .

ومن جملة الذين بينوا البدع وقاموا قيامًا تامًّا بدحضها شيخ الإسلام ابن تيمية וּ ، هذا الرجل الذي نفع الله بما آتاه من فضله ومنَّ على الأمة بمثله ألف هذه « العقيدة » كما قلت : إجابة لطلب أحد قضاة واسط الذي شكا إليه ما كان الناس عليه من البدع ، وطلب منه أن يؤلف هذه « العقيدة » فألفها .

وأسأل الله لي ولكم أن يجمعنا في جنات النعيم .





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

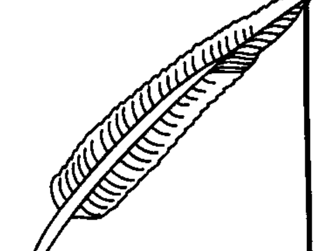
مقدّمةُ المؤلفِ

الحمدُ للَّهِ الذي أرْسَل رسولَه بالهُدَى ودينِ الحقِّ ؛ ليُظْهِرَه على الدينِ كلِّه ، وكَفَى باللَّهِ شهيدًا ، وأَشْهَدُ أن لا إلهَ إلَّا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له ، إقرارًا به وتوحيدًا ، وأشْهَدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه صلَّى اللَّهُ عليه وعلى آلِه وصَحْبِه وسلَّمَ تسليمًا مَزيدًا .

أمَّا بعـدُ :

فهذا اعتقادُ الفرقةِ الناجيةِ المنصورةِ إلى قيامِ الساعةِ ؛ أهلِ السنةِ والجماعةِ ، وهو الإيمانُ باللَّهِ وملائكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه ، والبعثِ بعدَ الموتِ ، والإيمانُ بالقدرِ ؛ خيرِه وشرِّه .





الشـــرح

❁ قال الشيخ فيصل بن عبد العزيز آل مبارك رحمه الله :

هذا الكتاب هو « العقيدة الواسطية » لشيخ الإسلام ابن تيمية ، وهو أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن أبي القاسِم ابن تيمية الحراني ، شيخ الإسلام والمسلمين وقامع أهل البدع والملحدين ، ولد سنة إحدى وستين وست مائة ، وتوفي سنة ثمان وعشرين وسبع مائة رحمه الله .

قوله : « أمَّا بعـدُ : فهذا اعتقادُ الفرقةِ الناجيةِ المنصورةِ إلى قيامِ الساعةِ ؛ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ » :

* يشير إلى قوله ﷺ : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ، قالوا : من هي يا رسول الله ؟ قال : من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي »(١) . وقوله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ، حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى »(٢) .

• قوله : « وهو الإيمانُ باللَّهِ وملائكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه ، والبعثِ بعدَ الموتِ ، والإيمانُ بالقدرِ ؛ خيرِه وشرِّه :

* يشير إلى ما وقع في حديث سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان ، وفيه قال- أي : جبريل- « فأخبرني عن الإيمان . قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت » . وقال النبي ﷺ في آخره : « هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم »(٣) .

❁ قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله :

قوله : « الحمدُ للَّهِ الذي أرْسَل رسولَه بالهُدَى ...» :

أي : جميع أوصاف الكمال ثابتة لله على أكمل الوجوه وأتمها .

ومما يحمد عليه نعمه على العباد التي لا يحصى أحد من الخلق تعدادها ، وأعظمها إرساله محمدًا ﷺ رحمة للعالمين .

« بالهدى » ؛ الذي هو العلم النافع ، « ودين الحق » ؛ الذي هو العمل الصالح .

« ليظهره » ؛ على جميع الأديان بالحجة والبرهان ، وبالعز والسلطان .

---

(١) الترمذي (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، وحسنه الألباني في « صحيح سنن الترمذي » .
(٢) صحيح ابن حبان (٦٧١٤) . وأخرجه مسلم (١٩٢٠) بنحوه .
(٣) مسلم (١/٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

« وكَفَى باللَّهِ شهيدًا » ؛ على صدق رسوله وحقيقة ما جاء به .

وشهادته تعالى بقوله وفعله ، وتأييده لرسوله بالنصر ، والمعجزات ، والبراهين المتنوعة الدالة كل واحد منها- فكيف بجميعها- على رسالته وصدقه ، وأن جميع ما جاء به هو الحق من عقائد وأخلاق وآداب وأعمال وغيرها .

قوله : « وأَشْهَدُ أن لا إلهَ إلَّا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له ، إقرارًا به وتوحيدًا » :

أي : أقر وأعترف مصدقًا ومنقادًا أنه لا يستحق الألوهية- وهي التفرد بكل كمال- إلا اللَّه ، وأنه لا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له ، ولهذا قال : « إقرارًا به » ؛ أي : بالقلب واللسان .

« وتوحيدًا » ؛ أي : إخلاصًا للَّه في كل عبادة قولية أو عملية أو اعتقادية .

وأعظم ما يوحد به ويتقرب إليه به : « تحقيق العقيدة السلفية » المحتوي عليها هذا الكتاب . وبتحقيق العقيدة تصلح الأعمال ، وتقبل وتستقيم الأمور .

قوله : « وأشْهَدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه صلَّى اللَّهُ عليه وعلى آلِه وصَحْبِه وسلَّمَ تسليمًا مَزيدًا » :

الشهادة للرسول بالرسالة . والعبودية مقرونة بالشهادة للَّه بالتوحيد ، لا يكفي إحداهما عن الأخرى ، ولا بد فيها من اعتراف العبد بكمال عبودية النبي ﷺ لربه ، وكمال رسالته المتضمنة لكماله ﷺ ، وأنه فاق جميع البشر في كل خصلة كمال .

ولا تتم الشهادة حتى يصدقه العبد في كل ما أخبر ، ويطيعه في كل ما أمر ، وينتهي عما نهى عنه .

وبهذه الأمور تتحقق الشهادة للَّه بالتوحيد ، وللرسول بالرسالة .

قوله : « الإيمانُ باللَّهِ وملائكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه ، والبعثِ بعدَ الموتِ ، والإيمانُ بالقدرِ ؛ خيرِه وشرِّه » :

يقول المصنف رحمه الله : إن ما احتوت عليه هذه الرسالة هو العقيدة المنجية من الهلاك والشرور ، والمحصلة لخير الدنيا والآخرة ، الموروثة عن محمد ﷺ ، المأخوذة عن كتاب اللَّه وسنة رسوله ، وهي التي عليها الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة ، الذين ضمن اللَّه لهم على لسان رسوله النصر إلى قيام الساعة ، والنصر إنما حصل بهم ببركة هذه العقيدة والعمل بها ، وتحقيقها بالقيام بجميع أمور الدين . وأصلها الذي تبنى عليه هو : الإيمان بهذه الأصول الستة التي صرح بها الكتاب والسنة في مواضع كثيرة ، جملة وتفصيلًا ، وتأصيلًا وتفريعًا .

وهي المذكورة في حديث جبريل المشهور حين سأل جبريل النبي ﷺ : « ما الإيمان ؟ »[1] فأجابه بها .

---

(١) البخاري (٥٠) ، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

فهذه الرسالة من أولها إلى آخرها تفصيل لهذه الأصول الستة .

❁ قال الشيخ عبد العزيز بن محمد بن مانع رحمه الله :

قوله : « بسم الله » :

* الجار والمجرور متعلقان بمحذوف ، والمختار : كونه فعلًا خاصًّا متأخرًا ، والتقدير : أؤلف حال كوني مستعينًا بذكر الله متبركًا به . ولفظ الجلالة دال على الصفة القائمة به تعالى وهي الإلهية .

قال ابن عباس : الله ذو الإلهية والعبودية على خلقه أجمعين(١) .

قوله : « الرحمن الرحيم » :

* صفتان لله ؛ فالرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه ، والرحيم دل على تعلقها بالمرحوم ، يظهر ذلك بتأمل قوله تعالى : ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب : ٤٣] .

قوله : « الحمد لله » :

* الحمد : نقيض الذم ، وهو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية ، والشكر لا يكون إلا على المتعدية ، ويكون باللسان والجنان والأركان ، كما قال الشاعر :

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

قوله : « ﷺ » :

* أصح ما قيل في صلاة الله على عبده هو ما ذكره البخاري في « صحيحه » عن أبي العالية قال : « صلاة الله على رسوله ، ثناؤه عليه عند الملائكة »(٢) .

❁ قال الشيخ محمد خليل هراس رحمه الله :

قوله : « بسم الله الرحمن الرحيم » :

اختلف العلماء في البسملة ، هل هي آية من كل سورة افتتحت بها ، أو هي آية مستقلة أنزلت للفصل بها بين السور ، وللتبرك بالابتداء بها ؟ والمختار القول الثاني .

واتفقوا على أنها جزء آية من سورة « النمل » ، وعلى تركها في أول سورة « براءة » ؛ لأنها جعلت هي و« الأنفال » كسورة واحدة .

والباء في « باسم » للاستعانة ، وهي متعلقة بمحذوف قدره بعضهم فعلًا وقدره بعضهم اسمًا ، والقولان متقاربان ، وبكلٍّ ورد القرآن ، قال تعالى : ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق : ١] ، وقال : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرَىٰهَا﴾ [هود : ٤١] .

---

(١) ابن جرير في « تفسيره » (١/٥٤) بإسناد ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) البخاري - معلقًا - (٣٢٥- فتح) .

ويحسن جعل المقدر متأخرًا ، لأن « اسم » أحق بالتقديم ، ولأن تقديم الجار والمجرور يفيد اختصاص الاسم الكريم بكونه متبركًا به ، والاسم هو اللفظ الموضوع لمعنى تعيينًا له أو تمييزًا » .

واختلف في أصل اشتقاقه ، فقيل : إنه من السمة ، بمعنى العلامة . وقيل : من السمو . وهو المختار ، وهمزته همزة وصل ، وليس الاسم نفس المسمى كما زعم بعضهم ، فإن الاسم هو اللفظ الدال ، والمسمى هو المعنى المدلول عليه بذلك الاسم .

وليس هو كذلك نفس التسمية فإنها فعل المسمى ، يقال : سميت ولدي محمدًا . مثلًا .

وقول بعضهم : إن لفظ الاسم هنا مقحم ؛ لأن الاستعانة إنما تكون بالله عزَّ وجلَّ لا باسمه ، ليس بشيء ؛ لأن المراد ذكر الاسم الكريم باللسان ، كما في قوله : ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى : ١] ، أي : سبحه ناطقًا باسم ربك متكلمًا به ، فالمراد التبرك بالابتداء بذكر اسمه تعالى .

واسم الجلالة ، قيل : إنه اسم جامد غير مشتق ؛ لأن الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها ، واسمه تعالى قديم ، والقديم لا مادة له ، فهو كسائر الأعلام المحضة التي لا تتضمن صفات تقوم بمسمياتها .

والصحيح أنه مشتق ، واختلف في مبدأ اشتقاقه ، فقيل : من أَلِهَ يَأْلَه أُلوهَة وإِلَاهَة وأُلوهِيَّة . بمعنى عبد عبادة ، وقيل من أَلِهَ بكسر اللام يَأْلَه بفتحها أَلَهًا إذا تحير ، والصحيح الأول ، فهو إِلَه بمعنى مَأْلُوه أي معبود ؛ ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما : الله ذو الإِلَهِيَّة والعبودية على خلقه أجمعين ، وعلى القول بالاشتقاق يكون وصفًا في الأصل ، ولكن غلبت عليه العَلَمية فتجري عليه بقية الأسماء أخبارًا أو أوصافًا .

يقال : الله رحمن رحيم سميع عليم . كما يقال : الله الرحمن الرحيم . . . إلخ .

والرحمن الرحيم اسمان كريمان من أسمائه الحسنى دالان على اتصافه تعالى بصفة الرحمة ، وهي صفة حقيقية له سبحانه على ما يليق بجلاله ، ولا يجوز القول بأن المراد بها لازمها كإرادة الإحسان ونحوه كما يزعم المعطِّلة ، وسيأتي مزيد بيان لذلك إن شاء الله .

واختلفت في الجمع بينهما ، فقيل : المراد بالرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء في الدنيا ؛ لأن صيغة فعلان تدل على الامتلاء والكثرة ، والرحيم الذي يختص برحمته المؤمنين في الآخرة . وقيل العكس .

وقد ذهب العلامة ابن القيم رحمه الله إلى أن الرحمن دال على الصفة القائمة بالذات ، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم ، ولهذا لم يجئ الاسم الرحمن متعديًا في القرآن ، قال تعالى : ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ . ولم يقل : رحمانًا . وهذا أحسن ما قيل في الفرق بينهما .

وروى ابن عباس أنه قال : هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر . ومنع بعضهم كون الرحمن في البسملة نعتًا لاسم الجلالة؛ لأنه علم آخر لله لا يطلق على غيره والأعلام لا ينعت بها .

والصحيح أنه نعت له باعتبار ما فيه من معنى الوصفية ، فالرحمن اسمه تعالى ووصفه ولا تنافي اسميتُه وصفيّتَه ، فمن حيث هو صفة جرى تابعًا على اسم الله ، ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع بل ورود الاسم العلم كقوله تعالى : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه : ٥] .

قوله : « الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق » :

« الحمدُ لله » روى عن النبي ﷺ أنه قال : « كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله والصلاة عليّ فهو أقطع أبتر ممحوق البركة »[١] . وورد مثل ذلك في البسملة ، ولهذا جمع المؤلف بينهما عملًا بالروايتين ولا تعارض بينهما ، فإن الابتداء قسمان حقيقي وإضافي ، والحمد ضد الذم ، يقال : حمدت الرجل أحمده حمدًا ، ومحمدًا ومحمدة فهو محمود وحميد . ويقال : حمَّد الله بالتشديد . أثنى عليه المرة بعد الأخرى ، وقال : الحمد لله .

والحمد : هو الثناء باللسان على الجميل الاختيارى ، نعمة كان أو غيرها ، يقال : حمدت الرجل على إنعامه وحمدته على شجاعته ، وأما الشكر فعلى النعمة خاصة ويكون بالقلب واللسان والجوارح ، قال الشاعر :

أَفَادَتكُمُ النَّعماءُ مِنِّى ثَلَاثَةً ... يَدِى وَلِسَانِى وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَا

وعلى هذا فبين الحمد والشكر عموم وخصوص من وجه ، يجتمعان فى الثناء باللسان على النعمة ، وينفرد الحمد فى الثناء باللسان على ما ليس بنعمة من الجميل الاختيارى ، وينفرد الشكر بالثناء بالقلب والجوارح على خصوص النعمة . فالحمد أعم متعلقًا وأخص آلة والشكر بالعكس .

وأما الفرق بين الحمد والمدح فقد قال ابن القيم : إن الحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه فلابد فيه من اقتران الإرادة بالخبر بخلاف المدح فإنه إخبار مجرد ، ولذلك كان المدح أوسع تناولًا ؛ لأنه يكون للحى والميت ، وللجماد أيضًا .

و« أل » فى الحمد للاستغراق ، ليتناول كل أفراد الحمد المحققة والمقدرة ، وقيل : للجنس ، ومعناه أن الحمد الكامل ثابت لله ، وهذا يقتضى ثبوت كل ما يحمد عليه من صفات كماله ونعوت جماله ، إذ مَن عَدِمَ صفات الكمال فليس بمحمود على الإطلاق ، ولكن غايته ألَّا يكون محمودًا من كل وجه وبكل اعتبار بجميع أنواع الحمد إلا من حاز صفات الكمال[٢] جميعها .

(١) قال الشيخ إسماعيل الأنصاري رحمه الله : عزاه الحافظ السخاوى فى « القول البديع من الصلاة على الحبيب الشفيع » إلى فوائد ابن عمرو بن منده بلفظ : « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بذكر الله ثم الصلاة عليّ فهو أقطع ممحوق من كل بركة » . ثم قال السخاوى : والحديث مشهور لكن بغير هذا اللفظ . وذكر أنه ضعيف .

(٢) قال الشيخ إسماعيل الأنصاري رحمه الله : عبارة ابن القيم من « مدارج السالكين » : « وغايته أنه محمود من وجه دون =

الرسول في اللغة هو من بعث برسالة . يقال : أرسله بكذا . إذا طلب إليه تأديته وتبليغه ، وجمعه رسْل بسكون السين ، ورسُل بضمها ، وفي لسان الشرع : إنسان ذكر حر أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه ، فإن أُوحِيَ إليه ولم يؤمر بالتبليغ فهو نبي ، فكل رسول نبي ولا عكس ، فقد يكون نبيًا غير رسول .

والمراد بالرسول المضاف إلى ضمير الرب هنا محمد ﷺ .

والهدى في اللغة : البيان والدلالة كما في قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ ، فإن المعنى بيّنّا لهم ، وكما في قوله : ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ .

والهدى بهذا المعنى عام لجميع الناس ، ولهذا يوصف به القرآن كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ . ويوصف به الرسول ﷺ كما في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ .

وقد يأتي الهدى بمعنى التوفيق والإلهام ، فيكون خاصًا بمن يشاء اللّه هدايته ، قال تعالى : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ . ولهذا نفاه اللّه عن رسوله ، قال تعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ .

والمراد بالهدى هنا كل ما جاء به النبي ﷺ من الاختيارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع والعمل الصالح .

والدين يأتي لعدة معانٍ ؛ منها الجزاء كما في قوله تعالى : ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة : ٤] ، ومنه قولهم : « كما يدين الفتى يدان » .

ومنها الخضوع والانقياد ، يقال : دان له بمعنى ذلَّ وخضع ، ويقال : دان اللّه بكذا أو على كذا بمعنى اتخذه دينًا يعبده به .

والمراد بالدين هنا جميع ما أرسل اللّه به رسول اللّه ﷺ من الأحكام والشرائع ، اعتقادية كانت أم قولية أم فعلية ، وإضافته إلى الحق من إضافة الموصوف إلى صفته ، أى الدين الحق .

والحق مصدر حق يحق إذا ثبت ووجب . فالمراد به الثابتَ الواقع ، ويقابله الباطل الذى لا حقيقة له .

اللام في قوله : ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ لام التعليل وهى متعلقة بـ : « أرسل » ، وهو من الظهور بمعنى العلو

= وجه ولا يكون محمودًا بكل وجه وبكل اعتبار بجميع أنواع الحمد إلا من استولى على صفات الكمال جميعها ، فلو عدم منها صفة واحدة لنقص من حمده بحسبها » . هذا نص عبارة ابن القيم ، وقد حصل فى نقل المؤلف لها خلل ظاهر فليتنبه لذلك .

والغلبة ، أى : ليجعله عاليًا على الأديان كلها بالحجة والبرهان . و« أل » فى الدين للجنس ، فيدخل فيه كل دين باطل ، وهو ما عدا الإسلام .

والشهيد فعيل ، وهو مبالغة من شهد ، وهو إما من الشهادة بمعنى الإخبار والإعلام ، أو من الشهادة بمعنى الحضور والمعنى : ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ : مخبرًا بصدق رسوله أو حاضرًا مطلعًا لا يغيب عنه شىء .

والمعنى الإجمالى لما تقدم أن جميع أوصاف الكمال ثابتة للّه على أكمل الوجوه وأتمها .

ومما يحمد عليه سبحانه نعمه على عباده التى لا يحصى أحد من الخلق عدها ، وأعظمها إرساله محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق رحمة للعالمين ، وبشرى للمتقين ، ليظهره على جميع الأديان بالحجة والبرهان ، والعز والتمكين والسلطان ، وكفى باللّه شهيدًا على صدق رسوله وحقيقة ما جاء به .

وشهادته سبحانه تكون بقوله وفعله وتأييده لرسوله بالنصر والمعجزات والبراهين المتنوعة على أن ما جاء به هو الحق المبين .

قوله : (وأشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له ، إقرارًا به وتوحيد ...) :

الشهادة : الإخبار بالشىء عن علم به واعتقاد لصحته وثبوته ، ولا تعتبر الشهادة إلا إذا كانت مصحوبة بالإقرار والإذعان وواطأ القلب عليها اللسان ، فإن اللّه قد كذب المنافقين فى قولهم : ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ . مع أنهم قالوا [ذلك](١) بألسنتهم .

ولا إله إلا اللّه هى كلمة التوحيد التى اتفقت عليها كلمة الرسل صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين ، بل هى خلاصة دعواتهم وزبدة رسالاتهم ، وما من رسول منهم إلا جعلها مفتتح أمره وقطب رحاه ، كما قال نبينا ﷺ : « أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا اللّه . فإذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم ، إلا بحقها وحسابهم على اللّه عزَّ وجلَّ » .

ودلالة هذه الكلمة على التوحيد باعتبار اشتمالها على النفى والإثبات المقتضى للحصر وهو أبلغ من الإثبات المجرد ، كقولنا : اللّه واحد . مثلًا فهى تدل بصدرها على نفى الإلهية عما سوى اللّه تعالى ، وتدل بعجزها على إثبات الإلهية له وحده . ولابد فيها من إضمار خبر تقديره : لا معبود بحق موجود إلا اللّه .

وأما قوله : « وحده لا شريك له » ؛ فهو تأكيد لما دلت عليه كلمة التوحيد .

وقوله : « إقرارًا به » . مصدر مؤكد لمعنى الفعل أشهد ، والمراد إقرار القلب واللسان .

(١) زيادة يقتضيها السياق .

وقوله : توحيدًا أى : إخلاصًا للّٰه عزَّ وجلَّ فى العبادة ، فالمراد به التوحيد الإرادى الطلبى المبنى على توحيد المعرفة والإثبات .

قوله : (وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ تسليمًا مزيدًا) :

وجعل الشهادة للرسول ﷺ بالرسالة والعبودية مقرونة بالشهادة للّٰه بالتوحيد للإشارة إلى أنه لابد من كل منهما ، فلا تغنى إحداهما عن الأخرى ، ولهذا قرن بينهما فى الأذان وفى التشهد . وقال بعضهم فى تفسير قوله تعالى : ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح : ٤] يعنى : لا أذكر إلا ذكرت معي[(١)] .

وإنما جمع له بين وصفى الرسالة والعبودية لأنهما أعلى ما يوصف به العبد ، والعبادة هى الحكمة التى خلق اللّٰه الخلق لأجلها كما قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، فكمال المخلوق فى تحقيق تلك الغاية ، وكلما ازداد العبد تحقيقًا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ، ولهذا ذكر اللّٰه نبيه بلقب العبد فى أسمى أحواله وأشرف مقاماته كالإسراء ، به وقيامه بالدعوة إلى اللّٰه والإيحاء إليه ، والتحدى بالذى أنزل عليه ، ونبه بوصف العبودية أيضًا إلى الرد على أهل الغلو الذين قد يتجاوزون بالرسول ﷺ قدره ويرفعونه إلى مرتبة الألوهية ، كما يفعل ضُلَّال الصوفية قبحهم اللّٰه ، وقد صح عنه ﷺ أنه قال : « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، وإنما أنا عبد فقولوا : عبد اللّٰه ورسوله »[(٢)] . والمقصود أن هذه الشهادة تتضمن اعتراف العبد بكمال عبوديته ﷺ لربه وكمال رسالته ، وأنه فاق جميع البشر فى كل خصلة كمالٍ ، ولا تتم هذه الشهادة حتى يصدقه العبد فى كل ما أخبر به ، ويطيعه فى كل ما أمر به ، وينتهى عما نهى عنه .

الصلاة فى اللغة الدعاء ، قال تعالى : ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة : ١٠٣] ، وأصح ما قيل فى صلاة اللّٰه على رسوله هو ما ذكره البخارى فى « صحيحه » عن أبى العالية ، قال : « صلاة اللّٰه على رسوله ثناؤه عليه عند الملائكة » .

والمشهور أن الصلاة من الملائكة الاستغفار كما فى الحديث الصحيح : « والملائكة يصلون على أحدكم ما دام فى مجلسه الذى فيه يقولون : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه » . ومن الآدميين التضرع والدعاء .

وآل الشخص هم من يمتُّون إليه بصلة وثيقة من قرابة ونحوها وآله ﷺ يراد بهم أحيانًا من حرمت

(١) قال الشيخ إسماعيل الأنصاري رحمه الله : رواه إسماعيل بن إسحاق القاضى فى فضل الصلاة على النبى ﷺ عن مجاهد قال : حدثنا ابن عبد اللّٰه قال : ثنا سفيان قال : ثنا ابن أبى نجيح عن مجاهد : ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ . قال : لا أذكر إلا ذكرت معى أشهد أن لا إله إلا اللّٰه ، أشهد أن محمدًا رسول اللّٰه . اهـ .

(٢) أخرجه البخارى ومسلم .

عليهم الصدقة وهم بنو هاشم وبنو المطلب ، ويراد بهم أحيانًا كل من تبعه على دينه ، وأصل « آل » أهل ، أبدلت الهاء همزة فتوالت همزتان فقلبت الثانية منهما ألفًا ويصغر على : أهيل أو : أويل ، ولا يستعمل إلا فيما شرف غالبًا فلا يقال : آل الإسكاف . وآل الحجام . والمراد بالصحب أصحابه ﷺ هم كل من لقيه حال حياته مؤمنًا ومات على ذلك . والسلام اسم مصدر من سلم تسليمًا عليه ، بمعنى طلب له السلامة من كل مكروه ، وهو اسم من أسمائه تعالى ، ومعناه : البراءة والخلاص من النقائص والعيوب ، أو الذى يسلم على عباده المؤمنين فى الآخرة .

ومزيدًا : صفة لتسليمًا ، وهو اسم مفعول من زاد المتعدى ، والتقدير : مزيدًا فيه .

قوله : (أما بعدُ : اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة) :

« أما بعد » : كلمة يؤتى بها للدلالة على الشروع فى المقصود ، وكان النبى ﷺ يستعملها كثيرًا فى خطبه وكتبه . وتقديرها عند النحويين : مهما يكن من شيء بعد .

والإشارة بقوله : « هذا » إلى ما تضمنه هذا المؤلف من العقائد الإيمانية التى أجملها فى قوله : « وهو الإيمان بالله . . . إلخ » .

« والاعتقاد » : مصدر اعتقد كذا ، إذ اتخذه عقيدة له ، بمعنى عقد عليه الضمير والقلب ودان لله به ، وأصله من عقد الحبل ، ثم استعمل فى التصميم والاعتقاد الحازم .

والفِرقة – بكسر الفاء – : الطائفة من الناس . ووصفها بأنها الناجية المنصورة أخذًا من قوله عليه السلام : « لا تزال طائفة من أمتى على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله » .

ومن قوله فى الحديث الآخر : « ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلهم فى النار إلا واحدة ، وهى من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي » .

وقوله : « أهل السنة والجماعة » بدل من الفرقة ، والمراد بالسنة الطريقة التى كان عليها رسول الله ﷺ وأصحابه قبل ظهور البدع والمقالات . والجماعة فى الأصل القوم المجتمعون ، والمراد بهم هنا سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين الذين اجتمعوا على الحق الصريح من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

قوله : (وهو الإيمان بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والبعث ...) :

هذه الأمور الستة هى أركان الإيمان ، فلا يتم إيمان أحد إلا إذا آمن بها جميعًا على الوجه الصحيح الذى دل عليه الكتاب والسنة ، فمن جحد شيئًا منها أو آمن به على غير هذا الوجه فقد كفر ، وقد ذكرت كلها فى حديث جبريل المشهور حين جاء إلى النبى ﷺ فى صورة أعرابى يسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان ، فقال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وتؤمن بالبعث بعد الموت ، وبالقدر خيره وشره ، حلوه ومره من الله تعالى » .

(والملائكة) : جمع ملاك وأصله مألك من الألوكة ، وهى الرسالة ، وهم نوع من خلق الله ﷻ أسكنهم سماواته ووكلهم بشئون خلقه ووصفهم فى كتابه بأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وأنهم يسبحون له بالليل والنهار لا يفترون . فيجب علينا الإيمان بما ورد فى حقهم من صفات وأعمال فى الكتاب والسنة ، والإمساك عما وراء ذلك ، فإن هذا من شئون الغيب التى لا نعلم منها إلا ما علمنا الله ورسوله .

والكُتُب جمع كِتاب ، وهو من الكَتْبِ بمعنى الجمع والضم . والمراد بها الكتب المنزلة من السماء على الرسل عليهم الصلاة والسلام . والمعلوم لنا منها « صحفُ إبراهيم ، والتوراة » التى أنزلت على موسى فى الألواح و« الإنجيل » الذى أنزل على عيسى ، و« الزبور » الذى أنزل على داود ، و« القرآن الكريم » الذى هو آخرها نزولًا ، وهو المصدق لها والمهيمن عليها ، وما عداها يجب الإيمان به إجمالًا .

والرسل جمع رسول – وقد تقدم أنه من أوحى الله إليه بشرع وأمره بتبليغه – وعلينا أن نؤمن تفصيلًا بمن سمى الله فى كتابه منهم وهم خمسة وعشرون ، ذكرهم الشاعر فى قوله :

فِى تِلكَ حُجَّتُنَا مِنهُم ثَمَانِيَةٌ ... مِن بَعدِ عَشرٍ وَيَبقَى سَبعَةٌ وَهُم
إدرِيسُ هُودٌ شُعَيبٌ صَالِحٌ وَكَذا ... ذُو الكِفلِ آدَمُ بِالمختارِ قَد خُتِمُوا

وأما من عدا هؤلاء من الرسل والأنبياء فنؤمن بهم إجمالًا على معنى الاعتقاد بنبوتهم ورسالتهم دون أن نكلف أنفسنا البحث عن عدتهم وأسمائهم ، فإن ذلك مما اختص الله بعلمه ، قال تعالى : ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء : ١٦٤] .

ويجب الإيمان بأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به على ما أمرهم الله عزَّ وجلَّ ، وبينوه بيانًا لا يسع أحدًا ممن أرسلوا إليه جهله ، وأنهم معصومون من الكذب والخيانة ، والكتمان والبلادة ، وأن أفضلهم أولو العزم ، والمشهور أنهم محمد وإبراهيم وموسى وعيسى ونوح ؛ لأنهم ذكروا معًا فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب : ٧] ، وقوله : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى : ١٣] .

والبعث فى الأصل الإثارة والتحريك ، والمراد به فى لسان الشرع : إخراج الموتى من قبورهم أحياء يوم القيامة لفصل القضاء بينهم ؛ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة : ٧، ٨] . ويجب الإيمان بالبعث على الصفة التى بينها الله فى كتابه ، وهو أنه جمع ما تحلل من أجزاء الأجساد التى كانت فى الدنيا وإنشاؤها خلقًا جديدًا وإعادة الحياة إليها ،

ومنكر البعث الجثماني كالفلاسفة والنصارى كفار ، وأما من أقرّ به ولكنه زعم أن اللّه يبعث الأرواح في أجسام غير الأجسام التي كانت في الدنيا فهو مبتدع وفاسق .

وأما القدر : فهو في الأصل مصدر ، تقول : قدرت الشيء بفتح الدال وتخفيفها ، أقدره بكسرها قدرًا وقدرًا إذا أحطت بمقداره ، والمراد به في لسان الشرع أن اللّه عزَّ وجلَّ علم مقادير الأشياء وأزمانها أزلًا ، ثم أوجدها بقدرته ومشيئته على وفق ما علمه منها ، وأنه كتبها في اللوح قبل إحداثها ، كما في الحديث : « أول ما خلق اللّه القلم ، فقال له : اكتب . قال : وما أكتب ؟ قال : اكتب كل ما هو كائن » . وقال تعالى : ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد : ٢٢] .

❁ قال الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ رحمه الله :

ابتدأ المصنف رحمه الله كتابه بالبسملة ؛ اقتداء بالكتاب العزيز ، وتأسيا بالنبي ﷺ في مكاتباته ومراسلاته ، وعملًا بحديث : « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم اللّه الرحمن الرحيم فهو أقطع »[١] ، وفي رواية : « أجذم »[٢] ، وفي رواية : « أبتر »[٣] . والمعنى : ناقص البركة .

« الحمد للّه » الحمد ، قال المصنف : هو ذكر محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه وإجلاله . وقال معناه أيضًا ابن القيم .

« الذي أرْسَل رسولَه » محمدًا ﷺ « بالهدى » هو العلم النافع .

« ودين الحق » هو العمل الصالح ، « ليُظْهِرَه على الدينِ كلِّه » ليعليه وينصره على سائر الأديان ؛ من اليهودية ، والنصرانية ، والوثنية ، وغير ذلك .

ولما بعث اللّه نبيه ﷺ وأرسله بالهدى ودين الحق ، وكان له أعداء أظهره عليهم وأتمه ، فإن هذه النعمة- وهي نعمة الدين- لا تتم إلا بما يحميها ويحوطها ؛ كما قال تعالى : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ ، وقال تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ .

« وكَفَى باللّهِ شهيدًا » على أنك نبي ، وسينصرك ، ويظهر دينك .

---

(١) الخطيب في « الجامع في أخلاق الراوي » برقم (١٢١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (٩٧٠١) .

(٢) يُنظر : أبو داود (٤٨٤٠) ، والطبراني (١٤١/٧٢/١٩) ، وضعفه الألباني في « ضعيف سنن أبي داود » .

(٣) أحمد (٣٥٩/٢) .

« وأَشْهَدُ أن لا إلهَ إلَّا اللَّهُ » أنه لا معبود حق إلا اللّه .

« وحده » تأكيد للإثبات ، « لا شريك له » تأكيد للنفي ، فهو تأكيد بعد التوكيد ؛ اهتمامًا بمقام التوحيد .

« إقرارًا به وتوحيدًا » ؛ يعني : أخبر عن اعتقاد وعلم أن لا إله إلا اللّه ؛ أي : أنه لا معبود حق إلا اللّه .

« وأشهد أن محمدًا عبده » هذه العبودية في حق المصطفى ﷺ هي عبودية التشريف والتكريم ، وهذا أخص وصفه ﷺ ، فإنه ﷺ خير بين أن يكون ملِكًا نبيًا ، وبين أن يكون عبدًا رسولًا ، فاختار أن يكون عبدًا رسولًا .

وله ﷺ من هذه العبودية أكملها وأعلاها ، فإن العبودية عبوديتان : خاصة وعامة .

عبودية تابعة للربوبية : وهي التي دخل فيها جميع الخلق ؛ كما في قوله تعالى : ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ .

وعبودية تابعة للألوهية والعبادة : وهي المذكورة في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ﴾ الآية .

وذكر ﷺ بالعبودية في أشرف مقاماته ؛ كما في آية « الإسراء » : ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ ، وقال في مقام الإنزال عليه : ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ ، وقال في مقام التحدي : ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ .

« ورسوله » الجمع له ﷺ بين العبودية والرسالة فيه :

الرد على أهل الإفراط الذين غلو فيه ؛ حتى جوزوا الاستغاثة به في كل ما يستغاث باللّه فيه ، فهؤلاء في الحقيقة ما جعلوه عبدًا ؛ بل اتخذوه معبودًا ، ورفعوه فوق منزلته .

* وعلى أهل التفريط بترك متابعته ، والرضا عن سنته بالأوضاع والقوانين الباطلة ، فهم ما شهدوا في الحقيقة أنه رسول اللّه ؛ بل شهادتهم ناقصة على حسب ما كان معهم من تلك الأمور .

« صلى اللّه عليه » معنى الصلاة عليه : ثناؤه على عبده في الملأ الأعلى ، وجمع بين الصلاة والسلام عليه ، كما جمع اللّه بينهما في قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ .

« وعلى آله » : « آله » قيل : إنهم أتباعه على دينه . وقيل : إنهم أزواجه وذريته ، وهذا أرجح الأقوال ، كما أن الذي يليه هم من تحرم عليهم الزكاة .

« وأصحَابه وسلَّمَ تسليمًا مَزيدًا » أصحاب : جمع صاحب . والصحابي : من اجتمع بالنبي ﷺ - ولو لحظة - وآمن به .

وجمع بين الآل والصحب ، كما جمع بين الصلاة على النبي ﷺ والسلام عليه ، ففيه الرد على الروافض من قوله : « وأصحابه » ، وعلى النواصب من قوله : « وآله » إذا عني بهم أهل بيته .

« أمَّا بعـدُ » هذه الكلمة يؤتى بها عند الانتقال من أسلوب إلى أسلوب . والمعنى : أما بعد ما تقدم من حمد الله والثناء عليه ، والصلاة على رسوله ﷺ .

وأقرب الأقوال فيمن قال هذه الكلمةِ أولًا : داود عليه السلام . وقيل : إنها فصل الخطاب الذي أعطيه ، والصحيح خلافه ، وأن فصل الخطاب الذي أعطيه عليه السلام هو الفصل بين الحق والباطل .

« فهذا » الإشارة إلى ما في هذه العقيدة الجليلة .

« اعتقاد » الاعتقاد : مصدر اعتقد ، والاعتقاد من العقد ، مأخوذ من عقد الأصابع على ما تشد عليه ، وهو يطلق على التصديق مطلقًا ، وعلى ما يعتقد من الأمور الدينية مما يشد عليه ويعتقد ، وتعيه وتمسكه القلوب . وسمي الاعتقاد اعتقادًا ؛ لأن القلوب تعقد عليه وتدين به وتلزمه ، واعتقاد الشيء قبل عمله ، والغالب أن من اعتقد بقلبه ؛ عمله .

« الفرقةِ الناجيةِ » عند هلاك الفرق والأمم ؛ كما أخبر النبي ﷺ أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة ، وهي الجماعة[1] ، وفي رواية : « هم من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي »[2] .

وبعض أهل العلم ذكر الثلاث والسبعين الفرقة باجتهاده ، لكن هذا من الإخبار بالغيب ، وإن كان الكل مبتدعة لا شك ، لكن التعيين ما فيه نص ، وإن كانت أصول هذه البدع ترجع إلى الخمس التي وجدت في زمن السلف : الجهمية ، والمرجئة ، والخوارج ، والرافضة ، والقدرية .

وهذا الحديث لا يدل على أن هذه الأمة أشر من غيرها من الأمم ؛ كالنصارى واليهود ؛ بل فيه بيان أن ما يوجد من الافتراق في تلك الأمم ، يوجد في هذه الأمة مثله في الافتراق وأكثر .

فهذا المذكور في هذا الكتاب : هو اعتقاد الفرقة الواحدة الناجية من بين الفرق كلها .

« المنصورةِ إلى قيامِ الساعةِ » ؛ كما جاء في الحديث : « لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ، حتى تقوم الساعة »[3] .

---

(١) أبو داود (٤٥٩٧) ، والدارمي (٢/٢٤١) ، وابن أبي عاصم في « السنة » (٦٥ ، ٦٩) من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « الظلال » (٦٥ ، ٦٩) .

(٢) الترمذي (٢٦٤١) ، والحاكم (٤٥٥) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، وحسنه الألباني في « الصحيحة » (١٣٤٨) .

(٣) البخاري برقم (٣٦٤١) من حديث معاوية رضي الله عنه ، ومسلم (١٩٢٠) من حديث ثوبان رضي الله عنه .

« أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ » هذا من ألقاب أهل الحق- وهذا اللقب ليس من ألقاب أهل الطرق- لما كانوا يؤثرون السنة على غيرها من الطرق .

« وهو الإيمانُ باللَّهِ » يعني : وبما وصف به نفسه في كتابه .

« وملائكتِهِ » الكرام ، بوجودهم وعددهم ، إجمالًا في الإجمالي ، وتفصيلًا في التفصيلي .

معنى إجمالًا : أنك تؤمن بهم جميعًا- جميع ما جاء عن اللَّه فيهم .

والتفصيل : إذا بلغك تفصيلًا تسميته . وكذلك الرسل الذين جاء تسميتهم نؤمن بهم تفصيلًا .

« وكتبه » وكذلك الإيمان بكتبه .

« ورسله » وكذلك الإيمان برسله ، إجمالًا في الإجمالي ، وتفصيلًا في التفصيلي .

« والبعث بعد الموت » والجهلة يستبعدون إعادة أجزاء هذا البدن بعد بلائها ، فلذلك ذكر المصنف هذا اللفظ بدل : « واليوم الآخر » ، فإن المنكرين لليوم الآخر لا ينكرون قدرة اللَّه على خلق الأجسام وإنزال المطر ، وغير ذلك .

وحقيقة الإيمان بالبعث : أن يؤمن الإنسان ، ويقر أن هذه الأجسام تعاد كما كانت ، وترد إليها أرواحها ، وتنعم أو تعذب .

وقرر تعالى هذا الأصل بكمال علمه وكمال قدرته ، ولهذا كان المعاد معلومًا بالعقل والشرع .

« والإيمان بالقدر خيره وشره » كما في حديث جبريل ، وهذا هو السادس من أركان الإيمان ، فهذا الكتاب المؤلف معظمه في شرح هذه الأصول الستة ، وإن كان قد ذكر أشياء غير ذلك . وقيل : إنها ترجع إلى ذلك .

والدين ثلاث مراتب : الإسلام ، والإيمان ، والإحسان . فكل خصلة من خصال الإسلام داخلة في مسمى الإيمان ، وكل خصلة من خصال الإيمان داخلة في مسمى الإسلام ، ولكن إذا اقترنا فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة ؛ لأنها أغلب عليه ، وفسر الإيمان بالأعمال الباطنة .

فالإسلام أغلب على الأعمال الظاهرة ، والإيمان أغلب على الأعمال الباطنة ، فهو أصدق في القلوب ، وذلك أنه مشتق من الأمن والائتمان على الأمور الباطِنة الخفية ، فإن المصدق أمن المخبر . وأصله التصديق .

وفي الشرع : تصديق خاص كما يأتي .

فهذه أصول الإيمان الستة التي عليها مبنى الإيمان ، ويأتي تفصيلها فيما بعد ، فإن المبتدعة صاروا شجًا في حلوق أهل السنة وأهل الحق ، وصنفوا وبدعوا وحبسوا ، فلذلك صنَّف أهل السنة في العقائد المصنفات ، وبينوا خطأ وضلال أهل البدع .

والمصنف رحمه الله أطال فيما كثر فيه جدال أهل البدع ، والذين لم ينازعوا فيه ذكر فيه كالإشارة .

❁ قال الشيخ زيد بن عبد العزيز آل فياض رحمه الله :

قوله : « الحمدُ للَّهِ الذي أرْسَلَ رسولَه بالهُدَى ... » :

قال تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ .

والحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه وإجلاله ، وقال العلامة ابن القيم رحمه الله : وإثبات الحمد الكامل له يقتضي ثبوت كل ما يحمد عليه من صفات كماله ونعوت جلاله ، إذ من عدم صفات الكمال فليس بمحمود على الإطلاق ، وغايته أنه محمود من وجه دون وجه ولا يكون محمودًا من كل وجه وبكل اعتبار بجميع أنواع الحمد إلا من استولى على صفات الكمال جميعها ، فلو عدم منها صفة واحدة لنقص من حمده بحسبها .

وقال الشيخ[1] : والحمد نوعان : حمد على إحسانه إلى عباده وهو من الشكر ، وحمد لما يستحقه هو بنفسه من نعوت كماله ، وهذا الحمد لا يكون إلا على ما هو في نفسه مستحق للحمد ، وإنما يستحق ذلك من هو متصف بصفات الكمال وهي : أمور وجودية ، فإن الأمور العدمية المحضة لا حمد فيها ولا خير ولا كمال ، ومعلوم أن كل ما يحمد فإنما يحمد على ما له من صفات الكمال ، فكل ما يحمد به لخلق فهو من الخالق ، والذي منه ما يحمد عليه هو أحق بالحمد ، فثبت أنه المستحق للمحامد الكاملة وهو أحق من كل محمود . اهـ .

قوله : « الذي أرْسَلَ رسولَه ... » يعني : محمدًا ﷺ ، والرسول هو إنسان ذكر أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه ، فإن أوحي إليه ولم يؤمر بالتبليغ فهو نبي .

والهدى هو ما جاء به النبي ﷺ من الشرع القويم ، والدين الكامل ، وما أنزل عليه من القرآن الذي به حياة القلوب ، وهداية الخلق ، قال ابن كثير : الهدى هو ما جاء به النبي ﷺ من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع والعلم الصالح ، فإن الشريعة تشتمل على شيئين : علم وعمل ، فالعلم الشرعي صحيح ، والعمل الشرعي مقبول ، فإخباراتها حق وإنشاآتها عدل .

ليظهره ليعليه على الدين كله ، أي : على أهل جميع الأديان من أهل الأرض من عرب وعجم ، ومليين ومشركين ، وكفى بالله شهيدًا أي : أنه ناصره .

وقال ابن القيم : فقد تكفل الله لهذا الأمر بالتمام والإظهار على جميع أديان أهل الأرض ، ففي هذا تقوية لقلوبهم وبشارة لهم وتثبيت لهم ، وأن يكونوا على ثقة من هذا الوعد الذي لا بد أن ينجزه فلا

---

(١) « تفصيل الإجمال فيما يحب الله من صفات الكمال » (٥/٤٩) .

تظنوا أن ما وقع من الأغماض والقهر يوم الحديبية نصرة لعدوه ولا تخليًا عن رسوله ودينه كيف وقد أرسله بدينه الحق ووعده أن يظهره على كل دين سواه ؟ اهـ .

قوله : « وأَشْهَدُ أن لا إلهَ إلَّا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له ، إقرارًا به وتوحيدًا » :

* أي : أشهد شهادة عن علم ويقين وعمل بمدلول هذه الكلمة العظيمة ، ومقتضاها ، من إثبات الوحدانية للَّه ، فكما أنه واحد في ربوبيته ، وتدبيره للكون ، فكذلك هو واحد في إلهيته ، وهو المستحق لأن يعبد وحده لا شريك له ، وأن يفرد بصفات الكمال ، ونعوت الجلال ، وأن ينزه عن كل نقص وعيب .

وفي قوله : « وحده » تأكيد للإثبات ، وقوله : « لا شريك له » تأكيد للنفي ، قاله الحافظ .

وقال أيضًا : « وحده لا شريك له » تأكيدًا بعد تأكيد اهتمامًا بمقام التوحيد .

وقد شهد اللَّه لنفسه بالوحدانية في قوله : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

فقد تضمنت هذه الآية الكريمة : إثبات حقيقة التوحيد والرد على جميع طوائف الضلال ، فتضمنت أجل شهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها من أجل شاهد بأجل مشهود به ، وعبارات السلف في « شهد » تدور على الحكم والقضاء والإعلام والبيان ، والإخبار ، وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها ؛ فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره ، وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه ، فلها أربع مراتب :

فأول مراتبها : علم ومعرفة واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته .

وثانيها : تكلمه بذلك وإن لم يعلم به غيره بل يتكلم بها مع نفسه ويتذكرها وينطق بها أو يكتبها .

وثالثها : أن يعلم غيره بما يشهد به ويخبره به ، ويبينه له .

ورابعها : أن يلزمه بمضمونها ، ويأمره به .

فشهادة اللَّه سبحانه لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط تضمنت هذه المراتب الأربع : علمه بذلك سبحانه ، وتكلمه به ، وإخباره لخلقه به ، وأمرهم وإلزامهم به .

أما مرتبة العلم فإن الشهادة تتضمنها ضرورة وإلا كان الشاهِد شاهدًا بما لا علم له به قال تعالى : ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ . وقال ﷺ : « على مثلها فاشهد » . وأشار إلى الشمس .

وأما مرتبة التكلم والخبر فقال تعالى : ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ . فجعل ذلك منهم شهادة وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة ولم يؤدوها عند غيرهم .

وأما مرتبة الإعلام والإخبار فنوعان : إعلام بالقول وإعلام بالفعل ، وهذا شأن كل معلم لغيره بأمر ،

تارة بعلمه به بقول ، وتارة بفعل ، ولهذا كان من جعل داره مسجدًا وأبرزها وفتح طريقها وأذن للناس بالدخول والصلاة فيها ، مُعلِمًا أنها وقف وإن لم يتلفظ به ، وكذلك من وجد متقربًا إلى غيره بأنواع المسار يكون معلمًا له ولغيره أنه يحبه وإن لم يتلفظ بقوله وكذلك بالعكس .

وكذلك شهادة الرب ﷻ وبيانه وإعلامه يكون بقوله تارة وبفعله أخرى ، فالقول ما أرسل به رسله وأنزل به كتبه .

وأما بيانه وإعلامه بفعله فكما قال ابن كيسان : شهد الله بتدبيره العجيب وأموره المحكمة عند خلقه أنه لا إله إلا هو ، وقال آخر :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

ومما يدل على أن الشهادة تكون بالفعل قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ . فهذه شهادة منهم على أنفسهم بما يفعلونه ، والمقصود أنه سبحانه يشهد بما جعل آياته المخلوقات دالة عليه ، ودلالته إنما هي بخلقه وجعله .

وأما مرتبة الأمر بذلك والإلزام به وأن مجرد الشهادة لا يستلزمه ، لكن الشهادة في هذا الموضع تدل عليه وتتضمنه ، فإنه سبحانه شهد به شهادة من حكم به وقضى وأمر وألزم عباده ، كما قال تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ . وقال الله تعالى : ﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ . وقال تعالى : ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ ، ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ ، ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ .

والقرآن كله شاهد بذلك ، ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو ، فقد أخبر ونبأ وأعلم وحكم وقضى أن ما سواه ليس بإله ، وأن إلهية ما سواه باطلة فلا يستحق العبادة سواه ، كما لا تصلح الإلهية لغيره ، وذلك يستلزم الأمر باتخاذه وحده إلهًا ، والنهي عن اتخاذ غيره معه إلهًا ، وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والإثبات ، فالله سبحانه لا شريك له في أي نوع من أنواع التوحيد .

والتوحيد نوعان : نوع في العلم والاعتقاد ، ونوع في الإرادة والقصد ، ويسمى الأول : التوحيد العلمي ، والثاني : التوحيد القصدي الإرادي ؛ لتعلق الأول بالأخبار والمعرفة ، والثاني بالقصد والإرادة ، وهذا الثاني أيضًا نوعان : توحيد في الربوبية ، وتوحيد في الإلهية ، فهذه ثلاثة أنواع ، قال ابن القيم : وأما التوحيد الذي دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب فهو نوعان : توحيد في المعرفة والإثبات ، وتوحيد في الطلب والقصد ، فالأول هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه وتكلمه بكتبه وتكليمه لمن شاء من عباده ، إثبات عموم قضائه وقدره وحكمته ، وقد أفصح القرآن عن هذا

النوع جد الإفصاح، كما في أول سورة الحديد، وسورة طه، وآخر سورة الحشر، وأول تنزيل السجدة، وأول آل عمران، وسورة الإخلاص بكمالها وغير ذلك.

النوع الثاني: ما تضمنته سورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، و﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، وأول سورة تنزيل الكتاب وآخرها، وأول سورة المؤمن، ووسطها وآخرها، وأول سورة الأعراف وآخرها، وجملة سورة الأنعام، وغالب سور القرآن، بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد شاهدة به داعية إليه، فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأقواله فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له وخلع عبادة ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته وأمره ونهيه فهو من حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن إكرام أهل التوحيد، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد، فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم. اهـ.

قوله: «وأشهَدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وأصحَ وسلَّمَ تسليمًا مَزيدًا»:

* رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله والصلاة علي فهو أقطع أبتر ممحوق البركة»[(١)]. ومن مواطن الصلاة عليه ﷺ الصلاة عليه عند كل كلام خير ذي بال، فإنه يبتدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم بالصلاة على رسول الله ﷺ، ثم يذكر كلامه بعد ذلك، وأعلى ما يوصف به العبد مرتبة العبودية والرسالة، وهو ﷺ أكمل الخلق في ذلك، فكمال المخلوق في تحقيق عبودية الله تعالى، وكلما ازداد العبد تحقيقًا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته، ومن توهم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه، وأن الخروج عنها أكمل فهو من أجهل الخلق وأضلهم، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾. إلى غير ذلك من الآيات، وذكر الله نبيه باسم العبد في أشرف المقامات فقال في ذكر الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾. وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾. وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾. وقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾. وبذلك استحق التقديم على الناس في الدنيا والآخرة، ولذلك يقول المسيح عليه السلام يوم القيامة إذا طلبوا منه الشفاعة بعد الأنبياء: اذهبوا إلى محمد عبد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر،

(١) ضعفه الألباني في: «ضعيف سنن ابن ماجه» (١٩٢٤)، و«السلسلة الضعيفة» (٩٠٢).

فحصلت له تلك المرتبة بتكميل عبوديته لله تعالى . اهـ .

قوله : « ﷺ » : صلاة الله على نبيه أن يثني عليه في الملأ الأعلى عند الملائكة .

هذا هو الذي عليه المحققون ، ونصره الشيخ وتلميذه ابن القيم ، وصوبه الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله .

وقد يراد بهذا الدعاء كما في « المسند » عن علي مرفوعًا : « الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه »[1] .

والمشهور عند كثير من المتأخرين أن الصلاة من الله بمعنى الرحمة ، وقيل : بمعنى المغفرة . قال ابن القيم : وهذا القول من جنس الذي قبله وهما ضعيفان . اهـ .

وعلى آله وصحبه : وآل الشخص هم القوم المنتمون إليه الذين تجمعهم به صلة وثيقة من قرابة ونحوها ، وأحسن الأقوال في آل النبي ﷺ أنهم أتباعه على دينه .

قال في « القاموس » : آله : أهل الرجل وأتابعه وأولياؤه ، ولا يستعمل إلا فيما فيه شرف غالبًا ، فلا يقال : آل الإسكاف كما يقال : أهله . قال : وأصله أهل ، أبدل الهاء همزة فصارت أأل ، توالت همزتان ، فأبدلت الثانية ألفًا ، تصغيره : أويل وأهيل . اهـ .

وعطف الصحب على الآل من عطف الخاص على العام .

والصحابي هو من لقي النبي ﷺ مؤمنًا ومات على ذلك .

وسلم تسليمًا مزيدًا . هاتان جملتان خبريتان لفظًا إنشائيتان معنى أعني قول المؤلف : « صلى الله عليه وسلم » .

وجمع بين الصلاة والسلام : اقتداء بالآية الكريمة : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ .

والسلام هو طلب السلامة من كل مكروه ، والسلام اسم من أسماء الله « وحقيقة هذه اللفظة البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب ، وعلى هذا المعنى تدور جميع تصاريفها » . اهـ .

قوله : « أما بعد فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة ..» .

* أما بعد : كلمة يؤتى بها للانتقال من أسلوب إلى غيره .

وقد كان النبي ﷺ يأتي بها كثيرًا في خطبه ومكاتباته .

ومعناها مهما يكن من شيء .

البخاري (٤٣٦) عن أبي هريرة ، بنحوه . وينظر : « صحيح الجامع » للألباني (حديث رقم : ٦٧٢٧) .

والعقيدة : هي ما يعقد عليه المرء . ويدين به .

قال في المصباح المنير : « اعتقدت كذا عقدت عليه الضمير والقلب ، والمشهور أن الصلاة من الملائكة معناها الاستغفار ، ومن الآدميين الدعاء .

وقال ابن القيم في بدائع الفوائد (جـ١ ص ٢٦، ٢٧) : وهو مشكل من وجوه :

أحدها : أن الدعاء يكون بالخير والشر ، والصلاة لا تكون إلا بالخير .

والثاني : إن دعوت تعدى باللام وصليت لا تعدى إلا بعلى ، ودعا المعدي بعلى ليس بمعنى صلى ، وهذا يدل على أن الصلاة ليست بمعنى الدعاء .

الثالث : أن فعل الدعاء يقتضي مدعوًا ومدعو له ؛ تقول : دعوت اللّه لك بخير ، وفعل الصلاة حتى قيل : العقيدة ما يدين الإنسان به ربه ، وله عقيدة حسنة سالمة من الشك وأصله في عقد البيع ونحوه ، ثم استعمل في التصميم والاعتقاد الجازم فهو يطلق على التصديق مطلقًا وعلى ما يعتقد من أمور الدين .

والفرقة بالكسر الطائفة من الناس ، والناجية المنصورة ، هذا من أوصاف أهل السنة والجماعة ، كما قال النبي ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ، حتى يأتي أمر اللّه »[1] .

وأهل : بدل من الفرقة بالكسر ، ويجوز فيه الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره : هم ، وبالنصب على إضمار فعل تقديره : أعني أهل السنة . وسيأتي لهذا مزيد بحث في آخر العقيدة إن شاء اللّه .

قال الشيخ في مناظرته لمن اعترض نعته لأهل السنة بأنهم الفرقة الناجية ، وزعم أنه إذا كان هذا قول الفرقة الناجية خرج عن ذلك من لم يقل ذلك من المتكلمين ، قال الشيخ : قلت لهم : وليس كل من خالفني في شيء من هذا يكون هالكًا ؛ فإن المنازع قد يكون مجتهدًا مخطئًا يغفر اللّه خطاياه ، وقد لا يكون بلغه في ذلك من العلم ما تقوم عليه الحجة ، وقد يكون له من الحسنات ما يمحو اللّه به سيئاته ، وإذا كانت ألفاظ الوعيد المتناولة لا يجب أن يدخلَ فيها المتأول والقانت وذو الحسنات الماحية ، والمغفور له ، وغير ذلك فهذا أولى ، بل موجب الكلام أن من اعتقد ذلك نجا في هذا الاعتقاد ، ومن اعتقد ضده فقد يكون ناجيًا وقد لا يكون ناجيًا ، كما يقال : من صمت نجا ، وهي الإيمان باللّه ... إلخ .

---

(١) صحيح ابن حبان (٦٧١٤) . وأخرجه مسلم (١٩٢٠) بنحوه .

هذه الأصول الستة هي أركان الإيمان ؛ قال تعالى : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ . وقال : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ . وقال : ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ . وفي حديث جبريل المشهور حين سأل النبي ﷺ عن الإيمان : « الإيمان أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر ؛ خيره وشره »[1] .

وهذه الأركان العظيمة قد اتفقت عليها الرسل والشرائع ، ونزلت بها الكتب وآمن بها جميع المسلمين ، ولم يجحد شيئًا منها إلا من خرج عن دائرة الإيمان وصار من الكافرين .

والإيمان بالله معناه الاعتقاد الجازم أن الله رب كل شيء ومليكه وأنه الخالق وحده ، وأنه الذي يستحق أن يفرد بالعبادة والذل والخضوع وجميع أنواع العبادة وأنه المتصف بصفات العظمة ، والكمال ، المنزه عن كل سوء ونقص .

والإيمان بالملائكة الاعتقاد الجازم بأنهم موجودون ، قائمون بوظائفهم التي كلفهم الله بها ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، كما تواترت بذلك النصوص من القرآن والسنة « فكل حركة في السماوات والأرض من حركات الأفلاك والنجوم والشمس والقمر والرياح والسحاب والنبات والحيوان ، فهي ناشئة عن الملائكة الموكلين بالسماوات والأرض كما قال تعالى : ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ ، ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ . وهي الملائكة عند أهل الإيمان واتباع الرسل ، وأما المكذبون للرسل المنكرون للصانع فيقولون : هي النجوم . وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة وأنها موكلة بأصناف المخلوقات ، وأنه سبحانه وكل بالجبال ملائكة ، ووكل بالسحاب والمطر ملائكة ، ووكل بالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها ، ثم وكل بالعبد ملائكة لحفظه وما يعمله وإحصائه وكتابته ، ووكل بالموت ملائكة ، ووكل بالسؤال في القبر ملائكة ، ووكل بالأفلاك ملائكة يحركونها ، ووكل بالشمس والقمر ملائكة ، ووكل بالنار وإيقادها وتعذيب أهلها وعمارتها ملائكة ، ووكل بالجنة وغراسها وعمل الأنهار فيها ملائكة ، فالملائكة أعظم جنود الله ، ولفظ الملك يشعر بأنه رسول منفذ لأمر غيره ، فليس لهم من الأمر شيء ، بل الأمر كله لله الواحد القهار ، يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون . اهـ .

وكتبه فيجب الإيمان بكتب الله المنزلة من السماء على الأنبياء ، ما علمنا من ذلك كالتوراة والإنجيل والزبور والقرآن ، وما لم نعلم .

---

(١) مسلم (٣٧/١) من حديث ابن عمر ، عن أبيه ، رضي الله عنهما .

قال الحافظ : والإيمان بكتب الله التصديق بأنها كلام الله وأن ما تضمنه حق . اهـ .

ويجب مع الإيمان بالقرآن وأنه منزل من عند الله تكلم الله به ، كما تكلم بالكتب المنزلة على الأنبياء ، يجب مع هذا كله اتباع ما فيه من أوامر واجتناب ما فيه من زواجر .

ورسله فيجب التصديق بهم والإيمان بأنبياء الله ورسله من أولهم إلى آخرهم ، قال في شرح الطحاوية : وأما الأنبياء والمرسلون فعلينا الإيمان بمن سمي الله في كتابه من رسله ، والإيمان بأن الله أرسل رسلًا سواهم وأنبياء لا يعلم عددهم وأسماءهم إلا الله تعالى الذي أرسلهم ، فعلينا الإيمان بهم جملة ؛ لأنه لم يأت في عددهم نص ، وقد قال تعالى : ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ . وعلينا الإيمان بأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به على ما أمرهم الله به ، وبينوه بيانًا لا يسع أحدًا ممن أرسلوا له جهله ولا يحل خلافه ، قال تعالى : ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ . وأما أولوا العزم من الرسل فقد قيل فيهم أقوال ، أحسنها ما نقله البغوي وغيره عن ابن عباس وقتادة : أنهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، وهم المذكورون في قوله تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾ الآية ، وأما الإيمان بمحمد ﷺ فتصديقه واتباع ما جاء به من الشرائع إجمالًا وتفصيلًا . اهـ .

والبعث بعد الموت ، هو الإيمان بأن هناك دارًا آخرة يجازى فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، ويغفر الله ما دون الشرك لمن يشاء .

وقد كان المشركون الأولون ينكرون البعث ، ويقولون : ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمعبوثين ، وقد رد الله عليهم وكذبهم في زعمهم الباطل ، وبين أن من كان قادرًا على إيجادهم من العدم ، إذ أخرجهم لهذه الدنيا ، ولم يكونوا شيئًا هو كذلك قادر على إعادتهم مرة أخرى بطريق الأولى . قال تعالى : ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ . وقال : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ الآيات .

والإيمان بالبعث : أحد أركان الإيمان ، والصحيح : أنه مما دل عليه العقل مع الشرع ، قال الحافظ : ومناسبة الترتيب المذكور وإن كانت الواو لا ترتب ، بل المراد من التقديم أن الخير والرحمة

من اللَّه ، ومن أعظم رحمته أن أنزل كتبه إلى عباده والمتلقي لذلك منهم الأنبياء والواسطة بين اللَّه وبينهم الملائكة . اهـ .

وقال أيضًا : وقدم الملائكة على الكتب والرسل ؛ نظرًا للترتيب الواقع ؛ لأنه سبحانه أرسل الملك بالكتاب إلى الرسول قال : وليس فيه متمسك لمن فضل الملك على الرسول (قلت) : ومسألة تفضيل الملك على الرسول أو بالعكس مسألة لا طائل تحتها .

« وأصل البعث إثارة الشيء عن جفاء وتحريك عن سكون ، والمراد هنا إحياء الأموات وخروجهم من قبورهم ونحوها إلى حكم يوم القيامة » .

قوله : « والإيمان بالقدر خيره وشره » : وقد دل على إثبات القدر الكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح ، وخالف في ذلك القدرية النفاة ، وقد أنكر السلف عليهم أشد الإنكار لما أظهروا بدعتهم وسموهم مجوس هذه الأمة .

قال ابن عمر وقد قيل له : إن قومًا يقولون : لا قدر : إني منهم بريء وإنهم مني براء ، والذي يحلف به عبد اللَّه بن عمر لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبًا ثم أنفقه في سبيل اللَّه ما قبله اللَّه منه حتى يؤمن بالقدر ، ثم ذكر حديث سؤال جبريل للنبي ﷺ وفيه : « تؤمن بالقدر خيره وشره »[1] ، وقال ابن عباس : الإيمان بالقدر نظام التوحيد ، فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده .

« والقدر » مصدر نقول : قدرت الشيء بتخفيف الدال وفتحها أقدره بالكسر والفتح قَدَرًا وقَدْرًا إذا أحطت بمقداره ، والمراد أن اللَّه تعالى علم مقادير الأشياء وأزمانها قبل إيجادها ، ثم أوجد ما سبق في علمه أنه يوجد .

فكل محدث صادر عن علمه وقدرته وإرادته ، هذا هو المعلوم من الدين بالبراهين القطيعة ، وعليه كان السلف من الصحابة وخيار التابعين إلى أن حدثت بدعة القدر في أواخر زمن الصحابة .

فهذه أركان الإيمان الستة ، آمن بها حقيقة الإيمان اتباع الرسل .

وأما أعداؤهم ومن سلك سبيلهم من الفلاسفة ، وأهل البدع فهم متفاوتون في جحدها وإنكارها ، وأعظم الناس لها إنكارًا هم الفلاسفة المسمون عند من يعظمهم بالحكماء ، فإن من علم حقيقة قولهم علم أنهم لا يؤمنون باللَّه ولا رسله ولا كتبه ولا ملائكته ولا باليوم الآخر ، فإن مذهبهم أن اللَّه سبحانه موجود لا ماهية له ، ولا حقيقة فلا يعلم الجزئيات بأعيانها ، وكل موجود في الخارج فهو جزئي ولا يفعل عندهم بقدرته ومشيئته ، وإنما العالم عندهم لازم له أزلًا وأبدًا ، وإن سموه مفعولًا له فمصانعة

---

(١) مسلم في صحيحه (٨) من حديث يحيى بن يعمر عن عبد اللَّه بن عمر ﷺ .

ومصالحة للمسلمين في اللفظ، وليس عندهم بمفعول ولا مخلوق ولا مقدور عليه وينفون عنه سمعه وبصره وسائر صفاته فهذا إيمانهم بالله، وأما كتبه عندهم فإنهم لا يصفونه بالكلام فلا يكلم ولا يتكلم ولا قال ولا يقول، والقرآن عندهم فيض فاض من العقل الفعال على قلب بشر زاكي النفس طاهر متميز من النوع الإنساني بثلاث خصائص: قوة الإدراك وسرعته لينال العلم أعظم مما يناله غيره، وقوة النفس ليؤثر بها في هيولي العلم بقلب صورة إلى صورة، وقوة التخييل ليخل بها القوي العقلية في أشكال محسوسة وهي الملائكة عندهم، وليس في الخارج ذات منفصلة تصعد وتنزل وتذهب وتجيء وترى وتخاطب الرسول، وإنما ذلك عندهم أمور ذهنية لا وجود لها في الأعيان.

وأما اليوم الآخر فهم أشد الناس تكذيبًا وإنكارًا له في الأعيان، وعندهم أن هذا العالم لا يُخرب، ولا تنشق السماوات، ولا تنفطر، ولا تنكدر النجوم، ولا تكور الشمس والقمر، ولا يقوم الناس من قبورهم ويبعثون إلى جنة ونار.

كل هذا عندهم أمثال مضروبة لتفهيم العوام لا حقيقة لها في الخارج كما يفهم منها أتباع الرسل، فلا مبدأ عندهم، ولا معاد، ولا صانع، ولا نبوة، ولا كتب نزلت من السماء تكلَّم الله بها، ولا ملائكة تنزلت بالوحي من الله.

وقد أبدلتها المعتزلة بأصولهم الخمسة التي هدموا بها كثيرًا من الدين، فإنهم بنوا أصل دينهم على الجسم والعرض الذي هو الموصوف والصفة عندهم، واحتجوا بالصفات التي هي الأعراض على حدوث الموصوف الذي هو الجسم، وتكلموا في التوحيد على هذا الأصل.

فنفوا عن الله كل صفة تشبيها بالصفات الموجودة في الموصوفات التي هي الأجسام.

ثم تكلموا بعد ذلك في أفعاله التي هي القدر وسموا ذلك العدل.

ثم تكلموا في النبوة له والشرائع، والأمر والنهي والوعد والوعيد وهي: مسائل الأحكام التي هي المنزلة بين المنزلتين، ومسألة إنفاذ الوعيد، ثم تكلموا في مسألة إلزام الغير بذلك الذي هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضمنوه جواز الخروج على الأئمة بالقتال، فهذه أصولهم الخمسة التي وضعوها بإزاء أصول الدين الخمسة التي بُعث بها الرسول.

والرافضة المتأخرون جعلوا الأصول أربعة: التوحيد، والعدل، والنبوة، والإمامة.

وأصول أهل السنة والجماعة تابعة لما جاء به الرسول، وقال أبو طالب المكي: أصول الإيمان سبعة: يعني هذه الخمسة، والإيمان بالقدر والإيمان بالجنة والنار.

وهذا حق والأدلة عليه ثابتة محكمة قطعية. اهـ.

❁ قال الشيخ عبد العزيز الناصر الرشيد رحمه الله :

قوله : « الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ...» :

قوله : « الحمد » : الألف واللام للاستغراق ، فجميع أنواع المحامد كلها لله- سبحانه- ملكًا واستحقاقًا ، وهو لغة : الثناء بالصفات الجميلة ، والأفعال الحسنة ، وعرفًا : فعل ينبئ عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعمًا .

قال الشيخ تقي الدين رحمه الله : الحمد هو : ذكر صفات المحمود مع حبه وتعظيمه وإجلاله ، فإن تجرد عن ذلك فهو مدح ، فالفرق بينهما : أن الإخبار عن محاسن الغير إما أن يكون إخبارًا مجردًا من حب وإرادة ، أو مقرونًا بحبه وإرادته ، فإن كان الأول فهو مدح ، وإن كان الثاني فهو الحمد .

قوله : « لله » : لفظ الجلالة علم على ذاته- سبحانه- وهو أعرف المعارف على الإطلاق .

وقال بعض العلماء : إنه الاسم الأعظم ، وذكر في القرآن في (٢٣٦٠) ألفين وثلاث مائة وستين موضعًا ، وهو يتناول معاني سائر الأسماء بطريق التضمن ، وهو مشتق من أله يأله إذا عبد فهو إله بمعنى مألوه ، أي : معبود ، فالإله هو : المألوه والذي تألهه القلوب ، وكونه مستحقًّا للألوهية مستلزمًا لصفات الكمال فلا يستحق أن يكون معبودًا محبوبًا لذاته إلا هو ، وكل عمل لا يراد به وجهه فهو باطل ، وعبادة غيره وحب غيره يوجب الفساد ، كما قال تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] .

قوله : « الذي أرسل رسوله » : أي : بعث رسوله ، والرسول : إنسان ذكر أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه ، وأما النبي فهو مأخوذ من النبأ وهو الإخبار ؛ لأنهم مخبرون عن الله ، أو من النبوة وهي الرفعة ؛ لارتفاع رتب الأنبياء عليهم السلام ، وهو إنسان أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه ، فكل رسول نبي ولا ينعكس ، وعدد الأنبياء عليهم السلام مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا كما جاء في حديث أبي ذر[1] ، وقيل : لا يعرف عددهم بدليل قوله سبحانه : ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨] الآية ، وأما عدد الرسل فهم ثلاث مائة وثلاثة عشر ، كما في الحديث المذكور .

وأولو العزم منهم خمسة ، كما ذكر ذلك البغوي عن ابن عباس وغيرهم وهم : محمد ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ونوح عليهم السلام ، ونظمهم بعضهم بقوله :

محمد إبراهيم موسى كليمه فعيسى فنوح هم أولوا العزم فاعلم

وهم في الفضل على هذا الترتيب المذكور في البيت .

---

(١) أحمد (٥/٢٦٥) ، والطبراني (٨/٢١٧) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه .

قوله : « بالهدى » : أي : العلم النافع ، وقوله : « ودين الحقّ » : أي : العمل الصالح .

قوله : « ليظهره » : أي : يعليه وينصره ظهورًا بالحجة والبيان ، والسيف والسنان ، حتى يظهر على مخالفيه ، وقد وقع ذلك ، فإن المسلمين جاهدوا في اللّه حق جهاده حتى فتح اللّه عليهم ، فاتسعت رقعة البلاد الإسلامية شرقًا وغربًا في مدة يسيرة مع قلة عددهم وعدتهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم من الروم والفرس والترك والبربر وغيرهم ، فقهروا الجميع حتى علت كلمة اللّه ، وظهر دينه على سائر الأديان ، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها في أقل من ثلاثين عامًا .

قوله : « على الدين كله » : أي : على سائر الأديان ، كما ثبت في الصحيح من حديث ثوبان أن رسول اللّه ﷺ قال : « إن اللّه زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وأن مُلك أُمتي سيبلغ ما زوى لي منها »[1] ، وما في هذا الحديث أخبر به الرسول ﷺ في أول الأمر وأصحابه في غاية القلة قبل فتح مكة فكان كما أخبر ، فإن ملكهم انتشر في المشرق والمغرب ما بين أرض الهند أقصى المشرق إلى بحر طنجة في المغرب حيث لا عمارة وراءه ، وذلك ما لم تملكه أمة من الأمم ، وفي حديث جابر : « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل اللّه » . أخرجاه في « الصحيحين »[2] .

قوله : « وكفى باللّه شهيدًا » : أي : شاهدًا أنه رسوله وهو ناصره ومعليه ، وكفى بشهادته- سبحانه- إثباتًا لصدقه وكفى باللّه شهيدًا ، أي : في علمه واطلاعه على أمر محمد كفاية في صدق هذا المخبر عنه ؛ إذ لو كان مفتريًا لعاجله بالعقوبة البليغة ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ [الحاقة : ٤٤] . الآية .

ومن أسمائه- سبحانه- الشهيد ، قال اللّه تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت : ٥٣] .

أي : أنه لا يغيب عنه شيء ، ولا يعزب عنه ، بل هو مطلع على كل شيء مشاهد له عليم بتفاصيله ، فشهد- سبحانه- لرسوله أن ما جاء به حق وصدق ، فلا يليق به- سبحانه- أن يقر من يكذب عليه أعظم الكذب ، ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه ، ثم ينصره ويؤيده ويعلي شأنه ، ويجيب دعوته ، ويظهر على دينه من الآيات والبراهين ما يعجز عن مثله قوى البشر ، وهو مع ذلك كاذب عليه ومفتر ، ومعلوم أن شهادته - سبحانه- على كل شيء واطلاعه وقدرته وحكمته وعزته وكماله يأبى ذلك أشد

(١) مسلم (٢٨٨٩) ، وأبو داود (٤٢٥٢) من حديث ثوبان رضي الله عنه .

(٢) البخاري (٣١٢٠) ، ومسلم (٢٩١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الإباء ، ومن جوز ذلك فهو من أبعد الناس عن معرفته سبحانه ، انتهى من كلام ابن القيم - رحمه الله سبحانه وتعالى- باختصار .

قوله : « وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقرارًا به وتوحيدًا ...» :

قوله : « وأشهد » ؛ أي : أقر وأعترف أن لا معبود بحق في الوجود إلا الله ، وتأتي « شهد » بمعنى : أخبر ، كما في حديث ابن عباس : « شهد عندي رجال مرضيون وأرضاهم عندي عمر »[١] ، أي : أخبرني ، وتأتي بمعنى حضر ، كما في قوله سبحانه : ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥] أي : حضر ، وتأتي بمعنى : اطلع ، كما في قوله سبحانه : ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦] أي : مطلع . أفاده ابن القيم رحمه الله في كتابه « بدائع الفوائد » .

قوله : « أن لا إله إلا الله » : أن مخففه من الثقلية .

قوله : « لا إله إلا الله » : أي : لا معبود بحق في الوجود إلا الله سبحانه ، وهذا معنى هذه الكلمة العظيمة التي تدل عليه الأدلة ، خلافًا لمن زعم أن معناها : القدرة على الاختراع ، كما يقوله الأشاعرة ، فإن المشركين الذين بعث إليهم الرسول ﷺ يقرون بأن الله هو الخالق الرزاق ، المحيي المميت ، المدبر لجميع الأمر ؛ ولم يدخلهم ذلك في الإسلام ، بل قاتلهم رسول الله ﷺ واستحل دماءهم وأموالهم ، ولما قال لهم رسول الله : « اعبدوا الله واتركوا ما كان يعبد آباؤكم ، قولوا : لا إله إلا الله . أنكروا ذلك ونفروا ، وقالوا : أجعل الآلهة إلها واحدا »[٢] ، فدل على أن معنى هذه الكلمة هو إفراد الله بالعبادة ، وترك عبادة ما سواه ، وهذه الكلمة هي أول واجب وأعظم واجب على الإطلاق ، كما في الصحيح من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن : « فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله »[٣] ، وفي رواية : « إلى أن يعبدوا الله »[٤] ، فدل على أن التوحيد هو أول واجب على العباد ، خلافًا لمن زعم أن أول واجب معرفة الله بالنظر أو القصد إلى النظر أو الشك ، كما هي أقوال لأهل الكلام المذموم ، فإن معرفة الله فطرية فطر الله عليها عباده ، قال تعالى : ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] ؛ أي : أفي وجوده شك ؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده مجبولة على الإقرار به ، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة ، كما قال ﷺ : « كل مولود يولد

---

(١) البخاري (٥٥٦) ، ومسلم (٨٢٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) أحمد (١/٢٢٧) ، وابن حبان (٦٦٨٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) البخاري (١٤٢٥) ، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٤) البخاري (١٣٨٩) ، والبيهقي (٤/١٠١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه »[١].

ولهذه الكلمة ، أركان وشروط إلى غير ذلك من الأبحاث المتعلقة بهذه الكلمة العظيمة .

فأركان لا إله إلا الله اثنان : النفي ، الإثبات ، فـ « لا إله » نافيًا لجميع المعبودات ، و« إلا الله » مثبتًا العبادة للّه سبحانه ، وشروطهما سبعة : العلم ، واليقين ، والإخلاص ، والصدق ، والمحبة ، والانقياد ، والقبول ، ونظمها بعضهم بقوله :

علم يقين وإخلاص وصدقك مع ... محبة وانقياد والقبول لها

وزيد ثامنها الكفران منك بما ... غير الإله من الأوثان قد ألها

وتحقيقها : ألَّا يعبد إلا الله ، كما أن تحقيق شهادة أن محمدًا رسول الله ألَّا يعبد الله إلا بما شرع .

وحق هذه الكلمة : هو فعل الواجبات وترك المحرمات ، وأما فائدتها وثمرتها : فسعادة الدارين لمن قالها عارفًا بمعناها عاملًا بمقتضاها ، وأما مجرد النطق بها فقط فإنه لا ينفع .

قال الشيخ ابن تيمية رحمه الله : من اعتقد أنه بمجرد تلفظه بالشهادة يدخل الجنة ولا يدخل النار فهو ضال مخالف للكتاب والسنة والإجماع .

وأما فضلها : فقد تكاثرت الأحاديث في فضل هذه الكلمة ، منها : حديث عبادة بن الصامت المتفق عليه أن النبي ﷺ قال : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأن الجنة حق ، والنار حق ؛ أدخله الله الجنة على ما كان من العمل »[٢] ، وفي حديث أبي سعيد الخدري أن موسى عليه السلام قال : « يا رب ، علمني شيئًا أذكرك وأدعوك به ، قال : قل يا موسى : لا إله إلا الله »[٣] الحديث .

وفي هذا الحديث وغيره ردٌّ على من زعم أن الذكر بالاسم المفرد : « الله الله » أفضل من الذكر بالجملة المركبة ، كقوله : سبحانه الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، وهذا فاسد ؛ فإن الذكر بالاسم المفرد غير مشروع أصلًا ، ولا مفيد شيئًا ، ولا هو كلام ولا يدل على مدح ولا تعظيم ، ولا تعلق به إيمان ولا ثواب ولا دخل الذاكر به عقد الإسلام جملة ، فلو قال الكافر : « الله الله » طول عمره لم يصر بذلك مسلمًا ، فضلًا أن يكون من جملة الذكر أو يكون أفضل الأذكار ، إلى آخره ما ذكره ابن القيم رحمه الله في كتابه « سفر الهجرتين » .

---

(١) البخاري (١٣١٩) ، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) البخاري (٣٢٥٢) ، ومسلم (٢٨) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

(٣) ابن حبان (٦٢١٨) ، والحاكم (١٩٣٦) ، وأبو يعلى (١٣٩٣) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في « ضعيف الترغيب والترهيب » (٩٢٣) .

وأما نواقض « لا إله إلا الله » فكثيرة جدًا ذكرها العلماء في باب حكم المرتد ، وأعظمها الشرك بالله .

وإما إعراب هذه الكلمة : فـ « لا » نافية للجنس تعمل عمل إن ، و« إله » اسمها مبني معها على الفتح ، وخبرها محذوف التقدير حق ، و« إلا » أداة استثناء ملغاة ، ولفظ الجلالة مرفوع على البدلية .

وأما دلالتها على التوحيد فإنها دلت على أنواع التوحيد الثلاثة ، فدلت على إثبات العبادة لله ونفيها عمن سواه ، كما دلت- أيضًا- على توحيد الربوبية ، فإن العاجز لا يصلح إلهًا ، ودلت على توحيد الأسماء والصفات ، فإن مسلوب الأسماء والصفات ليس بشيء ، بل هو عدم محض ، كما قال بعض العلماء : المشبه يعبد صنمًا ، والمعطل يعبد عدمًا ، والموحد يعبد إله الأرض والسماء .

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله : وشهادة أن لا إله إلا الله فيها الإلهيات وهي الأصول الثلاثة : توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات ، وهذه الأصول الثلاثة تدور عليها أديان الرسل وما أنزل إليهم ، وهي الأصول الكبار التي دلت عليها وشهدت بها العقول والفطر .

قوله : « وحده » : فيه تأكيد للإثبات ، وقوله : « لا شريك له » : تأكيد للنفي .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : تأكيد بعد تأكيد اهتمامًا بمقام التوحيد .

قوله : « إقرارًا به » : أي : اعترافًا ، وقوله : « وتوحيدًا » مصدر وحد يوحد توحيدًا ؛ أي : جعله وحدا ، أي : فردًا فهو بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتًا وصفاتًا وأفعالاً ، وسمي دين الإسلام توحيدًا ؛ لأن مبناه على أن الله واحد في ملكه وأفعاله ، وواحد في ذاته وصفاته لا نظير له ، وواحد في ألوهيته وعبادته لا ند له ، وإلى هذه الأنواع الثلاثة ينقسم توحيد الأنبياء والمرسلين ، وهذه الثلاثة متلازمة ، كل نوع منها لا ينفك عن الآخر .

فتوحيد الربوبية : هو الإقرار بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر لجميع الأمور ، وهذا النوع من التوحيد أقر به المشركون ولم يدخلهم إقرارهم به في الإسلام .

النوع الثاني : توحيد الألوهية : وهو إفراد الله بالعبادة ، وهذا النوع هو الذي فيه الخصومة بين الأنبياء وأممهم .

النوع الثالث : توحيد الأسماء والصفات : وهو أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، وإن شئت قلت : التوحيد ينقسم إلى قسمين كما ذكره ابن القيم في « النونية » :

أحدهما : التوحيد الفعلي وهي المسمى بتوحيد الألوهية ، سمي فعليًا ؛ لأنه متضمن لأفعال القلوب والجوارح ، فأفعال القلوب ، كالرجاء والخوف والمحبة ، والجوارح ، كالصلاة والزكاة

والحج ونحو ذلك ، فهو إفراد الله بأفعال العبيد .

النوع الثاني : التوحيد القولي الاعتقادي ؛ سمي بذلك لاشتماله على أقوال القلوب وهو اعترافها واعتقادها ، وعلى أقوال اللسان ، وهذا النوع هو المسمى : توحيد الأسماء والصفات وتوحيد الربوبية .

والتوحيد القولي ينقسم إلى قسمين :

الأول : النفي .

والثاني : الإثبات .

فالنفي ينقسم إلى قسمين :

الأول : نفي النقائص والعيوب عن الله .

والثاني : نفي التشبيه والتعطيل عن أسمائه وصفاته .

والثاني : الإثبات : وهو إثبات صفات الكمال لله ، ثم السلب- أيضًا- ينقسم إلى قسمين :

الأول : سلب متصل .

والثاني : سلب منفصل ، فالأول نفي ما يناقض ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله من كل ما يضاد الصفات الكاملة من النقائص والعيوب ، كالموت ، والإعياء ، والنوم ، والنعاس ، والجهل ، والعجز ، ونحو ذلك ، والثاني سلب منفصل وهو تنزيهه- سبحانه- عن أن يشاركه في خصائصه التي لا تكون لغيره ، كالشريك والظهير والشفيع بغير إذنه ، ونفي الزوجة والولد ونحو ذلك .

وأما ضد التوحيد : فتوحيد الربوبية ضده اعتقاد مدبر أو خالق مع الله سبحانه وتعالى ، وضد توحيد الألوهية هو الإعراض عن عبادته ، أو عبادة غيره معه ، وضد توحيد الأسماء والصفات شيئان : التشبيه ، والتعطيل .

قوله : « محمد » : هذا أحد أسمائه ﷺ ، قيل : سمي به ؛ لكثرة خصاله الحميدة ، وهو اسمه الذي في التوراة ، وأما اسمه أحمد فهو الذي بشر به المسيح عليه السلام ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ الآية [الصف : ٦] .

قوله : « عبده » : أضافه إليه إضافة تشريف وتعظيم ، ووصفه بالعبودية بأشرف أحواله ؛ مقام الإرسال والإسراء والتحدي ، ومعنى العبد هنا : المملوك العابد ، والعبودية الخاصة وصفه ﷺ ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر : ٣٦] ، وأعلى مراتب العبد : العبودية الخاصة والرسالة ، والنبي ﷺ أكمل الخلق في هاتين الصفتين الشريفتين ، وأما الربوبية والألوهية فهما حق لله لا يشركه فيهما أحد ، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ، فضلًا عن غيرهما .

قوله : « عبده ورسوله » : إشارة للرد على أهل الإفراط والتفريط ، أهل الإفراط الذين غلوا فيه

ورفعوه عن منزلته ، وارتكبوا ما نهاهم النبي ﷺ من الغلو .

وأهل التفريط الذين يشهدون أن رسول الله حقًّا ، وهم مع ذلك قد نبذوا ما جاء به وراء ظهورهم ، واعتمدوا على الآراء المخالفة لما جاء به ، فإن شهادة أن محمدًا رسول الله تقتضي الإيمان به وطاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر ، فما أثبته وجب إثباته وما نفاه وجب نفيه ، فشهادة أن محمدًا رسول الله كما تقتضي الإيمان بجميع الرسل لما بينهما من التلازم ، وكذلك الكتب التي جاءت بها الرسل .

قوله : « صلى الله عليه ..» :

* صلاة الله على عبده هو ثناؤه في الملأ الأعلى كما ذكره البخاري في « صحيحه » عن أبي العالية ، وقيل : الرحمة ، والصواب الأول لوجوه عديدة ذكرها ابن القيم في « بدائع الفوائد » ، و« جلاء الأفهام » .

قوله : « وعلى آله » : أي : أتباعه على دينه ، كما هو رواية عن أحمد ، وعليه أكثر الأصحاب ، وعلى هذا فيشمل الصحابة وغيرهم من المؤمنين .

قوله : « وسلم » : السلام بمعنى : التحية أو السلامة من النقائص والرذائل ، ومن أسمائه سبحانه : السلام لسلامته من النقائص والعيوب ، كما قال ابن القيم في « النونية » :

وهو السلام على الحقيقة سالم   من كل عيب ومن نقصان

وجمع المصنف بين الصلاة والسلام امتثالًا لقوله سبحانه وتعالى : ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب : ٥٦] .

قوله : « مزيدًا » : أي : زائدًا عن الزيادة وهي النمو .

قوله : « أما بعدُ ؛ فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة ....» :

قوله : « أما بعد فهذا » : هذه الكلمة يؤتى بها للانتقال من أسلوب إلى أسلوب آخر ، ويندب الإتيان بها في الخطب والمكاتبات ، كما كان ﷺ يأتي بها في خطبه ومكاتباته ، رواه عبد القاهر الرهاوي في « الأربعين » له عن أربعين صحابيًّا .

قوله : « اعتقاد » : الاعتقاد لغة : الربط والجزم ، اعتقدت كذا : عقدت عليه القلب والضمير . انتهى « مصباح » .

وعرفه بعضهم اصطلاحًا بقوله : هو حكم الذهن الجازم ؛ فإن طابق فصحيح ، وإلا ففاسد .

قوله : « الفرقة » : أي : الطائفة والجماعة ، وأما الفرقة بالضم فمعناه : الافتراق .

قوله : « الناجية » : أي : التي سلمت من الهلاك والشرور في الدنيا والآخرة ، وحصلت على السعادة بسبب استقامتها على الحق وتمسكها بما كان عليه ﷺ وأصحابه ، كما في حديث أبي

هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»[(١)]، رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وحديث ابن ماجه مختصر، وقال الترمذي: حسن صحيح. وعن معاوية ﷺ أنه قال: ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال: «أن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة، وإن الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين؛ اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة»[(٢)]، رواه أبو داود، وفي رواية الترمذي: «كلهم في النار إلا واحدة». قالوا: من هي يا رسول الله؟ فقال: «من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»[(٣)]، وقال: هذا حديث غريب مفسر لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وقد أخطأ بعضهم في تعريف الفرقة الناجية أنها أهل الحديث والأشعرية والماتريدية، فإن لفظ الحديث يرد ذلك، فإن قوله: «واحدة» ينافي التعدد، فتعين أن تكون الفرقة الناجية هم أهل الحديث فقط وهم أهل السنة والجماعة.

قوله: «المنصورة»: أي: التي أعانها- سبحانه- وأيدها وقواها على من خالفها وعادها، وجعل العاقبة لها لتمسكها بما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، كما في الصحيح من حديث المغيرة عن النبي ﷺ قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون»[(٤)]، وفي حديث جابر بن سمرة، وجابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة»[(٥)]، رواه مسلم وغيره.

قال البخاري وغيره: هذه الطائفة هم أهل العلم، وقال أحمد: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم، وكذا قال يزيد بن هارون قال: قال القاضي عياض: إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة، ومن يعتقد مذهب أهل الحديث.

ففيه أعظم بشارة- أن الحق لا يزول بالكلية- وفيه معجزة ظاهرة للنبي ﷺ، فإنه لم يزل ولله

---

(١) أبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٣٩٩١)، وابن حبان (٦٢٤٧)، والحاكم (١٠، ٤٤١) من حديث أبي هريرة ﷺ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٠٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٥٩٧)، والدارمي (٢٥١٨) من حديث معاوية ﷺ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٦٤١).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، وأبو نعيم في الحلية (٩/٢٤٢) من حديث ابن عمرو ﷺ، وضعفه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٧١).

(٤) أخرجه البخاري (٦٨٨١)، ومسلم (١٩٢١/١٧١) من حديث المغيرة ﷺ.

(٥) مسلم (١٩٢٢) من حديث جابر بن سمرة، و(١٩٢٣) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

الحمد هذا الوصف باقيًا ولا يزال، وهذه سنة الله في خلقه أنه ينصر عباده المؤمنين، كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣]، وفي «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: من عادى لي وليًا فقد بارزني بالحرب»[١]. ولهذا أهلك الله قوم نوح وعاد وثمود وأشباههم ممن كذب الرسل وأنجى عباده المؤمنين، وهكذا نصر الله نبيه محمد وأصحابه على من خالفه وناوأه وعاداه، فجعل كلمته العليا، ودينه الظاهر على سائر الأديان، وفتح الله عليه مكة واليمن، ودانت له جزيرة العرب بكمالها، وأقام الله أصحابه وخلفاؤه من بعده فبلغوا عنه دين الله، ودعوا إلى الله وفتحوا البلاد والأقاليم حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها، ثم لا يزال هذا الدين قائمًا منصورًا إلى قيام الساعة، كما قال الله سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]. أي: يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأجل.

وعن أبي عتبة الخولاني قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسًا يستعملهم في طاعته»[٢] رواه ابن ماجه.

نقل نعيم بن طريف رحمه الله عن أحمد أنه قال: هم أصحاب الحديث، وفي السنن: «إن الله يبعث لهذه الأمة في رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[٣]، وقال علي رضي الله عنه: لن تخلو الأرض من قائم لله بحجته.

قوله: «إلى قيام الساعة»: أي ساعة موتهم بمجيء الريح التي تقبض روح كل مؤمن، وهي الساعة في حق المؤمنين وإلا فالساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق كما في «صحيح مسلم»: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله»[٤]. والمراد بالريح ما روى الحاكم أن عبد الله بن عمرو قال: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، هم شر أهل الجاهلية»[٥]. وقال عقبة لعبد الله: أعلم ما تقول، وأما أنا فسمعت النبي يقول: «لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله ظاهرين لا يضرهم

---

(١) البخاري (٦١٣٧)، وابن حبان (٣٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ابن ماجه (٨)، وأحمد (٤/٢٠٠)، وابن حبان (٣٢٦) من حديث أبي عتبة الخولاني، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٦٩٢).

(٣) أبو داود (٤٢٩١)، والحاكم (٨٥٩٢)، والطبراني في الأوسط (٦٥٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٨٧٤).

(٤) مسلم (١٤٨/٢٣٤)، وأحمد (١٠٧/٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٥) مسلم (١٩٢٤)، وابن حبان (٦٨٣٦) من حديث ابن عمرو رضي الله عنه.

من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك »[1]، قال عبد الله : ويبعث الله ريحًا ريحها ريح المسك ومسها مس الحرير ، فلا تترك أحدًا في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته ، ثم يبقى شرار الناس فعليهم تقوم الساعة .

قوله : « أهل السنة » : أي المختصون والمتمسكون بها والمعتنون بدراستها وفهمها المحكمون لها في القليل والكثير ، والسنة لغة : الطريقة ، وشرعًا : هي أقوال النبي وأفعاله وتقديراته ، وسموا أهل السنة لانتسابهم لسنته ﷺ دون المقالات كلها والمذاهب ، وقد سئل بعضهم عن السنة فقال : ما لا اسم له سوى السنة ، يعني : أن أهل السنة ليس لهم اسم ينتسبون إليه سواها خلافًا لأهل البدع ، فإنهم تارة ينتسبون إلى المقالة كالقدرية والمرجئة ، وتارة إلى القائل كالجهمية والنجارية ، وتارة إلى الفعل كالروافض والخوارج ، وأهل السنة بريئون من هذه النسب كلها ، وإنما نسبتهم إلى الحديث والسنة .

قوله : « والجماعة » : لغة : الفرقة من الناس ، والمراد بهم هنا أصحاب النبي ﷺ ومن تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة ، وقد تكاثرت الأدلة في الحث على لزوم الجماعة ؛ فروى الترمذي عن ابن عباس مرفوعًا : « إن يد الله على الجماعة »[2]. وعن أبي ذر مرفوعًا : « عليكم بالجماعة ، إن الله لم يجمع أمتي إلا على هدى »[3]. رواه أحمد ، وعن أبي ذر مرفوعًا : « من فارق الجماعة شبرًا فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه »[4] رواه أحمد وأبو داود .

قال أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة في كتاب « الباعث على إنكار البدع والحوادث » : حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة ، فإن المراد بها لزوم الحق ، وإن كان المتمسك به قليلًا والمخالف له كثيرًا ؛ لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي ﷺ ، ولا نظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم ، وقال ميمون بن مهران : قال ابن مسعود رضي الله عنه : الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك ، وقال نعيم بن حماد : إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد ، وإن كنت وحدك فإنك أنت الجماعة حينئذ . ذكره البيهقي وغيره .

قال ابن القيم في كتابه « أعلام الموقعين » : « واعلم أن الإجماع والحجة والسواد الأعظم هو العالم صاحب الحق وإن كان وحده ، وإن خالفه أهل الأرض ، وقد شذ الناس كلهم زمن الإمام

---

(١) مسلم (١٧٦/١٩٢٤) ، والحاكم (٨٤٠٩) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه .

(٢) الترمذي (٢١٦٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٨٠٦٥) .

(٣) أحمد (١٤٥/٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه ، قال الألباني في « ضعيف الجامع » (١٣٦) : موضوع .

(٤) أبو داود (٤٧٥٨) ، وأحمد (١٨٠/٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٦٤١٠) .

أحمد بن حنبل إلا نفرًا يسيرًا فكانوا هم الجماعة، وكان الفقهاء والمفتون والخليفة وأتباعه هم الشاذين، وكان الإمام أحمد وحده هو الجماعة، ولما لم يتحمل هذا عقول الناس قالوا للخليفة: يا أمير المؤمنين تكون أنت وقضاتك وولاتك والفقهاء والمفتون كلهم على الباطل، وأحمد وحده على الحق، فلم يتسع علمه لذلك، فأخذه بالسياط والعقوبة بعد الحبس الطويل، فلا إله إلا الله ما أشبه الليلة بالبارحة وهي السبيل المهيع لأهل السنة والجماعة حتى يلقوا ربهم، مضى عليها سلفهم وينتظرها خلفهم ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]. ولا حول ولا قوة إلا بالله». انتهى بتصرف.

ذكر المصنف رحمه الله أن الاعتقاد النافع المنجي من الشرور الذي هو سبب العزة والنصر والتأييد والرفعة والشرف، هو الاعتقاد المأخوذ من الكتاب والسنة، وهو الذي عليه الصحابة وتابعوهم بإحسان، وأصله الذي ينبى عليه هو هذه الأصول الستة المذكورة في حديث جبريل[(١)]. في هذه الرسالة من أولها إلى آخرها تفصيل لهذه الأصول الستة المذكورة في هذا الحديث وغيره من الآيات، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية، وهذه الأصول الستة اتفقت عليها الأنبياء والمرسلون عليهم السلام، ولم يؤمن بها حقيقة الإيمان إلا أتباع الرسل، وأما أعداؤهم ومن سلك سبيلهم من الفلاسفة وأهل البدع فهم متفاوتون في جحدها وإنكارها.

قوله: «الإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله ....»:

قوله: «الإيمان بالله»: الإيمان معناه لغة: التصديق، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، أي: مصدق، وكذلك إذا أقرن العمل فمعناه التصديق، قال الله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

أما الإيمان في الشرع: فهو قول وعمل واعتقاد، وذكر بعضهم إجماع السلف على ذلك، ومعنى الإيمان بالله: إثبات وجوده سبحانه، وأنه متصف بصفات الجلال والعظمة والكمال، منزه عن كل عيب ونقص، وأنه مستحق للعبادة لا إله غيره ولا رب سواه.

قوله: «وملائكته»: أي: التصدق بوجودهم، وأنهم كما وصفهم الله سبحانه وتعالى: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧] فيجب الإيمان بهم إجمالًا فيما لم نعلمه تفصيلًا، أما من علم عينه كجبريل وميكائيل وإسرافيل ونحوهم، فيجب الإيمان بأعيانهم.

(١) مسلم (١/٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

أما عددهم فلا يعلمه إلا اللَّه ، وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة ، وأنها موكلة بأصناف المخلوقات ، منهم موكلون بالسحاب والمطر ، ومنهم موكلون بالأرحام ، ومنهم موكلون بحفظ بني آدم ، ومنهم موكلون بحفظ ما يعمله وإحصائه وكتابته ، ومنهم الموكلون بالموت والسؤال في القبر ، إلى غير ذلك من أصناف الملائكة مما لا يعلمه إلا اللَّه ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر : ٣١] ، ومما تقدم يعلم بطلان قول من قال : إن الملائكة لا عقول لهم ، فقد تقدم أن منهم السفراء بين اللَّه ورسله ، والموكلين بأصناف المخلوقات ، إلى غير ذلك مما تواترت به الأدلة من صفاتهم وما كلفهم اللَّه به ، وما جاءت به الأدلة من عبادتهم العظيمة وخوفهم من اللَّه سبحانه وتعالى ، فهل يصدق عاقل أو من شم رائحة الإيمان بما زعمه هذا السفيه ، لا شك أن هذا قول باطل مصادم لأدلة الكتاب والسنة .

قوله : « وكتبه » : أي : التصديق بأنها كلام اللَّه ، وأنها حق ونور وهدى ، فيجب الإيمان بما سمى اللَّه منها من التوراة والإنجيل والزبور ، ونؤمن بأن للَّه سوى ذلك كتبًا أنزلها على أنبيائه لا يعرف أسمائها وعددها إلا اللَّه سبحانه وتعالى قال تعالى : ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن﴾ الآية [البقرة : ٢٨٥] ، وغيرها من الآيات الدالة على أن اللَّه تكلم بها حقًّا ، وأنها أنزلت من عنده ، وفي ذلك إثبات صفة الكلام والعلو ، أما الإيمان بالقرآن فالإقرار به واتباع ما فيه ، وذلك أمر زائد على الإيمان بغيره من الكتب .

قوله : « ورسله » : أي : التصديق بأنهم صادقون فيما أخبروا به ، وأنهم بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة ، وأنهم بينوا ما لا يسع أحدًا ممن أرسلوا إليهم جهله ولا يحل خلافه ، وأنه يجب احترامهم ، وألَّا يفرق بينهم فيجب الإيمان بمن سمى اللَّه في كتابه من رسله ، وأن للَّه رسلًا غيرهم وأنبياء لا يعلم عددهم إلا اللَّه ، فعلينا الإيمان بهم جملة ؛ لأنه لم يأت نص صحيح في عددهم ، وقد قال اللَّه تعالى : ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء : ١٦٤] الآية ، وقد سبق الكلام في هذا الموضوع .

فيجب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين وتصديقهم بكل ما أخبروا به من الغيب وطاعتهم في كل ما أمروا به ونهوا عنه ، قال تعالى : ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة : ١٣٦] .

قال ابن رجب رحمه الله : والإيمان بالرسل يلزم منه الإيمان بجميع ما أخبروا به من الملائكة والأنبياء والكتب والبعث والقدر ، وغير ذلك من صفات اللَّه وصفات اليوم الآخر ، كالصراط

والميزان، والجنة والنار ونحو ذلك.

وأفضل الخلق على الإطلاق نبينا ﷺ، والأفضل بعده أولوا العزم من الرسل، ثم بقية الرسل، ثم الأنبياء، ولا يبلغ الولي مهما بلغ من الجد والاجتهاد في طاعة الله درجة الأنبياء عليهم السلام، وقد شنع الشيخ تقي الدين رحمه الله على من يزعم ذلك ورد عليه أسوأ رد، وقال: إن ذلك مخالف لدين الإسلام واليهود والنصارى.

وأما الكلام على قوله: «والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر» فسيأتي إن شاء الله.

قال الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز رحمه الله:

قوله: «الفرقة الناجية: أهل السنة والجماعة في الأسماء والصفات»:

* هو إثبات ما جاء في القرآن العظيم والسنة الصحيحة، من أسماء الله وصفاته، على الوجه اللائق بجلال الله، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل؛ عملًا بقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فنفى عن نفسه المماثلة، وأثبت السمع والبصر، فدل ذلك على أن مراده: سمع وبصر لا يمثلان أسماع الخلق وأبصارهم. اهـ.

قال الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله:

قوله: «بسم الله الرحمن الرحيم»:

البداءة بالبسملة هي شأن جميع المؤلفين؛ اقتداء بكتاب الله؛ حيث أنزل البسملة في ابتداء كل سورة واستنادًا إلى سنة الرسول ﷺ.

وإعراب البسملة ومعناها تكلم فيه الناس كثيرًا، وفي متعلقها، وأحسن ما يقال في ذلك: أنها متعلقة بفعل محذوف متأخر مناسب للمقام؛ فإذا قدمتها بين يدى الأكل؛ يكون التقدير: باسم الله آكل، وبين يدى القراءة يكون التقدير: باسم الله أقرأ.

نقدره فعلا؛ لأن الأصل في العمل الأفعال لا الأسماء، ولهذا كانت الأفعال تعمل بلا شرط، والأسماء لا تعمل إلا بشرط؛ لأن العمل أصل في الأفعال، فرع في الأسماء.

ونقدّره متأخرًا لفائدتين:

الأولى: الحصر؛ لأن تقديم المعمول يفيد الحصر، فيكون: باسم الله أقرأ؛ بمنزلة: لا أقرأ إلا باسم الله. الثانية: تيمنًا بالبداءة باسم الله سبحانه وتعالى.

ونقدره خاصًا؛ لأن الخاص أدل على المقصود من العام، إذ من الممكن أن أقول: التقدير: باسم الله أبتدئ، لكن (باسم الله أبتدئ) لا تدل على تعيين المقصود، لكن (باسم الله أقرأ) خاص، والخاص أدل على المعنى عن العام.

قوله : « الله » : علم على نفس الله ﷻ ، ولا يُسمى به غيره ومعناه : المألوه ؛ أى : المعبود محبة وتعظيمًا وهو مشتق على القول الراجح لقوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣] ؛ فإن ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ متعلق بلفظ الجلالة ، يعنى : وهو المألوه فى السماوات وفى الأرض .

قوله: « الرحمن » : فهو ذو الرحمة الواسعة ؛ لأن (فعلان) فى اللغة العربية تدل على السعة والامتلاء ؛ كما يقال : رجل غضبان : إذا امتلأ غضبًا .

قوله: « الرحيم » : اسم يدل على الفعل ؛ لأنه فعيل بمعنى فاعل فهو دال على الفعل .

فيجتمع من « الرحمن الرحيم » : أن رحمة الله واسعة وأنها واصلة إلى الخلق . وهذا هو ما أومأ إليه بعضهم بقوله : الرحمن رحمة عامة ، والرحيم رحمة خاصة بالمؤمنين ، ولما كانت رحمة الله للكافر رحمة خاصة فى الدنيا فقط فكأنها لا رحمة لهم ؛ لأنهم فى الآخرة يقول تعالى لهم إذا سألوا الله أن يخرجهم من النار وتوسلوا إلى الله تعالى بربوبيته واعترافهم على أنفسهم : ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧] ؛ فلا تدركهم الرحمة ، بل يدركهم العدل ، فيقول الله ﷻ لهم : ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] .

قوله : « الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق » :

الله تعالى يحمد على كماله ﷻ وعلى إنعامه ؛ فنحن نحمد الله ﷻ ؛ لأنه كامل الصفات من كل وجه ، ونحمده أيضًا لأنه كامل الإنعام والإحسان ، [قال تعالى] : ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣] ، وأكبر نعمة أنعم الله بها على الخلق إرسال الرسل ، الذى به هداية الخلق .

ولهذا يقول المؤلف : « الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق » .

والمراد بالرسول هنا الجنس ؛ فإن جميع الرسل أرسلوا بالهدى ودين الحق ، ولكن الذى أكمل الله به الرسالة محمد ﷺ ؛ فإنه قد ختم الله به الأنبياء ، وتم به البناء ؛ كما وصف محمد ﷺ نفسه بالنسبة للرسل ، كرجل بنى قصرًا وأتمه ؛ إلا موضع لبنة ، فكان الناس يأتون إلى هذا القصر ويتعجبون منه ؛ إلا موضع هذه اللبنة ؛ يقول : « فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين »[1] . عليه الصلاة والسلام .

« بالهدى » : الباء هنا للمصاحبة ، والهدى هو العلم النافع ويحتمل أن تكون الباء للتعدية ، أى : إن المرسل به هو الهدى ودين الحق .

« ودين الحق » : هو العمل الصالح ؛ لأن الدين هو العمل أو الجزاء على العمل ؛ فمن إطلاقه على

(١) أخرجه البخارى (٣٥٣٥) ، ومسلم (٢٢٨٦) .

العمل : قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران : ١٩] ، ومن إطلاقه على الجزاء قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار : ١٧] . والحق ضد الباطل ، هو - أى الحق - المتضمن لجلب المصالح ودرء المفاسد فى الأحكام والأخبار .

قوله : « ليظهره على الدين كله » : اللام للتعليل ومعنى « ليظهره » ؛ أى : يعليه ؛ لأن الظهور بمعنى العلو ، ومنه : ظهر الدابة أعلاها ، ومنه : ظِهر الأرض سطحها ؛ كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر : ٤٥] .

والهاء فى « يظهره » هل هو عائد على الرسول أو على الدين ؟ إن كان عائدًا على « دين الحق » ؛ فكل مَن قاتل لدين الحق سيكون هو العالى ؛ لأن اللّه يقول : « ليظهره » ؛ يظهر هذا الدين على الدين كله ، وعلى ما لا دين له فيظهره عليهم من باب أولى ؛ لأن من لا يدين أخبث ممن يدين بباطل ؛ فإذن : كل الأديان التى يزعم أهلها أنهم على حق سيكون دين الإسلام عليها ظاهرًا ، ومَن سواهم من باب أولى .

وإن كان عائدًا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ فإنما يظهر اللّه رسوله ؛ لأن معه دين الحق .

وعلى كلا التقديرين ؛ فإن من تمسك بهذا الدين الحق ؛ فهو الظاهر العالى ، ومن ابتغى العزة فى غيره ؛ فقد ابتغى الذلَّ ؛ لأنه لا ظهور ولا عزة ولا كرامة إلا بالدين الحق ، ولهذا أنا أدعوكم معشر الإخوة إلى التمسك بدين اللّه ظاهرًا وباطنًا فى العبادة والسلوك والأخلاق ، وفى الدعوة إليه ، حتى تقوم الملة وتستقيم الأمة .

قوله : ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ . يقول أهل اللغة : إن الباء هنا زائدة ، لتحسين اللفظ والمبالغة فى الكفاية ، وأصلها : « وكفى اللّه » .

و« شهيدًا » : تمييز محول عن الفاعل ؛ لأن أصلها « وكفت شهادة اللّه » - المؤلف جاء بالآية - ولو قال قائل : ما مناسبة ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ ؛ لقوله : ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ؟

قيل : المناسبة ظاهرة ؛ لأن هذا النبى عليه الصلاة والسلام جاء يدعو الناس ويقول : « من أطاعنى دخل الجنة ، ومن عصانى دخل النار »[1] . ويقول بلسان الحال : من أطاعنى سالمته ، ومن عصانى حاربته ويحارب الناس بهذا الدين ، ويستبيح دماءهم وأموالهم ونساءهم وذريتهم ، وهو فى ذلك منصور مؤزر غالب غير مغلوب ؛ فهذا التمكين له فى الأرض ؛ أى تمكين اللّه لرسوله فى الأرض : شهادة من اللّه ﷻ فِعْلية بأنه صادق وأن دينه حق ؛ لأن كل من افترى على اللّه كذبًا فمآله الخذلان

(١) أخرجه البخارى (٧٢٨٠) .

والزوال والعدم ، وانظر إلى الذين ادَّعوا النبوة ماذا كان مآلهم ؟ أن نسوا وأهلكوا ؛ كمسيلمة الكذاب ، والأسود العنسى . . . وغيرهما ممن ادعوا النبوة ، كلهم تلاشوا وبان بطلان قولهم ، وحُرموا الصواب والسداد لكن هذا النبى محمدًا ﷺ على العكس دعوته إلى الآن ، والحمد للَّه ، باقية - ونسأل اللَّه أن يثبتنا وإياكم عليها - وإلى أن تقوم الساعة ثابتة راسخة ، يستباح بدعوته إلى اليوم دماء من ناوأها من الكفار وأموالهم ، وتسبى نساؤهم وذريتهم ، هذه الشهادة فِعْلية ، ما أخذه اللَّه ولا فضحه ولا كذبه ، ولهذا جاءت بعد قوله : ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ .

قوله : (وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له ، إقرارًا به وتوحيدًا) :

« أشهد » ؛ بمعنى : أقر بقلبى ناطقًا بلسانى ؛ لأن الشهادة نطق وإخبار عما فى القلب ؛ فأنت عند القاضى تشهد بحق فلان على فلان ؛ تشهد باللسان المعبر عما فى القلب واختيرت الشهادة دون الإقرار ؛ لأن الشهادة أصلها من شهود الشىء ؛ أى : حضوره ورؤيته ؛ فكأن هذا المخبر عما فى قلبه الناطق بلسانه ؛ كأنه يشاهد الأمر بعينه .

« لا إله إلا اللَّه » ؛ أى : لا معبود حق إلا اللَّه ، وعلى هذا يكون خبر لا محذوفا ، ولفظ الجلالة بدلًا منه .

« وحده » هى من حيث المعنى توكيد للإثبات .

« لا شريك له » : توكيد للنفى .

« إقرارًا به » : « إقرارًا » هذه مصدر ، وإن شئت ؛ فقل : إنه مفعول مطلق ؛ لأنه مصدر معنوى لقوله : « أشهد » ، وأهل النحو يقولون : إذا كان المصدر بمعنى الفعل دون حروفه ؛ فهو مصدر معنوى ، أو مفعول مطلق ، وإذا كان بمعناه وحروفه ؛ فهو مصدر لفظى فـ : قمت قيامًا : مصدر لفظى ، و : قمت وقوفًا : مصدر معنوى ، و : جلست جلوسًا : لفظى ، و : جلست قعودًا : معنوى .

« وتوحيدًا » مصدر مؤكد لقوله : « لا إله إلا اللَّه » .

قوله : (وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله) :

نقول فى « أشهد » ما قلنا فى « أشهد » الأولى .

محمد : هو ابن عبد اللَّه بن عبد المطلب القرشى الهاشمى الذى هو من سلالة إسماعيل بن إبراهيم ، أشرف الناس نسبًا ، عليه الصلاة والسلام .

هذا النبى الكريم هو عبد اللَّه ورسوله ، وهو أعبد الناس للَّه ، وأشدهم تحقيقًا لعبادته ، كان عليه الصلاة والسلام يقوم فى الليل حتى تتورم قدماه ويقال له : كيف تصنع هذا وقد غفر اللَّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فيقول : « أفلا أكون عبدًا شكورًا ؟ »[1] .

---

(١) أخرجه البخارى (٤٨٣٦) ، ومسلم (٢٨١٩) .

لأن اللّٰه تعالى أثنى على العبد الشكور حين قال عن نوح : ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ [الإسراء : ٣] ، فأراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يصل إلى هذه الغاية ، وأن يعبد اللّٰه تعالى حق عبادته ، ولهذا كان أتقى الناس ، وأخشى الناس للّٰه ، وأشدهم رغبة فيما عند اللّٰه تعالى ؛ فهو عبد للّٰه ، ومقتضى عبوديته أنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًا وليس له حق فى الربوبية إطلاقًا بل هو عبد محتاج إلى اللّٰه مفتقر له يسأله ويدعوه ويرجوه ويخافه ، بل إن اللّٰه أمره أن يعلن وأن يبلغ بلاغًا خاصًا بأنه لا يملك شيئًا من هذه الأمور فقال : ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ [الأعراف : ١٨٨] ، وأمره أن يقول : ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ [الأنعام : ٥٠] ، وأمره أن يقول : ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا إِلَّا بَلَٰغٗا﴾ [الجن : ٢١- ٢٣] ﴿إِلَّا﴾ استثناء منقطع ؛ أى : لكن أبلغ بلاغًا من اللّٰه ورسالاته .

فالحاصل أن محمدًا صلوات اللّٰه وسلامه عليه عبد للهِ ، ومقتضى هذه العبودية أنه لا حق له فى شىء من شئون الربوبية إطلاقًا .

وإذا كان محمد رسول اللّٰه صلوات اللّٰه وسلامه عليه بهذه المثابة ، فما بالك بمن دونه من عباد اللّٰه ؟ ! فإنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ، ولا لغيرهم أبدًا وبهذا يتبين سفه أولئك القوم الذين يدعون من يدعونهم أولياء من دون اللّٰه ﷻ .

قوله : « ورسوله » : هذا أيضًا وصف لا يكون لأحد بعد رسول اللّٰه ﷺ ؛ لأنه خاتم النبيين ؛ فهو رسول اللّٰه الذى بلغ مكانًا لم يبلغه أحد من البشر ، بل ولا من الملائكة فيما نعلم اللهم إلا حملة العرش ، وصل إلى ما فوق السماء السابعة ، وصل إلى موضع سمع فيه صريف أقلام القضاء[1] الذى يقضى به اللّٰه ﷻ فى خلقه ، ما وصل أحد فيما نعلم إلى هذا المستوى ، وكلمه اللّٰه ﷻ بدون واسطة ، وأرسله إلى الخلق كافة وأيده بالآيات العظيمة التى لم تكن لأحد من البشر أو الرسل قبله ، وهو هذا القرآن العظيم ؛ فإن هذا القرآن لا نظير له فى آيات الأنبياء السابقين أبدًا ، ولهذا قال اللّٰه تعالى : ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [العنكبوت : ٥٠، ٥١] ، هذا يكفى عن كل شىء ، ولكن لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، أما المُعرض ؛ فسيقول كما قال من سبقه : هذا أساطير الأولين .

الحاصل : أن محمدًا ﷺ رسول اللّٰه وخاتم النبيين ، ختم اللّٰه به النبوة والرسالة أيضًا ، لأنه إذا

---

(١) أخرجه البخارى (٣٤٩) ، ومسلم (١٦٣) .

انتفت النبوة ، وهى أعم من الرسالة ، انتفت الرسالة التى هى أخص ؛ لأن انتفاء الأعم يستلزم انتفاء الأخص ؛ فرسول الله عليه الصلاة والسلام هو خاتم النبيين .

قوله : (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا مزيدًا) :

معنى « صلى الله عليه » : أحسن ما قيل فيه ما قاله أبو العالية ﷺ ؛ قال : « صلاة الله على رسوله : ثناؤه عليه فى الملأ الأعلى »[1] .

وأما من فسر صلاة الله عليه بالرحمة ؛ فقوله ضعيف ؛ لأن الرحمة تكون لكل أحد ، ولهذا أجمع العلماء على أنك يجوز أن تقول : فلان ﷺ . واختلفوا ؛ هل يجوز أن تقول : فلان صلى الله عليه ؟ وهذا يدل على أن الصلاة غير الرحمة . وأيضا ؛ فقد قال الله تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧] . والعطف يقتضى المغايرة ، إذن ؛ فالصلاة أخص من الرحمة ؛ فصلاة الله على رسوله ثناؤه عليه فى الملأ الأعلى .

قوله : « وعلى آله » ، و(آله) هنا : أتباعه على دينه هذا إذا ذكرت الآل وحدها أو مع الصحب ؛ فإنها تكون بمعنى أتباعه على دينه منذ بعث إلى يوم القيامة ويدل على أن الآل بمعنى الأتباع على الدين قوله تعالى فى آل فرعون : ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] ؛ أى : أتباعه على دينه .

أما إذا قرنت بالأتباع ؛ فقيل : آله وأتباعه ، فالآل هم المؤمنون من آل البيت ؛ أى : بيت الرسول عليه الصلاة والسلام .

وشيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ لم يذكر الأتباع هنا ؛ قال : « آله وصحبه » ؛ فنقول : آله هم أتباعه على دينه ، وصحبه كل من اجتمع بالنبى ﷺ مؤمنًا به ومات على ذلك .

وعطف « الصحب » هنا على « الآل » من باب عطف الخاص على العام ؛ لأن الصحبة أخص من مطلق الاتباع .

قوله : « وسلم تسليما مزيدًا » : (سلم) فيها السلامة من الآفات ، وفى الصلاة حصول الخيرات ؛ فجمع المؤلف فى هذه الصيغة بين سؤال الله تعالى أن يحقق لنبيه الخيرات - وأخصها : الثناء عليه فى الملأ الأعلى - وأن يزيل عنه الآفات ، وكذلك من اتبعه .

والجملة فى قوله : « صلى » و« سلم » خبرية لفظًا طلبية معنى ؛ لأن المراد بها الدعاء .

قوله : « مزيدًا » ؛ بمعنى : زائدًا أو زيادة ، والمراد تسليمًا زائدًا على الصلاة ، فيكون دعاء آخر بالسلام بعد الصلاة .

---

(١) أخرجه البخارى (٨/٣٩٣) .

والرسول عند أهل العلم : « من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه »[1] .

وقد نبئ ﷺ بـ : ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ وأرسل بالمدثر ؛ فبقوله تعالى : ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ . إلى قوله تعالى : ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق : ١- ٥] كان نبيًا ، وبقوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ [المدثر : ١، ٢] كان رسولا عليه الصلاة والسلام .

« أما بعد » : (أما) هذه نائبة عن اسم شرط وفعله ، التقدير : مهما يكن من شيء ؛ قال ابن مالك :

أَمَّا كَمَهْمَا يَكُ مِنْ شَيْء وَفَا ... لِتِلْو تِلْوِهَا وجوبًا أُلِفَا

فقولهم : أما بعد : التقدير : مهما يكن من شيء بعد هذا ؛ فهذا .

وعليه ؛ فالفاء هنا رابطة للجواب والجملة بعدها فى محل جزم جواب الشرط ، ويحتمل عندى أن تكون : « أما بعد ؛ فهذا » ؛ أى أن (أما) حرف شرط وتفصيل أو حرف شرط فقط مجرد عن التفصيل ، والتقدير : أما بعد ذكر هذا ، فأنا أذكر كذا وكذا . ولا حاجة أن نقدر فعل شرط ، ونقول : إن (أما) حرف ناب مناب الجملة .

قوله : (فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة) :

« فهذا » : الإشارة لابد أن تكون إلى شيء موجود ، فأنا عندما أقول : هذا ؛ فإنى أشير إلى شيء محسوس ظاهر ، وهنا المؤلف كتب الخطبة قبل الكتاب وقبل أن يبرز الكتاب لعالم الشاهد ؛ فكيف ذلك ؟ !

أقول : إن العلماء يقولون : إن كان المؤلف كتب الكتاب ثم كتب المقدمة والخطبة ؛ فالمشار إليه موجود ومحسوس ، ولا إشكال فيه ، وإن لم يكن كتبه ، فإن المؤلف يشير إلى ما قام فى ذهنه عن المعانى التى سيكتبها فى هذا الكتاب ، وعندى فيه وجه ثالث ، وهو أن المؤلف قال هذا باعتبار حال المخاطب ، والمخاطب لم يخاطب بذلك إلا بعد أن برز الكتاب وصدر ؛ فكأنه يقول : « فهذا الذى بين يديك كذا وكذا » .

هذه إذن ثلاثة أوجه .

« اعتقادا » : افتعال من العقد وهو الربط والشد هذا من حيث التصريف اللغوى ، وأما فى الاصطلاح عنهم ؛ فهو حكم الذهن الجازم ؛ يقال : اعتقدت كذا ؛ يعنى : جزمت به فى قلبى ؛ فهو حكم الذهن الجازم ؛ فإن طابق الواقع ؛ فصحيح ، وإن خالف الواقع ؛ ففاسد ؛ فاعتقادنا أن الله إله واحد صحيح ، واعتقاد النصارى أن الله ثالث ثلاثة باطل ؛ لأنه مخالف للواقع ووجه ارتباطه بالمعنى اللغوى ظاهر ؛ لأن هذا الذى حكم فى قلبه على شيء ما كأنه عقده عليه وشده عليه بحيث لا يتفلت منه .

---

(١) « الصحيحة » للألبانى (٢٦٦٨) .

« الفرقة » بكسر الفاء ؛ بمعنى : الطائفة ، قال الله تعالى : ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التوبة : ١٢٢] ، وأما الفرقة بالضم ؛ فهى مأخوذة من الافتراق .

« الناجية » : اسم فاعل من نجا ، إذا سلم ؛ ناجية فى الدنيا من البدع سالمة منها ، وناجية فى الآخرة من النار .

ووجه ذلك أن النبى ﷺ قال : « وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا واحدة » . قالوا : من هى يا رسول الله ؟ قال : « من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي »[1] .

هذا الحديث يبين لنا معنى (الناجية) ؛ فمن كان على مثل ما عليه النبى ﷺ وأصحابه ؛ فهو ناجٍ من البدع . و« كلها فى النار إلا واحدة » : إذا هى ناجية من النار ؛ فالنجاة هنا من البدع فى الدنيا ، ومن النار فى الآخرة .

« المنصورة » عبر المؤلف بذلك موافقة للحديث ؛ حيث قال النبى ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين »[2] . والظهور الانتصار ؛ لقوله تعالى : ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف : ١٤] ، والذى ينصرها هو الله وملائكته والمؤمنون ؛ فهى منصورة إلى قيام الساعة ؛ منصورة من الرب ﷻ ، ومن الملائكة ، ومن عباده المؤمنين ، حتى قد يُنْصَرُ الإنْسَانُ من الجن ، ينصره الجنُّ ويُرهبون عدوه .

« إلى قيام الساعة » ؛ أى : إلى يوم القيامة ؛ فهى منصورة إلى قيام الساعة .

وهنا يَرِد إشكال ، وهو أن الرسول عليه الصلاة والسلام أخبر بأن الساعة تقوم على شرار الخلق[3] ، وأنه لا تقوم حتى لا يقال : الله الله[4] . فكيف نجمع بين هذا وبين قوله : « إلى قيام الساعة » ؟ !

والجواب : أن يقال : إن المراد : إلى قرب قيام الساعة ؛ لقوله فى الحديث : « حتى يأتى أمر الله » . أو : إلى قيام الساعة ؛ أى : ساعتهم ، وهو موتهم ؛ لأن من مات فقد قامت قيامته ، لكن الأول أقرب ؛ فهم منصورون إلى قرب قيام الساعة ، وإنما لجأنا إلى هذا التأويل لدليل ، والتأويل بدليل جائز ؛ لأن الكل من عند الله .

« أهل السنة والجماعة » : أضافهم إلى السنة ؛ لأنهم متمسكون بها ، والجماعة ؛ لأنهم مجتمعون عليها .

---

(١) صحيح الجامع للألبانى (٢٠٤٢) .

(٢) أخرجه البخارى (٣١١٦) ، ومسلم (١٠٣٧) .

(٣) أخرجه مسلم (١٩٢٤) .

(٤) أخرجه مسلم (١٤٨) .

فإن قلت : كيف يقول : « أهل السنة والجماعة » ؛ لأنهم جماعة ؛ فكيف يضاف الشيء إلى نفسه ؟ !

فالجواب : أن الأصل أن كلمة الجماعة بمعنى الاجتماع ؛ فهي اسم مصدر ، هذا في الأصل ، ثم نقلت من هذا الأصل إلى القوم المجتمعين ، وعليه ؛ فيكون معنى أهل السنة والجماعة ؛ أي : أهل السنة والاجتماع ، سموا أهل السنة ؛ لأنهم متمسكون بها ، وسموا أهل الجماعة ؛ لأنهم مجتمعون عليها .

ولهذا لم تفترق هذه الفرقة كما افترق أهل البدع ؛ نجد أهل البدع ؛ كالجهمية والروافض متفرقين ، وغيرهم من أهل التعطيل متفرقين ، لكن هذه الفرقة مجتمعة على الحق ، وإن كان قد يحصل بينهم خلاف ، لكنه خلاف لا يضر ، وهو خلافٌ لا يُضلل أحدهم الآخر به ؛ أي أن صدورهم تتسع له ، وإلا ؛ فقد اختلفوا في أشياء مما يتعلق بالعقيدة ، مثل : هل رأى النبي ﷺ ربه بعينه أم لم يره ؟ ومثله : هل عذاب القبر على البدن والروح أو الروح فقط ؟ ومثل بعض الأمور يختلفون فيها ، لكنها مسائل تعد فرعية بالنسبة للأصول ، وليست من الأصول . ثم هم مع ذلك إذا اختلفوا ؛ لا يُضلل بعضهم بعضًا ؛ بخلاف أهل البدع . إذن فهم مجتمعون على السنة ؛ فهم أهل السنة والجماعة .

وعلم من كلام المؤلف رحمه الله أنه لا يدخل فيهم من خالفهم في طريقتهم ؛ فالأشاعرة مثلا والماتريدية لا يعدون من أهل السنة والجماعة في هذا الباب ؛ لأنهم مخالفون لما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه في إجراء صفات الله سبحانه وتعالى على حقيقتها ، ولهذا يخطئ من يقول : إن أهل السنة والجماعة ثلاثة : سلفيون ، وأشعريون ، وماتريديون . فهذا خطأ ؛ نقول : كيف يكون الجميع أهل سنة وهم مختلفون ؟ ! فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ ! وكيف يكونون أهل سنة وكل واحد يرد على الآخر ؟ ! هذا لا يمكن ؛ إلا إذا أمكن الجمع بين الضدين ؛ فنعم ، وإلا ؛ فلا شك أن أحدهم وحده هو صاحب السنة ؛ فمن هو ؟ ! الأشعرية ، أم الماتريدية ، أم السلفية ؟ ! نقول : من وافق السنة ؛ فهو صاحب السنة ومن خالف السنة ؛ فليس صاحب سنة ؛ فنحن نقول : السلف هم أهل السنة والجماعة ، ولا يصدق الوصف على غيرهم أبدًا والكلمات تعتبر بمعانيها لننظر كيف نسمي من خالف السنة أهل سنة ؟ ! لا يمكن ! وكيف يمكن أن نقول عن ثلاث طوائف مختلفة : إنهم مجتمعون ؟ ! فأين الاجتماع ؟ ! فأهل السنة والجماعة هم السلف معتقدًا ، حتى المتأخر إلى يوم القيامة إذا كان على طريقة النبي ﷺ وأصحابه ؛ فإنه سلفي .

قوله : (وهو الإيمانُ باللَّهِ وملائكته وكتبه ورسله) :

هذه العقيدة أصَّلها لنا النبي ﷺ في جواب جبريل حين سأل النبي ﷺ : ما الإسلام ؟ ما الإيمان ؟

ما الإحسان؟ متى الساعة؟ فالإيمان - قال له: «أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره»[1].

«الإيمان بالله»: الإيمان في اللغة: يقول كثير من الناس: إنه التصديق؛ فصدقت وآمنت معناهما لغة واحد، وقد سبق لنا في «التفسير» أن هذا القول لا يصح بل الإيمان في اللغة: الإقرار بالشيء عن تصديق به؛ بدليل أنك تقول: آمنت بكذا وأقررت بكذا وصدقت فلانا. ولا تقول: آمنت فلانًا.

إذن فالإيمان يتضمن معنًى زائدًا على مجرد التصديق، وهو الإقرار والاعتراف المستلزم للقبول للأخبار والإذعان للأحكام، هذا الإيمان، أما مجرد أن تؤمن بأن الله موجود؛ فهذا ليس بإيمان، حتى يكون هذا الإيمان مستلزمًا للقبول في الأخبار والإذعان في الأحكام، وإلا؛ فليس إيمانًا.

والإيمان بالله يتضمن أربعة أمور:

١ - الإيمان بوجوده سبحانه وتعالى.

٢ - الإيمان بربوبيته؛ أي: الانفراد بالربوبية.

٣ - الإيمان بانفراده بالألوهية.

٤ - الإيمان بأسمائه وصفاته. لا يمكن أن يتحقق الإيمان إلا بذلك.

فمن لم يؤمن بوجود الله؛ فليس بمؤمن، ومن آمن بوجود الله لا بانفراده بالربوبية؛ فليس بمؤمن، ومن آمن بالله وانفراده بالربوبية لا بالألوهية؛ فليس بمؤمن، ومن آمن بالله وانفراده بالربوبية والألوهية لكن لم يؤمن بأسمائه وصفاته؛ فليس بمؤمن، وإن كان الأخير فيه من يسلب عنه الإيمان بالكلية وفيه من سلب عنه كمال الإيمان.

الإيمان بوجوده:

إذا قال قائل: ما الدليل على وجود الله ﷻ؟

قلنا: الدليل على وجود الله: العقل، والحس، والشرع؛

ثلاثة كلها تدل على وجود الله، وإن شئت، فزد: الفطرة، فتكون الدلائل على وجود الله أربعة: العقل، والحس، والفطرة، والشرع. وأخَّرنا الشرع، لا لأنه لا يستحق التقديم، لكن لأننا نخاطب من لا يؤمن بالشرع.

- فأما دلالة العقل؛ فنقول: هل وجود هذه الكائنات بنفسها، أو وُجدت هكذا صدفة؟

فإن قلت: وجدت بنفسها؛ فمستحيل عقلا ما دامت هي معدومة؛ كيف تكون موجودة وهي

(١) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

معدومة ؟! المعدوم ليس بشيء حتى يوجد ، إذن لا يمكن أن توجد نفسها بنفسها ، وإن قلت : وجدت صدفة ، فنقول : هذا يستحيل أيضًا ؛ فأنت أيها الجاحد ؛ هل ما أنتج من الطائرات والصواريخ والسيارات والآلات بأنواعها ؛ هل وجد هذا صدفة ؟! فيقول : لا يمكن أن يكون . فكذلك هذه الأطيار والجبال والشمس والقمر والنجوم والشجر والجمر والرمال والبحار وغير ذلك لا يمكن أن توجد صدفة أبدًا .

ويقال : إن طائفة من السُّمنية جاءوا إلى أبي حنيفة رحمه الله ، وهم من أهل الهند ، فناظروه في إثبات الخالق ﷻ ، وكان أبو حنيفة من أذكى العلماء فوعدهم أن يأتوا بعد يوم أو يومين ، فجاءوا ؛ قالوا : ماذا قلت ؟ قال : أنا أفكر في سفينة مملوءة من البضائع والأرزاق جاءت تشق عباب الماء حتى أرست في الميناء ونزلت الحمولة وذهبت ، وليس فيها قائد ولا حمالون .

قالوا : تفكر بهذا ؟! قال : نعم . قالوا : إذن ليس لك عقل ! هل يُعقل أن سفينة تأتي بدون قائد وتنزل وتنصرف ؟! هذا ليس معقول ! قال : كيف لا تعقلون هذا ، وتعقلون أن هذه السماوات والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب والناس كلها بدون صانع ؟ فعرفوا أن الرجل خاطبهم بعقولهم ، وعجزوا عن جوابه هذا أو معناه .

وقيل لأعرابي من البادية : بم عرفت ربك ؟ فقال : الأثر يدل على المسير ، والبعرة تدل على البعير ؛ فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ؛ ألا تدل على السميع البصير ؟

ولهذا قال الله ﷻ : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور : ٣٥] .

فحينئذ يكون العقل دالًا دلالة قطعية على وجود الله .

- وأما دلالة الحس على وجود الله ؛ فإن الإنسان يدعو الله ﷻ ؛ يقول : يا رب ! ويدعو بالشيء ، ثم يستجاب له فيه ، وهذه دلالة حسِّية ، هو نفسه لم يدعُ إلا الله ، واستجاب الله له ، رأى ذلك رأي العين . وكذلك نحن نسمع عمَّن سبق وعمَّن في عصرنا ؛ أن الله استجاب له .

فالأعرابي الذي دخل والرسول ﷺ يخطب الناس يوم الجمعة قال : هلكت الأموال ، وانقطعت السبل فادع الله أن يغيثنا . قال أنس : والله ، ما في السماء من سحاب ولا قزعة (أي : قطعة سحاب) وما بيننا وبين سَلْع (جبل في المدينة تأتي من جهته السحب) من بيت ولا دار .. وبعد دعاء الرسول ﷺ فورًا خرجت سحابة مثل الترس، وارتفعت في السماء وانتشرت ورعدت ، وبرقت ، ونزل المطر ، فما نزل الرسول ﷺ إلا والمطر يتحادر من لحيته عليه الصلاة والسلام[1] .

(١) أخرجه البخاري (٩٣٣) ، ومسلم (٨٩٧) .

وهذا أمر واقع يدل على وجود الخالق دلالة حسية .

وفي القرآن كثير من هذا ؛ مثل : ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ [الأنبياء : ٨٣، ٨٤] وغير ذلك من الآيات .

– وأما دلالة الفطرة ؛ فإن كثيرًا من الناس الذين لم تنحرف فطرهم يؤمنون بوجود الله ، حتى البهائم العجم تؤمن بوجود الله ، وقصة النملة التي رويت عن سليمان عليه الصلاة والسلام ؛ [أنه] خرج يستسقي ، فوجد نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها نحو السماء ، تقول : اللهم إنا خلق من خلقك ؛ فلا تمنع عنا سُقياك .

فقال : « ارجعوا ؛ فقد سقيتم بدعوة غيركم » .

فالفطر مجبولة على معرفة الله ﷻ وتوحيده . وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في قوله : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ﴾ [الأعراف : ١٧٢، ١٧٣] . فهذه الآية تدل على أن الإنسان مجبول بفطرته على شهادته بوجود الله وربوبيته وسواء أقلنا : إن الله استخرجهم من ظهر آدم واستشهدهم . أو قلنا : إن هذا هو ما رَكَّب الله تعالى في فطرهم من الإقرار به . فإن الآية تدل على أن الإنسان يعرف ربه بفطرته .

هذه أدلة أربعة تدل على وجود الله سبحانه وتعالى .

– وأما دلالة الشرع ؛ فلأن ما جاءت به الرسل من شرائع الله تعالى المتضمنة لجميع ما يصلح الخلق يدل على أن الذي أرسل بها رب رحيم حكيم ، ولا سيما هذا القرآن المجيد الذي أعجز البشر والجن أن يأتوا بمثله .

الملائكة جمع : ملأك ، وأصل ملأك : مألك ؛ لأنه من الألوكة ، والألوكة في اللغة الرسالة ؛ قال الله تعالى : ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ﴾ [فاطر : ١] .

فالملائكة عالم غيبي ، خلقهم الله ﷻ من نور ، وجعلهم طائعين له متذللين له ، ولكل منهم وظائف خَصَّه الله بها ، ونعلم من وظائفهم :

أولًا : جبريل : موكل بالوحي ، ينزل به من الله تعالى إلى الرسل .

ثانيًا : إسرافيل : موكل بنفخ الصور ، وهو أيضًا أحد حملة العرش .

ثالثًا : ميكائيل : موكل بالقطر والنبات .

وهؤلاء الثلاثة كلهم موكلون بما فيه حياة ؛ فجبريل موكل بالوحي وفيه حياة القلوب ، وميكائيل بالقطر والنبات وفيه حياة الأرض ، وإسرافيل بنفخ الصور وفيه حياة الأجساد يوم المعاد .

ولهذا كان النبى ﷺ يتوسل بربوبية الله لهم فى دعاء الاستفتاح فى صلاة الليل ، فيقول : « اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم »(١) ، هذا الدعاء الذى كان يقوله فى قيام الليل متوسلا بربوبية الله لهم .

كذلك نعلم أن منهم من وُكِّل بقبض أرواح بنى آدم ، أو بقبض روح كل ذى روح وهم : ملك الموت وأعوانه ولا يسمى : عزرائيل ؛ لأنه لم يثبت عن النبى عليه الصلاة والسلام أن اسمه هذا .

قال تعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام : ٦١] . وقال تعالى : ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة : ١١] . وقال تعالى : ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر : ٤٢] .

ولا منافاة بين هذه الآيات الثلاث ؛ فإن الملائكة تقبض الروح ؛ فإن ملك الموت إذا أخرجها من البدن تكون عنده ملائكة ، إن كان الرجل من أهل الجنة ؛ فيكون معهم حنوط من الجنة ، وكفن من الجنة ، يأخذون هذه الروح الطيبة ، ويجعلونها فى هذا الكفن ، ويصعدون بها إلى الله ﷻ حتى تقف بين يدى الله ﷻ ، ثم يقول : « اكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأعيدوه إلى الأرض » . فترجع الروح إلى الجسد من أجل الاختبار : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ وإن كان الميت غير مؤمن والعياذ بالله ، فإنه ينزل ملائكة معهم كفن من النار ، وحنوط من النار ، يأخذون الروح ، ويجعلونها فى هذا الكفن ، ثم يصعدون بها إلى السماء ، فتغلق أبواب السماء دونها وتطرح إلى الأرض ؛ قال الله تعالى : ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج : ٣١] ، ثم يقول الله : « اكتبوا كتاب عبدى فى سجين »(٢) . نسأل الله العافية ! .

هؤلاء موكلون بقبض الروح من ملك الموت إذا قبضها ، وملك الموت هو الذى يباشر قبضها ؛ فلا منافاة إذن ، والذى يأمر بذلك هو الله ، فيكون فى الحقيقة هو المتوفى .

ومنهم ملائكة سياحون فى الأرض ، يلتمسون حِلَق الذكر ، إذا وجدوا حلقة العلم والذكر ؛ جلسوا(٣) .

وكذلك هناك ملائكة يكتبون أعمال الإنسان : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ كِرَامًا كَٰتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار : ١٠- ١٢] ، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق : ١٨] .

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧٠) .

(٢) أخرجه أبو داود (٣٢١٢) ، والنسائى (٧٨/٤) ، وابن ماجه (١٥٤٨ ، ١٥٤٩) ، وأحمد (٢٨٧/٤) .

(٣) أخرجه البخارى (٦٤٠٨) ، ومسلم (٢٦٨٩) .

دخل أحد أصحاب الإمام أحمد عليه وهو مريض ﷺ فوجده يئن من المرض ، فقال له : يا أبا عبد الله ! تئن ، وقد قال طاوس : إن الملك يكتب حتى أنين المريض ؛ لأن الله يقول : ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ؟ فجعل أبو عبد الله يصبر وترك الأنين ؛ لأن كل شيء يكتب [كما قال تعالى] : ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ . من : زائدة لتوكيد العموم ، أي قول تقوله : يكتب لكن قد تجازى عليه بخير أو بشر ، هذا حسب القول الذى قيل .

ومنهم أيضًا ملائكة يتعاقبون على بنى آدم فى الليل والنهار ، ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد : ١١] .

ومنهم ملائكة رُكّع وسجّد لله فى السماء ؛ قال النبى عليه الصلاة والسلام : « أطت السماء ، وحق لها أن تئط » . والأطيط : صرير الرحل ؛ أى : إذا كان على البعير حمل ثقيل ؛ تسمع له صريرًا من ثقل الحمل ، فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « أطت السماء ، وحق لها أن تئط ما من موضع أربع أصابع منها ؛ إلا وفيه ملك قائم لله أو راكع أو ساجد »[1] . وعلى سعة السماء فيها هؤلاء الملائكة .

ولهذا قال الرسول ﷺ فى البيت المعمور الذى مر به فى ليلة المعراج ؛ قال : « يطوف به - أو قال : يدخله - سبعون ألف ملك كل يوم ، ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم »[2] . والمعنى : كل يوم يأتى إليه سبعون ألف ملك غير الذين أتوه بالأمس ، ولا يعودون له أبدًا ، يأتى ملائكة آخرون غير من سبق ، وهذا يدل على كثرة الملائكة ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر : ٣١] .

ومنهم ملائكة موكّلون بالجنة وموكلون بالنار ؛ فخازن النار اسمه مالك ؛ يقول أهل النار : ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف : ٧٧] ؛ يعنى : ليهلكنا ويمتنا ؛ فهم يدعون الله أن يميتهم ؛ لأنهم فى عذاب لا يصبر عليه ، فيقول : ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف : ٧٧] ؛ ثم يقال لهم : ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [الزخرف : ٧٨] .

المهم : أنه يجب علينا أن نؤمن بالملائكة .

وكيف الإيمان بالملائكة ؟

نؤمن بأنهم عالم غيبى لا يشاهدون ، وقد يشاهدون ، إنما الأصل أنهم عالم غيبى مخلوقون من نور مكلفون بما كلفهم الله به من العبادات وهم خاضعون لله ﷻ أتم الخضوع ، ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم : ٦] .

---

(١) صحيح الجامع للألبانى (٢٤٤٩) .

(٢) أخرجه البخارى (٣٢٠٧) ، ومسلم (١٦٤) .

كذلك نؤمن بأسماء من علمنا بأسمائهم ونؤمن بوظائف من علمنا بوظائفهم ويجب علينا أن نؤمن بذلك على ما علمنا .

وهم أجساد ؛ بدليل قوله تعالى : ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾ [فاطر : ١] ، ورأى النبي ﷺ جبريل على صورته التي خُلق عليها له ستمائة جناح قد سد الأفق(١)؛ خلافًا لمن قال : إنهم أرواح .

إذا قال قائل : هل لهم عقول ؟ نقول : هل لك عقل ؟ ما يسأل عن هذا إلا رجل مجنون ؛ فقد قال الله تعالى : ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ؛ فهل يثنى عليهم هذا الثناء وليس لهم عقول ؟ ! ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء : ٢٠] ؛ أنقول : هؤلاء ليس لهم عقول ؟ ! يأتمرون بأمر الله ، ويفعلون ما أمر الله به ويبلغون الوحي .

ونقول : ليس لهم عقول ؟ ! أحق من يوصف بعدم العقل من قال : إنه لا عقول لهم ! ! .

« وكُتبه » : أي كتب الله التي أنزلها مع الرسل .

ولكل رسول كتاب ؛ قال الله تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد : ٢٥] . وهذا يدل على أن كل رسول معه كتاب ، لكن لا نعرف كل الكتب ، بل نعرف منها : صحف إبراهيم وموسى ، والتوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والقرآن ؛ ستة ؛ لأن صحف موسى بعضهم يقول : هي التوراة ، وبعضهم يقول : غيرها ، فإن كانت التوراة ؛ فهي خمسة ، وإن كانت غيرها ؛ فهي ستة ، ولكن مع ذلك نحن نؤمن بكل كتاب أنزله الله على الرسل ، وإن لم نعلم به ، نؤمن به إجمالا .

« ورسله » : أي : رسل الله وهم الذين أوحى الله إليهم بالشرائع وأمرهم بتبليغها ، وأولهم نوح وآخرهم محمد ﷺ .

الدليل على أن أولهم نوح : قوله تعالى : ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء : ١٦٣] ؛ يعني : وحيًا ؛ كإيحائنا إلى نوح والنبيين من بعده ، وهو وحي الرسالة . وقوله : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد : ٢٦] ؛ ﴿فِى ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ : أي ذرية نوح وإبراهيم ، والذي قبل نوح لا يكون من ذريته . وكذلك قوله تعالى : ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الذاريات : ٤٦] ؛ قد نقول : إن قوله : ﴿مِن قَبْلُ﴾ : يدل على ما سبق .

إذن من القرآن ثلاثة أدلة تدل على أن نوحا أول الرسل ، ومن السُّنة ما ثبت في حديث الشفاعة :

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣٥) .

« أن أهل الموقف يقولون لنوح : أنت أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض »[١] ، وهذا صريح .

أما آدم عليه الصلاة والسلام ؛ فهو نبي ، وليس برسول .

وأما إدريس ؛ فذهب كثير من المؤرخين أو أكثرهم وبعض المفسرين أيضًا إلى أنه قبل نوح ، وأنه من أجداده لكن هذا قول ضعيف جدًّا والقرآن والسنة ترده ، والصواب ما ذكرنا .

وآخرهم محمد عليه الصلاة والسلام ؛ لقوله تعالى : ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب : ٤٠] ، ولم يقل : وخاتم المرسلين ؛ لأنه إذا ختم النبوة ؛ ختم الرسالة من باب أولى .

فإن قلت : عيسى عليه الصلاة والسلام ينزل في آخر الزمان وهو رسول ؛ فما الجواب ؟ .

نقول : هو لا ينزل بشريعة جديدة ، وإنما يحكم بشريعة النبي ﷺ .

فإذا قال قائل : من المتفق عليه أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ، وعيسى يحكم بشريعة النبي ﷺ ، فيكون من أتباعه ، فكيف يصح قولنا : إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ؟

فالجواب : أحد ثلاثة وجوه :

أولها : أن عيسى عليه الصلاة والسلام رسول مستقل من أولى العزم ولا يخطر بالبال المقارنة بينه وبين الواحد من هذه الأمة ؛ فكيف بالمفاضلة ؟ ! وعلى هذا يسقط هذا الإيراد من أصله ؛ لأنه من التنطُّع ، وقد « هلك المتنطعون » ؛ كما قال النبي ﷺ[٢] .

الثاني : أن نقول : هو خير الأمة إلا عيسى .

الثالث : أن نقول : إن عيسى ليس من الأمة ، ولا يصح أن نقول : إنه من أمته ، وهو سابق عليه ، لكنه من أتباعه إذا نزل ؛ لأن شريعة النبي ﷺ باقية إلى يوم القيامة .

فإن قال قائل : كيف يكون تابعًا ، وهو يقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ولا يقبل إلا الإسلام مع أن الإسلام يقر أهل الكتاب بالجزية ؟ ! . قلنا : إخبار النبي ﷺ بذلك إقرار له ، فتكون من شرعه ويكون نسخًا لما سبق من حكم الإسلام الأول .

قوله : (والبعث بعد الموت ، والإيمان بالقدر خيره وشره) :

البعث بمعنى الإخراج ؛ يعني : إخراج الناس من قبورهم بعد موتهم .

وهذا من معتقد أهل السنة والجماعة .

وهذا ثابت بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين ، بل إجماع اليهود والنصارى ؛ حيث يقرُّون بأن هناك يومًا يبعث الناس فيه ويجازون :

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٦) ، ومسلم (١٩٣) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٠) .

- أما القرآن ؛ فيقول الله ﷻ : ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ [التغابن : ٧] ، وقال ﷻ : ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون : ١٥، ١٦] .

- وأما في السنة ؛ فجاءت الأحاديث المتواترة عن النبي ﷺ في ذلك .

- وأجمع المسلمون على هذا إجماعًا قطعيًا ، وأن الناس سيبعثون يوم القيامة ويلاقون ربهم ويجازون بأعمالهم ؛ ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة : ٧، ٨] .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق : ٦] ؛ فتذكر هذا اللقاء حتى تعمل له ؛ خوفًا من أن تقف بين يدى الله ﷻ يوم القيامة وليس عندك شيء من العمل الصالح ، انظر ماذا عملت ليوم النقلة ؟ وماذا عملت ليوم اللقاء ؟ فإن أكثر الناس اليوم ينظرون ماذا عملوا للدنيا ؛ مع العلم بأن هذه الدنيا التي عملوا لها لا يدرون هل يدركونها أم لا ؟ قد يخطط الإنسان لعمل دنيوي يفعله غدًا أو بعد غد ، ولكنه لا يدرك غدًا ولا بعد غد ، لكن الشيء المتيقن أن أكثر النـاس في غفلة من هذا ؛ قال الله تعالى : ﴿بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ [المؤمنون : ٦٣] وأعمال الدنيا يقول : ﴿وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ [المؤمنون : ٦٣] ، فأتى بالجملة الاسمية المفيدة للثبوت والاستمرار : و﴿هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ ، وقال تعالى : ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ [ق : ٢٢] : يعنى : يوم القيامة وقال تعالى : ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ [ق : ٢٢] .

هذا البعث الذى اتفقت عليه الأديان السماوية وكل متدين بدين هو أحد أركان الإيمان الستة وهو من معتقدات أهل السنة والجماعة ولا ينكره أحد ممن ينتسب إلى ملة أبدًا .

هذا الركن السادس : الإيمان بالقدر خيره وشره .

القدر هو : « تقدير الله ﷻ للأشياء » .

وقد كتب الله مقادير كل شيء قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة[1] ؛ كما قال الله تعالى : ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحج : ٧٠] .

وقوله : « خيره وشره » : أما وصف القدر بالخير ؛ فالأمر فيه ظاهر . وأما وصف القدر بالشر ؛ فالمراد به شر المقدور لا شر القدر الذى هو فعل الله ؛ فإن فعل الله ﷻ ليس فيه شر ، كل أفعاله خير وحكمة ، ولكن الشر في مفعولاته ومقدوراته ؛ فالشر هنا باعتبار المقدور والمفعول ، أما باعتبار

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣) .

الفعل ؛ فلا ، ولهذا قال النبى عليه الصلاة والسلام : « والشر ليس إليك »[١].

فمثلا ؛ نحن نجد فى المخلوقات المقدورات شرًا ؛ ففيها الحيات والعقارب والسباع والأمراض والفقر والجدب وما أشبه ذلك ، وكل هذه بالنسبة للإنسان شر ؛ لأنها لا تلائمه ، وفيها أيضًا المعاصى والفجوز والكفر والفسوق والقتل وغير ذلك ، وكل هذه شر ، لكن باعتبار نسبته إلى اللَّه هى خير ؛ لأن اللَّه ﷻ لم يقدرها إلا لحكمة بالغة عظيمة ، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها .

وعلى هذا يجب أن تعرف أن الشر الذى وُصِفَ به القدر إنما هو باعتبار المقدورات والمفعولات ، لا باعتبار التقدير الذى هو تقدير اللَّه وفعله .

ثم اعلم أيضًا أن هذا المفعول الذى هو شر قد يكون شرًا فى نفسه ، لكنه خير من جهة أخرى ؛ قال اللَّه تعالى : ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم : ٤١] ، النتيجة طيبة ، وعلى هذا ؛ فيكون الشر فى هذا المقدور شرًا إضافيًا ؛ يعنى : لا شرا حقيقيا ؛ لأن هذا ستكون نتيجته خيرًا .

ولنفرض حد الزانى مثلا إذا كان غير محصن أن يجلد مائة جلدة ويسفر عن البلد لمدة عام ، هذا لاشك أنه شر بالنسبة إليه ؛ لأنه لا يلائمه ، لكنه خير من وجه آخر لأنه يكون كفارة له ؛ فهذا خير ؛ لأن عقوبة الدنيا أهون من عقوبة الآخرة ؛ فهو خير له ، ومن خيره أنه ردع لغيره ونكال لغيره ؛ فإن غيره لو هم أن يزنى وهو يعلم أنه سيفعل به مثل ما فعل بهذا ؛ ارتدع ، بل قد يكون خيرًا له هو أيضًا ، باعتبار أنه لن يعود إلى مثل هذا العمل الذى سبب له هذا الشيء .

أما بالنسبة للأمور الكونية القدرية ؛ فهناك شيء يكون شرًا باعتباره مقدورًا ؛ كالمرض مثلا ؛ فالإنسان إذا مرض ؛ فلا شك أن المرض شر بالنسبة له ؛ لكن فيه خير له فى الواقع ، وخيره تكفير الذنوب ، قد يكون الإنسان عليه ذنوب ما كفرها الاستغفار والتوبة ، لوجود مانع ؛ مثلا لعدم صدق نيته مع اللَّه ﷻ فتأتى هذه الأمراض والعقوبات ، فتكفر هذه الذنوب .

ومن خيره أن الإنسان لا يعرف قدر نعمة اللَّه عليه بالصحة ، إلا إذا مرض ، نحن الآن أصحاء ولا ندرى ما قدر الصحة لكن إذا حصل المرض ؛ عرفنا قدر الصحة فالصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يعرفها إلا المرضى .. هذا أيضًا خير ، وهو أنك تعرف قدر النعمة .

ومن خيره أنه قد يكون فى هذا المرض أشياء تقتل جراثيم فى البدن لا يقتلها إلا المرض ؛ يقول الأطباء : بعض الأمراض المعينة تقتل هذه الجراثيم التى فى الجسد وأنت لا تدرى .

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧١) .

فالحاصل أننا نقول :

أولًا : الشر الذى وصف به القدر هو شر بالنسبة لمقدور اللَّه ، أما تقدير اللَّه ؛ فكله خير والدليل قول النبى ﷺ : « والشر ليس إليك » .

ثانيا : أن الشر الذى فى المقدور ليس شرًا محضًا بل هذا الشر قد ينتج عنه أمور هى خير ، فتكون الشرية بالنسبة إليه أمرًا إضافيًا .

هذا ؛ وسيتكلم المؤلف رحمه الله على القدر بكلام موسع يبين درجاته عند أهل السنة .

۞ قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك حفظه اللَّه :

قوله : « الحمد للَّه » :

* هذه افتتاحية العقيدة الواسطية من تأليف الإمام الكبير الشهير بعلمه ، وجهاده ، وإحيائه للسنن ، ومحاربته للبدع الإمام المعروف أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني رحمه الله .

وهذا الكتاب الموسوم بالعقيدة الواسطية نسبة إلى من طلب من الشيخ كتابتها ، وهو رجل من أهل العلم في نواحي واسط- بلد معروف في العراق- فعرفت بالعقيدة الواسطية .

ولا مشاحة في التسمية ؛ فالمقصود التمييز ، كما أن لشيخ الإسلام مؤلفات كثيرة في مسائل الاعتقاد ، بل لعلنا لا نبالغ إذا قلنا : إن معظم مؤلفات شيخ الإسلام في مسائل الاعتقاد .

فقد ألف في مسائل الاعتقاد مؤلفات مطولة ومختصرة ، ومعظمها ألفها إجابة للسائلين ، فهو لا يكاد يبتدئ التأليف ابتداء ، بل جل مؤلفاته إجابة لمسائل ، وردود على المخالفين ، ومن أمتع وأفضل ما ألف في الاعتقاد هذه العقيدة : « العقيدة الواسطية » ، التي ذكر أنه كتبها وهو قاعد بعد العصر ، كتبها في مجلس واحد .

وقد نوظر في شأنها وجودل ؛ لأنه قرر فيها اعتقاد أهل السنة والجماعة من السلف الصالح ، من الصحابة والتابعين وأئمة الدين ، ومن سلك سبيلهم .

وهذا ما يخالفهم ما عليه جمهور الناس فقد دخلت عليهم المذاهب المبتدعة ؛ فلذلك ينكرون ويستنكرون ما يخالف ما هم عليه .

وقد أبان رحمه الله في المناظرة التي كتبها ، أنه إنما يقرر في هذا الاعتقاد ما دل عليه الكتاب والسنة ، وما درج عليه أهل القرون المفضلة من الصحابة والتابعين ، وأنه في هذه العقيدة يتحرى الألفاظ الشرعية .

وهذه العقيدة متميزة على سائر ما ألفه رحمه الله ؛ فكثير من مؤلفاته في مسائل الاعتقاد مشتمل على ذكر شبهات المفترين ، ومناقشتها مناقشة عقلية وشرعية ، كما هو ظاهر في « الرسالة التدمرية » .

أما العقيدة الواسطية فإنها خالصة، فيها تقرير لمعتقد أهل السنة والجماعة وبيان أصولهم، مع التدليل على ذلك من القرآن والسنة، من غير تعرض لشبهات المخالفين؛ فلذلك كانت هذه العقيدة جديرة بالحفظ.

وقد عرض فيها رحمه الله لأكثر المسائل التي وقع فيها الافتراق والتي خالف فيها أهل السنة سائر فرق الأمة.

قوله: «الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدًا»:

*هذا الثناء مقتبس من القرآن؛ كما في سورة الفتح: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨].

والهدى هو: العلم النافع، ودين الحق هو العمل الصالح، وهذا جماع رسالة محمد ﷺ، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ كفى به مطلعًا على عباده، وأحوالهم الظاهرة والباطنة.

وفي هذا إشارة إلى دليل من أدلة صدق الرسول ﷺ؛ فإن الإيمان باطلاعه- تعالى- على أحوال الخلق يستلزم الإيمان بصدق محمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

فكفى دليلا على صدق الرسول ﷺ، وصدق ما جاء به من القرآن والحكمة، أنه تعالى على كل شيء شهيد ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

قوله: «وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقرارًا به وتوحيدًا»:

*هذه كلمة التوحيد المركبة من نفي وإثبات، من نفي إلهية ما سوى الله، وإثبات الإلهية له تعالى وحده.

«وأشهد أن لا إله إلا الله وحده»: فوحده هذه حال مؤكدة لمدلول الإثبات «إلا الله».

«لا شريك له»: هذه أيضًا جملة مؤكدة لمدلول النفي «لا إله».

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقرارًا به وتوحيدًا»، وهذا تأكيد بعد توكيد؛ إقرارًا به وتوحيدًا له سبحانه وتعالى في إلهيته، وربوبيته، وأسمائه وصفاته.

قوله: «وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله»:

*وهكذا يجب أن يشهد الإنسان للنبي ﷺ بأنه عبد الله ورسوله، يجب أن نجمع في الشهادة للرسول ﷺ بأنه عبد عابد لله مربوب مدبر، ليس بإله، وليس له شيء من خصائص الإلهية، بل رسول من عند الله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وهذا هو الصراط المستقيم فيما يجب اعتقاده في الرسول ﷺ، فإن الناس فيه ﷺ طرفان ووسط، فمن الناس من فرط في حقه فكذبه أو قصر في اتباعه.

ومنهم من غلا فيه، ورفعه فوق منزلته التي أنزله الله فيها، وهذا ما حذر منه ﷺ في قوله: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»[1]؛ يعني: لا تبالغوا في مدحي ولا تغلوا في «وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ»، كما في التشهد[2]، «صلى الله عليه»، وهذه صفة صلاتنا عليه: أن نسأل الله أن يصلي عليه، كما قال ﷺ لما قال له الصحابة: «كيف نصلي عليك؟ قال: قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد» الحديث[3].

فصلاتنا على الرسول ﷺ هي دعاؤنا وسؤالنا الله بأن يصلي عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وأحسن ما قيل في هذا المقام: إن الصلاة من الله ثناؤه على عبده عند الملائكة.

ولنبينا ﷺ من ثناء الله أكمل ثناء أثنى الله به على عبد من عباده؛ لأنه ﷺ هو سيد ولد آدم، فحظه من صلاة الله ومن ثنائه أوفر حظ ونصيب.

«وعلى آله وأصحابه» الآل هنا: هم أتباعه ﷺ، وعطف الصحابة على الآل في هذا المقام من عطف الخاص على العام، وقد درج أهل السنة على ذكر الصحابة في الصلاة على الرسول ﷺ، خارج الصلاة، أما في الصلاة فيتقيد بنص ما ورد.

وهذا كله دعاء له ﷺ بأن يصلي الله عليه، وأن يسلم عليه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾، وصلاتنا وسلامنا عليه بأن نسأل الله أن يصلي ويسلم عليه، ومن صفة السلام ما جاء في التشهد: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته»[4].

هذه الخطبة اشتملت على حمد الله، فله الحمد كله، له المدح والثناء كله؛ لأنه الموصوف بجميع المحامد، الموصوف بكل كمال، فلا يستحق الحمد كله والثناء كله إلا المستحق لكل كمال، الموصوف بجميع نعوت الجلال، وليس ذلك إلا الله وحده، فهو الذي له الحمد كله، وله الملك كله، وبيده الخير كله سبحانه وتعالى.

---

(١) البخاري (٣٤٤٥) من حديث عمر رضي الله عنه.

(٢) البخاري (٨٣١)، ومسلم (٤٠٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) البخاري (٣٣٧٠)، ومسلم (٤٠٦) من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه.

(٤) صحيح سنن أبي داود (حديث رقم: ٩٦٨).

قوله : « صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ..» :

* يعني : وسلم الله عليه . « تسليمًا » : هذا مصدر مؤكد . « مزيدًا » : موصولًا بالزيادة مستمرًا دائمًا .

قوله : « أما بعدُ » :

* هذه جملة يؤتى بها للانتقال من المقدمة إلى المقصود ، وكان من هديه ﷺ أنه يقول في خطبه : أما بعد ، ومعناها عند أهل اللغة : مهما يكن من شيء بعد فهو كذا وكذا .

قوله : « فهذا اعتقاد » :

* إشارة إلى ما هو حاضر مما سيذكره الشيخ في هذه العقيدة ، وبهذا يتبين أن الشيخ قصد في هذا التأليف إلى بيان اعتقاد الفرقة الناجية في ربهم ، واعتقادهم فيما أمر الله بالإيمان به .

قوله : « الفرقة الناجية المنصورة » :

* وصفها بالصفتين ، الناجية والمنصورة أخذًا من الحديث المشهور المروي في المسانيد والسنن عن النبي ﷺ : « إن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ، قيل : من هي يا رسول الله؟ قال : من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي »[1] : وفي لفظ « وهي الجماعة »[2]، هذه هي الفرقة الناجية .

فالفرقة المستقيمة على ما كان عليه الرسول ﷺ توصف بأنها الناجية أخذًا من هذا الحديث ؛ لقوله ﷺ : « كلها في النار إلا واحدة » ، وهي المنصورة ؛ لقوله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى »[3]. فهي موصوفة بالنجاة وبالنصر .

والفرقة الناجية المنصورة : هم أهل السنة والجماعة الذين التزموا طريقة الرسول ﷺ ، وما عليه جماعة المسلمين ، واعتصموا بحبل الله جميعًا ، وجانبوا الفرقة وأسبابها .

والفرقة ، والطائفة معناهما متقارب ، ثم بين الشيخ هذا الاعتقاد إجمالًا بقوله : « وهو الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والبعث بعد الموت ، والإيمان بالقدر خيره وشره » .

---

(١) الترمذي (٢٦٤١) ، والحاكم (٤٤٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ، وحسنه الألباني في « صحيح سنن الترمذي » .

(٢) أخرجه أبو داود (٤٥٩٧) ، وأحمد (١٠٢/٤) من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، وابن ماجه (٣٩٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٢٠٤٢) .

(٣) البخاري (٣٦٤١) ، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية رضي الله عنه .

هذه هي أصول الإيمان التي فسر بها النبي ﷺ الإيمان في حديث جبريل حين سأل النبي ﷺ فقال: «أخبرني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»[(١)].

هذه أصول الإيمان الستة، فجميع مسائل الاعتقاد راجعة إلى هذه الأصول.

إذن؛ هذا هو اعتقاد الفرقة الناجية بهذه الأصول على سبيل الإجمال، والإيمان بها فرض عين على كل مكلف.

الأصل الأول: الإيمان بالله:

ويشمل ثلاثة أمور:

الإيمان به ربًا، يعني: مالكًا مدبرًا منعمًا متفضلًا خالقًا رازقًا، والإيمان به إلهًا معبودًا لا يستحق العبادة غيره، والإيمان به مستحقًّا لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال.

فالإيمان بالله يشمل الإيمان بربوبيته، وإلهيته، وأسمائه وصفاته على سبيل الإجمال.

الأصل الثاني: الإيمان بالملائكة:

كما أخبر الله عنهم في كتابه بأنهم مخلوقون موجودون، عباد مكرمون، خيار اختارهم الله، واصطفاهم وفضلهم، وجعلهم عبادًا طائعين خاضعين: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦- ٢٨].

وفي هذا رد على من زعم أن الملائكة بنات الله فجعلوهم ولدًا لله، وقال تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩﴾ [فصلت: ٣٨]، وفي الآية الأخرى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

والآيات في ذكر الملائكة، وصفاتهم، وعبادتهم لربهم، ودوام خضوعهم، وتسليمهم كثيرة، فهم عباد ليسوا آلهة: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩]، وحاشا أن يقول أحد منهم ذلك؛ فهم معصومون.

والأصل الثالث:

الإيمان بالكتب ويتضمن الإيمان بكل ما أنزله الله من كتبه على من شاء من رسله، ما علمنا منها

(١) مسلم (٨)، والنسائي (٤٩٩٠) من حديث عمر رضي الله عنه.

وما لم نعلم ، فيجب أن نؤمن بأن الله أنزل كتبًا على من شاء من رسله ، منها : التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والقرآن ، وهو أعظم كتب الله .

والأصل الرابع :

الإيمان بالرسل ، فيجب الإيمان برسل الله إجمالًا ، وأن الله أرسل إلى عباده رسلًا يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ويحذرون من عبادة ما سواه ، يدعون إلى كل خير ، ويحذرون من كل شر .

وقد سمى الله من شاء منهم في كتابه ، وذكر أنه قص منهم ما قص ، وطوى علم آخرين : ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء : ١٦٤] .

والأصل الخامس :

الإيمان باليوم الآخر ، ويعبر عنه بالبعث ؛ لأن البعث بعد الموت هو الذي يكون به الانتقال من دار البرزخ إلى الدار الآخرة ، فهذا أصل من أصول الإيمان يجب الإيمان به .

وهذه الأصول ذكرها الله- تعالى- في كتابه مفرقة ، ومجتمعة قال سبحانه وتعالى : ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

وذكر أربعة في قوله سبحانه وتعالى : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

والإيمان بالقدر يندرج في الإيمان بالله ، وله أدلة مفصلة في القرآن ، ومنها : قوله تعالى : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر : ٤٩] ، ومنها : قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج : ٧٠] ، ومنها : قوله تعالى : ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد : ٢٢] .

ويأتي هذا الكلام على بعض هذه الأصول مفصلًا ، فيما ذكره الشيخ في هذه الرسالة .

❁ قال الشيخ صالح بن فوزان الفوزان حفظه الله :

قوله : « بسم الله الرحمن الرحيم » :

ابتدأ المصنف ، رحمه الله ، كتابه بالبسملة ؛ اقتداءً بالكتاب العزيز ، حيث جاءت البسملة في ابتداء

كل سورةٍ ، ما عدا سورة « براءة » ، واقتداءً بالنبى ﷺ ، حيث كان يبدأ بها فى مكاتباته .

وقوله : (بسم اللَّه) . الباء للاستعانة ، والاسم فى اللغة ما دل على مسمًّى ، وفى الاصطلاح : ما دل على معنًى فى نفسه ، ولم يقترن بزمانٍ .

والجار والمجرور متعلق بمحذوفٍ ينبغى أن يقدر متأخرًا ليفيد الحصر .

واللَّه : علم على الذات المقدسة ، ومعناه : ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين ، مشتقٌّ من أله يأله ألوهةً ، بمعنى عبد يعبد عبادةً ، فاللَّه إله ، بمعنى مألوه ؛ أى : معبود .

(والرحمن الرحيم) : اسمان كريمان من أسمائه الحسنى ، دالان على اتصافه تعالى بالرحمة ، على ما يليق بجلاله ، فالرحمن ذو الرحمة العامة لجميع المخلوقات ، والرحيم ذو الرحمة الخاصة بالمؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ .

افتتح هذه الرسالة الجليلة بهذه الخطبة المشتملة على حمد اللَّه ، والشهادتين ، والصلاة والسلام على رسوله ؛ تأسيًا بالرسول ﷺ فى أحاديثه وخطبه ، وعملًا بقوله ﷺ : « كل أمرٍ ذى بالٍ لا يبدأ فيه بحمد اللَّه فهو أقطع » [رواه أبو داود وغيره][1] .

ويروى : « بيسم اللَّه الرحمن الرحيم »[2] .

ومعنى « أقطع » ؛ أى : معدوم البركة ، ويجمع بين الروايتين للحديث بأن الابتداء بـ : « بسم اللَّه » حقيقىٌّ ، وبـ : « الحمد للَّه » نسبىٌّ إضافىٌّ .

قوله : (الحمد للَّه) . الألف واللام للاستغراق ؛ أى : جميع المحامد للَّه ؛ ملكًا ، واستحقاقًا .

والحمد لغةً : الثناء بالصفات الجميلة والأفعال الحسنة .

وعرفًا : فعل ينبئ عن تعظيم المنعم ؛ بسبب كونه منعمًا ، وهو ضد الذم .

(للَّه) تقدم الكلام على لفظ الجلالة .

(الذى أرسل رسوله) اللَّه سبحانه يحمد على نعمه ، التى لا تحصى ، ومن أجل هذه النعم أن (أرسل) ؛ أى : بعث (رسوله) محمدًا ﷺ .

والرسول لغةً : من بعث برسالةٍ .

وشرعًا : هو إنسان ذكر أوحى إليه بشرعٍ وأمر بتبليغه .

(بالهدى) ؛ أى : العلم النافع ، وهو كل ما جاء به النبى ﷺ من الإخبارات الصادقة ، والأوامر والنواهى ، وسائر الشرائع النافعة .

---

(١) رواه أحمد (٢/٣٥٩) (٨٦٩٧) ، وأبو داود (٤٨٤٠) ، وابن ماجه (١٨٩٤) .

(٢) قال الألبانى فى « الإرواء » (١/٣٠) : ومما سبق يتبين أن الحديث بهذا اللفظ ضعيف جدًا .

والهدى نوعان :

النوع الأول : هدًى بمعنى الدلالة والبيان ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت : ٧١] . وهذا يقوم به الرسول ﷺ ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ .

النوع الثانى : هدًى بمعنى التوفيق والإلهام ، وهذا هو المنفى عن الرسول ﷺ ، ولا يقدر عليه إلا اللّـه تعالى ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص : ٥٦] .

(ودين الحق) هو العمل الصالح ، والدين يطلق ويراد به الجزاء ، كقوله تعالى : ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ . ويطلق ويراد به الخضوع والانقياد .

وإضافة الدين إلى الحق من إضافة الموصوف إلى صفته ؛ أى : الدين الحق ، والحق مصدر : حق يحق . بمعنى : ثبت ووجب ، وضده الباطل .

﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ ؛ أى : ليعليه على جميع الأديان بالحجة والبيان والجهاد حتى يظهر على مخالفيه من أهل الأرض ، من عربٍ وعجمٍ ، مليين ومشركين ، وقد وقع ذلك ، فإن المسلمين جاهدوا فى اللّه حق جهاده ، حتى اتسعت رقعة البلاد الإسلامية ، وانتشر هذا الدين فى المشارق والمغارب .

(وكفى باللّه شهيدًا) ؛ أى : شاهدًا أنه رسوله ومطلع على جميع أفعاله ، وناصره على أعدائه ، وفى ذلك دلالة قاطعة على صدق هذا الرسول ؛ إذ لو كان مفتريًا لعاجله اللّه بالعقوبة ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة : ٤٤، ٥٤] .

(وأشهد أن لا إله إلا اللّه) ؛ أى : أقر وأعترف أن لا معبود بحقٍّ إلا اللّه .

(وحده لا شريك له) فى هاتين الكلمتين تأكيد لما تضمنته شهادة أن لا إله إلا اللّه من النفى والإثبات ؛ نفى الإلهية عما سوى اللّه ، وإثباتها للّه ، فقوله : (وحده) تأكيد للإثبات ، وقوله : (لا شريك له) تأكيد للنفى .

وقوله : (إقرارًا به وتوحيدًا) مصدران مؤكدان لمعنى الجملة السابقة . (وأشهد أن لا إله إلا الله) إلخ ؛ أى : إقرارًا باللسان ، (وتوحيدًا) ؛ أى : إخلاصًا فى كل عبادةٍ قوليةٍ أو فعليةٍ أو اعتقاديةٍ .

وقوله : (وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله) ؛ أى : أقر بلسانى ، وأعتقد بقلبى أن اللّه أرسل عبده محمدًا ﷺ إلى الناس كافةً ؛ لأن الشهادة لهذا الرسول بالرسالة مقرونة بالشهادة للّه بالتوحيد ، لا تكفى إحداهما عن الأخرى .

وفي قوله : (عبده ورسوله) . ردٌّ على أهل الإفراط والتفريط في حق الرسول ﷺ ، فأهل الإفراط غلوا في حقه ورفعوه فوق منزلة العبودية .

وأهل التفريط قد نبذوا ما جاء به وراء ظهورهم ، كأنه غير رسولٍ .

فشهادة أنه عبد اللّه تنفي الغلو فيه ورفعه فوق منزلته ، وشهادة أنه رسول اللّه تقتضي الإيمان به وطاعته فيما أمر ، وتصديقه فيما أخبر ، واجتناب ما نهى عنه ، واتباعه فيما شرع .

وقوله : (صلى اللّه عليه) الصلاة لغةً : الدعاء ، وأصح ما قيل في معنى الصلاة من اللّه على الرسول : ما ذكره البخاري في « صحيحه » ، عن أبي العالية ، قال : « صلاة اللّه على رسوله ثناؤه عليه في الملأ الأعلى »[1] .

(وعلى آله)آل الشخص من ينتمون إليه بصلةٍ وثيقةٍ من قرابةٍ ونحوها ، وأحسن ما قيل في المراد بآل الرسول ﷺ هنا أنهم أتباعه على دينه .

(وأصحابه) جمع صاحبٍ ، من عطف الخاص على العام ، والصحابي : هو من لقي النبي ﷺ مؤمنًا به ، ومات على ذلك .

(وسلم تسليمًا مزيدًا) السلام بمعنى التحية ، أو السلامة من النقائص والرذائل .

وقوله : (مزيدًا) . اسم مفعولٍ من الزيادة ، وهي النمو ، وجمع بين الصلاة والسلام ؛ امتثالًا لقوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب : ٥٦] .

« أما بعد » : هذه الكلمة يؤتى بها للانتقال من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ آخر ، ومعناها : مهما يكن من شيءٍ ، ويستحب الإتيان بها في الخطب والمكاتبات ؛ اقتداءً بالنبي ﷺ ، حيث كان يفعل ذلك .

« فهذا » : إشارة إلى ما تضمنته هذه الرسالة ، واحتوت عليه من العقائد الإيمانية التي أجملها بقوله : (وهو الإيمان باللّه - إلخ) .

« اعتقاد » : مصدر اعتقد كذا ، إذا اتخذه عقيدةً ، والعقيدة : هي ما يعقد عليه المرء قلبه ، تقول : اعتقدت كذا ؛ أي : عقدت عليه القلب ، والضمير .

وأصله مأخوذ من عقد الحبل ، إذا ربطه . ثم استعمل في عقيدة القلب وتصميمه الجازم .

(الفرقة) ؛ أي : الطائفة والجماعة .

(الناجية) ؛ أي : التي سلمت من الهلاك والشرور في الدنيا والآخرة ، وحصلت على السعادة .

وهذا الوصف مأخوذ من قوله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورةً ، لا يضرهم من

(١) رواه البخاري معلقًا (٨/٥٣٢ - فتح) بإسناد حسن .

خذلهم حتى يأتى أمر الله ». [رواه البخارى ومسلم][(١)] .

(المنصورة) ؛ أى : المؤيدة على من خالفها .

(إلى قيام الساعة) ؛ أى : مجىء ساعة موتهم بمجىء الريح التى تقبض روح كل مؤمنٍ ، فهذه هى الساعة فى حق المؤمنين .

وأما الساعة التى يكون بها انتهاء الدنيا فهى لا تقوم إلا على شرار الناس ؛ لما فى صحيح مسلمٍ : « لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض الله الله »[(٢)] .

وروى الإمام الحاكم من حديث عبد الله بن عمرٍو ، رضي الله عنهما ، وفيه : « ويبعث الله ريحًا ، ريحها ريح المسك ، ومسها مس الحرير ، فلا تترك أحدًا فى قلبه مثقال ذرةٍ من إيمانٍ إلا قبضته ، ثم يبقى شرار الناس ، فعليهم تقوم الساعة »[(٣)] .

(أهل السنة) « أهل » بالكسر على أنه بدل من « الفرقة » ، ويجوز الرفع على أنه خبر لمبتدأٍ محذوفٍ ، تقديره (هم) .

والسنة : هى الطريقة التى كان عليها رسول الله ﷺ ؛ من أقواله وأفعاله وتقريراته .

وسموا أهل السنة ؛ لانتسابهم لسنة الرسول ﷺ دون غيرها من المقالات والمذاهب ، بخلاف أهل البدع ؛ فإنهم ينسبون إلى بدعهم وضلالاتهم ؛ كالقدرية والمرجئة ، وتارةً ينسبون إلى إمامهم كالجهمية ، وتارةً ينسبون إلى أفعالهم القبيحة كالرافضة والخوارج .

(والجماعة) لغةً : الفرقة المجتمعة من الناس ، والمراد بهم هنا الذين اجتمعوا على الحق الثابت بالكتاب والسنة ، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسانٍ ، ولو كانوا قلةً ، كما قال ابن مسعودٍ رضي الله عنه : « الجماعة ما وافق الحق ، وإن كنت وحدك ، فإنك أنت الجماعة حينئذٍ » .

(وهو) ؛ أى : اعتقاد الفرقة الناجية ، (الإيمان) الإيمان معناه لغةً : التصديق ، قال الله تعالى : ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف : ٧١] أى : مصدقٍ .

وتعريفه شرعًا : أنه قول باللسان ، واعتقاد بالقلب ، وعمل بالجوارح .

وقوله : (بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والبعث بعد الموت ، والإيمان بالقدر ؛ خيره وشره) . هذه هى أركان الإيمان الستة التى لا يصح إيمان أحدٍ إلا إذا آمن بها جميعًا على الوجه الصحيح الذى دل عليه الكتاب والسنة ، وهذه الأركان هى :

---

(١) البخارى (٧٣١١) ، ومسلم (١٥٣٢/٣) .

(٢) رواه مسلم (١٣١/١) (١٤٨) .

(٣) رواه مسلم (١٥٢٤/٣) (١٥٢٥) (١٩٢٤) موقوفًا على عبد الله بن عمرو .

١ - الإيمان بالله ، وهو الاعتقاد الجازم بأنه رب كل شيء ومليكه ، وأنه متصف بصفات الكمال ، منزه عن كل عيبٍ ونقصٍ ، وأنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، والقيام بذلك علمًا وعملًا .

٢ - الإيمان بالملائكة ؛ أى : التصديق بوجودهم ، وأنهم كما وصفهم الله فى كتابه ، كما فى الآية [بأنهم] ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧] .

وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة وأوصافهم ، وأنهم موكلون بأعمالٍ يؤدونها كما أمرهم الله ، فيجب الإيمان بذلك كله .

٣ - الإيمان بالكتب ؛ أى : التصديق بالكتب التى أنزلها الله على رسله ، وأنها كلامه ، وأنها حقٌّ ونور ، وهدًى ، فيجب الإيمان بما سمى الله منها ، كالتوراة والإنجيل والزبور والقرآن ، والإيمان بما لم يسم الله منها .

٤ - الإيمان بالرسل الذين أرسلهم الله إلى خلقه ؛ أى : التصديق بهم جميعًا ، وأنهم صادقون فيما أخبروا به ، وأنهم بلغوا رسالات ربهم ، لا نفرق بين أحدٍ منهم ، بل نؤمن بهم جميعًا ، من سمى الله منهم فى كتابه ، ومن لم يسم منهم ، كما قال تعالى : ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤] .

• وأفضلهم أولو العزم ، وهم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، عليهم الصلاة والسلام ، ثم بقية الرسل ، ثم الأنبياء . وأفضل الجميع خاتم الرسل نبينا محمد ﷺ .

• وأصح ما قيل فى الفرق بين النبى والرسول : أن النبى : من أوحى إليه بشرعٍ ، ولم يؤمر بتبليغه ، والرسول : من أوحى إليه بشرعٍ ، وأمر بتبليغه .

٥ - الإيمان بالبعث : وهو التصديق بإخراج الموتى من قبورهم أحياءً يوم القيامة ؛ لفصل القضاء بينهم ومجازاتهم بأعمالهم على الصفة التى بينها الله فى كتابه ، وبينها الرسول ﷺ فى سنته .

٦ - الإيمان بالقدر خيره وشره : وهو التصديق بأن الله سبحانه علم مقادير الأشياء وأزمانها قبل وجودها ، ثم كتبها فى اللوح المحفوظ ، ثم أوجدها بقدرته ومشيئته فى مواعيدها المقدرة .

فكل محدثٍ من خيرٍ أو شرٍّ فهو صادر عن علمه وتقديره ومشيئته وإرادته ، ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

هذا شرح مجمل لأصول الإيمان ، وسيأتى ، إن شاء الله ، شرحها مفصلًا .

❁ قال الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه الله :

ابتدأ رحمه الله هذه الرسالة بقوله : (بسم الله الرحمن الرحيم) ، والمتقرر عند العلماء أن الجار

والمجرور لابد أن يتعلق بفعلٍ أو ما في معناه، وقول القائل: (بسم الله الرحمن الرحيم)، فالجار والمجرور الذي هو الباء وما دخلت عليه لابد أن يتعلق بفعل أو بما في معنى الفعل من مصدر ونحوه، فمن أهل العلم من قَدَّر هذا المتعلق في الباء؛ كقول القائل: أبتدئ أو ابتدائي بسم الله، وهذا يعم جميع الأحوال، يعني: سواءً كان ابتداؤه بطعام أو بشراب أو علم أو غير ذلك.

وقال بعض أهل العلم: إن المتعلق هذا ينبغي أن يُقَدَّر بما يناسب حال القائل بهذه الكلمة، فإذا قالها المبتدئ بطعام كان تقدير الكلام: آكل باسم الله، وإذا قالها المبتدئ بشراب كان تقدير الكلام: أشرب بسم الله، وإذا قالها المبتدئ بالكتابة كان معناها: أكتب باسم الله، وإذا قالها المبتدئ بالعلم أو التعلم أو التعليم كان معناها: أُعَلِّمُ أو أتعلم باسم الله.

هذا القول الثاني أظهر وأحسن وأقوى؛ وذلك لأنه يكون تخصيصًا لكل حالة بما يناسبها.

فإذن يكون هنا تقدير الكلام: أكتب باسم الله، أو أُعلم باسم الله، أو أختصر باسم الله.

و(بسم الله) الباء هذه باء الاستعانة والمثوبة لمعنى التوسل، فكأنه قال: أكتب مستعينًا أو متوسلًا بكل اسم لله ﷻ، فقوله هنا: (بسم الله) بدون تحديد اسم معين، فهذا يعم جميع الأسماء، وهذا منه اقتداءً بفاتحة القرآن، فإن القرآن ابتدئ بالبسملة ثم بالحمدلة.

لهذا اقتدى العلماء في كتبهم بأشرف كتاب وأعظم كتاب ألا وهو القرآن كلام الله ﷻ في بدئهم كتبهم بالبسملة ثم بالحمدلة.

وقد رُوي في البداءة بالبسملة أحاديث لكنها ضعيفة جدًا، وكذلك في البداءة بالحمدلة، ولكن أسانيدها فيها ضعف، لكن ما ورد بالبداءة بالحمدلة مثل قوله ﷺ: «كُلُّ كَلَامٍ أَوْ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُفْتَحُ بِذِكْرِ اللَّهِ ﷻ فَهُوَ أَبْتَرُ»[1]. يعني: فهو ناقص البركة، هذا أقوى من غيره في هذا الباب، ولكن أسانيدها فيها ضعف، والمقصود أن العمدة في هذا أنه اقتداء واحتذاء بأعظم كتاب وهو كتاب الله ﷻ.

والبسملة في قوله: (بسم الله الرحمن الرحيم) أول من استعملها على هذا النحو التام سليمان عليه السلام في كتبه، وكان النبي ﷺ يكتب أول ما كتب «بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ». فلما نزلت: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠] كتب: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»[2].

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٤٠)، وابن ماجه (١٨٩٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٢٧) من حديث أبي هريرة - وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (١٠٣١).

(٢) أخرجه أبو داود (٧٨٧) معلقًا من قول الشعبي وأبي مالك وقتادة وثابت بن عمارة. وعبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٨١)، وابن أبي شيبة (٧/ ٢٦١) عن الشعبي. وقال الألباني في ضعيف أبي داود (١٦٩): مرسل معلق.

فقوله : (بسم اللّه) ، يعني : أكتب مستعينًا باسم اللّه (الرحمن الرحيم) . والرحمن والرحيم من أسماء اللّه ﷻ الحسنى المتضمنان صفة الرحمة للّه ﷻ التي وسعت كل شيء ، فنعت اللّه بهذين الاسمين في هذا المقام تعريض للنفس بالدخول في رحمة اللّه ﷻ التي وسعت كل شيء ، ومن المتقرر أن العلم مبناه على الرحمة والتراحم ، فإن العلم الشرعي رحمة اللّه ﷻ الخاصة يؤتيها من يشاء من عباده ، فالابتداء ببسم اللّه الرحمن الرحيم مناسب تمام المناسبة في كتب العلم ، وفيما سبق بيانه من الأمور المختلفة .

ثم قال : (الحمد للّه) أثنى على اللّه ﷻ ؛ لأنه سبحانه هو المستحق لجميع أنواع المحامد ؛ لأن كلمة الحمد وهي مكونة من الألف واللام التي تدل على استغراق الجنس ، ويكون معنى : (الحمدُ) : أن جميع أجناس المحامد هي للّه ﷻ استحقاقًا .

فقوله هنا : (الحمد للّه) يعني : كل أنواع المحامد للّه ﷻ ، وإذا تقرر ذلك فإن موارد الحمد التي يُثنى بها على اللّه ﷻ عظيمة كثيرة جماعها في خمسة موارد :

الأول : أنه يحمد ﷻ على تفرده في الربوبية ؛ إذ لا رب معه يملك هذا الملكوت ويدبره ويصرفه ، فيثنى على اللّه ﷻ بتفرده بالربوبية ، ويثنى عليه ﷻ بآثار تلك الربوبية في خلقه ، وإذا تأمل المثني على اللّه ﷻ بذلك وجد أنه أثنى على اللّه ﷻ بكل آثار ربوبيته في خلقه التي منها : خلقهم ، ورزقهم ، وإحياؤهم ، وإماتتهم ، وتدبيره الأمر ، وما يحدث في ملكوت السماوات والأرض من أنواع ما يقدره اللّه ﷻ ، فهو المحمود على كل حال .

وهذا الحمد قد استغرق الزمان كله ، بل حمده ﷻ كائن قبل أن يكون مخلوق ، فهو ﷻ المستحق للحمد قبل أن يوجد حامد ، وذلك لعظم أوصافه ﷻ ، ومنها هذا المورد ألا وهو تفرده ﷻ في ربوبيته .

الثاني : أنه ﷻ محمود على تفرده في ألوهيته ، فهو ﷻ الإله الحق المبين ، لا إله يُعبد بحق إلا هو سبحانه ، فهو الإله الحق في السماء ، وهو الإله الحق في الأرض ، وكل إله عُبد في الأرض فإنما عُبد بغير الحق ؛ عُبد بالبغي والظلم والعدوان ، ومن يستحق العبادة الحق وحده دونما سواه هو اللّه ﷻ ، فيثنى عليه ﷻ بهذا الأمر العظيم ألا وهو توحده ﷻ في إلهيته .

الثالث : أنه ﷻ يُحمد على ما له من الأسماء والصفات التي هي له ﷻ على وجه الكمال ، فهو سبحانه له الأسماء الحسنى والصفات العلا ؛ له الأسماء التي لا يماثله في معانيها ولا فيما اشتملت عليه من الصفات أحد ، وله ﷻ من الصفات ما لا يشاركه فيها على وجه التمام والكمال أحد ، فهو ﷻ ذو الأسماء الحسنى والصفات العلا ، قال تعالى : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] . وقال :

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، فليس له ﷻ سمي، وليس له مثل ولا مثيل في نعوت جلاله وكماله وجماله، فهو ﷻ يُحمد - يعني: يُثنى عليه - بما له من الأسماء الحسنى والصفات العلا، وكذلك يُثنى عليه بكل اسم على حدة، ويُثنى عليه بكل صفة له على حدة، وهذا مما تنقضي الأعمار فيه لو تأمله الحامدون.

الرابع: أنه ﷻ يُحمد على شرعه وأمره، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: ١]، فهو سبحانه يُحمد على شرعه وعلى أمره، يعني: يُحمد على دين الإسلام الذي جعله دينًا للناس، ويُحمد على هذه الشريعة؛ شريعة محمد ﷺ، فيُثنى عليه ﷻ بإنزاله الكتاب؛ كما أثنى على نفسه بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾، ويثنى عليه ﷻ بما أمر به في كتابه من الأوامر وبما نهى عنه من النواهي؛ إذ أوامره ﷻ ونواهيه في كتابه وفي سنة رسوله، أي: في شريعة الإسلام شريعة محمد ﷺ، فكل أمر يستحق به ﷻ أن يُحمد عليه. وهذا لا شك مما يفتح على قلوب أهل الإيمان أنواعًا من المعارف، وأنواعًا من محبة هذا الدين، ومحبة الشريعة، ومحبة الأحكام، فأهل العلم يحمدون الله ﷻ على كل حكم تعلموه، وعلى كل حكم علموه، وعلى كل مسألة من مسائل العلم فهموها، فأهل العلم هم أحق الناس بحمد الله ﷻ، وهم أحق الناس بالثناء على الله ﷻ، لأنهم يعلمون عن الله ﷻ ما لا يعلمه غيرهم من العوام أو من غير المتعلمين.

الخامس: أنه ﷻ محمود على خلقه وقدره، وهو ﷻ له تصريف هذا الملك، وله في كل شيء قدر؛ كما قال ﷻ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وله سبحانه أوامر كونية في ملكوته منها: الإنعام على من شاء أن يُنْعِم عليهم، ومنها: المصائب على من شاء أن يبتليهم. وهكذا، فهو ﷻ محمود على خلقه وقدره، وكل أنواع تقديره ﷻ يستحق أن يُثنى عليه بها، وهذا النوع بعضه يستحضره الناس حينما يقولون: الحمد لله. يعني: على ما أولاهم به من نعمه، فيحمدون الله ﷻ، يعني: يثنون عليه بما أفاض عليهم من النعم، وهذا لا شك نوع من أهم موارد الحمد. أما أهل العلم المتبصرون بما يستحقه ﷻ من الأسماء والصفات، وما لِه ﷻ من النعوت والكمالات، فإنهم يستحضرون من معاني الحمد أكثر من ذلك الذي يستحضره أكثر الخلق من أن الحمد لا يكون إلا على ما أولوا من النعمة؛ ولهذا فإن النبي ﷺ كان يحمد الله ﷻ في السراء والضراء، ويحمده ﷻ إذا أتته نعمة، وإذا جاءه ما لا يسره حمد الله ﷻ، ويثني على الله ﷻ باستحقاقه للربوبية على خلقه، ويثني على الله ﷻ باستحقاقه للعبادة من خلقه وحده دونما سواه، ويثني عليه ﷻ بأنواع من الثناء.

ومن المهمات أن يستحضر الحامد لله ﷻ هذه الموارد، وإن لم يمكنه ذلك لضيق وعاء القلب

عنده فإنه يستحضر شيئًا فشيئًا منها ، حتى يُعود قلبه على الثناء على الله ﷻ في جميع أنواع الثناء عليه سبحانه الذي يستحقها .

وقوله هنا : (لله) : اللام هنا للاستحقاق ، وضابطها أنها تأتي بعد المعاني دون الأعيان ، (الحمد لله) يعني : الحمد مستحق لله ﷻ ، و(الله) عَلَمٌ على المعبود بحق ، فلا يُسمى به إلا من يستحق العبادة وحده دونما سواه ، الموصوف بأوصاف الكمال سبحانه ، أما غيره ﷻ مما عُبد من الآلهة التي عُبدت بالباطل والبغي والظلم والعدوان فإنها يطلق عليها البشر « إله » ، يعني : معبود ، أما الاسم (الله) فهو علم على المعبود بحق ، أما المعبودات بالباطل والظلم والطغيان فلم يَدّعِ أحدٌ أنه يسميها الله ؛ ولهذا قال المشركون : ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص : ٥] ، وقال ﷻ : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات : ٣٥] ، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يعني : لا أحد يستحق العبادة الحقة إلا الله ﷻ ، ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لأنهم اتخذوا آلهة من دون الله ﷻ ومعه .

وقوله هنا : ﴿ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ : هذا اقتباس من آخر سورة الفتح ، وهي قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح : ٢٨] . والهدى هو : العلم النافع مما جاء في الكتاب والسنة ، فالله ﷻ أرسل رسوله بالهدى وهو العلم النافع ، سواءٌ في ذلك ما كان من باب الإخبار ، وهي أبواب الاعتقاد ، أو من باب الأمر والنهي ، وهذا كله العلم النافع الذي يورث الهدى ، وهو هدًى في نفسه ، يعني مرشدًا ودالًا على الطريق التي هي أقوم ، وكذلك يورث الهدى الكامل في الدنيا والآخرة .

وأما قوله : ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ : فقد فسره بعض السلف بأنه العمل الصالح . الأعمال النافعة للمؤمن في نفسه وللناس في أنفسهم ، وكما يقال : للمجتمعات وللأمم بأجمعها ، الله ﷻ أرسل رسوله بالهدى ، يعني : بالعلم النافع وبدين الحق الذي هو العمل الصالح .

قوله تعالى : ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي : كفى بالله شهيدًا على ما ذكر ، فالله ﷻ هو الذي شهد بأن ما بعث به رسوله ﷺ هو الهدى وهو دين الحق ، وشهادة الله ﷻ فوق كل شهادة ، إذ لا أعلم من الله ، ولا شاهد يُكتفى به إلا الله ﷻ في هذه المسائل العظيمة أو ما أوحى به إلى رسوله ﷺ ، فمن أتته شهادة الله تعالى كفى بها شهادة .

إذا كان كذلك فمن المتقرر أن نصوص الكتاب والسنة التي وصفت في هذه الآية بأنها الهدى قد اشتملت على أنواع الأخبار التي هي في الأمور الغيبية عن الله ﷻ ، وعن أسمائه وصفاته وعما يكون في يوم المعاد من الأمور الغيبية ، وإذا كانت هذه النصوص في هذه الأمور الخبرية ، وكذلك ما أخبر به النبي ﷺ في هذه الأمور قد وصفها الذي يُكتفى بشهادته بأنها هدى ، فيُعلم منه أن من لَمْ يَرْضَ بكون

هذه النصوص وما دلت عليه الهدى الكامل والشفاء الكامل فإن ذلك يتضمن أنه لم يكتفِ بشهادة الله ﷻ، وهذا هو ما صنعه الذين سلكوا مسلك البدع من أنواع الفرق ؛ كالخوارج ، والمرجئة ، والقدرية ، والمعتزلة ، والجهمية ، والأشاعرة ، والماتريدية ، فإن كل فرقةٍ من هذه الفرق لم ترتضِ نصوص الكتاب والسنة ولم تجعلها كافية ، بل عملت في ذلك إما بعقولها أو بأقيسةٍ ضالة ، فمن أخذ بما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة ، وهي القاعدة العظيمة في الاعتقاد ، لأننا لا نتجاوز في الاعتقاد القرآن والحديث ؛ كما قال الإمام أحمد بهذا الأصل : « لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ﷺ ، ولا نتجاوز القرآن والحديث » .

يعني لا نتأول كما تأول المتأولة ، ولا نعطل كما عطل المعطلة ، ولا نشبه أو نمثل كما مَثَّلَ المجسمة أو مَثَّلَ الممثلة ، وإنما لا نتجاوز القرآن والحديث ، وذلك لأن أهل السنة قد اكتفوا بشهادة الله ﷻ في هذه الآية بأن ما أرسل به رسوله ﷺ هو الهدى وهو دين الحق ، فقبلوه ولم يتجاوزوا القرآن والحديث .

قال بعد ذلك : (وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إقرارًا به وتوحيدًا) ، وهذه تحتاج إلى شيءٍ من التفصيل ، وذلك أن قوله هنا : (وأشهد) : هذه الشهادة معناها الاعتراف والإقرار الذي يتبعه إعلامٌ وإخبار ؛ لأن الشهادة تشمل : اعتقاد القلب وإخبار اللسان ، فمن اعتقد بقلبه دون أن يتكلم بلسانه لم يُعد شاهدًا ، ومن تكلم بلسانه - كحال المنافقين - ولم يعتقد بقلبه لم يكن شاهدًا بما دلت عليه كلمة التوحيد .

إذن الشهادة في قوله : (وأشهد) : يعني : أعتقد وأعترف وأقر لله بأنه هو المستحق للعبادة وحده دونما سواه ، وأخبر وأعلم بأن الله ﷻ هو المستحق للعبادة دونما سواه .

وهذا هو الذي فُسر به قوله تعالى : ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران : ١١٨] ، ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ : يعني : أعلم وأخبر ، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ : شهدوا بذلك ، أعلموا وأخبروا بذلك واعتقدوا ذلك ، ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ : من خلقه شهدوا ذلك بمرتبتين : مرتبة الاعتقاد ، ومرتبة القول .

قال : (وأشهد أن لا إله إلا الله) : و (أن) هنا : هي التفسيرية ، وضابطها : أنها هي التي تأتي بعد كلمةٍ فيها معنى القول دون حروف القول ، كـ : شهد ، ونادى ، وأوحى ، وقضى ، وأمر ، ووصى ، ونحو ذلك ، فـ(أن) : إذا أتت بعد هذه الألفاظ أو نحوها مما فيه معنى القول دون حروف القول فهي التفسيرية ؛ لأن ما بعدها يفسر ما قبلها ؛ كالتي جاءت في قول الله ﷻ : ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ الآية [الأعراف : ٤٤] .

هذه الكلمة (أشهد أن لا إله إلا اللّٰه) هي كلمة التوحيد ، ولها ركنان :

النفي : المستفاد من قوله : (لا إله) ، وهو نفي استحقاق العبادة عن كل أحد .

والإثبات : المستفاد من قوله : (إلا اللّٰه) ، وهو إثبات استحقاق العبادة للّٰه .

فركنا هذه الكلمة : النفي والإثبات ، فمن نفى ولم يثبت لم يكن قد أتى بهذه الكلمة على صحتها ، إذ أتى بركنٍ ولم يأتِ بالثاني ، وكذلك من أثبت ولم ينفِ ، فإنه لم يأتِ بما دلت عليه هذه الكلمة ، فلابد أن يجتمع في حق الشاهد : أنه ينفي استحقاق العبادة عن كل أحدٍ ، ويثبت استحقاق العبادة للّٰه ﷻ وحده دونما سواه .

والمشركون كانوا يثبتون ولا ينفون ، يقولون : إن اللّٰه جل جلاله مستحقٌ للعبادة ، فهو مستحقٌ لأن يُعبد ، لكنهم لا ينفون ، ولهذا قال النبي ﷺ لأبي طالب : « أَيْ عَمِّ قُلْ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ »(١) ، فأبى أن يقول ، وقال ﷺ للمشركين : « قُولُوا كَلِمَةً إِنْ تَكَلَّمْتُمْ بِهَا مَلَكْتُمُ العَرَبَ وَدَانَتْ لَكُم بِهَا العَجَمُ بِالخَرَاجِ » . قالوا : لنعطينكها وعشر أمثالها ، فما هي ؟ قال : « قُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ »(٢) ، فأبوا واشمأزوا ؛ لأنهم يعلمون أنه لا يصح الإقرار بهذه الكلمة إلا بالجمع بين النفي والإثبات ، وهم إنما يثبتون للّٰه ﷻ أنه معبود وأنه يعبد ، لكن ينفون كونه ﷻ واحدًا في استحقاق العبادة .

قال سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات : ٣٥ ، ٣٦] ، وقال ﷻ مخبرًا عن قولهم : ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص : ٥] .

وهذا هو الذي صنعه المشركون وَمَن بعدهم من مشركي هذه الأمة فإنهم أتوا بركنٍ من أركان كلمة التوحيد ألا وهو : الإثبات ، قالوا : إن اللّٰه جل جلاله مستحقٌ للعبادة ، لكن قالوا : يمكن أن يكون معه من يستحق شيئًا من أنواع العبادة ، لكن لا على وجه الأصالة ولكن على وجه الواسطة .

وهذا من الأمور المهمة التي ينبغي العناية بها ، وهي : أن كلمة التوحيد لها ركنان : ركن النفي ، وركن الإثبات .

أما معناها : فإن الإله في قوله : (لا إله) : هو المعبود عن محبةٍ وتعظيم ، لأن مادة : (أله) في اللغة والتي جاء بها القرآن معناها : العبادة ، (أله) : بمعنى عُبد مع المحبة والتعظيم ، والألوهية : هي العبادة

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٠) ، ومسلم (٢٤) من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٣٢) ، والنسائي في الكبرى (٨٧١٦ ، ١١٣٧٢) من حديث ابن عباس . وضعف إسناده الألباني في ضعيف الترمذي (٦٣٦) .

مع المحبة والتعظيم ، فالإله هو المعبود مع المحبة والتعظيم ، ويدل له من قول العرب : قول الشاعر في رجزه المشهور :

لِلَّـهِ دَرُّ الـغَـانـيـاتِ الـمُـدَّهِ سَبَّحْنَ وَاسْتَرْجَعْنَ من تَأَلُّهِي

يعني : من عبادتي ، فالتأله أَلِهَ ، يَأْلَهُ ، إِلهةً ، وألوهة ، هذا كله راجع إلى معنى التعبد والعبادة ، والعرب لا تَعرف منها إلا أنه عُبد ، حتى إن بعضهم قال : الهمزة في « أله » أصلها واو ، وهي مِنْ « وَلَهَ » ؛ لأنه عُبد متولهًا متيمًا من الوله والمحبة الذي هو شدة المحبة .

المقصود : أن كلمة(لا إله) هذه فيها العبودية ، وهذا هو المتقرر في العربية وفي القرآن ؛ كما قال ﷻ : ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل : ٦٠] ، يعني : أمعبود مع الله ؟ لأنهم إنما جعلوا معبودًا مع الله ولم يجعلوا ربًّا مع الله جل جلاله ، ومن ذلك ما جاء في قراءة ابن عباس المشهورة في سورة الأعراف : « وَيَذَرَكَ وَإِلاهَتَكَ » [الأعراف : ١٢٧] يعني : وعبادتك .

فإذن معنى : (الإلهة) و(الألوهة) في كلام العرب : العبادة مع المحبة والتعظيم ، وهذا ينبئ ويثبت أن قول الأشاعرة والماتريدية والمتكلمين في معنى (الإله) قولٌ باطل ، حيث إن تفاسير المتكلمين للإله على قولين :

الأول : منهم من يقول : الإله هو القادر على الاختراع .

وهذا هو معنى الرب ، أما الإله فليس فيه معنى الخلق ، ولا القدرة على الخلق ، ولا القدرة على الاختراع ، إنما فيه معنى العبادة .

الثاني : وهو قول الأشاعرة والماتريدية ونحوهم - في كلامهم المعروف - : إن الإله هو المستغني عما سواه ، المفتقر إليه كل ما عداه . حتى قال السنوسي في « أم البراهين » المشهورة من عقائدهم : قال : « فمعنى لا إله إلا الله : لا مستغنيًا عما سواه ولا مفتقرًا إليه كل ما عداه إلا الله » ، ففسر الألوهية بالربوبية .

وهذا من مناهج المتكلمين ومن عقيدة أهل الكلام ، إذ إنهم يفسرون : (الإله) : بـ(الرب) ، ويفسرون الألوهية بالربوبية ، وعلى هذا - عندهم - من اتخذ مع الله ﷻ إلهًا آخر يعبده ، ويخافه ، ويرجوه ، ويدعوه ، ويستغيث به ، وينذر له ، ويذبح له ، فإنه لا يكفر بذلك عندهم ؛ لأنه لم يخالف ما دلت عليه كلمة التوحيد إذا كان معتقدًا أن الله ﷻ هو المتفرد وحده بالقدرة على الاختراع ، وبالاستغناء عما سواه ، وبافتقار كل شيء إليه ﷻ .

فإذن :(لا إله) : ليس معناها الربوبية ، وإنما معناها :(لا معبود) ، وخبر :(لا) النافية للجنس محذوف ، وحذف الخبر شائع كثير في لغة العرب ؛ كقول النبي ﷺ : « لَا عَدْوَى ولا طِيَرَةَ

ولا هَامَةَ »[1] . فالخبر كله محذوف .

وخبر لا النافية للجنس يُحذف كثيرًا وبشيوع إذا كان معلومًا لدى السامع ، كما قال ابن مالك في الألفية :

وَشَاعَ فِي ذَا البَابِ إِسْقَاطُ الخَبَرْ إِذَا المُرَادُ مَعْ سُقُوطِهِ ظَهَرْ

فإذا ظهر المراد مع السقوط جاز الإسقاط .

وهنا في قوله : (لا إله إلا الله) : لم يذكر خبر (لا) ؛ لأنه معروف ؛ لأن المشركين لم ينازعوا في وجود إله مع الله ﷻ ، وإنما نازعوا في أحقية الله ﷻ بالعبادة دون غيره ، وأن غيره لا يستحق العبادة ، فلما كان النزاع في الثاني دون الأول ، يعني : لما كان في الاستحقاق دون الوجود ، جاء هذا النفي بحذف الخبر ؛ لأن المراد مع سقوطه ظاهر وهو نفي الأحقية ، وصار الخبر تقديره (حق) ؛ كما قال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج : ٦٢] ، وفي الآية الأخرى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [لقمان : ٣٠] ، فلما قال سبحانه ذلك قرن بين أحقيته تعالى للعبادة وبطلان عبادة ما سواه ، ودل على أن المراد بكلمة التوحيد هو نفي استحقاق العبادة بشيء لأحد غير الله ﷻ ، فإذن صار تقدير الخبر بكلمة (حق) صوابًا من جهتين :

الجهة الأولى : أن النزاع بين المشركين وبين الرسل كان لاستحقاق العبادة لهذه الآلهة ولم يكن لوجود الآلهة .

الجهة الثانية : أن الآيات دلت على بطلان عبادة غير الله ، وعلى أحقية الله للعبادة دونما سواه .

إذا تقرر ذلك فإن الخبر مقدر بكلمة (حق) ، ولا نافية للجنس ، فنفت جنس استحقاق الآلهة للعبادة ؛ نفت جنس المعبودات الحقة ، فلا يوجد على الأرض ولا في السماء معبود عبده المشركون حق ، ولكن المعبود الحق هو الله ﷻ وحده ، وهو الذي عبده أهل التوحيد .

وتقدير الخبر بكلمة (حق) هو المتعين خلافًا لما عليه أهل الكلام المذموم ، حيث قدروا الخبر بكلمة (موجود) أو بشبه الجملة (في الوجود) ، فقالوا : لا إله في الوجود أو لا إله موجود . وهذا فهم غلط ليس من جهة الغلط النحوي ، ولكن من جهة عدم فهمهم لمعنى الإله ؛ لأنهم فهموا من معنى الإله الرب ، فنفوا وجود رب مع الله ﷻ ، وجعلوا آية الأنبياء دليلًا على ذلك ، وهو قوله : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء : ٢٢] ، وقوله في آية الإسراء : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء : ٤٢] ، ففسروا الإله في آية الأنبياء وآية الإسراء بالرب ، ولكن

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠٧) ، ومسلم (٢٢٢٠) من حديث أبي هريرة .

هي في الآلهة كما هو ظاهر اللفظ فيهما .

فقوله هنا : (لا إله إلا اللّٰه) ، (لا) نافية للجنس ، و(إله) هو اسمها مبني على الفتح ، ولا النافية للجنس مع اسمها في محل رفع المبتدأ ، (وحق) هو الخبر المحذوف ، والعامل فيه هو الابتداء ، أو العامل فيه لا النافية للجنس على اختلاف بين النحويين في العمل ، و(إلا اللّٰه) ، (إلا) أداة استثناء و(اللّٰه) مرفوع ، وهو بدل من الخبر لا من المبتدأ ؛ لأنه يدخل في الآلهة حتى يُخرج منها ؛ لأن المنفي هي الآلهة الباطلة فلا يدخل فيها - كما يقوله من لم يفهم - حتى يكون بدلًا من اسم لا النافية للجنس ، بل هو بدل من الخبر ، وكون الخبر مرفوعًا والاسم هذا مرفوعًا يبين ذلك ؛ لأن التابع مع المتبوع في الإعراب والنفي والإثبات واحد ، وهنا ينتبه إلى أن الخبر لما قُدر (بحق) صار المُثبت هو استحقاق اللّٰه ﷻ للعبادة ، ومعلوم أن الإثبات بعد النفي أعظم دلالة في الإثبات من إثبات مجرد بلا نفي ؛ ولهذا صار قول : (لا إله إلا اللّٰه) ، وقول : (لا إله غير اللّٰه) هذا أبلغ في الإثبات من قول : (اللّٰه إله واحد) ؛ لأن هذا قد ينفي التقسيم ولكن لا ينفي استحقاق غيره للعبادة ، ولهذا صار قوله تعالى : ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة : ١٦٣] ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [الصافات : ٣٥] جمع بين النفي والإثبات ، وهذا يسمى الحصر والقصر ، ففي الآية حصر وقصر ، وبعض أهل العلم يعبر عنها بالاستثناء المفرغ ، وهذا ليس بجيد ، بل الصواب أن يُقال : هذا حصر وقصر ، فجاءت (لا) نافية ، وجاءت (إلا) مثبتة ليكون ثَمَّ حصر وقصر في استحقاق العبادة للّٰه ﷻ دون غيره ، وهذا عند علماء المعاني في البلاغة يفيد : الحصر ، والقصر ، والتخصيص ، يعني : أنه فيه لا في غيره ، وهذا أعظم دلالة فيما اشتمل عليه النفي والإثبات ، ومعنى كلمة التوحيد وتفصيل الكلام عليها يُرجع إليه في موضعه من كلام أئمة الدعوة ، رحمهم اللّٰه تعالى .

لهذا نقول : تحقيق الشهادتين يكون بتحقيق : (لا إله إلا اللّٰه محمد رسول اللّٰه) ، وتحقيق الأولى : بألا تعبد إلا اللّٰه ﷻ ، وتحقيق الثانية : بألا يعبد اللّٰه إلا بما شرع رسوله ﷺ .

قال هنا : (وحده لا شريك له) : وهذا من التأكيد بعد التأكيد .

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري على قوله : (وحده لا شريك له) : « هذا تأكيدٌ بعد تأكيد لبيان عظم مقام التوحيد » . وأن اللّٰه ﷻ في استحقاقه العبادة وحده لا شريك له في ذلك .

قال هنا : (لا شريك له) : وأنواع ادعاء الشريك كثيرة ومجملها :

الأول : ادعاء الشريك له في ربوبيته ، وأن ثَمَّ ظهيرًا معه يُصَرِّفُ معه الأمر .

الثاني : ادعاء الشريك معه في استحقاق العبادة .

الثالث : ادعاء شريك معه في أسمائه وصفاته على وجه الكمال .

الرابع : ادعاء الشريك معه في الأمر والنهي في التشريع .

الخامس : ادعاء الشريك معه في الحكمة التي قضاها في كونه كما يقول الفلاسفة ونحوهم .

إذن أنواع الاشتراك التي ادُّعِيَ أن ثَمّ من يشارك الله ﷻ فيها هذه الخمسة هي جِماعُها .

قال بعدها : (إقرارًا به وتوحيدًا) : والإقرار هو الإذعان والتسليم والاعتقاد بذلك ، (إقرارًا به) : يعني بأنه وحده لا شريك له ، (وتوحيدًا) : التوحيد مصدر وَحّدَ يُوحّدُ تَوْحِيدًا ، يعني : جعل الشيء واحدًا ، وقد جاء استعمالها في السنة في بعض طرق حديث ابن عباس : أن النبي ﷺ لما أرسل معاذًا إلى اليمن قال : « إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى »[1] . فمن دعا إلى توحيد الله فإنه يدعو إلى تحقيق الشهادتين ، وجاء في قول الصحابي رضي الله عنه : « فأهلَّ بالتوحيدِ لبيكَ اللهم لبيكَ ، لبيكَ لا شريكَ لك لبيكَ »[2] .

إذن كلمة التوحيد موجودة في السنة ومستعملة ، ودين الإسلام هو دين التوحيد ، والنصوص دلت على انقسام التوحيد إلى :

- توحيد الألوهية .
- توحيد الربوبية .
- توحيد الأسماء والصفات .

قسمها العلماء إلى هذه القسمة ، ولديهم فيها استقراء لنصوص الكتاب والسنة ، ويكثر ذلك في عبارات المتقدمين من أئمة الحديث والأثر ، فجاء عند أبي جعفر الطبري في تفسيره ، وفي غيره من كتبه ، وفي كلام ابن بطة ، وكلام ابن منده ، وكلام ابن عبد البر ، وغيرهم من أهل العلم من أهل الحديث والأثر ، خلافًا لمن زعم من المبتدعة من أن هذا التقسيم أحدثه ابن تيمية ، فهذا التقسيم قديم يعرفه من يطالع كتب أهل العلم .

فتوحيد الله ثلاثة أنواع :

الأول : توحيد الربوبية : وهو اعتقاد أن الله واحدٌ في أفعاله سبحانه وتعالى ، لا شريك له ، وأفعاله سبحانه وتعالى منها : خلقه ، ورزقُه ، وإحياؤه ، وإماتته ، وتدبيره للأمر ، ونحو ذلك ، يعني : أن توحيد الربوبية راجع إلى إفراد الربوبية التي هي : السيادة ، والتصرف في الملكوت ، وكل ما رجع إلى السيادة والتصرف في الملكوت ، رجع إلى توحيد الربوبية ؛ فالإيمان بتوحيد الربوبية معناه : أنه إيمان بأن الله وحده لا شريك له هو المتصرف في هذا الملكوت أمرًا ونهيًا ، فهو الخالق وحده ، وهو الرازق وحده ،

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٢) .

(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله .

وهو المحيي المميت وحده ، وهو النافع الضار وحده ، وهو القابض الباسط وحده في ملكوته ؛ كما قال ﷻ : ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس : ٣١] ، فأثبت أنهم أقروا بالربوبية ، وأنكر عليهم أنهم لم يتقوا الشرك به وتركوا توحيد الألوهية .

وتوحيد الألوهية : هو توحيد اللّٰه بأفعال العبيد ؛ التوحيد في القصد والطلب بأن يُفرِد العبد رَبَّهُ ﷻ في إنابته ، وخضوعه ، ومحبته ، ورجائه ، وأنواع عباداته من صلاته ، وزكاته ، وصيامه ، ودعائه ، وذبحه ، ونذره .. إلى آخر أفراد العبادة بما هو معلوم في توحيد الألوهية .

وتوحيد الأسماء والصفات : وهو اعتقاد أن اللّٰه ﷻ هو المتوحد في استحقاقه لما بلغ في الحسن نهايته من الأسماء ، ولما بلغ غاية الكمال من النعوت أو الصفات ، فاللّٰه ﷻ لا يماثله أحد في أسمائه وصفاته ، كما قال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ، وكما قال تعالى : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص : ٤] ، وكما قال تعالى : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] .

وهناك نوع رابع : هو توحيد دلت عليه شهادة أن محمدًا رسول اللّٰه ، وهو : ألا يُعبد اللّٰه إلا بما شرع ، ويُسمى عند طائفة من أهل العلم : (توحيد المتابعة) ، يعني : أن يكون المرء متابعًا للنبي ﷺ وحده ، فلا أحد يستحق المتابعة على وجه الكمال إلا النبي ﷺ ، كما قال ابن القيم في نونيته :

فَلِواحِدٍ كُن واحدًا في واحِدٍ   أَعْنِي سَبِيلَ الحَقِّ وَالإِيمَانِ

« فلواحد » يعني : للّٰه المقصود والمعبود ، له وحده ﷻ قصدًا وإرادة وتوجهًا ورغبًا ورهبًا ، جل جلاله وتقدست أسماؤه ، « كن واحدًا » أنت في قصدك وإرادتك وتوجه قلبك لا تتشعب عليك الأوهام في قلبك ولا في سلوكك ؛ بل « كن واحدًا » أنت ، « في واحدٍ » يعني في سبيل واحد ، قال بعدها : « أعني سبيل الحق والإيمان » ، وهو سبيل السلف الصالح الذين اتبعوا النبي ﷺ واهتدوا به ، وهذا التعبير (توحيد المتابعة) استعمله ابن القيم ، واستعمله شارح الطحاوية ابن أبي العز الحنفي ، وجماعة من أهل العلم .

وبعض أهل العلم يُقسم التوحيد إلى قسمين :

الأول : توحيد قولي اعتقادي .

الثاني : توحيد فعلي إرادي .

وقولهم : (توحيد قولي اعتقادي) ، هذا يشمل توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات ؛ لأن توحيد الربوبية قولي واعتقادي ، وتوحيد الأسماء والصفات قولي واعتقادي .

وقولهم : (توحيد فعلي إرادي) ، هذا يعنون به ما يتعلق بفعل المكلف ، وهو على قسمين :
- أفعال القلوب ، مثل : الخوف ، والرجاء ، والمحبة ، والرغبة ، والرهبة ، ونحو ذلك .
- أفعال الجوارح ، مثل : الدعاء ، والاستغاثة ، والذبح ، والنذر ، ونحو ذلك .

قال بعدها : (وأَشْهَدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه صلَّى اللَّهُ عليه وعلى آلِه وصَحْبِه وسلَّمَ تسليمًا مَزيدًا) .

قوله : (وأشهد) يعني : أعتقد وأخبر وأعلم ، (أن محمدًا) محمد بن عبد الله القرشي ﷺ (عبده ورسوله) ، ليس إلهًا وليس ملكًا ، وإنما هو عبدٌ من عبيد الله ، شرفه الله ﷻ بالرسالة ، فلا يُدَّعى فيه أكثر من أنه رسول من الله ﷻ ، وكفى بها مرتبة وكفى بها منزلة .

وهذه الشهادة تقتضي اعتقاد أنه رسول الله ، والإعلام بذلك يقتضي أشياء ، منها :
- أنه ﷺ مبلغ عن الله .
- وأنه يجب طاعته فيما أمر .
- وأن يُصَدَّقَ فيما أخبر .
- وأن يُجتنب ما عنه نهى وزجر .
- وألا يُعبد اللَّهُ إلا بما شرع .

والمشهور أن هذا معنى الشهادة بأن محمدًا رسول الله ﷺ ، وهو من مقتضياتها ومعناها الذي تقتضيه ، أما معناها الأول فهو : اعتقاد وإعلام وإخبار بأن محمدًا ﷺ عبدٌ من عبيد الله ، ورسولٌ من المرسلين الذين أرسلهم الله ﷻ .

هنا في قوله : (رسوله) تنبيه : أن النبوة غير الرسالة ، والنبي غير الرسول ، والنبي والرسول لفظان موجودان في لغة العرب ، فتعريفهما في اللغة يؤخذ من موارده في اللغة ، وهو أن النبي مأخوذ من النبوة ، وهي الارتفاع ، وذلك لأنه بالإيحاء إليه وبالإخبار إليه أصبح مرتفعًا على غيره ، والرسول : هو من حُمِّلَ رسالة فبعث بها .

وكلمة (نبي) جاءت في القرآن في القراءات على قراءتين متواترتين :
الأولى : النبي بالياء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ، وأشهر من قرأ بـ (النبي) عاصم .
والثانية : النبيء (يا أيها النبيءُ) ، وأشهر من قرأ بـ (النبيء) نافع .

والفرق أن النبي والنبيء في اللغة : أن النبي مأخوذ من النبوة وهي الارتفاع ، والنبيء من النبوة وهو مَن نُبئ ، أما من حيث الشرع فالنبي والنبيء واحد ، وكلا الأمرين حاصل في النبي ﷺ ، وفي كل نبي ، فهو مرتفع ولأجل ذلك فهو نبي ، وهو مُنبأ ولأجل ذلك فهو نبيء .

ولهذا نقول : إن كلمة (نبي) صارت من الرفعة ؛ لأنه نبيء ، يعني : أنه نُبئ في نَبْوة وارتفاع عن غيره من الناس .

أما في التعريف الاصطلاحي للنبي والرسول فهذا مما اختلف فيه أهل العلم كثيرًا ، والمذاهب فيه متنوعة ، منها :

المذهب الأول : قول من قال : إنه لا فرق بين الرسول والنبي ، فكل نبي رسول وكل رسول نبي . قال به طائفة قليلة من أهل العلم من المتقدمين والمتأخرين ، ومنهم من ينسب إلى السنة .

المذهب الثاني : أن النبي والرسول بينهما فرق ، وهو أن النبي أدنى مرتبة من الرسول ، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولًا ، وهو قول جمهور أهل العلم وعامة أهل السنة .

والمذهب الثالث : أن النبي أرفع من الرسول ، وأن الرسول دون النبي ، وهو قول غلاة الصوفية .

وأرجح الأقوال هو قول جمهور أهل العلم وعامة أهل السنة ؛ ذلك لأدلة كثيرة استدلوا بها على هذا الأصل مبسوطة في مواضعها ، نختصر بعضها :

الدليل الأول : قوله ﷻ : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج : ٥٢] .

فيؤخذ من قوله : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ أوجه ثلاثة :

الأول : أن الإرسال وهو فعل (أرسلنا) وقع على الرسول وعلى النبي ، فإذن الرسول مرسل والنبي مرسل ؛ لأن هذا وقع على الجميع .

الثاني : أنه - تعالى - عطف بالواو ، فقال : ﴿مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ والعطف بالواو يقتضي المغايرة : مغايرة الذات ، أو مغايرة الصفات ، وهنا المقصود منه أن الصفة التي صار بها رسولًا غير النعت الذي صار به نبيًا ، وهو المقصود مع تحقق أن الجميع وقع عليهم الإرسال .

الثالث : أنه - تعالى - عطف ذلك بـ « لا » أيضًا في قوله : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ . ومجيء (لا) هنا في تأكيد النفي في أول الآية ، وهو قوله : تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا﴾ فهو تقرير تكرير الجملة منفية من أولها ؛ كأنه قال : وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا أرسلنا من قبلك من نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته .

الدليل الثاني : أن النبوة ثبتت لآدم عليه السلام ، فآدم كما صح في الحديث نبي مُكلم ، وأن هناك أنبياء جاءوا بعد آدم عليه السلام كإدريس وشيث وغيرهما ، وإدريس ذكره الله ﷻ في القرآن .

والرسل أولهم نوح عليه السلام ، وجعل الله ﷻ أولي العزم من الرسل خمسة ، وجعل أولهم نوحًا

عليه السلام ؛ فهذا يدل على أن آدم عليه السلام لم يحصل له وصف الرسالة ، بل جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال : « آدم نبي مُكلم »[1] ، ووصف نوح بأنه رسول ، ووُصف إدريس بأنه نبي ، فدل هذا على التفريق بين المقامين .

الدليل الثالث : ما جاء في الحديث من التفريق ما بين عدد الأنبياء وعدد المرسلين ، فقد سأل أبو ذر رضي الله عنه النبي ﷺ فقال : يا نبي الله كم وفاء عدة الأنبياء ؟ قال ﷺ : « مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وعِشْرَون ألفًا ، الرُّسُلُ مِنْ ذَلِكَ ثَلاثمِائَةٍ وَخَمسَةَ عَشَرَ »[2] . وهذا الحديث - حديث أبي ذر- حسنه بعض أهل العلم ، وإن كان إسناده عند التحقيق فيه ضعف ، لكن فيه جمل صحيحة ، وهو حديث طويل رواه ابن حبان وغيره .

والله ﷻ قص علينا خبر بعض الرسل وحجب عنا قصص البعض الآخر ، فقال ﷻ : ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء : ١٦٤] .

وثم أدلة أخرى في هذا المقام قد لا تكون دالة بوضوح على المراد . إذا تبين ذلك وأن الصحيح هو قول الجمهور ، وهو أن النبي والرسول بينهما فرق ، فما تعريف النبي وما تعريف الرسول في الاصطلاح ؟

قلنا : إن النبي يقع عليه الإرسال ولكن لا يسمى رسولًا عند الإطلاق ، والرسول يقع عليه الإرسال وهو الذي يسمى رسولًا عند الإطلاق ، والله ﷻ جعل ملائكة مرسلين ، وإذا قلنا : (الرسول) فلا ينصرف بالإطلاق على المبلغ للوحي جبريل عليه السلام .

والله ﷻ أرسل الريح وأرسل المطر وأرسل أشياء من العذاب ، ولا يقع عند الإطلاق أن يُقال : هذه مرسلة ، أو هذه رسالة الله ، أو هذه الأشياء رسول ، من إطلاق المفرد وإرادة الجمع به ؛ ولهذا نقول : قد يُقال عن هذه الأشياء : إنهـا مرسلة ؛ كما جاء في القرآن : ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ [المرسلات : ١] ، ولكن إذا أُطلق لفظُ الرسول فلا ينصرف إلى من أرسل من الملائكة ، وإنما ينصرف إلى من أرسل من البشر ، وهذا يدل على أن الفرق القائم ما بين النبي وما بين الرسول ، وأن النبي إرساله خاص وأن الرسول إرساله مطلق .

فلهذا نقول : دلت آية سورة الحج : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج : ٥٢] على أن كلًّا من النبي والرسول يقع عليه إرسال ، فما الفرق بينهما من جهة التعريف ؟

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٨) ، والبخاري في تاريخه (١/ ٢٩) ، وابن حبان (٢/ ٧٦) ، والطبراني (٧٨٧١) من حديث أبي ذر. وصححه الألباني في الصحيحة (٢٦٦٨) .

(٢) تقدم تخريجه في الحاشية السابقة .

الجواب : أن العلماء اختلفوا على أقوال كثيرة في تعريف هذا وهذا ، ولكن الاختصار في ذلك مطلوب ، وهي مسألة اجتهادية .

فتعريف النبي : هو من أوحى اللّٰه إليه بشرع لنفسه أو أمره بالتبليغ إلى قوم موافقين يعني موافقين له في التوحيد ، والرسول : هو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه إلى قوم مخالفين ، ويلاحظ من هذا التعريف للنبي وللرسول أنه لا مدخل لإيتاء الكتاب في وصف النبوة والرسالة ، فقد يُعطى النبي كتابًا وقد يُعطى الرسول كتابًا ، وقد يكون الرسول ليس له كتاب وإنما له صحف كما في قوله : ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى : ١٩] ، وقد يكون له كتاب .

فإذن من جعل الفيصل أو الفرق بين النبي والرسول هو مجيء الوحي بكتاب منزل من عند اللّٰه ﷻ ، فهذا ليس بجيد ، بل يُقال : إن المدار على أمرين :

أولًا : فالنبي موحى إليه والرسول موحى إليه .

ثانيًا : أنه يوحى إليه بشرع أو بفصل في قضية - شرع يشمل أشياء كثيرة- فالنبي يوحى إليه بشرع ، وكذلك الرسول يوحى إليه بشرع .

لكن النبي يوحى إليه لإبلاغه إلى قوم موافقين ، أو ليعمل به في خاصة نفسه ؛ كما جاء في الحديث : « عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ »(١) ، والرسول يبعث إلى قوم مخالفين له ؛ ولهذا جاء في الحديث : « إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ »(٢) ، ولم يجعلهم ورثة الرسل ؛ وذلك لأن العالم في قومه يقوم مقام النبي في إيضاح الشريعة التي معه ، فيكون في إيضاح الشريعة ثم شبه ما بين العالم والنبي ، ولكن النبي يوحى إليه فتكون أحكامه صوابًا ؛ لأنها من عند اللّٰه ﷻ ، والعالم يوضح الشريعة ويعرض لحكمه الغلط .

يتعلق بهذه المسألة بحث أن الرسول قد يكون متابعًا لشريعة مَن قبله كما أن النبي يكون متابعًا لشريعة مَن قبله .

فإذن الفرق ما بين النبي والرسول في اتباع شريعة من قبل : أن النبي يكون متابعًا لشريعة من قبله ، والرسول قد يكون متابعًا كيوسف عليه السلام جاء قومه بما بعث اللّٰه به إبراهيم عليه السلام ويعقوب ، وقد يُبعث بشريعة جديدة . وهذه الاحترازات لأجل أن ثمة طائفة من أهل العلم جعلت كل محترز من هذه الأشياء فرقًا ما بين النبي والرسول ، فالكتاب قد يعطاه النبي وقد يعطاه الرسول ، ولكن هل بُعث

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٥٢) ، ومسلم (٢٢٠) من حديث ابن عباس .

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٤١) ، والترمذي (٢٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء . وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٠٩٦) .

لقوم مخالفين أو موافقين ؟ هذا مدار الفرق ما بين النبي والرسول ، فالرسول قد يُبعث بالديانة التي جاء بها رسول ممن قبله ، لكنه يُرسل إلى قوم مخالفين ، وإذا كانوا مخالفين فلابد أن يكون منهم من يصدقه ومنهم من يكذبه ؛ لأنه ما من رسول إلا وقد كُذِّب ؛ كما جاءت بذلك الآيات الكثيرة .

قال هنا : (ﷺ) ، هذا سؤال من المصنف رحمه الله أن يُثني الله على نبيه محمد ﷺ ؛ إذ الصلاة من الله الثناء ، وذلك امتثالاً لقول الله ﷻ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب : ٥٦] .

والعلماء قد اختلفوا في هذا الأمر ، وهو قوله : ﴿صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب : ٥٦] . هل هو للوجوب أم فيه تفصيل ؟ على أقوال :

القول الأول : قال طائفة من أهل العلم من الحنفية ؛ كالطحاوي وجماعة من الشافعية والمالكية : إنه يجب الصلاة على النبي ﷺ كلما ذكر . واستدلوا لهذا بأدلة منها : أنه مقتضى الأمر بالآية ، ومنها : ما جاء عن النبي ﷺ أنه قال : « رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ »[1] .

القول الثاني : قال شيخ الإسلام ابن تيمية : الأقرب أنه تجب الصلاة على النبي ﷺ في الدعاء ؛ وذلك لأنه قد ثبت عن عمر رضي الله عنه وغيره أنه قال : « إِنَّ الدُّعَاءَ مَوْقُوفٌ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ لَا يَصْعَدُ مِنْهُ شَيْءٌ حَتَّى تُصَلِّيَ عَلَى نَبِيِّكَ ﷺ »[2] .

وعلى هذا القول وهو أن الصلاة على النبي ﷺ تجب في الدعاء ، فمحلها قبل الدعاء ، يعني : بعد حمد الله والثناء عليه تأتي الصلاة على النبي ﷺ قبل الدعاء ؛ وذلك لأن تقديمه ﷺ على النفس واجب ، وإذا خُتم به الدعاء فذلك من باب الكمال ، لكن محل الوجوب هو قبل الدعاء ، فإن فات أن يكون قبل الدعاء يُختم به الدعاء وهذا سائغ ، لكن لو تركه قبل الدعاء ثم أتى به في آخر الدعاء فقد ترك الأفضل ، والأفضل والأكمل أن يجمع بينهما .

القول الثالث : أن الصلاة على النبي ﷺ تجب في العمر مرة . وهذا القول أقعد في الأصول : وذلك أن الله ﷻ أمر بالصلاة على نبيه بدون قيد ، فقال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب : ٥٦] وأمر بالصلاة عليه ، فيبرأ المأمور من العهدة إذا صلى عليه مرة ، يعني : صلى عليه خارج الصلاة التي هي العبادة المعروفة ، أما في الصلاة فذاك وجوب جاء من دليل آخر .

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص٢٢٥) ، والترمذي (٣٥٤٥) من حديث أبي هريرة - وقال الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٠٣) : حسن صحيح .

(٢) أخرجه الترمذي (٤٨٦) موقوفًا على عمر . وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٤٠٣) .

وهذا القول أنسب وأقعد في أصول الفقه ؛ لأن الأمر عندهم يقتضي التكرار إذا اقترنت به القرينة ، أو كان معلقًا بشيء يتكرر فيتكرر بتكرره ، أما إذا لم يُعلق بالدليل فإن دل على الوجوب في شيء يتكرر فإنه يبرأ من العهدة بمرة واحدة ، مثل ما أمر الله ﷻ بالحج بقوله : ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة : ١٩٦] ، وقوله : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران : ٩٧] فلم يقيده بقيد فتبرأ ذمته بالحج مرة .

إذا تقرر ذلك فما معنى الصلاة على النبي ﷺ ، أو الصلاة مطلقًا ؟ قال جمهور أهل اللغة : إن الصلاة في اللغة هي الدعاء ، قال ﷻ : ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة : ١٠٣] ، ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي : ادع لهم ، وكان النبي ﷺ إذا أتاه أحد بزكاة مالهم أو بصدقة أموالهم دعا لهم ، وقد أتاه ابن أبي أوفى بصدقة قومه ، فقال ﷺ : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى »[1] .

ويؤيد القول بأن الصلاة بمعنى الدعاء قول الأعشى في شعره المشهور :

تقولُ بنتي وقد قَرَّبتُ مُرْتَحِلَا ... يَا ربِّ جَنِّبْ أَبِي الأَوْصَابَ والوَجَعَا

عَلَيْكِ مِثْلُ الذّي صَلَّيْتِ فَاغْتَمِضِي ... يَوْمًا فَإِنَّ لِجَنْبِ المَرْءِ مُضْطَجَعَا

قالت : يا رب ، جنب أبي الأوصاب والوجعا ، فقال هو : عليك مثل الذي صليت ، وهي دعت بهذا الدعاء ، فأطلق الأعشى - وهو عربي - على دعائها الصلاة .

وهذا هو المشهور عند أهل العلم ، لكن ليس معنى الصلاة الدعاء بالمطابقة ، ولكن نقول : الصلاة فيها معنى الدعاء ، فإذا كان مناسبًا أن يكون دعاء فيعطى معنى الدعاء ، وإذا لم يكن ذلك مناسبًا أعطي المعنى الذي يناسب .

وابن القيم ؒ أطال البحث في هذا في كتابه « جِلاء الأفهام » ، وأنكر أن تكون الصلاة بمعنى الدعاء ، في بحث طويل ماتع يرجع إليه من أراد المزيد ، وأريد ذلك بأدلة كثيرة منها : إن الصلاة لا تكون إلا بالخير في اللغة ، أما الدعاء فيكون بالخير والشر ، وقال أيضًا : إن الدعاء إذا عُدي لا يكون معناه صلى ، بل يكون دعا على فلان ، وليس معناه صلى على فلان ، وقال : إن الصلاة في اللغة معناها الثناء... وهكذا في اعتراضات موفقة من ابن القيم ؒ .

وعلى كلٍّ فالمعروف عند السلف أن الصلاة من الله ﷻ هي الثناء ؛ وذلك لأن الله ﷻ يثني على عباده ، فيكون الذي يقول : صلى الله . يطلب من الله ﷻ أن يصلي على محمد بن عبد الله ﷺ ، فتكون الصلاة من الله ﷻ بمعنى الثناء .

قال بعدها : (وعلى آله) الآل : الصحيح أنهم أهل بيت النبي ﷺ خاصته ، وأفضلهم أهل الكساء

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٩٧، ٤١٦٦) ، ومسلم (١٠٧٨) من حديث عبد الله بن أبي أوفى .

الذين أدار عليهم النبي ﷺ الكساء، وقال طائفة من المحققين من أهل العلم: إن آل كل نبي هم أتباعه، مستدلين لذلك بقوله ﷻ: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ﴾ [البقرة: ٢٤٨] يعني مما ترك أتباع موسى وهارون.

لكن هاهنا قوله: (وعلى آله وصحبه) الآل: هم آل بيت النبي ﷺ بخصوصه، وأهل السنة والجماعة غالبًا ما يعطفون عليهم الأصحاب، فيقولون: (وعلى آله وأصحابه)، وعطف الأصحاب على الآل شعار لأهل السنة، بخلاف الرافضة الذين يصلون على الآل دون الصحب؛ وذلك لأنهم يتولون الآل دون الصحب، وأما أهل السنة فإنهم يصلون على الآل والصحب معًا إما دائمًا أو كثيرًا.

ورأى طائفة من أهل العلم أنه عند الصلاة على النبي ﷺ يضاف الآل فيقال: (صلى الله على محمد وعلى آله وسلم)؛ وذلك لأنه لما نزل قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، قال الصحابة: يا رسول الله كيف الصلاة عليكم أهل البيت؟ فإن الله قد علمنا كيف نسلم عليكم. قال ﷺ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ على محمدٍ، وعلى آلِ محمدٍ»[1].

قوله: (وسلم تسليمًا مزيدًا) يعني: طلب السلامة له ﷺ امتثالًا لما جاء في قوله ﷻ: ﴿صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] ويحصل الامتثال بالأمر بقول القائل: ﷺ، أو صلى الله وسلم عليه، ومطابقة الامتثال للآية أن يقول: ﷺ؛ لأن الله ﷻ قال:

﴿صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ فيقول المؤمن: ﷺ، أو صلى الله وسلم على محمد، أو اللهم صل وسلم على نبينا محمد.

قال: (أما بعدُ)، هذه كلمة يؤتى بها للانتقال، وقد استعملها النبي ﷺ في خطبه[2]، واستعملها الصحابة، وقد قيل إنها فصل الخطاب الذي أوتيه داود[3] عليه السلام في قوله ﷻ: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، لكن هذا ليس بصحيح.

قال هنا: (فهذا) إشارة إلى ما سيأتي في هذه العقيدة، يعني: هذا الذي ستراه في هذه الورقات (اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة).

و(الاعتقاد): ما يعقد القلب عليه من الأمور التي تُعتقد، وأصلها من العلم الجازم؛ لأن الاعتقاد

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٠)، ومسلم (٤٠٦) من حديث كعب بن عجرة.

(٢) هي مذكورة في خطبة الحاجة، وقد أخرجها مسلم (٨٦٧، ٨٦٨) من حديث جابر بن عبد الله مختصرة.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوائل (ص ٦٨) مرفوعًا. وابن أبي عاصم في الأوائل (ص١١٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٢٣٧) موقوفًا على أبي موسى الأشعري.

فيه جزم على العلم ، فإذا علمت شيئًا وجزمت به صرت معتقدًا له ، وخص هذا الاسم (الاعتقاد) بشرح أركان الإيمان الستة : الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والإيمان باليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى ، وما أضيف إلى ذلك من المسائل التي تميز بها أهل الاعتقاد الحق في أسماء الله وصفاته .

وفي أركان الإيمان الستة ما تميز به أهل السنة والجماعة عن سواهم من المبتدعة والزائغين من أهل الفرق المختلفة ، مثل الكلام في مسائل الإمامة ، والصحابة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والأخلاق ، ونحو ذلك .

قال : (فهذا اعتقاد الفرقة الناجية) ، الفرقة هي : الطائفة من الناس أو الطائفة من أي شيء ، فيقال : فرقة من الطير ؛ كما جاء في الحديث الصحيح : « اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ البَقَرَةَ وَسُورَةَ آل عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَومَ القِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا »[1] . يعني : طائفتان من طير صواف ، وكما قال ﷻ : ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء : ٦٣] ، (الطود) : هو الجبل ، يعني انفلق البحر فكان هذا كالجبل العظيم وهذا كالجبل العظيم ، وما بينهما يابس آية لموسى عليه السلام ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة : ١٢٢] ، والفرقة الناجية سميت فرقة لأجل أنها طائفة ، ولأنها مقابلة بالفرق الأخرى ، ولم يرد - فيما أعلم - هذا النص (الفرقة الناجية) في الحديث ، لكن العلماء أخذوه مما جاء في حديث معاوية وغيره ، في حديث الافتراق المشهور أن النبي ﷺ قال : « افْتَرَقَتِ اليَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وسبعونَ في النارِ ، وافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فَإِحْدَى وَسبعونَ فِي النارِ ، وواحدةٌ في الجنَّةِ ، والذي نَفْسُ محمدٍ بيدِهِ لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وسَبعينَ فرقةً ، فَواحِدَةٌ في الجنَّةِ ، وثِنْتَانِ وسبعونَ في النارِ » . قيل : يا رسول الله ، مَن هم ؟ قال : « الجماعةُ »[2] .

فيُفهم من هذا الحديث أن هذه الفرقة التي هي الجماعة هي الفرقة الناجية ، وغيرها من الفرق فرق هالكة ؛ ولهذا قال أهل العلم في وصف من اعتقد الاعتقاد الحق وكان مع الجماعة : إنه من الفرقة الناجية . ووصفها بأنها ناجية يعني : ناجية من النار ، وهي ناجية في الدنيا من عقاب الله ﷻ ، ومن

(١) أخرجه مسلم (٨٠٤) من حديث أبي أمامة الباهلي .

(٢) أخرجه أبو داود (٤٥٩٦) ، والترمذي (٢٦٤٠) ، وابن ماجه (٣٩٩١) من حديث أبي هريرة . وقال الألباني في صحيح أبي داود (٣٨٤٢) : حسن صحيح .

أنواع عقوباته وسخطه، وناجية في الآخرة من النار؛ لقوله ﷺ: «كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة». فكل الفرق متوعدة بالهلاك، وأما هذا الفرقة فهي الناجية.

فإذن (الناجية) هي صفتها في الآخرة، يعني: ناجية في الآخرة، وأما صفتها في الدنيا فهي (المنصورة)؛ كما قال شيخ الإسلام هنا ناعتًا هذه الفرقة بنعتين: (فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة)، فأهل السنة والجماعة هم الفرقة الناجية وهم الطائفة المنصورة.

والفرقة الناجية والطائفة المنصورة بمعنى واحد، ولكن وصفها بأنها ناجية باعتبار الآخرة، وفي ذلك أيضًا نجاة في الدنيا، ووصفها بأنها منصورة باعتبار الدنيا، وهذا لأجل ما جاء في الأحاديث الكثيرة أن النبي ﷺ قال: «لَا تَزالُ طائفةٌ مِن أمتي ظَاهرينَ عَلَى الحقِّ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهمْ حتى يَأْتِيَ أَمرُ اللَّهِ وهُمْ كَذلك»[1]، فهي طائفة منصورة، وهم على الحق ظاهرون ومنصورون، ينصرهم الله ﷻ على من عاداهم، إما بالحجة نصر بيان، وإما بالسنان نصر سنان إذا كان ثم جهاد قائم، وهذا لا يخلو منه أهل السنة والجماعة، وقد قال الإمام أحمد وغيره في تحديد من هي الفرقة الناجية المنصورة: «إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري مَن هم»؛ وذلك لأن أهل الحديث في زمن الإمام أحمد، كانوا هم القائمين لنصرة الدين والمنافحة عن الاعتقاد الصحيح، والرد على المخالفين من أهل البدع الذين أدخلوا في الإسلام ما ليس منه، الذين راموا تحريف الكلم عن مواضعه.

والإمام البخاري ﷺ لما ذكر هذا الحديث، قال: «الجماعة هم أهل العلم».

وإليه مال الترمذي في جامعه وغيره.

فالفرقة الناجية المنصورة هم أهل الحديث؛ كما عليه أقوال أكثر أهل العلم، وهم أهل العلم، وهم الذين اعتقدوا الاعتقاد الحق، فمن اعتقد الاعتقاد الحق فهو ناجٍ بوعد الله ﷻ له، ووعد الرسول ﷺ له في الآخرة، وهو منصور في الدنيا ومنصور في الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، فهم منصورون في الدنيا ومنصورون في الآخرة.

فهذا النعت الذي عبر به شيخ الإسلام ﷺ يُنبئ عما كان كالإجماع عند أهل السنة والجماعة، وعند أهل الحديث، وعند أئمة الإسلام، أن الفرقة الناجية والطائفة المنصورة كلها تدل على طائفة واحدة وعلى فرقة واحدة، وهم الذين اعتقدوا الاعتقاد الحق، وساروا على نهج السلف الصالح رضوان الله عليهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٤١) من حديث معاوية، ومسلم (١٩٢٠) من حديث ثوبان.

وقد عُقد لشيخ الإسلام مجلس محاكمة على هذه العقيدة لما ألفها ، وقيل له : إنك تقول في هذا الاعتقاد : (فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة) ، فهل معنى ذلك أنك تقول : إن من لم يعتقد هذا الاعتقاد فليس بناج من النار ؟ فقال ﷺ مجيبًا في المجلس الذي حوكم فيه من قبل القضاة ومشايخ زمنه : لم أقل هذا ولم يقتضه كلامي ، وإنما قلت : فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة ، فمن اعتقد هذا الاعتقاد كان موعودًا بالنجاة ، ومن لم يعتقد هذا الاعتقاد لم يكن موعودًا بالنجاة وكان متوعدًا بالعذاب ، وقد ينجو بأسباب ، منها : صدق المقام في الإسلام ، وكثرة الحسنات الماحية في الجهاد في نصرة الإسلام ، وذلك لمن عنده نوع مخالفة لهذا الاعتقاد .

كما هو عند طائفة من أهل العلم ، فإنهم قد يكون عندهم - كما قال شيخ الإسلام - من الحسنات الماحية وصدق المقام في نصرة الإسلام ما يُكَفِّر اللَّه ﷻ به عنهم المعصية والكبيرة التي عملوها ، وهي سوء الاعتقاد الذي اعتقدوه ، ولم يعتقدوا ما كان عليه أهل السنة والجماعة .

قوله : (إلى قيام الساعة) ، يعني : إلى قيام ساعة المؤمنين أي : الطائفة المنصورة ، وذلك يكون قبل طلوع الشمس من مغربها بزمن قليل ، عند كثير من أهل العلم ؛ كما قال النبي ﷺ فيما صح عنه في الحديث : « .. يُرسلُ اللَّهُ ريحًا باردةً من قبل الشَّامِ فلا يَبقى على وجهِ الأرضِ أحدٌ في قلبِهِ مثقالُ ذرةٍ من خيرٍ أو إيمانٍ إلَّا قَبضَتْهُ ، حتَّى لو أنَّ أحدكمْ دخلَ في كبدِ جبلٍ لَدَخَلَتْهُ عليه حتَّى تَقْبِضَهُ ، فيبقَى شِرَارُ الناسِ في خِفَّةِ الطيرِ وأحلامِ السِّباعِ ، لا يعرفونَ معروفًا ولا يُنْكِرونَ مُنكرًا ..»[1] .

قوله : (أهلِ السنةِ والجماعة ...) :

ذكر شيخ الإسلام - فيما سبق - أن هذا الاعتقاد الذي في هذه الرسالة هو (اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة) ، ثم وصفهم بوصف ثالث تميز به هؤلاء عمن خالفهم ، وهو أنهم (أهل السنة والجماعة) ، ومعنى أهل السنة والجماعة أنهم أصحاب السنة الذين لزموها في اعتقادهم ولزموها في أقوالهم وأعمالهم - يعني في الجملة - وتركوا غير ما دلت عليه السنة .

و (السنة) هي الطريقة التي كان عليها رسول اللَّه ﷺ وأصحابه المنتخبون الخيرة ومن سار على نهجهم .

والسنة في الاصطلاح : هي ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو وصف . والمراد هنا : ما كان عليه النبي ﷺ من الأقوال والأعمال والتقريرات ، فهذا ينسب إليه أهل السنة بهذا الاعتبار ، فيقال : هم أهل السنة ، يعني : هم أهل اتباع أقوال النبي ﷺ ، وأهل اتباع أفعاله ، وأهل اتباع تقريراته ﷺ .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٤٠) من حديث عبد اللَّه بن عمرو .

وهذا اللفظ (أهل السنة) يطلق باعتبارين :

الأول : يطلق ويراد به من خالف الشيعة والرافضة وفرقهم وما تفرع منهم ، فيدخل في هذا الإطلاق أهل الأثر - أهل الحديث- ويدخل فيه الأشاعرة ، ويدخل فيه الماتريدية ، ويدخل فيه كل من خالف الرافضة ، فيدخل فيه الذين عندهم نوع احتجاج بالحديث ، ويخرج الرافضة والشيعة والخوارج والمعتزلة ونحو ذلك ، هذا باعتبار مقابلة هذا اللفظ بأهل التشيع ، فيقال : السنة والشيعة ، وأهل السنة وأهل التشيع .

الثاني : يُطلق ويراد به أهل اتِّباع النبي ﷺ في الأقوال والأفعال والتقريرات ، الذين لا يقدمون شيئًا من العقول على سنة النبي ﷺ ، سواء في الأخبار أو في الأحكام أو في السلوك والأخلاق ، وهذا الذي يُعنى به هذه الطائفة ، وهم طائفة أهل الأثر ، طائفة أهل السنة والجماعة ، طائفة أهل الحديث ، الذين تميزوا بهذا الاعتقاد ، وهم الفرقة الناجية والطائفة المنصورة إلى قيام الساعة .

فتلخص إذن أن هذا اللفظ ، وهو (أهل السنة) دون أن تُعطف (الجماعة) على السنة ، يُطلق بأحد هذين الاعتبارين ، قد يطلق ويراد به ما عدا الرافضة ، وقد يطلق- وهو الأصل - ويراد به من لازم السنة ، على ما سبق تفصيله .

وأما قوله : (والجماعة) فإن هذا اللفظ استعمله طائفة من أئمة السنة المتقدمين من طبقة مشايخ الإمام أحمد وطبقته ومن بعدهم ، وقد جاء في الأحاديث الصحيحة أن النبي ﷺ استعمل لفظ (الجماعة) ، فمنها أنه ﷺ ذكر الفرقة الناجية في حديث الافتراق المشهور ، حيث قال بعدما ساق الافتراق : « كُلها في النارِ إلا واحدةً ، وهي الجماعةُ » ، وفي لفظ آخر قال : « كلُّهَا في النَّارِ إلا واحدةً » . قالوا : من هي يا رسول الله ؟ - قال : « مَن كانَ على مثلِ ما أنَا عليهِ وأصْحَابِي » ، وفي رواية أخرى زاد لفظ : « اليوم » بقوله : « مَنْ كانَ على مثلِ ما أنَا عليهِ اليومَ وأَصْحَابي »[(١)] .

وقد جاء الحث على التمسك بالجماعة ولزومها في أحاديث كثيرة ، والآيات التي فيها النهي عن التفرق فيها الأمر بلزوم الجماعة بالمفهوم ، وقد جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال : « الجماعةُ رحمةٌ والفرقةُ عذابٌ »[(٢)] ، والنصوص في ذكر الجماعة كثيرة ، وفي الحث عليها والحض على لزومها ، والتحذير من مخالفة الجماعة . وقد اختلف أهل العلم من المتقدمين في معنى الجماعة وتفسير الجماعة على أقوال :

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو . وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢١٢٩) .

(٢) أخرجه عبد الله ابن الإمام أحمد في زوائد المسند (٤/ ٢٧٨) ، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٤٤) من حديث النعمان بن بشير . وحسن إسناده الألباني في الصحيحة (٦٦٧) .

القول الأول : أن (الجماعة) هم السواد الأعظم ، وهذا التفسير منقول عن ابن مسعود الهذلي الصحابي المعروف ، وأبي مسعود الأنصاري البدري ﵄ ساق عنهما ذلك جمع منهم :

اللالكائي في كتابه : « شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة » ، قال : « إن الجماعة هي السواد الأعظم » .

وقد جاء في بعض الأحاديث ، وفي إسنادها من لا يحتج به أنه قال ﷺ : « عليكُم بِالسَّوادِ الأعظمِ »[1] ، فأخذوا أن الجماعة هي السواد الأعظم ، ويعنون بذلك السواد الأعظم في وقتهما ، وذلك بأنه في آخر وقت ابن مسعود بدأ ظهور الذين ينقمون على عثمان ﵁ من الخوارج ومن شابههم ، وحثوا على لزوم السواد الأعظم ، وهو سواد عامة صحابة رسول اللّٰه ﷺ .

القول الثاني : أن (الجماعة) هم جماعة أهل العلم والسنة والأثر والحديث ، سواء كانوا من أهل الحديث تعلمًا وتعليمًا ، أو كانوا من أهل الفقه تعلمًا وتعليمًا ، أو أهل اللغة تعلمًا وتعليمًا ، فالجماعة هم أهل العلم والفقه والحديث والأثر ، وهذا القول هو مجموع أقوال عدد من الأئمة حيث قالوا : إن الجماعة وإن الفرقة الناجية هم أهل الحديث .

كما ذكر ذلك الإمام أحمد بقوله : « إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم » ، وذكر ذلك أيضًا عبد اللّٰه بن المبارك ، ويزيد بن هارون ، وجماعة من أهل العلم . وقال آخرون : هم أهل العلم . كما ذكره البخاري .

خلاصة هذا القول : أن الجماعة هم أهل العلم ، وأهل الحديث ، وأهل الأثر ، ساق تلك الأقوال الخطيب البغدادي في كتابه « شرف أصحاب الحديث » بأسانيدها إلى من قالها .

وهذا الذي اشتهر عند العلماء - بل عُدَّ إجماعًا - أن المعني بالجماعة وبالفرقة الناجية هم أهل الحديث والأثر- يعني : في زمن الإمام أحمد ومن قاربه - لأنهم هم الذين نفوا عن دين اللّٰه تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وهم الذين نصروا السنة ، ونصروا العقيدة الحقة وبينوها ، وردوا على من خالفها ، وأعلنوا عليه النكير من كل جهة .

القول الثالث : أن الجماعة هم أصحاب رسول اللّٰه ﷺ ، وهذا القول منسوب إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز الأموي ﵁ ، وهذا القول دليله واضح ، وهو أن النبي ﷺ قال في بعض ألفاظ حديث الافتراق : « هي الجماعة » ، وقال في ألفاظ أخر : « مَنْ كانَ على مثلِ مَا أنَا عليهِ اليومَ وأصحابِي »[2] ،

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٩٥٠) من حديث أنس بن مالك . وقال الألباني في « ضعيف ابن ماجه » (٨٥٦) : ضعيف جدًا .

(٢) تقدم تخريجه .

معنى ذلك أن الجماعة هي الصحابة .

القول الرابع : وهو قول نذكره لكن لا دليل عليه : أن الجماعة هي أمة الإسلام عامة . لكن هذا باطل ؛ لأنه يناقض حديث الافتراق ، فإن حديث الافتراق يبين أن أمة الإسلام- يعني : أمة الإجابة - تفترق إلى ثلاث وسبعين فرقة ، وتفسير الجماعة بأنها أمة الإسلام يناقض الحديث مناقضة واضحة صريحة .

القول الأخير : أن الجماعة يراد بها عصبة المؤمنين الذين يجتمعون على الإمام الحق ، فيدينون له بالسمع والطاعة ، ويعقدون له البيعة الشرعية . واختار هذا القول ابن جرير الطبري رحمه الله وجماعة كثيرون من أهل العلم ، قالوا : لأنه بهذا يحصل الاجتماع والائتلاف إذا كان على إمام حق .

إذا كان كذلك فهذه الأقوال ، كما ترى ، متباينة ولكن في تحديد من هم أهل السنة والجماعة نحتاج إلى أن نعلم هذه الأوصاف التي ذكرت في هذه الأقوال ، وتحقيق المقام أن الأقوال الثلاثة الأول وهي : القول بأن الجماعة هم السواد الأعظم ، أو أن الجماعة هم أهل الحديث والأثر ، أو أن الجماعة هم صحابة رسول الله ﷺ ، هذه الأقوال متقاربة ، وهي من اختلاف التنوع ، لأن الجماعة الذين هم السواد الأعظم - كما فسرها أبو مسعود البدري رضي الله عنه - يعنون بها صحابة رسول الله ﷺ .

وفسر أكثر أهل العلم الجماعة بأنهم أهل العلم والأثر والحديث ؛ لأنهم تمسكوا بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد ، والجماعة المراد بها أصحاب رسول الله ﷺ .

فتحصل إذن أن هذه الأقوال الثلاثة ترجع إلى معنى واحد ، وأن أهل السنة والجماعة هم الذين تابعوا صحابة رسول الله ﷺ ، وتابعوا أهل العلم والحديث والأثر في أمورهم .

أما قول ابن جرير الطبري رحمه الله فهذا صحيح ، وهو أن الجماعة هم عصبة المؤمنين الذين اجتمعوا على الإمام الحق ، وتبيان ذلك مما يبين حصيلة هذا الكلام ويقرره أتم وأوضح تقرير أن الجماعة مقابلة للفرقة ، والافتراق يقابله الاجتماع ، وقد ذكر الخطابي رحمه الله في كتابه : « العزلة » كلمة فائقة فيها تحرير هذا المقام ، قال : « الفرقة فرقتان : فرقة الآراء والأديان ، وفرقة الأشخاص والأبدان ، والجماعة جماعتان : جماعة هي الأئمة والأمراء ، وجماعة هي العامة والدهماء ، فأما الافتراق في الآراء والأديان فإنه محظور في العقول ، محرم في قضايا الأصول ؛ لأنه داعية الضلال ، وسبب التعطيل والإهمال ..» إلى آخر كلامه رحمه الله .

نأخذ من هذا أنه لفهم معنى الجماعة فهمًا دقيقًا فإنه ينبغي على هذا فهم معنى أهل السنة والجماعة حتى لا يدخل فيهم ما ليس منهم .

وتحريره أن الجماعة تطلق باعتبارين :

الأول : جماعة باعتبار الآراء والأديان ، فإذا نظرت إلى هذا المعنى في الاجتماع فإنه مأمور به . والاجتماع على الآراء والأديان ، وعلى الأقوال في الدين ، وعلى الأحكام ، وعلى العقائد ، وعلى المنهج ، ونحو ذلك ، لابد أن يكون له مرجع ، ومرجعه في فهم نصوص الكتاب والسنة هم صحابة رسول الله ﷺ ، وبهذا يلتقي هذا الفهم مع أقوال أهل العلم الذين قالوا : إن الجماعة هم صحابة رسول الله ﷺ .

وعلى هذا فالذين أخذوا بما قالته الصحابة ﵃ ، وما بينته الصحابة من أحكام الشرع الخبرية - يعني : من العقائد - فإنهم على الحق الذي لم يكن مع الفرق التي فارقت الجماعة ، وهؤلاء الذين هم مع صحابة رسول الله ﷺ ، هم مع السواد الأعظم قبل أن يفسد ، ومعلوم أنه لا يحتج بالسواد الأعظم في كل حال ، وإنما السواد الأعظم الذي يُحتج به هو السواد الأعظم لصحابة رسول الله ﷺ . وهذه مسألة في غاية الأهمية ؛ إذ الاحتجاج بالسواد الأعظم إنما يُراد به السواد الأعظم للمهتدين وهم صحابة رسول الله ﷺ ومن تابعهم في أمور الدين ، فهناك إذن قولان رجعا إلى هذا المعنى .

كذلك من قال بأن الجماعة هم أهل العلم ، والحديث ، والأثر ، ومن سار على نهجهم من الفقهاء ، وأهل اللغة ، ونحو ذلك ، فهؤلاء إنما أخذوا بأقوال الصحابة ، رضوان الله عليهم ، وساروا على ما قرروه ، فإذن هم مع الجماعة قبل أن تفسد الجماعة ، ومع السواد الأعظم قبل أن يتفرق الناس عنه .

وقد جاء عن نعيم بن حماد أنه قال : « إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد ، وإن كنت وحدك فإنك أنت الجماعة حينئذ » ، وهذا يُراد به ما كان عليه صحابة رسول الله ﷺ قبل أن يفسد الناس ؛ لأنه حصلت فتن وحصلت في الناس أمور منكرة وافتراق في الدين ، فكيف تضبط هذه المسألة ، وهي أعظم المسائل التي هي مسألة الاعتقاد وما يجب اعتقاده ، وما يُنتهج في الحياة ؟

قال أهل العلم : إن الجماعة - يعني : التي من تمسك بها فهو على الجماعة ومن حاد عنها فهو من أهل الفرقة - هم صحابة رسول الله ﷺ . وهذا ظاهر .

الثاني : اجتماع في الأبدان والأشخاص ، وهذا هو الذي فهمه ابن جرير الطبري ؒ ولا شك أن هذا مأمور به في نصوص كثيرة ، فقد أمر النبي ﷺ بلزوم الجماعة ، والاجتماع على الإمام ، وعدم التفرق عليه ، وترك الخروج عليه ، والبعد عن الفتن التي تفرق المؤمنين ، وهذا مما تميز به صحابة رسول الله ﷺ ، وتميز به أهل السنة في كل عصر ، فنظر ابن جرير ؒ في هذا المعنى إلى ما فعله الإمام أحمد ؒ مع ما حصل من المأمون والمعتصم والواثق ؛ فإنه لم ينزع يدًا من طاعة ؛ لأنه رأى أن

الاجتماع إنما يحصل بذلك ، فأخذ بما جاء في النصوص في هذا المعنى ، وهكذا أهل السنة والجماعة هم على هذين الأمرين . فإذن تحصل أن معنى الجماعة وإن تعددت الأقوال فيها ؛ فإن هذه الأقوال كاختلاف التنوع ؛ لأن جميعها صحيح دلت عليه نصوص الشرع ، فباجتماع هذه الأقوال يحصل لنا المعنى الصحيح لأهل السنة والجماعة .

وقد غلط من غلط في معنى السنة وَالجماعة ، فأدخل في أهل السنة والجماعة بعض الفرق الضالة ؛ كالأشاعرة ، والماتريدية ، ومن أمثال من غلط من المتقدمين السفاريني في شرحه « لوامع الأنوار البهية » ، فقال : « اعلم أن أهل السنة والجماعة ثلاث طوائف : أهل الحديث والأثر ، والأشاعرة ، والماتريدية » . وعلى هذا الكلام فإن الأشعرية والماتريدية وأهل الأثر جميعًا من الجماعة ، وهذا باطل ؛ لأن أهل الأثر هم الذين تمسكوا بما كانت عليه الجماعة ، وأما الأشاعرة والماتريدية فهم يقولون قولتهم المشهورة : « إن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم » ، وهذا لا شك أن فيه افتراء وفرقة وخلافًا واختلافًا عما كانت عليه الجماعة قبل أن يذر مخيم الابتداع في هذه الأمة .

فإذن هذا الكلام غلط على أهل السنة والجماعة ، ولم يقل به أحد من أئمة أهل السنة والجماعة ، فإذن أهل السنة والجماعة فرقة واحدة ، وطائفة واحدة لا غير ، وهم الذين يعتقدون هذا الاعتقاد الذي سيبينه شيخ الإسلام ﷺ في هذه الرسالة .

وإذا تبين أن من لم يكن على هذه الجماعة فإنه على الفرقة والضلال والاختلاف ، فهذا يبين أهمية العناية بهذه الرسالة التي تشرح اعتقاد أهل السنة والجماعة قبل أن يخالفها المخالفون ، وقبل أن يكثر الفساد والاختلاف في هذه الأبواب ، ليتبين وجوب التزام طريقتهم ونهجهم في هذه الأمور التي سيبينها شيخ الإسلام في هذه الرسالة العظيمة . وكل ما سيأتي في هذه الرسالة هو تفصيل لاعتقاد أهل السنة والجماعة مع شيء من الاقتضاب يناسب هذه الرسالة .

قوله : (وهو الإيمانُ باللهِ ، وملائكتِه ، وكُتبه ، ورُسلِه ، والبعثِ بعدَ الموتِ ، والإيمانُ بالقدرِ خيرِه وشرِّه) :

قد مرت معنا مقدمة هذه الرسالة الوجيزة في ألفاظها ، الكبيرة في معانيها ، وقد ذكر رحمه الله أن هذا الاعتقاد الذي سيأتي في هذه الرسالة مفصلًا هو اعتقاد الفرقة الناجية ، وهو اعتقاد الطائفة المنصورة ، وهو اعتقاد أهل السنة والجماعة .

وقال هنا في بيان هذا الاعتقاد : (وهو الإيمانُ باللهِ ، وملائكتِه ، وكُتبه ، ورُسلِه ، والبعثِ بعدَ الموتِ ، والإيمانُ بالقدرِ خيرِه وشرِّه) ،اعتقاد أهل السنة والجماعة مبني على هذه الأركان التي بينها الشيخ رحمه الله في هذه الكلمات ، وهذه الكلمات هي أركان الإيمان التي جاء الأمر بها في الآيات

والأحاديث الصحيحة ، قال تعالى : ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة : ١٧٧] ، فذكر هذه الخمسة ، وقال ﷻ في آخر السورة نفسها : ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] ، وقال ﷻ : ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] .

وقد جاءت هـذه الستة في حديث جبريل عليه السلام الذي في الصحيح ، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : « قالَ : فَأَخبِرْني عن الإيمانِ ، قالَ : أنْ تؤمنَ باللّهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ واليومِ الآخرِ ، وتؤمنَ بالقدرِ خيرِه وشرِّهِ »[1] ، هذه الأركان الستة هي أركان الإيمان .

والإيمان إذا قُرن بالإسلام فيُعنى به الاعتقاد الباطن ، وهذه الرسالة فيها ذكر الاعتقاد – اعتقاد أهل السنة والجماعة – فتحصل أن الإسلام يُعنى به الأمور الظاهرة ، والإيمان يُعنى به الأمور الباطنة ؛ أمور اعتقاد القلب ، وهو مبني على أركان ستة :

الأول : الإيمان بالله .

الثاني : الإيمان بالملائكة .

الثالث : الإيمان بالكتب .

الرابع : الإيمان بالرسل .

الخامس : الإيمان بالبعث بعد الموت ، أي : الإيمان باليوم الآخر .

السادس : الإيمان بالقدر خيره وشره من الله تعالى .

فما هو معنى الإيمان ؟

الإيمان له معنى في اللغة ، وله معنى في الشرع ؛ لأنه من الألفاظ التي نقلت من معناها اللغوي إلى معنى شرعي ، مثل : الصلاة ، والزكاة ، ونحو ذلك .

فأما معناه في اللغة : فهو التصديق الجازم ؛ كما قال تعالى مخبرًا عن قول إخوة يوسف لأبيهم : ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف : ١٧] ، يعني : ما أنت بمصدقنا ولو كنا صادقين ، فالإيمان في اللغة : هو التصديق ، آمن لفلان يعني صَدقه ، آمنت لكلامك يعني صدقت لكلامك حيث إنه لا ريب عندي فيما تقول .

وأما معناه في الشرع : فهو قول وعمل ، قول القلب وعمل القلب ، وقول الجوارح وعمل الجوارح ، فالإيمان في الشرع فيه زيادة على معناه اللغوي أنه له موارد– القلب والجوارح – فهو « قول وعمل » .

---

(١) أخرجه مسلم (٨) .

وقد حصر هذا أهل العلم بقولهم : « إن الإيمان في الشرع هو : القول باللسان » يعني : شهادة التوحيد « والاعتقاد بالجنان » الاعتقاد المفصل الذي سيأتي بيانه « والعمل بالجوارح والأركان »، فهذا هو معنى الإيمان في النصوص ، وهو المراد بالإيمان عند أهل السنة والجماعة .

فمعتقد أهل السنة والجماعة في الإيمان ما جمع خمسة أمور ، هي :

الأول : قول القلب وهو اعتقاد القلب ، واعتقادات القلب هي أقواله ؛ لأنه يحدث بها نفسه ويقولها في قلبه ، فأقوال القلب هي الاعتقادات ، وستأتي مفصلة في هذا الكتاب إن شاء الله .

الثاني : قول اللسان بالشهادة لله بالتوحيد ، فيقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ .

الثالث : عمل القلب ، وأوله نيته وإخلاصه ، وأنواع أعمال القلوب من التوكل والرجاء والرهبة والخوف والمحبة والإنابة والخشية ، ونحو ذلك .

الرابع : عمل الجوارح والأركان بأنواع الأعمال مثل : الصلاة ، والزكاة ، والجهاد ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ونحو ذلك من الأعمال .

الخامس : أن الإيمان يزيد بطاعة الرحمن ، وينقص بمعصية الرحمن وطاعة الشيطان .

فهذه خمسة أمور تميز بكل واحد منها أهل السنة والجماعة عمن خالفهم في هذا الأصل ، فمن قال من السلف : « إن الإيمان قول وعمل » . فهو يعني به هذه الأمور الخمسة ، أما زيادته ونقصانه فقد دلت عليها الأدلة الكثيرة ؛ كقوله تعالى : ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۗ﴾ [الفتح : ٤] ، وقوله : ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة : ١٢٤] .

فإذن صار عندنا مسمى للإيمان غير ما تدل عليه اللغة في الإيمان ؛ وذلك أن الإيمان في اللغة أصله التصديق الجازم ، وقال بعض أهل العلم : إن أصله من الأمن ؛ لأن من صدق جازمًا فإنه يأمن غائلة التكذيب .

وفي الاصطلاح عند أهل السنة والجماعة : هو ما فسروه بالأمور الخمسة .

وفي القرآن أتى الإيمان بالمعنى اللغوي وبالمعنى الشرعي ، وقد فرق بين مجيء هذا وهذا في القرآن بعضُ أهل العلم بقوله : إنّ غالب ما جاء فيه الإيمان بالمعنى اللغوي فإنه يُعدى باللام ، وما جاء فيه بالمعنى الشرعي فإنه يُعدى فيه بالباء .

أما القسم الأول : وهو الإيمان اللغوي الذي عُدي باللام ، مثل قول الله ﷻ - : ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف : ١٧] ، فلمّا قال ﴿بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ فعدى الإيمان باللام علمنا أن الإيمان هنا بالمعنى اللغوي . تقول : آمنت لك : يعني : صدقتك تصديقًا لازمًا ؛ وكما قال ﷻ : ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ﴾ [العنكبوت : ٢٦] ، يعني : صدق به تصديقًا لازمًا .

أما القسم الثاني : وهو الإيمان الشرعي ، فإنه يُعدى بالباء ، مثل قول الله ﷻ : ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ﴾ [البقرة : ٢٨٥] ، وقوله : ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [البقرة : ١٣٧] ، فهذا إيمان شرعي خاص .

وزيادة الإيمان ونقصانه أصل عند أهل السنة والجماعة يخالفون به الخوارج ومن يُكفرون بالذنوب ، وينبغي أن يُعلم هنا أن أهل السنة يقولون : « لا نُكفر بذنب » . ويقصدون بذلك لا يُكفرون بعمل المعاصي ، أما مباني الإسلام العظام التي هي الصلاة والزكاة والحج ففي تكفير تاركها والعاصي بتركها خلاف مشهور عندهم ، فقولهم : إن أهل السنة والجماعة يقولون : لا نُكفّر بذنب ما لم يستحله بإجماع . يعني المعصية ، أما المباني العظام فإن التكفير عندهم الخلاف فيه مشهور ، يعني منهم من يُكفر بترك مباني الإسلام العظام أو أحد تلك المباني ، ومنهم من لا يُكفّر .

كذلك ينبغي أن يُعلم أن قولنا : العمل داخل في مسمى الإيمان وركن فيه لا يقوم الإيمان إلا به ، نعني به جنس العمل وليس أفراد العمل ؛ لأن المؤمن قد يترك أعمالًا كثيرة صالحة مفروضة عليه ويبقى مؤمنًا ، لكنه لا يُسمى مؤمنًا ولا يصح منه إيمان إذا ترك كل العمل ، يعني إذا أتى بالشهادتين وقال : أقول ذلك وأعتقده بقلبي ، وأترك كل الأعمال بعد ذلك ، وأكون مؤمنًا . فالجواب : أن هذا ليس بمؤمن ؛ لأن ترك العمل مُسقط لأصل الإيمان ، يعني ترك جنس العمل مُسقط للإيمان ، فلا يوجد مؤمن عند أهل السنة والجماعة يصح إيمانه إلا ولا بد أن يكون معه مع الشهادتين جنس العمل الصالح ، جنس الامتثال للأوامر والاجتناب للنواهي .

كذلك الإيمان مرتبة من مراتب الدين ، والإسلام مرتبة من مراتب الدين ، والإسلام فُسر بالأعمال الظاهرة ؛ كما جاء في المسند أن النبي ﷺ قال : « الإيمانُ في القلبِ والإسلامُ علانيةٌ »[1] ، يعني أن الإيمان ترجع إليه العقائد ، أعمال القلوب ، وأما الإسلام فهو ما ظهر من أعمال الجوارح .

فليُعلم أنه لا يصح إسلام عبد إلا ببعض إيمان يصحح إسلامه ؛ كما أنه لا يصح إيمانه إلا ببعض إسلام يصحح إيمانه ، فلا يُتصور مسلم ليس بمؤمن البتة ، ولا مؤمن ليس بمسلم البتة ، وقول أهل السنة : إن كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنًا . لا يعنون به أن المسلم لا يكون معه شيء من الإيمان أصلًا ، بل لابد أن يكون معه مُطلق الإيمان الذي به يصح إسلامه ، كما أن المؤمن لابد أن يكون معه مُطلق الإسلام الذي به يصح إيمانه - ونعني بُمطلق الإسلام جنس العمل - فبهذا يتفق ما ذكروه في تعريف الإيمان ، وما أصلوه من أن كل مؤمن مسلم دون العكس .

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ١٥٧) ، وأحمد (٣/ ١٣٥) من حديث أنس بن مالك - وأنكره الألباني في الضعيفة (٦٩٠٦) .

فإذن هاهنا - كما يقول أهل العلم عند أهل السنة والجماعة - خمس نونات :

النون الأولى : أن الإيمان قول اللسان ، هذه النون الأولى يعني اللسان .

الثانية : أنه اعتقاد الجنان .

الثالثة : أنه عمل بالأركان .

الرابعة : أنه يزيد بطاعة الرحمن .

والخامسة : أنه ينقص بطاعة الشيطان وبمعصية الرحمن .

والإيمان متفاضل ، كلما عمل العبد طاعة زاد إيمانه ، وكلما عمل العبد معصية نقص إيمانه ، فبقدر المعصية ينقص الإيمان ، وبقدر إيمانه ومتابعته وإحداثه للطاعات يزيد إيمانه ، سواء كانت طاعات القلوب من الاعتقادات والأعمال ، أو طاعات الجوارح من الأعمال الصالحات ، فإن الإيمان يزداد بذلك ، فإذا عمل معصية نقص الإيمان .

كذلك فإن الناس في أصل الإيمان ليسوا سواء بل مختلفون ، فإيمان أبي بكر ليس كإيمان سائر الصحابة ؛ ولهذا قال شعبة أبو بكر بن عياش القارئ المعروف : « ما سبقهم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام وإنما بشيء وقر في قلبه » ، وهذا مستقى من بعض الأحاديث أو من بعض الآثار ، ويعني أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان معه من أصل الإيمان ما ليس عند غيره ، فيغلِّط أهلُ السنة من قال : « إن أهل الإيمان في أصله سواء ، وإنما يتفاضلون بعد ذلك في الأعمال » ، بل هم مختلفون في أصله .

وفهمُ معتقد أهل السنة والجماعة في الإيمان يمنع من الدخول في الضلالات ؛ من التكفير بالمعصية ، أو من التكفير بما ليس بمكفر ، فلو فهم المسلم معتقد أهل السنة والجماعة في الإيمان حصَّن لسانه وعقله من الدخول في الغلو في التكفير ، واتباع الفرق الضالة التي سارعت في باب التكفير فخاضت فيه بغير علم ، فكفروا المسلمين ، وأدخلوا في الإسلام والإيمان من ليس بمسلم ولا مؤمن .

قال هنا : (وهو الإيمان بالله) ، والإيمان بالله يشمل أشياء :

أولًا : أن يؤمن العبد بأن له ربًّا موجودًا ، وأن المخلوقات لم توجد من عدم ، وأن لهذا الملكوت مُوجِدًا .

الثاني : أن يؤمن بأن هذا الذي له هذا الملك واحد في ربوبيته ، لا شريك له في ملكه ، يحكم في ملكه بما يشاء ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لأمره ، وهذا الذي يُعنى به توحيد الربوبية .

ثالثًا : الإيمان بأن هذا الذي له ملكوت كل شيء وأنه صاحب هذا الملك وحده دونما سواه ، الذي ينفذ أمره في هذا الملكوت العظيم ، أنه له الأسماء الحسنى والصفات العلا ، له النعوت الكاملة ، وله الكمال المطلق بجميع الوجوه ، الذي ليس فيه نقص من وجه من الوجوه ، بل له الكمال في

أسمائه ، وله الكمال في صفاته ، وله الكمال في أفعاله ، وله الكمال في حكمه في بريته وفي خلقه ، وهذا هو الذي يُعنى به توحيد الأسماء والصفات . ويعتقد مع ذلك أنه في تلك النعوت وتلكم الصفات أنه ليس ثَم أحد يماثله فيها ولا يكافئه فيها ؛ كما قال ﷻ- : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] ، وقال : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص : ٤] ، فليس له ﷻ مثيل ، ولا كفء ، ولا نظير ، ولا ند ، ولا عدْل ، تبارك ربنا وتعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا .

الرابع والأخير- وهو المهم الأعظم في الإيمان بالله - : الإيمان بأن هذا الرب الذي له الملك وحده دونما سواه ، والذي له نعوت الجلال والجمال والكمال على وجه الكمال أنه هو المستحق للعبادة وحده دونما سواه ، وأن كل ما سواه لا يستحق شيئًا من العبادة ، وأن أنواع العبادة - عبادات القلب أو عبادات الجوارح - أن المستحق لها قليلها وكثيرها هو الله ﷻ وحده دونما سواه . فمن أتى بهذه الدرجات الأربع فقد أتى بالإيمان بالله الذي هو ركن من أركان الإيمان ، ومن ترك الأولى منها فهو ملحد لا شك ، يتبع ذلك أنه لا يعتقد شيئًا بعد ذلك ، وكذلك من أشرك في الربوبية ولم يعتقد الربوبية الكاملة لله ﷻ وحده فإنه تبع ذلك ، وكذلك من لم يوحد الله ﷻ في العبادة فإنه لا يسمى مؤمنًا بالله ولو كان يعتقد أن الله ﷻ موجود ، وأن له الربوبية الكاملة له وحده دونما سواه ، وأنه له الأسماء الحسنى والصفات العلا ، فإذا لم يوحد الله ﷻ في العبادات في نفسه ، أو أقر عدم توحيد الله ﷻ بتصحيحه لذلك أو بتجويزه له فهو لم يؤمن بالله . أما من أشرك في الأسماء والصفات ، فهل ينتفي إيمانه بذلك فيصبح كافرًا ؟ الجواب : من لم يؤمن بتوحيد الأسماء والصفات ففي حقه تفصيل يأتي إن شاء الله تعالى في هذه الرسالة ، لأنه سيأتي بعد قليل قول شيخ الإسلام : (ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه) ، وسيذكر الإيمان بالأسماء والصفات من الكتاب والسنة على وجه التفصيل ، فنرجئ تفصيل هذا الحكم إلى موضعه .

إذن من أنكر توحيد الأسماء والصفات ، يعني : من لم يثبت لله ﷻ جميع الصفات ، أو قال بالتشبيه في بعض المواضع ، أو نحو ذلك ، فهل يقال : إن هذا ليس يؤمن بالله ؟ الجواب : ثَم تفصيل يأتي في موضعه إن شاء الله تعالى ، وهو من المهمات ؛ لأن من الناس من غلا في هذا الجانب وكفر بالإخلال بشيء من أفراد توحيد الأسماء والصفات .

الثاني من أركان الإيمان : الإيمان بالملائكة ، فلا يصحّ إيمان العبد إلا أن يؤمن بالملائكة ، ولفظ الملائكة جمع « ملأك » ، وأصل هذه الكلمة « ملأك » مقلوبة عن « مألك » ، والمألك : مصدر - يعني بالاعتبار العام- أصلها من الألوكة ، والألوكة : هي الرسالة ، وفعلها ألك يألك ألوكة ، يعني : أرسل برسالة خاصة وبمهمة خاصة .

فإذن الكلمة راجعة إلى معنى الإرسال ، « فالملائكة » من لفظها اللغوي معناها : المرسلون برسالة خاصة والقائمون بمهمة خاصة .

كما قال الشاعر أبو ذؤيب :

أَلِكْنِي إليها وخيرُ الرَّسُو ... لِ أَعْلَمُهُمْ بِنَواحِي الخَبَر

أي : أرسلني إليها برسالة خاصة .

والإيمان بالملائكة مرتبتان : إيمان إجمالي ، وإيمان تفصيلي .

المرتبة الأولى : الإيمان الإجمالي ، هو المعني بهذا الركن ، ومعناه أن يؤمن العبد بأن الملائكة خلْقُ الله ﷻ ، خلقهم من نور ؛ كما جاء في حديث عائشة - رضي الله عنها - الذي رواه مسلم : « خُلقتِ الملائكةُ مِنْ نورٍ »[1] . فهُم أرواح مطهرة مكرمة جعلهم الله ﷻ عنده ، يعني : أنه جعلهم في السماء ، فأصل مقامهم في السماء ، وقد يوكلون بأعمال في الأرض فينزلون بأمر الله ﷻ ، قال تعالى : ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر : ٤] ، وقال : ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء : ١٩٣] ، يعني : أصل مكانهم في السماء ؛ كما أن أصل مكان الجن والإنس في الأرض . فمن اعتقد هذا الإيمان الإجمالي وهو أن الملائكة خلق من خلق الله ﷻ ، وأنهم خلق مطهرون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وأنهم عبيد الله وليسوا بمعبودين ، فقد حقق وأتى بهذا الركن وهذه المرتبة الإجمالية ، فمن قال من العوام : أؤمن بأن الملائكة موجودون وهم عبيد الله ﷻ ولا يُعْبَدُون . فقد حقق هذا الركن .

المرتبة الثانية : الإيمان التفصيلي ، وهي الإيمان بكل ما أخبر به الله ﷻ في كتابه ، أو أخبر به النبي ﷺ في السنة من أحوال الملائكة وصفاتهم وخلقهم ومميزاتهم ، وما وكلوا به ، وأنواع المهمات ، ونحو ذلك ، وهذا إيمان تفصيلي يلزم العبد الإيمان به إذا علم النص في ذلك ، فإذا علم النص وجب عليه الإيمان به ؛ لأنه أمر غيبي ، أما من لم يصل إليه النص فإنه لا يكون ناقصًا لإيمانه بالملائكة إذا كان قد أتى بالإيمان الإجمالي ؛ لأن الإيمان التفصيلي يختلف فيه الناس تبعًا للعلم .

فلو سألت عاميًا وقلت له : هل تؤمن بإسرافيل ؟ فقال : لا أؤمن بإسرافيل ، من إسرافيل هذا ؟ فهذا لا يُعد كافرًا لوجود هذا الملك إلا إذا عُرف بالنصوص وعُلم بها إعلامًا ، فيكون بعد ذلك الجاحد له كافرًا ، وهذا مرجعه إلى تكذيب النصوص لا عدم الإيمان بالملائكة ؛ لأنه قد يكون مؤمنًا بجنس الملائكة لكن ليس مؤمنًا بهذا على هذا الوجه ، فيكون مكذبًا للنص ، فيُعرَّف ويُعلم ، فإن أنكر كفر .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٦) .

فيمكن أن نقول في جُملة بحث الملائكة : الملائكة من حيث خلقهم خلق عظيم ، يعني : في الصفة ، وأنهم خلقوا من نور ، فلا يراهم الإنسان بعينه المجردة ، لكن إن كُشف عنه الغطاء رأى ؛ كما قال سبحانه وتعالى : ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق : ٢٢] ، فالإنسان على بصره غطاء أي : حدود يرى بها ، لكن إذا كشف الله ﷻ الغطاء البشري في الدنيا لأنبيائه ورسله فإنهم يرون ما لا يرى غيرهم ، فيرون الملائكة على صورتهم التي خلقهم الله ﷻ عليها ؛ كما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ رأى جبريل على صورته التي خلق عليها مرتين ، قد سد الأفق(١) ، وجاء في وصف جبريل عليه السلام أنه : « لهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ »(٢) ، ومنهم ذوو الأجنحة ، ومنهم من ليس بذي أجنحة ، خلقهم متنوع لكن يجمعهم أن خلقهم من نور . والملائكة أنواع ، والله ﷻ وَكَّل الملائكة بأعمال ، فهذا مختص بالسحاب ، وهذا مختص بالهواء ، وهذا بالبحار ، وهذا بالإنسان ... إلى آخره ، في أعمال كثيرة جدًّا ، فما من شيء يحصل إلا والله ﷻ قد أمر به ، وحدث بأمره وإذنه وقدرته ، والملائكة موكلون بذلك ، فالموكل بقبض الأرواح ملك من الملائكة اسمه عند أهل الكتاب « عزرائيل »(٣) ، وفي بعض الآثار أو بعض المقاطيع سُمي « عبد الرحمن » ، هذا هو الموكل بقبض أرواح العالمين ؛ كما قال ﷻ : ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة : ١١] ، وتحته ملائكة وهو رئيسهم وكبيرهم يأمرهم فيقبضون أرواح العباد ؛ كما قال تعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام : ٦١] ، فهم رسل وسيدهم أو رئيسهم ملك الموت .

ومن الملائكة ثلاثة كرّمهم الله ﷻ وجعلهم سادة الملائكة ، وهم : جبرائيل ، وميكائيل ، وملك النفخ في الصور إسرافيل .

وهؤلاء الثلاثة في مهمتهم تشابه(٤) :

فجبرائيل : جعله الله ﷻ سيدًا على الملائكة وموكلًا بالوحي ، فهو الذي ينزل بالوحي من الله ﷻ إلى رسله وملائكته .

وميكائيل : موكل بالقطر من السماء يُصرفه كما يأمر الله ﷻ ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ [الفرقان : ٥٠] .

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٧) من حديث عائشة .

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣٢) ، ومسلم (١٧٤) من حديث ابن مسعود .

(٣) تسمية مَلك الموت بـ « عزرائيل » لم يرد في الكتاب ولا في السنة . يُنظر البداية والنهاية لابن كثير (١/٤٧) .

(٤) يُنظر المعجم الكبير للطبراني (١٢٠٦١) . وقال الهيثمي في المجمع (١٤٢١٤) : وفيه محمد بن أبي ليلى وقد وثقه جماعة ولكنه سيئ الحفظ ، وبقية رجاله ثقات .

وإسرافيل : هو الموكل بالنفخ في الصور ، ونحو ذلك .

والتناسب بينهم - كما ذكر العلماء - : أن هؤلاء متصلة بهم الحياة ، فجبرائيل متصلة به حياة الدين ، وهي حياة الأرواح الحقيقية ؛ لأنه ينزل بالوحي ، وميكائيل بحياة الأرض ؛ بالقطر من السماء ، وإسرافيل بحياة الأبدان بعد موتها . وهذا كله من الإيمان التفصيلي الذي أُلفت فيه مؤلفات في وصف الملائكة وخلقتهم ومنازلهم ، وفي أحوالهم وأعمالهم وعباداتهم ، وما وكلوا به من الأعمال ، ومن أحسن ما كُتب في هذا : كتاب « عالم الملائكة الأبرار » للدكتور الأشقر ؛ فإنه جمع فيه جمعًا حسنًا طيبًا ، وتحرى الصواب في كثير من مباحثه .

الركن الثالث : الإيمان بالكتب : فيعتقد أن اللَّه ﷻ أنزل كتبًا على من شاء من رسله ، والإيمان بالكتب يكون على مرتبتين :

إيمان إجمالي : وهو القدر المجزئ من الإيمان بالكتب ، فيؤمن العبد أن اللَّه ﷻ أنزل كتبًا مع رسله إلى خلقه ، وجعل في هذه الكتب الهدى والنور والبينات وما به يصلح العباد ، وأن منها القرآن الذي هو كلام اللَّه ﷻ ، وأن هذه الكتب التي أنزلت مع الرسل كلها حق ؛ لأنها من عند اللَّه ﷻ ، واللَّه ﷻ هو الحق المبين ، وما كان من جهة الحق فهو حق ، يوقن بذلك يقينًا تامًا . ثم بعد ذلك يكون الإيمان التفصيلي : فيوقن ويؤمن إيمانًا خاصًا بأن القرآن آخر هذه الكتب ، وأنه كلام اللَّه منه بدأ وإليه يعود ، وأنه حجة اللَّه على الناس إلى قيام الساعة ، وأنه به نُسخت جميع الرسالات وجميع الكتب التي قبله ، وأنه حجة اللَّه الباقية على الناس ، وأن هذا الكتاب مهيمن على جميع الكتب ، وما فيه مهيمن على جميع ما سبق ؛ كما قال ﷻ في وصف كتابه : ﴿وَمُهَيۡمِنًا﴾ [المائدة : ٤٨] ، وأن ما فيه من الأخبار يجب تصديقها ، وما فيه من الأحكام يجب امتثالها ، وأن مَن حكم بغيره فقد حكم بهواه ولم يحكم بما أنزل اللَّه ، ويؤمن بجميع الكتب السابقة : التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، وصحف إبراهيم ، وصحف موسى ، ونحو ذلك ، فيؤمن بأن اللَّه ﷻ أنزل على موسى التوراة ، وأنزل على عيسى الإنجيل ، قد يقول قائل : أنا لا أعرف التوراة ، أو لا أعرف الإنجيل ، فإذا عُرِّف وجب عليه الإيمان ، وهكذا في تفاصيل ذلك . فمن علم شيئًا بدليله وجب عليه أن يؤمن به ، لكن أول ما يدخل في الإسلام يجب عليه أن يؤمن بالقدر المجزئ ، وهو الذي يصح معه إيمان المسلم .

الركن الرابع : الإيمان بالرسل : وكذلك الإيمان بالرسل على مرتبتين :

إيمان إجمالي : فإذا آمن العبد بأن اللَّه ﷻ أرسل رسلًا يدعون أقوامهم إلى التوحيد ، وأنهم بلغوا ما أُمروا به ، وأيدهم اللَّه تعالى بالمعجزات والبراهين والآيات الدالة على صدقهم ، وأنهم كانوا أتقياء بررة ، بلغوا الأمانة وأدوا الرسالة ، والإيمان بهم متلازم ؛ فمن كفر بواحدٍ منهم كفر باللَّه تعالى وبجميع

الرسل عليهم الصلاة والسلام . فبهذا يكون قد آمن بالرسل جميعًا ، ثم يؤمن إيمانًا خاصًا بمحمد ﷺ بأنه خاتم الرسل ، وأن الله ﷻ بعثه بالحنيفية السمحة ، بعثه بدين الإسلام الذي جعله خاتم الأديان وآخر الرسالات .

أما الإيمان التفصيلي بالرسل : ففيه مقامات كثيرة ، يتبع العلم التفصيلي بأحوال الرسل ، وأسمائهم ، وأحوالهم مع أقوامهم ، وما دعوا إليه ، وكتبهم ، ونحو ذلك ، وفيه أشياء مستحبة في تفاصيل .

وهنا مناسبة وهي : أن الإيمان بالله هو الأصل ، والملائكة هم الواسطة بين الله وبين خلقه ، فهم الذين ينزلون بالوحي إلى الرسل وينزلون بالكتب والشرائع ؛ لهذا رُتبت هنا أحسن ترتيب ، فقدم الإيمان بالله ؛ لأن منه ﷻ المبتدأ ، وإليه المعاد ، والإيمان به هو المقصود ، وكل أمور الإيمان هي كالتفريع للإيمان بالله ، وثنّى بالملائكة لأنهم يأخذون الوحي من الله ﷻ ويسمعونه ، فينقلونه إلى الرسل ، وينزلون بالكتب ، وثلث بالكتب ، ثم الرسل . فالترتيب بين هذه الأربعة : الإيمان بالله لأنه أصل الإيمان ، ثم الإيمان بملائكته لأنهم هم الواسطة ، والإيمان بالكتب لأن الملائكة تنزل بها ، والإيمان بالرسل لأنهم هم ختام هذه السلسلة ، ثم الرسل ينقلونها إلى الناس .

الركن الخامس : الإيمان باليوم الآخر : وهو الإيمان بالموت وما بعده إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، وهو أيضًا على مرتبتين :

إيمان إجمالي : وهو القدر المجزئ في الإيمان بهذا الركن ، فيوقن العبد بغير شك أن ثَمّ يومًا يعود الناس إليه ، يُبعثون فيه من قبورهم للحساب على ما عملوا ، وأن كل إنسان مجزي بما فعل ، فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ؛ كما قال تعالى : ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر : ٧٠] ، فإذا آمن بهذا القدر ، وأنه سيبعث من جديد ، فإنه قد حقق هذا الركن .

فلو سألت أحدًا قلت له : هل ثَمّ يوم آخر يعود فيه الناس ؟ قال : بلا شك هناك يوم القيامة يُبعث فيه الناس ويحاسبون ، وفيه أهوال . وسكت ، فيكون بهذا قد حقق الركن وهو الإيمان باليوم الآخر .

بعد ذلك الإيمان التفصيلي باليوم الآخر : وهذا يتبع العلم بما جاء في الكتاب والسنة من أحوال القبور ، وأحوال ما يكون يوم القيامة ، والإيمان بالحوض ، والميزان ، والصحف ، والصراط ، والإيمان بأحوال الناس في العرصات ، وأحوال ما يكون بعد أن يجوز المؤمنون الصراط ، ومن يدخل الجنة أولًا ، وأحوال الناس في النار ، ونحو ذلك .

هذه كلها أمور تفصيلية لا يجب الإيمان بها على كل أحد ، إلا من علمها من النصوص فإنه يجب عليه الإيمان بما علم ، لكن لو قال قائل : أنا لا أعلم هل ثَمّ حوض أم لا ؟ لا أدري هل ثَمّ ميزان أم لا ؟

ونحو ذلك . فإنه يُعرَّف بالنصوص ، فإن عرف فأنكر وكذب فيكون مُكذبًا بالقرآن وبالسنة ؛ لأن هذا من العلم التفصيلي الذي يجب أن يؤمن به بعد إخباره بما جاء في النصوص من الأدلة عليه .

وهذا الإيمان بالبعث بعد الموت يأتي تفصيله – إن شاء اللّه تعالى – في هذه الرسالة ، فقد أطال عليه شيخ الإسلام في موضعه .

الركن السادس : الإيمان بالقدر خيره وشره ، وهو أيضًا ينقسم إلي : إيمان تفصيلي ، وإيمان إجمالي :

فالإيمان الإجمالي : وهو القدْر المجزئ من الإيمان بالقدر أن يؤمن العبد بأن كل شيء يحدث في هذا الملكوت قد سبق به قدر اللّه ، وأن اللّه ﷻ عالم بهذه الأحوال وتفصيلاتها بخلقه قبل أن يخلقهم ، وكتب ذلك ، فإذا آمن أن كل شيء قد سبق به قدر اللّه فيكون حقق هذا الركن .

أما الإيمان التفصيلي : فيكون على مرتبتين :

المرتبة الأولى : الإيمان بالقدر السابق لوقوع المقدر : وهذا يشمل درجتين : الأولى : العلم السابق ، فإن اللّه ﷻ يعلم ما كان وما سيكون وما هو كائن وما لم يكن لو كان كيف يكون ، علم اللّه السابق بكل شيء ، بالكليات وبالجزئيات ، بجلائل الأمور وتفصيلاتها ، هذا العلم الأول لم يزل اللّه ﷻ عالمًا به بجميع تفاصيله ، علمُه به أول ، يعني ليس له بداية .

الثانية : أن يؤمن العبد أن اللّه ﷻ كتب أحوال الخلق وتفصيلات ذلك قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وذلك عنده في كتاب جعله في اللوح المحفوظ .

المرتبة الثانية : أيضًا تحوي درجتين ، وهي تقارن وقوع المقدر :

الأولى : الإيمان بأن مشيئة اللّه ﷻ نافذة ، وأن ما شاء اللّه كان وما لم يشأ لا يكون ، فليس ثَمَّ شيء يحدث ويحصل في ملكوت اللّه ﷻ إلا وقد شاءه وأراده كونًا ، فلا يمكن أن يعمل العبد شيئًا يكون مقدرًا من اللّه ﷻ إلا وهذا الشيء قد شاءه اللّه ﷻ .

الثانية : أن يؤمن بأن كل شيء مخلوق ؛ فاللّه ﷻ خالقه ، مثل أعمال العباد وأحوالهم ، والسماوات والأرض ومن فيهن .

وبهذا البيان تتضح أركان الإيمان الستة : الإيمان باللّه ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره ، وهذه الأركان بها يتفاضل الناس وتعظم درجاتهم ومراتبهم عند ربهم ﷻ ، فكلما زاد علم العبد زاد إيمانه ، وكلما زاد الفقه في الدين زاد اليقين ، فإذا وفق اللّه ﷻ عبده للعمل الصالح كانت له النجاة في الآخرة عند السؤال في القبر وما بعده . وطلب العلم من أعظم ما يُحض العبد عليه ؛ لأن النجاة إنما هي بالعلم ، وليس سواءً عالم وجهولُ .

وهذه أركان الإيمان الستة عند أهل السنة ، وأما عند غير أهل السنة ، ونعني بغير أهل السنة : المعتزلة ، والرافضة ، والخوارج ، ومن شابههم ممن لم يدخل في الالتزام بالسنة بوجه عام ، فهؤلاء عندهم أصول إيمان غير هذه الستة ، فهذه الستة هي أصول الإيمان عندنا ، وهي التي تنبني عليها العقيدة عندنا ، وكل ما في الاعتقاد تفصيل لها ، أما عند أهل الاعتزال فأصول الإيمان عندهم خمسة ، مشهورة بالأصول الخمسة عند المعتزلة ، وهي : التوحيد ، والعدل ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمنزلة بين المنزلتين ، وإنفاذ الوعيد .

وأما الرافضة فعندهم الأصول التي تنبني عليها عقيدتهم أربعة وهي : التوحيد ، والعدل ، والنبوة ، والإمامة .

فإذا أردت أن تعرف معتقد أهل السنة والجماعة ؛ فمعتقدهم تفصيل لهذه الستة ، ومعتقد المعتزلة تفصيل لتلك الخمسة ، ومعتقد الرافضة تفصيل لتلك الأربعة .

بعض السلف زاد على هذه الأركان فقال : والإيمان بالجنة والنار . ولكن الإيمان بالجنة والنار هو من الإيمان باليوم الآخر .

هذه خلاصة لمعنى هذه الجمل التي ذكرها شيخ الإسلام رحمه الله .

❁ ❁ ❁

الأسئلة

❁ قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان رَحِمَهُ اللهُ :

س١- ما هو معنى الحمد ، وما معنى لفظ الجلالة ؟

ج- هو لغة : الثناء باللسان على الجميل الاختياري ، على وجه التعظيم والتبجيل .

وعرفًا : فعل ينبئ عن تعظيم المنعم ، بسبب كونه منعمًا على الحامد وغيره ، واللام والألف للاستغراق ، فجميع المحامد كلها لله .

أما معنى الإله فهو المألوه المعبود المستحق لإفراده بالعبادة ، لما اتصف به من صفات الألوهية ، وهي صفات الكمال ، وهو أعرف المعارف على الإطلاق .

س٢- من هو الرسول ؟ ومن هو النبي ؟ وهل كل رسول نبي ؟

ج- هو لغة : من بعث إليه برسالة ، واصطلاحًا : إنسان ذكر أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه ، فإن أوحي إليه ولم يؤمر فهو نبي ، فكل رسول نبي ، ولا عكس .

س٣- ما هو الهدى ؟ وما هي أقسامه ؟ وما هي أدلة كل قسم ؟

ج- الهدى لغة : الدلالة والبيان ، وهو ينقسم إلى قسمين ، هدى دلالة وبيان ، وهو الذي يقدر عليه الرسل وأتباعهم ، ودليله قوله تعالى : ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد : ٧] ، وقوله : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى : ٥٢] ، وقوله ﷺ لعلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : « لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حُمر النعم » .

والقسم الثاني : هو الذي لا يقدر عليه إلا الله ﷻ ، وهو الذي معناه : التوفيق والإلهام ، فهذا هو المذكور في قوله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص : ٥٦] ، وقال : ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة : ٢٧٢] ، وقال : ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ [النحل : ٣٧] ، وفيه آيات آخر تدل على ذلك .

س٤- ما المراد بالهدى المذكور في خطبة العقيدة ؟

ج- الهدى معناه : ما جاء به النبي ﷺ من الإخبارات الصادقة ، والإيمان الصحيح ، والعلم النافع ، والعمل الصالح .

س٥- ما هو الدين ؟ وما معنى قوله : ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ؟

ج- الدين له معان كثيرة ، والمراد به هنا : جميع ما شرعه الله من الأحكام ، ومعنى قوله : ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ ؛ أي : ليعليه على الأديان كلها بالحجة والبرهان .

س٦- بأي شيء تكون معرفة الإنسان لدينه ؟

ج- بمعرفة أركانه الثلاثة المذكورة في حديث جبريل المشهور، وهي الإسلام والإيمان والإحسان، وقد بينها ﷺ بيانًا واضحًا شافيًا كافيًا وافيًا .

س٧- ما الذي تفهمه من قوله : ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩] ؟ وبأي شيء تكون شهادته سبحانه ؟

ج- المعنى : وكفى بشهادته إثباتًا لصدقه قال تعالى : ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩]، وشهادته سبحانه تكون بقوله، وفعله، ونصره، وتأييده، ومن أسمائه تعالى الشهيد الذي لا يغيب عنه شيء، وهو مرادف للرقيب، فهو سبحانه مطلع على كل شيء مشاهد له، عليم بجميع المعلومات الجلية والخفية، سامع لكل المسموعات، مبصر لكل المبصرات، محيط بكل شيء.

س٨- ما معنى شهادة أن لا إله إلا الله ؟ وما أركانها ؟

ج- معناه : لا معبود بحق إلا الله .

وأركانها اثنان :

نفي وإثبات، وحد النفي من الإثبات «لا إله» نافيًا جميع ما يعبد من دون الله، «إلا الله» مثبتًا العبادة لله وحده لا شريك له في عبادته؛ كما أنه ليس له شريك في ملكه، والله أعلم .

س٩- كم شروط لا إله إلا الله ؟ وما هي ؟ وما الذي ينافيها ؟

ج- شروطها سبعة :

فأولها : العلم المنافي للجهل، واليقين المنافي للشك، والإخلاص المنافي للشرك، والصدق المنافي للكذب، والمحبة المنافية لضدها، والانقياد المنافي للامتناع، والقبول المنافي للرد، وهذه السبعة جمعها بعضهم في بيت شعر :

علم يقين وإخلاص وصدقك مع محبة وانقياد والقبول لها

س١٠- هل يكتفي بالنطق بالشهادة ؟ أم لا بد من العلم بمعناها، والعمل بمقتضاها ؟

ج- لا تعتبر إلا لمن تكلم بها، عارفًا لمعناها، عاملًا بمقتضاها باطنًا وظاهرًا، فلا بد في الشهادتين من العلم والعمل بمدلولهما قال تعالى : ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، وقال تعالى : ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩] الآية . إلى غير ذلك من الأدلة .

س١١- ما معنى شهادة أن محمدًا رسول الله ؟

ج- طاعته فيما أمر به، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما

شرع ، وأن يعظم أمره ونهيه ، فلا يقدم عليه قول أحد كائنًا ما كان .

س١٢- ما الحكمة في قرن شهادة أن محمدًا رسول الله بشهادة أن لا إله إلا الله ؟

ج- الحكمة في جعل الشهادة للرسول ﷺ بالرسالة مقرونة بالشهادة لله بالتوحيد ؛ إشارة إلى أنه لا بد من كل منهما ، فلا تغني إحداهما عن الأخرى ، ولهذا قرن بينهما في الأذان ، وفي التشهد .

وقال بعضهم في تفسير قوله تعالى : ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح : ٤] ، ذلك : أن الله لا يذكر في موضع إلا ذكر معه ﷺ ، قاله الحسن .

وقال قتادة : رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة ، فليس خطيب ولا متشهد ، ولا صاحب صلاة إلا ينادي فيقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدًا رسول الله ، قال مجاهد : ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ؛ يعني : بالتأذين .

قال حسان :

أغر عليه للنبوة خاتم ... من الله مشهود يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبي مع اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد

س١٣- ما الحكمة في الجمع له ﷺ بين وصفي العبودية والرسالة ؟

ج- الحكمة في ذلك : لأنها أعلى ما يوصف به العبد ، والرسول ﷺ أكمل الخلق فيهما ، وفيه : تنبيه للرد على الذين رفعوه فوق منزلته ، والذين نبذوا ما جاء به وراء ظهورهم ، واعتمدوا على الآراء التي تخالف ما جاء به ﷺ .

س١٤- ما حد التوحيد ؟ اذكره بوضوح .

ج- هو علم العبد ، واعترافه واعتقاده ، وإيمانه بتفرد الرب بكل صفة كمال ، وتوحيده في ذلك ، واعتقاده أنه لا شريك له ، ولا مثيل له في كماله ، وأنه ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين .

س١٥- ما هي أقسام التوحيد عند من يجعلها ثلاثة أقسام ؟

ج- توحيد الربوبية ، وتوحيد الأسماء والصفات ، وتوحيد الألوهية .

س١٦- ما هو توحيد الربوبية ؟

ج- هو اعتقاد العبد أن الله هو الرب المتفرد بالخلق ، والرزق ، والتدبير الذي ربى جميع الخلق بالنعم ، وربى خواص خلقه وهم الأنبياء وأتباعهم بالعقائد الصحيحة ، والأخلاق الجميلة ، والعلوم النافعة ، والأعمال الصالحة .

س١٧- ما هو توحيد الأسماء والصفات ؟

ج- هو اعتقاد انفراد الله بالكمال المطلق من جميع الوجوه، بنعوت العظمة والجلال والجمال، وذلك بإثبات ما أثبته لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ من جميع الأسماء والصفات، ومعانيها، وأحكامها الواردة في الكتاب والسنة.

س١٨- ما هو توحيد الألوهية؟

ج- هو العلم والاعتراف بأن الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، وإفراده وحده بالعبادة كلها، وإخلاص الدين لله وحده، ويسمى هذا النوع توحيد العبادة.

س١٩- هل للتوحيد تقسيم ثان غير ما ذكر؟

ج- نعم، بعضهم يقول التوحيد نوعان:

أولًا: القولي الاعتقادي سمي بذلك لاشتماله على أقوال القلوب، وهو اعترافها واعتقادها، وعلى أقوال اللسان، والثناء على الله بتوحيده، وهذا النوع هو توحيد الأسماء والصفات التي يدخل فيها توحيد الربوبية.

ثانيًا: الفعلي وهو المسمى بتوحيد الألوهية، وسمي فعليًا؛ لأنه متضمن لأفعال القلوب والجوارح، كالصلاة والزكاة والحج ونحو ذلك.

س٢٠- ما هي أقسام التوحيد القولي؟

ج- الأول: النفي، وهو ينقسم إلى قسمين:

الأول: نفي النقائص والعيوب عن الله.

والثاني: نفي التشبيه والتعطيل عن أسمائه وصفاته.

والثاني من أقسام التوحيد القولي: الإثبات وهو إثبات كل صفة كمال للرحمن وردت بالكتاب والسنة.

س٢١- ما ينزه عنه الله ينقسم إلى قسمين: متصل ومنفصل، اذكر مثالًا لكل قسم والضابط لكل قسم؟

ج- مثال المتصل كالنوم، والإعياء، والتعب، واللغوب، والموت، والجهل، والظلم، والغفلة، والنسيان، وعن احتياجه إلى طعم ورزق، وضابط هذا القسم؛ ما يناقض ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ في كل ما يضاد الصفات الكاملة.

والقسم الثاني: المنفصل، وضابطه؛ تنزيهه عن أن يشاركه أحد من الخلق في شيء من خصائصه التي لا تكون لغيره، وذلك كالزوجة، والشريك، والكفء، والظهير، والشفيع بدون إذن الله، والولي من الذل، فكل ذلك ينزه عنه الله جل وعلا وتقدس.

س٢٢- أي أقسام التوحيد الذي جاءت به الرسل وأنزلت به الكتب؟ وضحه مع ذكر دليله.

ج- هو توحيد الألوهية قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، وقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وقال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ۖ﴾ [العنكبوت: ١٦]، وقال يوسف: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ﴾ الآية [يوسف: ٤٠].

س٢٢- ما أركان توحيد الألوهية؟ تكلم عنها بوضوح.

ج- اثنان: الصدق والإخلاص؛ فالأول توحيد المراد، فلا يزاحمه مراد، والثاني: توحيد الإرادة؛ ببذل الجهد والطاقة في عبادته وحده.

س٢٤- ما ضد هذا القسم الذي هو توحيد العبادة؟

ج- ضده أمران: أولًا: الإعراض عن محبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه.

ثانيًا: الإشراك به، واتخاذ أولياء شفعاء من دونه.

س٢٥- ما ضد توحيد الربوبية؟

ج- أن يجعل لغيره معه تدبيرًا؛ فالربوبية منه لعباده، والتأله من عباده له.

س٢٦- ما ضد توحيد الأسماء والصفات؟

ج- أمران: التعطيل والتشبيه، فمن نفى صفاته تعالى وعطلها ناقض تعطيله توحيده، وكذبه، ومن شبهه بخلقه ناقض تشبيهه توحيده وكذبه.

س٢٧- ما معنى الصلاة على النبي ﷺ؟ ومن هم آل النبي ﷺ؟ ومن هو الصحابي؟

ج- معناها: ثناء الله عليه عند الملأ الأعلى، وآل الشخص هم المنتمون إليه الذين تجمعهم به صلة وثيقة من قرابة ونحوها، وأحسن ما قيل في آل النبي: أنهم أتباعه على دينه. والصحابي كل من لقيه ﷺ مؤمنًا ومات على ذلك.

س٢٨- ما معنى كلمة «أما بعد»؟ ولأي شيء يؤتى بها؟ وإلى أي شيء أشار المصنف بقوله: «هذا اعتقاد الفرقة الناجية»؟

ج- معناها: أي، أما بعد، مهما يكن من شيء.

ويؤتى بها: للانتقال من أسلوب إلى أسلوب، والإشارة فيما يظهر- والله أعلم- أنه إلى ما تصوره

في الذهن مما سيصنفه ، وإن كانت الخطبة بعد العقيدة فهي إلى العقيدة .

س٢٩- ما معنى الاعتقاد ؟ ومن هي الفرقة الناجية ؟

ج- هو مصدر اعتقد ، وهو يطلق على التصديق مطلقًا ، وعلى ما يعتقده الإنسان من أمور الدين ، والفرقة الناجية هم أهل السنة والجماعة .

س٣٠- من أين أخذ وصفها بأنها ناجية ؟ وضح ذلك .

ج- من قوله ﷺ : « ستفترق هذه الأُمة إلى ثلاث وسبعين فرقة ، كلهم في النار إلا واحدة » . ومن قوله : « لا تزال طائفة من أُمتي على الحق منصورة ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة » .

س٣١- ما هي السنة ؟ومن هم أهلها ؟ ولم نسبوا إليها ؟

ج- هي لغة : الطريقة ، وشرعًا : أقوال النبي ﷺ ، وأفعاله ، وإقراراته : وأهلها : هم المتبعون لها ، ونسبوا إليها لتمسكهم بها ، وانتسابهم إليها دون الطرق الأخرى المنحرفة .

الإيمان بالله :

س٣٢- ما هو الإيمان بالله الذي هو الركن الأول من الإيمان ؟

ج- هو الاعتقاد الجازم بأن الله رب كل شيء ومليكه ، وأنه الخالق الرزاق ، المحيي المميت ، وأنه المستحق لأن يفرد بالعبادة ، والذل والخضوع ، وجميع أنواع العبادة ، وأن الله هو المتصف بصفات الكمال ، والعظمة والجلال المنزه عن كل عيب ونقص .

الإيمان بالملائكة :

س٣٣- ما هو الإيمان بالملائكة الذي هو الركن الثاني من أركان الإيمان ؟

ج- هو التصديق الجازم بأن لله ملائكة موجودين مخلوقين من نور ، وأنهم كما وصفهم الله عباد مكرمون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، وأنهم قائمون بوظائفهم التي أمرهم الله بالقيام بها .

س٣٤- هل يكفي الإيمان إجمالًا بالملائكة ؟

ج- أما من ورد تعيينه باسمه المخصوص كجبريل وميكائيل وإسرافيل ورضوان ومالك ، ومن ورد تعيين نوعهم المخصوص ؛ كحملة العرش ، والحفظة ، والكتبة ، فبالتفصيل .

وأما البقية فيجب الإيمان بهم إجمالًا ، ولا يحصي عددهم إلا الله .

الإيمان بكتب الله :

س٣٥- ما هو الإيمان بكتب الله الذي هو الركن الثالث من أركان الإيمان ؟

ج- هو التصديق الجازم بأن لله كتبًا أنزلها على أنبيائه ورسله ، وهي من كلامه حقيقة ، وأنها نور ، وهدى ، وأن ما تضمنته حق ، ولا يعلم عددها إلا الله ، وأنه يجب الإيمان بها جملة إلا ما سمى الله منها ؛ وهي التوراة والإنجيل والزبور والقرآن ، فيجب الإيمان بها على التفصيل ، ويجب مع الإيمان بالقرآن وأنه منزل من عند الله ؛ الإيمان بأن الله تكلم به حقيقة ، كما تكلم بالكتب المنزلة على أنبيائه ، وأنه المخصوص بمزية الحفظ من التبديل والتغيير ، قال تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر : ٩] ، وقال : ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت : ٤٢] .

الإيمان برسل الله :

س٣٦- ما هو الإيمان برسل الله الذي هو الركن الرابع من أركان الإيمان ؟

ج- التصديق الجازم بأن لله رسلًا أرسلهم لإرشاد الخلق في معاشهم ، ومعادهم ، اقتضت حكمة اللطيف الخبير ألَّا يهمل خلقه ، بل أرسل إليهم رسلًا مبشرين ومنذرين ، فيجب علينا الإيمان بمن سمى الله منهم في كتابه على التفصيل ، والإيمان جملة بأن لله رسلًا غيرهم ، وأنبياء لا يحصى عددهم إلا الله ، ولا يعلم أسماءهم إلا هو جل وعلا قال تعالى : ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء : ١٦٤] .

عدد الرسل :

س٣٧- كم عدد المذكورين من الأنبياء والرسل في القرآن ؟ ومن هم ؟ اذكرهم بوضوح .

ج- عددهم خمس وعشرون وهم : آدم ، إدريس ، نوح ، هود ، صالح ، إبراهيم ، لوط ، يونس ، إسماعيل ، إسحاق ، يعقوب ، يوسف ، أيوب ، شعيب ، موسى ، هارون ، اليسع ، ذو الكفل ، داود ، زكريا ، سليمان ، إلياس ، يحيى ، عيسى ، محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

س٣٨- ما موضوع رسالة الرسل ؟ وما الحكمة فيها ؟ وما الدليل عليها ؟

ج- موضوعها : التبشير والإنذار قال تعالى : ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء : ١٦٥] .

والحكمة في إرسال الرسل : دعوة أممهم إلى عبادة الله وحده ، والنهي عن عبادة ما سواه قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل : ٣٦] .

س٣٩- من هم أولوا العزم من الرسل ؟ وأين ذكروا ؟

ج- هم : محمد ، ونوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، المذكورون في آية سورة الشورى قوله تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى

وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وفي آية الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧].

س٤٠- ما الواجب علينا نحو الرسل عليهم الصلاة والسلام؟

ج- يجب علينا تصديقهم، وبأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به على ما أمرهم الله به، وبينوه بيانًا واضحًا لا يسع أحدًا ممن أرسلوا إليه جهله، ولا يحل خلافه قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، فيجب علينا الإيمان: بأنهم معصومون عن الكذب والخيانة والكتمان، وأنهم معصومون من الكبائر، وأما الصغائر فقد تقع منهم، والكتاب والسنة يدلان على ذلك لكن لا يقرون عليها، بل يوفقون للتوبة منها، ويجب احترامهم، وألَّا يفرق بينهم، ويجب الاهتداء بهديهم، والائتمار بأمرهم، والكف عما نهوا عنه، ويجب اعتقاد أنهم أكمل الخلق علمًا وعملًا، وأصدقهم وأبرهم وأكملهم أخلاقًا، وأن الله خصهم بفضائل لا يلحقهم فيها أحد، وبرأهم من كل خلق رذيل، ويجب محبتهم وتعظيمهم، ويحرم الغلو فيهم ورفعهم فوق منازلهم.

س٤١- ما الأشياء التي تجوز على الرسل؟

ج- يجوز في حقهم عقلًا وشرعًا: النوم، والنكاح، والأكل، والجلوس، والمشي، والضحك، وسائر الأعراض البشرية التي لا تؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية، فهم بشر يعتريهم ما يعتري سائر أفراده، فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام، وتمتد إليهم أيدي الظلمة، وينالهم الاضطهاد والأذى، وقد يقتل الأنبياء كما أخبر الله في كتابه بقوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١١٢]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال ﷺ: «ولكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء»، وكان ﷺ يمرض، ويتألم، ويشتكي، وكان يصيبه الحر والبرد، والجوع والعطش، والغضب، والضجر، والتعب، ونحو ذلك مما لا نقص عليه فيه.

س٤٢- ما الدليل على صدق الرسل؟ وبأي شيء أيدهم الله تعالى؟

ج- أيدهم الله بالدلالة الباهرة الدالة على صدقهم في دعواهم الرسالة، فمن معجزاته ﷺ: القرآن الذي أعجز الخلق كلهم، ومثل انشقاق القمر، وحراسة السماء بالشهب، ومعراجه إلى السماء، وكفاية الله له أعداءه، وعصمته من الناس، وإجابة دعائه، وإعلامه بالمغيبات الماضية والمستقبلة، وتأثيره في تكثير الطعام والشراب إلى غير ذلك، وكما أيد الله موسى عليه السلام قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]، وسائر رسله مع انضمام ذلك إلى أحوالهم الجليلة، وأخلاقهم السامية، مع سلامة الفطرة، والعفاف، والكرم، والشجاعة، والعدل، والنصح، والمروءة

التامة إلى غير ذلك من الأخلاق الفاضلة الدالة لمن تأملها أن ما جاءوا به حق وصدق لا شك فيه .

الإيمان بالبعث :

س٤٣- ما هو البعث ؟ وما دليله ؟ وما حكم الإيمان به ؟

ج- هو لغة : التحريك والإثارة . وشرعًا : إعادة الأبدان ، وإدخال الأرواح فيها ، قال تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس : ٥١] ، وقال : ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر : ٦٨] ، وقال : ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات : ١٣، ١٤] ، وقال تعالى : ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج : ٤٣] ، فقيام الناس لرب العالمين حق ثابت يجب الإيمان به .

س٤٤- ما حكم إنكاره ؟ وما دليل الحكم ؟

ج- إنكاره كفر أكبر مخرج من الملة الإسلامية قال تعالى : ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن : ٧] ، وقال : ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه : ٥٥] ، وقال ﷺ للعاص بن وائل وقد جاء بعظم حائل ففتته بيده ، وقال : يا محمد ، يحيي الله هذا بعد ما أرم ؟ ! قال : نعم ، يبعث الله هذا ، ثم يميتك ، ثم يحييك ، ثم يدخلك نار جهنم ، فنزلت هذه الآية : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس : ٧٧- ٧٩] .

قال ابن القيم رحمه الله في النونية في هذه الأركان الخمسة :

إيمـانـنـا بـالـلّـه ثـم بـرسـلـه	وبـكـتـبـه وقـيـامـة الأبـدان
وبـجـنـده وهـم الـملائكة الألى	هـم رسـلـه لـمـصـالـح الأكـوان
هذي أصول الدين حقًّا أصول	الخمس للقاضي هو الهمذان .

الإيمان بالقدر :

س٤٥- ما هو الإيمان بالقدر ؟ اذكره بوضوح .

ج- هو التصديق الجازم بأن كل خير وشر فهو بقضاء الله وقدره ، وأنه الفعال لما يريد لا يكون شيء إلا بإرادته ، ولا يخرج شيء عن مشيئته ، وليس في العالم شيء يخرج عن تقديره ، ولا يصدر إلا عن تدبيره ، ولا محيد لأحد عن القدر والمقدور ، ولا يتجاوز ما خط في اللوح المسطور ، وأنه خالق أفعال العباد والطاعات والمعاصي ، ومع ذلك فقد أمر العباد ونهاهم ، وجعلهم مختارين لأفعالهم غير مجبورين عليها ، بل هي واقعة بحسب قدرتهم وإرادتهم ، والله خالقهم ، وخالق قدرتهم يهدي من يشاء برحمته ، ويضل من يشاء بحكمته ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

[القواعد الأساسية في الإيمان بأسماء اللّه وصفاته]

ومِن الإيمانِ باللّهِ ؛ الإيمانُ بما وصَف به نفسَه في كتابِه ، وبما وصَفَه به رسولُه مِن غيرِ تحريفٍ ، ولا تعطيلٍ ، ومِن غيرِ تَكْييفٍ ، ولا تَمثيلٍ .

بل يُؤْمِنون بأنَّ اللَّهَ سبحانَه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] .

فلا يَنْفُونَ عنه ما وصَف به نفسَه ، ولا يُحَرِّفون الكَلِمَ عن مَواضعِه ، ولا يُلْحِدُون في أسماءِ اللَّهِ وآياتِه ، ولا يُكَيِّفُونَ ، ولا يَمَثِّلُونَ صفاتِه بصفاتِ خلقِه .

لأنه سبحانَه لا سَمِيَّ له ، ولا كُفْءَ له ، ولا نِدَّ له .

ولا يُقاسُ بخلقِه سبحانَه وتعالى ؛ فإنه أَعْلَمُ بنفسِه وبغيرِه ، وأَصْدَقُ قِيلًا ، وأحسنُ حديثًا مِن خلْقِه .

ثم رُسُلُه صادقون مَصْدُوقون بخلافِ الذين يَقُولون عليه ما لا يَعْلَمون .

ولهذا قال : ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات : ١٨٠- ١٨٢] .

فسبَّح نفسَه عمَّا وَصَفه به المُخالِفون للرُّسُلِ ، وسلَّم على المُرْسَلِين لسلامةِ ما قالوه مِن النقصِ والعيبِ .

وهو سبحانَه قد جمَع فيما وصَف ، وسمَّى به نفسَه بينَ النفيِ والإثباتِ ، فلا عُدولَ لأهلِ السنةِ والجماعةِ عمَّا جاء به المُرْسَلون ؛ فإنه الصراطُ المستقيمُ ؛ صراطُ الذين أنْعَم اللَّهُ عليهم مِن النبيِّين والصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ والصالحينَ .

الشـــرح

❁ قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله :

قوله : « ومن الإيمان بالله : الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه ، وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ » :

*** ذكر المصنف رحمه الله هذا الأصل والضابط العظيم في الإيمان بالله إجمالًا قبل أن يشرع في التفصيل ؛ ليبني العبد على هذا الأصل ما يرد عليه من الكتاب والسنة ؛ ليستقيم له إيمانه ويسلم من الانحراف .**

فذكر : إنه يجب ويتعين الإيمان بكل ما أخبر الله به في كتابه ، وأخبر به الرسول ﷺ عن ربه إيمانًا صحيحًا سالمًا من التحريف والتعطيل ، وسالمًا من التكييف والتمثيل ، بل يثبت ما أثبته الله ورسوله ، ولا يزيد على ذلك ولا ينقص ، فإن الكلام على ذات الباري وصفاته بابه واحد ، فكما أن لله ذاتًا لا تشبه الذوات ، فله تعالى صفات لا تشبهها الصفات .

فمن مال إلى نفي الصفات أو بعضها فهو ناف معطل محرف ، ومن كيفها أو مثلها بصفات الخلق فهو ممثل مشبه .

قوله : « من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل » :

*** الفرق بين « التحريف » ، و« التعطيل » : أن « التعطيل » : نفي للمعنى الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة .**

و« التحريف » : تفسير للنصوص بالمعاني الباطلة التي لا تدل عليها بوجه من الوجوه .

فـ « التحريف » و« التعطيل » قد يكونان متلازمين إذا أثبت الباطل ونفي المعنى الحق ، وقد يوجد « التعطيل » بلا تحريف كحال النافين للصفات الذين ينفون الصفات الواردة في الكتاب والسنة ، ويقولون : ظاهرها غير مراد !

ولكنهم لا يعينون معنى آخر ، ويسمون أنفسهم « مفوضة » ويظنون أن هذا مذهب « السلف » ، وهو غلط فاحش !!

فإن السلف يثبتون الصفات ، وإنما يفوضون علم كيفيتها إلى الله ، فيقولون : الوصف المذكور معلوم ، والكيف مجهول والإيمان به واجب وإثباته واجب والسؤال عن كيفيته بدعة ، كما قال الإمام مالك وغيره في الاستواء وغيره[١] .

---

(١) أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٢٥، ٣٢٦) ، واللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (٦٦٤) ، والذهبي في « العلو » (٣٤٤) ، وينظر « مختصر العلو » للألباني (ص١٤١) .

وأما قوله : « من غير تكييف ولا تمثيل » ، فالفرق بينهما :

أن « التكييف » : أن تُكيَّف صفات الله وأن يبحث عن كنهها .

و« التمثيل » : أن يقال فيها أنه مثل صفات المخلوقين .

فقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ - نفي الكفؤ والند والسمي- ينفي ذلك « التكييف » و« التمثيل » .

وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ونحوها- من إثبات أسماء الله وصفاته- تنفي « التعطيل » و« التحريف » .

فـ « المؤمن الموحد » : يثبت الصفات كلها على الوجه اللائق بعظمة الله وكبريائه .

و « المعطل » : ينفيها أو ينفي بعضها . و « المشبه الممثل » : يثبتها على وجه يليق بالمخلوق .

ونصوص الكتاب والسنة التي يتعذر إحصاؤها كلها تشترك في دلالتها على هذا الأصل ، وهو : إثبات الصفات على وجه الكمال الذي لا يشبهه كمال أحد ، وهي في غاية الوضوح والبيان وأعلى مراتب الصدق .

فإن الكلام إنما يقصر بيانه ودلالته لأمور ثلاثة :

١- إما جهل المتكلم وعدم علمه وقصوره .

٢- وإما عدم فصاحته وبيانه .

٣- وإما كذبه وغشه .

أما نصوص الكتاب والسنة فإنها بريئة من هذه الأمور الثلاثة من كل وجه .

فكلام الله ورسوله في غاية الوضوح والبيان وفي غاية الصدق .

كما قال : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] ، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] .

ونظيرها : قوله تعالى : ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣] .

والرسول ﷺ في غاية النصح والشفقة العظيمة على الخلق .

فمن كان أعلم الخلق ، وأصدق الخلق ، وأفصح الخلق ، وأنصح الخلق للخلق ، هل يمكن أن يكون في كلامه شيء من النقص أو القصور ؟

أم تقول- والحق تقول- إن كلامه هو النهاية التي لا فوقها في الوضوح والبيان للحقائق كلها وهذا برهان على أن كلام الله وكلام رسوله يوصل إلى أعلى درجات العلم واليقين ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

فالحق النافع هو ما اشتمل عليه كلام الله وكلام رسوله في جميع الأبواب لا سيما في هذا الباب الذي هو أصل الأصول كلها .

وهذا معنى قول المصنف في إيراده للآية الكريمة : ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ . فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل ، وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب .

أي قال : ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ؛ لدلالة الحمد على الكمال المطلق من جميع الوجوه .

قوله : « وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات ..» :

* هذا الذي ذكر المصنف ضابط نافع في كيفية الإيمان بالله وبأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، وأنه مبني على أصلين :

أحدهما : النفي . وثانيهما : الإثبات .

أما النفي فإنه ينفي عن الله ما يضاد الكمال من أنواع العيوب والنقائص .

وينفي عنه أيضًا أن يكون له شريك أو نديد أو مثيل في شيء من صفاته أو في حق من حقوقه الخاصة . فكل ما نافى صفات الكمال فإن الله منزه عنه مقدس .

والنفي مقصود لغيره ، القصد منه الإثبات ، ولهذا لم يرد نفي شيء في الكتاب والسنة عن الله إلا لقصد إثبات ضده .

فنفي : « الشريك والنديد » عن الله ؛ لكمال عظمته وتفرده بالكمال .

ونفي : « السِّنة » و« النوم » و« الموت » ؛ لكمال حياته .

ونفي : عزوب شيء عن علمه وقدرته وحكمته ؛ كل ذلك لإثبات سعة علمه وشمول حكمته وكمال قدرته . ولهذا كان التنزيه والنفي لأمور مجملة عامة .

وأما الإثبات : فإنه يجمع الأمرين :

إثبات المجملات : كالحمد المطلق ، والكمال المطلق ، والمجد المطلق ونحوها .

وإثبات المفصلات : كتفصيل علم الله ، وقدرته ، وحكمته ، ورحمته ونحو ذلك من صفاته .

فأهل السنة والجماعة لزموا هذا الطريق الذي هو الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم ، وبلزومهم لهذا الطريق النافع تمت عليهم النعمة وصحت عقائدهم ، وكملت أخلاقهم .

أما من سلك غير هذا السبيل ، فإنه منحرف في عقيدته ، وأخلاقه وآدابه .

« فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاءت به المرسلون ، فإنه الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين ، والشهداء ، والصالحين » .

❁ قال الشيخ عبد العزيز بن محمد بن مانع رحمه الله:

قوله: «من غير تحريف ولا تعطيل»:

* قال الراغب: «تحريف الشيء إمالته كتحريف القلم، وتحريف الكلام أن تجعله على حرف من الاحتمال يمكن حمله على الوجهين».

قال الله ﷻ: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣] وصفات الله دالة على معان قائمة بذات الرب جل جلاله لا تحتمل غير ذلك، فيجب الإيمان والتصديق بها وإثباتها لله إثباتًا بلا تمثيل؛ لأنه ليس كمثله شيء وتنزيهًا له تعالى عن مشابهة خلقه بلا تعطيل.

و«التعطيل»: جحد الصفات الإلهية وإنكار قيامها بذاته تعالى، كما هو قول «المعتزلة» و«الجهمية»، وكذلك لا تكيف صفاته، كما لا تكيف ذاته ولا تمثل، ولا تشبه بصفات المخلوقين؛ لأنه ليس له كفؤ، ولا مثيل ولا نظير. ويرحم الله ابن القيم حيث قال:

لسنا نشبه وصفه بصفاتنا ... إن المشبه عابد الأوثان
كلا ولا نخليه من أوصافه ... إن المعطل عابد البهتان
من شبه الله العظيم بخلقه ... فهو الشبيه لمشرك نصراني
أو عطل الرحمن من أوصافه ... فهو الكفور وليس ذا الإيمان

قوله: «ولا يلحدون ..»:

* «الإلحاد» إما يكون بجحدها وإنكارها. وإما بجحد معانيها وتعطيلها، وإما بتحريفها عن الصواب، وإخراجها عن الحق بالتأويلات. وإما بجعلها اسما لهذه المخلوقات كإلحاد أهل الاتحاد.

قوله: «ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه ..»:

* لأن الصفة تابعة للموصوف، فكما أن الموصوف سبحانه لا تعلم كيفية ذاته، فكذلك لا تعلم كيفية صفاته، مع أنها ثابتة في نفس الأمر.

قوله: «لا سمي له»:

* أي: مثيلًا ونظيرًا يستحق اسمه، وموصوفًا يستحق صفته على التحقيق.

وليس المعنى: هل نجد من يتسمى باسمه إذا كان كثير من أسمائه قد يطلق على غيره؛ لكن ليس معناه إذا استعمل فيه، كما كان معناه إذا استعمل في غيره.

قوله: «ولا ند له»:

* «الأنداد»: الأمثال والنظراء. فكل من صرف شيئًا من أنواع العبادة لغير الله رغبة فيه أو رهبة منه؛ فقد اتخذه ندًا لله؛ لأنه أشرك مع الله فيما لا يستحقه غيره.

وذلك كحال عباد الأموات الذين يستعينون بهم وينذرون لهم، ويحلفون بأسمائهم.

❁ قال الشيخ محمد خليل هراس رحمه الله :

وقوله : (ومن الإيمان بالله ... إلخ) :

هذا شروع فى التفصيل بعد الإجمال ، و« من » هنا للتبعيض ، والمعنى : ومن جملة إيمان أهل السنة والجماعة بالأصل الأول الذى هو أعظم الأصول وأساسها ، وهو الإيمان بالله أنهم يؤمنون بما وصف به نفسه إلخ .

وقوله : « من غير تحريف » متعلق بالإيمان قبله ؛ يعنى أنهم مؤمنون بالصفات الإلهية على هذا الوجه الخالى من كل هذه المعانى الباطلة إثباتًا بلا تمثيل ، وتنزيهًا بلا تعطيل . والتحريف فى الأصل مأخوذ من قولهم : حرفت الشىء عن وجهه حرفًا ، من باب ضرب إذا أملته وغيرته ، والتشديد للمبالغة . وتحريف الكلام إمالته عن المعنى المتبادر منه إلى معنى آخر لا يدل عليه اللفظ إلا باحتمال مرجوح ، فلا بد فيه من قرينة تبين أنه المراد .

وأما التعطيل فهو مأخوذ من العطل الذى هو الخلو والفراغ والترك ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ [الحج : ٤٥] . أى : أهملها أهلها وتركوا وردها . والمراد به هنا نفى الصفات الإلهية ، وإنكار قيامها بذاته تعالى . فالفرق بين التحريف والتعطيل أن التعطيل نفى للمعنى الحق الذى دل عليه الكتاب والسنة ، وأما التحريف فهو تفسير النصوص بالمعانى الباطلة التى لا تدل عليها .

والنسبة بينهما العموم والخصوص المطلق ، فإن التعطيل أعم مطلقًا من التحريف بمعنى أنه كلما وجد التحريف وجد التعطيل دون العكس ، وبذلك يوجدان معًا فيمن أثبت المعنى الباطل ونفى المعنى الحق ، ويوجد التعطيل بدون التحريف فيمن نفى الصفات الواردة فى الكتاب والسنة ، وزعم أن ظاهرها غير مراد ولكنه لم يعين لها معنى آخر وهو ما يسمونه بالتفويض .

ومن الخطأ القول بأن هذا هو مذهب السلف كما نسب ذلك إليهم المتأخرون من الأشاعرة وغيرهم ، فإن السلف لم يكونوا يفوضون فى علم المعنى ولا كانوا يقرءون كلامًا لا يفهمون معناه ، بل كانوا يفهمون معانى النصوص من الكتاب والسنة ، ويثبتونها لله عزَّ وجلَّ ، ثم يفوضون فيما وراء ذلك من كنه الصفات أو كيفياتها كما قال مالك حين سُئل عن كيفية استوائه تعالى على العرش : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول » .

وأما قوله : (ومن غير تكييف ولا تمثيل) . فالفرق بينهما أن التكييف أن يعتقد أن صفاته تعالى على كيفية كذا ، أو يسأل عنها بكيف .

وأما التمثيل فهو اعتقاد أنها مثل صفات المخلوقين ، وليس المراد من قوله : من غير تكييف . أنَّهم ينفون الكيف مطلقًا ، فإن كل شىء لابد أن يكون على كيفية ما ؛ ولكن المراد أنهم ينفون علمهم

بالكيف ؛ إذ لا يعلم كيفية ذاته وصفاته إلا هو سبحانه .

قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ﴾ هذه الآية المحكمة من كتاب الله عزَّ وجلَّ هى دستور أهل السنة والجماعة فى باب الصفات ، فإن الله عزَّ وجلَّ قد جمع فيها بين النفى والإثبات ، فنفى عن نفسه المثل وأثبت لنفسه سمعًا وبصرًا ؛ فدل هذا على أن المذهب الحق ليس هو نفى الصفات مطلقًا كما هو شأن المعطلة ولا إثباتها مطلقًا ، كما هو شأن الممثلة ، بل إثباتها بلا تمثيل .

وقد اختلف فى إعراب : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ على وجوه أصحها أن الكاف صلة زيدت للتأكيد كما فى قول الشاعر :

ليس كمثل الفتى زهير   خلق يوازيه فى الفضائل

وقوله : (فلا ينفون عنه إلخ) تفريع على ما قبله ، فإنهم إذا كانوا يؤمنون بالله على هذا الوجه فلا ينفون ولا يحرفون ، ولا يكيفون ولا يمثلون . والمواضع جمع موضع ، والمراد بها المعانى التى يجب تنزيل الكلام عليها لأنها هى المتبادرة منه عند الإطلاق فهم لا يعدلون به عنها .

وأما قوله : « ولا يلحدون فى أسماء الله وآياته » . فقد قال العلَّامة ابن القيم رحمه الله : والإلحاد فى أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها ، مأخوذ من الميل كما يدل عليه مادة (ل ح د) ، فمنه اللحد وهو الشق فى جانب القبر الذى قد مال عن الوسط ، ومنه الملحد فى الدين : (المائل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه) . اهـ .

فالإلحاد فيها إما أن يكون بجحدها وإنكارها بالكلية ، وإما بجحد معانيها وتعطيلها ، وإما بتحريفها عن الصواب وإخراجها عن الحق بالتأويلات الفاسدة ، وإما بجعلها أسماء لبعض المبتدعات كإلحاد أهل الاتحاد .

وخلاصة ما تقدم :

أن السلف رضي الله عنهم يؤمنون بكل ما أخبر الله به عن نفسه في كتابه ، وبكل ما أخبر به عنه رسوله ، إيمانًا سالمًا من التحريف والتعطيل ، ومن التكييف والتمثيل ، ويجعلون الكلام في ذات الباري وصفاته بابًا واحدًا ؛ فإن الكلام في الصفات فرعُ الكلام في الذات ، يُحتذى فيه حذوه ، فإذا كان إثبات الذات إثباتَ وجودٍ لا إثبات تكييف ؛ فكذلك إثبات الصفات .

وقد يعبِّرون عن ذلك بقولهم : « تمر كما جاءت بلا تأويل » ، ومَن لم يفهم كلامهم ؛ ظن أن غرضهم بهذه العبارة هو قراءة اللفظ دون التعرُّض للمعنى ، وهو باطل ، فإن المراد بالتأويل المنفي هنا هو حقيقة المعنى وكنهه وكيفيته .

قال الإمام أحمد رحمه الله : لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، ولا

يتجاوز القرآن والحديث » .

وقال نعيم بن حماد شيخ البخارى : « من شبه اللَّهَ بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف اللَّهُ به نفسه كفر ، وليس فيما وصف اللّه به نفسه أو وصفه به رسوله تشبيه ولا تمثيل » .

قوله : (لأنه سبحانه لا سمى له ، ولا كفو له ، ولا ندٌّ له) :

تعليل لقوله فيما تقدم إخبارًا عن أهل السنة والجماعة [بأنهم] لا يكيفون ولا يمثلون .
ومعنى : (لا سمى له) : أى : لا نظير له يستحق مثل اسمه ، أو : لا مسامى له يساميه . وقد دل على نفيه قوله تعالى فى سورة « مريم » : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] ، فإن الاستفهام هنا إنكارى معناه النفى .

وليس المراد من نفى السمى أن غيره لا يسمى بمثل أسمائه ، فإنه هناك أسماء مشتركة بينه وبين خلقه ، ولكن المقصود أن هذه الأسماء إذا سمى اللّه بها كان معناها مختصًا به لا يشركه فيه غيره ، فإن الاشتراك إنما هو فى مفهوم الاسم الكلى ، وهذا لا وجود له إلا فى الذهن ، وأما فى الخارج فلا يكون المعنى إلا جزئيًا مختصًا ، وذلك بحسب ما يضاف إليه ، فإن أضيف إلى الرب كان مختصًا به لا يشاركه فيه العبد ، وإن أضيف إلى العبد كان مختصًا به لا يشاركه فيه الرب .

وأما الكفء فهو المكافئ المساوى ، وقد دل على نفيه قوله تعالى : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص : ٤] . وأما النِّد : فمعناه المساوى المناوئ ، قال تعالى : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٢٢] .

قوله : (ولا يُقاس بخلقِهِ سبحانه) :

وأما قوله : (ولا يقاس بخلقه) ، فالمقصود به أنه لا يجوز استعمال شيء من الأقيسة التى تقتضى المماثلة والمساواة بين المقيس والمقيس عليه فى الشئون الإلهية .

وذلك مثل قياس التمثيل الذى يعرِّفه علماء الأصول : بأنه إلحاق فرع بأصل فى حكم الجامع ، كإلحاق النبيذ بالخمر فى الحرمة لاشتراكهما فى علة الحكم وهى الإسكار . فقياس التمثيل مبنى على وجود مماثلة بين الفرع والأصل ، واللّه ﷻ لا يجوز أن يمثل بشىء من خلقه .

ومثل قياس الشمول المعروف عند المناطقة بأنه الاستدلال بكلى على جزئى بواسطة اندراج ذلك الجزئى مع غيره تحت هذا الكلى . فهذا القياس مبنى على استواء الأفراد المندرجة تحت هذا الكلى ، ولذلك يحكم على كل منها بما حكم به عليه .

ومعلوم أنه لا مساواة بين اللّٰه ﷻ وبين شيء من خلقه ، وإنما يستعمل فى حقه تعالى قياس الأَولَى ومضمونه أن كل كمال ثبت للمخلوق وأمكن أن يتصف به الخالق ، فالخالق أَولَى به من المخلوق ، وكل نقص تنزه عنه المخلوق فالخالق أحق بالتنزه عنه .

وكذلك قاعدة الكمال التى تقول : إنه إذا قدر اثنان أحدهما موصوف بصفة كمال ، والآخر يمتنع عليه أن يتصف بتلك الصفة كان الأول أكمل من الثانى ، فيجب إثبات مثل تلك الصفة للّٰه ما دام وجودها كمالًا وعدمها نقصًا .

قوله : (فإنه أعلم بنفسه وبغيره – إلى قوله – : ثم رسله صادقون مصدقون) تعليل لصحة مذهب السلف فى الإيمان بجميع الصفات الواردة فى الكتاب والسنة . فإنه إذا كان اللّٰه عزَّ وجلَّ أعلم بنفسه وبغيره ، وكان أصدق قولًا وأحسن حديثًا ، وكان رسله عليهم الصلاة والسلام صادقين فى كل ما يخبرون به عنه ، معصومين من الكذب عليه والإخبار عنه بما يخالف الواقع . وجب التعويل إذن فى باب الصفات نفيًا وإثباتًا على ما قاله اللّٰه وقاله رسوله الذى هو أعلم خلقه به ، وألَّا يترك ذلك إلى قول من يفترون على اللّٰه الكذب ويقولون عليه ما لا يعلمون .

وبيان ذلك أن الكلام إنما تقصر دلالته على المعانى المرادة منه لأحد ثلاثة أسباب ؛ إما لجهل المتكلم وعدم علمه بما يتكلم به ، وإما لعدم فصاحته وقدرته على البيان ، وإما لكذبه وغشه وتدليسه . ونصوص الكتاب والسنة بريئة من هذه الأمور الثلاثة من كل وجه ، فكلام اللّٰه وكلام رسوله فى غاية الوضوح والبيان ، كما أنه المثل الأعلى فى الصدق والمطابقة للواقع لصدوره عن كمال العلم بالنسب الخارجية وهو كذلك صادر عن تمام النصح والشفقة ، والحرص على هداية الخلق وإرشادهم .

فقد اجتمعت له الأمور الثلاثة التى هى عناصر الدلالة والإفهام على أكمل وجه .

فالرسول ﷺ أعلم الخلق بما يريد إخبارهم به ، وهو أقدرهم على بيان ذلك ، والإفصاح عنه . وهو أحرصهم على هداية الخلق وأشدهم إرادة لذلك ، فلا يمكن أن يقع فى كلامه شيء من النقص والقصور بخلاف كلام غيره فإنه لا يخلو من نقص فى أحد هذه الأمور أو جميعها ، فلا يصح أن يعدل بكلامه كلام غيره فضلًا عن أن يعدل عنه إلى كلام غيره ، فإن هذا هو غاية الضلال ومنتهى الخذلان .

قوله : (ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ سبحان ربك عما يصفون .. ﴾ إلخ) : تعليلٌ لما تقدم من كون كلام اللّٰه وكلام رسوله أكمل صدقًا وأتم بيانًا ونصحًا ، وأبعد عن العيوب والآفات من كلام كل أحد .

و(سبحان) : اسم مصدر من التسبيح ، الذى هو التنزيه والإبعاد عن السوء ، وأصله من السبح الذى هو السرعة والانطلاق والإبعاد ، ومنه : فرس سبوح إذا كانت شديدة العدو .

إضافة الرب إلى العزة من إضافة الموصوف إلى صفته ، وهو بدل من الرب قبله ، فهو سبحانه ينزه

نفسه عما ينسبه إليه المشركون من اتخاذ الصاحبة والولد وعن كل نقصٍ وعيبٍ .

ثم يسلم على رسله عليهم الصلاة والسلام بعد ذلك للإشارة إلى أنه كما يجب تنزيه اللّٰه عزَّ وجلَّ وإبعاده عن كل شائبة نقصٍ وعيب ، فيجب اعتقاد سلامة الرسل فى أقوالهم وأفعالهم من كل عيب ، كذلك فلا يكذبون على اللّٰه ولا يشركون به ، ولا يغشون أممهم ولا يقولون على اللّٰه إلا الحق .

قوله : (والحمد للّٰه رب العالمين) : ثناء منه سبحانه على نفسه بما له من نعوت الكمال وأوصاف الجلال وحميد الفعال ، وقد تقدم الكلام على معنى الحمد فأغنى عن إعادته .

لما بين فيما سبق أن أهل السنة والجماعة يصفون اللّٰه عزَّ وجلَّ بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ، ولم يكن ذلك كذلك إثباتًا ولا كله نفيًا نبه على ذلك بقوله : (وهو سبحانه قد جمع . . . إلخ) .

واعلم أن كلًّا من النفى والإثبات فى الأسماء والصفات مجمل ومفصل :

أما الإجمال فى النفى : فهو أن ينفى عن اللّٰه عزَّ وجلَّ كل ما يضاد كماله من أنواع العيوب والنقائص مثل قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ ، ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ .

وأما التفصيل فى النفى فهو أن ينزه اللّٰه عن كل واحد من هذه العيوب والنقائص بخصوصه ، فينزه عن الوالد والولد والشريك والصاحبة والنِّد والضد والجهل والعجز والضلال والنسيان والسِّنَة والنوم والعبث والباطل . . . إلخ .

لكن ليس فى الكتاب ولا فى السُّنَّة نفى محض ، فإن النفى الصرف لا مدح فيه ، وإنما يراد بكل نفى فيهما إثبات ما يضاده من الكمال ، فنفى الشريك والنِّد لإثبات كمال عظمته وتفرده بصفات الكمال ، ونفى العجز لإثباتِ كمال قدرته ، ونفى الجهل لإثبات سعة علمه وإحاطته ، ونفى الظلم لإثبات كمال عدله ، ونفى العبث لإثبات كمال حكمته ، وفى السِّنَة والنوم والموت لإثبات كمال حياته وقيُّوميته وهكذا ، ولهذا كان النفى فى الكتاب والسنة إنما يأتى مجملًا فى أكثر أحواله بخلاف الإثبات ، فإن التفصيل فيه أكثر من الإجمال لأنه مقصود لذاته .

وأما الإجمال فى الإثبات ، فمثل إثبات الكمال المطلق ، والحمد المطلق والمجد المطلق ونحو ذلك ، كما يشير إليه مثل قوله تعالى : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ .

وأما التفصيل فى الإثبات فهو متناول لكل اسم أو صفة وردت فى الكتاب والسنة ، وهو من الكثير بحيث لا يمكن لأحد أن يحصيه فإن منها ما اختص اللّٰه عزَّ وجلَّ بعلمه كما قال عليه الصلاة والسلام : « سبحانك لا نحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » . وفى حديث دعاء الكرب :

« أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحدًا من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك » .

قوله : (فلا عدول . . . إلخ) : هذا مترتب على ما تقدم من بيان أن ما جاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام هو الحق الذى يجب اتباعه ولا يصح العدول عنه ، وقد علل ذلك بأنه الصراط المستقيم ، يعنى الطريق السوى القاصد الذى لا عوج فيه ولا انحراف .

« الصراط المستقيم » لا يكون إلا واحدًا ، مَن زاغ عنه أو انحرف وقع فى طريق من طرق الضلال والجور ، كما قال تعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣] ، والصراط المستقيم هو طريق الأمة الوسط الواقع بين طرفى الإفراط والتفريط .

ولهذا أمرنا الله عزَّ وجلَّ وعلمنا أن نسأله أن يهدينا هذا الصراط المستقيم فى كل ركعة من الصلاة ، أى : يلهمنا ويوفقنا لسلوكه واتباعه فإنه صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا .

❁ قال الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ رحمه الله :

« ومن الإيمان بالله » هذا هو الأصل الأول من أصول الإيمان الستة ، وهو أعظمها . ولم يقل المصنف : « والإيمان بالله » ؛ لكون الإيمان بالله أقسام ، الأول : الإيمان بوجوده وربوبيته . والثاني : الإيمان بوحدانيته في الألوهية . والثالث : الإيمان بأسمائه وصفاته ، بل قال : « ومن الإيمان بالله » .

« الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه ، وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ » في السنة يقتصر عليه ، ولا يزاد فيه ولا ينقص ، لا يرد شيء من لفظه ولا معناه ، وهذا سماع محض لا مجال فيه للرأي . قال الإمام أحمد رحمه الله : « لا يوصف الله سبحانه إلا بما وصف به نفسه في كتابه ، أو بما وصفه به رسوله ﷺ في السنة ، لا يتجاوز القرآن والحديث » .

وهذا الذي قاله الإمام أحمد هو الذي عليه جميع الأئمة من أهل السنة ، فيقتصر على ما وصف به نفسه ، ويثبت ويؤمن به ، ويعتقد على ما يليق بجلال الله وعظمته .

« من غير تحريف » التحريف : التصريف ؛ يعني : من غير تصريف عن المراد به ، إنما ذلك لأهل البدع .

وتحريف النصوص تارة يكون للفظ والمعنى جميعًا ، وتارة للمعنى وحده ، فإن من المحرفين من يحرف اللفظ ويلزم منه تحريف المعنى ، ومنهم من يحرف المعنى من غير تحريف اللفظ ، ومنهم من يحرفهما جميعًا .

فمن تحريفهما جميعًا : قول اليهود : « حنطة » بدل : ﴿حِطَّةٌ﴾ ، وقول جهم : « استولى » ، فإنه قال : لو استطعت أن أحك من المصحف ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ لحككتها .

والثاني : تحريف المعنى- وهي حرفة اليهود- وسائر تحريف نصوص الصفات التي يسميه المبتدعة تأويلًا .

ومثال تحريف اللفظ فقط كقولهم : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ ؛ بنصب الاسم الشريف .

« ولا تعطيل » التعطيل في الأصل : الإخلاء ، من قولهم : جيدٌ عاطل ؛ أي : خالٍ من الحليّ . من غير تعطيل للفظ وللمعنى ، فالتعطيل هو : إخلاؤه تعالى من صفاته التي وصف بها نفسه .

وأهل التعطيل هم الجهمية ؛ عطلوا النصوص ، وهم أعظم كفرًا وضلالًا من أهل التشبيه ، كما قال بعض السلف : « المُعطِّل يعبد عدمًا ، والمشبِّه يعبد صنمًا ، والموحِّد يعبد إلهًا واحدًا فردًا صمدًا » .

وأهل التعطيل أعظم كفرًا من أهل التشبيه ؛ لأمور :

الأمر الأول : أن عابد العدم أعظم كفرًا من عابد الصنم .

الأمر الثاني : أن هذا التعطيل محفوف بتمثيلين ؛ مثلوا أولًا حيث لم يفهموا من النصوص الواردة في الصفات إلا التشبيه . الثاني أنهم لما نفوا الصفات لزمهم التمثيل بالمعدومات .

الأمر الثالث : أن كونه أشر تمثيلًا من الممثلة ؛ أنهم يشبهونه بالمعدومات ، بل بالممتنعات ، فإنهم قالوا : ليس بكذا ولا كذا ولا كذا ؛ حتى عطلوه من جميع الصفات ، فشبهوا أولًا ، وعطلوا ثانيًا ، وشبهوا ثالثًا ، وأولئك مثلوه بالحيوانات ، تعالى اللّٰه وتقدس .

وبهذه الأوجه عرفنا أن كفر المعطلة أعظم من كفر الممثلة .

ومن هؤلاء : المعتزلة ؛ فإنهم يثبتون الأسماء وينفون الصفات ، ويرون أن الأسماء لا معنى لها ، لا تدل إلا على الذات فقط .

ومن فروع هؤلاء : الأشاعرة ؛ الذين ينتسبون إلى أبي الحسن الأشعري ، وهو منهم بريء ، ومثلهم الماتريدية .

وقال بعض السلف أيضًا : « من شبه اللّٰه بخلقه ؛ فقد كفر ، ومن نفى عنه ما وصف به نفسه ؛ فقد كفر ، وليس فيما وصف اللّٰه به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ تشبيه » . وهذه العبارة عند السلف شهيرة ، متلقاة بالقبول عند الأئمة .

فأهل التشبيه ؛ أثبتوا وغلوا وزادوا في الإثبات ؛ حتى وقعوا في كفر التشبيه .

وأهل التعطيل ؛ غلوا وزادوا في التنزيه ؛ حتى وقعوا في كفر التعطيل ، فصاروا ضالين من جهتين :

أ : فهمهم التشبيه من الآيات الواردة في إثبات الصفات .

الثاني : تشبيهه بالجمادات والمعدومات .

« ومن غير تكييف » التكييف : تعيين كيفية من الكيفيات للصفة ، فيقول : كيفيتها كذا وكذا ، كقولهم- والعياذ بالله- : هو كذا وكذا . فممنوع كيف ؟ ولم ؟

« ولا تمثيل » وهو أن يقول : هذا مثل هذا ؛ كأن يقول : يد كيدي ، ونحو ذلك .

ولم يقل المصنف : « ولا تشبيه » . وقد أجاب عن هذه اللفظة حين امتحانه ، فقال : إنها لم ترد في القرآن ، إنما ورد نفي التمثيل ؛ كقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ، فاقتصرت عليها .

والناس في باب الصفات طرفان ووسط :

الطرف الأول : حرفوا ونفوا وجحدوا الصفات . وهم الجهمية أتباع جهم بن صفوان ، أخذ هذا المذهب عن شيخه الجعد بن درهم- ولم يكن يظهرها- ، والجعد أخذها عن أبان بن سمعان ، وأبان أخذها عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم ، وطالوت أخذها عن لبيد بن الأعصم اليهودي- الساحر الذي سحر النبي ﷺ- ، وأظهرها الجهم ، فنسبت إليه ، وقيل : إن الجهم أخذها عن كفار الهند .

فالجهم سلك هذا المسلك- نفى الصفات- من جهله ، زعم أنه إذا أثبتها وقع في التشبيه ، فنفاها ؛ مخافة التشبيه ، وزعم أن نفيها تحقيق لقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ لم يفهم من صفات الله تعالى إلا ما يفهمه من صفات المخلوقين .

الطرف الثاني : أفرطوا في الإثبات ، وشبهوا ، ومثلوه بصفات المخلوقين ، فضربوا النصوص بعضها ببعض ، وزعموا أن هذا مدلولها ، وردوا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ، وهاتان الفرقتان في طرفي نقيض .

وإطلاق التفويض في الصفات شر من التحريف . وقول مالك ظاهر . وابن عباس وغيره من الصحابة فسروا الصفات . وتفويض الكنه والكيفية صواب .

والقسم الثالث : الأمة الوسط بين هذين الطرفين- أهل السنة والجماعة- ، سلكوا في هذا الباب العظيم المسلك القويم الذي جاءت به الكتب السماوية ، ونطقت به الرسل ، ودرج عليه الصدر الأول ومن تبعهم .

وهذا المسلك الذي هداهم الله له ، هو الوسط بين الطرفين ، والهدى بين الضلالتين ، فأثبتوا لله ما أثبته لنفسه في كتابه ، وأثبته له رسوله ﷺ في السنة ، إثباتًا بريئًا من تمثيل الممثلين ، ونفوا عنه ما لا يليق بجلاله وعظمته نفيًا بريئًا من تعطيل المعطلين ، على حد قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ؛ لأن باب الأسماء والصفات توقيفي ، لا مجال للعقول والقياس والذوق فيه . والتحريف حرفة اليهود والجهمية ، والتعطيل حرفة الجهمية ، والتمثيل طريقة المشبهة .

« بل يؤمنون بأن الله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ » ؛ يعني : أهل السنة والجماعة ، يؤمنون بأن الله ليس كمثله شيء في ذاته ، ولا في أسمائه وصفاته ، (﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾) ويثبتون ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات ؛ كالسميع والبصير .

وفي هذه الآية الرد على الطائفتين : أهل التعطيل ، وأهل التشبيه . فقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ رد على أهل التشبيه . وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ رد على أهل التعطيل .

وفي هذه الآية بيان طريقة الكتاب والسنة في الأسماء والصفات ، وأن طريقتهما في النفي الإجمال ، وفي الإثبات التفصيل ، فإن الكتاب والسنة جاءا بنفي مجمل وإثبات مفصل ، وهي طريقة أهل السنة والجماعة .

والكلام في باب الأسماء والصفات دائر بين النفي والإثبات ، بخلاف طريقة الجهمية وأضرابهم ؛ فإنهم أثبتوا إثباتًا مجملًا ، ونفوا نفيًا مفصلًا ، فخالفوا الكتاب والسنة وأهل السنة والجماعة في التأصيل والتفصيل ، زعمًا منهم أنه تنزيه لله .

و « الكاف » في ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ﴾ فيها كلام كثير ، وليست زائدة ، بل جاءت إحداهما مؤكدة للأخرى ، لمزيد تأكيد عدم المماثلة .

« فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه » حاشا وكلا ، بل هذه طريقة الجهمية والأشاعرة .

« ولا يحرفون الكلم عن مواضعه » ، بل يقرون الكلم على معانيه وما أريد به .

« ولا يلحدون في أسماء الله وآياته » والإلحاد في اللغة هو : الميل ، ومنه تسمية موضع الميت في القبر لحدًا ؛ لميله عن وسطه .

وفي الشرع : هو : الميل والخروج عن الحق فيها إلى الجور .

وقد ذم الله تعالى : مَن ألحد في أسمائه وآياته ؛ فقال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ﴾ ، فمن عطل فقد ألحد ، ومن مَثَّلَ فقد ألحد ، ولا يسلم من الإلحاد إلا من آمن بها كما جاءت من غير تمثيل ، وكذلك الآيات من حملها ما لا تطيق فقد ألحد ، ومن نقصها فقد ألحد .

وأهل التعطيل والتشبيه كلهم من أهل الإلحاد .

« ولا يكيفون » صفاته ، فلا يقولون : كيفيته كذا وكذا ، وقد قال الله تعالى : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ .

« ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه » فما يضاف إلى الخالق فهو يليق به ويختص به ، كما أن ما يضاف إلى المخلوق ويليق به يختص به ، كما أن ما يضاف إلى المخلوق ويليق به يختص به ، وإن

اجتمعا في الاسم أو الصفة ، فإنه سبحانه ليس كمثله شيء ، لا في ذاته ، ولا في أسمائه وصفاته ، ولا في أفعاله ، فإن القول في الذات كالقول في الصفات ، يحتذى حذوه ويقاس عليه ، فتثبت إثبات وجود ، لا ثبوت تمثيل فيه ، فكما أن ذات الباري سبحانه لا تدانيها ولا تقاربها ولا تشابهها ذوات المخلوقين ، فكذلك صفاته سبحانه .

« لأنه - سبحانه - لا سمي له » المعنى : لا يساميه أحد ، أو لا يستحق مثل اسمه ، وكلا المعنيين راجع إلى الآخر ، لكون اسمه تعالى دال على الكمال . والخلق وإن كان لهم نوع كمال ، فإن الله هو الذي أكسبهم إياه .

« ولا كفء له » الكفء : المساوي .

« ولا ند له » : ولا مثل له .

« ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى » فيضرب له مثلًا ، فيقاس بالمخلوق في مثل يستوي هو والمخلوق فيه- تعالى وتقدس- فجميع القياس في حقه ممتنع شرعًا وعقلًا . نعم قياس الأولى ، فيقال : ما كان في حق المخلوق كمال ، فإن الله أحق بالكمال ، فيثبت لله تعالى على ما يليق بجلال الله وعظمته من غير تمثيل .

« فإنه سبحانه أعلم بنفسه » من خلقه ، وبما يجوز في حقه وما يمتنع عليه ، فعلينا أن نذعن ونصدق ونؤمن بما يصل إلينا ، ونعتقده حقيقة على ما يليق بجلال الله وعظمته .

وهذا الباب توقيفي ، فينطق حيث نطق الكتاب والسنة ، وقد نطق الكتاب والسنة بالصفات ، وهو الحق والتوحيد ، فلا محذور في النطق بما وصف به نفسه ، والخلق ما لهم علم بالأمور الاعتقادية إلا ما أخذوه من مشكاة النبوة .

« وبغيره » وأعلم من خلقه بأنفسهم ، والعلم أقسام ؛ فأعلاها العلم بالتوحيد ، والتوحيد ثلاثة أقسام ؛ ومنها توحيد الأسماء والصفات ، وهو التوحيد العلمي الاعتقادي .

« وأصدق قيلًا ، وأحسن حديثًا من خلقه » وقد وصف نفسه .

« ثم رسله » هذا عطف على قوله : « فإن سبحانه أعلم بنفسه وبغيره ، وأصدق قيلًا وأحسن حديثًا من خلقه » مع ما تقدم من قوله : « ومن الإيمان بالله ..» إلخ .

« صادقون » وقد وصفوا الله بصفات ، وهم معصومون في كل ما بلغوه عن الله ، لا ينطقون عن الهوى .

« مصدقون » فيما أخبروا به عن ربهم ؛ أي : مؤتمنون فيما أوحي إليهم ، فيجب تصديقهم فيما بلغوه عن ربهم ، والالتفات إلى ما قالوا والتمسك به . وفي بعض النسخ : « مصدوقون » .

« بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون » هذا راجع إلى أهل التعطيل والجحد ، وإلى أهل التمثيل ، كلهم قائلون عليه بغير علم ، فإنهم لا صادقون ولا مصدقون ، ولا التفات إلى ما قالوا ؛ بل كاذبون ومكذبون ، ومعتمدون على نحاتة الأفكار وزبالة الأذهان ، فإن منهم من عطل وجحد ، فهو قائل بلا علم مع مخالفتهم لما عرفوا من العلم ، وكذلك الذين يقولون أنها لا تدل على كذا ، ولا على كذا ، فكلهم مخالفون للرسل ، وكل من وصف اللّٰه بغير ما وصف به نفسه ، فهو قائل على اللّٰه بلا علم .

فكل من الجهمية وأضرابهم والممثلة تائه ، الكل قائل على اللّٰه بغير علم ، وواقع فيما هو أعظم من الشرك ، وقد قال اللّٰه تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ، فكل من حرف أو ألحد أو عطل ؛ فهو قائل على اللّٰه بلا علم ، بل هو مخالف للعلم الواضح .

« ولهذا » هذا تعليل من المصنف ، فاللّٰه سبحانه الذي هذا شأنه ، (قال : ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات : ١٨٠- ١٨٢] .
« فسبح نفسه » وقدسها . والتسبيح : التنزيه والتقديس ، « عما وصفه به المخالفون للرسل » ، مما قالوه في أسمائه وصفاته ، وشرعه وقدره ؛ لأن ما قاله أعداء الرسل نقص وعيب لا يليق بجلال اللّٰه .

« وسلم على المرسلين » ذكر في الآية السلام عليهم ؛ « لسلامة ما قالوه » في اللّٰه وفي أسمائه وصفاته ، وشرعه ودينه « من النقص والعيب » ؛ لأن ما ذكروه هو الصدق والكمال ، وضده الكذب والعيب ، فاستحقوا السلام من اللّٰه ، وحمد نفسه لما له من الأسماء والصفات وبديع المخلوقات .

« وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه » ؛ يعني : في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ (بين) نوعين : (النفي والإثبات) :

نفى ما لا يليق بجلال اللّٰه وعظمته نفيًا عامًّا مجملًا ؛ كقوله : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ ، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ .

وأما الإثبات : فأثبت إثباتًا مفصلًا : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ، ونظائر ذلك من الإثبات ، فعكس ذلك أهل التجهم والاعتزال ، زعمًا منهم أنه تنزيه للّٰه ، ووقعوا في ضلالتين : في معاكسة الكتاب ، وفي وصفه تعالى بغير ما وصف به نفسه .

« فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون » ؛ يعني : أنه إذا كان كذلك ؛ تبين أنه لا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون ؛ يعني : متعين عليهم التمسك بمسلك المرسلين ، والأخذ بما جاء عنهم ، الذي من تمسك به نجا ، ومن تركه هلك ، فإنه ضروري تمسكهم بالحق

وعدم العدول عما جاء به المرسلون ، ولازم هذا ولا غرو ، ولا استقام مقصدهم إلا بعدم العدول عما جاء به المرسلون .

وما جاء به المرسلون هو إثبات صفات الكمال على وجه التفصيل ، وفي النفي : نفي ما لا يليق بالله على وجه الإجمال كما تقدم .

« فإنه الصراط المستقيم » الذي جعله الرب موصلًا للعباد إلى ربهم ، ولا طرق سواه ، إنما هو هذا الطريق الأوحد الذي يصل الخلق إلى ربهم منه ، فلا طريق لهم موصل إلى ربهم ودار كرامته إلا من هذا الطريق .

« صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » ، النعمة الكاملة ؛ نعمة الدين ، فإن لله نعمتين :

نعمة كاملة مطلقة : وهي : نعمة الدين .

ونعمة ناقصة مقيدة : وهي : التي يشترك فيها البر والفاجر ؛ من المأكل والمشرب ، ونحو ذلك .

فالأولى : نعمة الأرواح . والثانية : نعمة الأجسام . وشتان بين مشرق ومغرب ، فإن الإنسان مخلوق من مادتين ، روحانية نورانية ، وأرضية جسمانية .

فالنعمة التامة لأهل الإيمان ، وهي المعنية بقوله في « الفاتحة » : ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ، والمنعم عليهم الذين يسأل الله الهداية إلى طريقهم هم في قوله : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ .

فنعمة هؤلاء هي النعمة المطلقة ، وهؤلاء الطبقات الأربع أئمة هذه النعمة ، ولهم أتباع على حسب اتباعهم .

والنعمة المقيدة يستحق الرب عليها الشكر ، ولكنها بالنسبة إلى المطلقة كلا نعمة ، فتلك هي التي تستمر في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة ، أما الثانية فهي أيضًا نعمة ابتلاء وامتحان .

النعمة معرفة الدين والعمل به ، والمنعم عليهم على طبقات ، وترتيبهم على ما في الآية ، فهذا طريق المنعم عليهم النعمة الكاملة ، هو إثبات ما أثبته الله لنفسه ، على ما يليق بجلاله وعظمته من الصفات من غير تمثيل ، ونفي ما نفاه الله عن نفسه نفيًا بريئًا من التعطيل .

﴿وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ ؛ يعني : من صار معهم فهو مرافق لهم ، والذي يحصل هذا حصل رفيقًا ما مثله رفيقًا ؛ يعني : وحسن هذا الرفيق رفيقًا ؛ يعني : هؤلاء هم أحسن الرفقاء .

❁ قال الشيخ زيد بن عبد العزيز آل فياض رحمه الله :

قوله : « ومن الإيمان بالله : الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه ، وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل » :

ومن هنا إلى آخر العقيدة كالتفصيل لما سبق .

وذكر في هذه الجملة قاعدة أهل السنة والجماعة في الصفات وهي أنهم :

يصفون الله بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله ﷺ إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل ، كما قال الإمام أحمد رحمه الله : لا يوصف إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ، لا يتجاوز القرآن والحديث . وقال نعيم بن حماد شيخ البخاري رحمهما الله : ومن شبه الله بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله تشبيه ولا تمثيل .

وقال الإمام الشافعي رحمه الله : لله أسماء وصفات لا يسع أحدًا جهلها ، فمن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر ، وأما قبل قيام الحجة فيعذر بالجهل .

وقال الشيخ : ومن شك في صفة من صفات الله ومثله لا يجهلها فمرتد ، وإن كان مثله يجهلها ليس بمرتد .

ولا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ؛ لأن باب الأسماء والصفات توقيفي فلا يتجاوز القرآن والحديث ، كما قال الإمام أحمد وغيره من السلف ، وقوله : من غير تحريف ولا تعطيل .. إلخ ، فأهل السنة وسط بين فرق الضلال ؛ فالجهمية والمعتزلة ومن تبعهم نفوا الصفات وعطلوها ، وكذلك الأشعرية نفوا بعضًا وأثبتوا بعضًا .

والمشبهة ، كداود الجواربي وهشام بن الحكم الرافضي غلوا في الإثبات فضلوا ، وهدى الله أهل السنة للطريق الأمثل ، وما أحسن المثل المضروب للمثبت للصفات من غير تشبيه ولا تعطيل باللبن الخالص السائغ للشاربين يخرج من بين فرث التعطيل ودم التشبيه ، قال بعض العلماء : المعطل يعبد عدمًا ، والممثل يعبد صنمًا ، والموحد يعبد إلهًا واحدًا فردًا صمدًا .

وقال الخطابي رحمه الله : مذهب السلف إجراء آيات الصفات وأحاديثها على ظاهرها مع نفي الكيفية والتشبيه عنها ؛ إذ الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات يحتذى فيه حذوه ويتبع فيه مثاله ، فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات تكييف ، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود لا إثبات تكييف ، وقد يعبرون عن ذلك بقولهم : تمر كما جاءت ولا يتعرض لها بتأويل ، ومرادهم أنه يجب إثبات حقيقة الصفات دون التكييف ، وقد يَظُنّ من ينسب لهم أنهم أرادوا التفويض أو أنها من المتشابه ، وهذا ظن خاطئ .

قال الشيخ : وأما إدخال أسماء الله وصفاته ، أو بعض ذلك في المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله ، أو اعتقاد أن ذلك هو المتشابه الذي استأثر الله بعلم تأويله ، كما يقول كل واحد من القولين طوائف من أصحابنا وغيرهم ، فإنهم وإن أصابوا في كثير مما يقولون ونجوا من بدع وقع فيها غيرهم ، فالكلام على هذا من وجهين :

الأول : أني لا أعلم عن أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة لا أحمد بن حنبل ولا غيره ؛ أنه جعل ذلك من المتشابه الداخل في هذه الآية ونفى أن يعلم معناه أحد ، وجعلوا أسماء الله وصفاته بمنزلة الكلام الأعجمي الذي لا يفهم ، ولا قالوا : إن الله ينزل كلامًا لا يفهم معناه أحد ، وإنما قالوا كلمات لها معاني صحيحة قالوا : في أحاديث الصفات تمر كما جاءت ، ونهوا عن تأويلات الجهمية وردوها وأبطلوها ، ويقرون النصوص على ما دلت عليه من معناها ، ويفهمون منها بعض ما دلت عليه ، كما يفهمون ذلك في سائر نصوص الوعد والوعيد والفضائل وغير ذلك .

وأحمد قد قال في غير أحاديث الصفات تمر كما جاءت في أحاديث الوعيد مثل : « من غشنا فليس منا » ، وأحاديث الفضائل ، ومقصوده : أن الحديث لا يحرف كلامه عن مواضعه كما يفعله من يحرفه ، وسمى تحريفه تأويلًا بالعرف المتأخر ، فتأويل هؤلاء المتأخرين عند الأئمة تحريف باطل ، وكذلك نص أحمد في كتاب الرد على الجهمية والزنادقة أنهم تمسكوا بمتشابه القرآن ، وتكلم أحمد على ذلك المتشابه وبين معناه وتفسيره بما يخالف تأويل الجهمية ، وجرى ذلك على سنن الأئمة قبله .

وقال الشيخ أيضًا : وأما التفويض فمعلوم أن الله أمرنا أن نتدبر القرآن وحضنا على عقله وفهمه ، فكيف يجوز مع ذلك أن يراد منا الإعراض عن فهمه ومعرفته وعقله ؟ وحقيقة قول هؤلاء « أهل التفويض » في المخاطب لنا أنه لم يبين الحق ولا أوضحه مع أمره لنا أن نعتقده ، وأن ما خاطبنا به وأمرنا باتباعه والرد إليه لم يبين به الحق ولا كشفه ، بل دل ظاهره على الكفر والباطل ، وأراد منا ألَّا نفهم منه شيئًا ، أو أن نفهم منه ما لا دليل عليه فيه ، وهذا كله مما يعلم بالاضطرار تنزيه الله ورسوله عنه ، وأنه من جنس أقوال أهل التحريف والإلحاد . اهـ .

قوله : « من غير تحريف ولا تعطيل » : التحريف صرف الكلام عن ظاهره .

قال في القاموس : التحريف التغيير ، وقطُّ القلم مُحرفًا وأحر ورف مال وعدل كانحرف . وقال الراغب في مفرداته : تحريف الشيء إمالته كتحريف القلم ، وتحريف الكلام أن تجعله على حرف من الاحتمال يمكن حمله على الوجهين قال الله ﷻ : ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ . وقال ابن القيم : فالتحريف تحريف المعاني بالتأويلات التي لم يردها المتكلم بها . والتبديل تبديل لفظ بلفظ آخر . والكتمان جحده ، وهذه الأدواء الثلاثة منها غيرت الأديان والملل . اهـ .

وقال في موضع آخر : والتحريف نوعان : تحريف اللفظ وتحريف المعنى ؛ فتحريف اللفظ العدول عن جهته إلى غيرها إما بزيادة وإما بنقصان ، وإما بتغيير حركة إعرابية ، وإما غير إعرابية ، فهذه أربعة أنواع ، وقد سلك فيها الجهمية ، والرافضة ، فإنهم حرفوا نصوص الحديث ولم يتمكنوا من ذلك في ألفاظ القرآن وإن كان الرافضة حرفوا كثيرًا من لفظه ، وادعوا أن أهل السنة غيروه عن وجهه وأما تحريف المعنى فهذا الذي جالوا فيه وصالوا وتوسعوا وسموه تأويلًا ، وهو اصطلاح فاسد حادث لم يعهد به استعمال في اللغة ؛ وهو العدول بالمعنى عن وجهه وحقيقته ، وإعطاء اللفظ معنى لفظ آخر بقدر ما مشترك بينهما .

وأصحاب تحريف الألفاظ شر من هؤلاء من وجه ، وهؤلاء شر من وجه ؛ فإن أولئك عدلوا باللفظ والمعنى عما هما عليه فأفسدوا اللفظ والمعنى ، وهؤلاء تركوا اللفظ على حاله ، فكانوا خيرًا من أولئك من هذا الوجه ، ولكن أولئك لما أرادوا المعنى الباطل صرفوا له لفظًا يصلح له لئلا يتنافر اللفظ والمعنى ، بحيث إذا أطلق ذلك على اللفظ المحرف فهم منه المعنى المحرف ، فإنهم رأوا أن العدول بالمعنى عن وجهه وحقيقته مع بقاء اللفظ على حاله مما لا سبيل إليه ، فبدأوا بتحريف اللفظ ليستقيم لهم حكمهم على المعنى الذي قصدوا . اهـ .

قوله : « ولا تعطيل » : العطل في اللغة الخلو والفراغ والترك ، ومنه « وبئر معطلة » ، قال الراغب : العطل فقدان الزينة والشغل ، يقال : عطلت المرأة فهي عطل وعاطل ؛ ومنه قوس عطل ولا وتر عليه ، وعطلته من الحلي ومن العمل فتعطل قال : ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ ، ويقال : لمن يجعل العالم بزعمه فارغًا عن صانع أتقنه وزينه معطل ، وعطل الدار عن ساكنها والإبل عن داعبها . اهـ .

وسمي جاحدو الصفات معطلين ؛ لنفيهم عن الله صفات كماله وإخلائهم له منها .

قال ابن القيم : أصل الشرك وقاعدته التي يرجع إليها هو التعطيل ، وهو ثلاثة أقسام : تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه ، وتعطيل الصانع سبحانه عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وصفاته وأفعاله ، وتعطيل معاملته عمَّا يجب على العباد من حقيقة التوحيد . اهـ .

وقد سأل أحد المناظرين للشيخ في العقيدة : ما المراد بالتحريف والتعطيل ؟

ومقصوده أن هذا ينفي التأويل الذي أثبته أهل التأويل ، وهو صرف اللفظ عن ظاهره ، إما وجوبًا وإما جوازًا ، قال الشيخ : فقلت : تحريف الكلام هو تحريف الكلام عن مواضعه ، كما ذمه الله تعالى في كتابه ، وهو إزالة اللفظ عما دل عليه من المعنى ، مثل : تأويل بعض الجهمية لقوله تعالى : ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ أي : جرحه بأظافير الحكمة تجريحًا .

ومثل تأويلات القرامطة والباطنية وغيرهم من الجهمية والرافضة والقدرية وغيرهم ، فسكت وفي

نفسه ما فيها ، وقد ذكرت في غير هذا المجلس أني عدلت عن لفظ التأويل إلى لفظ التحريف ؛ لأن التحريف اسم جاء القرآن بذمه ، وأنا تحريت في هذه العقيدة اتباع الكتاب والسنة فبينت ما ذم الله من التحريف ولم أذكر فيها لفظ التأويل بنفي ولا إثبات لأنه لفظ له عدة معان ، كما بينته في موضعه من القواعد ، فإن معنى لفظ التأويل في كتاب الله غير لفظ التأويل في اصطلاح كثير من أهل التفسير والسلف ؛ لأن من المعاني التي قد سمى تأويلًا ما هو صحيح منقول عن السلف ، مما تقوم الحجة عن صحته إذ ما قامت الحجة على صحته وهو منقول عن السلف فليس فيه من التحريف . اهـ .

والتأويل تفعيل من آل يؤول إلى كذا إذا صار إليه ، قال الجوهري : التأويل تفسير ما يؤول إليه الشيء ؟ ثم تسمى العاقبة تأويلًا ؛ لأن الأمر يصير إليها كقوله : ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ ، وتسمى حقيقة الشيء المخبر به تأويلًا ؛ لأن الأمر ينتهي إليه ومنه قوله : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ . فمجيء تأويله نفس ما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر والمعاد وتفاصيله والجنة والنار .

وأما التأويل في اصطلاح أهل التفسير والسلف فمرادهم به معنى التفسير والبيان ، كقول محمد بن جرير الطبري : القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا .

فهذا التأويل يرجع إلى فهم المؤمن ويحصل في الذهن ، والأول يعود إلى وقوع حقيقته في الخارج ، وأما المعتزلة والجهمية وغيرهم من المتكلمين فمرادهم بالتأويل صرف اللفظ عن ظاهره ، وهذا هو الشائع في عرف المتأخرين من أهل الأصول والفقه ، ولهذا يقولون : التأويل على خلاف الأصل ، والتأويل يحتاج إلى دليل ، وهذا التأويل هو الذي صنف في تسويغه وإبطاله من الجانبين .

قوله : « ومن غير تكييف ولا تمثيل » : كيفية الشيء حاله وكنهه ، أو السؤال عنه بصيغة كيف ، فالتكييف البحث عن كنه الصفات والتمثيل أن يقال فيها مثل صفات المخلوقين .

وإنما نفي السلف عن صفات الله التكييف ؛ لأن العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف .

« والمكيفون يثبتون كيفية يقولون أنهم علموا كيفية ما أخبروا به من صفات الرب » ، وكما نفي السلف التحريف والتعطيل في مقام النفي والسلب ، كذلك رفضوا التكييف والتمثيل في مقام الإيجاب والثبوت ، فلا إفراط ولا تفريط ، ولا غلو ولا تقصير ، والتعبير بالتكييف والتمثيل أولى من التعبير بالتشبيه .

قال الشيخ في المناظرة : وقلت لهم أيضًا : ذكرت في النفي التمثيل ولم أذكر التشبيه ؛ لأن التمثيل نفاه الله بنص كتابه حيث قال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ ، وقال : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ ، وكان

أحب إلي من لفظ ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله ، وإن كان قد يعني نفيه معنى صحيح كما قد يعني به معنى فاسد ، وقلت : قولي من غير تكييف ولا تمثيل بنفي كل باطل ، وإنما اخترت هذين الاسمين ؛ لأن التكييف مأثور عن السلف ، كما قال مالك وربيعة وابن عيينة وغيرهم المقالة التي تلقاها العلماء بالقبول : الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة . فاتفق هؤلاء السلف على أن التكييف غير معلوم لنا فنفيت ذلك اتباعًا لسلف الأمة ، وهو أيضًا منفي بالنص ؛ فإن تأويل آيات الصفات يدخل فيها حقيقة الموصوف وحقيقة صفاته ، وهذا من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله ، كما قد قررت ذلك في قاعدة مفردة ذكرتها في التأويل ، والفرق بين علمنا بالكلام وعلمنا بتأويله .

وكذلك التمثيل منفي بالنص والإجماع القديم مع دلالة العقل على نفيه ، وكذلك نفي التكييف ؛ إذ كنه الباري غير معلوم للبشر .

وذكرت في ضمن ذلك كلام الخطابي الذي نقل أنه مذهب السلف ، وهو إجراء آيات الصفات وأحاديثها على ظاهرها مع نفي الكيفية والتشبيه عنها ؛ إذ الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات . اهـ .

قال : والمقصود أن أهل السنة متفقون على أن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، ولكن لفظ التشبيه في كلام الناس لفظ مجمل ، فإن أراد بنفي التشبيه ما نفاه القرآن ودل عليه العقل فهذا حق ؛ فإن خصائص الرب لا يوصف بها شيء من المخلوقات ، ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته ، ومن جعل صفات الله مثل صفات المخلوق فهو المشبه المبطل المذموم ، وإن أراد بالتشبيه أنه لا يثبت لله شيء من الصفات فلا يقال : له علم ولا قدرة ولا حياة ؛ لأن العبد موصوف بهذه الصفات ، وكذلك في كلامه وسمعه وبصره ورؤيته وغير ذلك ، وهم يوافقون أهل السنة على أن الله موجود حي عليم قدير ، ولا يقال : هذا التشبيه يجب نفيه . وهذا مما يدل عليه الكتاب والسنة ، وصريح العقل ، ولا يمكن أن يخالف فيه عاقل ، فإن الله تعالى سم نفسه بأسماء وسمي بعض عباده بأسماء ، وكذلك سمى صفاته بأسماء وسمي بعض صفات خلقه ، وليس المسمى كالمسمى ؛ فسمى نفسه حيًا عليمًا قديرًا رؤفًا حليمًا عزيزًا حكيمًا سميعًا بصيرًا ملكًا مؤمنًا جبارًا متكبرًا ، وقد سمى بعض عباده بذلك ، فإنهما وإن اتفقا في مسمى ما اتفقا فيه ، فإن الله تعالى مختص بوجوده وعلمه وقدرته ، وسائر صفاته والعبد لا يشركه في شيء من ذلك ، والعبد أيضًا مختص بوجوده وعلمه وقدرته ، والله تعالى منزه عن مشاركة العبد في خصائصه ، وإن اتفقا في مسمى الوجود والعلم القدرة ، فهذا المشترك مطلق كلي يوجد في الأذهان لا في الأعيان ، والموجود في الأعيان

مُختص الاشتراك فيه ، وهذا موضع اضطراب فيه كثير من النظار ، حيث توهموا أن الاتفاق في مسمى هذه الأشياء يوجب أن يكون الوجود الذي للرب هو الوجود الذي للعبد .

قوله : « بل يؤمنون بأن الله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] » :

* ففي قوله سبحانه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ﴾ . رد على المشبهة الممثلة ، وفي قوله : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ . رد على المعطلة ، وما أحسن قول صاحب « الكافية الشافية »[1] :

لسنا نشبه وصفه بصفاتنا   إن المشبه عابد الأوثان
كلا ولا نخليه من أوصافه   إن المعطل عابد البهتان
من شبه الله العظيم بخلقه   فهو النسيب لمشرك نصراني
أو عطل الرحمن من أوصافه   فهو الكفور وليس ذا إيماني

قوله : « ولا يلحدون في أسماء الله وآياته » :

* قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ . وأصل الإلحاد في اللغة الميل ، قال ابن الأثير في النهاية : الإلحاد الميل والعدول عن الحق والظلم والعدوان ، واللحد الشق الذي يعمل في جانب القبر لموضع الميت ؛ لأنه أميل عن القبر إلى جانبه . اهـ .

وقال ابن القيم : والإلحاد في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها ، وهو مأخوذ من الميل كما يدل عليه مادة (ل . ح . د) فمنه اللحد ، وهو الشق في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط ، ومنه الملحد في الدين المائل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه .

ومنه الملتحد وهو مفتعل من ذلك ، وقوله : ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ أي : من تعدل إليه وتهرب إليه وتلتجئ إليه من غيره ، تقول العرب : التحد فلان إلى فلان إذا عدل إليه .

إذا عرف هذا فالإلحاد في أسمائه تعالى أنواع :

أحدهما : أن يسمى الأصنام بها كتسميتهم باللات من الإلهية ، والعزى من العزيز ، وتسميتهم الصنم إلهًا وهذا إلحاد حقيقة ؛ فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة .

الثاني : تسميته بما لا يليق بجلاله ، كتسمية النصارى له أبا ، وتسمية الفلاسفة له موجبًا بذاته أو علة فاعلة بالطبع ونحو ذلك .

وثالثها : وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص ، كقول أخبث اليهود : إنه فقير ، وقولهم : إنه

---

(١) ابن القيم (ص١٥٤) .

استراح بعد أن خلق خلقه ، وقولهم : يد اللَّه مغلولة . وأمثال ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته .

ورابعها : تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها ، كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم : إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني ، فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم والمريد ، ويقولون : لا حياة له ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به ، وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلًا وشرعًا ولغة وفطرة ، وهو مقابل إلحاد المشركين ؛ أولئك أعطوا أسمائه وصفاته آلهتهم ، وهؤلاء سلبوه صفات كماله وجحدوها وعطلوها ، فكلاهما ملحد في أسمائه ، ثم الجهمية وفروخهم متفاوتون في هذا الإلحاد ، فمنهم الغالي والمتوسط والمنكوب .

وكل من جحد شيئًا من ما وصف اللَّه به نفسه أو وصف به رسوله ، فقد ألحد في ذلك فليستقل أو ليستكثر .

وخامسها : تشبيه صفاته بصفات خلقه تعالى اللَّه عمَّا يقول المشبهون علوًّا كبيرًا .

فهذا الإلحاد في مقابلة إلحاد المعطلة ، فإن أولئك نفوا صفة كماله وجحدوها ، وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه فجمعهم الإلحاد ، وتفرقت بهم طرقه ، وبرأ اللَّه أتباع رسوله وورثته القائمين بسنته عن ذلك كله ، فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه ، ولم يجحدوا صفاته ، ولم يشبهوها بصفات خلقه ، ولم يعدلوا بها عمَّا أنزلت عليه لفظًا ولا معنى ، بل أثبتوا له الأسماء والصفات ونفوا عنه مشابهة المخلوقات ، فكان إثباتهم بريًّا من التشبيه ، وتنزيههم خليًّا من التعطيل ، ولا كمن شبه حتى كأنه يعبد صنمًا أو عطل حتى كأنه لا يعبد إلا عدمًا .

وأهل السنة وسط في النحل ، كما أن أهل الإسلام وسط في الملل . اهـ .

ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه ، كما قال الإمام مالك وربيعة وغيرهما من السلف : الاستواء معلوم والكيف مجهول . وهكذا يقال في سائر الصفات .

فإذا قال قائل مثلًا : كيف ينزل ربنا إلى سماء الدنيا ؟ قيل له : كيف هو ؟ فإذا قال : لا أعلم كيفيته ، قيل له : ونحن لا نعلم كيفية نزوله ؛ إذا العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف وهو فرع له وتابع له ، فكيف تطالبني بكيفية سمعه وبصره وتكليمه ، واستوائه ونزوله ، وأنت لا تعلم كيفية ذاته ، وإذا كنت تقر بأن له حقيقة ثابتة في نفس الأمر مستوجبة لصفات الكمال لا يماثلها شيء ، فسمعه وبصره وكلامه ونزوله واستوائه ثابت في نفس الأمر ، وهو متصف بصفات الكمال التي لا يشابهه فيها سمع المخلوقين وبصرهم وكلامهم ونزولهم واستواؤهم ، وهذا الكلام لازم لهم في العقليات وفي تأويل السمعيات ، فإن من أثبت شيئًا ونفي شيئًا بالعقل ألزم إذا في ما نفاه من الصفات التي جاء بها الكتاب والسنة نظير ما يلزمه فيما أثبته ، ولو طولب بالفرق بين المحذور في هذا ، وهذا لم

يجد بينهما فرقًا ، ولهذا لا يوجد لنفاة بعض الصفات الذين يوجبون فيما نفوه إما التفويض ، وإما التأويل المخالف لمقتضى اللفظ قانون مستقيم .

فإذا قيل لهم : لم تأولتم هذا وأقررتم هذا ؟ والسؤال فيهما واحد لم يكن لهم جواب صحيح ، فإن من تأول النصوص على معنى من المعاني آخر لزمهم في المعنى المصروف إليه ما كان يلزمهم في المعنى المصروف عنه . اهـ .

وقال ابن القيم في معنى قول بعض السلف : نثبت الصفات لله بلا كيف : « ومراد السلف بقولهم : بلا كيف . هو نفي للتأويل ، فإنه التكييف الذي يزعمه أهل التأويل ، فإنهم هم الذين يثبتون كيفية تخالف الحقيقة ، فيقعون في ثلاثة محاذير : نفي الحقيقة ، وإثبات التكييف بالتأويل ، وتعطيل الرب عن صفته التي أثبتها لنفسه ، وأما أهل الإثبات فليس أحد منهم يكيف ما أثبته الله تعالى لنفسه ، ويقول : كيفيته كذا وكذا حتى يكون قول السلف ردًّا عليه ، وإنما ردوا على أهل التأويل الذي يتضمن التحريف والتعطيل ، تحريف اللفظ وتعطيل معناه » . اهـ .

ولا يمثلون والتمثيل كما تقدم ، أن يشبه صفات الله بصفات خلقه ، كأن يقول : له يد كيدي ، أو سمع كسمعي ونحو ذلك ، تعالى الله وتقدس .

« فإنه سبحانه وتعالى أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلًا ، وأحسن حديثًا من خلقه ، ثم رسله صادقون مصدقون بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون » .

وإذا كان كذلك فيجب أن يثبت له من الصفات ما أثبته لنفسه ، وأثبته له رسوله محمد ﷺ .

وأن يقتصر في هذا الباب باب الأسماء والصفات على ما ورد به النص ، وما لم يأت به النص كلفظ الجسم والجوهر والعرض ونحو ذلك ، فلا يطلقونه على الله نفيًا ولا إثباتًا .

وما جاء في الكتاب والسنة من الصفات ، فهم يصفون الله به ، ويثبتون له حقيقة مع نفي مماثلة المخلوقات ؛ لأن الله خاطبنا بلسان عربي مبين ، وأمرنا أن نتدبر القرآن ، والأصل في الكلام حقيقة .

« ومن ادعى صرف اللفظ عن ظاهره إلى مجازه لم يتم له ذلك إلا بأربع مقامات :

أحدها : بيان امتناع إرادة الحقيقة .

الثاني : بيان صلاحية اللفظ لذلك المعنى الذي عينه وإلا كان مفتريًا على اللغة .

الثالث : بيان تعيين ذلك المجمل إن كان له عدة مجازات .

الرابع : الجواب عن الدليل الموجب لإرادة الحقيقة ، فما لم يقم بهذه الأربعة كانت دعواه صرف اللفظ عن ظاهره دعوى باطلة ، وإن ادعى مجرد صرف اللفظ عن ظاهره ، ولم يعين مجملًا لزمه أمران : أحدهما : بيان الدليل الدال على امتناع إرادة الظاهر ، والثاني : جوابه عن المعارض » ، ونفاة

الصفات أو بعضها ليس معهم دليل على نفيها إلا مجرد الظن والدعوى .

قال ابن القيم : فصل في بيان أنه مع كمال علم المتكلم وفصاحته وبيانه ونصحه يمتنع عليه أنه يريد بكلامه خلاف ظاهره وحقيقته ، ويكتفي من هذا الأصل بذكر مناظرة جربت بين سني وجهمي حدثني بمضمونها شيخنا عبد الله بن تيمية ؛ أنه جمعه وبعض الجهمية مجلس فقال الشيخ : قد تطابقت نصوص الكتاب والسنة والآثار على إثبات الصفات لله تعالى ، وتنوعت دلالتها أنواعًا توجب العلم الضروري بثبوتها ، وإرادة المتكلم اعتقاد ما دلت عليه ، والقرآن مملوء من ذكر الصفات ، والسنة ناطقة بما نطق به القرآن مقررة له مصدقة له مشتملة على زيادة في الإثبات ؛ فتارة يذكر الاسم الدال على الصفة كالسميع والبصير ، وتارة يذكر المصدر وهو الوصف الذي اشتقت منه تلك الصفة كقوله : ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ وتارة بذكر حكم تلك الصفة كقوله : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ . ونظائر ذلك كثيرة إلى أضعاف ذلك بما لو جمعت النصوص والآثار فيه لم تنقص عن نصوص الأحكام وآثارها ، ومن أبين المحال وأوضح الضلال حمل ذلك كله على خلاف حقيقته وظاهره ، ودعوى المجاز فيه والاستعارة ، وأن الحق في أقوال النفاة المعطلين ، وأن تأويلاتهم هي المرادة من هذه النصوص ؛ إذ يلزم من ذلك محاذير ثلاثة لا بد منها ، وهي القدح في علم المتكلم بها ، أو في بيانه ، أو في نصحه ، وتقرير ذلك أن يقال : إما أن يكون المتكلم بهذه النصوص عالمًا أن الحق في تأويلات النفاة المعطلين أو لا يعلم ذلك ، فإن لم يعلم ذلك كان قدحًا في علمه ؛ وإن كان عالمًا أن الحق فيها ، فلا خلو إما أن يكون قادرًا على التعبير بعباراتهم التي هي تنزيه الله بزعمهم عن التشبيه والتمثيل والتجسيم ، وأنه لا يعرف الله من لم ينزه الله بها أو لا يكون قادرًا على تلك العبارة ، فإن لم يكن قادرًا على التعبير بذلك لزم القدح في فصاحته ، وكان ورثة الصابئة وأفراخ الفلاسفة وأوقاح المعتزلة والجهمية وتلامذة الملاحدة أفصح منه وأحسن بيانًا وتعبيرًا عن الحق ، وهذا مما يعلم بطلانه بالضرورة أولياؤه وأعداؤه وموافقوه ومخالفوه ، فإن مخالفيه لم يشكوا أنه أفصح الخلق وأقدرهم على حسن التعبير بما يطابق المعنى ، ويخلصه من اللبس والإشكال ، وإن كان قادرًا على ذلك ولم يتكلم به ، وتكلم دائمًا بخلافه ، كان ذلك قدحًا في نصحه ، وقد وصف الله رسله بأنهم أنصح الخلق لأممهم ، فمنع النصح والبيان والمعرفة التامة كيف يكون مذهب النفاة المعطلة أصحاب التحريف هو الصواب ، وقول أهل الإثبات اتباع القرآن والسنة باطلا ؟ ! اهـ .

بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون مما يدعي المجاز في الأسماء والصفات وينفيها بشتى وسائل النفي ، معرضين عما دلت عليه النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي لا تحصى كثرة .

قال الشيخ : وجماع الأمر أن الأقسام الممكنة في آيات الصفات وأحاديثها ستة أقسام ، كل قسم

عليه طائفة من أهل القبلة ، فقسمان يقولون : تجري على ظواهرها ، وقسمان يقولون : على خلاف ظواهرها ، وقسمان يسكتون ، أما الأولون فقسمان : أحدهما : من يجريها على ظاهرها ، ويجعل ظاهرها من جنس صفات المخلوقين فهؤلاء المشبهة ، ومذهبهم باطل أنكره السلف ، وإليه توجه الرد بالحق .

والثاني : من يجريها على ظاهرها اللائق بجلال الله تعالى ، كما يجري اسم العليم والقدير والرب والإله والموجود ونحو ذلك على ظاهرها اللائق بجلال الله ، فإن ظواهر هذه الصفات في حق المخلوق ؛ إما جوهر محدث ، وإما عرض قائم به ، فالعلم والقدرة والكلام والمشيئة والرحمة والرضى والغضب ونحو ذلك في حق العبد أعراض ، والوجه واليد والعين في حقه أجسام ، فإذا كان الله موصوفًا عند عامة أهل الإثبات بأن له علمًا وقدرة وكلامًا ومشيئة ، وإن لم يكن ذلك عرضًا يجوز عليه ما يجوز على صفات المخلوقين ، جاز أن يكون وجه الله ويداه ، صفات ليست أجسامًا يجوز عليها ما يجوز على صفات المخلوقين ، وهذا هو المذهب الذي حكاه الخطابي وغيره عن السلف ، وعليه يدل كلام جمهورهم ، وكلام الباقين لا يخالفه ، وهو أمر واضح ، فإن الصفات كالذات ، فكما أن ذات الله ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس ذوات المخلوقين ، فكذلك صفاته ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس صفات المخلوقين .

ومعلوم أن صفات كل موصوف تناسب ذاته وتلائم حقيقته ، فمن لم يفهم من صفات الرب الذي ليس كمثله شيء إلا ما يناسب المخلوق ، فقد ضل في عقله ودينه ، وما أحسن ما قاله بعضهم : إذا قال لك الجهمي : كيف استوى ؟ وكيف ينزل إلى سماء الدنيا ؟ وكيف يداه ونحو ذلك ؟ فقل له : كيف هو في نفسه ؟ فإذا قال لك : لا يعلم ما هو إلا هو ، وكنه الباري غير معلوم للبشر . فقل له : والعلم بكيفية الصفة مستلزم العلم بكيفية الموصوف .

فكيف يمكن أن تعلم كيفية صفة موصوف لم تعلم كيفيته ، وإنما تعلم الذات والصفات من حيث الجملة على الوجه الذي ينبغي لك .

بل هذه المخلوقات في الجنة قد ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء[١] ، وقد أخبر الله تعالى أنه : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ ، وأخبر النبي ﷺ أن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر[٢] ، فإذا كان نعيم الجنة وهو

(١) صححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٤١٠) ، و«الصحيحة» (٢١٨٨) .

(٢) الترمذي (٥/ ٣٤٦، ٤٠٠) من حديث أبي هريرة ، قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح ، ويُنظر صحيح الجامع (حديث رقم : ٢١٢٧) للألباني .

خَلْق من خَلق الله كذلك ، فما الظن بالخالق سبحانه ؟ ! وهذه الروح قد علم العاقل اضطراب الناس فيها ، وإمساك النصوص عن بيان كيفيتها أفلا يعتبر العاقل بها عن الكلام في كيفية الله تعالى ؟ مع أنا نقطع أن الروح في البدن ، وأنها تخرج منه ، وتعرج إلى السماء ، وأنه تسل منه وقت النزع ، كما نطقت بذلك النصوص الصحيحة ، فعدم مماثلتها للبدن لا ينفي أن تكون هذه الصفات ثابتة لها بحسبها .

وأما القسمان اللذان ينفيان ظاهرها ويقولون هي على خلاف ظاهرها ، أعني الذين يقولون ليس لها في الباطن مدلول هو صفة لله تعالى قط ، وأن الله لا صفة له ثبوتية ، أو يثبتون بعض الصفات أو يثبتون الأحوال دون الصفات على ما قد عرف من مذاهب المتكلمين ، فهؤلاء قسمان : قسم يتأولونها ويعينون المراد مثل قولهم : استوى بمعنى استولى ، أو بمعنى علو المكانة والقدر ، أو بمعنى ظهور نوره للعرش ، أو بمعنى انتهاء الخلق إليه ، إلى غير ذلك من معاني المتكلمين .

وقسم يقولون : الله أعلم بما أراد بها ، لكنا نعلم أنه لم يرد إثبات صفة خارجة عما علمناه .

وأما القسمان الواقفان فقسم يقولون : يجوز أن يكون المراد بظاهرها المراد اللائق بالله تعالى ، ويجوز أن يكون المراد صفة لله ، وهذه طريقة كثير من الفقهاء وغيرهم ، وقسم يمسكون عن ذلك كله ، ولا يزيدون على تلاوة القرآن وقراءة الحديث ، معرضين بقلوبهم وألسنتهم عن هذه التقديرات فهذه الأقسام الستة التي لا يمكن أن يخرج الرجل عن قسم منها .

والصواب في كثير من آيات الصفات وأحاديثها القطع بالطريقة الثانية . اهـ .

ولهذا قال : ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ . فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل ، وسلام على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب » .

التسبيح : هو التنزيه والتبرئة من العيوب ، أي : ولأنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره ، وأصدق قيلًا وأحسن حديثًا من غيره ، ولأن رسله صادقون مصدقون ، وقد أخبروا عن الله أنه متصف بصفات الكمال ، وهم لا يقولون إلا الحق والصدق ، وقد بلغوا ما أرسلوا به على الوجه الأكمل ، فمن نهج نهج الرسل وسار على طريقهم صدقهم فيما أخبروا به .

ومن حاد عن سبيلهم كذبهم ، ورد ما جاءوا به ، بالتكذيب الصريح أو بالتأويل الفاسد .

ونزه الله نفسه عما نسبه إليه المشركون من اتخاذ الصاحبة والولد ، وعن كل نقص وعيب .

وفي اقتران السلام على المرسلين بتسبيحه لنفسه ما يتضمن الرد على كل مبطل ومبتدع ، فسلامه عليهم يقتضي سلامتهم من كل ما يقول المكذبون المخالفون لهم ، ويتضمن سلامة كل ما جاءوا به من الكذب والشرك والنقص والعيب ، وأعظم ما جاءوا به هو التوحيد ومعرفة الله بصفات كماله مما

وصف نفسه على ألسنة رسله وهذه الآية :

كقوله تعالى : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ . فإنه يتضمن حمده بما له من نعوت الكمال وأوصاف الجلال والأفعال الحميدة والأسماء الحسنى ، وسلامة رسله من كل نقص وعيب ، فالرب سبحانه حمد نفسه وسلم على عباده وأمر رسوله بتبليغ ذلك ، فإذا قال الرسول الحمد للّٰه وسلام على عباده الذين اصطفى كان قد حمد اللّٰه بما حمد به نفسه ، وسلم به هو على عباده فهو سلام من اللّٰه ابتداء ، ومن المبلغ بلاغًا ، ومن العباد اقتداءً وطاعة ، فنحن نقول كما أمرنا الحمد للّٰه ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

وقال الحافظ ابن كثير : ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة ويستلزم إثبات الكمال ، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة ، ويستلزم التنزيه من النقص فرق بينهما في هذا الموضع وفي مواضع كثيرة . اهـ .

وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمي به نفسه بين النفي والإثبات « فلا عدول لأهل السنة والجماعة مما جاء به المرسلون ، فإنه الصراط المستقيم صراط الذين أنعم اللّٰه عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » .

فالنفي كما في السنة والنوم والتعب واللغوب ، وكذلك السمي والند والكفوة ، والإثبات ، كما في قوله : ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ ، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ، ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ، ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ إلى غير ذلك من أسمائه سبحانه وصفاته .

والقرآن جاء بنفي مجمل وإثبات مفصل .

قال الشيخ : فالكلام في باب التوحيد والصفات هو من باب الخبر الدائر بين النفي والإثبات .

واللّٰه سبحانه بعث رسله بنفي مجمل وإثبات مفصل ، فأثبتوا للّٰه الصفات على وجه التفصيل ، ونفوا عنه ما لا يصلح له من التشبيه والتمثيل .

وأما الإثبات المفصل ، فإنه ذكر من أسمائه وصفاته ما أنزلِهِ في محكم آياته ، فإن ذلك من إثبات ذاته وصفاته على وجه التفصيل ، وإثبات وحدانيته بنفي التمثيل ما هدى اللّٰه به عباده إلى سواء السبيل فهذه طريقة الرسل .

وأما من زاغ وحاد عن سبيلهم من الكفار المشركين والذين أتوا الكتاب ممن دخل في هؤلاء من الصابئة والمتفلسفة والجهمية والقرامطة الباطنية ونحوهم ، فإنهم على ضد ذلك يصفونه بالصفات السلبية على وجه التفصيل ولا يثبتون إلا وجودًا مطلقًا لا حقيقة له عند التحصيل ، وإنما يرجع إلى

وجود في الأذهان يمتنع تحققه في الأعيان ، فقولهم يستلزم غاية التعطيل وغاية التمثيل ، فإنهم يمثلونه بالممتنعات والمعدومات والجمادات ، ويعطلون الأسماء والصفات تعطيلًا يستلزم نفي الذات ، فغلاتهم يسلبون عنه النقيضين فيقولون : لا موجود ولا معدوم ولا حي ولا ميت ، ولا عالم ولا جاهل ؛ لأنهم يزعمون أنهم إذا وصفوه بالإثبات شبهوه بالموجودات ، وإذا وصفوه بالنفي شبهوه بالمعدومات فوصفوه بالنقيضين ، وهذا ممتنع في بداهة العقول ، وحرفوا ما أنزل اللّٰه من الكتاب وما جاء به الرسول ، فوقعوا في شر مما فروا منه ، فإنهم شبهوه بالممتنعات إذا سلب النقيضين كجمعهما كلاهما من الممتنعات ، وقد علم أنه لا بد من موجود قديم واجب بذاته غني عما سواه ، قديم أزلي لا يجوز عليه الحدوث ولا العدم ، فوصفوه بما يمتنع وجوده فضلًا عن الوجوب أو الوجود أو القدم .

وقاربهم طائفة من الفلاسفة وأتباعهم ، فوصفوه بالسلوب والإضافات دون صفات الإثبات ، وجعلوه هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق ، وقد علم بصريح العقل أن هذا لا يكون إلا في الذهن لا فيما خرج عنه من الموجودات ، وجعلوا الصفات هي الموصوف ؛ فجعلوا العلم عين العالم مكابرة للقضايا البديهيات ، وجعلوا هذه الصفة هي الأخرى فلم يميزوا بين العلم والقدرة والمشيئة جحدًا للعلوم الضروريات .

وقاربهم طائفة ثالثة من أهل الكلام من المعتزلة ومن اتبعهم ، فأثبتوا للّٰه الأسماء دون ما تضمنته من الصفات ، فمنهم من جعل العليم والقدير والسميع والبصير كالأعلام المحضة المترادفات ، ومنهم من قال : عليم بلا علم ، قدير بلا قدرة ، سميع بلا سمع ، بصير بلا بصر ، فأثبتوا للّٰه الاسم دون ما تضمنه من الصفات ، والكلام على فساد مقالة هؤلاء وتناقضها بصريح المعقول المطابق لصحيح المنقول مذكور في غير هؤلاء الكلمات ، وهؤلاء يفرون من شيء فيقعون في نظيره ، بل في شر منه مع ما يلزمهم من التحريف والتعطيل .

وذلك أنه قد علم بالضرورة أنه لا بد من موجود قديم غني عما سواه ؛ إذ نحن نشاهد حدوث المحدثات ، كالحيوان والمعدن والنبات ، والحادث ممكن ليس بواجب ولا ممتنع ، وقد علم بالأضرار أن المحدث لا بد له من محدث ، والممكن لا بد له من موجد ، كما قال تعالى : ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ . فإذا لم يكونوا خلقوا من غير خالق ، ولا هم الخالقون لأنفسهم تعين أن لهم خالقًا خلقهم .

وإذا كان من المعلوم بالضرورة أن في الوجود ما هو قديم واجب بنفسه ، وما هو محدث ممكن يقبل الوجود والعدم ، فمعلوم أن هذا موجود وهذا موجود ، ولا يلزم من اتفاقهما في مسمى الوجود أن يكون وجود هذا مثل وجود هذا ، بل وجود هذا يخصه ووجود هذا يخصه ، واتفاقهما في اسم عام لا

يقتضي تماثلهما في مسمى ذلك الاسم عند الإضافة والتخصيص والتقييد ، ولا في شيء غيره ، فلا يقول عاقل : إذا قيل : إن العرش شيء موجود والبعوض شيء موجود : إن هذا مثل هذا لاتفاقهما في مسمى الشيء والوجود ؛ لأنه ليس في الخارج شيء موجود غيرهما يشتركان فيه ، بل الذهن يأخذ معنى مشتركًا كليًا هو مسمى الاسم المطلق ، وإذا قيل هذا موجود وهذا موجود ، فوجود كل منهما يخصه ولا يشركه فيه غيره مع أن الاسم حقيقة في كل منهما . اهـ .

قوله : « فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاءت به المرسلون » :

* ومن ذلك إثبات صفات الكمال للّٰه وتنزيهه عما لا يليق به سبحانه ، فإن الرسل عليهم السلام قد أثبتوا للّٰه صفات الكمال ، وقرروا ذلك الأصل العظيم وأبدوا فيه وأعادوا ولم يقولوا لأممهم أن هذه الصفات على خلاف ظاهرها ، وأنها واجبة التأويل كما يقوله ذوو الزيغ ، وآخر الرسل محمد ﷺ الذي أكمل اللّٰه به الدين ، ولم يأل جهدًا في النصح والتبليغ ، حتى قال : « تركتم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، ولا يزيغ عنها بعدي إلا هالك »[1] ، وكان يعلم أصحابه آداب الغائط والوطء ، وآداب الطعام والشراب ، وقال : ما بعث اللّٰه من نبي إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم[2] .

وقال أبو ذر : توفي رسول اللّٰه ﷺ ، وما طائر يقلب جناحيه إلا ذكر لنا منه علمًا[3] .

فمن المحال مع هذا أن يدع ما خلق له الخلق ، وأرسلت له الرسل وأنزلت به الكتب وأسست عليه الملة ، وهو : باب الإيمان باللّٰه ، ومعرفته ، ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله ، متلبسًا حقه بباطله ، مع شدة حاجة النفوس إلى معرفته وهو أفضل ما اكتسبته النفوس ، وأجل ما حصلته القلوب ، فكيف يتوهم من للّٰه ورسوله في قلبه وقار ، أن يعتقد أن رسول اللّٰه ﷺ قد أمسك عن بيان هذا الأمر العظيم ؟ ولم يتكلم فيه بالصواب ؟ معاذ اللّٰه ، بل لا يتم الإيمان إلا بأن يعتقد أن رسول اللّٰه ﷺ قد بين ذلك أتم البيان ، وأوضحه غاية الإيضاح ، ولم يدع لقائل مقالًا ولا لمتأول تأويلًا .

ثم من المحال أن يكون خير الأمة وأفضلها وأسبقها إلى كل خير قصروا في هذا الباب ، فجفوا عنه وتجاوزوا فضلوا فيه ، وإنما ابتلي من خرج عن منهاجهم بهذين الداءين ، والحال في هؤلاء المبتدعة الذين فضلوا طريقة الخلف على طريقة السلف ، حيث ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ

---

(١) سنن ابن ماجه (١٦/١) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « صحيح سنن ابن ماجه » (٤٣) .

(٢) مسلم (١٨٤٤) من حديث عبد اللّٰه بن عمرو بن العاص ، رضي الله عنه .

(٣) الطبراني في « المعجم الكبير » (١٥٥/٢) من حديث أبو ذر ، وصححه الألباني في « الصحيحة » (١٨٠٣) .

القرآن والحديث ، من غير فقه لذلك بمنزلة الأميين الذين قال الله فيهم : ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ . وأن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات ، فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالات التي مضمونها نبذ الإسلام وراء الظهر ، فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف في الكذب عليهم ، وبين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف ، وسبب ذلك اعتقادهم أنه ليس في نفس الأمر صفة دلت عليها هذه النصوص ، فلما اعتقدوا التعطيل وانتفاء الصفات في نفس الأمر ، وكان لا بد مع ذلك للنصوص من معنى ، بقوا مترددين بين الإيمان باللفظ وتفويض المعنى ، وهي التي يسمونها طريقة السلف وبين صرف اللفظ إلى معان بنوع تكلف ، وهي التي يسمونها طريقة الخلف ، فصار هذا الباطل مركبًا من فساد العقل ، والكفر بالسمع ، فإن النفي إنما اعتمدوا فيه على أمور عقلية ، ظنوها بينات وهي شبهات ، والسمع حرفوا فيه الكلام عن مواضعه ، فلما انبنى أمرهم على هاتين المقدمتين الكاذبتين كانت النتيجة استجهال السابقين الأولين ، الذين هم أعلم الأمة بالله وصفاته ، واعتقاد أنهم كانوا أميين بمنزلة الصالحين من العامة ، لم يتبحروا في حقائق العلم بالله ، ولم يتفطنوا لدقائق العلم الإلهي ، وأن الخلف الفضلاء حازوا قصب السبق في هذا كله ، وهذا القول إذا تدبره الإنسان وجده في غاية الجهالة ، بل في غاية الضلالة ، كيف يكون هؤلاء المتأخرون ، لا سيما والإشارة إلى ضرب من المتكلمين كثر في باب الدين اضطرابهم ، وغلظ عن معرفة الله حجابهم ، وأخبر الواقف على نهاية أمرهم بما انتهى إليه أمرهم من الشك والحيرة .

كيف يكون هؤلاء الحيارى أعلم بالله وأسمائه وصفاته ، وأحكم في باب ذاته وآياته من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، من ورثة الأنبياء وخلفاء الرسل ، الذين وهبهم الله من الحكمة ما برزوا على سائر أتباع الأنبياء فضلًا عن سائر الأمم لا كتاب لهم ، وأحاطوا من حقائق المعارف وبواطن الحقائق بما لو جمعت حكمة غيرهم إليها لاستحى من يطلب المقابلة ؟ !

وأصل العدول في اللغة الميل والانحراف .

والصراط المستقيم هو المذكور في دعاء المؤمنين في سورة الفاتحة ، وهو الصراط المذكور في قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : خط رسول الله ﷺ خطًا بيده ، ثم قال : « هذا سبيل الله مستقيمًا ، وخط عن يمينه وعن شماله ، ثم قال : هذه السبل ، ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه » ، ثم قرأ : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾(١) .

(١) أحمد (٤٣٦/٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

ولا تكون الطريق صراطًا حتى تتضمن خمسة أمور: الاستقامة، والإيصال إلى المقصود، والقرب، وسعته للمارين عليه، وتعينه طريقًا للمقصود، ولا يخفى تضمن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة.

فوصفه بالاستقامة يتضمن قربه؛ لأن الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل بين نقطتين، وكلما تعوج طال وبعد، واستقامته تتضمن إيصاله إلى المقصود، ونصبه لجميع المارين عليه يستلزم سعته وإضافته إلى المنعم عليهم، ووصفه بمخالفة صراط أهل الغضب والضلال يستلزم تعينه طريقًا.

والصراط يضاف إلى الله، إذ هو الذي شرعه ونصبه، كقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾، وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾، وتارة يضاف إلى العباد كما في الفاتحة، لكونهم أهل سلوكه، وهو المنسوب لهم وهم المارون عليه.

وفي تخصيصه لأهل الصراط المستقيم بالنعمة ما دل على أن النعمة المطلقة هي الموجبة للفلاح الدائم، وأما مطلق النعمة فعلى المؤمن والكافر، فكل الخلق في نعمة.

وهذا فصل النزاع في مسألة: هل لله على الكافرين من نعمة أم لا؟ فالنعمة المطلقة لأهل الإيمان، ومطلق النعمة يكون للمؤمن والكافر، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾. والنعمة من جنس الإحسان، بل هي الإحسان، والرب تعالى إحسانه على البر والفاجر، والمؤمن والكافر، وأما الإحسان المطلق فللذين اتقوا، والذين هم محسنون.

وذكر الصراط المستقيم مفردًا معرفًا تعريفين: تعريفًا باللام وتعريفًا بالإضافة، وذلك يفيد تعينه واختصاصه وأنه صراط واحد، وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها، ويفردها، كقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد، وهو ما بعث به رسله، وأنزل به كتبه، لا يصل إليه أحد إلا من هذا الطريق، ولو أتى الناس من كل طريق، واستفتحوا من كل باب، فالطرق عليهم مسدودة والأبواب عليهم مغلقة، إلا من هذا الطريق الواحد، فإنه متصل بالله موصل إلى الله، ولما كان طالب الصراط المستقيم طالب أمرًا أكثر الناس ناكبون عنه، مريد السلوك طريق مرافقه فيها في غاية القلة والعزة، والنفوس مجبولة على وحشة التفرد، وعلى الإنس بالرفيق فيه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق، وأنه هم ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾، فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له، وهم الذين أنعم الله عليم ليزول عن الطالب للهداية، وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه، وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط هم الذين أنعم الله عليهم، فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه، فإنهم

هم الأقلون قدرًا وإن كانوا الأكثرين عددًا .

فالصراط المستقيم هو طاعة الله ورسوله ، وهو دين الإسلام التام ، وهو اتباع القرآن وهو لزوم السنة والجماعة ، وهو طريق العبودية وهو طريق الخوف والرجاء .

❁ قال الشيخ عبد العزيز الناصر الرشيد رحمه الله :

قوله : « ومن الإيمان بالله : الإيمانَ بما وصف به نفسه ..» :

قوله : « ومن الإيمان بالله : الإيمان » : فمن جحد صفات الله سبحانه وتعالى فليس بمؤمن ، قال تعالى : ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد : ٣٠] الآية ، وكذلك من عطلها أو شبهها بصفات خلقه ، قال نعيم بن حماد : من شبه الله بخلقه كفر ، ومن نفي ما وصف به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله تشبيهًا ، وقال ابن القيم رحمه الله في « النونية » :

من شبه الله العظيم بخلقه   فهو النسيب لمشرك نصراني
أو عطل الرحمن من أوصافه   فهو الكفور وليس ذا إيمان

قوله : « بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله » : إثبات أن صفاته سبحانه وتعالى إنما تتلقى من السمع لا بآراء الخلق ، فصفاته- سبحانه- مبنية على التوقيف ؛ فلا يوصف إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ .

قال أحمد رحمه الله : لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ لا يتجاوز القرآن والحديث .

قال ابن القيم رحمه الله في « البدائع » : ما يطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي ، وما يطلق عليه في باب الأخبار لا يجب أن يكون توقيفًا ، كالشيء والموجود والقديم ونحو ذلك .

ذكر المصنف- رحمه الله تعالى- هذا الأصل العظيم في باب الأسماء والصفات ، فيناسب أن نضم إليه عدة أصول مجموعة من كتب المحققين لتكون المقدمة .

أولًا : إن أسماء الله وصفاته غير محصورة بعدد معروف ، وأما حديث « إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة »[١] . فليس فيه حصر لها ، وإنما غاية ما فيه أن هذه الأسماء موصوفة بأن من أحصاها دخل الجنة ، كما تقول : عندي مائة عبد عددتهم للجهاد في سبيل الله ، فلا ينافي أن لديك عبيدًا غيرهم أعددتهم لغير ذلك .

ثانيًا : أن الصفات تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول : صفات ذاتية ، وهي التي لا تنفك عنه بحال ، كالغني والقدرة والعلو والرحمة ،

---

(١) البخاري (٢٥٨٥) ، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ونحو ذلك من الصفات التي هي من لوازم ذاته .

القسم الثاني : صفات فعلية ، وهي كل صفة تعلقت بمشيئة وإرادته ، ويعبر عنها بالأفعال الاختيارية كالاستواء والمجيء والنزول ونحو ذلك .

ثالثًا : أركان الإيمان بالأسماء والصفات ، والإيمان بالصفة وما دلت عليه من المعنى ، وبما تعلق بها من الآثار ، فتؤمن بأنه عليم وذو علم عظيم ، وأنه لا تخفى عليه خافية .

رابعًا : ليس في أسماء الله وصفاته نفي محض ، بل كل نفي وجد في أسماء الله وصفاته فهو لإثبات كمال ضده ؛ إذ النفي المحض عدم ، والعدم ليس بشيء ، فضلًا عن أن يمدح به ، كما قال تعالى : ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف : ٤٩] ، أي : لكمال عدله ، ﴿وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، أي : لكمال قوته واقتداره .

خامسًا : طريقة أهل السنة والجماعة ، هو الإجمال في النفي والتفصيل في الإثبات ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة ، قال تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] . فأجمل في النفي وفصل في الإثبات ، وهذا عكس ما عليه أهل البدع من الجهمية والمعتزلة وأشباههم ، فإنهم يجملون في الإثبات ويفصلون في النفي .

سادسًا : أسماء الله سبحانه وتعالى وصفاته هي بالنظر إلى الذات من قبيل المترادف بالنظر إلى الصفات من قبيل المتباين .

سابعًا : أسماء الله- سبحانه- وصفاته حقيقة ، وليست من قبيل المجاز خلافًا للمبتدعة من الجهمية والمعتزلة وغيرهم ، فعلى كلام هؤلاء لا يكون- سبحانه- حيًا حقيقة ولا مريدًا حقيقة ولا قادرًا ، تعالى الله عن قولهم ، وهذا لازم لكل من ادعى المجاز في أسماء الرب وصفاته وأفعاله لزومًا لا محيد عنه ، وكفى أصحاب هذه المقالة كفرًا .

ثامنًا : أسماؤه سبحانه وتعالى تنقسم إلى قسمين : أعلام وأوصاف ، والوصيفة فيها لا تنافي العلمية ، بخلاف أوصاف العباد .

تاسعًا : للاسم من أسمائه ثلاث دلالات : دلالة على الذات والاسم بالمطابقة ، وعلى أحدهما بالتضمن ، وعلى الصفة الأخرى بالالتزام ، مثاله : اسم السميع يدل على ذات الرب وسمعه بالمطابقة ، وعلى الذات وحدها والسمع وحده بالتضمن ، ويدل على الحي وصفة الحياة بالالتزام ، وكذلك سائر أسمائه وصفاته .

عاشرًا : إذا كانت الصفة منقسمة إلى كمال ونقص لم تدخل بمطلقها في أسمائه- سبحانه- بل يطلق عليه منها كمالها كالمريد والصانع ، فإن هذه الألفاظ لا تدخل في أسمائه ، فإن الصنع والإرادة

تنقسم إلى محمود ومذموم .

الحادي عشر : لا يلزم من الإخبار عنه بالفعل مقيدًا أن يشتق له منه اسم مطلق ، وقد غلط من جعل من أسمائه الماكر والفاتن والمضل ، تعالى الله عن قولهم ، ثم أنه على فهم هذا الغالط أن يجعل من أسمائه الجائي والغضبان ، ونحو ذلك من الأسماء التي أطلقت عليها أفعالها ، وهذا لا يقوله مسلم ولا عاقل ، انتهى من كلام ابن القيم ملخصًا .

الثاني عشر : الأسماء والصفات التي تستعمل في حق الخالق والمخلوق ، كالعلم والقدرة ونحو ذلك ، هي حقيقة في الخالق والمخلوق خلافًا للجهمية .

قال ابن القيم : وهذا قول عامة العقلاء ، وهو الصواب .

الثالث عشر : أسماء الله وصفاته من قبيل المحكم وليست من المتشابه ، فإن معناها واضح معروف في لغة العرب ، وأما الكنه والكيفية فهو مما استأثر الله بعلمه .

الرابع عشر : لا يلزم في اتحاد الاسمين تماثل مسماهما ، فإن الله سمى نفسه بأسماء تسمى بها بعض خلقه ، وكذلك وصف نفسه بصفات وصف بها بعض خلقه ، فلا يلزم من ذلك التشبيه ، فقد وصف نفسه بالسمع والبصر والعلم والقدرة ، ووصف بذلك بعض خلقه ، فليس السميع كالسميع ولا البصير كالبصير ، فصفات كل موصوف تناسب ذاته وتليق به ، ولا مناسبة بين الخالق والمخلوق .

الخامس عشر : ذكر الشيخ تقي الدين في كتابه « التدمرية » أصلين عظيمين نافعين من هذا الباب :

الأول : القول في الصفات كالقول في الذات ، فكما أننا نثبت لله ذاتًا لا تشبه الذوات ، فيجب أن نثبت له صفات لا تشبه الصفات ، فالصفات فرع الذات يحذى فيها حذوها .

الثاني : القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر إذ لا فرق ، فمن أثبت الصفات ونفى البعض الآخر كالأشاعرة فقد تناقض ؛ إذ الدليل الذي ثبتت به الصفات التي أقروا بها يوجد مثله أو أقوى منه يثبت البعض الآخر ، إلى غير ذلك من الأصول العظيمة التي ذكرها الشيخ تقي الدين وابن القيم وغيرهما من المحققين في كتبهم ، وقد أفردنا تلك الأصول في رسالة مفردة فارجع إليها .

قوله : « من غير تحريف » :

* أي تغيير لألفاظ الأسماء والصفات أو تغيير لمعانيها ، وقد ذم الله سبحانه وتعالى الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، كما قال الله سبحانه وتعالى عن اليهود : ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء : ٣٦] ، أي : يغيرونه ويفسرونه بغير معناه ، فالتحريف لغة : التغيير وإمالة الشيء عن وجهه ، يقال : انحرف عن كذا ، أي : مال وعدل ، واصطلاحًا : هو التغيير لألفاظ الأسماء والصفات أو معانيها ، كقول الجهمية في قوله سبحانه : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه : ٥] ،

أي : استولى ، وقوله : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] ، أي : أمره ، فالتحريف ينقسم إلى قسمين :

الأول : تحريف اللفظ كقولهم في ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ بنصب لفظ الجلالة ، وكقولهم في ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ [الأعراف : ٥٤] : استولى ، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] ، أي : أمره . ويروى أن جهميًا طلب من أبي عمرو بن العلاء أحد القراء يقرأ : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ بنصب لفظ الجلالة فقال له : هبني فعلت ذلك ، فما تصنع بقوله : ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ؟ فبهت الجهمي .

الثاني : التحريف المعنوي ، كقولهم في قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء : ١٦٤] أي : جرحه بأضافير الحكمة تجريحًا .

قال ابن القيم ﷺ : والتحريف نوعان : تحريف اللفظ وتحريف المعنى ، فتحريف اللفظ : العدول عن جهته إلى غيرها ؛ إما بزيادة أو نقصان ، وإما بتغيير حركة إعرابية ، فهذه أربع أنواع ، وأما تحريف المعنى : فهو العدول بالمعنى عن وجهه وحقيقته ، وإعطاء اللفظ معنى لفظ آخر بقدر ما مشترك بينهما .

قوله : « ولا تعطيل » :

* وهو لغة : الإخلاء ، يقال : جيد عطل ، أي : خال من الزينة ، قال الشاعر :

وجيد كجيد الريم ليس بفا حش إذا هي نصته ولا بمعطل

وأما معناه هنا فهو جحد الصفات وإنكار قيامها بذاته- سبحانه- ونفي ما دلت عليه من صفات الكمال ، وأول من قال بالتعطيل في الإسلام الجعد بن درهم ، فقتله خالد بن عبد الله القسري بعد استشارة علماء زمانه . قال ابن القيم ﷺ في « النونية » :

ولذا ضحى بجعد خالد الـ قسري يوم ذبائح القربان
شكر الضحية كل صاحب سنة لله درك من أخي قربان

وتلقى عن الجعد مقالة التعطيل الجهم بن صفوان الترمذي فنشرها وناضل عنها ؛ فلذا نسب المذهب إليه ، فيقال : جهمية بفتح الجيم ، والجهم قتله سلم بن أحوز أمير خراسان ، والتعطيل ينقسم إلى ثلاثة أقسام ، كما ذكره ابن القيم ﷺ :

الأول : تعطيل المصنوع من صانعه ، كتعطيل الفلاسفة الذين زعموا قدم هذه المخلوقات ، وأنها تتصرف بطبيعتها .

الثاني : تعطيل الصانع من كماله المقدس ؛ بتعطيل أسمائه وصفاته ، كتعطيل الجهمية وأشباههم من المعتزلة وغيرهم .

الثالث : تعطيل حق معاملته بترك عبادته ، أو عبادة غيره معه .

قال ابن القيم رحمه الله : والتعطيل شر من الشرك ، فإن المعطل جاحد للذات أو كمالها وهو جحد لحقيقة الألوهية ، فإن ذاتًا لا تسمع ولا تبصر ولا تغضب ولا ترضى ولا تفعل شيئًا وليست داخل العالم ، ولا خارجه ، ولا متصلة بالعالم ولا منفصلة ، ولا فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ، هو والعدم سواء ، والمشرك مقر بالله ، لكن عبد معه غيره ، فهو خير من المعطل للذات والصفات .

قوله : « ولا تكييف » :

* وهو تعيين كنه الصفة ، يقال : كيَّف الشيء ؛ أي : جعل له كيفية معلومة ، وكيفية الشيء : صفته وحاله ، فالتكييف تعيين كنه الصفة وكيفيتها ، وهذا مما استأثر الله به ، فلا سبيل إلى الوصول إليه ؛ إذ الصفة تابعة للموصوف ، فكما لا يعلم كيف هو إلا هو ، فكذلك صفاته فالصفات يحذى فيها حذو الذات .

وقد سئل مالك- رحمه الله تعالى- فقيل له : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه : ٥] كيف استوى ؟ فقال : الاستواء معلوم والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . وكذلك روي عن ربيعة نحوًا من هذه الإجابة ، وكذلك روي عن أم سلمة زوج النبي ﷺ .

فقوله : الاستواء معلوم ، أي : في لغة العرب ، وقوله : والكيف مجهول ، أي : كيفية استوائه سبحانه وتعالى لا يعلم كنهها وكيفيتها إلا هو سبحانه ، وقوله : الإيمان به واجب ؛ لتكاثر الأدلة من الكتاب والسنة في إثبات ذلك ، والسؤال عنه ، أي : عن الكيفية بدعة ، ففرق مالك رحمه الله بين المعنى المعلوم من هذه اللفظة ، وبين الكيف الذي لا يعقله البشر .

وإجابة مالك- رحمه الله تعالى- وغيره جواب كاف شاف في جميع مسائل الصفات ، فإذا سئل إنسان عن المجيء أو النزول أو السمع أو البصر أو غير ذلك ، أجاب بجواب مالك رحمه الله ، فيقال مثلًا : المجيء معلوم والكيف مجهول ، وكذلك من سئل عن الغضب والرضا والضحك وغير ذلك فمعانيها كلها مفهومة ، وأما كيفيتها فغير معقولة ؛ إذ تعقل الكيفية فرع العلم بكيفية الذات وكنهها ، فإذا كان ذلك غير معقول للبشر فكيف يعقل لهم كيفية الصفات ؟

قوله : « ولا تمثيل » :

* التمثيل هو التشبيه ، يقال : مثل الشيء بالشيء : سواه وشبهه وجعله مثله وعلى مثاله ، فالشبيه والمثيل والنظير ألفاظ متقاربة ، فلا تمثل صفاته بصفات خلقه ، فإنه لا مثل له ولا شبه له ولا نظير ، لا في ذاته وأسمائه ، ولا في صفاته وأفعاله ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ، والتشبيه ينقسم إلى قسمين :

الأول : تشبيه المخلوق بالخالق ، كتشبيه اليهود « العزير » بالله ، وتشبيه النصارى عيسى بالله ، وتشبيه المشركين أصنامهم بالله ، وهذا النوع هو الذي أرسلت الرسل وأنزلت الكتب في النهي عنه ، وهو أعظم الذنوب على الإطلاق ومحبط لجميع الأعمال .

الثاني : تشبيه الخالق بالمخلوق ، كقول المشبه لله : يد كأيدينا ، وسمع كأسماعنا ، وهذا هو الذي صنفت كتب التوحيد للرد على قائله ، وكلا النوعين كفر ، وكل مشبه معطل وبالعكس ، فإن المعطل لم يفهم من صفات الله إلا ما يليق بالمخلوق ، فأراد بزعمه الفاسد تنزيهه عن ذلك فوقع في التعطيل ، فشبه أولًا ، وعطل ثانيًا ، وشبهه ثالثًا بالمعدومات والناقصات ، تعالى الله عن قولهم .

وكذلك المشبه عطل الصفة التي تليق بالله ووصفه بصفات المخلوق ، فعطل أولًا ، وشبهه ثانيًا ، فكل معطل مشبه وبالعكس .

قال الشيخ تقي الدين في « الحموية » : وكل واحد من فريقي التعطيل والتمثيل فهو جامع بين التعطيل والتمثيل ، أما المعطلون فإنهم لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ما هو اللائق بالمخلوق ، ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات فقد جمعوا بين التمثيل والتعطيل ، مثلوا أولًا ، وعطلوا آخرًا ، وهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم ، وتعطيل لما يستحقه هو من الصفات اللائقة بالله سبحانه ، ومذهب السلف بين التعطيل والتمثيل ، فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه ، كما لا يمثلون ذاته بذوات خلقه ، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه أو صفه به رسوله ﷺ ، فيعطلون أسماءه الحسنى وصفاته ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، ويلحدون في أسماء الله آياته . انتهى .

قوله : « بل يؤمنون بأن الله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] » :

* كما قال سبحانه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أي : أنه سبحانه لا مثل له في ذاته ولا في أسمائه وصفاته ولا في أفعاله ، فقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى : ١١] رد على المشبهة الممثلة ، وقوله : « وهو السميع البصير » رد على المعطلة النفاة .

و« الكاف » في قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أصح الأقوال إنها زائدة ، وهذا معروف في لغة العرب ، كقول الشاعر :

ليس كمثل الفتى زهير خلق يوازيه في الفضائل

في هذه الآية المتقدمة فوائد :

الأول : إثبات السمع والبصر والرد على من زعم أن السمع والبصر بمعنى العلم ، وفيها الرد على المعطلة الذين ينفون الصفات بالكلية كالجهمية ، والذين يثبتون الأسماء دون المعاني ، كالمعتزلة

الذين يقولون : سميع بلا سمع ، بصير بلا بصر ، وتصور هذا القول يكفي في رده واستهجانه .

وفيها الرد على الأشاعرة الذين يثبتون بعض الصفات ويؤولون البعض الآخر ، وهم متناقضون أعظم تناقض ، وفيها النفي المجمل والإثبات المفصل ، وفيها الجمع بين النفي والإثبات ، وفيها تقديم النفي على الإثبات ؛ لأن الأول من باب التخلية ، والثاني من باب التحلية .

وفيها الجمع بين السمع والبصر فكثيرًا ما يقرن بينهما لعموم متعلقهما ، فسمعه سبحانه محيط بجميع المسموعات ، وبصره محيط بجميع المبصرات ، وسمعه سبحانه ينقسم إلى قسمين :

الأول : سمع عام وهو سمعه- سبحانه- لكل مسموع ، كقوله سبحانه : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة : ١] .

الثاني : سمع خاص ، وهو سمع الإجابة والإثابة ، كما قال سبحانه : ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم : ٣٩] الآية ، ومنه قول العبد : « سمع اللّٰه لمن حمده » . أي : استجاب سبحانه لمن حمده وأثنى عليه ، وفيها إثبات الصفات للّٰه على ما يليق بجلاله وعظمته ، وفيها أن صفاته ليس كصفات خلقه ، والمخلوق وإن كان يوصف بأنه سميع بصير فليس سمعه وبصره كسمع الرب وبصره ، فصفات الخالق كما يليق به ، وصفات المخلوق كما يليق به ؛ إذ لا مناسبة بين الخالق والمخلوق ، فصفات كل موصوف تناسب ذاته وحقيقته ، فلا يعلم كيف هو إلا هو .

قال بعض السلف : إذا قال الجهمي : كيف استوى ؟ كيف ينزل إلى السماء الدنيا ؟ ونحو ذلك ، فقل له : كيف هو بنفسه ؟ فإذا قال : لا يعلم كيف هو إلا هو ، وكنه الباري غير معلوم للبشر . فقل له : فالعلم بكيفية الصفة مستلزم للعلم بكيفية الموصوف ، فكيف يمكن أن يعلم كيفية صفة لموصوف لم تعلم كيفيته ، وإنما تعلم الذات والصفات من حيث الجملة ، فلا سبيل إلى العلم بالكنه والكيفية ، فإذا كان في المخلوقات ما لا يعلم كنهه فكيف بالباري سبحانه ؟ فهذه الجنة ، ورد عن ابن عباس : ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء ، وهذه الروح نجزم بوجودها وأنها تعرج إلى السماء ، وأنها تسل منه وقت النزع ، وقد أمسكت النصوص عن بيان كيفيتها ، فإذا كان ذلك في المخلوق فكيف بالخالق سبحانه وتعالى ؟

وفيها أعظم دلالة على كثرة صفات كماله ونعوت جلاله ، وإنها لكثرتها وعظمتها لم يكن له فيها مثل ، وإلا فلو أريد نفي الصفات لكان العدم المحض أولى بهذا المدح مع أن كل عاقل يفهم من قول القائل : فلان لا مثل له ؛ أنه قد تميز عن الناس بأوصاف ونعوت لا يشاركونه بها ، وهذا واضح من معنى الآية ؛ أن معناها إثبات الصفات لا نفيها خلافًا لأهل البدع من الجهمية وغيرهم .

وفي الآية متمسك لمن فضل السمع على البصر .

قوله : « فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه » :

* ووصفه به رسوله ﷺ ، بل يثبتون له الأسماء والصفات ، وينفون عنه مشابهة المخلوقات .

رضوا لربهم ما رضيه لنفسه ورضيه له رسوله ﷺ ، فإنه- سبحانه- أعلم بنفسه وبغيره ، وكذلك رسله فإنهم أعلم بالله وأصدق وأنصح من جميع خلق الله ، وأقدر على البيان والتبليغ ، وقد بلغوا البلاغ المبين ، وقد سار على منهاجهم أصحاب النبي ﷺ والتابعون لهم بإحسان ، والخير في اتباعهم .

وخير الأمور السالفات على الهدى وشر الأمور المحدثات البدائع

وأما أهل البدع من الجهمية وغيرهم فنفوا أسماء الله وصفاته وعطلوها ؛ زعمًا منهم أن إثباتها يقتضي التشبيه أو التجسيم أو التحيز ، ونحو ذلك من أقوال أهل الضلال الذين نبذوا كتاب الله وسنة رسوله وراء ظهورهم ، ورضوا بالتلمذة على اليهود والمجوس والصابئين وأضرابهم من ضلال الأمم ، فإن أصل مقالة التعطيل مأخوذه عن هؤلاء ، كما ذكر ذلك الشيخ تقي الدين وابن القيم وغيرهم ، فإن الجهم بن صفوان تلقى مقالة التعطيل عن الجعد بن درهم ، والجعد أخذها عن أبان بن سمعان ، وأبان أخذها عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم الذي سحر النبي ﷺ ، كما أن الجهم قابل قومًا من السمنية وسألوه عن الله ، فتحير ومكث أربعين يومًا لا يصلي ، ويروى أنه دخل حران وقابل قومًا من الصابئة وباحثهم ، فمقالته هذه مصادرها لا شك أنها أخبث مقالة ، وكفى بقوم أعرضوا عن كتاب الله وسنة رسوله ، وتتلمذوا على هؤلاء الضلال كفرًا وضلالًا .

وما عوض لنا منهاج جهم بمنهاج ابن آمنة الأمين

قوله : « ولا يحرفون الكلم عن مواضعه » :

* أي : يغيرونه ويفسرونه بغير معناه ، قال تعالى : ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء : ٤٦] .

قال ابن كثير ﷺ : أي يتأولونه على غير تأويله ، ويفسرونه بغير مراد الله قصدًا منهم وافتراءً ، قال في « شرح الطحاوية » : والتحريف على مراتب ؛ منه ما يكون كفرًا ، ومنه ما يكون فسقًا ، وقد يكون معصية ، وقد يكون خطأ . انتهى .

قوله : « ولا يلحدون في أسماء الله وآياته » :

أي : يميلون ويعدلون عن الحق الثابت ، فالإلحاد معناه لغة : الميل والعدول عن الشيء ، ومنه : اللحد في القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر .

قال ابن القيم : الإلحاد هو العدول بأسماء الله وصفاته وآياته عن الحق الثابت ، وقال في « النونية » :

أسماؤه أوصاف مدح كلها ... مشتقة قد حملت لمعاني
إياك والإلحاد فيها إنه ... كفر معاذ الله من كفران
وحقيقة الإلحاد فيها الميل ... بالإشراك والتعطيل والنكران
فالملحدون إذا ثلاث طوائف ... فعليهم غضب من الرحمن

وقال أيضًا : والإلحاد في أسماء الله وصفاته أنواع :

أحدها : أن يسمي الأصنام بها ، كتسمية اللات من الإله ، والعزى من العزيز ونحوه .

الثاني : تسميته- سبحانه- بما لا يليق بجلاله ، كتسمية النصارى له أبًا ، وتسمية الفلاسفة له موجبًا ، أو علّة فاعلة .

الثالث : وصفه بما يتعالى ويتقدس عنه من النقائص ، كقول أخبث اليهود : إن الله فقير ، وقولهم : يد الله مغلولة .

الرابع : تعطيل الأسماء الحسنى عن معانيها وجحد حقائقها ، كقول من يقول من الجهمية : إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني ، فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي ، ويقولون : لا سمع له ولا بصير ولا حياة ونحو ذلك .

الخامس : تشبيه صفات بصفات خلقه ، تعالى الله عن قول الملحدين علوًا كبيرًا ، فجمعهم الإلحاد وتفرقت بهم طرقه ، وبرأ الله أتباع رسوله وورثته القائمين بسنته عن ذلك كله ، فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه ، ولم يجحدوا صفاته ولم يشبهوها بصفات خلقه ، ولم يعدلوا بها عما أنزلت له لفظًا ولا معنى ، بل أثبتوا له الأسماء والصفات ، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات ، فكان إثباتهم بريئًا من التشبيه ، وتنزيههم خليًا من التعطيل ، لا كمن شبه حتى كأنه يعبد صنمًا ، أو عطل حتى كأنه يعبد عدمًا . انتهى .

قوله : « ولا يكيفون ...» :

* شيئًا من صفاته سبحانه وتعالى ، فإنه الموصوف بصفات الكمال التي لا تبلغها عقول الخلائق ، قال تعالى : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه : ١١٠] ، فيجب الإيمان بصفات الله واعتقاد أنها حقيقة تليق بجلال الله وعظمته ، أما كنهها وكيفيتها فهو مما استأثر الله بعلمه فلا سبيل إلى معرفته ، وقد تقدم الكلام على هذا الموضوع .

قوله : « ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه ...» :

* فمذهب أهل السنة إثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات ، إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

قوله: «لأنه سبحانه لا سمي له ...»: أي: لا نظير له، كما قال سبحانه: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] أي: من يساميه أو يماثله، ويروى عن ابن عباس: مثيلًا أو شبيهًا.

قوله: «ولا كفؤ له ...»: أي: لا مثل له سبحانه، قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

قوله: «ولا ند له»: أي: لا شبه له ولا نظير، قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢].

وفي قوله: «ولا ند له ..إلخ» رد على المعتزلة الذين يزعمون أن العبد يخلق فعل نفسه.

قوله: «ولا يقاس بخلقه»: أي: لا يمثل بهم ولا يشبه، والقياس في اللغة: التمثيل.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، فلا يقاس سبحانه بخلقه في أفعاله ولا في صفاته، كما لا يقاس بهم في ذاته خلافًا للمعتزلة ومن وافقهم من الشيعة، فإنهم قاسوه سبحانه بخلقه فشبهوه بهم فوضعوا له شريعة من قبل أنفسهم، فقالوا: يجب على الله كذا، ويحرم عليه كذا بالقياس على المخلوق، فالمعتزلة ومن وافقهم مشبهة في الأفعال، معطلة في الصفات، جحدوا بعض ما وصف الله به نفسه من صفات الكمال وسموه توحيدًا، وشبهوه بخلقه فيما يحسن ويقبح من الأفعال وسموا ذلك عدلًا، فعدلهم إنكار قدرته- سبحانه- ومشيئته العامة الكاملة التي لا يخرج عنها شيء من الموجودات ذواتها وصفاتها وأفعالها، وتوحيدهم إلحادهم في أسماء الله الحسنى وتحريف معانيها عما هي عليه، فكان توحيدهم في الحقيقة تعطيلًا وعدلهم شركًا. انتهى، من كلام ابن القيم بتصرف.

قوله: «فإنه- سبحانه- أعلم بنفسه وبغيره»:

* قال اللـه تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]، وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] أي: لا يحيط الخلائق به سبحانه علمًا، فهو الموصوف بصفات الكمال التي لا تبلغها عقول الخلائق، كما في الصحيح: «لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»[1]، فما جاء في الكتاب والسنة من صفاته سبحانه وجب الإيمان به وتلقيه بالقبول والتسليم، وترك التعرض له بالرد والتشبيه والتمثيل، فهو الذي وصف بها نفسه ووصفه بها رسوله ﷺ؛ فعلينا أن نرضى بما رضيه لنفسه، فإنه أعلم بما يجوز ويمتنع ويليق بجلاله.

قال الإمام الشافعي- رحمه الله تعالى-: آمنت بالله وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنت

(١) مسلم (٤٨٦)، وأبو داود (٨٧٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

برسول الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله . وعلى هذا درج السلف الصالح رضوان الله عليهم ، وقد أمرنا باقتفاء آثارهم والاهتداء بمنارهم ، كما قال ﷺ : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ؛ فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة »[1] .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفيتم ، وقال الشعبي : عليكم بآثار من سلف وإن رفضك الناس ، وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوه لك بالقول .

قوله : « وأصدق قيلًا ... » :

* قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء : ١٢٢] ، وثبت في الصحيح من حديث جابر أن رسول الله ﷺ كان يقول في خطبته يوم الجمعة : « إن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ »[2] الحديث ، فما أخبر به الله- سبحانه- فهو حق وصدق ، علينا أن نصدقه ولا نعارضه ولا نعرض عنه ، فمن عارضه بعقله لم يصدق به ، وكذلك من أقر بلفظه مع جحد معناه أو حرفه إلى معان آخر غير ما أريد به لم يكن مصدقًا .

قوله : « وأحسن حديثًا من خلقه » : قال الله تعالى : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء : ٨٧] لفظه لفظ استفهام ومعناه : لا أحد أحسن حديثًا منه سبحانه ، فألفاظه أفصح الألفاظ وأبينها وأعظمها مطابقة لمعانيها المرادة منها ، ومعانيه أشرف المعاني ، فلا تجد كلامًا أحسن تفسيرًا ولا أتم بيانًا من كلامه سبحانه ؛ ولهذا سماه الله بيانًا وأخبر أنه يسره للذكر ، يسر ألفاظه للحفظ ، ويسر معانيه للفهم ، فمحالًا أن يترك باب الإيمان بالله وأسمائه وصفاته ملتبسًا ، وهو أشرف العلوم على الإطلاق ، بل قد بينه الله ورسوله بيانًا شافيًا قاطعًا للعذر ، لا لبس فيه ولا إشكال ، فآيات الصفات واضحة المعنى وضوحًا تامًّا ، بحيث يشترك في فهم معانيها العام والخاص ، أي : فهم أصل المعنى لا فهم الكنه والكيفية ، كما أنها مفيدة للعلم اليقيني الكامل .

قوله : « ثم رسله صادقون مصدقون ... » :

أي : فيما جاءوا به عن الله ، والصدق هو مطابقة الخبر للواقع ، فرسله عليهم السلام صادقون في جميع ما أتوا به ؛ إذ هو الحق الصدق المطابق للواقع ، فلا يصح لإنسان قول ولا عمل إلا باعتقاد صدقهم وأمانتهم ، وأنهم بلغوا البلاغ المبين بأبلغ عبارة وأوضح أسلوب ، ليس في كلامهم لغز ولا أحاجي ، وليس له باطن يخالف ظاهره ، وأن لديهم من القدرة على التعبير وكمال العلم وتمام الشفقة

---

(١) أبو داود (٤٦٠٧) ، والترمذي (٢٦٧٦) ، وأحمد (١٢٦/٤) من حديث العرباض بن سارية .

(٢) مسلم (٨٦٧) ، والنسائي (١٥٧٨) ، وأحمد (٣١٠/٣) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

والنصح ما ليس عند غيرهم ، فيجب أن يكون بيانهم للحق أكمل من بيان كل أحد ، فمن المحال أن يتركوا باب الإيمان بالله وأسمائه وصفاته ملتبسًا وهو أشرف العلوم على الإطلاق وأجلها وأوجبها ، قد بينوه غاية البيان ، ولم يبق فيه شك ولا إشكال .

قال الشيخ تقي الدين رحمه الله : ومعلوم أنه ﷺ قد بلغ الرسالة كما أمر ولم يكتم منها شيئًا ، فإن كتمان ما أنزله الله عليه يناقض موجب الرسالة ، كما أن الكذب يناقض موجب الرسالة ، قال : ومن المعلوم في دين المسلمين أنه معصوم من الكتمان لشيء من الرسالة ، كما أنه معصوم من الكذب فيها ، والآية تشهد له بأنه بلغ الرسالة كما أمر الله ، وبين ما أنزل إليه من ربه ، وقد وجب على كل مسلم تصديقه في كل ما أخبر به .

قوله : « مصدقون » : أي : فيما يأتيهم من الوحي الكريم ، قال تعالى : ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة : ١٣٦] ، فيجب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين ، وألا يفرق بين أحد منهم ، وتصديقهم فيما أخبروا به ، واتباعهم في كل ما جاءوا به فهو حق وصدق ، وقد اتفق العلماء على كفر من كذب نبيًا معلوم النبوة ، وكذا من سبه أو انتقصه ويجب قتله ؛ لأن الإيمان واجب بجميع المرسلين واتباعهم واتباع ما أنزل إليهم ، وقد ختمهم الله بمحمد ﷺ وأنزل عليه الكتاب والحكمة ، وجعل دعوته عامة لجميع الثقلين ، باقية إلى يوم القيامة وانقطعت به حجة العباد على الله سبحانه ، وقد بين الله به كل شيء وأكمل له ولأمته الدين خبرًا وأمرًا ، وأقسم بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكموه فيما شجر بينهم ، قال تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾ الآية [النساء : ٦٥] ، وفي حديث أنس أن النبي ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به »[1] .

وأعظم ما جاء به ﷺ هو وإخوانه من الرسل هو الدعوة إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ، ومعرفته بأسمائه وصفاته وأفعاله ، وأنه لا شبيه له ولا نظير ، فهذا هو مفتاح دعوتهم وزبدة رسالتهم من أولهم إلى آخرهم ، فدينهم واحد ، وإنما اختلفت الشرائع ، كما قال النبي ﷺ : « نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد »[2] الحديث .

قوله : « بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون ... » :

* أي : بخلاف الذين يقولون على الله في شرعه ودينه أو في أسمائه وصفاته وأفعاله ما لا يعلمون ،

---

(١) ضعفه الألباني في « مشكاة المصابيح » (١٦٧) .

(٢) البخاري (٣٢٥٨) ، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

بل بمجرد عقولهم الفاسدة وتخيلاتهم الكاسدة التي ما أنزل الله بها من سلطان ، قال تعالى : ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٣] ، وقال : ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل : ١١٦] ، فالقول على الله سبحانه وتعالى بلا علم من أعظم المنكرات ؛ ولهذا جعله في أعظم مراتب التحريم ، فإنه بدأ بأسهلها وختم بأشدها وأعظمها تحريمًا وهو القول على الله بلا علم ، وتواتر عن النبي ﷺ : « مَن كذب عليّ متعمدًا ؛ فليتبوأ مقعده مِن النار »(١) .

قال ابن القيم رحمه الله : فالقول على الله بغير علم من كبائر الذنوب ، سواء كان في أسماء الله وصفاته وأفعاله ، أو في أحكامه وتقديم الخيال المسمى بالعقل والسياسة الظالمة والعوائد الباطلة والآراء الفاسدة والأذواق والكشوفات الشيطانية على ما جاء به رسول الله ﷺ . انتهى بتصرف .

قوله : « ولهذا قال سبحانه : ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ » :

* ذكر المصنف- رحمه الله تعالى- هذه الآية الكريمة دليلًا على ما تقدم من إثبات صدق الرسل عليهم السلام وصحة ما جاءوا به ، وأنه الحق الذي يجب اعتقاده ، وأن الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة ، ووصفوا الله بما يليق به من صفات الكمال ونزهوه عن صفات النقص والعيب ، وأن من قال بخلاف ما جاءوا به فهو كاذب على الله قائل عليه بدون علم .

قوله : « سبحان ربك » : أي : تنزيها لله عن كل نقص وعيب .

قال ابن القيم : التسبيح : تنزيه الله عن كل سوء ، وأصل اللفظة من المباعدة من قولهم : سبحت في الأرض إذا تباعدت فيها ، وتأتي سبحان للتعجب . انتهى .

قوله : « رب العزة » :

أي : القوة والغلبة ، وأضافها إليه لاختصاصها به ، والعزة يراد بها عزة القوة وعزة الامتناع وعزة الغلبة والقهر ، فله- سبحانه- العزة التامة بالاعتبارات الثلاث ، يقال من الأول : عز يعز- بفتح العين- في المستقبل ، وفي الثاني بكسر العين ، وفي الثالث بضمها من النقائص والعيوب .

قوله : « ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ » : أي تنزه سبحانه وتقدس عما يصفه به المخالفون للرسل من النقائص والعيوب .

قوله : ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ » : أي : سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة ؛ لسلامة ما قالوه في

---

(١) البخاري (١١٠) ، ومسلم (٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ربهم وصحته وأحقيته .

قوله : « ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ » : وقوله : « رب » : هو الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور ، ولا يطلق إلا على الله سبحانه وتعالى إلا إذا أضيف فيطلق على غيره ، كرب الدار ورب الدابة ونحو ذلك ، ولفظة رب وإله فيهما دلالة الاقتران والانفراد ، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر ، وإذا ذكرا معًا فسر الرب بما تقدم ، وفسر الإله بأنه المعبود المطاع .

قوله : « ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ » : العالم كل من سوى الله ، سمي بذلك ؛ لأنه علامة على وجود خالقه وموجده ووحدانيته ، وأنه المستحق للعبادة كما قيل :

فواعجبًا كيف يُعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

ويُروى أن أعرابيًا سُئل عن الله ، فقال : يا سبحان الله ، إن البعرة لتدل على البعير ، وإن الأثر ليدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحر ذات أمواج ، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير !!

ففي هذه الآية نزه نفسه - سبحانه- عما لا يليق بجلاله ، ثم سلم على المرسلين ، وهذا يقتضي سلامتهم من كل ما يقوله المكذبون لهم ، وإذا سلموا من ذلك لزم سلامة كل ما جاءوا به من الكذب والفساد ، وأعظم ما جاءوا به هو التوحيد ومعرفة الله سبحانه وتعالى ، ووصفه بما لا يليق بجلاله مما وصف به نفسه على ألسنتهم ، وإذا سلم ذلك من الكذب والمحال فهو الحق المحض ، وما خالفه فهو الباطل والكذب والمحال .

قال ابن كثير رحمه الله : ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة ، ويستلزم إثبات الكمال ، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة ، ويستلزم التنزيه عن النقص ، قرن بينهما في هذا الموضع وفي مواضع كثيرة من القرآن ، ولهذا قال : ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات : ١٨٠] . انتهى .

وفي هذه الآية إثبات أنواع التوحيد الثلاثة ، فإن الحمد يتضمن إثبات أنواع التوحيد الثلاثة ، فإن الحمد مدح المحمود بصفات كماله ونعوت جلاله مع محبته والرضا عنه والخضوع له ، ومن المعلوم أن فاقد صفات الكمال لا يكون إلهًا ولا مدبرًا ، بل هو مذموم معيب ليس له الحمد ، وإنما الحمد لمن له صفات الكمال ونعوت الجلال التي لأجلها استحق الحمد ، واشتملت هذه الآية على وصفه- سبحانه- بالعزة المتضمنة للقوة والقدرة وعدم النظير ، والحمد المتضمن لصفات الكمال والتنزيه عن أضدادها ، وعلى إثبات صفة الكلام ، وعلى الرد على جميع المخالفين ، وإثبات أن ما جاء به

المرسلون هو الحق الذي يتعين اعتقاده لسلامة ما قالوه في ربهم من النقص والعيب . انتهى من كلام ابن القيم ملخصًا .

قوله : « فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل ..» :

أي : نزهها عما يصفه به العباد إلا ما وصفه به المرسلون وأتباعهم ، فإن هذه الكلمة ؛ أي : سبحان ربك ، تنزيه للرب وتعظيمه وإجلاله عما لا يليق به من النقائض والعيوب ، فالرسل- عليهم الصلاة والسلام- وأتباعهم وصفوه سبحانه وتعالى بصفات الكمال ، ونزهوه عما لا يليق به من الشبيه والمثال ، وأما أعداء الرسل فوصفوه بضد ذلك من النقائص والعيوب ، وألحدوا في أسماء اللّه وصفاته وآياته ، وحرفوا الكلام عن مواضعه ، فالحق هو ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه ، وما جاء به علمًا وعملًا واعتقادًا في باب صفات الرب وأسمائه ، وتوحيده وأمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وكل ذلك مسلم إلى رسول اللّه دون آراء الرجال وأوضاعهم وأفكارهم واصطلاحاتهم ، فكل ما خالف ما عليه الرسول وأصحابه فهو مردود على صاحبه كائنًا من كان .

قوله : « لسلامة ما قالوه » : أي : أن ما قالوه في ربهم سالم من النقص والعيب ، فإنهم أعلم الخلق بالحق وأنصح الخلق وأفصحهم وأقدرهم على البيان والتبليغ ، فما بينوه من أسماء اللّه وصفاته وغير ذلك هو الغاية في الكمال ، وهو الحق الذي يجب اعتقاده واتباعه ، ولا تحل مخالفته .

قال في القاموس : السلامة : البراءة من العيوب . اهـ . والعيب والنقصان مترادفان .

قوله : « جمع » : الجمع في اللغة : الضم ، والاجتماع : الانضمام ، والتفريق ضده .

قوله : « وصف » : الوصف لغة : نعته بما فيه ، ووصف الشيء : نعته بما فيه وحلاه والصفة : النعت ، والصفة ما يقوم بالموصوف كالعلم والجمال ، وأسماؤه- سبحانه- تنقسم إلى قسمين : أعلام وأوصاف ، والوصفية فيها لا تنافي العلمية بخلاف أوصاف العباد ، وصفاته سبحانه وتعالى دالة على معان قائمة بذاته ، فيجب الإيمان بها والتصديق ، وإثباتها للّه حقيقة على ما يليق بجلال اللّه وعظمته ، وهي بالنظر إلى الذات من قبيل المترادف ، وبالنظر إلى الصفات من قبيل المتباين ، وهي تنقسم كما مضى إلى قسمين : صفات ذات ، وصفات فعل .

قوله : « بين النفي والإثبات » : فالنفي كقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى : ١١] ، وقوله : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص : ٤] ، وقوله : ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وقوله : ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

والإثبات كقوله : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ، وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام : ١٨١] ، وقوله : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص : ١، ٢] .

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله : ومعاني التنزيه ترجع إلى هذين الأصلين ؛ إثبات الكمال ونفي التشبيه والمثال ، وقد دل عليهما سورة الإخلاص ، فاسمه الصمد يجمع معاني صفات الكمال ، والأحد يتضمن أنه لا مثل له ولا نظير . من « المنهاج » بتصرف .

والنفي ليس مقصودًا لذاته ، وإنما هو مقصود لغيره ؛ إذ النفي المحض ليس بمدح ولا ثناء ، بل هو عدم محض ولا مدح في ذلك .

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله في كتابه « التدمرية » : وينبغي أن يعلم أن النفي ليس فيه كمال ولا مدح إلا إذا تضمن إثباتًا ، وكل ما نفى الله عن نفسه من النقائص ومشاركة أحد له في خصائصه ، فإنها تدل على إثبات ضدها من أنواع الكمالات . انتهى .

وطريقة أهل السنة والجماعة في النفي : الإجمال ، وفي الإثبات : التفصيل ، كما جاء في الكتاب والسنة ، فأثبتوا له- سبحانه- الأسماء والصفات ، ونفوا عنه مماثلة المخلوقات ، ومن خالفهم من المعطلة والمتفلسفة وغيرهم عكسوا القضية فجاءوا بنفي مفصل وإثبات مجمل ، فيقولون : ليس كذا ، ليس كذا . ذكر معناه في « التدمرية » وغيرها .

قوله : « فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون ..» :

أي : فلا ميل ولا انحراف لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون ، بل هم مقتفون آثارهم ، مستضيئون بأنوارهم ، مؤمنون بجميعهم ، مصدقون لهم في كل ما أخبروا به من الغيب ؛ إذ هو الحق والصدق الذي يجب اعتقاده واتباعه ، ولا تجوز مخالفته ، وأعظم ما جاء به المرسلون هو الدعوة إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ، ومعرفته بأسمائه وصفاته وأفعاله ، وأنه لا شبيه له ، ولا نظير ، فهذا دينهم من أولهم إلى آخرهم ، قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران : ١٩] ؛ أي : إن الدين الذي جاء به محمد ﷺ هو دين الأنبياء من أولهم إلى آخرهم ، ليس لله دين سواه ، فالإسلام دين أهل السماوات ودين أهل التوحيد من الأرض ، لا يقبل الله من أحد دينًا سواه .

قال الشيخ تقي الدين رحمه الله : فأهل السنة والجماعة المتبعون لمحمد وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من رسل الله يثبتون ما أثبتوه من تكليم الله ومحبته ورحمته ، وسائر ما له من الأسماء والصفات ، وينزهونه عن مشابهة الأجساد التي لا حياة فيها ، وأما أهل البدع من الجهمية ونحوها فإنهم سلكوا سبيل أعداء الرسل- إبراهيم وموسى ومحمد- الذين أنكروا أن الله كلم موسى تكليمًا ، واتخذ إبراهيم خليلًا ، وقد كلم الله محمدًا واتخذه خليلًا ورفعه فوق ذلك درجات ، وتابعوا فرعون الذي قال : ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ * أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾ [غافر : ٣٦، ٣٧] ، وتابعوا المشركين الذين ﴿وَإِذَا قِيلَ

لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] الآية.

واتبعوا الذين ألحدوا في أسماء الله فهم يجحدون حقيقة الرحمن، أو أنه يرحم، أو يكلم، وزعموا أن من أثبت له هذه الصفات فقد شبهه بالأجسام الميتة وأن هذا تشبيه لله بخلقه، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

قوله: «فإنه الصراط المستقيم ..»: أي: أن ما جاء به المرسلون هو الصراط المستقيم الموصل إلى السعادة الأبدية، وهو الذي لا طريق إلى الله ولا جنته سواه، والصراط في اللغة: الطريق الواضح، قال الشاعر:

أمير المؤمنين على صراط إذا أعوج الموارد مستقيم

والمستقيم: الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خط رسول الله خطًا بيده، ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيما». ثم خطا خطوطًا عن يمين ذلك الخط وعن شماله، ثم قال: «وهذه السبل ليس من سبيل إلا وعليه شيطان يدعوا إليه». ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] الآية[1]، رواه الإمام أحمد، والنسائي، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والمراد بالصراط: قيل: الإسلام، وقيل: القرآن، وقيل: طريق السنة والجماعة.

قال ابن القيم- رحمه الله تعالى-: ولا ريب أن ما كان رسول الله وأصحابه علمًا وعملًا، وهو معرفة الحق وتقديمه وإيثاره على غيره هو الصراط المستقيم، وكل هذه الأقوال المتقدمة دالة عليه جامعة له. انتهى.

والصراط المذكور في الكتاب والسنة ينقسم إلى قسمين: معنوي وحسي، فالمعنوي: هو ما تقدمت الإشارة إليه، والحسي: هو الجسر الذي ينصب على متن جهنم يوم القيامة يمر الناس عليه على قدر أعمالهم، فبحسب استقامة الإنسان على الصراط المعنوي الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار تكون استقامته على ذلك الصراط الحسي حذو القذة بالقذة ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

قال ابن القيم- رحمه الله تعالى-: أفرد الصراط؛ لأن الحق واحد، وهو صراط الله المستقيم الذي لا صراط يوصل إليه سواه، وهو عبادة الله بما شرع على لسان رسوله ﷺ، وهذا بخلاف طرق

---

(١) أحمد (٤٦٥/١)، والحاكم (٢٩٣٨)، والنسائي في «الكبرى» (٣٤٣/٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٦٦).

الباطل فإنها متعددة متشعبة ؛ ولهذا يجمعها كقوله سبحانه وتعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام : ١٥٣] الآية ، ولا يناقض هذا قوله سبحانه : ﴿يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة : ١٦] ، فإن تلك هي طرق مرضاته التي يجمعها سبيله الواحد .

قوله : « صراط » : بدل من الصراط الأول ، أي : طريق المنعم عليهم ، قال تعالى في سورة الفاتحة : ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة : ٦، ٧] ، وهؤلاء هم المذكورون في قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء : ٦٩] ، والنعمة بكسر النون : الإحسان ، وبالضم : المسرة ، وبالفتح : المتعة من العيش اللين .

قوله : « أنعم الله عليهم » أي : أنعم عليهم الإنعام المطلق التام ، وهي النعمة المتصلة بسعادة الأبد ، وهي نعمة الإسلام والسنة ، وهي التي أمرنا الله أن نسأله أن يهدينا صراط أهلها ، ومن خصهم بها وجعلهم أهل الرفيق الأعلى ، كما قال تعالى : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [النساء : ٦٩] الآية ، فهؤلاء الأصناف الأربعة هم أهل هذه النعمة المطلقة وأصحابها هم المعنيون بقوله : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة : ٣] ، فأضاف إليهم الدين ؛ إذ هم المختصون بهذا الدين القيم دون سائر الأمم ، وأما مطلق النعمة فعلى المؤمن والكافر ، فكل الخلق في نعمته ، فالنعمة المطلقة لأهل الإيمان ، ومطلق النعمة يكون للمؤمن والكافر . انتهى ، ذكره ابن القيم .

وفي قوله : ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ : تنبيه على الرفيق في هذا الطريق ، وأنهم هم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ؛ ليزول عن سالك هذا الطريق وحشة التفرد عن أهل زمانه وبني جنسه إذا استشعر أن رفيقه في هذا الصراط هم الأنبياء والشهداء والصالحون .

قال بعض السلف : لا تستوحش من الحق لقلة السالكين ، ولا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ : ٢٠] ، وقال ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف : ١٠٣] .

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتابه « في مسائل التوحيد » : وفيه عمق علم السلف ، وهو عدم الاغترار بالكثرة وعدم الزهد في القلة ، انتهى .

والصراط تارة يضاف إلى الله سبحانه وتعالى ؛ إذ هو الذي شرعه ونصبه كقوله : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا

﴿صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وتارة يضاف إلى العباد لكونهم أهل سلوكه. أفاده ابن القيم.

وفي قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: إشارة إلى أنهم إنما استحقوا هذا الإنعام المطلق بسبب سلوكهم هذا الصراط، وفيه إشارة إلى وجوب توحيد هذا الصراط بالسلوك، وأن لا صراط موصل للسعادة سوى هذا الصراط. قال ابن القيم في «الكافية الشافية»:

فلواحد كن واحدًا في واحد أعني سبيل الحق والإيمان

قال ابن القيم- رحمه الله تعالى- في كتابه «مدارج السالكين»: والهدي التام يتضمن توحيد المطلوب وتوحيد الطلب وتوحيد الطريق الموصلة والانقطاع، وتخلف الوصول يقع من الشركة في هذه الأمور أو في بعضها، فالشركة في المطلوب تنافي التوحيد والإخلاص، والشركة في الطلب تنافي الصدق والعزيمة، والشركة في الطريق تنافي اتباع الأمر، فالأول يوقع في الشرك والرياء، والثاني يوقع في المعصية والبطالة، والثالث يوقع في اتباع البدعة ومفارقة السنة، فتأمل، فتوحيد المطلوب يعصم من الشرك والرياء، وتوحيد الطلب يعصم من المعصية، وتوحيد الطريق يعصم من البدعة، والشيطان إنما ينصب فخه بهذه الطرق الثلاثة.

قوله: «من النبيين»: الذين اختصهم من خلقه وشرفهم برسالته ونبوته، وقد تقدم الكلام على الأنبياء.

قوله: «والصديقين»: الذين صدقوا أقوالهم بأفعالهم، فالصديق المبالغ في الصدق، كما في الحديث: «إن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا»[1]، أو المبالغ في التصديق، كما سمي أبو بكر: الصِّديق.

قال ابن القيم: الصديق أبلغ من الصدوق، والصدوق أبلغ من الصادق، فأعلى مراتب الصدق: الصديقية؛ وهي كمال الانقياد للرسول ﷺ مع كمال الإخلاص للرسل.

قوله: «والشهداء»: والشهيد هو المقتول في سبيل الله، قيل: سمي بذلك؛ لأن الله وملائكته شهدوا له بالجنة، أو لأن ملائكة الرحمة تشهده، أي: تحضره، قال العلماء: والشهيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: شهيد في الدنيا والآخرة، وهو المقتول في سبيل الله في حرب الكفار.

الثاني: شهيد في الآخرة دون أحكام الدنيا، وهو الغريق، والحريق، والمطعون، والمبطون، ومن قتل دون ماله أو دون نفسه أو دون حرمته.

---

(١) مسلم (٢٦٠٧)، وأبو داود (٤٩٨٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

الثالث : شهيد في الدنيا دون الآخرة ، وهو من غل من الغنيمة ، أو قتل مدبرًا .

قوله : « والصالحين » : الصالح : هو القائم بحدود الله وحقوق عباده .

قال الشيخ تقي الدين في كتاب « الإيمان » : ولفظ الصالح والشهيد يذكر مفردًا ، فيتناول النبيين والصديقين والشهداء ، ويذكر مع غيره فيفسر بحسبه . اهـ .

وقدم النبيين على الصديقين لشرفهم ، ولكون الصديق تابعًا للنبي ، فاستحق اسم الصديق بكمال تصديقه للنبي فهو تابع محض ، وقدم الصديقين على الشهداء لفضل الصديقين عليهم ، وقدم الشهداء على الصالحين لفضلهم عليهم . انتهى من « البدائع » بتصرف .

قال الشيخ تقي الدين- رحمه الله تعالى- : وأفضل الخلق النبيون ، ثم الصديقون ، ثم الشهداء ، ثم الصالحون ، وأفضل كل صنف أتقاهم . انتهى .

❁ قال الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله :

قوله : « التحريف » :

* معناه تغيير ألفاظ الأسماء والصفات ، أو تغيير معانيها .

كقول الجهمية في ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ : استولى . وكقول بعض المبتدعة : إن معنى « الغضب في حق الله » إرادة الانتقام ، وأن معنى « الرحمة » كذلك إرادة الإنعام . وكل هذا تحريف . فقولهم : ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ : استولى ؛ من تحريف اللفظ .

وقولهم : الرحمة : إرادة الإنعام . والغضب : إرادة الانتقام ؛ من تحريف المعنى .

والقول الحق : أن معنى الاستواء : الارتفاع والعلو كما هو صريح لغة العرب ، وجاء به القرآن ؛ ليدل على أن معناه : الارتفاع والعلو على العرش ، على وجه يليق بجلال الله وعظمته . وكذا الغضب والرحمة : صفتان حقيقيتان ، تليقان بجلال الله وعظمته كسائر الصفات الواردة في القرآن والسنة .

قوله : « التعطيل » :

* معناه سلب الصفات ، ونفيها عن الله تعالى .

وهو مأخوذ من قولهم : جيد معطل ؛ أي : خال من الحلي .

فـ « الجهمية » وأشباههم قد عطلوا الله عن صفاته ؛ فلذلك سموا بالمعطلة .

وقولهم هذا من أبطل الباطل ؛ إذ لا يعقل وجود ذات بدون صفات ، والقرآن والسنة متضافران على إثبات هذه الصفات على وجه يليق بجلال الله وعظمته .

قوله : « التكييف » :

* معناه بيان الهيئة التي تكون عليها الصفات .

فلا يقال: كيف ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾؟ كيف وجهه؟ ونحو ذلك؛ إذ القول في الصفات كالقول في الذات يحتذى حذوه ويقاس عليه، فكما أن له ذاتًا ولا نعلم كيفيتها، فكذلك له صفات ولا نعلم كيفيتها؛ إذ لا يعلم ذلك إلا هو، مع إيماننا بحقيقة معناها.

قوله: «التمثيل»:

* فمعناه: التشبيه. فلا يُقال: ذات اللَّه مثل ذواتنا، أو شبه ذواتنا، وهكذا.

فلا يقال في صفاته: إنها مثل صفاتنا، أو شبه صفاتنا، بل على المؤمن أن يلتزم قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، و﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، والمعنى: لا أحد يساميه؛ أي: يشابهه.

فائدة: ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، قال: «إذا قال لك: نؤول معنى الغضب، إرادة الانتقام، والرحمة: إرادة الإنعام، فقل: وهل إرادة الخالق تشبه إرادة المخلوق، أم أنها إرادة تليق بجلاله وعظمته؟ فإن قال الأول فقد شبه، وإن قال الثاني فقل: ولم لا تقل: رحمة وغضب يليقان بجلاله وعظمته، وبذلك تحجه وتخصمه». اهـ.

قوله: «وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات»:

طريقة الكتاب والسنة في أسماء اللَّه وصفاته: الإثبات المفصل، والنفي المجمل فقد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي المجمل، مثل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

وكذلك قوله في حديث أبي موسى: «إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا»[1]، في حكم النفي المجمل؛ لأن الصمم والغيبة تتضمنان نفي نقائص كثيرة تلزم من صفتي الصمم والغيبة؛ لأن الأصم هو الذي لا يسمع ولا يصلح أن يكون إلهًا لهذا النقص العظيم الذي يلزم منه عدم سماع دعاء الداعين، وأصوات المحتاجين، وغير ذلك من النقائص، كما أن الغيبة يلزم منها عدم اطلاعه على أحوال عباده، وعدم علمه بما ينبغي أن يعاملهم به ونحو ذلك». اهـ.

❁ قال الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله:

قوله: «ومن الإيمان باللَّه: الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه»:

(من): هنا للتبعيض؛ لأننا ذكرنا أن الإيمان باللَّه يتضمن أربعة أمور: الإيمان بوجوده، وانفراده بالربوبية، وبالألوهية، وبالأسماء والصفات؛ يعني: بعض الإيمان باللَّه: الإيمان بما وصف به نفسه.

---

(١) البخاري (٦٤٠٩)، ومسلم (٢٧٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

قوله : « بما وصف به نفسه » ينبغى أن يقال : وسمى به نفسه لكن المؤلف رحمه الله ذكر الصفة فقط : إما لأنه ما من اسم إلا ويتضمن صفة ، أو لأن الخلاف فى الأسماء خلاف ضعيف ، لم ينكره إلا غلاة الجهمية والمعتزلة ؛ فالمعتزلة يثبتون الأسماء ، والأشاعرة والماتريدية يثبتون الأسماء ، لكن يخالفون أهل السنة فى أكثر الصفات .

فنحن الآن نقول : لماذا اقتصر المؤلف على « ما وصف الله به نفسه » ؟

نقول : لأحد أمرين : إما لأن كل اسم يتضمن صفة ، وإما لأن الخلاف فى الأسماء قليل بالنسبة للمنتسبين للإسلام .

« فى كتابه » : (كتابه) يعنى القرآن ، وسماه الله تعالى كتابًا ؛ لأنه مكتوب فى اللوح المحفوظ ، ومكتوب فى الصحف التى بأيدى السفرة الكرام البررة ، ومكتوب كذلك بين الناس يكتبونه فى المصاحف ؛ فهو كتاب بمعنى مكتوب ، وأضافه الله إليه ؛ لأنه كلامه سبحانه وتعالى ؛ فهذا القرآن كلام الله ، تكلم به حقيقة ؛ فكل حرف منه ؛ فإن الله قد تكلم به .

وفى هذه الجملة مباحث :

المبحث الأول : أن من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه :

ووجه ذلك أن الإيمان بالله - كما سبق - يتضمن الإيمان بأسمائه وصفاته ؛ فإن ذات الله تسمى بأسماء وتوصف بأوصاف ، ووجود ذات مجردة عن الأوصاف أمر مستحيل ؛ فلا يمكن أن توجد ذات مجردة عن الأوصاف أبدًا ، وقد يفرض الذهن أن هناك ذاتًا مجردة من الصفات لكن الفرض ليس كالأمر الواقع ؛ أى أن المفروض ليس كالمشهود ؛ فلا يوجد فى الخارج - أى : فى الواقع المشاهد - ذات ليس لها صفات أبدًا .

فالذهن قد يفرض مثلا شيئًا له ألف عين ، فى كل ألف عين ألف سواد وألف بياض ، وله ألف رجل ، فى كل رجل ألف إصبع ، فى كل إصبع ألف ظفر ، وله ملايين الشعر ، فى كل شعرة ملايين الشعر .. وهكذا بفرضه وإن لم يكن له واقع ؛ لكن الشيء الواقع لا يمكن أن يوجد شيء بدون صفة .

لهذا ؛ كان الإيمان بصفات الله من الإيمان بالله ، لو لم يكن من صفات الله إلا أنه موجود واجب الوجود ، وهذا باتفاق الناس ، وعلى هذا ؛ فلا بد أن يكون له صفة .

المبحث الثانى : أن صفات الله عز وجل من الأمور الغيبية ، والواجب على الإنسان نحو الأمور الغيبية : أن يؤمن بها على ما جاءت دون أن يرجع إلى شيء سوى النصوص . قال الإمام أحمد : « لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ، لا يتجاوز القرآن والحديث » .

يعنى أننا لا نصف الله إلا بما وصف به نفسه فى كتابه ، أو على لسان رسوله ﷺ .

ويدل لذلك القرآن والعقل :

ففى القرآن : يقول الله ﷻ : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٣] ؛ فإذا وصفت الله بصفة لم يصف الله بها نفسه ؛ فقد قلت عليه مالا تعلم وهذا محرم بنص القرآن .

ويقول الله ﷻ : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء : ٣٦] ، ولو وصفنا الله بما لم يصف به نفسه ؛ لكنا قَفَوْنَا ما ليس لنا به علم ، فوقعنا فيما نهى الله عنه .

وأما الدليل العقلى ؛ فلأن صفات الله ﷻ من الأمور الغيبية ولا يمكن فى الأمور الغيبية أن يدركها العقل ، وحينئذ لا نصف الله بما لم يصف به نفسه ، ولا نكيف صفاته ؛ لأن ذلك غير ممكن .

نحن الآن لا ندرك ما وصف الله به نعيم الجنة من حيث الحقيقة مع أنه مخلوق ، فى الجنة فاكهة ونخل ورمان وسرر وأكواب وحور ونحن لا ندرك حقيقة هذه الأشياء ، ولو قيل : صفها لنا ؛ لا نستطيع وصفها ؛ لقوله تعالى : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة : ١٧] ، ولقوله تعالى فى الحديث القدسى : « أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »(١) .

فإذا كان هذا فى المخلوق الذى وصف بصفات معلومة المعنى ولا تُعلم حقيقتها ؛ فكيف بالخالق ؟ !

مثال آخر : الإنسان فيه روح ، لا يحيا إلا بها ، لولا أن الروح فى بدنه ما حيى ولا يستطيع أن يصف الروح لو قيل له : ما هذه الروح التى بك ؟ ما هى التى لو نزعت منك ؛ صرت جثة ، وإذا بقيت فأنت إنسان تعقل وتفهم وتدرك ؟ لجلس ينظر ويفكر فلا يستطيع أن يصفها أبدًا مع أنها قريبة منه ؛ فى نفسه وبين جنبيه ، ويعجز عن إدراكها مع أنها حقيقة ؛ يعنى : شىء يرى ؛ كما أخبر النبى عليه الصلاة والسلام بـ : « أن الروح إذا قبض ؛ تبعه البصر »(٢) ؛ فالإنسان يرى نفسه وهى مقبوضة ، ولهذا تبقى العين مفتوحة عند الموت تشاهد الروح وهى قد خرجت ، وتؤخذ هذه الروح وتجعل فى كفن ويُصعد بها إلى الله ومع ذلك ما يستطيع أن يصفها وهى بين جنبيه ؛ فكيف يحاول أن يصف الرب بأمر لم يصف به نفسه ! ولا بد إذن تحقق ثبوت الصفات لله .

المبحث الثالث : أننا لا نصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه .

(١) أخرجه مسلم (٣٢٤٤) ، ومسلم (٢٨٢٤) .

(٢) أخرجه مسلم (٩٢٠) .

ودليل ذلك أيضا من السمع والعقل :

ذكرنا من السمع آيتين .

وأما من العقل ؛ إن هذا أمر غيبى ، لا يمكن إدراكه بالعقل ، وضربنا لذلك مثلين .

المبحث الرابع : وجوب إجراء النصوص الواردة فى الكتاب والسنة على ظاهرها ، لا نتعداها .

مثال ذلك : لما وصف اللّٰه نفسه بأن له عينًا ؛ هل نقول : المراد بالعين الرؤية لا حقيقة العين ؟ لو قلنا ذلك ؛ ما وصفنا اللّٰه بما وصف به نفسه .

ولما وصف اللّٰه نفسه بأن له يدين : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة : ٦٤] ؛ لو قلنا : إن اللّٰه تعالى ليس له يد حقيقة ، بل المراد باليد ما يسبغه من النعم على عباده ؛ فهل وصفنا اللّٰه بما وصف به نفسه ؟ لا !

المبحث الخامس : عموم كلام المؤلف يشمل كل ما وصف اللّٰه به نفسه من الصفات الذاتية المعنوية والخبرية والصفات الفعلية .

فالصفات الذاتية هى التى لم يزل ولا يزال متصفًا بها وهى نوعان : معنوية وخبرية :

فالمعنوية ؛ مثل : الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والحكمة .. وما أشبه ذلك ، وهذا على سبيل التمثيل لا الحصر .

والخبرية ؛ مثل : اليدين ، والوجه ، والعينين . .. وما أشبه ذلك مما سماه ، نظيره أبعاض وأجزاء لنا .

فاللّٰه تعالى لم يزل له يدان ووجه وعينان لم يحدث له شىء من ذلك بعد أن لم يكن ، ولن ينفك عن شىء منه ؛ كما أن اللّٰه لم يزل حيًّا ولا يزال حيًّا ، ولم يزل عالمًا ولا يزال عالمًا ، ولم يزل قادرًا ولا يزال قادرًا .. وهكذا ؛ يعنى ليس حياته تتجدد ، ولا قدرته تتجدد ، ولا سمعه يتجدد بل هو موصوف بهذا أزلا وأبدًا ، وتجدد المسموع لا يستلزم تجدد السمع ؛ فأنا مثلا عندما أسمع الأذان الآن فهذا ليس معناه أنه حدث لى سمع جديد عند سماع الأذان بل هو منذ خلقه اللّٰه فىَّ لكن المسموع يتجدد وهذا لا أثر له فى الصفة .

واصطلح العلماء رحمهم اللّٰه على أن يسموها الصفات الذاتية ؛ قالوا : لأنها ملازمة للذات ، لا تنفك عنها .

والصفات الفعلية هى الصفات المتعلقة بمشيئته ، وهى نوعان :

صفات لها سبب معلوم ؛ مثل : الرضا ؛ فاللّٰه ﷻ إذا وجد سبب الرضا ؛ رضى ؛ كما قال تعالى : ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر : ٧] .

وصفات ليس لها سبب معلوم ؛ مثل : النزول إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر[1] .

ومن الصفات ما هو صفة ذاتية وفعلية باعتبارين ؛ فالكلام صفة فعلية باعتبار آحاده لكن باعتبار أصله صفة ذاتية ؛ لأن الله لم يزل ولا يزال متكلما لكنه يتكلم بما شاء متى شاء ؛ كما سيأتى فى بحث الكلام إن شاء الله تعالى .

اصطلح العلماء رحمهم الله أن يسموا هذه الصفات الصفات الفعلية ؛ لأنها من فعله سبحانه وتعالى .

ولها أدلة كثيرة من القرآن ؛ مثل : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة : ١١٩] ، ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة : ٤٦] ، ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [المائدة : ٨٠] .

وليس فى إثباتها لله تعالى نقص بوجه من الوجوه بل هذا من كماله أن يكون فاعلا لما يريد .

وأولئك القوم المحرفون يقولون : إثباتها من النقص ! ولهذا ينكرون جميع الصفات الفعلية ؛ يقولون : لا يجيء ولا يرضى ، ولا يسخط ولا يكره ولا يحب .. ينكرون كل هذه ؛ بدعوى أن هذه حادثة والحادث لا يقوم إلا بحادث وهذا باطل ؛ لأنه فى مقابلة النص ، وهو باطل بنفسه ؛ فإنه لا يلزم من حدوث الفعل حدوث الفاعل .

المبحث السادس : أن العقل لا مدخل له فى باب الأسماء والصفات :

لأن مدار إثبات الأسماء والصفات أو نفيها على السمع ؛ فعقولنا لا تحكم على الله أبدًا ؛ فالمدار إذن على السمع ؛ خلافًا للأشعرية والمعتزلة والجهمية وغيرهم من أهل التعطيل ، الذين جعلوا المدار فى إثبات الصفات أو نفيها على العقل ، فقالوا : ما اقتضى العقل إثباته ؛ أثبتناه ، سواء أثبته الله لنفسه أم لا ! وما اقتضى نفيه ؛ نفيناه ، وإن أثبته الله ! وما لا يقتضى العقل إثباته ولا نفيه ؛ فأكثرهم نفاه ، وقال : إن دلالة العقل إيجابية ؛ فإن أوجب الصفة ؛ أثبتناها ، وإن لم يوجبها ؛ نفيناها ! ومنهم من توقف فيه ، فلا يثبتها ؛ لأن العقل لا يثبتها لكن لا ينكرها ؛ لأن العقل لا ينفيها ، ويقول : نتوقف ! لأن دلالة العقل عند هذا سلبية ، إذا لم يوجب ؛ يتوقف ولم ينف !

فصار هؤلاء يحكمون العقل فيما يجب أو يمتنع على الله ﷻ .

فيتفرع على هذا : ما اقتضى العقل وصف الله به ، وُصف الله به وإن لم يكن فى الكتاب والسنة ،

---

(١) أخرجه البخارى (١١٤٥) ، ومسلم (٧٥٨) .

وما اقتضى العقل نفيه عن الله ؛ نفوه ، وإن كان فى الكتاب والسنة .

ولهذا يقولون : ليس لله عين ، ولا وجه ، ولا له يد ، ولا استوى على العرش ، ولا ينزل إلى السماء الدنيا لكنهم يحرفون ويسمون تحريفهم تأويلا ولو أنكروا إنكار جحدٍ ؛ لكفروا ؛ لأنهم كذبوا لكنهم ينكرون إنكار ما يسمونه تأويلا وهو عندنا تحريف .

والحاصل أن العقل لا مجال له فى باب أسماء الله وصفاته فإن قلت : قولك هذا يناقض القرآن ، لأن الله يقول : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾ [المائدة : ٥٠] والتفضيل بين شيء وآخر مرجعه إلى العقل وقال ﷻ : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] وقال : ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل : ١٧] وأشباه ذلك مما يحيل الله به على العقل فيما يثبته لنفسه وما ينفيه عن الآلهة المدعاة ؟

فالجواب أن نقول : إن العقل يدرك ما يجب لله سبحانه وتعالى ويمتنع عليه على سبيل الإجمال لا على سبيل التفصيل ؛ فمثلا : العقل يدرك بأن الرب لا بد أن يكون كامل الصفات ، لكن هذا لا يعنى أن العقل يثبت كل صفة بعينها أو ينفيها لكن يثبت أو ينفى على سبيل العموم أن الرب لا بد أن يكون كامل الصفات سالمًا من النقص .

فمثلًا : يدرك بأنه لا بد أن يكون الرب سميعًا بصيرًا ؛ قال إبراهيم لأبيه : ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ [مريم : ٤٢] .

ولابد أن يكون خالقًا ؛ لأن الله قال : ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل : ١٧] ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل : ٢٠] . [فالعقل] يدرك هذا ، ويدرك بأن الله سبحانه وتعالى يمتنع أن يكون حادثًا بعد العدم ؛ لأنه نقص ، ولقوله تعالى محتجًا على هؤلاء الذين يعبدون الأصنام : ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل : ٢٠] ؛ إذن يمتنع أن يكون الخالق حادثًا بالعقل .

العقل أيضًا يدرك بأن كل صفة نقص فهى ممتنعة على الله ؛ لأن الرب لا بد أن يكون كاملا فيدرك بأن الله ﷻ مسلوب عنه العجز ؛ لأنه صفة نقص ، إذا كان الرب عاجزًا وعُصى وأراد أن يعاقب الذى عصاه وهو عاجز ؛ فلا يمكن !

إذن ؛ العقل يدرك بأن العجز لا يمكن أن يوصف الله به ، والعمى كذلك والصّمم كذلك والجهل كذلك ... وهكذا على سبيل العموم ندرك ذلك ، لكن على سبيل التفصيل لا يمكن أن ندركه فنتوقف فيه على السمع .

سؤال : هل كل ما هو كمال فينا يكون كمالا فى حق الله ، وهل كل ما هو نقص فينا يكون نقصًا فى حق الله ؟

الجواب : لا ؛ لأن المقياس فى الكمال والنقص ليس باعتبار ما يضاف للإنسان ؛ لظهور الفرق بين الخالق والمخلوق ، لكن باعتبار الصفة من حيث هى صفة ؛ فكل صفة كمال ؛ فهى ثابتة للّه سبحانه وتعالى .

فالأكل والشرب بالنسبة للخالق نقص ، لأن سببهما الحاجة ، واللّه تعالى غنى عما سواه ، لكن هما بالنسبة للمخلوق كمال ولهذا ؛ إذا كان الإنسان لا يأكل ؛ فلا بد أن يكون عليلًا بمرض أو نحوه هذا نقص .

والنوم بالنسبة للخالق نقص ؛ وللمخلوق كمال ، فظهر الفرق .

والتكبر كمال للخالق ونقص للمخلوق ؛ لأنه لا يتم الجلال والعظمة إلا بالتكبر حتى تكون السيطرة كاملة ولا أحد ينازعه . . . ولهذا توعد اللّه تعالى من ينازعه الكبرياء والعظمة ؛ قال : « من نازعنى واحدًا منهما عذبته »[1] .

فالمهم أنه ليس كل كمال فى المخلوق يكون كمالا فى الخالق ولا كل نقص فى المخلوق يكون نقصًا فى الخالق إذا كان الكمال أو النقص اعتباريًا .

هذه ستة مباحث تحت قوله : « ما وصف به نفسه » وكلها مباحث هامة ، وقدمناها بين يدى العقيدة ؛ لأنه سينبنى عليها ما يأتى إن شاء اللّه تعالى .

قوله : « وبما وصفه به رسوله » :

ووصف رسول اللّه ﷺ لربه ينقسم إلى ثلاثة أقسام : إما بالقول ، أو بالفعل ، أو بالإقرار .

أ – أما القول ؛ مثل « ربنا اللّه الذى فى السماء تقدس اسمك ، أمرك فى السماء والأرض »[2] وقوله فى يمينه : « لا ومقلب القلوب »[3] .

ب – وأما الفعل ؛ فهو أقل من القول ؛ مثل إشارته إلى السماء يستشهد اللّه على إقرار أمّته بالبلاغ ، وهذا فى حجة الوداع فى عرفة ، خطب الناس ، وقال : « ألا هل بلغت ؟ » . قالوا : نعم ثلاث مرات . قال : « اللهم ! اشهد » يرفع إصبعه إلى السماء ، وينكتها إلى الناس[4] . فرفع إصبعه إلى السماء ؛ هذا وصف اللّه تعالى بالعلو عن طريق الفعل .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٠) .

(٢) ضعيف أبى داود للألبانى (٨٣٩) .

(٣) أخرجه البخارى (٦٦١٧) .

(٤) أخرجه مسلم (١٢١٨) .

وجاءه رجل وهو يخطب الناس يوم الجمعة ؛ قال : يا رسول الله ! هلكت الأموال .. فرفع يديه[1] وهذا أيضًا وصف لله بالعلو عن طريق الفعل .

وغير ذلك من الأحاديث التي فيها فعل النبي عليه الصلاة والسلام إذا ذكر صفة من صفات الله .

وأحيانًا يذكر الرسول عليه الصلاة والسلام الصفة من صفات الله بالقول ويؤكدها بالفعل ، وذلك حينما تلا قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء : ٥٨] فوضع إبهامه على أذنه اليمنى ، والتي تليها على عينه وهذا إثبات للسمع والبصر بالقول والفعل[2] .

وحينئذٍ نقول : إن إثبات الرسول عليه الصلاة والسلام للصفات يكون بالقول ويكون بالفعل ؛ مجتمعين ومنفردين .

جـ - أما الإقرار ؛ فهو قليل بالنسبة لما قبله ؛ مثل : إقراره الجارية التي سألها : « أين الله ؟ » قالت : في السماء . فأقرها وقال : « أعتقها »[3] .

وكإقراره الحَبْر من اليهود الذي جاء وقال للرسول عليه الصلاة والسلام : إننا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع ، والأرضين على إصبع والثَّرى على إصبع .. آخر الحديث ، فضحك النبي ﷺ تصديقًا لقوله[4] ، وهذا إقرار .

إذا قال قائل : ما وجه وجوب الإيمان بما وصف الرسول به ربه أو : ما دليله ؟

نقول : دليله قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء : ١٣٦] ، وكل آية فيها ذكر أن الرسول عليه الصلاة والسلام مبلغ ؛ فهي دال على وجوب قبول ما أخبر به من صفات الله ؛ لأنه أخبر بها وبلغها إلى الناس ، وكل ما أخبر به ؛ فهو تبليغ من الله ، ولأن الرسول عليه الصلاة والسلام أعلم الناس بالله وأنصح الناس لعباد الله وأصدق الناس فيما قال ، وأفصح الناس في التعبير ؛ فاجتمع في حقه من صفات القبول أربع : العلم والنصح ، والصدق ، والبيان ؛ فيجب علينا أن نقبل كل ما أخبر به عن ربه ، وهو - والله - أفصح وأنصح وأعلم من أولئك القوم الذين تبعهم هؤلاء من المناطقة والفلاسفة ، ومع هذا يقول : « سبحانك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »[5] .

---

(١) أخرجه البخاري (٩٣٣) ، ومسلم (٨٩٧) .

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٢٨) .

(٣) أخرجه مسلم (٥٣٧) .

(٤) أخرجه البخاري (٤٨١١) ، ومسلم (٢٧٨٦) .

(٥) أخرجه مسلم (٤٨٦) .

قوله : « من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل » :

فى هذه الجملة بيان صفة إيمان أهل السنة بصفات الله تعالى ؛ فأهل السنة والجماعة يؤمنون بها إيمانًا خاليًا من هذه الأمور الأربعة : التحريف والتعطيل ، والتكييف ، والتمثيل .

فالتحريف : التغيير وهو إما لفظى وإما معنوى ، والغالب أن التحريف اللفظى لا يقع ، وإذا وقع ؛ فإنما يقع من جاهل ؛ فالتحريف اللفظى يعنى تغيير الشكل ؛ فمثلا : فلا تجد أحدًا يقول : « الحَمْدَ للهِ رَب العالمينَ » بفتح الدال ؛ إلا إذا كان جاهلًا .. هذا الغالب ! لكن التحريف المعنوى هو الذى وقع فيه كثير من الناس . فأهل السنة والجماعة إيمانهم بما وصف الله به نفسه خال من التحريف ؛ يعنى : تغيير اللفظ أو المعنى .

وتغيير المعنى يسميه القائلون به تأويلا ويسمون أنفسهم بأهل التأويل ؛ لأجل أن يصبغوا هذا الكلام صبغة القبول ؛ لأن التأويل لا تنفر منه النفوس ولا تكرهه ، لكن ما ذهبوا إليه فى الحقيقة تحريف ؛ لأنه ليس عليه دليل صحيح ؛ إلا أنهم لا يستطيعون أن يقولوا : تحريفًا ! ولو قالوا : هذا تحريف ؛ لأعلنوا على أنفسهم برفض كلامهم .

ولهذا عبر المؤلف رحمه الله بالتحريف دون التأويل مع أن كثيرًا ممن يتكلمون فى هذا الباب يعبرون بنفى التأويل ؛ يقولون : من غير تأويل ، لكن ما عبر به المؤلف أولى لوجوه أربعة :

الوجه الأول : أنه اللفظ الذى جاء به القرآن ؛ فإن الله تعالى قال : ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء : ٤٦] ، والتعبير الذى عبر به القرآن أولى من غيره ؛ لأنه أدل على المعنى .

الوجه الثانى : أنه أدل على الحال ، وأقرب إلى العدل ؛ فالمؤول بغير دليل ليس من العدل أن نسميه مؤولا ، بل العدل أن نصفه بما يستحق وهو أن يكون محرفا .

الوجه الثالث : أن التأويل بغير دليل باطل ، يجب البعد عنه والتنفير منه ، واستعمال التحريف فيه أبلغ تنفيرًا من التأويل ؛ لأن التحريف لا يقبله أحد ، لكن التأويل لين ، تقبله النفس ، وتستفصل عن معناه ، أما التحريف ؛ بمجرد ما نقول : هذا تحريف . ينفر الإنسان منه ، إذا كان كذلك ؛ فإن استعمال التحريف فيمن خالفوا طريق السلف أليق من استعمال التأويل .

الوجه الرابع : أن التأويل ليس مذمومًا كله ؛ قال النبى عليه الصلاة والسلام : « اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل » . وقال الله تعالى : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران : ٧] ؛ فامتدحهم بأنهم يعلمون التأويل .

والتأويل ليس كله مذمومًا ؛ لأن التأويل له معان متعددة ، يكون بمعنى التفسير ، ويكون بمعنى العاقبة والمآل ، ويكون بمعنى صرف اللفظ عن ظاهره .

أ- يكون بمعنى التفسير ؛ كثير من المفسرين عندما يفسرون الآية ؛ يقولون : تأويل قوله تعالى كذا وكذا . ثم يذكرون المعنى وسمى التفسير تأويلا ؛ لأننا أوّلنا الكلام ؛ أى : جعلناه يؤول إلى معناه المراد به .

ب- تأويل بمعنى عاقبة الشيء ، وهذا إن ورد فى طلب ؛ فتأويله فعله إن كان أمرًا وتركه إن كان نهيًا ، وإن ورد فى خبر ؛ فتأويله وقوعه .

مثاله فى الخبر قوله تعالى : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف : ٥٣] ؛ فالمعنى : ما ينتظر هؤلاء إلا عاقبة ومآل ما أخبروا به ، يوم يأتى ذلك المخبر به ؛ يقول الذين نسوه من قبل : قد جاءت رسل ربنا بالحق .

ومنه قول يوسف لما خر له أبواه وإخوته سجدًا قال : ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف : ١٠٠] : هذا وقوع رؤياى ؛ لأنه قال ذلك بعد أن سجدوا له .

ومثاله فى الطلب قول عائشة رضي الله عنها : كان النبى ﷺ يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده بعد أن أنزل عليه قوله تعالى : ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر : ١] ؛ يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي » ؛ يتأول القرآن[1] . أى : يعمل به .

جـ- المعنى الثالث للتأويل : صرف اللفظ عن ظاهره وهذا النوع ينقسم إلى محمود ومذموم ؛ فإن دل عليه دليل ؛ فهو محمود النوع ويكون من القسم الأول ، وهو التفسير ، وإن لم يدل عليه دليل ؛ فهو مذموم ، ويكون من باب التحريف ، وليس من باب التأويل .

وهذا الثانى هو الذى درج عليه أهل التحريف فى صفات الله ﷻ .

مثاله قوله تعالى : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه : ٥] : ظاهر اللفظ أن الله تعالى استوى على العرش : استقر عليه ، وعلا عليه ؛ فإذا قال قائل : معنى ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ : استولى على العرش ؛ فنقول : هذا تأويل عندك لأنك صرفت اللفظ عن ظاهره ، لكن هذا تحريف فى الحقيقة ؛ لأنه ما دل عليه دليل ، بل الدليل على خلافه ؛ كما سيأتى إن شاء الله .

فأما قوله تعالى : ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل : ١] ؛ فمعنى : ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ . أى سيأتى أمر الله ؛ فهذا مخالف لظاهر اللفظ لكن عليه دليل وهو قوله : ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ .

وكذلك قوله تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل : ٩٨] ؛ أى : إذا أردت أن تقرأ ، وليس المعنى : إذا أكملت القراءة ؛ قل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ لأننا علمنا

(١) أخرجه البخارى (٨١٧) ، ومسلم (٤٨٤) .

من السنة أن النبى عليه الصلاة والسلام إذا أراد أن يقرأ ؛ استعاذ بالله من الشيطان الرجيم ، لا إذا أكمل القراءة ؛ فالتأويل صحيح .

وكذلك قول أنس بن مالك : كان النبى ﷺ إذا دخل الخلاء ؛ قال : « أعوذ بالله من الخبث والخبائث »[1] ؛ فمعنى : « إذا دخل » . إذا أراد أن يدخل ؛ لأن ذكر الله لا يليق داخل هذا المكان ؛ فلهذا حملنا قوله : « إذا دخل » على : إذا أراد أن يدخل . هذا التأويل الذى دل عليه الدليل صحيح ، ولا يعدو أن يكون تفسيرًا .

ولذلك قلنا : إن التعبير بالتحريف عن التأويل الذى ليس عليه دليل صحيح أولى ، لأنه الذى جاء به القرآن ، ولأنه ألصق بطريق المحرف ، ولأنه أشد تنفيرًا عن هذه الطريقة المخالفة لطريق السلف ، ولأن التحريف كله مذموم ؛ بخلاف التأويل ؛ فإن منه ما يكون مذمومًا ومحمودًا ؛ فيكون التعبير بالتحريف أولى من التعبير بالتأويل من أربعة أوجه .

التعطيل بمعنى التخلية والترك ؛ كقوله تعالى : ﴿وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ﴾ [الحج : ٤٥] ؛ أى : مخلاة متروكة .

والمراد بالتعطيل : إنكار ما أثبت الله لنفسه من الأسماء والصفات ؛ سواء كان كليًا أو جزئيًا ، وسواء كان ذلك بتحريف أو بجحود ، هذا كله يسمى تعطيلا .

فأهل السنة والجماعة لا يعطلون أى اسم من أسماء الله ، أو أى صفة من صفات الله ولا يجحدونها ، بل يقرون بها إقرارًا كاملا .

فإن قلت : ما الفرق بين التعطيل والتحريف ؟

قلنا : التحريف فى الدليل والتعطيل فى المدلول ؛ فمثلا :

إذا قال قائل : معنى قوله تعالى : ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة : ٦٤] ؛ أى بل قوتاه هذا محرف للدليل ، ومعطل للمراد الصحيح ؛ لأن المراد اليد الحقيقية ؛ فقد عطل المعنى المراد ؛ وأثبت معنى غير المراد . وإذا قال : بل يداه مبسوطتان ؛ لا أدرى ! أفوض الأمر إلى الله ؛ لا أثبت اليد الحقيقية ، ولا اليد المحرف إليها اللفظ . نقول : هذا معطل ، وليس بمحرف ؛ لأنه لم يغير معنى اللفظ ولم يفسره بغير مراده ، لكن عطل معناه الذى يراد به ، وهو إثبات اليد لله ﷻ .

أهل السنة والجماعة يتبرءون من الطريقتين : الطريقة الأولى : التى هى تحريف اللفظ بتعطيل معناه الحقيقى المراد إلى معنى غير مراد . والطريقة الثانية : وهى طريقة أهل التفويض ؛ فهم لا يفوضون

---

(١) أخرجه البخارى (١٤٢) ، ومسلم (٣٧٥) .

المعنى كما يقول المفوضة بل يقولون : نحن نقول : ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾ ؛ أى : يداه الحقيقيتان ﴿مَبْسُوطَتَانِ﴾ ، وهما غير القوة والنعمة .

فعقيدة أهل السنة والجماعة بريئة من التحريف ومن التعطيل .

وبهذا نعرف ضلال أو كذب من قالوا : إن طريقة السلف هى التفويض . هؤلاء ضلوا إن قالوا ذلك عن جهل بطريقة السلف ، وكذبوا إن قالوا عن عمد ، أو نقول : كذبوا على الوجهين على لغة الحجاز ؛ لأن الكذب عند الحجازيين بمعنى الخطأ .

وعلى كل حال ؛ لاشك أن الذين يقولون : إن مذهب أهل السنة هو التفويض ؛ أنهم أخطئوا ؛ لأن مذهب أهل السنة هو إثبات المعنى وتفويض الكيفية .

وليعلم أن القول بالتفويض – كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية – من شرّ أقوال أهل البدع والإلحاد !

عندما يسمع الإنسان التفويض ؛ يقول : هذا جيد ، أسلم من هؤلاء وهؤلاء ، لا أقول بمذهب السلف ، ولا أقول بمذهب أهل التأويل ، أسلك سبيلا وسطًا وأسلم من هذا كله ، وأقول : اللَّه أعلم ولا ندرى ما معناها . لكن يقول شيخ الإسلام : هذا من شر أقوال أهل البدع والإلحاد !

وصدق رحمه الله . وإذا تأملته وجدته تكذيبًا للقرآن وتجهيلا للرسول ﷺ واستطالة للفلاسفة .

تكذيب للقرآن ؛ لأن اللَّه يقول : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل : ٨٩] ، وأى بيان فى كلمات لا يدرى ما معناها ؟ ! وهى من أكثر ما يرد فى القرآن ، وأكثر ما ورد فى القرآن أسماء اللَّه وصفاته ، إذا كنا لا ندرى ما معناها ؛ هل يكون القرآن تبيانًا لكل شىء ؟ ! أين البيان ؟ !

إن هؤلاء يقولون : إن الرسول ﷺ لا يدرى عن معانى القرآن فيما يتعلق بالأسماء والصفات ! وإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام لا يدرى ؛ فغيره من باب أولى .

وأعجب من ذلك يقولون : الرسول ﷺ يتكلم فى صفات اللَّه ، ولا يدرى ما معناه ! يقول : « ربنا اللَّه الذى فى السماء » ، وإذا سئل عن هذا ؟ قال : لا أدرى ! وكذلك فى قوله : « ينزل ربنا إلى السماء الدنيا »[(١)] وإذا سئل ما معنى « ينزل ربنا » ؟ قال : لا أدرى .. وعلى هذا ؛ فقس .

وهل هناك قدح أعظم من هذا القدح بالرسول ﷺ بل هذا من أكبر القدح ! رسول من عند اللَّه ليبين للناس وهو لا يدرى ما معنى آيات الصفات وأحاديثها وهو يتكلم بالكلام ولا يدرى معنى ذلك كله !

فهذان وجهان : تكذيب القرآن وتجهيل الرسول .

---

(١) أخرجه البخارى (١١٤٥) ، ومسلم (٧٥٨) .

وفيه فتح الباب للزنادقة الذين تطاولوا على أهل التفويض ، وقالوا : أنتم لا تعرفون شيئًا ، بل نحن الذين نعرف ، وأخذوا يفسرون القرآن بغير ما أراد اللّه ، وقالوا : كوننا نثبت معانى للنصوص خير من كوننا أميين لا نعرف شيئًا . وذهبوا يتكلمون بما يريدون من معنى كلام اللّه وصفاته ! ! ولا يستطيع أهل التفويض أن يردوا عليهم ؛ لأنهم يقولون : نحن لا نعلم ماذا أراد اللّه ؛ فجائز أن يكون الذى يريد اللّه هو ما قلتم ! ففتحوا باب شرور عظيمة ، ولهذا جاءت العبارة الكاذبة : « طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم » ! .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : « هذه قالها بعض الأغبياء » . وهوصحيح ؛ أن القائل غبى .

هذه الكلمة من أكذب ما يكون نطقًا ومدلولا ، « طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم » . كيف تكون أعلم وأحكم وتلك أسلم ؟ ! لا يوجد سلامة بدون علم وحكمة أبدًا ! فالذى لا يدرى عن الطريق ؛ لا يسلم ؛ لأنه ليس معه علم ، لو كان معه علم وحكمة ؛ لسلم ؛ فلا سلامة إلا بعلم وحكمة .

إذا قلت : إن طريقة السلف أسلم ؛ لزم أن تقول : هى أعلم وأحكم . وإلا لكنت متناقضًا .

إذن ؛ فالعبارة الصحيحة : « طريقة السلف أسلم وأعلم وأحكم » ، وهذا معلوم .

وطريقة الخلف ما قاله القائل :

لعمرى لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفى بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعا كف حائر على ذقن أو قارعًا سن نادم

هذه الطريقة التى يقول عنها : إنه ما وجد إلا واضعًا كف حائر على ذقن . وهذا ليس عنده علم ، أو آخر : قارعًا سن نادم لأنه لم يسلك طريق السلامة أبدًا .

والرازى وهو من كبرائهم يقول :

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعى العالمين ضلال

وأرواحنا فى وحشة من جسومنا وغاية دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ثم يقول : « لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ؛ فما رأيتها تشفى عليلا ولا تروى غليلا ، ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن ، أقرأ فى الإثبات : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه : ٥] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر : ١٠] ، واقرأ فى النفى : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه : ١١٠] ، ومن جرب مثل تجربتى ؛ عرف مثل معرفتى » أهؤلاء نقول : إن طريقتهم أعلم وأحكم ؟ !

الذى يقول : « إنى أتمنى أن أموت على عقيدة عجائز نيسابور » . والعجائز من عوام الناس ، يتمنى

أنه يعود إلى الأميات ! هل يقال : إنه أعلم وأحكم ؟ !

أين العلم الذى عندهم ؟ !

فتبين أن طريقة التفويض طريق خاطئ ؛ لأنه يتضمن ثلاث مفاسد : تكذيب القرآن ، وتجهيل الرسول ، واستطالة الفلاسفة ! وأن الذين قالوا : إن طريقة السلف هى التفويض كذبوا على السلف ، بل هم يثبتون اللفظ والمعنى ويقررونه ، ويشرحونه بأوفى شرح .

أهل السنة والجماعة لا يحرفون ولا يعطلون ، ويقولون بمعنى النصوص كما أراد الله : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف : ٥٤] ؛ بمعنى : علا عليه وليس معناه : استولى . ﴿بِيَدِهِۦ﴾ : يد حقيقية وليست القوة ولا نعمة ؛ فلا تحريف عندهم ولا تعطيل .

« تكييف » : لم ترد فى الكتاب والسنة ، لكن ورد ما يدل على النهى عنها .

التكييف : هو أن تذكر كيفية الصفة ، ولهذا تقول : كيَّف يكيِّفُ تكييفًا ، أى ذكر كيفية الصفة .

التكييف يسأل عنه بـ : (كيف) ؛ فإذا قلت مثلا : كيف جاء زيد ؟ تقول : راكبا . إذن : كيفت مجيئه . كيف لون السيارة ؟ أبيض . فذكرت اللون .

أهل السنة والجماعة لا يكيفون صفات الله ؛ مستندين فى ذلك إلى الدليل السمعى والدليل العقلى :

أما الدليل السمعى ؛ فمثل قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٣] ، والشاهد فى قوله ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

فإذا جاء رجل وقال : إن الله استوى على العرش ، على هذه الكيفية ووصف كيفية معينة : نقول : هذا قد قال على الله ما لا يعلم ! هل أخبرك الله بأنه استوى على هذه الكيفية ؟ ! لا ؛ أخبرنا الله بأنه استوى ولم يخبرنا كيف استوى . فنقول : هذا تكييف وقول على الله بغير علم .

ولهذا قال بعض السلف : إذا قال لك الجهمى : إن الله ينزل إلى السماء ؛ فكيف ينزل ؟ فقل : إن الله أخبرنا أنه ينزل ، ولم يخبرنا كيف ينزل . وهذه قاعدة مفيدة .

دليل آخر من السمع : قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] : لا تتبع ما ليس لك به علم ؛ ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ .

وأما الدليل العقلى ؛ فكيفية الشىء الشىء لا تدرك إلا بواحد من أمور ثلاثة : مشاهدته ، أو مشاهدة نظيره ، أو خبر الصادق عنه أى : إما أن تكون شاهدته أنت وعرفت كيفيته . أو شاهدت نظيره ؛ كما لو

قال واحد : إن فلانا اشترى سيارة داتسون موديل ثمان وثمانين رقم ألفين . فتعرف كيفيتها ؛ لأن عندك مثلها ، أو خبر صادق عنه ؛ أتاك رجل صادق وقال : إن سيارة فلان صفتها كذا وكذا .. ووصفها تماما ؛ فتدرك الكيفية الآن .

ولهذا أيضًا قال بعض العلماء جوابًا لطيفًا : إن معنى قولنا : « بدون تكييف » : ليس معناه ألا نعتقد لها كيفية ، بل نعتقد لها كيفية لكن المنفى علمنا بالكيفية ؛ لأن استواء اللَّه على العرش لا شك أن له كيفية ، لكن لا تُعلم ؛ نزوله إلى السماء الدنيا له كيفية ، لكن لا تُعلم ؛ لأنه ما من موجود إلا وله كيفية ، لكنها قد تكون معلومة ، وقد تكون مجهولة .

سئل الإمام مالك رحمه الله عن قوله تعالى : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه : ٥] : كيف استوى ؟ فأطرق مالك برأسه حتى علاه العرق ، ثم رفع رأسه وقال : « الاستواء غير مجهول » ؛ أى : من حيث المعنى معلوم ؛ لأن اللغة العربية بين أيدينا ، كل المواضع التى وردت فيها ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ معداة بـ : « على » معناها العلو فقال : « الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول » ؛ لأن العقل لا يدرك الكيف ؛ فإذا انتفى الدليل السمعى والعقلى عن الكيفية ؛ وجب الكف عنها ، « والإيمان به واجب » ؛ لأن اللَّه أخبر به عن نفسه ، فوجب تصديقه ، « والسؤال عنه بدعة »[1] : السؤال عن الكيفية بدعة ؛ لأن من هم أحرص منا على العلم ما سألوا عنها وهم الصحابة لما قال اللَّه : ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف : ٥٤] ؛ عرفوا عظمة اللَّه ﷻ ، ومعنى الاستواء على العرش ، وأنه لا يمكن أن تسأل : كيف استوى ؟ لأنك لن تدرك ذلك فنحن إذا سُئلنا ؛ فنقول : هذا السؤال بدعة .

وكلام مالك رحمه الله ميزان لجميع الصفات ؛ فإن قيل لك مثلا : إن اللَّه ينزل إلى السماء الدنيا ؛ كيف ينزل ؟ فالنزول غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة والذين يسألون : كيف يمكن النزول وثلث الليل يتنقل ؟ ! فنقول : السؤال هذا بدعة كيف تسأل عن شيء ما سأل عنه الصحابة وهم أحرص منك على الخير وعلى العلم بما يجب للَّه ﷻ ، ولسنا بأعلم من الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ فهو لم يعلمهم . فسؤالك هذا بدعة ، ولولا أننا نحسن الظن بك ؛ لقلنا ما يليق بك بأنك رجل مبتدع .

والإمام مالك رحمه الله قال : « ما أراك إلا مبتدعًا » . ثم أمر به فأخرج ؛ لأن السلف يكرهون أهل البدع وكلامهم واعتراضاتهم وتقديراتهم ومجادلاتهم .

فأنت يا أخى عليك فى هذا الباب بالتسليم ؛ فمن تمام الإسلام للَّه ﷻ ألا تبحث فى هذه الأمور ، ولهذا أحذركم دائمًا من البحث فيما يتعلق بأسماء اللَّه وصفاته على سبيل التعنت والتنطع والشيء

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى « الحلية » (٦/٣٢٥) ، والبيهقى (٤٠٨) .

الذى ما سأل الصحابة عنه ؛ لأننا إذا فتحنا على أنفسنا هذه الأبواب ؛ انفتحت علينا الأبواب ، وتهدمت الأسوار ، وعجزنا عن ضبط أنفسنا ؛ فلذلك قل : سمعنا وأطعنا وآمنا وصدقنا ؛ آمنا وصدقنا بالخبر وأطعنا الطلب وسمعنا القول ؛ حتى تسلم !

وأى إنسان يسأل فيما يتعلق بصفات الله عن شيء ما سأل عنه الصحابة ؛ فقل كما قال الإمام مالك ؛ فإن لك سلفًا : السؤال عن هذا بدعة . وإذا قلت ذلك ؛ لن يلح عليك ، وإذا ألح ؛ فقل : يا مبتدع ! السؤال عنه بدعة ، اسأل عن الأحكام التى أنت مكلف بها ، أما أن تسأل عن شيء يتعلق بالرب ﷻ وبأسمائه وصفاته ، ولم يسأل عنه الصحابة ؛ فهذا لا نقبله منك أبدًا !

وهناك كلام للسلف يدل على أنهم يفهمون معانى ما أنزل الله على رسوله من الصفات ؛ كما نقل عن الأوزاعى وغيره ؛ نقل عنهم أنهم قالوا فى آيات الصفات وأحاديثها : « أمروها كما جاءت بلا كيف » . وهذا يدل على أنهم يثبتون لها معنى من وجهين :

أولا : أنهم قالوا : « أمروها كما جاءت » . ومعلوم أنها ألفاظ جاءت لمعانى ولم تأت عبثًا ، فإذا أمررناها كما جاءت ؛ لزم من ذلك أن نثبت لها معنى .

ثانيًا : قولهم : « بلا كيف » لأن نفى الكيفية يدل على وجود أصل المعنى ؛ لأن نفى الكيفية عن شيء لا يوجد لغو وعبث .

إذن ؛ فهذا الكلام المشهور عند السلف يدل على أنهم يثبتون لهذه النصوص معنى .

يعنى : ومن غير تمثيل ؛ فأهل السنة يتبرءون من تمثيل الله ﷻ بخلقه ؛ لا فى ذاته ولا فى صفاته .
والتمثيل : ذكر مماثل للشيء ، وبينه وبين التكييف عموم وخصوص مطلق ، لأن كل ممثل مكيف ، وليس كل مكيف ممثلا ؛ لأن التكييف ذكر كيفية غير مقرونة بمماثل ؛ مثل أن تقول : لى قلم كيفيته كذا وكذا . فإن قرنت بمماثل ؛ صار تمثيلا ؛ مثل أن أقول : هذا القلم مثل هذا القلم ؛ لأنى ذكرت شيئًا مماثلا لشيء وعرفت هذا القلم بذكر مماثله .

وأهل السنة والجماعة يثبتون لله ﷻ الصفات بدون مماثلة ؛ يقولون : إن الله ﷻ له حياة وليست مثل حياتنا ، له علم وليس مثل علمنا ، له بصر وليس مثل بصرنا ، له وجه وليس مثل وجوهنا ، له يد وليست مثل أيدينا ... وهكذا جميع الصفات ؛ يقولون : إن الله ﷻ لا يماثل خلقه فيما وصف به نفسه أبدًا ، ولهم على ذلك أدلة سمعية وأدلة عقلية :

أ - الأدلة السمعية :

تنقسم إلى قسمين : خبر ، وطلب .

- فمن الخبر قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى : ١١] ، فالآية فيها نفى صريح

للتمثيل وقوله : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] ؛ فإن هذا وإن كان إنشاء ، لكنه بمعنى الخبر ؛ لأنه استفهام بمعنى النفى وقوله : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص : ٤] ؛ فهذه كلها تدل على نفى المماثلة ، وهى كلها خبرية .

- وأما الطلب ؛ فقال اللّٰه تعالى : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة : ٢٢] أى : نظراء مماثلين . وقال : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل : ٧٤] .

فمن مثَّل اللّٰه بخلقه ؛ فقد كذب الخبر وعصى الأمر ولهذا أطلق بعض السلف القول بالتكفير لمن مثل اللّٰه بخلقه ، فقال نعيم بن حماد الخزاعى شيخ البخارى رحمه الله : « من شبه اللّٰه بخلقه ؛ فقد كفر » ؛ لأنه جمع بين التكذيب بالخبر وعصيان الطلب .

وأما الأدلة العقلية على انتفاء التماثل بين الخالق والمخلوق : فمن وجوه :

أولا : أن نقول : لا يمكن التماثل بين الخالق والمخلوق بأى حال من الأحوال لو لم يكن بينهما من التباين إلا أصل الوجود ؛ لكان كافيًا ، وذلك أن وجود الخالق واجب ؛ فهو أزلى أبدى ، ووجود المخلوق ممكن مسبوق بعدم ويلحقه فناء ؛ فما كانا كذلك لا يمكن أن يقال : إنهما متماثلان .

ثانيًا : أنا نجد التباين العظيم بين الخالق والمخلوق فى صفاته وفى أفعاله ؛ فى صفاته يسمع عز وجل كل صوت مهما خفى ومهما بعد ، لو كان فى قعار البحار ؛ لسمعه ﷻ .

وأنزل اللّٰه قوله تعالى : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة : ١] ؛ تقول عائشة : « الحمد للّٰه الذى وسع سمعه الأصوات ، إنى لفى الحجرة ، وإنه ليخفى على بعض حديثها » ، واللّٰه تعالى سمعها من على عرشه وبينه وبينها ما لا يعلم مداه إلا اللّٰه ﷻ ؛ ولا يمكن أن يقول قائل : إن سمع اللّٰه مثل سمعنا .

ثالثًا : نقول : نحن نعلم أن اللّٰه تعالى مباين للخلق بذاته : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ﴾ [الزمر : ٦٧] ، ولا يمكن لأحد من الخلق أن يكون هكذا ؛ فإذا كان مباينًا للخلق فى ذاته ؛ فالصفات تابعة للذات ، فيكون أيضًا مباينًا للخلق فى صفاته ﷻ ، ولا يمكن التماثل بين الخالق والمخلوق .

رابعًا : نقول : إننا نشاهد فى المخلوقات أشياء تتفق فى الأسماء وتختلف فى المسميات ؛ يختلف الناس فى صفاتهم : هذا قوى البصر وهذا ضعيفه ، وهذا قوى السمع وهذا ضعيفه ، هذا قوى البدن وهذا ضعيفه وهذا ذكر وهذه أنثى . . . وهكذا التباين فى المخلوقات التى من جنس واحد ؛ فما بالك بالمخلوقات المختلفة الأجناس ؟ فالتباين بينها أظهر ولهذا ؛ لا يمكن لأحد أن يقول : إن لى يدًا كيد الجمل ، أو لى يدًا كيد الذرة ، أو لى يدًا كيد الهر . فعندنا الآن إنسان وجمل وذرة وهر ، كل واحد له

يد مختلفة عن الثانى ، مع أنها متفقة فى الاسم فنقول : إذا جاز التفاوت بين المسميات فى المخلوقات مع اتفاق الاسم ؛ فجوازه بين الخالق والمخلوق من باب أولى . بل نحن نقول : إن التفاوت بين الخالق والمخلوق ليس جائزًا فقط ، بل هو واجب ؛ فعندنا أربعة وجوه عقلية كلها تدل على أن الخالق لا يمكن أن يماثل المخلوق بأى حال من الأحوال .

ربما نقول أيضًا : هناك دليل فطرى ، وذلك لأن الإنسان بفطرته بدون أن يلقن يعرف الفرق بين الخالق والمخلوق ولولا هذه الفطرة ؛ ما ذهب يدعو الخالق .

فتبين الآن أن التمثيل منتف سمعًا وعقلا وفطرةً .

فإن قال قائل : إن النبى ﷺ حدثنا بأحاديث تشتبه علينا ؛ هل هى تمثيل أو غير تمثيل ؟ ونحن نضعها بين أيديكم :

- قال النبى ﷺ « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر ، لا تضامون فى رؤيته »(1) ؛ فقال : « كما » والكاف للتشبيه ، وهذا رسول الله ﷺ ، ونحن من قاعدتنا أن نؤمن بما قال الرسول كما نؤمن بما قال الله ؛ فأجيبوا عن هذا الحديث ؟

نقول : نجيب عن هذا الحديث وعن غيره بجوابين : الجواب الأول مجمل والثانى مفصل .

فالأول المجمل : أنه لا يمكن أن يقع تعارض بين كلام الله وكلام رسوله الذى صح عنه أبدًا ؛ لأن الكل حق ، والحق لا يتعارض ، والكل من عند الله ، وما عند الله تعالى لا يتناقض ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء : ٨٢] ؛ فإن وقع ما يوهم التعارض فى فهمك ؛ فاعلم أن هذا ليس بحسب النص ، ولكن باعتبار ما عندك ؛ فأنت إذا وقع التعارض عندك فى نصوص الكتاب والسنة ؛ فإما لقلة العلم ، وإما لقصور الفهم ، وإما للتقصير فى البحث والتدبر ، ولو بحثت وتدبرت ؛ لوجدت أن التعارض الذى توهمته لا أصل له ، وإما لسوء القصد والنية ؛ بحيث تستعرض ما ظاهره التعارض لطلب التعارض ، فتحرم التوفيق ؛ كأهل الزيغ الذين يتبعون المتشابه .

ويتفرع على هذا الجواب المجمل أنه يجب عليك عند الاشتباه أن ترد المشتبه إلى المحكم ؛ لأن هذه الطريق طريق الراسخين فى العلم ؛ قال الله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران : ٧] ، ويحملون المتشابه على المحكم حتى يبقى النص كله محكمًا .

---

(1) أخرجه البخارى (٥٥٤) ، ومسلم (٦٣٣) .

وأما الجواب المفصل ؛ فأن نجيب عن كل نص بعينه فنقول :

إن قول النبي ﷺ : « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون فى رؤيته » . ليس تشبيهًا للمرئى بالمرئى ، ولكنه تشبيه للرؤية بالرؤية ؛ « سترون .. كما ترون » ؛ فالكاف فى : « كما ترون » : داخله على مصدر مؤول ؛ لأن (ما) مصدرية ، وتقدير الكلام : كرؤيتكم القمر ليلة البدر وحينئذ يكون التشبيه للرؤية بالرؤية لا المرئى بالمرئى ، والمراد أنكم ترونه رؤية واضحة كما ترون القمر ليلة البدر ولهذا أعقبه بقوله : « لا تضامون فى رؤيته » أو : « لا تضارون فى رؤيته » . فزال الإشكال الآن .

– قال النبي ﷺ : « إن اللّٰه خلق آدم على صورته »[1] ، والصورة مماثلة للأخرى ، ولا يعقل صورة إلا مماثلة للأخرى ، ولهذا أكتب لك رسالة ، ثم تدخلها الآلة الفوتوغرافية ، وتخرج الرسالة ، فيقال : هذه صورة هذه ، ولا فرق بين الحروف والكلمات ؛ فالصورة مطابقة للصورة ، والقائل : « إن اللّٰه خلق آدم على صورته » : الرسول عليه الصلاة والسلام أعلم وأصدق وأنصح وأفصح الخلق .

والجواب المجمل أن نقول : لا يمكن أن يناقض هذا الحديث قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى : ١١] ، فإن يسر اللّٰه لك الجمع ؛ فاجمع ، وإن لم يتيسر ؛ فقل : ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران : ٧] ، وعقيدتنا أن اللّٰه لا مثيل له ؛ بهذا تسلم أمام اللّٰه ﷻ .

هذا كلام اللّٰه ، وهذا كلام رسوله ، والكل حق ، ولا يمكن أن يكذب بعضه بعضًا ؛ لأنه كله خبر وليس حكمًا كي ينسخ ؛ فأقول : هذا نفى للمماثلة ، وهذا إثبات للصورة ؛ فقل : إن اللّٰه ليس كمثله شىء ، وإن اللّٰه خلق آدم على صورته ؛ فهذا كلام اللّٰه ، وهذا كلام رسوله والكل حق نؤمن به ، ونقول : كل من عند ربنا ، ونسكت وهذا هو غاية ما نستطيع .

وأما الجواب المفصل ؛ فنقول : إن الذى قال : « إن اللّٰه خلق آدم على صورته » رسول الذى قال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى : ١١] والرسول لا يمكن أن ينطق بما يكذب المرسل والذى قال : « خلق آدم على صورته » : هو الذى قال : « إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر »[2] ؛ فهل أنت تعتقد أن هؤلاء الذين يدخلون الجنة على صورة القمر من كل وجه أو تعتقد أنهم على صورة البشر لكن فى الوضاءة والحسن والجمال واستدارة الوجه وما أشبه ذلك على صورة القمر ، لا من كل وجه ؟ ! فإن قلت بالأول ؛ فمقتضاه أنهم دخلوا وليس لهم أعين وليس لهم آناف وليس لهم أفواه ! وإن شئنا قلنا : دخلوا وهم أحجار ! وإن قلت بالثانى ؛ زال الإشكال ، وتبين أنه لا يلزم من كون الشيء على

(١) أخرجه البخارى (٦٢٢٧) ، ومسلم (٢٨٤١) .

(٢) أخرجه البخارى (٣٢٤٥) ، ومسلم (٢٨٣٤) .

صورة الشيء أن يكون مماثلا له من كل وجه .

فإن أبى فهمك ، وتقاصر عن هذا ، وقال : أنا لا أفهم إلا أنه مماثل .

قلنا : هناك جواب آخر ، وهو أن الإضافة هنا من باب إضافة المخلوق إلى خالقه ؛ فقوله : « على صورته » ؛ مثل قوله ﷻ في آدم : ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص : ٧٢] ، ولا يمكن أن الله ﷻ أعطى آدم جزءًا من روحه ، بل المراد الروح التي خلقها الله ﷻ ، لكن إضافتها إلى الله بخصوصها من باب التشريف ؛ كما نقول : عباد الله ؛ يشمل الكافر والمسلم والمؤمن والشهيد والصديق والنبي لكننا لو قلنا : محمد عبد الله ؛ هذه إضافة خاصة ليست كالعبودية السابقة .

فقوله : « خلق آدم على صورته » . يعني : صورة من الصور التي خلقها الله وصورها ؛ كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف : ١١] . والمصور آدم إذن ؛ فآدم على صورة الله ؛ يعني : أن الله هو الذي صوره على هذه الصورة التي تعد أحسن صورة في المخلوقات ، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين : ٤] ؛ فإضافة الله الصورة إليه من باب التشريف ، كأنه ﷻ اعتنى بهذه الصورة ومن أجل ذلك ؛ لا تضرب الوجه ؛ فتعيبه حسًا ، ولا تقبحه فتقول : قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك . فتعيبه معنًى ؛ فمن أجل أنه الصورة التي صورها الله وأضافها إلى نفسه تشريفًا وتكريمًا ؛ لا تقبحها بعيب حسي ولا بعيب معنوي .

ثم هل يعتبر هذا الجواب تحريفًا أم له نظير ؟

نقول : له نظير ، كما في : بيت الله ، وناقة الله ، وعبد الله ؛ لأن هذه الصورة (أي : صورة آدم) منفصلة بائنة من الله وكل شيء أضافه الله إلى نفسه وهو منفصل بائن عنه ؛ فهو من المخلوقات ؛ فحينئذ يزول الإشكال .

ولكن إذا قال القائل : أيما أسلم : المعنى الأول أو الثاني ؟ قلنا : المعنى الأول أسلم ، ما دمنا نجد أن لظاهر اللفظ مساغًا في اللغة العربية وإمكانًا في العقل ؛ فالواجب حمل الكلام عليه ونحن وجدنا أن الصورة لا يلزم منها مماثلة الصورة الأخرى ، وحينئذ يكون الأسلم أن نحمله على ظاهره .

فإذا قلت : ما الصورة التي تكون لله ويكون آدم عليها ؟

قلنا : إن الله ﷻ له وجه وله عين وله يد وله رجل ﷻ ، لكن لا يلزم من أن تكون هذه الأشياء مماثلة للإنسان ؛ فهناك شيء من الشبه لكنه ليس على سبيل المماثلة ؛ كما أن الزمرة الأولى من أهل الجنة فيها شبه من القمر لكن بدون مماثلة ، وبهذا يصدق ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة ؛ من أن جميع صفات الله سبحانه وتعالى ليست مماثلة لصفات المخلوقين ؛ من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل .

نسمع كثيرًا من الكتب التى نقرؤها يقولون : تشبيه ؛ يعبرون بالتشبيه وهم يقصدون التمثيل ؛ فأيهما أولى : أنعبر بالتشبيه ، أو نعبر بالتمثيل ؟

نقول : بالتمثيل أولى .

أولا : لأن القرآن عبر به : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى : ١١] ، ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة : ٢٢] .. وما أشبه ذلك ، وكل ما عبر به القرآن ؛ فهو أولى من غيره ؛ لأننا لا نجد أفصح من القرآن ولا أدل على المعنى المراد من القرآن ، والله أعلم بما يريده من كلامه ، فتكون موافقة القرآن هى الصواب ، فنعبر بنفى التمثيل . وهكذا فى كل مكان ؛ فإن موافقة النص فى اللفظ أولى من ذكر لفظ مرادف أو مقارب .

ثانيًا : أن التشبيه عند بعض الناس يعنى إثبات الصفات ولهذا يسمون أهل السنة : مشبهة ؛ فإذا قلنا : من غير تشبيه . وهذا الرجل لا يفهم من التشبيه إلا إثبات الصفات ؛ صار كأننا نقول له : من غير إثبات صفات ! فصار معنى التشبيه يوهم معنًى فاسدًا فلهذا كان العدول عنه أولى .

ثالثًا : أن نفى التشبيه على الإطلاق غير صحيح ؛ لأن ما من شيئين من الأعيان أو من الصفات إلا وبينهما اشتراك من بعض الوجوه ، والاشتراك نوع تشابه ، فلو نفيت التشبيه مطلقًا ؛ لكنت نفيت كل ما يشترك فيه الخالق والمخلوق فى شىء ما .

مثلا : الوجود ؛ يشترك فى أصله الخالق والمخلوق ، هذا نوع اشتراك ونوع تشابه ، لكن فرق بين الوجودين ؛ وجود الخالق واجب ووجود المخلوق ممكن .

وكذلك السمع ؛ فيه اشتراك ؛ الإنسان له سمع ، والخالق له سمع ، لكن بينهما فرق ، لكن أصل وجود السمع مشترك .

فإذا قلنا : من غير تشبيه . ونفينا مطلق التشبيه ؛ صار فى هذا إشكال .

وبهذا عرفنا أن التعبير بالتمثيل أولى من ثلاثة أوجه .

فإن قلت : ما الفرق بين التكييف والتمثيل ؟

فالجواب : الفرق بينهما من وجهين :

الأول : أن التمثيل ذكر الصفة مقيدة بمماثل ؛ فتقول يد فلان مثل يد فلان ، والتكييف ذكر الصفة غير مقيدة بمماثل ؛ مثل أن تقول : كيفية يد فلان كذا وكذا .

وعلى هذا نقول : كل ممثِّل مكيِّف ، ولا عكس .

الثانى : أن الكيفية لا تكون إلا فى الصفة والهيئة ، والتمثيل يكون فى ذلك وفى العدد ؛ كما فى قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ١٢] ؛ أى : فى العدد .

قوله : (بل يؤمنون بأنَّ اللّه تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾) :

أى : يقر أهل السنة والجماعة بذلك إقرارًا وتصديقًا بأن اللّه ليس كمثله شيء ؛ كما قال عن نفسه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ؛ فهنا نفى المماثلة ، ثم أثبت السمع والبصر فنفى العيب ، ثم أثبت الكمال ؛ لأن نفى العيب قبل إثبات الكمال أحسن ؛ ولهذا يقال : التخلية قبل التحلية . فنفى العيوب يبدأ به أولا ، ثم يذكر إثبات الكمال .

وكلمة ﴿شَيْءٌ﴾ نكرة فى سياق النفى ، فتعم كل شيء ، ليس شيء مثله أبدًا ﷻ أى مخلوق وإن عظم ؛ فليس مماثلا للّه ﷻ ؛ لأن مماثلة الناقص نقص ، بل إن طلب المفاضلة بين الناقص والكامل تجعله ناقصا ؛ كما قيل :

ألم تَرَ أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

فهنا لو قلنا : إن للّه مثيلا ؛ لزم من ذلك تنقص اللّه ﷻ ؛ فلهذا نقول : نفى اللّه عن نفسه مماثلة المخلوقين ؛ لأن مماثلة المخلوقين نقص وعيب ؛ لأن المخلوق ناقص ، وتمثيل الكامل بالناقص يجعله ناقصا ، بل ذكر المفاضلة بينهما يجعله ناقصًا ؛ إلا إذا كان فى مقام التحدى ؛ كما فى قوله تعالى : ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل : ٥٩] ، وقوله : ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة : ١٤] .

وفى قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ : رد صريح على الممثِّلة الذين يثبتون أن اللّه سبحانه وتعالى له مثيل .

وحجة هؤلاء يقولون : إن القرآن عربى ، وإذا كان عربيًّا ؛ فقد خاطبنا اللّه تعالى بما نفهم ، ولا يمكن أن يخاطبنا بما لا نفهم ، وقد خاطبنا اللّه تعالى ، فقال : إن له وجهًا وإن له عينًا ، وإن له يدين .. وما أشبه ذلك ونحن لا نعقل بمقتضى اللغة العربية من هذه الأشياء إلا مثل ما نشاهد ، وعلى هذا ؛ فيجب أن يكون مدلول هذه الكلمات مماثلا لمدلولها بالنسبة للمخلوقات : يد ويد ، وعين وعين ، ووجه ووجه .. وهكذا ؛ فنحن إنما قلنا بذلك لأن لدينا دليلا .

ولا شك أن هذه الحجة واهية يوهيها ما سبق من بيان أن اللّه ليس له مثيل ونقول : إن اللّه خاطبنا بما خاطبنا به من صفاته ، لكننا نعلم علم اليقين أن الصفة بحسب الموصوف ودليل هذا فى الشاهد ؛ فإنه يقال : للجمل يد وللذرة يد . ولا أحد يفهم من اليد التى أضفناها إلى الجمل أنها مثل اليد التى أضفناها إلى الذرة !

هذا وهو فى المخلوقات ؛ فكيف إذا كان ذلك من أوصاف الخالق ؟ ! فإن التباين يكون أظهر وأجلى . وعلى هذا ؛ فيكون قول هؤلاء الممثلة مردودًا بالعقل كما أنه مردود بالسمع .

قال اللّه تعالى : ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ . فأثبت لنفسه سبحانه وتعالى السمع والبصر ؛ لبيان

كماله ، ونقص الأصنام التى تُعبد من دونه ؛ فالأصنام التى تُعبد من دون الله تعالى لا يسمعون ، ولو سمعوا ؛ ما استجابوا ، ولا يبصرون ؛ كما قال الله ﷻ : ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ [النحل : ٢٠، ٢١] ؛ فهم ليس لهم سمع ولا عقل ولا بصر ولو فرض أن لهم ذلك ؛ ما استجابوا : ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف : ٥] .

فأهل السنة والجماعة يؤمنون بانتفاء المماثلة عن الله ؛ لأنها عيب ويثبتون له السمع والبصر ؛ لقوله تعالى : ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] .

وإيمان الإنسان بذلك يثمر للعبد أن يعظمه غاية التعظيم ؛ لأنه ليس مثله أحد من المخلوقات ، فتعظم هذا الرب العظيم الذى لا يماثله أحد ، وإلا ؛ لم يكن هناك فائدة من إيمانك بأنه ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ .

إذا آمنت بأنه سميع ؛ فإنك سوف تحترز عن كل قول يغضب الله ؛ لأنك تعلم أنه يسمعك ، فتخشى عقابه ؛ فكل قول يكون فيه معصية الله ﷻ ؛ فسوف تتحاشاه ؛ لأنك تؤمن بأنه سميع ، وإذا لم يحدث لك هذا الإيمان هذا الشىء ؛ فاعلم أن إيمانك بأن الله سميع إيمان ناقص بلا شك .

إذا آمنت بأن الله سميع ؛ فلن تتكلم إلا بما يرضيه ولا سيما إذا كنت تتكلم معبرًا عن شرعه ، وهو المفتى والمعلم ؛ فإن هذا أشد ، والله سبحانه يقول : ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام : ١٤٤] ؛ فإن هذا من أظلم الظلم ولهذا قال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف : ١٠] وهذا من عقوبة من يفتى بلا علم ؛ أنه لا يُهْدى ؛ لأنه ظالم .

فحذار يا أخى المسلم أن تقول قولا لا يرضى الله ؛ سواء قلته على الله ، أو على غير هذا الوجه .

وثمرة الإيمان بأن الله بصير ألَّا تفعل شيئًا يغضب الله ؛ لأنك تعلم أنك لو تنظر نظرة محرمة لا يفهم الناس أنها نظرة محرمة ؛ فإن الله تعالى يرى هذه النظرة ، ويعلم ما فى قلبك ، ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر : ١٩] . إذا آمنت بهذا ؛ لا يمكن أن تفعل فعلا لا يرضاه أبدًا .

استحيى من الله كما تستحيى من أقرب الناس إليك وأشدهم تعظيمًا منك .

إذن ؛ إذا آمنَّا بأن الله بصير ؛ فسوف نتحاشى كل فعل يكون سببًا لغضب الله ﷻ ، وإلا ؛ فإن إيماننا بذلك ناقص . لو أن أحدًا أشار بإصبعه أو شفته أو بعينه أو برأسه لأمر محرم ؛ فالناس الذين حوله لا يعلمون عنه ، لكن الله تعالى يراه ؛ فليحذر هذا من يؤمن به ، ولو أننا نؤمن بما تقتضيه أسماء الله وصفاته ؛ لوجدت الاستقامة كاملة فينا فالله المستعان .

قوله : (فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه) :

أى : لا ينفى أهل السنة والجماعة عن الله ما وصف به نفسه ؛ لأنهم متبعون للنص نفيًا وإثباتًا ؛ فكل ما وصف الله به نفسه يثبتونه على حقيقته ؛ فلا ينفون عن الله ما وصف الله به نفسه ، سواء كان من الصفات الذاتية أو الفعلية (أو الخبرية) .

الصفات الذاتية ؛ كالحياة والقدرة ، والعلم .. وما أشبه ذلك ، وتنقسم إلى ذاتية معنوية ، وذاتية خبرية ، وهى التى مسماها أبعاض لنا وأجزاء ؛ كاليد والوجه ، والعين ؛ فهذه يسميها العلماء : ذاتية خبرية ، ذاتية : لأنها لا تنفصل ولم يزل الله ولا يزال متصفًا بها . خبرية : لأنها متلقاة بالخبر ؛ فالعقل لا يدل على ذلك ، لولا أن الله أخبرنا أن له يدًا ؛ ما علمنا بذلك لكنه أخبرنا بذلك ؛ بخلاف العلم والسمع والبصر ؛ فإن هذا ندركه بعقولنا مع دلالة السمع ، لهذا نقول فى مثل هذه الصفات اليد والوجه وما أشبهها : إنها ذاتية خبرية . ولا نقول : أجزاء وأبعاض . بل نتحاشى هذا اللفظ لكن مسماها لنا أجزاء وأبعاض ؛ لأن الجزء والبعض ما جاز انفصاله عن الكل ؛ فالرب ﷻ لا يُتصور أن شيئًا من هذه الصفات التى وصف بها نفسه – كاليد – أن تزول أبدًا ؛ لأنه موصوف بها أزلا وأبدًا ولهذا لا نقول ؛ إنها أبعاض وأجزاء .

والصفات الفعلية : هى المتعلقة بمشيئته إن شاء فعلها ، وإن شاء لم يفعلها ، وقد ذكرنا أن هذه الصفات الفعلية : منها ما يكون له سبب ، ومنها ما ليس له سبب ، ومنها ما يكون ذاتيًا فعليًا .

قوله : (ولا يحرفون الكلم عن مواضعه) :

(الكلم) : اسم جمع ، كلمة ويراد به كلام الله وكلام رسوله . لا يحرفونه عن مواضعه ؛ أى : عن مدلولاته ؛ فمثلا قوله تعالى : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة : ٦٤] ؛ يقولون : هى يد حقيقية ثابتة لله من غير تكييف ولا تمثيل . والمحرفون يقولون : قوته ، أو نعمته أما أهل السنة ؛ فيقولون : القوة شىء واليد شىء آخر ، والنعمة شىء واليد شىء آخر ؛ فهم لا يحرفون الكلم عن مواضعه ؛ فإن التحريف من دأب اليهود ، ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء : ٤٦] ؛ فكل من حرَّفَ نصوص الكتاب والسنة ؛ ففيه شبه من اليهود ؛ فاحذر هذا ، ولا تتشبه بالمغضوب عليهم الذين جعل الله منهم القردة والخنازير وعَبَدَ الطاغوت ، لا تحرِّف ، بل فسر الكلام على ما أراد الله ورسوله .

ومن كلام الشافعى ما يذكر عنه : « آمنت بالله وبما جاء عن الله على مراد الله ، وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله » .

قوله : « ولا يلحدون » أى : أهل السنة والجماعة .

والإلحاد فى اللغة : الميل ، ومنه سمى اللحد فى القبر ؛ لأنه مائل إلى جانب منه وليس متوسطًا

والمتوسط يسمى شقًّا واللحد أفضل من الشق .

فهم لا يلحدون فى أسماء اللّٰه ، ولا يلحدون أيضًا فى آيات اللّٰه ، فأفادنا المؤلف رحمه الله أن الإلحادَ يكون فى موضعين : فى الأسماءِ وفى الآياتِ .

هذا الذى يفيده كلام المؤلف قد دلَّ عليه القرآن ؛ قال اللّٰه تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف : ١٨٠] . فأثبت اللّٰه الإلحادَ فى الأسماء ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ [فصلت : ٤٠] . فأثبت اللّٰه الإلحاد فى الآيات .

- فالإلحادُ فى الأسماء هو الميل فيها عما يجب ، وهو أنواع :

النوع الأول : أن يُسمى اللّٰه بما لم يسم به نفسه ؛ كما سماه الفلاسفة علة فاعلة وسماه النصارى : أبًا ، وعيسى : الابن ؛ فهذا إلحاد فى أسماء اللّٰه ، وكذلك لو سمى اللّٰه بأى اسم لم يسم به نفسه ؛ فهو ملحدٌ فى أسماء اللّٰه .

ووجه ذلك أن أسماء اللّٰه عز وجل توقيفية ؛ فلا يمكن أن نثبت له إلا ما ثبت بالنص ، فإذا سميت اللّٰه بما لم يسم به نفسه ؛ فقد ألحدتَ ومِلتَ عن الواجب .

وتسمية اللّٰه بما لم يسم به نفسه سوء أدبٍ مع اللّٰه وظلم وعدوان فى حقه ؛ لأنه لو أن أحدًا دعاك بغير اسمك أو سماك بغير اسمك ؛ لاعتبرته قد اعتدى عليك وظلمك هذا فى المخلوق ؛ فكيف بالخالق ؟ !

إذن ؛ ليس لك حق أن تسمى اللّٰه بما لم يسم به نفسه ، فإن فعلت ؛ فأنت ملحدٌ فى أسماء اللّٰه .

النوع الثانى : أن ينكر شيئًا من أسمائه ؛ عكس الأول ؛ فالأول سمى اللّٰه بما لم يسم به نفسه ، وهذا جرد اللّٰه مما سمى به نفسه ، فينكر الاسم ؛ سواء أنكر كل الأسماء أو بعضها التى تثبت للّٰه ؛ فإذا أنكرها ؛ فقد ألحدَ فيها .

ووجه الإلحادِ فيها : أنه لما أثبتها اللّٰهُ لنفسه ؛ وجب علينا أن نثبتّها له ؛ فإذا نفيناها ؛ كان إلحادًا وميلا بها عما يجب فيها .

وهناك من الناس من أنكر الأسماء ؛ كغُلاةِ الجهمية ، فقالوا : ليس للّٰه اسم أبدًا ! قالوا : لأنك لو أثبت له اسمًا ؛ شبهته بالموجودات ، وهذا معروف أنه باطلٌ مردودٌ .

النوع الثالث : أن ينكر ما دلت عليه من الصفات ؛ فهو يثبت الاسم ، لكن ينكر الصفة التى يتضمنها هذا الاسم ؛ مثل أن يقول : إن اللّٰه سميع بلا سمعٍ ، وعليم بلا علمٍ ، وخالق بلا خلقٍ ، وقادر بلا قدرة . . . . وهذا معروف عن المعتزلة ، وهو غير معقول !

ثم هؤلاء يجعلون الأسماء أعلامًا محضةً متغايرة ، فيقولون : السميع غير العليم ، لكن كلها ليس لها معنى ! السميع لا يدل على السمع ! والعليم لا يدل على العلم ! لكن مجرد أعلام ! !

ومنهم آخرون يقولون : هذه الأسماء شيء واحد ؛ فهي عليم وسميع وبصير كلها واحد ، لا تختلف إلا بتركيب الحروف فقط ، فيجعل الأسماء شيئًا واحدًا ! !

وكل هذا غير معقول ، ولذلك نحن نقول : إنه لا يمكن الإيمان بالأسماء حتى تثبت ما تضمنته من الصفات .

ولعلنا من هنا نتكلم على دلالة الاسم ؛ فالاسم له أنواع ثلاثة في الدلالة : دلالة مطابقة ، ودلالة تضمن ، ودلالة التزام :

١ - فدلالة المطابقة : دلالة اللفظ على جميع مدلوله ، وعلى هذا ؛ فكل اسم دال على المسمى به ، وهو الله ، وعلى الصفة المشتق منها هذا الاسم .

٢ - ودلالة التضمن : دلالة اللفظ على بعض مدلوله ، وعلى هذا ؛ فدلالة الاسم على الذات وحدها أو على الصفة وحدها من دلالة التضمن .

٣ - ودلالة الالتزام : دلالته على شيء يُفهم لا من لفظ الاسم لكن من لازمه ولهذا سميناه : دلالة الالتزام .

مثل كلمة الخالق : اسم يدل على ذات الله ويدل على صفة الخلق .

إذن ؛ فباعتبار دلالته على الأمرين يسمى دلالة مطابقة ؛ لأن اللفظ دل على جميع مدلوله ، ولا شك أنك إذا قلت : الخالق ؛ فإنك تفهم خالقًا وخلقًا .

- وباعتبار دلالته على الخالق وحده أو على الخلق وحده يسمى دلالة تضمن ؛ لأنه دلّ على بعض معناه ، وباعتبار دلالته على العلم والقدرة يسمى دلالة التزام ؛ إذ لا يمكن خلق إلا بعلم وقدرة ؛ فدلالته على القدرة والعلم دلالة التزام .

وحينئذ ؛ يتبين أن الإنسان إذا أنكر واحدًا من هذه الدلالة ؛ فهو ملحدٌ في الأسماء .

ولو قال : أنا أؤمن بدلالة الخالق على الذات ، ولا أؤمن بدلالته على الصفة ؛ فهو ملحد في الاسم .

[و] لو قال : أنا أومِن بأن (الخالق) تدل على ذات الله وعلى صفة الخلق ، لكن لا تدل على صفة العلم والقدرة . قلنا : هذا إلحاد أيضًا ؛ فلازم علينا أن نثبت كل ما دل عليه هذا الاسم ؛ فإنكار شيء مما دل عليه الاسم من الصفة إلحاد في الاسم سواء كانت دلالته على هذه الصفة دلالة مطابقة أو تضمن أو التزام .

ولنضرب مثلا حسيًا تتبين فيه أنواع هذه الدلالات : لو قلت : لي بيت . فكلمة (بيت) فيها

الدلالات الثلاث ؛ فتفهم من (بيت) أنها تدل على كل البيت دلالة مطابقة . وتدل على مجلس الرجال وحده ، وعلى الحمامات وحدها ، وعلى الصالة وحدها ؛ دلالة تضمن ؛ لأن هذه الأشياء جزء من البيت ودلالة اللفظ على جزء معناه دلالة تضمن . وتدل على أن هناك بانيًا بناه دلالة التزام ؛ لأنه ما من بيت ؛ إلا وله بان .

النوع الرابع من أنواع الإلحاد في الأسماء : أن يثبت الأسماء لله والصفات ، لكن يجعلها دالة على التمثيل ؛ أي دالة على بصر كبصرنا وعلم كعلمنا ، ومغفرة كمغفرتنا . . . وما أشبه ذلك ؛ فهذا إلحاد ؛ لأنه ميل بها عما يجب فيها ؛ إذ الواجب إثباتها بلا تمثيل .

النوع الخامس : أن ينقلها إلى المعبودات ، أو يشتق أسماء منها للمعبودات ؛ مثل أن يسمى شيئًا معبودًا بالإله ، فهذا إلحاد ، أو يشتق منها أسماء للمعبودات مثل : اللات من الإله ، والعُزى من العزيز ، ومناة من المنان ؛ فنقول : هذا أيضًا إلحاد في أسماء الله ؛ لأن الواجب عليك أن تجعل أسماء الله خاصة به ، ولا تتعدى وتتجاوز فتشتق للمعبودات منها أسماء . هذه أنواع الإلحاد في أسماء الله .

فأهل السنة والجماعة لا يلحدون في أسماء الله أبدًا بل يجرونها على ما أراد الله بها سبحانه وتعالى ويثبتون لها جميع أنواع الدلالات ؛ لأنهم يرون أن ما خالف ذلك ؛ فهو إلحاد .

- وأما الإلحاد في آيات الله تعالى ؛ فالآيات جمع آية ، وهي العلامة المميزة للشيء عن غيره ، والله ﷻ بعث الرسل بالآيات لا بالمعجزات ، لهذا كان التعبير بالآيات أحسن من التعبير بالمعجزات .

أولا : لأن الآيات هي التي يُعبر بها في الكتاب والسنة .

ثانيًا : أن المعجزات قد تقع من ساحر ومشعوذ وما أشبه ذلك تُعجز غيره .

ثالثًا : أن كلمة (آيات) أدل على المعنى المقصود من كلمة معجزات ؛ فآيات الله ﷻ هي العلامات الدالة على الله ﷻ ، وحينئذٍ تكون خاصة به ولولا أنها خاصة ؛ ما صارت آية له .

وآيات الله ﷻ تنقسم إلى قسمين : آيات كونية ، وآيات شرعية :

فالآيات الكونية : ما يتعلق بالخلق والتكوين ، مثال ذلك قوله : ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت : ٣٧] ، ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم : ٢٠] ، ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم : ٢٢- ٢٥] . فهذه الآيات كونية وإن شئت ؛ فقل :

كونية قدرية ، وكانت آية لله ؛ لأنه لا يستطيع الخلق أن يفعلوها ؛ فمثلا : لا يستطيع أحد أن يخلق مثل الشمس والقمر ، ولا يستطيع أن يأتي بالليل إذا جاء النهار ، ولا بالنهار إذا جاء الليل ؛ فهذه الآيات كونية .

والإلحاد فيها أن ينسبها إلى غير الله استقلالا أو مشاركة أو إعانة ، فيقول : هذا من الولى الفلاني ، أو : من النبي الفلاني ، أو : شارك فيه النبي الفلاني أو الولي الفلاني ، أو : أعان الله فيه . قال الله تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ : ٢٢] . فنفى كل شيء يتعلق به المشركون بكون معبوداتهم لا تملك شيئًا في السماوات والأرض استقلالا أو مشاركة ولا معينة لله ﷻ ، ثم جاء بالرابع : ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ : ٢٣] ؛ لما كان المشركون قد يقولون : نعم ؛ هذه الأصنام لا تملك ولا تشارك ولم تعاون ، لكنها شفعاء ؛ قال : ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ ؛ فقطع كل سببٍ يتعلق به المشركون .

القسم الثاني من الآيات : الآيات الشرعية ، وهي ما جاءت به الرسل من الوحي ؛ كالقرآن العظيم وهو آية ؛ لقوله تعالى : ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة : ٢٥٢] ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت : ٥٠، ٥١] ؛ فجعله آيات .

ويكون الإلحاد فيها إما بتكذيبها أو تحريفها أو مخالفتها ؛ فتكذيبها : أن يقول : ليست من عند الله . فيكذب بها أصلا ، أو يكذب بما جاء فيها من الخبر مع تصديقه بالأصل ، فيقول مثلا : قصة أصحاب الكهف ليست صحيحة ، وقصة أصحاب الفيل ليست صحيحة ، والله لم يرسل عليهم طيرًا أبابيل . وأما التحريف ؛ فهو تغيير لفظها ، أو صرف معناها عما أراد الله بها ورسوله ؛ مثل أن يقول : استوى على العرش ؛ أي : استولى . أو : ينزل إلى السماء الدنيا ؛ أي : ينزل أمره .

وأما مخالفتها ؛ فبترك الأوامر أو فعل النواهي .

قال الله تعالى في المسجد الحرام : ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج : ٢٥] ؛ فكل المعاصي إلحاد في الآيات الشرعية ؛ لأنه خروج بها عما يجب لها ؛ إذ الواجب علينا أن نمتثل الأوامر وأن نجتنب النواهي ، فإن لم نقم بذلك ؛ فهذا إلحاد .

قوله : (ولا يكيِّفون) :

أي : أهل السنة والجماعة ، وسبق أن التكييف ذكر كيفية الصفة ، سواء ذكرتها بلسانك أو بقلبك ؛ فأهل السنة والجماعة لا يكيفون أبدًا ؛ يعني : لا يقولون : كيفية يده كذا وكذا ، ولا كيفية

وجهه كذا وكذا . فلا يكيفون هذا باللسان ولا بالقلب أيضًا ؛ يعنى : نفس الإنسان لا يتصور كيف استوى الله ﷻ ، أو كيف ينزل ، أو كيف وجهه ، أو كيف يده ، ولا يجوز أن يُحاول ذلك أيضًا ؛ لأن هذا يؤدى إلى أحد أمرين : إما التمثيل ، وإما التعطيل .

ولهذا لا يجوز للإنسان أن يحاول معرفة كيفية استواء الله على العرش ، أو يقوله بلسانه ، بل ولا يسأل عن الكيفية؛ لأن الإمام مالكًا رحمه الله قال : « السؤال عنه بدعة » . لا تقل : كيف استوى ؟ كيف ينزل ؟ كيف يأتى ؟ كيف وجهه ؟ إن فعلت ذلك ؛ قلنا : إنك مبتدعٌ . وقد سبق ذكر الدليل على تحريم التكييف ، وذكرنا الدليل على ذلك من السمع والعقل .

« ولا يمثلون » ؛ أى : أهل السنة والجماعة : « صفاته بصفات خلقه » ، وهذا معنى قوله فيما سبق : « من غير تمثيل » وسبق لنا امتناع التمثيل سمعًا وعقلا ، وأن السمع ورد خبرًا وطلبًا فى نفى التمثيل ؛ فهم لا يكيفون ولا يمثلون .

قوله : (لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفو له ، ولا ندَّ له) :

(سبحان) : اسم مصدر سبح والمصدر تسبيح ؛ فـ : (سبحان) بمعنى تسبيح ، لكنها بغير اللفظ ، وكل ما دل على معنى المصدر وليس بلفظه ؛ فهو اسم مصدر ؛ كـ : سبحان من سبح ، وكلام من كلّم ، وسلام من سلم . وإعرابها مفعول مطلق منصوب على المفعولية المطلقة ، وعاملها محذوف دائما .

ومعنى (سبح) ؛ قال العلماء معناها : نزّه ، أصلها من السبح وهو البعد ، كأنك تبعد صفات النقص عن الله ﷻ ؛ فهو سبحانه وتعالى منزه عن كل نقص .

دليل ذلك قوله تعالى : ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] : ﴿هَلْ﴾ استفهام ، لكنه بمعنى النفى ويأتى النفى بصيغة الاستفهام لفائدة عظيمة ، وهى التحدى ؛ لأن هناك فرقًا بين أن أقول : لا سمى له . و : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ . لأن ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ متضمن للنفى وللتحدى أيضًا ؛ فهو مُشرَب معنى التحدى ، وهذه قاعدة مهمة : كلما كان الاستفهام بمعنى النفى ؛ فهو مُشرَب معنى التحدى ؛ كأنى أقول : إن كنت صادقًا ؛ فأتنى بسَمِى له . وعلى هذا ؛ فـ : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ : أبلغ من : « سَمِيٌّ له » .

والسمى : هو المسامى ؛ أى : المماثل .

الدليل قوله تعالى : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص : ٤] .

الدليل قوله تعالى : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٢٢] ؛ أى : تعلمون أنه لا ند له والنِّد بمعنى النظير .

وهذه الثلاثة – السَّمى والكُفء والنِّد – معناها متقارب جدًّا ؛ لأن معنى الكفء : الذى يكافئه ،

ولا يكافئ الشيءُ الشيءَ إلا إذا كان مثله ، فإن لم يكن مثله ؛ لم يكن مكافئًا له ، إذن : لا كفء له ؛ أي : ليس له مثيل سبحانه وتعالى .

وهذا النفي المقصود منه كمال صفاته ؛ لأنه لكمال صفاته لا أحد يماثله .

قوله : (ولا يُقاس بخلقه سبحانه) :

القياس ينقسم إلى ثلاثة أقسام : قياس شمول ، وقياس تمثيل ، وقياس أولوية ؛ فهو سبحانه وتعالى لا يقاس بخلقه قياس تمثيل ولا قياس شمول :

١ - قياس الشمول : هو ما يعرف بالعام الشامل لجميع أفراده ؛ بحيث يكون كل فرد منه داخلًا في مسمى ذلك اللفظ ومعناه ؛ فمثلًا : إذا قلنا : الحياة ؛ فإنه لا تقاس حياة اللَّه تعالى بحياة الخلق من أجل أن الكل يشمله اسم (حي) .

٢ - وقياس التمثيل : هو أن يلحق الشيء بمثيله فيجعل ما ثبت للخالق مثل ما ثبت للمخلوق .

٣ - وقياس الأولوية : هو أن يكون الفرع أولى بالحكم من الأصل ، ولهذا يقول العلماء : إنه مستعمل في حق اللَّه ؛ لقوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل : ٦٠] ؛ بمعنى كل صفة كمال ؛ فللَّه تعالى أعلاها ، والسمع والعلم والقدرة والحياة والحكمة وما أشبهها موجودة في المخلوقات ، لكن للَّه أعلاها وأكملها . ولهذا أحيانًا نستدل بالدلالة العقلية من زاوية القياس بالأولى ؛ فمثلا : نقول : العلو صفة كمال في المخلوق ، فإذا كان صفة كمال في المخلوق ؛ فهو في الخالق من باب أولى وهذا دائمًا نجده في كلام العلماء .

فقول المؤلف رحمه الله : « ولا يقاس بخلقه » . بعد قوله : « لا سمي له ولا كفء له ، ولا ند له » . يعني : القياس المقتضي للمساواة وهو قياس الشمول وقياس التمثيل .

إذن ؛ يمتنع القياس بين اللَّه وبين الخلق للتباين بينهما ، وإذا كنا في الأحكام لا نقيس الواجب على الجائز ، أو الجائز على الواجب ؛ ففي باب الصفات بين الخالق والمخلوق من باب أولى .

لو قال لك قائل : اللَّه موجود ، والإنسان موجود ، ووجود اللَّه كوجود الإنسان بالقياس .

فنقول : لا يصح ؛ لأن وجود الخالق واجب ، ووجود الإنسان ممكن .

فلو قال : أقيس سمع الخالق على سمع المخلوق .

نقول : لا يمكن ؛ سمع الخالق واجب له لا يعتريه نقص ، وهو شامل لكل شيء ، وسمع الإنسان ممكن ؛ إذ يجوز أن يولد الإنسان أصم ، والمولود سميعًا يلحقه نقص السمع ، وسمعه محدود .

إذن ؛ لا يمكن أن يقاس اللَّه بخلقه ؛ فكل صفات اللَّه لا يمكن أن تقاس بصفات خلقه ؛ لظهور التباين العظيم بين الخالق وبين المخلوق .

قوله : (فإنه سبحانه أعلمُ بنفسه وبغيره ، وأصدقُ قِيلًا ، وأحسنُ حديثًا من خلقه) :

قال المؤلف هذا تمهيدًا وتوطئة لوجوب قَبول ما دل عليه كلام الله تعالى من صفاته وغيرها ، وذلك أنه يجب قبول ما دل عليه الخبر إذا اجتمعت فيه أوصاف أربعة :

الأول : أن يكون صادرًا عن علم ، وإليه الإشارة بقوله : « فإنه أعلم بنفسه وبغيره » .

الثاني : الصدق ، وأشار إليه بقوله: « وأصدق قيلًا » .

الوصف الثالث : البيان والفصاحة ، وأشار إليه بقوله : « وأحسن حديثًا » .

الوصف الرابع : سلامة القصد والإرادة ؛ بأن يريد المخبر هداية من أخبرهم .

فدليل الأول – وهو العلم – : قوله تعالى : ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ﴾ [الإسراء : ٥٥] ؛ فهو أعلم بنفسه وبغيره من غيره ؛ فهو أعلم بك من نفسك ؛ لأنه يعلم ما سيكون لك فى المستقبل ، وأنت لا تعلم ماذا تكسب غدًا ؟

وكلمة ﴿أَعْلَمُ﴾ هنا اسم تفضيل ، ولقد تحاشاها بعض العلماء وفسر ﴿أَعْلَمُ﴾ بـ : (عالم) ، فقال : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل : ١٢٥] ؛ أى هو عالم بمن ضل عن سبيله وهو عالم بالمهتدين . قال : لأن ﴿أَعْلَمُ﴾ اسم تفضيل وهو يقتضى اشتراك المفضل والمفضل عليه ، وهذا لا يجوز بالنسبة لله ، لكن (عالم) اسم فاعل وليس فيه مقارنة ولا تفضيل .

فنقول له : هذا غلط ؛ فالله يعبِّر عن نفسه ويقول : ﴿أَعْلَمُ﴾ . وأنت تقول : عالم ! وإذا فسرنا ﴿أَعْلَمُ﴾ بـ : (عالم) ؛ فقد حططنا من قدر علم الله ؛ لأن (عالم) يشترك فيها غير الله على سبيل المساواة ، لكن : ﴿أَعْلَمُ﴾ مقتضاه ألَّا يساويه أحد فى هذا العلم ؛ فهو أعلم من كل عالم ، وهذا أكمل فى الصفة بلا شك .

ونقول له : إن اللغة العربية بالنسبة لاسم الفاعل لا تمنع المساواة فى الوصف ، لكن بالنسبة لاسم التفضيل تمنع المشاركة فيما دلَّ عليه .

ونقول أيضًا : فى باب المقارنة لا بأس أن نقول : أعلم ؛ بمعنى : أن تأتى باسم التفضيل ، ولو فرض خلو المفضل عليه من ذلك المعنى ؛ كما قال الله تعالى : ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان : ٢٤] ؛ فجاء باسم التفضيل ، مع أن المفضل عليه ليس فيه شىء منه إطلاقًا .

وفى باب مجادلة الخصم ومحاجَّته يجوز أن نأتى باسم التفضيل ، وإن كان المفضل عليه ليس فيه شىء منه ؛ قال الله تعالى : ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل : ٥٩] . ومعلوم أن ما يشركون ليس فيه خير ، وقال يوسف : ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف : ٣٩] ، والأرباب ليس فيها خير .

فالحاصل أن نقول : إن ﴿أَعْلَمُ﴾ الواردة فى كتاب الله يراد بها معناها الحقيقى ، ومن فسرها بـ : (عالم) ؛ فقد أخطأ من حيث المعنى ومن حيث اللغة العربية .

ودليل الوصف الثانى - الصدق : قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ أى : لا أحد أصدق منه ، والصدق مطابقة الكلام للواقع ، ولا شيء من الكلام يطابق الواقع كما يطابقه كلام الله سبحانه وتعالى ؛ فكل ما أخبر الله به ؛ فهو صدق ، بل أصدق من كل قول .

ودليل الوصف الثالث - البيان والفصاحة : قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ وحسن حديثه يتضمن الحسن اللفظى والمعنوى .

ودليل الوصف الرابع - سلامة القصد والإرادة : قوله تعالى : ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦] ، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٦] .

فاجتمع فى كلام الله الأوصاف الأربعة التى توجب قبول الخبر .

وإذا كان كذلك ؛ فإنه يجب أن نقبل كلامه على ما هو عليه ، وألّا يلحقنا شك فى مدلوله ؛ لأن الله لم يتكلم بهذا الكلام لأجل إضلال الخلق ، بل ليبين لهم ويهديهم ، وصدر كلام الله عن نفسه أو عن غيره من أعلم القائلين ، ولا يمكن أن يعتريه خلاف الصدق ، ولا يمكن أن يكون كلامًا عييًا غير فصيح ، وكلام الله لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ؛ لما استطاعوا ؛ فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة فى الكلام ؛ وجب على المخاطب القبول بما دل عليه .

مثال ذلك : قوله تعالى مخاطبًا إبليس : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] ؛ قال قائل : فى هذه الآية إثبات يدين لله ﷻ يخلق بهما من شاء فنثبتهما ؛ لأن كلام الله ﷻ صادر عن علم وصدق ، وكلامه أحسن الكلام وأفصحه وأبينه ، ولا يمكن ألّا يكون له يدان لكن أراد من الناس أن يعتقدوا ذلك فيه ، ولو فرض هذا ؛ لكان مقتضاه أن القرآن ضلال ؛ حيث جاء بوصف الله بما ليس فيه ، وهذا ممتنع ؛ فإذا كان كذلك ؛ وجب عليك أن تؤمن بأن للهِ تعالى يدين اثنتين خلق بهما آدم .

وإذا قلت : المراد بهما النعمة أو القدرة .

قلنا : لا يمكن أن يكون هذا هوالمراد ؛ إلا إذا اجترأت على ربك ووصفت كلامه بضد الأوصاف الأربعة التى قلنا ؛ فنقول : هل الله ﷻ حينما قال : ﴿بِيَدَيَّ﴾ : عالم بأن له يدين ؟ فسيقول : هو عالم . فنقول : هل هو صادق ؟ فسيقول : هو صادق بلا شك . ولا يستطيع أن يقول : هو غير عالم ، أو : غير صادق ، ولا أن يقول : عبر بهما وهو يريد غيرهما عيًا وعجزًا ، ولا أن يقول : أراد من خلقه أن يؤمنوا بما ليس فيه من الصفات إضلالًا لهم ! فنقول له : إذن ؛ ما الذى يمنعك أن تثبت لله اليدين ؟ ! فاستغفر ربك وتب إليه ، وقل : آمنت بما أخبر الله به عن نفسه ؛ لأنه أعلم بنفسه وبغيره ، وأصدق قيلًا ،

وأحسن حديثًا من غيره وأتم إرادة من غيره أيضًا .

ولهذا أتى المؤلف رحمه الله بهذه الأصناف الثلاثة ونحن زدنا الوصف الرابع ، وهو : إرادة البيان للخلق وإرادة الهداية لهم ؛ لقوله تعالى : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء : ٢٦] .

هذا حكم ما أخبر الله به عن نفسه بكلامه الذى هو جامع للكمالات الأربع فى الكلام ، أما ما أخبرت به الرسل فقال المؤلف : « ثم رسله صادقون مصدقون . . . » .

قوله : (ثم رسله صادقون مصدقون) :

الصادق : المخبر بما طابق الواقع ؛ فكل الرسل صادقون فيما أخبروا به، ولكن: لابد أن يثبت السند إلى الرسل عليهم السلام ؛ فإذا قالت اليهود : قال موسى كذا وكذا . فلا نقبل ؛ حتى نعلم صحة سنده إلى موسى . وإذا قالت النصارى : قال عيسى كذا وكذا . فلا نقبل ، حتى نعلم صحة السند إلى عيسى . وإذا قال قائل : قال محمد رسول الله كذا وكذا . فلا نقبل ، حتى نعلم صحة السند إلى محمد . فرسله صادقون فيما يقولون ؛ فكل ما يخبرون به عن الله وعن غيره من مخلوقاته ؛ فهم صادقون فيه ، لا يكذبون أبدًا . ولهذا أجمع العلماء على أن الرسل عليهم الصلاة والسلام معصومون من الكذب .

« مَصْدوقون » أو : « مُصَدَّقون » : نسختان : أما على نسخة « مصدوقون » ؛ فالمعنى أن ما أوحى إليهم ؛ فهو صدق ، والمَصدُوق : الذى أخبر بالصدق والصادق : الذى جاء بالصدق ، ومنه قول الرسول عليه الصلاة والسلام لأبى هريرة حين قال له الشيطان : إنك إذا قرأت آية الكرسى ؛ لم يزل عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان . حتى قال له : « صدقك وهو كذوب »[1] ؛ يعنى : أخبرك بالصدق . فالرسل مصدوقون ، كل ما أوحى إليهم ؛ فهو صدق ، ما كذبهم الذى أرسلهم ولا كذبهم الذى أرسل إليهم ، وهو جبريل عليه الصلاة والسلام ، ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير : ١٩- ٢١] .

وأما على نسخة : « مُصَدَّقون » ، فالمعنى أنه يجب على أممهم تصديقهم ، وعلى هذا يكون معنى « مصدقون » ؛ أى : شرعًا ؛ يعنى : يجب أن يصدقوا شرعًا ؛ فمن كذب بالرسل أو كذبهم ؛ فهو كافر ، ويجوز أن يكون « مصدقون » له وجه آخر ؛ أى أن الله تعالى صدقهم . ومعلوم أن الله تعالى صدَّق الرسل ؛ صدَّقهم بقوله وبفعله :

أما بقوله ؛ فإن الله قال لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء : ١٦٦] ، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ [المنافقون : ١] ؛ فهذا تصديق بالقول .

(١) أخرجه البخارى (٣٢٧٥) .

أما تصديقه بالفعل ؛ فبالتمكين له ، وإظهار الآيات ؛ فهو يأتي للناس يدعوهم إلى الإسلام ، فإن لم يقبلوا ، فالجزية ، فإن لم يقبلوا ؛ استباح دماءهم ونساءهم وأموالهم ، والله تعالى يمكّن له ، ويفتح عليه الأرض أرضًا بعد أرض ، وحتى بلغت رسالته مشارق الأرض ومغاربها ؛ فهذا تصديق من الله بالفعل ، كذلك أيضًا ما يجريه الله على يديه من الآيات هو تصديق له سواء كانت الآيات شرعية أم كونية ؛ فالشرعية كان دائمًا يسأل عن الشيء وهو لا يعلمه ، فيُنزل الله الجواب : ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] ؛ إذن هذا تصديق بأنه رسول ولو كان غير رسول ؛ ما أجاب الله ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧] . فالجواب : ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ﴾ . . . إلخ ؛ فهذا تصديق من الله ﷻ .

والآيات الكونية ظاهرة جدًا وما أكثر الآيات الكونية التى أيد الله بها رسوله ؛ سواء جاءت لسبب أو لغير سبب ، وهذا معروف فى السيرة . ففهمنا من كلمة : « مصدقون » : أنهم مصدَّقون من قِبَل الله بالآيات الكونية والشرعية ، مصدقون من قبل الخلق ؛ أى : يجب أن يصدقوا وإنما حملنا ذلك على التصديق شرعًا ؛ لأن من الناس من صدق ومن الناس من لم يصدق ، لكن الواجب التصديق .

قوله : (بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون) :

فهؤلاء كاذبون أو ضالون ؛ لأنهم قالوا ما لا يعلمون .

وكأن المؤلف يشير إلى أهل التحريف ؛ لأن أهل التحريف قالوا على الله ما لا يعلمون من وجهين : قالوا : إنه لم يرد كذا وأراد كذا ! فقالوا فى السلب والإيجاب بما لا يعلمون .

مثلًا : قالوا : لم يرد بالوجه الحقيقى !! فهنا قالوا على الله ما لا يعلمون بالسلب ، ثم قالوا : والمراد بالوجه الثواب ! فقالوا على الله ما لا يعلمون فى الإيجاب .

وهؤلاء الذين يقولون على الله ما لا يعلمون لا يكونون صادقين ولا مصدوقين ولا مصدَّقين بل قامت الأدلة على أنهم كاذبون مكذوبون بما أوحى إليهم الشيطان .

قوله : (ولهذا قال سبحانه وتعالى : « سبحان ربك رب العزة عما يصفون .... ») :

قوله : « ولهذا » ؛ أى : لأجل كمال كلامه وكلام رسله .

قوله : « سبحان ربك » : سبق معنى التسبيح وهو تنزيه الله عن كل ما لا يليق به .

قوله : « ربك » : أضاف الربوبية إلى محمد ﷺ وهى ربوبية خاصة ، من باب إضافة الخالق إلى المخلوق .

قوله : « رب العزة » من باب إضافة الموصوف إلى الصفة ، ومن المعروف أن كل مربوب مخلوق

وهنا قال : ﴿رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ﴾ ، وعزة الله غير مخلوقة ؛ لأنها من صفاته ؛ فنقول : هذه من باب إضافة الموصوف إلى الصفة وعلى هذا ؛ فـ : ﴿رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ﴾ هنا معناها : صاحب العزة ؛ كما يقال : رب الدار . أى : صاحب الدار .

قوله : « عما يصفون » : يعنى : عما يصفه المشركون ؛ كما سيذكره المؤلف .

قوله : « وسلام على المرسلين » أى : على الرسل .

قوله : « والحمد لله رب العالمين » حمد الله نفسه ﷻ بعد أن نزهها ؛ لأن فى الحمد كمال الصفات ، وفى التسبيح تنزيه عن العيوب ؛ فجمع فى الآية بين التنزيه عن العيوب بالتسبيح ، وإثبات الكمال بالحمد .

قوله : (فسبَّح نفسَه عمَّا وَصَفه به المُخالِفون للرُّسُلِ ، وسلَّم على المُرْسَلِين لسلامةِ ما قالوه مِن النقصِ والعيبِ) :

معنى هذه الجملة واضح ، وبقى أن يقال : وحمد نفسه لكمال صفاته بالنسبة لنفسه وبالنسبة لرسله ؛ فإنه سبحانه محمود على كمال صفاته وعلى إرسال الرسل ؛ لما فى ذلك من رحمة الخلق والإحسان إليهم .

قوله : (وهو سبحانَه قد جمَع فيما وصَف ، وسمَّى به نفسَه بينَ النفيِ والإثباتِ) :

بيَّن المؤلف رحمه الله فى هذه الجملة أن الله تعالى جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفى والإثبات ، وذلك لأن تمام الكمال لا يكون إلا بثبوت صفات الكمال وانتفاء ما يضادها من صفات النقص ؛ فأفادنا رحمه الله أن الصفات قسمان :

١ - صفات مثبتة : وتسمى عندهم : الصفات الثبوتية .

٢- وصفات منفية : ويسمونها : الصفات السلبية ، من السلب وهو النفى ، ولا حرج من أن نسميها سلبية ، وإن كان بعض الناس توقف وقال : لا نسميها سلبية ، بل نقول : منفية .

فنقول : ما دام السلب فى اللغة بمعنى النفى ؛ فالاختلاف فى اللفظ ولا يضر .

فصفات الله ﷻ قسمان : ثبوتية وسلبية ، أو إن شئت ؛ فقل : مثبتة ومنفية ، والمعنى واحد .

فالمثبتة : كل ما أثبته الله لنفسه ، وكلها صفات كمال ، ليس فيها نقص بوجه من الوجوه ، ومن كمالها ألا يمكن أن يكون ما أثبته دالًّا على التمثيل ؛ لأن المماثلة للمخلوق نقص .

وإذا فهمنا هذه القاعدة ؛ عرفنا ضلال أهل التحريف ، الذين زعموا أن الصفات المثبتة تستلزم التمثيل ؛ ثم أخذوا ينفونها فرارًا من التمثيل .

ومثاله : قالوا : لو أثبتنا لله وجهًا ؛ لزم أن يكون مماثلًا لأوجه المخلوقين ؛ وحينئذ يجب تأويل معناه إلى معنى آخر لا إلى الوجه الحقيقى .

فنقول لهم : كل ما أثبت الله لنفسه من الصفات ؛ فهو صفة كمال ولا يمكن أبدًا أن يكون فيما أثبته الله لنفسه من الصفات نقص . ولكن ؛ إذا قال : هل الصفات توقيفية كالأسماء ، أو هي اجتهادية ؛ بمعنى أنه يصح لنا أن نصف الله سبحانه وتعالى بشيء لم يصف به نفسه ؟

فالجواب أن نقول : إن الصفات توقيفية على المشهور عند أهل العلم ؛ كالأسماء ؛ فلا تصف الله إلا بما وصف به نفسه .

وحينئذ نقول : الصفات تنقسم إلى ثلاثة أقسام : صفة كمال مطلق ، وصفة كمال بقيد ، وصفة نقص مطلق . أما صفة الكمال على الإطلاق ؛ فهي ثابتة لله ﷻ ؛ كالمتكلم ، والفعال لما يريد ، والقادر .. ونحو ذلك .

وأما صفة الكمال بقيد ؛ فهذه لا يوصف الله بها على الإطلاق ، إلا مقيدًا ؛ مثل : المكر ، والخداع ، والاستهزاء .. وما أشبه ذلك ؛ فهذه الصفات كمال بقيد ، إذا كانت في مقابلة من يفعلون ذلك ؛ فهي كمال ، وإن ذكرت مطلقة ؛ فلا تصح بالنسبة لله ﷻ ، ولهذا لا يصح إطلاق وصفه بالماكر أو المستهزئ أو الخادع ، بل تقيد فنقول : ماكر بالماكرين ، مستهزئ بالمنافقين ، خادع للمنافقين ، كائد للكافرين ؛ فتقيدها لأنها لم تأت إلا مقيدة .

وأما صفة النقص على الإطلاق ؛ فهذه لا يوصف الله بها بأي حال من الأحوال ؛ كالعاجز والخائن والأعمى والأصم ؛ لأنها نقص على الإطلاق ؛ فلا يوصف الله بها وانظر إلى الفرق بين خادع وخائن ؛ قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء : ١٤٢] ؛ فأثبت خداعه لمن خادعه لكن قال في الخيانة : ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال : ٧١] ولم يقل : فخانهم ؛ لأن الخيانة خداع في مقام الائتمان ، والخداع في مقام الائتمان نقص ، وليس فيه مدح أبدًا . فإذن ؛ صفات النقص منفية عن الله مطلقًا .

والصفات المأخوذة من الأسماء هي كمال بكل حال ويكون الله ﷻ قد اتصف بمدلولها ؛ فالسمع صفة كمال دل عليها اسمه السميع ؛ فكل صفة دلت عليها الأسماء ؛ فهي صفة كمال مثبتة لله على سبيل الإطلاق ، وهذه نجعلها قسمًا منفصلًا ؛ لأنه ليس فيها تفصيل ، وغيرها تنقسم إلى الأقسام الثلاثة التي سلف ذكرها ، ولهذا لم يسم الله نفسه بالمتكلم مع أنه يتكلم ؛ لأن الكلام قد يكون خيرًا ، وقد يكون شرًا ، وقد لا يكون خيرًا ولا شرًا ؛ فالشر لا ينسب إلى الله ، واللغو كذلك لا ينسب إلى الله ؛ لأنه سفه ، والخير ينسب إليه ، ولهذا لم يسم نفسه بالمتكلم ؛ لأن الأسماء كما وصفها الله ﷻ : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف : ١٨٠] ؛ ليس فيها أي شيء من النقص ولهذا جاءت باسم التفضيل المطلق .

إذا قال قائل : فهمنا الصفات وأقسامها ؛ فما الطريق لإثبات الصفة ما دمنا نقول : إن الصفات توقيفية ؟

فنقول : هناك عدة طرق لإثبات الصفة :

الطريق الأول : دلالة الأسماء عليها ؛ لأن كل اسم ؛ فهو متضمن لصفة ، ولهذا قلنا فيما سبق : إن كل اسم من أسماء الله دال على ذاته وعلى الصفة التى اشتق منها .

الطريق الثانى : أن ينص على الصفة ؛ مثل الوجه ، واليدين ، والعينين .. وما أشبه ذلك ؛ فهذه بنص من الله ﷻ ، ومثل الانتقام ، فقال عنه تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [ابراهيم : ٤٧] ، ليس من أسماء الله المنتقم ؛ خلافًا لما يوجد فى بعض الكتب التى فيها عد أسماء الله ؛ لأن الانتقام ما جاء إلا على سبيل الوصف أو اسم الفاعل مقيدًا ؛ كقوله : ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة : ٢٢] .

الطريق الثالث : أن تؤخذ من الفعل ؛ مثل : المتكلم ؛ فنأخذها من ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء : ١٦٤] .

هذه هى الطرق التى تثبت بها الصفة وبناء على ذلك نقول : الصفات أعم من الأسماء ؛ لأن كل اسم متضمن لصفة ، وليس كل صفة متضمنة لاسم .

وأما الصفات المنفية عن الله ﷻ ؛ فكثيرة ولكن الإثبات أكثر ؛ لأن صفات الإثبات كلها صفات كمال ، وكلما تعددت وتنوعت ؛ ظهر من كمال الموصوف ما هو أكثر ، وصفات النفى قليلة ، ولهذا نجد أن صفات النفى تأتى كثيرًا عامة ، غير مخصصة بصفة معينة ، والمخصص بصفة لا يكون إلا لسبب ؛ مثل تكذيب المدعين بأن الله اتصف بهذه الصفة التى نفاها عن نفسه أو دفع توهم هذه الصفة التى نفاها .

فالقسم الأول العامة ؛ كقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ؛ قال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فى علمه وقدرته وسمعه وبصره وعزته وحكمته ورحمته .. وغير ذلك من صفاته ؛ فلم يفصل ، بل قال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ، وهذا النفى العام المجمل يدل على كمال مطلق ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فى كل كمالٍ .

أما إذا كان مفصلًا ؛ فلا تجده إلا لسبب ؛ كقوله : ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ [المؤمنون : ٩١] ؛ ردًّا لقول من قال : إن لله ولدًا وقوله : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص : ٣] كذلك وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق : ٣٨] ؛ لأنه قد يفرض الذهن الذى لا يقدر الله حق قدره أن هذه السماوات العظيمة والأرض العظيمة إذا كان خلقها فى ستة أيام ؛ فسيلحقه التعب ؛ فقال : ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ ؛ أى : من تعب وإعياء .

فتبين بهذا أن النفى لا يرد فى صفات الله ﷻ إلا على سبيل العموم أو على سبيل الخصوص لسبب ؛ لأن صفات السلب لا تتضمن الكمال إلا إذا كانت متضمنة لإثبات ، ولهذا نقول : الصفات السلبية التى نفاها الله عن نفسه متضمنة لثبوت كمال ضدها ؛ فقوله : ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ . متضمن كمال القوة والقدرة وقوله : ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف : ٤٩] . متمضن لكمال العدل وقوله : ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة : ٨٥] . متضمن لكمال العلم والإحاطة .. وهلم جرا ؛ فلابد أن تكون الصفة المنفية متضمنة لثبوت ، وذلك الثبوت هو كمال ضد ذلك المنفى وإلا ؛ لم تكن مدحًا .

لا يوجد فى الصفات المنفية عن الله نفى مجرد ؛ لأن النفى المجرد عدم والعدم ليس بشىء ؛ فلا يتضمن مدحًا ولا ثناء ؛ ولأنه قد يكون للعجز عن تلك الصفة فيكون ذمًّا ، وقد يكون لعدم القابلية ؛ فلا يكون مدحًا ولا ذمًّا .

مثال الأول الذى للعجز قول الشاعر :

قبيلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

ومثال الثانى الذى لعدم القابلية : أن تقول : إن جدارنا لا يظلم أحدًا .

والواجب علينا نحو هذه الصفات التى أثبتها الله لنفسه والتى نفاها أن نقول : سمعنا وصدقنا وآمنا . هذه هى الصفات فيها مثبت وفيها منفى ، أما الأسماء فكلها مثبتة .

لكن أسماء الله تعالى المثبتة منها ما يدل على معنى إيجابى ، ومنها ما يدل على معنى سلبى ، وهذا هو مورد التقسيم فى النفى والإثبات بالنسبة لأسماء الله .

فمثال التى مدلولها إيجابى كثير .

ومثال التى مدلولها سلبى : السلام . ومعنى السلام ؛ قال العلماء : معناه : السالم من كل عيب .

إذن ؛ فمدلوله سلبى ؛ بمعنى : ليس فيه نقص ولا عيب ، وكذلك القدوس قريب من معنى السلام ؛ لأن معناه المنزه عن كل نقص وعيب .

فصارت عبارة المؤلف سليمة وصحيحة وهو لا يريد بالنسبة للأسماء أن هناك أسماء منفية ؛ لأن الاسم المنفى ليس باسم لله ، لكن مراده أن مدلولات أسماء الله ثبوتية وسلبية .

قوله : (فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاءت به المرسلون) :

العدول : معناه الانصراف والانحراف ؛ فأهل السنة والجماعة لا يمكن أن يعدلوا عما جاءت به الرسل .

وإنما جاء المؤلف بهذا النفى ؛ ليبين أنهم لكمال اتباعهم ﷺ لا يمكن أن يعدلوا عما جاءت به

الرسل ؛ فهم مستمسكون تمامًا ، وغير منحرفين إطلاقًا ، عما جاءت به الرسل ، بل طريقتهم أنهم يقولون : سمعنا وأطعنا فى الأحكام وسمعنا وصدقنا فى الأخبار .

ما جاء به محمد ﷺ واضح أننا لا نعدل عنه ؛ لأنه خاتم النبيين ، وواجب فعلى جميع العباد أن يتبعوه ، لكن ما جاء عن غيره ؛ هل لأهل السنة والجماعة عدول عنه ؟ لا عدول لهم عنه ؛ لأن ما جاء عن الرسل عليهم الصلاة والسلام فى باب الأخبار لا يختلف ؛ لأنهم صادقون ولا يمكن أن يُنسخ ؛ لأنه خبر ؛ فكل ما أخبرت به الرسل عن الله ﷻ ؛ فهو مقبول وصدق ويجب الإيمان به .

مثلًا : قال موسى لفرعون لما قال له : ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه : ٥١، ٥٢] ؛ فنفى عن الله الجهل والنِّسيان ؛ فنحن يجب علينا أن نصدق بذلك ؛ لأنه جاء به رسول من الله ، ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه : ٤٩، ٥٠] ؛ فلو سألنا سائل : من أين علمنا أن الله أعطى كل شيء خلقه ؟ فنقول : من كلام موسى ، فنؤمن بذلك ، ونقول : أعطى كل شيء خلقه اللائق به ؛ فالإنسان على هذا الوجه ، والبعير على هذا الوجه ، والبقرة على هذا الوجه ، والضأن على هذا الوجه ، ثم هدى كل مخلوق إلى مصالحه ومنافعه ؛ فكل شيء يعرف مصالحه ومنافعه ؛ فالنملة فى أيام الصيف تُدَّخر قُوتَها فى جحورها ، ولكن لا تدخر الحب كما هو ، بل تقطم رءوسه ؛ لئلا ينبت ؛ لأنه لو نبت ؛ لفسد عليها ، وإذا جاء المطر وابتل هذا الحب الذى وضعته فى الجحور ؛ فإنها لا تبقيه يأكله العفن والرائحة ، بل تنشره خارج جحرها حتى ييبس من الشمس والريح ، ثم تدخله !

لكن يجب التنبيه إلى أن ما نُسب للأنبياء السابقين يُحتاج فيه إلى صحة النقل ؛ لاحتمال أن يكون كذبًا ؛ كالذى نسب إلى رسول الله ﷺ وأولى ، وقوله رحمه الله : « عما جاء به المرسلون » . هل يشمل هذا الأحكام أو أن الكلام الآن فى باب الصفات ؛ فيختص بالأخبار ؟

إن نظرنا إلى عموم اللفظ ؛ قلنا : يشمل الأخبار والأحكام .

وإن نظرنا إلى السياق ؛ قلنا : القرينة تقتضى أن الكلام فى باب العقائد وهى من باب الأخبار .

ولكن نقول : إن كان كلام شيخ الإسلام رحمه الله خاصًا بالعقائد ؛ فهو خاص ، وليس لنا فيه كلام . وإن كان عامًا ؛ فهو يشمل الأحكام . والأحكام التى للرسل السابقين اختلف فيها العلماء : هل هى أحكام لنا إذا لم يرد شرعنا بخلافها ، أو ليست أحكامًا لنا ؟

والصحيح أنها أحكام لنا ، وأن ما ثبت عن الأنبياء السابقين من الأحكام ؛ فهو لنا ، إلا إذا ورد شرعنا بخلافه ، فإذا ورد شرعنا بخلافه ؛ فهو على خلافه ؛ فمثلًا : السجود عند التحية جائز فى شريعة يوسف ويعقوب وبنيه ، لكن فى شريعتنا محرم ، كذلك الإبل حرام على اليهود : ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ

﴿هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦] ولكن هى فى شريعتنا حلال .

فإذن ؛ يمكن أن نحمل كلام شيخ الإسلام ﷺ على أنه عام فى الأخبار والأحكام ، وأن نقول : ما كان فى شرع الأنبياء من الأحكام ؛ فهو لنا ؛ إلا بدليل .

ولكن يبقى النظر : كيف نعرف أن هذا من شريعة الأنبياء السابقين ؟

نقول : لنا فى ذلك طريقان : الطريق الأول : الكتاب ، والطريق الثانى : السنة . فما حكاه اللّٰه فى كتابه عن الأمم السابقين ؛ فهو ثابت وما حكاه النبى ﷺ فيما صح عنه ؛ فهو أيضًا ثابت .

والباقى لا نصدق ولا نكذب ؛ إلا إذا ورد شرعنا بتصديق ما نقل أهل الكتاب ؛ فإننا نصدقه ، لا لنقلهم ، ولكن لما جاء فى شريعتنا ، وإذا ورد شرعنا بتكذيب أهل الكتاب ؛ فإننا نكذبه ؛ لأن شرعنا كذبه ، فالنصارى يزعمون بأن المسيح ابن اللّٰه ؛ فنقول : هذا كذب ، واليهود يقولون : عزير ابن اللّٰه ؛ فنقول : هذا كذب .

قوله : (فإنه الصراطُ المستقيمُ ؛ صراطُ الذين أنْعَم اللّٰهُ عليهم مِن النبيِّين والصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ والصالحينَ) :

(فإنه) : الضمير يعود على ما جاءت به الرسل ويمكن أن يعود على طريق أهل السنة والجماعة وهو الاتباع وعدم العدول عنه ؛ فما جاءت به الرسل وما ذهب إليه أهل السنة والجماعة : هو الصراط المستقيم .

(صراط) : على وزن فعال ؛ بمعنى : مصروط ؛ مثل : فراش ؛ بمعنى : مفروش ، وغراس ؛ بمعنى : مغروس ؛ فهو بمعنى اسم المفعول . والصراط إنما يقال للطريق الواسع المستقيم مأخوذ من الزرط وهو بلع اللقمة بسرعة ؛ لأن الطريق إذا كان واسعًا ؛ لا يكون فيه ضيق يتعثر الناس فيه ؛ فالصراط يقولون فى تعريفه : كل طريق واسع ليس فيه صعود ولا نزول ولا اعوجاج .

إذن ؛ الطريق الذى جاءت به الرسل هو الصراط المستقيم ، الذى ليس فيه عوج ولا أَمْتٌ ، طريق مستقيم ليس فيه انحراف يمينًا ولا شمالًا : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣] .

وعليه ؛ فيكون المستقيم صفة كاشفة على تفسيرنا الصراط بأنه الطريق الواسع الذى لا اعوجاج فيه ، لأن هذا هو المستقيم ؛ أو يقال : إنها صفة مقيدة ؛ لأن بعض الصراط قد يكون غير مستقيم كما قال تعالى : ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٣، ٢٤] ، وهذا الصراط غير مستقيم .

« صراط الذين أنعم اللّٰه عليهم » ؛ أى طريقهم وأضافه إليهم لأنهم سالكوه ؛ فهم الذين يمشون فيه ، كما أضافه اللّٰه إلى نفسه أحيانًا : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣]؛ باعتبار أنه هو الذى شرعه ووضعه لعباده، وأنه موصل إليه؛ فهو صراط الله باعتبارين وصراط المؤمنين باعتبار واحد؛ صراط الله باعتبارين هما: أنه وضعه لعباده، وأنه موصل إليه وصراط المؤمنين؛ لأنهم هم الذين يسلكونه وحدهم.

وقوله: «الذين أنعم الله عليهم»: النعمة: كل فضل وإحسان من الله ﷻ على عباده؛ فهو نعمة وكل ما بنا من نعمة؛ فهو من الله، ونعم الله قسمان: عامة وخاصة، والخاصة أيضًا قسمان خاصة، وخاصة أعم.

فالعامة: هى التى تكون للمؤمنين وغير المؤمنين ولهذا؛ لو سألنا سائل: هل لله على الكافر نعمة؟

قلنا: نعم؛ لكنها نعمة عامة وهى نعمة ما تقوم به الأبدان لا ما تصلح به الأديان؛ مثل الطعام والشراب والكسوة والمسكن وما أشبه ذلك؛ فهذه يدخل فيها المؤمن والكافر.

والنعمة الخاصة: ما تصلح به الأديان من الإيمان والعلم والعمل الصالح؛ فهذه خاصة بالمؤمنين، وهى عامة للنبيين والصديقين؛ كالشهداء والصالحين.

ولكن نعمة الله على النبيين والرسل نعمة هى أخص النعم، واستمع إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]؛ فهذه النعمة التى هى أخص لا يلحق المؤمنون فيها النبيين، بل هم دونهم.

وقوله: «صراط الذين أنعم الله عليهم»: هى كقوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

فمن هم الذين أنعم الله عليهم؟

فسرها تعالى بقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩]؛ فهؤلاء أربعة أصناف.

النبيون: وهم كل من أوحى الله إليهم ونبأهم فهو داخل فى هذه الآية، فيشمل الرسل، لأن كل رسول نبى، وليس كل نبى رسولًا، وعلى هذا فيكون النبيون شاملًا للرسل أولى العزم وغيرهم وشاملًا أيضًا للنبيين الذين لم يرسلوا وهؤلاء أعلى أصناف الخلق.

الصديقون: جمع صديق على وزن فعيل صيغة مبالغة.

فمن الصدّيق؟

أحسن ما يفسر به الصديق قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الزمر: ٣٣]؛ وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: ١٩]؛ فمن حقق الإيمان - ولا يتم تحقيق الإيمان إلا بالصدق والتصديق - فهو صديق:

الصدق في العقيدة : بالإخلاص ، وهذا أصعب ما يكون على المرء حتى قال بعض السلف : ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص ؛ فلابد من الصدق في المقصد – وهو العقيدة – والإخلاص لله ﷻ .

الصدق في المقال : لا يقول إلا ما طابق الواقع ؛ سواء على نفسه أو على غيره ؛ فهو قائم بالقسط على نفسه وعلى غيره ؛ أبيه وأمه وأخيه وأخته .. وغيرهم .

الصدق في الفعال : وهي أن تكون أفعاله مطابقة لما جاء به النبي ﷺ ، ومن صدق الفعال أن تكون نابعة عن إخلاص ؛ فإن لم تكن نابعة عن إخلاص ؛ لم تكن صادقة لأن فعله يخالف قوله .

فالصديق إذن : من صدق في معتقده وإخلاصه وإرادته وفي مقاله وفي فعاله .

وأفضل الصديقين على الإطلاق أبو بكر رضي الله عنه ؛ لأن أفضل الأمم هذه الأمة ، وأفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر رضي الله عنه .

والصديقية مرتبة تكون للرجال والنساء ؛ قال الله تعالى في عيسى ابن مريم : ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة : ٧٥] ، ويقال : الصديقة بنت الصديق عائشة رضي الله عنها ، والله تعالى يمن على من يشاء من عباده .

الشهداء قيل : هم الذين قتلوا في سبيل الله ؛ لقوله : ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران : ١٤٠] وقيل : العلماء ؛ لقوله تعالى : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ [آل عمران : ١٨] ؛ فجعل أهل العلم شاهدين بما شهد الله لنفسه ؛ ولأن العلماء يشهدون للرسل بالبلاغ وعلى الأمة بالتبليغ ولو قال قائل : الآية عامة لمن قتلوا في سبيل الله تعالى وللعلماء ؛ لأن اللفظ صالح للوجهين ، ولا يتنافيان ؛ فيكون شاملًا للذين قتلوا في سبيل الله وللعلماء الذين شهدوا لله بالوحدانية وشهدوا للنبي ﷺ بالبلاغ وشهدوا على الأمة بأنها بلغت .

الصالحون يشمل كل الأنواع الثلاثة السابقة ومن دونهم في المرتبة ؛ فالأنبياء صالحون ، والصديقون صالحون ، والشهداء صالحون ؛ فعطفها من باب عطف العام على الخاص .

والصالحون هم الذين قاموا بحق الله وحق عباده ، لكن لا على المرتبة السابقة – النبوة والصديقية والشهادة ؛ فهم دونهم في المرتبة .

هذا الصراط الذي جاءت به الرسل هو صراط هؤلاء الأصناف الأربعة ؛ فغيرهم لا يمشون على ما جاءت به الرسل .

❁ قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك حفظه الله :

قوله : « ومن الإيمان بالله » :

* بعد ما ذكر اعتقاد أهل السنة والجماعة إجمالًا ، شرع في ذكر اعتقادهم تفصيلًا ، فقال : « ومن

الإيمان بالله » ؛ أي : مما يدخل في الإيمان بالله : الإيمان بما وصف الله به نفسه في كتابه ، وبما وصفه به الرسول ﷺ فيما صح من سنته ، والإيمان بذلك يكون بإثبات ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ ، وبنفي ما نفاه الله عن نفسه ونفاه عنه رسوله ﷺ ، فالإيمان بهذا يكون بإثبات وبنفي .

قوله : « من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل » :

* يؤمنون بما وصف الله به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، من غير تحريف ؛ يعني : من غير تحريف للنصوص عن وجهها ، ومن غير تحريف للكلم عن مواضعه ، وهو ما ذم الله به أعداءه اليهود ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء : ٤٦] .

والتحريف معناه العام : التغيير ، وهو يشمل التغيير اللفظي والتغيير المعنوي ، فالتحريف اللفظي يكون بالزيادة على النص ، أو النقص منه ، أو تغيير الشكل .

فلا يجوز تحريف النصوص ، ولا سيما آيات القرآن ، فإنه يجب الالتزام بلفظها ، فلا يغير لفظها زيادة ولا نقصًا ، ولا شكلًا .

وكذلك سنة الرسول ﷺ لا يجوز تغيير لفظها بما يستلزم تغيير معناها ، فإن ذلك من تحريف الكلم عن مواضعه ، بل يجب إجراء النصوص على ظاهرها .

« ولا تعطيل » : التعطيل ، مأخوذ من العطل بمعنى الخلو ، فمعناه : إخلاء الرب عما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ ، وتعطيل أسماء الرب وصفاته ، وتعطيل الرب عن صفات كماله ، إنما يكون بجحدها ونفيها ، فالمعطلة ينفون ما وصف الله به نفسه ، وما أثبته الله لنفسه ، أو أثبته له رسوله ﷺ ، فيعطلون الرب عن كماله المقدس ، فينفون استواءه على عرشه ، وينفون حقيقة اليدين ، كما سيأتي مفصلًا .

« ومن غير تكييف » : من غير بحث عن كيفية صفات الرب ، ولا تعرض لتحديد كنه صفاته ، فأهل السنة والجماعة يصفون الله بما وصف به نفسه ، وما وصفه به رسوله ، من غير تحريف لنصوص الكتاب والسنة ، ولا تعطيل للنصوص عما دلت عليه ، ولا تعطيل للرب عما يجب إثباته له ، ولا تكييف لصفاته ، ولا تمثيل لصفاته بصفات خلقه .

إذن اعتقاد أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات قائم على الإثبات والنفي ، إثباتًا بلا تشبيه ، وتنزيهًا له تعالى عن كل نقص وعيب بلا تعطيل ، خلافًا لأهل الضلال ، الذين غلوا في الإثبات حتى شبهوا صفاته بصفات خلقه ، فيقول قائلهم : له سمع كسمعي ، وبصر كبصري ، ويد كيدي ، وخلافًا لمن غلا في التنزيه ، حتى سلب الله صفات كماله ، زعمًا منه أن إثبات الصفات يستلزم التشبيه .

فلهذا كان مذهب أهل السنة والجماعة بريئًا من التشبيه ، وبريئًا من التعطيل ، فلا ينفون ما

وصف الله به نفسه ، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ولا يلحدون في أسماء الله وآياته .

فإن الله ذم الملحدين في أسمائه كما قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف : ١٨٠] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ [فصلت : ٤٠] .

والإلحاد في أسماء الله يكون بنفيها ، أو بنفي معانيها ، أو بتسمية الله بغير ما سمى به نفسه ، أو بتسمية بعض المخلوقين بما هو من خصائصه سبحانه وتعالى .

قوله : « ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ، ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه » :

* كل هذا تأكيد لما سبق ، وأن مذهب أهل السنة والجماعة بريء من هذه الأباطيل ، بريء من التعطيل ، ومن الإلحاد ، ومن التكييف ، ومن التحريف ، ومن التمثيل .

ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه ؛ فإنه سبحانه وتعالى لا سمي له ، ولا ند له ، ولا كفو له ، وهذا كله منفي في كتابه : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] ، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص : ٤] ، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٢٢] .

والسمي والكفو والند ألفاظ متقاربة ، كلها تفسر بالمثيل والنظير ، فهو سبحانه وتعالى لا مثيل ، ولا نظير له من خلقه ، ولا سمي ، ولا كفو ، ولا ند ، ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى .

قوله : « وهو أعلم بنفسه وبغيره ، وأصدق قيلًا ، وأحسن حديثًا من خلقه » :

* هو أعلم بنفسه ، كما قال المسيح عليه السلام : ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة : ١١٦] ، فهو أعلم بنفسه .

فالعباد لا سبيل لهم إلى معرفة أسمائه وصفاته إلا ببيانه وتعريفه وتعليمه سبحانه ، فهو أعلم بنفسه وبغيره ؛ لأن علمه محيط بكل شيء ، وهو تعالى أصدق قيلًا ، وأحسن حديثًا من خلقه : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء : ٨٧] ، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء : ١٢٢] .

فإذا كان- تعالى- هو أعلم بنفسه ، وهو أصدق الصادقين، فكيف يكذب ما أخبر به في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ؟ كيف لا يثبت ما أثبته لنفسه ، وأثبته له رسوله ﷺ؟!

فالمعطلة قد كذبوا بما أخبر الله به ورسوله ﷺ من أسمائه- تعالى- وصفاته ، وكأنهم ادعوا لأنفسهم أنهم أعلم بالله من الله ، وأعلم بالله من رسول الله ﷺ ، وهذا من أبطل الباطل ، وأسفه السفه ، وأعظم الجهل : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء : ٨٧] ، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء : ١٢٢] .

بعث الله رسله في صفاته بالنفي والإثبات :

بعد ما ذكر الشيخ رحمه الله ما يجب في صفاته تعالى ، وأن الواجب أن يوصف الله بما وصف به نفسه ، ووصفه به رسوله ﷺ ، وأن هذا من الإيمان بالله ، وأن هذه هي عقيدة أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات يعتمدون في ذلك على كتاب الله إيمانًا بالله ، وكتابه ورسوله ﷺ .

ولهذا قال الأئمة في بعض الصفات : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب » .

فالإيمان به : هو حقيقة تصديق الله ، وتصديق رسوله ﷺ ، وهو مقتضى الإيمان بالله ورسوله ﷺ وكتابه .

قوله : « ثم رسله صادقون مصدقون » :

*** الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم جاءوا - في باب الأسماء والصفات وغيره - بالحق المبين ، فقولهم هو الحق ، وما جاءوا به هو الحق الذي يجب الإيمان به والالتزام به .**

والرسل - عليهم الصلاة والسلام - هم أصدق الناس وقد عصمهم الله من الكذب ؛ لأنه اصطفاهم لتبليغ رسالاته ، ولا يصطفي سبحانه وتعالى لتبليغ رسالاته وتبليغ شرائعه إلا الصادقين .

« ثم رسله صادقون مصدقون » :

وهم مصدوقون ، فالله تعالى يصدقهم ، ويقيم الأدلة والخوارق الدالة على صدقهم ، وشهد بصدقهم في كلامه : ﴿يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس : ١- ٣] ، ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل : ٧٩] .

وهم مصدوقون عند الموفقين ؛ بل إن أعداء الله الكفرة هم مصدقون للرسل في الباطن ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام : ٣٣] ، وكما قال عن فرعون وقومه : ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل : ١٤] ، فلا يكذب الرسل ظاهرًا وباطنًا إلا من لا عقل له .

أما العقلاء فإنهم - وإن جحدوا ظاهرًا عنادًا وحسدًا وكبرًا وما إلى ذلك - مصدقون لهم في الباطن ، وإن كان هذا التصديق لا ينفعهم ، فمن صدق الرسل في الباطن وأظهر تكذيبهم فهو الكفور ، ولا ينفعه تصديقه في الباطن .

أما معنى « مصدوقون » : المصدوق هو المخبر بالصدق ، والصادق هو المخبر بالصدق .

فالرسل صادقون ؛ لأنهم قد أخبروا بالصدق ، وهم مصدوقون ؛ لأنهم مخبرون بالحق ، فهم يتلقون علومهم وما يبلغونه عن الله بواسطة وحيه ، ورسوله من الملائكة : ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير : ١٩، ٢٠] .

إذن فما قالته الرسل في الله هو الحق نفيًا وإثباتًا ، ولصدق الرسل ، وأن ما قالوه في رب العالمين هو الحق ، قال سبحانه وتعالى : ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات : ١٨٠- ١٨٢] .

فسبح نفسه سبحانه وتعالى عما يصفه به الجاهلون والمفترون والمشركون ، الذين يقولون على الله ما لا يعلمون .

قوله : « سبحان » :

* هذه الكلمة تدل على التنزيه وعلى النفي المعائب والنقائص ، قال تعالى : ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧١] ، ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] .

قوله : « وسلَّم على المرسلين » :

* سلام من الله على رسله ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات : ١٨١] ، وإنما سلم عليهم ؛ لأنهم أولياؤه الصادقون فيما أخبروا به عنه ، المحقون فيما يصفون به ربهم ؛ ولهذا يقول الشيخ : « وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب » ، ومن الشرك والإفك .

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات : ١٨٢] ثناء من الله على نفسه بإثبات الحمد كله له ؛ لما له سبحانه وتعالى من الأسماء الحسنى ، والصفات العلا ، وبديع المخلوقات .

فهذه الآيات فيها تنزيه وتحميد وتمجيد ، وثناء على المرسلين- صلوات الله وسلامه عليهم- فالرسل هم الأئمة ، وهم القدوة ، ولنا فيهم أسوة ، وسبيلنا سبيلهم ، ولا سيما نبينا خاتم النبيين ﷺ .

قوله : « وقد جمع سبحانه وتعالى فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات » :

* وهذه قاعدة في باب الأسماء والصفات : الجمع بين النفي والإثبات ؛ معناها : أنه موصوف بإثبات الفضائل ، والكمالات ، وموصوف بنفي النقائص والآفات ، والمدح لا يكون بالإثبات فقط ، ولا بالنفي فقط ، وإنما يكون بالنفي ، والإثبات .

ومما ينبغي التنبيه عليه في هذا المقام أن النفي والإثبات الذي جاء في النصوص ، القاعدة فيه هي : « الإجمال في النفي ، والتفصيل في الإثبات » ؛ فالإثبات يأتي مفصلًا في : تعداد الأسماء ، وتعداد الصفات ، وتعيينها .

أما النفي ؛ فيكون عامًّا مطلقًا ، وهو ما يعبر بالإجمال ، هذا هو الغالب على طريقة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم .

فالرسل جاءوا في صفات الله بإثبات مفصل ، وبنفي مجمل ، ولكن قد يأتي الإثبات مجملًا ، كما قد يأتي النفي مفصلًا ، لكن القاعدة الغالبة هي : التفصيل في الإثبات ، والإجمال في النفي .

وسيأتي لهذا المعنى مزيد إيضاح عندما نصل إلى شواهد النفي ، فيحصل تطبيق هذه القاعدة ، وإيضاحها .

وهذا النفي الذي يوصف الله به هو : النفي المتضمن لإثبات كمال ، فكل نفي ورد في صفاته سبحانه ؛ فإنه متضمن لإثبات كمال ضده .

أما النفي المحض الذي لا يتضمن ثبوت كمال ؛ فهذا لم يصف الله به نفسه ؛ لأن النفي الذي لا يتضمن ثبوت كمال لا يكون مدحًا ، ولا كمالًا .

وإذا كان هذا ما جاءت به الرسل فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون صلوات الله وسلامه عليهم ، بل هم مقتفون لآثار الرسل لا سيما خاتمهم الذي له على أمته من واجب الإيمان ، والمحبة ، والاتباع ما ليس لغيره ﷺ .

قوله : « فلا عدول لأهل السنة عما جاء به المرسلون » :

* أهل السنة الفرقة الناجية المنصورة ، لا محيد لهم ولا عدول لهم عن طريق المرسلين .

قال سبحانه وتعالى لنبيه بعد ما ذكر الأنبياء والمرسلين إجمالًا وتفصيلًا قال : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام : ٩٠] ، فالصحابة والتابعون ماضون على سبيل الرسول ﷺ ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف : ١٠٨] ، وسبيل الرسول ﷺ هو سبيل المؤمنين ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء : ١١٥] ، وما جاء به المرسلون في صفاته تعالى وغيرها هو الصراط المستقيم .

قوله : « فإنه الصراط المستقيم » :

* ما جاء به المرسلون هو الصراط المستقيم ، والصراط : هو الطريق الذي يجمع معان ، فليس كل طريق صراطًا ، والصراط هو : الطريق المستقيم الموصل إلى المقصود ، القريب ، الواسع ، المسلوك . هذا معنى ما ذكره ابن القيم في بيان خصائص الصراط في كلامه على سورة الفاتحة في « مدارج السالكين » .

وصراط الله مسلوك سالكوه هم : المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

وأهل السنة داخلون في طريق المنعم عليهم على حسب مراتبهم في العلم والدين والفضل .

والصراط المستقيم : هو دين الله الذي بعث به رسوله ﷺ في كل باب من أبواب العلم في مسائل الاعتقاد ، كالأسماء والصفات ، واليوم الآخر ، وسائر أصول الإيمان ، والشرائع ، والأوامر ، والنواهي .

۞ قال الشيخ صالح بن فوزان الفوزان حفظه الله :

قوله : « ومن الإيمان بالله : الإيمان بما وصف به نفسه ... » :

بعد ما ذكر المصنف رحمه الله الأصول التى يجب الإيمان بها مجملةً ، شرع يذكرها على سبيل التفصيل ، وبدأ بالأصل الأول ، وهو الإيمان بالله تعالى ، فذكر أنه يدخل فيه الإيمان بصفاته التى وصف نفسه بها فى كتابه ، أو وصفه بها رسوله فى سنته .

وذلك بأن نثبتها له كما جاءت فى الكتاب والسنة بألفاظها ومعانيها ، من غير تحريفٍ لألفاظها ، ولا تعطيلٍ لمعانيها ، ولا تشبيهٍ لها بصفات المخلوقين ، وأن نعتمد فى إثباتها على الكتاب والسنة فقط ، لا نتجاوز القرآن والحديث ؛ لأنها توقيفية .

والتحريف : هو التغيير وإمالة الشيء عن وجهه . يقال : انحرف عن كذا . إذا مال ، وهو نوعان :

النوع الأول :

تحريف اللفظ ، وهو العدول به عن جهته إلى غيرها ، إما بزيادة كلمةٍ ، أو حرفٍ أو نقصانه ، أو تغيير حركةٍ ، كقول أهل الضلال فى قوله تعالى : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ . أى : استولى . فزادوا فى الآية حرفًا .

وكقولهم فى قوله تعالى : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ . أى : أمر ربك . فزادوا كلمةً .

وكقولهم فى قوله تعالى : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ بنصب لفظ الجلالة ، فغيروا الحركة الإعرابية من الرفع إلى النصب .

النوع الثانى :

تحريف المعنى ، وهو العدول به عن وجهه وحقيقته ، وإعطاء اللفظ معنى لفظٍ آخر ؛ كقول المبتدعة : إن معنى الرحمة إرادة الإنعام ، وإن معنى الغضب إرادة الانتقام .

وقوله : « من غير تحريف » متعلق بالإيمان قبله ؛ يعنى أنهم مؤمنون بالصفات الإلهية على هذا الوجه الخالى من كل هذه المعانى الباطلة إثباتًا بلا تمثيل ، وتنزيهًا بلا تعطيل .

والتحريف فى الأصل مأخوذ من قولهم : حرفت الشيء عن وجهه حرفًا ، من باب ضرب إذا أملته وغيرته ، والتشديد للمبالغة .

وتحريف الكلام إمالته عن المعنى المتبادر منه إلى معنى آخر لا يدل عليه اللفظ إلا باحتمال مرجوح ، فلا بد فيه من قرينة تبين أنه المراد .

والتعطيل لغةً : الإخلاء ، يقال : عطله ؛ أى : أخلاه ، والمراد به هنا نفى الصفات عن الله سبحانه وتعالى .

والفرق بين التحريف والتعطيل : أن التحريف هو نفى المعنى الصحيح الذى دلت عليه النصوص ، واستبداله بمعنًى آخر غير صحيحٍ .

والتعطيل هو نفى المعنى الصحيح من غير استبدالٍ له بمعنًى آخر ، كفعل المفوضة ، فكل محرفٍ معطل ، وليس كل معطلٍ محرفًا .

والتكييف : هو تعيين كيفية الصفة ، يقال : كيف الشيء . إذا جعل له كيفيةً معلومةً ، فتكييف صفات الله هو تعيين كيفيتها والهيئة التى تكون عليها .

وهذا لا يمكن للبشر ؛ لأنه مما استأثر الله تعالى بعلمه ، فلا سبيل إلى الوصول إليه ؛ لأن الصفة تابعة للذات .

فكما أن ذات الله لا يمكن للبشر معرفة كيفيتها ، فكذلك صفته سبحانه لا تعلم كيفيتها ، ولهذا لما سئل الإمام مالك رحمه الله ، فقيل له : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كيف استوى ؟ فقال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة[1] . وهذا يقال فى سائر الصفات .

والتمثيل : هو التشبيه بأن يقال : إن صفات الله مثل صفات المخلوقين . كأن يقال : يد الله كأيدينا ، وسمعه كسمعنا ، تعالى الله عن ذلك ، قال تعالى فى الآية : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] .

فلا يقال فى صفاته : إنها مثل صفاتنا ، أو شبه صفاتنا ، أو كصفاتنا . كما لا يقال : إن ذات الله مِثل أو شِبه ذواتنا . فالمؤمن الموحد يثبت الصفات كلها على الوجه اللائق بعظمة الله وكبريائه ، والمعطل ينفيها ، أو ينفى بعضها ، والمشبه الممثل يثبتها على وجهٍ لا يليق بالله ، وإنما يليق بالمخلوق .

قوله : (بل يُؤْمِنون بأنَّ اللَّهَ سبحانَه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾) :

لما ذكر المصنف رحمه الله أن الواجب هو الإيمان بصفات الله الثابتة فى الكتاب والسنة ، من غير تحريفٍ ، ولا تعطيلٍ ، ومن غير تكييفٍ ، ولا تمثيلٍ ، بين موقف أهل السنة والجماعة من ذلك ، وهو أنهم يؤمنون بتلك الصفات على هذا المنهج المستقيم ، فيثبتونها على حقيقتها ، نافين عنها التمثيل .

فلا يعطلون ، ولا يمثلون على وفق ما جاء فى قوله تعالى فى الآية : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ .

فقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ . ردٌّ على الممثلة .

وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ . ردٌّ على المعطلة ؛ لأن فيه إثبات السمع والبصر ، فالآية

(١) رواه اللالكائى فى « شرح السنة » (٦٦٤) ، والبيهقى فى « الأسماء والصفات » (٨٦٧) .

الكريمة دستور واضح فى باب الأسماء والصفات ؛ لأنها جمعت بين إثبات الصفات لله ، ونفى التمثيل عنها ، وسيأتى تفسيرها إن شاء الله .

وقوله : (فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه) ؛ أى : لا يحمل أهل السنة والجماعة إيمانهم بأن الله ليس كمثله شيء على أن ينفوا عنه ما وصف به نفسه ، كما يفعل ذلك الذين غلوا فى التنزيه ، حتى عطلوه من صفاته بحجة الفِرار من التمثيل بصفات المخلوقين .

فأهل السنة يقولون : لله سبحانه صفات تخصه وتليق به ، وللمخلوقين صفات تخصهم وتليق بهم ، ولا تشابه بين صفات الخالق ، وصفات المخلوق ، فلا يلزم هذا المحذور الذى ذكرتم أيها المعطلة .

وقوله : (ولا يحرفون الكلم عن مواضعه) . تقدم بيان معنى التحريف ؛ أى : لا يغيرون كلام الله ، فيبدلون ألفاظه ، أو يغيرون معانيه ، فيفسرونه بغير تفسيره ، كما يفعل المعطلة الذين يقولون فى (استوى) : استولى ، وفى : (وجاء ربك) : جاء أمر ربك ، ويفسرون رحمة الله بإرادة الإنعام ، ونحو ذلك .

« ولا يلحدون فى أسماء الله وآياته » . الإلحاد لغةً : الميل والعدول عن الشيء ، ومنه اللحد فى القبر ، سمى بذلك لميله وانحرافه عن سَمتِ الحفر إلى جهة القبلة .

والإلحاد فى أسماء الله وآياته : هو العدول والميل بها عن حقائقها ومعانيها الصحيحة إلى الباطل ، والإلحاد فى أسماء الله وصفاته أنواع :

النوع الأول : أن تسمى الأصنام بها ، كتسمية اللات من الإله ، والعزى من العزيز ، ومناة من المنان .

النوع الثانى : تسميته سبحانه وتعالى بما لا يليق به ، كتسمية النصارى له أبًا ، وتسمية الفلاسفة له موجِبًا ، أو علةً فاعلةً .

النوع الثالث : وصفه سبحانه وتعالى بما ينزه عنه من النقائص ، كقول اليهود الذين قالوا : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ . وقولهم : ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ ، وأنه استراح يوم السبت ، تعالى الله عما يقولون .

النوع الرابع : جحد معانيها وحقائقها ؛ كقول الجهمية : إنها ألفاظ مجردة ، لا تتضمن صفاتٍ ، ولا معانى ؛ فالسميع لا يدل على سمعٍ ، والبصير لا يدل على بصرٍ ، والحى لا يدل على حياةٍ . ونحو ذلك .

النوع الخامس :

تشبيه صفاته بصفات خلقه ، كقول الممثل : يده كيدى . إلى غير ذلك ، تعالى الله .

وقد توعد الله الملحدين فى أسمائه وآياته بأشد الوعيد ، فقال سبحانه : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف : ١٨٠] ، وقال : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ﴾ [فصلت : ٤٠] .

قوله : (ولا يكيفون ولا يمثلون) إلخ ، تقدم بيان معنى التكييف والتمثيل .

و(سبحانه) سبحان مصدر مثل غفران ، من التسبيح ، وهو التنزيه .

[وقوله] : (لأنه سبحانه لا سمى له) هذا تعليل لما سبق من قوله عن أهل السنة : (ولا يكيفون ، ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه) .

(لا سمى له) ؛ أى : لا نظير له يستحق مثل اسمه ، كقوله تعالى : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] . استفهام معناه النفى ؛ أى : لا أحد يساميه ، أو يماثله .

(ولا كفء له) الكفء هو المكافئ المماثل ؛ أى : لا مثل له ، كقوله تعالى فى سورة « الإخلاص » : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ .

(ولا ند له) : الند هو الشبيه والنظير ، قال تعالى : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة : ٢٢] .

(ولا يقاس بخلقه) : القياس فى اللغة : التمثيل ؛ أى : لا يشبه ، ولا يمثل بهم ، قال سبحانه : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ﴾ [النحل : ٧٤] .

فلا يقاس سبحانه بخلقه ، لا فى ذاته ، ولا فى أسمائه وصفاته ، ولا فى أفعاله ، وكيف يقاس الخالق الكامل بالمخلوق الناقص ؟ ! تعالى الله عن ذلك .

(فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره) : وهذا تعليل لما سبق من وجوب إثبات ما أثبته لنفسه من الصفات ، ومنع قياسه بخلقه ؛ فإنه إذا كان أعلم بنفسه وبغيره وجب أن يثبت له من الصفات ما أثبته لنفسه ، وأثبته له رسوله ﷺ .

والخلق لا يحيطون به علمًا فهو الموصوف بصفات الكمال التى لا تبلغها عقول المخلوقين ، فيجب علينا أن نرضى بما رضيه لنفسه ، فهو أعلم بما يليق به ، ونحن لا نعلم ذلك .

وهو سبحانه : (أصدق قيلًا وأحسن حديثًا من خلقه) فما أخبر به فهو صدق وحقٌّ يجب علينا أن نصدقه ، ولا نعارضه ، وألفاظه أحسن الألفاظ ، وأفصحها ، وأوضحها ، وقد بين ما يليق به من الأسماء والصفات أتم بيانٍ ، فيجب قبول ذلك والتسليم له .

(ثم رسله صادقون مصدوقون) : هذا عطف على قوله : (فإنه أعلم بنفسه . . . إلخ) . الصدق مطابقة الخبر للواقع ؛ أى : صادقون فيما أخبروا به عن الله تعالى : (مصدوقون) ؛ أى : فيما يأتيهم من الوحى بواسطة الملائكة ؛ لأنه من عند الله ، فهم لا ينطقون عن الهوى .

وهذا توثيق لسند الرسل ، عليهم الصلاة والسلام ، فقد قيل لهم الحق ، وبلغوه للخلق ، فيجب قبول ما وصفوا الله به .

فهم (بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون) ؛ أى : بخلاف الذين يقولون على الله بلا علم فى شرعه ودينه ، وفى أسمائه وصفاته ، بل بمجرد ظنونهم وتخيلاتهم ، أو بما يتلقونه عن الشياطين ، كالمتنبئين الكذبة ، والمبتدعة ، والزنادقة ، والسحرة ، والكهان ، والمنجمين ، وعلماء السوء ، كما قال تعالى : ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣] .

وقال تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٧٩] .

فإذا كان الله سبحانه وتعالى أعلم بنفسه وبغيره ، وكان أصدق قولًا ، وأحسن حديثًا من خلقه ، وكان رسله عليهم الصلاة والسلام صادقين فى كل ما يخبرون به عنه ، والواسطة بينهم وبين الله التى تأتيهم بالوحى من عنده واسطة صادقة من ملائكته الكرام ؛ وجب التعويل إذن على ما قاله الله ورسله لا سيما فى باب الأسماء والصفات نفيًا وإثباتًا ، ورفض ما قاله المبتدعة والضلال ممن يدعى المجاز فى الأسماء والصفات ، وينفيها بشتى وسائل النفى ، معرضين عما جاءت به الرسل ، معتمدين على أهوائهم ، أو مقلدين لمن لا يصلح للقدوة من الضلال .

ولهذا : تعليل لما سبق من كون كلام الله وكلام رسله أصدق وأحسن .

سبحان : اسم مصدرٍ من التسبيح ، وهو التنزيه .

ربك : الرب هو المالك السيد المربى لخلقه بنعمه .

العزة : القوة والغلبة والمنعة . وإضافة الرب إلى العزة من إضافة الموصوف إلى الصفة .

يصفون ؛ أى : يصفه به المخالفون للرسل ، مما لا يليق بجلاله .

وسلام . قيل : هو من السلام بمعنى التحية . وقيل : من السلامة من المكاره .

على المرسلين : الذين أرسلهم الله إلى خلقه ، وبلغوا رسالات ربهم ، جمع مرسلٍ ، وتقدم تعريفه .

العالمين : جمع عالم ، وهم كل من سوى الله .

المعنى الإجمالى : قد بينه الشيخ رحمه الله بقوله : فسبح نفسه . . . إلخ .

ما يستفاد من الآيات .

١ - تنزيه الله سبحانه عما يصفه به الضلال والجهال مما لا يليق بجلاله .

٢ - صدق الرسل ووجوب قبول ما جاءوا به ، وما أخبروا به عن اللّه .

٣ - مشروعية السلام على الرسل ، عليهم الصلاة والسلام ، واحترامهم .

٤ - رد كل ما يخالف ما جاءت به الرسل ، لا سيما ما يتعلق بأسماء اللّه وصفاته .

٥ - مشروعية الثناء على اللّه ، وشكره على نعمه ، التى من أجلها نعمة التوحيد .

(وهو سبحانه قد جمع) إلخ هذا بيان للمنهج الذى رسمه اللّه فى كتابه لإثبات أسمائه وصفاته ، وهو المنهج الذى يجب أن يسير عليه المؤمنون فى هذا الباب المهم .

فإنه سبحانه : (قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه) ؛ أى : فى جميع أسمائه وصفاته .

(بين النفى والإثبات) ، وهو نفى ما يضاد الكمال من أنواع العيوب والنقائص ، كنفى الند والشريك ، والسنة ، والنوم ، والموت ، واللُّغوب .

وأما الإثبات فهو إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال للّه ، كقوله تعالى : ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٣، ٢٤] ، وغير ذلك مما سيذكر له المؤلف نماذج فيما يأتى .

وقوله : (فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون) ؛ أى : لا ميل لهم ، ولا انحراف عن ذلك ، بل هم مقتفون آثارهم ، مستضيئون بأنوارهم .

ومن ذلك إثبات صفات الكمال للّه ، وتنزيهه عما لا يليق به ؛ فإن الرسل قد قرّروا ذلك الأصل العظيم ، وأما أعداء الرسل فإنهم قد عدلوا عن ذلك .

وقوله : (فإنه الصراط المستقيم) . تعليل لقوله : (فلا عدول لأهل السنة) ؛ أى : لأن ما جاء به المرسلون هو الصراط المستقيم ، والصراط المستقيم هو الطريق المعتدل الذى لا تعدُّد فيه ، ولا انقسام ، وهو المذكور فى قوله تعالى ، من سورة « الفاتحة » : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وقوله : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣] .

وهو الذى ندعو اللّه ، فى كل ركعةٍ من صلواتنا أن يهدينا إليه .

قوله : (صراط الذين أنعم اللّه عليهم) : أى : أن الصراط المستقيم الذى جاء به المرسلون فى الاعتقاد وغيره ، وسلكه أهل السنة والجماعة .

هو (صراط الذين أنعم اللّه عليهم) ؛ أى : أنعم اللّه عليهم الإنعام المطلق التام المتصل بسعادة الأبد ، وهم الذين أمرنا اللّه أن ندعوه أن يهدينا طريقهم ، فهؤلاء الأصناف الأربعة هم أهل هذه النعمة المطلقة ، وهم :

١ - النبيون : جمع نبيٍّ ، وهم الذين اختصهم الله بنبوته ورسالته ، وتقدم تعريفهم .

٢ - الصديقون : جمع صديق ، وهو المبالغ فى الصدق والتصديق ؛ أى : المبالغ فى الانقياد للرسول ﷺ مع كمال الإخلاص لله .

٣ - الشهداء : جمع شهيد ، وهو المقتول فى سبيل الله ، سمى بذلك ؛ لأنه مشهود له بالجنة ، ولأن ملائكة الرحمة تشهده .

٤ - الصالحون : جمع صالح ، وهو القائم بحقوق الله ، وحقوق عباده .

والصراط تارةً يضاف إلى الله تعالى ، كقوله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام : ١٥٣] لأنه هو الذى شرعه ونصبه ، وتارةً يضاف إلى العباد ، كما فى قوله تعالى : ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ لكونهم سلكوه .

وفى قوله : ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ . تنبيه على الرفيق فى هذا الطريق ، وأنهم هم الذين أنعم الله عليهم من النبيين ، والصديقين والشهداء والصالحين ؛ ليزول عن سالك هذا الطريق وحشة التفرد عن أهل زمانه ، إذا استشعر أن رفقته على هذا الصراط الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون . ثم أورد الشيخ رحمه الله فيما يلى : نماذج من الكتاب والسنة تشتمل على إثبات أسماء الله وصفاته ، وفيما يلى إيراد ذلك .

❁ قال الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه الله :

قوله : (ومِن الإيمانِ باللَّهِ ؛ الإيمانُ بما وصَف به نفسَه فى كتابِه ، وبما وصَفَه به رسولُه ﷺ) :

هذه الجمل التي سيأتي بيان ما فيها من العلم النافع من كلام شيخ الإسلام والمسلمين أبي العباس أحمد بن تيمية - رحمه الله تعالى - هي تفصيل لما سبق من ذكر مجمل أركان الإيمان ، فإنه ذكر أركان الإيمان مجملة دون تفصيل .

ولهذا قال بعد أن ذكر أركان الإيمان :

(ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ) ، يعني : من الإيمان بالله الإيمان بصفات الله ﷻ فيما جاء في الكتاب ، وفيما ثبت في السنة ، أن هذا بعض الإيمان بالله ؛ وذلك لأن الإيمان بالله ﷻ يشمل ثلاثة أشياء :

* الإيمان بأن الله ﷻ واحد في ربوبيته .
* الإيمان بأن الله ﷻ واحد في ألوهيته .
* الإيمان بأن الله ﷻ واحد في أسمائه وصفاته .

فالإيمان بتوحيد الأسماء والصفات هو بعض الإيمان بالله ، ولهذا قال : (ومن الإيمان بالله) ،

وهذه الجملة تفيد أن أهل السنة والجماعة ، الذين يقررون هذا الاعتقاد ، أنهم ساعون في تكميل الإيمان بالله بإيمانهم بالأسماء والصفات التي أخبر الله ﷻ بها عن نفسه ، وأخبر بها عنه أعلم الخلق بربه محمد ﷺ .

وهذه الرسالة سيكون أكثرها في باب الأسماء والصفات ، فإن شيخ الإسلام رحمه الله أطال عليه لشدة الحاجة إليه ، ولكثرة المخالفين فيه ، ولكثرة الاشتباه فيه ، وقد قرر القاعدة العظيمة في هذا الباب بقوله : (الإيمان بما وصف الله به نفسه في كتابه أو وصفه به رسوله ﷺ) ، وهذه الجملة نأخذ منها أن هذا الباب إنما عمدته على كتاب الله جل وعلا ، وعلى السنة التي ثبتت عن المصطفى ﷺ .

فإذن مصدر توحيد الأسماء والصفات إنما هو الكتاب والسنة ، وهنا كما قال أئمتنا رحمهم الله تعالى ، ومنهم الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إذ قال في الصفات : « لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ ، ولا نتجاوز القرآن والحديث » ، فصارت قاعدة : أن ما جاء في كتاب الله ، وما ثبت في السنة ، من الأسماء والصفات والأفعال ، وكذلك في الاعتقادات في الأمور الغيبية ، أنه يثبت لله ﷻ .

إذا تقرر هذا فثم بيان وهو : أن ما يوصف الله ﷻ به مما يكون في كلام أهل العلم مما لم يأت في الكتاب والسنة ، هذا على أقسام :

الأول : أن القاعدة – كما ذكرنا – أنه لا يتجاوز القرآن والحديث ، ولكن ربما استعمل بعض أهل العلم من أئمة السنة ألفاظًا هي داخلة في باب الصفات ، أو داخلة في باب الأفعال ، ولم تثبت صفة لله ﷻ في الكتاب والسنة ، وهذا الباب قال أهل العلم : إنه من باب الإخبار . والقاعدة عندهم أن باب الإخبار أوسع من باب الصفات ؛ كما أن باب الصفات أوسع من باب الأسماء ، وسيأتي إيضاح هذه القاعدة – إن شاء الله تعالى – بعد ذكر بقية الأقسام .

الثاني : أنه تارة تُذكر صفة من الصفات أو فعل من الأفعال ولا يصح أن ينسب إلى الله ﷻ ، فقد يطلق بعض العلماء كلمة لا تصح أن تكون صفة لله ﷻ ، أطلقوها إما من جهة الاجتهاد أو من جهة الحاجة إليها في زمن معين ونحو ذلك ، وإذا كانت الصفة لا يصح أن يوصف الله ﷻ بها فإنها تُرد ؛ لأن قاعدة هذا الباب : ألا يُتجاوز القرآن والحديث .

الثالث : أن يكون ثمة إطلاق لبعض الكلمات التي فيها وصف لله ﷻ ، لكن ليس هناك ظهور في معناها من أنها تحتمل معنى صحيحًا يصح أن يُقال : إنه من باب الإخبار عن الله ﷻ بما ثبت جنسه أو معناه في الكتاب والسنة ، فقد تحتمل المعنى الصحيح ، وقد تحتمل معنى غير صحيح .

وذلك في مثل تسمية الله ﷻ بالدليل مثلًا ؛ فإن بعض أهل العلم سموا الله ﷻ بذلك من باب

الإخبار ، خاصة في الدعاء من مثل ما أرشد به الإمام أحمد حيث أرشد من يدعو بقوله : « يا دليل الحيارى دلني على طريق الصادقين ، واجعلني من عبادك الصالحين » ، أو نحو ذلك ، فأثبت طائفة هذا الاسم ، ولكن هذا يحتمل المعنى الصحيح ويحتمل معنى آخر . ولهذا فإن هذا الباب يُطلق فيه مما لم يأت في الكتاب والسنة - مما هو محتمل - على الوجه الذي يكون فيه كمال للَّه ﷻ ، وهذا في مثل هذا الاسم وهو الدليل ، فإن اللَّه ﷻ دليل دل العباد عليه ، فإن العباد ما استدلوا على اللَّه ﷻ إلا بدلالته ، فاللَّه سبحانه دليل ، وهو ﷻ مدلول عليه أيضًا ؛ ولهذا ساغ الإخبار بمثل هذا ، وسيأتي - إن شاء اللَّه - مزيد تفصيل .

المقصود : أن القاعدة المقررة عند أهل السنة والجماعة هي : ألا يُتجاوز القرآن والحديث ، فما لم يأت في الكتاب والسنة من الصفات مما ليس جنسه موجودًا في الكتاب والسنة ، فإنه لا يصح أن يُنسب للَّه ﷻ ولو في باب الإخبار ، ولكن إذا كان في باب الإخبار قد جاء مثله فإنه يُنسب ، وقد يُسمى اللَّه ﷻ بذلك في باب الإخبار ، مثل ما يقال : إنه ﷻ قديم ، أو صانع ، أو مريد ، ونحو ذلك ، فلم يأت في القرآن ولا في السنة ، أن اللَّه ﷻ قديم ، أو أنه مريد ، أو صانع - يعني : التسمية الخاصة باسم الصانع - وذلك لأن هذه الأشياء تنقسم إلى ما فيه كمال وإلى ما فيه نقص ، فلأجل الاحتمال لم تُطلق في باب الصفات ، وإنما يجوز أن تطلق في باب الخبر عن اللَّه ﷻ ، يعني : يُخبر عن اللَّه ﷻ بأنه موجود ، وأنه مريد ، وأنه قديم ، وهذا ليس من باب الاسم ولا من باب الصفة .

يتبع هذا أن نذكر في مقدمة شرحنا لهذا الكتاب العظيم قواعد مهمة في باب الأسماء والصفات ، هي كالتفصيل لهذه القاعدة التي نبه عليها شيخ الإسلام بقوله : (ومن الإيمان باللَّه الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ) ، فمن القواعد المقررة في ذلك : أن باب الأسماء للَّه ﷻ أضيق من باب الصفات ، وأن باب الصفات أضيق من باب الأفعال ، وأن باب الأفعال أضيق من باب الإخبار ، ومعنى هذا بعبارة مختلفة : أن باب الإخبار عن اللَّه ﷻ - أوسع من باب الأفعال ، وباب الأفعال أوسع من باب الصفات ، وباب الصفات أوسع من باب الأسماء ، فإذا ثبت في الكتاب والسنة صفة للَّه ﷻ لا يعني أنه يسوغ أن يُشتق منها اسم للَّه ﷻ ، بل قد يكون ثم صفة وُصف اللَّه ﷻ بها ولا يلزم أن يُشتق له ﷻ منها اسم ؛ لأن هذا الباب مبناه على التوقيف وليس مبناه على الاشتقاق ، فإذا أُطلق الاسم تقيدنا بإثبات الاسم ، وإذا أطلقت الصفة تقيدنا بإطلاق الصفة ، لكن إذا ثبت الاسم للَّه فإنه يُشتق منه صفة للَّه ؛ لأن باب الأسماء أضيق ، فإن الاسم يشتمل على دلالة على الذات وعلى دلالة على الصفة .

فمثلًا : من أسماء اللَّه ﷻ الرحمن ، فإننا نقول : إنه ﷻ موصوف بصفة الرحمة ، واللَّه ﷻ

السميع، فنقول: إنه سبحانه موصوف بصفة السمع، والله ﷻ حي، فنقول: إنه ﷻ موصوف بصفة الحياة، ونحو ذلك، وهذا كثير في هذا الباب. كذلك باب الأفعال أوسع من باب الصفات، يعني قد يكون في الكتاب والسنة وصف الله ﷻ بالفعل ولكن لم تأت الصفة من الفعل، فهنا يُتقيد بالكتاب والسنة، فنثبت لله ﷻ ما أثبته لنفسه بالفعل، وأما الصفة أو الاسم من باب أولى ألا يوصف الله ﷻ إلا بما ثبت في الكتاب والسنة.

مثلًا: الله ﷻ وصف نفسه بأنه يستهزئ، وأنه يخادع، وأنه يمكر، وهذه الأفعال هي لله ﷻ على وصف ونعت الكمال الذي لا يشوبه نقص، وقد أُطلقت في الكتاب والسنة بالمقابلة؛ كما قال ﷻ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤، ١٥]، وقال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠]. فهذه وَصْفُ الله ﷻ بها من باب ذكر فعله سبحانه وتعالى، فلا يُشتق له من ذلك اسم؛ كما غلط من غلط في ذلك من أمثال القرطبي في شرحه للأسماء الحسنى بقوله: إنه يشتق من يمكر ماكر، أو إن من صفاته المكر - هكذا بإطلاق - أو إنه يُشتق له من قوله تعالى: ﴿يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أنه مستهزئ، أو أن له صفة الاستهزاء بإطلاق، ونحو ذلك. وإنما المقرر ألا يُتجاوز القرآن والحديث، فيُقال: يوصف الله ﷻ بأنه يستهزئ بمن استهزأ به، فنأتي بصيغة الفعل؛ لأن هذا هو محض الاتباع، أما إطلاق اشتقاقات فإن هذا فيه شيء، نعم قد يُطلق الاشتقاق مقيدًا، وهذا ينفي النقص، فيقول القائل - مثلًا -: الله ﷻ يوصف بمخادعة من خادعه، ويوصف بالاستهزاء بمن استهزأ به أو بأوليائه، ويوصف بالمكر بمن مكر به أو بنبيه أو بأوليائه.

وهذا أجازه العلماء إذا كان على وجه التقييد؛ لأنه ليس فيه نقص وليس فيه تعدٍّ للمعنى؛ لأن المعنى المراد هو إثبات الصفة مقيدة، ولكن الأولى أن يُلتزم ما جاء في الكتاب والسنة، مثل: صفة الملل، فلا يُقال: إن الله يُوصف بالملل، هذا باطل، لأن الملل نقص، ولكن الله ﷻ وصف نفسه بأنه يمل ممن مل منه، وهذا على جهة الكمال، فهذه الصفات التي تحتمل كمالًا ونقصًا فإن لله ﷻ فيها الكمال، والكمال فيها يكون على أنحاء، منها: أن يكون على وجه المقابلة. قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، قال ﷻ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠]، فهو سبحانه يخادع من خادعه، ويستهزئ بمن استهزأ به، وهذا كمال؛ لأنه من آثار أنه ﷻ عزيز، وجبار، وذو الجلال، وذو الكمال، وذو القدرة العظيمة، فهو ﷻ لا يُعجزه شيء.
وأيضًا باب الإخبار أوسع من باب الأفعال، يعني: أن باب الأفعال مُقيد بالنصوص، ولكن قد نُخبر عن الله ﷻ بفعل أو بصفة أو باسم لكن ليس من باب وصف الله ﷻ به، وإنما من جهة الإخبار لا من

جهة الوصف ، وهذا سائغ - كما ذكرت آنفًا - لأن باب الإخبار أوسع هذه الأبواب ، فإذا كان الإخبار بمعنى صحيح لم ينف في الكتاب والسنة وثبت جنسه في الكتاب والسنة فإنه لا بأس أن يُخبر عن ذلك . مثال ذلك : أن يُخبر عن الله ﷻ بأنه الصانع ، فإنه جاء في القرآن قوله ﷻ : ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل : ٨٨] ، وقد جاء في الحديث عند مسلم : « فإنَّ اللَّهَ صانع مَا شاءَ »[1] ، وكذلك قوله ﷺ : « إنَّ اللَّهَ صانعٌ كلَّ صانعٍ وصنعتهُ » . هذه رواية الحاكم[2] ، هذا أيضًا من هذا الباب ، فإذن لفظ الصانع ، والمريد ، والشيء ، قال بعض أهل العلم : [لا] يُخبر عن الله ﷻ بأنه شيء . وهذا فيه نظر ؛ لأنه جاء في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال : « لَا شيءَ أغيرُ مِنَ اللهِ »[3] .

المقصود : أن هذه القاعدة مهمة جدًّا فيما سيأتي من بيان الأسماء والصفات ، وتقرير عقيدة أهل السنة والجماعة في ذلك .

وصفات المقابلة تُقيد بما قُيدت في النصوص ، فاللَّه ﷻ لم يصف نفسه بأنه يستهزئ دون مقابلة ، وإنما وصف نفسه بأنه يستهزئ بمن استهزأ به ، فقال : ﴿مُسْتَهْزِءُونَ ۝ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة : ١٤، ١٥] ، لم يصف نفسه مطلقًا بأنه يُخادع ، بل وصف نفسه بأنه يُخادع من خادعه ، وهذا كله تقييد ؛ وذلك لأن هذه الصفات تحتمل كمالًا ونقصًا ، فعند الناس أن الذي يستهزئ ويخادع ويمكر ، ونحو ذلك ، أن هذه الصفات ليست بجهات كمال ، واللَّه ﷻ كل كمال في المخلوق هو أحق به .

فالاستهزاء - مثلًا - فإن الذي لا يرد على الاستهزاء - بحسب العرف العام - قد يكون مأخذه العجز ، وقد يكون مأخذه الضعف ، مثل من يستهزئ به كبير قوم أو يستهزئ به أمير أو ملك أو رئيس أو نحو ذلك ، فمن جهة ضعفه لا يَرد عليه استهزاءه ، واللَّه ﷻ موصوف بصفات الكمال ؛ ولهذا مع أن العرب تعلم أن الجهل مذموم وتذم الجاهلين .

لكن قال عمرو بن كلثوم مثبتًا لنفيه كمال هذا الوصف بقوله :

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَينا ... فَنَجْهَلَ فَوقَ جَهْلِ الجَاهِلِينَا

وذلك لأن الجهل منه على من جهل عليه هذا من آثار قوته وعزته وجبروته وملكه وسلطانه ، فلهذا صارت كمالًا بهذا الاعتبار ، وهذه لها تفصيل يأتي - إن شاء اللَّه - مزيد بيان لها عند الآيات التي فيها

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٩) من حديث أبي هريرة .

(٢) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (ص٤٦) ، والحاكم (١/ ٨٥) ، والبزار (٧/ ٢٥٨) من حديث حذيفة . وصححه الألباني في ظلال الجنة (٣٥٧) .

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٢٢) ، ومسلم (٢٧٦٢) من حديث أسماء .

تقرير ذلك ، والنصوص التي ورد إطلاق هذه الصفات فيها تُحمل على النصوص المقيدة .

ومن القواعد المقررة في هذا الباب :

أن أسماء الله ﷻ لا تُحصر بعدد معين ؛ كما جاء في الحديث أن النبي ﷺ بين أن لله ﷻ أسماء استأثر بها في علم الغيب عنده ، قال ﷺ في تعليمه الدعاء : « اللهمَّ إنِّي عبدكَ ، ابنُ عبدكَ ، ابنُ أَمَتِكَ ، ناصِيتي بيدكَ ، ماضٍ فيَّ حُكمكَ ، عدلٌ فيَّ قضاؤكَ ، أسألكَ بكلِّ اسمٍ هوَ لكَ ، سميتَ بهِ نفسكَ ، أو أنزلتهُ في كتابكَ ، أو علمتهُ أحدًا مِن خلقكَ ، أو استأثرتَ به في علمِ الغيبِ عندكَ ، أنْ تجعلَ القرآنَ ربيعَ قلبي ... »[1] إلى آخر الحديث . فدل هذا الحديث على أن أسماء الله ﷻ لا تُحد بحد ، أما ما جاء في الصحيحين أن النبي ﷺ قال : « إنَّ للَّهِ تسعةً وتسعينَ اسمًا مَنْ أحصاها دخلَ الجنةَ »[2] ، فهذا تخصيص لتسعة وتسعين اسمًا بهذا الفضل بأن من أحصاها دخل الجنة ، وليس معناها حصرًا للأسماء الحسنى في هذا العدد ، وأسماء الله ﷻ حسنى ؛ كما قال سبحانه وتعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف : ١٨٠] ، ومعنى كون أن أسماء الله ﷻ حسنى أنها بالغة في الحسن نهاية الحسن ، وبالغة في الجلال والكمال والجمال نهاية الجلال ونهاية الكمال ونهاية الجمال .

وقد فُسر الإحصاء في قوله ﷺ : « مَنْ أحصاهَا دخلَ الجنةَ » بأشياء ، وجماع ذلك ثلاثة أمور ، الإتيانُ به مجتمعة هو معنى الإحصاء :

الأول : حفظها .

الثاني : معرفة معانيها .

الثالث : التعبد لله ﷻ - بها ؛ بسؤاله بها ، ودعائه بها ، ونحو ذلك .

ومن القواعد المقررة في هذا الباب :

أن صفات الله ﷻ تنقسم باعتبارات ، فهي تنقسم إلى :

صفات ذاتية : وهي الصفة التي لا تنفك عن الله ﷻ ، يعني : أن الله ﷻ موصوف بها دائمًا وليس في حال دون حال ، مثل : الرحمة ، فإن الله ﷻ من صفاته الذاتية أنه رحيم وأنه ذو رحمة ، وكذلك الغني فالله ﷻ غني ، وكذلك القدرة فالله ﷻ قدير ، وذلك من صفات ذاته ، وكذلك العلو فالله ﷻ موصوف بأنه ذو العلو ، ونعني بالعلو جميع أقسامه : علو الذات ، وعلو القهر ، وعلو القدر ، وهذا كله

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢) ، وابن حبان (٣/ ٢٥٣) ، والطبراني (١٠٣٥٢) ، والحاكم (١/ ٦٩٠) من حديث ابن مسعود . وصححه الألباني في تعليقاته على صحيح ابن حبان (٩٦٨) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣٦) ، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة .

صفة ذاتية لله ﷻ لا تنفك عن الموصوف ، والله ﷻ سميع وبصير ، هذه صفات ذاتية له ﷻ .

وصفات فعلية ، وهي التي يتصف الله ﷻ بها بمشيئته وقدرته ، يعني : أنه ربما اتصف بها في حال ، وربما لم يتصف بها ، مثل : صفة الغضب مثلًا ، فالله ﷻ ليس من صفاته الذاتية الغضب ، فإنه يغضب ويرضى ، يغضب حينًا ويرضى حينًا ؛ كما في قوله ﷻ - : ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه : ٨١] وهنا الغضب يحل ، وأيضًا جاء مبينًا في حديث الشفاعة أنه ﷺ قال : « إنَّ ربي قد غَضِبَ اليومَ غضبًا لم يَغضبْ قبلهُ مثلهُ ولنْ يغضبَ بعدهُ مثلهُ »[1] ، ومثل : الاستواء ، فإن الاستواء صفة فعلية باعتبار أن الله ﷻ لم يكن مستويًا على العرش ، ثم استوى على العرش . وهذا باب واسع ، وهذا يسمى عند كثير من العلماء بالصفات الاختيارية ، وهي التي نفاها ابن كُلاب ومن شابهه وأخذ نهجه من الأشاعرة ، والماتريدية ، ونحوهم ؛ كما سيأتي تفصيله إن شاء الله في مواضعه .

أيضًا من التقسيمات : أن أسماء الله ﷻ وصفاته تنقسم من حيث معناها إلى :

* منها ما هي أوصاف أو أسماء جلال .
* ومنها ما هي أوصاف أو أسماء جمال .
* ومنها ما هي أوصاف أو أسماء لمعاني الربوبية .
* ومنها أوصاف أو أسماء لمعاني الألوهية .

وهذه انقسامات للمعاني ، فأسماء الله ﷻ منها أسماء جلال ومنها أسماء جمال ، وضابط ذلك أن أسماء الجمال ما كان فيها فتح باب المحبة من العبد لربه ﷻ من جنس أسماء وصفات الرحمة ؛ كصفة الرحمة والأسماء المأخوذة منها كالرحمن ، والرحيم ، ونحو ذلك ، ومثل اسم الله ﷻ الجميل أو صفة الجمال لله ، واسم الله ﷻ النور أو صفة النور لله ﷻ ، والله ﷻ رزاق فاسمه الرزاق وذو الرزق ، ونحو ذلك مما فيه إحسان للعباد ، فهذه يقال لها : صفات جمال .

ولهذا شيخ الإسلام في ختمه للقرآن المشهور نسبتها إليه يقول في أولها : « صدق الله العظيم المتوحد في الجلال بكمال الجمال تعظيمًا وتكبيرًا ، الذي نزل القرآن على عبده ....» إلى آخره .

هنا قال : « المتوحد في الجلال بكمال الجمال » ذلك أن أسماء الله ﷻ منها جلال ومنها كمال ، أما أسماء وصفات الجلال فضابطها أنها الأسماء والصفات التي فيها معاني جبروت الله ﷻ وعزته وقهره ، مثل اسم الله العزيز ، والقهار ، والجبار ، والقوي ، والمنتقم ، ونحو ذلك من الأسماء والصفات ، فمعاني العزة والجبروت والقهر هذه كلها جلال ؛ لأنها تورث الإجلال والتعظيم والخوف

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٦) ، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس .

والهيبة لله ﷻ ومن الله ﷻ. وأسماء الله ﷻ أو صفاته من جهة الربوبية ؛ كاسم الله ﷻ الرب ، والمالك ، والملك ، والسيد - عند من أطلقه اسمًا لله ﷻ ومدبر الأمر الذي يجير ولا يجار عليه ، والرزاق ، ونحو ذلك من الأسماء التي فيها معاني الربوبية ، قد تكون ببعض الاعتبارات أسماء جلال ، وقد تكون أسماء جمال ، وهذا باب واسع يُطلب من مظانه . كذلك من الأسماء ما فيها معاني الألوهية مثل : الله ، والمعبود ، مع أن المعبود ما أطلق اسمًا ، يعني : ما فيه معانٍ تدل على إفراد الله ﷻ بأفعال العبيد .

وتقسيم الأسماء والصفات إلى ما يرجع إلى الجلال وما يرجع إلى الكمال دليله اللغة والمعنى ، فصفات الجلال هي في اللغة صفات جلال ، وصفات الجمال هي هكذا في اللغة ، وقد قال النبي ﷺ : « إنَّ اللَّهَ جميلٌ يُحبُّ الجمالَ »(١) ، هو جميل ﷻ في ذاته وفي أسمائه وصفاته وأفعاله ، وهو ﷻ ذو الجلال والإكرام ، فوصف نفسه بأنه ذو الجلال ، ووصف نفسه بأنه جميل ، والله ﷻ له جمال الذات وله جلال الذات ، وله جمال الأسماء والصفات وجلال الأسماء والصفات ، وهذا مأخذه من النصوص واللغة ؛ لأن الجلال غير الجمال ، ومأخذ الجلال من الأسماء غير مأخذ الجمال من الأسماء ، وهذا ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في مواضع ، وذكره ابن القيم في مواضع ، وهو مقرر عند العلماء في شرح حديث : « إنَّ اللَّهَ جميلٌ يُحبُّ الجمالَ » ، وكذلك عند قوله تعالى : ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] .

ومن القواعد المقررة في هذا : أن العقل تابع للنقل ، وأن نصوص الكتاب والسنة لا يُحكم فيها القوانين التي اصطلح عليها طوائف من الخلق ، بل نأخذ القواعد العقلية من النصوص ، فالنصوص مصدر للقواعد العقلية ؛ كما أنها مصدر للشرع وللأحكام ، وهذا فيه إبطال لمن قدم العقل على النقل أو جعل العقل أصلًا والسمع فرعًا ، وهذه القاعدة هي التي كتب فيها شيخ الإسلام كتابه العظيم العجاب « درء تعارض العقل والنقل » الذي قال فيه ابن القيم رحمه الله مثنيًا عليه معظمًا له :

واقرأ كِتابَ العقل والنقلِ الذي ... ما في الوُجُودِ لَهُ نَظِير ثَانِ

فإن هذا الكتاب أصل في دحض أصول المتكلمين وأصول المبتدعة من أشاعرة ونحوهم والمعتزلة ، وليس ثم مصنف يعدله في هذا من مصنفات علماء المسلمين ، وهو مطبوع بتحقيق الدكتور محمد رشاد سالم في أحد عشر مجلدًا مع الفهارس ، وهذه القاعدة يُستفاد منها في الرد على أولئك في مواضعه ، وتفصيلها يأتي إن شاء الله تعالى .

(١) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود .

ومن القواعد المقررة في هذا الباب ، والتي سنحتاجها - إن شاء الله تعالى - فيما سيأتي من بيان معاني الآيات والأحاديث التي فيها الصفات : « أن الواجب على العباد أن يؤمنوا بما أنزل الله ﷻ في كتابه » .

والإيمان بما أنزل الله ﷻ في كتابه أو أخبر به نبيه ﷺ من الأسماء والصفات يكون بأشياء :

الأول : إثبات الصفة ؛ لأن الله ﷻ أثبتها ، فتُثبت كما أثبتها الله ﷻ ، وهذا أول درجات الإيمان .

الثاني : أن يُثبت المعنى الذي يدل عليه ظاهر اللفظ ، فإن القرآن نزل بلسان عربي مبين تُعقل معانيه ، وتُفهم ألفاظه بلسان العرب وبلغة العرب ، وآيات الصفات وآيات الأسماء هي من القرآن ، فهي تُفهم باللسان العربي ، فكل اسم من أسماء الله له معنى يدل عليه ، وكل صفة من صفات الله لها معنى تدل عليه بظاهر اللفظ ، فيجب إثبات الصفة من حيث هي ، ويجب إثبات المعنى الذي في اللفظ الظاهر وما يتبع ذلك .

نقول : إثبات المعنى ، لم ؟ لأن الله ﷻ قال : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [محمد : ٢٤] ، وقال سبحانه : ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء : ١٩٥] ، يعني : بين واضح ، وهذا يعني أن آيات الكتاب - ومنها آيات الأسماء والصفات - يتعلق بها التدبر والفهم ، والتدبر فرع العلم بالمعنى ، ليست الأسماء والصفات غير معلومة المعنى فإن معانيها معلومة ، والتدبر للمعاني ، أما لو لم تكن لمعانٍ صارت بمنزلة الأحرف الهجائية (أ ، ب ، ت ، ث ...) إلى آخر ذلك ، ليس لها معانٍ خاصة تدل عليها ، وهذا يعني أنها لا تُعقل ولا تُتدبر ، ولكن الله ﷻ أمرنا أن نعقل وأن نتدبر كتابه ، وأعظم ما في القرآن الدلالة والعلم بالله ﷻ ، ووصف الله ﷻ ، ونعوت كماله ﷻ ، وهذه كلها متعلق بها التدبر ، فكيف يكون التدبر لغير هذا المطلب الأعظم ؟

أيضًا من الإيمان بها : أن يؤمن بمتعلقاتها في الخلق ، وبآثارها في الخلق ، فإن الأسماء والصفات لها آثار متعلقة بخلق الله ، ومتعلقة بملكوت الله ، فكل اسم وكل صفة لها أثر ، فنؤمن بالصفة من حيث هي ، ونؤمن بما اشتملت عليه من المعنى ، ونؤمن بالأثر الذي للصفة ، وهذا قد يُسمى متعلق الصفة ، فمثلًا : الله ﷻ موصوف بأنه ذو سمع وأنه السميع ، وهذا نثبت فيه السمع لله ﷻ ونثبت معنى السمع ، ثم نثبت أثر هذه الصفة في الخلق ، وأن الله ﷻ لا يعزب عنه مسموع ، سبحان من وسع سمعه الأصوات ، ما معنى السمع ؟

الجواب : السمع من حيث هو معناه إدراك ما يُسمع .

وهنا تنبيه : وهو أن المعاني يصعب تفسيرها ، بخلاف الذوات والأعيان فإنه يسهل التعريف بها ؛ ولهذا تجد أن ما يقوم بقلب البشر من الصفات إذا عرفهُ فإنه يُعرِّف ما قام بقلبه بتعلقه بذاته وتعلقه

بالبشر ، مثلًا لو طلب تعريف الرحمة فإنها معنى قلبي ، وكل واحد منا يدرك معنى الرحمة ؛ لأنها معنى قلبي يشعر به ، والدلالة بما يشعر به هذه دلالة أعظم من دلالات الألفاظ ، فإذا أراد أن يُعبر عنه ربما عسر عليه أن يعبر بتعبير مطلق ، يعني : بتعبير عام يشمل ما في قلبه ويشمل غيره ، ربما عسر على كثير من الناس ، بل ربما عسر على كثير من أهل العلم ، ولكن الخاصة يؤتيهم الله ﷻ من ذلك ما يشاء ، فإذا عرف معرف الرحمة فإنه ربما يعرفها بالنظر إلى حاله ، مثلما عرفها الأشاعرة .

فكل أعمال القلوب التي في الإنسان ووصف الله ﷻ بها نفسه عرفوها بناء على أنها أعمال قلوب في الإنسان ؛ ولذلك نفوها عن الله ﷻ ، وهذا في المعاني كثير . لهذا نقول : إن المعاني تُعقل معانيها ؛ الصفات التي من هذا الجنس تُعقل معانيها ، وأما تفسيرها فلابد أن تقف عليه بعبارة من عبارات أهل العلم المحققين ؛ لأن تفسير تلك المعاني قد يكون من المفسر بالنظر إلى بعض متعلقاتها ، فتُفسر الرحمة من جهة تعلقها بالمخلوق ، ويُفسر الحياء من جهة اتصاف المخلوق به ، ويُفسر الغضب من جهة اتصاف المخلوق به ، ويُفسر الرضا من جهة اتصاف المخلوق به .. وهكذا ، فإن هذه وجودها مطلق من دون إضافة - كما هو معلوم - إنما يوجد في الأذهان ، أما في الخارج - يعني : في الواقع - فإنما توجد مضافة ، مثل : رحمة الله ، ورحمة الإنسان ، فإذا عرف مُعرف هذه المعاني فإنه قد ينظر في ذلك إلى ما يعقله من نفسه ؛ ولهذا ضل من ضل في هذا الباب من هذه الجهة ، فيُتنبه إلى هذه القاعدة وهي : أن المعاني تفسيرها من دون إضافة قد يعسر على كثيرين ، فيؤخذ تفسيرها من أهل العلم المحققين ، حتى بعض اللغويين يُفسرها باعتبار من قامت به ، فربما فسر الحياء وهو ينظر إلى حياء المخلوق ، لكن الحياء الذي هو مطلق عن الإضافة الذي هو معنى كلي في الذهن قد لا يصل إلى تعريفه ؛ لأنه إنما وجد في ذهنه بالتخصيص ؛ لهذا قال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - في « التدمرية » ، في قاعدته المعروفة في الفرق بين التعميم : « إن المعاني لا توجد كلية إلا في الأذهان ، أما في الخارج فإنما توجد بالإضافات والنسب » .

والقواعد في هذا كثيرة ، وقد ذكر ابن القيم - رحمه الله تعالى - منها ما يضيق المقام على تعداده ، بعضها سنستخدمه - إن شاء الله - في فهم النصوص ، والرد على المخالفين من المؤولة والمعطلة والمشبهة والمجسمة ، ونحو ذلك من أصناف أهل الضلال في هذه الأبواب .

القاعدة الأخيرة التي نختم بها هي : أن ظاهر النصوص مراد ، وأن الإيمان إنما يكون بظاهر النص ؛ لأن الظاهر هو ما يتبادر إلى الذهن من النص ، وهذا هو الذي كلفنا الله ﷻ بالإيمان به ؛ إذ لم نُكلف في الغيبيات بأن نؤمن بأشياء وراء الظاهر لأنها لا تدرك ، وهذه الغيبيات لابد من إدراكها .

فما هو ظاهر النصوص ؟

الجواب : ظاهر النصوص هو إثبات المعنى دون إثبات الكيفية ؛ ولهذا وجب الإيمان به ؛ لأن فيه إثباتًا للمعنى دون إثبات الكيفية ، والله ﷻ وصف نفسه بأنه استوى على العرش ، وهذا إثبات للمعنى دون إثبات للكيفية ، ووصف نفسه بأنه يغضب ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفتح : ٦] ، وهذا إثبات للمعنى دون إثبات للكيفية ، ووصف نفسه بأنه يرضى وهذا إثبات للمعنى دون إثبات للكيفية ، فظاهر النص هو المعنى الذي دل عليه ، أما كيفية الاتصاف فإن هذه لا يدل عليها ظاهر النصوص ؛ ولهذا ضل من ضل حيث زعم وظن أن ظاهر النصوص فيه التشبيه أو التمثيل ، ففهم من الغضب غضب المخلوق ، يعني : كيفية غضب المخلوق ، وفهم من الرضا رضا المخلوق ، يعني : كيفية رضا المخلوق ، فيفسرون الغضب - مثلًا - بأنه ثوران دم القلب ، أو غليان دم القلب ، وهذا أثر الغضب في المخلوق وليس هو معنى الغضب ، بل الغضب له معنى كلي لا يتقيد بالمخلوق . وهذا الباب مهم جدًّا ، فإن الإيمان بظاهر النص هو إيمان بالمعنى الذي دل عليه هذا الظاهر ، وهذا الظاهر أحيانًا يكون إفراديًّا نفهمه من كلمة واحدة ، وأحيانًا يكون هذا الظاهر تركيبيًّا نفهمه من تركيب الكلام ، يعني أن الظاهر ينقسم إلى قسمين : ظاهر إفرادي ، وظاهر تركيبي .

الظاهر الإفرادي : هو الذي دل عليه أفراد الكلام ، يعني : كلمة واحدة ؛ كقوله تعالى : ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفتح : ٦] ، وقوله تعالى : ﴿وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾ [طه : ٨١] ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾ [البقرة : ٢٦] ، ونحو ذلك من الصفات .

وأما الظاهر التركيبي : فهو الذي يُفهم لا من جهة لفظه ، ولكن من جهة الكلام كله ، وهذا حجة وأصل في اللغة ، وهو مقرر عند أئمة أهل اللغة ، وكذلك أئمة أهل السنة في كتب العقائد وغيرها ، فيُفهم بسياق الكلام ، وهذا هو الذي يُسمى عند الأصوليين بالدلالة الحملية للكلام ، هذا في غاية الأهمية للناظر في هذا الباب - باب الأسماء والصفات - لأن من ادعوا أن السلف أوّلوا في باب الأسماء والصفات احتجوا ببعض كلامهم في هذا الأمر ، وهم إنما أرادوا دلالة التركيب ، ومعلوم أن الكلام إذ دل بتركيبه فإنه لا يكون نفيًا لما دلت عليه أفراده .

مثال ذلك : قول الله ﷻ : ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان : ٤٥] ، الظاهر الإفرادي للكلام في قوله : ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أن الرؤية تكون لله ، يعني : يرى الرب ﷻ ، لكن لَمَّا قال : ﴿كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ علمنا بدلالة التركيب - وهو ما يُفهم به مقصود المتكلم من كلامه - أنه أراد قدرة الله ﷻ : ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا﴾ كذلك قوله ﷻ : ﴿قَدۡ مَكَرَ

﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦]، هل هذه من آيات الصفات التي فيها الإتيان؟ لا، ولم لم يحملها السلف على أنها من آيات صفة الإتيان؟ لأن المقصود بالإتيان – إذا أُثبتت الصفة – إتيان الذات وليس إتيان الصفات، وهنا قال: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ وهذا ليس دليلًا على صفة الإتيان؛ لأن التركيب تركيب الكلام يدل على أن المراد إثبات الصفة بقوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾، ومن المعلوم المتقرر أن الله ﷻ ليس كمثله شيء، فهو سبحانه لا يأتي بذاته للبنيان من قواعده، فهو ﷻ أجل من ذلك، وهو سبحانه مستوٍ على عرشه، وإنما المقصود إتيان صفاته اللائقة في هذا الموضع، وهي قدرته، وبطشه، وقوته، وعقابه، ونكاله بالكافرين؛ لذلك قال: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾.

أيضًا من أمثلته: قوله ﷻ في سورة البقرة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، هنا فسر السلف الوجه بالقبلة؛ لأن الوجه من حيث اللفظ يطلق على الجهة ويطلق على الصفة، فيكون «وجه» بمعنى وجهة، ويكون وجه الله بمعنى الصفة التي هي الوجهة المعروفة، هنا ما حُمل المعنى على الصفة مع أنها إضافة صفة إلى متصف بها وهو (وجه الله)؛ وذلك لدلالة السياق ودلالة التركيب، وهذا ظاهر لأن سياق الآيات في القبلة ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ يعني القبلة؛ لهذا خرجت هذه الآية عن أن تكون من آيات الصفات.

كذلك قوله ﷻ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢]، هذه هي الآية الوحيدة التي اختلف فيها السلف هل هي من آيات الصفات أم ليست من آيات الصفات؟ فبعضهم قال: هي من آيات الصفات، وبعضهم فسرها بما يخرجها عن كونها من آيات الصفات، لم؟

الجواب: لتنازع هذا الموضع بين أن يُقصد الفرد فتكون من آيات الصفات، أو أن يكون المقصود التركيب فتكون من غير آيات الصفات، يعني: هل يفهم الكلام بفهم كلمة (سَاق)، أو نفهمه مع سابقه ولاحقه؟ فالعرب تقول: كشفت الحرب عن ساقٍ. إذا كشفت عن هول وشدة، وهذا استعمال تركيبي تستعمله العرب للدلالة على الهول والشدة؛ فلهذا قال ابن عباس وغيره: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ يعني عن هول وشدة.

وآخرون كأبي سعيد وغيره قالوا: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ يعني: عن ساق الرحمن ﷻ لما جاء في الحديث[1] من الدلالة على ذلك.

---

(١) ينظر صحيح البخاري (٤٩١٩) من حديث أبي سعيد الخدري.

المقصود أن هذا البحث مهم وطويل فروعه ، وضابطه أن ظاهر الكلام قد يكون من جهة اللفظ ، وقد يكون من جهة التركيب ؛ لأنه الذي يُفهم به مقصود المتكلم من جهة ظاهر كلامه ، لأننا لا نعلم بواطن الكلام ، لكننا نعلم ظاهر الكلام ، وهذا الظاهر قد يكون من جهة الإفراد ، وقد يكون من جهة التركيب ، ولهذا ينقسم الظاهر إلى : ظاهر إفرادي ، وظاهر تركيبي .

هذا البحث أطل عليه شيخ الإسلام في مواضع كثيرة من كتبه ، منها ما في أوائل المجلد الثالث من رده على الرازي في بيان تلبيس الجهمية ، أو نقض التأسيس والتقديس الذي يرد فيه على كتابه التأسيس والتقديس ، وهذا الجزء لم يُطبع بعد ، وهو من الأقسام المهمة جدًّا في هذا الباب ؛ لأن الرازي ذكر تأويل الآيات والأحاديث ، فأصل شيخ الإسلام تأصيلًا عميقًا قويًّا ؛ كعادته رحمه الله في بيان الظاهر والتأويل وأقسام الظاهر والحقيقة وهذه المباحث ، وهذا البحث معروف في علم أصول الفقه في مبحث دلالة الألفاظ أو الاستدلال .

كذلك الحقيقة تنقسم إلى قسمين : حقيقة تفهم من مفرد الكلام ، وحقيقة تفهم من تركيب الكلام ، وهي مرتبطة بتقسيم ظاهر الكلام إلى : ظاهر إفرادي وظاهر تركيبي .

فمثلًا : ادُّعيَ المجاز في قوله تعالى : ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ﴾ [يوسف : ٨٢] ، وكذلك في قوله تعالى : ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء : ٢٤] وفي قوله تعالى : ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة : ٣] ، وادعي المجاز في أشياء كثيرة ، وهم يزعمون أن مثل قوله تعالى : ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ﴾ فيها إثبات للمجاز ؛ لأن حقيقة اللفظ لم تُعن بيقين ، وفهموا من حقيقة اللفظ هنا أن السؤال متوجه إلى القرية والعير ، ففهموا من قوله : ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ أن السؤال يتوجه إلى القرية .

ونقول : هذا ليس بظاهر الكلام ، وليس بحقيقته أيضًا ؛ لأن الحقيقة هنا تركيبية ، ولأن الظاهر هنا ليس هو ما دل عليه مفرد اللفظ كما زعموا ، بل الحقيقة التركيبية هي المفهومة من قوله تعالى : ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ ، ومعلوم أن السؤال لم نؤمر بتوجيهه إلى جدران القرية وبيوتها وأرضها ، وإنما لمن يفهم السؤال ويجيب عليه ، وهم أهل القرية ، فهذا يُسمى حقيقة تركيبية أو ظاهر دل عليه تركيب الكلام ، وفيه نفيٌ للمجاز .

قوله : (من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله ﷺ) :

ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أن (من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله ﷺ) ، وقد شرحنا هذه الجملة وما يتبعها من قواعد مهمة ، وهذا الإيمان ادعاه كثيرون من المنتسبين إلى القبلة ، ولكن دعوى الإيمان بما وصف الله ﷻ به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ لما

كانت دعوى عند كثيرين التزم أهل السنة والجماعة أن يذكروا قيد هذا الإيمان بهذه النصوص - نصوص الصفات- فهو ليس إيمانًا على وفق ما تشتهي النفس أو يؤدي إليه العقل، بل على قاعدة: أن يكون الإيمان بتلك النصوص بما وصف الله به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، فهناك محرفون يقولون: نؤمن بالصفات على ما جاء في الكتاب والسنة. لكنهم يحرفونها عن مواضعها، فأهل السنة خالفوهم وآمنوا بالنصوص من غير تحريف، وهناك معطلة عطلوا نصوص الصفات عن معانيها اللائقة بها، أو عطلوا الله ﷻ عن الوصف الذي وصف به نفسه على كماله وأولوه وحرفوه وتوجهوا به إلى معنى آخر، فخالفهم أهل السنة فآمنوا بظاهر النصوص من غير تعطيل لها ولا تأويل يصرفها عن حقائقها اللائقة بالله جل جلاله.

كذلك آمنوا بالنصوص من غير تكييف؛ لأن هناك من آمن فكَيَّف، فجعل نصوص الصفات مكيفة بكيفيات اخترعوها وابتدعوها في أذهانهم، وهؤلاء يزعمون أنهم آمنوا بالنصوص، لكن أهل السنة بينوا أن الإيمان لابد أن يكون من غير تكييف، وهناك أيضًا ممثلة مجسمة آمنوا بالنصوص على زعمهم وجعلوا ظاهر النص يُراد به أمثلة معروفة، فقالوا: يد الله كأيدينا، وعين الله كأعيننا، وسمع الله كسمعنا، ونحو ذلك، وزعموا أنهم آمنوا لكن آمنوا إيمانًا فيه تمثيل.

إذن يكون إيمان هؤلاء الأصناف الأربعة إيمانا مدعى، ليس إيمانًا شرعيًا، فمتى يكون الإيمان بنصوص الصفات صحيحًا؟

الجواب: إذا جَمَع هذه الأربع: أن يؤمن بما وصف الله به نفسه وما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، فهذه أربع قواعد:

* أن نؤمن بالنصوص ولا نحرفها.
* أن نؤمن بالنصوص ولا نعطل الله ﷻ عن وصفه الذي وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ.
* أن نؤمن بالصفات من دون تكييف لهذه الصفات بكيفيات معهودة أو غير معهودة.
* أن نؤمن بالنصوص ولا نمثل الله ﷻ بخلقه بل ننزهه سبحانه.

وهذا يُحتاج في بيانه إلى المراد بهذه الألفاظ الأربعة: التحريف، والتعطيل، والتكييف، والتمثيل.

أما التحريف: فأصله في اللغة من الانحراف بالشيء عن وجهه، وهو صرفه عن وجهه ومعناه إلى غيره، وهذا تحريف بمعنى التغيير والتبديل، فيكون معنى التحريف التغيير والتبديل؛ حرّف أي غير وبدل، قال ﷻ عن اليهود: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]، قال المفسرون في معنى هذه الآية: يعني يحرفون ما أنزل إليهم عن معانيه اللائقة به، بل يخترعون له معاني من عندهم، وسمى الله ﷻ هذا منهم تحريفًا.

والتحريف في نصوص الصفات معناه : أن تُغير وتُبدل ألفاظها أو معانيها عن ظواهرها ، فإذا صُرف ظاهر النص عن معناه اللائق به ، سواء أكان في اللفظ أو في المعنى فإن هذا تحريف ، لأنه تغيير وتبديل .

قال العلماء : التحريف من حيث هو في تعلقه بنصوص الصفات أو بغيره على قسمين :

* تحريف في اللفظ : إما بزيادة أو نقصان أو بتغيير حركة إعرابية أو بغير تغيير حركة إعرابية .

* وتحريف في المعنى : يكون بتغيير معنى الكلمة عن معناها المعروف في لغة العرب .

النوع الأول : التحريف في اللفظ : قد يكون التحريف في اللفظ بزيادة ؛ كما فعل اليهود ، فإن الله ﷻ أخبر عنهم بقوله تعالى : ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة : ٥٩] ، قيل لهم : ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ [البقرة : ٥٨] ، فقالوا : « حبة في شعيرة » . غيروا اللفظ من أصله ، أو غيروه بزيادة ؛ كما روي أنهم قالوا : « حنطة » ، بزيادة النون .

كذلك فعل المعتزلة والجهمية والأشاعرة ونحوهم ، حينما فسروا معنى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الفرقان : ٥٩] ، وقوله تعالى : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه : ٥] بقولهم : استولى . فهذا تحريف في اللفظ بزيادة حرف ، فإن كلمة « استوى » ليس فيها حرف اللام ، زادوا اللام فغيروا المعنى ، ومعنى استوى المعروف في اللغة علا وارتفع .

كذلك قد يكون بنقص في اللفظ ، وقد يكون بتغيير حركة إعرابية في النص ، مثل ما قال جهمي لأبي عمرو بن العلاء ، أحد القراء والنحاة والعلماء المتحققين بالسنة ، قال : يا أبا عمرو ألا تقرأ : (وكلم اللهَ موسى تكليمًا) بالنصب ؟ أي : غير حركة إعرابية ؛ لأن القراءة : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء : ١٦٤] ، فالله ﷻ هو فاعل الكلام ، وموسى عليه السلام في الإعراب مفعول به ، أراد أن يحرف بتغيير حركة إعرابية ، فقال : ألا تقرأ (وكلم اللهَ موسى تكليمًا) ، يعني : أن له وجهًا في العربية عند هذا القائل ؛ لأن موسى عليه السلام لا تظهر الحركة في آخره ، فإذا قرأ : (وكلم اللهَ موسى) يكون المُكلِّم هو موسى ، والمكلَّم هو الله ﷻ ، قال له أبو عمرو بن العلاء : هبني قلت لك ذلك وقرأته على هذا النحو ، فماذا تقول في قوله تعالى : ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ؟ فبُهت .

وهذا من نوع تغيير حركة إعرابية ، ربما لجأ إليه كثير من الذين يزعمون أن عندهم علمًا بالنحو ، لكن مع ظهور العلم وقوته بطل ذلك منهم . وقد يكون التحريف بلا زيادة في اللفظ ولا نقصان ولا تغيير حركة إعرابية ، بل يكون تحريفًا للفظ بغير هذه الأنحاء ، وفي المثال السابق بقوله (وكلم اللهَ موسى) أراد أن يجعل موسى المُكلِّم ، فحرف وغير موسى من كونه مفعولًا به إلى كونه فاعلًا ، وهذا لم تدل عليه حركة إعرابية .

كذلك يدخل في هذا الذين يُحرفون الكلام فيجعلونه بمعنى آخر – لفظ له معنى يجعلون له معنى آخر– مثلًا في قوله تعالى : ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص : ٧٥] ، يجعلون معناه : بقدرَتي أو بقدرَتيَّ ، هذا تحريف للفظ ، فهل هو من جهة المعنى ؟ الجواب : لا ، بل جعلوا لفظًا مكان لفظ ، يقولون : اليد هنا القدرة ، وليست اليد المعروفة .

النوع الثاني : التحريف من جهة المعنى :

وهذا كثير ؛ كادعاء المجاز في آيات الصفات ؛ وكتأويل النصوص على ما دلت عليه لغة العرب ، فمثلًا قول اللّٰه ﷻ : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة : ٣] ، يقولون : الرحمة هي إرادة الإحسان ، هذا تحريف وتغيير للرحمة عن معناها ، بأي شيء؟ الجواب : بالأخذ بالمجاز ، والأخذ بالمجاز في نصوص الصفات باطل ، ومن أصول أهل الضلال في الصفات ، أما في غير الصفات – يعني في اللغة من غير دخوله في الصفات – فهو خلاف أدبي ، مع أن الصحيح عند المحققين أنه لا مجاز أصلًا .

ويدخل في المحرفة هنا ؛ الذين حرفوا الكلم عن موضعه ، الجهمية ، لأن أصل التحريف إنما جاء من جهة الجعد بن درهم ، بل من جهة اليهود ؛ لأن هذه المقالة أخذها الجعد عن اليهود ، لأنهم هم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، وكان أول ما بدأ التحريف حيث نفى اتصاف اللّٰه ﷻ بالكلام ، وقال : إن قوله تعالى : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ أي : جرحه بأظافير الحكمة تجريحًا . فليس من جهة الكلام وإنما من جهة التجريح ، و(كلم) أي جرّح من الكلْم وهو الجُرح ، ثم أخذها عنه جهم بن صفوان رأس الجهمية .

وهذا أول ما بدأ به الجهمية فنفوا صفة الكلام ، وتسلسل هذا .

والجهمية يُحرفُون من جهات :

أولًا : تحريفهم الأسماء الحسنى والصفات العُلا ، فهم يقولون بها في القرآن لكن يجعلون تفسيرها بمخلوقات منفصلة ، فصفة اللّٰه عند الجهمية هي الوجود المطلق فقط ، وغيره من الأسماء الحسنى – السميع ، البصير ، الحي ، القيوم ، العليم ، الحكيم – يُفسرها الجهمية بمخلوقات منفصلة ، فيقولون : السميع هو من يُسمَع ، والبصير هو من يُبصَر ، والمتكلم هو من يُكلَّم – يعني : مخلوقات اللّٰه ﷻ المنفصلة – والعزيز هو من أُعز أو من عزّ ، والقيوم هو من أقيم أو من قام بأموره . وهذه الأسماء تعلقت بالخلق من آثار صفة الوجود للّٰه ﷻ ، فعندهم الوجود عام . ويدخل فيه المعتزلة ، فإن المعتزلة حرفوا الغيبيات جميعًا في الصفات والأسماء ، وفي الأمور الغيبية ، مثل : عذاب القبر ، والميزان ، والحوض ، والصراط ، ونحو ذلك من الأمور الغيبية التي حرفوها عن معانيها ، ويدخل فيه أيضًا الأشاعرة .

وهل كل تحريف يُعد كفرًا ؟ الجواب : ليس كل تحريف يُعد كفرًا ، فإن أهل السنة والجماعة لم يُكفروا الذين فسروا استوى بـ « استولى » ، فإن كان التحريف في جميع الصفات - كفعل الجهمية - فإنه يُعد كفرًا ، والجهمية عندهم كفار ؛ لأنهم حرفوا ونفوا صفات الله ﷻ ، وإن كان التحريف في بعض الصفات ، وكانت الدلالة عليها ظاهرة ولا يحتملها وجه - يعني : ليس للتأويل فيها مدخل - هنا يُكفر به ؛ كتكفير من نفى رؤية الله ﷻ ، وتكفير من جعل كلام الله ﷻ مخلوقًا ، وأما غيره مما يكون لقائله عذر في تأويله فإنه لا يقال بكفره .

ولهذا فإن أهل السنة والجماعة لم يكفروا الأشاعرة ، والماتريدية ، والكلابية ، والسالمية ، والكرامية ، وأشباه هؤلاء .

قال : (ولا تعطيل) هذه اللفظة الثانية ، والتعطيل أصله في اللغة . من عَطل يُعطّل تعطيلًا ، وهو عُطلٌ ، إذا كان خاليًا ، يقال : هذا مكان مُعطّل إذا كان خاليًا ليس فيه شيء ، ويقال أيضًا للمرأة : جيدها معطل . إذا كان خاليًا من الحلي ، ومنه قول الشاعر في وصف جيد امرأة :

وجيدٍ كَجيدِ الريمِ ليسَ بفاحشٍ إذا هـي نَـصَّـتْـهُ ولا بِـمُـعَـطَّـلِ

بمعطل أي : خالٍ من الحلي ، فهذا أصله .

فإذن الإخلاء هو التعطيل ، ومعنى قول الله ﷻ : ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ [الحج : ٤٥] ، أي : خالية من الماء ؛ لأنه لم يستفد منها ، أو لم تُحفر ، أي : لم يُعتن بها لإخراج الماء . وتعطيل النصوص ، أو تعطيل الصفات ، أي : تعطيل الله ﷻ عن صفاته ، بمعنى إخلاء الله سبحانه وتعالى عن أوصافه ، يعني : نفي الصفات عن الله ﷻ .

والتعطيل عند العلماء أقسام أشهرها ثلاثة وهي :

الأول : تعطيل المخلوق عن خالقه ، يعني إخلاء المخلوق عن أن يكون مخلوقًا بنفي أن يكون ثَمّ خالقٌ له ؛ كقول الملاحدة .

الثاني : تعطيل الخالق عن أوصافه التي وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله ﷺ .

الثالث : تعطيل الخالق عن استحقاقه العبادة وحده لا شريك له .

فالأول بحثه في توحيد الربوبية ، والثاني في توحيد الأسماء والصفات ، والثالث في الألوهية . فإذن التعطيل دخل فيه أنواع التوحيد ، فإذا كان تعطيلًا للمخلوق عن الخالق صار ذلك نفيًا لتوحيد الربوبية ، وإذا كان تعطيلًا لله من أوصافه صار تعطيلًا ونفيًا للأسماء والصفات ، وإذا كان تعطيلًا للخالق عما يستحقه من عبادته وحده دونما سواه صار تعطيلًا في الألوهية ، والمقصود هنا الثاني .

إذن المقصود بالتعطيل أن يُعطّل الله ﷻ عن أوصافه ، يعني : أن يصف نفسه بصفة أو يصفه

رسوله ﷺ بصفة ، فيُخلي الله ﷻ من هذه الصفة ، وكأنه سبحانه لم يصف نفسه بذلك الوصف ، ولم يصفه رسوله ﷺ بذلك الوصف ، فإن وصف اللهُ ﷻ نفسه جلب لهذه الصفة لله ﷻ ؛ لأننا لم نعلم أنه سبحانه متصف بهذه الصفة ، فأخبرنا الله ﷻ لنعلم أنه ﷻ متصف بها ، فصار إثباته لنفسه هذه الصفة زيادة علم عما كان عندنا من قبل ، فإذا نُفيت صار ذلك إخلاء لله ﷻ عن الوصف فصار تعطيلًا . فإذن يدخل في المعطلة الذين ينفون وصف الله ﷻ بكل الصفات كفعل الجهمية ، ويدخل فيهم الذين ينفون أوصاف الله ﷻ غير الصفات الثلاث المشهورة عند المعتزلة ، وكذلك يدخل فيه الذين يعطلون الله ﷻ عن الاتصاف بغير الصفات السبع المشهورة عند الكلابية ومن تبعهم من الأشاعرة والماتريدية ، وهذا باب واسع يأتي - إن شاء الله - تفصيله .

فإذن كل من لم يصف الله ﷻ بما وصف به نفسه ، بأن حرّف أو أوّل فقد أخلى الله ﷻ عن الوصف اللائق به كما أخبر ، ومنع الأخذ بظواهر النصوص ، فإن هذا يُعد تعطيلًا ، فإن أهل السنة والجماعة يخالفون المبتدعة الذين يعطلون .

وهل إيمان المعطل بالنص هو حقيقة أم دعوى ؟ الجواب : هو دعوى ، فالأشعري ، والماتريدي ، والمعتزلي ، والإباضي ، والرافضي ، وأشباههم يقولون : نؤمن بالنصوص . لكنهم يعطلون النصوص عن معانيها ، ويجعلون هذه المعاني للنصوص في الصفات راجعة إلى الأوصاف التي يثبتونها ، فالجهمي يُرجع كل صفة إلى صفة الوجود بجعل الأوصاف والأسماء أثرًا لصفة الوجود ، والمعتزلي يجعل الصفات والأسماء من آثار الصفات الثلاث التي يثبتها ،

والأشعري والكلابي يجعل كل صفة راجعة للصفات السبع التي يثبتها ، والماتريدي يجعل الصفات والأسماء من آثار الصفات الثمان التي يثبتها .

فمثلًا : صفة النزول لله ﷻ ينفيها أولئك .

فالأشعري يُفسرها فيقول : نؤمن بأنه ينزل لكن نزوله ليس نزولًا حقيقيًا ، إنما هو نزول الرحمة والإجابة ؛ إجابة الله ﷻ للداعين في هذا الوقت المتأخر من الليل . فهم يجعلون الصفة راجعة إلى الصفات التي يثبتونها ، فالرحمة عندهم إرادة الإحسان ، لِمَ ؟ لأنهم يجعلون من الصفات السبع صفة الإرادة ، والغضب عندهم إرادة الانتقام ، لِمَ ؟ لأن الإرادة عندهم من الصفات السبع . وهكذا ، فكل صفة يعطلونها عن معناها الذي دلت عليه اللغة ، ويقولون : نؤمن بالنص لكن هذه الصفة معناها أحد الأوصاف السبعة التي أثبتناها .

وهذه الأوصاف السبعة لإثباتهم لها وسبب ذلك مزيد من التفصيل يأتي في مكانه - إن شاء الله - من هذه الرسالة المباركة .

قال : (ومن غير تكييف) هنا كرر (من غير) ، فقال : (من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل) ، والسبب في ذلك أن التحريف والتعطيل متقاربان ، وكذلك التكييف والتمثيل متقاربان ، لكن التكييف والتمثيل غير التحريف والتعطيل ، فالتكييف والتمثيل يدخل فيه المجسمة ، والتحريف والتعطيل يدخل فيه المعطلة ؛ ولهذا قال العلماء : « الممثل يعبد صنمًا ، والمعطل يعبد عدمًا ، والسني يعبد إلهًا واحدًا فردًا صمدًا » لِمَ ؟ الجواب : لأنه جَسَّم فتخيل إلهه على نحو ما ، فعبد هذا المتخيل ، فصار صورة ، فصار صنمًا ، أما المعطل فهو يعبد إلهًا ليس له صفة أو ليس له أسماء أو نعوت ، فإذا كان لا يصف الله بشيء فهو يعبد عدمًا محضًا ؛ كفعل الجهمية .. وهكذا .

قال : (من غير تكييف) التكييف من كيّف الشيء يكيفه تكييفًا إذا جُعل له كيفية ، والتكييف : معناه أن يجعل لصفة الله ﷻ كيفية ، قد تكون هذه الكيفية معلومة المثال ، وقد لا تكون معلومة المثال .

مثال ذلك : أن يجعل اتصاف الله ﷻ باليد على مثال يعلمه ، فيجعل الكيفية على نحو ما ، كمن يقول – مثلًا : إن الله ﷻ استوى على العرش وكيفية الاستواء كذا وكذا . فقد يُكيفها بما عهده فيكون تمثيلًا ، وقد يكيفها بشيء خيال في ذهنه فُيعد تكييفًا من غير مثال .

ما المقصود بالتكييف في هذا الموضع ؟

لما عطف المصنف رحمه الله عليه التمثيل بالواو – والواو تقتضى المغايرة – دل على أنهم يريدون بالتكييف التكييف على غير مثال معلوم ، يعني : يخترع له كيفية لا مثال لها ، وإن كان التمثيل يدخل في التكييف ، لكنه لما عطف بالواو علمنا أنه يريد بالتكييف غير التمثيل ، وأن التمثيل له وصفه والتكييف له وصفه . فكيف يكون التكييف ؟

مثلًا : يتخيل صورة ليد الله ﷻ ، أو يتخيل صورة لاستواء الله ﷻ ، أو يتخيل صورة وحالًا لنزول الله ﷻ ، أو يتخيل صورة وحالًا لغضب الله ﷻ ، هذا كله تكييف ، يعني : جعل للصفات كيفية ، وهذا هو التكييف الذي سلكه طائفة من المجسمة ؛ لأن المجسمة على قسمين : مجسمة مكيفة : وهم الذين جعلوا الله ﷻ على كيفية اخترعوها في أذهانهم ليس لها مثال .

ومجسمة ممثلة : وهم الذين جعلوا لله ﷻ جسمًا على مثال يعلمونه ، مثل مخلوق أو نحو ذلك .

هذا معنى التكييف ، ونفيه لا شك أنه من أعظم المعلومات التي يعلمها المؤمن ، فإذا وَصَف الله ﷻ نفسه بصفة يؤمن بمعناها ولا يعلم كيفيتها ؛ ولهذا قرر الإمام مالك رحمه الله هذه القاعدة آخذًا لها من قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ، فقال لمن سأله عن الاستواء : « الاستواء معلوم والكيْف غيْر مَعْقُول » . وهذه أثبت من الرواية الأخرى التي فيها : « الكيف

مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة » .

قوله : « الاستواء معلوم » يعني : في اللغة معلوم المعنى ، فإن معنى الاستواء في اللغة : العلو والارتفاع ، « والكيف غير معقول » أي : لا تُعقل كيفية استواء الله ﷻ ، وإيمان المؤمن باستواء الله ﷻ إيمان معنى لا إيمان كيفية ؛ لأنه إيمان بما دل عليه ظاهر اللفظ ، أما الكيفية فإن قلب المؤمن قد انقطعت علائقه به ، وانقطع طمعه وانقطع طلبه لإدراك كيفية الاتصاف ، فإن هذا لا يعلمه إلا الله ﷻ .

وهذه قاعدة نقولها في كل صفة ، فإذا قيل : كيف ينزل ؟ نقول : النزول معلوم والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة . وإذا قيل : كيف غضب الله ﷻ ؟ نقول : الغضب معلوم والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة .

وكذلك إذا قيل : كيف الاستواء ؟ أو كيف الرضا ؟ أو كيف الأسف ؟ أو كيف الرحمة ؟ أو كيف المجيء ؟ أو كيف الإتيان ؟ ونحو ذلك ، هذه كلها معلومة المعنى لكن كيفياتها غير معقولة .

قال هنا : (ولا تمثيل) ، والتمثيل مِنْ مثّل يُمثل تمثيلاً إذا جعل للشيء مثلًا ، وقد سبق أن التمثيل في الأصل نوع من التكييف ، لكن هنا أفرده فصار قسيمًا للتكييف ، أي : صار التكييف شيئًا والتمثيل شيئًا آخر ، فما المراد بالتمثيل ؟

الجواب : أن يجعل لصفة الله ﷻ مثالًا يعلمه ، فيجعل – مثلًا – اتصاف الله ﷻ باليد على نحو اتصاف المخلوق بها ، أو يجعل اتصاف الله ﷻ بالغضب على نحو اتصاف المخلوق به ، أو يجعل اتصاف الله ﷻ بالنزول على نحو اتصاف المخلوق به ؛ ولهذا تجد أن كل معطل ممثل ؛ لأنه لم يُعطل إلا وقد استحضر التمثيل قبل أن يُعطل .

فإذا سألت المعطل الذي نفى : لِمَ عطلت ؟ لم قلت في النزول : تنزل رحمة الله ؟ لِم لم تقل : يتنزل الله ؛ كما أخبرنا النبي ﷺ بذلك الذي هو أعلم الخلق بربه ؟ قال : هذا غير معقول ، هذا يستحيل ، هذا يقتضي التشبيه ، فظن أن ظاهر النص هو التمثيل ، فمثل أولًا ثم نفى ثانيًا .

ولهذا يقول العلماء : « كل محرف أو معطّل لنصوص الصفات فقد مثل وعطّل » ، فالممثل والمكيف خيرٌ من المعطل ؛ لأنه إنما وقع في شر واحد وبدعة واحدة ، وهو التمثيل والتكييف ، أما المعطل المحرف النافي للصفات فقد مثل باطنًا ثم عَطّلَ ظاهرًا ، قام في قلبه التمثيل بأن الله ﷻ في هذه الصفة مثل المخلوق ، فيقول : كيف يد الله ؟ بعد أن مثلها بالجارحة في المخلوق ، وكيف يتكلم بحرف وصوت ؟ بعد أن تخيل أن ذلك يلزم له لسان ولهاة كما في المخلوق ... إلى آخره ، فاستحضر التمثيل أولًا : يعني : فهم من النص أنه يدل على التمثيل فمثّلَ ، ثم بعد ذلك نفى هذا وعطل ، نسأل الله ﷻ العافية .

قال هنا : (ولا تمثيل) ، والتمثيل من فعل المجسمة ، كذلك التكييف من فعل المجسمة ، والمجسمة والمعطلة أعداء لأهل السنة والجماعة ؛ لأن أهل السنة والجماعة يؤمنون بالنصوص لا يُمثلون ولا يُجسمون ، ولا يُعطلون ولا يُحرفون ، بل يثبتون النصوص على ما دلت عليه ؛ كما سيأتي بيان ذلك في عقيدتهم في نصوص الصفات التي سيسوقها شيخ الإسلام ، رحمه اللّه تعالى .

قوله : (بل يؤمنون بأن اللّه سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه) :

قال : (بل يؤمنون بأن اللّه سبحانه) ، (بل) هذه للإضراب ؛ إضراب عما سبق إلى الآتي ، والإضراب نوعان :

قد يكون إضرابًا لغلط ، وقد يكون إضرابًا للانتقال من كلام إلى كلام ، والذي في القرآن من الإضراب : الإضراب الانتقالي ، وهنا إضراب انتقالي .

قال : (بل يؤمنون) ، أضرب عن الكلام السالف ، يعني : عن تفصيله وعن تدقيق الكلام فيه ، وتنويع الكلام فيه ، ودخل في كلام آخر ، قال : (بل يؤمنون بأن اللّه سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه) . نؤمن بأن اللّه ﷻ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ؛ كما أخبر اللّه ﷻ عن نفسه بذلك فقال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ، وقال ﷻ : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص : ٤] ، وقال سبحانه : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] ، وقال ﷻ : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل : ٧٤] ، يعني : لا تضربوا للّه الأوصاف والنعوت إن اللّه يعلم ما يصف به نفسه وأنتم لا تعلمون كيف تصفون اللّه ﷻ .

وفي قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ نفي وإثبات ، نَفى بقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ، وأثبت بقوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ، وهذه قاعدة عظيمة أخبر اللّه ﷻ بها ، ومعنى ذلك أن هذا الدين وهذا الإيمان بالصفات مبني على النفي والإثبات ، والذي يظهر من الآية أن النفي جاء فيها مجملًا ، وأن الإثبات جاء فيها مفصلًا ، فقوله سبحانه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ هذا نفي مُجمل دون تحديد لهذا النفي .

وهذا بخلاف طريقة أهل البدع فإنهم يجعلون الإثبات مجملًا والنفي مفصلًا ، واللّه جل جلاله جعل النفي مجملًا والإثبات مفصلًا ، قال سبحانه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ، فكل ما يعلق بالذهن لا يصح أن يكون اللّه ﷻ مثله .

وفي قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ الكاف هذه مما تكلم فيها العلماء ولتقريرها فائدة في

العقائد ؛ لأن معنى الآية يتوقف على فهم معنى الكاف في قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ، فالكاف هنا على أي شيء تدل ؟ لأهل العلم فيها وجهان :

الأول : أن الكاف هنا بمعنى المثل ، هي حرف لكنها اسم ، بمعنى « مثل » فقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ يعني : ليس مثلَ مثله شيء ، وهذا يقتضي المبالغة في نفي المثيل ، فنفى أن يوجد المثل ، فنفيه من باب أولى . ومجيءِ الكاف بمعنى الاسم هذا موجود في القرآن ولغة العرب :

فأما مجيئه في القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] ، فقوله : ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ عطف الاسم على الكاف التي هي في قوله : ﴿كَٱلْحِجَارَةِ﴾ فهي كالحجارة أو أشد ، ومعلوم أن الاسم إنما يعطف على الاسم ، وقوله : ﴿كَٱلْحِجَارَةِ﴾ أي : مثل الحجارة ، أو أشد قسوة من الحجارة .

ومجيئه في اللغة ظاهر ومحفوظ ؛ كقول الشاعر :

لو كانَ في قلبي كقدْرِ قُلامَةٍ حبًّا لغيرك ما أَتَتْكَ رَسَائِلِي

جعل شبه الجملة الجار والمجرور « في قلبي » مقدمًا ، وجعل الاسم « كقدر » لكون الكاف بمعنى « مثل » ، أي : لو كان في قلبي مثل قدر قلامة ، وهذا التوجيه الأول لطائفة من المفسرين في أن الكاف هنا بمعنى المثل على ما ذكرنا ، وهو توجيه لهم وجيهٌ وظاهرٌ في اللغة ومستقيم المعنى أيضًا في الآية .

الثاني : أن الكاف في قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ هذه صلة ، وهي تسمى عند النحويين زائدة ، وزيادتها ليست زيادة في اللفظ ، وإنما هو زيادة لها ليكون المعنى زائدًا ، وليست زائدة بمعنى أن وجودها وعدم وجودها واحد ، حاشا وكلًّا أن يكون في القرآن شيء من ذلك ، وإنما تُزاد ليكون مبالغة في الدلالة على المعنى ، ففي قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ تكون الكاف هذه صلة ، وهي التي يسميها بعضهم الزائدة ، وهي تفيد تكرير الجملة ؛ كما حرره ابن جني النحوي المعروف في كتابه « الخصائص » حيث قال : « إن الصلة والزيادة تكون في الجمل لتأكيدها فتكون في مقام تكريرها مرتين أو أكثر » ، أو كما قال .

فيكون معنى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ليس مثله شيء ، ليس مثله شيء ليس مثله شيء ، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وهذا تفهمه العرب في كلامها ، وتأتي الزيادة بالصلة في مواضع كثيرة من القرآن ؛ كقول الله ﷻ : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، يعني : ليس من جهتك وإنما هو رحمة من الله سبحانه وتعالى .

وكقوله تعالى : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾ [المائدة : ١٣] ، يعني فبنقضهم ميثاقهم لعناهم ، وكقوله : ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة : ١] في أحد وجهي التفسير .

إذا تقرر ذلك فإن الوجه الأولى من هذين التفسيرين هو الوجه الثاني من كون الكاف صلة زائدة في مقام تكرير الجملة ، يعني أن النفي أُكد فتكون أبلغ من أن ينفى مثل المثل ؛ لأنه قد يُشكل في نفي مثل المثل أن يكون نفي المثلية الأولى ليس مستقيمًا دائمًا ، أما الوجه الثاني فإنه واضح من جهة العربية ، وواضح من جهة العقيدة ، وواضح من جهة دلالته على تأكيد النفي الذي جاء في الآية .

فإذن تكون الكاف على هذا صلة ، ويكون معنى الجملة تأكيدًا : (ليس مثله شيء ، ليس مثله شيء ، ليس مثله شيء ، وهو السميع البصير) قال هنا : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ هذا إثبات مفصل ، و ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ و ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ اسمان من أسماء الله ﷻ ، وأسماء الله ﷻ تدل على ذاته ، ودلالة الاسم على المسمى – على الذات – وفيها الصفة ، فالسميع اسم لمن كان ذا سمع ، والبصير اسم لمن كان ذا بصر ، ففيها إثبات السمع والبصر لله ﷻ ، ما فائدة إثبات السمع والبصر هنا ؟

قال العلماء : في هذا حكمة وفائدة عظيمة ، وهي : أنه نفى أولًا بقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ثم أثبت هذين الاسمين لله المتضمنين لصفتي السمع والبصر ، وسبب ذلك أن صفة السمع والبصر من الصفات التي تشترك فيها أكثر المخلوقات الحية ذات الروح ، فمهما صغر من فيه حياة من ذوي الأرواح أو عظم ، ففيه سمع وبصر ، تنظر إلى النملة عندها سمع وبصر : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل : ١٨] ، فهي تسمع وتبصر طريقها ، والبعوضة كذلك لها سمع وبصر ، والدواب لها سمع وبصر ، والإنسان له سمع وبصر ، فصفتا السمع والبصر من أكثر الصفات اشتراكًا بين المخلوقات الحية ذوات الأرواح ، فإذا كان ثم توهم في المماثلة فليكن توهم للمماثلة في اتصاف هذه المخلوقات في صفة السمع والبصر ، فهل بصرك أيها الإنسان وسمعك مثل سمع النملة وبصرها ؟ لا شك أن ثَمّ قدرًا مشتركًا في السمع بين البعوض والإنسان ، وفي البصر بين البعوض والإنسان ، لكن تختلف كيفيته ، وتختلف حقيقته ، ويختلف عظمه وتعلقه . كذلك السمع ، الإنسان يسمع من مسافة بعيدة ، والمخلوق الصغير مثل الذبابة أو البعوضة يسمع لكن لمسافة أقل ، وهكذا .

فإن كان كذلك دل على أن إثبات السمع والبصر في المخلوقات هو إثبات وجود لا إثبات مساواة ، وهذا متصل بقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فإذن إثبات هاتين الصفتين لله – التي عظم اشتراك المخلوقات مع الله سبحانه في اسم الصفة وفي بعض معناها – ليس من جهة التمثيل في شيء ، وفي هذا أعظم رد على الذين توهموا أن إثبات الصفات لله ﷻ فيه تمثيل وفيه تجسيم .

وهنا تنبيه وهو : أن التمثيل يختلف عن التشبيه .

ولتقرير ذلك يُنتبه إلى أن الذي جاء نفيه في الكتاب والسنة إنما هو نفي المماثلة ، أما نفي مشابهة

الله بخلقه فإنها لم تنف في الكتاب والسنة ؛ لأن المشابهة تحتمل أن تكون مشابهة تامة وتحتمل أن تكون مشابهة ناقصة ، فإذا كان المراد المشابهة التامة فإنما هي التمثيل والمماثلة ، وذلك منفي ؛ لقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ .

فإذن لفظ المشابهة ينقسم إلى :

* أن يكون الشبيه موافقًا للمثيل والمثل .

* أو يكون غير موافق للمثيل والمثل .

يعني : قد يشترك معنى التشبيه والمثيل ويكون المعنى واحدًا إذا أريد بالمشابهة المشابهة التامة في الكيفية وفي تمام معنى الصفة ، وأما إذا كان المراد المشابهة الناقصة – وهي الاشتراك في أصل معنى الاتصاف – فإن هذا ليس هو التمثيل المنفي ، ولا يكون ثم مشابهة ، بمعنى : أن يكون ثم اشتراك في أصل المعنى .

وإذا كان كذلك فإن لفظ الشبيه والمثيل بينهما فرق ، ولفظ المشابهة لفظ مجمل لا يُنفى ولا يثبت ، وأهل السنة والجماعة إذا قالوا : إن الله ﷻ لا يماثله شيء ، ولا يشابهه شيء . يعنون بالمشابهة المماثلة .

أما المشابهة التي هي الاشتراك في المعنى فنعلم قطعًا أن الله ﷻ لم ينفها ؛ لأنه سبحانه سمى نفسه بالملك ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة : ٤] ، الملك الحق ، وسمى بعض خلقه بالملك ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ [يوسف : ٥٤] ، وأشباه ذلك من الآيات ، وسمى نفسه بالعزيز وسمى بعض خلقه بالعزيز ، وكذلك جعل نفسه سبحانه سميعًا ، وأخبرنا بصفة السمع له ، والبصر ، والقوة ، والقدرة ، والكلام ، والاستواء ، والرحمة ، والغضب ، والرضا ، وأشباه ذلك ، وأثبت هذه الأشياء للمخلوق فيما يناسبه منها ، فدلّ على أن الاشتراك في اللفظ وفي بعض المعنى ليس هو التمثيل الممتنع ؛ لأن كلام الله ﷻ حق ، وبعضه يفسر بعضًا ، فنفي المماثلة في الآية : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ، وأثبت اشتراكًا في الصفة ، وإذا قلت : اشتراكًا ، ليس معنى ذلك أنها من الأسماء المشتركة في الصفات ، لكن أثبت اشتراكًا في الوصف ، يعني : شركة فيه ، فالإنسان له مُلك والله ﷻ له الملك ، والإنسان له سمع والله ﷻ له سمع ، والإنسان له بصر والله ﷻ له بصر ، وهذا الإثبات فيه قدر من المشابهة لكنها مشابهة في أصل المعنى ، وليست مشابهة في تمام المعنى ولا في الكيفية ، فتحصل من ذلك أن المشابهة ثلاثة أقسام :

الأول : مشابهة في الكيفية ، وهذا ممتنع .

الثاني : مشابهة في تمام الاتصاف ودلالة الألفاظ على المعنى بكمالها ، وهذا ممتنع أيضًا .

الثالث : مشابهة في أصل معنى الصفة وهو مطلق المعنى ، وهذا ليس بمنفي .

ولهذا لفظ التمثيل ونفي التمثيل والمثلية صار شرعيًا ؛ لأنه واضح ودلالته غير مجملة ، وأما لفظ المشابهة فإن دلالته مجملة ولم يأت نفيه ، ونحن نقول : إن الله ﷻ لا يماثله شيء ، ولا يشابهه شيء سبحانه وتعالى . ونعني بقولنا : لا يشابهه شيء - معنى المماثلة في الكيفية ، أو المماثلة في تمام الاتصاف بالصفة ، وتمام دلالة اللفظ على تمام معناه .

ولهذا فإننا نقول في الصفات هنا ، كما قال : (ومن غير تكييف ولا تمثيل) وإذا قيل : (ومن غير تشبيه) فإنهم يريدون بالتشبيه التمثيل ، وهذا مستعمل عند العلماء أنهم ينفون التشبيه ويريدون به التمثيل .

ثم قال - رحمه الله تعالى - في وصف أهل السنة والجماعة : (فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه) ، يعني : لا ينفون عنه ما وصف به نفسه ؛ كما نفى عنه الصفات التي وصف بها نفسه طوائف الضلال من الجهمية والمعتزلة والرافضة والكلابية والأشعرية والماتريدية ونحو ذلك ، فإن كل طائفة من هؤلاء نفت عن الله ﷻ إما جميع الصفات وإما بعض الصفات ، والذين ينفون عن الله ﷻ ما وصف به نفسه إما أن يكونوا من الذين ينفون أكثر الصفات ، وهؤلاء يقال لهم : نفاة الصفات ؛ كالجهمية والمعتزلة ، وإما أن يثبتوا منها سبعًا أو عشرين أو ثماني ؛ كحال الماتريدية ، وهؤلاء قد يقال في حقهم : الصفاتية ؛ لأنهم يثبتون من الصفات أكثر مما أثبت المعتزلة ، وكذلك الأشاعرة والماتريدية ، ولهذا قد يقال لهؤلاء : الصفاتية في مقابلة النفاة ؛ كما يذكر ذلك كثير من علماء أهل السنة ، ومنهم شيخ الإسلام رحمه الله تعالى . وهؤلاء جميعًا سواء كانوا من النفاة أم كانوا من الصفاتية ينفون عن الله جل جلاله ما وصف به نفسه ، وهذا النفي قد يكون نفيًا للصفة بالكلية ، وقد يكون نفيًا لمعناها بتأويلها في غير معناها ، وبحمل الظاهر فيها على غير ما دلت عليه ظاهر النصوص .

فهؤلاء ينفون ، يعني : أن مآل حالهم النفي ، سواء نفوه أصلًا أو نفوا معناه الذي دل عليه الظاهر ، فالذين نفوا أن الله ﷻ متصف بالرحمة اللائقة به هؤلاء نفوا الرحمة ولو قالوا : إن معنى الرحمة إرادة الإحسان ونثبت الرحمة بتأويل . وأما أهل السنة والجماعة فإنهم يثبتون المعاني التي اشتملت عليها ألفاظ الصفات على ما يليق بالله ﷻ على قاعدة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ، فيثبتون اللفظ وما فيه من الصفة ، ويثبتون ويوقنون ويؤمنون بما دل عليه اللفظ من الصفة ، ويعلمون أصل معنى هذه الصفة لأنها بلسان عربي مبين ، ثم هم مع ذلك - أعني أهل السنة والجماعة - يقطعون الطمع عن إدراك الكنه وعن إدراك الكيفية ، يعني : عن إدراك كل المعنى وعن

إدراك الكيفية ، فإذن أهل السنة لا ينفون عن الله ﷻ ما وصف به نفسه بل يثبتون لله ﷻ ما وصف به نفسه ، وما وصفه به رسوله ﷺ .

قال - رحمه الله تعالى - بعد ذلك : (ولا يحرفون الكلم عن مواضعه) ؛ لأن الذين يحرفون الكلم عن مواضعه هم اليهود ؛ كما وصف الله ﷻ طوائف اليهود بقوله تعالى : ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦] ، ومعنى تحريف الكلم عن مواضعه بحمله على غير ما دل عليه . والتحريف قد سبق بيان أنه نوعان :

تحريف في اللفظ : إما بزيادة أو نقصان أو بتغيير حركة إعرابية أو بغير تغيير حركة إعرابية .

وتحريف في المعنى : يكون بتغيير معنى الكلمة عن معناها المعروف في لغة العرب .

وقوله : ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾ يعني به الكلمات الشرعية الدينية التي هي في باب الأخبار عن الله ﷻ ، وقد بينا فيما سبق أن تحريف الكلم عن مواضعه قد يكون كفرًا ، وقد يكون كبيرة ، وقد يكون معصية ، وقد يكون خطأ يُعذر فيه صاحبه ، فهو إذن أقسام ، فليس كل تحريف كفرًا ، وتفصيل هذا وأمثلته تأتي في مواضعها في الرسالة إن شاء الله تعالى .

قال : (ولا يلحدون في أسماء الله وآياته) ، والإلحاد في أسماء الله ﷻ الميل بها والعدول بها عن حقائقها وعما يليق بها .

وأصله في اللغة : من لحد وألحد إذا مال ، ألحد فلان في الطريق أي مال في الطريق ؛ ولهذا سمي لحد القبر لحدًا ؛ لأنه مائل عن سمت الحفر ، فالإلحاد الميل ، والملحد المائل عن الحق إلى غيره ، وفي الاصطلاح : الملحد هو من مال عن الإيمان إلى الكفر .

قال : (ولا يلحدون في أسماء الله وآياته) ، يعني : أن أهل السنة والجماعة يؤمنون بأسماء الله وما اشتملت عليه الآيات من الأسماء والصفات ، ولا يميلونها ولا يخرجون بها عن حقائقها اللائقة بها ؛ إذ إن صراط الأسماء الحسنى وصراط الآيات المستقيم أن يؤخذ بها بما دلت عليه ألفاظها من المعاني ، ويثبت ذلك لله ﷻ .

فإذا حُرف ذلك فإن هذا من الإلحاد ، بمعنى : أنه إذا نفى صفة أو نفى اسمًا من أسماء الله فإن هذا من جنس الإلحاد في أسمائه وصفاته ، وقد قال الله ﷻ في محكم كتابه : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠] ، يعني : يميلون بها عما يليق بها .

وهذا الإلحاد قد يكون :

* بصرفها عن ظواهرها التي دلت عليه .
* أو بترك التعبد بها .

* أو بتحريفها .

فالمشركون سموا العزى من العزيز وهذا إلحاد ، وسموا اللات من الله أو من الإله وهذا من الإلحاد - وسموا مناة من المنان - كما هي بعض الروايات - وهذا كله من الإلحاد ، وترك دعاء الله ﷻ بأسمائه من الإلحاد . ومراده هنا نوع من ذلك الإلحاد ، وهو : صرفها عن معانيها اللائقة بها ؛ لأنه ميل بها وعدول عن اللائق بها ، والواجب أن يُسلك في الأسماء والصفات وآيات الله ﷻ ما يليق بها لا أنْ يُمال عما يليق بها ، ويعدل عن حقائقها التي تليق بالله ﷻ .

قال هنا : (ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه) التكييف مر معنا معناه ، وكذلك التمثيل مر معنا معناه .

إذن أهل السنة والجماعة تميزوا عن سواهم بهذه الخصائص :

أنهم يثبتون لله ﷻ ما أثبته لنفسه ، ولا ينفون عن الله ﷻ ما وصف به نفسه ، ولا ينفون عن الله ﷻ ما وصفه به رسوله ﷺ ؛ لأن سبيلهم ليس هو سبيل الزائغين الضالين المغضوب عليهم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه من الذين شابهوا اليهود ، أو الذين يُلحدون في أسماء الله وآياته الذين شابهوا المشركين ، وإنما يؤمنون بالأسماء والصفات على حقائقها اللائقة بالله ﷻ .

ثم بين العلة في ذلك فقال : (لأنه سبحانه لا سمي له ولا كُفْءَ له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى) ، فهذا تعليل لما سبق ، لِمَ لَمْ يَنْفِ أهل السنة والجماعة عن الله ﷻ ما وصف به نفسه ؟ قال : (لأنه سبحانه لا سمي له ولا كُفْءُ له) ، فإن كان ظاهر المعنى قد يقتضي المشابهة إلا أن إثبات الأسماء والصفات لله ﷻ إثبات للفظ وإثبات للمعنى الذي دل عليه اللفظ على ما يليق بالله ﷻ . وأما الاشتراك في بعض المعنى فإن هذا لا ينفيه أهل السنة والجماعة ؛ لأن الله ﷻ هو الذي وصف نفسه بذلك ؛ كما سيأتي من قوله : (فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره) ، فهو ﷻ الذي سمى نفسه السميع ، وسمى المخلوق بالسميع ، وبين السميع والسميع قدر مشترك من المعنى ، وهذا المعنى هو أصل السمع ، والسمع الذي في المخلوق يناسب ذاته ، والسمع الذي لله ﷻ يناسب ذاته ، وهذا على أصل القاعدة المقررة ، وهي « أن القول في الصفات كالقول في الذات يُحتذى فيه حذوه وينهج فيه منهاجه » ؛ لأن كل صفة تناسب الموصوف ، فسمع المخلوق يناسب ذاته ، وسمع الله ﷻ يناسب ذاته ، وما بين الصفتين من القدر المشترك هذا هو ما يجمعهما في أصل اللغة في المعنى العام ، أما المناسبة للذات فهي خارج الأصل العام ، والله ﷻ له من الصفات أكملها ، وله من كل صفة كمالٍ أكمل تلك الصفة وأعظمها وأشملها أثرًا وأعمها متعلقًا ، وهذا لا يعني بحال المماثلة ، وإنما القدر المشترك في أصل المعنى هذا لا ينفيه أهل السنة ؛ لأن الله ﷻ أنزل القرآن بلسان عربي مبين ، ومعنى

ذلك أن الكلمات التي فيها ذكر الأسماء والصفات أنها تفهم باللغة ، وهذا سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى .

قال : (لأنه سبحانه لا سمي له) وتنزيهه سبحانه بالتسبيح يعني : نفي أن يكون ثم مماثل له سبحانه وتعالى ؛ فمعنى (سبحانه) : تنزيهًا لله تعالى عن أن يماثله شيء ، أو عن النقائص جميعًا ، وسيأتي - إن شاء الله - مزيد تفصيل في معنى (سبحانه) عند بيان معنى قوله تعالى : ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات : ١٨٠] .

قال : (لا سمي له ولا كفء له ولا ند له) هذه الألفاظ الثلاثة - السمي ، والكفء ، والند - جاءت في القرآن وهي متقاربة المعنى ، قال ﷻ : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] ، وقال سبحانه : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص : ٤] ، وقال سبحانه : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة : ١٦٥] . وفي قوله تعالى : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ إنكار أن يكون له سمي ؛ لأن الاستفهام إذا أتى بعده جملة يُراد إبطالها فإنه يكون للإنكار ، وإذا أُتي بعده جملة يُراد إثباتها صار الاستفهام للتوبيخ أو للحث أو نحو ذلك من المعاني المقررة في علم العربية . فلا يُعلم له سمي سبحانه وتعالى ، فليس أحدٌ من خلقه ﷻ يعلم له سميًا ، والسمي : هو المثيل والشبيه والنظير ؛ كما فسرها ابن عباس رضي الله عنهما وغيره ، وكذلك الند : هو المثيل والنظير ؛ كما ذكر ذلك ابن جرير عند قوله تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ ، قال : « الأنداد جمع ند ، والند هو العدل والمثل ، وكل شيء كان نظيرًا لشيء وشبيهًا فهو له ند » ، واستشهد لذلك بقول حسان بن ثابت رضي الله عنه :

أتهجوهُ ولستَ لهُ بِكُفءٍ فشرُّكُما لخيرِكُما الفِدَاءُ

وتروى : أتهجوه ولست له بند .

فهذا الند والكفء والمثيل والسمي ، هذه كلها لا ترادف بينها ، لكن معانيها متقاربة ، وسيأتي - إن شاء الله تعالى - بيان معانيها عند الآيات التي سيوردها شيخ الإسلام رحمه الله تعالى .

قال : (ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى) هذه الكلمة من شيخ الإسلام إبطال لأصل أصّله الجهمية والمعتزلة ، يعني : أصّله أهل الكلام وأهل البدع الذين شقوا صف الجماعة في باب الأسماء والصفات بل وفي باب القدر ، قالوا : إن الله ﷻ يقاس بخلقه . ما معنى القياس هاهنا ؟ يعني : أنه ما نفته العقول نفيناه ، وما أثبته العقول أثبتناه ، وبناء على هذا نفوا عن الله ﷻ أكثر الصفات الذاتية ، وقالوا : إن إثبات الوجه لله ﷻ يقتضي التجسيم ، والعقل ينفي أن يتصف الله ﷻ بهذا ، وأن الوجه أبعاض وأجزاء ، والله ﷻ ليس على ذلك . وقالوا : إن الله ﷻ لا يتصف بأن له يدين ، وذلك لأن اليد جارحة ؛ ما الدليل ؟ الجواب : القياس العقلي . وهكذا في سائر الصفات . وأهل السنة قد أثبتوا ما أثبته

القرآن من القياس – وسيأتي ذلك في موضعه – لكن ليس هو كل أنواع القياس.

قال هنا: (لا يقاس بخلقه) يعني: في جميع الصفات التي اتصف الله ﷻ بها، فإنما نثبتها مع قطع القياس وقطع المماثلة مع المخلوق، فنحن نثبت لله ﷻ الوجه، وليس وجه الله ﷻ كوجه مخلوق من مخلوقاته، ونثبت لله ﷻ يدين وليست اليدان لله ﷻ كيدي بعض مخلوقاته، ونثبت لله ﷻ العينين وليست العينان لله ﷻ كعيني بعض مخلوقاته، وهكذا نثبت لله ﷻ استواء يليق بجلاله وليس استواؤه كاستواء خلقه، ونثبت لله ﷻ النزول، كما أخبر النبي ﷺ عن ربه ﷻ، وليس نزوله ﷻ كنزول خلقه، وهذا كله على هذه القاعدة: أنه سبحانه لا يقاس بخلقه، وتأصيل ذلك كما ذكرنا من القاعدة – «أن القول في الصفات كالقول في الذات»، فكما أن الله ﷻ لا يماثله ولا يشبهه شيء من الذوات، فكذلك أسماؤه في عموم معانيها، وكنه اتصاف الله ﷻ بها، وكيفية الاتصاف، ونحو ذلك.

والأسماء كذلك لا تقاس بخلق الله ﷻ في أسمائهم، إلى غير ذلك من الأصول العظيمة، ثم ذكر تعليلاً آخر للاتباع، فقال: (فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره)، فلم اتفقنا على هذه الوجهة من التسليم، ولِمَ لَمْ ندخل في هذا الأمر بالقياس وبالعقل وبما أصله طوائف من مخالفيهم أولئك المخالفون؟

الجواب: لأن الله ﷻ هو الذي وصف نفسه بذلك، وهو سبحانه أعلم بنفسه وبغيره.

هل تعلمون ذلك منه؟ هل تعلمون كيف اتصف الله بصفاته؟ هل يعلم المبتدعة والمؤولة والمحرفة كل المعنى الذي تحمله الصفة؟

الجواب: لا.

وإذا كان كذلك بطلت دعوى المجاز، وبطلت دعوى التأويل الذي يصرف الألفاظ عن ظاهرها، فإن الله ﷻ أعلم بنفسه، وهذا الباب – باب الأسماء والصفات – أعظم الأبواب التي بها يحصل منهج الإيمان في القلب. وإذا كان كذلك فالله ﷻ لا يمكن للعباد من تلك الألفاظ إلا ما فيه نفعهم، وأن تكون الألفاظ في الأسماء والصفات وفي الآيات والأحاديث ولا يراد ظاهرها مع ذلك، لوقع عدم التأسيس الاشتباه في هذا الأصل العظيم – وهو الإيمان بالله – لأن الله جل جلاله إنما خلق الخلق ليذلوا له، ويعبدوه، وأحبوه، ورغبوا إليه، ورهبوا منه، وخافوه، ورجوه، كل ذلك لشهودهم آثار أسمائه وصفاته، ولإيمانهم بأسمائه ﷻ وصفاته، ونعوت جلاله وأنواع توحيده، فإنهم إنما وحدوه ﷻ وإنما علموه ﷻ بما علمنا من الأسماء والصفات.

وإذا كان كذلك كان محالاً أن يترك هذا الباب ملتبساً على الخلق، وأن تكون فيه ألفاظ يمكن تأويلها بالاجتهاد، كالآيات والأحاديث التي فيها أحكام فقهية، التي تحتمل أكثر من معنى يقوى بعضها.

أما في باب الأسماء والصفات فمحال أن يبقى فيه اللفظ محتملاً؛ وذلك لأنه لا مدخل فيه

للاجتهاد ، ولو كان فيه مدخل للاجتهاد فمعنى ذلك أن فيه سبيلًا لإضلال الناس ، والله ﷻ إنما عرّف العباد بأسمائه وصفاته ، وأعلمهم بذلك ليكونوا في هذا الأصل العظيم على يقين ، وعلى ثبات ، وعلى إدراك تام لصفاته ﷻ وما دلت عليه من المعاني ؛ وبهذا تخضع قلوبهم له ، وتذل قلوبهم له ، وتألهه ﷻ محبة وانقيادًا وتعظيمًا .

قال هنا : (فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره) ، والعطف هنا في قوله : (وبغيره) مهم ؛ لأن أولئك النفاة قاسوه ﷻ بخلقه ، والقياس ممتنع ؛ لأن الله أعلم بنفسه فيما وصف به نفسه ، وأعلم بغيره الذين وصفهم بصفات يشتركون في ألفاظها مع صفات الله ﷻ ، ويشتركون في جزء المعنى مع صفات الله وأسمائه ﷻ ، فهو أعلم بنفسه وما يصلح له وما يليق به ﷻ ، وأعلم بخلقه وما يصلح لهم وما يليق بهم ، وهو ﷻ وصف نفسه بالصفات ووصف خلقه ، وسمى نفسه بالأسماء وسمى خلقه ، وهو أعلم بنفسه وبخلقه ، فلو كان مجال القياس واردًا - كما ادعوه - ولو كانت الشبهة ووقوع التمثيل والتجسيم - كما ادعوه - واردًا ، لكنا في هذا إلباسًا على متلقي هذا الدين ومتلقي القرآن ليؤمن به ، والله ﷻ وصف آياته بأنها صدق وعدل ، فقال سبحانه : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] ، وفي القراءة الأخرى : (وتَمَّتْ كلماتُ رَبِّكِ صِدْقًا وَعَدْلًا) ، فهي صدق في الأخبار ، وعدل في الأحكام ، فلما كان ﷻ أعلم بنفسه وبغيره - يعني بخلقه - فإنه يُتلقى ما سمى به نفسه وما وصف به نفسه بالتسليم العظيم ؛ لأنه لا أحد أعلم بالله من الله ، ولا أحد أعلم بالله من خلقه من رسول الله ﷺ .

قال بعده : (وأصدق قيلًا وأحسن حديثًا من خلقه) ؛ كما قال سبحانه : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] ، وقال : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] .

فالله ﷻ لا أحد أصدق منه قيلًا ، بل هو ﷻ الذي كلماته صدق في أخباره ، إذا أخبر عن نفسه فهو صدق وحق ، وإذا أخبر عن أسمائه فهو صدق وحق ، وإذا أخبر عن صفاته فهو صدق وحق .

وإذا كان كذلك فمعنى ذلك أن دعاوى أولئك كلها باطلة .

قال - رحمه الله تعالى - : (ثم رسله صادقون مصدقون) : الرسل : جمع رسول ، وهم الذين أوحي إليهم بكتاب وأمروا بتبليغه إلى قوم مخالفين ؛ كما مر معنا في أول هذه الرسالة .

(صادقون) : جمع صادق ، والصادق اسم لمن قام به الصدق ، والصدق مطابقة الخبر للواقع ؛ كما قيل : « الصدق : أن يطابق الواقع ما تقوله » ، فإذا طابق الواقع ما تقوله فهذا هو الصدق ، وإذا خالف الواقع ما تقوله فإن هذا يُعد كذبًا ، سواء كان خطأً أو كان متعمدًا ، هذا في الاصطلاح .

ورسل الله ﷻ صادقون ، يعني : قام بهم الصدق ، فلم يخبروا بشيء من أسماء الله ﷻ وصفاته ولا

من دينه إلا وقد طابق الواقع ، فهم لم يذكروا شيئًا عن الله ﷻ لم يطابق الواقع ، بل كل ما وصفوا الله ﷻ به يطابق الحال ، وقد وصف الرسل ربهم ﷻ بأنه استوى على العرش ، فذكر موسى لفرعون أن ربه هو الأعلى ، فقال فرعون : ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر : ٣٦، ٣٧] ، فهذا العلو نفاه فرعون ، ورسل الله مجمعون على إرشاد الناس وتبيين تلك الصفة لهم ، فهو ﷻ له الصفات ، وقد أخبر رسله بما له من الصفات ، ورسله أخبروا الخلق بذلك وهم صادقون في ذلك ، فمن نفى صفة فقد كذب الرسول - هذا حقيقة حاله - لكن قد يكون التكذيب له وجه من العذر فلا يكون كافرًا بذلك .

فقوله : (مصدقون) ، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه في الحديث المشهور : « أخبرني الصادقُ المَصدوق : إنَّ أحدَكُم يُجمع خَلقُهُ في بَطْنِ أُمِّه ...»[1] الحديث .

قال هنا : (بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون) ، فالقول على الله بلا علم حرام ، سواء أكان القول في الأسماء والصفات - في العقائد - أو في الأحكام العملية ، يعني : سواء أكان في الأحكام الخبرية التي هي العقائد ، أو في الحلال والحرام وهي الأحكام العملية .

فالقول على الله بلا علم أشد المحرمات ؛ ولهذا عنه تفرع كل ضلال ، وقد ذكر الله ﷻ تحريمه في عدة آيات في كتابه ﷻ .

من هم الذين قالوا على الله ما لا يعلمون ؟

الجواب : قالها كل مخالف للرسل ، فإن مشركي العرب - مثلًا - وصفوا الله ﷻ بخلاف ما قاله الرسل ، وخلاف ما قاله النبي ﷺ ، وأخبروا عن أسماء الله ﷻ بخلاف ما جاءت به الرسل ، وعن صفات الله ﷻ بخلاف ما جاءت به الرسل ، بل أثبتوا لله سبحانه صفات ونفوا أسماء بما عندهم ، فقال الله ﷻ عنهم : ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد : ٣٠] ، وهذا قول على الله بلا علم ، وقال عن اليهود : ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران : ١٨١] ، وأخبر أنهم قالوا : ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة : ٦٤] وهذا كله في باب الأسماء والصفات ، قالوا على الله ما لا يعلمون به .

فورث هذا القول منهم طوائف الضلال ، فالجهمية ومن تفرع عنهم من المعتزلة والأشاعرة والماتريدية وأشباه هؤلاء ، كل طائفة من هؤلاء أثبتت لله أسماء ونفت صفات من عقولهم ومن آرائهم بلا دليل ، فجعلوا من أسماء الله ﷻ وصفاته : الصفات السلبية .

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨، ٣٣٣٢) ، ومسلم (٢٦٤٣) .

والمعتزلة - بل الجهمية قبلهم - نفوا أن يكون لله ﷻ أسماء فيها صفات، فيفسر الجهمية الأسماء بمخلوقات منفصلة، والمعتزلة يفسرون الأسماء بالذات التي ليس فيها صفة، فيجعلون دلالة السميع هي دلالة العليم هي دلالة البصير؛ دلالة على الذات بدون المعنى، فتكون عندهم من قبيل المترادف المحض؛ لأنها دالة على ذات بلا معنى، وهذا كله قول على الله ﷻ بلا علم.

وهذه لا شك جمل من الكلام وعرض عام سيأتي تفصيله بدقته وبتحريراته في مواضعه من هذه الرسالة إن شاء الله تعالى.

قوله: (لهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢]، فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل)، وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾ ﴿سُبْحَانَ﴾ هذا مفعول مطلق، يعني: أسبح سبحانه، وأصله في اللغة: الإبعاد، يقولون: سبحان فلان من كذا، يعني: بُعد فلان من كذا، وقد قال الأعشى:

أقولُ لـمَّـا جـاءَني فـخـرُه ... سُبحانَ مِن علقمةَ الفاخِرِ

فسبحان من علقمة، يعني: بعيد جدًّا أن يكون لعلقمة من يفخر به، وتسبيح الله(سبحان الله) معناه: تنزيه الله عن كل نقص وعيب وسوء، وموارده في الكتاب والسنة خمسة:

الأول: تنزيه الله ﷻ عن الشريك في الربوبية؛ كما ادعاه الملحدون.

الثاني: تنزيه الله ﷻ عن الشريك في الألوهية؛ كما ادعاه المشركون.

الثالث: تنزيه الله ﷻ في أسمائه وصفاته أن تسلب معانيها اللائقة بها، وتنزيه الله ﷻ في أسمائه وصفاته عن مماثلة المخلوقين لها.

الرابع: تنزيه الله ﷻ في أمره الكوني وقدره الكوني عن أن يكون بلا حكمة أو أن يكون عبثًا؛ كما ادعاه من قال: خلقنا الله عبثًا. ومن نفوا الحكمة في الخلق والإيجاد وتقدير الأشياء.

الخامس: تنزيه الله ﷻ في شرعه وأمره الديني عن النقص عن منافاة الحكمة، فالله ﷻ ينزه نفسه بقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾ [الصافات: ١٨٠] يعني: تنزيهًا لله من كل سوء ادعاه المخالفون للرسل، وهم ادعوا الشركة له في الربوبية، فيتنزه الله ﷻ عن الشريك في الربوبية.

وإذا قلت في الركوع: سبحان ربي العظيم، معناه: تنزيهًا لله ربي العظيم عن كل سوء ونقص في هذه الموارد الخمسة التي في الكتاب والسنة: في الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات، وفي الأمر الكوني والقدر، وفي الشرع.

قال هنا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾ هنا الإضافة للتشريف أضاف الربوبية إلى النبي ﷺ لتشريفه بها في هذا المقام العظيم، وهذا يقتضي أن كلام النبي ﷺ عن ربه - الذي جحده الجاحدون - هو الأكمل وهو

الأليق بالله ﷻ.

ثم قال بعدها: ﴿رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ﴾ [الصافات: ١٨٠] بمعنى صاحب العزة، وذي العزة، والمتصف بالعزة، والعزة صفة لله ﷻ، ومن أسمائه العزيز، والعزيز هو الذي كملت له أوصاف العزة.

والعزة في الكتاب والسنة التي يتصف الله ﷻ بها جاءت على ثلاثة معانٍ:

الأول: العزة التي هي بمعنى الامتناع والغنى وعدم الحاجة؛ الامتناع عمن يغالب أو عمن يسيء، هذه كلها معنى واحد، والغنى عن الخلق.

الثاني: العزة بمعنى القهر والغلبة.

الثالث: العزة بمعنى القوة، يعني: القوة الخاصة التي لا يُقوى عليها، قوة لا يبلغها شيء. وهذه هي المعاني الثلاث التي ذكرها ابن القيم في النونية حيث قال في بيان معاني اسم الله العزيز:

وهو العزيزُ فلن يُرامَ جنابُهُ ... أنَّى يُرامُ جنابُ ذي السلطانِ

وهو العزيزُ بقوةٍ هي وصفُهُ ... فالعزُّ حينئذٍ ثلاثُ معانِ

وهي التي كملتْ لهُ سُبحانَهُ ... من كلِّ وجهٍ عادمِ النقصانِ

هنا ذكر معاني العزة الثلاثة:

الأول: قال: (وهو العزيز فلن يرام جنابه)، وهذه عزة الامتناع، وهي التي بمعنى الغنى التام والامتناع عن أن يضره أحد؛ كما قال في الحديث القدسي: «إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي»، وامتناع عن أن ينفعه أحد؛ كما قال: «ولَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»[1].

الثاني: قال: (وهو العزيز القاهر الغلاب)، وهذه عزة القهر والغلبة، لم يغلبه شيء (هذه صفتان).

الثالث: قال: (وهو العزيز بقوة هي وصفه)، وهذه القوة الكاملة العظيمة التي لا يقوى عليها شيء، فهذه تكون في الكتاب والسنة في فعلها من عز يعز، بالفتح؛ قال سبحانه: ﴿فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ﴾ [يس: ١٤]، يعني: قوينا وأيدنا بثالث، وأما العزة بمعنى الامتناع فهذه قد يأتي فعلها مكسورًا عز يعِزّ، وأما القهر والغلبة فيكون فعلها المضارع مضمومًا عز يعز عزة، المصدر في الجميع عزّة لكن في المضارع يختلف المعنى، هكذا قرره ابن القيم وغيره من العلماء، والقهر والغلبة هذه متعدية، والقوة هذه لازمة.

وبهذا الدليل يصح أن تقول لله ﷻ: رب الرحمة، ورب السمع، ورب البصر، ورب العزة،

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر.

ورب الجمال ، ورب النور ... ونحو ذلك ، بمعنى : صاحب ، يعني : المتصف بهذه .

قال : ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات : ١٨٠] ، يعني : عن الذي يصفون ، والمفعول به الذي هو الضمير محذوف ، يعني عن الذي يصفون الله ﷻ به .

ومن هم الواصفون الذين نزّه الله ﷻ نفسه عن وصفهم ؟

الجواب : هم الذين لم يستجيبوا للرسل ، فقال سبحانه : ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات : ١٨١] وذلك لأن المرسلين أنزل الله ﷻ عليهم السلام ، وهو ﷻ من أسمائه السلام ، وهُو الذي يعطي السلام ، وهو الذي جعل الأنبياء والمرسلين أهل السلام .

والسلامة متبعضة :

* هناك سلامة في القول بصحته ومطابقته للواقع وسلامة في الفهم .
* وسلامة في العبودية .
* وسلامة في الاعتقاد .
* وسلامة في التبليغ .

فجهات السلامة كثيرة ، والله ﷻ أعطاها عباده المرسلين ؛ ولهذا قال هنا : ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات : ١٨١] وأفاد الإعطاء التعدية بـ ﴿عَلَى﴾ ، وفي قوله : ﴿عَلَى﴾ ما يفيد أن السلامة صارت عليهم وقد أحاطت بهم .

وهذا في هذا المقام ظاهر الفائدة ؛ لأن المرسلين وصفوا الله ﷻ بالصفات العلا ، وسموه بالأسماء الحسنى ، وفي هذه السورة - التي هي سورة الصافات - ذكر الله ﷻ عن المشركين أنهم استكبروا عن قول لا إله إلا الله ، فقال فيها : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ [الصافات : ٣٥، ٣٦] ، وذكر في آخر السورة أنهم جعلوا الملائكة بنات لله ﷻ ، وهذا فيه وصف لله ﷻ ، والأنبياء والرسل لم يصفوا الله ﷻ بذلك ، بل هم سالمون مسلمون في أقوالهم وفي أعمالهم وفي تبليغهم ، ولهذا قال هنا : ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ، لسلامة ما وصفوه به من النقص والعيب ، وهذا لا شك أنه واسع المعنى .

ثم قال : ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات : ١٨٢] والحمد مر معنا معانيه الكثيرة في أول هذه الرسالة ، وقوله هنا : ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ، هذا فيه فائدة ، وهي : أن هذه الآية دليل على أن الربوبية غير الألوهية ؛ لأنه قال : ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ والمعتمد عندنا أن لفظ الجلالة (الله) مشتق ، وعليه يكون مشتق من الألوهية ؛ لأن الاشتقاق يكون من المصدر ، والرب من الربوبية ، والربوبية إذن غير الألوهية .

وقد قال الإمام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى - : « إن اسم الرب والإله من الأسماء التي إذا اجتمعت افترقت ، وإذا افترقت اجتمعت ، وذلك إما بدلالة اللفظ أو بدلالة التضمن واللزوم » .

قال : ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات : ١٨٢] ، العالمون جمع العالم ، والعالم هو كل ما سوى الله ﷻ ، وسمي عالَمًا من العلامة ؛ لأنه علامة على أنه مربوب ، وأن له ربًا خالقه ، أو من العلم ؛ لأن به عُلم ما لله ﷻ من الحق والأسماء والصفات . كما قال أبو العتاهية :

وفــي كُــلِّ شَــيءٍ لَــهُ آيــةٌ تَــدُلُّ عَــلَــى أَنَّــهُ وَاحِــدُ

قوله : (وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمّى به نفسه بين النفي والإثبات ، فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون ...) :

الله ﷻ جمع بين النفي والإثبات ؛ كما في قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ، نفى في قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ، ثم أثبت فقال : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وكذلك أثبت في قوله : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ ، ثم نفى فقال : ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة : ٢٥٥] . وكذلك أثبت في قوله : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص : ١، ٢] . ثم نفى فقال : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص : ٣، ٤] . وهذا فيه بيان لقاعدة أهل السنة والجماعة في ذلك بأعظم دليل وأوضح استدلال ، فهم يجمعون في عقائدهم وفي الأسماء والصفات بين النفي والإثبات ، وعندهم النفي يكون مجملًا - كما أجمله الله ﷻ وعندهم الإثبات يكون مفصلًا ؛ كما فصله الله ﷻ .

وأما النفي المفصل الذي جاء في القرآن ؛ كقوله تعالى : ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف : ٤٩] ، وقوله تعالى : ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر : ٤٤] ، فإن النفي لا يكون كمالًا ولا يُمدح به المنفى إلا إذا كان يُراد بالنفي إثبات كمال الضد ، فالله ﷻ نفى عن نفسه الظلم بقوله : ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ، وقوله : ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت : ٤٦] ، والغرض من ذلك إثبات كمال اتصافه بضد صفة الظلم وهو العدل .

وبعض العلماء يسمي هذه الصفات السلبية ، يعني الصفات المسلوبة عن الله ﷻ .

وما الفائدة من السلب ؟

الجواب : الفائدة منه أن يُثبت كمال ضده ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة : ٢٥٥] وذلك لكمال حياته سبحانه ، وقد يكون النفي لإثبات صفة واحدة وقد يكون النفي لإثبات صفتين معًا ، يعني يكون المراد من النفي إثبات صفتين جميعًا ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر : ٤٤] ، فنفى الله ﷻ عن نفسه العجز .

قال العلماء : العجز إما أن يكون :

مثلاً لأجل عدم العلم بالعجز عن الشيء لأنه ليس عالماً به ، وعجزت عن جواب سؤال لأني غير عالم بالجواب .

* لأجل عدم القدرة عليه : عجزت عن الكتابة لأني غير قادر عليها ، عجزت عن المسير لأني غير قادر عليه .

أما قوله ﷻ هنا في هذا النفي : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ﴾ يُراد به إثبات كمال ضد العجز ، وكمال ضد العجز يكون بكمال صفتين ، وهي صفة العلم وصفة القدرة ، ولهذا قال ﷻ في نحو هذه الآية :

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤] ، وقد تقرر أن كلمة ﴿إِنَّهُۥ﴾ في القرآن من أساليب التعليل لما قبلها إذا كان خبرا أو أمرا أو نهيا ، أو حكمًا ، أو استفهامًا ، فيكون ما بعد (إن) تعليل لما قبلها ، فلما قال : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ما علة ذلك ؟ قال : ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤] ، وهذا فيه ظهور أن النفي هنا أريد به إثبات كمال ضده وهما صفتان : صفة العلم وصفة القدرة ، ولذلك وصف الله ﷻ نفسه بذلك ، بقوله : ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ مع ما في كان من إثبات الكمال السابق واللاحق ، وما في قوله : ﴿عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ من إثبات الكمال لدلالة صيغة المبالغة عليه .

قال : (في النفي والإثبات) ، المبتدعة عندهم عكس ذلك ؛ عندهم الإثبات مجمل ، يقولون : ثبت لله صفات الكمال . أما النفي عندهم يكون مفصلًا ، يقولون : الله ﷻ ليس بذي دم ، وليس بذي جوارح ، وليس بذي روح ، ولا بذي أبعاض ، ولا هو فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ، ولا بذي جهة ، وليس بداخل العالم ولا خارجه ... إلى آخره .

ولذلك كما في كتاب : « التمهيد » للباقلاني ، وغيره ، وكتب أهل الكلام ، فهو يأتي في وصف الله ﷻ بالنفي بصفحتين أو أكثر ، كلها نفي مفصل ، ليس بكذا وليس بكذا وليس بكذا ، وإذا أتى الإثبات أجمله فقال : وله صفات الكمال . ما هي؟ هي الصفات السبع العقلية التي يثبتونها .

قال : (فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون) :

وهذه كلمة عظيمة تدل على أن أهل السنة والجماعة - يعني : السلف الصالح - أنهم تبعوا المرسلين ، (ولا عدول لهم) يعني لا ميل لهم ولا انحراف ، ولا يعدلون ، لا يوازنون بما جاء به المرسلون شيئًا ، بل هم متبعون للمرسلين .

وأما غيرهم فهم متبعون للمشركين أو لليهود أو للنصارى أو للملحدين ، فكل بدعة في الأسماء والصفات ظهرت في هذه الأمة فإنها لم تُؤخذ من الأنبياء والمرسلين - وحاشاهم من ذلك - وإنما

أُخذت من المشركين وأهل الكتاب ، وقد قال النبي : « لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَان قبلكُمْ »[1] ، وبيّن في الحديث الآخر ، الذي رواه البخاري وغيره من حديث ابن عباس ، قال : « إنَّ أَبْغَضَ الرِّجالِ إلى اللَّهِ ثلاثةٌ » ، وذكر منهم : « مُبتغٍ في الإسلامِ سُنةَ الجاهليةِ »[2] .

وقد نفى المشركون عن اللّه ﷻ اسمًا من أسمائه الحسنى ؛ كما أخبر بذلك سبحانه في قوله : ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد : ٣٠] ، فنفوا اسم الرحمن عن اللّه ﷻ ، وورثهم نفاة الأسماء في هذه الأمة واتبعوا سبيل أهل الجاهلية ، ونفوا عن اللّه ﷻ الأسماء الحسنى ، فوصفوا اللّه بما لم يصف به نفسه ، ونفوا عن اللّه ﷻ ما وصف به نفسه ، وكذلك اليهود والنصارى جعلوا له ﷻ مثيلًا وشبيهًا ، فورثهم المجسمة والمؤولة .

فإذن كل بدعة حصلت في هذه الأمة في أبواب الأسماء والصفات فإنها من ابتغاء سنة الجاهلية ، فإن أهلها إنما أخذوها من اليهود والنصارى والمشركين .

كذلك في باب الإيمان ، فالذين قالوا بالجبر من الجبرية إنما أخذوها عن طائفة كانت موجودة قبل النبي ﷺ ، كذلك الذين قالوا بالإرجاء ورثوها ممن قبلهم ، وكذلك في أبواب الإمامة ، فإن اجتماع الناس على إمام واحد يطيعونه ويرضونه هذا إنما جاءت به الرسل ، أما أهل الجاهلية فإنهم يعدون التفرق مفخرة ، ويعدون الاتباع والطاعة لولي أمر واحد مسبة وذلة ، وهكذا في أبواب الصحابة فإن المشركين يسبون أتباع الرسل ؛ كما أخبر عنهم ﷻ في قوله : ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء : ١١١] ، وفي هذه الآية في باب العقائد خالف من خالف في العقيدة في أتباع الرسل فسبوهم ، يعني : أن أهل السنة والجماعة تبعوا المرسلين ، وكل من خالف أهل السنة والجماعة فإنما تبع أهل الجاهلية ، وهذه جملة يطول تفصيلها .

قال : (فإنه الصراط المستقيم صراط الذين أنعم اللّه عليهم من النبيين والصديقين والشهداء) ، يعني : الطريق الوحيد الموصل لرضا اللّه ﷻ (صراط الذين أنعم اللّه عليهم) وهذه جملة يؤخذ تفسيرها من الآية .

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٦) ، ومسلم (٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري .

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٨٢) .

الأسئلة

* قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان رحمه الله:

س١- بم يوصف الله عز وجل؟

ج- بما وصف به نفسه في كتابه العزيز، وبما وصفه به رسول الله ﷺ من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

التحريف:

س٢- ما هو التحريف؟ وما هي أقسامه؟ وما مثال كل قسم؟

ج- هو التغيير والتبديل. واصطلاحًا: تغيير ألفاظ الأسماء الحسنى، والصفات العلى، أو معانيهما، وهو ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: تحريف اللفظ بزيادة أو نقص، أو تغيير شكل، وذلك كقول الجهمية في استوى استولى، بزيادة اللام، وكقول اليهود: حنطة. لما قيل لهم: «قولوا حطة»، وكقول بعض المبتدعة بنصب الجلالة في قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾، وقولهم في قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ وجاء أمر ربك.

والقسم الثاني: تحريف المعنى، وهو إبقاء اللفظ على حاله، وتغيير معناه، وذلك كتفسير بعض المبتدعة الغضب بإرادة الانتقام، وكقولهم معنى الرحمة: إرادة الإنعام، وكقولهم: إن المراد باليد النعمة أو القدرة، وكتفسيرهم التكليم بالتجريح، قال ابن القيم رحمه الله:

أمر اليهود بأن يقولوا حطة ... فأبوا وقالوا حنطة لهوان
وكذلك الجهمي قيل استوى ... فأبى وزاد الحرف للنكران
نون اليهود ولام جهمي هما ... في وحي رب العرش زائدتان

التعطيل:

س٣- ما هو التعطيل؟ وما الفرق بينه وبين التحريف؟

ج- مأخوذ من العطل الذي هو الخلو والفراغ والترك، ومعناه هنا: نفي الصفات الإلهية وسلبها عن الله، والفرق بينهما: أن التعطيل: نفي للمعنى الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة، وأما التحريف: فهو تفسير النصوص بالمعاني الباطلة.

س٤- ما هي أنواع التعطيل؟ وكم هي؟

ج- ثلاثة:

أولًا : تعطيل الله من كماله المقدس ، وذلك بتعطيل أسمائه وصفاته ، كتعطيل الجهمية والمعتزلة ومن نحا نحوهم .

ثانيًا : تعطيل معاملته بترك عبادته أو عبادة غيره معه .

ثالثًا : تعطيل المصنوع من صانعه ، كتعطيل الفلاسفة الذين زعموا قدم هذه المخلوقات ، وأنها تتصرف بطبيعتها ، فهذا من أبطل الباطل ؛ إذ لا يمكن وجود ذات بدون صفات .

س٥- من أول من عرف بالتعطيل لأسماء الله وصفاته ؟

ج- الجعد بن درهم ، وأخذها عنه تلميذه الجهم بن صفوان وبثها ، وقتل الجعد خالد بن عبد الله القسري بعد استشارة علماء زمانه ، خطب يوم الأضحى فقال : أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم ، فإني مضح بالجعد بن درهم ؛ إنه زعم : أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا ، ولم يكلم موسى تكليمًا ، ثم نزل فذبحه ، وذلك في أوائل المائة الثانية ، وأما الجهم : فقتله سلم بن أحوز أمير خراسان .

التكييف :

س٥- بين ما هو التكييف ؟ وما هو التمثيل ؟ وبين ما فيه تقاسيم وأمثلة ؟

ج- التكييف : هو تعيين كنه الصفة ، يقال : كيف الشيء ؛ أي : جعل له كيفية معلومة ، وأما التمثيل : فهو التشبيه والتشبيه ، ينقسم إلى قسمين :

أولًا : تشبيه المخلوق بالخالق ، كتشبيه النصارى المسيح ابن مريم بالله قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة : ١٧] ، وكتشبيه اليهود عزيرًا بالله ، وكتشبيه المشركين أصنامهم بالله .

والقسم الثاني : تشبيه الخالق بالمخلوق ، وذلك كتشبيه المشبهة الذين يقولون : له وجه كوجه المخلوق ، ويد كيد المخلوق ، وسمع كسمع المخلوق ، ونحو ذلك تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا .

س٦- بين ما تفهمه من معنى قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ؟

ج- الآية تتضمن أولًا : تنزيه الله عن مشابهة خلقه لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، وفي أولها ، وهو قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ رد على المشبهة ، وفي آخرها : وهو قوله : ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ، رد على المعطلة ، وفيها : إثبات صفة السمع والبصر ، وفي أولها : نفي مجمل ، وفي آخرها : إثبات مفصل ، وفي الآية رد على الأشاعرة المثبتين لبعض الصفات ، دون البعض الآخر ، وهم متناقضون ، وكذلك ترد على المعتزلة الذين يقولون : سميع بلا سمع ، بصير لا بصر ، ونحو ذلك .

الأسماء الحسنى :

س٧– ما مثال الأسماء الحسنى ؟

ج– الله الحي القيوم ، العلي العظيم ، الرحمن الرحيم ، الغفور الملك ، القدوس السلام ، المؤمن المهيمن ، العزيز الجبار ، المتكبر الخالق البارئ .

س٨– لم كانت أسماء الله حسنى ؟ وهل هي من قبيل المحكم ؟ وهل الوصفية فيها تنافي العلمية ؟ وضح ذلك .

ج– لدلالتها على أحسن مسمى ، وأشرف مدلول ، وأسماؤه سبحانه ، أعلام وأوصاف ، الوصفية ؛ لا تنافي العلمية بخلاف أوصاف العباد ، وكل أسمائه تعالى دالة على معانيها ، وكلها أوصاف مدح وحمد ، وثناء ، وهي من قبيل المحكم ؛ لأن معانيها واضحة في لغة العرب ، إنما الكنه والكيفية مما استأثر الله بعلمه .

س٩– ما هي أركان الإيمان بالأسماء الحسنى ؟ ومثل لذلك .

ج– ثلاثة : الإيمان بالاسم ، وبما دل عليه من المعنى ، وبما تعلق به من الآثار ؛ فنؤمن بأنه رحيم ذو رحمة وسعت كل شيء ، قدير ذو قدرة ويقدر على كل شيء ، عليم ذو علم ويعلم كل شيء ، غفور ذو مغفرة ويغفر لعباده .

س١٠– هل أسماء الله توقيفية ، وإذا كانت توقيفية فما معنى ذلك ؟

ج– نعم ، لا يتجاوز بها الوارد في الكتاب والسنة ، فهي تتلقى من طريق السمع ، لا بالآراء ، فلا يوصف إلا بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ﷺ ، ولا يسمى إلا بما سمى به نفسه ، أو سماه به رسوله ﷺ ، فهذا معنى أنها توقيفية فليس للاستحسان والاجتهاد دخل في ذلك .

س١١– ما هي أنواع دلالة الأسماء الحسنى ؟ وضح ذلك بالأمثلة .

ج– ثلاثة أنواع :

دلالة مطابقة : إذا فسرنا الاسم بجميع مدلوله .

ودلالة تضمن : إذا فسرناه ببعض مدلوله .

ودلالة التزام إذا استدللنا به على غيره من الأسماء التي يتوقف هذا الاسم عليها ، فمثلًا لفظة الرحمن على الرحمة والذات دلالة مطابقة ، وعلى إحداهما دلالة تضمن داخلة في الضمن ، ودلالته على الأسماء التي لا توجد الرحمة إلا بثبوتها ، كالحياة والعلم والقدرة ونحوها دلالة التزام .

س١٢– هل أسماء الله من قبيل المترادف أم من قبيل المتباين ، وضح ذلك ؟

ج– هي بالنظر إلى الذات من قبيل المترادف ؛ لدلالتها على مسمى واحد ، وبالنظر إلى الصفات

من قبيل المتباين ؛ لأن كل صفة غير الأخرى .

س١٣- هل أسماء اللّٰه محصورة بعدد معروف ؟ وهل في الحديث إفادة لحصرها ؟

ج- ليست محصورة بعدد معروف ، وأما الحديث الوارد : « إن للّٰه تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة » ، فلا يفيد : أنها محصورة بالتسعة والتسعين ؛ وإنما غاية ما فيه أن هذه الأسماء موصوفة بأن على من أحصاها دخل الجنة .

س١٤- ما مراتب إحصاء أسماء اللّٰه التي من أحصاها دخل الجنة ؟

ج- ثلاثة حفظها ، وفهمها ، ودعاء اللّٰه بها دعاء عبادة ، ودعاء مسألة .

س١٥- لم كان إحصاء أسماء اللّٰه الحسنى والعلم بها أصل العلم بكل معلوم ؟

ج- لأن المعلومات القدرية والشرعية صادرة عن أسماء اللّٰه وصفاته ، ولهذا كانت في غاية الإحكام ، والإتقان ، والصلاح ، والنفع .

س١٦- ما هو الاسم الذي ينبغي لمن دعا اللّٰه بأسمائه الحسنى أن يدعو اللّٰه به ؟

ج- ينبغي له أن يتوسل إليه بالاسم المقتضي لذلك المطلوب المناسب لحصوله؛ حتى كأن الداعي يستشفع إليه متوسلًا إليه به ، فطالب المغفرة يقول : يا غفار اغفر لي ، وطالب الرحمة يقول : يا رحمن ارحمني ، وطالب الرزق يقول : يا رزاق ارزقني ، والتائب : يا تواب تب عليَّ ، وهلم جرًّا .

س١٧- إذا كان الاسم منقسم إلى مدح وذم ، فهل يدخل في أسماء اللّٰه تعالى ؟ وما مثال ذلك .

ج- لا يدخل بمطلقه بأسمائه ، وذلك كالمريد والصانع والفاعل ؛ فهذه ليست من الأسماء الحسنى لانقسامها إلى محمود ومذموم ؛ بل يطلق عليه منها كمالها .

س١٨- هل يلزم من اتحاد الاسمين تماثل مسماها ؟ وضح ذلك بالأمثلة .

ج- لا يلزم ذلك ، فإن اللّٰه سمى نفسه بأسماء ، تسمى بها بعض خلقه ، وكذلك وصف نفسه بصفات وصف بها بعض خلقه ، فلا يلزم في ذلك التشبيه ، فقد وصف نفسه بالسمع والبصر ، والعلم والقدرة ، ووصف بذلك بعض خلقه فليس السميع كالسميع ، ولا البصير كالبصير ، فصفات كل موصوف تناسب ذاته ، وتليق به ، ولا مناسبة بين الخالق والمخلوق .

س١٩- ما مثال أسماء اللّٰه المزدوجة المتقابلة التي لا يطلق واحد منها بمفرده على اللّٰه إلا مقرونًا بالاسم الآخر ، وما المحذور من إفرادها ؟ وضح ذلك .

ج- مثالها : المانع ، المعطي ، الضار ، النافع ، المذل ، المعز ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، والحكمة في أنها لا تفرد ؛ لأن في إفرادها ما يوهم نوع نقص تعالى اللّٰه عن ذلك ؛ ولأن الكمال الحقيقي تمامه وكماله من اجتماعهما .

أقسام الصفات :

س٢٠- إلى كم تنقسم صفات الله ، ووضح كل قسم منها بما يميزه عن الآخر ؟

ج- إلى قسمين : صفات ذات وهي التي لا تنفك عن الله ، وصفات فعل وهي التي تتعلق بالمشيئة والقدرة .

س٢١- ما مثال الصفات الذاتية ، والصفات الفعلية ؟

ج- مثال صفات الذات العلم ، والحياة ، والقدرة ، والسمع ، والبصر ، والوجه ، واليد ، والرجل ، والملك ، والعظمة ، والكبرياء ، والعزة ، والعلو ، والإصبع ، والقدم ، والغنى ، والرحمة ، والكلام .

وأما الصفات الفعلية كالاستواء ، والنزول ، والمجيء ، والضحك ، والرضى ، والعجب ، والسخط ، والإتيان ، والإحياء ، والإماتة ، والفرح ، والغضب ، والكره ، والحب ، فهذه يقال لها قديمة النوع حادثة الآحاد .

س٢٢- هل القول في الصفات يخالف القول بالذات ؟

ج- القول في الصفات كالقول في الذات ؛ فكما أن للّه ذاتًا لا تشبهها الذوات ، فله صفات لا تشبهها الصفات ، فالصفات فرع الذات يحذى بها حذوها ، والقول في بعض الصفات كالقول في بعض .

الأقسام الممكنة في آيات الصفات وأحاديثها :

س٢٣- ما هي الأقسام الممكنة في آيات الصفات وأحاديثها ؟

ج- هي ستة أقسام : قسمان يقولون : تجري على ظاهرها ، فقسم قالوا : تجري على ظاهرها اللائق بالله من غير تشبيه ، وهؤلاء هم السلف الصالح .

والقسم الثاني : المشبهة الذين غلوا في الإثبات ، وقالوا : تجعل كصفات المخلوقين ومذهبهم باطل أنكره السلف ، وقسمان ينفيان ظاهرها وهم الجهمية ومن تفرع عنهم ، فقسم منهم : يؤولونها بمعان أخر ، وقسم منهم يقولون : الله أعلم بما أراد منها ، وقسمان واقفان ، فقسم يقولون : يجوز أن يكون المراد اللائق بالله ، ويجوز ألّا يكون المراد صفة ، وهذه طريقة كثير من الفقهاء ، وغيرهم .

وقسم يمسكون عن هذا كله ولا يزيدون على تلاوة القرآن وقراءة الحديث ، معرضين بقلوبهم وألسنتهم عن هذه التقديرات .

والصواب في آيات الصفات وأحاديثها : القطع بالطريقة السلفية .

الواجب في آيات الصفات وأحاديثها :

س٢٤- ما الواجب في آيات الصفات وأحاديثها ؟

ج- يجب التصديق بها، وإثباتها وإمرارها كما جاءت من غير تكييف، ولا تمثيل، ومن غير تشبيه ولا تعطيل، ولا تحريف، قال بعضهم:

وجميع آيات الصفات أمرها حقًّا كما نقل الطراز الأول

تعريف الإلحاد في الأسماء والصفات:

س٢٥- ما هو الإلحاد في أسماء الله وصفاته؟ وما هي أقسامه؟

ج- هو الميل والعدول بها، وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها إلى الإشراك والتعطيل، والكفر وأقسامه خمسة:

أولًا: تسميته بما لا يليق بجلاله وعظمته كتسمية النصارى له أبًا، والفلاسفة له موجبًا بذاته، أو علة فاعلة بالطبع ونحو ذلك.

ثانيًا: أن يسمى بها بعض المخلوقات؛ كتسميتهم اللات من الإله، واشتقاقهم العزى من العزيز.

ثالثًا: وصفه بما يتقدس ويتنزه عنه، كقول اليهود قبحهم الله ولعنهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾، وقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ ونحو ذلك.

رابعًا: تعطيل الأسماء عن معانيها، وجحد حقائقها؛ كقول من يقول: إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني.

خامسًا: تشبيه صفاته بصفات خلقه، فجمعهم الإلحاد وتفرقت بهم طرقه.

حكم استعمال الأقيسة في جانب الله:

س٢٧- هل يجوز استعمال شيء من الأقيسة في جانب الله ﷻ؟

ج- لا يجوز أن يشرك هو والمخلوق في قياس تمثيل، ولا في قياس شمول تستوي أفراده، ولكن يستعمل في حقه المثل الأعلى، وهو أن كل ما اتصف به المخلوق من كمال فالخالق أولى به، وكل ما ينزه عنه المخلوق من نقص فالخالق أولى بالتنزه عنه، قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

صفة العزة:

س٢٨- ما الذي تفهم عن معنى قوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠- ١٨٢]؟ ولم ساقها المصنف؟

ج- أما سياق المصنف لها في هذا الموضع؛ ففيما يظهر أنه تعليل لما تقدم من كون كلام الله وكلام رسوله ﷺ أكمل صدقًا وأتم بيانًا ونصحًا، وأبعد عن العيوب والآفات من كلام كل أحد، وأما ما يؤخذ منها فهي أولًا: تتضمن تنزيه الله وتقديسه وتبرئته عما يقول الظالمون، ثانيًا: صحة ما

جاء به المرسلون ، وأنه الحق الذي لا مرية فيه ، ثالثًا : إثبات صفة الربوبية ، رابعًا : إثبات صفة العزة ؛ وهي بأقسامها الثلاثة ثابتة له سبحانه ، عزة القوة ، وعزة الامتناع ، وعزة القهر ، ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه من النقص والتبرئة منه بدلالة المطابقة ، ويستلزم إثبات الكمال ، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال بالمطابقة ، ويستلزم التنزيه من النقص قرن بينهما في هذا الموضع ، وفي هذه الآية إثبات صفة الكلام والرد على المخالفين .

س٢٩- لم كانت هذه الآية تتضمن أنواع التوحيد الثلاثة ؟

ج- وجه ذلك كما ذكره ابن القيم رحمه الله : أن الحمد يتضمن إثبات أنواع التوحيد الثلاثة ؛ فإن الحمد مدح المحمود بصفات كماله ، ونعوت جلاله ، مع محبته والرضى عنه ، والخضوع له ، ومن المعلوم أن فاقد الصفات الكاملة لا يكون إلهًا ، ولا مدبرًا ؛ بل هو مذموم معيب ليس له الحمد ، وإنما الحمد لمن له صفات الكمال ، ونعوت الجلال التي لأجلها استحق الحمد ، وهو الله جلا وعلا .

النفي والإثبات :

س٣٠- ما هي طريقة أهل السنة والجماعة في النفي والإثبات الواردين في نصوص الصفات ؟

ج- طريقتهم في ذلك : أنهم ينفون نفيًا إجماليًا غالبًا على حد قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى : ١١] ، ويثبتون إثباتًا مفصلًا على حد قوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ، فكل ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من جميع الأسماء والصفات ، فيثبتونه لله على الوجه اللائق بجلاله وعظمته .

س٣١- ما الذي يقصد بالنفي؟ وهل فيه كمال أو مدح وأذكر مثالًا يوضح ذلك ؟

ج- النفي مقصود لغيره ، وهو إثبات ما يضاده من الكمال ، فنفي الشريك والند والنظير لإثبات كمال عظمته وتفرده بصفات الكمال ، ونفي العجز لكمال قدرته ، ونفي الجهل ، وعزوب شيء عن علمه لإثبات سعة علمه ، ونفي الظلم لإثبات عدله ، ونفي السنة والنوم لإثبات كمال حياته وقيوميته ، ونفي العبث وترك الخلق سدى لكمال حكمته التامة .

والنفي المحض ليس فيه مدح ولا كمال إلا إذا تضمن إثباتًا ؛ فكل ما نفى الله عن نفسه من النقائص ومشاركة أحد من خلقه في شيء من خصائص ، فإنها تدل على ضدها من أنواع الكمال .

س٣٢- ما هو الصراط المستقيم؟

ج- قيل : إنه القرآن ، وقيل : الرسول ﷺ وصاحباه من بعده ، وقيل : الإسلام ، قال ابن القيم : والقول الجامع في تفسير الصراط المستقيم هو الطريق الذي نصبه الله لعباده على ألسنة رسله ، وجعله موصلًا لعباده إليه ، ولا طريق لهم سواه ، وهو إفراده بالعبودية ، وإفراد رسله بالطاعة ، وهو مضمون

شهادة أن لا إله إلا اللّٰه ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، ونكتة ذلك وعقده : أن تحبه بقلبك كله ، وترضيه بجهدك فلا يكون في قلبك موضع إلا معمور بحبه ، ولا تكون إرادة إلا متعلقة بمرضاته ، وهذا هو الهدى ودين الحق ، وهو معرفة الحق والعمل به ، وهو معرفة ما بعث اللّٰه به رسله ، والقيام به ، فقل ما شئت من العبارات التي هذا أحسنها ، وقطب رحاها .

س٣٣- لم يضاف الصراط تارة إلى اللّٰه ، وتارة إلى العباد ؟ ولماذا يذكر مفردًا معرفًا بالألف واللام تارة ، وبالإضافة تارة ؟

ج- أما إضافته إلى اللّٰه ، فلأنه هو الذي شرعه ونصبه ، وأما إضافته إلى العباد ، فلأنهم أهل سلوكه ، وأما ذكره مفردًا معرفًا باللام تارة وبالإضافة تارة ، فالإفادة تعيينه واختصاصه ، وأنه صراط واحد بخلاف طرق أهل الضلال .

❁ ❁ ❁

الاستدلالُ على إثباتِ أسماءِ اللّهِ وصفاتِه

من القرآنِ الكريمِ

١- الجمعُ بينَ النفيِ والإثباتِ في وصفِه تعالى :

وقد دخَل في هذه الجملةِ ما وصَف اللّهُ به نفسَه في سورةِ الإخلاصِ التي تَعْدِلُ ثُلُثَ القرآنِ.

حيثُ يقولُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١- ٤].

وما وصَف به نفسَه في أعظمِ آيةٍ في كتابِه، حيثُ يقولُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ولهذا كان مَن قرأ هذه الآيةَ في ليلةٍ لم يَزَلْ عليه من اللّهِ حافظٌ، ولا يقْرَبُه شيطانٌ حتى يُصْبِحَ.

وقولِه سبحانَه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

٢- الجمعُ بينَ عُلُوِّه وقربِه وأَزَلِيَّتِه وأَبَدِيَّتِه:

وقولِه سبحانَه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

٣- إحاطةُ علمِه بجميعِ مخلوقاتِه :

وقولِه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [التحريم: ٢]، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [الحديد: ٤]. ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقوله : ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ .

وقوله : ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق : ١٢].

وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات : ٥٨].

٤- إثباتُ السمعِ والبصرِ للهِ سبحانَه :

وقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١].

وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء : ٥٨].

٥- إثباتُ المَشيئةِ والإرادةِ للهِ سبحانَه:

وقوله : ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف : ٣٩].

وقوله : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة : ٢٥٣].

وقوله : ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة : ١].

وقوله : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام : ١٢٥].

٦- إثباتُ مَحبّةِ اللهِ ومَوَدّتِه لأوليائِه على ما يليقُ بجلالِه :

وقوله : ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة : ١٩٥]، ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات : ٩]، ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة : ٧]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة : ٢٢٢].

وقوله : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران : ٣١].

وقوله : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة : ٥٤].

وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ [الصف : ٤].

وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ﴾ [البروج : ١٤].

٧- إثباتُ اتصافِه بالرحمةِ والمغفرةِ سبحانَه وتعالى :

وقوله : ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة : ١]، ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر : ٧]، ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب : ٤٣]، ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف : ١٥٦]، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام : ٥٤]، ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الأحقاف : ٨]، ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف : ٦٤].

٨- ذِكْرُ رِضَا اللَّهِ وغضبِه وسَخَطِه وكراهتِه في القرآنِ الكريم، وأنه مُتَّصِفٌ بذلك :

وقوله : ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [البينة : ٨]، ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ [النساء : ٩٣].

وقوله : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ [محمد : ٢٨].

وقوله : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الزخرف : ٥٥].

وقوله : ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ﴾ [التوبة : ٤٦].

وقوله : ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف : ٣].

٩- ذِكْرُ مَجِيءِ اللَّهِ سبحانَه لفَصْلِ القضاءِ بينَ عبادِه على ما يليقُ بجلالِه :

وقوله : ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ﴾ [البقرة : ٢١٠].

وقوله : ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾ [الأنعام : ١٥٨]، ﴿كَلَّآۖ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ۝٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الفجر : ٢١، ٢٢]، ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان : ٢٥].

١٠- إثباتُ الوجهِ للَّهِ سبحانَه :

وقولِه : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] ، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] .

١١- إثبات اليدْينِ للَّهِ تعالى في القرآنِ الكريم :

وقولِه : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] .

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤] .

١٢- إثباتُ العينَيْنِ للَّهِ تعالى :

وقولِه : ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] ، ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٣، ١٤] ، ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] .

١٣- إثباتُ السمعِ والبصرِ للَّهِ تعالى :

وقولِه : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١] ، ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] ، ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠] .

وقولِه: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] ، ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤] ، ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٨- ٢٢٠] ، ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] .

١٤- إثباتُ المكرِ والكيدِ للَّهِ تعالى على ما يليقُ به :

وقولِه : ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣] .

وقولِه : ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤] .

وقوله : ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]،
وقوله : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

١٥- وَصْفُ اللَّهِ بالعَفْوِ والمغفرةِ والرحمةِ والعِزَّةِ والقدرةِ :

وقوله : ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]، ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوٓا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وقوله : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وقوله عن إبليس : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].

١٦- إثباتُ الاسمِ للَّهِ، ونفيُ المثلِ عنه :

وقوله : ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

وقوله : ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

١٧- نفيُ الشريكِ عن اللَّهِ تعالى :

وقوله : ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١]، ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١].

وقوله : ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ١، ٢]، ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢]، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤].

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

١٨- إثباتُ استواءِ اللّهِ على عرشِه :

وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ في سبعةِ مواضعَ، في سورةِ «الأعراف» قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال في سورةِ «يُونُس»، عليه السلامُ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣].

وقال في سورةِ الرَّعْدِ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢].

وقال في سورةِ طه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٤].

وقال في سورةِ الفُرْقانِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الفرقان: ٥٩].

وقال في سورةِ الم السَّجْدةَ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [السجدة: ٤].

وقال في سورةِ الحديدِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤].

١٩- إثباتُ عُلُوِّ اللّهِ على مخلوقاتِه :

وقوله: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]. ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦، ١٧].

٢٠- إثباتُ مَعِيَّةٍ للَّهِ تعالى لخَلْقِه :

وقوله : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد : ٤] ، ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة : ٧] .

وقوله : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة : ٤٠] ، ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه : ٤٦] ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل : ١٢٨] ، ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال : ٤٦] ، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

٢١- إثباتُ الكلامِ للَّهِ تعالى :

وقـولـه : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء : ٨٧] .

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء : ١٢٢] .

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة : ١١٦] ، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام : ١١٥] ، ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء : ١٦٤] ، ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة : ٢٥٣] ، ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم : ٥٢] ، ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشعراء : ١٠] ، ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف : ٢٢] ، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص : ٦٥] ، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة : ٦] ، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ

بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح: ١٥]، ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الكهف: ٢٧]، ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

٢٢- إثباتُ تنزيلِ القرآنِ مِن اللَّهِ تعالى:

﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠١- ١٠٣].

٢٣- إثباتُ رؤيةِ المؤمنينَ لربِّهم يومَ القيامةِ:

وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٣٥]، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

وهذا البابُ في كتابِ اللَّهِ كثيرٌ، مَن تدبَّر القرآنَ طالبًا للهُدَى منه تبيَّن له طريقُ الحقِّ.

❁ ❁ ❁

الشـــرح

❁ قال الشيخ فيصل بن عبد العزيز آل مبارك رحمه الله :

قوله : « قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ...﴾ [الإخلاص : ١-٤] » :

قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ، أي : هو الواحد الأحد الذي لا نظير له ولا وزير ؛ لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله .

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ : قال ابن عباس : يعني الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم . وعنه أيضًا : الصمد الذي لا جوف له ، وقاله كثير من المفسرين .

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ أي : ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة ، ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام : ١٠١] .

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : انسب لنا ربك فأنزل الله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ رواه أحمد وغيره .

قوله : « قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة : ٢٥٥] » :

قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي : هو المتفرد بالإلهية .

﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ أي : الحي الذي لا يموت أبدًا ، ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ : القائم على كل شيء ، فجميع الموجودات مفتقرة إليه ، وهو غني عنها ، ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ﴾ أي : نعاس ، ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ ، و﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ملكًا وخلقًا ، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ بأمره ، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمر الدنيا والآخرة ، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ ، أي : لا يحيطون بشيء من علم الغيب إلا بما شاء الله أن يطلعهم عليه مما أخبر به الرسل ، ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي : ملأ وأحاط ، قال ابن عباس : الكرسي موضع القدمين ، والعرش لا يقدر أحد قدره[1] ، ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ أي : لا يثقله ولا يشق عليه ، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ قال البغوي : وهو العلي الرفيع فوق خلقه ، والمتعالي عن الأشباه والأنداد ، ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ : الكبير الذي لا أعظم منه .

---

(١) الطبراني (١٢٤٠٤) ، وصححه الألباني في تخريج « شرح الطحاوية » (ص٥٤) .

قوله: «قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] ..».

قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾؛ أي: الذي ليس قبله شيء، ﴿وَالْآخِرُ﴾ الذي ليس بعده شيء، ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ الذي ليس فوقه شيء، ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ الذي ليس دونه شيء، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ظاهره وباطنه وأوله وآخره.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ أي: فإنه حقيق بالتوكل عليه؛ لأنه باق على الأبد، والحياة صفة لله تعالى.

قوله: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ أي: في قوله وأفعاله، ﴿الْخَبِيرُ﴾: الذي لا تخفى عليه خافية.

قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يدخل فيها من الماء والأموات وغير ذلك، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات وغيره، والأموات إذا حشروا، ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من الملائكة والأمطار وغير ذلك، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الملائكة والأعمال الصالحة وغير ذلك.

قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ مفاتح الغيب: خزائنه، وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]. رواه البخاري(١).

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ أي: يعلم الحركات حتى من الجمادات، ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾؛ يعني: مكتوب في اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي: هو عالم بذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء.

قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، وأول الآية ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾، فالوحي من السماء السابعة إلى الأرض السفلى، قال قتادة: «في كل أرض من أرضه وسماء من سمائه خلق من خلقه، وأمر من أمره، وقضاء من قضائه؛ ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فلا يخفى عليه شيء».

---

(١) البخاري (١٠٣٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

قوله : « قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات : ٥٨] ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ..» .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ ؛ أي : الرزاق لجميع خلقه ، وهو القوي المقتدر المبالغ في القوة والقدرة .

قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ؛ لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له ، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ .

ففي قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ رد للتشبيه . وفي قوله : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ رد للتعطيل ، فتضمنت إثبات صفات الكمال للّٰه تعالى ، ونفي التشبيه عنه تبارك وتعالى .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ ، وأول الآية : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا﴾ أي : نعم الشيء الذي يعظكم به . ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ أي : سميعًا لأقوالكم بصيرًا لأفعالكم .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية ، ويضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه ويقول : « هكذا سمعت رسول اللّٰه ﷺ يقرؤها ويضع إصبعيه » ، رواه أبو داود وغيره[1] ، ومعنى ذلك : إثبات السمع والبصر حقيقة لا تشبيه السمع بالسمع والبصر بالبصر ، فكما أن ذاته لا تشبه الذوات فصفاته لا تشبه الصفات ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ .

قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي : هي بمشيئة اللّٰه إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها .

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ ، وأول الآية قوله تعالى : ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَلَـٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ أي : كل ذلك عن قضاء اللّٰه وقدره . ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فيوفق من يشاء فضلًا ، ويخذل من يشاء عدلًا .

قوله تعالى : ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أي : أحلت لكم بهيمة الأنعام كلها إلا ما كان منها وحشيًا ، فإنه صيد لا يحل لكم في حال الإحرام ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ أي : هو الحكيم في جميع ما يأمر به وينهى عنه .

---

(١) أبو داود (٤٧٢٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « صحيح سنن أبي داود » (حديث رقم : ٤٧٢٨) .

قوله تعالى : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ أي : يفتح قلبه وينوره حتى يقبل الإسلام ، ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ أي : لا يتسع لشيء من الهدى ولا يخلص إليه ما ينفعه من الإيمان ، وليس للخير فيه منفذ ، ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي : يشق عليه الإيمان كما يشق عليه صعود السماء ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

« قوله تعالى : ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة : ١٩٥] ، ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات : ٩] .. » .

قوله تعالى : ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ : الإحسان : هو أعلى مقامات الطاعة ، قال ابن جرير : « يعني جل ثناؤه بقوله : ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟﴾ : أحسنوا أيها المؤمنون في أداء ما ألزمتكم من فرائضي ، وتجنبوا ما أمرتكم بتجنبه من معاصي ، ومن الإنفاق في سبيلي ، وعود القوي منكم على الضعيف ذي الخلة فإني أحب المحسنين في ذلك » .

قوله تعالى : ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟﴾ أي : اعدلوا في الحكم في الفئتين المتقاتلتين . ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ ، وفي الحديث عن النبي ﷺ : « إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ﷻ ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا » رواه مسلم[1] .

قوله تعالى : ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي : متى استقاموا على العهد فاستقيموا لهم .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ قال ابن كثير : « ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ أي : من الذنب وإن تكرر غشيانه . ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي : المتنزهين عن الأقذار والأذى ، وهو ما نهوا عنه من إتيان الحائض ، أو في غير المأتى » .

قوله تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ قال ابن كثير : « أي : يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه ، وهو محبته إياكم ، وهو أعظم من الأول ، كما قال بعض العلماء والحكماء : ليس الشأن أن تحب ، إنما الشأن أن تحب .

ثم قال تعالى : ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله ، وليس هو على الطريقة المحمدية ، فإنه كاذب في نفس الأمر . قال الحسن البصري : زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية » .

---

(١) مسلم (١٨٢٧/١٨) من حدث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

قوله تعالى : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ فيه إثبات صفة محبة الله تعالى لعباده على ما يليق بجلاله ، قال الحسن : « علم الله تبارك وتعالى أن قومًا يرجعون عن الإسلام بعد موت نبيهم ﷺ ، فأخبر أنه سيأتي بقوم يحبهم ويحبونه » .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ روى أحمد وغيره عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يضحك الله إليهم : الرجل يقوم من الليل ، والقوم إذا صفوا للصلاة ، والقوم إذا صفوا للقتال »(١) .

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ قال ابن كثير : « أي : يغفر ذنب من تاب إليه وخضع لديه ، ولو كان الذنب من أي شيء كان » .

والودود : قال ابن عباس وغيره : « هو الحبيب » .

قوله تعالى : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ في الحديث : « أن عيسى عليه السلام قال للمعلم : الرحمن رحمان الدنيا والآخرة ، والرحيم رحيم الآخرة »(٢) .

قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ ، وأول الآية : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي : رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم ، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأحوالهم ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ .

قوله تعالى : ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره وكان بالمؤمنين به ورسوله ذا رحمة أن يعذبهم وهم له مطيعون ، ولأمره متبعون : ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب : ٤٤] » .

قوله تعالى : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي : عمت كل شيء ، قال الحسن : « وسعت رحمته في الدنيا البر والفاجر ، وهي يوم القيامة للمتقين خاصة » .

قوله تعالى : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ قال ابن كثير : « أي : أوجبها على نفسه الكريمة ؛ تفضلًا منه وإحسانًا وامتنانًا » .

قال تعالى : ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي : الغفور لذنوب من تاب وأناب من عباده حتى من الشرك ، الرحيم بمن آمن به وأطاعه .

---

(١) أحمد (٣/٨٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (٢٦١١) .

(٢) الطبراني في « تفسيره » (١/٥٦) ، وفي سنده ضعف .

قوله تعالى : ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي : فسيرحم كبري وضعفي ، ووجدي بولدي ، وأرجو من اللّه أن يرده علي ، ويجمع شملي به ، إنه أرحم الراحمين ، فهو أرحم لعباده من كل أحد .

قوله : « قوله تعالى : ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة : ١١٩] ، ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ [النساء : ٩٣] .. » .

قوله تعالى : ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى : رضي اللّه عن هؤلاء الصادقين الذين صدقوا في الوفاء له ما وعدوه ، من العمل بطاعته واجتناب معاصيه . ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ يقول : ورضوا هم عن اللّه تعالى في وفائه لهم بما وعدهم على طاعتهم إياه ، فيما أمرهم ونهاهم من جزيل ثواب ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الصف : ١٢] » .

قوله تعالى : ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا﴾ أي : عامدًا قتله ، ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ بقتله إياه متعمدًا . ﴿وَلَعَنَهُۥ﴾ أبعده عن رحمته وأخزاه ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا﴾ [النساء : ٩٣] ، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن فعل مثل هذا الذنب العظيم .

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ﴾ من طاعة الشيطان ، ﴿وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ من طاعة الرحمن ، ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ ؛ لأنها عملت في غير مرضاته .

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أي : أغضبونا ، ﴿ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ بعاجل العذاب ، ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ .

قوله تعالى : ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ﴾ أي : منعهم وحبسهم عن الخروج ، ﴿وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ .

قوله تعالى : ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ قال البغوي : أي : عظم ذلك في المقت والبغض عند اللّه ، أي : أن اللّه يبغض بغضًا شديدًا أن تقولوا ما لا تفعلون ، أي : أن تعدوا من أنفسكم شيئًا ثم لم تفوا به .

وقال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : يا أيها الذين آمنوا اصدقوا اللّه ورسوله . ﴿لِمَ تَقُولُونَ﴾ القول الذي لا تصدقونه بالعمل ، فأعمالكم مخالفة أقوالكم ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ يقول : عظم مقتًا عند ربكم قولكم ما لا تفعلون » .

قوله : « قوله تعالى : ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام : ١٨٥] .. » :

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ :

قال ابن كثير: «يقول تعالى مهددا الكافرين: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يعني: يوم القيامة، لفصل القضاء بين الأولين والآخرين، فيجزي كل عامل بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾».

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾. قال ابن جرير: «يقول جل ثناؤه هل ينظر هؤلاء العادلون بربهم الأوثان والأصنام إلا أن تأتيهم الملائكة بالموت، فتقبض أرواحهم، أو أن يأتيهم ربك - يا محمد - للقضاء بين خلقه في موقف القيامة، ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ يقول: أو أن يأتيهم بعض آيات ربك، وذلك - فيما قال أهل التأويل -: طلوع الشمس من مغربها».

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ قال ابن كثير: «أي: وطئت ومهدت وسويت الأرض والجبال، وقام الخلائق من قبورهم لربهم.

و«جاء ربك» يعني: لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعد ما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق - صلوات الله وسلامه عليه - فيذهب فيشفع عند الله تعالى في أن يأتي لفصل القضاء، فيشفعه الله تعالى في ذلك - وهي أول الشفاعات - وهي المقام المحمود، فيجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء كما يشاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفًا صفوفًا».

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ قال ابن جرير: وتأويل الكلام: ويوم تشقق السماء عن الغمام، وقيل: إن ذلك غمام أبيض مثل الغمام الذي ظلل على بني إسرائيل، ثم ذكر عن مجاهد قوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ قال: هو الذي قال: ﴿فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، الذي يأتي الله فيه يوم القيامة، ولم يكن قط إلا لبني إسرائيل.

قال ابن جريج: الغمام الذي يأتي الله فيه غمام زعموا في الجنة. وذكر بسنده عن عبد الله بن عمرو قال: يهبط الله حين يهبط، بينه وبين خلقه سبعون [ألف] حجاب منها النور والظلمة والماء، فيضرب الماء في تلك صوتًا تنخلع له القلوب.

وعن عكرمة في قوله: ﴿يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠] يقول: والملائكة حوله. وعن ابن عباس قال: إن هذه السماء إذا انشقت نزل منها من الملائكة أكثر من الجن والإنس، وهو يوم التلاقي؛ يوم يلتقي أهل السماء وأهل الأرض، فيقول أهل الأرض: جاء ربنا. فيقولون: لم يجيء وهو آت، ثم تشقق السماء الثانية، ثم سماء سماء على قدر ذلك من التضعيف إلى السماء السابعة، فينزل منها من الملائكة أكثر من جميع من نزل من السماوات، ومن الجن والإنس.

قال : فتنزل الملائكة الكروبيون ، ثم يأتي ربنا تبارك وتعالى في حملة العرش الثمانية ، بين كعب كل ملك وركبته مسيرة سبعين سنة ، وبين فخذه ومنكبه مسيرة سبعين سنة ، قال : وكل ملك منهم لم يتأمل وجه صاحبه ، وكل ملك منهم واضع رأسه بين يديه يقول : سبحان الملك القدوس ، وعلى رءوسهم شيء مبسوط كأنه القباء ، والعرش فوق ذلك ، ثم وقف . انتهى .

قال سفيان بن عيينة : « كل ما وصف الله نفسه في كتابه فتفسيره قراءته والسكوت عليه ، ليس لأحد أن يفسره إلا الله تعالى ورسوله » .

قوله : « قوله تعالى : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن : ٢٧] ، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص : ٨٨] ...

قوله تعالى : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ، وقبلها ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن : ٢٦] ، قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : كل من على ظهر الأرض من جن وإنس فإنه هالك ، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ يا محمد ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ » .

﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ من نعت الوجه ، فلذلك رفع ﴿ذُو﴾ . وقد ذكر أنها في قراءة عبد الله بالياء- « ذي الجلال والإكرام »- على أنه من نعت الرب وصفته ، قال ابن عباس : « ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن : ٢٧] ذو العظمة والكبرياء » .

قوله تعالى : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص : ٨٨] أي : كل شيء هالك إلا هو ، قال ابن كثير في قوله تعالى : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ : « يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون ، وكذلك أهل السماوات إلا من شاء الله ، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم ، فإن الرب تعالى وتقدس لا يموت ، بل هو الحي الذي لا يموت أبدًا » .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص : ٨٨] وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية بأنه ذو الجلال والإكرام .

قوله تعالى : ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى : قال الله لإبليس ، إذ لم يسجد لآدم وخالف أمره : يا ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ يقول : أي شيء منعك من السجود . ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ يقول : لخلق يدي . يخبر تعالى ذكره بذلك ؛ أنه خلق آدم بيده ، ثم ساق بسنده عن ابن عمر : خلق الله أربعة بيده : العرش ، وعدن ، والقلم ، وآدم . ثم قال لكل شيء : كن فكان » .

قوله تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ قال ابن عباس : « ليس يعنون بذلك أن يد الله موثقة ، ولكنهم يقولون : أنه بخيل أمسك ما عنده ، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا » .

وقال الضحاك : « ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ يقولون : إنه بخيل ليس بجواد . قال الله : ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أمسكت أيديهم عن النفقة والخير ، ثم قال يعني نفسه : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ ، وقال : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء : ٢٩] ، يقول : لا تمسك يدك عن النفقة » . قال البغوي : « ويد الله صفة من صفات ذاته كالسمع والبصر والوجه ، وقال جل ذكره : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص : ٧٥] . وقال النبي ﷺ : « كلتا يديه يمين »[1]. والله أعلم بصفاته ، فعلى العباد فيها الإيمان والتسليم ، وقال أئمة السلف من أهل السنة في هذه الصفات : أمروها كما جاءت بلا كيف » .

قوله تعالى : ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ يا محمد الذي حكم به عليك ، وامض لأمره ونهيه وبلغ رسالاته ، ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ يقول جل ثناؤه : فإنك بمرأى منا نراك ونرى عملك ، ونحن نحوطك ونحفظك فلا يصل إليك من أرادك بسوء من المشركين .

قوله تعالى : ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ قال ابن كثير : « أي : تجري بأمرنا وبمرأى منا ونحو حفظنا وكلاءتنا ، ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر : ١٤] أي : جزاء لهم على كفرهم بالله وانتصارًا لنوح عليه السلام » .

قوله تعالى : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ أي : بمرأى مني . قال قتادة : « ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ هو غذاؤه ، ولتغذ على عيني » . قال ابن كثير : « ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ أي : عند عدوك جعلته يحبك » . قال سلمة بن كهيل : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ قال : « حببتك إلى عبادي » . ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ قال أبو عمران الجوني : « تربى بعين الله » . وقال قتادة : « تغذى على عيني » . وقال معمر بن المثنى : « ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ بحيث أرى » .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : « يعني اجعله في بيت الملك ينعم ويترف ، وغذاؤه عندهم غذاء الملك ، فتلك الصنعة » . انتهى .

قوله : « قوله تعالى : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة : ١] ، ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾ [آل عمران : ١٨١] ..» :

قوله تعالى : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ : عن عائشة رضي الله عنها قالت : « الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة

(١) مسلم (١٨٢٧/١٨) من حدث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه .

إلى النبي ﷺ تكلمه، وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ إلى آخر الآية». رواه أحمد وغيره.

قال ابن جرير: «يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ يا محمد، ﴿قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يقول: وتشتكي المجادلة- ما لديها من الهم بظهار زوجها منها- إلى الله، وتسأله الفرج. ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ يعني: تحاور رسول الله ﷺ، والمجادلة خولة بنت ثعلبة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ يقول تعالى ذكره: إن الله سميع لما تجاوبانه ويتحاورانه، وغير ذلك من كلام خلقه، بصير بما يعملون ويعمل جميع عباده».

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ عن ابن عباس قال: «لما نزل قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] قالت اليهود: يا محمد، افتقر ربك فسأله عباده القرض، فأنزل الله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ الآية».

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ قال البغوي: «﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ ما يسرونه عن غيرهم ويتناجونه بينهم، ﴿بَلَىٰ﴾ نسمع ذلك ونعلم، ﴿وَرُسُلُنَا﴾ أيضًا من الملائكة يعني الحفظة ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾».

قوله تعالى: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ قال ابن عباس: «أسمع دعاءكما فأجيبه، وأرى ما يراد بكما فأمنعه، لست بغافل عنكما فلا تهتما».

وقال ابن جرير: «يقول الله تعالى ذكره: قال الله لموسى وهارون ﴿لَا تَخَافَآ﴾ فرعون، ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ أعينكما عليه، وأبصركما ﴿أَسْمَعُ﴾ ما يجري بينكما وبينه، فأفهمكما ما تحاورانه به، «وأرى» ما تفعلان ويفعل، لا يخفى علي من ذلك شيء».

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ألم يعلم أبو جهل إذ ينهى محمدًا عن عبادة ربه والصلاة له، بأن الله يراه فيخاف سطوته وعقابه».

وقال ابن كثير: «﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ أي: أما علم هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ويسمع كلامه، وسيجازيه على فعله أتم الجزاء».

قوله: «﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾»:

قال ابن جرير: «﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ إلى صلاتك، ويرى ﴿وَتَقَلُّبَكَ﴾ في المؤتمين بك فيها بين قيام وركوع وسجود وجلوس ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ تلاوتك يا محمد، وذكرك في صلاتك ما تتلو وتذكر، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما تعمل فيها ويعمل فيها من يتقلب فيها

معك ، مؤتمًا بك ، يقول : فرتل فيها القرآن ، وأقم حدودها فإنك بمرأى من ربك ومسمع ».

قوله تعالى : ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ : قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : ﴿وَقُلِ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين اعترفوا لك بذنوبهم من المتخلفين عن الجهاد معك ، ﴿ٱعْمَلُواْ﴾ بما يرضيه من طاعته وأداء فرائضه ، ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ يقول : فسيرى الله إن عملتم عملكم ، ويراه رسوله ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ في الدنيا ، ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾ يوم القيامة إلى من يعلم سرائركم وعلانيتكم فلا يخفى عليه شيء من باطن أموركم وظواهرها ، ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يقول : فيخبركم بما كنتم تعملون ، وما منه خالصًا وما منه رياء ، وما منه طاعة وما منه معصية ، فيجازيكم على ذلك كله جزاءكم ، المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

قوله : « قوله تعالى : ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرعد : ١٣] ، ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران : ٥٤] .. » .

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ ، قال ابن كثير : « وقوله : ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي : يشكون في عظمته ، وأنه لا إله إلا هو ، ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ » .

قال ابن جرير : « شديدة مما حلته في عقوبة من طغى عليه وعتا ، وتمادى في كفره » .

وهذه الآية شبيهة بقوله : ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل : ٥٠، ٥١] . وعن علي رضي الله عنه : ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ أي : شديد الأخذ .

وقال مجاهد : شديد القوة .

قوله تعالى : ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ قال ابن جرير : « يعني بذلك جل ثناؤه : ومكر الذين كفروا من بني إسرائيل ، وهم الذين ذكر الله أن عيسى أحس منهم الكفر ، وكان مكرهم الذي وصفهم الله به مواطأة بعضهم بعضًا على الفتك بعيسى وقتله » .

قال : « وأما مكر الله بهم فإنه - فيما ذكرى السدي - : إلقاؤه شبه عيسى على بعض أتباعه ، حتى قتله الماكرون بعيسى ، وهم يحسبونه عيسى ، وقد رفع الله ﷻ عيسى قبل ذلك .. إلى أن قال : وقد يحتمل أن يكون معنى مكر الله بهم استدراجه إياهم ، ليبلغ الكتاب أجله » .

وقال البغوي : « المكر من المخلوقين الخبث والخديعة والحيلة ، ومن الله استدراج العبد وأخذه بغتة من حيث لا يعلم ، كما قال : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ١٨٢] » .

قوله تعالى : ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : وغدر هؤلاء التسعة الرهط الذين يفسدون في الأرض بصالح ؛ بمصيرهم إليه ليلًا ليقتلوه

وأهله ، وصالح لا يشعر بذلك ، ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ يقول : فأخذناهم بعقوبتنا إياهم وتعجيل العذاب لهم ، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بمكرنا ، وقد بينا فيما مضى معنى مكر اللَّه بمن مكر به ، وما وجه ذلك ، وأنه أخذه من أخذه منهم على غرة ، أو استدراجه من استدراج منهم على كفره به ومعصيته إياه ، ثم إحلاله العقوبة على غرة وغفلة » .

قوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : إن هؤلاء المكذبين باللَّه ورسوله والوعد والوعيد يمكرون مكرًا ، وقوله : ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ يقول : وأمكر مكرًا ، ومكره جل ثناؤه بهم إملاؤهم إياهم على معصيتهم وكفرهم به » .

وقال البغوي : « ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ يخاتلون النبي ﷺ ويظهرون ما هم على خلافه ، ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ وكيد اللَّه استدراجه إياهم من حيث لا يعلمون » .

قوله تعالى : ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ ، قال ابن جرير : « يعني بذلك جل ثناؤه ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا﴾ يقول : إن تقولوا جميلًا من القول لمن أحسن إليكم ، فتظهروا ذلك شكرًا منكم على ما كان منه من حسن إليكم ، ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ يقول : أو تتركوا إظهار ذلك فلا تبدوه ، ﴿أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ﴾ يقول : أو تصفحوا لمن أساء إليكم عن إساءته ، فلا تجهروا له بالسوء من القول الذي قد أذنت لكم أن تجهروا له به ، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ يقول : لم يزل ذا عفو عن خلقه ، يصفح عمن عصاه وخالف أمره ، « قديرًا » يقول : ذا قدرة على الانتقام منهم ، وإنما يعني بذلك : أن اللَّه لم يزل ذا عفو عن عباده مع قدرته على عقابهم على معصيتهم إياه ، يقول : فاعفوا أنتم أيضًا أيها الناس عمن أتى إليكم ظلمًا ، ولا تجهروا له بالسوء من القول إلا من ظلم » .

وقال ابن كثير : « وقوله : ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي : إن تظهروا أيها الناس خيرًا أو أخفيتموه ، أو عفوتم عمن أساء إليكم ، فإن ذلك مما يقربكم عند اللَّه ويجزل ثوابكم لديه ، فإن من صفاته تعالى أن يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم ، ولهذا قال : ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ ، ولهذا ورد في الأثر : أن حملة العرش يسبحون اللَّه فيقول بعضهم : سبحانك على حلمك بعد علمك ، ويقول بعضهم : سبحانك على عفوك بعد مقدرتك ، وفي الحديث الصحيح : « ما نقص مال من صدقة ، ولا زاد اللَّه عبدًا بعفو إلا عزًّا ومن تواضع للَّه رفعه »[١] .

قوله تعالى : ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوٓا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ، وأول الآية ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ أي : لا يحلف ، ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ

---

(١) مسلم (٦٩/٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ .

قال ابن جرير : « يقول : ﴿وَلْيَعْفُواْ﴾ عما كان منهم إليهم من جرم ، وذلك جرم مسطح إلى أبي بكر ، في إشاعته على ابنته عائشة ما أشاع من الإفك ، ﴿وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ يقول : وليتركوا عقوبته على ذلك بحرمانهم ما كانوا يؤتونهم قبل ذلك ، ولكن ليعودوا لهم إلى مثل الذي كانوا لهم عليه من الإفضال عليهم ، ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ يقول : ألا تحبون أن يستر الله عليكم ذنوبكم ، بإفضالكم عليهم ، فيترك عقوبتكم عليها ، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لذنوب من أطاعه ، واتبع أمره ، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم أن يعذبهم مع اتباعهم أمره وطاعتهم إياه على ما كانت لهم من زلة وهفوة ، قد استغفروا منها ، وتابوا إليه من فعلها » .

قوله : « قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون : ٨] ، ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص : ٨٢] .. » :

قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ : قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : يقول هؤلاء المنافقون الذي وصف صفتهم قبل : ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ فيها ، ويعني بالأعز الأشد والأقوى ، قال الله جل ثناءه : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ يعني : الشدة والقوة ، ﴿وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله ، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك » . قال البغوي : « فعزة الله قهره من دونه ، وعزة رسوله إظهار دينه على الأديان كلها ، وعزة المؤمنين نصر الله إياهم على أعدائهم » .

قوله : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ : قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : قال إبليس : ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ أي : بقدرتك وسلطانك وقهرك من دونك من خلقك ، ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يقول : لأضلن بني آدم أجمعين ، ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ يقول : إلا من أخلصته منهم لعبادتك ، وعصمته من إضلالي ، فلم تجعل لي عليه سبيلًا ، فإني لا أقدر على إضلاله وإغوائه . وذكر بسنده عن قتادة قال : علم عدو الله أنه ليست له عزة » .

قوله تعالى : ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : تبارك ذكر ربك يا محمد ، ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ﴾ يعني : ذي العظمة ، ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ يعني : ومن له الإكرام من جميع خلقه . وذكر بسنده عن ابن عباس : قوله : ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ يقول : ذو العظمة والكبرياء » .

وقال ابن كثير : « أي : هو أهل أن يجل فلا يعصى ، وأن يكرم فيعبد ، ويشكر ولا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى ، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « أَلِظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام »[1] . وفي

(١) مسلم (٦٩/٢٥٨٨) .

الحديث الآخر أن رسول اللَّه ﷺ كان إذا انصرف من صلاته استغفر اللَّه ثلاثًا وقال : « اللهم أنت السلام ، ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام »(1) .

قوله تعالى : ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ قال ابن جرير : « وقوله : ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ يقول : فالزم طاعته ، وذل لأمره ونهيه ، ﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ يقول : واصبر نفسك على النفوذ لأمره ونهيه ، والعمل بطاعته ، تفز برضاه عنك ، فإنه الإله الذي لا مثل له ولا عدل ولا شبيه في جوده وكرمه وفضله ، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ يقول : هل تعلم يا محمد لربك هذا الذي أمرناك بعبادته ، والصبر على طاعته مثلًا في كرمه وجوده ، فتعبده رجاء فضله وطوله دونه ؟ كلا ، ما ذلك بموجود . وذكر بسنده عن ابن عباس في قوله : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ قال : شبيهًا » .

قوله تعالى : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ قال أبو العالية : « لم يكن له شبيه ولا عدل ، وليس كمثله شيء » .

قوله تعالى : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال ابن جرير : « الأنداد جمع ند ، والند : العدل والمثل . وذكر بسنده عن ابن عباس في قوله : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ قال : أشباهًا . وعن قتادة في قوله : ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي : تعلمون أن اللَّه خلقكم وخلق السماوات والأرض ، ثم تجعلون له أندادًا » .

وقال البغوي : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي : أمثالًا تعبدونهم كعبادة اللَّه .

قوله تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة : ١٦٥] قال ابن كثير : « يذكر تعالى حال المشركين في الدنيا وما لهم في الدار الآخرة ، حيث جعلوا له أندادًا ، أي : أمثالًا ونظراء يعبدونهم معه ، ويحبونهم كحبه ، وهو اللَّه لا إله إلا هو ، ولا ضد له ولا ند ، ولا شريك له » .

قوله : « قوله تعالى : ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء : ١١١] ، ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن : ١] .. » :

قوله تعالى : ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ : قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : ﴿وَقُلِ﴾ يا محمد : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ فيكون مربوبًا لا ربًا ؛ لأن رب الأرباب لا ينبغي أن يكون له ولد ، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ

(1) مسلم (٥٩١/١٣٥) من حديث ثوبان رضي الله عنه .

شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ﴾ فيكون عاجزًا ذا حاجة إلى معونة غيره ضعيفًا ، ولا يكون إلهًا من يكون محتاجًا إلى معين على ما حاول ، ولم يكن منفردًا بالملك والسلطان ، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ يقول : ولم يكن له حليف حالفه من الذل الذي به ؛ لأن من كان ذا حاجة إلى نصرة غيره ، فذليل مهين ، ولا يكون من كان ذليلًا مهينًا يحتاج إلى ناصر إلهًا يطاع ، ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ يقول : وعظم ربك يا محمد بما أمرناك أن تعظمه به من قول وفعل ، وأطعه فيما أمرك ونهاك » .

وقال ابن كثير : « لمّا أثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنى ، نزَّه نفسه عن النقائص فقال : ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ بل هو اللَّه الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد . ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي : ليس بذليل فيحتاج أن يكون له ولي أو وزير أو مشير ، بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لا شريك له » .

قال مجاهد في قوله : « ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ لم يحالف أحدًا ، ولم يبتغ نصرة أحد .

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أي : عظمه وأجله عما يقول الظالمون المعتدون علوًّا كبيرًا .

قال ابن جرير : « حدثني يونس : أنبأنا ابن وهب ، أخبرني أبو صخر ، عن القرظي أنه كان يقول في هذه الآية ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ الآية قال : إن اليهود والنصارى قالوا : اتخذ اللَّه ولدًا . وقالت العرب : لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك ، وقال الصابئون والمجوس : لولا أولياء اللَّه لذل ، فأنزل اللَّه هذه الآية ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ » .

قوله تعالى : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : يسجد له ما في السماوات السبع ، وما في الأرض من خلقه ويعظمه . وقوله : ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ يقول تعالى ذكره : له ملك السماوات والأرض وسلطانه ، ماض قضاؤه في ذلك كله ، نافذ فيه أمره . وقوله : ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ يقول : وله حمد كل ما فيها من خلق ؛ لأن جميع من في ذلك من الخلق لا يعرفون الخير إلا منه وليس لهم رازق سواه ، فله حمد جميعهم .

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقول : وهو على كل شيء ذو قدرة ، يقول : يخلق ما يشاء ، ويميت من يشاء ، ويغني من أراد ، ويفقر من يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، ولا يتعذر عليه شيء أراده ؛ لأنه ذو القدرة التامة التي لا يعجزه معها شيء » .

قوله : ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ : ذكر ابن جرير بسنده عن ابن عباس قال : « تبارك تفاعل من البركة ، وهو كقول القائل : تقدس ربنا . فقوله : ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ يقول : تبارك الذي نزل الفصل بين الحق والباطل فصلًا بعد فصل ، وسورة بعد سورة . ﴿عَلَىٰ

عَبْدِهِۦ﴾ محمد ﷺ ليكون محمد لجميع الجن والإنس الذين بعثه الله إليهم داعيًا إليه . ﴿نَذِيرًا﴾ يعني منذرًا ينذرهم عقابه ويخوفهم عذابه ، إن لم يوحدوه ، ولم يخلصوا له العبادة ، ويخلعوا كل ما دونه من الآلهة والأوثان » .

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ .

يقول تعالى ذكره : ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ ، ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الذي له سلطان السماوات والأرض ينفذ في جميعها أمره وقضاءه ، ويمضي في كلها أحكامه ، يقول : فحق على من كان كذلك أن يطيعه أهل مملكته ، ومن في سلطانه ، ولا يعصوه . يقول : فلا تعصوا نذيري إليكم أيها الناس واتبعوه ، واعملوا بما جاءكم به من الحق .

﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ يقول : تكذيبًا لمن أضاف إليه الولد- وقال : الملائكة بنات الله- ما اتخذ الذي نزل الفرقان على عبده ولدًا ، فمن أضاف إليه ولدًا فقد كذب وافترى على ربه .

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ يقول : تكذيبًا لمن يضيف الألوهية إلى الأصنام ويعبدها من دون الله من مشركي العرب- ويقول في تلبيته : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكًا هو لك ، تملكه وما ملك- : كذب قائلو هذا القول ، ما كان لله من شريك في ملكه وسلطانه فيصلح أن يعبد من دونه ، يقول تعالى ذكره : فأفردوا أيها الناس لربكم- الذي نزل الفرقان على عبده محمد نبيه ﷺ- الألوهية ، وأخلصوا له العبادة دون كل ما تعبدونه من دونه من الآلهة والأصنام والملائكة والجن والإنس ؛ فإن كل ذلك خلقه وفي ملكه ، فلا تصلح العبادة إلا لله الذي هو مالك جميع ذلك .

وقوله : ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ يقول تعالى ذكره : وخلق الذي نزل على محمد الفرقان كل شيء ، فالأشياء كلها خلقه وملكه ، وعلى المماليك طاعة مالكهم وخدمة سيدهم دون غيره ، يقول : وأنا خالقكم ومالككم ، فأخلصوا لي العبادة دون غيري .

وقوله : ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ يقول : فسوى كل ما خلق ، وهيأه لما يصلح له فلا خلل فيه ولا تفاوت .

قوله تعالى : ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ :

يقول تعالى : ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ ؛ أي : لو كان معه آلهة لذهب كل إله بما خلق ، ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ؛ أي : لغلب بعضهم بعضًا كالعادة بين الملوك ، ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الولد والشريك ، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ؛ أي : ما غاب عن خلقه وما رأوه .

﴿فَتَعَٰلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : فارتفع الله وعلا عن شرك هؤلاء المشركين ، ووصفهم إياه بما يصفون » .

قوله تعالى : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال ابن جرير : « يقول : فلا تمثلوا لله الأمثال ، ولا تشبهوا له الأشباه ؛ فإنه لا مثل له ولا شبه ، فإنه أحد صمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » .

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يقول : والله أيها الناس يعلم خطأ ما يمثلون ويضربون من الأمثال وصوابه ، وغير ذلك من سائر الأشياء ، ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ صواب ذلك من خطئه .

قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ ما تزايد قبحه من الكبائر ، ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ جهرها وسرها .

﴿وَالْإِثْمَ﴾ كل ذنب . ﴿وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ ؛ أي : الظلم . ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ برهانًا . ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بالافتراء عليه ، والكذب من دعوى أن له ولدًا ، ونحو ذلك مما لا علم لكم به .

قوله : « قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف : ٥٤] ، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يونس : ٣] ... » .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ : قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : إن سيدكم ومصلح أموركم أيها الناس ، هو المعبود الذي له العبادة من كل شيء . ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ، وذلك يوم الأحد والإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة » .

وقال ابن كثير : « أما قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ، فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جدًا ، ليس هذا موضع بسطها ، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح ؛ مالك والأوزاعي ، والثوري ، والليث بن سعد ، والشافعي ، وأحمد ، وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديمًا وحديثًا ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله ، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه ، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ، بل الأمر كما قال الأئمة منهم نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري قال : من شبه الله بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر . وليس في ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه ، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة

والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله، ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى». انتهى.

وقال البغوي: «﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤] قال الكلبي ومقاتل: استقر. وقال أبو عبيدة: صعد. وأولت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء، فأما أهل السنة فيقولون: الاستواء على العرش صفة لله تعالى بلا كيف يجب على الرجل الإيمان به، ويكل العلم فيه إلى الله ﷻ. وسأل رجل مالك بن أنس عن قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟ فأطرق رأسه مليًا وعلاه الرحضاء، ثم قال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أظنك إلا ضالًا، فأمر به فأخرج. وروي عن سفيان الثوري، والأوزاعي، والليث بن سعد، وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن المبارك، وغيرهم من علماء السنة في هذه الآيات التي جاءت في الصفات المتشابهات: أمروها كما جاءت بلا كيف». انتهى.

وقال في «جامع البيان»: أجمع السلف على أن استواءه على العرش صفة بلا كيف، نؤمن به، ونكل العلم إلى الله تعالى.

قوله تعالى في «سورة يونس»: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣]، قال ابن جرير: «قوله تعالى ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ الذي له عبادة كل شيء، لا تنبغي العبادة إلا له، هو الذي خلق السماوات السبع، والأرضين السبع في ستة أيام، وانفرد بخلقها بغير شريك ولا ظهير، ثم استوى على عرشه مدبرًا للأمور، وقاضيًا في خلقه ما أحب، لا يضاده في قضائه أحد، ولا يتعقب تدبيره متعقب، ولا يدخل أموره خلل».

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه، وأنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، قيل: كهذه الأيام. وقيل: كل يوم كألف سنة مما تعدون. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، والعرش أعظم المخلوقات وسقفها».

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: الله- يا محمد- الذي رفع السماوات السبع بغير عمد ترونها، فجعلها للأرض سقفًا مسموكًا... إلى أن قال: وأما قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢] فإنه يعني: علا عليه».

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى عن كمال قدرته، وعظيم سلطانه: أنه الذي بإذنه وأمره رفع السماوات بغير عمد، بل بإذنه وأمره وتسخيره، رفعها عن الأرض بعدًا لا تنال، ولا يدرك مداها، فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة

خمس مائة عام ، وسمكها في نفسها مسيرة خمس مائة عام ، ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت ، وبينهما من بعد المسير خمس مائة عام وسمكها خمس مائة عام ، وهكذا الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة ، كما قال تعالى : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق : ١٢] الآية . وفي الحديث : « ما السماوات السبع وما فيهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، والكرسي في العرش المجيد كتلك الحلقة في تلك الفلاة »[1] ، وفي رواية : « والعرش لا يقدر قدره إلا الله ﷻ »[2] . وجاء عن بعض السلف : أن بعد ما بين العرش إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة ، وبعد ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة ، وهو من ياقوتة حمراء . وقوله تعالى : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ تقدم تفسيره في « سورة الأعراف » ، وأنه يمر كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل » .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : الرحمن على عرشه ارتفع وعلا » .

وقال ابن كثير : وقوله : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان : ٥٩] : تقدم الكلام على ذلك في « سورة الأعراف » بما أغنى عن إعادته أيضًا ، وأن المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف : إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ، ولا تحريف ، ولا تشبيه ، ولا تعطيل ، ولا تمثيل » .

قوله : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان : ٥٨] ، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قيل : كان ابتداء ذلك يوم الأحد ، والفراغ يوم الجمعة ، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ وعلا عليه ، وذلك يوم السبت فيما قيل » .

وقوله : ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ يقول : فاسأل يا محمد بالرحمن خبيرًا بخلقه ، فإنه خالق كل شيء ، ولا يخفى عليه ما خلقه .

قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : المعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له ، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من خلق ، ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ على عرشه في اليوم السابع بعد خلق

---

(١) ابن حبان (٢/٧٧- إحسان) مرفوعًا عن أبي ذر ﷺ ، وصححه الألباني في تخريج « شرح الطحاوية » (ص٥٤) .

(٢) الحاكم في « المستدرك » (٢/٣١٠) ، وصححه الألباني في تخريج « شرح الطحاوية » (٥٤) .

السماوات والأرض وما بينهما ».

قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : هو الذي أنشأ السماوات السبع والأرضين ، فدبرهن وما فيهن ، ثم استوى على عرشه ، فارتفع عليه وعلا ».

قوله : « قوله تعالى : ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران : ٥٥] ، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء : ١٥٨] .. » :

قوله تعالى : ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ : قال ابن جرير : « يعني بذلك جل ثناؤه ، ومكر الله بالقوم الذين حاولوا قتل عيسى مع كفرهم بالله ، وتكذيبهم عيسى فيما أتاهم به من عند ربهم ، إذ قال الله جل ثناؤه : ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ فـ (إذ) صلة من قوله : ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران : ٥٤] يعني : ومكر الله بهم حين قال الله لعيسى : ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ فتوفاه ورفعه إليه ».

وقال ابن كثير : « وقوله تعالى : ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [آل عمران : ٥٥] ؛ أي : رفعي إياك إلى السماء ».

قوله تعالى : ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ قال ابن جرير : « يعني : بل رفع الله المسيح إليه ، يقول : لم يقتلوه ولم يصلبوه ، ولكن الله رفعه إليه ، فطهره من الذين كفروا ».

قوله تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : إلى الله يصعد ذكر العبد إياه ، وثناؤه عليه ، ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ يقول : ويرفع ذكر العبد ربه إليه العمل الصالح ، وهو العمل بطاعته ، وأداء فرائضه ، والانتهاء إلى ما أمره به ».

ثم ذكر بسنده عن عبد الله قال : « إذا حدثناكم أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله ، إن العبد المسلم إذا قال : سبحان الله وبحمده ، الحمد لله ، لا إله إلا الله ، والله أكبر ، تبارك الله ، أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحين ، ثم صعد بهن إلى السماء ، فلا يمر على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يجيء بهن وجه الرحمن . ثم قرأ عبد الله : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ ».

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : وقال فرعون لما وعظه المؤمن من آله بما وعظه به ، وزجره عن قتل موسى نبي الله ، وحذره من بأس الله على قتله إن قتله ما حذره لوزيره هامان وزير السوء : ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ يعني : بناء . ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ : لعلي أبلغ من أسباب السماوات أسبابًا أتسبب بها إلى رؤية إله موسى . وقوله : ﴿وَإِنِّى

﴿لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ يقول : وإني لأظن موسى كاذبًا فيما يقول ويدعي من أن له في السماء ربًا أرسله إلينا » .

قوله تعالى : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أيها [الناس] الكافرون ، ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ يقول : فإذا الأرض تذهب بكم وتجيء وتضطرب ، ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو الله ، ﴿أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ وهو التراب فيه الحصباء الصغار ، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ يقول : فستعلمون أيها الكفرة كيف عاقبة نذيري لكم ، إذ كذبتم به ، ورددتموه على رسولي » .

وقال البغوي : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ قال ابن عباس : « أي : عذاب من في السماء إن عصيتموه » .

قوله : « قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد : ٤] ، ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة : ٧] ... » :

قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ :
قال ابن جرير : « وقوله : ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ يقول تعالى ذكره مخبرًا عن صفته وأنه لا يخفى عليه خافية من خلقه : ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من خلقه ، يعني بقوله : ﴿يَلِجُ﴾ يدخل ، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ منهم ، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى الأرض من شيء قط ، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ فيصعد إليها من الأرض ، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ يقول : وهو شاهدكم أيها الناس ، أينما كنتم يعلمكم ويعلم أعمالكم ومتقلبكم ومثواكم ، وهو على عرشه فوق سماواته السبع ، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يقول : والله بأعمالكم التي تعملونها من حسن وسيئ ، وطاعة ومعصية ، ذو بصر ، وهو لها محص ليجازي المحسن منكم بإحسانه ، والمسيء بإساءته يوم تجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون » .

قوله تعالى : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ، وأول الآية : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾

الآية ، قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : ألم تنظر يا محمد بعين قلبك فترى أن الله يعلم ما في السماوات والأرض من شيء ، لا يخفى عليه صغير ذلك وكبيره . يقول جل ثناؤه : فكيف يخفى على من كانت هذه صفته أعمال هؤلاء الكافرين وعصيانهم ربهم . ثم وصف - جل ثناؤه - قربه من عباده وسماعه نجواهم ، وما يكتمونه الناس من أحاديثهم ، فيتحدثون سرًّا بينهم ، فقال : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ من خلقه ، ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ يعلم سرهم ونجواهم ، لا يخفى عليه شيء من أسرارهم ، ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ يقول : ولا يكون من نجوى خمسة ، إلا هو سادسهم كذلك ، ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ يقول : ولا أقل من ثلاثة ، ﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾ من خمسة ، ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ إذا تناجوا ، ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ يقول : في أي موضع ومكان كانوا . وعنى بقوله : ﴿هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ يعني : أنه مشاهدكم بعلمه وهو على عرشه . ثم ساق بسنده عن الضحاك في قوله : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ إلى قوله : ﴿هُوَ مَعَهُمْ﴾ قال : هو فوق العرش وعلمه معهم ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ » .

وقال ابن كثير : « وحكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علمه تعالى ، ولا شك في إرادة ذلك ، ولكن سمعه أيضًا مع علمه بهم وبصره نافذ فيهم ، فهو سبحانه وتعالى مطلع على خلقه ، لا يغيب عنه من أمورهم شيء ، قال الإمام أحمد : افتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم » .

قوله تعالى : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ قال ابن جرير : « يقول إذ يقول رسول الله لصاحبه أبي بكر : ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ ، وذلك أنه خاف من الطلب أن يعلموا بمكانهما ، فجزع من ذلك ، فقال له رسول الله ﷺ لا تحزن إن الله معنا ، والله ناصرنا ، فلن يعلم المشركون بنا ، ولن يصلوا إلينا »[1] .

قوله تعالى : ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ قد تقدمت هذه الآية في الآيات التي فيها إثبات السمع والبصر ، والمراد بها هنا إثبات المعية الخاصة .

قال ابن كثير : « ﴿لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ ؛ أي : لا تخافا من فرعون ، فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه ، وأرى مكانكما ومكانه ، لا يخفى علي من أمركم شيء ، واعلما أن ناصيته بيدي ؛ فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني وبعدَ أمري ، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي » .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ يا محمد ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ الله في محارمه فاجتنبوها وخافوا عقابه عليها ، فأحجموا

(١) ابن جرير الطبري في « تفسيره » (١٠/١٣٦) .

عن التقدم عليها ، ﴿وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ يقول : وهو مع الذين يحسنون رعاية فرائضه ، والقيام بحقوقه ولزوم طاعته فيما أمرهم به ونهاهم عنه » .

وقال ابن كثير : « وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ أي : معهم بتأييده ونصره ومعونته ، وهذه معية خاصة ، كقوله : ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال : ١٢] ، وقوله لموسى وهارون : ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه : ٤٦] ، وقول النبي ﷺ للصديق وهما في الغار : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة : ٤٠] . وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم ، كقوله تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد : ٤] ، وكقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة : ٧] ، وكما قال تعالى : ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ الآية [يونس : ٦١] . ومعنى ﴿الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ [الرعد : ٣٥] أي : تركوا المحرمات ، ﴿وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ أي : فعلوا الطاعات ، فهؤلاء يحفظهم ويكلؤهم ، وينصرهم ويؤيدهم ، ويظفرهم على أعدائهم ومخالفيهم » .

قوله تعالى : ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ قال ابن جرير : « ﴿وَاصْبِرُوا﴾ يقول : اصبروا مع النبي ﷺ عند لقاء عدوكم ، ولا تنهزموا عنه وتتركونه ، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ يقول : اصبروا فإني معكم » .

وأورد البغوي في تفسير هذه الآية حديث : « لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا اللّه العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا »(١) الحديث .

قوله تعالى : ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ قال ابن جرير على قوله تعالى : ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ الآية ، تأويل الكلام : « قال الذين يوقنون بالمعاد ويصدقون بالمرجع إلى اللّه للذين قالوا : لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده : ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ يعني بـ ﴿كَم﴾ كثيرًا غلبت فئة قليلة فئة كثيرة ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يعني : بقضاء اللّه وقدره ، ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ يقول : مع الحابسين أنفسهم على رضاه وطاعته ، يعني : واللّه معين الصابرين على الجهاد في سبيله ، وغير ذلك من طاعته ، وظهورهم ونصرهم على أعدائه الصادين عن سبيله المخالفين منهاج دينه ، وكذلك يقال لمعين الرجل على غيره : هو معه . بمعنى : هو معه بالعون والنصرة » .

---

(١) البخاري (٧٣٧) ، ومسلم (٢٠/١٧٤٢) من حديث عبد اللّه بن أبي أوفى رضي الله عنه .

قوله : « قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء : ٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء : ١٢٢] ..» :

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ ، وأول الآية ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ قال ابن جرير : « يعني بذلك : فاعلموا حقيقة ما أخبرتكم من الخبر ، فإني جامعكم إلى يوم القيامة للجزاء والعرض والحساب ، والثواب والعقاب يقينًا ، فلا تشكوا في صحته ، ولا تمتروا في حقيقته ، فإن قولي الصدق الذي لا كذب فيه ، ووعدي الصدق الذي لا خلف فيه . ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ يقول : وأي ناطق أصدق من اللَّه حديثا ؟ وذلك أن الكاذب إنما يكذب ليجتلب بكذبه إلى نفسه نفعًا ، أو يدفع به عنها ضرًا ، واللَّه تعالى ذكره خالق الضر والنفع ، فغير جائز أن يكون منه كذب ؛ لأنه لا يدعوه إلى اجتلاب نفع ، ولا دفع ضر عن نفسه ، أو دفع ضر عنها سواه تعالى ذكره ، فيجوز أن يكون له في استحالة الكذب منه نظير ، ومن أصدق من اللَّه حديثًا وخبرًا » .

وقال ابن كثير : وقوله تعالى : « ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ ؛ أي : لا أحد أصدق منه في حديثه وخبره ، ووعده ووعيده ، فلا إله إلا هو ، ولا رب سواه » .

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ قال ابن جرير : « يقول : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ﴾ أيها الناس ، ﴿مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ أي : لا أحد أصدق منه قيلًا ، فكيف تتركون العمل بما وعدكم على العمل به ربكم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا ، وتكفرون به ، وتخالفون أمره ، وأنتم تعلمون أنه لا أحد أصدق منه قيلًا ، وتعملون بما يأمركم به الشيطان رجاء لإدراك ما يعدكم من عداته الكاذبة وأمانيه الباطلة ، وقد علمتم أن عداته غرور لا صحة لها ، ولا حقيقة ، وتتخذونه وليًا من دون اللَّه ، وتتركون أن تطيعوا اللَّه فيما يأمركم به وينهاكم عنه ، فتكونوا له أولياء ، ومعنى القيل والقول واحد » .

وقال ابن كثير : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ أي : لا أحد أصدق منه قولًا ؛ أي : خبرًا ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه ، وكان النبي ﷺ يقول في خطبته : « إن أصدق الحديث كلام اللَّه ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار »[1] .

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ [المائدة : ١٠٩] فيقول : ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ إذ قال اللَّه : ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ، وقيل : إن اللَّه قال هذا القول لعيسى حين رفعه إليه في

(١) أخرجه النسائي (١٥٧٨) من حديث جابر رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « صحيح سنن النسائي » (حديث رقم : ١٥٧٨) .

الدنيا . وساق بسنده عن السدي قال : لما رفع الله عيسى ابن مريم إليه ، قالت النصارى ما قالت ، وزعموا أن عيسى أمرهم بذلك ، فسأله عن قوله فقال : ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ إلى قوله : ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة : ١١٧] . وعن ابن جريج ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ قال : والناس يسمعون ، فراجعه بما قد رأيت ، وأقر له بالعبودية على نفسه ، فعلم من كان يقول في عيسى ما يقول أنه إنما كان باطلًا » .

وقال ابن كثير على قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ الآيات : « هذا أيضًا مما يخاطب الله به عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام ، قائلًا له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله : ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ،وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رءوس الأشهاد . هكذا قاله قتادة وغيره » .

قوله تعالى : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ ؛ يعني : القرآن ، سماه كلمة كما تقول العرب للقصيدة من الشعر يقولها الشاعر : هذه كلمة فلان . ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ يقول : كلمت كلمة ربك من الصدق والعدل ، والصدق والعدل نصبًا على التفسير للكلمة ، كما يقال عندي عشرون درهمًا . ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ يقول : لا مغير لما أخبر في كتبه أنه كائن من وقوعه في حينه وأجله الذي أخبر الله أنه واقع فيه ، وذلك نظير قوله جل ثناؤه : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح : ١٥] » .

وقال ابن كثير : « وقوله تعالى : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قال قتادة : صدقًا فيما قال ، وعدلًا فيما حكم ، يقول : صدقًا في الإخبار ، وعدلًا في الطلب ، فكل ما أخبر به فحق لا مرية فيه ولا شك ، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه ، وكل ما نهى عنه فباطل ، فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة . ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أي : ليس أحد يعقب حكمه تعالى لا في الدنيا ولا في الآخرة . وقال البغوي : قوله ﷻ : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ قرأ أهل الكوفة ويعقوب : (كلمت) على التوحيد ، وقرأ آخرون : (كلمات) بالجمع ، والمراد بالكلمات أمره ونهيه ، ووعده ووعيده . ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ ، أي : صدقًا في الوعد والوعيد ، وعدلًا في الأمر والنهي ، قال قتادة ومقاتل : صدقًا فيما وعد ، وعدلًا فيما حكم ، ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ قال ابن عباس : لا راد لقضائه ولا مغير لحكمه ، ولا خلف لوعده ، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ قيل : أراد بالكلمات القرآن ، ﴿لَّا مُبَدِّلَ﴾ يريد لا يزيد فيه المفترون ولا ينقصون » . انتهى .

قوله تعالى : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ : قال ابن جرير : « يعني بذلك جل ثناؤه : وخاطب الله بكلامه موسى خطابًا . وساق بسنده عن نوح بن أبي مريم ، وسئل : كيف كلم الله موسى تكليمًا ؟ قال : مشافهة » .

وقال ابن كثير : « قوله : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ وهذا تشريف لموسى عليه السلام بهذه الصفة ، ولهذا يقال له : الكليم » .

وقال صاحب « الوجيز » : « أخبر الله بأنه شرف موسى بكلامه ، وأكده بالمصدر دلالة على وقوع الفعل على حقيقته لا على المجاز » .

قوله تعالى : ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ قال ابن جرير : « يعني تعالى ذكره بقوله : ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ الذين قص الله قصصهم في هذه السورة ؛ كموسى بن عمران ، وإبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، وشمويل ، وداود ، وسائر من ذكر نبأهم في هذه السورة ، يقول تعالى ذكره : هؤلاء رسلي فضلت بعضهم على بعض ، والذي كلمته منهم موسى ﷺ ، ورفعت بعضهم درجات على بعض بالكرامة ورفعة المنزلة . وساق بسنده عن مجاهد في قول الله تعالى ذكره : ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ قال : يقول : ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ منهم من كلم الله ، ورفع بعضهم على بعض درجات ، يقول : كلم الله موسى ، وأرسل محمدًا إلى الناس كافة » .

وقال البغوي : « ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي : كلمه الله تعالى ، يعني : موسى عليه السلام ، ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ يعني : محمدًا ﷺ ، وما أوتي نبي آية إلا أوتي نبينا مثل تلك الآية ، وفضل على غيره بآيات مثل : انشقاق القمر بإشارته ، وحنين الجذع على مفارقته ، وتسليم الحجر والشجر عليه ، وكلام البهائم والشهادة برسالته ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وغير ذلك من المعجزات والآيات التي لا تحصى ، وأظهرها القرآن الذي أعجز أهل السماء والأرض على الإتيان بمثله » . انتهى .

قوله تعالى : ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : وناديناه موسى من ناحية الجبل ، ويعني بالأيمن يمين موسى ؛ لأن الجبل لا يمين له ولا شمال ، وإنما ذلك كما يقال قام عن يمين القبلة وعن شمالها . وقوله : ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ يقول تعالى ذكره : وأدنيناه مناجيًا كما يقال : فلان نديم فلان ومنادمه ، وجليس فلان ومجالسه ، وذكر أن الله جل ثناؤه أدناه حتى سمع صريف القلم . ثم ساق بسنده عن ابن عباس : ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ قال : أدنى حتى سمع صريف القلم » .

وقال ابن كثير : « وقوله : ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ أي : الجبل ، ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ أي : الجانب

الأيمن من موسى حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة ، فرأها تلوح فقصدها فوجدها في جانب الطور الأيمن من غربيه عند شاطيء الوادي ، فكلمه الله تعالى وناداه وقربه فناجاه . قال ابن عباس : أدنى حتي سمع صريف القلم ، وهكذا قال مجاهد وأبو العالية وغيرهم . يعنون صريف القلم بكتابة التوراة ، وقال السدي ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ قال : أدخل في السماء فكلم ، وعن مجاهد نحوه » .

وقال البغوي : « قوله : ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ يعني : يمين موسى . والطور : جبل بين مصر ومدين ، ويقال اسمه : الزبير ، وذلك حين أقبل من مدين ورأى النار فنودي : ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص : ٣٠] ، ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ أي : مناجيًا ، فالنجي المناجي ، كما يقال : جليس ونديم ، قال ابن عباس : معناه قربه فكلمه ، ومعنى التقريب إسماعه كلامه ، وقيل : رفعه الحجب حتى سمع صريف القلم » . انتهى .

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : واذكر يا محمد إذ نادى ربك موسى بن عمران : ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني : الكافرين ، ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ [الشعراء : ١١] عقاب الله على كفرهم به » .

قوله تعالى : ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : ونادى آدم وحواء ربهما : ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ عن أكل ثمرة الشجرة التي أكلتما ثمرتها ، وأعلمتكما أن إبليس لكما عدو مبين ؟ يقول : قد أبان عداوته لكما بترك السجود لآدم حسدًا وبغيًا » .

وعن ابن عباس قال : « لما أكل آدم من الشجرة قيل له : أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها ؟ قال : حواء أمرتني . قال : فإني قد أعقبها ألَّا تحمل إلا كرهًا ولا تضع إلَّا كرهًا . قال : فرنت حواء عند ذلك ، فقيل لها : الرنة عليك وعلى ولدك » .

وعن أبي بن كعب قال : « كان آدم رجلًا طوالًا كأنه نخلة سحوق ، كثير شعر الرأس ، فلما وقع فيما وقع فيه من الخطيئة بدت له عورته- عند ذلك وكان لا يراها- فانطلق هاربًا في الجنة ، فتعلقت برأسه شجرة من شجر الجنة . فقال لها : أرسليني . فقالت : إني غير مرسلتك ، فناداه ربه ﷻ : يا آدم ، أمني تفر ؟ قال : يا رب ، إني استحييتك » .

قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : ويوم ينادي الله هؤلاء المشركين فيقول لهم : ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فيما أرسلناهم به إليكم ، من دعائكم إلى توحيدنا ، والبراءة من الأوثان والأصنام ؟ ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ » .

قال مجاهد : « ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ قال : الحجج . يعني الحجة » .

قوله : « قوله تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة : ٦] ، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٧٥] .. » :

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ **قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره لنبيه : وإن استأمنك يا محمد من المشركين الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم أحد ليسمع كلام الله منك ، وهو القرآن الذي أنزله الله عليك ﴿فَأَجِرْهُ﴾ يقول : فأمنه ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ وتتلوه عليه ، ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ يقول : ثم رده بعد سماعه كلام الله- إن هو أبى أن يسلم ، ولم يتعظ بما تلوته عليه من كلام الله فيؤمن- إلى ﴿مَأْمَنَهُۥ﴾ يقول : إلى حيث يأمن منك وممن في طاعتك حتى يلحق بداره وقومه من المشركين » .**

قوله تعالى : ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ .

قال ابن كثير : « يقول تعالى : ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ أيها المؤمنون ، ﴿أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ﴾ أي : ينقاد لكم بالطاعة ، هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود ، الذين شاهد آباؤهم من الآيات البينات ما شاهدوه ، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ أي : يتأولونه على غير تأويله ، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي : فهموه على الجلية ، ومع هذا يخالفونه على بصيرة ، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله » .

قوله تعالى : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ﴾ **قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : سيقول يا محمد المخلفون في أهليهم عن صحبتك إذا سرت معتمرًا تريد بيت الله الحرام ، إذا انطلقت أنت ومن صحبك في سفرك ذلك إلى ما أفاء الله عليك وعليهم من الغنيمة لتأخذوها- وذلك ما كان الله وعد أهل الحديبية من غنائم خيبر- : ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ إلى خيبر فنشد معكم قتال أهلها . ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ يقول : يريدون أن يغيروا وعد الله الذي وعد أهل الحديبية ؛ وذلك أن الله جعل غنائم خيبر لهم ، ووعدهم ذلك عوضًا من غنائم أهل مكة ، إذا انصرفوا عنهم على صلح ، ولم يصيبوا منهم شيئًا . وقوله : ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : قل لهؤلاء المخلفين عن المسير معك يا محمد : لن تتبعونا إلى خيبر إذا أردنا المسير إليهم من قتالهم ، ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ . يقول : هكذا قال الله لنا من قبل مرجعنا إليكم أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية معنا ، ولستم ممن شهدها ، فليس لكم أن تتبعونا إلى خيبر ؛ لأن غنيمتها لغيركم » .**

قوله : ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ : قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : واتبع يا محمد ما أنزل إليك من كتاب ربك هذا ، ولا تتركن تلاوته واتباع ما فيه من أمر الله ونهيه ، والعمل بحلاله وحرامه فتكون من الهالكين ، وذلك أن مصير من خالفه ، وترك اتباعه يوم القيامة إلى جهنم ، ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ يقول : لا مغير لما أوعد بكلماته التي أنزلها عليك ، أهل معاصيه ، والعاملين بخلاف هذا الكتاب الذي أوحيناه إليك . وقوله : ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا﴾ يقول : إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحي إليك من كتاب ربك فإنه لا ملجأ لك من الله » .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : إن هذا القرآن الذي أنزلته إليك يا محمد ، يقص على بني إسرائيل الحق في أكثر الأشياء التي اختلفوا فيها . وذلك كالذي اختلفوا فيه من أمر عيسى ، فقالت اليهود فيه ما قالت ، وقالت النصارى فيه ما قالت ، وتبرأ لاختلافهم فيه هؤلاء من هؤلاء ، وهؤلاء من هؤلاء ، وغير ذلك من الأمور التي اختلفوا فيها ، فقال جل ثناؤه لهم : إن هذا القرآن يقص عليكم الحق فيما اختلفتم ، فاتبعوه وأقروا لما فيه ، فإنه يقص عليكم بالحق ، ويهديكم إلى سبيل الرشاد » .

قوله : « قوله تعالى : ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ﴾ [الأنعام : ١٥٥] ، ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحشر : ٢١] ..» :

قوله تعالى : ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ﴾ قال ابن جرير : « يعني جل ثناؤه بقوله : ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ﴾ وهذا القرآن الذي أنزلناه إلى نبينا محمد ﷺ ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام : ١٥٥] ، يقول : فاجعلوه إمامًا تتبعونه وتعملون بما فيه أيها الناس . ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ يقول : واحذروا الله في أنفسكم أن تضيعوا العمل بما فيه ، وتتعدوا حدوده ، وتستحلوا محارمه . وقوله : ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأنعام : ١٥٥] يقول : لترحموا ؛ فتنجوا من عذاب الله وأليم عقابه » .

وقال ابن كثير : « في الدعوة إلى اتباع القرآن ، يرغب سبحانه عباده في كتابه ويأمرهم بتدبره والعمل به والدعوة إليه ، ووصفه بالبركة لمن اتبعه وعمل به في الدنيا والآخرة ؛ لأنه حبل الله المتين » .

قوله تعالى : ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ قال ابن جرير : « يقول جل ثناؤه : ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ﴾ وهو حجر ، ﴿لَّرَأَيۡتَهُۥ﴾ يا محمد ﴿خَٰشِعٗا﴾ يقول : متذللًا ﴿مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ على قساوته ، حذرًا من ألَّا يؤدي حق الله المفترض عليه في تعظيم القرآن ، وقد أنزل على ابن آدم ، وهو بحقه مستخف ، وعنه وعما فيه من العبر والذكر معرض ، كأن لم يسمعها ، كأن في أذنيه وقرًا . وساق بسنده عن ابن عباس من قوله : ﴿لَوۡ

أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ قال : يقول : لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه ، تصدع وخشع من ثقله ومن خشية اللَّه ، فأمر اللَّه ﷻ الناس إذا أنزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع . قال : كذلك يضرب اللَّه الأمثال للناس لعلهم يتفكرون » .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ :

قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : وإذا نسخنا حكم آية ، فأبدلنا مكانه حكم أخرى ، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ يقول : واللَّه أعلم بالذي هو أصلح لخلقه فيما يبدل ويغير من أحكامه ، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ يقول : قال المشركون باللَّه المكذبون لرسوله : ﴿إِنَّمَآ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿مُفْتَرٍۭ﴾ أي : مكذب ، تخرص بتقول الباطل على اللَّه ، يقول اللَّه تعالى : بل أكثرهم هؤلاء القائلين لك يا محمد : إنما أنت مفتر . جهال بأن الذي تأتيهم به من عند اللَّه ، ناسخه ومنسوخه لا يعلمون حقيقة صحته » .

قوله تعالى : ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ : قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : ﴿قُلْ﴾ يا محمد للقائلين لك : ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ فيما تتلوا عليهم من آي كتابنا ، ﴿نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ يقول : قل جاء به جبريل من عند ربي بالحق » .

وقوله : ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يقول تعالى ذكره : قل نزل هذا القرآن ناسخه ومنسوخه روح القدس علي من ربي ، تثبيتًا للمؤمنين ، وتقوية لإيمانهم ؛ ليزدادوا بتصديقهم لناسخه ومنسوخه إيمانًا لإيمانهم ، وهدى لهم من الضلالة ، وبشرى للمسلمين الذين استسلموا لأمر اللَّه ، وانقادوا لأمره ونهيه ، وما أنزله في آي كتابه ، فأقروا بكل ذلك ، وصدقوا به قولًا وعملًا .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ : قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : ولقد نعلم أن هؤلاء المشركين يقولون– جهلًا منهم– : إنما يعلم محمدًا هذا الذي يتلوه بشر من بني آدم ، وما هو من عند اللَّه ، يقول اللَّه تعالى ذكره مكذبهم في قيلهم ذلك : ألا تعلمون كذب ما تقولون ؟ إن لسان الذي تلحدون إليه أعجمي ، يقول : تميلون إليه بأنه يعلم محمدًا أعجمي . وذلك أنهم فيما ذكر كانوا يزعمون أن الذي يعلم محمدًا هذا القرآن عبد رومي ، فلذلك قال تعالى : ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ وهذا القرآن لسان عربي مبين » .

قوله : « قوله تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة : ٢٢، ٢٣] ، ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ [المطففين : ٢٣] » .

قوله تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ [القيامة : ٢٤] يعني : يوم القيامة ، ﴿نَاضِرَةٌ﴾ يقول : حسنة جميلة من النعيم ، يقال من ذلك : نضر وجه فلان ، إذا حسن من النعمة ، ونضر الله وجهه إذا حسنه كذلك . وساق بسنده عن الحسن في قوله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ قال : حسنة ، ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال : تنظر إلى الخالق ، وحق لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق . وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه ألفي سنة ، قال : وإن أفضلهم منزلة لمن ينظر في وجه الله كل يوم مرتين قال : ثم تلا : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال : بالبياض والصفاء ، قال : ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال : تنظر كل يوم في وجه الله ﷻ »[1] .

وقال ابن كثير : « وقد ثبتت رؤية المؤمن لله ﷻ في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح ، من طرق متواترة عند أئمة الحديث ، لا يمكن دفعها ولا منعها ؛ لحديث أبي سعيد وأبي هريرة في « الصحيحين » : « أن ناسًا قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : « هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحابة ؟ » . قالوا : لا . قال : « فإنكم ترون ربكم كذلك »[2] . وفي « الصحيحين » عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله ﷻ إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن »[3] .

قوله تعالى : ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ قال ابن جرير : « يعني تعالى ذكره بقوله : ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ على السرر في الحجال من اللؤلؤ والياقوت ، ينظرون إلى ما أعطاهم الله من الكرامة والنعيم والحبور في الجنات » .

وقال على : « قوله تعالى : ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ [المطففين : ٣٤، ٣٥] يقول تعالى ذكره : ﴿فَالْيَوْمَ﴾ [الأعراف : ٥١] وذلك يوم القيامة ، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأعراف : ٨٨] بالله في الدنيا ، ﴿مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة : ١٢٣] فيها ﴿يَضْحَكُونَ﴾ [الزخرف : ٤٧] ، ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ يقول : على سررهم التي في الحجال ينظرون إليهم وهم في

(١) الترمذي (٢٥٥٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (حديث رقم : ١٣٨١) .
(٢) البخاري (٤٥٨١) ، ومسلم (١٨٣/٣٠٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .
(٣) البخاري (٧٤٤٤) ، ومسلم (١٨٠) .

الجنة ، والكفار في النار يعذبون ».

وقال في قوله تعالى : ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين : ١٥] : « أي : محجوبون عن رؤيته وعن كرامته ».

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين : ٢٢، ٢٣] « أي : يوم القيامة هم في نعيم مقيم ، وجنات فيها فضل عميم ، ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ وهي : السرر تحت الحجال ، ﴿يَنظُرُونَ﴾ قيل : معناه : ينظرون في ملكهم وما أعطاهم الله من الخير والفضل الذي لا ينقضي ولا يبيد ، وقيل : معناه ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ إلى الله ﷻ . وهذا مقابل لما وصف به أولئك الفجار : ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين : ١٥] ، فذكر عن هؤلاء أنهم يباحون النظر إلى الله ﷻ وهم على سررهم وفرشهم ، كما تقدم في حديث ابن عمر : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة ، يرى أقصاه كما يرى أدناه ، وإن أعلاهم لمن ينظر إلى الله ﷻ في اليوم مرتين »(١) ».

وقال أيضًا : « ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين : ٣٤] أي : في مقابل ما ضحك بهم أولئك ، ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين : ٣٥] أي : إلى الله ﷻ ، في مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون ، ليسوا بضالين ؛ بل هم من أولياء الله المقربين ، ينظرون إلى ربهم في دار كرامته ».

قوله تعالى : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ الحسنى هي الجنة ، والزيادة هي النظر إلى وجه الله ﷻ ، وهذا قول أبي بكر الصديق وغيره من السلف والخلف .

قال ابن جرير : « إن الله تبارك وتعالى وعد المحسنين من عباده على إحسانهم الحسنى أن يجزيهم على طاعتهم إياه الجنة ، وأن يبيض وجوههم ، ووعدهم مع الحسنى الزيادة عليها ، ومن الزيادة على إدخالهم الجنة أن يكرمهم بالنظر إليه ، وأن يعطيهم غرفًا من لآلئ ، وأن يزيدهم غفرانًا ورضوانًا ، كل ذلك من زيادات عطاء الله إياهم على الحسنى التي جعلها الله لأهل جناته ».

قوله تعالى : ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ قال ابن جرير : « وقوله : ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ يقول : لهؤلاء المتقين ما يريدون في هذه الجنة التي أزلفت لهم من كل ما تشتهيه نفوسهم وتلذه أعينهم ، وقوله : ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ يقول : وعندنا لهم على ما أعطيناهم من هذه الكرامة التي وصف جل ثناؤه صفتها مزيد يزيدهم إياه ، وقيل : إن ذلك المزيد النظر إلى الله جل ثناؤه . ذكر من قال ذلك : حدثنا أحمد بن سهيل الواسطي قال : حدثنا قرة بن عيسى قال : حدثنا النضر بن عربي عن جده عن

---

(١) الترمذي (٢٥٥٣) من حديث ابن عمر ﷺ ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (حديث رقم : ١٣٨١).

أنس : « إن الله ﷻ إذا أسكن أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، هبط إلى مرج من الجنة أفيح ، فمد بينه وبين خلقه حجبًا من لؤلؤ ، وحجبًا من نور ، ثم وضعت منابر النور ، وسرر النور ، وكراسي النور ، ثم أذن لرجل على الله ﷻ ... إلى أن قال : ثم ناداهم الرب ﷻ من وراء الحجب : مرحبًا بعبادي وزواري وجيراني ووفدي ، أكلوا وشربوا وفكهوا وكسوا وطيبوا ، وعزتي لأتجلين لهم حتى ينظروا إلي . فذلك انتهاء العطاء وفضل المزيد . قال : فتجلى لهم الرب ﷻ ، ثم قال : السلام عليكم عبادي ، انظروا إلي فقد رضيت عنكم »[١] الحديث .

وقال البغوي : « ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ وذلك أنهم يسألون الله تعالى حتى تنتهي مسألتهم فيعطون ما شاءوا ، ثم يزيدهم الله من عنده ما لم يسألوه ، وهو قوله : ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ ، يعني الزيادة لهم في النعيم مما لم يخطر ببالهم ، وقال جابر وأنس : « هو النظر إلى وجه الله الكريم » .

❁ قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله :

قوله : « ما وصف به نفسه في « سورة الإخلاص » التي تعدل ثلث القرآن ..» :

* هذا شروع في تفصيل النصوص الواردة في الكتاب والسنة الداخلة في الإيمان بالله ، وأنه يجب فيها إثباتها ، ونفي « التعطيل » و« التحريف » و« التكييف » و« التمثيل » عنها ، فثبت عنه ﷺ في « الصحيح »[٢] أن هذه السورة « تعدل ثلث القرآن » ، وذلك كما قال أهل العلم : إن القرآن يحتوي على علوم عظيمة كثيرة جدًّا وهي ترجع إلى ثلاثة علوم :

أحدها : علوم الأحكام والشرائع- الداخل فيها علوم الفقه- كلها عباداته ومعاملاته ، وتوابعهما .

الثاني : علوم الجزاء على الأعمال والأسباب التي يجازى فيها العاملون من خير وشر ، وبيان تفصيل الثواب والعقاب .

الثالث : علوم التوحيد : وما يجب على العباد من معرفته والإيمان به ، وهو أشرف العلوم الثلاثة .

و« سورة الإخلاص » كفيلة باشتمالها على أصول هذا العلم وقواعده ؛ فإن قوله : ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ؛ أي : الله متفرد بالعظمة والكمال ، ومتوحد بالجلال والجمال والمجد والكبرياء . يحقق ذلك قوله : ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ ؛ أي : الله السيد العظيم الذي قد انتهى في سؤدده ومجده وكماله . فهو : العظيم الكامل في عظمته ، العليم الكامل في علمه ، الحليم الكامل في حلمه ، فهو الكامل في جميع نعوته .

ومن معاني ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ : أنه الذي تصمد إليه الخليقة كلها ، وتقصده في جميع حاجاتها ومهماتها ، فهو المقصود ، وهو الكامل المعبود . فإثبات الأحدية لله ومعاني الصمدية كلها يتضمن

---

(١) ابن جرير الطبري في « تفسيره » (١٧٣/٢٦) .

(٢) البخاري (٥٠١٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، ومسلم (٨١٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

إثبات جميع تفاصيل الأسماء الحسنى والصفات العلى . فهذا أحد نوعي التوحيد وهو الإثبات ، وهو أعظم النوعين .

والنوع الثاني : التنزيه للّه عن الولادة والند والكفو والمثل . وهذا داخل في قوله : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ؛ أي : ليس له مكافئ ولا مماثل ولا نظير .

فمتى اجتمع للعبد هذه المقامات المذكورة في هذه السورة بأن :

* نزه اللّه وقدسه عن كل نقص وند وكفو ومثيل .

* وشهد بقلبه تفرد الرب بالوحدانية والعظمة والكبرياء .

وجميع صفات الكمال التي ترجع إلى هذين الاسمين الكريمين ؛ وهما « الأحد الصمد » .

ثم صمد إلى ربه وقصده في عبوديته وحاجاته الظاهرة والباطنة ، متى كان كذلك تم له : التوحيد العلمي والاعتقادي والتوحيد العملي ، فحق لسورة تشتمل عن هذه المعارف أن تعدل ثلث القرآن .

قوله : « وما وصف به نفسه في أعظم آية من كتابه ؛ حيث يقول : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة : ٢٥٥] » :

* وذلك لاشتمالها على أجل المعارف وأوسع الصفات ، فأخبر أنه المتوحد في الألوهية المستحق لإخلاص العبودية .

وأنه ﴿ٱلْحَيُّ﴾ الكامل- كامل الحياة- وذلك يقتضي كمال عزته ، وقدرته وسعة علمه ، وشمول حكمته ، وعموم رحمته ، وغيرها من صفات الكمال الذاتية .

وأنه ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ : الذي قام بنفسه ، واستغنى عن جميع المخلوقات وقام بالموجودات كلها ، فخلقها ، وأحكمها ، ورزقها ، ودبرها ، وأمدها بكل ما تحتاج إليه .

وهذا الاسم يتضمن جميع الصفات الفعلية ؛ ولهذا ورد : « أن الحي القيوم ، هما الاسم الأعظم ، الذي إذا دعي اللّه به أجاب ، وإذا سئل به أعطى »[1] .

لدلالة ﴿ٱلْحَيُّ﴾ على الصفات الذاتية ، و﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ على الصفات الفعلية ، والصفات كلها ترجع إليهما .

ومن كمال قيوميته وحياته : أنه لا تأخذه سنة- وهي النعاس- ولا نوم ، ثم ذكر عموم ملكه للعالم العلوي والسفلي .

ومن تمام ملكه : أن الشفاعة كلها للّه ، فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ، ففيها : ذكر الشفاعة التي

(١) ابن ماجه (٣٨٥٦) ، وحسنه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (حديث رقم : ٧٤٦) .

يجب إثباتها وهي التي تقع بإذنه لمن ارتضى ، والشفاعة المنفية التي يعتقدها المشركون ما كانت تطلب من غير الله وبغير إذنه ، فمن كمال عظمة الله أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ولا يأذن إلا فيمن رضي قوله وعمله ، وبين أن المشركين لا تنفعهم شفاعة الشافعين .

ثم ذكر سعة علمه فقال : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ؛ أي : علمه محيط بالأمور الماضية والمستقبلة ، فلا يخفى عليه منها شيء ، وأما الخلق فلا يحيطون بشيء من علم الله- لا قليل ولا كثير- إلا بما شاء أن يعلمهم الله على ألسنة رسله ، وبطرق وأسباب متنوعة .

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ : قيل : إنه العرش ، وقيل : إنه غيره ، وإنه كرسي ملكه من عظمته وسعته أن وسع السماوات والأرض .

ومع ذلك ﴿وَلَا يَئُودُهُ﴾ ؛ أي : لا يُثقله ويكرثه حفظهما- أي : حفظ العالم العلوي والسفلي- وذلك لكمال قدرته وقوته .

وفيها بيان لعظيم نعمة الله على الخلق إذ خلق لهم السماوات والأرضين وما فيهما وحفظهما وأمسكهما عن الزوال والتزلزل ، وجعلهما على نظام بديع جامع للأحكام والمنافع المتعددة التي لا تحصى .

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ : الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه ؛ علو الذات : بكونه فوق جميع المخلوقات على العرش استوى . وعلو القدر : إذ كان له كل صفة كمال ، وله من تلك الصفة أعلاها وغايتها .

﴿الْعَظِيمُ﴾ : الذي له جميع أوصاف العظمة والكبرياء ، وله العظمة والتعظيم الكامل في قلوب أنبيائه وملائكته وأصفيائه الذي لا أعظم منه ولا أجل ولا أكبر .

فحقيق بآية تحتوي على هذه المعاني الجليلة أن تكون أعظم آيات القرآن ، وأن يكون لها من المنع وحفظ قارئها من الشرور والشياطين ما ليس لغيرهم .

قوله : « ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ » :

* قد فسر النبي ﷺ هذه الأسماء الأربعة بتفسير مختصر جامع واضح حيث قال : « أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء »[١] .

وهذا يدل على كمال عظمته وأنه لا نهاية لها ، وبيان إحاطته من كل وجه ؛ فـ ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ :

---

(١) مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

إحاطته الزمانية، و« الظاهر والباطن »: إحاطته المكانية، ثم صرح بإحاطة علمه بكل شيء؛ من الأمور الماضية والحاضرة والمستقبلة، ومن العالم العلوي والسفلي، ومن الظواهر والبواطن والواجبات والجائزات والمستحيلات، فلا يغيب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

قوله: « ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سبأ: ٢] »:

أقول: ذكر المصنف رحمه الله في هذا الموضع عدة آيات وكلها داخلة في الإيمان بالله، ويتضح معناها عمومًا وخصوصًا بذكر أصول وضوابط نوضحها فيما يأتي:

منها: أن هذه النصوص القرآنية تنطبق عليها القاعدة المتفق عليها بين السلف، وهي: أنه يجب الإيمان بجميع الأسماء الحسنى، وما دلت عليه من الصفات وما نشأ عنها من الأفعال.

مثال ذلك: « القدرة » يجب علينا الإيمان بأنه على كل شيء قدير، والإيمان بكمال قدرة الله، والإيمان بأن قدرته نشأت عنها جميع الكائنات، وبأنه « عليم » ذو علم محيط، وأنه يعلم الأشياء كلها، وهكذا بقية الأسماء الحسنى على هذا النمط.

في هذه الآيات التي ذكرها المصنف من الأسماء الحسنى فإنها داخلة في الإيمان بالأسماء، وما فيها من ذكر الصفات مثل: « عزة الله » و« قدرته » و« علمه » و« حكمته » و« إرادته » و« مشيئته » و« كلامه » و« أمره » و« قوله » ونحوها، فإنها داخل في الإيمان بالصفات.

وما فيها من ذكر الأفعال المطلقة والمقيدة مثل: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ويعلم كذا وكذا، ويحكم ويريد، وسمع ويسمع ويرى، وأسمع وأرى، وقال ويقول، وكلم ويكلم، ونادى وناجى، ونحوها من الأفعال، فإنه داخل في الإيمان بأفعاله تعالى.

فعلى العبد الإيمان بكل ذلك إجمالًا وتفصيلًا وإطلاقًا وتقييدًا على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته، وأن يعلم أن صفاته لا تشبهها صفات المخلوقين، كما أن ذاته لا تشبهها ذوات المخلوقين.

ومن الأصول المتفق عليها بين « السلف » التي دلت عليها هذه النصوص: أن صفات الباري قسمان:

« صفات ذاتية »: لا تنفك عنها الذات كصفة: « الحياة » و« العلم » و« القدرة » و« القوة » و« العزة » و« الملك » و« العظمة » و« الكبرياء » و« العلو المطلق » ونحوها.

و« صفات فعلية »: تتعلق بها أفعاله كل وقت وآن وزمان، ولها آثارها في الخلق والأمر، فيؤمنون بأنه فعال لما يريد، وأنه لم يزل ولا يزال يقول ويتكلم ويخلق ويدبر الأمور، وأن أفعاله تقع شيئًا فشيئًا

تبعًا لحكمته وإرادته ، كما أن شرائعه وأوامره ونواهيه الشرعية لا تزال تقع شيئًا فشيئًا .

وقد دل على هذا الأصل الكبير : ما في النصوص من ذكر : « قال » و« يقول » و« سمع » و« يسمع » و« كلم » و« يكلم » و« نادى » و« ناجى » و« علم » و« كتب » و« يكتب » و« جاء » و« يجيء » و« أتى » و« يأتي » و« أوحى » و« يوحي » ونحوها من الأفعال المتنوعة التي تقع مقيدة بأوقاتها ، كما سمعت في هذه النصوص المذكورة آنفًا .

وهذا من أكبر الأصول وأعظمها ، ولقد صنف فيه المؤلف مصنفًا مستقلًا ؛ وهو المسمى بـ « الأفعال الاختيارية »[1] .

فعلى المؤمن : الإيمان بكل ما نسبه اللّٰه لنفسه ؛ من الأفعال المتعلقة بذاته كـ « الاستواء على العرش » ، و« المجيء » و« الإتيان » و« النزول إلى السماء الدنيا » و« القول » ونحوها ، والمتعلقة بخلقه كـ « الخلق » و« الرزق » و« أنواع التدبير » .

ومن الأصول الثابتة في الكتاب والسنة المتفق عليها بين السلف : التفريق بين مشيئة اللّٰه وإرادته وبين محبته .

« فمشيئة اللّٰه وإرادته الكونية » : تتعلق بكل موجود محبوب للّٰه وغير محبوب ، كما ذكر في هذه الآيات أن اللّٰه يفعل ما يريد[2] وما يشاء ، وإذا أراد شيئًا قال له : كن فيكون .

---

(١) « مجموع الفتاوى » لابن تيمية (٦/٢١٧) .

(٢) قال الشيخ ابن باز رحمه الله :

من أصول أهل السنة والجماعة إثبات مشيئة الرب العامة ، وأن ما شاء كان ، وما لم يشأ لا يكون ، كما أن من أصولهم الثابتة إثبات صفة الإرادة ، وهي قسمان :

إرادة كونية قدرية ، كالمشيئة ، وهذه الإرادة لا يخرج عن مُرادها شيء كالمشيئة ، فالكافر والمسلم تحت هذه الإرادة الكونية سواء ، فالطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال كلها بمشيئة الرب وإرادته الكونية .

وقد ذكر سبحانه هذه الإرادة في قوله تعالى : ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ ، وقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ .

القسم الثاني من الإرادة : الإرادة الشرعية الدينية ، وتتضمن محبة الرب للمراد ورضاه به ، وهذه الإرادة لا يلزم وجود مرادها ، بل قد يوجد وقد لا يوجد ، فاللّٰه سبحانه قد أراد من عبادة شرعًا أن يعبدوه ويُطيعوه ، فمنهم من عبده وأطاعه ، ومنهم من لم يفعل ذلك .

وبهذا يعلم أن الإرادتين تجتمعان في حق المطيع ، وتنفرد الإرادة الكونية في حق العاصي ؛ لأن اللّٰه لم يُرد منه المعصية شرعًا ، بل قد نهاه عنه ، وقد ذكر اللّٰه هذه الإرادة بقوله : « يريد اللّٰه أن يتوب عليكم » ، وقوله : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ ، ومن عرف الفرق بين هاتين الإرادتين سَلِم من شُبهات كثيرة زلَّت فيها أقدام ، وَضَلَّتْ فيها أفهام .

وأما « محبته » : فإنها تتعلق بما يحبه خاصة من الأشخاص والأعمال ، كما ذكر في هذه الآيات تقييدها بأنه يحب الصابرين والمتقين والمؤمنين والمحسنين والمقسطين ونحوها ، فمشيئته عامة للكائنات ، ومحبته خاصة ومتعلقة بالمحبوبات .

ويتفرع عن هذا أصل آخر وهو : التفريق بين الإرادة الكونية- فإنها تطابق المشيئة- وبين الإرادة الدينية – فإنها تطابق المحبة- .

فالأول مثل : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج : ١٤] ، ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج : ١٦] ونحوها . والثاني نحو : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء : ٢٧] ، ومع ذلك فجميع ذلك خاصة عامة يثبته أهل السنة والجماعة على الوجه الذي قاله الله وقاله رسوله .

ومن أصول أهل السنة والجماعة الثابتة : إثبات علو الله على خلقه واستوائه على عرشه[1] ؛ وهي

(١) قال الشيخ ابن باز كَلَلهُ :

« إثبات علو الله على خلقه ، واستوائه على عرشه ، وإقرار العقول بذلك ، أمر فطري فطر الله عليه العباد ، وإما الاستواء : فأثبته السمع من كتاب الله ، وسنة رسوله ، وليس في العقول ما يخالف ذلك ، وحقيقته لغة : الارتفاع والعلو . وأما تفسير الاستواء بالاستيلاء ؛ فهو باطل من وجوه :

منها : أنه يتضمن أن الله جل وعلا كان مغلوبًا على عرشه ثم غلب .

وهذا باطل ؛ لأنه تعالى لم يزل قاهرًا لجميع خلقه ، مستوليًا على عرشه فما دونه ، وأما بيت الأخطل الذي يستدلون به على أن معنى : ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ : استولى . فلا حجة فيه ، والبيت هو :

قد اسْتَوَى بِر على العِراق   من غَيْرِ سَيْف أو دَم مهراق

لأن استعمال ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ بمعنى استولى غير معروف في لغة العرب ، ولأن ذلك لو وجد في اللغة لم يجز استعماله في حق الله ، وأما المخلوق فيكون غالبًا ومغلوبًا ، كَبِر هذا فإنه كان مغلوبًا على أمر العراق ثم غلب .

فائدة نفيسة : ما ورد في الكتاب والسنة من أسماء وصفاته أقسام .

منها : ما ورد بلفظ الاسم على وجه التسمي به كالعزيز الحكيم ، والغفور ، وشبه ذلك ، فهذا القسم يوصف به الرب ويسمى به ، ويشتق له منه فعل ، ويثبت له منه مصدر كالعزة والحكمة والمغفرة .

ومنها : ما ورد بلفظ الاسم على وجه الإضافة ، فهذا يطلق على الله بلفظ الإضافة ، ولفظ الفعل ، ولا يشتق له منه اسم ، مثل قوله تعالى : ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء : ١٤٢] ، فيجوز أن يقول : الله خادع المنافقين ، ويخدع من خدعه ، ونحو ذلك ، ولا يجوز أن نعد من أسمائه « الخادع » ؛ لعدم وروده ، ولأن إطلاق الخادع يحتمل الذم والمدح ، فلا يجوز إطلاقه في حق الله .

ومنها : ما ورد بلفظ الفعل فقط : كالكيد ، والمكر ؛ فهذا لا يطلق على الله إلا بلفظ الفعل ، كقوله سبحانه : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق : ١٥ ، ١٦] ، وقوله : ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران : ٥٤] .=

من أعم الأصول التي باين بها «أهل السنة» «للجهمية» و«المعتزلة» و«الأشاعرة»، فما في هذه الآيات من ذكر علوه واسمه العلي الأعلى، وصعود الأشياء إليه وعروجها ونزولها منه يدل على العلو، وما صرح به من استوائه على العرش برهان قاطع على ثبوت ذلك، وقد قيل للإمام مالك: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟ فقال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه- أي عن الكيفية- بدعة».

وفي هذه الآيات: ذكر معية الله العامة[1]، كقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، وهذه المعية تدل على إحاطة علمه بالعباد، ومجازاته لهم بأعمالهم.

وفيها: ذكر المعية الخاصة كقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وهذه الآيات تدل- مع العلم المحيط- على العناية بمن تعلقت به تلك المعية، وأن الله معهم بعونه وحفظه وكلاءته وتوفيقه.

وإذا أردت أن تعرف هل المراد المعية العامة أو الخاصة؟ فانظر في الآيات؛ فإن كان المقام مقام تخويف ومحاسبة للعباد على أعمالهم وحث على مراقبة الله؛ فإن المعية عامة، مثل قوله: ﴿مَا

= ولا يجوز أن يعد من أسمائه سبحانه الكائد والماكر لما تقدم؛ وإنما جاز وصف الرب بالخداع والمكر والكيد في الآيات المشار إليها؛ لأنه في مقابل خداع أعدائه وكيدهم ومعاملتهم بمثل ما فعلوا من مدح وعدل يستحق عليه المدح والثناء.

فائدة أخرى ذكرها شيخ الإسلام وغيره: وهي أن صفات الرب القولية والفعلية قديمة النوع حادثة الآحاد: كالكلام والخلق والرزق والنزول، وأشباه ذلك، ونحو ذلك، فجنس الكلام والخلق والرزق والنزول قديم وأنواعه تحدث شيئًا فشيئًا على حسب حكمة الرب سبحانه، كما في قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ الآية [الأنبياء: ٢]، وكخلق آدم بعد أن لم يكن مخلوقًا، وغير ذلك، وهكذا الرزق والكلام، وأما صفات الذات كاليد والقدم والسمع والبصر فهي صفات قديمة كالذات. اهـ.

(١) قال الشيخ ابن باز رحمه الله:
المعية صفة من صفات الله، وهي قسمان: معية خاصة: لا يعلم كيفيتها إلا الله كسائر صفاته، وتتضمن الإحاطة والنصرة والتوفيق والحماية من المهالك.
ومعية عامة: تتضمن علم الرب بأحوال عباده واطلاعه على جميع أحوالهم وتصرفاتهم الظاهرة والباطنة ولا يلزم منها الاختلاط والامتزاج؛ لأنه سبحانه لا يقاس بخلقه، فعلوُّه على خلقه لا ينافي معيته لعباده، بخلاف المخلوق فإن وجوده في مكان وجهة يلزم منه عدم اطلاعه على المكان الآخر والجهة الأخرى، والرب ليس كمثله شيء لكمال علمه وقُدرته.

﴿يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ الآية [المجادلة: ٧]. وإذا كان المقام مقام لطف وعناية من الله بأنبيائه وأصفيائه- وقد رتبت المعية على الاتصاف بالأوصاف الحميدة- فإن المعية معية خاصة وهو أغلب إطلاقاتها في القرآن، مثل: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، ﴿مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ ونحوها.

ومن الأصول العظيمة: إثبات تفرد الرب بكل صفة كمال، وأنه ليس لله شريك ولا مثيل في شيء منها، والنصوص المذكورة التي فيها نفي: «الند»، و«المثل» و«الكفو» و«السمي» عن الله تدل على ذلك، وتدل على أنه منزه عن كل عيب ونقص وآفة.

ومن أصول أهل السنة والجماعة الثابتة: إثبات رؤية المؤمنين لربهم في دار القرار والتنعيم برؤيته وقربه ورضاه، ويدل على ذلك من الآيات التي ذكرها المصنف: قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾؛ أي: جملية ناعمة حسنة، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وهذا صريح في نظرهم إلى ربهم، وكذلك قوله: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٣]؛ أي: إلى ما أعطاهم من النعيم الذي أجله وأعظمه النظر إلى ربهم، وكذلك قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾؛ أي: وفوا مقام الإحسان لهم ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ التي هي الجنة، ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] وهي النظر إلى وجه الله الكريم[1]، وكذلك قوله ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

اعلم أن أهل السنة والجماعة- وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان وأهل القرون المفضلة- متفقون على:

إثبات جميع ما ورد في الكتاب والسنة من صفات الله، لا فرق بين الذاتية منها كـ: «العلم» و«القدرة» و«الإرادة» و«الحياة» و«السمع» و«البصر» ونحوها، ولا بين الفعلية كـ «الرضا» و«الغضب» و«المحبة» و«الكراهية»، وكذلك لا فرق بين إثبات «الوجه» و«اليدين» ونحوها، وبين «الاستواء على العرش» والنزول إلى السماء الدنيا كل ليلة وغيرها، فكلها يثبتونها من غير نفي لشيء منها ولا تأويل ولا تحريف ولا تمثيل، وهذا هو الحق وهو الصراط المستقيم- وهو الطريق المنجي من عذاب الله- والهدى والنور.

وخالفهم في هذا الأصل طائفتان من أهل البدع:

إحداهما: «الجهمية» و«المعتزلة» على اختلاف طوائفهم، فإنهم نفوا جميع الصفات ولم يثبتوا إلا الأسماء والأحكام.

---

(١) مسلم (١٨١)، والترمذي (٢٥٥٢) من حديث صهيب رضي الله عنه.

والآيات السابقة كلها تنقض قولهم وتبطله ، وكذلك كلامهم هذا ينقض بعضه بعضًا ، فإن إثبات الأسماء والأحكام بلا أوصاف تقوم بالله محال عقلًا كما أنه باطل سمعًا .

الطائفة الثانية : « الأشعرية » ومن تبعهم ، وهم أخف حالًا وأهون من « المعتزلة » ؛ لأنهم وافقوا « أهل السنة » في شيء ، ووافقوا « المعتزلة » في شيء ؛ وافقوا « أهل السنة » في إثبات الصفات السبع ، وهي : « الحياة » و« الكلام » و« العلم » و« السمع » و« البصر » و« الإرادة » و« القدرة » ، ووافقوا « المعتزلة » في بقية الصفات .

والجميع محجوجون بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة والقرون المفضلة على الإثبات العام .

وأما النفي للصفات كلها أو التناقض ، فإنه مخالف للكتاب والسنة ومناف للعقل الصحيح ، فلا يثبت للعبد إيمان إلا بالإيمان المحض والتسليم لما جاء به الرسول بلا شرط ولا قيد ، والدوران مع النصوص الشرعية إثباتًا ونفيًا .

۞ قال الشيخ عبد العزيز بن محمد بن مانع رحمه الله :

قوله : « ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ » :

* قال شيخ الإسلام بعد كلام سبق : « وهذا شأن جميع ما وصف الله به نفسه ، لو قال في قوله : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ كيف يسمع ؟ وكيف يرى ؟ لقلنا : السمع والرؤية معلوم ، والكيف مجهول ، ولو قال : كيف كلم موسى تكليمًا ؟ لقلنا : التكليم معلوم والكيف غير معلوم » . اهـ[1] .

قوله : « ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ » :

* أي : الأخذ بالعقوبة ، وقال ابن عباس : « شديد الحول » . وقال مجاهد : « شديد القوة » .

قوله : « ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ » :

* قول بعض السلف في تفسير « المكر » : « يستدرجهم بالنعم إذا عصوه ويملي لهم ، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر » ، قال الحسن : « من وسع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأي له » . وقد جاء في الحديث : « إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب ، فإنما هو استدراج »[2] ، والله جل وعلا وصف نفسه بالمكر والكيد ، كما وصف عبده بهما ؛ لكن ليس المكر كالمكر ، ولا الكيد كالكيد ، ولله المثل الأعلى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] .

(١) « مجموع الفتاوى » (١٣/٣١٠) .

(٢) أحمد (١٤٥/١) ، والطبراني (٩١٣/٣٣٠/١٧) ، والأوسط (٩٢٧٢) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه . ويُنظر : « السلسلة الصحيحة » للألباني (حديث رقم : ٤١٣) .

قوله : « ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ » :

* قال شيخ الإسلام : « قال أهل اللغة : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أي : نظيرًا استحق مثل اسمه ، ويقال : مساميًا يساميه ، وهذا معنى ما يروى عن ابن عباس ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ : مثيلًا أو شبيهًا » . اهـ..

قوله : « ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ » :

« الاستواء » : هو العلو والارتفاع ، فهو سبحانه كما أخبر عن نفسه ، فوق مخلوقاته ، مستو على عرشه ، وقد عبر أهل السنة عن ذلك بأربع عبارات ، ومعناها واحد ، وقد ذكرها ابن القيم في « النونية » حيث قال :

فلهم عبارات عليها أربع قد حصلت للفارس الطعان
وهي استقر وقد علا وكذلك ار تفع الذي ما فيه من نكران
وكذاك قد صعد الذي هو رابع وأبو عبيدة صاحب الشيباني
يختار هذا القول في تفسيره أدرى من الجهمي بالقرآن
والأشعري يقول تفسير استوى بحقيقة استولى من البهتان

تنبيه :

وقع في بعض الكتب التي زعم مؤلفوها أنها على مذهب السلف عبارة باطلة ، وهي كما في رسالة « نجاة الخلف في اعتقاد السلف » قال : « فاللَّه تعالى كان ولا مكان ، ثم خلق المكان ، وهو على ما عليه كان قبل خلق المكان » . اهـ .

وهذا إنما يقوله من لم يؤمن باستواء الرب على عرشه من المعطلة ، والحق أن يقال : إن اللَّه تعالى كان وليس معه غيره ، ثم خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، وكان عرشه على الماء ، ثم استوى على العرش ، و« ثم » هنا للترتيب لا لمجرد العطف ، قال ابن القيم في « النونية » :

واللَّه كَانَ وليس شَيء غَيره وبَرى البريَّة وهي ذو حدثان

وقال غيره :

قضى خلقه استوى فوق عرشه ومن علمه لم يخل في الأُرض موضع

قوله : « في سبعة مواضع » :

* وقد بينها ابن عدوان في نظمه لهذه العقيدة فقال :

وذكر استواء اللَّه في كلماته على العرش في سبع مواضع فاعدد
ففي سورة الأعراف ثمت يونس وفي الرعد مع طه فللعد أكد

وفي سورة الفرقان ثمت سجدة كذا في الحديد أفهمه فهم مؤيد

قوله : « ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ » :

* قال ابن رجب في شرح حديث جبريل : « وقد ثبت في « صحيح مسلم » عن النبي ﷺ تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله تعالى في الجنة »[1] . قال : « وهذا مناسب لجعله جزاء لأهل الإحسان ؛ لأن الإحسان هو أن يعبد المؤمن ربه في الدنيا على وجه الحضور والمراقبة كأنه يراه بقلبه ، وينظر إليه في حال عبادته فكان جزاؤه ذلك النظر إلى وجه الله عيانًا في الآخرة » . اهـ .

۞ قال الشيخ محمد خليل هراس رحمه الله :

قوله : « وقد دخَل في هذه الجملةِ ما وصَف اللَّهُ به نفسَه في « سورةِ الإخلاصِ » التي تَعْدِلُ ثُلُثَ القرآنِ . حيثُ يقولُ : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ ... » :

شروع فى إيراد النصوص من الكتاب والسنة المتضمنة لما يجب الإيمان به من الأسماء والصفات فى النفى والإثبات .

وابتدأ بتلك السورة العظيمة لأنها اشتملت من ذلك على ما لم يشتمل عليه غيرها . ولهذا سميت سورة « الإخلاص » لتجريدها التوحيد من شوائب الشرك والوثنية .

روى الإمام أحمد فى « مسنده » عن أُبى بن كعب رضي الله عنه فى سبب نزولها أن المشركين قالوا : يا محمد ، انسب لنا ربك ، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص : ١ ، ٢] إلخ السورة .

وقد ثبت فى الصحيح أنها تعدل ثلث القرآن . وقد اختلف العلماء فى تأويل ذلك على أقوال ، أقربها : ما نقله شيخ الإسلام عن أبى العباس ، وحاصله أن القرآن الكريم اشتمل على ثلاثة مقاصد أساسية :

أولها : الأوامر والنواهى المتضمنة للأحكام والشرائع العملية التى هى موضوع علم الفقه والأخلاق .

ثانيها : القصص والأخبار المتضمنة لأحوال الرسل عليهم الصلاة والسلام مع أممهم ، وأنواع الهلاك التى حاقت بالمكذبين لهم ، وأحوال الوعد والوعيد وتفاصيل الثواب والعقاب .

ثالثها : علم التوحيد وما يجب على العباد من معرفة الله بأسمائه وصفاته ، وهذا هو أشرف الثلاثة .

ولما كانت سورة « الإخلاص » قد تضمنت أصول هذا العلم ، واشتملت عليه إجمالًا ، صح أن يقال : إنها تعدل ثلث القرآن[2] .

---

(١) مسلم (٢٩٧) (١٨١) من حديث صهيب رضي الله عنه .

(٢) قال الشيخ إسماعيل الأنصاري رحمه الله : نص عبارة شيخ الإسلام ابن تيمية التى ذكر المؤلف أن هذا حاصل ، قد قيل =

وأما كيف اشتملت هذه السورة على علوم التوحيد كلها وتضمنت الأصول التى هى مجامع التوحيد العلمى الاعتقادى؟ فنقول: إن قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ دلت على نفى الشريك من كل وجه فى الذات أو فى الصفات أو فى الأفعال، كما دلت على تفرده سبحانه بالعظمة والكمال والمجد والجلال والكبرياء، ولهذا لا يطلق لفظ أحد فى الإثبات إلا على اللَّه عزَّ وجلَّ، وهو أبلغ من واحد.

وقوله: (اللَّه الصمد): قد فسرها ابن عباس رضي الله عنهما بقوله: «السيد الذى كمل فى سؤدده، والشريف الذى كمل فى شرفه، والعظيم الذى قد كمل فى عظمته، والحليم الذى قد كمل فى حلمه، والغنى الذى قد كمل فى غناه، والجبار الذى قد كمل فى جبروته، والعليم الذى قد كمل فى علمه، والحكيم الذى قد كمل فى حكمه، وهو الذى قد كمل فى أنواع الشرف والسؤدد، وهو اللَّه ﷻ، هذه صفته لا تنبغى إلا له ليس له كفؤ وليس كمثله شىء»[1].

وقد فسر «الصمد» أيضًا بأنه الذى لا جوف له، وبأنه الذى تصمد إليه الخليقة كلها وتقصده فى جميع حاجاتها ومهماتها.

فإثبات الأحدية للَّه تتضمن نفى المشاركة والمماثلة، وإثبات الصمدية بكل معانيها المتقدمة تتضمن إثبات جميع تفاصيل الأسماء الحسنى والصفات العلى، وهذا هو توحيد الإثبات.

وأما النوع الثاني وهو توحيد التنزيه فيؤخذ من قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٣، ٤]، كما يؤخذ إجمالًا من قوله: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. أى: لم يتفرع عنه شىء ولم يتفرع هو عن شىء، وليس له مكافئ ولا مماثل ولا نظير.

فانظر كيف تضمنت هذه السورة توحيد الاعتقاد والمعرفة وما يجب إثباته للرب تعالى من الأحدية المنافية لمطلق المشاركة والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال الذى لا يلحقه نقص بوجه من الوجوه، ونفى الولد والوالد الذى هو من لوازم غناه وصمديته وأحديته، ثم نفى الكفء المتضمن لنفى

= فيه - أى فى توجيه كون سورة «قل هو اللَّه أحد» تعدل ثلث القرآن - وجوه أحسنها، واللَّه أعلم، الجواب منقول عن الإمام أبى العباس بن سريج عن أبى الوليد القرشى أنه سأل أبا العباس بن سريج عن معنى قول النبى ﷺ: «قل هو اللَّه أحد، تعدل ثلث القرآن»؟ فقال: معناه أنزل القرآن على ثلاثة أقسام؛ ثلث منها الأحكام، وثلث منها وعد ووعيد، وثلث منها الأسماء والصفات، وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات. أهـ.

(١) قال الشيخ إسماعيل الأنصاري رحمه الله: تمام قول ابن عباس عند ابن كثير: «سبحان اللَّه الواحد القهار»، وليس فيما ذكره ابن كثير قوله: «الغنى الذى قد كمل فى غناه والجبار قد كمل فى جبروته»، وعند ابن كثير لفظ «قد» قبل لفظ «كمل» فى جميع المواضع التى ورد فيها لفظ «كمل» فى قول ابن عباس.

التشبيه والتمثيل والنظير ، فحق لسورة تضمنت هذه المعارف كلها أن تعدل ثلث القرآن .

قوله : « وما وصف به نفسه في أعظم آية من كتابه ؛ حيث يقول : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ... ﴾ :

روى مسلم فى « صحيحه » عن أُبى بن كعب أن النبى ﷺ سأله : « أى آية فى كتاب الله أعظم ؟ » قال : الله ورسوله أعلم . فرددها مرارًا ، ثم قال أُبى : آية الكرسى . فوضع النبى ﷺ يده على كتفه وقال : « ليهنك هذا العلم يا أبا المنذر » . وفى رواية عند أحمد : « والذى نفسى بيده ، إن لها لسانًا وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش » .

فقد أخبر الله فيها عن نفسه بأنه المتوحد فى إلهيته الذى لا تنبغى العبادة بجميع أنواعها وسائر صورها إلَّا له .

ثم أردف قضية التوحيد بما يشهد لها من ذكر خصائصه وصفاته الكاملة ، فذكر أنه الحى الذى له كمال الحياء ؛ لأن حياته من لوازم ذاته فهى أزلية أبدية ، وكمال حياته يستلزم ثبوت جميع صفات الكمال الذاتية له من العزة والقدرة والعلم والحكمة والسمع والبصر والإرادة والمشيئة وغيرها ؛ إذ لا يتخلف شىء منها إلا لنقص فى الحياة . فالكمال فى الحياة يتبعه الكمال فى سائر الصفات اللازمة للحى .

ثم قرن ذلك باسمه القيوم ومعناه : الذى قام بنفسه واستغنى عن جميع خلقه غنى مطلقًا لا تشوبه شائبة حاجة أصلًا لأنه غنّى ذاتى ، وبه قامت الموجودات كلها ، فهى فقيرة إليه فقرًا ذاتيًا بحيث لا تستغنى عنه لحظة ، فهو الذى ابتدأ إيجادها على هذا النحو من الإحكام والإتقان وهو الذى يدبر أمورها ويمدها بكل ما تحتاج إليه فى بقائها ، وفى بلوغ الكمال الذى قدره لها ، فهذا الاسم متضمن لجميع صفات الكمال الفعلية ، كما أن اسمه الحى متضمن لجميع صفات الكمال الذاتية ؛ ولهذا ورد أن « الحى القيوم » هما اسم الله الأعظم الذى إذا سُئل به أعطى ، وإذا دعى به أجاب .

ثم أعقب ذلك بما يدل على كمال حياته وقيُّوميتهِ ، فقال : ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ﴾ أى لا تغلبه ﴿سِنَةٞ﴾ أى نعاس ﴿وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ ، فإن ذلك ينافى القيُّومية ، إذ النوم أخو الموت ، ولهذا كان أهل الجنة لا ينامون .

ثم أردف ذلك بما يدل على تمام ملكه ، وهو أن الشفاعة كلها له فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه .

وقد تضمن هذا النفى والاستثناء أمرين ؛ أحدهما :إثبات الشفاعة الصحيحة ، وهى أنها تقع بإذنه سبحانه لمن يرضى قوله وعمله . والثانى : إبطال الشفاعة الشركية التى كان يعتقدها المشركين لأصنامهم وهى أنها تشفع لهم بغير إذن الله ورضاه .

ثم ذكر سعة علمه وإحاطته وأنه لا يخفى عليه شىء من الأمور المستقبلة والماضية ، وأما الخلق

فإنهم لا يحيطون بشيء من علمه ، قيل : يعني من معلومه ، وقيل : من علم أسمائه وصفاته إلا بما شاء اللَّه سبحانه أن يعلمهم إياه على السنة رسله أو بغير ذلك من طريق البحث والنظر والاستنتاج والتجربة .

ثم ذكر ما يدل على عظيم ملكه وواسع سلطانه ، فأخبر أن كرسيه قد وسع السماوات والأرض جميعًا . والصحيح في الكرسي أنه غير العرش وأنه موضع القدمين ، وأنه في العرش كحلقة ملقاة في فلاةٍ .

وأما ما أورده ابن كثير عن ابن عباس من تفسير الكرسي بالعلم فإنه لا يصح[1] ويفضي إلى التكرار في الآية .

ثم أخبر سبحانه بعد ذلك عن عظيم قدرته وكمال قوته بقوله : ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ﴾ أي : السماوات والأرض وما فيهما . وفسر الشيخ رحمه الله ﴿ يَـُٔودُهُۥ ﴾ : (يثقله) ويكرثه ، وهو من آده الأمر إذا نقل عليه .

ثم وصف نفسه سبحانه في ختام تلك الآية الكريمة ، بهذين الوصفين الجليلين ، وهما (العلى والعظيم) .

فالعلى هو الذى له العلو المطلق من جميع الوجوه ؛ علو الذات : وكونه فوق جميع المخلوقات مستويًا على عرشه .

وعلو القدر : إذ كان له كل صفة كمال ، وله من تلك الصفة أعلاها وغايتها .

وعلو القهر : إذ كان هو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ، وأما العظيم : فمعناه الموصوف بالعظمة الذى لا شيء أعظم منه ، ولا أجل ولا أكبر ، وله سبحانه التعظيم الكامل في قلوب أنبيائه وملائكته وأصفيائه .

قوله : (هو الأول والآخر والظاهر ...) الجملة هنا جاءت معرفة الطرفين ، فهي تفيد اختصاصه سبحانه بهذه الأسماء الأربعة ومعانيها على ما يليق بجلاله وعظمته ، فلا يثبت لغيره من ذلك شيء .

وقد اضطربت عبارات المتكلمين في تفسير هذه الأسماء ، ولا داعى لهذه التفسيرات بعدما ورد تفسيرها عن المعصوم صلوات اللَّه وسلامه عليه ، فقد روى مسلم في « صحيحه » عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه كان يقول : إذا أوى إلى فراشه : « اللهم رب السماوات السبع ورب الأرض

(١) قال الشيخ إسماعيل الأنصاري رحمه الله :

لأنه من رواية جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وقد قال ابن منده في جعفر : هذا ليس بالقوى في سعيد بن جبير ، وقال في روايته لهذا الأثر : لم يتابع عليها ، أفاد ذلك الحافظ الذهبي من ترجمة جعفر المذكور من « الميزان » . اهـ .

رب كل شيء ، فالق الحب والنوى ، منزل التوارة والإنجيل والقرآن ، أعوذ بك من شر كل ذى شر أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنى الدين واغننى من الفقر » .

فهذا تفسير واضح جامع يدل على كمال عظمته سبحانه وأنه محيط بالأشياء من كل وجه ، (فالأول والآخر) بيان لإحاطته الزمانيةَ .

(والظاهر والباطن) بيان لإحاطته المكانية ، كما أن اسمه الظاهر يدل على أنه العالى فوق جميع خلقه ، فلا شيء منها فوقه .

فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة ، فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر ، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن ، فاسمه الأول دال على قدمه وأزليته ، واسمه الآخر دال على بقائه وأبديته ، واسمه الظاهر دال على علوه وعظمته ، واسمه الباطن دال على قربه ومعيته ، ثم ختمت الآية بما يفيد إحاطة علمه بكل شيء من الأمور الماضية والحاضرة والمستقبلة ، ومن العلوم العلوى والسفلى ، ومن الواجبات والجائزات والمستحيلات فلا يغيب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء . فالآية كلها شأن إحاطة الرب سبحانه بجميع خلقه من كل وجه ، وأن العوالم كلها فى قبضة يده كخردلة في يد العبد لا يفوته منها شيء ، وإنما أتى بين هذه الصفات بالواو مع أنها جارية على موصوف واحد لزيادة التقرير والتأكيد ؛ لأن الواو تقتضى تحقيق الوصف المتقدم وتقريره وحسن ذلك لمجيئها بين أوصاف متقابلة قد يسبق إلى الوهم استبعاد الاتصال بها جميعًا ، فإن الأولية تنافى الآخرية فى الظاهر ، وكذلك الظاهرية والباطنية ، فاندفع توهم الإنكار التأكيد .

قوله : (وتوكل على الحي الذي لا يموت ... إلخ) : هذه الجملة من الآيات ساقها المؤلف لإثبات بعض الأسماء والصفات ، فالآية الأولى فيها إثبات اسمه الحى ، كما تضمنت سلب الموت الذى هو ضد الحياة عنه ، وقد قدمنا أنه سبحانه حى بحياة هى صفة له لازمة لذاته فلا يعرض لها موت ولا زوال أصلًا ، وأن حياته أكمل حياة وأتمها فيستلزم ثبوتها له ثبوت كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة . وأما الآيات الباقية ففيها إثبات صفة العلم وما اشتق منها ككونه عليمًا ويعلم وأحاط بكل شيء علمًا إلخ . والعلم صفة لله ﷻ بها يدرك جميع المعلومات على ما هى به فلا يخفى عليه منها شيء كما قدمنا .

وفيها إثبات اسمه « الحكيم » ، وهو مأخوذ من الحكمة ، ومعناه : الذى لا يقول ولا يفعل إلا الصواب ، فلا يقع منه عبث ولا باطل ، بل كل ما يخلقه أو يأمر به فهو تابع لحكمته .

وقيل : هو من فعيل بمعنى مفعل ، ومعناه المحكم للأشياء من الإحكام وهو الإتقان ، فلا يقع فى

خلقه تفاوت ولا فطور ، ولا يقع فى تدبيره خلل أو اضطراب .

وفيها كذلك إثبات اسمه الخبير ، وهو من الخبرة بمعنى كمال العلم ووثوقه والإحاطة بالأشياء على وجه التفصيل ووصول علمه إلى كل ما خفى ودق من الحسّيات والمعنويات .

وقد ذكر سبحانه فى هذه الآيات بعض ما يتعلق به علمه للدلالة على شموله وإحاطته بما لا تبلغه علوم خلقه ، فذكر أنه يعلم ما يلج أى يدخل فى الأرض من حب وبذور ومياه وحشرات ومعادن ، وما يخرج منها من زرع وأشجار وعيون جارية ومعادن نافعة ، كذلك وما ينزل من السماء ، من ثلوج وأمطار وصواعق وملائكة ، وما يعرج ، أى : يصعد فيها كذلك من ملائكة وأعمال وطير صواف إلى غير ذلك مما يعلمه جل شأنه .

وذكر فيها أيضًا أن عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ومفاتح الغيب قيل : خزائنه . وقيل : طرقه وأسبابه التى يتوصل بها إليه ، جمع مِفْتَح بكسر الميم أو مِفْتاح بحذف ياء مفاعيل .

وقد فسرها النبى ﷺ بقوله : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا اللّه » .

ثم تلا قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان : ٣٤] .

وقد دلت الآيتان الأخيرتان على أنه سبحانه عالم بعلم هو صفة له قائم بذاته خلافًا للمعتزلة الذين نفوا صفاته ، فمنهم من قال : إنه عالم بذاته وقادر بذاته إلخ . ومنهم من فسّر أسماءه بمعانٍ سلبية ، فقال : عليم معناه لا يجهل ، وقادر معناه لا يعرج . إلخ .

وهذه الآيات حجة عليهم ، فقد أخبر فيها سبحانه عن إحاطة علمه بحمل كل أنثى ووضعها من حيث المَتَى والكيف كما أخبر عن عموم قدرته وتعلقها بكل ممكن وعن إحاطة علمه بجميع الأشياء ، وما أحسن ما قاله الإمام عبد العزيز المكى فى كتابه « الحيدة » لبشر المريسى المعتزلى وهو يناظره فى مسألة العلم : « إن اللّه ﷻ لم يمدح كتابه ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا ولا مؤمنًا تقيًا بنفى الجهل عنه ليدل على إثبات العلم له ، وإنما مدحهم بإثبات العلم ، فنفى بذلك الجهل عنهم ، فمن أثبت العلم نفى الجهل ، ومن نفى الجهل لم يثبت العلم » .

والدليل العقلى على علمه تعالى أنه يستحيل إيجاده الأشياء مع الجهل ؛ لأن إيجاده الأشياء بإرادته ، والإرادة تستلزم العلم المراد ، ولهذا قال سبحانه : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك : ١٤] .

ولأن المخلوقات فيها من الإحكام والإتقان وعجيب الصنعة ودقيق الخلقة ما يشهد بعلم الفاعل لها لامتناع صدور ذلك عن غير علم ولأن من المخلوقات من هو عالم والعلم صفة كمال ، فلو لم يكن

الله عالمًا لكان فى المخلوقات من هو أكمل منه .

وكل علم فى المخلوق إنما استفاده من خالقه ، وواهب الكمال أحق به ، وفاقد الشىء لا يعطيه .

وأنكر الفلاسفة علمه تعالى بالجزئيات وقالوا : إنه يعلم الأشياء على وجه كل ثابت . وحقيقة قولهم : إنه لا يعلم شيئًا ، فإن كل ما فى الخارج هو جزئى . كما أنكر الغلاة من القدرية علمه تعالى بأفعال العباد حتى يعملوها ، توهمًا منهم أن علمه بها يفضى إلى الجبر ، وقولهم معلوم البطلان بالضرورة فى جميع الأديان .

قوله : (إن الله هو الرزاق .. إلخ) : تضمنت إثبات اسمه الرَّزَّاق ، وهو مبالغة من الرزق ، ومعناه : الذى يرزق عباده رزقًا بعد رزق فى إكثار وسعة ، وكل ما وصل منه سبحانه من نفع إلى عباده فهو رزق ، مباحًا كان أو غير مباح ، على معنى أنه قد جعل لهم قوتًا ومعاشًا ، قال تعالى : ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ [ق : ٩، ١٠] ، وقال : ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات : ٢٢] ، إلا أن الشىء إذا كان مأذونًا فى تناوله فهو حلال حكمًا ، وإلا كان حرامًا ، وجميع ذلك رزق ، وتعريف الجملة الاسمية والإتيان فيها بضمير الفصل لإفادة اختصاصه سبحانه بإيصال الرزق إلى عباده .

ورُوى عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : اقرأنى رسول الله ﷺ : « إنى أنا الرزاق ذو القوة المتين » .

وأما قوله : ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ أى : صاحب القوة ، فهو بمعنى اسمه القوى إلا أنه أبلغ فى المعنى ، فهو يدل على أن قوته سبحانه لا تتناقص فيهن أو يفتر .

وأما ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ فهو اسم له من المتانة ، وقد فسره ابن عباس بـ : « الشديد » .

وقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ . . . إلخ : دلَّ إثبات صفتى السمع والبصر له سبحانه بعد نفى المثل عنه على أنه ليس المراد من نفى المثل نفى الصفات كما يدعى ذلك المعطلة ويحتجون به باطلًا ، بل المراد إثبات الصفات مع نفى مماثلتها لصفات المخلوقين .

قال العلَّامة ابن القيم رحمه الله : قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ إنما قصد به نفى أن يكون معه شريك أو معبود يستحق العبادة والتعظيم كما يفعله المشبهون والمشركون ، ولم يقصد به نفى صفات كماله وعلوه على خلقه وتكليمه بكتبه وتكلمه لرسله ورؤية المؤمنين له جهرة بأبصارهم كما ترى الشمس والقمر فى الصحو . أهـ .

ومعنى « السميع » : المدرك لجميع الأصوات مهما خفتت ، فهو يسمع السر والنجوى بسمع هو صفة لا يماثل أسماع خلقه .

ومعنى « البصير » : المدرك لجميع المرئيات من الأشخاص والألوان مهما لطفت أو بعدت ، فلا تؤثر على رؤيته الحواجز والأستار ، و(هو) من فعيل بمعنى مفعل ، وهو دال على ثبوت صفة البصر له

سبحانه على الوجه الذى يليق به .

روى أبو داود فى « سننه » عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ فوضع إبهامه على أذنه والتى تليه على عينيه .

ومعنى الحديث : أنه سبحانه يسمع بسمع ، ويرى بعين ، فهو حجة على بعض الأشاعرة الذين يجعلون سمعه علمه بالمسموعات ، وبصره علمه بالمبصرات ، وهو تفسير خاطئ ، فإن الأعمى يعلم بوجود السماء ولا يراها ، والأصم يعلم بوجود الأصوات ولا يسمعها .

قوله : ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ﴾ إلخ : هذه الآيات دلت على إثبات صفتى الإرادة والمشيئة ، والنصوص فى ذلك لا تحصى كثرة .

والأشاعرة يثبتون إرادة واحدة قديمة تعلقت فى الأزل بكل المرادات فيلزمهم تخلف المراد عن الإرادة ، وأما المعتزلة فعلى مذهبهم فى نفى الصفات لا يثبتون فى صفة الإرادة ، ويقولون : إنه يريد بإرادة حادثة لا فى محل ، فيلزمهم قيام الصفة بنفسها وهو من أبطل الباطل .

وأما أهل الحق فيقولون : إن الإرادة على نوعين :

١ – إرادة كونية ترادفها المشيئة ، وهما تتعلقان بكل ما يشاء اللَّه فعله وإحداثه ، فهو سبحانه إذا أراد شيئًا وشاءه كان عقب إرادته له كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس : ٨٢] .

وفى الحديث الصحيح : « ما شاء اللَّه كان ، وما لم يشأ لم يكن » .

٢ – إرادة شرعية تتعلق بما يأمر اللَّه به عباده مما يحبه ويرضاه ، وهى المذكورة فى مثل قوله تعالى : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، ولا تلازم بين الإرادتين ، بل قد تتعلق كل منهما بما لا تتعلق به الأخرى ، فبينهما عموم وخصوص من وجه . فالإرادة الكونية أعم من جهة تعلقها بما لا يحبه اللَّه ويرضاه من الكفر والمعاصى ، وأخص من جهة أنها لا تتعلق بمثل إيمان الكافر وطاعة الفاسق .

والإرادة الشرعية أعم من جهة تعلقها بكل مأمور به واقعًا كان أو غير واقع ، وأخص من جهة أن الواقع بالإرادة الكونية قد يكون غير مأمور به .

والحاصل : أن الإرادتين قد تجتمعان معًا فى مثل إيمان المؤمن وطاعة المطيع ، وتنفرد الكونية فى مثل كفر الكافر ومعصية العاصى ، وتنفرد الشرعية فى مثل إيمان الكافر وطاعة العاصى .

وقوله تعالى : ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ الآية ، هذا من قول اللَّه حكاية عن الرجل المؤمن لزميله الكافر صاحب الجنتين يعظه به أن يشكر نعمة اللَّه عليه ويردها إلى مشيئة اللَّه ويبرأ من حوله

وقوته فإنه لا قوة إلا بالله .

وقوله : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ الآية ، إخبار عما وقع بين أتباع الرسل من بعدهم من التنازع والتعادى بغيًا بينهم وحسدًا ، وأن ذلك إنما كان بمشيئة الله ﷻ ، ولو شاء عدم حصوله ما حصل ولكنه شاءه فوقع .

وقوله : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ إلخ : تدل على أن كلًّا من الهداية والضلال بخلق الله ﷻ ، فمن يرد هدايته ، أى إلهامه وتوفيقه يشرح صدره للإسلام بأن يقذف فى قلبه نورًا فيتسع له وينبسط كما ورد فى الحديث – ومن يرد إضلاله وخِذلانه يجعل صدره فى غايةِ الضِّيق والحرج ، فلا ينفذ إليه نور الإيمان . وشبه ذلك بمن يَصَّعَدُ فى السماء .

قوله : ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة : ١٩٥] ، ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات : ٩] :

تضمنت هذه الآيات إثبات أفعال له تعالى ناشئة عن صفة المحبة ومحبة الله ﷻ لبعض الأشخاص والأعمال والأخلاق صفة له قائمة به ، هى من صفات الفعل الاختيارية التى تتعلق بمشيئته . فهو يحب بعض الأشياء دون بعض على ما تقتضيه الحكمة البالغة ، وينفى الأشاعرة والمعتزلة صفة المحبة بدعوى أنها توهم نقصًا ، إذ المحبة فى المخلوق معناها ميله إلى ما يناسبه أو يستلذه ، فأما الأشاعرة فيرجعونها إلى صفة الإرادة ، فيقولون : إن محبة الله لعبده لا معنى لها إلا إرادته لإكرامه ومثوبته .

وكذلك يقولون فى صفات الرضى والغضب والكراهية والسخط كلها عندهم بمعنى إرادة الثواب والعقاب .

وأما المعتزلة فلأنهم لا يثبتون إرادة قائمة به ، فيفسرون المحبة بأنها نفس الثواب الواجب عندهم على الله لهؤلاء بناءً على مذهبهم فى وجوب إثابة المطيع وعقاب العاصى .

وأما أهل الحق فيثبتون المحبة صفة حقيقية لله ﷻ على ما يليق به فلا تقتضى عندهم نقصًا ولا تشبيهًا . كما يثبتون لازم تلك المحبة وهى إرادته سبحانه إكرام من يحبه وإثابته ، وليت شعرى ، بماذا يجيب النافون للمحبة عن مثل قوله عليه السلام فى حديث أبى هريرة : « إن الله ﷻ إذا أحب عبدًا قال لجبريل عليه السلام : إنى أحب فلانًا فأحبه . قال : فيقول جبريل عليه السلام لأهل السماء : إن ربكم ﷻ يحب فلانًا فأحبوه . قال : فيحبه أهل السماء ويوضع له القبول فى الأرض ، وإذا أبغضه فمثل ذلك » . رواه الشيخان .

وقوله تعالى فى الآية الأولى : ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟﴾ أمرٌ بالإحسان العام فى كل شىء ، لا سيما فى أمور الفقه المأمور بها قبل ذلك ، والإحسان فيها يكون بالبذل وعدم الإمساك ، أو بالتوسط بين التقتير والتبذير ،

وهو القوام الذى أمر اللّه به فى سورة « الفرقان » .

روى مسلم فى « صحيحه » عن شداد بن أوس أن رسول اللّه ﷺ قال : « إن اللّه كتب الإحسان على كل شىء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته » . وأما قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فهو تعليل للأمر بالإحسان ؛ فإنهم إذا علموا أن الإحسان موجب لمحبته سارعوا إلى امتثال الأمر به .

وأما قوله فى الآية الثانية : ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟﴾ فهو أمر بالإقساط ، وهو العدل فى الحكم بين الطائفتين المتنازعتين من المؤمنين ، وهو من قسط إذ جار ، فالهمزة فيه للسلب ، ومن أسمائه تعالى « المقسط » ، وفى الآية الحث على العدل وفضله ، وأنه سبب لمحبة اللّه ﷻ .

وأما قوله تعالى : ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ . فمعناه : إذا كان بينكم وبين أحد عهد كهؤلاء الذين عاهدتموهم عند المسجد الحرام فاستقيموا لهم على عهدهم مدةَ استقامتهم لكم . فـ « ما » هنا مصدرية ظرفية ، ثم علل ذلك الأمر بقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ . أى : يحب الذين يتقون اللّه فى كل شىء ، ومنه عدم نقض العهود .

وأما قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ إلخ : فهو إخبار من اللّه سبحانه عن محبته لهذين الصِّنفين من عباده .

أما الأول : فهم التوابون : أى الذين يكثرون التوبة والرجوع إلى اللّه ﷻ بالاستغفار مما ألموا به على ما تقتضيه صيغة المبالغة ، فهم بكثرة التوبة قد تطهروا من الأقذار والنجاسات المعنوية التى هى الذنوب والمعاصى .

وأما الثانى : فهم المتطهرون الذين يبالغون فى التطهر ، وهو التنظيف بالوضوء أو بالغسل من الأحداث والنجاسات الحسية .

وقيل : المراد بالمتطهرين هنا الذين يتنزهون عن إتيان النساء فى زمن الحيض أو فى أدبارهن ، والحمل على العموم أَوْلى .

وأما قوله تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ . فقد رُوى عن الحسن فى سبب نزولها ؛ أن قومًا ادعوا أنهم يحبون اللّه ، فأنزل اللّه هذه الآية محنة لهم ، وفى هذه الآية قد شرط اللّه لمحبته اتباع نبيه ﷺ ، فلا ينال تلك المحبة إلا من أحسن الاتباع ، والاستمساك بهَديه عليه السلام .

قوله : ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ إلخ : تضمنت الآية إثبات اسمين من الأسماء الحسنى ، وهما « الغفور الودود » ، أما الأول فهو مبالغة الغفر ، ومعناه : الذى يكثر منه الستر على المذنبين من عباده والتجاوز عن مؤاخذتهم .

وأصل الغفر الستر ، ومنه يقال : الصبغ أغفر للوسخ . ومنه المغفر لسترة الرأس .

وأما الثانى فهو من الود الذى هو خالص الحب وألطفه ، وهو إما من فعول بمعنى فاعل ، فيكون معناه : الكثير الود لأهل طاعته والمتقرب إليهم بنصرته ومعونته .

وأما من فعول بمعنى مفعول فيكون معناه : المودود لكثرة إحسانه المستحق لأن يوده خلقه فيعبدوه ويحمدوه .

وأما قوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ وما بعدها من الآيات فقد تضمنت إثبات أسمائه الرحمن والرحيم وإثبات صفتى الرحمة والعلم .

وقد تقدم فى تفسير ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ الكلام على هذين الاسمين وبيان الفرق بينهما ، وأن أولهما دال على صفة الذات ، والثانى دال على صفة الفعل ، وقد أنكر الأشاعرة والمعتزلة صفة الرحمة بدعوى أنها فى المخلوق ضعف وخور وتألم للمرحوم ، وهذا من أقبح الجهل فإن الرحمة إنما تكون من الأقوياء للضعفاء ، فلا تستلزم ضعفًا ولا خورًا بل قد تكون مع غاية العزة والقدرة ، فالإنسان القوى يرحم ولده الصغير وأبويه الكبيرين ومن هو أضعف منه ، وأين الضعف والخور وهما من أذم الصفات من الرحمة التى وصف الله نفسه بها وأثنى على أوليائه المتصفين بها وأمرهم أن يتواصوا بها .

وقوله : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ﴾ إلخ : من كلام الله ﷻ حكاية عن حملة العرش والذين حوله ، يتوسلون إلى الله ﷻ بربوبيته وسعة علمه ورحمته فى دعائهم للمؤمنين ، وهو من أحسن التوسلات التى يرجى معها الإجابة .

وانْصَبُ قوله : ﴿رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ على التمييز المحول من الفاعل ، والتقدير : وسعت رحمتك وعلمك كل شيء . فرحمته سبحانه وسعت فى الدنيا المؤمن والكافر والبر والفاجر ، ولكنها يوم القيامة تكون خاصة بالمتقين كما قال تعالى : ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾أى : أوجبها على نفسه تفضلًا وإحسانًا ولم يوجبها عليه أحد .

وفى حديث أبى هريرة فى « الصحيحين » : « إن الله لمَّا خلق الخلق ، كتب كتابًا فهو عنده فوق العرش ؛ إن رحمتى سبقت – أو تسبق – غضبي » .

وأما قوله : ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ . فالحافظ والحفيظ مأخوذ من الحفظ وهو الصيانة ، ومعناه الذى يحفظ عباده بالحفظ العام فييسر لهم أقواتهم ويقيهم أسباب الهلاك والعطب ، وكذلك يحفظ عليهم أعمالهم ويحصى أقوالهم ويحفظ أولياءه بالحفظ الخاص فيعصمهم عن مواقَعةِ الذنوب

ويحرسهم من مكايد الشيطان وعن كل ما يضرهم فى دينهم ودنياهم ، وانتصب « حافظًا » تمييزًا « لخير » الذى هو أفعل تفضيل .

قوله : ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ إلخ : تضمنت هذه الآيات إثبات بعض صفات الفعل من الرضى لله الغضب ، واللعن والكره ، والسخط والمقت والأسف .

وهى عند أهل الحق صفات حقيقة لله ﷻ على ما يليق به ولا تشبه ما يتصف به المخلوق من ذلك ، ولا يلزم منها ما يلزم فى المخلوق ، فلا حجة للأشاعرة والمعتزلة على نفيها ولكنهم ظنوا أن اتصاف الله ﷻ بها يلزمه أن تكون هذه الصفات فيه على نحو ما هى فى المخلوق ، وهذا الظن الذى ظنوه فى ربهم أرداهم فأوقعهم فى حمأة النفى والتعطيل ، والأشاعرة يرجعون هذه الصفات كلها إلى الإرادة كما علمت سابقًا ، فالرضا عندهم إرادة الثواب والغضب والسخط إلخ إرادة العقاب .

وأما المعتزلة فيرجعونها إلى نفس الثواب والعقاب .

وقوله سبحانه : ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ . إخبار عما يكون بينه وبين أوليائه من تبادل الرضا والمحبة ، أما رضاه عنهم فهو أعظم وأجل من كل ما أعطوا من النعيم كما قال سبحانه : ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ، وأما رضاهم عنه فهو رضا كل منهم بمنزلته مهما كانت وسروره بها حتى يظن أنه لم يؤت أحد خيرًا مما أوتى ، وذلك فى الجنة .

وأما قوله : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ الآية ، فقد احترز بقوله مؤمنًا عن قتل الكافر ، وبقوله معتمدًا ، أى : قاصدًا لذلك (بأن يقصد من يعلمه آدميًا معصومًا فيقتله بما يغلب على الظن موته به) عن القتل الخطأ .

وقوله : ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ أى : مقيمًا على جهة التأبيد ، وقيل : الخلود المكث الطويل واللعن : هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله ، واللعين والملعون من حقت عليه اللعنة أو دعى عليه بها .

وقد استشكل العلماء هذه الآيات من حيث أنها تدل على أن القاتل عمدًا لا توبة له وأنه مخلد فى النار ، وهذا معارض لقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ .

وقد أجابوا عن ذلك بعدة أجوبة منها :

١- أن الجزاء لمن كان مستحلًّا لقتل المؤمن عمدًا .

٢- أن هذا جزاؤه الذى يستحقه لو جوزى مع إمكان ألا يجازى بأن يتوب أو يعمل صالحًا يرجح بعمله السيئ .

٣- أن الآية واردة مورد التغليظ والزجر .

٤- أن المراد بالخلود المكث الطويل كما قدمنا .

وقد ذهب ابن عباس وجماعة إلى أن القاتل عمدًا لا توبة له حتى قال ابن عباس : إن هذه الآية من آخر ما نزل ولم ينسخها شيء ، والصحيح أن على القاتل حقوقًا ثلاثة : حقًّا للَّه وحقًّا للورثة وحقًّا للقتيل ، فحق اللَّه يسقط بالتوبة ، وحق الورثة يسقط بالاستيفاء في الدنيا أو العفو ، وأما حق القتيل فلا يسقط حتى يجتمع بقاتله يوم القيامة ، ويأتي ورأسه في يده ويقول : يا رب ، سل هذا فيم قتلني ؟

وأما قوله : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ إلخ : فالأسف يستعمل بمعنى شدة الحزن وبمعنى شدة الغضب والسخط وهو المراد في الآية والانتقام والمجازاة بالعقوبة مأخوذًا من النقمة وهي شدة الكراهة والسخط .

قوله : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ ... إلخ : في هذه الآيات إثبات صفتين من صفات الفعل له سبحانه وهما صفتا الإتيان والمجيء ، والذي عليه أهل السنة والجماعة الإيمان بذلك على حقيقته والابتعاد عن التأويل الذي هو في الحقيقة إلحاد وتعطيل .

ولعل من المناسب أن ننقل إلى القارئ هنا ما كتبه حامل لواء التجهم والتعطيل في هذا العصر وهو المدعو بزاهد الكوثري قال في حاشيته على كتاب « الأسماء والصفات » للبيهقي ما نصه : (قال الزمخشري ما معناه : إن اللَّه يأتي بعذاب في الغمام الذي ينتظر منه الرحمة ، فيكون مجيء العذاب من حيث تنتظر الرحمة أفظع وأهول) . وقال إمام الحرمين في معنى الباء كما سبق ، وقال الفخر الرازي : أن يأتيهم أمر اللَّه . أهـ .

فأنت ترى من نقل هذا الرجل عن أسلافه في التعطيل مدى اضطرابهم في التخريج والتأويل .

على أن الآيات صريحة في بابها لا تقبل شيئًا من تلك التأويلات ، فالآية الأولى تتوعد هؤلاء المصرين على كفرهم وعنادهم واتباعهم الشيطان بأنهم ما ينتظرون إلا أن يأتيهم اللَّه ﷻ في ظلل الغمام لفصل القضاء بينهم ، وذلك يوم القيامة ، ولهذا قال بعد ذلك : ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ .

والآية الثانية أشد صراحة إذ لا يمكن تأويل الإتيان فيها بأنه إتيان الأمر أو العذاب ؛ لأنه ردد فيها بين إتيان الملائكة وإتيان الرب وإتيان بعض آيات الرب سبحانه[1] .

وقوله في الآية التي بعدها : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، لا يمكن حملها على مجيء العذاب ؛ لأن المراد مجيئه سبحانه يوم القيامة لفصل القضاء ، والملائكة صفوف إجلالًا

(١) قال الشيخ إسماعيل الأنصاري رحمه الله :

قال ابن القيم في « الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة » : فرق بين إتيان الملائكة وإتيان الرب وإتيان بعض آيات الرب ، فقسم ونوع ، ومع هذا التقسيم يمتنع أن القسمان واحدًا ، فتأمله ، قال : ولهذا منع عقلاء الفلاسفة حمل مثل هذا اللفظ على مجازه ، وقالوا : هذا يأباه التقسيم والترديد والاطراد . أهـ . المراد من كلام ابن القيم .

وتعظيمًا له ، وعند مجيئه تنشق السماء بالغمام كما أفادته الآية الأخيرة ، وهو سبحانه يجيء وينزل ويأتي ويدنو وهو فوق عرشه بائن من خلقه ، فهذه كلها أفعال له سبحانه على الحقيقة ، ودعوى المجاز تعطيل له عن فعله واعتقاد أن ذلك المجيء والإتيان من جنس مجيء المخلوقين وإتيانهم نزوع إلى التشبيه يفضى إلى الإنكار والتعطيل .

قوله : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ إلخ : تضمنت هاتان الآيتان إثبات صفة الوجه للّه ﷻ .

والنصوص فى إثبات الوجه من الكتاب والسنة لا تحصى كثرة وكلها تنفى تأويل المعطلة الذين يفسرون الوجه بالجهة أو الثواب أو الذات ، والذى عليه أهل الحق أن الوجه صفة غير الذات ولا يقتضى إثبات كونها تعالى مركبًا من أعضاء كما يقوله المجسمة ، بل هو صفة للّه على ما يليق به فلا يشبه وجهًا ولا يشبهه وجه .

واستدل المعطلة بهاتين الآيتين على أن المراد بالوجه الذات إذ لا خصوص للوجه فى البقاء وعدم الهلاك .

ونحن نعارض هذا الاستدلال بأنه لو لم يكن للّه ﷻ وجه على الحقيقة لما جاز استعمال هذا اللفظ فى معنى الذات ، فإن اللفظ الموضوع لمعنى لا يمكن أن يستعمل فى معنى آخر إلا إذا كان المعنى الأصلى ثابتًا للموصوف حتى يمكن للذهن أن ينتقل من الملزوم إلى لازمه ، على أنه يمكن دفع مجازهم بطريق آخر فيقال : إنه أسند البقاء إلى الوجه . ويلزم منه بقاء الذات بدلًا من أن يقال : أطلق الوجه وأراد الذات . وقد ذكر البيهقى نقلًا عن الخطابى أنه تعالى لما أضاف الوجه إلى الذات أضاف النعت إلى الوجه ، فقال : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ، دل على أن ذكر الوجه ليس بصلة ، وأن قوله : ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ صفة للوجه والوجه صفة للذات .

وكيف يمكن تأويل الوجه بالذات أو بغيرها فى مثل قوله عليه السلام فى حديث الطائف : « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات » إلخ ؟ وقوله فيما رواه أبو موسى الأشعرى : « حجابة النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلفه » ؟

قوله : ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ .... إلخ : تضمنت هاتان الآيتان إثبات اليدين صفة حقيقة له سبحانه على ما يليق به ، فهو فى الآية الأولى يوبِّخ إبليس على امتناعه عن السجود لآدم الذى خلقه بيديه ، ولا يمكن حمل اليدين هنا على القدرة ، فإن الأشياء جميعًا حتى إبليس خلقها اللّه بقدرته فلا يبقى لآدم خصوصية يتميز بها .

وفى حديث عبد اللّه بن عمرو : « إن اللّه ﷻ خلق ثلاثة أشياء بيده : خلق آدم بيده وكتب التوراة بيده ، وغرس جنة عدن بيده » فتخصيص هذه الثلاثة بالذكر مع مشاركتها لبقية المخلوقات فى

وقوعها بالقدرة دال على اختصاصها بأمر زائد .

وأيضًا فلفظ اليدين بالتثنية لم يعرف استعماله إلا فى اليد الحقيقية ولم يرد قط بمعنى القدرة أو النعمة فإنه لا يسوغ أن يقال : خلقه اللّه بقدرتين أو بنعمتين . على أنه لا يجوز إطلاق اليدين بمعنى النعمة أو القدرة أو غيرهما إلا فى حق من اتصف باليدين على الحقيقة ، ولذلك لا يقال : للريح يد ولا للماء يد .

وأما احتجاج المعطلة بأن اليد قد أفردت فى بعض الآيات وجاءت بلفظ الجمع فى بعضها فلا دليل فيه ؛ فإن ما يصنع بالاثنين قد ينسب إلى الواحد ، تقول : رأيت بعينى وسمعت بأذنى . والمراد : عيناى وأذناى . وكذلك الجمع يأتى بمعنى المثنى أحيانًا كقوله تعالى : ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ . والمراد قلباكما .

وكيف يتأتى حمل اليد على القدرة أو النعمة مع ما ورد من إثبات الكف والأصابع واليمين والشمال والقبض والبسط وغير ذلك مما لا يكون إلا لليد الحقيقية ؟

وفى الآية الثانية يحكى اللّه سبحانه مقالة اليهود قبحهم اللّه فى ربهم ووصفهم إياه حاشاه بأن يده مغلولة أى ممسكة عن الإنفاق .

ثم أثبت لنفسه سبحانه عكس ما قالوا ، وهو أن يديه مبسوطتان بالعطاء ينفق كيف يشاء ، كما جاء فى الحديث أن يمين اللّه ملأى سَحَّاء الليل والنهار لا تغيضها نفقة ، تُرى لو لم يكن للّه يدان على الحقيقة هل كان يحسن هذا التعبير ببسط اليدين ؟ !

ألا شاهت وجوه المتأولين .

قوله : ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ ... إلخ : فى هذه الآيات الثلاث يثبت اللّه سبحانه لنفسه عينًا يرى بها جميع المرئيات ، وهى صفة حقيقية للّه ﷻ على ما يليق به فلا يقتضى إثباتها كونها جارحة مركبة من شحم وعصب وغيرهما .

وتفسير المعطلة لها بالرؤية أو بالحفظ والرعاية نفى وتعطيل .

وأما إفرادها فى بعض النصوص وجمعها فى البعض الآخر فلا حجة لهم فيه على نفيها ، فإن لغة العرب تتسع لذلك ، فقد يعبر فيها عن الاثنين بلفظ الجمع ، ويقوم فيها الواحد مقام الاثنين كما قدمنا فى اليدين .

على أنه لا يمكن استعمال لفظ العين فى شىء من هذه المعانى التى ذكروها إلا بالنسبة لمن له عين حقيقية فهل يريد هؤلاء المعطلة أن يقولوا : إن اللّه يتمدح بما ليس فيه فيثبت لنفسه عينًا وهو عاطل عنها ؟ وهل يريدون أن يقولوا : إن رؤيته للأشياء لا تقع بصفة خاصة بها بل هو يراها بذاته كلها ، كما

تقول المعتزلة : إنه قادر بذاته مريد بذاته إلخ ؟ وفى الآية الأولى يأمر اللّه نبيه ﷺ بالصبر لحكمه والاحتمال لما يلقاه من أذى قومه ، ويعلل ذلك الأمر بأنه بمرأى منه وفى كلائته وحفظِه .

وفى الآية الثانية : يخبر اللّه ﷻ عن نبيه نوح عليه السلام أنه لما كذبه قومه وحقت عليهم كلمة العذاب وأخذهم اللّه بالطوفان حمله هو ومن معه من المؤمنين على سفينة ذات ألواح عظيمة من الخشب ودُسر ، أى مسامير (جمع دِسار) تشد بها الألواح ، وأنها كانت تجرى بعين اللّه وحراسته .

وفى الآية الثالثة : خطاب من اللّه لنبيه موسى عليه السلام بأنه ألقى عليه محبة منه ، يعنى أحبه هو سبحانه وحببه إلى خلقه ، وأنه صنعه على عينه ورباه تربية استعد بها للقيام بما حمله من رسالة إلى فرعون وقومه .

قوله : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ .. إلخ : هذه الآيات ساقها المؤلف لإثبات صفات السمع والبصر والرؤية .

أما السمع : فقد عبرت عنه الآيات بكل صيغ الاشتقاق وهى سمع ويسمع وسميع ونسمع وأسمع ، فهو صفة حقيقية للّه يدرك بها الأصوات كما قدمنا .

وأما البصر : فهو الصفة التى يدرك بها الأشخاص والألوان والرؤية لازمة له ، وقد جاء فى حديث أبى موسى : « يا أيها الناس ، أَربعوا على أنفسكم ، إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا ، ولكن تدعون سميعًا بصيرًا ، إن الذى تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » .

وكل من السمع والبصر صفة كمال ، وقد عاب اللّه على المشركين عبادتهم ما لا يسمع ولا يبصر ، وقد نزلت الآية الأولى فى شأن خولة بنت ثعلبة حين ظاهر منها زوجها فجاءت تشكو إلى رسول اللّه ﷺ وتحاروه وهو يقول لها : « ما أراكِ إلا قد حَرُمتِ عليه » .

أخرج البخارى فى « صحيحه » عن عروة ، عن عائشة ﵂ قالت : « الحمد للّه الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول اللّه ﷺ وأنا فى ناحية من البيت ما أسمع ما تقول ، فأنزل اللّه ﷻ : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة : ١] الآيات » .

وأما الآية الثانية : فقد نزلت فى فِنحاص اليهودى الخبيث حين قال لأبى بكر رضى اللّه عنه لما دعاه إلى الإسلام : واللّه يا أبا بكر ما بنا إلى اللّه من حاجة من فقر وأنه إلينا لفقير ولو كان غنيًا ما استقرضنا .

وأما الآية الثالثة : فـ : ﴿أَمْ﴾ بمعنى بل والهمزة ؛ فهى أَم المنقطعة ، والاستفهام إنكارى يتضمن معنى التوبيخ ، والمعنى : بل أيظن هؤلاء فى تخفيهم واستتارهم أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ، بلى نسمع ذلك وحفظتنا لديهم يكتبون ما يقولون وما يفعلون .

وأما الآية الرابعة : فهى خطاب من اللّه ﷻ لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام حين

شكوا إلى الله خوفهما من بطش فرعون بهما، فقال لهما: ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

وأما الآية الخامسة: فقد نزلت فى شأن أبى جهل - لعنه الله - حين نهى النبى ﷺ عن الصلاة عند البيت، فنزل قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ إلخ السورة [العلق: ٩- ١٤].

وقوله: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ إلخ: تضمنت هذه الآيات إثبات صفتى المكر والكيد[1]، وهما من صفات الفعل الاختيارية، ولكن لا ينبغى أن يشتق له من هاتين الصفتين اسم، فيقال: ماكر وكائد. بل يوقف عند ما ورد به النص من أنه خير الماكرين، وأنه يكيد لأعدائه الكافرين.

وأما قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾، فمعناه: شديد الأخذ بالعقوبة كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]، ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وقال ابن عباس: معناه شديد الحول، وقال مجاهد: شديد القوة، والأقوال متقاربة.

وأما قوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤] فمعناه أنفذهم وأسرعهم مكرًا.

وقد فسر بعض السلف مكر الله بعباده بأنه استدرجهم بالنعم من حيث لا يعلمون، فكلما أحدثوا ذنبًا أحدث لهم نعمة، وفى الحديث: «إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا ما يحب وهو مقيم على معصيته، فاعلم أنما ذلك منه استدراج».

وقد نزلت هذه الآية فى شأن عيسى عليه السلام حين أراد اليهود قتله فدخل بيتًا فيه كُوَّة، وقد أيده الله بجبريل عليه السلام، فرفعه إلى السماء من الكوة، فدخل عليه يهوذا ليدلهم عليه فيقتلوه، فألقى الله شبه عيسى على ذلك الخائن، فلما دخل البيت فلم يجد فيه عيسى خرج إليهم وهو يقول: ما فى البيت أحد، فقتلوه وهم يرون أنه عيسى، فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا﴾ إلخ: فهى فى شأن الرهط التسعة من قوم صالح عليه السلام حين تقاسموا بالله ليبيتنه وأهله، أى: ليقتلنه بياتًا وأهله ثم ليقولن لوليه: ما شهدنا مهلك أهله، فكان

---

(١) قال الشيخ إسماعيل الأنصاري رحمه الله:

قرر ابن القيم فى «الصواعق» أن الله تعالى لم يصف نفسه بالمكر والكيد والاستهزاء والخداع مطلقًا بل على وجه الجزاء لمن فعل ذلك وهو حسن وإن أفعال هذه الألفاظ لا يجوز إطلاقها على الله تعالى ولا يشتق له منها أسماء لأنها تمدح فى موضع وتذم فى موضع أتى ابن القيم فى ذلك بما لا يستغنى عنه لولا «الإطالة ومن كلامه ذلك يتبين مراد شيخ الإسلام بإيراد قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، وقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ فى هذا الكتاب.

عاقبة هذا المكر منهم أن مكر اللَّه بهم فدمرهم وقومهم أجمعين .

قوله : ﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا﴾ ... هذه الآيات تضمنت إثبات صفات العفو والقدرة والمغفرة والرحمة والعزة والتبارُك والجلال والإكرام .

فالعفو الذى هو اسمه تعالى معناه المتجاوز عن عقوبة عباده إذا هم تابوا إليه وأنابوا كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى : ٢٥] .

ولما كان أكمل العفو ما كان عن قدرة تامة على الانتقام والمؤاخذة جاء هذان الاسمان الكريمان العفو والقدير ، مقترنين فى هذه الآية وفى غيرها .

وأما القدرة فهى الصفة التى تتعلق بالممكنات إيجادًا وإعدامًا ، فكل ما كان ووقع من الكائنات واقع بمشيئته وقدرته كما في الحديث : « ما شاء اللَّه كان وما لم يشأ لم يكن » .

وأما قوله تعالى : ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْ..﴾ الآية ، فقد نزلت فى شأن أبى بكر رضي الله عنه حين حلف لا ينفق على مِسطح بن أثاثة ، وكان ممن خاضوا فى الإفك ، وكانت أم مسطح بنت خالة أبى بكر ، فلما نزلت هذه الآية قال أبو بكر : واللَّه إنى لأحب أن يغفر اللَّهُ لى . ووصَل مِسطحًا .

وأما قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون : ٨] ، فقد نزلت فى شأن عبد اللَّه بن أُبى ابن سلول رئيس المنافقين ، وكان فى بعض الغزوات قد أقسم ليخرجن رسول اللَّه ﷺ هو وأصحابه من المدينة ، فنزل قوله تعالى : ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ [المنافقون : ٨] ، يقصد بالأعز – قبحه اللَّه – نفسه وأصحابه ، ويقصد بالأذل رسول اللَّه ومن معه من المؤمنين ، فرد اللَّه ﷻ عليه بقوله : ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [المنافقون : ٨] .

والعزة صفة أثبتها اللَّه ﷻ لنفسه ، قال تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ ، وقال : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ ، وأقسم بها سبحانه كما فى حديث الشفاعة : « وعزتى وكبريائى وعظمتى لأخرجن منها من قال : لا إله إلا اللَّه » .

وأخبر عن إبليس أنه قال : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [ص : ٨٢، ٨٣] .

وفى « صحيح البخاري » وغيره عن أبى هريرة : « بينا أيوب عليه السلام يغتسل عريانًا خرَّ عليه جرادًا من ذهب ، فجعل يحثى فى ثوبه ، فناده ربه : يا أيوب ، ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى وعزتك ، ولكن لا غنى لى عن بركتك » .

وقد جاء فى حديث الدعاء الذى علمه النبى ﷺ لما كان به وجع : « أعوذ بعزة اللَّه وقدرته من شر

ما أجد وأحاذر » .

والعزة تأتى بمعنى الغَلَبة والقهر من عَزَّ يَعُزُّ - بضم العين فى المضارع - يقال : عزه إذا غلبه ، وتأتى بمعنى القوة والصلابة من عَزَّ يَعَزُّ بفتحها ، ومنه : أرض عزاز للصلبة الشديدة ، وتأتى بمعنى علو القدر والامتناع من الأعداء من عَزَّ يَعِزُّ بكسرها ، وهذه المعانى كلها ثابتة للَّه ﷻ .

وأما قوله : ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ فإنه من البركة بمعنى دوام الخير وكثرته ، وقوله : ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾ أى صاحب الجلال والعظمة سبحانه الذى لا شىء أجل ولا أعظم منه ، ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ الذى يكرم عما لا يليق به ، وقيل : الذى يكرم عباده الصالحين بأنواع الكرامة فى الدنيا والآخرة . واللَّه أعلم .

قوله : ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ ... إلخ : تضمنت هذه الآيات الكريمة جملة من صفات القلوب وهى نفى السمى والكفؤ والنَّديد والولد والشريك والولى من ذل وحاجة . كما تضمنت بعض صفات الإثبات من الملك والحمد والقدرة والكبرياء والتبارك .

وأما قوله تعالى : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] ، فقد قال شيخ الإسلام رحمه اللَّهُ : « قال أهل اللغة : هل تعلم له سميًا . أى : نظيرًا استحق مثل اسمه ، ويقال مساميًا يساميه ، وهذا معنى ما يروى عن ابن عباس : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ : مثلًا ، أو شبيهًا » .

والاستفهام فى الآية إنكارى معناه النفى ، أى : لا تعلم له سميًا .

وأما قوله : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ فالمراد بالكفؤ : المكافئ المساوى ؛ فهذه الآية تنفى عنه سبحانه النظير والشبيه من كل وجه ؛ لأن « أحدًا » وقع نكرة فى سياق النفى فيعم ، وقد تقدم الكلام على تفسير سورة « الإخلاص » كلها فليرجع إليها .

وأما قوله : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ إلخ : فالأنداد جمع ند ، ومعناه كما قيل : النظير المناوئ ، ويقال : ليس للَّهِ نِدّ ولا ضِدّ ، والمراد نفى ما يكافئه ويناوئه ، ونفى ما يضاده وينافيه .

وجملة : ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وقعت حالًا من الواو فى ﴿تَجْعَلُوا۟﴾ ، المعنى : إذا كنتم تعلمون أن اللَّه هو وحده الذى خلقكم ورزقكم وأن هذه الآلهة التى جعلتموها له نظراء وأمثال وساويتموها به فى استحقاق العبادة لا تخلق شيئًا بل هى مخلوقة ولا تملك لكم ضرًا ولا نفعًا فاتركوا عبادتها وأفردوه سبحانه بالعبادة والتعظيم .

وأما قوله : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ﴾ إلخ : فهو إخبار من اللَّه عن المشركين بأنهم يحبون آلهتهم كحبهم للَّه ﷻ ، يعنى يجعلونها مساوية له فى الحب ، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة : ١٦٥] من حب المشركين لآلهتهم ؛ لأنهم أخلصوا له الحب وأفردوه به ، أما حب المشركين لآلهتهم فهو

موزع بينها ، ولا شك أن الحب إذا كان لجهة واحدة كان أمكن وأقوى . وقيل : المعنى أنهم يحبون آلهتهم كحب المؤمنين للَّه ، والذين آمنوا أشد حبًا للَّه من الكفار لأندادهم .

وأما قوله تعالى : ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ الآية ، فقد تقدم الكلام فى معنى الحمد ، وأنه الثناء باللسان على النعمة وغيرها ، وقلنا : إن إثبات الحمد له سبحانه متضمن لإثبات جميع الكمالات التى لا يستحق الحمد المطلق إلا من بلغ غايتها .

ثم نفى سبحانه عن نفسه ما ينافى كمال الحمد من الولد والشريك والولى من الذل ، أى : من فقر وحاجة ، فهو سبحانه لا يوالى أحدًا من خلقه من أجل ذلة وحاجة إليه ، ثم أمر عبده ورسوله أن يكبره تكبيرًا ، أى : يعظمه تعظيمًا وينزهه عن كل صفة نقص وصفه بها أعداؤه من المشركين .

وأما قوله : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ إلخ : فالتسبيح هو التنزيه والإبعاد عن السوء كما تقدم .

ولا شك أن جميع الأشياء فى السماوات وفى الأرض تسبح بحمد ربها وتشهد له بكمال العلم والقدرة والعزة والحكمة والتدبير والرحمة ، قال تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

وقد اختلف فى تسبيح الجمادات التى لا تنطق هل هو بلسان الحال أو بلسان المقال ، وعندى أن الثانى أرجح ؛ بدليل قوله تعالى : ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ ؛ إذ لو كان المراد تسبيحها بلسان الحال لكان ذلك معلومًا فلا يصح الاستدراك ، وقد قال تعالى خبرًا عن داود عليه السلام : ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص : ١٨] .

وأما قوله تعالى : ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى﴾ إلخ : فقد قلنا : إن معنى تبارك من البركة وهى دوام الخير وكثرته ، ولكن لا يلزم من تلك الزيادة سبق النقص ، فإن المراد تجدد الكمالات الاختيارية التابعة لمشيئته وقدرته ، فإنها تتجدد فى ذاته على وفق حكمته ، فالخلو عنها قبل اقتضاء الحكمة لها لا يعتبر نقصًا .

وقد فسَّر بعضهم التبارك بالثبات وعدم التغير ، ومنه سميت البركة لثبوت مائها وهو بعيد ، والمراد بالفرقان : القرآن ، سمى بذلك لقوة تفرقته بين الحق والباطل والهدى والضلال ، والتعبير بـ « نَزَّلَ » بالتشديد لإفادة التدرج فى النزول ، وأنه لم ينزل جملة واحدة ، والمراد بـ « عبده » : محمد ﷺ والتعبير عنه بلقب العبودية للتشريف كما سبق ، والعالمين : جمع عالم ، وهو جمع لم يعقل ، واختلف فى المراد به ، فقيل : الإنس . وقيل : الإنس والجن . وهو الصحيح ، فقد ثبت أن النبى ﷺ مرسل إلى الجن أيضًا ، وأنه يجتمع بهم ويقرأ عليهم القرآن ، وأن منهم نفرًا أسلم حين سمع القرآن وذهب ينذر

قومه به ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف : ٢٩] ، والنذير والمنذر : هو من يعلم بالشيء مع التخويف ، وضده البشير أو المبشر وهو من يخبرك بما يسرك .

وقوله : ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ إلخ : تضمنت هذه الآية الكريمة أيضًا جملة من صفات التنزيه التي يراد [بها][1] نفي ما لا يليق بالله ﷻ عنه ، فقد نزه سبحانه نفسه فيها عن اتخاذ الولد وعن وجود إله خالق معه وعما يصفه به المفترون الكذابون ، كما نهى عن ضرب الأمثال له والإشراك به بلا حجة ولا برهان ، والقول عليه سبحانه بلا علم ولا دليل .

فهذه الآية تضمنت إثبات توحيد الإلهية وإثبات توحيد الربوبية ، فإن الله بعدما أخبر عن نفسه بعدم وجود إله معه أوضح ذلك بالبرهان القاطع والحجة الباهرة ، فقال : (إذًا) أي : إذ لو كان معه آلهة كما يقول هؤلاء المشركون ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

وتوضيح هذا الدليل أن يقال : إذا تعددت الآلهة فلابد أن يكون لكل منهم خلق وفعل ولا سبيل إلى التعاون فيما بينهم ، فإن الاختلاف بينهم ضروري ، كما أن التعاون بينهم في الخلق يقتضي عجز كل منهم عند الانفراد ، والعاجز لا يصلح إلهًا ، فلابد أن يستقل كل منهم بخلقه وفعله ، وحينئذ فإما أن يكونوا متكافئين في القدرة لا يستطيع كل منهم أن يقهر الآخرين ويغلبهم فيذهب كل منهم بما خلق ويختص بملكه كما يفعل ملوك الدنيا من انفراد كل بمملكته إذا لم يجد سبيلًا لقهر الآخرين ، وإما أن يكون أحدهم أقوى من الآخرين فيغلبهم ويقهرهم وينفرد دونهم بالخلق والتدبير ، فلابد إذن مع تعدد الآلهة من أحد هذين الأمرين ؛ إما ذهاب كل بما خلق ، أو علو بعضهم على بعض .

وذهاب كل بما خلق غير واقع ؛ لأنه يقتضي التنافر والانفصال بين أجزاء العالم مع أن المشاهدة تثبت أن العالم كله كجسم واحد مترابط الأجزاء متسق الأنحاء فلا يمكن أن يكون إلا أثرًا لإلهٍ واحد ، وعلو بعضهم على بعض يقتضي أن يكون الإله هو العالي وحده .

وأما قوله تعالى : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ فهو نهي له أن يشبِّهوه بشيء من خلقه ، فإنه سبحانه له المثل الأعلى الذي لا يشركه فيه مخلوق .

وقد قدمنا أنه لا يجوز أن يستعمل في حقه من الأقيسة ما يقتضي المماثلة أو المساواة بينه وبين غيره كقياس التمثيل وقياس الشمول ، وإنما يستعمل في ذلك قياس الأَولى الذي مضمونه أن كل كمال وجودي غير مستلزم للعدم ولا للنقص بوجه من الوجوه اتصف [به][2] المخلوق ، فالخالق

(١) زيادة يقتضيها السياق . « إسماعيل الأنصاري » .

(٢) زيادة يقتضيها السياق . « إسماعيل الأنصاري » .

أَولَى أن يتصف به ؛ لأنه هو الذى وهب المخلوق ذلك الكمال ، ولأنه لو لم يتصف بذلك الكمال مع إمكان أن يتصف به لكان فى الممكنات من هو أكمل منه وهو محال ، وكذلك كل نقص يتنزه عنه المخلوق ، فالخالق أَولَى بالتنزه عنه .

وأما قوله : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ﴾ إلخ : فإنما أداة قصر تفيد اختصاص الأشياء المذكورة بالحرمة فيفهم أن من عداها من الطيبات فهو مباح لا حرج فيه ، كما أفادته الآية التى قبلها .

والفواحش : جمع فاحشة وهى الفعلة المتناهية فى القبح ، وخصها بعضهم بما تضمن شهوة ولذة من المعاصى ؛ كالزنى واللواط ونحوهما من الفواحش الظاهرة ، وكالكبر والعجب وحب الرياسة من الفواحش الباطنة .

وأما الإثم فمنهم من فسره بمطلق المعصية ؛ فيكون المراد منه ما دون الفاحشة ، ومنهم من خصه بالخمر فإنها جماع الإثم ، وأما البغى بغير الحق فهو التسلط والاعتداء على الناس من غير أن يكون ذلك على جهة القصاص والمماثلة .

وقوله : ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ . وحرم أن تعبدوا مع اللّه غيره وتتقربوا إليه بأى نوع من أنواع العبادات والقربات ؛ كالدعاء والنذر والذبح والخوف والرجاء ونحو ذلك ، مما يجب أن يخلص فيه العبد قلبه ويسلم وجهه للّه ، وحرم أن يتخذوا من دونه سبحانه أولياء يشرعون لهم من الدين ما لم يأذن به اللّه فى عباداتهم ومعاملاتهم كما فعل أهل الكتاب مع الأحبار والرهبان حيث اتخذوهم أربابًا من دون اللّه فى التشريع فأحلوا ما حرم اللّه وحرموا ما أحل اللّه فاتبعوهم فى ذلك ، وقوله : ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ . قيد لبيان الواقع ، فإن كل ما عبد أو اتبع أو أطيع من دون اللّه قد فعل به ذلك من غير سلطان .

وأما القول على اللّه بلا علم فهو باب واسع جدًّا يدخل فيه كل خبر من اللّه بلا دليل ولا حجة ، كنفى ما أثبته ، أو إثبات ما نفاه ، أو الإلحاد فى آياته بالتحريف والتأويل .

قال العلّامة ابن القيم فى كتابه « أعلام الموقعين » : « وقدم حرم اللّه القول عليه بغير علم فى الدنيا والقضاء وجعله من أعظم المحرمات بل جعله فى المرتبة العليا منها » . قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ الآية [الأعراف : ٣٣] ، فرتب المحرمات أربع مراتب وبدأ بأسهلها وهو الفواحش ، وثنى بما هو أشد تحريمًا منه وهو الإثم والظلم ، ثم ثَلَّثَ بما هو أعظم تحريمًا منهما وهو الشرك به سبحانه ، ثم رَبَّع بما هو أعظم تحريمًا من ذلك كله وهو القول عليه بلا علم ، وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم فى أسمائه وصفاته وأفعاله فى دينه وشرعه .

وقوله : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ إلخ : هذه هى المواضع السبعة التى أخبر فيها سبحانه

باستوائه على العرش ، وكلها قطعية الثبوت ؛ لأنها من كتاب الله ، فلا يملك الجهمى المعطل لها ردًا ، ولا إنكارًا ، كما أنها صريحة فى بابها لا تحتمل تأويلًا ، فإن لفظ استوى فى اللغة إذا عدى بعلى لا يمكن أن يفهم منه إلا العلو والارتفاع ، ولهذا لم تخرج تفسيرات السلف لهذا اللفظ عن أربع عبارات ، ذكرها العلَّامة ابن القيم فى النونية ، حيث قال :

فَلَهُمْ عِبَارَاتٌ عَلَيهَا أَربَعٌ قَدْ حُصِّلَتْ لِلفَارِسِ الطَّعَّانِ
وَهِىَ اسْتَقَرَّ وَقَد عَلَا وَكَذَلِكَ ارْ تَفَعَ الَّذِى مَا فِيهِ مِنْ نُكْرَانِ
وَكَذَاكَ قَدْ صَعِدَ الَّذِى هُوَ رَابِعٌ وَأَبُو عُبَيْدَةُ صَاحِبُ الشَّيبَانِي
يَختَارُ هَذَا القَوْلَ فِى تَفْسِيرِهِ أَدْرَىَ مِنَ الجَهْمِىِّ بِالقُرآنِ

فأهل السنة والجماعة يؤمنون بما أخبر به سبحانه عن نفسه من أنه مستوٍ على عرشه ، بائن من خلقه بالكيفية التى يعلمها هو جل شأنه كما قال مالك وغيره : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول » . أما ما يشغب به أهل التعطيل من إيراد اللوازم الفاسدة على تقرير الاستواء فهى لا تلزمنا ؛ لأننا لا نقول بأن فوقيته على العرش كفوقية المخلوق على المخلوق .

وأما ما يحاولون به صرف هذه الآيات الصريحة عن ظواهرها بالتأويلات الفاسدة التى تدل على حيرتهم واضطرابهم كتفسيرهم استوى : باستولى ، أو حملهم (على) على معنى (إلى) ، و(استوى) بمعنى : قصد . إلى آخر ما نقله عنهم حامل لواء التجهم والتعطيل زاهد الكوثرى فكلها تشغيب بالباطل وتغيير فى وجه الحق لا يغنى عنهم فى قليل ولا كثير ، وليت شعرى ، ماذا يريد هؤلاء المعطلة أن يقولوا ؟ أيريدون أن يقولوا : ليس فى السماء رب يقصد ولا فوق العرش إله يُعبد ؟ فأين يكون إذن ؟ ولعلهم يضحكون منا حين نسأل عنه بأين ، ونسوا أن أكمل الخلق وأعلمهم بربهم صلوات الله عليه وسلامه قد سأل عنه بأين حين قال للجارية : « أين الله ؟ » . ورضى جوابها حين قالت : فى السماء .

وقد أجاب كذلك من سأله بـ : أين كان ربنا قبل أن يخلق السماوات والأرض ؟ بأنه كان فى عماء . الحديث ، ولم يرو عنه أنه زجر السائل ولا قال له : إنك غلطت فى السؤال .

إن قصارى ما يقوله المتحذلق منهم فى هذا الباب : إن الله تعالى كان ولا مكان ، ثم خلق المكان ، وهو الآن على ما كان قبل خلق المكان .

فماذا يعنى هذا المخرف بالمكان الذى كان الله ولم يكن ؟ هل يعنى به تلك الأمكنة الوجودية التى هى داخل محيط العالم ؟ فهذه أمكنة حادثة ونحن لا نقول بوجود الله فى شىء منها ؛ إذ لا يحصره ولا يحيط به شىء من مخلوقاته .

وأما إذا أراد بها المكان العدمى الذى هو خلاء محض لا وجود فيه ، فهذا لا يقال أنه لم يكن ثم خلق ، إذن لا يتعلق به الخلق فإنه أمر عدمى ، فإذا قيل : إن اللّه فى مكان بهذا المعنى كما دلت عليه الآيات والأحاديث فأى محذور فى هذا ؟

بل الحق أن يقال : كان اللّه ولم يكن شيء قبله ، ثم خلق السماوات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ، ثم استوى على العرش ، و(ثم) هنا للترتيب الزمانى لا لمجرد العطف .

وقوله : ﴿يَٰعِيسَىٰٓ﴾ .. إلخ : هذه الآيات جاءت مؤيدة لما دلت عليه الآيات السابقة من علوه تعالى وارتفاعه فوق العرش مباينًا للخلق ، وناعية على المعطلة جحودهم وإنكارهم لذلك ، تعالى اللّه عما يقولون علوًا كبيرًا . ففى الآية الأولى ينادى اللّه رسوله وكلمته عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام بأنه متوفيه ورافعه إليه حين دبر اليهود قتله ، والضمير فى قوله : « إلى » هو ضمير الرب جل شأنه لا يحتمل غير ذلك ، فتأويله بأن المراد : إلى محل رحمتى أو مكان ملائكتى . إلخ لا معنى له ، ومثل ذلك يقال أيضًا فى قوله سبحانه ردًا على ما ادعاه اليهود من قتل عيسى وصلبه ، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ .

وقد اختلف فى المراد بالتوفى المذكور فى الآية ، فحمله بعضهم على الموت ، والأكثرون على أن المراد به النوم ، ولفظ التوفى يستعمل فيه ، قال تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام : ٦٠] .

ومنهم من زعم أن فى الكلام تقديمًا وتأخيرًا ، وأن التقدير : إنى رافعك ومتوفيك ، أى مميتك بعد ذلك . والحق أنه عليه السلام رُفع حيًا ، وأنه سينزل قرب قيام الساعة لصحة الحديث بذلك .

وأما قوله سبحانه : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ ، فهو صريح أيضًا فى صعود أقوال العباد وأعمالهم إلى اللّه ﷻ يصعد بها الكرام الكاتبون كل يوم عقب صلاة العصر ، وعقب صلاة الفجر ، كما جاء فى الحديث : « فيعرج الذين بأتوا فيكم فيسألهم ربهم - وهو أعلم - : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : يا ربنا ، أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون » .

وأما قوله سبحانه حكاية عن فرعون : ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ...﴾ إلخ : فهو دليل على أن موسى عليه السلام أخبر فرعون الطاغية بأن إلهه فى السماء ، فأراد أن يتلمس الأسباب للوصول إليه تمويهًا على قومه ، فأمر وزيره هامان أن يبنى له الصرح ، ثم عقب على ذلك بقوله : ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ﴾ - أى موسى - كاذبًا فيما أخبر به من كون إلهه فى السماء .

فمن إذن أشبه بفرعون وأقرب إليه نسبًا ؟ نحن أم هؤلاء المعطلة ؟ إن فرعون كذب موسى فى كون إلهه فى السماء ، وهو نفس ما يقوله هؤلاء .

﴿ءَأَمِنتُم﴾ إلخ : هاتان الآيتان فيهما التصريح بأن اللّه ﷻ فى السماء ، ولا يجوز حمل ذلك على

أن المراد به العذاب أو الأمر أو الملك كما يفعل المعطلة ؛ لأنه قال : (من) وهى للعاقل[(١)] ، وحملها على الملك إخراج اللفظ عن ظاهره بلا قرينة توجب ذلك .

ولا يجوز أن يفهم من قوله : « فى السماء » . أن السماء ظرف له سبحانه ، بل إن أريد بالسماء هذه المعروفة ، فـ : « فى » بمعنى « على » ، كما فى قوله تعالى : ﴿ لأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ ، وإن أريد بها جهة العلو ، فـ : « فى » على حقيقتها فإنه سبحانه فى أعلى العلو .

قوله [تعالى] : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إلخ : تضمنت هذه الآية الكريمة إثبات صفة المعية له ﷻ وهى على نوعين :

١- معية عامة : شاملة لجميع المخلوقات ، فهو سبحانه مع كل شىء بعلمه وقدرته وقهره وإحاطته ، لا يغيب عنه شىء ولا يعجزه ، وهذه هى المعية المذكورة فى الآية .

ففى الآية يخبر عن نفسه سبحانه بأنه هو وحده الذى خلق السماوات والأرض ؛ يعنى : أوجدها على تقديرها وترتيب سابق فى مدة ستة أيام ، ثم علا بعد ذلك وارتفع على عرشه لتدبير أمور خلقه ، وهو مع كونه فوق عرشه لا يغيب عنه شىء من العالَمين العلوى والسفلى ، فهو يعلم ما يلج ، أى : يدخل فى الأرض ، وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج ، أى يصعد ، ولا شكَّ أن من كان علمه وقدرته محيطين بجميع الأشياء فهو مع كل شىء ، ولذلك قال : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد :] .

قوله : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ﴾ إلخ : يثبت سبحانه شمول علمه وإحاطته بجميع الأشياء ، وأنه لا يخفى عليه نجوى المتناجين ، وأنه شهيد على الأشياء كلها مطلع عليها .

وإضافة : « نجوى » إلى ثلاثة من إضافة الصفة إلى الموصوف والتقدير : ما يكون من ثلاثة نجوى ، أى متناجين .

وأما الآيات الباقية فهى فى إثبات المعية الخاصة التى هى معيته لرسله تعالى وأوليائه بالنصر والتأييد والمحبة والتوفيق والإلهام .

فقوله تعالى : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ حكاية عما قاله عليه الصلاة والسلام لأبى بكر الصديق وهما فى الغار ، فقد أحاط المشركون بفم الغار عندما خرجوا فى طلبه عليه السلام ، فلما رأى أبو بكر ذلك انزعج وقال : « والله يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدمه لأبصرنا » . فقال له الرسول ﷺ ما حكاه الله ﷻ هنا : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ .

---

(١) لو عبر المؤلف هنا بلفظ « للعالم » بدل قوله : « للعاقل » لأصاب . « إسماعيل الأنصاري » .

فالمراد بالمعية هنا معية النصر والعصمة من الأعداء .

وأما قوله : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ فقد تقدم الكلام [عليه][1] ، وأنها خطاب لموسى وهارون عليهما السلام ألّا يخافا بطش فرعون بهما ؛ لأن اللّه ﷻ معهما بنصره وتأييده .

وكذلك بقية الآيات يخبر اللّه فيها عن معيته للمتقين الذين يراقبون اللّه ﷻ فى أمره ونهيه ويحفظون حدوده ، وللمحسنين الذين يتلزمون الإحسان فى كل شىء ، والإحسان فى كل شىء بحسبه ؛ فهو فى العبادة مثلًا : « أن تعبد اللّه كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . كما جاء فى حديث جبريل عليه السلام .

وكذلك يخبر عن معيته للصابرين الذين يحبسون أنفسهم على ما تكره ويتحملون المشاق والأذى فى سبيل اللّه وابتغاء وجهه صبرًا على طاعة اللّه وصبرًا عن معصيته وصبرًا على قضائه .

قوله : (ومن أصدق من اللّه حديثًا) ... : تضمنت هذه الآيات إثبات صفة الكلام للّه ﷻ .

وقد تنازع الناس حول هذه المسألة نزاعًا كبيرًا ؛ فمنهم من جعل كلامه سبحانه مخلوقًا منفصلًا منه ، وقال : (إن) معنى متكلم : خالق للكلام . وهم المعتزلة .

ومنهم من جعله لازمًا لذاته أزلًا وأبدًا لا يتعلق بمشيئته وقدرته ، ونفى عنه الحرف والصوت ، وقال : إنه معنى واحد فى الأزل . وهم الكلابية والأشعرية .

ومنهم من زعم أنه حروف وأصوات قديمة لازمة للذات ، وقال : إنها مقترنة فى الأزل ، فهو سبحانه لايتكلم بها شيئًا بعد شىء . وهم بعض الغلاة .

ومنهم من جعله حادثًا قائمًا بذاته تعالى ومتعلقًا بمشيئته وقدرته ، ولكن زعم أن له ابتداء فى ذاته ، وأن اللّه لم يكن متكلمًا فى الأزل . وهم الكرامية .

ويطول بنا القول لو اشتغلنا بمناقشة هذه الأقوال وإفسادها على أن فسادها بيّن لكل ذى فهم سليم ونظر مستقيم .

وخلاصة مذهب أهل السنة والجماعة فى هذه المسألة : أن اللّه تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء ، وأن الكلام صفة له قائمة بذاته يتكلم بها بمشيئته وقدرته ، فهو لم يزل ولا يزال متكلمًا إذا شاء ، وما تكلم اللّه به فهو قائم به ليس مخلوقًا منفصلًا عنه كما تقول المعتزلة ، ولا لازمًا لذاته لزوم الحياة لها كما تقول الأشاعرة ، بل هو تابع لمشيئته وقدرته .

واللّه سبحانه نادى موسى بصوت ، ونادى آدم وحواء بصوت ، وينادى عباده يوم القيامة بصوت ،

---

(١) زيادة يقتضيها السياق . « إسماعيل الأنصاري » .

ويتكلم بالوحى بصوت ، ولكن الحروف والأصوات التى تكلم اللّه بها صفة له غير مخلوقة ولا تشبه أصوات المخلوقين وحروفهم ، كما أن علم اللّه القائم بذاته ليس مثل علم عباده ، فإن اللّه لا يماثل المخلوقين فى شىء من صفاته .

والآيتان الأوليان هنا وهما من سورة « النساء » تنفيان أن يكون أحد أصدق حديثًا وقولًا من اللّه ﷻ ، بل هو سبحانه أصدق من كل أحد فى كل ما يخبر به ، وذلك لأن علمه بالحقائق المخبر عنها أشمل وأضبط ، فهو يعلمها على ما هى به من كل وجه ، وعلم غيره ليس كذلك .

وأما قوله : ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى﴾ إلخ : فهو حكاية لما سيكون يوم القيامة من سؤال اللّه لرسوله وكلمته عيسى عما نسبه إليه الذين ألّهوه وأمه من النصارى من أنه هو الذى أمرهم بأن يتخذوه وأمه إلهين من دون اللّه . وهذا السؤال لإظهار براءة عيسى عليه السلام وتسجيل الكذب والبهتان على هؤلاء الضالين الأغبياء .

وأما قوله : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام : ١١٥] ، فالمراد : صدقًا فى إخباره وعدلًا فى أحكامه ؛ لأن كلامه تعالى إما إخبار وهى كلها فى غاية الصدق ، وإما أمر ونهى وكلها فى غاية العدل الذى لا جور فيه لابتنائها على الحكمة والرحمة ، والمراد بالكلمة هنا : الكلمات ؛ لأنها أضيفت إلى معرفة فتفيد معنى الجمع كما فى قولنا : رحمة اللّه ، ونعمة اللّه .

وأما قوله : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ ، وما بعدها من الآيات التى تدل على أن اللّه قد نادى موسى وكلمه تكليمًا ، وناجاه حقيقة من وراء حجاب وبلا واسطة ملك ، فهى ترد على الأشاعرة الذين يجعلون الكلام معنى قائمًا بالنفس بلا حرفٍ ولا صوت ، فيقال لهم : كيف سمع موسى هذا الكلام النفسى ؟ فإن قالوا : ألقى اللّه فى قلبه علمًا ضروريًا بالمعانى التى يريد أن يكلمه بها ؛ لم يكن هناك خصوصية لموسى فى ذلك ، وإن قالوا : إن اللّه خلق كلامًا فى الشجرة أو فى الهواء ونحو ذلك لزم أن تكون الشجرة هى التى قالت لموسى : ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ .

وكذلك ترد عليهم هذه الآيات فى جعلهم الكلام معنى واحدًا فى الأزل لا يحدث منه فى ذاته شىء ، فإن اللّه يقول : ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ . فهى تفيد حدوث الكلام عند مجىء موسى للميقات .

ويقول : ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ . فهذا يدل على حدوث النداء عند جانب الطور الأيمن ، والنداء لا يكون إلا صوتًا مسموعًا .

وكذلك قوله تعالى فى شأن آدم وحواء : ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ الآية . فإن هذا النداء لم يكن إلا بعد الوقوع فى الخطيئة فهو حادث قطعًا .

وكذلك قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ إلخ . فإن هذا النداء والقول سيكون يوم القيامة ، وفى الحديث : « ما من عبد إلا سيكلمه الله يوم القيامة ليس بينه ترجمان » .

قوله : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ إلخ : هذه الآيات الكريمة تفيد أن القرآن المتلو المسموع المكتوب بين دفتى المصحف هو كلام الله على الحقيقة وليس فقط عبارة أو حكاية عن كلام الله كما يقوله الأشعرية ، وإضافته إلى الله ﷻ تدل على أنه صفة له قائمة به وليست كإضافة البيت أو الناقة ؛ فإنها إضافة معنى إلى الذات تدل على ثبوت المعنى لتلك الذات بخلاف إضافة البيت أو الناقة فإنها إضافة أعيان ، وهذا يرد على المعتزلة فى قولهم : إنه مخلوق منفصل عن الله . ودلت هذه الآيات أيضًا على أن القرآن منزَّل من عند الله بمعنى أن الله تكلم به بصوت سمعه جبريل عليه السلام ، فنزل به وأدَّاه إلى رسول الله ﷺ كما سمعه من الرب جل شأنه .

وخلاصة القول فى ذلك : أن القرآن العربى كلام الله منزل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، والله تكلم به على الحقيقة ، فهو كلامه حقيقة لا كلام غيره ، وإذا قرأ الناس القرآن أو كتبوه فى المصاحف لم يخرج ذلك عن أن يكون كلام الله ، فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئًا لا إلى من بلغه مؤديًا ، والله تكلم بحروفه ومعانيه بلفظ نفسه ليس شىء منه كلامًا لغيره لا لجبريل ولا لمحمد ولا لغيرهما ، والله تكلم به أيضًا بصوت نفسه ، فإذا قرأه العباد قرءوه بصوت أنفسهم ، فإذا قال القارئ مثلًا : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ . كان هذا الكلام المسموع منه كلام الله لا كلام نفسه ، وكان هو قرأه بصوت نفسه لا بصوتِ الله ، وكما أن القرآن كلام ، فكذلك هو كتابه ؛ لأنه كتبه فى اللوح المحفوظ ولأنه مكتوب فى المصاحف ، قال تعالى : ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة : ٧٨ ، ٧٩] ، وقال : ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج : ٢١ ، ٢٢] ، وقال : ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس : ١٣ - ١٦] .

والقرآن فى الأصل مصدر كالقراءة ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء : ٧٨] . ويراد به هنا أن يكون علمًا على هذا المنزل من عند الله المكتوب بين دفتى المصحف المتعبد بتلاوته المتحدى بأقصر سورة منه .

وقوله : ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ . يدل على أن ابتداء نزوله من عند الله ﷻ ، وأن روح القدوس جبريل عليه السلام تلقاه عن الله سبحانه بالكيفية التى يعلمها .

قوله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ إلخ : هذه الآيات تثبت رؤية المؤمنين لله ﷻ يوم القيامة فى الجنة .

وقد نفاها المعتزلة بناءً على نفيهم الجهة عن الله ؛ لأن المرئى يجب أن يكون فى جهة الرائى ، وما دامت الجهة مستحيلة وهى شرط فى الرؤية ، فالرؤية كذلك مستحيلة ، واحتجوا من النقل بقوله

تعالى : ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ . وقوله لموسى عليه السلام حين سأله الرؤية : ﴿لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

وأما الأشاعرة فهم مع نفيهم الجهة كالمعتزلة يثبتون الرؤية ، ولذلك حاروا فى تفسير تلك الرؤية ؛ فمنهم من قال : يرونه من جميع الجهات . ومنهم من جعلها رؤية بالبصيرة لا بالبصر ، وقال : المقصود زيادة الانكشاف والتجلى حتى كأنها رؤية عين .

وهذه الآيات التى أوردها المؤلف حجة على المعتزلة فى نفيهم الرؤية ، فإن الآية الأولى عَدَّى النظر فيها بـ : (إلى) فيكون بمعنى الإبصار ، يقال : نظرت إليه ، وأبصرته . بمعنًى ، ومتعلق النظر هو الرب جل شأنه .

وأما ما يتكلفه المعتزلة من جعلهم ﴿نَاظِرَةٌ﴾ بمعنى منتظرة ، و﴿إِلَىٰ﴾ بمعنى النعمة ، والتقدير : (ثواب ربها منتظرة) ، فهو تأويل مضحك .

وأما الآية الثانية فتفيد أن أهل الجنة وهم على أرائكهم ، يعنى أسرتهم – جمع أريكة – ينظرون إلى ربهم .

وأما الآيتان الأخيرتان فقد صح عن النبى ﷺ تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله ﷻ ، ويشهد لذلك أيضًا قوله تعالى فى حق الكفار : ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين : ١٥] ، فدل حجب هؤلاء على أن أولياءه يرونه ، وأحاديث الرؤية متواترة فى المعنى عند أهل العلم بالحديث لا ينكرها إلا ملحد زنديق .

وأما ما احتج به المعتزلة من قوله تعالى : ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ . فلا حجة لهم فيه ؛ لأن نفى الإدراك لا يستلزم نفى الرؤية ، فالمراد أن الأبصار تراه ولكن لا تحيط به رؤية كما أن العقول تعلمه ولكن لا تحيط به علمًا ؛ لأن الإدراك هو الرؤية على جهة الإحاطة فهو رؤية خاصة ونفى الخاص لا يستلزم نفى مطلق الرؤية ، وكذلك استدلالهم على نفى الرؤية بقوله تعالى لموسى عليه السلام : ﴿لَن تَرَانِي﴾ . لا يصلح دليلًا ، بل الآية تدل على الرؤية من وجوه كثيرة منها :

١ – وقوع السؤال من موسى وهو رسول الله وكليمه ، وهو أعلم بما يستحيل فى [حال] الله ، من هؤلاء المعتزلة ، فلو كانت الرؤية ممتنعة لما طلبها .

٢ – أن الله ﷻ علق الرؤية على استقرار الجبل حال التجلى ، وهو ممكن ، والمعلق على الممكن ممكن .

٣ – أن الله تجلى للجبل بالفعل وهو جماد ، فلا يمتنع إذن أن يتجلى لأهل محبته وأصفيائه .

وأما قولهم : إن (لن) لتأبيد النفى وإنها تدل على عدم وقوع الرؤية أصلًا . فهو كذب على اللغة ،

فقد قال تعالى حكاية عن الكفار : ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ . ثم قال : ﴿وَنَادَوْا يَمَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ .
فأخبر عن عدم تمنيهم للموت بـ « لن » ، ثم أخبر عن تمنيهم له وهم فى النار .

وإذن فمعنى قوله : ﴿لَن تَرَنِي﴾ . لن تستطيع رؤيتى فى الدنيا لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته سبحانه ، ولو كانت الرؤية ممتنعة لذاتها لقال : إنى لا أرى أو لا يجوز رؤيتى أو لست بمرئى ونحو ذلك . والله أعلم .

مباحث عامة حول آيات الصفات :

إن الناظر في آيات الصفات التي ساقها المؤلف ﷺ يستطيع أن يستنبط منها قواعد وأصولًا هامة يجب الرجوع إليها في هذا الباب .

الأصل الأول : اتفق السلف على أنه يجب الإيمان بجميع الأسماء الحسنى وما دلت عليه من الصفات وما ينشأ عنها من الأفعال ، مثال ذلك (القدرة) مثلًا يجب الإيمان بأنه سبحانه على كل شيء قدير ، والإيمان بكمال قدرته ، والإيمان بأن قدرته نشأت عنها جميع الكائنات ، وهكذا بقية الأسماء الحسنى على هذا النمط . وعلى هذا فما ورد في هذه الآيات التي ساقها المصنف من الأسماء الحسنى فإنها داخلة في الإيمان بالاسم وما فيها من ذكر الصفات مثل عزة الله وقدرته وعلمه وحكمته وإرادته ومشيئته ، فإنها داخلة في الإيمان بالصفات وما فيها من ذكر الأفعال المطلقة والمقيدة ، مثل يعلم كذا ، ويحكم ما يريد ، ويرى ويسمع ، وينادي ويناجي ، وكلم ويكلم ، فإنها داخلة في الإيمان بالأفعال .

الأصل الثاني : دلَّت هذه النصوص القرآنية على أن صفات الباري قسمان :

١ - صفات ذاتية لا تنفك عنها الذات ، بل هي لازمة لها أزلًا وأبدًا ولا تتعلق بها ؛ مشيئته تعالى وقدرته ، وذلك كصفات الحياة والعلم والقدرة والقوة والعزة والملك والعظمة والكبرياء والمجد والجلال إلخ .

٢ - صفات فعلية تتعلق بها مشيئته وقدرته كل وقت وآنٍ وتحدث بمشيئته وقدرته ، آحاد تلك الصفات من الأفعال وإن كان هو لم يزل موصوفًا بها بمعنى أن نوعها قديم وأفرادها حادثة ، فهو سبحانه لم يزل فعَّالًا لما يريد ، ولم يزل ولا يزال يقول ويتكلم ويخلق ويدبر الأمور ، وأفعاله تقع شيئًا فشيئًا تبعًا لحكمته وإرادته ، فعلى المؤمن الإيمان بكل ما نسبه الله لنفسه من الأفعال المتعلقة بذاته كالاستواء على العرش ، والمجيء والإتيان ، والنزول إلى السماء الدنيا ، والضحك والرضا والغضب ، والكراهية والمحبة المتعلقة بخلقه كالخلق والرزق والإحياء والإماتة وأنواع التدبير المختلفة .

الأصل الثالث : إثبات تفرد الرب جل شأنه بكل صفة كمال وأنه ليس له شريك أو مثيل في شيء منها .

وما ورد في الآيات السابقة من إثبات المثل الأعلى له وحده ونفي الند والمثل والكفء والسَّمِي والشريك عنه يدل على ذلك كما يدل على أنه منزه عن كل نقص وعيب وآفة .

الأصل الرابع : إثبات جميع ما ورد به الكتاب والسنة من الصفات ، لا فرق بين الذاتية منها كالعلم والقدرة والإرادة والحياء والسمع والبصر ونحوها ، والفعلية كالرضا والمحبة والغضب والكراهة ، وكذلك لا فرق بين إثبات الوجه واليدين ونحوهما ، وبين الاستواء على العرش والنزول ، فكلها مما اتفق السلف على إثباته بلا تأويل ولا تعطيل ، وبلا تشبيه وتمثيل .

والمخالف في هذا الأصل فريقان :

١ – الجهمية : ينفون الأسماء والصفات جميعًا .

٢ – المعتزلة : فإنهم ينفون جميع الصفات ويثبتون الأسماء والأحكام ، فيقولون : عليم بلا علم ، وقدير بلا قدرة ، وحي بلا حياة إلخ . وهذا القول في غاية الفساد ، فإن إثبات موصوف بلا صفة وإثبات ما للصفة للذات المجردة محال في العقل كما هو باطل في الشرع .

أما الأشعرية ومن تبعهم فإنهم يوافقون أهل السنة في إثبات سبع صفات يسمونها صفات المعاني ويدعون ثبوتها بالعقل ؛ وهي الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام ، ولكنهم وافقوا المعتزلة في نفي ما عدا هذه السبع من الصفات الخبرية التي صح بها الخبر .

والكل محجوجون بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة والقرون المفضلة على الإثبات العام .

❁ قال الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ رحمه الله :

« وقد دخل في هذه الجملة » السابقة ؛ أي : جملة : « ما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات » ، وهي كونه تعالى جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات .

« ما وصف به نفسه في « سورة الإخلاص » » ؛ يعني : التوحيد ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ السورة . وكذلك : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ تسمى « سورة الإخلاص » ؛ فإنها دلت على التوحيد . فـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ دلت على التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي ، وسورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ دلت على التوحيد القصدي الإرادي الطلبي .

« التي تعدل ثلث القرآن » جاء ذلك عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا قرأت : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مرة ؛ فكأنما قرأت ثلث القرآن ، وإذا قرأت : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مرتين ؛ فكأنما قرأت ثلثي

القرآن ، وإذا قرأت : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلاث مرات ؛ فكأنما قرأت القرآن كله »[1] .

ووجه كونها تعدل ثلث القرآن ، من حيث إن القرآن قسمان : قسم إنشاء ، وهو طلب : أمر ونهي .

وقسم خبر ، والأخبار التي في القرآن منقسمة إلى قسمين :

قسم خبر عن الخلق ، وقسم خبر عن المخلوق .

قسم خبر عن الباري جل جلاله وإثبات صفاته ، وقسم خبر عن المخلوق وحاله ونشأته وما أعد له .

وهذه السورة ممحضة للخبر عن الخالق تعالى ، سبب نزولها أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : انسب لنا ربك ، فنزلت ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخرها ، صدرها إثبات وآخرها نفي ، بخلاف غيرها من السور ؛ حيث يقول : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ : هذا فيه إثبات الأحدية للرب تعالى وتفرده بها ، المنافية للشريك والمثيل والنديد من كل وجه .

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ : فيه إثبات الصمدية للَّه سبحانه ، ووصفه بها ، ومعنى الصمد : الذي يصمد إليه الخلائق كلهم يوم القيامة ، وكل تفسير للصمد فهو يرجع إلى إثبات الكمال .

﴿لَمْ يَلِدْ﴾ : أحدًا ، فيه نفي الولد عنه سبحانه وتعالى ، وتنزه عما يقول الجاهلون علوًّا كبيرًا ؛ لمنافاته لكماله له سبحانه وتعالى .

﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ : ولم يلده أحد ، ففيه نفي الوالدة عنه سبحان وتعالى ؛ لمنافاته لكماله .

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ : فيه نفي الكفو ، وهو المساوي له سبحانه ؛ لمنافاته لكماله .

ففي هذه السورة نفي النقائص والعيوب عنه تعالى ، وإثبات الكمال له تعالى .

« وما وصف به نفسه » : وكذلك دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه ، « في أعظم آية في كتابه » : وهي « آية الكرسي » ؛ جمع تعالى فيها بين النفي والإثبات ، فإنها اشتملت على عشر جمل ، وفي ضمن تلك الجمل ما هو نفي وما هو إثبات ؛ حيث يقول : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ : فيها نفي الألوهية عن كل ما سوى اللَّه ، وأنها لا تصلح لغير اللَّه ؛ بل لا تصلح إلا اللَّه ، وأما غيره فلا يصلح لها ، وكل مألوه غير اللَّه فإلهيته بالباطل والضلال .

﴿إِلَّا هُوَ﴾ : فيه إثباتها للَّه سبحانه دون كل ما سواه .

﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ : فيه إثبات صفة القيومية ، والحياة والقيومية يستلزمان سائر الصفات ؛ من القدرة والسمع والبصر ، وغير ذلك .

---

(١) الطبراني في « الأوسط » (٥٩٩٦) ، والبيهقي في « دلائل النبوة » (٦/٣٨) من حديث عمر رضي الله عنه .

﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٌ﴾ : وهي الذهول والغفلة ، وهي دون النوم .

﴿وَلَا نَوۡمٌ﴾ : فيه نفي النوم ؛ والنفي قسمان : نفي محض ، وهذا مراد لذاته ولا يقع في الصفات ، ونفي مراد به الإثبات ، كنفي السنة والنوم عنه سبحانه ؛ وذلك لكمال حياته وقيوميته تعالى .

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ : هذا فيه إثبات ملك السماوات والأرض ، وتفرد الله بملك ذلك .

﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ : فيه نفي الشفيع ، وهذا نفي ظاهر . وهذا النفي دخل فيه جميع الشفعاء ، حتى سيد الخلق- صلوات الله وسلامه عليه- ، ولهذا في القيامة لا يشفع حتى يسجد ، ويقال له : « ارفع رأسك ، واشفع تشفع ، وسل تعطه »[1] ، ففيه نفي الشفاعة التي من غير إذنه ، وإثباتها بإذنه تعالى .

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ : فيه إثبات تفرده بالعلم سبحانه .

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ : فيه إثبات الكرسي ؛ يعني : أنه أوسع منها بكثير ، وجاء في الأحاديث أنه من جملة المخلوقات ، وجاء في السنة أنه موضع القدمين ، وليس كرسيه علمه ، كما يقوله المبتدعة ، فإن في هذه الآية الرد عليهم ، فهم ينفون الكرسي والعرش ، يريدون بذلك نفي العلو ؛ ولهذا أهل العلم يترجمون بباب في العرش : باب في الكرسي . وهذا كله رد على الجهمية والمبتدعة .

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَا﴾ : أي : لا يكرثه ولا يثقله لا يثقل عليه ولا يشق عليه ؛ لكمال قدرته وقهره .

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾ : الذي لا أعلى منه تعالى ، له العلو الكامل من جميع الوجوه : علو القدر والشرف ، وعلو القهر والسلطان لكل شيء ، وعلو الذات والفوقية على جميع المخلوقات ، فإنه أعلى من كل شيء ؛ قدرًا وقهرًا وفضلًا ، وأعلى من كل شيء علوًا وذاتًا وسلطانًا .

﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ : الذي لا أعظم منه سبحانه ، ولا أكبر ولا أجل .

« ولهذا كان من قرأ هذه الآية في ليلة ، لم يزل عليه من الله حافظ ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح » : أشار بهذا إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « أنه أتاه شيطان ليسرق من تمر الصدقة ، ثم يحلف أنه لا يعود ..» الحديث . فذكر له آية يسلم بها من السراق ، فقال ﷺ : « صدقك وهو كذوب »[2] ، من عادته الكذب ، فيفيد عظم شأن هذه الآية .

---

(١) البخاري (٤٧١٢) ، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) البخاري – تعليقًا – (٢٣١١) ، وابن خزيمة في « صحيحه » (٢٤٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « مشكاة المصابيح » (٢١٢٣) .

وقوله سبحانه : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ : هذا أيضًا مما دخل في الجملة السابق ذكرها . جملة : « ما وصف وسمى به نفسه ، بين النفي والإثبات ».

قول تعالى : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ : هذه الآية فيها إثبات هذه الأسماء الحسنى الأربعة ، واشتملت على اتصافه تعالى بها ، وتفسير هذه الأسماء الأربعة جاء في الحديث : « أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء »[١] . وحديث « كان اللَّه ولم يكن شيء قبله »[٢] ؛ يعني : أنه سبحانه وتعالى بوجوده وأوليته ، « ولم يكن شيء قبله » ليس معناه كان قبل أن لم يكن حدث ، لا .

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ : واشتملت هذه الآية على اتصافه بالعلم بكل شيء ، فشمل علمه الموجودات كلها ، والمعدومات التي تكون ، والتي لا تكون ، كيف تكون لو كانت ، بخلاف الممتنعات ، فإنها ليست شيئًا حتى تشمل بالعلم .

وقوله سبحانه : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ : هذه الآية فيها إثبات هذا الاسم ، وإثبات مدلول هذا الاسم ، وهي صفة الحياة للَّه سبحانه ، وهي تستلزم السمع والبصر والعلم والقدرة ، ونحو ذلك . ونفي الموت لمنافاته للحياة .

وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ : فيه إثبات هذين الاسمين : أحدهما : الحكيم ، وهو الذي يضع الأشياء مواضعها . والثاني : الخبير ، وإثبات مدلول هذين الاسمين وهما الحكمة والخبرة . والحكمة هي المنافية للسفه والعبث ، فهو تعالى الحكيم في أقضيته وشرعه ودينه ، وهي أبعد شيء عن السفه وعن خلاف المصلحة . والخبرة أخص من العلم ، هي كمال العلم .

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ : فيه إثبات علمه الشامل ؛ فما من داخل في الأرض أو خارج منها ، ولا نازل من السماء ولا صاعد إليها ، إلا وهو مشمول بالعلم .

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ : وهي الخمس المذكورة في الحديث : « خمس لا يعلمهن إلا اللَّه ﷻ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ »[٣] . فهذه الخمس لم يطلع عليها ملك مقرب ، ولا نبي مرسل .

---

(١) مسلم (٢٧١٣) ، والترمذي (٣٤٠٠) ، وأبو داود (٥٠٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) البخاري (٧٤١٨) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه .

(٣) البخاري (٤٧٧٨) من حديث عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما .

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ : فيه إثبات صفة العلم وشموله لجميع الأشياء ، فما من شيء إلا وهو مشمول بالعلم ، وهو أشمل من القدرة ، وفيه إثبات الكتابة ، وهي إحدى المرتبتين في القدر كما يأتي .

وقوله : ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ : هذه الآية فيها إثبات صفة العلم .

وقوله : ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ : هذه الآية فيها إثبات صفة القدرة ، وهي مدلول اسمه القدير ، وإثبات صفة العلم ، وشمول القدرة وشمول العلم ، فما من شيء إلا دخل في القدرة إلا ذاته جل جلاله فإنها لا تقبل التصريف ، فإن القادر لا يكون مقدورًا ، فشملت قدرته ما كان وما يمكن أن يكون ، فإن اللَّه قادر على الموجودات والمعدومات والممكنات ، ولا خرج عن ذلك إلا الممتنع ، فإنه ليس بشيء حتى يشمل ، وفي إثبات القدرة على كل شيء ، الرد على المرشدة الذين يقولون : إن اللَّه لا يقدر إلا على ما يشاء ، وأما ما لا يشاء فلا . وهم طائفة من المبتدعة ، معلوم بطلان قولهم من نحو ثمانين موضعًا من القرآن : ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

وقوله : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ : فيه كمال العلم ؛ فإن الإحاطة بالشيء علمًا هي الإحاطة به من كل الجهات ، فالعلم فيه شمول ؛ مثل : القدرة ، بل الشمول الذي في العلم أعم من الشمول الذي في القدرة ، فإنه تعالى أعلم بذاته وبأسمائه وصفاته وبشرعه ودينه وبجميع مخلوقاته ، وقد جاء في قصة الخضر وموسى ، حين أتى عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر نقرة أو نقرتين في البحر ، فقال الخضر لموسى عليه السلام : « ما نقص علمي وعلمك من علم اللَّه ، إلا كنقرة هذا العصفور في هذا البحر »[1] ، وكما في الآية : ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ .

وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ : هذا فيه إثبات هذه الأسماء الثلاثة للَّه حقيقة على ما يليق بجلال اللَّه وعظمته من غير تمثيل .

وقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ : هذا فيه نفي مماثلة الخلق للَّه سبحانه وتعالى ، فتقرر بذلك أصل عظيم ؛ وهو عدم مشابهته لخلقه .

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ : هذا فيه إثبات هذين الاسمين ، وفي هذه الآية بيان أن النفي إجمال ، والإثبات تفصيل ، نفي مجمل وإثبات مفصل .

---

(١) البخاري (١٢٢) ، ومسلم (٢٣٨٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا .

وفيه الرد على الطائفتين : أهل الجحد والتحريف والتعطيل ، وأهل التشبيه والتمثيل ، فإن طائفتي المبتدعة تقاسموا هذه الآية نصفين ، وأهل السنة أثبتوا الصفات على حد قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ .

وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ : هذه الآية فيها إثبات الاسمين ، وإثبات صفتين ، وهما مدلول هذين الاسمين على ما يليق بجلال اللَّه وعظمته ، ولما نزلت هذه الآية جعل ﷺ إصبعيه في أذنيه ، بيانًا منه أنه سمع حقيقة ، وبصر حقيقة .

وقوله : ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ : فيها إثبات صفة المشيئة للَّه سبحانه وتعالى التي تكون بها الأشياء ، كما أنها لا تكون إلا بالقدرة والعلم .

وقوله : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ : هذه الآية فيها إثبات المشيئة والإرادة .

وقوله : ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ : فيه إثبات صفة الإرادة .

وقوله : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ : فيه إثبات صفة الإرادة للَّه سبحانه وتعالى ، وكذلك بقية الآيات التي فيها إثبات صفة الإرادة .

ورد في النصوص إرادة ومشيئة ، وصرح من صرح بترادفهما ، ولم يفطن للتفصيل ، ولكن أولى ما يكون أن الإرادة إرادتان : كونية قدرية ، وشرعية دينية ، وأما المشيئة فلم ترد في النصوص إلا كونية قدرية ، فلا تنقسم ، والشرعية الدينية تستلزم محبته ورضاه سبحانه وتعالى بخلاف الكونية القدرية .

فالإرادة في النصوص على قسمين : كونية وقدرية ، وهذه موافقة للمشيئة ، وإرادة شرعية دينية ، فأراد اللَّه من العباد شرعًا عبادته ، والعباد انقسموا إلى قسمين :

- قسم أطاعوا ، فاجتمع فيهم الإرادتان . فالكونية شرط وجود الفعل .
- وقسم عصوا ، فانفردت الكونية فيهم ، ولا حظ لهم في الشرعية ، وليست الكونية حجة لأحد .

إذا عرفنا ذلك ؛ فالإرادتان بينهما عموم وخصوص ، يجتمعان في المطيع ، ويفترقان في العاصي ؛ فالمطيع أطاع اللَّه فيما أراده اللَّه منه شرعًا ودينًا وتبع الإرادة الكونية القدرية ، وانفردت الكونية القدرية في حق العاصي ، فالكفار أبوا عما أراد اللَّه منهم شرعًا ، فلا تنالهم الإرادة الشرعية ، ولا لهم فيها نصيب لحكمة اللَّه وعدم صلاحيتهم لشيء من ذلك ، هم خارجون عن إرادة اللَّه الشرعية الدينية ؛ وهي ما أراده على ألسن رسله من عبادته وحده .

وقوله : ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ : هذه الآية فيها إثبات صفة المحبة ، وأن الله يحب أهل طاعته محبة تليق بجلاله وعظمته .

﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ : هذه مثل التي قبلها .

﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ : كذلك .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ : هذه الآية فيها إثبات صفة المحبة .

وقوله : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ : هذه الآية فيها زيادة أنه يحب ، ففيها إثبات المحبة من الجانبين .

وقوله : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ : وهذه كالتي قبلها في أنه يحب ويحب .

وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ : فيها إثبات صفة المحبة .

وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ : قال البخاري(١) : « يعني الحبيب » ، وفيها إثبات صفة المغفرة ، وهي مدلول اسمه الغفور ، والمغفرة هي : التغطية مع الوقاية ؛ يعني : الذي يستر عباده ويقيهم عقوبة الذنوب .

قصد المصنف منها كلها إثبات صفة المحبة ، وأن الله جل جلاله يحب حقيقة محبة تليق بجلاله وعظمته ، لا كمحبة المخلوقين ، يحب رسله وعباده الموصوفين بهذه الصفات ، وفيها زيادة أنهم يحبونه محبة تدين وتذلل وتعبد ، ومحبته لهم محبة إحسان وتفضل .

وفيها الرد على الجهمية ؛ فإنهم ينفون أن يحب أو يحب ، فأهل التجهم ينفون المحبة من الجانبين ، كما أنكروا الخلة ، وهذا من ضلالهم وجهلهم ، قالوا : إن المحبة لا تكون إلا بين اثنين بينهما نوع من المناسبة ، كمناسبة محبة المخلوقين بعضهم لبعض ، ففروا منها إلى النفي . نعم محبة الله لا مناسبة بينها وبين محبة المخلوقين ، محبة تليق بجلال الله وعظمته من غير تمثيل ، لا يعلم كنهها ولا كيفيتها إلا هو سبحانه وتعالى ، فإنه أعلم بنفسه ، وقد أعلمنا أنه يحب ويحب ، فنحن نؤمن بالله وبما جاء عن الله على مراد الله ، كل ما جاء في القرآن أو الحديث الثابت ، فخذ معك أصلاً أنه على ما يليق بجلال الله .

وقوله : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ : في آية البسملة ، هي آية من القرآن بين كل سورتين إلا في « براءة » ، بالرحمة ، فالرحمن من الفعل المتعدي ، والرحيم من اللازم ، فالرحمة أحد

(١) البخاري – تعليقًا – (٨/٦٩٨– فتح) .

صفات الباري جل جلاله ، وقول ابن عباس ﷺ : « الرحمن الرحيم اسمان رقيقان ، أحدهما أرق من الآخر » ، المقصود السعة ؛ يعني : أسماء مبالغة أن كلًّا منهما صفة مبالغة ، هذا معنى « رقيقان ؛ أحدهما أرق وأوسع من الآخر » ، وأوسعهما الرحمن ، ولهذا جاء في التفسير رحمن الدنيا والآخرة ، فلولا رحمته العامة ما بقي أحد على وجه الأرض ، أما الرحيم فهي خاصة بالمؤمنين .

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ : فيه إثبات صفة الرحمة ، وإثبات سعتها ، وإثبات صفة العلم ، وإثبات سعته ، ففيه شمول رحمته ، كما فيه شمول علمه ، فما استقام أمر العالم إلا بالرحمة .

﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ : فيها إثبات صفة الرحمة .

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ : فيه إثبات صفة الرحمة أيضًا .

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ ، ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ، ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ : هذه الآيات فيها إثبات صفة الرحمة للّه تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته على حد قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ، فهي رحمة حقيقية ، بل هي أحق الحقيقة ، كما أن للمخلوق رحمة حقيقية تختص به .

وكثير من شراح الكتب صرفوا معنى هذين الاسمين عن مدلولهما ؛ فمنهم من يقول : إنه المنعم الحقيقي . ومنهم من يقول : الرحمة إرادة الإنعام . ونحو ذلك ، وكل هذا من الكلام الباطل ، ما حملهم عليه إلا سوء الفهم ، ولو فهموا فهمًا صحيحًا ما صرفوه عن مدلوله ، فإن الذي عليه أهل السنة والجماعة قاطبة ، أنهم يصفون اللّه تعالى بما وصف به نفسه في كتابه ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل .

ثم يلزمهم في قولهم : الرحمة إرادة الإنعام ، إما أن يقولوا : إنها كإرادة المخلوقين . فنقول لهم : شبهتم . وإما أن يقولوا : إنها إرادة حقيقية تليق بجلال اللّه وعظمته . فنقول لهم : فما يمنعكم أن تقولوا في الرحمة إنها حقيقية تليق بجلال اللّه وعظمته ؟ !

وأيضًا ؛ فما يقال في الصفات فرع عما يقال في الذات ، فيجب أن نصف اللّه تعالى بما وصف به نفسه في كتابه ، ونؤمن بما جاء عن اللّه على مراد اللّه على ما يليق بجلال اللّه وعظمته ، ونقول : للّه صفات ثابتة حقيقية ، لا تشبه صفات المخلوقين ، كما أن للّه ذاتًا حقيقية ثابتة لا تشبه ذوات المخلوقين ، ونعتقد أن الصفات حقائق ، ولا نقف عندها ، بل نستمر كما استمر الكتاب العزيز ، ونقف حيث وقف .

وقوله : ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ : فيه إثبات صفة الرضا ؛ رضا يليق به ، اللّٰه أعلم بكنهه وكيفيته .

وقوله : ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ : فيه إثبات صفة الغضب ، وإثبات صفة اللعن بالقول ، قال المصنف : « لا مانع من أن يقع اللعن من اللّٰه قولًا بالكلام » . وهو ظاهر النصوص أنه يلعن من يستحق اللعن بالقول ، كما أنه تعالى يرضى عمن يستحق الرضا ، ويغضب على من يستحق الغضب .

وقوله : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ : السخط هو : عدم الرضا ، والسخط إلى الكراهة أقرب منه إلى الغضب ، فإن الغضب يعدى بعلى ، وفيه إثبات الرضا ؛ فإن اللّٰه يرضى حقيقة ، كما أنه يسخط حقيقة .

وقوله : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ : ﴿ءَاسَفُونَا﴾ : أغضبونا ، والأسف جاء في القرآن على معنيين : على معنى الغضب ، كما في هذه الآية ، وجاء بمعنى الحزن ، وليس هو المراد هنا ، وإنما هو من صفات المخلوقين ، كما في قصة موسى : ﴿غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ ، والأسيف : الحزين ؛ مثل قوله : « إن أبا بكر رجل أسيف إذا قرأ القرآن » . واللّٰه سبحانه منزه عن الحزن ، وفيه إثبات صفة الانتقام .

وقوله : ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ﴾ : فيه إثبات صفة الكراهة ، أن اللّٰه يكره من يستحق الكراهة على ما يليق بجلاله وعظمته .

وقوله : ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ : فيه إثبات صفة المقت على ما يليق بجلال اللّٰه وعظمته ، أن اللّٰه يمقت من يستحق المقت من الأقوال والأفعال .

وهذه الآيات فيها إثبات هذه الصفات للّٰه سبحانه وتعالى على ما يليق بجلاله وعظمته من غير تمثيل .

وقوله : ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ﴾ : فيه إثبات صفة الإتيان يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده ، إتيانًا يليق بجلاله وعظمته ، لا نكيف ولا نشبه .

وقوله : ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾ : كالتي قبلها في صفة إتيان الرب يوم القيامة حقيقة ، وفيه ما يرد على المحرفين الذين يقولون : يأتي أمره ، وأمره معطوف على إتيانه ، وأمره لم يزل يأتي في الدنيا والآخرة ، فدعواهم فيه مجاز الحذف ، باطلة مخالفة للنصوص وما عليه الجمهور ؛ بل يأتي تعالى بذاته على ما يليق بجلاله وكبريائه .

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ : فيه إثبات مجيء اللَّه سبحانه على ما يليق بجلاله من غير تمثيل ، وتأويل ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ بـ « جاء أمر ربك » : فاسد ؛ من جهة أنه باطل ، وهو من كلام المبتدعة ، وأيضًا فاسد من أمر آخر ؛ وهو أن أمر اللَّه لا يزال يجيء ؛ ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ .

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ : هذه الآية فيها إثبات صفة ، وهي إتيان الربِّ يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده ، فإنه كما جاء في تفسيرها أن الأرض بعد ما تُمدُّ يوم القيامة مدَّ الأديم العُكاظيّ ، فيحشر من كان في الأرض ، ثم بعد ذلك تنشق السماء الدنيا ، فينزل من فيها من الملائكة ، فتحيط بمن في الأرض كلهم ، ثم الثانية ، ثم الثالثة ... إلخ ، ثم ينزل الربُّ تعالى للفصل بين عباده ؛ ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ ، فصار فيها إثبات صفة الإتيان ، لا نعلم كنهها ولا كيفيتها ، مجيء حقيقة على ما يليق بجلال اللَّه وعظمته ، ولنعرف أن ما جاء في الآية في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ أن المراد هو : جبريل . وأما ما في الحديث في البخاري[1] ، فالمراد : الباري جل جلاله ، وهو معروف عند أهل التحقيق .

وقوله سبحانه : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ : هذه الآية فيها إثبات صفة الوجه على ما يليق بجلال اللَّه وعظمته ، وفيها وصف وجه الباري بالجلال والإكرام .

و﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ : فيه إثبات صفة الوجه على ما يليق بجلال اللَّه وكبريائه وعظمته وتقدست أسماؤه ، وهذه الصفة مما ادعت فيه الجهمية المجاز ، واختلفوا في جهة مجازه ، وهو باطل .

وقوله : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ : هذا قوله لإبليس ؛ تبكيتًا له ، ففيه إثبات صفة اليدين للَّه سبحانه حقيقة على ما يليق بجلاله وعظمته ، وفيه إبطال قول من قال : إن اليد النعمة ، فإن اللَّه تعالى ذكر الخلق وذكر ما يخلق به ، وأيضًا القدرة ما جاءت قدرتين أو نعمتين وقرن بالفعل ، فتعين أن تكون اليدين ، وأنها على الحقيقة ، ومثل : « خَلَقَ اللَّهُ آدمَ بيده »[2] ، المراد : اليد التي بها الفعل .

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ : فيه إثبات صفة اليدين ، الأولى بالإفراد ، والثانية بالتثنية حقيقة على ما يليق بجلال اللَّه وعظمته ، وفيه إثبات هذا البسط ، والبسط في كلام العرب هو السعة وكثرة العطاء ، كما في الآية الكريمة : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ الآية ، وفيه بيان لكمال جوده سبحانه ، كما أتى

(١) البخاري (٧٥١٧) ، ومسلم (١٦٢) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) ابن جرير في « تفسيره » (١/١٨) ، والحسين المروزي في « زوائده على الزهد » (١٤٥٨) .

في قصة الخضر وموسى حين أتى عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر نقرة أو نقرتين في البحر، فقال الخضر لموسى عليه السلام: «ما علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في هذا البحر»[(١)]. وكما في الآية: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾، وجاء في الحديث: «إحداهما يمين، والأخرى شمال، وكلتا يدي ربي يمين»[(٢)].

وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾: هذه الآية فيها إثبات صفة العينين لله سبحانه وتعالى على ما يليق بجلاله وعظمته.

﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾: فيه إثبات العينين، وأتت بصيغة الجمع؛ لتناسب ضمير العظمة، والمراد به المثنى، وهذا الجمع في قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ إنما هو للتعظيم، إذا صار «نا» للتعظيم؛ فما قبله يجري مجراه، وجاء في الحديث أنه ﷺ وضع أصبعيه على عينيه، كما تقدم.

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾: «عيني»: مفردٌ مضافٌ جارٍ على ما تقول العرب في كلامهم: «رعيتك بعيني»، ونحو ذلك، والمراد المثنى، وكذلك الثلاث فيها تشوه، وكذلك الواحدة، فإن في الحديث: «إن ربكم ليس بأعور»[(٣)]، نؤمن به ونكلُ كيفيته.

وقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾: هذه الآية فيها إثبات صفة السمع من ثلاثة أوجه: الأول: بصيغة الماضي. والثاني: بصيغة المضارع. والثالث: بصيغة اسم الفاعل. وفيها إثبات صفة البصر من غير تمثيل.

وهذه الآية نزلت في المرأة المجادلة، التي ظاهر منها زوجها، وكان لها منه عيال، وكانت فقيرة، فجاءت تشتكي إلى النبي ﷺ، قالت عائشة رضي الله عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، إن كانت لفي البيت تكلم الرسول ويخفى علي بعض حديثها، وهي تقول: يا رسول الله أكل مالي، وأفنى شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك. قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية».

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾: فيها إثبات صفة السمع أيضًا،

---

(١) «صحيح الجامع» للألباني (حديث رقم: ٤٣٥٧).

(٢) الترمذي (٣٣٦٨)، وابن حبان (١٤/٤٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (حديث رقم: ٣٣٦٨).

(٣) البخاري (٧١٣١)، ومسلم (٢٩٣٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وأهل السنة يثبتون السمع والبصر ، والحياة والقدرة ، والعلم والكلام ، وغيرها من الصفات الخبرية ، كالوجه واليدين والعينين ، والغضب والرضا ، والصفات الفعلية كالضحك ، والنزول ، والاستواء على العرش ، وهي صفات كمال ، وأضدادها صفات نقص ينزه عنه الرب ، ويعتقدون لها معان حقيقية ، ويفسرونها ويبينونها ، خلافًا للجهمية وغيرهم .

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ : أنكر تعالى على من ظن أن اللّه لا يسمع ؛ يعني : بلى ، نسمع سرهم ونجواهم ، ورسلنا لديهم يكتبون .

وقوله : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ : هذه الآية فيها إثبات صفة السمع ، كما أنه يسمع جميع المسموعات ، فكذلك يرى جميع المرئيات .

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ : فيه إثبات أن اللّه يرى جميع المرئيات والمبصرات .

﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ : هذه الآية كالتي قبلها .

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ : فيه إثبات رؤية اللّه لأعمال العباد .

وقوله : ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ ؛ أي : المماحلة ، وهي العقوبة والأخذ لمن عصاه .

وقوله : ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ : هذه فيها إثبات هذه الصفة أنه يمكر مكرًا حقيقيًا ، على وجه لا نقص فيه ، على ما يليق بجلاله من غير تمثيل ، بخلاف مكر المخلوق فإن فيه ما هو على وجهه ، وفيه ما هو مذموم .

وقوله : ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ : فيه إثبات صفة المكر للّه بمن مكر به ، على ما يليق بجلال اللّه وعظمته ، حقيقة على وجه جميل حسن يليق به سبحانه ، من غير تمثيل بمكر المخلوقين وصفاتهم ، فما فيه الذم والعيب فهو منزه عنه تعالى وتقدس .

وقوله : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ : هذه الآية فيها إثبات صفة الكيد .

ولنعرف أن ما جاء في النصوص من ذلك ، أن ما كان منه على وجه مذموم لا يضاف إلى اللّه ، لا يضاف منه إلا الوجه المحمود الممدوح الكمال ، ولنعرف ما ورد بلفظ الفعل فنقول : لا يطلق على اللّه إلا ما جاء في النص ، فلا يلزم من الإخبار عنه بالفعل أن يشتق منه اسم مطلق ، كالمضل والماكر ، وهنا قاعدة ذكرها ابن القيم في « المدارج » وكأنه أخذها من الاستقراء : أن الإخبار بالفعل أوسع من التسمية .

وقوله : ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ : فيه إثبات صفة العفو والقدرة ؛ والعفو : أصله بواوين ، لكن أدغمت الواو في الواو ، فصار « عفوًّا » ، والعفو : هو

الترك ، ترك صاحب الجريمة عن مجازاته عليها ، والعفو- مشددًا- : الكثير والعظيم العفو والتجاوز عن عباده ، اسمه عفو ، وصفته عفو- بالتخفيف- عفو يحب العفو ، ويحب من عباده أن يعفو بعضهم عن بعض عن حقه ، والعفو أكمل ما يكون وأجمله إذا كان عن قدرة ، وإلا فربما يوجد عفو ممن يصدر منه العفو مع عدم قدرة ، أو ضعف ، أو يخاف ألَّا يأخذ حقه ، أما من عفا لا عن ضعف فهذا هو أكمل ، ولذلك جاء مقرونًا به القدرة ، فإنه أكملَ .

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ : ففيها إثبات صفة المغفرة والرحمة ، ففيها إثبات هذين الاسمين للَّه تعالى « الغفور ، والرحيم » فأفادا اتصافه بمدلولهما من الرحمة والمغفرة ، وأفاد أيضًا بصفة الفعل ، فكان في الآية دليلان : الأول : يغفر . والثاني : غفور .

والمغفرة : اشتقاقها من الغفر ، وهو الستر ، ومنه : المغفر على الرأس ، فمغفرة الذنوب وقاية شرها وسترها ، والمصنف رحمه الله قرر في هذه المسألة ، أنه لا بد من الوقاية والستر ، فإن المغفر يستر الرأس ويقيه السلاح ، والقرآن لا يسلم أن يكون فيه عطف على متساويين- مثل اسم على اسم ، أو فعل على فعل- معناهما واحد ، وهو نزل بأفصح اللغات ، وإلا بعض أناس يظن أن فيها عطفًا مرادفًا محضًا على مرادفه بمعانيه الكلية الكاملة ، وهذا ذكره شيخ الإسلام في « الإيمان الكبير » في العطف .

وقوله : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ : هذه فيها إثبات صفة العزة ، وهي مدلول اسمه تعالى العزيز . العزة : تطلق ، ويراد بها القوة والغلبة .

وقوله عن إبليس : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ : فيها إثبات صفة العزة ، وهي مدلول اسمه العزيز .

وقوله : ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ : ﴿تَبَارَكَ﴾ ؛ أي : بلغ في البركة النهاية والغاية ، والنفع والسعة ، والبركة : هي كثرة النفع .

وفي هذه الآية إثبات الأسماء للَّه سبحانه ، والمراد بالاسم : جنس جميع الأسماء ، فإنه مفرد مضاف إلى معرفة ، فشمل وعم جميع الأسماء ، فدل على أن للَّه سبحانه أسماء ، وأنها بلغت في كثرة النفع والخير للغاية ، وفيها إثبات صفة الجلال والإكرام للَّه سبحانه وتعالى .

وقوله : ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ : هذه الآية فيها أنه لا سمي له ، استفهام بمعنى النفي العام ؛ أي : لا أحد يستحق لاسمه ، ولا مساوي له ، ولا مسامي . هذا من النفي العام .

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ :الكفو : المساوي ، لم يكن له مساويًا أحد ؛ لكماله تعالى في ذاته وأسمائه وصفاته ، وهذا من النفي العام مراد منه الكمال ، فهو مقصود لغيره ، بخلاف الإثبات المفصل ؛ فإنه مقصود لذاته ، وتقدم ، وهذه طريقة الكتاب العزيز في النفي- النفي المجمل- نفي ما

لا يليق بالله نفيًا مجملًا .

وقوله : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ : الند : المثل والشبيه ، هذا من النفي المجمل ؛ يعني : لا مثل له ولا نظير .

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ : ﴿أَندَادًا﴾ : أشباهًا ونظراء ، إنكار على الناس الذين يتخذون الأنداد مع الله ، فهذه الآية من النفي المجمل ، وكذلك نظائرها كقوله : ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ ، وقوله : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ .

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ : هذه الآية يقال لها : آية العز . وجاء في بعض الأخبار أو الآثار : أن البيت الذي تقرأ فيه هذه الآية ؛ يأمن أهله من السراق .

هذه الآية فيها إثبات جميع الحمد لله سبحانه ؛ لذاته ولأسمائه وصفاته ، وعلى قضائه وقدره ، واستحقاقه للحمد سبحانه يفيد أنه متنزه عن جميع النقائص ؛ إذ يستحيل ثبوت الحمد لمن ليس كذلك .

﴿الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ : إلى آخر الآية ، كل جملة من جملها من النفي المجمل ، ففيه نفي الولد لمنافاة ذلك لكمال صمديته وغناه سبحانه ؛ فإنه الغني بذاته عن كل ما سواه .

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ : فيه نفي الشريك في الملك ؛ لمنافاته لوحدانيته سبحانه .

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ : ليس له من خلقه أولياء يتعزز بهم من ذلة ، ولا يتكثر بهم من قلة ، كما يكون للمخلوق ولي يعزه وينصره ، فهو الغني عن ذلك كله الولي الناصر ؛ يعني : لا يحتاج لأنصار ينصرونه من الذل- سبحانه- وإنما اتخذ أولياء من أهل طاعته ، لكن لا من الذل ، وهو والأهم ؛ بأن هداهم إحسانًا منه تعالى ، وهم والوه بالذل والخضوع .

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ : كبره : عظمه . تكبيرًا : تعظيمًا . وهذا يفيد أنه الكبير الذي لا أكبر منه تعالى ، وفيه وصفه بالكبرياء والعظمة ، فهو أكبر من كل شيء ، وأعظم من كل شيء ، وفيه آكدية تعظيمه وإجلاله .

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ : يسبح ؛ منها ما هو تسبيحه بلسان الحال ، ومنها ما هو بلسان المقال ؛ كما قال تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ فجميع الكائنات ناطقة بتسبيحه وتمجيده .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

متصف بصفات الكمال ، متنزه عن جميع النقائص والعيوب .

﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ : هذا فيه إثبات الملك المطلق لله سبحانه من جميع الوجوه ، وفيه إثبات صفات الكمال ؛ إذ يستحيل ثبوت الملك لمن ليس كذلك .

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ : هذا فيه إثبات الحمد لله .

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ : هذا فيه إثبات القدرة لله سبحانه على جميع المخلوقات- الموجودات والمعدومات والممكنات أن توجد- فهيَ مشمولة بقدرته ، وقول بعض العلماء كما يذكره ابن كثير : « إنه على ما يشاء قدير » . ذهول منه ، وبعض المبتدعة ينكر قدرته إلا على ما يشاء ، وأما ما لا يشاء فلا ، وقد ورد المصنف وبين بطلان ما ادعوه بالبراهين الواضحة القاطعة ؛ كهذه الآية ونظائرها ، من أنه سبحانه على كل شيء قدير ، مما يريده ومما لا يريده .

والقدرة والعلم من أشمل صفاته سبحانه وتعالى ، فما من شيء إلا وهو مشمول بالعلم ، وهو أشمل من القدرة ، فالعلم يشمل العلم بالذات وبالأسماء والصفات وبالمخلوقات ، فهو أعلم بنفسه وبغيره ، والقدرة تشمل جميع المخلوقات ، ولا تشمل الذات والأسماء والصفات ؛ لأنها لا تقبل تصريفًا ولا تبديلًا ، وهذا مستثنى بالعقل .

وقوله : ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَـدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ : ﴿تَبَارَكَ﴾ : تعاظم ، بلغ في البركة نهايتها وغايتها ، والبركة : كثرة النفع وكثرة الخير ؛ يعني : بلغ فيها النهاية ، وهذه الصيغة « تفاعل » جاءت في القرآن مطردة في حق الله تعالى خاصة ، فلا يجوز إطلاقها على المخلوق ، فلا يقال : تباركت علينا ، ونحو ذلك ، فإن الله هو المتبارك والعبد هو المبارك .

﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ : هذا أحد أسماء القرآن ، وسمي فرقانًا ؛ لفرقه بين الحق والباطل .

﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ ؛ يعني : محمدًا ، هذه هي العبودية الخاصة ، وذلك أن أشرف حالات العبد ما يكون فيه طاعة خالقه وموجده ، فإن شرف المخلوق بطاعة خالقه .

﴿لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ : للخلق ، وهم الثقلان .

﴿نَذِيرًا﴾ : للذين فيهم أهلية للنذارة وأهلية للتكليف .

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ : هذا فيه تفرده بملك السماوات والأرض ، فيفيد اتصافه بصفات الكمال ، وتنزهه عن جميع النقائص والعيوب .

﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَـدًا﴾ : نفي الولد لمنافاته صمديته تعالى .

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ : نفي الشريك لمنافاته لوحدانية الباري جل جلاله .

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ : فيه تفرده بخلق كل شيء .

﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ : هيئة تهيئة كل شيء على ما يناسبه ويشاكله ، فأول ما خلق اللَّه القلم قال له : اكتب . قال : رب ، وما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة . فأفادت هذه الآية الإيمان بالقدر .

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ : هذا فيه نفي الولد عن اللَّه ، ونفي الإله مع اللَّه ، نفي الولد عن اللَّه لمنافاة الولد لصمديته ، و« ولد » نكرة في سياق النفي ، وقد دخلت عليها « من » ؛ فصار من أبلغ النفي .

﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ﴾ : لجميع المخلوقات ، ﴿إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾ لو قدر- تعالى اللَّه وتقدس- أن مع اللَّه إلها ثانيًا لهذا الوجود ويستحق أن يعبد ؛ للزم أن يذهب كل إله بما خلق ، لا تتحد ولا تتفق إرادتهما ، ولو اتفقت وقتًا ما ؛ ما اتفقت إلى الأبد ، كما قال تعالى : ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ .

﴿وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ : وللزم من ذلك أن يعلو بعضهم على بعض ، فلما كان الوجود خاليًا من هذا ؛ تبين أن اللَّه هو المستحق أن يفرد بالعبادة ، وهذه الآية سيقت لتقرير توحيد الألوهية والعبادة ، وأن اللَّه هو المستحق أن يعبد وحده دون كل من سواه ، كما قرره الشيخ تقي الدين وتلميذه ابن القيم .

وزعم طائفة من المتكلمين : أنها سيقت لنفي التمانع ، والصحيح : أن دليل التمانع عقلي ، وأن الآية لم يقصد بها ذلك ، وإنما كان المقصود بها إفراد اللَّه بالعبادة ، وإن كان يلزم من ذلك ويقتضي صحة التمانع من ضمنها ، ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾) .

﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ : هذا فيه منع ضرب الأمثال للَّه سبحانه وتعالى ، فيفيد أنه تعالى لا مثل له ؛ إذ لو كان له مثل- تعالى اللَّه وتقدس عن ذلك علوًّا كبيرًا- لما نهى عن ضرب الأمثال له ، فلما نهى عن ضرب الأمثال له ؛ علم أنه سبحانه لا مثل له ، وهذا من أعظم ضروريات العقل ، أنه لا يماثله شيء من خلقه تعالى .

وقوله : ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ : هذه الآية الكريمة جمعت أصول المحرمات متنقلًا فيها من الأدنى إلى الأعلى ؛ فأدنى المحرمات ﴿ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ ، ثم ﴿ٱلۡإِثۡمَ﴾ وهو أعظم الفواحش ، ﴿وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ وهو أعظم من الإثم ، ﴿وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ وهو أعظم من البغي بغير الحق ، ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ هذا أعظم من الشرك ، وإنما كان

أعظم ؛ لأنه يستلزم الشرك وزيادة .

فأعظم المحرمات : القول على الله بلا علم ، وإذا عرفت أنه أعظم هذه المحرمات ، فالقول على الله بلا علم أقسام :

شَيْءٍ القول على الله بلا علم في أوامره ونواهيه ، وشرعه ، ودينه ، وتحليله وتحريمه .

شَيْءٍ والقول عليه بلا علم في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله .

فالقول على الله بلا علم في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، أعظم من القول عليه بلا علم في أوامره ونواهيه ، وشرعه ودينه ، وتحليله وتحريمه ، وأعلى مرتبة في التحريم ، وإن كان في الثاني ما يرجع إلى تنقصه في أسمائه وصفاته ، ومعلوم أن من أثبت للّه صفة ، أو اسمًا ما أثبته لنفسه ، أو نفي عنه ما اتصف به ، فهو قائل عليه بلا علم ، وهو مخالف للكتاب والسنة والشرع والقدر ، كاذب ، ضال عن الصراط المستقيم ، فإن قوى العباد لا تقدر أن تصل إلى شيء من ذلك بعقولها ولا بأفهامها ، ولا طريق إلى ذلك إلا بالكتاب والسنة ، والسالم الناجي يوم القيامة ، هو الناطق بما نطق به الكتاب والسنة والواقف حيث وقفا . فنؤمن بما جاء عن الله وبما جاء عن رسول الله ، نؤمن باللفظ والمعنى جميعا ، ونعتقده حقيقة على ما يليق بجلال الله وعظمته .

وبهذا تعرف أن طائفتي الضلال والانحراف من نفاة الصفات هم أعظم القائلين على الله بلا علم ، سواء بجحد أو تعطيل ، أو تكييف أو تمثيل ، وإنما سلم من القول على الله بلا علم ، من اتبع النبي الكريم ، وأصحابه والتابعين ، المقتفين لهديه الكريم .

وقوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ : في سبعة مواضع كل واحد فيه التصريح باستواء الله على العرش ، وهو من أدلة علو الرب وفوقيته ، وفسر السلف ﴿ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ بأربعة أشياء : بـ « علا » ، وبـ « ارتفع » ، وبـ « استقر » ، و« صعد » ، ولم يجيء في الكتاب والسنة أنه استوى على مخلوق آخر ، أو على المخلوقات جميعها ، بل ما جاء إلا خاصًا بالعرش ، فدل على إثبات الاستواء على العرش ، لا كاستواء المخلوقين ، وكنه ذلك وكيفيته إلى الله ، قال مالك رحمه الله لما أتاه رجل فسأله ، فقال : استوى ! كيف استوى ؟ فقال : « الإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » . ثم أمر بإخراجه عنه ، وقال : « أراك رجل سوء – يعني : مبتدع – أخرجوه عني » . وهذا مثله لشيخه ربيعة ، وروي عن أم مسلم رضي الله عنها موقوفًا عليها ، وروي مرفوعًا إلى النبي ﷺ ، والموقوف أصح ، وهذا له بالحرف والمعنى ، وهو لجميع أئمة أهل السنة السلف والخلف بالمعنى ؛ كالإمام أحمد ، والليث بن سعد ، وإسحاق بن راهويه .

وقوله : « معلوم » ؛ أي : لفظه ومعناه من كلام العرب الذي نزل القرآن بلغتهم ، وليس المراد

بمعرفة لفظه ومعناه ، أن هذه الأحرف مجتمعة ، معلومة الاجتماع وأن تركيبها كذا ، « والكيف مجهول » علمه وحقيقته موكولة إلى اللَّه لا يعلمه الخلق ، ولا يصلون إليه لا شرعًا ولا قدرًا ، بل لا يليق أن تصل قوى البشر أن يحيط المخلوق بكنه الخالق ؛ بل هو سبحانه يعلم ولا يحاط به علمًا ، نعلمه بما أعلمنا ، وأما إدراكه على ما هو عليه فلا ، بل ممنوع التفكر في ذلك وعبث ، فمنع « كيف » في صفات اللَّه كمنع « لم » في أفعال اللَّه ، منع « كيف » بقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ، ومنع « لم » بقوله : ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ .

ونعرف هذا في الذات ونعرفه في الصفات ، ونقول : معنى الرضا والغضب والمحبة ونحو ذلك معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، فإذا عرفت أنه جاء استواؤه تعالى على العرش مطردًا في النصوص في القرآن والسنة ، ولم يجيء استواؤه على غير العرش ولا في موضع واحد ، وتفطنت لذلك وتنبهت له ؛ عرفت صحة قول أهل السنة والجماعة في ذلك . هذا دليل واضح لأهل السنة والجماعة ، في أنه استوى على العرش حقيقة على ما يليق بجلاله وعظمته .

وقد حرفت الجهمية وألحدت وقالوا : استولى على العرش . وزعموا أن هذه النصوص لا تدل إلا على الاستيلاء ، فزادوا لامًا كما زادت اليهود نونًا .

ويقال لهؤلاء المبتدعة : الاستيلاء مشترك بين المخلوق والخالق ، ثم أيضًا الاستيلاء لا يكون إلا لمن كان مغلوبًا ثم غلب ، وهذا لا يجوز في حق اللَّه تعالى ، فإنه ليس مغلوبًا- تعالى على عرشه- حتى يقهر من غلبه ويستولي عليه ، وإنما يقال هذا في حق المخلوق المغلوب على الشيء .

ثم يقال لهؤلاء المبتدعة : أتثبتون استيلاء من جنس استيلاء المخلوقين ؟ فإن قالوا : نعم . قيل لهم : شبهتم . وهم لا يقولون ذلك ، وإن قالوا : لا كاستيلاء المخلوقين . فيقال لهم : لم لا تقولون استواء يليق بجلال اللَّه وعظمته ، وتلجئون إلى ما أتى به الكتاب والسنة وتسلمون من التشبيه ؟ !

وهذا خذه معك في جميع الصفات ، كالإرادة ، فإنه ما من محذور يظنه المبتدع ، إلا ويقع في مثله ونظيره ، أو شر مما فر منه وأشد ، ولو قصد التنزيه .

وهذه الآيات السبع على قسمين :

منها : ما فاعل الاستواء فيها ضمير مستتر « هو » يعود على اللَّه سبحانه ؛ يعني : ربكم .

ومنها : ما هو اسم مظهر مرفوع ، وهو في آية الفرقان « الرحمن » ، والسر في ذلك- واللَّه أعلم- أن العرش أوسع المخلوقات ، ورحمته وسعت كل شيء ، فاستوى بأوسع صفاته على أوسع مخلوقاته .

في سورة « الأعراف » قوله : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ : وتعرف أن الإتيان بـ « ثم » على بابها ، وقد حاول بعض المبتدعة ألَّا يجعلها على

بابها ، فالاستواء أمر زائد على مطلق العلو ، ومطلق العلو دل عليه السمع والعقل . والاستواء دل عليه السمع فقط ، وهو صفة فعل زائد على مطلق العلو ؛ فإن العلو أقسام ثلاثة : علو الذات على جميع المخلوقات ، وهو صفة فعل كما تقدم . والثاني : علو القدر والشرف . والثالث : علو السلطان والقهر والغلبة . وله سبحانه العلو بجميع الوجوه .

وقال في سورة « يونس » عليه السلام : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ . وقال في سورة « الرعد » : ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ . وقال في سورة « طه » : ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ . وقال في سورة « الفرقان » : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ﴾ : ثم السر في اختصاص العرش بالاستواء ، وذكر فاعل الاستواء باسم الرحمن ، لأمرين : سعة الرحمة ، وسعة العرش . وقال في سورة « ألم السجدة » : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ . وقال في سورة « الحديد » : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ . والاستواء على العرش نوع من أنواع العلو ، وهو أخص منه ، وطرق إثبات العلو واحد وعشرون طريقًا ، ذكرها ابن القيم في النونية :

أحدها : العقل الصريح .

والثاني : نصوص الاستواء على العرش ، ويشير المؤلف إلى بعضها قريبًا .

وكل دليل من أدلة العلو تحته أفراد أدلة ، منها ما يبلغ مائة من الكتاب والسنة ، وأقلها يبلغ إلى خمسة أدلة أو ستة ، فجميعها يبلغ ألف دليل ، وكلها نصوص تدل على أنه فوق مخلوقاته على عرشه ، من غير تكييف ولا تمثيل ، كما قال ابن المبارك رحمه الله لما سئل : بماذا نعرف ربنا ؟ قال : « بأنه فوق سماواته على عرشه ، بائن من خلقه » . وكل دليل يصلح للاستواء ، فهو دال على العلو ، ولا عكس .

وقوله : ﴿يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ : هذا من جملة نصوص العلو ، إثبات علو الرب وفوقيته ، لا يكون إلا من أسفل إلى فوق- من الأدنى إلى الأعلى- و﴿وَإِلَيَّ﴾ للانتهاء .

﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ : كذلك هذه الآية مثلها .

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ : هذه دالة على علو الرب وفوقيته من جهتين :

الأولى : قوله : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ﴾ والصعود لا يكون إلا من الأسفل إلى الفوق .

والثاني : قوله : ﴿يَرْفَعُهُ﴾ فمن قال كلامًا طيبًا ، وشفعه العمل الصالح ، فإنه يرفعه العمل الصالح إلى الله ، فدل على أن الله في العلو ، فهذه ثلاث نصوص من أحد وعشرين .

وقوله : ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ * أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾ : ﴿يَٰهَٰمَٰنُ﴾ وزيره ، ﴿ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا﴾ الصرح : هو البناء المرتفع ، ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ﴾ وأصل ﴿ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾ الطرق ، ﴿أَسۡبَٰبَ﴾ طرق ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ﴾ فأشرف وأنظر ، ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ هذا من حماقة فرعون وجهالته ، ينكر ما جاء به موسى جملة ، وينكر ربه ، وينكر علوه ، وهذا كذب منه وتلبيس به على رعاياه من غير إتيان ببرهان ، فهو إمام الجهمية والمعتزلة وفروعهم ، كما أن إمام أهل السنة سيد المرسلين ، ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾ كذب موسى ، وهو الكاذب الجبار الجاحد الكافر ، وموسى عليه السلام هو البار الصادق ، وإنما قال ذلك ؛ لأن موسى أخبره أن معبوده فوق السماوات ، فقال ذلك مكذبًا لما قاله موسى ، فإن فرعون معطل جاحد ، ولهذا قال : ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ ، وهذا يفيد أن موسى عليه السلام بين أن معبوده فوق السماوات .

فعرفت أن إثبات العلو هو مسلك المرسلين وأتباعهم الصالحين ، وجحده مذهب فرعون اللعين وأتباعه الجهميين الضالين ؛ لأنه يرجع إلى لا شيء .

وقوله : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ : استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع لمن أمن ذلك ، أن يعاقب على كفره ، ﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ : هاتان الآيتان فيهما إثبات علو الرب وفوقيته ، فإن ﴿فِي﴾ في الآيتين إما أن تكون بمعنى « على » ، كما في قوله : ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ ؛ أي : على جذوع النخل ، وكقوله : ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ؛ أي : عليها ، فالمعنى : آمنتم من على السماء . وإن كانت على بابها وهي الظرفية ، فيكون المراد بالسماء العلو ، فاللَّه في العلو المطلق ، وقد سئل ابن المبارك : بماذا نعرف ربنا ؟ فقال : « بأنه فوق سماواته على عرشه ، بائن من خلقه » .

قد تقدمت نصوص الاستواء ، وكذلك نصوص العلم ، ومقصوده بسياق هذه الآيات إثبات صفة المعية ، وأن اللَّه مع خلقه معية حقيقية تليق بجلال اللَّه وعظمته ، والمعية : عامة ؛ ومقتضاها : العلم والقدرة ، والإحاطة والاطلاع . وخاصة ؛ ومقتضاها : مقتضى المعية العامة والحفظ والتأييد ، والكلاءة والنصر ، فهي تقتضي ما تقتضيه العامة وزيادة .

وقوله : ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ : هذه الآية فيها إثبات صفة المعية العامة ، أن اللَّه مع خلقه حيث ما كانوا على المعنى الذي يليق بجلاله .

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ

أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ : هذه كالتي قبلها في إثبات صفة المعية العامة ، وفيها إثبات صفة العلم ، وابتدأ به واختتمت به ، وسيقت لمقتضاها ؛ وهو العلم ، والدليل على أن هذا مقتضاها : كونها مبدوءة بالعلم ومختتمة به ، كما أن من مقتضاها القدرة والاطلاع ، ونحو ذلك .

وتطلق في حقه تعالى ولا تقتضيَ امتزاجًا ولا اختلاطًا أبدًا ، وليس معيته تعالى مع خلقه كمعية الخلق بعضهم مع بعض ، واختلاط بعضهم ببعض ،- تعالى اللّه وتقدس عن أن يشابهه شيء من خلقه- ، فكما نقول : إن للّه صفات تليق بجلاله وعظمته مختصة به ، لا يشركه فيها أحد ، ولا يشاكله فيها أحد ، فكذلك نقول في المعية ، والذي حمل بعض السلف على تفسيرها ببعض مقتضاها :

أولًا : أنهم ابتلوا بمن ينفي العلو ، ويقول : إنه ممتزج بالخلق ، ففسروها بالعلم ، ردًّا على الحلولية من الجهمية الذين زعموا أنه في كل مكان ، وأنكروا علوه على خلقه واستواءه على عرشه . فهذا الذي من أجله قالوا بعلمهن وإلا فمعنى المعية عندهم واضح كالشمس .

ثانيًا : أن التفسير بالمقتضى سائغ ، ووجه من أوجه التفسير .

وأهل وحدة الوجود الذين يقولون : إن الوجود واحد ، ليس فيه خالق متميز عن مخلوق ، هم وأهل الاتحاد شيء واحد ، وهم أعظم من أهل الحلول . أهل الحلول يقولون : هنا إله ، لكنه حل في المخلوقات- والعياذ بالله- ويأتي فصل في بيان الجمع بين العلو والمعية .

وقوله : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ : هذه الآية فيها إثبات المعية الخاصة ، ومقتضاها الحفظ والكلاءة ؛ يعني : ولا يترك الأعداء يتولونا ، بل يتولانا ويكلؤنا ، فمقتضاها مقتضى العامة وتزيد على ذلك بما سيقت له وخص بها ، وهي النصر والكلاءة ، والحفظ والتأييد ، ونحو ذلك كما تقدم .

وقوله : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ ؛ يعني : موسى وهارون ، وهذا من المعية الخاصة أيضًا .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ : هذه مثل ما تقدم ، فيها إثبات المعية الخاصة أيضًا .

﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ : هذا فيه إثبات المعية الخاصة أيضًا .

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ : هذا مثل ما تقدم ، فيه إثبات المعية الخاصة أيضًا ، معية تليق بجلال اللّه وعظمته ؛ كونه مع أهل القيام بما أمر به من الصبر والطاعة ، وغير ذلك بحسب مواطنها ، فإنها في الآيات كما بين ذلك ، وتقدم بيان مقتضاها ،

فالمعية في النصوص معيتان :

عامة : كما في آية « الحديد » ، و« المجادلة » .

وخاصة : كما في هذه الآيات ونظائرها .

وكلا المعيتين لا تقتضي الامتزاج والاختلاط ، فهو تعالى على العرش حقيقة ، ومع خلقه حقيقة ، أما القرب فلم يرد إلا خاصًا ، وهو قربه من عابديه وسائليه فقط ، كما ورد في النصوص .

وقوله : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ : فيه إثبات صفة الكلام ، وأن اللَّه متكلم حقيقة ، وفيه تسميته بالحديث ، وهو مثل القول .

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ : فيه إثبات صفة الكلام ، وتسميته « قيلا » ، وأن للَّه « قيلا » .

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ : فيه إثبات أن اللَّه قال ، فأسند القول إلى فاعله ، وهو من صدر منه القول ، فإنه قال ويقول .

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ : فيه إثبات صفة الكلام ، الكلمة في لغة العرب لا تطلق إلا على الجملة المفيدة .

﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ : فيه إثبات صفة الكلام ، ﴿تَكْلِيمًا﴾ : مصدر مؤكد لعامله ، ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ﴾ : وهو يرجع إلى التأكيد اللفظي ؛ لرفع توهم غير إرادة الحقيقي ، والأصل في الكلام هو الحقيقة ، ولا يصار إلى المجاز إلا لموجب ، وأن اللَّه تعالى كلم موسى كلامًا حصل من اللَّه تعالى وسمعه موسى ، فدل على أن اللَّه كلم موسى حقيقة ، وأنه سمع كلام اللَّه حقيقة .

وقد حاول بعض الجهلة المبطلين المنكرين لكلام اللَّه ، أن تكون القراءة بالنصب ؛ يريد أن يكون موسى هو الذي كلم اللَّه ، وأن يكون اللَّه غير مكلم ، وقاله لأحد أهل السنة فقال له : ما تصنع بقوله : ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ ؛ لأن قواعد العربي تأبى ذلك ، فبهت الجاهل ، فهو ظاهر في أن اللَّه هو المتكلم وأن موسى هو المكلم ، فهذه الآية لا يتمكن الجهمي من تحريفها .

﴿مِنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾ : فيه إثبات صفة الكلام أيضًا .

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ : فيه إثبات صفة الكلام للَّه سبحانه على ما يليق بجلاله وعظمته .

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ : هذه الآية فيها إثبات صفة الكلام من وجهين :

الأول : قوله : ﴿وَنَادَيْنَاهُ﴾ ، والنداء نوع من أنواع الكلام وهو من بعد .

والثاني : قوله : ﴿نَجِيًّا﴾ ، وهو نوع من الكلام ، وهو يكون من قرب ، وكل جاء في القرآن ، جاء الكلام مطلقًا وجاء النداء والنجاء .

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ : فيه إثبات صفة الكلام .

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ : فيه إثبات صفة الكلام .

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ، وكذلك قوله : ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ : فيه إثبات صفة الكلام للّٰه سبحانه وتعالى على ما يليق بجلاله وعظمته من غير تمثيل .

ومذهب أهل السنة والجماعة أن اللّٰه موصوف بالكلام ، وأنه متعلق بمشيئته وقدرته ، لم يزل متكلمًا إذا شاء ، ومتى شاء ، فكما أنه تعالى لا يشبهه شيء من مخلوقاته في ذاته ولا في أسمائه وصفاته ، فكذلك في كلامه .

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ : المراد به القرآن ، فيه إثبات صفة الكلام ، وفيه إضافة الكلام إلى اللّٰه ، والكلام إنما يضاف إلى من قاله مبتدئًا ، لا إلى من قال وبلغ مؤديًا ، الإضافة إنما تكون لمن صدر منه الكلام ، وجاء ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وإضافته إلى الرسول إضافة تبليغ .

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ : فيه إثبات صفة الكلام كالتي قبلها ، فدل على أنه كلام اللّٰه حقيقة حروفه ومعانيه ، بدليل ما في هذه الآية أنهم يحرفون اللفظ والمعنى .

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ﴾ : فيه إثبات صفة الكلام ، وفيه إضافته إلى اللّٰه ، فدل على أن القرآن العزيز كلام اللّٰه حروفه ومعانيه ، ليس كلام اللّٰه الحروف دون المعاني ، ولا المعاني دون الحروف .

هذه آيات ثلاثة فيها إضافته إلى اللّٰه ، والقرآن نزل بلغة العرب ، إذا أضيف الكلام إلى أحد فإنه يدل على أنه أول من قاله .

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ : فيه إثبات صفة الكلام ، وفيه أن القرآن متلو ، وأنه كلمات .

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ : فيه إثبات صفة الكلام . ﴿هَٰذَا﴾ : إشارة إلى القرآن الموجود أنه كلام اللّٰه حروفه ومعانيه ؛ إذ الإشارة إلى الجميع ، والقرآن هو ما بين الدفتين ، المنزل على رسول اللّٰه ﷺ ، المحفوظ في صدور المسلمين ، الذي يتلوه من حفظه من المسلمين ، المسموع بالآذان ، فالإشارة إلى مراتبه كلها موجود محفوظ متلو مسموع ، فالقرآن له أربع نسب : متلو ، ومسموع ، ومكتوب ، ومحفوظ ، وكل واحدة من هذه النسب لا

تخرجه عن أن يكون كلام الله حروفه ومعانيه .

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ : كذلك ، هذه إشارة إلى القرآن حروفه ومعانيه ، وفيه أن القرآن منزل غير مخلوق ، وفيه الدلالة على علو الله وفوقيته .

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ : الإشارة إليه بجميع مراتبه كلها ، وإلى حروفه ومعانيه .

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ الآيات دال على أنه منزل ، وجاء في القرآن تسميته سورًا ، كما في قوله : ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ الآية . وجاء في هذه الآية وغيرها أنه آيات وكلمات وحروف ، كما في قوله ﷺ : « من قرأ القرآن فأعربه ، فله بكل حرف عشر حسنات ....» الحديث[1] . فدل على أن القرآن كلام الله : السور والآيات والكلمات ، والحروف والمعاني .

وقوله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ : ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ - بالضاد - من النضارة ، وهي الحسن ، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ من النظر ، وهو المعاينة ، يراه المؤمنون في الجنة ولا يحيطون به رؤية لعظمته وجلاله ، كما أنه يعلم ولا يحاط به علمًا ، وقوله : ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ معناه : لا تحيط به ، ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم ، ففيه إثبات صفة النظر إلى الله تعالى عيانًا بالأبصار ، وهو أعظم لذة في الجنة .

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ : الأرائك : جمع أريكة ؛ يعني : في مجالسهم ينظرون إلى ربهم - من النظر ، وهو المعاينة - فلا نعيم ينظر إليه ، ولا سماع ألذ من سماع كلامه ونظره تعالى ، كما جاء في الحديث : « اللهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك »[2] ، كما أنهم كانت أعظم لذتهم في الدنيا سماع كلامه ، وكما رأته عين بصائرهم في الدنيا حتى كأنهم يرونه على ما يليق بجلاله وعظمته من غير تمثيل ، والكفار ما رأته عين بصائرهم في الدنيا ، فكذلك في الآخرة لا تراه أعين أبصارهم ، فأهل الشقاء في جحيم الدنيا قبل جحيم الآخرة ، وأهل الإيمان في جنة في الدنيا وفي الآخرة .

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ الزيادة : هي النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى .

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ : والمزيد : هو النظر إلى وجه الله تعالى ، ومن قال : إن الزيادة

---

(١) الطبراني في « الأوسط » (٧٥٧٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، ويُنظر : « السلسلة الضعيفة » للألباني (٢٣٤٨) .

(٢) النسائي (١٣٠٥) ، والحاكم (٥٢٤/١) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه ، ويُنظر : « صحيح الجامع » للألباني (حديث رقم : ١٣٠١) .

على حسب الأعمال فلا منافاة بينهما ؛ لأن أعلى المزيد هو النظر إلى وجه الله تعالى .

ففي هذه النصوص الأربعة إثبات الرؤية ، فدل على أن المؤمنين يرونه في الجنة ، ويرونه في عرصات القيامة كما يشاء الله .

« وهذا الباب » باب الآيات المشتملة على الصفات ، « في كتاب الله » القرآن ، « كثير ، ومن تدبر القرآن طالبًا للهدي به ؛ تبين له طريق الحق » ، ولا أراد أن هذا الذي سيق وأثبت لإثبات الصفات هو الذي في القرآن كله ، بل في القرآن آيات كثيرة غير محصورة هنا ، ساق المصنف منها طرفًا صالحًا ، وهو كثير بالنسبة إلى هذه العقيدة المختصرة .

ومع أن هذه وجيزة مختصرة ، فقد أتى بنوع كثير منها ، وله غرض في الإكثار من الآيات :

أولًا : أنه يصير من محفوظاته غير حفظه للقرآن .

ثانيا : أهل البدع أثقل شيء عليهم سماع نصوص الصفات .

❁ قال الشيخ زيد بن عبد العزيز آل فياض رحمه الله :

قوله : « وقد دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه في « سورة الإخلاص » التي تعدل ثلث القرآن ، حيث يقول : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١- ٤] » .

* الإشارة في قوله : هذه الجملة يعني التي تقدمت من قوله : وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات .

وقد روى أحمد في « مسنده » عن أبي بن كعب في سبب نزول هذه السورة : أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : يا محمد ، انسب لنا ربك . فأنزل الله هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[1] ، وزاد الطبري في روايته : قال : « الصمد الذي لم يلد ولم يولد ؛ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت وليس شيء يموت إلا سيورث ، وأن الله ﷻ لا يموت ولا يورث ولم يكن له كفوًا أحد ، ولم يكن له شبيه ولا عدل ، وليس كمثله شيء » .

وقال قتادة والضحاك ومقاتل : « جاء ناس من أحبار اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا : يا محمد ، صف لنا ربك لعلنا نؤمن بك ، فإن الله أنزل نعته في التوراة فأخبرنا من أي شيء هو ؟ ومن أي جنس ؟ أمن ذهب أم من نحاس هو أم من صفر أم من حديد أن من فضة ؟ وهل يأكل ويشرب ؟ ومن ورث الدنيا

---

(١) مسند أحمد (٢٠٧٠٧) ، وإسناده ضعيف .

ومن سيورثها ؟ فأنزل اللَّه هذه السورة ، وهي نسبة اللَّه خاصة »[١] . وقيل في سبب نزولها غير هذا .

وسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن ، والأحاديث بذلك تكاد تبلغ مبلغ التواتر ؛ فقد روى البخاري في « صحيحه » عن أبي سعيد أن رجلًا سمع رجلًا يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يرددها ، فلما أصبح جاء إلى رسول اللَّه ﷺ فذكر ذلك له وكأنه الرجل يتقالها ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن »[٢] .

وفي البخاري عن أبي سعيد أيضًا أن النبي ﷺ قال : « أيعجز أحدكم أن يقرأ القرآن في ليلة ؟ فشق ذلك عليهم وقالوا : أينا يطيق ذلك يا رسول اللَّه ! فقال : اللَّه الواحد الصمد ثلث القرآن »[٣] .

وعن عائشة في شأن الرجل الذي بعثه النبي ﷺ في سرية ، فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختمهم بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ، فأخبروا النبي ﷺ فقال : « سلوه لأي شيء صنع ذلك ؟ » . فسألوه ، فقال : لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها . فقال النبي ﷺ : « أخبروه أن اللَّه يحبه » . رواه البخاري ومسلم[٤] .

والأحاديث في فضلها كثيرة جدًّا قال الدارقطني : لم يصح فضل سورة أكثر مما صح في فضلها . اهـ .

« والثناء أفضل من الدعاء » ولهذا كانت سورة « الإخلاص » تعدل ثلث القرآن ؛ لأنها أخلصت لوصف الرحمن ، وفي كونها تعدل ثلث القرآن وجوه أحسنها : أن معاني القرآن ثلاثة أنواع : توحيد وقصص وأحكام وهذه السورة صفة الرحمن فيها التوحيد وحده وذلك ؛ لأن القرآن كلام اللَّه ، والكلام نوعان : إما إنشاء وإما إخبار ، والإخبار إما خبر عن الخالق وإما خبر عن المخلوق ، فالإنشاء هو الأحكام كالأمر والنهي ، والخبر عن المخلوق هو القصص ، والخبر عن الخالق هو ذكر أسمائه وصفاته ؛ وليس في القرآن سورة هي وصف الرحمن محضًا إلا هذه السورة .

والتوحيد نوعان : علمي قولي ، وعملي قصدي ؛ فـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ اشتملت على التوحيد العملي القولي نصًّا ، وهي دالة على التوحيد العلمي لزومًا ، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ اشتملت على التوحيد العملي القولي نصًّا ، وهي دالة على التوحيد العملي لزومًا ، ولهذا كان النبي ﷺ يقرأ بها في ركعتي الطواف وركعتي الفجر وغير ذلك ، وقال ابن القيم : فسورة « الإخلاص » متضمنة لتوحيد

---

(١) ضعفه الألباني في « السلسلة الضعيفة » (٥٢٠٦) .

(٢) البخاري (٥٠١٣/٦/١٨٩) .

(٣) البخاري (٥٠١٥/٦/١٨٩) .

(٤) البخاري (٧٣٧٥- ٩/١١٥) ، ومسلم (١/٥٥٧) .

الاعتقاد والمعرفة ، وما يجب إثباته للرب تعالى من الأحدية المنافية لمطلق المشاركة بوجه من الوجوه ، والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال الذي لا يلحقه نقص بوجه من الوجوه ، ونفي الولد والوالد الذي هو من لوازم الصمدية وغناه وأحديته ، ونفي الكفؤ المتضمن لنفي التشبيه والتمثيل والتنظير ، فتضمنت هذه السورة إثبات كل كمال له ونفي كل نقص عنه ، ونفي إثبات شبيه أو مثيل له في كماله ، ونفي مطلق الشريك عنه ، وهذه الأصول هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي الذي يباين صاحبه جميع فرق الضلال والشرك ؛ ولذلك كانت تعدل ثلث القرآن ، فأخلصت سورة « الإخلاص » الخبر عن الله وأسمائه وصفاته ثلث القرآن ، وخلصت قارئها المؤمن من الشرك العلمي ، كما خلصت سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ من الشرك العملي الإرادي القصدي . اهـ .

وتفضيل أحد الكلامين بأحكام توجب تشريفه يدل على أنه أفضل في نفسه وإلا كان ذلك ترجيحًا لأحد المتماثلين بلا مرجح ، وهذا خلاف ما عرف من سنة الرب تعالى في شرعه ، بل وفي خلقه وخلاف ما تدل عليه الدلائل العقلية مع الشرعية ، وأيضًا فقد قال تعالى : ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ ، وقال : ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ ، وقال : ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾ فدل على أن فيما أنزل حسنًا وأحسن .

والقول بأن كلام الله بعضه أفضل من بعض هو القول المأثور عن السلف ، وهو الذي عليه أئمة الفقهاء من الطوائف الأربعة وغيرهم ، وكلام القائلين بذلك كثير مُنتشر في كُتب كثيرة .

والمقصود أن نبين أم مثل هذا من العلم المستقر في نفوس الأمة السابقين والتابعين ، ولم يعرف قط أحد من السلف رد مثل هذا ، ولا قال لا يكون كلام الله بعضه أشرف من بعض ، فإنه كله من صفات الله ونحو ذلك ، إنما حدث هذا الإنكار لما ظهرت البدع الجهمية الذين اختلفوا في الكتاب وجعلوه عضين .

ومعلوم أن الكلام له نسبتان : نسبة إلى المتكلم به ، ونسبة إلى المتكلم فيه ، فهو يتفاضل باعتبار النسبتين ، وباعتبار نفسه أيضًا مثل الكلام الخبري له نسبتان ، نسبة إلى المتكلم المخبر ونسبة إلى المخبر عنه المتكلم فيه ، فـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ كلاهما كلام الله ، وهما مشتركان من هذه الجهة لكنهما متفاضلان من جهة المتكلم فيه المخبر عنه فهذه كلام الله وخبره الذي يخبر به عن نفسه وصفته التي يصف بها نفسه ، وهما في هذه الجهة متفاضلان بحسب المعنى المقصود بالكلامين ؛ ألا ترى أن المخلوق يتكلم بكلام هو كلامه ؟ لكن كلامه الذي يذكر به ربه أعظم من كلامه الذي يذكر به بعض المخلوقات ، والجميع كلامه ؟ .

وقد علم أن تفاضل القرآن وغيره من كلام الله ليس باعتبار نسبته إلى المتكلم ، فإنه سبحانه واحد ،

ولكن باعتبار معانيه التي يتكلم بها ، وباعتبار ألفاظه المبينة لمعانيه ؛ فإذا كانت ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن لم يلزم من ذلك أنها أفضل من الفاتحة ، ولا أنها يكتفي بتلاوتها ثلاث مرات عن تلاوة القرآن ، بل قد كره السلف أن تقرأ إذا قرأ القرآن كله إلا مرة واحدة ، كما ثبتت في المصحف ، فإن القرآن يقرأ كما كتب في المصحف لا يزاد على ذلك ولا ينقص منه ، ولكن إذا قرئت ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مفردة تقرأ ثلاث مرات وأكثر من ذلك ، ومن قرأها فله من الأجر ما يعدل ثلث أجر القرآن ، لكن عدل الشيء بالفتح قد يكون من غير جنسه ، والثواب أجناس مختلفة ، كما أن الأموال أجناس مختلفة من مطعوم ومشروب وملبوس ومسكون ونقد وغير ذلك .

وإذا ملك الرجل من أجناس المال ما يعدل ألف دينار مثلًا لم يلزم من ذلك أن يستغني عن سائر أجناس المال ، بل إذا كان عنده مال وهو طعام فهو محتاج إلى لباس ومسكن وغير ذلك ؛ وكذلك إذا كان من جنس غير النقد فهو محتاج إلى غيره ؛ وإن لم يكن معه إلا النقد فهو محتاج إلى جميع الأنواع التي يحتاج إلى أنواعها ومنافعها .

فالقرآن يحتاج الناس إلى ما فيه من الأمر والنهي والقصص ، وإن كان التوحيد أعظم من ذلك ، وإذا احتاج الإنسان إلى معرفة ما أمر به وما نهي عنه من الأفعال أو احتاج إلى ما يؤمر به ويعتبر به من القصص والوعد والوعيد لم يسد غيره مسده ، فلا يسد التوحيد مسد هذا ولا يسد القصص مسد الأمر والنهي ، ولا الأمر والنهي مسد القصص ؛ بل كل ما أنزل اللَّه ينتفع به الناس ويحتاجون إليه ، فإذا قرأ الإنسان ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حصل له ثواب بقدر ثواب ثلث القرآن ، لكن لا يجب أن يكون الثواب من جنس الثواب الحاصل ببقية القرآن ، بل قد يحتاج إلى جنس الثواب الحاصل بالأمر والنهي والقصص ، فلا تسد ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مسد ذلك ، ولا تقوم مقامه ، فلهذا لو لم يقرأ إلا ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ، فإنه وإن حصل له أجر عظيم لكن جنس الأجر الذي يحصل بقراءة ، غيرها لا يحصل له بقراءتها بل يبقى فقيرًا محتاجًا إلى ما يتم إيمانه من معرفة الأمر والنهي والوعد والوعيد .

ولو قام بالواجب عليه فالمعارف التي تحصل بقراءة سائر القرآن لا تحصل بمجرد قراءة هذه السورة ، فيكون من قرأ القرآن كله أفضل ممن قرأها ثلاث مرات من هذه الجهة لتنوع الثواب ، وإن كان قارئ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلاثًا يحصل له ثواب بقدر ذلك الثواب لكنه جنس واحد ليس فيه الأنواع التي يحتاج إليها العبد .

قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يعني : هو الواحد الأحد الذي لا نظير له ولا وزير ولا نديد ولا شبيه ولا عديل ، ولا يطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا ﷻ ؛ لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله ، وقال ابن القيم : قوله : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ توحيد منه لنفسه ، وأمر للمخاطب بتوحيده ،

فإذا قال العبد : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ﴾ كان قد وصف الله بما وصف به نفسه ، وأتى بلفظة ﴿قُلْ﴾ تحقيقًا لهذا المعنى وأنه مبلغ محض قائل لما أمر بقوله . اهـ .

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّـمَدُ﴾ : تنوعت عبارات السلف في معنى ﴿ٱلصَّـمَدُ﴾ وتقاربت في المعنى ؛ فقيل : هو السيد الذي كمل في سؤدده ، والشريف الذي كمل في شرفه ، والعظيم الذي كمل في عظمته ، والحليم الذي كمل في حلمه ، والعليم الذي قد كمل في علمه ، والحكيم الذي كمل في حكمته ، وهو الذي قد كمله في كل أنواع الشرف والسؤدد ، وهو الله سبحانه هذه صفته لا تنبغي إلا له ليس كمثله شيء وليس له كفؤ ، سبحان الله الواحد القهار ، وقيل : ﴿ٱلصَّـمَدُ﴾ الذي قد انتهى سؤدده ، و﴿ٱلصَّـمَدُ﴾ الحي القيوم الذي لا زوال له ، و﴿ٱلصَّـمَدُ﴾ الذي لم يخرج منه شيء ولا يطعم ، و﴿ٱلصَّـمَدُ﴾ الذي لا جوف له ، و﴿ٱلصَّـمَدُ﴾ نور يتلألأ .

قال الشيخ : والاسم الصمد فيه للسلف أقوال متعددة ، قد يظن أنها مختلفة وليس كذلك ، بل كلها صواب ، والمشهور منها قولان :

أحدهما : أن الصمد هو الذي لا جوف له .

والثاني : أنه السيد الذي يصمد إليه في الحوائج .

والأول هو قول أكثر السلف من الصحابة والتابعين وطائفة من أهل اللغة ، والثاني قول طائفة من السلف والخلف وجمهور اللغويين ، والاشتقاق يشهد للقولين جميعًا ؛ قول من قال : إن الصمد الذي لا جوف له ، وقول من قال : إنه السيد ، وهو على الأول أدل فإن الأول أصل للثاني ، ولفظ الصمد يقال على ما لا جوف له في اللغة .

والمقصود أن لفظ الأحد لم يوصف به شيء من الأعيان إلا الله وحده ، وإنما يستعمل في غير الله في النفي ، قال أهل اللغة : تقول : لا أحد في الدار ، ولا تقل : فيها أحد ، ولهذا لم يجيء في القرآن إلا في غير الموجب ، كقوله تعالى : ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ﴾ ، وكقوله : ﴿لَسْـتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ ، وقوله : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ ، وفي الإضافة ، ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ﴾ ، و﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ ، وأما الصمد فقد استعمله أهل اللغة في حق المخلوقين كما تقدم ، فلم يقل : الله صمد ، بل قال : الله الصمد . فبين أنه المستحق لأن يكون هو الصمد دون ما سواه ، فإنه المستوجب لغايته على الكمال ، والمخلوق وإن كان صمدًا من بعض الوجوه فإن حقيقة الصمدية منتفية عنه ، فإنه يقبل التفرق والتجزئة .

وهو أيضًا محتاج إلى غيره ؛ فإن كل ما سوى الله محتاج إليه من كل وجه ، فليس أحد صمد إليه كل شيء ولا يصمد إلى شيء إلا الله ، وليس في المخلوقات إلا ما يقل أن يتجزأ ويتفرق وينقسم

وينفصل بعضه من بعض ، واللَّه سبحانه هو الصمد الذي لا يجوز عليه شيء من ذلك ، بل حقيقة الصمدية كمالها له وحده واجبة لازمة لا يمكن عدم صمديته بوجه من الوجوه ، كما لا يمكن تثنية أحديته بوجه من الوجوه ، فهو أحد لا يماثله شيء من الأشياء بوجه من الوجوه كما قال في آخر السورة ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ استعملها هنا في النفي ، أي ليس شيء من الأشياء كفؤًا له في شيء من الأشياء ؛ لأنه أحد ، وقال رجل للنبي ﷺ : أنت سيدنا . فقال : « السيد اللَّه »[1] . ودل قوله : ﴿أَحَدٌ﴾ ، ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ على أنه لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوًا أحد ، فإن الصمد هو الذي لا جوف له ولا أحشاء فلا يدخل فيه شيء ، فلا يأكل ولا يشرب سبحانه ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ ، وفي قراءة الأعمش وغيره : ﴿وَلَا يَطْعَمُ﴾ بالفتح ، وقال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ . ومن مخلوقاته الملائكة وهم صمد لا يأكلون ولا يشربون .

فالخالق لهم جل وعلا أحق بكل غني ، وكماله جعل لبعض مخلوقاته ، فلهذا فسر بعض السلف الصمد ؛ بأنه الذي لا يأكل ولا يشرب ، و﴿ٱلصَّمَدُ﴾ : المصمد الذي لا جوف له ، فلا يخرج منه عين من الأعيان ، فلا يلد ، ولذلك قال من قال من السلف : هو الذي لا يخرج منه شيء . ليس مرادهم أنه لا يتكلم وإن كان يقال في الكلام : أنه خرج منه . فخروج كل شيء بحسبه ، ومن شأن العلم والكلام إذا استفيد من العالم والمتكلم ألَّا ينقص من محله ، ولهذا شبه النور الذي يقتبس منه كل أحد الضوء ، وهو باق على حاله لم ينقص ، فقول من قال من السلف : الصمد الذي لا يخرج منه شيء . كلام صحيح بمعنى أنه لا يفارقه شيء منه ، ولهذا امتنع عليه أن يلد وأن يولد ، وذلك أن الولادة والمتولد وكل ما يكون من هذه الألفاظ لا يكون إلا من أصلين ، وما كان من المتولد عينًا قائمة بنفسها فلا بد لها من مادة تخرج منها ، وما كان عرضًا قائمًا بغيره فلا بد له من محل يقوم به .

فالأول نفاه بقوله : ﴿أَحَدٌ﴾ فإن الأحد هو الذي لا كفؤ له ولا نظير ، فيمتنع أن تكون له صاحبة ، والتولد إنما يكون بين شيئين قال تعالى : ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ، فنفى سبحانه الولد بامتناع لازمه عليه ، فإن انتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم ، وبأنه خالق كل شيء وكل ما سواه مخلوق ليس فيه شيء مولود له .

والثاني نفاه بكونه سبحانه : ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ وهذا المتولد من أصلين يكون بجزئين ينفصلان من الأصلين ، كتولد الحيوان من أبيه وأمه بالمني الذي ينفصل من أبيه وأمه ، فهذا التولد يفتقر إلى أصل آخر وإلى أن يخرج منهما شيء ، وكل ذلك ممتنع في حق اللَّه تعالى ، فإنه أحد فليس له كفؤ يكون

---

(١) سنن أبي داود (٤/٤٠٢) ، وينظر : « مشكاة المصابيح » للألباني (حديث رقم : ٤٩٠٠) .

صاحبة ونظيرًا ، وهو صمد لا يخرج منه شيء ، فكل واحد من كونه أحدًا ، ومن كونه صمدًا يمنع أن يكون والدًا ، ويمنع أن يكون مولودًا بطريق الأولى والأخرى .

فاسمه الأحد دل على نفي المشاركة والمماثلة ، واسمه الصمد دل على أنه المستحق لجميع صفات الكمال ، وصفات التنزيه كلها ، بل وصفات الإثبات يجمعها هذان المعنيان .

والمقصود هنا : أن صفات التنزيه يجمعها هذان المعنيان المذكوران في هذه السورة :

أحدهما : نفي النقائص عنه ، وذلك من لوازم إثبات صفات الكمال ، فمن ثبت له الكمال التام انتفى عنه النقصان المضاد له ، وهذا مدلول اسمه الصمد .

والثاني : أنه ليس كمثله شيء في صفات الكمال الثابتة له ؛ وهذا من مدلول اسمه الأحد ، فهذان الاسمان العظيمان « الأحد ، الصمد » يتضمنان تنزيهه عن كل نقص وعيب ، وتنزيهه في صفات الكمال ألَّا يكون له مماثل في شيء منها ، واسمه الصمد يتضمن إثبات جميع صفات الكمال ، فتضمن ذلك إثبات جميع صفات الكمال ، ونفي جميع صفات النقص ، فالسورة تضمنت كل ما يجب نفيه عن الله ، وتضمنت أيضًا كل ما يجب إثباته من وجهين من اسمه ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ ، ومن جهة أن ما نفي عنه من الأصول والفروع ، والنظراء مستلزم ثبوت صفات الكمال أيضًا ، فإن كل ما يمدح به الرب من النفي فلا بد أن يتضمن ثبوتًا ، بل وكذلك كل ما يمدح به شيء من الموجودات من النفي فلا بد أن يتضمن ثبوتًا ، وإلا فالنفي المحض معناه عدم محض والعدم المحض ليس بشيء فضلًا عن أن يكون صفة كمال .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « قال الله ﷻ : كذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ؛ فأما تكذيبه إياي فقوله : لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته . وأما شتمه إياي فقوله : اتخذ الله ولدًا وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ، ولم يكن لي كفوًا أحد »[1] .

قوله : « وما وصف به نفسه في أعظم آية من كتابه ؛ حيث يقول : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ - أي : لا يكرثه ولا يثقله - ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ ولهذا كان من قرأ هذه الآية في ليلة ، لم يزل عليه من الله حافظ ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح » .

---

(١) البخاري (٤٤٨١٢ - ٩/١٩) بنحوه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

* روى مسلم في « صحيحه » عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ سأله : أي آية في كتاب اللَّه أعظم ؟ قال : اللَّه ورسوله أعلم . فرددها مرارًا ثم قال أبي : آية الكرسي . فقال النبي ﷺ : « ليهنك العلم أبا المنذر »[١] . ورواه أحمد وغيره ، وفيه : « والذي نفسي بيده ، إن لها لسانا وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش »[٢] . وقد صح الحديث عن رسول اللَّه ﷺ : أنها أعظم آية في كتاب اللَّه . وعن أسماء بنت يزيد قالت : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول في هاتين الآيتين ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ : « إن فيهما اسم اللَّه الأعظم »[٣] . رواه أحمد وأبو داود .

والحي القيوم اسمان من أسماء اللَّه ﷻ ، والحياة والقيومية صفتان من صفات الرب سبحانه لا يماثله فيهما حياة أحد وقيوميته ، وكان عمر ﵁ يقرؤها : « القيام » . قال ابن الأثير في « النهاية » في حديث الدعاء : « لك الحمد أنت قيام السماوات والأرض » ، وفي رواية : « قيم » ، وفي أخرى : « قيوم » ، وهي من أبنية المبالغة ، وهي من صفات اللَّه تعالى ، ومعناها القائم بأمور الخلق ومدبر العالم في جميع أحواله ، وأصلها من الواو « قيوام » و« قيووم » بوزن فيعال وفيعل وفيعول . اهـ .

والقيوم أبلغ من القيام ؛ لأن الواو أقوى من الألف ، ويفيد قيامه بنفسه باتفاق المفسرين وأهل اللغة ، وهو معلوم بالضرورة ، وهل تفيد إقامته لغيره وقيامه عليه ؟ فيه قولان : أصحهما : أنه يفيد ذلك ، وهي تفيد دوام قيامه وكل قيامه ؛ لما فيه من المبالغة .

« فهو سبحانه لا يزول ، ولا يأفل ، فإن الآفل قد زال قطعًا » أي : لا يغيب ولا ينقص ، ولا يفنى ، ولا يعدم ، بل هو الدائم الباقي ، الذي لم يزل ولا يزال موصوفًا بصفات الكمال ، واقترانه بالحي يستلزم سائر صفات الكمال ، ويدل على بقائها ودوامها ، وانتفاء النقص والعدم عنها أزلًا وأبدًا ، ولهذا كان قوله : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ أعظم آية في القرآن ، كما ثبت ذلك في « الصحيح » عن النبي ﷺ ، فعلى هذين الاسمين مدار الأسماء الحسنى كلها وإليها مرجع معانيها ، فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال ، ولا يتخلف عنها صفة منها إلا لضعف الحياة ، فإذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها ، استلزم إثباتها إثبات كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة ، وأما ﴿ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته ، فإنه القائم بنفسه فلا يَحتاج إلى من يقيمه بوجه من الوجوه ، وهذا من كمال غناه بنفسه عما سواه ، وهو المقيم لغيره ، فلا قيام لغيره إلا بإقامته ، وهذا من كمال قدرته وعزته ، فانتظم هذان الاسمان صفات الكمال ، والغنى التام ، والقدرة التامة ، فكأن المستغيث

---

(١) مسلم (٨١٠- ١/٥٥٦) بنحوه من حديث أبي بن كعب ﵁ .

(٢) مسند أحمد (٣٥/٢٠٠- ٢١٢٧٨) .

(٣) سنن أبي داود (١٤٩٨- ١/٥٥٥) من حديث أسماء بنت يزيد . ويُنظر : « صحيح أبي داود » (١٣٤٣- ٥/٢٣٤) .

بهما مستغيث بكل اسم من أسماء الرب تعالى ، وبكل صفة من صفاته ، فما أولى الاستغاثة بهذين الاسمين أن يكونا في مظنة تفريج الكربات ، وإغاثة اللهفات ، وإنالة الطلبات .

فإن صفة الحياة متضمنة لجميع صفات الكمال مستلزمة لها ، وصفة القيومية متضمنة لجميع صفات الأفعال ، ولهذا كان اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى هو اسم الحي القيوم ، والحياة التامة تضاد جميع الأسقام والآلام .

ولهذا كما كملت حياة أهل الجنة لم يلحقهم هم ولا غم ولا حزن ولا شيء من الآفات ، ونقصان الحياة يضر بالأفعال ، وينافي القيومية ، فكمال القيومية لكمال الحياة ، فالحي المطلق التام لا يفوته صفة كمال البتة ، والقيوم لا يعتذر عليه فعل ممكن ، البتة ، والمقصود أن لاسم الحي القيوم تأثيرًا خاصًا في إجابة الدعوات وكشف الكربات ، وفي « السنن » و« صحيح أبي حاتم بن حبان » مرفوعًا : « اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين : ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ ، وفاتحة آل عمران : ﴿الم ۝ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ » . قال الترمذي : حديث حسن صحيح[1] .

وفي « السنن » و« صحيح ابن حبان » أيضًا من حديث أنس : أن رجلًا دعا فقال : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنان ، بديع السماوات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حي يا قيوم . فقال النبي ﷺ : « لقد دعا الله باسمه الأعظم ، الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى » . ولهذا كان النبي ﷺ إذا اجتهد في الدعاء قال : « يا حي يا قيوم »[2] .

﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ : السنة : الوسن والنعاس ، ولهذا قال : ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ ؛ لأنه أقوى من السنة ، وفي « الصحيح » عن أبي موسى قال : قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال : « إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه »[3] .

ونفي أخذ السنة والنوم مستلزم لكمال حياته وقيوميته ، فإن النوم ينافي القيومية والنوم أخو الموت ، ولهذا كان أهل الجنة لا ينامون .

﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ : فنفي الشفاعة بدون إذنه مستلزم لكمال ملكه ؛ إذ كل من شفع إليه شافع بدون إذنه فقبل شفاعته كان منفعلًا عن ذلك الشافع ، فقد أثرت شفاعته فيه ،

(١) سنن الترمذي (٣٤٧٨- ٥/٥١٧) ، وحسنه الألباني في « صحيح الترمذي » (٢٧٦٤) .

(٢) سنن الترمذي (٣٤٧٥- ٥/٥١٥) من حديث بريدة الأسلمي ، وصححه الألباني في « صحيح الترمذي » (٢٧٦٣) .

(٣) مسلم (١/١٦١) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

فصيرته فاعلًا بعد أن لن يكن ، وكان ذلك الشافع شريكًا للمشفوع إليه في ذلك الأمر المطلوب بالشفاعة ، إذ كانت بدون إذنه لا سيما والمخلوق إذا شفع إليه بغير إذنه فقبل الشفاعة فإنما يقبلها لرغبة أو لرهبة إما من الشافع أو من غيره ، وإلا فلو كانت داعيته من تلقاء نفسه تامة مع القدرة لم يحتج إلى شفاعة ، واللَّه تعالى منزه عن ذلك كله ، كما قال في الحديث الإلهي : « يا عبادي ، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني »(١) .

ولهذا كان النبي ﷺ يأمر أصحابه بالشفاعة إليه ، فكان إذا أتاه طالب حاجة يقول : « اشفعوا تؤجروا ، ويقضي اللَّه على لسان نبيه بما يشاء » . أخرجاه في « الصحيحين »(٢) .

وقوله : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ : فيه إحاطة علم اللَّه وشموله وإحاطته بالماضي والحاضر والمستقبل ، وبين أن العباد لا يعلمون من علمه إلا ما علمهم إياه ، كما قالت الملائكة : ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ وكان في هذا النفي إثبات أن العباد لا يعلمون إلا ما علمهم إياه ، فأثبت أنه الذي علمهم ، لا ينالون العلم إلا منه ، فإنه الذي ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ، و﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ .

فالمعنى : أنه لا يطلع أحد من علم اللَّه على شيء إلا بما أعلمه اللَّه ﷻ ، وأطلعه عليه ، ويحتمل أن يكون المراد : لا يطلعون على شيء من علم ذاته وصفاته إلا بما أطلعهم اللَّه عليه كقوله : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ .

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ : الكرسي موضع قدمي الرحمن جل جلاله ، والعرش : لا يقدر قدره إلا اللَّه ، هذا هو المعروف عن السلف قال الدارمي : هذا الذي عرفناه عن ابن عباس صحيحًا مشهورًا ، وأنكر هو وغيره قول من قال : كرسيه علمه .

وقوله : ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ : لكمال قدرته وتمامها ، بخلاف المخلوق القادر إذا كان يقدر على الشيء بنوع كلفة ومشقة ، فإن هذا نقص في قدرته وعيب في قوته .

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ : قرن اللَّه بين هذين الاسمين الدالين على علوه وعظمته في آخر آية « الكرسي » ، وفي سورة « الشورى » ، وفي سورة « الرعد » ، وفي سورة « سبأ » في قوله : ﴿قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ ففي آية « الكرسي » ذكر الحياة التي هي أصل جميع الصفات ، وذكر معها قيوميته المقتضية لدوامه وبقائه ، وانتفاء الآفات جميعها عنه من النوم والسنة والعجز وغيرها ، ثم ذكر كمال ملكه ، ثم عقبه بذكر وحدانيته في ملكه وأنه لا يشفع عنده أحد

---

(١) مسلم (١٩٩٤/٤) من حديث أبي ذر .

(٢) البخاري (١٤٣٢- ١١٣/٢) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

إلا بإذنه ، ثم ذكر سعة كرسيه منبهًا به على سعته سبحانه وعظمته وعلوه ، وذلك توطئة بين يدي علوه وعظمته ، ثم أخبر عن كمال اقتداره ، وحفظه للعالم العلوي والسفلي من غير اكتراث ولا مشقة ولا تعب ، ثم ختم الآية بهذين الاسمين الجليلين الدالين على ذاته وعظمته في نفسه فقد تضمنت إثبات صفات الكمال ، ونفي النقص عن اللَّه تقدس وتنزه عن كل عيب ونقص .

وورد في فضلها أحاديث منها ما رواه البخاري في « صحيحه » عن أبي هريرة قال : وكلني رسول اللَّه ﷺ بحفظ زكاة رمضان ، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته وقلت : لأرفعنك إلى رسول اللَّه ﷺ . قال : دعني فإني محتاج ، وعلي عيال ، ولي حاجة شديدة . قال : فخليت عنه فأصبحت . فقال رسول اللَّه ﷺ : « يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة ؟ » . قال : قلت : يا رسول اللَّه ، شكا حاجة شديدة وعيالًا ، فرحمته فخليت سبيله . قال : « أما أنه قد كذبك وسيعود » . فرصدته فجاء يحثو من الطعام ، فعل ذلك ثلاث ليال كل ذلك والرسول ﷺ يقول : « أما أنه قد كذبك وسيعود » . فلما كان في الثالثة قلت : لأرفعنك إلى رسول اللَّه ﷺ ، وهذا آخر ثلاث مرات تزعم أنك لا تعود ثم تعود فقال : دعني أعلمك كلمات ينفعك اللَّه بها؟ فقلت : وما هي ؟ قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية « الكرسي » ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ حتى ختم الآية ، فإنه لن يزال عليك من اللَّه حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، وقال النبي ﷺ : « أما أنه صدقك وهو كذوب ، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة ؟ » . قلت : لا . قال : « ذاك شيطان »[(١)] .

وتقدم أنها أفضل آية في كتاب اللَّه ، كما أن سورة « الفاتحة » أفضل سورة القرآن ، والذي قد صح عن النبي ﷺ أنه فضل من السورة سورة « الفاتحة » ، وقال : « إنه لم ينزل في التوراة ، ولا في الإنجيل ، ولا في القرآن مثلها »[(٢)] .

والأحكام الشرعية تدل على ذلك ، وفضل من الآيات آية « الكرسي » ، وليس في القرآن آية واحدة تضمنت ما تضمنته آية « الكرسي » ، وإنما ذكر اللَّه في أول سورة « الحديد » وآخر سورة « الحشر » عدة آيات لا آية واحدة .

إحاطة اللَّه بالمخلوقات :

قوله : « وقوله سبحانه : « ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ » :

* في هذه الآية إثبات هذه الأسماء الأربعة للَّه ، وإثبات معانيها حقيقة على ما يليق بجلال اللَّه وعظمته ، وكذلك إثبات العلم له سبحانه .

---

(١) البخاري (٢٣١١) (٣/١٠١) (٣٢٧٥) (٤/١٢٣) (٥٠٠٨) (٦/١٨٨) .

(٢) « سنن الترمذي » (٥/١٥٥) ، وصححه الألباني في « صحيح الترغيب والترهيب » (١٤٥٣) .

وعطف بالواو مع أنها دالة على مسمى واحد وموصوف واحد ؛ قيل : لأنه لما كانت هذه الألفاظ دالة على معان متباينة ، وأن الكمال في الاتصاف بها على تباينها أتى بحرف العطف الدال على التغاير بين المعطوفات ؛ إيذانًا بأن هذه المعاني مع تباينها فهي ثابتة للموصوف بها ، ووجه آخر أحسن منه أن الواو تقتضي تحقيق الوصف المتقدم وتقريره ، فيكون الكلام متضمنًا لنوع من التأكيد ومزيد من التقرير ، فمثلًا إذا كان لرجل صفات أربع : عالم ، وجواد ، وشجاع ، وغني ، وكان المخاطب لا يعلم ذلك ولا يقر به ، ويعجب من اجتماع هذه الصفات في رجل ، فإذا قلت : زيد عالم ، وكأن ذهنه استبعد ذلك فتقول : وجواد ، أي : وهو مع ذلك جواد ، فإذا قدرت استبعاده لذلك قلت : وشجاع ، أي : وهو مع ذلك شجاع ، وغني ، فيكون في العطف مزيد تقرير ، وتوكيد ، لا يحصل بدونه تدرأ به توهم الإنكار .

إذا عرفت هذا فالوهم قد يعتريه إنكار لاجتماع هذه المقابلات في موصوف واحد ، فإذا قيل : هو الأول ربما سرى الوهم إلى الباطن مقابله ، فقطع هذا الوهم بحرف العطف الدال على أن الموصوف بالأولية هو الموصوف بالآخرية ، فكأنه قيل : هو الأول وهو الآخر وهو الظاهر وهو الباطن لا سواه ، فتأمل ذلك فإنه من لطيف العربية ودقيقها .

وباب هذه المعرفة والتعبد هو : معرفة إحاطة الرب سبحانه بالعالم وعظمته ، وأن العوالم كلها في قبضته ، وأن السماوات السبع والأرضين السبع في يده كخردلة في يد العبد ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ ، وقال : ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ ولهذا يقرن سبحانه بين هذين الاسمين الدالين على هذين المعنيين ؛ اسم العلو الدال على أنه الظاهر ، وأنه لا شيء فوقه ، واسم العظمة ، الدال على الإحاطة وأنه لا شيء دونه ، كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ ، وقال تعالى : ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ، وقال : ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ، وهو تبارك وتعالى كما أنه العالي على خلقه بذاته فليس فوقه شيء ، فهو الباطن بذاته فليس دونه شيء ، بل ظهر على كل شيء فكان فوقه ، وبطن فكان أقرب إلى كل شيء من نفسه ، وهو محيط به ، حيث لا يحيط الشيء بنفسه ، وكل شيء في قبضته ، وليس شيء في قبضة نفسه فهذا قرب الإحاطة العامة ، وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه ، هذا لون وهذا لون ، فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة ، وهي إحاطتان : زمانية ومكانية ، فإحاطة أوليته وآخريته بالقرب والبعد ، فكان سابق انتهى إلى أوليته وكل آخر انتهى إلى آخريته ، فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن ، فما من ظاهر إلا اللَّه فوقه ، وما من باطن إلا واللَّه دونه وما من أول إلا واللَّه قبله ، وما من آخر إلا واللَّه بعده ، فالأول قدمه والآخر دوامه وبقاؤه ، والظاهر علوه وعظمته

والباطن قربه ودنوه .

فهذه الأسماء الأربعة تشتمل على أركان التوحيد ، فهو الأول في آخريته ، والآخر في أوليته والظاهر في بطونه والباطن في ظهوره ، لم يزل أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا .

والعلم بثبوت هذين الوصفين أي « الأول والآخر » مستقر في الفطرة ، فإن الموجودات لا بد أن تنتهي إلى واجب الوجود لذاته قطعًا للتسلسل ، فأنت تشاهد حدوث الحيوان والنبات والمعادن وحوادث الجو كالسحاب والمطر ، وغير ذلك ، وهذه الحوادث وغيرها ليست ممتنعة ، فإن الممتنع لا يوجد ، ولا واجبة الوجود بنفسها ، فإن واجب الوجود بنفسه لا يقبل العدم ، وهذه كانت معدومة ثم وجدت ، فعدمها ينفي وجودها ، ووجودها ينفي امتناعها ، وما كان قابلًا للوجود والعدم لم يكن وجوده بنفسه ، كما قال تعالى : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ .

وقد أدخل المتكلمون في أسماء اللَّه تعالى القديم ، وليس هو من أسماء اللَّه تعالى الحسنى ، فإن القديم في لغة العرب التي نزل بها القرآن هو المتقدم على غيره فيقال : هذا قديم للعتيق ، وهذا حديث للجديد ، ولم يستعمل هذا الاسم إلا في المتقدم على غيره لا فيما يسبقه عدم ، كما قال تعالى : ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ والعرجون القديم الذي يبقى إلى حين وجود العرجون الثاني ، فإذا وجد الحديث قيل للأول : قديم ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي : متقدم في الزمان ، وقال : ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ﴾ ، فالأقدم مبالغة في القديم ، ومنه القول القديم والجديد للشافعي ، وقال تعالى : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ أي : يتقدمهم ويستعمل منه الفعل لازمًا ومتعديًا ، كما يقال : أخذني ما قدم وما حدث ، ويقال : هذا قدم هذا وهو يقدمه ، ومنه سميت القدم قدمًا ؛ لأنها تقدم بقية بدن الإنسان ، وأما إدخال « القديم » في أسماء اللَّه تعالى فهو مشهور عند أكثر أهل الكلام ، وقد أنكر ذلك كثير من السلف والخلف منهم ابن حزم ، ولا ريب أنه إذا كان مستعملًا في نفسه التقدم فأن يقدم على الحوادث كلها فهو أحق بالتقدم من غيره ، لكن أسماء اللَّه تعالى هي الأسماء الحسنى التي تدل على خصوص ما يمدح به ، والتقدم في اللغة مطلق لا يختص بالتقدم على الحوادث كلها ، فلا يكون من الأسماء الحسنى ، وجاء الشرع باسمه « الأول » وهو أخص من القديم ؛ لأنه يشعر بأن ما بعده آيل إليه وتابع له بخلاف القديم ، واللَّه تعالى له الأسماء الحسنى .

قوله : « وقوله سبحانه : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ » .

* في هذه الآية إثبات صفة الحياة للَّه ، والحياة هي أجمع صفات الكمال وأصلها ، قال ابن القيم : وأما الرسل وأتباعهم فقالوا : إن اللَّه حي وله حياة ، وليس كمثله شيء في حياته . اهـ .

وذكر في هذه الآية نفي الموت لكمال الحياة وتمامها .

□ إثبات صفة العلم للَّه :

قوله : « ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ * يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ ، ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ . وقوله : ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ . وقوله : ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ » .

* في هذه الآية إثبات وصف اللّه بالعلم ، وعلمه سبحانه شامل لكل شيء ومحيط به ، فيعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، كما قال تعالى : ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ﴾ ، وقوله : ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ ، وقال : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ الآية ، و« الحكيم الخبير » اسمان وصفتان للّه جل وعلا ، فالحكيم هو الذي يضع الأشياء في مواضعها ، وهو سبحانه حكيم في أقواله وأفعاله ، وفي شرعه ودينه ، وفي قضائه وقدره ، والخبير أخص من العليم وهو العليم بدقائق الأمور وبواطنها ، واللّه سبحانه لا تخفى عليه خافية ، ومفاتح الغيب هي المذكورة في حديث ابن عمر في « الصحيحين » أن النبي ﷺ قال : « مفاتح الغيب خمس لا يعلمهم إلا اللّه ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ » .

والعلم صفة ذاتية لازمة للّه تعالى لا يخلو منها في وقت من الأوقات ، ولا يتصور انفكاك ذات اللّه عنها ، وقد أنكر غلاة القدرية علم اللّه القديم ، وأنه يعلم الأشياء قبل وقوعها ، وقد اشتد إنكار السلف عليهم وقالوا : ناظروهم بالعلم فإن أقروا به خصموا ، وإن جحدوه كفروا ، وقال الإمام أحمد في رده على الجهمية والزنادقة : « فإن قال الجهمي : ليس له علم كفر ، وإن قال : للّه علم محدث كفر ؛ حيث زعم أن اللّه قد كان في وقت من الأوقات لا يعلم حتى أحدث لها علمًا فعلم ، فإن قال : للّه علم وليس مخلوقًا ولا محدثًا رجع عن قوله كله وقال بقول أهل السنة » .

وقال الإمام عبد العزيز المكي في « كتاب الحياة » الذي حكى فيه مناظرته لبشر المريسي عن علمه تعالى ، وبشر يقول : لا يجهل ولا يعترف أن اللّه عالم بعلم ، فقال الإمام عبد العزيز : « نفي الجهل لا يكون صفة مدح ، فإن هذه الأسطوانة لا تجهل ، وقد مدح اللّه الأنبياء والملائكة والمؤمنين بالعلم لا

بنفي الجهل ، ومن نفي الجهل لم يثبت العلم ، وعلى الخلق أن يثبتوا ما أثبته اللّٰه لنفسه ، وينفوا عنه ما نفى ويمسكوا عما أمسك عنه » .

والدليل العقلي على علمه تعالى : أنه يستحيل إيجاده الأشياء مع الجهل ، ولأن إيجاده الأشياء بإرادته ، والإرادة تستلزم تصور المراد ، وتصور المراد هو العلم بالمراد ، فكان الإيجاد مستلزمًا للعلم ، ولأن المخلوقات فيها من الإحكام والإتقان ما يستلزم علم الفاعل لها ؛ لأن الفعل المحكم المتقن يمتنع صدوره عن غير علم ، ولأن من المخلوقات ما هو عالم ، والعلم صفة كمال ، ويمتنع ألَّا يكون الخالق عالمًا ، وهذا له طريقان :

أحدهما : أن يقال : نحن نعلم بالضرورة أن الخالق أكمل من المخلوق ، وأن الواجب أكمل من الممكن ، ونعلم أن لو فرضنا شيئين أحدهما عالم والآخر غير عالم كان العالم أكمل ، فلو لم يكن الخالق عالمًا لزم أن يكون الممكن أكمل منه ، وهو ممتنع .

الثاني : أن يقال : كل علم في الممكنات التي هي المخلوقات فهو منه ، ومن الممتنع أن يكون فاعل الكمال ومبدعه عاريًا منه ، بل هو أحق به ، واللّٰه تعالى له المثل الأعلى ، ولا يستوي هو والمخلوق لا في قياس تمثيلي ولا في قياس شمولي ، بل كل ما ثبت للمخلوق من كمال فالخالق به أحق ، وكل نقص تنزه عنه مخلوق ما فتنزه الخالق عنه أولى ، وكثير من الفلاسفة ينكرون علم اللّٰه بالجزئيات .

فالخلاف في هذا الأصل مع فرقتين :

إحداهما : أعداء الرسل كلهم ، وهم الذين ينفون علمه بالجزئيات ، وحاصل قولهم أنه لا يعلم موجودًا البتة ، فإن كل موجود جزئي معين ، فإذا لم يعلم الجزئيات لم يكن عالمًا بشيء من العالم العلوي والسفلي .

والفرقة الثانية : غلاة القدرية الذين اتفق السلف على كفرهم وحكموا بقتلهم ، الذين يقولون : لا يعلم أعمال العباد حتى يعملوها ، ولم يعلمها قبل ذلك ولا كتبها ولا قدرها فضلًا عن أن يكون شاءها وكونها ، وقول هؤلاء معلوم البطلان بالضرورة من أديان جميع المرسلين ، وكتب اللّٰه المنزلة ، وكلام الرسول ﷺ مملوء بتكذيبهم ، وإبطال قولهم ، وإثبات عموم علمه الذي لا يشاركه فيه خلقه ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء أن يطلعهم عليه ويعلمهم به ، وما أخفاه عنهم ولم يطلعهم عليه لا نسبة لما عرفوه إليه إلا دون نسبة قطرة واحدة إلى البحار كلها .

قوله : « ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ » :

« الرزاق » : كثير الرزق واسعة ، كما تدل عليه صيغة المبالغة ، وكل ما في الكون من رزق فهو من

اللَّه واقع بمشيئته وقدرته ، وسواء في ذلك الرزق الحلال وغيره ، كما قال الشيخ السفاريني في عقيدته :

والرزق ما ينفع من حلال أو ضده فحل عن المحال
لأنه رازق كل الخلق وليس مخلوق بغير رزق

فالرزاق اسمه تعالى ووصفه ، والقوي شديد القوة ، فعلم أن القوي من أسمائه ، ومعناه الموصوف بالقوة ، فلولا ثبوت القوة لم يسم قويًا .

و« المتين » : البالغ في القوة والقدرة نهايتهما ، قال ابن الأثير : « الشديد القوي الذي لا يلحقه في أفعاله مشقة ولا كلفة ولا تعب ، والمتانة والشدة والقوة ، فمن حيث أنه بالغ القوة تامها قوي ، ومن حيث أنه شديد القوة متين » . اهـ .

ولكمال حياته سبحانه كان قويًا متينًا ، فإنه سبحانه حي حقيقة ، وحياته أكمل الحياة وأتمها ، وهي حياة تستلزم جميع صفات الكمال ونفي أضدادها من جميع الوجوه ، ومن لوازم الحياة الفعل الاختياري ، فإن كل حي فعال ، وصدور الفعل عن الحي بحسب كمال حياته ونقصها ، وكل من كانت حياته أكمل من غيره كان فعله أقوى وأكمل ، وكذلك قدرته ، ولذلك كان الرب سبحانه على كل شيء قدير وهو فعال لما يريد ، وقد ذكر البخاري في كتاب « خلق أفعال العباد » عن نعيم بن حماد أنه قال : الحي هو الفعال ، وكل حي فعال ، ولا فرق بين الحي والميت إلا بالفعل والشعور ، وإذا كانت الحياة مستلزمة للفعل ، فالفعل الذي لا يعقل الناس سواه هو الفعل الاختياري الإرادي الحاصل بقدرة الفاعل وإرادته ومشيئته ، وكون الرب سبحانه حيًا فاعلًا مختارًا مريدًا مما اتفقت عليه الرسل والكتب ، ودل عليه العقل والفطرة وشهدت به الموجودات ناطقها وصامتها ، جمادها وحيوانها ، علويها وسفليها ، فمن أنكر فعل الرب الواقع بمشيئته واختياره وفعله فقد جحد ربه وفاطره وأنكر أن يكون للعالم رب .

□ ذكر سمع اللَّه وبصره :

وقوله : « ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ، وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ » .

*من صفات اللَّه تعالى الذاتية السمع والبصر ، و« السميع البصير » اسمان من أسمائه تعالى ، وهو تعالى له سمع يسمع به وبصر يبصر به حقيقة على ما يليق بجلاله .

وقوله سبحانه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ أحسن ما قيل في الكاف هنا أنها صلة ، فيكون مثله خبر ﴿لَيْسَ﴾ ، وهذا وجه قوي حسن تعرف العرب معناه في لغتها ولا يخفى عنها إذا خوطبت به ،

وقيل : إنه من باب قولهم : مثلك لا يفعل كذا ، أي : أنت لا تفعله ، وأتى بمثل للمبالغة ، أي : ليس كمثله مثل ، لو فرض المثل فكيف : ولا مثل له ؟ والأول أولى ، فقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ إنما سيق لإثبات الصفات وعظمتها لا لنفيها ، كما قال عثمان بن سعيد الدرامي في قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ ، قال : « معناه هو أحسن الأشياء وأجملها ، وقالت الجهمية : معناه ليس هناك شيء » .

وقال ابن القيم : « قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ : إنما قصد به نفي أن يكون معه شريك أو معبود يستحق العبادة والتعظيم ، كما يفعله المشبهون والمشركون ، ولم يقصد به نفي صفات كماله وعلوه على خلقه وتكلمه بكتبه وتكليمه لرسله ، ورؤية المؤمنين له جهرة بأبصارهم كما ترى الشمس والقمر في الصحو » . اهـ .

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ فوضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه . رواه أبو داود[1] . وإنما وضع إبهامه على أذنه وعينه ؛ رفعًا لتوهم متوهم أن السمع والبصر غير العينين المعلومتين ، وأمثال ذلك كثيرة في الكتاب والسنة .

وقد عاب اللّٰه المشركين في عبادتهم ما لا يسمع ولا يبصر فقال : ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ، وأنكر الخليل عليه السلام على أبيه وقومه عبادة أصنام لا تسمع ولا تبصر فقال : ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ . فقد ثبت وصف اللّٰه بالسمع والبصر وهما صفتا كمال ، وعدمهما نقص يتنزه اللّٰه عنه ، وله المثل الأعلى في السماوات والأرض ، وفي ذلك إبطال لقول الجهمية والمعتزلة ونحوهم من معطلة الصفات الذين ينفون عن اللّٰه سمعه وبصره ، وفي قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ رد لقول المشبهة ، فإنه تعالى لا يماثله شيء من مخلوقاته في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ رد لقول المعطلة .

قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ أي : نعم الشيء الذي يعظكم به ، ويأمركم به من أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس ، وغير ذلك من كل ما يأمركم به ، ويشرعه لكم ، وقال البخاري رحمه الله في « صحيحه » : باب وكان اللّٰه سميعًا بصيرًا ، وروي فيه حديث عائشة قالت : الحمد للّٰه الذي وسع سمعه الأصوات ، فأنزل اللّٰه تعالى على النبي ﷺ ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾[2] .

وحديثها أن النبي ﷺ قال : « إن جبريل عليه السلام ناداني قال : إن اللّٰه قد سمع قول قومك وما ردوا

---

(١) سنن أبي داود (٤٧٣٠ - ٤/٣٧٣) بنحوه من حديث أبي هريرة . وصحح إسناده الألباني في « صحيح وضعيف سنن أبي داود » (٤٧٢٨) .

(٢) البخاري (١١٦/٩) من حديث عائشة رضي الله عنها .

عليكم »(١) وأحاديث أخر .

قال ابن بطال : « غرض البخاري في هذا الباب الرد على من قال : إن معنى سميع بصير عليم ، قال : ويلزم من قال ذلك أن يسويه بالأعمى الذي يعلم أن السماء خضراء ولا يراها ، والأصم الذي يعلم أن في الناس أصواتًا ولا يسمعها ، ولا شك أن من سمع وأبصر وأدخل في صفة الكمال ممن انفرد بأحدهما دون الآخر ، فصح أن كونه سميعًا بصيرًا يفيد قدرًا زائدًا على كونه عليمًا ، وكونه سميعًا بصيرًا يتضمن أنه يسمع بسمع ويبصر ببصر ، كما تضمن كونه عليمًا أنه يعلم بعلم ، ولا فرق بين إثبات كونه سميعًا بصيرًا وبين كونه ذا سمع وبصر ، قال : وهذا قول أهل السنة قاطبة » انتهى . وقال البيهقي في « الأسماء والصفات » : « السميع من له سمع يدرك به المسموعات ، والبصير من له بصر يدرك به المرئيات ، وكل منهما في حق الباري صفة قائمة بذاته ، وقد أفادت الآية وأحاديث الباب الرد على من زعم أنه سميع بصير بمعنى عليم » . ثم ساق حديث أبي هريرة الذي أخرجه أبو داود بسند قوي على شرط مسلم من رواية أبي يونس عن أبي هريرة : رأيت رسول اللَّه ﷺ يقرؤها يعني : قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ إلى قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ ويضع أصبعيه ، قال أبو يونس : وضع أبو هريرة إبهامه على أذنيه والتي تليها على عينه . قال البيهقي : « وأراد بهذه الإشارة تحقيق إثبات السمع والبصر للَّه ببيان محلهما من الإنسان ؛ يريد أن له سمعًا وبصرًا ، لا أن المراد به العلم ، فلو كان كذلك لأشار إلى القلب ؛ لأنه محل العلم » . ثم ذكر شاهدًا لحديث أبي هريرة من حديث عقبة بن عامر : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول على المنبر : « إن ربنا سميع بصير » . وأشار إلى عينيه وسنده حسن(٢) ، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رفعه : « إن اللَّه لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم »(٣) .

وفي حديث أبي جري الهجيمي رفعه : « أن رجلًا ممن كان قبلكم لبس بردتين يتبختر فيهما ، فنظر اللَّه إليه فمقته » . الحديث(٤) . وحديث ابن عمر رفعه : « لا ينظر اللَّه إلى من جر ثوبه خيلاء »(٥) . وفي الكتاب العزيز : ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ وورد في السمع قول المصلي : سمع اللَّه لمن حمده ، وسنده صحيح متفق عليه ، بل مقطوع بمشروعيته في الصلاة .

---

(١) البخاري (٣٢٣١- ٤/ ١١٥، ٧٣٨٩- ٩/١١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) الطبراني في « المعجم الكبير » (٧٧٠، ٧٧٦- ١٧/٢٨٢) .

(٣) مسلم (٢٥٦٤- ٤/١٩٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) البيهقي في « شعب الإيمان » (٨٠٥- ٦/٢٥٣) .

(٥) البخاري (٥٧٨٣- ٧/١٤١) من حديث عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما .

□ المشية والإرادة :

وقوله : « ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ ، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ ، ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ ، ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ » :

* في هذه الآيات وما ماثلها إثبات مشيئة اللّٰه التامة ، وأن كل شيء بمشيئته ، وأن إثبات المشيئة من سنن المؤمنين وإنكارها من طريقة الكفرة والمشركين ؛ لقول المؤمن ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ ولولا هلا ، والجنة البستان ، ﴿قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ حثًا للكافرين على الإيمان .

فما شاء اللّٰه كان وما لم يشأ لم يكن : والنصوص من القرآن والسنة لا تحصى كثرة في ذلك ، وقد أجمع علماء الإسلام وسلف الأمة وأئمتها وأهل السنة قاطبة على إثبات مشيئة اللّٰه سبحانه وإرادته .

والإرادة تكون شرعية وتكون قدرية فقوله : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ الإرادة هنا كونية قدرية ، وقوله : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ الآية ، الإرادة هنا : كونية قدرية أيضًا ، وقوله : ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ الإرادة هنا شرعية دينية ، وقوله : ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ فيها أنه يريد الإضلال « فعلم أنه يريد الإضلال كما يريد شرح الصدر .

والهداية نوعان : هداية توفيق وإلهام ، وهي المذكورة في قوله : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ ونحوها ، وفي قوله : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ ، وهداية بيان وإرشاد وهذه المذكورة في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ، وقوله : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي : بينا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلهم يهتدوا .

قال ابن عباس في قوله : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ يقول : « يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به » . قوله : ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ بفتح الضاد وتسكين الياء ، هكذا قرأه بعضهم ، وقرأه الأكثرون ﴿ضَيِّقًا﴾ بتشديد الياء وكسرها ، ﴿حَرَجًا﴾ قرئ بفتح الحاء وكسر الراء ، وهو الذي لا يتسع لشيء من الهدى وليس للخير فيه منفذ ، ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ من شدة الضيق والشبه والشكوك ، قال الأوزاعي : كيف يستطيع من جعل اللّٰه صدره ضيقًا أن يكون مسلمًا ، وقال ابن جرير : وهذا مثل ضربه اللّٰه لقلب هذا الكافر في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه ، فمثله في امتناعه عن قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه ، مثل امتناعه عن الصعود إلى السماء ، وعجزه عنه ؛ لأنه ليس في وسعه وطاقته .

ففي ذلك إثبات عموم مشيئة اللّه الشاملة ، وقد خالف الرسل كلهم من نفي مشيئة اللّه بالكلية ، ولم يثبت له سبحانه مشيئة واختيارًا ، كما يقوله طوائف من الفلاسفة وأتباعهم ، وكذلك من جوز أن يكون في الوجود ما لا يشاء ، أو أن يشاء ما لا يكون ، وهذا هو تنزيه الملحدين ، ومن أضل سبيلًا وأكفر ممن يزعم أن اللّه شاء الإيمان من الكافر ، وأن الكافر شاء الكفر فغلبت مشيئة الكافر مشيئة اللّه ، تعالى اللّه عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا .

وأما الإرادة فطريقة الأئمة الفقهاء ، وأهل الحديث وكثير من أهل النظر : أن الإرادة في كتاب اللّه نوعان : إرادة تتعلق بالأمر ، وإرادة تتعلق بالخلق ، فالإرادة المتعلقة بالأمر : أن يريد من العبد فعل ما أمره ، وأما إرادة الخلق فأن يريد ما يفعله هو ، فإرادة الأمر هي المتضمنة للمحبة والرضا ، وهي الإرادة الدينية ، والإرادة المتعلقة بالخلق هي : المشيئة ، وهي الإرادة الكونية القدرية .

فالأولى : كقوله تعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ ، وقوله : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ إلى قوله : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ ، وقوله : ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ الآية ، وقوله : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ .

والثانية : كقوله تعالى : ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ ، وقوله : ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ ، ومن هذا النوع قول المسلمين : « ما شاء اللّه كان ، وما لم يشأ لم يكن » . ومن الأول قولهم : لمن يفعل القبائح : هذا يفعل ما لا يريده اللّه .

وقسم الشيخ الإرادة أربعة أقسام :

الأول : ما تعلقت به الإرادتان وهو كل ما وقع في الوجود من الأعمال الصالحة ، فإن اللّه تعالى أرادها إرادة دين وشرع ، فأمر به وأحبه ورضيه ، وأراده إرادة كون فوقع ولولا ذلك لما كان .

الثاني : ما تعلقت به الإرادة الدينية فقط ، وهو ما أمر اللّه به من الأعمال الصالحة فعصى ذلك الكفار والفجار ، فتلك كلها إرادة دين ، وهو يحبها ويرضاها وقعت أو لم تقع .

الثالث : ما تعلقت به الإرادة الكونية فقط ، وهو ما قدره وشاءه من الحوادث التي لم يأمر بها كالمباحات والمعاصي ، فإنه لم يأمر بها ولم يرضها ولم يحبها إذ هو لا يأمر بالفحشاء ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ ، ولولا مشيئته وقدرته وخلقه لما كانت ولما وجدت .

الرابع : من أقسام الإرادة الذي لم تتعلق به هذه الإرادة ولا هذه ، فهذا ما لم يكن من أنواع المباحات والمعاصي . اهـ .

□ إثبات صفات المحبة والمودة :

قوله : ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ، ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ ، ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ ، ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ ، وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ﴾ .

* إثبات صفة المحبة لله قد دل عليها الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة ، محبة تليق بجلاله تعالى ، كما يقال ذلك في سائر الصفات ، وكذلك المودة ، فهي صفة واسمه تعالى « الودود » ، والود صفاء المحبة وخالصها .

والحب اشتقاقه في الأصل من الملازمة والثبوت من قولهم : أَحَبَّ البَعِير فهو مُحِب إذا بَرَكَ فلم يَثُر ، فالمحب ملازم لذكر محبوبه ، ثابت القلب على حبه مقيمًا عليه لا يروم عنه انتقالًا ولا يبغي عنه تحولًا ولا زوالًا قد اتخذ له في سويداء قلبه وطنًا وجعله له سكنًا ، والحب - بالضم والكسر ، والضم أولى - أَوْلى لوجهين :

أحدهما : قوته ، وقوة الحب .

الثاني : أن في الضمة من الجمع ما يوازي ما في معنى الحب من جمع الهمة والإرادة على المحبوب ، ولا تُوصف المحبة ولا تُحد بحد أوضح من المحبة ولا أقرب إلى الفهم من لفظها . فهي ألطف وأرق من كل ما يُعبر به عنها .

وللمحبة مراتب :

أولها : العلاقة : وهي تعلق القلب بالمحبوب .

الثانية : الإرادة : وهي ميل القلب إلى محبوبه وطلبه له .

الثالثة : الصبابة : وهي انصباب القلب إليه بحيث لا يملكه صاحبه كانصباب الماء في الحدور .

الرابعة : الغرام : وهي الحب الملازم للقلب ، ومنه الغريم لملازمته ، ومنه : ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ .

الخامسة : المودة : وهي صفو المحبة وخالصها ولبها ، قال تعالى : ﴿سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ .

السادسة : الشغف : وهي وصول المحبة إلى شغاف القلب .

السابعة : العشق : وهو الحب المفرط الذي يخاف على صاحبه منه ، ولكن لا يُوصف به الرب تعالى ولا العبد في محبة ربه ، وإن كان قد أطلقه بعضهم واختُلف في سبب المنع ، فقيل : عدم وروده

في الشرع ، وقيل غير ذلك ، ولعل امتناع إطلاقه أن العشق محبة مع شهوة .

الثامنة : التتيم : وهو بمعنى التعبد .

التاسعة : التعبد .

العاشرة : الخلة : وهي المحبة التي تخللت روح المحب وقلبه ، وإنما يوصف اللّه تعالى من هذه الأنواع بالإرادة والود والمحبة والخلة حيثما ورد النص ، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال : « إن اللّه اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا »[١] .

وفي الصحيحين عنه ﷺ قال : « لو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا ، ولكن صاحبكم خليل اللّه »[٢] .

وقد أنكر الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم محبة اللّه وقالوا : المحبة لا تكون إلا بين متناسبين ، وبهذه الشبهة الفاسدة ردوا صفة من صفات اللّه الثابتة له ، وما أحسن ما قال الإمام أحمد : لا نزيل عن اللّه صفة من صفاته لأجل شفاعة المشنعين .

والمناسبة : لفظ مُجمل ، فإنه قد يراد بها التوالد والقرابة فيقال : هذا نسيب فلان ويناسبه إذا كان بينهم قرابة مستندة إلى الولادة والآدمية ، واللّه سبحانه وتعالى منزه عن ذلك ، ويراد بها المماثلة فيقال : هذا يناسب هذا أي يماثله ، واللّه سبحانه وتعالى أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، ويراد بها الموافقة في معنى من المعاني ، وضدها المخالفة ، والمناسبة بهذا الاعتبار ثابتة ، فإن أولياء اللّه تعالى يوافقونه فيما يأمر به فيفعلونه ، وفيما يحبه فيحبونه ، وفيما نهى عنه ، فيتركونه وفيما يعطيه فيصيبونه ، واللّه وتر يحب الوتر ، جميل يحب الجمال ، نظيف يحب النظافة ، محسن يحب المحسنين ، مقسط يحب المقسطين ، إلى غير ذلك من المعاني ، فإذا أريد بالمناسبة هذا وأمثاله فهذه المناسبة حق وهي من صفات الكمال ، كما تقدم الإشارة إليه ، فإن من يحب صفات الكمال أكمل ممن لا فرق عنده بين صفات النقص والكمال ، أو لا يحب صفات الكمال ، وإذا قدر موجودان أحدهما يحب العلم والصدق والعدل والإحسان ونحو ذلك ، والآخر لا فرق عنده بين هذه الأمور وبين الجهل والكذب والظلم ونحو ذلك ، لا يحب هذا ولا يبغض هذا كان الذي يحب تلك الأمور أكمل من هذا .

وهؤلاء الذين ينفون أن اللّه يحب ويحب آخر أمرهم به لا يبقى عندهم فرق بالنسبة إلى اللّه بين

---

(١) مسلم (١/٣٧٧) من حديث جندب بن جنادة رضي الله عنه .

(٢) مسلم (٤/١٨٥٦) من حديث عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه .

أوليائه وأعدائه، ولا بين الإيمان والكفر، ولا بين ما أمر به وما نهى عنه ولا بين بيوته التي هي المساجد، وبين الحانات ومواضع الشرك.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾: والود خالص الحب وألطفه وأرقه، وهو من الحب بمنزلة الرأفة والرحمة، قال الجوهري: «وددت الرجل أوده ودا إذا أحببته، والود والود: تقول: بودي أن يكون كذا، والود الوديد بمعنى المودود، والودود المحب». اهـ.

و«الودود»: من صفات الله سبحانه وتعالى أصله من المودة، واختلف فيه على قولين: فقيل: هو ودود بمعنى واد كضروب معنى ضارب، وقتول بمعنى قاتل ونؤوم بمعنى نائم، ويشهد لهذا القول أن فعولًا في صفات الله سبحانه وتعالى، كغفور بمعنى غافر وشكور بمعنى شاكر وصبور بمعنى صابر، وقيل: بل هو بمعنى مودود وهو الحبيب، وبذلك فسره البخاري في «صحيحه» فقال: «الودود الحبيب». والأول أظهر لاقترانه بالغفور في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ﴾، وبالرحيم في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾، وفيه سر لطيف وهو أنه يحب عبده بعد المغفرة فيغفر له ويحبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾، فالتائب حبيب الله، فالود أصفى الحب وألطفه، والتحقيق أن اللفظ يدل على الأمرين على كونه وادًّا لأوليائه مودودًا لهم، فأحدهما بالوضع والآخر باللزوم، فهو الحبيب المحب لأوليائه يحبهم ويحبونه، وما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور؛ فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه، وكذلك قد يرحم من لا يحب، والرب تعالى يغفر لعبده إذا تاب إليه ويرحمه ويحبه مع ذلك فإنه يحب التوابين، فإذا تاب إليه عبده أحبه، ولو كان منه ما كان.

وكونه مودودًا ليس بعجيب، وإنما العجيب جوده وإحسانه، فإنه يتودد إلى عباده، كما جاء في الأثر: يا عبدي كم أتودد إليه بالنعم، وأنت تمقت إلي بالمعاصي، ولا يزال ملك كريم يصعد إليَّ منك بعمل سيئ. وأيضًا فمبدأ الحب والود منه لكن اسمه الودود يجمع المعنيين، كما قال الوالبي عن ابن عباس: أنه الحبيب، وذلك أنه كان يود عباده فهو مستحق؛ لأن بوده العباد بالضرورة، فإذا قيل: إن الودود بمعنى الواو لزم أن يكون مودودًا بخلاف العكس.

فالصواب القطع بأن الودود هو الذي يود وإن كان ذلك متضمنًا؛ لأنه يستحق أن يود ليس هو بمعنى المودود فقط. ولفظ الوداد بالكسر هو مثل: الموادة والتواد وذاك يكون من الطرفين كالتحاب، وكل ود في الوجود فهو من فعله، فالذي جعل الود في القلوب هو أولى بالود، كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما في قوله: ﴿سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ قال: يحبهم ويحبونه، وقد دل

الحديث الذي في « الصحيحين » على أن ما يجعله من المحبة في قلوب الخلق هو بعد أن يكون قد أحبه وأمر جبريل أن ينادي ، بأن اللّه يحبه ، فينادي جبريل في السماء : « أن اللّه يحب فلانًا فأحبوه » .

□ إثبات صفة الرحمة والمغفرة :

قوله : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ ، ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ ، ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ :

* في هذه الآيات إثبات صفتي الرحمة والمغفرة للّه ، وفيها الرد على الجهمية ، والمعتزلة ونحوهما وقوله : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال ابن عباس : ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر أي : أوسع رحمة .

وأسماء الرب تعالى هي أسماء ونعوت ؛ فإنها دالة على صفات كماله فلا تنافي فيها بين الوصفية والعلمية ، فالرحمن اسمه تعالى ووصفه ، لا تنافي اسميته وصفيته ، فمن حيث هو صفة جري تابعًا على اسم اللّه ، ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع وورد الاسم العلم ، ولما كان هذا الاسم مختصًا به تعالى حسن مجيئه مفردًا غير تابع كمجيء اسم اللّه كذلك ، وهذا لا ينافي دلالته على صفة الرحمن كاسم اللّه ، فإنه دال على صفة الألوهية ، ولم يجيء قط تابعًا لغيره بل متبوعًا ، وهذا بخلاف العليم والقدير والسميع والبصير ونحوها ، ولهذا لا تجيء هذه مفردة بل تابعة ، فتأمل هذه النكتة البديعة يظهر لك بها أن الرحمن اسم وصفة لا ينافي أحدهما الآخر ، وجاء استعمال القرآن بالأمرين جميعًا ، وأما الجمع بين الرحمن الرحيم ففيه معنى أحسن من المعنيين الذين ذكرهما ، وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم ، فكان الأول للوصف والثاني للفعل ، فالأول دال على أن الرحمة صفته ، والثاني دال على أن يرحم خلقه برحمته ، وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله : ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ، ولم يجيء قط رحمن بهم ، فعلم أن رحمن هو الموصوف بالرحمة ، ورحيم هو الراحم برحمته .

والكتابة تكون شرعية وتكون كونية ، فالكتابة الشرعية الأمرية : كقوله تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ ، ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ ، والكونية القدرية كقوله : ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ ، ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ ، ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ ، والكتابة في قوله : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ كتابة كونية قدرية .

فقد كتب اللّه على نفسه الرحمة تفضلًا منه ، وإحسانًا من غير أن يوجبها عليه أحد كما قيل :

ما للعباد عليه حق واجب كلا ولا سعي لديه ضائع
إن عذبوا فبعدله أو نعموا فبفضله وهو الكريم الواسع

وإذا كان معقولًا من الإنسان أن يوجب على نفسه ويحرم ، ويأمرها وينهاها مع كونه تحت أمر غيره ونهيه ، فالآمر الناهي الذي ليس فوقه آمر ولا ناه كيف يمتنع في حقه أن يحرم على نفسه ، ويكتب على نفسه ؟ وكتابته على نفسه سبحانه تستلزم إرادته لما كتبه ومحبته له ، ورضاه به ، وتحريمه على نفسه ، يستلزم بغضه لما حرم وكراهته له وإرادة ألَّا يفعله ، فإن محبته للفعل تقتضي وقوعه منه ، وكراهته لأن يفعله تمنع وقوعه منه ، وهذا غير ما يحبه سبحانه من أفعال عباده ويكرهه ، فإن محبة ذلك منهم لا تستلزم وقوعه ، وكراهته منهم لا تمنع وقوعه ففرق بين فعله هو سبحانه وبين فعل عباده الذي يقع مع كراهته وبغضه له ، ويتخلف مع محبته له ورضاه به بخلاف فعله هو سبحانه فهذا نوع وذاك نوع .

واعلم أن الناس في هذا المقام ثلاث طوائف : فطائفة : منعت أن يجب عليه شيء أو يحرم عليه شيء بإيجابه وتحريمه ، وهم كثير من مثبتي القدر الذين ردوا أقوال القدرية النفاة ، وقابلوهم أعظم مقابلة نفوا لأجلها الحكم والأسباب والتعليل ، وأن يكون العبد فاعلًا أو مختارًا .

الطائفة الثانية : بإزاء هؤلاء أوجبوا على الرب وحرموا أشياء بعقولهم ، جعلوها شريعة له يجب عليه مراعاتها من غير أن يوجبها هو على نفسه ولا حرمها ، وأوجبوا عليه من جنس ما يجب عليهم وحرموا عليه من جنس ما يحرم عليهم ، ولذلك كانوا مشبهة في الأفعال ، والمعتزلة منهم جمعوا بين الباطلين ، تعطيل صفاته وجحد نعوت كماله ، والتشبيه له بخلقه فيما أوجبوه عليه وحرموه ، فشبهوا في أفعاله ، وعطلوا في صفات كماله ، فجحدوا بعض ما وصف به نفسه من صفات الكمال ، وسموه توحيدًا ، وشبهوه بخلقه فيما يحسن منهم ويقبح من الأفعال ، وسموا ذلك عدلًا وقالوا : نحن أهل العدل والتوحيد . فعدلهم إنكار قدرته ومشيئته العامة الشاملة التي لا يخرج عنها شيء من الموجودات ، ذواتها وصفاتها وأفعالها ، وتوحيدهم إلحادهم في أسمائه الحسنى وتحريف معانيها عما هي عليه ، فكان توحيدهم في الحقيقة تعطيلًا وعدلهم شركًا ، وهذا مقرر في موضعه .

والمقصود أن هذه الطائفة مشبهة في الأفعال ، معطلة في الصفات وهدى الله « الأمة الوسط » فلم يقيسوه بخلقه ، ولم يشبهوه بهم في شيء من صفاته ولا أفعاله ، ولم ينفوا ما أثبته لنفسه من ذلك ولم يوجبوا عليه شيئًا ولم يحرموا عليه شيئًا ، بل أخبروا عنه بما أخبر عن نفسه وشهدت قلوبهم ما في ضمن ذلك الإيجاب والتحريم من الحكم والغايات المحمودة التي يستحق عليها كمال الحمد والثناء ، فإن العباد لا يحصون ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه .

قوله : ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ : ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ : من أسمائه سبحانه ، والمغفرة صفته ، ومعنى ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ الساتر للذنوب الماحي له ، ومنه سمي المغفرة لسترة الرأس .

وإذا غفر الذنب زالت عقوبته ، فإن المغفرة هي وقاية شر الذنب ، ومن الناس من يقول : الغفر الستر ، ويقول : إنما سمي المغفرة والغفار لما فيه من معنى الستر ، وتفسير اسم الغفار بأنه الستار ، وهذا تقصير في معنى الغفر ؛ فإن المغفرة معناها وقاية شر الذنب بحيث لا يعاقب على الذنب ، فمن غفر ذنبه لم يعاقب عليه ، وأما مجرد ستره فقد يعاقب عليه في الباطن ، ومن عوقب على الذنب باطنًا أو ظاهرًا فلم يغفر له ، وإنما يكون غفران الذنب إذا لم يعاقب عليه العقوبة المستحقة بالذنب .

وقد أنكر الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم صفة الرحمة والمغفرة ، وقالوا : الرحمة ضعف وخور في الطبيعة وتألم على المرحوم ، وبذلك نفوا صفة للَّه ثابتة ، وهذا الزعم باطل من وجوه :

أما الأول : فلأن الضعف والخور مذموم من الآدميين والرحمة ممدوحة ، وقد قال اللَّه تعالى : ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ * وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ ، وقد نهى اللَّه عباده عن الوهن والحزن فقال تعالى : ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ، وندبهم إلى الرحمة ، وقال النبي في الحديث الصحيح : « لا تُنْزَع الرحمة إلّا من شقي »[(١)] . وقال : « مَن لا يَرْحَم ، لا يُرْحَم »[(٢)] . وقال : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء »[(٣)] . ومحال أن يقول : لا ينزع الضعف والخور إلا من شقي ، ولما كانت الرحمة تقارن في حق كثير من الناس الضعف والخور ، كما في رحمة النساء ونحو ذلك ظن الغالط أنها كذلك مطلقًا .

وأيضًا فلو قدر أنها في حق المخلوقين مستلزمة لذلك لم يجب أن تكون في حق اللَّه تعالى مستلزمة لذلك ، كما أن العلم والقدرة والسمع والبصر والكلام فينا يستلزم من النقص والحاجة ما يجب تنزيه اللَّه عنه .

وأيضًا فنحن نعلم بالاضطرار أنا إذا فرضنا موجودين أحدهما يرحم غيره فيجلب له المنفعة ويدفع عنه المضرة ، والآخر قد استوى عنده هذا وهذا ، وليس عنده ما يقتضي جلب منفعة ولا دفع مضرة ، كان الأول أكمل .

---

(١) سنن أبي داود (٤٩٤٤- ٤/٤٤١) ، وحسنه الألباني في « صحيح ابي داود » (٤٩٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) البخاري (٥٩٩٧- ٨/٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) سنن الترمذي (١٩٢٤- ٤/٣٢٣) ، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (٩٢٢) من حديث عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنه .

وبعضهم تأول الرحمة بمعنى إرادة الإحسان ، والحق إثبات صفة الرحمة حقيقة على ما يليق بجلاله تعالى ، كما يقال في سائر الصفات والرحمة : لا تنفك عن إرادة الإحسان فهي مستلزمة للإحسان أو إرادته استلزام الخاص للعام ، فكما يستحل وجود الخاص بدون العام ، فكذلك الرحمة بدون الإحسان أو إرادته يستحيل وجودها ، ومنهم من تأول الرحمة بمعنى الثواب ، والله سبحانه فرق بين رحمته ورضوانه وثوابه المفضل فقال تعالى : ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ ، فالرحمة والرضوان صفته والجنة ثوابه ، وهذا يبطل قول من جعل الرحمة والرضوان ثوابًا منفصلًا مخلوقًا ، وقول من قال : هي إرادته الإحسان ، فإن إرادته الإحسان هي من لوازم الرحمة ، فإنه يلزم من الرحمة أن يريد الإحسان إلى المرحوم فإذا انتفت حقيقة الرحمة انتفى لازمها وهو إرادة الإحسان ، وكذلك لفظ اللعنة والغضب والمقت هي أمور مستلزمة للعقوبة ، فإذا انتفت حقائق تلك الصفات انتفى لازمها ، فإن ثبوت لازم الحقيقة مع انتفائها ممتنع فالحقيقة لا توجد منفكة عن لوازمها .

واعلم أن الرحمة المضافة إلى الله نوعان :

أحدهما : مضاف إليه إضافة مفعول إلى فاعله .

والثاني : مضاف إليه إضافة صفة إلى الموصوف بها ، فمن الأول قوله في الحديث الصحيح : « احتجت الجنة والنار ...» فذكر الحديث ، وفيه : « فقال للجنة : إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء »[(١)] ، فهذه رحمة مخلوقة مضافة إليه إضافة المخلوق بالرحمة إلى الخالق تعالى ، وسماه رحمة ؛ لأنها خلقت بالرحمة وللرحمة ، وخص بها أهل الرحمة ، وإنما يدخلها الرحماء ومنه قوله ﷺ : « خلق الله الرحمة يوم خلقها مائة رحمة ، كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض »[(٢)] . ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ ، ومنه تسميته تعالى للمطر رحمة بقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ ، وعلى هذا فلا يمتنع الدعاء المشهور بين الناس قديمًا وحديثًا ، وهو قول الداعي : اللهم اجمعنا في مستقر رحمتك . لأن مراد الداعي بالرحمة الجنة .

وقال في إبطال التنديد « شرح كتاب التوحيد » : غلط بعض المتأخرين في تفسير الرحمن بكمال الإنعام ، والرحيم بدون الكمال وبإرادة الإنعام ، فإن ذلك مذهب أهل التأويل الباطل من الجهمية المبتدعة ، ذكر معناه شيخنا الشيخ عبد الرحمن بن حسن حفيد المصنف . اهـ .

---

(١) مسلم (٢١٨٦/٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) مسلم (٢١٠٩/٤) بنحوه من حديث سلمان رضي الله عنه .

□ ذكر غضب الله ورضاه :

وقوله : ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ ، وقوله : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ ، وقوله : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَآ أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ ، وقوله : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ ، وقوله : ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ ، وقوله : ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ :

* في هذه الآيات إثبات وصف الله بالغضب والرضا واللعن والكراهية والأسف والمقت ، وهذه كلهاَ من صفات الأفعال التي يفعلها جل وعلا متى شاء إذا شاء ، فكما يثبت أهل السنة الصفات الذاتية لله ، كذلك يثبتون أفعاله الاختيارية على ما يليق به سبحانه .

واللعن البعد عن مظان الرحمة ومواطنها : قيل : واللعن والملعون من حقت عليه اللعنة ، أو دعي عليها بها ، قال أبو السعادات : أصل اللعن الطرد والإبعاد من الله ، ومن الخلق السب والدعاء . قال شيخ الإسلام رحمه الله ، ما معناه : إن الله تعالى يلعن من استحق اللعنة بالقول ، كما يصلي على من استحق الصلاة من عباده ، قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ، ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَٰمٌ﴾ ، وقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ ، وقال : ﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ .

وقوله : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ : الأسف محرك يستعمل بمعنى شدة الحزن ، وبمعنى شدة الغضب والسخط ، وهو المراد في هذه الآية ، والانتقام المكافأة بالعقوبة ، وانتقامه تعالى مبالغته في العقوبة لمن يشاء ، والمنتقم مفتعل من نقم ينقم إذا بلغت به الكراهة حد السخط ، والمقت أشد البغض ، فدلت هذه الآيات وما ماثلها على إثبات رضا الله وغضبه وسخطه ونحو ذلك .

والرسل صلوات الله عليهم أجمعين إنما جاءوا بإثبات هذا الأصل ، وهو أن الله يحب بعض الأمور المخلوقة ويرضاها ، ويسخط بعض الأمور ويمقتها ، وأن أعمال العباد ترضيه تارة وتسخطه أخرى .

ومذهب السلف وسائر الأمة إثبات صفة الغضب والرضَا والعداوة والولاية والحب والبغض ، ونحو ذلك من الصفات التي ورد بها الكتاب والسنة ، ومنع التأويل الذي يصرفها عن حقائقها اللائقة بالله تعالى ، كما يقولون مثل ذلك في السمع والبصر والكلام وسائر الصفات ، ولا يقال : إن الرضا إرادة الإحسان ، والغضب إرادة الانتقام ؛ فإن هذا نفي للصفة ، وقد اتفق أهل السنة على أن الله يأمر بما يحبه ويرضاه وإن كان لا يريده ولا يشاؤه ، وينهى عما يسخطه ويكرهه ويبغضه ، ويغضب على فاعله وإن كان قد شاءه وأراده ، فقد يحب عندهم ويرضى ما لا يريده ، ويكره ويسخط ويغضب لما أراده ،

ويقال لمن تأول الغضب والرضا : لم تأولت ذلك ؟ فلا بد أن يقول : لأن الغضب غليان دم القلب ، والرضا الميل والشهوة وذلك لا يليق بالله تعالى ، فيقال له : غليان دم القلب في الآدمي أمر ينشأ عن صفة الغضب . ويقال له أيضًا : وكذلك الإرادة والمشيئة فينا هي ميل الحي إلى الشيء ، أو إلى ما يلائمه ويناسبه .

فالمعنى الذي صرفت إليه اللفظ كالمعنى الذي صرفته عنه سواء ، فإن جاز هذا جاز ذاك ، وإن امتنع هذا امتنع ذاك ، فإن قالوا : الإرادة التي يوصف الله بها مخالف للإرادة التي يوصف بها العبد وإن كان كل منها حقيقة ! قيل له : فقل : إن الغضب والرضا الذي يوصف الله به مخالف لما يوصف به العبد ، وإن كان كل منهما حقيقة ، فإذا كان ما يقوله في الإرادة يمكن أن يقال في هذه الصفات لم يتعين التأويل بها يجب تركه ، وصفات الله تليق به وصفات العبد تليق به ، بل لو قيل : غضب مالك خازن النار وغضب غيره من الملائكة ، لم يجب أن يكون مماثلًا لكيفية غضب الآدمين ، فغضب الله أولى ، وقد نفى الجهم ومن وافقه كل ما وصف الله به نفسه من كلامه ورضاه وغضبه وحبه وبغضه وأسفه ونحو ذلك ، وقالوا : إنما هي أمور مخلوقة منفصلة عنه ليس هو في نفسه متصفًا بشيء من ذلك ، وعارض هؤلاء من الصفاتية ابن كلاب ومن وافقه فقالوا : لا يوصف الله بشيء يتعلق بمشيئته وقدرته أصلًا ، بل جميع هذه الأمور صفات لازمة لذاته قديمة أزلية ، فلا يرضى في وقت دون وقت ، ولا يغضب في وقت دون وقت ، كما قال ﷺ في حديث الشفاعة : « إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله »[1] .

وفي « الصحيحين » عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : « إن تعالى يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة . فيقولون : لبيك وسعديك والخير في يديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك . فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا »[2] . فيستدل به على أنه يحل رضوانه في وقت دون وقت ، وأنه قد يحل رضوانه ثم يسخط ، كما يحل السخط ثم يرضى لكن هؤلاء أحل عليهم رضوانًا لا يتعقبه سخط ، وهم قالوا : لا يتكلم إذا شاء ولا يضحك إذا شاء ولا يغضب إذا شاء ولا يرضى إذا شاء ، بل إما أن يجعلوا الرضا والغضب والحب والبغض هو الإرادة ويجعلوها صفات أخرى ، وعلى التقديرين فلا يتعلق شيء من ذلك لا بمشيئته ولا بقدرته ؛ إذ لو تعلقت بذلك لكان محلًّا للحوادث ، فنفى هؤلاء الصفات العقلية الذاتية بهذا الأصل ، كما نفى

---

(١) البخاري (١٣٥/٤) ، ومسلم (١٨٥/١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) البخاري (٦٥٣٩- ١١٤/٨) ، ومسلم (٢١٧٦/٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

أولئك الصفات مطلقًا بقولهم : ليس محلًا للأغراض .

وقد يقال : بل هي أفعال ولا تسمى حوادث ، كما سميت تلك صفات ولم تسم أعراضًا ، وما يزعمه الجهمية والمعتزلة من أن كلامه وإرادته ومحبته وكراهته ورضاه وغضبه ، وغير ذلك كل ذلك مخلوقات له منفصلة عنه هو مما أنكره السلف عليهم وجمهور الخلف ، بل قالوا : إن هذا من الكفر الذي يتضمن تكذيب الرسول وجحود ما يستحقه اللَّه من صفاته ، وكلام السلف في رد هذا القول ، وإطلاق الكفر عليه كثير منتشر ، كذلك لم يقل السلف : إن غضبه على فرعون وقومه قديم ولا أن فرحه بتوبة التائب قديم ، وكذلك سائر ما وصف به نفسه من الجزاء لعباده على الطاعة والمعصية من رضاه وغضبه لم يقل أحد منهم : إنه قديم فإن الجزاء لا يكون قبل العمل ، والقرآن صريح بأن أعمالهم كانت سببًا لذلك قوله : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ ، واللَّه تعالى إذا خلق صفة في محل كان المحل متصفًا به ، فإذا خلق في محل علمًا أو قدرة أو حياة أو حركة أو لونًا أو سمعًا أو بصرًا كان ذلك المحل هو العالم به القادر المتحرك الحي المتلون السميع البصير ، فإن الرب لا يتصف بما يخلقه في مخلوقاته ، وإنما يتصف بصفاته القائمة به ، بل كل موصوف لا يوصف إلا بما يقوم به لا بما يقوم بغيره ولم يقم به .

وأما قول القائل : الغضب غليان دم القلب بطلب الانتقام ، وبذلك رد الجهمية ونحوهم صفة الغضب ، فيقال : أولًا : ليس بصحيح أن الغضب غليان دم القلب في حق المخلوقين ، بل الغضب قد يكون لدفع المنافي قبل وجوده ، فلا يكون هناك انتقام أصلًا ، وأيضًا فغليان دم القلب يقارنه الغضب ليس أن مجرد الغضب هو غليان دم القلب ، كما أن الحياء يقارن حمرة الوجه ، والوجل يقارن صفرة الوجه ، لا أنه هو ، وأيضًا فلو قدر أن هذا هو حقيقة غضبنا لم يلزم أن يكون غضب اللَّه تعالى مثل غضبنا ، كما أن حقيقة ذات اللَّه ليست مثل ذاتنا ، ونحن نعلم بالاضطرار أنا إذا قدرنا موجودين : أحدهما : عنده قوة يدفع بها الفساد ، والآخر : لا فرق عنده بين الصلاح والفساد ، كان الذي عنده تلك القوة أكمل ، ولهذا يذم من لا غيرة له على الفواحش كالديوث ، ويذم من لا حمية له يدفع بها الظلم عن المظلومين ، ويمدح الذي له غيره يدفع بها الفواحش وَحمية يدفع بها الظلم ، ويعلم أن هذا أكمل من ذلك ، ولهذا وصف النبي ﷺ الرب بالأكملية في ذلك ، فقال في الحديث الصحيح : « لا أحد أغير من اللَّه ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن »[1] . وقال : « أتعجبون من غيرة سعد ؟ أنا أغير منه واللَّه أغير مني »[2] .

---

(١) البخاري (٤٦٣٤- ٦/٥٧) ، ومسلم (٤/٢١١٤) .

(٢) البخاري (٦٨٤٦- ٨/١٧٣) ، ومسلم (٢/١٣٦) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه .

وقول القائل : إن هذه انفعالات نفسانية ، فيقال : كل ما سوى الله مخلوق منفعل ونحن ذواتنا منفعلة ، فكونها انفعالات فينا لغيرنا نعجز عن دفعها لا يوجب أن يكون الله منفعلًا لها عاجزًا عن دفعها ، وكان كل ما يجري في الوجود فإنه بمشيئته وقدرته لا يكون إلا ما يشاء ، ولا يشاء إلا ما يكون له ، له الملك وله الحمد .

□ إثبات صفة مجيء الله وإتيانه ونزوله :

وقوله : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ ، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ ، ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ ، ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ :

* في هذه الآيات إثبات صفة مجيء الله وإتيانه ونزوله على ما يليق بجلاله سبحانه ، وهذه من أفعاله الاختيارية ، فينزل يوم القيامة لفصل القضاء بين الناس ، وينزل إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر ، وغير ذلك على ما وردت به النصوص ، وكما يشاء جل وعلا ، وفي ذلك إبطال لقول الجهمية والمعتزلة ونحوهم من النفاة المعطلة .

قوله : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي : هل ينتظر الكفار التاركون للدخول في السلم المتبعون خطوات الشيطان إلا أن يأتيهم الله يوم القيامة لفصل القضاء بين الناس ، وعند ذلك يحيق بهم العذاب السرمدي ، و﴿يَنظُرُونَ﴾ : بمعنى ينتظرون ، قال امرؤ القيس :

فإنكما إن تنظراني ساعة ... من الدهر تنفعني لدى أم جندب

فإذا كان النظر مقرونًا بذكر الوجه أو معدى بإلى لم يكن إلا بمعنى الرؤية .

والظل جمع ظلة ، وهو السحاب الأبيض الرقيق ، وقوله : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قال مجاهد : عند الموت حين توفاهم . ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ يوم القيامة لفصل القضاء ، ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ طلوع الشمس من مغربها وما شاء الله وقال ابن جرير : « حيث ذكر في القرآن إتيان الملائكة فهو محتمل لإتيانهم لقبض الأرواح ، ويحتمل أن يكون نزولهم لهم بعذاب الكفار وإهلاكهم » . اهـ .

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ : كلا حرف زجر وردع ، المعنى ليس الأمر ، كما يظن المنكرون للبعث من أنه لا بعث ولا جزاء ولا حساب ، بل إن ذلك حق آت لا ريب فيه وعندئذ يذكرون حين لا تنفع الذكرى .

والدك : التسوية والتمهيد ، والملك : واحد الملائكة ، والمراد هنا الجمع ، وأل فيه للجنس ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ إيذانا بنزوله تعالى ؛ لأن تشقق السماء مقدمة النزول ، ومقدمة الشيء

منه ، وقد زعم بعض المنكرين لصفة مجيء الله أن في قوله : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ إضمارًا تقديره : وجاء ملك ربك أو أمره أو عذابه ، وهو زعم باطل ، فإنه إضمار ما لا يدل عليه اللفظ بمطابقة ولا لزوم ، وادعاء حذف ما لا دليل عليه يرفع الوثوق من الخطاب ، ويطرق كل مبطل على ادعاء إضمار ما يصحح باطله ، مع أن صحة التركيب واستقامة اللفظ لا تتوقف على هذا المحذوف ، بل الكلام مستقيم قائم المعنى بدون إضمار ، فإضماره مجرد دعوى خلاف الأصل فلا يجوز ، بل يكون قولًا على المتكلم بلا علم ، وأيضًا ففي السياق ما يبطل هذا التقدير ، وهو قوله : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ﴾ ، فعطف الملك على مجيئه سبحانه يدل على تغاير المجيئين ، وأن مجيئه سبحانه حقيقة ، كما أن مجيء الملك حقيقة ، بل مجيء الرب سبحانه أولى أن يكون حقيقة من مجيء الملك ، وكذلك قوله : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ ففرق بين إتيان الملائكة وإتيان الرب ، وإتيان ﴿بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ فقسم ونوع مع هذا التقسيم يمتنع أن يكون القسمان واحد فتأمله ، ولهذا منع عقلاء الفلاسفة حمل مثل هذا اللفظ على مجازه ، وقالوا : هذا يأباه التقسيم والترديد والاطراد ، ولو صرح بهذا المحذوف المقدر له يحسن وكان كلامًا ركيكًا ، فإنه لو قال : هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ملك ربك أو أمر ربك أو يأتي بعض آيات ربك كان مستهجنًا ، ولو كان المجيء والإتيان مستحيلًا عليه لكان كالأكل والشرب والنوم والغفلة ، ومتى عهد إطلاق الأكل والشرب والنوم والغفلة عليه ونسبتها مجازية ، وهي متعلقة بغيره ؟ وهل في ذلك شيء من الكمال البتة ؟ فإن قوله : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ وأتى ويأتي عندكم في الاستحالة مثل نام وأكل وشرب ، والله سبحانه لا يطلق على نفسه هذه الأفعال ولا رسوله لا بقرينة ، ولا مطلقة فضلًا عن نظر نسبتها إليه .

وقد اطرد نسبة المجيء والإتيان والنزول والاستواء إليه مطلقًا من غير قرينة تدل على أن الذي نسب إليه ذلك غيره من مخلوقاته ، فكيف تسوغ دعوى المجاز فيه ؟ ومن ادعى المجاز زعم أن العقل يسانده في ذلك ، ولكن مدعي الحقيقة قد أبطل جميع العقليات التي لأجلها ادعى المجاز في المجيء ونحوه أكثر من ثلاثمائة وجه ، فسلم لهم النقل واتفاق السلف ، فكيف والعقل الصريح بجانبهم ؟ وبعضهم قال : أمره بمعنى مأموره فركب مجازًا على مجاز بزعمه ولم يصنع شيئًا .

وقد يجيء الإتيان والمجيء من الله تعالى مقيدًا إذا كان مجيء رحمته أو عذابه ، كما في الحديث : جاء الله بالرحمة والخير ، ومنه ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ ، ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ ، وفي الحديث : لا يأتي بالحسنات إلا الله[1] .

---

(١) سنن أبي داود (٢٩٢١- ٤/٢٧) ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (حديث رقم : ١٩٩) .

وكذلك قوله: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ فلما قيده بالمفعول وهو البنيان، وبالمجرور وهو القواعد دل ذلك على مجيء ما بينه، إذ من المعلوم أن الله سبحانه إذا جاء بنفسه لا يجيء من أساس الحيطان وأسفلها، وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ فهذا مجيء مقيد لقوم مخصوصين قد أوقع بهم بأسه، وعلم السامعون أن جنوده من الملائكة والمسلمين أتوهم فكان في هذا السياق ما يدل على المراد على أنه لا يمتنع في الآيتين أن يكون الإتيان على حقيقته، ويكون ذلك دنوًا ممن يريد إهلاكهم بغضبه وانتقامه، كما يدنو عشية عرفة من الحجاج برحمته ومغفرته، ولا يلزم من هذا الدنو والإتيان الملاصقة والمخالطة، بل يأتي هؤلاء برحمته وفضله، وهؤلاء بانتقامه وعقوبته، ومن فوق عرشه، إذ لا يكون الرب إلا فوق كل شيء، ففوقيته وعلوه من لوازم ذاته، ولا تناقض بين نزوله ودنوه وهبوطه ومجيئه وإتيانه وعلوه، لإحاطته وسعته وعظمته، وأن السماوات والأرض في قبضته، وأنه مع كونه الظاهر الذي ليس فوقه شيء فهو الباطن الذي ليس دونه شيء، فظهوره بالمعنى الذي فسره به أعلم الخلق لا يناقض بطونه بالمعنى الذي فسره به أيضًا، ومما يوضح ذلك أن النزول والمجيء والإتيان والصعود والارتفاع كلها أنواع أفعاله، وهو الفعال لما يريد.

وأفعاله كصفاته قائمة به، ولولا ذلك لم يكن فعالًا ولا موصوفًا بصفات كماله، فإن كانت مجازًا فأفعاله كلها مجاز ولا فعل له في الحقيقة، بل هو بمنزلة الجمادات، وهذا حقيقة من عطل أفعاله، وإن كان فاعلًا حقيقة أفعاله نوعان: لازمة ومتعدية، كما دلت النصوص التي هي أكثر من أن تحصر على النوعين، ولما فهمت العقول الفاسدة من نزول الرب ومجيئه وإتيانه وهبوطه ودنوه ما يفهم من مجيء المخلوق وإتيانه وهبوطه ودنوه، وهو أن يفرغ مكانًا ويشغل مكانًا نفت حقيقة ذلك فوقعت في محذورين؛ محذور التشبيه ومحذور التعطيل، فلو كان الرب سبحانه مماثلًا لخلقه لزم نزوله خصائص نزولهم، ضرورة ثبوت أحد المثلين للآخر.

❑ إثبات صفة الوجه لله:

وقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾:

* إثبات صفة الوجه لله قد دل عليها القرآن والسنة وإجماع السلف وأهل السنة، والوجه صفة ذاتية له تعالى، وقد أنكرت الجهمية ونحوهم أن يوصف الله بأن له وجهًا، وتأولوا ما ورد في ذلك تأويلات فاسدة؛ فمنهم من قال: المراد به الثواب، ومنهم من قال: القبلة، ومنهم من قال: الوجه صلة والتقدير ويبقى ربك، ودعوى المجاز في ذلك باطلة، فإن المجاز لا يمتنع نفيه، فعلى هذا لا

يمتنع أن يقال : ليس للّه وجه ولا حقيقة لوجهه ، وهذا تكذيب لما أخبر اللّه به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله ﷺ ، ولو ساغ دعوى الزيارة في ذلك لساغ لمعطل آخر أن يدعى الزيادة في صفات أخرى ، وأيضًا فقد ذكر الخطابي والبيهقي وغيرهما أنه تعالى لما أضاف الوجه إلى الذات وأضاف النعت إلى الوجه فقال : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ دل على أن ذكر الوجه ليس بصلة ، وأن قوله : ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ صفة للوجه ، وأن الوجه صفة للذات ، فتأمل رفع قوله : ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ عند ذكر الوجه ، وجره في قوله : ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ، وأيضًا فإنه لا يعرف في لغة من لغات الأمم وجه الشيء بمعنى ذاته ونفسه ، والوجه في اللغة مستقبل كل شيء ؛ لأنه أول ما يواجه منه ، ووجه الرأي والأمر ما يظهر أنه صوابه ، وهو في كل محل بحسب ما يضاف إليه ، فإن أضيف إلى زمن كان الوجه زمنًا ، وإن أضيف إلى حيوان كان بحسبه ، وإن أضيف إلى ثوب أو حائط كان بحسبه ، وإن أضيف إلى من ليس كمثله شيء كان وجهه تعالى كذلك ، وأما حمله على الثواب المنفصل فهو من أبطل الباطل ، فإن اللغة لا تحتمل ذلك ولا يعرف أن الجزاء يسمى وجهًا للمجازى ، ثم إن الثواب مخلوق .

وقد صح عن النبي ﷺ أنه استعاذ بوجه اللّه فقال : « أعوذ بوجهك الكريم أن تضلني ، لا إله إلا أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون » . رواه أبو داود وغيره[(١)] ، ومن دعائه يوم الطائف : « أعوذ بوجهك الكريم الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة » . ولا يظن برسول اللّه ﷺ أن يستعيذ بمخلوق ، والأحاديث في الاستعاذة بوجه اللّه كثيرة ، وكان النبي ﷺ يدعو في دعائه : « أسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك »[(٢)] .

ولا يعرف تسمية الثواب وجهًا لغة ، ولا شرعًا ولا عرفًا ، وقوله ﷺ : « حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه »[(٣)] . فإضافة السبحات التي هي الجلال والنور إلى الوجه ، وإضافة البصر إليه تبطل كل مجاز ، وتبين أن المراد وجهه وقال عبد اللّه ابن مسعود : ليس عند ربكم ليل ولا نهار ، نور السماوات والأرض من نور وجهه . فهل يصح أن يحمل الوجه في هذا على مخلوق أو يكون صلة لا معنى له ، أو يكون بمعنى القبلة والجِهَة ؟ وهذا مطابق لقوله عليه السلام : « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات » . فأضاف النور إلى الوجه والوجه إلى الذات ، واستعاذ بنور الوجه الكريم فعلم أن نوره صفة له ، كما أن الوجه صفة ذاتية ، وهذا الذي قاله ابن مسعود تفسير

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٢٧/١٠) ، وضعفه الألباني في « فقه السيرة » (١٦٥/١) .
(٢) « سنن النسائي » (١٣٠٥- ٥٤/٣) ، وصححه الألباني في « صحيح وضعيف سنن النسائي » (١٤٤٩) .
(٣) مسلم (١٦١/١) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

قوله : ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ .

وقد اتفق أهل الحق على رؤية المؤمنين الله في الجنة ، فمن أنكر حقيقة الوجه لم يكن للنظر عنده حقيقة ، ولا سيما إذا أنكر الوجه والعلو فيعود النظر عنده إلى خيال مجرد ، وحيث ورد الوجه فإنما ورد مضافًا إلى الذات في جميع موارده ، والمضاف إلى الرب تعالى نوعان :

أعيان قائمة بنفسها كبيت الله وناقة الله ، وروح الله ، وعبد الله ورسوله ، فهذه إضافة تشريف وتخصيص ، وهي إضافة مملوك إلى مالكه .

الثاني : صفات لا تقوم بنفسها ، كعلم الله وحياته وقدرته وعزته وسمعه وبصره ونوره وكلامه ، فهذه إذا وردت مضافة إليه فهي صفة إلى الموصوف بها ، وهذا الإضافة تنفي أن يكون الوجه مخلوقًا ، وأن يكون حشوًا في الكلام ، وفي سنن أبي داود عنه ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد قال : « أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم »[١] . فتأمل كيف قرره في الاستعاذ بين استعاذته بالذات وبين استعاذته بالوجه الكريم ، وهذا صريح في إبطال قول من قال : إنه الذات نفسها ، وقول من قال : أنه مخلوق .

□ إثبات صفة اليدين :

وقوله : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ ، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ :

*صفة اليدين لله قد دل عليها الكتاب والسنة ، وإجماع سلف الأمة ، خلافًا للجهمية والمعتزلة ، قال عبد الله بن عمرو بن العاص : إن الله لم يخلق بيده إلا ثلاثًا خلق آدم بيده ، وغرس جنة عدن بيده ، وكتب التوراة بيده . وفي محاجة آدم لموسى قال موسى : أنت الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء[٢] .

وزعم نفاة الصفات : أن المراد باليدين النعمة والقدرة ، وهي دعوى باطلة ، فإنه لا يصح في عقل أو نقل أن يقال : لم يخلق بنعمته أو بقدرته إلا ثلاثًا ، ولا يصح استعمال المجاز في هذا بلفظ التثنية ، فلا يستعمل إلا مفردًا أو مجموعًا كقولك : له عندي يد يجزيه الله بها ، وله عندي أياد ، وأما إذا جاء بلفظ التثنية فلا يعرف استعماله قط إلا في اليد الحقيقة ، وليس من المعهود أن يطلق الله على نفسه معنى القدرة والنعمة بلفظ التثنية ، بل بلفظ الإفراد الشامل لجميع الحقيقة ، كقوله : ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ

---

(١) سنن أبي داود (٤٦٦- ١/١٧٥) ، وصححه الألباني في « صحيح وضعيف سنن أبي داود » (١/٤٦٦) .

(٢) سنن أبي داود (٤٧٠٤- ٤/٣٦٢) من حديث عمر رضي الله عنه ، وحسنه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (٤/ ٢٠١) .

جَمِيعًا﴾ ، وقد يجمع النعم مثل : ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ ، وأما أن يقول : خلقتك بقدرتين أو بنعمتين ، فهذا لم يقع في كلامه ، ولا في كلام رسوله ، ولو ثبت استعمال ذلك بلفظ التثنية لم يجز أن يكون المراد به هاهنا القدرة ، فإنه يبطل فائدة تخصيص آدم ، فإنه وجميع المخلوقات حتى إبليس مخلوق بقدرته سبحانه ، فأي مزية لآدم على إبليس في ذلك ، وأيضًا فيه النعمة والقدرة لا يتجاوز بها لفظ اليد ، فلا يتصرف فيها بما يتصرف في اليد الحقيقية ، فلا يقال فيها كف ، ولا أصبع ، ولا أصبعان ، ولا يمين ، ولا شمال ، وهذا كله ينفي أن تكون اليد يد نعمة أو يد قدرة ، وقد قال النبي ﷺ : « المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن »[1] . وفي حديث الشفاعة : فأقوم عن يمين الرحمن مقامًا لا يقومه غيري .

وإذا ضممت قوله : ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إلى قوله ﷺ : « يأخذ الجبار سماواته وأرضه بيده يهزهن » . وجعل رسول اللَّه ﷺ يقبض يده ، ويبسطها ، وفي « صحيح مسلم » يحكي ربه بهذا اللفظ ، وقال : « ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغه أزاغه » . وفي حديث الشفاعة : « وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي أربعمائة ألف » . فقال أبو بكر : زدنا يا رسول اللَّه . قال : « وثلاث حثيات من حثيات ربي » . فقال عمر : حسبك يا أبا بكر ، إن شاء أدخل خلقه الجنة بكف واحدة . فقال رسول اللَّه ﷺ : « صدق عمر » . فهذا القبض والبسط والطي باليمين والأخذ والوقوف عن يمين الرحمن ، والكف ، وتقليب القلوب بأصابعه ، ووضع السماوات على أصبع ، والجبال على أصبع ، فذكر إحدى اليدين ، ثم قوله : « وبيده الأخرى » . ممتنع فيه اليد المجازية ، سواء كانت بمعنى القدرة أو بمعنى النعمة ، فإنها لا يتصرف فيها هذا التصرف ، وقد أنكر اللَّه تعالى على اليهود نسبة يده إلى النقص والعيب ، ولم ينكر عليهم إثبات يده ، وقدر إثباتها له زيادة على ما قالوا بأنهما « مبسوطتان » ، وأيضًا فيد القدرة والنعمة لا يعرف استعمالها البتة إلا في حق من له يد حقيقة ، فهذه موارد استعمالها من أولها إلى آخرها ، مطردة في ذلك فلا يعرف العربي خلاف ذلك ، فاليد المضافة إلى الحي إما أن تكون يدًا حقيقة أو مستلزمة للحقيقة ، وإما أن تضاف إلى من ليس لديه حقيقة ، وهو حي متصف بصفات الأحياء .

فهذا لا يعرف البتة ، وسر هذا أن الأعمال والأخذ والعطاء والتصرف لما كان باليد ، وهي التي تباشر عبروا بها عن الغاية الحاصلة بها ، وهذا يستلزم ثبوت أصل اليد حتى يصح استعمالها في مجرد القوة والنعمة والإعطاء ، فإذا انتفت حقيقة اليد امتنع استعمالها فيها فيما يكون باليد ، فثبوت هذا الاستعمال المجازي من أدل الأشياء على ثبوت الحقيقة ، فقوله تعالى في حق اليهود : ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾

---

(١) مسند أحمد (٦٤٩٢- ١١/ ٣٢) .

هو دعاء عليهم بغل اليد المتضمن للجبن والبخل ، وذلك لا ينفي ثبوت أيديهم حقيقة .

وأما الإضافة في مثل يد الشمال ، ويد الحائط ويد الليل ، فقد بينت أن المضاف من جنس المضاف إليه وكل ذلك حقيقة ، وكذلك إضافة اليدين إلى الرحمة في قوله : ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ ، فيتنوع المضاف بتنوع المضاف إليه ، وإن اختلفت ماهية الحقيقة وصفتها وتنوعت بتنوع المضاف إليه .

وقد ورد لفظ اليد في القرآن والسنة وكلام الصحابة والتابعين في أكثر من مائة موضع ، ورودًا متنوعًا متصرفًا فيه ، مقرونًا بما يدل على أنها يد حقيقة من الإمساك والطي والقبض والبسط والمصافحة ، والحثيات والنضح باليد ، والخلق باليدين والمباشرة بهما وكتب التوراة بيده ، وغرس جنة عدن بيده ، وتخمير طينة آدم ، ووقوف العبد بين يديه ، وكون المقسطين عن يمينه ، وقيام رسول الله ﷺ يوم القيامة عن يمينه ، وتخيير آدم بين ما في يديه فقال : اخترت يمين ربي . وأخذ الصدقة بيمينه ، يربيها لصاحبها ، وكتابته بيده على نفسه : إن رحمته تغلب غضبه ، وأنه مسح ظهر آدم بيده ، ثم قال له- ويداه مفتوحتان- : اختر . فقال : اخترت يمين ربي . وكلتا يديه يمين مباركة ، وأن يمينه ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار ، وبيده الأخرى القسط يرفع ويخفض ، وأنه خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، وأنه يطوي السماوات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يطوي الأرض باليد الأخرى وأنه خط الألواح التي كتبها لموسى بيده ، وتأمل قوله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ فلما كانوا يبايعون رسول الله ﷺ بأيديهم ، ويضرب بيده على أيديهم ، وكان رسول الله ﷺ هو السفير بينه وبينهم كانت مبايعتهم له مبايعة لله تعالى ، ولما كان سبحانه فوق سماواته على عرشه ، وفوق الخلائق كلهم كانت يده فوق أيديهم ، كما أنه سبحانه فوقهم ، فهل يصح هذا لمن ليس له يد حقيقة ؟

ولفظ اليد جاء في القرآن على ثلاثة أنواع : مفردًا ومثنى ومجموعًا ، فالمفرد كقوله : ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ ، والمثنى كقوله : ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ ، والمجموع : ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ ، فحيث ذكر اليد مثناة أضاف الفعل إلى نفسه بضمير الإفراد ، وعدى الفعل بالباء إليهما فقال : ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ ، وحيث ذكرها مجموعة أضاف العمل إليها ولم يعد الفعل بالباء ، فهذه ثلاثة فروق لا يحتمل ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ من المجاز ما يحتمله ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ ، فإن كل أحد يفهم من قوله : ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ ما يفهم من قوله : عملنا وخلقنا . كما يفهم من قوله : ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ، وأما قوله : ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ فلو كان المراد منه مجرد الفعل لم يكن لذكر اليد بعد نسبة الفعل إلى الفاعل معنى ، فكيف وقد دخلت عليها الباء؟ فكيف إذا ثنيت وسر الفرق أن الفعل قد يضاف إلى يد ذي اليد ، والمراد الإضافة إليه

كقوله : ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ ، ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ، وأما إذا أضيف إليه الفعل ثم عدي بالباء إلى يده مفردة أو مثناة فهو مما باشرته يده .

□ إثبات صفة عيني الرحمن جل وعلا :

وقوله : ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ، ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۝ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ ، ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ :

* قد دل الكتاب والسنة الصريحة وإجماع أهل الحق على أن الله تعالى موصوف بأن له عينين حقيقة على ما يليق بجلاله وعظمته .

وقوله : ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ :الدسر : المسامير ، وأحدها دسار ، والمراد بـ﴿ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ السفينة ، ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ بمرآى منا ، وفي حفظنا وكلاءتنا ، قوله : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ ؛ أي : لتربى وتغذى وتنعم على عيني أراك وأحفظك .

وورد وصف الله بالعينين في القرآن بلفظ المفردة تارة ، وبلفظ الجمع تارة ، وورد في السنة بلفظ التثنية ؛ وذلك أن المفرد المضاف يراد به أكثر من واحد ، كقوله : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ ، ومنه : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ ، ثم إنه ذكر العين المفردة المضافة إلى الضمير المفرد ، والأعين مجموعة مضافة إلى ضمير الجمع ، وذكر العين مفردة لا يدل على أنها عين واحدة ليس إلا كقولك : أفعل هذا على عيني ، وأحبك على عيني . ويريد أن له عينًا واحدة ، وقد نطق الكتاب بلفظ العين مضافة إليه مفردة ومجموعة ، ونطقت السنة بإضافتها إليه مثناة ، كما قال النبي ﷺ : « إن العبد إذا قام في الصلاة قام بين عيني الرحمن ، فإذا التفت قال له ربه : إلى من تلتفت إلى خير لك مني ؟ »[1] . وقوله النبي ﷺ : « إن ربكم ليس بأعور »[2] . صريح بأنه ليس المراد إثبات عين واحدة ، فإن ذلك عور ظاهر تعالى عنه ، وهل يفهم من قول الداعي : اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام . أنها عين واحدة ليس إلا ذهن أقلف ، وقلب أغلف ، وقال عثمان بن سعيد : الأعور ضد البصير بالعينين .

ولغة العرب متنوعة في إفراد المضاف وتثنيته وجمعه ، بحسب أحوال المضاف إليه ، فإن أضافوا الواحد المتصل إلى مفرد أفردوه ، وإن أضافوه إلى اسم جمع ظاهرًا أو مضمرًا فالأحسن جمعه مشاكلة للفظ كقوله : ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ ، وإن أضيف إلى ضمير جمع جمعت ، كقوله : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ ، وإن أضافوه إلى اسم مثنى فالأفصح في لغتهم جمعه ، كقوله : ﴿فَقَدْ

---

(١) ضعفه الألباني في « السلسلة الضعيفة » (١٠٢٤) .

(٢) البخاري (٧٤٠٥/٦١٧٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ وإنما هما قلبان ، وقوله : ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ ، وكقول العرب : اضرب أعناقهما وهذا أفصح استعمالهم ، وتارة يفردون المضاف فيقولون : لسانهما وقلبهما ، وتارة يثنون كقوله : ظهراهما مثل ظهور الترسين .

وإذا كان من لغتهم وضع الجمع موضع التثنية ؛ لئلا يجمعوا في لفظ واحد بين تثنيتين ولا لبس هناك ، فلأن يوضع الجمع موضع التثنية فيما إذا كان المضاف إليه تثنية أولى بالجواز ، يدل عليه : أنك لا تكاد تجد في كلامهم : عينان ويدان ونحو ذلك ، ولا يلتبس على السامع قول المتكلم ، نراك بأعيننا ونأخذك بأيدينا ، ولا يفهم منه بشر على وجه الأرض عيونًا كثيرة على وجه واحد .

وقوله : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ ، وقوله : ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ ، ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ ، وقوله : ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ ، وقوله : ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ ، ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ ، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ، ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ :

* في هذه الآيات وصف الله بالسمع والبصر ، وأنه تعالى يسمع بسمع ويبصر ببصر حقيقة ، منزه في ذلك وغيره من صفات المخلوقين ومماثلتهم ، هذا مذهب سلف الأمة وأئمتها ، وعلى ذلك دل الكتاب والسنة ، وفي ذلك الرد على الجهمية والمعتزلة ، قالت عائشة رضي الله عنها : الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة إلى رسول الله ﷺ تكلمه في جانب البيت ، ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله هذه الآية ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ رواه أحمد . فلا يشك صحيح الفهم البتة في هذا الخطاب : أنه نص صريح لا يحتمل التأويل بوجه من الوجوه في إثبات صفة السمع لله حقيقة وأنه يسمع بنفسه ، وهذا أصرح ما يكون في إثبات صفة السمع لله ، ذكر الماضي والمضارع ، واسم الفاعل ، سمع ويسمع ، وهو سميع وله السمع ، كما قالت عائشة : الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات .

ولا يستقيم في كلام العرب أن يقال لشيء : هو سميع بصير . إلا وذلك الشيء موصوف بالسمع والبصر من ذوي الأعين والأبصار ، وقد يقال في مجاز الكلام : الجبال تترآى وتسمع على معنى أنها تقابل بعضها بعضًا ، وتبلغها الأصوات ولا تفقه ، ولا يقال : جبل سميع بصير ، وقصر سميع بصير ؛ لأن ذلك مستحيل إلا لمن يسمع بسمع ويبصر ببصر .

وفعل السمع يراد به أربعة معان :

أحدها : سمع إدراك ومتعلقه الأصوات .

الثاني : سمع فهم وعقل ومتعلقة المعاني .

الثالث : سمع إجابة وعطاء ما سئل .

الرابع : سمع قبول وانقياد .

فمن الأول : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ ، و﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ ، ومن الثاني قوله : ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ﴾ ليس المراد سمع مجرد الكلام ، بل سمع الفهم والعقل ، ومنه : ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ، ومن الثالث : « سمع اللَّه لمن حمده » وفي الدعاء المأثور : اللهم اسمع . أي أجب وأعط ما سألتك ، ومن الرابع قوله تعالى : ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ ؛ أي : قابلون له ، ومنقادون له على أصح القولين ، ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي : قابلون ومنقادون ، وقيل : عيون وجواسيس ، وليس بشيء ، إذا عرف هذا فسمع الإدراك يتعدى بنفسه ، وسمع القبول يتعدى باللام تارة وبمن أخرى ، وهذا بحسب المعنى ، فإن كان السياق يقتضي القبول عدى بمن ، وإن كان يقتضي الانقياد عدى باللام ، وأما سمع الإجابة فيتعدى باللام نحو : « سمع اللَّه لمن حمده » ؛ لتضمنه معنى استجاب له ، ولا حذف هناك وإنما هو متضمن .

وأما سمع الفهم فيتعدى بنفسه ؛ لأن مضمونه يتعدى بنفسه ، فله تعالى سمع يدرك به المسموعات ، وبصر يدرك به المرئيات بلا تكييف ، وروى البخاري في « صحيحه » أن النبي ﷺ قال : « ما أذن اللَّه لشيء إذنه لرجل حسن الصوت يتغنى بالقرآن »[1] . والأدلة في ذلك أكثر من أن تحصر .

□ إثبات المكر والكيد :

وقوله : ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ ، وقوله : ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ ، وقوله : ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ، وقوله : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ :

* في هذه الآيات إثبات وصف اللَّه بالمكر والكيد والمماحلة ، وهذه صفات فعلية تثبت للَّه كما يليق بجلاله وعظمته .

قوله : ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ ؛ أي : الأخذ بشدة وقوة ، والمحال والمماحلة المماكرة والمغالبة ، وقد روى الإمام أحمد رحمه الله عن ابن عباس كان من دعاه النبي ﷺ : « أعني ولا تعن علي ، وانصرني ولا تنصر علي ، وامكر لي ولا تمكر علي » . رواه الترمذي وصححه[2] .

(١) البخاري (٧٥٤٤- ٩/١٥٨) بنحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) « سنن الترمذي » (٣٥١١- ٥/٥٥٤) ، وصححه الألباني في « صحيح الترمذي » (٨/٥١) .

والمكر: الأخذ في غفلة كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فنسبة الكيد والمكر ونحوهما إليه سبحانه من إطلاق الفعل عليه تعالى، والفعل أوسع من الاسم، ولهذا أطلق الله على نفسه أفعالًا لم يتسم منها بأسماء الفاعل كأراد وشاء وأحدث، ولم يسم بالمريد والشائي والمحدث، كما لم يسم نفسه بالصانع والفاعل والمتقن، وغير ذلك من الأسماء التي أطلق أفعالها على نفسه، فباب الأفعال أوسع من باب الأسماء، وقد أخطأ أقبح الخطأ من اشتق له من كل فعل اسمًا وبلغ بأسمائه زيادة على الألف، فسماه الماكر المخادع والفاتن والكائد ونحو ذلك، وكذلك باب الإخبار عنه بالاسم أوسع من تسميته به، فإنه يخبر عنه بأنه شيء موجود ومذكور ومعلوم ومراد لا يسمى بذلك.

وهكذا جميع ما أطلقه على نفسه من صفات العلى أكمل معنى ولفظًا مما لم يطلقه، فـ«العليم الخبير» أكمل من الفقيه، والعارف و«الكريم الجواد» أكمل من السخي، و«الخالق البارئ المصور» أكمل من الصانع الفاعل، ولهذا لم تجيء هذه في أسمائه الحسنى، و«الرحيم والرؤوف» أكمل من الشفيق، فعليك بمراعاة ما أطلقه سبحانه على نفسه من الأسماء والصفات والوقوف معها، وعدم إطلاق ما لم يطلقه على نفسه ما لم يكن مطابقًا لمعنى أسمائه وصفاته، وحينئذ فيطلق المعنى لمطابقته له دون اللفظ، ولا سيما إذا كان مجملًا أو منقسمًا إلى ما يمدح به وغيره، فإنه لا يجوز إطلاقه إلا مقيدًا.

وهذا كلفظ الفاعل والصانع فإنه لا يطلق عليه في أسمائه الحسنى إلا إطلاقًا مقيدًا، أطلقه على نفسه، كقوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾، وقوله: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، فإن اسم الفاعل والصانع منقسم المعنى إلى ما يمدح عليه ويذم، ولهذا المعنى- والله أعلم- لم يجيء في الأسماء الحسنى المريد، كما جاء فيها «السميع البصير».

ولا المتكلم ولا الآمر الناهي لانقسام مسمى هذه الأسماء، بل وصف نفسه بكمالاتها، وأشرف أنواعها، ومن هنا يعلم غلط بعض المتأخرين وزلقه الفاحش في اشتقاقه له سبحانه من كل فعل أخبر به عن نفسه اسمًا مطلقًا، فأدخله في أسمائه الحسنى، فاشتق له اسم الماكر والخادع، والفاتن والمضل والكاتب ونحوها من قوله: ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾، ومن قوله: ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾، ومن قوله: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾، ومن قوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾، وقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ وهذا خطأ، فإنه سبحانه لم يطلق على نفسه هذه الأسماء، فإطلاقها عليه لا يجوز، فقد أخبر عن نفسه بأفعال مختصة مقيدة، فلا يجوز أن ينسب إليه مسمى الاسم عند الإطلاق، ثم إن هذه ليست من الأسماء الحسنى التي يسمى الله بها سبحانه، فلا يجوز أن يسمي بها، ولو أن هذا القائل سمى بهذه الأسماء، وقيل له: هذه

مدحتك وثناء عليك ، فأنت الماكر الفاتن المخادع المضل الملاعن الفاعل الصانع ونحوها . لما كان يرضى إطلاق هذه الأسماء عليه ويعدها مدحة - ولله المثل الأعلى- ويلزم هذا القائل أن يجعل من أسماء اللاعن والجائي والآتي والذاهب والتارك والمقاتل والصادق والمنزل والنازل والمدمدم والمدمر ، وأضعاف أضعاف ذلك فيشق له اسمًا من كل فعل أخبر به عن نفسه وإلا تناقض تناقضًا بينًا ، ولا أحد من العقلاء طرد ذلك فعلم بطلان قوله : ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

وقد قيل : إن تسمية ذلك مكرًا وكيدًا واستهزاء وخداعًا من باب الاستعارة ، ومجاز المقابلة نحو : ﴿وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ ، ونحو قوله : ﴿قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ ، وقيل : وهو أصوب بل تسمية ذلك حقيقة على بابه ، فإن المكر إيصال الشيء إلى الغير بطريق خفي ، وكذلك الكيد والمخادعة ولكنه نوعان : قبيح ؛ وهو إيصال ذلك لمن لا يستحقه ، وحسن ؛ وهو إيصاله إلى من يستحقه عقوبة له ، فالأول مذموم ، والثاني ممدوح ، والرب تعالى إنما يفعل من ذلك ما يحمد عليه عدلًا منه وحكمة ، وهو تعالى يأخذ الظالم والفاجر من حيث لا يحتسب ، لا كما يفعل الظلمة بعباده ، وأما السيئة فهي فعيلة مما يسوء ، ولا ريب أن العقوبة تسوء صاحبها فهي سيئة له حسنة من الحكم والعدل .

□ إثبات صفة العفو والعزة :

وقوله : ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ ، ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ، وقوله : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ ، وقوله عن إبليس : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ :

* في هذه الآيات إثبات وصف الله بالعفو والمغفرة والقدرة والعزة ؛ والعفو اسمه تعالى وصفته ، ومعناه المتجاوز عن خطيئات عباده ، إذا تابوا وأنابوا ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ ، وأكمل العفو ما كان عن مقدرة ، ولذا قرن الله تعالى عفوه بالقدرة فقال : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ ، وقد سألت عائشة النبي ﷺ أن يعلمها دعاء تدعو به في ليلة القدر إن وافقتها قال : « قولي : اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني » . رواه الترمذي[1] ، وروي أن من دعاء حملة العرش : « سبحانك على عفوك بعد قدرتك »[2] . ما أحسن ما قال في الكافية الشافية :

وهو العفو فعفوه وسع الورى   لولاه غار الأرض بالسكان

ومن أسمائه تعالى القدير والعزيز ، والقدرة صفته وقدرته تعالى شاملة لكل شيء ، كما قال :

(١) « سنن الترمذي » (٣٥١٣- ٥/٥٣٤) ، وصححه الألباني في « صحيح الترمذي » (٢٧٨٩) .

(٢) « مختصر العلو » للذهبي (١/٧٥) .

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

والعزة صفة ثابتة للَّه لا تماثلها عزة مخلوق ، ومعنى العزة في اللغة القوة والغلبة والامتناع ، يقال : عز يعز بالفتح في المضارع إذا اشتد وقوي ، وبالكسر في المضارع إذا قوي وامتنع ، وبالضم إذا غلب وقهر .

فالعزة تتضمن القوة ، وللَّه القوة جميعًا ، يقال : عز يعز بالفتح إذا اشتد وقوي ، ومنه الأرض العزاز الصلبة الشديدة ، وعز يعز بكسر العين إذا امتنع ممن يرومه ، وعز يعز بضم العين إذا غلب وقهر ، فأعطوا أقوى الحركات وهي الضمة لأقوى المعاني وهو الغلبة والقهر للغير ، وأضعفها وهي الفتحة لأضعف المعاني ، وهو كون الشيء في نفسه صلبًا ، ولا يلزم من ذلك أن يمتنع عمن يرومه ، والحركة المتوسطة وهي الكسرة للمعنى المتوسط ، وهو القوي الممتنع عن غيره ، ولا يلزم منه أن يقهر غيره ويغلبه فأعطوا الأقوى للأقوى ، والأضعف للأضعف ، والمتوسط للمتوسط ، ولا ريب أن قهر المربوب عما يريده من أقوى أوصاف القادر ، فإن قهره عن إرادته وجعله غير مريد كان أقوى أنواع القهر ، والعز ضد الذل ، والذي أصله الضعف والعجز ، فالعز يقتضي كمال القدرة ، ولهذا يوصف به المؤمن ، ولا يكون ذما له بخلاف الكبر ، قال رجل للحسن البصري : إنك متكبر ! فقال : لست بمتكبر ، ولكني عزيز . وقال ابن مسعود : ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر [1] . وقال النبي ﷺ : « اللهم أعز الإسلام بأحد هذين الرجلين : عمر بن الخطاب أو أبي جهل بن هشام » [2] . وفي بعض الآثار : إن الناس يطلبون العزة في أبواب الملوك ولا يجدونها إلا في طاعة اللَّه ﷻ . وفي الحديث : « اللهم أعزنا بطاعتك ، ولا تذلنا بمعصيتك » . وقال بعضهم : من أراد عزًّا بلا سلطان ، وكنزًا بلا عشيرة ، وغنى بلا مال فلينتقل من ذل المعصية إلى عز الطاعة . فالعزة من جنس القوة ، وقد ثبت في « الصحيح » عن النبي ﷺ أنه قال : « المؤمن القوي خير وأحب إلى اللَّه من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير » [3] .

□ طريقة القرآن في النفي والإثبات :

وقوله : ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ ، وقوله : ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ ، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ ، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ ، ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ

---

(١) البخاري (٣٦٨٤- ٥/١١) .

(٢) « سنن الترمذي » (٣٦٨١- ٥/٦١٧) ، وصححه الألباني في « مشكاة المصابيح » (٦٠٣٦) .

(٣) مسلم (٤/٢٠٥٢) من حديث أبي هريرة ﷺ .

وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ ، ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ① ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ ، ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ⑨١ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ، ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ :

*** طريقة القرآن في باب الأسماء والصفات للنفي المجمل والإثبات المفصل ، ففيه من إثبات الأسماء الحسنى والصفات العلى ما لا سبيل إلى حصره ، وأما في النفي فطريقة القرآن والسنة في ذلك الإجمال ، والنفي إنما جيء به لإثبات صفات كماله سبحانه .**

قوله : ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ أي : تعالت أسماؤك وتعظمت وتقدست . والجلال والعظمة صفتان للَّه تعالى ، وقد ذكر تبارك سبحانه في المواضع التي أثنى فيها بالجلال والعظمة والأفعال ، الدالة على ربوبيته وإلهيته وحكمته ، وسائر صفات كماله من إنزال الفرقان وخلق العالمين وجعله البروج في السماء والشمس والقمر وانفراده بالملك وكمال القدرة ، قال الحسين بن الفضل : تبارك في ذاته وبارك فيمن شاء من خلقه وهذا أحسن الأقوال .

فتبارك سبحانه صفة ذات له وصفة فعل ، والذي يدل على ذلك أنه سبحانه يسند التبارك إلى اسمه ، كما قال : ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ ، وأن حديث الاستفتاح : « تبارك اسمك وتعالى جدك » . فدل هذا على أن تبارك ليس بمعنى بارك ، كما قاله الجوهري : وأن تبريكه سبحانه جزء مسمى اللفظ لإكمال معناه . والبركة نوعان :

أحدهما : بركة هي فعله تبارك وتعالى ، والفعل منها بارك ، ويتعدى بنفسه تارة ، وبأداة « على » تارة ، وبأداة « في » تارة ، والمفعول منها مبارك وهو ما جعل كذلك ، فكان مباركًا بجعله تعالى .

والنوع الثاني : بركة هي تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة ، والفعل منها تبارك ، ولهذا لا يقال لغيره ذلك ولا يصلح إلا له ﷻ ، فهو سبحانه المبارك ، وعبده ورسوله المبارك كما قال المسيح : ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ . فمن بارك اللَّه فيه وعليه فهو المبارك ، وأما صفته « تبارك » فمختصة به تعالى ، كما أطلقها على نفسه بقوله : ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ، ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ ، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ ، أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به لا تطلق على غيره ، وجاءت على بناء السعة والمبالغة ، كتعالى وتعاظم ونحوها ، فجاء بناء تبارك على

بناء تعالى ، الذي هو دال على كمال العلو ونهايته ، فكذلك تبارك دال على كمال بركته وعظمتها وسعتها ، وحقيقة اللفظة أن البركة كثرة الخير ودوامه ولا أحد أحق بذلك وصفًا وفعلا منه تبارك وتعالى .

وتفسير السلف يدور على هذين المعنيين وهما متلازمان ، لكن الأليق باللفظة معنى الوصف لا الفعل فإنه فعل ذم مثل تعالى وتقدس وتعاظم ، ومثل هذه الألفاظ ليس معناها أنه جعل غيره عاليًا ولا قدوسًا ولا عظيمًا ، هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه ، وإنما معناها في نفس من نسبت إليه فهو المتعالي المتقدس ، فكذلك تبارك لا يصح أن يكون معناها بارك في غيره ، وأين أحدهما من الآخر لفظًا ومعنى هذا لازم ، وهذا متعد ، فعلمت أن من فسر تبارك بمعنى ألقى البركة وبارك في غيره لم يصب معناها ، وإن كان هذا من لوازم كونه متباركًا فتبارك من باب مجد ، والمجد كثرة صفات الجلال والفضل ، وبارك من باب أعطى وأنعم ، ولما كان المعتدي في ذلك يستلزم اللازم من غير عكس فسر من فسر من السلف اللفظة بالمعتدي ؛ لينتظم المعنيين فقال : مجيء البركة كلها من عنده أو البركة كلها من قبله ، وهذا فرع على تبارك في نفسه .

وقوله : ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ ؛ أي : لا سمي له تعالى ولا شريك له ولا مثل . والسمي : النظير ؛ أي : نظيرًا يستحق مثل اسمه ، ويقال : مساميًا يساميه وهو معنى ما روي عن ابن عباس : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ : مثيلًا أو شبيهًا . وذلك نفي عن المخلوق أن يكون مشابهًا للخالق ومماثلًا له بحيث يستحق العبادة والتعظيم ، ولم يقل سبحانه : هل تعلمه سميًا أو مشابهًا لغيره ؟ فإن هذا لم يقله أحد ، بل المشركون المشبهون جعلوا بعض المخلوقات مشابهًا له مساميًا وندًا وعدلًا ، فأنكر عليهم هذا التشبيه والتمثيل .

فالمعنى الصحيح الذي هو نفي المثل والشريك والند قد دل عليه قوله سبحانه : ﴿أَحَدٌ﴾ ، وقوله : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ، وقوله : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ ، وأمثال ذلك ، فالمعاني الصحيحة ثابتة بالكتاب والسنة ، والعقل يدل على ذلك ، وكذلك قوله : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ، فإن المعنى لم يكن أحد من الآحاد كفوًا له ، والند هو العديل والمثيل ، وفي « الصحيحين » عن ابن مسعود قال : قلت : يا رسول الله ، أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » . الحديث[1] .

وقوله : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أي : يؤلهونهم في المحبة والتعظيم ، وبذلك صاروا مشركين مع إقرارهم بتوحيد الربوبية . فأخبر تعالى أن من أحب من

---

(١) البخاري (٤٤٧٧- ٦/١٨) .

دون اللَّه شيئًا كما يحب اللَّه فهو ممن اتخذ من دون اللَّه أندادًا ، فهذا ند في المحبة لا في الخلق والربوبية ، فإن أحدًا من أهل الأرض لم يثبت هذا الند في الربوبية بخلاف ند المحبة ، فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون اللَّه أندادًا في الحب والتعظيم ، ثم قال : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ ، وفي الآية قولان :

أحدهما : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها ، ويعظمونها من دون اللَّه .

والثاني : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ من محبة المشركين بالأنداد للَّه ، فإن محبة المؤمنين خالصة ، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها ، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة ، والقولان مترتبان على القولين في قوله تعالى : ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ ، فإن فيها قولين :

أحدهما : يحبونهم كما يحبون اللَّه ، فيكون قد أثبت لهم محبة اللَّه ، ولكنها محبة يشركون فيها مع اللَّه أندادًا .

والثاني : أن المعنى يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون اللَّه ، ثم بين أن محبة المؤمنين أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم ، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يرجح القول الأول ، ويقول : إنما ذموا أن أشركوا بين اللَّه وبين أندادهم في المحبة ، ولم يخلصوها للَّه كمحبة المؤمنين له ، وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم وهم في النار يقولون لآلهتهم وأندادهم وهي محضرة معهم في العذاب : ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ، ومعلوم أنهم لم يسووهم برب العالمين في الخلق والربوبية ، وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم ، وهذا أيضًا هو العدل المذكور في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي : يعدلون به غيره في العبادة : التي هي المحبة والتعظيم وهذا أصح القولين .

والقرآن مملوء من إبطال أن يكون في المخلوقات ليشبه الرب تعالى أو يماثله ، فهذا هو الذي قصد بالقرآن إبطالًا لما عليه المشركون والمشبهون العادلون باللَّه تعالى غيره ، فالند الشبه ، يقال : فلان ند فلان ونديده ؛ أي : مثله وشبهه ، ومنه قول حسان بن ثابت :

أتهجوه ولست له بند ... فشركما لخيركما الفداء

وقال جرير :

أتيما تجعلون إلي ندا ... وما تيم لذي حسب نديد

فالذي أنكره اللَّه سبحانه عليهم هو تشبيه المخلوق به حتى جعلوه ندًّا للَّه تعالى يعبدونه كما يعبدون اللَّه ، وكذلك قوله : « ومن الناس من يتخذ من دون اللَّه أندادًا يحبونهم كحب اللَّه » فأنكر هذا

التشبيه عليهم وهو أصل عبادة الأصنام .

قوله : ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ الآية : حمد تعالى نفسه على ماله من صفات الكمال المبرأة من كل نقص وهو الغني بذاته ، وغناه وصف ذاتي له تعالى ، فلا ند له ولا شريك ولا معين ، وما ينبغي أن يعلم أن أعظم ما عليه المشركون قبل محمد وفي مبعثه هو دعوى الشريك لله والولد ، والقرآن مملوء منَ تنزيه الله عن هذين ، وتنزيهه عن المثل والولد يجمع كل التنزيه .

لما كان الشرك أكثر في بني آدم من القول بأن له ولدًا كان تنزيهه عنه أكثر ، وكلاهما يقتضي إثبات مثل وند من بعض الوجوه ، فإن الولد من جنس الوالد ونظير له ، وكلاهما يستلزم الحاجة والفقر فيمتنع وجود قادر بنفسه ، فالذي جعل شريكًا لو فرض مكافئًا لزم افتقار كل منهما ، وهو ممتنع ، وإن كان غير مكافئ فهو مقهور ، والولد يتخذه الوالد لحاجته إلى معاونته له ، كما يتخذ المال فإن الولد إذا اشتد أعان والده ، فإن كون المخلوق مملوكًا لخالقه وهو مفتقر إليه من كل وجه ، والخالق غني عنه يناقض اتخاذ الولد ؛ لأنه إنما يكون لحاجته إليه في حياته ، أو ليخلفه بعد موته ، والرب غني عن كل ما سواه وكل ما سواه فقير إليه ، وهو الحي الذي لا يموت ، والوالد في نفسه مفتقر إلى ولد مخلوق لا حيلة له فيه ، والولادة بغير اختيار الوالد ، والرب تعالى يمتنع أن يحدث شيء بغير اختياره ، واتخاذ الولد هو عوض عن الولادة لمن لم يحصل له فهو أنقص في الولادة .

وقال ابن جرير في تفسير الآية : « يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : ﴿وَقُلِ﴾ يا محمد : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ فيكون مربوبًا لا ربًا ؛ لأن رب الأرباب لا ينبغي أن يكون له ولد ، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ فيكون عاجزًا ذا حاجة إلى معونة غيره ضعيفًا ، ولا يكون إلهًا من يكون محتاجًا إلى معين على ما حاول ، ولم يكن منفردًا بالملك والسلطان ، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ يقول : ولم يكن له حليف حالفه من الذل ؛ لأن من كان ذا حاجة إلى نصرة غيره فذليل مهين ، ولا يكون من كان ذليلًا مهينًا يحتاج إلى ناصر إلهًا يطاع ، ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ يقول : وعقد ربك يا محمد بما أمرناك أن تعظمه من قول وفعل وأطعه فيما أمرك ونهاك » . اهـ .

قوله : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ : التسبيح التقديس والتعظيم ، وهذه الآية كقوله : ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ فكل يقدسه تعالى وهو المستحق لكل كمال .

وقوله : ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ : الفرقان هو القرآن الذي فرق بين الحق والباطل ، ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ لجميع البشر ، كما قال : ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ

جَمِيعًا﴾ ، ﴿نَذِيرًا﴾ يحذر من وقوع العذاب بهم إن لم يؤمنون بالله وما أرسله به من الشرع والهدى ، وفيها إثبات ملكه سبحانه وخلقه وتقديره لجميع الأشياء ، ونفي النقائص من اتخاذ الولد والشريك وغير ذلك .

قوله : ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ : استدل سبحانه على المشركين فيما جحدوه من توحيد الألوهية بما أقروا به من توحيد الربوبية ، وهذا كثير في القرآن كما في هذه الآية .

فتأمل هذا البرهان بهذا اللفظ الوجيز البين ، فإن الإله الحق لا بد أن يكون خالقًا فاعلًا ، يوصل إلى عابده النفع ، ويدفع عنه الضر ، فلو كان معه سبحانه إله لكان له خلق وفعل ، وحينئذ فلا يرضى شركة الإله الآخر معه ، بل إن قدر على قهره وتفرده بالألوهية دونه فعل ، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه ، وذهب به كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بممالكهم ، إذا لم يقدر المنفرد على قهر الآخر والعلو عليه ، فلا بد من أحد أمور ثلاثة : إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه ، وإما أن يعلو بعضهم على بعض ، وإما أن يكونوا كلهم تحت قهر إله واحد يتصرف فيهم ولا يتصرفون فيه ويمتنع من حكمهم ولا يمتنعون من حكمه . فيكون وحده هو الإله وهم العبيد المربوبون المقهورون ، وانتظام أمر العالم العلوي والسفلي وارتباط بعضه ببعض وجريانه على نظام محكم لا يختلف ولا يفسد من أدل دليل على أن مدبره واحد لا إله غيره ، كما دل دليل التمانع على أن خالقه واحد ، لا رب غيره فذاك تمانع في الفعل والإيجاد ، وهذا تمانع في العبادة والألوهية ، فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان ، يستحيل أن يكون له إلهان معبودان ، فالعلم بأن وجود العالم عن صانعين متماثلين ممتنع لذاته مستقر في الفطرة معلوم بصريح العقل بطلانه ، فكذا تبطل إلهية اثنين .

فالآية الكريمة لما ثبت واستقر في الفطر من توحيد الربوبية ، دالة مثبتة مستلزمة لتوحيد الألوهية .

قوله : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ : قال ابن الأثير في « النهاية » : « ضرب المثل : اعتبار الشيء بغيره ، وتمثيله به والضرب المثال » . اهـ .

والله تعالى نهى أن يضرب عباده له الأمثال فلا يقاس بخلقه ، وما ابتدع من ابتدع إلا من ضرب الأمثال له سبحانه ، وأهل الكلام المحدث المبدع ضربوا له الأمثال الباطلة في الخبر عنه وعما يوصف به ، وأصحاب الإرادة المنحرفة ضربوا له الأمثال في الإرادة والطلب ، وكلاهما على بدعة وخطأ ، فنهى تعالى أن يضربوا له مثلًا من خلقه ، ولم نبههم أن يضربوه هو مثلًا لخلقه ، فإن هذا لم يقله أحد ، ولم يكونوا يفعلونه ، فإن الله سبحانه أجل في صدورهم ، وأعظم وأكبر من كل شيء في فطر الناس كلهم ، ولكن المشبهون المشركون يغلون فيمن يعظمونه فيشبهونهم بالخالق ، والله تعالى أجل في صدور جميع الخلق من أن يجعلوا غيره أصلًا ثم يشبهونه سبحانه بغيره ، فالذي يشبهه بغيره أن قصد

تعظيمه لم يكن في هذا تعظيم ؛ لأنه مثل أعظم العظماء بما دونه ، بل بما ليس بينه وبينه نسبة في العظمة والجلالة ، وعاقل لا يفعل هذا ، وإن قصد التنقيص شبهه بالناقصين المذمومين لا بالكاملين الممدوحين .

ومن هنا يعلم إثبات صفات الكمال لا يتضمن التشبيه والتمثيل لا بالكاملين ولا بالناقصين ، وأن نفي تلك الصفات يستلزم تشبيهه بأنقص الناقصين ، فانظر إلى الجهمية وأتباعهم جاءوا إلى التشبيه المذموم فأعرضوا عنه صفحًا ، وجاءوا إلى الكمال والمدح فجعلوه تشبيهًا وتمثيلًا عكس ما يثبته القرآن وجاء به من كل وجه .

قوله : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ : الفواحش : كبار الذنوب ، والإثم المعصية ، والبغي : العدوان على الناس وظلمهم ، وفي « الصحيحين » عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله » . قال ابن كثير : « وحاصل ما فسر به الإثم أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل ، والبغي هو المتعدي إلى الناس ، فحرم الله هذا وهذا ، وقوله : ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ ؛ أي : تجعلوا له شركاء في عبادته : ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولدًا ونحو ذلك مما لا علم لكم به » . اهـ .

وهذه المحرمات الخمس هي التي اتفقت عليها الرسل والشرائع والكتب الإلهية ، وهي المذكورة في قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ الآية ، فهذه محرمات على كل واحد في كل حال على لسان كل رسول لا تباح قط ، ولهذا أتى فيها بإنما المفيدة للحصر مطلقًا ، وغيرها محرم في وقت ، مباح في غيره كالميتة والدم لحم الخنزير ، ونحوه ، فهذه ليست محرمة على الإطلاق والدوام ، فلم تدخل تحت التحريم المحصور المطلق ، ورتب هذه المحرمات أربع مراتب وبدأ بأسهلها وهو الفواحش ، ثم ثنى بما هو أشد تحريمًا منه وهو الإثم والظلم ، ثم ثلث بما هو أعظم منهما وهو الشرك به سبحانه ، ثم ربع بما هو أشد تحريمًا من ذلك كله وهو القول عليه بلا علم ، وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله ، وفي دينه وشرعه .

وأصل الشرك والكفر هو القول على الله بلا علم ، فكل مشرك قائل على الله بلا علم دون العكس ، إذ القول على الله بلا علم قد يتضمن التعطيل والابتداع في دين الله ، فهو أهم من الشرك ، والشرك فرد من أفراده ، والمقصود أن هاتين الطائفتين أهل الشرك وأهل التعطيل هم أهل التنقص في الحقيقة ، بل هم أعظم الناس تنقصًا لبّس عليهن الشيطان حتى ظنوا أن تنقصهم هو الكمال ، ولهذا كانت البدعة قرينة الشرك في كتاب الله قال الله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ الآية ،

فالإثم والبغي قرينان والشرك والبدعة قرينان .

□ إثبات صفتي الاستواء والعلو :

وقوله : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ : في سبعة مواضع ، في سورة « الأعراف » قوله : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ، وقال في سورة « يونس » عليه السلام : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ، وقال في سورة « الرعد » : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ، وقال في سورة « طه » : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ ، وقال في سورة « الفرقان » : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ، وقال في سورة « ألم السجدة » : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ، وقال في سورة « الحديد » : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ، وقوله : ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ ، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ ، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ ، ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ ، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ :

* مذهب أهل السنة إثبات صفتي الاستواء والعلو للّٰه حقيقة من غير تكييف ، كما قال الإمام مالك وغيره : « الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة »

والعلو وصف ذاتي للّٰه تعالى فله العلو المطلق ، علو الذات وعلو القدر وعلو القهر ، وقد ورد وصف اللّٰه بالاستواء على العرش في سبعة مواضع من القرآن ، كما قال في « الكافية الشافية » :

واذكر نصوص الاستواء فإنها ... في سبع آيات من القرآن

والاستواء صفة فعلية ، ومعنى الاستواء : العلو والارتفاع والاستقرار والصعود ، كما قال في « الكافية الشافية » :

فلهم عبارات عليها أربع ... قد حصلت للفارس الطعان
وهي استقر وقد علا وكذلك أر ... تفع الذي ما فيه من نكران
وكذاك قد صعد الذي هو رابع ... وأبو عبيدة صاحب الشيباني
يختار هذا القول في تفسيره ... أدرى من الجهمي بالقرآن

وأنكر الجهمية والمعتزلة علو اللّٰه على خلقه واستواءه على عرشه ، وحرفوا معاني النصوص ففسروا الاستواء بالاستيلاء أو الإقبال على خلق العرش ، إلى غير ذلك من التأويلات الباطلة فإنها لا يقال :

استولى على الشيء . إلا لمن له مضاد فيقال لمن غلب من المتضادين : استولى عليه . والله تعالى لا مضاد له ، وأيضًا فلو كان الاستواء بمعنى الاستيلاء لم يختص بالعرش ، فإنه سبحانه مسئول على جميع المخلوقات ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ .

والاستواء في كلام العرب الذي خاطبنا الله بلغتهم ، وأنزل بها كلامه نوعان : مطلق ومقيد ؛ فالمطلق : ما لم يوصل معناه بحرف ، مثل قوله : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ ، وهذا معناه كمل وتم ، يقال : استوى النبات واستوى الطعام .

وأما المقيد فثلاثة أضرب :

أحدها : مقيد بإلى كقوله : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ ، واستوى فلان إلى السطح وإلى الغرفة ، وقد ذكر الله هذا المعدي بإلى في موضعين من كتابه في « البقرة » في قوله : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ ، وفي « السجدة » : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ ، وهذا بمعنى العلو والارتفاع بإجماع السلف .

والثاني : مقيد بعلى كقوله تعالى : ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ ، وقوله : ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ ، وقوله : ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ ، وهذا أيضًا معناه العلو والارتفاع والاعتدال بإجماع أهل اللغة .

الثالث : المقرون بواو مع التي تعدى الفعل إلى المفعول معه ، نحو : استوى الماء والخشبة بمعنى ساواها .

وهذه معاني الاستواء المعقولة في كلامهم ليس فيها معنى استولى البتة ، ولا نقله أحد من أئمة اللغة الذين يعتمد قولهم ، وإنما قاله متأخروا النحاة ممن سلك طريق المعتزلة والجهمية ، والذين قالوا ذلك لم يقولوه نقلًا ، وإنما قالوه استنباطًا وحملًا منهم للفظة ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ على استولى ، واستدلوا بقول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف أو دم مهراق

وهذا البيت محرف ، وإنما هو هكذا : قد استولى بشر على العراق على أنه لا يصح ولا يعرف قائله ، ولو صح لم يكن فيه حجة ، بل هو حجة عليهم وهو على حقيقة الاستواء ، فإن بشرًا هذا كان أخا عبد الملك بن مروان ، وكان أميرًا على العراق فاستوى على سريرها كما عادة الملوك ، ونوابها أن يجلسوا فوق سرير الملك مستوين عليه ، وهذا هو المطابق لمعنى هذه اللفظة في اللغة .

وأيضًا فاستواء الشيء على غيره يتضمن استقراره وثباته وتمكنه عليه ، واستواء بشر على العراق يتضمن استقراره وثباته عليها ودخوله دخول مستقر ثابت غير مزلزل ، وهذا يستلزم الاستيلاء أو يتضمنه ، فالاستيلاء لازم معنى الاستواء لا في كل موضع ، بل في الموضع الذي يقتضيه ، ولا يصلح

الاستيلاء في كل موضع يصلح فيه الاستواء، بل هذا له موضع وهذا له موضع، ولهذا لا يصح أن يقال: استولت السنبلة على ساقها، ولا استولت السفينة على الجبل ولا استولى الرجل على السطح إذا ارتفع فوقه، ولو كان المراد بالبيت استيلاء القهر والملك لكان المستوي على العراق عبد الملك بن مروان لا أخوه بشر؛ لأنه نائب له بخلاف الاستواء الحقيقي وهو الاستقرار فيها والجلوس على سريرها، فإن نواب الملوك تفعل هذا بإذنهم.

ومما يبطل دعوى المجاز: تجريد الاستواء من اللام واقترانه بحرف على وعطف فعله بثم على خلق السماوات والأرض، وكونه سابقًا في الخلق على السماوات والأرض، وذكر تدبير أمر الخلق معه الدال على كمال الملك، فإن العرش سرير المملكة فأخبر أن له سريرًا، كما قال أمية بن أبي الصلت:

مجدوا اللَّه فهو للمجد أهل ربنا في السماء أمسى كبيرا
بالبنا الأعلى الذي سبق الخلق وسوى فوق السماء سريرا

وصدقه رسول اللَّه ﷺ واستنشده الأسود بن سريع، فقد استوى على سرير ملكه يدبر أمر الممالك، وهذا حقيقة الملك، فمن أنكر عرشه وأنكر استواءه عليه أو أنكر تدبيره فقد قدح في ملكه.

فهذه القرائن تفيد القطع بأن الاستواء على حقيقته، ولو كان الاستواء بمعنى الملك والقهر لجاز أن يقال: استوى على ابن آدم، وعلى الجبل، وعلى الشمس والقمر، وعلى البحر والشجر والدواب، وهذا لا يقوله مسلم، وقد أطلق أعلم الخلق بربه عليه أنه فوق عرشه، كما في حديث ابن عباس: «والعرش فوق الماء واللَّه فوق العرش»[1]. وهذه الفوقية هي تفسير الاستواء المذكور في القرآن والسنة، والجهمية يجعلون كونه فوق العرش بمعنى أنه خير من العرش وأفضل؛ كما يقال: الأمير فوق الوزير، والدينار فوق الدرهم. وهذا مما تأباه اللغة وتنفر منه العقول، فأين في لغة العرب حقيقة أو مجازًا أن يقال: استوى على كذا. إذا كان أعظم منه قدرًا وأفضل.

وتفضيل اللَّه على شيء من خلقه لا يذكر في شيء من القرآن إلا ردًّا على من اتخذ ذلك الشيء ندًّا للَّه تعالى، فبين سبحانه أنه خير من ذلك الند، كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فأما أن يفضل نفسه على شيء معين من خلقه ابتداء فهذا لم يقع في كلام اللَّه ولا هو مما يقصد بالأخبار؛ لأن قول القائل ابتداء: اللَّه خير من ابن آدم، وخير من السماء، وخير من العرش. من جنس قول: السماء فوق الأرض، والثلج بارد، والنار حارة. وليس في ذلك تمجيد ولا تعظيم ولا مدح، ولهذا لم يجيء هذا اللفظ في القرآن، ولا في كلام الرسول ﷺ،

---

(١) ابن خزيمة في «التوحيد» (٥٩٤)، والذهبي في «العلو» (١٧٥)، والألباني في «مختصر العلو» (ص٧٥).

ولا هو مما جرت عادة الناس بمدح الرب تعالى به مع تفنن مدحهم ومحامدهم ، بل هو أرك كلام وأسمجه ، فكيف يليق بهذا الكلام الذي يأخذ بمجامع القلوب عظمة وجلالة ، ومعانيه أشرف المعاني وأعظمها فائدة أن يكون معناه : إن الله أفضل من العرش والسماء ، ومن المثل السائر نظمًا :

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذ قيل إن السيف أمضى من العصا

وهذا بخلاف ما إذا كان المقام يقتضي ذلك احتجاجًا على مبطل وإبطال لقول مشرك ، ولهذا قال يوسف الصديق عليه السلام في احتجاجه على الكفار : ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ . وأيضًا فإن الاستيلاء يكون مع مزايلة المستولى للمستولى عليه ومفارقته ، كما يقال : استوى عثمان بن عفان على خراسان ، واستولى عبد الملك بن مروان على بلاد المغرب ، واستولى الجواد على الأمد . قال الشاعر :

إلا لمثلك أو من أنت سابقه سبق الجواد إذا استولى على الأمد

والاستواء لا يكون إلا مع مجاورة الشيء الذي يستوي عليه ، هكذا موارده في اللغة التي خوطبنا بها ، ولا يصح أن يقال : استوى على الدابة والسطح إذا نزل عنها وفارقها . كما يقال : استولى عليها . وأيضًا فاستواء الرب المعدي بأداة على المعلق بعرشه ، المعرف باللام المعطوف بثم على خلق السماوات والأرض ، المطرد في موارده على أسلوب واحد ونمط واحد ، لا يحتمل إلا معنى واحدًا ، لا يحتمل معنيين البتة ، فضلًا عن ثلاثة عشر أو خمسة عشر ، ولفظ الاستواء هو بمعنى الاعتدال ؛ حيث استعمل مجردًا أو مقرونًا نقول : سويته فاستوى . كما يقال : عدلته فاعتدل . فهو مطاوع الفعل المعتدي ، وهذا المعنى عام في جميع موارد استعماله في اللغة ، ومنه استوى إلى السطح ؛ أي : ارتفع في اعتدال . ومنه : استوى على ظهر الدابة ؛ أي : اعتدل عليها ، قال تعالى : ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ ، وأهل رسول الله ﷺ لما استوى على راحلته ، فهو يتضمن اعتدالًا واستقرارًا عند تجرده ، ويتضمن المقرون مع ذلك معنى العلو والارتفاع .

وهذا حقيقة واحدة تتنوع بتنوع قيودها ، كما تتنوع دلالة الفعل بحسب مفعولاته وصلاته ، وما يصاحبه من أداة نفي أو استفهام أو نهي أو إغراء ، فيكون له عند كل أمر من هذه الأمور دلالة خاصة والحقيقة واحدة ، وهذا شأن جميع الألفاظ المطلقة إذا قيدت فإنها تتنوع دلالتها بحسب قيودها ، ولا يخرجها ذلك عن حقائقها ، فعلى هذا إذا اقترن استوى بحرف الاستعلاء دل على الاعتدال بلفظ الفعل ، وعلى العلو بالحرف الذي وصل به ، فإن اقترن بالواو ودل على الاعتدال بنفسه ، وعلى معادلته بعد الواو بواسطتها ، وإذا اقترن بحرف الغاية دل على الاعتدال بلفظه ، وعلى الارتفاع قاصدًا لما بعد حرف الغاية بواسطتها وزال بحمد الله الاشتراك والمجاز ، ووضح المعنى ، وأسفر صبحه ، ولو فرضنا

احتمال اللفظ في اللغة لمعنى الاستيلاء والخمسة عشر معنى ، فاللَّه ورسوله قد عين بكلامه منها معنى واحدًا ، ونوع الدلالة عليه أعظم تنويع حتى يقال بذلك ألف دليل ، فالصحابة كلهم متفقون لا يختلفون في ذلك المعنى ، ولا التابعون وأئمة الإسلام ، ولم يقل أحد منهم أنه بمعنى استولى وأنه مجاز ، فلا يضر الاحتمال بعد ذلك في اللغة لو كان حقًّا .

وقد نفت الجهمية المعطلة علو اللَّه على خلقه ، وقالوا : إنه في كل مكان بذاته وإنه لا داخل العالم ولا خارجه ولا مباينه ولا محايثه- تعالى اللَّه عما يقولون- قال الأوزاعي : كنا نقول- والتابعون متوافرون- : إن اللَّه جل ذكره فوق عرشه ، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته . وقيل لابن المبارك : بم نعرف ربنا ؟ قال : بأنه فوق سماواته على العرش بائن من خلقه . وكان مسروق إذا حدث عن عائشة قال : حدثتني الصديقة بنت الصديق ، المبرأة من فوق سبع سماوات . وفي « الصحيحين » أن النبي ﷺ قال لسعد بن معاذ : « لقد حكمت فيهم بحكم اللَّه من فوق سبع سماوات »[1] . والنصوص الواردة المتنوعة المحكمة الدالة على علو اللَّه على خلقه وكونه فوق عباده تقرب من عشرين نوعًا :

أحدها : التصريح بالفوقية مقرونًا بأداة « من » المعنية للفوقية بالذات ، كقوله : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ .

الثاني : ذكرها مجردة عن الأداة ، كقوله : ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ .

الثالث : التصريح بالعروج ، نحو : ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ .

الرابع : التصريح بالصعود إليه كقوله : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ .

الخامس : التصريح برفعه بعض المخلوقات إليه ، كقوله : ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ .

السادس : التصريح بالعفو المطلق ، الدال على جميع مراتب العلو ذاتًا وقدرًا وشرفًا ، كقوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ ، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ .

السابع : التصريح بتنزيل الكتاب منه ، كقوله : ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ .

الثامن : التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده ، وأن بعضها أقرب إليه من بعض ، كقوله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ ، ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ ، ففرق بين من له عمومًا وبين من عنده من ملائكته وعبيده خصوصًا ، وقول النبي ﷺ : « في الكتاب الذي كتبه الرب تعالى على نفسه : إنه عنده فوق العرش »[2] .

التاسع : التصريح بأنه تعالى في السماء ، وهذا عند المفسرين من أهل السنة على أحد وجهين : إما

(١) البخاري (٤١١٧) ، ومسلم (١٧٦٩) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) البخاري (٣١٩٤) ، ومسلم (٢٧٥١) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

أن تكون (في) بمعنى (على) ، وإما أن يراد بالسماء العلو لا يختلفون في ذلك ، ولا يجوز الحمل على غيره .

العاشر : التصريح بالاستواء مقرونًا بأداة (على) مختصا بالعرش ، الذي هو أعلى المخلوقات مصاحبًا في الأكثر لأداة (ثم) الدالة على الترتيب والمهلة .

الحادي عشر : التصريح برفع الأيديَ إلى الله تعالى ، كقوله ﷺ : « إن الله يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرًا »[(١)] .

الثاني عشر : التصريح بنزوله إلى سماء الدنيا كل ليلة .

الثالث عشر : الإشارة إليه حسًا إلى العلو ، كما أشار إليه من هو أعلم بربه وبما يجب له ويمتنع عليه من جميع البشر لما كان بالمجمع الأعظم الذي لم يجتمع لأحد مثله في اليوم الأعظم قال لهم : « إنكم مسئولون فماذا أنتم قائلون ؟ » . قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت . فرفع أُصبعه الكريمة إلى السماء رافعًا لها إلى من هو فوقها وفوق كل شيء قائلًا : « اللهم اشهد »[(٢)] .

الرابع عشر : التصريح بلفظ الأين ، كقول أعلم الخلق به ، وأنصحهم لأمته وأفصحهم بيانًا عن المعنى الصحيح بلفظ لا يوهم باطلًا بوجه : « أين الله » . في غير موضع .

الخامس عشر : شهادته ﷺ لمن قال : إن ربه في السماء بالإيمان .

السادس عشر : إخباره تعالى عن فرعون أنه رام الصعود إلى السماء ليطلع إلى إله موسى فيكذبه ، فيما أخبر به من أنه سبحانه فوق السماوات فقال : ﴿ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ * أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾ ، فمن نفى العلو من الجهمية فهو فرعوني ، ومن أثبته فهو موسوي محمدي .

السابع عشر : إخباره ﷺ أنه تردد بين موسى عليه السلام وبين ربه ليلة المعراج بسبب تخفيف الصلاة ، فيصعد إلى ربه ثم يعود إلى موسى عدة مرار .

الثامن عشر : النصوص الدالة على رؤية أهل الجنة له تعالى من الكتاب والسنة وأخبار النبي ﷺ ؛ أنهم يرونه كرؤية الشمس والقمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ، فلا يرونه إلا من فوقهم ، كما قال ﷺ : « بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور ، فرفعوا رءوسهم فإذا الجبار جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم ، وقال : يا أهل الجنة سلام عليكم- ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ

---

(١) أبو داود (١٤٨٨) ، والترمذي (٣٥٥٦) عن سلمان الفارسي رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (١٧٥٧) .

(٢) مسلم (١٢١٨) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

رَّحِيمٍ﴾- ثم يتوارى عنهم وتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم » . رواه الإمام أحمد في « المسند » وغيره من حديث جابر رضي الله عنه[1] ، ولا يتم إنكار الفوقية إلا بإنكار الرؤية ، ولهذا طرد الجهمية الأمرين ، وصدق بهما أهل السنة وصار من أثبت الرؤية ونفي العلو مذبذبًا بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

وهذه الأنواع من الأدلة لو بسطت أفرادها لبلغت نحو ألف دليل ، فعلى المتأول أن يجيب عن ذلك كله وهيهات له بجواب صحيح ، فأما علوه تعالى ومباينته للمخلوقات فيعلم بالعقل الموافق للسمع ، وأما الاستواء فطريق العلم به هو السمع ، وعلوه سبحانه كما هو ثابت بالسمع ثابت بالعقل والفطرة ، أما ثبوته بالعقل فمن وجوه :

أحدها : العلم البديهي القاطع بأن كل موجودين ؛ إما أن يكون أحدهما ساريًا في الآخر قائمًا به كالصفات ، وإما أن يكون قائمًا بنفسه بائنًا من الآخر .

الثاني : أنه لما خلق العالم فإما أن يكون خلقه في ذاته ، أو خارجًا عن ذاته .

والأول باطل بالاتفاق ، ولأنه يلزم أن يكون محلًّا للخسائس والقاذورات تعالى اللَّه عن ذلك علوًّا كبيرًا ، والثاني يقتضي كون العالم واقعًا خارج ذاته ، فيكون منفصلًا فتعينت المباينة ؛ لأن القول بأنه غير متصل بالعالم وغير منفصل عنه غير معقول .

الثالث : أن كونه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه يقتضي نفي وجوده بالكلية ؛ لأنه غير معقول فيكون موجودًا إما داخله وإما خارجه ، والأول باطل فتعين الثاني فلزمت المباينة .

وأما ثبوته بالفطرة فإن الخلق جميعًا بطباعهم وقلوبهم السليمة يرفعون أيديهم عند الدعاء ويقصدون جهة العلو بقلوبهم عند التضرع إلى اللَّه تعالى ، وقد زعم بعضهم أن السماء قبلة الدعاء ، ولذلك يقصد الناس جهة العلو عند الدعاء ، وهذا خطأ فإن وضع الجبهة في الأرض ليس ؛ لأن اللَّه في جهة الأرض ، وأيضًا فإنه لم يقل أحد من سلف الأمة أن السماء قبل الدعاء ، بل قبلة الدعاء هي قبلة الصلاة ، فإنه يستحب للداعي أن يستقبل القبلة ، فمن قال : إن للدعاء قبلة غير قبلة الصلاة . فقد ابتدع في الدين وخالف جماعة المسلمين ، والقبلة هي ما يستقبله العابد بوجهه كما تستقبل الكعبة في الصلاة والدعاء والذكر والذبح ، وكما يوجه المحتضر والمدفون ولذلك سميت وجهة .

والاستقبال خلاف الاستدبار فالاستقبال بالوجه والاستدبار بالدبر ، فأما ما حاذاه الإنسان برأسه أو يديه أو جنبه فهذا لا يسمى قبلة لا حقيقة ولا مجازًا ، والموضع الذي ترفع إليه الأيدي لا يسمى قبلة لا حقيقة ولا مجازًا ، ولأن القبلة في الدعاء أمر شرعي تتبع فيه الشرائع ، ولم تأمر الرسل أن الداعي يستقبل

---

(١) ابن ماجه (١٨٤) ، ويُنظر « ضعيف الترغيب والترهيب » للألباني (٢٢٤٤) .

السماء بوجهه بل نهوا عن ذلك ، ومعلوم أن التوحيد بالقلب ، واللجأ والطلب الذي يجده الداعي من نفسه أمر فطري يفعله المسلم والكافر والعالم والجاهل ، أكثر ما يفعله المضطر والمستغيث بالله ، كما فطر على أنه إذا مسه الضر يدعو الله مع أن أمر القبلة مما يقبل النسخ والتحويل ، كما تحولت القبلة من الصخرة إلى الكعبة ، وأمر التوحيد في الدعاء إلى الجهة العلوية مركوز في الفطر والمستقبل للكعبة يعلم أن الله تعالى ليس هناك ، بخلاف الداعي فإنه يتجه إلى ربه وخالقه ويرجو الرحمة أن تنزل من عنده ، وأما النقض بوضع الجبهة فما أفسده من نقض ، فإن واضع الجبهة إنما قصده الخضوع لمن فوقه بالذل له ، لا بأن يميل إليه ؛ إذ هو تحته هذا لا يخطر في قلب ساجد ، لكن يحكى عن بشر المريسي أنه سمع وهو يقول في سجوده : سبحان ربي الأسفل تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيرًا .

□ إثبات المعية :

وقوله : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ، ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ ، وقوله : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ﴾ ، ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ ، ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ :

* في هذه الآيات إثبات معية الله لخلقه ، والمعية الواردة في الكتاب والسنة نوعان : معية عامة ؛ ومن مقتضاها العلم والإحاطة والاطلاع قال الإمام أحمد وغيره في آية المجادلة : ابتدأها بالعلم وختمها به ؛ حيث قال : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ ، ثم قال في آخرها : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ .

والنوع الثاني : المعية الخاصة ؛ ومن مقتضاها النصر والتأييد والتوفيق ونحو ذلك ، وهي المذكورة في مثل قوله تعالى : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ﴾ ، فهذه المعية المذكورة في قوله تعالى : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ الآية ، وقوله : ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ فإن هذه المعية تقتضي علمه واطلاعه ومراقبته لأعمالهم ، فهي مقتضية لتخويف العباد منه ، والمعية الأولى تقتضي حفظه وحياطته ونصره ، ومعيته سبحانه لا تنافي علوه واستواءه على عرشه ، ومباينته لخلقه .

وليس في ظاهر قوله : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ ونحوها ولا في حقيقتها ؛ أنه مختلط بالمخلوقات ممتزج

بها ، ولا تدل لفظة « مع » على هذا بوجه من الوجوه ، فضلًا عن أن يكون هو حقيقة اللفظ وموضوعه ، فإن « مع » في كلام العرب للصحبة اللائقة ، وهي تختلف باختلاف متعلقاتها ومصحوبها ، فكون نفس الإنسان « معه » لون ، وكون علمه وقدرته وقوته معه لون ، وكون زوجته معه لون ، وكون أميره ورئيسه معه لون ، وكون ماله معه لون ، فالمعية ثابتة في هذا كله مع تنوعها واختلافها ، فيصح أن يقال : زوجته معه وبينهما شقة بعيدة . وكذلك يقال : مع فلان دار كذا ، وضيعة كذا .

فتأمل نصوص المعية في القرآن كقوله تعالى : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ ، وقوله : ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ، ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ ، ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ، ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ ، ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ، ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ ، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ، ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ ، ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ ، ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ . وأضعاف ذلك ، هل يقتضي موضع واحد منها مخالطة في الذوات التصاقًا وامتزاجًا ؟ فكيف تكون حقيقة المعية في حق الرب تعالى ، كذلك حتى يدعى أنه مجاز لا حقيقة ، فليس في ذلك ما يدل على أن ذاته تعالى فيهم ، ولا ملاصقة لهم ، ولا مخالطة ، ولا مجاورة بوجه من الوجوه ، وغاية ما تدل عليه « مع » المصاحبة والموافقة والمقارنة في أمر من الأمور ، وهذا الاقتران في كل موضع بحسبه يلزمه لوازم بحسب متعلقة ، فإذا قيل : اللَّه مع خلقه بطريق العموم كان من لوازم ذلك علمه بهم ، وتدبيره لهم وقدرته عليهم .

وإذا كان ذلك خاصًا كقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ . كان من لوازم ذلك معيته لهم بالنصرة والتأييد والمعونة ، فمعية اللَّه مع عبده نوعان : عامة وخاصة ، وقد اشتمل القرآن على النوعين ، وليس ذلك بطريق الاشتراك اللفظي ، بل حقيقتها ما تقدم من الصحبة اللائقة ، وقد أخبر اللَّه تعالى أنه مع خلقه مع كونه مستويًا على عرشه ، وقرن بين الأمرين كما قال تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فأخبر أنه خلق السماوات والأرض ، وأنه استوى على العرش ، وأنه مع خلقه يبصر أعمالهم من فوق عرشه ، فعلوه لا يناقض معيته ، ومعيته لا تبطل علوه ، بل كلاهما حق .

فمن المعية الخاصة قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ، ومن العامة قوله : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ الآية ، فنبه سبحانه بالثلاثة على العدد الذي يجمع الشفع والوتر ، ولا يمكن أهله أن ينقسموا في النجوى قسمين ، ونبه بالخمسة على العدد الذي

يجمعها ، ويمكن أهله أن ينقسموا فيها قسمين ، فيكون مع كل العددين ، فالمشتركون في النجوى : إما شفع فقط ، أو وتر فقط أو كلا القسمين ، وأقل أقسام الوتر المتناجين ثلاثة ، وأقل أنواع الشفع اثنان ، وأقل أقسام النوعين إذا اجتمعا خمسة فذكر أدنى مراتب طائفة الوتر وأدنى مراتب النوعين إذا اجتمعا ، ثم ذكر معيته العامة لما هو أدنى من ذلك أو أكثر . وتأمل كيف جعل نفسه رابع الثلاثة وسادس الخمسة إذ هو غيرهم سبحانه بالحقيقة ، لا يجتمعون معه في جنس ولا فصل ، وقال : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ ، فإنهم ساووا بينه وبين الاثنين في الإلهية ، والعرب تقول : رابع أربعة ، وخامس خمسة ، وثالث ثلاثة لما يكون في المضاف إليه من جنس المضاف ، كما قال تعالى : ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ رسول الله ﷺ وصديقه ، فإن كان من غير جنسه قالوا : رابع ثلاثة وخامس أربعة ، وسادس خمسة . وقال تعالى في المعية الخاصة لموسى وأخيه ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ ، وقال في العامة : ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ فتأمل كيف أفرد ضمير نفسه حيث أفرد موسى وأخاه عن فرعون ، وكيف جمع الضمير لما أدخل فرعون معهما في الذكر ، فجعل الخاص مع المعية الخاصة والعام مع العامة .

❑ إثبات صفة الكلام :

وقوله : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ ، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ ، ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ ، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ ، ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ ، ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾ ، ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ ، ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ ، ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ، ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ ، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ ، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ ، ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ ، ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ، ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ ، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ ، ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ۙ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ :

* في هذه الآيات إثبات صفة الكلام لله حقيقة على ما يليق بجلاله تعالى ، وهو سبحانه قد تكلم

بالقرآن والكتب المنزلة على الأنبياء وغير ذلك ، ويتكلم إذا شاء متى شاء والقرآن كلامه تعالى منزل غير مخلوق ، وهو كلام اللَّه حروفه ومعانيه ، وهو سور وآيات وحروف وكلمات قد تكلم بها ، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة ، وقد دل القرآن وصريح السنة والمعقول وكلام السلف على أن اللَّه سبحانه يتكلم بمشيئته ، كما دل على أن كلامه صفة قائمة بذاته وهي صفة ذات وفعل ، قال تعالى : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ، وتأمل نصوص القرآن من أوله إلى آخره .

ونصوص السنة التي إن دفعت دفعت الرسالة بأجمعها ، وإن كانت مجازًا كان الوحي كله مجازًا ، وإن كانت من المتشابه كان الوحي كله من المتشابه ، وإن وجب أو ساغ تأويلها على خلاف ظاهرها ساغ تأويل جميع القرآن والسنة على خلاف ظاهره ، فإن مجيء هذه النصوص في الكتاب والسنة وظهور معانيها وتعدد أنواعها ، واختلاف مراتبها أظهر من كل ظاهر وأوضح من كل واضح ، فكم جهد ما يبلغ التأويل والتحريف والحمل على المجاز ، هب أن ذلك يمكن في موضع واثنين وعشرة ، أفيسوغ حمل أكثر من ثلاثة آلاف وأربعة آلاف موضع كلها على المجاز وتأويل الجميع بما يخالف الظاهر ؟ فكل آية وكل حديث إلهي وكل حديث فيه الأخبار عن ما قال اللَّه تعالى أو يقول ، وكل أثر فيه ذلك إذا استقرئت زادت على هذا العدد ، ويكفي أحاديث الشفاعة ، وأحاديث الرؤية ، وأحاديث الحساب ، وأحاديث تكليم اللَّه لملائكته وأنبيائه ورسله وأهل الجنة ، وأحاديث تكليم اللَّه لموسى ، وأحاديث تكلمه عن النزول الإلهي ، وأحاديث تكلمه بالوحي ، وأحاديث تكليمه للشهداء ، وأحاديث تكليم كافة عباده يوم القيامة بلا ترجمان ولا واسطة ، وأحاديث تكليمه للشفعاء يوم القيامة حين يأذن لهم في الشفاعة إلى غير ذلك .

وقد دلت النصوص النبوية على أنه تعالى يتكلم إذا شاء بما شاء ، وإن كلامه يسمع وأن القرآن العزيز الذي هو سور وآيات وحروف وكلمات عين كلامه حقًّا ، لا تأليف ملك ولا بشر ، وأنه سبحانه الذي قال بنفسه : ﴿الٓمٓصٓ﴾ ، و﴿حمٓ﴾ ، و﴿كٓهيعٓصٓ﴾ . وأن القرآن جميعه حروفه ومعانيه نفس كلامه الذي يتكلم به ، وليس بمخلوق ولا بعضه قديما وهو المعنى وبعضه مخلوق ، وهو الكلمات والحروف ولا بعضه كلامه وبعضه كلام غيره ، ولا ألفاظ القرآن وحروفه ترجمة ترجم بها جبرائيل أو محمد عليهما السلام عما قام به الرب من المعنى من غير أن يتكلم اللَّه بها ، بل القرآن جميعه كلام اللَّه حروفه ومعانيه تكلم اللَّه به حقيقة ، والقرآن اسم لهذا النظم العربي الذي بلغه الرسول ﷺ عن جبرائيل عن رب العالمين ، فللرسولين منه مجرد التبليغ والأداء لا الوضع والإنشاء كما يقول أهل الزيغ والاعتداء .

قوله : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ قال الأئمة : هذه الآية أقوى ما ورد في الرد على المعتزلة .

قال النحاس: أجمع النحويون على أن الفعل إذا أكد بالمصدر لم يكن مجازًا، فإذا قال: ﴿تَكۡلِيمٗا﴾ وجب أن يكون كلامًا على الحقيقة، وأجمع السلف والخلف من أهل السنة وغيرهم على أن كلم هنا من الكلام، ونقل «الكشاف» عن بدع بعض التفسير أنه من الكلم بمعنى الجرح، وهو مردود بالإجماع المذكور.

وروي أن بعض المعتزلة قرأ على بعض المشائخ: «وكلم اللّٰه موسى تكليمًا» بنصب لفظ الجلالة، فقال له: يا ابن الخناء، كيف تصنع بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ يعني أن هذا لا يحتمل التحريف ولا التأويل.

فذكر سبحانه في أول الآية وحيه إلى نوح والنبيين من بعده، ثم خص موسى من بينهم بالإخبار بأنه كلمه، وهذا يدل على أن التكليم الذي حصل له أخص من مطلق الوحي الذي ذكر في أول الآية، ثم أكده بالمصدر الحقيقي الذي هو مصدر كلم، وهو التكلم رفعًا لم توهمه المعطلة والجهمية والمعتزلة وغيرهم من أنه إلهام أو إشارة أو تعريف للمعنى النفسي بشيء غير التكليم، فأكده بالمصدر المفيد تحقيق النسبة، ورفع توهم المجاز، قال الفراء: العرب تسمي ما يوصل إلى الإنسان كلامًا بأي طريق وصل.

فإذا حققته بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام، كالإرادة يقال: فلان أراد إرادة. يريدون حقيقة الإرادة، ويقال: أراد الجدار. ولا يقال: إرادة؛ لأنه مجاز غير حقيقة هذا كلامه، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾، وهذا تكليم غير التكليم الأول الذي أرسله به إلى فرعون، وفي هذا التكليم الثاني سأل النظر لا في الأول، وفيه أعطي الألواح وكان على مواعدة من اللّٰه له، والتكليم الأول لم يكن عن مواعدة، وفيه قال اللّٰه له: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ أي: بتكليمي لك بإجماع السلف، وقد أخبر سبحانه في كتابه أنه ناداه وناجاه، فالنداء من بعد، والنجاء من قرب، تقول العرب: إذا كبرت الحلقة فهو نداء أو نجاء.

وقال أبوه آدم في محاجته: أنت موسى الذي اصطفاك اللّٰه بكلامه وخط لك التوراة بيده، وكذلك يقول له أهل الموقف إذا طلبوا منه الشفاعة إلى ربه، وكذلك في حديث الإسراء في رؤية موسى في السماء السادسة أو السابعة على اختلاف الرواية قال: وذلك بتفضيله بكلام اللّٰه، ولو كان التكليم الذي حصل له من جنس ما حصل لغيره من الأنبياء لم يكن لهذا التخصيص به في الأحاديث معنى، ولا كان يسمى كليم الرحمن.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ

﴿بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ ففرق بين تكليم الوحي بإرسال الرسول ، والتكليم من وراء حجاب . وقال ابن عباس : ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ أدني حتى سمع صريف الأقلام . وقال البغوي : ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ أي : مناجيًا فالنجي المناجي كما يقال جليس ونديم . اهـ .

ففي هذه الآيات دليل على تكليم موسى ، والمعنى المجرد لا يسمع بالضرورة ، ومن قال : إنه يسمع فهو مكابر ، ودليل أنه ناداه والنداء لا يكون إلا صوتًا مسموعًا لا يعقل في لغة العرب لفظ النداء بغير صوت مسموع لا حقيقة ولا مجازًا ، فإن النداء وقت بظرف محدد ، فدل على أن النداء يقع في ذلك الحين دون غيره ، وجعل الظرف للنداء لا يسمع النداء إلا فيه ، والكلابية ومن وافقهم من أصحاب الأئمة الأربعة يقولون : إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته بل الكلام المعين لازم لذاته كلزوم الحياة لذاته ، وعندهم لما جاء موسى لميقات ربه سمع النداء القديم لا أنه حينئذ نودي ولهذا يقولون : إنه يسمع كلامه لخلقه ، بدل قول الناس : يكلم خلقه ، وهؤلاء يردون على الخلقية الذين يقولون : القرآن مخلوق .

ويقولون عن أنفسهم : أنهم أهل السنة الموافقون للسلف الذين قالوا : القرآن كلام اللَّه غير مخلوق . وليس قولهم قول السلف لكن قولهم أقرب إلى قول السلف من وجه ، وهم يقولون : الكلام عندنا صفة ذات لا صفة فعل . والخلقية يقولون : صفة فعل لا صفة ذات ، ومذهب السلف أنه صفة فعل وصفة ذات معا ، فكل منهما موافق للسلف من وجه دون وجه .

فكل من المعتزلة والأشعرية في جنس مسائل الكلام وأفعال اللَّه وافقوا السلف والأئمة من وجه وخالفوهم من وجه ، وليس قول أحدهم قول السلف دون الآخر لكن الأشعرية في جنس الصفات ، والقدر أقرب إلى قول السلف والأئمة من المعتزلة فإن قيل فقد قال تعالى : ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ، وهذا يدل على أن الرسول أحدث الكلام العربي . قيل : هذا باطل ، وذلك أن اللَّه ذكر هذا في موضعين والرسول في أحد الموضعين محمد ، والرسول في الآية الأخرى جبريل قال تعالى في سورة « الحاقة » : ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ الآية ، فالرسول هنا محمد ﷺ وقال في سورة « التكوير » : ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ ، فالرسول هنا جبريل فلو كان إضافة إلى الرسول لكونه أحدث حروفه أو أحدث منه شيئا لكان الخبران متناقضين ، فإنه إن كان أحدهما الذي أحدثها امتنع أن يكون الآخر هو الذي أحدثها ، وأيضًا فإنه قال : ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ولم يقل : لقول ملك ولا نبي ، ولفظ الرسول يستلزم مرسلًا له ، فدل ذلك على أن الرسول مبلغ له عن مرسله ، لا أنه أنشأ منه شيئا من جهة نفسه ، وهذا يدل على أنه أضافه إلى الرسول ؛ لأنه بلغه وأداه لا أنه أنشأ منه شيئًا وابتداه .

وأيضًا فإن اللَّه قد كفر من جعله قول البشر ، ومحمد بشر فمن قال قول محمد فقد كفر ، ومع هذا فقد قال : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ ، فجعله قول الرسول البشري مع تكفيره من يقول : إنه قول البشر فعلم أن المراد بذلك أن الرسول بلغه عن مرسله لا أنه قوله من تلقاء نفسه ، وهو كلام اللَّه تعالى الذي أرسله ، ولهذا كان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف ويقول : « ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي ، فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي » . رواه أبو داود وغيره[1] .

والناس يعلمون أن النبي ﷺ إذا تكلم بكلام تكلم بحروفه ومعانيه بصوته ﷺ ثم المبلغون عنه يبلغون كلامه بحركاتهم وأصواتهم كما قال ﷺ : « نضر اللَّه أمرأً سمع منا حديثًا فبلغه كما سمعه »[2] . فالمستمع منه مبلغ حديثه ، كما سمعه لكن بصوت نفسه لا بصوت الرسول ، فالكلام هو كلام الرسول تكلم به بصوته ، والمبلغ بلغ كلام رسول اللَّه بصوت نفسه ، وإذا كان هذا معلوما في تبليغ كلام المخلوق فكلام الخالق أولى بذلك ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ وقال النبي ﷺ : « زينوا القرآن بأصواتكم »[3] . فجعل الكلام كلام الباري ، وجعل الصوت الذي يقرأه العبد صوت القارئ .

وأصوات العباد ليست هي الصوت الذي ينادي اللَّه به ويتكلم به ، كما نطقت النصوص بذلك ، بل ولا ومثله ، فمن قال عن القرآن الذي يقرؤه المسلمون : ليس هو كلام اللَّه أو هو كلام غير اللَّه . فهو ملحد مبتدع ضال ، ومن قال : إن أصوات العباد أو المداد الذي يكتب به القرآن قديم أزلي فهو ملحد مبتدع . بل هذا القرآن هو كلام اللَّه ، وهو مثبت في المصاحف ، وكلام اللَّه مبلغ عنه مسموع من القراء ، ليس مسموعًا منه ، فالإنسان يرى الشمس والقمر والكواكب بطريق المباشر ، ويراها في ماء أو مرآة فهذه رؤية مقيدة بالواسطة وتلك مطلقة بطريق المباشر ، ويسمع من المبلغ عنه بواسطة ، والمقصود بالسماء هو كلامه في الموضعين ، كما أن المقصود بالرؤية هو المرئي في الموضعين ، وإذا قيل للمسموع : إنه كلام اللَّه فهو كلام مسموعًا من المبلغ عنه ، لا مسموعًا منه فهو مسموع بواسطة صوت العبد ، وصوت العبد مخلوق ، وأما كلام اللَّه منه فهو غير مخلوق حيثما تصرف .

---

(١) أحمد (٣/٣٩٠) ، وأبو داود (٤٧٣٤) ، والترمذي (٢٩٢٥) ، وابن ماجه (٢٠١) ، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (١٩٤٧) .

(٢) أبو داود (٣٦٦٠) ، والترمذي (٢٦٥٦) ، وابن ماجه (٤١٠٥) ، وأحمد (٥/١٨٣) عن أبان بن عثمان ، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (٤٠٤) .

(٣) أحمد (٤/٢٨٣) ، وأبو داود (١٤٦٨) ، وابن ماجه (١٣٤٢) ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٣٥٨٠) .

وقال تعالى : ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ : ففيه إخبار بأنه أنزل القرآن ، ولفظ الإنزال في القرآن قد يرد مقيدًا بالإنزال منه كنزول القرآن ، وقد يرد مقيدًا بالإنزال من السماء ويراد العلو ، فيتناول نزول المطر من السحاب ، ونزول الملائكة من عند اللَّه وغير ذلك ، وقد يرد مطلقًا فلا يختص بنوع من الإنزال ، بل ربما يتناول الإنزال من رءوس الجبال ، كقوله : ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ ، والإنزال من ظهور الحيوان كإنزال الفحل من الماء وغير ذلك ، فقوله : ﴿نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ بيان لنزول جبريل به من اللَّه ﷻ ، فإن روح القدس هنا هو جبريل بدليل قوله تعالى : ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ، وهو الروح الأمين كما في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ ، وفي قوله : « الأمين » دلالة على أنه مؤتمن على ما أرسل به لا يزيد فيه ولا ينقص ، فإن الرسول الخائن قد يغير الرسالة .

وفي قوله : ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ دلالة على بطلان قول من يقول : إنه كلام مخلوق خلقه في جسم من الأجسام المخلوقة ، كما هو قول الجهمية الذين يقولون بخلق القرآن من المعتزلة والنجارية والضرارية وغيرهم ، فإن السلف كانوا يسمون كل من نفى الصفات وقال : إن القرآن مخلوق وإن اللَّه لا يرى في الآخرة جهميًا ، كما تبطل قول من يجعله على نفس النبي من العقل الفعال أو غيره وقول من قال : إن القرآن العربي ليس منزلًا من اللَّه ، بل مخلوق إما في جبريل أو محمد أو جسم غيرهما ، كما يقول ذلك الكلابية والأشعرية الذين يقولون : إن القرآن العربي ليس هو كلام اللَّه ، وإنما كلامه المعنى القائم بذاته ، والقرآن العربي خلق ليدل على ذلك المعنى ثم إما أن يكون خلق ببعض الأجسام الهواء أو غيره أو ألهمه جبريل فعبر عنه بالقرآن العربي أو أن يكون جبريل أخذه من اللوح المحفوظ أو غيره ، والقرآن اسم للقرآن العربي لفظه ومعناه بدليل قوله تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ ، وإنما يقرأ القرآن العربي لا يقرأ معانيه المحددة ، وكذلك قوله : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ ، والكتاب اسم للكلام العربي بالضرورة والاتفاق ، فإن الكلابية أو بعضهم يفرق بين كلام اللَّه وكتاب اللَّه ، فيقول : كلام اللَّه هو المعنى القائم بالذات وهو غير مخلوق ، وكتابه هو المنظوم المؤلف العربي وهو المخلوق .

والقرآن يراد به تارة هذا وتارة هذا ، واللَّه تعالى قد سمى نفس مجموع اللفظ والمعنى قرآنًا وكتابًا وكلامًا ، فقال : ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ ، وقال : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ الآية ، فبين أن الذي سمعوه هو القرآن وهو الكتاب ، لكن لفظ الكتاب قد يراد به المكتوب فيكون هو الكلام ، وقد يراد به ما يكتب فيه كقوله : ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ الآية ، وقال :

﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا﴾ الآية ، فقوله : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ يتناول نزول القرآن العربي على كل قول ، فعلم أن القرآن العربي ينزل من الله لا من الهواء ولا من اللوح ولا من جسم آخر ولا من جبريل ولا محمد ولا غيرهما .

وكون القرآن مكتوبًا في اللوح المحفوظ ، وفي صحف مطهرة بأيدي الملائكة لا ينافي أن يكون جبريل نزل به من الله سواء كتبه الله قبل أن يرسل به جبريل أو غير ذلك ، وإذا كان قد أنزله مكتوبًا إلى بيت العزة جملة واحدة في ليلة القدر فقد كتبه كله قبل أن ينزله ، والله تعالى يعلم ما كان وما لا يكون أن لو كان كيف يكون ، وهو سبحانه قدر مقادير الخلائق وكتب أعمال العباد قبل أن يعملوها ، كما ثبت ذلك بالكتاب والسنة وآثار السلف ، ثم إنه يأمر الملائكة بكتابتها بعد ما يعملونها فيقابل من الكتابة المتقدمة على الوجود ، والكتابة المتأخرة عنها فلا يكون بينهما تفاوت هكذا ، قال ابن عباس ، وغيره من السلف : وهو حق ، فإذا كان ما يخلقه بائنا منه وقد كتب قبل أن يخلقه ، فكيف يستبعد أن يكتب كلامه الذي يرسل به ملائكته قبل أن يرسلهم به ، وقد افترق الناس في مسألة الكلام على تسعة أقوال :

أحدهما : أن كلام الله ما يفيض على النفوس إما من العقل الفعال عند بعضهم أو من غيره ، وهذا قول الصابئة والمتفلسفة .

وثانيهما : أنه مخلوق منفصل عنه . وهذا قول المعتزلة .

وثالثها : أنه معنى واحد قائم بذات الله هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار ، وإن عبر عنه بالعربية كان قرآنًا ، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة ، وهذا قول ابن كلاب ومن وافقه كالأشعري وغيره .

ورابعها : أنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل ، وهذا قول طائفة من أهل الكلام ومن أهل الحديث .

وخامسها : أنه حرف وأصوات لكن تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلمًا ، وهذا قول الكرامية وغيرهم .

وسادسها : أن كلامه يرجع إلى ما يحدثه من علمه وإرادته القائمة بذاته ، وبهذا يقول صاحب المعتبر ويميل إليه الرازي في « المطالب العالية » .

وسابعها : أن كلامه يتضمن معنى قائمًا بذاته هو ما خلية في غيره ، وهذا قول أبي منصور الماتريدي .

وثامنها : أنه مشترك بين المعني القديم القائم بالذات ، وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات ، وهذا قول أبي المعالي ومن اتبعه .

وتاسعها : أنه تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء ، وهو يتكلم بصوت يسمع وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديمًا ، وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة .

واستدل المعتزلة على خلق القرآن بقوله : ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قالوا : والقرآن شيء فيدخل في عموم كل فيكون مخلوقًا ، وهذا من أعجب العجب فإن أفعال العباد كلها عندهم غير مخلوقة للّه تعالى ، وإنما يخلقها العباد جميعها فأخرجوها من عموم كل ، وأدخلوا كلام اللّه في عمومها مع أنه صفة من صفاته به تكون الأشياء المخلوقة إذ بأمره تكون المخلوقات .

قال تعالى : ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ : ففرق بين الخلق والأمر فلو كان الأمر مخلوقا للزم أن يكون مخلوقًا بأمر آخر ، والآخر بآخر إلى ما لا نهاية له فيلزم التسلل وهو باطل ، وطرد باطلهم أن تكون جميع صفاته تعالى مخلوقة كالعلم والقدرة وغيرها وذلك صريح الكفر ، وكيف يصح أن يكون متكلمًا بكلام يقوم به غيره ؟ ولو صح ذلك للزم أن يكون ما أحدثه من الكلام في الجمادات كلامه ، وكذلك أيضًا ما خلقه في الحيوانات ، بل يلزم أن يكون متكلمًا بكل كلام خلقه في غيره زورًا كان أو كذبًا أو كفرًا وهذيانًا- تعالى اللّه عن ذلك- وقد طرد هذا الاتحادية فقال ابن عربي :

وكل الكلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

ولو صح أن يوصف أحد بصفة قامت بغيره لصح أن يقال للبصير : أعمى وللأعمى بصير ؛ لأن البصير قد قام وصف البصيرة بغيره ، والأعمى قد قام وصف البصر بغيره ، ولصح أن يوصف اللّه تعالى بالصفات التي خلقها في غيره من الألوان والروائح والطعوم والطول والقصر ونحو ذلك ، وقال الإمام عبد العزيز المكي في مناظرته لبشر المريسي- إن قال بشر- : إن اللّه خلق كلامه في نفسه فهذا محال ؛ لأن اللّه لا يكون محلًا للحوادث المخلوقة ، ولا يكون منه شيء مخلوق وإن قال خلقه في غيره فهو كلام غير ذلك الغير ، وإن قال : خلقه قائمًا بنفسه وذاته فهذا محال ، لا يكون الكلام إلا من متكلم ، كما لا تكون الإرادة إلا من مريد ولا العلم إلا من عالم ، ولا يعقل كلام قائم بنفسه يتكلم بذاته ، فلما استحال من هذه الجهات أن يكون مخلوقًا علم أنه صفة اللّه . اهـ .

وعموم كل في كل موضع بحسبه ، ويعرف ذلك بالقرائن ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ ومساكنهم شيء ولم تدخل في عموم كل شيء دمرته الريح ؛ وذلك لأن المراد تدمر كل شيء يقبل التدمير بالريح عادة وما يستحق التدمير ، وكذا قوله تعالى حكاية عن بلقيس : ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ المراد : من كل شيء يحتاج إليه الملوك ، والمراد من قوله : « خلق كل شيء » أي : كل شيء مخلوق وكل موجود سوى اللّه فهو مخلوق ، فدخل في هذا

العموم أفعال العباد حتمًا ، ولم يدخل في العموم الخالق تعالى ، وصفاته ليست غيره ؛ لأنه تعالى هو الموصوف بصفات الكمال ، وصفاته ملازمة لذاته المقدسة لا يتصور انفصال صفاته عنه .

وقال ابن القيم : احتج المعتزلة على مخلوقية القرآن بقوله تعالى : « خلق كل شيء » ، ونحو ذلك من الآيات ، فأجاب الأكثرون بأنه عام مخصوص بخص محل النزاع كسائر الصفات من العلم ونحوه .

قال ابن عقيل في « الإرشاد » : ووقع لي أن القرآن لا يتناوله هذا الإخبار ولا يصلح لتناوله . قال : لأنه به حصل عقد الإعلام بكونه خالقًا لكل شيء ، وما حصل به عقد الإعلام والإخبار لم يكن داخلًا تحت الخبر . قال : ولو أن شخصًا قال : لا أتكلم اليوم كلامًا إلا كان كذبًا لم يدخل إخباره بذلك تحت ما أخبر به . قلت : ثم تدبرت هذا فوجدته مذكورًا في قوله تعالى في قصة مريم : ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ وإنما أمرت بذلك لئلا تسأل عن ولدها ، فقولها : ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ به حصل إخبار بأنها لا تكلم الإنس ، ولم يكن ما أخبرت به داخلًا تحت الخبر ، وإلا كان قولها هذا مخالفًا لنذرها . اهـ .

وأما استدلالهم بقوله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ فما أفسده من استدلال ! فإن جعل إذا كان بمعنى خلق يتعدى إلى مفعول واحد ، كقوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ وإذا تعدى إلى مفعولين لم يكن بمعنى خلق قال تعالى : ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ ، وكذا قوله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ .

وما أفسد استدلالهم بقوله تعالى : ﴿نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ على أن الكلام خلقه الله في الشجرة فسمعه موسى منها ، وعموا عما قبل هذه الكلمة وما بعدها ، فإن الله تعالى قال : ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ والنداء هو الكلام من بعد فسمع موسى النداء من حافة الوادي ، ثم قال : ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ أي : أن النداء كان في البقعة المباركة من عند الشجرة ومن لابتداء الغاية ، ولو كان الكلام مخلوقًا في الشجرة لكانت الشجرة هي القائلة : ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ، وهل قال : ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ غير رب العالمين ؟ ولو كان هذا الكلام بدأ من غير الله لكان قول فرعون : ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ صدقًا ؛ إذ كل من الكلامين عندهم مخلوق قد قاله غير الله ، وقد فرقوا بين الكلامين على أصولهم الفاسدة أن ذلك كلام خلقه الله في الشجرة ، وهذا كلام خلقه فرعون فحرفوا وبدلوا واعتقدوا خالقا غير الله .

وأما قوله تعالى في عيسى عليه السلام : ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ فالمعنى أنه

خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها الروح ، فعيسى ناشئ عن الكلمة ، وليس هو نفس الكلمة وقوله تعالى : ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ يعني : أنه كائن منه تعالى أي : هو موجده وخالقه ، فهو روح من الأرواح التي خلقها اللّه كما قال تعالى : ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أي : مخلوقة بأمره .

□ إثبات رؤية المؤمنين اللّه يوم القيامة :

وقوله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ، ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ ، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ ، ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ :

في هذه الآيات إثبات رؤية المؤمنين ربهم جل وعلا يوم القيامة عيانًا بأبصارهم ، ومسألة الرؤية من أعظم المسائل التي وقع النزاع فيها بين أهل السنة وغيرهم . وقد اتفق عليها الأنبياء والمرسلون وجميع الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام على تتابع القرون . والمخالف في الرؤية الجهمية والمعتزلة ومن اتبعهم من الخوارج والإمامية ، وقولهم باطل مردود بالكتاب والسنة . قال ابن خزيمة : لم يختلف المؤمنون في أن المؤمنين يرون خالقهم يوم المعاد ، ومن أنكر ذلك فليس بمؤمن عند المؤمنين . اهـ .

قوله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ أي : حسنة مشرقة ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ترى اللّه عيانًا ، وإضافة النظر إلى الوجه الذي هو محله في هذه الآية ، وتعديه بأداة « إلى » الصريحة في نظر العين ، وإخلاء الكلام من قرينة تدل على أن المراد بالنظر المضاف إلى الوجه المعدي بإلى خلاف حقيقته وموضوعه ، صريح في أن اللّه سبحانه وتعالى أراد بذلك نظر العين التي في الوجه إلى نفس الرب جل جلاله ، فإن النظر له عدة استعمالات بحسب صلاته وتعديه بنفسه ، فإن عدي بنفسه فمعناه التوقف والانتظار كقوله : ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ عدي بفي ، فمعناه التفكر والاعتبار كقوله : ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ، وإن عدى بإلى فمعناه المعاينة بالأبصار كقوله : ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ ، فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر .

وقد أخرج عبد بن حميد عن عكرمة إنكار الرؤية ، ويمكن الجمع بالحمل على غير أهل الجنة ، وأخرج بسند صحيح عن مجاهد : « ناظرة » ؛ تنظر الثواب . وعن أبي صالح نحوه ، وأورد الطبري الاختلاف فقال : الأولى بالصواب ما ذكرناه عن الحسن وعكرمة ؛ وهو ثبوت الرؤية لموافقته الأحاديث الصحيحة ، وبالغ ابن عبد البر في رد الذي نقل عن مجاهد وقال : هو شذوذ ، وقد تمسك به بعض المعتزلة . وتمسكوا أيضًا بقوله ﷺ في حديث سؤال جبريل عن الإسلام والإيمان والإحسان ، وفيه : « أن تعبد اللّه كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »(١) . تعقب بأن المنفي فيه رؤيته

---

(١) مسلم (٨) عن عمر رضي الله عنه .

في الدنيا ؛ لأن العبادة خاصة بها ، فلو قال قائل : إن فيه إشارة إلى جواز الرؤية في الآخرة لما أبعد ، وقال البيهقي : إذا ثبت أن « ناظرة » هنا بمعني « رائية » اندفع قول من زعم أن المعنى ناظرة إلى ثواب ربها ؛ لأن الأصل عدم التقدير ، وأريد منطوق الآية في حق المؤمنين بمفهوم الآية الأخرى في حق الكافرين ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ ، وقيدها بالقيامة في الآيتين إشارة إلى أن الرؤية تحصل للمؤمنين في الآخرة دون الدنيا . اهـ .

وقد أخرج أبو العباس السراج عن مالك بن أنس وقيل له : يا أبا عبد الله : قول الله تعالى : ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ يقول قوم : إلى ثوابه ؟ فقال : كذبوا فأين هم عن قوله تعالى : ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ ؟ ومن حديث النظر أن كل موجود يصح أن يرى ، وهذا على سبيل التنزل ، وإلا فصفات الخالق لا تقاس على صفات المخلوقين ، وتعقب ابن التين من زعم أن الرؤية بمعنى العلم بأن الرؤية بمعنى تتعدى إلى مفعولين تقول : رأيت زيدًا فقيهًا – أي : علمته – فإن قلت : رأيت زيدًا منطلقًا لم يفهم منه إلا برؤية البصر ، ويزيده تحقيقًا قوله في الخبر : إنكم سترون ربكم عيانًا ؛ لأن اقتران الرؤية بالعيان لا يحتمل أن تكون بمعنى العلم ، وقال ابن بطال : ذهب أهل السنة وجمهور الأمة إلى جواز رؤية الله في الآخرة ، ومنع الخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة ، وتمسكوا بأن الرؤية توجب كون المرئي محدثًا وحالًا في مكان ، وأولوا قوله : ﴿نَاظِرَةٌ﴾ بمنتظره وهو بالمرئي بمنزلة العلم في تعلقه بالمعلوم ، فإذا كان تعلق العلم بالمعلوم لا يوجب حدوثه فكذلك المرئي .

وأما ما روي عمن تأول ذلك بأن المراد بإلى مفرد وهي النعم ، فقد أبعد النجعة وأبطل فيما ذهب إليه وأين هو من قوله تعالى : ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ قال الشافعي رحمه الله : ما حجب الفجار إلا وقد علم أن المؤمنين يرونه ﷻ ، ثم تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ بما دل عليه سياق الآية الكريمة ، وهي قوله : ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ .

وقوله : ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ الأرائك : جمع أريكة ، وهي سرير مفروش ، قال في الصحاح : الأريكة ؛ سرير متخذ مزين في قبة أو بيت ، والجمع الأرائك . وقال الزهري : الأريكة كل ما يتكأ عليه . ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى وجه الله وهو أفضل نعيم أهل الجنة ، فأهل الجنة في النعيم ، والكفار في الجحيم محجوبون عن رؤية الله ، فجمع عليهم بين نوعي العذاب عذاب النار وعذاب الحجاب عنه سبحانه ، كما جمع لأوليائه بين نوعي النعيم نعيم التمتع بما في الجنة ونعيم التمتع برؤيته ، وذكر سبحانه هذه الأنواع الأربعة في هذه السورة فقال في حق الأبرار : ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ ، ولقد هضم معنى الآية من قال : ينظرون إلى أعدائهم يعذبون ، أو ينظرون إلى قصورهم وبساتينهم ، أو ينظر بعضهم إلى بعض ، وكل هذا عدول عن المقصود إلى غيره ، وإنما

المعنى ينظرون إلى وجه ربهم ضد حال الكفار الذين هم عن ربهم لمحجوبون ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ ، وتأمل كيف قابل سبحانه ما قاله الكفار في أعدائهم في الدنيا وسخروا به منهم بضده في القيامة ، فإن الكفار كانوا إذا مر بهم المؤمنون يتغامزون ويضحكون منهم ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ ، فقال تعالى : ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ مقابلة لتغامزهم وضحكهم منهم ، ثم قال : ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ فأطلق النظر وأفضلها وهي أعلى مراتب الهداية ، فقابل بذلك قولهم : ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ فالنظر إلى الرب سبحانه مراد من هذين الموضوعين ، ولابد إما بخصوصه وإما بالعموم والإطلاق ، ومن تأمل السياق لم يجد الآيتين تحتملان غير إرادة ذلك خصوصًا أو عمومًا .

قوله : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ الحسنى الجنة ، وما شاء اللَّه من الثواب ، والزيادة النظر إلى وجه اللَّه ، وفي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، كما قال تعالى : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وأعلى ما أعطيه أهل الجنة من النعيم النظر إلى وجه اللَّه ، كما روى مسلم في « صحيحه » عن صهيب قال : قرأ رسول اللَّه ﷺ : « ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ » قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند اللَّه موعدًا ويريد أن ينجزكموه . فيقولون : ما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا ويدخلنا الجنة ويزحزحنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب فينظرون إليه ، فواللَّه ما أعطاهم اللَّه شيئًا أحب إليهم من النظر إليه وهي الزيادة »[1] . وبذلك فسرها الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام ، وقال غير واحد من السلف في الآية : ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ وبعد النظر إليه : ولما عطف سبحانه الزيادة على الحسنى التي هي الجنة دل على أنها أمر آخر وراء الجنة ، وقدر زائد عليها ، ومن فسر الزيادة بالمغفرة والرضوان ، فهو من لوازم رؤية الرب تبارك وتعالى .

❁ قال الشيخ عبد العزيز الناصر الرشيد رحمه الله :

قوله : « وقد دخل في هذه الجملة ما وصف اللَّه به نفسه في سورة الإخلاص ...» :

أي المتقدمة من قوله : « وقد جمع فيما وصف وسمى به نفسه » .

قوله : « في سورة الإخلاص » : أي : سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص : ١] ، فإنها اشتملت على النفي والإثبات ؛ إثبات صفات الكمال ونفي التشبيه والمثال ، ومعاني التنزيه ترجع إلى هذين الأصلين ، وهذا عكس ما عليه أهل البدع من الجهمية والمعتزلة وغيرهم ، فإنهم ينفون صفات

---

(١) مسلم (١٨١) .

الكمال ، ويثبتون ما لا يوجد إلا في الخيال .

قوله : « الجملة » : وهي لغة : جماعة الشيء وما تركب من مسند ومسند إليه ، جمعه : جمل .

قوله : « الإخلاص » ؛ أي : سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ؛ سميت بسورة « الإخلاص » ؛ لأنها أخلصت في صفة الله ، ولأنها تخلص قارءها من الشرك العلمي الاعتقادي .

قوله : « تعدل » عدل الشيء بالفتح ما سواه من غير جنسه ، وبالكسر ما سواه من جنسه ، وبالكسر ما سواه من جنسه .

قوله : « ثلث القرآن » ؛ وذلك لأن معاني القرآن ثلاثة أنواع : توحيد ، وقصص ، وأحكام ، وهذه السورة صفة الرحمن فيها التوحيد وحده ، وفي « صحيح البخاري » عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : أن رجلًا سمع رجلًا يقرأ : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يرددها ، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر له ذلك ، وكأن الرجل يتقالها ، فقال النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن »[1] الحديث . والأحاديث بكونها تعدل ثلث القرآن تكاد تبلغ مبلغ التواتر . انتهى من كلام ابن القيم رحمه الله .

قال القسطلاني : وذلك لأن القرآن على ثلاثة أنحاء : قصص ، وأحكام ، وصفات الله ، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ متضمنة للتوحيد والصفات فهي ثلثه ، قال : وفيه دليل على شرف علم التوحيد ، وكيف لا ، والعلم يشرف بشرف المعلوم ، ومعلوم هذا العلم هو الله وصفاته وما يجوز عليه وما لا يجوز ، فما ظنك بشرف منزلته وجلالة محله ؟ ! انتهى .

وفي هذا الحديث دليل على تفاضل القرآن ، وكذلك تفاضل آيات الصفات ، وأن علم التوحيد أفضل العلوم ؛ إذ شرف العلم بشرف موضوعه .

وسبب نزول هذه السورة هو ما رواه أحمد عن أبي بن كعب : أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : انسب لنا ربك . فأنزل الله ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[2] ، وأخرجه الترمذي والطبري ، فالمشركون سألوا رسول الله عن حقيقة ربه من أي شيء ؟ فدلهم على نفسه بصفاته فلم يجعل لهم سبيلًا إلى معرفة الذات والكنه ، فحقيقة الذات والكنه غير معلومة للبشر ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين : ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي : منفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله لا شريك له ولا مثيل ولا نظير ، و« أحد » بمعنى : واحد ، ولا يطلق هذا اللفظ في الإثبات إلا عليه سبحانه ؛ لأنه الكامل في جميع صفاته وأحكامه ، وفي هذا دليل على أن القرآن كلام الله ؛ إذ لو كان النبي أو غيره لم يقل :

---

(١) البخاري (٤٧٢٦) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه .

(٢) الترمذي (٣٣٦٤) ، وأحمد (٥/٤٥٢) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه ، وحسنه الألباني في « صحيح سنن الترمذي » (٢٦٨٠) .

﴿قُلْ﴾ ، ففيه الرد على المعتزلة القائلين أن القرآن كلام محمد أو جبريل .

قال ابن القيم- رحمه اللَّه تعالى- : فدل على أن النبي ﷺ مبلغ عن اللَّه ، فكان مقتضى البلاغ التام أن يقول : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ففيه الرد على الجهمية والمعتزلة وإخوانهم ممن يقول هو كلامه ابتداء من قبل نفسه ، ففي هذا أبلغ رد لهذا القول ، وأنه ﷺ بلغ ما أمر بتبليغه على وجهه ولفظه ، فقيل له : ﴿قُلْ﴾ فقال : ﴿قُلْ﴾ ؛ لأنه مبلغ محض فما على الرسول إلا البلاغ المبين ، وفيه دليل على الجهر بالعقيدة والتصريح بها .

قوله : « اللَّه الصمد » : قال أبو وائل : الصمد : السيد الذي انتهى سؤدده ، والعرب تسمي أشرافها الصمد ؛ لكثرة الأوصاف المحمودة للمسمى به ، قال الشاعر :

إلا بكر الناعي بخير بني أسد بعمر بن مسعود وبالسيد الصمد

فإن الصمد من تصمد إليه القلوب بالرغبة والرهبة ، وذلك لكثرة خصال الخير فيه . انتهى . وقال عكرمة عن ابن عباس : معنى الصمد : هو الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم .

وقال الربيع بن أنس : هو الذي لم يلد ، ولم يولد كأنه ما بعده تفسيرًا له ، وهو تفسير جيد ، وقد تقدم الحديث من رواية ابن جرير عن أبي بن كعب في ذلك وهو صريح في ذلك . انتهى من ابن كثير .

قال الشيخ تقي الدين- رحمه اللَّه تعالى- : ومن قال : إن الصمد هو الذي لا جوف له ، فقوله لا يناقض هذا التفسير ، فإن اللفظة من الاجتماع ، فهو الذي اجتمعت فيه صفات الكمال ولا جوف له ، فإنما لم يكن أحد كفوًا له لما كان صمدًا كاملًا في صمدانيته ، فلو لم يكن له صفات كمال ونعوت جلال ، ولم يكن له علم ولا قدرة ، ولا سمع ولا بصر ، ولا يقوم به فعل ولا يفعل شيئًا البته ، ولا له حياة ولا كلام ولا وجه ، ولا يد ، ولا فوق عرشه ، ولا يرضى ، ولا يغضب ، ولا يرى ، ولا يمكن أن يرى ولا يشار إليه ، لكان العدم المحض كفوًا له ، فإن هذه الصفة منطبقة على المعدوم ، فلو كان ما يقوله المعطلون هو الحق لم يكن صمدًا وكان العدم كفوًا له ، فاسمه الأحد دل على نفي المشاركة والمماثلة ، واسمه الصمد دل على أنه مستحق لصفات الكمال ، فمن ثبت له الكمال التام انتفى النقصان عنه المضاد له ، والكمال من مدلول اسمه الصمد .

والثاني : أنه ليس كمثله شيء في صفات الكمال الثابتة له ، وهذا من مدلول اسمه الأحد ، فهذان الاسمان العظيمان يتضمنان تنزيهه عن كل نقص وعيب ، وتنزيهه في صفات الكمال أن يكون له مماثل في شيء منها ، فالسورة تضمنت كل ما يجب نفيه عن اللَّه وما يجب إثباته للَّه من وجهين ؛ من جهة اسمه الصمد ، ومن جهة أن كل ما نفي عنه من الأصول والفروع والنظير ، استلزم ثبوت صفات الكمال ، فإن ما يمدح به من النفي فلا بد أن يتضمن ثبوتًا وإلا فالنفي المحض عدم محض ، والعدم

محض ليس بشيء فضلًا عن أن يكون صفة كمال . انتهى من كلام الشيخ تقي الدين ابن تيمية بتصرف .

قوله : « ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ » : فيه الرد على اليهود والنصارى والمشركين ، فإن اليهود قالوا : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، ومشركو العرب زعموا أن الملائكة بنات الله ، تعالى الله عن قولهم .

قوله : « ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ » : الكفو : المثل والشبيه ، فهذه السورة تضمنت توحيد الاعتقاد والمعرفة وما يجب إثباته للرب من الأحدية المنافية لمطلق المشاركة بوجه من الوجوه ، والصمد المثبتة له جميع صفات الكمال الذي لا يلحقه فيها نقص بوجه من الوجوه ، ونفي الولد والوالد الذي هو من لزوم صمديته وغناه وأحديته ، ونفي الكفء المتضمن لنفي التشبيه والتمثيل ، فتضمنت هذه السورة إثبات كل كمال ، ونفي كل نقص عنه ، ونفي إثبات مثل له أو شبيه له في كماله ونفي مطلق الشريك عنه ، فهذه الأصول هو مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي الذي يباين به صاحبه جميع فرق الضلال والشرك ؛ ولهذا كانت تعدل ثلث القرآن ، فأخلصت سورة الإخلاص الخبر عنه وعن أسمائه وصفاته فعدلت ثلث القرآن ، وخلصت قارئها المؤمن بها من الشرك العلمي . اهـ ، من كلام ابن القيم- رحمه الله تعالى- ملخصًا .

وفي هذه السورة الجمع بين النفي والإثبات ، وفيها الإجمال في النفي ، والتفصيل في الإثبات ، وهذه طريقة أهل السنة والجماعة خلافًا لأهل الكلام المذموم ، وتضمنت هذه السورة أنواع التوحيد الثلاثة .

قوله : « وما وصف به نفسه في أعظم آية من كتابه ...» :

* وهي آية الكرسي ، وذلك لما اشتملت عليه من العلوم والمعارف ، كما في « الصحيح » أن النبي ﷺ قال لأبي بن كعب : « يا أبا المنذر ، أتدري أي آية في كتاب الله أعظم » . فقال : الله ورسوله أعلم . فرددها مرارًا ، ثم قال : أبي ، هي آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة : ٢٥٥] . فقال : « ليهنك العلم يا أبا المنذر »(١) .

قوله : « آية » : هي لغة : العلامة ، واصطلاحًا : طائفة من كلمات القرآن متميزة بفصل ، سميت هذه الآية آية الكرسي ؛ لذكر الكرسي فيها ، وفيه دليل على فضل هذه الآية وإنها أعظم آية في كتاب الله ، وفيه دليل كما تقدم على فضل علم التوحيد ، وأن القرآن يتفاضل ، بل آيات الصفات تتفاضل .

(١) مسلم (٨١٠) ، وأحمد (١٤١/٥) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه .

قوله : « ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ » ؛ أي : لا معبود بحق إلا هو ، قوله : ﴿ٱلْحَىُّ﴾ ؛ أي : الدائم الباقي الذي لا سبيل للفناء عليه ، قوله : ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ ؛ أي : القائم بنفسه المقيم لما سواه ، فهذان الاسمان عليهما مدار الأسماء الحسنى وإليها ترجع معانيها جميعًا ، فإن الحياة مستلزمة لصفات الكمال ، والقيوم متضمن لكمال غناه وكمال قدرته ، فإن القائم بنفسه لا يحتاج إلى من يقيمه بوجه من الوجوه ، وهذا من كمال غناه بنفسه عما سواه وهو المقيم لغيره فلا قيام لغيره إلا بإقامته ، وهذا من كمال قدرته وعزته . انتهى من كلامِ ابن القيم بتصرف .

قوله : ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ : السنة : النعاس وهو النوم الخفيف ، والنوم ثقل في الرأس ، والسنة في العين ، والنوم في القلب ، وهو تأكيد للقيوم ، أي : إنه - سبحانه- لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول ، ولا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية ، كما في الصحيح من حديث أبي موسى قال : قام فينا رسول اللَّه ﷺ بأربع كلمات ، فقال : « إن اللَّه لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النار- أو النور- لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه ، له ما في السماوات وما في الأرض ملكًا وخلقًا وعبيدًا »[1] .

قوله : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ ؛ أي : ليس لأحد أن يشفع عنده لعظمته وكبريائه إلا بإذنه ؛ أي : بأمره .

قوله : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ : أي : لا يحيط الخلق بشيء من علمه إلا بما شاء أن يعلمهم إياه ويطلعهم عليه كما قال سبحانه عن الملائكة : ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢] .

قوله : « ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ » : أي : ملأ وأحاط ، والكرسي مخلوق عظيم وهو موضع القدمين للَّه سبحانه وتعالى ، كما يروي عن ابن عباس وغيره ، وقد قيل : إنه العرش ، والصحيح أنه غيره ، كما روى ابن أبي شيبة والحاكم وقال : إنه على شرط الشيخين عن ابن عباس في قوله : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أنه قال : الكرسي موضع القدمين ، والعرش لا يقدر قدره إلا اللَّه ، وقد روي مرفوعًا ، والصواب : أنه موقوف عَلى ابن عباس ، وذكر ابن جرير عن أبي ذر : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديث ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض »[2] وأما ما زعمه بعضهم أن معنى ﴿كُرْسِيُّهُ﴾ علمه ونسبه إلى ابن عباس فليس

---

(١) مسلم (١٧٩) ، وأحمد (٤/٤٠٥) من حديث أبي موسى رضي الله عنه .

(٢) ابن حبان (٣٦١) ، وأبو نعيم في الحلية (١/١٦٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (١٠٩) .

بصحيح، بل هو من كلام أهل البدع المذموم، وإنما هو كما قال غير واحد من السلف: الكرسي بين العرش كالمرقاة إليه.

قوله: «﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾»: أي: لا يكرثه ولا يثقله ولا يعجزه حفظهما، أي: حفظ السماوات والأرض وما بينهما، بل عليه سهل يسير، وهذا النفي في قوله: ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ لثبوت كمال ضده، وكذلك كل نفي يأتي في صفات الله، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك.

قوله: «﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾»: (ال) في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ للشمول والاستغراق، فله- سبحانه- العلو الكامل من جميع الوجوه: علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات، كما تواترت بذلك الأدلة، وطابق على ذلك دليل العقل، فدليل العلو عقلي ونقلي، وهو من الصفات الذاتية كصفة الفوقية، فوصفه- سبحانه- بالعلو يجمع معاني العلو جميعًا: علو القهر، أي أنه - سبحانه- علا كل شيء، بمعنى: أنه قاهر له قادر عليه متصرف فيه، كما قال سبحانه: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] وعلو القدر، أي: أنه عال عن كل عيب ونقص، فهو عال عن ذلك منزه عنه، كما قال سبحانه: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] الآية، وفي دعاء الاستفتاح: «وتعالى جدك»[1]. وعلو الذات، أي: أنه- سبحانه- عال على الجميع فوق عرشه، فتبين أن أنواع العلو ثلاثة، وأن اسمه العلي يتضمن اتصافه بجميع صفات الكمال والتنزيه له- سبحانه- عما ينافيها من صفات النقص. انتهى من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية.

قوله: «﴿ٱلْعَظِيمُ﴾»:

* أي: أنه لا أعظم منه ولا أجل، لا في ذاته ولا في أسمائه وصفاته وأفعاله، فهذه الآية اشتملت على فوائد عظيمة:

الأولى: إثبات ألوهيته سبحانه وانفراده بذلك، وبطلان ألوهيته كل من سواه.

الثانية: إثبات صفة الحياة لها سبحانه وتعالى، الحياة التامة الدائمة التي لا يلحقها فناء ولا اضمحلال، فهي صفة ذاتية تواطأ على إثباتها النقل والعقل.

الثالث: إثبات صفة القيوم، أي: قيامه بنفسه وقيامًا بتدبير أمور خلقه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ﴾ [الرعد: ٣٣]، وهذان الاسمان؛ أعني: الحي القيوم ذكرا معًا في ثلاثة مواضع في القرآن، وهما من أعظم أسماء الله وصفاته، وورد أنهما الاسم الأعظم، فإنهما متضمنان لصفات الكمال أعظم تضمن، فالصفات الذاتية كلها ترجع إلى اسم الحي، والصفات

---

(١) أبو داود (٧٧٥)، والنسائي (٨٩٩)، وأحمد (٣/ ٥٠) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ. وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٩٩٦).

الفعلية ترجع إلى اسم القيوم ، ويدل القيوم على معنى الأزلية والأبدية وعلى قيامه بذاته وعلى قيام كل شيء به ، وعلى أنه موجود بنفسه ، وهذا معنى كونه واجب الوجود .

الرابعة : تنزيهه- سبحانه- عن صفات النقص ، كالسنة والنوم والعجز والفقر ونحو ذلك وهو تأكيد للقيوم ؛ لأن من جاز عليه السنة والنوم استحال أن يكون قيومًا .

الخامسة : سعة ملكه سبحانه وتعالى ، له ما في السماوات والأرض ملكًا وعبيدًا تحت قهره وسلطانه .

السادسة : فيه دليل على عظمته وسلطانه ، وإن أحدًا لا يشفع عنده إلا بعد إذنه سبحانه ورضاه عن المشفوع له .

السابعة : فيه إثبات الشفاعة بقيودها ، وهو إذن اللّه للشافع أن يشفع ورضاه عن المشفوع له .

الثامنة : فيه الرد على المشركين الذين يزعمون أن أصنامهم تشفع لهم ، فظهر أن الشفاعة تنقسم إلى قسمين : شفاعة منفية ، وشفاعة مثبتة .

التاسعة : فيه إثبات صفة الكلام للّه سبحانه وأن يتكلم متى شاء ، إذا شاء وأنه يتكلم- سبحانه- بحرف وصوت يليقان بجلاله وعظمته ، وأن كلامه- سبحانه- يسمع لقوله : ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج : ٦٥] .

العاشر : فيها إثبات صفة العلم للّه سبحانه وإحاطته بكل معلوم ، وأنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون .

الحادي عشر : في ذكر إحاطة علمه- سبحانه- بالماضي والمستقبل إشارة إلى أنه لا ينسى ولا يغفل ، ولا يحدث له علم ولا يتجدد .

الثاني عشر : فيه الرد على القدرية والرافضة ونحوهم الذين يزعمون أن اللّه لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها ، والرد على من زعم أن اللّه لا يعلم إلا الكليات ، تعالى اللّه عن قولهم .

الثالث عشر : فيها اختصاصه بالتعليم ، وأن الخلق لا يعلمون إلا ما علمهم ، كما قالت الملائكة : ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة : ٣٢] .

الرابع عشر : فيه إثبات عظمته- سبحانه- بعظمة مخلوقاته ، فإذا كان عظمة كرسيه هذه العظمة التي جاءت بها الأدلة ، فمن باب أولى أن يكون الخلق أعظم وأجل .

الخامس عشر : فيها إثبات الكرسي وعظمته وأنه مخلوق للّه سبحانه وتعالى والرد على من زعم أن كرسيه علمه .

السادس عشر : فيه إثبات صفة المشيئة للّه سبحانه .

السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر : فيه إثبات عظمته واقتداره ، وفيه إثبات السماوات وتعددها ، وإثبات علوه- سبحانه- على خلقه ، وإثبات عظمته- سبحانه- ذاتًا وصفاتًا وأفعالًا .

قال ابن القيم رحمه الله : قرن بين هذين الاسمين الدالين على علوه وعظمته- سبحانه- في آخر آية « الكرسي » ، وفي سورة « الشورى » ، وفي سورة « الرعد » ، وسورة « سبأ » .

ففي آية « الكرسي » ذكر الحياة التي هي أصل جميع الصفات ، وذكر معها قيوميته المقتضية لدوامه وبقائه وانتفاء الآفات جميعها عنه من السنة والنوم والعجز وغيرها ، ثم ذكر كمال ملكه ، ثم عقبه بذكر وحدانيته في ملكه ، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ، ثم ذكر سعة علمه وإحاطته ، ثم عقبه بأنه لا سبيل للخلق إلى علم شيء من الأشياء إلا بعد مشيئته لهم أن يعلموه ، ثم ذكر سعة كرسيه منبهًا على سعته سبحانه وعظمته وعلوه ، وذلك توطئة بين يدي علوه وعظمته ، ثم أخبر عن كمال اقتداره وحفظه للعالم العلوي والسفلي من غير اكتراث ولا مشقة ولا تعب ، ثم ختم الآية بهذين الاسمين الجليلين الدالين على علو ذاته وعظمته . انتهى من « الصواعق » .

قوله : « ولهذا كان من قرأ هذه الآية في ليلة ، لم يزل عليه من الله حافظ ، ولا يقربه شيطان » :

* هذا الحديث في « صحيح البخاري » ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته وقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ . قال : دعني فإني محتاج وعلي عيال ، لا أعود . فرحمته وخليت سبيله ، فأصبحت ، فقال لي رسول الله : « يا أبا هريرة ، ما فعل أسيرك البارحة ؟ » . قلت : يا رسول الله ، شكا حاجة وعيالًا فرحمته وخليت سبيله . قال : « أما أنه قد كذبك وسيعود » . فعرفت أنه سيعود لقول النبي ﷺ : « إنه سيعود » . فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ . قال : دعني فإني محتاج وعلي عيال لا أعود ، فرحمته وخليت سبيله ، فأصبحت فقال رسول الله : « ما فعل أسيرك البارحة ؟ » . فقلت : يا رسول الله شكا عيالًا وحاجة فرحمته فخليت سبيله . قال : « أما إنه قد كذبك وسيعود » . فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ وهذه آخر ثلاث مرات تزعم فيها أنك لا تعود ثم تعود . فقال : دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها ، قلت : وما هي ؟ فقال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية « الكرسي » : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة : ٢٥٥] حتى تختم الآية ، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح . وكانوا أحرص شيء على الخير ، فقال النبي ﷺ : « أما أنه قد صدقك وهو كذوب ، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال ؟ » . قلت : لا . قال : « ذاك الشيطان » . كذا رواه البخاري معلقًا بصيغة الجزم ، وقد رواه النسائي في « اليوم ... » عن إبراه... ن يعقوب عن عثمان بن الهيثم فذكره ، وقد روي عن أبي

هريرة بسياق آخر قريب من هذا .

قوله : « لم يزل عليه من حافظ » ؛ أي : يحفظه من الشياطين وغيرهم ، وفي رواية : « إذا قلتهن لم يقربك ذكر ولا أنثى من الإنس ولا من الجن » ، وفي حديث علي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ : « من قرأها- يعني آية « الكرسي »- حين يأخذ مضجعه آمنه الله على داره ودار جاره وأهل دويرات حوله » . رواه البيهقي في « شعب الإيمان » .

قوله : « شيطان » : الشيطان يطلق على كل متمرد من الجن والإنس ، من شطن إذا بعد لبعده عن رحمة الله ، أو من شاط يشيط إذا هلك واحترق .

في هذا الحديث فضل آية « الكرسي » وعظم منفعتها وتأثيرها العظيم في التحرز من الشيطان ، وذلك لما اشتملت عليه من العلوم والمعارف ؛ ولذلك إذا قرأها الإنسان عند الأحوال الشيطانية بصدق أبطلتها ، مثل من يدخل النار بحال شيطاني ، أو يحضر المكاء والتصدية وتنزل عليه الشياطين ، وتتكلم على لسانه كلامًا لا يعلم ، وربما لا يفقه ، وربما كاشف بعض الحاضرين بما في قلبه إلى غير ذلك من الأحوال الشيطانية ، فأهل الأحوال الشيطانية تنصرف عنهم شياطينهم إذا ذكر عندهم ما يطردها مثل آية الكرسي ؛ أشار إلى ذلك الشيخ تقي الدين في كتابه « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » .

قوله : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد : ٣] : قوله : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ ؛ أي الذي ليس قبله شيء كما فسره بذلك رسول الله ﷺ فقال : « اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء »[1] رواه مسلم ، فهو - سبحانه- أول ليس له بداية ، وأما القديم فقد ذكره بعض المتكلمين في أسماء الله ، والصواب أنه ليس من أسمائه سبحانه بذلك ؛ ولأن القدم ينقسم إلى قسمين :

قدم حقيقي وقدم نسبي ، فالقدم الحقيقي : هو الذي لم يسبقه عدم ، والنسبي : هو قدم بعض المخلوقات على بعض ، كما قال سبحانه : ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس : ٣٩] ، وقد تقدم الأصل الذي ذكره ابن القيم : أن الصفة إذا كانت منقسمة إلى كمال ونقص لم تدخل بمطلقها في أسمائه الحسنى ، وذكر أن باب الإخبار عنه- سبحانه- أوسع من باب الأسماء والصفات ، وذكر أنه يخبر عنه- سبحانه- بالقديم ولا يسمى به وقال في « النونية » .

وهو القديم فلم يزل بصفاته ... سبحانه متفردًا بل دائم الإحسان

(١) مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

قوله : ﴿وَٱلْآخِرُ﴾ ؛أي : الذي ليس بعده شيء .

قوله : ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ ؛أي : العالي المرتفع الذي ليس فوقه شيء ، ولا ريب أنه ظاهر بذاته فوق كل شيء ، فالظهور هنا هو العلو ، كما قال تعالى : ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف : ٩٧] ، ولا يصح أن يحمل الظهور على الغلبة ؛ لأنه قابله بقوله وأنت الباطن .

قوله : ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ ؛أي : الذي ليس دونه شيء كما فسره الرسول : بطن سبحانه بعلمه فلا يحجبه شيء ، قال ابن القيم : فهذه الأسماء الأربعة متقابلة ؛ اسمان لأزليته وأبديته سبحانه ، واسمان لعلوه وقربه ، فأوليته سبحانه سابقة على أولية كل ما سواه ، وآخريته سبحانه ثابتة بعد آخرية كل ما سواه ، فأوليته سبقه لكل شيء ، وظاهريته : فوقيته وعلوه على كل شيء ، ومعنى الظهور يقتضي العلو ، وظاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه ، وبطونه- سبحانه- إحاطته بكل شيء بحيث يكون أقرب إليه من نفسه ، وهذا قرب الإحاطة العامة .

وأما القرب المذكور في الكتاب والسنة فقرب خاص من عابديه وسائليه ، وهو ثمرة التعبد باسمه الباطن .

ذكر البيهقي عن مقاتل قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد : ٣] هو الأول قبل كل شيء والآخر بعد كل شيء ، والظاهر فوق كل شيء ، والباطن أقرب من كل شيء ، وإنما القرب بعلمه وقدرته وهو فوق عرشه وهو بكل شيء عليم . اهـ .

قوله : ﴿عَلِيمٌ﴾ :جاء على بناء فعيل للمبالغة في وصفه بكمال العلم والإحاطة بكل شيء علمًا فهو من الصفات الذاتية ، فهذه الآية أفادت أولويته- سبحانه- وسبقه لكل مخلوق وأنه لا شيء قبله ، كما أفادت دوامه وبقاءه وآخريته ، وأنه لا شيء بعده ، وأفادت علوه وارتفاعه وفوقيته سبحانه ، وأفادت قربه ودنوه وإحاطته وسعة علمه ، وأنه لا يخفى عليه شيء ، وفيه الرد على المعتزلة والرافضة الذين يزعمون أن الله لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها ، والرد على من يزعم أنه يعلم الكليات دون الجزئيات .

قوله : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ :الآية ، أي : فوض أمورك إليه ، فمن توكل عليه كفاه وشفاه ويسر له كل شديد وقرب له كل بعيد ، قال تعالى : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق : ٣] ، والتوكل لغة : التفويض ، يقال : وكلت أمري إلى فلان أي : فوضته ، وحقيقته شرعًا : هو صدق اعتماد القلب على الله في جلب ما ينفع ودفع ما يضر ، ومن أسمائه- سبحانه- الوكيل ، ومعناه : الكافي لعبده والقائم بأموره ومصالحه ، وأما حكم التوكل ، فهو فرض لهذه الآية ولغيرها من الأدلة ، وهو لا ينافي الأخذ بالأسباب بل يجامعه ، كما في حديث عمر رضي الله عنه الذي رواه أحمد والترمذي والنسائي وا[بن ما]جه وابن حبا[ن وا]لحاكم أن النبي ﷺ قال : « لو أنكم توكلتم على الله حق

توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصًا وتروح بطانًا » [(١)] رواه الترمذي ، وقال : حسن صحيح ، وخرج الترمذي من حديث أنس قال : قال رجل : يا رسول اللَّه ، أعقلها وأتوكل ، أو أطلقها وأتوكل ، فقال : « اعقلها وتوكل » [(٢)].

وذكر عن يحيى القطان أنه قال : هو عندي حديث منكر ، ففيه إشارة إلى أن التوكل لا ينافي الإتيان بالأسباب بل يكون جمعهما أفضل ، كما روي أن عمر لقي أناسًا من أهل اليمن فقال : من أنتم ؟ فقالوا : نحن المتوكلون ، قال : بل أنتم المتأكلون ، إنما المتوكل الذي يلقي حبه في الأرض ويتوكل على اللَّه . ذكره ابن رجب .

قال ابن القيم في « المدارج » : أجمع القوم على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب ، فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها ، وإلا فهو بطالة ، وتوكل فاسد ، وقال سهل بن عبد اللَّه : من طعن في الحركة فقد طعن في السنة ، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان ، فالتوكل حال النبي ﷺ والكسب سنته ، فمن عمل على حاله ، فلا يتركن سنته .

والتوكل ينقسم إلى قسمين :

الأول :توكل على اللَّه فهو من أشرف أعمال القلوب وأجلها .

والثاني :التوكل على غيره سبحانه ، وينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : التوكل على غير اللَّه في الأمور التي لا يقدر عليها إلا اللَّه ، كالتوكل على الأموات والطواغيت في رزق أو نصر أو نفع أو ضر ونحو ذلك ؛ فهذا شرك أكبر .

الثاني :التوكل في الأسباب الظاهرة ، كمن توكل على أمير أو سلطان فيما أقدره اللَّه عليه من رزق أو دفع أذى ونحو ذلك ، فهذا النوع شرك أصغر .

الثالث :توكيل الإنسان غيره في فعل ما يقدر عليه نيابة عنه ، فهذه الوكالة الجائزة ، لكن ليس له أن يعتمد عليه ، بل يتوكل على اللَّه في تيسير أمره ، وذلك من جملة الأسباب الجائزة ، فهذه الآية أفادت الحث على التوكل على اللَّه ، وتعليق الأمل به- سبحانه- دون غيره ، كما أفادت وجوب التوكل على اللَّه ؛ إذ مطلق الأمر يقتضي الوجوب ، وأفادت إثبات صفة الحياة الكاملة للَّه سبحانه وتعالى .

---

(١) الترمذي (٢٣٤٤) ، وأحمد (١/ ٣٠) ، والطيالسي (٥١) ، من حديث عمر رضي الله عنه . وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (٣١٠) .

(٢) الترمذي (٢٥١٧) ، وأبو نعليم في الحلية (٨/ ٣٩٠) من حديث أنس رضي الله عنه . وحسنه الألباني في « جامع الترمذي » (٢٥١٧) .

قوله : ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ :

« الحكيم » ؛ أي : الحاكم بين خلقه بأمره الديني الشرعي وأمره الكوني القدري الذي له الحكم في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى : ١٠] ، وقال تعالى : ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء : ٥٩] ، فهو- سبحانه- الحكم والحاكم بين خلقه في الدنيا والآخرة ، يحكم سبحانه وتعالى في الدنيا بوحيه الذي أنزله على الأنبياء والرسل ، ويحكم يوم القيامة إذا نزل لفصل القضاء بين العباد ، والحكيم : المحكم المتقن للأشياء ، الذي يضع الأشياء ، مواضعها والذي له الحكمة التامة في خلقه وأمره فعليه يكون للحكيم معنيان :

الأول : بمعنى المحكم المتقن للأشياء ، والإحكام يكون في شرعه وأمره ، وفي خلقه وقدره ، وكل منهما محكم من وجهين :

الأول : وجوده على صورته المعينة .

الثاني : في غايته المحمودة التي يترتب عليها .

وأما حكمه سبحانه وتعالى فينقسم إلى قسمين :

الأول : حكم كوني قدري ، كقوله : ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ [يوسف : ٨٠] .

الثاني : حكم ديني شرعي ، كقوله : ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [المائدة : ١] إلى قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة : ١] .

والحكمة : وضع الأشياء مواضعها .

قال ابن القيم في « المدارج » : الحكمة حكمتان علمية ، وعملية ، فالعلمية : الاطلاع على بواطن الأشياء ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها خلقًا وأمرًا ، قدرًا وشرعًا ، والعملية : وضع الشيء في موضعه . انتهى .

وحكمته- سبحانه- صفة قائمة به كسائر صفاته من سمعه وبصره وعلمه وقدرته ونحو ذلك ، وهي تنقسم إلى قسمين :

إحداهما : حكمة في خلقه وهي نوعان :

الأول : إحكام هذا الخلق وإيجاده في غاية الإحكام والإتقان .

والثاني : صدوره لأجل غاية محمودة مطلوبة له سبحانه التي أمر لأجلها وخلق لأجلها .

الثانية : الحكمة في شرعه ، وتنقسم- أيضًا - إلى قسمين :

الأول : كونها في غاية الإحسان والإتقان .

والثاني : كونها صدرت لغاية محمودة وحكمة عظيمة يستحق عليها الحمد .

قال في « المنهاج » : أجمع المسلمون على وصفه- سبحانه- بالحكمة وتنازعوا في تفسير ذلك فقال : الجمهور من أهل السنة وغيرهم : هو حكيم في خلقه وأمره ، والحكمة تتضمن ما في خلقه وأمره من العواقب المحمودة والغايات المحبوبة ، والجمهور يقولون : لام التعليل داخلة في أفعال اللّه وأحكامه . انتهى .

فاسمه الحكيم فيه إثبات الحكمة ، والحكمة تتضمن كمال علمه وخبرته ، وأنه أمر ونهي وخلق وقدر لما له في ذلك من الحكم والغايات الحميدة التي يستحق عليها كمال الحمد ، والإحكام الذي في مخلوقاته دليل على علمه ، وإنما يدل إذا كان الفاعل حكيمًا يفعل الحكمة . انتهى من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية .

والحكم معناه لغة : المنع ، وشرعًا : هو خطاب اللّه المتعلق بأفعال المكلفين اقتضاء أو تخييرًا ، وينقسم الحكم بالنسبة إلى الرضا به وعدمه إلى أقسام : قسم يجب الرضا به والانقياد والاستسلام له ، وهو الحكم الديني الشرعي ، قال تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] الآية .

وأما الحكم الكوني القدري فمنه ما يستحب الرضا به ، كالرضا بالكفر والمعصية ونحو ذلك .

وأما اسمه – سبحانه – الخبير ، فمعناه الذي انتهى علمه إلى الإحاطة ببواطن الأشياء وخفاياها كما أحاط بظواهرها . انتهى من « الصواعق » .

يقال : خبرت الأمر أخبره : إذا عرفته على حقيقته .

قوله : ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ: ٢] :

قوله : ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ﴾ ؛ أي : يدخل ، قال : ولج يلج ، أي : دخل يدخل ، أي : يعلم ما يدخل فيها ، أي : في الأرض من القطر والبذور والكنوز والموتى وغير ذلك .

قوله : ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ : أي : من الأرض من النبات والمعادن .

قوله : ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ : من المطر والملائكة .

قوله : ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ : أي : ما يصعد في السماء .

قوله : « ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ » : سيأتي الكلام على المعية .

قوله : ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] :

قوله : ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ : أي : خزائنه أو الطرق الموصلة إلى علمه .

قوله : ﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ : قال المناوي رحمه الله : فمن ادعى علم شيء منها كفر ، ومفتاح الغيب هي الخمسة المذكورة في قوله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان : ٣٤] ، كما رواه البخاري في « صحيحه » .

قوله : ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ﴾ : أي : القفار من النبات والدواب وغير ذلك .

قوله : ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ ؛ أي : يعلم ما فيه من الحيوانات والجواهر ونحو ذلك .

قوله : ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾ ؛ أي : من أشجار البر والبحر وغير ذلك .

قوله : ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ : سبحانه .

قوله : ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ : من حبوب الثمار والزروع وغير ذلك .

قوله : ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ : هذا عموم بعد خصوص .

قوله : ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ : أي : مكتوب في اللوح المحفوظ ؛ لأن الله كتب علم ما يكون وما قد كان قبل أن يخلق السماوات والأرض ، فجميع الأشياء صغيرها وكبيرها مثبتة في اللوح المحفوظ على ما هي عليه ، فتقع جميع الحوادث طبق ما جرى به القلم ، وهذا أحد مراتب القضاء والقدر ، فإنها أربع مراتب : علمه- سبحانه- الشامل لجميع الأشياء ، وكتابه المحيط بجميع الموجودات ، ومشيئته العامة الشاملة لكل شيء ، وخلقه لجميع المخلوقات ، وسيأتي الكلام على هذا إن شاء الله في الكلام على القدر .

ففي هذه الآية إثبات صفة العلم لله سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته وهي من الصفات الذاتية ، وفيها الرد على المعتزلة حيث قالوا : إنه عالم بلا علم ، وفيها إثبات إحاطة علمه بكل شيء فلا يخفى عليه خافية ، وأنه يعلم الكليات والجزئيات ، ويعلم كل شيء ، ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، كما قال سبحانه : ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال : ٢٣] ، وقال تعالى : ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام : ٢٨] ، وفي هذه الآية الرد على من زعم أن رسول الله ﷺ يعلم الغيب فهي صريحة في أن هذه الأسماء الخمسة لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى كما تقدم الحديث الذي في « الصحيحين » أنه ﷺ قال : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ...: لا يعلم ما في الأرحام إلا الله »[1] الحديث .

---

(١) البخاري (٤٤٢٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

وقال القرطبي رحمه الله : لا مطمع لأحد في علم شيء من هذه الأمور الخمسة . اهـ ، والمراد بالغيب المشار إليه هو : الغيب المطلق وهو ما لا يعلمه إلا الله ، لا الغيب المقيد : وهو ما علمه بعض المخلوقات دون بعض فهو غيب بالنسبة لمن لم يعلمه دون من علمه فيكون غيبًا عمن غاب عنه من المخلوقين لا عمن شهده ، فتلخص أن الغيب ينقسم إلى قسمين : مطلق ، ومقيد .

قوله : ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ : ﴿وَمَآ﴾ مصدرية ، أي : أنه- سبحانه - يعلم في أي يوم تحمل وفي أي يوم تضع ، وهل هو ذكر أو أنثى ، ففي هذه الآية إثبات صفة العلم كما تقدم ، وقد تواطأت الأدلة على إثبات هذه الصفة عقلًا ونقلًا ، وفيها سعة علمه سبحانه ، وأنه منفرد بعلم ما في الأرحام وعلم مدة إقامته فيه ، وهذا أحد أنواع الغيب الذي يعلمها إلا الله .

قوله : ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ :

* هذه الآية فيها إثبات صفة القدرة للّه سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله ، فجميع الأشياء منقادة لقدرته تابعة لمشيئته سبحانه ، و﴿قَدِيرٌ﴾ فعيل ، بمعنى : فاعل ، بمعنى : القادر ، وهي من الصفات الذاتية ، كما ذكره في « الفتح » قال ابن بطال : القدرة من صفات الذات ، والقوة والقدرة بمعنى واحد . انتهى .

وأما المقتدر فمعناه التام القدرة الذي لا يمتنع عليه شيء ، قال أحمد رحمه الله : « القدرة قدرة اللّه » ، واستحسن ابن عقيل هذا من أحمد ، والمعنى : أنه لا يمنع من قدرة اللّه شيء ، ونفاة القدر قد جحدوا كمال قدرة اللّه سبحانه ، وقد قال بعض السلف : ناظروهم بالعلم ، فإن أقروا به خصموا وإن جحدوه كفروا ، وقد استدل العلماء على إثبات القدرة بشمول القدرة والعلم ، فقوله سبحانه : ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك : ١] عام يتناول كل شيء ، فيدخل فيه أفعال العباد من الطاعات والمعاصي ، فإنها داخلة تحت قدرة اللّه ومشيئته ، وكما أنه المريد لها القادر عليها هم الفاعلون لها الواقعة بقدرتهم ومشيئتهم ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير : ٢٨، ٢٩] .

والقدرية تنكر دخول أفعال خلقه تحت قدرته ومشيئته وخَلقه ، فهم في الحقيقة منكرون لكمال عزته وملكه ، قال ابن القيم رحمه الله في « الكافية الشافية » :

وهو القدير لكل شيء فهو مقـ	ـدور له طوعًا بلا عصيان
وعموم قدرته تدل بأنه	هو خالق الأفعال للحيوان
هي خلقه حقًا وأفعال لهم	حقًا ولا يناقض الأمران
فحقيقة القدر الذي حار الورى	في شأنه هو قدرة الرحمن

واستحسن ابن عقيل ذا من أحمد لما حكاه عن الرضا الرباني
قال الإمام شفى القلوب بلفظة ذات اختصار وهي ذات معان

فهو- سبحانه- خالق كل شيء وربه ومليكه لا خالق غيره ولا رب سواه ، ما شاء اللّٰه كان وما لم يشأ لم يكن ، فكل ما في الوجود من حركة أو سكون فبقضائه وقدره ومشيئته وخلقه ، وهو- سبحانه- أمر بطاعته وطاعة رسوله ، ونهى عن معصيته ومعصية رسوله ، ولا يتناقض الأمران خلافًا لأهل البدع .

قوله : قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ :

* فلا يخرج حادث من الأعيان والأفعال عن قدرته وخلقه كما لا يخرج عن علمه ومشيئته .

تنبيه : يجيء في كلام بعض الناس « وهو على ما يشاء قدير ، وليس ذلك بصواب ، بل الصواب ما جاء في الكتاب والسنة ، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [الملك : ١] ، لعموم قدرته ومشيئته خلافًا لأهل البدع من المعتزلة وغيرهم .

قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات : ٥٨] :

قوله : « الرزاق » : فعال من أبنية المبالغة ، ومعناه : الذي أعطى الخلائق أرزاقها وساقها إليهم ، والرزق بالفتح : العطاء ، وبالكسر لغة : الحظ والنصيب ، وشرعًا : هو ما ينفع من حلال أو حرام .

وينقسم الرزق إلى قسمين :

الأول : الرزق المطلق : وهو المستمر نفعه في الدنيا والآخرة ، وهو رزق القلوب العلم والإيمان والرزق الحلال .

الثاني : مطلق الرزق : وهو الرزق العام لسائر الخليقة برها وفاجرها وبهائمها وغيرها وهو سوق القوت لكل مخلوق ، وهذا يكون من الحلال والحرام ، واللّٰه رازقه ، قال تعالى : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ الآية [هود : ٦] .

قوله : ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ ؛ أي : صاحب القوة التامة الذي لا يعتريه ضعف وهو بمعنى العزيز ، انتهى . والقوة من صفات الذات ، وهو بمعنى القدرة ، لم يزل- سبحانه- ذا قوة وقدرة ، والمعنى في وصفه بالقوة : أنه القادر البليغ الاقتدار على كل شيء . انتهى من « الفتح » .

قوله : ﴿ٱلۡمَتِينُ﴾ ؛ أي : الذي له كمال القوة ، قال البيهقي : القوي التام القدرة لا ينسب إليه عجز في حال من الأحوال . انتهى . فهذه الآية فيها إثبات صفة الرزاق ، وهي من الصفات الفعلية ، وفيها إثبات صفة القوة ، وهي من الصفات الذاتية .

قوله : ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ :

* هذه الآية قد تقدم الكلام عليها .

قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء : ٥٨] :

* « نعم » من ألفاظ المدح و« ما » قيل : نكرة موصوفة ، كأنه قيل : نعم شيئًا يعظكم به ، أو موصولة ، أي : نعم الشيء الذي يعظكم به .

قوله : ﴿يَعِظُكُم﴾ : أي : يأمركم به من أداء الأمانات والحكم بين الناس بالعدل .

قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ : أي : أنه سبحانه سميع لما تقولون ، وبصير بما تفعلون ، فهذه الآية ، وما قبلها من الآيات تدل على إثبات السمع والبصر للَّه حقيقة كما يليق بجلال اللَّه وعظمته ، وفيه دليل على أن صفة السمع غير صفة البصر ؛ إذ العطف يقضي المغايرة ، فالصفات بالنظر ، إلى الذات مترادفة ؛ لأنها كلها صفة لذات واحدة ، وبالنظر إلى الصفات متباينة ؛ لأن كل صفة غير الصفة الأخرى ، فالسمع غير البصر وكذلك العلم وهلم جرا .

عن أبي هريرة رضي الله عنه : « أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية ويضع إبهامه على أذنه ، والتي تليها على عينيه ، ويقول : هكذا سمعت رسول اللَّه ﷺ يقرأها ويضع إصبعيه »[1] ، رواه أبو داود ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في مستدركه .

وعمل النبي ﷺ هذا دليل على إثبات هاتين الصفتين ، وأنهما غير صفة العلم وإلا لأشار إلى صدره ، ووضعه إبهاميه تحقيقًا لصفة السمع والبصر ، وأنهما حقيقة لا مجاز خلافًا لأهل البدع .

قوله : ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف : ٣٩] :

قوله : ﴿وَلَوْلَآ﴾ ؛ أي : وهلا .

قوله : ﴿إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ ؛ أي : هلا قلت حين دخلت بستانك .

قوله : ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ : « ما » موصولة ، أي : الأمر ما شاء اللَّه إقرارًا بمشيئته ، أي : أنه إن شاء أبقاها ، وإن شاء أفناها ، واعترافًا بالعجز ، وأن القدرة للَّه سبحانه .

قال بعض السلف : من أعجبه شيء فليقل : ما شاء اللَّه لا قوة إلا باللَّه ، وفي هذه الآية وصفه سبحانه بالقوة وإثبات المشيئة له الشاملة العامة ، فما وقع من شيء فقد شاءه وأراده ، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه .

قوله : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ :

أي : لو شاء سبحانه عدم اقتتالهم لم يقتتلوا ؛ إذ لا يجري في ملكه إلا ما شاء سبحانه ، فهذه الآية فيها إثبات المشيئة للَّه سبحانه وتعالى ، وأن ما شاءه لا بد من وقوعه ، فكل ما وجد فهو بمشيئته

---

(١) أبو داود (٤٧٢٨) ، وابن حبان (٢٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « سنن أبي داود » (٤٧٢٨) .

سبحانه لا راد لأمره ولا معقب لحكمه ، وهذا يبطل قول المعتزلة ؛ لأنه أخبر أنه لو شاء أن يقتتلوا لم يقتتلوا ، وهم يقولون : شاء أن لا يقتتلوا فاقتتلوا ، والأدلة على بطلان قول المعتزلة كثيرة جدًا ، ومن أضل سبيلًا وأكفر ممن يزعم أن اللّٰه شاء الإيمان من الكافر ، والكافر شاء الكفر ، فغلبت مشيئة الكافر مشيئة الله- تعالى اللّٰه عن قولهم- وفيها إثبات الفعل حقيقة للّٰه كما يليق بجلاله ، وأن القدرة عليه صفة كمال وأنه- سبحانه- لم يزل فعالًا لما يريد ولم يزل ولا يزل موصوفًا بصفات الكمال ، والفعل من لوازم الحياة ، والرب لم يزل حيًا فلم يزل فعالًا ، وأفعاله سبحانه كصفاته قائمة به ، ولولا ذلك لم يكن فعالًا ولا موصوفًا بصفات الكمال ، فأفعاله سبحانه نوعان : لازمة ، ومتعدية كما دلت على ذلك النصوص التي لا تحصى وهي أفعال حقيقية وليس مجازًا ، وليست كأفعال خلقه ، فصفاته تليق به سبحانه . انتهى من كلام شيخ الإسلام باختصار .

قال ابن القيم رحمه الله : قوله : ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود : ١٠٧] دليل على أمور :

أحدها : أنه سبحانه يفعل بإرادته ومشيئته .

الثاني : أنه لم يزل كذلك ؛ لأنه ساق ذلك في معرض المدح والثناء على نفسه وأن ذلك من كماله فلا يجوز في وقت من الأوقات أن يكون عادمًا لهذا الكمال ، وما كان من أوصاف كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثة بعد أن لم يكن .

الثالث : أنه إذا أراد شيئًا فعله ، فإن « ما » موصولة عامة ، أي : يفعل كل ما يريد أن يفعله ، وهذا في إرادته المتعلقة بفعله ، وأما إرادته المتعلقة بفعل العبد فلها شأن آخر ، فإن هنا إرادتين : إرادة أن يفعل العبد ، وإرادة أن يجعله الرب فاعلًا ، وليستا متلازمتين وإن لزم من الثانية الأولى من غير عكس .

الرابع : إن إرادته وفعله متلازمتان ، فما أراد أن يفعله فعله وما فعله فقد أراده ، بخلاف المخلوق ، فما ثم فعال لما يريد إلا اللّٰه .

الخامس : إثبات إرادات متعددة بحسب الأفعال وأن كل فعل له إرادة تخصه ، هذا هو المعقول في الفطر .

السادس : إن كل ما صلح أن تتعلق به إرادته جاز فعله .

قوله : ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة : ١] :

قوله : ﴿وَأُحِلَّتْ﴾ ؛ أي : أبيحت .

قوله : ﴿بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ ؛ أي : الإبل والبقر والغنم سميت بهيمة ؛ لأنها لا تتكلم ، وأما النعم فهي الإبل خاصة .

قوله : ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ :أي إلا ما يتلى عليكم تحريمه في قوله سبحانه : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ [المائدة : ٣] الآية .

قوله : ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ : «غير» نصب على الحال ، ومعنى الآية : أحلت لكم بهيمة الأنعام كلها إلا ما كان منها وحشيًا فإنه صيد لا يحل لكم في حال الإحرام .

قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ :أي : يحكم ما يريد من التحليل والتحريم لا اعتراض عليه ، فهو الحكم - سبحانه- الحكيم لا حاكم غيره ، فكل حكم سوى حكمه فهو باطل ومردود ، وكل حاكم بغير حكمه وحكم رسوله فهو طاغوت كافر بالله ، قال تعالى : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة : ٤٤] ، وهذا عام شامل فما من قضية إلا ولله فيها حكم : ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام : ٣٨] ، ولا شك أن من أعرض عن كتاب الله وسنة رسوله واعتاض عنها بالقوانين الوضعية أنه كافر بالله .

وكذلك من زعم أنه يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى ، أو زعم أن هدي غير محمد أفضل من هديه ﷺ أو أحسن ، أو زعم أنه لا يسع الناس في مثل هذه العصور إلا الخروج عن الشريعة ، وأنها كانت كافية في الزمان الأول فقط ، وأما في هذه الأزمنة فالشريعة لا تساير الزمن ، ولا بد من تنظيم قوانين بما يناسب الزمن ، لا شك إن اعتقد هذا الاعتقاد أنه قد استهان بكتاب الله وسنة رسوله وتنقصهما فلا شك في كفره وخروجه عن الدين ، وكذلك من زعم أنه محتاج للشريعة في علم الظاهر دون علم الباطن ، أو في علم الشريعة دون علم الحقيقة ، أو أن الإنسان حر في التدين في أي دين شاء من يهودية أو نصرانية أو غير ذلك أو أن هذه الشرائع غير منسوخة بدين محمد ، أو استهان بدين الإسلام أو تنقصه أو هزل به أو بشيء من شرائعه ، أو بمن جاء به ، وكذلك ألحق بعض العلماء الاستهانة بحملته لأجل حمله ، فهذه الأمور كلها كفر ، قال تعالى : ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة : ٦٦] الآية .

قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ﴾ :فيها إثبات صفة الحكم لله سبحانه وتعالى ، وقد تقدم أن حكمه ينقسم إلى قسمين : كوني ، كما في قوله : ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ [يوسف : ٨٠] ، وشرعي : كما في هذه الآية .

قوله : ﴿مَا يُرِيدُ﴾ :فيه إثبات الإرادة لله سبحان تعالى كما يليق بجلاله ، وكما يليق بجلاله ، وأنه لا يزل مريدًا بإرادات متعاقبة ، فنوع الإرادة قديم ، وأما إرادة الشيء المعين إنما يريده في وقته ، فالإرادة من صفات الفاعل ، وهي تنقسم إلى قسمين : إرادة كونية قدرية ، وهذه مرادفة للمشيئة ، وما

أراده سبحانه كونًا وقدرًا فلا بد من وقوعه ، فهذه الإرادة هي المتعلقة بالخلق وهو أنه يريد سبحانه أن يفعل هو .

الثاني : إرادة شرعية دينية ، وهذه الإرادة المتعلقة بالأمر ، وهي أن يريد من عبده أن يفعل ، وهذه مرادفة للمحبة والرضا ، فتجمع الإرادتان في حق المخلص المطيع ، وتنفرد الإرادة الكونية في حق العاصي ، ومن لم يفرق بين النوعين فقد ضل كالجهمية والقدرية ، فالإرادة الكونية كقوله : ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام : ١٢٥] ، والدينية كقوله : ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة : ٦] الآية ، فالمحبة والرضا أخص من الإرادة خلافًا للمعتزلة وأكثر الأشاعرة القائلين إن المحبة والرضا والإرادة سواء ، فأهل السنة يقولون : إن الله لا يحب الكفر والفسوق ولا يرضاه وإن كان قد أراده كونًا وقدرًا ، كما دخلت سائر المخلوقات لما في ذلك من الحكمة وهو وإن كان شرًا بالنسبة إلى الفاعل فليس كل ما كان شرًا بالنسبة إلى شخص يكون عديم الحكمة ، بل لله في بعض المخلوقات حكم قد يعلمها بعض الناس وقد لا يعلمها . انتهى من كلام الشيخ تقي الدين ابن تيمية ، بتصرف .

قوله : ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام : ١٢٥] :

قوله : ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ﴾ ؛ أي : من شاء سبحانه أن يدله ويرشده ويوفقه ويجعل قبله قابلًا للخير هداه سبحانه وتعالى ووفقه ، فهداية القلوب إليه سبحانه يهدي من يشاء بفضله ، ويضل من يشاء بعدله ، فلا تطلب الهداية إلا منه سبحانه فهو الهادي كما قال سبحانه : ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف : ١٧٨] .

وفي الحديث : « كلكم ضالٌ إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم »[1] . وليست هذه الآية معارضة لحديث عياض بن حمار عن النبي ﷺ يقول الله : « خلقت عبادي حنفاء- وفي رواية مسلمين- فاجتالهم الشياطين »[2] .

فإن الله خلق بني آدم وفطرهم على قبول الإسلام والميل إليه دون غيره والتهيؤ لذلك والاستعداد له بالقوة ، لكن لا بد للعبد من تعليم الإسلام بالفعل ، فإنه قبل التعليم جاهلًا لا يعرف شيئًا ، كما قال سبحانه : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل : ٧٨] الآية ، فإن هداه الله سبب له من يعلمه الإسلام فصار مهديًا بالفعل بعد أن كان مهديًا بالقوة ، وإن خذله قيض له ما يغير له

(١) مسلم (٢٥٧٧) ، والترمذي (٢٤٩٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

(٢) مسلم (٢٨٦٥) ، وأحمد (١٦٢/٤) من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه .

فطرته ، كما قال ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »[(١)] الحديث .

قوله : ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ ؛ أي : يوسع قلبه للإيمان بأن يقذف في قلبه نورًا فينفسح له ويقبله .

قوله : ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ ؛ أي : ومن شاء سبحانه أن يضله عن الهدى يجعل صدره ضيقًا ، أي : عن قبول الإيمان ، وحرجًا ، أي : شديد الضيق فلا يبقى فيه منفذ للخير ، ومكان حرج ، أي : ضيق كثير الشجر لا تصل إليه الراعية ، والحرج - أيضًا - الإثم .

قوله : ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَآءِ﴾ ؛ أي : إذا كلف الإيمان كأنما يصعد في السماء لشدته عليه .

قوله : ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ : يقول اللَّه سبحانه : كما يجعل صدر من أراد إضلاله ضيقًا كذلك يسلط عليه الشيطان وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان باللَّه ورسوله فيغويه ويصده عن سبيل اللَّه ، قال ابن عباس : الرجس : الشيطان ، وقال مجاهد : الرجس كل ما لا خير فيه ، وقيل : العذاب ، ففي هذه الآية : إن الهداية والإضلال بيد اللَّه ، وفيها : أن العبد مفتقر إلى ربه في كل شيء ، وأن العباد لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ، وأن من تفرد بخلق العبد ورزقه هو المستحق أن يفرد بالألوهية والعبادة والسؤال ، وأنه ليس عند أحد من هداية القلوب وتفريج الكروب شيء من ذلك لا الأنبياء ولا الملائكة ولا غيرهم ، ففيه الرد على من زعم ذلك للنبي ﷺ فضلًا عن غيره . اهـ .

وفي هذه الآية كغيرها دليل على إثبات العلة والحكمة في أفعال اللَّه ؛ إذ لا يعقل مريد إلا إذا كان المريد قد فعل لحكمة يقصدها بالفعل ، وإثبات الحكمة في أفعاله- سبحانه- هو قول السلف وجمهور المسلمين وجمهور العقلاء ، وقالت طائفة كجهم وأتباعه : أنه لم يخلق شيئًا لشيء ، ووافقه أبو الحسن الأشعري ومن اتبعه وهم يثبتون أنه مريد وينكرون أن له حكمة يريدها وهذا تناقض . انتهى من كلام الشيخ تقي الدين ابن تيمية بتصرف .

وفي هذه الآية كسوابقها إثبات الإرادة للَّه كما يليق بجلاله ، وعلم مما تقدم أن الإرادة تنقسم إلى قسمين ، وأن المشيئة لا تنقسم وأنها مرادفة للإرادة الكونية ، كما علم أن المحبة والرضا أخص من مطلق الإرادة ، وأن الأدلة دلت على الفرق بين المشيئة والمحبة والرضا ، وأن من جمع بينهما فقد ضل

(١) البخاري (١٣١٩) ، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ضلالًا مبينًا ، وصادم أدلة الكتاب والسنة ، وجمع بين ما فرق الله .

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله : فالإرادة الكونية : هي المشيئة لما خلقه وجميع المخلوقات داخلة في مشيئته وإرادته الكونية ، والإرادة الدينية الشرعية : هي المتضمنة للمحبة والرضا المتناولة لجميع ما أمر به وجعله شرعًا ودينًا ، وهذه مختصة بالإيمان والعمل الصالح ، قال : ومنشأ ضلال من ضل هو من التسوية بين المشيئة والإرادة والمحبة والرضا ، فسوى بينهما الجبرية والقدرية ، فقالت الجبرية : الكون كله بقضائه وقدره ، فيكون محبوبًا مرضيًا ، وقالت القدرية النفاة : ليست المعاصي محبوبة له ولا مرضية ، فليست مقدرة ولا مقتضية ، فهي خارجة عن مشيئته وخلقه .

وقد دل على الفرق بين المشيئة والمحبة الكتاب والسنة والفطرة الصحيحة ، أما نصوص المشيئة والإرادة فكقوله سبحانه : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة : ١٣] ، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس : ٩٩] ، أما نصوص المحبة والرضا فكقوله : ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة : ٢٠٥] ، وقوله : ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر : ٧] الآية . انتهى .

قال ابن القيم رحمه الله في «المدارج» : ومراده سبحانه نوعان : مراد يحبه ويرضاه ويمدح فاعله ويواليه ، فموافقته في هذا المراد هي عين محبته ، وإرادة خلافه رعونة ومعارضة واعتراض ، ومراد يبغضه ويكرهه ويمقت فاعله ، فموافقته في هذا المراد عين مشاقته ومعاداته ، فهذا الموضع موضع فرقان ، فالموافقة كل الموافقة في معارضة هذا المراد واعتراضه بالدفع والرد . انتهى .

وفي الآية إثبات الهداية لله سبحانه وتعالى وأنه الهادي لا سواه ، ومن أسمائه سبحانه الهادي ، وهو الذي بصر عباده وعرفهم طريق معرفته ، وهدى كل مخلوق إلى ما لا بد له منه ، وتنقسم الهداية إلى قسمين :

الأول : هداية خاصة بالله سبحانه وتعالى لا هادي غيره ولا تطلب إلا منه ، وهي هداية التوفيق والقبول والإلهام وهي المستلزمة للاهتداء ، وهي المذكورة في قوله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص : ٥٦] .

الثاني : الهداية العامة ، وهي هداية الدلالة الإرشاد والبيان ، وهي المذكورة في قوله : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى : ٥٢] ، فالنبي ﷺ هو المبين عن الله والدال على دينه وشرعه ، وكذلك الأنبياء وأتباعهم ، وهذه الهداية لا تستلزم الاهتداء ؛ ولهذا ينتفي معها الهدى ، كما في قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ [فصلت : ١٧] ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت : ١٧] ، أي : بينا لثمود وأرشدناهم فلم يهتدوا .

فالهداية المنفية عن النبي ﷺ وغيره هي هداية التوفيق والقبول ، وأما المثبتة له كغيره من الأنبياء

والمرسلين وأتباعهم فهي هداية الدلالة والإرشاد .

وفي الآية المتقدمة إثبات الصفات الفعلية وأنها تنقسم إلى قسمين : متعدية ، ولازمة . فالمتعدية : ما تعدى إلى مفعول مثل خلق ورزق وهدى وأضل ، واللازمة كقوله : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة : ٢٩] ، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف : ٥٤] ، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] إلى غير ذلك مما لا يحصى من النوعين ، ذكر ذلك الشيخ تقي الدين وابن القيم رحمهما اللَّه .

ونذكر المصنف- رحمه اللَّه تعالى- الآيات في إثبات المشيئة والإرادة ، ثم ذكر الآيات في إثبات المحبة والرضا ، إشارة إلى الرد على من زعم التسوية بين ما ذكر ، وأن المحبة والرضا والمشيئة متلازمان ، ولا شك في بطلان هذا القول وفساده ، فالأدلة الكثيرة دلت على الفرق بين محبته ورضاه وإرادته .

قال الشيخ تقي الدين رحمه الله في « المنهاج » : فأهل السنة والجماعة يقولون : إن اللَّه يحب ويرضى ، كما دل على ذلك الكتاب السنة ، ويقولون : إن المحبة والرضا أخص من الإرادة فيقولون : إن اللَّه لا يحب الكفر والفسوق والعصيان ولا يرضاه ، وإن كان داخلًا في مراده ، كما دخلت سائر المخلوقات لما في ذلك من الحكمة . انتهى .

قوله : ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ :

* لما حث على الصدقة والإنفاق في وجوه الخير أمر بالإحسان وهو أعلى مقامات الطاعة وهو الإتيان بالعمل على أحسن أحواله وأكملها ، وهذا أمر عام بالإحسان في معاملة اللَّه وفي معاملة خلقه ؛ إذ حذف عن شداد بن أوس أن رسول اللَّه ﷺ قال : « إن اللَّه كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته »[1] رواه مسلم ، فهذا الحديث كالآية فيهما دليل على وجوب الإحسان في كل شيء من الأعمال ، لكن إحسان كل شيء بحسبه ، وفي هذه الآية وأمثالها دليل على أن اللَّه موصوف بالمحبة ، وأنه يحب حقيقة ومحبته سبحانه كما يليق بجلاله ، وفيها دليل على أنه يحب مقتضى أسمائه وصفاته وما يوافقها ، فهو محسن يحب المحسنين ، ومؤمن يحب المؤمنين ، وفي هذه الآية وأمثالها جليل على أن محبته سبحانه وتعالى تتفاضل فيحب بعض المؤمنين أكثر من بعض ، وفيها إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل ، وأن الإحسان أعظم سبب لمحبة اللَّه سبحانه وتعالى للعبد ، وفيها أدلة واضحة على إثبات فعل العبد وكسبه ، وأنه يثاب على حسنه ويعاقب على سيئة ، فتضمنت هذه الآية الرد على القدرية والجبرية ، وفيها إثبات العلة والحكمة .

---

(١) مسلم (١٩٥٥) ، وأبو داود (٢٨١٥) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه .

قوله: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ :

* أي: اعدلوا في معاملاتكم وأحكامكم مع القريب والبعيد، يقال: أقسط بمعنى: عدل، وقسط بمعنى: جار، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥]، ومن أسمائه سبحانه: المقسط؛ أي: العادل، ففي هذه الآية الحث على العدل وفضله، وأنه سبب لمحبة الله، وأن العدل في الرعية من أفضل القرب سواء كانت رعية عامة كالحاكم أو خاصة كعدل آحاد الناس في بيته وولده، كما في الحديث: «كلكم راع ومسئول عن رعيته»[1]. وفي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «إن المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»[2]. وفي الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن أحب العباد إلى الله يوم القيامة وأدناهم إليه مجلسًا إمام عادل»[3].

قوله: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧]:

قوله: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ﴾: «ما» شرطية، أي: ما استقام لكم المشركون على العهد ولم ينقضوه فاستقيموا لهم على الوفاء به.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: المتقين للذنوب والمعاصي، والتقوى: هي التحرز بطاعة الله عن معصيته، فهي كلمة جامعة لفعل المأمورات وترك المنهيات، قال طلق بن حبيب: التقوى: أن تعبد الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله. في هذه الآية الحث على الوفاء بالعهد وتحريم الغدر، وفيها فضل التقوى والحث عليها، وفيها إثبات محبة الله.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾: أي: من الذنوب والمعاصي، والتواب: هو الذي كلما أذنب تاب، يقال: تاب يتوب؛ أي: رجع، وتواب كثير التوبة، وتواب من أسماء الله سبحانه وتعالى، أي: كثير التوبة على عباده، وتاب على العبد ألهمه التوبة وقبل توبته.

قال ابن القيم رحمه الله: والعبد تواب والله تواب، فتوبة العبد رجوعه إلى سيده بعد إباق، وتوبة الله نوعان إذن وتوفيق، وقبول واعتداد. اهـ.

فالتوبة لغة: الرجوع، يقال: تاب وآب وأناب وثاب، كلها بمعنى: رجع.

---

(١) البخاري (٨٥٣)، ومسلم (١٨٢٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

(٢) مسلم (١٨٢٧)، والنسائي (٥٣٧٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) الترمذي (١٣٢٩)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٣٠٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١١٥٦).

وشرعًا: الرجوع عن الذنب وهي واجبة من جميع الذنوب على الفور، قال اللَّه تعالى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١] والآيات والأحاديث في الأمر بالتوبة والحث عليها كثيرًا جدًا، وتصح التوبة من بعض الذنوب دون بعض، وللتوبة ثلاثة شروط:

الأول: الندم على ما فات. والثاني: العزم على أن لا يعود. والثالث: الإقلاع عن الذنب، فإن كانت التوبة من حقوق الآدميين اشترط شرط رابع: وهو الخروج عن تلك المظلمة واستحلاله إن كانت غيبة، وللتوبة أيضًا شرط خامس: وهو أن يتوب قبل الغرغرة، كما في الحديث الصحيح: «إن اللَّه يقبل توبة العبد ما لم يُغرغر»[1]. وأما في حالة الغرغرة وهي حالة النزع فلا تقبل توبته، وأما التوبة النصوح فهي الخاصة التي لا يختص بها ذنب دون ذنب، وقيل: أن التوبة النصوح هي أن يترك الذنب ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع.

قوله: ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾:

* أي: عن الذنوب والمعاصي، وعن الأحداث والنجاسات.

فالطهارة لغة: النزاهة والنظافة عن الأقذار حسية كانت أو معنوية، فالحسية كالطهارة عن الأحداث والنجاسات، والمعنوية كالطهارة عن الذنوب والمعاصي، والآية شاملة عامة حاثة على الطهارتين، وفي حديث أبي مالك الأشعري الذي رواه مسلم: «الطهور شطر الإيمان»[2]. الحديث، وتقديم التوابين على المتطهرين من باب تقديم السبب على المسبب؛ لأن التوبة سبب الطهارة. أفاده ابن القيم في «بدائع الفوائد».

ففي هذه الآيات المتقدمة إثبات محبته سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته، خلافًا للمبتدعة من جهمية ومعتزلة الذين أنكروا محبته سبحانه، وهم في الحقيقة منكرون للإلهية، فإن الإله هو المألوه تألهه القلوب محبة وإجلالًا وخوفًا وتعظيمًا.

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية: في هذه الآيات إثبات محبة اللَّه وهي على حقيقتها عند سلف الأمة ومشائخها، وأول من أنكر حقيقتها شيخ الجهمية الجعد بن درهم، فهو أول من ابتدع هذا في الإسلام في أوائل المئة الثانية، فضحى به خالد بن عبد اللَّه القسري أمير العراق والمشرق بواسط. خطب الناس يوم الأضحى فقال: أيها الناس، ضحوا تقبل اللَّه ضحاياكم، فإني مضح بالجعد بن درهم؛ فإنه زعم أنه لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولا كلم موسى تكليمًا. ثم نزل وذبحه، وكان ذلك

---

(١) أحمد (٢/١٣٢)، وابن حبان (٦٢٨)، وأبو يعلى (٥٧١٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنه. وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٩٠٣).

(٢) مسلم (٢٢٣)، وأحمد (٥/٣٤٣) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

بفتوى أهل زمانه من علماء التابعين ﷺ ، وأخذ هذا المذهب عن الجعد بن درهم : الجهم بن صفوان فأظهره وناظر عليه ، وإليه أضيف قول الجهمية فقتله سلم بن أحوز أمير خراسان بها ، ثم انتقل ذلك إلى المعتزلة أتباع عمرو بن عبيد وظهر قولهم في أثناء خلافة المأمون حتى امتحن أئمة الإسلام ودعوهم إلى الموافقة على ذلك ، وأصل ذلك مأخوذ عن المشركين والصابئة وهم ينكرون أن يكون إبراهيم خليلًا ؛ لأن الخلة هي كمال المحبة المستغرَقة للمحب كما قيل :

قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سمي الخليل خليلًا

ولكنه محبته وخلته كما يليق به كسائر صفاته . اهـ .

والذي يوصف به سبحانه وتعالى من أنواع المحبة : الإرادة ، والود ، والمحبة ، والخلة ، كما ورد النص . من « شرح الطحاوية » .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران : ٣١] . قال الحسن : ادعى قوم أنهم يحبون الله ، فأنزل الله هذه الآية محنة لهم ، فهذه الآية فيها دليل على أن من ادعى ولاية الله ومحبته وهم لم يتبع ما جاء به رسوله ﷺ فليس من أولياء الله ، بل من أولياء الشيطان ، وفيها أن علامة ودليل محبة الله هو اتباع رسوله ، وأن من اتبع الرسول حصلت له محبة الله ، قال بعض السلف : ليس الشأن أن تحب إنما الشأن أن تحب ، وفيها إثبات المحبة من الجانبين ، فمحبة الله لأنبيائه ورسله وعباده الصالحين صفة زائدة على رحمته وإحسانه وإعطائه ، فإن ذلك أثر المحبة موجبها فإن الله لما أحبهم كان نصيبهم من رحمته وإحسانه أتم نصيب .

هذا قول أهل السنة والجماعة ، أما الجهمية والمعتزلة فعكس هؤلاء ، فإنه عندهم لا يحب ولا يحب ولم يمكنهم تكذيب النصوص المتكاثرة في إثبات المحبة من الجانبين ، فأولوا نصوص محبة العباد له على محبة طاعته وعبادته ، وأولوا نصوص محبته لهم بإحسانه إليهم وإعطائهم الثواب ، ونحو ذلك من التأويلات الفاسدة لأدلة الكتاب والسنة الكثيرة في إثبات المحبة من الجانبين .

قال ابن القيم رحمه الله : وجميع طرق الأدلة عقلًا ونقلًا وفطرة وقياسًا وذوقًا واعتبارًا ووجدانًا تدل على إثبات محبة العبد لربه والرب لعبده ، وقد ذكرنا لذلك قريبًا من مائة دليل في كتابنا الكبير في المحبة . اهـ .

قوله : ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾ : أي : يرجع ، والرد لغة : الرجوع . وشرعًا : هو الذي يكفر بعد إسلامه نطقًا أو اعتقادًا أو شكًا أو فعلًا .

قوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]:

قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾: أي: من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته فإن اللَّه يستبدل به من هو خيرًا منه وأقوم سبيلًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨] الآية، والقوم: الجماعة من الناس.

قوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: أهل رقة وتواضع للمؤمنين، قال عطاء: للمؤمنين كالولد لوالده، والعبد لسيده، وعلى الكافرين كالأسد على فريسته.

قوله: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: أهل غلظة وشدة على الكافرين، وهذه من صفات المؤمنين، كما قال سبحانه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [الفتح: ٢٩]، وفي صفة رسول اللَّه: أنه الضحوك القتال، فهو ضحوك لأوليائه قتال لأعدائه.

قوله: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بأموالهم وأنفسهم وألسنتهم وذلك تحقيق دعوى المحبة، والجهاد لغة: بذل الطاقة والوسع، وشرعًا: قتال الكفار، وقد تكاثرت الأدلة على فضل الجهاد والحث عليها.

قوله: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ﴾؛ أي: تأخذهم في اللَّه لومة لائم، وهذا علامة صحة المحبة، أي: لا يردهم عن ما هم فيه من طاعة اللَّه ورسوله راد، ولا يصدهم عنها صاد، ولا يخافون في ذلك لومة لائم، ولا عذل عاذل، كما روى الإمام أحمد من حديث أبي ذر قال: أمرني خليلي ﷺ بسبع: أمرني بحب المساكين والدنو منهم، وأمرني أن أصل الرحم وإن دبرت، وأمرني أن لا أسأل أحدًا شيئًا، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرًا، وأمرني أن لا أخاف في اللَّه لومة لائم، وأمرني أن أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا باللَّه فإنهن من كنز تحت العرش.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ﴾؛ أي: من اتصف بهذه الصفات فإنما هو فضل اللَّه عليه وتوفيقه له.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: واسع الفضل عليم بمن يستحق ذلك ممن يحرمه إياه، أفادت هذه الآية إثبات المحبة حقيقة من الجانبين خلافًا للمبتدعة من الجهمية والمعتزلة ومن سلك سبيلهم، وأفادت هذه الآية التحذير عن معصية اللَّه سبحانه وتعالى، وأن الكافر والعاصي لم يضر إلا نفسه، وأفادت عظيم قدرته سبحانه وتعالى في أن من تولى عن دينه وأعرض عنه فإنه يستبدل به غيره، وأفادت أن هذه الأربع من صفات المؤمنين، وهي: الحب في اللَّه، والبغض في اللَّه، والجهاد في سبيل اللَّه، والقيام بأمره على الكبير والصغير والقريب والبعيد، وأفادت- أيضًا- إثبات فعل

العبد حقيقية ، كما أفادت أن الأعمال الصالحة سبب للسعادة ، كما قال تعالى : ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة : ١٧] ، وأن ذلك من فضله سبحانه وتوفيقه كما في الصحيح : « ليس أحد منكم يدخل الجنة بعمله » قالوا : ولا أنت يا رسول اللّٰه ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدني اللّٰه برحمته »[١] .

وفيها- أيضًا- : وجوب إفراده سبحانه بالمحبة فإن محبته سبحانه وتعالى هي أصل دين الإسلام ، فبكمالها يكمل دين العبد وبنقصها ينقص .

قال ابن رجب- رحمه اللّٰه تعالى- : وقد علم أن العبادة إنما تنبني على ثلاثة أصول : الخوف والرجاء والمحبة ، وكل منها فرض لازم ، والجمع بين الثلاثة حتم واجب ؛ ولهذا كان السلف يذمون من تعبد بواحد منها دون الآخر . انتهى .

قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف : ٤] :

* أي : يجاهدون في سبيل اللّٰه بأموالهم وأنفسهم في إعلاء كلمة اللّٰه سبحانه وتعالى .

قوله : ﴿صَفًّا﴾ ؛ أي : يصفون أنفسهم عند القتال صفا ولا يزولون عن أماكنهم كأنهم بنيان مرصوص قد رص بعضه ببعض ، أي : ألزق بعضه ببعض وأحكم ، فليس فيه فرجة ولا خلل ، روى الإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « ثلاثة يضحك اللّٰه إليهم : الرجل يقوم من الليل ، والقوم إذا صفوا للصلاة ، والقوم إذا صفوا للقتال »[٢] رواه ابن ماجه .

أفادت هذه الآية فضل الجهاد في سبيل اللّٰه والحث عليه ، وأفادت الندب إلى الصفوف في القتال ، وأفادت إثبات المحبة للّٰه سبحانه وتعالى وهو قول جميع السلف ، وأنكرت الجهمية حقيقة المحبة من الجانبين زعمًا منهم أن المحبة لا تكون إلا لمناسبة بين المحب والمحبوب وأنه لا مناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة ، وهذا القول باطل ترده أدلة الكتاب والسنة المتكاثرة .

قوله : ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ :

* من أبنية المبالغة ، أي : كثير المغفرة ، وأصل : الغفر : الستر ، ومنه المغفرة فهو سبحانه وتعالى يغفر لمن تاب إليه ، أي : يستر ذنوبه ويتجاوز عن خطاياه .

قال ابن رجب- رحمه اللّٰه تعالى- :المغفرة : محو الذنب وإزالة أثره ووقاية شره ، ومنه المغفرة

---

(١) البخاري (٦٠٩٨) ، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أحمد (٣/٨٠) ، وابن أبي شيبة (١٩٣١٧) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (٢٦١١) .

لما بقي الرأس من الأذى ، لا كما ظنه بعضهم الستر ، فالعمامة لا تسمى مغفرًا مع سترها فلا بد في لفظ المغفرة من الوقاية . انتهى .

والغفور أبلغ من الغافر ؛ لأن فعول موضوع للمبالغة ، والغفار ، أي : الستار لذنوب عباده أبلغ من الغفور ، لأنه للتكثير من غير حصر ، وقد جاء في التنزيل : الغفور ، والغفار ، والغافر .

قوله : ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ :

* من الود : وهو خالص الحب وألطفه وأرقه ، والودود من صفات الله- سبحانه وتعالى أصله من المودة ، أي : المتودد إلى عباده بنعمه الذي يود من تاب إليه وأقبل عليه ، وهو- أيضًا- الودود ، أي : المحبوب ، قال البخاري في « صحيحه » : الودود الحبيب ، والتحقيق : أن اللفظ يدل على الأمرين : على كونه وادًا لأوليائه ومرددوًا لهم . انتهى صححه من كلام ابن القيم باختصار .

قوله : « ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ » : الباء في بسم اللّه للاستعانة وهي متعلقة بمحذوف ، والتقدير : أبتدئ أو أؤلف على حسب ما يضمره المتكلم ، والاسم مشتق من السمو وهو العلو ، أو من السمة وهي العلامة ، ولفظ الجلالة مشتق من أله ، ومعنى كونه مشتق : أنه دال على صفة هي الألوهية كسائر أسمائه الحسنى ، كالعليم والسميع والبصير ونحو ذلك ، وهو جامع لمعاني الأسماء الحسنى والصفات العليا وراجعه إليه .

قوله : ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ : هما صفتان للّه سبحانه وتعالى مشتقان من الرحمة ، وهما من أبنية المبالغة والرحمن أبلغ من الرحيم ؛ لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى ، والرحمن خاص باللّه سبحانه وتعالى لا يسمى به غيره ولا يوصف ، بخلاف الرحيم فيوصف به غيره سبحانه وتعالى فيقال : رجل رحيم ، والرحمة صفة من صفات اللّه سبحانه وتعالى اللائقة بجلاله وعظمته ؛ فيجب أن يوصف بها كما وصف بها نفسه ووصفه بها رسوله ﷺ بخلاف ما عليه أهل البدع الذين نفوا هذه الصفة وأولوها كمن يؤولها بالإنعام أو بإرادة الإنعام إلى غير ذلك من التأويلات الفاسدة ، فالرحمة ثابتة للّه سبحانه وتعالى كغيرها من الصفات ، سواء كانت ذاتية كالعلم والحياة ، أو فعلية كالرحمة التي رحم بها عباده ، فكلها صفات قائمة به- سبحانه- ليست قائمة بغيره ، فيوصف بها سبحانه وتعالى حقيقة كما يليق بجلاله .

وقد اجتمع في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أنواع التوحيد الثلاثة : توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات ، وكذلك قد اجتمع فيها أنواع الخفض الثلاثة فـ ﴿بِسْمِ﴾ مخفوض بالحرف ، ولفظ الجلالة مخفوض بالإضافة ، و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مخفوضان بالتبعية .

وقال ابن القيم رحمه الله : وتضمنت ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ إثبات النبوات من جهات عديدة :

الأول : من اسم الله وهو المألوه المعبود ، ولا سبيل إلى معرفة عبوديته إلا من طريق رسله .

الثاني : من اسمه ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ ، فإن رحمته تمنع إهمال عباده وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية السعادة ، فمن أعطى هذا الاسم حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل وإنزال الكتب أعظم من تضمنته علم إنزال الغيث وإنبات الكلأ وإخراج الحب ، فاقتضاء الرحمة لما يحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من قضائها ما يحصل به حياة الأبدان والأشباح . انتهى . « مدارج » .

وقال في « البدائع » : ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ : دال على الصفة القائمة به سبحانه ، و﴿الرَّحِيمُ﴾ دال على تعلقها بالمرحوم ، كما قال تعالى : ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب : ٤٣] ، ولم يجيء قط رحمان بهم ، فكان الأول للوصف والثاني للفعل ، فالأول دال على أن الرحمة وصفه ، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته . انتهى .

قوله : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ :

* أي : وسعت رحمتك وعلمك كل شيء ، فما من مسلم ، ولا كافر إلا وهو متقلب في نعمته ، فهذه الآية فيها دليل على إثبات رحمته سبحانه وتعالى ودليل على سعتها وشمولها ، روى الإمام أحمد عن أبي عثمان عن النبي ﷺ قال : « إن لله مائة رحمة ، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق ، وبها تعطف الوحوش على أولادها ، وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة »[1] . انفرد بإخراجه مسلم .

قوله : وقوله سبحانه وتعالى : ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب : ٤٣] ....:

قوله : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف : ١٥٦] : أي : أن رحمته سبحانه عمت وشملت كل شيء ، قال الحسن وقتادة : وسعت رحمته سبحانه في الدنيا البر والفاجر وهي يوم القيامة للمتقين خاصة ، فهذه الآية فيها إثبات الرحمة وشمولها ، ودلت هذه الآية وما قبلها على أن الرحمة تنقسم إلى قسمين :

الأول : رحمة عامة ، وهي الرحمة المشتركة بين المسلم والكافر ، فما يصل إليه من رزق وصحة ونحو ذلك فكله من رحمة الله كما في هذه الآية .

الثاني : رحمة خاصة بالمؤمنين ، كما في الآية التي قبلها : ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب : ٤٣] .

---

(١) مسلم (٢٧٥٣) ، وأحمد (٤٣٩/٥) من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه .

قوله سبحانه : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ٥٤] : أي : أوجبها على نفسه الكريمة تفضلًا وإحسانًا ، كما في « الصحيحين » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إن اللَّه لما خلق الخلق كتب كتابًا عنده فوق العرش ؛ إن رحمتي تغلب غضبي »[1] . الحديث .

فالكتاب المذكور في الآية هو الإيجاب على نفسه سبحانه وتعالى ، وكذلك ما ورد في الحديث : « وحق العباد على اللَّه »[2] . تفضل منه سبحانه وتعالى وإحسان ، وإلا فليس للعباد حق واجب كحق المخلوق على المخلوق كما تزعمه المعتزلة ، فإن المعتزلة تزعم أنه واجب عليه بالقياس على المخلوق ، والأدلة ترد قولهم عليهم وتبطل قولهم ، وتدل على ما عليه أهل السنة والجماعة ، وهو أن العبد لا يستوجب على اللَّه بسعيه نجاة ولا فلاحًا ، ولا يدخل الجنة بعمله ، ويقولون : إن اللَّه سبحانه هو الذي كتب على نفسه الرحمة وأوجب الحق لم يوجب عليه مخلوقًا خلافًا للمعتزلة ، قال بعضهم :

ما للعباد حق عليه واجب ... كلا ولا سعي لديه ضائع
إن عُذبوا فبعدله أو نعموا ... فبفضله وهو الكريم الواسع

قال الشيخ تقي الدين - رحمه اللَّه تعالى - : كون المطيع يستحق الجزاء هو استحقاق إنعام وفضل وليس هو استحقاق مقابلة كما يستحق المخلوق على المخلوق . انتهى .

وهذا كما في حديث : « لو عذب اللَّه أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرًا لهم »[3] ، والحديث المتقدم : « ليس أحد منكم يدخل الجنة »[4] ، الحديث ، وهذا لا ينافي قوله : ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة : ١٧] ، فإن الرسول ﷺ نفى باء المقابلة والمعادلة ، والقرآن أثبت باء التسبب ، فالمنفي استحقاقها بمجرد الأعمال ، وكون الأعمال ثمنًا وعوضًا لها كما تزعمه المعتزلة ، والمثبت كونها سببًا لدخول الجنة بتوفيقه وهداه .

قوله : ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ، وقوله : ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ :

* أي : أن حفظه سبحانه خير من حفظكم ، فمن توكل عليه سبحانه وتعالى وفوض أموره إليه كفاه وحفظه وحماه ، فلا سبيل لأحد عليه ، ولا قدرة لأحد أن يصل إليه بما يؤذيه .

ومن أسمائه سبحانه وتعالى « الحفيظ » ، وهو نوعان :

---

(١) البخاري (٧١١٤) ، ومسلم (١٤/٢٧٥١) ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) البخاري (٢٧٠١) ، ومسلم (٣٠) من حديث معاذ رضي الله عنه .
(٣) أبو داود (٤٦٩٩) ، وأحمد (١٨٢/٥) ، وابن ماجه (٧٧) من حديث أُبي بن كعب رضي الله عنه .
(٤) البخاري (٦٠٩٨) ، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

أحدهما : حفظه على عباده جميع ما عملوا من خير وشر وطاعة ومعصية .

والثاني : أنه الحافظ لعباده من جميع ما يكرهون ، وهذا نوعان : أحدهما : عام ، والثاني : خاص .

فالأول : حفظه لجميع المخلوقات بتيسير ما يقيها ، ونحو ذلك .

الثاني : حفظ خاص ، وهو حفظه لأوليائه سوى ما تقدم عما يزلزل إيمانهم ويضعف يقينهم ، وحفظهم عما يضرهم في دينهم ودنياهم . انتهى من كلام ابن رجب .

أفادت هذه الآية كغيرها إثبات صفة الرحمة ، وأنها أكمل رحمة ، وأنها حقيقة لا مجاز ، وهذا عكس ما عليه الجهمية وأضرابهم ، الذين نفوا رحمته سبحانه ، وزعموا أنها مجاز ، وأن رحمة المخلوق حقيقة ، ولا شك أن هذا من أعظم الإلحاد في أسماء الله وصفاته ، فإن الله سبحانه أثبت لنفسه هذه الصفات ووصف نفسه بها ، كما وصف بعض خلقه بهذه الصفات ، ولكن ليست رحمته سبحانه وتعالى كرحمة المخلوق ، ولا سمعه ولا بصره ، فإن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء ، فاتفاق الاسمين لا يقضي باتحاد المسمى ، فإنه سبحانه وتعالى وصف نفسه بهذه الصفات ، ووصف به بعض خلقه ، فأثبت سبحانه الاسم ، ونفى المماثلة ، فقال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] .

قال ابن القيم رحمه الله : وفي هذا أظهر دليل على أن أسماء الرب مشتقة من أوصاف ومعانٍ قامت به ، وأن كل اسم يناسب ما ذكره معه واقترن به من فعله وأمره . انتهى .

فهذه الآيات أفادت صفة الرحمة ، وأنها حقيقة لا مجاز ، كما أفادت أن الرحمة المضافة إليه سبحانه وتعالى تنقسم إلى قسمين : قسم يضاف إليه سبحانه من إضافة الصفة إلى الموصوف ، كما قال سبحانه : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف : ١٥٦] ، وكما في الحديث : « برحمتك أستغيث »[1] . والثاني : يضاف إليه سبحانه وتعالى من باب إضافة المخلوق إلى خالقه ، وهي الرحمة المخلوقة ، كما في الحديث : « إن الله خلق مائة رحمة »[2] .

قوله : ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ :

* لما ذكر أعمال الصالحة أنه أثابهم عليها « رضاه » ، الذي هو أعظم وأجلُّ من كل نعيم ، قال تعالى : ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة : ٧٢] .

أفادت هذه الآية إثبات صفة الرضا لله سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله ، ولا يقال : الرضا إرادة

---

(١) الحاكم في المستدرك (٣٠٠٠) ، والبيهقي في الشعب (٧٦٠) ، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (٢٢٧) .

(٢) البخاري (٦١٠٤) ، ومسلم (١٨/٢٧٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الإحسان ، والغضب ، إرادة الانتقام كما تزعمه المبتدعة ، فإن هذا نفي للصفة وصرف للقرآن عن ظاهره وحقيقته بغير موجب ، وهذا لا يجوز .

وفي هذه الآية دليل على إثبات أفعال اللَّه الاختيارية وأدلة ذلك من الكتاب والسنة لا تحصر ، وفيها إثبات فعل العبد وأن له فعلًا اختياريًا .

وفيها دليل على أن الجزاء من جنس العمل ، وفيها فضل الرضا عن اللَّه ، والرضا لغة : ضد السخط والكراهة ، وقال بعضهم : هو سكون القلب تحت مجاري الأحكام ، قال في « فتح المجيد » : هو أن يسلم العبد أمره إلى اللَّه ويحسن الظن به ويرضى عنه في ثوابه .

قال ابن القيم ﷺ : الرضا ينقسم إلى ثلاثة أقسام : الرضا باللَّه ، والرضا عن اللَّه ، والرضا بقضاء اللَّه ، فالرضا باللَّه فرض ، والرضا عنه وإن كان من أجل الأمور وأشرفها فلم يطالب به العموم ؛ لعجزهم عنه ومشقته عليهم ، وأوجبه بعضهم ، وأما الرضا بكل مقضي فلا يجب ، بل المقضي ينقسم إلى ما يجب الرضا به ، ومن المقضي الديني ، قال تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية [النساء: ٦٥] .

ومقضي كوني قدري ، فإن كان فقرًا أو مرضًا ونحو ذلك استحب الرضا به ولم يجب وأوجبه بعضهم ، فإن كان كفرًا أو معصية حرم الرضا به مخالفة لربه ، فإنه سبحانه لا يرضى بذلك ولا يحبه ، قال تعالى : ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ الآية [الزمر: ٧] ، وأما القضاء الذي هو صفة اللَّه وفعله فالرضا به واجب . انتهى بتصرف .

وقال الشيخ تقي الدين ابن تيمية في « تائيته » :

فنرضى من الوجه الذي هو فعله ونسخط من وجه اكتساب بحيلتي

وقال السفاريني في « الدرة المضيئة » :

وليس واجبًا على العبد الرضا بكل مقضي ولكن بالقضاء

قوله : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ [النساء: ٩٣] :

قوله : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ : احترز بذلك عن قتل الكافر ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ : العمد لغة : القصد ، وشرعًا : أن يقصد من يعلمه آدميًا معصومًا فيقتله بما يغلب على الظن موته به ، واحترز بقوله : ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ عن قتل الخطأ .

وقوله : ﴿فَجَزَاؤُهُ﴾ أي : عقابه ، قوله : ﴿جَهَنَّمُ﴾ علم على طبقة من طبقات النار .

قوله : ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ أي : مقيمًا ، والخلود : هو المكث الطويل ، قوله : ﴿وَلَعَنَهُ﴾ أي :

طرده عن رحمته، فاللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾؛ أي: هيأ له ذلك لعظيم ذنبه.

في هذه الآي الوعيد الشديد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم، ويروى عن ابن عباس أنه قال: قاتل المؤمن متعمدًا لا تقبل له توبة، ويقول: هذه الآية من آخر ما نزل ولم ينسخها شيء، وممن ذهب إلى قوله: زيد بن ثابت، وأبو هريرة، وأبوَ سلمة، ابن عبد الرحمن، وعبيد بن عمير، والحسن، وقتادة، والضحاك، نقله ابن أبي حاتم، والذي عليه الجمهور سلفًا وخلفًا: أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله، فإن تاب وأناب وعمل صالحًا بدل الله سيئاته حسنات، وعوض المقتول عن ظلامته، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] الآية، وهذه الآية عامة في جميع الذنوب وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨] الآية، وهذه الآية عامة في جميع الذنوب عدا الشرك بالله إلى غير ذلك من الأدلة، وما يروى عن ابن عباس وغيره فهو مبالغة وتشديد في الزجر عن القتل، وقال ابن القيم- رحمه الله تعالى- : والتحقيق في المسألة: أن القتل تتعلق به ثلاثة حقوق: حق الله، وحق المقتول، وحق الولي، فإذا سلم القاتل نفسه طوعًا واختيارًا ندمًا على ما فعله، وخوفًا من الله، وتوبة نصوحًا سقط حق الله بالتوبة، وحق الأولياء بالاستيفاء أو الصلح أو العفو، وبقي حق المقتول يعوضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن ويصلح بينه وبينه، فلا يضيع حق هذا ولا يبطل حق هذا. انتهى.

وبتقدير دخول القاتل النار فليس بمخلد فيها أبدًا، بل الخلود هو المكث الطويل، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ: أنه «يخرج مِن النار مَن كان في قلبه مثقال ذرة إيمان»[1]، فدخول النار قسمين: دخول مطلق، دخول.

فالأول: هو دخول المشركين والكفرة، فهؤلاء يدخلونها ولا يخرجون منها أبدًا.

والثاني: هو دخول الموحدين الذين عليهم ذنوب ومعاصي، فهؤلاء يعذبون فيها بقدر سيئاتهم ثم يخرجون منها إن لم يحصل سبب للخروج منها قبل ذلك من شفاعة أو غيرها من الأسباب، فالناس ينقسمون بحسب ما تقدم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: المشركون والكفار، كُفرًا يُخرج عن الملة الإسلامية، فهؤلاء يدخلون النار ويخلدون فيها دائمًا ولا يخرجون منها أبدًا.

---

(١) البخاري (٢٢)، ومسلم (١٨٤)، والترمذي (٢٥٩٨) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

النوع الثاني : من مات على التوحيد وليس عليه ذنوب ؛ فهذا يدخل الجنة من أول وهلة .

الثالث : من مات موحدًا وعليه ذنوب ومعاص فهذا تحت مشيئة اللَّه إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة من أول وهلة ، وإن شاء عذبه بقدر ذنوبه ثم أدخله الجنة ، هذا ما عليه أهل السنة والجماعة ، وهو الذي تواترت به الأدلة من الكتاب والسنة ، عكس ما عليه المرجئة والخوارج والمعتزلة .

قال السفاريني في « الدرة المضيئة » :

ومن يمت ولم يتب من الخطأ   فأمره مفوض لذي العطا

فإن يشأ يعفو وإن شاء انتقم   وإن شاء أعطى وأجزل النعم

وفي هذه الآية دليل على إثبات الغضب ، وأنه سبحانه يغضب ويرضى كما يليق بجلالته وعظمته .

قوله : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ :

* أي : ذلك الضرب والقبض لأرواحهم بهذه الشدة بسبب اتباعهم ما يسخط اللَّه من الكفر وعداوة الرسول وبسبب كراهتهم رضوانه ، أي : ما يرضيه من الإيمان والعمل الصالح .

فهذه الآية أفادت إثبات صفة السخط والرضا ، وأنه سبحانه وتعالى يسخط ويرضى حقيقة كما يليق بجلاله وعظمته ، فيجب إثبات ذلك الوجه اللائق بجلاله وعظمته ، والباب كله واحد .

وفي هذه الآية إثبات العلل والأسباب ، وأن الأعمال الصالحة سبب للسعادة ، والأعمال السيئة سبب للشقاوة ، وفيها الرد على من زعم أنه لا ارتباط بين العمل والجزاء . انتهى .

وفيها أيضًا ذم من أحب ما كرهه اللَّه أو كره ما أحبه ، فالواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه اللَّه محبة توجب الإتيان بما وجب عليه منه ، فإن زادت المحبة حتى أتى بما ندب إليه منه كان ذلك فضل ، وأن يكره ما كرهه اللَّه كراهة توجب له الكف عما حرم اللَّه عليه منه ، فإن زادت الكراهة حتى أوجبت الكف عما كرهه تنزيهًا كان ذلك فضلًا ، وقد ثبت في « الصحيحين » عنه ﷺ أنه قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين »[1] ، فلا يكون العبد مؤمنًا حتى يقدم محبة الرسول على محبة جميع الخلق ، ومحبة الرسول تابعة لمحبة مرسله ، والمحبة الصحيحة تقتضي المتابعة والموافقة في حب المحبوبات وبغض المكروهات ، قال تعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة : ٢٤] الآية ، انتهى من كلام ابن رجب .

---

(١) البخاري (١٥) ، ومسلم (٤٤) من حديث أنس رضي الله عنه .

قوله : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف : ٥٥] :

قوله : ﴿ءَاسَفُونَا﴾ ؛ أي : أغضبونا ، وأسف لها معنيان : تأتي بمعنى غضب كهذه الآية ، وتأتي بمعنى حزن ، كقوله سبحانه عن يعقوب أنه قال : ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف : ٨٤] الآية .

قوله : ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ ؛ أي : عاقبهم- سبحانه- بالغرق وغيره من العقوبات ، والانتقام : هو أن يبلغ في العقوبة حدها ، ومن أسمائه المنتقم ، كما جاء في حديث أبي هريرة الذي رواه الترمذي في « جامعه » في عدد الأسماء الحسنى ومعناه : المبالغ في العقوبة لمن يشاء ، وقال الشيخ تقي الدين رحمه الله : المنتقم ليست من أسماء الله الحسنى ، الثابتة عن النبي ﷺ ، وإنما جاء في القرآن مقيدًا كقوله سبحانه : ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة : ٢٢] ، وقوله : ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران : ٤] ، والحديث الذي في عدد الأسماء الحسنى يذكر فيها المنتقم ليس هو عند أهل المعرفة بالحديث من كلام النبي ﷺ ، بل هذا ذكره الوليد بن مسلم عن بعض شيوخه ؛ ولهذا لم يورده أحد من أهل الكتب المشهورة إلا الترمذي . انتهى .

قوله : ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ ؛ أي : أبغض خروجهم معكم إلى الغزو .

قوله : ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ ؛ أي : كسلهم ، والتثبيط : رد الإنسان عن الشيء الذي يفعله ، أي : أنه سبحانه وتعالى كسلهم عن الخروج للغزو قضاء وقدرًا وإن كان قد أمرهم بالغزو وأقدرهم عليه ، ولكن ما أراد إعانتهم بل خذلهم وثبطهم لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى : ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء : ٢٣] .

قوله : ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف : ٣] :

قوله : ﴿كَبُرَ﴾ ؛ أي : عظم .

قوله : ﴿مَقْتًا﴾ : منصوب على التمييز ، والمقت أشد البغض .

وفي الآية الحث على الوفاء بالعهد والنهي الأكيد عن الخلف في الوعد وغيره ، وبها تستدل بعض العلماء على أنه يوجب الوفاء بالوعد مطلقًا ، سواء ترتب عليه عزم للموعود أم لا ، واحتجوا بما ثبت في « الصحيحين » أن رسول الله ﷺ قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان »[١] . وفيها دليل على إثبات صفة البغض لله سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته ، وفيه دليل على أن بغضه سبحانه وتعالى يتفاوت ، فبغضه أشد من بعض كما في الحديث : « إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب مثله ولن يغضب بعده مثله »[٢] .

---

(١) البخاري (٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) البخاري (٤٤٣٥) ، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وفيه دليل على أن الشخص قد يكون عدوًّا للّه ثم يصير وليًا ، ويكون اللّه سبحانه وتعالى يبغضه ثم يحبه ، وهذا مذهب الفقهاء والعامة وهو قول المعتزلة والكرامية والحنفية قاطبة ، والمالكية والشافعية والحنابلة ، وعلى هذا يدل القرآن قال تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران : ٣١] ، وقال : ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر : ٧] ، قوله : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف : ٥٥] وغيرها من الآيات والأحاديث . انتهى ملخصًا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه اللّه تعالى- .

فهذه الآيات المتقدمة دليل على صفة الغضب والرضا ، والولاية والحب ، والبغض والسخط والكراهة ونحو ذلك ، وهذا مذهب السلف الصالح وسائر الأئمة يثبتون جميع ما في الكتاب والسنة على المعنى اللائق به ، كما يقولون ذلك في السمع والبصر والعلم والكلام وسائر الصفات وقد تقدم ذلك .

قوله : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [البقرة : ٢١٠] :

قوله : ﴿هَلْ﴾ : حرف استفهام .

قوله : ﴿يَنظُرُونَ﴾ ؛ أي : ينتظر الكفار ، يقال : نظرته وانتظر به معنى واحد ، إلا إذا عدى بـ « إلى » أو ذكر الوجع فمعناه النظر ، أو عدى بـ « في » معناه التفكر والاعتبار .

قوله : ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ : أي : لفصل القضاء بينهم يوم القيامة فيجزي كل عامل بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر .

قوله : ﴿فِى ظُلَلٍ﴾ : جمع ظلة ، والظلة : ما أظلك وسترك .

قوله : ﴿مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ : أي : السحاب الأبيض الرقيق ، سمي غمامًا ؛ لأنه يغم ، أي : يستر .

قوله : ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ : أي : والملائكة يجيئون في ظلل من الغمام ، ففيه إثبات مجيء الملائكة يوم القيامة ؛ لأنهم يحيطون بالإنس والجن ، ثم ينزل الله- سبحانه- لفصل القضاء بينهم .

قوله : ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ : أي : تم أمر هلاكهم .

قوله : ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ : أي : تصير أمور العباد إلى اللّه في الآخرة .

قال محمد بن جرير : حيث ذكر إتيان الملائكة فهو محتمل لإتيانهم لقبض الأرواح ، ويحتمل أن يكون نزولهم لعذاب الكفار وإهلاكهم ، وإما إتيان الرب فهو يوم القيامة لفصل الخطاب .

قال ابن القيم- رحمه اللّه تعالى- : نزوله سبحانه إلى الأرض يوم القيامة تواترت به الأحاديث والآثار ودل عليه القرآن صريحًا كما في الآيات . انتهى .

قوله : ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾ :

قوله : ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ؛ أي : لقبض أرواحهم .

قوله : ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ﴾ : أي : يوم القيامة لفصل القضاء بين العباد .

قوله : ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾ : وهو طلوع الشمس من مغربها ، وطلوعها من مغربها هو أحد أشراط الساعة الكبار ، وإذا طلعت من مغربها أغلق باب التوبة ، وإذا رآها الناس طلعت من مغربها آمنوا أجمعون ولكن لا يقبل لأحدهم توبة ما لم يكن آمن من قبل ، ذلك كما في « الصحيحين » وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذاك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل »[1] .

قوله : ﴿كَلَّآۖ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ : هي حرف ردع وزجر .

قوله : ﴿دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ : أي : زلزلت حتى ينهدم كل بناء عليها وينعدم .

قوله : ﴿دَكّٗا دَكّٗا﴾ : أي : دكا بعد دك ، أي : تكرر الدك عليها حتى عادت هباء منبثًا .

قوله : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ : أي : لفصل القضاء بين عباده .

قوله : ﴿وَٱلۡمَلَكُ﴾ : أي : جنس الملائكة .

قوله : ﴿صَفّٗا صَفّٗا﴾ : أي : يصفون صفا بعد صف قد أحدقوا بالجن والإنس ، كما روي أن الملائكة كلهم يكونون صفوفًا حول الأرض .

قوله : ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ :

قوله : ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ : المراد باليوم : يوم القيامة ، وتشقق السماء ، أي : انفطارها .

قوله : ﴿بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ : أي : يخرج منها الغمام وهو السحاب الأبيض وحينئذ تنزل الملائكة إلى الأرض فيحيطون بالخلائق في مقام الحشر ، ثم يجيء الرب لفصل القضاء بين عباده ، فهذه الآيات أفادت إثبات المجيء والنزول والإتيان لله سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته ، وهذه من صفاته سبحانه الفعلية ، فيجب إثبات جميع الصفات الواردة في الكتاب والسنة كما أثبتها الله- سبحانه- لنفسه وأثبتها رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، ودلت هذه الآيات- أيضًا- على نزوله سبحانه وتعالى وإتيانه ومجيئه ونحو ذلك من أفعاله أنه حقيقة كما يليق

---

(١) البخاري (٤٣٥٩) ، ومسلم (١٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

بجلاله وعظمته ؛ إذ الأصل الحقيقة ولا صارف عن ذلك خلافًا لأهل البدع ، ودلت على أنه نزول وإتيان ومجيء بذاته سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته ، خلافًا لأهل البدع الذين ينفون ذلك ويؤولون مجيئه بمجيء أمره ونزوله بنزول رحمته أو بعض ملائكته ونحو ذلك ، ويقولون : هذا مجاز حذف والتقدير في ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] ، أي : أمره وينزل ربنا ، أي : أمره أو بعض ملائكته أو رحمته ونحو ذلك من التأويلات الفاسدة ، ولا شك في بطلان هذه التأويلات ومصادمتها أدلة الكتاب والسنة الصريحة وما عليه أهل السنة والجماعة .

قال ابن القيم- رحمه اللّه تعالى- في « الصواعق المرسلة » : ومما ادعوا فيه المجاز قوله : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ ، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، قالوا : هذا مجاز الحذف تقديره : وجاء أمر ربك ، وهذا باطل من وجوه .

أحدها : أنه إضمار ما لا يدل عليه اللفظ بمطابقة ولا تضمن ولا لزوم وادعاء حذف بلا دليل برفع الوثوق من الخطاب ، وساق وجوهًا عديدة في إبطال دعواهم المجاز ، وساق الأدلة الكثيرة الصريحة الدالة على أنه مجيء حقيقة بذاته سبحانه . اهـ .

والإتيان والمجيء المضاف إليه سبحانه نوعان : مطلق ، ومقيد ، فإذا كان مجيء رحمته أو عذابه ونحو ذلك قيد بذلك كما في الحديث : « حتى جاء اللّه بالرحمة والخير »[1] ، وقوله : « ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الأعراف : ٥٢] .

النوع الثاني : الإتيان والمجيء المطلق فهذا لا يكون إلا مجيؤه سبحانه ، كقوله : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، وقوله : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] . انتهى من « الصواعق » ملخصًا .

وأفادت هذه الآيات إثبات أفعاله- سبحانه- الاختيارية ، فالإتيان ، والنزول ، والمجيء ، والاستواء ، والارتفاع ، والصعود ؛ كلها أنواع أفعاله ، وهو فعال لما يريد ، وأفعاله كصفاته قائمة به سبحانه ، ولولا ذلك لم يكن فعالًا ولا موصوفًا بصفات كماله .

وأفعاله سبحانه نوعان : لازمة ، ومتعدية كما دلت النصوص التي هي أكثر من أن تحصر على إثبات النوعين ، وأنها حقيقة ليست بمجاز ، وليست كأفعال المخلوق ، فصفاته سبحانه تليق به ، أما المبتدعة فإنهم نفوا أفعاله فزعموا أنها مجاز فوقعوا في محذورين . محذور التشبيه ، ومحذور التعطيل . انتهى من كلام شيخ الإسلام .

---

(١) لم نقف عليه بهذا اللفظ فيما لدينا من مصادر .

وفي هذه الآيات دليلًا على إثبات علو الله على خلقه ؛ لأنه لا يمكن أن تأتي إلا من جهة العلو ، وذكره ابن القيم أحد الطرق في إثبات العلو .

قوله : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ :

* أي : كل من على الأرض يعدم ويموت ويبقى وجهه سبحانه ، قال الشعبي رحمه الله : إذا قرأت قوله : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن : ٢٦] فلا تسكت حتى تقرأ قوله : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٧] ، وهذا من فقههم في القرآن وكمال علمهم ؛ إذ المقصود الإخبار بفناء من عليها مع بقاء وجهه ، فإن الآية سيقت لبيان تمدحه سبحانه بالبقاء وحده ، ومجرد فناء الخليقة ليس في مدح ، إنما المدح في بقائه سبحانه بعد فناء خلقه فهي نظير قوله سبحانه : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص : ٨٨] . انتهى من كلام ابن القيم .

قوله : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ : فيه إثبات صفات الوجه لله وهو من الصفات الذاتية ؛ كالسمع والبصر واليدين وغير ذلك من الصفات ، فعلى العباد الإيمان بها والتسليم واعتقاد أنها حقيقة تليق بجلال الله وعظمته ، وعلى هذا مضى الصحابة والتابعون والأئمة .

قوله : ﴿ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ : أي : ذو العظمة والكبرياء .

قوله : ﴿ وَالْإِكْرَامِ ﴾ : أي : المكرم لأنبيائه وعباده الصالحين ، وقيل : ذو الجلال أي : هو المستحق لأن يجل ولأن يكرم ، والإجلال يتضمن التعظيم ، والإكرام يتضمن الحمد والمحبة ، وقد قال بعض السلف : لا يهدين أحدكم الله ما يستحي أحدكم أن يهديه لكريمه فإن الله أكرم الكرماء ، أي : هو أحق من كل شيء بالإكرام إذ كان أكرم من كل شيء ، وقال أيضًا : وإذا كان مستحقًا للإجلال والإكرام لزم أن يكون متصفًا في نفسه بما يوجب ذلك ، كما قال : الإله هو المستحق ؛ لأنه يؤله ، أي : يعبد كان هو في نفسه مستحقًا لما يوجب ذلك ، والإجلال من جنس التعظيم ، والإكرام من جنس الحب والحمد ، وهذا كقوله : ﴿ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾ [التغابن : ١] ، فله الإجلال وله الإكرام والحمد . انتهى من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية .

قوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ :

أي : أن جميع أهل الأرض وأهل السماء سيموتون ويذهبون إلا من شاء الله ولا يبقى إلا وجهه سبحانه وتعالى ، والمستثنى من الهلاك والفناء ثمانية ، نظمها السيوطي بقوله :

ثمانية حكم البقاء يعمها ... من الخلق والباقون في حيز العدم
هي العرش والكرسي نار وجنة ... وعجب وأرواح كذا اللوح والقلم

وأما قوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ ﴾ [القصص : ٨٨] ، وقوله : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن : ٢٦] فإن

المراد : كل شيء كتب عليها الفناء والهلاك هالك ، والجنة والنار خلقتا للبقاء ، وكذا العرش فإنه سقف الجنة ، والكرسي إلى آخرها ، فإن عموم ﴿كُلُّ﴾ في كل مقام بحسبه ، ويعرف ذلك بالقرائن كقوله : ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف : ٢٥] و﴿مَسَٰكِنُهُمْ﴾ شيء لم تدخل في عموم كل شيء ؛ لأن المراد من كل شيء يقبل التدمير بالريح عادة ، وكقوله عن بلقيس : ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل : ٢٣] ، فالمراد من كل شيء يحتاج إليه الملوك ، وهذا القيد يفهم من قرائن الكلام ؛ إذا المراد أنها ملكة تامة الملك .

ففي هذه الآيات كغيرها من أدلة الكتاب والسنة : إثبات صفة الوجه للَّه سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته ، وإثبات أنه وجه حقيقة لا يشبه وجوه خلقه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى : ١١] وهذا هو الذي عليه أهل السنة والجماعة خلافًا للمبتدعة من الجهمية وأشباههم ممن نفى الوجه وعطله وزعم أنه مجاز عن الذات أو الثواب أو الجهة أو غير ذلك ، وهذه تأويلات باطلة من وجوه عديدة ، منها : أنه فرق بين الذات والوجه ، وعطف أحدهما على الآخر يقتضي المغايرة كما في حديث : « إذا دخل أحدكم المسجد قال : أعوذ باللَّه العظيم وبوجهه الكريم »[1] ، ومنها : أنه أضاف الوجه إلى الذات وأضاف النعت إلى الوجه ، ولو كان ذكر الوجه صلة ولم يكن صفة للذات لقال : ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ ، فلما قال : ذو الجلال تبين أنه نعت للوجه ، وأن الوجه صفة للذات كما ذكر معنى ذلك البيهقي والخطابي ، وروى مسلم في « صحيحه » حديث : « إن اللَّه لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه »[2] ، ومنها : أن الوجه حيث ورد فإنما ورد مضافًا إلى الذات في جميع موارده ، والمضاف إلى الرب نوعان :

أعيان قائمة بنفسها : كبيت اللَّه ، وناقة اللَّه ، وروح اللَّه ، وعبد اللَّه ، فهذه إضافة تشريف وتخصيص ، وهي إضافة مملوك إلى مالكه .

الثاني : صفات لا تقوم بنفسها كعلم اللَّه ، وحياته ، وقدرته ، وسمعه ، وبصره ، ونوره ، فهذه إضافتها إليه سبحانه وتعالى إضافة صفة إلى موصوف بها ، إذا عرف ذلك ؛ فإضافة السمع والبصر والوجه ونحو ذلك إضافة صفة إلى موصوف لا إضافة مخلوق إلى خالقه ، وفي « سنن أبي داود » عنه ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد قال : أعوذ باللَّه العظيم وبوجهه الكريم وبسلطانه القديم من الشيطان الرجيم[3] ، فتأمل كيف قرن بين الاستعاذة بالذات وبين الاستعاذة بوجهه الكريم ، وهذا صريح في

---

(١) أبو داود (٤٦٦) من حديث ابن عمر ﷺ ، وصححه الألباني في « مشكاة المصابيح » (٧٤٩) .

(٢) مسلم (١٧٩) ، وأحمد (٤/٤٠٥) من حديث أبي موسى ﷺ .

(٣) أبو داود (٤٦٦) من حديث ابن عمر ﷺ ، وصححه الألباني في « مشكاة المصابيح » (٧٤٩) .

إبطال قول من قال: إنه الذات نفسها، وقول من قال: إنه مخلوق؛ إذ الاستعاذة لا تجوز بمخلوق، إلى غير ذلك من الوجوه التي ذكرها ابن القيم رحمه الله بـ «الصواعق» في إثبات الوجه صفة لله سبحانه وتعالى وأنه وجه حقيقي يليق بجلاله وعظمته، وإبطال قول من زعم غير ذلك.

قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾:

أي: يقوله سبحانه وتعالى مخاطبًا لإبليس لما امتنع من السجود لآدم: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] أي: أنه سبحانه باشر خلقه بيده كما في الحديث: «لم يخلق الله بيده إلا ثلاثًا: خلق آدم بيده»[1] الحديث، ففيه إثبات اليدين لله سبحانه وتعالى، وأنهما يدان حقيقة لائقتان بجلاله وعظمته، وفيها: الرد على من زعم غير ذلك ممن صادم أدلة الكتاب والسنة واتبع هواه وعطل هذه الصفة، وزعم أن المراد باليد: القدرة أو النعمة كما تقوله الجهمية والمعتزلة وأشباههم، وهذا التأويل الذي زعموه تأويل فاسد مصادم لأدلة الكتاب والسنة المتكاثرة الصريحة في إثبات اليدين صفة لله سبحانه وتعالى، فلو كان المراد باليد: القدرة لوجب أن يكون له سبحانه قدرتان، وقد أجمع المسلمون على أنه لا يجوز أن يكون له قدرتان، وكذلك لا يجوز أن يقال: خلق آدم بنعمتين؛ لأن نعم الله على آدم وغيره لا تحصى.

قال ابن القيم- رحمه الله تعالى- : ورد لفظ اليد في الكتاب والسنة وكلام الصحابة والتابعين في أكثر من مائة موضع ورودًا متنوعًا متصرفًا فيه مقرونًا بما يدل على أنها يد حقيقة من الإمساك، والطي، والقبض، والبسط، والنضح باليد، والخلق باليدين، والمباشرة بهما، وكتب التوراة بيده، وغرس جنة عدن بيده.

قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾:

* فقطع بالضرورة أن المراد يد الذات لا يد القدرة والنعمة، فإن السياق والتركيب لا يحتمله ألبته، انتهى.

وقد رد ابن القيم رحمه الله على المبتدعة الذين عطلوا صفة اليد وزعموا أن المراد باليد: القدرة أو النعمة أو غير ذلك من التأويلات الفاسدة من وجوه عديدة أنهاها إلى عشرين وجهًا، وساق الأدلة الكثيرة الصريحة في إثبات اليد لله سبحانه وتعالى حقيقة كما يليق بجلاله وعظمته.

قوله: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾: قال ابن عباس: المراد بخله. فالغل كناية عن البخل.

قوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾: أي: أمسكت عن الخير.

---

(١) ابن أبي شيبة (٣٩٥٧) موقوفًا على حكيم بن جابر.

وقوله : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة : ٦٤]أي : بالفضل والعطاء ، فهذه الآية كسابقتها فيها إثبات صفة اليدين للَّه سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته ، فعلينا أن نثبت له سبحانه وتعالى ذلك كما أثبته لنفسه وكما أثبته له رسوله ﷺ وهذا مذهب أهل السنة والجماعة ، وفي حديث عبد اللَّه بن عمرو : «أن اللَّه لم يباشر بيده أو لم يخلق بيده ، إلا ثلاثًا : خلق آدم بيده وغرس جنة عدن بيده ، وكتب التوراة بيده»[1].

وقال ابن القيم- رحمه اللَّه تعالى- : هل يصح في عقل أو نقل أو فطرة أن يقال : لم يخلق بقدرته إلا ثلاثًا . أو لم يخلق بنعمته إلا ثلاثًا ؟ وأيضًا ، فلو كان المراد به ها هنا القدرة لبطل تخصيص آدم ، فإنه وجميع المخلوقات حتى إبليس مخلوقًا بقدرته ، فأي مزية لآدم على إبليس في قوله : ﴿أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] . اهـ .

وقال البيهقي في كتاب «الأسماء والصفات» ، باب : «ما جاء في إثبات اليدين صفتين لا من حيث الجارحة» ؛ فذكر الآيات ، ثم قال : قال بعض أهل النظر قد تكون اليد بمعنى : القوة ، كقوله : ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾ [ص: ١٧] ، أي : ذو القوة ، وبمعنى الملك والقدرة والنعمة وتكون صلة ، أي : زائدة ، ثم أبطل البيهقي ذلك كله وأثبت أن اليدين صفتان تعلقتا بخلق آدم تشريفًا له دون إبليس تعلق القدر بالمقدور ، لا من طريق المباشرة ولا من حيث المماسة ، وليس ذلك التخصيص وجه غير ما بينه بقوله : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] . اهـ .

قوله : ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ :

قوله : ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ :الصبر لغة : الحبس والمنع ، وهو حبس النفس عن الجزع ، وحبس اللسان عن التشكي والتسخط ، وحبس الجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ، وذكره ابن القيم- رحمه اللَّه تعالى :- أفادت الآية وجوب الصبر ، قال ابن القيم- رحمه اللَّه تعالى- : «هو واجب بالإجماع» . انتهى .

وينقسم الصبر إلى ثلاثة أقسام :

صبر على طاعة اللَّه ، وصبر عن معصية اللَّه ، وصبر على أقدار اللَّه المؤلمة .

زاد الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله : وصبر على الأهواء المضلة ، والنوعان الأولان أفضل من الأخير وهو الصبر على أقدار اللَّه المؤلمة ، صرح بذلك السلف ، منهم : سعيد بن جبير ، وميمون بن مهران ، وغيرهما والنوع الأول أفضل من النوع الثاني .

---

(١) ابن أبي شيبة (٣٣٩٥٧) موقوفًا على حكيم بن جابر .

قال ابن رجب رحمه الله : وأفضل أنواع الصبر : الصيام ؛ فإنه يجمع أنواع الصبر الثلاثة .

قال ابن القيم رحمه الله في كتاب « المدارج » : وتمام الصبر أن يكون كما قال الله : ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ [الرعد : ٢٢] الآية ، وأقواه أن يكون بالله معتمدًا عليه لا على نفسه ولا على غيره من الخلق . انتهى .

وقد تكاثرت الأدلة على الحث عَلى الصبر والترغيب فيه والثناء على أهله ، قال الإمام أحمد : ذكر الله الصبر في تسعين موضعًا من كتابه ، وفي الآية إثبات صفة الحكم لله سبحانه وتعالى ، وقد تقدمت الإشارة إلى تقسيمه إلى قسمين : حكم شرعي ديني ، وحكم قدري كوني ، فالشرعي متعلق بأمره ، والكوني متعلق بخلقه ، وهو سبحانه له الخلق والأمر ، وحكمه الديني الطلبي نوعان بحسب المطلوب ، فإن المطلوب إن كان محبوبًا له فالمطلوب فعله إما وجوبًا وإما استحبابًا ، وإن كان مبغوضًا له فالمطلوب تركه إما تحريمًا وإما كراهة ، وذلك- أيضًا- موقوفًا على الصبر ، فهذا حكمه الديني الشرعي ، وأما حكمه الكوني وهو ما يقتضيه وما يقدره على العبد من المصائب التي لا صنع له فيها ، فغرضه الصبر عليها ، وفي وجوب الرضا بها قولان للعلماء ، أصحهما : أنه مستحب ، فرجع الدين كله إلى هذه القواعد الثلاث : فعل المأمور ، وترك المحظور ، والصبر على المقدور . انتهى من كلام ابن القيم .

قوله : ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ : أي : بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا ، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة : ٦٧] .

قال ابن القيم رحمه الله : وهذا يتضمن الحراسة والكلاءة والحفظ للصابر لحكمه سبحانه وتعالى ، وفيها : معية الله سبحانه وتعالى للصابر لحكمه سبحانه وحفظه ، وفيها : إثبات فعل العبد حقيقة . وأدلة ذلك أكثر من أن تحصر .

قوله : ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ﴾ :

قوله : ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ﴾ ؛ أي : نوح عليه الصلاة والسلام .

قوله : ﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ﴾ ؛ أي : على سفينة ذات ألواح ، المراد : خشب السفينة العريض .

قوله : ﴿وَدُسُرٖ﴾ ؛ أي : المسامير التي تشد بها الألواح ، يقال : دسرت السفينة إذا شددتها بالمسامير .

قوله : ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ ؛ أي : بأمرنا بمرأى منا تحت حفظنا وكلاءتنا ؛ والنون للتعظيم .

قوله : ﴿جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ ؛ أي : جزاء لهم على كفرهم وانتصارًا لنوح عليه السلام عليهم .

قوله : ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه : ٣٩] :

قوله : ﴿وَأَلْقَيْتُ﴾ ؛ أي : وصنعت ﴿عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ ، أي : أن اللَّه أحبه وحببه إلى خلقه .

قوله : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ : أي : بمرأى ومنظر مني ، والمعنى : أن اللَّه أحب موسى وحببه إلى خلقه ورباه بمرأى منه سبحانه .

قال ابن القيم- رحمه اللَّه تعالى- : والفرق بين قوله : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه : ٣٩] ، وقوله : ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر : ١٤] : أن الآية الأولى وردت في إظهار أمر كان خفيًا وإبداء ما كان مكتوبًا ، فإن الأطفال- إذ ذاك- كانوا يتغذون ويصنعون سرًا ، فلما أراد أن يصنع موسى ويتغذى ويربي على حال أمن وظهور دخلت ﴿عَلَىٰ﴾ في اللفظ تنبيهًا على المعنى ، لأنها تعطي الاستعلاء ، والاستعلاء ظهور وإبداء ، فكأنه يقول : وتصنع على أمن لا تحت خوف ، وذكر العين لتضمنها معنى الرعاية والكلاءة ، وأما قوله : ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ : فإنه يريد برعاية منا وحفظ ولا يريد إبداء شيء ولا إظهار بعد كتم فلم يحتج في الكلام إلى معنى على بخلاف ما تقدم . اهـ .

وفي هذه الآية الكريمة : إثبات محبة الله- سبحانه- لعبده موسى ، وتحبيبه لخلقه ، وفيها : عناية اللَّه سبحانه وتعالى بعبده موسى وتربيته على مرأى منه ، وهذه عناية خاصة ومعية لعبده موسى تقتضي حفظه وكلاءته وعنايته ، وفي هذه الآيات : إثبات صفة العينين للَّه سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته ، فيجب على المؤمن أن يثبت لخالقه وبارئه ما أثبته لنفسه من العينين والسمع والبصر وغيرها ، وغير المؤمن من ينفي عن اللَّه ما أثبته في محكم تنزيله ، وكذلك أثبته له رسوله ﷺ .

قوله : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ :

* أي : تراجعك أيها النبي في شأن زوجها ، وهي « خولة بنت ثعلبة » ، وزوجها « أويس بن الصامت » ، وذلك حين ظاهر منها زوجها وقال لها : أنت علي كظهر أمي ، فأتت النبي ﷺ فقال : « قد حرمت عليه » . فقالت : إن لي صبية صغار ؛ إن ضممتهم إلي جاعوا ، وإن ضممتهم إليه ضاعوا ، فقال : « قد حرمت عليه » . فقالت : أشكو إلى اللَّه فاقتي وجهدي ، وكلما قال : حرمت عليه ؛ جعلت تهتف وتشكو[1] .

قوله : ﴿وَتَشْتَكِىٓ﴾ : أي : تظهر ما بها من المكروه .

قوله : ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ : أي : مراجعتكما الكلام ، من : حار إذا رجع .

قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ : أي : أحاط سمعه بجميع المسموعات وبصره بجميع المبصرات فلا يخفى عليه خافية ، وكثيرًا ما يقرن- سبحانه- بين هذين الاسمين « السميع »

---

(١) ابن ماجه (٢٠٦٣) ، والحاكم (٣٧٩١) ، وأبو يعلى (٤٧٨٠) من حديث عائشة ﵂ ، وصححه الألباني في « صحيح ابن ماجه » (١٦٧٨) .

و« البصير » فكل من السمع والبصر محيط بجميع متعلقاته الظاهرة والباطنة ، فالسميع : هو الذي أحاط سمعه بجميع المسموعات والبصير : هو الذي أحاط بصره بجميع المبصرات .

وفي هذه الآية الكريمة إثبات السمع للّٰه سبحانه وتعالى وأنه سميع ويسمع ، أحاطه سمعه بجميع المسموعات وكل ما في العالم العلوي والسفلي من الأصوات يسمعه سبحانه وتعالى سواء السر والعلانية ، قالت عائشة رضي الله عنها : الحمد للّٰه الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة تشتكي إلى رسول اللّٰه وأنا في جانب الحجرة يخفى علي بعض كلامها ، فأنزل اللّٰه قوله : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة : ١] الآية ، وقال ابن القيم في « النونية » :

وهو السميع يرى ويسمع ما في الكون من سر ومن إعلان
ولكل صوت منه سمع حاضر فالسر والإعلان مستويان
والسمع منه واسع الأصوات لا يخفى عليه بعدها والداني

قال البيهقي في كتاب « الأسماء والصفات » : السميع الذي له سمع يدرك به المسموعات ، والبصير من له بصر يدرك به المرئيات ، ولكل منها في حق الباري صفة قائمة بذاته ، وقد أفادت الأحاديث الرد على من زعم أنه سميع بصير بمعنى عليم ، كما أخرج أبو داود بسند قوي على شرط مسلم من حديث أبي هريرة قال : رأيت رسول اللّٰه ﷺ يقرأ قوله سبحانه : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ إلى قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء : ٥٨] ويضع إصبعيه ، قال أبو يونس : وضع أبو هريرة إبهامه على أذن والتي تليها على عينه[١] ، قال البيهقي : وأراد بهذه الإشارة تحقيق إثبات السمع والبصر للّٰه ببيان محلها من الإنسان ، يريد أن له سمعًا وبصرًا ، لا أن المراد به العلم ، فإنه لو كان المراد به العلم لأشار إلى القلب ؛ لأنه محل العلم ولم يرد الجارحة ؛ فإن اللّٰه منزه عن مشابهة المخلوقين ، ثم ذكر لحديث أبي هريرة شاهدًا من حديث عقبة بن عامر : سمعت رسول اللّٰه ﷺ يقول على المنبر : « ربنا سميع بصير » . وأشار إلى عينيه[٢] ، وسنده حسن .

وفي « صحيح مسلم » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « أن اللّٰه لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم »[٣] . انتهى .

ولا شك أن من سمع وأبصر أدخل في صفة الكمال ممن انفرد بأحدهما دون الآخر فصح أن كونه

---

(١) أبو داود (٤٧٢٨) ، وابن حبان (٢٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « سنن أبي داود » (٤٧٢٨) .

(٢) الطبراني (١٧/٢٨٢) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه .

(٣) مسلم (٢٥٦٤) ، وأحمد (٢/٢٨٤) .

سميعًا بصيرًا يفيد قدرًا زائدًا على كونه عليمًا، وكونه سميعًا بصيرًا يتضمن أنه يسمع بسمع ويبصر ببصر، كما تضمن كونه عليمًا يعلم أنه يعلم بعلم، ولا فرق بين كونه سميعًا بصيرًا وبين كونه ذا سمع وبصر، وقالوا: هذا قول أهل السنة قاطبة ذكره في «فتح الباري».

وفي هذه الآية وغيرها دليل على ثبوت الأفعال الاختيارية للَّه وقيامها به، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، وقوله: ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ١٠٥] الآية، وفي هذه الآية الشكوى إلى اللَّه سبحانه وتعالى، وأن الشكوى إليه سبحانه لا تنافي الصبر كهذه الآية، كشكاية يعقوب إلى اللَّه، وأما الشكوى إلى مخلوق فإنها تنافي الصبر، والشكوى نوعان: شكوى بلسان المقال وشكوى بلسان الحال، وفعلها أعظم، وأما إخبار المخلوق بالحال فإنه كان للاستعانة بإرشاده أو معاونته لم يقدح ذلك في الصبر كإخبار الطبيب للمريض، وقد كان النبي إذا دخل على مريض يسأله عن حاله ويقول: «كيف تجدك؟»[1]. انتهى من كلام ابن القيم بتصرف.

قوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ الآية: سبب نزول هذه الآية: أن اليهود حين سمعوا قوله: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: ١١]، قالوا: إن إله محمد يستقرض منا فنحن إذا أغنياء وهو فقير.

قوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾: أي: سنأمر الحفظة بكتابة ما قالوا في الصحائف.

أفادت هذه الآية كغيرها من الآيات والأحاديث إثبات صفة السمع للَّه كما يليق بجلاله، وفي قوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٨١] تحذير وتخويف، فإنه ليس المراد به مجرد الإخبار بالسمع، لكن المراد مع ذلك الإخبار بما يترتب على ذلك من المجازاة بالعدل، وأفادت إثبات وجود الحفظة وأنهم يكتبون ما يقال، وسيأتي الكلام على الحفظة.

قوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾:

السر: هو حديث الإنسان بينه وبين نفسه أو غيره في خفية، والنجوى: هو ما يتحدث به الإنسان مع رفيقه ويخفيه عن غيره.

قوله: ﴿بَلَىٰ﴾: أي: نسمع سرهم ونجواهم، فهو- سبحانه- السميع الذي أحاط سمعه بجميع المسموعات.

قوله: ﴿وَرُسُلُنَا﴾: أي: الملائكة الحفظة للأعمال، ﴿لَدَيْهِمْ﴾ [الزخرف: ٨٠]، أي: عندهم.

---

(١) الترمذي (٩٨٣)، وابن ماجه (٤٢٦١)، وعبد بن حميد (١٣٧٠) من حديث أنس رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٦١٢).

قوله : ﴿يَكْتُبُونَ﴾ : أي : يكتبون ما يقولون وما يفعلون .

فهذه الآية فيها تحذير وتخويف ، فإن طريقة القرآن بذكر العلم والقدرة تهديدًا وتخويفًا لترتب الجزاء عليها كهذه الآية ، وقوله : ﴿اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة : ١٠٥] الآية ، وليس المراد مجرد الإخبار بالقدرة والعلم لكن الإخبار مع ذلك بما يترتب عليهما مع الجزاء بالعدل . انتهى من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية .

وفي هذه الآية دليل على إثبات صفة السمع وإحاطته إحاطة تامة بكل مسموع ، وفيها دليل على وجود الملائكة الحفظة ، وأنهم يكتبون كل ما قال العبد أو فعل أو نوى أو هم به ؛ لأن النية فعل القلب ، فدخلت في عموم قوله : ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار : ١٢] ، ويشهد لذلك قوله ﷺ : « إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه فإن عملها فاكتبوها عليه ، وإذا هم عبدي بحسنة فلم يعملها فاكتبوه له حسنة وإن عملها فاكتبوها له عشرًا »[1] .

ويجب الإيمان بالحفظة ، والأدلة على إثبات وجودهم من الكتاب والسنة كثيرة ، قال تعالى : ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق : ١٨] ، وقوله : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار : ١٠- ١٢] .

قال علماؤنا- منهم ابن حمدان- في « نهاية المبتدئين » : الرقيب والعتيد ملكان موكلان بالعبد يجب أن نؤمن بهما ونصدق بأنهما يكتبان أفعاله ، واستدل بالآيتين المذكورتين ، قال : ولا يفارقان العبد بحال ، وقيل : بل عند الخلاء ، وقال الحسن : إن الملائكة يجتنبون الإنسان على حالين : عند غائطه وعند جماعه ومفارقتهما للمكلف ، حينئذ لا يمنع من كتابتهما ما يصدر منه في تلك الحال كالاعتقاد القلبي يجعل الله لهما أمارة على ذلك .

قوله : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه : ٤٦] :

أي : يقول سبحانه لكليمه موسى عليه السلام وأخيه هارون : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾ ، أي : بحفظي ونصري وكلاءتي وتأييدي .

قوله : « أسمع وأرى » : أي : أي أسمع كلامكما وكلامه ، وأرى مكانكما ومكانه ، ولا يخفى علي شيء من أمركم ، فأنا معكما بحفظي ونصري ، وهذه المعية الخاصة التي تقضي الحفظ والنصر والتأييد والإعانة كقوله : ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء : ٦٢] ، وقول النبي ﷺ : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما ، لا تحزن إن الله معنا »[2] .

---

(١) مسلم (١٢٨) ، والترمذي (٣٠٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) البخاري (٣٤٥٣) ، ومسلم (٢٣٨١) من حديث أبي بكر رضي الله عنه .

والمعية تنقسم إلى قسمين : معية خاصة ، ومعية عامة ، فالعامة : هي معية العلم والإحاطة كقوله سبحانه : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد : ٤] .

والثانية : وهي المعية الخاصة وهي معية القرب كما تقدم كقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل : ١٢٨] ، والفرق بينهما : أنها إذا جاءت المعية في سياق المحاسبة والمجازاة والتخويف فهي عامة ، وإذا أتت في سياق مدح أو ثناء فهي معية خاصة ، وكلا المعيتين منه- سبحانه- مصاحبة للعبد لكم هذه مصاحبة اطلاع وإحاطة ، وهذه مصاحبة موالاة ونصر وحفظ ، فـ « مع » في لغة العرب للصحبة اللائقة لا تشعر بامتزاج ولا اختلاط ولا مجازاة ولا مجانبة كقوله سبحانه : ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة : ١١٩] وتقول : زوجتي معي ، وهذه المعية لا تنافي علو اللَّه على عرشه ، فإن قربه ومعيته ليست كقرب الأجسام بعضها من بعض ، ليس كمثله شيء ، كما قال مالك : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : وهذا شأن ما وصف اللَّه به نفسه ، فلو قال في قوله : ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه : ٤٦] كيف يسمع وكيف يرى ؟ لقلنا : السمع والرؤية معلوم والكيف مجهول ، ولو قال كيف يتكلم لقلنا : الكلام معلوم والكيف مجهول .

قوله : ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ :

* أي : ما علم هذا الناهي عن الهدى أن اللَّه يراه ويسمع كلامه وسيجازيه على فعله أتم الجزاء ، وهذا وعيد .

قوله : ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ :

قوله : ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ﴾ ؛ أي : يبصرك وينظر إليك لا تخفى عليه خافية ، فتوكل عليه فإنه سيحفظك وينصرك ويعزك ، وتضمن ذلك الوعد بالإثابة على ذلك أتم الثواب .

قوله : ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ : أي : يراك حين تقوم للصلاة وغيرها ، ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ [الشعراء : ٢١٩] .

أي : يرى تقلبك في الساجدين من قيام وقعود وركوع وسجود ، ففيه فضيلة صلاة الجماعة ، استفيد من هذه الآيات إثبات صفة السمع والبصر ، وإثبات علمه المحيط واستفيد منه- كما تقدم- الإشارة إلى فضيلة السمع على البصر لتقديمه عليه .

قوله : ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ :

قوله : ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟﴾ ؛ أي : قل يا محمد لهؤلاء المنافقين : اعملوا ما شئتم واستمروا على

باطلكم ولا تحسبوا أن ذلك سيخفى عليه، وهذا وعيد شديد لمن خالف أوامره.

قوله: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ :الآية، أي: سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا، وهذا وعيد للمخالف أوامره بأن أعمالهم ستعرض عليه وعلى الرسول وعلى المؤمنين وهذا كائن لا محالة يوم القيامة، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨] وقال: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩] وقد يظهر اللَّه ذلك للناس في الدنيا، كما روى الإمام أحمد عن أبي سعيد مرفوعًا: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة ليس لها باب ولا منفذ لأخرج اللَّه عمله للناس كائنًا ما كان»[1]، وقد ورد أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ.

ففي هذه الآية إثبات الكلام، وفيها دليل على ثبوت الأفعال الاختيارية للرب وقيامها له وأدلة ذلك كثيرة تزيد على الألف كما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما اللَّه تعالى، وقال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية في كتاب «الرد على المنطقيين» قوله: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وقوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي: لنرى أو لنميز، وهكذا قال عامة المفسرين: إلا لنرى ونميز، وكذا قال جماعة من أهل العلم، قالوا: لنعلمه موجودًا واقعًا بعد أن كان قد علم أنه سيكون، ولفظ بعضهم قال: العلم على منزلتين: علم بالشيء قبل وجوده، وعلم به بعد وجوده، والحكم للعلم به بعد وجوده؛ لأنه يوجب الثواب والعقاب، قال: فمعنى قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾، أي: لنعلم العلم الذي يستحق به العامل الثواب والعقاب، ولا ريب أنه كان عالمًا سبحانه بأنه سيكون لكن لم يكن المعلوم قد وجد، والقرآن قد أخبر أنه سبحانه يعلم ما سيكون في غير موضع، وأخبر بما أخبر به من ذلك قبل أن يكون، وقد أخبر بعلمه المتقدم على وجوده، ثم لما خلقه علمه كائنًا مع علمه الذي تقدم أن سيكون، فهذا هو الكمال، وقد ذكر اللَّه علمه بما سيكون بعد أن يكون في بضع عشرة آية من القرآن كقوله سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ [البقرة: ١٤٣] مع إخباره في مواضع كثيرة من أنه يعلم ما سيكون قبل أن يكون.

وفي هذه الآيات دليل واضح على أن اللَّه موصوف بصفات الكمال من العلم والقدرة، والإرادة والحياة والكلام، والسمع والبصر، والوجه واليدين، والغضب والرضا، والفرح والضحك، والرحمة والحكمة، وبالأفعال؛ كالمجيء، والإتيان، والنزول إلى سماء الدنيا ونحو ذلك، والعلم بمجيء ذلك عن الرسول ﷺ ضروري وإخباره به ضروري فوق العلم بوجوب الصلاة والزكاة وتحريم

---

(١) أحمد (٣/٢٨)، وابن حبان (٥٦٧٨)، والحاكم (٧٨٧٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٧٩٩).

الفواحش، وفرض على الأمة تصديقه فرضًا لا يتم أصل الإيمان إلا به خلافًا للجهمية والمعتزلة وأشباههم.

وفي هذه الآيات - أيضًا - إشارة إلى أنه ينبغي للعبد أن يعبد اللَّه سبحانه وتعالى على استحضار قربه واطلاعه، وأنه بين يديه، وذلك يوجب للعبد الخشية والخوف والهيبة والتعظيم، ويوجب النصح في العبادة، وهذا هو مقام الإحسان كما في حديث عمر: «الإحسان أن تعبد اللَّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1]، وقد دل القرآن على هذا المعنى في مواضع كثيرة، وكذلك وردت أحاديث صحيحة بالندب إلى استحضار هذا القرب في حال العبادات كقوله ﷺ: «إذا قام أحدكم يصلي فإنه يناجي ربه»[2]. انتهى من كلام ابن رجب بتصرف.

قوله: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾:

أي: شديد مما حلته في عقوبة من طغى عليه وعتى وتمادى في كفره، وعن علي رضي الله عنه: شديد المحال أي: شديد الأخذ، وروي: شديد القوة، قال: النفسي في تفسيره: والمعنى: أنه شديد المكر والكيد لأعدائه يأتيهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون. انتهى.

قوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾:

قوله: ﴿وَمَكَرُوا۟﴾؛ أي: كفار بني إسرائيل حين أرادوا قتل عيسى وصلبه، والمكر: فعل شيء يراد به ضده.

قوله: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾: أي: جازاهم على مكرهم بأن رفع عيسى إلى السماء، وألقى شبهه على من أراد اغتياله حتى قتل كما روي ذلك.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾: أي: أقوى المجازين وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المعاقب. انتهى. «نسفي».

قوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾:

قوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا﴾؛ أي: دبروا أمرهم على قتل صالح عليه السلام وأهله على وجه الخفية حتى من قومهم خوفًا من أوليائه.

قوله: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾: أي: بنصر نبينا صالح عليه السلام وإهلاك قومه المكذبين، وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

هذه الآيات فيها التحذير من الأمن من مكر اللَّه، قال الحسن - رحمه اللَّه تعالى -: من وسع اللَّه

---

(١) البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البخاري (٣٩٧)، ومسلم (٥٥١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

عليه فلا يرى أنه يمكر به فلا رأي له ، وفي الحديث : « إذا رأيت الله يعطي العبد على معاصيه ما يحب فاعلم إنما هو استدراج »[1] . رواه أحمد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وهذا هو تفسير المكر في قول بعض السلف : يستدرجهم الله بالنعم إذا عصوه ، ويملي لهم ، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وهذا معنى المكر والخديعة ونحو ذلك ، ذكره ابن جرير بمعناه . انتهى من « فتح المجيد » .

قوله : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ :

* أي : أن كفار قريش يكيدون كيدًا ، وكيدهم هو ما دبروه في شأن رسول الله ﷺ من الإضرار به وإبطال أمره .

قوله : ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ :

أي : أجازيهم على كيدهم ، والكيد استدراجهم كما في الآية : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ١٨٢] . قال ابن القيم- رحمه الله تعالى- : إن الله سبحانه وتعالى يكيدهم كما يكيدون دينه ورسوله وعباده ، وكيده سبحانه : استدراجهم من حيث لا يعلمون والإملاء لهم حتى يأخذهم على غرة ، فإذا فعل ذلك أعداء الله بأوليائه ودينه كان كيد الله لهم حسنًا لا قبح فيه فيعطيهم ويستدرجهم من حيث لا يعلمون . انتهى بتصرف .

وقال ابن القيم- رحمه الله تعالى- : المكر ينقسم إلى قسمين : محمود ، ومذموم . فإن حقيقة إظهار أمر وإخفاء خلافه ليتوصل إلى مراده فمن المحمود مكره سبحانه بأهل المكر مقابلة لهم بفعلهم وجزاء لهم من جنس عملهم ، قال تعالى : ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال : ٣٠] ، وكذلك الكيد ينقسم إلى نوعين ، قال تعالى : ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم : ٤٥] ، وقوله : ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ [يوسف : ٧٦] ، وكذلك الخداع ينقسم إلى محمود ، ومذموم ، فإن كان بحق فهو محمود ، وإن كان بباطل فهو مذموم . انتهى .

وهذه التفاسير المتقدمة للمكر والكيد والخداع ونحو ذلك ليست من باب التأويل الذي ينكره أهل السنة الجماعة ، بل من باب التفسير ، فإن جميع الصحابة والتابعين يصفون الله سبحانه وتعالى بأنه شديد القوة وكذلك شديد المكر وشديد الأخذ كما وصف الله نفسه بذلك في غير آية من كتابه كقوله : ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود : ١٠٢] ، وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات : ٥٨] ، وقوله : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد : ٦] ، فيمرون هذه الآية على

---

(١) أحمد (٤/١٤٥) ، والطبراني في « الأوسط » (٩٢٧٢) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٥٦١) .

ظواهرها ويعرفون معناها ولكن لا يكيفونها ولا يشبهونها بصفات المخلوقين، وهذا مجمع عليه بين أهل السنة. انتهى ملخصًا من رد الشيخ عبد اللَّه بن محمد علي الزيدية.

وقال ابن القيم رحمه الله في «الصواعق»: واللَّه سبحانه وتعالى لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع والاستهزاء مطلقًا، لا ذلك داخل في أسمائه الحسنى.

فإن هذه الأفعال ليست ممدوحة بل تمدح في موضع وتذم في موضع فلا يجوز إطلاق أفعالها على اللَّه سبحانه وتعالى مطلقًا، فلا يقال: إن اللَّه يمكر ويخادع ويستهزئ، فكذلك بطريق الأولى أن لا يشتق له منها أسماء يسمى بها، بل إذا كان لم يأت في أسمائه الحسنى المريد ولا المتكلم ولا الفاعل ولا الصانع؛ لأن مسمياتها تنقسم إلى ممدوح ومذموم، فكيف يكون منها الماكر والمخادع والمستهزئ؟ وهذا لا يقوله مسلم ولا عاقل والمقصود: أن اللَّه لم يصف نفسه بالمكر والكيد والخداع إلا على وجه الجزاء لمن فعل بغير ذلك بغير حق، وقد علم أن المجازاة حسنة من المخلوق، فكيف من الخلاق سبحانه وتعالى؟!

قوله: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾:

قوله: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا﴾؛ أي: تظهروه.

قوله: ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾: أي: فتعلموا سرًا، وهذا عام شامل لكل خبر قولي أو فعلي ظاهر أو باطن.

قوله: ﴿أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ﴾: أي: تتجاوزوا عمن أساء إليكم في أنفسكم أو أموالكم أو غير ذلك، فالعفو هو التجاوز عن الذنب والصفح عنه، فعفا تأتي في اللغة لمعان:

الأول: عفا عن الذنب، أي: صفح عنه، وعفا: أسقط حقه، كما قال تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

أي: يسقطوا حقوقهم، وعفا القوم، أي: كثروا، ومنه ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ [الأعراف: ٩٥] أي: كثروا وعفا المنزل، أي: انطمس، ومنه قول حسان.

عفت ذات الأصابع فالجواء   أي وزال أهلها وانطمست

قوله: ﴿عَفُوًّا﴾: معناه: ذو العفو، وهو ترك المؤاخذة على ارتكاب الذنب وهو أبلغ من المغفرة فإنها مشتقة من الغفر وهو الستر، والعفو: إزالة الأثر، ومنه عفت الديار. قال ابن القيم في «النونية»:

وهو العفو فعفوه وسع الورى   لولاه غار الأرض بالسكان

قوله: «قديرا»: أي: قادرًا على كل شيء.

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله: فمن جعل شيئًا من الأعمال خارجًا عن قدرته ومشيئته فقد

ألحد في أسمائه وآياته بخلاف ما عليه القدرية . انتهى .

قوله : ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ :

العفو : الستر والتجاوز ، والصفح : الإعراض ، مشتق من صفحة العنق ، وهو أن يعرض عن عقاب المذنب وعتابه وكأنه ولاه صفحة عنقه وهو أبلغ من العفو ؛ لأن الصفح لا لوم فيه ولا تثريب .

هذه الآية نزلت في شأن أبي بكر الصديق حين حلف أن لا ينفق على مسطح ابن خالته لخوضه في أمر عائشة ، وكان مسكينًا بدريًّا مهاجرًا ، فلما تلاها النبي ﷺ على أبي بكر قال : بلى أحب أن يغفر الله لي ، ورد على مسطح نفقته .

قوله : ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ : غفور ، أي : كثير المغفرة ، وقد تقدم الكلام على ذلك . في هذه الآيات وصفه سبحانه وتعالى بالعفو والغفور ، وفيها : الحث على الصفح والعفو ومكارم الأخلاق ومعالي الأمور ، وفيها أن ما ذكر سبب للمغفرة ، وفيها : دليل على أن الجزاء من جنس العمل ، والأدلة على ذلك في الكتاب والسنة كثيرة ، وفيها : حلم الله- سبحانه- وكرمه ولطفه بعباده مع ظلمهم لأنفسهم ، وفيها : إثبات فعل العبد وأنه فاعل حقيقة ، والرد على المجبرة الذين يزعمون أن العبد لا فعل له وإنما ينسب الفعل على جهة المجاز ، ولو كان الأمر كما يزعمون لم يؤمر بما ذكر ولم ينسب إليه الفعل ولم يعاقب على سوء ، وقولهم باطل ترده أدلة الكتاب والسنة بل الفطرة والعقل ، وطرده يختل به النظام ولا يمكن أن تعيش عليه أمة أبدًا .

قال ابن القيم – رحمه الله تعالى- : ثم ختم الآية بصفتين من صفاته سبحانه مناسبتين لما تضمنته ، فقال : ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور : ٢٢] ، ففيه إشارة إلى أن كل اسم يناسب ما ذكر معه واقترن به من فعله وأمره سبحانه ، وفيها : أن أسماء الرب مشتقة من أوصاف ومعان قامت به سبحانه ، فهي أسماء وهي أوصاف وبذلك كانت حسنى ؛ إذ لو كانت ألفاظًا لا معاني لها لم تكن حسنى ، ولا كانت دالة على المدح ولا الكمال ، ولساغ وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام أسماء الرحمة والإحسان ، فيقال : اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت المنتقم ونحو ذلك ، ونفي معاني أسمائه سبحانه وتعالى من أعظم الإلحاد فيها . انتهى .

قوله : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾ :

* يعني : الغلبة والقدرة ، فمن يريد العزة فليطلبها بطاعة الله وطاعة رسوله ، فالعزة والعلو إنما هما لأهل الإيمان ، قال تعالى : ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٩] ، فللعبد من العلو بحسب ما معه من الإيمان ، قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون : ٨] ، فله من العزة بحسب ما معه من الإيمان وحقائقه ، فإذا فاته حظه من العلو والعزة ففي مقاله ما فاته من حقائق

الإيمان علمًا وعملًا، ظاهرًا وباطنًا، فالمؤمن عزيز عال مؤيد منصور مكفي مدفوع عنه بالذات أين كان، ولو اجتمع عليه من أقطارها إذا قام بحقيقة الإيمان وواجباته، فمن نقص إيمانه نقص نصيبه من النصر والتأييد بحسب ما نقص من إيمانه، انتهى من كلام شيخ الإسلام بتصرف.

وفي هذه الآية إثبات العزة للَّه سبحانه وتعالى الكاملة من جميع الوجوه، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤]، والعزة في الأصل: القوة والغلبة والشدة، تقول: عز يعز بكسر العين إذ صار عزيزًا، وعز يعز بالفتح إذا اشتد وقوي، ومنه أرض عزاز، أي: صلبة، وعز يعز بالضم إذا غلب وقهر، فلاسمه العزيز سبحانه ثلاث معان:

الأول: بمعنى الممتنع الجناب عن أن يصل إليه ضرر أو يلحقه نقص أو عيب، كقوله: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ٢٠].

الثاني: بمعنى القوة، كقولهم: «من عزيز».

الثالث: بمعنى: غلبة الغير وقهره، ومنه: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]، أي: غلبني.

وكل هذه المعاني ثابتة له سبحانه وتعالى بمقتضى اسمه «العزيز»، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٧] فـ (ال) تفيد الاستغراق والشمول لجميع معاني العز: قال ابن القيم في «النونية»:

وهو العزيز فلن يرام جنابه ... أني يرام جناب ذي السلطان
وهو العزيز القاهر الغلاب لم ... يغلبه شيء هذه صفتان
وهو العزيز بقوة هي وصفه ... فالعز حينئذ ثلاث معان
وهي التي كملت له سبحانه ... من كل وجه عادم النقصان

قال ابن القيم رحمه الله في كتابه «المدارج»: فاسمه «العزيز» يتضمن كمال قدرته وقوته وقهره، وهذه العزة مستلزمة لوحدانية؛ إذ الشركة تنقص كمال العزة. انتهى.

قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾:

* فيه دليل على الحلف بعزة اللَّه سبحانه، وكذا غيرها من صفاته، وفيه دليل على أن صفات اللَّه غير مخلوقة؛ إذ الحلف بالمخلوق شرك، وفيه إثبات العزة لله- سبحانه- ردًا على من قال: عزيز بلا عزة، كما قالوا: إنه عليم بلا علم، والعزة المضافة إليه- سبحانه- تنقسم إلى قسمين: قسم يضاف إليه- سبحانه- من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، وهي العزة المخلوقة التي يعز بها أنبياءه وعباده الصالحين.

والثاني: يضاف إليه من باب إضافة الصفة إلى الموصوف كما في هذه الآية، وكما في الحديث:

« أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر »[1]

قوله : ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ :

* أي : تعاظم ، وهو فعل ماض لا يتصرف ، وهو خاص بالله سبحانه وتعالى . والبركة لغة : النماء والزيادة والتبريك : الدعاء بذلك ، قال ابن القيم- رحمه الله تعالى- : البركة نوعان :

أحدهما : بركة هي فعله ، والفعل منها بارك ، والمفعول مبارك ، وهو ما جعل فيها ذلك فكان مباركًا بجعله سبحانه .

والثاني : بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة ، والفعل منها تبارك ؛ ولهذا لا يقال لغيره ذلك ولا يصلح إلا له سبحانه ، فهو المتبارك ورسوله مبارك ، كما قال المسيح : ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم : ٣١] ، وأما صفته سبحانه وتعالى « تبارك » فمختصة به سبحانه كما أطلقها على نفسه . انتهى ملخصًا من « البدائع » .

قوله : ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ :

* أي : أفرده بالعبادة ولا تعبد معه غيره ، وهذا أمره بإفراده سبحانه بالعبادة ، ويتضمن النهي عن عبادة ما سواه ، وعبادته سبحانه وتعالى هي أعظم واجب ، والإشراك به هو أعظم محرم على الإطلاق ، والعبادة لغة : الذل ، يقال : طريق معبد إذا كان مذللًا قد وطئته الأقدام ، كما قال الشاعر :

تبارى عتاقًا ناجيات واتبعت وضيفًا وضيفًا فوق مور معبد

والعبادة شرعًا : ما أمر به شرعًا من غير اطراد عرفي ولا اقتضاء عقلي ، وعرفها الشيخ تقي الدين ابن تيمية - رحمه الله تعالى- بقوله : العبادة : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة كالصلاة والصوم والحج ونحو ذلك ، وفيها دليل على أن العبادة تجب على كل مكلف ، وأنه مهما بلغ فلن يصل إلى حد تسقط عنه التكاليف الشرعية ، ومن فعل ذلك فهو كافر بالله العظيم ، فإن قوله : ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ [مريم : ٦٥] خطاب لنبيه ، وأمته تبع له ، فإذا كان هذا حقه ﷺ فغيره من باب أولى وأحرى وللعبادة شرط لا تصح إلا بها :

الأول : الإخلاص ، وهو أن يكون العمل لله سبحانه وتعالى .

الثاني : المتابعة ، وهو أن يكون العمل على سنة رسول الله ﷺ ، كما قال تعالى : ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة : ١١٢] ، فقوله : « مَن » إشارة إلى الإخلاص ، وقوله : ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ إشارة إلى المتابعة ، وقال الفضيل بن عياض في قوله سبحانه وتعالى : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ

(١) مسلم (٢٢٠٢) ، وابن حبان (٢٩٦٤) من حديث عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه .

﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود : ٧] قال : أخلصه وأصوبه ، قيل : يا أبا علي ، ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل ، والخالص أن يكون للَّه ، والصواب أن يكون على سنة رسول اللَّه ﷺ ، وللعبادة ثلاثة أركان وهي : المحبة ، والخوف ، والرجاء .

قوله : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ : أي : وهل له مساميًا ومشابهًا ومماثلًا من المخلوقين ؟ وهذا استفهام بمعنى النفي المعلوم بالعقل ، أي : لا تعلم له مشابهًا ؛ لأنه الرب وغيره المربوب ، الغني من جميع الوجوه ، وغيره الفقير ، الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه ، وغيره ناقص من جميع الوجوه ، فهذا برهان قاطع على أنه هو المستحق للعبادة وأن عبادة غيره باطلة ، وفي الآية دليل على أنه لا مثل له ولا شبيه ولا نظير لا في ذاته ولا في صفاته ، ولا في أسمائه ولا في أفعاله ، وهذا النفي متضمن لإثبات جميع صفات الكمال على وجه الإكمال ، وهذا هو المعقول في فطر الناس ، فإذا قالوا : فلان لا مثل له ولا شبه له ، فإنهم يريدون أنه تفرد في الصفات والأفعال والمجد فلا يلحقه في غيره ، وفي الآية دليل على إثبات الصفات للَّه سبحانه وتعالى كما يليق بجلال اللَّه وعظمته ، وفيه دليل على كثرة الصفات وعظمتها ، فلو كان المراد به نفي صفاته لكان ذلك وصفًا بغاية الذم ، فإن النفي المحض عدم ، والعدم لا يمدح به أحد ، وإنما يكون النفي كمالًا إذا تضمن الإثبات كقوله تعالى : ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، أي : لكمال حياته وقيوميته .

وفيه دليل على نفي المثلية ، فاتفاق اسم الخالق واسم المخلوق لا يقضي بتماثلهما ، فصفات الخالق تناسبه وتليق بذاته ، وصفات المخلوق تناسبه .

قوله : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ : فلا تقدم الكلام على ذلك .

قوله : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ :

قوله : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ ؛ أي : أمثالًا ونظراء تعبدونهم كعبادته وتساوونهم به في المحبة والتعظيم ، فلا ند له في ذاته ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ولا في عبادته ، والند في اللغة : المثل والنظير والشبيه ، يقال : فلان ند فلان ، أي : شبيهه ونظيره ، كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه :

أتهجوه ولست له بند فشركما لخيركما الفداء

واتخاذ الند ينقسم إلى قسمين : قسم من الشرك الأكبر ؛ كاتخاذ ند يدعوه أو يرجوه ، أو يخافه ، أو يذبح له ، أو ينذر له ، ونحو ذلك ، كما في « الصحيحين » عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول اللَّه ، أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل له ندًا وهو خلقك »[1] الحديث .

---

(١) البخاري (٤٢٠٧) ، ومسلم (٨٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

قال ابن القيم رحمه الله في كتابه «الكافية الشافية»:

والشرك فاحذره فشرك ظاهر ذا القسم ليس بقابل الغفران
وهو اتخاذ الند للرحمن أيا من حجر ومن إنسان
يدعوه أن يرجوه ثم يخافه ويحبه كمحبة الرحمن

القسم الثاني: ما هو من نوع الشرك الأصغر كقول الرجل: ما شاء الله وشئت، ولولا الله وأنت لم يكن كذا، والحلف بغير الله، ونحو ذلك كما في حديث ابن عباس: أن رجلًا قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال النبي ﷺ: «أجعلتني لله ندًا؟ قل: ما شاء الله وحده»[1]. أخرجه النسائي وابن ماجه.

قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أي: أنه ربكم وخالقكم وخالق كل شيء، فهو المستحق للعبادة، فكيف تجعلون له أندادًا وقد علمتم أنه لا ند له يشاركه فعله.

ففي هذه الآية الرد على جميع فرق الضلال، ففيه الرد على المشبهة الذين يشبهون الله بخلقه، والذين يشبهون خلقه به كعبدة الأوثان، وفيها الرد على القدرية الذين يزعمون: أن العبد يخلق فعل نفسه استقلالًا بدون مشيئة الله فيكون شريكًا لله سبحانه وتعالى وندًا، وفيها الرد على المعطلة الذين نفوا صفات الله فرارًا من التشبيه؛ فشبهوه بالمعدومات والناقصات، وفيها دليل على أن معرفة الله والإقرار به فطري ضروري فطر الله عليه العباد كما في الحديث: «ما من مولود إلا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[2].

وإن كان بعض الناس قد يحصل له ما يفسد فطرته حتى يحتاج إلى نظر تحصل به المعرفة كما قال تعالى: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]، أي: أيشك في الله حتى يطلب إقامة الدليل على وجوده، وأي دليل أصح وأظهر من هذا المدلول. قال ابن القيم رحمه الله: سمعت شيخ الإسلام يقول: كيف يطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء، وكان كثيرًا يتمثل بهذا البيت:

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

وقد تكلم الشيخ ابن تيمية رحمه الله على قول من قال: إن أول واجب هو النظر أو القصد إلى النظر أو الشك، وبين أنها كلها غلط مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف والأئمة، وباطلة بالعقل أيضًا، وقرر هو وغيره أن أول واجب على العبد هو التوحيد كما في حديث معاذ رضي الله عنه

(١) أحمد (٢١٤/١)، والطبراني (٢٤٤/١٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٣)، وغيرهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣٩).

(٢) البخاري (١٢٩٣)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

حين بعثه النبي ﷺ إلى اليمن وقال: «فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة إلا إله إلا اللَّه»[1]، وفي رواية: «إلى أن يوحدوا اللَّه»[2]. وكذلك جميع الرسل أول ما يفتتحون دعوتهم بالدعوة إلى التوحيد.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: أول من أنكر معرفة اللَّه الفطرية هم أهل الكلام الذي اتفق السلف على ذمه من الجهمية والقدرية، وهم عند سلف الأمة من أجهل الطوائف وأضلهم. انتهى. وفيها الرد على من زعم: أن القرآن مخلوق بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، ويزعم أن «جعل» بمعنى: «خلق»، فرد أحمد عليهم بقوله سبحانه: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، فليست جعل بمعنى خلق هنا. وفيها أنه سبحانه يحتج على المشركين بإقرارهم بتوحيد الربوبية على إثبات توحيد الألوهية. وفيها الاستدلال بهذه المخلوقات على وجوه سبحانه، فهي دليل وآية على توحيد اللَّه سبحانه، وإثبات أسمائه وصفاته وكماله وصدق رسله عليهم الصلاة والسلام، ويروى أنه سئل بعض الأعراب: ما الدليل على وجود الرب؟ فقال للسائل: يا سبحان اللَّه، إن البعر ليدل على البعير، وإن أثر الأقدام ليدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحر ذات أمواج؛ ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾:

أي: نظراء وأمثالًا يساويهم في اللَّه بالعبادة والمحبة والتعظيم، وهؤلاء لا يساوونهم باللَّه في الرزق والتدبير، وإنما يسوونهم باللَّه في المحبة فيعبدونهم ليقربوهم إلى اللَّه زلفى، فأخبر سبحانه أن من أحب من دون اللَّه شيئًا كما يحب اللَّه فهو ممن اتخذ من دون اللَّه أندادًا، ففيها دليل على أنه سبحانه لا ند له، وإنما المشركون جعلوا بعض المخلوقات أندادًا له تسمية مجردة ولفظًا فارغًا من المعنى كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ الآية [الأنعام: ١٠٠]، والمذكور في الآية هو المحبة الشركية المستلزمة للخوف والتعظيم والإجلال والإيثار على مراد النفس، فمحبة اللَّه سبحانه هي أصل دين الإسلام وبكمالها يكمل، فهي أعظم الفروض، فصرفها لغير اللَّه شرك أكبر، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

قال ابن القيم رحمه الله: فتوحيد المحبوب أن لا يتعدد محبوبه، أي: مع اللَّه بعبادته له، وتوحيد الحب أن لا يبقى في القلب بقية حب حتى يبذلها له.

(١) البخاري (١٤٢٥)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) البخاري (٦٩٣٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة : ١٦٥] :

أي : من أصحاب الأنداد لأندادهم ، فمحبة المؤمنين لربهم لا تساويها محبة ، والمعنى : والذين آمنوا أشد حبًا لله من محبة أهل الأنداد لله ؛ لأن محبة المؤمنين لله خالصة ، ومحبة المشركين لله مشتركة قد أخذت أندادهم قسطًا من محبتهم ، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة ، ففي هذه الآيات أن من أشرك مع الله غيره في المحبة فقد جعله شريكًا لله واتخذ ندًا لله ، وأن ذلك هو الشرك الأكبر ، فالمحبة تنقسم إلى أقسام كما ذكره ابن القيم رحمه الله وغيره .

الأول : محبة الله سبحانه ، ولا تكفي وحدها بالنجاة من النار والفوز بالجنة ، فإن المشركين يحبون الله سبحانه .

الثاني : محبة ما يحبه الله ، وهذه المحبة هي التي تدخل في الإسلام ، وتخرج من الكفر ، وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة .

الثالث : المحبة في الله ولله ، وهي فرض كمحبة أولياء الله وبغض أعداء الله ، وهي من مكملات محبة الله ومن لوازمها ، فالمحبة التامة مستلزمة لموافقة المحبوب في محبوبه ومكروهه ، وولايته وعداوته ، ومن المعلوم أن من أحب الله المحبة الواجبة ، فلا بد أن يبغض أعداء الله ويحب أولياءه .

الرابع : المحبة مع الله ، المحبة الشركية وهي المستلزمة للخوف والتعظيم والإجلال ، فهذه لا تصلح إلا لله سبحانه ، ومتى أحب العبد بها غير الله فقد أشرك الشرك الأكبر .

الخامس : المحبة الطبيعية وهي ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه ، كمحبة المال والولد ونحو ذلك ، فهذه المحبة لا تذم إلا أن أشغلت وألهت عن طاعة الله ، كما قال سبحانه : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون : ٩] .

قوله : ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء : ١١١] :

قوله : ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ﴾ : « ال » : للاستغراق والشمول ، أي : الحمد كله لله ، فهو المستحق للحمد لما اتصف به من صفات الكمال ، والحمد هو الثناء عليه- سبحانه- بما هو أهله ، والثناء هو ذكر الصفات الجميلة مرة بعد أخرى ، وأما النثاء بتقديم النون ، فيكون في الخير والشر ، وأما المجد فهو ذكر صفات الجلال والعظمة ، وأما الشكر فهو فعل ينبئ عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعمًا ، وشرعًا : هو صرف العبد جميع ما أنعم الله لما خلق لأجله .

والفرق بين الحمد والشكر ، أن الشكر يكون باللسان والجنان والأركان ، أما الحمد فلا يكون إلا

باللسان والجنان ، وأيضًا ، فإن الشكر لا يكون إلا في مقابلة نعمة ، وأما الحمد فهو يكون في مقابلة نعمة وفي غير مقابلة نعمه . قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية : والحمد نوعان : حمد على إحسانه إلى عباده ، وهو من الشكر ، وحمد لما يستحقه من نعوت كماله ، وإنما يستحق ذلك من هو متصف بصفات الكمال وهي أمور وجودية ، فإن الأمور العدمية لا حمد فيها ولا خير ولا كمال ، ومعلوم أن كل ما يحمد ، فإنما يحمد على ما له من صفات الكمال ، فكل ما يحمد به الخلق فهو من الخالق ، فثبت أنه المستحق للمحامد كلها ، وهو أحق بالحمد من كل محمود ، وبالكمال من كل كامل . اهـ .

قوله : ﴿ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ : هذا رد على اليهود والنصارى والمشركين ، فإن النصارى يقولون المسيح ابن اللَّه ، واليهود يقولون العزيز ابن اللَّه ، والمشركين يقولون الملائكة بنات اللَّه .

قوله : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ : هذا رد على المجوس والمشركين والقدرية .

قوله : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ ؛ أي : ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له ولي أو وزير أو مشير ؛ لأنه سبحانه عزيز لا يفتقر إلى ولي يحميه ويمنعه من الذل ، فنفى الولاية على هذا المعنى ، لأنه غني عنها ولم ينف الولاية على وجه المحبة والكرامة لمن شاء من عباده ، فلم ينف الولي نفيًا عامًا مطلقًا ، بل نفي أن يكون له ولي من الذل ، وأثبت في موضع آخر أن يكون له أولياء بقوله : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس : ٦٢] ، فهذه موالاة رحمة وإحسان ، والموالاة المنفية موالاة حاجة وذل ، كما أشار إلى هذا المعنى ابن القيم رحمه الله .

قوله : ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ ؛ أي : عظمه عما يقوله الظالمون المخالفون للرسل .

ففي هذه الآية أمر نبيه بحمده ؛ لأنه المستحق أن يحمد لما اتصف به من صفات الكمال ، وفيها تنزيهه سبحانه عن الولد ، وذلك لكمال صمديته سبحانه وغناه وتعبد كل شيء له ، فاتخاذ الولد ينافي ذلك كما قال سبحانه : ﴿قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس : ٦٨] الآية .

وفيها : تنزيهه سبحانه أن يكون له شريك في الملك المتضمن تفرده بالربوبية والألوهية وتوحده بصفات الكمال التي لا يوصف بها غيره ، وهذه الآية آية عظيمة ، وتسمى آية العز . قال ابن كثير : قال قتادة : ذكر لنا أن النبي ﷺ كان يعلم أهله هذه الآية ؛ الصغير والكبير .

قلت : وقد جاء في حديث أن الرسول ﷺ سمى هذه الآية آية العز ، وفي بعض الآثار أنها ما قرأت في بيت في ليلة فيصيبه سرقة أو آفة . انتهى ، من كلام ابن كثير .

قوله : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن : ١] :

قوله : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ ؛ أي : ينزهه عما لا يليق بجلاله وعظمته ، فالتسبيح يقتضي التنزيه لله- سبحانه- من كل سوء وعيب وإثبات صفات الكمال لله سبحانه .

وهذا التسبيح قيل بلسان الحال ، وقيل بلسان المقال وهو الصحيح ، والله- سبحانه- قادر على خلق الإدراك في الجمادات وإنطاقها ، كما قال سبحانه عن الجلود : ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت : ٢١] .

والأصل في الكلام الحقيقة ، وقد سمع النبي ﷺ تسبيح الحصى ، وورد أن النبي ﷺ قال : « إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليَّ »[1] ، وكما في الحديث أن النبي ﷺ لما خطب على المنبر حن الجذع الذي كان يخطب عليه سابقًا ، وقال تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء : ٤٤] الآية .

قوله : ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ : أي : جميع ما في السماوات والأرض يسبح لله وحده وينزهه عما لا يليق بجلاله وعظمته وقدم السماوات على الأرض لأنها مقدمة بالرتبة والفضل والشرف ، أفاده ابن القيم في « البدائع » .

قوله : ﴿ٱللَّهُ ٱلْمُلْكُ﴾ ؛ أي : هو المالك وحده لجميع المخلوقات النافذ فيها أمره ، يتصرف فيها كيف يشاء ، لا معقب لحكمه ولا راد لأمره .

قوله : ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ : ففي هذه الآية دليل على وجود التسبيح من جميع المخلوقات ، وأنه تسبيح حقيقي ، وأنه سبحانه قادر على خلق الإدراك للجمادات وقادر على إنطاقها ، وفيها إثبات جميع صفات الكمال لله سبحانه ، ونفي كل نقص وعيب ، لأن التسبيح يقتضي ذلك .

قوله : ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان : ١ ، ٢] :

قوله : ﴿تَبَارَكَ﴾ : من البركة وهو لغة : النماء والزيادة ، وتبارك فعل مختص بالله لم ينطق له بمضارع .

قوله : ﴿ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ ؛ أي : القرآن ، سمي بذلك ؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل ، ومنه

---

(١) مسلم (٢٢٧٧) ، وأحمد (٥/٨٩) من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه .

الفاروق ، وفيه دليل على أن القرآن منزل من عند اللَّه ، وفيه دليل على علوه سبحانه على خلقه ، لأن الإنزال والتنزيل لا يكون إلا من أعلى إلى أسفل ، وأفادت هذه الآية فضل هذا الكتاب على الكتب الأخرى .

قوله : ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ : أي : على عبده ورسوله محمد ﷺ ، وهذا صفة مدح وثناء ، لأنه أضافه إلى عبوديته ووصفه بها في أشرف مقاماته مقام الإرسال ، كقوله سبحانه : ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن : ١٩] ، ومقام الإسراء ، كقوله سبحانه : ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء : ١] ، ومقام التحدي كقوله سبحانه : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ الآية [البقرة : ٢٣] ، وهذه الإضافة إضافة تشريف وتعظيم ، وتقدم أن المضاف إليه سبحانه ينقسم إلى قسمين : إضافة أعيان وإضافة معان ، فإضافة المعاني إليه سبحانه وتعالى من باب إضافة الصفة إلى الموصوف ، كإضافة السمع والبصر والعلم والقدرة ونحو ذلك إليه سبحانه من كل شيء لا يقوم بنفسه .

الثاني : إضافة الأعيان إليه سبحانه ، فإضافتها إليه سبحانه من باب إضافة المخلوق إلى خالقه ، كبيت اللَّه وناقة اللَّه ، والحجر يمين اللَّه ، وعبد اللَّه ورسول اللَّه ونحو ذلك . وفي هذه الآية فضل نبينا ﷺ حيث إضافة إليه ووصفه بالعبودية التي هي من أشرف مقامات العبد .

قوله : ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ ؛ أي : منذرًا ، والإنذار : هو الإعلام بأسباب المخافة ، فكل إنذار إعلام ولا ينعكس . قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله : والإنذار المذكور في الآية إنذار عام ، فإن الإنذار ينقسم إلى قسمين : إنذار عام وإنذار خاص . والخاص كقوله سبحانه : ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات : ٤٥] ، وقوله : ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس : ١١] الآية .

فهذا الإنذار الخاص هو التام النافع الذي ينتفع به المنذر ، والإنذار : هو الإعلام بالخوف ، فعلم المخوف فآمن وأطاع . انتهى .

ونذارته ﷺ تنقسم إلى قسمين : عامة وخاصة ، فالعامة كما في هذه الآية ، والخاصة كقوله سبحانه : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء : ٢١٤] الآية .

قوله : ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ : اللام في قوله : ﴿لِيَكُونَ﴾ ؛ ليكون لام العلة ، ودخول لام التعليل في شرعه أكثر من أن يعد ، ففيه دليل على تعليل أفعال اللَّه وأنه لا يفعل شيئًا إلا لعلة وحكمة .

قال الشيخ تقي الدين : هذا قول السلف وجمهور السلف وجمهور العقلاء ، وقالت طائفة كجهم وأتباعه إنه لم يخلق شيئًا لشيء ووافقه أبو الحسن الأشعري ومن اتبعه من الفقهاء أتباع الأئمة . انتهى .

قوله : ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ : المراد بالعالمين هنا : الجن والإنس ، ففيه دليل على عموم رسالته ﷺ وبعثه إلى الجن والإنس ، ووفيه دليل على أن الجن مكلفون ، ويتضمن الدلالة على أنهم يثابون على الحسنات ويجازيهم على السيئات ، وفيه دليل على أن من بلغه القرآن ، فقد قامت عليه الحجة لقوله سبحانه وتعالى : ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ الآية [الفرقان : ١] ، ففيه الرد على من زعم : أن كلام اللَّه ورسوله لا يفيد اليقين ، فلو كان الأمر كما زعم هؤلاء المبتدعة لم تقم بالقرآن حجة على المكلفين ، وأفادت هذه الآية الحكمة في إرسال الرسل وإنزال الكتب .

قوله : ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ؛ أي : له التصرف فيهما والجميع خلقه وعبيده .

قوله : ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ ؛ أي : لكمال غناه وقيامه بنفسه وحاجة كل شيء إليه وافتقاره وقيام كل شيء ؛ سبحانه وتعالى .

قوله : ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ ؛ أي : أوجد وأنشأ وأبدع ، وتأتي خلق بمعنى : قدر ، وتأتي بمعنى : كذب ، كما قال سبحانه : ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت : ١٧] ، وقال الشاعر :

لي حيلة فيمن ينم وليس في الكذاب حيلة
من كان يخلق ما يقول فحيلتي فيه قليلة

قوله : ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ ؛ أي : خلق كل شيء مخلوق ، فيدخل في ذلك أفعال العبد ، فهي خلق اللَّه وفعل للعبد ولا يدخل في ذلك أسماء اللَّه وصفاته ؛ لأن الأسماء والصفات تابعة للذات يحتذى فيها حذوها . وعموم ﴿كُلُّ﴾ [الأنعام : ١٠١] في كل مقام بحسبه كقوله سبحانه : ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف : ٢٥] ، أي : كل شيء أمرت بتدميره ، وقوله : ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل : ٢٣] ، أي : من كل شيء يصلح للملوك ، فلا يدخل في ذلك القرآن ؛ لأن القرآن كلامه ، وهو صفة من صفاته واللَّه سبحانه وتعالى بصفات غير مخلوق ، كما في الصحيح من حديث خولة : « من نزل منزلًا وقال : أعوذ بكلمات اللَّه التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك »[1] ، فاستعاذ بكلمات اللَّه ، والاستعاذة بالمخلوق شرك ، فدل على أن كلامه سبحانه غير مخلوق ، كما استدل بذلك أحمد وغيره .

قال ابن القيم رحمه الله في « المدارج » : استدل الجهمية على خلق القرآن بهذه الآية فأجابهم السلف بأن القرآن كلامه سبحانه ، وكلامه من صفاته وصفاته داخلة في مسمى اسمه كعلمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره ووجهه ، فليس للَّه سبحانه وتعالى أسماء لذات لا نعت لها ولا صفة ولا فعل ولا وجه ولا يدين ، فإن ذلك إله معدوم مفروض في الأذهان لا وجود له في الأعيان كإله الجهمية الذي فرضوه

---

(١) مسلم (٢٧٠٨) ، والترمذي (٣٤٣٧) من حديث خولة بنت حكيم رضي الله عنها .

لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا متصل فيه ولا منفصل عنه ، ولا محايد ولا مباين ، أما إله العالمين الحق هو الذي دعت إليه الرسل وعرفوه بأسمائه وصفاته وأفعاله فوق سماواته بائن من خلقه ، موصوف بالكمال ، منزه عن كل عيب ، فتجريد الذات عن الصفات والصفات عن الذات فرض وخيال ذهني لا حقيقة له . انتهى .

قوله : ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ ؛ أي : قدر رزقه وأجله وحياته وموته وما يصلح له ، ففيه دليل على الإيمان بالقدر ، ودليل على ما سبق : علم اللَّه سبحانه وتعالى بالأشياء وكتابتها ، كما ثبت في « صحيح مسلم » عن عبد اللَّه بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال : « قَدَّر اللَّه مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء »[(١)] ، وفي البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « كان اللَّه ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السماوات والأرض »[(٢)] ، وفي رواية : « ثم خلق السماوات والأرض »[(٣)] ، وأحاديث تقديره وكتابته سبحانه لما يريد أن يخلقه كثيرة جدًّا .

أفادت هذه الآية عدا ما تقدم عموم ربوبيته سبحانه وتعالى وملكه ، وأنه الإله الحق وبطلان عبادة ما سواه ، وأفادت الحث على التوكل ؛ لأن من وقر في قلبه أن الملك للَّه ، وأنه المتصرف النافع الضار لم يبال بأحد من الخلق ، وأفادت كما ذكره بعضهم : أن العباد لا يملكون الأعيان ملكًا مطلقًا ، وإنما يملكون التصرف فيها على مقتضى الشرع ، وأفادت تحريم الإفتاء بغير علم ؛لأن ربوبيته وملكه يمنع من الحكم والإفتاء بغير إذنه وبغير حكمه ، وأفادت تعدد السماوات ، وأنها أشرف من الأرض ؛ لأنه قدمها ، وقد تقدم كلام ابن القيم رحمه الله في هذا الموضوع ، وفيها تنزيه سبحانه وتعالى عن مشابهة المخلوقين في قوله : ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ [الفرقان : ٢] ، فإن الولد عادة يكون من جنس الوالد ، وفيها الرد على اليهود القائلين : العزيز ابن اللَّه ، والنصارى القائلين : المسيح ابن اللَّه ، والمشركين القائلين الملائكة بنات اللَّه ، وفيها الرد على المشركين في إشراكهم معه غيره ، والرد على المجوس القائلين بأن النور خلق الخير ، والظلام خلق الشر ، والرد على الدهرية القائلين ما هي إلا حياتنا الدنيا ، وفيها الرد على القدرية القائلين بأن العباد يخلقون أفعالهم ، وتضمن إثبات صفة العلم للَّه سبحانه وتعالى ، فإن الخالق لا بد أن يعلم مخلوقه ، إذ الخلق فرع العلم فلا يمكن الخلق إلا بعد العلم ، قال تعالى : ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك : ١٤] .

(١) مسلم (٢٦٥٣) ، وأحمد (٢/١٦٩) من حديث عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما .

(٢) البخاري (٣٠١٩) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه .

(٣) البخاري (٦٩٨٢) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه .

ففيها الرد على غلاة القدرية الذين نفوا علمه سبحانه ، فكفرهم السلف قاطبة بذلك ، وفيها الرد على من زعم : أن العرش غير مخلوق ، وفيها الرد على المجبرة القائلين : إن العبد لا فعل له وأن فعله كهفيف الأشجار أو كحركة المرتعش ، وهذا باطل ترده أدلة الكتاب والسنة بل العقل والفطرة ، فإن أفعال العباد داخلة في عموم كل المضافة إلى شيء ، فهي مخلوقة والمخلوق بائن ، ومنفصل عن الخالق فليس هو فعله ، فإذًا لا بد له من فاعل يقوم به وهم العباد ، وكل أحد يفرق بين الحركة الاختيارية والاضطرارية ، وقد قال العلماء : أن مما يرده أدلة العقل والنقل والفطرة ، والأدلة على إثبات فعل العبد وأن له فعلًا حقيقة ينسب إليه على جهة الحقيقة لا على جهة المجاز أكثر من أن تحصر ، وفيها انتظام هذا الكون واتساقه على أكمل نظام وأتمه مما يدل دلالة واضحة على أن له خالقًا ومدبرًا وهو الله سبحانه .

قوله : ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون : ٩١، ٩٢] :

قوله : ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ ؛ أي : لأنه منزه عن المثل والشبيه والنظير ، والولد يشبه والده فلم يتخذ ولدًا لكمال صمديته وغناه وملكه وتعبد كل شيء له ، فاتخاذ الولد ينافي ذلك كما قال سبحانه : ﴿قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾ [يونس : ٦٨] ، ففيه الرد على من زعم أن له ولدًا كاليهود والنصارى والمشركين وغيرهم والرد على المشبهة الممثلة .

قوله : ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ﴾ ؛ أي ليس معه سبحانه شريك في الألوهية لتفرده سبحانه بالألوهية والربوبية وتوحده بصفات الكمال التي لا يوصف بها غيره سبحانه فيكون شريكًا له ، وكذا كل سلب وجد فهو لتضمنه إثبات كمال ضده ، وإلا فالسلب المحض ليس بمدح ولا ثناء . انتهى من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية .

قوله : ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾ ؛ أي : لو كان معه إله لذهب كل إله بما خلق ، أي : انفرد به ومنع غيره من الاستيلاء عليه ، فلو قدر ذلك لما كان ينتظم الوجود ، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق ، ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ﴾ [الملك : ٣] .

قوله : ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾ ؛ أي لو كان معه إله لعلا بعضهم على بعض مغالبة كفعل ملوك الدنيا فكل واحد منهم يطلب قهر الآخر ، والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا بدليل التمانع .

قوله : ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ ؛ أي : تنزيها لله سبحانه والتسبيح : التنزيه عن كل نقص وعيب .

قوله : ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ؛ أي : تنزيها لله سبحانه عما يصفه به المخالفون للرسل عليهم السلام .

وقال ابن القيم- رحمه اللَّه تعالى- : تأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز البين ، فإن الإله الحق لا بد أن يكون خالقًا فاعلًا يوصل إلى عابديه النفع ويدفع عنهم الضر ، فلو كان معه إله آخر لكان له خلق وفعل ، وحينئذ فلا يرضى شركة الإله الآخر معه ، بل إن قدر على قهره والتفرد بالألوهية دونه فعل ، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب به كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بممالكهم ، إذا لم يقدر المنفرد على قهر الآخر والعلو عليه فلا بد من أحد أمور ثلاثة :

إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه ، وإما أن يعلو بعضهم على بعض ، وإما أن يكونوا كلهم تحت قهر إله واحد يتصرف بهم ولا يتصرفون فيه ، فيكون وحده هو الإله الحق وهم العبيد المربوبون المقهورون ، وانتظام أمر العالم العلوي والسفلي وارتباط بعضه ببعض ، وجريانه على نظام محكم لا يختلف ولا يفسد من أدل دليل على أن مدبره واحد لا إله غيره ، كما دل دليل التمانع على أن خالقه واحد لا رب غيره فذلك تمانع في الفعل والإيجاد ، وهذا تمانع في الغاية والألوهية ، فكما يستحيل أن يكون للكون ربان خالقان متكافئان ، كذلك يستحيل أن يكون إلهان معبودان . اهـ .

قوله : ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ ؛ أي يعلم ما غاب عن العباد وما شاهدوه ، والغيب ينقسم إلى قسمين : غيب مطلق ، وغيب مقيد .

فالمطلق : لا يعلمه إلا اللَّه ، وهو ما غاب عن جميع المخلوقين الذي قال فيه : ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن : ٢٦] .

والغيب المقيد : ما علمه بعض المخلوقات من الجن والإنس ، فهو غيب عمن غاب عنه وليس هو غيبًا عمن شهده ، والناس قد يغيب عن هذا ما يشهده هذا فيكون غيبًا مقيدًا ، أي غيبًا عمن غاب عنه من المخلوقين لا عمن شهده ، وليس هو غيبًا مطلقًا عن المخلوقين قاطبة . انتهى من كلام شيخ الإسلام بتصرف .

قوله : ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف : ١٩٠] : قوله : ﴿فَتَعَـٰلَىٰ﴾ ، أي : علا وتنزه وتقدس عما لا يليق بجلاله ، فله سبحانه العلو الكامل المطلق من جميع الوجوه ، علو القهر ، أي أنه علا على كل شيء ، بمعنى : أنه قاهر له ، قادر عليه متصرف فيه كما قال تعالى : ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون : ٩١] انتهى . وله سبحانه وتعالى علو القدر ، فتعالى سبحانه وتنزه عن المثيل والنظير وتنزه عن النقائص والعيوب كما قال : ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة : ٣١] وفي دعاء الاستفتاح : « وتعالى جدك »[1] ، وله سبحانه علو الذات ، أي : أنه عال على

---

(١) أبو داود (٧٧٥) ، والنسائي (٨٩٩) ، وأحمد (٣/ ٥٠) من حديث أبي سعيد الخدري ﵁ . وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (٢٩٩٦) .

الجميع فوق عرشه ، وإثبات علوه سبحانه على ما سواه وقدرته عليه وقهره يقتضي ربوبيته له وخلقه له ، وذلك يستلزم ثبوت الكمال ، وعلو من الأمثال يقتضي أنه لا مثل له في صفات الكمال فاسمه : « العلي الأعلى » يتضمن اتصافه بجميع صفات الكمال وتنزيهه عما ينافيها من صفات النقص وعن أن يكون له مثل ، وأنه لا إله إلا هو ولا رب سواه . انتهى ملخصًا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

قوله : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل : ٧٤] :

قوله : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ : يعني الأشباه ، فتشبهونه بخلقه وتجعلون له شريكًا ، فإنه سبحانه لا مثل له ، ولا ند له لا في ذاته ولا في أسمائه وصفاته ولا في أفعاله ، وضرب المثل هو تشبيه حال بحال ، فلا يمثل سبحانه وتعالى بخلقه ولا يشبهه بهم سبحانه وتعالى ، فإنه سبحانه لا مثل له .

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية في أثناء كلامه : والله سبحانه لا تضرب له الأمثال التي فيها مماثلة لخلقه فإن الله لا مثل له ، بل له المثل الأعلى فلا يجوز أن يشرك هو والمخلوق في قياس تمثيل ولا قياس شمول تستوي أفراده ، بل يستعمل في حقه المثل الأعلى ، وهو أن كل ما اتصف به المخلوق من كمال فالخالق أولى به ، وكل ما ينزه عنه المخلوق من نقص فالخالق أولى بالتنزيه ، قال تعالى : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر : ٩] ، وهذا يبين أن العالم أكمل ممن لا يعلم ، وحينئذ فالمتصف له أولى ولله المثل الأعلى ، وقال تعالى : ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم : ٤٢] فدل على أن السميع البصير الغني أكمل وأن المعبود يجب أن يكون كذلك ، فمن جعل الواجب الوجود لا يقبل الاتصاف بصفات الكمال المذكورة فقد جعله من جنس الأصنام الجامد التي عابها الله وعاب عابديها ، والله سبحانه لم يذكر هذه النصوص لمجرد تقرير صفات الكمال ، بل ذكرها لبيان أنه المستحق للعبادة دون من سواه ، فأفاد الأصلين اللذين بهما يتم التوحيد ، وهو إثبات صفات الكمال ردا على أهل التعطيل ، وبيان أنه المستحق للعبادة لا إله إلا هو ردًا على المشركين . انتهى .

قوله : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٣] :

قوله : ﴿قُلْ﴾ ؛ قل يا محمد ، ففيه دليل على أن القرآن كلام الله ليس كلام محمد ولا غيره ، وإنما محمد عليه الصلاة والسلام مبلغ لكلام الله .

قوله : ﴿إِنَّمَا﴾ : أداة حصر تثبت المذكور وتنفي ما سواه .

قوله : ﴿حَرَّمَ﴾ ؛ أي : جعله حرامًا ومنع منه ، والحرام شرعًا : هو ما أثيب تاركه وعوقب فاعله ، وبمنعاه ، المحظور ، والممنوع ، والتحريم ينقسم إلى قسمين : شرعي كما في هذه الآية ، وكوني

قدري كما في قوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥].

قوله: ﴿رَبِّيَ﴾: الرب هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر لجميع الأمور، وإذا أفرد أو عرف لم يطلق إلا على اللّه سبحانه وتعالى، أما إذا أضيف فيطلق على غيره، ما يقال: رب الدار، ورب الدابة ونحو ذلك.

قوله: ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾: هي جمع فاحشة، وهو ما استعظم من الذنوب والمعاصي كالزنا واللواط وقتل النفس ونحو ذلك سماه اللّه فاحشة لتناهي قبحه.

قال ابن القيم رحمه الله في كتابه «المدارج»: فيه دليل على أن الأفعال التي توصف بأنها حسنة وقبيحة، كما أنها نافعة وضارة، ولكن لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب إلا بالأمر والنهي، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ الإسراء: ١٥]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣١] وعلى أحد القولين: هو أن المعنى لم يهلكهم بظلم قبل إرسال الرسل، فتكون الآية دالة على الأصلين: أن أفعالهم وشركهم قبيح قبل البعثة، وأنه لا يعاقبهم إلا بعد الإرسال.

قوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ ؛أي: ما أعلن منها وما أسر.

قوله: ﴿وَالْإِثْمَ﴾ ؛أي: الذنب، تعميم بعد تخصيص، وقيل: المراد بالإثم: الخمر، كما قال الشاعر:

شربت الإثم حتى ضل عقلي كذاك الإثم تذهب بالعقول

قوله: ﴿وَالْبَغْيَ﴾: هو التعدي على الناس.

قال ابن القيم في «المدارج»: وأما الإثم والعدوان فهما قرينان، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢] فكل منهما إذا انفرد تضمن الآخر، فكل إثم عدوان، إذ فعل ما نهى اللّه عنه وترك ما أمر اللّه به فهو عدوان على أمره ونهيه، وكل عدوان إثم فإنه يأثم به صاحبه، ولكن عند اقترانهما فهما شيئان بحسب متعلقهما ووصفهما، فالإثم: ما كان محرم الجنس كالكذب والزنا وشرب الخمر، والعدوان: ما كان محرم القدر والزيادة، فالعدوان تعدي ما أبيح منه إلى القدر المحرم كالاعتداء في أخذ الحق ممن هو عليه، إما أن يتعدى على ماله أو بدنه أو عرضه وهذا نوعان: عدوان في حق اللّه، وعدوان في حق العبد.

فالعدوان في حق اللّه كما إذا تعدى ما أبيح له من الوطء الحلال في الأزواج والمملوكات إلى ما حرم عليه من سواهما، والإثم والعدوان هما الإثم والبغي المذكوران في سورة الأعراف مع أن الغالب استعماله في حقوق العباد والاستطالة عليهم، وعلى هذا فإن اقترن بالعدوان كان البغي ظلمهم بمحرم

الجنس كالسرقة والكذب والبهت ، والعدوان تعدي الحق في استيفائه إلى أكبر منه ، فيكون البغي والعدوان في حقهم كالإثم والعدوان في حدود الله . انتهى بتصرف .

قوله : « ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ﴾ » أي : تصرفوا شيئًا من حق الله سبحانه إلى غيره من الأوثان والأنداد ، والشرك بالله هو أعظم الذنوب على الإطلاق وأجهل الجهل وأظلم الظلم كما في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « ألا أخبركم بأكبر الكبائر ؟ » قلنا : بلى يا رسول الله ، قل : « الإشراك وعقوق الوالدين » . وكان متكئًا فجلس وقال : « ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور » . فما زال يكررها حتى قلنا : ليته يسكت[1] .

وفي « الصحيح » من حديث عبد الله بن مسعود أنه قال للنبي ﷺ : أي الذنب عند الله أعظم ؟ فقال : « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » قال : قلت ثم أي ؟ قال : « أن تزاني بحليلة جارك »[2] .

والشرك ينقسم إلى قسمين : أكبر وأصغر ، فحد الشرك الأكبر هو تسوية غير الله بالله فيما هو خاص بالله .

قال ابن القيم رحمه الله : هو التشبه بالله أو تشبيه غيره به والتعريفان متقاربان ، وأما الشرك الأصغر فحده ما ورد في النصوص تسميته شركًا ولم يصل إلى حد الشرك الأكبر .

وينقسم الشرك الأكبر إلى قسمين : شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته ، وقسم يتعلق بمعاملته .

فالنوع الأول ينقسم إلى قسمين : شرك تعطيل وشرك تمثيل .

فشرك التعطيل ينقسم إلى ثلاثة أقسام : تعطيل المخلوق من خالقه ، وتعطيل الصانع من كماله المقدس بتعطيل أسمائه وصفاته ، وتعطيل حق معاملته ، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك .

القسم الثاني : شرك التمثيل وينقسم إلى قسمين : تشبيه المخلوق بالخالق ، كشرك النصارى وعبدة الأوثان شبهوا أوثانهم بالله وعبدوها معه .

القسم الثاني : تشبيه الخالق بالمخلوق ، كأن تقول : يد الله كأيدينا ، وعين الله كأعيننا ونحو ذلك ، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك .

النوع الثاني : شرك يتعلق بمعاملته سبحانه وهذا ينقسم إلى أقسام :

الأول : شرك الدعوة كقوله تعالى : ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت : ٦٥] .

---

(١) البخاري (٢٥١١) .

(٢) البخاري (٤٤٨٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

الثاني : شرك المحبة ، كقوله سبحانه : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة : ١٦٥] الآية .

الثالث : شرك الطاعة ، كقوله سبحانه : ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة : ٣١] الآية .

الرابع : شرك الإرادة والقصد ، كقوله سبحانه : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود : ١٥، ١٦] .

ويفترق الشرك الأكبر عن الشرك الأصغر في أمور ؛ منها : أن الشرك الأكبر لا يغفر لصاحبه ؛ لقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء : ٤٨] . أما الشرك الأصغر فهو تحت مشيئة اللَّه سبحانه . ومنها : أن الشرك الأكبر محبط لجميع الأعمال ؛ لقوله تعالى : ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان : ٢٣] ، وقوله : ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر : ٦٥] الآية . وأما الشرك الأصغر فلا يحبط إلا العمل الذي قارنه .

ومنها : أن الشرك الأكبر مخرج من الملة الإسلامية ، والأصغر لا يخرج من الملة الإسلامية .

ومنها : أن المشرك شركًا أكبر خالد مخلد في النار ، أما المشرك شركًا أصغر فهو كغيره من الذنوب .

قوله : ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ ؛ أي : برهان وحجة ، بل أنزل البرهان والحجة في تحريمه ، وأنه أعظم الذنوب على الإطلاق ، والسلطان والبرهان والحجة والدليل ألفاظ مترادفة ، وسلطان يأتي بمعنى الحجة كما في هذه الآية ، ويأتي بمعنى الملك كقوله : ﴿هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [الحاقة : ٢٩] ، ويأتي بمعنى التسلط كقوله : ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [النحل : ٩٩] الآية .

قوله : ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ؛ أي : وأن تقولوا على اللَّه من الافتراء والكذب ما لا علم لكم به ، فختم هذه المحرمات بالقول على اللَّه بلا علم ؛ لأنه أصلها وأعظمها ، وأصل بدعة وحدث في الدين ، ففيه تحريم القول على اللَّه بلا علم ، في أسمائه وصفاته وأفعاله ، وشرعه وقدره ، ووصفه بضد ما وصف به نفسه . اهـ .

وفي هذه الآية رتب المحرمات أربع مراتب وبدأ بأسهلها وهي الفواحش ، ثم ثنى بما هو أشد تحريمًا وهو الإثم والظلم ، ثم ثلث بما هو أعظم تحريمًا منهما وهو الشرك باللَّه ، ثم ربع بما هو أعظم

تحريمًا من ذلك كله وهو القول على الله بلا علم، في أسمائه وصفاته وأفعاله، وفي دينه وشرعه. انتهى من كلام ابن القيم رحمه الله.

قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾:

* في سبعة مواضع، أي أنه نص في معناه لا يحتمل التأويل، وصريح في أنه بذاته استوى استواء يليق بجلاله وعظمته.

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]:

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾: أي: هو المعبود وحده لا شريك له وعبادة غيره باطلة.

قوله: ﴿يُغْشِى﴾؛ أي: يغطي ﴿ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [الأعراف: ٥٤] فيذهب ظلام هذا بضياء هذا وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا، أي: سريعًا لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب جاء هذا وعكسه.

قوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾؛ أي: الجميع تحت قهره وتصريفه ومشيئته.

قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾؛ أي هو خالق كل شيء، وهذا عام فيشمل أفعال العباد، وله الأمر، أي: الملك والمتصرف، فلا راد لأمره ولا معقب لحكمه، والأمر ينقسم إلى قسمين: أمر شرعي ديني كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، وأمر كوني قدري كقوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦] الآية. تضمنت هذه الآية إثبات أنواع التوحيد الثلاثة، وأفادت الرد على الفلاسفة القائلين بقدم هذه المخلوقات، وأفادت عموم خلقه لهذه المخلوقات فيشمل ذواتها وصفاتها، وأفادت الاستدلال بهذه المخلوقات على وجود الخالق، وأفادت إثبات أسمائه وصفاته وأنه المستحق للعبادة، وأفادت إثبات صفة الخلق، وأفادت إثبات الأفعال الاختيارية اللازمة والمتعدية، وأفادت إثبات خلق السماوات ووجودها، وأفادت تعددها، وأفادت فضل السماء على الأرض، وأفادت أن خلق هذه المخلوقات في ستة أيام أولها يوم الأحد، وأفادت إثبات الاستواء على العرش استواء يليق بجلاله، وتضمنت إثبات العلو لله، وأفادت أن الاستواء صفة فعل، وأفادت أن الاستواء خاص بالعرش، وأفادت أن العرش مخلوق، وقد ثبت أن العرش مخلوق عظيم ذو قوائم وله حملة خلافًا للمبتدعة الذين ينفون وجود العرش ويقولون عرشه ملكه، فعلى قول هؤلاء المبتدعة يكون ربه تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة:

١٧] معناه: ويحمل ملك ربك، وهذا قول باطل مردود، وأفادت أن الاستواء على العرش بعد خلق السماوات والأرض؛ لأنه عقبه بـ «ثم»، وأفادت الرد على الجهمية وأضرابهم الذين يقولون: أن معنى استوى استولى؛ لأنه تحريف وزيادة في كتاب اللَّه وحمل له على غير ما يحتمل، فتوارد الأدلة على هذا المعنى نص فيه فلا يجوز تأويله، قال ابن القيم:

نون اليهود ولام جهمي هما   في وحي رب العرش زائدتان

قال الذهبي: وأول وقت سمعت مقالة من أنكر أن اللَّه فوق عرشه هو من الجعد بن درهم، وكذلك أنكر جميع الصفات، وقتله خالد بن عبد اللَّه القسري وقصته مشهورة، فأخذ هذه المقالة عنه الجهم بن صفوان إمام الجهمية فأظهرها واحتج لها بالشبهات، وكان ذلك في آخر عصر التابعين، فأنكر مقالته أئمة ذلك العصر مثل الأوزاعي وأبي حنيفة ومالك والليث بن سعد والثوري وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وابن المبارك ومن بعدهم من أئمة الهدى.

وأفادت الاستدلال بهذه المخلوقات على وجود خالقها ومدبرها وأنها آية واضحة ودلالة صريحة على وجوده سبحانه، وأنه المدبر والمسخر لهذه المخلوقات، وهي مستلزمة للعلم بصفات كماله، وتضمن ذلك أنه المعبود الحق وأن عبادة غيره باطلة، إذ ما سواه عاجز، والعاجز لا يصلح للأهلية، وأفادت التفريق بين الخلق والأمر، وفيه الرد على الجهمية والمعتزلة القائلين بأن كلام اللَّه مخلوق وأن خلقه وأمره واحد، ويروى عن سفيان الثوري رحمه الله أنه قال: فرق اللَّه بين الخلق والأمر فمن جمع بينهما فهو كافر. انتهى.

وفيها الرد على من زعم من الفلاسفة أن العرش هو الخالق الصانع، وفيها الرد على من زعم أن العرش لم يزل مع اللَّه وهو مذهب باطل. انتهى من «فتح الباري».

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]:

قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: خلق، أي: أنشأ وأوجد والخلق: هو اختراع الشيء على غير مثال سبق، ففيه إضافة الفعل والخلق إليه سبحانه على جهة الحقيقة؛ لأنها الأصل. وقد رد ابن القيم رحمه الله على من زعم أن خلقه وفعله مجاز من وجوه عديدة.

قوله: «﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾»: أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، وفيه اجتمع الخلق كلهم، وهذه الأيام كأيامنا، هذا هو المتبادر إلى الأذهان، وهو ظاهر الأدلة.

قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾؛ أي: استوى يليق بجلاله، وعظمته لا تكيفه ولا تمثله ولا يعلم كيف هو إلا هو كما قال مالك: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به، واجب والسؤال

عنه بدعة ، فقول مالك : الاستواء معلوم ، أي : في لغة العرب ، وقوله : والكيف مجهول ، أي : كيفية استوائه لا يعلمها إلا هو ، والإيمان به أي : بالاستواء واجب لتكاثر الأدلة في إثباته ، والسؤال عنه ، أي : عن الكيفية بدعة إذ لا يعلم كيفية استوائه إلا هو ، فإن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات ، فكما نعلم أن للّه ذاتًا لا تشبه الذوات ، فكذلك يجب أن نثبت له صفات لا تشبه الصفات ، فإثباتنا للصفات إثبات وجود لا إثبات تكييف وتمثيل ، إذ العلم بالصفة فرع عن العلم بالموصوف ، ولا يعلم كيف هو إلا هو ، وكذلك يقال في بقية الصفات كصفة المجيء والنزول والإتيان والوجه واليد ونحو ذلك ، فهذا الجواب الوارد عن الوارد عن مالك ﷺ كاف شاف في سائر الصفات .

قال الذهبي : فانظر إليهم كيف أثبتوا الاستواء للّه وأخبروا أنه معلوم لا يحتاج لفظه إلى تفسير ، ونفوا عنه الكيفية ؟ ! أما معنى الاستواء في اللغة فلها أربعة معان ، تأتي بمعنى علا ، وبمعنى ارتفع ، وبمعنى صعد ، واستقر ، كما قال ابن القيم ﷺ في كتابه المسمى بـ « النونية » .

ولهم عبارات عليهم أربع	قد فسرت للفارس الطعان
وهي استقر وقد علا وكذلك	ارتفع الذي ما فيه من نكران
وكذاك قد صعد الذي هو رابع	وأبو عبيدة صاحب الشيباني
يختار هذا القول في تفسيره	أدرى من الجهمي بالقرآن
والأشعري يقول تفسير استوى	بحقيقة استولى على الأكوان

فهذه الأربعة التي ذكرها ابن القيم ﷺ هي التي تدور عليها تفاسير السلف رحمهم اللّه قال البخاري ﷺ في « صحيحه » : قال مجاهد : استوى : علا على العرش ، وقال إسحاق بن راهويه : سمعت غير واحد من المفسرين يقولون : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه : ٥] ، أي : ارتفع ، وقال محمد بن جرير في قوله : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ ، أي : علا وارتفع ، وشواهد في أقوال الصحابة والتابعين وأتباعهم معروفة .

وأما تفسير ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ باستولى أو ملك أو قهر فهو تفسير باطل مردود من وجوه عديدة ؛ منها : أن هذا التفسير لم يفسره به أحد من السلف لا من الصحابة ولا من التابعين ، بل أول من عرف عنه هذا التفسير بعض الجهمية والمعتزلة .

ثانيًا : إن الاستواء في لغة العرب الذين نزل القرآن بلغتهم نوعان : مطلق ومقيد ، فالمطلق ما لم يقيد بحرف كقوله تعالى : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ [القصص : ١٤] وهذه معناها تم وكمل ، وأما المقيد فثلاثة أنواع : أحدها مقيد بإلى كقوله : ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [فصلت : ١١] وهذا بمعنى العلو والارتفاع بإجماع الـ[illegible] . الثاني : [illegible] بعلى كقوله : ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف : ١٣] ،

وقوله : ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّ﴾ [هود : ٤٤] وهذا- نصًا- : معناه العلو والارتفاع والاعتدال بإجماع أهل اللغة . الثالث : المقرون بواو المعية كقولهم : استوى الماء والخشبة ، وهذا بمعنى ساواها ، فهذه معاني الاستواء المعقولة في كلامهم ليس فيها البتة استولى ولا نقله أحد من أئمة اللغة ، وإنما قاله متأخرة والنحاة ممن سلك طريق الجهمية والمعتزلة مستدلين ببيت للأخطل النصراني وهو قوله :

قد استوى بشر على العراق　　　من غير سيف أو دم مهراق

وهذا البيت ليس من شعر العرب ، وأهل اللغة لما سمعوه أنكروه غاية الإنكار ولم يجعلوه من لغة العرب .

ثالثا : إن هذا معنى هذه الكلمة مشهور كما قال مالك وربيعة وغيرهم .

رابعًا : إنه لو لم يكن معنى الاستواء في الآية معلومًا لم يحتج أن يقول : والكيف مجهول ؛ لأن نفي العلم بالكيف لا ينفي إلا ما قد علم أصله .

خامسًا : إن الاستواء خاص بالعرش ، وأما الاستيلاء فهو عام على سائر المخلوقات فلو كان معنى الاستواء : الاستيلاء ؛ لجاز أن يقول : استوى على الماء والهواء والأرض .

سادسًا : أنه أخبر بخلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ، وأخبر أن عرشه على الماء قبل خلقهما ، والاستواء متأخر عن خلقهن ، والله مستول على العرش قبل خلق السماوات وبعده ، فعلم أن الاستواء على العرش الخاص به غير الاستيلاء العام عليه وعلى غيره .

سابعًا : إنه لم يثبت في اللغة أن معنى ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ [الرعد : ٢] استولى ؛ إذ الذين قالوا ذلك عمدتهم البيت المذكور ولم يثبت نقل صحيح أنه عربي ، وغير واحد من أئمة اللغة أنكروه وقالوا : بيت مصنوع لا يعرف في اللغة ، فكيف تعارض أدلة الكتاب والسنة ببيت شعر نصراني ومع ذلك لم يثبت ؟ قال الشيخ تقي الدين رحمه الله في « لاميته » المشهورة :

قبحًا لمن نبذ الكتاب وراءه　　　وإذا استدل يقول قال الأخطل

وقال ابن القيم رحمه الله في كتابه « النونية » :

ودليلهم في ذاك بيت قاله　　　فيما يقال الأخطل النصراني

إلى غير ذلك من الوجوه التي ذكرها أهل العلم في رد وإبطال هذا التفسير ، وقد أنهاها ابن القيم رحمه الله إلى اثنين وأربعين وجهًا .

قوله : « العرش » : وهو لغة : عبارة عن السرير الذي يملك كما قال تعالى عن بلقيس : ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ [النمل : ٢٣] ، فالعرش سرير ذو قوائم تحمله الملائكة ، وهو كالقبة على العالم وهو سقف المخلوقات .

قال البيهقي رحمه الله : اتفقت أقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير ، وأنه جسم خلقه الله وأمر ملائكته بحمله وتعبدهم بتعظيمه والطواف به ، كما خلق بيتًا في الأرض وأمر بني آدم بالطواف به واستقباله ، وقد اختلف العلماء في السابق بالخلق هل هو العرش أو القلم ، ونظم ذلك ابن القيم في « النونية » بقوله :

والناس مختلفون في القلم الذي ... كتب القضاء به من الديان
هل كان قبل العرش أو هو بعده ... قولان عند أبي العلا الهمذاني
والحق أن العرش قبل لأنه ... قبل الكتابة كان ذا أركان
وكتابة القلم الشريف تعقبت ... إيجاده من غير فصل زمان

قوله : ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ :

أي : رفع السماوات بغير عمد بل بإذنه وتسخيره رفعها عن الأرض بعدا لا ينال ولا يدرك مداها كما في حديث : « إن بعد ما بين السماء والأرض خمسمائة عام وكذلك بعد ما بين السماوات »[1] .

وجاء عن بعض السلف : أن ما بين العرش إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة ، وبعد ما بين قطريه خمسين ألف سنة وهو من ياقوتة حمراء .

قوله : ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ ؛ أي : بغير عمد .

قوله : ﴿تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد : ٢] : تأكيد للنفي ، أي : هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها . قال ابن كثير : وهذا هو الأكمل في القدرة .

قوله : « في سورة طه : ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ إلخ الآيات » :

* فهذه الآيات فيها دلالة واضحة على إثبات الاستواء على العرش وأنه استواء حقيقة يليق بجلاله وعظمته ، وفيها الرد على من زعم أن ذلك مجاز عن القهر أو الاستيلاء ، فيها دليل على إثبات العرش وأنه مخلوق والرد على من زعم أن معنى العرش الملك ، وفيها دليل على أن الاستواء صفة فعل ، وفي هذه الآيات دليل على علوه سبحانه على خلقه ، فأدلة الاستواء كلها أدلة على إثبات العلو ، وينقسم العلو إلى ثلاثة أقسام :

الأول : علو القهر . الثاني : علو القدر . الثالث : على الذات ، خلافًا للمبتدعة الذين ينكرون علو الذات .

وأدلة العلو عقلية ، فقد تواطأت أدلة السمع والعقل على إثباته ، وكذلك قد فطر الخلق على إثباته ،

---

(١) ابن خزيمة في « التوحيد » (٥٩٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

أما الاستواء فدليله سمعي فقط ، وهو أيضًا صفة فعل . اهـ .

وفي الآيات دليل صحيح على أن اللَّه سبحانه ليس هو عين هذه المخلوقات ولا صفة ولا جزء منها ، فإن الخالق غير المخلوق وليس بداخل فيها محصور ، بل هي صريحة في أنه مباين لها وليس حالًا فيها ولا محل لها سبحانه . انتهى من كلام ابن القيم رحمه اللَّه تعالى .

قوله : ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران : ٥٥] :

قوله : ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ ؛ أي : قابضك من الأرض ورافعك إلي من غير موت ، من قولهم : توفيت الشيء واستوفيته إذا قبضته وأخذته تامًا ، انتهى . « الخازن » .

والتوفي : الاستيفاء ، وهو يصلح لتوفي النوم ولتوفي الموت الذي هو فراق الروح البدن ، ولم يذكر القبض الذي هو قبض الروح والبدن جميعًا ، والصواب الذي عليه المحققون : أن عيسى عليه السلام لم يمت بحيث فارق روحه بدنه ، بل هي حي مع كونه توفي . انتهى من « خيارات الشيخ تقي الدين ابن تيمية » .

قوله : ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ ؛ أي رفعه اللَّه سبحانه إلى السماء وهو حي كما قال : ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء : ١٥٩] ، والضمير في قوله : ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ عائد إلى عيسى وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة ، ونزول عيسى ثابت وهو أحد أشراط الساعة الكبار ، وفي « الصحيحين » عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلًا مقسطًا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد »[1] . وفي رواية : « حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها » ، ثم يقول : « اقرءوا إن شئتم : ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ »[2] . وفي هذه الآية إثبات الكلام للَّه سبحانه والرد على من زعم أن كلامه سبحانه معناه المعنى النفسي ، وفيها دليل على أن اللَّه رفع عيسى إلى السماء وقبضه إليه ، وفيه دليل على علوه سبحانه على خلقه ، إذ الرفع لا يكون إلا من أسفل إلى أعلى .

قوله : ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ :

* في هذه الآية كالآية السابقة دليل على أن اللَّه رفع عيسى عليه السلام إلى السماء وقبضه إليه ، وفيها دليل على علوه سبحانه على خلقه ، وفي هذه الآية والتي قبلها الرد على اليهود الذين تنقصوه وجعلوها ابن زنى ، والرد على النصارى الذين غلوا فيه ورفعوه عن مقام النبوة إلى مقام الربوبية ،

---

(١) البخاري (٢١٠٩) ، ومسلم (١٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) البخاري (٣٢٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا .

قوله : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر : ١٠] :

قوله : ﴿إِلَيْهِ﴾ ؛ أي إلى الله سبحانه وتعالى . ﴿يَصَّعَّدُ﴾ [الأنعام: ١٢٥] : أي يرتفع ، والصعود : الارتفاع ، وأما أصعد يصعد بالضم فمعناه : أبعد في الهروب ، ومنه ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣] .

قوله : ﴿الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ : يعني الذكر والتلاوة والدعاء ، قاله غير واحد من السلف . انتهى من ابن كثير .

قوله : ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ : قال مجاهد : العمل الصالح يرفع الكلم الطيب . وقيل : الرفع من صفة الله سبحانه وتعالى ، أي : العمل الصالح يرفعه الله ، الطيب . وقيل : الرفع من صفة لله سبحانه وتعالى ، أي : العلم الصالح يرفعه الله ، قال سفيان بن عيينة : العمل الصالح : هو الخالص ، يعني : أن الإخلاص بسبب قبول العمل كما قال سبحانه : ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الكهف : ١١٠] الآية . وقال ابن القيم : العمل الصالح : هو الخالي من الرياء المقيد بالسنة . في هذه الآية أيضًا دليل على علو الله سبحانه وتعالى ؛ لأن الصعود والرفع لا يكون إلا من أسفل إلى أعلى .

قوله : ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [غافر : ٣٦، ٣٧] :

قوله : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ : هو ملك القبط في الديار المصرية ، وفرعون لقب لكل من ملك مصر .

قوله : ﴿يَا هَامَانُ﴾ ؛ أي قال فرعون لوزيره هامان ﴿ابْنِ لِي صَرْحًا﴾ [غافر : ٣٦] أي قصرًا عاليًا منيفًا .

قوله : ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ : أسباب : مفرده سبب ، والسبب يأتي بمعنى الحبل كقوله : ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [الحج : ١٥] ، والطريق ، ومنه قوله : ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف : ٨٥] ، والباب كقوله : ﴿أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾ [غافر : ٣٧] .

قوله : ﴿أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾ : أي طرقها وأبوابها وما يؤدي إليها وكل ما أدى إلى شيء فهو سبب إليه كالرشا ونحوه .

قوله : ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ : بالنصب على جواب الشرط ؛ أي : أصعد ، والاطلاع هو الصعود .

قوله : ﴿إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ ؛ أي : في دعواه أن له إلهًا غيري وأنه أرسله ، ففي هذه الآية دليل على أن موسى عليه كان يقول ربه في السماء ، وفرعون يظنه كاذبًا . فمن نفى العلو من الجهمية فهو فرعوني ومن أثبته فهو موسوي محمدي ، ففيها دليل على إثبات علو الله سبحانه على

خلقه ، وأن موسى عليه السلام أخبر أن ربه في السماء ، وعلو اللَّه سبحانه على خلقه مما تواطأ على إثباته العقل والنقل وفطر اللَّه عليه الخلق ، وأدلة إثبات العلو كثيرة جدًا تزيد على ألف دليل ، قيل لعبد اللَّه بن المبارك : كيف نعرف ربنا ؟ فقال : بأنه فوق السماء السابعة على العرش بائن من خلقه . وقال الأوزاعي : كنا والتابعون متوافرون نقول : إن اللَّه تعالى بائن من خلقه ، ونؤمن بما وردت به السنة ، وقال أبو عمرو الطلمنكي في كتاب « الأصول » : أجمع المسلمون من أهل السنة على أن اللَّه استوى على عرشه على الحقيقة لا على المجاز ، ثم ساق بسنده عن مالك قال : اللَّه في السماء وعلمه في كل مكان ، ثم قال في هذا الكتاب : أجمع المسلمون من أهل السنة أن معنى قوله : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد : ٤] ونحو ذلك من القرآن أن ذلك علمه ، وأن اللَّه فوق السماوات بذاته مستو على عرشه كيف شاء ، هذا لفظه في كتابه ، وهذا كثير في كلام الصحابة والتابعين ، والأئمة أثبتوا ما أثبته اللَّه في كتابه على لسان رسوله على الحقيقة فيما يليق بجلاله وعظمته ، ونفوا عنه مشابهة المخلوقين ولم يمثلوا أو يعطلوا .

قوله : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ [الملك : ١٦، ١٧] :

قوله : ﴿ءَأَمِنتُم﴾ : من الأمن وهو ضد الخوف .

قوله : ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ؛ أي : أأمنتم عقاب من في السماء وهو اللَّه إن عصيتموه ، وهذا عند أهل السنة على أحد وجهين :

الأول : أن تكون ﴿فِي﴾ بمعنى على .

الثاني : أن يراد بالسماء العلو ، لا يختلفون في ذلك ولا يجوز الحمل على غيره .

قوله : ﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ﴾ ؛ أي كما خسف بقارون .

قوله : ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ﴾ ؛ أي : ريح شديدة سميت بذلك ؛ لأنها ترمي الحصباء .

قوله : ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ : أي إذا رأيتم ذلك علمتم كيف إنذاري حين لا ينفعكم العلم . في هذه الآية إشارة إلى التحذير من الأمن من مكر اللَّه ، وفي هذه الآية دلالة واضحة على علو اللَّه سبحانه على خلقه ، وقد تواترت في ذلك الأدلة واتفقت على إثبات العلو جميع الرسل ، وذكر ابن القيم أن أدلة العلو تزيد على ألف دليل ، وينقسم العلو إلا ثلاثة أقسام كما تقدمت الإشارة إلى ذلك : علو القدر ، علو القهر ، علو الذات ، فله العلو الكامل من جميع الوجوه ، قال ابن القيم رحمه الله في « النونية » .

إن العلو بمطلقه على التعـ	ـميم والإطلاق بالبرهان
وله العلو من الوجوه جميعها	ذاتًا وقهرًا مع علو الشأن
وعلوه فوق الخليقة كلها	فطرت عليه الخلق والثقلان
كل إذا ما نابه أمر يرى	متوجها بضرورة الإنسان
نحو العلو فليس يطلب خلفه	وأمامه أو جانب الإنسان

وكذلك الفوقية فإنها ثابتة للّٰه سبحانه وتعالى ، قال اللّٰه تعالى : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل : ٥٠] ، وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام : ١٨] وهي من صفات الذات . وفوق وعلا بمعنى واحد ، وفوقيته سبحانه ثابتة كعلوه تواطأت على إثباتها أدلة العقل والنقل والفطر التي لم تتغير ، وأقسام الفوقية ثلاثة :

فوقية القدر ، فوقية القهر ، فوقية الذات ، خلافًا للجهمية والمعتزلة الذين ينكرون فوقية الذات ، قال ابن القيم رحمه الله في « النونية » :

والفوق وصف ثابت بالذات من	كل الوجوه لفاطر الأكوان
لكن نفاة الفوق ما وفوا به	جحدوا كمال الفوق للرحمن
بل فسروه بأن قدر الله	أعلا لا بفوق الذات للديان
قالوا وهذا مثل قول الناس في	ذهب يرى من خالص العقيان
وهو فوق جنس الفضة البيضاء لا	بالذات لا بل في مقتضى الأثمان
والفرق أنواع ثلاث كلها	للّٰه ثابتة بلا نكران
هذا الذي قالوا وفوق القهر	والفوقية العليا على الأكوان

قال ابن القيم رحمه الله : ومما أدعى المعطلة مجازه : الفوقية ، وقد ورد به القرآن مطلقًا بدون حرف ، ومقترن بحرف . فالأول كقوله : ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام : ١٨] في موضوعين . والثاني كقوله سبحانه : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل : ٥٠] وفي حديث الأوعال : « والعرش فوق العرش لا يخفى عليه شيء من أعمالكم »[1] ، وحقيقة الفوقية : علو ذات الشيء على غيره ، فأدعى الجهمي أنه مجاز في فوقية الرتبة والقهر ، كما يقال الذهب فوق الفضة ، وهذا وإن كان ثابتا للرب لكن إنكار حقيقة فوقيته سبحانه وحملها على المجاز باطل من وجوه عديدة :

أحدهما : أن الأصل الحقيقة ، والمجاز خلاف الأصل .

الثاني : أن الظاهر خلاف ذلك إلى أن قال ...

---

(١) ابن خزيمة في « التوحيد » (٥٩٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

الثالث : أن الفطر والعقول والشرائع وجميع كتب اللّٰه المنزلة على خلاف ذلك ، وساق وجوها عديدة في إبطال ما ذكروه والرد عليهم في « الصواعق » .

قوله : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ :

فيه إثبات الأفعال الاختيارية للرب سبحانه ، وهي تنقسم إلى قسمين : لازمة كالاستواء والمجيء والنزول ، ومتعدية .. كالخلق والرزق والإحياء والإماتة ونحو ذلك ، فهو سبحانه موصوف بالنوعين ، وقد جمعها في هذه الآية ، وفيها بيان أن الخلق غير المخلوق ، لأن نفس خلقه السماوات والأرض غير السماوات والأرض ، وفيها ، دليل على مباينة الرب سبحانه لخلقه فإنه لم يخلقه في ذاته بل خلقهم خارجا عن ذاته ثم بأن عنهم باستوائه على عرشه وهو يعلم ما هم عليه فيراهم وينفذه بصره فيهم ، ويحيط بهم علمًا وقدرة وإرادة وسمعًا وبصرًا ، وهذا معنى كونه أينما كانوا .

قوله : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ ؛ أي : معكم بعلمه ، وقد حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه : معية العلم ، ولا شك في إرادة ذلك ، فعلمه بهم وبصره نافذ فيهم ، فهو سبحانه مطلع على خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شيء ، فإن « مع » في لغة العرب لا تقتضي أن يكون أحدًا لشيئين مختلطا بالآخر ، كقوله سبحانه : ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة : ١١٩] ، وجاءت المعية في القرآن عامة وخاصة ، فالعامة كما في هذه الآية فافتتح الكلام بالعلم وختمه بالعلم ، فدل على أنه معهم بالعلم ؛ ولهذا قال ابن عباس والضحاك وسفيان وأحمد والثوري : وهو معهم بعلمه .

أما المعية الخاصة كقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل : ١٢٨] فهو مع المتقين دون الظالمين ، فلو كان معنى المعية أنه في كل مكان لتناقض الخبر الخاص والعام ، بل المعنى أنه مع هؤلاء بنصره وحفظه وتأييده دون أولئك .

وقد أخبر في هذه الآية وغيرها أنه سبحانه مع خلقه مع كونه مستويا على عرشه ، وقرن بين الأمرين كما قال سبحانه : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد : ٤] الآية ، فأخبر أنه أستوى على عرشه وأنه مع خلقه يبصر أعمالهم من فوق عرشه كما في حديث الأوعال ، فعلوه سبحانه لا يناقض معيته ، ومعيته لا تبطل علوه فكلاهما حق ، فهذه الآية فيها إثبات صفة الخلق كما تقدم ، وفيها الرد على من زعم قدم هذه المخلوقات وأنها لم تزل ولا تزال ، وفيها إثبات الأفعال الاختيارية ، وفيها أن هذه المخلوقات خلقت في ستة أيام ، وفيها إثبات الاستواء ، وفيها دليل على أن الاستواء صفة فعل ، وفيها دليل على إثبات صفة العلم ودليل على شمول العلم لكل شيء من الكليات والجزئيات ، وفيها إثبات معيته سبحانه لخلقه وأنها لا تناقض علوه واستواءه على العرش بل كلاهما حق .

وفيها إشارة إلى الندب إلى استحضار قربه واطلاعه كما في الحديث : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »(١) .

قوله : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة : ٧] :

قوله : ﴿مَا يَكُونُ﴾ ؛ أي : يوجد فـ « كان » تامة .

قوله : ﴿مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ : النجوى : إسرار ثلاثة ، فالنجوى : الإسرار .

قولهم : ﴿رَابِعُهُمْ﴾ : لما كان سبحانه وتعالى ليس من جنس خلقه جعل نفسه رابع الثلاثة ، وسادس الخمسة ، إذ هو غيرهم بالحقيقة ، والعرب تقول : رابع أربعة وخامس خمسة لما يكون فيه المضاف إليه من جنس المضاف ، فإذا كان المضاف إليه من غير جنسه قالوا : رابع ثلاثة ، وسادس خمسة ونحو ذلك . أفاده ابن القيم في « الصواعق » .

قوله : ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ ؛ أي : مطلع عليهم يسمع كلامهم ويعلم سرهم ونجواهم ، ورسله مع ذلك تكتب ما يتناجون به مع علمه وسمعه ، وكما قال سبحانه : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف : ٨٠] ، قال ابن كثير رحمه الله : ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علمه سبحانه ، ولا شك في إرادة ذلك ، ولكن سمعه أيضًا مع علمه بهم وبصره نافذ فيهم ، فهو سبحانه مطلع على خلقه لا يغيب عنه من أمرهم شيء .

قوله : ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾ ؛ أي : يخبرهم يوم القيامة بجميع أعمالهم ، قال تعالى : ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف : ٤٩] .

قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ : قال الإمام أحمد : أفتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم ، وقال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله : أجمع العلماء من الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل- أي تفسير القرآن- قالوا في تأويل قوله : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة : ٧] الآية ، هو على عرشه وعلمه بكل مكان وما خالفهم في ذلك من يحتج بقوله .

قوله : ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ :

* كان هذا القول عام الهجرة لما هم المشركون بقتل النبي ﷺ أو حبسه أو نفيه فخرج منهم

(١) البخاري (٥٠) ، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

هاربًا صحبه صديقه وصاحبه أبو بكر فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم ثم يسيرون نحو المدينة ، فخاف أبو بكر على النبي ﷺ ، فجعل النبي ﷺ يسكنه ويثبته ويقول : « ما ظنك باثنين اللّه ثالثهما » . كما روى الإمام أحمد في مسنده عن أنس أن أبا بكر حدثه قال : قلت للنبي ﷺ : ونحن في الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه ، فقال رسول اللّه ﷺ : « ما ظنك باثنين اللّه ثالثهما »[1] . أخرجاه في « الصحيحين » ، ولذلك قال العلماء : من أنكر صحبة أبي بكر فهو كافر لإنكاره كلام اللّه وليس ذلك لغير أبي بكر .

قوله : ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ : الحزن هو ضد السرور .

قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ ؛ أي بنصره وحفظه وكلاءته ، ومن كان اللّه معه فلا خوف عليه .

قوله : ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ :

* قد تقدم الكلام على هذه الآية الكريمة فارجع إليه .

قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ :

* أي : معهم بنصره وحفظه وتأييده ، وهذه معية خاصة ، وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم كما تقدم في قوله : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد : ٤] ، فهي مقتضية لتخويف العباد منه .

قوله : ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ :

* في هذه الآية الأمر بالصبر وهو دليل على وجوبه وهو شامل لأنواع الصبر الثلاثة ، فإن حذف المعمول يؤذن بالعموم .

قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ، أي : بحفظه ونصره وتأييده وهذه معية خاصة .

قوله : ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ :

قوله : ﴿فِئَةٍ﴾ : أي جماعة ، وهي جمع لا واحد له من لفظه .

قوله : ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ : أي بقضائه وإرادته ومشيئته .

أفادت هذه الآية كالآية السابقة الحث على الصبر وأنه أعظم سبب في تحصيل المقصود ، وفيه أيضًا المعية الخاصة للصابرين وأن اللّه ضمن لهم النصر ، وفي حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال : « واعلم أن النصر مع الصبر »[2] ، وفيها أن النصر من عند اللّه سبحانه وتعالى ، لا عن كثرة عدد ولا

---

(١) البخاري (٤٣٨٦) ، ومسلم (٢٣٨١) ، وأحمد (٤/١) من حديث أبي بكر رضي الله عنه .

(٢) أحمد (٣٠٧/١) ، والطبراني (١٢٣/١١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (٢٣٨٢) .

عدة ، وإنما تلك أسباب ، وقد أمر الله سبحانه وتعالى بتعاطيها واتخاذها كما قال سبحانه : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال : ٦٠] ، أفادت هذه الآيات المتقدمة إثبات المعية ، فالآيتان الأوليان فيهما إثبات المعية العامة ، والخمس الآيات الأخيرة فيها إثبات المعية الخاصة ومعيته سبحانه لا تنافي علوه على خلقه واستوائه على عرشه بل تجامعه ، فإن قربه سبحانه ومعيته ليست كقرب المخلوق ومعيته ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] .

قوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ : أي : هو إله ومعبود أهل السماوات والأرض ، كما تقول : فلان أمير في خراسان وفي العراق ، فلا يدل على أنه فيهما جميعًا ، وكذلك قوله : ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام : ٣] فسره أئمة العلم كالإمام أحمد وغيره أنه المعبود في السماوات والأرض ، فهذه الآيات لا تخالف الآيات التي فيها إثبات علوه سبحانه واستوائه على عرشه ، بل تجامعها ، فإن قربه ومعيته كما يليق بجلاله وعظمته ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] .

قوله : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ﴾ :

* لفظه استفهام ومعناه لا أحد أصدق من الله في حديثه وخبره ووعد ووعيده ، وكان رسول الله ﷺ يقول في خطبته : « إن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ »(١) .

قوله : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ : أي لا أحد أصدق من الله قولًا ولا خبرًا .

قوله : ﴿ابْنَ مَرْيَمَ﴾ : أضافه إلى أمه ؛ لأنه لا أب له فهو من أم بلا أب ، ففي هذه الآيات إثبات القول لله سبحانه وتعالى وأنه يقول متى شاء إذا شاء ، وأن الكلام والقول المضاف إليه سبحانه قديم النوع حادث الآحاد ، وفيه دليل على أنه سبحانه يتكلم بحرف وصوت كما يليق بجلاله سبحانه ، وفيه الرد على من زعم أن كلام الله هو المعنى النفسي ، إذ المعنى المجرد لا يسمع .

قوله : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ :

قوله : ﴿صِدْقًا﴾ : أي صدقًا في الإخبار وعدلًا في الطلب ، فكل ما أخبر به سبحانه فهو حق لا مرية فيه ولا شك ، فكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه ، وكل ما نهى عنه فباطل ؛ لأنه لا ينهي إلا عن مفسدة ، والمراد بالكلمة : أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وكلمات الله نوعان : كونية ودينية .

فكلمات الله الكونية : هي التي استعاذ النبي ﷺ بها في قوله : « أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر »(٢) ، وكقوله : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام : ١١٥] .

---

(١) مسلم (٨٦٧) ، والنسائي (١٥٧٨) ، وأحمد (٣/٣١٠) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

(٢) « صحيح وضعيف الجامع الصغير » للألباني (حديث رقم : ٧٤) .

النوع الثاني : الكلمات الدينية : وهي القرآن وشرع اللَّه الذي بعث به رسوله ، وهي أمره ونهيه . انتهى من كلام الشيخ تقي الدين ابن تيمية .

قوله : ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ : أي ليس أحد يعقب حكمه سبحانه لا في الدنيا ولا في الآخرة .

قوله : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ : الذي أحاط سمعه بسائر الأصوات ، وأحاط علمه بالظواهر والخفيات .

قوله : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ :

* خصص اللَّه نبيه موسى عليه السلام بهذه الصفة تشريفًا له ؛ ولذا يقال لموسى عليه السلام : الكليم ، وهذا دليل على أن التكليم الذي حصل لموسى عليه السلام أخص من مطلق الوحي ، ثم أكده بالمصدر الحقيقي رفعًا لما توهمه المعطلة من أنه إلهام أو إشارة أو تعريف للمعنى النفسي بشيء غير التكليم فأكده بالمصدر المفيد لتحقيق النسبة ورفع توهم المجاز ، قال الفراء : إن الكلام إذا أكد بالمصدر ارتفع المجاز وثبتت الحقيقة ، ويروى أن رجلًا قال لأبي عمرو بن العلاء : أريد أن تقرأ : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء : ١٦٤] ، بنصب لفظ الجلالة فقال له : هب قرأت ذلك فما تقول في قوله : ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف : ١٤٣] فبهت المعتزلي .

قوله : ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ :

أي : كلمه اللَّه كموسى عليه السلام ومحمد ، وكذلك آدم كما ورد به الحديث المروي في « صحيح ابن حبان » عن أبي ذر رضي الله عنه .

قوله : ﴿لِمِيقَـٰتِنَا﴾ : أي : للوقت الذي ضربنا أن نكلمه فيه .

قوله : ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ : أي : كلمه سبحانه وتعالى بكلام حقيقي يليق بجلاله وعظمته وكلمه بلا واسطة ، فهذه الآيات أفادت إثبات صفة الكلام للَّه ، وأنه تكلم ويتكلم سبحانه وتعالى ، والأدلة على أنه يتكلم أكثر من أن تحصر ، وفيها الرد على من زعم أن كلامه سبحانه معنى واحد قائم بالنفس لا يتصور أن يسمع ، وفيها دليل على أن كلامه سبحانه وتعالى حقيقة لا مجاز ؛ لأنه أكده بالمصدر ، فقال : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء : ١٦٤] ، أكدهَ بالمصدر لنفي المجاز ؛ لأن العرب لا تؤكد بالمصدر إلا إذا أرادت الحقيقة ، وفيها دليل على أن اللَّه لم يزل متكلمًا إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء ، وفيها دليل على أن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديمًا فكلام اللَّه سبحانه وتعالى قديم النوع حادث الآحاد ، وتقدمت الإشارة إلى أن كلامه سبحانه وتعالى نوعان : كوني قدري به توجد الأشياء كما قال سبحانه : ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس : ٨٢] . الثاني : كلام ديني شرعي ، ومنه كتبه المنزلة على رسله ، فهو الذي تكلم بها حقًا وليست

مخلوقه ، بل هي من جملة صفاته ، وصفاته سبحانه غير مخلوقه كما تقدم في حديث خولة ، وبه استدل الإمام أحمد وغيره على أن كلام الله غير مخلوق ؛ لأنه أمر بالاستعاذة بكلمات الله ؛ والاستعاذة بالمخلوق شرك فدل على أن كلام الله غير مخلوق . وتكليمه سبحانه وتعالى لعباده نوعان :

الأول : بلا واسطة ، كما كلم موسى بن عمران ، وكما كلم الأبوين ، وكذا نادى نبينا ليلة الإسراء .

الثاني : تكليمه سبحانه لعباده بواسطة . إما بالوحي الخاص للأنبياء وإما بإرساله إليهم رسولًا يكلمهم من أمره بما شاء .

وفي الآيات المتقدمة أيضًا دليل على أن الكلام المضاف إليه سبحانه وتعالى من صفاته الذاتية من حيث تعلقها بذاته واتصافه بها ، ومن صفاته الفعلية حيث كانت متعلقة بقدرته ومشيئته .

قوله : ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ :

* أي : نادينا موسى وكلمناه بقول : ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [القصص : ٣٠] ، وقوله : ﴿ٱلطُّورَ﴾ [القصص : ٤٦] هو اسم جبل بين مصر ومدين ، وقوله : ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ [مريم : ٥٢] : أي : الذي يملي يمين موسى حين أقبل من مدين ، قوله : ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم : ٥٢] : أي : مناجيًا .

قوله : ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشعراء : ١٠] ، وقوله : ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف : ٢٢] : أي : نادى آدم وحواء .

قوله : ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص : ٦٥] :

* قال بعض السلف : ما من فعلة وإن صغرت إلا وينشر لها ديوانان : لم ؟ وكيف ؟ أي لم فعلت ؟ وكيف فعلت ؟ ، فالأول سؤال عن الإخلاص ، والثاني سؤال عن المتابعة . فإن الله لا يقبل عملًا إلا بهما ، فطريق التخلص من السؤال الأول بتجريد الإخلاص ، وطريق التخلص من السؤال الثاني بتحقيق المتابعة . انتهى من الإغاثة ، وقال بعض السلف : كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون : ماذا كنتم تعبدون وماذا أجبتم المرسلين ؟ فيسأل عن المعبود وعن العبادة .

أفادت هذه الآيات إثبات صفة الكلام لله وأنه نادى وناجى ، وقد جاء النداء في تسع آيات من القرآن ، وكذلك النجاء جاء في عدة آيات ، والنداء هو الصوت الرفيع وضده النجاء ، ففيها إثبات أن الله يتكلم بحرف وصوت يليق بجلاله ؛ إذ لا يعقل النداء والنجاء إلا ما كان حرفًا وصوتًا ، وقد استفاضت الآثار عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة السنة بذلك ، وقال ابن القيم رحمه الله في « النونية » :

والله قد نادى الكليم وقبله ‏ ‏ ‏ ‏ سمع الندا في الجنة الأبوان

وأتى الندا في تسع آيات له وصفا فراجعها من القرآن
وكذا يكلم جبرئيل بأمره حتى ينفذه بكل مكان
واذكر حديثًا في صحيح محمد ذاك البخاري العظيم الشان
فيه نداء اللَّه يوم معادنا بالصوت يبلغ قاصيًا والداني
هب أن هذا اللفظ ليس بثابت بل ذكره مع حذفه سيان
ورواه عندكم البخاري المجسـ سم بل رواه مجسم فوقان
أيصح في عقل وفي نقل ندا ء ليس مسموعًا لنا كأذان
أم أجمع العلماء والعقلاء من أهل اللسان وأهل كل لسان
أن الندا الصوت الرفيع وضده فهو النجاء كلاهما صوتان

وفي هذه الآيات أيضًا الرد على من زعم أن كلام اللَّه هو المعنى النفسي ، إذ المعنى المجرد لا يسمع .

وقد رد الشيخ تقي الدين على من زعم ذلك من تسعين وجهًا ، قال ابن القيم في « النونية » :

تسعون وجهًا بينت بطلانه أعني كلام النفس ذي البطلان

قال بعض العلماء : من زعم أن كلام اللَّه هو المعنى النفسي فقد زعم أن اللَّه لم يرسل رسولًا ولم ينزل كتابًا ، وقال : من زعم أن كلام اللَّه هو المعنى النفسي فقد زعم أن اللَّه أخرس ، وقال ابن حجر رحمه الله في شرح البخاري : ومن نفى الصوت فقد زعم أن اللَّه لم يسمع أحدًا من ملائكته ولا رسله كلامًا بل ألهمه إياه إلهامًا ، وفيها الرد على من زعم أن كلام اللَّه هو معنى قائم بذاته لا يتجزأ ولا يتبعض ، فإن الأمر لو كان كما زعموا لكان موسى عليه السلام سمع جميع كلام اللَّه ، وفيها الرد على مِن زعم أن كلام اللَّه مخلوق ، فإن صفات اللَّه داخلة في مسمى اسمه ، فليس اللَّه اسمًا لذات لا سمع لها ولا بصر ولا حياة ولا كلام لها ، فكلامه وعلمه وحياته وقدرته داخلة في مسمى اسمه ، فهو سبحانه بصفاته الخالق وما سواه المخلوق ، وفي إثبات الكلام إثبات الرسالة ، فإذا انتفت صفة الكلام انتفت صفة الرسالة ؛ إذ حقيقة الرسالة تبليغ كلام المرسل ، ومن هاهنا قال السلف : من أنكر كون اللَّه متكلمًا فقد أنكر رسالة الرسل كلهم ، والرب سبحانه وتعالى يخلق بقوله وبكلامه كما قال : ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] ، فإذا انتفت حقيقة الكلام عنه فقد انتفى الخلق .

قوله : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ :

قوله : « أحد » : مرفوع بفعل يفسره استجارك ، وقوله : ﴿فَأَجِرْهُ﴾ [التوبة: ٦] ، أي : أمنه ، وقوله : ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] : أي : حتى يسمع القرآن مبلغًا إليه من قارئه كما قال أبو

بكر الصديق حين قرأ على قريش : ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم : ١، ٢] : فقالوا : هذا كلامك أو كلام صاحبك ، فقال : ليس بكلامي ولا بكلام صاحبي ولكنه كلام الله ، وفي « سنن أبي داود : أن رسول الله ﷺ كان يعرض نفسه على الناس بالموسم فيقول : « ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي ، فإن قريشًا منعوني أن أبلغ كلام ربي »[١] . فبين أن ما يبلغه ويتلوه هو كلام الله لا كلامه ، وفي الآية دليل على أنه إذا استأمن مشرك ليسمع القرآن وجب تأمينه ليعلم دين الله وتنتشر الدعوة ، ومنها أن رسول الله كان يعطي الأمان لمن جاءه مسترشدًا أو في رسالة كما جاء في الحديبية جماعة من قريش ، وكذلك من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية ، أو طلب من الإمام أو نائبه أعطى أمانًا ما دام مترددًا في دار الإسلام حتى يرجع إلى مأمنه ووطنه ، وفيها دليل على إثبات صفة الكلام لله وأنه يتكلم وأن القرآن كلامه ، وفيها دليل على أن الكلام إنما ينسب إلى منَ قاله ابتداءً لا إلى من قاله مبلغًا مؤديًا ، فإن القارئُ يبلغ كلام الله ، وكلامه سبحانه صفة من صفاته غير مخلوق ، وأما صوت القارئُ وكذا المداد والورق فهي مخلوقة لهذه الآية ، ولحديث : « زينوا القرآن بأصواتكم »[٢]، فبين أن الأصوات التي يقرأ بها القرآن أصواتنا والقرآن كلام الله ، فالقرآن كلام الباري والصوت صوت القارئُ ، وفي هذه الآية دليل على أن القرآن الذي هو سور وآيات وحروف وكلمات هو عين كلامه سبحانه حقًّا لا تأليف ملك ولا بشر ، وأن حروفه ومعانيه عين كلامه سبحانه الذي تكلم به سبحانه حقًا ، وبلغه جبريل إلى محمد ﷺ ، وبلغه محمد ﷺ ، فللرسولين منه مجرد التبليغ والأداء لا الوضع والإنشاء ، فإضافته إلى الرسول بقوله : ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة : ٤٠] إضافة تبليغ وأداء لا إضافة وضع وإنشاء لا كما يقوله أهل الزيغ والافتراء ، وفيه الرد على من زعم أن هذا الموجود بين أيدينا هو عبارة عن كلام الله ، حكاية له فإنه سبحانه أخبر أن الذي يسمع كلام الله ، وعندهم أن الذي يسمع ليس كلام الله على الحقيقة وإنما هو مخلوق حكى به كلام الله على أحد قوليهم ، وعبارة عبر بها عن كلام الله على القول الآخر ، وهي مخلوقة على القولين ، فالمقروء المكتوب والمسموع والمحفوظ ليس كلام الله ، وإنما هو عبارة بها عنه كما يعبر عن الذي لا ينطق ولا يتكلم من أخرس أو عاجز ، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا ، وفيه دليل على أن القرآن كلام الله وأنه يسمع وأنه غير مخلوق ، وفيها الرد على من زعم أنه مخلوق أو أنه كلام بشر أو ملك ، أو غير

---

(١) أبو داود (٤٧٣٤) ، والترمذي (٢٩٢٥) ، والطبراني في الأوسط (٦٨٤٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه . وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (١٩٤٧) .

(٢) أبو داود (١٤٦٨) ، والنسائي (١٠١٥) ، وابن ماجه (١٣٤٢) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (٧٧١) .

ذلك ، وفيها أن من زعم أنه كلام غير اللَّه فقد كفر أو زعم أنه مخلوق .

قال الشيخ تقي الدين ﷺ : ولم يقل أحد من السلف أنه مخلوق أو أنه قديم ، بل الآثار متواترة عن السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان إنهم يقولون : القرآن كلام اللَّه ، وأول من عرف عنه أنه قال مخلوق : الجعد بن درهم وصاحبه الجهم بن صفوان ، وأول من عرف عنه أنه قال هو قديم عبد اللَّه بن سعيد بن كلاب ، أما السلف فلم يقل أحد منهم بواحد من القولين ، ولم يقل أحد من السلف إن القرآن عبارة عن كلام اللَّه ولا حكاية له ، ولا قال منهم أحد أن لفظي بالقرآن قديم أو مخلوق، بل كانوا يقولون بما دل عليه الكتاب والسنة من أن هذا القرآن كلام اللَّه ، والناس يقرأونه بأصواتهم ويكتبونه بمدادهم وما بين اللوحين كلام اللَّه وكلام اللَّه غير مخلوق ، والمداد الذي يكتب به القرآن مخلوق والصوت الذي يقرأ به هو صوت العبد والعبد وصوته وحركاته وسائر صفاته مخلوقة ، فالقرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الباري والصوت صوت القارئ . انتهى .

قال البخاري ﷺ في كتابه« خلق أفعال العباد » بعد ذكر هذه الآية والآية التي بعدها ، أي قوله سبحانه : ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج : ٢١، ٢٢] وقوله : ﴿وَٱلطُّورِ ۝ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ [الطور : ١- ٣] قال : ذكر اللَّه أن القرآن يحفظ ويسطر ، والقرآن الموعي في القلوب المسطور في المصاحب المتلو بالألسنة كلام اللَّه ليس بمخلوق ، وأما المداد والورق والجلد فإنه مخلوق . انتهى من « فتح الباري » .

قوله : ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ :

قوله : ﴿فَرِيقٌ﴾ : أي : طائفة ، ﴿مِّنْهُمْ﴾ : أي : أحبارهم ، ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ ؛ أي التوراة .

قوله : « ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ » : أي : يغيرونه ويتأولونه على غير تأويله ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي : فهموه ، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي : أنهم مفترون ، وإذ كان هذا حال علمائهم فكيف بجهالهم ؟ !

في هذه الآية التأييس من إيمان اليهود الذين شاهد آباؤهم ما شاهدوا ، ثم قست قلوبهم ولم ينفعهم ما شاهدوه ، وفيها ذم للمحرفين للكلم عن مواضعه وأن التحريف ، من صفات اليهود ، وأفادت هذه الآية كغيرها إثبات صفة الكلام للَّه سبحانه وتعالى والرد على من زعم أن اللَّه لا يتكلم أو أن كلامه مخلوق ، وفيها دليل على أن الكلام إنما ينسب إلى من قاله مبتدءًا لا إلى من قاله مبلغًا مؤديًا ، فإن قوله : ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ : أي : من قارئه ومبلغه .

قوله : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ :

* أي مواعيده بغنائم خيبر ، أهل الحديبية خاصة لا يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب

والمتخلفين، فلا يقع غير ذلك شرعًا ولا قدرًا، ولهذا قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥] وهو الوعد الذي وعد به أهل الحديبية. اختاره ابن جرير.

قوله: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾: أي: في خيبر، وهذا خبر بمعنى النهي.

قوله: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾: أي: من قبل عودنا، من قبل انصرافنا من مكة إلى المدينة أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية خاصة دون غيرهم.

أفادت هذه الآية كغيرها إثبات صفة الكلام وإثبات القول لله سبحانه وتعالى وأنه قال ويقول متى شاء إذا شاء.

قوله: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾:

قوله: ﴿وَاتْلُ﴾: أي: اتبع، والتلاوة هي الإتباع، يقال: اتل أثر فلان، وتلوت أثره وقفوته وقصصته بمعنى تبعت خلفه، ويسمى تالي الكلام تاليًا؛ لأنه يتبع بعض الحروف بعضًا لا يخرجها جملة واحدة، وحقيقة التلاوة في هذا الموضع وغيره هي التلاوة المطلقة التامة، وهي تلاوة اللفظ والمعنى. انتهى ملخصًا من كلام ابن القيم.

قوله: ﴿مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾: الوحي: لغة: الإعلام في خفاء، وفي الاصطلاح: إعلام الله أنبياءه بالشيء؛ إما بكتاب، أو رسالة ملك، أو منام، أو إلهام.

قوله: ﴿مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾: أي القرآن بدليل قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]- إلى قوله- ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠] الآية والمسموع واحد والكتاب في الأصل جنس ثم غلب على القرآن من بين الكتب. انتهى، (الكوكب المنير) ملخصًا.

قوله: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾: أي: لا تغير ولا تبدل كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] في هذه الآية كغيرها دليل على أن الكتاب هو القرآن خلافًا للكلابية فإن الله سبحانه سمى نفس مجموع اللفظ والمعنى قرآنًا وكتابًا وكلامًا كما تقدم في قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الأحقاف: ٢٩] الآية فبين أن الذي سمعوه هو القرآن وهو الكتاب، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ١]، وفي الآية المتقدمة دليل على أن القرآن منزل من عند الله وأنه كلامه، وفيها الحث على تلاوته وأنه سبحانه ضمن حفظه من التغيير والتبديل.

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾:

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾: مصدر قرأ؛ أي: جمع؛ لجمعه السور؛ أو ما في الكتب السابقة.

قوله: ﴿يَقُصُّ﴾: أي يبين ﴿عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [النمل: ٧٦] وهم حملة التوراة ﴿أَكْثَرَ الَّذِي

هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦] وذلك كاختلافهم في أمر عيسى وتباينهم فيه، فجاء القرآن بالقول العدل الحق أنه عبد من عباد اللّه ونبي من أنبيائه، وفي الآية دليل على عظمة هذا الكتاب وهيمنته على الكتب السابقة، وتوضيحه لما وقع فيها من اشتباه، وإضافة القصص والتوضيح إليه وتضمن وجوب الرجوع إليه واتباعه.

قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾:

* أي: القرآن ﴿مُّبَارَكًا﴾ [ق: ٩]: أي: كثير المنافع والخير.

قوله: ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾:

قوله: ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا﴾: أي متذللًا، ﴿مُّتَصَدِّعًا﴾: أي: متشققًا، فإذا كان القرآن لو أنزل على جبل لخشع وتصدع من خوف اللّه فكيف يليق بكم أيها الناس أن لا تلين قلوبكم وتخشع من خوف اللّه وقد فهمتم عن اللّه أمره ونهيه وتدبرتم كتابه، وفي الآية دليل على عظمة القرآن وأنه لو أنزل على جبل لخشع وتصدع من خشية اللّه، وفيها دليل على أنه سبحانه خلق في الجمادات إدراكًا بحيث تخشع وتسبح، وهذا حقيقة كما دلت على ذلك الأدلة ولا يعلم كيفية ذلك إلا هو سبحانه، وفيها حث على الخوف من اللّه والخشوع عند سماع كلامه، وأنه ينبغي أن يقرأ بتدبر وخشوع وإقبال قلب وأنه ينبغي الرقة عند سماع كلام اللّه والبكاء وتلاوته بحزن.

قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾:

قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾: أي نسخناها وأنزلنا غيرها لمصلح العباد.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾: أي هو سبحانه وتعالى أعلم بما هو أصلح لخلقه فيما يغير وينسخ من أحكامه، وفي الآية دليل على وقوع النسخ في القرآن وأنه لحكمة ومصلحة يعلمها سبحانه، فهو أعلم بمصلحة عباده، وفيها دليل على إحاطة علمه سبحانه بكل معلوم.

قوله: ﴿قَالُوٓا۟﴾: أي الكفار، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ أي: كذاب، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: لا يعلمون الحكمة في ذلك.

قوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾:

قوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ﴾: أي: القرآن، والتنزيل والإنزال هو مجيء الشيء من أعلى إلى أسفل؛ ﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾: أي: جبريل عليه السلام، فجبريل سمعه من اللّه والنبي ﷺ سمعه من جبريل، وهو الذي نزل بالقرآن على محمد ﷺ كما نص على ذلك أحمد وغيره من الأئمة، وجبريل هو الروح

الأمين المذكور في قوله سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] الآية.

ولم يقل أحد من السلف: إن النبي ﷺ سمعه من الله، وإنما قال ذلك بعض المتأخرين، والآية ترد عليه.

قال ابن حجر رحمه الله في «شرح البخاري»: والمنقول عن السلف اتفاقهم أن القرآن كلام الله غير مخلوق، تلقاه جبريل عن الله، وبلغة جبريل إلى محمد ﷺ، وبلغه محمد إلى أمته. انتهى.

ففي هذه الآيات دليل على أن القرآن منزل من عند الله وأنه كلامه بدأ منه وظهر لا من غيره، وأنه الذي تكلم به لا غيره، وأما إضافته إلى الرسول في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠] فإضافة تبليغ لا إضافة إنشاء، والرسالة تبليغ كلام المرسل، ولو لم يكن للرسل كلامًا يبلغه الرسول لم يكن رسولًا، ولهذا قال غير واحد من السلف: من أنكر أن يكون الله متكلمًا فقد أنكر رسالة رسله، فإن حقيقة رسالتهم تبليغ كلام المرسل، وفيها دليل على علو الله على خلقه، والتنزيل والإنزال المذكور في القرآن ينقسم إلى أقسام:

الأول: إنزال مطلق كقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥].

الثاني: إنزال من السماء كقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨].

الثالث: إنزال منه سبحانه كقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢].

فأخبر أن القرآن منزل منه، والمطر منزل من السماء، منزلا نزولًا مطلقًا، ففرق سبحانه بين النزول منه والنزول من السماء، وحكم المجرور بمن في هذا الباب حكم المضاف، والمضاف ينقسم إلى قسمين: إضافة أعيان وإضافة معان، فإضافة الأعيان إليه سبحانه من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، كبيت الله وناقة الله ونحو ذلك، أما إضافة المعاني إلى الله سبحانه وتعالى فهي من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، كسمع الله وبصره وعلمه وقدرته، فهذا يمتنع أن يكون المضاف مخلوقًا بل هو صفة قائمة به وهكذا حكم المجرور بمن، فإضافة القرآن إليه سبحانه من باب إضافة الصفة إلى الموصوف لا من باب إضافة المخلوق إلى خالقه خلافًا للمبتدعة من المعتزلة والجهمية وأشباههم، وفي هذه الآية الرد على من زعم أن القرآن مخلوق أو أنه كلام بشر وغيره، فمن زعم ذلك فهو كافر بالله العظيم، كما روي ذلك عن السلف، وفيها دليل على أن جبريل نزل به من عند الله، فإنه ﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ [النحل: ١٠٢] وهو أيضًا الروح الأمين، وفي قوله: «الأمين» [الشعراء: ١٩٣] دليل على أنه مؤتمن على ما أرسل به، فلا يزيد عليه ولا ينقص، وفيها دليل على أن الرسول ﷺ سمعه من جبريل وهو الذي نزل به عليه من عند الله، وجبريل سمعه من الله، والصحابة سمعوه من النبي ﷺ وفيها الرد على من

قال أن النبي ﷺ سمع القرآن من اللّه ، وفيها الدلالة على بطلان قول من قال أنه مخلوق خلقه اللّه من جسم من الأجسام المخلوقة كما هو قول الجهمية القائلين بخلق القرآن ، وفيها الدلالة على بطلان قول من قال إنه فاض على النبي ﷺ من العقل الفعال أو غيره كما يقوله طوائف من الفلاسفة والصابئة ، وهذا القول أشد كفرًا من الذي قبله ، وفيها الدليل على بطلان قول من يقول إن القرآن العربي ليس منزلًا من اللّه بل مخلوق ؛ إما في جبريل أو محمد أو جرم آخر كالهواء ، كما يقول ذلك الكلابية والأشعرية القائلين بأن القرآن العربي ليس هو كلام اللّه ، وإنما كلامه المعنى القائم بذاته ، والقرآن العربي خلق ليدل على ذلك المعنى ، وهذا يوافق قول المعتزلة ونحوهم في إثبات خلق القرآن ، وفيها أن السفير بين اللّه ورسوله محمد ﷺ هو جبريل عليه السلام ، وفيها الرد على من زعم أن كلام اللّه هو المعنى النفسي ، فإن جبريل سمعه من اللّه والمعنى المجرد لا يسمع ، وفيها دليل أن القرآن نزل باللغة العربية وتكلم اللّه سبحانه بالقرآن بها ، وفيها الرد على من زعم أنه يجوز ترجمة القرآن باللغات الأعجمية ؛ لأن القرآن معجز بلفظه ومعناه .

قوله : ﴿بِالْحَقِّ﴾ : أي : بالصدق والعدل ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [النحل : ١٠٢] : أي : يزيدهم يقينًا وإيمانًا .

قوله : ﴿وَهُدًى﴾ : أي : بيان ونور وبصيرة ، ويطلق الهدى ويراد به ما يقر في القلب من الإيمان ، وهذا لا يقدر على خلقه في قلوب العباد إلا اللّه ، قال تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص : ٥٦] الآية ، ويطلق ويراد به بيان الحق وتوضيحه والدلالة عليه والإرشاد عليه ، قال تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الشورى : ٥٢] . انتهى من ابن كثير .

وخصصت الهداية بالمسلمين لاختصاصهم بالنفع بالقرآن ؛ لأنه هو بنفسه هدى ولكنه لا يناله إلا الأبرار كما قال تعالى : ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة : ٢] .

قوله : ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ : البشرى والبشارة هو أول خبر سار ، والبشرى يراد بها أمران : أحدهما : بشارة المخبر . والثاني : سرور المخبر ، قال تعالى : ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس : ٦٤] فسرت البشرى بهذا . قيل : وسميت بشرى ؛ لأنه تؤثر في بشرة الوجه ، ولذلك كانت نوعين : بشرى سارة تؤثر فيه نضارة وبهجة ، وبشرى محزنة تؤثر فيه سوءًا وعبوسًا ، ولكن إذا أطلقت كانت للسرور ، وإذا قيدت كانت بحسب ما قيدت به ، أما البشارة بالفتح فهي نضارة الوجه وحسنه ، وأما البشارة بالضم فهو ما يعطاه المبشر .

قوله : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ :

وقوله : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ [النحل : ١٠٣] : أي كفار مكة . ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل : ١٠٣] والبشر : الإنسان ذكرًا كان أنثى ، وهو في الأصل جمع بشرة وهو ظاهر الجلد ، سموه بشرًا لظهور أبشارهم خلافًا لغيرهم من الحيوان ، أي : أن الذي يعلم النبي ﷺ آدمي ، وذلك أن النبي ﷺ كان يجلس إلى رجل أعجمي في مكة ، وكان ذلك الرجل يقرأ في الكتب السابقة ، فقالت قريش : إن هذا الرجل كان يعلم محمدًا ، فأكذبهم الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل : ١٠٣] .

قوله : ﴿لِسَانُ﴾ : أي : لغة ﴿ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ : أي : يميلون ويشيرون إليه أنه يعلم محمدًا ﷺ أعجمي ، أي : لا يتكلم بالعربية ، والعجمي المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحًا .

قوله : ﴿لِسَانُ﴾ : أي : لغة كما في هذه الآية ، وفي قوله سبحانه : « ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم : ٤] ، ويطلق اللسان ويراد به الذكر الحسن كما قال تعالى عن إبراهيم : ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الشعراء : ٨٤] ويطلق يراد به الجارحة كما سبحانه : ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ [القيامة : ١٦] الآية .

قوله : ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ : أي : وهذا القرآن لسان عربي مبين ، أي : بين واضح فكيف يكون الذي يقوله أعجمي .

قوله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ :

قوله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ : أي : وجوه المؤمنين . ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي : يوم القيامة . ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ : بالضاد من النضارة وهي البهاء والحسن ومنه نضرة النعيم ، وروى ابن مردويه بسنده إلى بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ في قوله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ قال : « من الحسن والبهاء ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة : ٢٣] قال : في وجه الله »[1] .

قوله : ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ : من النظر بالعين فيرونه سبحانه في عرصة القيامة ، ويراه المؤمنون في الجنة ، ولا يجوز حمل النظر هنا بمعنى الانتظار إلى ثواب الله فإنه معدي بإلى ولا يعدى بإلى إلا إذا كان بمعنى النظر بالعين ، وأيضًا فالانتظار لا يليق في دار القرار ، فهذه الآية صريحة في أن الله يرى عيانًا بالأبصار يوم القيامة ، وفيها الرد على من زعم : أن معنى ﴿نَاظِرَةٌ﴾ ، أي منتظرة ثواب ربها ؛ لأن الأصل عدم التقدير ، ولأن النظر المعدي بإلى لا يكون إلا بمعنى النظر ، لا سيما وقد ذكر الوجه الذي هو محل النظر ، وقد تواترت الأدلة في إثبات النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى .

(١) « الدر المنثور » للسيوطي (٨/ ٣٥٠) .

قال ابن القيم ﷺ في «النونية»:

ويرونه سبحانه من فوقهم نظر العيان كما يرى القمران
هذا تواتر عن رسول الله لم ينكره إلا فاسد الإيمان

وقال ابن حجر:

مما تواتر حديث من كذب ومن بني الله بيتًا واحتسب
ورؤية، شفاعة والحوض ومسح خفين وهذي بعض

وفي هذه الآية دليل على أن هذه الرؤية خاصة بالمؤمنين، وفيها دليل على أن الرؤية تحصل للمؤمنين يوم القيامة دون الدنيا، ولم يثبت أن أحدًا رآه سبحانه في الدنيا، قال الله في حق موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، أي: في الدنيا، وفي «صحيح مسلم» أن رسول الله ﷺ قال: «إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا»[1].

واختلف هل حصلت الرؤية لنبينا محمد ﷺ؟ فالأكثرون على أنه لم يره سبحانه، وحكاه عثمان بن سعيد الدرامي بإجماع الصحابة.

قال ابن القيم ﷺ: والناس في إثبات الرؤية وعدمها طرفان ووسط، فقسم غلو في إثباتها حتى أثبتوها في الدنيا والآخرة، وهم الصوفية وأضرابهم، وقسم نفوها في الدنيا والآخرة وهم الجهمية والمعتزلة، والوسط هم أهل السنة والجماعة الذين أثبتوها في الآخرة فقط حسبما تواترت به الأدلة. انتهى.

قوله: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾:

قوله: ﴿يَنظُرُونَ﴾: أي ينظرون إلى وجه الله، وهذا مقابل لما وصف به أولئك الفجار في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] فذكر عن هؤلاء أنهم يباحون النظر إلى الله وهم على سررهم وفرشهم، وعن أولئك الفجار أنهم يحجبون عن رؤيته، وقد استدل العلماء بهذه الآية، أي قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ على إثبات رؤية الله، قالوا: لأنها لما حجب أعداءه عن رؤيته دل أن أولياءه يرونه.

قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾:

قوله: ﴿أَحۡسَنُواْ﴾: أي: في أعمالهم، وقد تقدم الكلام على هذا الإحسان.

قوله: ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾: أي: الجنة، ﴿وَزِيَادَةٞۖ﴾ وهي النظر إلى وجه الله كما فسرها رسول الله ﷺ، والصحابة، ولما عطف الزيادة على ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ دل على أنها جزاء آخر وراء الجنة وقدر زائد

(١) أحمد (٥/٣٢٤) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ.

عليها ، وثبت في « صحيح مسلم » عن النبي ﷺ تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم(١).

قال ابن رجب رحمه الله : وهذا مناسب لجعله جزاء لأهل الإحسان ؛ لأن الإحسان هو أن يعبد المؤمن ربه على وجه الحضور والمراقبة كأنه يراه بقلبه وينظر إليه في حال عبادته ، فكان جزاء ذلك النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى عيانًا في الآخرة ، وعكس هذا ما أخبر به عن جزاء الكفار أنهم عن ربهم محجوبون ، وذلك جزاء لحالهم في الدنيا وهو تراكم الران على قلوبهم حتى حجبت عن معرفته في الدنيا ، فكان جزاؤهم على ذلك أن حجبوا عن رؤيته في الآخرة . انتهى .

قوله : ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ :

قوله : ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ : أي : في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، كما في حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « قال الله سبحانه وتعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » ثم قرأ : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة : ١٧] رواه البخاري(٢) .

قوله : ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ : وهو النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى كما قال ذلك علي بن أبي طالب وأنس وغيرهم ، أفادت الآيات إثبات الرؤية وأنها خاصة بيوم القيامة ، وأن رؤية الله سبحانه وتعالى من أجل نعيم الجنة وأعظمه . اهـ .

قوله : « وهذا الباب » : أي : باب معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله وما يستحقه سبحانه من إفراده بالعبادة وترك عبادة ما سواه .

قوله : « في كتاب الله كثير » :

فقد أفصح القرآن عنه كل الإفصاح ، وأغلب سور القرآن متضمنة لذلك بل كل سورة من القرآن ، فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وهو التوحيد العلمي الخبري ، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه وهو التوحيد الطلبي ، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته ، وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيده وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاؤه وتوحيده ، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في العقبى من العذاب فهو جزاء من خرج من توحيده ، والقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه ، وفي الشرك وأهله وجزائهم ، فلا تجد كتابًا قد تضمن من البراهين والأدلة على هذه المطالب العالية كما تضمنه القرآن بأسلوب واضح جلي ، فألفاظ القرآن أفصح الألفاظ وأبينها وأعظمها مطابقة لمعانيها المرادة منها ، فلا تجد كلامًا أحسن تفسيرًا ولا

---

(١) مسلم (١٨١) ، والترمذي (٢٥٥٢) من حديث صهيب رضي الله عنه .

(٢) البخاري (٣٠٧٢) ، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

أتم بيانًا من كلامه سبحانه ولهذا سماه بيانًا خلافًا لمن زعم أن كلام اللّه ورسوله لا يفيد العلم بشيء من أصول الدين ولا يجوز أن تستفاد معرفة اللّه وأسمائه وصفاته وأفعاله منه ، وعبر عن ذلك بقوله : الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين .

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله : وزعم قوم من غالية أهل البدع أنه لا يصح الاستدلال بالقرآن أو الحديث على المسائل القطعية بناء على أن الدلالة اللفظية لا تفيد اليقين ، كما زعموا وزعم كثير من أهل البدع ، أنه لا يستدل بالأحاديث المتلقاة بالقبول على مسائل الصفات والقدر ونحوهما مما يطلب فيه القطع واليقين . اهـ .

قوله : « ومن تدبر القرآن طالبا للهدي منه ؛ تبين له طريق الحق » :

قوله : « ومن تدبر القرآن » : أي تفكر فيه ، والفكر : هو إعمال النظر في شيء ، وقد جاء في الكتاب والسنة الحث على التدبر والتفكير ، قال تعالى : ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص : ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد : ٢٤] ، إلى غير ذلك من الآيات الحاثة على التدبر وتفهم معاني القرآن ، وفيها الرد على من زعم أنه لا وصول إلى ذلك وأن باب الفهم عن اللّه وعن رسوله قد أغلق وباب الاجتهاد قد سد ، وهذا قول باطل ترده أدلة الكتاب والسنة .

قوله : « طالبًا للهدى » : أي : الرشاد . « تبين له » أي : اتضح . « طريق » أي : سبيل .

قوله : « الحق » : وهو ضد الباطل .

❁ قال العلامة عبد العزيز بن عبد اللّه بن باز رحمه الله :

قوله : « ما وصف اللّه به نفسه في « سورة الإخلاص » التي تعدل ثلث القرآن » » :

وجه كون سورة « الإخلاص » تعدل ثلث القرآن : أن القرآن خبر وإنشاء ، والخبر ينقسم في كلام اللّه إلى قسمين :

١- خبر عن اللّه ، وعن أسمائه وصفاته .

٢- وخبر عن خلقه من الجنة أو النار وأشراط الساعة ، وجميع ما تضمنه الكتاب من وعد ووعيد ، ومما كان أو سيكون .

وهذه السورة تمحضت للخبر عن اللّه سبحانه ، فكانت ثلث القرآن بهذا الاعتبار . ولقد دلت هذه السورة على أصول عظيمة : يستفاد منها : إثبات جميع صفات الكمال للّه ، ونفي جميع صفات النقائص والعيوب .

كما دلت على أنواع التوحيد الثلاثة : توحيد الذات والصفات على سبيل المطابقة وعلى توحيد

الربوبية وذلك على طريق التضمن، وتوحيد العبادة بالالتزام.

إذ أن دلالة الشيء على كل معناه يسمى: مطابقة، ودلالته على بعضه يسمى: تضمنًا، وعلى ما يلزم من جهة الخارج يسمى التزامًا. اهـ.

قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾:

وجه سياق هذه الآية ضمن إثبات آيات الصفات للدلالة على أن القول على الله بلا علم من أعظم المحرمات في هذه الآية من الأدنى إلى الأعلى، والقول على الله بلا علم يشمل القول عليه في أحكامه وشرعه ودينه كما يشمل القول عليه في أسمائه وصفاته وهو أعظم من القول عليه في شرعه ودينه، فسياق الآية الكريمة هنا للتنبيه على هذا، والله أعلم.

۞ قال الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله:

قوله: «دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه في «سورة الإخلاص» التي تعدلُ ثُلثَ القرآن».

يحتمل أنه يريد بها قوله: «وهو قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات» ويحتمل أن يريد ما سبق من أن أهل السنة والجماعة يصفون الله تعالى بما وصف به نفسه وما وصفه به رسوله، وأيًّا كان؛ فإن هذه السورة وما بعدها داخلة في ضمن ما سبق؛ من أن الله تعالى جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات وأن أهل السنة يؤمنون بذلك.

قوله: «في سورة الإخلاص»: (السورة): هي عبارة عن آيات من كتاب الله مسورة؛ أي منفصلة عما قبلها وعما بعدها؛ كالبناء الذي أحاط به السور.

وقوله: «سورة الإخلاص»: إخلاص الشيء؛ بمعنى: تنقيته؛ يعني: التي نقيت ولم يشبهها شيء. وسميت بذلك؛ قيل: لأنها تتضمن الإخلاص لله ﷻ، وأن من آمن بها؛ فهو مخلص فتكون بمعنى مُخْلصة لقارئها؛ أي أن الإنسان إذا قرأها مؤمنًا بها؛ فقد أخلص لله ﷻ وقيل: لأنها مخلَصة - بفتح اللام؛ لأن الله تعالى أخلصها لنفسه، فلم يذكر فيها شيئًا من الأحكام ولا شيئًا من الأخبار عن غيره، بل هي أخبار خاصة بالله والوجهان صحيحان، ولا منافاة بينهما.

الدليل قول النبي عليه الصلاة والسلام لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟». فشق ذلك عليهم وقالوا: أيّنا يُطيقُ ذلك يا رسول الله؟ فقال: «الله الواحد الصمد ثلث القرآن» (١).

فهذه السورة تعدل ثلث القرآن في الجزاء لا في الإجزاء، وذلك كما ثبت عن النبي ﷺ أن: «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير؛ عشر مرات

(١) أخرجه البخاري (٥٠١٥)، ومسلم (٨١١).

فكأنما أعتق أربع أنفس من بنى إسماعيل »[1] ؛ فهل يجزئ ذلك عن إعتاق أربع رقاب ممن وجب عليه ذلك وقال هذا الذِّكر عشر مرات ؟ فنقول : لا يجزئ . أما فى الجزاء ؛ فتعدل هذا ؛ كما قال النبى عليه الصلاة والسلام ؛ فلا يلزم من المعادلة فى الجزاء المعادلة فى الإجزاء . ولهذا ؛ لو قرأ سورة « الإخلاص » فى الصلاة ثلاث مرات ؛ لم تجزئه عن قراءة « الفاتحة » .

قال العلماء : ووجه كونها تعدل ثلث القرآن : أن مباحث القرآن خبر عن اللّه وخبر عن المخلوقات ، وأحكام ؛ فهذه ثلاثة :

١ - خبر عن اللّه : قالوا : إن سورة : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تتضمنه .

٢ - خبر عن المخلوقات ؛ كالإخبار عن الأمم السابقة ، والإخبار عن الحوادث الحاضرة ، وعن الحوادث المستقبلة .

٣ - والثالث : أحكام ؛ مثل : أقيموا ، آتوا ، لا تشركوا .. وما أشبه ذلك .

وهذا هو أحسن ما قيل فى كونها تعدل ثلث القرآن .

﴿قُلْ﴾ : الخطاب لكل من يصح خطابه .

وسبب نزول هذه السورة : أن المشركين قالوا للرسول عليه الصلاة والسلام صف لنا ربك ؟ فأنزل اللّه هذه السورة . وقيل : بل اليهود هم الذين زعموا أن اللّه خُلِقَ من كذا ومن كذا مما يقولون من المواد ؛ فأنزل اللّه هذه السورة . سواء صح السبب أم لم يصح ؛ فعلينا إذا سُئلنا أىّ سؤال عن اللّه نقول : ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ ۞ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ .

﴿هُوَ﴾ : ضمير وأين مرجعه ؟ قيل : إن مرجعه المسئول عنه ؛ كأنه يقول : الذى سألتم عنه اللّه . وقيل : هو ضمير الشأن و﴿ٱللَّهُ﴾ : مبتدأ ثان و﴿أَحَدٌ﴾ : خبر المبتدأ الثانى ، وعلى الوجه الأول تكون ﴿هُوَ﴾ : مبتدأ ، ﴿ٱللَّهُ﴾ خبر المبتدأ ، ﴿أَحَدٌ﴾ : خبر ثان .

﴿ٱللَّهُ﴾ : هو العلم على ذات اللّه ، المختص باللّه ﷻ ، لا يتسمى به غيره وكل ما يأتى بعده من أسماء اللّه فهو تابع له إلا نادرًا ؛ ومعنى ﴿ٱللَّهُ﴾ : الإله ، وإله بمعنى مألوه أى : معبود ، لكن حذفت الهمزة تخفيفًا لكثرة الاستعمال ؛ كما فى (الناس) ، وأصلها : الأناس ، وكما فى : هذا خير من هذا ، وأصله : أخير من هذا لكن لكثرة الاستعمال حذفت الهمزة ؛ فاللّه ﷻ ﴿أَحَدٌ﴾ .

﴿أَحَدٌ﴾ : لا تأتى إلا فى النفى غالبًا أو فى الإثبات فى أيام الأسبوع ؛ يقال : الأحد ، الاثنين .. لكن تأتى فى الإثبات موصوفًا بها الرب ﷻ لأنه سبحانه وتعالى أحد ؛ أى : متوحد فيما يختص به فى

---

(١) البخاري (٦٤٠٤) ، ومسلم (٢٦٩٣) .

ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، ﴿أَحَدٌ﴾ ؛ لا ثانى له ولا نظير له ولا ند له .

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ : هذه جملة مستأنفة بعد أن ذكر الأحدية ذكر الصمدية ، وأتى بها بجملة معرفة فى طرفها ؛ لإفادة الحصر ؛ أى : اللَّه وحده الصمد .

فما معنى الصمد ؟

قيل : إن ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ : هو الكامل ؛ فى علمه ، فى قدرته ، فى حكمته ، فى عزته ، فى سؤدده ، فى كل صفاته . وقيل : ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ : الذى لا جوف له ؛ يعنى لا أمعاء ولا بطن ، ولهذا قيل : الملائكة صمد ؛ لأنهم ليس لهم أجواف ؛ لا يأكلون ولا يشربون . هذا المعنى روى عن ابن عباس ﷺ[1] ولا ينافى المعنى الأول ، لأنه يدل على غناه بنفسه عن جميع خلقه ، وقيل : ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ بمعنى المفعول ؛ أى : المصمود إليه ؛ أى الذى تصمد إليه الخلائق فى حوائجها ؛ بمعنى : تميل إليه وتنتهى إليه وترفع إليه حوائجها ؛ فهو بمعنى الذى يحتاج إليه كل أحد .

هذه الأقاويل لا ينافى بعضها بعضًا فيما يتعلق باللَّه ﷻ ، ولهذا نقول : إن المعانى كلها ثابتة ؛ لعدم المنافاة فيما بينها .

ونفسره بتفسير جامع فنقول : ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ : هو الكامل فى صفاته الذى افتقرت إليه جميع مخلوقاته ؛ فهى صامدة إليه .

وحينئذ يتبين لك المعنى العظيم فى كلمة ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ : أنه مستغن عن كل ما سواه ، كامل فى كل ما يوصف به ، وأن جميع ما سواه مفتقر إليه .

فلو قال لك قائل : إن اللَّه استوى على العرش ؛ هل استواؤه على العرش بمعنى أنه مفتقر إلى العرش بحيث لو أزيل لسقط ؟ فالجواب : لا ، كلا ، لأن اللَّه صمد كامل غير محتاج إلى العرش ، بل العرش والسماوات والكرسى والمخلوقات كلها محتاجة إلى اللَّه ، واللَّه فى غنى عنها فنأخذه من كلمة ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ .

لو قال قائل : هل اللَّه يأكل أو يشرب ؟ أقول : كلا ؛ لأن اللَّه صمد .

وبهذا نعرف أن ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ كلمة جامعة لجميع صفات الكمال للَّه وجامعة لجميع صفات النقص فى المخلوقات وأنها محتاجة إلى اللَّه ﷻ .

هذا تأكيد للصمدية والوحدانية ، وقلنا : توكيد ؛ لأننا نفهم هذا مما سبق فيكون ذكره توكيدًا لمعنى ما سبق وتقريرًا له ؛ فهو لأحديته وصمديته لم يلد ؛ لأن الولد يكون على مثل الوالد فى الخلقة ،

---

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى « السنة » (٦٦٥) بإسناد ضعيف .

في الصفة وحتى الشبه .

لما جاء مجزز المدلجي إلى زيد بن حارثة وابنه أسامة ، وهما ملتحفان برداء ، قد بدت أقدامهما ؛ نظر إلى القدمين . فقال : إن هذه الأقدام بعضها من بعض[1]. فعرف ذلك بالشبه .

فلكمال أحديته وكمال صمديته ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ والوالد محتاج إلى الولد بالخدمة والنفقة ويعينه عند العجز ويبقى نسله .

﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ ؛ لأنه لو ولد ؛ لكان مسبوقًا بوالد مع أنه جل وعلا هو الأول الذى ليس قبله شىء ، وهو الخالق وما سواه مخلوق ؛ فكيف يولد ؟

وإنكار أنه وُلِدَ أبلغ في العقول من إنكار أنه والد ولهذا لم يدع أحد أن اللَّه والدًا وادعى المفترون أن له ولدًا .

وقد نفى اللَّه هذا وهذا وبدأ بنفى الولد ؛ لأهمية الرد على مدعيه بل قال : ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ [المؤمنون : ٩١] ، حتى ولو بالتسمى ؛ فهو لم يلد ولم يتخذ ولدًا ، بنو آدم قد يتخذ الإنسان منهم ولدًا وهو لم يلده بالتبنى أو بالولاية أو بغير ذلك ، وإن كان التبنى غير مشروع ، أما اللَّه ﷻ ؛ فلم يلد ولم يولد ، ولما كان يرد على الذهن فرض أن يكون الشىء لا والدًا ولا مولودًا لكنه متولد ؛ نفى هذا الوهم الذى قد يرد ، فقال : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ . وإذا انتفى أن يكون له كفوًا أحد ؛ لزم ألَّا يكون متولدًا ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ، أى : لا يكافئه أحد فى جميع صفاته .

وفى هذه السورة : صفات ثبوتية وصفات سلبية :

الصفات الثبوتية : ﴿ٱللَّهُ﴾ التى تتضمن الألوهية ، ﴿أَحَدٌ﴾ تتضمن الأحدية ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ تتضمن الصمدية .

والصفات السلبية : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص : ٣، ٤] .

ثلاث إثبات ، وثلاث نفى ، وهذا النفى يتضمن من إثبات كمال الأحدية والصمدية .

قوله : « وما وصف به نفسه فى أعظم آية فى كتاب اللَّه »وهذه الآية تسمى آية الكرسى ؛ لأن فيها ذكر الكرسى : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وهى أعظم آية فى كتاب اللَّه .

والدليل على ذلك : أن النبى ﷺ سأل أُبى بن كعب ؛ قال : « أى آية فى كتاب اللَّه أعظم ؟ » فقال له : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ فضرب على صدره ، وقال : « ليهنك العلم أبا المنذر »[2].

---

(١) البخاري (٦٧٧٠) ، ومسلم (١٤٥٩) .

(٢) أخرجه مسلم (٨١٠) .

يعنى : أن النبى ﷺ أقرّه بأن هذه أعظم آية فى كتاب الله ، وأن هذا دليلٌ على علم أُبى فى كتابِ الله ﷻ .

وفى هذا الحديث دليل على أن القرآن يتفاضل ؛ كما دل عليه أيضًا حديث سورة « الإخلاص » ، وهذا موضع يجب فيه التفصيل ؛ فإننا نقول : أما باعتبار المتكلم به ؛ فإنه لا يتفاضل ؛ لأن المتكلم به واحد وهو الله ﷻ ، وأما باعتبار مدلولاته وموضوعاته فإنه يتفاضل ؛ فسورة « الإخلاص » التى فيها الثناء على الله ﷻ بما تضمنته من الأسماء والصفات ليست كسورة « المسد » التى فيها بيان حال أبى لهب من حيث الموضوع كذلك ، يتفاضل من حيث التأثير والقوة فى الأسلوب ؛ فإن من الآيات ما تجدها آية قصيرة لكن فيها رَدْعٌ قوى للقلب وموعظة ، وتجد آية أخرى أطول منها بكثير لكن لا تشتمل على ما تشتمل عليه الأولى ؛ فمثلًا قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .. إلخ ؛ هذه آية موضوعها سهل ، والبحث فيها فى معاملات تجرى بين الناس وليس فيها ذاك التأثير الذى يؤثره مثل قوله تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران : ١٨٥] ؛ فهذه تحمل معانى عظيمة ، فيها زجر وموعظةٌ وترغيب وترهيب ، ليست كآية الدَّين مثلًا مع أن آية الدين أطول منها .

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فى هذه الآية يخبر الله بأنه منفرد بالألوهية ، وذلك من قوله : ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ؛ لأن هذه جملة تفيد الحصر وطريقة النفى والإثبات هذه من أقوى صيغ الحصر .

« القيوم » : أى : ذو الحياة الكاملة المتضمنة لجميع صفات الكمال لم تسبق بعدم ، ولا يلحقها زوال ، ولا يعتريها نقص بوجه من الوجوه .

و﴿ٱلْحَىُّ﴾ من أسماء الله ، وقد تطلق على غير الله ؛ قال تعالى : ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ [الأنعام : ٩٥] ، ولكن ليس الحى كالحى ، ولا يلزم من الاشتراك فى الاسم التماثل فى المسمى .

﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ على وزن فيعول ، وهذه من صيغ المبالغة ، وهى مأخوذة من القيام .

ومعنى ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ ؛ أى : أنه القائم بنفسه ؛ فقيامه بنفسه يستلزم استغناءه عن كل شىء ، لا يحتاج إلى أكل ولا شرب ولا غيرها ، وغيره لا يقوم بنفسه بل هو محتاج إلى الله ﷻ فى إيجاده وإعداده وإمداده .

ومن معنى ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ كذلك أنه قائم على غيره لقوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد : ٣٣] ، والمقابل محذوف تقديره : كمن ليس كذلك ، والقائم على كل نفس بما كسبت هو الله ﷻ ولهذا يقول العلماء : القيوم هو القائم على نفسه القائم على غيره . وإذا كان قائمًا

على غيره ؛ لزم أن يكون غيره قائمًا به ؛ قال اللَّه تعالى : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم : ٢٥] ؛ فهو إذن كامل الصفات وكامل الملك والأفعال .

وهذان الاسمان هما الاسم الأعظم الذى إذا دعى اللَّه به أجاب ، ولهذا ينبغى للإنسان فى دعائه أن يتوسل به ؛ فيقول : يا حى ! يا قيوم ! وقد ذكرا فى الكتاب العزيز فى ثلاثة مواضع : هذا أحدها ، والثانى فى سورة « آل عمران » : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران : ٢] ، والثالث فى سورة « طه » : ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه : ١١١] .

هذان الاسمان فيهما الكمال الذاتى والكمال السلطانى ؛ فالذاتى فى قوله : ﴿ٱلْحَىُّ﴾ والسلطانى فى قوله : ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ ؛ لأنه يقوم على كل شىء ويقوم به كل شىء .

السِّنة النعاس وهى مقدمة النوم ولم يقل : لا ينام . لأن النوم يكن باختيار ، والأخذ يكون بالقهر . والنوم من صفات النقص ؛ قال النبى عليه الصلاة والسلام : « إن اللَّه لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام »(١) .

وهذه صفة من صفات النفى وقد سبق أن صفات النفى لابد أن تتضمن ثبوتًا وهو كمال الضد ، والكمال فى قوله : ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة : ٢٥٥] كمال الحياة والقيومية ؛ لأنه من كمال حياته ألَّا يحتاج إلى النوم ومن كمال قيوميته ألَّا ينام ؛ لأن النوم إنما يحتاج إليه المخلوقات الحية ؛ لنقصها ؛ لأنها تحتاج إلى النوم من أجل الاستراحة من تعب سبق واستعادة القوة لعمل مستقبل ، ولما كان أهل الجنة كاملى الحياة ؛ كانوا لا ينامون ؛ كما صحت بذلك الآثار .

لكن لو قال قائل : النوم فى الإنسان كمال ، ولهذا ؛ إذا لم ينم الإنسان ؛ عُدَّ مريضًا . فنقول : كالأكل فى الإنسان كمال ولو لم يأكل ؛ عُدَّ مريضًا لكن هو كمال من وجه ونقص من وجه آخر ؛ كمال لدلالته على صحة البدن واستقامته ونقص لأن البدن محتاج إليه ، وهو فى الحقيقة نقص .

إذن ليس كل كمال نسبى بالنسبة للمخلوق يكون كمالًا للخالق ؛ كما أنه ليس كل كمال فى الخالق يكون كمالًا فى المخلوق ؛ فالتكبر كمال فى الخالق نقص فى المخلوق والأكل والشرب والنوم كمال فى المخلوق نقص فى الخالق ؛ ولهذا قال اللَّه تعالى عن نفسه : ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام : ١٤] .

قوله : ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ : ﴿لَّهُۥ﴾ : خبر مقدم . ﴿مَا﴾ : مبتدأ مؤخر ؛ ففى الجملة حصر ، طريقة تقديم ما حقه التأخير وهو الخبر . ﴿لَّهُۥ﴾ : اللام هذه للملك . ملك تام ، بدون

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩) .

معارض. ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ : من الملائكة والجنة وغير ذلك مما لا نعلمه ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ : من المخلوقات كلها الحيوان منها وغير الحيوان.

وقوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ : تفيد أن السماوات عديدة، وهو كذلك وقد نص القرآن على أنها سبع ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦].

والأرضون أشار القرآن إلى أنها سبع بدون تصريح، وصرحت، بها السنة؛ قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]؛ مثلهن في العدد دون الصفة، وفي السُّنة قال النبي عليه الصلاة والسلام: «من اقتطع شبرًا من الأرض ظلمًا؛ طوّقه الله به يوم القيامة من سبع أرضين»[1].

﴿مَن ذَا﴾ اسم استفهام أو نقول: ﴿مَن﴾ اسم استفهام، و﴿ذَا﴾ : ملغاة، ولا يصح أن تكون ﴿ذَا﴾ : اسمًا موصولًا في مثل هذا التركيب؛ لأنه يكون معنى الجملة: من الذي الذي! وهذا لا يستقيم.

«الذي يشفع» الشفاعة في اللغة: جعل الوتر شفعًا؛ قال تعالى: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ [الفجر: ٣].

وفي الاصطلاح: هي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة؛ فمثلًا: شفاعة النبي ﷺ لأهل الموقف أن يقضى بينهم: هذه شفاعة بدفع مضرة، وشفاعته لأهل الجنة أن يدخلوها بجلب منفعة.

«عنده» أي: عند الله.

«إلا بإذنه» أي: إذنه له، وهذه تفيد إثبات الشفاعة، لكن بشرط أن يأذن: ووجه ذلك أنه لولا ثبوتها؛ لكان الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ : لغوًا لا فائدة فيه.

وذكرها بعد قوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يفيد أن هذا الملك الذي هو خاص بالله ﷻ؛ أنه ملك تام السلطان؛ بمعنى أنه لا أحد يستطيع أن يتصرف، ولا بالشفاعة التي هي خير؛ إلا بإذن الله، وهذا من تمام ربوبيته وسلطانه ﷻ.

وتفيد هذه الجملة أن له إذنًا، والإذن في الأصل الإعلام؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٣]؛ أي إعلام من الله ورسوله؛ فمعنى ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ ؛ أي: إعلامه بأنه راضٍ بذلك.

وهناك شروط أخرى للشفاعة: منها: أن يكون راضيًا عن الشافع وعن المشفوع له؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢ : ، ومسلم (١٦١٠).

وهناك آية تنتظم الشروط الثلاثة : ﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ [النجم : ٢٦] ؛ أى : يرضى عن الشافع والمشفوع له ؛ لأن حذف المعمول يدل على العموم .

إذا قال قائل : ما فائدة الشفاعة إذا كان اللَّه تعالى قد علم أن هذا المشفوع له ينجو ؟

فالجواب : أن اللَّه سبحانه وتعالى يأذن بالشفاعة لمن يشفع من أجل أن يكرمه وينال المقام المحمود .

العلم هو إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا ، واللَّه ﷻ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ المستقبل ، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الماضى ، وكلمة « مَا » من صيغ العموم تشمل كل ماض وكل مستقبل ، وتشمل أيضًا ما كان من فعله وما كان من أفعال الخلق .

الضمير فى ﴿يُحِيطُونَ﴾ يعود على الخلق الذى دل عليهم قوله : ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ؛ يعنى لا يحيط من فى السماوات والأرض بشيء من علم اللَّه إلا بما شاء .

يحتمل من علم ذاته وصفاته ؛ يعنى : أنا لا نعلم شيئًا عن اللَّه وذاته وصفاته إلا بما شاء مما علمنا إياه ويحتمل أن (علم) هنا بمعنى معلوم ؛ يعنى : لا يحيطون بشيء من معلومه ؛ أى : ما يعلمه ؛ إلا بما شاء ، وكِلا المعنيين صحيحٌ وقد نقول : إن الثانى أعم ؛ لأن معلومه يدخل فيه علمه بذاته وبصفاته وبما سوى ذلك .

يعنى إلا بما شاء مما علمهم إياه ، وقد علمنا اللَّه تعالى أشياء كثيرة عن أسمائه وصفاته وعن أحكامه الكونية وأحكامه الشرعية ، ولكن هذا الكثير هو بالنسبة لمعلومه قليل ؛ كما قال اللَّه تعالى : ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء : ٨٥] .

« وسع كرسيه » : بمعنى شمل ؛ يعنى : أن كرسيه محيط بالسماوات والأرض ، وأكبر منها ؛ لأنه لولا أنه أكبر ما وسعها .

الكرسى ؛ قال ابن عباس ﵄ : « إنه موضع قدمى اللَّه ﷻ »[1] ، وليس هو العرش ، بل العرش أكبر من الكرسى وقد ورد عن النبى عليه الصلاة والسلام : « أن السماوات السبع والأرضين السبع بالنسبة للكرسى كحلقة ألقيت فى فلاةٍ من الأرض ، وأن فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاةِ على هذه الحلقة »[2] .

هذا يدل على عِظم هذه المخلوقات وعظم المخلوق يدل على عظم الخالق .

---

(١) صححه الألبانى فى مختصر العلو (٤٥) .

(٢) صححه الألبانى فى الصحيحة (١٠٩) .

« وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا » : يعنى : لا يثقله ويكرثه حفظ السماوات والأرض .

وهذه من الصفات المنفية ، والصفة الثبوتية التى يدل عليها هذا النفى هى كمال القدرة والعلم والقوة والرحمة .

﴿ٱلْعَلِىُّ﴾ على وزن فعيل ، وهى صفة مشبهة ؛ لأن علوه ﷻ لازم لذاته ، والفرق بين الصفة المشبهة واسم الفاعل أن اسم الفاعل طارئ حادث يمكن زواله ، والصفة المشبهة لازمة لا ينفك عنها الموصوف .

وعلو اللَّه ﷻ قسمان : علو ذات ، وعلو صفات :

فأما علو الذات ؛ فإن معناه أنه فوق كل شىء بذاته ، ليس فوقه شىء ولا حذاءه شىء .

وأما علو الصفات ؛ فهى ما دل عليه قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل : ٦٠] ؛ يعنى : أن صفاته كلها عليا ، ليس فيها نقص بوجه من الوجوه .

﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ ؛ أيضًا صفة مشبهة ، ومعناها : ذو العظمة ، وهى القوة والكبرياء وما أشبه ذلك مما هو معروف من مدلول هذه الكلمة .

وهذه الآية تتضمن من أسماء اللَّه خمسة وهى : اللَّه ، الحى ، القيوم ، العلى ، العظيم .

وتتضمن من صفات اللَّه ستًا وعشرين صفة منها خمس صفات تضمنتها هذه الأسماء .

السادسة : انفراده بالألوهية .

السابعة : انتفاء السنة والنوم فى حقه ؛ لكمال حياته وقيوميته .

الثامنة : عموم ملكه ؛ لقوله : ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ .

التاسعة : انفراد اللَّه ﷻ بالملك ، ونأخذه من تقديم الخبر .

العاشرة : قوة السلطان وكماله ؛ لقوله : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ .

الحادية عشرة : إثبات العندية ، وهذا يدل على أنه ليس فى كل مكان ؛ ففيه الرد على الحلولية .

الثانية عشرة : إثبات الإذن من قوله : ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ .

الثالثة عشرة : عموم علم اللَّه تعالى لقوله : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ .

الرابعة عشرة والخامسة عشرة : أنه سبحانه وتعالى لا ينسى ما مضى ؛ لقوله : ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ولا يجهل ما يستقبل ؛ لقوله ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ .

السادسة عشرة : كمال عظمة اللَّه ؛ لعجز الخلق عن الإحاطة به .

السابعة عشرة : إثبات المشيئة ؛ لقوله : ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ .

الثامنة عشرة : إثـ ـ الكرسى ، ، ـ موضع القدمين .

التاسعة عشرة والعشرون والحادية والعشرون : إثبات العظمة والقوة والقدرة ؛ لقوله : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ؛ لأن عظمة المخلوق تدل على عظمة الخالق .

الثانية والثالثة والرابعة والعشرون : كمال علمه ورحمته وحفظه ، من قوله : ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ .

الخامسة والعشرون : إثبات علو اللَّه لقوله : ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ . ومذهب أهل السنة والجماعة أن اللَّه سبحانه وتعالى عالٍ بذاته ، وأن علوه من الصفات الذاتية الأزلية الأبدية .

وخالف أهل السنة فى ذلك طائفتان : طائفة قالوا : إن اللَّه بذاته فى كل مكان ! وطائفة قالوا : إن اللَّه ليس فوق العالم ولا تحت العالم ولا فى العالم ولا يمين ولا شمال ولا منفصل عن العالم ولا متصل .

والذين قالوا بأنه فى كل مكان استدلوا بقول اللَّه تعالى : ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة : ٧] ، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد : ٤] ، وعلى هذا ؛ فليس عاليًا بذاته ، بل العلو عندهم علو صفة .

أما الذين قالوا : إنه لا يوصف بجهة ؛ فقالوا : لأننا لو وصفناه بذلك ؛ لكان جسمًا ، والأجسام متماثلة ، وهذا يستلزم التمثيل وعلى هذا ؛ فننكر أن يكون فى أى جهة .

ولكننا نرد على هؤلاء وهؤلاء من وجهين :

الوجه الأول : إبطال احتجاجهم .

والثانى : إثبات نقيض قولهم بالأدلة القاطعة .

١ - أما الأول ؛ فنقول لمن زعموا أن اللَّه بذاته فى كل مكان : دعواكم هذه دعوى باطلةٌ يردها السمع والعقل :

- أما السمع ؛ فإن اللَّه تعالى أثبت لنفسه أنه العَلِىُّ والآية التى استدللتم بها لا تدل على ذلك ؛ لأن المعية لا تستلزم الحلول فى المكان ، ألا ترى إلى قول العرب : القمر معنا ؛ ومحله فى السماء ؟ ويقول الرجل : زوجتى معى ؛ وهو فى المشرق وهى فى المغرب ؟ ويقول الضابط للجنود : اذهبوا إلى المعركة وأنا معكم ؛ وهو فى غرفة القيادة وهم فى ساحة القتال ؟ فلا يلزم من المعية أن يكون الصاحب فى مكان المصاحب أبدًا ، والمعية يتحدد معناها بحسب ما تضاف إليه ؛ فنقول أحيانًا : هذا لبن معه ماء . وهذه المعية اقتضت الاختلاط . ويقول الرجل : متاعى معى . وهو فى بيته غير متصل به ،

ويقول : إذا حمل متاعه معه : متاعى معى . وهو متصل به . فهذه كلمة واحدة لكن يختلف معناها بحسب الإضافة ؛ فبهذا نقول : معية الله ﷻ لخلقه تليق بجلاله سبحانه وتعالى ؛ كسائر صفاته ؛ فهى معية تامة حقيقية ، لكن هو فى السماء .

– وأما الدليل العقلى على بطلان قولهم ؛ فنقول : إذا قلت : إن الله معك فى كل مكان ؛ فهذا يلزم عليه لوازم باطلة ؛ فيلزم عليه :

أولًا : إما التعدد أو التجزؤ ، وهذا لازم باطل بلا شك ، وبطلان اللازم يدل على بطلان الملزوم .

ثانيًا : نقول : إذا قلت : إنه معك فى الأمكنة ؛ لزم أن يزداد بزيادة الناس ، وينقص بنقص الناس .

ثالثًا : يلزم على ذلك ألا تنزهه عن المواضع القذرة ؛ فإذا قلت : إن الله معك وأنت فى الخلاء ؛ فيكون هذا أعظم قدح فى الله ﷻ .

فتبين بهذا أن قولهم مناف للسمع ومناف للعقل ، وأن القرآن لا يدل عليه بأى وجه من الدلالات ؛ لا دلالة مطابقة ولا تضمن ولا التزام أبدًا .

٢ – أما الآخرون ؛ فنقول لهم :

أولًا : إن نفيكم للجهة يستلزم نفى الرب ﷻ ؛ إذ لا نعلم شيئًا لا يكون فوق العالم ولا تحته ولا يمين ولا شمال ، ولا متصل ولا منفصل ؛ إلا العدم ، ولهذا قال بعض العلماء : لو قيل لنا صفوا الله بالعدم ؛ ما وجدنا أصدق وصفًا للعدم من هذا الوصف .

ثانيًا : قولكم : إثبات الجهة يستلزم التجسيم ! نحن نناقشكم فى كلمة الجسم :

ما هذا الجسم الذى تنفِّرون الناس عن إثبات صفات الله من أجله ؟ !

أتريدون بالجسم الشىء المكون من أشياء مفتقر بعضها إلى بعض لا يمكن أن يقوم إلَّا باجتماع هذه الأجزاء ؟ ! فإن أردتم هذا ؛ فنحن لا نقره ، ونقول : إن الله ليس بجسم بهذا المعنى . ومن قال : إن إثبات علوه يستلزم هذا الجسم ؛ فقوله مجرد دعوى ويكفينا أن نقول : لا قبول .

أما إن أردتم بالجسم الذات القائمة بنفسها المتصفة بما يليق بها ؛ فنحن نثبت ذلك ، ونقول : إن لله تعالى ذاتًا ، وهو قائم بنفسه ، متصف بصفات الكمال ، وهذا هو الذى يعلم به كل إنسان .

وبهذا يتبين بطلان قول هؤلاء الذين أثبتوا أن الله بذاته فى كل مكان ، أو أن الله تعالى ليس فوق العالم ولا تحته ولا متصل ولا منفصل ونقول : هو على عرشه استوى ﷻ .

أما أدلة العلو التى يثبت بها نقيض قول هؤلاء وهؤلاء ، والتى تثبت ما قاله أهل السنة والجماعة ؛ فهى أدلة كثيرة لا تحصر أفرادها ، وأما أنواعها ؛ فهى خمسة : الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والعقل ، والفطرة .

– أما الكتاب ؛ فتنوعت أدلته على علو اللَّه ﷻ منها التصريح بالعلو والفوقية وصعود الأشياء إليه ونزولها منه وما أشبه ذلك .

– أما السُّنة ؛ فكذلك ؛ فتنوعت دلالتها ، واتفقت السنة بأصنافها الثلاثة على علو اللَّه بذاته ؛ فقد ثبت علو اللَّه بذاته فى السنة من قول الرسول ﷺ وفعله وإقراره .

– أما الإجماع ؛ فقد أجمع المسلمون قبل ظهور هذه الطوائف المبتدعة على أن اللَّه تعالى مستوٍ على عرشه فوق خلقه .

قال شيخ الإسلام : « ليس فى كلام اللَّه ولا رسوله ولا كلام الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ما يدل لا نصًّا ولا ظاهرًا على أن اللَّه تعالى ليس فوق العرش وليس فى السماء ، بل كل كلامهم متفق على أن اللَّه فوق كل شىء » .

– وأما العقل ؛ فإننا نقول : كلٌّ يعلم أن العلو صفة كمال ، وإذا كان صفة كمال ؛ فإنه يجب أن يكون ثابتًا للَّه ؛ لأن اللَّه متصف بصفات الكمال ، ولذلك نقول : إما أن يكون اللَّه فى أعلى أو فى أسفل أو فى المحاذى ؛ فالأسفل والمحاذى ممتنع ؛ لأن الأسفل نقص فى معناه ، والمحاذى نقص لمشابهة المخلوق ومماثلته ، فلم يبق إلا العلو ، وهذا وجه آخر فى الدليل العقلى .

– وأما الفطرة ؛ فإننا نقول : ما من إنسان يقول : يا رب ! إلا وجد فى قلبه ضرورة بطلب العلوّ .

فتطابقت الأدلة الخمسة .

وأما علو الصفات ؛ فهو محل إجماع من كل من يدين أو يتسمى بالإسلام .

السادسة والعشرون : إثبات العظمة للَّه ﷻ ؛ لقوله : ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ .

هذا طرف من حديث رواه البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه فى قصة استحفاظ النبى ﷺ إياه على الصدقة ، وأخذ الشيطان منها ، وقوله لأبى هريرة : « إذا أويت إلى فراشك ؛ فاقرأ آية الكرسى : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة : ٢٥٥] حتى تختم الآية ؛ فإنك لن يزال عليك من اللَّه حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح » فأخبر أبو هريرة النبى ﷺ بذلك ، فقال : « إنه صدقك ، وهو كذوب »(١) .

هذا معطوف على (سورة) فى قول المؤلف : « ما وصف به نفسه فى سورة الإخلاص » .

﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ : هذه أربعة أسماء كلها متقابلة فى الزمان والمكان ، تفيد

(١) علقه البخارى (٣٢٧٥) .

إحاطة الله سبحانه وتعالى بكل شيء أولًا وآخرًا وكذلك في المكان ففيه الإحاطة الزمانية والإحاطة المكانية .

﴿ٱلْأَوَّلُ﴾ : فسره النبي عليه الصلاة والسلام بقوله : « الذي ليس قبله شيء »[1] .

وهنا فسر الإثبات بالنفي فجعل هذه الصفة الثبوتية صفة سلبية ، وقد ذكرنا فيما سبق أن الصفات الثبوتية أكمل وأكثر ؛ فلماذا ؟

فنقول : فسرها النبي ﷺ بذلك ؛ لتوكيد الأولية ؛ يعني أنها مطلقة ، أولية ليست أولية إضافية ، فيقال : هذا أول باعتبار ما بعده وفيه شيء آخر قبله ؛ فصار تفسيرها بأمر سلبي أدل على العموم باعتبار التقدم الزمني .

﴿وَٱلْآخِرُ﴾ : فسره النبي عليه الصلاة والسلام بقوله : « الذي ليس بعده شيء » ، ولا يتوهم أن هذا يدل على غاية لآخريته ، لأن هناك أشياء أبدية وهي من المخلوقات ، كالجنة والنار ، وعليه فيكون معنى « الآخِرُ » أنه محيط بكل شيء ، فلا نهاية لآخريته .

﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ : من الظهور وهو العلو ؛ كما قال تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة : ٣٣] ؛ أي : ليعليه ، ومنه ظهر الدابة لأنه عال عليها ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف : ٩٧] ؛ أي يعلوا عليه ؛ وقال النبي عليه الصلاة والسلام في تفسيرها : « الذي ليس فوقه شيء » ؛ فهو عال على كل شيء .

﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ : فسره النبي عليه الصلاة والسلام قال : « الذي ليس دونه شيء » . وهذا كناية عن إحاطته بكل شيء ، ولكن المعنى أنه مع علوه ﷻ ؛ فهو باطن ؛ فعلوه لا ينافي قربه ﷻ ؛ فالباطن قريب من معنى القريب .

تأمل هذه الأسماء الأربعة ؛ تجد أنها متقابلة ، وكلها خبر عن مبتدأ واحد لكن بواسطة حرف العطف والأخبار بواسطة حرف العطف أقوى من الأخبار بدون واسطة حرف العطف ؛ فمثلًا : ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج : ١٤- ١٦] : هي أخبار متعددة بدون حرف العطف لكن أحيانًا تأتي أسماء الله وصفاته مقترنة بواو العطف وفائدتها :

أولًا : توكيد السابق ؛ لأنك إذا عطفت عليه ؛ جعلته أصلًا ؛ والأصل ثابت .

ثانيًا : إفادة الجمع ولا يستلزم ذلك تعدد الموصوف ، أرأيت قوله تعالى : ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى : ١- ٣] ، فالأعلى الذي خلق فسوى هو الذي قدر فهدى .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣) .

فإذا قلت : المعروف أن العطف يقتضى المغايرة .

فالجواب : نعم ؛ لكن المغايرة تارة تكون بالأعيان ، وتارة تكون بالأوصاف ، وهذا تغاير أوصاف ، على أن التغاير قد يكون لفظيًا غير معنوى مثل قول الشاعر :

* فَألفى قَوْلَها كَذبًا ومينا *

فَالمَيْن هو الكذب ومع ذلك عطفه عليه ؛ لتغاير اللفظ والمعنى واحد ؛ فالتغاير إما عينى أو معنوى أو لفظى ، فلو قلت : جاء زيد وعمرو وبكر وخالد . فالتغاير عينى ، ولو قلت : جاء زيد الكريم والشجاع والعالم . فالتغاير معنوى ، ولو قلت : هذا الحديث كذب ومين . فالتغاير لفظى .

واستفدنا من هذه الآية الكريمة : إثبات أربعة أسماء للَّه ، وهى الأول والآخر والظاهر والباطن .

واستفدنا منها خمس صفات : الأولية ، والآخرية ، والظاهرية ، والباطنية وعموم العلم .

واستفدنا من مجموع الأسماء : إحاطة اللَّه تعالى بكل شىء زمنًا ومكانًا ؛ لأنه قد يحصل من اجتماع الأوصاف زيادة صفة .

فإذا قال قائل : هل هذه الأسماء متلازمة ؛ بمعنى أنك إذا قلت : الأول ؛ فلابد أن تقول : الآخر ، أو : يجوز فصل بعضها عن بعض ؟!

فالظاهر أن المتقابل منها متلازم ؛ فإذا قلت : الأول ؛ فقل : الآخر ، وإذا قلت : الظاهر ؛ فقل : الباطن ؛ لئلا تفوِّت صفة المقابلة الدالة على الإحاطة .

« وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » هذا إكمال لما سبق من الصفات الأربع ؛ يعنى : ومع ذلك ؛ فهو بكل شىء عليم . وهذه من صيغ العموم التى لم يدخلها تخصيص أبدًا ، وهذا العموم يشمل أفعاله وأفعال العباد الكليات والجزئيات ؛ يعلم ما يقع وما سيقع ويشمل الواجب والممكن والمستحيل ؛ فعلم اللَّه تعالى واسع شاملٌ محيط لا يستثنى منه شىء ؛ فأما علمه بالواجب ؛ فكعلمه بنفسه وبما له من الصفات الكاملة ، وأما علمه بالمستحيل ؛ فمثل قوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء : ٢٢] ، وقوله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ [الحج : ٧٣] . وأما علمه بالممكن ؛ فكل ما أخبر اللَّه به عن المخلوقات ؛ فهو من الممكن : ﴿يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل : ١٩] .

إذن ؛ فعلم اللَّه تعالى محيط بكل شىء .

والثمرة التى ينتجها الإيمان بأن اللَّه بكل شىء عليم : كمال مراقبة اللَّه ﷻ وخشيته ؛ بحيث لا يفقده حيث أمره ، ولا يراه حيث نهاه .

التوكل: مأخوذ من وَكَلَ الشيء إلى غيره ؛ أي: فوضه إليه ؛ فالتوكل على الغير ؛ بمعنى: التفويض إليه .

وعرف بعض العلماء التوكل على الله بأنه: صدق الاعتماد على الله في جلبِ المنافع ودفع المضار ، مع الثقة به سبحانه وتعالى ، وفعل الأسباب الصحيحة .

وصدق الاعتماد: أن تعتمد على الله اعتمادًا صادقًا ؛ بحيث لا تسأل إلا الله ، ولا تستعين إلا بالله ، ولا ترجو إلا الله ، ولا تخاف إلا الله ؛ تعتمد على الله ﷻ بجلب المنافع ودفع المضار ، ولا يكفي هذا الاعتماد دون الثقة به وفعل السبب الذي أذن به ؛ بحيث إنك واثق بدون تردد مع فعل السبب الذي أذن فيه .

فمن لم يعتمد على الله واعتمد على قوته ؛ فإنه يخذل ؛ ودليل ذلك ما وقع للصحابة مع نبيهم محمد ﷺ في غزوة حنين ؛ حين قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ ؛ حيث قالوا: لن نغلب اليوم من قلة ؛ ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۞ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦] .

ومن توكل على الله ، ولكن لم يفعل السبب الذي أذن الله فيه ؛ فهو غير صادق ، بل إن عدم فعل الأسباب سَفهٌ في العقل ونقص في الدين ؛ لأنه طعن واضح في حكمة الله .

والتوكل على الله هو شطر الدين ؛ كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] ، والاستعانة بالله تعالى هي ثمرة التوكل ؛ ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] .

ولهذا ؛ فإن من توكل على غير الله لا يخلو من ثلاثة أقسام:

أولًا: أن يتوكل توكل اعتماد وتعبُّد ؛ فهذا شرك أكبر ؛ كأن يعتقد بأن هذا المتوكل عليه هو الذي يجلب له كل خير ويدفع عنه كل شر ، فيفوض أمره إليه تفويضًا كاملًا في جلب المنافع ودفع المضار ، مع اقتران ذلك بالخشية والرجاء ، ولا فرق بين أن يكون المتوكل عليه حيًّا أو ميتًا ؛ لأن هذا التفويض لا يصح إلا لله .

ثانيًا: أن يتوكل على غير الله بشيء من الاعتماد لكن فيه إيمان بأنه سبب وأن الأمر إلى الله ؛ كتوكل كثير من الناس على الملوك والأمراء في تحصيل معاشهم ؛ فهذا نوع من الشرك الأصغر .

ثالثًا: أن يتوكل على شخص على أنه نائب عنه ، وأن هذا المتوكل فوقه ؛ كتوكل الإنسان على الوكيل في بيع وشراء ونحوهما مما تدخله النيابة ؛ فهذا جائز ، ولا ينافي التوكل على الله ، وقد وكل النبي ﷺ أصحابه في البيع والشراء ونحوهما .

وقوله : ﴿عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ : يقولون : إن الحكم إذا علق بوصف ؛ دل على علية ذلك الوصف .

لو قال قائل : لماذا لم تكن الآية : وتوكل على القوى العزيز ؛ لأن القوة والعزم أنسب فيما يبدو ؟ !

فالجواب : أنه لما كانت الأصنام التى يعتمد عليها هؤلاء بمنزلة الأموات : كما قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل : ٢٠، ٢١] ؛ فقال توكل على من ليس صفته كصفة هذه الأصنام وهو الحى الذى لا يموت ، على أنه قال فى آية أخرى : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الشعراء : ٢١٧] ؛ لأن العزة أنسب فى هذا السياق .

ووجه آخر : أن الحى اسم يتضمن جميع الصفات الكاملة فى الحياة ، ومن كمال حياته عز وجل أنه أهل لأن يعتمد عليه .

وقوله : ﴿لَا يَمُوتُ﴾ ؛ يعنى لكمال حياته لا يموت فيكون تعلقها بما قبلها ، المقصود به إفادة أن هذه الحياة كاملة لا يلحقها فناء .

فى هذه الآية من أسماء اللَّه : الحى ، وفيها من صفاته : الحياة ، وانتفاء الموت المتضمن لكمال الحياة ؛ ففيها صفتان واسم .

سبق تعريف العلم ، وسبق أن العلم صفة كمال وسبق أن علم اللَّه محيط بكل شىء .

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ : هذه المادة (ح ك م) : تدل على حكم وإحكام ؛ فعلى الأول يكون الحكيم بمعنى الحاكم ، وعلى الثانى يكون الحكيم بمعنى المحكم ؛ إذن : يدل هذا الاسم الكريم على أن الحكم للَّه ، ويدل على أن اللَّه موصوف بالحكمة ؛ لأن الإحكام هو الإتقان ، والإتقان وضع الشىء فى موضعه . ففى الآية إثبات حكم وإثبات حكمة :

فاللَّه ﷻ وحده هو الحاكم ، وحكم اللَّه إما كونى وإما شرعى :

فحكم اللَّه الشرعى : ما جاءت به رسله ونزلت به كتبه من شرائع الدين .

وحكم اللَّه الكونى : ما قضاه على عباده من الخلق والرزق والحياة والموت ونحو ذلك من معانى ربوبيته ومقتضياتها .

دليل الحكم الشرعى : قوله تعالى فى سورة « الممتحنة » : ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة : ١٠] .

ودليل الحكم الكونى : قوله تعالى عن أحد إخوة يوسف : ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف : ٨٠] .

وأما قوله تعالى : ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين : ٨] ؛ فشامل للكونى والشرعى ، فالله ﷻ حكيم بالحكم الكونى وبالحكم الشرعى ، وهو أيضًا محكم لهما ، فكل من الحكمين موافق للحكمة .

لكن من الحكمة ما نعلمه ، ومن الحكمة ما لا نعلمه ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] .

ثم الحكمة نوعان :

الأولى : حكمة فى كون الشىء على كيفيته وحاله التى هو عليها ؛ كحال الصلاة ؛ فهى عبادة كبيرة تسبق بطهارة من الحدث والخبث وتؤدى على هيئة معينة من قيام وقعود وركوع وسجود ، وكالزكاة ؛ فهى عبادة لله تعالى بأداء جزء من المال النامى غالبًا لمن هم فى حاجة إليها ؛ أو فى المسلمين حاجة إليهم كبعض المؤلفة قلوبهم .

الثانية : حكمة فى الغاية من الحكم ؛ حيث إن جميع أحكام الله تعالى لها غايات حميدة وثمرات جليلة .

فانظر إلى حكمة الله فى حكمه الكونى ؛ حيث يصيبُ الناس بالمصائب العظيمة لغاياتٍ حميدة ؛ كقوله تعالى : ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١] ، ففيها ردٌّ لقول من يقول : إن أحكام الله تعالى ليست لحكمة ، بل هى لمجرد مشيئته .

وفى هذه الآية من أسماء الله : العليم ، والحكيم . ومن صفاته : العلم والحكمة .

وفيها من الفوائد المسلكية : أن الإيمان بعلم الله وحكمته يستلزم الطمأنينة التامة لما حكم به من أحكام كونية وشرعية ؛ لصدور ذلك عن علم وحكمة ، فيزول عنه القلق النفسى وينشرح صدره .

العليم : سبق الكلام فيه .

الخبير : هو العليم ببواطن الأمور فيكون هذا وصفًا أخص بعد وصف أعم ؛ فنقول : العليم بظواهر الأمور ، والخبير ببواطن الأمور ، فيكون العلم بالبواطن مذكورًا مرتين : مرة بطريق العموم ، ومرة بطريق الخصوص ؛ لئلا يظن أن علمه مختص بالظواهر .

وكما يكون هذا فى المعانى يكون فى الأعيان ؛ فمثلًا : ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤] : الروح جبريل ، وهو من الملائكة فنقول : الملائكة ومنهم جبريل ، وخص جبريل بالذكر تشريفًا له ويكون النص عليه مرتين : مرة بالعموم ، ومرة بالخصوص .

وفى هذه الآية من أسماء الله تعالى : العليم ، والخبير ومن صفاته : العلم ، والخبرة .

وفيها من الفوائد المسلكية : أن الإيمان بذلك يزيد المرء خوفًا من اللَّه وخشية ؛ سرًّا وعلنًا .

الآية الأولى : قوله : ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ : ٢] .

هذه تفصيل لما سبق من عموم علمه تعالى .

﴿مَا﴾ : اسم موصول يفيد العموم ؛ كل ما يلج فى الأرض مثل المطر والحب يبذر فى الأرض والدود والنمل وغيرها ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كالماء والزروع .. وما أشبه ذلك ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ ؛ مثل المطر والوحى والملائكة وأمر اللَّه ﷻ ، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ ؛ كالأعمال الصالحة والملائكة والأرواح والدعاء .

وهنا قال : (وما يخرج فيها) ؛ فعدّى الفعل بـ : (في) وفى سورة « المعارج » قال : ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج : ٤] ؛ فعداه بـ : (إلى) ، وهذا هو الأصل ؛ فما وجه كونه عدى بـ (في) فى قوله : ﴿يَعْرُجُ فِيهَا﴾ ؟ .

فالجواب : اختلف نحاة البصرة والكوفة فى مثل هذا ، فقال نحاة البصرة : إن الفعل يضمن معنى يتلائم مع الحرف . وقال نحاة الكوفة : بل الحرف يضمن معنى يتلائم مع الفعل .

فعلى الرأى الأول : يكون قوله : ﴿يَعْرُجُ فِيهَا﴾ : مضمنًا معنى (يدخل) ، فيصير المعنى : وما يعرج فيدخل فيها ، وعليه يكون فى الآية دلالة على أمرين : على عروج ودخول .

أما على الرأى الثانى ؛ فنقول : (في) بمعنى (إلى) ويكون هذا من باب التناوب بين الحروف .

لكن على هذا القول لا تجد أن فى الآية معنىً جديدًا وليس فيها إلا اختلاف لفظ (إلى) لفظ (في) ولهذا كان القول الأول أصح وهو أن تضمن الفعل معنى يتناسب مع الحرف .

ولهذا نظير فى اللغة العربية ؛ قال اللَّه تعالى : ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان : ٦] ، والعين يُشرب منها والذى يشرب به الإناء ، فعلى رأى أهل الكوفة نقول : ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ الباء بمعنى (من) ؛ أى : منها ، وعلى رأى أهل البصرة يُضمن الفعل ﴿يَشْرَبُ﴾ معنى يتلائم مع حرف الباء والذى يتلائم معها يُروى ، ومعلوم أنه لا رى إلا بعد شرب ، فيكون هذا الفعل ضمن معنى غايته وهو الرِّى .

وكذلك نقول فى ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ : لا دخول فى السماء إلا بعد العروج إليها ، فيكون الفعل ضمن معنى الغاية .

ففى الآية ذكر اللَّه ﷻ عموم علمه فى كل شيء بنوع من التفصيل ، ثم فصل فى آية أخرى تفصيلًا آخر :

الآية الثانية : قوله : ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام : ٥٩].

﴿عِندَهُۥ﴾ : أي : عند الله وهو خبر مقدم ﴿مَفَاتِحُ﴾ : مبتدأ مؤخر .

ويفيد هذا التركيب الحصر والاختصاص ؛ عنده لا عند غيره مفاتح الغيب وأكد هذا الحصر بقوله : ﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ ؛ ففي الجملة حصر بأن علم هذه المفاتح عند الله بطريقتين : إحداهما : بطريقة التقديم والتأخير . والثانية : طريقة النفي والإثبات .

كلمة ﴿مَفَاتِحُ﴾ ؛ قيل : إنها جمع مفتح ؛ بكسر الميم وفتح التاء : المفتاح ؛ أو أنها جمع مفتاح لكن حذفت منها الياء وهو قليل ، ونحن نعرف أن المفتاح ما يفتح به الباب . وقيل : جمع مفتح ؛ بفتح الميم وكسر التاء وهو الخزائن ؛ ف : ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ خزائنه ، وقيل : ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ ؛ أي : مبادئه ؛ لأن مفتاح كل شيء يكون في أوله ، فيكون على هذا : ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ ؛ أي : مبادئ الغيب ؛ فإن هذه المذكورات مبادئ لما بعدها .

﴿ٱلْغَيْبِ﴾ : مصدر غاب يغيب غيبًا ، والمراد بالغيب : ما كان غائبًا والغيب أمر نسبي ، لكن الغيب المطلق علمه خاص بالله .

هذه المفاتح سواء قلنا : إن المفاتح هي المبادئ ، أو : هي الخزائن ، أو : المفاتيح ؛ لا يعلمها إلا الله ﷻ ؛ فلا يعلمها ملك ، ولا يعلمها رسول ، حتى إن أشرف الرسل الملكي وهو جبريل - سأل أشرف الرسل البشري - وهو محمد عليه الصلاة والسلام - قال : أخبرني عن الساعة ؟ قال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل »(١) . والمعنى : كما أنه لا علم لك بها ؛ فلا علم لي بها أيضًا . فمن ادعى علم الساعة ؛ فهو كاذب كافر ، ومن صدقه ؛ فهو أيضًا كافر ؛ لأنه مكذب للقرآن .

وهذه المفاتح ؟ فسرها أعلم الخلق بكلام الله محمد ﷺ حين قرأ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾(٢) [لقمان : ٣٤] ؛ فهي خمسة أمور :

الأول : علم الساعة : فعلم الساعة مبدأ مفتاح لحياة الآخرة ، وسميت الساعة بهذا ؛ لأنها ساعة عظيمة ، يهدد بها جميع الناس ، وهي الحاقة والواقعة ، والساعة علمها عند الله لا يدري أحد متى تقوم إلا الله ﷻ .

---

(١) أخرجه مسلم (٨) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٢٧) .

الثاني : تنزيل الغيث : لقوله : ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ : ﴿ٱلْغَيْثَ﴾ : مصدر ومعناه : إزالة الشدة والمراد به المطر ؛ لأنه بالمطر تزول شدة القحط والجدب وإذا كان هو الذى ينزل الغيث ؛ كان هو الذى يعلم وقت نزوله .

والمطر نزوله مفتاح لحياة الأرض بالنبات ، وبحياة النبات يكون الخير فى المرعى وجميع ما يتعلق بمصالح العباد .

وهنا نقطة : قال : ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ ، ولم يقل : وينزل المطر ؛ لأن المطر أحيانًا ينزل ولا يكون فيه نبات ؛ فلا يكون غيثًا ، ولا تحيا به الأرض ، ولهذا ثبت فى « صحيح مسلم » : « ليست السَّنة ألا تمطَروا ، إنما السَّنة أن تمطروا ولا تنبت الأرض شيئًا »[1] ، والسَّنة القحط .

الثالث : علم ما فى الأرحام : لقوله : ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ [لقمان : ٣٤] ؛ أى : أرحام الإناث ، فهو ﷻ يعلم ما فى الأرحام ؛ أى : ما فى بطون الأمهات من بنى آدم وغيرهم ، ومتعلق العلم عام بكل شىء ؛ فلا يعلم ما فى الأرحام إلا من خلقها ﷻ .

فإن قلت : يقال الآن : إنهم صاروا يعلمون الذكر من الأنثى فى الرحم ، فهل هذا صحيح ؟ .

نقول : إن هذا الأمر وقع ولا يمكن إنكاره ، لكنهم لا يعلمون ذلك إلا بعد تكوين الجنين وظهور ذكورته أو أنوثته ، وللجنين أحوال أخرى لا يعلمونها ؛ فلا يعلمون متى ينزل ، ولا يعلمون إذا نزل إلى متى يبقى حيًا ولا يعلمون هل يكون شقيًا أو سعيدًا ، ولا يعلمون هل يكون غنيًا أم فقيرًا .. إلى غير ذلك من أحواله المجهولة .

إذن أكثر متعلقات العلم فيما يتعلق بالأجنَّةِ مجهول للخلق ؛ فصدق العموم فى قوله : ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ .

الرابع : علم ما فى الغد : وهو ما بعد يومك : لقوله : ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ . وهذا مفتاح الكسب فى المستقبل ، وإذا كان الإنسان لا يعلم ما يكسب لنفسه ؛ فعدم علمه بما يكسبه غيره أولى .

لكن لو قال قائل : أنا أعلم ما فى الغد ، سأذهب إلى المكان الفلانى ، أو أقرأ ، أو أزور أقاربى . فنقول : قد يجزم بأنه سيعمل ولكن يحول بينه وبين العمل مانع .

الخامس : علم مكان الموت : لقوله : ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ . ما يدرى أى أحد هل يموت فى أرضه أو فى أرض أخرى ؟ فى أرض إسلامية أو أرض كافر أهلها ؟ ولا يدرى هل يموت فى

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٠٤) .

البر أو فى البحر أو فى الجو ؟ وهذا شيء مشاهد .

ولا يدرى بأى ساعة يموت ؛ لأنه إذا كان لا يمكنه أن يدرى بأى أرض يموت وهو قد يتحكم فى المكان ؛ فكذلك لا يدرى بأى زمن وساعة يموت .

فهذه الخمسة هى مفاتح الغيب التى لا يعلمها إلا الله وسميت مفاتح الغيب ؛ لأن علم ما فى الأرحام مفتاح للحياة الدنيا ، ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ مفتاح للعمل المستقبل ، ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ مفتاح لحياة الآخرة ؛ لأن الإنسان إذا مات ؛ دخل عالم الآخرة ، وسبق بيان علم الساعة وتنزيل الغيث ؛ فتبين أن هذه المفاتح كلها مبادئ لكل ما وراءها ؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ .

ثم قال ﷻ : ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام : ٥٩] : هذا إجمال ؛ فمن يحصى أجناس ما فى البر ؟ كم فيها من عالم الحيوان والحشرات والجبال والأشجار والأنهار أمور لا يعلمها إلا الله ﷻ والبحر كذلك فيه من العوالم ما لا يعلمه إلا خالقه ﷻ ؛ ويقولون : إن البحر يزيد على البر ثلاثة أضعاف من الأجناس ؛ لأن البحر أكثر من اليابس .

قال : ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام : ٥٩] :

هذا تفصيل ؛ فأى ورقة فى أى شجرة صغيرة أو كبيرة قريبة أو بعيدة تسقط ؛ فالله تعالى يعلمها ، ولهذا جاءت ﴿ مَا تَسْقُطُ ﴾ النافية و﴿مِن﴾ الزائدة ؛ ليكون ذلك نصًا فى العموم ،والورقة التى تخلق يعلمها من باب أولى ؛ لأن عالم ما يسقط عالم بما يخلق ﷻ .

انظر إلى سعة علم الله تعالى كل شيء يكون ؛ فهو عالم به ، حتى الذى لم يحصل وسيحصل ؛ فهو تعالى عالم به .

قال : ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام : ٥٩] : حبة صغيرة لا يدركها الطرف فى ظلمات الأرض يعلمها ﷻ .

﴿ ظُلُمَٰتِ﴾ : مع ظلمة ولنفرض أن حبة صغيرة غائصة فى قاع البحر ، فى ليلة مظلمة مطيرة ؛ فالظلمات : أولًا : طين البحر . ثانيًا : ماء البحر . ثالثًا : المطر . رابعًا : السحاب . خامسًا : الليل ؛ فهذه خمس ظلمات من ظلمات الأرض ومع ذلك هذه الحبة يعلمها سبحانه وتعالى ويبصرها ﷻ .

قال : ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ [الأنعام : ٥٩] : هذا عام ؛ فما من شيء إلا وهو إما رطب وإما يابس .

﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام : ٥٩] : ﴿ كِتَٰبٍ﴾ ؛ بمعنى مكتوب .

﴿ مُّبِينٍ ﴾ أى : مظهر وبين ؛ لأن (أبان) تستعمل متعديًا ولازمًا فيقال : أبان الفجر . بمعنى ظهر الفجر ويقال : أبان الحق . بمعنى أظهره والمراد بالكتاب هنا : اللوح المحفوظ .

كل هذه الأشياء معلومة عند الله سبحانه وتعالى ومكتوبة عنده فى اللوح المحفوظ ؛ لأن الله

تعالى : « لما خلق القلم ؛ قال له : اكتب . قال القلم : ماذا أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة »(١) . فكتب فى تلك اللحظة ما هو كائن إلى يوم القيامة ثم جعل سبحانه فى أيدى الملائكة كتبًا تكتب ما يعمله الإنسان ؛ لأن الذى فى اللوح المحفوظ قد كتب فيه ما كان يريد الإنسان أن يفعل ، والكتابة التى تكتبها الملائكة هى التى يجزى عليها الإنسان ولهذا يقول اللَّه ﷻ : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ [محمد : ٣١] ، أما علمه بأن عبده فلانًا سيصبر أو لا يصبر ؛ فهذا سابق من قبل ، لكن لا يترتب عليه الثواب والعقاب .

الآية الثالثة : قوله : ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [فاطر : ١١] .

﴿مَا﴾ : نافية .

﴿أُنثَىٰ﴾ فاعل ﴿تَحْمِلُ﴾ لكنه معرب بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد .

وهنا إشكال : كيف تقول زائد وليس فى القرآن زائد ؟ .

فالجواب : أنه زائد من حيث الإعراب ، أما من حيث المعنى ؛ فهو مفيد وليس فى القرآن شىء زائد لا فائدة منه ؛ ولهذا نقول : هو زائد : زائد بمعنى أنه لا يُخلُّ بالإعراب إذا حذف ، زائد من حيث المعنى يزيد فيه . وقوله : ﴿مِنْ أُنثَىٰ﴾ : يشمل أى أنثى ؛ سواء آدمية أو حيوانية أخرى : الذى يحمل حيوانًا واضح أنه داخل فى الآية ، كبقرة ، وبعير ، وشاة . . . وما أشبه ذلك ، ويدخل فى ذلك الذى يحمل البيض ؛ كالطيور ؛ لأن البيض فى جوف الطائر حمل . ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ ؛ فابتداء الحمل بعلم اللَّه ، وانتهاؤه وخروج الجنين بعلم اللَّه ﷻ .

الآية الرابعة : قوله : ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق : ١٢] .

﴿لِتَعْلَمُوا﴾ : اللام للتعليل ؛ لأن اللَّه قال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الطلاق : ١٢] ؛ فقد خلق هذه السماوات السبع والأرضين السبع ، وأعلمنا بذلك ؛ لنعلم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

القدرة وصف يتمكن به الفاعل من الفعل بدون عجز ؛ فهو على كل شىء قدير ، يقدر على إيجاد المعدوم وعلى إعدام الموجود ؛ فالسماوات والأرض كانت معدومة ، فخلقها اللَّه ﷻ وأوجدها على هذا النظام البديع .

---

(١) صححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠١٧) .

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ : كل شيء ؛ الصغير والكبير ، والمتعلق بفعله أو بفعل عباده ، والماضي واللاحق والحاضر ؛ كل ذلك قد أحاط الله سبحانه به علمًا .

وذكر الله ﷻ العلم والقدرة بعد الخلق ؛ لأن الخلق لا يتم إلا بعلم وقدرة ، ودلالة الخلق على العلم والقدرة من باب دلالة التلازم وقد سبق أن دلالات الأسماء على الصفات ثلاثة أنواع .

تنبيه : ذكر في « تفسير الجلالين » - عفا الله عنا وعنه - في آخر سورة « المائدة » ما نصه « وخص العقل ذاته ؛ فليس عليها بقادر » ! .

ونحن نناقش هذا الكلام من وجهين :

الوجه الأول : أنه لا حكم للعقل فيما يتعلق بذات الله وصفاته ، بل لا حكم له في جميع الأمور الغيبية ، ووظيفة العقل فيها التسليم التام ، وأن نعلم أن ما ذكره الله من هذه الأمور ليس محالًا ، ولهذا يقال : إن النصوص لا تأتي بمحال ، وإنما تأتي بمحار ؛ أي : بما يحير العقول ؛ لأنها تسمع ما لا تدركه ولا تتصوره .

والوجه الثاني : قوله : « فليس عليها بقادر » : هذا خطأ عظيم ؛ كيف لا يقدر على نفسه وهو قادر على غيره ؛ فكلامه هذا يستلزم أنه لا يقدر أن يستوي ولا أن يتكلم ولا أن ينزل إلى السماء الدنيا ولا يفعل شيئًا أبدًا وهذا خطير جدًّا ! ! .

لكن لو قال قائل : لعله يريد : « خص العقل ذاته ؛ فليس عليها بقادر » ؛ يعني : لا يقدر على أن يلحق نفسه نقصًا . قلنا : إن هذا لم يدخل في العموم حتى يحتاج إلى إخراج وتخصيص ؛ لأن القدرة إنما تتعلق بالأشياء الممكنة ؛ لأن غير الممكن ليس بشيء ؛ لا في الخارج ولا في الذهن ؛ فالقدرة لا تتعلق بالمستحيل ؛ بخلاف العلم .

فينبغي للإنسان أن يتأدب فيما يتعلق بجانب الربوبية ؛ لأن المقام مقام عظيم ، والواجب على المرء نحوه أن يستسلم ويسلم .

إذن ؛ نحن نطلق ما أطلقه الله ، ونقول : إن الله على كل شيء قدير . بدون استثناء .

في هذه الآيات من صفات الله تعالى : إثبات عموم علم الله على وجه التفصيل ، وإثبات عموم قدرة الله تعالى .

والفائدة المسلكية من الإيمان بالعلم والقدرة : قوة مراقبة الله والخوف منه .

قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ...﴾ : في هذه الآية إثبات صفة القوة لله ﷻ .

جاءت هذه الآية بعد قوله : ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن

﴿يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧]. فالناس يحتاجون إلى رزق اللَّه، أما اللَّه تعالى؛ فإنه لا يريد منهم رزقًا ولا أن يطعموه.

﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾: صيغة مبالغة من الرزق، وهو العطاء؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء: ٨]. أى: أعطوهم، والإنسان يسأل اللَّه تعالى فى صلاته، ويقول: اللهم ارزقنى.

وينقسم الرزق إلى قسمين: عام وخاص.

فالعام: كل ما ينتفع به البدن؛ سواء كان حلالًا أو حرامًا، وسواء كان المرزوق مسلمًا أو كافرًا، ولهذا قال السفارينى:

والرِّزقُ مَا يَنْفَعُ مِنْ حَلالِ … أو ضدُّهُ فَحُلْ عَنِ المُحالِ

لأنَّـهُ رازِقُ كُـلِّ الـخَـلْـقِ … ولَيْسَ مَخْلوقٌ بِغَيْرِ رِزْقِ

لأنك لو قلت: إن الرزق هو العطاء الحلال. لكان كل الذين يأكلون الحرام؛ لم يرزقوا، مع أن اللَّه أعطاهم ما تصلح به أبدانهم، لكن الرزق نوعان: طيب وخبيث، ولهذا قال اللَّه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، ولم يقل: والرزق. أما الخبائث من الرزق؛ فهى حرام.

أما الرزق الخاص؛ فهو ما يقوم به الدين من العلم النافع والعمل الصالح والرزق الحلال المعين على طاعة اللَّه، ولهذا جاءت الآية الكريمة: ﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾ ولم يقل: الرازق. لكثرة رزقه وكثرة من يرزقه؛ فالذى يرزقه اللَّه ﷻ لا يُحصى باعتبار أجناسه، فضلًا عن أنواعه، فضلًا عن آحاده؛ لأن اللَّه تعالى يقول: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦]، ويعطى اللَّه الرزق بحسب الحال.

ولكن إذا قال قائل: إذا كان اللَّه هو الرازق؛ فهل أسعى بطلب الرزق، أو أبقى فى بيتى ويأتينى الرزق؟

فالجواب نقول: اسع لطلب الرزق؛ كما أن اللَّه غفور؛ فليس معنى هذا ألَّا تعمل وتتسبب للمغفرة.

أما قول الشاعر:

جُنونٌ مِنْكَ أنْ تَسْعَى لِرِزْقٍ … وَيُرْزَقُ فِى غِشَاوَتِهِ الجَنِينُ

فهذا القول باطل. وأما استشهاده بالجنين؛ فالجواب: أن يقال الجنين لا يمكن أن يوجه إليه طلب الرزق؛ لأنه غير قادر؛ بخلاف القادر.

ولهذا قال اللّٰه تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك : ١٥] .

فلابد من سعى ، وأن يكون هذا السعى على وفق الشرع .

القوة : صفة يتمكن الفاعل بها من الفعل بدون ضعف ، والدليل قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم : ٥٤] ، وليست القوة هى القدرة ؛ لقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر : ٤٤] ؛ فالقدرة يقابلها العجز ، والقوة يقابلها الضعف ، والفرق بينهما : أن القدرة يوصف بها ذو الشعور ، والقوة يوصف بها ذو الشعور وغيره .

ثانيًا : أن القوة أخص ؛ فكل قوى من ذى الشعور قادر ، وليس كل قادر قويًا . مثال ذلك : تقول : الريح قوية ، ولا تقول : قادرة ، وتقول : الحديد قوى ، ولا تقول : قادر ، لكن ذو الشعور تقول : إنه قوى ، وإنه قادر .

ولما قالت عاد : ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ . قال اللّٰه تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت : ١٥] .

المتين : قال ابن عباس رضي الله عنهما : الشديد . أى الشديد فى قوته ، الشديد فى عزته ، الشديد فى جميع صفات الجبروت ، وهو من حيث المعنى توكيد للقوى .

ويجوز أن نخبر عن اللّٰه بأنه شديد ، ولا نسمى اللّٰه بالشديد ، بل نسميه بالمتين ؛ لأن اللّٰه سمى نفسه بذلك .

فى هذه الآيات إثبات اسمين من أسماء اللّٰه ؛ هما : الرزاق ، والمتين ، وإثبات ثلاث صفات ، وهى الرزق ، والقوة ، وما تضمنه اسم المتين .

والفائدة المسلكية فى الإيمان بصفة القوة والرزق : ألّا نطلب القوة والرزق إلا من اللّٰه تعالى ، وأن نؤمن بأن كل قوة مهما عظمت ؛ فلن تقابل قوة اللّٰه تعالى .

هذه الآية ساقها المؤلف لإثبات اسمين من أسماء اللّٰه وما تضمناه من صفة ، وهما السميع والبصير ؛ ففيها رد على المعطلة .

قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ : هذا نفى ؛ فهو من الصفات السلبية ، والمقصود به إثبات به كماله ؛ يعنى لكماله لا يماثله شىء من مخلوقاته ، وفى هذه الجملة رد على أهل التمثيل .

قوله : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ : ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ له معنيان أحدهما : بمعنى المجيب . والثانى : بمعنى السامع للصوت .

أما السميع بمعنى المجيب ، فمثلوا له بقوله تعالى عن إبراهيم : ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم : ٣٩] ، أى : لمجيب الدعاء .

وأما السميع بمعنى إدراك الصوت ؛ فإنهم قسموه إلى عدة أقسام :

الأول : سمع يراد به بيان عموم إدراك سمع اللَّه ﷻ ، وأنه ما من صوت إلا ويسمعه اللَّه .

الثانى : سمع يراد به النصر والتأييد .

الثالث : سمع يراد به الوعيد والتهديد .

مثال الأول : قوله تعالى : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة : ١] ، فهذا فيه بيان إحاطة سمع اللَّه تعالى بكل مسموع ، ولهذا قالت عائشة ﵂ : « الحمد للَّه الذى وسع سمعه الأصوات ، واللَّه إنى لفى الحجرة ، وإن حديثها ليخفى علىَّ بعضه » .

ومثال الثانى : كما فى قوله تعالى لموسى وهارون : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه : ٤٦] .

ومثال الثالث : الذى يراد به التهديد والوعيد : قوله تعالى : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف : ٨٠] ؛ فإن هذا يراد به تهديدهم ووعيدهم ؛ حيث كانوا يسرون ما لا يرضى من القول .

والسمع بمعنى إدراك المسموع من الصفات الذاتية ، وإن كان المسموع قد يكون حادثًا .

والسمع بمعنى النصر والتأييد من الصفات الفعلية ؛ لأنه مقرون بسبب .

والسمع : بمعنى الإجابة من الصفات العلية أيضًا .

وقوله : ﴿الْبَصِيرُ﴾ ؛ يعنى : المدرك لجميع المبصرات ، ويطلق البصير بمعنى العليم ؛ فاللَّه سبحانه وتعالى بصير ، يرى كل شيء وإن خفى ، وهو سبحانه بصير بمعنى : عليم بأفعال عباده ؛ قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات : ١٨] ، والذى نعمل بعضه مرئى وبعضه غير مرئى ؛ فبصر اللَّه إذن ينقسم إلى قسمين ، وكله داخل فى قوله : ﴿الْبَصِيرُ﴾ .

فى هذه الآيات إثبات اسمين من أسماء اللَّه ؛ هما : السميع ، والبصير . وثلاث صفات ؛ هى : كمال صفاته من نفى المماثلة ، والسمع ، والبصر .

وفيها من الفوائد المسلكية : الكف عن محاولة تمثيل اللَّه بخلقه ، واستشعار عظمته وكماله ، والحذر من أن يراك على معصيته أو يسمع منك ما لا يرضاه .

واعلم أن النحاة خاضوا خوضًا كثيرًا فى قوله : ﴿كَمِثْلِهِ﴾ . حيث قالوا : الكاف داخلة على (المثل) ، وظاهره أن للَّه مثلًا ليس له مثل ؛ لأنه لم يقل : ليس كهو ؛ بل قال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ﴾ ؛ فهذا ظاهر الآية من حيث اللفظ لا من حيث المعنى ؛ لأننا لو قلنا : هذا ظاهرها من حيث المعنى ؛ لكان

ظاهر القرآن كفرًا ، وهذا مستحيل ، ولهذا اختلفت عبارات النحويين فى تخريج هذه الآية على أقوال :

القول الأول : الكاف زائدة ، وأن تقدير الكلام : ليس مثله شىء . وهذا القول مريح ، وزيادة الحروف فى النفى كثيرة ؛ كما فى قوله تعالى : ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ [فاطر : ١١] ؛ فيقولون : إن زيادة الحروف فى اللغة العربية للتوكيد أمر مطرد .

والقول الثانى : قالوا العكس ؛ قالوا : إن الزائد (مثل) ، ويكون التقدير : ليس كهو شىء . لكن هذا ضعيف ، يضعفه أن الزيادة فى الأسماء فى اللغة العربية قليلة جدًا أو نادرة ؛ بخلاف الحروف ؛ فإذا كنا لابد أن نقول بالزيادة ؛ فليكن الزائد الحرف ، وهى الكاف .

والقول الثالث : أن (مثل) بمعنى : صفة ، والمعنى : « ليس كصفته شىء » ، وقالوا : إن المِثْل والمَثَل والشِّبه والشَّبَه فى اللغة العربية بمعنى واحد ؛ وقد قال الله تعالى : ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [محمد : ١٥] ؛ أى : صفة الجنة ، وهذا ليس ببعيد من الصواب .

القول الرابع : أنه ليس فى الآية زيادة ، لكن إذا قلت : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ؛ لزم من ذلك نفى المثل ، وإذا كان ليس للمثل مثل ؛ صار الموجود واحدًا ، وعلى هذا ؛ فلا حاجة إلى أن نقدر شيئًا . قالوا : وهذا قد وجد فى اللغة العربية ؛ مثل قوله : ليس كمثل الفتى زهير .

والحقيقة أن هذه البحوث لو لم تعرض لكم ؛ لكان معنى الآية واضحًا ، ومعناها أن الله ليس له مثيلٌ ، لكن هذا وجد فى الكتب ، والراجح : أن نقول : إن الكاف زائدة . لكن المعنى الأخير لمن تمكن من تصوره أجود .

هذه الآية تكملة لقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء : ٥٧] ؛ فأمر ﷻ بأن نؤدى الأمانات إلى أهلها ، ومنها الشهادة للإنسان له أو عليه ، وأن نحكم إذا حكمنا بين الناس بالعدل ، فبين الله سبحانه وتعالى أنه يأمرنا بالقيام بالواجب فى طريق الحكم وفى الحكم نفسه ، وطريق الحكم الذى هو الشهادة تدخل فى عموم قوله : ﴿أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ ، والحكم : ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ . ثم قال سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾ ؛ أصلها : نعم ما . ولكن أدغمت الميم بالميم من باب الإدغام الكبير ؛ لأن الإدغام لا يكون بين جنسين إلا إذا كان الأول ساكنًا ، وهنا صار الإدغام مع أن الأول مفتوح .

وقوله : ﴿نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾ : جعل الله سبحانه الأمر بهذين الشيئين - أداء الأمانة والحكم بالعدل - موعظة ؛ لأنه تصلح به القلوب ، وكل ما يصلح القلوب ؛ فهو موعظة ، والقيام بهذه الأوامر لا شك أنه يصلح القلب .

ثم قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ وقوله : ﴿كَانَ﴾ : هذه فعل ، لكنها مسلوبة الزمن ؛ فالمراد بها

الدلالة على الوصف فقط ؛ أي : أن الله متصف بالسمع والبصر ، وإنما قلنا : إنها مسلوبة الزمن ؛ لأننا لو أبقيناها على دلالتها الزمانية ؛ لكان هذا الوصف قد انتهى ؛ كان في الأول سميعًا بصيرًا ، أما الآن فليس كذلك ، ومعلوم أن هذا المعنى فاسد باطل ، وإنما المراد أنه متصف بهذين الوصفين السمع والبصر على الدوام ، و(كان) في مثل هذا السياق يراد به التحقيق .

قوله : ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ : نقول فيها كما قلنا في الآية التي قبلها : فيها إثبات السمع لله بقسميه ، وإثبات البصر بقسميه .

قرأ أبو هريرة هذه الآية ، وقال : إن الرسول ﷺ وضع إبهامه وسبابته على عينه وأذنه . والمراد بهذا الوضع تحقيق السمع والبصر ، لا إثبات العين والأذن ؛ فإن ثبوت العين جاءت في أدلة أخرى ، والأذن عند أهل السنة والجماعة لا تثبت لله ولا تنفى عنه لعدم ورود السمع بذلك .

فإن قلت : هل لي أن أفعل كما فعل الرسول ﷺ ؟ .

فالجواب : من العلماء من قال : نعم ؛ افعل كما فعل الرسول ، لست أهدى للخلق من رسول الله ﷺ ، ولست أشد تحرزًا من أن يضاف إلى الله ما لا يليق به من الرسول ﷺ .

ومنهم من قال : لا حاجة إلى أن تفعل ما دمنا نعلم أن المقصود هو التحقيق . فهذه الإشارة إذن غير مقصودة بنفسها ، إنما هي مقصودة لغيرها ، وحينئذ ؛ لا حاجة إلى أن تشير ، لا سيما إذا كان يُخشى من هذه الإشارة توهم الإنسان التمثيل ؛ كما لو كان أمامك عامة من الخلق لا يفهمون الشيء على ما ينبغي ؛ فهذا ينبغي التحرز منه ، ولكل مقام مقال .

وكذلك ما ورد في حديث ابن عمر كيف يحكي رسول الله ﷺ قال : « يأخذ الله ﷻ سماواته وأرضيه بيديه ، فيقول : أنا الله » ؛ ويقبض أصابعه ويبسطها(١) . فيقال فيه ما قيل في حديث أبي هريرة .

والفائدة المسلكية من الإيمان بصفتي السمع والبصر : أن نحذر مخالفة الله في أقوالنا وأفعالنا .

وفي الآية من أسماء الله إثبات اسمين هما : السميع ، والبصير . ومن الصفات : إثبات السمع ، والبصر ، والأمر ، والموعظة .

هذه آيات في إثبات صفتي المشيئة والإرادة :

فالآية الأولى :قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[الكهف : ٣٩] .

﴿وَلَوْلَآ﴾ : بمعنى : هَلَّا ؛ فهي للتحضيض ، والمراد بها هنا التوبيخ ؛ بمعنى أنه يوبخه على

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٨٨) .

ترك هذا القول .

﴿إِذْ دَخَلْتَ﴾ : حين دخلت .

﴿جَنَّتَكَ﴾ : الجنة ؛ بفتح الجيم : هى البستان الكثير الأشجار ، سميت بذلك لأن من فيها مستتر بأشجارها وغصونها ؛ فهو مستجن فيها ، وهذه المادة (الجيم والنون) تدل على الاستتار ، ومنه : الجُنة - بضم الجيم - التى يتترس بها الإنسان عند القتال ، ومنها الجِنة - بكسر الجيم - ؛ يعنى : الجن ؛ لأنهم مستترون .

وقوله : ﴿جَنَّتَكَ﴾ : هذه مفرد ، والمعلوم من الآيات أن لها جنتين ، فما هو الجواب حيث كانت هنا مفردة مع أنهما جنتان ؟ .

الجواب : أن يقال : إن المفرد إذا أضيف يعم فيشمل الجنتين . أو أن هذا القائل أراد أن يقلل من قيمة الجنتين ؛ لأن المقام مقام وعظ وعدم إعجاب بما رزقه الله ؛ كأنه يقول : هاتان الجنتان جنة واحدة ؛ تقليلًا لشأنهما ، والوجه الأول أقرب إلى قواعد اللغة العربية ﴿قُلْتَ﴾ : جواب ﴿لَوْلَا﴾ .

وقوله : ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ : ﴿مَا﴾ : يحتمل أن تكن موصولة ؛ ويحتمل أن تكون شرطية : فإن جعلتها موصولة ؛ فهى خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير : هذا ما شاء الله ؛ أى : ليس هذا بإرادتى وحولى وقوتى ، ولكنه بمشيئة الله ؛ أى : هذا الذى شاءه الله . وإن جعلتها شرطية ؛ ففعل الشرط ﴿شَآءَ﴾ ، وجوابه محذوف ، والتقدير : ما شاء الله كان ؛ كما نقول : ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن . والمراد : كان ينبغى لك أن تقول حين دخلت جنتك : ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ؛ لتتبرأ من حولك وقوتك ولا تعجب بجنتك .

وقوله : ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ : ﴿لَا﴾ : نافية للجنس . و﴿قُوَّةَ﴾ : نكرة فى سياق النفى ، فتعم ، والقوة صفة يتمكن بها الفاعل من فعل ما يريد بدون ضعف .

فإن قيل : ما الجمع بين عموم نفى القوة إلا بالله ، وبين قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم : ٥٤] ، وقال عن عاد : ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت : ١٥] ، ولم يقل : لا قوة فيهم ؛ فأثبت للإنسان قوة .

فالجواب : أن الجمع بأحد الوجهين :

الأول : أن القوة التى فى المخلوق كانت من الله ﷻ ؛ فلولا أن الله أعطاه القوة ؛ لم يكن قويًا ؛ فالقوة التى عند الإنسان مخلوقة لله ؛ فلا قوة فى الحقيقة إلا بالله .

الثانى : أن المراد بقوله : ﴿لَا قُوَّةَ﴾ ؛ أى : لا قوة كاملة إلا بالله ﷻ .

وعلى كل حال ؛ فهذا الرجل الصالح أرشد صاحبه أن يتبرأ من حوله وقوته ، ويقول : هذا

بمشيئة اللَّه وبقوة اللَّه .

في هذه الآية : إثبات اسم من أسماء اللَّه ، وهو : اللَّه ، وإثبات ثلاث صفات : الألوهية ، والقوة ، والمشيئة .

ومشيئة اللَّه : هي إرادته الكونية ، وهي نافذة فيما يحبه وما لا يحبه ، ونافذة على جميع العباد بدون تفصيل ، ولابد من وجود ما شاءه بكل حال ؛ فكل ما شاء اللَّه وقع ولابد ، سواء كان فيما يُحبه ويرضاه أم لا .

الآية الثانية : قوله : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

﴿لَوْ﴾ : حرف امتناع لامتناع ، وإذا كان جوابها منفيًا بـ (ما) ؛ فإن الأفصح حذف اللام ، وإذا كان مثبتًا ؛ فالأكثر ثُبوت اللام ؛ كما قال تعالى : ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة : ٦٥] . فنقول : الأكثر ، ولا نقول : الأفصح ؛ لأنه وَرَدَ إثبات اللام وحذفها في القرآن الكريم : ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة : ٧٠] . وقولنا : إن الأفصح حذف اللام في المنفي ؛ لأن اللام تفيد التوكيد ، والنفي ينافي التوكيد ، ولهذا كان قول الشاعر :

وَلَوْ نُعْطَى الخِيارَ لِمَا افْتَرَقْنَا وَلَـكِـنْ لا خِـيـارَ مَـعَ الـلَّـيـالِي

خلاف الأفصح ، والأفصح : لو نعطى الخيار ما افترقنا .

قوله : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ : الضمير يعود على المؤمنين والكافرين ؛ لقوله تعالى : ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

وفي هذا رد واضح على القدرية الذي ينكرون تعلق فعل العبد بمشيئة اللَّه ؛ لأن اللَّه قال : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ ؛ يعني : ولكنه شاء أن يقتتلوا فاقتتلوا . ثم قال : ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ . أي : يفعل الذي يريده ، والإرادة هنا إرادة كونية .

وقوله : ﴿يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ : الفعل باعتبار ما يفعله سبحانه وتعالى بنفسه فعل مباشر . وباعتبار ما يقدِّره على العباد فعل غير مباشر ؛ لأنه من المعلوم أن الإنسان إذا صام وصلى وزكى وحج وجاهد ؛ فالفاعل الإنسان بلا شك ، ومعلوم أن فعله هذا بإرادة اللَّه .

ولا يصح أن يُنسب فعل العبد إلى اللَّه على سبيل المباشرة ؛ لأن المباشر للفعل الإنسان ، ولكن يصح أن يُنسب إلى اللَّه على سبيل التقدير والخلق .

أما ما يفعله اللَّه بنفسه ؛ كاستوائه على عرشه ، وكلامه ، ونزوله إلى السماء الدنيا ، وضحكه .. وما أشبه ذلك ؛ فهذا يُنسب إلى اللَّه تعالى فعلًا مباشرة .

في هذه الآية من الأسماء : اللَّه . ومن الصفات : المشيئة ، والفعل ، والإرادة .

الآية الثالثة : قوله : ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة : ١] .

﴿أُحِلَّتْ لَكُم﴾ : المُحلُّ هو الله ﷻ ، وكذلك النبى عليه الصلاة والسلام يُحِلُّ ويحرم ، لكن بإذن من الله ﷻ ؛ قال النبى ﷺ : « أحلت لنا ميتتان ودمان »[1] . وكان عليه الصلاة والسلام يقول : « إن الله يحرم عليكم » . كذا يخبر أنه حُرِّمَ ، وربما يحرم تحريمًا يضيفه إلى نفسه ، لكنه بإذن الله .

﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ : هى الإبل والبقر والغنم ، والأنعام جمع نَعَم ؛ كأسباب جمع سبب .

وقوله : ﴿بَهِيمَةُ﴾ : سميت بذلك لأنها لا تتكلم .

﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ﴾ : إلا الذى يُتلى عليكم فى هذه السورة ، وهى المذكورة فى قوله تعالى : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة : ٣] . فالاستثناء هنا فيه منقطع وفيه متصل ؛ فبالنسبة للميتة من بهيمة الأنعام متصل ، وبالنسبة للحم الخنزير منقطع ؛ لأنه ليس من بهيمة الأنعام .

وقوله : ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ : « غير » : حال من الكاف فى « لكم » ؛ يعنى : حال كونكم لا تحلُّون الصيد وأنتم حُرم ، وهذا الاستثناء منقطع أيضًا ؛ لأن الصيد ليس من بهيمة الأنعام .

وقوله : ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ﴾ ؛ يعنى : قاتليه فى الإحرام ؛ لأن الذى يفعل الشىءَ يصير كالمحل له ، و﴿ٱلصَّيْدِ﴾ : هو الحيوان البرى المتوحش المأكول ، هذا هو الصيد الذى حرم فى الإحرام .

وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ : هذه الإرادة شرعية ؛ لأن المقام مقام تشريع ، ويجوز أن تكون إرادة شرعية كونية ، ونحمل الحكم على الكونى والشرعى ؛ فما أراده كونًا ؛ حكم به وأوقعه ، وما أراده شرعًا ؛ حكم به وشرَعَهُ لعباده .

فى هذه الآية من الأسماء : الله . ومن الصفات : التحليل ، والحكم ، والإرادة .

الآية الرابعة : قوله : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

قوله : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ : المراد بالإرادة هنا الإرادة الكونية ، والمراد بالهداية هداية التوفيق ؛ فتجده منشرح الصدر فى شرائع الإسلام وشعائره ، يفعلها بفرح وسرور وانطلاق .

فإذا عرفت من نفسك هذا ؛ فاعلم أن الله أراد بك خيرًا وأراد لك هداية ، أما من ضاق به ذرعًا ،

---

(١) صححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢١٠) .

والعياذ باللَّه ، فإن هذا علامة على أن اللَّه لم يرد له هداية ، وإلَّا لانشرح صدره .

ولهذا تجدون الصلاة التى هى أثقل ما يكون على المنافقين قُرّة عيون المخلصين ؛ قال النبى ﷺ : « حُبِّبَ إلى من دنياكم النساء والطيب ، وجُعلَت قرة عينى فى الصلاة »(١) . ولا شك أن النبى ﷺ أكمل الناس إيمانًا ؛ فانشرح صدره بالصلاة وصارت قرة عينه .

فإذا قيل للشخص : إنه يجب عليك أن تصلى مع الجماعة فى المسجد ؛ فانشرح صدره ، وقال : الحمد للَّه الذى شرع لى ذلك . ولولا أن اللَّه شرعه ؛ لكان بدعة ، وأقبل إليه ، ورضى به ؛ فهذا علامة على أن اللَّه أراد أن يهده وأراد به خيرًا .

قال : ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ : ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ﴾ : بمعنى يوسع ، ومنه قول موسى عليه الصلاة والسلام لما أرسله اللَّه إلى فرعون : ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ [طه : ٢٥] ؛ يعنى : وسِّع لى صدرى فى مناجاة هذا الرجل ودعوته ؛ لأن فرعون كان جبارًا عنيدًا .

وقوله : ﴿لِلْإِسْلَٰمِ﴾ : هذا عام لأصل الإسلام وفروعه وواجباته ، وكلَّما كان الإنسان بالإسلام وشرائعه أشرح صدرًا ؛ كان أدل على إرادة اللَّه به الهداية .

وقوله : ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ : من يرد أن يضله ؛ يجعل صدره ضيقًا حرجًا ؛ أى : شديد الضيق ، ثم مثل ذلك بقوله : ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ ؛ يعنى : كأنه حين يعرض عليه الإسلام يتكلف الصعود إلى السماء ، ولهذا جاءت الآية : ﴿يَصَّعَّدُ﴾ ، بالتشديد ، ولم يقل : يَصْعَدُ ؛ كأنه يتكلف الصعود بمشقة شديدة ، وهذا الذى يتكلف الصعود لا شك أنه يتعب ويسأم .

ولنفرض أن هذا رجل طُلب منه أن يصعد جبلًا رفيعًا صعبًا ؛ فإذا قام يصعد هذا الجبل ؛ سوف يتكَلف ، وسوف يضيق نفسه ويرتفع وينتهب ؛ لأنه يجد من هذا ضيقًا .

وعلى ما وصل إليه المتأخرون الآن ؛ يقولون : إن الذى يصعد فى السماء كلما ارتفع وازداد ارتفاعه ؛ كُثر عليه الضغط ، وصار أشد حرجًا وضيقًا ، وسواء كان المعنى الأول أو المعنى الثانى ؛ فإن هذا الرجل الذى يعرض عليه الإسلام وقد أراد اللَّه أن يضله يجد الحرج والضيّق كأنما يصعَّد فى السَّماء .

ونأخذ من هذه الآية الكريمة إثبات إرادة اللَّه ﷻ .

والإرادة المذكورة هنا إرادة كونية لا غير ؛ لأنه قال : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ ، ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ ، وهذا التقسيم لا يكون إلا فى الأمور الكونيات ، أما الشرعية ؛ فاللَّه يريد من كل أحد أن

---

(١) صححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣١٢٤) .

يستسلم لشرع الله .

وفيها من السلوك والعبادة أنه يجب على الإنسان أن يتقبل الإسلام كله ؛ أصله وفرعه ، وما يتعلق بحق الله وما يتعلق بحق العباد ، وأنه يجب عليه أن يشرح صدره لذلك ، فإن لم يكن كذلك ؛ فإنه من القسم الثانى الذين أراد الله إضلالهم .

قال النبى ﷺ : « من يرد الله به خيرًا ؛ يفقهه فى الدين »[1] . والفقه فى الدين يقتضى قبول الدين ؛ لأن كل من فقه فى دين الله وعرفه ؛ قبله وأحبه .

قال تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء : ٦٥] ؛ فهذا إقسام مؤكد بـ : (لا) ، وإقسام بأخص ربوبية من الله ﷻ لعباده - وهى ربوبية الله للرسول - على نفى الإيمان عمن لم يقم بهذه الأمور :

الأول : تحكيم الرسول ﷺ لقوله : ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ . يعنى : الرسول ؛ فمن طلب التحاكم إلى غير الله ورسوله ؛ فإنه ليس بمؤمن ؛ فإما كافر كفرًا مخرجًا عن الملة ، وإما كافرٌ كفرًا دون ذلك .

الثانى : انشراح الصدر بحكمه ؛ بحيث لا يجدون فى أنفسهم حرجًا مما قضى ؛ بل يجدون القبول والانشراح لما قضاه النبى ﷺ .

الثالث : أن يسلموا تسليمًا ، وأكد التسليم بمصدر ؛ يعنى : تسليمًا كاملًا .

فاحذر أيها المسلم أن ينتفى عنك الإيمان .

ولنضرب لهذا مثلًا : تجادل رجلان فى حكم مسألة شرعية ، فاستدل أحدهما بالسُّنة ، فوجد الثانى فى ذلك حرجًا وضيقًا ؛ كيف يريد أن يخرج عن متبوعه إلى اتباع هذه السنة ؟ ! فهذا الرجل ناقص بلا شك فى إيمانه ؛ لأن المؤمن حقًّا هو الذى إذا ظفر بالنص من كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ؛ فكأنما ظفر غنيمة يفرح بها ، ويقول : الحمد لله الذى هدانى لهذا . وفلان الذى يتعصب لرأيه ويحاول أن يلوى أعناق النصوص حتى تتجه إلى ما يريده هو ، لا ما يريده الله ورسوله ؛ فإن هذا على خطر عظيم .

أقسام الإرادة :

الإرادة تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول : إرادة كونية : وهذه الإرادة مرادفة تمامًا للمشيئة ، فـ : (أراد) فيها بمعنى (شاء) ،

---

(١) أخرجه البخارى (٧١) ، ومسلم (١٠٣٧) .

وهذه الإرادة :

أولًا : تتعلق فيما يحبه اللَّه وفيما لا يحبه .

وعلى هذا ؛ فإذا قال قائل : هل أراد اللَّه الكفر ؟ فقل : بالإرادة الكونية نعم أراده ، ولو لم يرده اللَّه ﷻ ؛ ما وقع .

ثانيًا : يلزم فيها وقوع المراد ؛ يعنى : أن ما أراده اللَّه فلابد أن يقع ، ولا يمكن أن يتخلف .

القسم الثانى : إرادة شرعية : وهى مرادفة للمحبة ؛ فـ : (أراد) فيها بمعنى (أحب) ؛ فهى :

أولًا : تختص بما يحبه اللَّه ؛ فلا يريد اللَّه الكفر بالإرادة الشرعية ولا الفسق .

ثانيًا : أنه لا يلزم فيها وقوع المراد ؛ بمعنى : أن اللَّه يريد شيئًا ولا يقع ؛ فهو سبحانه يريد من الخلق أن يعبدوه ، ولا يلزم وقوع هذا المراد ؛ قد يعبدونه وقد لا يعبدونه ؛ بخلاف الإرادة الكونية .

فصار الفرق بين الإرادتين من وجهين :

١ - الإرادة الكونية يلزم فيها وقوع المراد ، والشرعية لا يلزم .

٢ - الإرادة الشرعية تختص فيما يحبه اللَّه ، والكونية عامة فيما يحبه وما لا يحبه .

فإذا قال قائل : كيف يريد اللَّه تعالى كونًا ما لا يحبه ؟ بمعنى : كيف يريد الكفر أو الفسق أو العصيان وهو لا يحبه ؟ ! .

فالجواب : أن هذا محبوب إلى اللَّه من وجه مكروه إليه من وجه آخر ؛ فهو محبوب إليه لما يتضمنه من المصالح العظيمة ، مكروه إليه لأنه معصية .

ولا مانع من أن يكون الشيء محبوبًا مكروهًا باعتبارين ؛ فها هو الرجل يقدِّم طفله الذى هو فلذة كبده وثمرة فؤاده ؛ يقدمه إلى الطبيب ليشق جلدَه ويخرج المادة المؤذية فيه ولو أتى أحد من الناس يريد أن يشقه بظفره وليس بالمشرط ، لقاتله ، لكن هو يذهب إلى الطبيب ليشقه ، وهو ينظر إليه ، وهو فرح مسرور ، يذهب به إلى الطبيب ليحمى الحديد على النار حتى تلتهب حمراء ، ثم يأخذها ويكوى بها ابنه ، وهو راضٍ بذلك ؛ لماذا يرضى بذلك وهو ألم للابن ؟ لأنه مراد لغيره ، للمصلحة العظيمة التى تترتب على ذلك .

ونستفيد بمعرفتنا للإرادة من الناحية المسلكية أمرين :

الأمر الأول : أن نعلق رجاءنا وخوفنا وجميع أحوالنا وأعمالنا باللَّه ؛ لأن كل شيء بإرادته وهذا يحقق لنا التوكل .

الأمر الثانى : أن نفعل ما يريده اللَّه شرعًا ؛ فإذا علمت أنه مراد للَّه شرعًا ومحبوب إليه ؛ فإن ذلك يقوى عزمنا على فعله .

هذا من فوائد معرفتنا بالإرادة من الناحية المسلكية ؛ فالأول : باعتبار الإرادة الكونية ، والثانى : باعتبار الإرادة الشرعية .

هذه آيات فى إثبات صفة المحبة :

الآية الأولى : ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] .

﴿وَأَحْسِنُوٓاْ﴾ فعل أمر .

والإحسان قد يكون واجبًا ، وقد يكون مستحبًا مندوبًا إليه ، فما كان يتوقف عليه أداء الواجب ؛ فهو واجب ، وما كان زائدًا على ذلك فهو مستحب .

وبناءً على ذلك ؛ نقول : ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ﴾ : فعل أمر مستعمل فى الواجب والمستحب .

والإحسان يكون فى عبادة اللَّه ، ويكون فى معاملة الخلق ؛ فالإحسان فى عبادة اللَّه فسره النبى ﷺ حين سأله جبريل ، فقال : ما الإحسان ؟ قال : « أن تعبد اللَّه كأنك تراه »[1] . وهذا أكمل من الذى بعده ؛ لأن الذى يعبد اللَّه كأنه يراه يعبده عبادة طلب ورغبة ؛ « فإن لم تكن تراه ؛ فإنه يراك » . أى : فإن لم تصل إلى هذه الحال ؛ فاعلم أنه يراك والذى يعبد اللَّه على هذه المرتبة يعبده عِبادةَ خوف وهرب ؛ لأنه يخاف ممن يراه .

وأما الإحسان بالنسبة لمعاملة الخلق ؛ فقيل فى تفسيره : بذل النَّدى ، وكف الأذى ، وطلاقة الوجه .

بذل الندى : أى : المعروف ؛ سواءً كان ماليًا أو بدنيًا أم جاهيًا .

كف الأذى : ألَّا تؤذى الناس بقولك ولا بفعلك .

وطلاقة الوجه : ألَّا تكون عبوسًا عند الناس ، لكن أحيانًا الإنسان يغضب ويعبس ، فنقول : هذا لسبب ، وقد يكون من الإحسان إذا كان سببًا لصلاح الحال .

ولهذا ؛ إذا رجمنا الزانى أو جلدناه ؛ فهو إحسان إليه .

ويدخل فى ذلك إحسان المعاملة فى البيع ، والشراء ، والإجارة ، والنكاح ... وغير ذلك ؛ لأنك إذا عاملتهم بالطيب فى هذه الأمور ؛ صبرت على المعسر ، وأوفيت الحق بسرعة ؛ هذا يعد بذل الندى ، فإن اعتديت بالغش والكذب والتزوير ؛ فأنت لم تكف الأذى ؛ لأن هذا أذيّة . أحسن فى عبادة اللَّه وإلى عباد اللَّه .

وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ : هذا تعليل للأمر ؛ فهذا ثواب المحسن ؛ أن اللَّه يحبه ، ومحبة

---

(١) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر رضي الله عنه .

الله مرتبة عالية عظيمة ، ووالله إن محبة الله لتشترى بالدنيا كلها ، وهى أعلى من أن تحب الله ؛ فكون الله يحبك أعلى من أن تحبه أنت ، ولهذا قال تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران : ٣١] ، ولم يقل : فاتبعونى ؛ تصدقوا فى محبتكم لله . مع أن الحال تقتضى هكذا ، ولكن قال : ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ .

ولهذا قال بعض العلماء : الشأن كل الشأن فى أن الله يحبك لا أنك تحب الله .

كل يدعى أنه يحب الله ، لكن الشأن فى الذى فى السماء ﷻ ؛ هل يحبك أم لا ؟ إذا أحبك الله ﷻ ؛ أحبتك الملائكة فى السماء ، ثم يوضع لك القبول فى الأرض ، فيحبك أهل الأرض(١) ، ويقبلونك ، ويقبلون ما جاء منك وهذه من عاجل بشرى المؤمن .

وفى هذه الآية من الأسماء : الله . ومن الصفات الألوهية ، والمحبة .

الآية الثانية : قوله : ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات : ٩] .

[قوله تعالى] : ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟﴾ : فعل أمر ، والإقساط ليس هو القسط ، بل هو من فعل رباعى ؛ فالهمزة فيه همزة النفى ، هذه الهمزة هى همزة النفى ، إذا دخلت على الفعل ؛ نفت معناه ؛ فالفعل (قسط) ؛ بمعنى : جار ؛ فإذا أدخلت عليه همزة (أقسط) ؛ صار بمعنى : عدل ؛ أى : أزال القسط ، وهو الجور ، فيسمون مثل هذه الهمزة همزة السلب ؛ مثل : خطئ وأخطأ ، خطئ ؛ بمعنى ارتكب الخطأ عن عمد ، وأخطأ : ارتكبه عن غير عمد .

فقوله : ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟﴾ ؛ أى : اعدلوا ، وهذا واجب ؛ فالعدل واجب فى كل ما تجب فيه التسوية : يدخل فى ذلك العدل فى معاملة الله ﷻ ؛ ينعم الله عليك بالنعم ؛ فمن العدل أن تقوم بشكره ، يبين الله لك الحق ؛ فمن العدل أن تتبع هذا الحق .

ويدخل فى ذلك العدل فى معاملات الخلق : أن تُعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به ، ولهذا قال النبى عليه الصلاة والسلام : « من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة ؛ فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه »(٢) .

عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به ؛ مثلا : إذا أردت أن تَعامل شخصًا معاملة ؛ فاعرضها أولًا على نفسك : هل إذا عاملك إنسان بها ؛ هل ترضى أم لا ؟ إن كنت ترضى ؛ فعامله ، [و] إلا ؛ فلا تعامله .

ويدخل فى ذلك العدل بين الأولاد فى العطية ؛ قال النبى ﷺ : « اتقوا الله واعدلوا بين

(١) أخرجه البخارى (٣٢٠٩) ، ومسلم (٢٦٣٧) .

(٢) أخرجه مسلم (١٨٤٤) .

(٣) أخرجه البخارى (٢٥٨٧) ، ومسلم فى (١٦٢٣) .

أولادكم »[1] .

ويدخل فى ذلك العدل بين الورثة فى الميراث ؛ فيعطى كل واحد نصيبه ، ولا يوصى لأحد منهم بشىء .

ويدخل فى ذلك العدل بين الزوجات ؛ بأن تقسم لكل واحدة مثل ما تقسم للأخرى .

ويدخل فى ذلك العدل فى نفسك ، فلا تكلفها ما لا تطيق من الأعمال ؛ إن لربك عليك حقًّا ، ولنفسك عليك حقًّا .

وعلى هذا فقس .

وهنا يجب أن ننبّه على أن من الناس من يستعمل بدل العدل : المساواة ! وهذا خطأ ، لا يقال : مساواة ؛ لأن المساواة قد تقتضى التسوية بين شيئين الحكمةُ تقتضى التفريق بينهما .

ومن أجل هذه الدعوة الجائرة إلى التسوية صاروا يقولون : أى فرق بين الذكر والأنثى ؟ ! سوُّوا بين الذكور والإناث ! حتى إن الشيوعية قالت : أى فرق بين الحاكم والمحكوم ، لا يمكن أن يكون لأحد سلطة على أحد ، حتى بيين الوالد والولد ، ليس للوالد سلطة على الولد . . . وهلم جرّا .

لكن إذا قلنا بالعدل ، وهو إعطاء كل أحد ما يستحقه ؛ زال هذا المحظور ، وصارت العبارة سليمة .

ولهذا ؛ لم يأت فى القرآن أبدًا : إن اللّه يأمر بالتسوية ! لكن جاء : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النحل : ٩٠] ، ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء : ٥٨] .

وأخطأ على الإسلام من قال : إن دين الإسلام دين المساواة ! بل دين الإسلام دين عدل ، وهو الجمع بين المتساويين ، والتفريق بين المفترقين ؛ إلا أن يريد بالمساواة : العدل ، فيكون أصاب فى المعنى وأخطأ فى اللفظ .

ولهذا كان أكثر ما جاء فى القرآن نفى المساواة : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر : ٩] ، ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ [الرعد : ١٦] ، ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟﴾ [الحديد : ١٠] ، ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء : ٩٥] .

ولم يأت حرف واحد فى القرآن يأمر بالمساواة أبدًا ، إنما يأمر بالعدل .

وكلمة (العدل) أيضًا تجدونها مقبولة لدى النفوس .

وأحببت أن أنبه على هذا ؛ لئلا نكون فى كلامنا إمَّعة ؛ لأن بعض الناس يأخذ الكلام على عواهِنِه ؛ فلا يفكر فى مدلوله وفيمن وضعه وفى مغزاه عند من وضعه .

وفى الآية من الأسماء والصفات ما سبق فى التى قبلها .

الآية الثالثة : قوله : ﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة : ٧] .

« مَا » : شرطية ، وفعل الشرط : ﴿ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ ، وجوابه : ﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟﴾ ؛ أى : مهما استقام لكم المعاهدون الذين عاهدتم عند المسجد الحرام بالوفاء بالعهد ؛ فاستقيموا لهم فى ذلك .

وهذه الجملة الشرطية تقتضى بمنطوقها ؛ أنهم إذا استقاموا لنا ؛ وجب أن نستقيم لهم ، وأن نُوفِّى بعهدهم . وتدل بمفهومها على أنهم إذا لم يستقيموا ؛ لا نستقيم لهم .

والمعاهدون ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

قسم استقاموا على عهدهم وأمنّاهم ؛ فيجب علينا أن نستقيم لهم ؛ لقوله تعالى : ﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ .

وقسم خانوا ونقضوا العهد ؛ فهؤلاء لا عهد لهم ، لقوله تعالى : ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ﴾ [التوبة : ١٢] .

وقسم ثالث يظهرون الاستقامة لنا ، لكننا نخاف من خيانتهم ؛ بمعنى أنه توجد قرائن تدل على أنهم يريدون الخيانة ؛ فهؤلاء قال الله فيهم : ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال : ٥٨] ؛ أى : انبذ إليهم عهدهم ؛ فقل : لا عهد بيننا وبينكم .

فإذا قال قائل : كيف ينبذ العهد إليهم وهم معاهدون ؟ ! .

قلنا : لخوف الخيانة ؛ فهؤلاء لا نأمنهم ؛ لأنه يمكن فى يوم من الأيام أن يُصَبِّحونا ؛ فهؤلاء ننبذ إليهم على سواء ، ولا نخونهم ما دام العهد قائمًا ؛ لأنه لو قال المسلمون : نحن نخاف منهم الخيانة ؛ سنبادرهم بالقتال .قلنا : هذا حرام ، لا تقاتلوهم حتى تنبذوا إليهم العهد .

وقوله : ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ : المتقون : هم الذين اتخذوا وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه ، هذا من أحسن وأجمع ما يقال فى تعريف التقوى .

وفى الآية من الأسماء والصفات كالتى قبلها .

الآية الرابعة : قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

التواب : صيغة مبالغة من التوبة ، وهو كثير الرجوع إلى الله ، والتوبة هى الرجوع إلى الله من معصيته إلى طاعته . وشروطها خمسة :

الأول : الإخلاص لله تعالى ؛ بأن يكون الحامل له على التوبة مخافة الله ورجاء ثوابه .

الثانى : الندم على ما فعل من الذنب ، وعلامة ذلك أن يتمنى أنه لم يقع منه .

الثالث : الإقلاع عن الذنب ؛ بتركه إن كان محرمًا ، أو تداركه إن كان واجبًا يمكن تداركه .

الرابع : العزم على ألّا يعود إليه .

الخامس : أن تكون في وقت تقبل فيه التوبة ، وهو ما كان قبل حضور الموت وطلوع الشمس من مغربها ، فإن كانت بعد حضور الموت أو بعد طلوع الشمس من مغربها ؛ لم تقبل .

فالتَّواب : كثير التوبة . ومعلوم أن كثرة التوبة تستلزم كثرة الذنب ، ومن هنا نفهم بأن الإنسان مهما كثر ذنبه ، إذا أحدث لكل ذنب توبة ؛ فإنّ اللّه تعالى يحبه ، والتائب مرة واحدة من ذنب واحد محبوب إلى اللّه ﷻ من باب أولى ؛ لأن من كثرت ذنوبه وكثرت توبته يحبه اللّه ، فمن قلّت ذنوبه ؛ كانت محبة اللّه له بالتوبة من باب أولى .

وقوله : ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ : الذين يتطهرون من الأحداث ومن الأنجاس في أبدانهم وما يجب تطهيره .

وهنا جمع بين طهارة الظاهر وطهارة الباطن : طهارة الباطن بقوله : ﴿التَّوَّابِينَ﴾ ، والظاهر بقوله : ﴿الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ .

وفي الآية من الأسماء والصفات ما سبق في التي قبلها .

الآية الخامسة : قوله : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران : ٣١] .

يُسمى علماء السلف هذه الآية : آية المحنة ؛ يعني الامتحان ؛ لأن قومًا ادعوا أنهم يحبون اللّه فأمر اللّه نبيه أن يقول لهم : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ . وهذا تحدٍّ لكل من ادّعى محبة اللّه ؛ أن يقال له : إن كنت صادقًا في محبة اللّه ، فاتبع الرسول ؛ فمن أحدَث في دين رسول اللّه ﷺ ما ليس منه ، وقال : إنني أحب اللّه ورسوله بما أحدثته .. قلنا له : هذا كذب ! لو كانت محبتك صادقة ؛ لاتبعت الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولم تتقدم بين يديه بإدخال شيء في شريعته ليس من دينه ؛ فكل من كان أتبع لرسول اللّه ﷺ ؛ كان للّه أحب .

وإذا أحب اللّه وقام بعبادته ؛ فإن اللّه تعالى يحبه ، بل إن اللّه ﷻ يعطيه أكثر مما عمل ؛ يقول تعالى في الحديث القدسي : « من ذكرني في نفسه ، ذكرته في نفسي » ، ونفس اللّه أعظم من نفوسنا . « ومن ذكرني في ملأ ؛ ذكرته في ملأ خير منه » . وفي الحديث أيضًا : « أن من تقرب إليه شبرًا تقرب اللّه إليه ذراعًا ، ومن تقرب إليه ذراعًا ، تقرب إليه باعًا ، ومن أتى إلى اللّه يمشي ، أتاه اللّه هرولة »[1] .

إذن فعطاء اللّه ﷻ وثوابه أكثر من عملك .

وفي الآية من الأسماء والصفات مما سبق في التي قبلها .

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) .

الآية السادسة : قوله : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة : ٥٤] .

الفاء واقعة في جواب الشرط في قوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ ؛ أى : إذا ارتددتم عن دين اللّه ؛ فإن ذلك لا يضر اللّه شيئًا ؛ ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ ، وهذا كقوله : ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد : ٣٨] .

فكل من ارتد عن دين اللّه ؛ فإن اللّه لا يعبأ به ، لأنه تعالى غنيٌ عنه ؛ بل يزيله ويأتى بخير منه ؛ ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ﴾ بدل منهم ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ ، وإذا كانوا يحبون اللّه ويحبهم اللّه ؛ فسوف يقومون بطاعته .

وتمام الآية : ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ : أمام المؤمنين أذلة ؛ يخفضون أجنحتهم للمؤمنين ، ويلينون لهم ، ويتطامنون ، ومع الكفار أعزة أقوياء ، لا يظهرون الذل أمام الكفر أبدًا .

وقد علمنا الرسول عليه الصلاة والسلام : « وإذا لقيتموهم فى طريق ؛ فاضطروهم إلى أضيقه »[1] ؛ فإذا لاقاكم اليهود والنصارى ، ولو كانوا ألفًا وأنتم عشرة ؛ نشق هذا الجمع ، ولا نُفسح لهم الطريق ، بل نلجئهم إلى أضيقه ، فنريهم العز بديننا لا بأنفسنا ، لأننا نحن بشر وهم بشر ، حتى يتبين لهم أن دين الإسلام هو الظاهر ، وأن المتمسك به هو العزيز .

﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ : يجاهدون فى سبيل اللّه ، كل من قام ضد دين اللّه من كافر وفاسق وملحد ومارق يجاهدونه ، وكل إنسان يقابلونه من السلاح بما يليق به ؛ فمن قاتلهم بالحديد والنار ؛ قاتلوه بالحديد والنار ، ومن قاتلهم بالجدال والخصام الكلامى ؛ جادلوه بمثل ذلك ؛ فهم يجاهدون فى اللّه بكل نوع من أنواع الجهاد .

﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ لا يخافون نَقد الناس عليهم ؛ يقولون الحق ولو كان على أنفسهم .

لكنهم يستعملون الحكمة فى هذا الجهاد ويرومون الوصول إلى الغاية ؛ فإذا رأوا أن الدعوة تستوجب التأخر فى بعض الأمور ؛ تأخروا ، وإذا رأوا أن الدعوة تقتضى اللين فى بعض الأحوال ؛ استعملوه ؛ لأنهم يريدون الوصول إلى غاية معينة ، والوسيلة حسب ما تقتضيه الحال .

ثم قال اللّه تعالى : ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ .

وفى الآية من الأسماء والصفات ما سبق فى التى قبلها ، وزيادة أن اللّه تعالى يكون محبوبًا .

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٦٧) .

الآية السابعة : قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف : ٤] .

هذه الآية في سورة « الصف » ، وسورة الصف في الحقيقة هي سورة الجهاد ؛ لأن الله تعالى بدأها بالثناء على المقاتلين في سبيله ، ثم دعا إلى الجهاد في آخرها ، ثم ذكر بين ذلك أن الله سيظهر دينه على كل الأديان ولو كره المشركون .

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ : لا يتقدم أحد على أحد ولا يتأخر ، حتى في الجهاد .

والصلاة جهاد مصغر ، فيها قائدٌ يجب اتباعه ؛ فإن لم تتبعه ؛ بطلت صلاتك ؛ قال النبي ﷺ : « أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحوّل الله رأسه رأسَ حمارٍ ، أو يجعل صورته صورة حمار »[1] ، والصف في الصلاة نظير الصف في الجهاد ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يصفهم في الجهاد كما يصفهم في الصلاة ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ﴾ والبنيان كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « يشد بعضه بعضا »[2] ، يتماسك بعضه ببعض ، ولهذا قال : ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ ؛ فليس كالمفرق : فالمرصوص أشد تماسكًا .

فهؤلاء الذين علق الله المحبة لهم بأعمالهم لهم عدة صفات :

أولًا : يقاتلون ؛ فلا يركنون إلى الخلود والخمول والكسل والجمود الذي يُضعف الدين والدنيا .

ثانيًا : الإخلاص ؛ لقوله : ﴿فِي سَبِيلِهِ﴾ .

ثالثًا : يشد بعضهم بعضًا ؛ لقوله : ﴿صَفًّا﴾ .

رابعًا : أنهم كالبنيان ، والبنيان حصن منيع .

خامسًا : لا يتخللهم ما يمزقهم ؛ لقوله : ﴿مَّرْصُوصٌ﴾ .

هذه خمس صفات علق الله المحبة لهؤلاء عليها .

وفي الآية من الأسماء والصفات ما سبق في التي قبلها .

الآية الثامنة : قوله : ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البروج : ١٤] .

﴿الْغَفُورُ﴾ : الساتر لذنوب عباده المتجاوز عنها .

﴿الْوَدُودُ﴾ مأخوذ من الود ، وهو خالص المحبة ، وهي بمعنى : وادٌّ ، وبمعنى : مَوْدود ؛ لأنه عز وجل محب ومحبوب ؛ كما قال تعالى : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة : ٥٤] .

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩١) ، ومسلم (٤٢٧) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٨١) ، ومسلم (٢٥٨٥) .

فاللَّه ﷻ وادٌّ ومَودود ، وادٌّ لأوليائه ، وأولياؤه يودُّونه [و]يحبُّونه ؛ يحبُّون الوصول إليه وإلى جنته ورضوانه .

وفى الآية اسمان من أسماء اللَّه : الغفور ، والودود . وصفتان : المغفرة ، والود .

وأتمنى لو أن المؤلف أضاف آية تاسعة فى المحبة ، وهى الخلة ، لقوله تعالى : ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء : ١٢٥] ، والخليل : من كان فى أعلى المحبة ؛ فالخلة أعلى أنواع المحبة ؛ لأن الخليل هو الذى وصل حبه إلى سويداء القلب وتخلل مجارى عروقه ، وليس فوق الخلة شيء من أنواع المحبة أبدًا .

يقول الشاعر لمعشوقته :

قَد تَخَلَّلْتِ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي وَبِذَا سُمِّيَ الخَلِيلُ خَلِيلَا

فالنبى عليه الصلاة والسلام يحب أصحابه كلهم ، لكن ما اتخذ واحدًا منهم خليلًا أبدًا ؛ قال النبى عليه الصلاة والسلام وهو يخطب الناس : « لو كنت متخذًا خليلًا من أمتى لاتخذت أبا بكر » . إذن ، أبو بكر هو أحب الناس إليه ، لكن لم يصل إلى درجة الخلة ؛ لأن الرسول ﷺ لم يتخذ أحدًا خليلًا ، لكن إخوة الإسلام ومودته ، وأما الخلة ؛ فهى بينه وبين ربه ؛ قال النبى ﷺ : « إن اللَّه اتخذنى خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا »[1] .

والخلة لا نعلم أنها ثبتت لأحد من البشر ؛ إلا لاثنين ، هما إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام ؛ لقول النبى ﷺ : « إن اللَّه اتخذنى خليلًا » .

وهذه الخلة صفة من صفات اللَّه ﷻ ؛ لأنها أعلى أنواع المحبة ، وهى توقيفية ؛ فلا يجوز أن نثبت لأحد من البشر أنه خليل إلا بدليل ، حتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؛ إلا هذين الرسولين الكريمين ؛ فهما خليلان للَّه ﷻ .

وهذه الآية : ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ هى التى استشهد بها من قتَل الجعد بن درهم رأس المعطِّلة الجهمية ، أول ما أنكر قال : إن اللَّه لم يتخذ إبراهيم خليلًا ! ولم يكلم موسى تكليمًا ! ! فقتله خالد بن عبد اللَّه القسرى رحمه الله ، حيث خرج به موثقًا فى يوم عيد الأضحى ، وخطب الناس ، وقال : أيها الناس ! ضحوا ! تقَبَّل اللَّه ضحاياكم ؛ فإنى مضحٍّ بالجعد ابن درهم ؛ لأنه زعم أن اللَّه لم يتخذ إبراهيم خليلًا ، ولم يكلم موسى تكليمًا ، ثم نزل فذبحه .

ويقول ابن القيم فى ذلك :

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢) .

وَلأجْلِ ذا ضَحّى بجعْدٍ خالِدُ الـ ـقَسْرِيُّ يَوْمَ ذَبائِحُ القُرْبانِ
إِذْ قالَ إبْراهِيمُ لَيْسَ خَلِيلَهُ كَلا وَلا مُوسى الكليمُ الدّانِي
شَكَرَ الضَّحِيَّةَ كُلُّ صاحِبِ سُنَّةٍ لِلّهِ دَرُّكَ مِنْ أَخِي قُرْبَانِ

فلدينا الآن محبة وود وخلة ؛ فالمحبة والود مطلقة ، والخلة خاصة بإبراهيم ومحمد .

ويجب أن يكون اعتمادنا فى الأمور الغيبية على الأدلة السمعية ، لكن لا مانع من أن نستدل بأدلة عقلية ؛ لإلزام من أنكر أن تكون المحبة ثابتة بالأدلة العقلية ؛ مثل الأشاعرة ؛ يقولون : لا يمكن أن تثبت المحبة بين الله وبين العبد أبدًا ؛ لأن العقل لا يدل عليها ، وكل ما لا يدل عليه العقل ؛ فإنه يجب أن ننزه الله عنه .

فنحن نقول : نثبت المحبة بالأدلة العقلية ؛ كما هى ثابته عندنا بالأدلة السمعية ؛ احتجاجًا على من أنكر ثبوتها بالعقل ؛ فنقول وبالله التوفيق :

إثابة الطائعين بالجنات والنصر والتأييد وغيره ؛ هذا يدل بلا شك على المحبة ، ونحن نشاهد بأعيننا ونسمع بآذاننا عمن سبق وعمن لحق أن الله ﷻ أيد من أيد من عباده المؤمنين ونصرهم وأثابهم ، وهل هذا إلا دليل على المحبة لمن أيدهم ونصرهم وأثابهم ﷻ ؟ ! .

وهنا سؤالان :

الأول : بماذا ينال الإنسان محبة الله ﷻ ؟ وهذه هى التى يطلبها كل إنسان ، والمحبة عبارة عن أمر فطرى يكون فى الإنسان ولا يملكه ، ولهذا يُروى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال فى العدل بين زوجاته : « هذا قسْمى فيما أملك ؛ فلا تَلُمْنى فيما لا أملك »[1] .

فالجواب : أن المحبة لها أسباب كثيرة :

منها : أن ينظر الإنسان : مَن الذى خلقه ؟ ومن الذى أمده بالنعم منذ كان فى بطن أمه ؟ ومَن الذى أجرى إليك الدم فى عروقك قبل أن تنزل إلى الأرض إلا الله ﷻ ؟ من الذى دفع عنك النقم التى انعقدت أسبابها ، وكثيرًا ما تشاهد بعينك آفات ونقمًا تهلكك ، فيرفعها الله عنك ؟ .

وهذا لا شك أنه يجلب المحبة ، ولهذا ورد فى الأثر : « أحبوا الله لما يغذوكم به من النعم »[2] .

وأعتقد لو أن أحدًا أهدى إليك قلمًا ؛ لأحببته ؛ فإذا كان كذلك ؛ فأنت انظر [إلى إنعامِ] الله عليك النعم العظيمة الكثيرة التى لا تحصيها ؛ تحب الله .

ولهذا إذا جاءت النعمة وأنت فى حاجة شديدة إليها ؛ تجد قلبك ينشرح ، وتحب الذى أسداها

---

(١) « ضعيف الجامع » للألبانى (٤٥٩٣) .

(٢) « ضعيف الجامع » للألبانى (١٧٦) .

إليك ؛ بخلاف النعم الدائمة ؛ فأنت تذكر هذه النعم التى أعطاك اللَّه ، وتذكر أيضًا أن اللَّه فضلك على كثير من عباده المؤمنين ، إن كان اللَّه مَنَّ عليكَ بالعلم ؛ فقد فضّلك بالعلم ، أو بالعبادة ؛ فقد فضلك بالعبادة ، أو بالمال ؛ فقد فضلك بالمال ، أو بالأهل ، فقد فضلك بالأهل ، أو بالقوت فقد فضلك بالقوت ؛ وما من نعمة إلا وتحتها ما هو دونها ؛ فأنت إذا رأيت هذه النعمة العظيمة ؛ شكرت اللَّه وأحببته .

ومنها : محبة ما يحبه اللَّه من الأعمال القولية والفعلية والقلبية ؛ تحب الذى يحبه اللَّه ؛ فهذا يجعلك تحب اللَّه ؛ لأن اللَّه يجازيك على هذا أن يضع محبته فى قلبك ، فتحب اللَّه إذا قمت بما يحب ، وكذلك تحب من يحب ، والفرق بينهما ظاهر ؛ الأخيرة من الأشخاص ، والأولى من الأعمال ؛ لأننا أتينا بـ : (ما) التى لغير العاقل من الأعمال والأماكن والأزمان ، وهذه (من) للعاقل من الأشخاص ؛ تحب النبى عليه الصلاة والسلام ، تُحب إبراهيم ، تُحب موسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء ، تحب الصدّقين ؛ كأبى بكر ، والشهداء ، وغير ذلك ممن يحبهم اللَّه ؛ فهذا يجلب لك محبة اللَّه ، وهو أيضًا من آثار محبة اللَّه ؛ فهو سبب وأثر .

ومنها : كثرة ذكر اللَّه ؛ بحيث يكون دائمًا على بالك ، حتى تكون كلما شاهدت شيئًا ، استدللت به عليه ﷻ ، حتى يكون قلبك دائمًا مشغولًا باللَّه ، مُعْرِضًا عما سواه ؛ فهذا يجلب لك محبة اللَّه ﷻ .

وهذه الأسباب الثلاثة هى عندى من أقوى أسباب محبة اللَّه ﷻ .

السؤال الثانى : ما الآثار المسلكية التى يستلزمها ما ذكر ؟ .

والجواب :

أولًا : قوله : ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة : ١٩٥] : يقتضى أن نحسن ، وأن نحرص على الإحسان ؛ لأن اللَّه يحبه ، وكل شىء يحبه اللَّه ؛ فإننا نحرص عليه .

ثانيًا : قوله : ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات : ٩] : يقتضى أن نعدل ونحرص على العدل .

ثالثًا : قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة : ٧] : يقتضىَ أن نتّقى اللَّه ﷻ ، لا نتقى المخلوقين ؛ بحيث إذا كان عندنا من نستحى منه من الناس ؛ تركنا المعاصى ، وإذا لم يكن ؛ عصينا ؛ فالتقوى أن نتقى اللَّه ﷻ ، ولا يهمك الناس . أصلح ما بينك وبين اللَّه ؛ يصلح اللَّه ما بينك وبين الناس . انظر يا أخى إلى الشىء الذى بينك وبين ربك ، ولا يهمك غير ذلك ؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج : ٣٨] . افعل ما يقتضيه الشرع ، وستكون لك العاقبة .

رابعًا : يقول اللَّه تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة : ٢٢٢] ، وهذه تستوجب أن أُكثر التوبة

إلى الله ﷻ ، أكثر أن أرجع إلى الله بقلبى وقالبى ، ومجرد قول الإنسان : أتوب إلى الله . هذا قد لا ينفع ، لكن تستحضر وأنت تقول : أتوب إلى الله : أن بين يديك معاصى ، ترجع إلى الله منها وتتوب ، حتى تنال بذلك محبة الله .

﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة : ٢٢٢] : إذا غَسلت ثوبك من النجاسة ؛ تحس بأن الله أحبك ؛ لأن الله يحب المتطهرين . إذا توضأت ؛ تحس بأن الله أحبك ؛ لأنك تطهرت . إذا اغتسلت ؛ تُحس أن الله أحبك ؛ لأن الله يحب المتطهرين .

ووالله ؛ إننا لغافلون عن هذه المعانى ، أكثر ما نستعمل الطهارة من النجاسة أو من الأحداث ؛ لأنها شرط لصحة الصلاة ؛ خوفًا من أن تفسد صلاتنا ، لكن يغيب عنا كثيرًا أن نشعر بأن هذا قربة وسبب لمحبة الله لنا ، لو كنا نستحضر عندما يغسل الإنسان نقطة بول أصابت ثوبه أن ذلك يجلب محبة الله له ؛ لحصَّلنا خيرًا كثيرًا ، لكننا فى غفلة .

خامسًا : قوله : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران : ٣١] : هذا أيضًا يستوجب أن نحرص غاية الحرص على اتباع النبى ﷺ ؛ بحيث نترسم طريقه ؛ لا نخرج منه ، ولا نقصر عنه ، ولا نزيد ، ولا ننقص .

وشعورنا هذا يحمينا من البدع ، ويحمينا من التقصير ، ويحمينا من الزيادة والغلو ، لو أننا نشعر بهذه الأمور ؛ فانظر كيف يكون سلوكنا وآدابنا وأخلاقنا وعباداتنا .

سادسًا : قوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة : ٥٤] ؛ نحذر به من الردة عن الإسلام ؛ التى منها ترك الصلاة مثلًا ؛ فإذا علمنا أن الله يهددنا بأننا إن ارتددنا عن ديننا ؛ أهلكنا الله ، وأتى بقوم يحبهم ويحبونه ، ويقومون بواجبهم نحو ربهم ؛ فإننا نلازم طاعة الله والابتعاد عن كل ما يقرب للردة .

سابعًا : قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف : ٤] . إذا آمنا بهذه المحبة ؛ فعلنا هذه الأسباب الخمسة التى تستلزمها وتوجبها : القتال ، وعدم التوانى ، والإخلاص ؛ بأن يكون فى سبيل الله ، [و]أن يشد بعضنا بعضًا كأننا بنيان [مرصوص ، و]أن نُحْكِمَ الرابطة بيننا إحكامًا قويًا كالبنيان المرصوص ، [و]أن نصف ، وهذا يقتضى التساوى حسًا ، حتى لا تختلف القلوب ، وهو مما يؤكد الألفة ، والإنسان إذا رأى واحدًا عن يمينه وواحدًا عن يساره ؛ يقوى على الإقدام ، لكن لو يحيطون به من جميع الجوانب ؛ فستشتد همته .

فصار فى هذه الآيات ثلاثة مباحث :

١ - إثبات المحبة بالأدلة السمعية .

٢ - أسبابها .

٣ - الآثار المسلكية فى الإيمان بها .

أما أهل البدع الذين أنكروها ؛ فليس عندهم إلا حجة واهية ؛ يقولون :

أولًا : إن العقل لا يدل عليها .

ثانيًا : إن المحبة إنما تكون بين اثنين متجانسين ، لا تكون بين رب ومخلوق أبدًا ، ولا بأس أن تكون بين المخلوقات . ونحن نرد عليهم فنقول :

نجيبكم عن الأول - وهو أن العقل لا يدل عليها - بجوابين : أحدهما : بالتسليم ، والثانى : بالمنع .

التسليم : نقول : سلمنا أن العقل لا يدل على المحبة ، فالسمع دل عليها ، وهو دليل قائم بنفسه ، واللَّه ﷻ يقول فى القرآن : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل : ٨٩] ؛ فإذا كان تبيانًا ؛ فهو دليل قائم بنفسه ، « وانتفاء الدليل المعيَّن ؛ لا يلزم منه انتفاء المدلول » . لأن المدلول قد يكون له أدلة متعددة ؛ سواء الحسيات أو المعنويات :

فالحسيات : مثل بلد له عدة طرق توصل إليه ؛ فإذا انسد طريق ؛ ذهبنا [من] الطريق الثانى .

أما المعنويات ؛ فكم من حكم واحد يكون له عدة أدلة ! وجوب الطهارة للصلاة مثلًا فيه أدلة متعددة .

فإذن ؛ إذا قلتم : إن العقل لا يدل على إثبات المحبة بين الخالق والمخلوق ؛ فإن السمع دل عليه بأجلى دليل وأوضح بيان .

الجواب الثانى : المنع : أن نمنع دعوى أن العقل لا يدل عليها ، ونقول : بل العقل دل على إثبات المحبة بين الخالق والمخلوق ؛ كما سبق .

وأما قولكم : إن المحبة لا تكون إلا بين متجانسين ؛ فيكفى أن نقول : لا قبول لدعواكم ! لأن المنع كافٍ فى رد الحجة ؛ إذ إن الأصل عدم الثبوت ؛ فنقول : دعواكم أنَّها لا تكون إلا بين متجانسين ممنوعٌ ، بل هى تكون بين غير المتجانسين ، فالإنسان عنده ساعة قديمة ما أتعبته بالصيانة وما فسدت عليه قط فتجده يحبها ، وعنده ساعة تأخذ نصف وقته فى التصليح فتجده يبغضها . وأيضًا نجد أن البهائم تُحِب وتُحَب .

فنحن - ولله الحمد - نثبت لله المحبة بينه وبين عباده .

صفة الرحمة :

هذه آيات فى إثبات صفة الرحمة :

الآية الأولى : قوله : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل : ٣٠] .

هذه آية أتى بها المؤلف ليثبت حكمًا ، وليست مقدمة لما بعدها ، وقد سبق لنا شرح البسملة ؛ فلا حاجة إلى إعادته .

وفيها من أسماء الله ثلاثة : الله ، الرحمن ، الرحيم . ومن صفاته : الألوهية والرحمة .

الآية الثانية : قوله : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر : ٧] : هذا يقوله الملائكة : ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر : ٧] .

ما أعظم الإيمان ! وأعظم فائدته ! .

الملائكة حول العرش يحملونه ؛ يدعون الله للمؤمن .

وقوله : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً﴾ : يدل على أن كل شيء وصله علم الله ، وهو واصل لكل شيء ؛ فإن رحمته وصلت إليه ؛ لأن الله قرن بينهما فى الحكم ، [حيث قال] : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ .

وهذه هى الرحمة العامة التى تشمل جميع المخلوقات ، حتى الكفار ؛ لأن الله قرَن الرحمة هذه مع العلم ؛ فكل ما بلغه علم الله ، وعلم الله بالغ لكل شيء ؛ فقد بلغته رحمته ؛ فكما يعلم الكافر ؛ يرحم الكافر أيضًا .

لكن رحمته للكافر رحمة جسدية بدنية دنيوية قاصرة غاية القصور بالنسبة لرحمة المؤمن ؛ فالذى يرزق الكافر هو الله الذى يرزقه بالطعام والشراب واللباس والمسكن والمنكح وغير ذلك .

أما المؤمنون ؛ فرحمتهم رحمة أخص من هذه وأعظم ؛ لأنها رحمة إيمانية دينية دنيوية .

ولهذا تجد المؤمن أحسنَ حالًا من الكافر ، حتى فى أمور الدنيا ؛ لأن الله يقول : ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل : ٩٧] . الحياة الطيبة هذه مفقودة بالنسبة للكفار ، حياتهم كحياة البهائم ، إذا شبع ، روث ، وإذا لم يشبع ؛ جلس يصرخ هكذا هؤلاء الكفار إن شبعوا بطِروا وإلا جلسوا يصرخون ! ولا يستفيدون من دنياهم ، لكن المؤمن إن أصابته ضراء صبر واحتسب الأجر على الله ﷻ ، وإن أصابته سراء شكر ؛ فهو فى خير فى هذا وفى هذا ، وقلبه منشرح مطمئن متفق مع القضاء والقدر ؛ لا جزع عند البلاء ، ولا بطَر عند النعماء ، بل هو متوازن مستقيم معتدل .

فهذا فرق ما بين الرحمة هذه وهذه .

لكن مع الأسف الشديد أيها الإخوة : إن منا أناسًا آلافًا يريدون أن يلحقوا بركب الكفار في الدنيا ، حتى جعلوا الدنيا هي همَّهم ، إن أعطوا رضوا ، وإن لم يعطوا إذا هم يسخطون ، هؤلاء مهما بلغوا في الرفاهية الدنيوية ؛ فهم في جحيم ؛ لم يذوقوا لذة الدنيا أبدًا ، إنما ذاقها من آمن باللّه وعمل صالحًا ؛ ولهذا قال بعض السلف : واللّه لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه ؛ لجالدونا عليه بالسيوف . لأنه حال بينهم وبين هذا النعيم ما هم عليه من الفسوق والعصيان والركون إلى الدنيا وأنها أكبر همهم ومبلغ علمهم .

قوله : ﴿رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ : ﴿رَّحْمَةً﴾ : تمييز محول عن الفاعل ، وكذلك ﴿وَعِلْمًا﴾ ؛ لأن الأصل : ربنا وسعت رحمتك وعلمك كل شيء .

وفي الآية من صفات اللّه : الربوبية ، وعموم الرحمة ، والعلم .

الآية الثالثة : قوله : ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب : ٤٣] .

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ : متعلق بـ (رحيم) ، وتقديم المعمول يدل على الحصر ، فيكون معنى الآية : وكان بالمؤمنين لا غيرهم رحيمًا .

ولكن كيف نجمع بين هذه الآية والتي قبلها : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر : ٧] ؟ ! .

نقول : الرحمة التي هنا غير الرحمة التي هناك ، هذه رحمة خاصة متصلة برحمة الآخرة لا ينالها الكفار ؛ بخلاف الأولى . هذا هو الجمع بينهما ، وإلا ؛ فكلٌ مرحوم ، لكن فرق بين الرحمة الخاصة والرحمة العامة .

وفي الآية من الصفات : الرحمة . ومن الناحية المسلكية : الترغيب في الإيمان .

الآية الرابعة : قوله : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف : ١٥٦] يقول جل جلاله ممتدحًا مثنيًا على نفسه : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ . فأثنى على نفسه ﷻ بأن رحمته وسعت كل شيء من أهل السماء ومن أهل الأرض .

ونقول فيها ما قلنا في الآية الثانية ؛ فليرجع إليه .

الآية الخامسة : قوله : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام : ٥٤] .

﴿كَتَبَ﴾ : بمعنى : أوجب على نفسه الرحمة ؛ فاللّه ﷻ لكرمه وفضله وجوده أوجب على نفسه الرحمة ، وجعل رحمته سابقة لغضبه ، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر : ٤٥] ، لكن حلمه ورحمته أوجبت أن يبقى الخلق إلى أجل مسمى .

ومن رحمته ما ذكره بقوله : ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٥٤] : هذه من رحمته .

﴿ سُوٓءًا ﴾ : نكرة فى سياق الشرط ؛ فتعم كل سوء ، حتى الشرك .

﴿ بِجَهَٰلَةٍ ﴾ : يعنى : بسفهٍ ، وليس المراد بها عدم العلم ، والسفه عدم الحكمة ؛ لأن كل من عصى الله ؛ فقد عصاه بجهالة وسفه وعدم حكمة .

﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ . فيغفر ذنبه ويرحمه .

ولم يختم الآية بهذا ؛ إلا سينال التائب المغفرة والرحمة ، هذا من رحمته التى كتبها على نفسه ، وإلا لكان مقتضى العدل أن يؤاخذه على ذنبه ، ويجزيه على عمله الصالح .

فلو أن رجلًا أذنب خمسين يومًا ، ثم تاب وأصلح خمسين يومًا ؛ فالعدل أن نعذبه عن خمسين يومًا ، ونجازيه بالثواب عن خمسين يومًا ، لكن الله ﷻ كتب على نفسه الرحمة ؛ فكل الخمسين يومًا التى ذهبت من السوء تُمحى وتزول بساعة ، وزد على ذلك : ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ [الفرقان: ٧٠] ؛ السيئات الماضية تكون حسنات ؛ لأن كل حسنة عنها توبة ، وكل توبة فيها أجر .

فظهر بهذا أثر قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ .

وفى الآية من صفات الله : الربوبية ، والإيجاب ، والرحمة .

الآية السادسة : قوله : ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧] .

الله ﷻ هو الغفور الرحيم ، جمع ﷻ بين هذين الاسمين ؛ لأن بالمغفرة سقوط عقوبة الذنوب ، وبالرحمة حصول المطلوب ، والإنسان مفتقر إلى هذا وهذا ؛ مفتقر إلى مغفرة ينجو بها من آثامه ، ومفتقر إلى رحمة يسعد بها بحصول مطلوبه .

فـ : ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾ : صيغة مبالغة مأخوذة من الغفر ، وهو الستر مع الوقاية ؛ لأنه مأخوذ من المغفر ، والمغفر شيء يوضع على الرأس فى القتال يقى من السهام ، وهذا المغفر تحصل به فائدتان هما : ستر الرأس عنها .

ويدل على هذا ما ثبت فى الصحيح : « أن الله ﷻ يخلو يوم القيامة بعبده ، ويقرره بذنوبه ، يقول : عملت كذا ، وعملت كذا .. حتى يقر ، فيقول الله ﷻ له : قد سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم »(١) .

أما ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ : فهو ذو الرحمة الشاملة . وسبق الكلام فى ذلك .

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤١) ، ومسلم (٢٧٦٨) .

وفى الآية من الأسماء : الغفور ، والرحيم . ومن الصفات : المغفرة ، والرحمة .

الآية السابعة : قوله : ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف : ٦٤] ؛ قالها عن يعقوب حين أرسل مع أبنائه أخا يوسف الشقيق ؛ لأن يوسف عليه الصلاة والسلام قال : لا كيل لكم إذا رجعتم ، إلا إذا أتيتم بأخيكم ، فبلغوا والدهم هذه الرسالة ، ومن أجل الحاجة أرسله معهم ، وقال لهم عند وداعه : ﴿هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف : ٦٤] . يعنى : لن تحفظوه ، ولكن اللّه هو الذى يحفظه .

﴿خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ﴾ : ﴿حَٰفِظٗاۖ﴾ : قال العلماء : إنها تمييز ؛ كقول العرب : للهِ دره فارسًا . وقيل : إنها حال من فاعل ﴿خَيۡرٌ﴾ فى قوله : ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ﴾ ؛ أى : حال كونه حافظًا .

الشاهد من الآية هنا قوله : ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ؛ حيث أثبت اللّه ﷻ الرحمة ، بل بين أنه أرحم الراحمين ، لو جمعت رحمة الخلق كلهم ، بل رحمات الخلق كلهم ؛ لكانت رحمة اللّه أشد وأعظم .

أرحم ما يكون من الخلق بالخلق رحمة الأم ولدها ؛ فإن رحمة الأم ولدها لا يساويها شيء من رحمة الناس أبدًا ، حتى الأب لا يرحم أولاده مثل أمهم فى الغالب .

جاءت امرأة فى السبى تطلب ولدها وتبحث عنه ، فلما رأته ؛ أخذته بشفقة وضمته إلى صدرها أمام الناس وأمام الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقال النبى ﷺ : « أترون أن هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ؟ » . قالوا : لا واللّه يا رسول اللّه . قال : « اللّه أرحم بعباده من هذه بولدها »[1] .

جل جلاله ، عز ملكه وسلطانه .

كل الراحمين ؛ إذا جمعت رحماتهم كلهم ؛ فليست بشيء عند رحمة اللّه .

ويدلك على هذا أن اللّه ﷻ خلق مائة رحمة ، وضع منها رحمة واحدة يتراحم بها الخلائق فى الدنيا[2] .

كل الخلائق تتراحم ؛ البهائم والعقلاء ، ولهذا تجد البعير الجموح الرموح ترفع رجلها عن ولدها مخافة أن تصيبَه عندما يرضع حتى يرضع بسهولة ويُسر ، وكذلك تجد السباع الشرسة تجدها تحن على ولدها وإذا جاءها أحد فى جحرها مع أولادها ؛ ترمى نفسها عليه ، فتدافع عنهم ، حتى ترده عن أولادها .

وقد دل على ثبوت رحمة اللّه تعالى : الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والعقل :

فأما الكتاب ؛ فجاء به إثبات الرحمة على وجوه متنوعة : تارة بالاسم ؛ كقوله : ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٩) ، ومسلم (٢٧٥٤) .

(٢) أخرجه البخارى (٦٤٦٩) ، ومسلم (٢٧٥٢) .

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]، وتارة بالصفة؛ كقوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، وتارة بالفعل؛ كقوله: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ [العنكبوت: ٢١]، وتارة باسم التفضيل؛ كقوله: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

وبمثل هذه الوجوه... جاءت السنة.

وأما الأدلة العقلية على ثبوت الرحمة لله تعالى؛ فمنها ما نرى من الخيرات الكثيرة التي تحصل بأمر الله ﷻ، ومنها ما نرى من النِّقم الكثيرة التي تندفع بأمر الله؛ كله دال على إثبات الرحمة عقلًا.

فالناس في جدب وفي قحط؛ الأرض مجدبة، والسماء قاحطة؛ لا مطر ولا نبات، فينزل الله المطر وتنبت الأرض، وتشبع الأنعام ويسقى الناس... حتى العاميّ الذي لم يدرس، لو سألته وقلت: هذا من أي شيءٍ؟ فسيقول: هذا من رحمة الله ولا يشك أحد في هذا أبدًا.

فرحمة الله ﷻ ثابتة بالدليل السمعي والدليل العقلي.

وأنكر الأشاعرة وغيرهم من أهل التعطيل أن يكون الله تعالى متصفًا بالرحمة؛ قالوا: لأن العقل لم يدل عليها. وثانيًا: لأن الرحمة رقة وضعف وتطامن للمرحوم، وهذا لا يليق بالله ﷻ؛ لأن الله أعظم من أن يرحم بالمعنى الذي هو الرحمة، ولا يمكن أن يكون لله رحمة!! وقالوا: المراد بالرحمة: إرادة الإحسان، أو: الإحسان نفسه. أي: إما النعم، أو إرادة النعم.

فتأمل الآن كيف سلبوا هذه الصفة العظيمة، التي كل مؤمن يرجوها ويؤملها، كل إنسان لو سألته: ماذا تريد؟ قال: أريد رحمة الله [قال تعالى]: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]. أنكروا هذا؛ قالوا: لا يمكن أن يوصف الله بالرحمة!!.

ونحن نرد عليهم قولهم من وجهين: بالتسليم، والمنع:

التسليم أن نقول: هب أن العقل لا يدل عليها، ولكن السمع دل عليها؛ فثبتت بدليل آخر، والقاعدة العامة عند جميع العقلاء: أن انتفاء الدليل المعين لا يستلزم انتفاء المدلول؛ لأنه قد يثبت بدليل آخر. فهب أن الرحمة لم تَثْبتْ بالعقل، لكن ثَبَتتْ بالسمع، وكم من أشياء ثبتت بأدلة كثيرة.

أما المنع؛ فنقول: إن قولكم: إن العقل لا يدل على الرحمة. قولٌ باطلٌ، بل العقل يدل على الرحمة؛ فهذه النعم المشهودة والمسموعة، وهذه النِّقم المدفوعة؛ ما سببها؟ إن سببها الرحمة بلا شك، ولو كان الله لا يرحم العباد؛ ما أعطاهم النعمَ، ولا دفع عنهم النِّقم!.

وهذا أمر مشهود؛ يشهد به الخاص والعام، العامي في دكانه أو سوقه يعرف أن هذه النعم من آثار الرحمة.

والعجيب أن هؤلاء القوم أثبتوا صفة الإرادة عن طريق التخصيص؛ قالوا: الإرادة ثابتة للهِ تعالى

بالسمع والعقل : بالسمع : واضح . وبالعقل : لأن التخصيص ؛ يدل على الإرادة ومعنى التخصيص يعنى تخصيص المخلوقات بما هى عليه يدل على الإرادة ، كون هذه السماء سماء ، وهذه الأرض أرضًا ، وهذه النجوم وهذه الشمس . . . . هذه مختلفة بسبب الإرادة ؛ أراد اللَّه أن تكون السماء سماء ؛ فكانت ، وأن تكون الأرض أرضًا ؛ فكانت ، والنجم نجمًا ؛ فكان . . . . وهكذا .

قالوا : فالتخصيص يدل على الإرادة ؛ لأنه لولا الإرادة ؛ لكان الكل شيئًا واحدًا ! .

نقول لهم : يا سبحان اللَّه العظيم ! هذا الدليل على الإرادة بالنسبة لدلالة النعم على الرحمة أضعف وأخفى من دلالة النعم على الرحمة ؛ لأن دلالة النعم على الرحمة يستوى فى عملها العام والخاص ، ودلالة التخصيص على الإرادة لا يعرفها إلا الخاص من طلبةِ العلم ؛ فكيف تنكرون ما هو أجلى وتثبتون ما هو أخفى ؟ ! وهل هذا إلا تناقضٌ منكم ؟ ! ..

ما نستفيده من الناحية المسلكية فى هذه الآيات :

الأمر المسلكى : هو أن الإنسان ما دام يعرف أن اللَّه تعالى رحيم ؛ فسوف يتعلق برحمة اللَّه ، ويكون منتظرًا لها ، فيحمله هذا الاعتقاد على فعل كل سبب يُوصل إلى الرحمة ؛ مثل : الإحسان ؛ قال اللَّه تعالى فيه : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف : ٥٦] ، والتقوى ؛ قال تعالى : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] ، والإيمان ؛ فإنه من أسباب رحمة اللَّه ؛ كما قال تعالى : ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب : ٤٣] ، وكلما كان الإيمان أقوى ؛ كانت الرحمة إلى صاحبه أقرب بإذن اللَّه ﷻ .

صفة الرضا : هذه من آيات الرضا ؛ فاللَّه سبحانه وتعالى موصوف بالرضا ، وهو يرضى عن العمل ، ويرضى عن العامل .

يعنى : أن رضا اللَّه متعلق بالعمل وبالعامل .

أما بالعمل ؛ فمثل قوله تعالى : ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر : ٧] ؛ أى : يرضى الشكر لكم .

وكما فى قوله تعالى : ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة : ٣] . وكما فى الحديث الصحيح : « إن اللَّه يرضى لكم ثلاثًا ، ويكره لكم ثلاثًا . . . »[1] .

فهذا الرضا متعلق بالعمل .

ويتعلق الرضى أيضًا بالعامل ؛ مثل هذه الآية التى ساقها المؤلف : ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة : ١١٩] .

---

(١) أخرجه مسلم (١٧١٥) .

فرضا الله صفة ثابتة لله ﷻ ، وهى فى نفسه ، وليست شيئًا منفصلًا عنه ؛ كما يدعيه أهل التعطيل .

ولو قال لك قائل : فسر لى الرضا . لم تتمكن من تفسيره ؛ لأن الرضا صفة فى الإنسان غريزية ، والغرائز لا يمكن للإنسان أن يفسرها بأجلى وأوضح من لفظها .

فنقول : الرضا صفة فى الله ﷻ ، وهى صفة حقيقية ، متعلقة بمشيئته ؛ فهى من الصفات الفعلية ، يرضى عن المؤمنين وعن المتقين وعن المقسطين وعن الشاكرين ، ولا يرضى عن القوم الكافرين ، ولا يرضى عن القوم الفاسقين ، ولا يرضى عن المنافقين ؛ فهو سبحانه وتعالى يرضى عن أناس ولا يرضا عن أناس ، ويرضى أعمالًا ويكره أعمالًا .

ووصف الله تعالى بالرضى ثابت بالدليل السمعى ، كما سبق ، وبالدليل العقلى ، فإن كونه ﷻ يُثيب الطائعين ويجزيهم على أعمالهم وطاعاتهم يُدلُّ على الرضا .

فإن قلت : استدلالك بالمثوبة على رضا الله ﷻ قد يُنَازَعُ فيه ؛ لأن الله سبحانه قد يعطى الفاسق من النعم أكثر مما يعطى الشاكر . وهذا إيرادٌ قوى .

ولكن الجواب عنه أن يقال : إعطاؤه الفاسق المقيم على معصيته استدراج ، وليس عن رضًى : كما قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف : ١٨٢، ١٨٣] .

وقال النبى ﷺ : « إن الله ليملى للظالم ، حتى إذا أخذه ؛ لم يفلته » . وتلا قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾(١) [هود : ١٠٢] .

وقال تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام : ٤٤، ٤٥] .

أما إذا جاءت المثوبة والإنسان مقيم على طاعة الله ؛ فإننا نعرف أن ذلك صادر عن رضا الله عنه .

آيات صفات الغضب والسخط والكراهية والبغض :

ذكر المؤلف رحمه الله فى هذه الصفات خمس آيات :

الآية الأولى : قوله : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ [النساء : ٩٣] .

﴿وَمَن﴾ : شرطية . و(مَن) الشرطية تفيد العموم .

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٦) ، ومسلم (٢٥٨٣) .

﴿مُؤْمِنًا﴾ : هو من آمن بالله ورسوله ؛ فخرج به الكافر والمنافق .

لكن من قتل كافرًا له عهد أو ذمة أو أمان ؛ فهو آثم ، لكن لا يستحق الوعيد المذكور فى الآية .

وأما المنافق ؛ فهو معصوم الدم ظاهرًا ؛ ما لم يعلن بنفاقه .

وقوله : ﴿مُتَعَمِّدًا﴾ : يدل على إخراج الصغير وغير العاقل ؛ لأن هؤلاء ليس لهم قصد معتبر ولا عمد ، وعلى إخراج المخطئ ، وقد سبق بيانه فى الآية التى قبلها . فالذى يقتل مؤمنًا متعمدًا جزاؤه هذا الجزاء العظيم .

﴿جَهَنَّمُ﴾ : اسم من أسماء النار .

﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ ؛ أى : ماكثًا فيها .

﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ : الغضب صفة ثابتة للّه تعالى على الوجه اللائق به ، وهى من صفاته الفعلية .

﴿وَلَعَنَهُ﴾ : اللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة اللّه .

فهذه أربعة أنواع من العقوبة ، والخامس : قوله : ﴿وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ .

خمس عقوبات ، واحدة منها كافية فى الردع والزجر لمن كان له قلب .

ولكن يشكل على منهج أهل السنة ذكر الخلود فى النار ؛ حيث رُتِّبَ على القتل ، والقتل ليس بكفر ، ولا خلود فى النار عند أهل السنة إلا بالكفر .

وأجيب عن ذلك بعدة أوجه :

الوجه الأول : أن هذه فى الكافر إذا قتل المؤمن .

لكن هذا القول ليس بشىء ؛ لأن الكافر جزاؤه جهنم خالدًا فيها وإن لم يقتل المؤمن : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب : ٦٤، ٦٥] .

الوجه الثانى : أن هذا فيمن استحل القتل ؛ لأن الذى يستحل قتل المؤمن كافر .

وعجب الإمام أحمد من هذا الجواب ؛ قال : كيف هذا ؟ ! إذا استحل قتله ؛ فهو كافر وإن لم يقتله ، وهو مخلَّد فى النار وإن لم يقتله .

ولا يستقيم هذا الجواب أيضًا .

الوجه الثالث : أن هذه الجملة على تقدير شرط ؛ فجزاؤه جهنم خالدًا فيها إن جازاه .

وفى هذا نظرٌ ؛ أى فائدة فى قوله : ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ ؛ ما دام المعنى إن جازاه ؟ ! فنحن الآن نسأل : إذا جازاه ؛ فهل هذا جزاؤه ؟ فإذا قيل : نعم ؛ فمعناه أنه صار خالدًا فى النار ، فتعود المشكلة مرة أخرى ، ولا نتخلص .

فهذه ثلاثة أجوبة لا تسلم من الاعتراض .

الوجه الرابع : أن هذا سبب ، ولكن إذا وجد مانع ؛ لم ينفذ السبب ؛ كما نقول : القرابة سبب للإرث ؛ فإذا كان القريب رقيقًا ؛ لم يرث ؛ لوجود المانع وهو الرِّق .

ولكن يرد علينا الإشكال من وجه آخر ، وهو : ما الفائدة من هذا الوعيد ؟

فنقول : الفائدة أن الإنسان الذى يقتلَ مؤمنًا متعمدًا قد فعل السبب الذى يخلد به فى النار ، وحينئذ يكون وجود المانع محتملًا ؛ قد يوجد ، وقد لا يوجد ؛ فهو على خطر جدًّا ، ولهذا قال النبى ﷺ : « لن يزال المؤمن فى فسحة من دينه ما لم يَصِب دمًا حرامًا »[1] . فإذا أصاب دمًا حرامًا والعياذ بالله ؛ فإنه قد يضيق بدينه حتى يخرج منه .

وعلى هذا ؛ فيكون الوعيد هنا باعتبار المآل ؛ لأنه يخشى أن يكون هذا القتل سببًا لكفره ، وحينئذ يموت على الكفر ، فيخلد .

فيكون فى هذه الآية على هذا التقدير ذكر سبب السبب ؛ فالقتل عمدًا سببٌ لِأن يموتَ الإنسان على الكفر ، والكفر سبب للتخليد فى النار .

وأظن هذا إذا تأمله الإنسان ؛ يجد أنه ليس فيه إشكال .

الوجه الخامس : أن المراد بالخلود المكث الطويل ، وليس المراد به المكث الدائم ؛ لأن اللغة العربية يطلق فيها الخلود على المكث الطويل كما يقال : فلان خالد فى الحبس . والحبس ليس بدائم . ويقولون : فلان خالد خلود الجبال . ومعلوم أن الجبال ينسفها ربى نسفًا فيذرها قاعًا صفصفًا .

وهذا أيضًا جواب سهل لا يحتاج إلى تعب ، فنقول : إن الله ﷻ لم يذكر التأبيد ؛ لم يقل : خالدًا فيها أبدًا بل قال : ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾ ، والمعنى : أنه ماكث مكثًا طويلًا .

الوجه السادس : أن يقال : إن هذا من باب الوعيد ، والوعيد يجوز إخلافه ؛ لأنه انتقال من العدل إلى الكرم ، والانتقال من العدل إلى الكرم كرم وثناء وأنشدوا عليه قول الشاعر :

وإنِّى وَإنْ أوْعَدْتُهُ أوْ وَعَدْتُه لَمُخْلِفُ إيعادى وَمُنْجِزُ مَوْعِدِي

أوعدته بالعقوبة ، ووعدته بالثواب ؛ لمخلف إيعادى ومنجز موعدى .

وأنت إذا قلت لابنك : والله ؛ إن ذهبت إلى السوق ؛ لأضربنك بهذه العصا . ثم ذهب إلى السوق ، فلما رجع ؛ ضربته بيدك ؛ فهذا العقاب أهون على ابنك ؛ فإذا توعد الله ﷻ القاتل بهذا الوعيد ، ثم عفا عنه ؛ فهذا كرم .

(١) أخرجه البخارى (٦٨٦٢) .

ولكن هذا في الحقيقة فيه شيء من النظر ؛ لأننا نقول : إن نفذ الوعيد ؛ فالإشكال باقٍ ، وإن لم ينفذ ؛ فلا فائدة منه .

هذه ستة أوجه في الجواب عن الآية ، وأقربها الخامس ؛ ثم الرابع .

مسألة : إذا تاب القاتل ؛ هل يستحق الوعيد ؟

الجواب : لا يستحق الوعيد بنص القرآن ؛ لقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَٰعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ﴾ [الفرقان : ٦٨- ٧٠] ، وهذا واضح ؛ أن من تاب - حتى من القتل - ؛ فإن اللَّه تعالى يبدل سيئاته حسنات .

والحديث الصحيح في قصة الرجل من بني إسرائيل ، الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا ، فألقى اللَّه في نفسه التوبة ، فجاء إلى عابد ، فقال له : إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا ؛ فهل له من توبة ؟ ! فالعابد استعظم الأمر ، وقال : ليس لك توبة ! فقتله ، فأتم به المائة . فدُلَّ على عالِمٍ ، فقال : إنه قتل مائة نفس ؛ فهل له من توبة ؟ قال : نعم ؛ ومن يحول بينك وبين التوبة ؟ ! ولكن هذه القرية ظالم أهلها ؛ فاذهب إلى القرية الفلانية ، فيها أهل خير وصلاح ، فسافر الرجل ، وهاجر من بلده إلى بلد الخير والصلاح ، فوافته المنية في أثناء الطريق ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، حتى أنزل اللَّه بينهم حكمًا ، وقال : قيسوا ما بين القريتين ، فإلى أيتهما كان أقرب ؛ فهو من أهلها ؛ فكان أقرب إلى أهل القرية الصالحة فقبضته ملائكة الرحمة[(١)] .

فانظر كيف كان من بني إسرائيل فقبلت توبته ، مع أن اللَّه جعل عليهم آصارًا وأغلالًا ، وهذه الأمة رفع عنها الآصار والأغلال ؛ فالتوبة في حقها أسهل ؛ فإذا كان هذا من بني إسرائيل ؛ فكيف بهذه الأمة ؟ ! .

فإن قلت : ماذا تقول فيما صح عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن القاتل ليس له توبة ؟ ! .

فالجواب من أحد الوجهين :

١ - إما أن ابن عباس رضي الله عنهما استبعد أن يكون للقاتل عمدًا توبة ، ورأى أنه لا يُوفَّق للتوبة ، وإذا لم يوفق للتوبة ؛ فإنه لا يسقط عنه الإثم ، بل يؤاخذ به .

٢ - وإما أن يقال : إن مراد ابن عباس رضي الله عنهما : أن لا توبة له فيما يتعلق بحق المقتول ؛ لأن القاتل

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٠) ، ومسلم (٢٧٦٦) .

عمدًا يتعلق به ثلاثة حقوق : حق اللَّه ، وحق المقتول ، والثالث لأولياء المقتول .

أ - أما حق اللَّه ؛ فلا شك أن التوبة ترفعه ؛ لقوله تعالى : ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر : ٥٣] ، وهذه فى التائبين .

ب - وأما حق أولياء المقتول ؛ فيسقط إذا سلم الإنسان نفسه لهم ، أتى إليهم وقال : أنا قتلت صاحبكم ، واصنعوا ما شئتم فهم إما أن يقتصوا ، أو يأخذوا الدِّية ، أو يعفوا ، والحقُّ لهم .

جـ - وأما حق المقتول ؛ فلا سبيل إلى التخلُّص منه فى الدنيا .

وعلى هذا يحمل قول ابن عباس أنه لا توبة له ؛ أى : بالنسبة لحق المقتول .

على أن الذى يظهر لى أنه إذا تاب توبة نصوحًا ؛ فإنه حتى حق المقتول يسقط ، لا إهدارًا لحقِّه ، ولكن اللَّه ﷻ بفضله يتحمل عن القاتل ويعطى المقتول رفعة درجات فى الجنة أو عفوًا عن السيئات ؛ لأن التوبة الخالصة لا تبقى شيئًا ، ويؤيد هذا عموم آية « الفرقان » : ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ ، إلى قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ﴾ [الفرقان : ٦٨- ٧٠] .

وفى هذه الآية من صفات اللَّه : الغضب ، واللعن وإعداد العذاب .

وفيها من الناحية المسلكية التحذير من قتل المؤمن عمدًا .

الآية الثانية : قوله : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ [محمد : ٢٨] .

﴿ذَٰلِكَ﴾ : المشار إليه ما سبق ، والذى سبق هو قوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد : ٢٧، ٢٨] . يعنى : فكيف تكون حالهم فى تلك اللحظات إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم عند الموت ؟! .

﴿ذَٰلِكَ﴾ ؛ أى : ضرب الوجوه والأدبار .

﴿بِأَنَّهُمْ﴾ ؛ أى : بسبب ؛ فالباء للسببية .

﴿ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ . أى : الذى أسخط اللَّه ، فصاروا يفعلون كل ما به سخط اللَّه ﷻ من عقيدة أو قول أو فعل .

أما ما فيه رضا اللَّه ؛ فحالهم فيه قوله : ﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ . أى كرهوا ما فيه رضاه ، فصارت عاقبتهم تلك العاقبة الوخيمة ؛ أنهم عند الوفاة تضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم .

وفى هذه الآية من صفات اللَّه : إثبات السخط والرضى .

وسبق الكلام على صفة الرضى ، وأما السخط ؛ فمعناه قريب من معنى الغضب .

الآية الثالثة : قوله : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف : ٥٥] .

﴿ءَاسَفُونَا﴾ . يعنى : أغضبونا وأسخطونا .

﴿فَلَمَّآ﴾ : هنا شرطية ، فعل الشرط فيها : ﴿ءَاسَفُونَا﴾ ، وجوابه : ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ .

ففيها رد على من فسروا السخط والغضب بالانتقام ؛ لأن أهل التعطيل من الأشعرية وغيرهم يقولون : إن المراد بالسخط والغضب الانتقام ، أو إرادة الانتقام ، ولا يفسرون السخط والغضب بصفة من صفات اللَّه يتصف بها هو نفسه ، فيقولون : غضبه ؛ أى انتقامه ، أو إرادة انتقامه ، فهم إما أن يفسروا الغضب بالمفعول المنفصل عن اللَّه وهو الانتقام أو بالإرادة لأنهم يقرون بها ، ولا يفسرونه بأنه صفة ثابتة للَّه على وجه الحقيقة تليق به .

ونحن نقول له : بل السخط والغضب غير الانتقام ، والانتقام نتيجة الغضب والسخط ؛ كما نقول : إن الثواب نتيجة الرضا ؛ فاللَّه سبحانه وتعالى يسخط على هؤلاء القوم ويغضب عليهم ثم ينتقم منهم .

وإذا قالوا : إن العقل يمنع ثبوت السخط والغضب للَّه ﷻ .

فإننا نجيبهم بما سبق فى صفة الرضا ؛ لأن الباب واحد .

ونقول : بل العقل يدل على السخط والغضب ؛ فإن الانتقام من المجرمين وتعذيب الكافرين دليل على السخط والغضب ، وليس دليلًا على الرضا ، ولا على انتفاء الغضب والسخط .

ونقول : هذه الآية : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف : ٥٥] . ترد عليكم ؛ لأنه جعل الانتقام غير الغضب ؛ لأن الشرط غير المشروط .

مسألة :

بقى أن يقال : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ . نحن نعرف أن الأسف : هو الحزن والندم على شىء مضى على النادم لا يستطيع رفعه ؛ فهل يوصف اللَّه بالحزن والندم ؟ .

الجواب : لا ، ونجيب عن الآية بأن الأسف فى اللغة له معنيان :

المعنى الأول : الأسف بمعنى الحزن ؛ مثل قول اللَّه تعالى عن يعقوب : ﴿يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ [يوسف : ٨٤] .

الثانى : الأسف بمعنى الغضب ؛ فيقال : أسف عليه يأسف ؛ بمعنى : غضب عليه .

والمعنى الأول : ممتنع بالنسبة للَّه ﷻ . والثانى : مثبت للَّه ؛ لأن اللَّه تعالى وصف به نفسه ، فقال : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ .

وفى الآية من صفات اللَّه : الغضب ، والانتقام .

ومن الناحية المسلكية : التحذير مما يغضب الله تعالى .

الآية الرابعة : قوله : ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ﴾ [التوبة : ٤٦] .

يعنى بذلك المنافقين الذين لم يخرجوا مع النبى ﷺ فى الغزوات ؛ لأن الله تعالى كره انبعاثهم ؛ لأن عملهم غير خالص له ، والله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك ، ولأنهم إذا خرجوا ، كانوا كما قال الله تعالى : ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾ [التوبة : ٤٧] ، وإذا كانوا غير مخلصين ، وكانوا مفسدين ؛ فإن الله سبحانه وتعالى يكره الفساد ويكره الشركَ فـ : ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ﴾ . يعنى : جعل هِمَمَهم فاترة عن الخروج للجهاد .

﴿وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة : ٤٦] . قيل : يحتمل أن الله قال ذلك كونًا . ويحتمل أن بعضهم يقول لبعض : اقعد مع القاعدين ؛ ففلان لم يخرج ، وفلان لم يخرج . ممن عذرهم الله ﷻ ؛ كالمريض والأعمى والأعرج ، ويقولون : إذا قدم النبى ﷺ اعتذرنا إليه واستغفر لنا وكفانا .

ويمكن أن نجمع بين القولين ؛ لأنه إذا قيل لهم ذلك ، وقعدوا ؛ فهم ما قعدوا إلا بقول الله ﷻ .

وفى الآية هنا إثبات أن الله ﷻ يكره ، وهذا أيضًا ثابت فى الكتاب والسنة :

قال الله تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ . إلى قوله : ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا﴾ [الإسراء : ٢٣- ٣٨] .

وكما فى هذه الآية التى ذكرها المؤلف : ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾ .

وقال النبى ﷺ : « إن الله كره لكم قيل وقال »[1] .

فالكراهة ثابتة بالكتاب والسنة ؛ أن الله تعالى يكره .

وكراهة الله سبحانه وتعالى للشىء تكون للعمل ؛ كما فى قوله : ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾ . وكما فى قوله : ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا﴾ [الإسراء : ٣٨] .

وتكون أيضًا للعامل ؛ كما جاء فى الحديث : « إن الله تعالى إذا أبغض عبدًا ؛ نادى جبريل ؛ إنى أبغض فلانًا ؛ فأبغضه »[2] .

الآية الخامسة : قوله : ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف : ٣] .

﴿كَبُرَ﴾ ؛ بمعنى : عظم .

﴿مَقۡتًا﴾ : تمييز محول عن الفاعل ، والمقت أشد البغض ، وفاعل ﴿كَبُرَ﴾ بعد أن حول الفاعل إلى تمييز : (أن) وما دخلت عليه فى قوله : ﴿أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ .

---

(١) أخرجه البخارى (١٤٧٧) ، ومسلم (٥٩٣) .

(٢) أخرجه البخارى (٣٢٠٩) ، ومسلم (٢٦٣٧) واللفظ له .

وهذه الآية تعليل للآية التى قبلها وبيان لعاقبتها : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف : ٢، ٣] ؛ فإن هذا من أكبر الأمور أن يقول الإنسان ما لا يفعل .

ووجه ذلك أن يقال : إذا كنت تقول الشىء ولا تفعله ؛ فأنت بين أمرين : إما كاذب فيما تقول ، ولكن تُخوِّف الناس ، فتقول لهم الشىء وليس بحقيقة . وإما أنك مستكبر عما تقول ؛ تأمر الناس به ولا تفعله ، وتنهى الناس عنه وتفعله .

وفى الآية من الصفات : المقت ، وأنه يتفاوت .

ومن الناحية المسلكية : التحذير من أن يقول الإنسان ما لا يفعل .

الآية الأولى : قوله : ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ﴾ [البقرة: ٢١٠] .

قوله : ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ : ﴿هَلۡ﴾ : استفهام بمعنى النفى ؛ يعنى : ما ينظرون ، وكلما وجدت (إلا) بعد الاستفهام ؛ فالاستفهام يكون للنفى . هذه قاعدة ؛ قال النبى عليه الصلاة والسلام : « هل أنت إلا إصبع دميت »[1] ؛ أى : ما أنت .

ومعنى : ﴿يَنظُرُونَ﴾ هنا : ينتظرون ؛ لأنها لم تتعد بـ : (إلى) ؛ فلو تعدت بـ : (إلى) لكان معناها النظر بالعين غالبًا ، أما إذا تعدت بنفسها ؛ فهى بمعنى : ينتظرون . أى : ما ينتظر هؤلاء المكذبون إلا أن يأتيهم اللَّه فى ظلل من الغمام ، وذلك يوم القيامة .

﴿يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ﴾ : و﴿فِي﴾ : هنا بمعنى (مع) ؛ فهى للمصاحبة ، وليست للظرفية قطعًا ؛ لأنها لو كانت للظرفية ؛ لكانت محيطة باللَّه ، [ومعلومٌ] أن اللَّه تعالى واسع عليم ، ولا يحيط به شىء من مخلوقاته .

فـ ﴿فِي ظُلَلٖ﴾ ؛ أى : مع الظلل ؛ فإن اللَّه عند نزوله جل وعلا للفصل بين عباده ﴿تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ : غمام أبيض ؛ ظلل عظيمة ؛ لمجىء اللَّه تبارك وتعالى .

وقوله : ﴿فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ : الغمام ؛ قال العلماء : إنه السحاب الأبيض ؛ كما قال تعالى مُمتنًا على بنى إسرائيل : ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ﴾ [البقرة: ٥٧] ، والسحاب الأبيض يُبقى الجو مستنيرًا ؛ بخلاف الأسود والأحمر ؛ فإنه تحصل به الظلمة ، وهو أجمل منظرًا .

وقوله : ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ : الملائكة بالرفع معطوف على لفظ الجلالة اللَّه ؛ يعنى : أو تأتيهم

---

(١) أخرجه البخارى (٢٨٠٢) ، ومسلم (١٧٩٦) .

الملائكة ، وسبق بيان اشتقاق هذه الكلمة ، ومن هم الملائكة .

والملائكة تأتى يوم القيامة ؛ لأنها تنزل فى الأرض ، ينزل أهل السماء الدنيا ، ثم الثانية ، ثم الثالثة ، ثم الرابعة وهكذا . . . . . إلى السابعة ؛ يحيطون بالناس .

وهذا تحذير من هذا اليوم الذى يأتى على هذا الوجه ؛ فهو مشهد عظيم من مشاهد يوم القيامة ، يحذر اللّٰه به هؤلاء المكذبين .

الآية الثانية : قوله : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] .

نقول فى ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ . ما قلناه فى الآية السابقة ؛ أى : ما ينتظر هؤلاء إلا واحدة من هذه الأحوال :

أولًا : ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ . أى : لقبض أرواحهم ؛ قال اللّٰه تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال : ٥٠] .

ثانيا : ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ يوم القيامة للقضاء بينهم .

ثالثا : ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ : وهذه طلوع الشمس من مغربها ، فسرها بذلك النبى ﷺ[1] .

وأما ذكر اللّٰه هذه الأحوال الثلاث ؛ لأن الملائكة إذا نزلت لقبض أرواحهم ؛ لا تقبل منهم التوبة ؛ لقوله تعالى : ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء : ١٨] .

وكذلك أيضًا إذا طلعت الشمس من مغربها ؛ فإن التوبة لا تقبل ، وحينئذ لا يستطيعون خلاصًا مما هم عليه .

وذكر الحالة الثالثة بين الحالين ؛ لأنه وقت الجزاء وثمرة العمل ؛ فلا يستطيعون التخلص فى تلك الحال مما عملوه .

والغرض من هذه الآية والتى قبلها تحذير هؤلاء المكذبين من أن يفوتَهم الأوانُ ثم لا يستطيعون الخلاص من أعمالهم .

الآية الثالثة : قوله : ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢١، ٢٢] .

---

(١) أخرجه البخارى فى التفسير (٤٦٣٥) ، ومسلم (١٥٧) .

﴿كَلَّآ﴾ هنا للتنبيه ؛ مثلا (ألا) .

وقوله : ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ : هذا يوم القيامة .

وأكد هذا الدَّك لعظمته ؛ لأنها تدك الجبال والشعاب وكل شيء يدك ، حتى تكون الأرض كالأديم ، والأديم هو الجلد ؛ قال اللّه تعالى : ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه : ١٠٦- ١٠٧] . ويحتمل أن يكون تكرار الدك تأسيسًا لا تأكيدًا ، ويكون المعنى : دكًّا بعد دكٍّ .

قال ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ ؛ يعني : يوم القيامة ، بعد أن تدك الأرض وتُسَوَّى ويُحشرُ الناس يأتي اللّه للقضاء بين عباده .

وقوله : ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ : (أل) هنا للعموم ؛ يعني : وكل ملك ؛ يعني : الملائكة ينزلون في الأرض .

﴿صَفًّا صَفًّا﴾ ؛ أي صفًّا من وراء صف ؛ كما جاء في الأثر : « تنزل ملائكة الدنيا فيصفون ، ومن ورائهم ملائكة السماء الثانية ، ومن ورائهم ملائكة السماء الثالثة » هكذا .

الآية الرابعة : قوله : ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان : ٢٥] .

يعني : اذكر يوم تشقق السماء بالغمام .

و﴿تَشَقَّقُ﴾ : أبلغ من تنشق ؛ لأن ظاهرها تشقق شيئًا فشيئًا ، ويخرج هذا الغمام ، فيثور ثوران الدخان ، وينبعث شيئًا فشيئًا .

تشقق السماء بالغمام ؛ مثل ما يقال : تشقق الأرض بالنبات ؛ يعني : يخرج الغمام من السماء ويثور متتابعًا ، وذلك لمجيء اللّه ﷻ للفصل بين عباده ؛ فهو يوم رهيبٌ عظيم .

قوله : ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ : ينزلون من السماوات شيئًا فشيئًا ، تنزل ملائكة السماء الدنيا ، ثم الثانية ، ثم الثالثة . . . وهكذا .

وهذه الآية في سياقيها ليس فيها ذكر مجيء اللّه ، لكن فيها الإشارة إلى ذلك ؛ لأن تشقق السماء بالغمام إنما يكون لمجيء اللّه تعالى ؛ بدليل الآيات السابقة .

هذه أربع آيات ساقها المؤلف لإثبات صفة من صفات اللّه ، وهي : المجيء والإتيان .

وأهل السنة والجماعة يثبتون أن اللّه يأتي بنفسه هو ؛ لأن اللّه تعالى ذكر ذلك عن نفسه ، وهو سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلًا من غيره وأحسن حديثًا ؛ فكلامه مشتمل على أكمل العلم والصدق والبيان والإرادة ؛ فاللّه ﷻ يريد أن يبين لنا الحق وهو أعلم وأصدق وأحسن حديثًا .

لكن يبقى السؤال : هل نعلم كيفية هذا المجيء؟

الجواب : لا نعلمه ؛ لأن اللّه سبحانه وتعالى أخبرنا أنه يجيء ، ولم يخبرنا كيف يجيء ، ولأن الكيفية لا تعلم إلا بالمشاهدة أو مشاهدة النظير أو الخبر الصادق عنها ، وكل هذا لا يوجد في صفات

الله تعالى ، ولأنه إذا جهلت الذات ، جهلت الصفات ؛ أى : كيفيتها ؛ فالذات موجودة وحقيقية ونعرفها ونعرف ما معنى الذات وما معنى النفس ، وكذلك نعرف ما معنى المجيء ، لكن كيفية الذات أو النفس وكيفية المجيء غير معلوم لنا .

فنؤمن بأن الله يأتى حقيقة وعلى كيفية تليق به مجهولة لنا .

مخالفو أهل السنة والجماعة والرد عليهم :

وخالف أهل السنة والجماعة فى هذه الصفة أهل التحريف والتعطيل ، فقالوا : إن الله لا يأتى ؛ لأنك إذا أثبت أن الله يأتى ؛ ثبت أنه جسم ؛ والأجسام متماثلة ! .

فنقول : هذه دعوى وقياس باطل ؛ لأنه فى مقابلة النص ، وكل شيء يعود إلى النص بالإبطال فهو باطل ؛ لقوله تعالى : ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ : ٢٤] .

فإذا قلت : إن هذا الذى عاد إلى النص بالإبطال هو الحق ؛ صار النص باطلًا ولابد ، وبطلان النص مستحيل . وإن قلت : إن النص هو الحق ؛ صار هذا باطلًا ولابد ! .

ثم نقول : ما المانع من أن يأتى الله تعالى بنفسه على الكيفية التى يريدها ؟ يقولون : المانع أنك إذا أثبت ذلك ؛ فأنت ممثل .

نقول : هذا خطأ ؛ فإننا نعلم أن المجيء والإتيان يختلف حتى بالنسبة للمخلوق ؛ فالإنسان النشيط الذى يأتى كأنما ينحدر من مرتفع من نشاطه ، لكنه لا يمشى مرحًا وإن شئت فقل : إنه يمشى مرحًا : هل هذا كالإنسان الذى يمشى على عصًا ولا ينقل رجلًا من مكانها إلا بعد تعب .

والإتيان يختلف من وجه آخر ؛ فإتيان إنسان مثلًا من كبراء البلد أو من ولاة الأمور ليس كإتيان شخص لا يحتفى به .

ماذا يقول المعطل فى قوله تعالى : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ . ونحوها ؟

الجواب : يقول : المعنى : جاء أمر ربك ، وأتى أمر ربك ؟ لأن الله تعالى قال : ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل : ١] ؛ فيجب أن نفسّرَ كل إتيان أضافه الله إلى نفسه بهذه الآية ، ونقول : المراد : أتى أمر الله .

فيقال : إن هذا الدليل الذى استدللتَ به هو دليلٌ عليك وليس لكَ ! لو كان الله تعالى يريد إتيان أمره فى الآيات الأخرى ؛ فما الذى يمنعه أن يقول : أمره ؟ ! فلما أراد الأمر ؛ عبَّر بالأمر ، ولما لم يرده ؛ لم يعبِّر به .

وهذا فى الواقع دليل عليك ؛ لأن الآيات الأخرى ليس فيها إجمال حتى نقول : إنها بينت بهذه الآية . فالآيات الأخرى واضحة ، وفى بعضها تقسيم يمنع إرداة مجيء الأمر : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن

تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] ؛ هل يستقيم لشخص أن يقول: ﴿يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ ؛ أي: أمره في مثل هذا التقسيم؟!

فإذا قال قائل: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [المائدة: ٥٢].

فالجواب: أن المراد بذلك إتيان الفتح أو الأمر، لكن أضاف اللَّه الإتيان به إلى نفسه؛ لأنه من عنده؛ وهذا أسلوب معروف في اللغة العربية؛ فالإتيان إذا قُيد بحرف جر مثلًا؛ فالمراد به ذلك المجرور، وإذا أطلق وأضيف إلى اللَّه بدون قيد؛ فالمراد به إتيان اللَّه حقيقة.

الآداب المسلكية المستفادة من الإيمان بصفة المجيء والإتيان للَّه تعالى:

الثمرة هي الخوف من هذا المقام وهذا المشهد العظيم الذي يأتي فيه الرب ﷻ للفصل بين عباده وتنزل الملائكة، ولا يبقى أمامك إلا الرب ﷻ والمخلوقات كلها؛ فإن عملت خيرًا؛ جوزيت به، وإن عملت سوى ذلك؛ فإنك ستجزى به؛ كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إن الإنسان يخلو به اللَّه ﷻ، فينظر أيمن منه؛ فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه؛ فلا يرى إلا ما قدم، وينظر تلقاء وجهه؛ فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه؛ فاتقوا النار، ولو بشق تمرة»[1]. فالإيمان بمثل هذه الأشياء العظيمة لا شك أنه يولد للإنسان رهبةً وخوفًا من اللَّه سبحانه وتعالى واستقامة على دينه.

صفة الوجه للَّه سبحانه:

ذكر المؤلف ﵀ لإثبات صفة الوجه للَّه تعالى آيتين:

الآية الأولى: قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

وهذه معطوفة على قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، ولهذا قال بعض السلف: ينبغي إذا قرأت: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾. أن تصلها بقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ ؛ حتى يتبين نقص المخلوق وكمال الخالق، وذلك للتقابل، فهذا فناء وهذا بقاء، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ ؛ أي: لا يفنى.

والوجه: معناه معلوم، لكن كيفيته مجهولة، لا نعلم كيف وجه اللَّه ﷻ؛ كسائر صفاته، لكننا نؤمن بأن له وجهًا موصوفًا بالجلال والإكرام، وموصوفًا بالبهاء والعظمة والنور العظيم، حتى قال النبي عليه الصلاة والسلام: «حجابه النور، لو كشفه؛ لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٩).

(سبحات وجهه) ؛ يعني : بهاؤه وعظمته وجلاله ونوره .

(ما انتهى إليه بصره من خلقه) : وبصره ينتهي إلى كل شيء ، وعليه ؛ فلو كشف هذا الحجاب - حجاب النور عن وجهه ؛ لاحترق كل شيء .

لهذا نقول : هذا الوجه وجه عظيم ، لا يمكن أبدًا أن يماثل أوجه المخلوقات .

وبناء على هذا نقول : من عقيدتنا أننا نثبت أن للّه وجهًا حقيقة ، ونأخذه من قوله : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ . ونقول بأن هذا الوجه لا يماثل أوجه المخلوقين ؛ لقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى : ١١] . ونجهل كيفية هذا الوجه لقوله تعالى : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه : ١١٠] .

فإن حاول أحد أن يتصور هذه الكيفية بقلبه أو أن يتحدث عنها بلسانه ؛ قلنا : إنك مبتدع ضال قائلٌ على اللّه ما لا تعلم ، وقد حرّم اللّه علينا أن نقول عليه ما لا نعلم ؛ قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٣] . وقال تعالى : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء : ٣٦] .

وهنا قال : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ . أضاف الربوبية إلى محمد ﷺ ، وهذه الربوبية أخص ما يكون من أنواع الربوبية ؛ لأن الربوبية عامة وخاصة ، والخاصة خاصة أخص ، وخاصة فوق ذلك ؛ كربوبية اللّه تعالى لرسله ؛ فالربوبية الأخص أفضل بلا شك .

وقوله : ﴿ذُو﴾ صفة لوجه ، والدليل الرفع ، ولو كانت صفة للرب ؛ لقال ذي الجلال كما قال في نفس السورة : ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن : ٧٨] . فلما قال : ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ . علمنا أنه وصف للوجه .

﴿الْجَلَالِ﴾ : معناه العظمة والسلطان .

﴿وَالْإِكْرَامِ﴾ : هي مصدر من أكرم ، صالحة للمكرم والمكرَم ، فاللّه سبحانه وتعالى مُكرَم ، وإكرامه تعالى القيام بطاعته ، ومُكرِم لمن يستحق الإكرام من خلقه بما أعد لهم من الثواب .

فهو لجلاله وكمال سلطانه وعظمته أهلٌ لأن يُكْرَمَ ويُثْنَى عليه سبحانه وتعالى وإكرام كل أحد بحسبه ؛ فإكرام اللّه ﷻ أن تقدره حق قدره ، وأن تعظمه حق تعظيمه ، لا لاحتياجه إلى إكرامك ، ولكن ليمُن عليك بالجزاء .

الآية الثانية : قوله : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص : ٨٨] .

قوله : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ أي : فانٍ ؛ كقوله : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن : ٢٦] .

وقوله : ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾ : توازى قوله : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَٰلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ .

فالمعنى : كل شىء فانٍ وزائل إلا وجه اللَّه ﷻ ؛ فإنه باقٍ ، ولهذا قال : ﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص : ٨٨] . فهو الحَكَم الباقى الذى يرجع إليه الناس ليحكم بينهم .

وقيل فى معنى الآية : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ . أى : إلاَّ ما أُريد به وجهه . قالوا : لأن سياق الآية يدل على ذلك : ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص : ٨٨] ؛ كأنه يقول : لا تدع مع اللَّه إلهًا آخر فتشرك به ؛ لأن عملك وإشراكك هالك ؛ أى : ضائع سُدًى ؛ إلا ما أخلصته لوجه اللَّه ؛ فإنه يبقى ؛ لأن العمل الصالح له ثواب باقٍ لا يفنى فى جنات النعيم .

ولكن المعنى الأول أسد وأقوى .

وعلى طريقة من يقول بجواز استعمال المشترك فى معنييه ؛ نقول :

يمكن أن نحمل الآية على المعنيين ؛ إذ لا منافاة بينهما ، فتحمل على هذا وهذا ، فيقال : كل شىء يفنى إلَّا وجه اللَّه ﷻ ، وكل شىء من الأعمال يذهب هباءً ؛ إلاَّ ما أُريد به وجه اللَّه .

وعلى أى التقديرين ؛ ففى الآية دليل على ثبوت الوجه للَّه ﷻ .

وهو من الصفات الذاتية الخبرية التى مسماها بالنسبة إلينا أبعاض وأجزاء ، ولا نقول : من الصفات الذاتية المعنوية ، ولو قلنا بذلك ؛ لكنا نوافق من تأوّله تحريفًا ، ولا نقول : إنها بعض من اللَّه . أو : جزء من اللَّه . لأن ذلك يوهِم نقصًا للَّه سبحانه وتعالى .

هذا وقد فسر أهل التحريف وجه اللَّه بثوابه ؛ فقالوا : المراد بالوجه فى الآية : الثواب ؛ كل شىء يفنى ؛ إلا ثواب اللَّه !

ففسروا الوجه الذى هو صفة كمال ؛ فسروه بشىء مخلوق بائن عن اللَّه قابل للعدم والوجود ؛ فالثواب حادث بعد أن لم يكن ، وجائز أن يرتفع ، لولا وعد اللَّه ببقائه ؛ لكان من حيث العقل جائزًا أن يرتفع ؛ أعنى : الثواب !

فهل تقولون الآن : إن وجه اللَّه الذى وصف اللَّه به نفسه من باب الممكن أو من باب الواجب ؟

إذا فسروه بالثواب ؛ صار من باب الممكن الذى يجوز وجوده وعدمه .

وقولهم مردود بما يلى :

أولًا : أنه مخالف لظاهر اللفظ ؛ فإن ظاهر اللفظ أن هذا وجه خاص ، وليس هو الثواب .

ثانيًا : أنه مخالف لإجماع السلف ؛ فما من السلف أحد قال : إن المراد بالوجه الثواب ! وهذه كتبهم بين أيدينا مزبورة محفوظة ، أخرجوا لنا نصًّا عن الصحابة أو عن أئمة التابعين ومن تبعهم

بإحسان أنهم فسروا هذا التفسير ! لن تجدوا إلى ذلك سبيلًا أبدًا .

ثالثًا : هل يمكن أن يوصف الثواب بهذه الصفات العظيمة : ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن : ٢٧] ؟ ! لا يمكن . لو قلنا مثلًا جزاء المتقين ذو جلالٍ وإكرامٍ ! فهذا لا يجوز أبدًا ، والله تعالى وصف هذا الوجه بأنه ذو الجلال والإكرام .

رابعًا : نقول : ما تقولون في قول الرسول ﷺ : « حجابه النور ، لو كشفه ؛ لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » . فهل الثواب له هذا النور الذى يحرق ما انتهى إليه بصر الله من الخلق ؟ ! أبدًا ، ولا يمكن .

وبهذا عرفنا بطلان قولهم ، وأن الواجب علينا أن نفسّرِ هذا الوجه بما أراده الله به ، وهو وجه قائم به تبارك وتعالى موصوف بالجلال والإكرام .

فإن قلت : هل كل ما جاء من كلمة (الوجه) مضافًا إلى الله يراد به وجه الله الذى هو صفته ؟

فالجواب : هذا هو الأصل ؛ كما فى قوله تعالى : ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام : ٥٢] ، ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل : ١٩ - ٢١] . . . . وما أشبهها من الآيات .

فالأصل أن المراد بالوجه المضاف إلى الله وجه الله ﷻ الذى هو صفة من صفاته ، لكن هناك كلمة اختلف المفسّرون فيها ، وهى قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة : ١١٥] .

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ . يعنى : إلى أى مكان تولوا وجوهكم عند الصلاة . ﴿فَثَمَّ﴾ ؛ أى : فهناك وجهُ اللهِ .

فمنهم من قال : إن الوجه بمعنى الجهة ؛ لقوله تعالى : ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة : ١٤٨] . فالمراد بالوجه الجهة ؛ أى : فثَمَّ جهة الله ؛ أى : فثم الجهة التى يقبل الله صلاتكم إليها .

قالوا : لأنها نزلت فى حال السفر ، إذا صلى الإنسان النافلة ؛ فإنه يصلى حيث كان وجهه ، أو إذا اشتبهت القبلة ؛ فإنه يتحرى ويصلى حيث كان وجهه .

ولكن الصحيح أن المراد بالوجه هنا وجه الله الحقيقى ؛ أى : إلى أى جهة تتوجهون ؛ فثم وجه الله سبحانه وتعالى ؛ لأن الله محيط بكل شىء ، ولأنه ثبت عن النبى ﷺ أن المصلى إذا قام يصلى ؛ فإن الله قبل وجهه[1] ، ولهذا نهى أن يبصق أمام وجهه ؛ لأن الله قِبل وجهه .

(١) أخرجه البخارى (٤٠٦) ، ومسلم (٥٤٧) .

فإذا صليت فى مكان لا تدرى أين القبلة ، واجتهدت وتحريت وصليت ، وصارت القبلة فى الواقع خلفك ؛ فاللّه يكون قِبل وجهك ، حتى فى هذه الحال .

وهذا معنى صحيح موافق لظاهر الآية .

والمعنى الأول لا يخالفه فى الواقع .

إذا قلنا : فثم جهة اللّه ، وكان هناك دليل ، سواء كان هذا الدليل تفسير الآية الثانية فى الوجه الثانى ، أو كان الدليل ما جاءت به السنة ؛ فإنك إذا توجهت إلى اللّه فى صلاتك ؛ فهى جهة اللّه التى يقبل اللّه صلاتك إليها ؛ فثم أيضًا وجه اللّه حقًّا . وحينئذ يكون المعنيان لا يتنافيان .

واعلم أن هذا الوجه العظيم الموصوف بالجلال والإكرام وجه لا يمكن الإحاطة به وصفًا ، ولا يمكن الإحاطة به تصورًا ، بل كل شىء تقدره ؛ فإن اللّه تعالى فوق ذلك وأعظم ؛ كما قال تعالى : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه : ١١٠] .

فإن قيل : ما المراد بالوجه فى قوله : ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص : ٨٨] ؟ إن قلت : المراد بالوجه الذات ؛ فيخشى أن تكون حرفت . وإن أردت بالوجه نفس الصفة أيضًا ؛ وقعت فى محظور – وهو ما ذهب إليه بعض من لا يقدرون اللّه حق قدره ؛ حيث قالوا : إن اللّه يفنى إلا وجهه – فماذا تصنع ؟ !

فالجواب : إن أردت بقولك : إلا ذاته . يعنى أن اللّه تعالى يبقى هو نفسه مع إثبات الوجه للّه ؛ فهذا صحيح ، ويكون هنا عبَّر بالوجه عن الذات لمن له وجه .

وإن أردت بقولك : الذات : أن الوجه عبارة عن الذات بدون إثبات الوجه ؛ فهذا تحريف وغير مقبول .

وعليه فنقول : ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ . أى : إلا ذاته المتصفة بالوجه ، وهذا ليس فيه شىء ؛ لأن الفرق بين هذا وبين قول أهل التحريف أن هؤلاء يقولون : إن المراد بالوجه الذات ، ولا وجه له . ونحن نقول : المراد بالوجه الذات ، لأن له وجهًا ، فعبر به عن الذات .

إثبات اليدين للّه تعالى :

ذكر المؤلف رحمه الله لإثبات اليدين للّه تعالى آيتين :

الآية الأولى : قوله : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص : ٧٥] .

﴿مَا مَنَعَكَ﴾ : الخطاب لإبليس .

و﴿مَا مَنَعَكَ﴾ : استفهام للتوبيخ ؛ يعنى أى شىء منعك أن تسجدَ .

وقوله : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ : ولم يقل : لمن خلقت ؛ لأن المراد هنا آدم ؛ باعتبار وصفه الذى لم

يشركه أحد فيه ، وهو خلق الله إياه بيده ، لا باعتبار شخصه .

ولهذا لما أراد إبليس النيل من آدم وحط قدره ؛ قال : ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١] .

ونحن قد قررنا أنه إذا عُبّر بـ: (ما) عما يعقل ؛ فإنه يلاحظ فيه معنى الصفة لا معنى العين والشخص ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣] ، لم يقل : (من) ؛ لأنه ليس المراد عين هذه المرأة ، ولكن المَراد الصفة .

فهنا قال : ﴿لِمَا خَلَقْتُ﴾ . أى : هذا الموصوف العظيم الذى أكرمته بأننى خلقته بيدى ، ولم يقصد : لمن خلقت ؛ أى : لهذا الآدمى بعينه .

وقوله : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ . هى كقول القائل : بريت بالقلم . والقلم آلة البرى . وتقول : صنعت هذا بيدى . فاليد هنا آلة الصنع .

﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ . يعنى أن الله ﷻ خلق آدم بيده ، وهنا قال : ﴿بِيَدَيَّ﴾ . وهى صيغة تثنية ، وحذفت النون من التثنية من أجل الإضافة ؛ كما يحذف التنوين ، فنحن عندما نعرب المثنى وجمع المذكر السالم ؛ نقول : النون عوض عن التنوين فى الاسم المفرد . والعوض له حكم المُعَوَّض ؛ فكما أن التنوين يحذف عند الإضافة ؛ فنون التثنية والجمع تحذف عند الإضافة .

فى هذه الآية توبيخ إبليس فى تركه السجود لما خلقه الله بيده ، وهو آدم عليه الصلاة والسلام .

وفيها : إثبات صفة الخلق : ﴿لِمَا خَلَقْتُ﴾ .

وفيها : إثبات اليدين لله سبحانه وتعالى : اليدين اللتين بهما يفعل ؛ كالخلق هنا . اليدين اللتين بهما يقبض : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ٦٧] ؛ وبهما يأخذ ، فإن الله تعالى يأخذ الصدقة فيربيها كما يربى الإنسان فُلوه[1] .

وقوله : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ . فيها أيضًا تشريف لآدم عليه الصلاة والسلام ؛ حيث خلقه الله تعالى بيده .

قال أهل العلم : وكتب الله التوراة بيده ، وغرس جنة عدن بيده .

فهذه ثلاثة أشياء ؛ كلها كانت بيد الله تعالى .

ولعلنا بالمناسبة لا ننسى ما مر من قول النبى عليه الصلاة والسلام : «إن الله خلق آدم على صورته»[2] ، وذكرنا أن أحد الوجهين الصحيحين فى تأويلها أن الله خلق آدم على الصورة التى اختارها واعتنى بها ، ولهذا أضافها الله إلى نفسه إضافة تشريف وتكريم ؛ كإضافة الناقة والبيت إلى الله

---

(١) أخرجه البخارى (١٤١٠) ، ومسلم (١٠١٤) .

(٢) أخرجه البخارى (٦٢٢٧) ، ومسلم (٢٨٤١) .

والمساجد إلى اللَّه . والقول الثاني : أنه على صورته حقيقة ولا يلزم من ذلك التماثل .

الآية الثانية : قوله : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة : ٦٤] .

﴿ٱلْيَهُودُ﴾ : هم أتباع موسى عليه الصلاة والسلام .

سموا يهودًا ؛ قيل : لأنهم قالوا : ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف : ١٥٦] ، وبناء على هذا يكون الاسم عربيًّا ؛ لأن هادَ يهودُ - إذا رجع - عربي .

وقيل : إن أصله يهوذا ، اسم أحد أولاد يعقوب ، واليهود من نسبوا إليه ، لكن عند التعريب صارت الذال دالًا ، فقيل : يهود .

وأيًّا كان ؛ فلا يهمنا أن أصله هذا أو هذا .

ولكننا نعلم أن اليهود هم طائفة من بني إسرائيل ، اتبعوا موسى عليه الصلاة والسلام .

وهؤلاء اليهود من أشد الناس عتوًّا ونفورًا ؛ لأن عتو فرعون وتسلطه عليهم جعل ذلك ينطبق في نفوسهم ، وصار فيهم العتو على الناس ، بل وعلى الخالق ﷻ ؛ فهم يصفون اللَّه تعالى بأوصاف العيوب - قبحهم اللَّه - وهم أهلها .

يقولون : ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ ؛ أي : محبوسة عن الإنفاق ؛ كما قال اللَّه تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء : ٢٩] ؛ أي : محبوسة عن الإنفاق .

وقالوا : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران : ١٨١] .

أما قولهم : إن يد اللَّه مغلولة ؛ فقالوا : لولا أنها مغلولة ؛ لكان الناس كلهم أغنياء ؛ فكونه يجود على زيد ولا يجود على عمرو : هذا هو الغل وعدم الإنفاق ! !

وقالوا : إن اللَّه فقير ؛ لأن اللَّه قال : ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾ [البقرة : ٢٤٥] ، فقالوا للرسول عليه الصلاة والسلام : يا محمد ! إن ربك افتقر ؛ صار يستقرض منا . قاتلهم اللَّه ! !

وقالت اليهود أيضًا : إن اللَّه عاجز ؛ لأنه حين خلق السماوات والأرض ؛ استراح يوم السبت ، وجعل العطلة محل عيد ؛ فصار عيدهم يوم السبت . قاتلهم اللَّه ! !

هنا يقول اللَّه ﷻ : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ : ﴿يَدُ﴾ : أفردوها ؛ لأن اليد الواحدة أقل عطاء من اليدين الثنتين ، ولهذا جاء الجواب بالتثنية والبسط ، فقال : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ .

ولما وصفوا اللَّه بهذا العيب ؛ عاقبهم اللَّه بما قالوا ، فقال : ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ؛ أي : منعت عن الإنفاق ، ولهذا كان اليهود أشد الناس جمعًا للمال ومنعًا للعطاء ؛ فهم أبخل عباد اللَّه ، وأشدهم شحًّا

فى طلب المال ، ولا يمكن أن ينفقوا فلسًا ؛ إلا وهم يظنون أنهم سيكسبون بدله درهمًا ، ونرى نحن الآن لهم جمعيات كبيرة وعظيمة ، لكن هم يريدون من وراء هذه الجمعيات والتبرعات أكثر وأكثر ، يريدون أن يسيطروا على العالم .

فإذن ؛ لا تقل أيها الإنسان : كيف نجمع بين قوله تعالى : ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ، وبين الواقع اليوم بالنسبة لليهود ؟ ! لأن هؤلاء القوم يبذلون ليربحوا أكثر .

﴿وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾ ؛ أى : طردوا وأبعدوا عن رحمة الله ﷻ ؛ لأن البلاء موكَّل بالمنطق ؛ فهم لما وصفوا الله بالإمساك ؛ طردوا وأبعدوا عن رحمته ؛ قيل لهم : إذا كان الله ﷻ كما قلتم لا ينفق ؛ فليمنعكم رحمته حتى لا يعطيكم من جوده ؛ فعوقبوا بأمرين :

١ - بتحويل الوصف الذى عابوا به الله سبحانه إليهم بقوله : ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ .

٢ - وبإلزامهم بمقتضى قولهم ؛ بإبعادهم عن رحمة الله ، حتى لا يجدوا جود الله وكرمه وفضله .

﴿بِمَا قَالُواْ﴾ : الباء هنا للسببية ، وعلامة الباء التى للسببية : أن يصح أن يليها كلمة (سبب) .

و(ما) هنا يصح أن تكون مصدرية ، ويصح أن تكون موصولة ؛ فإن كانت موصولة ؛ فالعائد محذوف ، وتقديره : بالذى قالوه . وإن كانت مصدرية ؛ فالفعل يحول إلى مصدر ؛ أى : بقولهم .

ثم أبطل الله سبحانه وتعالى دعواهم ، فقال : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ .

﴿بَلْ﴾ : هنا للإضراب الإبطالى .

وانظر كيف اختلف التعبير : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ ؛ لأن المقام مقام تمدح بالكرم ، والعطاء باليدين أكمل من العطاء باليد الواحدة .

و﴿مَبْسُوطَتَانِ﴾ : ضد قولهم : ﴿مَغْلُولَةٌ﴾ ؛ فيدا الله تعالى مبسوطتان واسعتا العطاء :

كما قال النبى ﷺ : « يد الله ملأى سحَّاء (كثير العطاء) الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق مذ خلق السماوات والأرض ؛ فإنه لم يغض ما فى يمينه »[(١)] .

من يحصى ما أنفق الله منذ خلق السماوات والأرض ؟ ! لا يحصيه أحد ! ومع ذلك لم يغض ما فى يمينه .

وهذا كقوله تعالى فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنَّكم ؛ قاموا فى صعيد واحد ، فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ؛ ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا غمس فى البحر »[(٢)] .

---

(١) أخرجه البخارى (٤٦٨٤) ، ومسلم (٩٩٣) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) .

ولننظر إلى المخيط غمس فى البحر ؛ فإذا نزعته ؛ لا ينقص البحر شيئًا أبدًا ؛ ومثل هذه الصيغة يؤتى بها للمبالغة فى عدم النقص ؛ لأن عدم نقص البحر فى مثل هذه الصورة أمر معلوم ، مستحيل أن البحر ينقص بهذا ؛ فمستحيل أيضًا أن اللَّه ﷻ ينقص ملكه إذا قام كل إنسان من الإنس والجن ، فقاموا فسألوا اللَّه تعالى ، فأعطى كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك من ملكه شيئًا .

لا تقل : « نعم ؛ لا ينقص من ملكه شيئًا ؛ لأنه انتقل من ملكه إلى ملكه » ؛ لأنه لا يمكن أن يكون هذا هو المراد ؛ لأنه لو كان هذا المراد ؛ لكان الكلام عبثًا ولغوًا :

لكن المعنى : لو فُرِض أن هذه العطايا العظيمة أعطيت على أنها خارجة عن ملك اللَّه ؛ لم ينقص ذلك من ملكة شيئًا .

ولو كان المعنى هو الأول ؛ لم يكن فيه فائدة ؛ فمعروف أنه لو كان عندك عشرة ريالات ، أخرجتها من الدّرج الأيمن إلى الدّرج الأيسر ، وقال إنسان : إن مالك لم ينقص ؛ لقيل : هذا لغوٌ من القول !

المهم أن المعنى : لو أن هذا الذى أعطاه السائلين خارج عن ملكه ؛ فإنه لا ينقصه سبحانه وتعالى .

وليس إنفاق اللَّه تعالى بما نحصل من الدراهم والمتاع ، بل كل ما بنا من نعمة فهو من اللَّه تعالى ، سواء كانت من نعم الدين أم الدنيا ؛ فذرّات المطر من إنفاق اللَّه علينا ، وحبات النبات من إنفاق اللَّه .

أفبعد هذا يقال كما قالت اليهود عليهم لعائن اللَّه : ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ ؟ !

لا واللَّه ! بل يقال : إن يدى اللَّه ﷻ مبسوطتان بالعطاء والنعم التى لا تعد ولا تحصى .

لكن إذا قالوا : لماذا أعطى زيدًا ولم يعط عمرًا ؟

قلنا : لأن اللَّه تعالى له السلطان المطلق والحكمة البالغة ، ولهذا قال ردًّا على شبهتهم : ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ ؛ فمن الناس من يُعطيه كثيرًا ؛ ومنهم من يُعطيه قليلًا ، ومنهم من يُعطيه وسطًا ؛ تبعًا لما تقتضيه الحكمة ، على أن هذا الذى أعطى قليلًا ليس محرومًا من فضل اللَّه وعطائه من جهة أخرى ؛ فاللَّه أعطاه صحةً وسمعًا وبصرًا وعقلًا وغير ذلك من النعم التى لا تحصى ، ولكن لطغيان اليهود وعدوانهم وأنهم لم ينزهوا اللَّه عن صفات العيب ، قالوا : ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ .

فالآيتان السابقتان فيهما إثبات صفة اليدين للَّه ﷻ .

ولكن قد يقول قائل : إن للَّه أكثر من يدين ؛ لقوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ [يس : ٧١] ؛ فأيدينا هنا جمع ؛ فلنأخذ بهذا الجمع ؛ لأننا إذا أخذنا بالجمع ؛ أخذنا بالمثنى وزيادة ؛ فما الجواب ؟

فالجواب أن يقال : جاءت اليد مفردة ومثناة وجمعًا .

أما اليد التي جاءت بالإفراد ؛ فإن المفرد المضاف يفيد العموم ، فيشمل كل ما ثبت لله من يد ، ودليل عموم المفرد المضاف قوله تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ؛ فـ ﴿نِعْمَتَ﴾ : مفرد مضاف ؛ فهي تشمل كثيرًا لقوله : ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ ؛ إذن : فما هي واحدة ولا ألف ولا مليون ولا ملايين .

﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾ : نقول : هذا المفرد لا يمنع التعدد إذا ثبت ؛ لأن المفرد المضاف يفيد العموم .

أما المثنى والجمع ؛ فنقول : إن الله ليس له إلا يدان اثنتان ؛ كما ثبت ذلك في الكتاب والسنة :

ففي الكتاب : في سورة « ص » قال [تعالى] : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص : ٧٥] ، والمقام مقام تشريف ، ولو كان الله خلقه بأكثر من يدين ؛ لذكره ؛ لأنه كلما ازدادت الصفة التي بها خلق الله هذا الشيء ؛ ازداد تعظيم هذا الشيء .

وأيضًا : في سورة « المائدة » قال [تعالى] : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة : ٦٤] ؛ في الرد على من قالوا : ﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾ ؛ بالإفراد ، والمقام مقام يقتضي كثرة النعم ، وكلما كثرت وسيلة العطاء ؛ كثر العطاء ؛ فلو كان لله تعالى أكثر من اثنتين ؛ لذكرهما الله ؛ لأن العطاء باليد الواحدة عطاء ؛ فباليدين أكثر وأكمل من الواحدة ؛ وبالثلاث - لو قدر - كان أكثر ؛ فلو كان لله تعالى أكثر من اثنتين لذكرهما .

أما السنة فإن الرسول عليه الصلاة والسلام قال : « يطوى الله تعالى السماوات بيمينه والأرض بيده الأخرى »[1] .

قال ﷺ : « كلتا يديه يمين »[2] .

ولم يذكر أكثر من اثنتين .

وأجمع السلف على أن لله يدين اثنتين فقط بدون زيادة .

فعندنا النص من القرآن والسنة والإجماع على أن لله تعالى يدين اثنتين ؛ فكيف نجمع بين هذا وبين الجمع : ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ [يس : ٧١] ؟ !

فنقول : الجمع على أحد الوجهين :

فإما أن نقول بما ذهب إليه بعض العلماء ؛ من أن أقل الجمع اثنان ، وعليه ؛ ف : ﴿أَيْدِينَآ﴾ لا تدل على أكثر من اثنتين ؛ يعني : لا يلزم أن تدل على أكثر من اثنين ، وحينئذ تطابق التثنية : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ ، ولا إشكال فيه .

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٢) ، ومسلم (٢٧٨٧) .

(٢) أخرجه مسلم (٨٢٧

فإذا قلت : ما حجة هؤلاء على أن الجمع أقله اثنان ؟

فالجواب : احتجوا بقوله تعالى : ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم : ٤] ، وهما اثنتان ، والقلوب جمع ، والمراد به قلبان فقط ؛ لقوله تعالى : ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب : ٤] ، ولا لامرأة كذلك .

واحتجوا أيضًا بقول اللَّه تعالى : ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ [النساء : ١١] ؛ فـ : ﴿إِخْوَةٌ﴾ جمع ، والمراد به اثنان .

واحتجوا أيضًا بأن جماعة الصلاة تحصل باثنين .

ولكن جمهور أهل اللغة يقولون : إن أقل لجمع ثلاثة ، وإن خروج الجمع إلى الاثنين فى هذه النصوص لسبب ، وإلا فإن أقل الجمع فى الأصل ثلاثة .

وإما أن نقول : إن المراد بهذا الجمع التعظيم ؛ تعظيم هذه اليد وليس المراد أن للَّه تعالى أكثر من اثنتين .

ثم إن المراد باليد هنا نفس الذات التى لها يد ، وقد قال اللَّه تعالى : ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم : ٤١] ؛ أى : بما كسبوا ؛ سواء كان من كسب اليد أو الرجل أو اللسان أو غيرها من أجزاء البدن ، لكن يعبر بمثل هذا التعبير عن الفاعل نفسه .

ولهذا نقول : إن الأنعام التى هى الإبل لم يخلقها اللَّه تعالى بيده ، وفرق بين قوله : ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ ، وبين قوله : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ ؛ فـ : ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ ؛ كأنه قال : مما عملنا ؛ لأن المراد باليد ذات اللَّه التى لها يد ، والمراد بـ : ﴿بِيَدَىَّ﴾ : اليدان دون الذات .

وبهذا يزول الإشكال فى صفة اليد التى وردت بالإفراد والتثنية والجمع .

فعُلمَ الآن أن الجمع بين المفرد والتثنية سهل ؛ وذلك لأن هذا مفرد مضاف فيعم كل ما ثبت للَّه من يد .

وأما بين التثنية والجمع ؛ فمن وجهين :

أحدهما : أنه لا يراد بالجمع حقيقة معناه – وهو الثلاثة فأكثر – بل المراد به التعظيم ؛ كما قال اللَّه تعالى : ﴿إِنَّا﴾ و﴿نَحْنُ﴾ و﴿قُلْنَا﴾ . . . وما أشبه ذلك ، وهو واحد ، لكن يقول هذا للتعظيم .

أو يقال : إن أقل الجمع اثنان ؛ فلا يحصل هنا تعارض .

وأما قوله تعالى : ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ﴾ [الذاريات : ٤٧] ؛ فالأيد هنا بمعنى القوة ؛ فهى مصدر آد يئيد ؛ بمعنى : قوى ، وليس المراد بالأيد صفة للَّه ، ولهذا لم يُضفْها اللَّه إلى نفسه ، فلم يَقُلْ : بأيدينا ! بل قال : ﴿بِأَيْيدٍ﴾ ؛ أى : بقوة .

ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢] ؛ فإن لعلماء السلف فى قوله : ﴿عَن سَاقٍ﴾ : قولين :

القول الأول : أن المراد به الشدة .

والقول الثانى : أن المراد به ساق الله ﷻ .

فمن نظر إلى سياق الآية مع حديث أبى سعيد[١] ؛ قال : إن المراد بالساق هنا ساق الله . ومن نظر إلى الآية بمفردها ؛ قال : المراد بالساق الشدة .

فإذا قال قائل : أنتم تثبتون أن لله تعالى يدًا حقيقية ، ونحن لا نعلم من الأيدى إلى أيادى المخلوقين ؛ فيلزم من كلامكم تشبيه الخالق بالمخلوق .

فالجواب أن نقول : لا يلزم من إثبات اليد لله أن نمثل الخالق بالمخلوقين ؛ لأن إثبات اليد جاء فى القرآن والسنة وإجماع السلف ، ونفى مماثلة الخالق للمخلوقين يدل عليه الشرع والعقل والحس :

أما الشرع ؛ فقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] .

– وأما العقل ؛ فلا يمكن أن يماثل الخالق المخلوق فى صفاته ؛ لأن هذا يعد عيبًا فى الخالق .

– وأما الحس ؛ فكل إنسان يشاهد أيدى المخلوقات متفاوتة ومتباينة من كبير وصغير وضخم ودقيق .. إلخ ؛ فيلزم من تباين أيدى المخلوقين وتفاوتهم مباينة يد الله تعالى لأيدى المخلوقين وعدم مماثلته لهم سبحانه وتعالى من باب أولى .

هذا ؛ وقد خالف أهل السنة والجماعة فى إثبات اليد لله تعالى أهلَ التعطيل من المعتزلة والجهمية والأشعرية ونحوهم ، وقالوا : لا يمكن أن نثبت لله يدًا حقيقية ، بل المراد باليد أمر معنوى ، وهو القوة ! ! أو المراد باليد النعمة لأن اليد تطلق فى اللغة العربية على القوة وعلى النعمة .

ففى الحديث الصحيح [أعنى] حديث النواس بن سمعان الطويل : « أن الله يوحى إلى عيسى أنى أخرجت عبادًا لى لا يَدَان لأحد بقتالهم »[٢] ، والمعنى : لا قوة لأحد بقتالهم ، وهم يأجوج ومأجوج .

وأما اليد بمعنى النعمة ؛ فكثير ، ومنه قول رسول قريش لأبى بكر : « لولا يدٌ لك عندى لم أجزك بها ؛ لأجبتك »[٣] ؛ يعنى : نعمة .

وقول المتنبى :

وَكَمْ لِظَلَامِ اللَّيْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ ... تُحَدِّثُ أَنَّ المَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ

---

(١) أخرجه البخارى (٤٩١٩) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٣٧) .

(٣) أخرجه البخارى (٢٧٣٤) .

والمانوية : فرقة من المجوس الذين يقولون : إن الظلمة تخلق الشر ، والنور يخلق الخير . فالمتنبى يقول : إنك تعطى فى الليل العطايا الكثيرة التى تدل على أن المانوية تكذب ؛ لأن ليلك يأتى بخير .

فالمراد بيد اللَّه : النعمة ، وليس المراد باليد اليد الحقيقية ؛ لأنك لو أثبت للَّه يدًا حقيقية ؛ لزم من ذلك التجسيم أن يكون اللَّه تعالى جسمًا ، والأجسام متماثلة ، وحينئذ تقع فيما نهى اللَّه عنه فى قوله : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل : ٧٤] .

ونحن أسعد بالدليل منك أيها المثبت للحقيقة ! ! نقول : سبحان من تنزه عن الأعراض والأبعاض والأغراض ! ! لا تجد مثل هذه السجعة لا فى الكتاب ولا فى السنة .

وجوابنا على هذا من عدة وجوه :

أولًا : أن تفسير اليد بالقوة أو النعمة مخالف لظاهر اللفظ ، وما كان مخالفًا لظاهر اللفظ ؛ فهو مردود ؛ إلا بدليل .

ثانيًا : إنه مخالف لإجماع السلف ؛ حيث إنهم كلهم مجمعون على أن المراد باليد اليد الحقيقية .

فإن قال لك قائل : أين إجماع السلف ؟ هات لى كلمة واحدة عن أبى بكر أو عمر أو عثمان أو على ؛ يقولون : إن المراد بيد اللَّه اليد الحقيقية !

أقول له : ائت لى بكلمة واحدة عن أبى بكر أو عمر أو عثمان أو على أو غيرهم من الصحابة والأئمة من بعدهم يقولون : إن المراد باليد القوة أو النعمة .

فلا يستطيع أن يأتى بذلك .

إذن ؛ فلو كان عندهم معنًى يخالف ظاهر اللفظ ؛ لكانوا يقولون به ، ولنقل عنهم ، فلما لم يقولوا به ؛ عُلم أنهم أخذوا بظاهر اللفظ وأجمعوا عليه .

وهذه فائدة عظيمة ، وهى أنه إذا لم ينقل عن الصحابة ما يخالف ظاهر الكتاب والسنة ؛ فإنهم لا يقولون بسواه ؛ لأنهم الذين نزل القرآن بلغتهم ، وخاطبهم النبى ﷺ بلغتهم ؛ فلابد أن يفهموا الكتاب والسنة على ظاهرهما ؛ فإذا لم ينقل عنهم ما يخالفه ؛ كان ذلك قولهم .

ثالثًا : أنه يمتنع غاية الامتناع أن يراد باليد النعمة أو القوة فى مثل قوله : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص : ٧٥] ؛ لأنه يستلزم أن تكون النعمة نعمتين فقط ، ونعم اللَّه لا تحصى ! ! ويستلزم أن القوة قوتان ، والقوة بمعنى واحد لا يتعدد فهذا التركيب يمنع غاية المنع أن يكون المراد باليد القوة أو النعمة .

هب أنه قد يمكن فى قوله : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة : ٦٤] : أن يراد بهما النعمة على تأويل ، لكن لا يمكن أن يراد بقوله : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ النعمة أبدًا .

أما القوة ؛ فيمتنع أن يكون المراد باليدين القوة فى الآيتين جميعًا ؛ فى قوله : ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾ وفى

قوله : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ ؛ لأن القوة لا تتعدد .

رابعًا : أنه لو كان المراد باليد القوة ؛ ما كان لآدم فضل على إبليس ، بل ولا على الحمير والكلاب ؛ لأنهم كلهم خلقوا بقوة اللّه ، ولو كان المراد باليد القوة ؛ ما صح الاحتجاج على إبليس ؛ إذ إن إبليس سيقول : وأنا يا رب خلقتنى بقوتك ؛ فما فضله عليَّ ؟ !

خامسًا : أن يقال : إن هذه اليد التىَ أثبتها اللّه جاءت على وجوه متنوعة يمتنع أن يراد بها النعمة أو القوة ؛ فجاء فيها الأصابع والقبض والبسط والكف واليمين ، وكل هذا يمتنع أن يراد بها القوة ؛ لأن القوة لا توصف بهذه الأوصاف .

فتبين بهذا أن قول هؤلاء المحرِّفين الذين قالوا : المراد باليد القوة باطلٌ من عدة أوجه .

وقد سبق أن صفات اللّه ﷻ من الأمور الخبرية الغيبية التى ليس للعقل فيها مجال ، وما كان هذا سبيله ؛ فإن الواجب علينا إبقاؤه على ظاهره ؛ من غير أن نتعرض له .

إثبات العينين للّه تعالى :

ذكر المؤلف رحمه اللّه تعالى لإثبات العينين للّه تعالى ثلاث آيات :

الآية الأولى : ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور : ٤٨] .

الخطاب هنا للنبى عليه الصلاة والسلام .

والصبر : بمعنى الحبس ، ومنه قولهم : قُتِلَ صبرًا ؛ أى : قتل وقد حُبِسَ للقتل .

فالصبر فى اللغة : بمعنى الحبس .

وفى الشرع : قالوا : هو الصبر لأحكام اللّه ؛ يعنى : حبس النفس لأحكام اللّه .

وأحكام اللّه ﷻ شرعية وكونية : والشرعية : أوامر ونواه ؛ فالصبر على طاعة اللّه صبر على الأوامر ، والصبر عن معصيته صبر عن النواهى . والكونية : أقدار اللّه تعالى ، فُيصْبَرُ على أقداره وقضائه .

وهذا معنى قول بعضهم الصبر ثلاثة أقسام : صبر على طاعة اللّه ، وصبر عن معصية اللّه ، وصبر على أقدار اللّه المؤلمة .

فقوله تعالى : ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ . يتناول الأقسام الثلاثة :

١- الصبر على طاعة اللّه .

٢- وعن معصية اللّه .

٣- وعلى أقدار اللّه .

أى : اصبر لحكم ربك الكونى والشرعى .

وبهذا نعرف أن التقسيم الذى ذكره العلماء ، وقالوا : إن الصبر ثلاثة أقسام : صبر على طاعة اللّه ،

وصبر عن معصية اللَّه ، وصبر على أقدار اللَّه : داخل فى هذه الكلمة : ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ .

ووجه الدخول : أن الحكم إما كونى وإما شرعى ، والشرعى أوامر ونواهٍ ، والنبى عليه الصلاة والسلام أمره اللَّه ﷻ بأوامر ، ونهاه عن نواهٍ ، وقدر عليه مقدورات :

فالأوامر مثل : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة : ٦٧] ، ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل : ١٢٥] ، وهذه أوامر عظيمة ؛ يعنى : لو قيل لإنسان : اعبد ربك ؛ فإنه يتمكن من العبادة ، لكن الدعوة والتبليغ أمر صعب ؛ لأنه يتعب فى معاناة الآخرين وجهادهم ، فيكون صعبًا .

وأما النواهى ؛ فقد نهاه عن الشرك ؛ قال : ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام : ١٤] ، ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر : ٦٥] ... وما أشبه ذلك .

وأما الأحكام القدرية : فقد حصل عليه أذى من قومه ؛ أذى قولى وأذى فعلى ، لا يصبر عليه إلا أمثال الرسول عليه الصلاة والسلام .

آذوه بالقول : بالسخرية ، والاستهزاء ، والتهجين ، وتنفير الناس عنه .

وآذوه بالفعل : كان ساجدًا تحت الكعبة فى آمن بقعة من الأرض ، ساجدًا لربه ، فذهبوا وأتوا بسلى الناقة ، ووضعوه على ظهره وهو ساجد[1] ! !

ليس هناك أبلغ من هذه الأذية مع العلم بأنه لو يدخل كافر مشرك إلى الحرم ؛ لكان عندهم آمنًا ، لا يؤذونه فيه ، بل يكرمونه ويطعمونه النبيذ ويسقونه ماء زمزم ! ! ومحمد عليه الصلاة والسلام ساجدًا للَّه يؤذونه هذا الأذى ! !

كانوا يأتون بالعَذرة والأنتان والأقذار يضعونه عند عتبة بابه ! !

وخرج إلى أهل الطائف ، وماذا صار ؟ ! صار الإيذاء العظيم ؛ صف سفهاؤهم وغلمانهم على جانبى الطريق ، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبه ، فلم يفق إلا فى قرن الثعالب[2] .

فصبر على حكم اللَّه ، ولكنه صبر مؤمن يؤمن بأن العاقبة له ؛ لأن اللَّه قال له : ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ .... هذا الاعتناء والحفاوة ... أكرم شىء يكون به الإنسان أن تقول له : أنت بعينى ، أنت بقلبى ... وما أشبه ذلك .

أنت بعينى ؛ معناه : أنا ألاحظك بعينى . وهذا تعبير معروف عند الناس ، يكون تمام الحراسة والعناية والحفظ بمثل هذا التعبير : أنت بعينى .

إذن ؛ قوله : ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ؛ يعنى : فإنك محروس غاية الحراسة ، محفوظ غاية الحفظ .

---

(١) أخرجه البخارى (٢٤٠) ، ومسلم (١٧٩٤) .

(٢) أخرجه البخارى (٣٢٣١) ، ومسلم (١٧٩٥) .

﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ : أعيننا معك ؛ نحفظك ، ونرعاك ، ونعتنى بك .

فى [هذه] الآية الكريمة إثبات العين لله ﷻ ، لكنها جاءت بصيغة الجمع ؛ لما سنذكر إن شاء الله تعالى .

العين من الصفات الذاتية الخبرية : الذاتية : لأنه لم يزل ولا يزال متصفًا بها ، والخبرية : لأن مسماها بالنسبة إلينا أجزاء وأبعاض .

فالعين منا بعض من الوجه ، والوجه بعض من الجسم ، لكنها بالنسبة لله لا يجوز أن نقول : إنها بعض من الله ، لأنه سبق أن هذا اللفظ لم يرد ، وأنه يقتضى التجزئة فى الخالق ، وأن البعض أو الجزء هو الذى يجوز بقاء الكل بفقده ، ويجوز أن يفقد ، وصفات الله لا يجوز أن تفقد أبدًا ، بل هى باقية .

وقد دلّ الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أن لله عينين اثنتين فقط ؛ حين وصف الدجال وقال : « إنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور »[1] ، وفى لفظ : « أعور العين اليمنى » .

وقد قال بعض الناس معنى (أعور) ؛ أى : مَعِيب ، وليس من عَوَرِ العين ! !

وهذا لا شك أنه تحريف وتجاهل للفظ الصحيح الذى فى « البخاري » وغيره : « أعور العين اليمنى ، كأن عينه عنبة طافية » . وهذا واضح .

ولا يقال أيضًا : (أعور) باللغة العربية ؛ إلا لعور العين ، أما إذا قيل : (عور) أو (عوار) ؛ فربما يراد به مطلق العيب .

وهذا الحديث يدل على أن لله تعالى عينين اثنتين فقط .

ووجه الدلالة أنه لو كان لله أكثر من اثنتين ؛ لكان البيان به أوضح من البيان بالعور ؛ لأنه لو كان لله أكثر من عينين ؛ لقال : إن ربكم له أعين . لأنه إذا كان له أعين أكثر من ثنتين ؛ صار وضوح أن الدجال ليس برب أبينَ .

وأيضًا : لو كان لله ﷻ أكثر من عينين ؛ لكان ذلك من كماله ، وكان تركُ ذكره تفويتًا للثناء على الله ؛ لأن الكثرة تدل على القوة والكمال والتمام ، فلو كان لله أكثر من عينين ؛ لبينها الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لئلا يفوتنا اعتقاد هذا الكمال ، وهو الزائد على العينين الثنتين .

وذكر ابن القيم رحمه الله فى كتابه « الصواعق المرسلة » حديثًا ، لكنه ضعيف لانقطاعه ، وهو : « إن العبد إذا قام فى الصلاة قام بين عينى الرحمن . . . »[2] : « عيني » : هذه تثنية ، لكن الحديث ضعيف ، واعتمادنا فى عقيدتنا هذه على الحديث الصحيح ؛ حديث الدجال ؛ لأنه واضح لمن تأمّله .

---

(١) أخرجه البخارى (٤٤٠٣) .

(٢) « الضعيفة » للألبانى (١٠٢٤) .

ولقد ذكر عثمان بن سعيد الدارمي كَلَلهُ في « رده على بشر المريسي » ، وكذلك أيضًا ذكره ابن خزيمة في كتاب « التوحيد » ، وذكر أيضًا إجماع السلف على ذلك أبو الحسن الأشعرى كَلَلهُ وأبو بكر الباقلاني ، والأمر في هذا واضح .

فعقيدتنا التي ندين للَّهِ بها : أن للَّه تعالى عينين اثنتين ، لا زيادة .

فإن قيل : إن من السلف من فسّر قوله تعالى : ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ . بقوله : بمرأى منا . فسّره بذلك أئمة سلفيون معروفون ، وأنتم تقولون : إن التحريف محرم وممتنع ؟ فما الجواب ؟

فالجواب : أنهم فسروها باللازم ، مع إثبات الأصل ، وهي العين ، وأهل التحريف يقولون : بمرأى منا ؛ بدون إثبات العين ، وأهل السنة والجماعة يقولون : ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ . بمرأى منا ، مع إثبات العين .

لكن ذكر العين هنا أشد توكيدًا وعناية من ذكر مجرد الرؤية ، ولهذا قال : ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ .

قالت المعطلة : أجلبتم علينا بالخيل والرَّجل في إنكاركم علينا التأويل ، وأنتم أولتم فأخرجتم الآية عن ظاهرها ؛ فاللَّه يقول : ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ ؛ فخذوا بالظاهر ، وإذا أخذتم بالظاهر ؛ كفرتم ، وإذا لم تأخذوا بالظاهر ؛ تناقضتم ؛ فمرّة تقولون : يجوز التأويل . ومرة تقولون : لا يجوز التأويل ، وتسمُّونه تحريفًا ، وهل هذا إلا تحكم بدين اللَّه ؟ !

قلنا : نأخذ بالظاهر ، وعلى العين والرأس ، وهو طريقتنا ، ولا نخالفه .

قالوا : الظاهر ، من الآية أن محمدًا ﷺ بعين اللَّه ، وسط العين ؛ كما تقول : زيد بالبيت ، زيد بالمسجد ؛ فالباء للظرفية ، فيكون زيد داخل البيت ، وداخل المسجد ، فيكون قوله : ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ ؛ أي : داخل أعيننا ! وإذا قلتم بهذا كفرتم ؛ لأنكم جعلتم اللَّه محلًّا للخلائق ؛ فأنتم حلولية ، وإن لم تقولوا به ؛ تناقضتم ؟ !

قلنا لهم : معاذ اللَّه ! ثم معاذ اللَّه ! ثم معاذ اللَّه أن يكون ما ذكرتموه ظاهر القرآن ، وأنتم إن اعتقدتم أن هذا ظاهر القرآن ؛ كفرتم ؛ لأن من اعتقد أن ظاهر القرآن كفر وضلال ؛ فهو كافر ضال .

فأنتم توبوا إلى اللَّه من قولكم : إن هذا هو ظاهر اللفظ ! واسألوا جميع أهل اللغة من الشعراء والخطباء : هل يقصدون بمثل هذه العبارة أن الإنسان المنظورَ إليه بالعين حالٌّ في جفن العين ؟ ! اسألوا من شئتم من أهل اللغة أحياء وأمواتًا ! !

فأنت إذا رأيت أساليب اللغة العربية ؛ عرفت أن هذا المعنى الذي ذكروه وألزمونا به لا يرد في اللغة العربية ؛ فضلًا عن أن يكون مضافًا إلى الرب ﷻ ؛ فإضافته إلى الرب كفر منكر ، وهو منكر لغةً وشرعًا وعقلًا .

فإن قيل : بماذا تفسرون الباء في قوله : ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ ؟

قلنا : نفسرها بالمصاحبة ، إذا قلت : أنت بعينى . يعنى : أن عينى تصحبك وتنظر إليك ، لا تنفك عنك ؛ فالمعنى : أن الله ﷻ يقول لنبيه : اصبر لحكم الله ؛ فإنك محوطٌ بعنايتنا وبرؤيتنا لك بالعين التى لا ينالك أحد بسوء [ما دامت تحفظك وتحوطك] .

ولا يمكن أن تكون الباء هنا للظرفية ؛ لأنه يقتضى أن يكون رسول الله ﷺ فى عين الله ، وهذا محال .

وأيضًا ؛ فإن رسول الله ﷺ خوطب بذلك وهو فى الأرض ؛ فإذا قلتم : إنه كان فى عين الله ! كانت دلالة القرآن كذبًا .

وهذا وجه آخر فى بطلان دعوى أن ظاهر القرآن أن الرسول ﷺ فى عين الله تعالى .

الآية الثانية : قوله تعالى : ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر : ١٣، ١٤] .

﴿وَحَمَلْنَٰهُ﴾ : الضمير يعود على نوح عليه الصلاة والسلام .

وقوله : ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ . أى : على سفينة ذات ألواح ودُسُر ، وهذه السفينة كان عليه الصلاة والسلام يصنعها ، وكان يمر به قومه ، فيسخرون منه ، فيقول : ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود : ٣٨] .

صنعها بأمر الله ورعاية الله وعنايته ، وقال الله له : ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود : ٣٧] . فالله تعالى ينظر إليه وهو يصنع الفلك ، ويلهمه كيف يصنعها .

ووصفها الله هنا فى قوله : ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ : ﴿ذَاتِ﴾ : بمعنى صاحبة . والألواح : الخشب . والدسر : ما يربط به الخشب كالمسامير والحبال وما أشبه ذلك ، وأكثر المفسرين على أن المراد بها المسامير التى تربط بها الأخشاب .

﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ : هذا الشاهد : ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ : أى ذات الألواح والدسر بأعين الله ﷻ . والمراد بالأعين هنا عينان فقط ؛ كما مرَّ . ومعنى تجرى بها ؛ أى : مصحوبة بنظرنا بأعيننا ؛ فالباء هنا للمصاحبة ، تجرى على الماء الذى نزل من السماء ونبع من الأرض ؛ لأن نوحًا عليه الصلاة والسلام دعا ربه ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر : ١٠] ؛ قال الله تعالى : ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر : ١١، ١٢] ؛ فكانت هذه السفينة تجرى بعين الله ﷻ .

قد يقول قائل : لماذا لم يقل : وحملناه على السفينة ، أو : حملناه على فلك ، بل قال : ﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ ؟

والجواب على هذا أن نقول : عَدَلَ عن التعبير بالفلك والسفينة إلى التعبير بذات ألواح ودُسر ؛

لوجوه ثلاثة :

الوجه الأول : مرعاة للآيات وفواصلها ؛ فلو قال : حملناه على فلك ؛ لم تتناسب هذه الآية مع ما بعدها ولا ما قبلها . ولو قال : على سفينة ؛ كذلك ، لكن من أجل تناسب الآيات فى فواصلها وفى كلماتها قال : ﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ ؟

الوجه الثانى : من أجل أن يتعلم الناس كيف يصنعون السفن ، وبيان أنها من الألواح والمسامير ، ولهذا قال اللَّه تعالى : ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر : ١٥] ؛ فأبقى اللَّه تعالى علمها آية للخلق يصنعون كما ألهم اللَّه تعالى نوحًا .

الوجه الثالث : الإشارة إلى قوتها ، حيث كانت من ألواح ودسر ، والتنكير هنا للتعظيم .

وروعى التركيز على مادتها ، ونظير ذلك فى ذكر الوصف دون الموصوف قوله تعالى : ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ [سبأ : ١١] . ولم يقل : دُرُوعًا ، من أجل العناية بفائدة هذه الدروع ، وهى أن تكون سابغة تامَّة ؛ فهذه مثلها .

وقوله : ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ ؛ نقول فيها ما قلناه فى قوله تعالى : ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور : ٤٨] .

الآية الثالثة : قوله : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه : ٣٩] .

الخطاب لموسى عليه الصلاة والسلام .

فقوله : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ : اختلف المفسرون فى معناها .

فمنهم من قال : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ ؛ يعنى : أنى أحببتك .

ومنهم من قال : ألقيت عليك محبة من الناس ، والإلقاء من اللَّه ؛ أى أن : من رآك أحبك ، وشاهد هذا أن امرأة فرعون لما رأته أحبته وقالت : ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص : ٩] .

ولو قال قائل : أيمكنكم أن تحملوا الآية على المعنيين ؟ لقلنا : نعم ! بناءً على القاعدة ، وهو أن الآية إذا كانت تحتمل معنيين لا منافاة بينهما ؛ فإنها تُحْمل عليهما جميعًا ؛ فموسى عليه الصلاة والسلام محبوب من اللَّه ﷻ ، ومحبوب من الناس ، إذا رآه الناس ؛ أحبوه ، والواقع أن المعنيين متلازمان ؛ لأن اللَّه تعالى إذا أحب عبدًا ؛ ألقى فى قلوب العباد محبته .

ويروى عن ابن عباس ﵄ أنه قال : أحبه اللَّه وحببه إلى خلقه .

ثم قال : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ : الصنع : جعل الشيء على صفة معينة ؛ كصنع صفائح الحديد قدورًا ، وصنع الخشب أبوابًا ، وصنع كل شيء بحسبه ؛ فصناعة البيت : بناء البيت ، وصناعة الحديد : جعلها أوانى مثلًا أو محركات ، وصنع الآدمى : معناه التربية البدنية والعقلية ، التربيته البدنية

بالغذاء، والتربيته العقلية بالآداب والأخلاق وما أشبه ذلك .

وموسى عليه الصلاة والسلام حصل له ذلك ؛ فإنه ربى على عين الله .

لما التقطه آل فرعون ؛ حماه الله ﷻ من قتلهم ، مع أنهم كانوا يقتلون أبناء بنى إسرائيل ، فقضى الله تعالى أن هذا الذى تقتل الناس من أجله سيتربى فى أحضان آل فرعون ؛ فالناس يقتلون من أجله ، وهو يتربى آمنًا فى أحضانهم . وانظر إلى هذه القدرة العظيمة ! !

ومن تربية الله له عرض على المراضع - النساء اللاتى يرضعنه ؛ ولكنه [لم يرضع] من أى واحدة ، [قال تعالى] : ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص : ١٢] ؛ فما رضع من امرأة قط ، وكانت أخته قد انتدبت من قبل أمه ، فرأتهم ، وقالت : ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص : ١٢] . قالوا : نعم ؛ نحن نود هذا . فقالت : اتبعونى . فتبعوها ؛ قال تعالى : ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص : ١٣] ! ولم يرضع من امرأة قط ، مع أنه رضيع ! لكن هذا من كمال قدرة الله وصدق وعده ؛ لأن الله ﷻ قال لها : ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص : ٧] .

الأم شفقتها على ابنها لا أحد يتصورها ؛ قيل لها : اجعلى ابنك فى صندوق ، وألقيه فى البحر ، وسيأتى إليك .

لولا الإيمان الذى مع هذه المرأة ؛ ما فعلت هذا الشىء ! تُلقى ابنها فى البحر ! لو أن ابنها سقط فى تابوته فى البحر ؛ لجرّته فكيف وهى التى تلقيه ؟ ! لكن لثقتها بالرب ﷻ وبوعده ألقته فى اليمّ .

وقوله : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ ؛ بالإفراد ؛ هل يُنافى ما سبق من ذكرها بالجمع ؟ !

الجواب : لا تنافى ، وذلك لأن المفرد المضاف يُعم فيشمل كل ما ثَبت لله من عين ، وحينئذ لا منافاة بين المفرد وبين الجمع أو التثنية .

إذن ؛ يبقى النظر بين التثنية والجمع ؛ فكيف نجمع بينهما ؟ !

الجواب أن نقول : إن كان أقل الجمع اثنين ؛ فلا منافاة ؛ لأننا نقول : هذا الجمع دال على اثنتين ؛ فلا ينافيه . وإن كان أقل الجمع ثلاثة ؛ فإن هذا الجمع لا يُراد به الثلاثة ، وإنما يراد به التعظيم والتناسب بين ضمير الجمع وبين المضاف إليه .

وقد فسَّر أهل التحريف والتعطيل العين بالرؤية بدون عين ، وقالوا : ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ : برؤية منا ، ولكن لا عين ، والعين لا يمكن أن تثبت لله ﷻ أبدًا ؛ لأن العين جزء من الجسم ؛ فإذا أثبتنا العين لله ؛ أثبتنا تجزئةً وجسمًا ، وهذا شىء ممتنع ؛ فلا يجوز ، ولكنه ذكر العين من باب تأكيد الرؤية ؛ يعنى : كأنما نراك ولنا عين ، والأمر ليس كذلك ! !

فنقول لهم : هذا القول خطأ من عدَّة أوجه :

الوجه الأول : أنه مخالف لظاهر اللفظ .

الثانى : أنه مخالف لإجماع السلف .

الثالث : أنه لا دليل عليه ؛ أى أن المراد بالعين مجرد الرؤية .

الرابع : أننا إذا قلنا بأنها الرؤية ، وأثبت اللّٰه لنفسه عينًا ؛ فلازم ذلك أنه يرى بتلك العين ، وحينئذ يكون فى الآية دليل على أنها عين حقيقية .

[إثبات] صفة السمع والبصر للّٰه تعالى :

ذكر المؤلف رحمه الله فى إثبات صفتى السمع والبصر سَبْعَ آيات :

الآية الأولى : قوله تعالى : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة : ١] .

﴿قَدْ﴾ : للتحقيق .

والمُجَادِلَة : هى التى جاءت إلى النبى ﷺ تشتكى زوجها حين ظاهر منها .

والظِّهار : أن يقول الرجل لزوجته : أنت علىَّ كظهر أمى . أو كلمة نحوها .

وكان الظهار فى الجاهلية طلاقًا بائنًا ، فجاءت تشتكى إلى رسول اللّٰه ﷺ ، وتبين له كيف يطلقها هذا الرجل ذلك الطلاق البائن وهى أم أولاده ، وكانت تحاور النبى ﷺ ، أى : تراجعه الكلام ، فأفتاها اللّٰه ﷻ بما أفتاها به فى الآيات المذكورة .

والشاهد من هذه الآيات قوله : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ﴾ . ففى هذا إثبات السمع للّٰه سبحانه وتعالى ، وأنه يسمع الأصوات مهما بعدت ومهما خفيت .

قالت عائشة رضي الله عنها : « تبارك - أو قالت : الحمد للّٰه - الذى وسِع سمعه الأصوات ، إنى لفى ناحية البيت ، وإنى ليخفى علىَّ بعض حديثها » . هذا معنى حديثها .

والسمع المضاف إلى اللّٰه ﷻ ينقسم إلى قسمين :

١- سمع يتعلق بالمسموعات ؛ فيكون معناه إدراك الصوت .

٢- وسمع بمعنى الاستجابة ؛ فيكون معناه أن اللّٰه يجيب من دعاه ؛ لأن الدعاء صوت ينطلق من الداعى ، وسَمِعَ اللّٰه دعاءه ؛ يعنى : استجاب دعاءه ، وليس المراد سمعه مجرد سماع فقط ؛ لأن هذا لا فائدة منه ، بل الفائدة أن يستجيب اللّٰه الدعاء .

فالسمع الذى بمعنى إدراك الصوت ثلاثة أقسام :

أحدها : ما يقصد به التأييد .

والثاني : ما يقصد به التهديد .

والثالث : ما يقصد به بيان إحاطة الله سبحانه وتعالى .

١- أما ما يقصد به التهديد ؛ فكقوله تعالى : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ [الزخرف : ٨٠] ، وقوله : ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران : ١٨١] .

٢- وأما ما يقصد به التأييد ؛ فكقوله تعالى لموسى وهارون : ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه : ٤٦] ؛ أراد الله ﷻ أن يؤيد موسى وهارون بذكر كونه معهما يسمع ويرى ؛ أى : يسمع ما يقولان وما يقال لهما ويراهما ومن أرسلا إليه ، وما يفعلان ، وما يفعل بهما .

٣- وأما ما يقصد به بيان الإحاطة ، فمثل هذه الآية ، وهى : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة : ١] .

الآية الثانية : قوله : ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران : ١٨١] .

﴿لَّقَدْ﴾ : جملة مؤكدة باللام ، و(قد) ، والقسم المقدر ؛ تقديره : والله ؛ فهى مؤكدة بثلاث مؤكدات .

والذين قالوا : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ : هم اليهود قاتلهم الله ؛ فهم وصفوا الله بالعيب ؛ قالوا : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ .

وسبب قولهم هذا : أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ [البقرة : ٢٤٥] ، قالوا للرسول ﷺ : يا محمد ، إن ربك افتقر ، يسأل القرض منا .

وقوله : ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ هم قوم من اليهود قالوا هذه المقالة لما أنزل الله : ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة : ٢٤٥] ، قالوا ذلك تمويهًا على ضعفائهم ، لا أنهم يعتقدون ذلك ؛ لأنهم أهل كتاب ، وإنما قالوا ذلك ليشككوا فى دين الإسلام .

وأما الآية الثانية : فقد نزلت فى فِنحاص اليهودى الخبيث حين قال لأبى بكر رضي الله عنه لما دعاه إلى الإسلام : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر وأنه إلينا لفقير ولو كان غنيًا ما استقرضنا .

الآية الثالثة : قوله : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف : ٨٠] .

﴿أَمْ﴾ فى مثل هذا التركيب ؛ يقولون : إنها متضمنة معنى (بل) ، والهمزة ؛ يعنى : بل أيحسبون ؛ ففيها إضراب وفيها استفهام ؛ أى : بل أيحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم .

والسر : ما يسره الإنسان إلى صاحبه .

والنجوى : ما يناجي به صاحبه ويخاطبه ؛ فهو أعلى من السر .

والنداء : ما يرفع به صوته لصاحبه .

فها هنا ثلاثة أشياء : سر ومناجاة ونداء .

فمثلًا ؛ إذا كان شخص إلى جانبك ، وساررته ؛ أي : كلمته بكلام لا يسمعه غيره ؛ نسمى هذا مُسارَّةً .

وإذا كان الحديث بين القوم يسمعونه كلهم ويتجاذبونه ، سُمّي مناجاة .

وأما المناداة ؛ فتكون من بعيد لبعيد .

فهؤلاء يسرون ما يقولونه من المعاصي ، ويتناجون بها ؛ فيقول اللَّه ﷻ مهددًا إياهم : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ﴾ .

و﴿بَلَىٰ﴾ : حرف إيجاب ؛ يعني : بلى نسمع ، وزيادة على ذلك : ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ ؛ أي : عندهم يكتبون ما يسرون وما به يتناجون ، والمراد بالرسل هنا الملائكة الموكلون بكتابة أعمال بني آدم ، ففي هذه الآيات إثبات أن اللَّه تعالى يسمع سرهم ونجواهم .

الآية الرابعة : قوله : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه : ٤٦] .

الخطاب لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام ؛ يقول اللَّه سبحانه وتعالى لهما : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ . أي : أسمع ما تقولولان ، وأسمع ما يقال لكما ؛ وأراكما ، وأرى من أرسلتما إليه ، وأرى ما تفعلان ، وأرى ما يُفعل بكما .

لأنه إما أن يساء إليهما بالقول أو بالفعل ؛ فإن كان بالقول ؛ فهو مسموع عند اللَّه ، وإن كان بالفعل ؛ فهو مرئي عند اللَّه .

الآية الخامسة : قوله : ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق : ١٤] .

الضمير في ﴿أَلَمْ يَعْلَم﴾ يعود إلى من يسيء إلى النبي ﷺ لقوله : ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق : ٩ - ١٤] ، وقد ذكر المفسرون أن المراد به أبو جهل .

وفي هذه الآية : إثبات صفة الرؤية للَّه ﷻ .

والرؤية المضافة إلى اللَّه لها معنيان .

المعنى الأول : العلم .

المعنى الثاني : رؤية المبصرات ؛ يعني : إدراكها بالبصر .

فمن الأول : قوله تعالى عن القيامة : ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج : ٦، ٧] ؛ فالرؤية هنا

رؤية العلم ؛ لأن اليوم ليس جسمًا يرى ، وأيضًا هو لم يكن بعد ؛ فمعنى : ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ ؛ أى : نعلمه قريبًا .

وأما قوله : ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ . فهى صالحة لأن تكون بمعنى العلم وبمعنى الرؤية البصرية ، وإذا كانت صالحة لهما ، ولا منافاة بينهما وجب أن تُحمل عليهما جميعًا ، فيقال : إن اللَّه يرى ؛ أى : يعلم ما يفعله هذا الرجل وما يقوله ، ويراه أيضًا .

الآية السادسة : قوله : ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء : ٢١٨ - ٢٢٠] .

قبل هذه الآية قوله : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الشعراء : ٢١٧] .

والرؤية هنا رؤية البصر ؛ لأن قوله : ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ لا تصح أن تكون بمعنى العلم ؛ لأن اللَّه يعلم به حين يقوم وقبل أن يقوم ، وأيضًا لقوله : ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ، وهو يؤيد أن المراد بالرؤية هنا رؤية البصر .

ومعنى الآية : أن اللَّه تعالى يراه حين يقوم للصلاة وحده وحين يتقلب فى الصلاة مع الساجدين فى صلاة الجماعة .

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ : ﴿إِنَّهُۥ﴾ ؛ أى : اللَّه الذى يراك حين تقوم : ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ .

وفى الآية هنا ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ ؛ من فوائده الحصر ؛ فهل الحصر هنا حقيقى ؛ بمعنى : أنه حصر لا يوجد شىء من المحصور فى غير المحصور فيه ، أو هو إضافى ؟

الجواب : هو إضافى من وجه حقيقى من وجه ؛ لأن المراد بـ : ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ هنا : ذو السمع الكامل المدرك لكل مسموع ، وهذا هو الخاص باللَّه ﷻ ، والحصر بهذا الاعتبار حقيقى ، أما مطلق السمع ؛ فقد يكون من الإنسان ؛ كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان : ٢] ؛ فجعل اللَّه تعالى الإنسان سميعًا بصيرًا . وكذلك ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ ؛ فإن الإنسان عليم ؛ كما قال اللَّه تعالى : ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات : ٢٨] ، لكن العلم المطلق - أى : الكامل - خاص باللَّه سبحانه وتعالى ؛ فالحصر بهذا الاعتبار حقيقى .

وفى هذه الآية الجمع بين السمع والرؤية .

الآية السابعة : قوله : ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

والذى قبل هذه الآية : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة : ١٠٣ ، ١٠٤] .

في هذه الآية يقول : ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ .

قال ابن كثير وغيره : قال مجاهد : هذا وعيد - يعني من اللّه تعالى - للمخالفين أوامره ؛ بأن أعمالهم ستُعرض عليه وعلى الرسول والمؤمنين ، وهذا كائن لا محالة يوم القيامة ، وقد يظهر ذلك للناس في الدنيا . والرؤية هنا شاملة للعلمية والبصرية .

ففي الآية : إثبات الرؤية بمعنييها : الرؤية العلمية ، والرؤية البصرية .

وخلاصة ما سبق من صفتي السمع والرؤية :

أن السمع ينقسم إلى قسمين :

١- سمع بمعنى الاستجابة . ٢- وسمع بمعنى إدراك الصوت .

وأن إدراك الصوت ثلاثة أقسام .

وكذلك الرؤية تنقسم إلى قسمين :

١- رؤية بمعنى العلم . ٢- ورؤية بمعنى إدراك المبصرات .

وكل ذلك ثابت للّه ﷻ .

والرؤية التي بمعنى إدراك المبصرات ثلاثة أقسام :

١- قسم يقصد به النصر والتأييد ؛ كقوله : ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه : ٤٦] .

٢- وقسم يقصد به الإحاطة والعلم ؛ مثل قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء : ٥٨] .

٣- وقسم يقصد به التهديد ؛ مثل قوله : ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة : ٩٤] .

ما نستفيده من الناحية المسلكية في الإيمان بصفتي السمع والرؤية :

- أما الرؤية ؛ فنستفيد من الإيمان بها الخوف والرجاء : الخوف عند المعصية ؛ لأن اللّه يرانا . والرجاء عند الطاعة ؛ لأن اللّه يرانا . ولا شك أنه سيثيبنا على هذا ؛ فتتقوى عزائمنا بطاعة اللّه ، وتضعف إرادتنا لمعصيته .

- وأما السمع ؛ فالأمر فيه ظاهر ؛ لأن الإنسان إذا آمن بسمع اللّه ؛ استلزم إيمانه كمال مراقبة اللّه تعالى فيما يقول خوفًا ورجاءً : خوفًا ؛ فلا يقول ما يسمع اللّه تعالى منه من السوء ؛ ورجاءً ؛ فيقول الكلام الذي يرضى اللّه ﷻ .

[إثبات] صفة المكر والكيد والمحال للّه تعالى :

ذكر المؤلف رحمه الله ثلاث صفات متقاربة في أربع آيات : المحال ، والمكر ، والكيد :

الآية الأولى : في المحال ، وهي قوله : ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرعد : ١٣] .

أي : شديد الأخذ بالعقوبة . وقيل : إن المحال بمعنى المكر ؛ أي : شديد المكر ، وكأنه على هذا التفسير مأخوذ من الحيلة ، وهي أن يتحيل بخصمه حتى يوقع به . وهذا المعنى ظاهر صنيع المؤلف رحمه الله ؛ لأنه ذكرها في سياق آيات المكر والكيد .

والمكر ؛ قال العلماء في تفسيره : إنه التوصل بالأسباب الخفية إلى الإيقاع بالخصم ؛ يعني : أن تفعل أسبابًا خفية فتوقع بخصمك وهو لا يحس ولا يدرى ، ولكنها بالنسبة لك معلومة مدبرة .

والمكر يكون في موضع مدحًا ويكون في موضع ذمًا : فإن كان في مقابلة من يمكر ؛ فهو مدح ؛ لأنه يقتضي أنك أنت أقوى منه . وإن كان في غير ذلك ؛ فهو ذمٌّ ويسمى خيانة .

ولهذا لم يصف الله نفسه به إلا على سبيل المقابلة والتقييد ؛ كما قال الله تعالى : ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل : ٥٠] ، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال : ٣٠] ، ولا يوصف الله سبحانه وتعالى به على الإطلاق ؛ فلا يقال : إن الله ماكر ! لا على سبيل الخبر ، ولا على سبيل التسمية ، ولا يقال : إنه كائد ! لا على سبيل الخبر ، ولا على سبيل التسمية ؛ ذلك لأن هذا المعنى يكون مدحًا في حال ويكون ذمًا في حال ؛ فلا يمكن أن نصف الله به على سبيل الإطلاق .

فأما قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران : ٥٤] ؛ فهذا كمال ، ولهذا لم يقل : أمكر الماكرين بل قال : ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ . فلا يكون مكره إلا خيرًا ، ولهذا يصح أن نصفه بذلك ؛ فنقول : هو خير الماكرين . أو نصفه بصفة المكر في سبيل المقابلة ؛ أي : مقابلة من يمكر به ، فنقول : إن الله تعالى ماكر بالماكرين ؛ لقوله تعالى : ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ .

الآية الثانية : في المكر ، وهي قوله : ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران : ٥٤] .

هذه نزلت في عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، مكر به اليهود ليقتلوه ، ولكن كان الله تعالى أعظم منهم مكرًا ، رفعه الله [إليه] ، وألقى شبهه على أحدهم ، على الذي تولى كبره وأراد أن يقتله ، فلما دخل عليه هذا الذي يريد القتل [لعيسى عليه السلام] ، وإذا عيسى قد رفع ، فدخل الناس ، فقالوا : أنت عيسى ! قال : لست عيسى ! فقالوا : أنت هو ! لأن الله تعالى ألقى عليه شبهه ، فقتل هذا الرجل الذي كان يريد أن يقتل عيسى ابن مريم ؛ فكان مكره عائدًا عليه ، ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ .

الآية الثالثة : في المكر أيضًا ، وهي قوله : ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل : ٥٠] .

هذا في قوم صالح ، كان في المدينة التي كان يدعو الناس فيها إلى اللَّه تسعة رهط - أي : أنفار - ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [النمل: ٤٩] . يعني : لنقتلنه بالليل ، ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ . يعني : أنهم قتلوه بالليل ؛ فما يشاهدونه . لكن مكروا ومكر اللَّه ! قيل : إنهم لما خرجوا ليقتلوه ، فلجئوا إلى غار ينتظرون الليل ؛ انطبق عليهم الغار ، فهلكوا ، وصالح وأهله لم يمسهم سوء ، فيقول اللَّه : ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ .

و﴿مَكْرًا﴾ : في الموضعين منكرة للتعظيم ؛ أي : مكروا مكرًا عظيمًا ، ومكرنا مكرًا أعظم .

الآية الرابعة : في الكيد ، وهي قوله : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق : ١٥، ١٦] .

﴿إِنَّهُمْ﴾ ؛ أي : كفار مكة ، ﴿يَكِيدُونَ﴾ للرسول ﷺ ﴿كَيْدًا﴾ لا نظير له في التنفير منه ومن دعوته ، ولكن اللَّه تعالى يكيد كيدًا أعظم وأشد .

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ ؛ يعني : كيدًا أعظم من كيدهم .

ومن كيدهم ومكرهم ما ذكره اللَّه في سورة « الأنفال » : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال : ٣٠] : ثلاثة آراء :

١- ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ . يعني : يحبسوك . ٢- ﴿يَقْتُلُوكَ﴾ . يعني : يعدموك .

٣- ﴿يُخْرِجُوكَ﴾ . يعني : يطردوك .

وكان رأي القتل أفضل الآراء عندهم بمشورة من إبليس ؛ لأن إبليس جاءهم بصورة شيخ نجدي ، وقال لهم : انتخبوا عشرة شبان من عشر قبائل من قريش ، وأعطوا كل واحد سيفًا ، ثم يعمدون إلى محمد ﷺ ، فيقتلونه قتلة رجل واحد ، فيضيع دمه في القبائل ؛ فلا تستطيع بنو هاشم أن تقتل واحدًا من هؤلاء الشبان وحينئذ يلجئون إلى الدية ، فتسلمون منه . فقالوا : هذا الرأي ! ! وأجمعوا على ذلك . ولكنهم مكروا مكرًا واللَّه تعالى يمكر خيرًا منه ؛ قال اللَّه تعالى : ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال : ٣٠] ؛ فما حصل لهم الذي يريدون ! بل إن الرسول عليه الصلاة والسلام خرج من بيته ، يذر التراب على رءوس العشرة هؤلاء ، ويقرأ [قوله تعالى] : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس : ٩] ؛ فكانوا ينتظرون الرسول عليه الصلاة والسلام يخرج ، فخرج ، من بينهم ، ولم يشعروا به .

إذن ؛ صار مكر اللَّه ﷻ أعظم من مكرهم ؛ لأنه أنجى رسوله منهم وهاجر .

قال هنا : ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق : ١٥، ١٦] ، والتنكير فيها للتعظيم ، وكان كيد اللَّه ﷻ أعظم من كيدهم .

وهكذا يكيد اللَّه ﷻ لكل من انتصر لدينه ؛ فإنه يكيد له ويؤيده ؛ قال اللَّه تعالى : ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا

﴿لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦]. يعني: عملنا عملًا حصل به مقصوده دون أن يشعر به أحد.

وهذا من فضل الله ﷻ على المرء: أن يقيه شر خَصمه على وجه الكيد والمكر على هذا الخصم الذى أراد الإيقاع به.

فإن قلت: ما تعريف المكر والكيد والمِحَال؟

فالجواب: تعريفها عند أهل العلم: التوصل بالأسباب الخفية إلى الإيقاع بالخصم؛ يعنى: أن توقع بخصمك بأسباب خفية لا يدرى عنها.

وهى فى محلها صفة كمال يحمد عليها، وفى غير محلها صفة نقص يذم عليها.

ويذكر أن على بن أبى طالب رضي الله عنه لما بارز عمرو بن وُدٍّ - والفائدة من المبارزة أنه إذا غلب أحدهما انكسرت قلوب خصومه، فلما خرج عمرو؛ صرخ على: ما خرجت لأبارز رجلين. فالتفت عمرو، فلما التفت؛ ضربه على رضي الله عنه على رقبته حتى أطاح برأسه!

هذا خداع، لكنه جائز، ويحمد عليه؛ لأنه فى موضعه؛ فإن هذا الرجل ما خرج ليكرم على بن أبى طالب ويهنئه، ولكنه خرج ليقتله؛ فكاد له علىٌّ بذلك.

والمكر والكيد والمحال من صفات الله الفعلية التى لا يوصف بها على سبيل الإطلاق؛ لأنها تكون مدحًا فى حال، وذمًّا فى حال؛ فيوصف بها حين تكون مدحًا، ولا يوصف بها إذا لم تكن مدحًا؛ فيقال: الله خير الماكرين، خير الكائدين، أو يقال: الله ماكر بالماكرين، خادع لمن يخادعه.

والاستهزاء من هذا الباب؛ فلا يصح أن نخبر عن الله بأنه مستهزئ على الإطلاق؛ لأن الاستهزاء نوع من اللعب، وهو منفى عن اللـه؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨]. لكن فى مقابلة من يستهزئ به يكون كمالًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]؛ قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥].

فأهل السنة والجماعة يثبتون هذه المعانى لله ﷻ على سبيل الحقيقة.

لكن أهل التحريف يقولون: لا يمكن أن يوصف الله بها أبدًا، لكن ذكر مكر الله ومكرهم من باب المشاكلة اللفظية، والمعنى مختلف؛ مثل: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

ونحن نقول لهم: هذا خلاف ظاهر النص، وخلاف إجماع السلف.

وقد قلنا سابقًا: إذا قال قائل: ائت لنا بقول لأبى بكر أو عمر أو عثمان أو على يقولون فيه: إن المراد بالمكر والكيد والاستهزاء والخداع الحقيقة!

فنقول لهم: نعم؛ هم قرءوا القرآن وآمنوا به، وكونهم لم ينقلوا هذا المعنى المتبادر إلى معنى آخر؛

يدل على أنهم أقروا به ، وأن هذا إجماع ، ولهذا يكفينا أن نقول فى الإجماع : لم ينقل عن واحد منهم خلاف ظاهر الكلام ، وأنه فسر الرضا بالثواب ، أو الكيد بالعقوبة . .. ونحو ذلك .

وهذه الشبهة ربما يوردها علينا أحد من الناس ؛ فيقولون : أنتم تقولون : هذا إجماع السلف ؛ أين إجماعهم ؟ نقول : عدم نقل ما يخالف ظاهرها عنهم دليل الإجماع .

ما نستفيده من الناحية المسلكية فى إثبات صفة المكر والكيد والمحال :

المكر : يستفيد به الإنسان بالنسبة للأمر المسلكى مراقبة اللَّه سبحانه وتعالى ، وعدم التحيل على محارمه ، وما أكثر المتحيلين على المحارم ! فهؤلاء المتحيلون على المحارم ، إذا علموا أن اللَّه تعالى خير منهم مكرًا ، وأسرع منهم مكرًا ؛ فإن ذلك يستلزم أن ينتهوا عن المكر . ربما يفعل الإنسان شيئًا فيما يبدو للناس أنه جائز لا بأس به ، لكنه عند اللَّه ليس بجائز ، فيخاف ، ويحذر .

وهذا له أمثلة كثيرة جدًّا فى البيوع والأنكحة وغيرهما :

مثال ذلك فى البيوع : رجل جاء إلى آخر ؛ قال : أقرضنى عشرة آلاف درهم . قال : لا أقرضك إلا باثنى عشر ألفًا ! وهذا ربًا وحرام سيتجنبه لأنه يعرف أنه ربا صريح ! لكن باع عليه سلعة باثنى عشر ألفًا مؤجلة إلى سنة بيعًا تامًّا ، وكتبت الوثيقة بينهما ، ثم إن البائع أتى إلى المشترى ، وقال : بعنيه بعشرة آلاف نقدًا . فقال : بعتك إياه . وكتبوا بينهما وثيقة بالبيع !

فظاهر هذا البيع الصحة ، ولكن نقول : هذه حيلة ؛ فإن هذا لما عرف أنه لا يجوز أن يعطيه عشرة آلاف باثنى عشر ألفًا ؛ قال : أبيع السلعة عليه باثنى عشر ، وأشتريها نقدًا بعشرة .

ربما يستمر الإنسان فى هذه المعاملة لأنها أمام الناس معاملة ليس فيها شىء ، لكنها عند اللَّه تحيل على محارمه ، وقد يملى اللَّه تعالى لهذا الظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته ؛ يعنى : يتركه ينمو ماله ويزداد وينمو بهذا الربا ، لكن إذا أخذه لم يفلته ، وتكون هذه الأشياء خسارة عليه فيما بعد ، ومآله إلى الإفلاس ، ومن الكلمات المشهورة على ألسنة الناس : من عاش فى الحيلة مات فقيرًا .

مثال ذلك فى الأنكحة : امرأة طلقها زوجها ثلاثًا ؛ فلا تحل له إلا بعد زوج ، فجاء صديق له فتزوجها بشرط أنه متى حللها - يعنى : جامعها - طلقها، ففعل ؛ [و]تزوج بعقد وشهود ومهر ، ودخل عليها ، وجامعها ، ثم طلقها ، ولما طلقها ؛ أتت بالعدة ، وتزوجها الأول ؛ فإنها ظاهرًا تحل للزوج الأول ، لكنها باطنًا لا تحل ؛ لأن هذه حيلة .

فمتى علمنا أن اللَّه أسرع مكرًا ، وأن اللَّه خير الماكرين ؛ أوجب لنا ذلك أن نبتعد غاية البعد عن الحيل على محارم اللَّه .

❁ ❁ ❁

فهرس موضوعات الجزء الأول

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

من إصدارتنا

تحذير أولي الحجا بمفاسد

الربـــا

تاليف

الدكتور علاء بكر



من إصدارتنا

محاضرات في السلفية

تأليف

الدكتور علاء بكر





الموسوعة الجلية في شروح

العقيدة الواسطية

:: لشيخ الإسلام / ابن تيمية ::



جزء ٣

:: لأصحاب الفضيلة ::

محمد بن صالح بن عثيمين - عبد الرحمن بن ناصر السعدي
صالح بن فوزان الفوزان - صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
فيصل بن عبد العزيز آل مبارك - عبد العزيز بن عبد الله بن باز
عبد العزيز بن محمد بن مانع - زيد بن عبد العزيز آل الفياض
محمد بن إبراهيم آل الشيخ - عبد الرحمن بن ناصر البراك
عبد العزيز بن ناصر الرشيد - محمد خليل هراس

دار ابن الجوزي
القاهرة

وبهامشه تعليقات
الشيخ / إسماعيل الأنصاري

ومعه أسئلة وأجوبة
للشيخ / عبد العزيز بن محمد السلماني

:: هذه الطبعة تعتمد في تصحيحات وتضعيفات أحاديثها على أحكام الشيخ الألباني ::

الموسوعة الجلية في شروح العقيدة الواسطية

لشيخ الاسلام ابن تيمية

لأصحاب الفضيلة

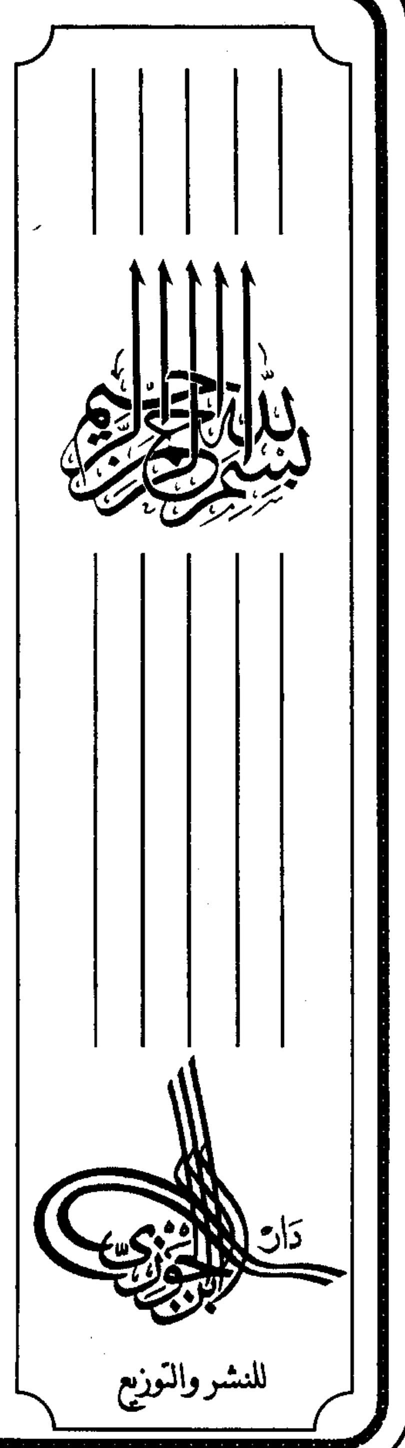
* فيصل بن عبد العزيز آل مبارك
* عبد الرحمن بن ناصر السعدي
* عبد العزيز بن محمد بن مانع
* محمد خليل هراس
* محمد بن إبراهيم آل الشيخ
* زيد بن عبد العزيز آل فياض
* عبد العزيز بن ناصر الرشيد
* عبد العزيز بن عبد اللّٰه بن باز
* محمد بن صالح بن عثيمين
* عبد الرحمن بن ناصر البراك
* صالح بن فوزان الفوزان
* صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

وبهامشه تعليقات
الشيخ إسماعيل الأنصاري

ومعه أسئلة وأجوبة
للشيخ عبد العزيز بن محمد السلماني

هذه الطبعة تعتمد في تصحيحات وتضعيفات أحاديثها
على أحكام الشيخ الألباني

الجزء الثالث



الطبعة الأولى

٢٠١٢م

١٤٣٣هـ /٢٠١٢
رقم الإيداع: ٢٠٠٥/٥١٨٢

دار ابن الجوزي

جمهورية مصر العربية - القاهرة

٥ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر

ت: ٠٠٢٠٢٢٥٠٦١٩٠٣

ت: ٠٠٢٠٢٢٥٠٦١٦٢١

تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٥٠٦١٦٢٠

E-mail: dar_ebnelgawzy@yahoo.com

ما يَدْخُلُ في الإيمانِ باليومِ الآخِرِ

« فصلٌ » :

١- ما يكونُ في القبرِ :

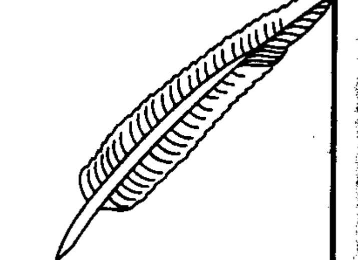
ومِن الإيمانِ باليومِ الآخِرِ الإيمانُ بكلِّ ما أخبَر به النبيُّ ﷺ مما يكونُ بعدَ الموتِ، فيُؤْمِنون بفتنةِ القبرِ، وبعذابِ القبرِ وبنعيمِه.

فأمَّا الفتنةُ فإنَّ الناسَ يُفْتَنُونَ في قبورِهم، فيُقالُ للرجلِ: مَن ربُّك؟ وما دينُك؟ ومَن نبيُّك؟

فـ ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، فيقولُ المؤمنُ: اللَّهُ رَبِّي، والإسلامُ ديني، ومحمدٌ ﷺ نَبِيِّي.

وأمَّا المرتابُ فيقولُ: هاه هاه، لا أدْري، سمِعْتُ الناسَ يقولون شيئًا فقُلْتُه، فيُضْرَبُ بمِرْزَبَّةٍ مِن حديدٍ، فيَصِيحُ صَيْحةً، يَسْمَعُها كلُّ شيءٍ إلَّا الإنسانَ، ولو سمِعَها الإنسانُ لَصَعِق.

❁ ❁ ❁



الشـــرح

❁ قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله :

قوله : « الإيمان بكلّ ما أخبر به النّبيّ ﷺ ممّا يكون بعد الموت » :

وهذا ضابط جامع يدخل فيه الإيمانِ بالنصوص الواردة في حالة المحتضر وفي القبر والقيامة والجنة والنار ، وجميع ما احتوت عليه هذه الأمور من التفاصيل التي صنّفت فيها المصنفات المطوّلة والمختصرة ، وكلها داخلة في الإيمان باليوم الآخر .

قوله : « فيؤمنون بفتنة القبر ، وبعذاب القبر ونعيمه ...» :

ثم أشار المصنف إلى شيء منها فقال : « فيؤمنون بفتنة القبر ...» .

وهذا الابتلاء والامتحان قد سبقت لكل عبد مقدماته في الدنيا ، فأما من كان مؤمنًا إيمانًا صحيحًا ثبته الله ولقّنه الجواب الصحيح للملكين .

كما قال تعالى : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

فذكر : أن تثبيته لهم جزاء لهم على إيمانهم في الدنيا .

فالمؤمن : يجيب الجواب الصحيح ، وإن كان عاميًا أو أعجميًا .

وأما الكافر والمنافق : ممن كان في الدنيا غير مؤمن بما جاء به الرسول فإنه يستعجم عليه الجواب ولو كان من أعلم الناس وأفصحهم ، كما قال تعالى : ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

ومن حكمة الله : أن نعيم البرزخ وعذابه لا يحس به الإنس والجن بمشاعرهم ؛ لأن الله تعالى جعله من الغيب ولو أظهره لفاتت الحكمة المطلوبة .

❁ قال الشيخ عبد العزيز بن محمد بن مانع رحمه الله :

قوله : « فيضرب بمرزبةٍ من حديدٍ ...» :

« المرزبة » : بالتخفيف : المطرقة الكبيرة ، ويقال لها : إرزبة بالهمزة والتشديد .

❁ قال الشيخ محمد خليل هراس رحمه الله :

« ومن الإيمان باليوم الآخر : الإيمان بكلّ ما أخبر به النّبيّ ﷺ ممّا يكون بعد الموت » :

إذا كان الإيمان باليوم الآخر أحد الأركان الستة التى يقوم عليها الإيمان فإن الإيمان به إيمانًا تامًّا كاملًا لا يتحقق إلا إذا آمن العبد بكل ما أخبر به النبى ﷺ من أمور الغيب التى تكون بعد الموت والضابط فى ذلك أنها أمور محكمة أخبرنا بها الصادق صلوات الله عليه وسلامه وآله ، وكل ممكن أخبر

به الصادق يجب الإيمان بوقوعه كما أخبر ، فإن هذه الأمور لا تستفاد إلا من خبر الرسول ، فأهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك كله .

وأما أهل المروق والإلحاد من الفلاسفة والمعتزلة فينكرون هذه الأمور من سؤال القبر ومن نعيم القبر وعذابه والصراط والميزان وغير ذلك بدعوى أنها لم تثبت بالعقل ، والعقل عندهم هو الحاكم الأول الذى لا يجوز الإيمان بشىء إلا عن طريقه ، وهم يردون الأحاديث الواردة فى هذه الأمور بدعوى أنها أحاديث آحاد لا تقبل فى باب الاعتقاد ، وأما الآيات فيأولونها مما يصرفها عن معانيها .

والإضافة فى قوله : (بفتنة القبر) على معنى (فى) أى : بالفتنة التى تكون فى القبر ، وأصل الفتنة وضع الذهب ونحوه على النار لتخليصه من الأوضار والعناصر الغريبة ، ثم استعملت فى الأخبار والامتحان ، وأما عذاب القبر ونعيمه فيدل عليه قوله تعالى فى حق آل فرعون : ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ [غافر : ٤٦] ، وقوله سبحانه عن قوم نوح : ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ [نوح : ٢٥] .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « القبر إما روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار » .

والـمِرْزَبَة بالتخفيف المطرقة الكبيرة ، ويقال لها أيضًا : إرزَبّة بالهمزة والتشديد .

❁ قال الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ رحمه الله :

« ومن الإيمان باليوم الآخر : الإيمان بكلّ ما أخبر به النّبيّ ﷺ ممّا يكون بعد الموت » :

هذا هو الأصل الخامس من أركان الإيمان الستة ، وهو يعم ويشمل الإيمان بجميع ما يكون بعد الموت ، وغير ذلك من أحوال البرزخ وما بعده ، فإن هنا ثلاث دور : دار الدنيا ، ودار الآخرة ، ودارٌ بين الدارين ؛ وهي البرزخ والحاجب .

« الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت » ، ومنه ما يحصل للميت في القبر ، وهو مجمع عليه ، ويجب الإيمان به ، والإيمان به من جملة الإيمان باليوم الآخر .

« فيؤمنون بفتنة القبر » الفتنة : الاختبار والامتحان ؛ من قولك : فتنت الذهب ؛ إذا عرضته على النار وعرفت جودته من رداءته .

فيؤمنون أن المقبور يفتن ، ويفتن الميت ولو لم يقبر .

« وبعذاب القبر وبنعيمه » . تواترت عن النبي ﷺ الأخبار والأحاديث فيه وثبوته ، وهو في الحقيقة روضة من رياض الجنة لأهل الطاعة ، أو حفرة من حفر النار لأهل المعصية . روضة لمن كان على الصراط المستقيم في الدنيا ، أو حفرة لمن كان على الشك والريب والزيغ عن الصراط المستقيم والقول الثابت في الحياة الدنيا .

ثم العذاب والنعيم في البرزخ للروح والجسد جميعًا ؛ لأنهما اللذان تساعدا على الطاعة أو على

المعصية ، للروح بالأصالة وللجسد بالتبع بكيفية الله أعلم بها ، فإن الروح قد انفصلت عن الجسد ، ولكن لها اتصال به كما يأتي .

« فأمّا الفتنة : فإنّ النّاس يفتنون » ويختبرون « في قبورهم » عن أعمالهم في الدنيا ، وإن كان الله سبحانه قد علم ما هو كائن من الخلق قبل أن يخلقهم ، فيأتيه ملكان عظيمان هائلان فظيعٌ منظرهما ، وغليظةٌ أصواتهما ، أحدهما اسمه منكرٌ والآخر اسمه نكيرٍ ، فهما بمنظر ومسمع وبحالٍ لا يقوى على إجابتهما إلا أهل التثبيت .

والسؤال يكون عن مسائل القبر الثلاث ، فيثبت بها قوم ، ويزاغ بها آخرون .

« فيقال للرّجل : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيّك ؟ . فـ ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ » من كان في الدنيا على الثبات والحجة والبرهان .

« فيقول المؤمن » – الذي كان على ثقة ويقين ثابت في الدنيا : « الله ربّي ، والإسلام ديني ، ومحمّدٌ ﷺ نبيّي » ؛ لأنه كان قد عاش على الإيمان بذلك ، ولهذا يقال له في الجواب على هذا عشت ... إلخ .

« وأمّا المرتاب » الذي هو على ريب وشك في الدنيا ؛ فهو بعكس ذلك عند هذه الفتنة العظيمة ، يكون له الريب والشك « فيقول : هاه هاه ! لا أدري ، سمعت النّاس يقولون شيئًا فقلته » ، دينه دين المدينة ، وهو ما كان عليه أهل مدينته ؛ يعني : فلولا أنه وجدهم عليه ما دان ، ليس معه إيمان واصلٌ إلى قلبه ومصدقته جوارحه .

« فيضرب بمرزبّةٍ » بمطرقة عظيمة « من حديدٍ ، فيصيح » المضروب « صيحةً يسمعها كلّ شيءٍ » من خلق الله « إلاّ الإنسان ، ولو سمعها الإنسان ؛ لصعق » لسقط مغشيًا عليه أو ميتًا من فظيع تلك الصيحة ، وفي الحديث : « لولا ألّا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر »[1] . لكن من رحمة الله ولطفه وحكمته في عمارة هذه الدار : أن الإنسان لا يسمع ما لأهل القبور ، فلو سمع لما استقام لهم حياة ، ولا قرّ لهم قرار على وجه الأرض .

❁ قال الشيخ زيد بن عبد العزيز آل فياض رحمه الله :

فصل في الإيمان باليوم الآخر :

قوله : « ومن الإيمان باليوم الآخر : الإيمان بكلّ ما أخبر به النّبيّ ﷺ ممّا يكون بعد الموت ، فيؤمنون بفتنة القبر ، وبعذاب القبر وبنعيمه ...» :

هذا هو الركن الخامس من أركان الإيمان ، وهو الإيمان باليوم الآخر ، وجمهور بني آدم يؤمنون بالبعث بعد الموت ؛ وقد دل على ذلك العقل والفطرة كما صرحت به جميع الكتب السماوية ، ونادى

---

(١) مسلم (٢٨٦٧) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه .

به الأنبياء والمرسلون والناس في البرزخ يفتنون وينعمون أو يعذبون على ذلك كما دلت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية .

ففي « الصحيحين » من حديث قتادة عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إن العبد إذا وضع في قبره أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ لمحمد ﷺ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ﷺ . فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدًا من الجنة . قال فيراهما جميعًا » قال : وذكر لنا أنه يفسح له في قبره مد البصر ثم رجع إلى حديث أنس قال : « وأما المنافق والكافر فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري كنت أقول ما يقول الناس . فيقال : لا دريت ولا تليت ويضرب بمضارب من حديد ضربة فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين »[(١)] .

وفي « الصحيحين » من حديث البراء بن عازب عن النبي ﷺ قال : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ نزلت في عذاب القبر[(٢)] ، زاد مسلم : « فيقال له من ربك ؟ فيقول ربي الله ونبيي محمد ، فذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ » . وفي رواية للبخاري : « إذا قعد المؤمن في قبره أتى ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله » . وخرج الترمذي وابن حبان في « صحيحه » من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إذا قبر الميت - أو قال : أحدكم - أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما : المنكر والآخر النكير فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : ما كان يقول : هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله . فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول هذا ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعًا في سبعين ذراعًا ثم ينور له فيه . وإن كان منافقًا قال : سمعت الناس يقولون : شيئًا فقلت مثله لا أدري . فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول ذلك . فيقال للأرض : التئمي عليه فتلتئم عليه حتى تختلف أضلاعه فلا يزال فيها معذبًا حتى يبعثه الله من مضجعه »[(٣)] .

وفي « الصحيحين » عن عائشة ﵂ أنها سألت رسول الله ﷺ عن عذاب القبر ؟ قال : « نعم عذاب القبر حق »[(٤)] ، وفي « الصحيحين » أن النبي ﷺ قال : « ولقد أوحي إليّ أنكم تفتنون في قبوركم مثل أو قريبًا من فتنة المسيح الدجال »[(٥)] وفيهما عن أبي أيوب قال : خرج علينا رسول الله ﷺ وقد وجبت

---

(١) البخاري (١٣٣٨) ، ومسلم (٢٨٧٠) من حديث أنس بن مالك ﵁ .

(٢) البخاري (١٣٦٩) ، ومسلم (٢٨٧١) .

(٣) الترمذي (١٠٧١) من حديث أبي هريرة ﵁ ، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (١٣٩١) .

(٤) البخاري (١٣٧٢) .

(٥) البخاري (٨٦) ، ومسلم (٩٠٣) من حديث عائشة ﵂ .

الشمس فسمع صوتًا فقال: «يهود تعذب في قبورها»[1].

وقد قال تعالى في آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ والنعيم والعذاب في القبر يكون للروح والجسد جميعًا، وكذا السؤال والجواب، فإن «الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام.

أحدها: تعلقها به في بطن الأم جنينًا.

الثاني: تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض.

الثالث: تعلقها به في حال النوم فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه.

الرابع: تعلقها به في البرزخ فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقًا كليًا بحيث لا يبقى لها إليه التفات ألبتة، فإنه ورد ردها إليه وقت سلام المسلم، وورد أنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه، وهذا الرد إعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة.

الخامس: تعلقها به يوم بعث الأجساد وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتًا ولا نومًا ولا فسادًا.

ومذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة وأنها تتصل بالبدن أحيانًا ويحصل له معها النعيم أو العذاب، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى أجسادها وقاموا من قبورهم لرب العالمين، ومعاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى.

«ومما ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه، قبر أو لم يقبر فلو أكلته السباع أو أحرق حتى صار رمادًا ونسف في الهواء أو صلب أو غرق في البحر وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى القبور».

«والرسل صلوات الله عليهم لم يخبروا بما تحيله العقول وتقطع باستحالته بل إخبارهم قسمان:

أحدهما: ما تشهد به العقول والفطر.

الثاني: ما لا تدركه بمجردها كالغيوب التي أخبروا بها عن تفاصيل البرزخ واليوم الآخر وتفاصيل الثواب والعقاب، ولا يكون خبرهم محالًا في العقول أصلًا وكل خبر يظن أن العقول تحيله فلا يخلو من أحد أمرين: إما أن يكون الخبر كذبًا عليهم أو يكون ذلك القول فاسدًا وهو شبهة خيالية يظن صاحبها أنها معقول صريح فيجب أن يفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير، فلا يحمل كلامه ما لا يحتمله ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان.

وقد جعل الله سبحانه الدُّور ثلاثًا: دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار، وجعل لكل دار أحكامًا

---

(1) البخاري (١٣٧٥)، ومسلم (٢٨٦٩) عن أبي أيوب رضي الله عنه.

تخصها، وركّب هذا الإنسان من بدن ونفس، وجعل أحكام الدنيا على الأبدان والأرواح تبعًا لها.

ولهذا جعل أحكامه الشرعية مرتبة على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح وإن أضمرت النفوس خلافه، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبعًا لها فإذا كان يوم القيامة عند بعث الأجسام وقيام الناس من قبورهم لرب العالمين صار النعيم والعذاب على الأرواح والأجسام جميعًا. وأعجب من ذلك أنك تجد النائمين في فراش واحد، وهذا روحه في النعيم ويستيقظ وأثر النعيم على بدنه وهذا روحه في العذاب ويستيقظ وأثر العذاب على بدنه وليس عند أحدهما خبر بما عند الآخر فأمر البرزخ أعجب من ذلك».

«والعذاب في القبر نوعان: نوع دائم كما في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ﴾ وفي حديث سمرة عند البخاري في رؤيا النبي ﷺ: «فهو يفعل به وذلك إلى يوم القيامة».

وفي حديث البراء بن عازب في قصة الكافر: «ثم يفتح له باب إلى النار فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة». رواه الإمام أحمد في بعض طرقه: «ثم يخرق له خرق إلى النار فيأتيه من غمها ودخانها إلى يوم القيامة».

النوع الثاني: إلى مدة ثم ينقطع، وهو عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم فيعذب بحسب جرمه ثم يخفف عنه كما يعذب في النار مدة ثم يزول عنه العذاب.

وقد ينقطع عنه العذاب بدعاء أو صدقة أو استغفار أو ثواب حج أو قراءة تصل إليه من بعض أقاربه أو غيرهم».

«واختلف في مستقر الأرواح ما بين الموت إلى قيام الساعة والراجح في ذلك أن الأرواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت فمنها: أرواح في أعلى عليين في الملأ الأعلى وهي أرواح الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، وهم متفاوتون في منازلهم أعظم تفاوت كما رآهم النبي ﷺ ليلة الإسراء.

ومنها: أرواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت وهي أرواح بعض الشهداء لا جميعهم، بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه أو غيره، كما في المسند عن عبد الله بن جحش أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما لي إن قتلت في سبيل الله؟ قال: «الجنة» فلما ولى قال: «إلا الدّين سارني به جبريل آنفًا»[1].

ومنهم من يكون محبوسًا على باب الجنة كما في الحديث الآخر: «رأيت صاحبكم محبوسًا على باب الجنة». ومنهم من يكون محبوسًا في قبره كحديث صاحب الشملة التي غلّها ثم استشهد فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده إن الشملة التي غلها لتشتعل عليه نارًا في قبره»[2].

---

(١) أحمد في «مسنده» (١٣٩/٤)، وحسنه الألباني في «سنن النسائي» (٣١٥٥).

(٢) البخاري (٦٧٠٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومنهم من يكون مقره باب الجنة كما في حديث ابن عباس : « الشهداء على بارق نهر باب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة غدوة وعشيًا » رواه أحمد .

وهذا بخلاف جعفر بن أبي طالب حيث أبدله الله من يديه بجناحين يطير بهما في الجنة حيث يشاء .

ومنهم : من يكون محبوسًا في الأرض لم تعل روحه إلى الملأ الأعلى فإنها كانت روحًا سفلية .

ومنها : أرواح في تنور الزناة والزاني ، وأرواح في نهر الدم تسبح فيه وتلقم الحجارة فليس للأرواح سعيدها وشقيها مستقر واحد بل روح في أعلى عليين وروح أرضية سفلية لا تصعد عن الأرض » .

« والحياة التي امتاز بها الشهيد هي أن الله جعل أرواحهم في جوف طير خضر كما في حديث ابن عباس أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لما أصيب إخوانكم - يعني يوم أحد - جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب مظللة في العرش » الحديث رواه أحمد ورواه بمعناه مسلم من حديث ابن مسعود « فإنهم لما بذلوا أنفسهم لله حتى أتلفها أعداؤه فيه أعاضهم منها أبدانًا خيرًا منها تكون فيها إلى يوم القيامة ويكون نعيمها بواسطة تلك الأبدان أكمل من نعيم الأرواح المجردة عنها ، ولهذا كانت نسمة المؤمن في صورة طير أو كطير ونسمة الشهيد في جوف طير » .

« وتأمل لفظ الحديثين فإنه قال : « نسمة المؤمن طير فهذا يعم الشهيد وغيره ثم خص الشهيد بأن قال : « هي في جوف طير » ومعلوم أنها إذا كانت في جوف طير صدق عليها أنها طير فنصيبهم من هذا النعيم في البرزخ أكمل من نصيب غيرهم من الأموات على فرشهم ، وإن كان الميت على فراشه أعلى درجة من كثير منهم فله نعيم يختص به لا يشاركه فيه من هو دونه » .

« وأجمعت الرسل عليهم السلام أن الروح محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة ، وهذا معلوم بالاضطرار من دينهم ، كما يعلم بالاضطرار من دينهم أن العالم حادث وأن معاد الأبدان واقع وأن الله وحده الخالق وكل ما سواه مخلوق له ، وقد انطوى عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم وهم القرون المفضلة على ذلك من غير اختلاف بينهم في حدوثها وأنها مخلوقة حتى نبغت نابغة ممن قصر فهمه في الكتاب والسنة حتى زعم أنها قديمة غير مخلوقة ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية : روح الآدمي مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة : وقد حكى إجماع العلماء على أنها مخلوقة غير واحد من أئمة المسلمين » .

« والصحيح أن الروح جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس وهو جسم نوراني علوي خفيف متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء ويسري فيها سريان الماء في الورد ، والدّهن في الزيتون ، والنار في الفحم فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقي ذلك

الجسم اللطيف مشابكًا لهذه الأعضاء وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة الإرادية ، فإذا فسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها وخرجت عن قبول تلك الآثار فارق الروح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح . وهذا القول هو الصواب في هذه المسألة وهو الذي يدل عليه الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة » .

« وهل تموت الروح ؟ الصواب : أن يقال : موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت ، وإن أريد أنها تعدم وتفنى بالكلية فهي لا تموت بهذا الاعتبار بل هي باقية بعد قبضها في نعيم أو عذاب كما تقدم ، وقد أخبر سبحانه : أن أهل الجنة لا يموتون ولا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى وتلك الموتة هي مفارقة الأرواح للجسد ، وصعق الأرواح عند النفخ في الصور لا يلزم منه موتها فإن الناس يصعقون يوم القيامة إذا جاء اللَّه لفصل القضاء وأشرقت الأرض بنور ربها ، وليس ذلك بموت وكذلك صعق موسى عليه السلام لم يكن موتًا ، والذي يدل عليه أن نفخة الصعق واللَّه أعلم موت كل من لم يذق الموت قبلها من الخلائق ، وأما من ذاق الموت أو لم يكتب عليه الموت من الحور والولدان وغيرهم فلا تدل الآية على أنه يموت موتة ثانية . واللَّه أعلم » .

❁ قال الشيخ عبد العزيز الناصر الرشيد ﵀ :

قوله : « الإيمان باليوم الآخر » :

الذي هو أحد أصول الإيمان الستة المذكورة حديث عمر وغيره ، والمراد بالإيمان به : التصديق بما يقع من الحساب والميزان ، والجنة والنار ، وغير ذلك ، وسمي باليوم الآخر لتأخره عن الدنيا .

قوله : « الإيمان بكلّ ما أخبر به النّبيّ ﷺ ممّا يكون بعد الموت » :

أي : من فتنة القبر وعذابه ونعيمه ، وكونه حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة ، وتوسيعه على بعض وتضييقه على بعض وضغطه ونحو ذلك ، وإعادة الروح إلى الميت ، فيؤمنون بما يقع في البرزخ مما وردت به الأدلة ، والبرزخ لغة : الحاجز بين الشيئين ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ [الفرقان : ٥٣] ، أي : حاجز ، وفي الشرع : البرزخ : من وقت الموت إلى القيامة ، من مات دخله ، وسمي برزخًا لكونه يحجز بين الدنيا والآخرة .

قوله : « بفتنة القبر » :

الفتنة لغة : الامتحان والاختبار ، والفتّانان : منكر ونكير ، ويريد بفتنة القبر مسألة منكر ونكير ، ويجب الإيمان بذلك لثبوته عن النبي ﷺ في عدة أخبار يبلغ مجموعها حد التواتر .

قوله : « وبعذاب القبر وبنعيمه » :

تواترت الأخبار عن رسول اللَّه ﷺ في ثبوت عذاب القبر ، ولمن كان أهلًا لذلك ، فيجب اعتقاد ذلك والإيمان به ولا يتكلم في كيفيته ؛ إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته لكونه لا عهد له به في هذه

الدار ، وعلى هذا درج السلف الصالح ، وأنكره الخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة .

قال ابن رجب رحمه الله : تواترت الأحاديث عن النبي ﷺ في عذاب القبر ، ففي « الصحيحين » عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : سألت النبي ﷺ عن عذاب القبر قال : « نعم عذاب القبر حق »[(١)] ، وفي « صحيح مسلم » عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن : « اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم وعذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحيى والممات ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال »[(٢)] ، وفي « الصحيحين » من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : مر النبي ﷺ بقبرين ، فقال : « إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير » ، ثم قال : « بلى إنه كبير ، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول ، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة »[(٣)] .

وقال المروذي : قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله : عذاب القبر حق لا ينكره إلا ضالٌّ مضلٌّ . اهـ . وعذاب القبر على الروح والبدن .

قال الشيخ تقي الدين رحمه الله : العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعًا باتفاق أهل السنة والجماعة .

قوله : « فإنّ النّاس يفتنون في قبورهم ... » :

أي : بأن تعاد إليهم أرواحهم ، كما في حديث البراء وغيره فتعاد إليه روحه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا ليسأل ويمتحن في قبره . انتهى .

وهذا الرد إعادة خاصة توجب حياة البدن قبل يوم القيامة ، فإن الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام :

أحدها : تعلقها به في بطن الأم جنينًا .

الثاني : تعلقها به حال خروجه إلى الأرض .

الثالث : تعلقها به حال النوم ، فلها تعلق به من وجه ومفارقة من وجه .

الرابع : تعلقها به في البرزخ ، فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقًا كليًا .

الخامس : تعلقها به يوم بعث الأجساد ، وهذا أكمل أنواع تعلقها بالبدن ، انتهى من كتاب « الروح » .

قوله : « فيقال للرجل » : أي : للإنسان من رجل وامرأة وغيرهما ممن وردت الأدلة أنه يمتحن في قبره ، أي : يقوله له الملكان واسمهما (المنكر والنكير) نص على ذلك أحمد ، وفي حديث أبي هريرة : « يأتيه ملكان أسودان أزرقان ، يقال لأحدهما : المنكر والآخر : النكير »[(٤)] رواه ابن حبان والترمذي ،

---

(١) البخاري (١٣٠٦) ، ومسلم (٥٨٤) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) مسلم (٥٩٠) ، وأبو داود (١٥٤٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) البخاري (٢١٥) ، ومسلم (٢٩٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٤) الترمذي (١٠٧١) ، وابن حبان (٣١١٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٢٤) .

وفي رواية ابن حبان : « يقال لهما منكر ونكير »[١] ، وقوله منكر مفعل ونكير فعيل بمعنى : مفعول من أنكر ، وكلاهما ضد المعروف وسميا به ؛ لأن الميت لم يعرفهما ولم ير صورة مثل صورتهما ، وظاهر هذا ومقتضى الأحاديث : استواء الناس في اسمهما ، وذكر بعض العلماء أن اللذين يسألان المؤمن اسمهما : البشير والمبشر ، والأول هو الصحيح .

قوله : « فيقال للرجل من ربك ... إلخ » : كما أخرج الشيخان من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [إبراهيم : ٢٧] الآية ، نزلت في عذاب القبر ، زاد مسلم : « فيقال له من ربك ؟ فيقول : ربي الله وديني محمد » ، فذلك : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ الآية[٢] .

وفي « الصحيحين » من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه ، وإنه ليسمع قرع نعالهم ، أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ لمحمد ﷺ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله . فيقال له : انظر مقعدك من النار ، وقد أبدلك الله به مقعدًا من الجنة ، قال : فيراهما جميعًا - يعني : المقعدين »[٣] .

قال قتادة : ذكر لنا أنه يفسح له في قبره : « وأما المنافق والكافر ، فيقال له : ما تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري ، كنت أقول ما يقول الناس ، فيقال : لا دريت ، ولا تليت ، ويضرب بمطراق من حديد ضربة فيصيح صيحة يسمعه من يليه غير الثقلين » .

قوله : « فإنّ النّاس يفتنون ... إلخ » : ظاهره أن السؤال في القبر عام للمؤمن والفاسق والكافر كما اختاره الشيخ تقي الدين وابن القيم وجمهور العلماء ، خلافًا لابن عبد البر حيث قال : لا يسأل إلا مؤمن أو منافق كان منسوبًا لدين الإسلام بظاهر الشهادة ، بخلاف الكافر ، والكتاب والسنة تدل على هذا القول ، قال الله تعالى : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ﴾ [إبراهيم : ٢٧] وفي البخاري : « وأما الكافر والمنافق ، فيقول لا أدري »[٤] بالواو ، ورجحه - أيضًا : أن السؤال عام للأمم كلها ليس خاص بهذه الأمة ، كما اختاره ابن القيم وعبد الحق الإشبيلي وغيرهم ، وجزم به القرطبي ، وقال الحكيم الترمذي : إنه خاص بهذه الأمة ، وتوقف ابن عبد البر ، ويستثنى مما تقدم المرابط في سبيل الله ، فقد صح أنه لا يفتن في قبره[٥] ، كما في

(١) الطبراني في الأوسط (٢٧٠٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) البخاري (١٣٠٣) ، ومسلم (٢٨٧١) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه .

(٣) البخاري (١٢٧٣) ، ومسلم (٢٨٧٠) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٤) البخاري (١٣٠٣) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٥) الترمذي (١٦٢١) ، وأحمد (٦/ ٢٠) من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « مشكاة المصابيح » (٣٨٢٣) .

« صحيح مسلم » وغيره ، وكشهيد المعركة والصابر في الطاعون وغير هؤلاء مما جاء في الأحاديث .

قوله : « في قبورهم » : وكذا من لم يدفن من مصون ونحوه يناله من فتنة السؤال وضغطة القبر . قال ابن القيم رحمه الله في كتاب « الروح » : ومما ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه من ذلك قبر أو لم يقبر ، فلو أكلته السباع ، أو أحرق حتى صار رمادًا ، أو نسف في الهواء ، أو غرق في البحر ، وصَل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور . اهـ .

قوله : « فيقول للرجل » : ظاهره اختصاص السؤال بالمكلف ، أما الصغير فجزم غير واحد من الشافعية أنه لا يسأل ، وجزم القرطبي في التذكرة بأنه يسأل ، وهو منقول عن الحنفية .

وأفاد قوله : « فيقال للرجل » إلى آخره ، أن السؤال والجواب يكون باللغة العربية ، خلافًا لما ذكر عن البلقيني أنه يجيب باللغة السريانية ؛ إذ لا دليل عليه ، وأفاد أيضًا أن السؤال في القبر للروح والبدن ، وكذلك عذاب القبر ونعيمه ، والأدلة صريحة بذلك وعليه أهل السنة والجماعة ، وأفاد قوله : « فيقولان له » ، أن الملائكة الذين يسألون في القبر اثنان ، وزعم بعضهم أنهم أربعة ، والصحيح الأول للأدلة الصحيحة في ذلك ، وأفاد أيضًا أن السؤال مرة واحدة .

وقال القسطلاني : وذكر ابن رجب عن بعضهم : أن المؤمن يفتن سبعًا والكافر أربعين صباحًا ، ومن ذلك كانوا يستحبون أن يطعم عن المؤمن سبعة أيام من يوم دفنه . قال : وهذا مما انفرد به ، ولا أعلم أن أحدًا قاله غيره . انتهى .

وأفاد أيضًا أن عذاب القبر واقع على الكفار ، ومن شاء الله من الموحدين ، وأفاد ذم التقليد في الاعتقادات لمعاقبة من قال : سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته ، وأفاد أيضًا أن الميت يحيى في قبره للمسألة ، خلافًا لابن حزم ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

قوله : « ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ » :

نزلت هذه الآية في سؤال المكلفين في القبر كم قاله الجمهور ، قال الطبري : يثبتهم في الدنيا على الإيمان يموتوا ، وفي الآخرة عند المسألة . انتهى .

قوله : « ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ » : أي : الذي ثبت عندهم بالحجة ، وهي كلمة التوحيد ، وثبوتها : تمكنها في القلب واعتقاد حقيقتها واطمئنان القلب بها ، وتثبيتهم في الدنيا أنهم إذا فتنوا لم يزالوا عنها ، وإن ألقوا في النار ولم يرتابوا ، وتثبيتهم في الآخرة أنهم إذا سئلوا في القبر لم يتوقفوا في الجواب ، وكذلك إذا سئلوا في الحشر وعند موقف الأشهاد عن معتقدهم ودينهم لم تدهشهم أحوال يوم القيامة ، وبالجملة : فالمرء على قدر ثباته في الدنيا يكون ثباته في القبر وما بعده .

قوله : « وأمّا المرتاب ...» : أي : الشاك : « فيقول : هاه هاه » هي كلمة توجع ، والهاء الأولى مبدلة من همزة آه ، وهو الأليق بمعني هذا الحديث . اهـ .

قوله : « فيضرب بمرزبة من حديد » : قال في « النهاية » : المرزبة بالتخفيف : المطرقة الكبيرة التي للحداد .

قوله : « يسمعها كل شيء إلا الإنسان » : وفي حديث آخر : « فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين »(١) ، أي : الجن والإنس ، قيل لهم ذلك ؛ لأنهم كالثقل على وجه الأرض . انتهى « فتح الباري » .

قوله : « الصعق » : أي : خرّ ميتًا ، وصعق أيضًا : إذا غشي عليه .

❁ قال الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله :

فصل : في الإيمان باليوم الآخر :

شرع المؤلف رحمه اللَّه تعالى في الكلام عن اليوم الآخر وعقيدة أهل السنة والجماعة فيه ، فقال :

« فصل : ومن الإيمان باليوم الآخر : الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت » .

حكم الإيمان باليوم الآخر فريضة واجب ، ومرتبته في الدين أنه أحد أركان الإيمان الستة .

وكثيرًا ما يقرن اللَّه تعالى بين الإيمان به تعالى والإيمان باليوم الآخر ؛ الإيمان بالمبدأ والإيمان بالمعاد ؛ لأن من لم يؤمن باليوم الآخر ؛ لا يمكن أن يؤمن باللَّه ؛ إذ إن الذي لا يؤمن باليوم الآخر ؛ لن يعمل ؛ لأنه لا يعمل إلا لما يرجوه من الكرامة في اليوم الآخر ، وما يخافه من العذاب والعقوبة ؛ فإذا كان لا يؤمن به ؛ صار كمن حكى اللَّه عنهم : ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية : ٢٤] .

وسمي اليوم الآخر باليوم الآخر ؛ لأنه يوم لا يوم بعده ؛ فهو آخر المراحل .

والإنسان له خمس مراحل : مرحلة العدم ، ثم الحمل ، ثم الدنيا ، ثم البرزخ ، ثم الآخرة .

– فأما مرحلة العدم فقد دلّ عليها قوله تعالى : ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان : ١] ، وقال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج : ٥] .

– وأما مرحلة الحمل ؛ فقال اللَّه عنها : ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر : ٦] .

– وأما مرحلة الدنيا ؛ فقال اللَّه عنها : ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ

---

(١) البخاري (١٢٧٣) من حديث أنس رضي الله عنه .

لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وهذه المراحل هى التى عليها مدار السعادة والشقاء وهى دار الامتحان والابتلاء؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

- وأما مرحلة البرزخ؛ فقال الله عنها: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

- وأما مرحلة الآخرة؛ فهى غاية المراحل، ونهاية الراحل؛ قال الله تعالى بعد ذكر المراحل: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥، ١٦].

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإيمانُ بكلِّ ما أخبرَ به النبى ﷺ مما يكون بعد الموت»: كل هذا داخل فى الإيمان باليوم الآخر. وذلك لأن الإنسان إذا مات؛ دخل فى اليوم الآخر، ولهذا يقال: من مات قامت قيامته. فكل ما يكون بعد الموت؛ فإنه من اليوم الآخر.

إذن؛ ما أقرب اليوم الآخر لنا؛ ليس بيننا وبينه إلا أن يموت الإنسان، ثم يدخل فى اليوم الآخر الذى ليس فيه إلا الجزاء على العمل.

ولهذا يجب علينا أن ننتبه لهذه النقطة.

فكر أيها الإنسان؛ تجد أنك على خطر؛ لأن الموت ليس له أجل معلوم عندنا؛ قد يخرج الإنسان من بيته ولا يرجع إليه، وقد يكون الإنسان على كرسى مكتبه ولا يقوم منه، وقد ينام الإنسان على فراشه ولكنه يحمل من فراشه إلى سرير غسله، وهذا أمر يستوجب منا أن ننتهز فرصة العمر بالتوبة إلى الله ﷻ، وأن يكون الإنسان دائمًا مستشعرًا بأنه تائب إلى الله وراجع ومنيبٌ حتى يأتيه الأجل وهو على خير ما يرام.

الفتنة هنا: الاختبار، والمراد بفتنة القبر: سؤال الميت إذا دفن عن ربه ودينه ونبيه.

والضمير فى «يؤمنون»: يعود على أهل السنة؛ أى أن أهل السنة والجماعة يؤمنون بفتنة القبر، وذلك لدلالة الكتاب والسنة عليها:

أما الكتاب؛ ففى قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]؛ فإن هذا فى فتنة القبر؛ كما ثبت فى «الصحيحين»[(١)] وغيرهما من حديث البراء بن عازب عن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

- وأما السنة؛ فقد تظافرت بأن الإنسان يفتن فى قبره، وهى فتنة قال فيها النبى ﷺ: «إنه قد أوحى إلىَّ أنكم تفتنون فى قبوركم مثل (أو: قريبًا من) فتنة الدجال»[(٢)].

وفتنة الدجال أعظم فتنة منذ خلق الله آدمَ إلى أن تقوم الساعة؛ كما فى «صحيح مسلم» عن عمران

---

(١) أخرجه البخارى (١٣٦٩)، ومسلم (٢٨٧١).

(٢) أخرجه البخارى (٨٦)، ومسلم (٩٠٥).

بن حصين رضي الله عنه ؛ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة أمر أكبر من الدجال »[١] .

ولكن النبي ﷺ قال لأصحابه ، بل قال لأمته : « إن يخرج وأنا فيكم ؛ فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم ؛ فامرؤ حجيج نفسه ، والله خليفتى على كل مسلم »[٢] .

ومع ذلك ؛ فإن نبينا محمدًا ﷺ أعلمنا كيف نحاجه ، وأعلمنا بأوصافه وميزاته حتى كأنا نشاهده ، رأى عين ، وبهذه الأوصاف والميزات نستطيع أن نحاجه .

ولهذا نقول : إن فتنة الدجال أعظم فتنة ، والرسول عليه الصلاة والسلام قال : « إنكم تفتنون فى قبوركم مثل - أو قريبًا من - فتنة الدجال » .

وما أعظمها من فتنة ! لأن الإنسان يتلقى فيها السؤال الذى لا يمكن الجواب عليه ؛ إلا على أساس متين من العقيدة والعمل الصالح .

هذا شروع فى بيان كيفية فتنة الميت فى قبره .

وكلمة « الناس » عامة ، وظاهر كلام المؤلف أن كل أحد ؛ حتى الأنبياء والصديقون والشهداء والمرابطون وغير المكلفين من الصغار والمجانين ، وفى هذا تفصيل ؛ فنقول :

أولًا : أما الأنبياء ؛ فلا تشملهم الفتنة ، ولا يسألون ، وذلك لوجهين :

الأول : أن الأنبياء أفضل من الشهداء ، وقد أخبر النبى ﷺ أن الشهيد يوقى فتنة القبر ، وقال : « كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة » ؛ أخرجه النسائي[٣] .

الثانى : أن الأنبياء يسأل عنهم ؛ فيقال للميت : من نبيك ؟ فهم مسئول عنهم ، وليسوا مسئولين ، ولهذا قال النبى ﷺ : « إنه أوحى إلىَّ أنكم تفتنون فى قبوركم » ، والخطاب للأمة المرسل إليهم ؛ فلا يكون الرسول داخلًا فيهم .

ثانيًا : وأما الصديقون ؛ فلا يسألون ؛ لأن مرتبة الصديقين أعلى من مرتبة الشهداء ؛ فإذا كان الشهداء لا يسألون ؛ فالصديقون من باب أولى ، ولأن الصديق على وصفه مصدِّق وصادق ؛ فهو قد علم صدقه ؛ فلا حاجة إلى اختباره ، لأن الاختبار لمن يُشَك فيه ؛ هل هو صادق أو كاذب ، أما إذا كان صادقًا ؛ فلا حاجة تدعو لسؤاله ، وذهب بعض العلماء إلى أنهم يسألون ؛ لعموم الأدلة ، والله أعلم .

ثالثًا : وأما الشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله ؛ فإنهم لا يسألون ؛ لظهور صدق إيمانهم بجهادهم : قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٤٦) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٣٧) .

(٣) صححه الألبانى فى « صحيح الجامع » (٤٤٨٣) .

﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة : ١١١] .

وقال : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

وقال النبي ﷺ : « كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة » .

وإذا كان المرابط ؛ إذا مات ؛ أمن الفتّان ؛ لظهور صدقه ؛ فهذا الذي قتل في المعركة مثله أو أولى منه ؛ لأنه بذل وعرّض رقبته لعدو الله ؛ إعلاءً لكلمة الله ، وانتصارًا لدينه ، وهذا من أكبر الأدلة على صدق إيمانه .

رابعًا : وأما المرابطون ؛ فإنهم لا يفتنون ؛ ففي « صحيح مسلم » ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله ، وأجرى عليه رزقه ، وأمن الفتان »[1] .

خامسًا : الصغار والمجانين ، هل يفتنون أو لا يفتنون ؟

قال بعض العلماء : إنهم يفتنون ؛ لدخولهم في العموم ، ولأنهم إذا سقط التكليف عنهم في حال الحياة ؛ فإن حال الممات تخالف حال الحياة .

وقال بعض العلماء : إن المجانين والصغار لا يُسألون ؛ لأنهم غير مكلفين ، وإذا كانوا غير مكلفين ؛ فإنه لا حساب عليهم ؛ إذ لا حساب إلا على من كان مكلفًا يعاقب على المعاصي ، وهؤلاء لا يعاقبون ، وليس لهم إلا الثواب ؛ إن عملوا عملًا صالحًا يثابون عليه .

إذن ؛ خرج من قول المؤلف : « فإن الناس » . خمسة أصناف ؛ الأنبياء ، والصديقون ، والشهداء ، والمرابطون ، ومن لا عقل له ؛ كالمجانين والصبيان .

تنبيه :

الناس ثلاثة أقسام : مؤمنون خلص ، ومنافقون ، وهذان القسمان يفتنون ، والثالث كفار خلص ؛ ففي فتنتهم خلاف ، وقد رجح ابن القيم في كتاب « الروح » أنهم يفتنون .

وهل تسأل الأمم السابقة ؟

ذهب بعض العلماء – وهو الصحيح – إلى أنهم يسألون ؛ لأنه إذا كانت هذه الأمة – وهم أشرف الأمم – تسأل ؛ فمن دونها من باب أولى .

قوله : « في قبورهم » . جمع قبر ، وهي مدفن الأموات ، والمراد ما هو أعم ؛ فيشمل البرزخ ، وهو ما بين موت الإنسان وقيام الساعة ، سواء دفن الميت أو أكلته السباع في البر أو الحيتان في البحر أو أتلفته الرياح .

والظاهر أن الفتنة لا تكون إلا إذا انتهت الأحوال الدنيوية ، وسلم إلى عالم الآخرة ؛ فإذا تأخر دفنه

---

(١) أخرجه مسلم (١٩١٣) .

يومًا أو أكثر ؛ لم يكن السؤال حتى يدفن .

قوله : « فيقال للرجل » . القائل ملكان يأتيان إلى الإنسان فى قبره ويجلسانه ويسألانه ، حتى إنه ليسمع قرع نعال المنصرفين عنه وهما يسألانه ، ولهذا كان من هدى النبيّ ﷺ ؛ أنه إذا دفن الميت وقف عليه ، وقال : « إستغفروا لأخيكم ، واسألوا له التثبيت ؛ فإنه الآن يسأل »(١) .

وورد فى بعض الآثار أن اسمهما : منكر ، ونكير(٢) .

وأنكر بعض العلماء هذين الاسمين ؛ قال : كيف يسمى الملائكة وهم الذين وصفهم اللّه تعالى بأوصافِ الثناء بهذين الاسمين المنكرين ، وضعف الحديث الوارد فى ذلك .

وذهب آخرون إلى أن الحديث حجة ، وأن هذه التسمية ليس لأنهما منكران من حيث ذواتهما ، ولكنهما منكران من حيث إن الميت لا يعرفهما ، وليس له بهما علم سابق ، وقد قال إبراهيم لأضيافه الملائكة : ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات : ٢٥] . لأنه لا يعرفهم ؛ فهذان منكر ونكير ؛ لأنهما غير معروفين للميت . ثم هذان الملكان هل هما ملكان جديدان ، موكلان بأصحاب القبور أو هما الملكان الكاتبان عن اليمين وعن الشمال قعيد ؟

- منهم من قال : إنهما الملكان اللذان يصحبان المرء ؛ فإن لكل إنسان ملكين فى الدنيا يكتبان أعماله ، وفى القبر يسألانه هذه الأسئلة الثلاثة .

- ومنهم من قال : بل هما ملكان آخران ، واللّه ﷻ يقول : ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر : ٣١] ، والملائكة خلق كثير ؛ قال النبى ﷺ : « أطت السماء ، وحُقَّ لها أن تئط - والأطيط : صرير الرَّحْل - ما من موضع شبرٍ - أو قال : أربع أصابع - إلا وفيه ملك قائم للّه أو راكع أو ساجد »(٣) ، والسماء واسعة الأرجاء ؛ كما قال اللّه تعالى : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات : ٤٧] .

فالمهم أنه لا غرابةَ أن ينشئ اللّه ﷻ لكل مدفونٍ ملكين يرسلهما إليه ، واللّه على كل شىء قدير .

قوله : « من ربك » : يعنى : مَن ربُّك الذى خلقك وتعبده وتخصه بالعبادة ؟ لأجل أن تنتظم هذه الكلمة توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية .

قوله : (وما دينك) : يعنى : ما عملُك الذى تدين به للّه ﷻ ، وتتقرب به إليه ؟

قوله : (ومن نبيك) : يعنى : من النبى الذى تؤمن به وتتبعه ؟

قوله : (فيُثبِّتُ اللّهَ الذين آمنوا بالقولِ الثابتِ فى الحياةِ الدنيا ...) : أى : يجعلهم ثابتين لا يترددون ولا يتلعثمون فى الجواب .

(١) صححه الألبانى فى « صحيح الجامع » (٤٧٦٠) .
(٢) حسنه الألبانى فى « صحيح الجامع » (٧٢٤) .
(٣) حسنه الألبانى فى « صحيح الجامع » (٢٤٤٩) .

والقول ثابت : هو التوحيد ؛ كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم : ٢٤] .

وقوله : ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾ : يحتمل أنها متعلقة بـ ﴿يُثَبِّتُ﴾ ؛ يعنى : أن اللّٰه يثبت المؤمنين فى الدنيا وفى الآخرة . ويحتمل أنها متعلقة بالثابت ؛ فتكون وصفًا للقول ؛ يعنى : أن هذا القول ثابت فى الدنيا وفى الآخرة . ولكن المعنى الأول أحسن وأقرب ؛ لأن اللّٰه [تعالى] يقول : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟﴾ [الأنفال : ٤٥] ، وقال اللّٰه ﷻ : ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال : ١٢] ؛ فهم يثبتون فى الحياة الدنيا وفى الآخرة بالقول الثابت .

فيقول المؤمن : ربى اللّٰه . عندما يقال له : من ربك ؟ ويقول إذا قيل له : ما دينك ؟ فيقول : الإسلام دينى . ويقول كذلك : محمد ﷺ نبيى . إذا قيل له : من نبيك ؟

وحينئذ يكون الجواب صوابًا ، فينادى منادٍ من السماء : أن صدق عبدى ؛ فأفرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له بابًا إلى الجنة .

قوله : « وأما المرتاب فيقول هاه هاه ! لا أدرى ؛ سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته » .

المرتاب : الشاك والمنافق وشبههما ، « فيقول : هاه ! هاه ! لا أدرى ؛ سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته » ؛ يعنى : لم يلج الإيمان قلبه ، وإنما كان يقول كما يقول الناس من غير أن يصل الإيمان إلى قلبه .

وتأمل قوله : « هاه ! هاه ! » ؛ كأن شيئًا غاب عنه ؛ يريد أن يتذكره ، وهذا أشد فى التحسر ؛ أن يتخيل أنه يعرف هذا الجواب ، ولكن يحال بينه وبينه ، ويقول هاه ! هاه ! ثم يقول : سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته .

ولا يقول : ربى اللّٰه . ولا : دينى الإسلام . ولا : نبيى محمد . لأنه فى الدنيا مرتابٌ شاكٌّ !

هذا إذا سئل فى قبره وصار أحوج ما يكون إلى الجواب الصواب ؛ يعجز ويقول : لا أدرى ؛ سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته . إذن ؛ إيمانه قول فقط !!

« فيُضرب » يعنى : الذى لم يجب ؛ سواء كان الكافر أو المنافق والضَّاربُ له الملكان اللذان يسألانه .

المرزبة : هى مطرقة من حديد ، وقد ورد فى بعض الروايات أنه لو اجتمع عليها أهل مِنًى ؛ ما أقلوها .

فإذا ضرب ؛ يصيح صيحة يسمعها كل شىء إلا الإنسان .

قوله : (فيَصِيحُ صَيْحةً) : أى : صياحًا مسموعًا ؛ يسمعه كل شىء ، يكون حوله مما يسمع صوته ، وليس كل شىء فى أقطار الدنيا يسمعه ، وأحيانًا يتأثر به ما يسمعه ؛ كما مر النبى ﷺ بأقبر للمشركين على بغلته ؛ فحادت به ، حتى كادت تلقيه ؛ لأنها سمعت أصواتهم يعذبون[1] .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٧) .

قوله : « إلا الإنسان » ؛ يعني : أنه لا يسمع هذا الصياح ، وذلك لحكم عظيمة منها :

أولًا : ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله : « لولا ألّا تدافنوا ؛ لدعوت اللّه أن يسمعكم من عذاب القبر » .

ثانيًا : أن في إخفاء ذلك سترًا للميت .

ثالثًا : أن فيه عدم إزعاج لأهله ؛ لأن أهله إذا سمعوا ميتهم يعذب ويصيح ؛ لم يستقر لهم قرار .

رابعًا : عدم تخجيل أهله ؛ لأن الناس يقولون : هذا ولدكم ! هذا أبوكم ! هذا أخوكم ! وما أشبه ذلك .

خامسًا : أننا قد نهلك ؛ لأنها صيحة ليست هينة ، بل صيحة قد توجب أن تسقط القلوب من معاليقها ، فيموت الإنسان أو يغشى عليه .

سادسًا : لو سمع الناس صراخ هؤلاء المعذبين ؛ لكان الإيمان بعذاب القبر من باب الإيمان بالشهادة ، لا من باب الإيمان بالغيب ، وحينئذ تفوت مصلحة الامتحان ؛ لأن الناس سوف يؤمنون بما شاهدوه قطعًا ؛ لكنْ إذا كان غائبًا عنهم ، ولم يعلموا به إلا عن طريق الخبر ؛ صار من باب الإيمان بالغيب .

تنبيه :

قول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان ، ولو سمعها الإنسان ؛ لصعق » .

إنما ورد قوله : « يسمعها كل شيء إلا الإنسان . . . . » إلخ في قول الجنازة إذا احتملها الرجال على أعناقهم ؛ كما قال النبي ﷺ : « فإن كانت صالحة ؛ قالت : قدِّموني ! وإن كانت غير صالحة ؛ قالت يا ويلها ، أين يذهبون بها ؟ !! يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ، ولو سمعه ؛ لصعق »[1] . أما الصيحة في القبر ؛ فقال النبي ﷺ : « فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين » . أخرجه البخاري بهذا اللفظ[2] ، والمراد بالثقلين : الإنس والجن .

❁ قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك حفظه اللّه :

قوله : « ومن الإيمان باليوم الآخر ... » :

الإيمان باليوم الآخر هو أحد أصول الإيمان الستة التي فسر بها النبي ﷺ الإيمان ، وهو الأصل الخامس الإيمان باليوم الآخر ، أو بتعبير آخر : الإيمان بالبعث بعد الموت .

ويدخل في الإيمان باليوم الآخر أشياء كثيرة مما جاءت به النصوص ، فكل ما أخبر اللّه به في كتابه أو أخبر به رسوله ﷺ مما يكون بعد الموت ، فهو داخل في الإيمان باليوم الآخر .

فالدّور ثلاث : دار الدنيا - وهي دار العمل - ودار البرزخ ، والدار الآخرة ، وهما دار جزاء .

---

(١) أخرجه البخاري (١٣١٤) .

(٢) أخرجه البخاري (١٣٣٨) .

فيجب الإيمان بما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة من فتنة القبر وعذابه ونعيمه وما يكون بعد ذلك من القيامة الكبرى ؛ فإن القيامة قيامتان :

قيامة صغرى : وهي الموت الذي يكون به الانتقال من دار الدنيا إلى دار البرزخ .

وقيامة كبرى : وهي التي أخبر الله تعالى بها في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، وأجمع عليها المسلمون .

فإنه تعالي يبعث الأموات من قبورهم ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج : ٧] وفتنة القبر وعذابه ونعيمه - أحوال من أحوال دار البرزخ ، ومعنى البرزخ : الحاجز بين الدنيا والدار الآخرة ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون : ١٠٠] وهو ما بين الموت إلى البعث .

وقد دل القرآن والسنة المتواترة على فتنة القبر وعذابه ، والفتنة : الابتلاء ، والمراد بفتنة القبر : سؤال الملكين : منكر ونكير للميت ؛ فإن الميت إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه أتاه ملكان فيقعدانه ويسألانه ، يقولان له : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟

فأما المؤمن فيقول : ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد . وأما الكافر فيتلجلج ويحار فيقول : هاه هاه لا أدري فـ ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ﴾ [إبراهيم : ٢٧] كما ذكر ذلك سبحانه وتعالى في كتابه ، فهذه الآية فسرت التثبيت في القبر ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالاستقامة على الإسلام حتى الموت ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بالتثبيت عند فتنة القبر .

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال : « إنه أوحي إليّ أنكم تفتنون في قبوركم مثل أو قريبًا من فتنة المسيح الدجال : فيؤتى أحدكم فيقال : ما علمك بهذا الرجل ؟ فأما المؤمن فيقول : هو محمد رسو الله جاءنا بالبينات والهدى فأجبنا واتبعنا ، هو محمد ، ثلاثًا ، فيقال : نم صالحًا قد علمنا إن كنت لموقنًا به !! وأما المنافق فيقول : لا أدري سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته »[1] .

تفتنون يعني : تمتحنون بالسؤال .

وبعد هذه الفتنة إما نعيم وإما عذاب ، ومن عذاب الشقي أنه إذا تحير في الجواب وقال : سمعت الناس يقولون شيئًا فقلت يوكل به من يضربه بمرزبة من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان ، ولو سمعها الإنسان لصعق .

وهذه الأمور تجري في القبور والناس قريبون جدًا منها ولا يدرون شيئًا عنها ، فهي من علم الغيب ، والإيمان بها من الإيمان بالغيب .

---

(١) البخاري (٨٦) ، ومسلم (٩٠٥) من حديث أسماء رضي الله عنها .

وقد جاء في « الصحيحين »[1] حديث صاحبي القبرين ، وأن الرسول ﷺ أخبر بأنهما يعذبان ، والصحابة معه لا يدرون عن تعذيبهما ولا عن سبب تعذيبهما ، ومن حكمة اللّٰه أنه ستر أحوال القبور وأهوالها وعذاب المعذبين فيها ، وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال : « ولولا ألا تدافنوا لدعوت اللّٰه أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمع »[2] .

ولو سمع الناس ما في القبور لما استطاعوا المقام ولما طاب لهم عيش ولما تدافنوا ولفر الناس وهاموا على وجوههم .

فالقبور فيها أمور وخطوب ؛ ولهذا جاءت الاستعاذة باللّٰه من عذاب القبر ومن فتنة القبر في كثير من النصوص ، وانظروا كيف أوصانا النبي ﷺ أن نستعيذ باللّٰه من هذه الأخطار العظيمة في كل صلاة بعد التشهد .

قال النبي ﷺ : « إذا تشهد أحدكم فليستعذ باللّٰه من أربع : يقول : اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شر فتنة المسيح الدجال »[3] .

ولو كشف للناس أحوال القبور لما كان لهم ثواب على الإيمان بذلك ؛ لأن الثواب إنما هو على الإيمان بالغيب ، فهذا هو الذي فيه الفضل ويتبين فيه المؤمن المصدق من الكافر الجاحد ، قال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة : ٢، ٣] ولهذا إذا عاين الإنسان مصيره انغلق عليه باب التوبة ، فاللّٰه يقبل توبة العبد ما لم يغرغر ، ويقبل توبة التائبين ما لم ييئسوا من الحياة ويعاينوا العذاب ، كما أخبر اللّٰه عن الهالكين من المكذبين : ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ۝ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر : ٨٤، ٨٥] .

إذن ، فمن أصول أهل السنة الإيمان بفتنة القبر وعذاب القبر ونعيم القبر ، وقد أنكر ذلك بعض المبتدعة وأنكر ذلك الملاحدة الزنادقة ويلبسون فيقولون : هذه القبور لا نرى فيها شيئًا . فلا يؤمنون إلا بما تدركه حواسهم ، وهذا ضلال بيّن ، فكم من الأمور الموجودة القريبة منا ولم ندركها !

أليس الإنسان قد وكل اللّٰه به ملائكة من حوله يكتبون أعماله ويحفظونه ولا يحس بهم ؟ بل إن ملائكة الموت - ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب - أقربَ إلى الإنسان من أهله وهم لا يدرون ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة : ٨٣- ٨٥] .

---

(١) البخاري (٢١٦) ، ومسلم (٢٩٢) من حديث عبد اللّٰه بن عباس رضي الله عنهما .

(٢) مسلم (٢٨٦٨) ، والنسائي (٢٠٥٨) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٣) البخاري (١٣٧٧) ، ومسلم (٥٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

فأحوال القبور الإيمان بها من الإيمان بالغيب ، ولا يصح أن يكون عند المسلم أدنى شك لكونه لا يرى شيئًا ولا يحس به .

وقد يكشف الله لبعض الناس شيئًا من أحوال القبور كما تواترت الأخبار ، فيكشف أحيانًا لبعض الناس أشياء إما أمور مسموعة أو أمور مرئية .

وبعد ذلك يبقى الناس في قبورهم وفيَ أحوالهم إلى القيامة الكبرى التي أخبر الله بها في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ وأجمع عليها المسلمون ، فالقيامة البعث بعد الموت ، فالإيمان بها من أصول الإيمان ، ومن أنكر البعث فهو كافر ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ [التغابن : ٧] والحديث عن البعث في القرآن طويل ومستفيض ومتنوع وكثير وواسع .

❁ قال الشيخ صالح بن فوزان الفوزان حفظه الله :

قوله : « ومن الإيمانِ باليومِ الآخرِ : الإيمانُ بكلِّ ما أخبر به النبيُّ ﷺ ... » :

اليوم الآخر هو يوم القيامة ، والإيمان به أحد أركان الإيمان ، وقد دل عليه العقل والفطرة ، وصرحت به جميع الكتب السماوية ، ونادى به جميع الأنبياء والمرسلين ، وسمي باليوم الآخر لتأخره عن الدنيا .

وقد ذكر الشيخ ﷺ هنا ضابطًا شاملًا لمعنى الإيمان باليوم الآخر بأنه الإيمان بكل ما أخبر به النبى ﷺ مما يكون بعد الموت .

فيدخل فيه الإيمان بكل ما دلت عليه النصوص من حالة الاحتضار ، وحالة الميت فى القبر ، والبعث من القبور ، وما يحصل بعده .

ثم أشار الشيخ ﷺ إلى أشياء من ذلك ؛ منها ما يكون فى القبر ، فقال : (فيؤمنون بفتنة القبر وبعذاب القبر ونعيمه) فذكر أمرين .

الأمر الأول : فتنة القبر ، والفتنة لغةً : الامتحان والاختبار ، والمراد بها هنا سؤال الملكين للميت ، لهذا قال : (فأما الفتنة فإن الناس يفتنون فى قبورهم ، فيقال للرجل ؛ أى : الميت ، سواء كان رجلًا ، أو امرأةً ، ولعل ذكر الرجل من باب التغليب .

ثم ذكر الأسئلة التى توجه إلى الميت ، وما يجيب به المؤمن ، وما يجيب به غير المؤمن ، وما يكون بعد هذه الإجابة من نعيم ، أو عذابٍ .

والإيمان بسؤال الملكين واجب لثبوته عن النبى ﷺ فى أحاديث ، يبلغ مجموعها حد التواتر .

ويدل على ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [ابراهيم : ٢٧] .

فقد أخرج الشيخان ، من حديث البراء بن عازبٍ ﷺ ، عن النبى ﷺ قال فى قوله تعالى : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ : « نزلت فى عذاب القبر » . زاد مسلم : « يقال له : من ربك ؟

فيقول : ربى الله ، ونبيى محمد . فذلك قوله : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾) .

والقول الثابت هو كلمة التوحيد التى ثبتت فى قلب المؤمن بالحجة والبرهان .

وتثبيت المؤمنين بها فى الدنيا أنهم يتمسكون بها ، ولو نالهم فى سبيلها ما نالهم من الأذى والتعذيب ، وتثبيتهم بها فى الآخرة توفيقهم للجواب عند سؤال الملكين .

وقوله : (وأما المرتاب) : أى : الشاك (فيقول) إذا سئل : (هاه هاه) كلمة ترددٍ وتوجعٍ (لا أدرى ، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته) لأنه غير مؤمنٍ بما جاء به الرسول ﷺ ، فيستعجم عليه الجواب ، ولو كان من أعلم الناس وأفصحهم ، كما قال تعالى : ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

(فيضرب بمرزبةٍ من حديدٍ) وهى المطرقة الكبيرة (فيصيح صيحةً يسمعها كل شىءٍ إلا الإنسان) .

ثم بين الحكمةَ من عدم سماع الإنسان لها بقوله :(ولو سمعها الإنسان لصعق) ؛ أى : خرَّ ميتًا ، أو غشى عليه .

ومن حكمة الله أيضًا أن ما يجرى على الميت فى قبره لا يحس به الأحياء ؛ لأن الله تعالى جعله من الغيب ، ولو أظهره لفاتت الحكمة المطلوبة ، وهى الإيمان بالغيب .

الأمر الثانى : مما يجرى على الميت فى قبره ، ما أشار إليه الشيخ بقوله : (ثم بعد هذه الفتنة ؛ إما نعيم وإما عذاب إلى أن تقوم القيامة الكبرى) . هذا فيه إثبات عذاب القبر أو نعيمه .

ومذهب أهل السنة والجماعة أن الميت إذا مات يكون فى نعيمٍ ، أو عذابٍ ، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه ، كما تواترت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ .

فيجب الإيمان به ، ولا يتكلم فى كيفيته وصفته ؛ لأن ذلك لا تدركه العقول ؛ لأنه من أمور الآخرة ، وأمور الآخرة لا يعلمها إلا الله ، ومن أطلعهم الله على شىءٍ منه ، وهم الرسل ، صلوات الله وسلامه عليهم . وأنكر عذاب القبر المعتزلة ، وشبهتهم فى ذلك أنهم لا يدركونه ، ولا يرون الميت يعذب ، ولا يسأل .

والجواب عن ذلك : إن عدم إدراكنا ورؤيتنا للشىء لا يدل على عدم وجوده ووقوعه ، فكم من أشياء لا نراها ، وهى موجودة ، ومن ذلك عذاب القبر أو نعيمه .

وأن الله تعالى جعل أمر الآخرة ، وما كان متصلًا بها غيبًا ، وحجبها عن إدراك العقول فى هذه الدار ؛ ليتميز الذين يؤمنون بالغيب من غيرهم ، وأمور الآخرة لا تُقاس بأمور الدنيا . والله أعلم .

وعذاب القبر على نوعين :

النوع الأول : عذاب دائم ، وهو عذاب الكافر ، كما قال تعالى : ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر : ٤٦] .

النوع الثاني : يكون إلى مدةٍ ، ثم ينقطع ، وهو عذاب بعض العصاة من المؤمنين ، فيعذب بحسب جرمه ، ثم يخفف عنه .

وقد ينقطع عنه العذاب بسبب دعاءٍ ، أو صدقةٍ ، أو استغفارٍ .

❁ **قال الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه الله :**

قوله : ومِنَ الإيمَانِ باليومِ الآخِرِ الإيمانُ بِكُلِّ ما أخبرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مما يكونُ بَعدَ الموتِ ، فيؤمِنونَ بِفِتنَةِ القبرِ ، وبعذابِ القبرِ ونعيمِه ....

هذا الفصل فيه ذكر لركن من أركان الإيمان ألا وهو الإيمان باليوم الآخر ، والإيمان باليوم الآخر واجب وفرض ؛ من لم يؤمن به لا يصح إسلامه ، والقدر الذي يصح به الإسلام منه أن يؤمن العبد بأنه يكون بعد الموت بعث وحساب وجنة ونار ، هذا القدر لا يسع أحدً أن يجهله ، فإذا آمن بالبعث بعد الموت ، وآمن بالجنة والنار ، صح إيمانه بهذا الركن ، هذا من حيث القدر الواجب الذي يصحح الإسلام ، ثم هناك تفاصيل لهذه الجملة من الإيمان باليوم الآخر ، وهذه التفاصيل يلزم ويجب اعتقادها لمن علمها بدليلها ، فمن علم شيئًا من ذلك بدليله وجب عليه أن يعتقده ، وأن يصدق خبر الله وخبر رسوله ﷺ في ذلك .

واليوم الآخر اسم ليوم القيامة ، وسُمي اليوم الآخر لأنه يوم طويل ، وآخر لأنه آخر الأيام وبعده حياة جديدة : جنة ، ونار ، دائمة لا انقطاع لها .

ولهذا قال شيخ الإسلام رحمه الله : (ومِنَ الإيمَانِ باليومِ الآخِرِ الإيمانُ بِكُلِّ ما أخبرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مما يكونُ بَعدَ الموتِ) فالموت وما بعده دار البرزخ ثم الدار الأخرى ، هذه كلها داخلة في حكم هذا الاسم ؛ ذلك لأن الإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بالقيامة ، والإيمان بالقيامة يشمل نوعي القيامة : القيامة الصغرى ، والقيامة الكبرى ، والقيامة الصغرى هي الإيمان بما بعد الموت ؛ لأن من مات قد قامت قيامته ، فاسم اليوم الآخر يُطلق على ما ذكرنا من يوم القيامة الكبرى ، وكذلك يدخل فيه ما بعد الموت إلى أن يبعث الله جل وعلا الأجساد .

والموت مخلوق خلقه الله جل وعلا ؛ كما قال : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك : ٢] . فليس الموت عدمًا للحياة ، وإنما الموت مخلوق كما أن هذه الحياة الدنيا مخلوقة ، وحقيقة الموت انفصال التعلق الظاهر بين الروح والبدن ، هذا هو الموت ؛ وذلك أن الروح مع البدن لها أربعة أنواع من التعلقات :

الأول : ما يكون في رحم الأم حين يُبعث الملك فيؤمر بنفخ الروح في الجنين[١] ، وهذا فيه حياة للبدن والروح ، لكن التعلق هنا تعلق خاص ليس كما إذا خرج الجنين من بطن أمه .

---

(١) ينظر صحيح البخاري (٣٢٠٨/٣٣٣٢) ، وصحيح مسلم (١/٢٦٤٣) من حديث عبد الله بن مسعود .

الثاني : تعلق الروح بالبدن على هذه الحياة الدنيا ؛ فإن الحياة للأبدان والروح تبع للبدن ، يعني : أنه يقع التنعيم في الدنيا ، ويقع التألم ونحو ذلك على الأجساد ، والروح تبع له ؛ فإنها تألم بألمه وتسعد بسعادته ، وقد يكون أيضًا هناك استقلال للروح في تنعمها وحَزَنِها ونحو ذلك .

الثالث : ما بعد الموت حياة البرزخ ، فإن الحياة هنا للروح والبدن تبع لها ، وذلك عكس الحياة الدنيا ، وأما ما بعد الموت في البرزخ فإن الحياة للأرواح والعذاب والنعيم على الأرواح ، والأبدان تبع لها ، يكون لها نصيب من العذاب ومن النعيم بتبعيتها للروح .

الرابع : هو تعلق الروح بالبدن يوم القيامة العظمى وما بعده ، وهذا أكمل تعلق ؛ فإن الروح مخلوق منفصل والبدن مخلوق منفصل ، ويكون التنعم في يوم القيامة والعذاب واقعين على الروح والبدن جميعًا في أكمل تعلق لهما ، وهذا أسراره يعلمها الله ﷻ .

وهناك نوع من التعلق ذكره طائفة من أهل العلم زيادة على ما ذكرنا وهو : حال المنام ، فإن لروح النائم تعلقًا بالبدن لكن ليس كالحياة الدنيا فيه نوع اختلاف ، وذلك أن بعض الروح المعين المكلف منها ما يمسكها الله ﷻ حال المنام ، ومنها ما تسرح وتذهب وتجيء ، ويكون منها الأحلام ، ومنها ما يكون ملازمًا للبدن وبه تكون حياته البدنية ؛ ولهذا قال طائفة من أهل العلم : إن الأنفس التي تتكون منها الروح ثلاثة ، وتتضح هذه الأنفس في المنام :

الأولى : نفس تكون بها حياة البدن .

الثانية : نفس يمسكها الله ﷻ .

الثالثة : نفس تذهب وتجيء ، ويكون منها لقاء الأرواح ولقاء الأنفس ، وتكون منها الرؤى إذا لقيت أرواحًا طيبة ، وتكون منها الأحلام إذا لقيت الشياطين أو الأرواح الخبيثة أو نحو ذلك .

وهذا كما قال ﷻ : ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ ، فهنا جمع فقال : ﴿ٱلْأَنفُسَ﴾ ، ثم قال : ﴿وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر : ٤٢] ، فالمقصود من ذلك أن الموت مخلوق تكون بعده حياة أخرى جديدة ؛ فكما أن لحظة نفخ الروح في الجنين تكون بها حياة لهذا الجنين ؛ فإن نزع الروح من البدن تكون بها حياة جديدة للروح ، وهذا تأصيل مهم في فهم ما يتعلق بالعذاب والنعيم .. إلى آخر ذلك .

قال ﷺ :(الإيمانُ بِكُلِّ ما أخبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مما يكونُ بَعدَ الموتِ) يعني : بعد انفصال الروح عن البدن ، وانفصال الروح عن البدن بالموت يكون على أنحاء منها : أن يكون قبضًا للروح من البدن والبدن سليم لا علة فيه ، أو يكون البدن فاسدًا ولا يصلح أن تسكنه الروح فإن الروح تخرج ؛ يقبضها ملك الموت لأجل عدم مناسبة البدن لسكنى الروح ؛ لأن البدن مسكن الروح .

قال طائفة من أهل العلم : إن القلب هو محل الروح ؛ لأن الن‍بي ﷺ : « ألا وَإِنَّ في الْجَسَدِ مُضْغَةً إذا

صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلَا وهِيَ الْقَلْبُ »[١] . ومعلوم أنه لا يقصد القلب من حيث كونه مضغة لحمًا ودمًا ؛ إنما يقصد القلب من حيث كونه محلًا للتكليف ومحلًا للعبادات ومحلًّا للمشاعر ؛ ولهذا قال طائفة من أهل العلم : إنه مسكن الروح ومكانها ، والمقصود من ذلك أن الإيمان بما بعد الموت هذا فرض واجب ؛ لأن النبي ﷺ أخبر بذلك .

ثم أخبر شيخ الإسلام عن أهل السنة أنهم يؤمنون بفتنة القبر ، وبعد الفتنة يكون العذاب ويكون النعيم ، ثم فصَّل هذه الثلاثة فقال : (فَأَمَّا الْفِتْنَةُ ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُمْتَحَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ) سمى بعض ما يحصل في القبر فتنة ؛ لأن الفتنة هي الابتلاء والاختبار ، فتن الشيء يعني اختبره وامتحنه ، والمقصود من هذه الفتنة مجيء ملكين خاصين يُقال لأحدهما : (منكر) وللآخر (نكير) ، فيسألان الناس عن ربهم وعن نبيهم وعن دينهم ؛ يسألان الناس هذه الثلاث المسائل العظيمة والأصول الثلاثة العظيمة .

وإذا قيل : (فتنة القبر) فإن المقصود بها فتنة البرزخ ؛ وذلك لأن الفتنة واقعة لما بعد الموت ، وما بعد الموت هو الحياة البرزخية ، وإنما سمي ذلك بفتنة القبر لأن غالب الناس يقبرون ، ولكن لا يخص ذلك من قُبر دون من أُحرق مثلًا وذُرَّ ، ومن فتت عظامه ، أو نحو ذلك ، الكل يقع عليهم الافتتان ويأتيهم الملكان ، والله ﷻ قادر على كل شيء .

قال العلماء : سُمي ذلك فتنة القبر لأن معظم الناس يُقبرون ، أما غير المقبور فإنها حالات خاصة ، فأُطلق هذا الاسم باعتبار الغالب .

قوله هنا رحمه الله : (فَإِنَّ النَّاسَ يُمْتَحَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ) ، قوله : (الناس) هذا يشمل الصغير والكبير والذكر والأنثى ، من المسلمين والمنافقين والكافرين ؛ لأن (الناس) لفظ عام يدخل فيه جميع الإنس .

وإذا كان كذلك فهل هذا المفهوم هو المراد من هذا اللفظ أن هؤلاء جميعًا يفتنون ؟ الجواب : نعم ؛ فإن فتنة القبر تقع على جميع الخلق من الناس ، يُمتحن المسلم ، ويُمتحن المنافق ، ويُمتحن الكافر ، ويُمتحن الرجل ، وتُمتحن المرأة ، ويُمتحن الصغير ، ويُمتحن الكبير ، فهذه كلها جاءت بها الأدلة وفيها خلاف :

قال طائفة من أهل العلم : إن فتنة القبر تقع على المسلم والمنافق دون الكفار ، أما الكافر فإنه لا يفتن .

وقال طائفة : تقع فتنة القبر على المسلم والكافر بعد بعثة النبي ﷺ خاصة ، وأما من قبل بعثة النبي ﷺ فلا فتنة عليهم في قبورهم .

والجواب : أن هذا ليس بصحيح ؛ بل الصواب تعميم ذلك ، وأما ما استدل به من حصر الفتنة مثلًا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢) ، ومسلم (١٥٩٩/١٠٧) ، وابن ماجه (٣٩٨٤) من حديث النعمان بن بشير .

في هذه الأمة، من أن النبي ﷺ قال: «إنه أُوحِيَ إِلَيَّ أنكم تُفْتَنُونَ في قُبُورِكُمْ»[1]، قالوا: وهذا الخطاب لهذه الأمة، ومعنى ذلك أن الفتنة خاصة بها.

والجواب: أن هذا من باب الخطاب وليس من باب الحصر، فهم يُفتنون في قبورهم لبعث النبي ﷺ إليهم، وغيرهم أيضًا يُفتن، فهذا اللفظ لا يدل على التخصيص، والأصل أن الفتنة عامة؛ وذلك لقوله ﷻ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، قال أهل التفسير: نزلت في فتنة القبر. وهذا اللفظ في هذه الآية ليس خاصًا بهذه الأمة.

فالصحيح أن فتنة القبر غير خاصة بأمة محمد ﷺ بل للجميع، وأما القول بأنها خاصة بالمسلمين والمنافقين دون الكفار، فهذا غير صحيح؛ بل الكافر أيضًا يُفتن؛ كما دل عليه حديث البراء بن عازب رضي الله عنه[2]، فقول القائل: «سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ» هذا لا يدل على أنه للمنافق والمسلم فقط؛ بل جاء في حديث البراء أن النبي ﷺ قال: «وَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا كان في انْقِطَاعٍ من الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ من الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ من السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ مَعَهُمُ الْمُسُوحُ فيَجْلِسُونَ منه مَدَّ الْبَصَرِ ....». إلى آخر الحديث، وهذا يدل على دخول الجميع في ذلك، ويدل عليه أيضًا قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

أما الصغير فإن طائفة كثيرة من أهل العلم قالوا: إنه لا يُفتن.

وقد ثبت أن النبي ﷺ دعا لصغير بأن يُعيذه الله من عذاب القبر، وكذلك أبو هريرة رضي الله عنه دعا لصغير بذلك[3]، وإذا كان ثبت أن على الصغير عذابًا في القبر فهذا يعني أنه يُمتحن، ولا يُقال: إنه انعقد الإجماع على أن أطفال المسلمين في الجنة. نقول: هذا صحيح، ولكن خبر النبي ﷺ ودعاؤه هذا أيضًا يجب الإيقان به.

والدعاء للصغير لا يعني أن يكون حتمًا يعذب، ولكنه دعاء بأن يعاذ من العذاب والتعذيب، فمعنى ذلك أنه دعاء له بأنه إذا سأله الملكان فإنه يجيب جواب المسلم المصيب المسدد، وهذا هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وجماعة أيضًا من أهل العلم من تلامذته كابن القيم وغيره.

المقصود من ذلك أن قوله: (فَإِنَّ النَّاسَ يُمْتَحَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ) عام لهذه الأمة ولغيرها، للكفار وللمسلمين والمنافقين، للصغير والكبير، للرجل والمرأة.

---

(١) أخرجه البخاري (٨٦)، ومسلم (٩٠٥/ ١١، ١٢) من حديث أسماء بنت أبي بكر.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٢١٢، ٤٧٥٣). وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٧٥١، ٣٩٧٩).

(٣) أخرجه مالك ١/ ٢٢٨، وعبد الرزاق (٦٦١٠)، والطحاوي في شرح المعاني ١/ ٥٠٩، والطبراني في الدعاء (١٢٠٤)، والبيهقي في الكبرى ٤/ ٩. وصححه الألباني في المشكاة (١٦٨٩).

قال : (فَيُقَالُ للرَّجُلِ : مَن رَبُّكَ ؟) القائل هما الملكان : منكر ونكير ، وهذا السؤال الأول (مَن رَبُّكَ ؟) هو أعظم الأسئلة وهو سؤال عن المعبود ، والرب هنا ليس المقصود به الخالق الرازق المحيي المميت ، وإنما المقصود به الذي يُعبد ؛ لأن الرب يُطلق في القرآن والسنة على السيد المتصرف المطاع ، ويُطلق على المعبود ، وهو في حق الله ﷻ على المعنيين . لهذا قال تعالى : ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران: ٨٠] ، يعني : معبودين . وقال : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة : ٣١] يعني : معبودين من دون الله ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ [التوبة : ٣١] ، وهذا يدل على أن الربوبية تأتي ويكون معناها العبودية ، وهذا إما أن يكون بطريق اللزوم ؛ لأنه يلزم من هو رب أن يكون معبودًا وحده دونما سواه ، وإما أن يكون بطريق اجتماع الألفاظ وافتراقها .

وقد قال إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله : (إن لفظ الإله والرب والألوهية والربوبية في الكتاب والسنة تدخل في الألفاظ التي إذا اجتمعت افترقت وإذا تفرقت اجتمعت) . وهذا ربما يكون لأجل التضمن واللزوم الذي بين اللفظين .

المقصود من ذلك أن قول الملكين للمقبور : (مَن رَبُّكَ ؟) ، يعني : من معبودك ؟ ودليل ذلك أن المحنة والابتلاء بالنبوات والرسالات إنما وقع في العبودية ولم يقع في الاعتراف بالربوبية ، فيكون معنى : (مَن رَبُّكَ ؟) من الذي تعبد ؟ هذا هو السؤال الأول ، والمسلم يجيب بقوله : (ربي اللّه) ، يعني : معبودي اللّه ، وأما المنافق فيقول : (هَاه هَاه ، لَا أَدْرِي ، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ) ، والكافر يُصرح ويقول : معبودي كذا من الأوثان والأصنام . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

قال : (فَيُقَالُ للرَّجُلِ : مَن رَبُّكَ ؟ وَمَا دِينُكَ ؟) ، الدين يعني : ما يلتزمه من الدين وليس هو الدين الذي يعتنقه ، فيجيب المسلم بالإسلام ، والكافر بدينه ، وهكذا المنافق أيضًا يتردد ، والشاك والمرتاب يتردد ويقول : (سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ) .

ثم يسألانه عن النبي الذي أرسل إليه فيقولان : « وَمَن نَبِيُّك ؟ » ، وبعد بعثة النبي ﷺ عن محمد ﷺ .

قال أهل العلم في قول المرتاب : (هَاه هَاه ، لَا أَدْرِي ، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ) : في قول المرتاب ذلك ما يدل على أن العقائد لا ينفع فيها التقليد ، بل لابد فيها من معرفة الحق بدليله ؛ لأنه هنا قلد غيره بدون حجة ، فيكون مقتضى ذلك أن من يُثبّت ويُلهم الحجة هو من عرف أجوبة هذه المسائل بدليلها .

وهذه المسائل الثلاث هي التي أورد أدلتها وبيّنها الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في الرسالة

المشهورة باسم ثلاثة الأصول ؛ فإن هذه الأصول هي : (مَن رَبُّكَ ؟ وَمَا دِينُكَ ؟ وَمَن نَبِيُّكَ ؟)

قال ﷻ : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم : ٢٧] في الحياة الدنيا يثبتهم الله بالقول الثابت ، يعني : بالتوحيد والإسلام والقول بالشهادتين وذكر الله ﷻ حتى يتوفاهم الله على ذلك ، ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يعني : إذا ابتدأت آخرتهم وابتدأت قيامتهم وقامت عليهم القيامة الصغرى - يعني بالموت - يثبتهم الله عند سؤال الملكين ، « فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ : رَبِّيَ اللهُ ، وَالإِسْلامُ دِينِي ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ نَبِيِّي » ، هذا جواب المؤمن الذي عرف أجوبة هذه المسائل بدليلها . قال : « وَأَمَّا الْمُرْتَابُ فَيَقُولُ : هَاه هَاه ، لَا أَدْرِي ، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ » هذا حال المنافق ، والكافر يجيب بما يعبد وما يدين به ، « فَيُضْرَبُ بِمِرْزَبَّةٍ مِنْ حَدِيدٍ ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الإِنْسَانَ ، وَلَوْ سَمِعَهَا الإِنْسَانُ لَصَعِقَ » ، وهذا نوع من أنواع العذاب ، والميت يسمع قرع نعال من يخلفونه حال تخليفهم إياه ، فهو إذن له حياة خاصة ، وله في روحه وبدنه تعلقات خاصة ، والله ﷻ على كل شيء قدير ، فهذا المنافق يُعذب ، وأول عذابه أنه يُضرب بِمرزبّة من حديد فيصيح صيحة من أثرها يسمعها كل شيء إلا الإنسان ، وهذا يدل على أن الجن والحيوانات تسمع عذاب المعذبين .

ومن هذا الأصل أخذ شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى - إبطال عبادة من كان يعبد في دمشق عمودًا من الأعمدة كان مبنيًا هناك ، وكانوا يتوسلون به ويتمسحون به ويعتقدون في هذا العمود ، وكان من إبطال شيخ الإسلام لذلك أن الدواب إذا أتت عند هذا العمود تَسْلَحُ وتُخرج ما في بطنها ، قال شيخ الإسلام : وهذا يدل على أن هذا العمود تحته قبر كافر أو منافق يُعذب ؛ ولهذا تسمعه الحيوانات فتسلح وتتغير ، وهذا من عظيم فقهه في النصوص ، فأبطل ذلك وهُدم ووُجد تحته قبر يُقال : إنه قبر نصراني .

المقصود أنه يعذب ، والعذاب تتأذى منه البهائم ، وتسمعه البهائم ولكن الله ﷻ جعل لها من الاحتمال ما ليس للإنسان في ذلك قال :(ولو سمعها الإنسان لصعق) وذلك لأن روح الإنسان في تلقي هذه الأشياء غير روح ونفس الحيوانات والله ﷻ له الحكمة البالغة في خلقه .

❁ ❁ ❁

٢- القيامةُ الكبرى وما يجري فيها :

ثم بعدَ هذه الفتنةِ ، إما نعيمٌ ، وإما عذابٌ إلى أن تقومَ القيامةُ الكبرى ، فتُعادُ الأرواحُ إلى الأجسادِ .

وتقومُ القيامةُ التي أخبَرَ اللَّهُ بها في كتابِه ، وعلى لسانِ رسولِه ، وأجْمَع عليها المسلمون ، فيقومُ الناسُ مِن قبورِهم لربِّ العالمينَ ، حُفاةً ، عُراةً ، غُرلًا .

ما يجري في يومِ القيامةِ :

وتَدْنُو منهم الشمسُ ، ويُلْجِمُهم العرقُ ، وتُنصَبُ الموازينُ ، فتُوزَنُ فيها أعمالُ العبادِ ، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون : ١٠٢، ١٠٣] .

وتُنْشَرُ الدَّواوِينُ ، وهي صحائفُ الأعمالِ ، فآخِذٌ كتابَه بيمينِه ، وآخِذٌ كتابَه بشمالِه ، أو مِن وراءِ ظهرِه ، كما قال سبحانَه وتعالى : ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء : ١٣، ١٤] .

ويُحاسِبُ اللَّهُ الخلائقَ ، ويَخْلُو بعبدِه المؤمنِ ، فيُقَرِّرُه بذنوبِه ، كما وُصِف ذلك في الكتابِ والسنةِ .

وأمَّا الكفارُ فلا يُحاسَبون مُحاسَبةَ مَن تُوزَنُ حَسَناتُه وسيئاتُه ؛ فإنه لا حَسَناتِ لهم ، ولكن تُعَدُّ أعمالُهم ، فتُحصَى ، فيُوقَفون عليها ، ويُقَرَّرون بها ، ويُجْزَوْنَ بها .

حوضُ النبيِّ ﷺ ، ومكانُه ، وصفاتُه :

وفي عَرَصاتِ القيامةِ الحوضُ الموروثُ للنبيِّ ﷺ ، ماؤُه أشدُّ بياضًا من اللبنِ ، وأحْلَى من العسلِ ، آنيتُه عددُ نجومِ السماءِ ، طولُه شهرٌ ، وعرضُه شهرٌ ، مَن يَشْرَبْ مِنه شربةً لم يَظْمَأْ بعدَها أبدًا .

الصِّراطُ ومعناه ومكانُه وصفةُ مرورِ الناسِ عليه :

والصراطُ منصوبٌ على مَتْنِ جَهَنَّمَ ، وهو الجِسرُ الذي بينَ الجنةِ والنارِ ، يَمُرُّ الناسُ عليه على قَدْرِ أعمالِهم ، فمِنهم مَن يَمُرُّ كلَمْحِ البَصَرِ ، ومنهم مَن يَمُرُّ كالبَرْقِ الخاطفِ ، ومنهم مَن يَمُرُّ كالريحِ ، ومنهم مَن يَمُرُّ كالفرسِ الجَوَادِ ، ومنهم مَن يَمُرُّ كرِكابِ

الإبلِ ، ومنهم مَن يَعْدُو عَدْوًا ، ومنهم مَن يَمْشِي مَشْيًا ، ومنهم مَن يَزْحَفُ زَحْفًا ، ومنهم مَن يُخْطَفُ خَطْفًا ، ويُلْقَى في جَهَنَّمَ ؛ فإنَّ الجسرَ عليه كَلاليبُ تَخْطِفُ الناسَ بأعمالِهم .

القَنطرةُ بينَ الجنةِ والنارِ :

فمَن مَرَّ على الصراطِ دخَل الجنةَ ، فإذا عبَروا عليه وُقِفوا على قَنْطَرةٍ بينَ الجنةِ والنارِ ، فيُقْتَصُّ لبعضِهم مِن بعضٍ ، فإذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِن لهم في دخولِ الجنةِ .

أولُ مَن يَسْتَفْتِحُ بابَ الجنةِ ، وأولُ مَن يَدْخُلُها ، وشفاعاتُ النبيِّ ﷺ :

وأولُ مَن يَسْتَفْتِحُ بابَ الجنةِ محمدٌ ﷺ ، وأولُ مَن يَدْخُلُ الجنةَ مِن الأممِ أمتُه .

وله ﷺ في القيامةِ ثلاثُ شَفاعاتٍ : أمَّا الشفاعةُ الأولى فيَشْفَعُ في أهلِ الموقفِ حتى يُقْضَى بينَهم بعدَ أن يَتَرَاجَعَ الأنبياءُ ؛ آدمُ ونوحٌ وإبراهيمُ وموسى وعيسى ابنُ مريمَ عن الشفاعةِ ، حتى تَنْتَهِيَ إليه .

وأمَّا الشفاعةُ الثانيةُ فيَشْفَعُ في أهلِ الجنةِ أن يَدْخُلوا الجنةَ ، وهاتان الشفاعاتان خاصَّتان له .

وأمَّا الشفاعةُ الثالثةُ فيَشْفَعُ فيمَن اسْتَحَقَّ النارَ ، وهذه الشفاعةُ له ولسائرِ النبيِّين والصِّدِّيقين وغيرِهم ، فيَشْفَعُ فيمَن اسْتَحَقَّ النارَ أن لا يَدْخُلَها ، ويَشْفَعُ فيمَن دخَلَها أن يُخْرَجَ منها .

إخراجُ بعضِ العُصاةِ مِن النارِ برحمةِ اللَّهِ ، بغيرِ شفاعةٍ ، واتساعُ الجنةِ عن أهلِها :

ويُخْرِجُ اللَّهُ تعالى مِن النارِ أقوامًا بغيرِ شفاعةٍ ، بل بفضلِه ورحمتِه ، ويَبْقَى في الجنةِ فَضْلٌ عمَّن دخَلَها مِن أهلِ الدنيا ، فيُنْشِئُ اللَّهُ لها أقوامًا ، فيُدْخِلُهم الجنةَ .

وأصنافُ ما تضَمَّنَتْه الدارُ الآخرةُ مِن الحسابِ والثوابِ والعقابِ والجنةِ والنارِ ، وتفاصيلُ ذلك مذكورٌ في الكتبِ الـمُنَزَّلةِ مِن السماءِ ، والآثارِ مِن العلمِ المأثورِ عن الأنبياءِ .

وفي العلمِ الموروثِ عن محمدٍ ﷺ مِن ذلك ما يَشْفِي ويَكْفِي ، فمَن ابتغاه وجَدَه .

❀ ❀ ❀

الشـــرح

❁ قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله :

قوله : « ثمّ بعد هذه الفتنة : إمّا نعيمٌ وإمّا عذابٌ ، إلى يوم القيامة ...» :

ذكر المصنف رحمه الله هذا الكلام النفيس المتعلق باليوم الآخر المأخوذ من نصوص الكتاب والسنة ، وهو كلام واضح جامع ، وأحال على الكتاب والسنة في بقية تفاصيل اليوم الآخر .

وقد كتب أهل الإسلام من النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة فيما يتعلق باليوم الآخر وبالجنة والنار وتفاصيل ذلك شيئًا كثيرًا ، وتصانيف طوالًا ، مبسوطة مستقلة ، وكل ذلك داخل في الإيمان باليوم الآخر .

واعلم أن أصل الجزاء على الأعمال خيرها وشرها ثابت كما هو ثابت العقل بالسمع ، فإن اللّه نبّه العقول إلى ذلك في مواضع كثيرة من الكتاب وذكرهم ما هو مستقر في العقول الصحيحة من أنه لا يليق بحكمة اللّه وحمده أن يترك الناس سدًى ، وأن يكونوا خلقوا عبثًا لا يؤمرون ، ولا ينهون ولا يثابون ولا يعاقبون ، وأن العقول الصحيحة تنكر ذلك أشد الإنكار .

وكذلك نبههم على ذلك بما أوقعه من أيامه في الدنيا من إثابة الطائعين وتعجيل بعض ثوابهم ، وعقوبة الطاغين وإذاقتهم بعض ما وعدوا به ، وهذا شيء مشاهدٌ محسوسٌ متناقلٌ بين الناس بالتواتر الذي لا يقبل الشك ، ولا يزال اللّه يري عباده آياته في الآفاق وفي أنفسهم ما يتبين به الحق لأولي العقول والألباب .

وأما تفاصيل الجزاء ومقاديرها : فلا يدرك إلا بالسمع والنقول الصحيحة عن النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى .

ومن الحكمة في محاسبة الخلق على أعمالهم ووزنها وظهورها مكتوبة في الصحف مع إحاطة علم اللّه بذلك ، ليري عباده كمال حمده ، وكمال عدله ، وسعة رحمته ، وعظمة ملكه ، ولهذا قيد ملكه ليوم الدين في عدة مواضع من كتابه مع أنّ ملكه عام مطلق لهذه المعاني وغيرها .

❁ قال الشيخ عبد العزيز بن محمد بن مانع رحمه الله :

قوله : « غرلًا » : « الغرل » : جمع أغرل ، وهو الأقلف ، والغرلة : القلفة .

قوله : « في عُنُقِهِ » : قال الراغب : « أي : عمله الذي طار عنه من خير وشر » .

❁ قال الشيخ محمد خليل هراس رحمه الله :

قوله : (وتقوم القيامة التي أخبر اللّه بها في كتابه) إلخ :

يعني : القيامة الكبرى ، وهذا الوصف للتخصص احترز به عن القيامة الصغرى التي تكون عند

الموت كما في الخبر : « من مات فقد قامت قيامته » . وذلك أن الله ﷻ إذا أذن بانقضاء هذه الدنيا أمر إسرافيل عليه السلام أن ينفخ في الصور النفخة الأولى فيصعق كل من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، وتصبح الأرض صعيدًا جرزًا ، والجبال كثيبًا مهيلًا ، ويحدث كل ما أخبر الله به في كتابه لا سيما في سورتي « التكوير » و« الانفطار » ، وهذا هو آخر أيام الدنيا ، ثم يأمر الله السماء فتمطر مطرًا كمني الرجال أربعين يومًا فينبت منه الناس في قبورهم من عَجَبِ أذنابهم ، وكل ابن آدم يَبْلَى إلا عجب الذنب ، حتى إذا تم خلقهم وتركيبهم ، أمر الله إسرافيل بأن ينفخ في الصور النفخة الثانية ، فيقوم الناس من الأجداث أحياءً فيقول الكفار والمنافقون حينئذ : ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس : ٥٢] ، ويقول المؤمنون : ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس : ٥٢] ، ثم تحشرهم الملائكة إلى المواقف حفاةً غير منتعلين عراة غير مكتسين غرلًا غير مختتنين ، جمع أغر وهو الأقلف ، والغرلة : القلفة ، وأول من يكتسي يوم القيامة إبراهيم . كما في الحديث .

وهناك في الموقف تدنو الشمس من رءوس الخلائق .

ويلجمهم العرق ، فمنهم من يبلغ كعبيه ، ومنهم من يبلغ ركبته ، ومنهم من يبلغ ثدييه ، ومنهم من يبلغ ترقوته ، كل على قدر عمله ، ويكون أناس في ظل الله ﷻ ، فإذا اشتد بهم الأمر وعظم الكرب استشفعوا إلى الله ﷻ بالرسل والأنبياء أن ينقذوهم مما هم فيه ، وكل رسول يحيلهم على من بعده ، حتى يأتوا نبينا ﷺ فيقول : « أنا لها » . ويشفع فيهم ، فينصرفون إلى فصل القضاء .

وهناك تنصب الموازين ، فتوزن بها أعمال العباد وهي موازين حقيقية كل ميزان منها له لسان وكفتان ، ويقلب الله أعمال العباد (وهي أعراض) - أجسامًا لها ثقل - فتوضع الحسنات في كفة والسيئات في كفة ، كما قال تعالى : ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء :] .

ثم تنشر الدواوين ، وهي صحائف الأعمال .

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق : ٧ - ٩] ، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ أو من وراء ظهره[1] ، ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۝ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق : ١١، ١٢] ، ويقول : يا ليتني لم أوتَ كتابيه ولم أدرِ ما حسابيه ، قال تعالى : ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف : ٤٩] .

---

(١) دعوى أن الذي يؤتى كتابه من وراءه ظهره غير الذي يؤتاه بشماله تنافي ما قرره ابن كثير من تفسيره ، حيث قال : ﴿ وأما من أوتي كتابه وراء ظهره ﴾ أي : بشماله من وراء ظهره يثني يده إلى وراءه ويعطى كتابه بها . وكذلك . ولو أتى المؤلف بالآيات على ترتيبها في المصحف لأصاب ولسلم مما وقع فيه . « إسماعيل الأنصاري » .

وأما قوله تعالى : ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء : ١٣] ، فقد قال الراغب : أى عمله الذى طار عنه من خير وشر ، ولكن الظاهر أن المراد بالطائر هنا نصيبه فى هذه الدنيا وما كتب له فيها من رزق وعمل كما فى قوله تعالى : ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الأعراف : ٣٧] يعنى : ما كتب عليهم فيه .

قوله : (ويحاسب الله الخلائق) إلخ : المراد بتلك المحاسبة تذكيرهم وإنباؤهم بما قدَّموه من خير وشر أحصاه الله ونسوه ، قال تعالى : ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام : ١٠٨] ، وفى الحديث الصحيح : « من نُوقش الحساب عُذِّب » . فقالت عائشة ﵂ : يا رسول الله ، أوَ ليس الله يقول : ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق : ٨] ؟ فقال : « إنما ذلك العَرْض ، ولكن من نُوقش الحساب يَهلِك » .

وأما قوله : (ويخلو بعبده المؤمن) : فقد ورد عن ابن عمر ﵄ : « أن الله ﷻ يدنى منه عبده المؤمن فيضع عليه كنفه ويحاسبه فيما بينه وبينه ويقرره بذنوبه ، فيقول : ألم تفعل كذا يوم كذا ، ألم تفعل كذا يوم كذا ، حتى إذا قرره بذنوبه وأيقن أنه قد هلك ، قال له : سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم » .

وأما قوله : (فإنه لا حسنات لهم) : يعنى الكفار ؛ لقوله تعالى : ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان : ٢٣] ، وقوله : ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [إبراهيم : ١٨] ، والصحيح [أن][1] أعمال الخير التى يعملها الكافر يجازى بها فى الدنيا فقط ، حتى إذا جاء يوم القيامة وجد صحيفة حسناته بيضاء ، وقيل : يخفف بها عنه من عذاب غير الكفر .

وأما قوله : (فى عرصات القيامة) : فإن الأحاديث الواردة فى ذكر الحوض تبلغ حد التواتر ، رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابيًا ، فمن أنكره فأخلق به أن يحال بينه وبين [وُرُوده] يوم العطش الأكبر ، وقد ورد فى أحاديث : أن لكل نبى حوضًا ، ولكن حوض نبينا ﷺ أعظمها وأحلاها وأكثرها واردًا . جعلنا الله منهم بفضله وكرمه .

قوله : (والصراط منصوب) إلخ : أصل الصراط الطريق الواسع ، قيل : سمى بذلك لأنه يسترط السابلة ، أى يبتلعهم إذا سلكوه ، وقد يستعمل فى الطريق المعنوى كما فى قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [النساء : ١٥٣] .

والصراط الأخروى – الذى هو الجسر الممدود على ظهر جهنم بين الجنة والنار – حقٌّ لا ريب فيه ؛ لورود خبر الصادق به ، ومن استقام على صراط الله الذى هو دينه الحق فى الدنيا ، استقام على هذا

---

(١) زيادة يقتضيها السياق . « إسماعيل الأنصاري » .

الصراط في الآخرة ، وقد ورد في وصفه أنه أرق من الشعرة وأحَدُّ من السيف .

قوله : (وأول من يستفتح باب الجنة محمد ﷺ) : يعنى أول من يحرك حلقها طالبًا أن يفتح له بابها ، كما قال عليه السلام : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر ، وأنا أول من يحرك حلق الجنة فأدخلها ويدخلها معى فقراء أمتي » . يعنى بعد دخول الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام يكون فقراء هذه الأمة أول الناس دخولًا الجنة .

وأما قوله : (وله ﷺ فى القيامة ثلاث شفاعات) : فأصل الشفاعة من قولنا : شفع كذا بكذا إذا ضمه إليه ، ويسمى الشافع شافعًا ؛ لأنه يضم طلبه ورجاءه إلى طلب المشفوع له .

والشفاعة من الأمور التى ثبتت بالكتاب والسنة ، وأحاديثها متواترة ، قال تعالى : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، ففى الشفاعة بلا إذن إثبات للشفاعة من بعد الإذن ، قال تعالى عن الملائكة : ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِى شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم : ٢٦] ، فبيّن اللّٰه الشفاعة الصحيحة وهى التى تكون بإذنه ولمن يرتضى قوله وعمله .

وأما ما يتمسك به الخوارج والمعتزلة فى نفى الشفاعة من مثل قوله : ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر : ٤٨] ، ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة : ١٢٣] ، ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ [الشعراء : ١٠٠] إلخ . فإن الشفاعة المنفية هنا هى الشفاعة فى أهل الشرك ، وكذلك الشفاعة الشركية التى يثبتها المشركون لأصنامهم ويثبتها النصارى للمسيح والرهبان ، وهى التى تكون بغير إذن اللّٰه ورضاه .

وأما قوله : (وأما الشفاعة الأولى فيشفع أهل الموقف حتى يقضى بينهم) : فهذه هى الشفاعة العظمى وهى المقام المحمود الذى يغبطه به النبيون ، والذى وعده اللّٰه أن يبعثه إياه بقوله : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ [الإسراء : ٧٩] ، يعنى : يحمده عليه أهل الموقف جميعًا ، وقد أمرنا نبينا ﷺ إذا سمعنا النداء أن نقول بعد الصلاة عليه : « اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آتِ محمدًا الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقامًا محمودًا الذى وعدته » .

وأما قوله : (وأما الشفاعة الثانية فيشفع فى أهل الجنة أن يدخلوا الجنة) : يعنى أنهم وقد استحقوا دخول الجنة لا يؤذن لهم بدخولها إلا بعد الشفاعة .

وأما قوله : (وهاتان الشفاعتان خاصتان له) : يعنى الشفاعة فى أهل الموقف والشفاعة فى أهل الجنة أن يدخلوها ، وتنضم إليهما ثالثة وهى شفاعة فى تخفيف العذاب عن بعض المشركين كما فى شفاعته لعمه أبى طالب ، فيكون فى ضحضاحٍ من نار . كما ورد بذلك الحديث .

وأما قوله : (وأما الشفاعة الثالثة فيشفع فى من استحق النار) : وهذه هى الشفاعة التى ينكرها الخوارج والمعتزلة ، فإن مذهبهم أن من استحق النار لابد أن يدخلها ومن دخلها لا يخرج منها لا بشافعة ولا بغيرها ، والأحاديث المستفيضة المتواترة ترد على زعمهم وتبطله .

وأما قوله : (وأصناف ما تضمنته الدار الآخرة من الحساب) إلخ : فاعلم أن أصل الجزاء على الأعمال خيرها ، وشرها ثابت بالعقل كما هو ثابت بالسمع ، وقد نبه الله العقول إلى ذلك فى مواضع كثيرة من كتابه مثل قوله تعالى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون : ١١٥] ، ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة : ٣٦] ، فإنه لا يليق فى حكمة الحكيم أن يترك الناس سدًى مهملين ، لا يؤمرون ولا ينهون ، ولا يثابون ولا يعاقبون ، كما لا يليق بعدله وحكمته أن يسوى بين المؤمن والكافر والبر والفاجر ، كما قال تعالى : ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص : ٢٨] . فإن العقول الصحيحة تأبى ذلك وتنكره أشد الإنكار .

وكذلك نبههم الله على ذلك بما وقعه من أيامه فى الدنيا من إكرام الطائعين ، وخذلان الطاغين ، وأما تفاصيل الأجزية ومقاديرها فلا يدرك إلا بالسمع ، والنقول الصحيحة عن المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله .

❁ قال الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ رحمه الله :

« ثمّ بعد هذه الفتنة » وهي سؤال الملكين الفتّانين اللذين هما بالمنظر الفظيع ، وكذلك انتهارهم المسئول .

« إمّا نعيمٌ » وهذا هو نعيم البرزخ لأهل التثبيت .

« وإمّا عذابٌ » - والعياذ بالله - لغير المثبت ، فالكافر في جحيم .

والبرزخ : هو الفاصل بين شيئين ، فقبر الإنسان هو دار البرزخ بين أهل الدنيا وأهل الآخرة ، والعذاب والنعيم فيه لأهله ، للأرواح والأجساد جميعًا ، فالأحكام في البرزخ للأرواح ، والأجسام تبع لها ، وفي الدنيا للأبدان ، والأرواح تبع لها ، وفي الآخرة لهما جميعًا ، واتصال الروح بالجسد له خمس مراتب .

« إلى أن تقوم القيامة الكبرى ، فتعاد الأرواح إلى الأجساد » هذا النعيم للمثبّت ، والجحيم للكافر ، يستمر إلى أن تقوم القيامة الكبرى ، فإن القيامة قيامتان : صغرى ؛ وهي الموت ، فإن من مات فقد قامت قيامته . وكبرى .

« وتقوم القيامة الّتي أخبر الله بها في كتابه ، وعلى لسان رسوله ، وأجمع عليها المسلمون . فيقوم النّاس من قبورهم لربّ العالمين » وهذه هي القيامة الكبرى ؛ كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

« حفاةً » لا نعال لهم ، وأين النعال يومئذٍ؟

« عراةً » وأين الثياب يومئذٍ ؟

« غرلًا » غير مختونين ، وهذا كما قال تعالى : ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ .

« وتدنو منهم الشّمس » فتكون قرب ميل ، ويزاد في حرارتها ، وكلهم تصلاه الشمس غير السبعة ،

ويكون كل إنسان في ظل صدقته ، وما أثبتت النصوص أنهم يظلون ، وإلا فلا ظل .

« ويلجمهم العرق » يبلغ موضع اللجام من الفرس وهو الفم ؛ وذلك لهول ذلك اليوم وكربه .

« وتنصب الموازين » الإيمان بنصب الموازين من الإيمان باليوم الآخر ، فإن الإيمان باليوم الآخر يشمل أنواعًا ؛ منها هذا ، ونصوص الكتاب والسنّة في ذلك معروفة .

« فتوزن فيها أعمال العباد » نفس الحسنات والسيئات ، ولا ينافي هذا ما جاء في وزن الصحائف والأبدان ، فإن خفتها وثقلها إنما هي بالأعمال ؛ كما قاله ابن كثير .

(﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾) ولو بحبة واحدة ، بأن رجحت حسناته بسيئاته فإنه ناجٍ ، (﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾) الفائزون .

(﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾) من الموحدين فإنه تحت المشيئة ، إن شاء اللّٰه عفا عنه ، وإن شاء عامله بالعدل .

ومن عذبه (﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾) خلود مؤبد للكافرين ، أما الموحد فلا يخلد في النار .

« وتنشر » يعني : تفلّ « الدّواوين » جمع : ديوان ؛ وهي الورقة التي قيدت فيها أعمال العبد - حسناته وسيئاته التي كتبتها الحفظة ؛ كما في الآية ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ .

« وهي » هنا « صحائف الأعمال » صحائف أعمال العباد وأقوالهم الصادرة منهم ، المترتب عليها الثواب والعقاب ، للنظر والاطلاع على ما فيها لعاملها ، فيقرؤها من كان يقرأ في الدنيا ومن لم يكن يقرأ مسطورة .

« فآخذٌ كتابه بيمينه » وهم أهل السعادة .

« وآخذٌ كتابه بشماله أو من وراء ظهره » وهم أهل الشقاوة - والعياذ باللّٰه .

« كما قال سبحانه : ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾ » ؛ يعني : ما طار له وما قدر له ملازمٌ له ملازمةً لا انفكاك له منه بحال ، فهو لازم في عنقه وهو ما قدر وكتب له في الأزل .

(﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾) ؛ يعني : مفلولًا بمقتضى ذلك ، ولا حجة له في ذلك على القدر ، فإن الحجة قائمة على العباد (﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾) ، وفي الآية الأخرى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ .

وينقسم الناس حينئذٍ إلى قسمين : آخذ كتابه بيمينه ، وهم أهل السعادة والنجاة . وآخذ كتابه بشماله من وراء ظهره .

فمن أوتي كتابه بيمينه فهو من أصحاب اليمين ، ومن أوتي كتابه بشماله فهو من أهل الشقاوة ؛ كما

في الآيات : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ ، وكما قال : ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ، وقوله : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ .

والإيمان بنشر الصحائف وأخذ الصحائف بالأيمان أو الشمائل ، الإيمان بذلك من جملة الإيمان باليوم الآخر .

« ويحاسب اللّه الخلائق » الإيمان بالمحاسبة على الأعمال ؛ حسناتها وسيئاتها ، وعدّها من جملة الإيمان باليوم الآخر .

والحساب من أشهر وأهم وأعظم أمور الآخرة ، فإن الإيمان باليوم الآخر الذي هو أحد أركان الإيمان يشمل الإيمان بالمحاسبة .

« ويخلو بعبده المؤمن ، فيقرّره بذنوبه » وخطاياه ، حتى يقرّ بها ويعرفها ، يقول : فعلت في يوم كذا وكذا في مكان كذا وكذا .

« كما وصف ذلك في الكتاب والسّنّة » وعلى تفاصيل في الخلوة ، فيستر ويغفر لمن يشاء بفضله ، ويعذب من يشاء بعدله .

ومحاسبة المسلمين تتضمن : وزن حسناتهم وسيئاتهم وتوقيفهم على سيئاتهم ، فصارت المحاسبة تتضمن : تقريرهم ومجازاتهم .

والمسلمون بعرضة المجازاة عليها ، عدلٌ بالنسبة إلى السيئات ، والعفو عنه تجاوزًا .

« وأمّا الكفّار : فلا يحاسبون محاسبة منع توزن حسناته وسيئاته ؛ فإنّهم لا حسنات لهم ، ولكن تعدّ أعمالهم ، وتحصى ، فيوقفون عليها ويقرّرون بها » أنهم فعلوها « ويجزون بها » فلا يعذّب أحدٌ إلا مقرًّا معترفًا بذنبه ، حتى تنطق أبعاضهم بذلك من كمال عدله .

هذه المسألة – المحاسبة للكفار : من أهل العلم من قال : ليس لهم حسنات يحاسبون عليها . ومنهم من قال : يحاسبون كما يحاسب المسلمون .

والإطلاق في الطرفين غلط ، لا يصح إطلاق أنهم يحاسبون ، ولا يصح إطلاق أنهم لا يحاسبون ، فالذي يثبت أنهم يحاسبون ويطلق ؛ يتناول أنهم يحاسبون مثل المسلمين الذين توزن حسناتهم وسيئاتهم واحدة واحدة ، وكذلك إذا قيل : إنهم لا يحاسبون ، فإن هذا الإطلاق يشمل أنهم لا تعد أعمالهم ولا تحصى ... إلخ ، وإن لم يقصده القائل .

فالصحيح : قول المصنف المتقدم .

وأما المسلمون فيحاسبون ؛ لأن لهم حسنات صحيحة ثابتة ، فمن زادت حسناته دخل الجنة ، ومن

نقصت : إما أن يعفو الرب ويتجاوز عنه ، أو يعذبه على قدر سيئاته .

« وفي عرصات القيامة » العرصات : جمع عرصة ، والعرصة المجتمع فيه سعة وانفساح ، ومنه عرصة الدار، وهو : المتسع الذي حواليها الذي يراد للاجتماع فيه ، ومنه قول الشاعر :

فلما حوتها عرصة الدار سلّمت ....

وعرصات القيامة : متسع القيامة : وهي : المواضع التي يجتمع فيها الخلق ، وهي الأرض كلها ، تمد مد الأديم العكاظيّ .

« الحوض المورود للنبيّ ﷺ » والحوض الكوثر لنبينا محمد ﷺ وجاء في الحديث صفته وآنيته والشرب منه وأهل الشرب .

« ماؤه أشدّ بياضًا من اللّبن » . « و » طعمه « أحلى » طعمًا « من العسل » . و « آنيته » التي عليه « عدد نجوم السّماء » . مسافة « طوله شهرٌ ، وعرضه شهرٌ » .

« من يشرب منه شربةً ؛ لم يظمأ بعدها أبدًا » ؛ يعني : يستمر به ريّه أبدًا لا يظمأ حتى يدخل الجنة ، فإذا دخل الجنة فريٌّ على ريٍّ ، وأحاديث الحوض معلومة كثيرة شهيرة ثابتة عن النبي ﷺ .

فالإيمان بالحوض وصفاته المذكورة من الإيمان باليوم الآخر كما سبق لكم ، فإن الإيمان باليوم الآخر يشمل الإيمان بجميع ما يكون بعد الموت .

« والصّراط منصوبٌ على متن جهنّم » الإيمان بالصراط ، والإيمان بنصبه على متن جهنم ، من الإيمان باليوم الآخر .

« وهو الجسر الّذي بين الجنّة والنّار » الصراط : هو الطريق ، وسمي الصراط طريقًا ؛ لأنه يعبر منه إلى الجنة يمر على وسط النار حتى ينتهي إلى الجنة ، ولا يمرّ إلى الجنة إلا منه ، والصراط صراطان : حسيٌّ وهو هذا ، ومعنويٌّ وهو في الدنيا .

« يمرّ النّاس عليه على قدر أعمالهم » والثبات على الحسي حسب الثبات على المعنوي في الدنيا ، وجاء في الأحاديث أنه أدقّ من الشعر ، وأحدّ من السيف ، وأحرّ من الجمر ، وأنه دحض مزلة .

والقوى الحسية لا استطاعة لها على المرور عليه ، لا يمر معه إلا بالقوى المعنوية الإيمانية ، وهو بحسب الاستقامة على هذا الصراط المعنوي في الدنيا .

والمرور عليه على حسب الأعمال ثباتًا وسقوطًا ، وسرعة وإبطاء واستقامة ، سواء بسواء ، ولهذا قال : « على قدر أعمالهم » ، لا على قدر أجسامهم ، كما أن الصراط في الدنيا أحظى الناس به أقواهم إيمانًا لا أجسامًا .

والناس في سرعة المرور عليه على أقسام ، فأهل السير : هم الذين استقاموا على الطريق المعنوي ، ولم يتثاقلوا عنه .

« فمنهم من يمرّ » عليه « كلمح البصر ، ومنهم من يمرّ كالبرق ، ومنهم من يمرّ كالرّيح ، ومنهم من يمرّ كالفرس الجواد ، ومنهم من يمرّ كركاب الإبل ، ومنهم من يعدو عدوًا ، ومنهم من يمشي مشيًا ، ومنهم من يزحف زحفًا ، ومنهم من يخطف » حتى إن منهم من إذا عبر خطف خطفًا « ويلقى في جهنّم » .

« فإنّ الجسر » – الصراط – « عليه كلاليب تخطف النّاس بأعمالهم » قد حُفّ به كلاليب ، هو مثل السير على الصراط المعنوي ، وهي شبه التردد والتثاقل والسير بالهوينا ، فكما أن الكلاليب في هذا الصراط المعنوي في الدنيا من الشبهات والشهوات تخطفهم ، فتلك الكلاليب تخطف الناس على قدر ما تخطفهم الشبهات والشهوات في تلك الأعمال وبسبب الأعمال ، فكما خطفتهم في الدنيا خطفتهم في الآخرة ، ومن خطف سقط في جهنم .

« فمن مرّ على الصّراط ؛ دخل الجنّة » بكلّ حال ولا يردّ إلى النار أبدًا .

والظاهر : أن المرور إنما هو لأهل الإسلام ، وأن الذي يخطف هو صاحب المعاصي والشبهات والشهوات ؛ لأن الكفار لم يدخلوا في هذا الصراط المعنوي في الدنيا .

« فإذا عبروا عليه ؛ وقفوا على قنطرةٍ » الظاهر : أنها جسر يقفون عليه « بين الجنّة والنّار » .

والسّرّ في الوقوف على هذه القنطرة : « فيقتصّ لبعضهم من بعضٍ » فإنه لابد من أخذ الحقوق ، فلا أحد يدخل الجنة أو النار حتى تؤخذ الحقوق التي له ، أو التي عليه ويؤديها ، فلا يدخلونها من تلك القنطرة حتى يهذّبوا وينقوا .

« فإذا هذّبوا ونقّوا » من درن الذنوب وأرجاس المعاصي ويصلحون لمجاورة الربّ الكريم في دار الخلد .

« أذن لهم في دخول الجنّة » ؛ لأن الجنة دار طيبة في جوار الطيب سبحانه ، ولا يدخلها إلا طيب ، كما قال سبحانه : ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ فالفاء للسببية فلا يدخلها أحد عنده درنٌ : ذنب أو مظلمة .

« وأوّل من يستفتح باب الجنّة » ؛ يعني : يطلب فتحها ودخولها : نبينا « محمّدٌ ﷺ » ، فلا أحد يطلب ويسأل فتحها ليدخل فيها قبل نبينا محمد ﷺ .

« وأوّل من يدخل الجنّة من الأمم أمّته » ، فإنها أول الأمم دخولًا وإن كانت آخرها وجودًا ؛ كما عرف ذلك من الأحاديث الصّحاح ، كما في قوله ﷺ : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة »[1] ؛ وذلك لأن الله شرع لهذه الأمة أعمالًا لم تشرع لمن قبلهم ؛ تفضلًا عليهم بأن كانوا هم أول الأمم دخولًا

(١) البخاري (٨٧٦) ، ومسلم (٨٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الجنة ، وليس أنهم أكثر الأمم أعمالًا ، ففي هذا فضيلة هذه الأمة كونها آخر الأمم وجودًا وأولها دخولًا لجنة .

« وله ﷺ في القيامة ثلاث شفاعاتٍ » اشتقاق الشفاعة من الشفع خلاف الوتر ، والشفع : الاثنان ، سمي شفعًا ؛ لأن طالب الحاجة يكون اثنين بعد أن كان واحدًا .

والإيمان بالشفاعات من جملة الإيمان باليوم الآخر .

وللنبي ﷺ في القيامة ثلاث شفاعات بالنسبة إلى الشفاعات العمومية ، وإلا هناك شفاعات غير ما ذكره المصنف ، كشفاعته في عمه لتخفيف العذاب لا إخراجه ، فثنتان مختصتان به ، وواحدة مشتركة .

« أمّا الشّفاعة الأولى : فيشفع » إلى الله « في أهل الموقف حتّى يقضى بينهم » فيستريحوا من كرب الموقف الذي تقدم من صفته قرب الشمس والعرق ... إلخ .

« بعد أن يتراجع الأنبياء : آدم ، ونوحٌ ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ابن مريم عن الشّفاعة » كلٌّ من هؤلاء يعتذر « حتّى تنتهي إليه » ، فيقول ﷺ : « أنا لها ، قال ﷺ : فيفتح عليّ من المحامد ما لا أحسنه الآن ، قال : فيقال : اسأل تعط ، واشفع تشفع ... إلخ » ، وهي التي في الحديث : « وأعطيت الشفاعة »[١] ، وهذه الشفاعة العظمى ، وهي المقام المحمود الذي أوتيه ﷺ ؛ يعني : الذي يحمده الأولون والآخرون ؛ يعني : الذي يغبط به ، الذي فيه فضل ومرتبة عليا ، فإن هذا المقام ليس لأحد سواه ، بل هو مختص به ﷺ .

وقيل : إنه إجلاسه معه على العرش ، جاء في الحديث أنه يقعد مع الله تعالى على العرش ؛ كما ثبتت به السنّة ، ويكون هذا أيضًا من المقام المحمود .

والظاهر : أنه لا منافاة بين القولين ، فيتقدم فيشفع بإذن الربّ جل وعلا في أهل الموقف ليحاسبوا ، فإن الرب تعالى لا يأتي الخلق في الفصل إلا بعد شفاعته ﷺ فإن أهل الموقف إذا اشتد بهم الكرب العظيم ينظرون ويتراجعون من هو الذي يشفع لنا عند ربنا ليفرج عنا من كرب هذا الموقف فيذكرون أباهم آدم ... إلخ .

« وأمّا الشّفاعة الثّانية : فيشفع في أهل الجنّة » ، فإن أهل الجنة الذين استوجبوها بسبب الأعمال الصالحة لا يدخلونها إلا بعد استفتاحها ، فيشفع لهم « أن يدخلوا الجنّة » ، وكذلك أهل الجنة من سائر الأمم .

« وهاتان الشّفاعتان » الأولى : الشفاعة في محاسبة الخلائق . وهذه الثانية في الذين استحقوا دخول

---

(١) البخاري (٤٣٨) ، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر رضي الله عنه .

الجنة بفضل اللَّه ورحمته وتوفيقه لهم للأعمال الصالحة في حياتهم وموتهم على الإيمان، «خاصّتان له ﷺ».

«وأمّا الشّفاعة الثّالثة: فيشفع فيمن استحقّ النّار» من عصاة الموحدين خاصة.

«وهذه الشّفاعة» هو فيها سيد الشفعاء وأكملهم فيها، وليست مختصة، بل هي «له ولسائر النّبيّين والصّدّيقين وغيرهم»، فيشفع الأنبياء والرّسل والأولياء والملائكة والأفراط وغيرهم ممن أذن اللَّه لهم أن يشفعوا كما جاء في النصوص، وهذه هي التي ينكرها المعتزلة.

وأما أهل السنّة: فإن قولهم فيها هو ما دل عليه الكتاب والسنّة، وهو أن أحكامهم في الدنيا حكم المسلمين إن قام عليهم حدٌّ أقيم عليهم، وفي الآخرة معرّضون للوعيد ومخوفٌ عليهم، ومع ذلك يؤمنون بالأخبار المتواترة عن النبي ﷺ في الآخرة من الشفاعة للعصاة.

«فيشفع فيمن استحقّ النّار ألا يدخلها، ويشفع فيمن دخلها» منهم «أن يخرج منها» قبل أن يطهّروا من أوضار الذنوب، فإذا طهّروا أخرجوا، إذا كانوا ماتوا على التوحيد، كما بيّن في الأحاديث أن من مات على التوحيد غير مشرك فالشفاعة تتناوله، قال ﷺ: «وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء اللَّه من لا يشرك باللَّه شيئًا»(1).

«ويخرج اللَّه من النّار أقوامًا» ممن استحق النار من الموحدين «بغير شفاعةٍ؛ بل بفضله ورحمته» بمحض فضلٍ من اللَّه ورحمته؛ كما جاءت بذلك النصوص الثابتة عن النبي ﷺ وذلك لسبق الرحمة الغضب؛ كما في الحديث: «إن رحمتي سبقت غضبي»(2).

«ويبقى في الجنّة فضلٌ عمّن دخلها من أهل الدّنيا، فينشئ اللَّه لها أقوامًا» لم يعملوا خيرًا قط، لأنها وعدت ملئها، «فيدخلهم الجنّة» بفضله ورحمته، كما أن الأولين يدخلون الجنة بفضله ورحمته، أبلغ من أن يعفى عن أناس؛ لأن الجنة وعدت ملئها، وليس فيها تضايق كالنار.

والفرق بين هذه وهذه، من سبق الرحمة للغضب من إدخال قوم الجنة بغير شفاعة، وأن النار لا تدخل إلا بذنوب فتمتلئ؛ كما في الحديث.

وهذا لما سبق، من سبق الرحمة الغضب، فإن جانب الفضل والرحمة، أغلب من جانب العدل والغضب، وأما النار فلا تمتلئ بل لا تزال تطلب الزيادة حتى يكمل أهلها فيها، ولا تزال تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها رجله، فينزوي بعضها إلى بعض فيصيرون ملئها بضيق، فتقول: قط قط، ولا ينشئ اللَّه لها كما أنشأ للجنة.

ولنعرف أنه جاء في حديث أبي هريرة انقلاب على بعض الرواة: «أنه ينشئ للنار من يشاء فيلقون

---

(1) البخاري (٦٣٠٤)، ومسلم (١٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) البخاري (٧٥٥٤)، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فيها »، وهذا انقلاب، بل صواب الحديث وصحيحه الثابت: «أن الله ينشئ للجنة خلقًا فيسكنهم فضل الجنة».

«وأصناف ما تضمّنته الدّار الآخرة»، وما أعد فيها «من الحساب والعقاب والثّواب والجنّة والنّار وتفاصيل ذلك» كلها معلومة «مذكورةٌ في الكتب المنزّلة من السّماء، و» في «الآثار من العلم المأثور عن الأنبياء».

«وفي العلم الموروث عن» النبي «محمّدٍ ﷺ من ذلك ما يشفي ويكفي» مما تضمنه الكتاب والسنّة، بل في القرآن والسنة أعظم وأكثر مما سواهما من الكتب. بل ما جاء عن النبي ﷺ أشمل مما جاء في الكتب السابقة وأخبار الماضين.

«فمن ابتغاه» فمن تطلّبه وتتبعه في مظانه فيها «وجده» مبينًا موضحًا في كتب التفاسير والسنن والصّحاح وغيرها من كتب الحديث، فإن في ذلك من التفاصيل شيء كثير.

وكأن المصنف رأى أنه أقلّ في المقام، ولكن المقام لا يتحمل وينبغي أن يتطلّب، فأحال بقوله: «وتفاصيل ذلك ... إلخ».

❁ قال الشيخ زيد بن عبد العزيز آل فياض رحمه الله:

القيامة الكبرى:

قوله: «ثمّ بعد هذه الفتنة إمّا نعيمٌ وإمّا عذابٌ، إلى يوم القيامة الكبرى ....».

«الإيمان بالمعاد قد دل عليه الكتاب والسنة والعقل والفطرة السليمة فقد أخبر الله سبحانه عنه في كتابه وأقام الدليل عليه ورد على المنكرين في غالب سور القرآن. وذلك أن الأنبياء كلهم متفقون على الإيمان بالله فإن الإقرار بالرب عام في بني آدم وهو فِطْري كلهم يقر بالرب إلا من عاند كفرعون بخلاف الإيمان باليوم الآخر فإن منكريه كثيرون ولما كان محمد ﷺ خاتم النبيين، وكان قد بعث هو والساعة كهاتين، وهو الحاشر المقفي بين تفاصيل الآخرة بيانًا لا يوجد في كثير من كتب الأنبياء، ولهذا ظن طائفة من المتفلسفة ونحوهم أنه لم يفصح بمعاد الأبدان إلا محمد ﷺ وجعلوا هذا حجة لهم أنه من باب التخييل والخطاب الجمهوري، والقرآن بين معاد النفس عند الموت ومعاد الأبدان عند القيامة الكبرى في غير موضع، وهؤلاء ينكرون القيامة الكبرى وينكرون معاد الأبدان، ويقول من يقول منهم: إنه لم يخبر به إلا محمد ﷺ على طريق التخييل. وهذا كذب فإن القيامة الكبرى معروفة عند الأنبياء من آدم إلى نوح إلى إبراهيم إلى موسى وعيسى وغيرهم، وقد أخبر الله عن أهل النار إذا سألهم خزنتها: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾، وهذا اعتراف من أصناف الكفار الداخلين جهنم أن الرسل أنذرتهم لقاء يومهم هذا، فجميع المرسلين أنذروا بما أنذر به خاتمهم من عقوبات

المذنبين في الدنيا والآخرة، وعامة سور القرآن التي فيها الوعد والوعيد يذكر ذلك فيها في الدنيا والآخرة، وأمر الله نبيه أن يقسم على المعاد فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾. الآيات، وقال: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾. وقال: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾. وأخبر عن اقترابها فقال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾، ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾. وذم المكذبين للمعاد فقال: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾. وقال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

والقول الذي عليه السلف وجمهور العقلاء أن الأجسام تنتقل من حال إلى حال فتستحيل ترابًا، ثم ينشئها الله نشأة أخرى كما استحال في النشأة الأولى، فإنه كان نطفة ثم صار علقة ثم صار عظاما ولحما ثم أنشأه الله خلقًا سويًا، كذلك الإعادة يعيده الله بعد أن يبلى كله إلا عجب الذنب الذي منه خلق ابن آدم، ومنه يركب، وفي حديث آخر: أن السماء تمطر منيًا كمني الرجال فينبتون في القبور كما ينبت النبات. فالنشأتان نوعان تحت جنس يتفقان ويتماثلان من وجه ويفترقان ويتنوعان من وجه، والمعاد هو الأول بعينه وإن كان بين لوازم الإعادة ولوازم البداءة فرق، فعجب الذنب هو الذي يبقى، وأما سائره فستحيل فيعاد من المادة التي استحال إليها، ومعلوم أن من رأى شخصًا وهو صغير، ثم رآه وقد صار شيخًا علم أن هذا هو ذاك مع أنه دائمًا في تحلل واستحالة، وكذلك سائر الحيوان والنبات فمن رأى شجرة وهي صغيرة ثم رآها وهي كبيرة، قال: هذه تلك وليست صفة النشأة الثانية مماثلة لصفة هذه النشأة حتى يقال: إن الصفات هي المغيرة لا سيما أهل الجنة إذا دخلوها، فإنهم يدخلونها على صورة آدم طوله ستون ذراعًا، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما، وروي أن عرضه سبعة أذرع وتلك نشأة باقية غير معرضة للآفات، وهذه النشأة فانية معرضة للآفات».

وفي الصحيحين عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه». وفيهما عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «إنكم تحشرون إلى الله يوم القيامة حفاة عراة عزلًا». قالت عائشة: يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «يا عائشة إن الأمر أشد من أن يهمهم ذاك»[1]. وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: (قام فينا

(١) البخاري (٦٥٢٧)، مسلم (٢٨٥٩) من حديث عائشة.

النبي ﷺ يخطب فقال : « إنكم تحشرون حفاة عراة غرلًا ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ »[1] . الآية الحديث ، وروى مسلم عن المقداد بن الأسود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو ميلين قال : فتصهرهم الشمس فيكونون في العرق كقدر أعمالهم ، ومنهم من يأخذه إلى عقبيه ، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من يأخذه إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه إلجامًا » .

قوله : « إنكم تحشرون حفاة عراة غرلًا » . الحفاة جمع حاف وهو من لا نعل له ولا خف . والعراة جمع عار وهو من لا ثياب عليه « وغرلًا » بضم المعجمة وسكون الراء جمع أغرل ، وهو الأقلف وزنه ومعناه ، وهو من بقيت غرلته وهي الجلدة التي يقطعها الخاتن من الذكر .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعًا ، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم » .

قوله : « يلجمهم العرق » ، أي : يصل إلى أفواههم فيصير بمنزلة اللجام يمنعهم من الكلام ، قاله ابن الأثير في النهاية . « وقال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة : ظاهر الحديث تعميم الناس بذلك ، ولكن دلت الأحاديث الأخرى على أنه مخصوص بالبعض وهم الأكثر ، ويستثنى الأنبياء والشهداء ومن شاء الله ، فأشدهم في العرق الكفار ثم أصحاب الكبائر ثم من بعدهم والمسلمون منهم قليل بالنسبة إلى الكفار ، كما تقدم تقريره في بعث النار ، ومن تأمل الحالة المذكورة عرف عظم الهول فيها وذلك أن النار تحف بأرض الموقف وتدنى الشمس من الرءوس قدر ميل ، فكيف تكون حرارة تلك الأرض ؟ وماذا يرويها من العرق حتى يبلغ منها سبعين ذراعًا مع أن كل واحد لا يجد إلا موضع قدمه ، فكيف تكون حالة هؤلاء في عرقهم مع تنوعهم فيه ؟ إن هذا لمما يبهر العقول ، ويدل على عظيم القدرة ، ويقتضي الإيمان بأمور الآخرة ، وأن ليس للعقل فيها مجال ولا يعترض عليها بعقل ولا قياس ولا عادة ، وإنما يؤخذ بالقبول ويدخل تحت الإيمان بالغيب ومن توقف ذلك دل على خسرانه وحرمانه ، وفائدة الإخبار بذلك أن يتنبه السامع فيأخذ في الأسباب التي تخلصه من تلك الأهوال ، ويبادر إلى التوبة من التبعات ويلجأ إلى الكريم الوهاب في عونه على أسباب السلامة ، ويتضرع إليه في سلامته من دار الهوان وإدخاله دار الكرامة بمنه وكرمه » .

□ ميزان الأعمال :

قوله : « وتنصب الموازين ، فيوزن فيها أعمال العباد ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ » .

* قال تعالى : ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ

---

(١) البخاري (٦٥٢٦) ، مسلم (٢٨٦٠) من حديث ابن عباس .

حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ . وقال : ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ .

قوله : « والموازين » : جمع ميزان وأصله موزان فقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها ، واختلف في ذكره هنا بلفظ الجمع هل المراد أن لكل شخص ميزانًا أو لكل عمل ميزان ، فيكون الجمع حقيقة أو ليس هناك إلا ميزان واحد والجمع باعتبار تعدد الأعمال أو الأشخاص ، ويدل على تعدد الأعمال قوله تعالى : ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ﴾ . ويحتمل أن يكون الجمع للتفخيم كما في قوله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ مع أنه لم يرسل إليهم إلا واحد ، والذي يترجح أنه ميزان واحد ولا يشكل بكثرة من يوزن عمله ؛ لأن أحوال القيامة لا تكيف بأحوال الدنيا وحكى حنبل بن إسحاق في كتاب السنة عن أحمد بن حنبل أنه قال ردا على من أنكر الميزان ما معناه : قال تعالى : ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ، وذكر النبي ﷺ الميزان يوم القيامة فمن رد على النبي ﷺ فقد رد على الله ﷻ . وخص ممن يحاسب وتوزن أعمالهم طائفتان : فمن الكفار من لا ذنب له إلا الكفر ولم يعمل حسنة ، فإنه يقع في النار من غير حساب ولا ميزان ، ومن المؤمنين من لا سيئة له ولا حسنات كثيرة زائدة على محض الإيمان ، فهذا يدخل الجنة بغير حساب ، كما في قصة السبعين ألفًا ومن شاء الله أن يلحقه بهم وهم الذين يمرون على الصراط كالبرق الخاطف وكالريح وكأجاود الخيل ، ومن عدا هذين من الكفار والمؤمنين يحاسبون وتعرض أعمالهم على الموازين ، قال أبو إسحاق الزجاج : أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان ، وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة ، وأن الميزان له لسان وكفتان ويميل بالأعمال . وأنكرت المعتزلة الميزان وقالوا : هو عبارة عن العدل فخالفوا الكتاب والسنة ؛ لأن الله أخبر أنه يضع الموازين لوزن الأعمال ليرى العباد أعمالهم بمثله ، فيكونوا على أنفسهم شاهدين . والحق عند أهل السنة أن الأعمال حينئذ تجسد أو تجعل في أجسام ، فتصير أعمال الطائعين في صورة حسنة وأعمال المسيئين في صورة قبيحة ثم توزن ، ورجح القرطبي أن الذي يوزن الصحائف التي تكتب فيها الأعمال .

والصحيح أن الأعمال هي التي توزن ، وقد أخرج أبو داود والترمذي وصححه ابن حبان عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ : « ما يوضع في الميزان يوم القيامة أثقل من خلق حسن »[1] . وفي حديث جابر رفعه ، توضع الموازين يوم القيامة فتوزن الحسنات والسيئات ، فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال حبة دخل الجنة ، ومن رجحت سيئاته على حسناته دخل النار ، قيل : فمن استوت حسناته وسيئاته ؟ قال : أولئك أصحاب الأعراف . أخرجه خيثمة في فوائده .

وقال البغوي في تفسيره : فإن قيل : فقد قيل : ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ﴾ ذكر بلفظ الجمع والميزان

---

(١) أبو داود (٤٧٩٩) ، الترمذي (٢٠٠٣) من حديث أبي الدرداء . وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٥٧٢١) .

واحد؟ قيل: يجوز أن يكون لفظه جمعًا ومعناه واحدًا، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ وقيل: لكل عبد ميزان، وقيل: الأصل ميزان واحد عظيم، ولكل عبد فيه ميزان معلق به، وقيل: جمعه لأن الميزان يشتمل على الكفتين والشاهدين واللسان، ولا يتم الوزن إلا باجتماعها. اهـ.

والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل: الأعمال وإن كانت أعراضًا إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجسامًا، قال البغوي: روي نحو هذا عن ابن عباس كما جاء في الصحيحين من (أن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف)[1].

ومن ذلك في الصحيح قصة القرآن وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا القرآن الذي أسهرت ليلك وأظمأت نهارك.

وفي حديث البراء في قصة سؤال القبر: فيأتي المؤمن شاب حسن اللون طيب الريح فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح. وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق، وقيل: يوزن كتاب الأعمال، وقيل: يوزن صاحب العمل، وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار يكون ذلك كله صحيحًا، فتارة توزن الأعمال وتارة توزن محالها وتارة توزن فاعلها، والله أعلم. « وقال القرطبي: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها قال: وقوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يحتمل أن يكون ثم موازين متعددة توزن فيها الأعمال، ويحتمل أن يكون المراد الموزونات فجمع باعتبار تنوع الأعمال الموزونة، والله أعلم.

والذي دلت عليه السنة أن ميزان الأعمال له كفتان حسيتان مشاهدتان.

وفي حديث البطاقة فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة قال: « فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، ولا يثقل شيء بسم الله الرحمن الرحيم »[2]، روه أحمد والترمذي وزاد: ولا يثقل شيء اسم الله.

وفي سياق آخر: توضع الموازين يوم القيامة فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة. الحديث، وفي هذا السياق فائدة جليلة وهي: أن العامل يوزن مع عمله ويشهد له ما روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ». قال: « اقرءوا إن شئتم ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ »[3]. وروى الإمام أحمدَ عن ابن مسعود أنه كان يجني سواكا من الأراك وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفيه فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: « مم

---

(١) مسلم (٨٠٤).

(٢) الترمذي (٢٦٣٩)، مسند أحمد (٢/٢١٣) من حديث عبد الله بن عمرو. صححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (١٣٥).

(٣) البخاري (٤٧٢٩)، مسلم (٢٧٨٥) من حديث أبي هريرة.

تضحكون ؟ » قالوا : يا نبي الله من دقة ساقيه . فقال : « والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد »(١) .

وقد وردت الأحاديث أيضا بوزن الأعمال أنفسها كما في صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان »(٢) . وفي الصحيح : « كلمتان خفيفتان على اللسان حبيبتان إلى الرحمن ثقيلتان في الميزان : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم »(٣) ، ولا يلتفت إلى ملحد معاند يقول : الأعمال أعراض لا تقبل الوزن وإنما يقبل الوزن الأجسام ، فإن الله يقلب الأعراض أجسامًا كما روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يؤتى بالموت كبشًا أغر فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال : يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون ، ويقال : يا أهل النار فيشرئبون وينظرون ويرون أن قد جاء الفرج ، فيذبح ويقال : خلود لا موت »(٤) . ورواه البخاري بمعناه فثبت وزن الأعمال والعامل وصحائف الأعمال ، وثبت أن الميزان له كفتان ، والله أعلم بما وراء ذلك من الكيفيات ولم يكن من الحكمة في وزن الأعمال إلا ظهور عدله سبحانه لجميع عباده ، فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ، فكيف ووراء ذلك من الحكم ما لا اطلاع لنا عليه .

فتأمل قول الملائكة لما قال الله لهم : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ . وقال تعالى : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

□ الحساب وتطاير الصحف :

قوله : « وتنشر الدواوين : وهي صحائف الأعمال ؛ فآخذ كتابه بيمينه ، وآخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره ، كما قال سبحانه : ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾ ..» :

* قال تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ الآيات .

قوله : « وتنشر الدواوين وهي صحائف الأعمال » : نشر الدواوين فتحها وبسطها ، قوله تعالى :

---

(١) أحمد (١/ ٤٢٠) صححه الألباني في « السلسلة الصحيحة »(٢٧٥٠) .

(٢) مسلم (٢٢٣) .

(٣) البخاري (٦٤٠٦) ، مسلم (٢٦٩٤) من حديث أبي هريرة .

(٤) البخاري (٤٧٣٠) ، مسلم (١٨٤٩) من حديث أبي سعيد .

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ : ﴿طَٰٓئِرَهُۥ﴾ ما طار له من عمله المقدر له من خير وشر ، وخص (العنق) بالذكر لكونه عضوًا من الأعضاء لا نظير له في الجسد ، ومن ألزم بشيء فيه فلا محيد له عنه ، وتقدم حديث : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان » ، وفي الصحيحين عن عائشة أن رسول اللَّه ﷺ قال : « ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك » . فقلت : يا رسول اللَّه ، أليس قد قال اللَّه تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ . فقال رسول اللَّه ﷺ : « إنما ذلك العرض وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب »[1] ، ولهما عن ابن عمر قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « إن اللَّه يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ، ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أن قد هلك قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته »[2] .

وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد : ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ . أخرجاه في الصحيحين .

وروى الإمام أحمد عن أبي موسى قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ؛ فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخذ كتابه بيمينه وآخذ بشماله »[3] ، ورواه ابن ماجه عن أبي هريرة[4] ، وروى ابن جرير عن عبد اللَّه موقوفًا نحوه ، وروى أبو داود عن عائشة ﵂ أنه ذكرت النار فبكت ، فقال رسول اللَّه ﷺ : ما يبكيك ؟ قالت : ذكرت النار فبكيت فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ فقال رسول اللَّه ﷺ : أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحدًا ؛ عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أو يثقل ؟ وعند الكتاب حين يقال : ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ حتى يعلم أين يقع كتابه أفي يمينه أم في شماله أم من وراء ظهره ؟ وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم ، وعنها قالت : قال رسول اللَّه ﷺ الدواوين عند اللَّه ثلاثة ؛ ديوان لا يعبأ اللَّه به شيئًا ، وديوان لا يترك اللَّه منه شيئًا ، وديوان لا يغفره اللَّه ، فأما الديوان الذي لا يغفره اللَّه فالشرك باللَّه ، قال اللَّه ﷻ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ الآية ، وقال : ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ ، وأما الديوان الذي لا يعبأ اللَّه به شيئًا فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين اللَّه من صوم يوم تركه ، أو صلاة فإن اللَّه يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء ، وأما الديوان الذي لا يترك اللَّه منه شيئًا فظلم العباد بعضهم بعضًا ، القصاص لا محالة ، رواه أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه .

(١) البخاري (١٠٣) ، مسلم (٢١٧٦) .

(٢) البخاري (٢٤٤١) .

(٣) أحمد (٤/٤١٤) ضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (٦٤٣٢) .

(٤) ابن ماجه (٤٢٧٧) .

قوله ﷺ في حديث عائشة المتقدم : « ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك » . ثم قال أخيرًا : « وليس أحد يناقش الحساب إلا عذب » .

وكلاهما يرجعان إلى معنى واحد ؛ لأن المراد بالمحاسبة تحرير الحساب فيستلزم المناقشة ومن عذب فقد هلك ، وقال القرطبي في « المفهم » : قوله : « حوسب » أي حساب استقصاء ، وقوله : « عذب » أي : في النار جزاء على السيئات التي أظهرها حسابه ، وقوله : « هلك » أي : بالعذاب في النار . قال : وتمسكت عائشة بظاهر لفظ الحساب ؛ لأنه يتناول القليل والكثير ، قال القرطبي : معنى قوله : « إنما ذلك العرض » أن الحساب المذكور في الآية إنما هو أن تعرض أعمال المؤمن عليه حتى يعرف منة الله عليه في سترها عليه في الدنيا وفي الآخرة ، كما في حديث ابن عمر في النجوى . قال عياض : قوله : « عذب » له معنيان . أحدهما : أن مناقشة الحساب وعرض الذنوب والتوقف على قبيح ما سلف والتوبيخ تعذيب . والثاني : أنه يفضي إلى استحقاق العذاب إذ لا حسنة للعبد إلا من عند الله لإقداره عليها وتفضله عليه بها وهدايته لها ، ولأن الخالص لوجهه قليل ، ويؤيد هذا الثاني قوله في الرواية الأخرى : « هلك » ، وقال النووي : التأويل الثاني هو الصحيح ؛ لأن التقصير غالب على الناس فمن استقصى عليه ولم يسامح هلك .

وقال غيره : وجه المعارضة أن لفظ الحديث عام في تعذيب كل من حوسب ، ولفظ الآية دال على أن بعضهم لا يعذب ، وطريق الجمع أن المراد بالحساب في الآية العرض وهو إبراز الأعمال وإظهارها ، فيعرف صاحبها بذنوبه ثم يتجاوز عنه ، ويؤيده ما وقع عند البزار والطبراني من طريق عباد بن عبد الله بن الزبير سمعت عائشة تقول : سألت رسول الله ﷺ عن الحساب اليسير ؟ قال : « الرجل تعرض عليه ذنوبه ثم يتجاوز له عنها »[1] .

وفي حديث أبي ذر عند مسلم : « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه » . الحديث .

ووقع في رواية لابن مردويه عن عائشة مرفوعًا : لا يحاسب رجل يوم القيامة إلا دخل الجنة . وظاهره يعارض حديثها المذكور في الباب ، وطريق الجمع بينهما أن الحديثين معًا في حق المؤمن ، ولا منافاة بين التعذيب ودخول الجنة ؛ لأن الموحد وإن قضي عليه بالتعذيب فإنه لا بد أن يخرج من النار بالشفاعة أو بعموم الرحمة » .

وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته ، كما قال تعالى : ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ . ولكنهم يجزون بأعمالهم كما قال تعالى : ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا

(١) مسند أحمد (٦/١٨٥) .

﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ . وقيل : توزن أعمال الكافر لقوله تعالى : ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم﴾ الآيات .

ونقل القرطبي عن بعض العلماء أنه قال : الكافر لا ثواب له وعمله مقابله بالعذاب ، فلا حسنة له توزن في موازين القيامة ومن لا حسنة له فهو في النار ، واستدل بقوله تعالى : ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ . وبحديث أبي هريرة وهو في الصحيح في الكافر لا يزن عند الله جناح بعوضة ، ومن قال : توزن أعمال الكافر . قال في الحديث : أن المراد به بيان حقارة قدره ولا يلزم منه عدم الوزن .

وحكى القرطبي في صفة وزن عمل الكافر وجهين :

أحدهما : أن كفره يوضع في الكفة ، ولا يجد له حسنة يضعها في الأخرى فتطيش التي لا شيء فيها ، قال : وهذا ظاهر الآية ؛ لأنه وصف الميزان بالخفة لا الموزون .

وثانيهما : قد يقع منه العتق والبر والصلة وسائر أنواع الخير المالية ، مما لو فعلها المسلم لكانت له حسنات ، فمن كانت له حسنة جمعت ووضعت غير أن الكفر إذا قابلها رجح » .

قال الحافظ : ويحتمل أن يجازى بها عما يقع منه من ظلم العباد مثلًا ، فإن استوت عذب بكفره مثلًا فقط وإلا زيد عذابه بكفره أو خفف عنه كما في قصة أبي طالب . اهـ .

الحوض :

وفي عرصات القيامة الحوض المورود للنبي ﷺ ماؤه أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل ، آنيته عدد نجوم السماء طوله شهر وعرضه شهر ، من يشرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدًا » .

ثبت في صحيح مسلم عن أنس قال : « أغفي رسول الله ﷺ إغفاءة فرفع رأسه متبسمًا ، إما قال لهم وإما قالوا له : لم ضحكت ؟ فقال رسول الله ﷺ : إنه أنزلت علي آنفًا سورة فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ حتى ختمها فقال : هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هو نهر أعطانيه ربي ﷻ في الجنة عليه خير كثير ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد الكواكب يختلج العبد منهم ، فأقول : يا رب إنه من أمتي فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك »[1] . ورواه أحمد وأبو داود وغيرهما ، وعن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ ترِدون على الحوض وأنا أرد عنه الناس بعصاي . قلنا : يا رسول الله ما عرضه ؟ قال : كما بين مقامي هذا إلى عمان . قلنا : وما آنيته ؟ قال : عدد النجوم فيه ميزابان من الجنة أحدهما من ذهب والآخر من ورق ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا . قال ثوبان : فادعوا الله ﷻ أن يجعلكم من وارديه)[2] .

وقال عبد الله بن عمر : وقال النبي ﷺ : « حوضي مسيرة شهر وزواياه سواء ، وماؤه أبيض من

(١) مسلم (٤٠٠) .

(٢) أحمد (٥/٢٨٢) .

الورق وريحه أطيب من المسك وكيزانه كنجوم السماء ، فمن شرب منه فلا يظمأ بعده أبدا »(١) . متفق عليه واللفظ لمسلم ، وعن أنس قال : « لما أسري برسول الله ﷺ مضى به جبريل إلى السماء الدنيا ، فإذا هو بنهر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد ، فذهب يشم ترابه فإذا هو مسك قال : « يا جبريل ما هذا النهر ؟ قال : هو الكوثر الذي خبأ لك ربك » »(٢) .

رواه ابن جرير وفي حديث لقيط بن عامر : « ثم ينصرف نبيكم وينصرف على أثره الصالحون فيسلكون جسرًا من النار ، فيطأ أحدكم الجمر فيقول : حس . يقول ربك ﷻ : أوانه ألا فتطلعون على حوض نبيكم على أظمأ ، والله ناهلة عليها قط رأيتها فلعمر إلهك ما يبسط واحد منكم يده إلا وضع عليها قدح يطهره من الطوف والبول والأذى »(٣) .

« والأحاديث الواردة في الحوض تبلغ حد التواتر رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابيًا ، بل قد روى أحاديث الحوض أربعون من الصحابة وكثير منها ، وأكثرها في الصحيح ، ورواه غيرهم أيضًا ، وهل الحوض مختص بنبينا ﷺ أم لكل نبيًا حوض ؟ فالحوض الأعظم مختص به لا يشركه فيه نبي غيره ، وأما سائر الأنبياء فقد روى الترمذي في جامعه عن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لكل نبي حوضًا وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة ، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم واردة »(٤) .

وفي مسند البزار عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : إن لي حوضًا ما بين بيت المقدس إلى الكعبة أبيض من اللبن ، فيه عدد الكواكب آنية وأنا فرطكم على الحوض ، ولكل نبي حوض وكل نبي يدعو أمته ، فمنهم من يرد عليه فئام من الناس ، ومنهم من يرد عليه ما هو دون ذلك ، ومنهم من يرد عليه العصابة ، ومنهم من يرد عليه الرجلان والرجل ، ومنهم من لا يرد عليه أحد فيقول : اللهم قد بلغت اللهم قد بلغت ثلاثًا وذكر الحديث » .

وذكر بعضهم أنه قد روى أحاديث الحوض خمسون من الصحابة قال : وللكثير من هؤلاء الصحابة في ذلك زيادة على الواحد ، كأبي هريرة وأنس وابن عباس وأبي سعيد وعبد الله بن عمرو ، وأحاديثهم بعضها في مطلق ذكر الحوض وفي صفته بعضها ، وفيمن يرد عليه بعضها ، وفيمن يدفع عنه بعضها قال : وبلغني أن بعض المتأخرين وصلها إلى رواية ثمانين صحابيًا . اهـ ..

وقال أبو عبد الله القرطبي في المفهم : مما يجب على المكلف أن يعلمه ويصدق به أن الله سبحانه وتعالى قد خص نبيه محمدًا ﷺ بالحوض المصرح باسمه وصفته وشرابه في الأحاديث الصحيحة

---

(١) البخاري (٦٥٧٩) ، مسلم (٢٢٩٢) .

(٢) البخاري (٧٥١٧) .

(٣) أحمد (١٤/٤) .

(٤) الترمذي (٢٤٤٣) من حديث سمرة . وينظر في « السلسلة الصحيحة » (١٥٨٩) .

الشهيرة التي يحصل بمجموعها العلم القطعي ؛ إذ روى ذلك عن النبي ﷺ من الصحابة نيف على الثلاثين منهم في الصحيحين ما ينيف على العشرين ، وفي غيرها بقية ذلك مما صح نقله واشتهرت رواته ، ثم رواه عن الصحابة المذكورين من التابعين أمثالهم ومن بعدهم أضعاف أضعافهم ، وهلم جراه ، وأجمع على إثباته السلف وأهل السنة من الخلف ، وأنكرت ذلك طائفة من المبتدعة وأحالوه عن ظاهر وغلوا في تأويله من غير استحالة عقلية ولا عادية تلزم من حمله على ظاهره وحقيقته ولا حاجة تدعو إلى تأويله ، فخرق من حرفه إجماع السلف وفارق مذهب أئمة الخلف . اهـ .

« وورود حوض النبي ﷺ قبل الصراط فيرده قوم ويذاد عنه آخرون وقد بدلوا وغيروا » . وقد أخرج أحمد والترمذي عن أنس قال : « سألت رسول اللّه ﷺ أن يشفع لي فقال : أنا فاعل فقلت : أين أطلبك ؟ قال : اطلبني أول ما تطلبني على الصراط قلت : فإن لم ألقك ؟ قال : أنا عند الميزان قلت : فإن لم ألقك ؟ قال : أنا عند الحوض »[1] .

وقد استشكل كون الحوض بعد الصراط بما جاء في بعض الأحاديث أن جماعة يدفعون عن الحوض بعد أن يكادوا يردون ويذهب بهم إلى النار ، ووجه الإشكال أن الذي يمر على الصراط إلى أن يصل إلى الحوض يكون قد نجا من النار فكيف يرد إليها ؟ ويمكن أن يحمل على أنهم يقربون من الحوض ؛ بحيث يرونه ويرون النار فيدفعون إلى النار قبل أن يخلصوا من بقية الصراط ، وقال أبو عبد اللّه القرطبي في التذكرة : ذهب صاحب القوت وغيره : إلى أن الحوض يكون بعد الصراط ، وذهب آخرون إلى العكس ، والصحيح أن للنبي ﷺ حوضين أحدهما في الموقف قبل الصراط ، والآخر داخل الجنة وكل منهما يسمى كوثرًا ، قال الحافظ : وفيه نظر ؛ لأن الكوثر نهر داخل الجنة ، وماؤه يصب في الحوض ، ويطلق على الحوض كوثرًا لكونه يمد منه . فغاية ما يؤخذ من كلام القرطبي أن الحوض يكون قبل الصراط ، فإن الناس يردون الموقف عطاشًا فيرد المؤمنون الحوض ، وتتساقط الكفار في النار بعد أن يقولوا : ربنا عطشنا فترفع لهم جهنم كأنها سراب فيقال : ألا تردون فيظنونها ماء فيتساقطون فيها .

وقد أخرج مسلم من حديث أبي ذر أن الحوض يشخب فيه ميزابان من الجنة ، وله شاهد من حديث ثوبان وهو حجة على القرطبي لا له ؛ لأنه قد تقدم أن الصراط جسر جهنم وأنه بين الموقف والجنة ، وأن المؤمنين يمرون عليه لدخول الجنة فلو كان الحوض دونه لحالت النار بينه وبين الماء الذي يصب من الكوثر في الحوض ، وظاهر الحديث أن الحوض بجانب الجنة لينصب فيه الماء من النهر الذي داخلها ، وفي حديث ابن مسعود عند أحمد : ويفتح نهر الكوثر إلى الحوض . اهـ .

وقال القرطبي في التذكرة : واختلف في الميزان والحوض أيهما يكون قبل الآخر ؟ فقيل : الميزان وقيل : الحوض ، قال أبو الحسن القابسي : والصحيح أن الحوض قبل ، قال القرطبي : والمعنى يقتضيه

---

(١) الترمذي (٢٤٣٣) ، أحمد (١٧٨/٣) وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة »(٢٦٣٠) .

فإن الناس يخرجون عطاشًا من قبورهم- كما تقدم- فيقدم قبل الميزان والصراط قال أبو حامد الغزالي في كتاب كشف علم الآخرة : حكى بعض السلف من أهل التصنيف أن الحوض يورد بعد الصراط وهو غلط من قائله القرطبي هو كما قال ، ثم قال القرطبي : ولا يخطر ببالك أنه في هذه الأرض بل في الأرض المبدلة أرض بيضاء ، كالفضة لم يسفك فيها دم ولم يظلم على ظهرها أحد قط ، تظهر لنزول الجبار جل جلاله لفصل القضاء انتهى .

فقاتل اللّه المنكرين لوجود الحوض وأخلق بهم أن يحال بهم وبين وروده يوم العطش الأكبر » .

وقوله ﷺ في حديث لقيط بن عامر : « فتطلعون على حوض نبيكم » . ظاهر هذا أن الحوض من وراء الجسر وكأنهم لا يصلون إليه حتى يقطعوا الجسر ، وللسلف في ذلك قولان حكاهما القرطبي في تذكرته والغزالي وغلَّطَا من قال : إنه بعد الجسر ، وقد روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال : « بينا أنا قائم على الحوض إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال لهم : هلم فقلت : إلى أين ؟ فقال : إلى النار واللّه قلت : ما شأنهم ؟ قال : إنهم ارتدوا على أدبارهم فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم » ، قال : فهذا الحديث مع صحته أدل دليل على أن الحوض يكون في الموقف قبل الصراط ؛ لأن الصراط إنما هو جسر ممدود على جهنم ، فمن جازه سلم من النار قلت : وليس بين أحاديث رسول اللّه ﷺ تعارض ولا تناقض ولا اختلاف ، وحديثه كله يصدق بعضه بعضا ، وأصحاب هذا القول إن أرادوا أن الحوض لا يرى ولا يوصل إليه إلا بعد قطع الصراط ، فحديث أبي هريرة هذا وغيره يرد قولهم ، وإن أرادوا أن المؤمنين إذا جازوا الصراط وقطعوه بدا لهم الحوض فشربوا منه ، فهذا يدل عليه حديث لقيط هذا وهو لا يناقض كونه قبل الصراط ، فإنه قال : طوله شهر وعرضه شهر فإذا كان بهذا الطول والسعة فما الذي يحيل امتداده إلى ما وراء الجسر ؟ فيرده المؤمنون قبل الصراط وبعده ؟ فهذا في حيز الإمكان ووقعه موقوف على خبر الصادق . واللّه أعلم . وقوله : « على أظمأ ناهلة قط » الناهلة العطاش الوارد دون الماء أي : يردونه أظمأ ما هم إليه ، وهذا يناسب أن يكون بعد الصراط فإنه جسر النار ، وقد وردها كلهم فلما قطعوه اشتد ظمؤهم إلى الماء فوردوا حوضه ﷺ كما وردوه في موقف القيامة » .

□ الصراط والقنطرة :

قوله : « والصراط منصوب على متن جهنم ، وهو الجسر الذي بين الجنة والنار ، يمر الناس عليه على قدر أعمالهم ..» :

* بعد مفارقة الناس للموقف يمرون على الصراط « وحشرهم وحسابهم يكون قبل الصراط ، فإن الصراط عليه ينجون إلى الجنة ، ويسقط أهل النار فيها كما ثبت في الأحاديث » .

وفي صحيح مسلم عن عائشة أنها سألت النبي ﷺ : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض

والسماوات ؟ قال : « على الصراط »[١] ، وله أيضًا عن ثوبان (أن حبرًا من اليهود سأل النبي ﷺ أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ؟ قال : « هم في الظلمة دون الجسر » . قال : فمن أول الناس إجازة قال : « فقراء المهاجرين »[٢] .

وذكر الحديث « ويمكن الجمع بين الحديثين بأن الظلمة دون الجسر حكمها حكم الجسر ، وفيها تقسيم الأنوار للجواز على الجسر ، فقد يقع تبديل الأرض والسماوات وطي السماء من حين وقوع الناس في الظلمة ، ويمتد ذلك إلى حال المرور على الصراط والله أعلم » .

وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ قال : « والذي نفسي بيده لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة » . قالت حفصة : فقلت : يا رسول الله ، أليس الله يقول : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فقال : « ألم تسمعيه قال : ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ »[٣] .

« أشار ﷺ إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها ، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله ، بل تستلزم انعقاد سببه فمن طلبه عدوه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه يقال : نجاه الله منهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا﴾ ، ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا﴾ ، ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾ . ولم يكن العذاب أصابهم ولكن أصاب غيرهم ولولا ما خصهم الله به من أسباب النجاة لأصابهم ما أصاب أولئك ، وكذلك حال الوارد في النار يمرون فوقها على الصراط ، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيا فقد بين ﷺ في حديث جابر المذكور أن الورود المذكور في الآية هو المرور على الصراط » .

قوله : « وهو الجسر » ، الجسر : بفتح الجيم ويجوز كسرها ، و« الكلاليب » : جمع كلوب بالتشديد وهو حديدة معوجة الرأس ، كما في النهاية .

وفي رواية حذيفة وأبي هريرة معًا : وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به . وفي رواية سهيل : وعليه كلاليب النار . قوله : « تخطف الناس » بكسر الطاء وبفتحها قال ثعلب في الفصيح : خطف بالكسر في الماضي وبالفتح في المضارع ، وحكى القزاز عكسه والكسر في المضارع أفصح » .

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري عن النبيِّ ﷺ فذكر حديثًا طويلًا وفيه قال : (ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ، فيقولون : اللهم سلم سلم . قيل : يا رسول الله وما الجسر ؟ قال : دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسكة تكون بنجد فيها شويكة يقال لها : السعدان فيمره

---

(١) مسلم (٢٧٩) .

(٢) مسلم (٣١٥) .

(٣) مسلم (٢٤٩٦) .

المؤمن كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب ، فناج مسلم ، ومخدوش مرسل ، ومكردس على وجهه في النار) .

وفي رواية للبخاري : حتى يمر آخرهم سحبًا ، وفي رواية لمسلم قال أبو سعيد الخدري : بلغني أن الجسر أدق من الشعر وأحد من السيف .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فذكر الحديث ، وفيه قال : ويضرب الجسر بين ظهراني جهنم فأكون أنا وأمتي أول من يجيزه ، ولا يتكلم في ذلك اليوم إلا الرسل ، ودعوة الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم ، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم السعدان ؟ قالوا : نعم يا رسول الله . قال : فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمتها إلا الله ﷻ تخطف الناس بأعمالهم ، فمنهم الموبق بعمله ، ومنهم المخردل ثم ينجو الحديث ، وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : يجمع الله الناس يوم القيامة فذكر الحديث وفيه : فيعطون نورهم على قدر أعمالهم ، فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل بين يديه ، ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك ، ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه ، ومنهم من يعطى دون ذلك بيمينه حتى يكون آخر من يعطى نوره على إبهام قدمه يضيء مرة ويطفأ مرة ، إذا أضاء قدم قدمه وإذا طفئ قام ، فيمر ويمرون على الصراط ، والصراط كحد السيف دحض مزلة فيقال لهم : امضوا على قدر نوركم فمنهم من يمر كانقضاض الكواكب ، ومنهم كالريح ، ومنهم من يمر كشد الرحل ويرمل رملًا فيمرون على قدر أعمالهم ، حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه يحبو على وجهه ويديه ورجليه تخر يد وتعلق يد وتخر رجل وتعلق رجل وتصيب جوانبه النار . قال : فيخلصون فإذا خلصوا قالوا : الحمد لله الذي نجانا منك بعد أن أراناك لقد أعطانا الله ما لم يعط أحدًا الحديث ، رواه الحاكم وصححه ورواه البيهقي وغيره .

« واقتسام المؤمنين الأنوار على حسب إيمانهم وأعمالهم الصالحة ، وكذلك مشيهم على الصراط في السرعة والبطء ، وذلك أن الإيمان والعمل الصالح في الدنيا هو الصراط المستقيم في الدنيا الذي أمر الله العباد بسلوكه والاستقامة عليه ، وأمرهم بسؤاله الهداية إليه فمن استقام سيره على هذا الصراط المستقيم في الدنيا ظاهرًا وباطنًا استقام مشيه على ذلك الصراط المنصوب على متن جهنم ، ومن لم يستقم سيره على هذا الصراط المستقيم في الدنيا ، بل انحرف عنه إما إلى فتنة الشبهات أو إلى فتنة الشهوات كان اختطاف الكلاليب له على صراط جهنم بحسب اختطاف الشبهات والشهوات له عن هذا الصراط المستقيم ، كما في حديث أبي هريرة أنها تخطف الناس بأعمالهم .

عن أبي سعيد الخدري قال : (قال رسول الله ﷺ يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة ، فوالذي نفس

محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا)[١] . رواه البخاري ومسلم، ولمسلم عن أبي هريرة قال : (قال رسول الله ﷺ : لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء تنطحها)[٢] .

ورواه أحمد والترمذي وفي مراسيل الحسن قال : بلغني أن رسول الله ﷺ قال : يحبس أهل الجنة بعد ما يجوزون الصراط حتى يؤخذ لبعضهم من بعض ظلاماتهم في الدنيا ، ويدخلون الجنة وليس في قلوب بعضهم على بعض غل » . أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح . قوله : « وقفوا على قنطرة » . القنطرة الجسر وما ارتفع من البنيان ، قاله في القاموس . وقال في المصباح : القنطرة ما بني على الماء للعبور عليه وهي فنعلة ، والجسر أعم لأنه يكون بناء أو غير بناء . اهـ .

« واختلف في القنطرة المذكورة فقيل : هي من تتمة الصراط وهي طرفه الذي يل الجنة ، وقيل : إنهما صراطان ، وبهذا الثاني جزم القرطبي ، قوله : « فيقتضى لبعضهم من بعض » بضم أوله على البناء للمجهول للأكثر ، وفي رواية الكشميهني بفتح أوله فتكون اللام على هذه الرواية زائدة ، أو الفاعل محذوف وهو الله ، أو من أقامه في ذلك ، وفي رواية شيبان : « فيقتص بعضهم من بعض » ، قوله : « حتى إذا هذبوا ونقوا » بضم الهاء وبضم النون وهما بمعنى التمييز والتخليص من التبعات » .

□ أول من يستفتح باب الجنة وذكر الشفاعة :

قوله : « وأول من يستفتح باب الجنة محمد ﷺ ، وأول من يدخل الجنة من الأمم أمته ، وله في القيامة ثلاث شفاعات ..» :

* روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أكثر الناس تبعًا يوم القيامة ، وأول من يقرع باب الجنة »[٣] ، وروى الترمذي عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : « ألا وأنا حبيب الله ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر ، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر ، وأول من يحرك حلقة باب الجنة فيفتح لي فأدخلها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر »[٤] . وروى الترمذي أيضًا عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أول الناس خروجًا إذا بعثوا ، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا ، وقائدهم إذا وفدوا ، وشافعهم إذا حبسوا ، وأنا مبشرهم إذا أيسوا ، لواء الحمد بيدي ومفاتيح الجنة يومئذ بيدي ومفاتيح الجنة يومئذ بيدي ، وأنا أكرم ولد آدم يومئذ علي ربي ولا فخر ، يطوف علي ألف خادم كأنهم اللؤلؤ المكنون » .

---

(١) البخاري (٦٥٣٥) .

(٢) مسلم (٢٥٨٢) .

(٣) مسلم (١٩٦) .

(٤) الترمذي (٣٦١٦) ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (٤٠٧٧) .

وروى مسلم من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، ونحن أول من يدخل الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، وأوتيناه من بعدهم فاختلفوا فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه »[1] ، وفي حديث أنس عند مسلم فيقول الخازن : من ؟ فأقول : محمد . فيقول : بك أمرت ألّا أفتح لأحد قبلك .

« فهذه الأمة أسبق الأمم خروجًا من الأرض ، وأسبقهم إلى ظل العرش ، وأسبقهم إلى الفصل والقضاء ، وأسبقهم إلى الجواز على الصراط ، وأسبقهم إلى دخول الجنة ، فالجنة محرمة على الأنبياء حتى يدخلها محمد ﷺ ، ومحرمة على الأمم حتى تدخلها أمته ، وأما أول الأمة دخولًا فروى أبو داود في سننه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أتاني جبريل فأخذ بيدي فأراني باب الجنة الذي تدخل منه أمتي » . فقال أبو بكر : يا رسول الله وددت أني كنت معك حتى أنظر إليه فقال رسول الله ﷺ : « أما إنك يا أبا بكر أول من يدخل الجنة » ، قوله : « وودت أني كنت معك » . حرصًا منه على زيادة اليقين وأن يصير الخبر عيانًا ، كما قال إبراهيم الخليل : ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ » .

وفي الصحيحين عن ابن عمر قال : قال النبي ﷺ : « ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم » . وقال : « إن الشمس تدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن ، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد ﷺ فيشفع ليقضي بين الخلق ، فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب فيومئذ يبعثه الله مقامًا محمودًا يحمده أهل الجمع كلهم » . وفي صحيح مسلم عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أول الناس يشفع في الجنة » الحديث .

وفي صحيح مسلم عن حذيفة وأبي هريرة قالا : قال رسول الله ﷺ يجمع الله تبارك وتعالى الناس ، فيقوم المؤمنون حتى تزدلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون : يا أبانا استفتح لنا الجنة . فيقول : وهل أخرجكم من الجنة خطيئة أبيكم لست بصاحب ذلك . فذكر الحديث ، وفيه : فيأتون محمدًا ﷺ فيقوم فيؤذن له أي : في الشفاعة وترسل الأمانة والرحم فيقومان جنبي الصراط يمينًا وشمالًا ، فيمر أولكم كالبرق الحديث .

وفي حديث أبي بن كعب عند أبي يعلى : ثم امتدحه بمدحة يرضى بها عني ثم يؤذن لي في الكلام ، ثم تمر أمتي على الصراط وهو منصوب بين ظهراني جهنم فيمرون .

وفي حديث ابن عباس عند أحمد فيقول ﷻ : يا محمد ما تريد أن أصنع في أمتك ؟ فأقول : يا رب عجل حسابهم ، وفي رواية ابن عباس عند أحمد وأبي يعلى فأقول : أنا لها حتى يأذن الله لمن يشاء

(١) الترمذي (٣٦١٠) ، البزار (٦٥٢٣) وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع »(٤٠٧٧) .

ويرضى ، فإذا أراد الله أن يفرغ من خلقه نادى مناد أين محمد وأمته ؟ الحديث .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : أتى رسول الله ﷺ بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه ، فنهش منها نهشة ثم قال : أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون مم ذلك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فيقول بعض الناس لبعض : ألا ترون ما أنتم فيه ، ألا ترون ما قد بلغكم ؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض : أبوكم آدم فيأتون آدم فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا فيقول آدم : إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإنه نهاني عن أكل الشجرة فعصيت ، نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح ، فيأتون نوحًا فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسماك الله عبدًا شكورًا فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول نوح : إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإنه كانت لي دعوة دعوت بها على قومي ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى إبراهيم . فيأتون إبراهيم فيقولون : يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول : إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وذكر كذباته ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى موسى . فيأتون موسى فيقولون : يا موسى أنت رسول اصطفاك الله برسالاته وبتكليمه على الناس ، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم موسى : إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإني قتلت نفسًا لم أُومر بقتلها ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى عيسى . فيأتون عيسى فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه قال : هكذا هو وكلمت الناس في المهد فاشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم عيسى : إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، ولم يذكر له ذنبًا اذهبوا إلى محمد ﷺ ، فيأتون فيقولون : يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فأقوم فآتي تحت العرش فأقع ساجدًا لربي ﷻ ، ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد قبلي ، فيقال : يا محمد ارفع رأسك سل تعطه اشفع تشفع . فأقول : رب أمتي أمتي ، يا رب ، أمتي أمتي ، يا رب ، أمتي أمتي . فيقال : أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ، ثم قال : والذي نفسي بيده لما بين مصراعين من مصارع الجنة كما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصري .

وعن أبي هريرة : أن رسول اللّٰه ﷺ قال : لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي نائلة إن شاء اللّٰه من مات من أمتي لا يشرك باللّٰه شيئًا . متفق عليه .

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري عن رسول اللّٰه ﷺ في حديث الشفاعة الطويل وفيه : فيقول اللّٰه ﷻ : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجوه من النار . وفي لفظ : أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار ، فيخرجون من النار خلقًا كثيرًا ، ثم يقول أبو سعيد : اقرءوا إن شئتم : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ الآية .

وروى ابن ماجه من حديث عثمان : يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ، وفي الصحيح عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : « قال اللّٰه تعالى : شفعت الملائكة ، وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط ، قد عادوا حميمًا ، فيلقيهم في نهر في أمواه الجنة ، يقال له : نهر الحياة ، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل ، فيقول أهل الجنة : هؤلاء عتقاء اللّٰه الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه » ، وتقدم قوله ﷺ : « وأما الجنة فيبقى فيها فضل فينشيء اللّٰه لها خلقًا يسكنهم في فضول الجنة » .

وفي الصحيحين عن أبي سعيد أن رسول اللّٰه ﷺ ذكر عنده عمه أبو طالب فقال : « لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه » . فهذه الأحاديث دلت على أن الشفاعة ستة أقسام :

الأول : الشفاعة الكبرى التي يتأخر عنها أولو العزم عليهم السلام حتى تنتهي إليه ﷺ ، فيقول : أنا لها ، وذلك حين يرغب الخلائق إلى الأنبياء ليشفعوا لهم إلى ربهم حتى يريحهم من مقامهم في الموقف ، وهذه شفاعة يختص بها لا يشركه فيها أحد .

الثاني : شفاعته لأهل الجنة في دخولها ، وقد ذكرها أبو هريرة في حديثه الطويل المتفق عليه .

الثالث : شفاعته لقوم من العصاة من أمته قد استوجبوا النار بذنوبهم فيشفع لهم ألّا يدخلوها .

الرابع : شفاعته في العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم ، والأحاديث بها متواترة عن النبي ﷺ ، وقد أجمع عليها الصحابة وأهل الجنة قاطبة وبدعوا من أنكرها ، وصاحوا به من كل جانب ونادوا عليه بالضلال .

الخامس : شفاعته لقوم من أهل الجنة في رفع درجاتهم وزيادة ثوابهم .

وهذه مما لا ينازع فيها أحد ، وكلها مختصة بأهل الإخلاص الذين لم يتخذوا من دون اللّٰه وليًا ولا شفيعًا ، كما قال تعالى : ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ﴾ .

السادس: شفاعته في بعض الكفار من أهل النار حتى يخفف عذابه، وهذه خاصة بأبي طالب وحده.

«قال ابن بطال أنكرت المعتزلة والخوارج الشفاعة في إخراج من أدخل النار من المؤمنين، وتمسكوا بقوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾. وغير ذلك من الآيات، وأجاب أهل السنة بأنها في الكفار، وجاءت الأحاديث في إثبات الشفاعة المحمدية متواترة، ودل عليها قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾. والجمهور على أن المراد به الشفاعة»، «ثم إن الناس في الشفاعة على ثلاثة أقوال فالمشركون والنصارى والمبتدعون من الغلاة في المشايخ وغيرهم يجعلون شفاعة من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة في الدنيا، والمعتزلة والخوارج أنكروا شفاعة نبينا ﷺ وغيره في أهل الكبائر.

وأما أهل السنة والجماعة فيقرون بشفاعة نبينا ﷺ في أهل الكبائر وشفاعة غيره، لكن لا يشفع أحد حتى يأذن الله له ويحد له حدا كما في الحديث الصحيح حديث الشفاعة: فيحد لي حدًّا فأدخلهم الجنة».

❁ قال الشيخ عبد العزيز الناصر الرشيد ﷺ:

قوله: «ثم بعد هذه الفتنة إما نعيم وإما عذاب»:

* المراد: أنه لا بد من أحد الأمرين، ولا يفهم منه دوام العذاب، فإن الناس بالنسبة لدوام عذاب القبر وعدمه، ينقسمون إلى قسمين: قسم عذابه دائم لا ينقطع، كما قال سبحانه: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦] الآية، وكما في حديث البراء بن عازب في قصة الكافر: «ثم يفتح له باب إلى النار، فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة»[1]. رواه أحمد في بعض طرقه.

النوع الثاني: إلى مدة وينقطع، وهو عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم، فيعذب بحسب جرمه ثم يخفف عنه، وقد ينقطع عنه العذاب بدعاء أو صدقة أو استغفار أو ثواب حج أو غير ذلك من الأسباب.

قوله: «إلى يوم القيامة الكبرى»:

* بعد ما ينفخ الصور نفخة البعث، فإن يوم القيامة يقع على ما بعد نفخة البعث من أهوال وزلزلة وغير ذلك، إلى آخر الاستقرار في الجنة أو النار.

قوله: «الكبرى»: إشارة إلى أن فيه قيامة صغرى وهو الموت، كما قيل:

خرجت من الدنيا وقامت قيامتي غداة أقل الحاملون جنازتي

قال القرطبي ﷺ: القيامة قيامتان: صغرى وكبرى، فالصغرى: ما تقوم على كل إنسان في خاصته من خروج روحه وانقطاع سعيه وحصوله على علمه، وأما الكبرى: فهي التي تعم الناس وتأخذهم أخذة

(١) أحمد (٤/٢٨٧) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

واحدة ، قيل : سمى ذلك اليوم يوم القيامة ؛ لكون الناس يقومون من قبورهم ، قال تعالى : ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾ [القمر : ٧] ، وقال : ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج : ٤٣] ، وروى مسلم في « صحيحه » مرفوعًا : « ﴿يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين : ٦] ، قال : يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه »[1] ، يقول ابن عمر : « يقومون مائة سنة » .

قوله : « فتعاد الأرواح إلى الأجساد » :

وذلك حين ينفخ إسرافيل في الصور نفخة البعث والنشور ، قال تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس : ٥١] ، وإذا أطلق النفخ في الصور فالمراد به : نفخة البعث ، والأرواح : جمع روح وهو ما يحيا به الإنسان ، وهو من أمر الله ، كما قال سبحانه : ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء : ٨٥] .

قال شيخ الإسلام تقي الدين : وروح الآدمي مخلوق مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل الحديث ، وقد حكى إجماع الأمة على أنها مخلوقة غير واحد من أئمة السلف ، ويجب الإيمان بالبعث والنشور ، ويكفر الإنسان بإنكاره ، قال الله سبحانه : ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن : ٧] ، والبعث لغة : إثارة الشيء ، والمراد به هنا : إحياء الأموات وخروجهم من قبورهم ونحوها إلى حكم يوم القيامة ، والبعث والنشور مترادفان ، وهما بمعنى : إعادة الأبدان وإدخال الأرواح فيها ، يقال : نشر الميت وأنشره بمعنى : أحياه ، وأما الحشر : فهو لغة : الجمع ، تقول : حشرت الناس إذا جمعتهم ، والمراد : جمع أجزاء الإنسان بعد تفرقها ، ثم إحياء الأبدان بعد موتها ، فيبعث الله جميع العباد ويعيدهم بعد موتهم ، ويسوقهم إلى محشرهم لفصل القضاء بينهم ، وأدلة ذلك في الكتاب والسنة والإجماع .

قال ابن القيم وغيره : معاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى ، قال جلال الدين الدراني : هو بإجماع أهل الملل وبشهادة نصوص القرآن الذي لا يقبل التأويل ، كقوله سبحانه : ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس : ٧٩] ، وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو حاتم ، والضياء في « المختارة » ، وابن مردويه ، والبيهقي عن ابن عباس قال : جاء العاص بن وائل إلى النبي ﷺ بعظم حائل ففته بيده ، فقال يا محمد : يحي الله هذا بعد ما أرم ؟ قال : « نعم يبعث الله هذا ، ثم يميتك ، ثم يحيك ، ثم يدخلك نار جهنم »[2] ، فنزلت الآيات من آخر سورة يس : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [يس : ٧٧] الآيات ، فهذا نص صريح في الحشر الجسماني ، وقد ورد في عدة مواضع من القرآن التصريح به لا يقبل التأويل ، فيجب الإيمان به واعتقاده

---

(١) البخاري (٤٦٥٤) ، ومسلم (٢٨٦٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) الطبري (١٠/٤٦٣) ، والحاكم (٣٦٠٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

ويكفر منكره كما تقدم .

وأما النفخ في الصور فينفخ فيه ثلاث نفخات : نفخة الفزع : وهي التي يتغير بها العالم ، قال الله سبحانه : ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [ص : ١٥] ، أي : رجوع ومرد ، وقال تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل : ٨٧] ، سميت نفخة الفزع ؛ لما يقع من هول تلك النفخة ، والنفخة الثانية : نفخة الصعق ، وفيها هلاك كل شيء قال تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر : ٦٨] الآية .

وفسر الصعق بالموت وهو متناول حتى الملائكة ، والاستثناء متناول لمن في الجنة من الحور العين وغيرهم ، الثالث : نفخة البعث والنشور ، قال تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس : ٥١] ، وقال : ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر : ٦٨] ، وأخرج ابن جرير والبيهقي وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، وما الصور ؟ قال : « عظيم ، إن عظم داره فيه كعرض السماوات الأرض ، فينفخ فيه ثلاث نفخات : الأولى : نفخة الفزع ، والثانية : نفخة الصعق ، والثالثة : نفخة القيام لرب العالمين »[(١)] . انتهى .

قوله : « فيقوم الناس من قبورهم » إلخ :

* قال سبحانه : ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ، وروى مسلم في « صحيحه » عن ابن عمر مرفوعًا : ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ، قال : يقوم الناس حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى نصف أذنه ، وفي البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يخطب على المنبر يقول : « أنكم ملاقو ربكم حفاة عراة غرلًا »[(٢)] ، وزاد في رواية « مشاة »[(٣)] ، وفي رواية فيهما قال : قام رسول الله فينا بموعظة ، فقال : « يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلًا : ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] »[(٤)] .

قوله : « حفاة » : جمع حاف : وهو الذي ليس عليه نعل ولا خف .

قوله : « عراة » : جمع عار : وهو الذي ليس عليه لباس .

قوله : « غرلًا » : بضم الغين المعجمة وإسكان الراء جمع أغرل : وهو الأقلف ، وفي « الصحيحين » من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : قلت : يا رسول الله ، الرجال والنساء جميعًا ينظر بعضهم إلى بعض ؟

---

(١) الطبري (٨/٢٨٩) ، وإسحاق بن راهويه (١/٨٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) البخاري (٣١٧١) ، ومسلم (٢٨٥٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) مسلم (٢٨٦٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٤) البخاري (٦١٦١) ، ومسلم (٢٨٦٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

قال : « الأمر أشد من أن يهمهم ذلك »[(١)] . قال العلماء رحمهم الله : مراتب المعاد : البعث والنشور ، ثم المحشر ، ثم القيام لرب العالمين ، ثم العرض ، ثم تطاير الصحف وأخذها باليمين والشمال ، ثم السؤال والحساب ، ثم الميزان . انتهى .

قوله : « وتدنو منهم الشمس ، ويلجمهم العرق » :

أي : تقرب منهم الشمس حتى تكون قدر ميل أو ميلين ، كما روى مسلم عن المقداد رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو ميلين » ، قال : « فتصهرهم الشمس ، فيكونون في العرق كقدر أعمالهم ، منهم من يأخذه إلى عقبيه ، ومنهم من يأخذه إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا »[(٢)] .

قوله : « عقبيه » : هو مؤخر القدم .

قوله : « حقويه » : الحقو : معقد الإزار .

قوله : « يلجمهم العرق » : أي : يصل إلى أفواههم ، فيصير لهم بمنزلة اللجام يمنعهم عن الكلام . انتهى . « نهاية » .

قوله : « يلجمهم العرق » : ظاهره التعميم ، لكن دلت أحاديث على أنه مخصوص بالبعض وهم الأكثر ، ويستثنى من ذلك الأنبياء والشهداء ومن شاء الله . انتهى .

وأخرج الشيخان عن أبي هريرة مرفوعًا : « يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعًا ، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم ، فهذا اليوم العظيم فيه من الأهوال العظيمة والشدائد الجسيمة ما يذيب الأكباد ، ويذهل المراضع ويشيب الأولاد »[(٣)] ، قال الله تعالى : ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج : ٢] ، وذلك يوم القيامة وهو حق ثابت ورد به الكتاب والسنة والإجماع .

قوله : « وتنصب الموازين ، فيوزن فيها أعمال العباد ، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ » :

* تكاثرت أدلة الكتاب في إثبات الميزان ، كما تواترت بذلك الأحاديث ، وأجمع أهل الحق على ثبوته ووجوب الإيمان به ، وأنه ميزان حقيقي حسي له لسان وكفان ، كما هو صريح الأدلة ، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن موسى عليه السلام قال : يا رب ، علمني شيئًا

(١) البخاري (٦٢٦٢، ومسلم (٢٨٥٩) من حديث عائشة ﵂ .

(٢) مسلم (٢٨٦٤) ، وأحمد (٥/٢٥٤) من حديث أبي أمامة ، والمقداد بن الأسود ، غيرهما ﵄ .

(٣) البخاري (٦١٦٧) ، ومسلم (٢٨٦٣) من حديث أبي هريرة ﵁ .

أذكرك وأدعوك به ، قال : قل يا موسى : لا إله إلا اللّه ، قال : يا رب ، كل عبادك يقولون هذا ؟ قال : يا موسى ، لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري في كفة ، ولا إله إلا اللّه في كفة لرجحت بهن لا إله إلا اللّه »[١] الحديث ، وروى الإمام أحمد وغيره من حديث عبد اللّه بن عمرو في حديث البطاقة ، وفيه : « .. ويخرج له بطاقة فيها لا إله إلا اللّه ، فتوضع السجلات في كفة ، ولا إله إلا اللّه في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة .. »[٢] الحديث ، إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي بلغت حد التواتر ، وجمع المصنف الموازين ظاهره تعددها ، والصحيح أنه ميزان واحد ، وجمعه ؛ قيل : لأن الميزان يشتمل على الكفتين والشاهدين واللسان ، ولا يتم الوزن إلا باجتماعها ، ويحتمل أن الجمع للتفخيم ، كما في قوله : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء : ١٠٥] ، مع أنه لم يرسل إليهم إلا واحدًا ، وقيل : يجوز أن يكون لفظه جمعًا ومعناه واحدًا ، كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ ﴾ [المؤمنون : ٥١] ، وأما الوزن فهو للأعمال كما أشار إليه المصنف ، واستدل بالآية المذكورة ، في « صحيح مسلم » عن أبي مالك الأشعري ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « الطهور شطر الإيمان ، والحمد للّه تملأ الميزان »[٣] الحديث .

وأخرج أبو داود والترمذي وصححه ابن حبان عن الدرداء عنه ﷺ قال : « ما يوضع في الميزان أثقل من خلق حسن »[٤] ، وفي « الصحيحين » وغيرهما عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان : سبحان اللّه وبحمده ، سبحان اللّه العظيم »[٥] . إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على أن الوزن للأعمال ، وإلى هذا ذهب أهل الحديث ، وقيل : الوزن لصحائف الأعمال ، كما في حديث صاحب البطاقة ، وصوبه مرعي في « بهجته » ، وذهب إليه جمهور من المفسرين وصححه ابن عبد البر ، والقرطبي ، وغيرهما ، قيل : يوزن صاحب العمل ، كما في الحديث : « يُؤتى يوم القيامة بالرجل السمين ، فلا يزن عند اللّه جناح بعوضة ، ثم قرأ قوله سبحانه : ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف : ١٠٥] »[٦] الآية .

وقال ابن كثير رحمه الله : وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحًا ، فتارة توزن

---

(١) ابن حبان (٦٢١٨) ، والحاكم (١٩٣٦) ، وأبو يعلى (١٣٩٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في « ضعيف الترغيب والترهيب » (٩٢٣) .

(٢) الترمذي (٢٦٣٩) ، وأحمد (٢/٢١٣) من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (١٧٧٦) .

(٣) مسلم (٢٢٣) ، والترمذي (٣٥١٧) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه .

(٤) أبو داود (٤٧٩٩) ، والترمذي (٢٠٠٣) ، وابن حبان (٤٨١) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٥٧٢٦) .

(٥) البخاري (٦٠٤٣) ، ومسلم (٢٦٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٦) البخاري (٤٤٥٢) ، ومسلم (٢٧٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الأعمال ، وتارة توزن محاملها ، وتارة يوزن فاعلها ، والله أعلم .

قال الغزالي والقرطبي : ولا يكون الميزان في حق كل أحد ، فالسبعون ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب لا يرفع لهم ميزان ، ولا يأخذون صحفًا . اهـ .

وقال القرطبي رحمه الله : قال العلماء : إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال ؛ لأن الوزن للجزاء ، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة ، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال ، والوزن لإظهار مقاديرها ؛ ليكون الجزاء بحسبها ، قال الشيخ مرعي رحمه الله : والحكمة في الوزن مع أن الله عالم بكل شيء ، إظهار العدل وبيان الفضل ؛ حيث يزن مثاقيل الذر من خير وشر . انتهى .

ومن المقرر أن أحوال البرزخ وأحوال الآخرة لا تقاس على ما في الدنيا ، وإن اتفقت الأسماء ، فنؤمن بها كما ورد من غير بحث عن كنهها وحقيقتها ، كما أخبر الصادق المصدوق من غير زيادة ولا نقصان .

قوله : « ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ » : أي : رجحت حسناته على سيئاته ، ولو بواحدة . قاله ابن عباس .

قوله : « ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ » : أي : الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة ، والفلاح هو الفوز والظفر والحصول على المطلوب .

قوله : « ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ » : أي : ثقلت سيئاته على حسناته ﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي : خابوا وفازوا بالصفقة الخاسرة ، وقوله : ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ أي : ماكثون فيها دائمون ، والخلود هو المكث الطويل .

أفادت هذه الآية إثبات الميزان ، والرد على المعتزلة الذين أنكروه ، وقالوا : الميزان عبارة عن العدل ، وهذا تأويل فاسد مخالف للكتاب والسنة والإجماع ، وأفادت أن الوزن للأعمال ، وأما جمع الموازين مع إنه ميزان واحد ، فقد تقدم الجواب عنه .

قوله : « وتنشر الدواوين » :

* جمع ديوان : وهو الدفتر الذي يكتب فيه أعمال العباد ، والصحائف جمع صحيفة : وهي الورقة التي يكتب فيها من الرق والقرطاس ، والمراد بها هنا : الكتب التي كتبتها الملائكة ، وأحصوا ما فعله كل إنسان من سائر أعماله القولية والفعلية ، قال تعالى : ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [التكوير : ١٠] ، قال الثعلبي : أي : التي فيها أعمال العباد نشرت للحساب ، فيجب الإيمان بنشر الصحف ، وأخذها بالإيمان أو بالشمائل لثبوت ذلك بالكتاب والسنة والإجماع ، قال تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق : ٧- ١٢] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا قال : « تعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان

فجدال ومعاذير، وعند ذلك تطير الصحف في الأيدي، فآخذ كتابه بيمينه وآخذ بشماله »[1]، رواه الترمذي. وقال الترمذي: لا يصح؛ لأن الحسن لم يسمع من أبي هريرة، وهو عند أحمد وابن ماجه من هذا الوجه مرفوعًا، وأخرجه البيهقي في البعث بسند حسن عن عبد الله بن مسعود مرفوعًا.

وروى أحمد والترمذي، وأبو بكر بن أبي الدنيا عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات: فعرضتان جدال ومعاذير، وعرضة تطاير الصحف، فمن أوتي كتابه بيمينه وحوسب حسابًا يسيرًا دخل الجنة، ومن أوتي كتابه بشماله دخل النار »[2].

قوله: « ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ » : الآية، قال مجاهد: تجعل شماله وراء ظهره فيأخذ بها كتابه، وقال سعيد بن المسيب: الذي يأخذه بشماله تلوى يده خلف ظهره ثم يعطى كتابه.

قوله: « سبحانه وتعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤] »:

« ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ﴾ » : انتصب كل بفعل مضمر، وقوله: ﴿طَائِرَهُ﴾ : هو ما طار عنه من عمله من خير وشر. قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: والمعنى: أن عمله لازم له، والمقصود: أن عمل الإنسان محفوظ عليه قليله وكثيره ويكتب عليه ليلًا ونهارًا، كما قال سبحانه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠، ١٢]، وقوله: ﴿فِي عُنُقِهِ﴾ : خص العنق بالذكر؛ لأن اللزوم فيه أشد، ومن ألزم شيئًا فيه فلا محيد له عنه، والمعنى: أن عمله لازم له لزوم القلادة، أو لعل في العنق لا ينفك عنه.

قوله: « ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ » : أي: صحيفة أعماله بالحسنات والسيئات، يعطاه بيمينه إن كان سعيدًا، وبشماله إن كان شقيًا.

قوله: « ﴿يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ » : أي: يلقى الإنسان ذلك الكتاب، أي: يراه منشورًا، أي: مفتوحًا يقرؤه هو وغيره فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره، كما قال تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣].

قوله: : ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ » : تقديره يقال له: اقرأ كتابك، أي: كتاب أعمالك وما كان منك.

قوله: « ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ﴾ » : باء زائدة في الفاعل.

قوله: « ﴿الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ » : أي: محاسبًا؛ لأنك ذكرت جميع ما كان منك وعرفته، ولا ينسى أحد ما كان منه، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمي.

الحساب: مصدر حاسب، وحسب الشيء يحسبه: إذا عده، فهو لغة: العدد، واصطلاحًا: هو

(١) الترمذي (٢٤٢٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وابن ماجه (٤٢٧٧)، وأحمد (٤/٤١٤) من حديث أبي موسى رضي الله عنه، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (٦٤٣٢).

(٢) أحمد (٤/٤١٤) من حديث أبي موسى رضي الله عنه، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع »(٦٤٣٢).

توفيق الله العباد قبل الانصراف من الحشر إلى أعمالهم خيرًا كانت أو شرًا إلا من استثنى منهم ، وهو ثابت بالكتاب والسنة وإجماع أهل الحق ، فيجب الإيمان به واعتقاده ثبوته ، قال تعالى : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] ، وقال تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق : ٧، ٨] الآية ، وقال تعالى : ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف : ٤٩] ، وقوله : ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ ، أي : عدها وكتبها وأثبتها فيه ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على إثبات الحساب ، وفي « الصحيحين » من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « من نوقش الحساب عذب » ، قالت : فقلت : أليس يقول الله : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق : ٧، ٨] الآية ، فقال : « إنما ذلك العرض ، وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك »[1] ، والمعنى : أنه لو ناقش في حسابه لعبيده لعذبهم ، ولكنه يعفو ويصفح .

قوله : « ويحاسب الله الخلق » .. إلخ :

* ظاهره العموم ، ولكن دلت الأدلة أنه يستثنى من ذلك من يدخل الجنة بغير حساب ، كما في « الصحيحين » من حديث ابن عباس في السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة من غير حساب ولا عذاب .

قوله : « ويخلو بعبده المؤمن ، فيقرره بذنوبه ..» :

* أي : ينفرد سبحانه بعبده ويقرره بذنوبه ، فيقول : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ يقال : قرره بكذا ، أي : جعله يعترف به ، كما في الصحيح من حديث ابن عمر ، وفيه : « يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه ، فيقول : عملت كذا وكذا ، فيقول : نعم ، فيقرره ، ثم يقول : إني سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم تطوى صحيفة حسابه ، وأما الآخرون وهم الكفار والمنافقون ، فينادى بهم رءوس الخلائق : ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود : ١٨] »[2] . قال المهلب : في الحديث تفضل الله سبحانه- على عباده وستره لذنوبهم يوم القيامة ، وأنه يغفر ذنوب من شاء منهم بخلاف قول من أنفذ الوعيد على أهل الإيمان . اهـ .

قوله : « وأما الكفار » إلخ :

* أي : لأنه إنما يحاسب من له حسنات وسيئات ، والكافر ليس له في الآخرة حسنات توزن ، فإن أعمالهم حابطة باطلة ؛ لأنها فاقدة لشروط العبادة التي هي الإخلاص والمتابعة ، فكل عمل يكون خالصًا وعلى الشريعة المرضية فهو باطل ، وأعمال الكفار لا تخلو من ذلك ، فلا يحصل لهم من أعمالهم التي

---

(١) البخاري (١٠٣) ، ومسلم (٢٨٧٦) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) البخاري (٥٧٢٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

عملوها فائدة ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف : ١٠٥] ، ففيها دليل على أن الكافر لا توزن أعماله ؛ إذ لا ثواب له في الآخرة ، ولا يجازى فيها بشيء من عمله في الدنيا ، قال تعالى : ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان : ٢٣] ، وإن عمل كافر من نحو عتق أو صدقة أو عمل حسن ، وفّي له في حياته الدنيا ، فليس له في الآخرة جزاء عمل لكن يرجى أن يخفف عنه من عذاب معاصيه لحديث ثويبة حين أعتقها أبو طالب ، وفي « صحيح مسلم » عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا يظلم مؤمن حسنة يعطي بها في الدنيا ويجزي بها في الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها »(١) . قال النووي في « شرح مسلم » : أجمع العلماء على أن الكافر الذي مات على كفره لا ثواب له في الآخرة ولا يجازى فيها بشيء من عمله في الدنيا متقربًا به إلى الله ، وصرح في هذا الحديث بأنه يطعم في الدنيا بما عمله من الحسنات ، أي : بما فعله متقربًا به إلى الله مما لا تفتقر صحته إلى النية كصلة الرحم والصدقة والعتق والضيافة وتسهيل الخيرات ونحوها ، وأما المؤمن فيدخر له- أيضًا- حسناته وثواب أعماله إلى الآخرة ، ويجزى بها مع ذلك في الدنيا ، ولا مانع من جزائه بها في الدنيا والآخرة ، وقد ورد الشرع به فيجب اعتقاده .

قوله : « ولكن تعد أعمالهم ، وتحصى ، فيوقفون عليها ...» إلخ :

أي : تحسب أعمالهم ويخبرون بها ويقررون بها ، كقوله : ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة : ١٣] ، وقال : ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف : ٤٩] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

قوله : « وفي عرصة القيامة الحوض المورود لمحمد ﷺ ..» :

قوله : « عرصة » : بوزن ضربة لغة : كل بقعة بين الدوار واسعة ليس فيها بناء ، وعرصات القيامة مواقفها من العرض والحساب وغير ذلك ، والحوض لغة : مجمع الماء ، والمراد به هنا : هو ما ذكره المصنف وهو حق ثابت بإجماع أهل الحق ، وأنكره الخوارج وبعض المعتزلة ، وقد تواترت الأحاديث في إثبات الحوض . قال ابن القيم رحمه الله : قد روى أحاديث الحوض أربعون من الصحابة وكثير منها أو أكثرها في الصحيح . اهـ .

وقال الحافظ جلال الدين السيوطي في كتابه « البدور السافرة » : ورد ذكر الحوض من رواية بضعة وخمسين صحابيًا ، منهم الخلفاء الأربعة الراشدون وحفاظ الصحابة المكثرون رضي الله عنهم ، ثم ذكر الأحاديث واحدًا واحدًا . انتهى . فمنها ما رواه البخاري عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إن قدر

---

(١) مسلم (٢٨٠٨) ، وأبو يعلى (٢٨٤٤) من حديث أنس رضي الله عنه .

حوضي ما بين إيلة إلى صنعاء اليمن، وأن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء»[١].

وروى البخاري ومسلم عن جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنا فرطكم على الحوض ..»[٢]، والفرط الذي سبق إلى الماء، وفي «الصحيحين» وغيرهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «حوضي مسيرة شهر ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منه لا يظمأ أبدًا»[٣]، وفي رواية: «حوضي مسيرة شهر وزواياه سواء، وماؤه أبيض من الورق»[٤]، وهي عندهما- أيضًا- إلى غير ذلك من الأحاديث المتواترة في إثبات الحوض، فيجب الإيمان بذلك واعتقاد ثبوته.

قوله: «وفي عرصة يوم القيامة»: ظاهره أن الحوض قبل الصراط؛ لأنه يختلج ويمنع منه أقوام قد ارتدوا على أعقابهم، ومثل هؤلاء لا يجاوزون الصراط، وروى البخاري عن سهل بن سعد الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «إني فرطكم على الحوض من مر علي شرب، ومن شرب لم يظمأ أبدًا، ليردن علي أقوام أعرفهم ويعرفوني ثم يحال بيني وبينهم»[٥].

قال: «الحوض المورود للنبي ﷺ» ظاهره أن الحوض خاص به ﷺ دون غيره من الأنبياء والمرسلين، ولكن جاء في عدة أحاديث أن لكل نبي حوضًا ترد عليه أمته، وإنما الحوض الأعظم مختص به ﷺ لا يشركه فيه غيره، فحوضه ﷺ هو أعظم الحياض وأحلاها وأكثرها واردًا، كما أخرج الترمذي من حديث سمرة رفعه: «إن لكل نبي حوضًا، وهو قائم على حوضه، بيده عصًا يدعو من عرف من أمته، إلا أنهم يتباهون أيهم أكثر تبعًا، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم تبعًا»[٦]، واختلف في الميزان والحوض، أيهما يكون قبل الآخر. فقيل: الميزان، وقيل: الحوض. قال أبو الحسن القابسي: والصحيح أن الحوض قبل. قال القرطبي: والمعنى يقتضيه، فإن الناس يخرجون عطاشًا من قبورهم فيقدم قبل الميزان والصراط. قال القرطبي: هما حوضان الأول قبل الصراط، وقبل الميزان على الأصح، فإن الناس يخرجون عطاشًا من قبورهم فيردونه قبل الميزان، والثاني: في الجنة، وكلاهما يسمى كوثرًا، كما روى مسلم في «صحيحه» عن أنس قال: بينا رسول الله بين أظهرنا؛ إذا أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه مبتسمًا، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «أنزلت علي آنفًا سورة» فقرأ:

---

(١) البخاري (٦٢٠٩)، ومسلم (٢٣٠٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) البخاري (٦٢١٧)، ومسلم (٢٢٨٩) من حديث جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.

(٣) البخاري (٦٢٠٨)، ومسلم (٢٢٩٢) من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما.

(٤) مسلم (٢٢٩٢/٢٧) من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما.

(٥) البخاري (٦٢١٢)، ومسلم (٢٢٩٠) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٦) الترمذي (٢٤٤٣)، والطبراني (٧/٢١٢) من حديث سمرة رضي الله عنه.

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، ثم قال: «أتدرون ما الكوثر؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه نهر وعدنيه ربي عليه خير كثير، وهو حوضي ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد نجوم السماء يختلج العبد منهم، فأقول: يا رب، أنه من أمتي، فيقال: أما تدري ما أحدثوا بعدك»[(١)].

قوله: «والصراط منصوب على متن جهنم ..»:

قوله: «الصراط»: لغة: الطريق الواضح، وفي الشرع: جسر منصوب على متن جهنم، وهو الجسر الذي بين الجنة والنار يرده الأولون والآخرون، فيمرون عليه على قدر أعمالهم، وذلك بعد مفارقة الناس للموقف وحشرهم وحسابهم، فإن الصراط عليه ينجون إلى الجنة، ويسقط أهل النار فيها، كما ثبت في الأحاديث.

قوله: «يمر الناس عليه على قدر أعمالهم ..»:

أي: أنهم يكونون في سرعة المرور على مراتبهم وأعمالهم، فبحسب استقامة الإنسان وثباته على دين الإسلام يكون ثباته واستقامته على الصراط، فمن ثبت على الصراط المعنوي الذي هو دين الإسلام ثبت على الصراط الحسي المنصوب على متن جهنم، ومن زل عن الصراط المعنوي زل عن الصراط الحسي جزاءً وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد، وقد تكاثرت الأحاديث في إثبات الصراط، فيجب الإيمان به واعتقاد ثبوته.

في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «يضرب الصراط بين ظهري جهنم، ويمر المؤمنون عليه فرقًا، فمنهم كالبرق، ثم كمر الريح، ثم كمر الطير، وأشد الرجال حتى يجيء الرجل، ولا يستطيع السير إلا زحفا، وفي حافتيه كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت بأخذ: فمخدوش ناج، ومكردس في النار»[(٢)]، ووقع في حديث أبي سعيد: قلنا: وما الجسر؟ قال: «مدحضة مزلة»[(٣)]، أي: زلق تزلق فيه الأقدام، ووقع عند مسلم قال: قال أبو سعيد: بلغني أن الصراط أحدُّ من السيف، وأدق من الشعرة، وعن سعيد بن هلال قال: بلغنا أن الصراط أدق من الشعر على بعض الناس، ولبعض الناس مثل الوادي الواسع، أخرجه ابن المبارك، وابن أبي الدنيا وهو حديث معضل إلى غير ذلك من الأحاديث الثابتة في «الصحاح» و«المسانيد» و«السنن» ما لا يحصى إلا بكلفة، وقد أجمع السلف على إثباته.

قوله: «وهو الجسر»: بفتح الجيم وكسرها لغتان، وهو الصراط.

قوله: «يمر الناس على قدر أعمالهم»: أي: أنهم يكونون في سرعة المرور على حسب مراتبهم وأعمالهم.

---

(١) مسلم (٤٠٠)، وأبو داود (٤٧٤٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) مسلم (١٩٥)، والحاكم (٨٧٤٩) من حديث أبي هريرة، وحذيفة رضي الله عنهما.

(٣) البخاري (٧٠٠١)، ومسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

قوله : « ومنهم من يعدو عدوًا ، ومنهم من يمشي مشيًا ..» :

قوله : « يعدوا عدوًا » : أي : يجري أو يركض .

قوله : « ويزحف زحفًا » : قال ابن دريد : الزحف : هو المشي على الإست ، إشرافه بصدره .

قوله : « فإن الجسر عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم » :

قوله : « فإن الجسر عليه كلاليب » : جمع كلوب بفتح الكاف وضم اللام المشددة ، وهي حديدة معطوفة الرأس يعلق اللحم ويرسل إلى التنور .

قوله : « تخطف » : هي بفتح الطاء ويجوز كسرها ، أي : يختلسها ، والخطف : هو استلاب الشيء وأخذه بسرعة .

قوله : « بأعمالهم » : أي : تخطفهم بسبب أعمالهم القبيحة .

قوله : « فإذا عبروا عليه ؛ وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ..» :

قوله : « فإذا عبروا عليه وقفوا » إلخ : لما في الصحيح عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « يخلص المؤمنون من النار ، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالمًا كانت بينهم في الدنيا ، إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة ، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا »[١] ، وأخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن الحسن قال : بلغني أن رسول الله ﷺ قال : « يحبس أهل الجنة بعد ما يجوزون الصراط حتى يؤخذ لبعضهم من بعض ظلامات الدنيا ويدخلون الجنة ، وليس في قلوب بعضهم لبعض شيئًا »[٢] .

قوله : « عبروا » : أي : مضوا ونجوا من السقوط في النار بعد ما جازوا على الصراط ، قال القرطبي : هؤلاء المؤمنون هم الذين علم الله أن القصاص لا يستنفد حسناتهم . اهـ .

وخرج من هذا صنفان : من دخل الجنة بغير خساب ، ومن أوبقه عمله .

قوله : « على قنطرة » : القنطرة : الجسر وما ارتفع من البنيان ، قاله في القاموس ، وهذه القنطرة المذكورة في الحديث قيل : هي من تتمة الصراط وهي طرفه الذي يلي الجنة ، وقيل : إنهما صراطان ، وبهذا جزم القرطبي ، ولكن القنطرة صراط خاص بالمؤمنين ، وليس يسقط أحد منهم في النار . اهـ .

قوله : « فيقتص لبعضهم من بعض » : أي : يستوفي لكل واحد ماله عند الآخر .

قوله : « فإذا هذبوا ونقوا » : بضم الهاء والنون وهما بمعنى : التمييز والتخليص من التبعات . انتهى ، « فتح » .

قوله : « أذن لهم في دخول الجنة » : أي : بعد اقتصاص بعضهم من بعض ، وخلاصهم من التبعات

---

(١) البخاري (٦١٧٠) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه .

(٢) ابن أبي حاتم في « التفسير »(٨٤٩٥) .

التي بينهم ، فلا يبقى في قلوب بعضهم على بعض شيء ، فيدخلون الجنة ، وقد ذهب ما في قلوب بعضهم على بعض من الغل والحقد وغير ذلك ، قال تعالى : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف : ٤٣] الآية .

قوله : « وأول من يستفتح باب الجنة محمد ﷺ » :

* أي : يطلب الفتح للجنة بالقرع ، فيفتح له ﷺ ، كما في الصحيح عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « آتي باب الجنة يوم القيامة ، فأستفتح ، فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد ، فيقول : بك أمرت ألَّا أفتح لأحد من قبلك »(١) ، وفي رواية : « أنا أول من يقرع باب الجنة .. »(٢) ، الحديث .

قوله : « وأول من يدخل الجنة من الأمم أمته » :

* وذلك لفضلها على الأمم ، قال الله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة : ١٤٣] الآية ، وفي « المسند » عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : « أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله »(٣) ، وأما قوله سبحانه في بني إسرائيل : ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية : ١٦] ، فالمراد- والله أعلم- على عالمي زمانهم ، كشعب بختنصر وغيرهم .

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « نحن السابقون الأولون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم »(٤) ، أي : لم يسبقونا إلا بهذا القدر ، فمعنى (بيد) : معنى سوى وغير وإلا ونحوها ، وفي « صحيح مسلم » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، ونحن أول من يدخل الجنة »(٥) .

وروى الدارقطني من حديث عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الجنة حرمت على الأنبياء كلهم حتى أدخلها ، وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتي »(٦) ، قال ابن القيم رحمه الله : فهذه الأمة أسبق الأمم خروجًا من الأرض ، وأسبقهم إلى أعلى مكان في الموقف ، وأسبقهم إلى ظل العرش ، وأسبقهم إلى الفصل والقضاء بينهم ، وأسبقهم إلى الجواز على الصراط ، وأسبقهم إلى دخول الجنة ، فالجنة محرمة على الأنبياء حتى يدخلها محمد ﷺ ، ومحرمة على الأمم حتى تدخلها أمته ، وأما أول

---

(١) مسلم (١٩٧) ، وأحمد (٣/١٣٦) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) مسلم (١٩٦) ، وابن حبان (٦٤٨١) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٣) الترمذي (٣٠٠١) ، وابن ماجه (٤٢٨٨) ، وأحمد (٥/٣) من حديث معاوية بن حيدة رضي الله عنه ، وحسنه الألباني في « المشكاة » (٦٢٨٥) .

(٤) مسلم (٨٥٥) ، وأحمد (٢/٢٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٥) مسلم (٨٥٥/٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٦) الطبراني في الأوسط (٩٤٢) من حديث عمر رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع »(١٤٢٨) .

الأمة دخولًا فأبو بكر الصديق، كما رواه أبو داود في «السنن» عن أبي هريرة عن النبي ﷺ. اهـ.

قوله: «وله في القيامة ثلاث شفاعات»:

* الشفاعة: هي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم، وعرفها بعضهم بقوله: هي سؤال الخير للغير، وهي مشتقة من الشفع وهو ضد الوتر، فكأن الشافع ضم سؤاله إلى سؤال المشفوع، والشفاعة ثابتة تواترت الأدلة في إثباتها، فمنها ما في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لكل نبي دعوة يدعوها، فأريد أن أخبأ دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة»(١). وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا»(٢) متفق عليه.

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أول شافع وأول مشفع»(٣)، وأنه ذكر عنده عمه أبو طالب، فقال: «لعله تنفعه شفاعتي، فيجعل في ضحضاح من نار»(٤)، وروى البيهقي حديث: «خيرت بين الشفاعة، وبين أن يدخل شطر أمتي الجنة، فاخترت الشفاعة؛ لأنها أعم وأكفى، أترونها للمتقين؟ لا ولكنها للمذنبين المتلوثين الخاطئين»(٥)، إلى غير ذلك من الأحاديث التي بلغت حد التواتر، فيجب الإيمان بها واعتقاد مضمونها عكس ما عليه الخوارج والمعتزلة الذين أنكروا شفاعة النبي ﷺ في أهل الكبائر من أمته، فالناس في إثبات الشفاعة وعدمه انقسموا إلى ثلاثة أقسام: قسم غلوا في إثباتها حتى أثبتوا شفاعة الأصنام والأوثان، وهم المشركون ومن وافقهم من مبتدعة هذه الأمة، فأثبتوا الشفاعة التي نفاها القرآن، كما ذكر الله عنهم في قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

القسم الثاني: غلوا في نفي الشفاعة، وهم الخوارج والمعتزلة، فأنكروا شفاعة النبي ﷺ في أهل الكبائر من أمته.

القسم الثالث: أهل السنة والجماعة، أثبتوا الشفاعة للنبي ﷺ ولغيره من النبيين والصادقين وغيرهم، بقيودها حسب ما جاءت بذلك الأدلة وتواترت الأحاديث في إثبات شفاعته ﷺ، وأما ما احتجت به المعتزلة لمذهبهم الفاسد في نفي الشفاعة من قوله سبحانه: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨]، فاستدلال فاسد،

(١) البخاري (٥٩٤٥)، ومسلم (١٩٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البخاري (٥٩٤٦)، ومسلم (١٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) مسلم (٢٢٧٨)، وأبو داود (٤٦٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) مسلم (٢١٠)، وأحمد (٣/٨) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٥) أحمد (٢/٧٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنه، وعند ابن ماجه (٤٣١١) من حديث أبي موسى رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٩٣٢).

فإن الآيات المذكورة مخصوصة بالكفار، ويؤيد هذا أن مساق الخطاب معهم، وأيضًا فالشفاعة المذكورة في القرآن تنقسم قسمين: شفاعة منفية وشفاعة مثبتة، فالمنفية هي الشفاعة للكافر والمشرك، كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ - إلى قوله- : ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، فنفى وقوع شفاعة هؤلاء، وأخبر أنها شرك بقوله: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

النوع الثاني: من الشفاعة المثبتة، وهي التي أثبتها القرآن، وهي خالصة لأهل الإخلاص وقيدها بأمرين: إذن الله للشافع أن يشفع، ورضاه عن المشفوع له، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] الآية، وهو سبحانه لا يرضى إلا التوحيد، كما في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال: «من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه»[١]. اهـ.

قوله: «أما الشفاعة الأولى»:

* الشفاعة الأولى: في أهل الموقف حتى يقضي بينهم بعد أن يتدافعها الأنبياء أصحاب الشرائع آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، وقد تكاثرت الأحاديث في إثباتها، فوردت من حديث أبي بكر الصديق، وأنس، وأبي هريرة، وابن عباس، وابن عمر، وحذيفة، وعقبة بن عامر، وأبي سعيد الخدري، وسلمان وغيرهم، وهي المرادة بقوله ﷺ: «لكل نبي دعوة مستجابة»[٢] الحديث، وهذا الحديث ذكر السيوطي أنه متواتر، وهذه الشفاعة خاصة به ﷺ، وهي مجمع عليها لم ينكرها أحد.

قوله: «وأما الشفاعة الثانية: فيشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة»:

* وقد ذكرها أبو هريرة في حديثه الطويل المتفق عليه، وفي «صحيح مسلم» عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أول شفيع في الجنة»[٣]، وهذه الشفاعة كالتي قبلها خاصتان له ﷺ.

قوله: «الثالثة: فيشفع فيمن استحق النار ألا يدخلها» إلخ:

* فهذه الشفاعة في عصاة الموحدين الذين يدخلون النار بذنوبهم، والأحاديث بها متواترة عن النبي ﷺ، وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنة قاطبة، وبدعوا من أنكرها وصاحوا به من كل جانب، ونادوا عليه بالضلال.

قوله: «ولسائر»: أي: باقي وجميع، وذلك لما روى ابن ماجه في حديث عثمان: «يشفع يوم

---

(١) البخاري (٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البخاري (٥٩٤٦)، ومسلم (١٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) مسلم (١٩٦)، وأحمد (٣/ ١٤٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء »[1] . وفي الصحيح عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : « قال الله تعالى : شفعت الملائكة ، وشفع النبيون ، وشفع المؤمنون ، ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار ، فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط »[2] الحديث ، ذكر المصنف ﷺ هذه الأنواع الأربعة ، وزاد في شرح الطحاوية وغيره أربعة أنواع أخر ، فيكون الجميع ثمانية بالأربعة التي ذكرها المصنف .

والخامس : شفاعته لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ورفعة درجاتهم ، وهذه مما لم ينازع فيه أحد .

السادس : شفاعته ﷺ في قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة .

السابع : شفاعته في أقوام أن يدخلوا الجنة من غير حساب ولا عذاب ، ويحسن أن يستشهد لهذا النوع بما في « الصحيحين » من حديث عكاشة بن محصن حين دعا له النبي ﷺ أن يجعله من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة من غير حساب ولا عذاب[3] .

الثامن : شفاعته ﷺ في بعض أهله الكفار من أهل النار حتى يخفف عذابه ، وهذه خاصة بأبي طالب ، فإن قيل : إن أبا طالب مات كافرًا ، وقد قال الله سبحانه وتعالى : ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر : ٤٨] ، فأجاب بعض العلماء بقوله : إن شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب شفاعة تخفيف لا شفاعة إخراج ، والمقصود في الآية : أنها لا تنفعهم في الإخراج من النار .

قوله : « ويخرج الله أقواما من النار » إلخ :

قال سبحانه : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء : ٤٨] ، وقال : ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء : ٤٠] ، وفي « الصحيحين » من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في حديثه الطويل قال : فيقول الله : « شفعت الملائكة ، وشفع النبيون ، وشفع المؤمنون ، ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار ، فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط »[4] .

قوله : « بل بفضله ورحمته » : يفيد أن دخول الجنة والنجاة من النار بفضله سبحانه ورحمته لا بمجرد العمل ، كما قال ﷺ : « ليس أحد منكم يدخل الجنة بعمله »[5] الحديث ، وإنما العمل سبب

---

(١) ابن ماجه (٤٣١٣) ، والبيهقي في الشعب (١٧٠٧) من حديث عثمان رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (٦٤٢٨) .

(٢) مسلم (١٨٣) ، والطيالسي (٢١٧٩) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه .

(٣) البخاري (٥٣٧٨) ، ومسلم (٢١٨) من حديث ابن عمران بن حصين رضي الله عنه .

(٤) مسلم (١٨٣) ، والطيالسي (٢١٧٩) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه .

(٥) البخاري (٥٣٤٩) ، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

لدخول الجنة، كما قال تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، والله سبحانه هو خالق السبب والمسبب، فرجع الكل إلى محض فضله وإحسانه ورحمته.

قوله: «ويبقى في الجنة فضل عمن دخلها من أهل الدنيا»:

قوله: «ويبقى في الجنة فضل» إلخ: أي: زيادة في الجنة عمن دخلها من أهلها وذلك لسعتها العظيمة، فإنها كما وصفها في كتابه: ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

قوله: «فينشئ الله»: أي: يخلق ويحدث سبحانه أقوامًا فيدخلهم الجنة بفضله ورحمته، كما في «الصحيحين» عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تزال جهنم يلقى فيها، وهي تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة عليها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط بعزتك وكرمك، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله سبحانه لها خلقًا، فيسكنهم فضل الجنة»[1]، وفي لفظ مسلم: «يبقى من الجنة ما شاء الله أن يبقى، ثم ينشئ الله سبحانه لها خلقًا، فيسكنهم فضل الجنة»[2]، قال ابن القيم رحمه الله: وأما اللفظ الذي في البخاري من حديث أبي هريرة: «أنه ينشأ للنار من يشاء فيلقى فيها، فتقول: هل من مزيد»[3]، فغلط من بعض الرواة انقلب عليه لفظه، والروايات الصحيحة، ونص القرآن يرده، فإن الله سبحانه أخبر أنه يملأ النار من إبليس وأتباعه، فإنه لا يعذب إلا من قامت عليه حجته وكذب رسله، كما قال سبحانه: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨] الآيتين.

قوله: «وأصناف ما تضمنته الدار الآخرة من الحساب والعقاب والثواب والجنة والنار»:

قوله: «وأصناف»: جمع صنف، وهو النوع والصنف، والنوع والضرب بمعنى واحد.

قوله: «تضمنته»: أي: اشتملت عليه.

قوله: «الدار الآخرة»: سميت آخرة؛ لتأخرها عن الدنيا، وكونها بعدها.

قوله: «الثواب والعقاب»: الثواب والمثوبة جزاء الطاعة، وهو من ثاب يثوب إذا رجع، ويكون الثواب في الخير والشر إلا أنه في الخير أخص وأكثر استعمالًا وهو المراد هنا، والعقاب: العقوبة.

قال سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وقال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦] الآية، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، وفي حديث أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه أنه يقول:

---

(١) البخاري (٤٥٦٧)، ومسلم (٣٨/٢٨٤٨) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) مسلم (٣٩/٢٨٤٨)، وأحمد (٣/٢٦٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) البخاري (٧٠١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

« يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرًا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »[١] ، إلى غير ذلك من الأدلة الدالة على أن الجزاء مرتب على الأعمال ، قال تعالى : ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة : ٢٤] ، أي : بسبب أعمالكم ، فالباء باء السببية ، وأما قوله ﷺ : « ليس أحد منكم يدخل الجنة بعمله »[٢] الحديث ، فالباء المنفية باء العوض ، وهو أن يكون العمل كالثمن لدخول الجنة ، كما زعمت المعتزلة أن العامل يستحق دخول الجنة على ربه بعمله ، وقولهم باطل ، وقد تقدم الكلام على هذا البحث .

قوله : « الجنة والنار » : الجنة لغة : البستان الذي فيه أشجار مثمرة ، سميت جنة ؛ لاجتنانها وتسترها بالأشجار ، والمراد هنا : الدار التي أعدها الله لأوليائه وعباده الصالحين ، وأما النار فأعدها الله سبحانه وتعالى لأعدائه- أعاذنا الله منها- فيجب الإيمان بهما واعتقاد أنهما حق موجودتان الآن لثبوت ذلك في الكتاب والسنة وإجماع الأمة ، قال سبحانه عن الجنة : ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٣] ، ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد : ٢١] ، وعن النار : ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة : ٢٤] ، ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ [النبأ : ٢١، ٢٢] ، وأما الأحاديث ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لما خلق الله الجنة قال لجبريل : اذهب فانظر إليها ، فنظر إليها ، فقال : أي رب ، وعزتك وجلالك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، ثم حفها بالمكاره ، ثم قال : يا جبريل ، اذهب فانظر إليها ، فذهب ونظر إليها ثم جاء ، فقال : أي رب ، لقد خشيت ألا يدخلها أحد ، فلما خلق النار قال : يا جبريل اذهب فانظر إليها ، فذهب فنظر إليها فقال : أي رب ، وعزتك وجلالك لا يسمع بها أحد فيدخلها ، ثم حفها بالشهوات ثم قال : يا جبريل اذهب فانظر إليها قال : أي رب ، وعزتك وجلالك لقد خشيت ألا يبقى أحد إلا دخلها »[٣] رواه أبو داود والترمذي والنسائي ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

وفي « الصحيحين » من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار ، يقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة »[٤] ، وفي « الصحيحين » واللفظ للبخاري عن عبد الله بن عباس قال : انخسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ ، فذكر الحديث ، وفيه فقالوا : رأيناك تناولت شيئًا في مقامك ثم رأيناك تكعكعت ، فقال : « إني رأيت الجنة وتناولت عنقودًا لو أصبته

---

(١) مسلم (٢٥٧٧) ، والحاكم (٧٦٠٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

(٢) البخاري (٥٣٤٩) ،ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أبو داود (٤٧٤٤) ، والترمذي (٢٥٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٥٢١٠) .

(٤) البخاري (١٣١٣) ، ومسلم (٢٨٦٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

لأكلتم منه ما بقيت الدنيا ، ورأيت النار فلم أر منظرًا كاليوم قط أفظع منها ..» [١] الحديث .

وفي «صحيح مسلم» من حديث أنس رضي الله عنه : «وايم الذين نفسي بيده ، لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا» ، قالوا : وما رأيت يا رسول الله ؟ قال : «أعد الله الجنة لأوليائه وأعد النار لأعدائه» [٢] ، ولم يزل على ذلك أهل السنة والجماعة حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية فأنكرت ذلك وزعمت أن الله ينشئهما يوم القيامة ، وأن إيجادهما الآن عبث ، وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله الله ، وأنه ينبغي أن يفعل كذا ، ولا ينبغي له أن يفعل كذا ، وقاسوه على خلقه في أفعالهم ، فهم مشبهة في الأفعال معطلة في الصفات ، والأدلة على بطلان هذا القول أكثر من أن تحصى ، كما تكاثرت أدلة الكتاب والسنة على دوام الجنة والنار ، وأنهما لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان ، قال تعالى : ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد : ٣٥] ، وقال : ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص : ٥٤] ، وقال : ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر : ٤٨] ، وقال في النار : ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة : ٣٧] ، وقال : ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [المائدة : ١١٩] إلى غير ذلك من الأدلة التي لا تحصر .

قوله : «وتفاصيل ذلك مذكورة في الكتب المنزلة من السماء» :

قوله : «وتفاصيل ذلك» : أي : تبين ذلك وتوضيحه مذكورة في الكتب المنزلة من السماء ، فإن يوم القيامة ما اشتمل عليه معروف عند الأنبياء عليهم السلام من آدم إلى نوح إلى ابراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من حين أهبط آدم ، قال تعالى : ﴿ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف : ٢٤] ، وقال : ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف : ٢٥] ، ولما قال إبليس : ﴿فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر : ٣٦] ، قال : ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر : ٣٦ ، ٣٧] ، وأما نوح فقال سبحانه حكاية عنه : ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح : ١٧ ، ١٨] ، وقال إبراهيم : ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء : ٨٢] ، وقال : ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ ، ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم : ٤١] ، وقال عن موسى : ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه : ١٥] ، ومؤمن آل فرعون كان يعلم المعاد ، وإنما آمن بموسى وحذر قومه مما يقع يوم القيامة ، فقال تعالى حكاية عنه : ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ [غافر : ٣٢] إلى قوله : ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر : ٣٩] إلى غير ذلك مما هو مذكور في الكتب السابقة وعن الأنبياء عليهم السلام .

قوله : «المأثور» : أي : المنقول المذكور ، يقول أثرت الحديث إذا نقلته من غيرك ، واصطلاحًا :

---

(١) البخاري (٤٩٠١) ، ومسلم (٩٠٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) مسلم (٤٢٦) ، والنسائي (١٣٦٣) من حديث أنس رضي الله عنه .

الأثر يطلق على المروي مطلقًا سواء كان عن رسول اللّه ﷺ أو عن صحابي ، وهو قول الجمهور .

قوله : « العلم » : أي : العلم الشرعي النافع ، وهو ما جاء عن الرسول ﷺ . قال الشيخ تقي الدين رحمه الله : العلم ما قام عليه الدليل ، والنافع ما جاء عن الرسول ﷺ ، وفي حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه أن النبي ﷺ قال : « العلم ثلاثة فما سوى ذلك فهو فضل علم : آية محكمة ، أو سنة قائمة ، أو فريضة عادلة »[1] ، قال ابن القيم رحمه الله في « النونية » :

العلم قال اللّه قال رسوله ... قال الصحابة هم أولوا العرفان
ما العلم نصبك للخلاف سفاهة ... بين الرسول وبين رأي فلان

قال الشيخ تقي الدين رحمه الله : العلم الممدوح هو الذي ورثه الأنبياء ، وهذا العلم أقسام ثلاثة :

الأول : علم باللّه وأسمائه وصفاته وما يتبع ذلك ، وفي مثله أنزل اللّه سورة الإخلاص وآية الكرسي ونحوهما .

الثاني : العلم بما أخبر اللّه به مما كان من الأمور الماضية ، ومما يكون من المستقبلة ، ومما هو كائن من الأمور الحاضرة ، وفي مثله أنزل اللّه القصص والوعد والوعيد وصفة الجنة والنار .

الثالث : العلم بما أمره اللّه به من الأمور المتعلقة بالقلوب والجوارح من الإيمان باللّه ومن معارف القلوب وأحوالها وأحوال الجوارح وأعمالها ، وهذا يندرج فيه العلم بأصول الدين وقواعد الإسلام والعلم بالأقوال والأفعال الظاهرة مما هو مذكور في كتب الفقه . انتهى . وقال ابن القيم :

والعلم أقسام ثلاث ما لها ... من رابع والحق ذو تبيان
علم بأوصاف الإله وفعله ... وكذلك الأسماء للرحمن
والأمر والنهي الذي هو دينه ... وجزاؤه يوم المعاد الثاني

قوله : « الموروث عن محمد ﷺ » :

* الموروث من الإرث وهو لغة : البقية وانتقال الشيء من قوم إلى قوم آخرين ، والمراد به هنا إرث العلم والحكمة ، كما قال النبي ﷺ في حديث أبي الدرداء : « والعلماء ورثة الأنبياء ، وأن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا ، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر »[2] ، ولهذا قال ابن عباس رضي اللّه عنه : إنما ترك ما بين الدفتين ، يعني : القرآن والسنة مفسرة له ومبينة وموضحة ، أي : تابعة له ، والمقصود الأعظم كتاب اللّه .

قوله : « من ذلك ما يشفي ويكفي ، فمن ابتغاه وجده » :

---

(١) أبو داود (٢٨٨٥) ، وابن ماجه (٥٤) من حديث ابن عمرو رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (٣٨٧١) .

(٢) أبو داود (٣٦٤١) ، والترمذي (٢٦٨٢) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٦٢٩٧) .

قوله: «يكفي»: أي: يغني: قوله: (يشفي) مأخوذ من شفى يشفي، أي: يبرئ، فالكتاب والسنة بهما غاية الشفاء والكفاية، فقد أنزل الله على نبيه القرآن العظيم الذي شرفه الله على كل كتاب أنزله وجعله مهيمنًا عليها وناسخًا لها، والسنة مفسرة ومبينة له وموضحة له، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، قال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]، ففي كتاب الله وسنة رسوله غاية الشفاء لجميع الأدواء القلبية والبدنية وأدواء الدنيا والآخرة، وفي حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[1]، ولما رأى مع عمر ورقة من التوراة غضب ﷺ وقال: «أمتهوكون يا ابن الخطاب، لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعي»[2].

ورُوي عن عمر رضي الله عنه أنه حينما سمع رجلًا من قيس كتب كتاب دانيال، غضب عليه وأمره فمحاه، وساق ما عمل معه النبي ﷺ، ولم يمت رسول الله ﷺ حتى أكمل الله له الدين، فلا خير إلا دل الأمة عليه، ولا شر إلا حذرها عنه، وقد أُعطي ﷺ جوامع الكلم وخواتمه، وقال ﷺ: «تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك»[3]، وقال أبو ذر رضي الله عنه: توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا وذكر لنا منه علمًا.

قوله: «فمن ابتغاه»: أي: طلبه.

قوله: «وجده»: أي: حصله وأدركه، فهو سهل اللفظ، قريب المعنى، واضح الأسلوب، قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

❁ قال الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله:

قوله: «وتُنصب الموازين، فيوزن فيها أعمال العباد»:

* الجمع بين النصوص الواردة في وزن الأعمال والعاملين والصحائف، أنه لا منافاة بينها، فالجميع يوزن، ولكن الاعتبار في الثقل والخفة يكون بالعمل نفسه لا بذات العامل ولا بالصحيفة. اهـ.

قوله: «وله ﷺ في القيامة ثلاث شفاعات»:

* الشفاعات التي تقع يوم القيامة ست شفاعات معروفة من الأدلة الشرعية:

---

(١) البخاري (٧٠٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أحمد (٣/٣٨٧)، والبيهقي في الشعب (١/١٩٩) من حديث جابر رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٧٧).

(٣) الترمذي (٢٦٧٦)، والحاكم (٣٣١) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٣٧).

منها ثلاث شفاعات تختص بالنبي ﷺ ، وهي :

١- الشفاعة العظمى في أهل الموقف حتى يقضى بينهم .

٢- الشفاعة في أهل الجنة حتى يدخلوها .

٣- شفاعته ﷺ في تخفيف العذاب عن عمه أبي طالب حتى جعل في ضحضاح من النار .

وهذه الشفاعة خاصة بالنبي ﷺ وأبي طالب عمه ، وأما سواه من الكفار فلا شفاعة فيهم لقوله تعالى : ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر : ٤٨] ، الرابعة والخامسة : شفاعته فيمن استحق النار ألا يدخلها ، وفيمن دخلها أن يخرج منها ، السادسة : شفاعته في رفع درجات أهل الجنة .

وهذه الشفاعة الأخيرة عامة للنبي ﷺ وغيره من الأنبياء ، والصالحين والملائكة وصغار الموتى من أطفال المسلمين ، وكلها خاصة بأهل التوحيد .

وأما الكفار : فيخلدون في نار جهنم ، ولا يذوقون فيها الموت ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾ [فاطر : ٣٦] ، ونحوها من الآيات .

وأما من دخلها من العصاة الموحدين : فإنه لا يخلد فيها بل يخرج منها بعد التطهير والتمحيص ، وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ : « أن العصاة يموتون فيها ثم يخرجون منها كالحمم ، فينبتون فيها كما ينبت الحب في حميل السيل » . اهـ .

❁ قال الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله :

قوله : « ثم بعد هذه الفتنة : إما نعيم وإما عذاب » :

« ثم » : هذه لمطلق الترتيب ، وليست للتراخي ؛ لأن الإنسان يعذب أو ينعم فورًا ؛ كما سبق أنه إذا قال : لا أدرى . يضرب بمرزبة ، وأن ذاك الذى أجاب بالصواب ؛ يفتح له باب إلى الجنة ، ويوسع له فى قبره .

وهذا النعيم أو العذاب ؛ هل هو على البدن أو على الروح أو يكون على البدن والروح جميعًا ؟

نقول : المعروف عند أهل السنة والجماعة أنه فى الأصل على الروح ، والبدن تابع لها ؛ كما أن العذاب فى الدنيا على البدن ، والروح تابعة له ، وكما أن الأحكام الشرعية فى الدنيا على الظاهر ، وفى الآخرة بالعكس ؛ ففى القبر يكون العذاب أو النعيم على الروح ، لكن الجسم يتأثر بهذا تبعًا ، وليس على سبيل الاستقلال ، وربما يكون العذاب على البدن والروح تتبعه ، والنعيم للروح والبدن تبع . لكن هذا لا يقع إلا نادرًا ؛ إنما الأصل أن العذاب على الروح والبدن تبع .

وقوله : « إما نعيم وإما عذاب » : فيه إثبات النعيم والعذاب فى القبر ، وقد دلَّ على ذلك كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ ، بل لنا أن نقول : وإجماع المسلمين :

- أما من كتاب اللَّه ؛ فالثلاثة أصناف التى فى آخر « الواقعة » ظاهرة فى ثبوت عذاب القبر ونعيمه .

قال الله تعالى : ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة : ٨٣ - ٩٤] .

وهذا أمر مشاهد ؛ يسمع المحتضر يرحب بالقادمين عليه من الملائكة ، ويقول : مرحبًا ! وأحيانًا يقول : مرحبًا ؛ اجلس هنا ! كما ذكره ابن القيم فى كتاب « الروح » ، وأحيانًا يحس بأن هذا الرجل أصيب بشيء مخيف ، فيتغير وجهه عند الموت إذا نزلت عليه ملائكة العذاب ، والعياذ بالله .

ومن أدلة القرآن قوله تعالى فى آل فرعون : ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ . وهذا قبل قيام الساعة ؛ بدليل قوله : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر : ٤٦] .

ومن أدلة القرآن أيضًا قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غمراك الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ﴾ ، وهم شاحون بأنفسهم ، لا يريدونها أن تخرج ؛ لأنهم قد بشروا بالعذاب والعقوبة ؛ فتجد الروح تأبى الخروج ، ولهذا قال : ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام : ٩٣] : ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ : (ال) : للعهد الحضورى ؛ كقوله تعالى : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة : ٣] ؛ يعنى : اليوم الحاضر .

وكذلك ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ : (ال) للعهد الحضورى ، والمراد به : يوم حضور الملائكة لقبض أرواحهم ، وهذا يقتضى أنهم يعذبون من حين أن تخرج أرواحهم ، وهذا هو عذاب القبر .

ومن أدلة القرآن أيضًا قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ [النحل : ٣٢] ، وذلك فى حال الوفاة .

ولهذا جاء فى الحديث الصحيح : « يقال لنفس المؤمن : اخرجى أيتها النفس المطمئنة إلى مغفرة من الله ورضوان » ؛ فتفرح بهذه البشرى ، وتخرج منقادة سهلة ، وإن كان البدن قد يتألم ، لكن الروح منقادة مستبشرة .

- وأما السنة فى عذاب القبر ونعيمه ؛ فمتواترة ، ومنها ما ثبت فى « الصحيحين » من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ؛ أن النبى ﷺ مرَّ بقبرين ؛ فقال : « إنهما ليعذبان ، وما يعذبان فى كبير . . . »[1] الحديث .

- وأما الإجماع ؛ فكل المسلمين يقولون فى صلاتهم : أعوذ بالله من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر . . . ولو أن عذاب القبر غير ثابت ؛ ما صح أن يتعوذوا بالله منه ؛ إذ لا تعوذ من أمرٍ ليس موجودًا ، وهذا يدل على أنهم يؤمنون به .

(١) أخرجه البخارى (٢١٦) ، ومسلم (٢٩٢) .

فإن قال قائل : هل العذاب أو النعيم فى القبر دائم أو ينقطع ؟ .

فالجواب أن يقال :

– أما العذاب للكفار فإنه دائم ، ولا يمكن أن يزول العذاب عنهم ؛ لأنهم مستحقون لذلك ، ولأنه لو زال العذاب عنهم ؛ لكان هذا راحة لهم ، وهم ليسوا أهلًا لذلك ؛ فهم باستمرار فى عذاب إلى يوم القيامة ، ولو طالت المدة ؛ فقوم نوح الذين أغرقوا مازالوا يعذبون فى هذه النار التى أدخلوا فيها ، ويستمر عذابهم إلى يوم القيامة ، وكذلك آل فرعون يعرضون على النار غدوًا وعشيًا .

وذكر بعض العلماء أنه يخفف عن الكفار ما بين النفختين ، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس : ٥٢] ، ولكن هذا ليس بلازم ؛ لأن قبورهم مرقد لهم ، وإن عذبوا فيها .

– أما عصاة المؤمنين الذين يقضى الله تعالى عليهم بالعذاب ؛ فهؤلاء قد يدوم عذابهم وقد لا يدوم ، وقد يطول وقد لا يطول ؛ حسب الذنوب ، وحسب عفو الله ﷻ .

والعذاب فى القبر أهون من عذاب يوم القيامة ؛ لأن العذاب فى القبر ليس فيه خزى وعار ، لكن فى الآخرة فيه الخزى والعار ؛ لأن الأشهاد موجودن : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر : ٥١] .

فإن قال قائل : لو أن هذا الرجل تمزق أوصالًا ، وأكلته السباع ، وذرته الرياح ؛ فكيف يكون عذابه ، وكيف يكون سؤاله ؟ ! .

فالجواب : أن الله ﷻ على كل شىء قدير ، وهذا أمر غيبى ؛ فالله ﷻ قادر على أن يجمع هذه الأشياء فى عالم الغيب ، وإن كنا نشاهدها فى الدنيا متمزقةً متباعدةً ، لكن فى عالم الغيب ربما يجمعها الله .

فانظر إلى الملائكة تنزل لقبض روح الإنسان فى المكان نفسه ؛ كما قال تعالى : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة : ٥٨] . ومع ذلك لا نبصرهم .

وملك الموت يكلم الروح ، ونحن لا نسمع .

وجبريل يتمثل أحيانًا للرسول عليه الصلاة والسلام ، ويكلمه بالوحى فى نفس المكان ، والناس لا ينظرون ولا يسمعون .

فعالم الغيب لا يمكن أبدًا أن يقاس بعالم الشهادة ، وهذه من حكمة الله ﷻ ؛ فنفسك التى فى جوفك ما تدرى كيف تتعلق ببدنك ؟ ! كيف هى موزعة على البدن ؟ ! وكيف تخرج منك عند النوم ؟ ! هل تحس بها عند استيقاظك بأنها ترجع ؟ ! ومن أين تدخل لجسمك ؟ ! .

فعالم الغيب ليس فيه إلا التسليم ، ولا يمكن فيه القياس إطلاقًا ؛ فالله ﷻ قادر على أن يجمع هذه المتفرقات من البدن المتمزق الذى ذرته الرياح ، ثم يحصل عليه المساءلة والعذاب أو النعيم ؛ لأن اللَّهَ

سبحانه على كل شيء قدير .

فإن قال قائل : الميت يدفن في قبر ضيق ؛ فكيف يوسع له مدَّ البصر ؟ ! .

فالجواب : أن عالم الغيب لا يقاس بعالم الشهادة ، بل إننا لو فرض أن أحدًا حفر حفرة مدَّ البصر ، ودفن فيه الميت ، وأطبق عليه التراب ؛ فالذى لا يعلم بهذه الحفرة ؛ هل يراها أو لا يراها ؟ ! لا شك أنه لا يراها ؛ مع أن هذا فى عالم الحس ، ومع ذلك لا يرى هذه السعة ، ولا يعلم بها ؛ إلا من شاهدها .

فإذا قال قائل : نحن نرى الميت الكافر إذا حفرنا قبره بعد يوم أو يومين ؛ نرى أضلاعه لم تختلف وتتداخل من الضيق ؟ ! .

فالجواب كما سبق : أن هذا من عالم الغيب ، ومن الجائز أن تكون مختلفة ؛ فإذا كشف عنها ؛ أعادها اللَّه ، وردَّ كل شيء إلى مكانه ؛ امتحانًا للعباد ؛ لأنها لو بقيت مختلفة ونحن قد دفنّاه وأضلاعه مستقيمة ؛ صار الإيمان بذلك إيمان شهادة .

فإن قال قائل كما قال الفلاسفة : نحن نضع الزئبق على الميت ، وهو أسرع الأشياء تحركًا ومروقًا ، وإذا جئنا من الغد ؛ وجدنا الزئبق على ما هو عليه ، وأنتم تقولون : إن الملائكة يأتون ويجلسون هذا الرجل ، والذى يجلس ؛ كيف يبقى عليه الزئبق ؟ ! .

فنقول أيضًا كما قلنا سابقًا : هذه من عالم الغيب ، وعلينا الإيمان والتصديق ، ومن الجائز أيضًا أن اللَّه ﷻ يرد هذا الزئبق إلى مكانه بعد أن تحول بالجلوس .

ونقول أيضًا : انظروا إلى الرجل فى المنام ؛ يرى أشياء لو كان على حسب رؤيته إياها ؛ ما بقى فى فراشه على السرير ، وأحيانًا تكون رؤيا حق من اللَّه ﷻ ، فتقع كما كان يراها فى منامه ، ومع ذلك ؛ نحن نؤمن بهذا الشيء .

والإنسان إذا رأى فى منامه ما يكره ؛ أصبح وهو متكدر ، وإذا رأى ما يسره ؛ أصبح وهو مستبشر ؛ كل هذا يدل على أن أمور الروح ليست من الأمور المشاهدة ، ولا تقاس أمور الغيب بالمشاهد ، ولا ترد النصوص الصحيحة ؛ لاستبعادنا ما تدل عليه حسب المشاهد .

فصل : فى القيامة الكبرى :

القيامة الكبرى هى التى يقوم فيها الناس من قبورهم لربِّ العالمين .

وأفادنا المؤلف ؒ بقوله : « القيامة الكبرى » . أن هناك قيامة صُغرى ، وهى قيامة كل إنسان بعينه ؛ فإن كل إنسان له قيامة ؛ فـ : « من مات ؛ قامت قيامته » .

وسكت المؤلف ؒ عن أشراط الساعة ؛ فلم يذكرها ؛ لأن المؤلف إنما يريد أن يتكلم عن اليوم الآخر ، وما أشراط الساعة إلا مجرد علامات وإنذارات لقرب قيام الساعة ؛ ليستعد لها من يستعد .

وبعض أهل العلم الذين صنّفوا فى العقائد ذكروا أشراط الساعة هنا ، والحقيقة أنه لا تعلق لها فى

الإيمان باليوم الآخر ، وإن كانت هى من الأمور الغيبية التى أشار الله إليها فى القرآن وفصلها النبى ﷺ فى السنة .

الأمر الأول مما يكون فى القيامة :

. ما أشار إليه المؤلف بقوله : « فَتُعَادُ الأرواحُ إلى الأجسَادِ » .

هذا أول الأمور : ويكون بعد النفخة الثانية فى الصور ، وذلك بعد أن فارقتها بالموت ، وهذه غير الإعادة التى تكون فى البرزخ حين سؤال الميت عن ربه ودينه ونبيه ، وذلك أن الله يأمر إسرافيل فينفخ فى الصور ، فيصعق من فى السماوات والأرض ؛ إلا من شاء الله ، ثم ينفخ فيه مرة أخرى فتتطاير الأرواح من الصور إلى أجسادها ، وتحل فيها .

وفى قول المؤلف : « إلى الأجساد » : إشارة [إلى] أن الأرواح لا تخرج من الصور ؛ إلا بعد أن تتكامل الأجساد مخلوقة ؛ فإذا كملت خلقتها ؛ نفخ فى الصور ، فأعيدت الأرواح إلى أجسادها .

وفى قوله : « تعاد الأرواح إلى الأجساد » . دليل على أن البعث إعادة ، وليس تجديدًا ، بل هو إعادة لما زال وتحول ؛ فإن الجسد يتحول إلى تراب ، والعظام تكون رميمًا ؛ يجمع الله تعالى هذا المتفرق ، حتى يتكون الجسد ، فتعاد الأرواح إلى أجسادها ، وأما من زعم بأن الأجساد تخلق من جديد ؛ فإن هذا زعم باطل يرده الكتاب والسنة والعقل :

– أما الكتاب ؛ فإن اللـه ﷻ يقول : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم : ٢٧] ؛ أى : يعيد ذلك الخلق الذى ابتدأه .

وفى الحديث القدسى : « يقول الله تعالى : ليس أول الخلق بأهون علىَّ من إعادته »[1] ؛ فالكل على الله هين .

وقال تعالى : ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] .

وقال تعالى : ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون : ١٥ ، ١٦] .

وقال تعالى : ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٞ * قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس : ٧٨ ، ٧٩] .

– وأما السنة ؛ فهى كثيرة جدًا فى هذا ؛ حيث بين النبى ﷺ « أن الناس يحشرون فيها حفاة عراة غُرلًا »[2] ؛ فالناس هم الذين يحشرون ، وليس سواهم .

فالمهم ؛ أن البعث إعادة للأجساد السابقة .

---

(١) أخرجه البخارى (٤٩٧٤) .

(٢) أخرجه البخارى (٣٣٤٩) ، ومسلم (٢٨٦٠) .

فإذا قلت : ربما يؤكل الإنسان من قبل السباع ، ويتحول جسمه الذى أكله السبع إلى تغذية لهذا الآكل تختلط بدمه ولحمه وعظمه وتخرج فى روثه وبوله ؛ فما الجواب على ذلك ؟ .

فالجواب : أن الأمر هين على الله ؛ يقول : كن ! فيكون ، ويتخلص هذا الجسم الذى سيبعث من كل هذه الأشياء التى اختلط بها ، وقدرة الله ﷻ فوق ما تتصوره ؛ فالله على كل شىء قدير .

هذه ثلاثة أنواع من الأدلة : كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ ، وإجماع المسلمين :

– فأما كتاب الله تعالى ؛ فقد أكَّد الله تعالى فى كتابه هذه القيامة ، وذكرها الله ﷻ بأوصاف عظيمة ، توجب الخوف والاستعداد لها :

فقال تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج : ١، ٢] .

وقال تعالى : ﴿ٱلْحَآقَّةُ مَا ٱلْحَآقَّةُ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة : ١- ٣] .

وقال تعالى : ﴿ٱلْقَارِعَةُ مَا ٱلْقَارِعَةُ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة : ١- ٥] .

والأوصاف لها فى القرآن كثيرة ؛ كلها مروعة مخوفة ؛ لأنها عظيمة ، وإذا لم نؤمن بها ؛ فلن نعمل لها ؛ إذ لا يمكن للإنسان أن يعمل لهذا اليوم حتى يؤمن به وحتى يذكر له أوصافه التى توجب العمل لهذا اليوم .

– وأما السنة ؛ فالأحاديث فى ذكر القيامة كثيرة ، بين الرسول عليه الصلاة والسلام بها ما يكون فيها ؛ كما سيأتى إن شاء الله فى ذكر الحوض والصِّراط والكتاب وغير ذلك مما بينه الرسول ﷺ .

– وأما الإجماع – وهو النوع الثالث ؛ فقد أجمع المسلمون إجماعًا قطعيًا على الإيمان بيوم القيامة ، ولهذا كان من أنكره ؛ فهو كافر ؛ إلا إذا كان غريبًا عن الإسلام وجاهلًا ؛ فإنه يعرف ؛ فإن أصر على الإنكار بعد ذلك ؛ فهو كافر ..

– وهناك نوع رابع من الأدلة ، وهوالكتب السماوية ؛ حيث اتفقت على إثبات اليوم الآخر ، ولهذا كان اليهود والنصارى يؤمنون بذلك ، وحتى الآن يؤمنون به ، ولهذا تسمعونهم يقولون : فلان المرحوم ، أو : ﷫ ، أو : ما أشبه ذلك ؛ مما يدل على أنهم يؤمنون باليوم الآخر إلى يومنا هذا .

– وثَمَّ نوع خامس ، وهو العقل ، ووجه ذلك أنه لو لم يكن هذا اليوم ، لكان إيجاد الخلائق عبثًا ، والله ﷻ منزه عن العبث ؛ فما الحكمة من قوم يُخلقون ويُؤمرون ويُنهون ويُلزَمون بما يُلزَمون به ويُندبون إلى ما يُندَبون إليه ، ثم يموتون ، ولا حساب ، ولا عقاب ؟ ! .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ

الحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥].

كيف يُفرض القرآن ويُفرض العمل به؛ ثم لا يكون هناك معادٌ نحاسب على ما نفذنا من هذا القرآن الذى فرض علينا؟!.

فصارت أنواع الأدلة على ثبوت اليوم الآخر خمسة.

الأمر الثانى مما يكون فى القيامة.

ما أشار إليه بقوله: «فَيَقومُ النَّاسُ مِنْ قُبورِهِم لِرَبِّ العَالَمِينَ حُفاةً عُرَاةً غُرْلًا».

قوله: «من قبورهم». هذا بناء على الأغلب وإلا؛ فقد يكون الإنسان غير مدفون.

قوله: «لرب العالمين». يعنى: لأن الله ﷻ يناديهم.

قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤١، ٤٢]؛ فيقومون لهذا النداء العظيم من قبورهم لربهم ﷻ.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٤- ٦].

قوله: «حُفاة عُراةً غُرلًا»: ليس عليهم نعال ولا خفاف؛ يعنى: أنه ليس عليهم لباس للرجل.

«عراة»: ليس عليهم لباس للجسد.

«غرلًا»: لم ينقص من خلقهم شيء، والغرل: جمع أغرل، وهو الذى لم يختن؛ أى أن القلفة التى قطعت منه فى الدنيا تعود يوم القيامة؛ لأن الله يقول: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]؛ فيعاد كاملًا، لم ينقص منه شيء؛ يعودون على هذا الوصف مختلطين رجالًا ونساءً.

ولما حدث النبى عليه الصلاة والسلام بذلك؛ قالت عائشة: يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟! فقال: «الأمر أشد من أن يُهِمَّهُم ذلك». وفى رواية: «من أن ينظر بعضهم إلى بعض»[(١)].

فكل إنسان له شأن يغنيه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤- ٣٧]. لا رجل ينظر إلى امرأة، ولا امرأة تنظر إلى رجل، حتى إن ابنه أو أباه يفر منه؛ خوفًا من أن يطالبه بحقوق له، وإذا كان هذا هو الواقع؛ فإنه لا يمكن أن تنظر المرأة إلى الرجل، ولا الرجل إلى المرأة؛ الأمر أشد وأعظم.

ولكن؛ مع ذلك؛ يكسون بعد هذا، و«أول من يكسى إبراهيم عليه الصلاة والسلام»؛ كما ثبت

(١) أخرجه البخارى (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩).

ذلك عن النبى ﷺ[(١)] .

الأمر الثالث مما يكون يوم القيامة :

ما أشار إليه بقوله : « وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ » .

« تدنو » : أى تقرب منهم الشمس ، وتقرب منهم مقدار مِيلٍ .

وهذا الميل سواء كان المسافة أو ميل المكحلة ؛ فإنها قريبة ، وإذا كانت هذه حرارتها فى الدنيا ، وبيننا وبينها من البعد شىء عظيم ؛ فكيف إذا كانت عن الرءوس بمقدار ميل[(٢)] ؟ ! .

قد يقول قائل : المعروف الآن أن الشمس لو تدنو بمقدار شعرة عن مستوى خطها ؛ لأحرقت الأرض ، فكيف يمكن أن تكون فى ذلك اليوم بهذا المقدار من البعد ، ثم لا تحرق الخلق ؟ .

فالجواب على ذلك : أن الناس يحشرون يوم القيامة ؛ ليسوا على القوة التى هم عليها الآن ، بل هم أقوى وأعظم وأشد تحملًا .

لو أن الناس الآن وقفوا خمسين يومًا فى شمس لا ظل ولا أكل ولا شرب ؛ فلا يمكنهم ذلك ، بل يموتون ! لكن يوم القيامة يقفون خمسين ألف سنة ؛ لا أكل ولا شرب ولا ظل ؛ إلا من أظله الله ﷻ ، ومع ذلك ؛ يشاهدون أهوالًا عظيمة ؛ فيتحملون .

واعتبر بأهل النار ؛ كيف يتحملون هذا التحمل العظيم ؛ ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء : ٥٦] .

وبأهل الجنة ؛ ينظر الإنسان إلى ملكه مسيرة ألف عام إلى أقصاه ؛ كما ينظر إلى أدناه ؛ كما روى ذلك عن النبى ﷺ[(٣)] .

فإن قيل : هل أحد يسلم من الشمس ؟ .

فالجواب : نعم هناك أناس يظلهم الله فى ظِله يوم لا ظل إلا ظله ؛ كما أخبر بذلك النبى ﷺ : « إمام عادل ، وشاب نشأ فى طاعة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليًا ؛ ففاضت عيناه »[(٤)] .

وهناك أيضًا أصناف أخرى يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله .

وقوله : « لا ظل إلا ظله » ؛ يعنى : إلا الظل الذى يخلقه ، وليس كما توهم بعض الناس أنه ظل ذات

(١) أخرجه البخارى (٣٣٤٩) ، ومسلم (٢٨٦٠) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٤) .

(٣) ضعفه الألبانى فى « الضعيفة » (١٩٨٥) .

(٤) أخرجه البخارى (٦٦٠) ، ومسلم (١٠٣١) .

الرب ﷻ ؛ فإن هذا باطل ؛ لأنه يستلزم أن تكون الشمس حينئذ فوق الله ﷻ .

ففى الدنيا ؛ نحن نبنى الظل لنا ، لكن يوم القيامة ؛ لا ظل إلا الظل الذى يخلقه سبحانه وتعالى ليستظل به من شاء من عباده .

الأمر الرابع مما يكون يوم القيامة :

ما ذكره المؤلف رحمه الله بقوله : « وَيُلْجِمُهُمُ العَرَقُ » .

« يلجمهم » ؛ أى يصل منهم إلى موضع اللجام من الفرس ، وهو الفم ، ولكن هذا غاية ما يصل إليه العرق ، وإلا ؛ فبعضهم يصل العرق إلى كعبيه ، وإلى ركبتيه ، وإلى حقويه ، ومنهم من يلجمه ؛ فهم يختلفون فى هذا العرق ، ويعرقون من شدة الحر ؛ لأن المقام مقام زحام وشدة ودنو شمس ؛ فيعرق الإنسان مما يحصل فى ذلك اليوم ؛ لكنهم على حسب أعمالهم .

فإن قلت : كيف يكون ذلك وهم فى مكان واحد ؟ .

فالجواب : أننا أصلنا قاعدة يجب الرجوع إليها ، وهى : أن الأمور الغيبية يجب علينا أن نؤمن بها ونصدق دون أن نقول : كيف ؟ ! ولِمَ ؟ ! لأنها شىء وراء عقولنا ، ولا يمكن أن ندركها أو نحيط بها .

أرأيت لو أن رجلين دُفنا فى قبر واحد : أحدهما : مؤمن ، والثانى : كافر ؛ فإنه ينال المؤمن من النعيم ما يستحق ، وينال الكافر من العذاب ما يستحق ، وهما فى قبر واحد ، وهكذا نقول فى العرق يوم القيامة .

فإن قلت : هل تقول : إن الله سبحانه وتعالى يجمع من يلجمهم العرق فى مكان ومن يصل إلى كعبيه فى مكان ، وإلى ركبتيه فى مكان ، وإلى حقويه فى مكان ؟ .

فالجواب : لا نجزم بهذا ، والله أعلم ، بل نقول : من الجائز أن يكون الذى يصل العرق إلى كعبه إلى جانب الذى يلجمه العرق ، والله على كل شىء قدير ، وهذا نظير النور الذى يكون للمؤمنين ؛ يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، والكفار فى ظلمة ؛ فيوم القيامة يجب علينا أن نؤمن به وبما يكون فيه ، أما كيف ؟ ! ولِمَ ؟ ! فهذا ليس إلينا .

الأمر الخامس مما يكون يوم القيامة :

ما ذكره بقوله : « فتُنْصَبُ المَوازِينُ فَتُوزَنُ بِها أعْمالُ العِبادِ » .

والمؤلف يقول : « الموازين » : بالجمع ، وقد وردت النصوص بالجمع والإفراد :

– فمثال الجمع : قول الله تعالى : ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء : ٤٧] ، وقال تعالى : ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ [الأعراف : ٨، ٩] .

– وأما الإفراد ؛ فقال النبى ﷺ : « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى

الميزان : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم »[١] .

فقال : « في الميزان » فأفرد ؛ فكيف نجمع بين الآيات القرآنية وبين هذا الحديث ؟ ! .

فالجواب أن نقول :

إنها جمعت باعتبار الموزون ؛ حيث إنه متعدد ، وأفردت باعتبار أن الميزان واحد ، أو ميزان كل أمة ، أو أن المراد بالميزان في قوله عليه الصلاة والسلام : « ثقيلتان في الميزان » ؛ أي : في الوزن .

ولكن الذي يظهر – والله أعلم – أن الميزان واحد ، وأنه جمع باعتبار الموزون ؛ بدليل قوله : ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [الأعراف : ٨] .

لكن يتوقف الإنسان : هل يكون ميزانًا واحدًا لجميع الأمم أو لكل أمة ميزان ؛ لأن الأمم كما دلت عليه النصوص تختلف باعتبار أجرها ؟ ! .

وقوله : « تنصب الموازين » : ظاهره أنها موازين حسية ، وأن الوزن يكون على حسب المعهود بالراجح والمرجوح ، وذلك لأن الأصل في الكلمات الواردة في الكتاب والسنة حملها على المعهود المعروف ؛ إلا إذا قام دليل على أنها خلاف ذلك ، والمعهود المعروف عند المخاطبين منذ نزول القرآن الكريم إلى اليوم أن الميزان حسي ، وأن هناك راجح ومرجوح .

وخالف في ذلك جماعة :

– فالمعتزلة قالوا : إنه ليس هناك ميزان حسي ، ولا حاجة له ؛ لأن الله تعالى قد علم أعمال العباد وأحصاها ، ولكن المراد بالميزان : الميزان المعنوي الذي هو العدل .

ولا شك أن قول المعتزلة باطل ؛ لأنه مخالف لظاهر اللفظ وإجماع السلف ، ولأننا إذا قلنا : إن المراد بالميزان : العدل ؛ فلا حاجة إلى أن نعبر بالميزان ، بل نعبر بالعدل ؛ لأنه أحب إلى النفس من كلمة (ميزان) ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل : ٩٠] .

– وقال بعض العلماء : إن الرجحان للعالي ؛ لأنه يحصل فيه العلو ، ولكن الصواب أن نجري الوزن على ظاهره ، ونقول : إن الراجح هو الذي ينزل ، ويدل لذلك حديث صاحب البطاقة[٢] ؛ فإن فيه أن السجلات تطيش وتثقل البطاقة ، وهذا واضح ؛ بأن الرجحان يكون بالنزول .

وقوله : « فتوزن بها أعمال العباد » . كلام المولف رحمه الله صريح بأن الذي يوزن : العمل .

وهنا مبحثان :

المبحث الأول : كيف يوزن العمل ؛ والعمل وصف قائم بالعامل ، وليس جسمًا فيوزن ؟ ! .

والجواب على ذلك : أن يقال : إن الله سبحانه وتعالى يجعل هذه الأعمال أجسامًا ، وليس هذا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٦) ، ومسلم (٢٦٩٤) .

(٢) « صحيح الجامع » للألباني (١٧٧٦، ٨٠٩٥) .

بغريب على قدرة الله ﷻ ، وله نظير ، وهو الموت ؛ فإنه يجعل على صورة كبش ، ويذبح بين الجنة والنار[1] ، مع أن الموت معنى ، وليس بجسم ، وليس الذى يذبح ملك الموت ، ولكنه نفس الموت حيث يجعله الله تعالى جسمًا يشاهد ويرى ، كذلك الأعمال يجعلها الله ﷻ أجسامًا توزن بهذا الميزان الحسى .

المبحث الثانى : صريح كلام المؤلف أن الذى يوزن العمل ؛ سواء كان خيرًا أم شرًا :

وهذا هو ظاهر القرآن ؛ كما قال الله تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة : ٦- ٨] ، فهذا واضح أن الذى يوزنُ العمل ؛ سواء كان خيرًا أم شرًا .

وقال النبى عليه الصلاة والسلام : « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان » . وهذا ظاهر أيضًا ، بل صريح ، فى أن الذى يوزن العمل ، والنصوص فى هذا كثيرة .

ولكن هناك نصوص قد يخالف ظاهرها هذا الحديث :

- منها حديث صاحب البطاقة ؛ رجل يؤتى به على رءوس الخلائق ، وتعرض عليه أعماله فى سجلات تبلغ تسعة وتسعين سجلًا ؛ كل سجل منها يبلغ مد البصر ، فيقر بها ، فيقال له : ألك عذر أو حسنة ؟ فيقول : لا ؛ يا رب . فيقول الله : بلى ؛ إن لك عندنا حسنة . فيؤتى ببطاقة صغيرة ، فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله . فيقول : يا رب ، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ ! فيقال : إنك لا تظلم . قال : فتوضع السجلات فى كِفَّة ، والبطاقة فى كِفة ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة . . » الحديث .

وظاهر هذا أن الذى يوزن صحائف الأعمال .

- وهناك نصوص أخرى تدل على أن الذى يوزن العامل ؛ مثل :

قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف : ١٠٥] . مع أنه قد ينازع فى الاستدلال بهذه الآية ؛ فيقال : إن معنى قوله : ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ . يعنى : قدرًا .

ومثل ما ثبت من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ؛ أنه كان يجتنى سواكًا من الأراك ، وكان رضي الله عنه دقيق الساقين ، جعلت الريح تحركه ، فضحك الصحابة رضي الله عنهم ، فقال النبى ﷺ : « مم تضحكون ؟ » . قالوا : من دقة ساقيه . قال : « والذى نفسى بيده ؛ لهما فى الميزان أثقل من أُحدٍ » .

فصار هاهنا ثلاثة أشياء : العمل ، والعامل ، والصحائف .

- فقال بعض العلماء : إن الجمع بينها أن يقال : إن من الناس من يوزن عمله ، ومن الناس من يوزن

(١) أخرجه البخارى (٤٧٣٠) ، ومسلم (٢٨٤٩) .

صحائف عمله ، ومن الناس من يوزن هو بنفسه .

- وقال بعض العلماء : الجمع بينها أن يقال : إن المراد بوزن العمل أن العمل يوزن وهو فى الصحائف ، ويبقى وزن صاحب العمل ، فيكون لبعض الناس .

- ولكن عند التأمل نجد أن أكثر النصوص تدل على أن الذى يوزن هو العمل ، ويخص بعض الناس ، فتوزن صحائف أعماله ، أو يوزن هو نفسه .

وأما ما ورد فى حديث ابن مسعود وحديث صاحب البطاقة ؛ فقد يكون هذا أمرًا يخص الله به من يشاء من عباده .

﴿فَمَن﴾ : شرطية . وجواب الشرط جملة : ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ .

وأتت الجملة الجزائية جملة اسمية بصفة الحصر ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ والجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار .

وجاءت باسم الإشارة الدال على البعد ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ ، ولم يقل : فهم المفلحون : إشارة إلى علو مرتبتهم .

وجاءت بصفة الحصر فى قوله : ﴿هُمُ﴾ ، وهم ضمير فصل يفيد الحصر والتوكيد ، والفصل بين الخبر والصفة .

والمفلح : هو الذى فاز بمطلوبه ونجا من مرهوبه ؛ فحصل له السلامة مما يكره ، وحصل له ما يحب .

والمراد بثقل الموازين رجحان الحسنات على السيئات .

وقوله : ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ : فيه إشكال من جهة العربية ؛ فإن ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾ الضمير فيه مفرد ، و﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الضمير فيه جمع .

وجوابه : أن (من) الشرطية صالحة للإفراد والجمع ؛ فباعتبار اللفظ يعود الضمير إليها مفردًا ، وباعتبار المعنى يعود الضمير إليها جمعًا .

وكلمات جاءت (من) ؛ فإنه يجوز أن تعيد الضمير إليها بالإفراد أو بالجمع ، وهذا كثير فى القرآن : قال الله تعالى : ﴿ مَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴾ [الطلاق : ١١] ؛ فتجد الآية الكريمة فيها مراعاة اللفظ ثم المعنى ثم اللفظ .

الإشارة هنا للبعد ؛ لانحطاط مرتبتهم ، لا لعلو مرتبتهم .

قوله : ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ . الكافر قد خسر نفسه وأهله وماله : ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر : ١٥] . بينما المؤمن العامل للصالحات قد ربح نفسه وأهله وماله وانتفع به .

فهؤلاء الكفار خسروا أنفسهم ؛ لأنهم لم يستفيدوا من وجودهم فى الدنيا شيئًا ، بل ما استفادوا إلا الضرر ، وخسروا أموالهم ؛ لأنهم لم ينتفعوا بها ، حتى ما أعطوه للخلق لينتفع به ؛ فإنه لا ينفعهم ؛ كما قال تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة : ٥٤] .

وخسروا أهليهم ؛ لأنهم فى النار ؛ فصاحب النار لا يأنس بأهله ، بل إنه مغلق عليه فى تابوت ، ولا يرى أن أحدًا أشد منه عذابًا .

والمراد بخفة الموازين : رجحان السيئات على الحسنات ، أو فقدان الحسنات بالكلية ، إن قلنا بأن الكفار توزن أعمالهم ؛ كما هو ظاهر هذه الآية الكريمة وأمثالها وهو أحد القولين لأهل العلم .

والقول الثانى : أن الكفار لا توزن أعمالهم ؛ لقوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف : ١٠٣- ١٠٥] . والله أعلم .

الأمر السادس مما يكون يوم القيامة : وهو ما ذكره المؤلف بقوله : « وَتُنْشَرُ الدَّواوِينُ » .

« وتنشر » ؛ أى : تفرق وتفتح لقارئها .

و« الدواوين » : جمع ديوان ، وهو السجل الذى تكتب فيه الأعمال ، ومنه دواوين بيت المال ، وما أشبه ذلك .

يعنى : التى كتبتها الملائكة الموكلون بأعمال بنى آدم ؛ قال الله تعالى : ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ كِرَامًا كَٰتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار : ٩- ١٢] .

فيكتب هذا العمل ، ويكون لازما للإنسان فى عنقه ؛ فإذا كان يوم القيامة ؛ أخرج الله هذا الكتاب .

قال تعالى : ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء : ١٣، ١٤] .

وقال بعض السلف : لقد أنصفك من جعلك حسيبًا على نفسك .

والكتابة فى صحائف الأعمال : إما للحسنات ، وإما للسيئات ، والذى يكتب من الحسنات ما عمله الإنسان ، وما نواه ، وما هم به ؛ فهذه ثلاثة أشياء :

- فأما ما عمله ؛ فظاهر أنه يكتب .

- وأما ما نواه ؛ فإنه يكتب له ، لكن يكتب له أجر النية فقط كاملًا ؛ كما فى الحديث الصحيح فى قصة الرجل الذى كان له مال ينفقه فى سبل الخير ، فقال الرجل الفقير : لو أن عندى مالًا ؛ لعملت فيه بعمل فلان . قال النبى ﷺ : « فهو بنيته ؛ فأجرهما سواء »[1] .

ويدل على أنهما ليسا سواء فى الأجر من حيث العمل : أن فقراء المهاجرين لما أتوا إلى النبى ﷺ

(١) صححه الألبانى فى « صحيح الجامع » (٣٠٢٤) .

وقالوا : يا رسول الله ، إن أهل الدُّثور سبقونا . فقال لهم ﷺ : « تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين » . فلما سمع الأغنياء بذلك ؛ فعلوا مثله ، فرجع الفقراء يشكون إلى النبى عليه الصلاة والسلام ، فقال لهم : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء »[1] . ولم يقل : إنكم بنيتكم أدركتم عملهم .

ولأن هذا هو العدل ؛ فرجل لم يعمل لا يكون كالذى عمل ، لكن يكون مثله فى أجر النية فقط .

- وأما الهمّ ؛ فينقسم إلى قسمين :

الأول : أن يهم بالشىء ويفعل ما يقدر عليه منه ، ثم يحال بينه وبين إكماله .

فهذا يكتب له الأجر كاملًا ؛ لقوله تعالى : ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠] .

وهذه بشرى لطلبة العلم : إذا نوى الإنسان أن يطلبَ العلم وهو يريد أن ينفع الناس بعلمه ، ويذب عن سنة الرسول ﷺ وينشر دين الله فى الأرض ، ثم لم يقدر له ذلك ؛ بأن مات مثلًا ، وهو فى طلبه ؛ فإنه يكتب له أجر ما نواه وسعى إليه .

بل إن الإنسان إذا كان من عادته العمل ، وحيل بينه وبينه لسبب ؛ فإنه يكتب له أجره ، قال النبى عليه الصلاة والسلام : « إذا مرض العبد أو سافر ؛ كتب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا »[2] .

القسم الثانى : أن يهم بالشىء ويتركه مع القدرة عليه ؛ فيكتب له به حسنة كاملة ؛ لنيته .

وأما السيئات ؛ فإنه يكتب على الإنسان ما عمله ، ويكتب عليه ما أراده وسعى فيه ولكن عجز عنه ، ويكتب عليه ما نواه وتمناه .

فالأول : واضح .

والثانى : يكتب عليه كاملًا ؛ لقول النبى عليه الصلاة والسلام : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما ؛ فالقاتلُ والمقتولُ فى النار » . قالوا : يا رسول الله ، هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ ! قال : « لأنه كان حريصًا على قتل صاحبه »[3] ، ومثله من هَمَّ أن يشرب الخمر ، ولكن حصل له مانع ؛ فهذا يكتب عليه الوزر كاملًا ؛ لأنه سعى فيه .

والثالث : الذى نواه وتمناه يكتب عليه ، لكن بالنية ، ومنه الحديث الذى أخبر النبى عليه الصلاة والسلام عن رجل أعطاه الله مالًا ؛ فكان يتخبط فيه ، فقال رجل فقير : لو أن لى مالًا ؛ لعملت فيه بعمل فلان . قال النبى عليه الصلاة والسلام : « فهو بنيته ؛ فوزرهما سواء » .

ولو هم بالسيئة ، ولكن تركها ؛ فهذا على ثلاثة أقسام :

---

(١) أخرجه البخارى (٨٤٣) ، ومسلم (٥٩٥) .

(٢) أخرجه البخارى (٢٩٩٦) .

(٣) أخرجه البخارى (٣١) ، ومسلم (٢٨٨٨) .

١ - إن تركها عجزًا ؛ فهو كالعامل إذا سعى فيها .

٢ - وإن تركها لله ؛ كان مأجورًا .

٣ - وإن تركها لأن نفسه عزفت عنها ، أو لم تطرأ على باله ؛ فهذا لا إثم عليه ولا أجر .

والله ﷻ يجزى بالحسنات أكثر من العمل ، ولا يجزى بالسيئات إلا مثل العمل ؛ قال تعالى : ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام : ١٦٠] ، وهذا من كرمه ﷻ ومن كون رحمته سبقت غضبه .

قوله : « فآخذٌ كتابه بيمينه » : « آخذ » : مبتدأ ، وخبره محذوف ، والتقدير : فمنهم آخذ .

وجاز الابتداء به وهو نكرة ؛ لأنه فى مقام التفصيل ؛ أى أن الناس ينقسمون ، فمنهم من يأخذ كتابه بيمينه ، وهم المؤمنون ، وهذا إشارة إلى أن لليمنى الإكرام ، ولذلك يأخذ المؤمن كتابه بها ، والكافر يأخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره ؛ كما قال المؤلف : « وآخذ كتابه بشماله » .

وقوله : « أو من وراء ظهره » : « أو » للتنويع ، وليست للشك .

فظاهر كلام المؤلف أن الناس يأخذون كتبهم على ثلاثة أوجه : باليمين ، وبالشمال ، ومن وراء الظهر .

ولكن الظاهر أن هذا الاختلافَ اختلافُ صفاتٍ ؛ فالذى يأخذ كتابه من وراء ظهره هو الذى يأخذ كتابه بشماله ؛ فيأخذ بالشمال ، وتجعل يده من الخلف ؛ فكونه يأخذه بالشمال ؛ لأنه من أهل الشمال ، وكونه من وراء ظهره ؛ لأنه لـمّا استدبر كتاب الله ، وولّى ظهره إياه فى الدنيا ؛ صار من العدلِ أن يجعل كتاب أعماله يوم القيامة خلف ظهره ؛ فعلى هذا ؛ تخلع اليد الشمال حتى تكون من الخلف . والله أعلم .

﴿طَٰٓئِرَهُۥ﴾ : أى عمله ؛ لأن الإنسان يتشاءم به أو يتفاءل به ، ولأن الإنسان يطير به فيعلو أو يطير به فينزل .

﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾ ؛ أى : رقبته ، وهذا أقوى ما يكون تعلقًا بالإنسان ؛ حيث يربط فى العنق ؛ لأنه لا يمكن أن ينفصل إلا إذا هلك الإنسان ؛ فهذا يلزم عمله .

وإذا كان يوم القيامة ؛ كان الأمر كما قال الله تعالى : ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ ؛ أى : مفتوحًا ؛ لا يحتاج إلى تعب ولا إلى مشقة فى فتحه .

ويقال له : ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ وانظر ما كتب عليك فيه .

﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ : وهذا من تمام العدل والإنصاف : أن يوكل الحساب إلى الإنسان نفسه .

والإنسان العاقل لا بد أن ينظر ماذا كتب فى هذا الكتاب الذى سوف يجده يوم القيامة مكتوبًا .

ولكن ؛ نحن أمامنا باب يمكن أن يقضي على كل السيئات ، وهو التوبة ، وإذا تاب العبد إلى اللَّه مهما عظُم ذنبه ؛ فإن اللَّه يتوب عليه ، وحتى لو تكرر الذنب منه ، وهو يتوب ؛ فإن اللَّه يتوب عليه ؛ فما دام الأمر بأيدينا الآن ؛ فعلينا أن نحرص على ألَّا يكتب في هذا الكتاب إلا العمل الصالح .

الأمر السابع مما يكون يوم القيامة :

وهو ما ذكره المؤلف بقوله : « وَيُحَاسِبُ اللهُ الخَلائِقَ » :

المحاسبة : اطلاع العباد على أعمالهم يوم القيامة .

وقد دلّ عليه الكتاب والسنة والإجماع والعقل :

- أما الكتاب ؛ فقال تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق : ٧، ٨] ، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق : ١٠- ١٢] .

- وأما السنة ؛ فقد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام بعدةِ أحاديث أن اللَّه تعالى يحاسب الخلائق .

- وأما الإجماع ؛ فإنه متفق عليه بين الأمة : أن اللَّه تعالى يحاسب الخلائق .

- وأما العقل ؛ فواضح ؛ لأننا كلفنا بعمل فعلًا وتركًا وتصديقًا ، والعقل والحكمة تقتضيان أن من كلف بعمل ؛ فإنه يحاسب عليه ويناقش فيه .

وقول المؤلف : « الخلائق » : جمع خليقة ؛ يشمل كل مخلوق .

إلا أنه يستثنى من ذلك من يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب ؛ كما ثبت ذلك في « الصحيحين » : أن النبي ﷺ رأى أمّته ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب ، وهم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون[1] .

وقد روى الإمام أحمد بسند جيد : أن مع كل واحد سبعين ألفًا[2] .

فتضرب سبعين ألفًا بسبعين ألفًا ويزاد سبعون ألفًا . هؤلاء كلهم يدخلون الجنة لا حساب ولا عذاب .

وقوله : « الخلائق » . يشمل أيضًا الجن ؛ لأنهم مكلّفون ، ولهذا يدخل كافرهم النار بالنص والإجماع ؛ كما قال تعالى : ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف : ٣٨] ، ويدخل مؤمنهم الجنة على قول جمهور أهل العلم ، وهو الصحيح ؛ كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ ، إلى قوله : ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن : ٤٦- ٥٦] .

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠٥) ، ومسلم (٢٢٠) .

(٢) أخرجه أحمد (٢٣) .

وهل تشمل المحاسبة البهائم ؟ .

أما القِصاص ؛ فيشمل البهائم ؛ لأنه ثبت عن النبى عليه الصلاة والسلام « أنه يقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء »[1]، وهذا قصاص ، لأنها لا تحاسب حساب تكليف وإلزام ؛ لأن البهائم ليس لها ثواب ولا عقاب .

قوله : « وَيَخلو بِعَبْدِهِ المُؤمنِ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنوبِهِ » .

هذا صفة حساب المؤمن :

يخلو به الله ﷻ دون أن يطلع عليه أحد ، ويقرره بذنوبه ؛ أى : يقول له : عمِلت كذا ، وعملت كذا . . . حتى يقر ويعترف ، ثم يقول : « سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم »[2] .

ومع ذلك فإنه سبحانه وتعالى يضع عليه ستره ؛ بحيث لا يراه أحد ، ولا يسمعه أحد ، وهذا من فضل الله ﷻ على المؤمن ؛ فإن الإنسان إذا قررك بجناياتك أمام الناس وإن سمح عنك ؛ ففيه شىء من الفضيحة ، لكن إذا كان ذلك وحدك ؛ فإن ذلك ستر منه عليك .

« ذلك » المشار إليه الحساب ؛ يعنى : كما وصف الحساب فى الكتاب والسنة ، لأن هذا من الأمور الغيبية المتوقفة على الخبر المحض ، فوجب الرجوع فيه إلى ما وصف فى الكتاب والسنة .

هكذا جاء معناه فى حديث ابن عمر ﭬ عن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم حينما ذكر حساب الله تعالى لعبده المؤمن ، وأنه يخلو به ، ويقرره بذنوبه . قال : « وأما الكفار والمنافقون ؛ فينادى بهم على رءوس الخلائق : هؤلاء الذين كَذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين » . متفق عليه .

وفى « صحيح مسلم »[3]، عن أبى هريرة ﭬ ، فى حديث طويل عن النبى ﷺ قال : « فيلقى العبد ، أى : يلقى الله العبد ، يعنى : المنافق ، فيقول : يا فُل ، أى : يا فلان ، ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ؟ ! فيقول : بلى . قال : فيقول : أظننت أنك ملاقىّ ؟ فيقول : لا ، فيقول : فإنى أنساك كما نسيتنى ، ثم يلقى الثانى فيسأله فيجيب كما أجاب الأول ، فيقول الله ، فإنى أنساك كما نسيتنى ، ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك ، فيقول : يا رب ، آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت . ويثنى بخير ما استطاع ، فيقول : هاهنا إذن ، قال : ثم يقال له : الآن نبعث شاهدنا عليك ، ويفكر فى نفسه من ذا الذى يشهد علىّ ؟ فيختم على فيه ، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه : انطقى ، فتنطق بعمله ، وذلك ليعذر من نفسه ، وذلك المنافق وذلك الذى يسخط الله عليه » .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٢) .

(٢) أخرجه البخارى (٢٤٤١) ، ومسلم (٢٧٦٨) .

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٦٨) .

تنبيه :

في قول المؤلف ﷺ محاسبة من توزن حسناته وسيئاته .. إلخ ، إشارة إلى أن المراد بالمحاسبة المنفية عنهم هي محاسبة الموازنة بين الحسنات والسيئات ، وأما محاسبة التقرير والتقريع فثابتة كما يدل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

فائدة :

أول ما يحاسب عليه العبد من الأعمال الصلاة ، وأول ما يقضى فيه بين الناس الدِّماء ؛ لأن الصلاة أفضل العبادات البدنية ، والدماء أعظم ما يعتدى به في حقوق الآدميين .

النوع الثاني : حساب الكفار ، وقد بينه بقوله : (وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته ؛ فإنه لا حسنات لهم) ؛ أي : ليس لهم حسنات توزن مع سيئاتهم ؛ لأن أعمالهم قد حبطت بالكفر ، فلم يبق لهم في الآخرة إلا سيئات .

فحسابهم معناه : أنهم (تعد أعمالهم ، فتحصى ، فيوقفون عليها ، ويقررون بها ، ويجزون بها) ؛ أي : يخبرون بأعمالهم الكفرية ، ويعترفون بها ، ثم يجازون عليها ، كما قال تعالى : ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت : ٥٠] .

وقال تعالى : ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف : ٣٧] .

وقال : ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك : ١١] .

الأمر الثامن مما يكون يوم القيامة :

وهو ما ذكره المؤلف بقوله : « وَفي عَرَصاتِ القِيامَةِ الحَوْضُ المَوْرودُ لمحمد ﷺ » .

العرصات : جمع عرصة ، وهي المكان المتسع بين البنيان ، والمراد به هنا مواقف القيامة .

والحوض في الأصل : مجمع الماء ، والمراد به هنا : حوض النبي ﷺ .

والكلام على الحوض من عدة وجوه :

أولًا : هذا الحوض موجود الآن ؛ لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه خطب ذات يوم في أصحابه ، وقال : « وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن »[1] .

وأيضًا ؛ ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام ؛ أنه قال : « ومنبري على حوضي »[2] .

وهذا يحتمل أنه في هذا المكان ، لكن لا نشاهده ؛ لأنه غيبي ، ويحتمل أن المنبر يوضع يوم القيامة على الحوض .

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٤٤) ، ومسلم (٢٢٩٦) .

(٢) أخرجه البخاري (١١٩٦) ، ومسلم (١٣٩١) .

ثانيًا : هذا الحوض يصب فيه ميزابان من الكوثر - وهو النهر العظيم ، الذى أعطيه النبى ﷺ فى الجنة - ينزلان إلى هذا الحوض .

ثالثًا : زمن الحوض قبل العبور على الصراط ؛ لأن المقام يقتضى ذلك ؛ حيث إن الناس فى حاجة إلى الشرب فى عرصات القيامة قبل عبور الصراط .

رابعًا : يرد هذا الحوض المؤمنون بالله ورسوله ﷺ ، المتبعون لشريعته ، وأما من استنكف واستكبر عن اتباع الشريعة ؛ فإنه يطرد منه .

خامسًا : فى كيفية مائه : فيقول المؤلف رحمه الله : « ماؤه أشد بياضًا من اللبن » : هذا فى اللون ، أما فى الطعم ؛ فقال : « وأحلى من العسل » ، وفى الرائحة : « أطيب من ريح المسك » . كما ثبت به الحديث عن النبى ﷺ[1] .

سادسًا : فى آنيته : يقول المؤلف : « آنيته عدد نجوم السماء » .

هذا كما ورد فى بعض ألفاظ الحديث ، وفى بعضها : « آنيته كنجوم السماء » ، وهذا اللفظ أشمل ؛ لأنه يكون كالنجوم فى العدد وفى الوصف بالنور واللمعان ؛ فآنيته كنجوم السماء كثرة وإضاءة .

سابعًا : آثار هذا الحوض : قال المؤلف : « من يشرب منه شربة ؛ لا يظمأ بعدها أبدًا » . حتى على الصراط وبعده .

وهذه من حكمة الله ﷻ ؛ لأن الذى يشرب من الشريعة فى الدنيا لا يخسر أبدًا كذلك .

ثامنًا : مساحة هذا الحوض : يقول المؤلف : « طوله شهر وعرضه شهر » . هذا إذن يقتضى أن يكون مدورًا ؛ لأنه لا يكون بهذه المساحة من كل جانب ؛ إلا إذا كان مدورًا ، وهذه المسافة باعتبار ما هو معلوم فى عهد النبى ﷺ من سير الإبل المعتاد .

تاسعًا : يصب فى الحوض ميزابان من الكوثر الذى أعطاه الله تعالى محمدًا ﷺ .

عاشرًا : هل للأنبياء الآخرين أحواضٌ ؟ .

فالجواب : نعم ؛ فإنه جاء فى حديث رواه الترمذى - وإن كان فيه مقال : « إن لكل نبى حوضًا »[2] .

لكن هذا يؤيده المعنى ، وهو أن الله ﷻ بحكمته وعدله كما جعل للنبى محمد ﷺ حوضًا يرده المؤمنون من أمته ؛ كذلك يجعل لكل نبى حوضًا ، حتى ينتفع المؤمنون بالأنبياء السابقين ، لكن الحوض الأعظم هو حوض النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

الأمر التاسع مما يكون يوم القيامة الصراط :

وقد ذكره المؤلف بقوله : « والصِّراطُ مَنصوبٌ عَلى مَتْنِ جَهنَّمَ ، وَهُوَ الجِسْرُ الذى بين الجنة والنَّار » .

---

(١) أخرجه البخارى (٦٥٧٥) ، ومسلم (٢٢٩٢) .

(٢) أخرجه الترمذى (٢٤٤٣) ، وابن ماجه (٤٣٠١) ، وأورده الألبانى فى « الصحيحة » (١٥٨٩) .

وقد اختلف العلماء فى كيفيته :

- فمنهم من قال : طريق واسع يمر الناس على قدر أعمالهم ؛ لأن كلمة الصراط مدلولها اللغوى هو هذا ؛ ولأن رسول الله ﷺ أخبر بأنه دَحْض ومَزَلة[1] ، والدحض والمزلة لا يكونان إلا فى طريق واسع ، أما الضيق ؛ فلَا يكون دحضًا ومزلة .

- ومن العلماء من قال : بل هو صراط دقيق جدًّا ؛ كما جاء فى حديث أبى سعيد الخدرى الذى رواه مسلم بلاغًا[2] ؛ أنه أدق من الشعر ، وأحد من السيف .

على هذا يرد سؤال : وهو كيف يمكن العبور على طريق كهذا ؟

والجواب : أن أمور الآخرة لا تقاس بأمور الدنيا ؛ فالله تعالى على كل شيء قدير ، ولا ندرى ؛ كيف يعبرون ؟! هل يجتمعون جميعًا فى هذا الطريق أو واحد بعد واحد ؟ .

وهذه المسألة لا يكاد الإنسان يجزم بأحد القولين ؛ لأن كليهما له وجهة قوية .

وقوله : « منصوب على متن جهنم » ، يعنى : على نفس النار .

قوله : « يمر الناس » . المراد بـ : « الناس » هنا : المؤمنون ؛ لأن الكفار قد ذهب بهم إلى النار .

فيمر الناس عليه على قدر أعمالهم ؛ منهم من يمر كلمح البصر ، ومنهم من يمر كالبرق ، ولمح البصر أسرع من البرق ، ومنهم من يمر كالريح ؛ أى : الهواء ، ولا شك أن الهواء سريع ، لا سيما قبل أن يعرف الناس الطائرات ، والهواء المعروف يصل أحيانًا إلى مائة وأربعين ميلًا فى الساعة ، ومنهم من يمر كالفرس الجواد ، ومنهم يمر كركاب الإبل ، وهى دون الفرس الجواد بكثير ، ومنهم من يعدو عدوًا ؛ أى : يسرع ، ومنهم من يمشى مشيًا ، ومنهم من يزحف زحفًا ؛ أى : يمشى على مقعدته ، وكل منهم يريد العبور .

وهذا بغير اختيار الإنسان ، ولو كان باختياره ؛ لكان يحب أن يكون بسرعة ، ولكن السير على حسَب سرعته فى قبولِ الشريعة فى هذه الدنيا ، فمن كان سريعًا فى قبولِ ما جاءت به الرسل ؛ كان سريعًا فى عبور الصراط ، ومن كان بطيئًا فى ذلك ؛ كان بطيئًا فى عبور الصراط ؛ جزاء وِفاقًا ، والجزاء من جنس العمل .

وقوله : « ومنهم من يخطف » ؛ أى : يؤخذ بسرعة ، وذلك بالكلاليب التى على الجسر ؛ تخطف الناس بأعمالهم .

« فيلقى فى جهنم » : يفهم منه أن النار التى يلقى فيها العصاة هى النار التى يلقى فيها الكفار ، ولكنها لا تكون بالعذاب كعذاب الكفار ، بل قال بعض العلماء : إنها تكون بردًا وسلامًا عليهم كما كانت النار

---

(١) أخرجه البخارى (٧٤٤٠) ، ومسلم (١٨٣) .

(٢) أخرجه مسلم (١٨٣) .

بردًا وسلامًا على إبراهيم ، ولكن الظاهر خلاف ذلك ، وأنها تكون حارة مؤلمة لكنها ليست كحرارتها بالنسبة للكافرين .

ثم إن أعضاء السجود لا تمسها النار ؛ كما ثبت ذلك عن النبي عليه الصلاة والسلام في « الصحيحين »[١] ، وهي الجبهة والأنف والكفان والركبتان وأطراف القدمين .

قوله : « فمن مر على الصراط ؛ دخل الجنة » ؛ أي : لأنه نجا .

« القنطرة » : هي الجسر ، لكنها جسر صغير ، والجسر في الأصل ممر على الماء من نهر ونحوه .

واختلف العلماء في هذه القنطرة ؛ هل هي طرف الجسر الذي على متن جهنم أو هي جسر مستقل ؟ ! .

والصواب في هذا أن نقول : الله أعلم ، وليس يعنينا شأنها ، لكن الذي يعنينا أن الناس يوقفون عليها .

قوله : « فيقتص لبعضهم من بعض » : وهذا القصاص غير القصاص الأول الذي في عرصات القيامة ؛ لأن هذا القصاص أخص ؛ لأجل أن يذهب الغل والحقد والبغضاء التي في قلوب الناس ، فيكون هذا بمنزلة التنقية والتطهير ، وذلك لأن ما في القلوب لا يزول بمجرد القِصاص .

فهذه القنطرة التي بين الجنة والنار ؛ لأجل تنقية ما في القلوب ، حتى يدخلوا الجنة وليس في قلوبهم غل ؛ كما قال الله تعالى : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر : ٤٧] .

هكذا رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه[٢] .

إذا هذبوا مما في قلوبهم من العداوة والبغضاء ونقوا منها ؛ فإنه يؤذن لهم في دخول الجنة ؛ فإذا أذن لهم في الدخول ؛ فلا يجدون الباب مفتوحًا ، ولكن النبي ﷺ يشفع إلى الله في أن يفتح لهم باب الجنة ؛ كما سيأتي في أقسام الشفاعة إن شاء الله .

الأمر العاشر مما يكون يوم القيامة :

دخول الجنة : وأشار إليه المؤلف بقوله : « وأول من يستفتح باب الجنة محمد ﷺ » . ودليله ما ثبت في « صحيح مسلم » أن النبي ﷺ قال : « أنا أول شفيع في الجنة » . وفي لفظ : « أنا أول من يقرع باب الجنة »[٣] . وفي لفظ : « آتي باب الجنة يوم القيامة ، فأستفتح ، فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد . فيقول : بك أمرت لا أفتح لأحد من قبلك »[٤] .

وقوله ﷺ : « فأستفتح » ، أي : أطلب فتح الباب . وهذا من نعمة الله على محمد ﷺ ؛ فإن

---

(١) أخرجه البخاري (٨٠٦) ، ومسلم (١٨٢) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤٠) .

(٣) أخرجه مسلم (١٩٦) .

(٤) أخرجه مسلم (١٩٧) .

الشفاعة الأولى التى يشفعها فى عرصات القيامة لإزالة الكروب والهموم والغموم ، والشفاعة الثانية لنيل الأفراح والسرور ؛ فيكون شافعًا للخلق عليه الصلاة والسلام فى دفع ما يضرهم وجلب ما ينفعهم .

ولا دخول إلى الجنة إلا بعد شفاعة الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لأن ذلك ثبت فى السنة كما سبق ، وأشار إليه الله ﷻ بقوله : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر : ٧٣] ؛ فإنه لم يقل : حتى إذا جاءوها ؛ فتحت ! وفيه إشارة إلى أن هناك شيئًا قبل الفتح ، وهو الشفاعة . أما أهل النار ؛ فقال فيهم : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر : ٧١] ؛ لأنهم يأتونها مهيأة فتبغتهم ؛ نعوذ بالله منها .

هذا حق ثابت ؛ دليله ما ثبت فى « صحيح مسلم » عن أبى هريرة رضي الله عنه ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، ونحن أول من يدخل الجنة »[1] ، وقال ﷺ : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة »[2] .

وهذا يشمل كل مواقف القيامة ، وانظر : « حادى الأرواح » لابن القيم .

تتمة :

أبواب الجنة لم يذكرها المؤلف ، لكنها معروفة أنها ثمانية ؛ قال الله تعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر : ٧٣] ، وقال النبى ﷺ فيمن توضأ وأسبغ الوضوء وتشهد : « إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية ؛ يدخل من أيها شاء »[3] .

وهذه الأبواب كانت ثمانية بحسب الأعمال ؛ لأن كل باب له عمال ؛ فأهل الصلاة ينادون من باب الصلاة ، وأهل الصدقة من باب الصدقة ، وأهل الجهاد من باب الجهاد ، وأهل الصيام من باب الريان .

وقد يوفق الله ﷻ بعض الناس لأعمال صالحة شاملة ؛ فيدعى من جميع الأبواب ؛ كما فى « الصحيحين »[4] عن أبى هريرة رضي الله عنه ؛ أن النبى ﷺ قال : « من أنفق زوجين فى سبيل الله ؛ نودى من أبواب الجنة : يا عبد الله ! هذا خير . . . . » وذكر الحديث ، وفيه : فقال أبو بكر رضي الله عنه : بأبى أنت وأمى يا رسول اللهَ ما على من دعى من تلك الأبواب من ضرورة ؛ فهل يدْعى أحد من تلك الأبواب كلها ؟ قال : « نعم ، وأرجو أن تكون منهم » .

فإن قلت : إذا كانت الأبواب بحسب الأعمال ؛ لزم أن يدعى كل أحد من كل تلك الأبواب إذا عمل بأعمالها ؛ فما الجواب ؟ .

فالجواب : أن يقال : يُدْعى من الباب المعين مَن كان يكثر من العمل المخصص له ؛ مثلًا : إذا كان

---

(١) أخرجه مسلم (٨٥٥) .

(٢) أخرجه البخارى (٢٣٨) ، ومسلم (٨٥٥) .

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٤) .

(٤) أخرجه البخارى (١٨٩٧) ، ومسلم (١٠٢٧) .

هذا الرجل كثير الصلاة ؛ فيدعى من باب الصلاة ، كثير الصيام من باب الريان ، وليس كل إنسان تحصل له الكثرة في كل عمل صالح ؛ لأنك تجد في نفسك بعض الأعمال أكثر وأنشط من بعض ، لكن قد يمن الله على بعض الناس ، فيكون نشيطًا قويًا في جميع الأعمال ؛ كما سبق في قصة أبي بكر رضي الله عنه .

الأمر الحادي عشر مما يكون يوم القيامة الشفاعة :

وقد ذكرها المؤلف بقوله : « وله ﷺ في القيامة ثلاث شفاعات » .

« له » : الضمير يعود للنبي ﷺ .

والشفاعات : جمع شفاعة ، والشفاعة في اللغة : جعل الشيء شفعًا . وفي الاصطلاح : التوسط للغير بجلب منفعةٍ أو دفع مضرةٍ ، ومناسبتها للاشتقاق ظاهرة ؛ لأنك إذا توسطت له ؛ صرت معه شفيعًا تشفعه .

والشفاعة تنقسم إلى قسمين : شفاعة باطلة ، وشفاعة صحيحة .

- فالشافعة الباطلة : ما يتعلق به المشركون في أصنامهم ؛ حيث يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاء لهم عند الله ؛ كما قال تعالى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس : ١٨] ، ويقولون : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر : ٣] .

لكن هذه الشفاعة باطلة لا تنفع ؛ كما قال تعالى : ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر : ٤٨] .

- والشفاعة الصحيحة ما جمعت شروطًا ثلاثة :

الأول : رضا الله عن الشافع .

الثاني : رضاه عن المشفوع له ، لكن الشفاعة العظمى في الموقف عامة لجميع الناس من رضي الله عنهم ومن لم يرض عنهم .

الثالث : إذنه في الشفاعة .

والإذن لا يكون إلا بعد الرضا عن الشفاعة والمشفوع له .

ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [النجم : ٢٦] ، ولم يقل : عن الشافع ، ولا : المشفوع له ؛ ليكون أشمل .

وقال تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه : ١٠٩] .

وقال سبحانه : ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء : ٢٨] .

فالآية الأولى تضمنت الشروط الثلاثة ، والثانية : تضمنت شرطين ، والثالثة تضمنت شرطًا واحدًا .

فللنبي ﷺ ثلاث شفاعات :

١ - الشفاعة العظمى .
٢ - الشفاعة لأهل الجنة ليدخلوا الجنة .
٣ - الشفاعة فيمن استحق النار ألا يدخلها ، وفيمن دخلها أن يخرج منها .

قوله : « حتى يقضى بينهم » . (حتى) هذه تعليلية ، وليست غائية ؛ لأن شفاعة الرسول ﷺ تنتهى قبل أن يقضى بين الناس ؛ فإنه إذا شفع ؛ نزل الله ﷻ للقضاء بين عباده وقضى بينهم .

ونظيرها قوله تعالى : ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ [المنافقون : ٧] . فإن قوله : ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ . للتعليل ؛ أى : من أجل أن ينفضوا ، وليست للغاية ؛ لأن المعنى يفسد ذلك .

قوله : « بعدَ أن يَتَرَاجَعَ الأنبياءُ ، آدمُ ونوحٌ وإبراهيمُ وموسى وعيسى ابنُ مريمَ عن الشفاعةِ ... » :

أى : يردها كل واحد منهم إلى الآخر .

شرح هذه الجملة ما رواه البخارى ومسلم[1] عن أبى هريرة ؓ : أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : « أنا سيد الناس يوم القيامة ، وهل تدرون فيم ذلك ؟ يجمع الله الناس الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، يَسمعهم الداعى ، ويَنفُذهم البصر ، وتدنو منهم الشمس ، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس : ألا ترون ما قد بلغكم ؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعضهم لبعض : عليكم بآدم ! فيأتونه ، فيقولون له : أنت أبو البشر خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ؛ ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فيقول : إن ربى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإنه نهانى عن الشجرة ، فعصيته ؛ نفسى نفسى نفسى ! اذهبوا إلى نوح ! فيأتون نوحًا ، فيقولون : يا نوح ! إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وقد سماك الله عبدًا شكورًا ؛ اشفع لنا إلى ربك ؛ ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فيقول كما قال آدم فى غضب الله ، وإنه قد كانت لى دعوة دعوتها على قومى ؛ اذهبوا إلى إبراهيم ! فيأتون إبراهيم ، فيقولون : يا إبراهيم ! أنت نبى الله وخليله من أهل الأرض ؛ اشفع لنا إلى ربك ؛ ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فيقول كما قال آدم فى غضب الله ، وإنى قد كذبت ثلاث كذبات ؛ اذهبوا إلى موسى ! فيأتون موسى ، فيقولون : يا موسى ! أنت رسول الله ، فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس ؛ اشفع لنا إلى ربك ؛ ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فيقول كما قال آدم فى غضب الله ، وإنى قد قتلت نفسًا لم أومر بقتلها ؛ اذهبوا إلى عيسى فيأتون عيسى ، فيقولون : يا عيسى ! أنت رسول الله وكلمته إلى مريم وروح منه وكلمت الناس فى المهد صبيًا ؛ اشفع لنا إلى ربك ؛ ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فيقول كما قال آدم فى غضب الله ، ولم يذكر ذنبًا ، وكلهم يقول كما قال آدم : نفسى نفسى نفسى ! اذهبوا إلى محمد ! فيأتون محمدًا ﷺ ، فيقولون : يا محمد أنت رسول الله ، وخاتم الأنبياء ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؛ اشفع لنا إلى ربك ؛ ألا ترى ما نحن فيه ؟ فأنطلق ، فآتى تحت العرش ، فأقع ساجدًا لربى ﷻ ، ثم يفتح الله علىَّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه على أحد قبلى ، ثم يقال : يا محمد ! ارفع رأسك ؛ سل تعطه ، واشفع

---

(١) أخرجه البخارى (٣٣٤٠) ، ومسلم (١٩٤) .

تشفع . . . .» وذكر تمام الحديث .

والكذبات الثلاث التي ذكرها إبراهيم عليه السلام فُسِّرت بما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ قال : لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات ؛ اثنتين منهن في ذات الله : قوله : ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ، وقوله : ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ ، وذكر قوله عن امرأته سارة : إنها أختي[1] .

وفي « صحيح مسلم » في حديث الشفاعة السابق أن الثالثة قوله في الكوكب ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ ، ولم يذكر قصة سارة .

لكن قال ابن حجر في « الفتح » : « الذي يظهر أنها وَهْمٌ من بعض الرُّواة » . وعلل لذلك .

وإنما سمى إبراهيم عليه السلام هذه كذبات ؛ تواضعًا منه ؛ لأنها بحسب مراده صدق مطابق للواقع ؛ فهي من باب التورية . والله أعلم .

قوله : « حتى تَنْتَهِيَ إليه » : أي : إلى الرسول ﷺ ، وسبق في الحديث ما يكون بعد ذلك .

وهذه الشفاعة العظمى لا تكون لأحد أبدًا إلا للرسول عليه الصلاة والسلام ، وهي أعظم الشفاعات ؛ لأن فيها إراحة الناس من هذا الموقف العظيم والكرب والغم .

وهؤلاء الرسل الذين ذكروا في حديث الشفاعة كلهم من أولي العزم ، وقد ذكرهم الله تعالى في موضعين من القرآن : في سورة « الأحزاب » ، وفي سورة « الشورى » .

أما في سورة الأحزاب ؛ ففي قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب : ٧] .

وأما في سورة « الشورى » ؛ فقوله تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الشورى : ١٣] .

تنبيه : قوله : « الأنبياء ؛ آدم ونوح . . . .» إلى آخره . جزم المؤلف رحمه الله بأن آدم نبي ، وهو كذلك ؛ لأن الله تعالى أوحى إليه بشرع أمره ونهاه .

وروى ابن حبان في « صحيحه » : أن أبا ذر سأل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : هل كان آدم نبيًّا ؟ قال : « نعم » .

فيكون آدم أول الأنبياء الموحى إليهم ، وأما أول الرسل ؛ فنوح ؛ كما هو صريح في حديث الشفاعة وظاهر القرآن في قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء : ١٦٣] . وقوله : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد : ٢٦] .

وذلك أن أهل الجنة إذا عبروا الصراط ؛ وقفوا على قنطرة ، فيقتص لبعضهم من بعض ، وهذا القصاص غير القصاص الذي كان في عَرَصات القيامة ، بل هو قصاص أخص ، يطهر الله فيه القلوب ،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٨) ، ومسلم (٢٣٧١) .

ويزيل ما فيها من أحقاد وضغائن ؛ فإذا هُذِّبوا ونُقّوا ؛ أذن لهم فى دخول الجنة .

ولكنهم إذا أتوا إلى الجنة ؛ لا يجدونها مفتوحة كما يجد ذلك أهل النار ؛ فلا تفتح الأبواب ، حتى يشفع النبى ﷺ لأهل الجنة أن يدخلوها ، فيدخل كل الناس من باب العمل الذى يكون أكثر اجتهادًا فيه من غيره ، وإلا ؛ فإن المسلم قد يدعى من كل الأبواب .

وهذه الشفاعة يشير إليها القرآن ؛ لأن اللَّه قال فى أهل الجنة : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر : ٧٣] . وهذا يدل أن هناك شيئًا بين وصولهم إليها وبين فتح الأبواب .

وهو صريح فيما رواه مسلم(١) عن حذيفة وأبى هريرة رضي الله عنهما ؛ قالا : قال رسول اللَّه ﷺ : « يجمع اللَّه تبارك وتعالى الناس ، فيقوم المؤمنون حتى تُزلف لهم الجنة ، فيأتون آدم ، فيقولون : يا أبانا ! استفتح لنا الجنة . . . » وذكر الحديث . وفيه : « فيأتون محمدًا ، فيقوم فيؤذن له . . . » الحديث .

يعنى : الشفاعة فى أهل الموقف أن يقضى بينهم ، والشفاعة فى دخول الجنة .

قوله : « خاصَّتان له » : أى : للنبى محمد صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم ، ولذلك يعتذر عنهما آدم وأولو العزم من الرسل .

وهناك أيضًا شفاعة ثالثة خاصة بالنبى ﷺ ، لا تكون لغيره ، وهى الشفاعة فى عمه أبى طالب ، وأبو طالب – كما فى « الصحيحين »(٢) وغيرهما – مات على الكفر . فأعمام الرسول عليه الصلاة والسلام عشرة ، أدرك الإسلام منهم أربعة ؛ فبقى اثنان على الكفر وأسلم اثنان :

– فالكافران هما : أبو لهب : وقد أساء إلى النبى ﷺ إساءة عظيمة ، وأنزل اللَّه تعالى فيه وفى امرأته حمَّالة الحطب سورة كاملة فى ذمهما ووعيدهما .

والثانى : أبو طالب ، وقد أحسن إلى الرسول عليه الصلاة والسلام إحسانًا كبيرًا مشهورًا ، وكان من حكمة اللَّه ﷻ أن بقى على كفره ؛ لأنه لولا كُفره ؛ ما استطاع الدفاع عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، بل كان يؤذَى كما يؤذَى الرسول عليه الصلاة والسلام ، لكن بجاهه العظيم عند قريش وبقائه على دينهم صاروا يعظِّمونه وصار للنبى عليه الصلاة والسلام جانب من الحماية بذلك .

– واللذان أسلما هما العباس وحمزة ، وهو أفضل من العباس ، حتى لقبه الرسول عليه الصلاة والسلام أسد اللَّه ، وقتل شهيدًا فى أُحدٍ رضي الله عنه وأرضاه ، وسماه النبى ﷺ سيد الشهداء .

فأبو طالب أذن اللَّه لرسوله ﷺ أن يشفع فيه ، مع أنه كافر ، فيكون هذا مخصوصًا من قوله تعالى : ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر : ٤٨] ، ولكنها شفاعة لم تخرجه من النار ، بل كان فى ضحضاح من نار يبلغ كعبيه يغلى منه دماغه ؛ قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « ولولا أنا ؛ لكان فى الدرك

(١) أخرجه مسلم (١٩٥) .

(٢) أخرجه البخارى (٣٨٨٥) ، ومسلم (٢١٠) .

الأسفل من النار »[١]، وليس هذا من أجل شخصية أبى طالب، لكن من أجل ما حصل من دفاعه عن النبى ﷺ وعن أصحابه.

قوله: « وأما الشفاعة الثالثة، فيشفع فيمن استحق النار »[٢]؛ أى: من عصاة المؤمنين.

وهذه لها صورتان: يشفع فيمن استحق النار ألَّا يدخلها، وفيمن دخلها أن يخرج منها.

- أما فيمن دخلها أن يخرج منها؛ فالأحاديث فى هذا كثيرة جدًّا، بل متواترة.

- وأما فيمن استحقها ألَّا يدخلها؛ فهذه قد تستفاد من دعاء الرسول ﷺ للمؤمنين بالمغفرة والرحمة على جنائزهم؛ فإنه من لازم ذلك أن لا يدخل النار؛ كما قال النبى عليه الصلاة والسلام: « اللهم اغفر لأبى سلمة، وارفع درجته فى المهديين . . .» الحديث[٣].

لكن هذه الشفاعة فى الدنيا؛ كما فى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: « ما من رجل مسلم يموت، فيقوم على جنازته أربعون رجلًا لا يشركون بالله شيئًا؛ إلا شفعهم الله فيه »[٤].

وهذه الشفاعة ينكرها من أهل البدع طائفتان؛ المعتزلة والخوارج؛ لأن المعتزلة والخوارج مذهبهما فى فاعل الكبيرة أنه مخلَّد فى نار جهنم، فيرون من زنى كمن أشرك بالله؛ لا تنفعه الشفاعة، ولن يأذن الله لأحد بالشفاعة له.

وقولهم مردود بما تواترت به الأحاديث فى ذلك.

قوله: « وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم ». فيشفع فيمن استحق النار ألَّا يدخلها، ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها، يعنى: أنها ليست خاصة بالنبى ﷺ، بل تكون للنبيين؛ حيث يشفعون فى عصاة قومهم، وللصديقين يشفعون فى عصاة أقاربهم وغيرهم من المؤمنين، وكذلك تكون لغيرهم من الصالحين، حتى يشفع الرجل فى أهله وفى جيرانه وفيما أشبه ذلك.

يعنى: أن الله تعالى يخرج من عصاة المؤمنين من شاء بغير شفاعة، وهذا من نعمته؛ فإن رحمته سبقت غضبه، فيشفع الأنبياء والصالحون والملائكة وغيرهم، حتى لا يبقى إلا رحمة أرحم الراحمين، فيخرج من النار من يخرج بدون شفاعة، حتى لا يبقى فى النار إلا أهلها الذين هم أصحاب النار، فقد روى الشيخان البخارى ومسلم من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ: « أن الله تعالى يقول: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط، قد عادوا حممًا . . .» الحديث[٥].

---

(١) أخرجه البخارى (٣٨٨٣)، ومسلم (٢٠٩).
(٢) أخرجه مسلم (٩٢٠).
(٣) أخرجه مسلم (٩٤٨).
(٤) أخرجه مسلم (٩٤٨).
(٥) أخرجه مسلم (١٨٣).

الأمر الثانى عشر مما يكون يوم القيامة :

وهو ما ذكره المؤلف بقوله : « ويبقى فى الجنة فضل عمن دخلها من أهل الدنيا » .

الجنة عرضها السماوات والأرض ، وهذه الجنة التى عرضها السماوات والأرض يدخلها أهلها ، ولكن لا تمتلئ .

وقد تكفل الله ﷻ للجنة وللنار لكل واحدة ملؤها :

- « فالنار لا تزال يلقى فيها وهى تقول : هل من مزيد ؟ فلا تمتلئ ، فيضع الله ﷻ عليها قدمه ، فينزوى بعضها إلى بعض ، وتقول : قط قط »[1] .

- وأما الجنة ؛ فينشئ لها أقوامًا ، فيدخلون الجنة بفضل الله ورحمته :

- ثبت ذلك فى « الصحيحين » من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وهذا مقتضى قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ٥٤] ، وقول النبى عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه سبحانه وتعالى : « إن رحمتى سبقت غضبي »[2] .

ولهذا قال المؤلف : « فينشئ الله لها أقوامًا ، فيدخلهم الجنة » .

قوله : « وأصنافُ ما تضمَّنَتْه الدارُ الآخرةُ مِن الحسابِ والثوابِ والعقابِ والجنةِ والنارِ ... » :

الأصناف : الأنواع . سبق معنى الحساب .

الثواب : جزاء الحسنات ؛ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة .

العقاب : جزاء السيئات ومن جاء بالسيئة ؛ فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون .

الجنة : هى الدار التى أعدها الله تعالى لأوليائه ، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؛ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة : ١٧] ؛ أى : لا تعلم حقيقته وكنهه .

والجنة موجودة الآن ؛ لقوله تعالى : ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ، والأحاديث فى هذا المعنى متواترة .

ولا تزال باقية أبد الآبدين ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود : ١٠٨] ، وقوله : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ ؛ فى آيات متعددة .

النار : هى الدار التى أعدَّها الله تعالى لأعدائه ، وفيها من أنواع العذابِ والعقاب ما لا يطاق .

وهى موجودة الآن ؛ لقوله تعالى : ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران : ١٣١] ، والأحاديث فى هذا المعنى مستفيضة مشهورة .

---

(١) أخرجه البخارى (٧٣٨٤) .

(٢) أخرجه البخارى (٧٤٢٢) ، ومسلم (٢٧٥١) .

وأهلها خالدون فيها أبدًا ؛ لقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥].

وقد ذكر الله خلودهم أبدًا في ثلاث آيات من القرآن ؛ هذه أحدها ، والثانية في آخر سورة « النساء » ، والثالثة في سورة « الجن » ، وهي ظاهرة في أن النار لا تزال باقية أبد الآبدين .

يعني : مثل التوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وموسى وغيرها من الكتب المنزلة ؛ فقد ذكر فيها مبينًا مفصلًا لحاجة الناس ، بل ضرورتهم إلى بيانه وتفصيله ؛ إذ لا يمكنهم الاستقامة إلا بالإيمان باليوم الآخر الذي يجازى فيه كل عامل بما عمل من خير وشر .

اعلم أن العلم المأثور عن الأنبياء قسمان :

القسم الأول : قسم ثبت بالوحي ، وهو ما ذكر في القرآن والسنة الصحيحة ، وهذا لاشك في قبوله واعتقاد مدلوله .

القسم الثاني : قسم أتى عن طريق النقل غير الوحي ، وهذا هو الذي دخل فيه الكذب والتحريف والتبديل والتغيير .

ولهذا لابد من أن يكون الإنسان حذرًا مما ينقل بهذه الطريقة عن الأنبياء السابقين ، حتى قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « إذا حدثكم أهل الكتاب ؛ فلا تصدِّقوهم ولا تكذِّبوهم ، قولوا : آمنا بما أُنزل إلينا وما أُنزل إليكم »[1] ؛ لأنك إن صدقت ؛ قد تصدق بباطل ، وإن كذبته ؛ قد تكذب بحق ؛ فلا تصدق ولا تكذب ؛ قل : إن كان هذا من عند الله ؛ فقد آمنت به .

وقد قسم العلماء ما أثر عمن سبق ثلاثة أقسام :

الأول : ما شهد شرعنا بصدقه .

الثاني : ما شهد شرعنا بكذبه .

والحكم في هذين واضح .

الثالث : ما لم يحكم بصدقه ولا كذبه .

فهذا مما يجب فيه التوقف ؛ لا يصدَّق ولا يكذَّب .

العلم الموروث عن محمد صلوات الله وسلامه عليه سواء في كتاب الله أو في سنة رسول الله ﷺ فيه من ذلك ما يشفي ويكفي .

فلا حاجة إلى أن نبحث عن مواعظ ترقق القلوب من غير الكتاب والسنة ، بل نحن في غنى عن هذا كله ؛ ففي العلم الموروث عن محمد رسول الله ﷺ ما يشفي ويكفي في كل أبواب العلم والإيمان .

ثم المنسوب إلى رسول الله ﷺ في باب الوعظ والفضائل ترغيبًا أو ترهيبًا ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

(١) أخرجه البخاري (٤٤٨٥) .

صحيح مقبول ، وضعيف ، وموضوع ؛ فليس كله صحيحًا مقبولًا ، ونحن فى غنى عن الضعيف والموضوع .

- الموضوع اتفق العلماء رحمهم الله على أنه لا يجوز ذكره ونشره بين الناس ؛ لا فى باب الفضائل والترغيب والترهيب ، ولا فى غيره ؛ إلا من ذكره ليبين حاله .

- والضعيف اختلف فيه العلماء ، والذين قالوا بجواز نشره ونقله اشترطوا ثلاثة شروط :

الشرط الأول : ألَّا يكون الضعف شديدًا .

الشرط الثانى : أن يكون أصل العمل الذى رتب عليه الثواب أو العقاب ثابتًا بدليل صحيح .

الشرط الثالث : ألَّا يعتقد أن النبى ﷺ قاله ، بل يكون مترددًا غير جازم ، لكنه راج فى باب الترغيب ، خائفٌ فى باب الترهيب .

أما صيغة عرضه ؛ فلا يقول : قال رسول الله ﷺ. بل يقول : روى عن رسول الله ، أو ذكر عنه . . . . وما أشبه ذلك .

فإن كنت فى عوام لا يفرقون بين : ذكر وقيل وقال ؛ فلا تأت به أبدًا ؛ لأن العامى يعتقد أن الرسول عليه الصلاة والسلام قاله ؛ فما قيل فى المحراب ؛ فهو عنده الصواب !

تنبيه :

هذا الباب - أى : باب اليوم الآخر وأشراط الساعة - ذكرت فيه أحاديث كثيرة فيها ضعف وفيها وضع ، وأكثر ما تكون هذه فى كتب الرقائق والمواعظ ؛ فلذلك يجب التحرر منها ، وأن نحذِّر العامة الذين يقع فى أيديهم مثل هذه الكتب ..

قوله : « فمن ابتغاه » ؛ أى : طلبه : « وجده » .

وهذا صحيح ؛ فالقرآن بين أيدينا ، وكتب الأحاديث بين أيدينا ، لكنها تحتاج إلى تنقيح وبيان الصحيح منها والضعيف ، حتى يبنى الناس ما يعتقدونه فى هذا الباب على أساس سليم .

❁ قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك حفظه الله :

قوله : « فيقوم الناس من قبورهم ..» :

هذه القيامة الكبرى ، تعاد الأرواح إلى الأجساد ، ويجمع شتات الأبدان ، يجمع ما تمزق وتفرق ويعاد خلقًا جديدًا ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ [ق : ٢-٤] ، فالأجزاء المتفرقة والأوصال المتمزقة والعظام النخرة - يجمعها ربك وينشئها نشأة أخرى ، ويعيد الأرواح نفسها إلى تلك الأبدان التي ينشئها الله نشئًا جديدًا ، فتشقق عن الناس قبورهم ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ [ق : ٤٤] .

تشقق الأرض كما تشقق عن النبات ، يدفن البذر في الأرض فتنمو هذه البذور فتنشق عنها الأرض فتخضر وتخرج الأشجار والثمار ، والله شبه إحياء الأموات وإخراجهم من قبورهم بإحياء الأرض بعد موتها ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: ٥، ٦].

وفي الآية الأخرى : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩] ، وهذا المعنى في القرآن كثير.

ويكونون « حفاة عراة غرلًا » أي : غير منتعلين ولا مكتسين ولا مختونين ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] ، ولما أخبر الرسول ﷺ بذلك ، سألته أم المؤمنين عائشة : « الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟! قال الرسول ﷺ : يا عائشة إن الأمر أشد من أن يهمهم ذلك »[1] .

وذكر الشيخ جملة مما يكون يوم القيامة ، فمن ذلك : دنو الشمس من رءوس الخلائق ، كما جاء بذلك الحديث الصحيح : « فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق ، فمنهم من يكون إلى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا »[2] .

ولو كانت خلقتهم وطبيعتهم كطبيعتهم في هذه الحياة لأحرقتهم الشمس ، لكن حياة الآخرة خلقت للبقاء ، وإذا ردت الأرواح إلى الأبدان فإنها ترد ردًّا لا انفصال ولا فراق بعده .

ومما يكون يوم القيامة : نصب الموازين ووزن الأعمال ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] .

والآيات في هذا المعنى كثيرة ، وكذا نصوص السنة الدالة على وزن الأعمال .

وكذلك نشر الدواوين وهي صحائف الأعمال ، والآيات في هذا كثيرة ، ذكر الشيخ منها قوله تعالى : ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤] ، أي : ألزمناه عمله ، ونصيبه في عنقه ملازم له ، ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا﴾ كتابًا حقيقيًا الله أعلم بكيفيته ، ﴿يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ أي : مفتوحًا ، ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [التكوير: ١٠] ، ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ كتاب قد أحصى على الإنسان فيه كل صغير وكبير .

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] ، ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٣] .

---

(١) البخاري (٦٥٢٧) ، ومسلم (٢٨٥٩) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) مسلم (٢٨٦٤) من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه .

فكل هذا مما يجب الإيمان به ، وهو داخل الإيمان باليوم الآخر ، الإيمان بكل ما أخبر الرسول ﷺ به من فتنة القبر وعذاب القبر ونعيم القبر والبعث بعد الموت ، وقيام الناس من قبورهم حفاة ودنو الشمس ونصب الموازين ووزن الأعمال ونشر الدواوين ، كل هذا مما يجب الإيمان به .

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بهذا كله ؛ لأن منهجهم ومذهبهم قائم على الإيمان بكل ما أخبر الله به في كتابه ، وما أخبر به رسوله ﷺ لا يعارضون شيئًا من ذلك بعقولهم أو بعقل فلان أو بآراء فلسفية أو جدل كلامي ، بل مذهبهم قائم على التسليم لخبر الله سبحانه وخبر رسوله ﷺ ، يؤمنون بذلك كله ، كما جاء عن الإمام الشافعي أنه قال : « آمنت بالله وبما جاء عن الله على مراد الله ، وآمنت برسول الله وما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله ﷺ » .

وأهل البدع وإن أقروا فإنهم لا يقولون أقوالًا تخالف موجب النصوص ، وينكرون بعض ما ورد في السنن ، مثل من ينكر الميزان فأهل السنة والجماعة يؤمنون بكل ما أخبر الله به في كتابه ، وأخبر به رسوله ﷺ ، والإيمان بهذه الأمور كله في الإيمان باليوم الآخر .

قوله : « ويحاسب الله الخلق .. » :

ومما يكون يوم القيامة من الأمور العظيمة الحساب ، فيوم القيامة له أسماء كثيرة منها : يوم الفصل ، ويوم النشور ، ويوم التلاق ، ويوم التناد ، ويوم الحساب ، والحساب من أعظم ما يكون يوم القيامة .

يحاسب الله الخلائق ، وهو سريع الحساب ، وهو أسرع الحاسبين سبحانه وتعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق : ٦- ١٣] ، فمن الناس من يحاسب حسابًا يسيرًا ، ومنهم من يناقش الحساب .

وقد قال ﷺ : « من نوقش الحساب عذب ، فقالت أم المؤمنين عائشة ﵂ : أليس الله يقول : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق : ٧، ٨] قال : ذلك العرض »[1] .

حساب المؤمن الذي غفر الله له ذنوبه ؛ إنما هو عرض أعماله ، ويسترشد إلى هذا بقول الشيخ : « يحاسب الله الخلائق ، ويخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه .. » إلى آخره .

وقول الشيخ كما وصف ذلك في الكتاب والسنة .

هذه الكلمة عامة وهي إشارة إلى دليل قوله : « ويحاسب الله الخلائق ويخلو بعبده المؤمن » . فمن أمور الحساب ما دل عليه القرآن ، كما في الآيات التي ذكرتها ، ومنها ما دلت عليه السنة ، والفقرة الثانية

(١) البخاري (٦٥٣٦) ، ومسلم (٢٨٧٦) من حديث عائشة ﵂ .

إنما جاءت بها السنة ، فالرسول ﷺ أخبر أن الله يدني عبده المؤمن حتى يضع عليه كنفهُ فيقرره بذنوبه ، ثم يقول له : « إني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم »(١) .

قوله : « وأما الكفار : فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته ؛ فإنهم لا حسنات لهم ..» :

ولكونهم لا حسنات لهم ؛ لا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته ؛ لأن من له حسنات وسيئات توزن أعماله ؛ فقد ترجح الحسنات فينجو ، وقد ترجح السيئات فيستوجب العذاب .

وقول الشيخ : « وأما الكفار : فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته ؛ فإنهم لا حسنات لهم ، ولكن تعد أعمالهم ، فتحصى ، فيوقفون عليها ويقررون بها ويجزون بها » . كأن هذه العبارة تشعر بأن أعمالهم لا توزن .

والقرآن ظاهره - والله أعلم - أن الكفار توزن أعمالهم فتخف موازينهم ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ [المؤمنون : ١٠٢- ١٠٤] الآيات ، ونظائر هذا في القرآن متعددة ، فالذين تخف موازينهم يبوءون بالشقوة ، وهم الذين يقولون : ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۝ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون : ١٠٦، ١٠٧] ، فيقول الله تعالى لهم : ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون : ١٠٨] . نعوذ بالله من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء ، نعوذ بالله من مصير أهل الشقاء .

قوله : « وفي عرصة القيامة الحوض المورود ..» :

ومما يدخل في الإيمان باليوم الآخر ويجب الإيمان به : الحوض لنبينا ﷺ فقد تواترت به السنة ، وأخبر الرسول ﷺ بوصفه ووصف مائه ومساحته ، ومن ذلك ما ذكره الشيخ في إحدى الروايات : « طوله شهر ، وعرضه شهر »(٢) ، وفي رواية أخرى تقدير مساحته : « كما بين أيلة وصنعاء »(٣) ، و« كما بين صنعاء والمدينة »(٤) وروايات كثيرة في مقداره .

المقصود : أنه حوض عظيم ومورد كريم ترد عليه هذه الأمة ويشرب منه المؤمنون الذين ثبتوا في هذه الحياة على هدى الله واستقاموا على سنة رسوله ﷺ ، وهذا الحوض قد ورد « أن ماءه أشد بياضًا من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأطيب من ريح المسك ، وآنيته وكيزانه كنجوم السماء »(٥) .

---

(١) البخاري (٢٤٤١) ، ومسلم (٢٧٦٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) البخاري (٦٥٧٩) ، ومسلم (٢٢٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

(٣) البخاري (٦٥٨٠) ، ومسلم (٢٣٠٣) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٤) البخاري (٦٥٩١) ، ومسلم (٢٢٩٨) من حديث حارثة بن وهب رضي الله عنه .

(٥) البخاري (٦٥٧٩) ، ومسلم (٢٢٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

كل هذا يجب الإيمان به ، وأهل السنة يؤمنون بهذا كله تصديقًا لخبر الصادق المصدوق ﷺ ، وهذا من فضائل نبينا فإن الله تعالى يظهر فضله وكرامته على سائر الأنبياء بذلك الحوض وبكثرة الواردين عليه « وإنه ليرد عليه أقوام يعرفهم ﷺ فيختلجون دونه ويحال بينهم وبين الورود ، فيقول : أصحابي أصحابي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فيقول ﷺ : سحقًا سحقًا لمن غير بعدي »[1] . نعوذ بالله من التغيير والتبديل ، والردة عن الإسلام .

قوله : « وفي عرصات القيامة الحوض المورود للنبي .. » :

عرصات القيامة : مواقفها وساحاتها . وذكره للحوض في هذا الموضع يشعر بأنه يختار أن الحوض قبل الصراط ، فإن أهل العلم اختلفوا في الحوض هل هو قبل الميزان أو بعده ؟ وهل هو قبل الصراط أو بعده ؟

والأظهر – والله أعلم – : أنه قبل الصراط وبعد الميزان فإنه يناسب – والله أعلم – أن يكون ورودهم بعد الحساب ليروي غليلهم ، ويثلج نفوسهم بعد المعاناة ، والله أعلم بحقيقة الأمر .

المقصود : أن من عقيدة أهل السنة والجماعة الإيمان بحوض النبي ﷺ وقد أنكر الحوض بعض طوائف المبتدعة ، ولا حجة لهم في هذا الإنكار إلا الاستبعاد الذي لا سند له إلا قولهم : كيف يكون الحوض بهذه المساحة ؟ وكيف يكون في عرصات القيامة ؟

فنقول : الله تعالى على كل شيء قدير ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال في الحوض : « يشخب فيه ميزابان من الجنة »[2] . وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « أتدرون ما الكوثر ؟ فقلنا : الله ورسوله أعلم .قال : فإنه نهر وعدنيه ربي ﷻ عليه خير كثير ، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد النجوم »[3] .

أي أن شراب هذا الحوض يمد من نهر الكوثر الذي امتن الله به على نبينا محمد ﷺ في الجنة .

ومما يجب الإيمان به ويدخل في الإيمان باليوم الآخر الصراط ، وهو جسر منصوب على متن جهنم بين الجنة والنار يعبر منه الناس بحسب سيرهم وثباتهم على الصراط الذي نصبه الله للعباد في هذه الحياة الدنيا ، ففي الدنيا صراط وهو دين الله الذي بعث به رسله ، ودينه هو الصراط المستقيم ، وهو في حق هذه الأمة شريعة محمد ﷺ ، فمن كان على دين الله وصراطَه المستقيم أثبت وفي سيره أسرع ، كان على ذلك كذلك ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ : ٢٦] فـ « الجزاء من جنس العمل » ؛ ولهذا الناس يمرون عليه : منهم من يمر كالبرق سرعة – وهكذا حال الناس في الدنيا – ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم كالفرس

(١) البخاري (٦٥٨٣) ، ومسلم (٢٢٩٠) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه .
(٢) مسلم (٢٣٠٠) ، وأحمد (١٤٩/٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه .
(٣) مسلم (٤٠٠) ، وأبو داود (٤٧٤٧) من حديث أنس رضي الله عنه .

الجواد ، ومنهم كركاب الإبل ، ومنهم من يعدو عدوًا ، ومنهم من يمشي مشيًا ، ومنهم من يزحف زحفًا ، ومنهم من لا يسير ، وعلى الصراط كلاليب تخطف الناس بأعمالهم ، وفي الحديث « فناج مسلم ومكدوس في النار »(١) .

ويمر الناس على هذا الصراط ، فمن عبر تجاوز الخطر ، اللهم نجنا من عذابك يوم لقائك ؛ ولهذا بين الشيخ أن من عبر الصراط دخل الجنة من أول وهلة دون أن يمسه عذاب ، فأما الذين يعذبون فإنهم لا يعبرون بل يسقطون في النار وينالهم العذاب ، والله أعلم .

والذي يشعر به سياق النصوص التي وردت في الصراط أن هذا العبور إنما يكون لأهل الإيمان وللمنتسبين لأهل الإيمان ، أما الأمم الكافرة كاليهود والنصارى وعباد الأوثان ، فهؤلاء ليسوا ممن يمر على الصراط - والعياذ بالله - كما جاء في الحديث : « إن الناس يحشرون يوم القيامة فيقال : لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فيتبعون ما كانوا يعبدون فيلقون في النار دون أن يعبروا الصراط »(٢) .

المقصود : أنه يجب الإيمان بالصراط ، وبما جاء في عبور الناس وتفاوتهم في المرور .

وإنه لمثال لحال الناس وسيرهم على صراط هذه الحياة ، فمنهم من هو مستقيم ويسير سيرًا حثيثًا مواصل ليله ونهاره إلى الله ، ما يضيع من وقته شيء وآخر دونه ، فتأمل واقعك .

والسير في هذه الحياة يكون بسير القلوب وبسير الأبدان تبعًا فيما يتطلب ذلك .

وبعد المرور على الصراط - والحديث الآن على المؤمنين الذين عبروا وتجاوزوا الخطر - يوقف الناس على قنطرة بين الجنة والنار قبل الدخول ، الإخوة المؤمنون الأحباب يقتص لبعضهم من بعض الحقوق التي تكون بينهم فيذهب الغل ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الحجر : ٤٧] حتى لا يكون لأحد على أحد شيء ، وهذا غير المقاصة التي جاءت في حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون ما المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال : إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دوم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار »(٣) .

قوله : « فإذا هذبوا ونقوا .. » :

وكمل طيبهم أذن لهم بدخول الجنة ، فيدخلونها طيبين قد طابوا في الدنيا ، وكمل طيبهم ، وتأهلوا لدخول دار الطيبين ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ

(١) البخاري (٧٤٣٩) ، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ .

(٢) انظر تخريج ما قبله .

(٣) مسلم (٢٥٨١) من حديث أبي هريرة ﷺ .

لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٣، ٧٤].

فأهل السنة والجماعة يؤمنون بالصراط على ما جاء في الأخبار ويسلمون، فمنهجهم ومذهبهم قائم على التسليم لله ورسوله ﷺ لا يعارضون شيئًا بآرائهم وأهوائهم ومعقول ورأي فلان، وأما أهل الأهواء فإنهم يحكمون عقولهم في أخبار الرسول ﷺ هذا معقول، وهذا غير معقول، وهذا كذا وهذا كذا.

قوله: «وأول من يستفتح باب الجنة النبي محمد ﷺ ..»:

ذكر الشيخ جملة من الأمور التي تكون يوم القيامة والإيمان بها يدخل في الإيمان باليوم الآخر، منها:

أن أول من يستفتح باب الجنة نبينا محمد ﷺ يستفتح له فيدخل فيكون أول من يدخل الجنة مطلقًا، وأول من يدخل الجنة من الأمم أمته، فهو أفضل النبيين والمرسلين، وأمته خير الأمم، كل هذا مما صحت به الأحاديث عن النبي ﷺ وهذه أيضًا من خصائصه ﷺ وفضائله التي يظهر الله بها فضله على رءوس الأشهاد.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] ويدخل بعده وأمته من شاء سبحانه وتعالى.

قوله: «وله ﷺ في القيامة ثلاث شفاعات ..»:

الشفاعة الأولى: وهي الشفاعة في أهل الموقف، أن يقضي بينهم، وتسمى الشفاعة الكبرى، وهي المقام المحمود الذي امتن الله به عليه في قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. وفي الحديث عن النبي ﷺ: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت سيدنا محمدًا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته؛ حلت له شفاعتي يوم القيامة»[(١)].

وهذه الشفاعة خاصة به، وهي الشفاعة التي يتدافعها الأنبياء أولو العزم، كما ثبت عن النبي ﷺ في حديث الشفاعة الطويل المتواتر حين يأتي الناس لآدم، ويطلبون منه أن يشفع لهم عند الله، ثم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليه السلام إلى أن ينتهي الناس إلى النبي ﷺ فيقول: «أنا لها، فأستأذن على ربي فيؤذن لي ويلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن، فأحمده بتلك المحامد وأخر له ساجدًا فيقول: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط واشفع تشفع»[(٢)].

هذه الشفاعة الكبرى التي يتراجع عنها الأنبياء، ويتقدم لها نبينا محمد ﷺ لعظيم منزلته عند ربه.

والشفاعة الثانية: شفاعته في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة، ويجري نحو ما جرى من تدافع وتراجع

---

(١) البخاري (٦١٤)، والترمذي (٢١١) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

الأنبياء عن الشفاعة في ذلك ، فيشفع أيضًا لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة ، وفي كل ذلك إظهار لشرفه ﷺ وإعلاء لقدره ، وإظهار لكرمه على ربه .

وهاتان الشفاعتان - شفاعته في أهل الموقف أن يقضى بينهم وشفاعته في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة - خاصتان به لا يشركه فيهما أحد من الأنبياء ولا غيرهم .

والثالثة : الشفاعة في أهل الكبائر ، فيشفع فيمن استحق النار ألا يدخلها ، ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها .

وهذه الشفاعة له ولغيره من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين والملائكة ، وهذه الشفاعة هي التي ينكرها أهل البدع كالخوارج والمعتزلة ؛ لأن ذلك يناقض أصلهم ، وتقدم أن من أصولهم أن أهل الكبائر لابد لهم من دخول النار ، والخلود فيها ، فتمتنع الشفاعة كما تمتنع في المشركين ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨] ، ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] .

فجعلوا مرتكب الكبيرة كذلك لا تنفعه شفاعة الشافعين .

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بهذا كله ، ويثبتون هذه الشفاعة للنبي ﷺ وغيرها ، لكن هذه أهمها وأبرزها ولهذا اقتصر الشيخ عليها ، فاثنتان خاصتان به ، والثالثة مشتركة ، ولكن له منها الحظ الأوفر ؛ فإنه ثبت أنه ﷺ يشفع أربع مرات ، يقول : « فأشفع فيحد لي حدًا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ، ثم أعود فأشفع فيحد لي حدًا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ..»[1] أربع مرات .

ويخرج اللَّه من النار أقوامًا بغير شفاعة ، بل بمحض فضله ورحمته سبحانه والكل من فضله ، والكل من رحمته حتى يخرج من يخرج بشفاعة الشافعين ، هل خرجوا إلا برحمة اللَّه وبفضله ؟ من الذي أذن للشافع أن يشفع ومن الذي قبل منه الشفاعة ؟ فهو سبحانه وتعالى تارة يسدي فضله بسبب يهيئه ويجريه على يد بعض العباد ، وتارة يمنح ويؤتي فضله دون توسط سبب .

والسبب إذا توسط فهو أيضًا عائد إلى إرادته تعالى ورحمته وفضله ، فالأمر له أولًا وآخرًا ، يكرم الشافع فيأذن له بالشفاعة ، ويرحم المشفوع له فينجيه من العذاب بشفاعة من أذن له بالشفاعة والقبول .

قوله : « ويبقى في الجنة فضل عمن دخلها من أهل الدنيا ، فينشئ اللَّه لها أقوامًا فيدخلهم الجنة ..» :

ثبت هذا في الحديث عن النبي ﷺ : « لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض ، وتقول : قط قط بعزتك وكرمك !! ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ اللَّه لها خلقًا فيسكنهم فضل الجنة »[2] .

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) تقدم تخريجه .

قوله : « وأصناف ما تضمنه الدار الآخرة .. » :

هنا أجمل الشيخ الكلام عن اليوم الآخر بعد ما ذكر أشياء مما يكون يوم القيامة ، مما يجب الإيمان به ، ثم ختم بهذه الجملة ، أي : أنواع وتفاصيل ما تضمنته الدار الآخرة من الحساب والعقاب والثواب والجنة والنار .

وتفاصيل ذلك موجودة في الكتب المنزلة من السماء ، كالتوراة والإنجيل والقرآن وغيرها من كتب اللّٰه المنزلة ، كلها تضمنت من هذا ما تضمنته ، وكذلك في المأثور عن الأنبياء آثار كثيرة تتضمن أخبارًا عن اليوم الآخر ، لكن لا يثبت من ذلك إلا ما وصلنا بخبر المعصوم ﷺ .

أما الآثار المروية عن الأنبياء ، التي لم تثبت بطريق يجب اعتماده ، فالأمر فيها معلق على الدليل ، كأخبار بني إسرائيل ، إما أن يقوم الدليل على كذبه فيرد ، أو صدقه فيجب الإيمان به ، أو يبقى لا يصدق ولا يكذب ، لكن لا شك أن الأنبياء أخبروا عن اليوم الآخر ، لكن إذا جاءت عنهم جزئيات تفصيلية ، فلا بد من ثبوت ذلك .

وفي العلم الموروث عن محمد ﷺ وهو ما جاء في الكتاب والسنة من ذلك ما يشفي ويكفي ، لا نحتاج أبدًا إلى أن نرجع إلى التوراة والإنجيل أو أخبار بني إسرائيل ؛ ففي الكتاب والسنة الغنى ، اقرأ القرآن ماذا تجد فيه من الحديث عن اليوم الآخر ؟ تجد الكثير بل إنه لم يأت من تفاصيل اليوم الآخر في الكتب المنزلة مثل ما جاء في القرآن ، وكذلك سنة النبي ﷺ فيها من الأخبار والآثار المتعلقة باليوم الآخر شيء كثير . وهذا العلم موجود وميسر لمن ابتغاه وطلبه ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧] .

❁ قال الشيخ صالح بن فوزان الفوزان حفظه اللّٰه :

قوله : « إلى أن تقوم القيامة الكبرى ، فتعاد الأرواح إلى الأجساد » :

أشار الشيخ رحمه الله فى هذا وما بعده إلى ما يكون فى الدار الآخرة ، وهى التى تبدأ بالقيامة الكبرى ؛ فإن الدور ثلاث : دار الدنيا ، ودار البرزخ ، والدار الآخرة . وكل دارٍ من هذه الدور الثلاث لها أحكام تخصها ، وحوادث تجرى فيها ، وقد تكلم الشيخ على ما يكون فى دار البرزخ .

وهنا أخذ يتكلم على ما يكون فى الدار الآخرة ، فيقول : (إلى أن تقوم القيامة الكبرى) القيامة قيامتان :

قيامة صغرى : وهى الموت ، وهذه القيامة تقوم على كل إنسانٍ فى خاصته ، من خروج روحه وانقطاع سعيه .

وقيامة كبرى : وهذه تقوم على الناس جميعًا ، وتأخذهم أخذةً واحدةً ، وسميت قيامةً ؛ لقيام الناس من قبورهم لرب العالمين .

ولهذا قال : (فتعاد الأرواح إلى الأجساد) وذلك عندما ينفخ إسرافيل فى الصور ، قال تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ [يس : ٥١- ٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر : ٦٨] .

والأرواح جمع روحٍ ، وهى ما يحيى به الإنسان وغيره من ذوات الأرواح ، ولا يعلم حقيقتها إلا اللّٰه ، قال تعالى : ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء : ٨٥] .

وقوله : (وتقوم القيامة التى أخبر اللّٰه بها فى كتابه ، وعلى لسان رسوله ، وأجمع عليها المسلمون) . إشارةً إلى أدلة البعث ، وأنه ثابت بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين والعقل والفطر السليمة .

فقد أخبر اللّٰه عنه فى كتابه ، وأقام الدليل عليه ، ورد على المنكرين للبعث فى غالب سور القرآن ، ولما كان نبينا محمد ﷺ خاتم النبيين بين تفاصيل الآخرة بيانًا لا يوجد فى كثيرٍ من كتب الأنبياء .

والجزاء على الأعمال ثابت بالعقل ، وواقع فى الشرع ؛ فإن اللّٰه نبّه العقول إلى ذلك فى مواضع كثيرةٍ من القرآن ، حيث ذكرها أنه لا يليق بحكمته وحمده أن يترك الناس سدًى ، أو يخلقهم عبثًا ، لا يؤمرون ، ولا ينهون ، ولا يثابون ، ولا يعاقبون .

وأن يكون المحسن كالمسىء ، أو يجعل المسلمين كالمجرمين ؛ فإن بعض المحسنين يموت قبل أن يجزى على إحسانه ، وبعض المجرمين يموت قبل أن يجازى على إجرامه ، فلا بد أن هناك دارًا يُجازى فيها كلٌّ منهما .

ومنكر البعث كافرٌ ، كما قال تعالى : ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ﴾ [التغابن : ٧] .

وقوله : (فيقوم الناس من قبورهم حفاةً) . جمْع حافٍ ، وهو الذى ليس على رجله نعل ، ولا خفٌّ .

(عراةً) جمع عارٍ ، وهو الذى ليس عليه لباس .

(غرلًا) جمع أغرل ، وهو الأقلف الذى لم يختن .

وهذه الصفات الثلاث يكونون عليها حين قيامهم من قبورهم ، وهذا ثابت فى الصحيح ، عن النبى ﷺ ، ففى الصحيحين ، عن عائشة رضي الله عنها ، أن رسول اللّٰه ﷺ قال : « إنكم تحشرون إلى اللّٰه يوم القيامة حفاةً عراةً غرلًا » الحديث[1] .

ذكر الشيخ رحمه الله فى هذا الكلام بعض ما يجرى فى يوم القيامة مما ذكر فى الكتاب والسنة ؛ فإن

(١) البخارى (٦٥٢٧) ، ومسلم (٤/٢١٩٤) (٢٨٥٩) عن عائشة رضي الله عنها ، ومسلم (٤/٢٩١٤) (٢٨٦٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

والغُرل - بضم الغين المعجمة ، وإسكان الراء - : معناه : غير مختونين ، جمع أغرل ، وهو الذى لم يختن ، وبقيت معه غُرلته ، وهى قُلفته ، وهى الجلدة التى تقطع فى الختان .

تفاصيل ما يجرى فى هذا اليوم مما لا يدرك بالعقل ، وإنما يدرك بالنقول الصحيحة عن النبى ﷺ الذى لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ .

ومن الحكمة فى محاسبة الخلائق على أعمالهم ، ووزنها ، وظهورها مكتوبةً فى الصحف مع إحاطة علم الله بذلك ؛ ليرى عباده كمال حمده ، وكمال عدله ، وسعة رحمته ، وعظمة ملكه .

وذكر الشيخ مما يجرى فى هذا اليوم العظيم على العباد :

١- (أنها تدنو منهم الشمس) ؛ أى : تقرب من رءوسهم ، كما روى مسلم ، عن المقداد رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد ، حتى تكون قدر ميلٍ أو ميلين »[1] .

وقوله : (ويلجمهم العرق) ؛ أى : يصل إلى أفواههم ، فيصير بمنزلة اللجام ، يمنعهم من الكلام ، وذلك نتيجةً لدنو الشمس منهم ، وذلك بالنسبة لأكثر الخلق ، ويستثنى من ذلك الأنبياء ، ومن شاء الله .

٢- ومما ذكر فى هذا اليوم قوله : (وتنصب الموازين ، وتوزن بها الأعمال) الموازين جمع ميزانٍ ، وهو الذى توزن به الحسنات والسيئات .

وهو ميزان حقيقىٌّ له لسان وكفتان ، وهو من أمور الآخرة ، ونؤمن به ، كما جاء ، ولا نبحث عن كيفيته إلا على ضوء ما ورد من النصوص .

والحكمة فى وزن الأعمال إظهار مقاديرها ؛ ليكون الجزاء بحسبها .

(فمن ثقلت موازينه) ؛ أى : رجحت حسناته على سيئاته .

(فأولئك هم المفلحون) ؛ أى : الفائزون والناجون من النار ، المستحقون لدخول الجنة .

(ومن خفت موازينه) ؛ أى : ثقلت سيئاته على حسناته .

(فأولئك الذين خسروا أنفسهم) ؛ أى : خابوا وصاروا إلى النار .

(فى جهنم خالدون) ؛ أى : ماكثون فى النار .

والشاهد من الآية الكريمة : أن فيها إثبات الموازين والوزن يوم القيامة ، وقد ورد ذكر الوزن والموازين فى آياتٍ كثيرةٍ من القرآن ، وقد أفاد مجموع النصوص أنه يوزن العامل والعمل والصحف .

ولا منافاة بينها فالجميع يوزن ، ولكن الاعتبار فى الثقل والخفة يكون بالعمل نفسه ، لا بذات العامل ، ولا بالصحيفة . والله أعلم .

وقد تأول المعتزلة النصوص فى ذلك على أن المراد بالوزن والميزان العدل ، وهذا تأويل فاسد مخالف للنصوص ، وإجماع سلف الأمة ، وأئمتها .

---

(١) رواه أحمد (٦/٣) (٢٣٧٠٣) ، ومسلم (٤/٢١٩٦) (٢٨٦٤) ، والترمذى (٢٤٢١) .

قال الشوكاني[1] : وغاية ما تشبثوا به مجرد الاستبعادات العقلية ، وليس في ذلك حجة على أحدٍ ، فهذا إذا لم تقبله عقولهم فقد قبلته عقول قومٍ ، هي أقوى من عقولهم ، من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، حتى جاءت البدع كالليل المظلم ، وقال كلٌّ ما شاء ، وتركوا الشرع خلف ظهورهم . أهـ

وأمور الآخرة ليست مما تدركها العقول . والله أعلم .

٣- ومما ذكره الشيخ من حوادث هذا اليوم العظيم قوله : (وتنشر الدواوين ، وهي صحائف الأعمال) ؛ أي : الصحائف التي كتبت فيها أعمال العباد التي عملوها في الدنيا ، وكتبها عليهم الحفظة ؛ لأنها تطوى عند الموت ، (وتنشر) ؛ أي : تفتح عند الحساب ؛ ليقف كل إنسانٍ على صحيفته ، فيعلم ما فيها .

(فآخذ كتابه بيمينه ، وآخذ كتابه بشماله ، أو من وراء ظهره) هذا فيه بيان كيفية أخذ الناس لصُحفهم ، كما جاء ذلك في القرآن الكريم ، وهو على نوعين :

آخذٌ كتابه بيمينه ، وهو المؤمن .

وآخذ كتابه بشماله أو من وراءِ ظهره ، وهو الكافرُ ، بأن تُلْوى يده اليسرى من وراء ظهره ، ويعطى كتابه بها ، كما جاءت الآيات بهذا وهذا .

ولا منافاةَ بينهما ؛ لأن الكافر تغل يمناه إلى عنقه ، وتجعل يُسراه وراء ظهره ، فيأخذ بها كتابه .

ثم استدل الشيخ بقوله تعالى : ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ الآية ، وطائره : ما طار عنه من عمله ، من خيرٍ وشرٍّ .

﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾ ؛ أي : يلزم به ، ويجازى به ، لا مَحِيدَ له عنه ، فهو لازم له لزوم القِلادة في العنق .

﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ ؛ أي : نجمع له عمله كله في كتابٍ يعطاه يوم القيامة ؛ إما بيمينه إن كان سعيدًا ، أو بشماله إن كان شقيًا .

﴿مَنشُورًا﴾ ؛ أي : مفتوحًا يقرؤه هو وغيره ، وإنما قال سبحانه : ﴿يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ تعجيلًا للبشرى بالحسنة ، والتوبيخ على السيئة .

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ ؛ أي : نقول له ذلك ، فيقرأ ذلك الكتاب من كان قارئًا ، ومن لم يكن قارئًا .

﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ . أي : حاسبًا ، وهو منصوب على التمييز ، وهذا أعظم العدل حيث جعله حسيب نفسه ؛ ليرى جميع عمله ، لا ينكر منه شيئًا .

والشاهد من الآية الكريمة : أن فيها إثبات إعطاء كل إنسانٍ صحيفةَ عمله يوم القيامة يقرؤها بنفسه ، ويطلع عليها هو ، لا بواسطة غيره .

٤- ثم ذكر الشيخ رحمه الله الحساب ، فقال : (ويحاسب الله الخلائق) الحساب : هو تعريف الله عز وجل

---

(١) « فتح القدير » (٢/١٩٠) .

للخلائق بمقادير الجزاء على أعمالهم ، وتذكيره إياهم ما قد نسوه من ذلك .

أو بعبارةٍ أخرى : هو توقيف الله عباده قبل الانصراف من المحشر على أعمالهم ؛ خيرًا كانت أو شرًّا .

ثم ذكر الشيخ رحمه الله أن الحساب على نوعين :

النوع الأول : حساب المؤمن ، قال فيه : (ويخلو بعبده المؤمن ، فيقرره بذنوبه ، كما وصف ذلك بالكتاب والسنة) كما قال الله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق : ٨- ٩] .

وفي الصحيحين ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يُدني المؤمن ، فيضع عليه كنفه ، ويستره من الناس ، ويقرره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى في نفسه أن قد هلك ، قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته »(١) .

ومعنى « يقرره بذنوبه » : يجعله يُقر ؛ أي : يعترف بها ، كما في هذا الحديث : « أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ » .

ومن المؤمنين من يدخل الجنة بغير حسابٍ ، كما صح في حديث السبعين الألف الذين يدخلون الجنة ، بلا حسابٍ ، ولا عذابٍ .

والحساب يختلف ، فمنه اليسير ، وهو العرض ، ومنه المناقشة ، وفي الصحيحين ، عن عائشة رضي الله عنها ، أن رسول الله ﷺ قال : « ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك » . فقلت : يا رسول الله ، أليس قد قال الله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ .

فقال رسول الله ﷺ : « إنما ذلك العرض ، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عُذِّب »(٢) .

٥- مما يوجد في القيامة حوض النبي ﷺ ، وقد ذكره الشيخ هنا ، وبين أوصافه ، فقال : (وفي عرصات القيامة الحوض المورود للنبي ﷺ) كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ .

قال الإمام ابن القيم : وقد روى أحاديث الحوض أربعون صحابيًا ، وكثير منها ، أو أكثرها في الصحيح . أهـ

وتقدم بيان معنى العرَصات .

والحوض لغةً : مجمع الماء ، وقد أجمع أهل السنة والجماعة على إثبات الحوض ، وخالفت في ذلك المعتزلة ، فلم تقل بإثباته ، وأولوا النصوص الواردة فيه ، وأحالوها عن ظاهرها .

---

(١) البخاري (٢٤٤١، ٤٦٨٥، ٦٠٧٠، ٧٥١٤) ، ومسلم (٤/٢١٢٠) (٢٧٦٨) .

(٢) البخاري (٦٥٣٧) ، ومسلم (٤/٢٢٠٤) (٢٨٧٦) .

ثم ذكر الشيخ ﷺ أوصاف الحوض، فقال: (ماؤه أشد بياضًا من اللبن . إلخ) وهذه الأوصاف ثابتة في الأحاديث، كحديث عبد الله بن عمرو المتفق عليه قال: قال رسول الله ﷺ: « حوضي مسيرة شهرٍ، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منه لا يظمأ أبدًا »(١) .

٦- ذكر الشيخ ﷺ في هذا أن مما يحصل يوم القيامة المرور على الصراط، والصراط في اللغة هو الطريق الواضح .

وأما في الشرع فهو ما بينه الشيخ بقوله: (وهو الجسر الذي بين الجنة والنار) وبين مكانه بقوله: (على متن جهنم)؛ أي: على ظهر النار .

ثم بين صفة مرور الناس عليه بقوله: (يمر الناس عليه على قدر أعمالهم) ووقت المرور عليه بعد مفارقة الناس للموقف والحشر والحساب؛ فإن الصراط ينجو عليه المؤمنون من النار إلى الجنة، ويسقط منه أهل النار فيها، كما ثبت في الأحاديث .

ثم فصل الشيخ ﷺ أحوال الناس في المرور على الصراط، فقال: (فمنهم من يمر كلمح البصر) إلخ؛ أي: أنهم يكونون في سرعة المرور وبطئه على حسب إيمانهم وأعمالهم الصالحة التي قدموها في الدنيا .

فبحسب استقامة الإنسان على دين الإسلام وثباته عليه يكون ثباته ومروره على الصراط، فمن ثبت على الصراط المعنوي - وهو الإسلام - ثبت على الصراط الحسي المنصوب على متن جهنم، ومن زل عن الصراط المعنوي زل عن الصراط الحسي .

وقوله: (يعدو عدوًا)؛ أي: يركض ركضًا . وقوله: (يزحف زحفًا)؛ أي: يمشي على مقعدته، بدل رجليه .

وقوله: (عليه كلاليب) جمع كلوب - بفتح الكاف واللام المشددة المضمومة - وهي حديدة معطوفة الرأس .

وقوله: تخطف - بفتح الطاء، ويجوز كسرها - من الخطف، وهو أخذ الشيء بسرعةٍ .

وقوله: (بأعمالهم)؛ أي: بسبب أعمالهم السيئة، فيكون اختطاف الكلاليب لهم على صراط جهنم بحسب اختطاف الشبهات والشهوات لهم عن الصراط المستقيم .

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بالصراط المنصوب على متن جهنم ومرور الناس عليه، على ما جاءت به الأحاديث الصحيحة، عن النبي ﷺ .

وخالف في ذلك القاضي عبد الجبار المعتزلي وكثير من أتباعه، وقالوا: المراد بالصراط المذكور

---

(١) البخاري (٦٥٧٩)، ومسلم (٤/ ١٧٩٣، ١٧٩٤) (٢٢٩٢) .

طريق الجنة ، المشار إليه بقوله تعالى : ﴿سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ﴾ [محمد : ٥] . وطريق النار المشار إليه بقوله تعالى : ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات : ٢٣] .

وهذا قول باطل ، وردٌّ للنصوص الصحيحة بغير برهانٍ ، والواجب حمل النصوص على ظاهرها .

٧- ذكر الشيخ رحمه الله مما يكون يوم القيامة الوقوف على القنطرة ، فقال : (فمن مر على الصراط) ؛ أى : تجاوزه ، وسلم من السقوط فى جهنم .

(دخل الجنة) لأن من نجا من النار دخل الجنة ، قال تعالى : ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾ [آل عمران : ١٨٥] . وقال تعالى : ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى : ٧] .

لكن قبل دخول الجنة لا بد من إجراء القصاص بين المؤمنين حتى يدخلوا الجنة ، وهم على أكمل حالةٍ ، قد خلصوا من المظالم ، وهذا ما أشار إليه الشيخ بقوله : (فإذا عبروا) ؛ أى : تجاوزوا الصراط ، ونجوا من السقوط فى النار .

(وقفوا على قنطرةٍ) هى الجسر ، وما ارتفع من البنيان ، وهذه القنطرة قيل : هى طرف الصراط مما يلى الجنة ، وقيل : هى صراط آخر خاصٌّ بالمؤمنين .

(فيقتص لبعضهم من بعضٍ) ؛ أى : يجرى بينهم القصاص فى المظالم ، فيؤخذ للمظلوم حقه ممن ظلمه .

(فإذا هذبوا ونقوا) ؛ أى : خلصوا من التبعات والحقوق (أذن لهم فى دخول الجنة) وقد ذهب ما فى قلوب بعضهم لبعضٍ من الغل ، كما قال تعالى : ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر : ٤٧] .

٨- يبين الشيخ رحمه الله ما ينتهى إليه أمر المؤمنين يوم القيامة بعد اجتيازهم لتلك الأحوال التى مر ذكر أهمها ، فيقول : (فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة) فهم لا يدخلون الجنة إلا بعد إذنٍ من الله تعالى ، وطلبٍ لفتح أبوابها .

(وأول من يستفتح باب الجنة محمد ﷺ) كما فى الصحيح ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « آتى باب الجنة يوم القيامة ، فأستفتح فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد . فيقول : بك أمرت أن لا أفتح لأحدٍ قبلك »[1] .

والاستفتاح طلب الفتح ، وفى هذا تشريف له ﷺ ، وإظهار لفضله .

(وأول من يدخلها من الأمم أمته) وذلك لفضلها على سائر الأمم ، ودليل ذلك ما فى حديث أبى هريرة الذى رواه مسلم ، من قوله ﷺ : « ونحن أول من يدخل الجنة »[2] .

---

(١) أحمد فى مسنده (٣/١٣٦) (١٢٣٣٧) ، ومسلم (١/١٨٨) (١٩٧) .

(٢) مسلم (٢/ ٥٨٥، ٥٨٦) (٨٥٥) .

قوله : (وله ﷺ في القيامة ثلاث شفاعاتٍ) . الشفاعات جمع شفاعةٍ ، والشفاعة لغةً : الوسيلة .

وعرفًا : سؤال الخير للغير ، مشتقة من الشفع الذي هو ضد الوتر ، فكأن الشافع ضم سؤاله إلى سؤال المشفوع له بعد أن كان منفردًا .

وقول الشيخ رحمه الله : (وله ﷺ في القيامة ثلاث شفاعاتٍ) . بيان للشفاعات التي يقوم بها النبي ﷺ في يوم القيامة بإذن الله تعالى .

هكذا ذكر الشيخ رحمه الله أنواع الشفاعة هنا مختصرةً ، وهي على سبيل الاستقصاء ثمانية أنواعٍ ، منها ما هو خاصٌ بالنبي ﷺ ، ومنها ما هو مشترك بينه وبين غيره .

الشفاعة الأولى : الشفاعة العظمى ، وهي المقام المحمود ، وهي أن يشفع النبي ﷺ أن يقضي الله سبحانه بين عباده ، بعد طول الموقف عليهم ، وبعد مراجعتهم الأنبياء للقيام بها ، فيقوم بها نبينا ﷺ بعد إذن ربه .

الشفاعة الثانية : شفاعته في دخول أهل الجنة الجنة بعد الفراغ من الحساب .

الشفاعة الثالثة : شفاعته ﷺ في عمه أبي طالبٍ أن يخفف عنه العذاب ، وهذه خاصة به ؛ لأن الله أخبر أن الكافرين لا تنفعهم شفاعة الشافعين ، ونبينا أخبر أن شفاعته لأهل التوحيد خاصةً .

فشفاعته لعمه أبي طالبٍ خاصة به ، وخاصة لأبي طالبٍ .

هذه الأنواع الثلاثة من الشفاعة خاصة بنبينا محمدٍ ﷺ .

الشفاعة الرابعة : شفاعته فيمن استحق النار من عصاة الموحدين ألَّا يدخلها .

الشفاعة الخامسة : شفاعته ﷺ فيمن دخل النار من عصاة الموحدين أن يخرج منها .

الشفاعة السادسة : شفاعته في رفع درجات بعض أهل الجنة .

الشفاعة السابعة : شفاعته ﷺ فيمن استوت حسناتهم وسيائهم أن يدخلوا الجنة ، وهم أهل الأعراف على قولٍ .

الشفاعة الثامنة : شفاعته ﷺ في دخول بعض المؤمنين الجنة ، بلا حسابٍ ، ولا عذابٍ ، كشفاعته ﷺ في عكاشة بن محصنٍ رضي الله عنه حيث دعا له النبي ﷺ أن يكون من السبعين الألف الذين يدخلون الجنة بلا حسابٍ ، ولا عذابٍ .

وهذه الأنواع الخمسة الباقية يشاركه فيها غيره من الأنبياء والملائكة والصديقين والشهداء .

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بهذه الشفاعات كلها لثبوت أدلتها ، وأنها لا تتحقق إلا بشرطين :

الشرط الأول : إذن الله للشافع أن يشفع ، كما قال تعالى : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ [يونس : ٣] .

الشرط الثاني : رضا الله عن المشفوع له ، كما قال تعالى : ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾

[الأنبياء: ٢٨] . ويجمع الشرطين قوله تعالى : ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦] .

وقد خالفت المعتزلة فى الشفاعة لأهل الكبائر من المؤمنين فيمن استحق النار منهم أن لا يدخلها ، وفيمن دخلها أن يخرج منها ؛ أى : فى النوع الخامس والسادس من أنواع الشفاعة .

ويحتجون بقوله تعالى : ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] والجواب عنها : أنها واردة فى حق الكفار ، فهم الذين لا تنفعهم شفاعة الشافعين ، أما المؤمنون فتنفعهم الشفاعة بشروطها .

هذا وقد انقسم الناس فى أمر الشفاعة إلى ثلاثة أصنافٍ .

الصنف الأول : غلوا فى إثباتها ، وهم النصارى ، والمشركون ، وغلاة الصوفية والقبوريون ، حيث جعلوا شفاعة من يعظمونه عند اللَّه كالشفاعة المعروفة فى الدنيا عند الملوك ، فطلبوها من دون اللَّه ، كما ذكر اللَّه عن المشركين .

الصنف الثانى : وهم المعتزلة والخوارج غلوا فى نفى الشفاعة ، فأنكروا شفاعة النبى ﷺ ، وشفاعة غيره فى أهل الكبائر .

الصنف الثالث : وهم أهل السنة والجماعة أثبتوا الشفاعة على وفق ما جاءت به النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ، فأثبتوا الشفاعة بشروطها .

٩- لما ذكر الشيخ رحمه الله أن من أنواع الشفاعات التى تقع بإذن اللَّه الشفاعة بإخراج بعض من دخلوا النار منها ، ذكر هنا أن الخروج من النار له سبب آخر غير الشفاعة ، وهو رحمة اللَّه سبحانه وفضله وإحسانه .

فيخرج من النار من عصاة الموحدين من فى قلبه أدنى مثقال حبةٍ من إيمانٍ ، قال اللـه تعالـى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] .

وفى الحديث المتفق عليه : « يقول اللَّه : شفعت الملائكة ، وشفع النبيون ، وشفع المؤمنون ، ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضةً من النار ، فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط »[1] الحديث .

وقوله : (ويبقى فى الجنة فضل) ؛ أى : متسع .

(عمن دخلها من أهل الدنيا) لأن اللَّه وصفها بالسّعة ، فقال : ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣] .

(فينشئ اللَّه) ؛ أى : يخلق ويوجد (أقوامًا) ؛ أى : جماعاتٍ .

(فيدخلهم الجنة) بفضله ورحمته ؛ لأن الجنة رحمته يرحم بها من يشاء ، وأما النار فلا يعذب فيها إلا من قامت عليه حجته ، وكذب رسله .

---

(١) رواه البخارى (٧٤٣٩) ، ومسلم (١/ ١٧٠) (١٨٣) من حديث أبى سعيد الخدرى ، واللفظ لمسلم .

وقوله : (وأصناف ما تضمنته الدار الآخرة .. إلخ) لما ذكر رحمه الله ما ذكر من أحوال اليوم الآخر ، وما يجرى فيه أحال على الكتاب والسنة فى معرفة تفاصيل البقية مما لم يذكره ؛ لأن ذلك من علم الغيب الذى لا يعرف إلا من طريق الوحى .

❁ قال الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه الله :

قال رحمه الله : (ثُمَّ بَعْدَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ إِمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا عَذَابٌ) : بعد هذه الفتنة يكون القبر إما روضة من رياض الجنة وإما حفرة من حفر النار ، والعذاب في القبر نوعان : عذاب أمدي فترة ثم ينقطع ، وهو عذاب عصاة الموحدين ، أو بعض غيرهم ، وعذاب أبدي لا ينقطع ، وهو عذاب الكفار أو طائفة من الكفار ؛ لأن الله ﷻ قال في وصف آل فرعون : ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر : ٤٦] ، فبين أنهم قبل قيام الساعة يُعرضون على النار غدوًّا وعشيًا ، وهذا يكون في قبورهم .

فالنوع الأول عذاب أمدي ، يعني : مدة ثم ينقطع ؛ وهذا لأن دار البرزخ نوع من الدور قد يجعل الله ﷻ العذاب فيها من المكفرات ، يعني : يكون العبد عنده ذنوب فيزال أثر هذه الذنوب وتُكفر عنه بالعذاب في البرزخ ؛ لأن هناك عشرة أشياء يُزال بها العذاب أو أثر الذنب ، منها ما يكون من تكفيره بالمصائب ، ومنها ما يكون بالعذاب في البرزخ ، وكذلك في عرصات القيامة .. إلى غير ذلك من الأنواع العشرة المعروفة .

والقبر أيضًا له ضمة - كما هو معروف - والقبر حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة ، وضمة القبر لا ينجو منها أحد ، وقد رأت عائشة رضي الله عنها صغيرًا ميتًا يُحمل فبكت ، وقالت : (أشفقت عليه من ضمة القبر) وضمة القبر لم ينج منها أحد ، وقال ﷺ : « لو نَجَا منها أَحَدٌ لَنَجَا منها سَعْدُ بن مُعَاذٍ »[1]. وهذه الضمة تختلف فأما ضمة الكافر فإن الأرض حنقة عليه غاضبة عليه فتضمه ضمة عذاب ، وأما المسلم المؤمن فإن الأرض إذا كان المسلم على ظهرها وفقدته فإنها تبكي على فقده ؛ إذ كانت تسمع ذكره ، وفقدت مكان صلاته ، وفقدت مصلاه ، وفقدت تنقله في الخير ، فتكون الأرض في ضمها لهذا المقبور - كما قال طائفة من أهل العلم - تضمه ضمة الحبيب لحبيبه ، ولكن هذه الضمة يكون منها شدة على المقبور ، يعني : أن الضمة لابد منها ، ولكن فرق بين ضمة مسلم وضمة كافر أو منافق ، نسأل الله ﷻ لنا ولجميع المسلمين حسن الختام والموت على الشهادة .

ومن الدلائل على عذاب القبر أن النبي ﷺ مر بقبرين فقال : « إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وما يُعَذَّبَانِ في كَبِيرٍ ،

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده (١١١٤) ، وابن حبان (٣١١٢) ، والطبراني في تهذيب الآثار (٨٩٧ - مسند عمر) من حديث عائشة . وصححه الألباني في تعليقاته على صحيح ابن حبان (٣١٠٢) .

أمَّا أحدهما فكَانَ لَا يَسْتَبْرِئُ من بَوْلِهِ ، وَأَمَّا الآخر فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ »[(١)]، هذا دليل من أدلة عذاب القبر ، وهو حق أجمع أهل السنة والجماعة عليه ، والأدلة عليه كثيرة جدًّا ، ومن الحديث المتواتر : أن النبي ﷺ كان يُعلم الناس كما يعلمهم السورة من الصلاة أن يدعو المسلم في آخر الصلاة بالاستعاذة من أربع : « اللهم إني أَعُوذُ بِكَ من عَذَابِ الْقَبْرِ ، وَعَذابِ النَّارِ ، وَفِتْنَةِ الْمَحْيَا والمَمَاتِ ، وفِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ »[(٢)]، وهذا دليل ظاهر ، ولا حجة لمن أنكر النعيم والعذاب في القبر ، بل هو مخالفة للنصوص وضلال بيِّن .

(إِلَى أَنْ تَقُومَ الْقِيَامَةُ الْكُبرى ، فَتُعَادَ الأَرْوَاحُ إِلَى الأَجْسَادِ).

يعني :أنهم يلبثون في قبورهم إلى أن تقوم القيامة الكبرى ، وهم في حال كونهم في قبورهم أرواح المؤمنين مقرها الجنة ؛ كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلَقُ في شَجَرِ الْجَنَّةِ »[(٣)]، ووصف نفس الشهيد فقال : « أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ في جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ لَها قَنادِيلُ مُعَلَّقَةٌ تَحْتَ العَرْشِ تَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شاءَتْ ثمَّ تأوي إلى تِلْكَ القَنادِيلِ »[(٤)].

والمقصود من ذلك أن مقر أرواح المؤمنين في الجنة ، ومقر أرواح الكفار في النار ، ولا يمنع ذلك أن تكون هذه الروح لها تعلق بالقبر ؛ بل تذهب فتصل إلى القبر في لحظات وتذهب إلى مكانها في لحظات ، ولا يمنع هذا أيضًا أن من الناس من تُحبس أرواحهم على قبورهم على حسب ما جاء في الأدلة ، فالأدلة يُصدِّق بعضها بعضًا ، وبعضها يُفهم البعض الآخر .

قال : (إِلَى أَنْ تَقُومَ الْقِيَامَةُ الْكُبرى ، فَتُعَادَ الأَرْوَاحُ إِلَى الأَجْسَادِ) ،وهذا من الاختصار اختصره شيخ الإسلام رحمه الله ؛ لأن إعادة الأرواح إلى الأجساد يسبقها شيء كثير ، فيلبث الناس في القبور إلى أن يموت جميع الخلائق وذلك بنفخة الصعق ، فتعاد الأرواح إلى الأجساد بنفخة البعث .

والنفخات وذكرها من جملة ما جاء في النصوص بيانه فيدخل في الإيمان باليوم الآخر ، والذي دلت عليه الأدلة أن النفخات ثلاث :

أما النفخة الأولى :فهي نفخة الفزع التي جاءت في سورة « النمل » في قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل : ٨٧] .

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٦، ٢١٨، ١٣٦١، ٦٠٥٢، ٦٠٥٥) ، ومسلم(٢٩٢/١١١) ، وأبو داود (٢٠) ، والترمذي (٧٠) ، وابن ماجه (٣٤٧) ، والنسائي (٣١، ٢٠٦٧، ٢٠٦٨) من حديث ابن عباس .

(٢) أخرجه البخاري (١٣٧٧) ، ومسلم (٥٨٨، ١٢٨، ١٣٢) ، والترمذي (٣٦٠٤) ، وابن ماجه (٩٠٩) ، والنسائي (٢٠٥٩، ٥٥٢٣ - ٥٥٢٦، ٥٥٢٨ - ٥٥٣١) من حديث أبي هريرة .

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢٧١) ، والنسائي (٢٠٧٢) من حديث كعب بن مالك الأنصاري . وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٤٦) .

(٤) أخرجه مسلم (١٨٨٧/١٢١) من حديث عبد الله بن مسعود .

والنفخة الثانية : هي نفخة الصعق .

والنفخة الثالثة : هي نفخة البعث والقيام ، وهما اللتان ذكرتا في قوله تعالى في سورة « الزمر » وغيرها : ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر : ٦٨] . هذا التقسيم إلى ثلاث نفخات هو الذي رجحه شيخ الإسلام وابن القيم وجماعة من المحققين ، ودل عليه أيضًا حديث أبي هريرة رضي الله عنه المعروف بحديث الصور الطويل الذي رواه ابن جرير وأبو يعلى والطبراني والبيهقي وجماعة(١) ، لكن الحديث ضعيف ؛ لأن فيه مجهولًا وضعيفًا ؛ كما أعله الحافظ ابن حجر بذلك ، ولكن هو موافق في ذلك لظاهر القرآن ؛ لأن في القرآن ثلاث نفخات : نفخة الفزع ، ونفخة صعق ، ونفخة بعث .

وقال كثير من أهل العلم : إنَّ النفخات اثنتان ، ونفخة الصعق طويلة تمتد ، أولها فزع وآخرها صعق . ودل على ذلك الحديث الذي رواه مسلم في « الصحيح » أن النبي ﷺ قال : « يُنْفَخُ في الصُّورِ فلا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا » يعني : جهة عنقه ، قال : « وَأَوَّلُ من يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِه » . قال : « فَيَصْعَقُ وَيَصْعَقُ الناس »(٢) ، فهذا دليل على أن الفزع يتبعه صعق .

وعلى العموم فالقول الأول أظهر من حيث دلالة الآيات وأن النفخات ثلاث : ﴿يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ﴾ [النمل : ٨٧] ، ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر : ٦٨] ، والنفخة الأولى على هذا التقسيم هي نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصعق ، ومعنى الصعق يعني الموت ، فهي نفخة يموت منها من سمعها ، إلا من استثنى الله ، من ذلك الذين في قوله : ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر : ٦٨] ، فهؤلاء يستثنون من الصعق فلا يصعقون ، قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله : المقصود بمن استثنى الله هم الجواري الحور ، والولدان ، والغلمان في الجنة . وقال طائفة : أرواح الشهداء . والأقوال في ذلك كثيرة .

ونفخة الصعق هذه يكون فيها الإهلاك - يعني الموت - تموت الخلائق ويستعدون للقيامة الكبرى العظيمة ، أي : القيام لله رب العالمين بين نفخة الصعق ونفخة البعث ، ثم مدة زمنية جاء بيانها في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما أن أبا هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بين النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ » ، قالوا : يا أبا هريرة أربعون يومًا ؟ قال : أبيت ، قالوا : أربعون سنة ؟ قال : أبيت ، قالوا : أربعون شهرًا ؟ قال : أبيت . يعني : أبيت أن أقول ما ليس لي به علم ؛ لأن النبي ﷺ قال :

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٧٣٣٩) ، والطبراني في الأحاديث الطوال (٣٦) ، والبيهقي في البعث والنشور (٥٩٣) ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٧١٢/١٢ لأبي يعلى وجماعة .

(٢) أخرجه مسلم (١١٦/٢٩٤٠) .

« أَرْبَعُونَ » . وسكت ، ثم قال : « وَيَبْلَى كُلُّ شَيْءٍ من الْإِنْسَانِ إلا عَجْبَ ذَنَبِهِ فيه يُرَكَّبُ الْخَلْقُ »(١) ، وبيان ذلك - كما جاء في الأحاديث الصحيحة - أن اللَّه ﷻ بعد صعق الناس يُبدل الأرض ، فتتغير معالم الأرض ، وتتغير معالم السماء ، فتُدك الجبال دكًّا . ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه : ١٠٥، ١٠٧] ، فتكون الأرض منبسطة بسطًا واحدًا ، فيستوي حينذاك من دُفن بين الجبال ومن دفن في الأرض السهلة ، وتحصل أمور عظام ، وتُبدل الأرض غير الأرض والسماوات ، قال تعالى : ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ [التكوير : ١، ٢] ، وقال : ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق : ١ - ٥] .

يعني : أن هذه الأمور تحصل بين النفختين ، ثم بعد ذلك يأمر اللَّه ﷻ السماء فتحمل مطرًا كمنيِّ الرجال ، فتمطر به الأرض أربعين صباحًا ، فتنبت منه أجسام الناس ؛ لأن أجسام الناس بقي منها عجب الذنب وهو آخر عظام فقر الظهر تنبت منه الأجسام كالأشجار ، تتشقق الأرض وتنبت الأجسام بلا أرواح ، فتظل هكذا أجسامًا مستعدة قابلة للأرواح ؛ كحال الجنين ، ثم يأمر اللَّه ﷻ إسرافيل بأن ينفخ في الصور النفخة الأخيرة وهي نفخة البعث ، فتفرق الأرواح إلى الأجساد ، فتهتز الأجساد بالأرواح .

قال ابن القيم رحمه الله في جميل ما قال في وصف ما يحصل إذ ذاك :

وإِذَا أَرَادَ اللَّـهُ إخـرَاجَ الـوَرَى ... بَعدَ المَمَاتِ إِلى المَعَادِ الثَّانِي
أَلقَى عَلَى الأَرضِ التي هُم تحتها ... والـلَّـهُ مُـقـتَـدِرٌ وذُو سُـلـطَـانِ
مَـطَرًا غَـلِيظًـا أَبـيضًـا مُـتَـتَابِعًـا ... عَشـرًا وَعَشـرًا بَعدَهَـا عَشـرَانِ
فَتَظَلُّ تَنبتُ منهُ أَجسَامُ الوَرَى ... وَلُحُومُهُـم كَـمَـنَـابِـتِ الرَّيحَـانِ
حَتَّى إِذَا مَا الأُمُّ حَانَ وِلادُهَا ... وتَـمَـخَّـضَـت فَـنِـفَـاسُـهَـا مُـتَـدَانِ
أَوحَى لَهَا ربُّ السَّما فتشقَّقَت ... فَبَدَا الجَنِينُ كَأَكمَلِ الشُّبَّانِ

ويظل الناس بعد عود الأرواح في غرابة من هذه الأرض ، فلا يعرفون هذه الأرض ولا يعرفون السماء ؛ ولهذا قال ﷻ : ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر : ٦٨] ، ﴿يَنظُرُونَ﴾ : ما عرفوا هذه الأرض ولا عرفوا تلك السماء لأنها تغيرت ، وهذا من عجائب صنع اللَّهِ ، فهو ﷻ الذي بدأ الخلق وهو الذي يعيده ، قال تعالى : ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر : ٥٧] ، واللَّه سبحانه وتعالى له في خلقه عجائب وعجائب .

قال رحمه الله : (إِلَى أَنْ تَقُومَ الْقِيَامَةُ الْكُبرى ، فَتُعَادَ الأَرْوَاحُ إِلَى الأَجْسَادِ) يعني : بنفخة البعث ، والذي

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٤، ٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥/١٤١ - ١٤٣)، وأبو داود (٤٧٤٣)، وابن ماجه (٤٢٦٦)، والنسائي (٢٠٧٦) من حديث أبي هريرة .

ينفخ نفخة البعث هو ملك موكل بذلك اسمه - فيما شاع - إسرافيل، وقد قال ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ؟!»(١).

وهذا هو الذي يكون فيه الإيمان باليوم الآخر، فالإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بالأصالة بهذه القيامة العظمى.

قوله: (وتَقُومُ القِيَامَةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللَّهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ، فيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قبورِهِمْ لِرَبِّ العَالَمِين حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا).

وهذه القيامة كائنة لا محالة وهي قريبة، ومن مات من أول الخلق - يعني آدم - ومن مات قرب قيام الساعة، فهم في علم الله سواء، بُعد الزمن بمن مات متقدمًا، أو قرب الزمن بمن مات متأخرًا قرب الساعة، لا يفترقان في الحقيقة، فهما أرواح حلت في أجساد ثم فارقتها، ثم الجميع ينتظرون متى ينفخ في الصور ويستجاب لله ﷻ، وما أعظم قوله ﷻ: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢].

قال: (فيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قبورِهِمْ لِرَبِّ العَالَمِين) يقومون لرب العالمين؛ لأنه هو الذي دعاهم لذلك، يقومون فيختلف حال المسلم عن حال غيره، فحال خاصة المؤمنين أنهم يحشرون إلى الرحمن وافدين؛ كما قال ﷻ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝٨٥ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦]، يُحشر المتقون إلى الرحمن وفدًا، يعني: وافدين. قال المفسرون: تُجعل لهم نجائب من الجنة تنقلهم من قبورهم إلى عرصات القيامة، وأما المجرمون فيحشرون فيساقون إلى ﴿جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ يعني: بغلظة وشدة.

قال: (حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا) يعني: على هيئتهم كأنهم خرجوا من بطون أمهاتهم، فالأرض أُم، قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]، فيخرجون كحال خروجهم من بطون أمهاتهم حفاة عراة غرلًا، ومعنى «غرلًا» أي: غير مختونين.

وقد استعجبت عائشة - رضي الله عنها - حينما قال النبي ﷺ ذلك، فقالت: يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال ﷺ: «يا عَائِشَةُ، الأَمْرُ أَشَدُّ مِن أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ»(٢)، أي: كلٌّ يقول: نفسي، نفسي. لا يهمه أن يَرى عاريًا أو حوله، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢]، فيوم القيامة هو يوم العذاب العظيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧، ٨]، فهم يظلون كذلك (حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا) يسيرون من

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٣١) من حديث أبي سعيد الخدري. وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٥٨٥).

(٢) تقدم تخريجه قريبًا.

قبورهم إلى أن يجتمعوا في عرصات القيامة ، والعرصات المقصود منها الساحات العظيمة التي أعدها الله ﷻ من الأرض لاجتماع الناس فيها ، وحينذاك يُكسى الخلائق ، وأول من يُكسى من الخلائق إبراهيم عليه السلام ، ثم يُكسى الناس أكسية لتستر عوراتهم .

قوله : (وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ ، وَيُلْجِمُهُمُ الْعَرَقُ ، فَتُنْصَبُ الْمَوَازِينُ ، فَتُوزَنُ بِهَا أَعْمَالُ العِبَادِ ، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون : ١٠٢، ١٠٣]) .

قال : (وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ) والله ﷻ جعل الشمس إذ ذاك لها حالة أخرى ، فتدنو من رءوس الخلائق ، فيلجمهم العرق ، ويشتد عليهم الحر ، ومن عجائب صنع الله في ذلك اليوم أن العرق لكل واحد خاص به ، فكل واحد يسبح في عرقه والآخر بجنبه لا يتأثر بعرق من بجانبه ، كلٌّ بحسب عمله ، ويظلون على ذلك زمنًا طويلًا ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين : ٦] ، ثم تجيء الملائكة في ظلل من الغمام شيئًا فشيئًا ، فيطوقون الناس صفًّا فصفًّا ، ثم بعد ذلك ينزل الله ﷻ في ظلل من الغمام .

ثم يفزع الناس بعد طول المقام طلبًا للشفاعة - وأحاديث الشفاعة في ذلك معروفة - فيفزع الناس إلى آدم عليه السلام ، فيقولون له : يا آدم أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فيقول : نفسي نفسي ، اذهبوا إلى نوح . فيذهبون إلى نوح ، ثم يذهبون إلى إبراهيم ، ثم يذهبون إلى موسى ، وكلٌّ يذكر ذنبًا أذنبه وهو منشغل في ذلك الموقف العظيم بذنبه ، فيحيل إلى من بعده حتى يأتوا عيسى فيقول : عليكم بمحمد ﷺ ، ولا يذكر ذنبًا ، فيأتون النبي ﷺ ويطلبون منه الشفاعة العظمى ، فيقول ﷺ : « أنا لها ، أنا لها » ، فيأتي فيخر تحت العرش ، فيحمد الله ﷻ بمحامد يفتحها عليه ، قال ﷺ : « لا أحسنها الآن » . وقوله : « محامد » . يعني أنواعًا من الثناء بين يدي الله جل وعلا ، فيظل ساجدًا يثني علي ربه ، حتى يقول له الرب ﷻ : « يا محمد ، ارْفَعْ رَأْسَكَ ، وَسَلْ تُعْطَهْ ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ »[1] ، فيشفع ﷺ أول الشفاعات وأعظمها في أن يعجل الله ﷻ حساب الناس حتى يستريحوا من عذاب الموقف ومن هوله وما فيه ، فيحصل من ذلك أمور ويُعجل للناس الحساب ، وتنصب الموازين ؛ كما قال شيخ الإسلام هنا .

والموازين جمع ميزان ، والميزان هو الذي يوزن به ، والميزان عند الله ﷻ له كفتان كما قال ﷻ : ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء : ٤٧] .

وقوله : (فَتُنْصَبُ الْمَوَازِينُ) يعني : يؤتى بها بين الخلائق حتى يوزن بها أعمال العباد ، ويوزن بها العباد ، وتوزن بها الصحائف .

---

(١) تقدم تخريجه .

والموازين جمع ميزان ، فهل ثم ميزان واحد يوم القيامة أم موازين ؟

قال طائفة من أهل العلم : هو ميزان واحد . وقال آخرون : هي موازين ؛ لظاهر قوله تعالى : ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ ؛ ولأجل هذا الظاهر قال شيخ الإسلام :(فَتُنْصَبُ المَوَازِينُ) ، وهذا هو الظاهر أنها موازين وليست ميزانًا واحدًا ، وكل منها ميزان حقيقي ليس وهميًا ولا معنويًا ؛ ميزان حقيقي له كفتان وله لسان ؛ كما جاء ذلك في الأحاديث ، وكما هو ظاهر لفظ الميزان .

قال : (فتُوزَنُ بِهَا أَعْمَالُ العِبَاد) وهذا أحد ما يوزن يوم القيامة ، والذي دلت عليه النصوص أن ما يوزن يوم القيامة في الموازين ثلاثة أشياء :

الأول : الأعمال .

والثاني : صحائف الأعمال .

والثالث : صاحب العمل .

ويدل على هذا الثالث قوله ﷺ في ابن مسعود رضي الله عنه حينما ضحك الصحابة من حموشة ساقيه أو دقة ساقيه ، قال : « والذي نفسي بيده لَهُمَا أَثْقَلُ في الميزَانِ من أُحُدٍ »[1] . وثبت أيضًا عنه ﷺ أنه قال : « إنه لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يوم الْقِيامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ »[2] . إذن الوزن للأجسام ، والمراد منه ما في الروح من حقائق الإيمان ، فمن كان أعظم إيمانًا كان أثقل فثَقُل ولم يَزِلَّ عند العبور على الصراط .

قوله : (وَتُنْشَرُ الدَّوَاوِينُ ، وَهِيَ صَحَائِفُ الأَعْمَالِ ، فَآخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ، وآخِذٌ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ أَوْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ ؛ كَمَا قَالَ سبحانه وتعالى : ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء : ١٣- ١٤]) .

هذا تتمة لتفاصيل ما يحصل في اليوم الآخر وذكر لمشاهده وما يكون فيه من الأمور التي هي من جملة ما يجب أن يؤمن به العبد ؛ لأنها من اليوم الآخر ، والإيمان باليوم به من فرائض الإيمان ، فمن عَلِمَ من ذلك شيئًا فإنه يجب عليه أن يعتقده وأن يؤمن به ؛ لأنه مأخوذ عن الكتاب والسنة ، وما كان فيهما وجب اعتقاده ووجب الإيمان به ، ولا يجوز الشك فيه أو التردد .

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله فيما سبق أن الله جل وعلا ينصب الموازين في ذلك اليوم العظيم ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون : ١٠٢، ١٠٣] ، ومما يحدث في ذلك اليوم نشر الدواوين .

---

(١) أخرجه أحمد (٣٩٩١) ، وابن حبان (٧٠٦٩) ، وأبو يعلى (٥٩٥، ٥٣١٠، ٥٣٦٥) ، والطبراني (٨٤٥٢، ٨٥١٧) من حديث ابن مسعود . وصححه الألباني في الصحيحة (٢٧٥٠) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٢٩) ، ومسلم (١٨/٢٧٨٥) من حديث أبي هريرة .

وشيخ الإسلام ﷺ اختصر هنا أيضًا بعض ما يحصل في ذلك الموقف ، وهذا من العلم المهم أن يعلم طالب العلم ما يكون بحسب ما دلت عليه النصوص من موت الميت إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، فالعلم بذلك على تفاصيله من العلم النافع الذي يمتاز به الطالبون للعلوم النافعة .

وقد قال ابن القيم ﷺ في وصف العلوم النافعة :

والعِلمُ أقسَامٌ ثَلَاثٌ مَا لَهَا ... مِن رَابِعٍ والحَقُّ ذُو تِبيَانِ
عِلمٌ بأوصَافِ الإِلَهِ وَفِعلِهِ ... وَكَذَلِكَ الأسمَاءُ للرَّحمَنِ
وَالأمرُ وَالنَّهيُ الذِي هُوَ دِينُهُ ... وَجَزَاؤُهُ يَومَ المَعَادِ الثَّانِي

فثلث العلم : العلم بالجزاء ، وكيف يجازي الله ﷻ ، وما جزاء الحسنة ، وما جزاء السيئة ... إلى آخر ذلك .

قال ﷺ : (وَتُنشَرُ الدَّوَاوِينُ ، وَهِيَ صَحَائِفُ الأَعمَالِ)أي : تُظهر ، والنشر هو الإظهار حتى لا يكون خفيًا ، والدواوين جمع ديوان ، والديوان اسم لما يُكتب فيه ؛ فلهذا فسر شيخ الإسلام الدواوين بأنها صحائف الأعمال ، فالدواوين هي الكتب وهي صحائف الأعمال ، فهي كتب باعتبار الناس وباعتبار الأمم ، ولكل أمة كتاب ، ولكل أمة إمام ، وكذلك لكل إنسان كتاب ، وهي صحائف أعمال الناس ، فيُنشر ما فيها يوم القيامة ويراه الناس ويعلمون ما عملوا .

وتلك الدواوين أو تلك الصحف يؤتاها الإنسان وهي التي طارت عنه ؛ كما قال ﷻ : ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء : ١٣] ، ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾ الطائر هو ما يطير عن الإنسان من العمل من خير أو شر ؛ لأنه كأنه كان في سعة قبل أن يعمل ، فلما عمل طار عنه ولم يعد يتمكن من إرجاعه ، إن كان خيرًا فخير وإن كان شرًا فشر ، فسمي ما يعمله الإنسان طائرًا ؛ لأنه طار عنه .

وقال بعض أهل العلم : سُمي طائرًا لأنه يحصل منه – أي : من العمل – وبسببه السعادة أو الشقاوة ، وقد كانت العرب تتطير بالطير فتتفاءل أو تتشاءم من سوانح الطير أو بوارحها ، فيقدمون على العمل أو السفر – فيما يعتقدون – أو لا يقدمون ، فسُمي العمل طائرًا باعتبار النهاية أنه يحصل منه السعادة والشقاوة بحسب ما جرى من الاستعمال .

والصحيح أن العمل سُمي طائرًا لأنه طار عن المرء فلا يمكن استرجاعه ، ودُوِّن في كتاب .

قال ﷻ : ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ﴾ هذا عموم يشمل المسلم والكافر ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ﴾ يعني : جُعِل ذلك الذي صدر منه من الأقوال والأعمال – قول القلب وقول اللسان ، وعمل القلب واللسان والجوارح – جُعل ملازمًا له في عنقه ؛ كالقلادة لا تنفك عنه فهي ملازمة له يوم القيامة ؛ لأن هذه هي الأعمال التي كتبتها الملائكة ، فيُخرج للإنسان كتابه يوم القيامة ؛ كما قال تعالى : ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ

ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣]، فيوم القيامة تُخرج الدواوين وتُنشر ويراها المرء ويُريها أيضًا، قال سبحانه: ﴿يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ يعني ينشر؛ ولهذا قال شيخ الإسلام: (وتُنْشَرُ الدَّوَاوِينُ)، فتعبيره بـ (تنشر) لأجل هذه الآية ولغيرها؛ كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ [المدثر: ٥٢]، يعني: تُنشر ويعرفها وتُعرف أيضًا، فهذا الكتاب هو الديوان، وهذه الكتب تتطاير يوم القيامة.

قال رحمه الله: (فَآخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، وآخِذٌ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ أَوْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ)، فالناس في ذلك قسمان:

الأول: منهم من يأخذ الكتاب باليمين وهم المؤمنون أهل التوحيد أهل الإيمان.

والثاني: منهم من يأخذ كتابه بالشمال من وراء الظهر وهم الكفار والمنافقون، والله ﷻ جعل أخذ الكفار الكتب في آية بالشمال وفي آية من وراء الظهر، فمن أهل العلم من قال: إن الخلائق ثلاثة أصناف:

منهم من يأخذ كتابه باليمين.

ومنهم من يأخذ كتابه بالشمال.

ومنهم من يأخذ كتابه وراء الظهر.

والصواب هو الذي عليه أكثر المفسرين وهو أن من يأخذ كتابه بالشمال يأخذه بشماله من وراء ظهره، فكما أنه ترك كتاب الله ﷻ ظهريًا ولم يقبل على كتاب الله ﷻ فإنه يُجازى بصفة أخذه لكتابه بشماله من وراء ظهره. قالوا: فتخلع شماله حتى يكون أخذ ذلك الكافر أو المنافق للكتاب من وراء ظهره.

المقصود أن قوله: (وآخِذٌ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ أَوْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ)، هؤلاء صنف واحد وليسوا صنفين.

والناس يوم القيامة - كما ثبت في الحديث الصحيح - يُعرضون ثلاث عرضات على الله ﷻ، فعرضتان جدال ومعاذير، ثم العرضة الثالثة تتطاير حينها الصحف والدواوين والكتب، وهذه العرضة الثالثة التي فيها التطاير يكون بعدها تقرير؛ ولهذا نشر الدواوين يكون قبل الحساب، قال ﷻ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧- ١٢]، قال: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ فدل على أن ذلك الحساب يكون بعد نشر تلك الدواوين، وبعد أخذ الصحف باليمين.

فمن أخذ صحيفته باليمين - وهي التي سُجّلت فيها الأعمال - فإنه يُحاسب حسابًا يسيرًا، فتعرض عليه عرضًا دون محاققة في الحساب، ودون مناقشة، ولكن «من نُوقِشَ الْحِسَابَ يَهْلِكْ»[1]، إنما

(١) أخرجه البخاري (١٠٣، ٤٩٣٩، ٦٥٣٦)، ومسلم (٢٨٧٦/ ٧٩، ٨٠)، وأبو داود (٣٠٩٣)، والترمذي (٢٤٢٦، ٣٣٣٧) من حديث عائشة.

ذلك مجرد تقرير ؛ كما قال ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عليه كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ فيقول : أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا ؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا ؟ فيقول : نعم أَيْ رَبِّ . حتى إذا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ ورَأَى في نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قال : سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ في الدُّنْيَا وأنا أَغْفِرُهَا لك اليَوْمَ . فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ»[1] .

ـ قال ﷻ : ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ [الإسراء: ١٤] يعني : اقرأ صحيفة عملك ، اقرأ هذا الكتاب الذي كتبته الملائكة مما عملت ومما قلت ، ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ وفي قوله : ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ﴾ يعني كفى نفسك ، إذ الباء هنا صلة للتأكيد ، فـ(نفس) هنا فاعل ، يعني : كفى نفسُك اليوم عليك حسيبًا ، يعني : في نفسك كفاية اليوم عليك حسيبًا ، والله ﷻ مطلع على أعمال العباد .

وهذا النشر للدواوين وهذا الحساب الذي سيأتي بيانه أيضًا هذا كله من رحمة الله ﷻ بالعباد ، ولكي يُقرر العباد بذنوبهم وبأعمالهم فلا يُؤخذ أحدٌ إلا بما صدر عنه .

قال : ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ يعني بعد أخذ الكتاب اقرأ كتابك فأنت تحاسب نفسك ، يعني : تقرر نفسك على ذلك العمل ؛ لأنه ليس ثم حجة له ، وهذا لا ينفي ما يكون من بعض الناس من جدال في بعض ما يحصل ، لكن الجدال والمعاذير يكون عند تقرير الأعمال قبل إعطاء الصحف ، فإذا جاء الكتاب ورأى ما عمل فإن الحجة تقوم عليه ولا يجحد شيئًا ؛ كما قال ﷻ : ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢] ، يعني : خاصة من عصى ، وكذلك عامة الناس أيضًا لا يكتمون الله شيئًا .

قوله : (ويُحَاسِبُ اللَّهُ الخلائِقَ ، ويَخْلُو بِعَبْدِهِ المُؤْمِنِ ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ ؛ كَمَا وُصِفَ ذلِكَ فِي الكِتَابِ والسُّنَّةِ ، وأَمَّا الكُفَّارُ فَلا يُحَاسَبُونَ مُحَاسَبَةَ مَنْ تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ وسَيِّئَاتُهُ ؛ فَإِنَّهُم لا حَسَنَات لَهُمْ ، وَلَكِنْ تُعَدُّ أَعْمَالُهُمْ ، فَتُحْصَى ، فَيوقَفُونَ عَلَيْهَا ويُقَرَّرُونَ بِهَا) .

بعد أن ذكر نشر الدواوين وتطاير الصحف قال هنا : (ويُحَاسِبُ اللَّهُ الخلائِقَ) ، وهذا ترتيب صحيح من شيخ الإسلام رحمه الله حيث جعل المحاسبة بعد نشر الدواوين ؛ إذ إن الحساب وهو تقرير الأعمال يكون بعد نشر الدواوين وبعد أخذ من أخذ كتابه باليمين وأخذ من أخذ كتابه بالشمال ؛ كما قال فيما سبق : (فَآخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ، وآخِذٌ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ أَوْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ) .

ثم قال هنا : (ويُحَاسِبُ اللَّهُ الخلائِقَ ، ويَخْلُو بِعَبْدِهِ المُؤْمِنِ) ، والحساب هو المقصود من الإيمان باليوم الآخر ؛ فإن الإيمان بالبعث معناه الإيمان بيوم يرجع فيه الناس إلى الله فيحاسبون ، وحقيقة الإيمان بالبعث هو الإيمان بالحساب ؛ لأنه ما ثم شيء إلا وسيحاسب الله ﷻ عبده عليه ، وقد جاءت الآيات والأحاديث الكثيرة في إثبات الحساب ، فإنكاره كفر بالله ﷻ ؛ لأن من أنكر الحساب فهو منكرٌ للبعث .

قال : (ويُحَاسِبُ اللَّهُ الخلائِقَ) وهذا ظاهر منه أنه يعم جميع الخلق ، ولكن هو من الظاهر العام

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤١) ، ومسلم (٢٧٦٨/٥٢) ، وابن ماجه (١٨٣) من حديث عبد الله بن عمر .

المراد به الخصوص ، وهو خصوص من كلفه الله ﷻ ؛ إذ المحاسبة على ما عمل العبد من خير أو شر إنما هي للمكلف ، والمكلفون هم الإنس والجن ، فيحاسب الله الإنس والجن ؛ لأن الجن منهم المسلم ومنهم الكافر ، ومنهم من يدخل الجنة ومنهم من يدخل النار ؛ كما قال ﷻ في حور الجنة : ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن : ٧٤] ، فدل على أن الجن والإنس يدخلون الجنة وكذلك يدخلون النار .

فإذن قوله : (ويُحَاسِبُ اللَّهُ الخلائِقَ) يعني : المكلفين من الجن والإنس .

وهناك من لا يحاسب أصلًا وهم السبعون ألفًا الذين لا حساب عليهم ولا عذاب ؛ كما في الحديث المشهور ، قال ﷺ عن أمته : « فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ فَقِيلَ : هَؤُلاءِ أُمَّتُكَ ، ومَعَ هَؤُلاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَاب » . وهؤلاء هم الذين حققوا التوحيد وصفهم النبي ﷺ بقوله : « هُمُ الَّذِينَ لا يَتَطَيَّرُونَ ، ولا يَسْتَرْقُونَ ، ولا يَكْتَوُونَ ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ »[1] ، إشارة إلى صفات تدل على تحقيقهم للتوحيد .

قال : (ويَخْلُو بِعَبْدِهِ المُؤْمِنِ) ، هذا معنى المحاسبة أن الله ﷻ يخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه ؛ كما وصف ذلك في الكتاب والسنة ، والمحاسبة في ذلك المقام بالنسبة للمؤمن سرًّا يخلو الله ﷻ بالعبد سرًّا لا يعلمه أحد ؛ لأنه إذا حوسب على الملأ فإن ذلك فضيحة له ، والله ﷻ يخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه ؛ كما جاء في الحديث : « أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ » . فيقرر بالذنب ويقرر بالعمل ، وهذا معنى الحساب ، و« مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيس بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ »[2] . كما ثبت ذلك في الأحاديث .

وحساب الخلائق جميعًا في ذلك المقام حساب سريع ، والله ﷻ لا يشغله شأن عن شأن ، وليس حسابه لعباده كحساب المخلوقين ، قال سبحانه : ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام : ٦٢] ، لتمام علمه وقدرته وقوته وهيمنته ﷻ ، فيحاسب الخلائق جميعًا في وقت قصير ، قال بعضهم : كلمح البصر .

إذن محاسبة المؤمنين فيها تقرير العمل الصالح وتقرير العمل غير الصالح ، وفيها تقريرهم بما لهم وما عليهم ، وأما الكفار فهل يحاسبون ؟

قال رحمه الله : (وأَمَّا الكُفَّارُ فَلا يُحَاسَبُونَ مُحَاسَبَةَ مَنْ تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ وسَيِّئَاتُهُ ؛ فَإِنَّهُم لا حَسَنَات لَهُمْ) ، يعني : لا وزن لهم ، والكافر لا يُقام له يوم القيامة وزنٌ ؛ وذلك لقول الله ﷻ : ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠٥، ٥٧٥٢، ٦٤٧٢، ٦٥٤١) ، ومسلم (٢٢٠/٣٧٤) ، والترمذي (٢٤٤٦) من حديث ابن عباس .

(٢) تقدم تخريجه .

وَزۡنٗا﴾ [الكهف : ١٠٥] ، ولقوله ﷻ : ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان : ٢٣] ، فإنهم ليس عندهم حسنات حتى توازن حسناتهم وسيئاتهم ، والمقصود من المحاسبة هنا أن تعد عليهم أعمالهم : ما عملوه في الدنيا من خير وشر ، فتحصى ، فيوقفون عليها ويقرون بها ، ويجزون بها .

أما ما عملوا من خير فإن أعمال الكفار في الدنيا منها ما يُشترط فيه الإسلام والنية ، ومنها ما لا يشترط فيه ذلك ، فأما ما يُشترط فيه الإسلام فإنها لا تُقبل منهم ولا تنفعهم لا في الدنيا ولا في الآخرة ، وأما ما لا يشترط فيه النية والإسلام كحسن الخلق والتيسير على المعسر والعتق وصلة الرحم ونحو ذلك ، فإن هذه يُجازون عليها في الدنيا ، فيُبين لهم أن هذا ما لكم ، وأن هذا قد جوزيتم عليه ؛ وذلك لإظهار كمال عدل اللَّه ﷻ في خلقه ، فتبقى أعمالهم التي يظنون أنها تنفعهم في الدنيا ، أعمالهم التي يظنون أنها صالحة من عبادات كانوا يتعبدون بها أو صلوات كانوا يصلونها أو دعوات كانوا يدعون بها ، فيجعلها اللَّه ﷻ هباءً منثورا ؛ كما قال سبحانه : ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ ، يعني : الأعمال التي يظنون أنها ستنفعهم في الآخرة ، فما عمله الكافر مما لا يُشترط فيه الإسلام والنية فإنه ينفعه في الدنيا ولا ينفعه في الآخرة ، وأما بقية أعماله التي يظن أنها صالحة فإنها في الآخرة تُجعل هباءً منثورًا .

قال : (وَلَكِنْ تُعَدُّ أَعْمَالُهُمْ ، فَتُحْصَى ، فَيوقَفُونَ عَلَيْهَا ويُقَرَّرُونَ بِهَا) ، فيقال للكافر : هذا ما عملت ، وقد جاءتك الأنبياء والرسل وبلغوك ؛ كما قال ﷻ : ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ﴾ [الأعراف : ٦- ٨] .

(وفِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ الحَوضُ المَوْرُودُ للنَّبِيِّ ﷺ ، ماؤُه أَشَدُّ بيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ ، آنِيَتُهُ عَدَدُ نُجومِ السَّمَاءِ ، طُولُهُ شَهْرٌ وَعَرْضُهُ شَهْرٌ ، مَن يَشْرَبُ مِنْهُ شَرْبَةً لا يَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا) .

العرصات هي أرض واسعة عظيمة لا بناء فيها ، وهكذا الأرض يوم القيامة فإنه لا بناء فيها لأحد ، وعرصة القيامة وعرصات القيامة هي الأماكن التي يجتمع فيها الناس وينتظرون فيها حسابهم ، وهناك عرصات الجنة ، وهي ما بعد جواز الصراط وقبل دخول الجنة ، وهي ساحات كبيرة يجتمع فيها الخلق لدخولهم لدار المقام .

قال : (وفِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ الحَوضُ المَوْرُودُ للنَّبِيِّ ﷺ) ، يعني : أن حوض النبي ﷺ الذي جاءت به الأحاديث والذي دل عليه قوله ﷻ : ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [الكوثر : ١] هو في عرصات القيامة ، فهو ليس بعد العبور على الصراط وإنما هو في عرصات القيامة في الأماكن التي يقوم فيها الناس لرب العالمين ، وهذا من شيخ الإسلام رحمه الله إثبات أن الحوض قبل الصراط ، والعلماء تنازعوا في الحوض هل هو قبل الصراط أم بعد الصراط ؟ على أقوال :

منهم من يقول : هو قبل الصراط .

ومنهم من يقول : هو بعد الصراط .

ومنهم من يقول : هو قبل الصراط وبعده ؛ حوض واحد ممتد من عرصات القيامة إلى العرصات التي قبل الجنة .

ومنهم من يقول : هما حوضان : قبل الصراط حوض ، وبعد الصراط حوض .

والله ﷻ أعلم بكيفية الصراط على هذه الحال ، وجهنم واسعة ، والصراط يكون منصوبًا على متنها ، وما ذُكر من أن الحوض قبل الصراط هذا ظاهر وصحيح ؛ وذلك أن الناس بعد أن يخرجوا من قبورهم يوم القيامة يجتمعون في ذلك المقام العظيم بين يدي الله رب العالمين لانتظار نزول الرب ﷻ والحساب ، فيُكْرِم الله ﷻ نبينا محمدًا ﷺ بأن يعطيه ذلك الحوض الذي يشخب فيه ميزابان من الجنة ، فيعطيه ذلك في عرصات القيامة .

قال العلماء : كون الناس يخرجون من قبورهم ويظلون في ذلك الموقف وقتًا وزمانًا طويلًا وعظيمًا يناسب بأن يكون قبل الصراط ؛ لأنه « مَن يَشْرَبُ مِنْهُ شَرْبَةً لا يَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا » تناسب أن يكون تخفيفًا على المؤمنين الذين يردون على النبي ﷺ الصراط ؛ لأن المقام في يوم القيامة طويل جدًّا ، والناس في حاجة إلى أنواع من الأمن فيه ، ومن الأمن أن يُسقوا شربة لا يظمئون بعدها أبدًا .

وهذا صحيح فإن ذلك الحوض قبل الصراط ، وهذا لا يمنع أن يكون ثم حوض آخر بعد الصراط ؛ وذلك لأنه قد جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال : « لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ ويعرفونني ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ »[(١)] ، وفي لفظ : « لَيُرْفَعَنَّ رِجَالٌ مِنْكُمْ ثُمَّ لَيُخْتَلَجُنَّ دُونِي فأَقُولُ : يا رَبِّ أَصْحَابِي ؟ فَيُقَالُ : إِنَّكَ لا تَدْرِي ما أَحْدَثُوا بَعْدَكَ »[(٢)] ، وفي رواية أخرى قال : « فَأَقُولُ : أصحابِي ؟ فيقول : إِنَّهُمْ لم يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ على أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ »[(٣)] ، يعني : من ارتد بعد النبي ﷺ ، وقوله : « لَيُخْتَلَجُنَّ » يعني : يؤخذون إلى النار .

قالوا : فهذا دليل على أنه يكون قبل العبور على الصراط ؛ لأنهم يؤخذون فيدفعون إلى النار ، وكلام شيخ الإسلام هنا ظاهر في أن الحوض الذي أوتي النبي ﷺ يكون قبل الصراط ، وهذا واضح ، وقد وُصف الحوض في الأحاديث بصفات تأتي إن شاء الله .

والحوض ليس خاصًّا بالنبي ﷺ ؛ بل « لكل نبي من الأنبياء حوض » . فإنه تكرمة لكل نبي وأمنٌ لأتباع الأنبياء والمرسلين ، وقد جاء في ذلك حديث رواه الترمذي[(٤)] ، واعتمده العلماء من أنه لكل نبي

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٨٣، ٧٠٥٠، ٧٥٥١) ، ومسلم (٢٢٩٠/٢٦) من حديث سهل بن سعد .

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٧٦، ٧٠٤٩) ، ومسلم (٢٢٩٧/٣٢) من حديث عبد الله بن مسعود .

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٤٩، ٣٤٤٧، ٤٦٢٥، ٤٧٤٠) ، ومسلم (٢٨٦٠/٥٨) ، والترمذي (٢٤٢٣، ٣١٦٧) ، والنسائي (٢٠٨٦) من حديث ابن عباس .

(٤) أخرجه الترمذي (٢٤٤٣) من حديث سمرة . وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٩٨٨) .

حوض ، وأول تلك الأحواض يظهر ويرد عليه الناس هو حوض النبي ﷺ ؛ فإن هذه الأمة آخرة ولكنها سابقة ؛ كما ثبت ذلك في « الصحيحين » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « نحنُ الآخِرُونَ السابِقُونَ يوم القِيَامَةِ ، بَيْدَ أنَّهُمْ أُوتُوا الكِتَابَ من قَبْلِنَا »[1] . يعني : غير أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، فهذه الأمة آخرة ولكنها سابقة يوم القيامة .

هذا الحديث يدل على أن هذا الأمة تسبق الأمم جميعًا في كل شيء في ذلك اليوم العظيم ، فتسبق في الحشر في أرض المحشر ، وتسبق في الشربة من حوض النبي ﷺ ، وهذا الحوض يظهر وتشرب منه هذه الأمة قبل أحواض الأنبياء ، وتسبق في المحاسبة ، وتسبق في الوزن ، وتسبق في أخذ الصحف إلى آخر ذلك ؛ لأن اللفظ عام : « نحنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يوم القِيَامَةِ » ولم يخص ذلك بنوع من أنواع السبق . كذلك يسبقون إلى دخول الجنة قبل غيرهم من الأمم ، فمحمد ﷺ هو أول من يدخل الجنة ، ثم الأنبياء والمرسلون ، ثم هذه الأمة تكرمة من الله ﷻ لها ، فهم السابقون يوم القيامة ، وهذا الحوض هو أول الأحواض ظهورًا ، وأول من يرد على تلك الأحواض هم أمة محمد ﷺ ، ويكون لهم استراحة وطمأنينة في ذلك .

وهنا سؤال معروف وهو : تتكرر أشياء في يوم القيامة ينتج عنها أمن وأمان للمؤمن ، فهل يستمر خوف المؤمن في كل ما يحصل في ذلك اليوم ؟ يعني : من حوسب فوجد الحساب يسيرًا فإنه مؤمن ، ومن أخذ الكتاب باليمين فإنه مؤمن ، ومن شرب من الحوض فإنه لا يشرب منه أصلًا إلا مؤمن ، فما معنى هذا التكرير أنه يحصل له ذلك ، هل يظل خائفًا أم أنها زيادة طمأنينة ؟

الظاهر أنه ما يحصل في ذلك اليوم - والله أعلم - ليس مستتبعًا فيه العلم الذي في الدنيا ، يعني : أن ما علمه المسلم في هذه الدنيا مما يحصل يوم القيامة فإنه في الظاهر - والله أعلم - لا يصحب المسلم المؤمن في ذلك اليوم ، فإذا شرب فإنه لا يأمن ، وإذا أُعطي كتابه باليمين فإنه لا يأمن ، وإذا حوسب فإنه لا يأمن ، يعني : لا يأمن أن يكون ممن حقت عليهم بعض كلمة الله ﷻ ، أو أن يكون ممن يعذبون شيئًا في عرصات القيامة ، أو ممن حقت عليهم الكلمة فيعذبون شيئًا في النار ، وهذه مسألة تحتاج إلى بحث ، وعلى العموم هي زيادة طمأنينة للمؤمن ؛ فإنه يطمئن بالشرب من الحوض أنه من أتباع محمد ﷺ ، ويطمئن بالورود تحت لواء النبي ﷺ ، ويطمئن بأن يكون حسابه حسابًا يسيرًا .

ولهذا قال العلماء في قوله : ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق : ٨، ٩] ، ﴿أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ يعني : من في الجنة من الحور والأهل ينقلب إليهم مسرورًا ، ليس إلى أهله الذين كان يعهدهم في الدنيا ، وإنما أهله الذين جعلهم الله ﷻ أهلًا له في الجنة . فهذه أنواع من الطمأنينة يحصل بها للمؤمن الأمن والأمان وعدم الحزن في ذلك الموقف العظيم .

---

(١) أخرجه البخاري (٨٧٦، ٨٩٦، ٦٤٨٦) ، ومسلم (٢١/٨٥٥) ، والنسائي (١٣٦٦) من حديث أبي هريرة .

قال ﷺ في وصف الحوض : (ماؤُهُ أَشَدُّ بياضًا مِنَ اللَّبَنِ ، وأحْلَى مِنَ العَسَلِ) ؛ كما جاء في بعض الأحاديث في « الصحيحين »[(١)]، وجاء في بعضها « ماؤُهُ أبيضُ من الوَرِقِ - يعني الفضة - وَرِيحُهُ أَطْيَبُ من المِسْكِ »[(٢)]، وأنه « أحْلَى مِنَ العَسَلِ » فله هذه الصفات ، يعني : أن ماءه أشد بياضًا من اللبن ، ورائحته أطيب من المسك ، يعني : المسك الخالص الطيب الزكي الذي كان معروفًا في زمنه ﷺ ، وهو أطيب المشمومات ، وطعمه أحلى من العسل الخالص .

وهذا الماء مدده من الجنة ، قال ﷻ : ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر : ١] والكوثر نهر أعطاه الله ﷻ محمدًا ﷺ في الجنة ، قال ﷺ في وصف كوثره : « هو حَوْضِي تَرِدُ عليه أُمَّتِي يوم القِيامَةِ »[(٣)]، فالكوثر نهر ، وهو حوضه ، وجاء في حديث آخر أنه : « يَشْخَبُ فيه مِيزَابَانِ من الجَنَّةِ »[(٤)]، وسمي حوضًا له لأن الحوض ماؤه من ذلك النهر ؛ فإن ماء النهر يصب في هذا الحوض ، فكلما شرب منه أناس ونقص امتلأ بما يمد به من الكوثر الذي هو نهر أعطيه النبي ﷺ في الجنة .

قال : (آنِيَتُهُ عَدَدُ نُجومِ السَّمَاءِ) ، وفي لفظ آخر قال ﷺ : « آنِيَتُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ »[(٥)]. فهذان اللفظان مختلفان ؛ في الأول « آنِيَتُهُ عَدَدُ نُجومِ السَّمَاءِ » . وهذا من جهة العدد أنها ككثرة نجوم السماء ، وفي الثاني قال : « آنِيَتُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ » . والكاف هذه مثلية تشمل العدد والوصف ، يعني : من جهة الإضاءة واللمعان . فإذن الآنية المعلقة على جوانب ذلك الحوض موصوفة بأنها كثيرة جدًّا كثرة نجوم السماء ، وموصوفة أيضًا بأنها ذات لمعان وضياء كلمعان وضياء النجوم التي في السماء .

قال ﷺ في وصفه أيضًا : « طُولُهُ شَهْرٌ وَعَرْضُهُ شَهْرٌ » . وجاء في رواية أخرى في الصحيح : « زَوَايَاهُ سَوَاءٌ »[(٦)]. قال بعض أهل العلم : « طُولُهُ شَهْرٌ وَعَرْضُهُ شَهْرٌ » : يحتمل أن يكون مدورًا . لكن في الحديث الآخر : « زَوَايَاهُ سَوَاءٌ » يعني أنه مربع والله أعلم .

قال : (مَن يَشْرَبْ مِنْهُ شَرْبَةً لا يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا) ، (مَن) هنا شرطية ، يعني : أنها اسم موصول مضمن الشرط (مَن يَشْرَبْ مِنْهُ شَرْبَةً) ، فما جزاء ذلك ؟ قال : (لا يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا) ، أو تكون (مَنْ) موصولة بدون شرط ، يعني : بمعنى : الذي يشرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدًا .

والميزان والحوض مما أنكره المعتزلة وأقر به عامة المخالفين لأهل السنة من الأشاعرة وغيرهم ،

---

(١) أخرجه مسلم (٣٦/٢٤٧) من حديث أبي هريرة . وفي (٣٦/٢٣٠٠) ، والترمذي (٢٤٤٥) من حديث أبي ذر .

(٢) أخرجه مسلم (٢٧/٢٢٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٣) أخرجه مسلم (٥٣/٤٠٠) ، والترمذي (٤٧٤٧) من حديث أنس بن مالك .

(٤) أخرجه مسلم (٣٦/٢٣٠٠) من حديث أبي ذر .

(٥) أخرجه البخاري (٦٥٧٩) ، ومسلم (٢٧/٢٢٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو .

(٦) أخرجه مسلم (٢٧/٢٢٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو .

والمعتزلة يجعلون الميزان بمعنى العدل ، وأنه ليس ثم ميزان له كفتان - أي : ميزان حسي - وإنما هو ميزان معنوي ، وهو إقامة العدل ونفي الظلم في ذلك الموقف العظيم . كذلك الحوض ينكرونه أيضًا ويقولون : لا حوض ، وإنما الحوض المقصود منه ما يحصل في قلوب المؤمنين من البرد والطمأنينة بنعمة اللَّه وإنعامه عليهم في ذلك المقام .

هذا وقد تواترت الأدلة من الكتاب والسنة على إثباته - يعني : من جهة النقل - ودلت دلالة قطعية على أنه كما وُصف ؛ لأنه وُصف بصفات عديدة لا مجال فيها إلى أن يُؤوَّل ، ثم إن أمور الغيب لا تُقاس على أمور الشهادة ، واللَّه ﷻ يخلق خلقه وينشئ ما يشاء ويدع ما يشاء ، لا معقب لحكمه ، يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد .

قوله : (وَالصِّرَاطُ مَنصُوبٌ على مَتْنِ جَهَنَّمَ ، وهُوَ الْجِسْرُ الَّذِي بَيْنَ الجَنَّةِ والنَّارِ ، يَمُرُّ النَّاسُ عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ أَعْمالِهِمْ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَلَمْحِ البَصَرِ ، ومِنْهُم مَن يَمُرُّ كالبَرْقِ ، ومِنْهُم مَن يَمُرُّ كالرِّيحِ ، ومِنْهُم مَن يَمُرُّ كالْفَرَسِ الجَوَادِ ، ومِنْهُم مَن يَمُرُّ كَرِكَابِ الإِبِلِ ، ومِنْهُم مَن يَعْدُو عَدْوًا ، ومِنْهُم مَن يَمْشِي مَشْيًا ، ومِنْهُم مَن يَزْحَفُ زَحْفًا ، ومِنْهُم مَن يُخْطَفُ خَطْفًا ويُلْقَى فِي جَهَنَّمَ ؛ فَإِنَّ الْجِسْرَ عَلَيْهِ كلاليبُ تَخْطِفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِم) .

ذكر الشيخ ؒ هنا الصراط وصفته وأحوال الناس فيه ، وقبل الدخول في ذلك نعيد ترتيب ما يحصل مما سبق :

فنقول : إذا نشر الناس من قبورهم ووافوا الموقف يظلون هكذا زمانًا طويلًا يقومون بين يدي اللَّه ﷻ رب العالمين ، وذلك قبل أن ينزل اللَّه ﷻ لفصل القضاء ، وفي هذه الحال تدنو الشمس منهم ، ويتفاوت عرقهم بحسب أعمالهم ، ثم تنزل الملائكة وتجيء صفًّا صفًّا وتحيط بالخلائق ، ثم ينزل اللَّه ﷻ كما يليق بجلاله وعظمته ، فيقوم الناس لرب العالمين خاشعين ذليلين ، فيطول عليهم الموقف جدًّا ، ثم يذهبون إلى النبي ﷺ طلبًا للشفاعة بعد أن يطلبوها من آدم ثم نوح ... إلى آخره ؛ كما سيأتي بيانه . فيشفع النبي ﷺ في أن يعجل فصل القضاء ، فيبدأ الحساب ، وقبل الحساب يكون ثلاث عرضات ، عرضتان فيهما جدال ومعاذير ، ثم العرضة الثالثة تتطاير حينها الصحف والدواوين والكتب ، فآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشماله من وراء ظهره ، وهذا من الحساب ؛ لأن النبي ﷺ : « من حوسب عُذِّب » . فقالت له عائشة : أو ليس اللَّه يقول : ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق : ٨] ، قال : « ذَلِكِ الْعَرْضُ ، وَلَكِنْ من نُوقِشَ الْحِسَابَ يَهْلِكْ »[١] ، يعني : أن اسمه حساب وهو عرض ، فيأتي المؤمن في العرضة الثالثة التي تتطاير فيها الصحف فيحاسب حسابًا يسيرًا ، أي : يطلع على عمله فقط ويستر عليه ، وأما الكافر والمنافق فإنه يأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره ويحاسب على ذلك ، ثم يكون الوزن بعد

---

(١) تقدم تخريجه .

الحساب . وهذا هو الذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى - أن الناس بعد الوزن يكون كلٌّ منهم قد عرف ما له وما عليه ، وعرف مصيره ، فينادي منادٍ أن تتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فهنا يُحشر الناس أزواجًا ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الصافات : ٢٢-٢٣] ، ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ يعني نظراءهم وأشباههم وقرناءهم في الكفر ، فتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، قال ﷺ عن فرعون : ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود : ٩٨] ، فيأتي كل معبود وكل طاغوت فيتبعه من كان يعبده ، فيتهافتون في النار قبل نصب الصراط ؛ لأن الصراط هو لعبور المؤمنين من على النار إلى الجنة ، فيتهافتون في النار تهافتًا ؛ لأن قبل الصراط وقبل النار ظلمة لا يعرف الكفار فيها أين المسير ، بل يتبعون معبودهم حتى يتهافتوا في النار ، وأما من كان يتبع معبودًا صالحًا كمن كان يعبد عيسى والعزير ، فقد قال بعض أهل العلم : يُمثل لهم ملك في صورة المسيح أو في صورة العزير . وكذلك من عبد محمدًا ﷺ يمثل له ملك في صورته - كما جاء في حديث الصور[1]- فيُمثل لهم ملك في صورة عيسى وفي صورة العزير فيتبعونه ، فيهوي بهم فيقودهم إلى جهنم .

وقال آخرون : يمثل لهم شيطان على هيئة عيسى - لأن حديث الصور فيه ضعف - أو الشيطان الذي أمرهم بعبادة عيسى ؛ فإنه يتمثل لهم في تلك الصورة ، أو الشيطان الذي أمرهم بعبادة عزير ، أو ... إلى آخره ؛ يمثل لهم بتلك الصورة فيتبعونه حتى يتهافتوا في النار والعياذ بالله .

ثم تنتهي الأمم يتهافتون فيدخل أهل النار النار حتى لا يبقى إلا المسلمون من هذه الأمة والأمم التي قبلها ، وفيهم المنافقون ، ثم ينصب الصراط على متن جهنم ، وأول من يجوز الصراط أمة محمد ﷺ ، فيتقدم ﷺ ، وقبل الصراط ثَم ظلمة ، فقد سأل يهودي النبي ﷺ فقال : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ؟ قال ﷺ : « هُمْ في الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ »[2] ، يعني : دون الصراط ثَم ظلمة عظيمة يقدم عليها المسلمون والمنافقون ، فالجميع كانوا في نور ثم أتوا إلى الصراط فوجدوا هذه الظلمة فيبصر المؤمن بنوره ، وأما المنافق فينطمس نوره ، فيقول المنافقون للمؤمنين : ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ ، فيقال لهم : ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ ، قال تعالى : ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد : ١٣] ، يعني : بعد العبور على الصراط .

فيؤتى كل واحد نورًا على قدر عمله ، ثم يؤتى بالصراط منصوبًا على متن جهنم ، ثم يأتي النبي ﷺ فيعبر ثم تعبر هذه الأمة قبل الأمم ، وسيأتي بيان صفة العبور على الصراط ، هذا العبور هو ما جاء في القرآن بأنه ورود المؤمن على النار قال : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم : ٧١، ٧٢] ، الورود ورودان :

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) أخرجه مسلم (٣٤/٣١٥) من حديث ثوبان .

* ورود دخول .

* وورود مرور .

فورود المؤمن على النار هو ورود مرور ؛ وذلك إذا كان ممن سيعبر الصراط ، أما إذا كان من أهل الوعيد الذين سيدخلون النار ويطهرون فإنهم سيدخلونها ، ثم تعبر الأمم بعد أمة محمد ﷺ ، وهذا تفصيل ما يحصل من البعث إلى نصب الصراط .

قال رحمه الله : (وَالصِّرَاطُ مَنْصُوبٌ على مَتْنِ جَهَنَّمَ ، وهُوَ الْجِسْرُ الَّذِي بَيْنَ الجَنَّةِ والنَّارِ) ، (على مَتْنِ جَهَنَّمَ) يعني : على ظهرها ؛ لأنه « يُؤتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لها سَبْعُونَ أَلْفَ زِمامٍ ، مع كل زِمامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا »[(١)] ، ثم يُنصب على ظهرها الصراط على النحو الذي سبق بيانه .

وقوله : « الْجِسْرُ الَّذِي بَيْنَ الجَنَّةِ والنَّارِ » . ليس معناه أنه الوصلة بين الجنة والنار ، لكن يعني من عبره فإنه من أهل الجنة ، فلا طريق إلى الجنة إلا بعبور هذا الصراط ، والأنبياء حين يعبرون عليه كل يقول : « اللهم سلم سلم »[(٢)] .

هذا الصراط وصف بأنه « دَحْضٌ مَزِلَّةٌ فيه خَطَاطِيفُ وكَلَالِيبُ » ، وبأنه « أَدَقُّ من الشَّعَرَةِ ، وَأَحَدُّ من السَّيْفِ » . كما في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري[(٣)] ، فله صفات وردت في النصوص . قال بعض أهل العلم : الصراط واسع ؛ لأن لفظ الصراط يدل على سعته ، وما ورد مِنْ كونه دقيقًا وحادًّا هذا نوع لم يثبت به الدليل الصحيح ، والأنسب أن يكون عريضًا واسعًا حتى يعبر الناس عليه . لكن المشهور عند أهل العلم والذي جاءت به الأحاديث أنه دحض مزلة ، وأدق من الشعر ، وأحد من السيف ، وفيه خطاطيف وكلاليب ، فهذا الذي يجب أن يؤخذ به ، وأما من قال : إنه واسع . فإن هذا ليس بظاهر ؛ إذ اعتمادهم على معنى كلمة (صراط) في اللغة ، وهذا لا يقضي به ما جاء في الحديث والأثر .

قال : (يَمُرُّ النَّاسُ عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ) ، يعني : أن كل واحد من أتباع الأنبياء الذين يعبرون على الصراط يُعطى سرعة أقصاها على قدر عمله ، فلا يستطيع أن يتعدى تلك السرعة ، ولاشك أنهم يرون النار تحتهم وهذا الصراط منصوب فكلٌّ سيأتي بأعظم ما عنده من السرعة ؛ فلهذا قال : (فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَلَمْحِ البَصَرِ) يعني : في أقل من لحظة على عظم جهنم وعلى سعتها وعلى طول ذلك الصراط ، كما قال ﷻ : ﴿ كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ [النحل : ٧٧] . فلَمح البصر متناهٍ في الزمان .

قال : (فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْبَرْقِ) والبرق زمنه أطول من لمح البصر ، وهذا أقصى ما عندهم من السرعة ، (فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرِّيحِ) والريح سريعة ، (ومِنْهُم مَن يَمُرُّ كالْفَرَسِ الجَوَادِ ، ومِنْهُم مَن يَمُرُّ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٢/٢٩) ، والترمذي (٢٥٧٣) من حديث ابن مسعود .

(٢) أخرجه البخاري (٨٠٦، ٦٥٧٣، ٧٤٣٧) ، ومسلم (١٨٢/٢٩٩) من حديث أبي هريرة .

(٣) أخرجه مسلم (١٨٣/٣٠٢) .

كَرِكَابِ الإِبِلِ ، ومِنْهُم مَن يَعْدُو عَدْوًا ، ومِنْهُم مَن يَمْشِي مَشْيًا) على اختلاف أعمالهم وسرعتهم .

قال : (ومِنْهُم مَن يَزْحَفُ زَحْفًا ، ومِنْهُم مَن يُخْطَفُ خَطْفًا ويُلْقَى فِي جَهَنَّم ؛ فَإِنَّ الْجِسْرَ عَلَيْهِ كلاليبُ تَخْطِفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِم) يعني : أن من الناس من يمر لكنه لا يجتاز الصراط ؛ فإنه على جنبتي الصراط كلاليب ، والكلاليب هي الخطاطيف المعروفة المائلة التي ترتفع وتجذب الناس ، ترتفع وتجعلهم في جهنم ؛ لأن معها ملائكة يفعلون ذلك ، وهؤلاء هم عصاة الموحدين يكونون في الطبقة العليا من النار فتخطفهم تلك الكلاليب وتجعلهم في النار .

(فَمَنْ مَرَّ عَلَى الصِّراطِ دَخَلَ الجَنَّةَ ، فَإِذا عَبَرُوا عليْهِ وَقَفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ والنَّارِ ، فيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِم من بَعْضٍ ، فَإِذا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُم فِي دُخُولِ الجَنَّةِ) .

قال : (فَمَنْ مَرَّ عَلَى الصِّراطِ دَخَلَ الجَنَّةَ) ، يعني : من عبر الصراط واجتازه ضمن دخول الجنة ؛ لأنه تعدى النار - نسأل الله ﷻ ذلك بِمَنِّه وكرمه - (فَإِذا عَبَرُوا عليْهِ وَقَفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ والنَّارِ) ، يعني : بعد العبور عليه يكون الاجتماع في عرصات أُخر ، وتلك عرصات أيضًا واسعة قبل أن يأتوا إلى باب الجنة ، قال العلماء : يدل على هذا التراخي قوله ﷻ : ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ ، لما قال : ﴿وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ دل على أن ثمة زمنًا قبل فتح الأبواب ، وهذا الذي استفيد من الآية ظاهر ؛ فإنه بعد العبور على الصراط يكون ثَم مدة من الزمن يجتمع فيها المؤمنون ، ثم تكون هناك شفاعات أيضًا ، فيشفع النبي ﷺ شفاعات قبل دخول الجنة ، ومنها شفاعاته لأهل الجنة أن يدخلوها ، وأنواع من الشفاعة يأتي بيانها إن شاء الله تعالى .

قال شيخ الإسلام هنا : (فَإِذا عَبَرُوا عليْهِ وَقَفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ والنَّارِ) القنطرة والصراط متقاربة ؛ لأن الصراط هو الطريق الواسع في اللغة ، والقنطرة كذلك ، لكن صفتها أنها مرتفعة ، أي : مرتفع من المكان واصل أيضًا بين تلك العرصات ودخول الجنة ، فيحبسون على تلك القنطرة مدة ، ويُقضى لبعضهم من بعض ، يعني : مَنْ كان بينه وبين أخيه خصومة فإنه يُقضى بينه وبينه في ذلك ، حتى يدخل المؤمنون الجنة وليس في قلب أحد على أحد شيء ، فيُقتص لبعضهم من بعض .

ويسبق الفقراء ويتأخر الأغنياء ، قال ﷺ : « يَدْخُلُ فُقَراءُ المُسلِمِينَ الجَنَّةَ قبل أغنيائِهِم بِنِصْفِ يَوْمٍ وهو خَمْسُمائَةِ عَامٍ »[1] . وفيهم من هو من سادات الصحابة ، ومن المبشرين عبد الرحمن بن عوف وغيره ، ويتأخر الأغنياء ؛ لأن المال فيه حقوق كثيرة متنوعة ، فيتأخرون ليُعطى كل ذي حق حقه ، ويسبق الفقراء مع النبي ﷺ ، فيأتي ﷺ إلى الجنة فيستفتح ، وهو أول من يستفتح ، « فيقول الخَازِنُ :

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٥٣) ، وابن ماجه (٤١٢٢) من حديث أبي هريرة . وقال الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٣٢٦) : حسن صحيح .

من أنت ؟ فَأَقُولُ : مُحَمَّدٌ . فيقول : بِكَ أُمِرْتُ لا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ »[1] ، فيدخل ﷺ الجنة ويدخل الأنبياء والمرسلون .

والجنة لها ثمانية أبواب ، وكل باب له اسم ، فثَم باب الصلاة ، وثَم باب الزكاة أو الصدقة ، وثَم باب الريان ، وباب الجهاد ... إلى آخره ، فيدخل من كان مختصًّا بنوع من أنواع العبادات - بنفل أو بصفة مزيدة في العبادات في الفرض - في أدائها أو صفتها يختص بأحد هذه الأبواب ، فمن كان مختصًّا بصفة دخل من باب من تلك الأبواب ، ومنهم من يُدعى من أكثر من باب إذا كان اختصاصه لأكثر من صفة .

قال شيخ الإسلام في الذين يُحبسون على تلك القنطرة : (فَإِذا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الجَنَّةِ) ، يعني : من كان عليه تهذيب وتنقية فإنه لا يدخل الجنة إلا بعد أن يُهذب ويُنقى ، ومعنى ذلك أنه ما من أحد إلا وسوف يحبس على تلك القنطرة ، ولكن الناس يختلفون في التهذيب والتنقية وبعضهم أشد من بعض ، فلا يدخل الجنة إلا من سلم قلبه وأُخذ الحق منه ، وبعد اقتصاص بعضهم من بعض ، قال ﷻ : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر : ٤٧] ، والآيات في ذلك معلومة .

قوله : (وَأَوَّلُ مَن يَسْتَفْتِحُ بَابَ الجَنَّةِ مُحَمَّدٌ ﷺ ، وَأَوَّلُ مَن يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنَ الأُمَمِ أُمَّتُهُ) .

الظاهر من هذا الترتيب أن النبي ﷺ يستفتح وأن أول الأمم دخولًا هذه الأمة ، وهذا على النحو الذي سبق بيانه ، أنه ﷺ يدخل أولًا ، ثم الأنبياء والمرسلون ، ثم تسبق هذه الأمة غيرها من الأمم . وهذه الأمة هي خير الأمم ؛ كما قال ﷻ : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، والوقف هنا على ﴿أُخْرِجَتْ﴾ وقف من أجل الاستدلال ؛ لأن قوله : ﴿لِلنَّاسِ﴾ ليس متعلقًا بـ ﴿أُخْرِجَتْ﴾ ، يعني : تركيب الكلام : كنتم للناس خير أمة أُخرجت ، والبعض قد يفهم أن تلك الأمة أخرجت للناس لا كنتم للناس خير أمة أخرجت ، فخير أمة أخرجها الله ﷻ هي هذه الأمة ، وهي خير الأمم للناس ؛ لأنها وسط ، ولأنها شاهدة عليهم ، ولأنها أمة التوحيد ، ولكثرة عددها واستجابتها للنبي ﷺ وقيامها بأمره ونهيه أعظم من قيام غيرها من الأمم بأمر أنبيائها ورسلها .

قوله : (وَلَه ﷺ في القِيَامَةِ ثَلاثُ شَفَاعَاتٍ :

أَمَّا الشَّفَاعَةُ الأولى : فيَشفَعُ في أَهْلِ الموقِفِ حتى يُقضى بينهُمْ بعد أنْ يتراجَعَ الأنبياءُ ؛ آدمُ ، ونوحٌ ، وإبراهيمُ ، وموسى ، وعيسى ابْنُ مريمَ ، عنِ الشفاعةِ حتى تَنْتَهِيَ إليهِ) .

ذكر شيخ الإسلام ؒ هنا مبحث الشفاعة فيما يتصل بما يحصل في اليوم الآخر ؛ وكأنه عنده من جملة ما هو داخل في الإيمان باليوم الآخر ؛ لأنه يحصل فيه ، وهذا ظاهر ؛ لأن الشفاعة تكون في ذلك

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٧/٣٣٣) من حديث أنس بن مالك .

اليوم ، وإذا كان كذلك فهي داخلة في قوله - فيما سبق - : (ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمانُ بكل ما أخبر به النبي ﷺ ...) .

قال رحمه الله : (وَلَه ﷺ في القِيَامَةِ ثَلاثُ شَفَاعَاتٍ) أصل كلمة الشفاعة مأخوذ من : شفع يشفع إذا طلب ؛ لأن الطالب واحد ، فإذا أتى معه آخر صار شفعًا له بعد أن كان فردًا ، فسمي شفيعًا ، فهو « فعيل » بمعنى « فاعل » أي : شافع ، وشفع غيره يعني صار الطلب من اثنين بعد أن كان من واحد ، هذا أصل تسمية الشفاعة من جهة اللغة .

ومن جهة الشرع فيها أصل المعنى اللغوي وزيادة ، فالشفاعة هي ما يُطلب من الله ﷻ بشروطه الشرعية ، يعني : أن من الشفاعات ما يكون شفاعة لكن يكون مردودًا لعدم توفر الشروط فيه ؛ ولهذا قال ﷻ : ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء : ٢٨] ، ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ : ٢٣] ، فليست كل شفاعة نافعة شرعًا ومسماة شفاعة في الشرع حتى يأتي صاحبها بشروطها ، وإن كانت شفاعة في اللغة .

وشفاعة النبي ﷺ في يوم القيامة منها شفاعة متفق عليها بين جميع الفرق ، ومنها شفاعات مختلف فيها ، ويقر أهل السنة منها ما دلت عليه الأدلة ، وينفيها طائفة من الفرق المنتسبة إلى القبلة .

وقوله : (وَلَه ﷺ في القِيَامَةِ ثَلاثُ شَفَاعَاتٍ) يعني : للمؤمنين ، وهي التي تكون يوم القيامة ، فذكر هذه الشفاعات وهي غير مختصة بهذه الثلاث ؛ بل هناك شفاعات أخر لم يذكرهارحمه الله تعالى ، مثل : شفاعته في عمه ، ومثل : بعض الشفاعات الأخر ؛ كما سيأتي بيانها إن شاء الله تعالى .

والشفاعة جاءت في الكتاب والسنة منفية وجاءت مثبتة ، فهناك فرق بين الشفاعة المثبتة والشفاعة المنفية ، يعني : الشفاعة النافعة والشفاعة المنفية غير النافعة ، وهناك فرق أيضًا بين الشفاعة في الدنيا والشفاعة في الآخرة ، فالله ﷻ أثبت أن الشفاعة عنده لا تنفع إلا بشروط ، قال تعالى : ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء : ٢٨] ، وقال : ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام : ٧٠] ، وقال ﷻ : ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [النجم : ٢٦] يعني : أن أصل الشفاعة عند الله ﷻ ثابتة ، وهذه الشفاعة في مقام الافتقار وليست في مقام الوجاهة ، وبيان ذلك أن العبد إذا شفع عند الله ﷻ فإنه يشفع وهو عبدٌ ذليلٌ مفتقر إلى الله ﷻ ، ليس كحال الشفاعة عند أهل الدنيا ؛ وذلك أن الشفاعة عند الناس تكون لمن له جاه وعز عند المشفوع عنده حتى يجيب ، والمشفوع عنده كملك أو أمير أو مسئول أو عالم أو شيخ أو تاجر ... إلى آخره يجيب شفاعة هذا الشفيع شيئًا لما يرجوه عنده من إجابة شفاعته ؛ ولهذا يكون الشفيع متفضلًا على الشافع ، وأما الشفاعة عند الله ﷻ فهي ليست من هذا القبيل ، إنما هو ﷻ الذي يُكرم من شاء من عباده أن يكون شفيعًا ، ثم يُكرم من شاء من عباده أن يؤذن له في الشفاعة ، وأن يلهمه القول الحسن فيها حتى يجاب ،

فالفضل فيها لله ﷻ ابتداءً وانتهاءً ، وهذا بخلاف الشفاعة عند أهل الدنيا .

ولهذا ظن المشركون أن الشفاعة عند الله ﷻ من جنس شفاعة الناس بعضهم لبعض ، فاتخذوا الآلهة والأصنام شفعاء ؛ لأنهم يظنون أنهم يشفعون عند الله ﷻ ولو لم يأذن الله ﷻ بذلك أو لم يرض ، فلهم المقام عند الله الذي يجعله ﷻ يجيب سؤالهم ويجيب شفاعتهم .

وهذا الباب يطول البحث فيه ، لكن يُفرق فيه بين الشفاعة المثبتة والشفاعة المنفية التي هي الشفاعة النافعة والشفاعة غير النافعة ، والشفاعة في الدنيا والشفاعة في الآخرة ، والشفاعة عند المشركين في فهمهم والشفاعة في الشرع ، وبهذا يتقرر هذا الباب بما ينفع في باب الاعتقاد العام ، وفي توحيد العبادة .

وشفاعة النبي ﷺ في الدنيا على رجاء الإجابة قد يجاب وقد لا يجاب ، وهكذا شفاعة الأنبياء والمرسلين قد يجابون وقد لا يجابون ، ولكنهم على رجاء الإجابة ؛ لأن حقيقة الشفاعة هي الدعاء ، شفع يعني : دعا وطلب ، فالشفاعة دعاء وطلب ، فنوح طلب من الله ﷻ أن يكون ابنه معه من الناجين فلم يُجب ، وإبراهيم دعا لأبيه فلم يُجب ، والنبي ﷺ دعا أيضًا لعمه ولم يُجب حتى نزل فيه قول الله ﷻ : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران : ١٢٨] ، ونُهي عن ذلك في قوله : ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ [التوبة : ١١٣] ، ولما دعا على أناس قال الله ﷻ : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران : ١٢٨] .

المقصود : أن الشفاعة في الدنيا قد تجاب وقد لا تجاب ، حتى من الأنبياء ؛ وذلك أنها يُشترط فيها شروط الشفاعة النافعة .

وشروط الشفاعة النافعة هي :

الشرط الأول : الإذن ، وهو نوعان :

إذن كوني : وهو ألا تحصل شفاعة إلا من بعد أن يأذن الله للشافع كونًا ، فلا يمكن أن يشفع شافع من عند نفسه إلا بعد أن يأذن الله له بالشفاعة في كونه ، فلا يحدث شيء في ملكوت الله إلا من بعد إذنه الكوني ، يعني : ليس لأحد حق الابتداء ، فإن لم يرد الله ﷻ للشافع أن يشفع فإنه لا يُمكنه من أن يشفع أصلًا بأن يصرف قلبه ويصرف نفسه عن هذه الشفاعة فلا تقع أصلًا ؛ لأنه لابد من أن يكون ثمة إذن كوني بحصول الشفاعة من الشافع .

وإذن شرعي : وهو أن تكون الشفاعة على وفق الشروط الشرعية فيمن شفع له الشافع ، وفي الشافع نفسه ، فالمشرك لا تنفع شفاعته ؛ لأنه مشرك ، والمشرك لا ينفع أن يُشفع له ؛ كما قال : ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام : ٧٠] ، فإذن هو لا ينفع أن يشفع ولا أن يُشفع فيه ، إلا أبا طالب في حالة خاصة ، وهذا ظاهر في حال ابن نوح ، وحال أبي إبراهيم ، وحال عم النبي ﷺ في الدنيا ... إلى آخره .

والشرط الثاني : الرضا ، وقد جاء في قوله تعالى : ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦] ، وقال : ﴿وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه : ١٠٩] ، وقال : ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] ، ونحو ذلك .

والرضا نوعان :

* رضا عن الشافع .
* ورضا عن المشفوع له .

والرضا إنما يكون عن أهل التوحيد ؛ وذلك لما ثبت في « الصحيح » أن أبا هريرة سأل النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ فقال ﷺ : « لقد ظَنَنْتُ يا أَبَا هُرَيْرَةَ أَلا يَسْأَلَنِي عن هذا الحديث أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ لِمَا رأيت من حِرْصِكَ على الحديث ، أَسْعَدُ الناس بِشَفَاعَتِي يوم القِيامةِ من قال : لا إله إلا الله ، خالصًا من قِبَلِ نَفْسِهِ »[1] ، وفي رواية : « خالِصًا من قَلْبِهِ أو نَفْسِهِ »[2] . فهذا شرط الإخلاص وهو لأهل التوحيد .

فالشفاعة لا تنفع إلا أهل التوحيد ، أما أهل الإشراك بالله فلا تنفعهم الشفاعة ؛ لأنها إنما تكون لمن ارتضى ربنا ﷻ ، وهو سبحانه لا يرضى إلا التوحيد ، وقد قال في المشركين : ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة : ٢٧٠] ، وقال أيضًا : ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ [الشعراء : ١٠٠] ، وقال : ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام : ٧٠] الرضا عن الشافع والرضا عن المشفوع له ، وهذا مع الشروط الأولى ، فقد تقع الشفاعة مع عدم وجود بعض هذه الشروط ، فتقع من غير إذن شرعي فلا تنفع ، لكن الإذن الكوني لابد منه حتى تقع الشفاعة ، فليس لأحد أن يُحدث شيئًا في ملكوت الله إلا من بعد إذنه الكوني ، فإن وقعت الشفاعة من غير رضا عن الشافع أو رضا عن المشفوع له فإنها لا تنفع ، إلا إذا وجدت هذه الشروط مجتمعة .

والشفاعة في حق النبي ﷺ يوم القيامة ظاهرة وواضحة في أتم ظهور ؛ فإنه ﷺ لا يشفع إلا بعد أن يأذن الله ﷻ ، فيشفع الشفاعة العامة في أهل الموقف أن يحاسبوا ؛ فإن الناس إذا طال بهم الموقف في ذلك اليوم العظيم يأتون إلى الأنبياء : إلى آدم ، ثم إلى نوح ، ثم إلى إبراهيم ، ثم إلى موسى ، ثم إلى عيسى ، وكلٌّ يدفعها عنه حتى تنتهي إلى النبي ﷺ ، فيأتي ﷺ ويسجد بين يدي العرش ، قال ﷺ : « ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّه عَلَيَّ من مَحَامِدِهِ وحُسْنِ الثَّنَاءِ عليه شيئًا لم يَفْتَحْهُ على أَحَدٍ قَبْلِي » ، فلا يبتدئ ﷺ بين يدي الله بالشفاعة ، بل يحمد الله بمحامد يفتح الله عليه بها ، فيثني على الله ﷻ ، وهو سبحانه أعلم بما

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧٠) من حديث أبي هريرة .

(٢) أخرجه البخاري (٩٩) من حديث أبي هريرة .

في نفس عبده الذي يريد أن يشفع ، ثم يقول الله ﷻ لنبيه : « يا محمد ، ارْفَعْ رَأْسَكَ ، وَسَلْ تُعْطَهْ ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ »(١) .

فيشفع النبي ﷺ في أمته ، ويشفع في أهل الموقف جميعًا في تعجيل حسابهم ، ويشفع عدة شفاعات يأتي بيانها إن شاء الله تعالى . وهذا يدل على أن الشفاعة محض تفضل من الله ﷻ ، فهو في الحقيقة الذي تُطلب منه الشفاعة ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾ [الزمر : ٤٤] ؛ لأنه هو الذي يأذن ، وهو الذي يأمر ، وهو الذي يوفق لها ، فتطلب منه أن يُشفَّع في العبد .

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (وَلَه ﷺ في القِيامَةِ ثَلاثُ شَفَاعَاتٍ) ، في قوله :(وله) اللام هنا لام الاستحقاق ، وهذا الاستحقاق بتفضل من الله ﷻ ، يعني : هو لا يملكها ؛ لأن الشفاعة إنما يملكها الله ﷻ ، قال سبحانه : ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾ ، فالشفاعة ملك لله وحده سبحانه وتعالى ، لكن تفضل الله على نبينا محمد ﷺ فأعطاه شفاعات فصار مختصًا بها .

فاللام في قوله :(وله) إما لام الاستحقاق ؛ لأن الله تعالى تفضل عليه بها ، وإما أن تكون لام الاختصاص يعني : هو مختص بهذه ، وقوله :(ثلاثُ شَفَاعَاتٍ) العدد هنا لا مفهوم له ، يعني : ليس مفهومه أنها ليست أربع شفاعات ، قوله :(ثلاثُ شَفَاعَاتٍ) يعني : التي يريد أن يبينها شيخ الإسلام في هذا المقام ، وجمعه(شَفَاعَات) باعتبار تعددها ؛ لأنها تحصل مرة بعد مرة لا تحصل دفعة واحدة ، يعني : في مقام واحد هذه ثم هذه ثم هذه ، أو باعتبار تنوعها ؛ فإن بعضها في الإراحة من الموقف في الحساب ، وبعضها في التجاوز عن أهلِ الكبائر ، وبعضها في أهل الجنة أن يدخلوها .

ثم فصَّل ذلك وقال :(أمَّا الشَّفَاعَةُ الأُولى : فَيَشفَعُ في أَهْلِ المَوْقِفِ حتَّى يُقضَى بيْنَهُمْ بَعْدَ أَنْ يَتَرَاجَعَ الأنبياءُ ؛ آدمُ ، ونوحٌ ، وإبراهيمُ ، وموسى ، وعيسى بْنُ مريمَ عَنِ الشفاعةِ حتى تَنْتَهِيَ إليهِ) ، فتنتهي إليه ﷺ على النحو الذي سبق بيانه ، فيقول : « أنا لها ، أنا لها » . فهو أول شافع في ذلك المقام وفي كل مقامات الشفاعة ، وأول شافع من حيث حصول الشفاعة بالإراحة من الموقف ، وهو أول شافع في أهل الكبائر ، وهو أول شافع في دخول أهل الجنة ، يعني : بين الأنبياء .

قال : (فَيَشفَعُ في أَهْلِ المَوْقِفِ حتَّى يُقضَى بيْنَهُمْ) وذلك أنهم يمكثون زمانًا طويلًا في ذلك اليوم الذي يبلغ طوله خمسين ألف سنة ، فيمكثون ويمكثون ويمكثون ، ويموج الناس بعضهم إلى بعض ، فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا حتى يريحنا من مقامنا هذا ؟ فتتقدم طائفة فيسألون الأنبياء الشفاعة – وهو سؤال لحي حاضر يقدر أن يجيب على ذلك – فيشفع ﷺ ؛ كما في الأحاديث التي جاءت في بيان ذلك ، فيأتي ﷺ تحت العرش ويسجد لله ﷻ ، ثم يفتح الله عليه من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه على أحد قبله ، فيُقال : « يا محمد ، ارْفَعْ رَأْسَكَ ، وَسَلْ تُعْطَهْ ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ » . فيقول : « أُمَّتي يا

(١) تقدم تخريجه .

رَبِّ ، أُمَّتي يا رَبِّ » . فيُقال : « يا محمد ، أَدْخِلْ من أُمَّتِكَ من لا حِسَابَ عليهم من البَابِ الأيْمَن من أبْوابِ الجَنَّةِ ، وهُمْ شُرَكَاءُ الناس فِيمَا سِوَى ذلك من الأبوابِ »(١) ، وهذه الأحاديث - أحاديث الشفاعة - لم يُذكر فيها أمر الشفاعة العظمى التي هي شفاعته ﷺ في تعجيل القضاء بين الناس ؛ كما هو مقتضى أول الحديث ، وهذه الرواية اقتُصر فيها على ذكر الشفاعة فيمن يدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب .

قال العلماء: هذه الأحاديث لم يذكر فيها الرواة أمر الشفاعة العظمى وذكروا أنواعًا أخر من الشفاعات ؛ لأن الشفاعة العظمى متفق عليها بين الفرق ، فكأن الرواة اختصروا الحديث وذكروا ما فيه اختلاف من حيث العقيدة بين أهل السنة وبين الفرق ، وهذا الجواب أجاب به شيخ الإسلام ونقله عنه شارح « الطحاوية » ، وإلا فإن المقصود من هذه الشفاعة : الشفاعة في القضاء بين الناس وإراحتهم من الموقف ، وليس المقصود منها الشفاعة في دخول الجنة من لا حساب عليهم ولا عذاب .

إذن فقد حصل اختصار في هذه الأحاديث ، فإذا نظرت إلى هذه الأحاديث ولم تجد فيها سؤال النبي ﷺ ربه أن يقضي بين العباد ، فاعلم أنه اختُصر لأجل أنه متفقٌ عليه ، وذُكر فيها ما يُحتج به على أهل البدع الذين ينفون بعض أنواع الشفاعات ، وإلا فإن شفاعة النبي ﷺ للقضاء بين الناس ثابتة ، وهي التي ذكرها اللّٰه ﷻ في قوله : ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] ، فجميع الخلائق تحمد النبي ﷺ على ذلك المقام ، فهو ﷺ محمدٌ في الدنيا وفي الآخرة ، أي : كثير الصفات التي يُحمد عليها في الدنيا ، وكثير الصفات التي يُحمد عليها في الآخرة ، ومن أعظم الصفات التي يحمد عليها في الآخرة مقام الشفاعة ، فذو العرش محمود وهذا محمد ﷺ .

قوله : (وأمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّانِيَةُ : فيَشْفَعُ في أهلِ الجَنَّةِ أن يَدْخُلُوا الجَنَّـةَ . وَهَاتَـانَ الشَّفَاعَتَانِ خَاصَّتَانِ لَهُ) .

هذه الشفاعة الثانية وفيها يشفع ﷺ في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة ؛ إذ أهل الجنة لا يدخلونها بعد جواز الصراط وبعد أن يُقضى بينهم ، وهو ﷺ أول من يستفتح باب الجنة ، فهو السابق إلى ذلك ، وهو الذي يشفع في أهل الجنة ، وقد قال ﷺ : « أنا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يوم القِيَامَةِ ، وأوَّلُ من يَنْشَقُّ عنه القبْرُ ، وأوَّلُ شَافِعٍ ، وأوَّلُ مُشَفَّعٍ »(٢) ، فهو أول شافع في كل مقام في الشفاعة ، فهو أول من يشفع في دخول الجنة ، وهو أول من يستفتح أبواب الجنة ، فيقول له خازن الجنة : « من أنت ؟ فَأقُولُ : مُحَمَّدٌ . فيقول : بِكَ أُمِرْتُ لا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ »(٣) ، فتفتح له أبواب الجنة ، قال ﷺ : « والَّذِي نَفْسِي بيده إِنَّ ما بين

(١) تقدم تخريجه .

(٢) أخرجه مسلم (٣/٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة .

(٣) تقدم تخريجه .

المِصْرَاعَيْنِ من مَصَارِيعِ الجَنَّةِ كما بين مَكَّةَ وحِمْيَرَ، أو كما بين مَكَّةَ وبُصْرَى »[١]، فيدخل الجنة ويدخل بعده الأنبياء صلوات اللَّه عليهم، ثم فقراء أمته، ثم تتتابع الأمم .

قال : « فيَشْفَعُ في أهلِ الجَنَّةِ أن يَدْخُلُوا الجَنَّةَ » . يعني : يشفع في الذين استحقوا الجنة بفضل من اللَّه ﷻ وإحسانه ورحمته، وقيل فيهم (أهل الجنة)؛ لأن اللَّه ﷻ جعلهم من أهل الجنة منذ خلق أرواحهم، وقال : « هَؤُلاءِ في الجَنَّةِ ولا أبالي، وهَؤُلاءِ في النَّارِ ولا أبالي »[٢]، وظهر علمه السابق فيهم، فيُظهر أهل الجنة من أهل النار، ويشفع فيهم ﷺ أن يدخلوا الجنة .

قال : (وَهَاتَانَ الشَّفَاعَتَانِ خَاصَّتَانِ لَهُ) ، يعني : أن الشفاعة في دخول الجنة هي خاصة به، فهو الذي يشفع في دخول الجنة فينتفع بشفاعته بقية الأنبياء والمرسلين، ثم أمته، ثم بقية الأمم الذين أجابوا المرسلين .

ومن الشفاعات الخاصة به ﷺ الشفاعة في عمه أبي طالب؛ كما ثبت في « الصحيحين » أن العباس بن عبد المطلب ﵁ قال للنبي ﷺ : هل نفعت أبا طالب بشيء؛ فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال : « نعم، هو في ضَحْضَاحٍ من نَارٍ لَوْلَا أنا لَكَانَ في الدَّرْكِ الأَسْفَلِ من النَّارِ »[٣]، فهذه شفاعة في تخفيف العذاب وليست في الإخراج من النار، وهذه خاصة بالنبي ﷺ، فليس لأحد غيره أن يشفع في مشركٍ أبدًا .

قوله : (وأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّالِثَةُ : فيَشْفَعُ فِيمَنِ استَحَقَّ النَّارَ ، وهذِهِ الشَّفَاعَةُ لَهُ ولِسَائِرِ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ وغيرِهِمْ ، فيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ ألا يَدْخُلَهَا ، ويَشْفَعُ فِيمَنْ دَخَلَهَا أن يَخْرُجَ مِنْهَا) .

الشفاعتان الأوليان - الشفاعة في القضاء والشفاعة في دخول أهل الجنة - هذه متفق عليها لا يخالف فيها أهل البدع ، أما الشفاعة الثالثة التي ذكرها الشيخ هنا بقوله : (فيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ) فهي التي فيها الخلاف .

قوله : (فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ) هذا يشمل حالين فسرهما شيخ الإسلام بعد ذلك فقال : (فيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ ألا يَدْخُلَهَا ، ويَشْفَعُ فِيمَنْ دَخَلَهَا أن يَخْرُجَ مِنْهَا) .

قال : (وهذِهِ الشَّفَاعَةُ لَهُ ولِسَائِرِ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ وغيرِهِمْ) ؛ وذلك لما جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال : « يقول اللَّه ﷻ : شَفَعَتِ الملائكةُ ، وشَفَعَ النَّبِيُّونَ ، وشَفَعَ المؤمِنُونَ ، ولم يَبْقَ إلا أرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . فيَقْبِضُ قَبْضَةً من النَّارِ فيُخْرِجُ منها قَوْمًا لم يَعْمَلُوا خيرًا قَطُّ »[٤].

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) أخرجه أحمد (١٧٦٦٠) ، وابن حبان (٣٣٨) ، والطبراني في مسند الشاميين (٢٠٤٥) من حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي . وصححه الألباني في تعليقاته على صحيح ابن حبان (٣٣٩) .

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٨٣، ٦٢٠٨) ، ومسلم (٢٠٩/٣٥٧) من حديث العباس بن عبد المطلب .

(٤) أخرجه مسلم (١٨٣/٣٠٢) من حديث أبي سعيد الخدري .

فإذن فغير النبي ﷺ يشفع، ولكن يشفع في أي شيء؟ يشفع فيمن استحق النار، فالأنبياء يشفعون، والصالحون يشفعون، والآباء يشفعون، ومن مات من أطفال المسلمين يشفعون، وهكذا كما جاءت به الأدلة.

قال: (فَيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ ألا يَدْخُلَهَا). دليل هذا النوع من الشفاعة قوله ﷺ: «شَفَاعَتِي لأَهْلِ الكبائِرِ من أُمَّتِي»[(١)]، وكذلك ما جاء في حديث أنس الطويل الذي ذكر فيه أن النبي ﷺ يشفع أربع شفاعات في أهل الكبائر في ذلك اليوم[(٢)]، وقوله: «شَفَاعَتِي لأَهْلِ الكبائِرِ من أُمَّتِي». هذه تشمل أهل الكبائر الذين ماتوا على التوحيد؛ لأنه قال: «فَهِيَ نائِلَةٌ إن شاءَ اللّٰه من مَاتَ من أُمَّتِي لا يُشْرِكُ بِاللّٰهِ شيئًا»[(٣)]، وفي الحديث الذي مر معنا قال النبي ﷺ لأبي هريرة: «أَسْعَدُ الناس بِشَفَاعَتِي يوم القيامة من قال: لا إِلَهَ إلا اللّٰه. خالصًا من قِبَلِ نَفْسِهِ»[(٤)].

قال: (فَيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ ألا يَدْخُلَهَا)، أي يشفع فيهم قبل دخول النار فلا يدخلونها، وهذه قد تواردت عليها أقوال أهل العلم، وقد قال ابن القيم رحمه الله: (هذا النوع لم أقف إلى الآن على حديث يدل عليه، وأكثر الأحاديث صريحة في أن الشفاعة في أهل التوحيد من أرباب الكبائر إنما تكون بعد دخولهم النار، وأما أن يشفع فيهم قبل الدخول فلا يدخلون فلم أظفر فيه بنص).

وقد يُستدل لهذا النوع من الشفاعة بقوله ﷺ: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الكَبَائِرِ من أُمَّتِي». فأثبت ﷺ شفاعته في أهل الكبائر، ومعلوم أن أهل الكبائر يشمل من استحق النار ممن دخل أو لم يدخل، فقوله: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الكَبَائِرِ من أُمَّتِي». فيها شمول لمن دخل ومن لم يدخل، فيستدل بعموم هذا الحديث في إثبات شفاعته ﷺ فيمن استحق النار ألا يدخلها، وشفاعته فيمن دخلها أن يخرج منها، وهذه هي الشفاعة في أهل الكبائر.

وهذا النوع من الشفاعة هو الذي نازعت فيه المبتدعة من الخوارج والمعتزلة والوعيدية، فقالوا: إن الشفاعة لا تنفع من دخل النار ولا تنفع أهل الكبائر؛ لأن اللّٰه ﷻ قال في آية «غافر»: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]. وقال سبحانه وتعالى في آية «البقرة»: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠]، وقال سبحانه وتعالى آية الأنعام: ﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ﴾ [الأنعام: ٧٠]. فاستدلوا بهذه الآيات على أن من دخل النار فهو موصوف بالظلم وهو من أهل

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٣٩)، والترمذي (٢٤٣٥) من حديث أنس بن مالك. وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٩٦٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٧٦، ٦٥٦٥، ٧٤١٠، ٧٤٤٠)، ومسلم (١٩٣/٣٢٢- ٣٢٤)، وابن ماجه (٤٣١٢).

(٣) أخرجه مسلم (١٩٩/٣٣٨)، وابن ماجه (٤٣٠٧) من حديث أبي هريرة.

(٤) تقدم تخريجه.

الوعيد ، والله ﷻ نفى الشفاعة عن هذا الصنف ، فقالوا : النبي ﷺ لا يشفع في أهل الكبائر ؛ لأن أهل الكبائر في النار مخلدون .

وذلك على أصلهم في أن فاعل الكبيرة مُخلد في النار يوم القيامة ، فالخوارج يجعلونه في الدنيا كافرًا وفي الآخرة مع الكفار خالدًا مخلدًا في النار ، والمعتزلة يجعلونه في الدنيا ليس بمؤمن ولا كافر - في منزلة بين المنزلتين - وفي الآخرة يتفقون مع الخوارج في أنه خالدٌ مخلدٌ في النار ، وإذا كان كذلك فمعناه أنه لا تنفعه الشفاعة ؛ ذلك أن الله ﷻ قال عن المؤمنين في دعائهم : ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [آل عمران : ١٩٢] . فمن دخل النار أُخزِيَ ، وليس له نصير بنص هذه الآية .

والجواب عن هذا الاستدلال أن هذه الآية في حق من دخلها من الكفار ؛ وذلك أنه قال : ﴿مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾ ، ولفظ الدخول ولفظ الخزي يُحمل على المطلق منه لا على مطلق الدخول ومطلق الخزي ، يعني : يُحمل على الدخول الكامل لا أصل الدخول ، والخزي الكامل لا على أصل الخزي ؛ لأن هذا الأصل في إطلاق هذه الألفاظ ، فمطلق الدخول يعني : أصله ، أي : حصول الدخول ، وأما الدخول المطلق يعني : الذي يكون داخلًا في النار ومستقرًا فيها ، وهي حالة أهل الكفر ، يعني : الدخول الأبدي الكامل ، ومن دخل ليخرج هذا يصدق عليه أنه دخل ، ولكن دخوله لخروج ، وليس دخول لمقام ؛ ولهذا قال في الآية : ﴿مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾ ، والذي يُخزى هو الكافر ؛ ولهذا قال بعدها : ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ ، فذلك النصير والشفيع المنفي هو في حق من دخوله للنار دخولًا أبديًا ، أما من كان دخوله أمديًا ، ويخرج بعد ذلك ، فهو واردها ، والوارد غير مستقر ، وكذلك الذين يوصفون بأنهم ظالمون هم الكفار والمشركون ، بدليل قوله تعالى في سورة « الأنعام » : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام : ٨٢] ، وثبت في « الصحيح » أنه فسرها ﷺ بأن الظلم الشرك[1] ، فدل على أن قوله : ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ يعني : وما للمشركين من أنصار ؛ لأن الظالمين جمع صحيح للظالم ، والظالم اسم فاعل الظلم ، والظلم هو الشرك ، فهي إذن ليست في أهل الكبائر .

نعم أهل الكبائر إذا دخلوا النار لهم نصيب من الخزي ، لكن ليس الخزي المطلق ، وليس الدخول المطلق الذي لا خروج بعده ؛ بل هو دخول بعده خروج ، كذلك قوله ﷻ : ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ۝١٨ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر : ١٨، ١٩] ، هذا أيضًا في المشركين ، فالظالمون هنا يعني بهم المشركين ، وكذلك قوله : ﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ﴾ [الأنعام : ٧٠] ، في المشركين ، فهم الذين نفيت في حقهم الشفاعة .

(١) تقدم تخريجه .

فإذن ثمَّ شفاعتان :

شفاعة مثبتة : وهي لأهل التوحيد ولو كانوا من أهل الكبائر .

وشفاعة منفية : عن أهل الشرك بالله ﷻ الشرك الأكبر - فالكفار والمشركون هم الذين نُفيت عنهم الشفاعة .

هذه أنواع الشفاعات التي ذكرها ، وهناك أنواع أخر لم يذكرها شيخ الإسلام هنا ؛ لأن هذه العقيدة المباركة مبنية على الاختصار وليست مبنية على التفصيل ، ومن هذه الشفاعات :

أنه ﷺ يشفع فيمن يدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب ، وهذه يدل عليها حديث تراجع الأنبياء عن الشفاعة ، ثم سؤال النبي صلى الله عليه الشفاعة ، وأنه يُحدُّ له حد فجعل أولئك يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب ، وأيضًا يُستدل لها باعتبار أنه يشفع في قوم لم يستحقوا أن يكونوا ممن لا حساب عليهم ولا عذاب فيكونوا بشفاعة النبي ﷺ ، كذلك يستدل لها بالحديث المشهور الذي قال فيه : « وفيهم سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ » ، فقالوا : يا رسول الله من هم ؟ قال : « هُمُ الَّذِينَ لا يَسْتَرْقُونَ ، ولا يَتَطَيَّرُونَ ، ولا يَكْتَوونَ ، وعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » . فقام عُكَّاشة بن محصن رضي الله عنه فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، قال : « اللهم اجعله منهم » . في هذه الرواية بالدعاء « اللهم اجعله منهم » . دليل على هذا النوع من الشفاعة ، وفي الرواية الأخرى المشهورة قال : « أنت منهم »(١) .

ومن الشفاعات أيضًا للنبي ﷺ ، شفاعته في زيادة ثواب بعض أهل الجنة ، وهذه أيضًا مما ليس فيه دليل واضح صريح ، ومما استشكله ابن القيم رحمه الله وقال : وهذا قد يُستدل عليه بدعاء النبي ﷺ لأبي سلمة وقوله : « اللهم اغْفِرْ لِأَبِي سَلَمَةَ وارْفَعْ دَرَجَتَهُ في الْمَهْدِيِّينَ »(٢). وقوله في حديث أبي موسى : « اللهم اغفر لعُبَيْدٍ أبي عامر ، واجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك »(٣).

فهذا دليل على رفع الدرجة ، وهو دعاء وشفاعة من النبي ﷺ لذلك ، وهذه الشفاعة غير متنازع فيها ، يعني : يتفق أهل الفرق مع أهل السنة في أنها تحصل ؛ لأنها محض تكرم وفضل فيمن دخل الجنة ، وليس فيها إخراج أحد من النار ولا إسقاط العذاب عمن استحقه ، بخلاف الشفاعة فيمن لا حساب عليه ولا عذاب فهي متنازع فيها .

ومن الشفاعات له ﷺ : الشفاعة في قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم في أن يدخلوا الجنة ، وهؤلاء - على أحد أقوال المفسرين - هم أهل الأعراف الذين قال الله ﷻ فيهم : ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الأعراف : ٤٦] ، ففيها تفاسير ، ومنها : أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فيوقفون

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) أخرجه مسلم (٩٢٠/٧) ، وأبو داود (٣١١٨) من حديث أبي سلمة .

(٣) أخرجه البخاري (٤٣٢٣، ٦٣٨٣) ، ومسلم (٢٤٩٨/١٦٥) من حديث أبي موسى الأشعري .

حتى يُنظر فيهم فيشفع فيهم النبي ﷺ فيدخلون الجنة .

قوله : (وَيُخْرِجُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ أَقْوَامًا بِغيرِ شفاعةٍ ، بل بفضلِهِ ورحمتِهِ ، ويبقى في الجنةِ فضلٌ عمن دخلها من أهلِ الدنيا ، فيُنْشِئُ اللَّهُ لها أقوَامًا فيُدْخِلُهُمُ الجنةَ) .

قال : (وَيُخْرِجُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ أَقْوَامًا بِغيرِ شفاعةٍ ، بل بفضلِهِ ورحمتِهِ) ، وهذا كما جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال : « يقول اللّٰه ﷻ : شَفَعَتِ الملائِكَةُ ، وشفع النَّبِيُّونَ ، وشَفَعَ المُؤْمِنُونَ ، ولم يبق إلا أرحمُ الراحِمِينَ . فَيَقْبِضُ قبْضَةً من النارِ فيُخرِجُ منها قومًا لم يَعْمَلُوا خيْرًا قَطُّ »[1] .

ومن أهل العلم من استشكل معنى قوله : « لم يَعْمَلُوا خيْرًا قَطُّ » . والظاهر أن معنى قوله : « لم يَعْمَلُوا خيْرًا قَطُّ » . أنهم ليس لهم عمل إلا التوحيد ، يعني : عندهم أعمال كثيرة جدًّا لكن لم يعملوا خيرًا قط يكون سببًا في نجاتهم ، ولم يعملوا خيرًا قط يكون سببًا في شفاعة الشفعاء لهم ، فيظلون لا عمل لهم يشفع في خروجهم من النار السريع ولا شفيع يشفع لهم ، فاللّٰه ﷻ أرحم بعباده المؤمنين ، فيأخذ هؤلاء ويخرجهم من النار ويدخلهم الجنة بفضله ورحمته .

قال : (ويبقى في الجنةِ فضلٌ عمن دخلها من أهل الدنيا) ، وصف اللّٰه ﷻ الجنة بأن عرضها كعرض السماوات والأرض ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد : ٢١] ، فيبقى فيها فضل بعد دخول المؤمنين جميعًا من أتباع الرسل والأنبياء ، فينشئ اللّٰه ﷻ لها خلقًا .

وجاء أيضًا في « صحيح البخاري » من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « فأمَّا الجنَّةُ فإن اللَّهَ لا يَظلِمُ من خَلْقِهِ أحدًا وإنهُ يُنشِئُ للنَّارِ من يشاءُ فيُلْقَوْنَ فيها ، فتقول : هل من مزيد »[2] ، وهذا اللفظ بعض أهل العلم اعتمده وقال : هو في البخاري . وبعضهم قال : إنه انقلب على بعض الرواة ولم يفهموا أصل الحديث ، والإنشاء يكون للجنة ، وأما النار فيضع اللّٰه ﷻ قدمه فيها حتى تقول : قط قط . وهذا هو الصحيح ، فإن اللّٰه ﷻ لا يعذب أحدًا بالنار إلا بذنب ارتكبه ، وظاهر ما جاء في الأحاديث من وضع الجبار ﷻ قدمه في النار .

قوله : (وأصنافُ مَا تَضَمَّنَتْهُ الدارُ الآخِرَةُ مِنَ الحِسابِ والثوابِ والعِقابِ والجَنَّةِ والنارِ ، وتفاصيلُ ذَلِكَ مذكورةٌ في الكُتُبِ المُنَزَّلَةِ من السماءِ ، والآثارِ مِنَ العِلْمِ المأثورِ عن الأنبياءِ ، وفي العِلْمِ المَوْرُوثِ عن مُحَمَّدٍ ﷺ من ذلك ما يشفِي ويكفِي ، فَمَنِ ابْتَغَاهُ وَجَدَهُ) .

قال : (وأصنافُ مَا تَضَمَّنَتْهُ الدارُ الآخِرَةُ مِنَ الحِسابِ والثوابِ والعِقابِ والجَنَّةِ والنارِ) ، (أصناف) أي : أنواع ، و(الحساب) سبق بيان معناه ، و(الثواب) أُخِذَ من ثاب يثوب إذا رجع ، ثاب الشيء رجع ؛ وذلك أن العمل يخرج من العامل فيرجع إليه شيء ، هذا الراجع سمي ثوابًا ، يعني : جزاء العمل

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٤٩) .

رجع فسُمي ثوبًا ؛ لأنه رجوع لما خرج منه من العمل ، و(العقاب) ما يحصل من العقوبة .

(والجنة) مخلوقة الآن من مخلوقات الله ﷻ ، وسُميت جنةً إما لاستتارها عن العيون ، أو لأنها مشبهة بما يعرف الناس من الاجتنان في الدنيا ؛ لأن من دخلها فإنه لا يُرى ؛ فهي جنانٌ أيضًا ، والجنة اسم جنس ، وهي مخلوقة الآن وموجودة ، والنبي ﷺ حينما عُرج به إلى السماء رآها ورأى النار أيضًا ، (والنار) أحد أسماء دار الجحيم ، يقال لها : النار ، والجحيم ، وسقر ، وأسماء كثيرة ، وهذه الأسماء باعتبار تباين الصفات .

قال : (وتفاصيلُ ذَلِكَ مذكورةٌ في الكُتُبِ المُنَزَّلَةِ من السماءِ ، والآثارِ مِنَ العِلْمِ المأثورِ عن الأنبياءِ) ؛ وذلك لشدة الحاجة إلى هذا العلم ؛ لأن علم الجزاء من أهم العلوم ؛ بل هو أحد العلوم الثلاثة النافعة ، فمن علم أحوال الناس يوم القيامة وما يحصل في ذلك اليوم وما يكون ؛ فإن هذا ثُلُثُ العلم ؛ كما قال ابن القيمرحمه الله تعالى :

والعِلمُ أقسَامٌ ثَلاثٌ مَا لَهَا ... مِن رَابِعٍ والحَقُّ ذُو تِبيَانِ
عِلمٌ بِأوصَافِ الإلَهِ وفِعلِهِ ... وكَذلِكَ الأسمَاءُ للرَّحمَنِ
والأمرُ والنَّهيُ الذي هُوَ دِينُهُ ... وجَزَاؤُهُ يومَ المَعَادِ الثَّانِي

فهذه العلوم الثلاثة : التوحيد ، والحلال والحرام ، وعلم الجزاء .

وهذا العلم تطلب تفاصيله من النصوص ؛ لأنه لا استنباط فيه ، ولا مدخل للفهم فيه ، وإنما هو علم مبني على دليل وليس محلًّا للاجتهاد والرأي ، فتفاصيله مذكورة في كل الكتب المنزلة من السماء ، والأنبياء يذكرون تفاصيل ذلك ، وهو حق على حقيقته ؛ كما أخبر الله ﷻ به ، لا يجوز أن نتأول شيئًا من أمور الغيب فنحمله على غير ظاهره ، فقاعدة أهل السنة في جميع الغيبيات في الصفات ، وفيما في الملكوت من خلق الله ، وما يحصل يوم القيامة ، قاعدتهم جميعًا في الغيبيات : أن ما جاء في الشرع من ألفاظ يوصف بها ما غاب عنا يحملونها على ظاهرها ، وألا يؤولوها بتأويلات تصرفها عن ظاهرها المتبادر منها ، فما في يوم القيامة من حشر ، وما في يوم القيامة من نور وظلمة وعرق ، ودنو الشمس ، والحوض والميزان ، وغير ذلك ، كل ما في ذلك يُحمل على حقيقته ، والنار حقيقة نارٌ تستعر ، والجنة دار مقام ... إلى آخره . وفي كل ذلك خالف من خالف - بحملها على غير ما يتبادر منها - إما من مبتدعة المتكلمين ، وإما من الفلاسفة ، في أصناف شتى من أهل الأقوال التي تنسب لهذه الأمة .

قال : (وفي العِلْمِ المَوْرُوثِ عن مُحَمَّدٍ ﷺ من ذلك ما يشفِي ويكفِي ، فَمَنِ ابْتَغَاهُ وَجَدَهُ) وقد صنف العلماء في ذلك مصنفات كثيرة ذكروا فيها الآيات وذكروا فيها الأحاديث التي فيها تفاصيل ما يكون في ذلك اليوم العظيم الذي هو كائنٌ لا محالة ، ولابد آتٍ ، وهو قريب ، والنبي ﷺ إذا ذكر الغيب مهما امتد زمانه يقول :(يوشك أن يفعل أحدكم كذا) ، (يوشك أن يلقى أحدكم كذا) ، (يوشك أن

ينزل فيكم كذا) ... إلى آخره ، فهو قريب وإن تباعدته النفوس أو بعض العقول ؛ فما دام الزمن يجري فإن غدًا لناظره قريب .

وإذا تقرر هذا فإن على المؤمن أن يستعد لذلك اليوم أشد الاستعداد ؛ لأنه يوم مهيب عصيب ، وكل أحد سيلقى ما عمل ، وهي الحياة الباقية التي ليس ثم حياة بعدها ، ولا دار للتصحيح بعدها ، ولا مكان بعدها يمكن أن تعمل فيه فتغير حالك ، فالمكان الذي اختبرت فيه وابتليت فيه بالاتباع والاستجابة هو هذه الدار ؛ فإن كنت فيها مفلحًا ناجحًا فأنت في الآخرة كذلك ، ومن كان فيها أعمى فهو في الآخرة أعمى ؛ ولهذا يجب على المؤمن أن يُثمر في قلبه الإيمان باليوم الآخر ثمرات عظيمة وعديدة ، وأعظم تلك الثمرات أن يكون قلبه معلقًا بالآخرة في حركاته وأعماله ، وأن يكون اللّٰهُ - جل وعلا - أعظم في قلبه من الخلق ، ويكون عمله للّٰه لينال رضا اللّٰه عنه ؛ فإنَّ غَضَبَ الناس عليه أو سخطهم عليه ليس بشيء ما دام اللّٰه راضيًا عنه ؛ لأن اللّٰه - جل وعلا - هو الذي خلق ، وهو الذي رزق ، وهو الذي إليه المآب وإليه الرجعى ؛ فإن كان كذلك فإنما المسير إليه ، وإنما العمل سيُرى بين يديه .

ولهذا يجب على المؤمن أن يأخذ حذره ، وألا يتمنى على اللّٰه الأماني ، وألا يجعل حياته هكذا تذهب دون استعداد ودون جد في حياته ؛ لأنك إذا كنت جادًّا في هذه الدنيا فإنك ستجد - إن شاء اللّٰه - ثمرة ذلك في الآخرة ، ومن أعظم ما يكون أن المرء إذا عمل عملًا صالحًا وعزم في قلبه على أعمال صالحات كثيرة ؛ فإنه يُكتب له ذلك وإن توفاه اللّٰه جل وعلا ، وهذه من العظائم ؛ فإن اللّٰه - جل وعلا - قال : ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء : ١٠٠] . فمن سعى في شيء وقلبه معلق أنه يعمل كذا وكذا وكذا من الخيرات إذا امتد به الزمن وامتدت به الحياة ؛ فإن اللّٰه ﷻ كريم يعطي عباده بغير حساب ، ويجزل لهم الثواب ، ومن رحمته وكرمه بعباده المؤمنين أن العبد إذا كان قلبه معلقًا بشيء في المستقبل أن يعمله من الطاعات متى ما حان الأوان فإنه يؤتيه ذلك وإن لم يعمله .

فكم من رجل تمنى أن يموت شهيدًا في سبيل اللّٰه ولم يحصل له لقاء الأعداء بالجهاد ، فمات على فراشه ، فبلَّغه اللّٰه ﷻ منازل الشهداء ، وكم من رجلٍ تمنى أن يكون في علمه عالمًا وإمامًا للمتقين ، فمات قبل ذلك ، فلعل اللّٰه ﷻ أن يبلغه ذلك ... وهكذا ؛ فإن النيات عظيمة وهي مطايا ، وإذا خلَص قصد العبد ومحبته للّٰه ﷻ ولرسوله فإنه يحصل على الخير ، واللّٰه ﷻ يعلم ما في الصدور ، ويعلم ما تكنه قلوب الناس ، فإذا نويت خير فأبشر بالخير ، وإذا نويت غير ذلك فأنت وما ترتضي لنفسك .

لهذا من الخير أن تجعل أمنياتك في الخيرات عظيمة ، وألا تقنع في أمرك مثلًا من العلم والتعلم بشيء يسير ؛ بل كن كما قال اللّٰه ﷻ في وصف المؤمنين الصالحين : ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ

يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الفرقان : ٧٢- ٧٥] ، دعوا بدعوة ، فقد يكونون صاروا أئمة أو لا ، لكن فضل الله ﷻ يؤتيه من يشاء .

وثم فرقٌ عظيم بين حب الإمامة في الدين وبين الترفع وحب الجاه والرغبة في أن ينظر الخلق إلى ذلك الرجل ، وقد ذكر هذا الفرق ابن القيم وغيره ، فمصدر محبة الإمامة في الدين الرضا عن الله ﷻ وعن شرعه ودينه ، والرغبة في الآخرة ، وأن يكون قلب الرجل معلقًا بالآخرة ولا ينظر إلى الدنيا ، فهو يريد أن يكون إمامًا للمتقين لكي يهديهم إلى دين الله ، ولكي يُبصرهم في أمر الله ونهيه وما جاء في كتابه ، فيحب ذلك لا لنفسه ولكن محبةً لدلالة الخلق على خالقهم ، وإرشاد الخلق إلى ما يرضي ربه ﷻ .

وأما الآخر فمراده وقصده أن يكون له في الناس جاه وسمعة ورفعة ، إذا حصل له ذلك حصل له مبتغاه ، فهذا من الشيطان .

ولهذا ينبغي للمؤمن أن يُقْدم على سبل الخير ، ويُخلص فيها نيته وقصده ، ويُجاهد نفسه في ذلك ؛ فإنه على شعبةٍ من شعب الخير ، وإذا رأى من نفسه حب الشهرة أو حب الجاه أو حب السمعة أو حب الرفعة - حتى في كلمة يقولها بين أصحابه - فليعلم أنه يوم القيامة لابد أن يُحاسب على كل شيء ، والإخلاص هو الذي به تصلح الأعمال وتحسن ، ففرق بين المقامات ، والله ﷻ هو الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

❁ ❁ ❁

الأسئلة

❁ قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان رَحِمَهُ اللهُ :

□ فتنة القبر :

س ١: ما المراد بفتنة القبر ؟

ج- المراد بها ما ورد من أن الناس يمتحنون في قبورهم ، فيقال للرجل : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فـ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم : ٢٧] فيقول المؤمن : ربي الله ، والإسلام ديني ، ومحمد ﷺ نبيي .

وأما المرتاب فيقول : هاه هاه لا أدري ، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته ، فيضرب بمرزبة من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان ولو سمعها لصعق .

وفي الصحيحين من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال في قوله تعالى : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ : نزلت في عذاب القبر .

زاد مسلم : فيقال له : من ربك ؟ فقول : ربي الله ، ونبيي محمد ؛ فذاك قوله سبحانه : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ .

وعند أبي داود : يأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله ، فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : ديني الإسلام ، فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله ﷺ ، فيقولان له : وما يدريك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله تعالى فآمنت به وصدقت ، فينادي منادٍ : أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة ، وافتحوا له بابًا إلى الجنة ، وألبسوه من الجنة ، ويفسح له مد بصره .

وقال في الكافر : فيأتيه ملكان فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري ، إلى أن قال : فينادي منادٍ من السماء : أن كذب عبدي ، فأفرشوه من النار ، وافتحوا له بابًا إلى النار ، فيأتيه من حَرِّها وسَمُومها ، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه .

□ عذاب القبر ونعيمه :

س٢- ما هو الدليل على عذاب القبر ونعيمه ؟

ج- قوله تعالى : ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر : ٤٦] ، وقوله : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام : ٩٣] ، وفي قوله : ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور : ٤٧] ، وقوله : ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة : ٢١] .

وفي الصحيحين عن عائشة : أنها سألت رسول اللّه ﷺ عن عذاب القبر ، قال : « نعم عذاب القبر حق » ، وقال : « استعيذوا باللّه من عذاب القبر » ، وقال : « إذا تشهد أحدكم فليستعذ باللّه من أربع » وذكر منها : عذاب القبر .

وفي الصحيحين : أن النبي ﷺ قال : « لقد أوحي إليّ أنكم تفتنون في قبوركم مثل - أو قريبًا - من فتنة المسيح الدجال » ، وفي الصحيحين : عن أبي أيوب قال : خرج علينا رسول اللّه ﷺ وقد وجبت الشمس فسمع صوتًا فقال : « يهود تعذَب في قبورها » .

وفيهما عن ابن عباس رضي اللّه عنه قال : مر النبي ﷺ بقبرين فقال : « إنهما ليعذبان ، وما يعذبان في كبير » ، ثم قال : « بلى إنه كبير ؛ أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول ، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة » .

وفي حديث أنس : « تنزهوا من البول ؛ فإن عامة عذاب القبر من البول » . رواه الدارقطني .

وورد أن رجلًا غَلَّ شَمْلَةً من المغنم فجاء سهم عائر فأصابه فقتله ، فقال الناس : هنيئًا له الجنة . فقال رسول اللّه ﷺ : « كلا والذي نفسي بيده ، إن الشَّمْلة التي أخذها يوم خيبر من المغانم التي لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه نارًا » .

س٣- هل عذاب القبر ونعميه يحصل للروح والبدن ؟ وهل عذاب القبر دائم أو منقطع أم فيه تفصيل ؟ وضح ذلك .

ج- العذاب أو النعيم يحصل للروح والبدن جميعًا ، والروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة ، وأنها تتصل بالبدن أحيانًا ، ويحصل له معها النعيم أو العذاب ، والعذاب والنعيم في القبر نوعان ، دائم كما في قوله تعالى : ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ الآية .

النوع الثاني : له أمد ثم ينقطع وهو عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم ، فيعذبون بحسب الذنب ، ثم يخفف عنهم العذاب كما يعذبون في النار مدة ، ثم يزول عنهم العذاب .

□ القيامة الكبرى :

س٤- ماذا يكون بعد انتهاء مدة البرزخ ؟

ج- تقوم القيامة الكبرى ، فتعاد الأرواح إلى الأجساد التي كانت تعمرها في الدنيا ، وهذه القيامة هي التي أخبر اللّه بها في كتابه ، وعلى لسان رسوله ﷺ ، وأجمع عليها المسلمون ، فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين ، حفاة عراة غرلًا ، وتدنو منهم الشمس ، ويلجمهم العرق .

□ الميزان :

س٥- ما هو الميزان ؟ وهل هو حقيقي ؟ وما هو الدليل على ذلك ؟ وما الذي يوزن هل هو العمل أم الشخص أم فيه تفصيل وجمع ؟

ج- الميزان حقيقي له لسان وكفتان ، توزن به أعمال العباد ، قال تعالى : ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء : ٤٧] الآية ، وقال : ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون : ١٠٢، ١٠٣]، وقال : ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ⑧ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [الأعراف : ٨، ٩] الآية ، وقال : ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [القارعة : ٦] الآيتين .

قال ابن عباس رضي الله عنه : توزن الحسنات في أحسن صورة والسيئات في أقبح صورة .

وفي الصحيح : أن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف . وفي قصة القرآن ، وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون ... الحديث .

وفى قصة سؤال القبر ، فيأتي المؤمن شاب حسن اللون ، طيب الريح ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح : وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق .

وقيل : يوزن كتاب الأعمال ، واستُدل له بحديث البطاقة .

وقيل : يوزن صاحب العمل ، كما في الحديث : « يؤتى بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة » ثم قرأ : ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف : ١٠٥] .

وفي مناقب ابن مسعود أن النبي ﷺ قال : « أتعجبون من دِقَّة ساقيه ! والذي نفسى بيده لهُما في الميزان أثقل من أحد » .

والراجح : القول الأول ، وقيل : تارة يوزن العمل ، وتارة يوزن محلها ، وتارة يوزن فاعلها .

س٦- هل الميزان واحد أو متعدد ، وإذا كان واحدًا فما الجواب عن وروده بلفظ الجمع في القرآن ؟

ج- قيل : إنه واحد لجميع الأمم ولجميع الأعمال ، وأتى بلفظ الجمع باعتبار تعدد الأعمال والأشخاص ، أو للتفخيم ؛ كما في قوله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء : ١٠٥] مع أنه لم يرسل إليهم إلا واحدًا ، وقيل : إنها متعددة لكل واحد من المكلفين ميزان ؛ لقوله تعالى : ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ﴾ الآية [الأنبياء : ٤٧] .

□ الدواوين :

س٧- ما هي الدواوين ؟ وما معنى نشرها ؟

ج- هي صحائف الأعمال ، ونشرها بسها وفتحها ، فآخذٌ كتابه بيمينه ، وآخذٌ كتابه بشماله أو من وراء ظهره ، قال الله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة : ١٩] الآيتين ، وقال : ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ⑬ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء : ١٣، ١٤] ، وقال : ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [التكوير : ١٠] ، وقال : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ⑦ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ⑧ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ

مَسْرُورًا ۝ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۝ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧- ١٢].

□ الحساب:

س٨- ما هو الحساب؟ وما هو الدليل على أنه حق ثابت؟

ج- هو توقيف الله عباده قبل الانصراف من المحشر على أعمالهم خيرًا كانت أو شرًا، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]، وقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، وقال: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]، وقال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١]، وقال ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠] الآية، فيحاسب الله الخلائق، ويخلو بعبده المؤمن، فيقرره بذنوبه.

أخرج الترمذي من حديث أبي برزة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه ما عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه».

س ٩: هل هناك فرق بين محاسب المؤمن ومحاسب الكافر؟

ج- نعم المؤمن توزن حسناته وسيئاته كما تقدم فمن رجحت حسناته على سيئاته دخل الجنة، ومن خفت موازينه بأن رجحت سيئاته على حسناته دخل النار، وأما من تساوت حسناته وسيئاته، فقيل: أولئك أصحاب الأعراف، وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة مَنْ توزن حسناته سيئاته، فإنه لا حسنات لهم، ولكن تعد أعمالهم فتحصى فيوقفون عليها ويقررون فيعترفون بها، قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ١٨]، وقال: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ وقال عن أعمالهم: ﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]، ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩] الآيتين.

□ الحوض:

س١٠- ما هو الإيمان بالحوض المورود، واذكر الدليل على ما تقول، ووضح موضعه، وصفته ومسافته، وكم آنيته؟ ومن الذي يرده؟ وهل يظمأ من شرب منه؟ وهل يمنع منه أحد؟ وضح ذلك.

ج- التصديق الجازم بما أجمع عليه أهل الحق من أن للنبي ﷺ حوضًا في عَرَصَات القيامة ترد عليه أمته ﷺ، ماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، آنيته عدد نجوم السماء، طوله شهر، وعرضه شهر، من يشرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدًا.

أخرج الشيخان وغيرهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال: قال

رسول الله ﷺ : « حوضي مسيرة شهر ، ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من ريح المسك كيزانه كنجوم السماء ، من شرب منه لا يظمأ أبدًا » .

وفي صحيح مسلم : « ليردن على الحوض أقوام ، فيختلجون دوني فأقول : أصحابي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوه بعدك » .

س١١- هل الحوض مختص بنبينا ﷺ أم لكل نبي حوض ؟

ج- الحوض الأعظم مختص به ﷺ لا يشركه فيه نبي غيره ، وأما سائر الأنبياء ، فقد روى الترمذي في« جامعه » عن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لكل نبي حوضًا ، وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة ، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم واردة » .

□ الصراط :

س١٢- ما هو الصراط ؟ وأين موضعه ؟ وما حكم الإيمان به ؟ وما صفة المرور عليه ؟ وما الذي بعده ؟ ومتى يؤذن لمن تجاوزه في دخول الجنة ؟

ج- هو الجسر المنصوب على متن جهنم بين الجنة والنار ، يرده الأولون يمرون عليه على قدر أعمالهم ، فمنهم من يمر كلمح البصر ، ومنهم من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كالفرس الجواد ، ومنهم كركاب الإبل ، ومنهم من يعدو عدوًا ، ومنهم من يمشى مشيًا ، ومنهم من يزحف زحفًا ، ومنهم يخطف خطفًا ويلقى في جهنم ، فإن الجسر عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم ، فمن مر على الصراط دخل الجنة ، فإذا عبروا عليه وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض ، فإذا هذّبوا ونقوا ، أذن لهم في دخول الجنة . والإيمان به واجب .

□ الشفاعة :

س١٣- ما هي الشفاعة ؟ وما أقسامها بالنسبة إلى خاصة وعامة ؟ ومن الذي ينكرها من طوائف أهل البدع ؟

ج- هي لغة : الوسيلة والطلب ، وعرفها بعضهم بأنها سؤال الخير للغير ، وقال بعضهم : هي السؤال في التجاوز عن المعاصي في الآثام ، أما الأقسام التي ذكرها الشيخ في الواسطية فثلاثة : اثنتان خاصتان به ﷺ :

الأولى : العظمى هي شفاعته لأهل الموقف حتى يُقْضَى بينهم بعد أن يتدافع الأنبياء أصحاب الشرائع آدم إلى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، وهي المقام المحمود .

الثانية : شفاعته في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة . أما الشفاعة الثالثة ، فهذه عامة له ، ولسائر النبيين والصِّديقين وغيرهم ، وهي التي تنكرها المعتزلة والخوارج .

وهي فيمن استحق النار ألّا يدخلها ، وفيمن دخلها أن يخرج منها ، وبعضهم : أنهاها إلى ستة أقسام ،

وبعضهم : أنهاها إلى ثمانية .

س١٤- ما هي الشفاعة المثبتة والشفاعة المنفية ؟ وما قيود المثبتة ؟

ج- المثبتة هي التي أثبتها الله في كتابه ، وهي لأهل الإخلاص ، ولها شرطان :

أحدهما : **إذن الله للشافع أن يشفع .**

والثاني : **رضاه عن المشفوع له ، ولا يرضى من العمل إلا ما كان خالصًا صوابًا ، قال تعالى : ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾** [النجم : ٢٦] ، **وقال : ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾** [طه : ١٠٩] ، **وقال : ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾** [النبأ : ٣٨] ؛ **وأما المنفية فهي التي من غير الله أو بغير إذنه أو لأهل الشرك به .**

□ **انقسام الناس بالشفاعة :**

س١٥- إلى كم قسم انقسم الناس في إثبات الشفاعة ونفيها ؟

ج- إلى أقسام : طرفان ووسط ، فقسم نفوا الشفاعة كما مر وهم الخوارج والمعتزلة ، فنفوا شفاعته ﷺ في أهل الكبائر .

وقسم : أثبتوا الشفاعة للأصنام وهم المشركون ؛ كما ذكر الله عنهم في كتابه بقوله : ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس : ١٨] ، **وقسم توسطوا وهم أهل السنة ، فأثبتوا الشفاعة بقيودها المتقدمة مع ذكر أدلتها .**

س١٦- هل يدخل الجنة أحد بغير شفاعة ؟ وضح ذلك مقرونًا بالدليل ؟

ج- نعم يخرج الله أقوامًا من النار بغير شفاعة ، بل بفضله ورحمته ويبقى في الجنة فضلًا عمن دخلها من أهل الدنيا فينشئ الله لها أقوامًا فيدخلهم الجنة ، وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري في حديثه الطويل : « فيقول الله : شفعت الملائكة ، وشفع النبيون ، ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط » . قال بعضهم :

وقل يخرج الله العظيم بفضله — من النار أجسادًا من الفحم تطرح
على النهر في الفردوس تحيا بمائه — كحبة حمل السيل إذ جاء يطفح

□ **الجنة والنار :**

س١٧- ما هو مذهب أهل السنة والجماعة حول خلق الجنة والنار وبقائهما ؟ وأهلهما مع ذكر الدليل .

ج- الاعتقاد الجازم : بأن الجنة والنار مخلوقتان لا يفنيان ؛ فالجنة دار أوليائه ، أعدها الله وما فيها من النعيم لهم ، والنار دار لأعدائه أعدها الله ، وما فيها من أنواع العذاب لهم ، وأهل الجنة فيها مخلدون ، وأهل النار فيها خالدون لا يفتر عنهم وهم مبلسون ، قال تعالى : ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾ [فاطر :

٣٦] ، وقال : ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى : ١٣] ، وفي الصحيحين وغيرهما من غير وجه أنه عليه السلام رأى الجنة في صلاة الكسوف حتى هم أن يتناول عنقودًا من عنبها ، ورأى النار فلم ير أفظع من ذلك ، وفي قصة الإسراء : دخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك .

وفي الصحيحين يجاء بالموت في صورة كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ويذبح ، ويقال : يا أهل الجنة ، خلود فلا موت ، ويا أهل النار ، خلود فلا موت .

❁ ❁ ❁

الإيمانُ بالقَدَرِ وبيانُ ما يَتَضَمَّنُه

« وتُؤْمِنُ الفرقةُ الناجيةُ ؛ أهلُ السنةِ والجماعةِ بِالقَدَرِ خيرِه وشرِّه ، والإيمانُ بالقَدَرِ على دَرَجَتَيْن ، كلُّ درجةٍ تَتَضَمَّنُ شيئين :

تفصيلُ مَراتبِ القَدَرِ

الدرجةُ الأولى وما تَتَضَمَّنُه :

فالدرجةُ الأولى : الإيمانُ بأنَّ اللَّهَ تعالى عَلِم ما الخلقُ عامِلون بعلمِه القديمِ ، الذي هو موصوفٌ به أزلًا وأبدًا ، وعَلِم جميعَ أحوالِهم مِن الطاعاتِ والمعاصِي والأرزاقِ والآجالِ ، ثم كتَب اللَّهُ في اللوحِ المحفوظِ مقاديرَ الخلقِ ، فأولُ ما خلَق اللَّهُ القلمُ ، قال له : اكْتُبْ ، قال : ما أَكْتُبُ ؟ قال : اكْتُبْ ما هو كائنٌ إلى يوم القيامةِ .

فما أصاب الإنسانَ لم يَكُنْ لِيُخْطِئَه ، وما أَخطَأَه لم يَكُنْ ليُصِيبَه ، جَفَّت الأقلامُ ، وطُوِيَت الصُّحُفُ .

كما قال سبحانَه وتعالى : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج : ٧٠] .

وقال : ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد : ٢٢] .

وهذا التقديرُ التابعُ لعلمِه سبحانَه يكونُ في مواضعَ جملةً وتفصيلًا ، فقد كتَب في اللوحِ المحفوظِ ما شاء ، وإذا خلَق جسدَ الجنينِ قبلَ نَفْخِ الرُّوحِ فيه بعَث إليه مَلَكًا ، فيُؤْمَرُ بأربعِ كلماتٍ ، فيقالُ له : اكْتُبْ رزقَه وأجَلَه وعملَه وشَقِيٌّ أو سَعِيدٌ ، ونحوَ ذلك ، فهذا التقديرُ قد كان يُنْكِرُه غُلاةُ القَدَريةِ قديمًا ، ومُنْكِروه اليومَ قليلٌ .

الدرجةُ الثانيةُ ، وما تتضمنُه :

وأما الدرجةُ الثانيةُ : فهي مشيئةُ اللَّهِ النافذةُ وقدرتُه الشاملةُ ، وهو الإيمانُ بأنَّ ما شاء اللَّهُ كان ، وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ ، وأنه ما في السماواتِ وما في الأرضِ مِن حركةٍ ، ولا سكونٍ إلا بمشيئةِ اللَّهِ سبحانَه ، لا يكونُ في مُلْكِه ما لا يُرِيدُ .

وأنه سبحانَه وتعالى على كلِّ شيءٍ قديرٌ ، مِن الموجوداتِ

والمعدوماتِ ، فما من مخلوقٍ في الأرضِ ، ولا في السماءِ إلا اللَّهُ خالقُه سبحانَه ، لا خالقَ غيرُه ، ولا ربَّ سِواه .

١، ٢- لا تَعارُضَ بينَ القَدَرِ والشرعِ ، ولا بينَ تقديرِه للمعاصي وبغضِه لها :

ومع ذلك فقد أمَرَ العبادَ بطاعتِه وطاعةِ رسلِه ، ونهاهم عن معصيتِه .

وهو سبحانَه يُحِبُّ المُتَّقِين والمُحْسِنين والمُقْسِطِين ، ويَرْضَى عن الذين آمنوا وعمِلوا الصالحاتِ ، ولا يُحِبُّ الكافرين ، ولا يَرْضَى عن القومِ الفاسِقين ، ولا يأْمُرُ بالفحشاءِ ، ولا يَرْضَى لعبادِه الكفرَ ، ولا يُحِبُّ الفسادَ .

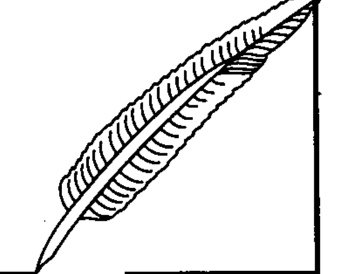
٣- لا تَنافِيَ بينَ إثباتِ القَدَرِ ، وإسنادِ أفعالِ العبادِ إليهم حقيقةً ، وأنهم يَفْعَلُونَها باختيارِهم :

والعبادُ فاعلون حقيقةً ، واللَّهُ خلَق أفعالَهم ، والعبدُ هو المؤمنُ والكافرُ ، والبَرُّ والفاجرُ ، والمُصَلِّي والصائمُ ، وللعبادِ قُدْرةٌ على أعمالِهم ، ولهم إرادةٌ ، واللَّهُ خالقُهم ، وخالقُ قُدْرتِهم وإرادتِهم .

كما قال تعالى : ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير : ٢٨، ٢٩] .

وهذه الدرجةُ مِن القدرِ يُكَذِّبُ بها عامةُ القَدَرِيةِ ، الذين سمَّاهم النبيُّ ﷺ مجوسَ هذه الأمةِ ، ويَغْلُو فيها قومٌ مِن أهلِ الإثباتِ حتى سَلَبوا العبدَ قدرتَه واختيارَه ، ويُخْرِجُون عن أفعالِ اللَّهِ وأحكامِه حِكَمَها ومَصالِحَها .





الشـــرح ١

❁ قال الشيخ فيصل بن عبد العزيز آل مبارك رحمه الله :

قوله : « الذين سماهم النبي ﷺ : مَجُوسِ هَذه الأُمَّةِ » .

قوله : « الذين سماهم النبي ﷺ » يشير إلى ما أخرجه أحمد عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « لكل أمة مجوس ، ومجوس أمتي الذين يقولون : لا قدر ، إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم »[1] .

❁ قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله :

قوله : « وَالإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَيْنِ ..» :

* اعلم أن الإيمان بالقدر أمره عظيم وشأنه مهم جدًا وهو أحد أركان الإيمان الستة ، وقد انحرف فيه طوائف من أهل البدع والضلال فضلًا عن المنكرين من الملحدين وغيرهم .

وقد فصله الشيخ في هذا الفصل بهذا الكلام الجامع النفيس الذي لا يوجد له نظير في تحقيقه وتفصيله وجمعه وتوضيحه ، وهو مجموع من نصوص الكتاب والسنة ومن العقيدة السلفية الخالصة .

فذكر : أنه لا يتم الإيمان بالقدر إلا بتحقيق هذه الأمور الأربعة التي يفتقر كل منها إلى البقية ، وقد ارتبط بعضها ببعض ارتباطًا وثيقًا لا ينفصم إلا بالانحراف إلى الأقوال المنحرفة .

وذلك : أنه ثبتت نصوص الكتاب والسنة بإحاطة علم الله بجميع الموجودات السابقة ، والحاضرة ، والمستقبلة من أعيان وأوصاف وأفعال للمكلفين وغيرهم .

وثبتت النصوص أيضًا : أن مشيئة الله عامة وإرادته القدرية شاملة لا يخرج عنها حادث صغير ولا كبير ولا عين ولا فعل ولا وصف ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

والنصوص على شمول قدرة الله ومشيئته لكل حادث لا تحصى .

وثبتت النصوص أيضًا : أن الله أثبت علمه بالكائنات والموجودات دقيقها وجليلها باللوح المحفوظ في نصوص لا يمكن إحصاؤها .

وثبتت النصوص أيضًا : أن العباد مختارون غير مجبورين على أفعالهم ، والأسباب والمسببات من قضاء الله وقدره ، ولهذا لما قال النبي ﷺ لأصحابه : « ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة والنار » . فقالوا : يا رسول الله ، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟ فقال : « اعملوا فكلٌّ ميسر لم خلق له ، وأما أهل السعادة فييسّرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاء فييسّرون لعمل أهل الشقاوة » ، ثم قرأ ﷺ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ

(١) أحمد (٢/٨٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » (٥١٦٣) .

﴿بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥- ١٠] متفق عليه[1].

وتوضيح ذلك: أن العبد إذا صلى وصام وعمل الخير أو عمل شيئًا من المعاصي كان هو الفاعل لذلك العمل الصالح وذلك العمل السيئ، وفعله المذكور بلا ريب وقد وقع باختياره هو يحس ضرورة أنه غير مجبور على الفعل أو الترك وأنه لو شاء لم يفعل.

وكما أن هذا هو الواقع فهو الذي نص الله عليه في كتابه، ونص عليه رسوله، حيث أضاف الأعمال صالحها وسيئها إلى العباد وأخبر أنهم الفاعلون لها، وأنهم ممدوحون عليها إن كانت صالحة، ومثابون عليها مذمومون إن كانت سيئة، ومعاقبون عليها.

فقد تبين بلا ريب واتضح أنها واقعة منهم وباختيارهم، وأنهم إن شاءوا فعلوا وإن شاءوا تركوا، وأن هذا الأمر ثابت عقلًا وحسًّا وشرعًا ومشاهدة.

ومع ذلك فإذا أردت أن تعرف أنها وإن كانت كذلك واقعة منهم، كيف تكون داخلة في القدر وكيف تشملها المشيئة؟

فيقال: بأى شيء وقعت هذه الأعمال الصادرة من العباد خيرها وشرها؟ فيقال: فهى بقدرتهم وإرادتهم وهذا يعترف به كل أحد.

ويقال أيضًا: ومن خلق قدرتهم ومشيئتهم وإرادتهم؟

فالجواب: الذي يعترف به كل أحد، أن الله هو الذي خلق قدرتهم وإرادتهم، وهو الذي خلق ما به تقع الأفعال هو الخالق للأفعال.

فهذا هو الذي يحل الإشكال، ويتمكن العبد أن يعقل بقلبه اجتماع القدر والقضاء والاختيار، ومع ذلك فهو تعالى أمد المؤمنين بأسباب وألطاف وإعانات متنوعة، وصرف عنهم الموانع كما قال ﷺ: «وأما من كان من أهل السعادة فييسّر لعمل أهل السعادة»[2].

وكذلك خذل الفاسقين ووكلهم إلى أنفسهم، ولم يُعنهم؛ لأنهم لم يؤمنوا به ويتوكلوا عليه؛ فولاهم ما تولوه لأنفسهم، ولما ضاق تحقيق هذا المقام على قلوب كثير من الخلق.

انحرفت هنا طائفتان من الناس:

١- طائفة يقال لهم: «الجبرية»: غلوا في إثبات القدر، وتوهموا أن العبد ليس له فعل حقيقة، وأنه لا يمكن أن يثبت للعبد عموم المشيئة. ويثبت للعبد اختيارًا.

٢- والطائفة الأخرى: «القدرية»: قابلتهم فشهدت وقوع أفعالهم بقدرتهم واختيارهم وتوهموا أنه لا يمكن مع ذلك أن تدخل في قضاء الله وقدره فلم تتسع قلوب «الجبرية» و«القدرية» للجمع بين

---

(١) البخاري (١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه.

الأمرين فرد كل منهما قسمًا كبيرًا من نصوص الكتاب والسنة المؤيدة بالعقل الصحيح .

وهدى الله « أَهْلَ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ » فآمنوا بجميع الكتاب والسنة وآمنوا بقضائه وقدره وشمولهما لكل موجود وبشرعه وأمره وأن العباد فاعلون حقيقة مختارون ، فإيمانهم بعموم القدر يُوجِب لهم الاستعانة التامة بربهم ؛ لعلمهم أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأن له في عباده المؤمنين ألطافًا وتيسيرًا لا يُنال إلا بقوة الإيمان والتوكل وأوجب لهم إيمانهم - بالشرع والأمر والنهي والأسباب وأنها مرتبطة بمسبباتها شرعًا وقدرًا - الجد والاجتهاد في فعل الأسباب النافعة - الدينية والدنيوية- ، وبذلك تعرف أن الإيمان الصحيح سبب لكل خير .

ومن فوائد الإيمان بالقضاء والقدر : أنه يوجب للعبد سكون القلب طمأنينته وقوته وشجاعته ؛ لعلمه أنه ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأنه يسلي العبد عن المصائب ، ويوجب له الصبر والتسليم والقناعة بما رزق الله .

قال تعالى : ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن : ١١] قال بعض السلف : « هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويُسَلِّم » .

ومن فوائده : أنه يوجب للعبد شهود منة الله عليه فيما يَمُنُّ به عليه من فعل الخيرات وأنواع الطاعات ، لا يعجبْ بنفسه ولا يُدْلِ بعلمه ؛ لعلمه أن الله تعالى هو الذي تفضل عليه بالتوفيق والإعانة وصرف الموانع والعوائق ، وأنه لو وكله إلى نفسه لضعف وعجز عن العمل وعن الثبات عليه .

كما أنه سببٌ لشكر نعم الله فما يُنْعِم عليه من نعم الدين والدنيا ، فإنه يعلم أنه ما بالعبد من نعمة إلا من الله ، وأن الله هو الدافع لكل مكروه ونقمة .

۞ قال الشيخ عبد العزيز بن محمد بن مانع رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

قوله : « فَأَوَّل مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ » :

* اعلم أن العلماء رحمهم الله اختلفوا في العرش والقلم أيهم خُلق أولًا ؟ وحكى ابن القيم في ذلك قولين : اختار أن العرش مخلوق قبل القلم .

ولهذا قال في « النونية » :

والناس مختلفون في القلم الذي ... كتب القضاء به من الديان
هل كان قبل العرش أو هو بعده ... قولان عند أبي العلا الهمذاني
والحق أن العرش قبل لأنه ... قبل الكتابة كان ذا أركان
وكتابة القلم الشريف تعقبت ... إيجاده من غير فصل زمان

قوله : « لَا يَكُونُ فِي مُلْكِهِ إِلَّا مَا يُرِيدُ » :

* الإرادة نوعان :

إحداهما : الإرادة الكونية : المستلزمة لوقوع المراد التي يقال فيها : ما شاء اللّٰه كان وما لم يشأ لم يكن .

والثانية : الإرادة الدينية الشرعية : وهذه لا تستلزم وقوع المراد إلا أن يتعلق بها النوع الأول من الإرادة ، وفي أوائل « فتح المجيد » بحث مفيد في الفرق بين الإرادتين فليراجعه طالب التحقيق .

قوله : « وَلا يُحبُّ الْكَافِرِينَ ، وَلاَ يَرْضَى عَنِ ...» :

* اعلم أن الذي عليه الأئمة المحققون ، ودل عليه الكتاب والسنة : أن المشيئة والمحبة ليستا واحدًا ولا هما متلازمان ، بل قد يشاء ما لا يُحبه ويُحب ما لا يشاء كونه .

فالأول : كمشيئته وجود إبليس وجنوده ، ومشيئته العامة لجميع ما في الكون مع بغضه لبعضه .

والثاني : كمحبته إيمان الكفار ، وطاعات الفُجّار ، وعدل الظالمين ، وتوبة الفاسقين . ولو شاء ذلك لوجد كله ، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

قوله : « وَلِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَلَهُمْ إِرَادَةٌ » :

* أي : فليس بمجبر على أعماله ؛ لأنه يعملها بإرادته واختياره ، فيثاب على الطاعة ، ويستحق العقاب على المعصية .

وما أحسن قول ابن عدوان ناظم هذه العقيدة حيث قال :

وللعبد يا ذا قدرة وإرادة ... على العمل افهم فهم غير مبلد

فيفعل يا ذا باختيار وقُدرة ... وليس بمجبور ولا بمضهد

قوله : « وَيَغْلُو فِيهَا قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الإِثْبَاتِ » :

* أي : لأنهم أثبتوا خالقًا لما اعتقدوه شرًا غير اللّٰه .

قال في « التدمرية » : « إن من الناس من جعل بعض الموجودات خلقًا لغير اللّٰه كالقدرية وغيرهم ، ولكن هؤلاء يقرون بأن اللّٰه خالق العباد وخالق قدرتهم ، وإن قالوا : إنهم خلقوا أفعالهم » .

وقال في « النونية » :

فالناسُ كلهم أقروا أنه ... هو وحده الخلاق ليس اثنانِ

إلا المجوسَ فإنهم قالوا بأنَّ ... الشرَّ خالقُه إلهٌ ثانِ

۞ قال الشيخ محمد خليل هراس رحمه الله :

قوله : « وتؤمن الفرقة الناجية من أهل السنة والجماعة بالقدر خيره وشره ... »:

والإيمان بالقدر خيره وشره من اللّٰه تبارك وتعالى أحد الأركان الستة التى يدور عليها فلك الإيمان كما دل عليه حديث جبريل وغيره ، وكما دلت عليه الآيات الصريحة من كتاب اللّٰه ﷻ .

وقد ذكر المؤلف هنا أن الإيمان بالقدر على درجتين ، وأن كلًّا منهما تتضمن شيئين ،

فالدرجة الأولى : تتضمن أولًا الإيمان بعلمه القديم المحيط بجميع الأشياء ، وأنه تعالى علم بهذا العلم القديم الموصوف به أزلًا وأبدًا كل ما سيعمله الخلق فيما لا يزال وعلم به جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال ، فكل ما يوجد من أعيان وأوصاف ويقع من أفعال وأحداث فهو مطابق لما علمه لله ﷻ أزلًا .

ثانيًا : إن الله كتب ذلك كله وسجله فى اللوح المحفوظ ، فما علم الله كونه ووقوعه من مقادير الخلائق وأصناف الموجودات وما يتبع ذلك من الأحوال والأوصاف والأفعال ودقيق الأمور جليلها قد أمر القلم بكتابته كما قال ﷺ : « قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » . وكما قال فى الحديث الذى ذكره المؤلف : « إن[1] أول ما خلق الله القلم ، قال له : اكتب . قال : وما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة » .

و(أول) هنا بالنصب على الظرفية ، والعامل فيه : قال أى له ذلك أول ما خلقه ، وقد روى بالرفع على أنه مبتدأ خبره القلم ، ولهذا اختلف العلماء فى العرش والقلم أيهما خلق أولًا . وحكى العلّامة ابن القيم فى ذلك قولين ، واختار أن العرش مخلوق قبل القلم . قال فى « النونية » :

وَالنَّاسُ مختلِفُونَ فِي القَلَمِ الَّذِي ... كُتِبَ القَضَاءُ بِهِ مِنَ الدَّيَّانِ
هَلْ كَانَ قَبلَ العَرشِ أَو هُوَ بَعدَهُ ... قَولَانِ عِنَد أَبِى العَلَا الهَمَدانِي
وَالحَقُّ أَنَّ العَرشَ قَبلُ لأَنَّهُ ... وَقتَ الكِتَابَةِ كَانَ ذَا أَركَانِ
وَكِتَابَةُ القَلَمِ الشَّرِيفِ تَعَقَّبَتْ ... إِيجَادَهُ مِنْ غَيرِ فَصلِ زَمَانِ

وإذا كان القلم قد جرى بكل ما هو كائن إلى يوم القيامة ، فكل ما يقع من كائنات وأحداث فهو مطابق لما كتب فيه ، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، كما جاء فى حديث ابن عباس رضي الله عنهما وغيره .

وهذا التقدير التابع للعلم القديم تارة يكون جملة كما فى اللوح المحفوظ ، فإن فيه مقادير كل شيء ، ويكون فى مواضع تفصيلًا يخص كل فرد كما فى الكلمات الأربع التى يؤمر الملك بكتابتها عند نفخ الروح فى الجنين ؛ يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أم سعيد ، فهذا تقدير خاص ، وهذا التقدير السابق على وجود الأشياء قد كان ينكره غلاة القدرية قديمًا مثل معبد الجهنى ، وغيلان الدمشقى ، وكانوا يقولون : إن الأمر أنف . ومنكر هذه الدرجة من القدر كافر ؛ لأنه أنكر معلومًا من الدين بالضرورة قد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع .

---

(١) ليس فى نص « الواسطية ذكر لفظ : « أن » أول رواية هذا الحديث التى ذكرها ، ثم إن قول المؤلف : « وأول » هنا بالنصب على الظرفية يتنافى مع وجود « أن » أولها إذ لو كان موجودًا لكان نصب « أول » به لا على الظرفية » .
« إسماعيل الأنصاري » .

وهؤلاء الذين ينكرون علم الله بأفعال العبد حكمهم فى الشرع أنهم كفار ؛ لأنهم كذبوا قول الله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ، وغيرها من الآيات ، وخالفوا المعلوم بالضرورة من الدين .

قوله : (وأما الدرجة الثانية من القدر . . .) إلخ : **فهى تتضمن** شيئين أيضًا :

أولهما : **الإيمان بعموم مشيئته تعالى ، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا يقع فى ملكه ما لا يريد ، وأن أفعال العباد من الطاعات والمعاصى واقعة بتلك المشيئة العامة التى لا يخرج عنها كائن سواء كان مما يحبه الله ويرضاه أم لا .**

وثانيهما : **الإيمان بأن جميع الأشياء واقعة بقدرة الله تعالى ، وأنها مخلوقة له لا خالق لها سواه ، لا فرق فى ذلك بين أفعال العباد وغيرها ، كما قال تعالى : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾** [الصافات : ٩٦] .

ويجب الإيمان بالأمر الشرعى ، وأن الله تعالى كلف العباد فأمرهم بطاعته وطاعة رسله ونهاهم عن معصيته ، ولا منافاة أصلًا بين ما ثبت من عموم مشيئته سبحانه لجميع الأشياء وبين تكليفه العباد بما شاء من أمر ونهى ، فإن تلك المشيئة لا تنافى حرية العبد واختياره للفعل ، ولهذا جمع الله بين المشيئتين بقوله : ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير : ٢٨، ٢٩] .

كما أنه لا تلازم بين تلك المشيئة وبين الأمر الشرعى المتعلق بما يحبه الله ويرضاه ، فقد يشاء الله ما لا يحبه ويحب ما لا يشاء كونه ، (فالأول) : **كمشيئته وجود إبليس وجنوده .** (والثانى) : **كمحبة إيمان الكفار وطاعات الفجار وعدل الظالمين ، وتوبة الفاسقين ولو شاء ذلك لوجد كله ، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .**

وكذلك لا منافاة بين عموم خلقه تعالى لجميع الأشياء ، وبين كونه العبد فاعلًا لفعله ، فالعبد هو الذى يوصف بفعله فهو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلى والصائم ، والله خالقه وخالق فعله ؛ لأنه هو الذى خلق فيه القدرة والإرادة اللتين بهما يفعل .

يقول العلَّامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر آل سعدى ، غفر الله له وأجزل مثوبته :

(إن العبد إذا صلى وصام وفعل الخير أو عمل شيئًا من المعاصى ، كان هو الفاعل لذلك العمل الصالح ، وذلك العمل السيئ ، وفعله المذكور بلا ريب قد وقع باختياره وهو يحس ضرورة أنه غير مجبور على الفعل أو الترك وأنه لو شاء لم يفعل ، وكان هذا هو الواقع فهو الذى نص الله عليه فى كتابه ونص عليه رسوله حيث أضاف الأعمال صالحها وسيئها إلى العباد ، وأخبر أنهم الفاعلون لها وأنهم ممدوحون عليها إن كانت صالحة ومثابون ، وملومون عليها إن كانت سيئة ومعاقبون عليها .

فقد تبين واتضح بلا ريب أنها واقعة منهم باختيارهم وأنهم إذا شاءوا فعلوا وإذا شاءوا تركوا ، وأن هذا الأمر ثابت عقلًا وحسًا وشرعًا ومشاهدة .

ومع ذلك إذا أردت أن تعرف أنها وإن كانت كذلك واقعة منهم كيف تكون داخلة فى القدر وكيف تشملها المشيئة ؟ فيقال : بأى شىء وقعت هذه الأعمال الصادرة من العباد خيرها وشرها ؟ فيقال : بقدرتهم وإرادتهم ، هذا يعترف به كل أحد ، فيقال : ومن خلق قدرتهم وإرادتهم ومشيئتهم ؟ فالجواب : الذى يعترف به كل أحد : إن اللّٰه هو الذى خلق قدرتهم وإرادتهم ، والذى خلق ما به تقع الأفعال هو الخالق للأفعال ، فهذا هو الذى يحل الإشكال ويتمكن العبد أن يعقل بقلبه اجتماع القدر والقضاء والاختيار ، ومع ذلك فهو تعالى أمد المؤمنين بأسباب وألطاف وإعانات متنوعة وصرف عنهم الموانع كما قال ﷺ : « أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة » . وكذلك خذل الفاسقين ووكلهم إلى أنفسهم ؛ لأنهم لم يؤمنوا به ولم يتوكلوا عليه فولاهم ما تولوا لأنفسهم) . أهـ .

وخلاصة مذهب أهل السنة والجماعة فى القدر وأفعال العباد ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة من أن اللّٰه سبحانه هو الخالق لكل شىء من الأعيان والأوصاف والأفعال وغيرها ، وأن مشيئته تعالى عامة شاملة لجميع الكائنات ، فلا يقع منها شىء إلا بتلك المشيئة ، وأن خلقه سبحانه الأشياء بمشيئته إنما يكون وفقًا لما علمه منها بعلمه القديم ، ولما كتبه وقدره فى اللوح المحفوظ ، وأن للعباد قدرة وإرادة تقع بها أفعالهم ، وأنهم الفاعلون حقيقة لهذه الأفعال بمحض اختيارهم ، وأنهم لهذا يستحقون عليها الجزاء ، إما بالمدح والمثوبة ، وإما بالذم والعقوبة ، وأن نسبة هذه الأفعال إلى العباد فعلًا لا ينافى نسبتها إلى اللّٰه إيجادًا وخلقًا ؛ لأنه هو الخالق لجميع الأسباب التى وقعت بها .

وضل فى القدر طائفتان كما تقدم :

(الطائفة الأولى) : القدرية نفاة القدر الذين هم مجوس هذه الأمة ، كما ورد ذلك فى بعض الأحاديث مرفوعًا وموقوفًا ، وهؤلاء ضلوا بالتفريط وإنكار القدر ، وزعموا أنه لا يمكن الجمع بين ما هو ثابت بالضرورة من اختيار العبد فى فعله ومسئوليته عنه ، وبين ما دلت عليه النصوص من عموم خلقه تعالى مشيئته ؛ لأن ذلك العموم فى زعمهم إبطال لمسئولية العبد عن فعله وهدم للتكاليف ، فرجحوا جانب الأمر والنهى وخصَّصوا النصوص الدالة على عموم الخلق والمشيئة بما عدا أفعال العباد وأثبتوا أن العبد خالق لفعله بقدرته وإرادته ، فأثبتوا خالقين غير اللّٰه ، ولهذا سموا مجوس هذه الأمة ؛ لأن المجوس يزعمون أن الشيطان يخلق الشر والأشياء المؤذية ، فجعلوه خالقًا مع اللّٰه ، فكذلك هؤلاء جعلوا العباد خالقين مع اللّٰه .

(والطائفة الثانية) : يُقال لها : الجبرية ، وهؤلاء غلوا فى إثبات القدر حتى أنكروا أن يكون للعبد فعلٌ حقيقة بل هو فى زعمهم لا حريةَ له ولا اختيار ولا فعل كالريشة فى مهب الرياح ، وإنما تسند الأفعال إليه مجازًا فيقال : صلى وصام وقتل وسرق . كما يقال : طلعت الشمس وجرت الريح ونزل المطر . فاتهموا ربَّهم بالظلم وتكليف العباد بما لا قدرة لهم عليه ، ومجازاتهم على ما ليس من فعلهم ، واتهموه بالعبث

في تكليف العباد ، وأبطلوا الحكمة من الأمر والنهي ، ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل : ٥٩] .

❁ قال الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ ﷺ :

« وَتُؤْمِنُ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ » – من النار ، والناجية من بين الفرق « أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ بِالْقَدَرِ » وهذا آخر أصول الإيمان الستة المتقدم ذكرها في أول هذه العقيدة المختصرة ، وتقدم لك ما يتعلق بالخمسة الأول ، وهذا الفصل مما يتعلق بالسادس وهو القدر ، والمصنف ﷺ ذكر الأصول الستة ، وما بعد ذلك شرح ، منه ما هو ببسط ومنها ما دون ذلك ، فالذي تكلم فيه ووقع فيه النزاع وكثر بين أهل السنَّة والمبتدعين أطال فيها ، والتي لم يتنازع فيها ذكر منها كالإشارة .

ولم يقل : « فصل : ومن أصول أهل السنة ، الإيمان بقدرة الله ، والإيمان بكتب الله ، والإيمان برسل الله » ؛ وذلك لأن المبتدعة لم يكن لهم كلام فيه ولا نزاع ، إنما ذكر الذي فيه النزاع « القدر » مسألة الإيمان به ، فإن القدرية النفاة والمجبرة انحرفوا عن الصراط المستقيم فاحتيج لبعض التطويل في ذلك .

والقدر : من التقدير وهو التهيئة .

« خَيْرِهِ وَشَرِّهِ » كما جاء في بعض ألفاظ الحديث : قدر مقادير الخلائق بما يلائم الخلق من أمور دينهم ودنياهم ، جميع ما كان في الأديان والأبدان ، والخير والشر ، والصحة والمرض ، ونحو ذلك ، فهو بقضاء الله وقدره . فما من خير في الأديان والأبدان فهو بقضاء الله وقدره ، وما من شر في الأديان والأبدان فهو بقضاء الله وقدره .

« وَالإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَينِ ، كُلُّ دَرَجَةٍ » واحدة منهما « تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ » ، فمن آمن بها كلها حقيقة ؛ فقد آمن بالقدر ، ومن كفر بها أو ببعضها ؛ فقد كفر بالقدر .

« فَالدَّرَجَةُ الأُولَى : الإِيمَانُ بِأَنَّ اللَّه تَعَالَى عَلِمَ مَا الخَلْقُ عَامِلُونَ » من خير وشر ، وجارين عليه من خير أو شر .

عَلِمَه « بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ الَّذِى هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ أَزَلًا ، وَعَلِمَ جَمِيعَ أَحْوَالِهِم مِّنْ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِى وَالأَرْزَاقِ » سعتها وضيقها ، « وَالآجَالِ » طول الأعمار وقصرها ، والأجسام صحتها وسقمها ، وكذا وكذا إلى ما لا يحصى ، والآثار ، وجميع تفاصيل ما هو صائر منهم عَلِمَه بعلمه القديم ، فعَلِم تفاصيل ما هو صادر منهم وما هو جارٍ منهم ، وما هم صائرون إليه .

وهذا الشيء الأول من هذه الدرجة الأولى : الإيمان بعلم الله الأشياء ، أنه عَلِمَهَا في الأزل علمًا تفصيليًا .

« ثُمَّ كَتَبَ اللَّه فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ » ، والشيء الثاني من الدرجة الأولى : الإيمان بالكتابة ، أنه كتب ما هو عالم ، ورسم أن الخلق عاملوه ؛ ويأتي الشيئان ، فتجتمع حقيقة الإيمان بالقدر

في هذه الأربعة .

فصار الإيمان بالقدر في الحقيقة ينتظم الإيمان بأربعة أشياء .

« فَأَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّه : الْقَلَمَ » بالنسبة إلى هذا الكون المشاهد ، وإلا فالعرش موجود مخلوق قبله كما في الأحاديث .

« قَالَ لَهُ : « اكْتُبْ » . قَالَ : « مَا أَكْتُبُ ؟ » . قَالَ : « اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » » هذا من جملة الأحاديث المثبتة للقدر .

« فَمَا أَصَابَ الإِنْسَانَ » مما علم اللّه وكتبه « لَمْ يَكُن لِيُخْطِئَهُ » ولو اجتمع أهل السماوات والأرض ، « وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُن لِيُصِيبَهُ » هذا نتيجة وحقيقة الإيمان بالقدر .

« جَفَّتِ الأَقْلامُ » التي كتبت بها المقادير .

« وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ » على ما كتب فيها ، فلا تغيير ولا تبديل « كَمَا قَال سُبْحَانَهُ : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍۚ﴾ » هذا هو الكتاب الأول ؛ يعني : أن ما علمه كائنًا من العباد ، كتبه في الكتاب الذي فيه المقادير ، فأول الآية فيه إثبات العلم السابق ، وآخرها فيه إثبات الكتابة السابقة .

ثم قال : (﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾) .

« وقَالَ : ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ﴾ » قبل أن نبرأ الأرض ، وقيل : الأنفس ، وقيل : المصيبة . والحقيقة : أنه يعود إليها كلها ، (﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾) .

فهذان شيئان تتضمنهما هذه الدرجة .

« وَهَذَا التَّقْدِيرُ » ؛ أي : قَدَر الكتابة التي هي الثاني من أنواع القدر « التَّابِعُ لِعِلْمِهِ سُبْحَانَهُ » ، فإن الكتابة تابعة لعلمه سبحانه ، « يَكُونُ فِي مَوَاضِعَ » :

« جُمْلَةً » ؛ يعني : أنه أقسام وأنواع ، بعضها جملة ، وبعضها تفصيل لبعض .

« وَتَفْصِيلًا » : منها ما هو كتابته جملة ، ومنها ما كتابته تفصيلًا ، ولكن ما بعد الجملة يكون تابعًا للجملة .

« فَقَدْ كَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَا شَاءَ » وهذا الكتاب الأول ، ليس فيه تغيير أبدًا ، ألا ترى أنه قال : ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ؟ هذا هو الجملة ، ومن هذه الجملة تفاصيل ؛ منها عند تخليق الجنين .

« وَإِذَا خَلَقَ جَسَدَ الْجَنِينِ قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيه ؛ بَعَثَ إِلَيْهِ مَلَكًا ، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ ، فَيُقَالُ : « اكْتُبْ رِزْقَهُ ، وَأَجَلَهُ ، وَعَمَلَهُ ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ » » ، وجاء أنه يقال لمَلكِ الأرحام : ارجع فانظر إلى قصة هذه النطفة .

« وَنَحْوُ ذَلِكَ » هذا نوع من أنواع التفصيل من الجملة الأولى ، وهو راجع إليها .

ومنه ما يكون في ليلة القدر ، وكذلك الذي في خبر ابن عباس ؛ « ينظر الله فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة ....» إلخ[١] ، فهذا كله تفصيل من القدر .

« فَهذَا القَدَرُ » ؛ يعني : الكتابة « قَدْ كَانَ يُنْكِرُهُ غُلاةُ الْقَدَرِيَّةِ قَدِيمًا » ؛ يعني : الذين خرجوا في زمن الصحابة؛ كمعبد الجهني، وعمرو بن عبيد وأتباعهما، يقولون: لا قدر ؛ يعني : أن الأمر أُنُف- مستأنف- .

وقال الإمام الشافعي : « ناظروهم بالعلم ، فإن أقروا به خُصِمُوا ، وإن جحدوه كفروا » .

يعني : أن كفرهم من هذه الناحية أشهر ، فإنهم إن جحدوا العلم فقد جحدوا سابق علم الله .

ويقول الإمام أحمد رحمه الله : « القدر : قدرة الله » ، واستحسنه ابن عقيل .

ومراده : أن هذه جملة هامة عظيمة في هذا الباب ، وفي ضمنها بطلان ما سلكوه من إنكار أن الله على كل شيء قدير .

ومراد أحمد - رحمة الله عليه - ؛ يعني : من آمن بالقدرة فإنها حجة على القدر ، ومن أنكر قدرة الله على الأشياء فقد أنكر قدر الله ؛ يعنى : فمن أنكر القدر فقد أنكر قدرة الله ؛ يعنى : وأي شيء يستنكر مِنْ كَتْبِ الله تعالى إذا كان قد علمه ، فما المانع من الكتابة ؟ !

وحديث : « إن الأمر أُنُف »[٢] ؛ يعني : يستأنف الله ما يقضيه إذا أراده ؛ يعني : يجد له قدرًا ؛ يعني : وأن لا قدر سابق .

« يتقفرون العلم » ؛ يعني : يخوضون فيما لم يسبقهم إليه أحد ، وفي رواية : « يفقرون » ؛ يعني : يتكلفون ؛ لكونهم بحثوا فيما لم يتعبد الخلق العلم بها ، بل تعبدوا بالسكوت عنها .

« وَمُنْكِرُوهُ الْيَوْمَ قَلِيلٌ » في زمن الشيخ ومن يليه . فالذين في زمن المصنف نفاة لا ينكرون هذا ، بل ينكرون غيره من أنواع القدر ، أو المجبرة ، وهم أكثر من النافية .

« وأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ » تقدم أن الإيمان بالقدر على درجتين ، وتقدمت الدرجة الأولى ، وأنها تتضمن شيئين ، وأن أحدهما : أن الله عَلِمَ ... إلخ . والثاني : أنه كتب ما علمه في اللوح المحفوظ ... إلخ . وهذه الدرجة الثانية ، وهي تتضمن شيئين : الأول : الإيمان بالإرادة والمشيئة . والثاني : الإيمان بخلق الله الكائنات بقدرته سبحانه وتعالى .

« فَهِيَ مَشِيئَةُ اللَّه النَّافِذَةُ ، وَقُدْرَتُهُ الشَّامِلَةُ ، وَ » حقيقة ذلك وإيضاحه : « هُوَ : الإيمَانُ بِأَنَّ مَا شَاءَ اللَّه كَانَ » ، ولا يريد شيئًا إلا يكون بكل حال ، « وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ » وهذه كلمة المسلمين : ما شاء الله

---

(١) الحاكم في « المستدرك » (٢/٥١٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنه .

(٢) مسلم (٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ومقتضى أن ما شاء اللّٰه كان ، أن ما لم يشأ لا يكون .

« وأَنَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ ومَا فِي الأَرْضِ مِنْ حَرَكَةٍ وَلاَ سُكُونٍ إلاَّ بِمَشِيئَةِ اللّٰه سُبْحَانَهُ ، لاَ يَكُونُ فِي مُلْكِهِ إلَّا مَا يُرِيدُ » فما من شيء واقع إلا وقد شاء اللّٰه ولا بد ، وما لم يشأ فلا يكون أبدًا ، ولا يكون شيء طاعة أو معصية إلا اللّٰه شاءه .

« وأنَّهُ سبحانه وتعالى عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ » التي لم تفعل والممكن وجوده أما المستحيلات فليست شيئًا حتى تشمل بالعلم والقدرة .

« فَمَا مِنْ مَخْلُوقٍ فِي الأرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ إلَّا اللّٰه خَالِقُهُ سُبْحَانَهُ » وموجده . هذا من مضمون ما شاء اللّٰه كان .

« لا خَالِقَ غَيْرُهُ ، وَلاَ رَبَّ سِوَاهُ » فشاء ما في الكون وأوجده بقدرته ومشيئته ، فصار ما في الكون بهذين الشيئين .

فصار الإيمان بالقدر ينتظم أربعة أشياء :

الأول : الإيمان بعلم اللّٰه القديم .

الثاني : الإيمان بأن ما علمه كتبه في السابق .

الثالث : الإيمان بأن ما شاء اللّٰه كان .

الرابع : الإيمان بأن ما من موجود إلا اللّٰه موجده .

فما من موجود من الموجودات إلا وهو مشمول بهذه الأربعة : الإيمان بعلمه تعالى السابق . والإيمان بأن اللّٰه كتب في الأزل ما علمه كائنًا . والإيمان بمشيئة اللّٰه النافذة وقدرته الشاملة . والإيمان بأنه ما من موجود إلا وهو موجده .

« وَمَعَ ذَلِكَ » ؛ يعني : ما تقرر لك من الأصل العظيم - وهو الإيمان بالقدر ، وأنه أحد أركان الإيمان الستة ، وما اشتملت عليه الأشياء الأربعة السابقة - يأتي بعد ذلك عدم منافاة القدر للشرع ، وأنهما أخوان مصطحبان لا ينافي أحدهما الآخر ، وأنه ما ضاق به صدرٌ إلا المبتدعة ، نظروا بعين واحدة وأغضوا عينًا ، أخذوا جانبًا من النصوص وتركوا جانبًا ، وهدى اللّٰه أهل السنة والجماعة فنظروا بالعينين جميعًا ، وآمنوا بالشرع والقدر جميعًا .

« فَقَدْ أَمَرَ الْعِبَادَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ » ومعصية رسله ، فوجب الإيمان بشرعه وقدره جميعًا ؛ بأن يؤمن أن هذا شرعه ويمتثله ويفعله ، فإذا امتثل صار من أهل السعادة ، والقدر لا حجة فيه ، وهو تامٌّ وماضٍ ، ولا رادَّ له ، وسبق ألَّا يكون الخلق على طريق واحدة ؛ بل أن يكون الخلق متفاوتين كما قال : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ كجنة ونار لتسكنا ، وهو اللائق بجلاله ، وسواء ليس بكمال .

ولا منافاة بين الشرع والقدر ، فإنها ضاقت أعطان القدرية ولم تتسع للشرع والقدر جميعًا .

فالقدرية النفاة من المعتزلة وغيرهم أثبتوا الحكمة والشرع وغلوا فيهما ، ونفوا القدر أو بعضه ، وقالوا : إن الأمر والنهي بيد الإنسان ، فإنها زعمت أنها إذا أثبتت القدر صارت معطلة للشرع .

وقابلها طائفة القدرية الجبرية ، فغلبت جانب القدر وغلت فيه ، وعطلت جانب الشرع ، وقالوا : إن العبد مجبور ، لا فعل له ، وإنما هو كالأشجار في مهب الريح ... إلخ .

وأهل السنة قالوا : له فعل صحيح ، واختيار صحيح ، ويحمد على فعل الخير ، ويذم ويعاقب على فعل الشر .

فهدى اللَّه أهل الحق أهل السنَّة والجماعة فآمنوا بالشرع والقدر ، وقالوا : ما في الكون كله خلق للَّه ، فالأفعال فعل للمخلوق ، خلقٌ للرب ، فأفعالهم نسبتها إلى نسبة خلق وإيجاد ، ونسبتها إلى العبد نسبة فعل .

فالشرع والقدر متلازمان ولا حجة في القدر على الشرع ، بل قد ركز اللَّه في عقول العباد معرفة النافع من الضار ، وأحدهم يعرف الضار ويجتنبه ، والنافع فيأتيه .

« وَهُوَ - سُبْحَانَهُ - يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَالْمُحْسِنِينَ وَالْمُقْسِطِينَ ، وَيَرْضَى عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَلا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ، وَلاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ، وَلاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ، وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهُ الْكُفْرَ ، وَلاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ » ففرقٌ بين المحبة والإرادة ، لا كما زعمه المبتدعة الذين يقولون : ما شاءه فقد أحبه ، بل يريد سبحانه وتعالى أشياء لا يحبها ، وقد أراد كُفر إبليس وكُفر الكفار ، ومع ذلك لا يحبه ؛ لكونه ظلمًا وفسادًا ، فهو سبحانه لا يحب الكافرين ، ومع ذلك أفعالهم بقدرته وقضائه ، يحبه قدرًا ولا يحبه شرعًا ، فإنه يحب ذلك ولا يحب المفعول ، يحب القضاء والقدر في أهل الشقاء ، وما يترتب عليه مبغوض له ، فعلمه وقضاؤه كله جميل ، واللَّه يحب كل جميل .

« وَالعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً » إذا عرف ما تقدم من القدر والإيمان به ، وعرف أن اللَّه أمر بطاعته وطاعة رسله ، وأنه لا تعارض بين القدر والشرع ، وأن أهل السنَّة آمنوا بهما جميعًا ، فاعلم أن العباد لهم أفعال حقيقية تقول : صلَّى زيد ، زنى زيد . خلافًا للأشاعرة ، فإن عندهم القول بالكسب .

« وَاللَّه خَالِقُ أَفْعَالِهِمْ » نعم هي منه خلق وإيجاد . ففرق بينَ الخلق والفعل .

فأفعال العباد لها نسبتان : نسبة فعل وعمل ، ونسبة خلق وإيجاد ، فنسبة الخلق للَّه ونسبة الفعل إليهم .

« وَالْعَبْدُ هُوَ : الْمُؤْمِنُ ، وَالْكَافِرُ ، وَالْبَرُّ ، وَالْفَاجِرُ ، وَالْمُصَلِّى ، وَالصَّائِمُ » وإن كان مدبَّرًا ، بل هو حقيقة إذا صلى فهو المصلى ، وإذا قتل فهل القاتل غير من فَعَل القتل ؟ ! فالفعل إنما يضاف إلى من باشره ، كما تقول : قام زيد ، كَفر زيد ، قعد زيد . هذا هو المعروف في لغة العرب التي نزل بها القرآن ،

فما صدر من المخلوق فهو فعل له ، ليس فعلًا لربِّ العالمين .

« وِلِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ عَلَى أَعْمَالِهِم وَإِرَادَةٌ » ، لهم تصور واختيار وفعل .

« وَاللَّه خَالِقُهُمْ وَخَالِقُ قُدْرَتَهِمْ وَإِرَادَتَهِمْ » ؛ كما قال تعالى : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ، فهي لرب العالمين خلق وإيجاد وتكوين ، وللمخلوق فعل وتصور ، فهي قضاء اللَّه وقدره ، وهي للعبد فعل ، فجانب الخلق إلى اللَّه ، وجانب الفعل إلى ما صدر منه وباشره ، كما تقدم وكما يأتي .

ومما يدل على ذلك « قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ » دل على أن للعبد مشيئة حقيقية ، ودل على أن له استقامة ، ودل على أن العبد لا يملكها استقلالًا ، فوجود وتصور المشيئة من العبد لا يكون إلا بمشيئة اللَّه ، فإرادته تابعة لإرادة اللَّه ، ومشيئته تابعة لمشيئة اللَّه .

« وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ الْقَدَرِ يُكَذِّبُ بِهَا عَامَّةُ الْقَدَرِيَّةِ » ؛ أي : النفاة من المعتزلة وغيرهم « الَّذِينَ سَمَّاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ : « مَجُوسِ هَذِهِ الأُمَّةِ » » ، وإنما سموا مجوس هذه الأمة ، لمضارعة مذهبهم لمذهب المجوس ، لإخراج المجوس بعض مخلوقات اللَّه عن اللَّه ، فإن المجوس هم القائلون بالأصلين ، النور والظُّلمة ، وأن النور خلق الخير ، وأن الظلمة خلقت الشر ، فهؤلاء ضارعوهم ، أخرجوا أفعال العباد عن أن تكون مخلوقة للَّه ، ورأوا أن العبد هو الذي يفعل الطاعات والمعاصي ويخلقها ، والذي ألجأهم - زعمًا منهم - لإثبات الشرع ، غلوٌّ منهم في أفعال العباد . قالوا : لو كانت خلقًا للَّه لكان ذلك للعبد ظلمًا ، ويريدون الباء في قوله تعالى : ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ باء العوض ، وهؤلاء مشبهة الأفعال ، وضعوا أوضاعًا جعلوا الخالق فيها مثل المخلوق ، والباء للسبب ؛ كما في الحديث : « لا يدخل أحدكم الجنة بعمله ...» الحديث[1] .

« وَيَغْلُو فِيهَا قَومٌ مِنْ أَهْلِ الإِثْبَاتِ » وهم الجبرية ، ويقولون : إن العبد لا فعل له أصلًا ، أثبتوا هذه الدرجة من القدر وغلوا فيها .

« حَتَّى سلبُوا الْعَبْدَ قُدْرَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ » قالوا : لا قدرة له ولا اختيار ، فهذا مسلك الجبرية ومنهم الجهمية ومن مَسْلك المنتسبين إلى أبي الحسن الأشعري ، وإن كان قد رجع عما كان قد قال به أولًا ، والمنتسبون ليسوا على ما كان عليه ، فإنه صرح أنه على مذهب أهل السنَّة .

« وَيُخرِجُونَ عَنْ أَفْعَالِه وَأَحْكَامِهِ حِكَمَهَا وَمَصَالِحَهَا » فينفون الحكمة .

والخلاصة : أن القدرية النافية أثبتوا الفعل للعبد ، ولم يثبتوا أنها خلق للَّه ، وقابلهم المجبرة في ذلك ، فالكل منهم ردَّ النصوص من الكتاب والسنَّة .

وهدى اللهُ أهلَ السنَّة ، فآمنوا بالشرع والقدر جميعًا ، ووفَّقُوا بين النصوص .

---

(١) البخاري (٥٦٧٣) ، ومسلم (٢٨١٦/٧١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

۞ **قال الشيخ زيد بن عبد العزيز آل فياض رحمه الله :**

الإيمان بالقدر :

قوله : « وَتُؤْمِنُ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ أَهْلُ السُّنَّةِ والْجَمَاعِةِ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ . وَالإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَينِ ، كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ ....» :

* **ذكر المؤلف رحمه الله في هذا المبحث الركن السادس من أركان الإيمان وهو الإيمان بالقدر خيره وشره وذكر أن ذلك مشتمل على أربع مراتب .**

الأولى : علم الله القديم وأنه قد علم أعمال العباد قبل أن يعملوها .

الثانية : كتابة ذلك في اللوح المحفوظ .

الثالثة : مشيئة الله العامة وقدرته الشاملة .

الرابعة : إيجاد الله لكل المخلوقات وأنه الخالق وكل ما سواه مخلوق . وهذا قول أهل السنة والجماعة ، وهو القول الحق الذي يدل عليه الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان خلافًا للقدرية النفاة والمجبرة ونحوهم .

والمخاصمون في القدر نوعان :

أحدهما : **من يبطل أمر الله ونهيه بقضائه وقدره كالذين قالوا : ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ .**

والثاني : **من ينكر قضاءه وقدره السابق . والطائفتان خصماء الله ، قال عوف : من كذب بالقدر فقد كذب الإسلام ، إن الله تبارك وتعالى قدر أقدارًا وخلق الخلق بقدر وقسم الآجال بقدر وقسم الأرزاق بقدر وقسم البلاء بقدر وقسم العافية بقدر وأمر ونهي . وقال الإمام أحمد : القدر قدرة الله . واستحسن ابن عقيل هذا الكلام جدًّا وقال : هذا يدل على دقة علم أحمد وتبحره في معرفة أصول الدين ، وهو كما قال أبو الوفاء ، فإن إنكار القدر إنكار لقدرة الرب على خلق أعمال العباد وكتابتها وتقديرها ، وسلف القدرية كانوا ينكرون علمه بها ، وهم الذين اتفق السلف على تكفيرهم وفي تفسير عليٍّ ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ قال : الذين يقولون : إن الله على كل شيء قدير » .**

وقوله : « خَيْرِهِ وَشَرِّهِ » **فهو تعالى الخالق لكل شيء وما يقع في الكون فهو بمشيئته وإن كان لا يحبه ولا يرضاه « فإنه خلق الخير والشر لما له فمن ذلك من الحكمة التي باعتبارها كان فعله حسنًا متقنًا كما قال تعالى : ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ وقال : ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ فلهذا لا يضاف إليه الشر مفردًا ، بل إما أن يدخل في العموم وإما أن يضاف إلى السبب ، وإما أن يحذف فاعله .**

والثاني : كقوله : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ .

والثالث : كقوله فيما حكاه عن الجن ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ وقد قال في أم القرآن : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فذكر أنه فاعل النعمة وحذف فاعل الغضب وأضاف الضلال إليهم ، وقال الخليل : ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ ولهذا كان للَّه الأسماء الحسنى فسمى نفسه بالأسماء الحسنى المقتضية للخير وإنما يذكر الشر في المفعولات كقوله تعالى : ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ . وقوله : ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ وهذا لأن ما يخلقه من الأمور التى فيها شر بالنسبة إلى بعض الناس له فيها حكمة هو بخلقه لها حميد مجيد له الملك وله الحمد ، فليست بالإضافة إليه شرًا ولا مذمومة فلا يضاف إليه ما يشعر بنقيض ذلك »[1].

« فإن الشر لا يدخل في شيء من صفاته ولا في أفعاله كما لا يلحق ذاته تبارك وتعالى فإن ذاته لها الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه وأوصافه كذلك لها الكمال المطلق والجلال التام ولا عيب فيها ولا نقص بوجه ما ، وكذلك أفعاله كلها خيرات محضة لا شر فيها أصلًا ، ولو فعل الشر سبحانه لاشتق له منه اسم ولم تكن أسماؤه كلها حسنى ولعاد إليه منه حكم ، تعالى وتقدس عن ذلك ، وما يفعله من العدل بعباده وعقوبة من يستحق العقوبة منهم هو خير محض إذ هو محض العدل والحكمة وإنما يكون شرًا بالنسبة إليهم فالشر وقع في تعلقه بهم وقيامه بهم لا في فعله القائم به تعالى ، ونحن لا ننكر أن الشر يكون في مفعولاته المنفصلة ، فإنه خالق الخير والشر ، ولكن هنا أمران ينبغي أن يكونا منك على بال .

أحدهما :أن ما هو شر أو متضمن للشر فإنه لا يكون إلا مفعولًا منفصلًا لا يكون وصفًا له ، ولا فعلًا من أفعاله .

الثاني :أن كونه شرًا هو أمر نسبي إضافي ، فهو خير من جهة تعلق فعل الرب وتكوينه به ، وشر من جهة نسبته إلى من هو شر في حقه فله وجهان هو من أحدهما خير وهو الوجه الذي نسب منه إلى الخالق سبحانه وتعالى خلقًا وتكوينًا ومشيئته لما فيه من الحكمة البالغة التي استأثر بعلمها وأطلع من شاء من خلقه على ما شاء منها فقد عرفت أن كونه شرًا هو أمر إضافي وهو في نفسه خير من جهة نسبته إلى خالقه ومبدعه »[2].

« فالقدر لا شر فيه بوجه من الوجوه فإنه علم اللَّه وقدرته وكتابته ومشيئته وذلك خير محض وكمال

---

(١) « المنهاج » (٢/٢٥) .

(٢) « بدائع الفوائد » (٢/٢١١) .

من كل وجه ، فالشر ليس إلى الرب تعالى بوجه من الوجوه لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله .

وإنما يدخل الشر الجزئي الإضافي في المقضي المقدر ويكون شرًّا بالنسبة إلى محل وخيرًا بالنسبة إلى محل آخر ، وقد يكون خيرًا بالنسبة إلى المحل القائم به من وجه كما هو شر له من وجه دون وجه وخير بالنسبة إلى غيرهم لما فيه من مصلحة الزجر والنكال ودفع الناس بعضهم ببعض ، وكذلك الآلام والأمراض وإن كانت شرورًا من وجه فهي خيرات من وجوه عديدة فالخير والشر من جنس اللذة والألم والنفع والضرر وذلك في المقضي المقدر لا في نفس صفة الرب وفعله القائم به ، فإن قطع يد السارق شر مؤلم ضار له وأما قضاء الرب ذلك وتقديره عليه فعدل وخير وحكمة ومصلحة فإن قيل : فما الفرق بين كون القدر خيرًا وشرًّا وكونه حلوًا ومرًّا ؟

قيل : الحلاوة والمرارة تعود إلى مباشرة الأسباب في العاجل ، والخير والشر يرجع إلى حسن العاقبة وسوءها فهو حلو ومر في مبدئه وأوله ، وخير وشر في منتهاه وعاقبته ، وقد أجرى اللّٰه سبحانه سنته وعادته أن حلاوة الأسباب في العاجل تعقب المرارة في الآجل ومرارتها تعقب الحلاوة فحلو الدنيا مر الآخرة ، ومر الدنيا حلو الآخرة ، وقد اقتضت حكمته سبحانه أن جعل اللذات تثمر الآلام والآلام تثمر اللذات والقضاء والقدر منتظم لذلك انتظامًا لا يخرج عنه شيء البتة والشر مرجعه إلى اللذات وأسبابها والخير المطلوب هو اللذات الدائمة والشر المرهوب هو الآلام الدائمة فأسباب هذه الشرور وإن اشتملت على لذة ما .

وأسباب تلك الخيرات وإن اشتملت على ألم ما ، فألم يعقب اللذة الدائمة أولى بالإيثار والتحمل من لذة تعقب الألم الدائم فلذة ساعة في جنب ألم طويل كَلَا لذة ، وألم ساعة في جنب لذة طويلة كَلَا ألم »[1] .

« واعلم أن الشر كله يرجع إلى العدم - أعني عدم الخير وأسبابه المفضية إليه وهو من هذه الجهة شر ، وأما من جهة وجوده المحض فلا شر فيه ، مثاله : إن النفوس الشريرة وجودها خير من حيث هي موجودة ، وإنما حصل لها الشر بقطع مادة الخير عنها فإنها خلقت في الأصل متحركة لا تسكن ، فإن أعينت بالعلم وإلهام الخير تحركت ، وإن تركت تحركت بطبعها إلى خلافه وحركتها من حيث هي حركة خير ، وإنما تكون شرًّا بالإضافة لا من حيث هي حركة ، والشر كله وهو وضع الشيء في غير موضعه ، فلو وضع في موضعه لم يكن شرًّا فعلم أن جهة الشر فيه نسبة إضافية .

ولهذا كانت العقوبات الموضوعات في محالها خيرًا في نفسها وإن كانت شرًّا بالنسبة إلى المحل الذي حلت به لما أحدثت فيه من الألم الذي كانت الطبيعة قابلة لضده من اللذة مستعدة له فصار ذلك

---

(١) « شفاء العليل » (ص٢٦٩) .

الألم شرًّا بالنسبة إليها وهو خير بالنسبة إلى الفاعل حيث وضعه موضعه ، فإنه سبحانه لا يخلق شرًّا محضًا من جميع الوجوه والاعتبارات فإن حكمته تأبى ذلك بل قد يكون ذلك المخلوق شرًّا ومفسدة ببعض الاعتبارات وفي خلقه مصالح وحكم باعتبارات أُخر أرجح من اعتبارات مفاسده ، بل الواقع منحصر في ذلك فلا يمكن في جناب الحق جل جلاله أن يريد شيئًا يكون فسادًا من كل وجه بكل اعتبار لا مصلحة في خلقه بوجه ما .

هذا من أبين المحال فإنه سبحانه بيده الخير ، والشر ليس إليه ، بل كل ما إليه فخير ، والشر إنما حصل لعدم هذه الإضافة والنسبة إليه .

فلو كان إليه لم يكن شرًّا فتأمله فانقطاع نسبته إليه هو الذي صيره شرًّا .

فإن قلت : لم تنقطع نسبته إليه خلقًا ومشيئة ؟ قلت : هو من هذه الجهة ليس بشر فإن وجوده هو المنسوب إليه ، وهو من هذه الجهة ليس بشر والشر الذي فيه من عدم إمداده بالخبر وأسبابه . والعدم ليس بشيء ينسب إلى من بيده الخير .

فإن أردت مزيد إيضاح لذلك فاعلم أن أسباب الخير ثلاثة : الإيجاد والإعداد والإمداد فهذه هي الخيرات وأسبابها فإيجاد السبب خير وهو إلى الله وإعداده خير وهو إليه أيضًا وإمداده خير وهو إليه أيضًا فإذا لم يحدث فيه إعداد ولا إمداد حصل فيه الشر بسبب هذا العدم الذي ليس إلى الفاعل وإنما إليه ضده .

فإن قلت : فهلا أمده إذ أوجده ؟ قلت : الحكمة إيجاده وإمداده فإنه سبحانه يوجده ويمده وما اقتضت إيجاده وترك إمداده ، أوجده بحكمته ولم يمده بحكمته فإيجاده خير ، والشر وقع من عدم إمداده .

فإن قلت : فهلا أمد الموجودات كلها ؟ قلت : فهذا سؤال فاسد يظن مورده أن التسوية بين الموجودات أبلغ في الحكمة وهذا عين الجهل ، بل الحكمة كل الحكمة ، في هذا التفاوت العظيم الواقع بينها وليس في خلق كل نوع منها تفاوت والتفاوت إنما وقع بأمور عدمية لم يتعلق بها الخلق ، وإلا فليس في الخلق من تفاوت .

وسر المسألة : أن الرضى بالله يستلزم الرضى بصفاته وأسمائه وأحكامه ولا يستلزم الرضى بمفعولاته كلها ، بل حقيقة العبودية : أن يوافقه عبده في رضاه وسخطه فيرضى منها بما يرضى به ويسخط منها ما سخطه . فإن قلت : كيف يرضى لعبده شيئًا ولا يعينه عليه ؟ قلت : لأن إعانته عليه قد تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التى رضيها له .

وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه يتضمن مفسدة هى أكره إليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة بحيث يكون وقوعها منه مستلزمًا لمفسدة راجحة ، ومفوتًا لمصلحة راجحة ، وقد أشار تعالى إلى ذلك في

قوله : ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فأخبر سبحانه أنه كره انبعاثهم مع رسول الله ﷺ للغزو وهو طاعة وقربة وقد أمرهم الله به فلما كرهه منهم ثبطهم عنه .

ثم ذكر سبحانه بعض المفاسد التي كانت ستترتب على خروجهم لو خرجوا مع رسول الله ﷺ فقال : ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي : فسادًا وشرًّا ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾ أى : سعوا فيما بينكم بالفساد والشر ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ أى : قابلون منهم مستجيبون لهم فيتولد من بين سعي هؤلاء بالفساد وقبول أولئك منهم من الشر ما هو أعظم من مصلحة خروجهم فاقتضت الحكمة والرحمة أن منعهم من الخروج وأقعدهم عنه ، فاجعل هذا المثال أصلًا لهذا الباب وقس عليه .

فإن قلت : قد يتصور لي هذا في رضى الرب تعالى لبعض ما يخلقه من وجه وكراهته من وجه آخر ، فكيف لي بأن يجتمع الأمران في حقي بالنسبة إلى المعاصي والفسوق ؟ قلت : هو متصور ممكن بل واقع فإن العبد يسخط ذلك ويبغضه ويكرهه من حيث هو فعل له بسببه وواقع بكسبه وإرادته واختياره ويرضى بعلم الله وكتابته ومشيئته وإذنه الكوني فيه فيرضى بما من الله ويسخط ما هو منه ، فهذا مسلك طائفة من أهل العرفان .

وطائفة أخرى رأوا كراهة ذلك مطلقًا وعدم الرضى به من كل وجهة وهؤلاء في الحقيقة لا يخالفون أولئك فإن العبد إذا كرهها مطلقًا فإن الكراهة إنما تنفع على الاعتبار المكروه منها ، وهؤلاء لم يكرهوا علم الرب وكتابته ومشيئته وإلزامه حكمه الكوني ، وأولئك لم يرضوا بها من الوجه الذي سخطها الرب وأبغضها لأجله .

وسر المسألة أن الذي إلى الرب منها غير مكروه والذي إلى العبد منها هو المكروه والمسخوط ، فإن قلت : ليس للعبد شيء منها ؟ قلت : هذا هو البر الباطل الذي لا يمكن صاحبه التخلص من هذا المقام الضيق والقدري أقرب إلى التخلص منه من الجبري ، وأهل السنة المتوسطون بين القدرية والجبرية هم أسعد بالتخلص منه من الفريقين . فإن قلت : كيف يتأتى الندم والتوبة مع شهود الحكمة في التقدير ومع شهود القومية والمشيئة النافذة ؟

قلت : هذا الذي أوقع من عميت بصيرته في شهود الأمر على خلاف ما هو عليه فرأى تلك الأفعال طاعات لموافقته فيها المشيئة والقدر وقال : « إن عصيت أمره فقد أطعت إرادته في ذلك » .

وقيل :

أصبحت منفعلا لما تختاره ... منى ففعل كله طاعات

وهؤلاء أعمى الخلق بصائر وأجهلهم بالله وأحكامه الدينية والكونية فإن الطاعة هي موافقة الأمر لا موافقة القدر والمشيئة ، ولو كانت موافقة القدر طاعة لله لكان إبليس من أعظم المطيعين لله وكان قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون كلهم مطيعين له فيكون قد عذبهم أشد العذاب على طاعته وانتقم منهم لأجلها ، وهذا غاية الجهل بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله » .

قوله : « فَالدَّرَجَةُ الأُولَى : الإِيمَانُ بِأَنَّ اللَّه تَعَالَى عَلِمَ مَا الخَلْقُ عَامِلُونَ بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ الَّذِي هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ أَزَلًا » : « الأزل » بالتحريك القِدَم يقال : أزلي ، أي : قديم . وفي اللسان : وذكر أهل العلم أن أصل هذه الكلمة قولهم للقديم :لم يزل . ثم نسب إلى هذا فلم يستقم إلا بالاختصار فقالوا : بزاي ، ثم أبدلت الياء ألفًا لأنها أخف فقالوا : أزلي كما قالوا في الريح المنسوب إلى ذي يزن : يزني . اهـ .

والعلم صفة ذاتية لله لا يخلو منها ، وقد قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة .

« والعلم أعم من الإرادة وأصل لها والمعلوم أعم من المراد فالعلم يتناول الموجود والمعدوم والواجب والممكن والممتنع وما كان وما سيكون وما يختاره وما لا يختاره .

وأما الإرادة فتختص ببعض الأمور دون بعض والخبر يطابق العلم فكل ما يعلم يمكن الخبر به والإنشاء يطابق الإرادة فإن الأمر إما محبوب يؤمر به أو مكروه ينهى عنه ، وأما ما ليس بمحبوب ولا مكروه فلا يؤمر به ولا ينهى عنه » .

فمرتبة العلم السابق هي أولى مراتب القدر « وقد اتفق عليها الرسل من أوّلهم إلى خاتمهم ، واتفق عليها الصحابة ومن تبعهم من الأمة وخالفهم مجوس الأمة ، وكتابته السابقة تدل على علمه بها قبل كونها » . وقد كَفَّر السلف من الصحابة فمن بعدهم مَنْ أنكر علم الله القديم . وقال ابن عمر والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو كان لأحدهم مثل أُحد ذهبًا ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر خيره وشره وكذا كلام ابن عباس وجابر بن عبد الله وواثلة بن الأسقع وغيرهم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة الإسلام كثير ، حتى قال فيهم الأئمة كمالك والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم : إن المنكرين لعلم الله القديم يكفرون » « فإن الله سبحانه وتعالى علم أهل الجنة من أهل النار قبل أن يعملوا الأعمال ، وهذا حق يجب الإيمان به بل قد نص الأئمة كمالك والشافعي وأحمد أن من جحد هذا فقد كفر ، بل يجب الإيمان به فإن الله علم ما سيكون قبل أن يكون .

وفي الصحيح قالوا : يا رسول الله ، علم الله أهل الجنة من أهل النار ؟ قال : « نعم » قيل : فيم العمل ؟ قال : « اعملوا فكل مَيسر لما خلق له » ، وذلك أن الله علم الأشياء كما هي عليه وقد جعل لها أسبابًا تكون بها ويعلم أنها تكون بتلك الأسباب .

فلابد من الأسباب التي قد علمها الله سبحانه وتعالى من الدعاء والسؤال وغيره فلا ينال العبد شيئًا إلا

بما قدره الله من جميع الأسباب والله خالق ذلك الشيء وخالق الأسباب ، ولهذا قيل : الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا نقص في العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قَدْح في الشرع ، ومجرد الأسباب لا توجب حصول المسبب ، بل لابد من تمام الشروط ، وزوال الموانع ، فكل ذلك بقضاء الله وقدره .

وكذلك أمر الآخرة فليس بمجرد عمل العبد ينال الإنسان السعادة بل العمل سبب كما قال ﷺ : « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله » . الحديث . وقال تعالى : ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهذه باء السبب أى : بسبب أعمالكم والذي نفاه النبى ﷺ باء المقابلة والعوض كما يقال : اشتريت هذا بهذا . أي : ليس العمل عوضًا أو ثمنًا كافيًا في دخول الجنة ، بل لابد معه من عفوه تعالى ورحمته وفضله ومغفرته ، فمغفرته تمحو السيئات ورحمته تأتى بالخيرات وتضاعف الحسنات ، وهذا ضل فريقان : فريق أخذوا بالقدر ، وأعرضوا عن الأسباب الشرعية والأعمال الصالحة ، وظنوا أن ذلك كاف ، وهؤلاء يؤول أمرهم إلى الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وفريق أخذوا يطلبون الجزاء من الله كما يطلبه الأجير من المستأجر متكلين على حَوْلهم وقوتهم وعملهم وهم جهال ضلال ، فمن أعرض عن الأمر والنهي والوعد والوعيد ناظرًا إلى القدر فقد ضل ، ومن طلب المقام بالأمر والنهى معرضًا فقد ضل ، بل لابد من الأمرين فكل لا يعين الله العبد عليه فإنه لا يكون ، وللعبد حالان حال قبل القدر ، فعليه أن يستعين بالله ويتوكل عليه ويدعوه ، وحال بعد القدر فعليه أن يحمد الله في الطاعة ويصبر ويرضى في المصيبة ويستغفر في الذنب وفى الطاعة من النقص ويشكره عليها إذ هي من نعمته » .

المرتبة الثانية مرتبة الكتابة ، وهي أن الله كتب مقادير الخلائق وما هو كائن إلى يوم القيامة في اللوح المحفوظ « وأجمع الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة والحديث أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب . وقد دل القرآن على أن الرب تعالى كتب في أم الكتاب ما يفعله وما يقوله فكتب في اللوح أفعاله وكلامه » .

وقال عبادة بن الصامت لابنه : يا بني ، إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما خلق الله القلم فقال : اكتب قال : رب وماذا أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة » . يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من مات على غير هذا فليس مني » . رواه أبو داود وغيره ، وفي لفظ لأحمد : يا بني إن مت على غير هذا دخلت النار .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : « أن أحدكم خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد ، فوالله الذي لا إلا غيره :

إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينهما إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » . ولمسلم عن حذيفة يبلغ به النبي ﷺ قال : « يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة فيقول : يا رب ، أشقى أم سعيد ؟ فيكتبان فيقول : يا رب ، أذكر أم أنثى فيكتبان ، ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه ، ثم تكتب الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص »

وفى حديث حُذَيفة هذا التوقيت بأربعين أو خمس وأربعين ليلة ، والتوقيت فيه بيان أنها قبل ذلك لا يتعرض لها ولا يتعلق بها تخليق ولا كتابة فإذا بلغت الوقت المحدود وجاوزت الأربعين وقعت في أطوار التخليق طبقًا بعد طبق ووقع حينئذ التقدير والكتابة .

وحديث ابن مسعود صريح في أن وقوع ذلك بعد كونه مضغة بعد الأربعين الثالثة ، وحديث حذيفة فيه أن ذلك بعد الأربعين ولم يوقت البعدية بل أطلقها ووقتها في حديث ابن مسعود ، وحديث حذيفة قال أيضًا على ذلك : ويحتمل وجهًا آخر : وهو أن التقدير والكتابة تقديران وكتابتان فالأول منهما : عند ابتداء تعلق التحويل والتخليق في النطفة وهو إذا مضى عليها أربعون ودخلت في طور العلقة وهذا أول تخليقه .

والتقدير الثانى والكتابة الثانية إذا كمل تصويره وتخليقه وتقدير أعضائه وكونه ذكرًا أو أنثى من الخارج فيكتب مع ذلك عمله ورزقه وأجله وشقاوته وسعادته فلا تنافي بين الحديثين ، والتقدير الثانى تقديرًا لما يكون للجنين بعد تصويره فيقدر معه ذلك ويكتب أيضًا ، وهذا التقدير أخص من الأول ونظير هذا : أن اللَّه سبحانه قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، ثم يقدر ليلة القدر ما يكون في العام لمثله .

وهذا أخص من التقدير الأول العام « كما أن تقدير أمر النطفة وشأنها يقع بعد تعلقها بالرحم ، وقد قدر أمرها قبل خلق السماوات والأرض ، ونظير هذا رفع الأعمال وعرضها على اللَّه تعالى فإن عمل العام يرفع في شعبان كما أخبر به الصادق المصدوق : « إنه شهر ترفع فيه الأعمال فأحب أن يرفع عملي وأنا صائم » . ويعرض عمل الأسبوع يوم الإثنين والخميس كما ثبت ذلك في صحيح مسلم ، وعمل اليوم يرفع في آخره قبل الليل ، وعمل الليل في آخره قبل النهار ، فهذا الرفع في اليوم والليلة أخص من الرفع العام ، وإذا انقضى الأجل رفع عمل العمر كله وطويت صحيفة العمل »[1] .

وفى صحيح مسلم عن عبد اللَّه بن عمرو قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « كتب اللَّه مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة » قال : « وعرشه على الماء » . وروى أبو

---

(١) « تهذيب السنن » (٧/٧٦- ٧٧) .

داود وابن ماجه عن أبي بن كعب مرفوعًا : « لو أن اللّٰه عذب أهل سماواته وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالم ولو رحمهم كانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم » . الحديث .

وفي حديث أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال : « يا عبادي ، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا » .

« وقد تنازع الناس في معنى هذا الظلم تنازعًا صاروا فيه بين طرفين ووسط بينهما وخير الأمور أوسطها ، فذهب المكذبون بالقدر القائلون بأن اللّٰه لم يخلق أفعال العباد ولم يرد أن يكون إلا ما أمر بأن يكون ، وغلاتهم المكذبون بتقدم علم اللّٰه وكتابته بما سيكون من أفعال العباد من المعتزلة وغيرهم إلى أن الظلم منه تعالى هو نظير الظلم من الآدميين بعضه لبعض وشبهوه ومثلوه في الأفعال بأفعال العباد حتى كانوا هم ممثلة الأفعال قالوا : إذا أمر العبد ولم يعنه بجميع ما يقدر به عليه من وجوه الإعانة كان ظالمًا له والتزموا أنه لا يقدر أن يهدي ضالًا كما قالوا : إنه لا يقدر أن يضل مهتديًا . وقالوا : إذا أمر اثنين بأمر واحد وخص أحدهما بإعانته على فعل المأمور كان ظالمًا إلى أمثال ذلك من الأمور التي هي من باب الفضل والإحسان جعلوا تركه لها ظلمًا ، وكذلك ظنوا أن التعذيب لمن كان فعله مقدرًا ظلم منه ولم يفرقوا بين التعذيب لمن قام به سبب استحقاق ذلك ، ومن لم يقم به سببه ، وإن كان ذلك الاستحقاق لحكمة أخرى عامة أو خاصة .

فعارض هؤلاء آخرون من أهل الكلام المثبتين للقدر وقالوا : ليس الظلم منه حقيقة يمكن وجودها ، بل هو من الأمور الممتنعة لذاتها ، فلا يجوز أن يكون مقدورًا ولا أن يقال : إنه تارك له باختياره .

وإنما هو من باب الجمع بين الضدين وجعل الجسم الواحد في مكانين وإلا فهما قدر في الذهن ، وكان وجوده ممكنًا فاللّٰه قادر عليه فليس بظلم منه سواء فعله أو لم يفعله ، وتلقى هذا القول عن هؤلاء طوائف من أهل الإثبات من الفقهاء وأهل الحديث من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم من شراح الحديث ، وفسروا هذا الحديث بما ينبني على هذا القول .

فقوله : ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ قال أهل التفسير : لا يخاف أن يظلم فيحمل عليه سيئات غيره ولا يهضم فينقصه من حسناته ، ولا يجوز أن يكون هذا الظلم هو شيئًا ممتنعًا غير مقدور عليه فيكون التقدير : فلا يخاف ما هو ممتنع لذاته خارج عن الممكنات والمقدورات ، فإن مثل هذا إذا لم يكن وجوده ممكنًا حتى يقولوا : إنه غير مقدور ولو أراده كخلق المثل فكيف يعقل وجوده فضلًا عن أن يتصور خوفه حتى ينفى خوفه ثم أي فائدة في نفي خوف هذا ؟ وقد علم من سياق الكلام أن المقصود بيان أن هذا العامل لا يجزى على إحسانه بالظلم والهضم فعلم أن الظلم والهضم المنفي يتعلق بالجزاء كما ذكره أهل التفسير وإن اللّٰه لا يجزيه إلا بعمله .

ولهذا كان الصواب أن اللّٰه لا يعذب إلا من أذنب ، وأيضًا فالأمر الذي لا يمكن القدرة عليه لا يصلح

أن يمدح الممدوح قادرًا عليها فعلم أنه قادر على ما نزه نفسه عنه من الظلم وأنه لا يفعله وبذلك يصح قوله : « إني حرمت الظلم على نفسي » فلا يجوز أن يكون فيما هو ممتنع لذاته فلا يصلح أن يقال : حرمت أو منعت نفسي من خلق مثلي ، أو من جعل المخلوقات خالقة ونحو ذلك من المُحَالَات التي يعلم كل أحد أنها ليست مرادًا للرب . والذي قاله الناس : إن الظلم وضع الشيء في غير موضعه يتناول هذا المقدور دون ذاك الممتنع كقول بعضهم : الظلم إضرار غير المستحق ، فاللَّه لا يعاقب أحدًا بغير حق ، وكذلك من قال : هو نقص الحق كقوله : ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ ومن قال : هو التصرف في ملك الغير . فليس بمطرد ولا منعكس فقد يتصرف الإنسان في ملك غيره بحق ولا يكون ظالمًا .

وقد يتصرف في ملكه بغير حق فيكون ظالمًا ، وظلم العبد نفسه كثير في القرآن فتبين بما قدمناه أن القول الوسط وهو الحق أن الظلم الذي حرمه اللَّه على نفسه مثل أن يترك حسنات المحسن فلا يجزيه بها ، ويعاقب البريء على ما لم يفعله من السيئات ، ويعاقب هذا بذنب غيره ، أو يحكم بين الناس بغير القسط ونحو ذلك من الأفعال التي نزه نفسه سبحانه عنها لقسطه وعدله وهو قادر عليها وإنما استحق الحمد والثناء لأنه ترك هذا الظلم وهو قادر عليه » .

وفي الصحيحين عن عمران بن حصين قال : إني عند النبي ﷺ إذ جاءه قوم من بني تميم فقال : اقبلوا البشرى يا بني تميم قالوا : بشرتنا فأعطنا . فدخل ناس من أهل اليمن فقال : اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم . قالوا : قبلنا ، جئناك نتفقه في الدين ونسألك عن أول هذا الأمر ما كان ؟ فقال : « كان اللَّه ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كل شيء » الحديث .

وقد تكلم علماء المسلمين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم في أول هذه المخلوقات هو العرش أو القلم والأول أرجح كما قال في الكافية الشافية :

والناس مختلفون في القلم الذي	كتب القضاء به من الديان
هل كان قبل العرش أو هو بعده	قولان عند أبي العلا الهمداني
والحق أن العرش قبل لأنه	قبل الكتاب كان ذا أركان
وكتابة القلم الشريف تعقبت	إيجاده من غير فصل زمان
لما يراه اللَّه قال اكتب كذا	فغدا بأمر اللَّه ذا جريان

فقد « اختلف العلماء هل القلم أول المخلوقات أو العرش ؟ على قولين ذكرهما الحافظ أبو العلاء الهمذاني أصحهما أن العرش قبل القلم ، لما ثبت في الصحيح من حديث عبد اللَّه بن عمرو قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « قدر اللَّه مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف عام وعرشه

على الماء ». فهذا صريح أن التقدير وقع قبل خلق العرش والتقدير وقع عند أول خلق القلم لحديث عبادة هذا، ولا يخلو قوله: « أن أول ما خلق اللّه القلم » إلى آخره، إما أن يكون جملة أو جملتين فإن كان جملة وهو الصحيح كان معناه أنه عند أول خلقه قال له: « اكتب » كما في اللفظ « أول ما خلق اللّه القلم » إلى آخره، إما أن يكون جملة أو جملتين، فإن كان جملة وهو الصحيح كان معناه أنه عند أول خلقه قال له: « اكتب » كما في اللفظ: « أول ما خلق اللّه القلم قال له: اكتب » بنصب « أول » و« القلم »، وإن كان جملتين وهو مروي برفع أول والقلم فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم ليتفق الحديثان إذ حديث عبد اللّه بن عمرو صريح في أن العرش سابق على التقدير، والتقدير مقارن لخلق القلم، وفي اللفظ الآخر: « لما خلق اللّه القلم قال له: اكتب ». فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها وقد قال غير واحد من أهل التفسير: إنه القلم الذي أقسم اللّه به ».

قوله: « وكتب في الذكر » يعنى: اللوح المحفوظ كما قال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ أي: من بعد اللوح المحفوظ يسمى ما يكتب في الذكر ذكرًا كما يسمى ما يكتب في الكتاب كتابًا كقوله ﷻ: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ والناس في هذا الحديث على قولين، منهم من قال: إن المقصود إخباره بأن اللّه كان موجودًا وحده ثم ابتدأ إحداث جميع الحوادث فجنسها وأعيانها مسبوقة بالعدم وإن جنس الزمان حادث لا في زمان وجنس الحركات والمتحركات حادث واللّه صار فاعلا بعد أن لم يكن يفعل شيئًا من الأزل إلى حين الفعل ولا كان الفعل ممكنًا.

والقول الثاني: المراد إخباره عن مبدأ خلق هذا العالم المشهود الذي خلقه في ستة أيام ثم استوى على العرش كما أخبر القرآن بذلك في غير موضع.

دليل صحة القول الثانى من وجوه:

أحدها: أن قول أهل اليمن: جئناك لنسألك عن أول هذا الأمر. وهو إشارة إلى حاضر مشهود، والأمر هنا بمعنى المأمور أي: الذي كونه اللّه بأمره وقد أجابهم النبى ﷺ عن بدء هذا العالم الموجود لا عن جنس المخلوقات؛ لأنهم لم يسألوه عنه وقد أخبرهم عن خلق السماوات والأرض حال كون عرشه على الماء لم يخبرهم عن خلق العرش وهو مخلوق قبل خلق السماوات والأرض.

وأيضًا: فإنه قال: « كان اللّه ولم يكن شيء قبله » وقد روى معه وروى غيره والمجلس كان واحدًا فعلم أنه قال أحد الألفاظ والآخران رويا بالمعنى، ولفظ القبل ثبت في غير هذا الحديث، وحينئذ فالذي ثبت عنه لفظ القبل فإنه قد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه: « اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ». الحديث.

ولهذا كان أكثر أهل الحديث إنما يروونه بلفظ القبل كالحميدي والبغوي وابن الأثير وغيرهم وإذا كان كذلك لم يكن في هذا اللفظ تعرض لابتداء الحوادث ولا لأول مخلوق.

وأيضًا فإنه قال : « كان اللّه ولم يكن شيء قبله أو معه أو غيره وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء » . فأخبر عن هذه الثلاثة بالواو وخلق السماوات والأرض روي بـ « الواو » وبـ « ثم » فظهر أن مقصوده إخباره إياهم ببدء خلق السماوات والأرض وما بينهما « وهى المخلوقات التى خلقت في ستة أيام لا ابتداء خلق ما خلقه اللّه قبل ذلك وذكر السماوات والأرض بما يدل على خلقهما وذكر ما قبلهما بما يدل على كونه ووجوده ولم يتعرض لابتداء خلقه .

وأيضًا : فإنه إذا كان الحديث قد ورد بهذا وهذا فلا يجزم بأحدهما إلا بدليل ، فإذا رجح أحدهما فمن جزم بأن الرسول أراد المعنى الآخر ، فهو مخطئ قطعًا ، ولم يأت في الكتاب ولا في السنة ما يدل على المعنى الآخر فلا يجوز إثباته بما يظن أنه معنى الحديث ولم يرد كان اللّه ولا شيء معه مجردًا وإنما ورد على السياق المذكور ولا يظن أن معناه : الإخبار بتعطيل الرب تعالى دائمًا عن الفعل حتى خلق السماوات والأرض .

وأيضًا : فقوله ﷺ : « كان اللّه ولم يكن شيء قبله أو معه أو غيره وكان عرشه على الماء » لا يصح أن يكون المعنى أنه تعالى موجود وحده لا مخلوق معه أصلًا ؛ لأن قوله : « وكان عرشه على الماء » يرد ذلك فإن هذه الجملة وهي « وكان عرشه على الماء » إما حالية أو معطوفة وعلى كلا التقديرين فهو مخلوق موجود في ذلك الوقت ، فعلم أن المراد ولم يكن شيء من العالم المشهود » .

المرتبة الثالثة : مرتبة المشيئة وهي إثبات مشيئة اللّه النافذة وقدرته الشاملة ، والنافذة الماضية التي لا راد لها من : نفذ السهم نفوذًا ونفاذًا خرق الرمية وخرج منها ، ونفذ الأمر مضى ، وأمره نافذ أي : مطاوع ، ونفذ العتق مضى وكأنه مستعار من نفوذ السهم فإنه لا مراد له ... إلخ . أفاده المصباح .

وهذه المرتبة من مراتب القدر « قد دل عليه إجماع الرسل من أولهم إلى آخرهم وجميع الكتب المنزلة من عند اللّه والفطرة التي فطر اللّه عليها خلقه ، وأدلة العقول والعيان وليس في الوجود موجب ومقتض إلا مشيئة اللّه وحده ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، هذا عموم التوحيد الذي لا يقوم إلا به ، والمسلمون من أولهم إلى آخرهم مجموعون على أنه ما شاء اللّه كان وما لم يشأ لم يكن ، وخالفهم في ذلك من ليس منهم في هذا الموضع وإن كان منهم في موضع آخر فجوزوا أن يكون في الوجود ما لا يشاء اللّه وإن شاء ما لا يكون » .

المرتبة الرابعة : مرتبة الخلق والإيجاد فكل ما سوى اللّه فهو مخلوق موجد من العدم كائن بعد أن لم يكن والعباد وأعمالهم مخلوقون مربوبون .

« فهذه المرتبة من مراتب القدر وهي مرتبة خلق اللّه سبحانه الأعمال وتكوينه وإيجاده لها ، وهذا أمر متفق عليه بين الرسل صلى اللّه تعالى عليهم وسلم ، وعليه اتفقت الكتب الإلهية والفطر والعقول والاعتبار ، وخالف في ذلك مجوس الأمة فأخرجت طاعات ملائكته وأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين

وهي أشرف ما في العالم عن ربوبيته وتكوينه ومشيئته بل جعلوهم هم الخالقين لها ولا تعلق لها بمشيئته ولا تدخل تحت قدرته، وكذلك قالوا في جميع أفعال الحيوانات الاختيارية فعندهم أنه سبحانه لا يقدر أن يهدي ضالًا ولا يضل مهتديًا ولا يقدر أن يجعل المسلم مسلمًا والكافر كافرًا والمصلي مصليًا وإنما ذلك بجعلهم أنفسهم كذلك لا يجعله تعالى، وقد نادى القرآن، بل الكتب السماوية كلها والسنة وأدلة التوحيد والعقول على بطلان قولهم، وصاح بهم أهل العلم والإيمان من أقطار الأرض وصنعوا التصانيف في الرد عليهم، ولم يزل السلف وأئمة السُّنة يردون باطلهم بالحق المحض إلى أن نبغت نابغة رد وأبدعتهم ببدعة تقابلها وقابلوا باطلهم بباطل من جنسه.

وقالوا: العبد مجبور على أفعاله مقهور عليها لا تأثير له في وجودها البتة ولا هي واقعة بإرادته واختياره.

وغلا غلاتهم فقالوا: بل هي عين أفعال اللَّه ولا ينسب إلى العبد إلا على المجاز واللَّه سبحانه يلوم العبد ويعاقبه ويخلده في النار على ما لم يكن للعبد فيه صنع ولا هو فعله بل هو محض فعل اللَّه.

وهذا قول الجبرية. وهو إن لم يكن شرًا من قول القدرية فليس هو بدونه في البطلان وإجماع الرسل واتفاق الكتب الإلهية وأدلة العقول والفطر والعيان يكذب هذا القول ويرده والطائفات في عمى عن الحق.

وكل دليل صحيح للجبرية إنما يدل على إثبات قدرة الرب تعالى ومشيئته وإنه لا خالق غيره وإنه على كل شيء قدير، لا يستثنى من هذا العموم فرد من أفراد الممكنات، وهذا حق وليس معهم دليل صحيح ينفي أن يكون العبد قادرًا مريدًا فاعلًا بمشيئته وقدرته وإنه هو الفاعل حقيقة وأفعاله قائمة به وأنها فعل له، لا للَّه وأنها قائمة به لا باللَّه، وكل دليل صحيح بقيمه القدرية فإنما يدل أن أفعال العباد فعل لهم قائم بهم وواقع بقدرتهم ومشيئتهم وإرادتهم وأنهم مختارون لها غير مضطرين ولا مجبورين، وليس معهم دليل صحيح ينفي أن يكون اللَّه سبحانه قادرًا على أفعالهم وهو الذي جعلهم فاعلين.

فأدلة الجبرية متظافرة صحيحة على من نفى قدرة الرب سبحانه على كل شيء من الأعيان والأفعال ونفى علمه ومشيئته وخلقه، وأدلة القدرية متظافرة صحيحة على من نفى فعل العبد وقدرته ومشيئته واختياره وقال: إنه ليس بفاعل شيئًا يعاقبه على ما لم يفعله ولا له قدرة عليه، بل هو مضطر إليه مجبور عليه.

وأهل السنة أسعد بالحق من جميع الطوائف فإنهم يثبتون قدرة اللَّه على جميع الموجودات من الأعيان والأفعال ومشيئته العامة وينزهونه أن يكون في ملكه ما لا يقدر عليه ولا هو واقع تحت مشيئته ويثبتون القدر السابق، وأن العباد يعملون على ما قدره اللَّه وقضاه وفرغ منه وأنه لا يشاءون إلا أن يشاء اللَّه ولا يفعلون إلا من بعد مشيئته وأنه ما شاء اللَّه كان وما لم يشأ لم يكن.

ويثبتون مع ذلك قدرة العبد وإرادته واختياره وفعله حقيقة لا مجازًا وهم متفقون على أن الفعل غير المفعول- كما حكاه البغوي وغيره- فحركاتهم واعتقاداتهم أفعال لهم حقيقة وهي مفعولة لله سبحانه مخلوقة له حقيقة ، والذي قام بالرب ﷻ علمه وقدرته ومشيئته وتكوينه الذي قام بهم هو فعلهم وكسبهم وحركاتهم وسكناتهم فهم المسلمون المصلون القائمون القاعدون حقيقة ، وهو سبحانه هو المقدر لهم على ذلك القادر عليه الذي شاءه وخلقه لهم ومشيئتهم وفعلهم بعد مشيئته فما يشاءون إلا أن يشاء الله وما يفعلون إلا أن يشاء الله .

والجمهور من المسلمين وغيرهم كأئمة المذاهب الأربعة ، وغيرهم من السلف والعلماء يثبتون لله حكمة فلا ينفونها كما نفاها الأشعرية ونحوهم الذين يثبتون إرادة بلا رحمة ولا محبة ولا رضًا وجعلوا جميع المخلوقات بالنسبة إليه سواء لا يفرقون بين الإرادة والمحبة والرضا ، بل ما وقع من الكفر والفسوق والعصيان قالوا : إنه يحبه ويرضاه ، كما يريده . وما لم يقع من الإيمان والتقوى فإنه لا يحبه ولا يرضاه عندهم كما لا يريده وقد قال تعالى : ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ فأخبر أنه لا يرضاه مع أنه قدره وقضاه ولا يوافقون المعتزلة على إنكار قدرة الله وعموم مشيئته وقدرته ولا يشبهونه بخلقه فيما يوجب ويحرم كما فعل هؤلاء ويلبسونه ما وصف به نفسه من الصفات والأفعال .

وقابل هؤلاء قوم من العلماء والعباد وأهل الكلام والتصوف فأثبتوا القدر وآمنوا بأن الله رب كل شيء ومليكه وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، لكنهم قصروا في الأمر والنهي والوعد والوعيد وأفرطوا حتى غلا بعضهم إلى الإلحاد فصاروا من جنس المشركين الذين قالوا : ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ فأولئك القدرية وإن كانوا يشبهون المجوس من حيث إنهم أثبتوا فاعلًا لمَّا اعتقدوه شرًا غير الله .

فهؤلاء شابهوا المشركين الذين قالوا : ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ فالمشركون شر من المجوس ، والمقصود أن من أثبت القَدَرَ واحتج به على الأمر والنهي فهو شر ممن أثبت الأمر والنهي ولم يثبت القدر . وهذا متفق عليه بين المسلمين وغيرهم من أهل الملل بل من جميع المخلوقات فإن من احتج بالقدر وشهد الربوبية العامة لجميع المخلوقات ولم يفرق بين المأمور والمحظور والمؤمن والكافر وأهل الطاعة وأهل المعصية لم يؤمن بأحد من الرسل ولا بشيء من الكتب ، وكان عنده آدم وإبليس سواء ، ونوح وقومه سواء ، وموسى وفرعون سواء ، والسابقون الأولون والكافرون سواء ، ومعلوم أنه يدخل في ذم الله من القدرية من يحتج به على إسقاط الأمر والنهي أعظم مما يدخل فيه المنكر له فإن ضلال هذا أعظم ، ولهذا قرنت القدرية بالمرجئة في كلام غير واحد من السلف ، وروي في ذلك حديث مرفوع لأن كلا من هاتين البدعتين تفسد الأمر والنهي والوعد والوعيد ، فالإرجائي يضعف الإيمان بالوعيد ويهون أمر الفرائض والمحارم ، والقدري إن احتج به كان عونًا للمرجئ وإن

كذب به كان هو والمرجئ قد تقابلا هذا يبالغ في التشديد حتى لا يجعل العبد يستعين الله على فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه .

وهذا يبالغ في الناحية الأخرى ، ومن المعلوم أن الله تعالى أرسل الرسل وأنزل الكتب لتصدق الرسل فيما أخبرت وتطاع فيما أمرت ، كما قال تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ والإيمان بالقدر من تمام ذلك .

ومعلوم أن من أسقط الأمر والنهي الذي بعث الله به رسله فهو كافر باتفاق المسلمين واليهود والنصارى ، بل هؤلاء قولهم متناقض لا يمكن أحدًا منهم أن يعيش به ولا تقوم به مصلحة أحد من الخلق ولا يتعاشر عليه اثنان ، فإن القدر إن كان حجة فهو لكل أحد وإلا فليس حجة لأحد » .

قوله : والعبد هو المؤمن والكافر والبر والفاجر ... إلخ : « العبد تارة يعني به المعبد فيعم الخلق كما في قوله : ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ وتارة يعني به العابد فيخص ثم يختلفون فمن كان أعبد علمًا وحالًا كانت عبوديته أكمل فكانت الإضافة في حقه أكمل مع أنها حقيقة في جميع المواضع » .

« والعبودية نوعان :

عامة وخاصة : فالعبودية العامة عبودية أهل السماوات والأرض كلهم برّهم وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم ، فهذه عبودية القهر والملك ، قال تعالى : ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ فهذا يدخل فيهم مؤمنهم وكافرهم .

وقال : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ﴾ فسماهم عباده مع ضلالهم لكنها تسمية مقيدة بالإشارة .

وأما المطلقة فلم تجئ إلا لأهل النوع الثاني وقال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ ، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ . فهذا يتناول العبودية الخاصة والعامة .

وأما النوع الثاني فعبودية الطاعة والمحبة واتباع الأوامر قال تعالى : ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ، ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ فالخلق كلهم عبيد ربوبيته وأهل طاعته وولايته هم عبيد إلهيته ولا يجيء في القرآن إضافة العباد إليه مطلقًا إلا لهؤلاء .

وإنما انقسمت العبودية إلى خاصة وعامة ؛ لأن أصل معنى اللفظة الذل والخضوع يقال : « طريق مُعَبَّد » إذا كان مذللا بوطء الأقدام . و :فلان عبده الحب . إذ ذله لكن أولياؤه خضعوا له وذلوا طوعًا واختيارًا وانقيادًا لأمره ونهيه ، وأعداؤه خضعوا له قهرًا ورغمًا » .

وأشار المؤلف بقوله : « وَالْعَبْدُ هُوَ : الْمُؤْمِنُ ، وَالْكَافِرُ » إلى قوله : « وَلِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ ولهم إِرَادَةٌ » إلى الرد على الجبرية الذين يقولون : إن العبد لا قدرة ولا إرادة وأنه مجبور على أعماله لا اختيار له .

وأشار بقوله : « وَاللَّه خَالِقُ قُدْرَتَهُمْ وَإِرَادَتَهم » إلى الرد على القدرية النفاة الذين يقولون : إن العبد هو الذي يخلق فعله . وكذَّب عامة القدرية بهذه الدرجة من القَدَرِ ولذا سموا مجوس هذه الأمة .

وروى أبو داود عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « القدرية مجوس هذه الأمة إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم » . قال المنذري : هذا حديث منقطع ، وقد روي هذا الحديث من طرق عن ابن عمر ليس فيها شيء يثبت . اهـ .

وروى أبو داود أيضًا عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل أمة مجوس ومجوس هذه الأمة الذين يقولون : لا قدر ، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته ومن مرض منهم فلا تعودوهم وهم شيعة الدجال ، وحق على الله أن يلحقهم بالدجال » .

وهو حديث ضعيف ، وروي من طريق أخرى ولا يثبت وقد روي هذا المعنى عن جابر بن عبد الله وأبي هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص ورافع بن خديج .

وقد روي في ذم القدرية أحاديث أُخَر تكلم أهل الحديث في صحة رفعها والصحيح أنها موقوفة ، والذي صح عن النبي ﷺ ذمهم من أهل البدع هم الخوارج فإنه قد ثبت فيهم الحديث من وجوه كلها صِحاح ؛ لأن مقالتهم حدثت في زمن النبي ﷺ وكلمه رئيسهم .

وأما الإرجاء والرفض والقدر والتجهم والحلول وغيرها من البدع فإنها حدثت بعد انقراض عصر الصحابة ، وبدعة القدر أدركت آخر عصر الصحابة فأنكرها من كان منهم حيًّا كعبد الله بن عمر وابن عباس وأمثالهم ﷺ . وأكثر ما يجيء من ذمهم فإنما هو موقوف على الصحابة من قولهم فيه .

ثم حدثت بدعة الإرجاء بعد انقراض عصر الصحابة فتكلم فيها كبار التابعين الذين أدركوها ، ثم حدثت بدعة التجهم بعد انقراض عصر التابعين واستفحل أمرها واستطار شرها في زمن الأئمة كالإمام أحمد وذَوِيه ، ثم حدثت بدعة الحلول وظهر أمرها في زمن الحسين الحَلَّاج ، وكلما أظهر الشيطان بدعة من هذه البدع وغيرها أقام الله لها من حزبه وجنده من يردها ويحذر المسلمين منها » .

وسمي القدرية مجوس هذه الأمة « لمضاهاة مذهبهم مذهب المجوس في قولهم بالأصلين وهما النور والظُّلْمة ، يزعمون أن الخير من فعل النور والشر من فعل الظلمة فصاروا ثانوية ، وكذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله ﷻ والشر إلى غيره ، والله سبحانه وتعالى خالق الخير والشر لا يكون شيء منهما إلا بمشيئته » .

وقابل هؤلاء طائفة الجبرية الذين غلو في إثبات القدر حتى سلبوا العبد قدرته واختياره ولأجل ذلك نفوا الحكمة والتعليل ، فالقدرية النفاة قصروا وهؤلاء غلوا ، وأهل السنة وسط بين طرفين ،فلا إفراط ولا تفريط ، على إثبات الأمرين الكتاب والسنة كما قال تعالى : ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ .

فقوله : ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ رد على الجبرية القائلين بأن العبد لا مشيئة له أو أن مشيئته مجرد علامة على حصول الفعل ، لا ارتباط بينها وبينه إلا مجرد اقتران عادي من غير أن يكون سَببًا فيه .

وقوله : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ رد على القدرية القائلين بأن مشيئة العبد مَستقلة بإيجاد الفعل من غير توقف على مشيئة الله بل متى شاء العبد الفعل وجد ، ويستحيل عندهم تعلق مشيئة الله بفعل العبد بل هو يفعله بدون مشيئة الله فالآيتان مبطلتان لقول الطائفتين ، والذي دلت عليه الآية مع سائر أدلة التوحيد وأدلة العقل الصريح أن مشيئة العباد من جملة الكائنات التي لا توجد إلا بمشيئة الله سبحانه وتعالى فما لم يشأ لم يكن البتة ، كما أن ما شاء كان ولا بد ، وهاتان الآيتان متضمنتان إثبات الشرع والقدر والأسباب والمسببات وفعل العبد واستناده إلى فعل الرب ولكل منهما عبودية مختصة بها فعبودية الآية الأولى الاجتهاد واستفراغ الوسع والاختيار والسعي .

وعبودية الثانية : الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجوء إليه واستنزال التوفيق والعون والعلم بأن العبد لا يمكنه أن يشاء ولا يفعل حتى يجعله الله كذلك .

وقوله : « رب العالمين » ينتظم ذلك كله ويتضمنه فمن عطل أحد الأمرين فقد جحد كمال ربوبيته وعطلها » .

❁ قال الشيخ عبد العزيز الناصر الرشيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

قوله : « وَتُؤْمِنُ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ » ... إلخ :

« القدر » : بالفتح والسكون لغة : مصدر قدرت الشيء ، إذا أحطت بمقداره ، وعرفه بعضهم بقوله : هو تعلق علم الله وإرادته أزلًا بالكائنات قبل وجودها ، فلا حادث إلا وقد قدره الله أزلًا ، أي : سبق به علمه وتعلقت به إرادته ، والإيمان بالقدر هو أحد أصول الإيمان الستة المذكورة في حديث جبريل وغيره ، وأجمع عليها أهل السنة والجماعة ، ولم يخالف في ذلك إلا مجوس هذه الأمة القدرية ، وقد خرجوا في أواخر عهد الصحابة ، وأنكر عليهم الصحابة الموجودون إذ ذاك ، وأول من قال ذلك معبد الجهني بالبصرة ، كما روى مسلم في « صحيحه » عن ابن عمر أنه قال : والذي نفسي بيده لو كان لأحدهم مثل أُحد ذهبًا ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر خيره وشره ، ثم استدل بقول النبي ﷺ : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره »[1] ، فجعل الإيمان بالقدرة سادس أصول الإيمان فمن أنكره فليس بمؤمن بل ولا مسلم ، فلا يقبل عمله ، وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذكر آثار في الإيمان بالقدر ، قال : وهذه الآثار كلها تحقق هذا المقام ، وتبين أن من لم يؤمن بالقدر ، فقد انسلخ من التوحيد ، ولبس جلباب الشرك ، بل لم يؤمن بالله ولم يعرفه ، وهذا في كل كتاب أنزله الله على رسله . انتهى .

---

(١) مسلم (٨) ، وأبو داود (٤٦٩٥) من حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ .

وقال طاوس رحمه الله: أدركت ثلاثة مائة من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقدر.

وقال أيوب السختياني: أدركت الناس وما كلامهم إلا أن قضى وقدر، وفي «صحيح مسلم» عن طاووس: أدركت أناسًا من أصحاب رسول الله يقولون: كل شيء بقدر، وسمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «كل شيء بقدر حتى العجز والكيس»(١).

قوله: «خيره وشره»: فلا كائن إلا بإرادته ومشيئته، فهو الخالق لكل شيء.

قال ابن القيم رحمه الله: إثبات الشر في القضاء إنما هو بالإضافة إلى العبد والمفعول إذا كان يقدر عليه بسبب جهله وظلمه وذنوبه لا إلى الخالق، فله في ذلك من الحكم ما تقصر عنه أفهام البشر، فهو شر بالإضافة إلى العبد، وأما بالإضافة إلى الخالق، فكله خير وحكم، فإنه صادر عن حكمة وعلم، وما كان كذلك فهو خير محض بالنسبة إلى الرب؛ إذ هو موجب أسمائه وصفاته، ولا تعارض بينه وبين قوله: «والشر ليس إليك»(٢)؛ لأن معناه: أنه يمنع إضافة الشر إليك بوجه من الوجوه، فلا يضاف الشر إلى ذاته ولا إلى أسمائه وصفاته وأفعاله، فإن ذاته منزهة عن كل شر وصفاته كذلك، إذ كلها صفات كمال ونعوت جلال لا نقص فيها بوجه من الوجوه. انتهى. بتصرف.

قوله: «وَالإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَينِ» ... إلخ:

* ذكر المصنف مراتب الإيمان بالقدر، فبدأ بمرتبة العلم، وقد تقدم الكلام على صفة العلم، وأنها من الصفات الذاتية، وأنها متناولة الموجود والمعدوم، والواجب والممكن، والممتنع.

قال شيخ الإسلام: إن علم الله السابق محيط بالأشياء على ما هي عليه لا محو فيه ولا تغيير، ولا زيادة ولا نقص، فإنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون، وما لا يكون، ولو كان كيف يكون. انتهى.

والأدلة على إثباتها من الكتاب والسنة أكثر من أن تحصر، واتفق عليها الصحابة والتابعون ومن تبعهم، ولم يخالف فيها إلا مجوس هذه الأمة.

قوله: «فَالدَّرجَةُ الأُولَى: الإيمَانُ بِأَنَّ اللَّه تَعَالَى عَلِمَ مَا الخَلْقُ عَامِلُونَ بِعِلْمِهِ ....» ... إلخ:

* قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]، فهو سبحانه موصوف بالعلم، وبأنه بكل شيء عليم أزلًا وأبدًا، فلم يتقدم علمه جهالة، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]، فيعلم سبحانه ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وأشار بما تقدم للرد على غلاة المعتزلة والرافضة الذين أنكروا أن الله عالمًا بالأول، وقالوا: إن الله لا يعلم أفعال العباد حتى يفعلوها – تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا – قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

---

(١) مسلم (٢٦٥٥)، وأحمد (٢/١١٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) مسلم (٧٧١)، وأبو داود (٧٦٠) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قوله : « أزلًا أبدًا » : الأزل : التقدم الذي لا نهاية له ، فالأزل هو الدوام في الماضي ، والأبد ما ليس له آخر فهو الدوام في المستقبل ، فالأزلي : هو الذي لم يزل كائنًا ، والأبدي : هو الذي يزال كائنًا ، وكونه لم يزل كائنًا ، وكونه لم يزل ولا يزال معناه : دوامه وبقاؤه الذي ليس مبتدأ ولا منتهي . انتهى من كلام شيخ الإسلام .

قوله : « من الطاعات » : جمع طاعة مأخوذة من طاع يطوع ، واصطلاحًا : الطاعة : هي موافقة الأمر وكل قُرْبة طاعة ولا عكس ، والمعاصي : جمع معصية وهي ضد الطاعة ، والمعصية : هي الذنب والإثم ؛ ألفاظ مترادفة . والمعصية اصطلاحًا : مخالفة الأمر .

قوله : « والأرزاق والآجال » : الأرزاق جمع رزق وهو لغة : الحظ والنصيب ، وشرعًا : هو ما ينفع من حلال وحرام ، قال اللّٰه تعالى : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود : ٦] فلابد لكل مخلوق من استكمال رزقه ، كما في حديث حذيفة أن رسول اللّٰه ﷺ قال : « هذا رسول رب العالمين نَفَثَ في روعي أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها »[١] رواه البزّار ، وفي المتفق عليه من حديث ابن مسعود قال : « يرسل الملك فيؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد »[٢] الحديث .

وزعمت المعتزلة أن الحرام ليس برزق ، فعلى قولهم يكون من أكل الحرام طول عمره لم يرزقه اللّٰه ، وهذا باطل مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف ، فإن اللّٰه سبحانه رازق كل الخلق ، وليس مخلوق بغير رزق ، ومعلوم أن الحرام معيشة لبعض الناس ، وقال تعالى : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ ، وقد قسم سبحانه معايشهم في الحياة الدنيا : قال تعالى : ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرف : ٣٢] . وفي الحديث : « إن اللّٰه قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم »[٣] ، إلى غير ذلك من الأدلة .

قوله : « والآجال » : أي : أنه سبحانه قد علم رزقه وأجله قبل خلقه وإيجاده ، قال تعالى : ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٤] والأجل هو غاية الوقت في الموت ومدة الشيء ، وفي « صحيح مسلم » عن عبد اللّٰه قال : قالت أم حبيبة زوج النبي ﷺ : « اللهم أمتعني بزوجي رسول اللّٰه وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية » قال : فقال النبي ﷺ : « لقد سألت اللّٰه لآجال مضروبة وأيام معدودة وأرزاق مقسومة ، لن يعجل شيئًا قبل أجله أو يؤخر شيئًا عن أجله ، ولو كنت سألت اللّٰه أن يعيزك

---

(١) القضاعي في « مسند الشهاب » (١١٥١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه وصححه الألباني في « صحيح الترغيب والترهيب » (١٧٠٢) .

(٢) البخاري (١٢٢٦) ، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

(٣) أحمد (١/٣٨٧) ، والبيهقي في الشعب (٥٥٢٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

من عذاب في القبر كان خيرًا أو أفضل »[(١)] ، إلى غير ذلك من الأدلة على أن الميت مات بعد استيفاء أجله واستكمال رزقه ، سواء مات حتف أنفه أو مات بالقتل ، خلافًا للمعتزلة القائلين بأن المقتول قطع عليه أجله ، وقولهم باطل ترده أدلة الكتاب والسنة .

قوله : « ثُمَّ كَتَبَ اللَّه تَعَالَى فِي اللَّوْحِ » ... إلخ :

* هذه المرتبة الثانية من مراتب الإيمان بالقدر وهي مرتبة الكتابة ، وهي أن اللَّه كتب مقادير الخلائق وما هو كائن إلى يوم القيامة في اللوح المحفوظ ، فأعمال العباد تجري على ما سبق في علمه وكتابته ، والأدلة من الكتاب والسنة على إثبات هذه المرتبة كثيرة جدًّا ، وأجمع على إثباتها الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة والحديث .

قال اللَّه تعالى : ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [الحديد : ٢٢] الآية .

وفي « سنن أبي داود » عن عُبادة بن الصامت قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « أول ما خلق اللَّه القلم ، فقال له : اكتب ، قال : وما اكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة »[(٢)] ، وفي الصحيح من حديث عبد اللَّه بن عمرو قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « قَدَّر اللَّه مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء »[(٣)] . وأفاد هذا الحديث : أن التقدير وقع بعد خلق العرش ، فدل على أن العرش مخلوق قبل القلم .

قوله : « فَمَا أَصَابَ الإِنْسَانَ » ... إلخ :

هذا هو حقيقة الإيمان بالقدر ، فما يصيب الإنسان مما يضره وينفعه ، فكله مقدَّر عليه ، ولا يصيب العبد إلا ما كتب له من مقادير ذلك في الكتاب السابق ، كما قال سبحانه : ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة : ٥١] ، وفي حديث ابن عباس رضي اللَّه عنه أن النبي ﷺ قال له : « واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ..»[(٤)] الحديث .

قوله : « جَفَّتِ الأَقْلَامُ ، وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ » :

* هذا كناية عن كتابة المقادير كلها والفراغ منها من أمد بعيد ، وقد دل الكتاب والسنة على مثل

---

(١) مسلم (٢٦٦٣) ، وأحمد (١/٣٩٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) أبو داود (٤٧٠٠) ، والبيهقي (١٠/٢٠٤) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٢٠١٨) .

(٣) مسلم (٢٦٥٣) ، والترمذي (٢١٥٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٤) أبو داود (٤٦٩٩) ، وابن ماجه (٧٧) من حديث أُبي بن كعب رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٥٢٤٤) .

هذا المعنى كما في حديث ابن عباس المتقدم : « واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رُفعت الأقلام وجَفَّت الصحف »[1] رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

وفي « الصحيحين » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له : « جفَّ القلم بما أنت لاقٍ »[2] . وفي « صحيح مسلم » عن جابر رضي الله عنه أن رجلًا قال : يا رسول الله ، فيم العمل ؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ؟ أم فيما يستقبل ؟ قال : « فيما جَفَّت به الأقلام وجرت به المقادير » ، قال: ففيم العمل ؟ قال : « اعملوا فكُلٌّ ميسر لما خلق له »[3] .

قال ابن القيم رحمه الله : قد تضمن هذا الحديث الرد على القدرية والجبرية ، وإثبات القدر والشرع ، وإثبات الكتاب الأول المتضمن لعلم الله سبحانه الأشياء قبل كونها ، وإثبات خلق الفعل الجزائي وهو يبطل أصول القدرية الذين ينفون خلق الفعل مطلقًا ، ومن أقر منهم بخلق الفعل الجزائي دون الابتداء هدم أصله ونقض قاعدته ، والنبي ﷺ أخبر بمثل ما أخبر به الرب أن العبد ميسر لما خلق له لا مجبور ، فالجبر لفظ يُدَّعى والتيسير لفظ القرآن والسنة . ا. هـ .

قوله : « الأقلام » : ذكر الأقلام في هذه الأحاديث وغيرها مجموعة ، دليل على المقادير أقلامًا غير القلم الأول الذي تقدم ذكره مع اللوح المحفوظ ، والذي دلت عليه السنة أن الأقلام أربعة .

الأول : القلم العام الشامل لجميع المخلوقات ، وهو الذي كتب به مقادير كل شيء .

الثاني : خبر خلق آدم وهو قلم عام أيضًا ، لكن لبني آدم ، وورد في هذا آيات تدل على أن الله قَدَّر أعمال بني آدم وأرزاقهم وآجالهم وسعادتهم عقب خلق أبيهم .

الثالث : حين يرسل الملك إلى الجنين في بطن أمه فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد .

الرابع : الموضوع على العبد عند بلوغه الذي بأيدى الكرام الكاتبين الذين يكتبون ما يفعله بنو آدم كما ورد ذلك في الكتاب والسنة : انتهى من كلام ابن القيم .

قوله : « ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ » : أي : من قحط وقلة نبات وقلة ثمار .

قوله : « ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ » : من أمراض وفقد أولاد ونحو ذلك .

قوله : « ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ » : وهو اللوح المحفوظ .

---

(١) الترمذي (٢٥١٦) ، وأحمد (١/٢٩٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وصححه الألباني في « مشكاة المصابيح » (٥٣٠٢) .

(٢) البخاري (٤٧٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) مسلم (٢٦٤٨) ، وأحمد (٣/٣٠٤) من حديث جابر رضي الله عنه .

قوله : « ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ » : أي من قبل أن نخلق الأرض والأنفس .

قوله : « ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ » : أي : أن علمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها طبق ما يوجد في حينها سهل على اللّٰه ؛ لأنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، ففي هذه الآيات أخبر سبحانه عن قَدَرِه السابق في خلقه قبل أن يبرأ البرية ، فما أصابهم من خير وشر قد كتب عليهم وقدر ولابد من وقوعه ، وهذه الآيات فيها الرد على القدرية نفاة العلم السابق .

قال النووي في « شرح مسلم » : قال العلماء رحمهم اللّٰه : وكتاب اللّٰه ولوحه وقلمه والصحف المذكورة في الأحاديث ، كل ذلك مما يجب الإيمان به ، وأما كيفية ذلك وصفته فعلمه إلى اللّٰه : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ [البقرة : ٢٥٥] . ا.هـ .

قوله : « وَهَذَا التَّقْدِيرُ ...» إلخ :

* أي : المتقدم ذكره ، وهو تقدير اللّٰه سبحانه وتعالى لمقادير الخلق في علمه وكتابه قبل تكوينها وإيجادها يكون في مواضع جملة وتفصيلًا ، فمنها ما هو عام شامل لكل كائن كما في حديث : « لما خلق اللّٰه القلم قال له : اكتب فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة »(١) ، ومنها ما هو كالتفصيل من القدر السابق وبعضها أخص من بعض فما في الحديث المتقدم تقدير شامل ، وأخص منه ما في حديث ابن مسعود : « يجمع خلق أحدكم ...»(٢) ، الحديث ، وأخص منهما ما ورد أنه يقدر في ليلة القدر ما يلقاه في تلك السنة إلى السنة الأخرى ، فقوله : « فقد كتب اللّٰه في اللوح المحفوظ » إلى آخره ، وهذا هو التقدير العام قبل خلق السماوات والأرض ، وما ذكره في حديث ابن مسعود : « يجمع خلق أحدكم في بطن أمه أربعين يومًا نطفة ، ثم أربعين يومًا علقة مثل ذلك ، ثم أربعين يومًا مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك ، فيؤمر بأربع كلمات ، بكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أم سعيد »(٣) ، الحديث . فهذا تقدير عمري ، وما رواه عبد الرازق وابن جرير عن قتادة رضي اللّٰه عنه في قوله تعالى : ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ [القدر : ٤] الآية . قال : يقضي ما يكون في السنة إلى مثلها ، فهذا التقدير تقدير حولي وما في حديث ابن عباس رضي اللّٰه عنه : « إن اللّٰه خلق لوحًا محفوظًا من درة بيضاء دفتاه من ياقوتة حمراء قلمه نور وكتابه نور ، عرضه ما بين السماوات والأرض ينظر فيه كل يوم ثلاث مائة وستين نظرة يحيي ويميت ، ويعز ويذل ، ويفعل ما يشاء ، فكذلك قوله سبحانه : ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن : ٢٩] »(٤) رواه عبد الرازق وابن

---

(١) الترمذي (٣٣١٩) ، وابن أبي شيبة (٧/٢٦٤) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « صحيح الترمذي » (٢٦٤٥) .

(٢) البخاري (١٢٢٦) ، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

(٣) تقدم تخريجه .

(٤) الطبراني (١٠/٢٦٠) ، وأبو نعليم في « الحلية » (١/٣٢٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (١٦٠٨) .

المنذر والطبراني . والحاكم ، فهذا التقدير المذكور في هذا الحديث تقدير يومي .

قال ابن القيم رحمه الله : وكل واحد من هذه التقادير كالتفصيل من القدر السابق ، وفي هذا دليل على كمال علمه سبحانه وقدرته وحكمته وزيادة تعريفه الملائكة وعباده المؤمنين بنفسه وأسمائه ، قال : فاتفقت هذه الأحاديث ونظائرها على أن القدر السابق لا يمنع العمل ولا يوجب الاتكال عليه ، بل يوجب الجد والاجتهاد . ا . هـ .

قوله : « فَهَذَا القَدَرُ قَدْ كَانَ يُنْكِرُهُ غُلاةُ ...» ... إلخ :

قوله : « فهذا القدر » : أي : المذكور فيما تقدم ، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها طبق ما يوجد في حينها قد كان ينكره غلاة القدرية كمعبد الجهني الذي سأل ابن عمر عن مقالته ، وكعمرو بن عبيد وغيره فينكرون علمه المتقدم وكتابته السابقة ، ويزعمون : أنه أمر ونهي وهو لا يعلم من يطيعه ممن يعصيه ، بل الأمر أنف - أي مستأنف - وهذا القول أول ما حدث في الإسلام بعد انقراض عصر الخلفاء الراشدين ، وكان أول من أظهر ذلك بالبصرة معبد الجهني ، وأخذ عنه هذا المذهب غيلان الدمشقي ، فلما ابتدع هؤلاء التكذيب بالقدر ردَّ عليهم من بقي من الصحابة كعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وواثلة بن الأسقع وغيرهم ، والقدرية ينقسمون إلى فرقتين :

الأولى :تنكر أن الله سبق علمه بالأشياء قبل وجودها ، وتزعم : أن الله لم يقدر الأمور أزلًا ولم يتقدم علمه بها وإنما يعلمها إذا وقعت ، قال العلماء : والمنكرون لهذا انقرضوا وهم الذين كفرهم الأئمة مالك والشافعي وأحمد ، وهم الذين قال فيهم الشافعي : ناظروا القدرية بالعلم ، فإن أقروا به خصموا ، وإن أنكروه كفروا .

الفرقة الثانية : المقرون بالعلم وإنما خالفوا السلف في زعمهم بأن أفعال العباد مقدورة لهم وواقعة منهم على جهة الاستقلال ، وهو مع كونه مذهبًا باطلًا أخف من المذهب الأول ، قال الشيخ تقي الدين رحمه الله ، وأما هؤلاء - يعنى الفرقة الثانية - فإنهم مبتدعون ضالون لكنهم ليسوا بمنزلة أولئك ، قال : وفي هؤلاء خلق كثير من العلماء والعُبَّاد وكتب عنهم ، وأخرج البخارى ومسلم لجماعة منهم ، لكن من كان داعية لم يخرجوا له ، وهذا مذهب فقهاء الحديث كأحمد وغيره ، ومن كان داعية إلى بدعة ، فإنه يستحق العقوبة بدفع ضرره عن الناس ، وإن كان في الباطل مجتهدًا ، فأقل عقوبته أن يهجر ، فلا يكون له رتبة في الدين ، فلا يستقضي ولا تقبل شهادته ونحو ذلك . اهـ .

قوله : « وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : فَهِيَ مَشِيئَةُ اللَّه تعالى النَّافِذَةُ ...» :

قوله : « وأما الدرجة الثانية ...» إلخ ، هذه المرتبة الثالثة من مراتب الإيمان بالقدر ، وهو إثبات مشيئة الله النافذة ، أي : الماضية التي لا راد لها ، من نفذ السهم نفوذًا إذا خرق الرمية ، ونفذ الأمر : مضى ، هذه المرتبة الثالثة من مراتب الإيمان بالقدر ، وهو إثبات نفوذ قدرته ومشيئته ، وشمول قدرته قد

دل عليها الكتاب والسنة وأجمع عليها سلف الأمة، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على نفوذ مشيئته، فلا خروج لكائن عن مشيئته، كما لا خروج له عن علمه، وفي هذه الآيات وغيرها الرد على القدرية والمعتزلة نفاة القدر الذين يثبتون للعبد مشيئة تخالف ما أراده الله من العبد وشاءه.

وأما أهل السنة والجماعة، فتمسكوا بالكتاب والسنة في هذا الباب وغيره، واعتقدوا أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله في كل شيء مما يوافق شرعه، وما يخالفه من أفعال العبد وأقواله، فالكل بمشيئة الله، فما وافق ما شرعه رضيه وأحبه، وما خالفه كرهه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] الآية.

قوله: «وَهُوَ: الإِيمَانُ بِأَنَّ مَا شَاءَ اللَّه كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ...»:

قوله: «وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان ...» ... إلخ. فسر المصنف معنى الإيمان بهذه المرتبة، وأشار بهذا إلى الرد على القدرية والمعتزلة الذين يثبتون للعبد مشيئة تخالف مشيئة الله، وتقدم ذكر الأدلة على بطلان قولهم، وهل أضل ممن يزعم أن الله شاء الإيمان من الكافر، والكافر شاء الكفر، فغلبت مشيئة الكافر مشيئة الله - تعالى الله عن قولهم - وقد تقدم ذكر أقسام الإرادة والمشيئة والفرق بينهما وبين المحبة والرضا.

قوله: «وأنه سبحانه على كل شيء قدير ..» ... إلخ. قال الله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحشر: ٦]، ففيها دليل على شمول قدرته، فكل ممكن فهو مندرج فيها، وفيها الرد على القدرية: فإن مذهبهم أنه سبحانه ليس على كل شيء قدير، وأن العباد يقدرون على ما لا يقدر عليه، وأنه سبحانه لا يقدر أن يهدي ضالًّا ولا يضل مهتديًا، وهذا المذهب باطل ترده أدلة الكتاب والسنة، وهو كما قال بعض العلماء شرك في الربوبية مختصر، ولذلك ورد أن «القدرية مجوس هذه الأمة»[1] لمشابهة قولهم المجوس، وأما أهل السنة فيثبتون أن العبد فاعل حقيقة، ولكنه مخلوق لله ومفعول، ولا يقولون هو نفس فعل الله، ويفرقون بين الخلق والمخلوق والفعل والمفعول.

قوله: «من الموجودات»: كأفعال خلقه من الملائكة والنبيين وسائر حركات العباد، فلا يخرج عن خلقه وملكه شيء.

قوله: «والمعدومات»: كما قال سبحانه: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩]، أي: شيئًا في الخارج، وإن كان شيئًا في علمه سبحانه، وأما المحال لذاته، فلا حقيقة له ولا يتصور وجوده، فلا يسمى شيئًا باتفاق

(١) أبو داود (٤٦٩١)، والحاكم (٢٨٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٤٤٢).

العقلاء، وذلك مثل كون الشيء الواحد موجودًا معدومًا، ومن هذا الباب خلق مثل نفسه.

قوله: «فَمَا مِنْ مَخْلُوقٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ إِلَّا اللَّه خَالِقُهُ سُبْحَانَهُ، لا خَالِقَ غَيْرُهُ ...» ... إلخ:

* قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الفرقان: ٢]، وقال: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، فامتدح بأن اللَّه خلق كل شيء، وبأنه يعلم كل شيء، فكما أنه لا يخرج عن علمه شيء، فكذا لا يخرج عن خلقه شيء، فثبت أن الأفعال خيرها وشرها كلها صادرة عن خلقه وإحداثه إياها. اهـ.

وفي هذه الآيات الرد على القدرية الذين يزعمون أن العبد يخلق فعل نفسه استقلالًا بدون مشيئة اللَّه وإرادته، ولاشك في بطلان هذا المذهب وفساده ومصادمته لأدلة الكتاب والسنة، فإن قوله سبحانه: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ شامل لأفعال العباد لدخولها في عموم ﴿كُلُّ﴾، ولا يدخل في ذلك أسماء اللَّه وصفاته، كما أنه سبحانه لم يدخل في عموم ﴿كُلُّ﴾، فكذلك أسماؤه وصفاته.

قال ابن القيم ما معناه: في هذه الآيات دليل على أنه سبحانه خالق أفعال العباد، كما أنه خالق ذواتهم وصفاتهم، فالعبد كله مخلوق: صفاته وذاته وأفعاله، ومن أخرج أفعاله عن خلق اللَّه، فقد جعل فيه خالقًا مع اللَّه؛ ولهذا شَبَّه السَّلَف القدرية النفاة بالمجوس، وقالوا: هم مجوس هذه الأمة، صح ذلك عن ابن عباس. اهـ.

قوله: «لا خالق غيره ولا رب سواه»: إشارة إلى الرد على القدرية المجوسية الذين يثبتون مع اللَّه خالقين للأفعال ليست أفعالهم مقدورة له، وهي صادرة بغير مشيئته وإرادته ولا قدرة له عليها، فربوبيته سبحانه الكاملة المطلقة تبطل أقوال هؤلاء كلهم؛ لأنها تقتضي ربوبيته لجميع ما فيه من الذوات والصفات والحركات والأفعال، وحقيقة قول هؤلاء أنه ليس ربًّا لأفعال الحيوان ولا تناولتها ربوبيته وكيف تتناول ما لا يدخل تحت قدرته ومشيئته وخلقه.

أما أهل السنة والجماعة فيؤمنون بأن اللَّه خالق كل شيء لا خالق غيره، وأنه على كل شيء قدير، وبشمول مشيئته لكل ما كان، وأنه بكل شيء عليم، فيؤمنون بعموم خلقه وشمول قدرته ونفوذ مشيئته وعلمه بالأشياء قبل أن تكون تقديره لها وكتابته إياها قبل أن تكون، فعندهم مراتب الإيمان بالقضاء والقدر أربع كما سبقت إشارة المصنف إليها. الأولى: علمه السابق بما هم عاملون قبل إيجادهم. الثانية: كتابته لذلك في الذكر عنده قبل خلق السماوات والأرض. الثالثة: مشيئته المتناولة لكل موجود، فلا خروج لكائن عن مشيئته، كما لا خروج له عن علمه. الرابعة: خلقه له وإيجاده وتكوينه فإنه لا خالق غيره، ونظم ذلك بعضهم بقوله:

علم كتابه مولانا مشيئته ... وخلقه وهو إيجاد وتكوين

فيجب الإيمان بالقضاء والقدر، ولا يجوز الاحتجاج به في ترك أوامر اللَّه وفعل نواهيه، بل يجب أن

نؤمن بذلك، ونعلم أن لله الحجة علينا بإنزال الكتب وبعث الرسل.

قوله: « وَقَدْ أَمَرَ الْعِبَادَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ ...»:

قوله: « ومع ذلك فقد أمر العباد » إلخ. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، وقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] الآية، والإيمان بالقدر من تمام طاعة الله وطاعة رسوله، ومن أثبتِ القدر، وجعل ذلك معارضًا للأمر، فقد أذهب الأصل، فقول المصنف: « ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته » إلخ، إشارة للرد على من عارض شرعه وأمره بقضائه وقدره، وجعل مشيئته العامة دافعة للأمر، كفعل الزنادقة إذا أمروا أو نهوا احتجوا بالقدر، وقد احتج سارق على عمر بالقَدَر، فقال عمرُ: وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره.

قال الشيخ تقي الدين - رحمه الله تعالى -: من ادعى أن العارف إذا شهد الإرادة سقط عنه الأمر، كان هذا من الكفر الذي لا يرضاه أحد، بل هذا ممتنع في العقل محال في الشرع. انتهى.

وقال ابن القيم بعد كلام: والمقصود: أنه لم يؤمن بالقضاء والقدر والحكمة والأمر والنهي والوعد والوعيد حقيقة الإيمان إلا أتباع الرسل وورثتهم.

قوله: « وهو يحب المتقين » ... إلخ. هذا رد على من زعم أن المشيئة والمحبة سواء أو ملازمان، كما يقوله الجبرية والقدرية، وقد دل على الفرق بينهما الكتاب والسنة والإجماع والفطرة، قال الله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨]، مع أن ذلك كله بمشيئته، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، مع أنه واقع بمشيئته وقضائه وقدره، وفي « المسند »: « إن الله يحب أن يؤخذ برخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته »[1]، فهذه المحبة والكراهة لأمرين اجتمعا في المشيئة، وافترقا في المحبة والكراهة، وهذا أكثر من أن يحصر، فالمشيئة والمحبة ليس مدلولهما واحدًا، ولا هما متلازمان، بل قد يشاء الله ما لا يحبه ويحب ما لا يشاء كونه، فالأول: كمشيئته لوجود إبليس وجنوده، ومشيئته العامة لجميع ما في الكون مع بغضه لبعضه. الثاني: كمحبته لإيمان الكفار والفُجّار، ولو شاء ذلك لوجد كله، فإن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فأهل الكتاب والسنة يقولون: الإرادة في « كتاب » نوعان:

الأول: إرادة كونية قدرية، والثاني: إرادة دينية شرعية.

فالإرادة الشرعية: هي المتضمنة للمحبة والرضا، والكونية: هي المشيئة الشاملة لجميع الحوادث، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في الكلام على الآيات بما فيه الكفاية إن شاء الله.

قوله: « وَالْعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً، وَاللَّهُ خَالِقُ أَفْعَالِهِمْ »:

---

(١) أحمد (١٠٨/٢)، وابن حبان (٣٥٤) من حديث ابن عمر ﷺ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (١٨٨٦).

قوله : « والعباد فاعلون ...» إلخ . قال اللَّه تعالى : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات : ٩٦] ، أي : خلقكم والذي تعملونه ، فدلت على أن أفعال العبد مخلوقة لِلَّهِ ، وعلى أنها أفعال لهم حقيقة ، ففيها الرد على الجبرية الذين يقولون : إن العبد لا فعل له ، وفيها الرد على القدرية الذين يقولون : إن العبد يخلق فعل نفسه استقلالًا ، وفي حديث حذيفة : « إن اللَّه خالق كل صانع وصنعته »[1] ، فاللَّه - سبحانه - خلق الإنسان بجميع أغراضه وحركاته ، والآيات الدالة على خلق أفعال العباد كثيرة ، فقول المصنف : « والعباد فاعلون حقيقة » ردٌّ على الجبرية الذين يقولون : إن العبد ليس بفاعلٍ أصلًا ، بل هو مجبور على أفعاله وواقعة بغير اختياره ، وأن الفاعل فيه سواه والمحرك له غيره ، فهو آلة محضة وحركاته بمنزلة هبوب الرياح وحركات المرتعش ، وقد يغلون في ذلك حتى يروا أفعالهم كلها طاعات خيرها وشرها لموافقتها للمشيئة والقدر ، وهؤلاء شر من القدرية النفاة وأشد عداوة للَّه ومناقضة لكتابه ورسله ودينه .

قوله : « واللَّه خالق أفعالهم » : رد على القدرية النفاة الذين يقولون : إن اللَّه لم يخلق أفعالهم ، وأنها واقعة بمشيئتهم وقدرتهم دون مشيئة اللَّه ، وأن اللَّه لم يقدر ذلك عليهم ولم يكتبه ولا شاءه ، وأن اللَّه لا يقدر أن يهدي ضالًا ولا يضل مهتديًا ، وأن العباد خالقون لأفعالهم بدون مشيئة اللَّه ، فشابهوا المجوس في كونهم أثبتوا خالقًا مع اللَّه ، ولذا سموا مجوس هذه الأمة ، والأدلة على فساد قولهم وبطلانه كثيرة جدًّا ، وقد أطبق الصحابة والتابعون على ذمهم وتبديعهم وتضليلهم ، وبين أئمة الإسلام أنهم أشباه المجوس وأنهم قد خالفوا أدلة الكتاب والسنة ، بل وخالفوا العقل والفطرة .

قوله : « وَالْعَبْدُ هُوَ : الْمُؤْمِنُ ، وَالكَافِرُ ....» إلخ :

* قال تعالى : ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة : ٤] ، وقال : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [النساء : ٥٦] ، وقال : ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النساء : ٧٧] ، وقال : ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة : ١٨٥] إلى غير ذلك من الأدلة الدالة على نسبة أفعال العبد إليه من أفعال عبيده ، بل العبد حقيقة هو المصلي والصائم ، وهو يليق باللَّه - سبحانه - أن يعاقبهم على نفس فعله ، بل إنما يعاقبهم على أفعالهم التي فعلوها حقيقة ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف : ٧٦] ، فالعبد هو الذي صام وصلى وأسلم ، وهو الفاعل حقيقة ، يجعل اللَّه له فاعلًا ، قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص : ٤١] ، وقال : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة : ٢٤] إلى غير ذلك من الأدلة الدالة على أن العبد فاعل حقيقة : وأن فعله ينسب إليه ، وأنه يثاب على حسنته ويجازى على سيئته ، قال تعالى : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧

---

(١) الحاكم (٨٥) ، والبيهقي في « الشعب » (١/٢٠٧) من حديث حذيفة رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (١٦٣٧) .

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة : ٧، ٨] .

قوله : « وَلِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَإِرَادَةٌ ، وَاللَّه خَالِقُهُمْ ....» :

قوله : « وللعباد قدرته على أعمالهم ولهم إرادة » : إشارة للرد على الجبرية .

قوله : « والله خالقهم وخالق قدرتهم ....» إلخ . إشارة للرد على القدرية ، فالجبرية والقدرية في طرفي نقيض ، فالجبرية غلوا في الإثبات ، والقدرية غلوا في النفي ، وهدى الله أهل السنة والجماعة للقول الوسط ، فأثبتوا أن العباد فاعلون ، ولهم قدرة على أعمالهم ولهم إرادة ومشيئة ، وأن الله سبحانه وتعالى خالقهم وخالق قدرتهم ومشيئتهم ، قال الله تعالى : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير : ٢٩] ، فأثبت مشيئة للعبد ، وأخبر أنها لا تكون إلا بمشيئة الله ، فأفعال العبد تضاف إليه على جهة الحقيقة ، والله خلقه وخلق فعله ، كما قال تعالى : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات : ٩٦] ، فأخبر أن العباد يعملون ويصنعون ويؤمنون ويكفرون ويفسقون ويكذبون ، والأدلة على إثبات أفعال العباد كثيرة جدًّا .

قوله : « وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ الْقَدَرِ » :

* وهى إثبات أن العبد فاعل حقيقة ، وأن الله خلقه وخلق فعله يكذب بها عامة القدرية ، أى : جميع القدرية أو أكثرهم ، فيزعمون أن العبد يخلق فعل نفسه استقلالًا بدون مشيئة الله وإرادته ، وسموا قدرية ؛ لإنكارهم القدر ، وكذلك تسمى الجبرية المحتجون بالقدر قدرية ؛ لخوضهم في القدر ، والتسمية على الطائفة الأولى أغلب ، قال ابن تيمية في « تائيته » :

ويدعى خصوم الله يوم معادهم إلى النار فرقة القدرية
سواء نفوه أو سعوا ليخاصموا به الله أو ماروا به الشريعة

قوله : « مَجُوسِ هَذِهِ الأُمَّةِ » :

* سموا بذلك ؛ لمضاهاة قولهم لقول المجوس ، فإن المجوس يثبتون خالقين ، وكذلك القدرية أثبتوا أن الله خلقهم ، وأنهم خلقوا أفعالهم استقلالًا ، كما روى أبو داود في « سننه » عن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « القدرية مجوس هذه الأمة إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم »[(١)] ، وروى أبو داود - أيضًا - عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل أمة مجوس ، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون : لا قدر ، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته ، ومن مرض منهم فلا تعودوه ، وهم شيعة الدجال ، وحق على الله أن يلحقهم بالدجال »[(٢)] وأحاديث القدرية المرفوعة كلها ضعيفة ، وإنما يصح منها الموقوف ، وقد تقدم الكلام على هذا الموضوع ، وقد اختلف

---

(١) أبو داود (٤٦٩١) ، والحاكم (٢٨٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » (٤٤٤٢) .

(٢) أبو داود (٤٦٩٢) ، وأحمد (٥/٤٠٦) من حديث حذيفة رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (٤٧١٢) .

العلماء في تكفير هؤلاء وأما من أنكر العلم القديم فنص الشافعي وأحمد وغيرهما من أئمة الإسلام على تكفيره ، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك .

قوله : « وَيَغْلُو فِيهَا قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الإِثْبَاتِ ....» إلخ :

* أشار المصنف بقوله : هذا إلى المجبرة فإنهم غلوا في نفي أفعال العباد حتى سلبوا العباد قدرتهم واختيارهم ، وزعموا : أنهم لا يفعلون شيئًا ألبتة ، وإنما اللّٰه هو فاعل تلك الأفعال حقيقة فهي نفس فعله لا أفعالهم ، والعبيد ليس لهم قدرة ولا إرادة ولا فعل ألبتة ، وأن أفعالهم بمنزلة حركة الجمادات لا قدرة له عليها ، وإمام هؤلاء الجهم بن صفوان الترمذي ، وقولهم باطل ؛ لأننا نفرق بالضرورة بين حركة البطش وحركة المرتعش ، ونعلم بأن الأول باختياره دون الثاني ؛ ولأنه لو لم يكن للعبد فعل أصلًا لها صح تكليفه ولا ترتب استحقاق الثواب والعقاب على أفعاله ولا إسناد الأفعال التي تقتضي سابقة قصد إليه على سبيل الحقيقة مثل صلى وصام وكتب بخلاف مثل طال واسود لونه ، والنصوص القطعية تنفي ذلك ، قال اللّٰه تعالى : ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأحقاف : ١٤] ، وقال : ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف : ٢٩] ، إلى غير ذلك .

قال ابن القيم : وهؤلاء خصماء اللّٰه الذين جاء فيهم الحديث : « يقال يوم القيامة : أين خصماء اللّٰه فيؤمر بهم إلى النار »[1] ، وتقدم ما ذكره الشيخ في « تائيته » ، وقال ابن القيم : سمعت تقي الدين يقول : القدرية المذمومون في السنة وعلى لسان السلف هم هؤلاء الفرق الثلاثة نفاته ، وهم : القدرية المجوسية والمعارضون به للشريعة الذين قالوا : لو شاء اللّٰه ما أشركنا ، وهم القدرية المشركية والمخاصمون به للرب ، وهم أعداء اللّٰه وخصومه ، وهم القدرية الإبليسية وشيخهم إبليس ، وهو أول من احتج على اللّٰه بالقدر ، فقال : ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ [الأعراف : ١٦] ، ولم يعترف بالذنب ويبوء به ، كما اعترف به آدم ، فمن أقر بالذنب وباء ونزه ربه ، فقد أشبه أباه آدم ومن أشبه أباه فما ظلم ، ومن برء نفسه ، واحتج على ربه بالقدر ، فقد أشبه إبليس ، ولا ريب أن هؤلاء القدرية الإبليسية والمشركية شر من القدرية النفاة ، والذي عليه أهل السنة والجماعة ، هو ما تقدم : الإيمان بأن أفعال العباد مخلوقة للّٰه صادرة عن مشيئته وإرادته ، وهي أفعال لهم وكسب لهم باختيارهم ، فلذا ترتب عليها الثواب والعقاب كما تكاثرت بذلك الأدلة .

قوله : « وَيُخرِجُونَ عَنْ أَفْعَالِه وَأَحْكَامِهِ ....» إلخ :

* أي : هؤلاء الجهمية يزعمون أن اللّٰه تعالى لا يفعل لعلة ولا حكمة ، وإنما هو محض مشيئة وصرف إرادة مجردة عن الحكمة والرحمة ، وكان شيخهم الجهم بن صفوان يقف على الجُذماء فيقول : أرحم الراحمين يفعل مثل هذا ؟ ! إنكارًا للرحمة والحكمة ، وأدلة الكتاب والسنة تبطل هذا المذهب .

---

(١) الطبراني في الأوسط (٧١٦٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

قال ابن القيم رحمه الله : ولهذا الأصل لوازم وفروع كثيرة فاسدة ، وذكرها وردها من تسعين وجهًا . اهـ .

والذي عليه أهل السنة والجماعة إثبات العلة والحكمة في أفعاله - سبحانه - وشرعه وقدره ، فما خلق شيئًا ولا قضاه ولا شرعه إلا لحكمة بالغة ، وإن تقاصرت عنها عقول البشر ، والأدلة في إثبات ذلك كثيرة جدًّا ، فإنه - سبحانه - حكيم شرع الأحكام لحكمة ومصلحة ، فما خلق شيئًا عبثًا ولا خلقه سُدًى ، كما قال تعالى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون : ١١٥] ، وقال : ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة : ٣٦] ، وقال : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان : ٣٨، ٣٩] ، وقال : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ، وقال : ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان : ١] ، إلى غير ذلك من الأدلة على إثبات هذا الأصل .

❁ قال الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله :

قوله : « وَالإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَيْنِ ، كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ » :

* مراتب القدر أربع وإن شئت سميتها أشياء بدلًا من مراتب كما سماها المصنف رحمه الله :

الأولى : علم الله بجميع الأشياء وعلمه بجميع أفعال العباد من طاعة ومعصية ، وغير ذلك ، فهو سبحانه موصوف بالعلم أزلًا وأبدًا لا يغيب عن علمه شيء ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال : ٧٥] .

الثانية : كتابته لجميع الأشياء فجميع ما كان وما سيكون كله مكتوب لديه ، كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج : ٧٠] ، وقال : ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ الآية [الحديد : ٢٢] .

الثالثة : مشيئة الله النافذة في كل شيء وقدرته على كل شيء ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام : ١٣٧] ، ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير : ٢٨، ٢٩] ، وقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة : ٢٠] .

الرابعة : الإيمان بأن الله خالق الأشياء وموجدها ، فلا خالق غيره ، ولا رب سواه كما قال : ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر : ٦٢] ، وقال : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة : ٢] ، والمراد بالعالمين : جميع المخلوقات ، قال تعالى : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء : ٢٣، ٢٤] . اهـ .

قوله : « وَيَغْلُو فِيهَا قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الإِثْبَاتِ ، حَتَّى سَلَبُوا الْعَبْدَ قُدْرَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ ، وَيُخْرِجُونَ عَنْ أَفْعَالِ اللَّهِ وَأَحْكَامِهِ حِكَمَهَا وَمَصَالِحَهَا » :

أقسام القدر أربعة :

الأول : التقدير العام : وهو تقدير الرب لجميع الأشياء ؛ بمعنى : علمه بها وكتابته لها ومشيئته وخلقه لما كان منها . ويدل على هذا النوع دلائل كثيرة منها : قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ [الحج : ٧٠] الآية ، وقوله : ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق : ١٢] وقوله : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾ [البقرة : ٢٥٣] ، وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج : ١٨] ، وقوله : ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر : ٦٢] .

وفي « صحيح مُسْلِم » عن عبد اللّه بن عمرو أن النبي ﷺ قال : « إن اللّه قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماء والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء »[١] .

القسم الثاني : تقدير عمري ، وهو تقدير كل ما يجري على العبد في حياته إلى نهاية أجله ، وكتابة شقاوته وسعادته ، وقد دل عليه حديث ابن مسعود المخرج في « الصحيحين » مرفوعًا : « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل اللّه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربعة كلمات : بكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد ...» الحديث[٢] .

الثالث : التقدير السنوي ، وذلك يكون في ليلة القدر ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان : ٤] .

وقوله تعالى : ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر : ٤، ٥] ، قيل : يكتب في هذه الليلة ما يحدث في السنة من موت وعز وذل وغير ذلك ، روي هذا عن ابن عمر ومجاهد وأبي مالك والضحاك وغير واحد من السلف .

الرابع : التقدير اليومي ؛ ويدل عليه قوله تعالى : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن : ٢٩] ولأثر عن ابن عباس : « إن للّه لوحًا محفوظًا من درة بيضاء ، دفتاه ياقوتة حمراء ، قلمه نور ، وكتابه نور ، وعرضه ما بين السماء والأرض ينظر فيه كل يوم كذا وكذا نظرة ، يخلق في كل نظرة ، ويحيي ويميت ويُعز ويُذل ما يشاء » أخرجه ابن جرير . وفي إسناده أبو حمزة الثمالي وهو ضعيف ، ورمي بالرفض فلا يعتمد عليه .

وأخرج ابن جرير عن منيب بن عبد اللّه الأزدي عن أبيه وابن أبي حاتم عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ في تفسير : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن : ٢٩] ، قال : « من شأنه أن يغفر ذنبًا ويفرّج كربًا ، ويرفع قومًا ويضع آخرين » علقه البُخَارِيّ عن أبي الدرداء موقوفًا . اهـ .

---

(١) مسلم (٢٦٥٣) ، والترمذي (٢١٥٦) من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

(٢) البخاري (٦٥٩٤) ، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه .

۞ قال الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله :

فصل : فى الإيمان بالقدر .

« الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة » : سبق تعريفها والكلام عنها فى أول الكتاب .

القدَرُ فى اللغة ؛ بمعنى : التقدير ؛ قال تعالى : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر : ٤٩] . وقال تعالى : ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات : ٢٣] .

– وأما القضاء ؛ فهو فى اللغة : الحكم .

ولهذا نقول : إن القضاء والقدر متباينان إن اجتمعا ، ومترادفان إن تفرقا ؛ على حد قول العلماء : هما كلمتان : إن اجتمعتا افترقتا ، وإن افترقتا اجتمعتا .

فإذا قيل : هذا قدر الله ؛ فهو شامل للقضاء ، أما إذا ذكرا جميعًا ؛ فلكل واحد منهما معنى .

– فالتقدير : هو ما قدره الله تعالى فى الأزل أن يكون فى خلقه .

– وأما القضاء ؛ فهو ما قضى به الله سبحانه وتعالى فى خلقه من إيجاد أو إعدام أو تغيير ، وعلى هذا يكون التقدير سابقًا .

فإن قال قائل : متى ؟ قلنا : إن القضاء هو ما يقضيه الله سبحانه وتعالى فى خلقه من إيجاد أو إعدام أو تغيير ، وإن القدر سابق عليه إذا اجتمعا ؛ فإن هذا يعارض قوله تعالى : ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان : ٢] . فإن هذه الآية ظاهرها أن التقدير بعد الخلق ؟

فالجواب على ذلك من أحد وجهين :

– إما أن نقول : إن هذا من باب الترتيب الذكرى لا المعنوى ، وإنما قدم الخلق على التقدير لتتناسب رءوس الآيات .

ألم تر إلى أن موسى أفضل من هارون ، لكن قدم هارون عليه فى سورة « طه » فى قوله تعالى عن السحرة : ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه : ٧٠] ؛ لتتناسب رءوس الآيات .

وهذا لا يدل على أن المتأخر فى اللفظ متأخر فى الرتبة .

– أو نقول : إن التقدير هنا بمعنى التسوية ؛ أى خلقه على قدر معين ؛ كقوله تعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلى : ٢] ؛ فيكون التقدير بمعنى التسوية .

وهذا المعنى أقرب من الأول ؛ لأنه يطابق تمامًا لقوله تعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ ؛ فلا إشكال .

والإيمان بالقدر واجب ، ومرتبته فى الدين أنه أحد أركان الإيمان الستة ؛ كما قال النبى عليه الصلاة والسلام لجبريل حين قال : ما الإيمان ؟ قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره »[1] .

---

(١) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وللإيمان بالقدر فوائد؛ منها:

أولًا: أنه من تمام الإيمان، ولا يتم الإيمان إلا بذلك.

ثانيًا: أنه من تمام الإيمان بالربوبية؛ لأن قدر الله من أفعاله.

ثالثًا: رد الإنسان أموره إلى ربه؛ لأنه إذا علم أن كل شيء بقضائه وقدره؛ فإنه سيرجع إلى الله في دفع الضراء ورفعها، ويضيف السراء إلى الله، ويعرف أنها من فضل الله عليه.

رابعًا: أن الإنسان يعرف قدر نفسه، ولا يفخر إذا فعل الخير.

خامسًا: يهوِّنُ المصائب على العبد؛ لأن الإنسان إذا علم أنها من عند الله؛ هانت عليه المصيبة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]. قال علقمة رحمه الله: «هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلِّم».

سادسًا: إضافة النعم إلى مُسديها؛ لأنك إذا لم تؤمن بالقدر؛ أضفت النعم إلى من باشر الإنعام، وهذا يوجد كثيرًا في الذين يتزلفون إلى الملوك والأمراء والوزراء؛ فإذا أصابوا منهم ما يريدون؛ جعلوا الفضل إليهم، ونسوا فضل الخالق سبحانه.

صحيح أنه يجب على الإنسان أن يشكر الناس؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «من صنع إليكم معروفًا؛ فكافئوه»(1). ولكن يعلم أن الأصل كل الأصل هو فضل الله ﷻ جعله على يد هذا الرجل.

سابعًا: أن الإنسان يعرف به حكمة الله ﷻ؛ لأنه إذا نظر في هذا الكون وما يحدث فيه من تغييرات باهرة؛ عرف بهذا حكمة الله ﷻ؛ بخلاف من نسي القضاء والقدر؛ فإنه لا يستفيد هذه الفائدة.

الخير: ما يلائم طبيعة الإنسان؛ بحيث يحصل له به خير أو ارتياح وسرور، وكل ذلك من الله ﷻ.

- والشر في القدر: ما لا يلائم طبيعة الإنسان؛ بحيث يحصل له به أذية أو ضرر.

ولكن؛ إن قيل: كيف يقال: إن في قدر الله شرًّا؛ وقد قال النبي ﷺ: «الشر ليس إليه»؟(2).

فالجواب على ذلك أن يقال: الشر في القدر ليس باعتبار تقدير الله له، لكنه باعتبار المقدور له؛ لأن لدينا قدرًا هو التقدير ومقدورًا؛ كما أن هناك خلقًا ومخلوقًا وإرادة ومرادًا؛ فباعتبار تقدير الله له ليس بشرٍّ، بل هو خير، حتى وإن كان لا يلائم الإنسان ويؤذيه ويضره، لكن باعتبار المقدور؛ فنقول: المقدور إما خيرٌ وإما شر؛ فالقدر خيره وشره يراد به المقدور خيره وشره.

ونضرب لهذا مثلًا في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ [الروم: ٤١].

ففي هذه الآية بين الله ﷻ ما حدث من الفساد وسببه والغاية منه؛ فالفساد شرٌّ، وسببه عمل الإنسان

---

(1) صححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠٢١).

(2) أخرجه مسلم (٧٧١).

السيئ ، والغاية منه : ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ .

فكون الفساد يظهر فى البر والبحر فيه حكمة ؛ فهو نفسه شر ، لكن لحكمة عظيمة ، بها يكون تقديره خيرًا .

كذلك المعاصى والكفر شر ، وهو من تقدير اللّٰه ، لكن لحكمةٍ عظيمة ، لولا ذلك لبطلت الشرائع ، ولولا ذلك لكان خلق الناس عبثًا .

والإيمان بالقدر خيره وشره لا يتضمن الإمان بكل مقدور ، بل المقدور ينقسم إلى كونى وإلى شرعى :

- فالمقدور الكونى : إذا قدر اللّٰه عليك مكروهًا ؛ فلابد أن يقع ؛ رضيت أم أبيت .

- والمقدور الشرعى : قد يفعله الإنسان وقد لا يفعله ، ولكن باعتبار الرضى به [و]فيه تفصيل : إن كان طاعة للّٰه ؛ وجب الرضى به ، وإن كان معصية ؛ وجب سخطه وكراهته والقضاء عليه ؛ كما قال اللّٰه ﷻ : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

وعلى هذا ؛ يجب علينا الإيمان بالمقضى كله ؛ من حيث كونه قضاء للّٰه ﷻ ، أما من حيث كونه مقضيًا ؛ فقد نرضى به وقد لا نرضى ؛ فلو وقع الكفر من شخص فلا نرضى بالكفر منه ، لكن نرضى بكون اللّٰه أوقعه .

فصل : فى درجات الإيمان بالقدر

إنما قسم المؤلف هذا التقسيم من أجل الخلاف ؛ لأن الخلاف فى القدر ليس شاملًا لكل مراتبه ، وباب القدر من أشكال أبواب العلم والدين على الإنسان ، وقد كان النزاع فيه من عهد الصحابة ﷺ ، لكنه ليس مشكلًا لمن أراد الحق .

قوله : « فالدرجة الأولى : الإيمان بأن اللّٰه علم ما الخلق عاملون » : ولم يذكر المؤلف أن اللّٰه علم ما يفعله هو ؛ لأن هذه المسألة ليس فيها خلاف ، إنما ذكر ما فيه الخلاف ، وهو : هل اللّٰه يعلم ما الخلق عاملون أو لا يعلمه إلا بعد وقوعه منهم ؟

ومذهب السلف والأئمة أن اللّٰه تعالى عالم بذلك .

القديم فى اصطلاحهم : هو الذى لا أول لابتدائه ؛ أى أنه لم يزل فيما مضى من الأزمنة التى لا نهاية لها عالمًا بما يعمله الخلق ؛ بخلاف القديم فى اللغة ؛ فقد يراد به ما كان قديمًا نسبيًا ؛ كما فى قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس : ٣٩] . ومعلوم أن عرجون النخلة ليس بقديم أزلى ، بل قديم بالنسبة لما بعده .

فاللّٰه تعالى موصوف بأنه عالم بما الخلق عاملون بعلمه القديم الأزلى ، الذى لا نهاية لأوله ، عالم

جل وعلا بأن هذا الإنسان سيعمل كذا في يوم كذا في مكان كذا بعلمه القديم الأولى ؛ فيجب أن نؤمن بذلك :

ودليل ذلك من الكتاب والسنة والعقل :

أما الكتاب ؛ فما أكثر الآيات التي فيها العموم في علم الله ؛ مثل : ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢] ، [وقوله] ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] ، ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢] . . . إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى كثرة .

– أما في السنة فإن الرسول عليه الصلاة والسلام أخبر بأن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وبأن ما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن الأقلام قد جفت وطُويت الصحف . . . والأحاديث في هذا كثيرة .

– وأما العقل ؛ فإن من المعلوم بالعقل أن الله تعالى هو الخالق ، وأن ما سواه مخلوق ، ولابد عقلًا أن يكون الخالق عالمًا بمخلوقه ، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] .

فالكتاب والسنة والعقل كلها تدل على أن الله تعالى عالم بما الخلق عاملون بعلمه الأولى .

قوله : « الذي هو موصوف به أزلًا وأبدًا » : ففي كونه موصوفًا به أزلًا نفي للجهل ، وفي كونه موصوفًا به أبدًا نفي النسيان .

ولهذا كان علم الله ﷻ غير مسبوق بجهل ولا ملحوق بنسيان ؛ كما قال موسى عليه الصلاة والسلام لفرعون : ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] ؛ بخلاف علم المخلوق المسبوق بالجهل والملحوق بالنسيان .

إذن ؛ يجب علينا أن نؤمن بأن الله عالم بما الخلق عاملون بعلم سابق موصوف به أزلًا وأبدًا .

دليل ذلك ما ثبت في « الصحيحين » عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ؛ قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه . . . » وذكر أطوار الجنين ، وفيه : « ثم يبعث الله ملكًا ، فيؤمر بأربع كلمات ، ويقال له : اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أم سعيد . . . » وذكر تمام الحديث[1] . فالله عالم بذلك قبل أن يخلق الإنسان .

فطاعتنا معلومة لله ، ومعاصينا معلومة لله ، وأرزاقنا معلومة له ، وآجالنا معلومة له ، إذا مات الإنسان بسبب أو بغير سبب معلوم ؛ فإنه لله معلوم ، ولا يخفى عليه ؛ بخلاف علم الإنسان بأجله ؛ فإنه لا يعرف أجله ؛ فلا يعرف أين يموت ، ولا متى يموت ، ولا يعرف بأي سبب يموت ، ولا يعرف على أي حال

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨) ، ومسلم (٢٦٤٣) .

يموت ؛ نسأل الله تعالى حسن الخاتمة .

وهذا هو الشيء الأول من الدرجة الأولى .

هذا الشيء الثاني من الدرجة الأولى ، وهو أن الله كتب في اللوح المحفوظ مقادير الخلق .

اللوح المحفوظ : لا نعرف ماهيته ؛ من أي شيء ؛ أمن خشب ، أم من حديد ، أم من ذهب ، أم من فضة ، أم من زمرد ؟ فالله أعلم بذلك ؛ إنما نؤمن بأن هناك لوحًا كتب الله فيه مقادير كل شيء ، وليس لنا الحق في أن نبحث وراء ذلك ، لكن لو جاء في الكتاب والسنة ما يدلنا على شيء ؛ فالواجب أن نعتقده .

ووصف بكونه محفوظًا ؛ لأنه محفوظ من أيدي الخلق ؛ فلا يمكن أن يلحق أحد به شيئًا أو يغير به شيئًا أبدًا .

ثانيًا : محفوظ من التغيير ؛ فالله ﷻ لا يغير فيه شيئًا ؛ لأنه كتبه عن علم منه ؛ كما سيذكره المؤلف ، ولهذا قال شيخ الإسلام رحمه الله : « إن المكتوب في اللوح المحفوظ لا يتغير أبدًا » ، وإنما يحصل التغيير في الكتب التي بأيدي الملائكة .

قوله : « مقادير الخلق » ؛ أي : مقادير المخلوقات كلها ، وظاهر النصوص أنه شمل ما يفعله الإنسان ، وما يفعله البهائم ، وأنه عام وشامل .

ولكن ؛ هل هذه الكتابة إجمالية أو تفصيلية ؟

قد نقول : إننا لا نجزم بأنها تفصيلية أو إجمالية .

فمثلًا : القرآن الكريم : هل هو مكتوب في اللوح المحفوظ بهذه الآيات والحروف أو أن المكتوب في اللوح ذكره وأنه سينزل على محمد ﷺ وأنه سيكون نورًا وهدًى للناس ، وما أشبه ذلك ؟

ففيه احتمال : إن نظرنا إلى ظاهر النصوص ؛ قلنا : إن ظاهرها أن القرآن كله مكتوب جملة وتفصيلًا ، وإن نظرنا إلى أن الله سبحانه وتعالى يتكلم بالقرآن حين نزوله ؛ قلنا : إن الذي كتب في اللوح المحفوظ ذكر القرآن ، ولا يلزم من كون ذكره في اللوح المحفوظ أن يكون قد كتب فيه ؛ كما قال الله تعالى عن القرآن : ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء : ١٩٦] ؛ يعني : كتب الأولين ، ومعلوم أن القرآن لم يوجد نصه في الكتب السابقة ، وإنما وجد ذكره ، ويمكن أن نقول مثلها في قوله تعالى : ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج : ٢١، ٢٢] ؛ أي : ذكره في هذا اللوح .

فالمهم أن نؤمن بأن مقادير الخلق مكتوبة في اللوح المحفوظ ، وأن هذا اللوح لا يتغير ما كتب فيه ؛ لأن الله أمره أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة .

قوله : « فأول ما خلق الله القلم ؛ قال له : اكتب » . فأمره أن يكتب ؛ مع أن القلم جماد .

فكيف يوجه الخطاب إلى الجماد ؟ !

والجواب عن ذلك : أن الجماد بالنسبة إلى الله عاقل يصح أن يوجه إليه الخطاب : قال الله تعالى :

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]؛ فوجه الخطاب إليهما، وذكر جوابهما، وكان الجواب بجمع العقلاء طائعين دون طائعات.

وقال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]؛ فكانت كذلك.

وقال تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]؛ فكانت الجبال تؤوب معه.

والحاصل أن الله أمر القلم أن يكتب، وقد امتثل القلم، لكنه أشكل عليه ماذا يكتب؛ لأن الأمر مجمل، فقال: «ما أكتب؟»؛ أي: أي شيء أكتب؟

قوله: «قال له: اكْتُبْ»: أي: الله.

«اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة»: فكتب القلم بأمر الله ما هو كائن إلى يوم القيامة.

فانظر كيف علم القلم ماذا يكون إلى يوم القيامة، فكتبه؛ لأن أمر الله ﷻ لا يرد.

وقوله: «ما هو كائن إلى يوم القيامة»: يشمل ما كان من فعل الله تعالى وما كان من أفعال الخلق.

إذا آمنت بهذه الجملة؛ اطمأننت: ما أصاب الإنسان؛ لم يكن ليخطئه أبدًا.

ومعنى «ما أصاب». يحتمل أن المعنى: ما قدر أن يصيبه؛ فإنه لن يخطئه، ويحتمل أن ما أصابه بالفعل لا يمكن أن يخطئه، حتى لو تمنى الإنسان، وهما معنيان صحيحان لا يتنافيان.

وما أخطأه لم يكن ليصيبه أي: ما قدر أن يخطئه فإنه لم يكن ليصيبه، أو المعنى: ما أخطأه بالفعل، لأنه معروف أنه غير صائب، ولو تمنى الإنسان، وهما معنيان صحيحان لا يتنافيان.

«الأقلام». هي أقلام القدر التي كتب الله بها المقادير؛ جفت وانتهت.

وطويت الصحف، وهذا كناية عن أن الأمر انتهى.

وفي «صحيح مسلم»(١) عن جابر رضي الله عنه؛ قال: جاء سُراقة بن مالك بن جعشم؛ قال: يا رسول الله، بين لنا ديننا كأننا خلقنا الآن: فيم العمل اليوم؛ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير؟ أم فيما نستقبل؟ قال: «لا؛ بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير». قال: ففيم العمل؟ قال: «اعملوا؛ فكل ميسر».

«كما»: الكاف في مثل هذا التعبير للتعليل.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾: أيها المخاطب.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾. وهذا عام؛ علم لما فيهما من أعيان وأوصاف وأعمال وأحوال.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾. وهو اللوح المحفوظ.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾. أي: الكتابة على الله أمر يسير.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٤٨).

﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ . كالجدب والزلازل والفيضانات وغيرها .

﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ . كالمرض والأوبئة المهلكة وغير ذلك .

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ . وهو اللوح المحفوظ .

﴿نَّبْرَأَهَآ﴾ . أى : من قبل أن نخلقها ، والضمير فى ﴿نَّبْرَأَهَآ﴾ : يحتمل أن يعود على المصيبة ، ويحتمل أن يعود على الأنفس ، ويحتمل أن يعود على الأرض ، والكل صحيح ؛ فالمصيبة قد كتبت قبل أن يخلقها الله ﷻ ، وقبل أن يخلق النفس المصابة ، وقبل أن يخلق الأرض .

وفى « صحيح مسلم »[(١)] عن عبد الله بن عمرو ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة . قال : وكان عرشه على الماء » .

قوله : « فى مواضع » ؛ مواضع غير اللوح المحفوظ .

ثم بين هذه المواضع بقوله : « فقد كتب فى اللوح المحفوظ ما شاء . وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه ؛ بعث إليه ملكًا ، فيؤمر بأربع كلمات ، فيقال له : اكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أم سعيد ونحو ذلك » .

فهذان موضعان :

الأول : اللوح المحفوظ ، وسبق دليل ذلك وتفصيل القول فيه .

والثانى : الكتابة العمرية التى تكون للجنين فى بطن أمه ، وسبق دليلها فى حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

والموضع الثالث : ما أشار إليه بقوله : « ونحو ذلك » ، وهو التقدير الحولى الذى يكون فى ليلة القدر ؛ فإن ليلة القدر يكتب فيها ما يكون فى تلك السنة ؛ كما قال تعالى : ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان : ٤، ٥] .

« هذا التقدير » . يعنى : العلم والكتابة ، وينكره غلاة القدرية قديمًا ، ويقولون : إن الله لا يعلم أفعال العبد إلا بعد وجودها ، وأنها لم تكتب ، ويقولون : إن الأمر أنف ؛ أى : مستأنف ، لكن متأخروهم أقروا بالعلم والكتابة ، وأنكروا المشيئة والخلق ، وهذا بالنسبة لأفعال المخلوقين .

أما بالنسبة لأفعال الله ؛ فلا أحد ينكر أن الله عالم بها قبل وقوعها .

يعنى : من درجات الإيمان بالقدر .

يعنى : أن تؤمن بأن مشيئة الله نافذة فى كل شىء ، سواء كان مما يتعلق بفعله أو يتعلق بأفعال المخلوقين ، وأن قدرته شاملة ، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر : ٤٤] .

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣) .

وهذه الدرجة تتضمن شيئين ؛ المشيئة والخلق :

– أما المشيئة ؛ **فيجب أن نؤمن بأن مشيئة اللّه تعالى نافذة فى كل شىء ، وأن قدرته شاملة لكل شىء من أفعاله وأفعال المخلوقين .**

– وأما كونها شاملة لأفعاله ؛ فالأمر فيها ظاهر .

– وأما كونها شاملة لأفعال المخلوقين فلأن الخلق **كلهم ملك للّه تعالى ، ولا يكون فى ملكه إلا ما شاء .**

والدليل على هذا :

قوله تعالى : ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام : ١٤٩] .

وقوله سبحانه : ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود : ١١٨] .

وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

فهذه الآيات تدل على أن أفعال العباد متعلقة بمشيئة اللّه .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الأنبياء : ٣٠] .

وهذه تدل على أن مشيئة العبد داخلة تحت مشيئة اللّه وتابعة لها .

هذه العبارة تحتاج إلى تفصيل : لا يكون فى ملكه ما لا يريد بالإرادة الكونية ، أما بالإرادة الشرعية ؛ فيكون فى ملكه ما لا يريد .

وحينئذٍ ؛ نحتاج إلى أن نقسم الإرادة إلى قسمين : إرادة كونية ، وإرادة شرعية :

– فالإرادة الكونية بمعنى المشيئة ، **ومثالها قول نوح عليه السلام لقوله : ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾** [هود : ٣٤] .

– والإرادة الشرعية بمعنى المحبة ، **مثلها قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾** [النساء : ٢٧] .

وتختلف الإرادتان فى موجبهما وفى متعلقهما :

– ففى المتعلق : **الإرادة الكونية تتعلق فيما وقع ، سواء أحبه أم كرهه ، والإرادة الشرعية تتعلق فيما أحبه ، سواء وقع أم لم يقع .**

– **وفى موجبهما : الإرادة الكونية يتعين فيها وقوع المراد ، والإرادة الشرعية لا يتعين فيها وقوع المراد .**

وعلى هذا يكون قول المؤلف : « ولا يكون فى ملكه ما لا يريد » . يعنى به : الإرادة الكونية .

فإن قال قائل : هل المعاصى مرادة للّه ؟

فالجواب : أما بالإرادة الشرعية ؛ فليست مرادة له ؛ لأنه لا يحبها ، وأما بالإرادة الكونية ؛ فهي مرادة له سبحانه ؛ لأنها واقعة بمشيئته .

(لا يكون في ملكه ما لا يريد) وقوعه كونًا وقدرًا .

كل شيء ؛ فالله قادر عليه من الموجودات ؛ فيعدمها أو يغيرها ، ومن المعدومات ؛ فيوجدها .

فالقدرة تتعلق في الموجود بإيجاده أو إعدامه أو تغييره ، وفي المعدوم بإعدامه أو إيجاده .

فمثلًا ؛ كل موجود ؛ فالله قادر أن يعدمه ، وقادر أن يغيره ؛ أي : ينقله من حالٍ إلى حال ، وكل معدوم ؛ فالله قادر على أن يوجده ؛ مهما كان ؛ كما قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة : ٢٠] .

ذكر بعض العلماء استثناء من ذلك ، وقال : إلا ذاته ؛ فليس عليها بقادر ! وزعم أن العقل يدل على ذلك .

فنقول : ماذا تريد بأنه غير قادر على ذاته ؟

- إن أردت أنه غير قادر على أن يعدم نفسه أو يلحقها نقصًا ؛ فنحن نوافقك على أن الله لا يلحقه النقص أو العدم ، لكننا لا نوافقك على أن هذا مما تتعلق به القدرة ؛ لأن القدرة إنما تتعلق بالشيء الممكن ، أما الشيء الواجب أو المستحيل ؛ فهذا لا تتعلق به القدرة أصلًا ؛ لأن الواجب مستحيل العدم ، والمستحيل مستحيل الوجود .

- وإن أردت بقولك : إنه غير قادر على ذاته : أنه غير قادر على أنه يفعل ما يشاء ؛ فلا يقدر أن يجيء أو نحوه ! فهذا خطأ ، بل هو قادر على ذلك ، وفاعل له ، ولو قلنا : إنه ليس بقادر على مثل هذه الأفعال ؛ لكان ذلك من أكبر النقص الممتنع على الله سبحانه .

وبهذا علم أن هذا الاستدراك من عموم القدرة في غير محله على كل تقدير .

وإنما نصَّ المؤلف على هذا ردًّا على القدرية الذين قالوا : إن الله ليس بقادر على فعل العبد ، وأن العبد مستقل بعمله !

ولكن ما في الكتاب والسنة من شمول قدرة الله يرد عليهم .

هذا صحيح بلاشك ولهذا دليل أثري ودليل نظري :

- أما الدليل الأثري : فقد قال الله تعالى : ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزمر : ٦٢] .

وقال تعالى : ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور : ٣٥، ٣٦] .

فلا يمكن أن يوجد شيء في السماء والأرض إلا الله خالقه وحده .

ولقد تحدى الله العابدين للأصنام تحديًا أُمرنا أن نستمع له ، فقال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ

فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ ، ومعلوم أن الذين يدعون من دون الله فى القمة عندهم ؛ لأنهم اتخذوا أربابًا ؛ فإذا عجز هؤلاء القمة عن أن يخلقوا ذبابًا ، وهو أخس الأشياء وأهونها ؛ فما فوقه من باب أولى ، بل قال : ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج : ٧٣] ؛ فيعجزون حتى عن مدافعة الذباب وأخذ حقهم منه .

فإن قيل : كيف يسلب هذه الأصنام شيئًا ؟ !

فالجواب : قال بعض العلماء : إن هذا على سبيل الفرض ؛ يعنى : على فرض أن يسلبهم الذباب شيئًا ؛ لا يستنقذوه منه . وقال بعضهم : بل على سبيل الواقع ؛ فيقع الذباب على هذه الأصنام ، ويمتص ما فيها من أطياب ؛ فلا تستطيع الأصنام أن تخرج ما امتصه الذباب .

وإذا كانت عاجزةً عن الدفع عن نفسها ، واستنقاذ حقها ؛ فهى عن الدفع عن غيرها واستنقاذ حقه أعجز .

والمهم أن الله تعالى خالق كل شىء ، وأن لا خالق إلا الله ، فيجب الإيمان بعموم خلق الله ﷻ ، وأنه خالق كل شىء ، حتى أعمال العباد ؛ لقوله تعالى : ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد : ١٦] ، وعمل الإنسان من الشىء ، وقال تعالى : ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان : ٢] . . . . والآيات فى هذا كثيرة .

وفيه آية خاصة فى الموضوع ، وهو خلق أفعال العباد :

فقال إبراهيم لقومه : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات : ٩٦] .

فـ : (ما) مصدرية ، وتقدير الكلام : خلقكم وعملكم ، وهذا نص فى أن عمل الإنسان مخلوق لله تعالى .

فإن قيل : ألا يحتمل أن تكون (ما) اسمًا موصولًا ، ويكون المعنى : خلقكم وخلق الذى تعملونه ؟

فكيف يمكن أن نقول : إن الآية دليلًا على خلق أفعال العباد على هذا التقدير أن (ما) موصولة ؟

فالجواب : أنه إذا كان المعمول مخلوقًا لله ؛ لزم أن يكون عمل الإنسان مخلوقًا ؛ لأن المعمول كان بعمل الإنسان ؛ فالإنسان هو الذى باشر العمل فى المعمول ؛ فإذا كان المعمول مخلوقًا لله ، وهو فعل العبد ؛ لزم أن يكون فعل العبد مخلوق ، فيكون فى الآية دليل على خلق أفعال العباد على كلا الاحتمالين .

– وأما الدليل النظرى على أن أفعال العبد مخلوقة لله ؛ فتقريره أن نقول : إن فعل العبد ناشئ عن أمرين : عزيمة صادقة وقدرة تامة .

مثال ذلك : أردت أن أعمل عملًا من الأعمال ؛ فلا يوجد هذا العمل حتى يكون مسبوقًا بأمرين هما :

أحدهما : العزيمة الصادقة على فعله ؛ لأنك لو لم تعزم ما فعلته .

الثاني : القدرة التامة ؛ لأنك لو لم تقدر ؛ ما فعلته ؛ فالذي خلق فيك هذه القدرة هو الله ﷻ ، وهو الذي أودع فيك العزيمة ، وخالق السبب التام خالق للمسبب .

- ووجه ثان نظرى : أن نقول : الفعل وصف الفاعل ، والوصف تابع للموصوف ؛ فكما أن الإنسان بذاته مخلوق لله ؛ فأفعاله مخلوقة ؛ لأن الصفة تابعة للموصوف .

فتبين بالدليل أن عمل الإنسان مخلوق لله ، وداخل فى عموم الخلق أثريًا ونظريًا ، والدليل الأثرى قسمان عام وخاص ، والدليل النظرى له وجهان .

قوله : « لا خالق غيره » .

إن قلت : هذا الحصر يرد عليه أن هناك خالقًا غير الله ؛ فالمصور يعد نفسه خالقًا ، بل جاء فى الحديث[1] أنه خالق : « فإن المصورين يعذبون ؛ يقال لهم : أحيوا ما خلقتم » ، وقال ﷻ : ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون : ١٤] ؛ فهناك خالق ، لكن الله تعالى هو أحسن الخالقين ؛ فما الجواب عن قول المؤلف ؟

الجواب : أن الخلق الذى ننسبه إلى الله ﷻ هو الإيجاد وتبديل الأعيان من عين لأخرى ؛ فلا أحد يوجد إلا الله ﷻ ، ولا أحد يبدل عينًا إلى عين ؛ إلا الله ﷻ ، وما قيل : إنه خلق ؛ بالنسبة للمخلوق ؛ فهو عبارة عن تحويل شىء من صفة إلى صفة ؛ فالخشبة مثلًا بدلًا من أن كانت فى الشجرة ، تحول بالنجارة إلى باب ؛ فتحويلها إلى باب يسمى خلقًا ، لكنه ليس الخلق الذى يختص به الخالق ، وهو الإيجاد من العدم ، أو تبديل العين من عين إلى أخرى .

قوله : « ولا ربَّ سِواه » : أى : أن الله وحده هو الرب المدبر لجميع الأمور ، وهذا حصر حقيقى .

ولكن ربما يرد عليه أنه جاء فى الأحاديث إثبات الربوبية لغير الله . ففى لُقَطةِ الإبل قال النبى ﷺ : « دَعْها ؛ معها سقاؤها وحِذاؤها ، ترِد الماءَ ، وتأكلُ الشجر ، حتى يجدها ربُّها »[2] ، وربها : صاحبها .

وجاء فى بعض ألفاظ حديث جبريل ؛ يقول : « حتى تلد الأمة ربتَها »[3] .

فما هو الجمع بين هذا وبين قول المؤلف : « لا رب سواه » ؟

نقول : إن ربوبية الله عامة كاملة ؛ كل شىء ؛ فالله ربه ، لا يسأل عما يفعل فى خلقه ؛ لأن فعله كله رحمة وحكمة ، ولهذا يقدر الله ﷻ الجدب والمرض والموت والجروح فى الإنسان وفى الحيوان ، ونقول : هذا غاية الكمال والحكمة . أما ربوبية المخلوق للمخلوق ؛ فربوبية ناقصة قاصرة ، لا تتجاوز

---

(١) أخرجه البخارى (٥١٠٥) ، ومسلم (٢١٠٧) .

(٢) أخرجه البخارى (٩١) ، ومسلم (١٧٢٢) .

(٣) أخرجه مسلم (٨) .

محلها ، ولا يتصرف فيها الإنسان تصرفًا تامًّا ، بل تصرفه مقيد : إما بالشرع ، وإما بالعرف .

قوله : (ومع ذلك فقد أمَرَ العبادَ بطاعتِه وطاعةِ رسلِه ، ونهاهم عن معصيتِه) : يعنى : ومع عموم خلقه وربوبيته لم يترك العباد هملًا ، ولم يرفع عنهم الاختيار ، بل أمرهم بطاعته وطاعة رسله ، ونهاهم عن معصيته .

وأمره بذلك أمر ممكن ؛ فالمأمور مخلوق للَّه ﷻ ، وفعله مخلوق للَّه ، ومع ذلك ؛ يؤمر وينهى .

ولو كان الإنسان مجبرًا على عمله ؛ لكان أمره أمرًا بغير ممكن ، واللَّه ﷻ يقول : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة : ٢٨٦] . ويقول تعالى : ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام : ١٥٢] . وهذا يدل على أنهم قادرون على فعل الطاعة ، وعلى تجنب المعصية ، وأنهم غير مكرهين على ذلك .

قوله : (وهو سبحانَه يُحِبُّ المُتَّقِين والمُحْسِنين والمُقْسِطِين) :

يعنى أن اللَّه ﷻ يحب المحسنين ؛ لقوله تعالى : ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة : ١٩٥] . والمتقين ؛ لقوله : ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة : ٧] والمقسطين ؛ لقوله : ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات : ٩] .

فهو ﷻ يحب هؤلاء ، ومع ذلك هو الذى قدر لهم هذا العمل الذى يحبه ، فكان فعلهم محبوبًا إلى اللَّه مرادًا له كونًا وشرعًا ؛ فالمحسن قام بالواجب والمندوب ، والمتقى قام بالواجب ، والمقسط اتقى الجور فى المعاملة .

الدليل قوله تعالى : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [التوبة : ١٠٠] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة : ٧، ٨] .

قوله : « ولا يحب » اللَّه ﷻ « الكافرين » .

والدليل قوله تعالى : ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران : ٣٢] .

مع أن الكفر واقع بمشيئته ، لكن لا يلزم من وقوعه بمشيئته أن يكون محبوبًا له سبحانه وتعالى .

الدليل قوله تعالى : ﴿فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة : ٩٦] .

والفاسق – وهو الخارج عن طاعة اللَّه – قد يراد به الكافر ، وقد يراد به العاصى .

– ففى قوله تعالى : ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة : ١٨- ٢٠] فالمراد بالفاسق الكافر .

وأما قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات : ٦] ؛ فالمراد بالفاسق العاصي . فالله ﷻ لا يرضى عن القوم الفاسقين ، لا هؤلاء ولا هؤلاء ، لكن الفاسقين بمعنى الكافرين لا يرضى عنهم مطلقًا ، وأما الفاسقون بمعنى العصاة ؛ فلا يرضى عنهم فيما فسقوا فيه ، ويرضى عنهم فيما أطاعوا فيه .

الدليل قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ ؛ لأنهم إذا فعلوا فاحشة : ﴿قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ ؛ فاحتجوا بأمرين ، فقال الله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ ، وسكت عن قولهم : ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ ؛ لأنه حق لا ينكر ، لكن ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ كذب ، ولهذا كذبهم وأمر نبيه أن يقول : ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف : ٢٨] ، ولم يقل : ولم يجدوا عليها آباءهم ؛ لأنهم قد وجدوا عليها آباءهم .

لقوله تعالى : ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر : ٧] ، لكن يقدر أن يكفروا ، ولا يلزم من تقديره الكفر أن يكون راضيًا به سبحانه وتعالى ، بل يقدره وهو يكرهه ويسخطه .

دليل ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة : ٢٠٥] .

كرر المؤلف مثل هذه العبارات ليبين أنه لا يلزم من إرادته الشيء أن يكون محبوبًا له ، ولا يلزم من كراهته للشيء أن لا يكون مرادًا له بالإرادة الكونية ، بل هو ﷻ يكره الشيء ويريده بالإرادة الكونية ، ويوقع الشيء ولا يرضى عنه ، ولا يريده بالإرادة الشرعية .

فإن قلت : كيف يوقع ما لا يرضاه وما لا يحبه ؟ ! وهل أحد يكرهه على أن يوقع ما لا يحبه ولا يرضاه ؟ !

فالجواب : لا أحد يكرهه على أن يوقع ما لا يحبه ولا يرضاه ، وهذا الذى يقع من فعله ﷻ وهو مكروه له ، هو مكروه له من وجه ، محبوب له من وجه آخر ؛ لما يترتب عليه من المصالح العظيمة .

فمثلًا ؛ الإيمان محبوب لله ، والكفر مكروه له ، فأوقع الكفر وهو مكروه له لمصالح عظيمة ؛ لأنه لولا وجود الكفر ؛ ما عرف الإيمان ، ولولا وجود الكفر ؛ ما عرف الإنسان قدر نعمة الله عليه بالإيمان ، ولولا وجود الكفر ؛ ما قام الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ لأن الناس كلهم يكونون على المعروف ، ولولا وجود الكفر ؛ ما قام الجهاد ، ولولا وجود الكفر لكان خلق النار عبثًا ؛ لأن النار مثوى الكافرين ولولا وجود الكفر ؛ لكان الناس أمة واحدة ، ولم يعرفوا معروفًا ولم ينكروا منكرًا ، وهذا لا شك أنه مخل بالمجتمع الإنساني ، لولا وجود الكفر ؛ ما عرفت ولاية الله ؛ لأن من ولاية الله أن تبغض أعداء الله وأن تحب أولياء الله .

وكذلك يقال فى الصحة والمرض ؛ فالصحة محبوبة للإنسان ؛ وملائمة له ، ورحمة الله تعالى فيها

ظاهرة ، لكن المرض مكروه للإنسان ، وقد يكون عقوبة من اللَّه له ، ومع ذلك يوقعه ؛ لما فى ذلك من المصالح العظيمة .

كم من إنسان إذا أسبغ اللَّه عليه النعمة بالبدن والمال والولد والبيت والمركوب ؛ تَرَفَّع ورأى أنه مستغن بما أنعم اللَّه به عليه عن طاعة اللَّه ﷻ ؛ كما قال تعالى : ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق : ٦، ٧] ، وهذه مفسدة عظيمة ؛ فإذا أراد اللَّه أن يرد هذا الإنسان إلى مكانه ؛ ابتلاه ، حتى يرجع إلى اللَّه ، وشاهد هذا قوله تعالى : ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم : ٤١] .

وأنت أيها الإنسان إذا فكرت هذا التفكير الصحيح فى تقديرات اللَّه ﷻ ؛ عرفت ما له سبحانه وتعالى من الحكمة فيما يقدره من خير أو شر ، وأن اللَّه سبحانه وتعالى يخلق ما يكرهه ويقدر ما يكرهه لمصالح عظيمة ؛ قد تحيط بها ، وقد لا تحيط بها ويحيط بها غيرك ، وقد لا يحيط بها لا أنت ولا غيرك .

فإن قيل : كيف يكون الشىء مكروهًا للَّه ومرادًا له ؟

فالجواب : أنه لا غرابة فى ذلك ؛ فها هو الدواء المر طعمًا ، الخبيث رائحة يتناوله المريض وهو مرتاح ؛ لما يترتب عليه من مصلحة الشفاء ، وها هو الأب يمسك بابنه المريض ليكويه الطبيب ، وربما كواه هو بنفسه ، مع أنه يكره أشد الكره أن يحرق ابنه بالنار .

هذا صحيح ؛ فالعبد هو المباشر لفعله حقيقة ، واللَّه خالق فعله حقيقة ، وهذه عقيدة أهل السنة ، وقد سبق تقريرها بالأدلة .

وخالفهم فى هذا الأصل طائفتان :

الطائفة الأولى : القدرية من المعتزلة وغيرهم ؛ قالوا إن العباد فاعلون حقيقة ؛ واللَّه لم يخلق أفعالهم .

الطائفة الثانية : الجبرية من الجهمية وغيرهم ؛ قالوا : إن اللَّه خالق أفعالهم ، وليسوا فاعلين حقيقة ، لكن أضيف الفعل إليهم من باب التجوز ، وإلا فالفاعل حقيقة هو اللَّه .

وهذا القول يؤدى إلى القول بوحدة الوجود ، وأن الخلق هو اللَّه ، ثم يؤدى إلى قول من أبطل الباطل ؛ لأن العباد منهم الزانى ومنهم السارق ومنهم شارب الخمر ومنهم المعتدى بالظلم ؛ فحاشا أن تكون هذه الأفعال منسوبة إلى اللَّه ! ! وله لوازم باطلة أخرى .

وبهذا تبين أن فى قول المؤلف : « والعباد فاعلون حقيقة ، واللَّه خالق أفعالهم » : ردًّا على الجبرية والقدرية .

يعنى : أن الوصف بالإيمان والكفر والبر والفجور والصلاة والصيام وصف للعبد ، لا لغيره ؛ فهو المؤمن ، وهو الكافر ، وهو البار ، وهو الفاجر ، وهو المصلى ، وهو الصائم . . وكذلك هو المزكى ،

وهو الحاج ، وهو المعتمر . . . وهكذا ، ولا يمكن أن يوصف بما ليس من فعله حقيقة .

وهذه الجملة تتضمن الرد على الجبرية .

والمراد بالعبودية هنا العبودية العامة ؛ لأن العبودية نوعان : عامة وخاصة :

فالعامة : هى الخضوع لأمر اللّٰه الكونى ؛ كقوله تعالى : ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم : ٩٣] .

- والعبودية الخاصة : هى الخضوع لأمر اللّٰه الشرعى ، وهى خاصة بالمؤمنين ؛ كقوله تعالى : ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان : ٦٣] ، وقوله : ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان : ١] ، وهذه أخص من الأولى .

قوله : « وللعباد قدرة على أعمالهم ولهم إرادة » . خلافًا للجبرية القائلين بأنهم لا قدرة لهم ولا إرادة ، بل هم مجبرون عليها .

قوله : « واللّٰه خالقهم وخالق إرادتهم وقدرتهم » ؛ خلافًا للقدرية القائلين بأن اللّٰه ليس خالقًا لفعل العبد ولا لإرادته وقدرته .

وكأن المؤلف يشير بهذه العبارة إلى وجه كون فعل العبد مخلوقًا للّٰه تعالى ؛ بأن فعله صادر عن قدرة وإرادة ، وخالق القدرة والإرادة هو اللّٰه ؛ وما صدر عن مخلوق ، فهو مخلوق .

ويشير بها أيضًا إلى كون فعل العبد اختياريًا لا إجباريًا ؛ لأنه صادر عن قدرة وإرادة ؛ فلولا القدرة والإرادة ؛ لم يصدر منه الفعل ، ولولا الإرادة ؛ لم يصدر منه الفعل ، ولو كان الفعل إجباريًا ، ما كان من شرطه القدرة والإرادة .

ثم استدل المؤلف لذلك ، فقال : « كما قال تعالى : ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير : ٢٨، ٢٩] » .

فقوله : ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ : فيها رد على الجبرية .

وفى قوله : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ : ردٌّ على القدرية .

قوله : (وهذه الدرجةُ مِن القدرِ) : أى : درجة المشيئة والخلق .

قوله : (يُكَذِّبُ بها عامةُ القَدَرِيةِ) : أى : أكثرهم يكذبون بهذه الدرجة ، ويقولون : إن الإنسان مستقلٌّ بعمله ، وليس للّٰه فيه مشيئة ولا خلق .

قوله : (الذين سمَّاهم النبيُّ ﷺ مجوسَ هذه الأمةِ) : لأن المجوس يقولون : إن للحوادث خالقين : خالقًا للخير ، وخالقًا للشر ! فخالق الخير هو النور ، وخالق الشر هو الظلمة . فالقدرية يشبهون هؤلاء المجوس من وجه ؛ لأنهم يقولون : إن الحوادث نوعان : حوادث من فعل اللّٰه ؛ فهذه خلق اللّٰه ، وحوادث من فعل العباد ؛ فهذه للعباد استقلالًا ، وليس للّٰه تعالى فيها خلق .

قوله : « ويَغْلُو فيها » : أى : فى هذه الدرجة .

قوله : « قومٌ مِن أهلِ الإثباتِ حتى سَلَبوا العبدَ قدرتَه واختيارَه » : أى : إثبات القدر .

وهؤلاء القوم هم الجبرية ؛ حيث إنهم سَلَبوا العبد قدرته واختياره ، وقالوا : إنه مجبر على عمله ؛ لأنه مكتوب عليه .

قوله : « ويخرجون عن أفعال اللّه وأحكامه حكمها ومصالحها » : « يخرجون » : معطوفة على قوله : « يغلو » .

ووجه كونهم يخرجون الحكم والمصالح عن أفعال اللّه وأحكامه : أنهم لا يثبتون للّه حكمة أو مصلحة ؛ فهو يفعل ويحكم لمجرد مشيئته ، ولهذا يثيب المطيع ، وإن كان مجبرًا على الفعل ، ويعاقب العاصى ، وإن كان مجبرًا على الفعل .

ومن المعلوم أن المجبر لا يستحق الحمدَ على محمود ، ولا الذمَّ على مذموم ؛ لأنه بغير اختياره .

وهنا مسألة يحتج بها كثير من العُصاة : إذا أنكرت عليه المنكر ؛ قال : هذا هو ما قدره اللّه على ؛ أنعترض على اللّه ؟ ! فيحتج بالقدر على معاصى اللّه ، ويقول : أنا عبد مُسير ! ثم يحتج أيضًا بحديث : « تحاج آدم وموسى ، فقال له موسى : أنت أبونا ، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة ؟ ! فقال له آدم : أنت موسى اصطفاك اللّه بكلامه ، وكتب لك التوراة بيده ! أتلومنى على أمر قدره علىَّ قبل أن يخلقنى بأربعين سنة ؟ ! » . قال النبى عليه الصلاة والسلام : « فحج آدم موسى » ؛ قالها ثلاثًا [1]. وعند أحمد : « فحجة آدم » [2]. وهى صريحة فى أن آدم غلب موسى بالحجة .

قال : فهذا آدم لما اعترض عليه موسى ؛ احتج عليه بالقدر ، وآدم نبى ، وموسى رسول ، فسكت موسى ؛ فلماذا تحتج علىَّ ؟

والجواب على حديث آدم :

– أما على رأى القدرية ؛ فإن طريقتهم أن أخبار الآحاد لا توجب اليقين ؛ قالوا : وإذا عارضت العقل ؛ وجب أن ترد وبناء على ذلك قالوا : هذا لا يصح ولا نقبله ولا نسلم به .

– وأما الجبرية ؛ فقالوا : إن هذا هو الدليل ، ودلالته حق ، ولا يلام العبد على ما قدر عليه .

– أما أهل السنة والجماعة ؛ فقالوا : إن آدم عليه الصلاة والسلام فعل الذنب ، وصار ذنبه سببًا لخروجه من الجنة ، لكنه تاب من الذنب ، وبعد توبته اجتباه اللّهُ وتاب عليه وهداه ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، ومن المحال أن موسى عليه الصلاة والسلام – وهو أحد أولى العزمِ من الرسل – يلوم أباه على شىء تاب منه ثم اجتباه اللّه بعده وتاب عليه وهداه ، وإنما اللوم على المصيبة التى حصلت

---

(١) أخرجه البخارى (٦٦١٤) ، ومسلم (٢٦٥٢) .

(٢) أخرجه أحمد (٧٥٧٩) .

بفعله ، وهى إخراج الناس ونفسه من الجنة ؛ فإن سببَ هذا الإخراج هو معصية آدم ؛ على أن آدم عليه الصلاة والسلام لاشك أنه لم يفعل هذا ليخرج من الجنة حتى يلام ؛ فكيف يلومه موسى ؟ !

وهذا وجه ظاهر فى أن موسى عليه السلام لم يرد لوم آدم على فعل المعصية ، إنما على المصيبة التى هى من قدر الله ، وحينئذٍ يتبين أنه لا حجةَ بهذا الحديث للجبرية .

فنحن نقبله ولا ننكره كما فعل القدرى ، ولكننا لا نحتج به على المعصية ؛ كما فعل الجبرى .

وهناك جواب آخر أشار إليه ابن القيم رحمه الله ، وقال : الإنسان إذا فعل المعصية واحتج بالقدر عليها بعد التوبة منها ؛ فلا بأس به .

ومعناه : أنه لو لامك أحد على فعل المعصية بعد أن تبت منها ، وقلت : هذا بقضاء الله وقدره وأستغفر الله وأتوب إليه . . . وما أشبه ذلك ؛ فإنه لا حرج عليك فى هذا .

فآدم احتج بالقدر بعد أن تاب منه ، وهذا لاشك أنه وجهٌ حسنٌ ، لكن يبعده أن موسى لا يمكن أن يلوم آدم على معصية تاب منها .

ورجح ابن القيم قوله هذا بما جرى للنبى عليه الصلاة والسلام حين طرق عليًا وفاطمة رضي الله عنهما ليلة : فقال : « ألا تصليان ؟ » . فقال على رضي الله عنه : يا رسول الله ، أنفسنا بيد الله ؛ فإذا شاء أن يبعثنا ؛ بعثنا . فانصرف النبى ﷺ يضرب فَخِذه وهو يقول : ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾[1] [الكهف : ٥٤] .

وعندى أن فى الاستدلال بهذا الحديث نظرًا ؛ لأن عليًا رضي الله عنه احتج بالقدر على نومه ، والإنسان النائم له أن يحتج بالقدر ؛ لأن فعله لا ينسب إليه ، ولهذا قال الله تعالى فى أصحاب الكهف : ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف : ١٨] . فنسب التقليب إليه ، مع أنهم هم الذين يتقلبون ، لكن لما كان بغير إرادة منهم ؛ لم يضفه إليهم .

والوجه الأول فى الجواب عن حديث آدم وموسى - وهو ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية - هو الصواب .

فإذن ؛ لا حجة للجبرى بهذا الحديث ، ولا للعصاة الذين يحتجون بهذا الحديث لاحتجاجهم بالقدر . فنقول له : إن احتجاجك بالقدر على المعاصى يبطله السمع والعقل والواقع :

- فأما السمع ؛ فقد قال الله تعالى : ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ [الأنعام : ١٤٨] . قالوا ذلك احتجاجًا بالقدر على المعصية ، فقال الله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ . يعنى : كذبوا الرسل واحتجوا بالقدر ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ ، وهذا يدل على أن حجتهم باطلة ؛ إذ لو كانت حجة مقبولة ؛ ما ذاقوا بأس الله .

---

(١) أخرجه البخارى (١١٢٧) ، ومسلم (٧٧٥) .

- ودليل سَمعي آخر : قال اللَّه تعالى : ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣] إلى قوله : ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] ، ووجه الدلالة من هذه الآية أنه لو كان القدر حجة ؛ ما بطلت بإرسال الرسل ، وذلك لأن القدرَ لا يبطل بإرسال الرسل ، بل هو باقٍ .

فإذا قال قائل : يرد عليك في الدليل الأول قول اللَّه تبارك وتعالى في سورة « الأنعام » : ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ١٠٦، ١٠٧] ؛ فهنا قال اللَّه تعالى : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ ؛ فنقول : إن قول الإنسان عن الكفارِ : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ : قولٌ صحيح وجائز ، لكن قول المشرك : ﴿مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] ؛ يريد أن يحتج بالقدَر على المعصية قول باطل ، واللَّه ﷻ إنما قال لرسوله هكذا تسلية له وبيانًا أن ما وقع فهو بمشيئة اللَّه .

- وأما الدليل العقلي على بطلان احتجاج العاصي بالقدر على معصية الله أن نقول له : ما الذي أعلمك بأن اللَّه قدر لك أن تعصيه قبل أن تعصيه ؟ فنحن جميعًا لا نعلم ما قدر اللَّه إلا بعد أن يقع ؛ أما قبل أن يقع ، فلا ندري ماذا يراد بنا ؛ فنقول للعاصي : هل عندك علم قبل أن تمارس المعصية أن اللَّه قدر لك المعصية ؟ سيقول : لا . فنقول : إذن ؛ لماذا لم تقدر أن اللَّه قدر لك الطاعة وتطع اللَّه ؛ فالباب أمامك مفتوح ؛ فلماذا لم تدخل من الباب الذي تراه مصلحة لك ؛ لأنك لا تعلم ما قدر لك . واحتجاج الإنسان بحجة على أمر فعله قبل أن تتقدم حجته على فعله احتجاج باطل ؛ لأن الحجة لابد أن تكون طريقًا يمشي به الإنسان ؛ إذ إن الدليل يتقدم المدلول .

ونقول له أيضًا : ألست لو ذكر لك أن لمكة طريقين أحدهما طريق مُعبَّد آمِن ، والثاني طريق صعب مخوف ؛ ألست تسلك الآمن ؟ سيقول : بلى . فنقول : إذن ؛ لماذا تسلك في عبادتك الطريق المخوف المحفوف بالأخطار ، وتدع الطريق الآمن الذي تكفل اللَّه تعالى بالأمن لمن سلكه ؛ فقال : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ [الأنعام: ٨٢] . وهذه حجة واضحة .

ونقول له : لو أعلنت الحكومة عن وظيفتين : إحداهما بالمرتبة العالية ، والثانية بالمرتبة السفلى ؛ فأيهما تريد ؟ بلاشك ستريد المرتبة العالية ، وهذا يدل على أنك تأخذ بالأكمل في أمور دنياك ؛ فلماذا لم تأخذ بالأكمل في أمور دينك ؟ ! وهل هذا إلا تناقض منك ؟ !

وبهذا يتبين أنه لا وجه أبدًا لاحتجاج العاصي بالقدر على معصية اللَّه ﷻ .

۞ قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك حفظه اللَّه :

قوله : « وتؤمن الفرقة الناجية من أهل السنة والجماعة بالقدر خيره وشره » :

* وكان الأنسب لو قال : « فصل » ؛ لأنه انتقل إلى موضوع جديد ، ويلاحظ أن الشيخ ميز هذا

المقام بتعبير ؛ لأن مسألة القدر هي من المسائل الكبار التي تباينت فيها مذاهب الأمة .

وتؤمن الفرقة الناجية المنصورة - أهل السنة والجماعة - بالقدر خيره وشره ، ولاحظ أن هذا هو الأصل السادس ، وأن الشيخ أشار إلى بعض ما يتعلق بالإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ثم انتهى إلى الكلام عن الأصل السادس وهو الإيمان بالقدر ، فالفرقة الناجية المنصورة تؤمن بالقدر خيره وشره ، كما في قوله ﷺ : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره »[١] .

تؤمن بالقدر يعني : بتقدير الله للأشياء قبل كونها ، والأشياء المقدرة فيها خير وشر ، فالقدر يطلق ويراد به التقدير السابق ، تقدير الله للأشياء في علمه وكتابه .

ويطلق القدر على الشيء المقدر ، تقول عن الحادث : هذا قدر يعني : أمر مقدر ، فكل الأشياء قدر : قيامك ، وقعودك ، ومشيك ، وأكلك ، وشربك ، والصحة والمرض ، كلها قدر .

ولهذا لما سئل النبي ﷺ عن الأدوية والرقى قالوا : هل ترد من قدر الله ؟ قال : « هي من قدر الله »[٢] .

ولما رأى عمر رضي الله عنه الرجوع بالناس عن الشام لما بلغهم أنه قد نزل بها الطاعون بعدما استشار الصحابة فقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين أفرارًا من قدر الله ؟ ! قال : نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله ! فجاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وكان متغيبًا في بعض حاجته فقال : إن عندي في هذا علمًا ! سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه »[٣] .

قوله : « الإيمان والقدر على درجتين ، كل درجة تتضمن شيئين ....» :

الدرجة الأولى : الإيمان بأن الله علم ما يكون قبل أن يكون بعلمه القديم الأزلي ، وعلم ما العباد فاعلون من الطاعات والمعاصي ، كل ذلك معلوم للرب بعلمه القديم .

هذه المرتبة الأولى من الإيمان بالقدر ، فلا بد في الإيمان بالقدر من الإيمان بعلم الله السابق ، هذا شيء .

الشيء الثاني : الإيمان بأن الله كتب مقادير الأشياء عنده في كتاب وهو اللوح المحفوظ ، وهو أم الكتاب ، وهو الكتاب المبين ، أو الإمام المبين وهو الذكر ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] .

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) الترمذي (٢٠٦٥) ، وابن ماجه (٣٤٣٧) ، وأحمد (٣/٤٢١) ، وضعفه الألباني في « المشكاة » (٩٧) .

(٣) البخاري (٥٧٢٩) ، ومسلم (٢٢١٩) وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

كتب ذلك بقلم المقادير كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «قدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»[1].

وفي الحديث الآخر عنه ﷺ: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء»[2].

فكل ما هو كائن إلى يوم القيامة قد كُتب ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٣].

ومن أدلة المرتبتين - العلم والكتاب -: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

فجمع سبحانه بين علمه تعالى بكل شيء، واشتمال كتابه على كل شيء، فكل ما في السماء والأرض، وكل ما جرى ويجري في هذا الوجود مكتوب في اللوح المحفوظ، قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

فعلى سبيل المثال: كل ما يجري للإنسان من أحوال: صحة ومرض، وهم وحزن، أو سعة رزق أو ضيقه أو سعادة أو شقاوة، كل ذلك مكتوب.

هذا التقدير العام الأول.

وهناك تقديرات أخرى: تقدير ثان: يتعلق بآدم وذريته، قبل أن يخلق الله آدم بأربعين عامًا، كما في الحديث الصحيح في محاجة آدم وموسى: «قال آدم لموسى عليهما السلام: هل وجدت في التوراة: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾؟ قال: نعم. قال: أفتلومني على أن عملتُ عملًا كتبه الله عليّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟! قال رسول الله ﷺ: فحج آدم موسى»[3].

وتقدير ثالث: وهو تقدير يتعلق بكل إنسان، فكل إنسان له تقدير خاص، كما في الحديث المتفق على صحته عن النبي ﷺ أنه قال في الجنين عندما يبلغ أربعة أشهر: «فيأتيه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد»[4].

وتقدير رابع - وهو التقدير الحولي -: وهو ما يكون في ليلة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٣، ٤]. وسميت ليلة القدر؛ لأن الله يقدر فيها ما يكون في السنة من ليلة القدر إلى مثلها؛ أي: من السنة إلى السنة.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) البخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) تقدم تخريجه.

وهذه التقديرات لا تناقض التقدير الأول، والكتاب الأول، والله تعالى حكيم عليم.

الدرجة الثانية من الإيمان بالقدر: الإيمان بأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن هذا الوجود لا يكون فيه من حركة، ولا سكون، ولا تقديم، ولا تأخير، ولا وجود صغير، ولا كبير إلا بمشيئة الله سبحانه.

وهذه المرتبة مضمونها الإيمان بعمومَ مشيئة الله ؛ لأن مشيئة الله عامة، لا يخرج عنها شيء لا أفعال العباد، ولا الحيوان ولا غيرها، وهذه المرتبة الثالثة من مراتب القدر.

والمرتبة الرابعة - وهي الشيء الثاني من الدرجة الثانية - : الإيمان بأن الله تعالى خالق كل شيء، وأنه على كل شيء قدير، فهو خالق السماوات والأرض ومن فيهن، وما بينهما من الذوات والصفات والأفعال، خالق العرش وما دون العرش ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد: ١٦].

الخلاصة: أن الإيمان بالقدر لا يتم إلا بهذه الأمور الأربعة، وتسمى مراتب الإيمان بالقدر، وأهل السنة والجماعة يؤمنون بالقدر على هذا الوجه بمراتبه الأربعة.

وأما المنكرون للقدر فهم طائفتان:

غلاة أنكروا العلم والكتاب، ويقولون: إن الله لا يعلم الأشياء إلا بعد وجودها، ومعنى هذا أنه لم يقدر الأشياء، ولم يكتب ما سيكون، كما ينكرون عموم المشيئة، وعموم الخلق، ويُخرِجون أفعال العباد عن مشيئة الله وخلقه.

وهذا مذهب قدماء وغلاة القدرية.

أما المتوسطون منهم فينكرون المرتبة الثالثة والرابعة، وهي عموم المشيئة والخلق، ومنهم المعتزلة فينكرون عموم المشيئة، وعموم الخلق، فيُخرِجون أفعال العباد عن مشيئة الله، فعندهم أفعال العباد ليست بمشيئة الله، والعبد يتصرف بغير مشيئة الله، والله لا يقدر على أن يغير من حال الإنسان شيئًا، فيتضمن ذلك تعجيز الرب - تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

ويُخرِجون أفعال العباد عن ملكه، فمضمون قولهم: أنه تعالى ليس له الملك كله، وأهل السنة والجماعة يؤمنون بأنه الله تعالى له الملك كله، وله الأمر كله سبحانه وتعالى.

ومع الإيمان بالقدر بما يشتمل عليه من الأمور الأربعة التي نقول: إنها مراتب الإيمان بالقدر، فإنه يجب الإيمان بالشرع، وقد اختلف الناس في هذا المقام:

فمنهم: من آمن بالشرع وأنكر القدر وهم القدرية، كالمعتزلة وغيرهم.

ومنهم: من آمن بالقدر وكفر بالشرع أو أعرض عن الشرع ولم ينظر إليه، كالجبرية الذين يقولون: الإنسان مجبور على أفعاله، وشرهم الذين يعارضون الشرع بالقدر، ومنهم المشركون الذين قالوا: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فعارضوا دعوة الرسل محتجين بالقدر.

وطائفة قالوا : إن الشرع والقدر فيهما تناقض ! فطعنوا في حكمة الرب سبحانه ، وتُعارض بين الشرع والقدر وإن أثبتتهما ، وتسمى الإبليسية فزعيمهم في هذا إبليس ؛ فهو الذي اعترض على الرب وطعن في حكمته مع إقراره بالشرع والقدر ؛ فكان هو إمام هذه الطائفة المخذولة .

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بالقدر بما يشتمل عليه من هذه الأمور الأربعة ويؤمنون بالشرع ، وأن اللَّه أمر عباده بالإيمان والطاعات ، ونهاهم عن الكفر والفسوق والعصيان ، وأنه تعالى يحب المتقين والمقسطين والتوابين والمتطهرين ، ولا يرضى لعباده الكفر ، ولا يحب الفساد والمفسدين ، ولا يرضى عن القوم الفاسقين .

والإيمان بالشرع يتضمن الفرق بين ما يحبه اللَّه سبحانه وتعالى ويبغضه ، ويتضمن إثبات الأسباب وكونها مؤثرة بإذن اللَّه ، ويدخل في ذلك الإيمان بأن العباد فاعلون حقيقة وأن لهم مشيئة واختيارًا خلافًا للجبرية ، وأن اللَّه خالق قدرتهم وأفعالهم ، كما تقدمت الإشارة إلى هذا عند ذكر وسطية أهل السنة والجماعة بين الجبرية والقدرية .

ولا يستقيم أمر العباد وإيمانهم بل لا تستقيم الحياة إلا بهذا وهذا ، فمن أنكر واحدًا منهما أو غفل عنه ضل عن الصراط المستقيم وانحرف في سلوكه وتصرفاته ، وفسد من أمور المجتمع بحسب ما وقع من الخلل في ذلك ؛ فلا بد من النظر إلى الأمرين جميعًا ووضع كل من الأمرين في موضعه .

فعند المصائب عليك أن تنظر إلى القدر ، وتؤمن بقدر اللَّه ، ولا تتسخط من قضائه وقدره ، وعند المعائب والمعاصي عليك أن تنظر إلى الشرع فتلوم نفسك وتستغفر ، وتتوب إلى ربك ، وتراجع نفسك وتندم .

ومن نظر إلى القدر عند المعاصي هانت عليه ، وأصبح لا يبالي بمعصية اللَّه فيقدم عليها ويستخف بها .

قوله : « وقد أمر العباد بطاعته ، وطاعة رسله ، ونهاهم عن معصيته ، وهو - سبحانه - يحب المتقين والمحسنين ...» إلخ :

* هذا تفصيل لقوله : « والعباد فاعلون حقيقة » . فما داموا هم الفاعلون حقيقة إذًا فالعبد هو : المؤمن ، والكافر ، والبر ، والفاجر ، والمطيع ، والعاصي ... إلخ .

قوله : « ويغلو فيها قوم من أهل الإثبات ، حتى سلبوا العبد قدرته واختياره » :

* منهم الجبرية ؛ فالجبرية يغلون في إثبات القدر ، فهم يُقرون بعموم مشيئة اللَّه وبعموم قدرته وخلقه ، ولكنهم غلوا حتى سلبوا العبد قدرته واختياره .

قوله : « ويخرجون عن أفعال اللَّه وأحكامه : حكمها ومصالحها » :

* وهو ما يتضمنه مذهب القدرية الجبرية من نفي الحكمة ، فعندهم أن كل ما هو ممكن يجوز على

الرب سبحانه وتعالى ، وهو تعالى يتصرف بزعمهم بمحض المشيئة لا لحكمه ، فهو يجعل هذا طائعًا ، وهذا عاصيًا ، أو يعذب هذا ، وينعم هذا ، أو يأمر بكذا وينهى عن كذا ، كل ذلك بمحض المشيئة ، فلا فرق عندهم بين أمره بالتوحيد ، ونهيه عن الشرك ؛ ولذا يجوز عندهم العكس ، وهو أن يأمر بالشرك ، وينهى عن التوحيد !

وأن تنعيمه للمؤمنين والصالحين في الجنة ، وتعذيبه للكافرين ، كل هذا بمحض المشيئة ، ليس في شيء من ذلك حكمة - تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا .

۞ قال الشيخ صالح بن فوزان الفوزان حفظه الله :

قوله : « وتؤمن الفرقةُ الناجيةُ - أهل السنة والجماعة - بالقدرِ خيره وشره » :

القدر : مصدر قدرت الشيء ، إذا أحطت بمقداره . والمراد به هنا تعلق علم الله بالكائنات ، وإرادته لها أزلًا قبل وجودها ، فلا حادث إلا وقد قدره الله ؛ أي : سبق علمه به ، وتعلقت به إرادته .

والإيمان بالقدر هو أحد أركان الإيمان الستة ، وهو الإيمان بالقدر ؛ خيره وشره .

وفي قول الشيخ رحمه الله : (وتؤمن الفرقة الناجية - أهل السنة والجماعة - بالقدر خيره وشره) إشارة إلى أن من لم يؤمن بالقدر فليس من أهل السنة والجماعة .

وهذا هو مقتضى النصوص ، كما في حديث جبريل حين سأل النبي ﷺ عن الإيمان ، فقال : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر ؛ خيره وشره » .

فجعل ﷺ الإيمان بالقدر سادس أركان الإيمان ، فمن أنكره فليس بمؤمنٍ ، كما لو لم يؤمن بغيره من أركان الإيمان .

وقوله : (والإيمان بالقدر على درجتين ... إلخ) وذكر الشيخ رحمه الله هنا أن الإيمان يشتمل على أربع مراتب هي إجمالًا ، كما يلي :

الأولى : علم الله الأزلي بكل شيءٍ ، ومن ذلك علمه بأعمال العباد قبل أن يعملوها .

الثانية : كتابة ذلك في اللوح المحفوظ .

الثالثة : مشيئته الشاملة وقدرته التامة لكل حادثٍ .

الرابعة : إيجاد الله لكل المخلوقات ، وأنه الخالق ، وما سواه مخلوق .

هذا مجمل مراتب القدر ، وإليك بيانها بالتفصيل .

قوله : (أزلًا) الأزل القدم الذي لا بداية له .

وقوله : (أبدًا) الأبد هو الدوام في المستقبل ، الذي لا نهاية له .

و(الطاعات) جمع طاعةٍ ، وهي موافقة الأمر ، و(المعاصي) جمع معصيةٍ ، وهي مخالفة الأمر ، و(الأرزاق) جمع رزقٍ ، وهو ما ينفع ، و(الآجال) جمع أجلٍ ، وهو مدة الشيء .

وأجل الإنسان نهاية وقته في الدنيا بالموت .

و(اللوح المحفوظ) وهو أم الكتاب (محفوظ) من الزيادة والنقصان فيه .

ذكر الشيخ هنا ما تتضمنه الدرجة الأولى من درجتي الإيمان بالقدر ، وأنها تتضمن شيئين ؛ أي مرتبتين .

المرتبة الأولى : الإيمان بعلم الله المحيط بكل شيءٍ من الموجودات والمعدومات ، هذا العلم الذي هو صفة من صفاته تعالى الذاتية ، التي لا يزال متصفًا بها أزلًا وأبدًا ، ومن ذلك علمه بأعمال الخلق من الطاعات والمعاصي ، وعلمه بأحوالهم من الأرزاق والآجال وغيرها .

المرتبة الثانية : مرتبة الكتابة ، وهي أن الله كتب في اللوح المحفوظ مقادير الخلق ، فما يحدث شيء في الكون إلا وقد علمه الله ، وكتبه قبل حدوثه .

ثم استدل الشيخ رحمه الله على ذلك بأدلةٍ من الكتاب والسنة ؛

فمن أدلة السنة على ذلك الحديث الذي ذكر الشيخ معناه ، ولفظه كما رواه أبو داود في سننه ، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب . قال : وما أكتب ؟ قال[1] : اكتب مقادير كل شيءٍ حتى تقوم الساعة »[2] .

فهذا الحديث يدل على مرتبة الكتابة وأن المقادير كلها مكتوبة .

وقوله : « أول ما خلق الله القلم قال له : اكتب » . روى بنصب (أول) و(القلم) على أن الكلام جملة واحدة ، ومعناه : أنه عند أول خلقه القلم قال له : اكتب .

وروى برفع (أول) و (القلم) على أن الكلام جملتان ، الأولى : « أول ما خلق الله القلم » ، و« قال له اكتب » جملة ثانية ، فيكون المعنى أن أول المخلوقات من هذا العالم القلم .

وقوله : (فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه إلخ) . من كلام عبادة بن الصامت راوي الحديث ؛ أي : ما يصب الإنسان مما ينفعه أو يضره فهو مقدر عليه ، لابد أن يقع به ، ولا يقع به خلافه .

وقوله : (جفت الأقلام وطويت الصحف) . كناية عن سبق كتابة المقادير والفراغ منها ، وهو معنى ما جاء في حديث ابن عباس : « رفعت الأقلام ، وجفت الصحف » . رواه الترمذي .

ثم ذكر الشيخ من أدلة القرآن قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ .

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ الاستفهام للتقرير ؛ أي : قد علمت يا محمد ، وتيقنت .

---

(١) أي الله عزَّ وجلَّ .

(٢) رواه أحمد (٣١٧/٥) ، وأبو داود (٤٧٠٠) ، والترمذي (٢١٥٥) ، وقال الألباني في « صحيح الجامع » (٢١٠٨) : صحيح .

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ فيه إحاطة علمه بالعالم العلوى والعالم السفلى ، وهذه مرتبة العلم .

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ ؛ أى : الذى فى السماء والأرض من معلوماته .

﴿فِي كِتَٰبٍۚ﴾ ؛ أى : مكتوب عنده فى أم الكتاب ، وهذه مرتبة الكتابة .

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ ؛ أى : أن إحاطة علمه بما فى السماء والأرض ، وكتابته ، يسير عليه .

والشاهد من الآية الكريمة : أن فيها إثبات علم الله بالأشياء وكتابتها فى اللوح المحفوظ ، وهذا هو ما تتضمنه الدرجة الأولى .

واستدل الشيخ أيضًا بقوله تعالى : ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ .

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من قحط مطرٍ ، وضعف نباتٍ ، ونقص ثمارٍ .

﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ بالآلام والأسقام وضيق العيش .

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ﴾ ؛ أى : إلا وهى مكتوبة فى اللوح المحفوظ .

﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ ؛ أى : قبل أن نخلقها ونوجدها .

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ ؛ أى : أن إثباتها فى الكتاب على كثرتها يسير على الله سبحانه .

والشاهد من الآية الكريمة : أن فيها دليلًا على كتابة الحوادث فى اللوح المحفوظ قبل وقوعها ، ويتضمن ذلك علمه بها قبل الكتابة ، فهى دليل على مرتبتى العلم والكتابة .

ثم بعد ذلك أشار الشيخ رحمه الله إلى أن التقدير نوعان .

تقدير عامٌّ شامل لكل كائنٍ ، وهو الذى تقدم الكلام عليه بأدلته ، وهو المكتوب فى اللوح المحفوظ .

وتقدير خاصٌّ ، وهو تفصيل للقدر العام ، وهو ثلاثة أنواعٍ :

تقدير عمرىٌّ ، وتقدير حولىٌّ ، وتقدير يومى .

هذا معنى قول الشيخ : (وهذا التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون فى مواضع جملةً) ؛ أى : تقديرًا عامًّا ، وهو المكتوب فى اللوح المحفوظ ، يعم جميع المخلوقات .

(وتفصيلًا) ؛ أى : تقديرًا خاصًّا مفصلًا للتقدير العام ، وهو :

١ - التقدير العمرى ، كما فى حديث ابن مسعودٍ فى شأن ما يكتب على الجنين فى بطن أمه من أربع الكلمات : رزقه وأجله وعمله ، وشقاوته أو سعادته .

٢ - تقدير حولىٌّ ، وهو ما يقدر فى ليلة القدر من وقائع العام ، كما فى قوله تعالى : ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان : ٤] .

٣ - تقدير يوميٌّ ، وهو ما يقدر من حوادث اليوم من حياةٍ وموتٍ ، وعزٍّ وذلٍّ ، إلى غير ذلك . كما فى قوله تعالى : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن : ٢٩] .

وعن ابن عباسٍ ﷺ : إن اللّه خلق لوحًا محفوظًا من درةٍ بيضاء ، دفتاه من ياقوتةٍ حمراء ، قلمه نور ، وكتابته نور ، عرضه ما بين السماء والأرض ، ينظر فيه كل يومٍ ثلاثمائةٍ وستين نظرةً ، يحيي ويميت ، ويعز ويذل ، ويفعل ما يشاء ، فكذلك قوله سبحانه : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ . رواه عبد الرزاق ، وابن المنذر ، والطبراني ، والحاكم[1] .

وقوله : (فهذا التقدير) ؛ أى : الذى سبق بيانه بنوعيه العام والخاص (قد كان ينكره غلاة القدرية) ؛ أى : المبالغون فى نفى القدر ، فينكرون علم اللّه بالأشياء قبل وجودها ، وكتابته لها فى اللوح المحفوظ وغيره ، ويقولون : إن اللّه أمر ونهى ، وهو لا يعلم من يطيعه ممن يعصيه ، فالأمر أنف ؛ أى : مستأنف ، لم يسبق فى علم اللّه وتقديره .

وهؤلاء كفرهم الأئمة ، لكنهم انقرضوا ، ولهذا قال الشيخ : (ومنكروه اليوم قليل) وبقيت الفرقة التى تقر بالعلم ، ولكن تنفى دخول أفعال العباد فى القدر ، وتزعم أنها مخلوقة لهم استقلالًا ، لم يخلقها اللّه ، ولم يردها ، كما يأتى بيانه .

هذا بيان للمرتبة الثالثة والمرتبة الرابعة من مراتب القدر ، أشار إلى الثالثة بقوله : (فهى مشيئة اللّه النافذة ، وقدرته الشاملة) والنافذة هى الماضية التى لا راد لها ، والشاملة هى العامة لكل شيءٍ من الموجودات والمعدومات .

وقوله : (وهو الإيمان) ؛ أى : ومعنى الإيمان بهذه المرتبة اعتقاد :

(أن ما شاء اللّه كان) ؛ أى : وجد .

(وما لم يشأ لم يكن) ؛ أى : لم يوجد .

(وأنه ما فى السماوات من حركةٍ ، ولا سكونٍ إلا بمشيئة اللّه) ؛ أى : لا يحصل شيء من ذلك إلا وقد شاءه اللّه سبحانه .

(وأنه سبحانه على كل شيءٍ قدير من الموجودات والمعدومات) لدخولها تحت عموم (كل شيءٍ) فاللّه قد أخبر فى آياتٍ كثيرةٍ أنه على كل شيءٍ قدير .

وقوله : (فما من مخلوقٍ فى الأرض ، ولا فى السماء إلا اللّه خالقه سبحانه) . هذا فيه إشارة إلى المرتبة الرابعة ، وهى مرتبة الخلق والإيجاد ، فكل ما سوى اللّه فهو مخلوق ، وكل الأفعال ؛ خيرها وشرها ، صادرة عن خلقه وإحداثه لها .

---

(١) رواه ابن جرير (٢٧/٣٥) ، والحاكم (٢/٥١٩) ، وقال الألبانى فى تحقيق « شرح الطحاوية » حاشية (٢٧٠) : ضعيف .

(لا خالق غيره ، ولا رب سواه) .

ولما فرغ الشيخ من ذكر مراتب القدر نبه على مسائل تتعلق بهذا الموضوع :

المسألة الأولى : أنه لا تعارض بين القدر والشرع .

المسألة الثانية : لا تعارض بين تقدير الله وقوع المعاصى ، وبغضه لها .

المسألة الثالثة : لا تعارض بين تقدير الله لأفعال العباد ، وكونهم يفعلونها باختيارهم .

لما قرر الشيخ رحمه الله القدر بمراتبه الأربع : العلم ، والكتابة ، والمشيئة ، والإرادة ، والخلق والإيجاد ، وأنه ما من شيء يحدث إلا وقد علمه الله ، وكتبه ، وشاءه ، وأراده ، وأوجده بين هنا أنه لا تعارض بين ذلك وبين كونه أمر العباد بطاعته ، ونهاهم عن معصيته ، ولا بين تقديره وقوع المعصية وبغضه لها .

فقوله : (ومع ذلك) ؛ أى : مع كونه سبحانه هو الذى علم الأشياء ، وقدرها ، وكتبها ، وأرادها ، وأوجدها .

(فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسوله ، ونهاهم عن معصيته) كما دلت على ذلك أدلة كثيرة من الكتاب والسنة أمر فيها بالطاعة ، ونهى عن المعصية .

ولا تعارض فى ذلك بين شرعه وقدره ، كما يظنه بعض الضلال الذين يعارضون بين الشرع والقدر .

يقول الشيخ رحمه الله فى هذا الموضوع فى رسالته التدمرية : وأهل الضلال انقسموا إلى فرقٍ ؛ مجوسيةٍ ، ومشركيةٍ ، وإبليسيةٍ .

فالمجوسية : الذين كذبوا بقدر الله ، وإن آمنوا بأمره ونهيه ، فغلاتهم أنكروا العلم والكتاب ، ومقتصدوهم أنكروا عموم مشيئته وخلقه وقدرته ، وهؤلاء هم المعتزلة ، ومن وافقهم .

والفرقة الثانية « المشركية » الذين أقروا بالقضاء والقدر ، وأنكروا الأمر والنهى ، قال تعالى : ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ الآية [الأنعام : ١٤٨] ، فمن احتج على تعطيل الأمر والنهى ، فهو من هؤلاء .

والفرقة الثالثة ، وهم الإبليسية الذين أقروا بالأمرين ، لكن جعلوا هذا تناقضًا من الرب سبحانه وتعالى ، وطعنوا فى حكمته وعدله ، كما يذكر ذلك عن إبليس مقدمهم .

والمقصود أن هذا مما تقوله أهل الضلال ، وأما أهل الهدى والفلاح فيؤمنون بهذا وهذا ، ويؤمنون بأن الله خالق كل شيءٍ وربه ومليكه ، وما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وهو على كل شيءٍ قدير ، وأحاط بكل شيءٍ علمًا ، وكل شيءٍ أحصاه فى إمامٍ مبينٍ . اهـ

وقوله : (وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين) ؛ أى : يحب من اتصف بالصفات الحميدة ، كالتقوى والإحسان والقسط .

(ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) كما أخبر بذلك فى آياتٍ كثيرةٍ لما اتصفوا به من الإيمان والعمل الصالح .

(ولا يحب الكافرين ، ولا يرضى عن القوم الفاسقين) ؛ أى : لا يرضى عمن اتصف بالصفات التى يبغضها كالكفر والفسوق وسائر الصفات الذميمة .

(ولا يأمر بالفحشاء) وهى ما تناهى قبحه من الأقوال والأفعال .

(ولا يرضى لعباده الكفر ، ولا يحب الفساد) لقبحهما ، ولما فيهما من المضرة على العباد والبلاد . ويريد الشيخ رحمه الله بهذا الكلام الرد على من زعم أن الإرادة والمحبة بينهما تلازم ، فإذا أراد الله شيئًا فقد أحبه ، وإذا شاء شيئًا فقد أحبه .

وهذا قول باطل ، والقول الحق أنه لا تلازم بين الإرادة والمحبة ، أو بين المشيئة والمحبة – أعنى : الإرادة والمشيئة الكونية – فقد يشاء الله ما لا يحبه ، وقد يحب ما لا يشاء وجوده .

مثال الأول : مشيئة وجود إبليس وجنوده ، ومشيئته العامة لما فى الكون مع بغضه لبعضه .

ومثال الثانى : محبته لإيمان الكفار وطاعات الكفار ، ولم يشأ وجود ذلك منهم ، ولو شاءه لوجد .

أراد الشيخ رحمه الله بهذا الكلام أن يبين أنه لا تنافى بين إثبات القدر بجميع مراتبه السابقة ، وبين كون العباد يفعلون باختيارهم ، ويعملون بإرادتهم .

وقصده بهذا الرد على من زعم أن إثبات ذلك يلزم منه التناقض ، ومن ثم ذهبت طائفة منهم إلى الغلو فى إثبات القدر ، حتى سلبوا العبد قدرته واختيـــاره .

وذهبت الطائفة الثانية إلى الغلو فى إثبات أفعال العباد واختيارهم حتى جعلوهم هم الخالقين لها ، ولا تعلق لها بمشيئة الله ، ولا تدخل تحت قدرته .

ويقال للطائفة الأولى : الجبرية . لأنهم يقولون : إن العبد مجبر على ما يصدر منه ، لا اختيار له فيه .

ويقال للطائفة الثانية النفاة ؛ لأنهم ينفون القدر .

فقول الشيخ رحمه الله : (والعباد فاعلون حقيقةً) . ردٌّ على الطائفة الأولى ، وهم الجبرية ؛ لأنهم يقولون : إن العباد ليسوا فاعلين حقيقةً ، وإسناد الأفعال إليهم من باب المجاز .

وقوله : (والله خالق أفعالهم) . ردٌّ على الطائفة الثانية القدريَة النفاة ؛ لأنهم يقولون : إن الله لم يخلق أفعال العباد ، وإنما هم خلقوها استقلالًا ، دون مشيئة الله ، وتقديره لها .

وقوله : (والعبد هو المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والمصلى والصائم ، وللعباد قدرة على أعمالهم ، ولهم إرادة) . ردٌّ على الجبرية ؛ أى : ليس العباد بمجبرين على تلك الأعمال ؛ لأنه لو كان كذلك لما صح وصفهم بها ؛ لأن فعل المجبر لا يُنسب إليه ، ولا يوصف به ، ولا يستحق عليه الثواب ، أو العقاب .

وقوله : (والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم) . ردٌّ على القدرية النفاة ، حيث زعموا أن العباد يخلقون أفعالهم بدون إرادة الله ومشيئته ، كما سبق .

ثم استدل الشيخ في الرد على الطائفتين بقوله تعالى : ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ .

فقوله تعالى : ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ . فيه الرد على الجبرية ؛ لأنه أثبت للعباد مشيئةً ، وهم يقولون : لا مشيئة لهم . وقوله : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ . فيه الرد على القدرية القائلين بأن مشيئة العبد مستقلة بإيجاد الفعل ، من غير توقفٍ على مشيئة الله ، وهذا باطلٌ ؛ لأن الله علق مشيئة العباد على مشيئته سبحانه ، وربطها بها .

قوله : (وهذه الدرجة من القدر) . وهي عموم مشيئته وإرادته لكل شيء ، وعموم خلقه لكل شيء ، وأن العباد فاعلون حقيقةً ، والله خالقهم وخالق أفعالهم .

(يكذب بها عامة القدرية) النُّفاة حيث يزعمون أن العبد يخلق فعل نفسه ، بدون مشيئة الله وإرادته .

(الذين سماهم النبي ﷺ مجوس هذه الأمة) لمشابهتهم المجوس الذين يثبتون خالقين ، هما النور والظلمة ، فيقولون : إن الخير من فعل النور ، والشر من فعل الظلمة ، فصاروا ثنويةً .

وكذلك هؤلاء القدرية جعلوا خالقًا مع الله ، حيث زعموا أن العباد يخلقون أفعالهم بدون إرادة الله ومشيئته ، بل يستقلون بخلقها . ولم يثبت أن النبي ﷺ سماهم مجوس هذه الأمة ؛ لتأخرِ ظهورِهم عن وقت النبي ﷺ ، فأكثر ما يجيء من ذمهم إنما هو موقوف على الصحابة .

وقوله : (ويغلو فيها) أي : هذه الدرجة من القدر ، والغلو هو الزيادة في الشيء عن الحد المطلوب .

(قوم من أهل الإثبات) فاعل « يغلو » ، والمراد بهم الجبرية الذين قالوا : إن العبد مجبر على فعله .

(حتى سلبوا العبد قدرته واختياره) .

فالأولون غلوا في إثبات أفعال العباد حتى أخرجوها عن مشيئة الله ، وهؤلاء غلوا في نفي أفعال العباد حتى سلبوهم القدرة والاختيار .

وقوله : (ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها) . جمع حكمةٍ ومصلحةٍ ؛ أي : أن الجبرية في مذهبهم هذا حينما نفوا أفعالَ العباد ، وسلبوهم القدرة والاختيار نفوا حكمةَ الله في أمره ونهيه ، وثوابه وعقابه ، فقالوا : إنه يثيب ، أو يعاقب العباد على ما ليس من فعلهم ، ويأمرهم بما لا يقدرون عليه فاتَّهموا الله بالظلم والعبث ، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا .

۞ قال الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه الله :

قوله : « وتؤمنُ الفرقةُ الناجيةُ - أهل السنةِ والجماعةِ - بالقدرِ خيرِهِ وشرِّهِ » :

الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان الستة ، والقدر الواجب منه الذي هو ركن : أن يؤمن العبد بالقدر

خيره وشره ، يعني : يؤمن بأن اللَّه ﷻ سبق تقديره بما كان وما يكون ، فإذا آمن بأن كل شيء بقدر مما يحصل له من الخير والشر فإنه يكون قد أتى بالقدر الواجب ، وهناك تفاصيل لذلك ، فمن علم شيئًا صح عليه الدليل في الكتاب والسنة يتصل بهذا الركن من أركان الإيمان وهو الإيمان بالقدر ، وجب عليه اعتقاده ؛ لأن الذي أخبر به الصادق المصدوق ﷺ .

قال : (وتؤمِنُ الفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ - أَهْلُ السنةِ والجمَاعَةِ - بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ) الذي تؤمن به الفرقة الناجية - أهل السنة والجماعة - هذا الذي جاء مفصلًا في هذا البحث ؛ كما قال رحمه الله : (والإيمانُ بالقدرِ على دَرَجَتَينِ ؛ كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ) ، فهم يؤمنون بذلك على وجه التفصيل .

وأهل السنة فصلوا هذه الدرجات وهذه المراتب لأجل أن كل واحدة منها خالف فيها من خالف ، فاضطروا إلى التفصيل حتى يُعرف من وافقهم ومن خالفهم ، فكل درجة دل عليها دليل وفصلت لأجل مخالفة المخالفين لهم في ذلك .

وقوله : (بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ) القدر يُعرف في الشرع - عند أهل السنة والجماعة - بأنه تقدير اللَّه السابق للأشياء ، وعلمه بها ، ثم كتابته لها في اللوح المحفوظ ، ومشيئته العامة ، وخلقه لكل شيء . فإذا تأملت هذا التعريف وجدت أنه يشمل مراتب القدر جميعًا .

والقدر مأخوذ من التقدير ، وأصل هذا في لغة العرب يقال : قدَّرت أُقدِّر إذا علم ما سيفعل قبل فعله وعلم ما سيحدث قبل حدوثه ، ثم يجعل الشيء على وفق ما يقدره ، والبشر قد يقدرون لعجزهم وقصورهم ، أما اللَّه ﷻ فإنه قدر الأشياء وهي واقعة كما قدر سبحانه ؛ لأنه علم ما العباد عاملون إلى يوم القيامة فكتب ذلك سبحانه وتعالى .

قال ﷻ : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر : ٤٩] ، قوله : ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ هذا عموم ؛ لأن « كل شيء » هذا من الألفاظ الظاهرة في العموم ، فكل شيء خُلق بقدر ، وقوله : ﴿شَيْءٍ﴾ الشيء هو ما يصح أن يُعلم أو يؤول إلى العلم ، فكل ما سيكون مما يُعلم أو يصح أن يعلم أو يؤول إلى العلم فإن اللَّه ﷻ خلقه بتقدير سابق منه لما سيحدث من حيث مكان حدوثه ، وزمانه ، وصفته ، وهيئته ، وقدره ، وتفاصيل ذلك ، فلا يتعدى ما قَدَّرَهُ اللَّه ﷻ له ، وقال سبحانه : ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان : ٢] .

فالإيمان بالقدر فرضٌ لازم ، ومر معنا حديث جبريل عليه السلام الذي في « الصحيح » ، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه[1] ، والذي فيه ذكر الإيمان بالقدر ، وهو ظاهر الدلالة على ذلك ، ولن يستقيم إيمان أحد حتى يؤمن بالقدر ، وقد قال علي رضي الله عنه لمن نازعه في القدر : (القدر سر اللَّه فلا تفشه) ، ولا يمكن لأحد أن يعلم الحكمة في جعل الأشياء مقدرة على هذا النحو ؛ لأنها مبنية على العلم ، وعلم العبد قاصر ، وعلم اللَّه ﷻ كامل . وفي قصة الخضر مع موسى - في سورة « الكهف » - ما يبين أن

(١) تقدم تخريجه .

اعتراض موسى عليه السلام على الخضر كان على وفق علمه ، فأنكر على الخضر بعض الأفعال ؛ لأنه لا يعلم الحكمة من ورائها ، فخرق سفينة لا يعلم الحكمة من ورائه ، وقتل غلامًا لا يعلم الحكمة من ورائه ، فاحتج موسى عليه ؛ لأجل نقص علمه في تلك المسائل عن علم الخضر ، فكيف بعلم الله ﷻ مع الخلق ؟ وقد قال له الخضر : ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف : ٨٢] ، وكان ما فعل موافقًا للحكمة .

فقدر الله ﷻ موافق لحكمته ، وحكمته سبحانه صفة من صفاته ؛ إذ هو ﷻ من أسمائه الحكيم ، بمعنى : أنه الحاكم والمحكم وذو الحكمة ؛ إذ إنَّ اسم الله (الحكيم) يُفسر بهذه الثلاثة أشياء :

* حكيم بمعنى حاكم يحكم ما يشاء سبحانه .
* حكيم بمعنى محكم ، قال تعال : ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود : ١] ، وقال : ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك : ٣] .
* حكيم بمعنى أنه ذو حكمة .

فهو ﷻ فيما قدره ذو حكمة بالغة ، وإنما يَضِلُّ العباد إذا دخلوا في القدر على وفق أهوائهم ورغباتهم ، وأصل الضلال في هذا الباب هو الخوض في تعليل الأفعال : لِمَ فعل ؟ لِمَ كان كذا ؟ لِم قُدِّر عليّ كذا ؟ لِمَ عاش هذا ومات هذا ؟ لِمَ هذا غني وهذا فقير ؟ إلى آخر ذلك .

ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في تائيته القدرية التي رد بها على اليهودي الذي شكك في قدر الله ﷻ وأفعاله :

وأصل ضلال الخلق من كل فرقة ... هو الخوض في فعل الإله بعلة

فإنهم لم يفهموا حكمة له ... فصاروا على نوع من الجاهلية

وما أحسن قول ابن الوزير أيضًا في كتابه (إيثار الحق على الخلق) لما تعرض لمسألة التعليل وأفعال الله ﷻ ، وكيف نفهم القدر ، وأنه يجب علينا أن نبتعد عن فهمنا للحكم جميعًا ، قال مما قال في أبيات لطيفة طيبة :

تَسَلَّ عن الوفاق فربُنا قد ... حَكَى بين الملائكة الخصاما

كذا الخضر المكرم والوجيه الـ ... مكلم إذ ألم به لماما

تكدر صفو جمعهما مرارًا ... فعجَّل صاحب السر الصراما

ففارقه الكليم كليمَ قلب ... وقد ثنَّى على الخضر الملاما

وما سبب الخلاف سوى اختلاف الـ ... علوم هناك بعضًا أو تماما

فكان من اللوازم أن يكون الـ ... إله مخالفًا فيها الأناما

لأننا لو فهمنا ، لو كان علمنا كعلم الله ﷻ بفهمنا الأسرار ، لكن علمنا قاصر فلا يمكن أن نفهم ، قال هنا مبينًا السر في ذلك : وما سبب الخلاف - وهذه قاعدة عامة .

وما سبب الخلاف سوى اختلاف ال علوم هناك بعضًا أو تمامًا
فكان من اللوازم أن يكون ال إله مخالفًا فيها الأناما
فلا تجهل لها قدرًا وخذها شكورًا للذي يحيي الأناما

فلا تجهل لها قدرًا (يعني : هذه الوصية) .

ومن أعظم ما ينفع في هذا الباب أنك قد تختلف مع ابنك الصغير أو مع أخيك الصغير فلا يقتنع بفعلك ، وفعلك موافق للمصلحة ، وهو لا يقتنع بذلك ويعارض ، وسبب الخلاف هو الاختلاف في العلوم ، فأنت تعلم ما لا يعلم ، فكان فعلك موافقًا لما تعلم ، وفعله واعتراضه موافقًا لما يعلم .

فكان من اللوازم أن يكون الإله ﷻ مخالفًا فيها الأنام ؛ لأن علمه كامل شامل محيط بكل شيء ، وعلم العبد قاصر لا يعدو شيئًا يسيرًا بجانبه .

فهذا الباب - باب القدر - مبني على عدم الخوض في الحكم بعدم الخوض في التعليلات ، أي : مبني على التسليم ؛ لأن ذلك سر الله ﷻ ، فإذا تدارسناه فإنا نتدارسه لأجل فهم الأدلة وما ثبت بالدليل ، وقد قال النبي ﷺ : « إذا ذُكِرَ القَدَرُ فَأَمْسِكُوا »[1] ، يعني : أمسكوا عن الخوض فيه بغير علم ، أما الكلام في القدر بعلم فإنه فهمٌ لنصوص الكتاب والسنة ، وما دام أن الله ﷻ أخبرنا بذلك ، وأخبرنا به رسوله ﷺ ؛ فإن فهمه والعلم به وتدارسه وذكره هذا فهمٌ للشرع ، وليس ذلك مما يُمسك عن الكلام فيه ، وإنما يُمسك عن الكلام في الخوض في هذه المسائل بدون علم ، يعني : في التعليلات والآراء ، أما إذا كان تفقهًا في دلالات الكتاب والسنة فإن هذا من العلم النافع ؛ بل من العلم الذي يجب على طائفة من هذه الأمة أن تتفقه فيه وتعلمه حتى تحفظ على الأمة دينها .

قال ﷺ : (بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ) ، يقصد خير القدر وشر القدر بالنسبة إلى العبد ، أي هو خير أو شر من جهة تعلقه بالعبد ، أما من جهة تقدير الله ﷻ فهو خير محض ؛ لأن النبي ﷺ وصف ربه ﷻ بقوله : « الخيرُ كُلُّهُ في يدَيكَ ، والشَّرُّ لَيسَ إليكَ »[2] ، فالله ﷻ ليس في أفعاله شر ، وليس في صفاته شر ؛ بل هو ﷻ ذو الرحمة الواسعة ، وذو الخير العميم الذي عم به عباده ، وتقديره سبحانه خيرٌ محضٌ ، لكن بالإضافة إلى العباد قد يكون في حق العبد المعين شرًا ، وقولنا : يكون شرًا بالنسبة له ، هذا جاء في حديث جبريل الذي مر معنا في أول شرح هذه الرسالة ، قال له ﷺ : « وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ »[3] ،

---

(١) أخرجه الطبراني (١٠٤٤٨) ، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ١٠٨ ، والبيهقي في القضاء والقدر (٣٧٨) من حديث أبي مسعود . وضعفه الألباني في الصحيحة (٣٤) .

(٢) أخرجه مسلم (٧٧١/ ٢٠١) ، وأبو داود (٧٦٠، ٧٦١) ، والترمذي (٣٤٢٢) ، والنسائي (٨٩٦) من حديث علي بن أبي طالب .

(٣) تقدم تخريجه .

فهو شر إضافي بالنسبة للعبد ، أما الله ﷻ فليس إليه شر سبحانه وتعالى .

قال : (والإيمانُ بالقدرِ على دَرَجَتَينِ ؛ كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ) ، هذه تُسمى مراتب الإيمان بالقدر ، وقسَّمها شيخ الإسلام إلى ذلك ؛ لأن هذه المراتب منها ما يكون قبل وقوع المقدر ، ومنها ما يكون في أثناء وقوعه أو بعده ، فما كان قبل القضاء هذا يُسمى درجة ، وهي التي ضمت العلم السابق والكتابة ، وما يكون في أثناء وقوعه يُسمَى أيضًا درجة ، وهي التي ضمت مشيئة الله ﷻ الشاملة وخلقه ﷻ لكل شيء . فإذن هذا التقسيم في قوله : (والإيمانُ بالقدرِ على دَرَجَتَينِ) لأجل أن ثَم شيئًا من مراتب القدر سابق له ، وثَم شيء مقارن له ، والسابق هو : العلم والكتابة ، والمقارن هو : المشيئة وخلق ﷻ كل شيء من الطاعات والمعاصي وأفعال العباد ، وكل ما يحصل في ملكوته يتصل بهذا . ومبحث القدر طويل ، وفيه تفريعات كثيرة ، لكن ننبه على المهمات فيه ، ويتصل بهذا البحث المعروف في الفرق بين القضاء والقدر ، فما الفرق بين القضاء والقدر ؟

من أهل العلم من قال : إنه لا فرق بين القضاء والقدر ، فالقضاء هو القدر والقدر هو القضاء .

وفرّق طائفة من أهل العلم بين القضاء والقدر بأن القدر هو ما يسبق وقوع المقدر ، فإذا وقع المقدر وانقضى سمي قضاءً ، فما قبل وقوع المقدر مشاهدًا معلومًا به يُسمى قدرًا ، وإذا وقع وانقضى سمي قضاءً مع كونه يُسمى قدرًا ، يعني باعتبار ما مضى ؛ كما قال تعالى : ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف : ٤١] ، وقال : ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ [سبأ : ١٤] ، يعني : انتهى ، فإذن هو مقدر ومقضي ، فإذا وقع سمي قضاءً لأنه انتهى ، وقال ﷺ : « عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ ، لا يقضي الله له شيئًا إلا كان خَيْرًا له »[١] .

وهذا التفريق حسن وظاهر ؛ ذلك لأن مادة القضاء تختلف عن مادة القدر في اللغة ، فقوله ﷺ : « وقِني شَرَّ ما قَضَيْت »[٢] ، هذا باعتبار أن ما قدر الله ﷻ هو قدر ، يعني : أنه كائن لا محالة ، فيسأل الله ﷻ أن يدفع عنه شر ما قدر وما قضى ، وهذا تعريف جيد من حيث الفهم ، لكن من حيث دلالات النصوص فيها هذا وفيها هذا ، فقد يُطلق القضاء على القدر ، وقد يُطلق القدر على القضاء ، أما في الاستعمال الخاص فإن كثيرين يستعملون القضاء فيقولون : قُضي علي بهذا ، وهذا قضاء الله ﷻ ، واصبر لما قضى الله سبحانه . هذا لما وقع وانتهى من القدر .

قوله : (فالدَّرَجَةُ الأولى : الإيمانُ بأنَّ اللَّهَ تعالى عليمٌ بالخلقِ ، وهمْ عاملونَ بِعِلْمِهِ القديمِ الذي هوَ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٢٨٣) ، وأبو يعلى (٤٢١٧ ، ٤٣١٣) من حديث أنس بن مالك . وصحح إسناده الألباني في الصحيحة (١٤٨) .

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٢٥) ، وابن ماجه (١١٧٨) ، والنسائي (١٧٤٤ ، ١٧٤٥) من حديث الحسن بن علي . وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٩٦٧) .

موصُوفٌ بِهِ أَزَلًا وأبدًا ، وعَلِمَ جميعَ أحوالِهِم مِنَ الطاعاتِ والمعاصي والأرزاقِ والآجالِ) .

بدأ رحمه الله تفصيل مراتب القدر فقال : (فالدَّرَجةُ الأولى) ، وقد قال قبل ذلك (والإيمانُ بالقدرِ على دَرَجَتينِ ؛ كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ) ، فتحصل بهذا التفصيل أن القدر أربع مراتب :

المرتبة الأولى : قال : (الإيمانُ بأنَّ اللَّهَ تعالى عليمٌ بالخلقِ ، وهمْ عاملونَ بِعِلْمِهِ القديمِ الذي هوَ موصُوفٌ بِهِ أَزَلًا وأبدًا) هذه هي مرتبة العلم ، وعلم اللَّه ﷻ كما قال شيخ الإسلام هنا قديم وموصوف به أزلًا ، والعلم من صفات الذات ، واللَّه ﷻ هو الأول بذاته وصفاته ، فعلمه سبحانه أول ، أي : أزلي .

واستعمال شيخ الإسلام لفظ (بِعِلْمِهِ القديم) - يعني : وصف العلم بالقدم والأزلية - لا يريد بالقديم المعنى اللغويَّ ؛ لأن القديم في اللغة ما سبقه شيء ، لكن هذا يقصد به كما يقصد المتكلمون ومن شابههم إذا قالوا في أسماء اللَّه القديم ، أو أخبروا عنه بالقديم ، فهو ﷻ يُخبر عنه بأنه قديم وأن صفاته كذلك قديمة ، وقد يُستأنس لذلك بدعاء الداخل إلى المسجد : « أَعُوذُ باللَّهِ العظيم وبِوَجْهِهِ الكَرِيمِ وسُلْطانِهِ القديمِ »[1]. على اعتبار أن السلطان يشمل الصفة الذي هو موصوفٌ به أزلًا .

وهذه المرتبة - مرتبة العلم - سابقة لوقوع المقدر ، فهل العلم السابق هذا حدث في وقت ؟ قال : (بِعِلْمِهِ القديمِ الذي هوَ موصُوفٌ بِهِ أَزَلًا وأبدًا) فهذا العلم علمه ﷻ وليس لعلمه بداية ، بل علمه ﷻ أزلي ، والزمان مخلوق يتناهى فلا نستطيع أن نقول : بدايته كذا ؛ لأن الزمان مهما امتد له بداية ، واللَّه ﷻ أول في صفاته ، وصفاته ﷻ قديمة .

قال : (وعَلِمَ جميعَ أحوالِهِم مِنَ الطاعاتِ والمعاصي والأرزاقِ والآجالِ) ، يعني : أنه ﷻ لم يأته شيء في حدوث الطاعات والمعاصي أو حدوث الأشياء ويكون مستأنفًا جديدًا عليه ؛ بل هو سبحانه علم هذا في الأزل لا يخفى عليه شيء ، علم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، فإذن هذه المرتبة فيها :

* العلم الأزلي .

* والعلم بما سيكون من جميع الأحوال طاعات ومعاصٍ وآجال وأرزاق على التفصيل ، فهو سبحانه يعلم الكليات والجزئيات .

قوله : (ثُمَّ كَتَبَ اللَّهُ في اللَّوْحِ المَحفوظِ مقاديرَ الخَلْقِ ، فأوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ القَلَمَ قالَ لَهُ : اكْتُبْ ، قالَ : مَا أَكْتُبُ ؟ قالَ : اكْتُبْ ما هُوَ كَائِنٌ إلى يَوْمِ القِيامَةِ ، فما أصابَ الإنسانَ لم يَكُن لِيُخْطِئَهُ ، ومَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُن لِيُصِيبَهُ ، جَفَّتِ الأقْلامُ ، وطُوِيَتِ الصُّحُفُ ؛ ...) .

قال : (ثُمَّ كَتَبَ اللَّهُ في اللَّوْحِ المَحفوظِ مقاديرَ الخَلْقِ) ، وهذه هي المرتبة الثانية - مرتبة الكتابة - وهي التي جاءت في الآية التي استدل بها شيخ الإسلام هنا : قال ﷻ : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي

(١) تقدم تخريجه .

ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ، فجمعت هذه الآية بين مرتبة العلم ومرتبة الكتابة في اللوح المحفوظ ، والكتابة في اللوح المحفوظ بعد خلق القلم ، والله ﷻ خلق القلم للكتابة ، فحين خلقه أمره أن يجري فكتب في اللوح المحفوظ ما هو كائن إلى يوم القيامة .

وقوله هنا : (فأَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ القَلَمَ)هذا كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود وغيره : (أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ تبارك وتعالى القَلَمَ قالَ لهُ : اكْتُبْ...)[1] ، هكذا يرويها بعضهم (أَوَّلُ) ،وشيخ الإسلام رحمه الله لا يختار أن تُقرأ على هذا النحو (أَوَّلُ) ،وإنما يختار أن تُقرأ (أوّلَ) ،فتكون قراءته هنا فيما ذُكر : (فأَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ القَلَمَ قالَ لهُ : اكْتُبْ) ،وتكون (أَوّلَ)بمعنى حين ، يعني : أَوَّلَ شيء بعد خلقه قال له : اكتب .

ولفظ (فأَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ القَلَمَ قالَ لهُ : اكْتُبْ)ما هو المعتمد فيه ، هل هو (أَوَّلُ)أو (أَوَّلَ)؟ الصحيح أنه (أَوَّلَ) ،يعني : حين ؛ وذلك لأن القلم – على الصحيح – خُلق بعد العرش ، فليس القلم أولَ مخلوقات الله ، بل العرش كان مخلوقًا قبله ، وهذه المسألة مرتبطة بمسائل أخرى مما يسمونه : تسلل وقدم جنس المخلوقات .

المقصود من ذلك أن القلم لما خلقه الله ﷻ أمره أن يكتب ، وأن العرش كان مخلوقًا قبل خلق القلم .

والقول الثاني : أن القلم قبل العرش لأجل دلالة هذا الحديث : « أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ تباركَ وتعالى القَلَمَ قالَ لهُ : اكْتُبْ ...» ، في رواية بالفاء : « فَأَوَّلُ » ، وهي لا تُناسب « أَوَّلُ » ، وفي رواية أخرى : « إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ تباركَ وتعالى القَلَمَ » ، وتوجيه ذلك أن هذه مروية بالمعنى ؛ لهذا قال ابن القيم رحمه الله :

والنَّاسُ مُختلفُون في القَلَمِ الذي ... كُتِبَ القَضَاءُ بِهِ مِنَ الدَّيَّانِ
هل كَانَ قبل العرشِ أو هُو بعدَه ... قولان عِند أبي العَلا الهَمذَانِي
والحقُّ أن العرشَ قبلُ لأنَّه ... قَبلَ الكِتَابَةِ كَانَ ذَا أركَانِ
وكِتابةُ القَلمِ الشَّرِيفِ تَعَقَّبَت ... إيجَادَهُ مِن غير فَصلِ زَمَانِ
لمَّا برَاهُ اللَّه قالَ اكتب كَذا ... فَغدا بِأمرِ اللَّه ذا جَرَيَانِ
فَجَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ أبَدًا إِلى ... يَومِ المعَادِ بِقُدرَةِ الرَّحمَنِ

هذا هو الصحيح أن القلم مخلوق بعد العرش والعرش قبل ذلك ، فإذن يكون قوله هنا : (فأَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ تباركَ القَلَمَ قالَ لهُ : اكْتُبْ)يعني : حين خلق الله القلم ، فتكون (ما)هنا ليست موصولة ، وإنما هي مصدرية ؛ لأنها إذا كانت موصولة يعني : (أول والذي خلق الله)يصير على هذا المعنى القلم هو أول المخلوقات ، وهذا ليس بصحيح ، فتكون (ما)هنا مصدرية ، ويكون المعنى : حين خلق الله

---

(١) تقدم تخريجه .

القلم قال له : اكتب ، يعني : عند خلق القلم قال اللّٰه له بعد أن خلقه : اكتب ، وهذا هو الذي يقرره شيخ الإسلام ، فتُفهم عقيدته هذه على نحو ما يُقرر في كتبه .

قال ﷺ : (قالَ لهُ : اكْتُبْ ، قالَ : مَا أَكْتُبُ ؟ قالَ : اكْتُبْ ما هُوَ كَائِنٌ إلى يَوْمِ القِيامَةِ) ، فهذا يدل على أن غاية ما هو مكتوب في اللوح المحفوظ إلى يوم القيامة ، وما بعد ذلك غير داخل فيما كُتب في اللوح المحفوظ ، فإذن هذه المرتبة ، تشمل تقدير الأشياء إلى يوم القيامة ، لكن العلم يشمل ما بعد ذلك ؛ لأن علم اللّٰه ﷻ ليس محدودًا بزمن ، أما كتابة العلم لما خلق اللّٰه ﷻ ولتقدير الأشياء فهذا محدود بيوم القيامة .

قال شيخ الإسلام : (فما أصابَ الإنسانَ لم يَكُن ليُخْطِئَهُ ، ومَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُن ليُصِيبَهُ ، جَفَّتِ الأَقْلامُ ، وطُوِيَتِ الصُّحُفُ) ، وهذا مأخوذ من حديث ابن عباس المشهور الذي قال فيه النبي ﷺ له : « يا غُلامُ ، إني مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ ؛ احْفَظِ اللّٰهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللّٰهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ...» . قال في آخره : « جَفَّتِ الأَقْلامُ ، وطُوِيَتِ الصُّحُفُ »[1] ، يعني : أن الكتابة انتهت ، وأنه لن يكون شيء إلا على وفق ما كُتب وقُدِّر ، وقد ثبت في « صحيح مسلم » أن النبي ﷺ قال : « كَتَبَ اللّٰهُ مقَاديرَ الخلائِقِ قبل أن يَخْلُقَ السماواتِ والأرضَ بِخَمْسِينَ ألفَ سَنَةٍ »[2] ، وفي « مسند الإمام أحمد » جاء الحديث بلفظ : « قَدَّرَ اللّٰهُ المَقَاديرَ »[3] . هل قدرها بالعلم ؟ ليس بصحيح ؛ لأن علم اللّٰه ﷻ سابق ، فهو سبحانه لا يعلم شيئًا بعد أن لم يكن علمه ؛ بل هو ﷻ عالمٌ بكل شيء ، لكن قدرها بالكتابة ، فتكون إذن مرتبة الكتابة هذه هي التي قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، ويكون معنى الحديث : « قَدَّرَ اللّٰه المَقَاديرَ » يعني : بالكتابة في اللوح المحفوظ .

قال : (فما أصابَ الإنسانَ لم يَكُن ليُخْطِئَهُ) يعني : أن المرء سيأتيه ما كُتب له ؛ فإنه حتمًا سيلاقيه لا مفر منه ؛ لأن اللّٰه ﷻ عالمٌ بأحوال العباد ، وعالمٌ بما سيحصل مما أردت أن يحصل بك أو مما لم ترد أن يحصل بك ، وعالم بما فُعل بك مثلًا ، أو بُغي عليك ، أو ظُلمت به ، كل هذا علمه عند اللّٰه ، فكتب ما سيحصل .

فإذن كتابته ﷻ لما سيحصل وعلمه هذا ليس بإجبار للعبد أن يفعل ، وإنما هو كشف لما سيحصل ؛ لأن اللّٰه ﷻ أعطى العبد المختار اختيارًا ، فهو يختار إما هذا وإما هذا ، والنهاية التي يختارها وتحدث هي التي علمها اللّٰه ﷻ ، وهي التي كُتبت عليه ، وهناك توفيق وهناك خذلان ، ففي قوله :

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) من حديث ابن عباس . وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٠٤٣) .

(٢) أخرجه مسلم (١٦/٢٦٥٣) من حديث عبد اللّٰه بن عمرو بن العاص .

(٣) أخرجه أحمد (٦٥٧٩) ، والترمذي (٢١٥٦) من حديث عبد اللّٰه بن عمرو . وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٧٥٠) .

(فما أصابَ الإنسانَ لم يَكُن ليُخْطِئَهُ) يعني : لا يتصور العبد أنه لو فعل غير هذا الفعل لم يكن يصيبه هذا ؛ لأنه لابد أن يفعل هذا فيصيبه هذا ؛ لأن الجميع بقدر ، ولا يُمكن أن يخرج عن ذلك ، فهو باختياره فَعَل ونتيجة الاختيار حصلت ، وهذا هو الذي كان مكتوبًا عليه ؛ لأن اللَّه ﷻ قدر مقادير الخلائق ، وكل شيء خلقه ﷻ بقدر ، ولابد أن يكون ما قدر سبحانه وتعالى .

وهناك توفيق وهناك خذلان ، والتوفيق والخذلان من الألفاظ التي يختلف فيها قول أهل السنة عن قول غيرهم .

فالتوفيق عند أهل السنة هو : إعانة اللَّه العبد على الفعل ، وإضعاف أو إبطال الأسباب التي تعوق الفعل ، فاللَّه ﷻ يُوفق للطاعات ، وهو سبحانه أعطى العبد أن يختار هذا وهذا ، وهذا الخيار عدلٌ منه ﷻ ، فَيَمُنُّ ﷻ على بعض العباد بأن يوفقهم ، يعني : يعينهم على الطاعة ؛ وذلك بأن يعطي العبد قوة عليه ويعينه على ذلك ، ويثبط أو يبطل أو يعطل أو يضعف الأسباب التي تعوق دون فعله .

وهذه لها تفاصيل لكن بالمثال يمكن أن يقرب الكلام ، ولا شك أن العبد في تحصيله لأي فعل من الأفعال لابد له من إرادة وقدرة ، لا يمكن أن يحصل فعل إلا بإرادة جازمة وقدرة تامة ، فإذا كانت إرادته قاصرة مترددة لم يحصل الفعل ، وإذا كانت قدرته ناقصة لم يتم الفعل ، أو كان ليس عنده قدرة لم يتم الفعل ، فإذا وجدت القدرة والإرادة تم الفعل ، هذا من جهة ، فإعانته على أن يريد وأن يتوجه قلبه لذلك هنا فيه إعانة خاصة ، وإقداره على ذلك في بعض الأعمال التي تحتاج إلى قدرة خاصة ، يعني : ليست مما يتوجه لها العبد ابتداءً ، مثل : الجهاد مثلًا ، والأعمال العظيمة ، فاللَّه ﷻ يوفقه بأن يجعله قادرًا على أن يتوجه إلى الفعل ، وهناك مثبطات من عمل شياطين الجن والإنس ومن الملهيات والشهوات ... إلى آخر ذلك . فاللَّه ﷻ يوفقه بإضعاف الأسباب المثبطة عن الفعل ، أو إبطال تلك الأسباب وعدم تعرضها لهذا العبد الموفق .

فإذن التوفيق عند أهل السنة والجماعة يشمل شيئين :

الأول : إعانة خاصة على الإرادة والقدرة .

الثاني : إضعاف أو إبطال أو تعطيل الأسباب المثبطة عن العلم .

أما الخذلان فهو : أن يُترك العبد ونفسه ، والعبد يُعامل بالعدل ، فلا يُعان في إرادة ولا قدرة ، ولا تُثبط عنه أو تُضعف أو تُبطل أو تُعطل الأسباب المانعة ، فإذا خُذل العبد تسلطت عليه شياطين الإنس والجن ، وتسلطت عليه الشهوات ، فخذل ووكل إلى نفسه ، ومن وكل إلى نفسه فقد خسر خسرانًا مبينًا ؛ ولهذا كانت « لا حول ولا قوة إلا باللَّه » كنزًا من كنوز الجنة ؛ لأنها سبب كل خير ، وهي سبب الأعمال التي تُدخل الجنة ؛ لأن معناها أنه لا توفيق إلا باللَّه ، ولا إعانة إلا من اللَّه ، فهي طلبٌ للتوفيق والإبعاد عن الخذلان .

أما الأشاعرة - وهذه تكثر عند النووي في « شرحه على مسلم » وغيره - فإنهم يفسرون التوفيق بأنه خلق قدرة على الطاعة، والخذلان بأنه منع القدرة على الطاعة، أو خلق قدرة على المعصية، وهذا عندهم وعند المعتزلة تقريبًا، وهو ليس بجيد؛ لأن خلق القدرة على الطاعة هذه مقارنة، والتوفيق سابق خلق القدرة على الطاعة، وهذا ظاهر أصلًا من قول النبي ﷺ لمن سأله عما يقربه من الجنة ويباعده من النار: « لقد وُفِّق هذا »[1]. أي: هُدي إلى ذلك الشيء فأعين عليه وأبطلت الأسباب المثبطة عنه، وهذا له تفاصيل تزيد على ذلك.

ذكر شيخ الإسلام رحمه الله بعد ذلك الأدلة على تلك المرتبتين الأولى والثانية - العلم ثم الكتابة - فقال: (قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]). هذه الآية دلت على أن علم الله جل وعلا شامل لما في السماء وما في الأرض، وقوله جل وعلا: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا دليل على مرتبة العلم؛ لأن قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا علم غير مخصوص بزمن، فهو علم بما يكون في السماء والأرض، وهو جل وعلا عالم بكل شيء، قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ فقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى المعلوم مما يكون في السماء والأرض، وذلك أن القدر يعني ما جعله الله جل وعلا في اللوح المحفوظ مكتوبًا، وهذا متعلق بما يحدث في السماوات والأرض إلى قيام الساعة، فما يكون في السماء والأرض جعله الله جل وعلا في كتاب، والكتاب هو المجموع، سمي كتابًا لأنه يُجمع فيه إما الصحف وإما الكلام؛ ولهذا قيل للكتابة: كتابة؛ لأن الكاتب يجمع الحروف، وهذا يُبين أن الكتابة في اللوح المحفوظ حقيقة كتابة بالقلم على ما يُفهم من قول القائل: كتبت الشيء. يعني: كتبه بقلمه ليكون مقروءًا بعد الكتابة.

قال جل وعلا: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ يعني: ما ذكر من كتابة ذلك ﴿فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، فالله جل وعلا لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض؛ كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، فكلُّ ذلك يسير عليه جل وعلا؛ ذلك لأنه سبحانه عليم قدير، فعلمه تام كامل من جميع الوجوه، وقدرته تامة كاملة من جميع الوجوه، فهو سبحانه قدير على كل شيء، على ما يشاؤه وعلى ما لم يشأْهُ، فقدرته جل وعلا عامة على كل شيء؛ ولهذا قال هنا: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، فعلمه جل وعلا بتفاصيل كلِ شيء، وكتابته لذلك، هذا يسير عليه سبحانه وتعالى؛ وذلك لعظمته وجلاله، وكمال أسمائه وصفاته، وكمال علمه وقدرته جل وعلا.

وقال جل وعلا: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢] يعني: أن الله جل وعلا كتب في اللوح المحفوظ ما يصيب الناس وما يقع في الأرض من مصائب، ومفهومه أيضًا ما يقع في الأرض من خيرات، فالكل مكتوب، وخص

(١) أخرجه مسلم (١٢/١٣) من حديث أبي أيوب.

المصيبة في هذه الآية لأنها هي التي يُتحسر عليها ويقع في نفس الإنسان منها ما يقع من سخط ونحو ذلك ، فإذا علم أن كل شيء بقدر ، وأنه مكتوب ، وأن القدر سابق اطمأنت نفسه وحَسُن ظنه بربه ﷻ ، وعلم أن ذلك موافق لحكمته سبحانه . وقوله هنا : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يعني : ما ذكر هو عليه ﷻ يسير . هذا استدلال من شيخ الإسلام على هاتين المرتبتين .

قوله : (وهذا التَّقْدِيرُ التَّابعُ لِعِلْمِهِ سُبْحَانَهُ يَكُونُ في مَوَاضِعَ جُمْلَةً وتَفْصِيلًا ، فَقَدْ كَتَبَ في اللَّوْحِ المَحْفُوظِ مَا شَاءَ ، وإذا خَلَقَ جسدَ الجَنِينِ قبلَ نفْخِ الرُّوحِ فيهِ بَعَثَ إليهِ مَلَكًا ، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ ، فيُقالُ لَهُ : اكْتُبْ : رِزقَهُ ، وأجلَهُ ، وعملَهُ ، وشَقِيٌّ أم سعيدٌ .. ونَحْوَ ذَلِكَ) .

هذا فيه إشارة من شيخ الإسلام رحمه الله إلى أن القدر هو بالنسبة إلى العلم العام ، وهي المرتبة الأولى ، وأن التقدير بمعنى الكتابة في اللوح المحفوظ هذا على وجه الإجمال ، وهناك أيضًا إيمان بالقدر على وجه التفصيل ؛ وذلك أن علم الله ﷻ يكون بحسب المعلوم ، فهو ﷻ علم الأشياء في الأزل قبل أن تحدث ، وإذا حدث الشيء علمه ﷻ ، فيوافق علمه السابق ؛ ولهذا قال ﷻ : ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة : ١٤٢] . إلى قوله : ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة : ١٤٣] ، ونحو ذلك من الآيات التي فيها أن الله ﷻ جعل الأشياء وقدرها لكي يعلم ، فهذا فيه دليل على أن العلم يكون بعد وقوع الشيء ، وهذا لا ينافي العلم السابق ، فالعلم السابق له أدلته .

والله ﷻ يعلم الأشياء جملة وتفصيلًا ، الكليات والجزئيات في العلم الأزلي السابق ، وكذلك إذا حدث الشيء علمه ، وما جاء في الآيات مثل آية « البقرة » هذه ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ ونحو ذلك ، فهذا المراد منه عند المحققين إظهار العلم الذي تكون به الحجة على العباد ، ففي قوله : ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ هو ﷻ يعلم ذلك قبل حدوثه ، ولكن هذا لإظهار العلم الذي تقوم به الحجة على العبد ، فالله ﷻ يعلم قبل ذلك ، وإنما خص هنا هذه المسألة وأمثالها – يعني : مسألة تحويل القبلة وأمثال ذلك – بأنه شرع أو فعل ليعلم ، فجعل ذلك لأجل أن يُظهِر علمه السابق وتقوم الحجة على العبد . وهذه الآية وأمثالها استدل بها الذين يقولون : إن علم الله مستأنف – كما سيأتي إن شاء الله في بيان أقوال تلك الطائفة – لأن قوله : ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ هذا فيه دليل على أن العلم يكون بعد الوقوع ، ففيه تخصيص بذلك ، قالوا : وهذا يدل على أن علم الله مستأنف .

وهذه المرتبة – مرتبة العلم السابق – هي أول مرتبة نُفيت من مراتب القدر ، فجُعل الأمر أُنُفًا ومستأنفًا ، يحدث بلا علم سابق وبلا قدر سابق ، وهذه الآيات التي مرت معنا فيها إظهار العلم السابق لكي يكون حجة على العباد ، فالآيات متوافقة غير متعارضة .

كذلك بالنسبة للكتابة هناك أنواع من التقدير الكتابي ، وأصله في أم الكتاب في اللوح المحفوظ ،

وهو الذي قال فيه ﷺ : « كَتَبَ اللَّه مقاديرَ الخلائِقِ قبل أَنْ يَخْلُقَ السماواتِ والأرضَ بِخَمْسِينَ ألفَ سَنَةٍ ، وكان عرشه على الماء » . وفي رواية : « قَدَّرَ اللَّه المقاديرَ »[1] . قدر مقادير الخلائق يعني كتبها ، هذا التقدير العام في اللوح المحفوظ ، وهو الذي جاء في قوله : ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد : ٣٩] ، يعني : الكتاب الأصل الذي لا يتغير ولا يتبدل ، وهو اللوح المحفوظ ، هذه الكتابة العامة السابقة للخلق .

وهناك كتابات تفصيلية لما كُتب في اللوح المحفوظ ، منها :

الكتابة العمرية :

فبعد أن ذكر الكتابة العامة وقال : (فَقَدْ كَتَبَ في اللَّوْحِ المَحْفُوظِ مَا شَاءَ) ، هذه الكتابة الأصل ، ذكر نوعًا آخر من الكتابة ، فقال : (وإذا خَلَقَ جسدَ الجَنِينِ قبلَ نفْخِ الرُّوحِ فيهِ بَعَثَ إليهِ مَلَكًا ، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ ، فيُقَالُ لَهُ : اكْتُبْ : رِزقَهُ ، وأجلهُ ، وعملهُ ، وشَقِيٌّ أم سعيدٌ) ، وهذا كما في الحديث الصحيح[2] ، وقد ذكر شيخ الإسلام هنا أنه قبل نفخ الروح ؛ لما جاء في آخر الحديث : « ثم يُؤْمرُ بنَفْخِ الرُّوحِ »[3] ، هذه كتابة خاصة متعلقة بهذا الإنسان الذي ستنفخ فيه الروح ، وهذا الكتب هو تفصيل لما هو مكتوب في اللوح المحفوظ ، فتكون كتابة تفصيلية في حق هذا المعين .

الكتابة السنوية :

كذلك هناك التقدير السنوي الذي يكون في ليلة القدر ، قال ﷻ : ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر : ١، ٢] سميت ليلة القدر لأنها يُقدر فيها ما يحصل في تلك السنة ؛ يُقدر بمعنى يُكتب ، أما التقدير الأصلي فهو في اللوح المحفوظ ، وهو الذي في قوله تعالى : ﴿حمٓ ۝ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان : ١- ٤] ، يعني : يُفصل من اللوح المحفوظ إلى الصحف التي بأيدي الملائكة ؛ كما هو أحد وجهي التفسير .

فهذه الكتابة تكون في ليلة القدر ، وتكون تفصيلًا لما يكون في هذه السنة بخصوصها لهذا المعين ، وقد يكون في هذه السنة ما يخالف ما هو مكتوب حين كان في الرحم ، يعني يكون في هذه السنة - نسأل اللَّه العافية - مسلمًا ، ويُكتب وهو في الرحم شقيًا ؛ لأنه سيئول أمره إلى رِدَّةٍ وكفر ، وهذا هو معنى قوله ﷺ : « فواللَّه الذي لا إلهَ غيرُهُ ؛ إنَّ أحدَكُم ليَعْمَلُ بعَمَلِ أهْلِ الجَنَّةِ ، حتَّى ما يَكُونُ بيْنَهُ وبيْنَهَا إلَّا

(١) تقدم تخريجه .

(٢) أخرجه الترمذي عقب (٢٤٢٥) ، وابن ماجه (٤٢٧٧) من حديث أبي موسى الأشعري . وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (٩٣٢) وقال : منكر .

(٣) تقدم تخريجه .

ذِرَاعٌ ، فيَسْبِقُ عليهِ الكِتَابُ ، فيَعْمَلُ بِعَمَلِ أهلِ النَّارِ فيَدْخُلُهَا ...»(١) . إلى آخره ، وهذا معنى أنه كُتِبَ شقيًا أو سعيدًا ، يعني : فيما سيئول إليه أمره ، أما فيما هو تفصيل لما في اللوح المحفوظ فهذا يكون الأمر فيه مختلفًا ، يعني : فيما هو في التقدير السنوي . لذلك لا نفهم من كتابة : هل هو شقي أم سعيد ، أو أنه يعمل بعمل أهل الجنة ثم يعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، أن هذا مخالف للكتاب ، أو أن الكتاب جبر عليه ، لا ، فالكتاب - كما سبق بيانه - كاشفٌ ، وما يُجرِي الله ﷻ على عبده هو بقدَر لا شك ، والقدر أنواع ، وهذا الكتاب لابد أنه سيكون ، فقد يعمل بعمل أهل الجنة العمر كله ، ثم يسبق عليه الكتاب ، يعني : ما كتب الله ﷻ في الكتاب أنه سيكون شقيًا ، فيختار هذا الشقاوة ، فيُبْطِل عمله السابق ، وهو باختياره اختار عمل أهل الجنة ، ثم باختياره أبطل عمله السابق . فإذن كتابة الكتاب في اللوح المحفوظ يكون على الوجه العام - الإجمالي النهائي - وعلى الوجه التفصيلي ، ثم هناك كتب تفصيلية لما في اللوح المحفوظ ، ومنها الكتابة حين يُجمع خلقه في الرحم .

إذن كتابة رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد حين كان في الرحم ، هي باعتبار العاقبة لا باعتبار ما يكون في تفاصيل حياته ؛ لهذا قال ﷺ : « وإنَّ أحدَكُمْ ليَعْمَلُ بِعَمَلِ أهْلِ النَّارِ حتَّى ما يَكُونُ بيْنَهُ وبَيْنَهَا إلَّا ذِرَاعٌ ، فيَسْبِقُ عليهِ الكِتَابُ ، فيَعْمَلُ بِعَمَلِ أهلِ الجَنَّةِ ، فيَدْخُلُهَا » . لأنه كُتب أنه سعيد ، فسيئول أمره إلى أنه يُسلم ، أو إلى أنه يتوب قبل أن يموت ، فيكون من أهل الجنة .

فهاتان الكتابتان العمرية والسنوية هذه يكون فيها التعليق ، يعني : يقال فيها : إن فَعَلَ العبد كذا فيكون القدر كذا ، وإن فَعَلَ العبد كذا يكون القدر كذا ، مثال ذلك : فإن وصل زيد رحمه في عمره وسع له في رزقه . فما يكون فيه المحو والإثبات هو في هذه الصحف التي فيها التقدير السنوي أو العمري الذي بأيدي الملائكة ، وهذه تكون معلقة ؛ كما قال ابن عباس في تفسير قوله ﷻ : ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد : ٣٩] ، فهناك أشياء من القدر تقبل المحو والإثبات ، وهناك أشياء من الكتابة لا تقبل المحو والإثبات ؛ بل هي آجال لا تقبل التغيير أو أشياء لا تقبل التغيير ، وذلك ما في اللوح المحفوظ ، أما ما في صحف الملائكة فإنه يقبل التغيير ، وكل ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ ، يعني : أنه مكتوب التفصيل والنهاية ، لكنه لا يقبل المحو والإثبات ، أما ما في صحف الملائكة فإنه يقبل المحو والإثبات ؛ كما قال ﷻ : ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد : ٣٩] .

وهذا الوجه قال به ابن عباس رضي الله عنهما ، وهو وجه ظاهر البيان والصحة ؛ لأنه موافق للأدلة ؛ كما قال ﷻ : ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر : ١١] ، بعض أهل العلم في التفسير فهم الآية أن معناها : وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمر معمر آخر إلا في كتاب ، وأن تعمير

(١) تقدم تخريجه .

المعمر يكون بسببٍ قد قُدِّر هو والتعمير معًا ، فيكون قد عُمر لا بالنسبة إلى أنه كان عمره ليس بطويل فأُطيل فيه .

وهذا يخالف ما جاءت به السنة الصحيحة من قول المصطفى ﷺ : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ في رِزْقِهِ ، وأَنْ يُنْسَأَ لَهُ في أَثَرِهِ ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ »[1] ، فكان وصل الرحم سببًا في زيادة الرزق ، وسببًا في نسء الأثر وزيادة العمر ، وقال أيضًا : « صِلَةُ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ في الأهلِ ، مَثْرَاةٌ في المالِ ، مَنْسَأَةٌ في الأثرِ »[2] ، وقال : « إنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بالذَّنْبِ يُصِيبُهُ »[3] ، هذا كله من التغيير فيما كُتِب في صحف الملائكة ، وهذا التغيير والعمل كله بقدر ، وهو موجود في الصحف ، لكن له من الرزق كذا ، وإن عمل كذا يُحرم الرزق ، فيكون إذن السبب والمسبب والنتيجة كلها موجودة في ذلك ، فيمحو الله ﷻ من صحف الملائكة ما يشاء ، ويُثبت فيها ما يشاء ؛ لأن فيها كل شيء . فإذن هاتان المرتبتان - العلم والتقدير - فيها إجمال وتفصيل ، أي : علم إجمالي وعلم تفصيلي ، أو علم بالكليات وعلم الجزئيات ، وكذلك التقدير فيه تقدير عام لجميع المخلوقات وهناك تقديرات أخر وأنواع من الكتابة تفصيلية ، وقد فَصَّل فيها ابن القيم رحمه الله في كتابه « شفاء العليل » ، وذكر هذه المراتب ، وذكر أنواع التقدير الخمسة ، وذكر الأدلة عليه بما يُحال به عليه ؛ لأنها كلها تفصيلات القدر السابق .

قوله هنا : (خَلَقَ جسدَ الجَنينِ قبلَ نفْخِ الرُّوحِ فيهِ بَعَثَ إليهِ مَلَكًا) . وقد جاء في « الصحيحين » أن النبي ﷺ قال : « إنَّ اللَّهَ ﷻ وَكَّلَ بالرَّحِمِ مَلَكًا يَقُولُ : يَا رَبِّ ، نُطْفَةٌ ، يَا رَبِّ ، عَلَقَةٌ ، يا رَبِّ ، مُضْغَةٌ . فإذا أَرَادَ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهُ قالَ : أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى ؟ شَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ ؟ فمَا الرِّزْقُ والأَجَلُ ؟ فَيُكْتَبُ في بَطْنِ أُمِّهِ »[4] . يعني : أن الملك يعلم هل هو ذكر أو أنثى ؟

فإذا كان كذلك فإن بإعلام الملائكة بهذا العلم - ألا وهو هل هو ذكر أم أنثى - خرج ذلك المعلوم من كونه غيبًا مختصًا بالله ﷻ ، فإن علم نوع ما في الرحم هل هو ذكر أم أنثى ؟ هو مختص بالله ﷻ قبل نفخ الروح ، فإذا نُفخت فيه الروح فإن الملائكة تعلم ذلك ، فحينئذٍ لا يكون مختصًا بالله ﷻ ؛ لأنه خرج عن كونه غيبًا لا يطلع عليه أحد .

ولهذا في هذا الزمن يطلعون على هذا الجنين بالأجهزة هل هو ذكر أم أنثى ؛ لأنهم يرون ما يتميز به الذكر مما يتميز به الأنثى تقريبًا من الشهر الخامس فما فوق ، وهذا ليس من الغيب المختص بالله ؛ بل هو

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٨٥) من حديث أبي هريرة . وفي (٥٩٨٦) ، ومسلم (٢١/٢٥٥٧) من حديث أنس بن مالك .

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٧٩) من حديث أبي هريرة . وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٦١٢) .

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٠٢٢) من حديث ثوبان . وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٤٨) دون قوله : « وإن الرجل ....» .

(٤) أخرجه البخاري (٣١٨، ٦٥٩٥) ، ومسلم (٥/٢٦٤٦) من حديث أنس بن مالك .

مما يُدرك ، وقد ذكر ابن العربي المالكي وغيره أنه يمكن معرفة نوع الجنين بدلائل يقينية عند أهل الاختصاص والمعرفة حتى في زمنهم .

إذن فما يكون عند نفخ الروح في الجنين من جهة الكتابة هذه الكلمات الأربع : الرزق والأجل والعمل وشقي أم سعيد ، قال بعض أهل العلم : الأجل يختلف عن العمر ، فالعمر يقبل التغيير ، وأما الأجل فهو الذي لا يقبل التغيير ؛ وذلك لقوله ﷻ : ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل : ٦١] ، وقال : ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [يونس : ٤٩] ، والآيات في ذكر الأجل وعدم الاستئخار والاستقدام فيه كثيرة ، وقال في العمر : ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فاطر : ١١] . قالوا : فهذا يدل على أن الأجل لا يقبل التغيير ولا يقبل الاستئخار والاستقدام ، والعمر يقبل ذلك .

وهذا الذي قالوه باعتبار ما جاء في القرآن صحيح ، أما باعتبار ما جاء في السنة فإنه ليس بظاهر ؛ لأن هذا الذي يُكتب من الأجل يقبل التغيير ، لقوله ﷺ : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ ، وأَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ » ، وفي بعض ألفاظ هذا الحديث : « وينسأ له في أجله »[1] ، وهذا ظاهر ، لكن ما جاء في القرآن من ذلك واضح في التفريق بين الأجل والعمر .

قوله : (فهذَا التَّقْدِيرُ قَدْ كَانَ يُنْكِرُهُ غُلاةُ القَدَرِيَّةِ قَدِيمًا ، ومُنْكِرُهُ اليَوْمَ قَلِيلٌ) .

قوله : (غُلاةُ القَدَرِيَّةِ) يقصد بهم الذين ينكرون العلم السابق ، وهم الذين ظهروا في عهد ابن عمر في البصرة - غيلان الدمشقي ، ومعبد الجهني ، ومن كان على هذه الشاكلة - فإنهم زعموا أن اللَّه ﷻ لا يعلم الأشياء إلا بعد أن تحصل ، وقالوا : الأمر أنف ، أي : مستأنف .

وفي « صحيح مسلم » حديث ابن عمر المعروف عن عمر رضي الله عنهما ، والذي فيه سؤالات جبريل عليه السلام عن الإسلام والإيمان ، جاء في أول الحديث : أن أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني ، وأن أناسًا يقرءون القرآن ويتقفرون العلم ويزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف ، قال ابن عمر : « فإذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ ، وأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي ، والذي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ، لَوْ أَنَّ لأَحدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ »[2] ، ثم ساق الحديث ، فالذين كانوا ينكرون القدر كانوا ينكرون مرتبة العلم السابق ، وهؤلاء هم غلاة القدرية .

وقوله : (غُلاةُ القَدَرِيَّةِ) يعني : أن هناك قدرية غير غلاة ، فهل هذا المفهوم صحيح من كلامه ؟ نعم هو صحيح ؛ لأن القدرية أنواع : منهم الغلاة ، ومنهم من ليسوا بغلاة ، وبعض أهل العلم يثبت ثلاث طبقات للقدرية : الغلاة ، والمتوسطون ، ومَن مخالفتهم في القدر خفيفة .

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) أخرجه مسلم (٨/١) ، وأبو داود (٤٦٩٥) ، والترمذي (٢٦١٠) .

وقوله : (قَدَرِيَّة) هذا اسم لِمُنكِر القدر ، والأصل أن النسبة تكون للمثبت لا للنافي ، فإذا أثبت شيئًا نسبه إليه ؛ كما يُقال : الصفاتية لمثبت الصفات ، والعقلانيون لمقدمي العقل .. ونحو ذلك ، لكن هؤلاء قيل لهم : القدرية ، لأنهم نفاة القدر ، فهذا اصطلاح خاص ، فالذين ينفون القدر سواء الغلاة أم غير الغلاة يقال لهم : القدرية . ويشمل طائفتين كبيرتين :

الأولى : الغلاة الذي أنكروا العلم .

والثانية : المعتزلة الذين أنكروا أن اللَّه ﷻ يخلق فعل العبد ، وزعموا أن العبد يخلق فعل نفسه ؛ كما سيأتي في بيان المرتبة الأخيرة من القدر .

ويقابل القدرية الجبرية ، ويأتينا بيان فرقهم في آخر الكلام إن شاء اللَّه .

قال : (ومُنْكِرُهُ اليَوْمَ قَلِيلٌ) ، وهذا في وقت شيخ الإسلام ، أي : منكرو العلم السابق قليل ، والذين ينكرون العلم في زمنه وفي هذا الزمن هم الفلاسفة ، ومن كان على مذهب غلاة القدرية من بعض الناس الذين لا ينتسبون إلى طائفة الفلاسفة ، والفلاسفة الإسلاميون يزعمون أن اللَّه ﷻ يعلم الكليات دون الجزئيات ، وهذا إنكار للعلم ، يقولون : العلم السابق هو علم كلي لا تفصيلي ؛ علم بالكليات دون الجزئيات . وهذا نوع من إنكار العلم السابق .

هؤلاء هم الذين قال فيهم الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ كلمته المشهورة : (ناظروا القدرية بالعلم ؛ فإن أقروا به خصموا ، وإن أنكروا كفروا) .

قوله : (وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثانِيَةُ ؛ فَهِيَ مَشِيئَةُ اللَّهِ النَّافِذَةُ ، وقُدْرَتُهُ الشامِلَةُ ، وَهُوَ : الإيمانُ بِأَنَّ ما شاءَ اللَّهُ كانَ ، وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ ، وأَنَّهُ ما في السماواتِ وما في الأرضِ مِنْ حركةٍ ولا سُكونٍ إلا بمشِيئةِ اللَّهِ سبحانهُ ، لا يكونُ في مُلْكِهِ ما لا يُرِيدُ ، وأنهُ سُبحانهُ على كلِّ شَيْءٍ قديرٌ منَ الموجوداتِ والمعدوماتِ ، ما مِنْ مَخْلُوقٍ في الأرضِ ولا في السماءِ إلا اللَّهُ خالِقُهُ سبحانهُ ، لا خالِقَ غيرُهُ ، ولا ربَّ سِوَاهُ) .

لما انتهى شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ من بيان الدرجة الأولى التي تشتمل على مرتبتي العلم والكتابة ، قال هنا : (وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثانِيَةُ ؛ فَهِيَ مَشِيئَةُ اللَّهِ النَّافِذَةُ ، وقُدْرَتُهُ الشامِلَةُ) ، وقد ذكرنا - فيما سبق - أن الدرجة الأولى قديمة ، فعلم اللَّه قديم ، والكتابة في اللوح المحفوظ قديمة ، أما الدرجة الثانية فهي تقارن المقدور وتقارن المقضي ، فالقدر إذا شاء اللَّه ﷻ أن يقع لابد أن يكون بقدر سابق وبقدر مقارن ، هذا القدر المقارن هو مشيئة اللَّه النافذة وقدرته الشاملة ، وهذه هي الدرجة الثانية وتشمل مرتبتين .

فصَّل شيخ الإسلام ذلك بقوله : (فَهِيَ مَشِيئَةُ اللَّهِ النَّافِذَةُ ، وقُدْرَتُهُ الشامِلَةُ) ، ثم بيَّن كيف يكون الإيمان بذلك ، فقال : (الإيمانُ بِأَنَّ ما شاءَ اللَّهُ كانَ ، وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ ، وأَنَّهُ ما في السماواتِ وما في الأرضِ مِنْ حركةٍ ولا سُكونٍ إلا بمشِيئةِ اللَّهِ سبحانهُ ...) إلى آخر كلامه رحمه اللَّه .

والمرتبة الأولى في هذه الدرجة الثانية هي المرتبة الثالثة من مراتب القدر ، وهي : الإيمان بمشيئة اللَّه

النافذة ، وأن ما شاء ﷻ كان وما لم يشأ لم يكن ، والأدلة على هذه المرتبة كثيرة جدًا ، منها قوله ﷻ : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة : ١٣] . وكذلك قوله ﷻ : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس : ٩٩] ، وقوله ﷻ : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة : ٢٥٣] ، وهو سبحانه مشيئته نافذة يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ، ومنها قوله ﷻ : ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير : ٢٩] ، وقوله : ﴿مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام : ٣٩] ، والآيات في هذا الباب كثيرة جدًا .

فإذن مشيئة اللَّه ﷻ شاملة نافذة ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ومعنى قوله : (نافذة) يعني أنه ﷻ لا معقب لحكمه ، وأنه سبحانه لا يخاف أحدًا ولا يتردد ﷻ فيما يشاؤه ؛ بل ما شاء كان ، وهذه المشيئة هي الإرادة الكونية ؛ لأن الإرادة الكونية تفسيرها المشيئة ، وقد ذكرنا فيما سبق أن الإرادة قسمان :

* إرادة كونية . * وإرادة شرعية .

والإرادة الكونية هي المشيئة ، فإذا قلت : شاء اللَّه كذا ، بمعنى أراده كونًا ، فلا تكون المشيئة في الأمور الشرعية ، فقوله هنا : (مَا شاءَ اللَّهُ كانَ) يعين : كونًا . أما الأمور الشرعية فإنها لا يُطلق عليها المشيئة ، إنما تدخل في الإرادة الشرعية التي توافق محبة اللَّه ﷻ ، فما أراده اللَّه شرعًا هو موافق لمحبته ؛ إذ لا يريد ﷻ شرعًا إلا ما يحبه ، وما أرده شرعًا قد يفعله العبد وقد لا يفعله ، مثل : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء : ٢٦] ، لكن من العباد من لا يختار أن يتوب اللَّه عليه ، فهذه إرادة شرعية .

أما الإرادة الكونية وهي المشيئة النافذة ، فهذه كما قال : (مَا شَاءَ اللَّهُ كانَ) فيعتقد العبد اعتقادًا جازمًا بأن ما شاء اللَّه كان ، وأنه ﷻ يتصرف في هذا الملك كما يشاء ، وأنه ﷻ لا معقب له ، يحكم في ملكه كما يشاء ، فيما شاءه حصل ووقع ، وما لم يشأه ﷻ لا يحصل ، ولو اجتمع عليه من في أقطارها : السماوات والأرض ؛ فإنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئًا لا يشاؤه اللَّه ﷻ ؛ بل إن مشيئتهم تابعة لمشيئة اللَّه ﷻ ؛ كما قال ﷻ : ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير : ٢٩] .

قال : (وأنَّهُ ما في السماواتِ وما في الأرضِ مِنْ حركةٍ ولا سُكونٍ إلا بمشِيئةِ اللَّهِ سبحانهُ) ؛ لأنه ليس الأصل السكون وليس الأصل الحركة ، بل السكون بمشيئة وقدر ، والحركة بمشيئة وقدر ، فمن قال : إن الأصل هو السكون والحركة خلاف الأصل . فقد زعم أن القدر راجع إلى المتحركات دون الساكنات ، وهذا باطل ؛ لأنه ما من سكون إلا بمشيئة ، وما من حركة بمتحرك إلا بمشيئة . فسكون الساكن ليس عن اختياره ، وليس الأصل فيه السكون ، بل لأن اللَّه ﷻ قدر أن يكون ساكنًا وشاء منه في

هذه اللحظة أن يكون ساكنًا - إذا قلنا : (قدَّر) يعني في الماضي تقدير بالعلم والكتابة - وفي هذه اللحظة التي رأيت الساكن فيها ساكنًا فهو بمشيئة الله ﷻ ، والله سبحانه له ملائكة وَكَّلهم بفعل ما يشاؤه سبحانه ، فهم موكلون بذلك كما قال ﷻ : ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة : ١١] .

قوله : (إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ سُبْحانَهُ) ، حتى سقوط الورقة وهبوب الريح ، أو هباءة تراها ماشية ، أو شعاع فيه غبار ، هذا كله بمشيئة الله ﷻ لا يخرج شيء عن مشيئته النافذة وعن قدرته سبحانه الشاملة .

قال : (لا يكونُ في مُلْكِهِ ما لا يُرِيدُ) هذا تعليل لما سبق ، (وأنهُ سُبحانهُ على كلِّ شَيْءٍ قديرٌ مِنَ الموجوداتِ والمعدوماتِ) هذه القدرة عبر عنها شيخ الإسلام بقوله : (قُدْرَتُهُ الشَّامِلَةُ) ؛ وذلك لمجيء ما يدل على القدرة الشاملة على الموجودات والمعدومات في القرآن والسنة ؛ كما في قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة : ٤٠] ، وقوله : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب : ٢٧] ، وقوله : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف : ٤٥] ، والآيات في ذلك كثيرة .

قال : ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ ، و (كلٌّ) من ألفاظ الشمول والظهور في العموم فتشمل المعدوم والموجود ، و (شيء) اسم لما يقبل العلم ، يعني : للمعلوم أو لما يئول إلى العلم ، والمعدوم يقبل العلم ، فإذن صارت مشيئة الله نافذة وقدرته شاملة للموجود والمعدوم أيضًا .

وقوله : (والْمَعْدُومَاتِ) ، يعني : لما لم يشأه الله ﷻ ، فهو سبحانه ما شاءه كان ، لكن ما يقدر عليه سبحانه ربما يكون وربما لا يكون بحسب حكمته ﷻ ، وهذا لأجل إطلاق الشمول في النصوص في قوله : ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة أن قدرة الله شاملة للمعدومات والموجودات ؛ كما قال سبحانه : ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال : ٢٣] ، فإسماع الاستجابة ما حصل ، ولو أسمعهم إسماع الاستجابة لتولوا وهم معرضون ، وهذا تابع للعلم ، وهو تابع أيضًا للقدرة ؛ كما قال ﷻ : ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام : ٦٥] ، ففي هذه الآية إثبات أن الله ﷻ قادر على هذه الثلاثة الأشياء :

* أن يبعث عليهم عذابًا من فوقهم .
* أن يلبسهم شيعًا .
* أن يذيق بعضهم بأس بعض .

وقد ثبت في الصحيح أنه لما نزلت هذه الآية : ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ : « أَعُوذُ بِوَجْهِكَ » ، ثم تلا : ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ فقال : « أَعُوذُ بِوَجْهِكَ » . ثم

تلا : ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « هَذَا أَهْوَنُ »[1] .

والله ﷻ لم يشأ أن يبعث على هذه الأمة عذابًا من فوقها أو من تحت أرجلها فيهلكهم بِسَنة بعامة ، بل جعل بأسهم بينهم شديدًا لحكمته سبحانه وتعالى العظيمة العلية ، فدلت الآية على أن قدرة الله ﷻ تتعلق بما لم يشأ أن يحصل ، ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ ، وهذا لم يشأ الله ﷻ ، ومع ذلك تعلقت به القدرة ، قال العلماء : دلت الآية على قدرة الله على ما شاءه وعلى ما لم يشأه .

فقوله : (وأَنَّهُ سُبْحَانَهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) فيه عموم قدرة الله تعالى على ما شاءه وعلى ما لم يشأه ، وهذا مذهب أهل السنة .

والأشاعرة والماتريدية وغيرهم قالوا : القدرة لها تعلقان : تعلق صلوحي ، وتعلق قديم . فيعلقون القدرة بما يشاؤه الله ﷻ ، فيقولون : تعلق قدرة الرب ﷻ بما يشاء ؛ ولذلك يعدلون عما جاء في القرآن من قول الله تعالى : ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران : ١٨٩] ؛ لأن القدرة عندهم متعلقة بما شاء الله أن يحصل أما ما لم يشأ أن يحصل ، فلا تتعلق به القدرة ، فإذا قيل : هل الله قادر على ألا يوجد إبليس ؟ فيقولون : لا هو غير قادر . هل الله قادر على ألا توجد السماوات ؟ يقولون : لا غير قادر . لأن القدرة عندهم متعلقة بما شاءه ﷻ ، وما لم يشأه في كونه مما لم يحصل بعد أو مما حصل خلافه فإن القدرة غير متعلقة به ؛ ولذلك يقول قائلهم : (ليس في الإمكان أبدع مما كان) ؛ لأن القدرة عندهم متعلقة بما شاءه الله ﷻ .

وهذه عقيدة عند أهل السنة والجماعة باطلة ، فلا يجوز للمرء أن يخالف نص القرآن ويقول : والله على ما يشاء قدير . نعم هو ﷻ على ما يشاء قدير ، لكن قدرته على ما يشاء وعلى ما لم يشأه ، فهو سبحانه قدير على ما شاء وقدير على ما لم يشأه ، فعندهم القدرة متعلقة بما شاءه ، وعند أهل السنة القدرة متعلقة بما شاءه ﷻ وبما لم يشأه ؛ لقوله سبحانه : ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام : ٦٥] نعم جاء في حديث الرجل الذي يدخله الله ﷻ الجنة ، وهو آخر من يدخلها ، أن الله ﷻ يقول له : « إني لا أستهزئ منك ولكني على ما أشاء قادر »[2] . والجواب على ذلك معروف ؛ لأنه متعلق بأشياء مخصوصة وليس تعليقًا للقدرة بالمشيئة ، أو يقال : إن قدرته على ما يشاء في مثل هذه الأحاديث لا تنفي قدرته على ما لم يشأ ﷻ ، وهذا يثبته أهل السنة ؛ لأنه دليل على أنه ﷻ على ما يشاء قدير ، وهذا دل عليه قوله : ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى : ٩] . لكن المبتدعة عندهم شعار أنهم يُعرضون عن قول : ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة : ٤٠] ، إلى قولهم : والله على ما يشاء قدير ، وإذا كان ذلك شعارًا لأهل البدع ، فإن

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢٨) من حديث جابر بن عبد الله .

(٢) أخرجه مسلم (١٨٧/ ٣١٠) من حديث عبد الله بن مسعود .

استعماله فيه موافقة لهم مع صحته في نفسه ، وقول القائل : إنه ﷻ على كل شيء قدير . هذا يشمل ما شاءه وما لم يشأه ، وفيه موافقة للنصوص من الكتاب والسنة .

هذا معنى قول شيخ الإسلام : (وأنهُ سُبحانهُ على كلِّ شَيْءٍ قديرٌ مِنَ الموجوداتِ والمعدوماتِ) وهذا كلُّه متعلق بما يمكن ، أما المحال مما أحاله أو منعه ﷻ أن يكون في ملكه وأوجب ذلك على نفسه فهو ﷻ قدير على كل شيء ؛ على هذا وذاك ، ولكن لما جعل ذلك محالًا فهو لا يكون ، وقدرته ﷻ شاملة لكل شيء ، ولكن المحال هو الذي جعله ﷻ محالًا ، مثل أن يكون ثم إله بحق ، فهذا محال فلا يكون البتة .

هل هذا متعلق بالقدرة ؟ نقول : نعم القدرة متعلقة بكل شيء ، لكن هذا محال لا يكون ، كذلك أن يوجد إله آخر هذا محال ، كذلك أن يكون له ﷻ ولد هذا محال .. إلى آخره .

وهذه المحالات هو ﷻ الذي جعلها محالة ، فلا تُبحث هذه كما بحثها الفلاسفة وطائفة هل تدخل تحت القدرة أو لا تدخل ؟ لأن هذه جعلها اللَّه ﷻ محالات ، فما يُبحث هو ما جاءت فيه النصوص ، وأما ما جعله اللَّه ﷻ محالًا فإننا نأخذه على ما جاء في النص ، ولا نخوض فيه هل تشمله القدرة أو لا تشمله ؛ لأنه لا فائدة منه ، ولأن فيه استدراكًا واعتراضًا على النصوص .

قوله : (وَمَعَ ذلِكَ ؛ فَقَدْ أَمَرَ العِبادَ بِطاعَتِهِ وطاعَةِ رُسُلِهِ ، ونَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ ، وهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ المُتَّقِينَ والمُحْسِنِينَ والمُقْسِطينَ ، ويَرْضى عنِ الذينَ آمَنُوا وعَمِلوا الصَّالِحَاتِ ، ولا يُحِبُّ الكافرينَ ، ولا يَرْضى عنِ القَوْمِ الفَاسِقِينَ ، ولا يَأْمُرُ بالفَحْشاءِ ، ولا يَرْضى لِعِبادِهُ الكُفرَ ، ولا يُحِبُّ الفَسَادَ) .

قوله : (ومَعَ ذلكَ) يعني : مع وجود القدر السابق(فَقَدْ أَمَرَ العِبادَ بِطاعَتِهِ وطاعَةِ رُسُلِهِ) ، فالقدر لا يعني عدم العمل ؛ بل قدر اللَّه ﷻ هو علمه سبحانه بما سيكون ، وكتابته ﷻ لما سيكون ، وما قدره سبحانه وتعالى على عباده ، ومع ذلك أمر العباد بالطاعة ونهاهم عن المعصية ،(وهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ المُتَّقِينَ والمُحْسِنِينَ والمُقْسِطينَ) ، واللَّه ﷻ يحب شيئًا ، ويبغض شيئًا ، والجميع قد شاءه ، وإذا كانت المعاصي داخلة تحت المشيئة فكيف تدخل تحت المشيئة مع أنها داخلة تحت ما يبغض الرب ﷻ ؟ وهذه الشبهة أوقعت طوائف كثيرة في الضلال .

وأهل السنة قالوا : إنه يجتمع في حق المعين من المسلمين الإرادة الكونية والشرعية ، فما أطاع اللَّه ﷻ فيه يجتمع فيه المحبة والإرادة الكونية ، وما خالف فيه الكافر والعاصي فهو حين معصيته نفذت فيه المشيئة والإرادة الكونية ، ولكنه في هذه الحال لم يوافق الإرادة الشرعية ، فالمسلم تعلق به في طاعته حين يطيع الإرادة الكونية - التي هي المشيئة - والإرادة الشرعية ، والعاصي حين عصى أو الكافر تعلق به الإرادة الكونية دون الإرادة الشرعية ؛ فلهذا صارت المحبة والرضا تبعًا للإرادة الشرعية ، فالمسلم الذي عمل الطاعة واجتمعت فيه الإرادة الشرعية والكونية حصل له محبة من اللَّه ﷻ لإتيانه بما أراده اللَّه

شرعًا ، فالمحبة تبع لتنفيذ الإرادة الشرعية ، والبغض تبع لعدم الإتيان بما يريده الله ﷻ شرعًا .

إذا تبين ذلك فإن الله يرضى – كما ذكر الشيخ – عن المتقين ، ويحب المتقين والمحسنين والمقسطين ، وهذه مسألة ضل فيها طوائف وذهبوا لأجلها إلى الجبر ، وبعضهم ذهب إلى نفي القدر ، وبعضهم ذهب للدخول في التعليل فضلوا ، والقدرية أصنافٌ ، وأصل ضلالهم هو الدخول في الأفعال ، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية في تائيته :

ويُدعى خصوم الله يوم معادهم إلى النار طرًا معشر القدرية

سواءٌ نفوه أو سعوا ليخاصموا به الله أو ماروا به في الشريعة

فهذه طوائف القدرية من حيث العموم : النفاة بأصنافهم الذين سبقوا ، ومن سعى ليخاصم أو مارى القدر في الشرع ، وذلك راجع إلى عدم التفريق بين الإرادة الكونية والشرعية ، وعدم فهم أنه يجتمع في حق المعين المشيئة الكونية وما لا يريده ﷻ شرعًا ، وهذا ظاهر بيِّن .

قوله : (والعِبَادُ فَاعِلُونَ حقيقةً ، واللَّهُ خلقَ أفْعالَهُم . والعَبْدُ هُوَ : المُؤْمِنُ ، والكافِرُ ، والبَرُّ ، والفاجِرُ ، والمُصَلِّي ، والصائِمُ ، ولِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ على أعمالِهِمْ ، ولهُمْ إرَادَةٌ ، واللَّهُ خالِقُهُمْ وقُدْرَتِهِمْ وإرَادَتِهِمْ ؛ ...).

بعد أن ذكر شيخ الإسلام رحمه الله المرتبة الأولى من الدرجة الثانية ، التي هي مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة ، وهي المرتبة الثالثة من مراتب القدر ، ذكر المرتبة الرابعة من مراتب القدر ، قال : (والعِبَادُ فَاعِلُونَ حقيقةً ، واللَّهُ خلقَ أفْعالَهُم) ، (العباد) جمع عبد ، من هذا العبد الذي يريده ؟ فَصَّل ذلك وقال : (والعَبْدُ هُوَ : المُؤْمِنُ ، والكافِرُ ، والبَرُّ ، والفاجِرُ ، والمُصَلِّي ، والصائِمُ) ، والعبد هو الذي يفعل فعله حقيقة وليس فعله الذي فعل مجازًا ، ما معنى ذلك ؟ يعني : أن العبد حين صلى ، من الذي فعل الصلاة ؟ هو العبد ، وحين تصدق ، من الذي تصدق على الحقيقة ؟ هو العبد ، وإذا شرب الخمر – والعياذ بالله – أو سرق ، أو ارتشى ، أو أكل الربا ، أو زنى ... إلى آخره ، من الذي فعل هذه الأفعال على الحقيقة ؟ الذي فعلها العبد ، فهل معنى ذلك أن العبد هو الذي خلق فعل نفسه ؟ نقول : لا .. العبد له قدرة وإرادة ، وهو الذي فعل هذا الفعل ، فالفعل يُنسب للعبد لأنه هو الذي اختاره وفعله بنفسه لم يكره عليه ، فمن الذي خلق فعله ؟ قال شيخ الإسلام : (وَاللَّهُ خلقَ أفْعَالَهُم) .

فإذن اجتمع أن يكون العبد هو الذي فعل على الحقيقة ، وليس فعلًا مجازيًا كما يقوله الأشاعرة والماتريدية وطوائف ، وليس هو الذي يخلق فعل نفسه كما يقوله القدرية ، وإنما هو يفعل حقيقة ، والله هو الذي خلق فعله ؛ وذلك لدلالة النصوص على ذلك ، أما الفعل حقيقة فهو فعل العبد ؛ لأنه جاء في النصوص نسبة الفعل إلى العبد ؛ كما في قوله ﷻ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة : ٢٢٢] ، فالعبد هو التواب ، وإذا كان هو التواب فالتواب صيغة مبالغة من اسم الفاعل تائب ، وتائب اسم فاعل التوبة ، والمتطهر هذا اسم فاعل التطهر ، فإذن العبد هو الذي فعل

التوبة ، وهو الذي فعل التطهر ، بدلالة اللغة .

وإذا كان كذلك فهذه الدلالة حقيقة ، فهو الذي فعل التوبة حقيقة ؛ لأن الله ﷻ جعله توابًا وجعله متطهرًا ، والأصل - كما هو معلوم - أن ما أسند إلى العبد فهو الحقيقة باتفاق الناس ، سواء الذين قسموا لغة العرب إلى حقيقة ومجاز ، أو الذين لم يقسموا بالاتفاق ؛ ولهذا في الأدلة جميعًا أمر الله ﷻ بالصلاة والصوم والصدقة ، فإذا فعل العبد هذه الأشياء فهو إذن يفعلها حقيقة ، لكن كيف فعلها ؟ الجواب : جعل الله ﷻ له إرادة ، هذه القدرة وهذه الإرادة التي جعلها للعبد من الذي خلقها ؟ خلقها الله ﷻ ، ففعل العبد ينتج عن هاتين الصفتين القدرة والإرادة ، والقدرة والإرادة مخلوقتان ، فما يحصل منهما مخلوق .

فإذن اجتمع أن العبد يفعل حقيقة ، وأنه لا يخلق فعله ؛ لأنه إذا كان يصح أن يُقال : يخلق فعله . يكون معناه ما أحدثه ، يعني : الأسباب أو الآلة التي جعلته يفعل ، والجوارح التي جعلته يفعل ، الجوارح ، أو هذه الصفات : القدرة ، والإرادة ، هو لم يخلقها وإنما خلقها الله ﷻ .

فإذن النتيجة هي أن الله خلق فعل العبد ؛ لأنه خلق له القدرة وخلق له الإرادة ، والعمل فعل العبد لا يكون مطلقًا أبدًا إلا بقدرة وإرادة ، لا يمكن أن يعمل عملًا حتى تكون عنده قدرة وإرادة ، والإرادة نعني بها الإرادة الجازمة ، والقدرة نعني بها القدرة التامة ، فقد يكون مريدًا للشيء لكن إرادته مترددة فهل يحصل الفعل ؟ لا يحصل ؛ لأنه متردد فلا يدري ما يقول ، أو يريد أن يذهب إلى المسجد ويريد أن يذهب إلى مكان آخر ، فهذه الإرادة المترددة لا يحصل بها الفعل حتى تتحول إلى إرادة جازمة ، فإذا توجه وجزم باختيار إحدى الإرادتين صارت إرادته جازمة ، فإن أراد أن يكتب وعنده قدرة على الكتابة وهو متعلم للكتابة ويده صحيحة حصل له مراده ، والنتيجة : أن الفعل لا يحصل حتى يكون عند العبد إرادة جازمة لهذا المعين من الفعل ، وقدرة تامة على هذا المعين من الفعل ، وبعض الناس عندهم إرادة جازمة ولكن عندهم قدرة ناقصة ، يريد مثلًا أن يسافر هذه اللحظة إلى مكان كذا و كذا ، هذه إرادة جازمة ، لكن هل عنده قدرة على ذلك ؟ ليس عنده قدرة فلا يحصل الفعل . فإذن نقول : الفعل لا يكون من العبد إلا بإرادة جازمة وقدرة تامة ، والإرادة والقدرة مخلوقتان ، فيكون الفعل مخلوقًا ، هذا من حيث التدليل العام .

ومن حيث التدليل الخاص قال ﷻ : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات : ٩٦] ، هذه الآية فيها وجهان من التفسير :

الأول : أن تكون ﴿وَمَا﴾ بمعنى « الذي » ، فيكون معنى الآية : والله خلقكم والذي تعملونه .

الثاني : أن تكون ﴿وَمَا﴾ مصدرية تقدر مع الفعل بمصدر ، فيكون معنى الآية : والله خلقكم وعملكم .

فإذن في الآية دليل على أن الله خالق لأفعال العباد ؛ لهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه العقيدة .

المباركة : (ولِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ على أعمالِهِمْ ، ولهُمْ إِرَادَةٌ ، واللَّهُ خالِقُهُمْ وقُدْرَتِهِمْ وإِرَادَتِهِمْ) ، والصفات هذه من الذي خلقها ؟ هو رب العالمين ، وهم الذين يفعلون ، من الذي خلقهم ؟ هو رب العالمين .

إذن النتيجة : أن الذي يحصل منهم من الأفعال قد خلقه اللَّه رب العالمين ، لكن الفعل فعل العبد حقيقة .

قوله : (وهذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ القَدَرِ يُكَذِّبُ بِهَا عَامَّةُ القَدَرِيَّةِ الَّذينَ سَمَّاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ : مَجُوسَ هذِهِ الأُمَّةِ ، ويَغْلُو فِيهَا قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الإثْبَاتِ ، حتَّى سَلَبُوا العَبْدَ قُدْرَتَهُ واخْتِيَارَهُ ، ويُخرِجُونَ عَنْ أفْعَالِ اللَّهِ وأحكامِهِ حِكَمَهَا ومَصَالِحَهَا) .

قال : (وهذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ القَدَرِ) يعني : الدرجة الثانية ، وهي الإيمان بمشيئة اللَّه النافذة وقدرته الشاملة ، وأن اللَّه هو الذي يخلق فعل العبد ، قال عنها شيخُ الإسلامِ : (يُكَذِّبُ بِهَا عَامَّةُ القَدَرِيَّةِ) ، وعنى بالقدرية هنا المعتزلة ومن شابههم في نفي القدر ، فالقدرية الغلاة ينفون العلم ، وهؤلاء ينفون المشيئة النافذة ، ومنهم من لا ينفي هذه المشيئة النافذة أو القدر الشاملة ، ولكن ينفي أن اللَّه خلق فعل العبد .

والمشهور أن المعتزلة يقولون : « إن العبد يخلق فعل نفسه » . لماذا قالوا ذلك ؟ قالوا : لأن العبد يعمل المعاصي ، وإذا قلنا : إن المعصية خلقها اللَّه ﷻ فيكون ذلك محذورًا من وجهين : الأول : أن يكون اللَّه هو الذي فعل المعصية ، والثاني : أن يكون أجبرهم عليها ، وهاتان ممتنعتان شرعًا وعقلًا .

وهذا صحيح ، فإن اللَّه ﷻ ليس هو الذي فعل ، بل الذي فعل العبد ولكن اللَّه خلق ، وقولهم : إن هذا إجبار . نقول : وكذلك الإجبار منفي ، لكن هل يصح أن يكون هذا الفعل دليلًا على أنه هو الفاعل ؟ نقول : هذا ليس بصحيح ، بل النصوص دلت على التباين ، أي : أن العبد يفعل واللَّه ﷻ هو الذي يخلق ، وعلى أن العبد يفعل المعصية واللَّه ﷻ يأذن بها كونًا ولا يرضاها شرعًا ، فاجتمع في ذلك المرتبتان اللتان في هذه الدرجة . والمعتزلة نظروا إلى ما يفعله العاصي حين يعصي وحين يشرب الخمر ، من الذي خلق هذا الفعل ؟ قالوا : إذا قلنا : إن اللَّه هو الذي خلقه . فمعناه هو الذي فعل ؛ لأن هناك تلازمًا عندهم بين الفعل والخلق - كونه فَعَل يعني كونه خلق - وهذا ممتنع ، فإذن يكون العبد هو الذي خلق ، أيضًا لو قلنا : إن اللَّه هو الذي خلق ذلك . معناه ألغينا إرادة العبد ، وإذا ألغينا إرادة العبد كان مجبورًا على المعصية ، وهذا يقدح في العدل ، واللَّه ﷻ منزه عن الظلم ، وله صفة العدل .

هذه شبهتهم ، وهذا الذي قالوه باطل واضح البطلان ؛ لأنهم لم يفرقوا بين الفعل والخلق ، وكوننا نقول : إن اللَّه ﷻ هو الذي خلق هذا الشيء . بمعنى أنه ﷻ هو الذي خلق ما يكون به هذا الشيء ، ومعلوم أن الأسباب في الشرع تُحدث المسببات ، الماء ينزل فينبت به النبات ، فاللَّه ﷻ جعل الماء سببًا ، يتزوج الذكر ويضع ماءه في رحم الأنثى فيكون منه الولد ، فالعبد يفعل لكن الذي

خلق هو اللّه ﷻ، فالأسباب التي تنتج المسببات مخلوقة، إذن تكون النتائج مخلوقة، وهذه هي التي ألتت أهل الاعتزال، ولا غرابة أن يكونوا غلاة في إثبات الأسباب ويتناقضون، والأشاعرة يقابلونهم في أنهم ينفون الأسباب وينكرون ذلك.

قال شيخ الإسلام هنا: (الَّذينَ سَمَّاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: مَجُوسَ هذِهِ الأُمَّةِ) هذا قد جاء في حديث في « السنن » عن ابن عمر وعن غيره: « القَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هذِهِ الأُمَّةِ، إِنْ مَرِضُوا فلا تَعُودُوهُمْ، وإِنْ مَاتُوا فلا تَشْهَدُوهُمْ »[1]. وهذا الصواب أنه مرسل ولا يصح مرفوعًا، وبعض أهل العلم قال: بمجموع هذه الروايات يصل إلى الحسن.

قال شيخ الإسلام بعد ذلك: (ويَغْلُو فِيهَا) يعني في هذه الدرجة (قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الإِثْبَاتِ) يعني أن الذين أثبتوا المشيئة النافذة والقدرة الشاملة، وأثبتوا أن اللّه هو الذي خلق فعل العبد، هؤلاء غلوا في الإثبات (حتَّى سَلَبُوا العَبْدَ قُدْرَتَهُ واخْتِيَارَهُ) يعني: إرادته، وهؤلاء هم الجبرية الذين غلوا في إثبات القدر حتى قالوا: إن العبد مسلوب القدرة والاختيار. أي: مجبور.

وهؤلاء الجبرية طائفتان مشهورتان:

الأولى: غلاة الجبرية: وهم الذين يقولون: إن العبد مجبور على كل شيء، وهو بمنزلة المقصور المضطر إلى الفعل، فهو كالريشة في مهب الهواء، وكحركة القلم في يد الكاتب، فالعبد ليس له اختيار، وهو مجبور، ولابد أن يفعل. هؤلاء غلاة الجبرية ومنهم الجهمية والصوفية وطوائف.

الثانية: جبرية متوسطون في الجبر، وهم الأشعرية والماتريدية، وهؤلاء يقولون: إن العبد مجبور في الباطن لكن في الظاهر يبدو أنه مختار، تنظر إليه فتجد عنده قدرة وإرادة لكنه في الباطن مجبور. فمعنى القدر عندهم أنه الجبر، لكنه في الباطن لا في الظاهر.

إذا كان كذلك فماذا يقولون في فعل العبد؟ هل هو يفعل الفعل على ذلك عندهم حقيقة؟ قالوا: إذا كان مجبورًا فمعناه أن الفعل ليس فعلًا له حقيقة، والفعل يُنسب له مجازًا.

إذا كان كذلك فمن الذي فعل؟

قالوا: الفاعل هو اللّه.

إذن العبد ما مهمته؟

قالوا: العبد محل للفعل.

ما معنى محل للفعل؟

قالوا: كما تكون السكين في يد القاطع يقطع بها الخبز، فالسكين ظاهرًا لمن رآها دون اليد

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٩١) من حديث ابن عمر، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٣٩٢٥). وابن ماجه (٩٢) من حديث جابر بن عبد اللّه، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٧٥).

المحركة هي التي قطعت ، وفي الواقع هي محل مجبورة على أن تقطع ، فإذا قيل : كيف قطع الخبز ؟ يقال : بالسكين ، لكن في الواقع من الذي حرك السكين ؟ تحتاج إلى محرك .

فلهذا قال شيخ الإسلام هنا : (سَلَبُوا العَبْدَ قُدْرَتَهُ واخْتِيَارَهُ) ، فجعلوا العبد بمنزلة الجمادات .

إذن اجتمع عندهم أن العبد يفعل الفعل مجازًا ، وهو في الحقيقة مجبور على هذا الفعل ، فكيف يُحاسب على العمل إذا كان هو مجبورًا عندهم ، يعني : عند الأشاعرة والماتريدية الجبرية المتوسطة ؟

قالوا : العبد يكسب فعله ، فللعبد كسب وهو مجبور على هذا الكسب .

ماذا تعنون بالكسب ؟ أنتم تقولون : لا يفعل حقيقة ، وإنما هو بمنزلة السكين ، فكيف يكون له كسب إذا كان مجبورًا ؟

اعترف عقلاؤهم وحذاقهم أنه لا مناص من الإجابة على هذا السؤال ، وهذا الذي أوقع الأشعري في أن يقول بالكسب ، فهذه اللفظة خرجت جوابًا عن هذا الإشكال وهذا الإيراد .

وهذا الكسب ما تفسيره ؟

الأشاعرة لهم في شروح عقائدهم اختلاف في تفسير الكسب إلى اثني عشر قولًا ذُكرت في شروح « الجوهرة » وغيرها ، فإذا كانوا اختلفوا في تفسيره على اثني عشر قولًا فمعناه أنه شيء غير معروف ، والذي ابتدعه هو الأشعري .

ولهذا قال القائل :

مما يقال ولا حقيقة تحته ... معقولة تدنو إلى الأفهام

الكسب عند الأشعري والحال ... عند البهشمي وطفرة النظام

فهناك ثلاثة أشياء اخترعها أصحابها لا وجود لها في الواقع ، إنما هي موجودة في أذهان أصحابها ، فهي شيء لا حقيقة له ، فهذا الكسب الذي قاله يريد به أن العبد يفعل مجازًا ، فهو مجبور في الباطن مختار في الظاهر ، وينسب له العمل كسبًا ، ويحاسب عليه كسبًا ، وهذا شيء لا يُفهم ، ولهذا اختلفوا في حقيقة هذا الكسب الذي يُحاسب الله العبد عليه إلى اثني عشر قولًا ، وكلها أقوال متضاربة ، فمعنى ذلك أنهم اخترعوا شيئًا وقعدوه وهم لم يفسروه بتفسير يتفقون هم عليه وهم أهل هذا القول ، وهذا من أدلة بطلان المسائل ؛ كما دلنا ذلك على بطلان قول أبي هاشم في الحال والطفرة عند النظام .

إذن هذا خلاصة لمذهب الجبرية المتوسطة ؛ ولهذا يستعملون كثيرًا لفظة : كَسَبَ العبد ، وهذا من كَسْبه ، والعبدُ يَكْسِب الفعل ، ويكثرون من هذه اللفظة لأجل هذه العقيدة عندهم .

وأهل السنة والجماعة يستعملون دائمًا لفظ فَعَل العبد ، وعَمِلَ العبد ، وصَلى العبد ، ولا يقولون : كسب العبد كذا . وما ورد من لفظ في القرآن وفي السنة لا يُعنى به المصطلح المحدث ، وإنما يعنى به العمل ، فقوله تعالى : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة : ٢٨٦] يعني : لها ما عملت من خير

وعليها ما عملت من شر . أما الكسب الخاص - المصطلح الخاص - عند الأشاعرة ، فهو إنما حدث بعد القرون الثلاثة الأولى ، وهو شيء لا حقيقة له ، فهم سلبوا العبد قدرته واختياره وقالوا : لا يقدر ، وإنما الله الذي فعل ، وهو لا يريد ، إنما الله الذي أراد . وهل الله ﷻ هو الذي فعل المعصية ؟ قالوا : لا ، الذي فعلها هو العبد مجازًا ؛ أُجبر عليها ففعل فصار محلًّا لهذا الشيء بمنزلة الأشياء الجامدة .

وهذا - كما قال المعتزلة في ردهم على الأشاعرة - لا شك أن فيه نسبة الظلم إلى الله ﷻ ، وهكذا كل جبري فإنه ينسب الظلم إلى الله ﷻ . فإذا كان هذا قولهم ، فما قولهم في الحكمة ؟ هل الله ﷻ أفعاله معللة ؟ طبعًا استحضروا هذا الشيء فاضطروا إلى أن ينفوا الحكمة ، فيقولون : إن الله ﷻ لا يوصف بالحكمة ولا يوصف بأن فعله موافق لحكمة أو فعله معلل .

وهذه هي آخر جملة ذكرها لك شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال : (ويُخرِجُونَ عَنْ أفْعَالِ اللَّهِ وأحكامِهِ حِكَمَهَا ومَصَالِحَهَا) ، ولا شك أن هذا منهم نتيجة أنهم ينفون الحكمة وينفون المصالح ؛ لأنهم لا يقولون بالاختيار ، وينفون الفعل عن العبد ، ويقولون : إن الله هو الذي فعل ولا حكمة له في ذلك . حتى يتخلصوا من نسبة الله ﷻ إلى الظلم .

وأصل الضلال في باب القدر في جميع الفرق - سواء الغلاة أو غيرهم - هو الخوض في الأفعال ، وكل أحد على الفطرة لم يَخُضْ في هذه المسائل يحس من نفسه أنه يختار هذا الفعل ويختار هذا الفعل ، فإما هذا وإما هذا . فإن الله ﷻ أعطى العبد القدرة والاختيار ، فإذا أراد به خيرًا أعانه على أن تكون إرادته في الخير ، وأعانه على أن تكون إرادته فيما يحب ويرضى ، وهذه الإعانة هي التي تُسمى التوفيق ، فالتوفيق أمر زائد على الاختيار ، وكل أحدٍ أعطاه الله ﷻ الاختيار ، قال تعالى : ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد : ١٠] . فهو يريد ويحس وذلك فطرة ، فالمطيع أطاع الله وتعبد وأفلح وتابع وأخلص ، وهو يعمل ذلك كله بإرادته ، فهل يقنع نفسه أنه هو الذي حصَّل هذه الأشياء ؟ لا .. ولكنه يعلم أنه أُعين عليها ، وهذا هو التوفيق ، فكل أحد من أهل الفطرة إذا فعل طاعة يعلم أنه هو الذي اختار ، وهو الذي فعل ، لكن لو شاء الله ﷻ لصرفه عن ذلك .

ما معنى : لو شاء الله لصرفه ؟ الجواب : أن يكله إلى نفسه فلا يوفقه ولا يعينه ، فإذا تُرِك ونفسه فإنه يضل ، فالمؤمن يحس بتوفيق الله له ، ويحس بالإعانة ، ويحس بأنه حُبب إليه الخير وكُرِّه له الشر ، وأنه عومل بعدل الله ﷻ ، فالخير أمامه والشر أمامه ، وهو الذي يختار هذا الطريق أو هذا الطريق .

إذن مذهب أهل السنة والجماعة فيه إثبات هذه المراتب ، وفيه إثبات أن أفعال الله ﷻ معللة ؛ أفعاله الكونية وكذلك أحكامه الشرعية ، ففعل الله ﷻ في كونه لعلة وحكمة قد نعلمها وقد لا نعلمها ، وقد سبق بيان أن الحكمة في صفات الله تُفسر بأنها وضع الشيء في موضعه الموافق للغايات المحمودة منه ، وأن وضع الشيء في موضعه هذا عدل ، فإذا كان موافقًا لغاية محمودة منه صار حكمة ، أما الظلم فهو

وضع الشيء في غير موضعه ، وهو مقابل للعدل .

فإذن اللَّه ﷻ تُثبت له الحكمة والتعليل في أفعاله الكونية وأحكامه الشرعية ، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة ، والنصوص في ذلك كثيرة بينة .

هذا نهاية مبحث القدر في كلام شيخ الإسلام ، وهو مبحث طويل جدًّا ، لكن ذكرنا منه ما يتعلق بكلام شيخ الإسلام ، خاصة في مباحث الأفعال والأحكام ... إلى آخره ، ومما ينبغي لطالب العلم أن يستحضره دائمًا في هذا الباب ما ابتدأنا به الكلام وهو أن القدر سر اللَّه ﷻ ؛ كما قال علي رضي الله عنه : (القدر سر اللَّه فلا تفشه) ، فلا يستطيع أحد أن يكشفه ، ولا أن يعلم الحكمة والعلة في أفعال اللَّه ﷻ ، ولكن يأتي الضلال والزلل إذا خاض في الأفعال والتعليلات ، واللَّه ﷻ فعلُه معلل لكن لم يطلع العباد على علل ذلك عَزَّ وَجَلَّ وتبارك وتقدس ربنا . ولهذا قال شيخ الإسلام في التائية :

وأصل ضلال الخلق من كل فرقة	هو الخوض في فعل الإله بعلة
فإنهم لم يفهموا حكمة له	فصاروا على نوع من الجاهلية

فإن لم تعلم علم اللَّه فلن تفهم الحكم ، وقد تخاصم الملائكة في الملأ الأعلى كما قال ﷻ : ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص : ٦٩] ، وحديث اختصام الملأ الأعلى معروف[(١)] ، كذلك ما وقع بين موسى عليه السلام والخضر في سورة « الكهف » ، وموسى مع أنه كليم اللَّه لكنه لم يدرك العلل ، وكان الصواب مع الخضر ؛ لأنه علم من لدن اللَّه ﷻ علمًا .

فإذن أساس هذا الباب الإيمان والتسليم بأن علم اللَّه ﷻ لا يمكن للعباد أن يحيطوا بشيء منه إلا بما قدر لهم ، وأن الخوض في الأفعال والتعليلات : لِمَ فعل ؟ ولِمَ حصل كذا ؟ ولِمَ هذا فقير وهذا غني ؟ ولِمَ كذا وكذا ؟ هذا باب من أبواب الشيطان يدخلها على العبد ، وقد ذكر هذه الخلاصة الأخيرة ابن الوزير في أبيات جميلة ، قال فيها :

تسل عن الوفاق فربنا قد	حكى بين الملائكة الخصاما
كذا الخضر المكرم والوجيه ال	مكلم إذ ألم به لماما
تكدر صفو جمعهما مرارًا	فعجَّل صاحب السر الصراما
ففارقه الكليم كليم قلب	وقد ثنَّى على الخضر الملاما
وما سبب الخلاف سوى اختلاف ال	علوم هناك بعضًا أو تماما
فكان من اللوازم أن يكون ال	إله مخالفًا فيها الأناما

فهذا باب هدى اللَّه ﷻ فيه أهل السنة كما هداهم في غيره ، ونحمد اللَّه ﷻ أن جعلنا منهم ، ونسأله لنا ولجميع المسلمين الثبات على القول الصالح والعمل الصالح .

---

(١) تقدم تخريجه .

الأسئلة

﴿ **قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان** رحمه الله :

□ مراتب القدر الأربع :

س١- قد تقدم تعريف الإيمان بالقدر في جواب سؤال ٤٠ فما هي مراتبه ؟ وما دليل كل مرتبة من مراتب القدر ؟

ج- مراتب القدر أربع :

الأولى : إثبات علم الله الأزلي الأبدي بكل شيء ، قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة : ١١٥] ، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق : ١٢] ، وتقدم أدلة إثبات صفة العلم .

المرتبة الثانية : مرتبة الكتابة ، وهي كتابة الله لجميع الأشياء باللوح المحفوظ ؛ الدقيقة والجليلة ، ما كان وما سيكون ، ودليلها قوله تعالى : ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد : ٢٢] ، ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل : ٧٥] ، ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس : ١٢] .

وعن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه : يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم : أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب ، فقال : يا رب ! وماذا اكتب؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة» . يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من مات على غير هذا فليس مني» .

وفي رواية لأحمد : «إن أول ما خلق الله القلم ، فقال : اكتب . فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة» .

المرتبة الثالثة : مرتبة المشيئة النافذة التي لا يردها شيء ، وقدرته التي يعجزها شيء ، فجميع الحوادث وقعت بمشيئة الله وقدرته ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، قال تعالى ، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير : ٢٩] ، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ [البقرة : ٢٥٣] ، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ ، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي﴾ [الأنعام : ٨٠] ، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة : ١٣] ، ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام : ٣٩] ، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس : ٩٩] ، ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف : ٩٩] ، ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ [محمد : ٤] .

المرتبة الرابعة : التصديق الجازم بأنه سبحانه هو الموجد للأشياء كلها ، وأنه الخالق وحده ، وكل ما

سواه مخلوق له ، وأنه على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات ، قال الله تعالى : ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد : ١٦] ، ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر : ٣] ، ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة : ١١٧] ، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات : ٩٦] ، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة : ٢] ، ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء : ٢٣، ٢٤] ، فلا بد من الإيمان بهذه الأربع .

□ أقسام التقدير :

س٢- ما أقسام التقدير ؟ وما أدلة كل قسم من أقسامه ؟

ج- أولًا : التقدير الشامل لجميع المخلوقات بمعنى : أن الله علمها ، وكتبها ، وشاءها وخلقها ، وهي التي تقدم ذكرها ، وأشار بعضهم إليها بقوله :

علم كتابة مولانا مشيئته وخلقه وهو إيجاد وتكوين

وأدلته تقدمت .

التقدير الثاني : هو التقدير العمري ؛ والمراد به رزق العبد ، وأجله ، وعمله ، وشقاوته ، وسعادته .

ودليله ما ورد عن عبد الله بن مسعود قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات : يكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد » . الحديث .

التقدير الثالث : وهو التقدير السنوي ؛ ودليله قوله تعالى : ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان : ٤] ، قال ابن عباس : يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما هو كائن في السنة من الخير والشر ، والأرزاق والآجال ، حتى الحجاج يقال : يحج فلان ، ويحج فلان .

قال الحسن ومجاهد وقتادة : يبرم في ليلة القدر في شهر رمضان كل أجل ، وعمل ، وخلق ، ورزق ، وما يكون في تلك السنة .

التقدير الرابع : هو التقدير اليومي ؛ ودليله قوله تعالى : ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن : ٢٩] .

ذكر الحاكم في « صحيحه » في حديث أبي حمزة الثمالي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : إن مما خلق الله لوحًا محفوظًا من درة بيضاء ، دفتاه من ياقوتة حمراء ، قلمه نور ، وكتابه نور ، وعرضه ما بين السماء والأرض ، ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستون نظرة أو مرة ، ففي كل نظرة منها يخلق ، ويحيي ، ويميت ، ويعز ، ويفعل ما يشاء ؛ فذلك قوله : ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن : ٢٩] ، وقال المفسرون في شأنه : أنه يحيي ويميت ، ويرزق ، ويعز قومًا ، ويذل آخرين ، ويشفي مريضًا ، ويفك عانيًا ، ويفرج مكروبًا ، ويجيب داعيًا ، ويعطي سائلًا ، ويغفر ذنبًا إلى ما لا يحصى من أفعاله وأحداثه في خلقه .

س٢- هل العرش مخلوق قبل القلم ؟ وما الجمع بين حديث ابن عمر وحديث عبادة المتقدم ؟

ج- نعم العرش متقدم خلقه على خلق القلم ؛ لما في الصحيح من حديث عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « قدر الله مقادير الخلق قبل خلق السماوات بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » . وأما حديث عبادة بن الصامت المتقدم قريبًا ، فقال العلماء : إما أن يكون معناه عند أول خلقه قال له : « اكتب » . وإما على أنه أول المخلوقات من هذا العالم ؛ ليتفق الحديثان ؛ إذ حديث عبد الله بن عمرو صريح في أن العرش سابق على التقدير ، والتقدير مقارن لخلق القلم .

□ حكم الاحتجاج بالقدر :

س٤- ما حكم الاحتجاج بالقدر على ترك أمر أو فعل نهي ؟

ج- لا يجوز لنا أن نجعل قضاء الله وقدره حجة لنا في ترك أمر أو فعل نهي ، بل يجب علينا أن نؤمن ، ونعلم أن لله الحجة علينا بإنزال الكتب وبعثة الرسل ، قال الله تعالى : ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء : ١٦٥] .

س٥- مَن الموجه إليه الأمر والنهي ؟ واذكر الدليل على ما تقول .

ج- هو المستطيع للفعل والترك ، قال الله تعالى : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، وقال : ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن : ١٦] ، وقال : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران : ٩٧] ، وقال ﷺ : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » .

س٦- ما معنى الرضى بالقضاء ؟ وما حكم الرضى به ؟ وضح ذلك مع ذكر أنواع القضاء مفصلة .

ج- الرضى هو التسليم ، وسكون القلب وطمأنينته ، والقضاء الذي هو وصفه سبحانه وفعله القائم بذاته كله خير وعدل ، وحكمه يجب الرضى به كله ، وأما القضاء الذي هو المقضي ، فهو نوعان : ديني شرعي يجب الرضى به ؛ كقوله تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء : ٢٣] ، وكقوله : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء : ٦٥] ؛ وهو أساس الإسلام .

والنوع الثاني : الكوني القدري ، منه ما يجب الرضى به كالنعم التي يجب شكرها ، ومن تمام شكرها الرضى بها ، ومنه ما لا يجوز الرضى به كالمعائب والذنوب التي يسخطها الله ، وإن كانت بقضائه وقدره ، ومنه ما يستحب الرضى به كالمصائب .

س٧- إذا كان قد سبق القضاء والقدر بالشقاوة أو السعادة ، فما حكم ترك الأخذ بالأسباب والاعتماد على ما سبق ؟ وضح ذلك مع ذكر الدليل .

ج- لا يجوز ، لأن القدر السابق لا يمنع العمل ، ولا يوجب الاتكال ؛ بل يوجب الجد والاجتهاد

والحرص على الأعمال الصالحة ، ولهذا لما أخبر النبي ﷺ أصحابه بسبق المقادير وجريانها وجفوف القلم بها ؛ فقيل له : أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ، قال « لا ، ولكن اعملوا فكل ميسر لما خُلق له » . أما أهل الشقاء فييسرون لعمل أهل الشقاء ، وأما أهل السعادة فسييسرون لعمل أهل السعادة ، ثم تلا : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل : ٥- ١٠] ، وقال ﷺ : « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن » ... الحديث .

❀ ❀ ❀

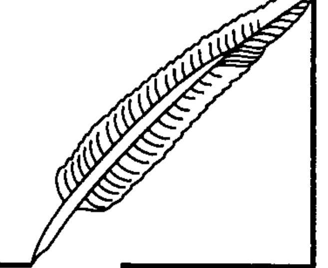
حقيقةُ الإيمانِ ، وحكمُ مُرْتَكِبِ الكبيرةِ

« فصلٌ » :

ومِن أصولِ أهلِ السنةِ والجماعةِ أنَّ الدينَ والإيمانَ قولٌ وعملٌ ؛ قولُ القلبِ واللسانِ ، وعملُ القلبِ واللسانِ والجوارحِ ، وأنَّ الإيمانَ يَزيدُ بالطاعةِ ، ويَنْقُصُ بالمعصيةِ ، وهم مع ذلك لا يُكَفِّرون أهلَ القِبْلةِ بمطلقِ المعَاصِي والكبائرِ ، كما يَفْعَلُه الخوارجُ ، بل الأُخُوَّةُ الإيمانيةُ ثابتةٌ مع المعاصِي ، كما قال سبحانَه وتعالى في آيةِ القِصاصِ : ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة : ١٧٨] ، وقال : ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات : ٩، ١٠] . ولا يَسْلُبون الفاسقَ المِلِّيَّ الإسلامَ بالكُلِّيةِ ، ولا يُخَلِّدونه في النارِ ، كما تقولُ المعتزلةُ ، بل الفاسقُ يَدْخُلُ في اسمِ الإيمانِ المطلَقِ ، كما في قولِه : ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء : ٩٢] ، وقد لا يَدْخُلُ في اسمِ الإيمانِ المطلَقِ ، كما في قولِه تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال : ٢] ، وقولِه ﷺ : « لا يَزْني الزاني حينَ يَزْني ، وهو مؤمنٌ ، ولا يَسْرِقُ السارقُ حينَ يَسْرِقُ ، وهو مؤمنٌ ، ولا يَشْرَبُ الخَمْرَ حينَ يَشْرَبُها ، وهو مؤمنٌ ، ولا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذاتَ شَرَفٍ ، يَرْفَعُ الناسُ إليه فيها أبصارَهم حينَ يَنْتَهِبُها ، وهو مؤمنٌ » .

ونقولُ : هو مؤمنٌ ناقصُ الإيمانِ ، أو : مؤمنٌ بإيمانِه ، فاسقٌ بكبيرتِه ، فلا يُعْطَى الاسمَ المُطْلَقَ ، ولا يُسْلَبُ مُطْلَقَ الاسمِ .

❁ ❁ ❁



الشـــرح

❁ قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله :

قوله : « أن الدين والإيمان قول وعمل ... » :

* قد دل الكتاب والسنة على ما قاله الشيخ ، وأجمع على ذلك سلف الأمة ، فكم من آية قرآنية وأحاديث نبوية أطلقت على كثير من الأقوال والأعمال اسم الإيمان .

فالإيمان المطلق يدخل فيه : جميع الدين ؛ ظاهره وباطنه ؛ أصوله وفروعه .

يدخل فيه : العقائد التي يجب اعتقادها من كل ما احتوت عليه هذا الكتاب .

ويدخل فيه : أعمال القلوب كالحب لله ورسوله وإرادة الله والإنابة إليه .

والفرق بين أقوال القلب وبين أعماله : أن أقواله هي العقائد التي يعترف بها القلب ويعتقدها ، وأما أعمال القلب فهي حركته التي يحبها الله ورسوله .

وضابطها : محبة الخير وإرادته الجازمة وكراهية الشر ، والعزم على تركه لله وهذه الأعمال القلبية تنشأ عنها أعمال الجوارح ؛ فالصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، والجهاد من الإيمان .

وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والقيام بحقوق الله ، وحقوق خلقه المتنوعة كلها من الإيمان .

وكذلك الأقوال : فقراءة القرآن ، وذكر الله والثناء عليه ، والدعوة إلى الله ، والنصيحة لعباد الله ، وتعلم العلوم النافعة كلها داخلة في الإيمان .

ولهذا لما كان الإيمان اسمًا لهذه الأمور ، ترتّب عليه أن يزيد وينقص ، كما هو صريح الأدلة من الكتاب والسنة ، وكما هو ظاهر مشاهد تفاوت المؤمنين في عقائدهم وأعمال قلوبهم وجوارحهم .

من زيادة ونقصه : أن الله قسم المؤمنين إلى ثلاث طبقات .

سابقون بالخيرات : وهم الذين أدوا الواجبات والمستحبات ، وتركوا المحرمات والمكروهات ، فهؤلاء المقربون .

ومقتصدون : وهم الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات .

وظالمون لأنفسهم : وهم الذين تجرءوا على بعض المحرمات ، وقصروا ببعض الواجبات مع بقاء أصل الإيمان معهم .

فهذا من أكبر البراهين على زيادة الإيمان ونقصه .

فما أعظم التفاوت بين هؤلاء الطبقات .

ومن وجوه زيادته ونقصه : أن المؤمنين متفاوتون في علوم الإيمان :

فمنهم : من وصل إليه من تفاصيله وعقائده خير كثير ، فازداد به إيمانه وتم به يقينه .

ومنهم : ما هو دون ذلك ودون ذلك ، حتى تصل الحال إلى أن من المؤمنين من معه إيمان إجمالي ، لم يتيسر له من التفاصيل شيء وهو مع ذلك مؤمن ! ومعلوم الفرق بين هذه المراتب .

ومن وجوه زيادة الإيمان ونقصه : أن المؤمنين متفاوتون تفاوتًا كثيرًا في أعمال القلب والجوارح وكثرة الطاعات وقلتها ، وهذا شيء محسوس .

ومن وجوه زيادته ونقصه : أن من المؤمنين من لم تجرح المعاصي إيمانه ، وإن وقع منه شيء من ذلك بادر إلى التوبة والإنابة ، ومنهم من هو متجرئ على كثير من المعاصي ومعلوم الفرق بينهما .

ومن وجوه زيادته ونقصه : أن المؤمنين من هو واجد لحلاوة الإيمان ، وقد ذاق طعمه واستحلى الطاعات ، واستنار قلبه بالإيمان ، ومنهم من لم يصل إلى ذلك .

قوله : « ولا يسلبون الفاسق الملي اسم الإيمان بالكلية ...» :

* ولهذا قال المصنف رحمه الله : « ولا يسلبون الفاسق الملي اسم الإيمان بالكلية ، ولا يدخلونه في النار ... إلخ » .

وهذا تحقيق مذهب السلف الذي باينوا فيه « الخوارج » المارقين الذين يسلبون العصاة اسم الإيمان ويخلدونهم .

وباينوا فيه « المعتزلة » الذين وافقوا « الخوارج » في المعنى وخالفوهم في اللفظ .

* وأما الكتاب والسنة ؛ فإنهما دلَّا من وجوه كثيرة على :

أن العبد يكون به خير وشر وإيمان وخصال كفر أو نفاق لا تخرجه عن الإيمان بالكلية .

وأن الإيمان المطلق إنما يتناول الإيمان الممدوح الكامل في مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال : ٢، ٣] . ونحو ذلك من النصوص .

وأما مطلق الإيمان الذي يدخل فيه الإيمان الكامل والإيمان الناقص ، فإنه ثبت النصوص - من الكتاب والسنة - على إطلاقه على العصاة من المؤمنين ، وأجمع على ذلك سلف الأمة وأئمتها .

قال تعالى : ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء : ٩٢] .

من المعلوم دخول أي مؤمن كان .

وكذلك وقوله تعالى : ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات : ١٠] فسماهم إخوة بعد وجود الاقتتال .

ويقال أيضًا في توضيح ذلك : أن الإيمان الممدوح الذي يؤتى به في سياق الثناء على أهله إنما يتناول الإيمان الكامل ، والإيمان الذي يقال لصاحبه : إنه من المؤمنين يدخل فيه هذا وهذا .

ويقال أيضًا : الإيمان الذي يمنع صاحبه من التجرئ على الزنا وشرب الخمر والسرقة ونحوها من

الفواحش هو الإيمان الكامل ، والإيمان الذي لا يمنع من ذلك هو الناقص ، وهذا وجه الحديث الذي ذكره المصنف « لا يزني الزاني ....» إلى آخره .

ويقال أيضًا : الإيمان الذي يمنع دخول النار هو الإيمان الكامل ، والإيمان الذي يمنع من الخلود فيها يكون ناقصًا .

وقد تواترت الأحاديث بخروج من في قلبه أقل شيء من الإيمان من النار .

ويقال أيضًا : الأحكام الأصولية والفروعية تدور مع عللها وأسبابها ، وإذا وجد في العبد أسباب متعارضة ؛ أَعْمَلَ كل سبب في مسبِّبِه ، فالطاعات سبب لدخول الجنة والثواب ، والمعاصي سبب لدخول النار والعقاب ، فأعمل كل واحد في مقتضاه .

ولكن لما كانت رحمة اللَّه سبقت غضبه ، وفضله على العباد قد غمرهم وتنوع عليهم من كل وجه ، كان أقل القليل من الإيمان له الأثر المستقر الذي يضمحل ضده من كل وجه ، وإن كان معه شيء من الإيمان فإن مآله إلى الخلود في دار النعيم .

❁ قال الشيخ عبد العزيز بن محمد بن مانع رحمه الله :

قوله : « ولا يسلبون الفاسق الملي ....» :

*أي : الذي على ملة الإسلام ، ولم يرتكب من الذنوب ما يوجب كفره كعبادة غير اللَّه ، وإنكار ما علم مجيئه من الدين بالضرورة وغير ذلك ، مما هو معلوم في نواقض الإسلام ، وموجبات الردة أعاذنا اللَّه منها .

❁ قال الشيخ محمد خليل هراس رحمه الله :

قوله : « ومن أُصولِ الفرقةِ الناجيةِ : أن الدِّين والإيمان قولٌ وعملٌ » :

سبق أن ذكرنا فى مسألة الأسماء والأحكام ، أن أهل السنة والجماعة يعتقدون أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان ، وأن هذه الثلاثة داخلة فى مسمى الإيمان المطلق ، فالإيمان المطلق يدخل فيه جميع الدين ظاهره وباطنه ، أصوله وفروعه ، فلا يستحق اسم الإيمان المطلق إلا [من] جمع ذلك كله ولم ينقص منه شيئًا .

ولما كانت الأعمال والأقوال داخلة فى مسمى الإيمان كان الإيمان قابلًا للزيادة والنقص ، فهو يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، كما هو صريح الأدلة من الكتاب والسنة ، وكما هو ظاهر مشاهد من تفاوت المؤمنين فى عقائدهم وأعمال قلوبهم وأعمال جوارحهم .

ومن الأدلة على زيادة الإيمان ونقصه أن اللَّه قسم المؤمنين ثلاث طبقات ، فقال سبحانه : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر : ٢٣] ، فالسابقون بالخيرات هم الذين أدوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات

والمكروهات ، وهؤلاء هم المقربون . والمقتصدون هم الذين اقتصروا على أداء الواجبات وترك المحرمات . والظالمون لأنفسهم هم الذين اجترءوا على بعض المحرمات وقصروا ببعض الواجبات مع بقاء أصل الإيمان معهم .

ومن وجوه زيادته ونقصه كذلك أن المؤمنين متفاوتون فى علوم الإيمان ؛ فمنهم من وصل إليه من تفاصيله وعقائده خير كثير ، فازداد به إيمانه وتم يقينه ، ومنهم من هو دون ذلك حتى يبلغ الحال ببعضهم ألَّا يكون معه إلا إيمان إجمالى لم يتيسر له من التفاصيل شيء ، وهو مع ذلك مؤمن ، وكذلك هم متفاوتون فى كثير من أعمال القلوب والجوارح وكثرة الطاعات وقلتها .

وأما من ذهب إلى أن الإيمان مجرد التصديق بالقلب وأنه غير قابل للزيادة أو النقص ، كما يروى عن أبي حنيفة وغيره فهو محجوج بما ذكرنا من الأدلة ، قال عليه السلام : « الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها قول : لا إله إلا اللّٰه . وأدناها : إماطة الأذى عن الطريق » . ومع أن الإيمان المطلق مركب من الأقوال والأعمال والاعتقادات فهى ليست كلها بدرجة واحدة ، بل العقائد أصل فى الإيمان ، فمن أنكر شيئًا مما يجب اعتقاده فى اللّٰه أو ملائكته أو كتبه أو رسله أو اليوم الآخر ، أو مما هو معلوم من الدين بالضرورة كوجوب الصلاة والزكاة وحرمة الزنى والقتل . إلخ ، فهو كافر قد خرج من الإيمان بهذا الإنكار .

وأما الفاسق الملى الذى يرتكب بعض الكبائر مع اعتقاده حرمتها ، فأهل السنة والجماعة لا يسلبون عنه اسم الإيمان بالكلية ولا يخلدونه فى النار كما تقول المعتزلة والخوارج ، بل هو عندهم مؤمن ناقص الإيمان ، قد نقص من إيمانه بقدر معصيته ، أو هو مؤمن فاسق فلا يعطونه اسم الإيمان المطلق ولا يسلبونه مطلق الإيمان .

وأدلة الكتاب والسنة دالة على ما ذكره المؤلف رحمه الله من ثبوت مطلق الإيمان مع المعصية ، قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة : ١] ، فناداهم باسم الإيمان مع وجود المعصية وهى موالاة الكفار منهم . إلخ .

فائدة : الإيمان والإسلام الشرعيّان متلازمان في الوجود ، فلا يوجد أحدهما بدون الآخر ، بل كلما وُجِد إيمانٌ صحيحٌ معتدٌّ به ، وُجِدَ معه إسلامٌ ، وكذلك العكسَ ؛ ولهذا قد يُستغنى بذكر أحدهما عن الآخر ؛ لأن أحدهما إذا أُفرد بالذكر ؛ دخل فيه الآخر ، وأما إذا ذُكِرا معًا مقترنين ؛ أُريد بالإيمان التصديق والاعتقاد ، وأُريد بالإسلام الانقياد الظاهري من الإقرار باللسان وعمل الجوارح .

ولكن هذا بالنسبة إلى مطلق الإيمان ، أما الإيمان المطلق ؛ فهو أخصُّ مطلقًا من الإسلام ، وقد يوجد الإسلام بدونه ، كما في قوله تعالى : ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات : ١٤] ، فأخبر بإسلامهم مع نفي الإيمان عنهم .

وفي حديث جبريل ذكر المراتب الثلاث : الإسلام ، والإيمان ، والإحسان ، فدل على أن كلًّا منها أخصُّ مما قبله .

❁ قال الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ :

« من أصول الفرقة الناجية : أن الدين والإيمان » الدين هو الإيمان ، من عطف الصفة على الصفة ، وفي ذلك مزية وهو أنه يسمى الدين ويسَمى الإيمان .

ولنعرف مسألة ، وهي أدلة جاءت في القرآن ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ ، ﴿فَءَامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ هذا المعدى باللام : التصديق ، وما تعدى بالباء فهو الشرعي ، وبعض عرفه بأنه تصديق خاص وهو ناقص .

وأهل السنة لهم عبارات في حد الإيمان نحو خمس عبارات منها : الإيمان قول باللسان ، واعتقاد بالجنان ، وعمل بالأركان . وكلها ترجع إلى شيء واحد ، ومن أحسنها وأجمعها وأشملها ما عرفه به شيخ الإسلام هنا .

« قول وعمل : قول القلب واللسان ، وعمل القلب واللسان والجوارح » .

« قول القلب » علمه وتصديقه وإقراره .

« وعمل القلب » عمل القلب انقياده بمقتضى ما أقر به من الأعمال القلبية ، كالخشية والخضوع والرغبة والرهبة ، والتوكل عليه ورجائه ومحبته ، وأشياء غير ذلك من أعمال القلوب ، فإنه أولًا يصدق ثم ينقاد لما صدق به ، وكونه يصدق ولا ينقاد من الحجة عليه ؛ كما قال : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ ، فلا بد من أن ينقاد ويعمل .

« و » قول « اللسان » نطقه بما يدخله في الإسلام .

وأما عمله فهو نطقه بالشيء الزائد على كلمة الإسلام من أنواع العبادة كالذكر ، ونحو ذلك .

فدخل في ذلك فعل الواجبات والمندوبات ، وترك المحرمات والمكروهات .

فقول اللسان وعمله قسمان :

قسم لا يصح الإسلام إلا به ؛ وهو كلمة الإسلام .

وقسم هو من واجباته ومندوباته ولا يفتقر في صحته إليها .

فالكل من الإيمان ، كل خصلةٍ إيمان ، وسواء كان من الظاهر أم الباطن .

وهذا الحد عرفتَ أنه شامل الإسلام ، فإنه ما من خصلة من خصال الإيمان ، إلا وهي داخلة في الإسلام .

« وَ » عمل « الْجَوَارِحِ » ظاهر ، كالمشي بالرِّجْلِ إلى الصلوات ، وإعطاء اليد في الصدقات ، وما يعمل بالأركان من صلاة وحج ، وغير ذلك من الأعمال الظاهرة من البدن ، فدخل في هذا الحد جميع الطاعات من فرض ومندوب ، والانكفاف عن جميع المحرمات ، فترك خصلة من المحرمات من

الإيمان، وعمل خصلة من الواجبات من الإيمان، والمندوبات من مندوباته، وهذا الحد يوافق عليه المعتزلة والخوارج، خلافًا للمرجئة، من أعظمهم الجهمية.

ومرجئة الفقهاء أقل ما فيها أنها بدعة، ويعد منهم: أبو حنيفة، عرّفوا الإيمان بالنطق بالشهادتين والتصديق.

«وأن الإيمان يزيد بالطاعة» **بفعل الطاعات**، «وينقص بالمعصية» **وينقص بفعل المعاصي**.

وزيادته ونقصانه تارة من جهة الشرع، وتارة من جهة العامل، وتارة لا من هذا، ولا من هذا.

فالأول: إذا شُرِّع شيء صار من الإيمان وزاد بذلك وقت التشريع. فالذين ماتوا من المسلمين في أول الهجرة آمنوا بالإيمان جميعه، والذي نزل بعد ذلك زيادة في الإيمان.

والثاني من جهة العامل: إذا زاد خصلة من خصال الإيمان زاد إيمانه، وإذا عصى نقص إيمانه.

والثالث: المرأة إذا حاضت، وقد سئل النبي ﷺ عن ذلك فقال: «أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟». قلن: بلى. قال: «فذلك من نقصان دينها»[1]. ولا تأثم عليه، فهذا نقصان من الإيمان الواجب، ومع ذلك هو نقص ولا تأثم، وتارة نقصانه بالمعاصي؛ كما تقدم.

ويتبعض ويتجزأ، وهذا هو الذي عليه أهل السنّة، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وهذا الحد مختص بقول أهل السنّة والجماعة.

وخالف في ذلك المرجئة والجهمية، والمعتزلة والخوارج.

فالمرجئة والجهمية يقولون: هو تصديق فقط، أو قول فقط، أو هما معًا، وأنه لا يزيد ولا ينقص، ولا يتبعض ولا يتجزأ، ولا يدخلون أعمال الجوارح في مسمى الإيمان، فإيمان جبريل وفرعون سواء.

والنصوص من الكتاب والسنة ظاهرة أنه منه؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾؛ يعني: صلاتكم لبيت المقدس.

والمعتزلة والخوارج يقولون: لا يزيد ولا ينقص، ولا يتبعض ولا يتجزأ، فمن أتى بمعصية يكفر ويخرج من الإيمان، وهم يجعلون العفو ذنبًا، والذنب كفرًا.

المعتزلة والخوارج يوافقون المرجئة والجهمية في أنه لا يزيد ولا ينقص، وبنوا عليه أصلًا، وهو أنه إذا زال؛ زال بالكلية، وإذا وجد؛ وجد بالتمام، ويوافقون أهل السنة والجماعة في أنه قول وعمل، ويخالفون أهل السنة في أنه يتبعض ويتجزأ.

وأهل السنة يقولون: إنه يزيد من ناحية الصلاح والتصديق - من ناحية العمل وما في القلوب - فالتصديق الذي في قلب أبي بكر ليس مثل غيره.

وكذلك النقصان من ناحية المعاصي، نظير البصر، زيد مثلًا يعرف فلانًا من نصف كيلو، وعمر

---

(١) البخاري (٣٠٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

يُميِّز أنه رجل لا امرأة، وخالد يرى الشخص لكن لا يميز أَرَجُلٌ أو امرأة.

وأدلة الزيادة والنقصان في القرآن معلومة، والسنة كذلك؛ منها: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين»[(١)].

فالإيمان يكسب القلب لينًا؛ لأجل كمال حياته فيزيد، والمعصية تُظلِم بالقلب فينقص الإيمان، وفي الآية: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

«وَهُمْ» أهل السنة «مع ذلك» مع القول بهذا الحد «لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر»؛ يعني: كونه تصدر منه معصية أو معاصٍ فليس كافرًا بذلك.

فعند أهل السنَّة: أن من خصال الإيمان ما يزول كله بزوالها، كأركان الإسلام والإيمان.

ومنها: ما يزول كماله الواجب، كفعل بعض المعاصي والكبائر التي لا توصل إلى الكفر.

ومنها: ما يزول كماله المندوب بترك مندوبات الإيمان.

فالأعمال مع الإيمان بمنزلة الشجرة إذا زال الأصل؛ زالت الشجرة، وكذا الإيمان، فإن قطع شيء من أوراقها وأغصانها كانت ناقصة، فهي بعد ذهاب الورق شجرة، وبعد ذهاب الأغصان شجرة، لكن كاملة وناقصة.

«كما يفعله الخوارج» بناء على أصلهم السابق: أن الإيمان لا يتبعض ولا يتجزأ، فبزوال خصلة منه يزول كله، فيخرج من ربقة الإيمان فيكفرونه بمطلق المعصية أو الكبيرة.

«بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع» وجود «المعاصي» منهم «كما قال سبحانه في آية القصاص: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾» سَماه أخاه مع وجود القتل، وجعل الأخوة الإيمانية بينهما، «وقال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾»، وكذلك سماهم إخوة لهم مع وجود التقاتل، فدل على أن الأخوة الإيمانية ثابتة مع وجود المعاصي، فظهر بهاتين الآيتين وأمثالهما ضلال الخوارج وأمثالهم.

ومن جملة ما استدل به الخوارج قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية وأشباهها.

والرد على الخوارج من غير ما تقدم: أنه كان في زمن النبي ﷺ من صدر منه معاص من الزنا والسرقة والسكر وغير ذلك، وثبتت لهم أحكام الإسلام من توريثهم، ومن دَفْنهم مع المسلمين، ومن الصلاة عليهم، وغير ذلك، ولم يكونوا كفارًا.

---

(١) البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٧٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وهذا من أعظم الضلال تكفير عصاة الموحدين، وأن الإيمان لا يقبل التبعيض والتجزأ.

« ولا يسلبون الفاسق الملي » – الذي من أهل ملتنا وهو فاسق – اسم « الإيمان بالكلية »، لا يسلب اسم الإيمان بالكلية، ويقال: ليس بمؤمن؛ كما تقوله المعتزلة.

المعتزلة يقولون – بأصل الخوارج –: إنهم خرجوا من الملة، تتفق مع الخوارج في خروجه من الإيمان، ولكن الخوارج يقولون: يخرج من الإسلام والإيمان، ويدخل في الكفران.

والمعتزلة يقولون: يخرج من الإيمان ويقفون، يقولون: هو في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر، وردوا بذلك نصوص الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

وأهل السنة بخلاف القولين: – القول بخروجه من الإيمان والوقوف، والقول بدخوله في الكفر، بريئون من مقالة الطائفتين – ويقولون: إنه تحت المشيئة؛ كما في الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، فعصاه الموحدين تحت المشيئة، إن شاء الرب عذبهم على قدر جرائمهم وطهرهم منها، وإن شاء تجاوز وعفا وسمح عنهم وأدخلهم برحمته الجنة.

« ولا يخلدونه في النار » أهل السنة لا يقولون بخلوده في النار، « كما تقول المعتزلة » والخوارج، فالمعتزلة متفقون مع الخوارج في حكمه في الآخرة أنه مخلد في النار.

وهذه المسألة يقال لها: مسألة أسماء الدين وأحكامه.

وحد الإيمان سبق لك ما هو حده عند أهل السنة وعند الخوارج والمرجئة. وتقدم أن الأخوة تبقى معهم ولو على المعاصي.

« بل الفاسق » الملي، الذي يجاهر بالمعاصي ويكابر بها يُحكم عليه بالفسق ويتغلظ بحسبها، ومن تكرر منه حبس عليها « يدخل في اسم الإيمان المطلق » لا كما يقوله هؤلاء، ولا هؤلاء.

« كما في قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ »، ووجه دلالتها: أنه لو أعتق رقبة فاسقة ذات معاص؛ أجزأت بإجماع أهل العلم، فصار داخلًا في هذه الآية وهو قوله: ﴿مُّؤْمِنَةٌ﴾.

« وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق » لعصيانه، « كما في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ »، فإن الفاسق الملي لا يَجِلُ قلبه، وليس ممن إذا تليت عليه الآيات زادته إيمانًا على الحقيقة، فما دخل في الإيمان الذي يستحق أن يثنى عليه ويمدح به، إنما يثنى على من أتى بالإيمان الكامل. فالفاسق ما دخل في هذا؛ إذ لو كان ممن إذا ذكر الله وجلت قلوبهم لما دخل في المعاصي.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ﴾؛ أي: القرآنية السمعية ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ فلم يدخل في هذا، فإنه ليس بمؤمن الإيمان المطلق.

فالفاسق لا يخرج من الإيمان بالكلية، وإن خرج من الإيمان المُثنى به لا يخرج عن الثاني وهو مطلق

الإيمان ، والمثنى به هنا هو الواجب ، فإيمانه ناقص ؛ إذ لو كان مؤمنًا الإيمان الواجب لزجره عنها ، فإنه لم يباشرها إلا عن نقص إيمانه .

« وقوله ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن » » . **فهذا الحديث فيه نفي الإيمان عن أهل الكبائر .**

قول بعض السلف : « إن الإيمان يخرج كالظلة فوقه » . المراد به : خرج ما يستحق به الثناء عليه .

« ونقول » **كأن قائلًا قال : إذا كان الفاسق قد يدخل في اسم الإيمان المطلق ، وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق ، فهل تقولون : إنه مؤمن ، أو تقولون : إنه كافر ؟**

فنقول : لا نقول : إن العاصي كافر ، ولا نقول : إنه مؤمن ، ويطلق ، بل يقيد ، فنقول : « هو مؤمن » **في الحكم وإثبات أصل الإيمان له ،** « ناقص الإيمان » **لنقصه بعض واجبات الإيمان ، فلا يستحق أن يثنى عليه به ، لا نفيٌ لأصل الإيمان عنه .**

« أو » **نقول :** « مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته » ، **ونكون قد خرجنا من بدعة الخوارج الذين يقولون : هو كافر ، ومن بدعة المرجئة الذين يقولون : إنه مؤمن كامل الإيمان ، فنصير وسطًا بينهم .**

فالزاني والسارق مثلًا يقال : هو مؤمن ناقص الإيمان ، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ، مؤمن بما معه من الإيمان ، فاسق بما معه من الفسق أو الكبيرة ، إحدى هاتين العبارتين .

وبعض السلف قالوا : نقول إنه مسلم ، ولا نقول : إنه مؤمن ، وهذا يشبه أن يكون عدم تعرض للمسألة وحيادًا عنها ، والذي ذكره شيخ الإسلام تصريح فيها ، وهو أحسن .

« فلا يعطى الاسم المطلق » **ويقال : مؤمن ويسكت ،** « ولا يسلب مطلق الاسم » **فيقال : ليس بمؤمن ويسكت .**

أما قول : ليس بمؤمن ، فهذا ظلم وهضم لحقه وتَعَدٍّ عليه ؛ لأن معه أصل الإيمان .

وإن قيل : هو مؤمن ، فهذا إعطاء له ما ليس بحق له ، وهو لا يستحق أن يثنى عليه به ، وإدخال له في آيه المدح : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ، وهو ليس كذلك .

فدخوله في الإيمان باعتبار ، وعدم دخوله باعتبار ، فبذلك يكون هذا القول جامعًا بين النصوص جميعًا ، وموافقًا للكتاب والسنة . ولعل قائلًا أن يقول : كيف يدخل الفاسق في الآيات في اسم الإيمان المطلق ، وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق .

فيقال : إن آية ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ على وجه إثبات الإيمان له ، لا على وجه المدح والكمال .

وعدم دخوله في آية : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ؛ لأنها على وجه المدح والكمال ، كما تقدم .

والضابط : أنه إذا ذكرت الآيات التي فيها الأحكام ، فالمطلق يدخل فيها .

﴿ قال الشيخ زيد بن عبد العزيز آل فياض رحمه الله:

فصل في الإيمان:

قوله: «ومن أصول الفرقة الناجية: أن الدين والإيمان قول وعمل ...».

* الإيمان لغة التصديق ومنه ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ أي: بمصدق لنا.

وشرعًا تصديق خاص. وقد تنوعت عبارات السلف فيه فتارة يقولون:

هو قول وعمل ونية واتباع السنة. وتارة يقولون: قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالجوارح. وتارة يقولون: هو قول وعمل ونية. وتارة يقولون هو قول وعمل. وكل هذا صحيح فإذا قالوا: هو قول وعمل. فإنه يدخل في القول قول القلب واللسان جميعًا. وهذا هو المفهوم من لفظ القول والكلام ونحو ذلك إذا أطلق. فإن الذي عليه السلف والفقهاء والجمهور يتناول اللفظ والمعنى جميعًا، فمن قال من السلف: الإيمان قول وعمل. أراد قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح، ومن أراد الاعتقاد - أي أن لفظ القول لا يفهم منه إلا القول الظاهر أو خاف ذلك فزاد الاعتقاد بالقلب.

ومن قال: قول وعمل ونية. قال: القول يتناول الاعتقاد وقول اللسان.

وأما العمل فقد لا يفهم منه النية فزادوا ذلك، ومن زاد اتباع السنة فلأن ذلك كله لا يكون محبوبًا لله إلا باتباع السنة، وأولئك لم يريدوا كل قول وعمل إنما أرادوا ما كان مشروعًا من الأقوال والأعمال، ولكن كان مقصودهم الرد على المرجئة الذين جعلوه قولًا فقط فقالوا: بل هو قول وعمل. والذين جعلوه أربعة فسروا مرادهم، كما سئل سهل بن عبد الله التستري عن الإيمان ما هو؟ فقال: قول وعمل ونية وسنة؛ لأن الإيمان إذا كان قولًا بلا عمل فهو كفر، وإذا كان قولًا وعملًا بلا نية فهو نفاق. وإذا كان قولًا وعملًا ونية بلا سنة فهو بدعة.

« وهنا أصل آخر وهو أن حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل، والقول قسمان:

قول القلب وهو الاعتقاد، وقول اللسان وهو التكلم بكلمة الإسلام. والعمل قسمان:

عمل القلب وهو نية وإخلاص، وعمل بالجوارح، فإذا زالت هذه الأربعة زال الإيمان بكماله، وإذا زال تصديق القلب لم تنفع بقية الأجزاء. فإن تصديق القلب شرط في اعتقادها وكونها نافعة، وإذا زال عمل القلب مع اعتقاد المصدق فهذا موضع المعركة بين المرجئة وأهل السنة؛ فأهل السنة مجمعون على زوال الإيمان وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب وهو محبته وانقياده، كما لم ينفع إبليس وفرعون وقومه واليهود والمشركين الذين كانوا يعتقدون صدق الرسول، بل ويقرون به سرًّا وجهرًا ويقولون: ليس بكاذب ولكن لا نتبعه ولا نؤمن به.

وإذا كان الإيمان يزول بزوال عمل القلب فغير مستنكر أن يزول بزوال أعمال الجوارح ولا سيما إذا كان ملزومًا؛ لعدم محبة القلب وانقياده الذي هو ملزوم لعدم التصديق الجازم، كما تقدم تقريره فإنه يلزم

منه عدم طاعة الجوارح ، ويلزم من عدم طاعته وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة وهو حقيقة الإيمان ، فإن الإيمان ليس مجرد التصديق وإنما هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد » .

« وقد تبين أن لفظ الإيمان حيث أطلق في الكتاب والسنة دخل فيه الأعمال ، وإنما يدعى خروجها منه عند التقييد » . فإذا قيد الإيمان فقرن بالإسلام أو بالعمل الصالح فإنه قد يراد به ما في القلب من الإيمان باتفاق الناس ، وهل يراد به أيضًا المعطوف عليه ويكون من باب عطف الخاص على العام ، أو لا يكون حين الاقتران داخلًا في مسماه ؟ بل يكون لازمًا له على مذهب أهل السنة أو لا يكون بعضًا ولا لازمًا ؟ هذا فيه ثلاثة أقوال للناس ، وهذا موجود في عامة الأسماء يتنوع مسماه بالإطلاق والتقييد » .

والإيمان أصله الإيمان الذي في القلب ، ولا بد فيه من شيئين تصديق القلب وإقراره ومعرفته ويقال لهذا : قول القلب ، قال الجنيد بن محمد : التوحيد قول القلب ، والتوكل عمل القلب ، فلا بد فيه من قول القلب وعمله ثم قول البدن وعمله ، ولا بد فيه من عمل القلب مثل حب اللَّه ورسوله وخشية اللَّه وحب ما يحبه اللَّه ورسوله وبغض ما يبغضه اللَّه ورسوله وإخلاص العمل للَّه وحده وتوكل القلب على اللَّه وحده ، وغير ذلك من أعمال القلوب التي أوجبها اللَّه ورسوله وجعلها من الإيمان ، ثم القلب هو الأصل ، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريد القلب ، فإذا كان صالحًا بما فيه من الإيمان علمًا وعملًا قلبيًّا لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل ، فالإيمان المطلق كما قال أهل الحديث : قول وعمل ؛ قول باطن وظاهر وعمل باطن وظاهر ، والظاهر تابع للباطن لازم له فمتى صلح الباطن صلح الظاهر وإذا فسد فسد .

ومن هنا يظهر خطأ قول جهم ومن اتبعه حيث ظنوا أن الإيمان مجرد التصديق ، ولم يجعلوا أعمال القلب من الإيمان ، فالكفر عندهم شيء واحد وهو الجهل ، والإيمان شيء واحد وهو العلم أو تكذيب القلب وتصديقه ، فإنهم متنازعون : هل تصديق القلب شيء غير العلم أو هو هو ؟

وهذا القول مع أنه أفسد قول قيل في الإيمان ، فقد ذهب إليه كثير من أهل الكلام المرجئة ، وقد ذكر السلف كـ : وكيع بن الجراح ، وأحمد بن حنبل ، وأبي عبيدة ، وغيرهم من يقول بهذا القول ، وقالوا : فإبليس كافر بنص القرآن وإنما كفر باستكباره وامتناعه عن السجود لآدم لا لكونه كذب خبرًا ، وكذلك فرعون وقومه قال اللَّه تعالى : ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ . وقال موسى عليه السلام لفرعون : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ . بعد قوله : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ . فدل على أن فرعون كان عالمًا بأن اللَّه أنزل هذه الآيات وهو من أكبر خلق اللَّه عنادًا وبغيًا لفساد إرادته وقصده لا لعدم علمه ، وكذلك اليهود الذين قال اللَّه فيهم : ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ . وكذلك كثير من المشركين الذين قال اللَّه فيهم :

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ » .

« وهل يستلزم الإسلام الإيمان هذا فيه نزاع ، والوعد الذي في القرآن بالجنة وبالنجاة من العذاب ، وإنما هو معلق باسم الإيمان ، وأما اسم الإسلام مجردًا فما علق به في القرآن دخول الجنة لكن فرضه ، وأخبر أنه دينه الذي لا يقبل من أحد سواه ، وبالإسلام بعث اللَّه جميع النبيين .

وحقيقة الفرق : أن الإسلام دين ، والدين مصدر دان يدين دينًا إذا خضع وذل ، ودين الإسلام الذي ارتضاه اللَّه وبعث به رسله هو الاستسلام للَّه وحده .

وأصله في القلب هو الخضوع للَّه وحده بعبادته وحده دون ما سواه ، فمن عبده وعبد معه إلهًا آخر لم يكن مسلمًا ، ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلمًا ، والإسلام هو الاستسلام للَّه وهو الخضوع له والعبودية ، هكذا قال أهل اللغة : أسلم الرجل إذا استسلم فالإسلام في الأصل من باب العمل عمل القلب والجوارح .

وأما الإيمان فأصله تصديق وأقوال ومعرفة ، فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب ، والأصل فيه التصديق والعمل تابع له ، فلهذا فسره النبي ﷺ بإيمان القلب وبخضوعه ، وهو الإيمان باللَّه وملائكته وكتبه ورسله ، وفسر الإسلام بالاستسلام مخصوص وهو المباني الخمس ، وهكذا في سائر كلام النبي ﷺ يفسر الإيمان بذلك النوع ويفسر الإسلام بهذا .

وذاك النوع أعلى وكل مؤمن لا بد أن يكون مسلمًا ، فإن الإيمان يستلزم الأعمال وليس كل مسلم مؤمنًا هذا الإيمان المطلق ؛ لأن الاستسلام للَّه والعمل لا يتوقف على هذا الإيمان الخاص ، وهذا الفرق يجده الإنسان من نفسه ويعرفه من غيره ، فعامة الناس إذا سلموا بعد كفر وولدوا على الإسلام والتزموا شرائعه وكانوا من أهل الطاعة للَّه ورسوله فهو مسلمون ومعهم إيمان مجمل ، ولكن حقيقة الإيمان في قلوبهم إنما يحصل شيئًا فشيئًا ، إن أعطاهم اللَّه ذلك وإلا فكثير من الناس لا يصلون لا إلى اليقين ولا إلى الجهاد ، ولو شُكِّكوا لَشَكُّوا لو أمروا بالجهاد لما جاهدوا ، ليسوا كفارًا ولا منافقين ليس عندهم من علم القلب ومعرفته ويقينه ما يدرأ الريب ، ولا عندهم من قوة الحب للَّه ولرسوله ما يقدمونه على الأهل والمال ، وهؤلاء إن عوفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة ، وإن ابتلوا بمن يورد عليهم شبهات توجب ريبهم ، فإن لم ينعم اللَّه عليهم بما يزيل الريب وإلا صاروا مرتابينَ وانتقلوا إلى نوع من النفاق ، وكذلك إذا تعين عليهم الجهاد ولم يجاهدوا كانوا من أهل الوعيد ، وكل ما تقوله الخوارج والمرجئة في معنى الإيمان يعلم بالاضطرار أنه مخالف للرسول ، ويعلم بالاضطرار أن طاعة اللَّه ورسوله من تمام الإيمان ، وأنه لم يكن يجعل كل من أذنب ذنبًا كافرًا » .

وليس لفظ الإيمان مرادفًا التصديق ، فإنه يقال للمخبر إذا صدقته : صدقه ، ولا يقال : آمنه وآمن به ، بل يقال : آمن له ، كما قال : ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ ولا يقال : صدقت له .

وهذا بخلاف لفظ الإيمان فإنه تعدى إلى الجر باللام دائمًا لا يقال : آمنته قط ، وإنما يقال : آمنت له ، كما يقال : أقررت فكان تفسيره بلفظ الإقرار أقرب من تفسيره بلفظ التصديق مع أن بينهما فرقًا ، وليس مرادفًا للفظ التصديق في المعنى ، فإن كل مخبر عن مشاهدة أو غيب يقال له في اللغة : صدقت . كما يقال : كذبت . فمن قال : السماء فوقنا . قيل له : صدق . كما يقال له : كذب .

وأما لفظ الإيمان فلا يستعمل إلا في الخبر عن غائب لم يوجد في الكلام أن من أخبر عن مشاهدة ، كقوله : طلعت الشمس وغربت . أن يقال : آمنا له . كما يقال : صدقناه . ولهذا المحدثون والشهود ونحوهم يقال : صدقناهم . ولا يقال : آمنا لهم . فإن الإيمان مشتق من الأمن ، وإنما يستعمل في خبر يؤتمن عليه المخبر ، كالأمر الغائب الذي يؤتمن عليه المخبر .

ولهذا لم يوجد قط في القرآن وغيره لفظ آمن له إلا في هذا النوع ، والاثنان إذا اشتركا في معرفة الشيء يقال : صدق أحدهما صاحبه . ولا يقال : آمن له . لأنه لم يكن غائبًا عن شيء ائتمنه عليه ، فاللفظ يتضمن مع التصديق معنى الائتمان والأمانة ، كما يدل عليه الاستعمال والاشتقاق ، ولفظ الإيمان في اللغة لم يقابل بالتكذيب ، فلا يقال : أنت مؤمن له أو مكذب له . بل المعروف في مقابلة الإيمان لفظ الكفر يقال : هو مؤمن أو كافر . والكفر لا يختص بالتكذيب .

ومما ينبغي أن يعرف أن أكثر التنازع بين أهل السنة في هذه المسألة هو نزاع لفظي ، وإلا فالقائلون بأن الإيمان قول من الفقهاء كحماد بن أبي سليمان وهو أول من قال ذلك ومن اتبعه من أهل الكوفة وغيرهم ، متفقون مع جميع علماء السنة على أن أصحاب الذنوب داخلون تحت الذم والوعيد ، ويقولون أيضًا : بأن من أهل الكبائر من يدخل النار . كما تقوله الجماعة والذين ينفون عن الفاسق اسم الإيمان من أهل السنة متفقون على أنه لا يخلد في النار ، فليس بين فقهاء الملة نزاع في أصحاب الذنوب إذا كانوا مقرين باطنًا وظاهرًا بما جاء به الرسول ، وما تواتر عنه أنهم من أهل الوعيد وأنه يدخل النار من أخبر اللَّه ورسوله بدخوله إياها ، ولا يخلد منهم أحد ولا يكونون مرتدين مباحي الدماء ، ولكن إلا قول المنحرفة قول من يقول بتخليدهم في النار ، كالخوارج والمعتزلة وقول غلاة المرجئة الذين يقولون : ما نعلم أن أحدًا منهم يدخل النار ، بل نقف في هذا كله ، وحكي عن بعض غلاة المرجئة الجزم بالنفي العام .

ويقال للخوارج : الذي نفى عن السارق والزاني والشارب وغيرهم الإيمان هو لم يجعلهم مرتدين عن الإسلام ، بل عاقب هذا بالجلد وهذا بالقطع ولم يقتل أحدًا إلا الزاني المحصن ، ولم يقتل قتل المرتد فإن المرتد يقتل بالسيف بعد الاستتابة وهذا يرجم بالحجارة بلا استتابة ، فدل على أنه وإن نفى عنهم الإيمان فليسوا عنده مرتدين عن الإسلام مع ظهور ذنوبهم .

وسبب الكلام في مسألة الإيمان تنازع الناس هل في اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها في اللغة ، أو أنها باقية في الشرع على ما كانت عليه في اللغة ؟ فذهبت الخوارج والمعتزلة إلى أنها منقولة ،

وذهبت المرجئة إلى أنها باقية على ما كانت عليه في اللغة ، لكن الشارع زاد في أحكامها لا في معنى الأسماء ، مقصودهم أن الإيمان هو مجرد التصديق ، وذلك يحصل بالقلب واللسان ، وذهبت طائفة ثالثة إلى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف ، فهي بالنسبة إلى اللغة مجاز وبالنسبة إلى عرف الشارع حقيقة .

والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ، لكن استعملها مقيدة لا مطلقة كما يستعمل نظائرها ، والمقصود أن من نفى عنه الرسول اسم الإيمان والإسلام ، فلا بد أن يكون قد ترك بعض الواجبات وإن بقي بعضها .

« ولهذا كان أهل السنة والجماعة على أنه يتفاضل وجمهورهم يقولون يزيد وينقص ، ومنهم من يقول يزيد ولا ينقص ، وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان عن الصحابة ولم يعرف فيه مخالف من الصحابة ، فعن عمير بن حبيب الخطمي قال : الإيمان يزيد وينقص . قيل : وما زيادته وما نقصانه ؟ قال : إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته ، وإذا غفلناه ونسيناه فتلك نقصانه . وقال أبو الدرداء : الإيمان يزيد وينقص . وقال : إن من فقه الرجل أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه ، ومن فقه العبد أن يعلم أيزاد هو أم ينقص ؟ وإن من فقه الرجل أن يعلم نزغات الشيطان أين تأتيه ؟

وقال أبو هريرة : الإيمان يزيد وينقص . وكذا قال غير واحد من الصحابة ، وهذه الزيادة أثبتها الصحابة بعد موت النبي ﷺ ونزول القرآن كله ، والزيادة قد نطق بها القرآن في عدة آيات ، كقوله : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ . وهذه الزيادة إذا تليت عليهم الآيات أي : وقت تليت ، ليس هو تصديقهم بها عند النزول وقال تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ . فهذه الزيادة عند تخويفهم بالعدو .

وقال : ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ . ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ . وهذه الزيادة ليست مجرد التصديق بأن الله أنزلها ، بل زادتهم إيمانًا بحسب مقتضاها ، فإن كانت أمرًا بالجهاد أو غيره ازدادوا رغبة ، وإن كانت نهيًا عن شيء انتهوا عنه فكرهوه ، وقال : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ . وقال : ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ » .

قوله : « لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر » . إلخ :

فالكبائر دون الكفر والشرك لا يخرج مرتكبها من الملة ، كما قال المؤلف : ولا يسلبون الفاسق الملي . أي : المنتسب للملة الإسلامية ولم يوجد منه ما يوجب ردته .

ومسألة التكفير من أكبر المسائل التي حصل فيها الاختلاف في الأمة وتفرقوا فيها شيعًا ، « وكان

الناس في قديم الزمان قد اختلفوا في الفاسق الملي ، وهو من أول اختلاف حدث في الملة هل هو مؤمن أو كافر ؟ فقالت الخوارج : إنه كافر . وقالت الجماعة : إنه مؤمن . وقالت طائفة : نقول : هو فاسق لا مؤمن ولا كافر ننزله منزلة بين المنزلتين وخلوده في النار . واعتزلوا حلقة الحسن البصري ؒ وأصحابه فسموا معتزلة .

فأول بدعة المعتزلة تكلمهم في مسائل الأحكام والوعيد » .

والأدلة من القرآن والسنة صريحة في إبطال قول الخوارج والمعتزلة ، كما في قوله تعالى : ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ إلى قوله : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ . فسماهم إخوة مع تقاتلهم ، وكذلك قوله : ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ . فسمى القاتل أخًا للمقتول ، وهي الأخوة الإيمانية مع قوله : « ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا فجزاؤه جهنم » . فدل على أن مرتكب الكبيرة متوعد بالعقاب إذا لم يتب ، وأنه لا يخرج من الإسلام ما لم يرتكب ما يقضي كفره .

« ولا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله ولا بخطأ أخطأ فيه ، كالمسائل التي تنازع فيها أهل القبلة والخوارج المارقون الذين أمر النبي ﷺ بقتالهم ، قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أحد الخلفاء الراشدين ، واتفق على قتالهم أئمة الدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، ولم يكفرهم علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص وغيرهما من الصحابة ، بل جعلوهم مسلمين مع قتالهم ، ولم يقاتلهم علي حتى سفكوا الدم الحرام وأغاروا على أموال المسلمين ، فقاتلهم لدفع ظلمهم وبغيهم ، لا لأنهم كفار ، ولهذا لم يسب حريمهم ولم يغنم أموالهم ، وإذا كان هؤلاء الذين ثبت ضلالهم بالنص والإجماع لم يكفروا مع أمر الله ورسوله ﷺ بقتالهم ، فكيف بالطوائف المختلفين الذين اشتبه عليه الحق في مسائل غلط فيها من هو أعلم منهم ، فلا يحل لإحدى هذه الطوائف أن تكفر الأخرى ولا تستحل دمها ومالها ، وإن كانت فيها بدعة محققة فكيف إذا كانت المكفرة لها مبتدعة أيضًا ؟ وقد تكون بدعة هؤلاء أغلظ ، والغالب أنهم جميعًا جهال بحقائق ما يختلفون فيه ، والأصل أن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم محرمة من بعضهم على بعض لا تحل إلا بإذن الله ورسوله .

وإذا كان المسلم متأولًا في القتال أو التكفير لم يكفر بذلك ، كما قال عمر بن الخطاب لحاطب بن أبي بلتعة : يا رسول الله ، دعني أضرب عنق هذا المنافق . فقال النبي ﷺ : « إنه قد شهد بدرًا ، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »[1] .

وهذا في الصحيحين ، وفيهما أيضًا من حديث الإفك أن سيد بن الحضير قال لسعد بن عبادة : « إنك منافق تجادل عن المنافقين »[2] . واختصم الفريقان فأصلح النبي ﷺ بينهم ، فهؤلاء البدريون

---

(١) البخاري (٤٨٩٠) ، مسلم (٢٤٩٤) عن علي بن أبي طالب ؓ .

(٢) البخاري (٢٦٦١) ، مسلم (٢٧٧٠) عن عائشة ؓ .

فيهم من قال لآخر منهم : إنك منافق ولم يكفر النبي ﷺ لا هذا ولا هذا ، بل شهد للجميع بالجنة .

فهكذا السلف قاتل بعضهم بعضًا من أهل الجمل وصفين ونحوهم وكلهم مسلمون مؤمنون ، كما قال تعالى : ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ . فقد بين الله تعالى أنهم مع اقتتالهم وبغي بعضهم على بعض أخوة مؤمنون وأمر بالإصلاح بينهم بالعدل ، ولهذا كان السلف مع الاقتتال يوالي بعضهم بعضًا موالاة الدين لا يعادون كمعاداة الكفار فيقبل بعضهم شهادة بعض ، ويأخذ بعضهم العلم من بعض ، ويتوارثون ويتناكحون ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم مع بعض ، مع ما كان بينهم من القتال والتلاعن وغير ذلك » .

والناس مضطرون في تكفير أهل الأهواء ، وقد حكي عن مالك فيها روايتان ، وعن الشافعي فيها قولان ، وعن الإمام أحمد أيضًا فيها روايتان ، وكذلك أهل الكلام فذكروا للأشعري فيها قولين ، وغالب مذاهب الأئمة فيها تفصيل ، وحقيقة الأمر في ذلك أن القول قد يكون كفرًا فيطلق القول بتكفير صاحبه ، ويقال : من قال هذا فهو كافر .

لكن الشخص المعين الذي قاله : لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها ، وهذا كما في نصوص الوعيد ، فإن الله تعالى يقول : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًاۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ . فهذا ونحوه من نصوص الوعيد حق لكن الشخص المعين لا يشهد عليه بالوعيد ، فلا يشهد على معين من أهل القبلة بالنار لجواز ألَّا يلحقه الوعيد لفوات شرط أو ثبوت مانع ، فقد لا يكون التحريم بلغة ، وقد يتوب من فعل المحرم ، وقد تكون له حسنات عظيمة تمحو عقوبة ذلك المحرم .

وقد يبتلى بمصائب تكفر عنه وقد يشفع فيه شفيع مطاع ، وهكذا الأقوال التي تكفر قائلها قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق ، وقد يكون بلغه ولم يثبت عنده أو لم يتمكن من فهمها ، وقد يكون عرضت له شبهات يعذره الله بها ، فمن كان من المؤمنين مجتهدًا في طلب الحق وأخطأ ، فإن الله يغفر له خطأه كائنًا ما كان ؛ سواء كان في المسائل النظرية والعلمية أو المسائل الفروعية العملية ، هذا الذي عليه أصحاب النبي ﷺ وجماهير أئمة الإسلام .

وأما تفريق المسائل إلى مسائل أصول يكفر بإنكارها ومسائل فروع لا يكفر بإنكارها ، فهذا التفريق ليس له أصل عن الصحابة ولا عن التابعين لهم بإحسان ولا أئمة الإسلام ، وإنما هو مأخوذ عن المعتزلة وأمثالهم من أهل البدع ، وعنهم تلقاه من ذكره من الفقهاء في كتبهم وهو تفريق متناقض ، فإنه يقال لمن فرق بين النوعين : ما حد مسائل الأصول التي يكفر المخطئ فيها ؟ وما الفاصل بينها وبين مسائل الفروع ؟ فإن قال : مسائل الأصول هي مسائل الاعتقاد ، والفروع مسائل العمل ، قيل له : فتنازع الناس

في محمد ﷺ هل رأى ربه أم لا ؟ وفي أن عثمان أفضل أم علي أفضل ؟ وفي كثير من معاني القرآن وتصحيح بعض الأحاديث هي من المسائل الاعتقادية لا العملية ولا كفر فيها بالاتفاق ، ووجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج وتحريم الفواحش والخمر هي مسائل عملية والمنكر لها يكفر بالاتفاق ، ووجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج وتحريم الفواحش والخمر هي مسائل عملية والمنكر لها يكفر بالاتفاق ، وإن قال : الأصول هي المسائل القطعية ، قيل له : كثير من مسائل العمل قطعية وكثير من مسائل النظر ليست قطعية ، وكون المسألة قطعية أو ظنية هو من الأمور الإضافية ، وقد تكون المسألة عند رجل قطعية لظهور الدليل القاطع له ، كمن يسمع النص من رسول الله ﷺ وتيقن مراده منه ، وعند رجل لا تكون ظنية فضلًا عن أن تكون قطعية لعدم بلوغ النص إياه ، أو لعدم ثبوته عنده ، أو لعدم تمكنه من العلم بدلالته .

ومذاهب الأئمة مبنية على هذا التفصيل بين النوع والعين ، ولهذا حكي طائفة عنهم الخلاف في ذلك ولم يفهموا أغوارهم ، فطائفة تحكي عن أحمد في تكفير أهل البدع روايتين مطلقًا حتى تجعل الخلاف في تكفير المرجئة والشيعة المفضلة لعلي ، وربما رجحت التكفير والتخليد .

وليس هذا مذهب أحمد ولا غيره من أئمة الإسلام ، بل لا يختلف قوله أنه لا يكفر المرجئة الذين يقولون : الإيمان قول بلا عمل ولا يكفر من فضل عليًا على عثمان ، بل نصوصه صريحة بالامتناع من تكفير الخوارج ، والقدرية وغيرهم ، وإنما كان يكفر الجهمية المنكرين لأسماء الله وصفاته ؛ لأن مناقضة أقوالهم لما جاء به الرسول ﷺ ظاهرة بينة ، ولأن حقيقة قولهم تعطيل الخالق ، وكان قد ابتلى بهم حتى عرف حقيقة أمرهم وأنه يدور على التعطيل ، وتكفير الجهمية مشهور عن السلف والأئمة ، لكن ما كان يكفر أعيانهم ؛ فإن الذي يدعو إلى القول أعظم من الذي يقول به ، والذي يعاقب مخالفة أعظم من الذي يدعو فقط ، والذي يكفر مخالفة أعظم من الذي يعاقبه .

ومع هذا فالذين كانوا من ولاة الأمور يقولون بقول الجهمية : إن القرآن مخلوق ، وأن الله لا يرى في الآخرة . وغير ذلك ويدعون الناس إلى ذلك ويمتحنونهم ويعاقبونهم إذا لم يجيبوهم ويكفرون من لم يجبهم ؛ حتى إنهم إذا افتكوا الأسير لا يطلقونه حتى يقر بقول الجهمية أن القرآن مخلوق وغير ذلك ، ولا يولون متوليًا ولا يعطون رزقًا من بيت المال إلا لمن يقول ذلك ، ومع هذا فالإمام أحمد رضي الله عنه ترحم عليهم واستغفر لهم لعلمه بأنه لم يتبين لهم أنهم مكذبون للرسول ﷺ ، ولا جاحدون لما جاء به لكن تأولوا فأخطأوا وقلدوا من قال لهم ذلك .

وكذلك الشافعي لما قال لحفص الفرد حين قال : القرآن مخلوق ، كَفَرْتَ بالله العظيم ، بين له أن هذا القول كفر ولم يحكم بردة حفص بمجرد ذلك ؛ لأنه لم يتبين له بعد الحجة التي يكفر بها ، ولو اعتقد أنه مرتد لسعى في قتله ، وقد صرح في كتبه بقبول شهادة أهل الأهواء والصلاة خلفهم ، وكذلك

قال مالك والشافعي وأحمد في القدري : إن جحد علم الله كَفَر . ولفظ بعضهم : ناظروا القدرية بالعلم ، فإن أقروا به خصموا ، وإن جحدوه كفروا . وسئل أحمد رحمه الله عن القدري هل يكفر ؟ قال : إن جحد العلم كفر ، وحينئذ فجاحد العلم هو من جنس الجهمية .

وأما قتل الداعية إلى البدع ، فقد يقتل لكف ضرره عن الناس ؛ كما يقتل المحارب وإن لم يكن في نفس الأمر كافرًا ، فليس كل من أمر بقتله يكون قتله لردته ، وعلى هذا قتل غيلان القدري وغيره قد يكون على هذا الوجه » .

وأما الرافضة وتفصيل القول فيهم : « فمن اقترن بسبه دعوى أن عليًا إله أو أنه هو النبي وإنما غلط جبريل في الرسالة ، فهذا لا شك في كفره ، بل لا شك في كفر من توقف في تكفيره ، وكذلك من زعم منهم أن القرآن نقص منه آيات وكتمت ، أو زعم أن له تأويلات باطنة تسقط الأعمال المشروعة ونحو هذا ، وهؤلاء يسمون القرامطة والباطنية ومنهم التناسخية وهؤلاء لا خلاف في كفرهم ، وأما من سبهم سبًا لا يقدح عدالتهم ولا في دينهم ، مثل وصف بعضهم بالبخل أو الجبن أو قلة العلم أو عدم الزهد ونحو ذلك ، فهذا هو الذي يستحق التأديب والتعزيز ولا نحكم بكفره بمجرد ذلك .

وعلى هذا يحمل كلام من لم يكفرهم من أهل العلم ، وأما من لعن وقبح مطلقًا فهذا محل الخلاف فيهم ؛ لتردد الأمر بين لعن الغيظ ولعن الاعتقاد .

وأما من جاوز ذلك إلى أن زعم أنهم ارتدوا بعد رسول الله ﷺ إلا نفرًا قليلًا لا يبلغون بضعة عشر نفسًا أو أنهم فسقوا عامتهم ، فهذا لا ريب أيضًا في كفره ؛ لأنه مكذب لما نصه القرآن في غير موضع من الرضا عنهم والثناء عليهم ، بل من يشك في كفر مثل هذا فإن كفره متعين ، فإن مضمون هذه المقالة أن نقله الكتاب والسنة كفار أو فساق .

وأن هذه الآية التي هي : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ، وخيرها هو القرن الأول كان عامتهم كفارًا أو فساقًا ، ومضمونها أن هذه الأمة شر الأمم وأن سابقي هذه الأمة هم شرارها .

وكفر هذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام ، ولهذا نجد عامة من ظهر عليه شيء من هذه الأقوال ، فإنه يتبين أنه زنديق ، وعامة الزنادقة إنما يستترون بمذهبهم وقد ظهرت فيهم مثلات .

وتواتر النقل بأن وجوههم تمسخ خنازير في المحيا والممات ، وجمع العلماء ما بلغهم في ذلك ، وبالجملة فمن أصناف السابة من لا ريب في كفره ، ومنهم من تردد » .

قوله ﷺ : « لا يزني الزاني وهو مؤمن » إلخ . هذا الحديث خرجاه في الصحيحين من حديث أبي هريرة ، وفي آخره : والتوبة معروضة بعد . وزاد مسلم : « ولا يغل حين يغل وهو مؤمن فإياكم إياكم » . وزاد أبو بكر البزار في « المسند » منه « ينزع الإيمان من قلبه فإن تاب الله عليه »[1] .

---

(١) البخاري (٣٤٧٥) ، ومسلم (٥٧) ، كشف الأستار عن زوائد البزار (١١٥) .

فهذا الحديث يرد قول المرجئة والجهمية ، ومن اتبعهم من الكرامية والأشعرية الذين يقولون : إن مرتكب الكبيرة مؤمن كامل الإيمان ، ويزعمون أن الإيمان لا يتفاضل ، وهو أما أن يزول بالكلية أو يبقى كاملًا . وقولهم ظاهر البطلان .

فقد دل الحديث على أن الزاني والسارق وشارب الخمر حين فعلهم المعصية فقد انتفى الإيمان عنهم ، وقد دلت النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة على أنهم غير مرتدين بذلك ، فعلم أن الإيمان المنفي في هذا الحديث وغيره إنما هو كمال الإيمان الواجب .

« فإن أصل الإيمان التصديق والانقياد ، فهذا أصل الإيمان الذي من لم يأت به فليس بمؤمن ، وقد تواتر في الأحاديث : « أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من خير »[1] . و« الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا اللّه ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان »[2] . فعلم أن الإيمان يقبل التبعيض والتجزئة وأن قليله يخرج به صاحبه من النار وإنْ دخلها ، وليس كما يقوله الخارجون عن مقالة أهل السنة أنه لا يقبل التبعيض والتجزئة ، بل هو شيء واحد إما أن يحصل كله وإما ألَّا يحصل منه شيء ، وقوله ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن .... » الحديث ، نفي الإيمان الواجب عنه الذي يستحق به الجنة ، ولا يستلزم ذلك نفي أصل الإيمان وسائر أجزائه وشعبه هذا معنى قولهم نفي كمال الإيمان .

وحقيقة ذلك : أن الكمال الواجب ليس هو الكمال المستحب المذكور في قول الفقهاء : الغسل كامل ومجزئ . ومنه قوله عليه السلام : « من غشنا فليس منا »[3] . ليس المراد به أنه كافر كما تأولته الخوارج ، ولا أنه ليس من خيارنا كما تأولته المرجئة ، ولكن الضمير يطابق المظهر والمظهر ، هم المؤمنون المستحقون للثواب السالمون من العذاب ، والفاسق ليس منا ؛ لأنه متعرض لعذاب اللّه وسخطه »

« فإن اللّه ورسوله لا ينفي اسم أَمْرٍ أَمَرَ اللّه به ورسوله إلا إذا ترك واجباته كقوله : « لا صلاة إلا بأم القرآن »[4] . وقوله : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له »[5] . ونحو ذلك فأما إذا كان الفعل مستحبًا في العبادة لم ينفها لانتفاء المستحب ، فإن هذا لو جاز لجاز أن ينفى من جمهور المؤمنين اسم الإيمان والصلاة والزكاة ؛ لأنه ما من عمل إلا وغيره أفضل منه .

---

(١) مسلم (١٨٣) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) البخاري (٩) ، مسلم (٣٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) مسلم (١٠١) عن أبي هريرة .

(٤) البخاري (٧٥٦) ، ومسلم (٣٩٤) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

(٥) مسند أحمد (٣/١٣٥) عن أنس بن مالك ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع »(٧١٧٩) .

وليس أحد يفعل أفعال النبي ﷺ ، بل ولا أبو بكر ولا عمر ، فلو كان من لم يأت بكمالها المستحب يجوز نفيها عنه ؛ لجاز أن ينفى عن جمهور المسلمين من الأولين والآخرين ، وهذا لا يقوله عاقل ، فمن قال : إن المنفي هو الكمال ، فإن أراد الكمال الذي يذم تاركه ويتعرض للعقوبة فقد صدق ، وإن أراد أنه نفى الكمال المستحب فهذا لم يقع قط في كلام الله ورسوله ، ولا يجوز أن يقع فإن من فعل الواجب كما وجب عليه ولم ينتقص من واجبه شيئًا لم يجز أن يقال : ما فعلته لا حقيقة ولا مجازًا . فاسم الإيمان إذا أطلق في كلام الله ورسوله عنه الإيمان ، فلا بد أن يكون قد ترك واجبًا أو فعل محرمًا ، فلا يدخل في الاسم الذي يستحق أهله الوعد دون الوعيد ، بل يكون من أهل الوعيد » .

« والخوارج ومن يذهب مذهبهم ممن يكفر المسلمين بالذنوب يحتجون بالحديث ويتأولونه على غير وجهه ، وتأويله عند العلماء على وجهين :

أحدهما : أن معناه النهي وإن كانت صورته صورة الخبر ، يريد لا يزن الزاني بحذف الياء ، ولا يسرق السارق بكسر القاف على معنى النهي يقول : إذ هو مؤمن لا يزني ولا يسرق ولا يشرب الخمر ، فإن هذه الأفعال لا تليق بالمؤمنين ولا تشبه أوصافهم .

والوجه الآخر : إن هذا كلام وعيد لا يراد به الإيقاع ، وإنما يقصد به الردع والزجر كقوله ﷺ : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده »[1] . هذا كله على معنى الزجر والوعيد أو نفي الفضيلة وسلب الكمال دون الحقيقة في رفع الإيمان وإبطاله .

قوله : « ولا ينتهب نهبة ذات شرف » إلخ . النهبة بضم النون المنهوب ، وقوله : « ذات شرف » بالشين المعجمة ، قال النووي : ومعناه ذات قدر عظيم . وقيل : ذات استشراف يستشرف الناس لها ، ناظرين إليها رافعين أبصارهم . قال عياض وغيره : ورواه إبراهيم الحربي بالسين المهملة ، وكذا قيده بعضهم في كتاب مسلم . وقيل : معناه أيضًا ذات قدر عظيم . فالروايتان حينئذ بمعنى واحد » .

بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان المطلق ، كما في قوله تعالى : ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ . وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق ، كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية .

فإن من أعتق رقبة مؤمنة وإن كان المعتق فاسقًا فيما يشترط في العتق فيه إيمان الرقبة ، ككفارة الظهار والقتل واليمين أجزأت باتفاق العلماء .

فقد دخلت في اسم الإيمان المطلق ، وإن لم تكن من أهل الإيمان الكامل الذى يستحق صاحبه الثناء والمدح وهم المؤمنون حقًّا .

---

(١) البخاري (٩) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، ومسلم (٤١) عن جابر .

فالفاسق ليس من المؤمنين الذين وصفوا بأنهم ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ .

« واختلف في مرتكب الكبيرة - قولان لأهل السنة - هل يسمى مؤمنًا ناقص الإيمان ؟ أو يقال : ليس بمؤمن لكنه مسلم ؟ على قولين وهما روايتان عن أحمد . وحقيقة الأمر أن من لم يكن من المؤمنين حقًّا يقال فيه : إنه مسلم ومعه إيمان يمنعه الخلود في النار .

وهذا متفق عليه بين أهل السنة ، لكن هل يطلق عليه اسم الإيمان ؟ هذا هو الذي تنازعوا فيه فقيل : يقال : مسلم . ولا يقال : مؤمن ، وقيل : بل يقال : مؤمن . والتحقيق أن يقال : إنه مؤمن ناقص الإيمان : مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ، ولا يعطي الاسم المطلق ، فإن الكتاب والسنة نفيا عنه الاسم المطلق : واسم الإيمان يتناوله فيما أمر اللّٰه به ورسوله ؛ لأن ذلك إيجاب عليه وتحريم عليه وهو لازم له كما يلزه غيره ، وإنما الكلام في المدح المطلق ، وعلى هذا فالخطاب بالإيمان يدخل فيه ثلاث طوائف ؛ فيدخل فيه المؤمن حقًّا ، ويدخل فيه المنافق في أحكامه الظاهرة ، وإن كانوا في الآخرة في الدرك الأسفل من النار وهو في الباطن ينفي عنه الإسلام والإيمان ، وفي الظاهر يثبت له الإسلام والإيمان الظاهر ، ويدخل فيه الذين أسلموا ولم تدخل حقيقة الإيمان في قلوبهم لكن معهم جزء من الإيمان وإسلام يثابون عليه .

ثم قد يكونون مفرطين فيما فرض عليهم ، وليس معهم من الكبائر تكن يعاقبون على ترك المفروضات ، وهؤلاء كالأعراب المذكورين في الآية وغيرهم ، فإنهم قالوا آمنا من غير قيام منهم بما أمروا به باطنًا وظاهرًا ، فلا دخلت حقيقة الإيمان في قلوبهم ولا جاهدوا في سبيل اللّٰه ، وكان قد دعاهم النبي ﷺ إلي الجهاد .

وقد يكونون من أهل الكبائر المعرضين للوعيد ، كالذين يصلون ويذكرون ويجاهدون ويأتون الكبائر ، وهؤلاء لا يخرجون من الإسلام ، بل هم مسلمون ولكن بينهم نزاع لفظي هل يقال إنهم مؤمنون ؟

وأما الخوارج والمعتزلة فيخرجونهم من اسم الإيمان والإسلام ، فإن الإسلام والإيمان عندهم واحد فإذا خرجوا من الإيمان خرجوا من الإسلام ، عندهم لكن الخوارج تقول : هم كفار والمعتزلة تقول : لا مسلمون ولا كفار ينزلهم منزلة بين المنزلتين .

۞ قال الشيخ عبد العزيز الناصر الرشيد رحمه الله :

قوله : « أن الدين والإيمان قول وعمل : قول القلب واللسان » :

قوله : « إن الدين » : معناه لغة : الذل ، يقال : دنته فدان ، أي : أذللته فذل ، شرعًا : هو ما أمر اللّٰه به على ألسنة رسله ، والإيمان لغة : التصديق ، كما قال تعالى : ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ [يوسف : ١٧] ، أي : بمصدق ، وشرعًا : الإيمان هو ما ذكره المصنف .

قال الشيخ التقي الدين رحمه الله : لفظ الإيمان إذا أطلق يراد به ما يراد بلفظ البر ، وبلفظ التقوى ، وبلفظ الدين ، فكل ما يحبه الله ورسوله يدخل في اسم الإيمان . انتهى .

وفي حديث جبريل : سمى النبي ﷺ الإسلام والإيمان والإحسان دينًا .

قوله : « قول القلب » : وهو الاعتقاد ، كاعتقاد ما أخبر الله به عن نفسه وأسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله .

قوله : « قول اللسان » : وهو التكلم بالشهادتين ، والقيام بذكره سبحانه وتبليغ أوامره ، والدعوة إليه والذب عن دينه ونحو ذلك .

قوله : « وعمل القلب » : وهو نيته وإخلاصه والتوكل والإنابة والمحبة والانقياد والخوف منه سبحانه ، والرجاء وإخلاص الدين له والصبر ، ونحو ذلك من أعمال القلوب .

قوله : « وعمل القلب واللسان والجوارح » :

* كالصلاة والحج والجهاد ونحو ذلك ، فالإيمان عند أهل السنة والجماعة هو ما تقدم أنه قول واعتقاد ، وحكى الشافعي على ذلك إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ممن أدركهم ، وأنكر السلف على من أخرج الأعمال من الإيمان إنكارًا شديدًا .

روى اللالكائي بإسناد صحيح عن البخاري قال : لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار ، فما رأيت أحدًا منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص . وقال الأوزاعي : كان من مضى من السلف لا يفرقون بين العمل والإيمان . وفي « صحيح البخاري » أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عدي بن عدي : أن للإيمان فرائض وشرائع ، وحدودًا وسننًا ، فمن استكملها فقد استكمل الإيمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان ، فإن أعش فسأبينه لكم ، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص . وفي « الصحيحين » عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال لوفد عبد القيس : « آمركم بأربع : الإيمان بالله وحده ، وهل تدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تؤدوا الخمس من المغنم »[1] . قال ابن القيم رحمه الله : فيه : أن الإيمان بالله هو مجموع هذه الخصال من القول والعمل ، كما علم ذلك أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون وتابعوهم ، وعلى ذلك ما يقارب من مائة دليل من الكتاب والسنة . اهـ .

قوله : « وأن الإيمان يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية » :

* كما قال سبحانه : ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح : ٤] . وقال تعالى : ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب : ٢٢] .

(١) البخاري (٨٧) ، ومسلم (١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

وقوله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم أخلاقًا»[(١)].

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء من الإيمان»[(٢)]، ولفظه لمسلم، إلى غير ذلك من الأدلة الدالة على أن الإيمان يزيد وينقص، وعلى أن المؤمنين يتفاضلون في الإيمان، فبعضهم أكمل إيمانًا من بعض، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]، فدلت هذه الآية أن المؤمنين ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: سابقون، ومقتصدون، وظالمون لأنفسهم، فالسابق إلى الخيرات: هو الذي عمل الواجبات والمستحبات، واجتنب المحرمات والمكروهات، والمقتصد: هو من اقتصر على فعل الواجبات واجتناب المحرمات، والظالم لنفسه: هو من أخل ببعض الواجبات وانتهك بعض المحرمات، فكل واحد من هذه الأقسام يطلق عليه أنه مؤمن.

أما أصول الإيمان، فستة كما في حديث جبريل، وهي: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره»[(٣)]، وفي الحديث المذكور جعل مراتب الدين ثلاثة: الإيمان والإسلام والإحسان، فأعلاها: الإحسان، ثم الإيمان، ثم الإسلام، فكل محسن مؤمن مسلم، ولا ينعكس، وكل مؤمن مسلم لا العكس، فالمرتبة الأولى الإسلام، وهي التي يدخل فيها الكافر أول ما يتكلم بإسلام، وأعلى منها مرتبة الإيمان؛ لأن الله نفى الإيمان عمن ادعى الإيمان من أول وهلة الإيمان، وأثبت لهم الإسلام، كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤].

المرتبة الثالثة: الإحسان وهي أعلا من المرتبتين الأوليين، فقد ينفي عن الرجل الإحسان ويثبت له الإيمان، وينفي عنه الإيمان ويثبت له الإسلام، كما في حديث: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[(٤)]. ولا يخرجه عن مرتبة الإسلام إلا الكفر بالله والشرك المخرج عن الملة.

وأما المعاصي والكبائر كالزنا وشرب الخمر ونحو ذلك، فلا يخرجه عن دائرة الإسلام والإيمان إذا ذكرا جميعًا، فإن الإسلام يفسر بالانقياد للأعمال الظاهرة، والإيمان يفسر بالأعمال الباطنة، كما فرق بينهما في حديث جبريل، فقال: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا، والإيمان أن تؤمن بالله

---

(١) أبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٢٣٠).

(٢) البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) البخاري (٢٣٤٣)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره »[1] .

وروى الإمام أحمد من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « الإسلام علانية والإيمان بالقلب »[2] ، وهذا إذا ذكرا معًا ، أما إذا أفرد أحدهما عن الآخر ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران : ١٩] ، فإنه يدخل فيه الآخر ، فإذا أفرد الإيمان دخل فيه الإسلام وبالعكس ، دلالة الاقتران والانفراد ، كالفقير والمسكين ونحو ذلك .

قوله : « وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة » :

قوله : « وهم ذلك لا يكفرون » : أي لا ينسبونهم للكفر ويحكمون عليهم به .

قوله : « أهل القبلة » : أي : من يدعي الإسلام ، ويستقبل الكعبة ، وإن كان عليه ذنوب ومعاصي عدا الشرك بالله ، والكفر المخرج عن الملة الإسلامية ، كما قال ﷺ : « من صلى صلاتنا واستقبل ، قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا ، فهو المسلم له مالنا وعليه ما علينا »[3] .

فأهل السنة والجماعة لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر ، كما يفعله الخوارج والمعتزلة ، فإن الخوارج يقولون : من فعل كبيرة فهو في الدنيا كافر ، وفي الآخرة مخلد في النار لا يخرج منها لا بشفاعة ولا بغير شفاعة ، والمعتزلة يقولون : من فعل كبيرة فهو في الدنيا لا مؤمن ولا كافر ، بل في منزلة بين المنزلتين ، وفي الآخرة خالد مخلد في النار كقول الخوارج ، وقابلتهم المرجئة فقالوا : إنه لا يضر مع الإيمان ذنب ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وقالوا : إيمان أفسق الناس كإيمان أبي بكر وعمر ، فالخوارج المعتزلة غلوا والمرجئة جفوا ، أولئك تعلقوا بأحاديث الوعيد ، وهؤلاء تعلقوا بأحاديث الوعد فقط ، وهدى الله أهل السنة والجماعة للقول الوسط الذي تدل عليه أدلة الكتاب والسنة ، فقالوا : إن الفاسق لا يخرج من الإيمان بمجرد فسقه ، ولا يخلد في النار في الآخرة ، بل هو تحت مشيئة الله إن عفى عنه دخل الجنة من أول وهلة ، وإن لم يعف عنه عذب بقدر ذنوبه ثم دخل الجنة ، فلا بد له من دخول الجنة ، فالعاصي معرض لعقوبة الله وعذابه ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء : ٤٨] .

فهذه الآية صريحة في أن من مات غير مشرك ، فهو تحت مشيئة الله ، ففيها الرد على الخوارج المكفرين بالذنوب وعلى المرجئة القائلين بأن الذنوب لا تضر ، وأن الناس في الإيمان سواء لا تفاضل بينهم ، وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث من أصل الإيمان : الكف عمن قال لا إله إلا الله لا نكفره بذنب ، ولا نخرجه من الإسلام بعمل ، والجهاد ماض منذ بعثني الله حتى يقاتل

(١) تقدم تخريجه .

(٢) أحمد (٣/١٣٤) ، وأبو يعلى (٢٩٢٣) من حديث أنس رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (٢٢٨٠) .

(٣) البخاري (٣٨٤) من حديث أنس رضي الله عنه .

آخر أمتي الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل ، والإيمان بالأقدار »[(١)] ، رواه أبو داود ، وفي الصحيح : « يُخرج من النار من قال لا إله إلا الله ، وفي قلبه مثقال ذرة من إيمان »[(٢)] ، ففيه دليل على زيادة الإيمان ونقصانه ، وعلى دخول طائفة من الموحدين النار ، وإن الكبائر لا يكفر فاعلها ، ولا يخلد في النار ، وقال البخاري رحمه الله : باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر . قال إبراهيم التيمي : ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذبًا ، وقال ابن أبي مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه ، ما منهم أحد يقول : إنه على إيمان جبريل وميكائيل ، ويذكر عن الحسن : ما خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق .

قوله : « بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي » :

* كما قال تعالى في آية القصاص : ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة : ١٧٨] ، فسماه أخًا مع وجود القتل منه ، ففيه دليل على أن العاصي لا يخرج من الإيمان بمجرد الذنوب والمعاصي .

قوله : « ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ » :

* الطائفة : القطعة من الشيء ويطلق على الواحد ، فما فوقه عند الجمهور ، وقوله : ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات : ٩] . فسماهم مؤمنين مع الاقتتال ، وبهذا استدل البخاري وغيره على أنه لا يخرج من الإيمان بالمعصية لا كمال يقول الخوارج والمعتزلة ومن تابعهم .

وفي « صحيح البخاري » من حديث الحسن عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين »[(٣)] . فكان كما قال ﷺ ، أصلح الله بين أهل الشام والعراق بعد الحروب الطويلة .

قوله : « ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى﴾ » : أي : تعدت إحداهما على الأخرى وأبت الإجابة إلى حكم كتاب الله . قوله : ﴿حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات : ٩] ، أي : ترجع إلى أمر الله ورسوله وتسمع للحق وتطيعه ، كما في الصحيح عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا »[(٤)] ، قلت : يا رسول الله ، هذا نصرته مظلومًا كيف أنصره ظالمًا ؟ قال : « تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه »[(٥)] .

---

(١) أبو داود (٢٥٣٢) ، وأبو يعلى (٤٣١١) . وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (٢٥٣٢) .

(٢) البخاري (٤٤) ، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٣) البخاري (٣٤٣٠) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه .

(٤) البخاري (٢٣١١) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٥) البخاري (٦٥٥٢) من حديث أنس رضي الله عنه .

قوله: « ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ » : فيه إثبات للّٰه كما يليق بجلاله وعظمته، وفيه فضل الإصلاح بين الناس، وفيه مدح العدل والإنصاف، وروى ابن أبي حاتم عن عبد اللّٰه بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: « المقسطون على منابر من نور عن يمين العرش الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا »[1]. رواه مسلم والنسائي، وفيه أنه لم يخرجوا بالبغي من الإيمان، وفيه أنه أوجب قتالهم، وأنه أسقط عنهم التبعة فيما أتلفوه في قتالهم، وفيه إجازة بالبغي من الإيمان، وفيه أنه أوجب قتالهم، وأنه أسقط عنهم التبعة فيما أتلفوه في قتالهم، وفيه إجازة قتال كل من منع حقًّا عليه والأحاديث بذلك مشهورة.

قوله: « ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ » : أي: أخوة في الدين سماهم مؤمنين مع وجود الاقتتال بينهم، وجعلهم أخوة في الدين مع وجود الاقتتال بينهم، فدل على أنهم لا يخرجون من الإيمان بالمعصية.

قوله: « والكبائر » :

* هي جمع كبيرة، وهي الفعلة القبيحة من الذنوب العظيم أمرها، والكبيرة كل معصية فيها حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة، وزاد شيخ الإسلام ابن تيمية: أو ورد فيها وعيد ينفي إيمان أو لعن أو غضب ونحوهما، في قوله: والكبائر إشارة إلى أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر، وهو الصواب الذي تدل عليه الأدلة.

وأما عدد الكبائر، فعند سعيد بن جبير رضي اللّٰه عنه قال: قال رجل لابن عباس: الكبائر سبع، فقال ابن عباس: هي إلى السبع مائة أقرب منها إلى السبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار. وقد أوصلها علماؤنا إلى أكثر من السبعين، كما في « الإقناع »، قال في « شرح الطحاوية » : وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء، وعدم اللامبالاة، وترك الخوف ما يلحقها بالكبائر، وقد يقترن بالكبيرة من الحياء والخوف والوجل ما يلحقها بالصغائر، وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب، وقد يعفى لصاحب الإحسان العظيم ما لا يعفى لغيره، فإن فاعل السيئات تسقط عنه عقوبة جهنم بنحو عشرة أسباب عرفت بالاستقراء من الكتاب والسنة:

الأول: التوبة، الثاني: الاستغفار، الثالث: الحسنات الماحية، الرابع: المصائب الدنيوية. الخامس: عذاب القبر، السادس: دعاء المؤمنين واستغفارهم، السابع: ما يهدى إليه بعد الموت من ثواب صدقة أو قراءة أو حج ونحو ذلك، الثامن: أهوال يوم القيامة وشدائده، التاسع: ما ثبت أن المؤمنين إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ليقتص لبعضهم من بعض، العاشر: شفاعة الشافعين، الحادي عشر: عفو أرحم الراحمين من غير شفاعة كما تقدم. انتهى باختصار.

إذا عرف ما تقدم، فينبغي أن يكون المؤمن خائفًا راجيًا، ويكون خوفه ورجاؤه سواء، فإنه إذا رجح

---

(١) مسلم (١٨٢٧)، والنسائي (٥٣٧٩) من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما.

الخوف حمله على القنوط من رحمة الله ، وإذا رجح الرجاء حمله على الأمن من مكر الله ، وكلاهما من كبائر الذنوب .

قوله : « الفاسق ...» :

* الفسق : لغة : الخروج عن الاستقامة ، والجور ، وبه سمي الفاسق فاسقًا ، وشرعًا : الفاسق من فعل كبيرة أو أصر على صغيرة . وينقسم إلى قسمين :

الأول : فسق اعتقاد ، كالرفض والاعتزال ونحوهما .

الثاني : فسق عمل ، كالزنا واللواط وشرب الخمر ، ونحو ذلك .

قوله : « الملي » : أي : الذي على ملة الإسلام ، ولم يرتكب من الذنوب ما يوجب كفره ، فأهل السنة والجماعة متفقون كلهم على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفرًا ينقل عن الملة بالكلية ، وعلى أنه لا يخرج من الإيمان والإسلام ، ويدخل في الكفر ، ومتفقون على أنه لا يستحق الخلود مع الكافرين ، وأن من مات على التوحيد ، فلا بد له من دخول الجنة ، خلافًا للخوارج والمعتزلة ، فإن الخوارج أخرجوهم من الإيمان ، وحكموا عليهم بالخلود في النار ، والمعتزلة وافقوا الخوارج وافقوا الخوارج في الحكم عليهم في الآخرة دون الدنيا ، فلم يستحلوا منهم ما استحلته الخوارج ، وأما في الأسماء فأحدثوا المنزلة بين المنزلتين ، وهذه خاصة المعتزلة التي انفردوا بها ، وسائر أقوالهم قد شاركهم فيها غيرهم ، وهذا الخلاف - فيما ذكر - أول خلاف حدث في الملة .

قال ابن عبد الهادي في « مناقب الشيخ تقي الدين » : أول خلاف حدث في الملة في الفاسق الملي هل هو كافر أو مؤمن ؟ فقالت الخوارج : إنه كافر ، وقالت الجماعة : إنه مؤمن ، وقالت طائفة المعتزلة : هو لا مؤمن ولا كافر ، منزلة بين المنزلتين ، وخلدوه في النار ، واعتزلوا حلقة الحسن البصري ، فسموا معتزلة . اهـ .

والأدلة على بطلان مذهب الخوارج والمعتزلة كثيرة جدًا ، وقد تقدم ذكر بعضها كقوله تعالى : ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ [البقرة : ١٧٨] ، وكقوله : ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات : ٩] ، فسماهم مؤمنين مع وجود القتل والاقتتال ، وسماهم أخوة مع وجود ذلك ، والمراد : أخوة الدين كما تقدم ، وقد تقدم انقسام المؤمنين إلى ثلاثة أقسام : سابقين ، ومقتصدين ، وظالمين لأنفسهم .

وقد تواتر في الأحاديث : « أخرجوا من النار من قال : لا إله إلا الله ، وفي قلبه مثقال ذرة من إيمان »(١) . وحديث : « الإيمان بضع وسبعون شعبة ، فأعلاها : قول لا إله إلا الله ، وأدناها : إماطة

---

(١) تقدم تخريجه .

الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[1].

فعلم أن الإيمان يقبل التبعيض والتجزئة، وأن قليله يخرج به صاحبه من النار إن دخلها، وأيضًا فلو كان العاصي كافرًا كفرًا ينقل عن الملة بالكلية لكان مرتدًا، ولا يقبل عفو ولي القصاص، ولا تجري الحدود في الزنا والسرقة وشرب الخمر، وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام، ونصوص الكتاب والسنة والإجماع تدل على أن الزاني والسارق وشارب الخمر والقاذف لا يقتل، بل يقام عليه الحد، فدل على أنه ليس بمرتد.

وقال ابن القيم في «المدارج»: والفسوق أيضًا ينقسم إلى قسمين: فسوق من جهة العمل، وفسق من جهة الاعتقاد - إلى أن قال - وفسق الاعتقاد كفسق أهل البدع الذين يؤمنون بالله ورسوله، ويحرمون ما حرم الله ورسوله، ويوجبون ما أوجبه، ولكن ينفون كثيرًا مما أثبت الله ورسوله جهلًا وتأويلًا وتقليدًا للشيوخ، ويثبتون ما لم يثبته الله ورسوله كذلك، وهؤلاء كالخوارج المارقة وكثير من الروافض والقدرية والمعتزلة وكثير من الجهمية الذين ليسوا غلاة في التهجم.

وأما غالية الجهمية وغلاة الرافضة، فليس للطائفين في الإسلام نصيب؛ ولذلك أخرجهم جماعة من السلف من الثنتين والسبعين فرقة، وقالوا: هم مباينون للملة، فالتوبة من هذا الفسوق بإثبات ما أثبته الله ورسوله من غير تشبيه ولا تعطيل، وتنزيهه عما نزه به نفسه ونزهه به ورسوله من غير تشبيه ولا تعطيل، وتلقي الإثبات والنفي من مشكاة الوحي لا من آراء الرجال ونتائج أفكارهم، فتوبة هؤلاء الفساق من جهة الاعتقادات الفاسدة بمحض اتباع السنة، ولا يكتفى أيضًا منهم حتى يبينوا فساد ما كانوا عليه من البدعة.

قوله: «بل الفاسق يدخل» ... إلخ:

* فإن أعتق رقبة مؤمنة فيما يشترط في العتق إيمان الرقبة، أجزأت الرقبة الفاسقة، فقد دخلت في اسم الإيمان المطلق، وإن لم تكن من أهل الإيمان الكامل، فالفاسق يدخل في جملة أهل الإيمان على سبيل إطلاق أهل الإيمان، وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق، كما في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] الآية، فالفاسق لا يسلب عنه اسم الإيمان على الإطلاق، ولا يثبت له على الإطلاق، بل يقال: مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، وحقيقة الأمر أن من لم يكن من المؤمنين حقًا يقال فيه: إنه مسلم ومعه إيمان يمنعه من الخلود في النار.

قوله: «﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]»:

قوله: «﴿إِنَّمَا﴾»: أداة حصر تثبت المذكور وتنفي ما عداه.

قوله: «﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾»: أي: الإيمان الكامل المأمور به.

---

(١) تقدم تخريجه.

قوله : « ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ » : أي : خافت . قوله : ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال : ٢] فيها دليل على أن الإيمان يزيد وينقص .

قوله : « ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ » : أي : يفوضون أمرهم إلى الله ، ففيها فضل التوكل ، وأنه من أجل أعمال القلوب ، وفيها دليل على أن الأعمال الظاهرة والباطنة داخلة في مسمى الإيمان شرعًا ، فكل ما نقص من الأعمال التي لا يخرج نقصها من الإسلام ، فهو نقص في كمال الإيمان الواجب ، كما في حديث أبي هريرة المتفق عليه : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن »[1] . الحديث ، فالمنفي في هذا الحديث كمال الإيمان الواجب ، فلا يطلق الإيمان على مثل أهل هذه الأعمال إلا مقيدًا بالمعصية أو الفسوق ، فيقال : مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ، فيكون معه من الإيمان بقدر ما معه من الأعمال الباطنة والظاهرة ، فيدخل في أهل الإيمان على سبيل إطلاق أهل الإيمان ، كما تقدم في قوله : ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء : ٩٢] .

وأما المؤمن الإيمان المطلق الذي لا يتقيد بمعصية ولا فسوق ونحو ذلك ، فهو الذي أتى بما يستطيعه من الواجبات مع تركه لجميع المحرمات ، فهو الذي يطلق عليه اسم الإيمان من غير تقييد ، فهذا هو الفرق بين مطلق الإيمان والإيمان المطلق .

الثاني : هو الذي لا يصر صاحبه على ذنب ، والأول : هو المصر على بعض الذنوب ، فمطلق الإيمان هو وصف المسلم الذي معه أصل الإيمان الذي لا يتم الإسلام إلا به ، فلا يصح إلا به .

والمرتبة الثانية : مرتبة أهل الإيمان المطلق الذين كمل إسلامهم وإيمانهم بإتيانهم بما وجب عليهم ، وتركهم ما حرم الله عليهم ، وعدم إصرارهم على الذنوب ، فهذه المرتبة الثانية الذي وعد الله أهلها بدخول الجنة والنجاة من النار . انتهى .

قوله : « وقول النبي ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ....» » :

* وفي قوله ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن »[2] ، الحديث دليل على دخول الأعمال في مسمى الإيمان ، فلولا أن ترك هذه الكبائر من مسمى الإيمان لما انتفى اسم الإيمان عن مرتكب شيء منها ؛ لأن الاسم لا ينتفي إلا بانتفاء بعض أركان المسمى أو واجباته ، والمراد بنفي الإيمان : نفي بلوغ حقيقته ونهايته ، وفي هذا الحديث الرد على المرجئة والجهمية ومن اتبعهم الذين يقولون : إن مرتكب الكبيرة مؤمن كامل الإيمان ، ويزعمون أن الإيمان لا يتفاضل ، وهو إما أن يزول بالكلية أو يبقى كاملًا ، وقولهم ظاهر البطلان ، فقد دل الحديث على أن الزاني وشارب الخمر ونحوهم حين فعلهم المعصية قد

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) تقدم تخريجه .

انتفى الإيمان عنهم، وقد دلت النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة على أنهم غير مرتدين بذلك، فعلم أن الإيمان المنفي في هذا الحديث وغيره إنما هو كمال الإيمان الواجب، فإن الله ورسوله لا ينفي اسم مسمى شرعي إلا بانتفاء بعض أركانه أو واجباته.

قوله: «نُهبة»: بضم النون هو ما ينهب، والمراد: المأخوذ جهرًا وقهرًا.

قوله: «ذات شرف»: أي: ذات قدر عظيم.

قوله: «يرفع الناس إليها أبصارهم»: أي: ينظرونها لعظم قدرها.

قوله: «ونقول: هو مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ...» إلخ:

* فإن الله سبحانه وتعالى أطلق عليه الإيمان، كما تقدم من قوله: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] الآية، وقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات: ٩] الآية، وكذلك الرسول ﷺ أطلق عليه الإيمان، كما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «من كانت له عند أخيه مظلمة، فليتحلل منه اليوم قبل ألَّا يكون دينار ولا درهم ...»[1]، الحديث إلى غير ذلك من الأدلة الدالة على إطلاق الإيمان على الفاسق.

قوله: «ونقول هو مؤمن ناقص الإيمان» إلخ: خلافًا للمرجئة والجهمية ومن اتبعهم، فإن الإيمان عندهم لا يقبل الزيادة والنقصان، بل هو شيء واحد يستوي فيه جميع المؤمنين من الملائكة والمقتصدين والمقربين والظالمين، وقد سبق ذكر مذهبهم والرد عليه.

قوله: «فلا يعطى الاسم المطلق ...»:

* أي: لا يعطي الفاسق اسم الإيمان المطلق، أي: الكامل الذي صاحبه يستحق عليه دخول الجنة والنجاة من النار، وهو فعل الواجبات وترك المحرمات وهو الذي يطلق على من كان كذلك بلا قيد، فلا يطلق على الفاسق الإيمان إلا مقيدًا، فيقال: مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، أو يقال: مؤمن ناقص الإيمان، فلا يسمى مؤمنًا إلا بقيد، وهذا الذي يسميه العلماء: مطلق الإيمان.

وقال الشيخ تقي الدين رحمه الله: والتحقيق: أن يقال: إنه مؤمن ناقص الإيمان، مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، فلا يُعطى الاسم المطلق، فإن الكتاب والسنة نَفَيا عنه الاسم المطلق، واسم الإيمان يتناوله فيما أمر الله به ورسوله؛ لأن ذلك إيجاب عليه وتحريم عليه وهو لازم له كما يلتزم غيره وغيره، وإنما الكلام في المدح المطلق. اهـ.

قوله: «ولا يسلب مطلق الاسم»: كما تقدم إطلاق الإيمان في الآيات عليه، وكذلك رسوله فيطلق عليه الإيمان مقيدًا كما تقدم، فيقال: مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، ويقال: مؤمن ناقص الإيمان، وعلى هذا يدل الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة خلافًا للخوارج والمعتزلة، أما ما جاء في

---

(١) البخاري (٦١٦٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بعض الأحاديث من نفي الإيمان عن بعض العصاة فالمراد به : نفي الإيمان المطلق لا مطلق الإيمان كما تقدم .

قال الشيخ تقي الدين في « كتاب الإيمان » : الإيمان إذا أطلق في كلام الله ورسوله يتناول فعل الواجبات وترك المحرمات ، ومن نفى الله ورسوله عنه الإيمان فلا بد أن يكون ترك واجبًا أو فعل محرمًا ، فلا يدخل في الاسم الذي يستحق أهله الوعد دون الوعيد . انتهى .

قال ابن القيم رحمه الله في « بدائع الفوائد » : الإيمان المطلق لا يطلق إلا على الكامل الكامل المأمور به ، ومطلق الإيمان يطلق على الكامل والناقص ؛ ولهذا نفى الإيمان المطلق عن الزاني وشارب الخمر والسارق ، ولم ينفَ عنه مطلق الإيمان ؛ لئلا يدخل في قوله : ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران : ٦٨] ، ولا في قوله : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون : ١] ، ولا في قوله : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال : ٢] الآية ، ويدخل في قوله : ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء : ٩٢] ، وفي قوله : ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات : ٩] الآية ؛ فلهذا كان قوله : ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات : ١٤] نفيًا للإيمان المطلق لا لمطلق الإيمان لوجوه ساقها ، فالإيمان المطلق يمنع دخول النار ، ومطلق الإيمان يمنع الخلود فيها ، فإذا قيل : الفاسق مؤمن ، فهو على هذا التفصيل . انتهى .

۞ قال الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله :

قوله : « ومن أصول أهلِ السُّنةِ والجماعةِ : أنَّ الدِّينَ والإيمانَ قولٌ وعملٌ ... » :

« الدين » : هو ما يدان به الإنسان ، أو يدين به ؛ فيطلق على العمل ويطلق على الجزاء :

ففي قوله تعالى : ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار : ١٨، ١٩] . فالمراد بالدين فى هذه الآية : الجزاء .

وفى قوله تعالى : ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة : ٣] . أى : عملًا تتقربون به إلى الله .

ويقال : كما تَدين تدان . أى : كما تعمل تجازى .

والمراد بالدين فى كلام المؤلف : العمل .

« الإيمان » ؛ أكثر أهل العلم يقولون : إن الإيمان فى اللغة التصديق .

ولكن فى هذا نظر ؛ لأن الكلمة إذا كانت بمعنى الكلمة ؛ فإنها تتعدى بتعديتها ، ومعلوم أن التصديق يتعدى بنفسه ، والإيمان لا يتعدى بنفسه ؛ فتقول مثلًا : صدقته ، ولا تقول : آمنته ! بل تقول : آمنت به . أو : آمنت له . فلا يمكن أن نفسّر فعلًا لازمًا لا يتعدى إلا بحرف الجر بفعل متعد ينصب المفعول به نفسه ، ثم إن كلمة (صدقت) لا تعطى معنى كلمة (آمنت) ؛ فإن (آمنت) تدل على طمأنينة بخبره أكثر من (صدقت) .

ولهذا لو فسر الإيمان بالإقرار لكان أجود ؛ فنقول : الإيمان : الإقرار ، ولا إقرار إلا بتصديق ؛ فتقول : أقر به ؛ كما تقول : آمن به ، وأقرَّ له ؛ كما تقول : آمن له . هذا في اللغة .

وأما في الشرع ؛ فقال المؤلف : « قول وعمل » .

وهذا تعريف مجمل فصله المؤلف بقوله : « قول القلب واللسان ، وعمل القلب واللسان والجوارح » .

فجعل المؤلف للقلب قولًا وعملًا ، وجعل للسان قولًا وعملًا .

- أما قول اللسان ؛ فالأمر فيه واضح ، وهو النطق ، وأما عمله ؛ فحركاته ، وليست هي النطق ، بل النطق ناشئ عنها إن سلمت من الخرس .

- وأما قول القلب ؛ فهو اعترافه وتصديقه . وأما عمله ؛ فهو عبارة عن تحركه وإرادته ؛ مثل الإخلاص في العمل ؛ فهذا عمل القلب ، وكذلك التوكل والرجاء والخوف ؛ فالعمل ليس مجرد الطمأنينة في القلب ، بل هناك حركة في القلب .

- وأما عمل الجوارح ؛ فواضح ؛ ركوع ، وسجود ، وقيام ، وقعود ، فيكون عمل الجوارح إيمانًا شرعًا ؛ لأن الحامل لهذا العمل هو الإيمان .

فإذا قال قائل : أين الدليل على أن الإيمان يشمل هذه الأشياء ؟

قلنا : قال النبي ﷺ : « الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره »[1] ؛ فهذا قول القلب . أما عمل القلب واللسان والجوارح ؛ فدليله قول النبي ﷺ : « الإيمان بضع وسبعون شعبة : أعلاها : قول : لا إله إلا الله ، وأدناها : إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان »[2] ؛ فهذا قول اللسان وعمله وعمل الجوارح ، والحياء عمل قلبي ، وهو انكسار يصيب الإنسان ويعتريه عند وجود ما يستلزم الحياء .

فتبين بهذا أن الإيمان يشمل هذه الأشياء كلها شرعًا .

ويدل لذلك أيضًا قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة : ١٤٣] ؛ قال المفسرون : أي : صلاتكم إلى بيت المقدس ؛ فسمى الله تعالى الصلاة إيمانًا ؛ مع أنها عمل جوارح وعمل قلب وقول لسان .

هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة .

وشموله لهذه الأشياء الأربعة لا يعني أنه لا يتم إلا بها ، بل قد يكون الإنسان مؤمنًا مع تخلف بعض الأعمال ، لكنه ينقص إيمانه بقدر ما نقص من عمله .

---

(١) أخرجه مسلم (٨) .

(٢) أخرجه مسلم (٣٥) .

وخالف أهل السنة فى هذا طائفتان بدعيتان متطرفتان :

الطائفة الأولى : المرجئة : يقولون : إن الإيمان هو الإقرار بالقلب ، وما عدا ذلك ؛ فليس من الإيمان . ولهذا كان الإيمان لا يزيد ولا ينقص عندهم ؛ لأنه إقرار القلب ، والناس فيه سواء ؛ فالإنسان الذى يعبد اللّٰه آناء الليل والنهار كالذى يعصى اللّٰه آناء الليل والنهار عندهم ، ما دامت معصيته لا تخرجه من الدين !!

فلو وجدنا رجلًا يزنى ويسرق ويشرب الخمر ويعتدى على الناس ، ورجلًا آخر متقيًا للّٰه بعيدًا عن هذه الأشياء كلها ؛ لكانا عند المرجئة فى الإيمان والرجاء سواء ؛ كل منهما لا يعذب ؛ لأن الأعمال غير داخلة فى مسمى الإيمان .

الطائفة الثانية : الخوارج والمعتزلة ؛ قالوا : إن الأعمال داخلة فى مسمى الإيمان ، وأنها شرط فى بقائه ، فمن فعل معصية من الكبائر خرج من الإيمان . لكن الخوارج يقولون : إنه كافر ، والمعتزلة يقولون : هو فى منزلة بين منزلتين ؛ فلا نقول : مؤمن ، ولا نقول : كافر ، بل نقول : خرج من الإيمان ، ولم يدخل فى الكفر ، وصار فى منزلة بين منزلتين .

هذه أقوال الناس فى الإيمان .

قوله : « وأن الإيمانَ يزيدُ بالطاعةِ وينقص بالمعصيةِ » :

هذا معطوف على قوله : « أن الدين . . . » إلخ ؛ أى : أن من أصول أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص .

ويستدلون لذلك بأدلة من الكتاب والسنة :

- فمن الكتاب : قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة : ١٢٤] ، وقوله تعالى : ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر : ٣١] ، وهذا صريح فى ثبوت الزيادة .

- وأما النقص ؛ فقد ثبت فى « الصحيحين »[(١)] أن النبى ﷺ وعظ النساء وقال لهن : « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن » ؛ فأثبت نقص الدين .

ثم لو فرض أنه لم يوجد نصٌّ فى ثبوت النقص ؛ فإن إثبات الزيادة مستلزم للنقص ؛ فنقول : كل نص يدل على زيادة الإيمان ؛ فإنه متضمن للدلالة على نقصه .

وأسباب زيادة الإيمان أربعة :

الأول : معرفة اللّٰه تعالى بأسمائه وصفاته ؛ فإنه كلما ازداد الإنسان معرفة باللّٰه وأسمائه وصفاته ؛ ازداد إيمانه .

---

(١) أخرجه البخارى (٣٠٤) ، ومسلم (٨٠) .

الثاني : النظر فى آيات الله الكونية والشرعية :

قال الله تعالى : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية : ١٧ - ٢٠] .

وقال تعالى : ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس : ١٠١] .

وكلما ازداد الإنسان علمًا بما أودع الله تعالى فى الكون من عجائب المخلوقات ومن الحكم البالغات ؛ ازداد إيمانًا بالله ﷻ ، وكذلك النظر فى آيات الله الشرعية يزيد الإنسان إيمانًا بالله ﷻ ؛ لأنك إذا نظرت إلى الآيات الشرعية ، وهى الأحكام التى جاءت بها الرسل ؛ وجدت فيها ما يبهر العقول من الحكم البالغة والأسرار العظيمة التى تعرف بها أن هذه الشريعة نزلت من عند الله ، وأنها مبنية على العدل والرحمة ، فتزداد بذلك إيمانًا .

الثالث : كثرة الطاعات وإحسانها ؛ لأن الأعمال داخلة فى الإيمان ، وإذا كانت داخلة فيه ؛ لزم من ذلك أن يزيد بكثرتها .

السبب الرابع : ترك المعصية تقربًا إلى الله ﷻ ؛ فإن الإنسان يزداد بذلك إيمانًا بالله ﷻ .

أسباب نقص الإيمان أربعة :

الأول : الإعراض عن معرفة الله تعالى وأسمائه وصفاته .

الثانى : الإعراض عن النظر فى الآيات الكونية والشرعية ؛ فإن هذا يوجب الغفلة وقسوة القلب .

الثالث : قلة العمل الصالح ، ويدل لذلك قول النبى ﷺ فى النساء : « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن » . قالوا : يا رسول الله ، كيف نقصان دينها ؟ قال : « أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم ؟ » .

الرابع : فعل المعاصى ؛ لقوله تعالى : ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين : ١٤] .

وخالف أهل السنة والجماعة فى القول بالزيادة والنقصان طائفتان : الطائفة الأولى المرجئة ، والطائفة الثانية : الخوارج والمعتزلة .

الطائفة الأولى : المرجئة : قالوا : إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ؛ لأن الأعمال ليست من الإيمان حتى يزيد بزيادتها وينقص بنقصانها ؛ فالإيمان هو إقرار القلب ، والإقرار لا يزيد ولا ينقص .

ونحن نرد عليهم فنقول :

أولًا : إخراجكم الأعمال من الإيمان ليس بصحيح ؛ فإن الأعمال داخلة فى الإيمان ، وقد سبق ذكر الدليل .

ثانيًا : قولكم : إن الإقرار بالقلب لا يختلف زيادة ونقصًا . ليس بصحيح ، بل الإقرار بالقلب

يتفاضل ، فلا يمكن لأحد أن يقول : إن إيمانى كإيمان أبى بكر ! ! بل يتعدى ويقول : إن إيمانى كإيمان الرسول عليه الصلاة والسلام ! !

ثم نقول : إن الإقرار بالقلب يقبل التفاضل ؛ فإقرار القلب بخبر الواحد ليس كإقراره بخبر اثنين ، وإقراره بما سمع ليس كإقراره بما شاهد ، ألم تسمعوا قول إبراهيم : ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة : ٢٦٠] . فهذا دليل على أن الإيمان الكائن فى القلب يقبل الزيادة والنقص .

ولهذا قسم العلماء درجات اليقين ثلاثة أقسام : علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين ؛ قال الله تعالى : ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر : ٥ - ٧] ، وقال تعالى : ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الحاقة : ٥١] .

الطائفة الثانية : المخالفة لأهل السنة طائفة الوعيدية ، وهم الخوارج والمعتزلة ، وسموا وعيدية ؛ لأنهم يقولون بأحكام الوعيد دون أحكام الوعد ؛ أى : يغلبون نصوص الوعيد على نصوص الوعد ، فيخرجون فاعل الكبيرة من الإيمان ، لكن الخوارج يقولون : إنه خارج من الإيمان داخل فى الكفر ، والمعتزلة يقولون : خارج من الإيمان غير داخل فى الكفر ، بل هو فى منزلة بين منزلتين .

ومناقشة هاتين الطائفتين المرجئة والوعيدية فى الكتب المطولات .

قوله : « ويَنْقُصُ بالمعصيةِ وهم مع ذلك ... » : أى : مع قولهم : إن الإيمان قول وعمل .

أهل القبلة هم المسلمون ، وإن كانوا عصاة ؛ لأنهم يستقبلون قبلة واحدة ، وهى الكعبة .

فالمسلم عند أهل السنة والجماعة لا يكفر بمطلق المعاصى والكبائر .

وتأمل قول المؤلف : « بمطلق المعاصي » . ولم يقل : بالمعاصى والكبائر ؛ لأن المعاصى منها ما يكون كفرًا ، وأما مطلق المعصية ؛ فلا يكون كفرًا .

والفرق بين الشىء المطلق ومطلق الشىء : أن الشىء المطلق يعنى الكمال ، ومطلق الشىء ؛ يعنى : أصل الشىء . فالمؤمن الفاعل للكبيرة عنده مطلق الإيمان ؛ فأصل الإيمان موجود عنده ، لكن كماله مفقود . فكلام المؤلف رحمه الله دقيق جدًا .

قوله : (كما يَفْعَلُه الخوارجُ) : يعنى : الذين يقولون : إن فاعل الكبيرة كافر ، ولهذا خرجوا على المسلمين ، واستباحوا دماءهم وأموالهم .

قوله : (بل الأُخُوَّةُ الإيمانيةُ ثابتةٌ مع المعاصِى) : يعنى : أن الأخوة بين المؤمنين ثابتة ولو مع المعصية ؛ فالزانى أخ للعفيف ، والسارق أخ للمسروق منه ، والقاتل أخ للمقتول ، ثم استدل المؤلف لذلك فقال : « كما قال سبحانه فى آية القصاص : ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة : ١٧٨] » .

آية القصاص هي قوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ إلى قوله : ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ الآية ، والمراد بـ : ﴿أَخِيهِ﴾ . هو المقتول .

ووجه الدلالة من هذه الآية على أن فاعل الكبيرة لا يكفر [لأن] الله سمى المقتول أخًا للقاتل ، مع أن قتل المؤمن كبيرة من كبائر الذنوب .

هذا دليل آخر لقول أهل السنة : إن فاعل الكبيرة لا يخرج من الإيمان .

﴿ٱقْتَتَلُوا۟﴾ جمع ، و﴿بَيْنَهُمَا﴾ مثنى ، و﴿طَآئِفَتَانِ﴾ مثنى ؛ فكيف يكون مثنى وجمع مثنى آخر والمرجع واحد ؟ !

نقول : لأن قوله : ﴿طَآئِفَتَانِ﴾ : الطائفة عدد كبير من الناس ، فيصح أن أقول : اقتتلوا ، وشاهد هذا قوله تعالى : ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ﴾ [النساء: ١٠٢] ، ولم يقل : لم تصلِّ . فالطائفة أمة وجماعة ، ولهذا عاد الضمير إليها جمعًا فيكون الضمير في قوله ﴿ٱقْتَتَلُوا۟﴾ عائدًا إلى المعنى ، وفي قوله : ﴿بَيْنَهُمَا﴾ عائدًا إلى اللفظ .

فهاتان الطائفتان من المؤمنين اقتتلوا ، وحمل السلاح بعضهم على بعض ، وقتال المؤمن للمؤمن كفر[1] ، ومع هذا قال الله تعالى بعد أن أمر بالصلح بينهما للطائفة الثالثة التي لم تدخل القتال : ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠] ؛ فجعل الله تعالى الطائفة المصلحة إخوة للطائفتين المقتتلتين .

وعلى هذا ؛ ففي الآية دليل على أن الكبائر لا تخرج من الإيمان .

وعلى هذا ؛ لو مررت بصاحب كبيرة ؛ فإني أسلم عليه ؛ لأن النبي ﷺ ذكر من حقوق المسلم على المسلم : « إذا لقيته ؛ فسلم عليه »[2] ، وهذا الرجل ما زال مسلمًا ، فأسلم عليه ؛ إلا إذا كان في هجره مصلحة ؛ فحينئذ أهجره للمصلحة ؛ كما جرى لكعب بن مالك وصاحبيه الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، فهجرهم المسلمون خمسين ليلة حتى تاب الله عليهم »[3] .

وهل نحبه على سبيل الإطلاق أو نكرهه على سبيل الإطلاق ؟

نقول : لا هذا ولا هذا ؛ نحبه بما معه من الإيمان ، ونكرهه بما معه من المعاصي ، وهذا هو العدل .

« الفاسق » : هو الخارج عن الطاعة .

والفسق - كما أشرنا إليه سابقًا - ينقسم إلى فسق أكبر مخرج عن الإسلام ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨) ، ومسلم (٦٤) .

(٢) أخرجه البخاري (١٢٤٠) ، ومسلم (٢١٦٢) .

(٣) أخرجه البخاري (٤٤١٨) ، ومسلم (٢٧٦٩) .

﴿ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السجدة: ٢٠]، وفسق أصغر ليس مخرجًا عن الإسلام؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ [الحجرات: ٦].

والفاسق الذى لا يخرج من الإسلام هو الفاسق الملِّى، وهو من فعل كبيرة، أو أصر على صغيرة.

ولهذا قال المؤلف: «المِلِّي»؛ يعنى: المنتسب إلى الملة الذى لم يخرج منها.

فأهل السنة والجماعة لا يسلبون الفاسق الملِّى الإسلام بالكلية؛ فلا يمكن أن يقولوا: إن هذا ليس بمسلم، لكن يمكن أن يقولوا: إن هذا ناقص الإسلام أو ناقص الإيمان.

قوله: «ولا يخلدونه فى النار»: معطوف على قوله: «ولا يسلبون»: وعلى هذا يكون قوله: «كما تقول المعتزلة»: عائدًا للأمرين؛ لأن المعتزلة يسلبونه الإسلام ويخلدونه فى النار، وإن كانوا لا يطلقون عليه الكفر.

مراد المؤلف بـ: «المطلق» هنا؛ يعنى: إذا أطلق الإيمان؛ فالوصف يعود إلى الاسم لا إلى الإيمان؛ كما سيتبين من كلام المؤلف رحمه الله؛ فيكون المراد به مطلق الإيمان الشامل للفاسق والعدل.

قوله كما فى قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]؛ فإن المؤمنة هنا يدخل فيه الفاسق.

فلو أن إنسانًا اشترى رقيقًا فاسقًا وأعتقه فى كفارة؛ أجزأه؛ مع أن الله قال: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾؛ فكلمة ﴿مُّؤْمِنَةٌ﴾ تشمل الفاسق وغيره.

قوله: «وقد لا يَدْخُلُ فى اسمِ الإيمانِ المطلَقِ»: أى: فى مطلق اسم الإيمان.

قوله: كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]؛ فـ: ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر؛ يعنى: ما المؤمنون إلا هؤلاء، والمراد بالمؤمنين؛ يعنى: ذوى الإيمان المطلق الكامل.

فلا يدخل فى المؤمنين هنا الفُساق؛ لأن الفاسق لو تلوت عليه آيات الله، ما زادته إيمانًا، ولو ذكرت الله له، لم يَوْجَل قلبه.

فبين المؤلف أن الإيمان قد يراد به مطلق الإيمان، وقد يراد به الإيمان المطلق.

فإذا رأينا رجلًا: إذا ذكر الله، لم يوجل قلبه، وإذا تليت عليه آياته، لم يزدد إيمانًا، فيصح أن نقول: إنه مؤمن، ويصح أن نقول: ليس بمؤمن؛ فنقول: مؤمن؛ أى: معه مطلق الإيمان؛ يعنى: أصله، وليس بمؤمن؛ أى: ليس معه الإيمان الكامل.

هذا مثال ثان للإيمان الذى يراد به الإيمان المطلق؛ أى الكامل.

وقوله: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن»[1]: هنا نفى عنه الإيمان الكامل حين زناه، أما بعد أن

(١) أخرجه البخارى (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧).

يفرغ من الزنى ، فقد يؤمن ، فقد يلحقه الخوف من الله بعد أن يتم الزنى فيتوب ، لكن حين إقدامه على الزنى لو كان عنده إيمان كامل ، ما أقدم عليه ، بل إيمانه ضعيف جدًّا حين أقدم عليه .

وتأمل قوله : « حين يزني » : احترازًا من أنه قبل الزنى وبعده تختلف حاله ؛ لأن الإنسان ما دام لم يفعل الفاحشة ، ولو هم بها ، فهو على أملٍ ألَّا يقدم عليها .

وقوله : « ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » : أى : كامل الإيمان ؛ لأن الإيمان يردعه عن سرقته .

وقوله : « ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » ؛ أى : كامل الإيمان .

« ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم » . « ذات شرف » ؛ أى : ذات قيمة عند الناس ؛ ولهذا يرفعون إليه أبصارهم ، فلا ينتهبها حين ينتهبها وهو مؤمن ؛ أى : كامل الإيمان .

هذه أربعة أشياء : الزنى (وهو الجماع فى فرج حرام) ، والسرقة (وهى أخذ المال المحترم على وجه الخفية من حرز مثله) ، وشرب الخمر (والمراد تناوله بأكل أو شرب ، والخمر كل ما أسكر على وجه اللذة والطرب) ، والنهبة التى لها شرفٌ وقيمة عند الناس (قيل : الانتهاب : أخذ المال على وجه الغنيمة) ؛ لا يفعل هذه الأشياء الأربعة أحد وهو مؤمن بالله حين فعله لها . فالمراد بنفى الإيمان هنا : نفى تمام الإيمان .

هذا بيان للوصف الذى يستحقه الفاسق الملى عند أهل السنة والجماعة .

والفرق بين مطلق الشيء والشيء المطلق : أن الشيء المطلق هو الشيء الكامل ، ومطلق الشيء ؛ يعنى : أصل الشيء ، وإن كان ناقصًا .

فالفاسق الملِّى لا يعطى الاسم المطلق فى الإيمان ، وهو الاسم الكامل ، ولا يسلب مطلق الاسم ؛ فلا نقول : ليس بمؤمن ، بل نقول : مؤمن ناقص الإيمان ، أو : مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته .

هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة ، وهو المذهب العدل الوسط .

وخالفهم فى ذلك طوائف :

- المرجئة ؛ يقولون : مؤمن كامل الإيمان .
- والخوارج ؛ يقولون : كافر .
- والمعتزلة ؛ يقولون : فى منزلة بين منزلتين .

۞ قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك حفظه الله :

قوله : « ومن أصول أهل السنة والجماعة : أن الدين والإيمان قول وعمل ...» :

* عقد الشيخ رحمه الله هذا الفصل ؛ لبيان مذهب أهل السنة في ثلاث مسائل سبقت الإشارة إلى بعضها ، عند الكلام على وسطية أهل السنة والجماعة بين فِرَق الأمة .

المسألة الأولى : ما يتناوله اسم الإيمان ، أي : مسمى الإيمان ما هو ؟

قوله : « أن الدين والإيمان قول وعمل » :

* قول وعمل خلافًا للمرجئة الذين يقولون : إن الإيمان تصديق القلب فقط ، وأما الأعمال فليست من الإيمان ، أو كقول الجهمية : هو المعرفة . والمعنى متقارب .

وخلافًا للكرامية الذين يقولون : الإيمان هو التصديق باللسان ، فمن صدق بلسانه فهو مؤمن ، يعني : في الدنيا ، وإن كان مخلدًا في النار يوم القيامة ، لكنه في الحقيقة ليس بمؤمن ، من صدَّق بلسانه ، وأظهر الإيمان بلسانه فقط فليس بمؤمن في الحقيقة بل هو منافق ، هذا هو اسمه الشرعي ، قال تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة : ٨] .

وخلافًا لمرجئة الفقهاء كالإمام أبي حنيفة ، ومن تبعه من الذين يقولون : الإيمان تصديق القلب وإقرار اللسان .

وأئمة أهل السنة ينكرون كل هذه الأقوال ، ويقولون : إن الإيمان قول وعمل ؛ للأدلة الكثيرة التي دلت على هذا ، فالرسول ﷺ فسر الإيمان في حديث جبريل : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ... »[1] . الحديث بأصوله الستة ، وهي اعتقادية .

وفسر النبي ﷺ الإيمان في حديث وفد عبد القيس بأمور عملية قال لهم : « أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، وأن تعطوا من المغنم الخمس »[2] .

ففسره بأمور عملية بنحو تفسيره للإسلام ، وأبلغ من هذا قوله ﷺ : « الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون - شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان »[3] .

يقول الشيخ : « وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجماعة : أن الدين والإيمان قول وعمل » . ثم يفصل ذلك بقوله : « قول القلب واللسان ، وعمل القلب واللسان والجوارح » : يعني أن الإيمان يشمل هذه الأمور الخمسة :

قول القلب يعني : اعتقاد القلب وهو تصديقه .

وقول اللسان : هو الإقرار ، كما يقر الكافر عند إسلامه ، بقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله .

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) البخاري (٥٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) البخاري (٩) ، مسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وعمل القلب : كمحبة الله تعالى ، ورسوله ﷺ ، وأوليائه ، ومحبة ما يحب ، والخوف من الله ورجائه ، والتوكل عليه .

وعمل اللسان : كالذكر بأنواعه ، وتلاوة القرآن ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وعمل الجوارح : كالصلاة وما فيها من عمل الجوارح ، كالقيام ، والركوع والسجود ، والحج وما فيه من عمل الجوارح ، كالطواف والسعي وسائر المناسك ، فالإيمان يشمل ذلك كله .

« فالإيمان بضع وستون شعبة »[1] . فالصلاة من الإيمان ، والزكاة من الإيمان ، والصيام من الإيمان ، والحج من الإيمان .

قوله : « قول القلب واللسان » :

* هذا تفصيل لقول أهل السنة : قول القلب واللسان يعني : اعتقاد القلب ، وإقرار اللسان ، وعمل القلب واللسان والجوارح .

وهذا أتم من قول مَن يقول : إن الإيمان اعتقاد بالجنان ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان ، صحيح أن هذا يرد مذهب المرجئة ، لكن ما ذكره الشيخ من هذه الأمور الخمسة أتم ؛ لأنه يستوعب كل جوانب الإيمان .

وهذا هو الحق الذي لا ريب فيه أن الإيمان قول ، وعمل خلافًا لكل من أخرج الأعمال عن مسمى الإيمان ؛ فالأعمال من الإيمان ، وأدلة ذلك ظاهرة بينة لمن تدبر نصوص الكتاب والسنة .

المسألة الثانية : أن الإيمان يزيد وينقص :

وكثير من المرجئة يقول : إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ؛ لأنه التصديق ، هو شيء واحد لا يزيد ولا ينقص .

وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن الإيمان يزيد وينقص ، وما دخلته الزيادة دخله النقص إذا خلا عن الزيادة قال تعالى : ﴿ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾ [الفتح : ٤] ، ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢] ، ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران : ١٧٣] .

الإيمان يزيد بالطاعة ، فكل من كان أطوع لله كان إيمانه أكمل ، والتصديق بالقلب يقوى ويضعف .

وينقص الإيمان بالمعصية ، وهذا هو المعقول ، أفيكون إيمان التقي المستقيم على أمر الله ظاهرًا وباطنًا كإيمان المنتهك لحرمات الله ؟ ! أفيكون إيمان آحاد المؤمنين كإيمان الكُمَّل من المؤمنين ، كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما فضلًا عمن فوقهم ؟ !

---

(١) تقدم تخريجه .

وكل من أوتي علمًا وبصيرة، وتفقدًا لحاله، فإنه يحس بزيادة الإيمان ونقصه، بقوة الخوف من الله، وقوة التوكل، فالخوف يقوى ويضعف، والتوكل يقوى ويضعف، والرجاء يقوى ويضعف.

هذا في أحوال القلوب فضلًا عن الأعمال الظاهرة.

وكما تقول المرجئة: إن الإيمان واحد، وأهله فيه سواء، كذلك الخوارج والمعتزلة عندهم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، بمعنى: أنه كل لا يتجزأ، فإذا فات منه جزء أو فقد منه جزء زال الكل، كمرتكب الكبيرة يزول إيمانه كله بزوال بعضه بفعل تلك الكبيرة.

وعند أهل السنة لا يزول كل الإيمان بزوال بعضه.

والإيمان شُعَب كما في الحديث لكن منها شعب قد يزول الإيمان بزوالها، وشعب لا يزول الإيمان بزوالها، وإلا لوقع الناس في حرج عظيم.

المسألة الثالثة: حكم مرتكب الكبيرة:

أهل السنة والجماعة لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي، وأهل القبلة هم كل من أظهر الإسلام، ولم يأت ناقضًا من نواقضه، كما في الحديث عن النبي ﷺ: «من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم ...»[1].

فكل الطوائف التي لا يحكم بكفرها، فهي من أهل القبلة، والمنافقون من أهل القبلة في الظاهر، وإلا فهم ليسوا من المؤمنين بل هم مع الكافرين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

فأهل السنة لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي، أي: لا يقولون: يكفر بفعل أي معصية.

فالمعاصي أنواع، معاص توجب الكفر وتنقض الإسلام كالاستهزاء بآيات الله وبرسول الله ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٤، ٦٥].

ومثل سب الإسلام، أو سب الرسول ﷺ هذه ذنوب يخرج بها الإنسان عن الإسلام؛ ولهذا قال الشيخ: «إن أهل السنة لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي». خلافًا للخوارج؛ فإن الخوارج يُكفِّرون بالذنوب، والمعروف أنهم يكفرون مرتكب الكبيرة.

فمن ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب خرج عن الإسلام عندهم، وصار مرتدًا حلال الدم والمال، كالسارق والزاني وشارب الخمر.

---

(١) البخاري (٣٩١) من حديث أنس رضي الله عنه.

أما أهل السنة ، فإنهم لا يكفرون بهذه الذنوب ، بل أخوة الإيمان باقية مع المعصية ، فالقاتل أخ للمقتول ، قال تعالى في آية القصاص : ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ﴾ [البقرة : ١٧٨] يعني : القاتل الذي عفي له ﴿مِنْ أَخِيهِ﴾ [البقرة: ١٧٨] يعني : من دم أخيه المقتول ، فالقاتل والمقتول أخوان في الإسلام ، وإن كان القاتل عاصيًا ظالمًا ، والمقتول مظلومًا .

لكن هذا الذنب لا تزول معه أخوة الإيمان ، ومثل هذا آية الحجرات ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات : ٩] إلى أن قال تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات : ١٠] ، بل إن أهل السنة لا يسلبون العاصي أو الفاسق الملي - الملي : نسبة لملة الإسلام - الإيمان كما تفعل الخوارج ، والمعتزلة .

والخوارج لا يقتصرون على سلبه الإيمان ، بل يسلبونه الإيمان ويكفرونه .

أما المعتزلة فإنهم يسلبونه الإيمان ، وأهل السنة لا يكفرونه ، ولا يسلبون الإيمان ، ولا يخلدونه في النار يوم القيامة ، بل هو يوم القيامة تحت مشيئة اللّٰه إن شاء اللّٰه غفر له وإن شاء عذبه بقدر ذنبه ، ثم يخرجه من النار برحمته سبحانه وتعالى ، وبشفاعة الشافعين من أهل طاعته ، وكل ذلك من فضله وكرمه وإحسانه .

وذكر الشيخ أن الفاسق يدخل في اسم الإيمان في بعض الآيات ، وقد لا يدخل في بعض الآيات ، ففي قوله تعالى : ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء : ٩٢] هذه يدخل فيها الفاسق ؛ فليس من شرط الرقبة التي أمر اللّٰه بتحريرها كمال الإيمان ، بل يجزئ تحرير رقبة إنسان ذكر ، أو أنثى معه أصل الدين ؛ ولهذا قال الرسول ﷺ للجارية التي أراد سيدها أن يعتقها : « أين اللّٰه ؟ قالت في السماء ، قال : من أنا ؟ قالت : رسول اللّٰه . قال : أعتقها فإنها مؤمنة »(١) .

ولا يدخل الفاسق الملي في الإيمان المطلق في مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال : ٢] إلى قوله : ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال : ٤] . فالفاسق الملي لا يدخل فيمن هذه صفاتهم ؛ لأنه ليس مؤمنًا حقًّا ، هو مؤمن في الجملة ، كما لا يدخل في اسم الإيمان في قوله ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن »(٢) . أي الإيمان الكامل الذي يمنع من مقارفة هذه الفواحش .

فالمؤمنون الكُمّل يمنعهم إيمانهم عن اقتراف المعاصي الكبيرة كالزنا ، أو السرقة ، أو الانتهاب ، المسلم الزاني وهو يزني عنده أصل الإيمان لا يزول عنه ؛ لأنه لو زال عنه صار مرتدًا ، لكن يزول عنه الإيمان الكامل الذي يمنع من الإقدام على الفاحشة .

---

(١) تقدم تخرجه .

(٢) تقدم تخرجه .

ومتى يعود له إيمانه ؟ إذا تاب عاد إليه ما كان معه من إيمان .

وذكر الشيخ في ختام هذا الفصل حكم الفاسق - وهو مرتكب الكبيرة العاصي من المسلمين - أن أهل السنة يقولون فيه : « إنه مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن بإيمانه » أي : هو مؤمن بما معه من إيمان « فاسق بكبيرته » أي : هو فاسق باعتبار الكبيرة .

قوله : « فلا يعطى الاسم المطلق » :

* فيقال : هو مؤمن ، أو هذا مؤمن .

« ولا يسلب مطلق الاسم » فيقال : إنه ليس بمؤمن ؛ لأن هذه فيها سلب لمطلق الإسلام ، فلا يعطى الاسم المطلق ، بحيث إنه يوصف بالإيمان الكامل ، فيقال : هذا مؤمن ؛ ولهذا لما قَسَّم الرسول ﷺ قَسْمًا ؛ فقال سعد بن أبي وقاص رضي اللّه عنه : « يا رسول اللّه أعط فلانًا فإنه مؤمن . فقال النبي ﷺ : أو مسلم . أقولها ثلاثًا ويرددها عليَّ ثلاثًا »[1] .

ففرَّق بين الإيمان والإسلام ، الإسلام يقع على سائر المسلمين ، فكل من شهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمدًا رسول اللّه ولم يأت بناقض من نواقض الإسلام فهو مسلم ، فاسم الإسلام يعني أعم وأوسع دائرة ، ولا يكون الإنسان مسلمًا على الحقيقة ، إلا ومعه أصل الإيمان إيمان القلب .

فكل مؤمن مسلم ، وكل محسن مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمنًا الإيمان الكامل .

فهذا تقرير مذهب أهل السنة والجماعة في هذه المسائل الثلاث : في مسمى الإيمان ، وما يتناوله هذا الاسم ، وفي زيادة الإيمان ونقصانه ، وفي حكم مرتكب الكبيرة ، أو الفاسق الملي ، يعني : بأي التعبيرين .

وقد أشار إلى مذهب أهل السنة والجماعة في ذلك ، ومذهب الخوارج ، ومذهب المعتزلة ، فأهل السنة والجماعة يخالفون هذه الطوائف فيما ابتدعوه من الأسماء والأحكام ، فمرتكب الكبيرة حكمه في الدنيا مثلًا أنه مؤمن ناقص الإيمان ليس بكافر ، ولم يخرج عن الإيمان مطلقًا ، وفي الآخرة تحت مشيئة اللّه .

وهذا هو موجب عدل الرب سبحانه وتعالى فلا يُسَوِّي بين مَن آمن به وبرسله مع ارتكاب بعض الذنوب ، وبين من كفر به وبرسله ، كما لا يسوي بين العاصي الفاسق المجترئ على حرمات اللّه وبين المتقين ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص : ٢٨] .

❁ **قال الشيخ صالح بن فوزان الفوزان حفظه اللّه :**

قوله : (ومن أصول أهل السنة والجماعة) ؛ أى : القواعد التى بنيت عليها عقيدتهم .

---

(١) البخاري (٢٧) ، ومسلم (١٥٠) من حديث بن أبي وقاص رضي الله عنه .

(أن الدين) هو لغةً: الذل والانقياد.

وشرعًا: هوما أمر الله به.

(والإيمان) لغةً: التصديق.

وشرعًا هو ما ذكره الشيخ بقوله: (قول وعمل، قول القلب واللسان والجوارح). هذا هو تعريف الإيمان عند أهل السنة والجماعة: أنه قول وعمل.

فالقول قسمان: قول القلب، وهوالاعتقاد، وقول اللسان وهو التكلم بكلمة الإسلام.

والعمل قسمان: عمل القلب وهو نية وإخلاص، وعمل الجوارح؛ أى: الأعضاء، كالصلاة والحج والجهاد.

والفرق بين أقوال القلب وأعماله: أن أقواله هى العقائد التى يعترف بها، ويعتقدها.

وأما أعمال القلب فهى حركته التى يحبها الله ورسوله، وهى محبة الخير، وإرادته الجازمة، وكراهية الشر، والعزم على تركه.

وأعمال القلب تنشأ عنها أعمال الجوارح، وأقوال اللسان، ومن ثم صارت أقوال اللسان وأعمال الجوارح من الإيمان.

أقوال الناس فى تعريف الإيمان:

١- عند أهل السنة والجماعة: أنه اعتقاد بالقلب، ونطق باللسان، وعمل بالأركان.

٢- عند المرجئة: أنه اعتقاد بالقلب، ونطق باللسان فقط.

٣- عند الكرامية: أنه نطق باللسان فقط.

٤- عند الجبرية: أنه الاعتراف بالقلب، أو مجرد المعرفة فى القلب.

٥- عند المعتزلة: أنه اعتقاد القلب، ونطق اللسان، وعمل الجوارح.

والفرق بينهم؛ أى: بين المعتزلة وبين أهل السنة: أن مرتكب الكبيرة يسلب اسم الإيمان بالكلية: ويخلد فى النار عندهم، وعند أهل السنة لا يسلب الإيمان بالكلية، بل هو مؤمن، ناقص الإيمان، ولا يخلد فى النار إذا دخلها.

وكل هذه أقوال باطلة، والحق ما قاله أهل السنة والجماعة لأدلةٍ كثيرةٍ.

وقوله: (وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية) أى: ومن أصول أهل السنة والجماعة أن الإيمان يتفاضل بالزيادة والنقصان، فتزيده الطاعة، وينقص بالمعصية.

ويدل على ذلك أدلة كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، وقوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] وغير ذلك من الأدلة.

وقوله : (وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصى والكبائر ، كما يفعله الخوارج) ؛ أى : وأهل السنة والجماعة - مع أنهم يرون أن الأعمال داخلة فى مسمى الإيمان ، وأنه يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية - هم مع ذلك لا يحكمون بالكفر على من يدعى الإسلام ، ويستقبل الكعبة ، بمطلق ارتكابه المعاصى ، التى هى دون الشرك والكفر .

(كما يفعله الخوارج) حيث قالوا : من فعل كبيرةً فهو فى الدنيا كافر ، وفى الآخرة مخلد فى النار ، لا يخرج منها .

فأهل السنة يرون (أن الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصى) فالعاصى أخ لنا فى الإيمان .

واستدل الشيخ على ذلك بقوله تعالى فى آية القصاص : ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ المعنى : أن الجانى إذا عفا عنه المجنى عليه ، أو وليه ، عن القصاص ، ورضى بأخذ المال فى الدية ، فعلى مستحق المال أن يطلبه بالمعروف ، من غير عنفٍ .

وعلى من عليه المال أن يؤديه إليه من غير مماطلةٍ .

ووجه الاستدلال من الآية :

أنه سمى القاتل أخًا للمقتول ، مع أن القتل كبيرة من كبائر الذنوب ، ومع هذا لم تزل معه الأخوة الإيمانية .

واستدل الشيخ بقوله تعالى : ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ الآيتين ، ووجه الاستدلال من الآيتين الكريمتين أنه سماهم مؤمنين مع وجود الاقتتال والبغى بينهم ، وسماهم إخوةً للمؤمنين بقوله : ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ .

ومعنى الآية إجمالًا : أنه إذا تقاتل فريقان من المسلمين ، فعلى المسلمين أن يسعوا فى الصلح بينهم ، ويدعوهم إلى حكم اللّٰه .

فإن حصل بعد ذلك التعدى من إحدى الطائفتين على الأخرى ، ولم تقبل الصلح كان على المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية حتى ترجع إلى أمر اللّٰه وحكمه .

فإن رجعت تلك الطائفة عن بغيها ، وأجابت الدعوة إلى كتاب اللّٰه وحكمه فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين فى الحكم ، ويتحروا الصواب المطابق لحكم اللّٰه ، ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة ، حتى تخرج من الظلم ، وتؤدى ما يجب عليها للأخرى .

ثم أمر اللّٰه سبحانه المسلمين أن يعدلوا فى كل أمورهم بعد أمرهم بهذا العدل الخاص بالطائفتين المقتتلتين ، فقال : ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ ؛ أى : اعدلوا ، إن اللّٰه يحب العادلين .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ . جملة مستأنفة مقررة لما قبلها من الأمر بالإصلاح ، والمعنى : أنهم يرجعون إلى أمرٍ واحدٍ ، هو الإيمان ، فهم إخوة فى الدين ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾

يعنى : كل مسلمين تخاصما وتقاتلا ، وتخصيص الاثنين بالذكر لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوقهما بطريق الأولى .

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى كل أموركم ، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بسبب التقوى .

وقوله : (ولا يسلبون الفاسق الملى الإسلام بالكلية ، ولا يخلدونه فى النار ، كما تقوله المعتزلة) ؛ أى : ومن أصول أهل السنة والجماعة أنهم (لا يسلبون) ؛ أى : لا ينفون عن(الفاسق) الفسق : هو الخروج عن طاعة الله ، والمراد بالفاسق هنا الذى الذى يرتكب بعض الكبائر ؛ كشرب الخمر ، والزنى ، والسرقة ، مع اعتقاد حرمة ذلك .

(الملى) ؛ أى : الذى على ملة الإسلام ، ولم يرتكب من الذنوب ما يوجب كفره ، فأهل السنة والجماعة لا يسلبونه الإسلام بالكلية ، فيحكموا عليه بالكفر ، كما تقوله الخوارج فى الدنيا .

(ولا يخلدونه فى النار) ؛ أى : يحكمون عليه بالخلود فى النار فى الآخرة ، وعدم خروجه منها ، إذا دخلها .

(كما تقوله المعتزلة) والخوارج ، فالمعتزلة يرون أن الفاسق لا يسمى مسلمًا ، ولا كافرًا ، بل هو عندهم بالمنزلة بين المنزلتين ، هذا حكمه عندهم فى الدنيا .

وأما حكمه عندهم فى الآخرة فهو مخلد فى النار ، والأدلة على بطلان هذا المذهب كثيرة ، وقد مر بعضها ، وسيأتى ذكر بقيتها .

ثم بين الشيخ رحمه الله الحكم الصحيح الذى ينطبق على الفاسق الملى ، مؤيدًا بأدلته من الكتاب والسنة ، فقال : (بل الفاسق يدخل فى اسم الإيمان المطلق) ؛ أى : مطلق الإيمان الذى يدخل فيه الإيمان الكامل ، والإيمان الناقص ، كما فى قوله : ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ . فإن من أعتق رقبةً مؤمنةً ، وإن كان المعتق فاسقًا – فيما يشترط فيه إيمان الرقبة المعتقة ؛ ككفارة الظهار والقتل – أجزأه ذلك العتق باتفاق العلماء ؛ لأن ذلك يدخل فى عموم الآية ، وإن لم يكن المعتق من أهل الإيمان الكامل .

وقوله : (وقد لا يدخل) ؛ أى : الفاسق الملى

(فى اسم الإيمان المطلق) ؛ أى : إذا أريد بالإيمان الإيمان الكامل ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية ؛ لأن المراد بالإيمان المذكور فى الآية الكريمة الإيمان الكامل ، فلا يدخل فيه الفاسق ؛ لأن إيمانه ناقص .

ولنرجع إلى تفسير الآية الكريمة : (إنما) أداة حصرٍ ، تثبت الحكم للمذكور ، وتنفيه عما سواه .

(المؤمنون) ؛ أى : الإيمان الكامل .

(إذا ذكر الله) ؛ أى : ذكرت عظمته وقدرته ، وما خوف به من عصاه .

(وجلت قلوبهم) ؛ **أى : خافت**

(وإذا تليت عليهم آياته) ؛ **أى : قرئت آياته المنزلة ، أو ذكرت آياته الكونية .**

(زادتهم إيمانا) ؛ **أى : زاد إيمانهم بسبب ذلك .**

(وعلى ربهم يتوكلون) ؛ **أى : يفوضون جميع أمورهم إليه ، لا إلى غيره .**

ثم ذكر الشيخ دليلًا من السنة على أن الفاسق الملى لا يدخل فى اسم الإيمان الكامل ، وهو قوله ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » إلخ ؛ أى كامل الإيمان ، فالمنفى هنا عن الزانى والسارق والشارب هو كمال الإيمان ، لا جميع الإيمان ؛ بدليل الإجماع على توريث الزانى والسارق وشارب الخمر .

فقد دل الحديث على أن هؤلاء حين فعلهم المعصية قد انتفى الإيمان الكامل عنهم ، وقد دلت النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة على أنهم غير مرتدين بذلك ، فعلم أن الإيمان المنفى فى هذا الحديث إنما هو كمال الإيمان الواجب .

وقوله : (ولا ينتهب نهبةً ذات شرفٍ إلخ) **النهبة – بضم النون – هى الشيء المنهوب ، والنهب أخذ المال بالغلبة والقهر .**

(ذات شرفٍ) ؛ **أى : قدرٍ ، وقيل : ذات استشرافٍ ، يستشرف الناس إليها ناظرين إليها ، رافعين أبصارهم .**

ثم إن الشيخ رحمه الله ذكر النتيجة للبحث السابق ، واستخلص الحكم بقوله فى حق الفاسق الملى : (ونقول : هو مؤمن ناقص الإيمان ، أو مؤمن بإيمانه ، فاسق بكبيرته) **وهذا هو الحكم العادل ؛ جمعًا بين النصوص التى نفت الإيمان عنه ، كحديث :** (لا يزنى الزانى حين يزنى ، وهو مؤمن) **والنصوص التى أثبتت الإيمان له ؛ كآية القصاص ، وآية حكم البغاة السابقتين .**

وبناءً على ذلك (فلا يعطى الاسم المطلق) ؛ **أى : اسم الإيمان الكامل .**

(ولا يسلب مطلق الاسم) ؛ **أى : الإيمان الناقص ، فيحكم عليه بالخروج من الإيمان ، كما تقوله المعتزلة والخوارج ، والله أعلم .**

فالإيمان المطلق هو الإيمان الكامل ، ومطلق الإيمان هو الإيمان الناقص .

۞ **قال الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه الله :**

قوله : « ومن أُصولِ الفِرقةِ الناجيةِ : أن الدِّين والإيمانَ قولٌ وعملٌ » :

سبق أن بيّنا أن عقيدة أهل السنة والجماعة – من حيث بيانها وتبويبها – يقسمونها إلى ثلاثة أقسام :

الأول من هذه الأقسام هو الكلام على أركان الإيمان الستة ، وقد بيّن شيخ الإسلام فيما مضى من هذه العقيدة المباركة الكلام على الإيمان بالله ، وذكر ما دخل في تلك الجملة العظيمة من الإيمان بأسمائه

وصفاته والقواعد في ذلك وإثبات الصفات ، وذكر ما خالف فيه المبتدعةُ أهل السنة في ذلك فقرره رحمه الله أحسن تقرير ، ثم ذكر مسائل متصلة ببقية أركان الإيمان . وهذا الفصل معقود لبيان معنى الإيمان أصلًا ، وبِمَ يحصل الإيمان ، ومسألة الحكم على المعين ، ومتى يُسلب الإيمان ، ومتى يُطلق عليه اسم المؤمن أو اسم المسلم ، إلى غير ذلك مما يُسمى مسائل الأسماء والأحكام .

وهذه مسائل من الأمور المهمة ، وهي التي كثر كلام السلف فيها رحمهم اللَّه تعالى ؛ وذلك لأن الخلاف فيه كان متقدمًا ، فأول خلاف جرى في هذه الأمة هو الخلاف في مسائل الإيمان من جهة الأسماء والأحكام ، فحصل خلاف الخوارج ، ثم حصل خلاف المرجئة ، ثم المعتزلة ... إلى آخر ذلك ، فمسألة الإيمان من المسائل المهمة العظيمة ، ولذلك صنف فيها السلف مصنفاتٍ مستقلةً كثيرة ، وفي داخل كتب أهل السنة من الصحاح والمسانيد والسنن وكتب الاعتقاد والشريعة أصول كثيرة مقررة لهذه المسألة .

ولهذا قال شيخ الإسلام هنا : (فَصْلٌ : وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجمَاعَةِ أَنَّ الدِّينَ والإيمانَ قَوْلٌ وعَمَلٌ) ، وهذا أمر مُجمعٌ عليه ، قال البخاري رحمه الله : (طفت الأمصار ، ولقيت أكثر من ألف رجل من أهل العلم كلهم يقول : الإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص) . ويُروى عن البخاري رحمه الله أنه قال : (كتبت عن ألف نفر من العلماء وزيادة ، ولم أكتب إلا عمن قال : الإيمان قول وعمل) ، وهذا القدر مُجمعٌ عليه بين أهل السنة وهو أن الإيمان قول وعمل ، وبعض الأئمة - كأحمد وغيره - يزيد ويقول : (قول وعمل ونية) ، والقول والعمل اثنان ، وقول وعمل ونية ثلاثة ، ولكنها ترجع إلى الاثنين - كما سيأتي - فتعدد عبارات السلف في بيان أركان الإيمان كلها ترجع إلى معنى واحد ، فليس ذلك من الخلاف ؛ كما سيتضح عند بيان كلام الشيخ رحمه الله .

قال : (وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجمَاعَةِ أَنَّ الدِّينَ والإيمانَ قَوْلٌ وعَمَلٌ) ، الدين يشمل ثلاث مراتب : الإسلام ، والإيمان ، والإحسان ، وعطف الإيمان عليه من باب عطف الخاص على العام ؛ وذلك للاهتمام به ، ولأن الكلام كان في الإيمان ، فالإيمان إذن قول وعمل .

ثم فَصَّلَ ذلك فقال : (قَوْلُ القَلْبِ واللِّسانِ) ، والقول يرجع إلى القلب وإلى اللسان ، والقلب له قول واللسان له قول ، أما القلب فقوله اعتقاده ؛ لأنه باستحضار أنه ينطق في قلبه بهذه المعتقدات أو يقولها قلبًا ، واللسان بتكلمه بالشهادتين ، وعمل القلب هو النية ، وعمل اللسان هو ما يجب أن يتكلم به المرء في عباداته بلسانه مثل : الفاتحة ، والأذكار الواجبة .. إلى غير ذلك مما يجب ، والجوارح عملها بما يتصل بعمل اليدين والرجلين وسائر جوارح المكلفين ، هذا من حيث الجملة في صلة هذه الكلمات .

فإذن رجع أن القول والعمل والنية هو القول والعمل ، فإذا قلت : إن الإيمان قول وعمل . عند أهل السنة ، فالعمل هو عمل القلب واللسان والجوارح ، وعمل القلب هو نيته ، فإذن من قال : هو قول وعمل

ونية ، فَصَّلَ العمل فأخرج عمل القلب فنص عليه ، وقال : هو النية . ومعلوم أن عمل القلب أوسع من النية يدخل فيه أنواع عبادات كثيرة كما سيأتي بيانه .

إنما أردت بذلك أن تنوع العبارات في هذا راجع إلى شيء واحد ، وإنما هو تفصيل لبعض المجملات ، فمنهم من فصَّل ، ومنهم من قال : قول وعمل . واكتفى بذلك ، والكل صحيح موافق للأدلة .

هذه مقدمة لبيان تنوع العبارات في الإيمان ، والإيمان من الألفاظ التي لها استعمال في اللغة ، ولها استعمال في الكتاب والسنة .

فالإيمان لغة : مشتق من الأمن ، أَمِنَ يأمن أمانًا ، ومعنى الإيمان في اللغة التصديق والاستجابة ، فالتصديق هو التصديق الجازم ، والاستجابة إذا كان فيما صُدِّق استجابة له بعمل ، بل إن التصديق في الحقيقة في اللغة وفيما جاء في القرآن لا يُطلق إلا على من استجاب ؛ ولهذا فإن بعض أهل العلم يقول : الإيمان في اللغة هو التصديق الجازم . ولا يذكر قيد الاستجابة ؛ وذاك لأن التصديق لا يكون تصديقًا حتى يكون مستجيبًا فيما كان يحتاج إلى الاستجابة في أمور التصديق .

وقد قال ﷻ في قصة إبراهيم مع ابنه إسماعيل : ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ [الصافات : ١٠٣ - ١٠٥] . ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام كان مصدقًا للرؤيا ؛ لأنه هو الذي رآها ، فلم يكن عنده شك من حيث اعتقاد أنه رأى هذا الشيء الذي رآه ، ولكن سمي مصدقًا للرؤية لما استجاب بالفعل ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ .

متى ذلك ؟ ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ فإذن التصديق الجازم في لغة العرب تارة يكون من جهة الاعتقاد ، وتارة يكون من جهة العمل ، فما كان من الأخبار فتصديقه باعتقاده ، وما كان من الأوامر والنواهي - يعني : من الإنشاءات - فتصديقه بامتثاله ، هذا من جهة دلالة اللغة ، وكذلك جاءت في استعمال القرآن .

لهذا نقول : إن الإيمان يقال عنه في اللغة : التصديق الجازم ، وهذا صحيح ، واشتقاقه من الأمن - كما قرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب « الإيمان » وغيره من أهل العلم - والأوضح أن يُقال : الإيمان التصديق والاستجابة . وذلك لأن الإيمان اللغوي يُعدى في القرآن باللام ؛ كما أنه في اللغة أيضًا قد يعدى باللام . قال ﷻ : ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت : ٢٦] ، عُدي الإيمان باللام لأنه هنا تصديق واستجابة ، وقال ﷻ : ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف : ١٧] ، وقال ﷻ : ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان : ٢١] ، يعني : التصديق معه الاستجابة ، فالإيمان في هذه الآيات هو الإيمان اللغوي .

فضابط استعمال الإيمان اللغوي في القرآن أنه يُعدى باللام غالبًا ، وأما إذا عُدي الإيمان في القرآن

بالباء فإنه يُراد به منه الإيمان الشرعي المخصوص ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة : ٢٨٥] ، هذا بالباء ، آمن بكذا ، هذا الإيمان الشرعي ، وقوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [النساء : ١٣٦] ، والآيات في تعدية الإيمان بالباء كثيرة .

لماذا عُدي الإيمان في تلك المواضع باللام ؟ الجواب : لأنه مضمن معنى الاستجابة ، أو لأن معناه التصديق والاستجابة ، والاستجابة في اللغة تُعدى باللام ؛ كما في قوله تعالى : ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القصص : ٥٠] ، وقول القائل : استجاب لفلان . وكذلك قول المصلي : سمع الله لمن حمده . عُدي باللام لأن السماع هنا مضمن معنى الإجابة ، يعني : أجاب لمن حمده . وهذا يوضح أن لفظ الإيمان في اللغة معناه التصديق معه الاستجابة .

فإذن الإيمان في اللغة اعتقاد واستجابة ، وفي الشرع صار الإيمان بأشياء مخصوصة ، اعتقادًا خاصًا واستجابة خاصة ، وزيادة مراتب وشروط وأركان .

إذا تبين ذلك فإن الإيمان الشرعي له صلة بالإيمان اللغوي ، والإيمان اللغوي منه العمل - أي : الاستجابة - أما التصديق فإنه لا يُقال : إنه صَدَّقَ الأمر . حتى يمتثله في اللغة ، يعني : التصديق الجازم .

وأهل السنة والجماعة أخذوا أركان الإيمان بما دلت عليه النصوص ، فقالوا : إن الإيمان قول وعمل واعتقاد ، يزيد وينقص .

وهذه هي الجملة التي ذكرها شيخ الإسلام هنا فقال : (وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجمَاعَةِ أَنَّ الدِّينَ والإيمانَ قَوْلٌ وعَمَلٌ ، قَوْلُ القَلْبِ واللِّسانِ ، وعَمَلُ القَلْبِ واللِّسَانِ والجَوَارِحِ ، وأَنَّ الإيمانَ يَزِيدُ بالطَّاعةِ ، ويَنْقُصُ بالمَعْصِيَةِ) ، فقول القلب واللسان هذا ركن ، أما قول القلب فهو جملة الاعتقادات التي تكون في القلب : الاعتقاد بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والاعتقاد بجميع الأخبار ، والاعتقاد بالتزام جميع الأوامر والتزام جميع النواهي ، ونعني بكلمة التزام أنه يعتقد أنه مخاطب بذلك غير اعتقاد الوجوب ، فقول القلب هو جملة الاعتقادات .

وقول اللسان : هو الذي يُدخل العبد في الإسلام ، وهو أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله .

ثم عمل القلب : أعمال القلب كثيرة متنوعة ، فأول الأعمال وأعظمها النية والإخلاص ، وتأتي النية والإخلاص مترادفين تارة ، ويأتيان أحدهما يفارق الآخر تارة أخرى .

فالنية : تارة تستعمل لتميز العبادة عن غيرها ، وتارة تُستعمل في إخلاص القصد وإخلاص العمل لله ، فإذا قلنا : إن عمل القلب يدخل فيه النية والإخلاص . فنعني بالنية تمييز العبادة عن غيرها حتى يكون المسلم يتعبد وهو يميز هذا العمل من غيره .

والإخلاص : أن يكون قَصَدَ وجه الله ﷻ وحده بإسلامه وبالعمل الذي يعمله باعتقاداته ... إلى آخره . ويدخل في عمل القلب : الصبر والتوكل والإنابة والمحبة والرجاء والخشية والرغب والرهب ... إلى آخر أنواع أعمال القلوب ، وهي واجبات .

وعمل اللسان الواجب يعني : ما كان امتثاله من الأوامر راجعًا إلى اللسان ؛ كمن أُمر بأن يقول كذا في الصلاة ، فقوله لتلك الأشياء في الصلاة هذا من عمل اللسان الواجب ، أو أُمر أن يقول كذا حين يُهل بالحج ، فهذا من عمل اللسان الواجب .

وعمل الجوارح يعني : امتثال الأوامر واجتناب النواهي الراجعة إلى أعمال الجوارح ، يعني : غير اللسان ، والمقصود بعمل الجوارح هنا عند أهل السنة والجماعة ، جنس الأعمال لا كل عمل ، وهي التي تدخل في ركن الإيمان ، فلو تُصُوِّر أن أحدًا لم يعمل عملًا البتة - يعني لم يتمثل أمرًا ولم يجتنب نهيًا - فهذا لم يأت بهذا الركن من أركان الإيمان الذي هو العمل ؛ لأن العمل لابد فيه من القلب واللسان والجوارح جميعًا ، لكن لو تُصور أنه أتى ببعض الطاعات وترك بعضًا ؛ امتثل أمرًا أو أمرين أو ثلاثة أو عشرة ، أو انتهى عن فعل أو فعلين أو ثلاثة مما يدخل في الإيمان ، فهذا قد أتى بهذا الركن عند أهل السنة والجماعة .

وفي مسألة الصلاة : هل هذا العمل هو الصلاة أم غير الصلاة ؟ هذا فيه خلاف بين أهل السنة والجماعة هل العمل المشترط هو الصلاة أم غير الصلاة ، والبحث هنا يكون : هل ترك الصلاة تهاونًا وكسلًا يخرج به من الإيمان أم لا ؟ منهم من قال : يخرج به من الإيمان إلى الكفر . ومنهم من قال : لا يخرج . فمن قال : إنه يخرج من الإيمان بترك الصلاة . فإنه يقول : لو ترك جنس العمل لخرج من الإيمان ، يعني : لو كان لم يعمل خيرًا قط ؛ لم يُصل ، ولم يُزك ، ولم يحج ، ولم يصم ، ولم يَصِل رحمه طاعة لله ، ولم يبر والديه طاعة لله ، ولم يترك الزنى طاعة لله ، يعني : فُرِض أنه لم يوجد شيء البتة ، فهذا خارج من اسم الإيمان ؛ لأنه لم يأت بهذا الركن بالاتفاق .

فإذن أركان الإيمان بصيغة أخرى : قول وعمل واعتقاد ؛ ولهذا فإن العبارة المشهورة عند أهل السنة والجماعة أن الإيمان : (قول اللسان ، واعتقاد الجنان ، وعمل بالجوارح والأركان ، يزيد بطاعة الرحمن ، وينقص بطاعة الشيطان) ، فشمل الإيمان عندهم هذه الخمسة الأشياء ، والعمل ركن من أركان الإيمان ؛ وذلك لأن الله ﷻ سمى الصلاة عملًا ، فقال سبحانه : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة : ١٤٣] . والإيمان هنا كما هو معروف في سبب نزول هذه الآية هو الصلاة ؛ لأنها لما نزلت آيات تحويل القبلة قال بعض الصحابة : ما شأن صلاتنا حين توجهنا إلى بيت المقدس ؟ وقال آخرون : ما شأن الذين ماتوا قبل أن يدركوا القبلة الجديدة ؟ ضاعت أعمالهم ؟ فأنزل الله ﷻ قوله : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ .

وجه الاستدلال: أنه سمى الصلاة إيمانًا، وإطلاق الكل وإرادة الجزء دال على أنه من ماهيته، يعني: ركنًا فيه؛ كما هو مقرر في الأصول.

وبهذه القاعدة استدل أهل العلم على أن القراءة في الصلاة واجبة بقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، والمراد بالقرآن هنا الصلاة، فسمى الصلاة قراءة فأطلق عليها ذلك لأنها جزؤها، فهذا دليل من دلائل الركنية.

فإذن الدليلُ على أنَّ العمل ركن من أركان الإيمان قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾.

ومن الأدلة على ذلك قوله ﷺ لوفد عبد القيس حيث أَمَرَهُم بالإيمانِ باللَّهِ وَحْدَهُ، قالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الإيمانُ باللَّهِ وَحْدَهُ؟» قالوا: اللَّهُ ورَسُولُهُ أَعْلَمُ. قالَ: «شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وأَنَّ مُحَمَّدًا رسُولُ اللهِ، وإِقَامُ الصَّلاةِ، وإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وصِيَامُ رَمَضَانَ، وأَنْ تُعْطُوا مِنَ المَغْنَمِ الخُمُسَ»[1]. وفي بعض الروايات إسقاط الحج، فأدخل أداء الخُمُس، وأدخل الصلاة والزكاة في تفسير الإيمان، والصلاة والزكاة والصيام أركان الإسلام بالاتفاق، لما جعلها تفسيرًا للإيمان دل على أنها ركن له.

ولهذا عند أهل السنة أن الآيات التي عُطِفَ فيها العمل على الإيمان أنه من باب عطف الخاص على العام، قال ﷻ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]، فعطف العمل على الإيمان، وهذا من عطف الخاص على العام، ولا يعني أنه ليس بركن - كما استدل به المرجئة وقالوا: هو خارج عن الماهية - بل هذا من عطف الخاص على العام.

وهل يُعطف الخاص على العام؟ نقول: نعم يُعطفُ الخاص على العام، كما أن العام يعطف على الخاص، قال ﷻ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨]، قال: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾، ثم قال: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾، وجبريل وميكال من الملائكة ومن الرسل أيضًا، يعني: من رسل الملائكة إلى البشر.

نريد من هذا تقرير أدلة أهل السنة والجماعة على مثل هذه المسائل، فالإيمان عندهم هو: قول، وعمل، واعتقاد، يزيد وينقص، أما الزيادة والنقصان فإن أدلتها كثيرة، والأدلة للزيادة هي أدلة النقصان، قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وجه الاستدلال أن في الآية حصرًا، قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فحصر وصف المؤمنين بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾، فدل على أن صفة الإيمان بالحصر يكون فيها الزيادة، وإذا كانت فيها الزيادة فإنها يكون فيها النقصان؛ لأن الاسم ليس شيئًا واحدًا وإنما هو متفاوت، فما كان فيه من زيادة فإنه إذا

(١) أخرجه البخاري (٥٣، ٧٥٥٦)، ومسلم (١٧/٢٣ - ٢٥) من حديث ابن عباس.

ذهبت الزيادة رجع إلى نقص ، قال ﷻ : ﴿ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۗ ﴾ [الفتح : ٤] .

فأهل السنة والجماعة عندهم زيادة الإيمان ثابتة في الأدلة ، وكل دليل فيه زيادة الإيمان فيه حجة على أن نقص الإيمان داخل في المسمى ، يعني : أن الإيمان يزيد وينقص ، فعرّفوا الإيمان بما دلت عليه الأدلة ، فعندهم الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية .

ومن أهل السنة من قال : (هو يزيد ولا ينقص) . وذلك لأن الأدلة دلت على زيادته ولم تدل على نقصانه . وهذا ليس بجيد ؛ لأن الشيء إذا زاد ثم ذهب عنه ما كان سببًا في الزيادة فإنه ينقص ، وما كان قابلًا للزيادة فإنه قابل للنقصان ؛ كما قرره العلماء .

قوله : (وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ القِبْلَةِ بِمُطْلَقِ المَعَاصِي والكَبَائِرِ كمَا يَفْعَلُهُ الخَوَارِجُ ؛ بَلِ الأُخُوَّةُ الإِيمانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ المَعَاصِي ؛ ...) :

قوله : (وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ القِبْلَةِ بِمُطْلَقِ المَعَاصِي والكَبَائِرِ كمَا يَفْعَلُهُ الخَوَارِجُ) ، يعني : مع إقرارهم بأن الإيمان قول وعمل واعتقاد يزيد وينقص ؛ فإنهم لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي : والمراد بأهل القبلة من ثبت إسلامه ، فأهل القبلة اسمٌ يطلق على أهل التوحيد ، وليس المراد به من صلى إلى القبلة وكان مشركًا ، أو كان مرتكبًا لشيء كفري ؛ بل المراد بأهل القبلة هم أهل التوحيد .

وقد جاء في هذا حديث صحيح : « مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا ، واسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا ، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا ، فَذَلِكَ المُسْلِمُ »[1] . واستقبال القبلة أُخِذَ منه أهل القبلة ، وقد جاء هذا التنصيص لفظ (أهل القبلة) في بعض الأحاديث التي في إسنادها مقال .

قال : (هُمْ مَعَ ذَلِكَ لا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ القِبْلَةِ) يعني : من ثبت له الإسلام ، وقوله : (لا يُكَفِّرُونَ) يعني : لا يخرجون من الإيمان ؛ لأن الكفر والإيمان شيئان متضادان ، إذا ثبت اسم الإيمان طَرَدَ الكفر ، وإذا ثبت اسم الكفر طَرَدَ الإيمان ، فوجود أحدهما دال على انتفاء الآخر ، فإذا كان مؤمنًا فإنه ليس بكافر ، وإذا كان كافرًا فإنه ليس بمؤمن .

ولهذا قال : (لا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ القِبْلَةِ) يعني : أهل التوحيد (بِمُطْلَقِ المَعَاصِي) ، فالإيمان عند أهل السنة قول وعمل واعتقاد ، وبالتالي لا يكون التكفير بترك بعض العمل ، فإذا فعل المعصية أو الكبيرة فإنه لم يترك العمل كله ، ولم يرتكب ما يقدح في أصل العمل ، فلهذا لا يَخْرُجُ من الإيمان .

واستعمل شيخ الإسلام في هذا الفصل بعض اصطلاحات الأصوليين ، وهذا الاصطلاح هو التفريق بين مطلق الشيء والشيء المطلق ، فقال هنا : (مُطْلَق المَعَاصِي) يعني : أصل المعصية ، ووجود المعصية ، فمطلق الشيء وجود أدنى درجاته ، أما الشيء المطلق فهو وجود كل درجاته أو وجود كماله .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩١، ٣٩٣) من حديث أنس بن مالك .

فقوله: (لا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ القِبْلَةِ بِمُطْلَقِ المَعَاصِي والكَبَائِرِ) يعني: لا يكفرون بوجود بعض المعاصي والكبائر (كَمَا يَفْعَلُهُ الخَوَارِجُ).

لم لا يكفرون؟ الجواب: لأنه إذا ثبت للعبد اسم الإيمان بحصول القول والعمل والاعتقاد؛ فإنه لا يخرجّ عنه بانتفاء بعض أجزائه، يعني: أن العمل ركن، فلو انتفى بعض العمل لا يكفرونه، والقول ركن، إذا انتفى بعض القول الذي ليس هو شرطًا في الدخول في الإيمان فإنهم لا يكفرونه، وإذا انتفى بعض الاعتقاد فإنهم لا يكفرونه، يعني: لا يكفرونه بمطلق وجود هذا الشيء حتى يوجد اعتقاد خاص يضاد أصل ذلك الاعتقاد، وحتى يوجد عمل خاص يضاد أصل الاعتقاد أو العمل، وحتى يوجد قول خاص يضاد أصل القول.

فإذا ثبت اسم الإيمان بيقين؛ فإن أهل السنة لا يُخْرِجُون أحدا ثبت له اسم الإيمان باليقين إلا بشيء يقيني بمثل الذي أُدخله في الإيمان، فهو قد ثبت له اسم الإسلام والإيمان، فلا يخرجونه عنه بشيء لا ينقض أصل الإيمان؛ ولهذا فإن أهل السنة فيما صنفوا في كتب الفقه يجعلون الردة تحصل بقول وعمل واعتقاد، أما المرجئة الذين منهم الأشاعرة فإنهم يجعلون الإيمان هو الاعتقاد والقول، فلهذا يجعلون الكفر هو مضادة الاعتقاد الذي هو إما الاعتقاد أو التكذيب وحده.

ولهذا تجد أن الذين يُعَرِّفُون الكفر من أهل السنة لهم فيه تعريف، والذين يُعَرِّفُون الكفر من الأشاعرة لهم فيه تعريف، مثل الرازي مثلًا؛ فإنه يُعرف الكفر بالتكذيب، والغزالي يُعرف الكفر بالتكذيب، لماذا؟ لأن أصل الإيمان عندهم هو الاعتقاد؛ لأنهم أشاعرة، والأشاعرة مرجئة.

إذن قول شيخ الإسلام هنا: (وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ القِبْلَةِ بِمُطْلَقِ المَعَاصِي) هذا بالنظر إلى أحد أركان الإيمان وهو العمل؛ وذلك لأن أول شيء وقع في هذه الأمة هو إخراج المسلم من إسلامه بعمل، وهذا الذي حصل من الخوارج؛ فإنهم قالوا: من ارتكب الكبيرة فهو كافر خارج من الإيمان والإسلام. فكَفَّروا كثيرًا من الصحابة والتابعين والعلماء بذلك، نسأل اللَّه العافية والسلامة.

والمرجئة درجات يأتينا تفصيل الكلام عليهم إن شاء اللَّه تعالى.

قوله: (بِمُطْلَقِ المَعَاصِي والكَبَائِرِ)، الكبائر جمع كبيرة، والكبائر لفظ استُعمل في القرآن، قال ﷻ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، وفي السنة أيضًا جاء استعمال لفظ الكبائر، فثبت بيقين أن الذنوب منها كبائر ومنها صغائر.

والكبيرة ضابطها هو: ما كان فيه حدٌّ في الدنيا أو وعيد بالنار في الآخرة. هذا في الإجمال، (حد في الدنيا) المقصود بالحد هنا الحد في اصطلاح الفقهاء ليس الحد في الاستعمال الشرعي؛ لأنه يُستَعْمَل في النصوص لفظ الحد وقد يدخل فيه التعزير، فالمقصود هنا بالحد الحد عند الفقهاء، (أو وعيد في الآخرة)، وزاد شيخ الإسلام ابن تيمية على ذلك: (أو جاء نفي الإيمان أو

اللعن أو الغضب) ، يعني : إذا اقترن بالمعصية نفي لإيمان من فعلها أو لعن من فعلها أو الغضب على من فعلها ؛ فإنها تكون كبيرة من كبائر الذنوب .

وهذا نظمه الناظم بقوله :

فما كان فيه حد في الدُنا أو توعد بأخرى فسمٌ كبرى على نص أحمدِ
وزاد حفيد المجد أو جاء وعيده بنفي لإيمان ولعن لمبعدِ

إذن فالكبيرة هي : ما كان فيه حد في الدنيا ، أو وعيد بالنار في الآخرة ، أو اقترن بالمعصية بنفي لإيمان أو بغضب أو لعنة ، فإذا فعل شيئًا يصدق عليه هذا ؛ فإنه عند أهل السنة لا يخرج من الإيمان ، وعند الخوارج يخرج من الإيمان ويكون كافرًا .

أما الصغائر فهي ما كان دون الكبائر يعني : ما حُرِّمَ ولم يلحقه ذلك الوعيد ، ومعنى حُرِّم : أي معصية جاء النهي عنها ، وكان النهي فيها للتحريم ، ولم يأت فيها ذلك الوعيد الذي نُصَّ عليه في ضابط الكبائر .

ومن أهل العلم من قال : الكبيرة والصغيرة لا تنضبط بهذه الأوصاف ، وإنما ما عَظُمَت مفسدته في الشرع فإنه كبيرة ، وما خفَّتْ مفسدته فإنه صغيرة .

وهذا ليس بجيد ، والأول أظهر .

وكم عدد الكبائر ؟ قيل : هي إلى السبعمائة أقرب ، فهي كثيرة ، وقد قال بعض السلف : (لا كبيرة مع استغفار ، ولا صغيرة مع إصرار) ، وقال بعض أهل العلم : إن الصغيرة قد يقترن بها من الاستخفاف وعدم الخوف وعدم المبالاة ما يلحقها بالكبائر ، وقد يقترن بالكبيرة حين يفعلها صاحب الكبيرة من الوجل والخوف وتعظيم نهي الله ﷻ ما يجعلها ملحقة بالصغائر .

فإذن هذا يدل على أن الصغيرة قد تُلْحَقُ بالكبيرة ، والكبيرة قد تُلْحَقُ بالصغيرة ، لكن ذاك من جهة الضابط العام .

قال : (كَمَا يَفْعَلُهُ الخَوَارِجُ) ؛ لأن الخوارج ابتدعوا هذه المسألة ، وهي : أن فاعل الكبيرة كافر خارج من الملة ، فيُطلقون عليه اسم الكافر في الدنيا ، وفي الآخرة هو مع الكفار مخلد في النار لا تنفعه شفاعة ، ولا يخرج من النار بشفاعة أحد ، هو مع الكفار مثله مثل الكفار .

وأما المعتزلة فإنهم شابهوا الخوارج في حكم مرتكب الكبيرة في الآخرة ، فقالوا : هو من أهل النار خالد مخلد في النار ، لكنه في الدنيا لا يُطلق عليه اسم الإيمان ولا اسم الكفر ؛ بل هو في منزلة بين المنزلتين ليس بمؤمن ولا بكافر ، في شيء بينهما . ما هذا الشيء الذي بينهما ؟ قالوا : ليس له اسم ، إلا أنه في منزلة بين المنزلتين . وهذا أحد أصولهم الخمسة .

ثم قرر شيخ الإسلام بعد ذلك الأدلة على أن قول الخوارج باطل ، وعلى أن قول أهل السنة حق فقال : (بَلِ الأُخُوَّةُ الإيمانِيَّةُ ثابِتَةٌ مَعَ المَعَاصِي ؛ كمَا قالَ سُبْحَانَهُ : ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ

بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة : ١٧٨] ، وقالَ : ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات : ٩، ١٠]) .

فسماهم مؤمنين مع وجود الاقتتال ، والقتال كبيرة من الكبائر ؛ ولهذا فإن أهل العلم يستدلون بهذه الآية على إبطال قول الخوارج ؛ لأن الله ﷻ سماهم مؤمنين مع وجود هذه الكبيرة منهم وهي قتل المسلم ، وسماهم إخوة مع وجود الاقتتال . والأخوة لفظ يدل على الاقتران : هذا أخ لهذا ، أي : مشترك ومقترن به في وصف ، وقد تكون أخوة قبيلة كما قال تعالى : ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف : ٦٥] ، وقال : ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف : ٧٣] ، وقد تكون أخوة أب بعيد ، وقد تكون أخوة أب قريب ، فيقال : هذا أخو فلان ، يعني : هو والثاني يشتركان في أب واحد ، وقد تكون في صفة صالحة أو صفة سيئة ، ومن صفات الصلاح الإيمان ، قال تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات : ١٠] ؛ لأنهم اشتركوا في الإيمان ، فدل على أن هذا الاشتراك في اسم الإيمان بقي مع وجود الاقتتال بينهم ، وفي أخوة الكفر قال ﷻ : ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف : ٢٠٢] .

إذن فيما سبق دلالة على أن لفظ الأخوة هو للاشتراك في الصفة ، فهذا وذاك اشتركا في صفة الاقتتال ، ومع ذلك اشتركا في صفة الإيمان ، فلم يُسلب الإيمان بوجود الاقتتال .

قوله : (ولا يَسْلُبُونَ الفاسِقَ المِلِّيَّ اسْمَ الإيمانِ بالكُلِّيَّةِ ، ولا يُخَلِّدونَهُ في النَّار كَمَا تَقُولُ المُعْتَزِلَةُ . بَلِ الفَاسِقُ يَدْخُلُ في اسْمِ الإيمان المُطْلَقِ ؛...) :

(الْفَاسِقُ) هو من حصل منه الفسق ؛ لأن الفاسق اسم فاعل الفسق ، والفسق في اللغة : الخروج عن الشيء ، فيقال : فسقت المرأة ، إذا خرجت عن طاعة زوجها ، وفسق النوى عن الرطب إذا خرج عنه ، وفسقت النخلة إذا خرجت عن أصلها .

وفي الشرع أُطلق اسم الفاسق على من خرج عن الطاعة ، أي : طاعة الأوامر والنواهي ، هل كل الأوامر والنواهي ؟ الجواب : لا .. ولكن الأوامر التي تَرْكها كبيرة ، والنواهي التي فعلها كبيرة ، فالفاسق هو صاحب الكبيرة .

إذن قوله : (ولَا يَسْلُبُونَ الفَاسِقَ) يعني : فاعل الكبيرة ؛ لأن الفسوق اسم لفعل الكبيرة ، والفاسق هو فاعل الكبيرة ، ومن أهل العلم من يجعل الإصرار على الصغائر من الكبائر ، فإذا كان كذلك يكون المصر على الصغائر عندهم داخلًا في اسم الفاسق ، وهذا هو الفَاسِقُ المِلِّيُّ المنتسب للملة الذي بقي عليه اسم الإسلام مهما كثر فسوقه وكثرت كبائره ؛ فإنه عندهم لا يُسلب عنه الإسلام بالكلية .

قال شيخ الإسلام هنا : (ولا يَسْلُبُونَ الفاسِقَ المِلِّيَّ اسْمَ الإيمانِ بالكُلِّيَّةِ) ، يعني : أهل السنة لا يسلبون الإسلام بالكلية عن الفَاسِقِ المِلِّيِّ ، يعني : مرتكب الكبيرة المنتسب للملة ، (ولا يُخَلِّدونَهُ في

النّار كَمَا تَقُولُ المُعْتَزِلَةُ ، بَلِ الفَاسِقُ يَدْخُلُ في اسْمِ الإيمان المُطْلَقِ) ، فالفاسق بقي عليه اسم الإسلام وبقي عليه اسم الإيمان ، وقد قال النبي ﷺ : « لَا يَزْنِي الزَّاني حِينَ يَزْنِي وهُوَ مُؤْمِنٌ ، ولا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وهوَ مُؤْمِنٌ » . والزنى والسرقة من الكبائر ، فهو حين فعل هذه الكبيرة فليس بمؤمن ، ومعناه أنه يبقى عليه اسم الإسلام ، وحين ينتهي عن هذه الكبيرة يرجع إليه اسم الإيمان .

وقد جاء هذا في حديث صحيح في « السنن » أن النبي ﷺ قال : « إِذَا زَنَى الرَّجُلُ خَرَجَ مِنْهُ الإيمانُ فكانَ علَيْهِ كالظُّلَّةِ ، فَإِذا انْقَطَعَ رَجَعَ إِلَيْهِ الإيمانُ »[1] . وهذا يدل على أن اسم الإسلام يبقى على فاعل الكبيرة وعلى من حصل منه الفسوق ؛ لأنه حين الزنى لا يكون معه من الإيمان بالله واليوم الآخر إلا الحد الأضعف ، حيث أتت الشهوة فأبعدت أو رفعت معظم ذلك الإيمان ، ولم يبق معه إلا ما يصحح به إسلامه ويبقيه في دائرة الإسلام ، فإذا نزع وراجع نفسه ، وعلم أنه عاصٍ ، رجع إليه الإيمان .

وهذا بخلاف القائم على المعصية مديمًا عليها ؛ كالمدمن لشرب الخمر ، والمدمن للزنى ، الذي يرضى بذلك ويسرّه ، فإنّه يسلب عنه اسم الإيمان ، ويبقى عليه اسم الإسلام ، ما لم يستحلّ تلك الأمور فينفى عنه اسم الإسلام أصلًا ؛ لأنه يكون مرتدًا بذلك .

قال : (بَلِ الفَاسِقُ يَدْخُلُ في اسمِ الإيمان ؛ كَمَا في قَوْلِه ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء : ٩٢]) . الرقبة المؤمنة هي التي حصل لها اسم الإيمان والإسلام بالإجماع ، والرقبة : يعني : العبد الذي أسلم ، فيجوز عتقه في هذه الكفارة بالإجماع ولو كان فاسقا ، فقوله : ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ هنا أطلق الإيمان ولم يقيده بقيد الكمال أو قيد أصله ، فدل على أن الإيمان هنا مُطلقٌ من القيد .

وفي هذا المقام إشكال معروف في كلام شيخ الإسلام ، وهو قوله هنا : (يَدْخُلُ في اسْمِ الإيمانِ المُطْلَقِ) ، وقد قررنا فيما سبق أن الإيمان المطلق هو الكامل ، وأن مطلق الإيمان هو أصله ، فكيف يستقيم هذا مع كلام شيخ الإسلام هنا ؟ وقد قال شيخ الإسلام بعد ذلك في آخر الفصل : (فلا يُعْطَى الاسْمَ المُطْلَقَ ، ولا يُسْلَبُ مُطْلَقَ الاسْمِ) ، وهنا قال : (بَلِ الفَاسِقُ يَدْخُلُ في اسْمِ الإيمان المُطْلَقِ) ، فهل بين هذا وذاك تعارض ؟

الجواب : أنه لم يُرِد بقوله : (اسْمِ الإيمَان المطلق) ذاك الاصطلاح الذي ذكرنا والذي استعمله في آخر كلامه في الفصل ، وإنما أراد بقوله : (اسْمِ الإيمَان المطلق) اسم الإيمان الذي لم يُقَيَّدْ حين إطلاقه في هذا المقام ، يعني : اسم الإيمان الكامل ؛ ولهذا قال : (كَمَا في قَوْلِهِ ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾) . وهنا لم تُقيد بقيود .

قال بعدها : (وَقَدْ لا يَدْخُلُ في اسْمِ الإِيمانِ المُطْلَقِ) ، يعني : الذي لم يُقيد (كمَا في قوله : ﴿إِنَّمَا

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٩٠) ، والترمذي عقب (٢٦٢٥) من حديث أبي هريرة . وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٩٢٤) .

ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾) . هنا لم يُقيَّد بالكمال ، فهنا لا يدخل في اسم الإيمان المطلق ، فإذن استعماله في هذا الموضع للإيمان المطلق في قوله : (بَلِ الفَاسِقُ يَدْخُلُ في اسْمِ الإيمان المُطْلَقِ) ، وقوله : (وقَدْ لا يَدْخُلُ في اسْمِ الإيمان المُطْلَقِ) لا يعني بالإيمان المطلق الإيمان الكامل - كما سبق بيانه ، وكما سيأتي في آخر كلامه - إنما يعني به الإيمان الذي لم يُقيَّد بقيد في النص ؛ كما قال تعالى : ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ فلم يُقيد الإيمان هنا بصفات ، وكما في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال : ٢] فهنا لم يُقَيَّدْ أن هؤلاء هم المؤمنون كاملو الإيمان ؛ لذلك لا يدخل في اسم الإيمان المطلق الذي لم يُقَيَّدْ .

ثم ذكر دليل الزيادة والنقصان ، ودليل أن فاعل الكبيرة لا يخرج من اسم الإيمان فقال : (وَقَوْلِهِ ﷺ : « لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وهُوَ مُؤْمِنٌ ، ولا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وهوَ مُؤْمِنٌ ، ولا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ») . وهذه واضحة .

(وقال : « ولا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مؤْمِنٌ ») . (يَنْتَهِبُ نُهْبَةً) يعني : يأخذ شيئًا أمام الناس جهرًا قهرًا ، فيقهر عليه مالِكَهُ وينتهب هذه النهبة والناس ينظرون إليه ، هذا ليس من فعل المؤمن ؛ لأن المؤمن حيي يستحيي فلا يفعل ذلك علانية ، فإذا فعل ذلك علانية دل ذلك على استخفافه بها ، فيرتفع عنه اسم الإيمان حين ينتهبها .

فالنهبة ضابطها أن تكون جهرًا قهرًا ؛ كما قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في شرحه للحديث في « فتح الباري » .

قال : (ونقول : هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الإيمانِ) ، يعني : أن مرتكب الكبيرة عند أهل السنة مؤمن لكن ناقص الإيمان ، (أَوْ مُؤْمِنٌ بِإِيمانِهِ فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ) ، قوله : (مُؤْمِنٌ بإيمانِهِ) يعني : الإيمان الذي ثبت له بدخوله في الإسلام ؛ وذلك أن الإسلام لا يصح إلا بقدر من الإيمان ، بمطلق من الإيمان يُصَحِّحُ الإسلام ، فلا يُتَصَوَّر مسلم ليس بمؤمن البتة ؛ بل كل مسلم معه قدر من الإيمان يصح به إسلامه ، كما أن كل مؤمن لابد له من قدر من الإسلام يُصَحِّحُ به إيمانه ، فالإسلام والإيمان متلازمان ، لكن حين نقول : الإسلام والإيمان ، نعني بالإسلام الأعمال الظاهرة ، وبالإيمان الاعتقادات الباطنة ؛ كما جاء في « المسند » من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « الإيمان في القلب ، والإسلام علانية »[1] .

هذا إذا اجتمعا ، فيكون الإسلام للأعمال الظاهرة ، والإيمان للأعمال الباطنة ، يعني : أعمال القلب ؛ ولهذا نقول : (مُؤْمِنٌ بِإِيمانِهِ فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ) ؛ لأن الكبيرة تجعله فاسقًا ، وقد يكون خرج من اسم الإيمان إلى اسم الإسلام .

---

(١) تقدم تخريجه .

وفاعل الكبيرة على قسمين :

الأول : أن يفعل الكبيرة ويبقى معه اسم الإيمان حين وقوعه فيها ، وبعد فراغه من الكبيرة وتركه لها يُقال : هو مؤمن ، وحين المزاولة لا يقال : هو مؤمن .

الثاني : أنه يفعل الكبيرة ويُسلَب عنه اسم الإيمان أصلًا ، ويقال : هو مسلم .

وثَمَّ فروق بينهما ، ومن الفروق التي ذكرها شيخ الإسلام وغيره : أن من فعل الكبيرة ولم يكن ذلك ديدنًا له ، بأن غلبته نفسه وشهوته فسرق أو زنى ، فهذا يبقى عليه اسم الإيمان إذا ترك ذلك الفعل ، وأما من اجترأ على ذلك وصار ديدنا له ، فصار مدمنًا للزنى ، مدمنًا للخمر ، مدمنًا للسرقة ، مدمنًا للنهب ، فإن هذا لا يُطلق عليه اسم الإيمان بل يقال : هو مسلم .

قال ﷻ : ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات : ١٤] ، هذا في حق من أسلم جديدًا ؛ فإنه دخل في قلبه اسم الإسلام وصار اسم الإسلام منطبقا عليه ، دخل في قلبه الإسلام وعمل بالإسلام لكن لم ينتقل إلى مرتبة الإيمان ، وكذلك من فعل الكبائر واجترأ عليها وصار مدمنًا عليها مستخفًّا لها ؛ فإن هذا يُطلق عليه اسم الإسلام ويسلب اسم الإيمان ، فلا يقال : فلان مؤمن .

فإذن قول شيخ الإسلام هنا : (مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الإيمانِ ، أَوْ مُؤْمِنٌ بِإِيمانِهِ فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ) هذا على اختلاف الأحوال .

وقوله : (فَاسِقٌ) ، الفسق له جهتان :

الأولى : جهة اعتقاد .

الثانية : جهة عمل .

فمن الفساق من هم صالحون عُبّاد من جهة العمل ، لكنهم فَسَقَة من جهة الاعتقاد ؛ ولهذا يقول ابن القيم ﷺ : (الفسق فسقان : فسق من جهة الاعتقاد ، وفسق من جهة العمل) ، أما فسق الاعتقاد فهو اعتقاد البدع ؛ كاعتقادات المعتزلة والخوارج والمرجئة ونحو ذلك ، وفسق العمل بفعل هذه الكبائر ، إذن المبتدع فاسق ، ومرتكب الكبيرة فاسق أيضًا ، وهؤلاء لا يُسلب عنهم اسم الإيمان أو الإسلام ؛ ولهذا نقول مثلًا : الأشاعرة مسلمون مؤمنون ، لا يُسلب عنهم بفسقهم ببدعة الاعتقاد اسم الإيمان والإسلام ، وهكذا من فعل المعاصي من جهة الشهوة .

قال : (فَلَا يُعْطَى الاسْمَ المُطْلَقَ) يعني : اسم الإسلام الكامل أو اسم الإيمان الكامل ، (ولا يُسْلَبُ مُطْلَقَ الاسْمِ) يعني : لا يُسلب مطلق الإيمان ولا مطلق الإسلام ؛ بل نقول : معه أصلٌ من الإسلام وأصلٌ من الإيمان صَحَّ به إسلامه وإيمانه ، لكن ليس بكامل الإيمان وليس بكامل الإسلام .

وهل الإسلام يزيد وينقص ؟

قال شيخ الإسلام وغيره: نعم الإسلام يزيد وينقص مثل الإيمان، لكن العبارة ليست بمشهورة؛ لأنه حين يُقال: الإيمان يزيد وينقص. فإنه يدخل في الإيمان فروع الإسلام؛ كما قال ﷺ: «الإيمانُ بِضْعٌ وسَبْعونَ، أو بِضْعٌ وسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. وأَدْناها إِماطَةُ الأذى عن الطَّرِيقِ، والْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمانِ»[1]. فمثّل لشعب الإيمان الكثيرة بأمرين هما من الأعمال الظاهرة التي هي أعمال الإسلام؛ كقول: لا إله إلا الله، وإماطة الأذى عن الطريق، وهذا بالاتفاق من الإسلام.

فالإسلام في الحقيقة يزيد وينقص، الإسلام الذي هو الاستسلام لله، لكن أهل السنة لا يستعملون هذه العبارة: (الإسلام يزيد وينقص)؛ بل يقولون: (الإيمان يزيد وينقص؛ يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية)، ويدخل في الإيمان هنا الإسلام.

فقد تقرر هنا اعتقاد أهل السنة والجماعة في مسألة الإيمان والكفر، وبيان موقف الخوارج والمعتزلة من الكبائر.

نرجع إلى تلخيص الكلام في هذه المسألة وذلك بأن نقول:

إن الإيمان جَمَعَ ثلاثة أشياء مهمة: القول والاعتقاد والعمل، وأنه يزيد وينقص، وفي كل واحدة من هذه الثلاث - القول والعمل والاعتقاد - خالَفَ فيها من خالَفَ، فَمِن الطوائف المخالفة:

الطائفة الأولى: بعض المنتسبين إلى القبلة الذين خالفوا في العمل، وقالوا: الإيمان قول واعتقاد. وهؤلاء الذين يُسَمَّونَ المرجئة، لأنهم أرجئوا العمل عن مسمى الإيمان، فقالوا: الإيمان قول واعتقاد، وأما العمل فليس من مُسَمَّى الإيمان، وإنما هو لازم له - يعني: لابد أنه يعمل، لكن لو لم يعمل ما خرج عن اسم الإيمان - فجعلوا العمل خارجًا عن اسم الإيمان، فقالوا: الإيمان قول واعتقاد فقط. وهؤلاء هم مرجئة الفقهاء.

ومن الطوائف التي تدخل في ذلك الماتريدية والأشاعرة، فهم يقولون: إن الإيمان قول واعتقاد، فإذا قال العبد: لا إله إلا الله محمد رسول الله. واعتقد الاعتقاد الصحيح - يعني: أركان الإيمان - فإنه مؤمن ولو لم يعمل خيرًا قط، فقالوا: العمل ليس داخلًا في المسمى؛ بل هو خارج عنه.

وهؤلاء يجعلون الكفر هو منافاة القول والاعتقاد، ولا يجعلونه راجعًا إلى العمل، يعني: نقض الإيمان بنقض القول أو بنقض الاعتقاد، فالعمل لَمَّا لم يكن من مُسَمَّى الإيمان فإنه لا يُتصور أن يُنْقَض الإيمان بعمل، لِمَ؟ لأنه ليس داخلًا عندهم في مسماه، فليس ركنًا من أركانه؛ فلذلك لو ترك العمل أو جاء بعمل يقضي على أصل الاستسلام؛ فإنه ليس داخلًا في نواقض الإيمان ولا رافعات الإيمان؛ لأنه غير داخل في الإيمان أصلًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥/٥٨)، والترمذي (٢٦١٤)، وابن ماجه (٥٧)، والنسائي (٥٠٢٠) من حديث أبي هريرة.

الطائفة الثانية : الذين أرجئوا الاعتقاد مع العمل جميعًا ، وقالوا : هو قول فقط . وهؤلاء هم الكَرَّامية ، وإن كان كثيرٌ من أهل العلم لا يُطلق عليهم اسم الإرجاء ، لكنهم في الواقع أرجئوا الاعتقاد والعمل . لِمَ ؟ قالوا : لأن المنافقين اكْتُفِيَ منهم بالقول مع أن اعتقادهم باطل ، وعمل أولئك باطل ، وحصل منهم القول فقط ، ومع ذلك فقد دخلوا في الخطاب بقوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ودخلوا في الخطاب بالإسلام ، فدل ذلك على أنه يُكتفىَ في الإسلام والإيمان بالقول فقط .

الطائفة الثالثة : غلاة المرجئة ، الذين أرجئوا القول والعمل ، وقالوا : الإيمان اعتقاد فقط . يعني : أن القول لا يُحتاج إليه ولا العمل يُحتاج إليه ، وإنما هو اعتقاد الجنان فقط ، وهؤلاء هم الجهمية ومن وافقهم .

وهؤلاء انقسموا : هل الاعتقاد يكون معرفة فقط ، أو اعتقاد بعقد القلب على صحة ذلك الشيء ؟ فغلاة الجهمية يقولون بالمعرفة فقط ، ويتبعهم في ذلك غلاة الصوفية ، يقولون : يبقى اسم الإيمان بالمعرفة ، فيُطْلَقُ على من عرف أنه مؤمن . فإبليس على لازم كلامهم مؤمن ، وفرعون على لازم كلامهم مؤمن ؛ لأنه أتى بالمعرفة ، والذين قالوا : إن الإيمان هو الاعتقاد ولا يُكتفى بالمعرفة فقط قالوا : إن إبليس عنده معرفة ولم يسم مؤمنًا ، وفرعون عنده معرفة ولم يسم مؤمنًا ، فلهذا لا يصح إطلاق المعرفة فقط بل لابد من الاعتقاد ، أما القول والعمل فإنهما لازمان للاعتقاد ، فإنه إذا اعتقد اعتقادًا جازمًا فلابد له أن يقول ، ولابد له أن يعمل ، فصار القول - عندهم - والعمل من لوازم الاعتقاد الصحيح ؛ كما أن المرجئة - يعني مرجئة الفقهاء - قالوا : إن العمل من اللوازم ، هؤلاء قالوا : حتى القول أيضًا من اللوازم لا يدخل في أصل الكلمة . واستدلوا على ذلك بأن أصل الإيمان في اللغة هو التصديق الجازم ، وقالوا : لم يُنقَل في الشرع إلى شيء آخر ، بل هو التصديق الجازم الذي هو الاعتقاد .

فهؤلاء جميعًا خالفوا أهل السنة في هذه المسائل .

ومن المسائل المتصلة بالإيمان أيضًا أن الخلاف في الإيمان مع المرجئة خلاف جوهري وليس خلافًا صُوريًا ، ونقول ذلك لأن صاحب الطحاوية رحمه الله قال : (الإيمان واحد وأهله في أصله سواء ، والتفاضل بينهم بالخشية والتقى ومخالفة الهوى وملازمة الأولى) ، وشارح الطحاوية ابن أبي العز رحمه الله قال : (الاختلاف الذي بين أبي حنيفة والأئمة الباقين من أهل السنة اختلاف صوري ؛ فإن كون أعمال الجوارح لازمة لإيمان القلب أو جزءً من الإيمان مع الاتفاق على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان ، بل هو في مشيئة اللَّه إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه ، نزاع لفظي لا يترتب عليه فساد اعتقاد) .

أولًا : أن الخلاف حقيقي ؛ وذلك أن الأدلة دلت على أن العمل جزء من الإيمان ، وركن من أركان الإيمان ، فإذا أَخرجَ أحد هذا الركن عن حقيقة الإيمان صار مخالفًا في فهم الدليل ، وإذا خالف في فهم

الدليل وترك فهم أهل السنة والجماعة للدليل ؛ فإنه خالف أهل السنة والجماعة في حقيقة تعريف الإيمان .

ثانيًا : أنه لو تُصُوِّرَ أن أحدًا أتى بالقول والاعتقاد ولم يعمل شيئًا البتة - لا صلاة ولا زكاة ، ولم يعمل خيرًا البتة - فهل هذا ينجو أم لا ينجو ؟ عندهم ينجو ؛ لأنه مؤمن ، وعند أهل السنة والجماعة هو كافر مخلد في النار .

ثالثًا : أن نفي دخول العمل في مسمى الإيمان قد يلزم منه ألا يُجْعَل الخروج من الإيمان بعمل ، وأهل السنة أخرجوا من الإيمان بعمل ؛ بل إن الحنفية الذين قالوا : إن الإيمان قول واعتقاد . ولم يجعلوا العمل من مسميات الإيمان ، كفَّروا وأخرجوا من الإيمان بأشياء يسيرة من العمل ، فجعلوا من قال : مسيجد ومصيحف .. ونحو ذلك . جعلوا هذا كفرًا ، وهذا من جهة الأقوال ، وجعلوا من عمل عملًا كُفريًّا مثل إلقاء المصحف في قاذورة أو السجود لصنم ، جعلوه أيضًا كفرًا مخرجا من الملة ، الجهة عندهم أنهم كفَّروه بالعمل لمناقضته لأصل الاعتقاد .

ونقول : قد يلزم من جعل عدم العمل من الإيمان ، ألا يُجعل الخروج من الإيمان بعمل ، فالخلاف فيه ليس صوريًّا مع أهل السنة ؛ لأنه قد يلزم من الخلاف التكفير ، وهذا قد حصل فعلًا .

ولهذا نقول : إن الخلاف الذي ذكره صاحب « شرح الطحاوية » من أنه صوري وليس بحقيقي ، أن هذا ليس صوابًا ، بل الصواب أن الخلاف حقيقي ؛ ولهذا صنف أهل السنة كتب الإيمان ، وجعلوا فيها الأدلة على أن العمل من الإيمان .

ومن أصول أهل الإرجاء أنهم يقولون : لا يضر مع الإيمان ذنب كما أنه لا تنفع مع الكفر طاعة . يعني : أن الإيمان شيء واحد يستوي فيه الناس جميعًا ، فإيمان أبي بكر وعمر وآحاد المؤمنين كله واحد ؛ لأنه هو التصديق الجازم ، والتصديق الجازم اعتقاد ، وهذا لا يقبل المفاضلة ، فالتفاضل جاء بالعمل ، والعمل خارج عن مسمى الإيمان عندهم ؛ فلهذا قالوا : لا يضر مع الإيمان ذنب . فإذا وُجدت الذنوب فإن أصل الإيمان لا يتغير ؛ لأنه عندهم قول واعتقاد .

وهذا يدل على أن الخلاف معهم خلاف حقيقي وليس صوريًّا ؛ لأن مِنْ لوازم إخراج العمل عن مسمى الإيمان أن يُجْعَل الذنبُ غير مؤثر في الإيمان .

❁ ❁ ❁

الأسئلة

❁ قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان رَحِمَهُ اللَّهُ :

☐ الإيمان والدين عند أهل السنة :

س ١: ما الإيمان والدين عند أهل السنة والجماعة ؟

ج- **من أصول أهل السنة والجماعة : أن الدين والإيمان قول وعمل ، قول القلب ، واللسان ، وعمل القلب واللسان والجوارح ، وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية .**

☐ قول القلب :

س٢- ما هو قول القلب وما دليله ؟

ج- **أما قول القلب فمعناه : يكون بتصديقه وإيقانه ، قال تعالى : ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾** [الزمر: ٣٣] ، وقوله : **﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾** [الأنعام: ٧٥] ، وقال : **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾** [الحجرات: ١٥] ، وقال : **﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾** [البقرة: ١٣٦] الآية .

☐ قول اللسان :

س٣- ما هو قول اللسان وما دليله ؟

ج- **هو النطق بالشهادتين : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، والإقرار بلوازمهما ، قال الله تعالى : ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾** [الزخرف: ٨٦] ، وقال : **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾** [الأحقاف: ١٣] ، وقال ﷺ : « **أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله** » ، وقال لسفيان بن عبد الله : « **قل آمنت بالله ثم استقم** » .

☐ عمل القلب :

س٤- ما هو عمل القلب ، وما دليله ؟

ج- النية ، والإخلاص ، والمحبة ، والانقياد ، والإقبال على الله ﷻ ، والتوكل عليه ، والإنابة ، ولوازم ذلك وتوابعه ، قال تعالى : **﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾** [الأنعام: ٥٢] ، وقال : **﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾** [الليل: ١٩، ٢٠] ، وقال : **﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾** [الإنسان: ٩] ، **﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾** [المؤمنون: ٦٠] ، **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾** [البقرة: ١٦٥] ، **﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾** [لقمان: ٢٢] ، وقال النبي ﷺ : « **إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى** » ... **الحديث .**

❑ عمل اللسان :

س٥- ما هو عمل اللسان ؟ وما دليله ؟ وما مثاله ؟

ج- ما لا يؤدى إلا به ؛ كتلاوة القرآن ، وسائر الأذكار من التسبيح والتهليل والتكبير والدعاء والاستغفار وغير ذلك ، قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ [فاطر : ٢٩] ، ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف : ٢٧] ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب : ٤١، ٤٢] ، ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف : ٢٠٥] ، وقال : ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف : ٤٦] ، وهي سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وقال ﷺ : « لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن » .

❑ عمل الجوارح :

س٦- ما المراد بعمل الجوارح ؟ وما دليله ؟ وما مثاله ؟

ج- ما لا يؤدى إلا بها كالقيام ، والركوع ، والسجود ، والمشي في مرضاة الله ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والحج ، والجهاد في سبيل الله ، وأما الدليل فقوله تعالى : ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة : ٥] ، ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة : ٢٣٨] ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج : ٧٧] ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [التوبة : ١١١] الآيتين ، وقال ﷺ « الإيمان بضع وسبعون شعبة ؛ فأعلاه شهادة أن لا إله إلا الله ، وأدناه إماطة الأذى عن الطريق » ، وقال ﷺ : « من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده » . إلى غير ذلك من الأدلة الدالة على مذهب السلف .

س٧- ما الدليل على أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ؟

ج- قوله تعالى : ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال : ٢] . ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة : ١٢٤] ، ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح : ٤] ، وحديث : « الإيمان بضع وسبعون شعبة » ... إلخ ، وقوله ﷺ : « يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وفي قلبه مثقال برة ، أو خردلة ، أو ذرة من إيمان » .

❑ مراتب المؤمنين :

س٨- كم مراتب المؤمنين ؟ وما هي ؟ وما دليلها ؟

ج- ثلاث مراتب : ظالمون لأنفسهم ، وهم الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا .

القسم الثاني : المقتصدون ، وهم الذين اقتصروا على التزام الواجبات ، واجتناب المحرمات ، فلم

يزيدوا على ذلك ، ولم ينقصوا منه .

والقسم الثالث : السابقون بالخيرات ؛ وهم الذين تقربوا إلى الله بالواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات ، قال الله تعالى : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر : ٣٢] .

❑ تعريف أهل القبلة :

س٩- من هم أهل القبلة ؟ وضح ذلك مع ذكر الدليل .

ج- كل من يدعي الإسلام ، ويستقبل القبلة ؛ لقوله ﷺ : « من صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، فهو المسلم له ما لنا وعليه ما علينا » .

س١٠- من هو العاصي ؟ وهل يخرج من الإيمان بمعصيته ؟ وما اسمه عند أهل السنة وعند الخوارج وعند المعتزلة ؟ وما حكمه في الآخرة ؟

ج- كل من ارتكب كبيرة ، أو أصر على صغيرة يسمى عاصيًا وفاسقًا ، وهو كسائر المؤمنين ، لا يخرج من الإيمان بمعصيته ، وحكمه في الدنيا أنه لا يسلب عنه الإيمان بالكلية ، بل يقال : مؤمن ناقص الإيمان ، أو يقال : مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ، أو يقال : مؤمن عاص ، ونحو ذلك ، وليس بكافر خلافًا للخوارج ، ولا في منزلة بين منزلتين خلافًا للمعتزلة .

وحكمه في الآخرة : تحت مشيئة الله إن شاء غفر له ، وأدخله الجنة ، وإن شاء عذبه بقدر ذنبه ، ومصيره إلى الجنة ، وعند الخوارج من أتى كبيرة ، ومات من غير توبة في النار ، وكذلك عند المعتزلة إذا مات من دون توبة .

❑ تعريف الكبيرة :

س١١- ما هي الكبيرة ؟

ج- كل ما فيه حد في الدنيا ، أو وعيد في الآخرة ، أو ترتب عليه لعنة ، أو غضب ، أو نفي إيمان ، قال الناظم :

فما فيه حد في الدنا أو توعد بأخرى ... فسم كبرى على نص أحمد
وزاد حفيد المجد أو جا وعيده ... بنفي لإيمان ولعن لمبعد

س١٢- بم استدل أهل السنة والجماعة على أن المؤمن العاصي لا يخرج من الإيمان ؟ وما وجه الدلالة ؟

ج- بقوله تعالى : ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة : ١٧٨] ، ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ﴾ [الحجرات : ٩] الآيتين ، وقوله : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة : ١] ، وقال ﷺ : « سباب المسلم فسوق ، وقتاله

كفر »؛ ولأنه ﷺ : عامل العصاة معاملة المسلمين ، ولم يأمر بقتلهم ولا أوجب ذلك إلا على الثيب الزاني ؛ كما في الحديث : « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث » ، وعدَّ منها : الثيب الزاني ، وكذا من بدّل دينه يقتل ؛ للحديث : « من بدل دينه ، فاقتلوه » . وكذا النفس بالنفس لحديث ابن مسعود .

س١٣- ما الفرق بين الإيمان المطلق ، ومطلق الإيمان ، وما الدليل على ذلك ؟

ج- الإيمان المطلق هو الذي لا يتقيد بمعصية ، ولا فسوق ، ولا نقصان ، ونحو ذلك ؛ أي : أن الإيمان الكامل ، وهو الذي يأتي صاحبه بالواجبات ويترك المحرمات .

وأما مطلق الإيمان فهو ما كان معه ترك واجب أو فعل محرم ؛ فمن حصل منه فعل معصية ؛ قتل ، أو زنا ، أو لواط ، أو شرب خمر ، وهو موحد فلا يسمى باسم الإيمان المطلق ، ولا يستحق أن يوصف به على الإطلاق ؛ لما في قوله ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » ... الحديث .

من نفي الإيمان الكامل عمن عمل بعض المعاصي ، والدليل على أن المنفي في الحديث الإيمان الكامل ، معاملته ﷺ العصاة معاملة المسلمين ، ولم يوجب قتلهم إلا مثل الثيب الزاني ، ومن بدل دينه .

❁ ❁ ❁

الواجبُ نحوَ أصحابِ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، وذِكْرُ فضائِلَهم

« فصلٌ » :

« ومن أصولِ أهلِ السنةِ والجماعةِ سلامةُ قلوبِهم وألسنتِهم لأصحابِ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، كما وصَفَهم اللَّهُ به في قولِه تعالَى : ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر : ١٠] ، وطاعةُ النبيِّ ﷺ في قولِه : « لا تَسُبُّوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيدِه لو أنَّ أحدَكم أنْفَق مثلَ أُحُدٍ ذهبًا ما بلَغ مُدَّ أحدِهم ، ولا نَصِيفَه ».

فَضْلُ الصَّحابةِ ، وموقفُ أهلِ السنةِ والجماعةِ منه ، وبيانُ تفاضُلِهم :

ويَقْبَلون ما جاء به الكتابُ والسنةُ والإجماعُ مِن فضائِلِهم ومَراتِبِهم ، ويُفَضِّلون مَن أنْفَق مِن قبلِ الفتحِ - وهو صُلْحُ الحُدَيْبِيَةِ وقاتَل ، على مَن أَنْفَق مِن بعدُ ، وقاتَل ، ويُقَدِّمون المهاجرين على الأنصارِ .

ويُؤْمِنون بأنَّ اللَّهَ قال لأهلِ بدرٍ ، وكانوا ثلاثَمائةٍ و بِضْعةَ عشَرَ : « اعْمَلوا ما شِئْتُم فقد غفَرْتُ لكم » .

وبأنه لا يَدْخُلُ النارَ أحدٌ بايَع تحتَ الشجرةِ ، كما أخْبَر به النبيُّ ﷺ ، بل لقد رضِي اللَّهُ عنهم ، ورَضُوا عنه ، وكانوا أكثرَ مِن ألفٍ وأربعِمائةٍ .

ويَشْهَدون بالجنةِ لمن شهِد له رسولُ اللَّهِ ﷺ ، كالعشرةِ، وثابتِ بن قيسِ ابنِ شَمَّاسٍ، وغيرِهم مِن الصحابةِ .

ويُقِرُّون بما تواتَر به النقلُ عن أميرِ المؤمنين عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضِي اللَّهُ عنه، وغيرِه مِن أن خيرَ هذه الأُمَّةِ بعدَ نبيِّها أبو بكرٍ ، ثم عمرُ ، ويُثَلِّثُون بعثمانَ ، ويُرَبِّعون بعليٍّ رضِي اللَّهُ عنهم ، كما دلَّت عليه الآثارُ .

وكما أجْمَع الصحابةُ على تقديمِ عثمانَ في البَيْعةِ ، مع أنَّ بعضَ أهلِ السنةِ كانوا قد اخْتَلَفوا في عثمانَ وعليٍّ رضِي اللَّهُ عنهما ، بعدَ اتفاقِهم على تقديمِ أبي بكرٍ وعمرَ ، أيُّهما أفضلُ ؟ فقدَّم قومٌ عثمانَ ، وسكَتوا ، وربَّعوا بعليٍّ ، وقدَّم قومٌ عليًّا ، وقومٌ توَقَّفوا ، لكن اسْتَقَرَّ أمرُ أهلِ السنةِ على تقديمِ عثمانَ ، ثم عليٍّ .

حكمُ تقديمِ عليٍّ رضِي اللَّهُ عنه على غيرِه مِن الخلفاءِ الأربعةِ في الخلافةِ

وإن كانت هذه المسألةُ - مسألةُ عثمانَ وعليٍّ - ليست من الأصولِ التي يُضَلَّلُ المخالفُ فيها عندَ جمهورِ أهلِ السنةِ ، لكن المسألةُ التي يُضَلَّلُ فيها مسألةُ الخلافةِ ، وذلك أنهم يُؤْمِنون أنَّ الخليفةَ بعدَ رسولِ اللَّهِ ﷺ أبو بكرٍ ، ثم عمرُ ، ثم عثمانُ ، ثم عليٌّ ، ومَن طعَن في خلافةِ أحدٍ من هؤلاء الأئمةِ ، فهو أضلُّ مِن حمارِ أهلِه .

مكانةُ أهلِ بيتِ النبيِّ ﷺ عندَ أهلِ السنةِ والجماعةِ :

ويُحِبُّون آلَ بيتِ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، ويَتَوَلَّوْنَهم ويَحْفَظون فيهم وصيةَ رسولِ اللَّهِ ، حيث قال يومَ غَديرِ خُمٍّ : « أُذَكِّرُكم اللَّهَ في أهلِ بيتي ».

وقال أيضًا للعباسِ عمِّه ، وقد اشْتَكَى إليه أن بعضَ قريشٍ يَجْفُو بني هاشمٍ ، فقال : « والذي نفسي بيدِه ، لا يُؤْمِنون حتى يُحِبُّوكم للَّهِ ولقَرَابَتي » . وقال : « إن اللَّهَ اصْطَفَى بني إسماعيلَ ، واصْطَفَى مِن بني إسماعيلَ كِنانةَ ، واصْطَفَى مِن كِنانةَ قريشًا ، واصْطَفَى مِن قريشٍ بني هاشمٍ ، واصْطَفاني مِن بني هاشمٍ ».

مكانةُ أزواجِ النبيِّ ﷺ عندَ أهلِ السنةِ والجماعةِ :

ويتَوَلَّوْن أزواجَ رسولِ اللَّهِ ﷺ ؛ أمهاتِ المؤمنين ، ويُؤْمِنون بأنَّهن أزواجُه في الآخرةِ ، خصوصًا خديجةَ رضِي اللَّهُ عنها ، أمَّ أكثرِ أولادِه ، وأولَ مَن آمَن به ، وعاضَدَه على أمرِه ، وكان لها منه المنزلةُ العاليةُ ، والصِّدِّيقةَ بنتَ الصِّدِّيقِ رضِي اللَّهُ عنهما ، التي قال فيها النبيُّ ﷺ : « فَضْلُ عائشةَ على النساءِ كفَضْلِ الثَّرِيدِ على سائرِ الطعامِ ».

تَبَرُّؤُ أهلِ السنةِ والجماعةِ مما يقولُه المُبْتَدِعةُ في حقِّ الصحابةِ وأهلِ البيتِ :

ويَتَبَرَّؤُون مِن طريقةِ الروافضِ الذين يَبْغَضون الصحابةَ ، ويَسُبُّونهم ، ومِن طريقةِ النَّواصِبِ الذين يُؤْذُون أهلَ البيتِ بقولٍ أو عملٍ .

ويُمْسِكون عما شَجَر بينَ الصحابةِ ، ويقولون : إن هذه الآثارَ المَرْوِيَّةَ في مسَاوِيهم ، منها ما هو كذبٌ ، ومنها ما قد زِيد فيه ، ونقَص ، وغُيِّر عن وجهِه الصريحِ .

والصحيحُ منه هم فيه مَعْذُورُون ، إمَّا مُجْتَهِدون مُصيبون ، وإما مُجْتهدون مُخْطِئون .

وهم مع ذلك لا يَعْتَقِدون أن كلَّ واحدٍ مِن الصحابةِ معصومٌ عن كبائرِ الإثمِ وصغائرِه، بل تَجوزُ عليهم الذنوبُ في الجملةِ، ولهم في السوابقِ والفَضائلِ ما يُوجِبُ مغفرةَ ما يَصْدُرُ منهم إن صدَر، حتى إنهم يُغْفَرُ لهم مِن السيئاتِ ما لا يُغْفَرُ لمن بعدَهم؛ لأنَّ لهم مِن الحسناتِ التي تَمْحُو السيئاتِ، ما ليس لمن بعدَهم.

وقد ثبَت بقولِ رسولِ اللَّهِ ﷺ أنهم خيرُ القرونِ، وأن المُدَّ مِن أحدِهم إذا تصَدَّق به كان أفْضَلَ مِن جبلِ أُحُدٍ ذهبًا ممَّن بعدَهم، ثم إذا كان قد صدَر مِن أحدِهم ذنبٌ، فيكونُ قد تاب منه، أو أتَى بحسناتٍ تَمْحُوه، أو غُفِر له بفضلِ سابقتِه، أو بشفاعةِ محمدٍ ﷺ، الذي هم أحقُّ الناسِ بشفاعتِه، أو ابْتُلِي ببلاءٍ في الدنيا كُفِّر به عنه.

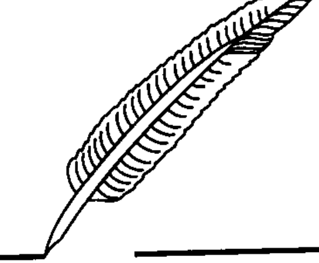
فإذا كان هذا في الذنوبِ المُحَقَّقةِ فكيف بالأمورِ التي كانوا فيها مُجْتَهِدِين، إن أصابوا فلهم أجران، وإن أخْطَأوا فلهم أجرٌ واحدٌ، والخطأُ مغفورٌ لهم.

ثم إن القَدْرَ الذي يُنْكَرُ مِن فعلِ بعضِهم قليلٌ، نَزْرٌ، مَغْفورٌ في جَنْبِ فضائلِ القومِ ومحاسِنِهم مِن الإيمانِ باللَّهِ ورسولِه، والجهادِ في سبيلِه، والهجرةِ، والنُّصْرةِ، والعلمِ النافعِ، والعملِ الصالحِ.

ومَن نَظَر في سِيرةِ القومِ بعلمٍ وبَصِيرةٍ، وما مَنَّ اللَّهُ عليهم به مِن الفضائلِ عَلِم يقينًا أنهم خيرُ الخلقِ بعدَ الأنبياءِ.

لا كان ولا يكونُ مثلُهم، وأنهم الصَّفْوةُ مِن قرونِ هذه الأمةِ، التي هي خيرُ الأممِ، وأكرمُها على اللَّهِ تعالى.





الشــــرح

۞ قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله :

قوله : « كما وصفهم اللَّه به في قوله : ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ » :

* وهذا الدعاء الصادر ممن اتبع المهاجرين والأنصار بإحسان يدل على كمال محبتهم لأصحاب رسول اللَّه وثنائهم عليهم ؛ لأن من دعا في أمر من الأمور فهو ساع في تحقيقه مجتهد في تكميله ، متضرع لربه أن يتم ذلك له ، وأولى من دخل في هذا الدعاء الصحابة الذين سبقوا إلى الإيمان وحققوه ، وحصل لهم من براهينه وطرقه ما لم يحصل لغيرهم .

ونفي الغِل من جميع الوجوه يقتضي تمام المحبة لهم فهم يحبون الصحابة ؛ لفضلهم وسبقهم واختصاصهم بالرسول ، ولإحسانهم إلى جميع الأمة ؛ لأنهم هم المبلِّغون لهم جميع ما جاء به نبيهم ، فما وصل لأحد علم ولا خير إلا على أيديهم وبواسطتهم .

قوله : « وطاعة النبي ﷺ في قوله : « لا تسبوا أصحابي ...» :

* فعلى الأمة أن يطيعوا النبي ﷺ في كل أمر وخصوصًا في هذا الأمر الخاص وأن يُوَقِّروا أصحابه ويحترموهم ، ويعتقدوا أن العمل القليل منهم يَفْضُل العمل الكثير من غيرهم كما في هذا الحديث ، وهذا من أعظم براهين فضلهم على غيرهم .

قوله : « ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع : من فضائلهم ومراتبهم » : فقد ذكر اللَّه ورسوله للصحابة فضائل كثيرة على الأمة ، على الأمة الإيمان بها وأن يدينوا اللَّه بها ، ويحبوا الصحابة لأجلها ، وقيل لصلح الحديبية : فتح ، لما ترتب عليه من المصالح والخير الكثير ودخول الكثير في الإسلام ؛ ولهذا كان من أسلم قبل ذلك وأنفق وقاتل أفضل ممن فعل ذلك بعده لما حصل لهم من السبق في الإسلام وقت ضعف المسلمين ، وكثرة الأعداء ، ووجود الموانع الكثيرة والمصاعب الكثيرة في طريق الإسلام .

قوله : « ويقدمون المهاجرين على الأنصار » :

* قال المصنف : « ويقدمون المهاجرين على الأنصار » ، وهذا لأن المهاجرين جمعوا الوصفين : النصرة والهجرة ، ولهذا كان الخلفاء الراشدين وبقية العشرة من المهاجرين ، وقد قدم اللَّه المهاجرين على الأنصار في سورة « التوبة » و« الحشر » ، وهذا التفضيل للجملة لا لكل فرد من هؤلاء على كل فرد من الأخرى .

قوله « وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة » ؛ أي : في قوله تعالى : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨] وكان عددهم يتراوح ما بين ألف وأربع مائة أو خمس مائة، فأهل بدر وأهل بيعة الرضوان يشهد لهم بالجنة والنجاة من النار على وجه أخص من الشهادة بذلك لجميع الصحابة في قوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠]، كما أنه أخص من هؤلاء الأشخاص الذين شهد لهم ﷺ بالجنة.

ولهذا قال المصنف: «ويشهدون بالجنة لمن شهد له النبي ﷺ، كالعشرة ...» إلخ. وهذا من أعظم الفضائل، تخصيص النبي ﷺ لهم بالشهادة والجنة، وهو من جملة براهين رسالته ﷺ.

فإن جميع من عيَّنه النبي ﷺ بالشهادة له بالجنة ولوازمها لم يزالوا مستقيمين على الإيمان حتى وصلوا إلى ما وعدوا به ﷺ.

قوله: «ويقرون بما تواتر به النقل ...»:

* أي: والخلافة، وخلافة أحد الاثنين لم يكن إلا بعد مشاورة جميع المسلمين على اختلاف طبقاتهم، والقصة مشهورة.

قوله: «وكما أجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة ...»:

* يريد المؤلف رحمه الله أن الخلاف الكائن بين الأمة على وجهين:

أحدهما: الخلاف في الفروع والمسائل الاجتهادية التي إذا اجتهد فيها الحاكم من قاضٍ ومُفتٍ ومصنفٍ ومعلمٍ فله أجران، وإذا اجتهد وأخطأ فله أجر واحد.

الوجه الثاني: الخلاف في المسائل الأصولية؛ كمسائل صفات الباري والقدر، والإيمان ونحوهما، وهذا يضلل فيها المخالف لما دل عليه الكتاب والسنة، ولما كان عليه «السلف الصالح» من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

فمسألة الخلافة وتقديم «علي» فيها على «عثمان» يُعد من البدع التي من اعتقدها فهو في الغالب مُتشيع، وقد أزرى بالمهاجرين والأنصار كما قال ذلك غير واحد من السلف، وأما التفضيل بينهما فإنها مسألة خفيفة من جنس مسائل الخلاف في المسائل الاجتهادية.

قوله: «ويحبون أهل بيت رسول الله ﷺ ويتولونهم»:

* فمحبة أهل بيت النبي ﷺ واجبة من وجوه:

منها: لإسلامهم وفضلهم وسوابقهم.

ومنها: لما تميزوا به من قرب النبي ﷺ واتصال نسبه.

ومنها: لما حث عليه ورغب فيه.

ومنها: ولما في ذلك من علامة محبة الرسول ﷺ.

قوله: «وقال: إن الله اصطفى بني إسماعيل ...»:

* فهو ﷺ خيار من خيار من خيار، وقد جمع اللّه له أنواع الشرف من كل وجه .

قوله : « خصوصًا خديجة رضي الله عنها أم أكثر أولاده ...» :

* فإن جميع أولاده الذكور والإناث منها إلا إبراهيم، فإنه من سريته « مارية القبطية »، و« عائشة » و« خديجة » هما أفضل نساء النبي ﷺ، وقد اختلف العلماء أيهما أفضل .

والتحقيق : أن لكل واحدة منهن من الفضائل والخصائص ما ليس للأخرى ، فلخديجة من السبق ومعاونة النبي ﷺ على أمره في أول الأمر وتثبيته ، وكون أكثر أولاد النبي ﷺ منها ما ليس لعائشة ، ولعائشة من العلم والتعليم ونفع الأمة ما ليس لخديجة رضي الله عنها .

قوله : « ويتبرءون من طريقة الروافض ...» :

* وأول من سَمّي « الرَّوَافِض » بهذا اللقب « زيد بن علي » الذي خرج في أوائل دولة بني العباس وبايعه كثير من « الشيعة »، ولما ناظروه في أبي بكر وعمر وطلبوا منه أن يتبرأ منهما فأبى رحمه الله تفرقوا عنه ، فقال : رفضتموني ، فمِن يومئذ قيل لهم : « الرافضة » . وكانوا فرقًا كثيرة ، منهم الغالية ، ومنهم من هم دون ذلك ، وفرقهم معروفة .

وأما « النواصب » : فهم الذين نصبوا العداوة والأذِيّة لأهل بيت النبي ﷺ، وكان لهم وجود في صدر هذه الأمة لأسباب وأمور سياسية معروفة ، ومن زمن طويل ليس لهم وجود .

قوله : « ويمسكون عما شجر بين الصحابة ...» :

* أي : وهذه الأمور إذا قوبلت بالمساوئ - إن فُرض أن هناك مساوئ- اضمحلت المساوئ معها ، ولا يقاربهم أحد في شيء من ذلك رضي الله عنهم .

قوله : « ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب ...» :

* وهذا كلام نفيس في غاية النفاسة ، ولا زيادة عليه في التحقيق وإقامة البراهين على كمال فضل الصحابة رضي الله عنهم لا يحتاج إلى شرح أو بيان .

۞ قال الشيخ عبد العزيز بن محمد بن مانع رحمه الله :

قوله : « يوم غدير خم » :

* قال الزمخشري : « خُم - بضم الخاء - اسم رجل صباغ ، أضيف إلى الغدير الذي بين مكة والمدينة بالجحفة ، وقيل : هو على ثلاثة أميال من الجحفة ، وذكر صاحب « المشارق » : « أن خمًّا اسم غيضة هناك ، وبها غدير نسب إليها » . اهـ .

و« الغيضة » : الشجر الملتف .

قوله : « ويتبرءون من طريقة الروافض ...» :

* هذا هو الحق الذي يجب المصير إليه ، ولقد ضل كثير من المؤرخين المتنطعين فجعلوا أنفسهم

كأنهم حكام بين أصحاب رسول اللّه ، فصوَّبوا وخطَّئوا بلا دليل ، بل باتباع الهوى وضعف الدين .

ولقد أحسن ابن عدوان النجدي بقوله ، حيث قال :

وتُمسِك عما كان بين صحابه ... وما صحَّ مَعْذُورون فيه فقل قد

فإما لهم أجران أو أجر يا فتى ... فلا تبغ قولًا غير ذلك تهتد

وليسوا بمعصومين فاسمع مقالنا ... ولكن لهم ما يوجب العفو فاهتد

فقد صح عن خير الخلائق أنهم ... لخير القرون افهم بغير تردد

۞ قال الشيخ محمد خليل هراس رَحِمَهُ اللَّهُ :

قوله : « ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحابِ محمدٍ ﷺ ... » :

يقول المؤلف : إن من أصول أهل السنة والجماعة التى فارقوا بها من عداهم من أهل الزيغ والضلال أنهم لا يَزرون بأحد من أصحاب رسول اللّه ﷺ ولا يطعنون عليه ولا يحملون له حقدًا ولا بغضًا ولا احتقارًا ، فقلوبهم وألسنتهم من ذلك كله براء ، ولا يقولون فيهم إلا ما حكاه اللّه عنهم بقوله : ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ الآية [الحشر : ١٠] ، فهذا الدعاء الصادر ممن جاء بعدهم ممن اتبعوهم بإحسان يدل على كمال محبتهم لأصحاب رسول اللّه ﷺ وثنائهم عليهم وهم أهل لذلك الحب والتكريم لفضلهم وسبقهم وعظيم سابقتهم واختصاصهم بالرسول ﷺ ، ولإحسانهم إلى جميع الأمة ؛ لأنهم هم المبلغون لهم جميع ما جاء به نبيهم ، فما وصل لأحد علم ولا خبر إلا بواسطتهم ، وهم يوقرونهم أيضًا طاعة للنبى ﷺ ، حيث نهى عن سبهم والغض منهم ، وبيّن أن العمل القليل من أحد أصحابه ، يفضل العمل الكثير من غيرهم ، وذلك لكمال إخلاصهم وصادق إيمانهم[1] .

وأما قوله : (ويفضلون من أنفق من قبل الفتح - وهو صلح الحديبية - وقاتل ، على من أنفق من بعده وقاتل) : فقد ورد النص القرآنى بذلك ، قال تعالى فى سورة « الحديد » : ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد : ١٠] ، وأما تفسير الفتح بصلح الحديبية فذلك هو المشهور ، وقد صح أن سورة « الفتح » نزلت عقيبه . وسمى هذا الصلح فتحًا لما ترتب عليه من نتائج بعيدة المدى فى عزة الإسلام وقوته وانتشاره ودخول الناس فيه .

وأما قوله : (ويقدمون المهاجرين على الأنصار) : فلأن المهاجرين جمعوا الوصفين النصرة والهجرة ، ولهذا كان الخلفاء الراشدون وبقية العشرة من المهاجرين ، وقد جاء القرآن بتقديم المهاجرين على الأنصار فى سورة « التوبة » و« الحشر » ، وهذا التفضيل إنما هو للجملة على الجملة ، فلا ينافى أن فى الأنصار من هو أفضل من بعض المهاجرين .

---

(١) شرفهم بصحبة النبى ﷺ . « إسماعيل الأنصاري » .

وقد روى عن أبى بكر أنه قال فى خطبته يوم السقيفة : « نحن المهاجرون وأول الناس إسلامًا ، أسلمنا قبلكم وقُدِّمنا فى القرآن عليكم ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء » .

وأما قوله : (ويؤمنون بأن اللّه قال لأهل بدر) إلخ : فقد ورد أن عمر رضي الله عنه لما أراد قتل حاطب بن أبى بلتعة وكان قد شهد بدرًا ، لكتابته كتابًا إلى قريش يخبرهم فيه بمسير الرسول ﷺ ، فقال له الرسول ﷺ : « وما يدريك يا عمر ، لعل اللّه اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

وأما قوله : (وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة) إلخ : فلإخباره ﷺ بذلك ، ولقوله تعالى : ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ الآية [الفتح : ١٨] ، فهذا الرضا مانع من إرادة تعذيبهم ومستلزم لإكرامهم ومثوبتهم .

وأما قوله : (ويشهدون بالجنة لمن شهد له الرسول ﷺ كالعشرة ، وثابت بن قيس بن شماس ، وغيرهم من الصحابة) : أما العشرة فهم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن أبى وقاص ، وسعيد بن زيد ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وأما غيرهم فكثابت بن قيس ، وعكاشة بن محصن ، وعبد اللّه بن سلَام ، وكل من ورد الخبر الصحيح بأنه من أهل الجنة .

وأما قوله : ([ويقرون] بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب وغيره من أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر ، فقد ورد أن عليًا رضي الله عنه قال ذلك على منبر الكوفة وسمعه منه الجم الغفير ، وكان يقول : « ما مات رسول اللّه ﷺ حتى علِمنا أن أفضلنا بعده أبو بكر ، وما مات أبو بكر حتى علمنا أن أفضلنا بعده عمر » .

وأما قوله : (ويثلثون ويربعون بعلى) إلخ : فمذهب جمهور أهل السنة أن ترتيب الخلفاء الراشدين فى الفضل على حسب ترتيبهم فى الخلافة ، وهم لهذا يفضلون عثمان على علىّ محتَّجين بتقديم الصحابة عثمان فى البيعة على علىّ .

وبعض أهل السنة يفضل عليًا ؛ لأنه يرى أن ما ورد من الآثار فى مزايا علىّ ومناقبه أكثر ، وبعضهم يتوقف فى ذلك وعلى كل حال فمسألة التفضيل ليست كما قال المؤلف فى مسائل الأصول التى يضلل فيها المخالف ، وإنما هى مسألة فرعية يتسع لها الخلاف ، وأما مسألة الخلافة فيجب الاعتقاد بأن خلافة عثمان كانت صحيحة ؛ لأنها كانت بمشورة من الستة الذين عينهم عمر رضي الله عنه ليختاروا الخليفة من بعده ، فمن زعم أن خلافة عثمان كانت باطلة وأن عليًا كان أحق بالخلاف منه فهو مبتدع ضال يغلب عليه التشيع مع ما فى قوله من إزراء بالمهاجرين والأنصار .

أهل بيته ﷺ هم من تحرم عليهم الصدقة وهم آل علىّ وآل جعفر وآل عقيل وآل العباس وكلهم من بنى هاشم ويلحق [بهم] بنو المطلب لقوله عليه السلام : « إنهم لم يفارقونا جاهلية ولا إسلامًا » ، فأهل السنة والجماعة يرعون لهم حرمتهم وقرابتهم من رسول اللّه ﷺ كما يحبونهم لإسلامهم وسبقهم

وحسن بلائهم فى نصرة دين الله ﷻ ، وغُديرخُمّ - بضم الخاء - قيل : اسم رجل صباغ أضيف إليه الغدير الذى بين مكة والمدينة بالجحفة . وقيل : خم اسم غيضة هناك نسب إليها الغدير ، والغيضة الشجر الملتف .

وأما قوله عليه السلام لعمه : « والذى نفسى بيده لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرابتي » . فمعناه لا يتم إيمان أحد حتى يحب أهل بيت رسول الله ﷺ لله أولًا ؛ لأنهم من أوليائه وأهل طاعته الذين تجب محبتهم وموالاتهم فيه . وثانيًا : لمكانهم من رسول الله ﷺ واتصال نسبهم به .

أزواجه ﷺ هن من تزوجهن بنكاح ، فأولهن خديجة بنت خويلد ﵂ تزوجها بمكة قبل البعثة وكانت سنه خمسًا وعشرين ، وكانت هى تكبره بخمسة عشرة عامًا ، ولم يتزوج عليها حتى توفيت ، وقد رُزق منها بكل أولاده إلا إبراهيم ، وكانت أول من آمن به وقواه على احتمال أعباء الرسالة ، وقد ماتت قبل الهجرة بثلاث سنين عن خمس وستين سنة ، فتزوج بعدها سودة بنت زمعة ، وعقد على عائشة ﵂ وكانت بنت ست سنين حتى إذا هاجر إلى المدينة بنى بها وهى بنت تسع ، ومن زوجاته أيضًا أم سلمة ﵂ تزوجها بعد زوجها أبى سلمة ، وزينب بنت جحش تزوجها بعد تطليق زيد بن حارثة لها ، أو على الأصح [1] زوجه الله إياها ، وجويرية بنت الحارث ، وصفية بنت حُيَى ، وحفصة بنت عمر ، وزينب بنت خزيمة ، وكلهن أمهات المؤمنين .

يريد أن أهل السنة والجماعة يتبرءون من طريقة الروافض التى هى الغلو فى علىّ وأهل بيته ، وبغض من عداه من كبار الصحابة وسبهم وتكفيرهم ، وأول من سماهم بذلك زيد بن علىّ ﵀ ؛ لأنهم لما طلبوا منه أن يتبرأ من إمامة الشيخين أبى بكر وعمر ليبايعوه ، أبى ذلك ، فتفرقوا عنه ، فقال : رفضتمونى ، فمن يومئذ قيل لهم : رافضة . وهم فرق كثيرة منهم الغالية ومنهم دون ذلك .

ويتبرءون كذلك من طريقة النواصب الذين ناصبوا أهل بيت النبوة العداء لأسباب وأمور سياسية معروفة ولم يعد لهؤلاء وجود الآن .

ويمسك أهل السنة والجماعة عن الخوض فيما وقع من نزاع بين الصحابة ﵃ لا سيما ما وقع بين علىّ وطلحة والزبير بعد مقتل عثمان ، وما وقع بعد ذلك بين علىّ ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم ، ويرون أن الآثار المروية فى مساوئهم أكثرها كذب أو محرف عن وجهه ، وأما الصحيح منها فيعذرونهم فيه ويقولون : إنهم متأولون مجتهدون ، وهم مع ذلك لا يدعون لهم العصمة من كبار الذنوب وصغارها ، ولكن ما لهم من السوابق والفضائل وصحبة رسول الله ﷺ والجهاد معه قد يوجب مغفرة ما يصدر منهم من زلّات ، فهم بشهادة رسول الله ﷺ خير القرون وأفضلها ومُدّ أحدهم أو نصيفه أفضل من جبل أُحدٍ

(١) لا يليق التعبير بعبارة : « أو على الأصح » ، بل الواجب أن يقال : « تزوجها بعد تطليق زيد بن حارثة لها ، زوجه الله إياها » ؛ لأن ذلك هو الموافق لقول الله تعالى : ﴿ زوجناكها ﴾ . « إسماعيل الأنصاري » .

ذهبًا يتصدق به من بعدهم فسيئاتهم مغمورة إلى جانب حسناتهم الكثيرة .

يريد المؤلف رحمه الله أن ينفى عن الصحابة رضي الله عنهم أن يكون أحدهم قد مات مصرًا على ما يوجب سخط الله عليه من الذنوب ، بل إذا كان قد قد صدر الذنب من أحدهم فلا يخلو عن أحد هذه الأمور التى ذكرها ؛ فإما أن يكون قد تاب منه قبل الموت ، أو أتى بحسنات تذهبه وتمحوه ، أو غفر له بفضل سالفته فى الإسلام كما غفر لأهل بدر وأصحاب الشجرة ، أو بشفاعة رسول الله ﷺ وهم أسعد الناس بشفاعته وأحقهم بها ، أو ابتلى ببلاء فى الدنيا فى نفسه أو ماله أو ولده فكفر عنه به . فإذا كان هذا هو ما يجب اعتقاده فيهم بالنسبة إلى ما ارتكبوه من الذنوب المحققة فكيف فى الأمور التى هى موضع اجتهاد والخطأ فيها مغفور ، ثم إذا قيس هذا الذى أخطئوا فيه إلى جنب ما لهم من محاسن وفضائل لم يعد أن يكون قطرة فى بحر ، فالله الذى اختار نبيه ﷺ هو الذى اختار له هؤلاء الأصحاب ، فهم خير الخلق بعد الأنبياء والصفوة المختارة من هذه الأمة التى هى أفضل الأمم .

ومن تأمل كلام المؤلف رحمه الله فى شأن الصحابة عجب أشد العجب مما يرميه به الجهلة المتعصبون وادعائهم عليه أنه يتهجم على أقدارهم ويغض من شأنهم ويخرق إجماعهم . إلى آخر ما قالوه من مزاعم ومفتريات .

۞ قال الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ رحمه الله :

« من أصول أهل السنة والجماعة : سلامة قلوبهم » وطهارتها لأصحاب رسول الله ﷺ ، سلامة قلوبهم من الغل والحقد ، والبغض والعداوة ، واعتقاد السوء في الصحابة .

« وَ » سلامة « أَلْسِنَتِهِمْ لأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ » ، فألسنتهم سالمة من أن تتلوث بالطعن والوقيعة في أعراض أصحاب رسول الله ﷺ ، بل هم أحب طائفة إليهم .

يعني : خلافًا للروافض الذين قلوبهم مفعمة من بغض أصحاب رسول الله ﷺ وعداوتهم ، وألسنتهم مسلقة في سبّ رسول الله ﷺ ، فمن مذهب الروافض : تكفير أصحاب رسول الله ﷺ إلا بضعة عشر .

فمذهبهم في أصحاب رسول الله ﷺ أشنع مذهب وأفظعه ، ولهذا صاروا أشر من اليهود والنصارى في هذا الباب ، فإنهم لو سئلوا : مَنْ شركم ؟ لقالوا : أصحاب محمد ﷺ ، واليهود لو سئلوا : من خيركم ؟ لقالوا : أصحاب موسى . والنصارى لو سئلوا : مَنْ خيركم ؟ لقالوا : أصحاب عيسى .

وذهب بعض أهل العلم إلى تكفير الروافض ، واستدل بقوله تعالى : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ .

هذا التكفير في بدعة التفضيل من دون بدعة التخوين ، وأيضًا هناك شيء آخر وهو عبادة الأوثان - والعياذ بالله - .

« كما وصفهم الله » ؛ يعني : أهل السنة والجماعة بسلامة قلوبهم « في قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ » ؛ يعني : من بعد المهاجرين والأنصار .

فمن بعد البعثة المسلمون على ثلاث طبقات : مهاجرين ، وأنصار ، وتابعين إلى يوم القيامة . فمن صفة الطبقة الثالثة : أنهم (﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾) ، فإن الآية الأولى في المهاجرين ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ ، والآية بعدها في الأنصار ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾ ، فأثنى الله على من جاء بعد المهاجرين والأنصار بقوله : ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ .

فهذا وصف أهل السنة وهذه مقالتهم ، يدعون للصحابة بالمغفرة كما يسألونها لأنفسهم ، فمدحهم الله بهذه المقالة ، وهي باقية في أهل السنّة إلى يوم القيامة ، والرافضة ليسوا كذلك ، بل يقعون فيهم أشد الوقيعة ، بل يكفرونهم إلا النفر القليل .

ولهذا استدل مالك بالآية على منعهم الفيء .

ثم وصفهم بقوله : (﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾) . والغل في قلوب الروافض ، حتى - صاروا في هذا الباب - يظهر منهم عند ذكر الصحابة من الأقوال والأعمال مضحكات من شدة الغيظ في قلوبهم ، وبهذا ينبغي لولاة الأمور ألَّا يجعلوا لهم رفادة ولا شيئًا أبدًا ، اللهم إلا أن يزول رفضهم أولًا بما يُظهِرون أولًا فيُعْطون .

« وطاعة للنبي ﷺ في قوله : « لا تسبوا أصحابي » » والخطاب مع مَنْ ؟ مع خالد بن الوليد رضي الله عنه وأصحابه في قصة بني جذيمة ، لما قتلوا مَنْ قتلوا - ظنًا منهم أنهم لم يسلموا - أنكر عليه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قتلَه لهم ، فسبه خالد ، فقال النبي ﷺ : « لا تسبوا أصحابي » ؛ يعني : عبد الرحمن بن عوف ، مع أن خالدًا وأصحابه من الصحابة ، لكن عبد الرحمن أسبق صحبة ، فما الظن فيمن بعده في الزمن والفضل ؟ !

« فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل » جبل « أحد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أَحَدِهِمْ » من البر ونحو ينفقه ، « وَلا نَصِيفَهُ » » لغة في النصف ؛ وذلك أن تفاوت الأعمال إنما هو بالنسبة إلى ما في القلوب ، لما فيها من صريح الإيمان والصدق ما لا يكون لمن بعدهم .

فلأجل الآية ، ولأجل طاعة النبي ﷺ في هذا الحديث ، الذي فيه أعظم تغاير بين الصحابة ومن بعدهم ، كان مسلك أهل السنة في الصحابة هو ما تقدم .

« ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة » المطهرة « والإجماع من » مناقب الصحابة « و فضائلهم

ومراتبهم » ، وفضائل الصحابة جمة ، جاءت نصوص عامة لجميعهم ، وجاءت نصوص خاصة ، منها ما هو تفضيل لهم عمومًا ، ومنها خصوص طائفة على طائفة بالتفضيل ، مثل المهاجرين فضلوا على الأنصار ، وأهل بدر ، وأهل بيعة الرضوان ، ومنها ما هو تفضيل أشخاص على أشخاص ، وأهل السنة يقبلون ذلك كله ويعرفون لكل واحد من الصحابة فضله .

« ويفضلون » من الصحابة « من أنفق من قبل الفتح - وهو صلح الحديبية » سماه الله فتحًا ، فإن الناس دخلوا في الدين ، وكانوا في غزوة بيعة الرضوان ألفًا وأربعمائة ، وبعدها كانوا نحوًا من عشرة آلاف ، فإن الصحابة لما اجتمعوا بالكفار وبينوا لهم وقاتلوا كانوا أفضل ممن أنفق من بعده وقاتل .

فمن كان قبل صلح الحديبية من الصحابة بادروا ولم يبالوا بكثرة الأعداء ، فأنفقوا وقاتلوا مع الشدة والقلة ، وبذلوا المهج والنفس والنفيس ، ومن بعدهم أنفقوا وقاتلوا ، ولكن مع الكثرة والقوة ، فبهذا كانوا أفضل .

فالأولون في ضيق العيش ، وشدة العدو ، وقلة النصرة .

فهذا جنس المراتب ، فجنس من أنفق من قبل الفتح « وقاتل » ، أفضل وأرفع « على من أنفق من بعده وقاتل » ؛ لقوله تعالى : ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ فهؤلاء أفضل .

ومنهم السابقون ، وإنما كانوا أفضل ؛ لأنهم كانوا سابقين ، ولأنهم اختاروا الإسلام وقت القلة والشدة ، ففرق بين من دخل في حال الضيق والشدة ، ممن قد كثر الناصر والداخل في الدين ، فإن النبي ﷺ حين صالح أهل الحديبية ليئتمن الناس ، فدخل بذلك خلق كثير ، ولهذا كان ما بين صلح الحديبية وبين فتح مكة سنتان ، وفي الحديبية عددهم ألف وزيادة ، وفي فتح مكة عشرة آلاف .

« ويقدمون المهاجرين على الأنصار » أهل السنة يرون أن الكل له فضيلة وخير ، ولكن يرون أن المهاجرين أفضل ؛ لأن الله قدم المهاجرين على الأنصار في مواطن الثناء عليهم في عدة آيات - والله لا يقدم إلا الأفضل - كما في سورة « الحشر » : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هم أهل المدينة ، ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ .

وإنما قدموا المهاجرين ؛ لأجل النصوص ، فالمهاجرون أقدم في الفضيلة لكون الله قدمهم ، فالتقديم يفيد التفضيل ؛ كما تقدم ، والحكمة في ذلك : أنهم باشروا من الشدائد ما لم يباشره الأنصار ، ولكونهم فارقوا مألوفاتهم من المساكن والأوطان والأموال والعشائر ، وغير ذلك ، كله نصرة الله ورسوله ، وبعضهم فارق والديه كما في قصة سعد ، وقصتهما معروفة .

والأنصار آووا المسلمين ونصروهم بالمال والأبدان ، ولكن في أوطانهم وعشائرهم فكانوا في الفضل دون المهاجرين ، فبهذا يعرف سبب تفضيلهم وسبقهم أيضًا ، رضي اللّٰه عن الكل وأرضاهم .

« ويؤمنون بأن اللّٰه تعالى قال لأهل بدر » وبدر ، ماء معروف غير بعيد من المدينة ، وجرت فيه الوقعة الشهيرة ، وهو المذكور في الآية الكريمة .

« وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر » الذي شهدها من الصحابة هم هذا العدد .

« اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ؛ يعني : فيؤمنون بأن النبي ﷺ قال ذلك ، وبأنهم ممتازون بالفضيلة على غيرهم من الصحابة ، فهي رتبة عالية ؛ لشهودهم هذا المشهد الكبير الذي فرّق فيه بين الحق والباطل .

لكن لا بد من معرفة معنى ذلك ، فليس معناه عند أهل العلم أنه مرخص لهم في الكفر والمعاصي ، لكن من ثواب اللّٰه لأهل بدر أن المعاصي المتجددة إذا وقعت من أحدهم فإنه يوفق للتوبة ، وكذلك توفيقه للحسنات ، كله من ثواب اللّٰه ، فهذا معنى التكفير في باقي العمر بعد ذلك .

فلا تظن أن الواحد من البدريين مأذون لهم في المعاصي ، بل إيمانهم أعظم من غيرهم ، وعصيان من انقطع إلى اللّٰه أعظم ؛ لامتيازه بالمعرفة ، والشكر في حقه آكد ، لكن مغفرة ذلك من أَجَلِّ ما جرى على أيديهم من النفع ؛ أي : وما عملتم من عمل لا يصلِ إلى الكفر مغفور لكم ، والكفر لو قدر وجوده من بدري حبط عمله ، وهم متفاوتون في الأجر ، فلِعُمَر من سنامه ما ليس لغيره .

« و » كذلك أهل السنة والجماعة يؤمنون« بأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة » وذلك سنة ست ، فلما صَدَّ المشركون النبي ﷺ عن البيت وهم هذا العدد ؛ أخذ النبي ﷺ عليهم أَلَّا يفروا ، فبايعوه تلك البيعة فرضي اللّٰه عنهم ،« كما أخبر به النبي ﷺ » في قوله : « لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة »[1] ، وهؤلاء هم أهل بيعة الرضوان .

أما قوله سبحانه : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فالمراد : المرور على الصراط ، فإنه منصوب على متن جهنم ؛ وجميع الخلق يعبرون عليه ، فالورود أعم من الدخول ، فالدخول أخص ، فلا يلزم من الورود الدخول .

« بل لقد رضي اللّٰه عنهم ورضوا عنه » كل منهم قد رضي اللّٰه عنه ، وغير خافٍ أن الرضا درجة فوق المغفرة ؛ كما قال تعالى : ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ المعروفة في صلح الحديبية ، فإن النبي ﷺ في سنة ست خرج قاصدًا مكة في ذي القعدة معتمرًا ، ولما بلغه أن قريشًا يريدون أن يصدوه عن العمرة ، عزم على أن من قاتله أن النبي ﷺ يقاتلهم ، فبايعهم تحت الشجرة على

---

(١) مسلم (٢٤٩٦) ، وأبو داود (٤٦٥٣) من حديث جابر رضي الله عنه .

ألا يفروا إذا لقوا قريشًا في مكة ، فصالحهم النبي ﷺ أن يعتمر من القابلة .

المقصود : أنهم بايعوه تحت الشجرة ، « وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة » ، فيؤمن أهل السنة أن اللّه رضي عنهم .

فهؤلاء هم أهل بيعة الرضوان لهم مزية على من لم يحصل له ذلك ، هذه فضيلة عمومية لأهل بيعة الرضوان ، كما أن موقعة بدر عمومية لأهل بدر على غيرهم ، وكذلك فضيلة المهاجرين على من ليسوا مهاجرين كذلك ، ومنها باعتبار تفضيل العشرة ، فهي خاصة لهم بالنسبة إلى غيرهم وعامتهم .

وفي الصحابة من له فضائل خاصة به ؛ كأبي بكر وعمر وغيرهم ، وكذلك الملازمون له في الصحبة ، وهذا غالب فيهم ليس في كل فرد منهم ، بل من اجتمع بالرسول ﷺ ولو لحظة وهو مؤمن به فإنه من الصحابة .

« ونشهد بالجنة » بالتعيين « لمن شهد له الرسول ﷺ » هذا أصل من أصول أهل السنة ؛ لأنه شهد له الرسول بوحي من اللّه فنجزم ، وبشهادة المعصوم له عُرف أنه لا يأتي عليه ما ينقض هذه .

« كالعشرة » ، جاء في بعض الأحاديث تعدادهم في حديث واحد ومتفرقة ، والعشرة هم : أبو بكر الصديق ، والفاروق ، وذو النورين ، وعليٌّ بن أبي طالب ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعيد بن زيد ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير ، وطلحة ، وأبو عبيدة ، ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « أبو بكر في الجنة ، عمر في الجنة ...»[(١)] إلخ . فنشهد ونجزم أنهم من أهل الجنة .

« وثابت بن قيس بن شماس » وله قصة شهيرة ، فإنه كان يخطب للنبي ﷺ ، وكان ثقيل السمع ، ولما نزلت : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية . خشي أن يكون ممن يرفع صوته في القرآن فاحتبس في بيته يبكي ، ففقده النبي ﷺ وسأل عنه ، فقيل له : إنه لما نزلت هذه الآية احتبس في بيته وخشي أن يكون ممن رفع صوته فحبط عمله وأنه من أهل النار ، فأرسل إليه النبي ﷺ وبشره بالجنة ، وقال : « أخبروه أنه من أهل الجنة »[(٢)] .

وكعكاشة بن محصن[(٣)] ، ومعاذ للحديث ، وبلال ، ولذلك قال المصنف : « وغيرهم من الصحابة » ، فكل ما ثبت لأحد نص أنه من أهل الجنة فهو من أهل الجنة .

ثم هنا مرتبة بين الشهود الكلي والتعيين ؛ كأهل بيعة الرضوان وكأهل بدر ، فإنه يشهد لهم بمثل هذا ، فهي عمومية من وجه خصوصية من دون غيرهم من المسلمين ، وعموم من حيث إنه لم يقل في

---

(١) الترمذي (٣٧٤٧) ، وأحمد (١/١٩٣) من حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « صحيح سنن الترمذي » .

(٢) البخاري (٤٨٤٦) ، ومسلم (١١٩) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٣) البخاري (٥٨١١) ، ومسلم (٢١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

واحد بعينه ، بل يقال فيهم ذلك عمومًا .

ومن لم يشهد له بالتعيين من الصحابة أو غيرهم فلا نشهد له به وإن بلغ ما بلغ ؛ لأنه لا يُدرى عن الخواتيم ؛ للحديث في ذلك[١] ، بخلاف الشهادة بالصلاح والخير ، كما جاء عن عليٍّ لما سئل وهو على المنبر ، والرؤيا تثبت الخيرية إذا تواترت ولا يشهد له بمجردها ؛ لأنه لا يدرى ما خاتمته ، وكذلك السوء .

فلا يقال : فلان من أهل الجنة ، بل يرجى له أنه من أهل الجنة ، رجاء قريبًا من الجزم ، وأما الجزم لغير معين فجائز ، كما تقول : من مات من أهل التوحيد فهو من أهل الجنة ، فنشهد شهادة عمومية لكل من مات على التوحيد أنه من أهل الجنة على أحد تقادير ثلاثة .

وكذلك النار لا نشهد لأحد إلا لمن شهد له الرسول ﷺ ، فمن شهد له الرسول ﷺ أنه من أهل النار ، فنشهد أنه من أهل النار ، كأبي لهب ، وأبي طالب ، وأما على العموم فنشهد لمن مات على الكفر أنه من أهل النار الخالدين المخلدين .

فنشهد شهادة عمومية أن من مات على الكفر مصيره إلى النار ، فالكافر وإن بلغ كفره من الكفر ما بلغ ، لا نقول : إنه من أهل النار ؛ لأنا لا ندري ما باطنه ، ولا ندري ما يموت عليه .

« ويقرون » - **كذلك يقر أهل السنة والجماعة** - « بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره من أن خبر هذه الأمة بعد نبيها : أبو بكر ، ثم عمر » **قال المصنف : صح عن علي من نحو ثمانين طريقًا حين سئل من خير هذه الأمة بعد نبيها ؟ فقال : أبو بكر ، قيل : ثم من ؟ قال : ثم عمر ، حتى إنه سئل عن ذلك وهو على منبر الكوفة ، بل هي من المتواتر .**

ومقصده بيان أن الذين ينتسبون إلى أنهم يعظمونه وهم الشيعة لا يعبئون بأقواله ، مع أنهم لا يعبئون بالكتاب والسنة في ذلك .

« ويثلثون » - **أهل السنة** - « بعثمان ، ويربعون بعلي رضي الله عنه ، كما دلت عليه الآثار » **كما قال ابن عمر : كنا نقول ورسول الله ﷺ حي : أفضل أمة النبي ﷺ بعده أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، وهذا بالنسبة إلى الخيرية ، وأما بالنسبة إلى الخلافة فشيء آخر .**

« وكما أجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة » ، **وهم لا يجتمعون على تقديم أحدهما إلا أنه أفضل ، وهذه المسألة يقال لها : مسألة التفضيل ، فإن أهل السنة يقدمون أبا بكر ، ثم عمر ، فإن النصوص يستفاد منها بعد خلافة أبي بكر وعمر ، ولكن بعض أهل السنة قال بالنص ، وبعضهم قال بإجماعهم عليهم .**

« مع أن بعض أهل السنة » **والجماعة** « كانوا قد اختلفوا في عثمان وعلي رضي الله عنهما » **في وقت من**

---

(١) البخاري (٣٢٠٨) ، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

الأوقات ، ثم استقر الأمر على ما يأتي وزال الاختلاف « بعد اتفاقهم على أبي بكر وعمر ، أيهما أفضل ؟ فقدم قوم عثمان ، وسكتوا ، أو ربعوا بعلي » .

« وقدم قوم عليًا ، وقوم توقفوا ، لكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان ثم علي » **ورجع الأمر إلى نصابه .**

« وإن كانت هذه المسألة - مسألة » **التفضيل بين** « عثمان وعلي - ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة » **والجماعة ؛ لأنها مسألة تفضيل ، والتفضيل أمره أسهل من غيره .**

« لكن التي يضلل فيها : مسألة الخلافة » **إنما الذي يضلل فيها مسألة الخلافة ، فمسألة الخلافة هي التي فيها من القدح في الصحابة ؛ بل القدح في الأمة ما لا يخفى .**

« وذلك أنهم يؤمنون » - **أهل السنة - يقطعون** « بأن الخليفة بعد رسول الله ﷺ : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي ، ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء ؛ فهو أضل من حمار أهله » ؛ **يعني : فرق بين مسألة الخلافة والتفضيل .**

فمسألة الخلافة ما جرى فيها خلاف يذكر ، أما مسألة التفضيل فجرى ، كما تقدم ، ثم زال .

أما أبو بكر وعمر فلا خلاف في خلافتهما وفضلهما على سائر الصحابة ومن بعدهم أبدًا ، ولكن بعض أهل العلم قال بالنص ، وبعضهم قال بإجماعهم عليهما ، وكذلك خلافة عثمان .

أما فضيلة عثمان على علي : فجري فيها خلاف وزوال ولكن استقر ، هذا هو تفضيله .

ومن تفضيل عثمان على علي : تقديمه عليه في الخلافة ، فإنه لا يقدم في الخلافة إلا الأفضل .

« وَ » **أهل السنة والجماعة** « يحبون أهل بيت رسول الله ﷺ » ؛ **يعني : قرابته بني هاشم .**

« ويتولونهم » **التولي : المحبة والترضي والذب عنهم ونحو ذلك ؛ يعني : يذبون عنهم وينصرونهم عندما يحتاجون إلى ذلك ، ويحمونهم عندما يحتاجون إلى حماية ، ويعرفون لهم فضائلهم ومناقبهم ، بل أهل السنة والجماعة يتولونهم زيادة على ما يتولون به سائر المؤمنين ، فهم يرون أن المسلم يُذَبُّ عنه ... إلخ ، فهم اشتركوا معهم في ذلك واختصوا بقرب رسول الله ﷺ .**

« ويحفظون فيهم وصية رسول الله ﷺ : حيث قال يوم غدير خُم » **- موضع معروف بين مكة والمدينة ، في منزل نزله في رجوعه من حجة الوداع لما رجع من مكة ، خطبهم فيه خطبة شهيرة قبل موته بشهرين -** : « أذكركم الله في أهل بيتي » ؛ **يعني : أن تعرفوا لهم حقهم وحرمتهم ومكانتهم من رسول الله ، وأن ترعوا لهم حقهم ، ولا تحرموهم ، قال مزيد حث وتذكير لهم على أنه يُراعى لهم حقيقة .**

وهذا خلافًا للنواصب الذين نصبوا لهم العداوة ، وهذا حيث كان في خلافة بني أمية ، جفوا أهل البيت ، والمنصف يعطي كل ذي حق حقه .

فدل على أن أهل بيت رسول الله ﷺ يحبون لأمرين :

أحدهما : إسلامهم .

والثاني : لقربهم من المصطفى ﷺ ، والمراد : المسلم منهم ، أما الكافر فلا ؛ فإن أبا لهب عَمُّ النبي ﷺ .

فالمراد المسلمون الموحدون الذين هم على سنته ﷺ .

أما من حاد عما جاء به النبي ﷺ فلا ، وقربه من النبي ﷺ يدعوه أن يكون أسرع الناس إجابة له ﷺ .

أما من كان من الكفار فإنه أبعد الناس عن النبي ﷺ وأسوؤهم كفرًا ، فالذين يكفرون من ذرية عبد المطلب يتغلظ كفرهم ، ألا ترى قوله : ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ ؟

وهذه الخطبة ألف فيها ابن جرير مجلدين ، لكن ما ذكر ورواه مشتمل على أشياء لا تثبت من أجل الشيعة ، ويُعْرف أن عنده شيء من التشيع الذي لم يصل إلى البدعة .

المقصود : أن من جملة ما حفظ عنه ﷺ هذا الحديث ، وقال ﷺ : « إني تارك فيكم ثقلين : أولهما : كتاب اللَّه . وثانيهما : أهل بيتي »[1] .

« وقال أيضًا للعباس عمه ، وقد اشكى إليه أن بعض قريش يجفو بني هاشم » ؛ يعني : يقصر في حقهم .

« فقال : « والذي نفسي بيده ، لا يؤمنون حتى يحبوكم للَّه ولقرابتي » » ، فدل على أنه واجب من واجبات الإيمان : محبة قرابة النبي ﷺ في اللَّه ؛ لكونهم مسلمين ، وواجب محبتهم من جهة أخرى ؛ وهي قرابتهم من النبي ﷺ ، وهي أخص .

« وقال : « إن اللَّه اصطفى بنى إسماعيل » » ؛ يعني : من ذرية إبراهيم ؛ يعني : اتخذ من العرب بني إسماعيل .

« واصطفى من بني إسماعيل كنانة ، واصطفى من كنانة قريشًا ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » » ، ولهذا عرفنا أن بني هاشم أهل بيت رسول اللَّه ﷺ صفوة من صفوة ، من صفوة من صفوة ، كما أن كنانة صفوة بني إسماعيل ، وقريشًا صفوة كنانة ، وبني هاشم صفوة قريش ، فأهل بيته هم صفوة الناس ، فبنو إسماعيل صفوة ، وكنانة صفوة من صفوة ... إلخ ، فالنبي ﷺ صفوة من صفوة ، من صفوة من صفوة ، من صفوة .

وصفوة الشيء : هو خالصه . أصلها : اصتفى من صفا الشيء اختاره ، وصفوة الشيء : خيرته .

« ويتولون أزواج رسول اللَّه ﷺ » - والتولي : نشر الجميل - بمحبتهن ، والذب عنهن ، ومراعاة

---

(1) مسلم (٢٤٠٨) ، وأحمد (٤/٣٦٦) من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه .

حقهن ، والنصر عندما يحتاج لذلك . والأزواج : جمع زوج . والأفصح : زوج ، بدون تاء .
والمراد : اللاتي تُوفي وهن في عصمته ، أو تُوفِّين وهن في عصمته ، بخلاف من فارقنه في حياته .
فأهل السنة يتولون أزواج رسول الله ﷺ ، كما يتولون أهل بيت رسول الله ، خلافًا للنواصب .
والتولي - كما تقدم - : الترضي عنهن ، والذب عنهن ، وتبرئتهن فُرَش المصطفى ﷺ خيرِ الخلق وأطهرِ الخلق ﷺ .

« أمهات المؤمنين » والمراد : في الحرمة وعدم التزوج بهن بعده فقط ، ليس المراد كشفهن الوجه للناس ، أو إذا أرضعت ، فإنه ﷺ أبوهم الأكبر الذي على يديه تربيتهم بغذاء القلوب ، وفي قراءة : « وهو أبوهم » .

« ويؤمنون بأنهن » رضي الله عنهن « أزواجه في الآخرة » .

« خصوصًا خديجة » بنت خويلد « رضي الله عنها » ، فلها من المزية ما لا يخفى ، « أم أكثر أولاده » - أم فاطمة - « وأول من آمن به وعاضده على أمره » ؛ أي : دينه . وهي التي جاء إليها لما جاءه الملك وقال : « زملوني » ، وأخبرها بما أتاه ، والقصة معروفة ، وأول امرأة آمنت به ، « وكان لها منه المنزلة العالية » .

« والصديقة بنت الصديق رضي الله عنها » ؛ يعني : وخصوصًا أيضًا الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما ؛ يعني : عظيمة التصديق ، فأبوها الصديق الأكبر ، وهي صديقة النساء التي لها المزايا الخاصة من نزول الآيات في حقها والعلم .

« التي قال فيها النبي ﷺ : « فضل عائشة على النساء ، كفضل الثريد على سائر الطعام » » .
الثريد : هو الخبز مع اللحم ، وباتفاق أنها أعلم نساء الصحابة .

وقول المصنف : « وخصوصًا » وخص منهن اثنتين هما أفضل النساء على الإطلاق ، فأهل السنة والجماعة يقولون : جميع أزواج النبي ﷺ وبالأخص هاتين ، لكونهما أخص أزواج النبي ﷺ .

وقد اختُلِف أيما أفضل عائشة أو خديجة ؟ واستدلوا على فضل خديجة بما ذكر ، وقوم قالوا : عائشة أفضل ؛ بالحديث .

ومسألة التفضيل شيء سهل ، والصواب والحق أن عائشة أفضل من خديجة في الأشياء التي امتازت بها ، وخديجة أفضل في الأشياء التي امتازت بها ، وهذا ينبغي سلوكه في مسائل التفضيل ، والصِّدِّيقة أعطيت من مِنَّة التصديق شيئًا كثيرًا ما ليس لغيرها ، وأن الصِّدِّيق كثير التصديق ، والمصنف رحمه الله ما تعرض لهذا هنا ؛ لأن هذا مختصر ، ومسلكه في المسألة مبين في مصنفاته .

والتحقيق : - كما ذكره المصنف في غير هذه العقيدة المختصرة - أن الصواب ألَّا يقال : خديجة أفضل مطلقًا ، ولا عائشة أفضل مطلقًا ، بل عائشة أفضل في أشياء ، وخديجة أفضل في أشياء ، عائشة فيها آيات تتلى في المساجد ، فهي بها أفضل ، ومن جهة كون خديجة أم أكثر أولاده ، فيقال : هذه

أفضل من وجه ، وبهذا تجتمع النصوص ، وهذا له نظائر يفاضل بينها ويحتج كل طرف بحجج .

ومسألة التفضيل أمرها سهل فلا يضلل فيها كما تقدم ، ومسائل الخلاف في الفضل وعدمه كثيرًا ما يدخله الهوى النفساني ، وبعضه قد لا يدخله الهوى ، وكونها مسألة هوى لا يُوسَّع البحث فيها مخافة أن يدخل في تأييد هواه .

وحديث : « لا تخيروا بين الأنبياء »[١] : النهي في قوله : « لا تخيروا » إذا كان التخيير على وجه التعصب ، مثل ما فعل الأنصاري واليهودي ، أو أنه قاله على وجه التواضع .

« ويتبرءون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم » ، من أصول أهل السنة والجماعة : التبرؤ من طريق الروافض الذين يبغضون الصحابة ، فإنهم لا يقرون لأصحاب رسول الله ﷺ بقول ولا عمل ، فقلوبهم مفعمة من البغض لأصحابه ، وألسنتهم متلوثة بالسب في أصحاب رسول الله ﷺ ، وأهل السنَّة يحبونهم ويترضون عنهم .

الرافضة مسلكهم في الصحابة أخبث مسلك ، يكفرون الصحابة إلا نفرًا قليلًا ، وتكفيرهم الصحابة هو أصل مذهبهم لكن ضموا إليه الشرك والاعتزال .

« وَ » يتبرؤون من « طريقة النواصب الذين » ينصبون العداوة لأهل بيت رسول الله ﷺ ، « يؤذن أهل البيت بقول أو عمل » . فهم في مقابلة الروافض في الغلو في أهل البيت ، والنواصب يجفونهم ويبغضونهم .

وأصل النصب : للأغراض الشخصية للميل إلى رؤساء بني أمية ، ناشئ عن المنازعة في مُلْكٍ من مُلْكِ مصر ، في مُلْكِ بني أمية ومن يواليهم ، فينصبون لأهل البيت العداوة ؛ لأجل ذلك ، ويمكن أن يوجد إخوان النواصب ، فمن كان كذلك فهو ناصبي مبتدع ضال .

فالحامل على النصب الشهوة ، والرفض أعظم منه والحامل عليه الشبهة ، والشبهة أعظم من الشهوة .

فالنواصب والروافض في أهل البيت في طرفي نقيض :

الروافض يغلون في أهل البيت ، ويكفرون باقي الصحابة .

والنواصب يجفون .

وأهل السنة وسط بين غلو هؤلاء ، وبين غلو أولئك ، ورأوا أن لهم مزية ؛ لقربهم من النبي ﷺ ، كما قال ﷺ : « والذي نفسي بيده ، لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرابتي »[٢] ، وأهل السنة طريقتهم : الترضي عنهم جميعًا ، ويعرفون لأهل البيت قدرهم القدر الشرعي .

---

(١) البخاري (٦٩١٦) ، ومسلم (٢٣٧٤) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه .

(٢) تقدم تخريجه .

فالخوارج والنواصب متفقون في مزيد العداوة لأهل البيت .

والخوارج لا يقتصرون على عداوة أهل البيت ، بل عمومًا .

والذي باشرهم هو عليٌّ ، فهو يعادونه ويكفرونه ومن معه من الصحابة ، يقولون : إنك حكَّمت الرجال وكَفَرْتَ .

والنواصب قابلوا الروافض ؛ جفوا أهل البيت وأبغضوهم .

« ويمسكون » : يكفون « عما شجر » : وقع « بين الصحابة » من النزاع بين علي ومعاوية رضي الله عنهما من الحروب بينهما ؛ لأن تلك الأمور اجتهادية وهم على قسمين : مجتهد مصيب ، ومجتهد مريد للحق ، مخطئ فاته أجر الإصابة ، وصار له أجر الاجتهاد مع العلم والقول أن أوْلى الطائفتين : علي رضي اللَّه عنه ومن معه .

هذه طريقة أهل السنة يمسكون عما شجر بين الصحابة - في الحروب والوقائع - إذا جاء الخوض ويكفون ، فلا يكونون في هذا الجانب ولا في هذا الجانب .

هذا من أصول أهل السنة : الكفُّ عمَّا كان بين الصحابة ، وعدم الخوض فيها ، وعدم الكلام وتُترك .

« ويقولون » ما يأتي بيانه :

« إن هذه الآثار المروية » الكثيرة « في مساويهم » : في عيوبهم « منها ما هو كذب » من أصله ، ولا أصل له بحال أبدًا ، هذا مسلك أهل السنة والجماعة .

« ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغير عن وجهه » ؛ أي : ومنها ما له أصل ، لكن ما بقي على أصله ، بل غُيِّر .

وهذا في القول العام في الصحابة ، فإنهم لا يجتمعون على ضلالة .

« والصحيح منه » ؛ أي : الذي يثبت منه ، وهو الأقل ، وهذا خاص بالأفراد :

« هم فيه معذورون » .

« إما مجتهدون مصيبون » فيكون لهم أجران رضي الله عنهم .

« وإما مجتهدون مخطئون » والخطأ مغفور لهم .

فأعمالهم مترددة بين أن يكون لهم فيها أجران أو أجر ؛ مثلَ الحاكم إذا اجتهد فأصاب له أجران ، وإن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد .

« وهم » ؛ أي : أهل السنة والجماعة « مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة » - كل فرد منهم - « معصوم عن كبائر الإثم وصغائره » تجوز عقلًا وغير مستحيلة .

« بل تجوز عليهم » فهذا من التجويز الوقوعي ، لا أنه يجوز لهم في الأحكام - تجوز عليهم لا أنها تجوز لهم -.

« الذنوب في الجملة » ، فالذنوب متصورة من أحدهم ، والعصمة إنما هي لجميعهم أن يكونوا مجتمعين على ضلالة .

« ولهم من السوابق » إلى الإسلام وقوة الإيمان واليقين والجهاد .

« والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم - إن صدر - حتى إنه يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم ؛ لأن لهم من الحسنات التي تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم » .

« وقد ثبت بقول رسول اللَّه ﷺ : إنهم خير القرون » كما في حديث « خير الناس قرني ... » الحديث . و« خير أمتي قرني ... » الحديث .

وقد ثبت بقول رسول اللَّه ﷺ مخاطبًا خالدًا ومن معه - وكان منهم - : « لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ... » ما بلغ مثلَ مُدِّ مَنْ تقدَّمه من الصحابة ، فكيف بمن بعد الصحابة ؟ ! ومن بعدهم فمن بعدهم ؟ !

« وأن المد من أحدهم » من البر ونحوه « إذا تصدق به كان » خيرًا ، و« أفضل » عند اللَّه « من جبل أحد ذهبًا ممن بعدهم » فهذه فضيلة ومنقبة لهم ، بل قال ذلك النبي ﷺ لبعض الصحابة السابق منهم ، فكيف بمن بعد الصحابة ؟ ! ومن بعدهم ؟ ! فهذا بون بعيد وتفاوت عظيم .

وهذا يبين لك أن الأعمال لا تتفاوت وتتفاضل إلا بتفاضل ما في القلوب ، وصدور العمل معتمد على النية والإخلاص وسماح النفس ، فالصحابة أكمل الناس إيمانًا وإخلاصًا وعلمًا ، وأيضًا صحبتهم الرسول ﷺ التي امتازوا بها عن غيرهم ، - فقاتل اللَّه الروافض - .

« ثم إذا كان قد صدر عن أحدهم ذنب » - تقدم لك أن الفرد منهم غير معصوم - إذا قدرنا أن واحدًا منهم قد صدر منه ذنب وثبت - وهو غير معصوم - فإنه تعرضه هذه الأمور :

الأول : التوبة « فيكون قد تاب منه » ، والتوبة تَجُب ما قبلها ، فهم أسرع شيء إلى المبادرة بالتوبة والإقلاع عما صار منهم ، بل هذا ممكن قريب ، وهو الأحرى بهم ﷺ ، ثم الشخص قد يكون بعد الذنب والتوبة أكمل منه قبله .

« أو أتى بحسنات تمحوه » الثاني : كثرة الأعمال ورجحانها على السيئات ، كما في قصة أهل بدر ، فإن الحسنات يذهبن السيئات ، وفي الحديث : « واتبع السيئة الحسنة تمحها »[1] .

الثالث : « أو غفر له ؛ بفضل سابقته » وجهاده مع النبي ﷺ ، فإن صاحب السابقة يغفر ما لا يغفر لغيره ، فإنها شيء كبير من الفضل ، ولهذا نوه اللَّه عن أهل السبق في كتابه فقال : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ

---

(١) الترمذي (١٩٨٧) ، والدارمي (٢٧٩١) ، وأحمد (١٥٣/٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه ، وحسنه الألباني في « صحيح سنن الترمذي » (١٦١٨) .

تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ .

« أو بشفاعة محمد ﷺ » هذا الرابع للعصاة من أمته ، وأولى الناس بها أصحابه لامتيازهم على الأمة ، فإن شفاعته هي دعوته لأمته « الذين هم أحق الناس بشفاعته » ، فإنه ﷺ أخبر أن شفاعته نائلة العصاة من أمته ؛ كما في الحديث : « لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبي دعوته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ، فهي نائلة إن شاء اللَّه من مات من أمتي لا يشرك باللَّه شيئًا »(١) . فأولى الناس بهذه الشفاعة من العصاة الصحابة ، وَلِمَ لا يكونون أولى وهم خير القرون ؟ !

الخامس : « أو ابتلى ببلاء » من مصائب ببدنه أو أهله أو ماله ، فإنها ليست حسنات ، بل مكفرات ، وهي نوع امتحان ، ولكنها غالبًا تسبب إما عملًا صالحًا وهو الصبر ، أو سوءًا وهو الجزع ، والصحابة أولى الناس بها ، « كُفِّرَ بِهِ عَنْهُ » فإن المصائب مُكفِّرات للذنوب مطهِّرات ، فإنهم ليسوا أهل ترافات ، بل هم أحرى بالمصائب المنكبات ؛ كما في الحديث : « أشد الناس بلاءً الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل »(٢) .

فهذه خمسة أسباب لمغفرة الذنب ، إذا صدر عن أحد من الصحابة فهو بعرضة خمسة أشياء ، والمصنف ذكر في بعض مؤلفاته كـ « منهاج السنة » عشرة أسباب في تكفير الذنوب .

« فإذا كان هذا » ؛ يعني : الأسباب العشرة التي ذكر منها هنا خمسة « في الذنوب المحققة » أنها بعرضة هذه الأسباب ، « فكيف بالأمور » التي ليست محققة ، بل اجتهاد وليست ذنوبًا محضة « التي كانوا فيها مجتهدين إن أصابوا » في الحصول على الخير والعمل به ، « فلهم أجران » أجر الاجتهاد ، وأجر الإصابة .

« وإن أخطئوا ؛ فلهم أجر واحد » ، إن فاتهم أجر الإصابة ، ما فاتهم أجر الاجتهاد والحرص على الخير ، « والخطأ مغفور لهم » .

« ثم القدر الذي ينكر من فعل بعضهم قليل نزر ، مغمور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم » فإذا ثبت عن أحد منهم ، فهو كنقطة في بحار استهلكت ، فلم يبق لها عين ولا أثر ، والخطأ يعني الذي خلاف الاجتهاد وما إلى ذلك ؛ يعني : فبطريق الأولى أن تكون مغفورة في جنب هذه الفضائل ، بل في جنب واحدة من هذه الفضائل .

« من الإيمان باللَّه ، ورسوله ، والجهاد في سبيله ، والهجرَة ، والنصرة ، والعلم النافع ، والعمل الصالح » « من » لبيان الجنس في جنس ما من اللَّه به عليهم ، إذا نسبت هذا إلى هذا ، فلا كمية ولا كيفية .

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) الترمذي (٢٣٩٨) ، وابن ماجه (٤٠٢٣) ، وأحمد (١/١٧٢) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٩٩٢) .

« ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة » **من عرف ذلك في سيرتهم ؛ عرف صدق ما جاء في الأحاديث أنهم خير الخلق بعد الأنبياء ؛ كما تقدم : « خير القرون قرني » ، كما في حديث عمران وابن مسعود رضي الله عنهما ، ومنه : « أنتم توفون سبعين أمة ، أنتم خيرها وأكرمها على الله » .**

« وما من الله به عليهم من الفضائل » **من صريح الإيمان بالله ورسوله ، وسبقهم إلى الخير والأعمال الصالحة تبين له ما يأتي :**

« علم يقينًا : أنهم » – **يعني : الصحابة** – « خير » **وأفضل** « الخلق بعد الأنبياء ، لا كان ولا يكون مثلهم » رضي الله عنهم .

« وأنهم هم الصفوة » **الخيار** « من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله »

۞ قال الشيخ زيد بن عبد العزيز آل فياض رحمه الله :

فصل في فضائل الصحابة :

قوله : « ومن أصول أهل السنة والجماعة : سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ... »(١) .

* قال تعالى : ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۞ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ الآية ، ففي ذلك فضيلة الصحابة والرد على الرافضة .

« فهذه الآية تتضمن الثناء على المهاجرين والأنصار وعلى الذين جاؤوا من بعدهم يستغفرون لهم ويسألون الله ألَّا يجعل في قلوبهم غلًّا لهم ، وتتضمن أن هؤلاء الأصناف هم المستحقون للفيء ، ولا ريب أن هؤلاء الرافضة خارجون من الأصناف الثلاثة فإنهم لم يستغفروا للسابقين .

وفي قلوبهم غل عليهم ، ففي هذه الآيات الثناء على الصحابة وعلى أهل السنة الذين يتولونهم وإخراج الرافضة من ذلك .

وروى ابن بطة بإسناده عن مالك بن أنس أنه قال : من سب الصحابة فليس له في الفيء نصيب ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ الآية ، وهذا معروف عن مالك وغيره من أهل العلم كأبي عبيد القاسم بن سلام ، وكذا ذكره أبو حكيم النهرواني من أصحاب أحمد وغيره من الفقهاء .

---

(١) البخاري (٣٦٧٣) ، ومسلم (٢٥٤١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

وروى أيضًا عن ابن عباس قال : أمر الله باستغفار لأصحاب النبي ﷺ وهو يعلم أنهم يقتتلون .

وقال عروة : قالت عائشة : يا ابن أختي : أمروا بالاستغفار لأصحاب النبي ﷺ فسبوهم[١] . وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : قيل لعائشة : إن ناسا يتناولون أصحاب رسول الله ﷺ حتى أبا بكر وعمر . فقالت : وما تعجبون من هذا ؟

انقطع عنهم العمل فأحب الله ألّا يقطع عنهم الأجر . وروى ابن بطة عن ابن عمر : قال لا تسبوا أصحاب محمد ، فلمقام أحدهم - يعني مع النبي ﷺ- خير من عمل أحدكم أربعين سنة . وفي رواية وكيع : خير من عبادة أحدكم عمره .

وقال إبراهيم بن سعيد الجوهري سألت أبا أمامة : أيما كان أفضل معاوية أو عمر بن عبد العزيز ؟ فقال : لا تعدل بأصحاب محمد ﷺ أحدًا .

وقال ابن عباس لرجل سمعه يقول كلامًا يثلب به الصحابة فقال : أمن المهاجرين الأولين أنت ؟ قال : لا . قال : فمن الأنصار أنت ؟ قال : لا . قال : فأنا أشهد بأنك لست من التابعين لهم بإحسان » .

قوله : وطاعة النبي ﷺ في قوله : « لا تسبوا أصحابي » إلخ : **هذا الحديث خرجاه في الصحيحين من حديث أبي هريرة وأبي سعيد**[٢] . وعن أبي سعيد الخدري قال : كان بين خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف فسبه خالد ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا أصحابي ، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ من أحدهم ولا نصيفه » . رواه مسلم[٣] .

« والأصحاب جمع صاحب ، والصاحب اسم فاعل من صحبه يصحبه ، وذلك يقع على كثير الصحبة وقليلها ، ومما يبين هذا أن لفظ الصحبة فيه عموم وخصوص ، فإنه يقال : صحبته ساعة ، وصحبته شهرًا ، وصحبته سنه . وهذا قول جماهير العلماء من الفقهاء وأهل الكلام وغيرهم ، يعدون في أصحاب رسول الله ﷺ من قلّتْ صحبته ومن كثرت ، وفي ذلك خلاف ضعيف ، وكذلك قال الإمام أحمد وغيره كل من صحب النبي ﷺ سنة أو شهرًا أو يومًا أو راءه مؤمنًا به فهو من أصحابه ، له من الصحبة بقدر ذلك ، ولا ريب أن مجرد رؤية الإنسان لغيره لا توجب أن يقال : قد صحبه ، ولكن إذا رآه على وجه الاتباع له والاقتداء به دون غيره والاختصاص به .

ولهذا لم يعتد برؤية من رأى النبي ﷺ من الكفار والمنافقينَ ، فإنهم لم يروه رؤية من قصد أن يؤمن به ويكون من أتباعه وأعوانه ، والمصدقين له فيما أخبر ، المطيعين له فيما أمر ، الموالين له ، المعادين لمن عاداه ، الذي هو أحب إليهم من أنفسهم وأموالهم وكل شيء ، وامتاز عن سائر المؤمنين بأنه رآه ، وهذا

---

(١) مسلم (٣٠٢٢) .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) تقدم تخرجه .

خالَهُ معه فكان صاحبًا له بهذا الاعتبار ، ويدل ذلك ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « وددت أنى رأيت إخواني . قالوا : يا رسول اللَّه أو لسنا إخوانك ؟ فقال : بل أنتم أصحابي . وإخواني الذين يأتون بعدي يؤمنون بي ولم يروني »[1] . فدل على أن من آمن به ورآه فهو من أصحابه لا من هؤلاء الإخوان الذين لم يرهم ولم يروه » .

ولما كان لفظ « الصحبة » فيه عموم ؛ كان من اختص بالصحبة بما يتميز به عن غيره فوق من لم يشترك معه فيها ، كما قال النبي ﷺ في حديث أبي سعيد لخالد بن الوليد رضي الله عنهم أجمعين لما اختصم هو وعبد الرحمن « يا خالد لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم من أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه »[2] .

فعبد الرحمن بن عوف وأمثاله رضي الله عنهم من السابقين الأولين الذين أنفقوا قبل الفتح ؛ فتح الحديبية ، وخالد بن الوليد وغيره ممن أسلم بعد الحديبية ، وأنفقوا وقاتلوا دون أولئك ، قال تعالى : ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟﴾ والمراد بالفتح : فتح الحديبية .

لما بلغ النبي ﷺ أصحابه تحت الشجرة وسورة الفتح التي أنزلها اللَّه قبل فتح مكة ، بل قبل أن يعتمر النبي ﷺ عمرة القضية ، وكانت بيعة الرضوان عام الحديبية سنة ست من الهجرة وصالح المشركين صلح الحديبية المشهور ، وبذلك الصلح حصل من الفتح والخير ما لا يعلمه إلا اللَّه .

والمقصود أن الذين صحبوا النبي ﷺ قبل الفتح ، واختصوا من الصحبة بما استحقوا به التبريز على من بعدهم حتى قال لخالد رضي الله عنه : « لا تسبوا أصحابي » . فإنهم صحبوه قبل أن يصحبه خالد وأمثاله » .

« فإن قيل فلم نهى خالدًا عن أن يسب أصحابه إذا كان من أصحابه أيضًا ، وقال : « لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » ؟ قلنا : لأن عبد الرحمن بن عوف ونظراءه من السابقين الأولين الذين صحبوه في وقت كان خالد وأمثاله يعادونه فيه ، وأنفقوا أموالهم قبل الفتح وقاتلوا ، وكلًّا وعد اللَّه الحسنى ، فقد انفردوا من الصحبة بما لم يشركهم فيه خالد ونظراؤه ممن أسلم بعد الفتح الذي هو صلح الحديبية وقاتل ، فنهى أن يسب أولئك الذين صحبوه قبله ، ومن لم يصحبه قط نسبته إلي من صحبه كنسبة خالد إلى السابقين وأبعد .

وقوله : « لا تسبوا أصحابي » . خطاب لكل أحد أن يسب من انفرد عنه بصحبته ﷺ » .

قوله : « ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » . المد بضم الميم مكيال معروف ، والنصيف لغة في النصف وهو مكيال دون المد .

---

(١) مسلم (٢٤٩) .

(٢) سبق تخرجه .

قال الخطابي : النصيف بمعنى النصف . كما قالوا الثمين بمعنى الثمن .

قال الشاعر :

فما طار لي في القسم إلا ثمينها

وقال آخر :

لم يعدها مد ولا نصيف

والمعنى أن جهد المقل منهم واليسير من النفقة الذي أنفقه في سبيل اللَّه مع عسرة العيش والضيق الذي كانوا فيه ، أوفى عند اللَّه وأزكى من الكثير الذي ينفقه من بعدهم . اهـ .

« وذلك أن الإيمان الذي كان في قلوبهم حين الإنفاق في أول الإسلام ، وقلة أهله ، وكثرة الصوارف عنه ، وضعف الدواعي إليه ، لا يمكن أحدًا أن يحصل له مثله ممن بعدهم ، وهذا يعرف بعضه من ذاق الأمور وعرف المحن والابتلاء الذي يحصل للناس وما يحصل للقلوب من الأحوال المختلفة ، وهذا مما يعرف به أن أبا بكر رضي اللَّه عنه لن يكون أحد مثله ، فإن اليقين والإيمان الذي كان في قلبه لا يساويه أحد ، قال أبو بكر بن عياش : ما سبقهم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بشيء وقر في قلبه .

وهكذا سائر الصحابة حصل لهم بصحبتهم للرسول مؤمنين به مجاهدين معه إيمان ويقين لم يشركهم فيه من بعدهم ، وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه رفع رأسه إلى السماء وكان كثيرًا ما يرفع رأسه إلى السماء فقال : « النجوم أَمَنَةٌ للسماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد ، وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون ، وأصحابي أمنة لأمتي ، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون »[1] . وقد ثبت ثناء النبي ﷺ على القرون الثلاثة في عدة أحاديث صحيحة من حديث ابن مسعود وعمران بن حصين يقول فيها : « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم »[2] .

وشك بعض الرواة هذا ذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة ؟ والمقصود أن فضل الأعمال وثوابها ليس لمجرد صورها الظاهرة ، بل لحقائقها التي في القلوب ، والناس يتفاضلون في ذلك تفاضلًا عظيمًا ، وهذا مما يحتج به من رجح كل واحد من الصحابة على كل واحد ممن بعدهم ، فإن العلماء متفقون على أن جملة الصحابة أفضل من جملة التابعين ، لكن هل يفضل كل واحد من الصحابة كل واحد ممن بعدهم ، ويفضل معاوية على عمر بن عبد العزيز .

ذكر القاضي عياض وغيره في ذلك قولين ، وأن الأكثرين يفضلون كل واحد من الصحابة ، وهذا

---

(١) « صحيح مسلم »(٢٥٣١) .

(٢) البخاري (٢٦٥٢) ، ومسلم (٢٥٣٣) عن ابن مسعود ، والبخاري (٣٦٥٠) عن عمر بن حصين ، مسلم (٢٥٣٤) عن أبي هريرة ﷺ .

مأثور عن ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهم ، ومن حجة هؤلاء أن أعمال التابعين وإن كانت أكثر ، وعدل عمر بن عبد العزيز أظهر من معاوية وهو أزهد من معاوية ، لكن الفضائل عند الله بحقائق الإيمان الذي في القلوب ، وقد قال النبي ﷺ : « لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » . قالوا : فنحن قد نعلم أن أعمال بعض من بعدهم أكثر من أعمال بعضهم ، لكن من أين نعلم أن ما في قلبه من الإيمان أعظم مما في قلب ذلك ؟

والنبي ﷺ يخبر أن جبل أحد ذهبًا من التابعين الذين أسلموا بعد الحديبية لا يساوي نصف مد من السابقين ، ومعلوم فضل النفع المتعدى بعمر بن عبد العزيز ، أعطى الناس حقوقهم وعدل فيهم ، فلو قدر أن الذي أعطاهم ملكه وتصدق به عليهم لم يعدل ذلك ما أنفقه السابقون إلا شيئًا يسيرًا ، وأين مثل جبل أحد ذهبًا حتى ينفقه الإنسان ؟ وهو لا يصير مثل النصف مد ، ولهذا يقول من يقول من السلف : غبار دخل في أنف معاوية مع رسول الله ﷺ أفضل من عمر بن عبد العزيز .

« ومن لعن أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم كمعاوية وعمرو بن العاص ، أو من هو أفضل من هؤلاء كأبي موسى الأشعري وأبي هريرة ، أو من هو الأفضل من هؤلاء كطلحة والزبير وعثمان أو علي أو أبي بكر أو عمر أو عائشة ، أو نحو هؤلاء من أصحاب النبي ﷺ ورضي الله عنهم ، فإنه يستحق العقوبة البليغة باتفاق المسلمين ، وتنازعوا هل يعاقب بالقتل أو ما دون القتل ؟ وقد ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال : « لا تسبوا أصحابي » . الحديث ، واللعنة أعظم من السب ، فقد قال النبي ﷺ : « لعن المؤمن كقتله »[1] .

وأصحابه خيار المؤمنين كما قال : « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم » . وكل من رآه وآمن به فله من الصحبة بقدر ذلك » .

❑ مراتب الصحابة :

قوله : « ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم ...» :

* قال تعالى : ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ الآية .

ويقدمون المهاجرين على الأنصار كما قدمهم الله في قوله : ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ . وينزلون الصحابة جميعًا مراتبهم ويترضون عنهم كلهم .

« فالذين أسلموا قبل الفتح وهم أهل بيعة الرضوان أفضل وأخص بصحبته ﷺ ممن أسلم بعد بيعة الرضوان ، وهم الذين أسلموا بعد الحديبية ومصالحة النبي ﷺ أهل مكة ، ومنهم : خالد وعمرو بن العاص وعثمان بن أبي طلحة وأمثالهم وهؤلاء أسبق ممن تأخر إسلامهم إلى أن فتحت مكة وسُمُّوا الطلقاء مثل : سهيل بن عمرو والحارث بن هشام وأبي سفيان بن حرب وابنيه يزيد ومعاوية وأبي

---

(١) البخاري (٦٦٥٢) ، ومسلم (١١٠) عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه .

سفيان بن الحارث وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وغيرهم ، مع أنه قد يكون في هؤلاء من برز بعلمه على بعض من تقدمه كثيرًا كالحارث بن هشام وأبي سفيان بن الحارث وسهيل بن عمرو على بعض من أسلم قبلهم ممن أسلم قبل الفتح وقاتل ، وكما برز عمر بن الخطاب على أكثر الذين أسلموا قبله » .

وقوله : ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ﴾ الآية ، « ففضل المنفقين المقاتلين قبل الفتح ، والمراد بالفتح هنا : صلح الحديبية ، ولهذا سئل النبي أو فتح هو ؟ فقال : نعم . وأهل العلم يعلمون أن فيه أنزل اللَّه تعالى : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ . فقال بعض المسلمين : يا رسول اللَّه ، هذا لك فما لنا يا رسول اللَّه ؟ فأنزل اللَّه تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ . وهذه الآية نص في تفضيل المنفقين المقاتلين قبل الفتح على المنفقين بعده ، ولهذا ذهب جمهور العلماء إلى أن السابقين في قوله : ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ . هم هؤلاء الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا ، وأهل بيعة الرضوان كلهم منهم وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة .

وقد ذهب بعضهم إلى أن السابقين الأولين هم من صلى إلى القبلتين ، وهذا ضعيف ، ولأن التفضيل بالصلاة إلى القبلتين لم يدل عليه دليل شرعي كما دل على التفضيل بالسبق إلى الإنفاق والجهاد والمبايعة تحت الشجرة . ولكن فيه سبق الذين أدركوا ذلك على من لم يدركه .

كما أن الذين أسلموا قبل أن تفرض الصلوات الخمس هم سابقون على من تأخر إسلامه عنهم والذين أسلموا قبل أن تجعل صلاة الحضر أربع ركعات هم سابقون على من تأخر إسلامه عنهم والذين أسلموا قبل أن يؤذن في الجهاد أو قبل أن يفرض هم سابقون على من أسلم بعدهم . والذين أسلموا قبل أن يفرض صيام شهر رمضان هم سابقون على من أسلم بعدهم ، والذين أسلموا قبل أن يفرض الحج هم سابقون على من تأخر عنهم ، والذين أسلموا قبل تحريم الخمر هم سابقون على من أسلم بعدهم ، والذين أسلموا قبل تحريم الربا كذلك فشرائع الإسلام من الإيجاب والتحريم كانت تنزل شيئًا فشيئًا وكل من أسلم قبل أن تشرع شريعة فهو سابق على من تأخر عنه وله بذلك فضيلة . ففضيلة من أسلم قبل نسخ القبلة على من أسلم بعده هي من هذا الباب . وليس مثل هذا مما يتميز به السابقون الأولون عن التابعين إذ ليس بعض هذه الشرائع أولى بمن يجعله خيرًا من بعض ولأن القرآن والسنة قد دلا على تقديم أهل الحديبية فوجب أن تفسر هذه الآية بما يوافق سائر النصوص .

وقد علم بالاضطرار أنه كان في هؤلاء السابقين الأولين أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وبايع النبي ﷺ بيده عن عثمان لأنه قد كان غائبًا قد أرسله إلى أهل مكة ليبلغهم رسالته . وبسببه بايع النبي ﷺ الناس لما بلغه أنهم قتلوه . وقد ثبت في صحيح مسلم عن جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنه أنه قال :

« لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة »[1].

وسمى صلح الحديبية فتحًا ؛ لأن الفتح في اللغة عبارة عن فتح المغلق والصلح الذي حصل مع المشركين بالحديبية كان بابه مسدودًا مغلقًا حتى فتحه الله » .

وقد قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ وفي الصحيحين عن جابر قال : كنا يوم الحديبية ألفًا وأربعمائة[2]. وفيهما عنه أنهم كانوا خمس عشرة مائة[3].

وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يدخل من بايع تحت الشجرة كلهم الجنة إلا صاحب الجمل الأحمر » . قال : فانطلقنا نبتدره فإذا رجل قد أضل بعيره فقلنا تعال فبايع رسول الله ﷺ قال : أصيب بعيري أحب إلي من أن أبايع[4]. رواه ابن أبي حاتم . وأصله في مسلم . وروى مسلم عن جابر قال أخبرتني أم مبشر أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة رضي الله عنها : « لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحد قالت بلى يا رسول الله فانتهرها فقالت حفصة رضي الله عنها : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فقال النبي ﷺ : « قد قال الله تعالى : ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ »[5].

والصحيح في عدة أهل بيعة الرضوان أنهم أكثر من ألف وأربعمائة .

وروى عن جابر تارة أنهم أربعمائة وتارة خمسمائة « فمن قال ألف وخمسمائة جبر الكسر ، ومن قال ألف وأربعمائة ألغاه ويؤيده قوله في الرواية الثالثة من حديث البراء : ألف وأربعمائة أو أكثر ، واعتمد على هذا الجمع النووي .

وأما البيهقي فمال إلى الترجيح وقال : إن رواية من قال ألف وأربعمائة أصح » .

قوله : « ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » :

روى مسلم في صحيحه ، أن غلامًا لحاطب بن أبي بلتعة شكاه إلى رسول الله ﷺ وقال والله يا رسول الله ليدخلن حاطب النار فقال : « كذبت إنه قد شهد بدرًا والحديبية »[6].

وروى البخاري عن البراء بن عازب قال : كنا نتحدث أن أصحاب محمد ﷺ الذين كانوا معه يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر وما جاوزه معه إلا مؤمن[7].

---

(١) أحمد (٣/ ٣٥٠)، أبو داود (٤٦٥٥)، الترمذي (٣٨٦٠) وصححه الألباني في « الصحيحة » (٢١٦٠).

(٢) البخاري (٤٨٤٠)، مسلم (١٨٥٦).

(٣) البخاري (٣٥٧٦)، مسلم (١٨٥٦).

(٤) مسلم (٢٧٨٠).

(٥) مسلم (٢٤٩٦).

(٦) مسلم (٢٤٩٥) عن جابر رضي الله عنه .

(٧) البخاري (٣٩٥٧).

في الصحيحين وغيرهما عن علي قال : بعثني رسول اللّه ﷺ أنا والزبير والمقداد بن الأسود قال : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها فانطلقنا تتعادى بنا خيلنا حتى انتهينا إلى الروضة فإذا نحن بالظعينة فقلنا أخرجي الكتاب ، فقالت : ما معي كتاب ، فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب ، قال : فأخرجت الكتاب من عقاصها فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول اللّه ﷺ فقال رسول اللّه ﷺ : ما هذا يا حاطب ؟ قال : لا تعجل علي إني كنت أمرًا ملصقًا في قريش ولم أكن من أنفسهم وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم بمكة ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن اتخذ فيهم يدًا يحمون بها قرابتي وما فعلت ذلك كفرًا ولا ارتدادًا من ديني ولا رضى بالكفر بعد الإسلام .

فقال رسول اللّه ﷺ : إنه صدقكم فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال رسول اللّه ﷺ : « إنه قد شهد بدرًا وما يدريك لعل اللّه اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »[1] .

وذكر يحيى بن سلام في تفسيره أن لفظ الكتاب : أما بعد يا معشر قريش فإن رسول اللّه ﷺ جاءكم بجيش كالليل يسير كالسيل فواللّه لو جاءكم وحده لنصره اللّه وأنجز له وعده فانظروا لأنفسكم . والسلام . كذا ذكره السهيلي .

وظاهر الحديث أن العلة في ترك قتله كونه من أهل بدر ولولا ذلك لكان مستحقًا للقتل . والحديث دليل على فضيلة أهل بدر فقوله : « إن اللّه اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم .

« فيه بشارة عظيمة لم تقع لغيرهم . ووقع الخبر بألفاظ منها فقد غفرت لكم . ومنها فقد وجبت لكم الجنة . ومنها لعل اللّه اطلع ، لكن قال العلماء : إن الترجي في كلام اللّه وكلام رسول اللّه للوقوع . وعند أحمد وابن أبي شيبة من حديث أبي هريرة للجزم وعند أحمد بإسناد على شرط مسلم من حديث جابر مرفوعًا : لن يدخل النار أحد شهد بدرًا .

وقد استشكل قوله : « اعملوا ما شئتم » فإن ظاهره أنه للإباحة . وهذا خلاف عقد الشرع . وأجيب بأنه إخبار عن الماضي - أي كل عمل كان لكم فهو مغفور ، ويؤيده أنه لو كان لما يستقبلونه من العمل لم يقع بلفظ الماضي ولقال : فسأغفره لكم . وتعقب بأنه لو كان للماضي لما حسن الاستدلال به في قصة حاطب لأنه خاطب به عمر منكرًا عليه ما قال في أمر حاطب وهذه القصة كانت بعد بدر بست سنين فدل على أن المراد ما سيأتي .

وأورده بلفظ الماضي مبالغة في تحقيقه . وقيل : إن صيغة الأمر في قوله « اعملوا » للتشريف والتكريم والمراد عدم المؤاخذة بما يصدر منهم بعد ذلك ، وأنهم خصوا بذلك لما حصل لهم به من

---

(١) البخاري (٣٠٠٧) ، مسلم (٢٤٩٤) .

الحال العظيمة التي اقتضت محو ذنوبهم السابقة وتأهلوا لأن يغفر الله لهم الذنوب اللاحقة إن وقعت - أي كلما عملتموه » بعد هذه الواقعة من أي عمل كان فهو مغفور .

وقيل : هي بشارة بعدم وقوع الذنوب منهم . وفيه نظر لما سيأتي في قصة قدامة بن مظعون حين شرب الخمر في أيام عمر وحده عمر فيها فهاجر بسبب ذلك فرأى عمر في المنام من يأمره بمصالحته وكان قدامة بدريًا . والذي يفهم من سياق القصة الاحتمال الثاني . وهو الذي فهمه أبو عبد الرحمن السلمي التابعي الكبير حيث قال لحيان بن عطية : قد علمت الذي جرأ صاحبك على الدماء .

وذكر هذا الحديث . واتفقوا على أن البشارة المذكورة فيما يتعلق بأحكام الآخرة لا بأحكام الدنيا من إقامة الحدود وغيرها ، فالذي يظن في ذلك - والله أعلم - أن هذا خطاب لقوم علم الله سبحانه أنهم لا يفارقون دينهم بل يموتون على الإسلام وأنهم قد يقارفون بعض ما يقارفه غيرهم من الذنوب ولكن لا يتركهم سبحانه مصرين عليها بل يوفقهم لتوبة نصوح واستغفار وحسنات تمحو أثر ذلك ، ويكون تخصيصهم بهذا دون غيرهم لأنه قد تحقق ذلك فيهم وأنه مغفور لهم ، ولا يمنع ذلك كون المغفرة حصلت بأسباب تقوم بهم كما لا يقتضي ذلك أن يعطلوا الفرائض وثوقًا بالمغفرة .

فلو كانت قد حصلت بدون الاستمرار على القيام بالأوامر لما احتاجوا بعد ذلك إلى صلاة ولا صيام ولا حج ولا زكاة ولا جهاد .

وهذا محال ، ومن أوجب الواجبات التوبة بعد الذنب لضمان المغفرة لا يوجب تعطيل أسباب المغفرة ، ونظير هذا قوله في الحديث الآخر : « أذنب عبد ذنبًا فقال : أي رب أذنبت ذنبًا فاغفره لي فغفر له ثم مكث ما شاء الله أن يمكث ، ثم أذنب ذنبًا آخر فقال : أي رب أصبت ذنبًا فاغفر لي فغفر له . ثم مكث ما شاء الله أن يمكث ثم أذنب ذنبًا آخر فقال : رب أصبت ذنبًا فاغفره لي ؟ فقال الله : علم عبدي أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء »[1] ؛ فليس في هذا إطلاق وإذن منه - سبحانه - له في المحرمات والجرائم ، وإنما يدل على أنه يغفر له ما دام كذلك إذا أذنب تاب .

واختصاص هذا العبد بهذا لأنه قد علم أنه لا يصر على ذنب وأنه كلما أذنب تاب : حكم يعم كل من كانت حاله حاله ؛ لكن ذلك العبد مقطوع له بذلك كما قطع به لأهل بدر ، وكذلك كل من بشره رسول الله ﷺ بالجنة أو أخبره بأنه مغفور له لم يفهم منه هو ولا غيره من الصحابة إطلاق الذنوب والمعاصي له ومسامحته بترك الواجبات ، بل كان هؤلاء أشد اجتهادًا وحذرًا وخوفًا بعد البشارة منهم قبلها كالعشرة المشهود لهم بالجنة .

« وقد كان الصديق شديد الحذر والمخافة وكذلك عمر ؛ فإنهم علموا أن البشارة المطلقة مقيدة

---

(١) مسلم (٢٧٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

بشروطها والاستمرار عليها إلى الموت ومقيدة بانتفاء موانعها ولم يفهم أحد منهم من ذلك الإطلاق الإذن فيما شاءوا من الأعمال ».

□ الشهادة بالجنة :

قوله : « ويشهدون بالجنة لمن شهد له النبي ﷺ : كالعشرة ، وكثابت بن قيس بن شماس ، وغيرهم من الصحابة » :

* العشرة هم : أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي ابن أبي طالب ، وطلحة بن عبيد اللَّه ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو عبيدة بن الجراح ، رضي اللَّه عنهم أجمعين . وقد صحت الأحاديث بالشهادة لهم بالجنة . وكذلك الشهادة لثابت بن قيس ، وعكاشة بن محصن ، وعبد اللَّه بن سلام ، وغيرهم .

وروى أحمد في المسند عن سعيد بن زيد أنه سمع النبي ﷺ يقول : « أبو بكر في الجنة وعمر في الجنة وعلي في الجنة وعثمان في الجنة وطلحة في الجنة والزبير في الجنة وعبد الرحمن في الجنة وسعد بن مالك في الجنة وتاسع المؤمنين في الجنة لو شئت أن أسميه لسميته - ثم أخبرهم أنه تاسع المؤمنين ورسول اللَّه ﷺ العاشر ثم أتبع ذلك يمينًا ثم قال واللَّه لمشهد شهده رجل يغبر فيه وجهه مع رسول اللَّه ﷺ أفضل من عمر أحدكم ولو عمّر عمر نوح »(١) .

ورواه ابن ماجه والترمذي وصححه . وروى الإمام أحمد والترمذي من حديث عبد الرحمن بن عوف أيضًا نحوه . وعن أبي هريرة قال : كان رسول اللَّه ﷺ على حراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير فتحركت الصخرة فقال رسول اللَّه ﷺ : « أهدأ فما عليك إلا نبي وصديق وشهيد » رواه مسلم(٢) .

وعن أبي موسى قال : « كنت مع النبي ﷺ في حائط من حيطان المدينة فجاء رجل فاستفتح فقال النبي ﷺ : افتح له وبشره بالجنة ففتحت له فإذا هو أبو بكر فبشرته بما قال النبي ﷺ فحمد اللَّه ، ثم جاء رجل فاستفتح فقال النبي ﷺ : افتح له وبشره ففتحت له فإذا هو عمر فأخبرته بما قال النبي ﷺ فحمد اللَّه ثم استفتح رجل فقال لي : افتح له وبشره بالجنة على بَلوى تصيبه ، فإذا هو عثمان فأخبرته بما قال النبي ﷺ فحمد اللَّه ثم قال : اللَّه المستعان »(٣) ، رواه مسلم بمعناه .

وفي الصحيحين من حديث حذيفة بن اليمان قال جاء أهل نجران إلى النبي ﷺ فقالوا : يا رسول

(١) أحمد (١/١٨٧) وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٥٠) .

(٢) مسلم (٢٤١٧) .

(٣) البخاري (٣٦٧٤) ، ومسلم (٢٤٠٣) .

الله ابعث إلينا رجلًا أمينًا ، فقال : لأبعثن إليكم رجلًا أمينًا حق أمين فاستشرف لها الناس قال فبعث أبا عبيدة بن الجراح [(١)] . وروى الشيخان عن جابر قال : ندب رسول الله ﷺ الناس يوم الخندق فانتدب الزبير ثم ندبهم فانتدب الزبير فقال النبي ﷺ : « لكل نبي حواري ، وحواري الزبير » [(٢)]. وهذا لفظ مسلم .

وروى البخاري عن أنس : « أن النبيَ ﷺ افتقد ثابت بن قيس رضي الله عنه فقال رجل : يا رسول الله أنا أعلم لك علمه فأتاه فوجده في بيته منكسًا رأسه فقال له : ما شأنك ؟ فقال : شر ، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة ، فقال اذهب فقل له : إنك لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة » [(٣)].

ولمسلم عن أنس فذكر الحديث وزاد : « فكنا نراه يمشي بين أظهرنا رجل من أهل الجنة » .

وفي الصحيحين عن عامر بن سعد عن أبيه قال : ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا عبد الله بن سلام قال وفيه نزلت : ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾ [(٤)] ، ولهما عن ابن عباس في قصة السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب - فقام عكاشة ابن محصن فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، قال : أنت منهم [(٥)] .

فقد شهد النبي ﷺ لهؤلاء بالجنة . فيشهد لهم بها ، وكذلك من شهد له غيرهم فيشهد لعموم المؤمنين بالجنة .

« وأما الشهادة لرجل بعينه بأنه من أهل النار أو الجنة فليس لأحد ذلك إلا بنص صحيح يوجب ؛ كالعشرة الذين بشرهم الصادق ﷺ بالجنة . ومنهم من جوز ذلك لمن استفاض في الأمة الثناء عليه كعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وأمثاله . وقد كان بعض السلف يمنع أن يشهد بالجنة لغير الرسول ﷺ حتى ناظر علي بن المدينى أحمد في هذه المسألة وقال أقول : إنهم في الجنة ولا أشهد لمعين ، قال أحمد : متى قلت إنهم في الجنة فقد شهدت أنهم في الجنة » .

« وأما توقف الناس في القطع بالجنة فلخوف الخاتمة . ومع هذا فنرجو للمحسن ونخاف على المسيء » .

« وإنما قد نقف في الشخص المعين فلا نشهد له بجنة ولا نار إلا عن علم لأن حقيقة باطنه وما مات

(١) البخاري (٣٧٤٥) ، ومسلم (٢٤٢٠) .
(٢) البخاري (٧٢٦١) ، ومسلم (٢٤١٥) .
(٣) البخاري (٣٦١٣) .
(٤) البخاري (٣٨١٢) ، مسلم (٢٤٨٣) .
(٥) البخاري (٦٥٤١) ، ومسلم (٢١٦) .

عليه لا نحيط به . ولكن نرجو للمحسن ونخاف على المسيء . ولهم في الشهادة بالجنة ثلاثة أقوال :

منهم من لا يشهد بالجنة لأحد إلا الأنبياء . وهذا قول محمد بن الحنفية ، والأوزاعي .

والثاني : أنه يشهد بالجنة لكل مؤمن جاء فيه نص . وهذا قول كثير من أهل الحديث .

والثالث : يشهد بالجنة لهؤلاء ولمن شهد له المؤمنون كما قال النبي ﷺ : « أنتم شهداء الله في الأرض »[1] . وقال : « يوشك أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار ، قالوا : بم يا رسول الله ؟ قال : بالثناء الحسن والثناء السيئ »[2] . فأخبر أن ذلك مما يعلم به أهل الجنة وأهل النار ، وكان أبو ثور « يقول : أشهد أن أحمد ابن حنبل في الجنة ويحتج بهذا » .

ومن حماقات الرافضة أنهم يكرهون التكلم بلفظ العشرة أو فعل شيء يكون عشرة ؛ حتى في البناء لا يبنون على عشرة أعمد ولا بعشرة جذوع ونحو ذلك لكونهم يبغضون خيار الصحابة وهم العشرة المشهود لهم بالجنة ، يبغضونهم إلا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ؛ ويبغضون السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، وقد أخبر الله أنه قد رضي عنهم .

وأنهم يتبرأون من جمهور هؤلاء بل يتبرأون من سائر أصحاب رسول الله ﷺ إلا نفرًا قليلًا نحو بضعة عشر . ومعلوم أنه لو فرض في العالم عشرة من أكفر الناس لم يجب هجر الاسم لذلك كما أنه سبحانه لما قال : ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ، لم يجب هجر اسم التسعة مطلقًا . بل اسم العشرة قد مدح الله مسماه في مواضع كقوله تعالى : ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ ، وقال : ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ ، وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال : « ما من أيام العمل فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر »[3] . ونظائر ذلك متعددة .

ومن العجب أنهم يوالون لفظ التسعة . وهم يبغضون لفظ التسعة من العشرة فإنهم يبغضونهم إلا عليًا . وكذلك هجرهم لاسم أبي بكر وعمر وعثمان ، ولمن تسمى بذلك حتى يكرهون معاملته . ومعلوم أن هؤلاء لو كانوا من أكفر الناس لم يشرع أن لا يتسمى الرجل بمثل أسمائهم . فقد كان في الصحابة من اسمه الوليد وكان النبي ﷺ يقنت في الصلاة ويقول : « اللهم أنج الوليد بن الوليد بن المغيرة »[4] ، وأبوه كان من أعظم الناس كفرًا ، وهو الوحيد المذكور في قوله تعالى : ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ ، وفي الصحابة من اسمه عمرو ، وفي المشركين من اسمه عمروَ وفي الصحابة من اسمه خالد ، وفي

---

(١) البخاري (١٣٦٧) ، ومسلم (٩٤٩) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) أحمد (٦/٤٦٦) ، ابن ماجه (٤٢٢١) ، وابن حبان (٧٣٨٤) وصححه الألباني في (تخريج الطحاوية) (٤٨٩) عن أبي زهير الثقفي رضي الله عنه .

(٣) البخاري (٩٦٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٤) البخاري (٨٠٤) ، ومسلم (٦٧٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

المشركين من اسمه خالد ، وفي الصحابة من اسمه هشام ، وفي المشركين من اسمه هشام ، وفي الصحابة من اسمه عقبة ، وفي المشركين من اسمه عقبة ، وفي الصحابة علي ، وعثمان ، وكان في المشركين من اسمه علي ، ومن اسمه عثمان .

ومثل هذا كثير ، فلم يكن النبي ﷺ والمؤمنون يكرهون اسمًا من الأسماء لكونه قد تسمى به كافر من الكفار ، فلو قدر أن المسلمين بهذه الأسماء كفار لم يوجب ذلك كراهة هذه الأسماء ، مع العلم لكل أحد بأن النبي ﷺ كان يدعوهم بها ويقر الناس على دعائهم بها ، وكثير منهم يزعم أنهم كانوا منافقين وكان النبي ﷺ يعلم أنهم منافقون ، وهو مع هذا يدعوهم بها . وعلي ابن أبي طالب رضي الله عنه قد سمى بها أولاده . فعلم أن جواز الدعاء بهذه الأسماء سواء كان ذلك المسمى بها مسلمًا أو كافرًا أمر معلوم من دين الإسلام ، فمن كره أن يدعو أحدًا بها كان من أظهر الناس مخالفة لدين الإسلام ، ثم مع هذا إذا تسمى الرجل عندهم باسم علي أو جعفر أو حسن أو حسين أو نحو ذلك عاملوه وأكرموه ، ولا دليل لهم في ذلك على أنه منهم والتسمية بتلك الأسماء قد تكون فيهم فلا يدل على أن المسمى من أهل السنة لكن القوم في غاية الجهل والهوى » .

« والرافضة توالى بدل العشرة المبشرين بالجنة اثنى عشر إمامًا ، أوَّلُهم علي ابن أبي طالب رضي الله عنه ويدَّعون أنه وصى النبي ﷺ دعوى مجردة عن الدليل ، ثم الحسن رضي الله عنه ، ثم الحسين رضي الله عنه ، ثم علي بن الحسين زين العابدين ، ثم محمد بن علي الباقر ، ثم جعفر بن محمد الصادق ، ثم موسى بن جعفر الكاظم ، ثم عليّ بن موسى الرضا ، ثم محمد بن علي الجواد ، ثم علي بن محمد الهادي ، ثم الحسن بن علي العسكري ، ثم محمد بن الحسن المنتظر ؛ ويغالون في محبتهم . ويتجاوزون الحد .

ولم يأت ذكر الأئمة الإثنى عشر إلا على صفة ترد قولهم وتبطله ، وهو ما خرجناه في الصحيحين عن جابر بن سمرة قال : دخلت مع أبي على النبي ﷺ فسمعته يقول : « لا يزال أمر الناس ماضيًا ما وليهم اثنا عشر رجلًا » . ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت عني فسألت أبي ماذا قال النبي ﷺ ؟ قال : « كلهم من قريش » . وفي لفظ : « لا يزال الإسلام عزيزًا إلى اثنى عشر خليفة »[1] .

وكان الأمر كما قال النبي ﷺ والإثنا عشر الخلفاء الراشدون الأربعة ، ومعاوية ، وابنه يزيد ، وعبد الملك بن مروان ، وأولاده الأربعة ، وبينهم عمر بن عبد العزيز ثم أخذ الأمر في الانحلال .

« وعند الرافضة أن أمر الأمة لم يزل في أيام هؤلاء فاسدًا يتولى عليهم الظالمون المعتدون ، بل المنافقون الكافرون ، وأهل الحق أذل من اليهود . وقولهم ظاهر البطلان ، بل لم يزل الإسلام عزيزًا في ازدياد في أيام هؤلاء » .

---

(١) مسلم (١٨٢١) ، والبخاري (٧٢٢٢) .

□ الخلفاء الراشدون :

قوله : « ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره من أن خير هذه الأمة بعد نبيها : أبو بكر ، ثم عمر . ويثلثون بعثمان ، ويربعون بعلي ....» :

إحداها : **مسألة الخلافة .**

والثانية : **مسألة التفضيل فقد أجمع أهل السنة علي أن الخليفة بعد رسول اللَّه ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ، واتفقوا علي أن أفضل الصحابة هو أبو بكر الصديق وهو الأحق بالخلافة ثم يليه في الأفضلية عمر بن الخطاب ، ثم اختلفوا في عثمان وعلى وعلي أيهما أفضل ؟ واستقر أمرهم أخيرًا على تفضيل عثمان فترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة .**

وروى البخاري عن ابن عمر قال : كنا في زمن النبي ﷺ : لا نعدل بأبي بكر أحدًا ثم عمر ثم عثمان ثم نترك أصحاب النبي ﷺ لا نفاضل بينهم .

وروى أبو داود عنه : كنا نقول ورسول اللَّه ﷺ حي أفضل أمة النبي ﷺ بعده أبو بكر ثم عمر ثم عثمان رضي اللَّه عنهم أجمعين .

زاد الطبراني في رواية : فيسمع رسول اللَّه ذلك فلا ينكر .

وقال سفيان الثوري : من زعم أن عليا كان أحق بالولاية منهما فقد خطأ أبا بكر وعمر والمهاجرين والأنصار ، وما أراه يرتفع له مع هذا عمل إلى السماء . ذكره أبو داود .

وقال شريك بن أبي نمر : واللَّه لقد رقى على هذه الأعواد ، فقال : ألا إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر أفكنا نرد قوله ؟ أفكنا نكذبه ؟ واللَّه ما كان كذابًا .

وقال مالك بن أنس : ما رأيت أحدًا يشك في تقديمهما - يعني أبا بكر وعمر .

وقال الشافعي : لم يختلف الصحابة والتابعون في تقديم أبي بكر وعمر .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « بينا أنا نائم رأيتني علي قليب عليها دلو فنزعت منها ما شاء اللَّه ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع منها ذنوبًا أو ذنوبين وفي نزعه ضعف واللَّه يغفر له ، ثم استحالت غربًا فأخذها ابن الخطاب فلم أر عبقريًا من الناس يفري فريه » حتى ضرب الناس بعطن[1] .

وفي سنن أبي داود وغيره عن أبي بكرة أن النبي ﷺ قال : « ذات يوم من رأى منكم رؤيا فقال رجل : أنا رأيت ميزانًا أنزل من السماء فوزنت أنت وأبو بكر فرجحت أنت بأبي بكر ثم وزن عمر وعثمان فرجح عمر ثم رفع ، فرأيت الكراهية في وجه النبي ﷺ فقال : خلافة ثم يؤتي اللَّه الملك

(١) البخاري (٧٤٧٥) ، ومسلم (٢٣٩٢) .

من يشاء»[1] ؛ فبين ﷺ أن ولاية هؤلاء خلافة نبوة ثم بعد ذلك ملك ، وليس فيه ذكر علي رضي الله عنه لأنه لم يجتمع الناس في زمانه . بل كانوا مختلفين لم ينتظم فيه خلافة النبوة ولا الملك .

وروى أبو داود أيضًا عن جابر رضي الله عنه أنه كان يحدث : أن رسول الله ﷺ قال : «رأى الليلة رجل صالح أن أبا بكر نيط برسول الله ﷺ ونيط عمر بأبي بكر ونيط عثمان بعمر»[2] ؛ قال جابر : فلما قمنا من عند رسول الله ﷺ قلنا : أما الرجل الصالح فرسول الله ﷺ وأما المنوط بعضهم ببعض فهم ولاة هذا الأمر الذي بعث الله به نبيه .

وعن سعيد بن جهمان عن سفينة قال : قال رسول الله ﷺ : «خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتي الله ملكه من يشاء أو الملك»[3] ؛ قال سعيد : قال لي سفينة : أمسك مدة أبي بكر سنتان وعمر عشر وعثمان اثنتا عشرة وعليّ كذا .

«وقد ذهبت طوائف من أهل السنة إلى أن إمامة أبي بكر ثبتت بالنص ، والنزاع في ذلك معروف في مذهب أحمد وغيره من الأئمة ، وقد ذكر القاضي أبو يعلى وغيره في ذلك روايتين عن الإمام أحمد .

إحداهما : أنها ثبتت بالاختيار . قال وبهذا قال جماعة من أهل الحديث والمعتزلة والأشعرية وهذا اختيار القاضي أبي يعلى وغيره .

والثانية : أنها ثبتت بالنص الخفي والإشارة ، قال : وبهذا قال الحسن البصري وجماعة من أهل الحديث والبهيسية من الخوارج ، وقال شيخه أبو عبد الله بن حامد . فأما الدليل على استحقاق أبي بكر الخلافة دون غيره من أهل البيت والصحابة ؛ فمن كتاب الله وسنة نبيه . قال واختلف أصحابنا في الخلافة هل أخذت من حيث النص أو الاستدلال ؟ فذهب طائفة من أصحابنا إلى أن ذلك بالنص . وأنه ﷺ ذكر ذلك نصًا وقطع البيان على عينه حتمًا .

ومن أصحابنا من قال : إن ذلك بالاستدلال الجلي . وقال أبو محمد بن حزم : اختلف الناس في الإمامة بعد رسول الله ﷺ فقالت طائفة : إن النبي ﷺ لم يستخلف أحدًا ثم اختلفوا فقال بعضهم : لكن لما استخلف أبا بكر على الصلاة كان ذلك دليلًا على أنه أولاهم بالإمامة والخلافة على الأمر ؛ وقال بعضهم . لا ؛ ولكن كان أثبتهم فضلًا فقدموه لذلك ، وقالت طائفة : بل نص رسول الله ﷺ على استخلاف أبي بكر بعده على أمور الناس نصًا جليًا ، قال أبو محمد : وبهذا نقول .

والمقصود أن كثيرًا من أهل السنة يقولون : إن خلافة أبي بكر ثبتت بالنص ، وهم يسندون ذلك إلى

---

(١) أبو داود (٤٦٣٦) ، والترمذي (٢٢٨٧) ، وصححه الألباني في «المشكاة» (٦٠٥٧) .

(٢) أحمد (٣/٣٥٥) ، أبو داود (٤٦٣٨) ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٧٨٧) .

(٣) أحمد (٥/٢٢٠) ، أبو داود (٤٦٤٨) ، الترمذي (٢٢٢٦) ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٢٥٧) .

أحاديث صحيحة معروفة ، ولا ريب أن قول هؤلاء أوجه من قول من يقول : إن خلافة على أو العباس ثبتت بالنص .

فإن هؤلاء ليس معهم إلا مجرد الكذب والبهتان الذي يعلم بطلانه بالضرورة كل من كان عارفًا بأحوال الإسلام ، أو الاستدلال بألفاظ لا تدل على ذلك كحديث استخلافه في غزوة تبوك ونحوه .

والتحقيق أن النبي ﷺ دل المسلمين على استخلاف أبي بكر وأرشدهم إليه بأمور متعددة من أقواله وأفعاله ، وأخبر بخلافته إخبار راض بذلك حامد له وعزم على أن يكتب بذلك عهدًا ، ثم علم أن المسلمين يجتمعون عليه فترك الكتاب اكتفاء بذلك ، ثم عزم على ذلك في مرضه يوم الخميس ، ثم لما حصل لبعضهم شك هل ذلك القول من جهة المرض أو هو قول يجب إتباعه ، ترك الكتابة اكتفاءً بما علم أن اللّه يختاره والمؤمنون من خلافة أبي بكر رضي اللّه عنه .

فلو كان التعيين مما يشتبه على الأمة لبينه رسول اللّه ﷺ بيانًا قاطعًا للعذر لكن لما دلهم دلالات متعددة على أن أبا بكر هو المتعين وفهموا ذلك حصل المقصود ، ولهذا قال عمر بن الخطاب في خطبته التي خطبها بمحضر من المهاجرين والأنصار ، وليس فيكم من تقطع إليه أعناق الإبل مثل أبي بكر . رواه البخاري ، ومسلم .

وفي الصحيحين أيضًا عنه أنه قال يوم السقيفة بمحضر من المهاجرين والأنصار : أنت خيرنا وأحبنا لرسول اللّه ﷺ ولم ينكر ذلك منهم أحد ولا قال أحد من الصحابة : إن غير أبي بكر أحق بالخلافة منه ، ولم ينازع أحد في خلافته إلا بعض الأنصار طمعًا في أن يكون من الأنصار أمير ومن المهاجرين أمير . وهذا مما ثبت بالنصوص المتواترة عن النبي ﷺ بطلانه .

ثم الأنصار جميعهم بايعوا أبا بكر إلا سعد بن عبادة هو الذي كان يطلب الولاية ولم يقل أحد من الصحابة قط أن النبي ﷺ نص على غير أبي بكر ، لا على العباس ، ولا على علي ، ولا على غيرهما ، ولا ادعى العباس ، ولا علي ، ولا أحد ممن يحبهما الخلافة لواحد منهما ، ولا أنه منصوص عليه . بل ولا قال أحد من الصحابة أن في قريش من هو أحق بها من أبي بكر ، لا من بني هاشم ، ولا من غير بني هاشم .

وهذا كله مما يعلمه العلماء العاملون بالآثار والسنن والحديث وهو معلوم عندهم بالاضطرار ، وقد نقل عن بعض بني عبد مناف مثل أبي سفيان ، وخالد بن سعيد : أنهم أرادوا أن لا تكون الخلافة إلا في بني عبد مناف وأنهم ذكروا ذلك لعثمان وعلي فلم يلتفتا إلى من قال ذلك لعلمهما وعلم سائر المسلمين : أنه ليس في القوم مثل أبي بكر ، ففي الجملة جميع من نقل عنه من الأنصار أنه طلب تولية غير أبي بكر لم يذكر حجة دينية شرعية ، ولا ذكر : أن غير أبي بكر أحق بها وأفضل من أبي بكر ؛ وإنما نشأ كلامه عن حب لقومه وقبيلته وإرادة منه أن تكون الإمامة في قبيلته ، ومعلوم أن مثل هذا ليس من الأدلة الشرعية ، ولا الطرق الدينية ، ولا هو مما أمر اللّه ورسوله المؤمنين باتباعه ؛ بل هو شعبة جاهلية ونوع

عصبية للأنساب والقبائل . وهذا مما بعث الله محمدًا ﷺ بهجره وبطلانه . وأما كون الخلافة في قريش فلما كان هذا من شرعه ودينه كانت النصوص بذلك معروفة منقولة مأثورة تذكرها الصحابة ؛ بخلاف كون الخلافة في بطن من قريش أو غير قريش فإنه لم ينقل أحد من الصحابة فيه نصًا ؛ بل ولا قال أحد أنه كان في قريش من هو أحق بالخلافة في دين الله وشرعه من أبي بكر ، ومثل هذه الأمور كلما تدبرها العالم تدبر النصوص الثابتة وسائر الصحابة حصل له علوم ضرورية لا يمكنه دفعها عن قلبه : أنه كان من الأمور المشهورة عند المسلمين أن أبا بكر مقَدم على غيره ، وأنه كان عندهم أحق بخلافة النبوة وأن الأمر في ذلك بين ظاهر عندهم ليس فيه اشتباه عليهم .

ولهذا قال رسول الله ﷺ : « يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر » . ومعلوم أن هذا العلم الذي عندهم بفضله وتقدمه إنما استفادوه من النبي ﷺ بأمور سمعوها وعاينوها ، وحصل بها لهم من العلم ما علموا به أن الصديق أحق الأمة بخلافة نبيهم وأفضلهم عند نبيهم .

وأنه ليس فيهم من يشابهه حتى يحتاج في ذلك إلى مناظرة ، ولم يقل أحد من الصحابة : إن عمر بن الخطاب أو عثمان أو عليًا أو غيرهم أفضل من أبي بكر أو أحق بالخلافة منه ، وكيف يقول ذلك وهم دائمًا يرون من تقديم النبي ﷺ لأبي بكر على غيره وتفضيله له وتخصيصه بالتعظيم ما قد ظهر للخاص والعام ؟ حتى إن أعداء النبي ﷺ من المشركين وأهل الكتاب والمنافقين يعلمون أن لأبي بكر من الاختصاص ما ليس لغيره .

فقد ظهر لعامة الخلائق أن أبا بكر رضي الله عنه كان أخص الناس بمحمد ﷺ فهذا النبي وهذا صديقه ؛ فإذا كان محمد أفضل النبيين فصديقه أفضل الصديقين . فخلافة أبي بكر دلت النصوص الصحيحة على صحتها وثبوتها ورضا الله ورسوله له بها ، وانعقدت بمبايعة المسلمين له واختيارهم إياه اختيارًا استندوا فيه إلى ما علموه من تفضيل الله ورسوله ، وأنه أحقهم بهذا الأمر عند الله ورسوله . فصارت ثابتة بالنص والإجماع جميعًا ، لكن النص دل على رضى الله ورسوله بها ، وأنها أحق ، وأن الله أمر بها وقدرها ، وأن المؤمنين يختارونها ، وكان هذا أبلغ من مجرد العهد بها لأنه حينئذ يكون طريق ثبوتها مجرد العهد ، وأما إذا كان المسلمون قد اختاروا من غير عهد ودلت النصوص على صوابهم فيما فعلوه ورَضِيَ الله ورسوله بذلك كان ذلك دليلًا على أن النصوص كان فيه من الفضائل التي بان بها عن غيره ما علم المسلمون به وأنه أحقهم بالخلافة فإن ذلك لا يحتاج فيه إلى عهد خاص .

كما قال النبي ﷺ لما أراد أن يكتب لأبي بكر فقال لعائشة : « ادعي لي أباك وأخاك حتى أكتب لأبي بكر كتابًا فإني أخاف أن يتمنى متمن ، ويقول قائل : أنا أولى ؟ ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر »[1] ؛ أخرجاه في الصحيحين .

(١) مسلم (٢٣٨٧) ، وهذا اللفظ ليس في البخاري .

فبين ﷺ أنه يريد أن يكتب كتابًا خوفًا ثم علم أن الأمر واضح ظاهر ليس مما يقبل النزاع فيه ، والأمة حديثة عهد بنبيها ، وهم خير أمة أخرجت للناس وأفضل قرون الأمة فلا يتنازعون في هذا الأمر الواضح الجلي . فإن النزاع إنما يكون لخفاء العلم ، أو لسوء القصد ، وكلا الأمرين منتف ، فإن العلم بفضيلة أبي بكر الصديق واستخلافه لهذا الأمر يغني عن العهد فلا يحتاج إليه فتركه لعدم الحاجة وظهور فضيلة الصديق واستحقاقه . وهذا أبلغ من العهد .

والإمامة عند أهل السنة ثبتت بموافقة أهل الشوكة عليها ولا يصير الرجل إمامًا حتى يوافقه أهل الشوكة الذين يحصل بطاعتهم له مقصود الإمامة ، فإن المقصود بالإمامة إنما يحصل بالقدرة والسلطان ، فإذا بويع بيعة حصلت بها القدرة والسلطان صار إمامًا ، والكلام هنا في مقامين .

أحدهما : في كون أبي بكر هو المستحق للإمامة ، وأن مبايعتهم له مما يحبه الله ورسوله . فهذا ثابت بالنص والإجماع .

والثاني : أنه متى صار إمامًا فذلك بمبايعة أهل القدرة له .

وكذلك عمر لما عهد إليه أبو بكر ، إنما صار إمامًا لَمَّا بايعوه وأطاعوه ، ولو قدر أنهم لم ينفذوا عهد أبي بكر ولم يبايعوه ، لم يصر إمامًا سواء كان ذلك جائزًا ، أو غير جائز . فالحل والحرمة متعلق بالأفعال . وأما نفس الولاية والسلطان فهو عبارة عن القدرة والحاصلة .

ثم قد تحصل على وجه يحبه الله ورسوله كسلطان الخلفاء الراشدين ، وقد تحصل على وجه فيه معصية كسلطان الظالمين . ولو قدر أن عمر وطائفة معه بايعوه وامتنع سائر الصحابة عن البيعة لم يصر إمامًا بذلك ، وإنما صار إمامًا بمبايعة جمهور الصحابة الذين هم أهل القدرة والشوكة ، ولهذا لم يضر تخلف سعد بن عبادة ؛ لأن ذلك لا يقدح في مقصود الولاية ، فإن المقصود حصول القدرة والسلطان الذين بهما تحصل مصالح الإمامة وذلك قد يحصل بموافقة الجمهور على ذلك فمن قال : إنه يصير إمامًا بموافقة واحد أو أثنين أو أربعة وليسوا هم ذوي القدرة والشوكة فقد غلط . كما أن من ظن أن تخلف الواحد أو الاثنين والعشرة يضر فقد غلط .

وأما عمر فإن أبا بكر عهد إليه وبايعه المسلمون بعد موت أبي بكر فصار إمامًا لما حصلت له القدرة والسلطان بمبايعتهم وأما عثمان فإنما صار إمامًا بمبايعة الناس لهِ ، وجميع المسلمين بايعوا عثمان بن عفان لم يتخلف عن بيعته أحد .

قال الإمام أحمد في رواية حمدان بن علي : ما كان في القوم من بيعة عثمان كانت بإجماعهم فلما بايعه ذوو الشوكة والقدرة صار إمامًا وإلا لو قدر أن عبد الرحمن بايعه ولم يبايعه علي ولا غيره من الصحابة أهل الشوكة لم يصر إمامًا ، ولكن عمر جعلها شورى في ستة : عثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف ثم أنه خرج طلحة والزبير وسعد باختيارهم . وبقي عثمان وعلي

وعبد الرحمن بن عوف واتفق الثلاثة باختيارهم على أن عبد الرحمن بن عوف لا يتولى ويولى أحد الرجلين وأقام عبد الرحمن ثلاثًا حلف أنه لم يغتمض فيها بكبير نوم يشاور السابقين الأولين والتابعين لهم بإحسان ويشاور أمراء الأجناد وكانوا قد حجوا مع عمر ذلك العام فأشار عليه المسلمون بولاية عثمان وذكر أنهم كلهم قدموا عثمان فبايعوه لا عن رغبة أعطاهم إياها ولا عن رهبة أخافهم بها ، ولهذا قال غير واحد من السلف والأئمة ؛ كأيوب السختياني وأحمد بن حنبل والدارقطني وغيرهم : من قدم عليًا على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار ، وهذا من الأدلة الدالة على أن عثمان أفضل لأنهم قدموه باختيارهم واشتوارهم .

وأما علي رضي الله عنه فإنه بويع عقب قتل عثمان رضي الله عنه والقلوب مضربة مختلفة وأكابر الصحابة متفرقون وأحضر طلحة إحضارًا وكان لأهل الفتنة بالمدينة شوكة لما قتلوا عثمان وماج الناس لقتله موجًا عظيمًا .

وكثير من الصحابة لم يبايع عليًا كعبد الله بن عمر وأمثاله وكان الناس معه ثلاثة أصناف : صنف قاتلوا معه وصنف قاتلوه ، وصنف لم يقاتلوه ولم يقاتلوا معه .

ولهذا اضطرب الناس في خلافة علي على أقوال :

فقالت طائفة : أنه إمام وأن معاوية إمام وأنه يجوز نصب إمامين في وقت إذا لم يمكن الاجتماع على إمام واحد . وهذا يحكى عن الكرامية وغيرهم .

وقالت طائفة : لم يكن في ذلك الزمان إمام عام ، بل كان زمان فتنة . وهذا قول طائفة من أهل الحديث البصريين وغيرهم ، ولهذا لما أظهر الإمام أحمد التربيع بعلي في الخلافة ، وقال : من لم يربع بعلي في الخلافة فهو أضل من حمار أهله ، أنكر ذلك طائفة من هؤلاء وقالوا : قد أنكر خلافته من لا يقال هو أضل من حمار أهله ، يريدون من تخلف عنها من الصحابة ، واحتج أحمد وغيره على خلافة علي بحديث سفينة عن النبي ﷺ تكون خلافة النبوة ثلاثين سنة ثم تصير ملكًا .

قوله : (وقالت طائفة ثالثة : بل علي هو الإمام وهو مصيب في قتاله لمن قاتله ، وكذلك من قاتله من الصحابة كطلحة والزبير كلهم مجتهدون مصيبون ...) .

وهذا قول طائفة من الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم . ذكره أبو عبد الله بن حامد ، ذكر لأصحاب أحمد في المقتتلين يوم الجمل وصفين ثلاثة أوجه :

أحدهما : كلاهما مصيب .

والثاني : المصيب واحد لا بعينه .

والثالث : أن عليًا هو المصيب ومن خالفه مخطئ . والمنصوص عن أحمد وأئمة السنة أنه لا يذم أحد منهم وأن عليًا أولى بحق من غيره . وأما تصويب القتال فليس هو قول أئمة السنة بل هم يقولون إن تركه كان أولى .

وطائفة رابعة : تجعل عليًا هو الإمام وكان مجتهدًا مصيبًا في القتال ومن قاتله كانوا مجتهدين مخطئين ، وهذا قول كثير من أهل الكلام والرأي من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم .

وطائفة خامسة : تقول أن عليًا مع كونه خليفة وهو أقرب إلى الحق من معاوية فكان ترك القتال أولى وينبغي الإمساك عن القتال لهؤلاء وهؤلاء . وعلى هذا جمهور أئمة الحديث وهو مذهب مالك والثوري وأحمد وغيرهم .

وهذه أقوال من يحسن القول في علي وطلحة والزبير ومعاوية . ومن سوى هؤلاء من الخوارج والروافض والمعتزلة فمقالاتهم في الصحابة لون آخر . فالخوارج تكفر عليًا وعثمان ومن والاهما .

والروافض تكفر جميع الصحابة كالثلاثة ومن والاهم وتفسقهم ، ويكفرون من قاتل عليًا ويقولون : هو إمام معصوم .

وطائفة من المروانية تفسقه وتقول : إنه ظالم . وطائفة من المعتزلة تقول : قد فسق إما هو وإما من قاتله ، لكن لا يعلم عينه ، وطائفة منهم تفسق معاوية وعمرًا دون طلحة والزبير وعائشة » .

« وأهل السنة يثبتون خلافة الخلفاء الأربعة كلهم ، ويستدلون علي صحة خلافتهم بالنصوص الدالة عليها ويقولون إنها انعقدت بمبايعة أهل الشوكة لهم ، وعلي بايعه أهل الشوكة وإن كانوا لم يجتمعوا عليه كما اجتمعوا على من قبله ، لكن لا ريب أنه كان ذو سلطان وقوة بمبايعة أهل الشوكة له ، وقد دل النص على أن خلافته خلافة نبوة » .

« ويعلمون مع هذا مراتب السابقين الأولين فيعلمون أن لأبي بكر وعمر من التقدم والفضائل ما لم يشركهما فيه أحد من الصحابة لا عثمان ولا علي ولا غيرهما ، وهذا كان متفقًا عليه في الصدر الأول إلا أن يكون خلاف شاذ لا يعبأ به ؛ حتى إن الشيعة الأولى أصحاب علي لم يكونوا يرتابون في تقديم أبي بكر وعمر عليه ، كيف وقد ثبت عنه من وجوه متواترة أنه كان يقول : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر ، ولكن كان طائفة من شيعة علي تقدمه على عثمان .

« وهذه المسألة أخفى من تلك . ولهذا كان أئمة أهل السنة متفقين على تقديم أبي بكر وعمر كما هو مذهب أبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد بن حنبل والثوري والأوزاعي والليث بن سعد وسائر أئمة المسلمين من أهل الفقه والحديث والزهد والتفسير من المتقدمين والمتأخرين وأما عثمان وعلي فكان طائفة من أهل المدينة يتوقفون فيهما وهي إحدى الروايتين عن مالك . وكان طائفة من الكوفيين يقدمون عليًا وهي إحدى الروايتين عن سفيان الثوري . ثم قيل إنه رجع عن ذلك لما اجتمع به أيوب السختياني . وقال : من قدم عليًا على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار ، وسائر أئمة السنة على تقديم عثمان وهو مذهب جماهير أهل الحديث . وعليه يدل النص والإجماع والاعتبار . وأما ما يحكى عن بعض

المتقدمين من تقديم جعفر أو تقديم طلحة أو نحو ذلك فذلك في أمور مخصوصة ، لا تقديمًا عامًا . وكذلك ما ينقل عن بعضهم في علي » .

□ فضيلة أهل بيت النبي وأزواجه :

قوله : « ويحبون أهل بيت رسول اللَّه ﷺ ويتولونهم ، ويحفظون فيهم وصية رسول اللَّه ﷺ : حيث قال يوم غدير خُم : « أذكركم اللَّه في أهل بيتي ، أذكركم اللَّه في أهل بيتي » ...»[1]

قوله : « يوم غدير خم » . **« خم » بضم الخاء المعجمة وفتحها وتشديد الميم . اسم رجل صباغ أضيف إليه الغدير الذي بين مكة والمدينة قريب من الجحفة وقيل إنه اسم لغيظة هناك - وهي الشجر الملتف - وبها غدير نسب إليها . وخطبة النبي ﷺ في غدير خم كانت في طريق عودته إلى المدينة في الثامن عشر من ذي الحجة منصرفة من حجة الوداع .**

وروى مسلم في صحيحه عن زيد بن أرقم قال : قام فينا رسول اللَّه ﷺ يومًا خطيبًا بماء يدعى خمًا بين مكة والمدينة فحمد اللَّه تعالى وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال : « أما بعد : ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين : أولهما كتاب اللَّه تعالى فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب اللَّه واستمسكوا به - فحث على كتاب اللَّه ﷻ ورغب فيه ثم قال : وأهل بيتي أذكركم اللَّه في أهل بيتي . أذكركم اللَّه في أهل بيتي ، أذكركم اللَّه في أهل بيتي . فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده . قال : ومن هم ؟ قال : هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس رضي الله عنهم ، قال : كل هؤلاء حرم الصدقة ؟ قال : نعم »[2] .

وعن العباس بن عبد المطلب قال : قلت يا رسول اللَّه إن قريشًا إذا لقي بعضهم بعضًا لقوهم ببشر حسن وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها فغضب ﷺ غضبًا شديدًا وقال : « والذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم للَّه ولرسوله »[3] . رواه أحمد . وفي لفظ ، ثم قال : « يا أيها الناس من آذى عمي فقد آذاني فإنما عم الرجل صنو أبيه »[4] . قال الترمذي : حسن صحيح .

ولمسلم عن واثلة بن الأسقع قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « إن اللَّه اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشًا من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم »[5] .

---

(١) مسلم (٢٤٠٨) عن زيد بن أرقم رضي الله عنه .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) أحمد (١/٢٠٧) ، والترمذي (٣٧٥٨) ، وابن ماجه (٤٠) وضعفه الألباني في « الضعيفة » (٤٤٣٠) .

(٤) الترمذي (٣٧٥٨) وضعفه الألباني في « الضعيفة » (٤٤٣٠) .

(٥) تقدم تخريجه .

ورواه أحمد والترمذي من طريق أخرى ولفظه : « إن اللَّه اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ؛ واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة » . الحديث : قال الترمذي : هذا حديث صحيح .

« والذي عليه أهل السنة والجماعة اعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس العجم عبرانيهم وسريانيهم ، رومهم وفرسهم وغيرهم وأن قريشًا أفضل العرب وأن بني هاشم أفضل من قريش ، وأن رسول اللَّه ﷺ أفضل من بني هاشم ، فهو أفضل الخلق نفسًا وأفضلهم نسبًا ، وليس فضل العرب ثم قريش ثم بني هاشم بمجرد كون النبي ﷺ منهم ، وإن كان هذا من الفضال ، بل هم في أنفسهم أفضل ، وبذلك ثبت لرسول اللَّه ﷺ أنه أفضل نفسًا ونسبًا ، وإلا لزم الدور . ولهذا ذكر أبو محمد حرب بن إسماعيل بن خلف الكرماني صاحب الإمام أحمد في وصفه للسنة قوله : ونعرف للعرب حقها وفضلها وسابقتها ، ونحبهم لحديث رسول اللَّه ﷺ حب العرب إيمان وبغضهم نفاق ، ولا نقول بقول الشعوبية وأراذل الموالي الذين لا يحبون العرب ، ولا يقرون بفضلهم ؛ فإن قولهم بدعة وخلاف وهذا قول أحمد وعامة أهل العلم .

وذهبت فرقة من الناس إلى أنه لا فضل لجنس العرب على جنس العجم ، وهؤلاء يسمون الشعوبية لانتصارهم للشعوب التي هي مغايرة للقبائل . كما قيل : قيل القبائل للعرب والشعوب للعجم .

ومن الناس من قد يفضل بعض أنواع العجم على العرب . والغالب أن مثل هذا الكلام يصدر إلا عن نفاق : إما في الاعتقاد ، وإما في العمل المنبعث عن هوى النفس مع شبهات اقتضت ذلك . والدليل على فضل جنس العرب ثم جنس قريش ثم جنس بني هاشم ما رواه الترمذي عن العباس بن عبد المطلب قال : قلت يا رسول اللَّه : إن قريشًا جلسوا فتذكروا أحسابهم بينهم فجعلوا مثلك كمثل نخلة في كبوة من الأرض ، فقال النبي ﷺ : « إن اللَّه خلق الخلق فجعلني من خير فرقهم ، ثم خير القبائل فجعلني في خير قبيلة . ثم خير البيوت فجعلني في خير بيوتهم فأنا خيرهم نفسًا وخيرهم بيتًا »[1] .

قال الترمذي : هذا حديث حسن ، ورواه الترمذي أيضًا عن المطلب بن أبي وداعة قال : جاء العباس إلى رسول اللَّه صلى اللَّه فكأنه سمع شيئًا فقام النبي ﷺ على المنبر فقال : « من أنا ؟ فقالوا : أنت رسول اللَّه ، قال : أنا محمد بن عبد اللَّه بن عبد المطلب ثم قال : إن اللَّه خلق الخلق فجعلني في خيرهم ، ثم جعلهم فرقتين فجعلني في خير فرقة ، ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة . ثم جعلهم بيوتًا فجعلني في خيرهم بيتًا وخيرهم نفسًا »[2] . ورواه أحمد في المسند .

والحديث صريح في تفضيل العرب على غيرهم . وقد بين النبي ﷺ أن هذا التفضيل يوجب المحبة لبني هاشم ثم لقريش ثم للعرب .

---

(١) الترمذي (٣٦٠٧) ، وضعفه الألباني في « الضعيفة » (٣٠٧٣) .

(٢) الترمذي (٣٦٠٨) ، وضعفه الألباني في « الضعيفة » (٣٠٧٣) .

واعلم أن الأحاديث في فضل قريش ثم في فضل بني هاشم فيها كثرة وهي تدل أيضًا على ذلك إذ نسبة قريش إلى العرب كنسبة العرب إلى الناس . وهكذا جاءت الشريعة . فإن اللَّه تعالى خص العرب ولسانهم بأحكام تميزوا بها . ثم خص قريشًا على سائر العرب بما جعل فيهم من خلافة النبوة وغير ذلك من الخصائص ثم خص بني هاشم بتحريم الصدقة واستحقاق قسط من الفيء إلى غير ذلك من الخصائص فأعطى اللَّه سبحانه كل درجة من الفضل بحسبها واللَّه عليم حكيم (واللَّه أعلم حيث يجعل رسالته) .

وعن ابن عمر قال : إنا لجلوس بفناء النبي ﷺ إذ مرت بنا امرأة فقال بعض القوم : هذه ابنة رسول اللَّه ﷺ ، فقال أبو سفيان : مثل محمد في بني هاشم مثل الريحانة في وسط النتن فانطلقت المرأة فأخبرت النبي ﷺ فجاء النبي ﷺ يعرف في وجهه الغضب فقال : « ما بال أقوال تبلغني عن أقوام ؟ إن اللَّه خلق السماوات سبعًا فاختار العليا منها وأسكنها من شاء من خلقه ، ثم خلق الخلق فاختار من الخلق بني آدم ، واختار من بني آدم العرب ، واختار من العرب مضر واختار من مضر قريشًا ، واختار من قريش بني هاشم واختارني من بني هاشم ، فأنا خيار من خيار من خيار ، فمن أحب العرب فبحبي أحبهم ، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم »[(١)] .

وروى الترمذي وغيره عن سلمان قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « يا سلمان لا تبغضني فتفارق دينك ، قلت يا رسول اللَّه : كيف أبغضك وبك هداني اللَّه ؟ قال : تبغض العرب فتبغضني »[(٢)] قال الترمذي : حسن غريب . فقد جعل النبي ﷺ بغض العرب سببًا لفراق الدين وجعل بغضهم مقتضيًا لبغضه ، ويشبه أن يكون النبي ﷺ خاطب سلمان بهذا وهو سابق الفرس ذو الفضائل المأثورة تنبيهًا لغيره من سائر الفرس لما أعلمه اللَّه من أن الشيطان قد يدعو النفوس إلى شيء من هذا . وهذا دليل على أن بغض جنس العرب ومعاداتهم كفر ، أو سبب للكفر ، ومقتضاه : أنهم أفضل من غيرهم وأن محبتهم سبب قوة الإيمان لأنه لو كان تحريم بغضهم كتحريم بغض سائر الطوائف لم يكن ذلك سببًا لفراق الدين ؛ ولا لبغض الرسول . بل كان يكون ذلك نوع عدوان فلما جعله سببًا لفراق الدين وبغض الرسول دل على أن بغضهم أعظم من بغض غيرهم ؛ وذلك دليل على أنهم أفضل لأن الحب والبغض يتبع الفضل فمن كان بغضه أعظم دل على أنه أفضل ، ودل حينئذ على أن محبته دين ؛ لأجل ما فيه من زيادة الفضل ، ولأن ذلك ضد البغض ؛ ومن كان بغضه سببًا للعذاب لخصوصه كان حبه سببًا للثواب وفي ذلك دليل على الفضل .

وأيضًا فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما وضع ديوان العطاء كتب الناس على قدر أنسابهم ، فبدأ

(١) « المستدرك » (٤/٨٣) ، الطبراني في « الكبير » (١٣/٤٥٥) ، وضعفه الألباني في « الضعيفة » (٣٠٣٨) .
(٢) أحمد (٥/٤٤٠) ، الترمذي (٣٩٢٧) ، وضعفه الألباني في « الضعيفة » (٢٠٢٩) .

بأقربهم نسبًا إلى رسول اللَّه ﷺ ، فلما انقضت العرب ذكر العجم . هكذا كان الديوان على عهد الخلفاء الراشدين وسائر الخلفاء من بني أمية وولد العباس إلى أن تغير الأمر بعد ذلك ؛ وسبب هذا الفضل - واللَّه أعلم - ما اختصوا به في عقولهم وألسنتهم وأخلاقهم وأعمالهم وذلك أن الفضل : إما بالعلم النافع ، وإما بالعمل الصالح والعلم له مبدأ وهو : قوة العقل الذي هو الحفظ والفهم ، وتمام وهو : قوة المنطق الذي هو البيان والعبارة ، ولسانهم أتم الألسنة بيانًا وتمييزًا للمعاني جمعًا وفرقًا .

وأما العمل فإن مبناه على الأخلاق ، وهي الغرائز المخلوقة في النفس وغرائزهم أطوع للخير من غيرهم ، فهم أقرب للسخاء والحلم والشجاعة والوفاء وغير ذلك من الأخلاق المحمودة ؛ لكن كانوا قبل الإسلام طبيعة قابلة للخير معطلة عن فعله ، ليس عندهم علم منزل من السماء ولا شريعة موروثة عن نبي ، ولا هم أيضًا مشتغلون ببعض العلوم العقلية المحضة كالطب والحساب ونحوهما ؛ إنما علمهم ما سمحت به قرائحهم من الشعر والخطب وما حفظوه من أنسابهم وأيامهم ؛ وما احتاجوا إليه في دنياهم من الأنواء والنجوم أو من الحروب .

فلما بعث اللَّه محمدًا ﷺ بالهدى - الذي ما جعل اللَّه في الأرض ولا يجعل أعظم منه قدرًا - وتلقوه عنه بعد مجاهدته الشديدة لهم ومعالجتهم على نقلهم عن تلك العادات الجاهلية والظلمات الكفرية التي كانت قد أحالت قلوبهم عن فطرتها ، فلما تلقوا عنه ذلك الهدى العظيم زالت تلك الريون عن قلوبهم ، واستنارت بهدى اللَّه الذي أنزل على عبده ورسوله ، فأخذوا هذا الهدى العظيم بتلك الفطرة الجيدة فاجتمع لهم الكمال بالقوة المخلوقة فيهم والكمال الذي أنزل اللَّه إليهم بمنزلة أرض جيدة في نفسها هي معطلة عن الحرث أو قد نبتت فيها شجر العضاه والعوسج وصارت مأوى الخنازير والسباع . فإذا طهرت عن المؤذي من الشجر والدواب والزرع فيها أفضل الحبوب والثمار ، جاء فيها من الحرث ما لا يوصف مثله ، فصار السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أفضل خلق اللَّه بعد الأنبياء . وصار أفضل الناس بعدهم من تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة من العرب والعجم .

وأيضًا فإن اللَّه لما أنزل كتابه باللسان العربي . وجعل رسوله مبلغًا عنه الكتاب والحكمة بلسانه العربي ، وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلمين به ، لم يكن سبيل إلى ضبط الدين ومعرفته إلا بضبط هذا اللسان ، وصارت معرفته من الدين وصار اعتياد التكلم به أسهل على أهل الدين في معرفة دين اللَّه وأقرب إلى إقامة شعائر الدين ، وأقرب إلى مشابهتهم للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار في جميع أمورهم .

واللسان تقارنه أمور أخرى من العلوم والأخلاق ، فإن العادات لها تأثير عظيم فيما يحبه اللَّه ، وفيما يكرهه ، فلهذا أيضًا جاءت الشريعة بلزوم عادات السابقين في أقوالهم وأعمالهم ؛ وكراهة الخروج عنها إلى غيرها من غير حاجة .

« وجمهور العلماء على أن جنس العرب خير من غيرهم . وجنس بني هاشم خير من غيرهم وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال : « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا »(١) . لكن تفضيل الجملة على الجملة لا يستلزم أن يكون كل فرد أفضل من كل فرد فإن في غير العرب خلقًا كثيرًا خير من أكثر العرب . وفي غير قريش من المهاجرين والأنصار من هو خير من قريش .

وفي غير بني هاشم من قريش وغير قريش من هو خير من أكثر بني هاشم ، كما قال رسول الله ﷺ : « إن خير القرون القرن الذي بُعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم »(٢) .

« وفي القرون المتأخرة من هو خير من كثير من القرن الثاني والثالث ، ومع هذا فلم يخص النبي ﷺ القرن الثاني والثالث بحكم شرعي . وكذلك لم يخص العرب بحكم شرعي ؛ بل ولا خص بعض أصحابه بحكم دون سائر أمته . ولكن الصحابة لما كان لهم من الفضل أخبر بفضلهم وكذلك السابقون الأولون لم يخصهم بحكم ولكن أخبر بما لهم من الفضل لما اختصوا به من العمل وذلك لا يتعلق بالنسب » .

قوله : « ويتولون أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين » إلخ :

قال تعالى : ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾ ، « وذلك أنه من المعلوم أن كل واحدة من أزواج النبي ﷺ يقال لها أم المؤمنين : عائشة وحفصة وزينب بنت جحش وأم سلمة وسودة بنت زمعة وميمونة بنت الحارث الهلالية وجويرية بنت الحارث المصطلقية وصفية بنت حيي بن أخطب الهارونية رضي الله عنهن ، وقد قال تعالى : ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾ ، وهذا أمر معلوم للأمة علمًا عامًا .

وقد أجمع المسلمون على تحريم نكاح هؤلاء بعد موته على غيره وعلى وجوب احترامهن فهن أمهات المؤمنين في الحرمة والتحريم ولسن أمهات المؤمنين في المحرمية . فلا يجوز لغير أقاربهن الخلوة بهن كما يخلو الرجل ويسافر بذوات محارمه .

ولهذا أمرن بالحجاب فقال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ﴾ ، وقال تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ ، « ولا خلاف أنه ﷺ توفي عن تسع وكان يقسم منهن لثمان : عائشة وحفصة وزينب بنت جحش وأم سلمة وصفية وأم حبيبة وميمونة

---

(١) البخاري (٣٣٨٣) ، ومسلم (٢٥٢٦، ٢٦٣٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) مسلم (٢٥٣٥) عن عمران بن حصين رضي الله عنه .

وسودة وجويرية ، وأول نسائه لحوقًا به بعد وفاته زينب بنت جحش سنة عشرين وآخرهن موتًا أم سلمة سنة اثنتين وستين في خلافة يزيد .

وأفضل نساء النبي ﷺ خديجة وعائشة . وخديجة هي ابنة خويلد الأسدي تزوجها قبل النبوة ولها أربعون سنة ولم يتزوج عليها حتى ماتت ، وأولاده كلهم منها إلا إبراهيم ، وهي التي وازرته على النبوة وجاهدت معه وواسته بنفسها ومالها وأرسل اللَّه تعالى إليها السلام مع جبرائيل . وهذه خاصية لا تعرف لامرأة سواها ، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين .

وعائشة هي أم عبد اللَّه ، الصِّديقة بنت الصِّديق ، المبرأة من فوق سبع سماوات ، حبيبة رسول اللَّه ﷺ ، عرضها عليه الملك قبل نكاحها في سَرَقَة من حرير ، وقال : هذه زوجتك . تزوج بها في شوال وعمرها ست سنين ، وبنى بها في شوال في السنة الأولى من الهجرة ، وعمرها تسع سنين ، ولم يتزوج بكرًا غيرها ، وما نزل الوحي في لحاف امرأة غيرها ، وكانت أحب الخلق إليه ، ونزل عذرها من السماء ، واتفقت الأمة على كفر قاذفها ، وهي أفقه نسائه وأعلمهن ، بل أفقه نساء الأمة وأعلمهن على الإطلاق ، وكان الأكابر من أصحاب النبي ﷺ ، يرجعون إلى قولها ويستفتونها .

وعن أبي هريرة قال : أتى جبريل النبي ﷺ فقال : « يا رسول اللَّه ، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب ، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني ، وبشرها ببيت في الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب »[(١)] . رواه البخاري ومسلم . وعن عائشة قالت : ما غرت على امرأة النبي ﷺ ما غرت على خديجة ، هلكت قبل أن يتزوجني لما كنت أسمعه يذكرها ، وأمره اللَّه أن يبشرها ببيت من قصب ، وإن كان ليذبح الشاة فيهدي في خلائلها منها ما يسعهن »[(٢)] . رواه البخاري ومسلم .

وفي رواية : فربما قلت له : كأن لم يكن في الدنيا إلا خديجة . فيقول : « إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد » . وفي الصحيحين عن علي قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « خير نسائها خديجة وخير نسائها مريم »[(٣)] . وزاد مسلم : « وأشار وكيع إلي السماء والأرض » . وأخرج النسائي بإسناد صحيح والحاكم من حديث ابن عباس مرفوعًا : « أفضل نساء أهل الجنة خديجة وفاطمة ومريم وآسية »[(٤)] . وفي الصحيحين عن عائشة قالت : قال رسول اللَّه ﷺ : « يا عائشة ، هذا جبريل يقرئك السلام . قالت :

---

(١) البخاري (٣٨٢٠) ، ومسلم (٢٤٣٢) .

(٢) البخاري (٣٨١٦) ، ومسلم (٢٤٣٥) .

(٣) البخاري (٣٤٣٢) ، ومسلم (٢٤٣٠) .

(٤) أحمد (١/٢٩٣) ، الحاكم في « المستدرك » (٢/٥٣٩) ، والنسائي في « الكبرى » (٨٣٥٥) ، وصححه الألباني في « الصحيحة » (١٥٠٨) .

وعليه السلام ورحمة الله وبركاته »[1] . ترى ما لا أرى – تريد رسول الله ﷺ .

وفيهما عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام »[2] . وقد اختلف العلماء في خديجة وعائشة أيهما أفضل . قال السبكي : « الذي ندين لله به أن فاطمة أفضل ، ثم خديجة ، ثم عائشة » .

والخلاف شهير ، ولكن الحق أحق أن يُتبع ، وقال ابن تيمية : جهات التفضيل بين خديجة وعائشة متقاربة ، وكأنه رأي التوقف . وقال ابن القيم : إن أريد بالتفضيل كثرة الثواب عند الله ، فذلك أمر لا يطاع عليه ؛ فإن عمل القلوب أفضل من عمل الجوارح وإن أريد كثرة العلم فعائشة لا محالة . وإن أريد شرف الأصل ففاطمة أيضًا لا محالة وهي فضيلة لا يشركها فيها غير أخواتها ، وإن أريد شرف السيادة فقد ثبت النص لفاطمة وحدها » .

وأهل السنة ليسوا مجمعين على أن عائشة أفضل نسائه . بل ذهب إلى ذلك كثير من أهل السنة . واحتجوا بما في الصحيحين عن أبي موسى وعن أنس رضي الله عنه قال : « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » . والثريد هو أفضل الأطعمة لأنه خبز ولحم . كما قال الشاعر :

إذا ما الخبز تأدمه بلحم   فذاك أمانة الله الثريد

وذلك أن البر أفضل الأقوات ، واللحم أفضل الإدام ، كما في الحديث الذي رواه ابن قتيبة وغيره عن النبي ﷺ أنه قال : « سيد إدام أهل الدنيا والآخرة اللحم » ، فإذا كان اللحم سيد الإدام ، والبر سيد القوت ومجموعهما الثريد كان الثريد أفضل الطعام . وقد صح من غير وجه عن الصادق المصدوق أنه قال : « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » .

وفي الصحيح عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله أي النساء أحب إليك ؟ قال : عائشة قلت : من الرجال . قال : أبوها . قلت : ثم من؟ قال : عمر وسمى رجالًا » . وهؤلاء يقولون قوله لخديجة : ما أبدلني الله خيرًا منها– إن صح معناه– ما أبدلني الله خيرًا لي منها فإن خديجة نفعته في أول الإسلام نفعًا لم يقم غيرها فيه مقامها فكانت خيرًا له من هذا الوجه ؛ لكونها نفعته وقت الحاجة ، وعائشة صحبته في آخر النبوة وكمال الدين ، فحصل لها من العلم والإيمان ما لم يحصل لمن لم يدرك إلا أول النبوة ، فكانت أفضل لهذه الزيادة فإن الأمة انتفعت بها أكثر مما انتفعت بغيرها وبلغت من العلم والسنن ما لم يبلغ به غيرها ، فخديجة كان خيرها مقصورًا على نفس النبي ﷺ لم تبلغ عنه شيئًا ولم تنتفع بها الأمة كما انتفعوا بعائشة ، ولأن الدين لم يكن قد كمل حتى تعلمه ويحصل

---

(١) البخاري (٣٧٦٨) ، مسلم (٢٤٤٧) .

(٢) البخاري (٣٤١١) ، مسلم (٢٤٣١) .

لها من كمالاته ما حصل لمن علم وآمن به بعد كماله ، ومعلوم أن من اجتمع همه على شيء واحد كان أبلغ فيه ممن تفرق همه في أعمال متنوعة ، فخديجة رضي الله عنها خير له من هذا الوجة لكن أنواع البر لم تنحصر في ذلك » .

وقال ابن القيم : واختلف في تفضيلها على عائشة رضي الله عنها على ثلاثة أقوال : ثالثهما الوقف . وسألت شيخنا ابن تيميه فقال : اختصت كل واحدة منهما بخاصة ، فخديجة كان تأثيرها في أول الإسلام ، وكانت تسلي رسول اللّه ﷺ وتثبته وتسكنه وتبذل دونه مالها ، فأدركت عزة الإسلام واحتملت الأذى في اللّه ورسوله ، وكان نصرتها للرسول في أعظم أوقات الحاجة فلها من النصر والبذل ما ليس لغيرها .

وعائشة رضي الله عنها تأثيرها في آخر الإسلام ، فلها من التفقه في الدين وتبليغه إلى الأمة ، وانتفاع بنيها بما أدت إليهم من العلم ما ليس لغيرها . هذا معنى كلامه . اهـ .

□ قول أهل السنة في الصحابة :

ويتبرءون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل . ويمسكون عما شجر بين الصحابة ويقولون : إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب ، ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغير عن وجهه ، والصحيح منه هم فيه معذورون . إما مجتهدون مصيبون ، وإما مجتهدون مخطئون ، وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره . بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة ، ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر ؛ حتى إنهم يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم ، وقد ثبت بقول رسول اللّه ﷺ أنهم خير القرون وأن المد من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحد ممن بعدهم . ثم إذا كان قد صدر عن أحد منهم ذنب فيكون قد تاب منه ، أو أتي بحسنات تمحوه ، أو غفر له بفضل سابقته ، أو بشفاعة محمد ﷺ ، الذي هم أحق الناس بشفاعته ، أو ابتلى ببلاء في الدنيا كفر به عنه ، فإذا كان هذا في الذنوب المحققة ، فكيف بالأمور التي كانوا فيها مجتهدين . إن أصابوا فلهم أجران ، وإن أخطأوا فلهم أجر واحد ، والخطأ مغفور ؟ ثم القدري الذي ينكر من فعل بعضهم قليل نزر مغمور في جنب فضائل القوم ، ومحاسنهم من الإيمان باللّه ورسوله والجهاد في سبيله والهجرة والنصرة ، والعلم النافع والعمل الصالح .

ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة وما من اللّه عليهم من الفضائل علم يقينًا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء لا كان ولا يكون مثلهم رضي الله عنهم وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على اللّه .

فأهل السنة وسط بين النواصب الذين ينصبون العداوة لأهل البيت ، ويكفرونهم ويطعنون فيهم ، وكذلك الخوارج والمعتزلة الذين يكفرون كثيرًا من الصحابة ويفسقونهم ، وبين الروافض الذين يغلون

في أهل البيت ويكفرون جمهور الصحابة .

وأما أهل السنة فيتولون جميع المؤمنين ، ويتكلمون بعلم وعدل ليسوا من أهل الجهل ، ولا من أهل الأهواء ، ويتبرأون من طريقة الروافض والنواصب جميعًا ، ويتولون السابقين الأولين كلهم ، ويعرفون قدر الصحابة وفضلهم ومناقبهم ، ويرعون حقوق أهل البيت التي شرعها اللّه لهم ، ولا يرضون بما فعله المختار ونحوه من الكذابين ، ولا ما فعله الحجاج ونحوه من الظالمين ؛ ويمسكون عما شجر بين الصحابة ، أي : ما وقع بينهم من اختلاف ومنازعة .

قال ابن الأثير : فيه إياكم وما شجر بين أصحابي أي : ما وقع بينهم من الاختلاف يقال : شجر الأمر يشجر شجورًا إذا اختلط ، واشتجر إذا تنازعوا واختلفوا . اهـ . وذلك مثل ما وقع بين علي ومعاوية . كما حصل في موقعتي الجمل وصفين .

فإن عثمان رضي الله عنه لما قتل كثر الكذب والافتراء علي عثمان وعلي ، وكان بالمدينة من أكابر الصحابة كعلي وطلحة والزبير ، وعظمت الشبهة عند من لم يعرف الحال ، وقويت الشهوة في نفوس ذوي الأهواء والأغراض ممن بعدت داره من أهل الشام ، وكان في عسكر علي رضي الله عنه من أولئك الخوارج الذين قتلوا عثمان من لم يعرف بعينه ، ومن تنتصر له قبيلته ، ومن لم يقم عليه حجة بما فعله ، ومن في قلبه نفاق لم يتمكن من إظهاره كله ، ورأي طلحة والزبير أنه إن لم ينتصر للشهيد المظلوم ، ويقمع أهل الفساد والعدوان ، وإلا استوجبوا غضب اللّه وعقابه . فجرت فتنة الجمل على غير اختيار من علي ، ولا من طلحة والزبير ، وإنما أثارها المفسدون بغير اختيار السابقين . ثم جرت فتنة صفين لرأي : وهو أن أهل الشام لم يعدل عليهم ، أو لا يتمكن من العدل عليهم وهم كافون حتى تجتمع الأمة ، وأنهم يخافون طغيان من في المعسكر كما طغوا على الشهيد المظلوم ، وعلي رضي الله عنه هو الخليفة الراشد المهدي الذي تجب طاعته ، ويجب أن يكونوا مجتمعين عليه ، فاعتقد أنه يحصل به أداء الواجب ، ولم يعتقد أن التأليف لهم كتأليف المؤلفة قلوبهم على عهد النبي ﷺ والخليفتين من بعده مما يسوغ ، فحمله ما رآه من أن الدين إقامة الحد عليهم ومنعهم من الإثارة دون تأليفهم على القتال ، وقعد عن القتال أكثر الأكابر لما سمعوه من النصوص في الأمر بالقعود في الفتنة ، ولما رأوه من الفتنة التي تربو مفسدتها على مصلحتها .

قوله : ويقولون إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب : المساوي هي المعائب والنقائص .

وقوله : وقد ثبت بقول رسول اللّه ﷺ أنهم خير القرون ، كما في الصحيحين عن عمران بن حصين قال : قال رسول اللّه ﷺ : « خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم » . قال عمران : فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثة ، ثم يظهر قوم يشهدون ولا يستشهدون ، ويخونون ولا يؤمنون ، وينذرون ولا يوفون ؛

ويظهر فيهم السمن »[1] .

وهذا الحديث قد روي من حديث عمران بن حصين ، وعبد الله بن مسعود ، وأبي هريرة وعائشة والنعمان بن بشير .

والقرن أهل زمان واحد متقارب ، اشتركوا في أمر من الأمور المقصودة ويقال إن ذلك مخصوص بما إذا اجتمعوا في زمن نبي أو رئيس يجمعهم على ملة واحدة أو مذهب أو عمل ، ويطلق القرن على مدة من الزمان ، واختلفوا في تحديدها من عشرة أعوام إلى مائة وعشرين . لكن لم أر من صرح بالسبعين ، ولا بمائة وعشرة ، وماعدا ذلك فقد قال به قائل ، وذكر الجوهري بين الثلاثين والثمانين ، ووقع في حديث عبد الله بن بسر ما يدل على أن القرن مائة ، وهو المشهور . وقال صاحب المطالع : القرن أمة هلكت فلم يبق منهم أحد .

وثبتت المائة في حديث عبد الله بن بسر عند مسلم ، وهي ما عند أكثر أهل العراق ، ولم يذكر صاحب المحكم الخمسين ، وذكر من عشر إلي سبعين ، ثم قال : هذا هو القدر المتوسط من أعمار أهل كل زمان . وهذا أعدل الأقوال ، وبه صرح ابن الأعرابي ، وقال : إنه مأخوذ من الأقران ، ويمكن أن يحمل عليه المختلف من الأقوال المتقدمة ممن قال : إن القرون أربعون فصاعدًا ، أما من قال : إنه دون ذلك . فلا يلتئم على هذا القول والله أعلم ، والمراد بقرن النبي ﷺ في هذا الحديث الصحابة .

وقد ظهر أن الذي بين البعثة وآخر من مات من الصحابة مائة وعشرون سنة أو دونها أو فوقها بقليل على الاختلاف في وفاة أبي الطفيل ، وإن اعتبر ذلك من بعد وفاته ﷺ فيكون مائة سنة أو تسعين أو سبعة وتسعين ، واقتضى هذا الحديث : أن تكون الصحابة أفضل من التابعين ، والتابعون أفضل من التابعين لكن هذه الأفضلية بالنسبة إلى المجموع أو الأفراد ؟ محل بحث . والأول قول ابن عبد البر والثاني قول الجمهور ؛ والظاهر أن من قاتل مع النبي ﷺ أو في زمانه بأمره ، أو أنفق شيئًا من ماله بسببه لا يعدله في الفضل أحد بعده كائنًا من كان ، وأما من لم يقع له ذلك فهو محل البحث .

واستدل ابن عبد البر بحديث : « أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره ؟ »[2] . وهو حديث حسن له طرق قد يرتقي بها إلى الصحة ؛ وروى أبو داود والترمذي من حديث أبي ثعلبة رفعه : « يأتي أيام للعامل فيهن أجر خمسين قيل : منهم أو منا ؟ قال : بل منكم »[3] . وهو شاهد لحديث : « مثل أمتي مثل المطر » ، واحتج ابن عبد البر أيضًا بحديث عمر رفعه : « أفضل الخلق إيمانًا قوم في أصلاب الرجال

---

(١) البخاري (٣٦٥٠) ، ومسلم (٢٥٣٥) .

(٢) أحمد (٣/١٣٠) ، الترمذي (٢٨٦٩) وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٥٨٥٤) .

(٣) الترمذي (٣٠٥٨) ، والحاكم (٤/٣٥٨) ، وابن حبان (٣٨٥) ، ابن ماجه (٤٠١٤) ، أبو داود (٤٣٤٣) وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (٢٣٤٤) .

يؤمنون بي ولم يروني »[١]. أخرجه الطيالسي وغيره، لكن إسناده ضعيف فلا حجة فيه.

وروى أحمد والطبراني والدارمي من حديث أبي جمعة قال: قال أبو عبيدة: يا رسول الله أحد خير منا؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك؟ قال: « قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني »[٢]. وإسناده حسن، وقد صححه الحاكم، واحتج أيضًا بأن السبب في كون القرون الأولى خير القرون أنهم كانوا غرباء في إيمانهم لكثرة الكفار حينئذ، وصبرهم على أذاهم وتمسكهم بدينهم. قال: وكذلك أواخرهم إذا أقاموا الدين وتمسكوا به وصبروا على الطاعة عند ظهور المعاصي والفتن كانوا أيضًا عند ذلك غرباء، وزكت أعمالهم في ذلك الزمان كما زكت أعمال أولئك.

ويشهد له ما روى مسلم عن أبي هريرة رفعه: « بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء »[٣]، وقد تعقب ابن البر بأن مقتضى كلامه أن يكون فيمن يأتي بعد الصحابة من يكون أفضل من بعض الصحابة، وبذلك صرح القرطبي؛ لكن كلام ابن عبد البر ليس على الإطلاق في حق جميع الصحابة، فإنه صرح في كلامه باستثناء أهل بدر والحديبية منهم، والذي ذهب إليه الجمهور أن فضيلة الصحبة لا يعدلها عمل لمشاهدة رسو الله ﷺ، وأما من اتفق له الذب عنه والسبق إليه بالهجرة أو النصرة وضبط الشرع الملتقى عنه وتبليغه لمن بعده، فإنه لا يعدله أحد ممن يأتي بعده. لأنه عمل بها من بعده. فظهر فضلهم. ومحل النزاع يتمحض فيمن لم يحصل له إلا مجرد المشاهدة كما تقدم. فإن جمع بين مختلف الأحاديث المذكورة كان متجهًا. على أن حديث: « للعامل أجر خمسين منكم »؛ لا يدل على أفضلية غير الصحابة. لأن مجرد زيادة الأجر لا يستلزم ثبوت الأفضلية المطلقة، وأيضًا: فالأجر إنما يقع تفاضله بالنسبة إلى ما يماثله في هذا العمل، فأما ما فاز به من شاهد النبي ﷺ من زيادة فضيلة المشاهدة فلا يعدله فيها أحد، فبهذا الطريق يمكن تأويل الأحاديث المتقدمة.

وقوله ﷺ: « بدأ الإسلام غريبًا ثم يعود غريبًا كما بدأ ». ويحتمل شيئين:

أحدهما: أنه في أمكنة وأزمنة يعود غريبًا بينهم ثم يظهر كما كان في أول الأمر غريبًا ثم ظهر، ولهذا قال: « سيعود غريبًا كما بدأ » وهو لما بدأ كان غريبًا لا يعرف. ثم ظهر وعرف فكذلك يعود حتى لا يعرف ثم يظهر ويعرف فيقل من يعرفه في أثناء الأمر كما كان من يعرفه أولا. ويحتمل إنه في آخر الدنيا لا يبقى مسلمًا إلا قليل.

وهذا إنما يكون بعد الدجال ويأجوج ومأجوج عند قرب الساعة. وحينئذ يبعث الله ريحًا تقيض

---

(١) مسند أبي يعلى (١٦٠)، البزار (١/٤١٣) (٢٨٩).

(٢) أحمد (٤/١٠٦)، الدارمي (٢/٣٩٨)، والطبراني في « الكبير » (٤/٢٢)، وصححه الألباني في « الصحيحة » (٣٣١٠).

(٣) مسلم (١٤٥).

روح كل مؤمن ومؤمنة ثم تقوم القيامة ، وأما قبل ذلك فقد قال ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم . حتى تقوم الساعة »[١] . وهذا الحديث في الصحيحين ومثله من عدة أوجه .

فقد أخبر الصادق المصدوق أنه لا تزال طائفة ممتنعة من أمته على الحق . أعزاء لا يضرهم المخالف ، ولا خلاف الخاذل . فأما بقاء الإسلام غريبًا ذليلًا في الأرض كلها قبل الساعة فلا يكون هذا .

وقوله ﷺ : « كما بدأ » . أعظم ما تكون غربته إذا أرتد الداخلون فيه عنه ، وقد قال تعالى : ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ .

فهؤلاء يقيمونه إذا ارتد عنه أولئك ، وكذلك بدأ غريبًا ولم يزل يقوى حتى انتشر ؛ فهكذا يتقرب في كثير من الأمكنة والأزمنة ، ثم يظهر حتى يقيمه الله ﷻ ، كما كان عمر بن عبد العزيز لما ولى قد تغرب كثير من الإسلام على كثير من الناس حتى كان منهم من لا يعرف تحريم الخمر ، فأظهر الله به الإسلام ما كان غريبًا .

وفي السنن : « إن الله يبعث لهذه الأمة في رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »[٢] والتجديد إنما يكون بعد الدروس ، وذاك هو غربة الإسلام ، وقد تكون الغربة في بعض شرائعه ، وقد يكون ذلك في بعض الأمكنة . ففي كثير من الأمكنة يخفى عليهم من شرائعه ما يصير غريبًا بينهم لا يعرفه منهم إلا الواحد بعد الواحد .

ومع هذا فطوبى لمن تمسك بتلك الشريعة كما أمر الله ورسولة . فإن إظهاره والأمر به والإنكار على من خالفه هي بحسب القوة والأعوان ، وقد قال النبي ﷺ : « من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده . فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه . ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل »[٣] ، والمقصود أن للصحابة من الفضائل ما ليس لمن بعدهم . وأهل السنة يقولون : إن أهل الجنة ليس من شرطهم سلامتهم عن الخطأ ، بل ولا عن الذنب . بل يجوز أن يذنب الرجل منهم ذنبًا صغيرًا أو كبيرًا ويتوب منه ، وهذا متفق عليه بين المسلمين ، ولو لم يتب منه ، فالصغائر تمحى باجتناب الكبائر عند جماهيرهم ، وعند الأكثرين منهم : أن الكبائر تمحى بالحسنات التي هي أعظم منها ، وبالمصائب المكفرة وغير ذلك .

وإذا كان هذا أصلهم فيقولون : ما ذكر عن الصحابة من السيئات كثير منه كذب ، وكثير منه كانوا

---

(١) البخاري (٧٣١١) ، عن المغيرة ، ومسلم (١٩٢٠) عن ثوبان ، (١٩٢٣) عن جابر بن عبد الله .

(٢) أبو داود (٣٢٩١) وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (١٨٧٤) .

(٣) مسلم (٤٩) عن أبي سعيد الخدري .

مجتهدين فيه ، ولكن لا يعرف كثير من الناس وجه اجتهادهم ، وما قدر أنه كان فيه ذنب من الذنوب لهم فهو مغفور لهم إما بتوبة ، وإما بحسنات ماحية ، وإما بمصائب مكفرة ، وإما بغير ذلك ؛ فإنه قد قام الدليل الذي يجب القول بموجبه إنهم من أهل الجنة فامتنع أن يفعلوا ما يوجب النار لا محالة ، وإذا لم يمت أحدهم على موجب النار لم يقدح ما سوى ذلك في استحقاقهم للجنة ، ونحن قد علمنا أنهم من أهل الجنة ، ولو لم يعلم أن أولئك المعينين فى الجنة لم يجز لنا أن نقدح في استحقاقهم للجنة بأمور لا نعلم أنها توجب النار ، فإن هذا لا يجوز في آحاد المؤمنين الذين لم يعلم أنهم يدخلون الجنة ، وليس لنا أن نشهد لأحد منهم بالنار لأمور محتملة لا تدل على ذلك . فكيف يجوز ذلك في خيار المؤمنين ؟ والعلم بتفاصيل أحوال كل واحد منهم باطنًا وظاهرًا ، وحسناته وسيئاته واجتهاداته أمر يتعذر علينا معرفته ، فكان كلامنا في ذلك كلامًا فيما لا نعلمه ، والكلام بلا علم حرام لو لم يكن فيه هوى ومعارضة الحق المعلوم ، فكيف إذا كان كثير من الخوض في ذلك أو أكثره كلامًا بلا علم .

وهذا حرام فلهذا كان الإمساك عما شجر بين الصحابة خيرًا من الخوض في ذلك بغير علم بحقيقة الأحوال ؛ إذ كان كثير من الخوض في ذلك أو أكثره كلامًا بلا علم ، وهذا حرام لو لم يكن فيه هوى ومعارضة الحق المعلوم فكيف إذا كان كلامًا لهوى يطلب فيه دفع الحق المعلوم ؟ وقد قال النبي ﷺ : « القضاء ثلاثة : قاضيان في النار ، وقاض في الجنة . رجل علم الحق فقضى به .فهو في الجنة ، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار ، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار »[1] . فإذا كان هذا في قضاء بين اثنين في قليل المال أو كثيره فكيف القضاء بين الصحابة في أمور كثيرة ؟ فمن تكلم في هذا الباب بجهل أو بخلاف ما يعلم كان مستوجبًا للوعيد . ولو تكلم بحق لقصد الهوى لا لوجه اللّه تعالى أو يعارض به حقًا آخر لكان أيضًا متوجبًا للذم والعقاب .

ومن علم ما دل عليه القرآن والسنة من الثناء على القوم ورضا اللّه عنهم ، واستحقاقهم الجنة ، وأنهم خير هذه الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس ، لم يعارض هذا المتيقن المعلوم بأمور مشتبهة منها ما لا يعلم صحته ، ومنها ما يتبين كذبه ، ومنها ما لا يعلم كيف وقع ، ومنها ما يعلم عذر القوم فيه ، ومنها ما يعلم توبتهم منه ، ومنها ما يعلم أن لهم من الحسنات ما يغمره ، فمن سلك سبيل أهل السنة استقام قوله وكان من أهل الحق والاستقامة والاعتدال ، وإلا حصل في جهل ونقص وتناقص حال كهؤلاء (الروافض) الضلال . فإن الذنوب مطلقًا من جميع المؤمنين هي سبب العذاب ، لكن العقوبة بها في الآخر تندفع عشرة أسباب :

الأول : التوبة : فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والتوبة مقبولة من جميع الذنوب ، وعثمان بن عفان رضي الله عنه تاب توبة ظاهرة من الأمور التي صاروا ينكرونها ويظهر له أنها منكر ، وهذا مأثور

(١) أبو داود (٣٥٧٣) ، الترمذي (١٣٢٢) ، وابن ماجه (٢٣١٥) ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٤٤٤٦) .

مشهور عنه ، وكذلك عائشة رضي الله عنها ندمت على مسيرها إلى البصرة ، وكانت إذا ذكرته تبكي حتى تبلل خمارها ، وكذلك طلحة ندم على ما ظن من تفريطه في نصر عثمان وعلى غير ذلك ، والزبير ندم على مسيره يوم الجمل ، علي بن أبي طالب رضي الله عنه ندم على أمور فعلها من القتال وغيره وكان يقول :

قد عجزت عجزة لا أعتذر سوف أكيس بعدها وأستمر

وأجمع الرأي الشتيت المنتشر

وكان يقول ليالي صفين : لله در مقام قامه عبد الله بن عمر وسعد بن مالك إن كان برًا إن أجره لعظيم ، وإن كان آثمًا إن خطره ليسير ، وكان يقول : يا حسن ، يا حسن ، ما ظن أبوك أن الأمر يبلغ إلي هذا ، ود أبوك لو مات قبل هذا بعشرين سنة ، ولما رجع من صفين تغير كلام وكان يقول : لا تكرهوا إمارة معاوية فلو قد فقدتموه لرأيتم الرءوس تتطاير عن كواهلها ، وتواترت الآثار بكراهته الأحوال في آخر الأمر ورؤيته اختلاف الناس وتفرقهم وكثرة الشر الذي أوجب أنه لو استقبل من أمره ما استدبر ما فعل ما فعل .

وبالجملة ليس علينا أن نعرف أن كل واحد ،تاب ولكن نعلم أن التوبة مشروعة لكل عبد ، للأنبياء ولمن دونهم ، وأن الله سبحانه يرفع عبده بالتوبة وإذا ابتلاه مما يتوب منه فالمقصود كمال النهاية لا نقص البداية .

الثاني : الاستغفار : فإن الاستغفار هو طلب المغفرة وهو من جنس الدعاء والسؤال وهو مقرون بالتوبة في الغالب ومأمور به لكن قد يتوب الإنسان ولا يدعو ولا يتوب . والتوبة تمحو جميع السيئات ، وليس شيء يغفر جميع الذنوب إلا التوبة ، وأما الاستغفار بدون التوبة فهذا لا يستلزم المغفرة ولكن هو سبب من الأسباب .

الثالث : الأعمال الصالحة : فإن الله تعالى يقول : ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر »[1] . وليس كل حسنة تمحو كل سيئة بل المحو يكون للصغائر تارة ويكون للكبائر تارة باعتبار الموازنة ، والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله فيغفر له به كبائر . والمقصود هنا أن الله سبحانه مما يمحو به السيئات الحسنات ، وأن الحسنات تتفاضل بحسب ما في قلب صاحبها من الإيمان والتقوى وحينئذ فيعرف أن من هو دون الصحابة قد تكون له حسنات تمحو مثل ما يذم من أحدهم . فكيف الصحابة ؟

الرابع : الدعاء للمؤمنين : فإن صلاة المؤمنين ودعاءهم له من أسباب المغفرة وكذلك دعاؤهم واستغفارهم في غير صلاة الجنازة ، والصحابة ما زال المسلمون يدعون لهم .

---

(١) مسلم (٢٣٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

الخامس : دعاء النبي ﷺ واستغفاره في حياته وبعد مماته كشفاعته يوم القيامة : فإنهم أخص الناس بدعائه وشفاعته في محياه ومماته .

السادس : ما يفعل بعد الموت من عمل صالح يهدي له : مثل من يتصدق ويحج عنه ويصوم عنه فقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن ذلك يصل إلي الميت وينفعه ، وهذا غير دعاء ولده فإن ذلك من عمله بخلاف دعاء غير الولد فإنه ليس محسوبًا من عمله والله ينفعه به .

السابع : المصائب الدنيوية التي يكفر الله بها الخطايا : كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا غم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه »[1] .

وهذا المعنى متواتر عن النبي ﷺ في أحاديث كثيرة ، والصحابة رضوان الله عليهم كانوا يبتلون بالمصائب الخاصة وابتلوا بمصائب مشتركة ؛ كالمصائب التي حصلت في الفتن ولو لم يكن إلا أن كثيرًا منهم قتلوا والأحياء أصيبوا بأهلهم وأقاربهم وهذا أصيب في ماله وهذا أصيب بجراحته وهذا أصيب بذهاب ولايته وعزه إلي غير ذلك ، فهذه كلها مما يكفر الله بها ذنوب المؤمنين من غير الصحابة فكيف الصحابة ؟ وهذا مما لابد منه ، والمقصود أن الفتن التي بين الأمة والذنوب التي لها بعد الصحابة أكثر وأعظم ؛ ومع هذا فمكفرات الذنوب موجودة لهم ، وأما الصحابة فجمهورهم وجمهور أفاضلهم ما دخلوا في الفتنة ، قال محمد بن سيرين : هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ عشرة آلاف ما حضر منهم مائة بل لم يبلغوا ثلاثين .

الثامن : ما يبتلى به المؤمن في قبره من الضغطة وفتنة الملكين .

التاسع : ما يحصل في الآخرة من أهوال يوم القيامة .

العاشر : ما ثبت في الصحيحين : « أن المؤمنين إذا عبروا الصراط . وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض . فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة »[2] .

فهذه الأسباب لا تفوت كلها من المؤمنين إلا القليل فكيف بالصحابة رضوان الله عليهم الذين هم خير قرون الأمة ؟ وهذا في الذنوب المحققة فكيف بما يكذب عليهم ؟ فكيف بما يجعل من سيئاتهم وهو من حسناتهم ، وهذا كما ثبت في الصحيح : « أن رجلًا أراد أن يطعن في عثمان عند ابن عمر فقال : إنه فر يوم أحد ولم يشهد بدرًا ، ولم يشهد بيعة الرضوان فقال ابن عمر : أما يوم أحد فإن الله عفا عنه ، وفي لفظ : فر يوم أحد فعفا الله عنه وأذنب عندكم فلم تعفو عنه ، وأما يوم بدر : فإن النبي ﷺ استخلفه على ابنته وضرب له بسهمه . وأما بيعة الرضوان : فإنما كانت بسبب عثمان فإن النبي ﷺ بعثه إلى مكة

---

(١) البخاري (٥٦٤١، ٥٦٤٢) عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما .

(٢) البخاري (٦٥٣٥) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

وبايع عنه بيده ويد النبي ﷺ خير من يد عثمان »[1] .

فقد أجاب ابن عمر : بأن ما تجعلونه عيبًا فقد عفا اللَّه عنه ، والباقي ليس بعيب بل هو من الحسنات ، وهكذا عامة ما يعاب به الصحابة هو إما حسنة وإما معفو عنه .

وفي الصحيحين عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر »[2] .

وفيهما من حديث أبي هريرة نحوه « والناس متنازعون هل يقال : كل مجتهد مصيب ؟ أم المصيب واحد ؟ وفصل الخطاب أنه إن أريد بالمصيب المطيع للَّه ورسوله . فكل مجتهد اتقى اللَّه ما استطاع فهو مطيع للَّه ورسوله . فإن اللَّه لا يكلف نفسًا إلا وسعها .

وهذا عاجز عن معرفة الحق في نفس الأمر فسقط عنه . وإن عنى بالمصيب العالم بحكم اللَّه في نفس الأمر فالمصيب ليس إلا واحدًا ؛ فإن الحق في نفس الأمر واحد ، وهذا كالمجتهدين في القبلة إذا أفضى اجتهاد كل واحد منهم إلى جهة فكل منهم مطيع للَّه ورسوله ، والفرض ساقط عنه بصلاته إلى الجهة التي اعتقد أنها الكعبة ولكن العالم بالكعبة المصلى إليها في نفس الأمر واحد ، وهذا قد فضله اللَّه بالعلم والقدرة على معرفة الصواب والعمل به فأجره أعظم .

كما أن : « المؤمن القوي خير وأحب إلى اللَّه من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير »[3] . رواه مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ فهكذا يقال فيما شجر بين الصحابة ﷺ فكلهم مجتهدون مثابون على اجتهادهم .

❁ قال الشيخ عبد العزيز الناصر الرشيد رحمه الله :

قوله : « ومن أصول » :

* جمع أصل وهو لغة : ما يبنى عليه غيره ، واصطلاحًا : ماله فرع ، ويطلق الأصل على أربعة أشياء : على الدليل غالبًا ، كقولهم : أصل هذه المسألة الكتاب والسنة ، أي : دليله . الثاني : على الراجح من الأمرين كقولهم : الأصل في الكلام : الحقيقة دون المجاز . الثالث : القاعدة المستمرة كقولهم : أكل الميتة على خلاف الأصل . الرابع : المقيس عليه ، وهو ما يقابِل الفرع في باب القياس . انتهى من « الكوكب المنير » .

قوله : « سلامة قلوبهم » :

* أي : من الغل والحقد والبغض والعداوة لأصحاب رسول اللَّه ﷺ وسلامة ألسنتهم من الطعن

---

(١) البخاري (٣٦٩٨) عن عثمان بن موهب رضي الله عنه .

(٢) البخاري (٧٣٥٢) عن مسلم (١٧١٦) .

(٣) مسلم (٢٦٦٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

فيهم واللعن والوقيعة فيهم ، كما يفعله الرافضة والخوارج ، وكذلك يجب اعتقاد فضلهم رضوان الله عليهم ومعرفة سابقتهم وذكر محاسنهم والترحم عليهم والاستغفار لهم ، والكف عما شجر بينهم ؛ فإنهم خير القرون وهم السابقون الأولون ، وفي الكتاب والسنة من ذكر فضائلهم ومناقبهم ومقاماتهم الحميدة ما لا يتسع لذكره هذا المختصر ، فلا مقام بعد مقام النبوة أعظم من مقام قوم ارتضاهم الله لصحبة نبيه ونصرة دينه ، فهم أسعد الأمة بإصابة الصواب ، وأجدر بفقه السنة والكتاب لفوزهم بصحبة نبيه فلا يبارون في فهمهم ، ولا يجارون في علمهم فكل علم وخير وصل فبسببهم ، قال الله تعالى : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [الفتح : ٢٩] الآية ، وفي هذه الآية أعظم رد على الرافضة والخوارج .

قوله : « لأصحاب .....» إلخ :

* جمع صاحب ، والصحابي : هو من اجتمع بالنبي ﷺ مؤمنًا به ومات على ذلك ، قيل : ولو تخللته ردة ، وقال البخاري : من صحب النبي ﷺ أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه . انتهى .

وآخر من مات منهم ﷺ هو أبو الطفيل عامر بن واثلة الليثي ، كما جزم به مسلم في « صحيحه » ، وكان موته سنة مائة ، وقيل : سنة مائة وعشرة ، أما عدد أصحابه فقيل : مائة ألف وأربعون وعشرون ألفًا كما قال السيوطي :

والفضل فيما بينهم الرتب وعدهم للأنبياء يقارب

وكلهم عدول ثقات لا يفتش عن عدالة أحد منهم بالإجماع ، وحكى الإجماع ابن الصلاح وابن عبد البر ، وحكاه إمام الحرمين ، وقال الشيخ تقي الدين : الذي عليه جمهور سلف الأمة وجمهور الخلف : أن الصحابة كلهم عدول بتعديل الله لهم فيما أنزله على رسوله بقوله : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة : ١٠٠] . اهـ .

قوله : « كما وصفهم الله به في قوله : ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر : ١٠] » :

قوله : « كما وصفهم الله به في قوله : ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ » الآية ؛ أي : كما وصف أتباعهم بإحسان بقوله : ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [الحشر : ١٠] وهم التابعون الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة .

قوله : « ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾ » : أي : يسألون الله المغفرة لهم ولإخوانهم في الدين الذين سبقوهم بالإيمان ، وهم أصحاب رسول الله ﷺ .

قوله : « ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ » : أي : ولا تجعل في قلوبنا بغضًا وحسدًا وغشًا

للذين آمنوا ، وفي حديث ابن مسعود الذي رواه الترمذي : « ثلاث لا يغل عليهم قلب مسلم : إخلاص العمل للَّه ، ومناصحة أئمة المسلمين ، ولزوم جماعتهم ، فإن دعوتهم تحيط من وراءهم » ، أي : أن هذه الثلاث تنفي الغل عن القلب فلا يبقى فيه معها غل ولا غش ، فالإخلاص يمنع غل القلب وفساده ، وكذلك النصيحة فإنها لا تجامع الغل ، فمن نصح الأئمة والأمة فقد برئ من الغل ، وهذا بخلاف أهل البدع من الرافضة والخوارج والمعتزلة وغيرهم فإن قلوبهم ممتلئة غلًا وغشًا ؛ ولهذا تجد الرافضة أبعد الناس من الإخلاص وأغشهم للأئمة والأمة ، وأشدهم بعدًا عن جماعة المسلمين ، وفي هذه الآية الحث على محبة جميع المؤمنين ومودتهم والدعاء لهم والاستغفار ، وأن من صفات المؤمنين سلامة قلوبهم من الغل والحقد والبغض لإخوانهم المؤمنين ، كما في « الصحيحين » من حديث النعمان بن بشير : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر »[1] . وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا تباغضوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، ولا تقاطعوا ، وكونوا عباد اللَّه إخوانًا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث »[2] . متفق عليه .

قوله : « ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ » : ﴿رَءُوفٌ﴾ ، أي : ذو رأفة وهي أشد الرحمة ، وهو أبلغ من الرحيم ، تضمنت هذه الآية الثناء على المهاجرين والأنصار وعلى الذين جاءوا من بعدهم يستغفرون لهم ويسألون اللَّه أن لا يجعل في قلوبهم غلًا لهم ، وتضمنت أن هؤلاء الأصناف هم المستحقون للفيء ، ولا ريب أن الرافضة خارجون من الأصناف الثلاثة فإنهم لهم يستغفروا للسابقين وفي قلوبهم غل عليهم ، ففيها الثناء على الصحابة وعلى أهل السنة الذين يتولونهم وإخراج الرافضة من ذلك ، وروى ابن بطة وغيره عن مالك بن أنس قال : « من سب السلف فليس له من الفيء من نصيب » ، واستدل بالآية ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : « أمر اللَّه بالاستغفار لأصحاب محمد ﷺ وهو يعلم أنهم يقتتلون » .

وعن عائشة رضي الله عنها : أُمرتم بالاستغفار لأصحاب رسول اللَّه ﷺ فسببتموهم ، سمعت نبيكم يقول : « لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها »[3] ، ورواه البغوي . قال العماد بن كثير رحمه الله : « فيا ويل من سبهم أو أبغضهم أو أبغض أو سب بعضهم ، ولا سيما سيد الصحابة بعد رسول اللَّه ﷺ وخيرهم وأفضلهم - أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن قحافة رضي اللَّه عنه » ، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبونهم - عياذًا باللَّه من ذلك - وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة وقلوبهم منكوسة ، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رضي الله عنهم ، وأما أهل

---

(١) مسلم (٢٥٨٦) ، وأحمد (٤/ ٢٧٠) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه .

(٢) البخاري (٥٧١٨) ، ومسلم (٢٥٥٩) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٣) الطبراني في الأوسط (٥٢٤١) من حديث عائشة رضي الله عنها .

السُّنة فإنهم يترضون عمن رضي الله عنه ، ويسبون من سبه الله ، ويوالون من يوالي الله ، ويعادون من يعادي الله ، وهم متبعون لا مبتدعون ومقتدون لا مبتدون ؛ ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون .ا.هـ .

وقال مالك رحمه الله : من أصبح وفي قلبه بغض من أحد الصحابة فقد أصابته هذه الآية ، يعني قوله : ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح : ٢٩] الآية ، وقد ذكر بعض العلماء أن الرافضة ليسوا من فرق الأمة المحمدية ، وباستقراء ما هم عليه الآن منَ الغلو في أهل البيت والبناء على قبورهم ، وإظهار اللعن والسب لأصحاب رسول الله ﷺ وسفاهات أخرى يمجها العلم والدين ، يعلم أن هذه الطائفة ليست من الإسلام في شيء ؛ ولذلك صرح بعض العلماء بتكفيرهم لسبهم الصحابة ، فقال صاحب « تبيين المحارم » : واعلم أن الروافض كفار عندنا ؛ لأنهم يسبون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ، وكذلك من أنكر خلافتهما يكفر عندنا على الأصح ، وإمام هذه الطائفة الخبيثة منافق معروف يهودي الأصل ، وهو عبد الله بن سبأ ادعى الإسلام حيلة ، وسعى جهده لتفريق وتشتيت الكلمة ، وأدرك بعض قصده بقتل عثمان رضي الله عنه ، ثم أظهر الغلو في علي بن أبي طالب ، وقصته مشهورة .

قوله : « في قوله : « لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » :

* حديث : « لا تسبوا أصحابي »(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : « كان بين خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف شيء فسبه خالد ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا أصحابي ، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه »(٢) ، انفرد مسلم بذكر سب خالد لعبد الرحمن دون البخاري ، فقوله : « لا تسبوا أصحابي » يعني : عبد الرحمن بن عوف وأمثاله من السابقين الأولين ، فهم أفضل وأخص بصحبته ممن أسلم بعد بيعة الرضوان ، وبعد مصالحة النبي ﷺ أهل مكة ومنهم خالد بن الوليد ، فنهى من له صحبة أن يسب من له صحبة أولى لامتيازهم عنهم من الصحبة بما لا يمكن أن يشركوهم فيه حتى لو أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه ، فإذا كان هذا حال الذين أسلموا بعد الحديبية ، فكيف حال من ليس من الصحابة بحال ؟!

قوله : « لا تسبوا » : أي : لا تشتموا .

قوله : « أُحُد » : هو جبل معروف في المدينة ، سمي بذلك لتوحده من الجبال كما ذكره السهيلي .

قوله : « مُدَّ » : المد : مكيال معروف وهو رطل وثلث بالعراقي ، والنصيف : النصف ، والمعنى : أن غير الصحابة لو أنفق في سبيل الله جبل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه في الثواب ، وفي هذا دليل على تحريم سب أصحاب رسول الله ﷺ وأنه من كبائر الذنوب ، وفيه دليل على تحريم لعن أصحاب

---

(١) البخاري (٣٤٧٠) ، ومسلم (٢٥٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) مسلم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه .

رسول اللّه ﷺ من باب أولى ، وإنه من كبائر الذنوب ، فإن الحديث صريح في تحريم السب ، واللعن أعظم من السب ، وفي الحديث أن رسول اللّه ﷺ قال : « لعن المؤمن كقتله »[١] وأصحابه ﷺ خيار المؤمنين كما قال ﷺ : « خير القرون قرني »[٢] الحديث ، وروى الترمذي عن عبد اللّه بن مغفل رضي الله عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « اللّه اللّه في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضًا ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى اللّه ، ومن آذى اللّه يوشك أن يأخذه »[٣] ، قال الترمذي : حديث غريب ، إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على وجوب احترامهم وحفظ كرامتهم ، وتحريم سبهم والطعن فيهم ولعنهم .

قال الشيخ تقي الدين : من لعن أحدًا من أصحاب رسول اللّه ﷺ فإنه يستحق العقوبة البالغة باتفاق المسلمين ، وقد تنازعوا هل يعاقب بالقتل أو ما دون القتل ، واستدُل بهذا الحديث على عدالة جميع الصحابة لثناء النبي هذا الثناء العظيم الدال على فضلهم وعدالتهم ، وفيه دليل على تفضيل الصحابة كلهم على جميع من بعدهم ، وهو قول الجمهور .

قال بعض السلف لما سئل عن عمر بن عبد العزيز ومعاوية أيهما أفضل ؟ قال : غبار في أنف معاوية مع رسول اللّه ﷺ أفضل من عمر بن عبد العزيز ، وسبب تفضيل نفقتهم أنها كانت في وقت الضنك والضيق بخلاف غيرهم ؛ ولأن إنفاقهم كان في نصرته ﷺ وحمايته ، وذلك معدوم بعده ، وكذا جهادهم وسائر طاعتهم كما قال تعالى : ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد : ١٠] .

قوله : « ويقبلون ما جاء به الكتاب أو السنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم » :

* هذا فيه الرد على الروافض والنواصب ، فقد أثنى اللّه - سبحانه - على أصحاب رسول اللّه ﷺ ووعدهم بالجنة كما قال سبحانه : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح : ٢٩] الآية ، وقال : ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح : ١٨] ، وقال : ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد : ١٠] ، والآيات والأحاديث في فضل الصحابة كثيرة جدًا ، منها ما في الصحيحين من حديث عمران وغيره : « خير القرون قرني »[٤] الحديث .

---

(١) البخاري (٥٧٥٤) ، ومسلم (١١٠) من حديث ثابت بن الضحاك رضي الله عنه .

(٢) أبو نعيم في الحلية (١٧٢) من حديث عمر رضي الله عنه .

(٣) الترمذي (٣٨٦٢) ، وأحمد (٥/٥٤) من حديث عبد اللّه بن مغفل رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (١١٦٠) .

(٤) تقدم تخريجه .

وروى ابن بطة بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : « لا تسبوا أصحاب محمد ، فلمقام أحدهم ساعة - يعني مع النبي ﷺ - خير من عمل أحدكم أربعين سنة » ، وفي رواية وكيع : « خير من عبادة أحدكم عمره »(١) ، والأدلة في فضل الصحابة كثيرة لا يرتاب فيها إلا زائغ ، فلا شك أنهم حازوا قصبات السبق واستولوا على الأمد وبلغوا في الفضل والمعروف والعلم وجميع خصال الخير ما لم يبلغه أحد ، فالسعيد من اتبع صراطهم واقتفى آثارهم ، تالله لقد نصروا الدين ووطدوا قواعد الملة وفتحوا القلب والأوطان وجاهدوا في الله حق جهاده ، فرضي عنهم وأرضاهم .

قوله : « من فضائلهم » : هو جمع فضيلة ، وهو الخصلة الجميلة التي يحصل لصاحبها بسببها شرف وعلو منزلة . انتهى .

قوله : « ومراتبهم » : جمع مرتبة ، والمُرتبة بالضم هي المنزلة ، والمكان ، وفيه جواز المفاضلة بين الصحابة ، وهو الذي تدل عليه الأدلة وبه قال الجمهور ، فعند أهل السنة أفضل الصحابة أبو بكر الصديق ، ثم عمر الفاروق ، ثم عثمان ذو النورين ، ثم علي المرتضي ، ثم بقية العشرة المشهود لهم بالجنة ، ثم أهل بدر ، ثم بيعة الرضوان ، ثم أُحد ، ثم بقية الصحابة ، ثم باقي الأمة أفضل من سائر الأمم ، كما قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] الآية ، وفي « السنن » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله »(٢) .

قوله : « فيفضلون من أنفق من قبل الفتح وهو صلح الحديبية » :

قوله : « من أنفق من قبل الفتح » : هؤلاء هم السابقون من المهاجرين والأنصار والمذكورين في قوله : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ ﴾ [التوبة : ١٠٠] الآية ، فالسابقون : هم الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا ، وأهل بيعة الرضوان كلهم منهم قال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [الحديد : ١٠] ، أي : لا يستوي في الأجر والثواب من أنفق ماله في سبيل الله ونصرة رسوله قبل الفتح ومن أنفق بعده ، وذلك أن الإنفاق قبل الفتح في حال شدة وضعف ، فلم يكن يؤمن حينئذٍ إلا الصديقون ، أما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهورًا عظيمًا ودخل الناس في دين الله أفواجًا ، والمراد هنا بالفتح هو : صلح الحديبية كما أشار إليه المصنف .

وفي « صحيح البخاري » عن أنس في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [الفتح : ١] هو صلح

---

(١) صححه الألباني في « شرح الطحاوية » (٥٣٠) .

(٢) الترمذي (٣٠٠١) ، وابن ماجه (٤٢٨٨) من حديث معاوية بن حيدة رضي الله عنه ، وحسنه الألباني في « المشكاة » (٦٢٨٥) .

الحديبية[1] ، وعن البراء : « أنتم تعدون الفتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحًا ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية »[2] . ذكره البخاري ، وسئل النبي ﷺ عن صلح الحديبية أفتح هو؟ قال : « نعم »[3] ، قال الشيخ تقي الدين رحمه الله : وأهل العلم على أنه أنزل فيه - أي صلح الحديبية - ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ ، قال : وهذه الآية نص على تفضيل المنفقين المقاتلين قبل الفتح على المنفقين بعده ؛ ولهذا ذهب جمهور العلماء إلى أن السابقين في قوله ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟﴾ [الحديد : ١٠] ، وأهل بيعة الرضوان كلهم منهم ، وذهب بعضهم إلى أن السابقين من صلى إلى القبلتين وهذا ضعيف ، وأطال الكلام في رد هذا القول في كتابه « المنهاج » ، انتهى . وكانت بيعة الرضوان عام الحديبية سنة ست من الهجرة ، وبذلك الصلح حصل من الفتح والخير ما لا يعلمه إلا الله ، مع أنه كرهه خلق كثير من المسلمين ، ولم يعلموا ما فيه من حسن العاقبة ، وكان عدد الصحابة الذين بايعوا النبي ﷺ تحت الشجرة أكثر من ألف وأربع مائة وهم الذين فتحوا خيبر ، وسورة الفتح أنزلها الله قبل فتح مكة ، إنما سمي صلح الحديبية فتحًا ؛ لما حصل فيه من الخير الكثير الذي لا يعلمه إلا الله . قال في « الهدي » : وسمي صلح الحديبية فتحًا في اللغة : عبارة عن فتح المغلق والصلح الذي حصل مع المشركين في الحديبية كان بابه مسدودًا مغلقًا حتى فتحه الله . انتهى . وقال ابن كثير رحمه الله : والجمهور على أن المراد بالفتح هاهنا : فتح مكة . ا.هـ .

قوله : « الحديبية » : كدويهية ، وقد تشدد ، بئر قرب مكة . انتهى « قاموس » ، في هذه الآية دليل على أن الصدقة وكذلك سائر الأعمال تتفاضل بحسب الزمان والمكان ، وفيها دليل على فضل النفقة في سبيل الله وفضل الجهاد في سبيل الله ، وفيها دليل على تفاضل الصحابة رضوان الله عليهم ، واستدل بهذه الآية على أن الصحابة كلهم من أهل الجنة ، قال ابن حزم : الصحابة من أهل الجنة قطعًا واستدل بهذه الآية .

قوله : « ويقدمون المهاجرين على الأنصار » .

* وذلك لما فضلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم في الذكر والرتبة كما قال سبحانه : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة : ١٠٠] ، وقال : ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ [الحشر : ٨] الآية .

قوله : « والمهاجرين » : وهم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة . انتهى . « قسطلاني » ، وقال في

(١) البخاري (٣٩٣٩) من حديث أنس رضي الله عنه موقوفًا .

(٢) البخاري (٣٩١٩) من حديث البراء رضي الله عنه .

(٣) أبو داود (٢٧٣٦) ، والحاكم (٢٥٩٣) من حديث مجمع بن جارية رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود (٥٨٧) .

« الفتح » : والمراد بالمهاجرين من عدا الأنصار ، ومن أسلم يوم الفتح وهلم جرا . اهـ .

والهجرة هنا لغةً : الترك ، وشرعًا : هو الانتقال من بلد الشرك أو بلد تغيب فيه أحكام البعد المضلة إلى بلد الإسلام أو السنة .

قوله : « الأنصار » ؛ أي : أنصار رسول الله ﷺ ، والمراد بهم : الأوس والخزرج ، وكانوا يعرفون قبل ذلك ببني قيلة ، وهي الأم التي تجمع القبيلتين ، فسماهم الرسول ﷺ الأنصار ، فصار ذلك علمًا عليهم ، وخصوا بهذه المنقبة العظمى دون غيرهم من القبائل لما فازوا به من إيواء النبي ﷺ ومن معه والقيام بأمرهم ومواساتهم بأنفسهم وأموالهم ، والأحاديث في فضل الأنصار كثيرة ، كحديث أن النبي ﷺ قال : « آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق بغض الأنصار »(١) .

قوله : « ويؤمنون بأن الله تعالى قال لأهل بدر ...» إلخ :

* كما روى الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »(٢) ، وفي « صحيح مسلم » عن جابر رضي الله عنه أن غلامًا لحاطب قال : ليدخلن حاطب النار ، فقال رسول الله ﷺ : « كذبت إنه شهد بدرًا والحديبية »(٣) ، وفي الصحيح من حديث علي رضي الله عنه في قصة كتاب حاطب بن أبي بلتعة لقريش يخبرهم بخروج النبي ﷺ ، فقال عمر رضي الله عنه : دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال : « إنه شهد بدرًا ، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »(٤) . رواه الإمام أحمد .

قوله : « لعل الله اطلع » الحديث : صرح العلماء بأن الترجي المذكور في كلام الله وكلام رسوله للوقوع ، وقد وقع عند أحمد وأبي داود وغيرهم في حديث أبي هريرة بالجزم ، ولفظه : « أن الله اطلع على أهل بدر ...»(٥) الحديث ، وفي هذه الأحاديث دليل على فضيلة أهل بدر وبشارة عظيمة لهم ، قال النووي في « شرح مسلم » ، قال العلماء رحمهم الله : معناه الغفران لهم في الآخرة ، فإن توجه على أحد منهم حد أو غيرة أقيم عليه في الدنيا ، ونقل القاضي عياض : الإجماع على إقامة الحد وأقامه عمر على بعضهم ، وقال : وضرب النبي ﷺ مسطحًا وكان بدريًا . انتهى .

---

(١) البخاري (١٧) ، ومسلم (٧٤) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) الحاكم (٦٩٦٨) ، وابن أبي شيبة (٦/٣٩٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (١٧١٩) .

(٣) مسلم (٢٤٩٥) ، والترمذي (٣٨٦٤) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٤) البخاري (٢٨٤٥) ، ومسلم (٢٤٩٤) ، وأحمد (١/٧٩) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(٥) تقدم تخريجه .

قوله : « وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر » :

* أي : عدة أهل بدر كما روى البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : كنا أصحاب رسول الله ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين عبروا معه النهر ولم يجاوزه معه إلا مؤمن بضعة عشر وثلاث مائة ، وبدر قرية مشهورة على نحو أربع مراحل من المدينة المنورة ، وسميت الوقعة باسم موضعها الذي وقعت فيه ، ووقعة بدر من أشهر الوقائع التي أعز الله بها الإسلام وقمع بها عبدة الأصنام .

وكانت وقعة بدر نهار الجمعة لسبع عشرة خلت من رمضان من السنة الثانية من الهجرة ، واستشهد فيها من المسلمين أربعة عشرة نفسًا ، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار ، وقتل من الكفار سبعون .

قوله : « وبأنه لا يدخل النار » إلخ :

* قال الله تعالى : ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ [التوبة : ١١٧] .

وقال تعالى : ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح : ١٨] الآية ، وفي « صحيح مسلم » من حديث جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ ، قال : « لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة »(١) ، وفي « الصحيحين » وغيرهما من حديث جابر رضي الله عنه قال : كنا في الحديبية ألفًا وأربع مائة ، فقال لنا رسول الله ﷺ : « أنتم خير أهل الأرض »(٢) أفاد هذا الحديث : أن عدد من بايع تحت الشجرة ألف وأربع مائة ، وفي رواية من حديث جابر أنهم ألفا وخمس مائة(٣) ، وفي حديث البراء أنهم ألف وأربع مائة أو أكثر(٤) ، وجمع بين هذه الروايات بأن من قال : ألف وخمس مائة جبر الكسر ، ومن قال : ألف وأربع مائة ألغاه ، وكان سبب هذه البيعة أنه ﷺ قصد مكة ليعتمر فصدَّه المشركون ، وكان قد بعث عثمان رضي الله عنه إلى مكة فشاع أن عثمان قتل ، فطلب ﷺ البيعة فبايعوه تحت الشجرة ، ثم صالح المشركين صلح الحديبية المعروف ، وذلك في سنة ست من الهجرة في ذي القعدة ، ثم رجع بهم إلى المدينة وغزا بهم خيبر ففتح الله عليهم في أول سنة سبع وقسمها بينهم .

قوله : « شجرة » : هي شجرة خضراء من سدر كانت البيعة تحتها ، ويقال لها : شجرة البيعة ، ولما كان في خلافة عمر رأى أناسًا يذهبون إليها فيصلون تحتها ، فقطعها رضي الله عنه مخافة الفتنة بها اختفى مكانها ، وأما الحديبية فهي قرية من مكة أكثرها في الحرم ، والحديبية : بئر كانت هناك ، وسمي

---

(١) مسلم (٢٤٩٦) ، وأبو داود (٤٦٥٣) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٢) البخاري (٣٩٢٣) ، ومسلم (١٨٥٦) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٣) تقدم تخريجه .

(٤) تقدم تخريجه .

المكان بها، بينها وبين مكة نحو كمرحلة واحدة، ومن المدينة تسع مراحل.

قوله: «ونشهد بالجنة ..» إلخ:

* أي: ويشهد أهل السنة والجماعة بالجنة لمن شهد له الرسول ﷺ كالعشرة وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وأبو عبيدة بن الجراح، وطلحة، كما روى الترمذي في جامعة عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، والزبير بن العوام في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة»[1]، ورواه أحمد في مسنده والضياء عن سعيد بن زيد، وتبشير النبي ﷺ العشرة بالجنة لا ينافي مجيء تبشير غيرهم في أخبار أخرى؛ لأن العدد لا ينفي الزائد.

وعن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين»[2]، أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه، وأخرجه أبو يعلى والضياء في «المختارة» عن أنس، وأخرجه الطبراني في «الأوسط» عن جابر وأبي سعيد، وقد اتفق أهل السنة على تعظيم هؤلاء العشرة وتقديمهم لما اشتهر من فضائلهم ومناقبهم خلافًا للرافضة الذين يبغضونهم ويسبونهم، بل يكرهون لفظ العشرة أو فعل شيء يكون فيه عشرة ويتشاءمون به لموافقته لاسم العشرة المبشرة بالجنة، لكنهم يستثنون عليًا رضي الله عنه، ولديهم من الجهالات والعوائد الذميمة وسفاهة العقول ما يقضي بعزلهم عن زمرة العقلاء، وإلا فمال ذنب هذا النوع من العدد؟! لكنه البغض المتأصل والعداوة البالغة لخيار المؤمنين وساداتهم، وأفضل قرونهم رضوان الله عليهم أجمعين.

قوله: «وثابت بن قيس»:

* هو خطيب رسول الله ﷺ كما رواه البخاري في «صحيحه» عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك علمه فأتاه فوجده في بيته منكسًا رأسه، فقال له: ما شأنك؟ قال: شرٌّ، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله فهو من أهل النار، فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا، قال: فرجع إليه المرة الأخيرة فأخبره ببشارة عظيمة، فقال: «اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة»[3]، تفرد به البخاري من هذا الوجه، وفي رواية أحمد عن أنس: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة، ورواه

---

(١) أحمد (١/١٨٧)، وأبو داود (٦/٣٥٠) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٠١٠).

(٢) الترمذي (٣٦٦٥)، وأحمد (١/٨٠) من حديث علي رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥١).

(٣) البخاري (٣٤١٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

مسلم بلفظ آخر ، ورواه ابن جرير وغيره ، وروى ابن أبي حاتم عن ثابت عن أنس في قصة ثابت بن قيس فقال في آخرها : فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة ، فلما كان يوم اليمامة كان في بعضنا بعض الانكشاف ، فأقبل قد تكفن وتحنط ، فقاتل حتى قتل رضي اللَّه عنه .

قوله : « وغيرهم من الصحابة » :

* وذلك كعبد اللَّه بن سلام والحسن ، فقد شهد النبي للمذكورين كما روى البخاري في « صحيحه » عن سعد بن أبي وقاص قال : ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي إنه من أهل الجنة إلا لعبد اللَّه بن سلام ، وفي حديث أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال : « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة »[1]، وفي حديث عكاشة بن محصن لما ذكر السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة من غير حساب ولا عذاب ، فقال : ادعُ اللَّه أن يجعلني منهم ، فقال : « أنت منهم ... »[2]الحديث ، ولا يشهد لغير من شهد له النبي ﷺ بجنة ولا نار ؛ لأنه لا يعلم ماذا يختم له به ، وأحلق بعض العلماء بمن تقدم من اتفقت الأمة على الثناء عليه كعمر بن عبد العزيز والحسن البصري وغيرهما ، وكان أبو ثور يشهد لأحمد بن حنبل بالجنة وفي المسند : « يوشك أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار » ، قالوا : بماذا يا رسول اللَّه ؟ قال : « بالثناء الحسن والثناء السيئ »[3].

وفي « الصحيحين » أن النبي ﷺ مر عليه بجنازة فأثنوا عليها خيرًا ، فقال : « وجبت » ، ومر عليه بجنازة فأثنوا عليها شرًا فقال : « وجبت » ، فقيل : يا رسول اللَّه ما قولك : وجبت ؟ فقال : « هذه الجنازة أثنيتم عليها بالخير فقلت : وجبت لها الجنة ، وهذه الجنازة أثنيتم عليها شرًا فقلت : وجبت لها النار ، أنتم شهداء اللَّه في الأرض »[4].

قوله : « ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه ...» :

قوله : « ويقرون » :الإشارة للرد على الرافضة الذين يفضلون عليًا على أبي بكر وعمر ، ويطعنون في خلافتهما ، ويزعمون أن عليًا أفضل منهما ، وأن النبي ﷺ أوصى إليه ، وقد سئل علي عن ذلك فأنكر ذلك ، كما روى الإمام أحمد والبخاري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر ، قال الحافظ الذهبي : هذا متواتر ، والروافض تكذب هذه الأخبار – لعنهم اللَّه – ما أجهلهم وأضلهم !

---

(١) الترمذي (٣٧٦٨) ، وأحمد (٣/٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٣١٨١) .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) ابن ماجه (٤٢٢١) ، وابن حبان (٧٣٨٤) من حديث أبي زهير الثقفي رضي الله عنه ، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٣٤٠٠) .

(٤) البخاري (١٣٠٣) ، ومسلم (٩٤٩) من حديث أنس رضي الله عنه .

وقال في « الفتاوى » للشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله : وقد روى عن علي من نحو من ثمانين وجهًا أو أكثر أنه قال على منبر الكوفة : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر ، وقال في المنهاج : وروى الترمذي عنه أنه سمع ذلك من النبي ﷺ ، ولا ريب أن عليًا لا يقطع بذلك إلا عن علم ، ورُوي عنه أنه قال : لا أوتى بمن يفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته جلد المفتري .

وروى الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : كان أبو بكر أعلمنا برسول الله ﷺ ، وروى الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر : « هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا الأنبياء والمرسلين »[1] ، وروى أبو الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال : « ما طلعت شمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر وعمر »[2] ، وذكر الشيخ تقي الدين ابن تيمية في غير موضع من كتبه اتفاق العلماء على أن أعلم الصحابة أبو بكر ثم عمر .

وذكر الإمام السمعاني أحد الأئمة الستة في كتاب « تقويم الأدلة » : أجمع علماء السنة على أن أبا بكر أعلم من علي ، قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية : وما علمت أحدًا من الأئمة المشهورين ينازع في ذلك . ا.هـ .

قوله : « ويثلثون بعثمان ، ويربعون بعلي » :

* أي : يكملون بعثمان ثلاثة ويكملون بعلي أربعة ، فالخلفاء الأربعة على هذا الترتيب في الفضل والخلافة ، كما روى الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كنا نفاضل على عهد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان[3] ، وفي لفظ : « يبلغ ذلك النبي ﷺ ولا ينكره » ، وقال أبو أيوب السختياني وأحمد بن حنبل والدارقطني وغيرهم : من قدَّم عليًا على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار ، فهؤلاء الأربعة هم الخلفاء الراشدون والأئمة المهديون ، كما في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ... »[4] الحديث .

قوله : « وكما أجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة » :

* فإن الصحابة رضوان الله عليهم اختاروه وأجمعوا على بيعته ، كما في حديث عبد الرحمن بن عوف أنه قام ثلاثًا لم يغتمض فيها بنوم يشاور الأولين والتابعين لهم بإحسان ، وشاوروا أمراء الأنصار ، فأشار عليه المسلمون بولاية عثمان رضي الله عنه ، وهذا من الأدلة الدالة على أن عثمان أفضل ؛ لأنهم

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) أبو نعيم في الحلية (٣/٣٢٥) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٣) البخاري (٣٤٥٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٤) تقدم تخريجه .

قدموه باختيارهم وأجمعوا عليه ، كما تقدم من قول أبي أيوب وأحمد والدارقطني ، وغيرهم من الأئمة : من قدم عليًا على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار ، فأفضل الأمة أبو بكر بإجماع أهل السنة ، ولا ينازع في ذلك إلا زائغ ، واسمه عبد اللَّه بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعيد بن تميم بن مرة ، الصديق ؛ لقبه النبي ﷺ بذلك ، وهو أول الناس إيمانًا وتصديقًا للنبي ﷺ على المشهور عند أهل السنة ، وقيل : أول الناس إسلامًا علي ، وقيل : غير ذلك .

وروي عن الإمام أبي حنيفة أنه قال : الأورع أن يُقال : أول من أسلم من الرجال الأحرار : أبو بكر الصِّديق ، ومن الصبيان : علي ، ومن النساء : خديجة ، ومن الموالي : زيد بن حارثة ، ومن : العبيد بلال ، وهكذا رُوي عن إسحاق بن راهويه ، وهذا من أحسن ما قيل لجمعه الأقوال ، وأبو بكر أول من ولي الخلافة وأحق الناس بها ، وأول من سمي خليفة .

قال الإمام الشافعي : خلافة أبي بكر قضاها اللَّه في سمائه ، وجمع عليها قلب نبيه ، وقال ابن القيم رحمه الله في « الأعلام » : ولا يحفظ لأبي بكر الصديق خلاف نص واحد أبدًا ، ولا يحفظ له فتوى ولا حكم مأخذها ضعيف ، وهو تحقيق في كون خلافته خلافة نبوة . انتهى .

صحب أبو بكر النبي ﷺ من حين أسلم إلى أن توفي وشهد معه المشاهد كلها ، ومناقبه أشهر من أن تذكر ، توفي وله ثلاث وستون سنة ، وكانت خلافته سنتين وأشهر ، ودفن بجنب النبي ﷺ ، ثم بعد أبي بكر وعمر في الفضل وهو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد اللَّه بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب يجتمع مع النبي ﷺ في كعب بن لؤي ، سماه النبي ﷺ الفاروق ؛ لفرقه بين الحق والباطل ، أسلم في السنة السادسة من البعثة وعمره سبع وعشرون سنة ، ومناقبه أشهر من أن تذكر ، وكناه النبي ﷺ بأبي حفص وهو لغة الأسد ، وهو أول من سمي أمير المؤمنين لاستثقالهم خليفة رسول اللَّه ، ولي الخلافة بعد الصديق سنة ثلاثة عشر ، وقام بها أتم قيام ، وكثرت الفتوح في مدة خلافته رضي اللَّه عنه ، وهو أفضل هذه الأمة بعد أبي بكر رضي الله عنه بإجماع السلف ، وسيرة عمر قد افردها بعض العلماء بالتأليف ، وبلغت مجلدات ، وعدله يضرب به المثل ، فيقال : سيرة العمرين ، والعمران أبو بكر وعمر ، وقيل لهما : العمران تغليبًا مثل ما يقال : القمران : للشمس والقمر ، والأبوان : للأب والأم ، مات رضي الله عنه شهيدًا طعنه أبو لؤلؤة في المسجد سنة ثلاثة وعشرين ، ودفن بالحجرة النبوية بجنب أبي بكر مع النبي ﷺ .

ثم بعد عمر في الفضل عثمان بن عفان بن الحارث بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ولد في السنة السادسة من الفيل ، وأسلم قديمًا وهاجر الهجرتين ، وتزوج بنتي النبي ﷺ فسمي « ذو النورين » ، وجمع رضي الله عنه القرآن ، وجهز جيش العسرة ، وولي الخلافة بعد عمر بإجماع الصحابة رضي الله عنهم ، وفضائله كثيرة ، استشهد في داره سنة خمس وثلاثين ، وله بضع وثمانون سنة ، تجمعت أوباش وأنذال من أوباش

العراق ، ومصر ، والشام ، فحاصروه في بيته ، وأخيرًا اقتحموا عليه وقتلوه شهيدًا ، رضي الله عنه .

ثم بعد عثمان في الفضل علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، ابن عم رسول الله ﷺ ، وزوج بنته فاطمة الزهراء ، ومناقبه كثيرة ، بايعه الناس بعد قتل عثمان رضي الله عنهما ، واتفق السلف على فضله وخلافته بعد عثمان .

قال الإمام أحمد رحمه الله : عليٌ رابعهم في الخلافة والتفضيل ، وهو أول خليفة من بني هاشم ، وقيل : إنه أول من أسلم ، ونقل بعضهم الإجماع عليه ، وتقدم الكلام في أول من أسلم في مناقب أبي بكر الصديق ، ومناقبه كثيرة وفضائله شهيرة ، حتى قال أحمد بن حنبل : ما جاء لأحد من الفضائل ما جاء لعلي رضي الله عنه ، مات ليلة الأحد لتسع عشرة مضت من رمضان سنة أربعين ، قتله عبد الرحمن بن ملجم قبحه الله ، وعمره ثلاثة وستون سنة ، وخلافته خمس سنين إلا نحو أربعة أشهر .

قوله : « مع أن بعض أهل السنة ....» إلخ :

* فروى عن أبي حنيفة تقديم علي على عثمان ، ولكن ظاهر مذهبه تقديم عثمان ، وكذلك روي عن سفيان الثوري تقديم علي على عثمان ، ويقال : إنه رجع عنه لما اجتمع به أبو أيوب السختياني ، وقال : من قدم عليًا على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار ، وقيل : لا يفضل أحدهما على الآخر ، قال مالك في « المدونة » ، وتبعه جماعة منهم يحيى القطان ، ومن المتأخرين ابن حزم ، والذي عليه جمهور أهل السنة - بل استقر أمر أهل السنة عليه - : تقديم عثمان على علي رضي الله عنهما كما أشار إليه المصنف ، قال في « المنهاج » : وسائر أئمة أهل السنة على تقديم عثمان ، وهو مذهب جماهير أهل الحديث ، وعليه يدل النص والإجماع والاعتبار . انتهى .

وفي الصحيح عن ابن عمر قال : كنا نقول ورسول الله حي : أفضل أمة النبي ﷺ بعده أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي[1] ، وفي لفظ : يبلغ ذلك النبي ﷺ ولا ينكره[2] ، وقال عبد الرحمن بن عوف لعلي رضي الله عنه : إني نظرت أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان ، وقال أبو أيوب : من لم يقدم عثمان على علي ، فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار . وقد تقدم ، وهذا دليل على أن عثمان أفضل ؛ لأنهم قدموه باختيارهم واشتوارهم ، وعلي رضي الله عنه من جملة من بايع عثمان ، وغزا معه ، وكان يقيم الحدود بين يديه .

قوله : « بعد اتفاقهم » إلخ : أي : أن أهل السنة متفقون على تقديم أبي بكر وعمر على عثمان ؛ وذلك لما لأبي بكر وعمر من الفضائل التي لم يشاركهما فيها أحد من الصحابة لا عثمان ولا علي ولا غيرهما ، وهذا كان متفقًا عليه في الصدر الأول إلا أن يكون خلافًا شاذًا لا يعبأ به .

---

(١) البخاري (٣٤٥٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) الطبراني في الأوسط (٨٧٠٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنه .

قوله : « وإن كانت هذه المسألة مسألة عثمان ...» إلخ :

* أي : مسألة التفضيل بينهما لوجود الخلاف ، فقد قال بعض أهل السنة بتقديم علي ، والبعض توقف ، وأما من حكى الإجماع على تفضيل عثمان فقد غلط ، فالخلاف موجود فلذا لا يضلل المخالف .

قوله : « التي يضلل فيها » إلخ : أي : ينسب إلى الضلال هي مسألة الخلافة ، فأهل السنة والجماعة يؤمنون بأن بعد رسول اللَّه ﷺ أبو بكر الصديق لفضله وسابقته ، وتقديم النبي ﷺ له على جميع الصحابة ، وإجماع الصحابة على ذلك ، ولم يكن اللَّه ليجمعهم على ضلالة .

ثم أحقهم بالخلافة بعد أبي بكر عمر رضي الله عنهما ، وذلك لفضله وعهد أبي بكر إليه واتفاق الأمة بعده عليه ، ثم عثمان رضي الله عنه لتقديم أهل الشورى له ، واتفاق الأمة عليه . قال الإمام أحمد : ما اجتمعوا على بيعة ما اجتمعوا على بيعة عثمان رضي اللَّه عنه ، ثم علي لفضله وإجماع أهل عصره عليه ، ولا شك أن عليًا هو الخليفة في زمانه خلافة نبوة ، كما دل على ذلك حديث سفينة الذي سيأتي ، وقال الإمام أحمد رحمه الله : علي رابعهم في الخلافة والتفضيل ، وأما معاوية فهو من العدول الفضلاء والصحابة النجباء رضي الله عنهم ، فهؤلاء هم الخلفاء الأربعة المشار إليهم في حديث العرباض بن سارية : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ...»[1] الحديث .

قوله : « ومن طعن في خلافة واحد ...» إلخ :

* لمخالفته النصوص الصريحة والإجماع ، ولم يخالف في ذلك إلا ضال زائغ .

قال الإمام أحمد رحمه الله : من فضل عليًا على أبي بكر وعمر ، وقدمه عليهما في الفضيلة والإمامة دون النسب ؛ فهو رافضي مبتدع فاسق ، ذكره القاضي أبو يعلى ، وتبرأ الإمام أحمد ممن ضللهم أو أحدًا منهم ، وقال الإمام أحمد : من لم يربع بعلي في الخلافة ؛ فهو أضل من حمار أهله ، واحتج الإمام أحمد بحديث سفينة عن النبي ﷺ قال : « تكون خلافة النبوة ثلاثين سنة ، ثم تكون ملكًا »[2] ، وآخر الثلاثين خلافة علي رضي الله عنه مع أيام ابنه الحسن ، وكانت ستة أشهر وشيئًا ، وروى حديث سفينة أصحاب « السنن » وصححه ابن حبان وغيره ، فترتيب الخلفاء في التفضيل والخلافة كما ذكره المصنف خلافًا للرافضة من الشيعة وغيرهم الذين يزعمون أن رسول اللَّه ﷺ قد نص على خلافة علي ، وهذا من أعظم الكذب والافتراء ، والأدلة على بطلان هذه الدعوى لا تحصى ، بل قد سئل علي رضي الله عنه عن ذلك فأنكره ، قال النووي : وأما ما تدعيه الشيعة من النص على علي والوصية إليه ؛ فباطل لا أصل له باتفاق المسلمين ، وأول من كذبهم علي رضي اللَّه عنه ، ثم ذكر ما روى البخاري عن أبي جحيفة قال : قلت لعلي رضي اللَّه

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) الطبراني (١/٥٥) من حديث سفينة رضي الله عنه .

عنه : هل عندكم من الوحي شيء غير القرآن ؟ قال : لا ، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهمًا يعطيه الله رجلًا في القرآن ، وما في هذه الصحيفة ، قلت : وما في هذه الصحيفة ؟ قال : العقل وفكاك الأسير ، وأن لا يقتل مسلم بكافر ، وروى مسلم عن الأسود بن يزيد قال : ذكروا عند عائشة أن عليًا كان وصيًا ، فقالت : متى أوصى إليه فقد كنت مسندته – تعني النبي ﷺ – إلى صدري ، فدعى بالطست فلقد انخنث في حجري ، وما شعرت إنه مات ، فمتى أوصى إليه ، إلى غير ذلك من الأدلة الدالة على بطلان ما تزعمه الشيعة من أنه أوصى إليه ، أو أن لدى أهل البيت شيء من العلم ، لا سيما علي لم يطلع عليه أحد غيره ، وقد أطال في « المنهاج » في رد هذا وإبطاله بأدلة واضحة صريحة – إلى أن قال – وأما النص الذي تدعيه الرافضة ، فهو كالنص الذي تدعيه الراوندية على العباس وكلاهما معلوم الفساد بالضرورة عند أهل العلم ، ولو لم يكن في إثبات خلافة علي إلا هذا لم يثبت له إمامة ، كما لم يثبت للعباس إمامة بنظيره . اهـ .

قوله : « ويحبون أهل بيت رسول الله ﷺ » إلخ :

* أي : أن أهل السنة والجماعة يحبون أهل بيت الرسول ﷺ ، ويتولونهم ، ويحترمونهم ، ويكرمونهم ؛ لقرابتهم من رسول الله ﷺ ، فاحترامهم ومحبتهم والبر بهم من توقيره واحترامهم ﷺ وامتثالًا لما جاء به الكتاب والسنة من الحث على ذلك ، قال تعالى : ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى : ٢٣] ، وقد تكاثرت الأحاديث بالأمر بذلك والحث عليه ، قال ابن كثير رحمه الله بعد كلام : ولا ننكر الوصاية بأهل البيت والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم ، فإنهم من ذرية طاهرة ، وأشرف بيت وجد على وجه الأرض فخرًا وحسبًا ونسبًا ، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية ، كما كان عليه سلفهم كالعباس وبنيه وعلي رضي الله عنه وأهل بيته وذويه ، وأهل البيت هم آل النبي ﷺ الذين حرمت عليهم الصدقة ، كما فسر ذلك راوي الحديث : وهم آل علي ، وآل جعفر ، وآل عقيل ، وآل العباس ، وبنو الحارث ابن عبد المطلب ، كما جاء تفسيره في « صحيح مسلم » ، وكذلك أزواج النبي ﷺ من أهل بيته ، كما دل عليه سياق آية الأحزاب ، كما قرر ذلك الشيخ تقي الدين وابن القيم وغيرهما . انتهى . وأفضل أهل بيته علي وفاطمة والحسن والحسين الذي أدار عليهم الكساء وخصهم بالدعاء ، وذكره الشيخ تقي الدين – رحمه الله تعالى – .

قوله : « ويحفظون فيهم وصية رسول الله ﷺ : حيث قال يوم غدير خم ....» إلخ :

* أي أن الرسول أوصى باحترامهم والإحسان إليهم وإكرامهم كما في الحديث الذي ذكره المصنف .

قوله : « حيث قال يوم غدير خم » الحديث : قوله : (خُمّ) بضم الخاء وتشديد الميم هو اسم لغيضة على ثلاثة أميال من الجحفة ، وهو غدير مشهور يضاف إلى الغيضة ، فيقال : غدير خم ، والغيضة :

الشجر الملتف ، والحديث رواه مسلم في « صحيحه » عن زيد بن أرقم قال : قام فينا رسول اللَّه ﷺ خطيبًا بماء يدعى خمًّا بين مكة والمدينة ، فحمد اللَّه ، وأثنى عليه ، ووعظ ، وذكر ، ثم قال : « أما بعد ، أيها الناس ، إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب ، وإني تارك فيكم ثقلين أولهما : كتاب اللَّه فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب اللَّه ، واستمسكوا به » ، فحث على كتاب اللَّه ﷻ ، ورغب فيه ، ثم قال : « وأهل بيتي ، أذكركم اللَّه في أهل بيتي ، أذكركم اللَّه في أهل بيتي ، أذكركم اللَّه في أهل بيتي »[1] ، فقال حصين : ومن أهل بيته يا زيد ، أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده ، قال : من هم ؟ قال : هم آل علي ، وآل عقيل ، وآل جعفر ، وآل عباس ﷺ ، قال : كل هؤلاء حرم الصدقة ؟ قال : نعم ، وروى هذا الحديث أحمد وغيره ، وقد رواه الترمذي ، وزاد فيه : « وإنهما لم يفترقا حتى يراد على الحوض »[2] .

قال الشيخ تقي الدين ﷫ : وقد طعن غير واحد من الحفاظ في هذه الزيادة ، وقال : إنها ليست من الحديث ، فهذا الحديث فيه الوصية بأهل البيت والحث على احترامهم وإكرامهم .

قوله : « أذكركم اللَّه في أهل بيتي » : أي : أذكركم اللَّه ، أي : ما أمر به من احترامهم ، وإكرامهم ، والقيام بحقهم . قوله ثلاثًا : مبالغة في الحث على ذلك وكرره للتأكيد ، قال الشيخ تقي الدين ﷫ : وهذا اليوم الذي خطب النبي ﷺ في هذا الغدير المشهور هو ثامن عشر ذي الحجة ، مرجعه من حجة الوداع ، وقد زاد أهل الأهواء في ذلك ، وزعموا أنه عهد إلى علي ﷛ الخلافة ، وذكروا كلامًا طويلًا باطلًا ، وزعموا أن الصحابة تمالئوا على كتمان هذا النص ، وغصبوا الوصي حقه ، وفسقوا وكفروا إلا نفرًا قليلًا ، وقد جعل أهل البدع هذا اليوم عيدًا ، وهذا ابتداع في الدين ؛ إذ الأعياد شريعة من الشرائع فيجب فيها الاتباع لا الابتداع ، ولم يكن في السلف ، لا من أهل البيت ولا من غيرهم من اتخذ ذلك عيدًا . انتهى من « الاقتضاء » .

قوله : « وقال أيضًا للعباس عمه - وقد اشتكى إليه ....» إلخ :

* هذا الحديث رواه الإمام أحمد وغيره عن العباس بن عبد المطلب قال : قلت : يا رسول اللَّه ، إن قريشًا إذا لقي بعضهم بعضًا لقوهم ببشر حسن ، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها ، فغضب النبي ﷺ غضبًا شديدًا ، وقال : « والذي نفسي بيده ، لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله »[3] رواه أحمد ، وفي لفظ ثم قال : « يا أيها الناس ، من آذى عمي فقد آذاني ، فإنما عم

---

(١) مسلم (٢٤٠٨) ، وأحمد (٤/٣٦٦) من حديث زيد بن أرقم ﷛ .

(٢) الترمذي (٣٧٨٨) ، والحاكم (٤٧١١) من حديث زيد بن أرقم وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٢٤٥٨) .

(٣) أحمد (١/٢٠٧) ، والحاكم (٥٤٣٣) من حديث العباس ﷛ ، وضعفه الألباني في « المشكاة » (٦١٤٧) .

الرجل صنو أبيه »(١) . رواه الترمذي ، وقال : حسن صحيح .

قوله : « العباس » : هو ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف عن رسول الله ﷺ ، ووالد الخلفاء العباسيين ، وكان أسن من النبي ﷺ بسنتين أو ثلاث ، وكان إسلامه على المشهور قبل فتح مكة ، وكنيته أبو الفضل ، ومات في خلافة عثمان سنة اثنتين وثلاثين ، وله بضع وثمانون سنة ، وصلى عليه عثمان ، ودفن بالبقيع رضي الله عنه .

قوله : « وقد اشتكى إليه » : من الشكوى ، وهو أن تخبر عن مكروه أصابك . انتهى نهاية قوله : يجفوا : الجفاء : ترك البر والصلة . انتهى « نهاية » .

قوله : « فقال : « والذي نفسي بيده ، لا يؤمنون حتى يحبوكم ، لله ولقرابتي » :

قوله : « والذي نفسي بيده » : فيه الحلف على الفتيا ، وفيه دليل على دخول الأعمال في مسمى الإيمان ، وهذا قول أهل السنة والجماعة . قوله : « لا يؤمنون » : الحديث ، هذا نفي لكمال الإيمان الواجب ، ففيه دليل على عظيم حقهم ، ووجوب احترامهم ، والتحذير من بغضهم ، والترغيب في حبهم ، حتى نفى الإيمان عمن لا يحبهم ، وفيه أن محبة أهل البيت وقرابة النبي ﷺ من محبته ﷺ واحترامه وإكرامه ، وفيه دليل على فضل قرابة النبي ﷺ .

قوله : « ولقرابتي » : قرابة النبي صلى الله عليه سلم من ينسب إلى جده الأقرب ، وهو عبد المطلب ممن صحب النبي ﷺ ، أو رآه من ذكر أو أنثى . انتهى « فتح الباري » . وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال : « ارقبوا محمدًا في أهل بيته » . وفي الصحيح أن الصديق قال لعلي رضي الله عنه : « والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليّ أن أصل من قرابتي » . وقال عمر بن الخطاب للعباس : « والله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم ؛ لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب » .

قوله : « وقال : « إن الله اصطفى إسماعيل ، واصطفى من بني إسماعيل كنانة ، واصطفى من كنانة قريشًا ...» .

قوله : « إن الله » إلخ : هذا الحديث رواه أحمد ومسلم عن واثلة بن الأسقع بلفظ : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشًا من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم »(٢) ، ورواه - أيضًا - الترمذي بلفظ : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من

---

(١) الترمذي (٣٧٥٨) ، وأحمد (٤/١٦٥) من حديث المطلب بن ربيعة رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٧٠٨٧) .

(٢) مسلم (٢٢٧٦) ، والترمذي (٣٦٠٦) من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه .

ولد إسماعيل بني كنانة »[1] الحديث ، قال الترمذي : حسن صحيح .

قوله : « اصطفى » : أي : اختار ، والصفوة الخيار في هذا الحديث دليل على شرف نسبه ﷺ ، ودليل على فضله ﷺ ، وأنه أفضل الخلق على الإطلاق ، وروى مسلم في « صحيحه » أن رسول الله ﷺ قال : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر »[2] ، وقال ابن عباس رضي الله عنه : إن الله فضل محمدًا على أهل السماء وعلى الأنبياء ورواه البيهقي ، وفي هذا الحديث إشارة إلى فضل إسماعيل على سائر إخوته ، وهذا الحديث صريح في أنه ﷺ من ذرية إسماعيل ولا خلاف في ذلك ، فهو ﷺ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهد بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مصر بن نزار بن معد بن عدنان ، وفيه دليل على فضل العرب ، وأنهم أفضل من غيرهم ، وفيه أن محبتهم دين ؛ لأن الحب والبغض يتبع الفضل ، وقد روى : « حب العرب إيمان وبغضهم نفاق وكفر » ، وقد احتج بهذا الحديث حرب الكرماني وغيره ، فقال حرب في وصفه للسنة التي قال فيها : هذا مذهب أئمة العلم وأصحاب الأثر أهل السنة المعروفين بها المقتدى بهم فيها ، وساق كلامًا طويلًا إلى أن قال : ونعرف للعرب حقها وفضلها وسابقتها ونحبهم لحديث رسول الله ﷺ : « حب العرب إيمان وبغضهم نفاق »[3] ، ولا نقول بقول الشعوبية ، وأراذل الموالي الذين لا يحبون العرب ، ولا يقرون بفضلهم ، فإن قولهم بدعة وخلاف . انتهى من « اقتضاء الصراط المستقيم » ملخصًا .

وقال الشيخ تقي الدين أيضًا : الذي عليه أهل السنة والجماعة اعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس العجم ، عبرانيهم وسريانيهم ، رومهم وفرسهم وغيرهم ، وأن قريشًا أفضل العرب ، وأن بني هاشم أفضل قريش ، وأن رسول الله ﷺ أفضل بني هاشم ، فهو أفضل الخلق نفسًا وأفضلهم نسبًا . انتهى من « اقتضاء الصراط المستقيم » . قال النووي رحمه الله : واستدل به أصحابنا على أن غير قريش من العرب ليس بكفء لهم ولا غير بني هاشم كفؤ لهم ، إلا بني المطلب ، فإنهم هم وبنو هاشم شيء واحد ، كما صرح به الحديث . اهـ .

قوله : « ويتولون أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين ...» إلخ :

* أي : أن أهل السنة والجماعة يتولون جميع أزواج رسول الله الطاهرات المبرءات من كل سوء ،

---

(١) الترمذي (٣٦٠٥) ، وأحمد (١٠٧/٤) من حديث واثلة رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (١٥٥٣) .

(٢) ابن ماجه (٤٣٠٨) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه ، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٣٤٧٧) ، وقال بعضه عند مسلم .

(٣) الحاكم (٦٩٩٨) ، والطبراني في الأوسط (٢٥٣٧) من حديث أنس رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (٢٦٨٣) .

ويترضون عنهن، ويعظمون قدرهن، ويعرفون فضلهن، ويتبرؤوا ممن آذاهن أو سبَّهن.

قوله: «أزواج»: جمع زوج، وقد يقال: زوجه والأول أفصح، كما قال سبحانه: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] الآية.

قوله: «أمهات المؤمنين»: أي: في الاحترام والتعظيم وتحريم نكاحهن على التأبيد لا في النظر والخلوة بهن، فإنه يحرم في حقهن كالأجانب، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، أي: في الاحترام والتعظيم، فيجب احترامهن، وتعظيمهن، ويحرم الطعن فيهن، وقذفهن لا سيما عائشة أم المؤمنين، فمن قذفها بما برأها الله منه؛ فهو كافر، وأما من قذف غيرها من نساء النبي، ففيه قولان: قال ابن كثير: والأصح إنهن كعائشة رضي الله عنهن أجمعين.

قوله: «ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة»: وذلك لما في «صحيح البخاري» وغيره: لما بعث علي عمارًا والحسن إلى الكوفة ليستنفرهم خطب عمارًا، فقال: إني لأعلم أنها زوجته - أي عائشة - في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم لتتبعوه أو إياها، وعند ابن حبان من طريق سعيد بن كثير عن أبيه حدثتنا عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها: «ترضين أن تكوني زوجتي في الدنيا والآخرة»[1]، وفي حديث سودة، لما أراد النبي ﷺ فراقها أنها قالت: يا رسول الله، والله مالي بالرجال من حاجة، ولكن أحب أن أبعث مع نسائك يوم القيامة[2]، الحديث.

وأول زوجاته ﷺ خديجة بنت خويلد بن أسد، تزوجها رسول الله بمكة، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وبقيت معه إلى أن أكرمه الله برسالته؛ فآمنت به ونصرته، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين، ومن خصائصها رضي الله عنها: أنه ﷺ لم يتزوج عليها غيرها، وأولاده كلهم منها إلا إبراهيم، فإنه من سريته مارية، ومنها: أنها خير نساء الأمة، واختلف في تفضيلها على عائشة على ثلاثة أقوال: منها: أن الله بعث إليها السلام مع جبريل، فبلغها النبي ﷺ ذلك، ومنها: أنها لم تسؤه قط، ولم تغاضبه ولم ينلها منه إيلاء ولا عتب قط ولا هجرة، ومنها: أنها أول امرأة آمنت بالله ورسوله من هذه الأمة، فلما توفاها الله تزوج بعدها سودة بنت زمعة وكبرت عنده، وأراد طلاقها، فوهبت يومها لعائشة، وهذه من خصائصها، وتزوج الصديقة بنت الصديق عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما، وهي بنت ست قبل الهجرة بسنتين، وبنى بها الرسول أول مقدمة في السنة الأولى وهي بنت تسع، ومات عنها وهي بنت ثمانية عشر سنة، وتوفيت بالمدينة ودفنت بالبقيع، وأوصت أن يصلي عليها أبو هريرة سنة ثمانية وخمسين، ومن خصائصها: أنها أحب

---

(١) ابن حبان (٧٠٩٥)، والحاكم (٦٧٢٩) من حديث عائشة رضي الله عنها، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٢٥٥).

(٢) البخاري (٢٥٤٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

أزواج النبي ﷺ إليه ، وأنه لم يتزوج بكرًا غيرها ، وأنه كان ينزل عليه الوحي في لحافها ، وأن الله لما أنزل آية التخيير بدأ فيها فخيرها ، وأن الله برأها مما رماها به أهل الإفك ، وأن أكابر الصحابة كان إذا أشكل عليهم الأمر استفتوها ، فيجدون علمه عندها ، وأن رسول الله ﷺ توفي في بيتها وفي يومها وبين سحرها ونحرها ، ودفن في بيتها ، وأن الملك أرى صورتها للنبي ﷺ قبل أن يتزوجها في سرقة حرير ، وأن الناس كانوا يتحرون بهداياهم يومها من رسول الله تقربًا إلى رسول الله ﷺ .

وتزوج رسول الله حفصة بنت عمر بن الخطاب ، وتوفيت قبل سنة سبع ، وقيل : ثمانية وعشرين ، وتزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان ، واسمها رملة ، وتزوجها رسول الله ﷺ ، وهي بأرض الحبشة ، وأصدقها عنه النجاشي أربع مائة دينار ، وولى نكاحها عثمان بن عفان ، وتزوج الرسول أم سلمة ، واسمها هند بنت أبي أمية ، وتوفيت قبل سنة اثنين وخمسين ، ودفنت بالبقيع ، وهي آخر أزواج النبي ﷺ موتًا ، وقيل : ميمونة ، وتزوج الرسول ﷺ زينب بنت جحش ، وكانت قبل عند مولاه زيد بن حارثة فطلقها ، فزوجها الله إياه من فوق سبع سماوات ، وأنزل الله عليه : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب : ٣٧] ، وهذا من خصائصها ، وتوفيت بالمدينة سنة عشرين ، ودفنت بالبقيع .

وتزوج الرسول ﷺ زينب بنت خزيمة الهلالية ، تزوجها الرسول سنة ثلاث من الهجرة ، وكانت تسمى أم المساكين ، ولم تلبث عند رسول الله إلا يسيرًا شهرين أو ثلاثة وتوفيت .

وتزوج رسول الله ﷺ جويرية ابنة الحارث من بني المصطلق ، وكانت سُبيت في غزوة بني المصطلق ، فوقعت في سهم ثابت بن قيس ، فكاتبها ، فقضى رسول الله صلى الله كتابتها ، وتزوجها سنة ست من الهجرة ، وتوفيت سنة ست وخمسين .

وتزوج رسول الله ﷺ صفية بنت حيي من ولد هارون بن عمران أخي موسى سنة سبع ، فإنها سُبيت من خيبر ، توفيت سنة ست وثلاثين ، وقيل سنة خمسين ، ومن خصائصها أن رسول الله ﷺ أعتقها ، وجعل عتقها صداقها .

وتزوج رسول الله ميمونة بنت الحارث الهلالية ، تزوج بها في سرف ، وبنى بها بسرف ، وماتت بسرف ، وسرف على سبعة أميال من مكة ، وميمونة آخر من تزوج النبي ﷺ من أمهات المؤمنين ، توفيت سنة ثلاث وستين ، فهؤلاء جملة من دخل بهن من النساء ، وهن إحدى عشرة .

قال الحافظ المقدسي : وعقد على سبع ، ولم يدخل بهن ، ولا خلاف أنه ﷺ توفي عن تسع كان يقسم منهن لثمان ، وهن : عائشة ، وحفصة ، وزينب بنت جحش ، وأم سلمة ، وصفية ، وأم حبيبة ، وميمونة ، وسودة ، وجويرية ، أول نسائه لحوقًا به زينب بنت جحش سنة عشرين ، وآخرهن موتًا أم سلمة سنة اثنتين وستين في خلافة يزيد . انتهى من كلام ابن القيم .

قوله : « خصوصًا » :أي : ولا سيما خديجة وعائشة فلهن من المزايا والخصائص ما ليس لغيرهن من

أزواج النبي ﷺ . والخصوص : الإفراد ، يقال : خصَّ فلان بكذا ، أي : أفرد به ، ولا شركة للغير فيه ، وقد تقدم ذكر بعض خصائصهن رضي الله عنهن .

قوله : « أم أكثر أولاده » : بل هي أم أولاده كلهم سوى إبراهيم ، فإنه من سريته مارية ، ويروى أن عائشة أتت بسقط ولم يصح ذلك ، والمتفق عليه من أولاده ﷺ منها : القاسم ، وبه كان يكنى مات صغيرًا قبل بعثته ﷺ أو بعدها ، وبناته الأربع : زينب ، ثم رقية ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة ، وعبد الله ولد بعد المبعث ، فكان يقال له : الطاهر والطيب ، وقيل : هما أخوان له ، ومات الذكور صغارًا باتفاق . انتهى من « فتح الباري » .

قوله : « وأول من آمن به ... » ؛ أي : من النساء لا مطلقًا ، كما تقدم كلام لأبي حنيفة وغيره أن أول من آمن من الرجال أبو بكر ، ومن الصبيان عليّ ، ومن النساء خديجة .. إلخ ، وقيل : إنها أول من آمن به على الإطلاق ، كما ذكره المصنف .

قوله : « وعاضده » : أي : أعانه ونصره ، فإن خديجة رضي الله عنها عاضدته ﷺ في أول أمره ، ونصرته واحتملت من الأذى ما لم يحتمله غيرها ، وكانت نصرتها للرسول ﷺ في أعظم أوقات الحاجة .

قوله : « وكان لها منه المنزلة العالية » : أي : الرفيعة ؛ لأنها من أول من آمن به ، وعاضده ، وكانت له وزير صدق ، وكان النبي ﷺ يحبها كثيرًا ويذكرها ، كما روى أحمد من حديث مسروق عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء »[1] .

وفي « صحيح البخاري » عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما غرت على امرأة للنبي ﷺ ما غرت على خديجة ، لما كنت أسمعه يذكرها ، وأمره الله أن يبشرها بقصر من قصب ، وإن كان ليذبح الشاة ، فيهدي في خلائلها منها ما يسعهن ، فهذا الحديث وغيره دليل على محبة النبي ﷺ لها ، وعلى عظم قدرها عنده ومزيد فضلها .

قوله : « والصديقة بنت الصديق ، التي قال فيها النبي ﷺ : « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام ...» :

قوله : « والصديقة بنت الصديق » ؛ أي : عائشة رضي الله عنها حبيبة رسول الله ﷺ بنت الصديق الأكبر ، أبوها أبو بكر الصديق ، لقبه النبي ﷺ بذلك ، وأنزل الله براءتها من فوق سبع سماوات ، واتفقت الأمة على كفر قاذفها ، وأفتى غير واحد بقتل سابّها رضي الله عنه ، وتقدم ذكر خصائصها .

قوله : « فضل عائشة على النساء ...» إلخ : هذا الحديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا

---

(١) أحمد (٦/١١٧) ، والطبراني (٢٣/١٣) من حديث عائشة رضي الله عنها .

مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام »[1] ، فهذا الحديث فيه دليل على فضل عائشة رضي الله عنها ، واستدل به كثير من أهل السنة على أن عائشة أفضل نسائه ﷺ ، وذهب بعض العلماء كالموافق وابن حجر وغيرهما إلى أن خديجة رضي الله عنها أفضل من عائشة لأدلة ذكروها ، قالوا : والحديث المتقدم ليس صريحًا في تفضيل عائشة على خديجة رضي الله عنها ، والذي يفهم من كلام المصنف توقفه عن التفضيل لتقارب جهات التفضيل بينهن ، وقال في موضع آخر : اختصت كل واحدة منهن بخصائص ، فخديجة كان تأثيرها في أول الإسلام ، وبذلت نفسها في نصرة الرسول ﷺ ، ومالها ، واحتملت من الأذى ما لم يحتمله غيرها ، وكانت نصرتها للرسول ﷺ في أعظم أوقات الحاجة ، فلها من النصرة والبذل والتأثير في الإسلام ما ليس لغيرها ، وعائشة رضي الله عنها تأثيرها في آخر الإسلام ، فلها من الفقه والعلم ما ليس لغيرها . اهـ .

قوله : « كفضل الثريد على سائر الطعام » : الثريد هو الخبز إذا أدم بلحم ، كما قال الشاعر :

إذا ما الخبز تأدمه بلحم　　فذاك أمانة اللَّه الثريد

قوله : « على سائر الطعام » : أي : جميعه . انتهى . والثريد هو أفضل الأطعمة ؛ لأنه خبر ولحم ، والبُر أفضل الأقوات واللحم أفضل الإدام ، كما في الحديث الذي رواه ابن قتيبة وغيره عن النبي ﷺ : « سيد أدام الدنيا والآخرة اللحم »[2] ، فإذا كان اللحم سيد الإدام والبر سيد الأقوات ومجموعها الثريد ؛ كان الثريد أفضل الطعام ، وقد صح من غير وجه عن الصادق المصدوق أنه قال : « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام »[3] . وفي الصحيح عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول اللَّه ، أي النساء أحب إليك ؟ قال : « عائشة » ، قلت : ومن الرجال ؟ قال : « أبوها » ، قلت : ثم من ؟ قال : « عمر » ، وسمى رجالًا[4] . انتهى « منهاج » .

قوله : « ويتبرءون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم ...» إلخ :

* أي : أن أهل السنة والجماعة وسط في أصحاب رسول اللَّه ﷺ ، ويترضون عنهم جميعًا ، ويحبونهم ، ويتبرأون من طريقة الرافضة الذي يسبون الصحابة ، ويطعنون فيهم ، ويزعمون : أنهم عصوا الرسول ﷺ ، وارتدوا بعده إلا بعضة عشر منهم ، ويغلون في علي بن أبي طالب وأهل البيت ، فالرافضة ينقسمون إلى ثلاثة أقسام : قسم غلاة غلوا في علي بن أبي طالب رضي الله عنه حتى زعموا أنه إله ، أو أن اللَّه حل فيه ، أو أنه الرسول ، ولكن جبريل غلط ، أو أخطأ في إعطاء الرسالة إلى محمد ﷺ ، إلى غير ذلك من

---

(١) البخاري (٣٢٣٠) ، ومسلم (٢٤٣١) من حديث أبي موسى رضي الله عنه .

(٢) « ضعيف الجامع » للألباني (٣٣١٦) .

(٣) تقدم تخريجه .

(٤) البخاري (٤١٠٠) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه .

أنواع الغلو، وقسم مفضلة يفضلون عليًا على أبو بكر وعمر وغيرهما من الصحابة، وقسم الثالث سبابه يسبون أبا بكر وعمر وغيرهما من الصحابة، ويزعمون أن عليًا هو الوصي، وأن الصحابة غصبوه حقه وظلموه بتقديم أبي بكر وعمر.

قال الشيخ تقي الدين رحمه الله: فعاقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه الطوائف الثلاث، فأمر بإحراق أولئك الذين ادعوا فيه الإلهية، فإنه خرج ذات يوم فسجدوا له، فقال لهم: ما هذا؟ فقالوا: أنت هو، قال: من أنا؟ قالوا: أنت الله الذي لا إله إلا هو، فقال: وبحكم هذا كفر ارجعوا عنه وإلا ضربت أعناقكم، فصنعوا به في اليوم الثاني والثالث، وأخرهم ثلاثة أيام؛ لأن المرتد يستتاب ثلاثة أيام، فلما لم يرجعوا أمر بأخاديد من نار، فحدث أنه قال:

لما رأيت الأمر أمرًا منكرًا أججت ناري ودعوت قنبرا

وقتل هؤلاء واجب بالاتفاق، لكن في جواز تحريقهم نزاع، وأما السبابة الذين يسبون أبا بكر وعمر، فإن عليًا رضي الله عنه لما بلغه ذلك طلب ابن السوداء الذي بلغه ذلك عنه، وقيل: أنه قتله، فهرب منه إلى قرقيسا.

وأما المفضلة الذين يفضلونه على أبي بكر وعمر، فروي عنه أنه قال: لا أوتي بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا ضربته حد المفتري، وقد تواتر عنه أنه كان يقول على منبر الكوفة: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر، وروي عنه هذا من أكثر من ثمانين وجهًا، ورواه البخاري وغيره. انتهى من كلام الشيخ باختصار.

قوله: «وطريقة النواصب»: جمع ناصب، يقال: ناصبه مناصبة، أي: عاداه وقاومه، وهم الذين ينصبون العداوة لعلي ابن أبي طالب وأهل البيت، ويتبرأون منهم، ولا يحبونهم، بل يكفرونهم، أو يفسقونهم كالخوارج، قال الشيخ تقي الدين بعد كلام: فأهل السنة وسط في جميع أمورهم، فهم في علي وسط بين الخوارج والروافض، وفي عثمان وسط بين المروانية والزيدية، وفي سائر الصحابة بين الغلاة فيهم والطاعنين عليهم، وقال أيضًا: والروافض شر من النواصب، وأما أهل السنة فيتولون جميع المؤمنين، ويتكلمون فيهم بعلم وعدل ليسوا من أهل الجهل، ولا من أهل الأهواء، ويتبرأون من طريقة الروافض والنواصب جميعًا، ويتولون السابقين الأولين كلهم، ويعرفون قدر الصحابة وفضلهم ومناقبهم، ويرعون حقوق أهل البيت التي شرعها الله لهم، ولا يرضون بما فعله المختار ونحوه من الكذابين، ولا ما فعله الحجاج ونحوه من الظالمين، ويعلمون من هذا مراتب السابقين الأولين، ويعرفون ما لأبي بكر وعمر من التقدم والفضائل ما لم يشاركهما فيها أحد من الصحابة لا عثمان ولا علي ولا غيرهما، كان هذا متفقًا عليه في الصدر الأول إلا أن يكون خلافًا شاذًا لا يعبأ به حتى أن الشيعة الأولى من أصحاب علي لم يكونوا يرتابون في تقديم أبي بكر وعمر، كيف؟ وقد ثبت عنه من وجوه

متواترة أنه كان يقول : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر . انتهى . ومن كذب الرافضة وضلالهم تسميتهم أهل السنة ناصبة حيث لم يوافقهم على بدعتهم وظلمهم ، فإن الرافضة يزعمون أن من تولى الصحابة لم يتولى القرابة ، ويقولون : لا ولاء إلا ببراء ، فمن لم يتبرأ من الصحابة لم يتولّ القرابة ، ويقابلهم الخوارج ، وأشباههم من النواصب الذين يزعمون أن الرفض هو محبة أهل البيت ، ويذمون الرفض بهذا المعنى ، وهذا كله كذب وضلال ، فلا دليل على ذم النصب بالتفسير الذي زعمه الرافضة ، كما لا دليل على ذم الرفض بمعنى موالاة أهل البيت ، ولكن المبتدعة يلقبون أهل السنة بألقاب يتنقصون بها ، فيسمونهم رافضة وناصبة ، فهم كما قيل : « رمتني بدائها وانسلت » ، وقد تقدم أن أهل السنة رضوان اللّه عليهم يوالون جميع الصحابة والقرابة ، ويترضون عنهم ، وينزلونهم منازلهم التي يستحقونها ، فلا يغمطونهم حقهم ولا يغلون فيهم ، وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله على الناصبة :

يا راكبًا قف بالمحصب من منى ... واهتف بقاعد خيفها والناهض
إن كان رفضًا حب آل محمد ... فليشهد الثقلان أني رافضي

وقال غيره :

إن كان نصبا حب صحب محمد ... فليشهد الثقلان أني ناصبي

وقال غيره :

إن كان نصب ولاء الصحاب ... فإني كما زعموا ناصبي
وإن كان رفضا ولاء الجميع ... فلا برح الرفض من جانبي

قوله : « ويمسكون عما شجر بين الصحابة » :

* أي : يقفون عن الخوض عما وقع بين الصحابة من اختلاف ومنازعة ، مثل ما وقع بين علي ومعاوية ، وما وقع بين طلحة والزبير وعلي وغير ذلك .

قوله : « شجر » ؛ أي : اضطراب واختلف الأمر بينهم ، واشتجر القوم وتشاجروا : تنازعوا ، والمشاجرة : المنازعة ، فمذهب أهل السنة والجماعة : الكف عما جرى بين أصحاب رسول اللّه ﷺ ، والإمساك عما شجر بينهم لما في الخوض في ذلك من توليد الإحن والحزازات والحقد على أصحاب رسول اللّه ﷺ ، وذلك من أعظم الذنوب ، فإنهم خير القرون والسابقون الأولون ، فتجب محبتهم جميعًا والترضي عنهم والكف عما جرى بينهم مما لعله لم يصح ، وما صح فله تأويلات سائغة ، ثم هو قليل مغمور في جانب فضائلهم .

قال ابن حمدان من أصحابنا في « نهاية المبتدئين » : يجب حب كل الصحابة والكف عما جرى بينهم كتابة وقراءة وإقراءً ، وسماعًا وإسماعًا ، ويجب ذكر محاسنهم ، والترضي عنهم والمحبة لهم ، وترك التحامل عليهم ، واعتقاد العذر لهم ، وأنهم فعلوا ما فعلوا باجتهاد سائغ لا يوجب كفرًا ولا فسقًا ،

بل ربما يثابون عليه؛ لأنه اجتهاد سائغ. انتهى.

أما الحروب التي كانت بينهم، فكانت لكل طائفة شبهة اعتقدت تصويب أنفسها بسببها، وكلهم عدول ومتأولون في حروبهم وغيرها، ولم يخرج شيء من ذلك أحدًا منهم عن العدالة؛ لأنهم مجتهدون اختلفوا في مسائل من محل الاجتهاد كما يختلف المجتهدون ولا يلزم من ذلك نقص أحد منهم، بل يجب الترضي عنهم واعتقاد عدالتهم، وإن ما وقع منهم هم فيه معذورون ومأجورون، وأما معاوية ﷺ فهو من العدول الفضلاء وهو مجتهد مخطئ، والحق في جانب علي، وعلي هو الخليفة في وقته بالإجماع لا خلافة لغيره، وقد تقدم الكلام على ذلك، والناس انقسموا في ذلك الزمان إلى ثلاثة أقسام:

قسم: رأى الحق مع أحد الطرفين، فوجب عليه اتباعه بموجب اعتقاده والقتال معه، وقسم: توقف ولم يظهر له شيء فاعتزل، وهذا هو الواجب عليه، وكلهم معذورون ومأجورون، رضوان الله عليهم أجمعين.

قال الشيخ تقي الدين في «المنهاج»: وأما الصحابة فجمهورهم وجمهور أفاضلهم لم يدخلوا في فتنة، ثم ساق عن ابن سيرين قال: هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ عشرة آلاف فما حضرها منهم مائة، بل لم يبلغوا ثلاثين، وهذا أصح إسناد على وجه الأرض، وساق كلامًا طويلًا يدل على أن أكثر الصحابة اعتزل الفريقين، إذا عرفت ما تقدم علمت أن طريق السلامة هو الكف عما شجر بينهم والترضي عن الجميع، ونقول كما قال الله تعالى عن التابعين بإحسان: إنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، وما شجر بينهم وتنازعوا فيه أمره إلى الله لا تسأل عن ذلك، قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]، وما أحسن ما روي عن عمر بن عبد العزيز ﷺ أنه قال لما سئل عما وقع بين الصحابة: تلك دماء طهر الله منها يدي فلا أحب أن أخضب بها لساني.

قوله: «ويقولون: «إن هذه الآثار المروية ....» إلخ:

* أي: أن أهل السنة متفقون على محبة الصحابة والترضي عنهم، وأنهم خير الأمة بعد نبيهم لما تواتر من الأدلة في فضلهم ولما اشتهر عنهم من الأعمال الفاضلة ومسابقتهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله، وبذل نفوسهم وأموالهم في سبيل الله، كما أنهم متفقون على أن الصحابة كلهم عدول ثقات لا يفتش عن عدالة أحد منهم، فلا يترك هذا العلم المتيقن المتحقق الثابت لمشكوك فيه، بل مقطوع بكذبه، فما يروى في حقهم من المثالب؛ إما أن يكون كذبًا محضًا، وإما أن يكون محرفًا قد دخله من الزيادة والنقصان ما يخرجه إلى الذم والطعن، والصحيح من ذلك هو موارد الاجتهاد التي إن أصاب المجتهد فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد، كما في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة وعمرو بن العاص أن

رسول اللَّه ﷺ قال : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد »[1] ، فما وقع منهم رضي الله عنهم إن ثبت فهو عن اجتهاد فهم معذورون ومأجورون على كلا الحالين ؛ ولهذا اتفق أهل الحق ممن يعتد به في الإجماع على قبول شهادتهم وروايتهم وثبوت عدالتهم ، وأنه يجب تزكية جميعهم ويحرم الطعن فيهم ، ويجب اعتقاد أنهم أفضل جميع الأمة بعد النبي ﷺ ، قال أبو زرعة : إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول اللَّه ﷺ فاعلم أنه زنديق ، وذلك أن القرآن حق والرسول حق وما جاء به حق ، وما أدى ذلك النبأ كله إلا الصحابة ، فمن جرحهم فإنما أراد إبطال الكتاب والسنة .ا.هـ.

قال الشيخ تقي الدين في « المنهاج » بعد كلام : ما ينقل عن الصحابة من المثالب فهو نوعان ؛ أحدهما : ما هو كذب كله ، وإما محرف قد دخله من الزيادة والنقصان ما يخرجه إلى الذم والطعن ، وأكثر المنقول من المطاعن الصريحة هو من هذا الباب يرويها الكذابون المعروفون بالكذب ، مثل أبي مخنف لوط بن يحيى ، ومثل هشام بن محمد بن السائب الكلبي وأمثالهما من الكذابين ، والنوع الثاني : ما هو صدق ، وأكثر هذه الأمور لهم فيها معاذير تخريجها من أن تكون ذنوبًا وتجعلها من موارد الاجتهاد التي إن أصاب المجتهد فيها فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد ، وعامة المنقول الثابت عن الخلفاء الراشدين من هذا الباب ، وما قدر من هذا الأمور ذنبًا محققًا ، فإن ذلك لا يقدح فيما علم من فضائلهم وسوابقهم وكونهم أهل الجنة ؛ لأن الذنب المحقق يرتفع عقابه في الآخرة بأسباب متعددة ، منها : التوبة والحسنات الماحية ، ومنها المصائب المكفرة ، ومنها دعاء المؤمنين بعضهم لبعض وشفاعة نبيهم ، فما من سبب يسقط به الذم والعقاب عن أحد من الأمة إلا والصحابة أحق بذلك ، فهم أحق بكل مدح ، ونفي كل ذم ممن بعدهم من الأمة .

قوله : « وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره » :

قوله : « معصوم » : من العصمة وهي : الحماية والحفظ . قوله : « بل يجوز » ، أي : يمكن ، أي : أن أهل السنة يعرفون قدر أصحاب النبي ﷺ وقرابته فينزلونهم منازلهم كما ورد في الحديث : « ونزلوا الناس منازلهم »[2] ، فلا يغلون فيهم بحيث يرفعونهم عن منزلتهم التي أنزلهم اللَّه بها فلا يعتقدون أنهم معصومون عن الذنوب والخطايا ، بل يجوز عليهم ما يجوز على غيرهم من الذنوب والخطايا ، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال : « كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون »[3] . وفي حديث أبي ذر :

(١) البخاري (٦٩١٩) ، ومسلم (١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه .

(٢) أبو داود (٤٨٤٢) ، وأبو يعلى (٤٨٢٦) من حديث عائشة رضي الله عنها ، وضعفه الألباني في « السلسلة الضعيفة » (١٨٩٤) .

(٣) الترمذي (٢٤٩٩) ، وابن ماجه (٤٢٥١) من حديث أنس رضي الله عنه ، وحسنه الألباني في « المشكاة » (٢٣٤١) .

« إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعًا ، فاستغفروني أغفر لكم »[1] وقال الشيخ تقي الدين : ولم يقل أحد يعتد به أن الصحابة ﷺ أو غيرهم من الأولياء أو القرابة معصوم من كبائر الذنوب أو من الصغائر ، بل يجوز عليه وقوع الذنب والله يغفر لهم ، وقصة حاطب في الصحيح ، فقد غفر له الذنب العظيم بشهوده بدرًا . اهـ .

فأهل السنة والجماعة لا يرون عصمة أحد لا من الصحابة ولا من القرابة ولا يؤثّمونهم باجتهادهم ، بخلاف أهل البدع الذين غلوا من الجانبين : طائفة عصمتهم وطائفة أثّمتهم . قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية : ولم يقل أحد من الأئمة إلا الإمامية والإسماعيلية . وقول بعضهم : إن النبي معصوم والوالي محفوظ ، إن أراد بالحفظ ما يشبه العصمة فباطل . انتهى .

أما الأنبياء عليهم السلام فاتفق العلماء على أنهم معصومون في تبليغ الرسالة لا يجوز أن يستقر في ذلك شيء من الخطأ ، وكذلك معصومون من الكبائر أما الصغائر ، فقد تقع منهم ولكن لا يقرون عليها . قال الشيخ تقي الدين ﷺ بعد كلام : فالعلماء متفقون على أنهم لا يقرون على خطأ في الدين أصلًا ، ولا على فسق أو كذب في الجملة ، كل ما يقدح في نبوتهم وتبليغهم عن الله ، فهم متفقون على تنزيههم عنه ، وعامة الجمهور الذين يجوزون عليهم الصغائر يقولون : إنهم معصومون من الإقرار عليها فلا يصدر منهم ما يضرهم ، كما جاء في الأثر : كان داود بعد التوبة خيرًا من قبل الخطيئة ، والله سبحانه يحب التوابين ويحب المتطهرين ، وإن العبد يفعل السيئة يدخل بها الجنة ، وأما النسيان والسهو في الصلاة فذلك واقع منهم ، وفي وقوعه حكمة استنان المسلمين بهم ، كما روي في موطأ مالك : إنما أُنسى أو أنسى لأسن[2] . اهـ .

قوله : « ولهم من السوابق والفضائل » إلخ :

* أي : حدث فما يقع منهم ﷺ يغتفر في جانب ما لهم من الحسنات العظيمة كما في قصة حاطب : فقد غفر له الذنب العظيم بشهوده بدرًا ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النساء : ٩٥] . وفي « جامع الترمذي » أن النبي ﷺ قال لما جاءه عثمان لتجهيز جيش العسرة : « ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم »[3] مرتين ، رواه الترمذي وقال : حديث حسن ، وروى أحمد وأبو داود والترمذي عن جابر ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة »[4] ، وأخرج أحمد بسند رجاله ثقات عن أبي سعيد

---

(١) مسلم (٢٥٧٧) ، وابن حبان (٦١٩) من حديث أبي ذر ﷺ .

(٢) مالك (٢٢٥) .

(٣) الترمذي (٣٧٠٨) ، وأحمد (٥/٦٣) من حديث عبد الرحمن بن سمرة ﷺ ، وحسنه الألباني في « المشكاة » (٦٠٦٤) .

(٤) مسلم (٢٤٩٦) ، وأبو داود (٤٦٥٣) ، والترمذي (٣٨٦٠) ، وأحمد (٣/٣٥٠) من حديث جابر ﷺ .

الخدري : أن النبي ﷺ قال لأهل الحديبية : « لا يدركن قوم بعدكم صاعكم ولا مدكم »(١) .

قوله : « حتى إنه يغفر لهم من السيئات » إلخ :

* وذلك لما لهم من الفضائل والسوابق والوعد بالمغفرة ، قال تعالى : ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ ، فلأصحاب رسول الله من الحسنات والأسباب التي تمحو السيئات أعظم نصيب ، قال : ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ [الزمر : ٣٥] ، والحبيب يسامح بما لا يسامح به غيره ؛ لأن المحبة أكبر شفعائه كما قيل :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد   جاءت محاسنه بألف شفيع

فلمقاماتهم العظيمة وجهادهم في الله أعدائه حق الجهاد يحتمل لهم ما لا يحتمل لغيرهم ، وذكر ابن القيم رحمه الله في « المدارج » في أثناء كلام له : إنه يعفي للمحب ولصاحب الإحسان العظيم ما لا يعفي لغيره ، ويسامح بما لا يسامح به غيره ، قال : وقد استدل الشيخ تقي الدين رحمه الله على ذلك بقصة سليمان حين ألهته الخيل عن صلاة العصر فأتلفها فعوضه الله سبحانه وتعالى الريح ، وكذلك لطم موسى عين مالك الموت ففقأها ولم يعتب عليه ربه ، وفي ليلة الإسراء عاتب ربه في النبي ﷺ أنه رفع فوقه ، ولم يعتبه الله على ذلك لما له من المقامات العظيمة ، وكان شديد الغضب لربه فاحتمل له ما لم يحتمله لغيره ، وذو النون لنا لن يكن له هذا المقام سجنه في بطن الحوت من أجل غضبه و﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق : ٣] . انتهى بتصرف .

قوله : « وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ : إنهم خير القرون ... » .

قوله : « وقد ثبت بقول الرسول » ﷺ إلخ : أخرجه مسلم في الفضائل من حديث أبي هريرة ، وأخرجه أبو داود من حديث ابن مسعود ، وأخرجه البخاري ومسلم والنسائي من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم »(٢) ، قال عمران بن حصين : فلا أدرى أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثًا ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته »(٣) .

قوله : « قرني » : القرن : أهل زمان واحد متقارب اشتركوا في أمر من الأمور المقصودة ، ويطلق القرن على مدة من الزمان اختلفوا في تحديدها ، ووقع في حديث عبد الله بن بسر عند مسلم ما يدل على

---

(١) أحمد (٢٦/٣) ، والنسائي في « السنن الكبرى » (٨٨٥٥) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (١٥٤٧) .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) البخاري (٢٥٠٩) ، ومسلم (٢٥٣٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

أن القرن مائة عام، وهو المشهور. انتهى من «فتح الباري»، والمراد بقرنه ﷺ: الصحابة، واتفق العلماء على أن خير القرون قرنه.

قوله: «ثم الذين يلونهم»: يعني: التابعين «ثم الذين يلونهم» يعني: أتباع التابعين، واقتضى هذا الحديث أن تكون الصحابة أفضل من التابعين، والتابعين أفضل من أتباع التابعين، واستدل بهذا على تعديل القرون الثلاثة وإن تفاوتت منازلهم في الفضل، واستدل على جواز المفاضلة بين الصحابة - رضوان الله عليهم -.

قوله: «وإن المد من أحدهم» إلخ: كما في «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»[1]، وقد تقدم الكلام عن هذا الحديث.

قوله: «ثم إذا كان قد صدر ....» إلخ:

* والتوبة تجب ما قبلها كما في الحديث: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[2]. والتوبة مقبولة من جميع الذنوب، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ [مريم: ٦٠]، وقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [النور: ٥]، وقال: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤]، وقد أخبر الله في كتابه عن توبة أنبيائه ودعائهم بالتوبة، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، إلى غير ذلك من الآيات، وأما المأثور عن النبي ﷺ فكثير جدًا، وأصحابه كانوا أفضل قرون الأمة، - فهم أعرف القرون بالله وأشدهم له خشية، وقد وقع من بعضهم أشياء ندموا عليها وتابوا منها. وهذا مشهور.

قوله: «أو أتى بحسنات تمحوه»: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤] وقال النبي ﷺ: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها»[3]، وقال ﷺ للرجل الذي قال: أصبت حدًا فأقمه علي، فقال: «هل صليت معنا هذه الصلاة؟» قال: نعم، قال: «اذهب فإن الله قد غفر لك حدك»[4] الحديث، والحسنات تتفاضل بحسب ما في القلوب من الإيمان والتقوى، وحينئذ فيعرف أن من هو دون الصحابة قد تكون له حسنات تمحو ما يذم من أحدهم، فكيف بالصحابة رضي الله عنهم؟

قوله: «أو غفر له؛ بفضل سابقته، أو بشفاعة محمد ﷺ ....»:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ابن ماجه (٤٢٥٠)، والطبراني (١٠/١٥٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١٤٥).

(٣) أحمد (٥/١٥٣)، والدارمي (٢٧٩١) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «المشكاة» (٥٠٨٣).

(٤) أبو داود (٤٣٨١)، وأحمد (٥/٢٦٥) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح وضعيف سنن أبي داود» (٣٨١/٩).

قوله : « أو غفر له بفضل سابقته » : كما تقدم من الأدلة على ذلك ، ومنها : قوله ﷺ : « لعل اللّه اطلع على أهل بدر فقال : اصنعوا ما شئتم فقد غفرت لكم »(١) ، وكما في قصة حاطب بن أبي بلتعة فقد غفر له ذلك الذنب العظيم بشهوده بدرًا ، وقد برئ النبي ﷺ مما صنع خالد بيني جذيمة وقال : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد »(٢) ولم يؤاخذه به لحسن بلائه ونصره للإسلام ، إلى غير ذلك من الأدلة الكثيرة .

قوله : « أو بشفاعة محمد » إلخ : فإنهم أخص الناس بدعائه وشفاعته .

قوله : « أو ابتلى ببلاء في الدنيا كفر به عنه » : أي : امتحن وأصيب بمصيبة كفر اللّه بها عنه ، أي : محى عنه ذلك الذنب ؛ لأنها تكفر الذنب : كما في الصحيح أن رسول اللّه ﷺ قال : « ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ، ولا غم ولا هم ولا حزن ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر اللّه بها من خطاياه »(٣) متفق عليه ، ذكر المصنف هنا بعض الأسباب المسقطة للعقوبة ، وقد استوفاها في « المنهاج » وشرحها شرحًا وافيًا ثم قال : فهذه الأسباب لا تفوت كلها من المؤمنين إلا القليل ، فكيف بالصحابة - رضوان اللّه عليهم - الذين هم خير قرون هذه الأمة ، فإذا كان الذنب المحقق تسقط عقوبته بعدة أسباب في حق آحاد الناس ، فكيف في أصحاب رسول اللّه ﷺ ؟ فما من ذنب يسقط به الذم والعقاب عن أحد من الأمة إلا والصحابة أحق بذلك ، فهم أحق بكل مدح ونفي كل ذم ممن بعدهم من الأمة . انتهى .

قوله : « فإذا كان هذا في الذنوب المحققة » :

* تسقط عقوبتها عن آحاد الأمة بأسباب عديدة ، فكيف بأصحاب رسول اللّه ﷺ فهم أحق بذلك لما لهم من الفضائل والسوابق ، والوعد بالمغفرة ، إلى غير ذلك مما لا يمكن أن يلحقهم فيه من بعدهم ، فإذا كان ما تقدم في الذنوب المحققة فكيف الأمور التي كانوا فيها مجتهدين إن أصابوا فلهم أجران وإن أخطأوا فلهم أجر واحد ، والخطأ مغفور ، فهم مأجورون على كلا الحالين ، كما في « الصحيحين » من حديث أبي هريرة وعمرو بن العاص أن رسول اللّه ﷺ قال : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد »(٤) ، وقد تقدم ، فما صدر منهم فهم فيه معذورون ومأجورون ، ولم يخرج ذلك أحدًا منهم عن العدالة ؛ لأنهم مجتهدون اختلفوا في مسائل من محل الاجتهاد كما يختلف المجتهدون .

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) البخاري (٤٠٨٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٣) البخاري (٥٣١٨) ، ومسلم (٢٥٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) تقدم تخريجه .

قوله : « ثم القدر » إلخ :

* ثم حرف عطف قوله : « جانب » : أي : جهة وناحية .

قوله : « نزر » : أي : قليل تافه . قوله : « مغمور » : أي : مغطى من غمره ، إذا غطاه وعلاه ، أي : إن ما أتوا به من الحسنات وما لهم من الفضائل والسوابق غمر ما وقع منهم وغطاه وجعله كلا شيء أو كقطرة نجاسة وقعت في بحر ، هذا علىَ فرض ثبوت ذلك عنهم ووقوعه منهم ، وإلا فغالب ما ينقل عنهم من المساوئ ، إما كذب محض ، وإما محرف كما تقدم ؛ لأن غالب ما ذكر عنهم ذكره المؤرخون الذين يكثر الكذب فيما يرونه ، وقلَّ أن يسلم نقلهم من الزيادة والنقصان ، وأيضًا إذا ثبت صدوره عنهم فهو صادر عن اجتهاد سائغ هم مأجورون فيه على كلا الحالين .

قال الشيخ تقي الدين رحمه الله : ومن علم ما دل عليه القرآن والسنة من الثناء على القوم رضي الله عنهم واستحقاقهم الجنة ؛ وأنهم خير هذه الأمة التي أخرجت للناس لم يعارض هذا المتيقن المعلوم بأمور مشتبهة منها ما لا يعلم صحته ، ومنها ما يتبين كذبه ، ومنها ما لا يعلم كيف وقع ، ومنها ما يعلم عذر القوم فيه ، ومنها ما يعلم توبتهم منه ، ومنها ما يعلم أن لهم من الحسنات ما يغمره ، فمن سلك سبيل أهل السنة استقام قوله وكان من أهل لحق والاستقامة والاعتدال ، وإلا حصل في جهل ونقص وتناقض كحال هؤلاء الرافضة الضلال .

قوله : « ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة ، وما من الله به عليهم من الفضائل ؛ علم يقينًا : أنهم خير الخلق بعد الأنبياء ...» :

قوله : « ومن نظر » : أي : تدبر وتفكر فيها .

قوله : « في سيرة القوم » : أي : خطتهم وعادتهم ، وما كانوا عليه من الأحوال الفاضلة والسيرة العادلة وجمعها سِيَر ، وهو ما يعامل به الناس من خير وشر ، وأصل السيرة : هيئة فعل السير ، وسير رسول الله ﷺ هيئة أفعاله حيث كانت .

قوله : « بعلم » : العلم : هو حصول صورة المعلوم في الذهن ، قوله : « وبصيرة » : أي : معرفة ويقين ، والبصيرة للقلب والبصر للعين ، قال ابن القيم في « المدارج » بعد كلام على قوله : ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف : ١٠٨] ، قال : يريد أن تصل باستدلالك إلى أعلى درجات العلم وهي البصيرة التي تكون نسبة المعلوم فيها إلى القلب كنسبة المرئي إلى البصر ، وهذه الخصيصة التي اختص بها الصحابة عن سائر الأمة وهي أعلى درجات العلماء . انتهى .

قوله : « علم يقينًا » : أي : علمًا لازمًا لا يدخله شك ولا شبهة ، فاليقين لغة ، طمأنينة القلب على حقيقة الشيء ، يقال : يقن الماء في الحوض إذا استقر فيه ، واصطلاحًا هو : اعتقاد جازم لا يقبل التغيير ، ومراتب اليقين ثلاثة : حق اليقين ، وعلم اليقين ، وعين اليقين ، فعلم اليقين هو التصديق التام به بحيث لا

يعرض له شك ولا شبهة تقدح في تصديقه ، وعين اليقين هي مرتبة الرؤية والمشاهدة ، وحق اليقين هي مباشرة الشيء والإحساس به .

قوله : « لا كان ولا يكون مثلهم » : كان تامة .

قوله : « الصفوة » : أي : الخيار ، والصفوة من كل شيء : خالصه وخياره ، فأصحاب رسول اللّه ﷺ هم خير الخلق بعد الأنبياء ، ومن نظر في سيرتهم وتأمل أحوالهم وما هم عليه من الدعوة إلى اللّه والجهاد في سبيله وبذل النفس والنفيس في سبيل إعلاء كلمته مع ما هم عليه من الصدق مع اللّه والمسارعة إلي الخير مع العلم النافع ، إلى غير ذلك من صفاتهم الفاضلة علم يقينًا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء ، وأنهم أكمل هذه الأمة عقلًا وعلمًا ودينًا ، كما قال فيهم عبد اللّه بن مسعود : « من كان منكم مستنًّا فليستن بمن قد مات ، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد كانوا خير هذه الأمة وأبرها قلوبًا وأعمقها علمًا وأقلها تكلفًا ، قوم اختارهم اللّه لنبيه وإقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم » . رواه غير واحد ، منهم ابن بطة عن قتادة . وروى هو وغيره بالأسانيد إلى ذر بن حبيش قال : قال عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه : « إن اللّه سبحانه نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ، ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه . فما رآه المسلمون حسنًا فهو عند اللّه حسن ، وما رآه المسلمون سيئًا فهو عند اللّه سيئ » . رواه أحمد وأبو داود الطيالسي ، وما قال عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه فيهم حق كما تواترت بذلك الأحاديث عن النبي ﷺ أنه قال : « خير القرون قرني »(١) الحديث ، وهم أفضل الأمة الوسط الشهداء على الناس ، وهم الصفوة من قرون هذه الأمة وأكرمها على اللّه سبحانه ، قال تعالى : ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل : ٥٩] قال طائفة من السلف : هم أصحاب محمد ﷺ ، ولا ريب أنهم أفضل المصطفين من هذه الأمة التي قال اللّه فيها ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ﴾ [فاطر : ٣٢] ، فأمة محمد ﷺ الذين أورثوا الكتاب بعد الأمتين قبلهم اليهود والنصارى ، وقد أخبر أنهم الذين اصطفى ، فأصحاب محمد هم المصطفين من المصطفين من عباد اللّه ، فهم صفوة الصفوة - رضوان اللّه عليهم أجمعين - فأمة محمد خير الأمم وأكرمها على اللّه كما قال سبحانه : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، وروى الإمام أحمد ، عن حكيم بن معاوية ، عن أبيه رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على اللّه سبحانه »(٢) ، رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم في

(١) تقدم تخريجه .

(٢) تقدم تخريجه .

مستدركه ، وأصحاب رسول الله ﷺ خير هذه الأمة ، فهم أفضل الخلق على الإطلاق بعد النبيين والمرسلين .

❁ قال الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله :

قوله : « ومن أصول أهل السنة والجماعة : سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ » :

* خلاصة مذهب أهل السنة والجماعة في أصحاب رسول الله ﷺ وعما شجر بينهم : هو سلامة قلوبهم وألسنتهم ، ومحبتهم إياهم ، والترضي عنهم جميعًا ، وإظهار محاسنهم وإخفاء مساوئهم ؛ أي : إخفاء مساوئ من نسب إليه شيء من ذلك ، والإمساك عما شجر بينهم ، واعتقاد أنهم في ذلك بين أمرين :

* إما مجتهدون مصيبون .

* وإما مجتهدون مخطئون .

فالمصيب له أجران ، والمخطئ له أجر الاجتهاد ، وخطؤه مغفور ، وإذا قدر أن لبعضهم سيئات وقعت عن غير اجتهاد ، فلهم من الحسنات ما يغمرها ويمحوها ، وليس في بيان الخطأ من أخطأ منهم في حكم من الأحكام شيء من إظها المساوئ ، بل ذلك مما يفرضه الواجب ويوجبه النصح للأمة . اهـ .

❁ قال الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله :

قوله : « ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ » :

أى : من أسس عقيدتهم .

قوله : « سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ » . ولم يقل : وأفعالهم ؛ لأن الأفعال متعذرة بعد موت الصحابة ، حتى لو فرض أن أحدًا نبش قبورهم وأخرج جثثهم ؛ فإن ذلك لا يؤذيهم ولا يضرهم ، لكن الذى يمكن أن يكون بعد موت الصحابة نحوهم هو ما يكون فى القلب وما ينطق به اللسان .

فمن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ ؛ [أعنى] سلامة القلب من البغض والغل والحقد والكراهة ، وسلامة ألسنتهم من كل قول لا يليق بهم .

فقلوبهم سالمة من ذلك ، مملوءة بالحب والتقدير والتعظيم لأصحاب رسول الله ﷺ على ما يليق بهم .

فهم يحبون أصحاب النبى ﷺ ، ويفضّلونهم على جميع الخلق ؛ لأن محبتهم من محبة رسول الله ﷺ ، ومحبة رسول الله ﷺ من محبة الله ، وألسنتهم أيضًا سالمة من السب والشتم واللعن والتفسيق والتكفير وما أشبه ذلك مما يأتى به أهل البدع ، فإذا سلمت من هذا ، ملئت من الثناء عليهم والترضى عنهم والترحم والاستغفار وغير ذلك ، وذلك للأمور التالية :

أولًا : أنهم خير القرون فى جميع الأمم ، كما صرح بذلك رسول الله ﷺ حين قال : « خير الناس قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم »[1] .

ثانيًا : أنهم هم الواسطة بين رسول الله ﷺ وبين أمته ؛ فمنهم تلقت الأمة عنه الشريعة .

ثالثًا : ما كان على أيديهم من الفتوحات الواسعة العظيمة .

رابعًا : أنهم نشروا الفضائل بين هذه الأمة من الصدق والنصح والأخلاق والآداب التى لا توجد عند غيرهم ، ولا يعرف هذا من كان يقرأ عنهم من وراء جدر ، بل لا يعرف هذا إلا من عاش فى تاريخهم وعرف مناقبهم وفضائلهم وإيثارهم واستجابتهم لله ولرسوله ﷺ .

فنحن نشهد الله ﷻ على محبة هؤلاء الصحابة ، ونثنى عليهم بألسنتنا بما يستحقون ، ونبرأ من طريقين ضالين : طريق الروافض الذين يسبون الصحابة ويغلون فى آل البيت ، ومن طريق النواصب الذين يبغضون آل البيت ، ونرى أن لآل البيت إذا كانوا صحبة ثلاثة حقوق : حق الصحبة ، وحق الإيمان ، وحق القرابة من رسول الله ﷺ .

وقوله : « لأصحاب رسول الله ﷺ » : سبق أن أصحاب رسول الله ﷺ كل من اجتمع به مؤمنًا به ومات على ذلك ، وسمى صاحبًا ؛ لأنه إذا اجتمع بالرسول ﷺ مؤمنًا به ؛ فقد التزم اتباعه ، وهذا من خصائص صحبة الرسول ﷺ ، أما غير الرسول ؛ فلا يكون الشخص صاحبًا له حتى يلازمه ملازمة طويلة يستحق أن يكون بها صاحبًا .

استدل المؤلف ؒ لموقف أهل السنة بقوله : « كما وصفهم الله به فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠] » .

هذه الآية بعد آيتين سابقتين هما قوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحشر : ٨] » ، وعلى رأس هؤلاء المهاجرين أبو بكر وعمر وعثمان وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين .

ففى قوله : ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ : إخلاص النية ، وفى قوله : ﴿ وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ : تحقيق العمل ، وقوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ ؛ أى : لم يفعلوا ذلك رياء ولا سمعة ، ولكن عن صدق نية .

ثم قال فى الأنصار : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] ؛ فوصفهم الله بأوصاف ثلاث : ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ ، ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ﴾ ،

(١) أخرجه البخارى (٢٦٥٢) ، ومسلم (٢٥٣٣) .

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ .

ثم قال تعالى بعد ذلك : ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ الآية ، وهم التابعون لهم بإحسان وتابعوهم إلى يوم القيامة ؛ فقد أثنوا عليهم بالأخوة ، وبأنهم سبقوهم بالإيمان ، وسألوا الله ألَّا يجعل في قلوبهم غلًّا لهم ؛ فكل من خالف في ذلك وقدح فيهم ولم يعرف لهم حقهم ؛ فليس من هؤلاء الذين قال الله عنهم : ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا﴾ .

ولما سئلت عائشة رضي الله عنها عن قوم يسبون الصحابة ؛ قالت : لا تعجبون ! هؤلاء قوم انقطعت أعمالهم بموتهم ، فأحب الله أن يجرى أجرهم بعد موتهم ! ! .

وقوله : ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ، ولم يقل : للذين سبقونا بالإيمان ؛ ليشمل هؤلاء السابقين وغيرهم إلى يوم القيامة .

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ : ولرأفتك ورحمتك نسألك المغفرة لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان .

« طاعة » : معطوف على قوله : « سلامة » ؛ أى : من أصول أهل السنة والجماعة : طاعة النبى ﷺ .... إلخ ..

السب : هو القدح والعيب ؛ فإن كان في غيبة الإنسان ؛ فهو غيبة .

قوله : « أصحابي » : أى : الذين صحبوه ، وصحبة النبى ﷺ لا شك أنها تختلف : صحبة قديمة قبل الفتح ، وصحبة متأخرة بعد الفتح .

والرسول عليه الصلاة والسلام كان يخاطب خالد بن الوليد حين حصل بينه وبين عبد الرحمن بن عوف ما حصل من المشاجرة في بنى جذيمة ، فقال النبى ﷺ لخالد : « لا تسبوا أصحابي » ، والعبرة بعموم اللفظ .

ولا شك أن عبد الرحمن بن عوف وأمثاله أفضل من خالد بن الوليد رضي الله عنه من حيث سبقهم إلى الإسلام ؛ لهذا قال : « لا تسبوا أصحابي » ؛ يخاطب خالد بن الوليد وأمثاله .

وإذا كان هذا بالنسبة لخالد بن الوليد وأمثاله ؛ فما بالك بالنسبة لمن بعدهم .

أقسم النبى عليه الصلاة والسلام ، وهو الصادق البار بدون قسم : « لو أن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهبًا ؛ ما بلغ مُد أحدهم ولا نَصيفه »[1] .

« أُحُد » : جبل عظيم كبير معروف في المدينة .

المد : ربع الصاع .

---

(١) أخرجه البخارى (٣٦٧٣) ، ومسلم (٢٥٤١) .

« ولا نصيفه » ؛ أى : نصفه . قال بعضهم : من الطعام ؛ لأن الذى يقدر بالمد والنصيف هو الطعام ، أما الذهب فيوزن ، وقال بعضهم : من الذهب ؛ بقرينة السياق ؛ لأنه قال : « لو أنفق مثل أحد ذهبًا ؛ ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » . يعنى : من الذهب .

وعلى كل حال ؛ فإن قلنا : من الطعام ؛ فمن الطعام ، وإن قلنا : من الذهب ؛ فليكن من الذهب ، ونسبة المد أو نصف المد من الذهب إلى جبل أُحد من الذهب لا شىء .

فالصحابة ﵃ إذا أنفق الإنسان مثل أُحد ذهبًا ؛ ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه ، والإنفاق واحد ، والمنفق واحد ، والمنفق عليه واحد ، وكلهم بشر ، لكن لا يستوى البشر بعضهم مع بعض ؛ فهؤلاء الصحابة ﵃ لهم من الفضائل والمناقب والإخلاص والاتباع ما ليس لغيرهم ؛ فلإخلاصهم العظيم ، واتباعهم الشديد ؛ كانوا أفضل من غيرهم فيما ينفقون .

وهذا النهى يقتضى التحريم ؛ فلا يحل لأحدٍ أن يسب الصحابة على العموم ، ولا أن يسب واحدًا منهم على الخصوص ؛ فإن سبهم على العموم ؛ كان كافرًا ، بل لا شكَّ فى كُفر من شك فى كفره ، أما إن سبهم على سبيل الخصوص ؛ فينظر فى الباعث لذلك ؛ فقد يسبهم من أجل أشياء خلْقية أو خُلُقية أو دينية ، ولكل واحد من ذلك حكمه .

قوله : « ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع .... » :

قوله : « ويقبلون » ؛ أى : أهل السنة .

قوله : « ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم » .

الفضائل : جمع فضيلة ، وهو ما يفضل به المرء غيره ويعد منقبة له .

والمراتب : الدرجات ؛ لأن الصحابة درجات ومراتب ؛ كما سيذكرهم المؤلف ﵀ .

فما جاء من فضائل الصحابة ومراتبهم ؛ فإن أهل السنة والجماعة يقبلون ذلك :

- فمثلًا يقبلون ما جاء عنهم من كثرة صلاةٍ أو صدقةٍ أو صيامٍ أو حج أو جهاد أو غير ذلك من الفضائل .

- ويقبلون مثلًا ما جاء فى أبى بكر ﵁ أن النبى ﷺ حثَّ على الصدقة ، فجاء أبو بكر بجميع ماله ، وهذه فضيلة .

- ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة من أن أبا بكر ﵁ كان وحده صاحب رسول اللَّه ﷺ فى هجرته فى الغار .

- ويقبلون ما جاء به النص من قول الرسول عليه الصلاة والسلام فى أبى بكر : « إن من أمنّ الناس علىّ فى ماله وصحبته أبو بكر » .

- وكذلك ما جاء فى عمر وفى عثمان وفى على ﵃ ، وما جاء فى غيرهم من الصحابة من الفضائل ؛ يقبلون هذا كله .

- وكذلك المراتب ، فيقبلون ما جاء في مراتبهم ؛ فالخلفاء الراشدون هم القمة في هذه الأمة في المرتبة ، وأعلاهم مرتبة أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ثم علي ؛ كما سيذكره المؤلف .

دليل ذلك قوله تعالى : ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد : ١٠] .

فالذين أنفقوا وقاتلوا قبل صلح الحديبيَة أفضل من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكان صلح الحديبية في السنة السادسة من الهجرة في ذي القعدة ؛ فالذين أسلموا قبل ذلك وأنفقوا وقاتلوا أفضل من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا .

فإذا قال قائل : كيف نعرف ذلك ؟

فالجواب : أن ذلك يعرف بتاريخ إسلامهم ؛ كأن نرجع إلى « الإصابة في تمييز الصحابة » لابن حجر أو « الاستيعاب في معرفة الأصحاب » لابن عبد البر أو غير ذلك من الكتب المؤلفة في الصحابة ﷺ ، ويعرف أن هذا أسلم من قبل أو أسلم من بعد .

وقول المؤلف : « وهو صلح الحديبية » :

- هذا أحد القولين في الآية ، وهو الصحيح ، ودليله قصة خالد مع عبد الرحمن بن عوف ، وقول البراء بن عازب : تعدون أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحًا ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية . رواه البخاري[1] .

- وقيل : المراد فتح مكة ، وهو قول كثير من المفسرين أو أكثرهم .

المهاجرون : هم الذين هاجروا إلى المدينة في عهد النبي ﷺ قبل فتح مكة .

الأنصار هم الذين هاجر إليهم النبي ﷺ في المدينة .

وأهل السنة يقدمون المهاجرين على الأنصار لأن المهاجرين جمعوا بين الهجرة والنصرة ، والأنصار أتوا بالنصرة فقط .

- فالمهاجرون تركوا أهلهم وأموالهم ، وتركوا أوطانهم ، وخرجوا إلى أرض هم فيها غرباء ؛ كل ذلك هجرة إلى الله ورسوله ، ونصرة لله ورسوله .

- والأنصار أتاهم النبي ﷺ في بلادهم ، ونصروا النبي ﷺ ، ولا شك أنهم منعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم .

ودليل تقديم المهاجرين : قوله تعالى : ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة : ١٠٠] . فقدم المهاجرين على الأنصار ، وقوله : ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ [التوبة : ١١٧] ؛ فقدّم المهاجرين ، وقوله في الفيء :

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٥٠) .

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ [الحشر: ٨]، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر: ٩].

أهل بدر مرتبتهم أعلى من مراتب الصحابة.

وبدر مكان معروف، كانت فيه الغزوة المشهورة، وكانت فى السنة الثانية من الهجرة فى رمضان، وسمى اللَّه تعالى يومها يوم الفرقان.

وسببها أن النبى ﷺ سمع أن أبا سفيان قدِم بعيرٍ من الشام إلى مكة، فندب أصحابه من أجل هذه العير فقط، فانتدب منهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا، معهم سبعون بعيرًا وفرسان وخرجوا من المدينة لا يريدون قتالًا، لكن اللَّه ﷻ بحكمته جمع بينهم وبين عدوهم.

فلما سمع أبو سفيان بذلك، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام خرج إليه لتلقى العير؛ أخذ بساحل البحر، وأرسل صارخًا إلى أهل مكة يستنجدهم، فانتدب أهل مكة لذلك، وخرجوا بأشرافهم وكبرائهم وزعمائهم، خرجوا على الوصف الذى ذكر اللَّه ﷻ: ﴿بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٧].

وفى أثناء ذلك جاءهم الخبر أن أبا سفيان نجا بالعِير، فتآمروا بينهم فى الرجوع، لكن أبا جهل قال: واللَّه لا نرجع حتى نقدم بدرًا، فنقيم فيها ننحر الجزور، ونسقى الخمور، وتضرب علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبدًا.

وهذا الكلام يدل على الفخر والخيلاء والاعتزاز بالنفس، ولكن - وللَّه الحمد - كان الأمر على عكس ما يقول، سمعت العرب بهزيمتهم النكراء، فهانوا فى نفوس العرب.

قدموا بدرًا، والتقت الطائفتان، وأوحى اللَّه تعالى إلى الملائكة: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ [الأنفال: ١٢- ١٤].

حصل اللقاء بين الطائفتين، وكانت الهزيمة - وللَّه الحمد - على المشركين، والنصر المبين للمؤمنين، انتصروا، وأسروا منهم سبعين رجلًا، وقتلوا سبعين رجلًا، منهم أربعة وعشرون رجلًا من كبرائهم وصناديدهم؛ سُحِبوا، فألقوا فى قليب من قُلُب بدر خبيثة قبيحة.

ثم إن النبى ﷺ بعد انتهاء الحرب بثلاثة أيام ركب ناقته، ووقف عليهم يدعوهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يا فلان بن فلان! أيسركم أنكم أطعتم اللَّه ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا».

فقالوا: يا رسول اللَّه، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال: «والذى نفسى بيده، ما أنتم بأسمع

لما أقول منهم »[١] ، والنبى عليه الصلاة والسلام وقف عليهم توبيخًا وتقريعًا وتَنْديمًا ، وهم قد وجدوا ما وعد الله حقًا ؛ قال الله تعالى : ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ [الأنفال : ١٤] ؛ فوجدوا النار من حين ماتوا وعرفوا أن الرسول حق ، ولكن أنى لهم التناوش من مكان بعيد .

فأهل بدر الذين جعل الله على أيديهم هذا النصر المبين والفرقان الذى هاب العرب به رسول الله ﷺ وأصحابه ، وكان لهم منزلة عظيمة بعد هذا النصر ، اطلع اللهُ عليهم ، وقال : « اعملوا ما شئتم ؛ فقد غفرت لكم »[٢] . فكل ما يقع منهم من ذنوب ؛ فإنه مغفور لهم بسبب هذه الحسنة العظيمة الكبيرة التى جعلها الله تعالى على أيديهم .

وفى هذا الحديث دليل على أن ما يقع منهم من الكبائر مهما عظم ، فهو مغفور لهم .

وفيه بشارة بأنهم لن يموتوا على الكفر ؛ لأنهم مغفور لهم ، وهذا يقتضى أحد أمرين :

- إما أنهم لا يمكن أن يكفروا بعد ذلك .
- وإما أنهم إن قدر أن أحدهم كفر ؛ فسيوفق للتوبة والرجوع إلى الإسلام .

وأيًا كان ، ففيه بشارة عظيمة لهم ، ولم نعلم أن أحدًا منهم كفر بعد ذلك .

أصحاب الشجرة هم أصحاب بيعة الرضوان[٣] .

وسبب هذه البيعة أن النبى ﷺ خرج من المدينة إلى مكة يريد العمرة ، ومعه أصحابه والهدى ، وكانوا نحو ألف وأربعمائة رجل ، لا يريدون إلا العمرة ، فلما بلغوا الحديبية - وهى مكان قرب مكة ، فى طريق جدة الآن ، بعضها من الحل وبعضها من الحرم - وعلم بذلك المشركون ، منعوا رسول الله ﷺ وأصحابه ؛ لأنهم يزعمون أنهم أهل البيت وحماة البيت ، [وقد قال تعالى] : ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال : ٣٤] . وجرت بينهم وبينهم مفاوضات .

وأرى الله تعالى من آياته فى هذه الغزوة ما يدل على أن الأوْلى تنازل الرسول ﷺ وأصحابه لما يترتب على ذلك من الخير والمصلحة ؛ فإن ناقة الرسول عليه الصلاة والسلام بركت وأبت أن تسير ، حتى قالوا : « خلأت القصواء » ؛ يعنى : حرنت وأبت المسير . فقال النبى ﷺ مدافعًا عنها : « والله ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل » . ثم قال : « والذى نفسى بيده ، لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها »[٤] .

وجرى التفاوض ، وأرسل النبى ﷺ عثمان بن عفان ؛ لأن له رهطًا بمكة يحمونه ، أرسله إلى أهل

---

(١) أخرجه البخارى (٣٩٧٦) ، ومسلم (٢٨٧٣) .

(٢) أخرجه البخارى (٣٠٠٧) ، ومسلم (٢٤٩٤) .

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٩٦) .

(٤) أخرجه البخارى (٢٧٣٤) .

مكة يدعوهم إلى الإسلام ، ويخبرهم أن النبى ﷺ إنما جاء معتمرًا معظمًا للبيت ، فشاع الخبر بأن عثمان قد قتل ، وكبر ذلك على المسلمين ، فدعا النبى ﷺ إلى البيعة ؛ يبايع أصحابه على أن يقاتلوا أهل مكة الذين قتلوا رسول رسول اللَّه ﷺ ، وكانت الرسل لا تقتل ، فبايع الصحابة ﷺ النبى ﷺ على أن يقاتلوا ولا يفروا إلى الموت .

وكان النبى ﷺ تحت شجرة يبايع الناس ؛ يمد يده فيبايعونه على هذه البيعة المباركة التى قال اللَّه عنها : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح : ١٠] ، وكان عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غائبًا ، فبايع النبى ﷺ بيده عن يد عثمان ، وقال بيده اليمنى : « هذه يد عثمان » .

ثم تبين أن عثمان لم يقتل ، وصارت الرسل تأتى وتروح بين رسول اللَّه ﷺ وقريش ، حتى انتهى الأمر على الصلح الذى صار فتحًا مبينًا للرسول عليه الصلاة والسلام .

هؤلاء الذين بايعوا قال اللَّه عنهم : ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح : ١٨، ١٩] .

وكان من جملة المبايعين أبو بكر وعمر وعثمان وعلى .

فوصفهم اللَّه تعالى بالإيمان ، وهذه شهادة من اللَّه ﷻ بأن كل من بايع تحت الشجرة ، فهو مؤمن مرضى عنه ، والنبى عليه الصلاة والسلام قال : « لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة » . فالرضا ثابت بالقرآن ، وانتفاء دخول النار ثبت بالسنة .

وقول النبى ﷺ : « لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة » . قد يقول قائل : كيف نجمع بينه وبين قوله تعالى : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم : ٧١] ؟

فالجمع من أحد وجهين :

الأول : أن يقال : إن المفسرين اختلفوا فى المراد بالورود ، فقال بعضهم : هو المرور على الصراط ؛ لأن هذا نوع ورود بلا شك ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص : ٢٣] ، ومعلوم أنه لم ينزل وسط الماء ، بل كان حوله وقريبًا منه ، وبناء على هذا ؛ لا إشكال ولا تعارض أصلًا .

والوجه الثانى : أن من المفسرين من يقول : المراد بالورود الدخول ، وأنه ما من إنسان إلا ويدخل النار ، وبناء على هذا القول ، فيحمل قوله : « لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة » : لا يدخلها دخول عذاب وإهانة ، وإنما يدخلها تنفيذًا للقسم : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ ، أو يقال : إن هذا من باب العام المخصوص بأهل بيعة الرضوان .

وقوله : « الشجرة » : الشجرة هذه شجرة سدر ، وقيل : شجرة سمر ، ولا طائل تحت هذا

- الخلاف ، كانت ذات ظل ، فجلس النبي ﷺ تحتها يبايع الناس ، وكانت موجودة في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وعهد أبي بكر رضي الله عنه وأول خلافة عمر ، فلما قيل له : إن الناس يختلفون إليها - أي : يأتونها - يصلون عندها ؛ أمر رضي الله عنه بقطعها ، فقطعت .

قال في « الفتح » : « وجدته عند ابن سعد بإسناد صحيح » . لكن في « صحيح البخاري »[1] عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : رجعنا من العام المقبل - يعني : بعد صلح الحديبية - فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها ، كانت رحمة من الله . وهكذا قال المسيب والد سعيد : فلما خرجنا من العام المقبل ؛ نسيناها ، فلم نقدر عليها » .

وهذا لا ينافي ما ذكره ابن حجر عن ابن سعد ؛ لأن نسيانها لا يستلزم عدمها ولا عدم تذكرها بعد . والله أعلم .

وهذه من حسنات عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ لأننا نظن أن هذه الشجرة لو كانت باقية إلى الآن ؛ لعبدت من دون الله .

قوله : « ويَشْهَدون بالجنةِ لمن شهِد له رسولُ اللَّهِ ﷺ » : أي : أهل السنة والجماعة .

والشهادة بالجنة نوعان : شهادة معلقة بوصف ، وشهادة معلقة بالشخص .

- أما المعلقة بالوصف ؛ فأن نشهد لكل مؤمن أنه في الجنة ، وكل متق أنه في الجنة ، بدون تعيين شخص أو أشخاص .

وهذه شهادة عامة ، يجب علينا أن نشهد بها ؛ لأن الله تعالى أخبر به ، فقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلنَّعِيمِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [لقمان : ٨، ٩] ، وقال : ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٣] .

- وأما الشهادة المعلقة بشخص معين ؛ فأن نشهد لفلان أو لعدد معين أنهم في الجنة .

وهذه شهادة خاصة ؛ فنشهد لمن شهد له الرسول ﷺ ؛ سواء شهد لشخص معين واحد أو لأشخاص معينين .

١ - مثال ذلك ما ذكره المؤلف بقوله : « كالعشرة » ؛ يعني بهم : العشرة المبشرين بالجنة ؛ لقبوا بهذا الاسم لأن النبي ﷺ جمعهم في حديث واحد وهم : الخلفاء الأربعة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وسعيد بن زيد ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح ، وانظر تراجمهم في المطولات .

وقد جمع الستة الزائدون عن الخلفاء الأربعة في بيت واحد ؛ فاحفظه :

(١) أخرجه البخارى (٢٩٥٨) .

سعيد وسعد وابن عوف وطلحة   وعامر فهر والزبير الممدح

هؤلاء بشرهم النبى ﷺ فى نسق واحد ، فقال : « أبو بكر فى الجنة ، وعمر فى الجنة . . . . »[1] ، ولهذا لقبوا بهذا اللقب ؛ فيجب أن نشهد أنهم فى الجنة لشهادة النبى ﷺ بذلك .

٢ - ثابت بن قيس رضي الله عنه أحد خطباء النبى ﷺ ، كان جهورى الصوت ، فلما نزل قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات : ٢] ؛ خاف أن يكون حبط عمله وهو لا يشعر ، فاختفى فى بيته ، ففقده النبى عليه الصلاة والسلام ، فبعث إليه رجلًا يسأله عن اختفائه فقال : إن اللَّه أنزل قوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ . وأنا الذى أرفع صوتى فوق صوت النبى ، حبط عملى ، أنا من أهل النار ! ! فأتى الرجل إلى النبى ﷺ فأخبره بما قال ثابت ، فقال النبى ﷺ : « اذهب إليه ؛ فقل له إنك لست من أهل النار ، ولكنك من أهل الجنة »[2] . فبشره النبى ﷺ بالجنة .

مثل أمهات المؤمنين ؛ لأنهن فى درجة الرسول ﷺ ، ومنهم بلال ، وعبد اللَّه بن سلَام ، وعُكَّاشة بن محصن ، وسعد بن معاذ رضي الله عنهم .

التواتر : خبر يفيد العلم اليقينى ، وهو الذى نقله طائفة لا يمكن تواطؤهم على الكذب .

ففى « صحيح البخاري »[3] وغيره عن عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما ؛ قال : كنا نخير بين الناس فى زمن النبى ﷺ ؛ فنخير أبا بكر ، ثم عمر بن الخطاب ، ثم عثمان بن عفان .

وفى « صحيح البخاري »[4] أيضًا أن محمد ابن الحنفية قال : قلت لأبى : أى الناس خير بعد رسول اللَّه ﷺ ؟ قال : أبو بكر . قلت : ثم مَن ؟ قال : ثم عمر . وخشيت أن يقول : عثمان ؛ قلت : ثم أنت ؟ قال : ما أنا إلا رجل من المسلمين .

فإذا كان على رضي الله عنه يقول وهو فى زمن خلافته : إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ؛ فقد اندحضت حجة الرافضة الذين فضلوه عليهما .

قوله : « وغيره » ؛ يعنى : غير علىّ من الصحابة والتابعين .

وهذا متفق عليه بين الأئمة .

- وقال الإمام مالك : ما رأيت أحدًا يشك فى تقديمهما .

(١) صححه الألبانى فى « صحيح الجامع » (٥٠- ٤٠١٠) .

(٢) أخرجه البخارى (٤٨٤٦) ، ومسلم (١١٩) .

(٣) أخرجه البخارى (٣٦٥٥) .

(٤) أخرجه البخارى (٣٦٧١) .

- وقال الشافعى : لم يختلف الصحابة والتابعون فى تقديم أبى بكر وعمر .
ومن خرج عن هذا الإجماع ؛ فقد اتبع غير سبيل المؤمنين .
« يثلثون » . يعنى : أهل السنة ؛ يجعلون عثمان هو الثالث .
« ويربعون بعلي » . أى : يجعلون عليًا هو الرابع .
وعلى هذا ؛ فأفضل هذه الأمة هؤلاء الأربعة : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم على .
استدل المؤلف لهذا الترتيب بدليلين .
الأول : قوله : « كما دلت عليه الآثار » . وقد سبق ذكر شيء منها .
والثانى : قوله : « وكما أجمع الصحابة على تقديم عثمان فى البيعة » . فصار فى تقديم عثمان على على ﷺ آثار نقلية ، وفيه أيضًا دليل عقلى ، وهو إجماع الصحابة على تقديم عثمان فى البيعة ؛ فإن إجماعهم على ذلك يستلزم أن عثمان أفضل من على ، وهو كذلك ؛ لأن حكمة الله ﷻ تأبى أن يولّى على خير القرون رجلًا وفيه من هو أفضل منه ؛ كما جاء فى الأثر : « كما تكونون يولى عليكم » . فخير القرون لا يولى الله عليهم إلا من هو خيرهم .

فيقولون : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ويسكتون ، أو يقولون : ثم على .
فقالوا : أبو بكر ، ثم عمر . ثم على ، ثم عثمان . وهذا رأى من آراء أهل السنة .
فقالوا : أبو بكر ، ثم عمر . وتوقفوا أيهما أفضل : عثمان أو على ؟ وهذا غير الرأى الأول .
فالآراء أربعة :

- الرأى المشهور : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم على .
- الرأى الثانى : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم السكوت .
- الرأى الثالث : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم على ، ثم عثمان .
- الرأى الرابع : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم نتوقف أيهما أفضل : عثمان أو على ؛ فهم يقولون : لا نقول : عثمان أفضل ، ولا على أفضل ، لكن لا نرى أحدًا يتقدم على عثمان و [وعلى] على فى الفضيلة بعد أبى بكر وعمر .

هذا الذى استقر عليه أمر أهل السنة ؛ فقالوا : أفضل هذه الأمة بعد نبيها : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم على ؛ على ترتيبهم فى الخلافة . وهو الصواب ؛ كما سبق دليله .

يعنى : المفاضلة بين عثمان وعلى ﷺ ليست من أصول أهل السنة التى يضلل فيها المخالف ؛ فمن قال : إن عليًا أفضل من عثمان ؛ فلا نقول : إنه ضال ، بل نقول : هذا رأى من آراء أهل السنة ، ولا نقول فيه شيئًا .

فيجب أن نقول : الخليفة بعد نبينا فى أمته أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم على . ومن قال : إن

الخلافة لعلى دون هؤلاء الثلاثة . فهو ضالٌ . ومن قال : إنها لعلى بعد أبى بكر وعمر . فهو ضال ؛ لأنه مخالف لإجماع الصحابة ﷺ .

وهذا ما أجمع عليه أهل السنة فى مسألة الخلافة .

الذى يطعن فى خلافة أحد من هؤلاء ، ويقول : إنه لا يستحق الخلافة ! أو : إنه أحق ممن سبقه ! فهو أضل من حمار أهله .

وعبر المؤلف بهذا التعبير ؛ لأنه تعبير الإمام أحمد ﷺ ، ولا شك أنه أضل من حمار أهله ، وإنما ذكر الحمار ؛ لأنه أبلد الحيوانات على الإطلاق ؛ فهو أقل الحيوانات فهمًا ؛ فالطعن فى خلافه أحد من هؤلاء أو فى ترتيبه طعن فى الصحابة جميعًا .

فيجب علينا أن نعتقد بأن الخليفة بعد رسول اللَّه ﷺ أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم على ، وأنهم فى أحقية الخلافة على هذا الترتيب ، حتى لا نقول : إن هناك ظلمًا فى الخلافة ؛ كما ادعته الرافضة حين زعموا أن أبا بكر وعمر وعثمان والصحابة كلهم ظلمة ؛ لأنهم ظلموا على بن أبى طالب ؛ حيث اغتصبوا الخلافة منه :

أما من بعدهم ؛ فإننا لا نستطيع أن نقول : إن كل خليفة استخلفه اللَّه على الناس ؛ فهو أحق بالخلافة من غيره ؛ لأن من بعدهم ليسوا فى خير القرون ، بل حصل فيهم من الظلم والانحراف والفسوق ما استحقوا به أن يولى عليهم من ليس أحق بالخلافة منهم ، كما قال اللَّه تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام : ١٢٩] .

واعلم أن الترتيب فى الأفضلية على ما سبق لا يعنى أن من فضل غيره ؛ فإنه يفضله فى كل شىء ، بل قد يكون للمفضول فضيلة لم يشاركه فيها أحد ، وتميز أحد هؤلاء الأربعة أو غيرهم بميزة يفضل بها غيره لا يدل على الأفضلية المطلقة ؛ فيجب التفريق بين الإطلاق والتقييد .

قوله : « ويُحِبُّون آلَ بيتِ رسولِ اللَّهِ ﷺ » : أى : ومن أصول أهل السنة والجماعة أنهم يحبون آلَ بيت رسول اللَّه ﷺ ؛ يحبونهم لأمرين : للإيمان ، وللقرابة من رسول اللَّه ﷺ ، ولا يكرهونهم أبدًا .

ولكن لا يقولون كما قال الرافضة : كل من أحب أبا بكر وعمر ؛ فقد أبغض عليًا ، وعلى هذا فلا يمكن أن نحب عليًا حتى نبغض أبا بكر وعمر ، وكأن أبا بكر وعمر أعداء لعلى بن أبى طالب مع أنه تواتر النقل عن على ﷺ أنه كان يثنى عليهما على المنبر .

فنحن نقول : إننا نُشهِد اللَّه على محبة آل بيت رسول اللَّه ﷺ وقرابته ؛ نحبهم لمحبة اللَّه ورسوله .

– ومن أهل بيته أزواجه بنص القرآن ؛ قال اللَّه تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ

مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٨- ٣٣]. فأهل البيت هنا يدخل فيها أزواج الرسول عليه الصلاة والسلام بلا ريب.

- كذلك يدخل فيه قرابته؛ فاطمة وعلى والحسن والحسين وغيرهم كالعباس بن عبد المطلب وأبنائه.

فنحن نحبهم لقرابتهم من رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولإيمانهم بالله.

فإن كفروا؛ فإننا لا نحبهم، ولو كانوا من أقارب الرسول عليه الصلاة والسلام؛ فأبو لهب عم الرسول عليه الصلاة والسلام لا يجوز أن نحبه بأى حالٍ من الأحوال، بل يجب أن نكرهه لكفره ولإيذائه النبى ﷺ، وكذلك أبو طالب؛ يجب علينا أن نكرهه لكفره، لكن نحب أفعاله التى أسداها إلى الرسول عليه الصلاة والسلام من الحماية والذَّبِّ عنه.

قوله: «وَيَتَوَلَّوْنَهم»: أى: يجعلونهم من أوليائهم، والولى: يطلق على عدة معان؛ يطلق على الصديق، والقريب، والمتولى للأمر، وغير ذلك من الموالاة والنصرة. وهنا يشمل النصرة والصداقة والمحبة.

قوله: «ويَحفَظون فيهم وصيةَ رسولِ اللّهِ ﷺ»: أى: عهده الذى عهد به إلى أمته.

هو اليوم الثامن عشر من ذى الحجة. وهذا الغدير ينسب إلى رجل يسمى (خُم)، وهو فى الطريق الذى بين مكة والمدينة، قريب من الجحفة، نزل الرسول عليه الصلاة والسلام فيه منزلًا فى رجوعه من حجة الوداع، وخطب الناس، وقال: «أذكركم الله فى أهل بيتي»[1]. ثلاثًا يعنى: اذكروا الله؛ اذكروا خوفه وانتقامه إن أضعتم حق آل البيت، واذكروا رحمته وثوابه إن قمتم فى حقهم.

«أيضًا». مصدر آض يئيض؛ أى: رجع، وهو مصدر لفعل محذوف، والمعنى: عودًا على ما سبق.

«يجفو» يترفع ويكره.

«هاشم»: هو جد أبى الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

أقسم ﷺ أنهم لا يؤمنون، أى: لا يتم إيمانهم حتى يحبوكم لله، وهذه المحبة يشاركهم فيها غيرهم من المؤمنين؛ لأن الواجب على كل إنسانٍ أن يحب كل مؤمن لله، لكن قال: «ولقرابتي». فهذا حب زائد على المحبة لله، ويختص به آل البيت قرابة النبى عليه الصلاة والسلام.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٨).

وفى قول العباس : « إن بعض قريش يجفو بنى هاشم » . دليل على أن جفاء آل البيت كان موجودًا منذ حياة النبى ﷺ ، وذلك لأن الحسد من طبائع البشر ؛ إلا من عصمه اللَّه ﷻ ، فكانوا يحسدون آل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام على ما مَنَّ اللَّه عليهم من قرابة النبى ﷺ ، فيجفونهم ولا يقومون بحقِّهم .

فعقيدة أهل السنة والجماعة بالنسبة لآل البيت : أنهم يحبونهم ، ويتولونهم ، ويحفظون فيهم وصية الرسول ﷺ فى التذكير بهم ، ولا ينزلونهم فوق منزلتهم ، بل يتبرءون ممن يغالون فيهم ، حتى يوصلوهم إلى حدِّ الألوهية ؛ كما فعل عبد اللَّه بن سبأ فى على بن أبى طالب حين قال له : أنت اللَّه . والقصة مشهورة .

« إسماعيل » : هو ابن إبراهيم الخليل ، وهو الذى أمر اللَّه إبراهيم بذبحه ، وقصته فى سورة « الصافات » .

« كنانة » : هو الأب الرابع عشر لرسول اللَّه ﷺ .

« قريش » : هو الأب الحادى عشر لرسول اللَّه ﷺ ، وهو فهر بن مالك . وقيل : الأب الثالث عشر ، وهو النضر بن كنانة .

« هاشم » : هو الأب الثالث لرسول اللَّه ﷺ .

قوله : « أمهات المؤمنين » : هذه صفة لـ : « أزواج » ؛ فأزواج النبى ﷺ أمهات لنا فى الإكرام والاحترام والصلة ؛ قال تعالى : ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب : ٦] ؛ فنحن نتولاهن بالنصرة والدفاع عنهن واعتقاد أنهن أفضل أزواج أهل الأرض ؛ لأنهن زوجات الرسول ﷺ .

وهذا دليل على أن بنى هاشم مصطفون عند اللَّه مختارون من خلقه .

لأحاديث وردت فى ذلك ، ولقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [غافر : ٧، ٨] ، فقال : ﴿وَأَزْوَاجِهِمْ﴾ ؛ فأثبت الزوجية لهن بعد دخول الجنة ، وهذا يدل على أن زوجة الإنسان فى الدنيا تكون زوجته فى الآخرة إذا كانت من أهل الجنة .

« خصوصًا » : مصدر محذوف العامل ؛ أى : أخص خصوصًا .

« خديجة بنت خويلد » : تزوجها النبى ﷺ أول ما تزوج ، وكان عمره حينذاك خمسًا وعشرين سنة ، وعمرها أربعين سنة ، وكانت امرأة عاقلة ، وانتفع بها ﷺ انتفاعًا كثيرًا ؛ لأنها امرأة ذات عقل

وذكاء، ولم يتزوج عليها أحدًا.

فكانت كما قال المؤلف: «أم أكثر أولاده»: البنين والبنات، ولم يقل المؤلف: أم أولاده؛ لأن من أولاده من ليس منها، وهو إبراهيم؛ فإنه كان من مارية القبطية.

وأولاده الذين من خديجة هم ابنان وأربع بنات: القاسم، ثم عبد الله ويقال له: الطيب، والطاهر. وأما البنات؛ فهن: زينب، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية. وأكبر أولاده القاسم، وأكبر بناته زينب.

لا شك أنها أول من آمن به؛ لأن النبي ﷺ لما جاءها وأخبرها بما رأى في غار حراء؛ قالت: كلا، والله لا يخزيك الله أبدًا. وآمنت به، وذهبت به إلى ورقة بن نوفل، وقصت عليه الخبر، وقال له: إن هذا الناموس الذي كان ينزل على موسى[1]. «الناموس»: أي: صاحب السر. فآمن به ورقة.

ولهذا نقول: أول من آمن به من النساء خديجة، ومن الرجال ورقة بن نوفل.

أي: ساعده، ومن تدبر السيرة؛ وجد لأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها من معاضدة النبي ﷺ ما لم يحصل لغيرها من نسائه.

قوله: «وكان لها منه المنزلة العالية»: حتى إنه كان يذكرها بعد موتها صلوات الله وسلامه عليه، ويرسل بالشيء إلى صديقاتها، ويقول: «إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد»[2]؛ فكان يثني عليها، وهذا يدل على عظم منزلتها عند الرسول ﷺ.

أما كونها صديقة؛ فلكمال تصديقها لرسول الله ﷺ، ولكمال صدقها في معاملته، وصبرها على ما حصل من الأذى في قصة الإفك، ويدلك على صدقها وصدق إيمانها بالله أنه لما نزلت براءتها؛ قالت إني لا أحمد غير الله. وهذا يدل على كمال إيمانها وصدقها.

وأما كونها بنت الصديق؛ فكذلك أيضًا؛ فإن أباها رضي الله عنه هو الصديق في هذه الأمة، بل صديق الأمم كلها؛ لأن هذه الأمة أفضل الأمم؛ فإذا كان صديق هذه الأمة؛ فهو صديق غيرها من الأمم.

قوله: «على النساء»: ظاهره العموم؛ أي: على جميع النساء. وقيل: إن المراد: فضل عائشة على النساء؛ أي: من أزواجه اللاتي على قيد الحياة؛ فلا تدخل في ذلك خديجة.

لكن ظاهر الحديث العموم؛ لأن الرسول ﷺ قال: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»، وقد أخرجه الشيخان بدون ذكر خديجة[3]. وهذا يدل على أنها أفضل النساء مطلقًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٤)، ومسلم (١٦٠).

(٢) البخاري (٣٨١٦- ٣٨١٨)، ومسلم (٤/ ١٨٨، ١٨٨٩) (٢٤٣٥).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١).

ولكن ليست أفضل من فاطمة باعتبار النسب ؛ لأن فاطمة بلا شك أشرف من عائشة نسبًا .

وأما منزلة ؛ فإن عائشة رضي الله عنها لها من الفضائل العظيمة ما لم يدركه أحد غيرها من النساء .

وظاهر كلام المؤلف رحمه الله أن هاتين الزوجين رضي الله عنهما في منزلة واحدة ؛ لأنه قال : « خصوصًا خديجة . . . . والصديقة » ، ولم يقل : ثم الصديقة .

والعلماء اختلفوا فى هذه المسألة :

- فقال بعض العلماء : خديجة أفضل ؛ لأن لها مزايا لم تلحقها عائشة فيها .

- وقال بعض العلماء : بل عائشة أفضل ؛ لهذا الحديث ، ولأن لها مزايا لم تلحقها خديجة فيها .

- وفصل بعض أهل العلم ؛ فقال : إن لكل منهما ميزة لم تلحقها الأخرى فيها ؛ ففى أول الرسالة لاشك أن المزايا التى حصلت عليها خديجة لم تلحقها فيها عائشة ، ولا يمكن أن تساويها ، وبعد ذلك ، وبعد موت الرسول ﷺ ، حصل من عائشة من نشر العلم ونشر السنة وهداية الأمة ما لم يحصل لخديجة ؛ فلا يصح أن تفضَّل إحداهما على الأخرى تفضيلًا مطلقًا ، بل نقول : هذه أفضل من وجه ، وهذه أفضل من وجه ، ونكون قد سلكنا مسلك العدل ؛ فلم نهدر ما لهذه من المزية ، ولا ما لهذه من المزية ، وعند التفصيل يحصل التحصيل . وهما وبقية أزواج الرسول فى الجنة معًا .

الروافض : طائفة غلاة فى على بن أبى طالب وآل البيت ، وهم من أضل أهل البدع ، وأشدهم كرهًا للصحابة رضي الله عنهم ، ومن أراد معرفة ما هم عليه من الضلال ؛ فليقرأ فى كتبهم وفى كتب من رد عليهم .

وسموا روافض ؛ لأنهم رفضوا زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب عندما سألوه عن أبى بكر وعمر ، فأثنى عليهما وقال : هما وزيرا جدي .

أما النواصب ؛ فهم الذى ينصبون العداء لآل البيت ، ويقدحون فيهم ، ويسبونهم ؛ فهم على النقيض من الروافض .

فالروافض اعتدوا على الصحابة بالقلوب والألسن .

- ففى القلوب يبغضون الصحابة ويكرهونهم ؛ إلا من جعلوهم وسيلة لنيل مآربهم وغلوا فيهم ، وهم آل البيت .

- وفى الألسن يسبونهم فيلعنونهم ويقولون : إنهم ظلمة ! ويقولون : إنهم ارتدوا بعد النبى ﷺ إلا قليلًا ، إلى غير ذلك من الأشياء المعروفة فى كتبهم .

وفى الحقيقة أن سب الصحابة رضي الله عنهم ليس جرحًا فى الصحابة رضي الله عنهم فقط بل هو قدح فى الصحابة وفى النبى ﷺ وفى شريعة اللّه وفى ذات اللّه عز وجل :

- أما كونه قدحًا فى الصحابة ؛ فواضح .

- وأما كونه قدحًا فى رسول اللّه ﷺ ؛ فحيث كان أصحابه وأمناؤه وخلفاؤه على أمته من شرار

الخلق ؛ وفيه قدح في رسول الله ﷺ من وجه آخر ، وهو تكذيبه فيما أخبر به من فضائلهم ومناقبهم .

- وأما كونه قدحًا في شريعة الله ؛ فلأن الواسطة بيننا وبين رسول الله ﷺ في نقل الشريعة هم الصحابة ، فإذا سقطت عدالتهم ؛ لم يبق ثقة فيما نقلوه من الشريعة .

- وأما كونه قدحًا في الله سبحانه ؛ فحيث بعث نبيه ﷺ في شرار الخلق ، واختارهم لصحبته وحمل شريعته ونقلها لأمته ! ! .

فانظر ماذا يترتب من الطوام الكبرى على سب الصحابة ﷺ .

ونحن نتبرأ من طريقة هؤلاء الروافض الذين يسبون الصحابة ويبغضونهم ، ونعتقد أن محبتهم فرض ، وأن الكَفَّ عن مساوئهم فرض ، وقلوبنا ولله الحمد مملوءة من محبتهم ؛ لما كانوا عليه من الإيمان والتقوى ونشر العلم ونصرة النبي ﷺ .

يعني : يتبرأ أهل السنة والجماعة من طريقة النواصب .

وهؤلاء على عكس الروافض ، الذين يغلون في آل البيت حتى يخرجوهم عن طور البشرية إلى طور العِصمةِ والولاية .

أما النواصب ؛ فقابلوا البدعة ببدعة ، فلما رأوا الرافضة يغلون في آل البيت ؛ قالوا : إذن نبغض آل البيت ونسبُّهم ؛ مقابلة لهؤلاء في الغلو في محبتهم والثناء عليهم ، ودائمًا يكون الوسط هو خير الأمور ؛ ومقابلة البدعة ببدعة لا تزيد البدعة إلا قوة .

يعني : عما وقع بينهم من النزاع .

فالصحابة ﷺ وقعت بينهم بعد مقتل عمر بن الخطاب ﷺ نزاعات ، واشتد الأمر بعد مقتل عثمان ، فوقع بينهم ما وقع ، ممَّا أدى إلى القتال .

وهذه القضايا مشهورة ، وقد وقعت بلا شك عن تأويل واجتهاد ، كل منهم يظن أنه على حق ، ولا يمكن أن نقول : إن عائشة والزبير بن العوام قاتلا عليًا رضي الله عنهم أجمعين وهم يعتقدون أنهم على باطلٍ ، وأن عليًا على حق .

واعتقادهم أنهم على حق لا يستلزم أن يكونوا قد أصابوا الحق .

ولكن إذا كانوا مخطئين ، ونحن نعلم أنهم لن يقدموا على هذا الأمر إلا عن اجتهاد ؛ فإنه ثبت عن النبي ﷺ أنه [قال] : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب ، فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ ، فله أجر »[1] ؛ فنقول : هم مخطئون مجتهدون ؛ فلهم أجر واحد .

فهذا الذي حصل موقفنا نحن منه له جهتان : الجهة الأولى : الحكم على الفاعل . والجهة الثانية : موقفنا من الفاعل .

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٥٢) ، ومسلم (١٧١٦) .

- أما الحكم على الفاعل ؛ فقد سبق ، وأن ما ندين الله به أن ما جرى بينهم ؛ فهو صادر عن اجتهاد ، والاجتهاد إذا وقع فيه الخطأ ، فصاحبه معذور مغفور له .

- وأما موقفنا من الفاعل ، فالواجب علينا الإمساك عما شجر بينهم ، لماذا نتخذ من فعل هؤلاء مجالًا للسب والشتم والوقيعة فيهم والبغضاء بيننا ؛ ونحن في فعلنا هذا إما آثمون وإما سالمون ولسنا غانمين أبدًا .

فالواجب علينا تجاه هذه الأمور أن نسكت عما جرى بين الصحابة ، وألّا نطالع الأخبار أو التاريخ فى هذه الأمور ؛ إلا المراجعة للضرورة .

قسم المؤلف الآثار المروية فى مساوئهم ثلاثة أقسام :

وقد ذكر أن جملة الاعتذارات تتلخص فيما يلي :

القسم الأول : ما هو كذبٌ محض لم يقع منهم ، وهذا يوجد كثيرًا فيما يرويه النواصب فى آل البيت وما يرويه الروافض فى غير آل البيت .

القسم الثاني : شيء له أصل ، لكن زيد فيه ونقص وغيِّر عن وجهه .

وهذان القسمان كلاهما يجب رده .

القسم الثالث : ما هو صحيح ؛ فماذا نقول فيه ؟ بينه المؤلف بقوله :

« والصحيح منه هم فيه معذورون : إما مجتهدون مصيبون ، وإما مجتهدون مخطئون » .

والمجتهد إن أصاب ؛ فله أجران ، وإن أخطأ ، فله أجر واحد ؛ لقول النبى صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا حكم الحاكم ، فاجتهد ، ثم أصاب ، فله أجران ، وإذا حكم ، فاجتهد ثم أخطأ ، فله أجر » .

فما جرى بين معاوية وعلى ﵄ صادر عن اجتهاد وتأويل .

لكن لا شك أن عليًا [كان] أقرب إلى الصواب فيه من معاوية ، بل قد نكاد نجزم بصوابه ؛ إلا أن معاوية كان مجتهدًا .

ويدل على أن عليًا [كان] أقرب إلى الصواب أن النبى ﷺ قال : « ويح عمار ! تقتله الفئة الباغية »[1] ؛ فكان الذى قتله أصحاب معاوية ، وبهذا عرفنا أنها فئة باغية خارجة على الإمام ، لكنهم متأوِّلون ، والصواب مع على إما قطعًا وإما ظنًّا .

وهناك قسم رابع : وهو ما وقع منهم من سيئات حصلت لا عن اجتهاد ولا عن تأويل : فبينه المؤلف بقوله :

« وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره » .

---

(١) أخرجه البخارى (٤٤٧) ، ومسلم (٢٩١٦) .

لا يعتقدون ذلك ؛ لقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « كل بنى آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون »[(١)] .

ولكن العصمة فى إجماعهم ؛ فلا يمكن أن يجمعوا على شيء من كبائر الذنوب وصغائرها فيستحلوها أو يفعلوها .

لكن الواحد منهم قد يفعل شيئًا من الكبائر ؛ كما حصل من مسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش فى قصة الإفك[(٢)] ، ولكن هذا الذى حصل تطهروا منه بإقامة الحد عليهم .

يعني : كغيرهم من البشر ، لكن يمتازون عن غيرهم بما قال المؤلف ﷺ : « ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر » .

هذا من الأسباب التى يمحو الله بها عنهم ما فعلوه من الصغائر أو الكبائر ، وهو ما لهم من السوابق والفضائل التى لم يلحقهم فيها أحد ؛ فهم نصروا النبى عليه الصلاة والسلام ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، وبذلوا رقابهم لإعلاء كلمة الله ؛ فهذه توجب مغفرة ما صدر منهم ، ولو كان من أعظم الذنوب ، إذا لم يصل إلى الكفر .

ومن ذلك قصة حاطب بن أبى بلتعة حين أرسل إلى قريش يخبرهم عن مسير النبى ﷺ إليهم ، حتى أطلع الله نبيه على ذلك ، فلم يصلهم الخبر ، فاستأذن عمر النبى ﷺ أن يضرب عنق حاطب ، فقال النبى ﷺ : « إنه شهد بدرًا ، وما يدريك ؟ لعل الله اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم ؛ فقد غفرت لكم »[(٣)] .

وذلك فى قوله ﷺ : « خير الناس قرني »[(٤)] ، وفى قوله : « لا تسبوا أصحابي ؛ فوالذى نفسى بيده ؛ لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ؛ ما بلغ مُد أحدهم ولا نصيفه »[(٥)] .

يعني : وإذا تاب منه ؛ ارتفع عنه وباله ومعرته ؛ لقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ ، إلى قوله : ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان :٦٨- ٧٠] ، ومن تاب من الذنب كمن لا ذنب له ؛ فلا يؤثر عليه .

لقوله تعالى : ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود : ١١٤] .

---

(١) حسنه الألبانى فى « صحيح الجامع » (٤٥١٥) .

(٢) أخرجه البخارى (٢٦٦١) ، ومسلم (٢٧٧٠) .

(٣) أخرجه البخارى (٣٠٠٧) ، ومسلم (٢٤٩٤) .

(٤) أخرجه البخارى (٢٦٥٢) ، ومسلم (٢٥٣٣) .

(٥) أخرجه البخارى (٣٦٧٣) ، ومسلم (٢٥٤١) .

لقوله تعالى في الحديث القدسي في أهل بدر : « اعملوا ما شئتم ؛ فقد غفرت لكم » .

وقد سبق أن النبي ﷺ يشفع في أمته ، والصحابة ﷺ أحق الناس في ذلك .

فإن البلاء في الدنيا يكفر اللّه به السيئات ، كما أخبر بذلك النبي ﷺ في قوله : « ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سِواه ؛ إلا حط اللّه به سيئاته ؛ كما تحط الشجرة ورقها »[1] ﷺ ، والأحاديث في هذا مشهورة كثيرة .

سبق دليله ؛ فتكون هذه من باب أولى ألا تكون سببًا للقدح فيهم والعيب .

فهذه الأسباب التي ذكرها المؤلف ترفع القدح في الصحابة ، وهي قسمان :

الأول : خاص بهم ، وهو ما لهم من السوابق والفضائل .

والثاني : عام ، وهي التوبة ، والحسنات الماحية ، وشفاعة النبي ﷺ ، والبلاء .

القدر الذي ينكر من فعل بعضهم قليل جدًّا نزر أقل القليل ، ولهذا قال : « مغمور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم » .

ولا شك أنه حصل من بعضهم سرقة وشرب خمر وقذف وزنًى بإحصان وزنًى بغير إحصان ، لكن كل هذه الأشياء تكون مغمورة في جنب فضائل القوم ومحاسنهم ، وبعضها أقيم فيه الحدود ، فيكون كفارة .

فكل هذه مناقب وفضائل معلومة مشهورة ، تغمر كل ما جاء من مساوئ القوم المحققة ؛ فكيف بالمساوئ غير المحققة أو التي كانوا فيها مجتهدين متأولين .

هذا بالإضافة إلى ما ثبت عن النبي صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم من قوله : « خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » أخرجه البخاري ومسلم من حديث عبد اللّه بن عمر ﷺ .

وعلى هذا تثبت خيريتهم على غيرهم من أتباع الأنبياء بالنص والنظر في أحوالهم .

فإذا نظرت بعلم وبصيرة وإنصاف في محاسن القوم وما أعطاهم اللّه من الفضائل ؛ علمت يقينًا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء ؛ فهم خير من الحواريين أصحاب عيسى ، وخير من النقباء أصحاب موسى ، وخير من الذين آمنوا مع نوح ومع هود وغيرهم ، لا يوجد أحد في أتباع الأنبياء أفضل من الصحابة ﷺ ، والأمر في هذا ظاهر معلوم ؛ لقوله تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران : ١١٠] . وخيرنا الصحابة ، ولأن النبي ﷺ خير الخلق ؛ فأصحابه خير الأصحاب بلا شك .

هذا عند أهل السنة والجماعة ، أما عند الرافضة ، فهم شر الخلق ، إلا من استثنوا منهم .

قوله : « لا كان ولا يكون مثلهم » :

أي : ما وجد ولا يوجد مثلهم ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : « خير الناس قرني » . فلا يوجد على

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٨) ، ومسلم (٢٥٧١) .

الإطلاق مثلهم ﷺ لا سابقًا ولا لاحقًا .

أما كون هذه الأمة خير الأمم ؛ فلقوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، وقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة : ١٤٣] . ولأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم خير الرسل ؛ فلا جَرَمَ أن تكون أمته خير الأمم .

– وأما كون الصحابة صفوة قرون الأمة ؛ فلقوله ﷺ : « خير الناس قرني » . وفي لفظ : « خير أمتي قرني » . والمراد بقرنه : الصحابة ، وبالذين يلونهم : التابعون ، وبالذين يلونهم : تابعو التابعين .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « والاعتبار بالقرون الثلاثة بجمهور أهل القرن ، وهم وسطه ، وجمهور الصحابة انقرضوا بانقراض خلافة الخلفاء الأربعة ، حتى إنه لم يكن بقي من أهل بدر إلا نفر قليل ، وجمهور التابعين بإحسان انقرضوا في أواخر عصر أصاغر الصحابة في إمارة ابن الزبير وعبد الملك وجمهور تابعي التابعين في أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية » . أهـ .

وكان آخرَ الصحابة موتا أبو الطفيل عامر بن واثلةَ الليثي سنة مائة من الهجرة ، وقيل : مائة وعشر .

قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » : « واتفقوا على أن آخر من كان من أتباع التابعين ممن يقبل قوله من عاش إلى حدود العشرين ومائتين » .

۞ قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك حفظه الله :

قوله : « ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب محمد ﷺ ...» :

* وهذا فصل ضمَّنه الشيخ رحمه الله منهج أهل السنة والجماعة في أصحاب ، وقرابة ، وزوجات الرسول ﷺ وأمرُ الصحابة صار قضية عقدية ، وقد افترق فيهم الناس كما تقدمت الإشارة إلى هذا في الكلام عن وسطية أهل السنة .

وأهل السنة وسط في أصحاب رسول الله ﷺ بين الرافضة والخوارج ، ومنهج أهل السنة والجماعة يتضمن هذه الأمور التي ذكرها الشيخ .

فمن أصول أهل السنة في هذا الباب :

سلامة قلوبهم من بغض الصحابة ، ومن الغل والحقد عليهم ، وكذلك ألسنتهم سليمة ، فلا يسُبُّون ، ولا يتبرءون من أحد منهم ، بل يحبون أصحاب رسول الله ﷺ بقلوبهم ، ويُثنون عليهم بألسنتهم ، ويدعون الله لهم ، كما وصف الله التابعين لأصحاب الرسول ﷺ من المهاجرين والأنصار فقال الله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠] .

فسألوا ربهم أن يطهر قلوبهم من الغل ، وهذا مشروع من المؤمنين لإخوانهم عمومًا ، لكن أحق

الناس بذلك هم الصدر الأول أصحاب الرسول ﷺ .

وكذلك أهل السنة والجماعة يطيعون الرسول ﷺ أكمل طاعة في قوله ﷺ : « لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مُد أحدهم ولا نصيفه »[1] .

قال هذا ﷺ لبعض الصحابة الذين تأخر إسلامهم من بعد الفتح ، وهو خالد بن الوليد لما كان بينه وبين عبد الرحمن بن عوف بعض الاختلاف فقال ﷺ لخالد بن الوليد : « لا تسبوا أصحابي ... »[2] .

فالصحبة مراتب : فبعض الصحابة أكمل صحبة من بعض ، فالسابقون الأولون ليسوا كالذين تأخر إسلامهم ، وهذا أيضًا ينسحب على من جاء بعد الصحابة ، فقوله : « لا تسبوا أصحابي ... » . وإن ورد على هذا السبب فإنه يتضمن نهي من يأتي بعد عن سب أصحاب الرسول ﷺ .

وقد قال الرسول ﷺ : « سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر »[3] . إذا كان أي مسلم سبابه فسوق فكيف بسب أحد من أصحاب الرسول ﷺ ؟ ! فكيف بسب أفاضل الصحابة وأكابرهم ؟ !

وقد باء بهذا الإثم الطائفة المخذولة الشقية طائفة الرافضة ؛ فهم شر طوائف الأمة ، أشدها بغضًا وسبًا وظلمًا لأصحاب الرسول ﷺ .

ولهذا قال الشيخ في آخر الكلام : « ويتبرءون - أهل السنة والجماعة - من طريقة الروافض الذين يسبون الصحابة ، ومن طريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل » .

ومن تفصيل مذهب أهل السنة والجماعة في أصحاب الرسول ﷺ أنهم يفضلون من أنفق من قبل الفتح وقاتل على من أنفق من بعد الفتح وقاتل ، وليس المراد بالفتح فتح مكة كما يتبادر لأذهان كثير من الناس لا ، فالفتح هنا هو صلح الحديبية ، وهو الذي أنزل اللَّه فيه ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح : ١] ، وكان صلح الحديبية سببًا لفتح مكة ، وبين الفتحين قريب من سنتين .

وهذه المفاضلة نبه اللَّه إليها بقوله : ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد : ١٠] ، لكن مع الفارق ، فالذين أنفقوا وقاتلوا في أيام الشدة ، وقلة النصير لا يساويهم ، ولا يدانيهم من أنفق بعدما قويت شوكة الإسلام ، وظهر دين اللَّه ، والكل قد وعدهم اللَّه الحسنى ، لكن مع التفاوت والتفاضل الذي لا يقدر قدره إلا اللَّه سبحانه .

ومن تفاصيل هذا الأصل أن أهل السنة يقدمون المهاجرين على الأنصار ؛ لأن اللَّه قدمهم في الذكر ، فأي آية يذكر اللَّه فيها المهاجرين والأنصار فإنه تعالى يقدم المهاجرين : ﴿وَالسَّابِقُونَ

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) البخاري (٤٨) ، ومسلم (٦٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠].

كما أنهم يؤمنون بكل ما جاء في الكتاب والسنة من فضائل الصحابة عمومًا وخصوصًا، فيؤمنون ويصدقون بقوله ﷺ: «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[1].

فيعرفون لأهل بدر هذه الفضيلة العظيمة، كما أنهم يؤمنون بما أخبر به الرسول ﷺ من قوله: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة»[2]. وهم أهل بيعة الرضوان، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة، الذين قال الله فيهم: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١٨] من الصدق في الإيمان، ونصرة الرسول ﷺ والصدق في مبايعته ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]، بايعوا الرسول ﷺ في ذلك الموقف على الموت أو بايعوه على ألا يفروا، ففازوا بهذا الوعد، وفازوا بهذا الثناء، إنها فضيلة لا يدركها أحد بعدهم.

وأهل السنة يؤمنون بكل ما جاء في الكتاب والسنة من فضائلهم ومناقبهم.

ومما يدخل في هذا أنهم يشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله ﷺ، كالعشرة المبشرين بالجنة، وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وأبو عبيدة بن الجراح، هؤلاء هم العشرة.

والمبشرون بالجنة كثير، ومنهم: ثابت بن قيس بن شماس خطيب النبي ﷺ، ومنهم الحسن والحسين رضي الله عنهما.

وهذه بشارات على وجه التعيين فلان وفلان وفلان، وتقدم أنه ممن يُشهد لهم بالجنة كل مَن بايع تحت الشجرة - أهل بيعة الرضوان - الذين قال فيهم الرسول ﷺ: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة».

فهذا يقتضي أن أهل السنة والجماعة يقفون مع النصوص، ويؤمنون بكل ما أخبر الله به في كتابه، أو أخبر به الرسول ﷺ وهو الصادق المصدوق، فكل ما أخبر به فهو حق من عند الله.

ومن المسائل الكبيرة التي تدخل في هذا الأصل: أن أهل السنة يؤمنون ويقبلون ما تواتر عن علي رضي الله عنه وعن غيره؛ أن أفضل هذه الأمة أبو بكر، ثم عمر، ويثلثون بعثمان، ويربعون بعلي.

فأهل السنة والجماعة قائلون بأن أفضل الصحابة الخلفاء الراشدون، وأن ترتيبهم في الفضل على ترتيبهم في الخلافة، فأفضل هذه الأمة على الإطلاق أبو بكر ثم عمر، وهذا بإجماع المسلمين الأولين والآخرين بإخراج طائفة الروافض.

وذكر الشيخ: إن أهل السنة قد وقع بينهم خلاف في القديم في المفاضلة بين عثمان وعلي: فقوم

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

قَدَّموا عثمان وسكتوا أو ربَّعوا بعلي ، وقوم قدموا عليًا ، وقوم توقفوا لكن استقر أمر أهل السنة على تفضيل عثمان على علي ، وأن ترتيب الخلفاء الراشدين في الفضل على ترتيبهم في الخلافة .

وهذا يعني أن الخلاف قد ارتفع ، وأجمع أهل السنة أخيرًا على تقديم عثمان على علي .

لكن يجب أن يُفَرّق بين مسألة المفاضلة بين عثمان وعلي ، وبين الطعن في خلافة عثمان ، فلا يلزم من تفضيل علي على عثمان الطعن في خلافة عثمان ؛ فمسألة تفضيل علي على عثمان يقول الشيخ : « ليست من المسائل التي يضلل المخالف فيها » .

أما مسألة الخلافة فمن طعن في خلافة واحد من الخلفاء الراشدين فهو ضال ، أضل من حمار أهله ، فمن طعن في خلافة عثمان ، وقال : إنه تقديم للمفضول ، وإنه كان على محاباة من بعض الصحابة ، وإن عثمان قد هضم حق علي ، فهو ضال مضل .

وقد قال بعض السلف : « من قدم عليًا على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار » ؛ لأن المهاجرين والأنصار قد اتفقوا على تقديم عثمان في الخلافة ، وهذا حجة لما عليه جمهور أهل السنة ، واستقر عليه أمرهم من تقديم عثمان على علي في الفضل .

فهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة ومنهجهم في أصحاب الرسول ﷺ : سلامة قلوبهم وألسنتهم ومحبتهم وإنزال كلٍّ منزلته ، وهذا هو العدل .

وكذلك من منهج أهل السنة والجماعة أنهم يعرفون لقرابة الرسول ﷺ فضلهم ، ويحفظون وصية النبي ﷺ في أهل بيته حين قال يوم غدير خُم : « أذكِّركم اللّه في أهل بيتي ، أذكرك اللّه في أهل بيتي »[1] ﷺ .

وأهل بيته ﷺ قرابته القربى الأدنون ، وهم بنو هاشم ، ثم قريش على مراتبهم لهم حظهم وشرفهم من قرابة النبي ﷺ بقرابتهم للنبي ﷺ .

ولكن هذه الفضيلة لا تتحقق إلا مع الإيمان ، فإذا لم يتحقق الإيمان فلا تنفع الأنساب ، فأبو لهب وأبو طالب لم تنفعهم قرابتهم من النبي ﷺ حين كذبوا دعوته ، ولم ينقادوا له .

وقال ﷺ حين شكا إليه العباس أن قريشًا تجفو بني هاشم : « والذي نفسي بيده لا يؤمنون حتى يحبوكم للّه - يعني : لإيمانكم - ولقرابتي »[2] . فمن كان مؤمنًا من قرابة النبي ﷺ وصحبه فإنه اجتمع له فضل الصحبة وفضل القرابة ، كعلي رضي الله عنه له فضل الصحبة فهو من سادات الصحابة ، ومن السابقين الأولين ، وفضل القرابة فهو أفضل قرابة النبي ﷺ .

وكذلك من منهج أهل السنة والجماعة أنهم يوالون ويحبون أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين ،

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) تقدم تخريجه .

ويؤمنون أنهن زوجاته في الآخرة ، ويعرفون لهن فضيلتهن ؛ فلهن فضل الصحبة وفضل صلتهن بالنبي ﷺ ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب : ٦] .

وهذه الأمومة أمومة حرمة وكرامة ، وليست أمومة القرابة التي ينبني عليها ما ينبني من أحكام الميراث وغيره ؛ قال تعالى : ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب : ٣٢، ٣٣] .

وهذه الآية تدل – على الصحيح – على أن زوجات النبي ﷺ من أهل بيته ، بل هن أولى مَن يدخل في هذا الاسم .

يقول شيخ الإسلام : وخصوصًا خديجة وعائشة ، فخديجة أم أكثر أولاده ؛ لأنها أُولى زوجاته ، وهي من أسبق السابقين إلى الإسلام ، وعائشة التي قال فيها الرسول ﷺ : « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام »(١) . والثريد هو الخبز باللحم ، وهو من أفضل الطعام .

وأهل السنة مختلفون في المفاضلة بينهما : فقوم فَضَّلوا عائشة ، وقوم فَضَّلوا خديجة ، ومنهم من قال : إن هذه أفضل من وجه ، وهذه أفضل من وجه ، وعندي – والله أعلم – أن القول بتفضيل خديجة قول قوي ؛ لأدلة كثيرة دالة على فضلها ، وكلهن فضليات ، رضي الله عنهن .

قوله : « ويمسكون عما شجر بين الصحابة ....» :

* تقدم ذكر جمل من المسائل التي يتضمنها منهج أهل السنة والجماعة في أصحاب الرسول ﷺ ، ومن منهجهم وطريقتهم القويمة السليمة أنهم يُمسكون عما شجر بين الصحابة ، فلا يخوضون فيما وقع بينهم من الخلاف والنزاع والحروب ، ولا يجعلون ما جرى بين الصحابة حديثًا يتسلون به ، فضلًا عن أن يتذرعوا به إلى الطعن في أصحاب الرسول ﷺ ، بل يُعرضون عنه ويغفلون عنه ؛ لأن مع ما في الخوض فيه من المفاسد فإنه أيضًا يؤلم قلوب المؤمنين ؛ فلا يحبون التكلم فيه والتشاغل به .

بل إذا تذكروا ذلك ، أو ذُكِرَ لهم ، وقفوا وزجروا مَن يخوض في ذلك ، ويبادرون بالترضي عن أصحاب الرسول ﷺ ، والدعاء لهم بالمغفرة ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر : ١٠] .

فلا يخوضون فيما شجر بين الصحابة لا كلامًا ولا كتابة وتأليفًا ، فتسيطر ما جرى بين الصحابة لا خير فيه ، اللهم إلا من يكتب للرد على المبطلين وإزاحة الشبه ، فيكون هذا الكلام ، وهذا التأليف ليس

(١) تقدم تخريجه .

مقصودًا لذاته فلا يقصد به مجرد الأحاديث التأريخية ، والخوض الذي تزجى به الأوقات ، ويؤدي إلى تسويد القلوب .

ومن أحسن ما أُثِرَ في هذا قولُ عمر بن عبد العزيز رحمه الله لما قيل له : ما تقول في أهل صفين ؟ فقال : « تلك دماء طهَّر اللَّه يدي منها ، فلا أحب أن أخضب لساني بها » .

وهذا معنى عظيم ، وأصل يجب التفطن له والتمسك به ، بل إن هذا المعنى هو الواجب نحو ما يكون بين المسلمين ، فكيف بأصحاب الرسول ﷺ الأخيار ، خير هذه الأمة ؟ !

ثم من هذا الأصل يقولون : إن ما نقل من المساوئ من تلك الحروب أو غيرها منها : ما هو كذب ، فالأخبار التأريخية كثير منها كذب ، وقد يكون أصل الخبر واقعًا لكن التفصيلات منها ما هو كذب ، ومنها ما زيد فيه ونقص وغُيِّرَ عن وجهه ، هذا قسم .

والصحيح مما أُثِرَ من مساوئ الصحابة هم فيه معذورون مأجورون ، إما مجتهدون مصيبون ، وإما مجتهدون مخطئون ، فهم مأجورون بأجر أو أجرين ؛ فيجب الكف عن الخوض في مساوئهم والتماس العذر فيما ثبت ، وما لم يثبت لا ينظر فيه ويرد من أول وهلة .

لكن ما ثبت يُخَرَّج على هذا الوجه : أن ما وقع هو اجتهاد ، وهذا لا يقتضي أن الصحابة معصومون ، بل أهل السنة لا يقولون : إن أحدًا من الصحابة معصوم ، فالعصمة إنما هي للرسول ﷺ .

أما الصحابة فهم بشر ، تجوز عليهم الذنوب في الجملة ، وتَعرض لهم العوارض النفسية ، وتحصل من أحدهم الزلة ، واللَّه تعالى يقول : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف : ٢٠١] ﴿اتَّقَوْا﴾ : فالمتقون قد يذنبون ، ويقول تعالى في صفة المتقين الذين يعد الصحابة في أول وأعلى درجاتهم من هذه الأمة بعد نبيها ﷺ : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران : ١٣٥] .

وإذا عُلم هذا فما يقدر أن منهم من ذنوب ، فإن لهم من أسباب المغفرة ما ليس عند غيرهم ، فإنه يغفر لهم إما بالتوبة وهم أحرى بها ، وإما بالحسنات الماحية أو المصائب المكفرة .

هذه مكفرات الذنوب لهم ولغيرهم ، ولكنهم هم أَولى بها ونصيبهم منها أعظم وأكبر ، أو يغفر لهم بشفاعة النبي ﷺ الذين هم أحق بشفاعته .

مع أن ما يُقَدَّر أن يصدر عنهم إن صدر نزر قليل في جانب فضائلهم وحسناتهم ؛ فإن لهم سوابق وفضائل لا يلحقهم فيها غيرهم ، وقد قال ﷺ : « لا تسبوا أصحابي ؛ فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه »[1] .

---

(١) تقدم تخريجه .

كيف وهم الذين قال فيهم الرسول ﷺ : « خير الناس قرني ، ثم الذي يلونهم »[1] . وقرنه هم الصحابة رضي الله عنهم .

فالمقصود : أن الواجب هو الكف عن مساوئ الصحابة ، والتماس العذر لهم ، وتذكُّر ما لهم من الفضائل والسوابق ، وما لديهم من أسباب المغفرة .

وما يكون منهم من ذنوب ، فإن ذلك مغمور في جانب حسناتهم وفضائلهم .

قوله : « ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة ، وما من الله به عليهم من الفضائل ؛ علم يقينًا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء ، لا كان ولا يكون مثلهم ... » :

* وهذا يستفاد من قوله تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، فإذا كانت هذه الأمة خير الأمم ، والصحابة خير هذه الأمة ، تبين أن الصحابة خير الناس بعد الأنبياء ، لا كان في الماضي مثلهم ، ولا يكون في آخر الزمان مثلهم .

وأما ما ورد في صفة وأجر الغرباء ، وأن للعامل في أيام الصبر أجر خمسين من الصحابة ، فهو محمول عند أهل العلم على الفضل المقيد : لهم أجر خمسين في صبرهم على البلاء ، وتسلط الأعداء مع قلة المعين ، لا أن لهم أجر خمسين من الصحابة في كل عمل ، فيكونون بهذا أفضل من الصحابة .

لا ، بل هم أفضل من الصحابة في خصلة من خصال الدين وفضيلة من الفضائل ، فلا يكونون بهذا أفضل من الصحابة مطلقًا ، فالتفضيل المقيد لا يوجب الفضل المطلق .

❁ قال الشيخ صالح بن فوزان الفوزان حفظه الله :

قوله : « ومن أصول السنة والجماعة ... » :

أي : من أصول عقيدة أهل السنة والجماعة (سلامة قلوبهم) من الغل والحقد والبغض ، وسلامة (ألسنتهم) من الطعن واللعن والسب (لأصحاب رسول الله ﷺ) ، لفضلهم ، وسبقهم ، واختصاصهم بصحبة النبي ﷺ ، ولما لهم من الفضل على جميع الأمة ؛ لأنهم الذين تحملوا الشريعة عنه ﷺ ، وبلغوها لمن بعدهم ، ولجهادهم مع الرسول ﷺ ، ومناصرتهم له .

وغرض الشيخ من عقد هذا الفصل الرد على الرافضة والخوارج الذين يسبون الصحابة ، ويبغضونهم ، ويجحدون فضائلهم ، وبيان براءة أهل السنة والجماعة من هذا المذهب الخبيث ، وأنهم مع صحابة نبيهم .

كما وصفهم الله في قوله : ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ ؛ أي : بعد المهاجرين والأنصار ، وهم التابعون لهم بإحسانٍ إلى يوم القيامة من عموم المسلمين .

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ المراد بالأخوة هنا أخوة الدين ،

(١) تقدم تخريجه .

فهم يستغفرون لأنفسهم، ولمن تقدمهم من المهاجرين والأنصار.

﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا﴾؛ أى: غشًا وبغضًا وحسدًا.

﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ أى: لأهل الإيمان، ويدخل فى ذلك الصحابة دخولًا أوليًا؛ لكونهم أشرف المؤمنين، ولكون السياق فيهم.

قال الإمام الشوكانى: فمن لم يستغفر للصحابة على العموم، ويطلب رضوان اللّه لهم فقد خالف ما أمر اللّه به فى هذه الآية.

فإن وجد فى قلبه غلًّا لهم فقد أصابه نزغ من الشيطان، وحل به نصيب وافر من عصيان اللّه بعداوة أوليائه وخير أمة نبيه ﷺ، وانفتح له باب من الخذلان ما يفد به على نار جهنم، إن لم يتدارك نفسه باللجوء إلى اللّه سبحانه، والاستغاثة به بأن ينزع عن قلبه ما طرقه من الغل لخير القرون، وأشرف هذه الأمة.

فإن جاوز ما يجده من الغل إلى شتم أحدٍ منهم فقد انقاد للشيطان بزمامٍ، ووقع فى غضب اللّه وسخطه.

وهذا الداء العضال إنما يصاب به من ابتلى بمعلمٍ من الرافضة، أو صاحبٍ من أعداء خير الأمة الذين تلاعب بهم الشيطان، وزين لهم الأكاذيب المختلقة، والأقاصيص المفتراة، والخرافات الموضوعة، وصرفهم عن كتاب اللّه، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه. اهـ

والشاهد من الآية الكريمة: أن فيها فضل الصحابة؛ لسبقهم بالإيمان، وفضل أهل السنة الذين يتولونهم، وذم الذين يعادونهم.

وفيها: مشروعية الاستغفار للصحابة والترضى عنهم.

وفيها: سلامة قلوب أهل السنة وألسنتهم لأصحاب رسول اللّه ﷺ، ففى قولهم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾ إلخ سلامة الألسنة، وفى قولهم: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ سلامة القلوب.

وفى الآية تحريم سبهم وبغضهم، وأنه ليس من فعل المسلمين، وأن من فعل ذلك لا يستحق من الفيء شيئًا.

وقوله: (وطاعة النبى ﷺ فى قوله)؛ أى: أن أهل السنة يطيعون النبى ﷺ فى سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحابه، والكف عن سبهم وتنقصهم، حيث نهاهم النبى ﷺ عن ذلك بقوله: «لا تسبوا أصحابى»؛ أى: لا تتنقصوا، ولا تشتموا.

(أصحابى) جمع صاحبٍ، ويقال لمن صاحب النبى ﷺ: صحابىٌّ، وهو من لقى النبى ﷺ مؤمنًا به، ومات على ذلك.

(فوالذى نفسى بيده) هذا قسم من النبى ﷺ، يريد به تأكيد ما بعده.

(لو أن أحدكم أنفق مثل أحدٍ ذهبًا) جواب الشرط ، و(أحد) جبل معروف فى المدينة ، سمى بذلك لتوحده عن الجبال ، و(ذهبًا) منصوب على التمييز .

(ما بلغ مد أحدهم) المد مكيال وهو ربع الصاع النبوى .

(ولا نصيفه) لغة فى النصف ، كما يقال : ثمين ، بمعنى الثمن .

والمعنى أن الإنفاق الكثير فى سبيل اللّه من غير الصحابة ﷺ لا يعادل الإنفاق القليل من الصحابة ، وذلك أن الإيمان الذى كان فى قلوبهم حين الإنفاق فى أول الإسلام ، وقلة أهله ، وكثرة الصوارف عنه ، وضعف الدواعى إليه ، لا يمكن أن يحصل لأحدٍ مثله ممن بعدهم .

والشاهد من الحديث : أن فيه تحريم سب الصحابة ، وبيان فضلهم على غيرهم ، وأن العمل يتفاضل بحسب نية صاحبه ، وبحسب الوقت الذى أدى فيه ، واللّه أعلم .

وفى الحديث أن من أحب الصحابة ، وأثنى عليهم فقد أطاع الرسول ﷺ ، ومن سبهم وأبغضهم فقد عصى الرسول ﷺ .

بين الشيخ رحمه الله فى هذا المقطع من كلامه تفاضل الصحابة ، بعد أن بين - فيما سبق - فضلهم عمومًا ، وموقف أهل السنة والجماعة من ذلك .

فقوله : (ويقبلون) ؛ أى : أهل السنة والجماعة (ما جاء فى الكتاب والسنة والإجماع) ؛ أى : إجماع المسلمين .

(من فضائلهم ومراتبهم) وكفى بهذه المصادر الثلاثة شاهدًا على فضلهم .

ثم إنهم ليسوا على درجةٍ واحدةٍ فى الفضل ، بل بحسب سبقهم إلى الإسلام والجهاد والهجرة ، وبحسب ما قاموا به من أعمالٍ تجاه نبيهم ودينهم ، رضي الله عنهم .

ولذلك قال الشيخ رحمه الله : (ويفضلون من أنفق قبل الفتح ، وهو صلح الحديبية) .

لأن اللّه سماه فتحًا بقوله تعالى : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح : ١] ، وذلك هو المشهور أن المراد صلح الحديبية ؛ لأن سورة الفتح نزلت عقيبه .

والحديبية : بئر قرب مكة ، وقعت عنده البيعة تحت شجرةٍ كانت هناك ، حينما صد المشركون رسول اللّه ﷺ وأصحابه عن دخول مكة ، فبايعوه على الموت .

وسميت هذه البيعة فتحًا ؛ لما حصل بسببها من الخير والنصر للمسلمين .

والدليل على تفضيل هؤلاء : قوله تعالى : ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ [الحديد : ١٠] .

وهؤلاء هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، قال اللّه تعالى : ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة : ١٠٠] .

قال : (ويقدمون المهاجرين على الأنصار) . المهاجرون جمع مهاجرٍ ، والمراد بهم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة .

والهجرة لغةً : الترك .

وشرعًا : الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام .

والأنصار ؛ أى : الذين ناصروا الرسول ﷺ ، وهم الأوس والخزرج ، سماهم النبى ﷺ بهذا الاسم .

والدليل على تفضيل المهاجرين على الأنصار أن اللّه قدمهم فى الذكر ، كما قال تعالى : ﴿وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ ، وقال تعالى : ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة : ١١٧] .

وقال تعالى : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَٰجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّٰدِقُونَ ۞ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية [الحشر : ٨، ٩] .

فدلت هذه الآيات الكريمة على فضل المهاجرين والأنصار ، وعلى تقديم المهاجرين على الأنصار فى الفضل لتقديمهم فى الذكر ، ولما قاموا به من ترك بلادهم وأموالهم وأولادهم ؛ طلبًا للأجر ، ونصرةً للّه ولرسوله ، وصدقهم فى ذلك ، رضي الله عنهم .

قال : (ويؤمنون بأن اللّه قال لأهل بدرٍ - وكانوا ثلاثمائةٍ و بضعة عشر - : « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » . كما جاء فى الصحيحين فى قصة حاطب بن أبى بلتعة[1] .

وبدر : قرية مشهورة على نحو أربع مراحل من المدينة ، حصلت عندها الوقعة التى أعز اللّه بها الإسلام ، وسمى يوم الفرقان .

وقوله : (وكانوا ثلاثمائةٍ و بضعة عشر) . هكذا ورد عددهم فى صحيح البخارى[2] .

وقوله : (اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) . وقال ابن القيم فى الفوائد : أشكل على كثيرٍ من الناس معناه ، ثم ذكر الأقوال فى ذلك ، ثم قال : فالذى نظن فى ذلك ، واللّه أعلم ، أن هذا خطاب لقومٍ قد علم سبحانه أنهم لا يفارقون دينهم ، بل يموتون على الإسلام ، وأنهم قد يقارفون ما يقارفه غيرهم من الذنوب ، ولكن لا يتركهم سبحانه مصرين عليها ، بل يوفقهم لتوبةٍ نصوحٍ ، واستغفارٍ ، وحسناتٍ تمحو أثر ذلك .

ويكون تخصيصهم بهذا دون غيرهم ؛ لأنه قد تحقق ذلك فيهم ، وأنهم مغفور لهم ، ولا يمنع ذلك

(١) البخارى (٣٠٠٧) ، ومسلم (٤/١٩٤١) (٢٤٩٤) .

(٢) البخارى (٣٩٥٧- ٣٩٥٩) .

كون المغفرة حصلت بأسبابٍ تقوم بهم، كما لا يقتضي أن يعطلوا الفرائض وثوقًا بالمغفرة.

فلو كانت قد حصلت بدون الاستمرار على القيام بالأوامر لما احتاجوا بعد ذلك إلى صلاةٍ، ولا حجٍّ، ولا زكاةٍ، ولا جهادٍ، وهذا محال. انتهى.

قال: (وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة، كما أخبر به النبي ﷺ، بل لقد رضي الله عنهم، ورضوا عنه، وكانوا أكثر من ألفٍ وأربعمائةٍ). هذا الكلام في شأن أهل بيعة الرضوان، وهي البيعة التي حصلت في الحديبية حين صد المشركون رسول الله ﷺ عن دخول مكة، كما سبق بيانه قريبًا، وقد ذكر لهم الشيخ مزيتين:

الأولى: أنه لا يدخل النار أحد منهم، ودليل ذلك ما في صحيح مسلمٍ، من حديث جابرٍ رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة»[1].

الثانية: أن الله قد رضي عنهم. وهذا صريح القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

وقوله: (وكانوا أكثر من ألفٍ وأربعمائةٍ). هذا بناءً على الصحيح في عددهم. والله أعلم.

وقوله: (ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله ﷺ كالعشرة، وثابت بن قيس بن شماسٍ وغيرهم من الصحابة)؛ أي: يشهد أهل السنة والجماعة بالجنة لمن شهد له الرسول بذلك.

أما من لم يشهد له الرسول ﷺ بالجنة فلا يشهدون له؛ لأن في هذا تقولًا على الله، لكن يرجون للمحسنين، ويخافون على المسيئين، وهذا أصل من أصول العقيدة.

وقوله: (كالعشرة). هم: أبو بكرٍ وعمر وعثمان وعليٌّ وعبد الرحمن بن عوفٍ والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاصٍ وسعيد بن زيدٍ وأبو عبيدة بن الجراح وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم.

وقد صحت الأحاديث بالشهادة لهؤلاء بالجنة.

وقوله: (وثابت بن قيس بن شماسٍ). هو خطيب رسول الله ﷺ، وبشارته بالجنة ثابتة في صحيح البخاري، عن النبي ﷺ.

وقوله: (وغيرهم من الصحابة)؛ أي: غير من ذكر ممن أخبر النبي ﷺ أنهم في الجنة، كعكاشة بن محصنٍ، وعبد الله بن سلَامٍ، وغيرهما.

قوله: (ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه وغيره)؛ أي: يعترف أهل السنة والجماعة، ويعتقدون.

(ما تواتر به النقل)؛ أي: ما ثبت بطريق التواتر والتواتر هو أقوى الأسانيد.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٣/٣٥٠) (١٤٧١٤)، ومسلم (٤/١٩٤٢) (٢٤٩٦)، وأبو داود (٤٦٥٣)، والترمذي (٣٨٦٠).

(عن أمير المؤمنين على بن أبى طالبٍ رضي الله عنه وغيره) من الصحابة .

(أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكرٍ ، ثم عمر ، ويثلثون بعثمان) ؛ أى : يجعلونه الثالث فى الترتيب .

(ويربعون بعلىٍّ) ؛ أى : يجعلونه الرابع (رضى اللَّه عنهم) وفى هذه الرواية المتواترة عن علىٍّ ردٌّ على الرافضة الذين يفضلون عليًا على أبى بكرٍ وعمر ، ويقدمونه عليهما فى الخلافة ، فيطعنون فى خلافة الشيخين .

وهذا البحث يتضمن مسألتين :

الأولى : مسألة الخلافة ، الثانية : مسالة التفضيل ؛

فأما مسألة الخلافة فقد أجمع أهل السنة والجماعة بما فيهم الصحابة رضي الله عنهم على أن الخليفة بعد رسول اللَّه ﷺ أبو بكرٍ ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علىٌّ .

وأما مسألة التفضيل فقد أجمعوا على أن أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكرٍ ، ثم عمر ، كما تواتر به النقل عن علىٍّ .

واختلفوا فى عثمان وعلىٍّ رضي الله عنهما أيهما أفضل ، وقد ذكر الشيخ هنا فى المسألة ثلاثة أقوالٍ ، حيث يقول : (فقدم قوم عثمان وسكتوا ، أو ربعوا بعلىٍّ ، وقدم قوم عليًا ، وقوم توقفوا) .

هذا حاصل الخلاف فى المسألة : تقديم عثمان ، تقديم علىٍّ ، التوقف عن تقديم أحدهما على الآخر ، وأشار الشيخ إلى ترجيح الرأى الأول ، وهو تقديم عثمان ؛ لأمورٍ :

الأمر الأول : أن هذا هو الذى دلت عليه الآثار الواردة فى مناقب عثمان رضي الله عنه .

الثانى : إجماع الصحابة على تقديم عثمان فى البيعة ، وما ذاك إلا أنه أفضل ، فترتيبهم فى الفضل كترتيبهم فى الخلافة .

الثالث : أنه استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان ، ثم علىٍّ ، كما سبق أنهم قدموه فى البيعة .

قال عبد الرحمن بن عوفٍ لعلىٍّ رضي الله عنه : إنى نظرت أمر الناس ، فلم أرهم يعدلون بعثمان .

قال أبو أيوب : من لم يقدم عثمان على علىٍّ فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار[1] .

فهذا دليل على أن عثمان أفضل ؛ لأنهم قدموه باختيارهم بعدَ تشاورهم ، وكان علىٌّ رضي الله عنه من جملة من بايعه ، وكان يقيم الحدود بين يديه .

قوله : « وإن كانت هذه المسألة - مسألة عثمان وعلي - » :

أبدى الشيخ رحمه الله موازنةً بين المسألتين ؛ مسألة تقديم علىٍّ على عثمان فى الفضل ، ومسألة تقديم علىٍّ على غيره فى الخلافة ، من حيث ما يترتب على ذلك التقديم من خطورةٍ .

---

(١) انظر شرح الطحاوية (ص٤٨٥) .

فبين أن مسألة تفضيل عليٍّ على عثمان لا يضلل - أى : لا يحكم بضلال من قال بها - نظرًا لوجود الخلاف فيها بين أهل السنة ، وإن كان الراجح تفضيل عثمان رضي الله عنه .

(لكن التى يضلل فيها مسألة الخلافة) ؛ أى : يحكم بضلال من خالف فيها ، فرأى تقديم عليٍّ فى الخلافة على عثمان ، أو غيره من الخلفاء الذين سبقوه ، أو قدم عليًا على أبى بكرٍ وعمر فى الفضيلة .

فأهل السنة والجماعة يؤمنون بأن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكرٍ الصديق رضي الله عنه لفضله وسابقته ، وتقديم النبى ﷺ له على جميع الصحابة ، وإجماع الصحابة على بيعته .

ثم الخليفة من بعد أبى بكرٍ عمر بن الخطاب رضي الله عنه لفضله وسابقته ، وعهد أبى بكرٍ إليه ، واتفاق الأمة عليه بعد أبى بكرٍ .

ثم الخليفة بعد عمر عثمان بن عفان رضي الله عنه ؛ لتقديم أهل الشورى له ، واتفاق الأمة عليه .

ثم بعد عثمان الخليفة عليٌّ رضي الله عنه لفضله وإجماع أهل عصره عليه .

فهؤلاء هم الخلفاء الأربعة المشار إليهم فى حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه بقوله ﷺ : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى »[1] .

ولهذا قال الشيخ : (ومن طعن فى خلافة أحدٍ من هؤلاء) . يعنى : الأربعة المذكورين .

(فهو أضل من حمار أهله) لمخالفته النص والإجماع من غير حجةٍ ، ولا برهانٍ ، وذلك كالرافضة الذين يزعمون أن الخلافة بعد النبى ﷺ لعلى بن أبى طالبٍ .

والحاصل فى مسألة تقديم عليٍّ رضي الله عنه على غيره من الخلفاء الثلاثة :

١- من قدمه فى الخلافة فهو ضالٌّ بالاتفاق .

٢- من قدمه فى الفضيلة على أبى بكرٍ وعمر فهو ضالٌّ ، ومن قدمه على عثمان فى الفضيلة فلا يضلل ، وإن كان هذا خلاف الراجح .

قوله : « ويحبون أهل بيت رسول الله ﷺ ... » :

بيّن الشيخ رحمه الله فى هذا مكانة أهل البيت عند أهل السنة والجماعة ، وأنهم (يحبون أهل بيت رسول الله ﷺ) .

وأهل البيت هم آل النبى ﷺ الذين حرمت عليهم الصدقة ، وهم آل عليٍّ ، وآل جعفرٍ ، وآل عقيلٍ ، وآل العباس ، وبنو الحارث بن عبد المطلب .

وأزواج النبى ﷺ وبناته من أهل بيته ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأحزاب : ٣٣] .

فأهل السنة يحبونهم ويحترمونهم ؛ لأن ذلك من احترام النبى ﷺ وإكرامه ، ولأن الله ورسوله قد

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٢٦، ١٢٧) ، وغيره ، وقال الألبانى فى « صحيح الجامع » (٢٥٤٩) : صحيح .

أمرا بذلك ، قال تعالى : ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى : ٢٣] .

وجاءت نصوص من السنة بذلك ، منها ما ذكره الشيخ .

وذلك إذا كانوا متبعين للسنة ، مستقيمين على الملة ، كما كان عليه سلفهم كالعباس وبنيه وعليّ وبنيه ، أما من خالف السنة ، ولم يستقم على الدين ، فإنه لا تجوز محبته ، ولو كان من أهل البيت .

وقوله : (ويتولونهم) ؛ أى : يحبونهم من الولاية - بفتح الواو - وهى المحبة .

وقوله : (ويحفظون فيهم وصية رسول اللّه ﷺ) ؛ أى : يعملون بها ، ويطبقونها .

(حيث قال يوم غدير خمٍّ) الغدير هنا هو مجمع السيل (وخم) قيل : اسم رجلٍ ، نسب الغدير إليه .

وقيل : هو الغيضة ؛ أى : الشجر الملتف ، نسب هذا الغدير إليها ؛ لأنه واقع فيها .

وهذا الغدير كان فى طريق المدينة ، مر به ﷺ فى عودته من حجة الوداع ، وخطب فيه ، فكان من خطبته ما ذكره الشيخ : « أذكركم اللّه فى أهل بيتى »[1] ؛ أى : أذكركم ما أمر اللّه به فى حق أهل بيتى ؛ من احترامهم وإكرامهم والقيام بحقهم .

وقال أيضًا : (للعباس عمه) . هو العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد منافٍ .

(وقد اشتكى إليه) ؛ أى : أخبره بما يكره .

(أن بعض قريشٍ يجفو) الجفاء ترك البر والصلة .

(فقال) ؛ أى : النبى ﷺ : (والذى نفسى بيده) هذا قسم منه ﷺ .

(لا يؤمنون) ؛ أى : الإيمان الكامل الواجب .

(حتى يحبوكم للّه ولقرابتى)[2] ؛ أى : لأمرين :

الأول : التقرب إلى اللّه بذلك ؛ لأنهم من أوليائه .

الثانى : لكونهم قرابة رسول اللّه ﷺ ، وفى ذلك إرضاء له ، وإكرام له .

(وقال) النبى ﷺ مبينًا فضل بنى هاشمٍ الذين هم قرابته : (إن اللّه اصطفى) ؛ أى : اختار ، والصفوة الخيار .

(بنى إسماعيل) بن إبراهيم الخليل ، عليهما السلام .

(واصطفى من بنى إسماعيل كنانة) اسم قبيلةٍ ، أبوهم كنانة بن خزيمة .

(واصطفى من كنانة قريشًا) وهم أولاد النضر بن كنانة .

(واصطفى من قريشٍ بنى هاشمٍ) وهم بنو هاشم بن عبد منافٍ .

---

(١) رواه مسلم (١٨٧٣/٤) (٢٤٠٨) .

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٢٠٧/١) (١٧٧٢) عن العباس ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (٥٠٣٣) .

(واصطفاني من بني هاشم)[١] فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

والشاهد من الحديث : أن فيه دليلًا على فضل العرب ، وأن قريشًا أفضل العرب ، وأن بني هاشم أفضل قريش ، وأن الرسول ﷺ أفضل بنى هاشم ، فهو أفضل الخلق نفسًا ، وأفضلهم نسبًا .

وفيه فضل بني هاشم ، الذين هم قرابة الرسول ﷺ .

ذكر الشيخ رحمه الله تعالى في هذه الجملة عقيدة أهل السنة والجماعة في أزواج النبي ﷺ ، فقال : (ويتولون أزواج رسول الله ﷺ) ؛ أي : يحبونهن ويوقرونهن ؛ لأنهن (أمهات المؤمنين) في الاحترام والتوقير وتحريم نكاحهن على الأمة .

أما بقية الأحكام فحكمهن حكم الأجنبيات ، من حيث تحريم الخلوة بهن والنظر إليهن ، قال الله تعالى : ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ الآية [الأحزاب : ٦] .

وقال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ الآية [الأحزاب : ٥٣] .

وقال تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب : ٥٣] ، فهن أمهات المؤمنين في الاحترام والتحريم ، لا في المحرمية .

وقد توفي ﷺ عن تسعٍ ، وهن : (عائشة وحفصة وزينب بنت جحشٍ وأم سلمة وصفية وميمونة وأم حبيبة وسودة وجويرية) .

وأما خديجة فقد تزوجها قبل النبوة ، ولم يتزوج عليها حتى ماتت ، وتزوج ﷺ زينب بنت خزيمة الهلالية ، ولم تلبث إلا يسيرًا ، ثم توفيت .

هؤلاء جملة من دخل بهن من النساء ، وهن إحدى عشرة ، رضي الله عنهن .

(ويؤمنون) ؛ أي : أهل السنة والجماعة .

وهن أزواجه ﷺ في الآخرة وأفضلهن على الإطلاق خديجة وعائشة رضي الله عنهما .

(بأنهن أزواجه في الآخرة) وفي هذا شرف لهن ، وفضيلة جليلة .

(خصوصًا خديجة رضي الله عنها) فلها من المزايا والفضائل الشيء الكثير ، وقد ذكر الشيخ منها :

١ – أنها أم أكثر أولاده ، فكل أولاده منها ما عدا إبراهيم فمن مارية القبطية .

٢ – أنها أول من آمن به مطلقًا على قولٍ ، وهو الذي ذكر الشيخ هنا ، أو هي أول من آمن به من النساء على القول الآخر .

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٤/١٠٧) (١٦٩٢٤) ، ومسلم (٤/١٧٨٢) (٢٢٧٦) ، والترمذي (٣٦٠٥، ٣٦٠٦) .

٣- هي أول من عاضده وأعانه في أول أمره ، وكانت نصرتها له في أعظم أوقات الحاجة .

٤- أنها كان لها منه ﷺ المنزلة العالية ، فكان يحبها ، ويذكرها كثيرًا ، ويثني عليها[١] .

(والصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما) يعني : عائشة بنت أبي بكرٍ ، والصديق هو المبالغ في الصدق ، وقد لقب النبي ﷺ أبا بكرٍ بذلك[٢] .

وقد ذكر الشيخ من فضائلها هنا (أن النبي ﷺ قال فيها : « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام »[٣] . والثريد هو أفضل الأطعمة ؛ لأنه خبز ولحم ، والخبز من البر ، وهو أفضل الأقوات ، واللحم أفضل الإدام ، فإذا كان اللحم سيد الإدام ، والبر سيد القوت ، ومجموعهما الثريد ، كان الثريد أفضل الطعام .

ولعائشة رضي الله عنها فضائل كثيرة منها :

أنها أحب أزواج النبي ﷺ إليه . وأنه لم يتزوج بكرًا غيرها . وأنه ﷺ كان ينزل عليه الوحي في لحافها . وأن اللَّه برأها مما رماها به أهل الإفك . وأنها أفقه نسائه ، وكان أكابر الصحابة إذا أشكل عليهم الأمر استفتوها[٤] . وأن الرسول ﷺ توفي في بيتها بين سحرها ونحرها ، ودفن في بيتها[٥] ، إلى غير ذلك من فضائلها .

بين الشيخ رحمه الله في هذا :

أولًا : موقف أهل السنة والجماعة من الصحابة وأهل البيت ، وأنه موقف الاعتدال ، والوسط بين الإفراط والتفريط ، والغلو والجفاء .

يتولون جميع المؤمنين ، لاسيما السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسانٍ .

ويتولون أهل البيت ، يعرفون قدر الصحابة وفضلهم ومناقبهم ، ويرعون حقوق أهل البيت التي شرعها اللَّه لهم .

(ويتبرءون من طريقة الروافض) الذين يسبون الصحابة ويطعنون فيهم ، ويغلون في حق علي بن أبي طالبٍ وأهل البيت .

(ومن طريقة النواصب) الذين ينصبون العداوة لأهل البيت ، ويكفرونهم ويطعنون فيهم ، وقد سبق

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨١٨) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/٦٢) ، وصححه ووافقه الذهبي ، وأورده الألباني في « الصحيحة » (٣٠٦) .

(٣) البخاري (٣٣٧٠) ، ومسلم (٤/١٨٩٥) (٢٤٤٦) .

(٤) البخاري (٤٧٥٠) ، ومسلم (٤/٢١٢٩) (٢٧٧٠) .

(٥) البخاري (١٣٨٩) ، ومسلم (٤/١٨٩٣) (٢٤٤٣) .

بيان مذهب أهل السنة والجماعة فى الصحابة وأهل البيت ، ولكن الغرض من ذكره هنا مقارنته بالمذاهب المنحرفة المخالفة له .

ثانيًا : بين الشيخ رحمه الله موقف أهل السنة والجماعة من الاختلاف الذى وقع بين الصحابة فى وقت الفتنة ، والحروب التى حصلت بينهم ، وموقفهم مما ينسب إلى الصحابة من مساوئ ومثالب ، اتخذها أعداء الله سببًا للوقيعة فيهم ، والنيل منهم .

كما حصل من بعض المتأخرين والكتاب العصريين الذين جعلوا أنفسهم حكمًا بين أصحاب رسول الله ﷺ ، فصوبوا وخطئوا بلا دليلٍ ، بل باتباع الهوى ، وتقليد للمغرضين الذين يحاولون الدس على المسلمين بتشكيكهم فى تاريخهم المجيد وسلفهم الصالح الذين هم خير القرون ؛ لينفذوا من ذلك إلى الطعن فى الإسلام وتفريق كلمة المسلمين .

وما أحسن ما ذكره الشيخ هنا من تجلية الحق وإيضاح الحقيقة ، فقد ذكر أن موقف أهل السنة مما نسب إلى الصحابة ، وما شجر بينهم – أى : تنازعوا فيه – يتلخص فى أمرين :

الأمر الأول : أنهم (يمسكون عما شجر بين الصحابة) ؛ أى : يكفون عن البحث فيه ، ولا يخوضون فيه ؛ لما فى الخوض فى ذلك من توليد الإحن والحقد على أصحاب رسول الله ﷺ ، وذلك من أعظم الذنوب ، فطريق السلامة هو السكوت عن ذلك ، وعدم التحدث به .

الأمر الثانى : الاعتذار عن الآثار المروية فى مساوئهم ؛ لأن فى ذلك دفاعًا عنهم ، وردًّا لكيد أعدائهم .

١- (هذه الآثار المروية فى مساوئهم منها ما هو كذب) قد افتراه أعداؤهم ؛ ليشوهوا سمعتهم ، كما تفعله الرافضة – قبحهم الله – والكذب لا يلتفت إليه .

٢- هذه المساوئ المروية (منها ما قد زيد فيه ، ونقص ، وغير عن وجهه الصحيح) ودخله الكذب ، فهو محرف ، لا يعتمد عليه ؛ لأن فضل الصحابة معلوم ، وعدالتهم متيقنة ، فلا يترك المعلوم المتيقن لأمرٍ محرفٍ مشكوكٍ فيه .

٣- (الصحيح منه) ؛ أى : من هذه الآثار المروية (هم فيه معذورون ؛ إما مجتهدون مصيبون ، وإما مجتهدون مخطئون) فهو من موارد الاجتهاد التى إن أصاب المجتهد فيها فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر واحد .

لما فى الصحيحين عن أبى هريرة وعمرو بن العاص رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد »[1] .

٤- أنهم بشر يجوز على أفرادهم ما يجوز على البشر من الخطأ ، فأهل السنة : (لا يعتقدون أن كل

---

(١) تقدم تخريجه .

واحدٍ من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره ، بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة) ، لكن ما يقع منهم من ذلك فله مكفرات عديدة ، منها :

أ- أن (لهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر) فما يقع من أحدهم يغتفره بجانب ما له من الحسنات العظيمة ، كما في قصة حاطبٍ ، لما وقع منه ما وقع في غزوة الفتح غفر له بشهوده وقعة بدرٍ .

ب - أنهم تضاعف لهم الحسنات أكثر من غيرهم ، ولا يساويهم أحد في الفضل .

(وقد ثبت بقول رسول اللَّه ﷺ أنهم خير القرون ، وأن المد من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحدٍ ذهبًا ممن بعدهم) .

أخرج الشيخان ، وغيرهما أحاديث عن أبي هريرة وابن مسعودٍ وعمران بن حصينٍ ، أن رسول اللَّه ﷺ قال : « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم » الحديث .

والقرون جمع قرنٍ ، والقرن أهل زمانٍ واحدٍ متقاربٍ ، اشتركوا في أمرٍ من الأمور المقصودة ، ويطلق القرن على المدة من الزمان .

جـ - كثرة مكفرات الذنوب لديهم ، فإنهم يتوفر لهم من المكفرات ما لم يتوفر لغيرهم .

(حتى إنهم يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم ؛ لأن لهم من الحسنات التي تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم) ، وقد قال اللَّه تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ .

(فإذا كان قد صدر من أحدهم ذنب قد تاب منه ، أو أتى بحسناتٍ تمحوه ، أو غفر له بفضل سابقته) ؛ أي : الأعمال الصالحة التي أسبقها قبله .

(أو بشفاعة محمدٍ ﷺ الذي هم أحق الناس بشفاعته ، أو ابتلي ببلاءٍ في الدنيا كفر به عنه) ؛ أي : امتحن وأصيب بمصيبةٍ محي عنه ذلك الذنب بسببها .

كما في الصحيح ، أن رسول اللَّه ﷺ قال : « ما يصيب المؤمن من وصبٍ ، ولا نصبٍ ، ولا غمٍّ ، ولا همٍّ ، ولا حزنٍ ، حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفر اللَّه بها من خطاياه » . متفق عليه[1] ، والصحابة أولى الناس بذلك .

قال : (فإذا كان هذا في الذنوب المحققة) ؛ أي : الواقعة منهم فعلًا ، وأن لديهم رصيدًا من الأعمال الصالحة التي تكفرها .

(فكيف بالأمور التي كانوا فيها مجتهدين) الاجتهاد هو بذل الطاقة في معرفة الحكم الشرعي .

(إن أصابوا فلهم أجران ، وإن أخطئوا فلهم أجر واحد ، والخطأ مغفور) كما سبق بيان دليل ذلك قريبًا .

---

(١) البخاري (٥٦٤١، ٥٦٤٢) ، ومسلم (٤/ ١٩٩٢، ١٩٩٣) (٢٥٧٣) .

وإذن فما يصدر من الصحابي من خطأ على قلته ؛ فهو بين أمرين :

الأول : أن يكون صدر عن اجتهادٍ ، وهو فيه مأجور ، وخطؤه مغفور .

والثاني : أن يكون صدر عن غير اجتهادٍ ، وعنده من الأعمال والفضائل والسوابق الخيرة ما يكفره ويمحوه .

وقوله : (ثم القدر الذي ينكر من فعل بعضهم) إلخ ، هو كالتلخيص لما سبق ، وبيان فضائل الصحابة إجمالًا ، وهي :

١- الإيمان بالله ورسوله ، وهو أفضل الأعمال .

٢- الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ، وهو ذروة سنام الإسلام[١] .

٣- الهجرة في سبيل الله ، وهي من أفضل الأعمال .

٤- النصرة لدين الله ، قال تعالى فيهم : ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾

٥- العلم النافع والعمل الصالح .

٦- أنهم خير الخلق بعد الأنبياء ، فأمة محمدٍ ﷺ خير الأمم ، كما قال تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ، وخير هذه الأمة صحابة رسول الله ﷺ ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : « خيركم قرني ، ثم الذين يلونهم » . الحديث .

٧- أنهم الصفوة من قرون هذه الأمة ، التي هي خير الأمم ، وأكرمها على الله ، كما في الحديث الذي رواه الإمام أحمد ، أن النبي ﷺ قال : « أنتم توفون سبعين أمةً ، أنتم خيرها وأكرمها على الله سبحانه » . رواه الترمذي ، وابن ماجه ، والحاكم في مستدركه[٢] .

۞ قال الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه الله :

قوله : « وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجماعَةِ سلامةُ قُلُوبِهِمْ وألسِنَتِهِمْ لأصحابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ » :

هذا الفصل ذكر فيه شيخ الإسلام أصلًا من أصول أهل السنة ألا وهو اعتقادهم في الصحابة رضوان الله عليهم ، وما يعقدون عليه قلوبهم وما ينطقون به بألسنتهم في أمر صحابة رسول الله ﷺ .

وأصل هذه المسألة أُدخِلَت في العقائد لأجل مخالفة من خالف فيها ؛ لأن أمر الجماعة قبل أن تتفرق الأمة كان على اعتقاد جميع ما جاء في الكتاب والسنة من الأصول والفروع ، من القواعد والتفريعات ، لكن ثَمَّ مسائل ظهرت طوائف خالفت فيها ، وكان أهل السنة والجماعة فيها على عقيدة واضحة بينة ، خالفوا فيها عقائد الضالين ، فأفردوا لها فصولًا وكتبًا ، وبينوا فيها ما دلت عليه النصوص من الكتاب

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٥/٢٣١) ، وقال الألباني في « صحيح الجامع » (٥١٣٦) : صحيح .

(٢) رواه أحمد في مسنده (٤/٤٤٧، ٥/٥) (١٩٩٠٠، ١٩٩٣٢) ، والترمذي (٢٩٢٧) ، وابن ماجه (٤٢٨٨) ، والحاكم في مستدركه (٤/٨٤) .

والسنة ، وما قاله الصحابة فمن بعدهم فيها .

ومن تلك المسائل : مسألة الصحابة ؛ فإن مخالفة الخوارج والروافض وقبلهم الشيعة الغلاة في ذلك جعلت تلك الفرق بائنة عن طريقة الجماعة ، أي طريقة أصحاب رسول اللَّه ﷺ ، والخلاف في الصحابة كان ظاهرًا لَمَّا حصلت الفتنة في مقتل عثمان رضي الله عنه ؛ فإن الناس بعده انقسموا :

* منهم من تولى عليًا وغلا فيه .

* ومنهم من تولى عليًا وعَدَلَ فيه ، يعني : كان فيه على ما جاءت به النصوص والأدلة ، وهم الصحابة جميعًا ومن تبعهم على ذلك .

* ومنهم من جفا عليًا ومن معه من الصحابة .

حتى صارت الفرق ما بين غال وجاف ومعتدل ، فالسبئية الشيعة الغلاة غلوا في علي حتى ألَّهوه وكفَّروا أكثر الصحابة ، وكانوا يكرهون عامة الصحابة إلا أربعة نفر وكفَّروا الأكثرين منهم ، ثم الخوارج قابلوا الصحابة بالقتال لما حصلت مسألة التحكيم ، وتبع ذلك أن قالوا في الصحابة - رضوان اللَّه عليهم - : إنَّ من لم يعتقد اعتقاد الخوارج فإنه كافر ولو كان من أصحاب رسول اللَّه ﷺ . ثم جاءت النواصب الذين قابلوا أولئك .

ثم تنوعت الفرق في الصحابة - رضوان اللَّه عليهم - فكان من اعتقد الاعتقاد الحق في الصحابة فيما لهم من المكانة والمنزلة ، وفي اعتقاد اجتهادهم ، وفي توليهم وحبهم وسلامة الألسنة وسلامة القلوب في حقهم ، كان من اعتقد ذلك الاعتقاد وبقي على ما كانت عليه الجماعة كان هو صاحبَ القول الحق ، وهو الذي عليه الصحابة فمن بعدهم رضوان اللَّه عنهم أجمعين .

إذن سبب ذكر تلك المسألة المُخالفةُ ، وتبع هذا الذكر أن كثيرًا من أهل السنة خالفوا أيضًا تلك الطوائف ، وأظهروا هذه العقيدة في الصحابة وبينوها ، وكانت لأهل السنة شعارًا ، وأدخلوها في أشياء من العبادات وفي كلامهم ؛ كما فعلوا في إدخال الترضِّي عن الصحابة ، والترضي عن أمهات المؤمنين ، والترضي عن جميع الآل ، في خطبة الجمعة ، وفي غيرها من الخطب ؛ فإن إدخال الترضي عن الصحابة وعن زوجات النبي ﷺ لم يكن في عهده ﷺ ولا في عهد أبي بكر وعمر ولا في عهد عثمان ، ثم بعد ذلك الأئمة من التابعين فمن بعدهم أدخلوا هذا الترضي وأدخلوا هذا الشعار ؛ لأنه صار شعارًا لأهل السنة في مقابلة غيرهم من الروافض والخوارج والنواصب ومن شابه أولئك .

كذلك في مسألة الصلاة على النبي ﷺ ، الأصل فيها أن الصلاة عليه ﷺ وعلى آله - كما جاء ذلك مبينًا في حديث أبي حميد وغيره في « الصحيحين » وغيرهما ؛ فإن النبي ﷺ علمهم أن تكون الصلاة عليه وعلى آله ، فإن أهل السنة إذا ذكروا الصلاة عليه ﷺ وأرادوا أن يذكروا الآل ، أدخلوا معهم الصحابة ، فقالوا : ﷺ وعلى آله وصحبه . ولم يقتصروا على الآل ، وهذا عند أكثر أهل السنة لأجل ألا

يشابهوا الرافضة والشيعة في توليهم للآل دون الصحب .

هذا كله تفريع عن هذه المسألة العظيمة .

فهذا الفصل ذكر فيه شيخ الإسلام اعتقاد أهل السنة والجماعة في صحابة رسول الله ﷺ ، وهذا ليس من أركان الإيمان الستة ، ولكنه من أصول أهل السنة والجماعة ؛ لأنهم خالفوا به أهل الضلال وفرق الضلال التي تفرقت عن الجماعة الأولى ، والتي قال فيها ﷺ : « والَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وسَبْعينَ فِرْقَةً ، فَوَاحِدَةٌ في الجَنَّةِ وثِنْتَانِ وسَبْعُونَ في النَّار » . قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هُمْ ؟ قالَ : « الجَمَاعَةُ »[1] .

قال رحمه الله : (ومِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ) ، الأصول : جمع أصل ، والأصل المراد به في هذا الموضع : القاعدة ، يعني : من قواعد أهل السنة والجماعة (سَلامَةُ قُلُوبِهم) ؛ لأن الأصل يطلق على أشياء منها :

الأول : أن يقال : الأصل في المسألة كذا وكذا ، يعني : الدليل ، مثل : أصل المسألة الكتاب والسنة ، يعني : دليل المسألة من الكتاب والسنة .

الثاني : أن يأتي الأصل ويُراد به القاعدة المشتهرة ؛ كما تقول : الأصل في العقود كذا ، الأصل في العبادات أنها موقوفة على الدليل ، الأصل في المعاملات أنها متروكة لعرف الناس ما لم يأت دليل بتحريم نوع من أنواع المعاملة ، فهذا معناه القاعدة المشتهرة التي ترجع إليها هذه المسألة .

الثالث : أن يأتي الأصل ويراد به ما يقابل الفرع ، كما عرّفوا القياس بقولهم : إلحاق فرع بأصل لِعِلّةٍ جامعة بينهما .

فقول شيخ الإسلام هنا : (وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ) يعني : من القواعد عندهم في الاعتقاد التي تجمع مسائل كثيرة (سلامةُ قُلُوبِهِمْ وأَلسِنَتِهِمْ لأصحابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) ، والصحابي هو : من لقي النبي ﷺ مؤمنًا به ومات على ذلك ، ولو تخللت ذلك ردة على الصحيح .

وأصلُ الصاحب في اللغة هو الملازم ملازمة طويلة ، يُقال : هذا صاحِبُ ذاك . إذا لازمه ملازمة طويلة ، فسواء كانت تلك الصحبة لحي أو لجماد فإن الملازمة الطويلة يقال لها : صُحبة ، ولمن فعلها : صاحب ؛ كما قال ﷻ : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف : ٩] ، قيل لهم : أصحاب الكهف لأنهم لازموه ملازمة طويلة ، وقال : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة : ٣٩] ، يعني : الذين سيلازمونها ملازمة طويلة قد يكون فيها خلود أبدي ، وقد تكون ملازمة طويلة دون خلود ، كذلك في قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة : ٨٢] ، ونحو ذلك من الآيات .

لكن في حق الصحابة - رضوان الله عليهم - خرَجَ المعنى عن الأصل اللغوي ، وهو أن الصحبة هي

(١) تقدم تخريجه .

الملازمة الطويلة ، وصارت الصحبة هي : من لقي النبي ﷺ مؤمنًا به ولو كانت الصحبة قليلة ولو ساعة من نهار ؛ لأن أولئك الذين حضروا خطبة النبي ﷺ خطبة الوداع يوم عرفة - وكانوا أكثر من مائة ألف ، هم صحابة رسول اللَّه ﷺ ، وكذلك من أدرك ما دون ذلك فلقيه في اليقظة مؤمنًا به ﷺ ومات على ذلك الإيمان ؛ فإنه صاحب من أصحاب رسول اللَّه ﷺ ، فأولئك الذين ينطبق عليهم ذلك التعريف هم الذين لهم هذا الحق الذي جاء مُبينًا في هذا الكلام لشيخ الإسلام رحمه الله .

قال : (وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ سلامةُ قُلُوبِهِمْ) ، يعني من الغل والحقد والحسد ونحو ذلك مما يكون من أعمال القلوب المحرمة التي لا يجوز لمسلم أن يغل عليها قلبه ، فتكون قلوبهم سليمة لأصحاب رسول اللَّه ﷺ من محرمات أفعال القلوب ؛ كالظن السيئ والحقد والغل والحسد .. إلى غير ذلك من الصفات المذمومة .

وهذا الذي قاله شيخ الإسلام رحمه الله الأصل فيه قول اللَّه ﷻ : ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الحشر : ١٠] ، فهنا ذَكَرَ الغل وهو مما يكون في القلوب ، وفي آية سورة « الفتح » قال : ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ [الفتح : ٢٩] ، فالغيظ الذي يكون في القلب وفيه الكراهية وفيه الحقد وفيه الحسد إلى غير ذلك ، هذه كلها مما يجب أن تُنزه القلوب عنه .

فقوله هنا : (سلامَةُ قُلُوبِهِمْ) أصله الأدلة من الكتاب والسنة ، وهو أصل أصيل ، ذلك أن من كان قلبه غير منطوٍ على محبة أصحاب رسول اللَّه ﷺ ، أو كان قلبه منطويًا على انتقادهم ، أو على تخطئتهم ، أو عَلَى بغض أحدٍ منهم ، أو على حسدهم ، فإنه يكون قد اشتمل قلبه على شيء ليس بسليم .

فالواجب أن تكون القلوب سليمة لا تظن بالصحابة إلا خيرًا ، ولا تعقد في حق الصحابة إلا أن يكونوا هم أحق هذه الأمة بالمحبة والنصرة ، وقد قال ﷻ : ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ [التوبة : ٧١] ، وأعلى المؤمنين إيمانًا هم صحابة رسول اللَّه ﷺ .

فالمؤمن ولي المؤمنين ، والوَلاية هي المحبة والنصرة ، والمحبة في القلب ، فمن كان في قلبه شيء من البغض لبعضهم ، أو شيء من الغل لبعضهم أو من التغيظ له ؛ فإنه ليس مواليًا لهم ، بل هو عدوٌّ لهم مضاد لهم .

قال : (سلامةُ قُلُوبِهِمْ وألسِنَتِهِمْ لأصحابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) ، فالأصل الأول أن تكون القلوب سليمة ، ثُمّ أن تكون الألسنة سليمة في حق أصحاب رسول اللَّه ﷺ ، سليمة من عيبهم ومن انتقادهم ومن القدح فيهم ، ومِنْ ذِكْرهم بغير الجميل وبغير الخير ؛ فإنهم هم العُدُول الذين أثنى اللَّه ﷻ عليهم ، ومن أثنى اللَّه عليه ورضي عنه ؛ فإن من تعرَّضَ لَهُ بلسانه يكون مخالفًا لما جاء في حقه من الإكرام والتعديل والرِّفعة في كتاب اللَّه ﷻ وفي سنة رسوله ﷺ .

ومن دلائل هذا الأصل وهو سلامة الألسنة حال الذين ذكرهم الله ﷻ في قوله : ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ١٠] ، (إخواننا) هم صحابة رسول الله ﷺ ، فالذين جاءوا من بعد الصحابة يقولون : ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ ، وهذا مورِدُهُ اللسان ، قالوا ذلك لأن ألسنتهم لا تقول عن الصحابة إلا الجميل ، ثم قال : ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ . وأولئك هم الصحابة رضوان الله عليهم ، وإذا لم يكن في القلب غِلٌّ فإن اللسان سالمٌ ، والألسنة كما هو معلوم مَغارِفُ للقلوب . وهذا أصل عام في أن أهل السنة والجماعة لا يذكرون الصحابة - رضوان الله عليهم - إلا بالجميل .

والصحابة طبقات ومراتب ، وهذا يأتي إن شاء الله ، فتوليهم - رضوان الله عليهم - تولٍّ مطلق لجميع الصحابة ، مع اعتقاد أنهم ليسوا في الفضل سواء ، بل هم متفاضلون بعضهم أفضل من بعض ، ويتبع ذلك أن محبة أفاضل الصحابة ليست كمحبة أدناهم ، مع أن الجميع مشتركون في المحبة والنصرة وتوليهم وسلامة القلب واللسان في حقهم ، لكن من كان في أعلى المراتب منهم له حق أعظم ، وله الوَلاية ، يعني : أن يُتولى أعظم من غيره .

وأعلى هذه الأمة وأعظمها مرتبة : أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه ، ثم عمر رضي الله عنه ، ثم عثمان رضي الله عنه ، ثم علي رضي الله عنه ، فيتْبع موالاة هؤلاء أن من ذكرهم بغير الجميل منتقدًا لهم ؛ فإن موالاة أولئك الصحابة تقتضي أن يُقامَ في نُصْرَتِهِم ، وأن يُجَرَّد اللسان والقلم ويُذَب عنهم ؛ لأنهم سادات المؤمنين وهم أفضل هذه الأمة .

قال رحمه الله : (كمَا وصفهمُ اللَّهُ بِهِ في قولِهِ تعالَى : ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾) . وجه الاستدلال من هذه الآية أن هؤلاء أثنى الله عليهم ، والذين جاءوا من بعدهم ذكرهم الله ﷻ بهذا الوصف في سورة « الحشر » لما ذكر أن ممن يستحق الفَيْءَ هؤلاء الذين جاءوا من بعدهم ، فالصحابة لهم حق في الفيء والذين جاءوا من بعدهم لهم حق في الفيء ، وهذا ثناء من الله ﷻ على هؤلاء الذين سَلِمت قلوبهم وألسنتهم لصحابة رسول الله ﷺ ، فكان من جملة دعائهم أنهم قالوا : ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ ، وقوله في آخرها : ﴿إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ هذا في مقام التعليل ، يعني : أنهم علّلوا هذا الذي قالوه ، وهو رجاء إجابة الله ﷻ دعاءهم بأن الله رءوف رحيم .

والرأفة أشد الرحمة ؛ بل أعلى درجات الرحمة هي الرأفة ، فكل رءوف رحيم وليس كل رحيم رءوفًا .

فالنبي ﷺ بالمؤمنين رءوف رحيم ، والله ﷻ هو الرءوف الذي له بعباده المؤمنين وبغيرهم الرأفة

العظيمة والرحمة العامة ، وكذلك الرحمة والرأفة الخاصة ، فهو ﷻ الرءوف بعباده وهو الرحيم بهم ، ومن المناسب أن يجعل العبد في دعائه من الأسماء الحسنى ومن الصفات ما يناسب سؤاله .

قال شيخ الإسلام بعد ذلك : (وطاعةُ النبيِّ ﷺ في قولِهِ : « لا تَسبُّوا أصحابي ، فوالَّذي نفسي بيدِهِ ، لو أنَّ أحدكمْ أنفقَ مثلَ أُحُدٍ ذهبًا ما بلغَ مُدَّ أحدهمْ ولا نَصيفهُ ») . هذا الحديث حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الذي رواه البخاري ومسلم في « صحيحيهما » له قصة ، وهو أن خالد بن الوليد تعرَّض لعبد الرحمن بن عوف بشيء من السب ، فاطَّلعَ النبي ﷺ على ذلك ، فقال هذه المقالة : « لا تَسُبُّوا أصحابي ... » إلى آخر الحديث . والمقصود بقوله هنا : « لا تسبوا أصحابي » يعني : الذين سبقوا إلى الصحبة ؛ لأن خالدًا من الصحابة أيضًا لكنه لما سبَّ عبد الرحمن بن عوف ، وعبد الرحمن من السابقين الأولين ومن العشرة المبشرين بالجنة ؛ فإن خالدًا بهذا تعرض لخاصة أصحاب رسول اللّه ﷺ ، حتى كأن هذا الوصف بقوله : « أصْحابي » ليس إلا لهؤلاء الأولين ، ويدخل فيه أيضًا الذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا ، يعني : من أسلم متأخرًا وكان من الصحابة ، لكنه ليس في المرتبة مثل من كان من السابقين الأولين .

قال ﷺ لمن تأخر إسلامه من الصحابة : « لو أنَّ أحد كم أنفقَ مثلَ أُحُدٍ ذهبًا لم يبلغ مدَّ أحدِهِمْ ولا نصيفهُ » . إذن هي في حق التفضيل بين من أسلم متأخرًا وبين من أسلم متقدمًا ، وهذا إذا كان في حق أولئك فهو في حق من ليس له مقام الصحبة من باب أولى ؛ ولهذا استدل العلماء بهذا الحديث لما في عموم قوله : « لا تسُبُّوا أصحابي » على أن مسبة الصحابة - رضوان اللّه عنهم - منهي عنها ، وأن الصحابة يجب أن تسلم القلوب وتسلم الألسنة في حقهم ، وأن من بعدهم لو أنفق مثل أحدٍ ذهبًا لم يبلغ مد الصحابي ، حتى لو كان من مسلمة الفتح ، ولو كان من مُسْلِمَة حجة الوداع ، يعني : من المتأخرين ؛ فإنه لن يبلغ مقام الصحابي الواحد ممن سبق بالإيمان .

وقد قال بعض السلف : (لَمُقامُ أحدهم ساعة مع رسول اللّه ﷺ خير من الدنيا وما فيها) ،فكانت لهم سابقة الصُّحبة ، وكانت لهم سابقة النُّصرة ، فلهم حق أن تسلم القلوب والألسنة من التعرض لهم إلا بالجميل .

قوله : (ما بلغَ مُدَّ أحدهمْ) يعني : لو تصدق بالمد ؛ فإن منَ هو من غير الصحابة أو المتأخر من الصحابة مع من تقدم لن يبلغ بإنفاق مثل أحد ذهبا لو كان لَهُ ما بلغه مد أحد الصحابة (ولا نصيفهُ) يعني : ولا نصف ذلك المد ، وهذا لما لهم من السابقة والنُّصْرَة .

قوله : (ويقبلونَ ما جاءَ بِهِ الكتابُ والسنةُ والإجماعُ منْ فضائلهمْ ومراتبهمْ ...)

أما ما جاء في الكتاب والسنة فظاهر أن الكتاب والسنة فيهما التفريق بين الصحابة ، وأن الصحابة مراتب ، وأنهم ليسوا في الفضل ولا في المرتبة سواء ، مع أن الجميع أثنى اللّه ﷻ عليهم بقوله : ﴿مُّحَمَّدٌ

رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ [الفتح : ٢٩] إلى قوله في آخر الآية : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ [الفتح : ٢٩] ، فهذه في حق كل الصحابة ؛ لقوله في أولها : ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ ، وقال في آخرها : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهم كذلك جميعًا ﴿مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ .

وقوله هنا : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم﴾ (مِنْ) هنا بيانية ليست تبعيضية ولا ابتدائية ، والمخالفون من الروافض والخوارج والنواصب يزعمون أن (مِنْ) ههنا تبعيضية ؛ كقولك : الدراهم من الفضة ، أو الأربعة من العشرة ، يعني : بعض العشرة ، أو فلان من آل فلان ، يعني : أنه مِنْ بعضهم .

وهذا ليس بصحيح ؛ بل المتقرر في لغة العرب أن (مِنْ) لها استعمالات كثيرة ؛ فإن (مِنْ) تأتي على أنحاء ؛ كما قرر ذلك علماء العربية وخاصة في كتب حروف المعاني ، ومن استعمالاتها :

* أن تأتي للابتداء .
* أن تأتي للتعليل .
* أن تأتي للتبعيض .
* أن تأتي للبيان .

وقد قال المرادي في معاني (مِنْ) في نظمه لبعض حروف المعاني :

أتتنا مِنْ لتبيين وبعض ... وتعليل وبدء وانتهاء
وزائدة وإبدال وفصل ... ومعنى عن وعلى وفي وباء

فذكر اثني عشر معنى لـ (مِنْ) ، وابتدأ ذلك بقوله : (أتتنا مِنْ لتبيين) يعني للبيان (وبعض) ، فهذا يدل على أن كون (مِنْ) في الأصل للبيان أنها مقدمة على كونها للتبعيض ، وهي تأتي لمعانٍ كثيرة ومنها البيان والتبعيض والابتداء إلى غير ذلك .

فقوله ﷻ في آية « الفتح » : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ [الفتح : ٢٩] يعني : منهم لا من غيرهم ؛ لأنه قال في أول الآية : ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفتح : ٢٩] ، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ من الأسماء الموصولة ، وهي تعم جميع من كان معه ﷺ وهم أصحابه ﷺ .

قال : (ويقبلونَ ما جاءَ بِهِ الكتابُ والسنةُ والإجماعُ مِنْ فضائلهم) فضائل الصحابة في القرآن كثيرة ، وكذلك مراتبهم ، فالقرآن فيه ذكر المهاجرين وذكر الأنصار ، وذكر من أسلم وأنفق من بعد الفتح ومن أسلم وأنفق من قبل الفتح ، وفيه ذكر أهل بدر ، وفيه ذكر لأهل أحد ولم يسوِّ بينهم في القرآن .

قال تعالى : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ [التوبة : ١٠٠] فذكر صفة الهجرة وصفة

النصرة : والمهاجرون هم من هاجر من مكة إلى المدينة من قبل فتح مكة ، والأنصار هم من نصر النبي ﷺ من الأوس والخزرج .

ويستدل العلماء من تقديم المهاجرين على الأنصار في نصوص الكتاب والسنة على أن مرتبة المهاجرين أرفع من مرتبة الأنصار ، وهذا مراد شيخ الإسلام بقوله : (ما جاءَ بهِ الكتابُ والسنةُ والإجماعُ من فضائلهم ومراتبهم) ، كذلك قوله ﷻ : ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح : ١٨] ، ونحو ذلك من الآيات التي فيها بيان الفضل وبيان مراتب أولئك ، وقال ﷻ أيضًا : ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح : ١٨] . ونحو ذلك من الآيات التي فيها بيان الفضل وبيان مراتب أولئك ، وقال ﷻ أيضًا : ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد : ١٠] ، وهذه الآية وغيرها أصل في أن الصحابة على مراتب .

قال العلماء : إن الصحابة مراتبهم تبلغ بضع عشرة مرتبة . كما ذكر ذلك علماء المصطلح في مبحث الصحابي ، يعني : قد تبلغ خمس عشرة مرتبة أو سبع عشرة مرتبة ، أو بضع عشرة مرتبة ، وهذا بحسب الحوادث .

ويعنون به : أن من أسلم والنبي ﷺ لم يُبعث رسولًا أن هذا مُقدَّم ، ثم من أسلم بعد بَعْثِهِ رسولا ، ثم من أسلم قبل الجهر بالإسلام ، ثم من أسلم قبل الهجرة إلى الحبشة ، ثم من أسلم بعد الهجرة ، ثم من أسلم قبل العقبة الأولى ، ثم قبل العقبة الثانية .. وهكذا ، فيقال : فلان - مثلًا - عَقَبيٌّ ، يعني : من أهل العقبة الأولى ، ثم من أسلم قبل الهجرة إلى المدينة ، ثم من أسلم قبل بدر ، يعني : أهل بدر ، ثم أهل أحد .. إلى آخره ، فيمكن أن تُجْعَلَ مراتب كثيرة .

ومراتبهم من حيث الإجمال :

الأولى : المهاجرون .

الثانية : أهل بدر .

الثالثة : الأنصار .

الرابعة : من أسلم قبل الفتح .

الخامسة : من أسلم من بعد الفتح .

هذه مراتب مجملة لهم ، والمهاجرون إذا أردنا التفصيل : أولهم وأفضلهم العشرة الذين بشرهم النبي ﷺ بالجنة في مجلس واحدٍ ، وهم على الترتيب الذي جاء في الحديث ، وأولهم الخلفاء الأربعة : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي .. إلى آخر العشرة ، ثم من أسلموا مبكرًا من المهاجرين أفضل ممن

أسلم متأخرًا ، ثم من حضر بدرًا أفضل ممن لم يحضر بدرًا ، ثم الأنصار .. إلى آخر ما ذكرنا ، فلهم مراتب ، ومن حضر بيعة الرضوان - بيعة الشجرة - هذا مفضل أيضًا على من لم يحضرها ؛ لأن اللَّه ﷻ ذكر ذلك بقوله : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح : ١٨] .

ولهذا قال شيخ الإسلام بعد ذلك : (ويفضلونَ منْ أنفقَ منْ قبلِ الفتحِ - وهوَ صلحُ الحديبيةِ - وقاتلَ ، على من أنفقَ منْ بعدُ وقاتلَ) ؛ وذلك لقوله ﷻ : ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد : ١٠] .

والمراد بالفتح هو صلح الحديبية ، وقد نزلت سورة « الفتح » : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ . بعد صلح الحديبية ؛ وذلك لأن ذلك الصلح العظيم جعل اللَّه ﷻ به فتحًا عظيمًا ، وصار للمؤمنين بذلك الصلح من المصالح العظيمة ، ومن انتشار الإسلام ، ومن قوة المسلمين ، ومن هيبتهم وظهورهم على عدوهم ما جعل ذلك فتحًا مبينًا ؛ كما وصفه اللَّه ﷻ بقوله : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح : ١] .

وقوله : ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾ المُبين هو البيِّن الظاهر في نفسه والمُبينُ أيضًا لغيره ، فهو فتحٌ بيِّن واضحٌ ظاهرٌ ، وأيضًا هو مبين لغيره من الفتوح ، فتبعه فتح خيبر ، وتبعه فتح مكة ، فالمقصود بقوله : ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ [الحديد : ١٠] . أن هذا الفتح هو صلح الحديبية ؛ كما فسرها الصحابة رضوان اللَّه عليهم ، فصلح الحديبية كان فتحًا ؛ كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ ، قيل له في الحديبية : أو فتح هو ؟ قال : « نعم »(١) .

وكذلك فتح خيبر فتح ، وفتح مكة هو فتح ، لكن أعظم تلك الفتوح ذلك الفتح الذي لم يحصل فيه قتال ، وهو صلح الحديبية .

قال هنا : (ويفضلونَ منْ أنفقَ منْ قبلِ الفتحِ وقاتلَ على من أنفقَ منْ بعدُ وقاتلَ) ، وسبب التفضيل ما جاء في الآية ، وسبب ذلك أن قبل الفتح كان المسلمون في شدة وضيق ؛ ضيق من جهة الأموال وأيضًا من جهة النصير ، فكان عدد أصحاب رسول اللَّه ﷺ قليلًا ، فالذين بايعوا تحت الشجرة كانوا بين ألف وأربعمائة وألف وخمسمائة ، وهذا عدد قليل إذا قيس بمن دخل مكة ، يعني : من كان مع النبي ﷺ في فتح مكة .

فأما بعد صلح الحديبية فقد كَثُرَ الذين دخلوا في الدين ؛ دخل خالد بن الوليد وأبو هريرة وجماعات من الصحابة الذين اشتهر أمرهم ، لكن ما قبل الفتح كانت حاجة المسلمين وحاجة الدين إلى النصرة والقتال وبذل الأموال عظيمة ؛ فلهذا من بذل في ذلك الوقت الذي كانت الحاجة فيه عظيمة والأعداء

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٨٢) ، ومسلم (١٧٨٥) من حديث سهل بن حنيف .

أكثر وقتال تلك القلة أعظم ، كان مفضلًا على من أنفق من بعد وقاتل ، وكما قال ﷻ : ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران : ١٦٣] .

قال : (ويقدمونَ المهاجرينَ على الأنصارِ) ، المهاجرون هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة ، فالمهاجر اسم فاعل الهجرة ، والهجرة هي ترك مكة إلى المدينة ، فمن ترك مكة من أهلها إلى المدينة - قبل فتح مكة - هؤلاء هم الذين يُطلَق عليهم المهاجرون ، فالهجرة وصف ، والأنصار جمع ناصر ، والمراد بهم الأوس والخزرج ، ويقال : لهم بنو قَيْلَةَ ، لأن قَيْلَةَ أمٌّ لهم تجمع بين هذين الفصيلين ، الذين هم الأوس والخزرج ، فهم يَلُونَ المهاجرين .

يُقدم أهل السنة المهاجرين على الأنصار ، دليل التقديم أن اللَّه ﷻ قدَّمَهُم في القرآن ، وإذا كان ثَمَّ أوصاف وقُدِّمَتْ إحدى الصفات على غيرها فإنها تقتضي أن صاحب هذه الصفة مفضل على غيره ، فيُقدم المهاجرون لأنهم في القرآن مقدمون ، ولما حصل الخلاف في سقيفة بني ساعدة وكان ما كان من التَّرَادِّ في القول والخلاف الذي حصل ، قال أبو بكر ﵁ : (بعث اللَّه محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق ، فدعا رسول اللَّه ﷺ إلى الإسلام ، فأخذ اللَّه بقلوبنا ونواصينا إلى ما دعا إليه ، وكنا معشر المهاجرين أول الناس إسلامًا ونحن عشيرته وأقاربه) . وهذا أصل من أصول الفهم أيضًا لتقديم المهاجرين في الجملة على الأنصار .

وإذا قلنا : إن المهاجرين مقدمون على الأنصار . المقصود به تقديم النوع على النوع ، فأهل السنة في هذا الترتيب والمراتب التي ذكرنا تفضيل النوع على النوع ، أما تفضيل الفرد من هؤلاء على الفرد من أولئك فهذا لا يكون إلا بنص ، يعني : الأصل في المهاجرين أنهم أفضل من الأنصار ، وقد يكون الواحد من الأنصار أفضل من واحد من المهاجرين ، لكن من حيث النوع فإن المهاجرين أفضل ، وهذه قاعدة في جميع مراتب الصحابة ، فقولنا : إن أهل بدر أفضل من أهل أحد ، المقصود به في الجملة ، وأهل أحد أفضل ممن أسلم بعد ذلك ، المقصود بذلك الجملة ، والسابقون من المؤمنين إلى الإسلام أفضل ممن أسلم بعدهم ، المقصود بالجملة .

أما عند اللَّه ﷻ هل كل فرد من أولئك أفضل من الفرد من الطائفة الأخرى ؟ هذا لا يُجْزَمُ به ، وإنما نقول : هؤلاء أفضل من أولئك ، والأصل أن كل واحد من أولئك أفضل من كل واحد ممن هم في المرتبة بعدها ، لكن إذا أتى التعيين فإن أهل السنة لا يعينون ، يذكرون النوع ويفضِّلون نوعًا على نوع ولا يعينون ؛ كما يقولون بأن التابعين أفضل من تَبَعِ التابعين ، وأن القرون الثلاثة أفضل ممن بعدهم ، وهذا لا يعني أن يكون واحد أو اثنان أو أكثر ممن بعدهم أفضل من الواحد من التابعين ، لكن المقصود تفضيل النوع على النوع .

قوله : (ويؤمنونَ بأنَّ اللَّهَ قالَ لأهلِ بدرٍ – وكانوا ثلاثَمائةٍ وبضعةَ عشرَ – : « اعملوا ما شئتم ، فقدْ غفرتُ لكمْ ») :

هذا جاء في الحديث الصحيح المروي من طرق أن النبي ﷺ قال في قصة حاطب وفي غيرها : « وما يُدريكَ لعلَّ اللَّهَ اطَّلَع على أهلِ بدرٍ فقال : اعْملوا ما شئتم فقدْ غفرْتُ لكُمْ » . وهذا ورد بقوله : « لعلَّ اللَّهَ اطَّلَع » . وأيضًا رُوِيَ بقوله : « إن اللَّه اطَّلَعَ إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم ، فقدْ غفرتُ لكمْ »[1] ، ولعلَّ الأرجح من اللفظين هو اللفظ الثاني ، وهو قوله : « إن اللَّه اطلع إلى أهل بدر ....» . كما رُجِّحَ ذلك من حيث الرواية ، مما يُبسط لبيانه محل آخر ، المقصود من ذلك أن هذا ثابت في قصة حاطب وفي غيره .

وقوله : « اعملوا ما شئتم » . هذا من باب التكريم ، فالأمر يأتي ويراد به الإنفاذ ، يعني : أن تُنَفِّذَ الأمر ؛ كأن يقال : افعل كذا ، أو اكتب كذا . ويأتي الأمر لمعان أخرى غير إرادة امتثال الأمور ، ومنها :

* أن يُراد به التكريم ، ومنه قوله هنا : « اعملوا ما شئتم » .

* أن يُراد به الإهانة ؛ كما في قوله ﷻ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت : ٤٠] ، فقوله : ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ هنا للتهديد .

أما قوله لأهل بدر : « اعملوا ما شئتم فقدْ غفرتُ لكم » . هذا للتكريم .

وقوله : « قد غفرتُ لكم » هل هي مغفرة في الدنيا والآخرة جميعًا ؟ أم مغفرة في الآخرة ؟

الأظهر أنها مغفرة في الآخرة ، وأما في الدنيا فإنه إذا عمل الواحد منهم ما يوجب عقوبةً عليه – يعني : عقوبة شرعية من حد أو تعزير أو نحو ذلك – أُخِذَ به ؛ كما عليه عمل الخلفاء الراشدين ، فقوله : « اعملوا ما شئتم فقدْ غفرتُ لكم » . يعني : أنهم وإن وقعت منهم ذنوب فإنهم مغفور لهم ، ولما حصل من حاطب بن أبي بلتعة ما حصل من إفشاء سر رسول اللَّه ﷺ ، وهو من أهل بدر ، قال اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة : ١] . وحاطب كان بدريًا ، ولأنه من أهل بدر وهم مغفور لهم كان ذنبه ذاك مغفورًا ، لكن من يحصل منه شيء مما يوجب عقوبةً أو حدًّا أو عذلًا أو مؤاخذة ؛ فإن الصحابة آخذُوا أهل بدر ، ولهذا فإن تفسير قوله : « فقد غفرت لكم » يعني : في الآخرة .

قال العلماء : معنى ذلك أنهم يُوَفَّقون لما به تُغفر ذنوبهم ، إما بمصائب تحصل لهم ، وإما بحسنات ماحية ، وإما بابتلاء يحصلُ لهم ، أو نحو ذلك من مكفرات الذنوب وما به يغفر اللَّه ﷻ ذلك .

واللَّه ﷻ قد يغفر بدون سبب ، وهذا إذا لم يحصل للعبد أشياء مما يُغْفَرُ به الذنوب والسيئات ؛ فإن اللَّه يمن على أهل بدر بمغفرته لهم ﷻ .

---

(١) تقدم تخريجه .

قال شيخ الإسلام بعد ذلك : (وبأنَّهُ لا يدخلُ النارَ أحدٌ بايعَ تحتَ الشجرةِ) . وهذا مأخوذ من قوله ﷻ : ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح : ١٨] . قال العلماء : قوله : ﴿لَّقَدْ رَضِيَ﴾ هذا فيه رضاه ﷻ عنهم أبدًا ، وإذا كان رضي عنهم أبدًا ، فإنهم لا يستحقون دخول النار ، وتأيَّدَ هذا الفهم بما ثبت في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال : « لا يدخلُ النارَ أحدٌ بايعَ تحتَ الشجرةِ »[1] . أو كما ضَمَّنَ ذلك الحديث شيخ الإسلام في هذا المقطع ، وقال : (كما أخبرَ بهِ النبيُّ ﷺ) ، يعني : في الحديث الذي ذُكِر .

قال : (بل لقد رضيَ اللّهُ عنهم ورضوا عنه ، وكانوا أكثر من ألفِ وأربعمائة) فهم كانوا بين ألف وأربعمائة وألف وخمسمائة .

قوله : (ويشهدونَ بالجنةِ لمن شهدَ لهُ رسولُ اللّهِ ﷺ ؛ كالعشرةِ ، وثابتِ بنِ قيسِ بنِ شمَّاسٍ وغيرهم من الصحابةِ) .

الشهادة بالجنة لجنس الصحابة هذه ثابتة ، نشهد للصحابة بالجنة ، لكن للمعين منهم لابد له من شهادة خاصة ؛ لأن الشهادة له بالجنة موقوفة على ما كان عليه في خاتمة أمره - يعني حين مفارقة الروح البدن - وهذا عِلمُهُ عند اللّه ﷻ ؛ ولهذا فإن الشهادة للمعين بالجنة أو بالنار لابد فيها من نص ، فمن شهد له رسول اللّه ﷺ بالجنة فإنه يُشهد له .

ومن أولئك الذين شهد لهم رسول اللّه ﷺ بالجنة : العشرة ، ويقال عنهم : العشرة المبشرون بالجنة ، وليس المرادُ بذلك التخصيص أنهم هم المبشرون وغير أولئك ليس بمبشر ، لكن أولئك قيل لهم : مبشرون بالجنة ؛ لأنهم بُشِّروا بالجنة في مجلسٍ واحدٍ . وفي الحديث الصحيح عن أبي موسى رضي الله عنه قال : كنتُ معَ النبيِّ ﷺ في حائطٍ منْ حيطان المدينةِ[2] ، فجاءَ رجلٌ فاستفتحَ ، فقالَ النبيُّ ﷺ : « افتحْ لهُ وبشِّرهُ بالجنةِ » ففتحتُ لهُ ، فإذا أبو بكرٍ فبشرتُهُ بما قالَ النبيُّ ﷺ فحمدَ اللهَ ، ثمَّ جاءَ رجلٌ فاستفتحَ ، فقالَ النبيُّ ﷺ : « افتحْ لهُ وبشِّرهُ بالجنةِ » ففتحتُ لهُ ، فإذا هوَ عمرُ فأخبرتُهُ بما قالَ النبيُّ ﷺ فحمدَ اللهَ ، ثُمَّ استفتحَ رجلٌ ، فقالَ لي : « افتحْ لهُ وبشرهُ بالجنةِ على بلوى تُصيبُهُ » . فإذا عثمانُ ، فأخبرتهُ بما قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ فحمِدَ اللّهَ ثمّ قالَ : اللّهُ المستعانُ[3] .

كذلك ما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال : « أبو بكرٍ في الجنةِ ، وعمرُ في الجنةِ ، وعثمانُ في الجنةِ ، وعليٌّ في الجنةِ ، وطلحةُ في الجنةِ ، والزبيرُ في الجنة ، وعبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ في الجنةِ ، وسعدٌ

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٤٤٤) من حديث جابر بن عبد اللّه . وصححه الألباني في تخريج الطحاوية ١/ ٥٣٠.

(٢) الحائط : البُستان .

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٩٣، ٦٢١٦) ، ومسلم (٢٤٠٣/ ٢٨، ٢٩) ، والترمذي (٣٧١٠) .

في الجنةِ ، وسعيدٌ في الجنةِ ، وأبو عبيدةَ بنُ الجراحِ في الجنة »[(١)] . فهؤلاء بُشِّرُوا في مجلس واحد ، فأطلق عليهم أهل السنة : العشرة المبشرين بالجنة .

فهل معنى ذلك أن غيرهم لم يُبشر ؟

الجواب : بل قد بُشِّرَ كثيرٌ ؛ كثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه الذي بشرهُ النبي ﷺ لما نزل أول سورة « الحجرات » ، حيث قال ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات : ١، ٢] . وكان ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه خطيب رسول اللَّه ﷺ ، وكان كثير رفع الصوت بين يديه ؛ لأنه كان يذكر ما يقوله النبي ﷺ ، فخاف جدًّا لما نزلت هذه الآية ، ولزم بيته ، فافتقده النبي ﷺ ، فقال رجل : يا رسول اللَّه أنا أعلم لك علمه . فأتاه فوجده جالسًا في بيته منكسًا رأسه ، فقال : له ما شأنك ؟ فقال : شرٌّ ، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ ، فقد حبط عمله ، وهو من أهل النار . فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا ، فقال النبي ﷺ : « اذهبْ إليهِ فقلْ لهُ : إنكَ لستَ منْ أهلِ النارِ ، ولكنكَ منْ أهلِ الجنةِ »[(٢)] .

كذلك عُكَّاشة بن مِحْصَنٍ الأسدي رضي الله عنه المعروف الذي جاء خبره في حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب[(٣)] ، وبلال رضي الله عنه حيث قال له النبي ﷺ : « يا بلالُ حدثني بأرجَى عملٍ عملتهُ في الإسلامِ ، فإنِّي سمعتُ دفَّ نعليكَ بين يديَّ في الجنةِ »[(٤)] ، إلى غير أولئك ، فالمبشرون بالجنة من الصحابة كثير ، لكن لا نشهد للمعين إلا إذا شهد له رسول اللَّه ﷺ .

(ويقرونَ بما تواترَ بِهِ النقلُ عنْ أميرِ المؤمنينَ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه وغيرِهِ منْ أنَّ خيرَ هذهِ بعدَ نبيها : أبو بكرٍ ، ثمَّ عمرُ) :

هذا تواتر به الحديث عن علي رضي الله عنه ، والنبي ﷺ أوصى كثيرًا بأبي بكر وعمر ، فمن ذلك قوله ﷺ : « اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر »[(٥)] ، وقد أمر أبا بكر أن يُصلي بالناس ، وكان أبو بكر وعمر وزيري رسولِ اللَّه ﷺ يصحبانه دائمًا ، وهما معه في حله وفي ترحاله ﷺ ، فكان علي رضي الله عنه يقول : « خيرُ هذهِ بعدَ نبيها : أبو بكرٍ ، ثمَّ عمرُ » .

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٤٩، ٤٦٥٠) ، والترمذي (٣٧٤٨) ، وابن ماجه (١٣٣) من حديث سعيد بن زيد . وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١١٠) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٤٦) ، ومسلم (١١٩/ ١٨٧، ١٨٨، ...) من حديث أنس بن مالك .

(٣) تقدم تخريجه .

(٤) أخرجه البخاري (١١٤٩) ، ومسلم (٢٤٥٨/١٠٨) من حديث أبي هريرة .

(٥) أخرجه الترمذي (٣٦٦٢، ٣٦٦٣، ٣٧٩٩) ، وابن ماجه (٩٧) من حديث حذيفة بن اليمان . وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٨٠) .

قال: (ويثلثونَ بعثمانَ ، ويربعونَ بعليٍّ ، رضيَ اللَّهُ عنهم) يعني : عامة أهل السنة وجمهور أهل السنة ، وقد حكى الإجماع على ذلك بعض أهل العلم ، لكن الصواب أن هذه المسألة ليس فيها إجماع ، فمن جهة الفضل خالف فيها من خالف ، وكان من أهل السنة من يفضل عليًا على عثمان مع إقرارهم بأن عثمان هو الأحق بالخلافة من علي ، فيقولون : أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ، لكن في مسألة الفضل خالف من خالف كما سيأتي بيانه إن شاء اللَّه تعالى .

قال أيوب السختياني وغيره : (من قدم عليًا على أبي بكر وعمر فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار) .
وهذه الكلمة صحيحة ودقيقة ؛ لأن المهاجرين والأنصار هم الذين قدموا أبا بكر ، وهم الذين قدموا عمر لإمامتهم في دينهم ودنياهم ، فالفضل الذي لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما به استحقا الخلافة ، فمن قدم عليًا على أبي بكر وعمر فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار ، يعني : نسبهم لشيء يُزرِي بهم ، وهو : أن يكون بينهم الفاضل ويقدموا المفضول ، وهذه حجة بينة واضحة .

ولما تناظر أيوب مع سفيان ، وكان سفيان الثوري يُقدم عليًا على عثمان قال له أيوب هذه الكلمة : (من قدم عليًا على أبي بكر وعمر فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار) ، فرجع سفيان عن تقديم علي على عثمان ، وقال بقول أيوب ، وهو قول جمهور أهل السنة ؛ لأن تقديمهم لعثمان في الخلافة يقتضي أنه أفضل من علي ، وقد كان علي رضي الله عنه بينهم ، فكيف يقدمون المفضول ويتركون الفاضل ؟

قوله : (وكما أجمعَ الصحابةُ على تقديمِ عثمانَ في البيعةِ ، معَ أنَّ بعضَ أهلِ السنةِ كانوا قدِ اختلفوا في عثمانَ وعليٍّ رضيَ اللَّهُ عنهما ،...) :

هذه مسألة التفضيل بين عثمان وعلي ، هل عثمان أفضل أم علي أفضل ؟ الأقوال فيها لأهل السنة ثلاثة :

القول الأول : قول عامة أهل السنة وجمهور أهل السنة على أن عليًا مفضول بالنسبة إلى عثمان ، وأن عثمان أفضل من علي ؛ لأن عثمان مُقَدَّم في الأحاديث ، ولأنه رضي الله عنه وأرضاه - اختاره الصحابة جميعًا للخلافة مع وجود علي ، وقد ترك عمر رضي الله عنه أمر الخلافة بعده في ستة نفر ، وهم الذين مات رسول اللَّه ﷺ وهو راض عنهم ، وفيهم عثمان ، وفيهم علي ، فأجمع الناس على عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فاختلف أهل السنة ، فعامتهم على تقديم عثمان على علي .

القول الثاني : وهو قول قوم من أهل الكوفة وغيرها ، وهم قلة ، قالوا بتفضيل علي على عثمان ، وهذا في مسألة التفضيل ليس في مسألة الخلافة ، أما الخلافة فهم مُجمِعُون على أن عثمان أحق بالخلافة من علي ، فمسألة الخلافة لا اختلاف بينهم فيها ، أما مسألة التفضيل فإن منهم كسفيان الثوري وأبي حنيفة وجماعة ممن كان في الكوفة كانوا يُفَضِّلونَ عليًا على عثمان ، ورجع منهم طائفة عن هذا القول .

القول الثالث : هو قول من توقف فيهم ، فلا يقول : إن عثمان أفضل ، ولا يقول : إن عليًا أفضل ؛

وذلك لتعارض الأدلة والفضل في حق هذا وهذا ، وممن اختار هذا القول الإمام مالك رحمه الله ؛ كما هو مذكور في المدونة وفي غيرها .

والصواب من هذه الأقوال : أن عثمان رضي الله عنه أفضل من علي رضي الله عنه ، وأن عليًا يليه في الفضيلة ، وأن ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة ؛ لأن الصحابة لم يقدموا في الخلافة إلا من هو أفضل ، وعلي أجّلوه وقدموا عثمان فهو أفضل من علي .

قوله : (لكنِ استقرَّ أمرُ أهلِ السنةِ على تقديمِ عثمانَ على عليٍّ) :

يعني : بعد ذهاب تلك الطائفة في الكوفة الذين يقال لهم : شيعة علي ؛ لأنهم كانوا يقدمون عليًا على عثمان ، لما ذهب أولئك مع الزمن في القرن الثالث الهجري استقر الأمر على أن ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة .

قوله : (وإنْ كانتْ هذه المسألةُ - مسألةُ عثمانَ وعليٍّ - ليستْ منَ الأصولِ) :

وهذا هو الصحيح ؛ لأن الأصل هو ما يتبعه اعتقاد ، ومسألة عثمان وعلي إنما هي في الفضل وليست في الخلافة ، لا ينبني عليها تضليل الطائفة الأخرى ، ولا ينبني عليها أن من قدم عثمان على علي في الخلافة أنه مخطئ ، وإنما اختاروا في الفضل أن هذا أفضل .

وإذا تأملت الأمر في الحقيقة فإن مسألة الفضل في أصلها هي عند الله ﷻ ، هو الذي يعلم سبحانه هذا أفضل أم هذا أفضل ، ولكن لما قدَّمَ الصحابة رضي الله عنهم عثمان على علي ؛ فإننا نأخذ بهذا الأصل وهو أنهم لم يقدموا لإمامتهم في دينهم ودنياهم إلا من هو أفضل .

فهذا الأصل وهو إجماع الصحابة على بيعة عثمان ، وعلى تقديمه على علي يجعل ذلك الأمر الخفي - وهو أن هذا أفضل - الذي لم يرد فيه نص بخصوصه ؛ فإنه يجعل الأمر على أن عثمان هو الأفضل ، وأن عليًا بالنسبة إلى عثمان مفضول .

قال : (مسألةُ عثمانَ وعليٍّ ليستْ مِنَ الأصولِ) ؛ لأن الأدلة فيها ليست واضحة في تفضيل عثمان على علي ، والتفضيل كان مستندًا إلى مسألة الخلافة ؛ ولهذا كانت ليست من الأصول . والذين فضلوا عليًا على عثمان يُقِرُّون بالفضل لعثمان بالخلافة وأنه أحق بها ؛ فلذلك لم تكن من مسائل الأصول التي يختلف فيها أهل السنة عن غيرهم من الفرق ، فإنما الخلاف بينهم في مسألة الفضل لما جاء في حق عثمان من الأحاديث ، وفي حق علي من الأحاديث .

ومسائل التفضيل دائمًا يكون فيها اختلاف ، إذا جاء في حق صحابيين فضلٌ ، فإن من جاء إلى التفضيل هل هذا أفضل أم هذا ؟ لابد أن يحصل خلاف ؛ لأن أحد القائلين في هذه المسألة لابد أن ينظر إلى بعض الخصال فيُفضِّل من أجلها ، ويأتي آخر إلى بعض الخصال فيُفضِّل من أجلها ، فيحصل الخلاف كما سيأتي - إن شاء الله تعالى - عند الكلام على مسألة المفاضلة بين خديجة وعائشة رضي الله عنهما .

قال : (لكنِ التي يضللُ فيها مسألةُ الخلافةِ) ، ومسألة الخلافة بحمد اللَّه لا اختلاف بين أهل السنة فيها ، فأهل السنة مجمعون على أن الأحق بالخلافة عثمان ثم علي ؛ لهذا قال بعدها : (وذلكَ أنهمْ يؤمنونَ أنَّ الخليفةَ بعدَ رسولِ اللَّهِ ﷺ : أبو بكرٍ ، وعمرُ ، ثمَّ عثمانُ ، ثمَّ عليٌّ ، ومنْ طعنَ في خلافةِ أحدٍ منْ هؤلاءِ فهوَ أضلُّ منْ حِمارِ أهلِهِ) ، يعني : أنه بلغ في الضلال مبلغًا ألحقه بأبلد الحيوانات وهو الحمار ؛ وذلك لأن مسألة الخلافة مسألة ظاهرة بينة ، أجمع الصحابة على أبي بكر ، وأجمع الصحابة بعد أبي بكر على عمر ، وأجمع الصحابة بعد عمر على عثمان ، وأجمع الصحابة بعد عثمان على علي ، فمسألة الخلافة ظاهرة لهؤلاء ، ولا يجوز لأحد أن يطعن في خلافة أحد من هؤلاء .

وأبو بكر رضي الله عنه اختلف أهل العلم هل ولي الخلافة بعهد من رسول اللَّه ﷺ أم ولي الخلافة باتفاق الصحابة وإجماعهم عليه ؟ أو هي بيعة الصحابة له ؟

من أهل العلم من قال : بل هو بعهد ونص ؛ لأن النبي ﷺ قال : « اقتدوا باللذينِ منْ بعدِي أبي بكرٍ وعمرَ »[1] . وقال أيضًا للمرأة التي أتته تسأله في شيء من قضاء دينها ، وقالت : فإن لم أجدك ؟ - كأنها تعني الوفاة - فقال : « إنْ لمْ تجدينِي فأتِي أبَا بكرٍ »[2] . وكذلك قوله ﷺ : « مُرُوا أبَا بكرٍ فليصلِّ بالناسِ »[3] ، فالنبي ﷺ في أثناء مرضه رضي أبا بكر لهذه الأمة إماما لها في صلاتها التي هي أعظم أركان الإسلام ، فكان ذلك عهدًا منه ﷺ لأبي بكر .

وقال طائفة : بل هذه محتملة ، ولو كان هذا العهد واضحًا لما اختلف الصحابة - رضوان اللَّه عليهم - بعد وفاة النبي ﷺ في مسألة من يلي الخلافة ، فقد تنازعوا ، ولو كانت المسألة بعهد لما تنازعوا . فعلى هذا القول كانت ببيعة واجتماع وليست بعهد .

وهذا هو القول الثاني رجحه طائفة أيضًا من المحققين من أهل العلم .

والصواب في ذلك عندي أن هذه المسألة اجتمع فيها هذا وهذا ، اجتمع فيها العهد واجتمعت فيها البيعة والاجتماع ، فالعهد النصوص فيه كثيرة ، والنبي ﷺ أوصى بأبي بكر ، وأمر بأن يؤمهم في الصلاة ، وأمر بالاقتداء به ، بل قال : « اقتدوا باللذينِ منْ بعدِي أبي بكرٍ وعمرَ » . فما معنى قوله : « منْ بعدِي » إلا مسألة الخلافة ؛ ولهذا نقول : اجتمع في حق أبي بكر العهد والاجتماع ، وهذا العهد الذي عهده النبي ﷺ في حق أبي بكر ليس هو الذي به صار خليفة .

ومن قال من أهل العلم : إنه بالاجتماع . عنى أنه لم يعهد النبي ﷺ عهدًا صار به أبو بكر خليفة .

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٥٩ ، ٧٢٢٠ ، ٧٣٦٠) ، ومسلم (٢٣٨٦/١٠) من حديث جبير بن مطعم .

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٤ ، ٧٣٠٣) ، ومسلم (٤١٨/ ٩٤ ، ٩٥) ، والترمذي (٣٦٧٢) ، وابن ماجه (١٢٣٢) ، والنسائي (٨٣٢) من حديث عائشة .

وهذا صحيح ، فإن عهد النبي ﷺ لأبي بكر ليس هو عهد الخلافة كما عهد أبو بكر لعمر ، وإنما هو عهد وصية بأن يكون أبو بكر بعده في إمامة الناس ، وليس بعهد مكتوب ، بل كان يريد ﷺ أن يكتب عهدًا فتركه لما تماروا عنده ، وكان الذي نهى عن الكتابة عمر رضي الله عنه ؛ كما ثبت ذلك في « الصحيح » وغيره من « السنن » و« المسانيد »[1] .

وعمر رضي الله عنه كانت خلافته بعهد أبي بكر ؛ لأن أبا بكر عهد لعمر بعده بالخلافة ، وعثمان كانت خلافته شورى ، ببيعة له من أهل الحل والعقد من الستة وغيرهم ، وهم الستة الذين ترك عمر الأمر فيهم ، وقال : « تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وهوَ عنهمْ راضٍ »[2] ، فكانت خلافة عثمان ببيعة واجتماع .

وخلافة علي رضي الله عنه بعد ذلك ببيعة أهل المدينة واجتماعهم عليه ، وولاية معاوية بن أبي سفيان لم تكن مستقيمة في عهد علي ، ولا في عهد الحسن بن علي بعده ، وإنما كان في عهد علي باغيًا على علي ، رضي الله عنهم أجمعين .

ومعاوية لم يبايع عليًا ، ولم يقر له بالولاية حتى يُسَلِّم قتلة عثمان ؛ وذلك لأن اللَّه جل جلاله قال : ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الإسراء: ٣٣] ، وولي عثمان الأقرب له كان معاوية ، فكان معاوية رضي الله عنه يطلب من علي أن يُسلم له قتلة عثمان حتى يقتص منهم ، وعلي رضي الله عنه كان لا يستطيع لاختلاف الأمر أن يسلم أولئك القتلة ؛ لأن الناس كانوا في هرج ومرج ، وكانت فتنة عظيمة في المدينة لم يكن معها علي مستطيعًا أن يُسلم القتلة لمعاوية ؛ لأن الأمر لم يستتب له بعد ، فأراد علي أن يتأخر أمر قتلة عثمان حتى يستتب الأمر له ، وحتى يقوى جانب الخلافة ، ثم بعد ذلك يقتص من قتلة عثمان ، ولكن معاوية بادره على ذلك وحصل ما حصل .

ولم تكن ولاية علي رضي الله عنه الخلافة مستقيمة ، وإنما كان فيها ما فيها من القتال والدماء ، وكان سبب ذلك الخوارج ؛ لأنهم هم الذين فتنوا المؤمنين وفرقوا بين صفوفهم . فالقتال الذي حصل - مثلًا - في وقعة الجمل المشهورة بين عائشة - رضي الله عنها - ومن معها ، وعلي رضي الله عنه ، الذي أثار القتال هم الخوارج ، فذهبوا إلى معسكر علي ونمّوا لهم بكلام ، وذهبوا إلى معسكر عائشة فنموا لهم بكلام ، وإلا فعائشة لم تأتِ للقتال ، وإنما أتت للصلح ولكي يعظموا أمر رسول اللَّه ﷺ بحضور زوجته التي يحبها ، والتي هي من العلم والفضل بما هو معلوم عند الفئتين ، لكن حرك الخوارج المقتلة بين الفئتين ، فالذين حركوا القتال بين الصحابة هم الخوارج .

ولما قُتِلَ علي ، قتله عبد الرحمن بن ملجم ، وهو رأس من رءوس الخوارج ، وقد كان قارئًا للقرآن عابدًا صالحًا تقيًا في عهد عمر رضي الله عنه ، فكتب عمر رضي الله عنه إلى عامله في مصر عمرو بن العاص فقال له :

(١) ينظر صحيح البخاري (١١٤) ، وصحيح مسلم (١٦٣٧/٢٠- ٢٢) من حديث ابن عباس .

(٢) أخرجه مسلم (٥٦٧/٧٨) من حديث معدان بن أبي طلحة .

إني مرسل إليك برجل آثرتك به على نفسي وهو عبد الرحمن بن ملجم ، اجعل له دارًا يعلم الناس فيها القرآن ، فلما وصل المكتوب إلى عمرو استأجر له دارًا ، فجعل يعلم الناس ، وكان من أكثر الناس عبادة ؛ ومن أكثر الناس صلاحًا في أول أمره ، حتى دخلته الفتنة بالقيام على عثمان رضي الله عنه ، ثم صار مع علي ، ثم كان آخر الأمر أن قتل سيد المسلمين في زمانه وأفضل مَنْ على الأرض في زمانه وهو علي رضي الله عنه وأرضاه ، فاقتص منه الحسن بن علي ، فقُتل عبد الرحمن بن ملجم بعد أيام من موت علي رضي الله عنه .

وبعد موت علي لم يستتب الأمر لمعاوية ، وإنما بايع الناسُ الحسنَ بن علي ، فاستمرت خلافته ستة أشهر ثم تنازل عن الخلافة لمعاوية ، فاجتمع الناس على معاوية في عام واحد وأربعين من الهجرة ؛ لأن عليًا كان قَتْلُه في رمضان ، ثم ستة أشهر من رمضان ولاية الحسن بن علي ، ثم تنازل بالخلافة في سنة واحد وأربعين لمعاوية ، فصار عام الجماعة .

سماه المسلمون عام الجماعة ، يعني : عام الاجتماع ، فبدأ عهد معاوية رضي الله عنه وكان عهد تغلُّب ، يعني : ولي الخلافة بالتغلب ، وكان ملكًا ، وهو أول ملوك المسلمين ، وخير ملوك المسلمين ؛ كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

فقد تحصل من هذا أن الخلفاء خمسة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي والحسن بن علي ؛ لأن الحسن بن علي إمامته منعقدة فقد ولي الخلافة بعد أبيه رضي الله عنهما ، لكن عامة العلماء لا يذكرون الحسن بن علي على أنه خليفة ؛ لأنه لم يحصل له زمان يقوم بمهام الخليفة ؛ ولهذا يقولون : الخلفاء أربعة ، وهم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، رضي الله عنهم أجمعين .

قوله : (ويُحبونَ أهلَ بيتِ رسولِ اللّهِ ﷺ ، ويتولَّونهُمْ ، ويحفظون فيهِمْ وصيةَ رسولِ اللّهِ ﷺ ، حيثُ قالَ يومَ غديرِ خُمٍّ : « أذكركُمُ اللّهَ في أهلِ بيتي »[1] . وقالَ أيضًا للعباسِ عمِّه - وقدِ اشتكى إليهِ أنَّ بعضَ قريشٍ يجفو بني هاشمٍ - فقالَ : « والذي نفسي بيدِهِ ؛ لا يؤمنونَ حتى يحبوكُمْ للّهِ ولقرابتي »[2] . وقالَ : « إنَّ اللّهَ اصطَفَى بني إسماعيلَ ، واصطفى من بني إسماعيلَ كِنانةَ ، واصطفى من كنانةَ قريشًا ، واصطفى من قريشٍ بني هاشمٍ ، واصطفاني من بني هاشمٍ »[3] ..) .

هذه صلة للكلام على أصل هذه المسألة ، وهي بيان أصل أهل السنة في اعتقادهم في أهل بيت النبي ﷺ وأزواجه وسائر الصحابة ؛ فإن من أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وسلامة ألسنتهم لصحابة رسول اللّه ﷺ جميعًا ؛ كما بين ذلك شيخ الإسلام رحمه الله في أول الكلام ، ولقول اللّه تعالى :

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٨/٣٦) من حديث زيد بن أرقم .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٥٨) من حديث الحارث بن عبد المطلب . وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٧٨٤) دون قوله : « عم الرجل .... » .

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٧٦/١) ، والترمذي (٣٦٠٥ ، ٣٦٠٦) من حديث واثلة بن الأسقع .

﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وبعد أن بيَّنَ معتقد أهل السنة في الصحابة، أو ما ألزموا أنفسهم به تجاه صحابة رسول الله ﷺ، بيَّنَ طريقة أهل السنة والجماعة مع آل بيت النبي ﷺ، وسبب ذكر آل البيت في العقيدة كسبب ذكر الصحابة في الاعتقاد؛ لأن مخالفة من خالف من أهل البدع في آل البيت كمخالفة من خالف من أهل البدع في صحابة رسول الله ﷺ، وذلك أن الذين غلوا في آل البيت قابلوا ذلك الغلو في الحب ببغض الصحابة، فحب الصحابة وحب آل البيت وجودًا وعدمًا، أو خلطًا بين هذا وذاك متلازم؛ لأن أول الفتن حصولًا ما حصل بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، فحصل به ذلك الاختلاف الذي تفرقت به الأمة إلى أصناف شتى:

فمن الناس من غلا في آل البيت وتبرأ من الصحابة، وهؤلاء هم الرافضة الشيعة الغلاة، ومن أصولهم في هذا الباب أنه لا ولاء إلا ببراءة، يعني: لا تولي لأهل البيت ولا محبة لآل النبي ﷺ إلا بالبراءة من أكثر صحابة رسول الله ﷺ، ويتبرءون منهم لأنهم يعتقدون أن الصحابة كفروا إلا قليلًا منهم، ويكرهون عدد العشرة؛ لأنه ذُكر فيه العشرة المبشرون بالجنة، ويتشاءمون ببعض الأعداد مما هو معروف عندهم في تفصيل الكلام على مللهم وآرائهم.

وأهل السنة والجماعة يخالفون هذا الأصل ويقولون: إن تولي آل البيت لا يتم إلا بتولي الصحابة، وإن تولي الصحابة ومحبتهم لا يتم إلا بتولي آل البيت، فتولي الصحابة وتولي آل البيت قرينان متلازمان، وجود أحدهما عند أهل السنة هو وجود الآخر، فلا يوجد من أهل السنة من يتبرأ من أحد من هذين الصنفين؛ ولذلك تجد في مباحث الاعتقاد أن مبحث آل البيت متصل بمبحث الصحابة؛ لأن سبب التفرق في مسألة الصحابة هو سبب التفرق في مسألة محبة آل البيت.

وبعد أن ذكر شيخ الإسلام رحمه الله القول في الصحابة قال: (ويحبُّونَ) يعني: أهل السنة والجماعة (يحبونَ أهلَ بيتِ رسولِ اللهِ ﷺ، ويتولَّونَهُمْ) المحبة التي قامت في قلوب أهل السنة والجماعة لأهل البيت هي المودة الخاصة، وهي مودة بسبب رسول الله ﷺ؛ كما جاء في الحديث الذي ذكره شيخ الإسلام بعد ذلك حيث قال النبي ﷺ للعباس: «والذي نفسي بيدهِ لا يؤمنونَ حتى يحبوكمْ للهِ ولقرابتي». فمحبة أهل السنة لآل البيت محبة في الله ولله ولرسول الله ﷺ، وهذه المحبة لها مقتضيات عند أهل السنة، فتقتضي:

أولًا: أن يُعتقد أنهم أفضل الناس نسبًا، فأفضل هذه الأمة نسبًا هم آل بيت رسول الله ﷺ، فمن الجاهلية أن تُقدَّم قبيلة أو فئة أو نسب على نسب الآل؛ كمن يعتقد أن بعض القبائل أفضل من الأشراف أو من الآل أو نحو ذلك، هذه جاهلية، فأول درجات المحبة أن تعتقد أن نسبهم هو أفضل الأنساب،

فهم خير بيت موجود اليوم على ظهر الأرض إذا صح نسبهم إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فخير بيت من جهة النسب على الأرض هم آل بيت النبي ﷺ .

ثانيًا : أن يُكرموا ويقدموا في المجالس ؛ لأجل أنهم من آل رسول اللَّه ﷺ ، وإذا كان العالم منهم مع علماء فإنه يُقدم على من شاركه في العلم ؛ لأجل أن معه مزية النسب ، وفضيلة أنه من آل رسول اللَّه ﷺ ، وإذا كان العامي مع أمثاله فإنه يُقدم عليهم ؛ لأنه فاقهم لكونه من آل بيت رسول اللَّه ﷺ .

ثالثًا : من مقتضيات هذه المحبة أن آل النبي ﷺ أحق أن يُكرموا ، وأن يُعانوا ، وأن يُدافع عنهم ، وأن يُنصروا ، وأن تُحفظ أعراضهم ، ولهم حق في الفيء بعامة ، والصدقة -يعني : الزكاة المفروضة- حرام عليهم ، فإذا كان آل بيت النبي ﷺ محتاجين إلى بعض المال فحق على من يحبهم أن يعينهم ؛ لأنهم إن منعوا الفيء فإنهم لابد أن يُفْتَنوا .

وقد اختلف أهل العلم هل لآل البيت أن يأخذوا من الزكاة إذا مُنِعوا الفيء ؟ فلم يجزه الأكثرون ، وأجازه شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من أهل العلم ، وهو الأصوب في هذا .

فإذا مُنعوا الفيء ولم يكن ثَم من يعطيهم من الزكاة ؛ فإن الناس يعينونهم ولابد ؛ لأنهم من آل بيت النبي ﷺ ، وهذا معنى الموالاة والمحبة لهم .

وقول النبي ﷺ : « أُذكرُكُم اللَّهَ في أهلِ بيتي » يعني : أذكركم وصية اللَّه في أهل بيتي ، وقد قال ﷻ : ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى : ٢٣] ، والمودة في القربى يعني : أن تصلوني لأجل ما بيني وبينكم من القرابة ، والمخاطب بذلك قريش وآل النبي ﷺ مشتركون في هذا الأمر .

قال : (ويحبونَ أهلَ بيتِ رسولِ اللَّهِ ﷺ) ، (أهل) و(آل) متقاربة ، لكن (آل) لا تطلق إلا على البيوت العظيمة المشتهرة ، إذا اشتهرت بعلم أو رياسة أو فاقت الناس ، يقال : (آل فلان) . أما (أهل) فهي أعم .

و (أهلُ بيتِ رسولِ اللَّهِ ﷺ) هم آله ؛ لأن الأهل ليس معناه الزوجات فحسب ، وإنما كلمة « أهل » في اللغة وفي الشرع تُطلق على الزوج ، وعلى الأبناء ، وعلى الإخوان ، ونحو ذلك ، ومن أدلة ذلك قول اللَّه ﷻ في قصة نوح : ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود : ٤٥] ، وقوله في قصة موسى : ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى﴾ [طه : ٢٩ ، ٣٠] ، فكلمة (آل) و(أهل) هذه وهذه تتناوب من حيث المعنى ، وشيخ الإسلام استعمل لفظ (أهل) لأنه أعم في هذا السياق .

وآل النبي ﷺ لها إطلاقان :

الأول : أن يُراد به خصوص أهله ؛ ولهذا فإن شيخ الإسلام هنا عبر بلفظ الأهل لأجل هذا الإطلاق ، وهؤلاء يُراد بهم الخمسة البيوت المشهورة بقرابة النبي ﷺ ؛ كما جاء ذلك في « صحيح مسلم » عن

زيد بن أرقم(١)، وهؤلاء هم : آل علي ، وآل عقيل ، وآل جعفر ، وآل العباس ، وبنو الحارث بن عبد المطلب .

هؤلاء هم الذين تَحْرُم عليهم الصدقة - يعني : الزكاة - فهم مُنِعُوها لأنهم طاهرون ، والزكاة أوساخ الناس ؛ كما قال ﷺ : « إنَّ الصدقةَ لا تنبغي لآلِ مُحَمَّدٍ ، إنما هيَ أوساخُ النَّاسِ »(٢) ، فهؤلاء الأربعة البيوت التي جاءت في « صحيح مسلم » ، وزاد عليها العلماء بني الحارث بن عبد المطلب ، هؤلاء هم الذين تَحْرُم عليهم الصدقة ، وهم آل النبي ﷺ .

وهؤلاء منهم أهل الكساء الذين أدار عليهم النبي ﷺ كساءه وخصهم بذلك ، وفيهم نزل قول الله ﷻ : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب : ٣٣] . وقد أدار النبي ﷺ الكساء على طائفة من أهل البيت ، وهم : علي ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين ، فهؤلاء لهم الحق الأخص ، وجميع آل النبي ﷺ لهم حق ، وهؤلاء لهم حق أخص .

ومن الآل أيضًا : زوجات النبي ﷺ .

فإذن آل النبي ﷺ يشمل ثلاث فئات ، وهي :

* الخمس البطون السابقة الذكر .
* علي وفاطمة والحسن والحسين .
* زوجات النبي ﷺ .

الثاني من إطلاقات الآل : أن آل النبي ﷺ تُطلق إطلاقًا عامًّا ليس هو المراد في هذا الموطن ، وهذا الإطلاق يُراد به الأتقياء الذين تبعوا النبي ﷺ على دينه ورسالته وسننه ، وهذا اختيار ابن القيم رحمه الله في قول المصلي : « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد » . يعني : على أتباع محمد « كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم » يعني : على إبراهيم وعلى أتباع إبراهيم .

قال : (ويتولَّوْنَهُمْ ، ويحفظونَ فيهمْ وصيةَ رسولِ اللهِ ﷺ حيثُ قالَ يومَ غديرِ خمٍّ : « أُذَكِّرُكُمُ اللهَ في أهلِ بيتي ») يعني : أذكركم أمر الله في أهل بيتي ، وأذكركم وصية الله في أهل بيتي ، وأذكركم تقوى الله بأهل بيتي ، فتذكر الله في أهل بيته هو تذكر الشرع الذي جاء من عند الله في آل بيت النبي ﷺ ، وقد جاء في إكرام آل بيت النبي ﷺ وفي محبتهم وتوليهم أحاديث كثيرة .

قوله : (حيثُ قالَ يومَ غديرِ خمٍّ) ، (خُم) مكان فيه ماء بين مكة والمدينة ، ولما رجع النبي ﷺ من حجة الوداع في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة وقف عند هذا الغدير ، وخطب الناس في ذلك المكان ، حيث ذكّر الناس ووعظهم وحثهم على التقوى ، ثم أمرهم بالاستمساك بحبل الله ، وهو كتاب

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) أخرجه مسلم (١٠٧٢/١٦٧) ، وأبو داود (٢٩٨٥) ، والنسائي (٢٦٠٨) من حديث المطلب بن ربيعة .

اللّه ﷻ ، وقال ﷺ : « أيها النّاسُ ، فإنّمَا أنا بشرٌ يوشكُ أنْ يأتي رسولُ ربِّي فأجيبَ ، وأنا تاركٌ فيكمْ ثقلينِ أولهمَا كتابُ اللّهِ فيهِ الهدى والنورُ ، فخذوا بكتابِ اللّهِ واستمسكُوا بهِ ...» . ثم قال في آخر كلامه : « وأهلَ بيتي ، أذكركمُ اللّه في أهلِ بيتي »[1] .

وقد رُوي هذا الحديث بالجمع ، قال : « كتابُ اللّهِ حبلٌ ممدودٌ منَ السماءِ إلى الأرضِ ، وعترتي أهلُ بيتي » . وهذا من السياق بالمعنى كما هي رواية الترمذي[2] ، وهذا الحديث - حديث غدير خم - في « صحيح مسلم » من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه ، وهو حديث مشهور معروف ، والروايات فيه مختلفة ، لكن في رواية الترمذي وغيره جاءت هذه الزيادة : « ولنْ يتفرقَا حتى يردَا عليَّ الحوضَ »[3] . ففهم البعض من ذلك أن هذين اللذين لن يتفرقا كتاب اللّه ﷻ وأهل بيت النبي ﷺ .

وهذا فهم خاطئ ؛ لأن هذا الحديث حصل فيه اختصار في الروايات ، وزيد بن أرقم رضي الله عنه ذكر أنه اختصر الكلام - كما في « صحيح مسلم » - وأنه لم يسقه بكماله لشيء حصل له أو لعدم ضبطه لذلك ، والرواية التي في « صحيح مسلم » واضحة ، وفي غيرها جاء فيها هذا اللفظ : « ولنْ يتفرقَا حتَّى يردَا عليَّ الحوضَ » . وقد قال عدد من المحققين من أهل الحديث : إن هذا اللفظ سيق بالمعنى . وبعضهم جعله من الشاذ وأن هذه اللفظة غير محفوظة ، وقد وردت رواية أخرى عند الحاكم وعند غيره ، وفيها أن النبي ﷺ فقال : « إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب اللّه وسنتي ، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض » ، فهو ﷺ أوصى بالاستمساك بكتاب اللّه وبسنته ﷺ ، فلما فرغ من الوصية بالكتاب والسنة قال : « أذكركمُ اللّهَ في أهلِ بيتي » .

فإذن ليس المراد بقوله : « تركت فيكم شيئين » ، وفي بعض الألفاظ : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا » . ليس المراد بأحد هذين الأمرين أهل بيت النبي ﷺ ، بل هما الكتاب والسنة ، ومن جعل أحد هذين الأمرين آل بيت النبي ﷺ أو العترة فقد أدخل شيئًا في شيء ، وهذا الحديث روي بالمعنى كما فهم الراوي ، وليس هذا بصحيح كما حققه الأئمة من أهل الحديث ومن أئمة السنة في العقيدة .

قوله : (ويتولونَ أزواجَ رسولِ اللّهِ ﷺ أمهاتِ المؤمنينَ ، ويؤمنونَ بأنهنَّ أزواجهُ في الآخرةِ ، خصوصًا خديجةَ - رضيَ اللّهُ عنها - أمَّ أكثرِ أولادهِ ،...) .

(ويتولونَ أزواجَ رسولِ اللّهِ ﷺ) أزواج النبي ﷺ هن زوجاته ، والأفصح أن يُقال للمرأة : زوج الرجل ، ويجوز أن يُقال : زوجة . على قلة ؛ كما جاء ذلك في وصف عائشة في « الصحيح » : « إنهَا

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٨٨) من حديث زيد بن أرقم . وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٩٨٠) .

(٣) أخرجه البزار (٨٩٩٣) ، والدارقطني ٤/ ٢٤٥ ، والحاكم ١/ ٩٣ ، والبيهقي في الكبرى ١٠/ ١١٤ من حديث أبي هريرة . وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٤٨) .

زوجةُ نبيكمْ ﷺ في الدنيَا والآخرةِ »[1] .

و (أزواج) جمع زوج ، والزوجات جمع زوجة ، فقوله : (ويتولونَ أزواجَ رسولِ اللَّهِ ﷺ) يعني : زوجاته ، والتعبير بالأزواج ، والمفرد زوج أفصح .

قال : (أمهاتِ المؤمنينَ) ، النبي ﷺ تزوج عددًا من النساء ، وتسرى بمارية القبطية التي أهداها له المقوقس عظيم مصر ، وكانت زوجاته تسعًا حين توفي رسول اللَّه ﷺ ، وأول زوجاته خديجة - رضي الله عنها - ولم يتزوج عليها غيرها ، وكانت أعظم النساء عنده ﷺ ، وأول زوجاته لحوقًا به زينب بنت جحش حيث قال ﷺ : « أسرعكنَّ لحاقًا بي أطولكنَّ يدًا »[2] . فكانت الأطول يدًا في الخير والصدقة والبذل زينب بنت جحش ، توفيت - رضي الله عنها - سنة عشرين من الهجرة ، أما عائشة فقد توفيت سنة سبع وخمسين ، وصلى عليها أبو هريرة رضي الله عنه .

وقوله : (أمهاتِ المؤمنينَ) ؛ لأن اللَّه ﷻ وصفهن بذلك في قوله : ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب : ٦] ، وهن أمهات المؤمنين من جهة المكانة لا من جهة المحرمية ، فلا يحل لأحد أن يتزوج امرأة رسول اللَّه ﷺ بعده ، والناس ليسوا محارم لزوجاته ﷺ ، بل هن أجنبيات عن الأمة .

إذن هن من جهة الحرمة مُحرَّمات ، أما من جهة المحرمية فليس الرجال محارم لزوجات النبي ﷺ .

وهذه مرتبة بين المراتب ، فهناك من النساء من هن محرمات ويكون من حرمت عليه المرأة محرمًا لها ، وهناك من النساء من هن محرمات ولا يكون الرجل محرمًا لها مع أنها محرمة عليه ، وهناك من النساء من هي محرمة ويكون من حرمت عليه محرمًا لها ، لكن لا يُستحسن أن يكون خاليًا بها أو محرمًا لها في سفر ، ونحو ذلك على ما هو معلوم من تفاصيل ذلك في كتاب النكاح .

قال : (ويؤمنونَ بأنهنَّ أزواجُهُ في الآخرةِ) ؛ ذلك لأن أزواج النبي ﷺ في الدنيا هن زوجاته في الآخرة ؛ كما ثبت ذلك في الحديث[3] .

قال : (خصوصًا خديجةَ) ، خديجة - رضي الله عنها - هي أول زوجات النبي ﷺ ، وهي أفضل زوجاته ﷺ ، وأعظمهن نصرة له ، وهي أول الناس إسلامًا وإيمانًا بالنبيِّ ﷺ .

قال شيخ الإسلام في وصف خديجة : (أمَّ أكثرِ أولادِهِ) يعني : باستثناء إبراهيم ؛ فإنه كان من سريته مارية القبطية ، وأولاد النبي ﷺ الذكور والإناث كانوا من خديجة ، وروي أن عائشة حملت

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٠٠) من حديث عبد اللَّه بن زياد الأسدي ، و(٧١٠١) من حديث أبي وائل .

(٢) أخرجه البخاري (١٤٢٠) ، ومسلم (٢٤٥٢/١٠١) ، والنسائي (٢٥٤٠) من حديث عائشة .

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٧٦٢) ، والحاكم ٣/١٣٧ من حديث عبد اللَّه بن أبي أوفى . وضعفه الألباني في الضعيفة (٣٠٤٠) .

وأسقطت ، لكن هذا ليس بصحيح ؛ فإن زوجات النبي ﷺ ما حمل منهن إلا خديجة ، ومارية سريته .

وقال أيضًا في وصف خديجة : (وأولَ منْ آمنَ بهِ وعاضَدهُ على أمرِه ، وكانَ لها منهُ المنزلةُ العاليةُ) .

ثم قال : (والصديقةَ بنتَ الصديقِ رضيَ اللَّهُ عنها) ، يعني : وأخص الصديقة بنت الصديق (التي قالَ فيها النبيُّ ﷺ : « فضلُ عائشةَ على النِّساءِ كفضلِ الثريدِ على سائرِ الطعامِ ») .

ذكر هاتين الزوجتين - خديجة وعائشة - لأنهما أعظم زوجاته وأحب زوجاته إليه ، وكانت عائشة كثيرًا ما تغار إذا ذكر النبي ﷺ خديجة ، ولما توفيت خديجة أُري النبي ﷺ عائشة في المنام ، أنها زوجته ﷺ ، فكانت زوجته ﷺ .

واختلف أهل العلم في خديجة وعائشة أيهما أفضل ؟ فمنهم من فضل خديجة لما جاء في فضلها من الأحاديث الكثيرة ، ولأن النبي ﷺ وصفها بأنها كملت ، وهي التي ناصرت النبي ﷺ وساندته وأيدته ، وبذلت له ﷺ مالها ، وكانت له ردءًا ، ولها من المقامات في أول الأمر ما ليس لعائشة .

ومنهم من فضل عائشة وقال : عائشة أفضل ؛ لأن النبي ﷺ قال : « فضلُ عائشةَ على النِّساءِ » ، والنساء يدخل فيهن خديجة ، وقالوا أيضًا : عائشة رضي الله عنها نفعت الأمة جميعًا بما روت من الأحاديث ، وما حفظت من سنة النبي ﷺ ، وبما بينت للأمة من الأحكام ، حتى إن الصحابة - رضوان اللَّه عليهم - كانوا يرجعون إلى عائشة إذا اختلفوا ، واستدركت عائشة على عدد من الصحابة في الأحكام ، وصنف في ذلك بعض أهل العلم كتبا منها : كتاب الزركشي « الإصابة فيما استدركته عائشة على الصحابة » ، فقالوا : عائشة أفضل لما لها من المحبة ، ولما لها من العلم ، ولتفضيل النبي ﷺ لها .

والذي عليه طائفة من المحققين - كشيخ الإسلام ابن تيمية وغيره - أن هذا التفضيل ليس بوجيه ؛ لأن المسائل التي يختلف فيها أهل العلم من مسائل التفضيل إنما الحكم فيها للنص ، والنص لم يأت بتفضيل عائشة على خديجة ولا خديجة على عائشة مطلقًا ، وإنما ورد أن هذه مفضلة أو أن هذه أفضل ، وورد أن الأخرى مفضلة أو أنها أفضل ، فلهذا وجب أن يُنظر في جهات الفضل ، وأن يُتكلم في الفضل من جهة ما حصل ، لهذا قال شيخ الإسلام : إن التحقيق أن يُقال : إن خديجة رضي الله عنها في أول الإسلام كانت أفضل من عائشة ، وعائشة إذ ذاك صغيرة لا تحسن شيئًا ، وخديجة هي التي ناصرت النبي ﷺ وأيدته ، فهي أفضل من هذه الجهة في أول الإسلام ، ولما انتشر الإسلام كانت عائشة عند النبي ﷺ ، فحفظت عنه من السنن ومن أحواله في بيته ومن كلماته ومن أحكامه ما لم يكن عند خديجة ، وما لم تنقله الأمة عن خديجة ، فاستفادت الأمة من عائشة ما لم تستفده من خديجة ، فمن هذه الجهة تكون عائشة أفضل من خديجة ، وهذا كلام عدل ، وهو كالمتعين ؛ لأن هذه وهذه كلٌّ منهما لها فضل .

وهكذا ينبغي في سائر مسائل التفضيل ، سواء في المسائل التي وردت في العقيدة أم في غيرها ، فإن مسائل التفضيل يختلف فيها الناس ، إذا قيل : هذه المسائل أصح ، أو هذا الرجل أفضل ، أو هذا العالم

أعلم ، أو هذا أشجع ، أو هذا أقدر ، ونحو ذلك ، فإذا جاء أفعل التفضيل فإن الناس يختلفون في ذلك لزامًا ؛ لأن جهات التفضيل متعددة وليست واحدة ، فلابد أن يُختلف في التفضيل ، فإذا تكلم الناس في التفضيل بعدل وبحكمة لم يتبع ذلك الاختلاف تفرقًا ، وأما إذا تكلموا في التفضيل بنوع ابتداء فإنه ربما أحدث ذلك تفرقًا .

والذي ينبغي على طالب العلم أن يَستفيد من تحقيق شيخ الإسلام في مسألة التفضيل بين خديجة وعائشة في نظائر ذلك من التفضيل الذي له جهات ؛ فإنه يُفصِّل ، فيكون المقام مقام تفصيل ، فيقول : إذا نظرت إلى هذه الجهة فتقول : هذا العالم أفضل ، وإذا نظرت إلى جهة أخرى فتقول : هذا العالم أفضل ، وإذا نظرت إلى هذه الجهة تقول : هذا العالم أعلم وأزهد ، وإذا نظرت إلى هذه الجهة قلت : ذاك أعلم وأحكم ، وهكذا .

فإذا تعددت جهات التفضيل أو جهات الإعجاب ، فالتفصيل يكون هو العدل في الغالب إذا تنازع الناس في مسائل التفضيل ، وهو المستفاد من كلام شيخ الإسلام في مسألة التفضيل بين عائشة وخديجة رضي الله عنهما .

قوله : (ويتبرءونَ منْ طريقةِ الروافضِ الذينَ يبغضونَ الصحابةَ ويسبُّونهم ، وطريقةِ النواصبِ الذينَ يؤذونَ أهلَ البيتِ بقولٍ أو عملٍ) .

قال : (ويتبرءونَ منْ طريقةِ الروافضِ) ، يعني : أهل السنة والجماعة يعلنون البراءة ، وهي عدم الانتساب إلى طريقة الروافض وبغض طريقة الروافض ، فالبراءة تجمع البعد وإعلان عدم الانتساب وبغض ذلك الشيء .

والروافض جمع رافضي ، والرافضي اسم من قام به الرَّفْض ، والرفض عقيدة من العقائد ، وسمي أولئك الرافضة ؛ لأنهم رفضوا إمامة زيد بن علي ، وقد كان الشيعة يتولون آل البيت حتى حصلت مسألة سب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فتبرأ زيد بن علي ممن سب أبا بكر وعمر وممن لعنهما رضي الله عنهما وأرضاهما ، فقال زيد بن علي : أنا أتبرأ منكم وأرفضكم ، فقالوا : ونحن نرفض إمامتك ، فقال : أنتم الرافضة . فسموا رافضة لأنهم رفضوا إمامة زيد بن علي ، أو رفضوا الترضي وتولي أبي بكر وعمر .

ورافضي اسم فاعل الرِّفض بالكسر ، وأصله من رفض يرفض رفضا ، مصدر الرفض بالفتح ، لكن العلماء جعلوا للعقيدة هذه اسمًا غير المصدر قالوا : (هذا رِفْض ، وهؤلاء رافضة) ؛ كما قال الشافعي في بيته المشهور :

يا راكبًا قِف بالمُحَصَّبِ من مِنًى	واهتِف بقاعِدِ خَيفِها والناهِضِ
سَحَرًا إذا فاضَ الحجيجُ إلى مِنًى	فَيضًا كمُلتَطِمِ الفُراتِ الفائِضِ
إن كانَ رِفضًا حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ	فليشهَدِ الثقلانِ أنّي رافِضي

فالرواية له (رِفضا) بالكسر ؛ كما نبه على ذلك شارح القاموس الزَّبيدي وغيره من أهل العلم ، وهي التي تُسمع من أهل العلم ، خلافًا لمن قرأها بالفتح : (إن كان رَفضًا) .

والرافضة الكلام عليهم له تفصيلات وتطويلات ، لكن ما يخص هذا المسألة ذكره شيخ الإسلام بقوله : (الروافضِ الذينَ يبغضونَ الصحابةَ ويسبُّونهمْ) ، فالروافض جمعوا بين بغض الصحابة وبين لعنهم ؛ كما ذكرنا عنهم أنهم يقولون : (لا ولاء إلا ببراء) ، يعني : لا تولي لأهل البيت إلا بالبراءة من الصحابة ، فقد كفَّروا الصحابة إلا بضعة نفر ، فهم يكفرون أكثر الصحابة ويبغضونهم ويلعنونهم ، ويجعلون البغض والتكفير واللعن دينًا يتقربون به إلى اللَّه ، ويخصون الشيخين أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ، فالرافضة يلعنون أبا بكر وعمر وأكثر الصحابة .

قال : (وطريقة النواصبِ الذينَ يؤذونَ أهلَ البيتِ بقولٍ أوْ عملٍ) ، النواصب جمع ناصبي ، والناصبي اسم فاعل النصب ، والنصب هو مناصبة آل البيت العداء والعداوة ، وهذه حصلت في زمن الفتنة ؛ فإن منهم من تولى عليًا وغلا فيه ، وهؤلاء تدرج بهم الأمر حتى صاروا روافض ، ومنهم من تبرأ من علي والآل ، وهؤلاء سموا نواصب .

والنواصب في العموم ليسوا فرقة معروفة بعقائدها ، فليس ثَم فرقة من الفرق معروفة العقيدة لها تفاصيل الكلام في الأسماء والصفات ، وفي الإيمان ، وفي القدر .. إلى آخره ، يُقال لهم : النواصب . وإنما النواصب يُذكرون في هذا المقام لأجل أن لهم اعتقادًا في الصحابة رضوان اللَّه عليهم ، فهم كالخوارج عقيدة في الصحابة وفي آل البيت ، ولكن يشابهون الخوارج في آل البيت بالأخص ، فمن هذه الجهة يمكن أن يعتبروا من الخوارج ، يعني : أنهم ناصَبوا آل البيت العداء ، وجعلوا العداوة قائمة بينهم وبين آل البيت ، وكذلك نظرهم في الصحابة ليس كنظر الرافضة بل هو كنظر الخوارج .

أما أهل السنة فهم وسط في آل البيت بين طريقة الرافضة الذين غلوا في آل البيت ، وجعلوهم أئمة ومعبودين ، وعظموهم فوق ما يجب ، وبين طريقة النواصب الذين يسبونهم ويلعنونهم ، ويؤذون آل بيت النبي ﷺ ، فأهل السنة يتولون الصحابة ويتولون الآل ، ولا يتبرءون من الصحابة ولا يتبرءون من الآل ، فعندهم الحق واضح يجمع بين حب الصحب وحب الآل جميعًا .

قوله : (ويمسكونَ عمَّا شجرَ بينَ الصحابةِ ، ويقولونَ : إنَّ هذهِ الآثارَ المرويةَ في مساويهمْ منهَا مَا هوَ كذبٌ ، ومنها ما قد زيدَ فيهِ ونُقصَ وغُيِّرَ عن وجههِ ، والصحيحُ منهُ همْ فيهِ معذورونَ : إما مجتهدونَ مصيبونَ ، وإما مجتهدونَ مخطئونَ) .

هذه عقيدة أهل السنة أنهم (يمسكونَ عمَّا شجرَ بينَ الصحابةِ) ، يعني : يمسكون عما حصل بينهم ، وسمي الشجار شجارًا لأنه يحصل فيه اختلاف واشتباك ، وأصل التشاجر هو التداخل ؛ لذلك سميت الشجرة شجرة لتداخل فروعها ، والاختلاف الذي حصل بين الصحابة هو الذي شجر بينهم ،

يعني : ما حصل من الاختلاف في الأقوال أو في الأعمال بين صحابة رسول الله ﷺ .

قوله : (يمسكونَ) هذا يعم عند أهل السنة الإمساك باللفظ ، وبالقول ، وبما يدور في القلب ، وبالعمل ، وبالكتابة ، والحكاية ، والإسماع ، والإقراء ، كل ما كان من قبيل القول أو العمل في جميع التصرفات - كلامًا أو كتابة أو عملًا من الأعمال - كل هذا يمسك أهل السنة عن الخوض في الصحابة فيه ، فيمسكون عن التأليف فيما صدر بين الصحابة ، ويمسكون عن الإقراء ، ويمسكون عن الإسماع ، فلا يروون ما شجر بين الصحابة أصلًا ، وإنما عندهم في هذا أنهم يقولون عن الصحابة جميعًا : ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر : ١٠] ، وهذا يشمل جميع الصحابة رضوان الله عليهم .

قال : (ويقولونَ : إنَّ هذهِ الآثارَ المرويةَ في مساويهمْ منهَا مَا هوَ كذبٌ ، ومنهَا ما قدْ زيدَ فيهِ ونُقصَ وغُيِّرَ عن وجههِ) ، كذلك أهل السنة فيما روي من الآثار في كتب التاريخ حكاية لما شجر بين الصحابة ، وتفاصيل الأحوال ؛ فإنهم يقولون : إن هذه الآثار التي تروى وفيها مساوئ لهم هي على ثلاثة أقسام ، ذكر شيخ الإسلام هنا هذه الثلاثة الأقسام :

القسم الأول : (منهَا ما هوَ كذبٌ) ، وهذه معروفة في التواريخ ؛ كتاريخ ابن جرير وغيره ، فيها بعض المعايب لهم منها ما هو كذب قطعًا ، وهو ما روي عن طريق الكذابين وأشهرهم : (أبو مخنف) ، في تاريخ الطبري ، وهناك رسالة مختصة بذلك اسمها : (مرويات أبي مخنف في التاريخ) ، وكذلك (الكلبي) ؛ فإن هذين معروفان بالكذب ؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره .

القسم الثاني : (ومنها ما قدْ زيدَ فيهِ ونُقِصَ وغُيِّرَ عَنْ وجههِ) ، يعني : منها أشياء صحيحة حصلت منهم لكن زيد فيها أشياء ، إما من جهة فهم الراوي ، أو من جهة ظنه ، أو من جهة إيضاحه للحال ، وأخطأ في ذلك ، ومنها ما نُقِصَ منه ما يُفسِّر به الذي حصل ، فإذا كان كذلك فالزيادة والنقصان تغيير لتلك المرويات عن وجهها ، فبدل أن تكون تلك المرويات فيها عذر لهم صار بالزيادة والنقصان فيه ذكر شيء يُفهم على أنه من مساوئ الصحابة رضوان الله عليهم .

القسم الثالث : ما اجتهدوا فيه ، وهذا كثير ، وهو صحيح ، لكن لا يُمكن أن يُفهم على أنه مساوئهم ؛ لأنه مما اجتهدوا فيه .

فاعتقاد أهل السنة والجماعة في هذا : الصحيح أنه ما كان من قبيل المساوئ مما صح ؛ فإنهم إما مجتهدون فيه لهم فيه الصواب أو الخطأ الذي يؤجرون عليه ، وإما ما هو من الذنوب التي تكون من الكبائر أو الصغائر ، وهم في تلك الذنوب معفو عنهم مغفور لهم ؛ كما قال شيخ الإسلام : (والصحيحُ منهُ همْ فيهِ معذورونَ : إما مجتهدونَ مصيبونَ ، وإما مجتهدونَ مخطئونَ) ، ولم يذكر قسم الذنوب ، وسيأتي ذكره بعد ذلك .

وقوله : (هُمْ فيهِ معذورونَ) يعني به ما ليس من قبيل الذنوب ، إنما ما كان من قبيل الاجتهادات ، مثل ما حصل من القتال بين طلحة والزبير وعلي ، ومثل ما حصل من القتال بين معاوية وعلي ، ومثل قصة الحكمين ، ونحو ذلك مما يُذكر ، فما كان من ذلك هم مجتهدون فيه إما مصيبون مأجورون بأجرين وإما مخطئون .

وهذا الذي حصل من الخلاف بين الصحابة نعتقد أنهم ما دخلوا فيه إلا عن تأويل ؛ وأن قصدهم كان أن ينتصروا للحق وأن يبطلوا الباطل فاجتهدوا ، فمنهم من هو مصيب في اجتهاده ، ومنهم من كان مخطئًا في اجتهاده ، وليس فيهم من دخل في أمر وهو يعلم أنه ذنب ومعصية ودخل فيه عن عمد ، وإنما دخل فيه عن اجتهاد ، فإما أن يكون مصيبًا أو أن يكون مخطئًا .

ولما حصلت الفتنة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه ، وكانت الخلافة منعقدة لعلي رضي الله عنه ، ولكن معاوية رضي الله عنه لم يقر له بالخلافة ، وحصل ما حصل من المسير إلى معاوية رضي الله عنه وإلى العراق ، وأكثر الصحابة بايعوا عليًا وأقروا له بالخلافة ، وأنه هو الخليفة بعد عثمان رضي الله عنه ، لكن لم يسيروا معه في الاقتتال ، والذين اشتركوا في هذا الاقتتال لم يبلغوا ثلاثين من الصحابة ، والصحابة فيما حصل من الفتنة والاختلاف كانوا على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : منهم من رأى أن الصواب مع علي ، وأنه هو الخليفة ، وأنه محق في مسيره لكي يُذعن معاوية لبيعته ؛ لأنه يجب على الإمام ألا يُقر أحدًا لا يبايعه إذا بايعه أهل الحل والعقد ، فيجب عليه أن يلجئ هذا إلى بيعته ، فرأى جمع من الصحابة أن عليًا مصيب ، فساروا معه وأيدوه .

القسم الثاني : رأى عدد آخر أن معاوية كان مصيبًا فيما طالب به من دم عثمان ، وأن تسليم القتلة لولي عثمان واجب ، وأنه يجب الانتصار للمظلوم ، وأن عثمان رضي الله عنه كان مظلومًا بقتله ، ومعاوية هو وليه لأنه من آله ، والانتصار للمظلوم واجب ، وقد قال ﷻ : ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الإسراء : ٣٣] ، فجعل السلطان لولي المقتول ، فاجتهد بعض الصحابة وكانوا مع معاوية لأجل هذا الفهم ، واستدل ابن عباس وغيره بأن الأمر صائر إلى معاوية ، وأن الأمر سيكون إليه والسلطان سيكون بيده بعد حين بهذه الآية ، وهذا من جهة الإشارة التي يفهمها بعض من آتاه الله العلم وليست ظاهرة لكل أحد ؛ لأن الله ﷻ قال في ذلك : ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ ، ففُهِم من السلطان أنه السلطان العام ، ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء : ٣٣] . هذا الذي حصل من معاوية فإنه لما ولي وجعل الله له السلطان فإنه لم يسرف في القتل ، ونصره الله ﷻ بذلك ، والصحابة هم أفقه هذه الأمة ، وأبر هذه الأمة قلوبًا ، وأعمق هذه الأمة علومًا وأقلها تكلفا ، قوم صحبوا رسول الله ﷺ ، « ولمقام أحدهم ساعة مع رسول الله ﷺ خير من عبادة غيرهم الدهر »[1].

---

(١) تقدم تخريجه .

القسم الثالث : الذين بايعوا عليًا وأقروا بخلافته ، ولكنهم لم يصوبوا الاقتتال ، وعلي رضي الله عنه لم يُلزم الجميع بالسير معه ، فبقوا في المدينة ، ومنهم من بقي في غيرها وتركوا الدخول في هذه الفتنة ؛ كابن عمر ومن معه ، وهؤلاء هم الأكثرون . وهذه المسائل هي من قبيل التأريخ ، يعني : نختصر الكلام فيها ولا نفصل، قال : (والصحيحُ منهُ هم فيهِ معذورونَ : إما مجتهدونَ مصيبونَ ، وإمَّا مجتهدونَ مخطئونَ) ، فإن أصابوا فلهم أجران ، وإن أخطئوا فلهم أجر واحد .

قوله : (وهُمْ معَ ذلكَ لا يعتقدونَ أنَّ كلَّ واحدٍ منَ الصحابةِ معصومٌ عنْ كبائرِ الإثمِ وصغائرِهِ ؛ بل يجوزُ عليهمُ الذنوبُ في الجملةِ ..) .

أهل السنة لا يعتقدون عصمة الصحابة رضوان الله عليهم ، بل الصحابة تقع منهم الكبائر وتقع منهم الصغائر ، وقد حَدَّ النبي ﷺ عددا من الصحابة في وقته ، وحَدَّ الخلفاء بعده عددًا من الصحابة أيضًا في كبائر الذنوب ، فقد حصلت منهم الكبائر والصغائر ، لكن هذا من جهة التجويز على جملة الصحابة ، لكن لا يُقال : الصحابي فلان قد يقع منه كبيرة ، أو الصحابي فلان يمكن أن يفعل كبيرة بعينه ، وإنما نقول : في الجملة ، ولا نقول : إن الصحابة معصومون من الكبائر أو الصغائر ؛ بل ممكن أن تقع منهم الكبائر والصغائر ، لكن ما لم نعرف أنه وقعت منه الكبيرة فلا نقول : إنه ممكن أنه عمل كبيرة ؛ لأن هذا ينافي محبتهم وتوليهم واعتقاد أنهم خير هذه الأمة .

قال : (لا يعتقدونَ أنَّ كلَّ واحدٍ منَ الصحابةِ معصومٌ عنْ كبائرِ الإثمِ وصغائرِهِ) الكبائر والصغائر قسمان للإثم وللذنوب ، وتقسيم الذنوب إلى كبائر وصغائر هو الذي عليه جمهور أهل العلم ؛ لقول الله ﷻ : ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١] ، فاستدلوا بمفهوم وجود الكبائر على وجود الصغائر ، ولقوله تعالى : ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢] ، وهذا في الصغائر ، والأحاديث كثيرة في ذكر تكفير الصلاة لما دون الكبائر .. إلى غير ذلك ، وقد ذكرنا فيما سبق ضابط الكبيرة وضابط الصغيرة .

قال : (بل يجوزُ عليهمُ الذنوبُ في الجملةِ) ، الذنوب جائزة عليهم ، جائز أن يعملوا الكبائر وجائز أن يعملوا الصغائر ، وقوله : (في الجملةِ) يعني : ألا يُحدد جواز ذلك على واحد منهم ، فلا نقول : فلان من الصحابة يجوز عليه كذا وكذا ، بل نقول : الصحابة في المجموع يجوز عليهم الذنوب ، وهذه الذنوب التي تجوز عليهم (ولهم منَ السوابقِ والفضائلِ ما يوجبُ مغفرةَ ما يصدرُ منهمْ) .

قال : (ولهم منَ السوابقِ والفضائلِ) ، يعني : من الحسنات ؛ لأن الله ﷻ قال : ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤] ، وقد قال النبي ﷺ في حق عثمان رضي الله عنه لما جهز جيش العسرة : « ما ضرَّ عثمانَ ما عملَ بعدَ اليومِ »[1] ؛ كما هو في الترمذي وغيره ، وقد قال ﷺ أيضًا في الحديث

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٠١) من حديث عبد الرحمن بن سمرة . وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٩٢٠) .

المعروف الذي صححه أهل العلم: «إن اللّه اطلعَ إلى أهل بدر، فقال: اعملُوا ما شئتم فقدْ غفرتُ لكمْ»[(١)]، والأحاديث في ذلك كثيرة.

قال: (ما يُوجبُ مغفرةَ ما يصدرُ منهم) الوجوب هنا هو إيجاب من اللّه ﷻ على نفسه بفضله ووعده؛ لأن اللّه أوجب على نفسه وأحق على نفسه أنه ﷻ يغفر لمن أتى بالحسنات ولمن أتبع السيئة بالحسنة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، ومن تاب تاب اللّه عليه، هذا بوعده الصادق. وهذا الوعد الصادق بعض أهل العلم يُعبر عنه بالحرام، وبعضهم يعبر عنه بالإيجاب، وقد قال شيخ الإسلام في موضع آخر، حين كلامه على حديث أبي سعيد الخدري المعروف: «أسألكَ بحقِّ السائلينَ عليكَ، وأسألكَ بحقِّ ممشايَ هذا»[(٢)]، قال: (هو حق أحقه اللّه على نفسه باتفاق أهل العلم، وبإيجابه على نفسه في أحد أقوالهم).

إذن قوله: (ما يوجبُ مغفرةَ ما يصدرُ منهمْ)، يعني بالوجوب هنا وجوب الفضل، واللّه ﷻ يُحرم على نفسه ما شاء، ويوجب على نفسه ما يشاء، ليس العبد هو الذي يوجب، ولكن لما أخبر اللّه بوعده الصادق أن هذا سيكون، ووعده لا يتخلف، يكون إيجابا من اللّه ﷻ على نفسه، واللّه ﷻ قال: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، ورضاه عنهم معناه أنه يعفى عنهم سيئات ما قد يكونون عملوه.

قال: (حتى إنهمْ يغفرُ لهم منَ السيئاتِ ما لا يغفرُ لمنْ بعدهمْ؛ لأنَّ لهم منَ الحسناتِ التي تمحو السيئاتِ ما ليسَ لمنْ بعدهُمْ). وتكفير أو محو السيئات له أسباب عشرة معلومة دلت عليها النصوص، ثلاثة من العبد وهي:

* الحسنات الماحية.
* والتوبة.
* والاستغفار.

وثلاثة من المؤمنين وهي:

* الصلاة.
* والدعاء.
* والاستغفار.

وقد يكون بدل الصلاة الأعمال الصالحة التي يهديها المؤمنون لمن توفاه اللّه، والدعاء والاستغفار بينهما فرق، فالاستغفار بعض الدعاء، والدعاء أعم، والدعاء من المؤمنين يدخل فيه الشفاعة في الدنيا وفي الآخرة، ويدخل فيه أيضًا شفاعة النبي ﷺ.

وأربعة من اللّه جل جلاله هي:

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٧٧٨). وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (١٦٨).

* المصائب التي تحصل للعبد في الدنيا فإنها كفارات .
* ما يُعذب به العبد في القبر .
* ما يحصل للعبد من مصاعب في عرصات يوم القيامة .
* مغفرة اللّه للعبد بدون سبب .

هذه عشرة ذكرها بعض أهل العلمَ ، والمقصود من ذكرها أن هذه العشرة للصحابة منها أوفر النصيب ، فإذا كانت هذه لغير الصحابة متصورة فهي للصحابة من باب أولى ؛ ولهذا قال شيخ الإسلام : (لهم منَ الحسناتِ التي تمحو السيئاتِ ما ليسَ لمنْ بعدهُمْ) . فلهم من ذلك الحسنات التي عملوها : مقامهم ، جهادهم ، تقربهم إلى ربهم ﷻ ، كذلك الحسنات التي تصلهم من المؤمنين من وقت الصحابة إلى يومنا هذا وإلى أن يشاء اللّه .

❁ ❁ ❁

الأسئلة

❁ قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان رحمه الله :

الواجب نحو أصحاب الرسول :

س١- ما الواجب نحو أصحاب النبي ﷺ ، وضحه مع ذكر الدليل ؟

ج- **من أصول أهل السنة والجماعة ، سلامة قلوبهم لأصحاب رسول الله ﷺ من الحقد ، والبغض ، والاحتقار ، والعداوة ، وسلامة ألسنتهم من الطعن ، والسب ، واللعن ، والوقيعة فيهم ، ولا يقولون إلا ما حكاه الله عنهم : ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحشر : ١٠] الآية ، وطاعة النبي ﷺ في قوله : « لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » .**

□ طريقة أهل السنة في فضائل الصحابة :

س٢- ما طريقة أهل السنة والجماعة حول ما ورد في فضائل الصحابة ؟

ج- **هو أنهم يقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ، ومراتبهم ، ويفضلون من أنفق من قبل الفتح وهو صلح الحديبية وقاتل ، على من أنفق من بعد وقاتل ، ويقدمون المهاجرين على الأنصار ؛ لقوله تعالى : ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الحديد : ١٠] .**

س٣- لم كان المهاجرون أفضل من الأنصار ؟ وضحه مع ذكر الدليل .

ج- **لأنهم جمعوا بين الهجرة والنصرة ، وقد جاء تقديمهم في القرآن ، قال تعالى : ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ [الحشر : ٨] الآيتين ، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ [التوبة : ١٠٠] ، وكل العشرة المشهود لهم بالجنة من المهاجرين .**

س٤- ما مناسبة قوله ﷺ : « لا تسبوا أصحابي » الحديث المتقدم ، ومن الساب ومن المسبوب ؟

ج- **المناسبة هو ما ورد عن أبي سعيد الخدري قال : كان بين خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف شيء فسبه خالد ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا أصحابي » .**

س٥- لم نهى النبي ﷺ خالدًا عن سب أصحابه وخالد أيضًا من أصحابه ، وقال : « لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » .

ج- **لأن عبد الرحمن بن عوف ونظراءه من السابقين الأولين الذين صحبوه ، في وقت كان خالد وأمثاله يعادونه .**

ثانيًا : أنفقوا أموالهم قبل الفتح وقاتلوا ، وكلًّا وعد الله الحسنى ، فقد انفردوا من الصحبة بما لم يشركهم فيه خالد ونظراؤه ممن أسلم بعد الفتح الذي هو صلح الحديبية وقاتل ، فنهى أن يسب أولئك الذين صحبوه قبله ، ومن لم يصحبه قط نسبته إلى من صحبه كنسبة خالد إلى السابقين وأبعد ، وهو خطاب لكل أحد أراد أن يسب من انفرد عنه بصحبته .

س٦- ما طريقة أهل السنة والجماعة نحو أهل بدر، وأهل بيعة الرضوان ؟

ج- هو أنهم يؤمنون بأن الله اطلع على أهل بدر ، وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشرة ، فقال : « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » . ويؤمنون بأنه لا يدخل النار من بايع تحت الشجرة .

قال الله تعالى : ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح : ١٨] الآية ، ولإخباره ﷺ ، ففي « صحيح مسلم » من حديث جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة » . وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة (١٤٠٠) .

س٧- أين موقع بدر ؟ وكم عدد القتلى من المشركين ؟ وكم عدد الشهداء من المسلمين ؟

ج- هي قرية مشهورة تقع نحو أربع مراحل من المدينة ، وسميت الوقعة المشهورة باسم موضعها الذي وقعت فيه ، وهي من أشهر الوقائع التي أعز الله بها الإسلام ، وقمع بها المشركين ، وكانت الوقعة نهارًا في يوم الجمعة لسبعة عشر خلت من رمضان من السنة الثانية من الهجرة ، قتل من الكفار سبعون ، وأسر سبعون ، واستشهد فيها من المسلمين أربعة عشر ، ستة من المهاجرين ، وثمانية من الأنصار .

س٨- أين تقع الشجرة ؟ ولم سميت المبايعة التي تحتها بيعة الرضوان ؟

ج- تقع الحديبية وهي قرية متوسطة ليست بالكبيرة ، سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله ﷺ تحتها ، وبين الحديبية وبين المدينة تسع مراحل ، وبعض الحديبية في الحل وبعضها في الحرم ، وهو أبعد الحل من البيت ، ولما كان في خلافة عمر رضي الله عنه أمر بقطع الشجرة ، وإخفاء مكانها خشية الافتتان بها ؛ لما بلغه أن ناسًا يذهبون إليها فيصلون تحتها ، ويتبركون بها ، وقال : كان رحمة من الله ؛ يعني : إخفاءها .

وسميت البيعة التي تحتها بيعة الرضوان ، والله أعلم أخذًا من الآية الكريمة قوله تعالى : ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ .

س٩- من الذي يلي الخلفاء الراشدين في الأفضلية ؟

ج- باقي العشرة المشهود لهم بالجنة ، فأهل بدرهم ، ثم أهل الشجرة ، وقيل : أهل غزوة جبل أحد المقدمة في الزمن والأفضلية ، والقول الأول هو تقديم أهل بيعة الرضوان أولى في الأفضلية ، لورود النصوص من الكتاب والسنة ، وتقدمت الآية وحديث بعدها ، وروى البخاري ومسلم وغيرهما من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : كنا في الحديبية ألفًا وأربعمائة ، فقال لنا رسول الله ﷺ : « أنتم خير

أهل الأرض ».

وروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه ﷺ قال لأهل الحديبية : « لا يدرك قوم بعدكم صاعكم ولا مدكم ». وعن جابر رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « ليدخلن الجنة من بايع تحت الشجرة إلا صاحب الجمل الأحمر ». إلى غير ذلك من الأدلة.

□ الشهادة لأحد بالجنة :

س١٠- هل يشهد لأحد بالجنة غير العشرة ، ومن هم العشرة المبشرون بالجنة ؟

ج- كل من شهد له النبي ﷺ بالجنة نشهد له ؛ كالحسن والحسين ، وثابت بن قيس ، وعكاشة بن محصن ، وعبد الله بن سلّام ؛ وأما العشرة فهم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعيد بن زيد ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو عبيدة بن الجراح.

س١١- من أحق الصحابة بالخلافة ؟ ومن الذي يلي الأحق ، اذكرهم مرتبًا ؟

ج- أبو بكر لفضله وسابقته ، وتقديم النبي ﷺ له على جميع الصحابة ، وإجماع الصحابة على ذلك ، ثم من بعده عمر لفضله وعهد أبي بكر إليه ، ثم عثمان لفضله ولتقديم أهل الشورى له ، ثم علي لفضله وإجماع أهل عصره عليه ، وهؤلاء هم الخلفاء الراشدون ، والأئمة المهديون ، وقال ﷺ : « الخلافة بعدي ثلاثون سنة ». فكان آخرها خلافة علي ، فمذهب أهل السنة : أن ترتيب الخلفاء في الفضل على حسب ترتيبهم في الخلافة ، ومن اعتقد أن خلافة عثمان غير صحيحة فهو ضال.

□ الواجب نحو أزواج الرسول ﷺ :

س١٢- ما الواجب نحو أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين ؟

ج- مذهب أهل السنة والجماعة : هو أنهم يتولون أزواجه ﷺ ، ويترضون عنهن ، ويؤمنون أنهن أزواجه في الآخرة ، وأنهن أمهات المؤمنين في الاحترام والتعظيم ، وتحريم نكاحهن ، وأنهن مطهرات مبرءات من كل سوء ، ويتبرءون ممن آذاهن ، أو سبهن ، ويحرمون الطعن ، وقذفهن خصوصًا خديجة رضي الله عنها ، أُمّ أكثر أولاده ، وأول من آمنت به ، وعاضدته على أمره ، وكان لها منه المنزلة العالية.

والصديقة بنت الصديق رضي الله عنها التي قال فيها النبي ﷺ : « فضل عائشة على النساء ، كفضل الثريد على سائر الطعام ».

ومن زوجاته : أم سلمة ذات الهجرتين مع زوجها أبي سلمة إلى الحبشة ، ثم إلى المدينة.

ومنهن : زينب أم المؤمنين التي زوجه الله إياها من فوق سبع سماوات.

ومنهن : صفية بنت حيي من ولد هارون بن عمران.

ومنهن جويرية بنت الحارث ملك بني المصطلق.

ومنهن : سودة بنت زمعة التي كانت أيضًا من أسباب الحجاب .

ومنهن : أم حبيبة ذات الهجرتين أيضًا .

ومنهن : ميمونة بنت الحارث .

□ أهل بيت النبي ﷺ :

س١٣- من أهل بيت النبي ﷺ ؟ ومن أفضلهم ؟ وما الواجب نحوهم ؟

ج- هم الذين حرمت عليهم الصدقة ، وهم آل علي ، وآل جعفر ، وآل عقيل ، وآل عباس ، وبنو الحارث بن عبد المطلب ، وكذلك أزواجه ﷺ من أهل بيته ؛ كما دل عليه سياق آية « الأحزاب » ، وأفضلهم : علي ، وفاطمة ، والحسن والحسين ، الذين أدار عليهم الكساء ، وخصهم بالدعاء .

والواجب نحوهم : هو محبتهم وتوليهم ، وإكرامهم لله ، ولقرابتهم من رسول الله ﷺ ، ولإسلامهم ، وسبقهم ، وحسن بلائهم في نصرة دين الله ، وغير ذلك من فضائلهم .

وصية الرسول في أهل بيته :

س١٤- ما هي وصيته ﷺ في أهل بيته ؟ وما دليلها ؟

ج- هي قوله ﷺ يوم غدير خم : « أذكركم الله في أهل بيتي » . وقال للعباس أيضًا ، وقد اشتكى إليه أن بعض قريش يجفو بني هاشم ، فقال : « والذي نفسي بيده لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرابتي » . وقال : « إن الله اصطفى بني إسماعيل ، واصطفى من بني إسماعيل كنانة ، واصطفى من كنانة قريشًا ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » . فهذا الحديث يتضمن الحث على احترامهم ، وتوقيرهم والإحسان إليهم .

س١٥- ما طريقة الروافض والنواصب ؟ وما موقف أهل السنة من طريقتهما ؟

ج- أما الروافض فطريقتهم : أنهم يبغضون الصحابة ويسبونهم إلا عليًا غلوا فيه ، وتقدم بيان طريقتهم .

وأما النواصب : فهم الذين نصبوا العداوة لأهل البيت ، وتبرءوا منهم ، وكفروهم ، وفسقوهم .

وأما أهل السنة : فيتبرءون من طريقة الروافض والنواصب ، ويتولون جميع المؤمنين ، ويعرفون قدر الصحابة وفضلهم ، ويرعون حقوق أهل البيت ، ولا يرضون بما فعله المختار وغيره من الكذابين ، ولا ما فعله الحجاج وغيره من الظالمين ، وتقدم بيان توسطهم بين الخوارج والروافض .

س١٦- ما موقف أهل السنة والجماعة حول ما شجر بين الصحابة ؟

ج- هو الكف والإمساك عما شجر بينهم ؛ لما في ذلك من توليد العداوة والحقد على أحد الطرفين ، وذلك من أعظم الذنوب ، والواجب علينا : حب الجميع والترضي عنهم ، والترحم عليهم ، وحفظ فضائلهم ، والاعتراف لهم بسبوقهم ، ونشر مناقبهم ؛ لقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠] الآية.

س١٧- ما هو موقف أهل السنة والجماعة حول الآثار المروية في مساويهم؟

ج- رأي أهل السنة والجماعة: أن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو مكذوب محض، ومنها ما هو محرف ومغير عن وجهه؛ إما بزيادة فيه، أو نقص يخرجه إلى الذم والطعن، والصحيح منه هم فيه معذورون إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون، والخطأ مغفور لهم. رضوان الله عليهم أجمعين.

س١٨- ما رأي أهل السنة حول عصمة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين؟

ج- هو أنهم لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره؛ بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة، ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما صدر منهم حتى إنه يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم، وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ أنهم خير القرون.

وأن المُد من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحد ذهبًا ممن بعدهم، ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنبٌ فيكون قد تاب عنه، أو أتى بحسنات تمحوه، أو غفر له بفضل سابقته، أو بشفاعة محمد ﷺ الذين هم أحق الناس بشفاعته، أو ابتلى ببلاء في الدنيا كفر به عنه، فإذا كان هذا في الذنوب المحققة، فكيف الأمور التي كانوا فيها مجتهدين إن أصابوا فلهم أجران، وإن أخطئوا فلهم أجر واحد؛ والخطأ مغفور؟ قال ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان». وفي حديث أبي ذر: «يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا»... الحديث.

س١٩- اذكر شيئًا عن فضائل الصحابة ومحاسنهم؟

ج- أولًا: الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله، والهجرة والنصرة، والعلم النافع، والعمل الصالح، ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة، وما منَّ الله عليهم به من الفضائل علم يقينًا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله.

❁ ❁ ❁

مذهبُ أهلِ السنةِ والجماعةِ في كراماتِ الأولياءِ

ومِن أصولِ أهلِ السنةِ التَّصْديقُ بكَراماتِ الأولياءِ، وما يُجْرِي اللَّهُ على أيديهم مِن خوارقِ العاداتِ في أنواعِ العلومِ والمُكاشَفاتِ، وأنواعِ القدرةِ والتأثيراتِ، والمأثورِ عن سالفِ الأممِ في سورةِ الكهفِ وغيرِها، وعن صَدْرِ هذه الأمةِ مِن الصحابةِ والتابعين وسائرِ فِرَقِ الأمةِ، وهي موجودةٌ فيها إلى يومِ القيامةِ.



الشـــــرح

❁ قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله :

قوله : « التصديق بكرامات الأولياء ... » :

* تواترت نصوص الكتاب والسنة والوقائع قديمًا وحديثًا في وقوع كرامات الله لأوليائه المتبعين لأنبيائهم .

وكرامتهم في الحقيقة تفيد ثلاث قضايا :

أعظمها : الدلالة على كمال قدرة الله ونفوذ مشيئته .

وأنه كما أن لله سننًا وأسبابًا تقتضي مسبباتها الموضوعة لها شرعًا وقدرًا ، فإن لله أيضًا سننًا وأسبابًا لا يقع عليها علم البشر ولا تدركها أعمالهم وأسبابهم .

فمعجزات الأنبياء وكرامات الأولياء بل وأيام الله وعقوباته في أعدائه الخارقة للعادة ، كلها تدل دلالة واضحة أن الأمر كله لله ، والتدبير والتقدير كله لله ، وأنه لله سننًا لا يعلمها بشر ولا مَلَك .

فمن ذلك : قصة « أصحاب الكهف » والنوم الذي أوقعه الله بهم تلك المدة العظيمة ، وقيض أسبابًا متنوعة لحفظ دينهم وأبدانهم ، كما ذكر الله في قصتهم .

ومنها : ما أكرم الله به « مريم بنت عمران » وأنه : ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران : ٣٧] .

وكذلك : حملها وولادتها « بعيسى » على ذلك الوصف الذي ذكر الله ، وكلامه في المهد هذا فيه كرامة لمريم ، ومعجزة لعيسى عليه السلام .

وهبته تعالى الولد « لإبراهيم » من « سارة » وهي عجوز عقيم على كبره ، كما وهب « لزكريا » « يحيى » على كبره وعقم زوجته ؛ معجزة للنبي وكرامة لزوجته ، وقد أطال المؤلف النفس ، وبسط الكلام في هذا الموضوع في كتابه « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » ، وذكر قصصًا كثيرة متوافرة تدل على هذه القضية .

القضية الثانية : أن وقوع الكرامات للأولياء في الحقيقة معجزات للأنبياء ؛ لأن تلك الكرامات لم تحصل لهم إلا ببركة متابعة نبيهم الذي نالوا به خيرًا كثيرًا من جملتها الكرامات .

القضية الثالثة : أن الكرامات لأولياء الله هي من البشرى المعجلة في الحياة الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [يونس : ٦٤] .

وهي كل أمر يدل على ولايتهم وحسن عاقبتهم ، ومن ذلك : الكرامات ، ولم تزل الكرامات موجودة لم تنقطع في كل وقت وزمان ، وقد رأى الناس منها عجائب لأمور كثيرة ، ولم ينكرها إلا

« زنادقة الفلاسفة » وليس غريبًا عليهم ؛ فإنه فرع عن جحودهم وإنكارهم لرب العالمين وقضائه وقدره .

وقد أنكرها أيضًا طائفة من « أهل الكلام » المذموم ؛ ظنًا منهم أن في إثباتها إبطالًا لمعجزات الأنبياء !! وهذا باطل أبطله المؤلف رحمه الله في كتاب « النبوات » وغيره من كتبه .

فـ « أهل السنة والجماعة » يعترفون بكرامات الله لأوليائه إجمالًا وتفصيلًا ، ويثبتون ذلك على وجه التفصيل ، كلما ورد عن المعصوم ﷺ وكلما تحقق وقوعه ، ولكن قد أدخل كثير من الناس بالكرامات أمورًا كثيرة اخترعوها وافتروها .

و« أهل السنة » أبعد الناس عن التصديق بالخرافات والكذب المفترى ، وأعرفهم بالطرق التي يتبين بها كذب الكاذبين وافتراء المفترين .

۞ قال الشيخ عبد العزيز بن محمد بن مانع رحمه الله :

قوله : « ومن أصول أهل السنة : التصديق بكرامات الأولياء ...» :

* كرامات أولياء الله المتقين من عباده الصالحين من الأولين والآخرين ثابتة بالكتاب والسنة ، وقد أخبر الله بها في كتابه ، وعرف عباده بما أكرم به أصحاب الكهف ومريم بنت عمران ، وآصف بن برخيا .

وكذلك ثبت في كتب أهل السنة ما أكرم به عمر بن الخطاب ، وأسيد بن حضير ، والعلاء بن الحضرمي ، وغيرهم مما هو مفصل في « لوائح الأنوار » وغيره ، ومن أراد تفصيل ما أشرنا إليه فليراجع « اللوائح » و« الفرقان » لشيخ الإسلام ابن تيمية و« شرح الخمسين » لابن رجب وغيرها ، حيث إن هذه الحاشية لا تتسع لبسط ذلك ، وقد عد أهل السنة من أنكر كرامات الأولياء وخوارق العادات من أهل البدع لمخالفته الدليل .

تنبيه :

لا تظن أيها القارئ أن أصحاب الطرق المبتدعة الذين يسالمون الحيات ويمسكونها ، ويدخلون النار تخييلًا ، ويضربون أنفسهم بالسلاح كذبًا وتدجيلًا من أولياء الله ، بل هم من أولياء الشيطان ، نعوذ بالله من أفعالهم ، ونبرأ إلى الله منهم ، ومن أحوالهم .

۞ قال الشيخ محمد خليل هراس رحمه الله :

قوله : « ومن أصول أهل السنة : التصديق بكرمات الأولياء » :

وقد تواترت نصوص الكتاب والسنة ، ودلت الوقائع قديمًا وحديثًا على وقوع كرامات الله لأوليائه المتبعين لهدى أنبيائهم ، والكرامة أمر خارق للعادة يجريه الله على يد ولى من أوليائه معونة له على أمر دينى أو دنيوى ، ويفرق بينها وبين المعجزة بأن المعجزة تكون مقرونة بدعوى الرسالة بخلاف الكرامة .

ويتضمن وقوع هذه الكرامات حكم ومصالح كثيرة أهمها :

أولًا : أنها كالمعجزة تدل أعظم دلالة على كمال قدرة الله ونفوذ مشيئته ، وأنه فعال لما يريد ، وأن له فوق هذه السنن والأسباب المعتادة سننًا أخرى لا يقع عليها علم البشر ، ولا تدركها أعمالهم ، فمن ذلك قصة أصحاب الكهف ، والنوم الذى أوقعه الله بهم تلك المدة الطويلة مع حفظه تعالى لأبدانهم من التحلل والفناء ، ومنها ما أكرم الله به مريم بنت عمران من إيصال الرزق إليها وهى فى المحراب حتى عجب من ذلك زكريا عليه السلام ، وسألها : ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ . وكذلك حملها بعيسى بلا أب وولادتها إياه ، وكلامه فى المهد ، وغير ذلك .

ثانيًا : أن وقوع كرامات الأولياء هو فى الحقيقة معجزة للأنبياء ، لأن تلك الكرامات لم تحصل لهم إلا ببركة متابعتهم لأنبيائهم وسيرهم على هديهم .

ثالثًا : أن كرامات الأولياء هى البشرى التى عجلها الله لهم فى الدنيا ، فإن المراد بالبشرى كل أمر يدل على ولايتهم وحسن عاقبتهم ، ومن جملة ذلك الكرامات .

هذا ولم تزل الكرامات موجودة لم تنقطع فى هذه الأمة إلى يوم القيامة ، والمشاهدة أكبر دليل ، وأنكر الفلاسفة كرامات الأولياء كما أنكروا معجزات الأنبياء ، وأنكر الكرامات أيضًا المعتزلة وبعض الأشاعرة بدعوى التباسها بالمعجزة ، وهى دعوى باطلة ؛ لأن الكرامة – كما قلنا – لا تقترن بدعوى الرسالة .

لكن يجب التنبه إلى أن ما يقوم به الدجاجلة والمشعوذون من أصحاب الطرق المبتدعة الذين يسمون أنفسهم بالمتصوفة من أعمال ومخاريق شيطانية ؛ كدخول النار وضرب أنفسهم بالسلاح والإمساك بالثعابين والإخبار بالغيب ، إلى غير ذلك ، ليس من الكرامات فى شىء ، فإن الكرامة إنما تكون لأولياء الله بحق ، وهؤلاء أولياء الشيطان .

❁ قال الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ رحمه الله :

« ومن أصول أهل السنة : التصديق بكرامات الأولياء ، وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات في أنواع العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات » من حمل الأثقال وقطع المسافات الطويلة .

وقد انقسم الناس في كرامات الأولياء إلى ثلاثة أقسام :

– قسم أنكروها بالكلية ، وهم المعتزلة .

– وقسم أثبتوها وغلوا في إثباتها ، حتى جعلوا من صدرت منه فهو ولي لله ، وأنها من الدلالة على أنه يصلح أن يعبد من دون الله ، وهم القبوريون .

– وقسم توسطوا ، فأثبتوا كرامات الأولياء وتثبتوا فيمن صدرت منه .

وهذا هو الصواب : إثبات جنسها ، وأن من جرت على يده يوزن بالكتاب والسنة ، فإن كان من أهل

الاستقامة فهي كرامة وولاية وعلامة ، ولا تدل على أنه يصلح للعبادة ، وإن كان بخلاف ذلك فهي من الأمور الشيطانية .

والذي حدي المعتزلة على إنكار الكرامات أنهم يقولون : إن تعريف النبي : هو من صدر عن يده خارق . قالوا : فإذا قلنا : إن لهم كرامات التبس الولي بالنبي ، فلم يتميز هذا من هذا ؛ فأنكروا الكرامات لذلك .

ونقول : هذا من تعريف النبي كرامة ، لكن مع شيء آخر وهو إنزال الوحي عليه .

وأهل السنة أثبتوها وصدقوا بأن ما جري لهم من ذلك فهو كرامة ، وقالوا : إن من صدرت عنه فليس له مزية على غيره وفضيلة ، فليست الكرامة هي الميزان في علو الدرجة في الولاية ، وأن من ظهرت له كرامة أنه أفضل ممن لم يظهر له كرامة ، بل من ليس له كرامة أفضل بكثير ممن له كرامة ، بل هي من نوع الحظ والبخت يعطيها اللّه من يشاء .

ثم هي قد تكون لمن جرت له فتنة وشر تنقصه في دينه ، وقد تكون خيرًا ، وقد تزيده ولا تنقصه وتحمله على فعل الطاعات فهي كالنعمة ، من الناس من تزيده ، ومنهم من تنقصه .

« كالمأثور عن سالف الأمم » كقصة أصحاب الكهف (في سورة الكهف) لما فارقوا قومهم في ذات اللّه وأووا إلى الغار ثلاثمائة وتسع سنوات ، لا يأكلون هذه المدة الطويلة ، المقصود : أن جنس هذا من كرامات الأولياء كونهم بقوا هذه المدة بلا طعام ولا شراب .

« وغيرها » كما جرى لابن مريم من إبراء الأكمه والأبرص .

« وعن صدر هذه الأمة من الصحابة » كقصة خالد حين حسا السم ، وقصة الذين خاضوا البحر ولم يغرقوا .

« والتابعين » أكثر ، والسبب : أن الصحابة أقل حاجة إليها ؛ لأنها لتأييد الحق وبيان فضله ، وهم لا يحتاجون إليها .

وليعرف أنها كرامة يكرم اللّه بها أولياءه ، وهي لا تدل على أنه أفضل من الآخر ، وأنها من جنس الحظ من المال أو العلم أو الفهم ، هي بنفسها كرامة إنما تدل على فضله ، لا على أفضليته على غيره ، شبه البخت والحظ ، بل إن زادت صاحبها صارت نعمة ، وإن كانت أوقفت شيئًا من سيره أو أنقصته ، فهي نعمة من جانب ، وابتلاء من جانب ، كما قال تعالى عن سليمان : ﴿ لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ .

فحقيقة الخارق : هو أن يوجد منه شيء ليس من عادته ولا استطاعته ؛ كأن يقطع في لحظة ما جنسه يقطع في يوم ، أو نحو ذلك كالطيران في الهواء .

« وسائر فرق الأمة » وهم على طبقتين : أبرار وأصحاب يمين ، ولا تكون له دائمًا في كل وقت ، وإذا عرفت أنهم في هذا الزمان كادوا أن يفقدوا ، والأكثر فيهم من التخليط ما فيهم !! وليس المراد أنه لا يقع

زلة ، بل تقع ولكن يرجعون وليسوا معصومين ، هذا هو المراد ، والله أعلم .

« وهي موجودة فيها إلي يوم القيامة » ، وللمصنف كرامات مع أهل زمانه .

❁ قال الشيخ زيد بن عبد العزيز آل فياض ﷺ :

فصل في كرامات الأولياء :

قوله : « ومن أصول أهل السنة : التصديق بكرامات الأولياء ، وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات ....» :

كرامات الأولياء حق باتفاق أئمة الإسلام والسنة والجماعة ، وقد دل عليها القرآن في غير موضع ، والأحاديث الصحيحة والآثار المتواترة عن الصحابة والتابعين ، وإنما أنكرها أهل البدع من المعتزلة والجهمية ومن تابعهم ، لكن كثيرًا ممن يدعيها أو تدعى له يكون كذابًا أو ملبوسًا عليه .

وما أحسن ما قال السفاريني في عقيدته يذكر الكرامات :

ومن نفاها من ذوي الضلال فقد أتى في ذاك بالمحال
لأنها شهيرة ولم تزل في كل عصر يا شقا أهل الزلل

واسم المعجزة يعم كل خارق للعادة في اللغة وعرف الأئمة المتقدمين كالإمام أحمد بن حنبل وغيره ، ويسمونها آيات لكن كثير من المتأخرين يفرق في اللفظ بينها فيجعل المعجزة للنبي والكرامة للولي ، وجماعها الأمر الخارق للعادة ، وذلك يرجع إلى ثلاثة : العلم والقدرة والغنى .

وهذه الثلاثة لا تصلح على الكمال إلا لله وحده ، فإنه الذي أحاط بكل شيء علمًا ، وهو على كل شيء قدير ، وهو غني عن العالمين ، وإنما ينال العبد من تلك الثلاثة بقدر ما يعطيه الله تعالى ، فيعلم منه ما علمه إياه ويقدر منه على ما أقدره الله عليه ، ويستغنى عما أغناه الله عنه من الأمور المخالفة للعادة المطردة أو عادة أغلب الناس ، فما كان من الخوارق من باب العلم فتارة بأن يسمع العبد ما لا يسمعه غيره ، وتارة بأن يرى ما لا يراه غيره يقظة ومنامًا ، وتارة بأن يعلم ما لا يعلم غيره وحيًا وإلهامًا أو إنزال علم ضروري أو فراسة صادقة ، ويسمى كشفًا ومشاهدات ومكاشفات ومخاطبات ، فالسماع مخاطبات ، والرؤية مشاهدات ، والعلم مكاشفة ، ويسمى ذلك كله كشفًا ومكاشفة أي : كشف له عنه .

وما كان من باب القدرة فهو التأثير ، وقد يكون همة وصدقًا ودعوة مجابة .

وقد يكون من فعل الله الذي لا تأثير له فيه بحال : مثل هلاك عدوه بغير أثر منه ، كقوله : « من عادى لي وليًا فقد بارزني بالمحاربة »[1] . وإني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث المجرد . ومثل تذليل النفوس له ومحبتها إياه ونحو ذلك ، وكذلك ما كان من باب العلم والكشف قد يكشف لغيره من حاله بعض أمور ،

---

(١) البخاري (٦٥٠٢) عن أبي هريرة ﷺ .

كما قال النبي ﷺ: «في المبشرات هي الرؤيا الصادقة، يراها الرجل الصالح أو ترى له»[١]. وكما قال النبي ﷺ: «أنتم شهداء الله في الأرض»[٢].

وقد جمع لنبينا محمد ﷺ جميع أنواع المعجزات والخوارق، أما العلم والأخبار الغيبية والسماع والرؤية، فمثل إخبار نبينا ﷺ عن الأنبياء المتقدمين وأممهم ومخاطباته لهم وأحواله معهم، وغير الأنبياء من الأولياء وغيرهم بما يوافق ما عند أهل الكتاب الذين ورثوه بالتواتر أو بغيره من غير تعلم له منهم، وكذلك إخباره عن أمور الربوبية والملائكة والجنة والنار بما يوافق الأنبياء قبله من غير تعلم منه، ويعلم أن ذلك موافق لنقول الأنبياء تارة بما في أيديهم من الكتب الظاهرة، ونحو ذلك من الكتب المتواترة، وتارة بما يعلمه الخاصة من علمائهم.

فإخباره عن الأمور الغائبة ماضيها وحاضرها هو من باب العلم الخارق، وكذلك إخباره عن الأمور المستقبلة مثل مملكة أمته، وزوال مملكة فارس والروم، وقتال الترك، وألوف مؤلفة من الأخبار التي أخبر بها، وأما القدرة والتأثير فكانشقاق القمر، وكذا معراجه إلى السماوات، وكثرة الرمي بالنجوم عند ظهوره، وكذلك إسراؤه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وكاهتزاز الجبل تحته وتكثير الماء في عين تبوك، وعين الحديبية، ونبع الماء من بين أصابعه غير مرة، وكذا تكثيره للطعام غير مرة.

وكذلك من باب القدرة عصا موسى ﷺ وفلق البحر والقمل والضفادع والدم وناقة صالح، وإبراء الأكمة والأبرص، وإحياء الموتى لعيسى، كما أن من باب العلم إخبارهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، وأما المعجزات التي لغير الأنبياء من باب الكشف والعلم، فمثل قول عمر في قصة سارية، وإخبار أبي بكر بأن ببطن زوجته أنثى، وإخبار عمر بمن يخرج من ولده فيكون عادلًا، وقصة صاحب موسى في علمه بحال الغلام، والقدرة مثل قصة الذي عنده علم من الكتاب، وقصة أهل الكهف، وقصة مريم، وقصة خالد بن الوليد، وسفينة مولى رسول الله وأبي موسى الخولاني وأشياء يطول شرحها، وأما القدرة التي لم تتعلق بفعله، فمثل نصر الله لمن ينصره وإهلاكه لمن يشتمه.

والخارق كشفًا كان أو تأثيرًا إن حصل به فائدة مطلوبة في الدين كان من الأعمال الصالحة المأمور بها دينًا وشرعًا إما واجب وإما مستحب، وإن حصل به أمر مباح كان من نعم الله الدنيوية التي تقتضي شكرًا، وإن كان على وجه يتضمن ما هو منهي عنه نهي تحريم أو نهي تنزيه كان سببًا للعذاب أو البغض، كقصة الذي أوتي الآيات فانسلخ منها: بلعام بن باعوراء، لكن قد يكون صاحبها معذورًا لاجتهاد أو تقليد أو نقص عقل أو علم أو غلبة حال أو عجز أو ضرورة، فيكون من جنس برح العابد، والنهي قد يعود إلى سبب الخارق، وقد يعود إلى مقصوده، فالأول مثل أن يدعو الله دعاء منهيًا عنه اعتداء عليه، وقد قال

---

(١) الموطأ (١٧١٥)، وأحمد (٥/٣١٥) عن عطاء بن يسار، وعبادة بن الصامت، رضي الله عنه.

(٢) البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

تعالى : ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ ، ومثل الأعمال المنهي عنها إذا أورثت كشفًا أو تأثيرًا ، (والثاني) : أن يدعو على غيره بما لا يستحق أو يدعو للظالم بالإعانة ويعينه ، كخفراء العدو وأعوان الظلمة من ذوي الأحوال .

فتلخص أن الخارق ثلاثة أقسام : محمود في الدين ، ومذموم في الدين ، ومباح لا محمود ولا مذموم في الدين . فإن كان المباح فيه منفعة كان نعمة ، وإن لم يكن فيه منفعة كان كسائر المباحات التي لا منفعة فيها كاللعب والعبث .

واعلم أن عدم الخوارق علمًا وقدرة لا يضر المسلم في دينه ، فمن لم ينكشف له شيء من المغيبات ، ولم يسخر له شيء من الكونيات لا ينقصه ذلك في مرتبته عند الله ؛ بل قد يكون عدم ذلك أنفع له في دينه إذا لم يكن وجود ذلك في حقه مأمورًا به أمر إيجاب ولا استحباب .

فإن الكشف أو التأثير إن اقترن به الدين وإلا هلك صاحبه في الدنيا والآخرة ، ثم إن الدين علمًا وعملًا إذا صح فلا بد أن يوجب خرق العادة إذا احتاج إلى ذلك صاحبه ، قال الله تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ . وقال رسول الله ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ »[1] . والخوارق قد تكون مع الدين ، وقد تكون مع عدمه أو فساده أو نقصه ، وأنفع الخوارق الخارق الديني ، وهو حال نبينا محمد ﷺ ، قال ﷺ : « ما من نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة »[2] . فظهر بذلك أن الخوارق النافعة تابعة للدين خادمة له ، كما أن الرياسة النافعة هي التابعة للدين ، وكذلك المال النافع كما كان السلطان والمال بيد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر ﭫ ، فمن جعلها هي المقصودة وجعل الدين تابعًا لها ووسيلة إليها لا لأجل الدين في الأصل ، فهو يشبه من يأكل الدنيا بالدين ، وليست حاله كحال من تدين خوف العذاب أو رجاء الجنة ، فإن ذلك مأمور به وهو على سبيل نجاة وشريعة صحيحة ، والعجب أن كثيرًا ممن يزعم أنه قد ارتفع وارتقى عن أن يكون دينه خوفًا من النار أو طلبًا للجنة ، يجعل همه بدينه أدنى خارق من خوارق الدنيا ، ولعله يجتهد اجتهادًا عظيمًا في مثله ، ولكن منهم من يكون قصده بهذا تثبيت قلبه وطمأنينته وإيقانه بصحة طريقته وسلوكه ، فهو يطلب الآية علامة وبرهانا على صحة دينه ، ولهذا لما كان الصحابة ﭫ مستغنين في علمهم بدينهم وعملهم به عن الآيات بما رأوه من حال الرسول ونالوه من علم ، صار كل من كان عنهم أبعد مع صحة طريقته يحتاج إلى ما عندهم في علم دينه وعمله .

---

(١) الترمذي (٣١٣٧) عن أبي سعيد ﭬ ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (١٢٧) .

(٢) البخاري (٤٩٨١) عن أبي هريرة ﭬ .

❁ **قال الشيخ عبد العزيز الناصر الرشيد** رحمه الله:

قوله: « التصديق بكرامات الأولياء » إلخ:

أي: من أصول أهل السنة والجماعة؛ التصديق بكرامات أوليائه، كما دل على ذلك القرآن والأحاديث الصحيحة والآثار المتواترة عن الصحابة والتابعين وغيرهم، وإنما أنكرها أهل البدع من الجهمية والمعتزلة ومن تابعهم، والكرامة هو ما يجري الله على أيدي أوليائه من المؤمنين من خوارق العادات، كما جرى لأسيد بن حضير في نزول الظلة عليه بالليل فيها السرج، فأخبر النبي ﷺ بذلك فقال: « تلك الملائكة نزلت لسماع قراءتك »[1]. ومثل ما جرى لسعد بن أبي وقاص في القادسية ومرورهم على الماء بجنودهم، وقد جرى قبل ذلك نحوه للعلاء بن الحضرمي.

قوله: « من خوارق العادات ... إلخ »:

أي: أنها خرقت العادة وخالفت مقتضاها، وجاءت على خلاف مألوف الآدميين كإحياء ميت، وانفجار الماء بين الأصابع.

قوله: « في أنواع العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات .. إلخ »:

أي: أن الكرامة تنقسم إلى أقسام: منها ما يكون في الكشف والعلم، ومنها ما يكون في القدرة والتأثير، فما كان من باب العلم والكشف، فتارة يسمع ما لا يسمعه غيره أو يرى ما لا يراه غيره يقظة أو منامًا أو نحو ذلك، ويسمى كشفًا ومشاهدات ومكاشفات ومخاطبات، فالسماع مخاطبات، والرؤيا مشاهدات والعلم مكاشفة، ويسمى ذلك كله كشفًا ومكاشفة، أي: كشف له عنه وأطلعه على ما لم يطلع عليه غيره، فحصل لقلبه من انكشاف الحقائق التي لا تخطر ببال غيره ما خصه الله به، فمن باب الكشف والعلم للأنبياء عليهم السلام إخبار نبينا عن أخبار الأنبياء المتقدمين وأممهم، وكذلك عن الأمور المستقبلة كمملكة أمته وزوال مملكة فارس والروم وقتال الترك ونحو ذلك مما لا يحصى، وأما القدرة والتأثير فكانشقاق القمر، ورد الشمس ليوشع بن نون، وإسرائه ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ونبع الماء بين أصابعه غير مره إلى غير ذلك مما لا يحصى، وأما الخوارق لغير الأنبياء من باب الكشف والعلم، فمثل قول عمر في قصة سارية، ومثل إخبار عمر بمن يخرج من ولده فيكون عادلًا، وقصة صاحب موسى في علمه بحال الغلام، وأما من باب القدرة والتأثير فمثل قصة الذي عنده علم من الكتاب، وقصة أهل الكهف، وقصة مريم ونحو ذلك. انتهى ملخصًا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، وشرط كون الخارق كرامة أن يكون من جرى على يديه صالح متبع للسنة، فمن ادعى محبة الله وولايته ولم يتبع محمدًا ﷺ فليس من أوليائه، بل من أعدائه وأولياء الشيطان، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

---

(١) البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٧٩٦) من حديث أُسيد بن حضير رضي الله عنه.

قال الحسن : ادعى قوم محبة الله فامتحنهم الله بهذه الآية ، ولهذا اتفق أئمة الدين على أن الرجل لو طار في الهواء ، ومشى على الماء لم يثبت له ولاية ، بل ولا إسلام حتى ينظر وقوفه عند الأمر والنهي الذي بعث الله به رسوله ، فولي الله هو المؤمن المتقي كما قال تعالى : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣] . وسمي وليًا لموالاته لطاعة الله ، والولي خلاف العدو ، وهو مشتق من الولاء وهو الدنو والقرب ، فولي الله من والى الله بموافقته في محبوباته والتقرب إليه بمرضاته ، والأولياء على قسمين : مقتصدون ومقربون ، فالمقتصدون : الذين يتقربون إلى الله بالفرائض من أعمال القلوب والجوارح ، والسابقون : الذين يتقربون إلى الله بالنوافل بعد الفرائض ، وأفضل أولياء الله هم أنبياؤه ، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم ، وأفضل المرسلين هم أولي العزم ، وهم : إبراهيم ونوح وموسى وعيسى ومحمد ، قيل : وأفضلهم محمد ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ، ثم نوح ، ونظمهم بعضهم على هذا الترتيب فقال :

محمد إبراهيم موسى كليمه فعيسى فنوح هم أول العزم فاعلم

ولا يشترط في الولي أن يكون معصومًا ، بل من ادعى العصمة لأحد من الأولياء فقد كذب ، ولا يمكن أن يصل الولي مهما علت رتبته وبلغ في الجد والاجتهاد ما بلغ إلى مراتب الأنبياء عليهم السلام ، وليس للولي زي خاص ولا لباس خاص ، وأما ما يجري الله على أيدي الأنبياء والرسل من خوارق العادات يدل بها عباده على صدق ما ادعوه من النبوة والرسالة ، فيقال له : معجزة ، أما إذا كانت حال من ظهرت الخارقة على يديه غير مرضية فليست بكرامة ، بل هو استدراج وخيال شيطاني ليس من حال أولياء الله وكرامتهم ، فمن زعم أنه يصل إلى حد تسقط عنه التكاليف الشرعية ، أو زعم أنه يسعه الخروج من شريعة محمد ، كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى ، أو زعم أنه محتاج للنبي ﷺ في علم الظاهر دون علم الباطن أو في علم الشريعة دون علم الحقيقة ،فهو كافر بالله العظيم ، من أولياء الشيطان ، ليس من أولياء الرحمن ، كما ذكر ذلك الشيخ تقي الدين وغيره ؛ إذ قد أجمع العلماء على أن شرط الكرامة كونها على يد متبع للشرع المطهر ، وبهذا التفصيل يظهر الفرق بين المعجزة والكرامة والأحوال الشيطانية ، فالثلاث تجتمع في كونها خارقة للعادة ، وتمتاز المعجزة في كونها على يد مدعي الرسالة والنبوة ، فيؤيد الله الصادقين بأنواع المعجزات والأخلاق والأعمال التي تدل على صدقهم ، وقد يكون منها ما لا يستطيع المخلوق مثله ، كإنزال القرآن ، ونبوع الماء من بين أصابعه ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى في حق عيسى ، وكعصا موسى ويده .

أما الكرامة فهي الخارقة الحاصلة على يد المؤمن التقي التابع لشرع محمد ﷺ ودينه ؛ إما لتقوية إيمانه ، أو لحاجة ، أو لإقامة حجة على خصمه المعارض له في الحق ، كما جرى لسعيد بن زيد وسعد بن أبي وقاص لما دعوا على من رماهما بخلاف الحق ، فأجاب الله دعوتهما ، والكرامة في

الحقيقة من معجزات ذلك النبي الذي اتبعه ذلك المؤمن الذي وقعت له تلك الكرامة ، كما قال بعض العلماء : كل كرامة لولي فهي معجزة لنبيه ؛ لأنها لم تقع له إلا بسبب اتباعه له ،أما إذا وقعت الخارقة على يد معرض عن الشرع صاد عن الحق متلبس بالمعاصي ، فما وقع من الأحوال الشيطانية التي تصد بها الشياطين عن اتباع الحق ، فإن الشياطين تعمل كل حيلة لإضلال الناس وصدهم عن الحق ، وتدخل الأصنام وتكلم عبادها وتحكم بينهم ، وقد تقضي لأوليائها وبعض الحاجات ، وقد ترفع بعضهم في الهواء ثم تعيده ولا سيما في الرقص واللعب ، وقد تنقل بعض عبادها إلى بلدة بعيدة ثم ترجعه ، أو إلى عرفات وقت الحج ثم تعيده ، كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيميه في كتاب « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » .

قوله : « كالمأثور عن سالف الأمم » :

أي : كالمنقول عن سالف الأمم ، أي : متقدمها ، كما ذكر الله تعالى في كتابه عن حمل مريم بلا زوج ، ووجود فاكهة الشتاء عندها في الصيف وبالعكس ، وإحضار آصف بن برخيا عرش بلقيس في لحظة من مسيرة شهر ، وكما ذكر سبحانه في سورة الكهف عن أصحاب الكهف أنهم بقوا ثلاث مائة سنة ، فإن بقاءهم ثلاث مائة سنة بلا آفة من أعظم الخوارق ، وكالمأثور عن صدر هذه الأمة ، أي أولها ، وصدر كل شيء أوله ، أي أول هذه الأمة من الصحابة ، كما في قصة العلاء بن الحضرمي وأصحابه حين مشوا على الماء ، وكرؤية عمر لجيش سارية وهو على المنبر في المدينة وندائه لأمير الجيش وهو بنهاوند : يا سارية الجبل ؛ تحذيرًا له من العدو مع بعد المسافة ، وكشرب خالد بن الوليد السم من غير أن يحصل له منه تضرر به ، وكجريان النيل بكتاب أمير المؤمنين عمر ، إلى غير ذلك من كرامات الصحابة التي لا تحصى :

قوله : « من الصحابة والتابعين » :

التابع لغة : التالي ، وفي عرف الفقهاء : من اجتمع بالصحابي ، أي : أن كرامات الأولياء لا تزال موجودة إلى يوم القيامة في جميع أصناف أمة محمد ﷺ بشرطها المتقدم ، كما روي أن الحسن تغيب عن الحجاج ، فدخلوا عليه ست مرات فدعا الله ﷻ فلم يروه ، ودعا على بعض الخوارج كان يؤذيه فخر ميتًا ، وصلة بن أشيم مات فرسه وهو في الغزو ، فقال : اللهم لا تجعل لمخلوق علي منة ودعا الله ﷻ فأحيا له فرسه ، فلما وصل إلى بيته قال : يا بني خذ سرج الفرس فإنه عارية . فأخذ سرجه فمات الفرس ، وجاع مرة بالأحواز فدعا الله ﷻ واستطعمه ، فوقعت خلفه دوخلة رطب في ثوب حرير فأكل التمر وبقي الثوب عند زوجته زمانًا ، وجاءه الأسد وهو يصلي في غيضة بالليل ، فلما سلم قال له : اطلب الرزق من غير هذا الموضع ؛ فولى الأسد له زئير ، وكان سعيد بن المسيب في أيام الحرة يسمع الآذان من قبر رسول الله ﷺ في أوقات الصلوات ، وكان المسجد قد خلى فلم يبق غيره ، ولما مات أويس القرني وجدوا

في ثيابه أكفانًا لم تكن معه قبل ،ووجدوا له قبرًا محفورًا فيه لحد في صخرة فدفنوه فيه وكفنوه في تلك الأثواب ، وكان عمرو بن عقبة بن فرقد يصلي يومًا في شدة الحر فأظلته غمامة ، وكان السبع يحميه وهو يرعى ركاب أصحابه ؛ لأنه كان يشترط على أصحابه في الغزو أنه يخدمهم ، وكان مطرف بن عبد اللَّه بن الشخير إذا دخل بيته سبحت معه آنيته ، وكان هو وصاحب له يسيران في ظلمة فأضاء لهما طرف السوط ، إلي غير ذلك من كرامات أولياء اللَّه التي لا تحصى ، ذكر ذلك الشيخ تقي الدين في كتابه « الفرقان » قال : وأما ما نعرفه نحن عيانًا ونعرفه في هذا الزمان فكثير ، انتهى .

قوله : « وسائر » : أي : باقي أو جميع فرق الأمة ، ولا يختص ذلك في صنف معين ، بل توجد الكرامات وخوارق العادات في جميع أصناف أمة محمد ﷺ إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور ، فيوجد ذلك في أهل القرآن ، وأهل العلم ، وفي أهل الجهاد ، وفي التجار والصناع والزراع وغيرهم ممن كان صالحًا متبعًا لسنة محمد ﷺ .

❁ قال الشيخ عبد العزيز بن عبد اللَّه بن باز رحمه الله :

قوله : « وما يجري اللَّه على أيديهم من خوارق العادات ...» :

الفرق بين المعجزة والكرامة والأحوال الشيطانية الخارقة للعادة على يد السحرة والمشعوذين : أن المعجزة هي ما يجري اللَّه على أيدي الرسل والأنبياء من خوارق العادات التي يتحدون بها العباد ، ويختبرون بها ويخبرون بها عن اللَّه لتصديق ما بعثهم به ، ويؤيدهم بها سبحانه كانشقاق القمر ، ونزول القرآن ؛ فإن القرآن هو أعظم معجزة لرسول على الإطلاق ، وحنين الجذع ، ونبوع الماء من بين أصابعه ، وغير ذلك من المعجزات الكثيرة .

وأما الكرامة : فهي ما يجري اللَّه علي أيدي أوليائه المؤمنين خوارق العادات كالعلم والقدرة ،وغير ذلك كالظلة التي وقعت على أسيد بن الحضير حين قراءته القرآن ، وكإضاءة النور لعباد بن بشر وأسيد بن حضير حين انصرفا من عند النبي ﷺ ، فلما افترقا أضاء لكل واحد منهما طرف سوطه .

وشرط كونها كرامة : أن يكون من جرت على يده هذه الكرامة مستقيمًا على الإيمان ومتابعة الشريعة ، فإن كان خلاف ذلك فالجاري على يده من الخوارق يكون من الأحوال الشيطانية .

ثم ليعلم أن عدم حصول الكرامة لبعض المسلمين لا يدل علَى نقص إيمانهم ؛ لأن الكرامة إنما تقع لأسباب :

منها : تقوية إيمان العبد وتثبيته ، ولهذا لم ير كثير من الصحابة شيئًا من الكرامات لقوة إيمانهم ، وكمال يقينهم .

ومنها :إقامة الحجة على العدو ، كما حصل لخالد لما أكل السم ، وكان قد حاصر حصنًا فامتنعوا عليه حتى يأكله فأكله وفتح الحصن .

ومثل ذلك : ما جرى لأبي مسلم الخراساني ، لما ألقاه الأسود العنسي في النار فأنجاه الله من ذلك لحاجته إلى تلك الكرامة ، وكقصة أم أيمن لما خرجت مهاجرة واشتد بها العطش سمعت حسًّا من فوقها ، فرفعت رأسها فإذا هي بدلو من ماء فشربت منها ثم رفعت ، وقد تكون الكرامة ابتلاء فيسعد بها قوم ويشقى بها آخرون ، وقد يسعد بها صاحبها إن شكر ، وقد يهلك إن أعجب ولم يستقم » . اهـ .

❁ قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله :

قوله : « ومن أصول أهل السنة : التصديق بكرامات الأولياء » :

كرامات الأولياء مسألة مهمة ينبغي أن يعرف الحق فيها من الباطل ، هل هي حقيقة ثابتة ، أو هي من باب التخيلات ؟

فبين المؤلف رحمه الله قول أهل السنة فيها بقوله : « ومن أصول أهل السنة : التصديق بكرامات الأولياء » :

فمَن الأولياء ؟

والجواب : أن الله بينهم بقوله : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣] .

قال شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله : « من كان مؤمنًا تقيًا ، كان لله وليًا » .

ليست الولاية بالدعوى والتمني ، الولاية إنما هي بالإيمان والتقوى ، فلو رأينا رجلًا يقول : إنه ولي ولكنه غير متق لله تعالى ، فقوله مردود عليه .

أما الكرامات ، فهي جمع كرامة ، والكرامة أمر خارق للعادة ، يجريه الله تعالى على يد ولي ؛ تأييدًا له ، أو إعانة ، أو تثبيتًا ، أو نصرًا للدين .

* فالرجل الذي أحيا الله تعالى له فرسه ، وهو صلة بن أشيم بعد أن ماتت ، حتى وصل إلى أهله ، فلما وصل إلى أهله ، قال لابنه : ألق السرج عن الفرس ، فإنها عرية ! فلما ألقى السرج عنها ، سقطت ميتة . فهذه كرامة لهذا الرجل إعانة له .

* أما التي لنصرة الإسلام ، فمثل الذي جرى للعلاء بن الحضرمي رضي الله عنه في عبور ماء البحر ، وكما جرى لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في عبور دجلة ، وقصتهم مشهورة في التاريخ .

فالكرامة أمر خارق للعادة .

أما ما كان على وفق العادة ، فليس بكرامة .

وهذا الأمر إنما يجريه الله على يد ولي ؛ احترازًا من أمور السحر والشعوذة ، فإنها أمور خارقة للعادة ، لكنها تجري على يد غير أولياء الله ، بل على يد أعداء الله ، فلا تكون هذه كرامة .

وقد كثرت هذه الكرامات التي تدعى أنها كرامات في هؤلاء المشعوذين الذين يصدون عن

سبيل الله ، فالواجب الحذر منهم ومن تلاعبهم بعقول الناس وأفكارهم .

فالكرامة ثابتة بالقرآن والسنة ، والواقع سابقًا ولاحقًا .

* فمن الكرامات الثابتة بالقرآن والسنة لمن سبق قصة أصحاب الكهف ، الذين عاشوا في قوم مشركين ، وهم قد آمنوا بالله ، وخافوا أن يغلبوا على أمرهم ، فخرجوا من القرية مهاجرين إلى الله ﷻ فيسر الله لهم غارًا في جبل ، وجه هذا الغار إلى الشمال ، فلا تدخل الشمس عليهم فتفسد أبدانهم ولا يحرمون منها ، إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال ، وهم في فجوة منه ، وبقوا في هذا الكهف ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعًا ، وهم نائمون ، يقلبهم الله ذات اليمين وذات الشمال ، في الصيف وفي الشتاء ، لم يزعجهم الحر ، ولم يؤلمهم البرد ، ما جاعوا وما عطشوا وما ملوا من النوم ، فهذه كرامة بلا شك ، بقوا هكذا حتى بعثهم الله وقد زال الشرك عن هذه القرية ، فسلموا منه .

* ومن ذلك قصة مريم ﵍ ، أكرمها الله حيث أجاءها المخاض إلى جزع النخلة ، وأمرها الله أن تهز بجذعها لتتساقط عليها رطبًا جنيًا .

* ومن ذلك قصة الرجل الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه ؛ كرامة له ؛ ليتبين له قدرة الله تعالى ، ويزداد ثباتًا في إيمانه .

* أما في السنة ، فالكرامات كثيرة ، وراجع « كتاب الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل » في « صحيح البخاري » ، وكتاب « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » لشيخ الإسلام ابن تيمية .

* وأما شهادة الواقع بثبوت الكرامات فظاهر ، يعلم به المرء في عصره ، إما بالمشاهدة ، وإما بالأخبار الصادقة ، فمذهب أهل السنة والجماعة التصديق بكرامات الأولياء .

وهناك مذهب مخالف لمذهب أهل السنة ، وهو مذهب المعتزلة ومن تبعهم ؛ حيث إنهم ينكرون الكرامات ، ويقولون : إنك لو أثبت الكرامات ، لاشتبه الساحر بالولي ، والولي بالنبي ؛ لأن كل واحد منهم يأتي بخارق .

فيقال : لا يمكن الالتباس ؛ لأن الكرامة على يد ولي ، والولي لا يمكن أن يدعي النبوة ، ولو ادعاها ، لم يكن وليًا ، آية النبي تكون على يد نبي ، والشعوذة والسحر على يد عدو بعيد من ولاية الله ، وتكون بفعله باستعانته بالشياطين ، فينالها بكسبه ، بخلاف الكرامة ، فهي من الله تعالى ، لا يطلبها الولي بكسبه .

قال العلماء : كل كرامة لولي ، فهي آية للنبي الذي اتبعه ؛ لأن الكرامة شهادة من الله ﷻ أن طريق هذا الولي طريق صحيح .

وعلى هذا ؛ ما جرى من الكرامات للأولياء من هذه الأمة ، فإنها آيات لرسول الله ﷺ .

ولهذا قال بعض العلماء : ما من آية لنبي من الأنبياء السابقين ؛ إلا ولرسول الله ﷺ مثلها .

* فأورد عليهم أن الرسول ﷺ لم يلق في النار فيخرج حيًا ، كما حصل ذلك لإبراهيم .

فأجيب بأنه جرى ذلك لأتباع الرسول عليه الصلاة والسلام ، كما ذكره المؤرخون عن أبي مسلم الخولاني ، وإذا أكرم أتباع الرسول عليه الصلاة والسلام بجنس هذا الأمر الخارق للعادة ، دل ذلك على أن دين النبي ﷺ حق ؛ لأنه مؤيد بجنس هذه الآية التي حصلت لإبراهيم .

وأورد عليهم أن البحر لم يُفلق للنبي ﷺ ، وقد فُلق لموسى ! فأجيب : بأنه حصل لهذه الأمة فيما يتعلق في البحر شيء أعظم مما حصل لموسى ، وهو المشي على الماء ، كما في قصة العلاء بن الحضرمي ، حيث مشوا على ظهر الماء ، وهذا أعظم مما حصل لموسى ؛ لأن موسى مشى على أرض يابسة .

وأورد عليهم أن من آيات عيسى إحياء الموتى ، ولم يقع ذلك لرسول الله ﷺ .

فأجيب بأنه وقع لأتباع الرسول عليه الصلاة والسلام ، كما في قصة الرجل الذي مات حماره في أثناء الطريق ، فدعا الله تعالى أن يحييه ، فأحياه الله تعالى .

وأورد عليهم إبراء الأكمة والأبرص .

فأجيب بأنه حصل من النبي ﷺ أن قتادة بن النعمان لما جرح في أحد ، ندرت عينه حتى صارت على خده ، فجاء النبي ﷺ فأخذها بيده ، ووضعها في مكانها ، فصارت أحسن عينيه ، فهذه من أعظم الآيات .

فالآيات التي كانت للأنبياء السابقين كان من جنسها للنبي ﷺ أو لأمته ، ومن أراد المزيد من ذلك ، فليرجع إلى كتاب« البداية والنهاية في التاريخ » لابن كثير .

تنبيه :

الكرامات ، قلنا : إنها تكون تأييدًا أو تثبيتًا أو إعانة للشخص أو نصرًا للحق ، ولهذا كانت الكرامات في التابعين أكثر منها في الصحابة ؛ لأن الصحابة عندهم من التثبيت والتأييد والنصر ما يستغنون به عن الكرامات ؛ فإن الرسول ﷺ كان بين أظهرهم ، وأما التابعون فإنهم دون ذلك ، ولذلك كثرت الكرامات في زمنهم تأييدًا لهم وتثبيتًا ونصرًا للحق الذي هم عليه .

قوله : « وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات » :

« خوارق » : جمع خارق . و« العادات » : جمع عادة . والمراد بـ« خوارق العادات » : ما يأتي على خلاف العادة الكونية .

وهذه الكرامات لها أربع دلالات :

أولًا : بيان كمال قدرة الله ﷻ ؛ حيث حصل هذا الخارق للعادة بأمر الله .

ثانيًا : تكذيب القائلين بأن الطبيعة هي التي تفعل ؛ لأنه لو كانت الطبيعة هي التي تفعل ؛ لكانت الطبيعة على نسق واحد لا يتغير ، فإذا تغيرت العادات والطبيعة ، دل على أن للكون مدبرًا وخالقًا .

ثالثًا : أنها آية للنبي المتبوع كما أسلفنا قريبًا .

رابعًا : أن فيها تثبيتًا وكرامة لهذا الولي .

قوله : « في أنواع العلوم والمكاشفات ، وأنواع القدرة والتأثيرات » :

يعني : أن الكرامة تنقسم إلى قسمين : قسم يتعلق بالعلوم والمكاشفات ، وقسم آخر يتعلق بالقدرة والتأثيرات .

* أما العلوم ؛ فأن يحصل للإنسان من العلوم ما لا يحصل لغيره .

* وأما المكاشفات ؛ فأن يظهر له من الأشياء التي يكشف له عنها ما لا يحصل لغيره .

* مثال الأول – العلوم : ما ذكر عن أبي بكر : أن الله أطلعه على ما في بطن زوجته – الحمل – أعلمه الله أنه أنثى .

* ومثال الثاني – المكاشفات – : ما حصل لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين كان يخطب الناس يوم الجمعة على المنبر ، فسمعوه يقول : يا سارية ! الجبل ! فتعجبوا من هذا الكلام ، ثم سألوه عن ذلك ؟

فقال : إنه كشف له عن سارية بن زنيم وهو أحد قواده في العراق ، وأنه محصور من عدوه ، فوجهه إلى الجبل ، وقال له : يا سارية ! الجبل ! فسمع سارية صوت عمر ، وانحاز إلى الجبل ، وتحصن به .

هذه من أمور المكاشفات ؛ لأنه أمر واقع ، لكنه بعيد .

* أما القدرة والتأثيرات ؛ فمثل ما وقع لمريم من هزها لجذع النخل وتساقط الرطب عليها ، ومثل ما وقع للذي عنده علم من الكتاب ، حيث قال لسليمان : ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل : ٤٠] .

قوله : « وكالمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها ، وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر قرون الأمة » :

الكرامات موجودة فيما سبق من الأمم ، ومنها قصة أصحاب الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة[(١)] ، وموجودة في عهد الرسول ﷺ ، كقصة أسيد بن حضير[(٢)] ، وتكثير الطعام عند بعض الصحابة[(٣)] ، وموجودة في التابعين ، مثل قصة صلة بن أشيم الذي أحيا الله له فرسه .

---

(١) البخاري (٢٢٥١) ، ومسلم (٢٧٤٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) البخاري – تعليقًا – (٩/٦٣– فتح) ، ومسلم (٧٩٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٣) البخاري (٦٠٢) ، ومسلم (٢٠٥٧) من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما .

يقول شيخ الإسلام في كتاب « الفرقان » : « وهذا باب واسع ، قد بسط الكلام على كرامات الأولياء في غير هذا الموضع ، وأما ما نعرفه نحن عيانًا ونعرفه في هذا الزمان ؛ فكثير » .

قوله : « وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة » :

الدليل على أنها موجودة إلى يوم القيامة : سمعي وعقلي :

* أما السمعي ؛ فإن الرسول ﷺ أخبر في قصة الدجال أنه يدعو رجلًا من الناس من الشباب ، يأتي ويقول له : كذبت ، إنما أنت المسيح الدجال الذي أخبرنا عنك رسول الله ﷺ فيأتي الدجال ، فيقتله قطعتين ، فيجعل واحدة هنا وواحدة هنا رمية الغرض« يعني : بعيد ما بينهما » ، ويمشي بينهما ، ثم يدعوه ،فيقوم يتهلل ، ثم يدعوه ليقر له بالعبودية ، فيقول الرجل : ما كنت فيك أشد بصيرة مني اليوم ، فيريد الدجال أن يقتله ، فلا يسلط عليه(١) .

فهذه أي : عدم تمكن الدجال من قتل ذلك الشاب من الكرامات بلا شك .

* وأما العقلي ؛ فيقال : ما دام سبب الكرامة هي الولاية ، فالولاية لا تزال موجودة إلى قيام الساعة .

❁ قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك - حفظه الله :

قوله : « ومن أصول أهل السنة : التصديق بكرامات الأولياء ...» :

التصديق بكرامات الأولياء ، أي : الإيمان بأنها حق ، وهي : ما يجري الله على أيدي أوليائه من خوارق العادات في العلوم والمكاشفات والقدرة والتأثيرات ، كالذي حكاه الله عن بعض أوليائه في سورة « الكهف » ، وما جرى لهم من خوارق العادات حيث مكثوا في كهفهم ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ [الكهف : ٢٥] .

بقوا أحياء ، ولم يموتوا مع ما مضى عليهم من السنين ، ومع ذلك لما استيقظوا صاروا يتكلمون في شأنهم : ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ﴾ [الكهف : ١٩] .

وهذا خارق للعادة ، لو نام إنسان مدة طويلة هلك ومات ؛لأن جسمه يحتاج إلى الغذاء ؛ ينفد وقوده ، وتنفد طاقته ، لكن هؤلاء مكثوا هذه السنين ، ومع ذلك بقوا أحياء ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ﴾ [الكهف : ١٨] .

وكذلك ما أجرى الله على يد الخضر – على القول بأنه ولي لا نبي – من الوقائع الثلاث التي استعظمها موسى : خرق السفينة ، وقتل الصبي ، وتقويم الجدار .

كل ذلك من خوارق العادات العلمية الكشفية التي أجراها الله على يدي عبده الخضر .

فأهل السنة يؤمنون بكرامات الأولياء إجمالًا ، لكن من أصولهم الإيمان والتصديق بما ثبت وصح

(١) البخاري (٧١٣٣) ، ومسلم (٢٩٣٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

من كرامات الأولياء ، وهم بهذا يخالفون أهل البدع كالمعتزلة الذين ينكرون كرامات الأولياء .

والأخبار مستفيضة في هذا الشأن ، وقد ذكر المؤرخون أمورًا كثيرة ، ومنها ما يشاهد بين حين وآخر ، وكرامات الأولياء التي يجريها اللَّه على أيديهم لا تزال جارية من صدر هذه الأمة إلى أن تقوم الساعة ، واللَّه - تعالى - يجري كرامات الأولياء تقوية لإيمان بعضهم ، وسدًّا لحاجة بعضهم ؛ فقد يقع العبد الصالح في ضرورة ؛ فيحدث اللَّه له أمرًا خارقًا للعادة يكشف به ضرورته ، فما صح من ذلك وثبت ؛ وجب الإيمان به وتصديقه ، أما ما لم يثبت فإنه يتوقف فيه ،ونقول : إنه ممكن ، فلا نثبته ولا ننفيه .

❁ قال الشيخ صالح بن فوزان الفوزان حفظه اللَّه :

قوله : (ومن أصول أهل السنة) ؛ أى : من أصول عقيدتهم .

(التصديق بكرامات الأولياء) الكرامات جمع كرامةٍ ، وهى (ما يجرى اللَّه على أيديهم من خوارق العادات) فالكرامة أمر خارق للعادة ؛ أى : لمألوف الآدميين .

والأولياء جمع وليٍّ ، وهو المؤمن المتقى ، كما قال تعالى : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ .

سمى وليًا اشتقاقًا من الولاء ، وهو المحبة والقرب ، فولى اللَّه من والى اللَّه بموافقته فى محبوباته ، والتقرب إليه بمرضاته .

وكرامات الأولياء حقٌّ ، وقد دل عليها الكتاب والسنة والآثار المتواترة عن الصحابة والتابعين .

والناس فى كرامات الأولياء على ثلاثة أصنافٍ :

الصنف الأول : من ينفيها من المبتدعة كالمعتزلة والجهمية وبعض الأشاعرة ، وشبهتهم : أن الخوارق لو جاز ظهورها على أيدى الأولياء لالتبس النبى بغيره ؛ إذ الفرق بين النبى وغيره هو المعجزة التى هى خرق العادة .

الصنف الثانى : من يغلو فى إثبات الكرامة من أصحاب الطرق الصوفية ، والقبوريين الذين يدجلون على الناس ، ويأتون بخوارق شيطانيةٍ ، كدخول النار ، وضرب أنفسهم بالسلاح ، وإمساك الثعابين ، وغير ذلك مما يدعونه لأصحاب القبور من التصرفات التى يسمونها كراماتٍ .

الصنف الثالث : الذين ذكرهم الشيخ هنا ، وهم أهل السنة والجماعة ، فيؤمنون بكرامات الأولياء ، ويثبتونها على مقتضى ما جاء فى الكتاب والسنة .

ويردون على من نفاها بحجة منع الاشتباه بين النبى وغيره بأن هناك فوارق عظيمةً بين الأنبياء وغيرهم غير خوارق العادات ، وأن الولى لا يدعى النبوة ، ولو ادعاها لخرج عن الولاية ، وصار مدعيًا كذابًا ، لا وليًا ، ومن سنة اللَّه أن يفضح الكاذب ، كما حصل لمسيلمة وغيره .

ويردون على من غلا فى إثباتها ، فادعاها للمشعوذين والدجالين ، بأن هؤلاء ليسوا أولياء الله ، وإنما هم أولياء للشيطان ، وما يجرى عليهم ، إما كذب وتدجيل ، أو فتنة لهم ولغيرهم ، واستدراج . والله أعلم .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية فى هذا الموضوع كتاب جليل ، اسمه : (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) .

وفى قوله : (فى أنواع العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات) إشارة إلى أن الكرامة منها ما يكون من باب العلم والكشف بأن يسمع العبد ما لا يسمعه غيره ، أو يرى ما لا يراه غيره ، يقظةً أو منامًا ، أو يعلم ما لا يعلمه غيره ، ومنها ما هو من باب القدرة والتأثير .

مثال النوع الأول : قول عمر : يا سارية ، الجبل . وهو بالمدينة ، وسارية فى المشرق ، وإخبار أبى بكرٍ بأن ببطن زوجته أنثى[1] ، وإخبار عمر بمن يخرج من ولده ، فيكون عادلًا[2] ، وقصة صاحب موسى ، وعلمه بحال الغلام .

ومثال النوع الثانى : قصة الذى عنده علم من الكتاب ، وإتيانه بعرشِ بلقيس إلى سليمان عليه السلام ، وقصة أهل الكهف ، وقصة مريم ، وقصة خالد بن الوليد لما شرب السم ، ولم يحصل له منه ضرر[3] .

وقوله : (والمأثور عن سالف الأمم فى سورة الكهف ، وغيرها ، وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين ، وسائر فرق الأمة) . يشير بذلك إلى الكرامات التى وقعت وذكرت فى القرآن الكريم ، وغيره من النقول الصحيحة .

فمما ذكره الله فى القرآن الكريم عن سالف الأمم ما ذكره الله عن حمل مريم بلا زوجٍ ، وما ذكر فى سورة الكهف من قصة أصحاب الكهف ، وقصة صاحب موسى ، وقصة ذى القرنين .

(وكالمأثور) ؛ المنقول بالسند الصحيح عن (صدر هذه الأمة) ؛ أى : أولها من الصحابة والتابعين ، كرؤية عمر لجيش سارية وهو على منبر المدينة ، وسارية بنهاوند بالمشرق ، وندائه له : يا سارية ، الجبل . فسمعه سارية ، وانتفع بهذا التوجيه ، وسلم من كيد العدو .

وقوله : (وهى موجودة فيها إلى يوم القيامة) ؛ أى : لا تزال الكرامات موجودةً فى هذه الأمة إلى يوم القيامة ، ما وجدت فيهم الولاية بشروطها ، والله أعلم .

---

(١) أورده ابن حجر فى « الإصابة » (٤/٢٦١) .

(٢) « سير أعلام النبلاء » (٥/١١٦) .

(٣) أورده الهيثمى فى المجمع (٩/٣٥٠) .

❁ قال الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه الله :

قوله : « ومن أصول أهل السنة : التصديق بكرامات الأولياء » :

هذا المبحث مبحث الكلام على كرامات الأولياء يُذكرُ في كتب الاعتقاد لمخالفة المعتزلة والعقلانيين فيه ، فكرامات الأولياء يُنكرها أهل الاعتزال ومن شابههم ، وأهل السنة يُقِرُّون بها ويصدِّقون بها لما جاء من الأدلة في ذلك ، فوضَعَ أهل السنة بحث كرامات الأولياء في كتب العقيدة لمخالفة أهل السنة للفرق الضالة في ذلك .

وسبب الضلال في هذا الباب ومنشؤه عند أهل الاعتزال وغيرهم أنهم أصَّلُوا أصلًا في آيات وبراهين الأنبياء ؛ لأن آية النبي وبرهان نبوته قائم على خرقه للعادة ، فما أجرى الله من الآيات على يد الأنبياء والرسل ؛ كعصا موسى عليه السلام ، وكمسح عيسى عليه السلام للمريض والأكمه والأبرص ونحو ذلك ، وكدخول إبراهيم عليه السلام النار ، ونحو ذلك من الآيات والبراهين الدالة على صدق الأنبياء . هذه كلها العمدة فيها عند المعتزلة ومن شابههم أنها أمور خارقة للعادة .

قالوا : فإذا كان ذلك خارقًا للعادة فمعناه أن الآية قامت للنبي في نبوته ، فإذا كان هناك خوارق للعادة أُخَر يجوز أن تقع لغيرهم من السحرة والكهنة أو من الأولياء ؛ فإن النبوة تكون مشتبهة ، وليس لها دليل واضح ؛ لأن عمدة الدليل عندهم على خرق العادة ، وكرامات الأولياء خوارق للعادات ، وسحر الساحر خوارق للعادات .. وهكذا ؛ لهذا لا يصدقون بكرامات الأولياء ولا بالخوارق التي تكون على أيدي مُمَخرِقين ؛ لأن ذلك عندهم يجعل حجة النبي غير قائمة .

هذا أصل شبهتهم وأصل ضلالهم في هذا الباب ، فخالفهم أهل السنة في التأصيل وفي التفريق : خالفوهم في التأصيل من أن خرق العادة الذي ذكروه لا يُفهم على ما فهموه ، وخالفوهم من حيث التفريع ؛ فإن النصوص ثبتت في كرامات الأولياء ، والأدلة عليها كثيرة جدًّا في الكتاب والسنة ، وفيما وقع وتواتر ، وقيام الدليل القطعي العقلي من حيث التواتر بحصول ذلك في الأمم المختلفة .

وقبل أن نتكلم على الكرامات ، والأولياء ، والولي ، فإن كلمة (خوارق العاداتِ) من المهم أن تُفهَمَ فهمًا صحيحًا ، فما المراد بها ؟

الجواب : هذا اللفظ مُختَرع ؛ اخترعه المعتزلة ، وليس في نصوص الكتاب والسنة هذا الاسم (خارق للعادة) ؛ ولهذا يجب أن يُفهم بما لا يعارض النصوص ، فالمصطلحات لا بأس بإحداثها لكن تُقَيّد بما دلت عليه النصوص .

لهذا نقول في قولهم : (خارق العادة) ، كلمة (العادة) تعني عادة من ؟ فإذا فصَّلنا في (العادة) هذه عادة مَن اتضح الفرق العظيم بين آيات الأنبياء وبراهين صدق الأنبياء ، وما بين كرامات الأولياء ، وما بين خوارق السحرة والكهنة .. ونحو ذلك ، فآيات الأنبياء وبراهين الأنبياء خارقة لعادة الخلق جميعًا ،

ومن أعظمهم في ذلك الجن والإنس جميعًا ؛ ولهذا قال ﷻ : ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء : ٨٨] ، فعصا موسى عليه السلام بانقلابها حية تسعى تلقف ما يأفك أولئك السحرة ، هذه خارقة للعادة ، عادة من ؟ الجواب : عادة المخلوقات جميعًا : الجن والإنس والملائكة إلى غيرهم ، فلا يمكن أن يأتي أحد بمثل هذا إلا الله ﷻ ؛ لأن في ذلك تحويلًا وخلقًا ، وهذا إنما هو لله ، وكذلك إحياء الميت ، وإبراء الأكمه والأبرص بمسحة ، هذا ليس في عادة الإنس ولو اجتمعت أطباؤهم ، وليس في عادة الجن ولو اجتمعت حكماؤهم وأطباؤهم ، وليس في عادة أحد .

فإذن آيات وبراهين الأنبياء خارقة لعادة الجن والإنس جميعًا .

وكرامات الأولياء خارقة للعادة ، لكن عادة من ؟ هل هي عادة الجن والإنس جميعًا ؟ الجواب : لا ، لو كانت عادة الجن والإنس جميعًا لاشتبه ذلك بالنبوة ، لكن هي خارقة لعادة الناس في زمانهم ؛ ولهذا نقول : كرامات الأولياء قد تكون من جنس آيات الأنبياء ، لكن يختلف خرق العادة في هذا وهذا ، ويختلف أيضًا جنس الآية بين هذه وهذه ، فقد تشترك معها ، فإبراهيم عليه السلام دخل النار فكانت بردا وسلاما عليه ، كذلك أحد التابعين في اليمن دخل النار فلم تحرقه[1] ، فالنار هذه وهذه جنس ، لكن هذه النار تختلف عن النار التي ألقي فيها إبراهيم عليه السلام ، وأيضًا سلامة إبراهيم تختلف عن سلامة هذا ، وآية إبراهيم في ذلك في تحديهم تختلف عما وقع لهذا التابعي ، وهناك بعض آيات الأنبياء قد تكون من جنس ما يحصل من كرامات الأولياء ، لكن لا تساويها في العِظَم ، وفي التحدي بها ، وفي اضطرار الناس على أن ذلك لا يكون إلا من عند الله جل جلاله .

فإذن نقول : كرامة الولي خارقة للعادة - كما قال شيخ الإسلام هنا - لكنها خارقة لعادة الناس في زمانهم ، وليست عادة الناس في كل زمان ، فقد يتقدم الزمان ويُفعل بمثل ما فعل ولا يكون خارقًا للعادة ، مثل أن ينتقل من مكانه إلى مكان آخر في مدة وجيزة ، هذه كرامة ، كمن ينتقل من الرياض إلى مكة في ساعة في زمن ، وتكون كرامة لأنها ليست من عادة الناس ، ثم يأتي زمان بعده ويكون هذا الانتقال في هذه المدة الوجيزة هو عادة الناس وليس خارقًا للعادة .

إذن من الذي جعل ذلك للولي ؟ الجواب : الله ﷻ هو الذي جعل له ذلك ، فصارت كرامة له حصلت في هذا الزمان .

كذلك خوارق السحرة والكهنة ونحوهم هي خوارق لمن ليس منهم ، ليست للناس لكن خارقة لعادة من ليس ساحرًا ، وخارقة لعادة من ليس كاهنًا ، فصارت أظهر ؛ لأن الشياطين تساعدهم ، فالسحرة والكهنة كل منهم يمدُّه شيطان .

---

(١) هو أبو مسلم الخولاني . السير (٤/٨) .

فإذن صار هذا المُسمى (خارق للعادة) اصطلاحًا جديدًا يجب أن يُفهم على ما يتفق مع ما دلت عليه النصوص من الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة ، فالقرآن العظيم خارق للعادة ، عادة من ؟ عادة الثقلين ؛ بل وجميع المخلوقات والملائكة ؛ لهذا قال ﷻ : ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٨] ، وقال ﷻ : ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٠٩] ، فالآيات هذه من الله ﷻ . فإذن التأصيل الذي تأصل به الضُلّال من المعتزلة وغيرهم في هذا الباب بما نفوا به كرامات الأولياء مبني على مقدمة غلط ، بسبب لفظ اخترعوه ثم أخطئوا في فهمه ، ونتج عن ذلك أن قيدوه ببعض الأحوال ، وهذا من جراء عدم استيعاب فهم نصوص الشريعة .

قال : (ومنْ أصولِ أهلِ السنةِ : التصديقُ بكراماتِ الأولياءِ) ، قوله : (التصديقُ) فيه الإقرار بحصول ذلك ، قد يحصل له وقد لا يحصل ، لكن من حيث الإيمان بوقوع الكرامات للأولياء ، هم يؤمنون بذلك ويصدقون ليس في ذلك شك . لِمَ ؟ لأنه قد جاء في النصوص في الكتاب والسنة ، فالتصديق بما دلت عليه النصوص واجب من الواجبات ؛ لذلك كان من أصولهم التصديق بكرامات الأولياء .

وقوله : (كراماتِ الأولياءِ) هذه فيها كلمتان : (كرامات) وهي جمع كرامة ، و(أولياءِ) وهو جمع ولي ، والولي له معنى في اللغة وهو : المحب الناصر ؛ كما في قول الله ﷻ : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦] ، فالولي هو الناصر ، والوَلاية بالفتح هي المحبة والنصر ، أما الوِلاية بالكسر فهذه هي الإمارة ، هذا في اللغة ، فالولي هو المحب الناصر ، تقول : هذا وليي . أي : محب لي وناصر لي ، ومنه قول الله ﷻ : ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١] .

أما في الاصطلاح فالولي عند أهل السنة هو : كلُّ مؤمن تقي ليس بنبي . اشتمل التعريف على أن الولي من جهة الاسم الاصطلاحي لا يدخل فيه الأنبياء ، أما من جهة الأصل فإن الأنبياء أولياء بمعنى أنهم مؤمنون أتقياء ، لكن إذا قيل هنا : (كرامات الأولياء) فنعني بهم كرامات المؤمنين الأتقياء الذين ليسوا بأنبياء ، فلا تدخل في بحثنا براهين الأنبياء وآيات الأنبياء ، وما يحصل على أيديهم من خوارق العادات ؛ لأن الولي هنا لفظ اصطلاحي يُعنى به : كل مؤمن تقي ليس بنبي ؛ لأن الله ﷻ قال في سورة « يونس » : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣] ، فالله ﷻ جعل الأولياء هم المؤمنين الأتقياء ، فالتعريف مأخوذ من الآية بظهور ووضوح .

إذا تأملت ذلك فإن التعريف يُفهم منه أن الوَلاية تتبعض ؛ لأن الإيمان والتقوى في أهله يتبعض ، فكل مؤمن تقي ليس بنبي وليٌّ ، والإيمان يتبعض ، والتقوى تتبعض ، فينتج من ذلك أن الوَلاية تتبعض ، لكن

اسم الولي يُطلق على من كَمَّلَ الإيمان والتقوى .

فقولهم : (كل مؤمن تقي) يعني : من كَمَّلَ الإيمان والتقوى واجتهد في ذلك ، هذا هو الذي يُطلق عليه الولي ، وقد يكون هناك كرامات لمن لم يكمل الإيمان والتقوى بحسب ما يناسبه ، هذا تعريف الولي .

أما الكرامات فهي جمع كرامة ، وَفي اللغة الكرامة هي النعمة الخاصة ؛ ولهذا قال ﷻ : ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ [الفجر : ١٥] ، هذا الإكرام نعمة خاصة ، أي : إنعام خاص مزيد على الإنعام العام . أما في الاصطلاح فالكرامة عند أهل السنة هي : أمر خارق للعادة جرى على يدَيْ ولي ، وقولهم : (خارق للعادة) تُقَيد بأنه عادة الناس في زمانهم ، وليس هو عادة الجن والإنس ، بل قد تفعل شياطين الجن بأوليائهم كما يحصل للولي ، فقد تجد - مثلًا - من حيث الإمكان هذا يمشي على الماء وكأنه جَدَدٌ من الأرض يبس ، وذاك الآخر يمشي على الماء وكأنه جَدَدٌ من الأرض يبس ، وهذا يكون وليا وذاك يكون مُمَخرِقا ، يعني : خدمه شيطان .

ولهذا قال من قال من السلف : (لا تغتر بهم وإن مشوا على الماء ، أو طاروا في الهواء ، حتى يكونوا على الكتاب والسنة) ، لابد من شاهدين : الكتاب والسنة ، يعني : من حيث التزام هذا بالكتاب والسنة ، فأهل البدع والضلال قد يحصل لهم شيء من الخوارق ، ولهذا نقول : الخارق ليس ميزانا للولاية ، بل الميزان أن يكون هذا الخارق جرى على يدي مؤمن تقي .

قلنا : الكرامة أمر خارق للعادة جرى على يدي ولي ، والولي هو المؤمن التقي ، فخرج بذلك ما يجري من خوارق العادات على يدي من ليس بمؤمن تقي من أصحاب الفسق والفجور والبدع المضلة ونحو ذلك ، وهذا فيصل مهم بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان فيما يحصل لهم من خوارق العادات .

قال : (وما يُجرِي اللهُ على أيديهم منْ خوارقِ العاداتِ) ، هذا فيه أن الذي جَعلَ لهم الكرامة أو الذي أنعَمَ عليهم بالكرامة هو الله ﷻ ، فليس باختيار الولي أن تحصل أو لا تحصل ؛ بل الله ﷻ هو الذي ينعم عليه بذلك ، قد يكون لحاجته ، وقد يكون تفضلًا من غير احتياج .

فمن جهة حاجته : كالذي حصل لأحد الصحابة لما مات فرسه فدعا الله ، فقام فرسه حيًا حتى أوصله إلى أهله ؛ لأنه مات في مكان ليس فيه أحد ، ويخشى على نفسه الهلاك ، فدعا الله فأحياه له ، فلما وصل إلى بيته ودخل الدار خر الفرس ميتًا مرة أخرى .

وكذلك رؤية عمر رضي الله عنه لسارية وللجيش ، وسماع سارية لعمر ، هذا من جهة الحاجة .

وقد يكون من غير حاجة ، بأن ينعم الله ﷻ عليهم ابتداء ؛ كما حصل لسفيان الثوري والحسن البصري ، فقد كان هناك من يطلبهم من سلطان زمانهم ، فدخل الشُّرَطُ ينظرون في المنزل ويفتشون ، وكان الحسن جالسًا في صحن الدار ، وسفيان أيضًا كان جالسًا في صحن داره ، ولم ير الشُّرَطُ الحسن

ولا سفيان ، وهذا من جهة إكرام الله ﷻ وإنعامه . قال العلماء : إن الكرامة لا تدل على رفعة من حصلت له . وهذا من أصول أهل السنة من باب الكرامات ؛ وذلك لأن أكثر الصحابة ما حصلت لهم كرامات ، والكرامات في التابعين أكثر .

وقد قال بعض أئمة أهل العلم : إن كثرة الكرامات فيما بعد القرون المفضلة راجعة إلى ضعف الإيمان ؛ لأن منهم من لو لم تحصل له كرامة لشك في الله ، أو لشك في الرسالة ؛ لأنه جاهد نفسه في الإيمان والتقوى ، فلو حُرم الكرامة لحصل له شك ، وقد يكون ذلك من جهة ذنبه أو من جهة ضعف إيمانه ، فحصول الكرامة لمن حصلت له إنعام وإكرام من الله ﷻ وإجراء على يدي ذلك الولي أو من حصلت له الكرامة ، هذا لا يدل على أنه أفضل ممن لم تحصل له .

قال : (منْ خوارقِ العاداتِ في أنواعِ العلومِ والمكاشفاتِ وأنواعِ القُدرةِ والتأثيراتِ) ، ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أن كرامات الأولياء قسمان :

الأول : كرامات من جهة العلم والكشف .

الثاني : كرامات من جهة القدرة والتأثير .

أما كرامات العلم والكشف فهي إما أن تكون من جهة كشف المعلوم العقلي ، أو من جهة كشف الحجاب والغطاء عن البصر ، أو من جهة كشف الحجاب والغطاء عن السمع .

مثال الكشف البصري : ما حصل لعمر رضي الله عنه حيث كان يخطب في المدينة فرأى سارية ، ورأى جيش الفُرس ، فقال : (يَا ساريةَ الجبلَ الجبلَ) ، في حديث حسّنه وقواه الحافظ ابن حجر وغيره خلافًا لمن ضعفه ، فهذا كشف بصري من جهة عمر ، انكشف عنه الغطاء ؛ لأن البصر له حجاب ، فإذا انكشف رأى شيئًا لم يره بحجابه الموجود له ؛ كما قال ﷻ : ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق : ٢٢] ، وإذا انكشف الغطاء عن البصر بالموت رأى أشياء بروحه لم يكن يراها في الدنيا ، رأى الملائكة ، ورأى من يخاطبه ، فالكشف له أصله في الشرع . فعمر رضي الله عنه انكشف عنه غطاء البصر ، وسارية رضي الله عنه انكشف عنه غطاء السمع فسمع كلام عمر ، وعمر في المدينة وسارية في مكانه من بلاد فارس فلزموا الجبل ونجوا ، وهذا إكرام من الله جل جلاله .

أيضًا من الكشف البصري ما حصل من أبي بكر رضي الله عنه حينما نظر إلى بطن امرأته وهي حامل فقال : (أراهَا جاريةً) ، فلما ولدت بعد مدة كانت كذلك ، فهذا من كشف البصر .

فهذه الكشوف العلمية التي يُكْشَفُ للعبد بها من العلوم ما لا يكون لغيره ، هي إكرام من الله ﷻ للعبد ؛ ولهذا نقول : إن هذا النوع من الكرامات مرتبط بكلمات الله ﷻ الكونية ، وكلمات الله ﷻ الشرعية ، فارتباطه بكلماتِ اللهِ ﷻ الكونية راجع إلى الكشف البصري والسمعي ونحو ذلك ، وارتباطه بكلمات الله ﷻ الشرعية راجع إلى العلم ، فيعلم منها ما لا يعلم غيره ، وينكشف له من العلم بالنصوص

ما ليس لغيره، ويوفق حتى يكون ذلك كرامة له.

أما النوع الثاني من الكرامات: الذي في قوله: (وأنواعِ القدرةِ والتأثيراتِ) ، يعني: أن يقدر على ما لا يقدر عليه غيره، أو يؤثر بما لا يستطيع أن يؤثر به غيره، أي: يكون عنده قدرة زائدة ليست في مقدور أهل زمانه، مثل ما حصل لسعد رضي الله عنه حيث يَبِسَ الماء ومر الجيش، هذا نوع من القدرة، ومثل إحياء الفرس للصحابي هذا نوع من القدرة والتأثير.

والقدرة في قوله: (وأنواعِ القدرةِ) هو يَقْدِرُ بما يُجْرِي اللَّهُ على يديه، وإلا فليس بوسعه أن يقدر؛ لأنه خارج عن مقدوره، لكن اللَّه عز وجل يعطيه قدرة خاصة من جهة الإكرام، فصارت القدرة كرامة، والتأثير قد يكون تأثيرًا في الكونيات، وقد يكون تأثيرًا في الشرعيات.

إذن القدرة والتأثير قسمان:

* قدرة وتأثير في الكونيات.
* وقدرة وتأثير في الشرعيات.

وهذا أيضًا نؤمن به ونصدق، فمن جهة الكونيات - مثل ما سبق بيانه - ومن جهة الشرعيات ما جعل اللَّه عز وجل لبعض الناس من الكرامة في التأثير في الناس فيؤثر فيهم ويُقبل، فيكون قوله فيهم مسموعًا، وإفهامه لهم مؤثرًا، وتكون دعوته لهم نافعة، ووعظه لهم نافعًا، وقد ذكر أهل العلم عن بعض الوعاظ من العلماء أنه ربما أسلم على يديه في المجلس الواحد كذا وكذا من جراء وعظه، وتاب على يديه عشرة آلاف؛ كما ذُكر مثل ذلك في بعض مجالس ابن الجوزي رحمه الله.

هذا نوع من الكرامة في التأثير، وهو تأثير في الشرعيات، يعني: أثّر بالالتزام بالشرع وفهم الشرعيات ونحو ذلك، أو تأثير في الكونيات بالإقدار على ما لا يقدر عليه غيره.

هذا خلاصة البحث في هذا التقسيم، وهذه الجمل لها تفصيلات وتقسيمات تطلب من مظانها المطولة.

إذا تقرر ذلك، فبحث الكرامات بحث مهم، وسبق أن ذكرنا أن المعتزلة ينفون الكرامات ولا يصدقون بكرامات الأولياء، وأهل السنة يصدقون بكرامات الأولياء، وكذلك الأشاعرة يصدقون بكرامات الأولياء.

وهناك فرق بين قول أهل السنة وقول الأشاعرة:

فأهل السنة يصدقون بكرامات الأولياء، وما يُجْرِي اللَّه على أيديهم من خوارق العادات بالقيد الذي سبق بيانه: أن كرامة الولي لا تبلغ آية النبي.

والأشاعرة يقولون: كرامة الولي تساوي آية النبي، والفرق بينهما أن كرامة الولي ليست مقرونة بدعوى النبوة، وآية النبي أو كرامة النبي أو البرهان الذي يعطيه اللَّه عز وجل للأنبياء والرسل هذه المقرونة

بدعوى النبوة . فالفرق بينهما عند الأشاعرة من جهة اقتران الكرامة أو الخارق للعادة بدعوى النبوة ؛ فإن كان مع الخارق للعادة دعوى النبوة صارت آية وبرهانًا ومعجزة ، وإن خلت من دعوى النبوة صارت كرامة .

وهذا يُخالف مذهبنا وطريقتنا وقول أئمة أهل السنة في أن كرامات الأولياء لا تبلغ آيات الأنبياء ؛ ولهذا نقول : إن آيات الأنبياء وبراهين الأنبياء خارقة لمقدور جنس المخلوقات : الجن ، والإنس ، والملائكة .. إلى آخره ، أما كرامة الولي فهي محدودة : خارقة لعادة ناس زمانهم .

وخلاصة القول في مذهب أهل السنة والجماعة في كرامات الأولياء : أن كرامات الأولياء لا تتساوى ، وعدم تساويها ليس لأجل تفاضل الإيمان ، فقد يُعطى الأكمل في الولاية من الكرامة ما هو أقل مما يعطى الأقل منه إيمانًا ، وقد يُعطى من عصى شيئًا من الكرامة ، ولا يُعطاها المؤمن التقي المسدد ؛ لأجل حاجة ذاك إلى ما يقوي إيمانه ، ولطف الله ﷻ به ، وعدم حاجة ذاك .

ومن أصول أهل السنة في هذا أن أهل البدع والمحدثات والعصيان والكبائر ليسوا بأهل للكرامة ، فلا يُجرى على أيديهم خوارق للعادات ، وهذا يعني أن ما يحصل لأهل البدع من خوارق العادات إنما هو من الشياطين أو من الاحتيال ؛ ولهذا فإن شيخ الإسلام ابن تيمية لما ذُكِرت له الرفاعية – وهي طائفة صوفية منسوبة إلى أحمد الرفاعي ، المعروفة في الشام – أنهم من آياتهم التي تدل على أنهم أولياء أنهم يدخلون النار ولا تحرقهم ، فقال شيخ الإسلام : إن هناك زيتًا يباع في المشرق إذا طلي به الجسد لم تصل النار إلى الجسد ؛ فإن كانوا صادقين فليغتسلوا اغتسالًا جيدًا قبل أن يدخلوا النار . فأبوا أن يفعلوا ذلك .

هذا من جهة الاحتيال ، وقد يكون من جهة الشياطين ؛ كما يُدخل السكين في بطنه ، أو يأكل الأفعى ولا تصيبه ، ونحو ذلك ، فهذا من جهة تصوير الشياطين .

فإذن التقعيد أن ما يحصل لأهل البدع من الكرامات ليس هو كرامات ، وإنما هي خوارق شيطانية إلا في حالة واحدة ، وهي : حالة قتال أهل البدع للكفار والمشركين ، فهذه مستثناة عند أهل السنة ، وهي أن أهل البدع إذا قاتلوا المشركين والكفار فقد يُكرمون ، وقد تكون لهم كرامات ، وهذه الكرامات ليست إكرامًا لأشخاصهم ؛ لأنهم أهل بدع وعصيان وضلالات ، ولكنها إكرام لما حملوه من أصل الإسلام ؛ لهذا قال شيخ الإسلام في كتاب « النبوات » ، وفي غيره : إن أهل البدع يُعطون كرامات إذا كانوا في جهاد للمشركين إما جهاد لسان أو جهاد سنان ، ففي جهاد السنان يُعطى المبتدع كرامة ، لكن لا يدل على أن ما عليه من مخالفة الكتاب والسنة وأخذ البدع والعصيان أنه حق ؛ بل لأجل أنه يفوق بما معه من أصل دين الإسلام على ما مع أولئك من الكفر والضلال .

فإذن يكون إعطاء المبتدع في حال القتال الكرامة لأجل إظهار أن الله ﷻ أيد من على الإسلام ولو كان مبتدعًا على من هو على الكفر .

ويُمثّل لذلك بعدة أمثلة منها : قتال المبتدعة من هذه الأمة المشركين والملحدين في قديم الزمان وفي حديثه ، وهذا لأجل ما معهم من أصل الدين في مواجهة الكافر المشرك أو الملحد ، فأيدهم الله بالكرامات لبيان أن هذا الدين أعظم مما هم عليه ؛ لأجل التصديق بهذا الدين .

المواجهة بالبيان والجهاد باللسان ، فأيد الله ﷻ وأكرم بعض المبتدعة من هذه الأمة - كالمعتزلة وبعضِ الأشاعرة - في حجاجهم ومواجَهتهم لطوائف الضلال من التناسخية في الهند ، والحُلولية ، واليهود ، والنصارى ، وأصحاب الملل المختلفة ، فيؤيَّدون حال الحجاج .

إذن في حال الجهاد المسألة تختلف ، فقد يُعطى المبتدع الكرامة لا لذاته ولكن لنصرة ما معه من أصل الدين ، وهذا فرق مهم ، وكثير ممن خاض في الزمن الأخير كالذي حصل للأفغان من أمور ، من شاهدها قال : إنها كرامات . وتناقلت بين الناس ، وهناك من يُكَذِّب ذلك ويقول : هؤلاء مبتدعة ، والمبتدع لا يحصل له كرامة أصلًا . وهناك من يقول : هي كرامات ، وهذا يدل على أنهم عند الله لهم مكانة الأولياء .. ونحو ذلك . وبهذا التفصيل يُفهم الفرق بين حال الكرامة في الجهاد ، وحال الكرامة في غير الجهاد ؛ فإنه في الجهاد ليست دليلًا على أن المجاهد ولي ، بل قد يكون غير ذلك ؛ كما هو الواقع ؛ فإن الحال في أولئك أن الكثير منهم مبتدعة ، وكثير منهم عندهم شركيات وخرافات ، فما حصل لهم من الكرامات فيما نَقَلَ النقلة قد يكون لأجل تأييد ما هم عليه من أصل دين الإسلام على ما عليه أولئك الكفرة من الإلحاد والظلم العظيم .

قال : (والمأثورِ عنْ سالفِ الأممِ) ، يعني التصديق بالمأثور عن سالف الأمة (في سورةِ « الكهفِ » وغيرِهَا) سورة « الكهف » فيها قصة أصحاب الكهف ، وأن الله تعالى أنامهم في الكهف ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾ [الكهف : ٢٥] ، ومن العادة أن الإنسان لا ينام هذه النومة الطويلة ويسلم فيها ، والله ﷻ جعل ذلك كرامة لهم .

قال : (في سورةِ « الكهفِ » وغيرِهَا ، وعَنْ صدرِ هذهِ الأمةِ منَ الصحابةِ والتابعينَ وسائرِ قرونِ الأمةِ ، وهيَ موجودةٌ فيهَا إلى يوم القيامة) ، يعني : أن الكرامات لا تزال تحصل في هذه الأمة (إلى يومِ القيامةِ) ، ويقصد بيوم القيامة ما قبل قيام الساعة ، يعني : قبل هبوب الريح التي تقبض أنفاس المؤمنين ؛ لأن الكرامات مرتبطة بأهل الإيمان ، ويبقى الناس مدة طويلة لا يُقال في الأرض : الله ، الله - كما جاء في « صحيح مسلم »[1] - يعني : لا أحد يعظم الله فيقول للآخر : اتق الله اتق الله ، بل « يتهارجونَ فيها تهارجَ الحُمُرِ »[2] .

ومما يرتبط بهذا المبحث : أن أهل السنة يعتقدون أن الولي تابع للنبي ، وأنهم لا يُفَضِّلُونَ أحدًا من

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٣٧/١١٠) ، وابن ماجه (٤٠٧٥) من حديث النواس بن سمعان .

الأنبياء، ويقولون: نبيٌّ واحد أفضل من جميع الأولياء؛ كما قال الطحاوي رحمه الله في عقيدته.

وأول من أحدث القول بِخَتْمِ الوِلاية، وباحتمال أن يَفْضُلَ الولي على النبي فيما يُذكَرُ عنه: الحكيم الترمذي صاحب كتاب «نوادر الأصول»، وذلك في كتاب سماه «ختم الولاية» وعنى بها: ختم الأولياء، فذكر فيه أصولًا في هذا الباب، وكان ذلك سببًا لضلال جهلة المتصوفة والاتحادية في هذا الباب.

فقالوا: إن الولاية تُخْتَمُ كما تُخْتَمُ النبوة، وإنه يمكن أن يكون الولي أفضل من النبي. وقد تبنى هذا - والعياذ بالله - ابن عربي الطائي المعروف صاحب كتاب «الفتوحات المكية»، و«فُصُوصِ الحِكَم»، ذكره في كتابه «الفُصُوص»، وذكر أن خاتم الأولياء - قالوا: يعني بذلك نفسه - أفضل من خاتِم الأنبياء.

ولهذا كفَّرَهُ العلماء بذلك، وحكموا عليه بالزندقة؛ بل قالوا: وأي كفر أعظم من هذا حيث قال: إن النبي ﷺ مثَّلَ لبناء الأنبياء بأنه لم يبق فيه إلا لبنة، فكان هو ﷺ تلك اللبنة. قال: وخاتم الأولياء يَنظُرُ نفسه في موضع لبنتين، لَبِنَة في الظاهر ولَبِنَة في الباطن، فلبنة الظاهر تتابع رسم الشريعة، ولبنة الباطن تَستَقي من المَعْدن الذي يَستَقِي منه المَلَكُ الذي أوصل الخبر إلى النبي.

وقد ألَّفَ ابن عربي هذا كتابًا فيه الأحاديث التي يرويها عن ربنا ﷻ مباشرة، وهو مطبوع سمَّاه الأربعين عن رب العالمين، فكانت هذه هي جهة التفضيل.

ولذلك تجد أن هؤلاء يرون أنهم سقطت عنهم التكاليف؛ لأنهم خوطبوا بما لم يُخاطب به غيرهم، وأنهم في الظاهر يتبعون، لكن في الباطن هم معذورون أو لهم شريعتهم الخاصة.

وهذا لا شك أنه زندقة، وهو الذي ذكره إمام هذه الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في «نواقض الإسلام»، فقد كان كثير من الناس في نجد وما حولها وفي الحجاز وفي البلاد الإسلامية الأخرى إلى يومنا يعتقد أنه يَسَعُهُ الخروج عن شريعة محمد ﷺ كما وَسِعَ الخضر الخروج عن شريعة موسى عليه السلام، ويعنون بذلك ختم الولاية.

إذا تبين ذلك، فإن الكرامة لا تحصل لمن كان مبتدعًا مقيمًا على بدعته، ولا لصاحب كبائر؛ بل الولي هو الذي يُتابع الكتاب والسنة، فلا يُغْتَرّ بما يجري لأهل البدع والمعاصي من الخوارق؛ لأنهم ليسوا أولياء لله ﷻ وليس ذلك برهان الولاية، بل برهان الولاية أن يتابع القرآن والسنة وأن يحكِّم السنة على نفسه ظاهرًا وباطنًا بقدر الاستطاعة.

ولهذا قالوا: تحصل مخاريق من الشياطين والجن لأهل البدع والمعاصي ليغووا الناس بهذا حتى يذهبوا عن السنة.

وهذا هو الذي حصل؛ فإن الفرق المختلفة الذين ضلوا في هذا الباب أغوتهم الشياطين وجعلت لهم

ما يشبه الكرامات ، فاغتر الناس ، وقالوا : هذه كرامات . وهي في الواقع من جهة الشياطين ، وقد تأتي بصورته ، وقد يكون هو في أكثر من محل في نفس الوقت ، مثل ما يقال : فلان رُئي بدمشق يوم عيد الأضحى مثلًا ، ورئي بمنى أيضًا يرمي الجمرة ذلك اليوم . أو يقال : فلان رحمه الله خطب الجمعة في سبعة مساجد ، أي : شهد الناس بأنه خطب هنا ، وخطب هنا ، وخطب هنا ، وخطب هنا ، ويقول الشعراني عن هذا الذي خطب في أكثر من موضع : وكان رحمه الله يتلو آيات ليست في القرآن .

وهذا ضلال فوق الضلال ، يتلو آيات ليست في القرآن ؛ لأنهم يعتقدون أنه يصل إلى أنه يكلمه الله عز وجل فأعطاه آيات ليست في القرآن .

وهذا لا شك أنه كفر وزندقة وخروج عن الملة ، فالكرامة لا يُؤتاها إلا المتابعون للكتاب والسنة المؤمنون الأتقياء .

فما يحصل لأهل البدع والضلال والعصيان من خوارق للعادات هي من جهة الشياطين لتغوي الناس ، بل قد تتمثل الشياطين بالصالحين في أكثر من مكان حتى تُضِل الناس ، مثلما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في أكثر من موضع في كتبه : إن شياطين الجن قد تتمثل بصورة الآدمي ، حتى إنها تتمثل بصور الأحياء والأموات ، وقال رحمه الله : وأعرف من ذلك ما يطول وصفه في قوم استغاثوا بي أو بغيري ، وذكروا أنه أتى شخص على صورتي أو صورة غيري وقضى حوائجهم ، فظنوا أن ذلك من بركة الاستغاثة بي أو بغيري ، وإنما هو شيطان أضلهم وأغواهم . انتهى كلامه رحمه الله .

فنجد أن كثيرًا من الناس يزعم أن فلانًا رُئي في دمشق ، أو رُئي في مصر ، أو بغداد ، أو المدينة ، وفي الوقت نفسه رُئي حاجًا أو معتمرًا في مكة ، ومن المعلوم القطعي عند أهل العقول الصحيحة أنَّ الجسم الواحد لا يكون في مكانين متباعدين في الزمن نفسه ، ومن قال : إنه رآهم هنا ورآهم آخر هناك ؛ كأن يراهم أهل المدينة ويراهم أهل مكة في الوقت نفسه ، قد يكون هؤلاء صادقين وهؤلاء صادقين ، ولكن جاء الاشتباه من جهة تمثل الجني بالإنسي ، فمن أخبر بالرؤية فهو صادق ، ولكن لا يمكن أن يكون ابن آدم في مكانين متباعدين في وقت واحد ، ولكن الجني تمثل بصورته ليضل الناس .

يحصل هذا كثيرا ، ولهذا نقول : إن الشيطان إذا كان يتمثل في صورة العبد الصالح فقد يتمثل في صورة المبتدع ليضل الناس أكثر ؛ فلهذا يقول أهل العلم : الخوارق ثلاثة أنواع :

الأول : ما يحصل للأنبياء ، وهذه آيات وبراهين .

الثاني : ما يحصل للأولياء ، وهذه كرامات .

الثالث : ما يحصل لأهل العصيان والمبتدعة وأهل الضلال أو السحرة أو الممخرقين ، وهذه خوارق شيطانية .

ومن المباحث المتعلقة بهذا الباب أيضًا مبحث الفراسة ، والفراسة ثلاثة أنواع :

فراسة خَلْقية : هذه الفراسة هي التي كُتبت فيها المؤلفات التي تسمى كتب الفراسة ، يعني يستدلون بالخَلْق على الخُلُق : يستدلون بالخَلْق على الصفات ، فيستدلون بصغر العينين على ذكائه من عدمه ، ويستدلون بكبر الرأس على ذكائه من عدمه ، ويستدلون بسعة الصدر عن حلمه وعدم حلمه ، ويستدلون بوَفْرة جسمه على كذا من كذا ، ويستدلون بتقاطيع وجهه ، وبعرض جبهته ، وبشموخ أنفه ، وبسعة وجهه ، وطول وجهه ، ولون الشعر ، ولون العينين ... إلى آخره ، هذه أُلفت فيها مؤلفات كثيرة ، حيث يستدلون على أخلاق هذا المتصف بتلك الصفات .

فهذه الفراسة الخَلْقية راجعة إلى تجارب الناس ، منها ما هو حق ، ومنها ما هو باطل ؛ لذلك فإن ما فيها لا يجوز أن يُعتمد بإطلاق ، كذلك لا يُرد بإطلاق ، لأنّ فيه ما هو من الحق ، وفيه ما ليس من الحق .

ومن العلماء من كان يغلو في مثل هذه فيعتمدها ، مثل ما يذكر - وهو صحيح - عن الشافعي ﷺ ، فإنه تعلم هذا النوع من الفراسة وأكثر فيها جدًّا ، حتى ربما اشتُري له الشيء من أحد فسأل عن صفته ، فربما لم يطعم الطعام لأجل صفته ، فقد روى الربيع بن سليمان قال : (اشتريت للشافعي طيبًا بدينار ، فقال لي : ممن اشتريت ؟ فقلت : من ذلك الأشقر الأزرق ، فقال : أشقر أزرق رده رده) . وأشباه ذلك .

هذا نوع من التشاؤم وإن كان وقع فيه بعض الأئمة من أهل العلم ، لكنه شيء يغلب على النفس ، وكلٌّ يؤخذ من قوله ويُرد ، فبعض العلماء كان يكثر من هذا ويستعمله في حياته ، وهذا لا ينبغي ، فإن الصحابة رضوان الله عليهم كانت صفاتهم مختلفة ، منهم من كان دقيقًا قصيرًا جدًّا ، ومنهم من كان طويلًا ، ومنهم من كان كبير الرأسِ ، ومنهم من كان صغير الرأس ، ومنهم من كان صغير العينين ... إلى آخر هذه الصفات التي يزعمون ، وكانوا في مقامات الإيمان والصلاح .

النوع الثاني : فراسة علمية إيمانية ، وهذه الفراسة العلمية تسمّى فراسة ؛ لأنّ العلم الصحيح يأتي لصاحبه كوُثوب صاحب الفرس عليه ، ودنو صاحب الفرس منه وتمكنه من ذلك ، فيأتيه من العلم والإلهام ما يعلم به الحق ، وهذا النوع من الفراسة هو الذي يكون كرامة من الكرامات ؛ ولهذا يبحث العلماء بحث الفِراسة وأنواعها في مبحث كرامات الأولياء لأجل هذا النوع ، فقوله ﷺ : « اتَّقُوا فِراسَةَ المُؤْمِنِ فإنه يَنْظُرُ بنورِ اللهِ »[1] ، يعني : هذا النوع من الفراسة في الأمور الراجعة إلى علمه بالأشياء : علمه بما في نفس صاحبه ، ينظر إليه فيعلم ما يجول بخاطره ، يعلم أنه يفكر في كذا ... وأشباه هذا ، وهذا من النور الذي يقذفه الله ﷻ في قلب المؤمن .

لكن هذا لا يسوغ أن يُجعل دليلًا على الحكم ، بل هذا خاطر يأتي للقلب ويهجم عليه ، ويكون في أهل الولاية وأهل الإيمان الصحيح والتقوى فراسةً ، لكن لا يسوغ لصاحبه أن يحكم به وأن يستعمله ،

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٢٧) من حديث أبي سعيد الخدري . وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٦٠٧) .

فيظن بالناس الظنون لأجل هذه الفراسة، أو يحمدهم لأجل هذه الفراسة، لأن هذه الفراسة دليل ناقص؛ قد تكون من نور الله ﷻ وقد لا تكون، فالمرء لا يزكي نفسه فلا يدري هذا الخاطر الذي هجم عليه هل هو من نور الله ﷻ، أو هو من الظن السيئ، أو هو من الظن الحسن الذي فيه تزكية لغيره، وأشباه ذلك مما لا يسوغ.

فله أن يستعمله من جهة الاحتياط والمعرفة، لكن ليس له أن يحكم به إلا في بعض الأحوال التي يقوى فيها حيث يكون عنده يقين بذلك.

قال ﷺ: «قد كان يكونُ في الأمَمِ قبلكمْ مُحَدَّثونَ - أي: ملهمون - فإنْ يَكُنْ في أمتي منهم أحدٌ فإن عمرَ بن الخَطَّابِ منهم»[1].

وهذا النوع من الفراسة من جنس الكرامات، بل هي كرامة، ولهذا فإن أهل العلم يبحثون الفراسة إذا بحثوا الكرامة، فمبحث الفراسة في كتب العقيدة بعد كرامات الأولياء؛ لأنها نوع من أنواع الكرامة.

النوع الثالث: الفِراسة الرياضية، ويدخل فيها القافة وأشباه ذلك، والقافة منهم من يعلم الأشكال فيلحق هذا بأبيه، ومنهم من يعلم الأثر، وبعض قبائل العرب معروف فيها هذا الأمر؛ كبني مُرَّة ونحوهم يعرفون مِنْ وطء القدم هو من أي قبيلة! ويعرفون مِنْ وطء القدم هل الواطئ رجل أم امرأة، وهل المرأة حائض أم طاهر، وهذا يسمى القيافة وتتبع الأثر، هذا علم خاص يتداولونه فيما بينهم، وهو صحيح دلت التجارب على صحته، والشريعة جاء فيها الحكم بالقيافة، فالقائف يُحكم بقوله في المسائل التي يحتاج فيها إلى قائف، مثل تنازع الأنساب وأشباه ذلك.

والنبي ﷺ كان عنده زيد بن حارثة وابنه أسامة بن زيد مضطجعان، وقد غطيا وجهيهما وبدت أقدامهما، فجاء رجل من القافة فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض. فسُرَّ بذلك النبي ﷺ وبرقت أسارير وجهه ﷺ لمحبته لأسامة وأبيه رضي الله عنهما[2].

فهذا النوع يحكم به شرعًا ويصير القاضي إليه، وهو من حيث الظاهر أقوى أنواع الفراسة، يعني: من حيث الحكم الظاهر، أما الباطن فالثاني الذي هو فراسة المؤمن، والأول قد يكون أو لا يكون.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٩٨/٢٣) من حديث عائشة.

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٣١، ٦٧٧٠)، ومسلم (١٤٥٩/ ٣٩، ٤٠)، وأبو داود (٢٢٦٧)، والترمذي (٢١٢٩)، وابن ماجه (٢٣٤٩) من حديث عائشة.

الأسئلة

❁ قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان ﷺ :

الكرامة :

س١- ما هي الكرامة ؟ وهل هي تدل على صدق من ظهرت على يديه أو ولايته أو فضله ؟

ج- هي أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى للنبوة ، ولا هو مقدمة يظهر على يد عبد ظاهره الصلاح ، ملتزم المتابعة ، مصحوبًا بصحة الاعتقاد والعمل الصالح علم بها أو ما لم يعلم ، ولا تدل على صدق من ظهرت على يديه ولا ولايته ، ولا فضله على غيره لجواز سلبها ، وأن تكون استدراجًا .

س٢- ما الفرق بين المعجزة والكرامة والأحوال الشيطانية ؟

ج- المعجزة مقرونة بدعوى النبوة ، والكرامة غير مقرونة بدعوى النبوة ، وأما الأحوال الشيطانية فهي التي تظهر على أيدي المنحرفين ممن يدعي مع الله إلهًا آخر ؛ وكالسحرة والكهنة ، والمشعوذين ؛ لأن الكرامة لا بد أن تكون أمرًا خارقًا للعادة أتى ذلك الخارق عن امرئ صالح مواظب على الطاعة ، وتارك للمعاصي .

س٣- ما هو مذهب أهل السنة والجماعة في الكرامة ؟

ج- التصديق الجازم بكرامات الأولياء ، وإنها حق ، وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات في العلوم والمكاشفات ، وأنواع القدرة والتأثير ؛ كالمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها ، وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين ، وإنما أنكرها أهل البدع من المعتزلة والجهمية ، ومن تابعهم لكن كثيرًا ممن يدعيها يكون ملبوسًا عليه .

س٤- اذكر شيئًا من أنواع العلم والقدرة والتأثير ؟

ج- أما العلم والأخبار الغيبية والسماع في الرؤية ، فمثل إخباره ﷺ عن الأنبياء المتقدمين ، وأممهم ، ومخاطبته لهم ، وكذلك إخباره عن أمور الربوبية ، والملائكة ، والجنة والنار بما يوافق الأنبياء قبله من غير تعلم منهم ، ويعلم أن ذلك موافق لقول الأنبياء تارة بما في أيديهم من الكتب الظاهرة ونحو ذلك من النقل المتواتر ، وتارة بما يعلمه الخاصة من علمائهم ، وأما القدرة والتأثير فكانشقاق القمر ، وكذا معراجه ﷺ إلى السماوات ، وكثرة الرمي بالنجوم عند ظهوره ، وكذلك إسراؤه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وكتكثير الماء في عين تبوك ، وعين الحديبية ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وكذا تكثير الطعام ونحو ذلك .

س٥- اذكر شيئًا من خوارق العادة لغير الأنبياء من باب العلوم والمكاشفات ؟

ج- مثل قول عمر في قصة سارية وهو على المنبر ، ورؤيته لجيش سارية فقال : يا سارية الجبل ؛

تحذيرًا له من العدو ومكره له من وراء الجبل ، وسماع سارية مع بعد المسافة ؛ لأن عمر بالمدينة ، والجيش بنهاوند .

وكإخبار أبي بكر أن في بطن امرأته أنثى ، وإخبار عمر عمن يخرج من ولده فيكون عادلًا ، وقصة صاحب موسى وعلمه بحال الغلام ونحو ذلك .

س٦- ما مثال ما كان من باب القدرة والتأثير لغير الأنبياء ؟

ج- مثل قصة أصحاب الكهف ، وقصة مريم ، والذي عنده علم من الكتاب ، وكما في قصة العلاء بن الحضرمي من الصحابة ﷺ ؛ فإنه لما ذهب إلي البحرين سلكوا مفازة وعطشوا عطشًا شديدًا حتى خافوا الهلاك ، فنزل فصلى ركعتين ، ثم قال : يا حليم ، يا عليم ، يا علي ، يا عظيم ، اسقنا ، فجاءت سحابة فأمطرت حتى ملئوا الآنية ، وسقوا الركاب ، ثم انطلقوا إلى خليج من البحر ما خيض قبل ذلك اليوم ، فلم يجدوا سفنًا فصلى ركعتين ، ثم قال : جوزوا باسم اللَّه ، قال أبو هريرة فمشينا على الماء فواللَّه ما ابتل لنا قدم ، ولا خف ، ولا حافر ، وكان الجيش أربعة آلاف ، والطيران في الهواء كما في قصة جعفر بن أبي طالب ذو الجناحين رضي اللَّه عنه ، وكجريان النيل بكتاب أمير المؤمنين عمر رضي اللَّه عنه ، وكشرب خالد بن الوليد السم من غير أن يحصل ضرر ، وكما جرى لسعد بن أبي وقاص في القادسية ، ومرورهم على الماء بجنودهم ، وأسيد بن حضير ، ونزول الظلة عليه بالليل فيها مثل السرج ، إلى غير ذلك مما يطول ذكره ، وفي هذا كفاية ، واللَّه أعلم .

س٧- هل عدم الكرامة نقص في دين الإنسان ومرتبته عند اللَّه ؟

ج- اعلم أن عدم الخارق علمًا وقدرة لا يضر المسلم في دينه ، فمن لم ينكشف له شيء من المغيبات ، ولم يسخر له شيء من الكونيات لا ينقصه ذلك في مرتبته عند اللَّه ؛ بل قد يكون عدم ذلك أنفع له في دينه إذا لم يكن وجود ذلك مأمورًا به أمر إيجاب ولا استحباب .

س٨- ما الذي يستفاد من الكرامة ؟ وهل هي مستمرة ؟

ج- يُستفاد منها : أولًا : كمال قدرة اللَّه ، ونفوذ مشيئته ، وأنه كما أن للَّه سننًا وأسبابًا يقتضي مسبباتها الموضوعة لها شرعًا وقدرًا ؛ فإن للَّه سنن أخرى لا يقع عليها علم البشر ، ولا تدركها أعمالهم وأسبابهم .

ثانيًا : أن هذه الكرامة بالحقيقة دلالة على رسالة الرسول الذي اتبعه من أتت على يديه ؛ لأنها لم تحصل له إلا ببركة متابعته له .

ثالثًا : قيل : إنها من المبشرات التي يعجلها اللَّه لمن أتت على يديه ، وهي باقية إلى قيام الساعة .

❁ ❁ ❁

« فَصْلٌ »

في صفاتِ أهلِ السنةِ والجماعةِ ، ولِمَ سُمُّوا بذلك

ثم مِن طريقةِ أهلِ السنةِ والجماعةِ اتِّباعُ آثارِ رسولِ اللَّهِ ﷺ باطنًا وظاهرًا ، واتِّباعُ سبيلِ السابقين الأوَّلين مِن المهاجرين والأنصارِ ، واتِّباعُ وصيةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ حيث قال : « عليكم بسُنَّتي وسنةِ الخلفاءِ الراشدين المَهْدِيِّين مِن بعدِي ، تَمَسَّكوا بها ، وعَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ ، وإياكم ومُحْدثاتِ الأمورِ ؛ فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ » .

ويعْلَمون أن أصدقَ الكلامِ كلامُ اللَّهِ ، وخيرَ الهديِ هَدْيُ محمدٍ ﷺ ، ويُؤْثِرون كلامَ اللَّهِ على غيرِه مِن كلامِ أصنافِ الناسِ ، ويُقَدِّمون هديَ محمدٍ ﷺ على هديِ كلِّ أحدٍ ، ولهذا سُمُّوا أهلَ الكتابِ والسنةِ .

وسُمُّوا أهلَ الجماعةِ ؛ لأن الجماعةَ هي الاجتماعُ ، وضدُّها الفُرْقةُ ، وإن كان لفظُ الجماعةِ قد صار اسمًا لنفسِ القومِ المُجْتَمِعين .

والإجماعُ هو الأصلُ الثالثُ الذي يُعْتَمَدُ عليه في العلمِ والدينِ ، وهم يَزِنُونَ بهذه الأصولِ الثلاثةِ جميعَ ما عليه الناسُ مِن أقوالٍ وأعمالٍ باطنةٍ أو ظاهرةٍ ، مما له تَعَلُّقٌ بالدينِ .

والإجماعُ الذي يَنْضَبِطُ هو ما كان عليه السلفُ الصالحُ ؛ إذ بعدَهم كثُر الاختلافُ ، وانْتَشَرت الأُمَّةُ .





الشـــرح

❁ **قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله :**

قوله : « اتباع آثار رسول الله ﷺ باطنًا وظاهرًا .....» :

لما ذكر طريقة أهل السنة في مسائل الأصول المعينة ذكر طريقهم الكلي في أخذ دينهم ، أصوله وفروعه ، وأنهم سلكوا في ذلك الصراط المستقيم والعصمة النافعة - الكتاب والسنة - واتبعوا أعظم الناس معرفة وعلمًا واتباعًا للكتاب والسنة ؛ وهم الصحابة رضي الله عنهم عمومًا والخلفاء الراشدون خصوصًا ، فسلكوا إلى الله مستصحبين لهذه الأصول الجليلة ، وما جاءهم مما قاله الناس وذهبوا إليه من المقالات وزنوه بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة والقرون المفضلة ؛ فاستقامت طريقتهم وسلموا من بدع الأقوال المخالفة لما عليه الرسول وأصحابه في الاعتقادات ، كما سلموا من بدع الأعمال ؛ إذ لم يتعبد [1] ولم يشرعوا إلا ما شرعه الله ورسوله .

❁ **قال الشيخ عبد العزيز بن محمد بن مانع رحمه الله :**

قوله : « والإجماع هو الأصل الثالث » :

وأما الأصل الأول : فهو القرآن ، وأما الثاني : فهو سنة النبي عليه السلام .

❁ **قال الشيخ محمد خليل هراس رحمه الله :**

قوله : (من طريقة أهل السنة) إلخ : **هذا بيان لمنهج أهل السنة والجماعة فى استنباط الأحكام الدينية كلها أصولها وفروعها ، بعد طريقتهم فى مسائل الأصول .**

وهذا المنهج يقوم على أصول ثلاثة :

أولها : **كتاب الله ﷻ الذى هو خير الكلام وأصدقه ، فهم لا يقدمون على كلام الله كلام أحد من الناس .**

وثانيها : **سنة رسول الله ﷺ وما أثر عنه من هدى وطريقة ، لا يقدمون على ذلك هدى أحد من الناس .**

وثالثها : **ما وقع عليه إجماع الصدر الأول من هذه الأمة قبل التفرق والانتشار وظهور البدعة والمقالات ، وما جاءهم بعد ذلك مما قاله الناس وذهبوا إليه من المقالات ووزنوها بهذه الأصول الثلاثة التى هى الكتاب والسنة والإجماع ، فإن وافقها قبلوه وإن خالفها ردوه أيًا كان قائله ، وهذا هو المنهج الوسط ، والصراط المستقيم الذى لا يضل سالكه ، ولا يشقى من اتَّبعه ، وسط بين من يتلاعب بالنصوص فيتأول الكتاب وينكر الأحاديث الصحيحة ، ولا يعبأ بإجماع السلف ، وبين من يخبط خبط عشواء فيتقبل كل رأى ويأخذ بكل قول لا يفرق فى ذلك بين غث وسمين وصحيح وسقيم .**

❁ قال الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ رحمه الله :

« ثم من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع آثار رسول الله باطنًا وظاهرًا » اعتقادًا في الاعتقادات ، وأقوالًا في الأقوال ، وأفعالًا في الأفعال .

فما أثر عنه وما جاء عنه أقسام : قسم من قوله ، وقسم من فعله ، وقسم من إقراره ، فنتبع ما قال ، ونقرر ما قرر ، ونفعل ما فعل ، فهذا أصل عظيم وباب كبير من أبواب الدين .

« وَ »كذلك من أصول أهل السنة مع ذلك : « اتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار » ، ومعرفة ما هم عليه والأخذ بهديهم ؛ كما قال ﷺ : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ...» الحديث[1] .

« واتباع وصية رسول الله ﷺ » هذا من عطف الخاص على العام ، ومن أصولهم أيضًا : اتباع وصية رسول الله ﷺ ، « حيث قال : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها » » ؛ يعني : شدوا بها ، « « وعضوا عليها بالنواجذ » » ؛ يعني : امسكوا عليها بالنواجذ الأربع ، فإن الشيء النفيس لا يُكتفى بإمساكه باليد فقط .

« وإياكم ومحدثات الأمور » حرض على التمسك بما تقدم ، وحذر مما أحدث بعده مما يتعبد به ، فإن الذي لم يكن على زمنه وأصحابه والسلف الصالح والصدر الأول ، فما جاء به فهو البدعة المحضة ، لو كان خيرًا لسبقونا إليه ؛ « اتبعوا ولا تبتدعوا ؛ فقد كفيتم » .

فإذا لم يكن في القرآن ، ولم يكن من المأثور عن النبي ﷺ ، ولا عن الصحابة والتابعين والصدر الأول ؛ فهو بدعة .

« فإن كل بدعة ضلالة » ، البدعة في قول عمر رضي الله عنه : « نعمت البدعة » ، مراده من حيث اللغة ، وإلا فأصلها معروف زمن النبي ﷺ ، أما تقسيم بعضهم البدعة إلى خمسة أقسام فهذا غير مُسَلَّمٍ ؛ بل البدعة الذي لا يسوغها الشرع فهي بدعة ضلالة ، وما كان لها ما يخولها من الدين ويدل عليها فليست بدعة ضلالة ، بل بدعة لغوية .

« ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله » ؛ كما قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ ، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ ، ويرون أن فضل كلام الله على كلام خلقه ، كفضل الله على خلقه .

« وخير الهدي هدي محمد ﷺ » هديه وسيرته خير الهدي والسيرة ، فلا هدي ولا سيرة خير من هديه وسيرته .

« ويؤثرون كلام الله على غيره من كلام أصناف الناس » ، فلا يعدلون كلام رب العالمين بكلام

---

(١) أبو داود (٤٦٠٧) ، والترمذي (٢٦٧٦) ، وابن ماجه (٤٢) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « صحيح سنن أبي داود » (٤٦٠٧) .

غيره كائنًا من كان .

« ويقدمون هدي محمد ﷺ على هدي كل أحد » كذلك من أصول أهل السنة : تقديم هدي النبي ﷺ على هدي كل أحد ، ولا يعبئون بهدي ما سواه وإن تباعدت بهم الأوطان .

« ولهذا » ولأجل كونهم لا يفضلون على كلام الله كلام غيره ، ولا يقدمون هدي أحد على هدي محمد ﷺ .

« سموا أهل الكتاب والسنة » مما تقدم من إيثارهم طريق الكتاب والسنة ، وإيثارهم كلام الله على غيره من أصناف الناس ، سموا أهل الكتاب والسنة .

« وسموا أهل الجماعة ؛ لأن الجماعة : هي الاجتماع ، وضدها الفرقة » ؛ لأنه يجمعهم شيء واحد ، وهو اجتماعهم على الحق ، وهو الأخذ بالكتاب والسنة ، والمنع بالكتاب والسنة ، فمن صار كذلك ؛ فهو من أهل الجماعة .

« وإن كان لفظ الجماعة قد صار اسمًا لنفس القوم المجتمعين » سواء كانوا قليلين أم كثيرين فهم الجماعة ، ولو كان واحدًا فهو الجماعة في الحقيقة ، كما سمى الله إبراهيم أمةً .

« والإجماع : هو الأصل الثالث الذي يُعتمد في العلم والدين » فهذه الأصول الثلاثة المجمع عليها ، فإن كل واحد منها حجة ، الكتاب السنة والإجماع ؛ كما قال تعالى : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ ، وهناك أصول مختلف فيها كالقياس .

« وهم » ؛ يعني : أهل السنة « يزنون بهذه الأصول الثلاثة جميع » ما جنسه قربة مـ « ما عليه الناس من أقوال وأعمال باطنة أو ظاهرة » ما كان راجحًا فهو راجح ، وما كان مرجوحًا فهو مرجوح ، وما لم يعلم رجحانه ولا مرجوحيته ، فإذا أمكن ردّه إلى الكتاب والسنّة ، وكذلك مسألة الحلال والحرام كما تقدم ، فإن الأصول المعتمد عليها ثلاثة : الكتاب ، والسنة ، والإجماع .

« مما له تعلق بالدين » خاصة مما جنسه يتعبد به إلى الله من فعل أو ترك - إما من تحريمه أو تحليله - أما من جهة الأمور العادية فهذا لا مدخل له فيه .

و« الإجماع الذي ينضبط : هو ما كان عليه السلف الصالح » والذين يلونهم ؛ وذلك لكرامة هذه الأمة ، وأنها لا تجتمع على ضلالة ، وإذا قيل : واحتج ؛ فهو إجماع .

« وبعدهم كثر الاختلاف ، وانتشرت الأمة » في قضاء المعمورة ، فلا يمكن أن يحصل إجماع إلا ما حصل في ذلك الوقت ، فهي أوطان محصورة معروفة ، وهي أمصار الإسلام الشهيرة ، وهي كانت مرجعًا للدين ، وبعدهم لا يقال : أجمع العلماء على كذا ؛ لأنه لا ينضبط .

۞ قال الشيخ زيد بن عبد العزيز آل فياض رحمه الله :

☐ فصل في طريقة أهل السنة والجماعة :

قوله : « ثم من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع آثار رسول الله باطنًا وظاهرًا ، واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ...» :

* ثبت في مسند الإمام أحمد وجامع الترمذي عن حذيفة قال : كنا عند النبي ﷺ فقال : « إني لا أدري ما بقائي فيكم ، فاقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر ، وتمسكوا بعهد عمار ، وما حدثكم ابن مسعود فصدقوه »[1].

وفي رواية : « فتمسكوا بعهد ابن أم عبد واهتدوا بهدي عمار » ، وعن العرباض بن سارية قال : صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب ، فقال قائل : يا رسول الله ، كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا ؟ فقال : « أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة وإن عبد حبشي ، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة »[2]. رواه أحمد والترمذي وصححه ورواه ابن ماجه وزاد : « فقد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك » .

وقال عبد الله بن مسعود : اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم ، وقال ابن الماجشون سمعت مالكًا يقول : من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة ، فقد زعم أن محمدًا خان الرسالة ؛ لأن الله يقول : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ، فما لم يكن يومئذ دينًا لا يكون اليوم دينًا . وقال الشافعي : من استحسن . يعني : بدعة فقد شرَّع . فأمر ﷺ بلزوم سنته وسنة الخلفاء الراشدين عند وقوع الاختلاف في الأمة في أصول الدين وفروعه .

والسنة : هي الطريق المسلوك ، فيشمل ذلك التمسك بما كان عليه هو وخلفاؤه الراشدين من الاعتقادات والأعمال والأقوال ، وهذه هي السنة الكاملة ، ولهذا كان السلف قديمًا لا يطلقون اسم السنة إلا على ما يشمل ذلك كله ، وكثير من المتأخرين يخص اسم السنة بما يتعلق بالاعتقاد ؛ لأنها أصل الدين والمخالف فيها على خطر عظيم .

وفي أمره ﷺ باتباع سنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده ، وأمره بالسمع والطاعة لولاة الأمور عمومًا دليلٌ على أن سنة الخلفاء الراشدين متبعة ، كاتِّباع السنة بخلاف غيرهم من ولاة الأمور .

والخلفاء الراشدين الذين أمرنا بالاقتداء بهم هم ؛ أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، فإن في حديث

---

(١) أحمد (٥/٣٨٥) ، والترمذي (٣٧٩٩) ، وابن ماجه (٩٧) ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٢٥١١) .

(٢) تقدم تخريجه .

سفينة عن النبي ﷺ : « الخلافة ثلاثون سنة ، ثم تكون ملكًا »[1] ، وقد صححه الإمام أحمد ، واحتج به الأئمة الأربعة ، ونص كثير من الأئمة على أن عمر بن عبد العزيز خليفة راشد أيضًا ، وقد اختلف العلماء في اجتماع الخلفاء الأربعة : هل هو إجماع أو هو حجة مع مخالفة غيرهم من الصحابة أم لا ؟ وفيه روايتان عن الإمام أحمد . ولو خالف أحد الخلفاء غيره من الصحابة ، فهل يقدم قوله على قول غيره فيه أيضًا قولان للعلماء ، والمنصوص عن الإمام أحمد : أنه يقدم قوله على قول غيره من الصحابة ، وكلام أكثر السلف يدل على ذلك .

وإنما وصف الخلفاء بالراشدين ؛ لأنهم عرفوا الحق وقضوا به . والراشد ضد الغاوي ، والغاوي من عرف الحق وعمل بخلافه ، وفي رواية المهديين يعني : أن الله يهديهم للحق ولا يضلهم عنه ، والضال الذي لم يعرف الحق بالكلية .

فالأقسام ثلاثة : راشد وغاو وضال ؛ وكل راشد فهو مهتد ، وكل مهتد هداية تامة فهو راشد ؛ لأن الهداية إنما تتم بمعرفة الحق والعمل به أيضًا ، قوله : « عضوا عليها بالنواجذ » . كناية عن شدة التمسك بها ، والنواجذ : الأضراس ، وقوله : « وإياكم ومحدثات الأمور » تحذير للأمة من إتباع المبتدعة ، وأكد ذلك بقوله : « كل بدعة ضلالة » ، والمراد بالبدعة ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه ، وأما ما كان له أصل الشرع يدل عليه ، فليس ببدعة شرعًا وإن كان بدعة لغة .

فكل من أحدث شيئًا ونَسَبَهُ إلى الدين ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه ، فهو ضلالة والدين بريء منه ، وسواء في ذلك مسائل الاعتقادات أو الأعمال أو الأقوال الظاهرة والباطنة .

وأما ما وقع من استحسان بعض البدع ، فإنما ذلك في البدع اللغوية لا الشرعية ، فمن ذلك قول عمر رضي الله عنه : لما جمع الناس في قيام رمضان على إمام واحد في المسجد ، وخرج ورآهم يصلون كذلك قال : نعمت البدعة هذه . ورُوِيَ أن أبي بن كعب قال له : إن هذا لم يكن . فقال عمر : قد علمت ولكنه حسن . ومراده : أن هذا الفعل لم يكن على هذا الوجه قبل هذا الوقت ، ولكن له أصل في الشريعة يرجع إليها .

وروى ابن حميد عن مالك قال : لم يكن شيء من هذه الأهواء في عهد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان ، وكأن مالكًا يشير بالأهواء إلى ما حدث من التفرق في أصول الديانات من أمور الخوارج والروافض والمرجئة ، ونحوهم ممن يتكلم في تكفير المسلمين واستباحة دمائهم وأموالهم أو في تخليدهم في النار أو في تفسيق خواص هذه الأمة أو عكس ذلك ما أُحدث من الكلام في أفعال الله تعالى في قضائه وقدره ، وقد كذَّب بذلك من زعم أن المعاصي لا تضر أهلها ، وأنه لا يدخل النار من أهل

---

(١) ابن حبان (٦٦٥٧) ، وأبو داود (٤٦٤٦) ، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (٤٥٩) ، و« مشكاة المصابيح » (٥٣٩٥) .

التوحيد أحد ، وأصعب من ذلك من كذب وزعم أنه نزه الله بذلك عن الظلم ، وأصعب من ذلك ما حدث من الكلام في ذات الله وصفاته مما سكت عنه النبي ﷺ والصحابة والتابعون ، والكلام في الحلال والحرام بمجرد الرأي ، ورد كثير مما وردت به السنة في ذلك لمخالفته الرأي والأقيسة العقلية .

ومما حدث بعد ذلك الكلام في الحقيقة بالذوق والكشف ، وزعم أن الحقيقة تنافي الشريعة ، وأن المعرفة وحدها تكفي مع المحبة ؛ وأنه لا حاجة إلى الأعمال وأنها حجاب وأن الشريعة إنما يحتاج إليها العوام ، وربما انضم إلى ذلك الكلام في الذات والصفات مما يعلم قطعًا مخالفته الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة .

وروى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله قال : كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول : « صبحكم ومساكم » . ويقول : « أما بعدُ ؛ فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة » . وفي رواية له : « من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له »[1] . وللنسائي : « وكل ضلالة في النار »[2] . والهدي بفتح الهاء وسكون الدال : السمت والطريقة والهيئة .

أي أحسن الطرق طريقته وسمته وسيرته من « هدي هدية : سار بسيرته » ، وجرى على طريقته . ويقال : فلان حسن الهدي . أي الطريقة والمذهب ، ومنه خبر : « اهتدوا بهدي عمار » . وبضم ففتح فيها . وهو بمعنى الدعاء والرشاد . وقال القاضي هو من تهادت المرأة في مشيتها إذا تبخترت ، ولا يكاد يطلق إلا على طريقة حسنة وسنة مرضية ، ولامه للاستغراق ؛ لأن أفعل التفضيل لا يضاف إلا إلى متعدد وهو داخل فيه ، ولأنه لو لم يكن للاستغراق لم يفد المعنى المقصود ، وهو تفضيل دينه وسنته على جميع السنن والأديان .

قوله : « والإجماع : هو الأصل الثالث » : الإجماع في اللغة : العزم والاتفاق . يقال : أجمع فلان رأيه على كذا إذا صمم وعزم عليه ، قال تعالى : ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ . واصطلاحًا : اتفاق مجتهدي الأمة في عصر واحد على أمر ديني وهو حجة قاطعة ، فهذه الأصول الثلاثة التي هي الكتاب والسنة والإجماع هي التي يعتمد عليها في العلم والدين عند أهل السنة والجماعة .

وهناك أصل رابع اختلفوا فيه وهو القياس ، وبعضهم ذكر الاستحسان والمصالح المرسلة ، وهذه الأبحاث مبسوطة في كتب أصول الفقه .

وقد زعم كثير من القدرية والمعتزلة أنه لا يصح الاستدلال بالقرآن على حكمة الله وعدله ، وأنه خالق كل شيء وقادر علي كل شيء ، وتزعم الجهمية من هؤلاء ومن اتبعهم من بعض الأشعرية وغيرهم أنه لا

---

(١) مسلم (٨٦٧) .

(٢) النسائي (٣/٢٠٩) ، وصححه الألباني في « الإرواء » (٦٠٨) .

يصح الاستدلال بذلك علي علم الله وقدرته وعبادته، وأنه مستو على العرش .

ويزعم قوم من غالية أهل البدع أنه لا يصح الاستدلال بالقرآن والحديث على المسائل القطعية مطلقة، بناء على أن الدلالة اللفظية لا تفيد اليقين بما زعموا، ويزعم كثير من أهل البدع أنه لا يستدل بالأحاديث المتلقاة بالقبول على مسائل الصفات والقدر ونحوهما مما يطلب فيه القطع واليقين، ويزعم قوم من غالية المتكلمين أنه لا يستدل بالإجماع على شيء، ومنهم من يقول : لا يصح الاستدلال به على الأمور العلمية ؛ لأنه ظني .

أما طرق الأحكام الشرعية فهي بإجماع المسلمين : الكتاب لم يختلف أحد من الأئمة في ذلك، كما خالف بعض أهل الضلال في الاستدلال على بعض المسائل الاعتقادية .

والثاني : السنة المتواترة التي لا تخالف ظاهر القرآن، بل تفسره مثل أعداد الصلاة وأعداد ركعاتها ونصب الزكاة وفرائضها وصفة الحج والعمرة، وغير ذلك من الأحكام التي لم تعرف إلا بتفسير السنة .

وأما السنة التي لا تفسر ظاهر القرآن، أو يقال تخالف ظاهره، كالسنة في تقدير نصاب السرقة ورجم الزاني وغير ذلك، فمذهب جميع السلف العمل بها أيضًا، إلا الخوارج فإن من قولهم أو قول بعضهم، مخالفة السنة حيث قال أولهم للنبي ﷺ في وجهه : « إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله »[1].

ويحكي عنهم أنهم لا يتبعونه ﷺ إلا فيما بلغه عن الله من القرآن والسنة المفسرة له، وأما ظاهر القرآن إذا خالفه الرسول فلا يعملون إلا بظاهره، وقد ينكر هؤلاء كثيرًا من السنن طعنًا في النقل لا ردًّا للمنقول، كما ينقل كثير من أهل البدع السنن المتواترة عند أهل العلم كالشفاعة والحوض والصراط والقدر وغير ذلك .

الطريق الثالث : السنن المتواترة عن رسول الله ﷺ ؛ إما متلقاة بالقبول بين أهل العلم بها، أو برواية الثقات لها، وهذه أيضًا مما اتفق أهل العلم على اتباعها من أهل الفقه والحديث والتصوف وأكثر أهل العلم، وقد أنكرها بعض أهل الكلام، وأنكر كثير منهم أن يحصل العلم بشيء منها، وإنما يوجب العلم فلم يفرقوا بين المتلقى بالقبول وغيره .

وكثير من أهل الرأي قد ينكر كثيرًا منها بشروط اشترطها، ومعارضات دفعها بها ووضعها، كما يرد بعضهم بعضًا ؛ لأنه بخلاف ظاهر القرآن فيما زعم، أو لأنه خلاف الأصول، أو قياس الأصول، أو لأن عمل متأخري أهل المدينة على خلافه، أو غير ذلك من المسائل المعروفة في كتب الفقه والحديث وأصول الفقه .

الطريق الرابع : الإجماع وهو متفق عليه بين عامة المسلمين من الفقهاء والصوفية وأهل الحديث والكلام وغيرهم في الجملة، وأنكره بعض أهل البدع من المعتزلة والشيعة، لكن المعلوم منه ما

---

(١) البخاري (٣٤٠٦)، ومسلم (١٠٦٢) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

كان عليه الصحابة ، وأما بعد ذلك فتعذر العلم به غالبًا ، ولهذا اختلف أهل العلم فيما يذكر من الإجماعات الحادثة بعد الصحابة .

واختلف في مسائل منه كإجماع التابعين على أحد قولي الصحابة ، والإجماع الذي لم ينقرض عصر أهله حتى خالفهم بعضهم ، والإجماع السكوتي وغير ذلك .

وكل ما أجمع عليه المسلمون فإنه يكون منصوصًا ، فالمخالف لهم مخالف للرسول ، كما أن المخالف للرسول مخالف للّٰه ، وهذا يقتضي أن كل ما أجمع عليه قد بينه الرسول ، وهذا هو الصواب ، فلا يوجد قط مسألة مجمع عليها إلا وفيها بيان من الرسول ، ولكن قد يخفى ذلك على بعض الناس ويعلم الإجماع فيستدل به .

وهو دليل ثان مع النص ، وكل من هذه الأصول يدل على الحق مع تلازمها ، فإن ما دل عليه الإجماع فقد دل عليه الكتاب والسنة ، وما دل عليه القرآن فعن الرسول أخذ ، فالكتاب والسنة كلاهما مأخوذ عنه ، ولا يوجد مسألة يتفق عليها إلا وفيها نص ، والمسائل المجمع عليها قد تكون طائفة من المجتهدين لم يعرفوا فيها نصًا فقالوا فيها باجتهاد الرأي الموافق للنص ، لكن كان النص عند غيرهم .وابن جرير وطائفة يقولون : لا ينعقد الإجماع إلا عن نص نقلوه عن الرسول مع قولهم بصحة القياس ، ونحن لا نشترط أن يكونوا كلهم علموا النص فنقلوه بالمعنى ، كما تنقل الأخبار ، لكن استقرينا موارد الإجماع فوجدناها كلها منصوصة .

ومن قال من المتأخرين : إن الإجماع مستند معظم الشريعة فقد أخبر عن حاله ، فإنه لما نقصت معرفته بالكتاب والسنة احتاج إلى ذلك .

وهذا كقولهم : إن أكثر الحوادث يحتاج فيها إلى القياس ؛ لعدم دلالة النصوص عليها ، فإنما هذا قول من لا معرفة له بالكتاب والسنة ودلالتها على الأحكام ، وقد قال الإمام أحمد رضي اللّٰه عنه : إنه ما مسألة إلا وقد تكلم فيها الصحابة أو في نظيرها ، فإنه لما فتحت البلاد وانتشر الإسلام حدثت جميع أجناس الأعمال ، فتكلموا فيها بالكتاب والسنة ، وإنما تكلم بعضهم بالرأي في مسائل قليلة ، والإجماع لم يكن يحتج به عامتهم ، ولا يحتاجون إليه ؛ إذ هم أهل الإجماع قبلهم .

لكن لما جاء التابعون قال عمر وابن مسعود وابن عباس : يقضى بما في الكتاب والسنة . ثم بما فعله الصالحون كسنة أبي بكر ، وهذه آثار ثابتة عن عمر وابن عباس وابن مسعود وهم من أشهر الصحابة بالفتيا والقضاء وهذا هو الصواب .

❁ قال الشيخ عبد العزيز الناصر الرشيد رحمه الله :

قوله : « طريقة » : أي : سبيل ومنهاج .

قوله : « السنة » : لغة : الطريقة . وشرعًا : هي أقوال النبي وأفعاله وتقريراته وقد تقدم ، وهذا معناها

باعتبار العرف الخاص ، وأما معناها باعتبار العرف العام فهو ما نقل عن النبي ﷺ أو عن السلف من الصحابة والتابعين وغيرهم من الأئمة المقتدى بهم ، قال ابن رجب : وكثير من المتأخرين يخصون السنة بما يتعلق بالاعتقاد ؛ لأنها أصل الدين والمخالف فيها على خطر عظيم .انتهى . وقد اتفق من يعتد به من أهل العلم على أن السنة المطهرة مستقلة بتشريع الأحكام ، وأنها كالقرآن في التحليل والتحريم وغير ذلك ، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال : « ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه »[1] ، وما روي من الأمر بعرض الأحاديث على القرآن ، فقال يحيي بن معين : إنه موضوع وضعته الزنادقة ، وهو مخالف لقوله تعالى : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧] الآية ، وقد تقدم الكلام على هذا الحديث بأكمل من هذا فارجع إليه .

قوله : « اتباع آثار رسول الله ﷺ » :

أي : سلوك طريقه والسير على منهاجه . قال ابن القيم رحمه الله : الاتباع سلوك طريق المتبع والإتيان بمثل ما أتى به . وانتهي .

قال الله تعالى : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧] ، وقال : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] ، وقال : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] ، وعن أنس أن النبي ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به »[2] ، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي فيها الأمر باتباع الرسول ﷺ ، والوعيد الشديد في الإعراض عن هديه ﷺ ، فاتباعه ﷺ وامتثال أمره من أعظم الفروض ، بل كل قول أو عمل يخالف ما عليه النبي ﷺ وأصحابه فهو باطل مردود على فاعله كائنًا من كان ، كما في الصحيح من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد »[3] . فاتباع الرسول شرط لصحة العمل ، كما قال تعالى : ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢] ، وقال : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] ، قال الفضيل بن عياض : أي : أخلصه ، أصوبه . قيل : يا أبا علي ، ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل ، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل ، حتى يكون خالصًا صوابًا ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على سنة رسول الله ﷺ ، وقد اتفق المسلمون على أن حب الرسول ﷺ فرض ، بل لا يتم الإيمان والإسلام إلا بكونه أحب إلى العبد من نفسه فضلًا عن غيره ، واتفقوا على أن حبه لا يتحقق إلا باتباع آثاره والتسليم لما جاء

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) مسلم (١٧١٨) ، وأحمد (٦/١٤٦) .

به والعمل على سنته ، وترك ما خالف قوله ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران : ٣١] ، وقال : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء : ٦٥] الآية .فمن زعم : أن أدلة القرآن والسنة لا تفيد اليقين ، وأن أحاديث الأسماء والصفات أخبار آحاد لا تفيد العلم فهو بعيد عن هذا التحكيم ، فيجب اعتقاد أنه ﷺ الواسطة في التبليغ عن الله شرعه ودينه ، فالله سبحانه المشرع ورسوله المبلغ ، فالحلال ما أحله الله ، والحرام ما حرمه ، والدين ما شرعه ، فاتخاذ الواسطة ينقسم إلى قسمين : الأول : اتخاذ واسطة بينك وبين الله على أنها تنفع وتضر ، فاتخاذ هذه الواسطة شرك وكفر بالإجماع ، كما ذكر ذلك الشيخ تقي الدين ابن تيمية . الثاني : اتخاذ الأنبياء عليهم السلام واسطة في التبليغ عن الله شرعه ودينه ، فإسقاط هذه الواسطة كفر بالله ، فمن زعم أنه يأخذ عن الله بدون واسطة رسله وأنبيائه فهو كافر ، أو زعم أنه يصل إلى حد تسقط عنه التكاليف الشرعية ، أو أنه يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى ، أو أنه محتاج إلى محمد ﷺ في علم الظاهر دون علم الباطن أو في علم الشريعة دون علم الحقيقة ، أو أن هدي غير محمد أحسن من هديه فهو كافر بالله العظيم .

قوله : « آثار رسول الله ﷺ » :أي : ما أثر عنه وروي عنه من قول أو فعل أو تقرير ، وليس المراد آثاره الحسية كمواضع نومه ﷺ وجلوسه وقيامه ونحو ذلك ، فلا ينبغي تتبع ذلك ؛ لأنه وسيلة إلى الفتنة بتلك المواضع ، وربما آل إلى جعلها معابد ، ولذلك قطع عمر بن الخطاب الشجرة التي بايع النبي صلى الله عليه وسلم تحتها الصحابة لما بلغه أن أناسًا يذهبون إلى الشجرة فيصلون تحتها ، ونهى عن اتباع آثاره الحسية ، وقال : إنما هلك من كان قبلكم باتباع آثار أنبيائهم ، وأما ما كان يفعله ابن عمر من تتبع آثار رسول الله ﷺ حتى أنه بال في الموضع الذي بال فيه رسول الله ، فقد خالفه أبوه وجمهور الصحابة ، والصواب معهم حسمًا لمواد الشرك وسدًّا للذرائع التي توصل إليه ، والإسلام مبني على أصلين : ألا نعبد إلا الله ، وأن نعبده بما شرع لا نعبده بالبدع ، وقد تقدم ذكر ذلك .

قوله : « باطنًا وظاهرًا » :إشارة إلى أنه لا بد من الإخلاص في العمل ، وأن كل عمل لا يراد به وجه الله فليس لعامله فيه ثواب ، كما أن كل عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله فهو مردود على عامله .

قوله : « واتباع سبيل السابقين ... إلخ » :

أي : سلوك طريقهم والسير على منهاجهم ، والسبيل في الأصل : الطريق ، فمن أصول أهل السنة اتباع سبيل السابقين ، وذلك لما خصهم الله به من العلم والفضل والفقه عن الله ورسوله ، فقد شاهدوا التنزيل وسمعوا التأويل وتلقوا عن الرسول ﷺ بلا واسطة أحد ، فهم أحق بإصابة الصواب وأجدر باتباع السنة والكتاب .

قال ابن القيم رحمه الله في « أعلام الموقعين » : ومن المحال أن يكون الصواب في غير طريق من سبق إلي

كل خير على الإطلاق . انتهى . قال تعالى : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة : ١٠٠] ، وذلك متناول لكل من اتبعهم إلى يوم القيامة كما ذكر ذلك أهل العلم ، قال الشاطبي ﷺ : للصحابة سنة يعمل عليها ويرجع إليها ، ومن الدليل علي ذلك أمور . ثم ساقها ، وقال عبد الله بن مسعود : « من كان منكم مستنًّا فليستن بمن قد مات ، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد أبر هذه الأمة قلوبًا ، وأعمقها علمًا ، وأقلها تكلفًا ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم حقهم وتمسكوا بهديهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم . انتهى . فخير قلوب العباد أحق الخلق بإصابة الصواب ، فكل خير وإصابة ومعارف ومكارم إنما عرفت فوصلت إلينا منهم ﷺ .

وقال الإمام أحمد : أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ، ولهذا كان اعتقاد الفرقة الناجية هو ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ ، كما شهد لهم بذلك في قوله : « من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي »[١] . وأكثر العلماء على أن أقوال الصحابة حجة يجب اتباعها ، ويحرم الخروج عليها حيث لا نص نبوي ، وقد غلط من زعم أن طريقة السلف أسلم ، وطريقة الخلف أعلم وأحكم ، فإن هذا القائل لم يعرف قدر السلف ، بل ولا عرف الله ورسوله والمؤمنين حق المعرفة ، كيف يكون هؤلاء المحجوبين المنقوصين الحيارى أعلم بالله وأسمائه وصفاته وأحكامه من السابقين الأولين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان من ورثة الأنبياء الذين وهبهم الله علم الكتاب والحكمة وأحاطوا من حقائقه ومعارفه ما عجز أولئك عن فهم معانيه وإدراكه ، ثم كيف يكون خير قرون هذه الأمة أنقص في العلم والحكمة لا سيما العلم بالله وأحكام أسمائه وصفاته وآياته من هؤلاء الأصاغر المنقوصين الحيارى المتهوكين ، ولا شك أن هذا القول إذا تدبره الإنسان وجده في غاية الجهالة ، بل في غاية الضلالة .

قوله : « واتباع وصية رسول الله ﷺ حيث قال : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي ...» :

قوله : « حيث قال » : أي : في حديث العرباض بن سارية ﷺ أن النبي ﷺ قال : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين ...»[٢] . الحديث رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه ، وقال الترمذي : حسن صحيح . وقال الحافظ أبو نعيم : جيد صحيح . وفي هذا الحديث : الحث على التمسك بسنة رسول الله ﷺ ووجوب اتباعها ، وفيه قرن سنة الخلفاء الراشدين بسنته ووجوب اتباعها مع عدم وجود سنته ، وفيه أن للخلفاء سنة وأن الأخذ بها واتباعها رشاد وهدى ، وفيه أن ما سنة الخلفاء

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) تقدم تخريجه .

الراشدين أو أحدهم حجة لا يجوز العدول عنها بخلاف غيرهم من ولاة الأمور ، ولحديث : « اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر »[١] . ولو لم تقم الحجة بقولهم لما أمرنا باتباعهم ، وهذا القول هو الحق .

قوله : « وسنة الخلفاء الراشدين » : وهم الخلفاء الأربعة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، كما في حديث سفينة : « الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم يكون ملكًا »[٢] . رواه أحمد وصححه ورواه غيره ، وإنما وصف الخلفاء بالراشدين ؛ لأنهم عرفوا الحق وقضوا به ، والراشد ضد الغاوي ، والغاوي من عرف الحق وعمل بخلافه .

قوله : « المهديين » : يعني : أن اللَّه – سبحانه – يهديهم إلى الحق ولا يضلهم عنه ، فالأقسام ثلاثة : راشد ، وغاوي ، وضال ، فالراشد : عرف الحق واتبعه ، والغاوي : عرفه ولم يتبعه ، والضال : لم يعرفه بالكلية . انتهى من كلام ابن رجب .

قوله : « تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ » : هذا كناية عن شدة التمسك بها ، والنواجذ : آخر الأضراس .

قوله : « محدثات » : بضم الميم وسكون الحاء جمع محدثة ، والمراد بها : البدع ، والبدعة لغة : كل شيء عمل على غير مثال سابق ، وأما البدعة الشرعية فهي ما لم يدل عليه دليل شرعي ، فلفظ البدعة في اللغة أعم من لفظ البدعة في الشريعة ، وهذا الحديث دل على التحذير من البدع والرد على من زعم تقسيم البدعة إلى حسنة وقبيحة ، وأما قول عمر : « نعمت البدعة » . فالمراد بها : البدعة اللغوية ؛ إذ أصل صلاة التراويح مشروعة ؛ فقد صلاها الرسول ﷺ بأصحابه ، ثم تركها لما خشي أن تفرض عليهم ، وتنقسم البدعة إلى قسمين : بدعة اعتقاد وهو اعتقاد خلاف ما أخبر به الرسول ﷺ ، كقوله : « ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة » . قالوا : من هي يا رسول اللَّه ؟ قال : « من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي »[٣] . الثانية : بدعة عملية وهو التعبد بغير ما شرع اللَّه ورسوله ، فمن تعبد بغير الشرع أو حرم ما لم يحرمه الشارع فهو مبتدع ، والبدعتان غالبًا متلازمتان قل أن تنفك إحداهما عن الأخرى .

قال ابن دقيق العيد رحمه الله : اعلم أن المحدث على قسمين : محدث ليس له أصل من الشريعة فهذا باطل مذموم ، ومحدث يحمل النظير على النظير فهذا ليس بمذموم ؛ لأن البدعة ولفظ المحدث لا

---

(١) الترمذي (٣٦٦٢) ، وابن ماجه (٩٧) من حديث حذيفة رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (١٢٣٣) .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) تقدم تخريجه .

يذمان لمجرد الاسم ، بل لمعنى مخالفة السنة ، والداعي إلى الضلالة ، ولا يذم ذلك مطلقًا ،فقد قال سبحانه : ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ الآية [الأنبياء : ٢] ، وقال عمر : نعمة البدعة هذه ؛ يعني التراويح .

قال الشيخ تقي الدين ابن تيميه رحمه الله : وأصل ضلا أهل الأرض إنما نشأ من هذين : إما اتخاذ دين لم يشرعه الله أو تحريم ما لم يحرمه الله ،ولهذا كان الأصل الذي بنى عليه الإمام أحمد وغيره من الأئمة مذاهبهم أن أعمال الخلق تنقسم إلى عبادات يتخذونها وإلى عادات ينتفعون بها في معائشهم ، فالأصل في العبادات ألَّا يشرع إلا ما شرعه الله ورسوله ، والأصل في العادات ألَّا يحظر منها إلا ما حظره الله . اهـ .

قال العلماء رحمهم الله : العبادات مبناها على التوقيف والاتباع لا على الاختراع والابتداع ، فالأصل في العبادات التحريم إلا ما شرعه الله ورسوله ؛ ولهذا يشترط للعبادة شرطان : الإخلاص والمتابعة ، كما في الصحيح من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : « مَن أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد »[1] . أي : مردود كائنًا ما كان ، وفي « صحيح مسلم » عن جابر رضي الله عنه : أنه كان يقول في خطبته : « إن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة »[2] . وفي رواية النسائي : « وكل ضلالة في النار »[3] . وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم ، وقال الأوزاعي رحمه الله : عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس ، وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوه لك بالقول ، إلى غير ذلك من الأدلة على تحذير الأمة من اتباع الأمور المحدثة المبتدعة ، وتقدم أن المراد بالبدعة ما أحدث مما لا أصل له من الشرع يدل عليه ، وأما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعًا ، وإن كان بدعة لغة .

قوله : « ويعلمون أن أصدق ... إلخ » :

فلا أحد أصدق منه قولًا ولا خبرًا ، فكل ما أخبر به سبحانه فهو صدق حق لا مرية فيه ولا شك ، قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء : ٨٧] ، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء : ٨٧] ، وقال : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام : ١١٥] ، وعن جابر رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول : « صبحكم ومساكم » . ويقول : « أما بعد ، فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة »[4] . رواه مسلم .

---

(١) البخاري (٢٥٥٠) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) مسلم (٨٦٧) ، وأحمد (٣/٣٧١) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٣) السنن الصغرى (١٥٧٨) ، وصححه الألباني في « سنن النسائي » (١٥٧٨) .

(٤) تقدم تخريجه .

قوله : « وخير الهدي هدي محمد » :

الهدي بفتح الهاء وسكون الدال : السمت والطريقة والسيرة ، وقرئ بالضم ، أي : الدلالة والإرشاد ، والمراد : تفضيل دينه وسنته على سائر الأديان والسنن ، فدينه ﷺ أكمل الأديان على الإطلاق ، وشريعته أفضل الشرائع اختارها اللّه لخيرته من خلقه ولأمته خير أمة أخرجت للناس ، وجعلها حجة باقية إلى يوم القيامة لا يتطرق إليها النسخ ولا يعتريها التبديل والتغيير الذي وقع في الشرائع قبلها ، ولهذا المعنى الذي ذكرناه كان كل عاقل من اليهود والنصارى ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيميه : يعترف بأن دين الإسلام حق وأن محمدًا رسول اللّه ، وأن من أطاعه منهم دخل الجنة ، بل كثير منهم يعترفون بأن دين الإسلام خير من دينهم ، كما أطبقت على ذلك الفلاسفة ، كما قال ابن سينا : أجمع فلاسفة العالم على أنه لم يطرق العالم ناموس أعظم من هذا الناموس ، ولا شك أن هذه الشريعة العظيمة الكاملة من دلائل نبوته ﷺ ، وكذلك أخلاقه وأقواله وأفعاله وسيرته ﷺ كلها من آياته ودلائل نبوته ، كما أشار إلى ذلك الشيخ تقي الدين رحمه الله ، فقد جبله اللّه سبحانه وتعالى على أجمل الأخلاق وأزكاها واختار له أفضلها وأولاها ، وأخلاقه مقتبسة من القرآن ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم : ٤] ، قال العوفي عن ابن عباس : « وإنك لعلى دين عظيم » . وهو دين الإسلام ، وفي « صحيح مسلم » عن سعيد بن هشام قال : « سألت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول اللّه ﷺ فقالت :أما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى . فقالت : كان خلقه القرآن »[1]. ومعنى هذا : أنه ﷺ مهما أمره اللّه به في القرآن امتثله ومهما نهاه عنه اجتنبه ، هذا ما جبله اللّه – سبحانه – عليه من الأخلاق الجبلية الأصلية العظيمة التي لم يكن أحد من البشر ، ولا يكون على أجمل منها ، فكان فيه ﷺ من الحياء والكرم والشجاعة والحلم والصفح ، وسائر الأخلاق الكاملة ما لا يحد ولا يمكن وصفه ، وقد خرج الإمام أحمد في« مسنده » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[2].

قوله : « فيؤثرون كلام اللّه ... إلخ » :

أي : يقدمون كلام اللّه على كلام غيره من خلقه كائنًا من كان ، ولا يعدلون عنه ولا يعارضونه بمعقول ولا قول فلان ، فإنه الفرقان المفرق بين الحق والباطل ، والنافع والضار ، وهو الإمام الذي يجب اتباعه والرجوع إليه عند التنازع ؛ إذ لا سعادة في الدنيا والآخرة إلا بالاعتصام بحبل اللّه ، ولا نجاة إلا بالتمسك بما جاء في كتابه ، فإنه الشفاء والنور والحياة الحقيقية ، قال اللّه تعالى : ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران : ١٠٣] ، قال قتادة والسدي وكثير من أهل التفسير :هو القرآن ، وقال

(١) مسلم (٧٤٦) ، وأحمد (٦/٩٤) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) أحمد (٢/٣٨١) ، والحاكم (٤٢٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (٤٥) .

عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ : «إن هذا القرآن هو حبل الله ، وهو النور المبين والشفاء النافع ، وعصمة لمن تمسك به ونجاه لمن اتبعه»(١) . وقال علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ في القرآن : «هو حبل الله المتين ،وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تختلف به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعي إليه هدي إلى صراط مستقيم»(٢) . وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : جمع الله في هذا الكتاب علم الأولين والآخرين وعلم ما كان وعلم ما يكون ، والعلم بالخالق أمره وخلقه . أخرجه ابن رزين . انتهي . وقد سماه سبحانه وتعالى روحًا ، لتوقف الحياة الحقيقية عليه ، ونورًا لتوقف الهداية عليه ، قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى : ٥٢] ، وقال : ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت : ٤٤] ، وقال : ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى : ١٠] ، وقال : ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء : ٥٩] ، والرد إليه هو الرد إلى كتابه ، والرد إلى الرسول هو الرد إليه في حياته ، والرجوع إلى سنته بعد وفاته ، وهذا معناه بإجماع المفسرين ، فيجب الرجوع إلى كتاب الله وسنه رسوله ، ولا يجوز العدول عنها ولا معارضتها ولا الاعتراض عليها ، ففيها غاية البغية وفصل النزاع ، قال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت : ٥١] .

قوله : «ويقدمون هدي محمد ﷺ ... إلخ» :

أي : يقدمون شرعه ودينه ، فدينه أكمل الأديان على الإطلاق ، وشريعته أفضل الشرائع ، فمن ادعى أن هدي غير محمد أفضل من هديه ، أو ادعى غناه عن الرسالة بمكاشفة أو مخاطبة أو عصمة ، سواء ادعى ذلك لنفسه أو لغيره فهو من أضل الناس ، بل من اعتقد أنه يجوز له فإنه يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل كائنًا من كان .

ذكر ذلك شيخ الإسلام تقي الدين في كتابه« الفرقان » ، وكذلك من زعم أن الشريعة قاصرة وأنها لا تساير الزمن ، وأنه يسوغ له سن النظم والتعليمات لكل زمان بما يناسبه على زعمه ،أو زعم أن النظم الإفرنجية أسن من نظام الشريعة أو نحو ذلك من الأقوال فهو زنديق .

قوله : «ولهذا سموا أهل الكتاب والسنة» :

وذلك لاتباعهم للكتاب والسنة الثابتة عن نبيهم في الأصول والفروع ، والأخذ بهما وتحكيمهما في القليل والكثير والاستغناء بهما وتقديمهما على قول كل أحد كائنًا من كان ، بخلاف الخوارج والمعتزلة

---

(١) الدارمي (٣٣١٥) ، والحاكم (٢٠٤٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) الترمذي (٢٩٠٦) ، والدارمي (٣٣٣١) من حديث علي رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٠٨١) .

والروافض ومن وافقهم في بعض أقوالهم ، فإنهم لا يتبعون الأحاديث التي رواها الثقات عن النبي ﷺ ، فالمعتزلة يقولون : هذه أخبار آحاد ، والرافضة يطعنون في الصحابة ونقلهم ، والخوارج يقول قائلهم : اعدل يامحمد ، فإنك لم تعدل ، فيجوزون على النبي أنه يظلم ، قال الشيخ تقي الدين رحمه الله : السنة ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته في عهده مما أمرهم به أو أقرهم عليه أو فعله هو .

قوله : « وسموا أهل الجماعة ... إلخ » :

لاجتماعهم على آثار الرسول والاستضاءة بأنواره وتحكيمه في القليل والكثير ، فالجماعة هم المجتمعون الذين ما فرقوا دينهم وكانوا شيعًا ، والذين فرقوا دينهم خارجون عن الفرقة الناجية ، وقد برأ الله نبيه منهم ، قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام : ١٥٩] الآية ، قال في « المرقاة » : المراد بالجماعة : أهل الفقه والعلم الذين اجتمعوا على اتباع آثاره ﷺ في النقير والقطمير ولم يبتدعوا بالتحريف والتغيير ، وقال بعض العلماء : المراد بالجماعة من كان على الحق ولو واحدًا ؛ وذلك لأن الحق هو ما كان عليه الجماعة في الصدر الأول ، وقد تكاثرت الأدلة في الحث على الاجتماع والنهي عن التفرق والاختلاف ، قال تعالى : ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران : ١٠٣] ، وقال : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنعام : ١٥٩] ، وقال تعالى : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران : ١٠٦] ، قال ابن عباس : تبيض وجوه أهل السنة ، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة ، وروي الإمام أحمد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إن ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاردة القاصية ، فإياكم والشعاب وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد »[(١)] . وورد : « الجماعة رحمة والفرقة عذاب »[(٢)] . وورد عن ابن مسعود أنه قال : « الخلاف شر » ، وحديث : « إن أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة ، وأن هذه الأمة ستفترق على ثلاثة وسبعين ملة ... »[(٣)] ، يعني : الأهواء كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة ، إلى غير ذلك من الأدلة في الحث غلى الإجماع وذم الاختلاف والتفرق .

وينقسم الاختلاف إلى قسمين : اختلاف تنوع واختلاف تضاد ، فالأول هو ما يكون القولان أو الفعلان مشروعان ، كما في أنواع الاستفتاحات وأنواع القراءات والآذان ، ونحو ذلك مما قد شرع جميعه ، وأما اختلاف التضاد فهما القولان المتنافيان ؛ إما في الأصول ، أو في الفروع .

---

(١) أحمد (٥/٢٣٢) ، والحاكم (٣٤٤) من حديث معاذ رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في « شرح العقيدة الطحاوية » (٥٧٨) .

(٢) أحمد (٤/٢٧٨) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٥) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه ، وحسنه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (٦٦٧) .

(٣) سبق تخريجه .

قوله : « الاجتماع » : الإجماع يطلق لغة : على العزم ، كما قال سبحانه : ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ﴾ [يونس : ٧١] ، وقال ﷺ : « لا صيام لمن لم يجمع من الليل »[١] . وهذا يتأتى من الواحد والجماعة ويراد به أيضًا الاتفاق ، واصطلاحًا هو اتفاق علماء العصر من الأمة على أمر ديني ، وهو حجة قاطعة يجب العمل به عند الجمهور ، وأنكره بعض المبتدعة والشيعة ، والدليل على حجية الإجماع قوله تعالى : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء : ١١٥] ، وعن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا : « لا تجتمع هذه الأمة على ضلالة أبدًا »[٢] . رواه الترمذي ، وعن أنس رضي الله عنه مرفوعًا : « لا تجتمع هذه الأمة على ضلالة ، فإن رأيتم الاختلاف فعليكم بالسواد الأعظم : الحق وأهله »[٣] . رواه ابن ماجه ، وعن أبي ذر مرفوعًا : « عليكم بالجماعة ؛ فإن الله لم يجمع أمتي إلا على هدى »[٤] . رواه أحمد ، وعن أبي ذر مرفوعًا : « من فارق الجماعة شبرًا فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه »[٥] . رواه أحمد وأبو داود ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه : « ما رآه المسلمون حسنًا فهو حسن ، وما رآه المسلمون سيئًا فهو عند الله سيئ »[٦] . رواه أبو داود الطيالسي ، وأخرجه البزار وأبو نعيم في ترجمة ابن مسعود .

قوله : « هو الأصل الثالث ... » : الأصل لغة : أسفل الشيء وأساسه ، واصطلاحًا : ما بني عليه غيره ، قوله : « الثالث » ، أي : من الأدلة التي هي الكتاب والسنة ، والثالث هو الإجماع ، ولم يزل أئمة الإسلام على تقديم الكتاب على السنة ، والسنة على الإجماع ، وجعل الإجماع في المرتبة الثالثة ، قال الشافعي رحمه الله : الحجة كتاب الله وسنة رسوله واتفاق الأئمة ، وروى الترمذي في « جامعه » عن معاذ رضي الله عنه :أن رسول الله ﷺ قال له لما بعثه إلى اليمن : « كيف تقضي » ؟ قال : أقضي بما في كتاب الله . قال : « فإن لم يكن في كتاب الله » ؟ قال : بسنة رسول الله . قال : « فإن لم يكن في سنة

---

(١) الترمذي (٧٣٠) ، والنسائي (٢٣٣٦) ، وابن ماجه (١٧٠٠) من حديث حفصة رضي الله عنها ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٧٥١٦) .

(٢) الترمذي (٢١٦٧) ، والحاكم (٣٩٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (١٨٤٨) .

(٣) ابن ماجه (٣٩٥٠) ، والطبراني في مسند الشاميين (٦٩٦٠) من حديث أنس رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (١٨١٥) .

(٤) أحمد (٥/١٤٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه ، وقال الألباني في « ضعيف الجامع » (١٣٦) : موضوع .

(٥) أبو داود (٤٧٥٨) ، وأحمد (٥/١٨٠) من حديث أبي ذر رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٤٦١٠) .

(٦) أحمد (١/٣٧٩) ، والطيالسي (٢٤٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

رسول الله » ؟ قال : اجتهد برأيي . قال : « الحمد لله الذي وفق رسولَ رسول الله »[1] . اهـ .

قوله : « الذي يعتمد عليه في العلم والدين » : أي : يستند ويركن إليه ؛ للأدلة الكثيرة الدالة على عصمة هذه الأمة من الاجتماع على ضلالة ، وإن الإجماع - كما تقدم - حجة يجب العمل به لما تقدم .

قوله : « وهم يزنون ...إلخ » : أي : أن أهل السنة والجماعة يعرضون جميع الأقوال والاعتقادات على هذه الأصول الثلاثة - وهي الكتاب والسنة والإجماع - ويجعلون هذه الأصول الثلاثة هي المعيار التي توزن به الأعمال ؛ إذ لا حجة إلا في هذه الأصول المتقدمة ، وأما القياس ففيه خلاف معروف .

قوله : « مما له تعلق بالدين » : أي : كصلاة وصيام وحج وزكاة ومعاملات ونحو ذلك ، أما ما لا تعلق له بالدين كأمور المعائش والعادات ، فالأصل فيه الإباحة ، فالإجماع ليس بحجة فيها ، قال الكوراني : لا معني للإجماع في ذلك ؛ لأنه ليس أقوى من قوله ﷺ وهو ليس دليلًا لا يخالف فيه ، واستدل على ذلك بما روى مسلم في « صحيحه » عن أنس أن النبي ﷺ قال : « أنتم أعلم بأمر دنياكم »[2] .

قوله : « والإجماع جميع ما عليه الناس ....» إلخ : أي : من عبادات ومعاملات وغير ذلك .

قوله : « مما له تعلق بالدين » : احترازًا من اتفاقهم على أمر دنيوي ، كإقامة مصنع أو حرفة أو متجر أو نحو ذلك ، فإن ذلك ليس إجماعًا شرعيًا : قال في « اللمع » : أما أمور الدنيا ، كتجهيز الجيوش وتدبير الحروب والعمارة والزراعة وغيرها من مصالح الدنيا ، فالإجماع ليس بحجة فيها ؛ لأن الإجماع فيها ليس بأكثر من قول الرسول ﷺ ، وقد ثبت أن قوله إنما هو حجة في أحكام الشرع دون مصالح الدنيا ؛ ولهذا روي أنه نزل منزلًا فقيل له : إنه ليس برأي . فتركه .

قوله : « الإجماع الذي ينضبط ....» إلخ :

أي : الإجماع الذي ينضبط ، أي : يحفظ ويضبط ضبطًا تامًا بدون نقص ، ويمكن العلم به هو ما كان عليه السلف الصالح لا ما بعد ذلك ، فتعذر العلم به غالبًا لانتشار الإسلام وكثرة العلماء وتفرقهم في البلاد ، فالعلم بحادثة واحدة انتشرت في جميع الأقطار ، ووقف كل مجتهد عليها ، ثم أطبقوا فيها على قول واحد ، هذا مما لا تساعد العادة على وقوعه فضلًا عن العلم به ، وهذا هو الذي أنكره أحمد وغيره لا وقوع الإجماع .

قال الإسنوي : ولأجل هذه الاحتمالات ، قال الإمام أحمد : من ادعى الإجماع فهو كاذب . قال أبو المعالي : والإنصاف أنه لا طريق لنا إلى معرفة الإجماع إلا في زمن الصحابة . وقال البيضاوي : إن

---

(١) أبو داود (٣٥٩٢) ، والترمذي (١٣٢٧) ، وضعفه الألباني في « مشكاة المصابيح » (٣٧٣٧) .

(٢) مسلم (٢٣٦٣) ، وأحمد (٣/١٥٢) من حديث أنس ﷺ .

الوقوف عليه لا يتعذر في أيام الصحابة ، فإنهم كانوا قليلين محصورين ومجتمعين في الحجاز ، ومن خرج منهم بعد فتح البلاد كان معروفًا في موضعه ، وقال ابن بدران في « شرح روضة الناظر » بعد ذكر ما تقدم ، قلت : وهو الحق البين . انتهى . وقال ابن القيم رحمه الله في « الأعلام » : وليس عدم علمه بالمخالف إجماعًا ، وقد كذب أحمد من ادعى الإجماع ، وكذلك الشافعي في رسالته الجديدة على أن ما لا يعلم فيه بخلاف لا يقال له إجماع ، وقال عبدَ الله بن أحمد بن حنبل : سمعت أبي يقول : ما يدعي فيه الرجل الإجماع فهو كاذب لعل الناس اختلفوا . هذه دعوى بشر المريسي والأصم ، فهذا هو الذي أنكر أحمد الشافعي لا ما يظنه بعض الناس أنه استبعاد لوجوده .

❁ قال الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله :

قوله : « اتباع آثار الرسول ﷺ باطنًا وظاهرًا » :

مراد المصنف بذلك : اتباع ما جاء عن النبي ﷺ من قول أو عمل ، أو تقرير ، وذلك هو اتباع السنة والتمسك بها ، وأوجهه ثلاثة : قول وعمل وتقرير .

وأما آثاره الحسية كموضع جلوسه ، وما هو عليه ، وما وطئه بقدمه الشريفة ، أو استند إليه أو اضطجع عليه ونحو ذلك ، فلا يشرع اتباعه في ذلك ، بل تتبع هذه الآثار وسائل الغلو فيه .

وقد أنكر بعض أعيان الصحابة على ابن عمر ذلك .

وقطع عمر الشجرة التي بويع النبي تحتها ؛ لما علم أن الناس يقصدونها خوفًا من الفتنة ، ولما بلغه أن ناسًا يقصدون مسجدًا صلى فيه النبي ﷺ في الطريق أنكر ، وقال ما معناه : « إنما أهلك من كان قبلكم مثل هذا ؛ كانوا يتتبعون آثار أنبيائهم ، فمن أدركته الصلاة في شيء من المساجد فليصل ، ومن لا فليمض ولا يقصدها » .

وأما ما صلى فيه صلوات التشريع ، فالصلاة فيه مشروعة كمسجده ﷺ ، والكعبة ، ومسجد قباء ، والموضع الذي صلى فيه في بيت عثمان ، كما طلب منه ذلك ليتخذه مصلى فأجابه ﷺ على ذلك .

وهكذا التبرك بشعره ﷺ وريقه وعرقه ، وما ماس جلده فكله لا بأس به ؛ لأن السنة قد صحت بذلك ، وقد قسم ﷺ في حجة الوداع بين الناس شعر رأسه لما قد جعل الله فيه من البركة ، وليس هذا من الغلو الممنوع ، وإنما الغلو الممنوع هو أن يعتقد فيه ﷺ ما لا يجوز ، أو يصرف له شيئًا من العبادة .

وأما التبرك بغيره ﷺ :فالصحيح منعه لأمرين :

أحدهما : أن غيره لا يقاس به ؛ لما جعل الله فيه من الخير والبركة ، بخلاف غيره فلا يتحقق فيه ذلك .

الأمر الثاني : أن ذلك ربما يوقع في الغلو وأنواع الشرك ، فوجب سد الذرائع بالمنع من ذلك ، وإنما جاز في حق النبي لمجيء النص به .

وهناك أمر ثالث أيضًا : وهو أن الصحابة لم يفعلوا ذلك مع غير النبي ﷺ لا مع الصديق ولا مع عمر ولا مع غيرهما .

ولو كان ذلك سائغًا أو قربة لسبقونا إليه ، ولم يجمعوا على تركه ، فلما تركوه علم أن الحق ترك ذلك ، وعدم إلحاق غير النبي به في ذلك . اهـ .

❁ قال الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله :

فصل في طريقة أهل السنة العملية .

لما فرغ المؤلف مما يريد ذكره من طريقة أهل السنة العقدية ؛ شرع في ذكر طريقتهم العملية .

قوله : « اتباع الآثار » : لا اتباع إلا بعلم ، إذن ، فهم حريصون على طلب العلم ؛ ليعرفوا آثار الرسول ﷺ ثم يتبعوها ، فهم يتبعون آثار الرسول ﷺ في العقيدة والعبادة والأخلاق والدعوة إلى الله تعالى ؛ يدعون عباد الله إلى شريعة الله في كل مناسبة ، وكلما اقتضت الحكمة أن يدعوا إلى الله ، دَعَوا إلى الله ، ولكنهم لا يخبطون خبط عشواء ، وإنما يدعون بالحكمة ؛ يتبعون آثار الرسول عليه الصلاة والسلام في الأخلاق الحميدة في معاملة الناس باللطف واللين ، وتنزيل كل إنسان منزلته ؛ يتبعونه أيضًا في أخلاقه مع أهله ، فتجدهم يحرصون على أن يكونوا أحسن الناس لأهليهم ؛ لأن النبي ﷺ يقول : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي »[1] .

ونحن لا نستطيع أن نحصر آثار الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولكن نقول على سبيل الإجمال في العقيدة والعبادة والخلق والدعوة : في العبادة لا يتشددون ولا يتهاونون ويتبعون ما هو أفضل .

وربما يشتغلون عن العبادة بمعاملة الخلق للمصلحة ؛ كما كان الرسول يأتيه الوفود يشغلونه عن الصلاة ؛ فيقضيها فيما بعد .

قوله : « باطنًا وظاهرًا » . الظهور والبطون أمر نسبي : ظاهرًا فيما يظهر للناس ، وباطنًا فيما يسرونه بأنفسهم . ظاهرًا في الأعمال الظاهرة ، وباطنًا في أعمال القلوب . . .

فمثلًا ؛ التوكل والخوف والرجاء والإنابة والمحبة وما أشبه ذلك ؛ هذه من أعمال القلوب ؛ يقومون بها على الوجه المطلوب ، والصلاة فيها القيام والقعود والركوع والسجود والصدقة والحج ، والصيام ، وهذه من أعمال الجوارح ؛ فهي ظاهرة .

ثم اعلم أن آثار الرسول ﷺ تنقسم إلى ثلاثة أقسام أو أكثر :

أولًا : ما فعله على سبيل التعبُّد ؛ فهذا لا شك أننا مأمورون باتِّباعه ؛ لقوله تعالى : ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب : ٢١] . فكل شيءٍ لا يظهر فيه أنه فعله تأثرًا بعادة أو بمقتضى جبلة وفطرة أو حصل اتفاقًا ؛ فإنه على سبيل التعبد ، ونحن مأمورون به .

(١) صححه الألباني في « صحيح الجامع » (٣٣١٤) .

ثانيًا : ما فعله اتفاقًا ؛ فهذا لا يشرع لنا التأسي فيه ؛ لأنه غير مقصود ؛ كما لو قال قائل : ينبغي أن يكون قدومنا إلى مكة في الحج في اليوم الرابع من ذي الحجة ؛ لأن الرسول ﷺ قدم مكة في اليوم الرابع من ذي الحجة . فنقول : هذا غير مشروع ؛ لأن قدومه ﷺ في هذا اليوم وقع اتفاقًا .

ولو قال قائل : ينبغي إذا دفعنا من عرفة ووصلنا إلى الشّعب الذي نزل فيه ﷺ وبال أن ننزل ونبول ونتوضأ خفيفًا كما فعل النبي ﷺ . فنقول : هذا لا يشرع .

وكذلك غيرها من الأمور التي وقعت اتفاقًا ؛ فإنه لا يشرع التأسي فيه بذلك ؛ لأنه ﷺ فعله لا على سبيل القَصد للتعبُّد ، والتأسي به تعبد .

ثالثًا : ما فعله بمقتضى العادة ؛ فهل يشرع لنا التأسي به ؟

الجواب : نعم ؛ ينبغي لنا أن نتأسى به ، لكن بجنسه لا بنوعه .

وهذه المسألة قل من يتفطَّن لها من الناس ؛ يظنون أن التأسي به فيما هو على سبيل العادة بالنوع ، ثم ينفون التأسي به في ذلك .

ونحن نقول : نتأسى به ، لكن باعتبار الجنس ؛ بمعنى أن نفعل ما تقتضيه العادة التي كان عليها الناس ؛ إلا أن يمنع ذلك مانع شرعي .

رابعًا : ما فعله بمقتضى الجبلة ؛ فهذا ليس من العبادات قطعًا ، لكن قد يكون عبادة من وجه ؛ بأن يكون فعله على صفة معينة عبادة : كالنوم ؛ فإنه بمقتضى الجبلة ، لكن يسن أن يكون على اليمين ، والأكل والشرب جبلة وطبيعة ، ولكن قد يكون عبادة من جهة أخرى ، إذا قصد به الإنسان امتثال أمر الله والتنعم بنعمِه والقوة على عبادتِه وحفظ البدن ، ثم إن صفته أيضًا تكون عبادة كالأكل باليمين ، والبسملة عند البداءة ، والحَمْدلة عند الانتهاء .

وهنا نسأل : هل اتخاذ الشعر عادة أو عبادة ؟

يرى بعض العلماء أنه عبادة ، وأنه يسن للإنسان اتخاذ الشعر .

ويرى آخرون أن هذا من الأمور العادية ؛ بدليل قول الرسول ﷺ للذي رآه قد حلق بعض رأسه وترك بعضه ؛ فنهاهم عن ذلك ، وقال : « احلقوا كله أو ذروا كله »[1] . وهذا يدل على أن اتخاذ الشعر ليس بعبادة ، وإلا لقال : أبقه ، ولا تحلق منه شيئًا .

وهذه المسألة ينبغي التثبت فيها ، ولا يحكم على شيء بأنه عبادة إلا بدليل ؛ لأن الأصل في العبادات المنع ، إلا ما قام الدليلُ على مشروعيته .

قوله : « واتباع سبيل السابقين » : أي : ومن طريقة أهل السنة اتباع ... إلخ ؛ فهي معطوفة على « اتباع الآثار » . « السابقين » : يعني : إلى الأعمال الصالحة .

---

(١) صححه الألباني في « صحيح الجامع » (٢١٢) .

قوله : « الأولين » : يعني : من هذه الأمة .

قوله : « المهاجرين » : المهاجرون : من هاجروا إلى المدينة .

قوله : « والأنصار » : الأنصار : أهل المدينة فى عهد النبى ﷺ .

وإنما كان اتباع سبيلهم من منهج أهل السنة والجماعة ؛ لأنهم أقرب إلى الصواب والحق ممن بعدهم ، وكلما بعد الناس عن عهد النبوة ؛ بعدوا من الحق ، وكلما قرب الناس من عهد النبوة ؛ قربوا من الحق ، وكلما كان الإنسان أحرص على معرفةِ سيرة النبى ﷺ وخلفائه الراشدين ؛ كان أقرب إلى الحق .

ولهذا ترى اختلاف الأمة بعد زمن الصحابة والتابعين أكثر انتشارًا وأشمل لجميع الأمور ، لكن الخلاف فى عهدهم كان محصورًا .

فمن طريقة أهل السنة والجماعة أن ينظروا فى سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، فيتبعوها ؛ لأن اتباعها يؤدى إلى محبتهم ، مع كونهم أقرب إلى الصواب والحق ، خلافًا لمن زهد فى هذه الطريقة ، وصار يقول : هم رجال ونحن رجال . لا يبالى بخلافهم ! ! وكأن قول أبى بكر وعمر وعثمان وعلى كقول فلان وفلان من أواخر هذه الأمة ! ! وهذا خطأ وضلال ، فالصحابة أقرب إلى الصواب ، وقولهم مقدَّم على قول غيرهم من أجل ما عندهم من الإيمان والعلم ، وما عندهم من الفَهمِ السليم والتقوى والأمانة ، وما لهم من صحبة الرسول ﷺ .

« اتباع » : معطوفة على « اتباع الآثار » .

« الوصية » : العهد إلى غيره بأمر هام .

معنى : « عليكم بسنتي . . . . . » إلخ : الحث على التمسك بها ، وأكد هذا بقوله : « وعضوا عليها بالنواجذ ، وهى أقصى الأضراس ؛ مبالغة فى التمسك بها .

والسنة : هى الطريقة ظاهرًا وباطنًا .

والخلفاء الراشدون : هم الذين خلفوا النبى ﷺ فى أمته علمًا وعملًا ودعوة .

وأول من يدخل فى هذا الوصف وأولى من يدخل فيه : الخلفاء الأربعة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي .

ثم يأتى رجل فى هذا العصر ، ليس عنده من العلم شيء ، ويقول : أذان الجمعة الأول بدعة ؛ لأنه ليس معروفًا على عهد الرسول ﷺ ، ويجب أن نقتصر على الأذان الثانى فقط !

فنقول له : إن سنة عثمان رضي الله عنه سنة متبعة إذا لم تخالف سنة رسول اللّٰه ﷺ ، ولم يقم أحد من الصحابة الذين هم أعلم منك وأغير على دين اللّٰه بمعارضته ، وهو من الخلفاء الراشدين المهديين ، الذين أمر رسول اللّٰه ﷺ باتِّباعهم .

ثم إن عثمان رضي الله عنه اعتمد على أصلٍ ، وهو أن بلالًا يؤذن قبل الفجر في عهد النبي ﷺ ، لا لصلاة الفجر ، ولكن ليرجع القائم ويوقظ النائم ، كما قال ذلك رسول الله ﷺ ، فأمر عثمان بالأذان الأول يوم الجمعة[1] ، لا لحضور الإمام ، ولكن لحضور الناس ؛ لأن المدينة كبرت واتسعت واحتاج الناس أن يعلموا بقرب الجمعة قبل حضور الإمام ، من أجل أن يكون حضورهم قبل حضور الإمام .

فأهل السنة والجماعة يتبعون ما أوصى به النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من الحث على التمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده وعلى رأسهم الخلفاء الأربعة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ؛ إلا إذا خالف كلام رسول الله ﷺ مخالفة صريحة ، فالواجب علينا أن نأخذ بكلام رسول الله ﷺ ونعتذر عن هذا الصحابي ، ونقول : هذا من باب الاجتهاد المعذور فيه .

« إياكم » للتحذير ؛ أي : أحذركم .

« والأمور » : بمعنى : الشئون ، والمراد بها أمور الدين ، أما أمور الدنيا ، فلا تدخل في هذا الحديث ؛ لأن الأصل في أمور الدنيا الحل ، فما ابتدع منها ، فهو حلال ، إلا أن يدل الدليل على تحريمه . لكن أمور الدين الأصل فيها الحظر ، فما ابتدع منها ، فهو حرام بدعة ، إلا بدليل من الكتاب والسنة على مشروعيته .

قال النبي عليه الصلاة والسلام : « فإن كل بدعة ضلالة »[2] . الجملة مفرعة على الجملة التحذيرية ، فيكون المراد بها هنا توكيد التحذير وبيان حكم البدعة .

هذا كلام عام مسور بأقوى لفظ دال على العموم ، وهو لفظ (كل) ؛ فهو تعميم محكم صدر من الرسول ﷺ ، والرسول عليه الصلاة والسلام أعلم الخلق بشريعة الله ، وأنصح الخلق لعباد الله ، وأفصح الخلق بيانًا ، وأصدقهم خبرًا ، فاجتمعت في حقه أربعة أمور : علم ونصح وفصاحة وصدق ، نطق بقوله : « كل بدعة ضلالة » .

فعلى هذا : كل من تعبد لله بعقيدة أو قولٍ أو فعلٍ لم يكن من شريعة الله ، والأشاعرة يتعبدون بما هم عليه من عقيدة باطلةٍ .

- والذين أحدثوا أذكارًا معينة يتعبدون لله بذلك ، ويعتقدون أنهم مأجورون على هذا .
- والذين أحدثوا أفعالًا يتعبدون لله بها ، ويعتقدون أنهم مأجورون على هذا .

كل هذه الأصناف الثلاثة الذين ابتدعوا في العقيدة أو في الأقوال أو في الأفعال ، كل بدعة من بدعهم ؛ فهي ضلالة ، ووصفها الرسول عليه الصلاة والسلام بالضلالة ؛ لأنها مركب ولأنها انحراف عن الحق .

---

(١) أخرجه البخاري (٩١٢) .

(٢) صححه الألباني في « المشكاة » (١٦٥) .

والبدعةُ تستلزم محاذير فاسدة :

فأولًا : تستلزم تكذيب قول الله تعالى : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة : ٣] ؛ لأنه إذا جاء ببدعة جديدة يعتبرها دينًا ، فمقتضاه أن الدين لم يكمل .

ثانيًا : تستلزم القدح في الشريعة ، وأنها ناقصة ، فأكملها هذا المبتدع .

ثالثًا : تستلزم القدح في المسلمين الذين لم يأتوا بها ، فكل من سبق هذه البدع من الناس دينهم ناقص ! وهذا خطير ! !

رابعًا : من لوازم هذه البدعة أن الغالب أن من اشتغل ببدعة ؛ اشتغل عن سنة ، كما قال بعض السلف : « ما أحدث قوم بدعة ، إلا هدموا مثلها من السنة » .

خامسًا : أن هذه البدع توجب تفرق الأمة ، لأن هؤلاء المبتدعة يعتقدون أنهم أصحاب الحق ، ومن سواهم على ضلال ! ! وأهل الحق يقولون : أنتم الذين على ضلال ! فتتفرق قلوبهم .

فهذه مفاسد عظيمة ، كلها تترتب على البدعة من حيث هي بدعة ، مع أنه يتصل بهذه البدعة سفه في العقل وخلل في الدين .

وبهذا نعرف أن من قسم البدعة إلى ثلاثة أقسام أو خمسة أو ستة ، فقد أخطأ ، وخطؤه من أحد وجهين :

– إما ألَّا ينطبق شرعًا وصف البدعة على ما سماه بدعة .

– إما ألَّا يكون حسنًا كما زعم .

فالنبي ﷺ قال : « كل بدعة ضلالة » . فقال : « كل » . فما الذي يخرجنا من هذا السور العظيم حتى نقسم البدع إلى أقسام ؟ .

فإن قلت : ما تقول في قول أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حين خرج إلى الناس وهم يصلون بإمامهم في رمضان ، فقال : نعمت البدعة هذه[1] . فأثنى عليها ، وسماها بدعة ؟ !

فالجواب أن نقول : ننظر إلى هذه البدعة التي ذكرها ؛ هل ينطبق عليها وصف البدعة الشرعية أو لا ؟

فإذا نظرنا وجدنا أنه لا ينطبق عليها وصف البدعة الشرعية ، فقد ثبت أن النبي ﷺ صلى بأصحابه في رمضان ثلاث ليال ، ثم تركه خوفًا من أن تفرض عليهم[2] ، فثبت أصل المشروعية ، وانتفى أن تكون بدعة شرعية ، ولا يمكن أن نقول : إنها بدعة ، والرسول ﷺ قد صلاها .

وإنما سماها عمر رضي الله عنه بدعة ؛ لأن الناس تركوها ، وصاروا لا يصلون جماعة بإمام واحد ، بل أوزاعًا ؛ الرجل وحده والرجلان والثلاثة والرهط ، فلما جمعهم على إمام واحد ، صار اجتماعهم بدعة

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠١٠) .

(٢) أخرجه البخاري (٩٢٤) ، ومسلم (٧٦١) .

بالنسبة لما كانوا عليه أولًا من هذا التفرق.

فإنه خرج رضي الله عنه ذات ليلة، فقال: لو أنى جمعت الناس على إمام واحد لكان أحسن، فأمر أبى بن كعب وتميمًا الدارى أن يقوما للناس بإحدى عشرة ركعة، فقاما للناس بإحدى عشرة ركعة، فخرج ذات ليلة والناس يصلون بإمامهم، فقال: نعمت البدعة هذه.

إذن، هى بدعة نسبية، باعتبار أنها تركت ثم أنشئت مرة أخرى.

فهذا وجه تسميتها ببدعة.

. وأما أنها بدعة شرعية، ويثنى عليها عمر؛ فكلًا.

وبهذا نعرف أن كلام رسول الله ﷺ لا يعارضه كلام عمر رضي الله عنه.

فإن قلت: كيف تجمع بين هذا وبين قول الرسول صلى الله وعليه وسلم: «من سن فى الإسلام سنة حسنة؛ فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة»[1]. فأثبت أن الإنسان يسن سنة حسنة فى الإسلام؟.

فنقول: كلام الرسول ﷺ يصدق بعضه بعضًا، ولا يتناقض؛ فيريد بالسنة الحسنة السنة المشروعة، ويكون المراد بسنها المبادرة إلى فعلها.

يعرف هذا ببيان سبب الحديث، وهو أن النبى ﷺ قاله حين جاء أحد الأنصار بصرة (يعني: من الدراهم)، ووضعها بين يدى النبى ﷺ حين دعا أصحابه أن يتبرعوا للرهط الذين قدموا من مضر مجتابى النمار، وهم من كبار العرب، فتمعر وجه النبى ﷺ لما رأى من حالهم، فدعا إلى التبرع لهم، فجاء هذا الرجل أول ما جاء بهذه الصرة، فقال: «من سن فى الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة».

أو يقال: المراد بالسنة الحسنة ما أحدث ليكون وسيلة إلى ما ثبتت مشروعيته؛ كتصنيف الكتب وبناء المدارس ونحو ذلك.

وبهذا نعرف أن كلام الرسول ﷺ لا يناقض بعضه بعضًا، بل هو متفق؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى.

هذا علمنا واعتقادنا، وأنه ليس فى كلام الله من كذب، بل هو أصدق الكلام، فإذا أخبر الله عن شىء بأنه كائن، فهو كائن، وإذا أخبر عن شىء بأنه سيكون، فإنه سيكون، وإذا أخبر عن شىء بأن صفته كذا وكذا، فإن صفته كذا وكذا، فلا يمكن أن يتغير الأمر عما أخبر الله به، ومن ظن التغير، فإنما ظنه خطأ؛ لقصوره أو تقصيره.

مثال ذلك لو قال قائل: إن الله ﷻ أخبر أن الأرض قد سطحت، قال: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧).

سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ٢٠]، ونحن نشاهد أن الأرض مكورة ؛ فكيف يكون خبره خلاف الواقع ؟ .

فجوابه أن الآية لا تخالف الواقع ، ولكن فهمه خاطئ إما لقصوره أو تقصيره ؛ فالأرض مكورة مسطحة ، وذلك لأنها مستديرة ، ولكن لكبر حجمها لا تظهر استدارتها إلا في مساحة واسعة تكون بها مسطحة ، وحينئذٍ يكون الخطأ في فهمه ؛ حيث ظن أن كونها قد سطحت مخالف لكونها كروية .

فإذا كنا نؤمن أن أصدق الكلام كلام الله ؛ فلازم ذلك أنه يجب علينا أن نصدق بكل ما أخبر به في كتابه ؛ سواء كان ذلك عن نفسه أو عن مخلوقاته .

« الهدى » : هو الطريق التي كان عليها السالك .

والطرق شتى ، لكن خيرها طريق النبي ﷺ ، فنحن نعلم ذلك ونؤمن به ، نعلم أن خير الهدى هدى محمد ﷺ في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات ، وأن هدى محمد ﷺ ليس بقاصر ، لا في حسنه وتمامه وانتظامه وموافقته لمصالح الخلق ، ولا في أحكام الحوادث التي لم تزل ولا تزال تقع إلى يوم القيامة ، فإن هدى محمد ﷺ كامل تام ، فهو خير الهدي ، أهدى من شريعة التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وجميع الهدي .

فإذا كنا نعتقد ذلك ، فوالله ، لا نبغي به بديلًا .

وبناء على هذه العقيدة لا نعارض قول رسول الله ﷺ بقول أحد من الناس ، كائنًا من كان ، حتى لو جاءنا قول لأبي بكر ، وهو خير الأمة ، وقول لرسول الله ﷺ ، أخذنا بقول رسول الله ﷺ .

وأهل السنة والجماعة بنوا هذا الاعتقاد على الكتاب والسنة .

- قال الله تعالى : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] .

- وقال النبي ﷺ وهو يخطب الناس على المنبر : « خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ »(١) .

ولهذا نجد الذين اختلفوا في الهدى وخالفوا فيه : إما مقصرين عن شريعة الرسول ﷺ ، وإما غالين فيها ؛ بين متشددين وبين متهاونين ، بين مفرِّط ومفرِط ، وهدى الرسول ﷺ يكون بين هذا وهذا .

قوله : « ويُؤْثِرون » : أي : يقدمون .

قوله : « كلامَ اللهِ على غيرِه مِن كلامِ أصنافِ الناسِ » : أي يقدمون كلامَ الله على كلام غيره من سائر أصناف الناس في الخبر والحكم ، فأخبار الله عندهم مقدمة على خبر كل أحد .

فإذا جاءتنا أخبار عن أمم مضت وصار القرآن يكذبها ؛ فإننا نكذبها .

مثال ذلك : اشتهر عند كثير من المؤرخين أن إدريس قبل نوح ، وهذا كذب ؛ لأن القرآن يكذبه ؛ كما قال تعالى : ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣] ، وإدريس من

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧) .

النبيين ؛ كما قال الله تعالى : ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم : ٥٦] إلى أن قال : ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [مريم : ٥٨] ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد : ٢٦] ؛ فلا نبي قبل نوح إلا آدم فقط .

أي : طريقته وسنته التي عليها .

في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات والأحوال وفي كل شيء ؛ لقوله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام : ١٥٣] ، وقوله : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران : ٣١] .

قوله : « ولهذا » . اللام في قوله : « ولهذا » للتعليل ؛ أي : ومن أجل إيثارهم كلام الله وتقديم هدى رسول الله ﷺ .

لتصديقهما والتزامهما وإيثارهما على غيرهما ، ومن خالف الكتاب والسنة ، وادعى أنه من أهل الكتاب والسنة ، فهو كاذب ؛ لأن من كان من أهل شيء لابد أن يلزمه ويلتزم به .

الجماعة اسم مصدر : اجتمع اجتماعًا وجماعة ، فالجماعة هي الاجتماع ، فمعنى أهل الجماعة أهل الاجتماع ؛ لأنهم مجتمعون على السنة ، متآلفون فيها ، لا يضلل بعضهم بعضًا ، ولا يبدع بعضهم بعضًا ؛ بخلاف أهل البدع .

هذا استعمال ثان ؛ حيث صار لفظ (الجماعة) عرفًا : اسمًا للقوم المجتمعين .

وعلى ما قرره المؤلف تكون (الجماعة) في قولنا : « أهل السنة والجماعة » : معطوفة على (السنة) ، ولهذا عبر المؤلف بقوله : « سموا أهل الجماعة » ، ولم يقل : سموا جماعة ؛ فكيف يكونون أهل الجماعة وهم جماعة ؟!

نقول : الجماعة في الأصل : الاجتماع ؛ فأهل الجماعة ؛ يعني : أهل الاجتماع ، لكن نقل اسم الجماعة إلى القوم المجتمعين نقلًا عرفيًا .

يعني به الدليل الثالث ؛ لأن الأدلة أصول الأحكام ، حيث تبنى عليها .

والأصل الأول : هو الكتاب ، والثاني : السنة ، والإجماع هو : الأصل الثالث ، ولهذا يسمون : أهل الكتاب والسنة والجماعة .

فهذه ثلاثة أصول يعتمد عليها في العلم والدين ، وهي : الكتاب ، والسنة ، والإجماع .

أما الكتاب والسنة ؛ فأصلان ذاتيان ، وأما الإجماع ؛ فأصل مبني على غيره ؛ إذ لا إجماع إلا بكتاب أو سنة .

أما كون الكتاب والسنة أصلًا يُرجع إليه ؛ فأدلته كثيرة ؛ منها :

- قوله تعالى : ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء : ٥٩] . وقوله تعالى : ﴿وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة : ٩٢] . وقوله تعالى : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر : ٧] . وقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء : ٨] .

ومن أنكر أن تكون السنة أصلًا في الدليل ، فقد أنكر أن يكون القرآن أصلًا .

ولا شك عندنا في أن من قال : إن السنة لا يرجع إليها في الأحكام الشرعية ، أنه كافر مرتد عن الإسلام ؛ لأنه مكذب ومنكر للقرآن ؛ لأن القرآن في غير ما موضع جعل السنة أصلًا يرجع إليه .

وأما الدليل على أن الإجماع أصل ؛ فيقال :

أولًا : هل الإجماع موجود أو غير موجود ؟

قال بعض العلماء : لا إجماع موجود إلا على ما فيه نصٌّ ، وحينئذٍ : يستغنى بالنص عن الإجماع .

فمثلًا ، لو قال قائل : العلماء مجمعون على أن الصلوات المفروضة خمس ؛ فهذا صحيح ، لكن ثبوت فرضيتها بالنص .

ومجمعون على تحريم الزنى ؛ فهذا صحيح ، لكن ثبوت تحريمه بالنص . ومجمعون على تحريم نكاح ذوات المحارم ؛ فهذا صحيح ، لكن ثبوت تحريمه بالنص .

ولهذا قال الإمام أحمد : من ادعى الإجماع ، فهو كاذب ، وما يدريه لعلهم اختلفوا ؟

والمعروف عن عامة العلماء أن الإجماع موجودٌ ، وأن كونه دليلًا ثابت بالقرآن والسنة :

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء : ٥٩] ؛ فإن قوله : ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ﴾ : يدل على أن ما أجمعنا عليه لا يجب رده إلى الكتاب والسنة ؛ اكتفاء بالإجماع ، وهذا الاستدلال فيه شيءٌ .

- ومن ذلك قوله : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء : ١١٥] . فقال : ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ .

- واستدلوا أيضًا بحديث : « لا تجتمع أمتي على ضلالة »[1] .

وهذا الحديث حسّنه بعضهم وضعفه آخرون ، لكن قد نقول : إن هذا وإن كان ضعيف السند ، لكن يشهد لمتنه ما سبق من النص القرآني .

فجمهور الأمة على أن الإجماع دليلٌ مستقل ، وأننا إذا وجدنا مسألة فيها إجماع ؛ أثبتناها بهذا الإجماع .

وكأن المؤلف رحمه الله يريد من هذه الجملة إثبات أن إجماع أهل السنة حجة .

« الأصول الثلاثة » : هي الكتاب والسنة والإجماع .

(١) صححه الألباني في « صحيح الجامع » (١٨٤٨) .

يعني : أن أهل السنة والجماعة يَزِنُون بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من قول أو عمل ، باطن أو ظاهر ، لا يعرفون أنه حق إلا إذا وَزَنُوه بالكتابِ والسنةِ والإجماع ، فإن وجد له دليل منها فهو حق ، وإن كان على خلافه فهو باطل .

قوله : « والإجماعُ الذى يَنْضَبِطُ هو ما كان عليه السلفُ الصالحُ » : يعنى أن الإجماع الذى يمكن ضبطه والإحاطة به هو ما كان عليه السلف الصالح وهم القرون الثلاثة ، الصحابة والتابعون وتابعوهم .

ثم علل المؤلف ذلك بقوله : « إذ بعدهم كَثُرَ الاختلاف وانتشرت الأمة » . يعني : أنه كثر الاختلاف ككثرة الأهواء ؛ لأن الناس تفرقوا طوائف ، ولم يكونوا كلهم يريدون الحق ، فاختلفت الآراء ، وتنوعت الأقوال ، « وانتشرت الأمة » : فصارت الإحاطة بهم من أصعب الأمور .

فشيخ الإسلام رحمه الله كأنه يقول : من ادَّعى الإجماع بعد السلف الصالح ، وهم القرون الثلاثة ؛ فإنه لا يصح دعواه الإجماع ؛ لأن الإجماع الذى ينضبط ما كان عليه السلف الصالح ، وهل يمكن أن يوجد إجماع بعد الخلاف ؟ فنقول : لا إجماع مع وجود خلاف سابقٍ ولا عبرة بخلاف بعد تحقق الإجماع .

❁ **قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك حفظه الله :**

قوله : « ثم من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع آثار رسول الله ﷺ باطنًا وظاهرًا ....» :

ومن أصول أهل السنة اتباع آثار النبي ﷺ ، وما جاء به ظاهرًا وباطنًا ، واتباع آثار السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، وهذا مما أمر الله به عباده ، فقد أمرهم باتباع الرسول : ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، وقال تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران : ٣١] ، وقال تعالى : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة : ١٠٠] .

فطريقتهم : اتباع سنة الرسول ﷺ وتعظيمها والتمسك بها ، واتباع آثار السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، وسنة الخلفاء الراشدين ، فما سنه أبو بكر ، أو عمر ، أو عثمان ، أو علي رضي الله عنهم مما لم يختلفوا فيه ، ولم يخالف دليلًا من الكتاب والسنة ، فهو سنة ماضية نحن مأمورون باتباعها ، واتباعهم في هذا هو من تحقيق اتباع النبي ﷺ ؛ لأننا بذلك نعمل بوصيته ﷺ حين قال : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين ....»[1] .

قوله : « ويؤثرون كلام الله على غيره من كلام أصناف الناس ، ويقدمون هدي محمد ﷺ ....» :

ويؤمنون بأنه أصدق الكلام ، وأن هدي الرسول ﷺ خير هدي ، فيقدمون كلام الله على كلام غيره ، وهدي الرسول ﷺ على هدي غيره ؛ لذلك سموا أهل الكتاب والسنة ؛ لتقديمهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، لا إيمانهم بأن القرآن هو أصدق الكلام ، وأن هدي الرسول ﷺ هو خير الهدي .

---

(١) تقدم تخريجه .

كما جاء في خطبته ﷺ : « إن أحسن الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها »[1] ؛ لذلك سموا أهل الكتاب والسنة ؛ لأنهم المستمسكون بهما ، المحكمون لهما ، الذين لا يقدمون عليهما معقولًا ، ولا ذوقًا ، ولا استحسانًا ، لا يقدمون عليهما شيئًا .

ويسمى أهل السنة أيضًا بأهل الجماعة ؛ فهم أهل السنة والجماعة ؛ لأن الجماعة هي الاجتماع ، وهم يجتمعون على الحق ، ويأمرون بالاجتماع عملًا بقوله تعالى : ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران : ١٠٣] ، ويعملون بالإجماع : إجماع الصحابة ﷺ .

قوله : « والإجماع : هو الأصل الثالث » :

فأصول الأدلة ثلاثة : الكتاب ، والسنة ، والإجماع . والإجماع في الحقيقة دليل تابع للكتاب والسنة ، وأهل السنة والجماعة يزنون بهذه الأصول الثلاثة - الكتاب ، والسنة ، والإجماع - أقوال الناس ، وأفعالهم ، وأحوالهم مما له تعلق بالدين .

هذه هي الأصول الثلاثة التي يجب أن توزن بها الأعمال ، والأقوال ، والأحوال ، والأخلاق ، وهذا هو الصراط المستقيم الذي أمر الله باتباعه : الاعتصام بحبل الله وهو :دينه الذي بعث به رسوله ﷺ ، والاتباع للسلف الصالح من الصحابة الذين أثنى الله عليهم ، وعلى المتبعين لهم بإحسان .

❁ قال الشيخ صالح بن فوزان الفوزان حفظه الله :

قوله : « ثم من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع آثار رسول الله ﷺ » :

لما ذكر الشيخ طريقة أهل السنة فى مسائل العقيدة ذكر فى هذا الفصل والذى بعده طريقتهم فى عموم الدين ؛ أصوله وفروعه ، وأوصافهم التى تميزوا بها عن أهل البدع والمخالفات ، فمن صفاتهم :

(باطنًا وظاهرًا) بخلاف المنافقين الذين يتبعونه فى الظاهر دون الباطن .

وآثار الرسول ﷺ سنته ، وهى ما روى عنه وأثر عنه ، من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ ، لا آثاره الحسية كمواضع جلوسه ونومه ونحو ذلك ؛ لأن تتبع ذلك سبب للوقوع فى الشرك ، كما حصل فى الأمم السابقة .

١- (اتباع آثار النبى ﷺ باطنًا وظاهرًا) ؛ أى : سلوك طريقه ، والسير على منهاجه .

٢- ومن صفات أهل السنة(اتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار) لما خصهم الله به من العلم والفقه ، فقد شاهدوا التنزيل ، وسمعوا التأويل ، وتلقوا عن الرسول ﷺ بدون واسطةٍ ، فهم أقرب إلى الصواب ، وأحق بالاتباع بعد الرسول ﷺ .

فاتباعهم يأتى بالدرجة الثانية بعد اتباع الرسول ﷺ ، فأقوال الصحابة حجة يجب اتباعها إذا لم يوجد نصٌ عن النبى ﷺ ؛ لأن طريقهم أسلم وأعلم وأحكم ، لا كما يقول بعض المتأخرين : إن طريقة

---

(١) مسلم (٨٦٧) ، وأحمد (١/١٨٦) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ .

السلف أسلم ، وطريقة الخلف أعلم وأحكم . فيتبعون طريقة الخلف ، ويتركون طريقة السلف .

٣- ومن صفات أهل السنة (اتباع وصية رسول الله ﷺ ، حيث قال : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ؛ فإن كل بدعةٍ ضلالة » . رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

وغرض الشيخ أن يبين أن أهل السنة والجماعة يتبعون طريقة الخلفاء الراشدين على الخصوص ، بعد اتباعهم لطريقة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، على وجه العموم ؛ لأن النبى ﷺ أوصى باتباع طريقة الخلفاء الراشدين وصيةً خاصةً فى هذا الحديث .

ففيه قرن سنة الخلفاء الراشدين بسنته عليه الصلاة والسلام ، فدل على أن ما سنه الخلفاء الراشدون أو أحدهم لايجوز العدول عنه .

(والخلفاء الراشدون)هم الخلفاء الأربعة : أبو بكرٍ وعمر وعثمان وعلىٌ ، ووصفوا بالراشدين لأنهم عرفوا الحق واتبعوه ، فالراشد هو من عرف الحق ، وعمل به ، وضده الغاوى ، وهو من عرف الحق ، ولم يعمل به .

وقوله : (المهديين) ؛أى : الذين هداهم الله إلى الحق .

(تمسكوا بها) ؛أى : الزموها .

(وعضوا عليها بالنواجذ) كنايةٌ عن شدة التمسك بها ، والنواجذ آخر الأضراس و(محدثات الأمور) هى البدع .

(فإن كل بدعةٍ ضلالة) والبدعة لغةً : ما ليس له مثال سابق .

وشرعًا : ما لم يدل عليه دليل شرعىٌ ، فكل من أحدث شيئًا ، ونسبه إلى الدين ، ولم يكن له دليل فهو بدعة وضلالة ، سواء فى العقيدة ، أو فى الأقوال أو الأفعال .

٤-ومن صفات أهل السنة أنهم يعظمون كتاب الله وسنة رسوله ، ويجلونهما ، ويقدمونهما فى الاستدلال بهما ، والاقتداء بهما ، على أقوال الناس وأعمالهم ؛ لأنهم (يعلمون أن أصدق الكلام كلام الله) ، قال الله تعالى : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء : ١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء : ٨٧] .

ويعلمون : (أن خير الهدى هدى محمدٍ)« الهدى » بفتح الهاء وسكون الدال : السمت والطريقة والسيرة ، وقرئ بضم الهاء وفتح الدال ؛ أى : الدلالة والإرشاد .

(ويؤثرون كلام الله على غيره من كلام أصناف الناس) ؛أى : يقدمونه ، ويأخذون به ، ويتركون ما عارضه من كلام الخلق ، أيًا كانوا ، رؤساء ، أوعلماء ، أو عبادًا .

(ويقدمون هدى محمدٍ ﷺ) ؛ أى : سنته ، وسيرته ، وتعليمه ، وإرشاده .

(على هدى كل أحدٍ) من الخلق ، مهما عظمت مكانته ، إذا كان هديه يعارض هدى رسول الله ﷺ ، وذلك عملًا بقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الآية [النساء: ٥٩] .

وقوله : (ولهذا سموا أهل الكتاب والسنة) ؛ أى : لأجل تمسكهم بكتاب الله ، وإيثارهم لكلامه على كلام كل أحدٍ ، وتمسكهم بهدى رسول الله ، وتقديمه على هدى كل أحدٍ ، سموا أهل الكتاب والسنة .

لأجل ذلك لقبوا بهذا اللقب الشريف الذى يفيد اختصاصهم بهما دون غيرهم ، ممن حاد عن الكتاب والسنة من فرق أهل الضلال ؛ كالمعتزلة ، والخوارج ، والروافض ، ومن وافقهم فى أقوالهم ، أو فى بعضها .

وقوله : (وسموا أهل الجماعة) ؛ أى : كما سموا أهل الكتاب والسنة ، سموا(أهل الجماعة) والجماعة ضد الفرقة ؛ لأن التمسك بالكتاب والسنة يفيد الاجتماع والائتلاف ، قال تعالى : ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ فالجماعة هنا هم المجتمعون على الحق .

٥- فمن صفات أهل السنة الاجتماع على الأخذ بالكتاب والسنة ، والاتفاق على الحق ، والتعاون على البر والتقوى ، وقد أثمر هذا وجود الإجماع .

(والإجماع هو الأصل الثالث الذى يعتمد عليه فى العلم والدين) وقد عرف الأصوليون الإجماع بأنه : اتفاق علماء العصر على أمرٍ دينيٍّ ، وهو حجة قاطعة يجب العمل به .

وقوله : (وهو الأصل الثالث) ؛ أى : بعد الأصلين الأولين ، وهما الكتاب والسنة .

٦- من صفات أهل السنة أنهم (يزنون بهذه الأصول الثلاثة) ؛ الكتاب والسنة والإجماع (جميع ما عليه الناس من أقوالٍ ، وأعمالٍ باطنةٍ ، أو ظاهرةٍ ، مما له تعلق بالدين) .

فهم يجعلون هذه الأصول الثلاثة ميزانًا لبيان الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، فيما يصدر من الناس ، من تصرفاتٍ قوليةٍ ، أو فعليةٍ ، اعتقاديةٍ أو عمليةٍ .

(مما له تعلق بالدين) من أعمال الناس ؛ كالصلاة ، والصيام ، والحج ، والزكاة ، والمعاملات ، وغيرها .

أما ما ليس له تعلق بالدين من الأمور العادية ، والأمور الدنيوية فالأصل فيه الإباحة .

ثم بين الشيخ رحمه الله حقيقة الإجماع الذى يجعل أصلًا فى الاستدلال ، فقال : (والإجماع الذى ينضبط) ؛ أى : يجزم بحصوله ووقوعه .

(هو ما كان عليه السلف الصالح) لما كانوا قليلين مجتمعين فى الحجاز ، يمكن ضبطهم ،

ومعرفة رأيهم فى القضية .

(وبعدهم كثر الاختلاف ، وانتشرت الأمة) ؛ أى : بعد السلف الصالح صار الإجماع لا ينضبط لأمرين :

أولًا : كثرة الاختلاف ، بحيث لا يمكن الإحاطة بأقوالهم .

ثانيًا : انتشار الأمة فى أقطار الأرض بعد الفتوح ، بحيث لا يمكن عادةً بلوغ الحادثة لكل واحدٍ منهم ، ووقوفه عليها ، ثم لا يمكن الجزم بأنهم أطبقوا على قولٍ واحدٍ فيها .

تنبيه : إنما اقتصر الشيخ رحمه الله على ذكر الأصول الثلاثة ، ولم يذكر الأصل الرابع ، وهو القياس ؛ لأن القياس مختلف فيه ، كما اختلفوا فى أصولٍ أخرى ، مرجعها كتب الأصول .

❁ قال الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه الله :

قوله : (ثمَّ مِنْ طريقةِ أهلِ السنةِ والجماعةِ اتِّباعُ آثارِ رسولِ اللَّهِ ﷺ باطنًا وظاهرًا ، واتباعُ سبيلِ السابقينَ الأولينَ منَ المهاجرينَ والأنصارِ ، واتباعُ وصيةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، حيثُ قالَ : « عليكمْ بسنتي وسنةِ الخلفاءِ الراشدينَ المهديينَ منْ بعدي ، تمسكُوا بها ، وعَضُّوا عليها بالنَّواجذِ ، وإياكُمْ ومُحدثاتِ الأمورِ ؛ فإنَّ كُلَّ بدعةٍ ضلالةٌ »)[1].

هذا الفصل فصل عام في بيان طريقة ومنهاج أهل السنة والجماعة - الذين هم أهل الأثر ، وأهل الحديث ، وأتباع السلف الصالح رضوان الله عليهم - تميزوا عن غيرهم في الاعتقاد ، وتميزوا عن غيرهم في العمل ، وصاروا شامةً بين الناس ؛ فلهذا كانت طريقتهم في العمل ، وفي تلقي النصوص ، وفي التعامل مع آثار السلف الصالح مباينةً لطريقة المخالفين .

فذكر شيخ الإسلام - رحمه الله وأجزل له المثوبة - هذا الفصل ليبين لنا طريقة أهل السنة والجماعة ، ومنهجهم في العمل وفي مصدر التلقي الذي اعتمدوا ، فقال : (ثمَّ مِنْ طريقةِ أهلِ السنةِ والجماعةِ) ، يعني بالطريقة هنا المنهج ، والنهج ، والمنهاج ، والسبيل ؛ لأن الطريقة تعم ذلك ، فالطريقة هي الطريق المطروق ، وهي النهج والمنهج ؛ كما قال ﷻ : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة : ٤٨] ، والمنهاج هو السبيل وهو الطريق ، فجعل الله ﷻ لأصحاب نبيه ﷺ ومن تبعهم طريقًا تميزوا به عن غيرهم . وقد مر معنا أول شرح هذه العقيدة المباركة معنى أهل السنة ومعنى الجماعة ، فمنهجهم : (اتِّباعُ آثارِ رسولِ اللَّهِ ﷺ باطنًا وظاهرًا) ، واتباعهم لآثار النبي ﷺ إنما يكون عن علم وبصيرة ؛ لأن لفظ الاتباع يدل على متابعة عن علم وبصيرة ، فيختلف المتَّبِعُ عن المقلد ، فإن أهل السنة والجماعة طريقتهم هي الاتباع وليست التقليد .

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧) ، والترمذي (٢٦٧٦) ، وابن ماجه (٤٢) من حديث العرباض بن سارية . وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٤٠) .

وفي أصول الدين منه ما لا يجوز التقليد فيه ، وهو القدر الواجب من العقيدة الذي يجب أن يُعتقد الحق فيه مع دليله ، ومنه ما يسوغ أن يُتبع فيه قول عالم معتمد موثوق في دينه وسنته .

إذن قوله : (اتِّباعُ) نفهم منه أنهم علموا بذلك ، وإذا كانوا علموا فلابد من وسيلة للعلم ، وهي كثرة ورودهم على سُنَن المصطفى ﷺ ، وكثرة قراءتهم في كتب الحديث وكتب السنة ؛ لأنه بذلك تعلم آثار المصطفى ﷺ ، والآثار جمع الأثر ، وهو ما يُنقَلُ من الخبر في الأقوال أو الأعمال أو الأحوال .

وعند أهل الاصطلاح : الأثر يعم أقوال المصطفى ﷺ وأفعاله ، وكذلك قوله وأفعال الصحابة والتابعين ، فهذه هي الآثار ، ولهذا قيدها هنا بقوله : (اتِّباعُ آثارِ رسولِ اللّٰهِ ﷺ باطنًا وظاهرًا) ، فاتباع الآثار هذه سمة أهل السنة والجماعة ، يعني : أنهم يحرصون على الاتباع ، ولا يُحَكِّمونَ عقولهم ولا أهواءهم .

قوله : (رسولِ اللّٰهِ ﷺ) التعبير بالرسول أو النبي جائز ، قد يُستعمل لفظ النبي ، وقد يُستعمل لفظ الرسول ، لكن في بعض المواضع يحسن استعمال لفظ الرسول ، ومنه هذا الموضع ، فقوله : (اتِّباعُ آثارِ رسولِ اللّٰهِ ﷺ) فيه التنبيه على أن هذه الآثار قد أُرسِلَ بها من اللّٰه ﷻ ؛ وهذا هو الذي يعتقده أهل السنة بأن السنة ليست اجتهادًا منه ﷺ ؛ بل هي وحي أوحاه اللّٰه ﷻ إليه : أن اعمل كذا واترك كذا ، وقد يكون من سنة المصطفى ﷺ أشياء فيها اجتهاد لكنه يكون مُقَرًّا عليها ، وإلا لم تكن أثرًا من آثاره ﷺ .

أما الأمور الجِبِلِيَّة الطبيعية التي كان يعملها بمقتضى عادته ﷺ مثل : طريقته في مشيته ، وطريقته في نومته .. ونحو ذلك مما هو هيئة لم يأمر به ولم يحض عليه ﷺ ، فهذا النوع يُتَّبع أيضًا ، ويكون الاتباع على جهة الاقتداء ليس لأنه سنة في نفسه ، ولكن يُؤجر من فعل لأنه نوى الاقتداء ، فإذا نوى الاقتداء أُجِرَ على هذه النية ، وإلا فإن الأمور الجبلية ليس مأجورًا على أن يفعل مثلها إلا بنية الاقتداء ، فيؤجر على نية الاقتداء .

ولهذا قال العلماء في كتب الأصول : إن هذه الأمور الجِبِلِيَّة يؤجر فيها بنية الاقتداء ؛ وذلك بأن يفعل ما فعل ﷺ لأجل أنه فعل ، وأن يترك ما ترك ﷺ لأجل أنه ترك . فمن اقتدى بالنبي ﷺ في مشيته لأجل أنه مشى هكذا فإنه يؤجر على نيته ، وإلا فإن الأمور الجِبِلِيَّة ليست محل اتباع في نفسها ، وإنما الذي يُتَّبع ما كان من قبيل التشريع .

وكل اقتداء بالنبي ﷺ فيه أجر في جميع الأحوال ، لكن منه ما يكون الأجر في اتباع العمل من حيث هو ؛ لأن العمل عبادة : إما أن يكون واجبًا أو سنة ، والترك إما أن يكون محرمًا أو مكروهًا ، ومنه ما يكون الأجر في أن يُفعل على جهة الاقتداء ، وأن يُترك على جهة الاقتداء .

قوله : (باطنًا وظاهرًا) يعني به الإخلاص والمتابعة ، والاتباع لابد فيه من الإخلاص وهو اتباع الآثار في الباطن ، ولابد فيه من المتابعة للسنة وهو اتباع الآثار في الظاهر ، فاتباع الرسول ﷺ في الباطن

يقتضي أن تخلص لله جل وعلا ، وأن تخبت له وتنيب ، وأن تصحح عملك من الشوائب ، وأن تكون في أعمالك لله وحده دون غيره ، وهذه حال المصطفى ﷺ ؛ إذ هو أكمل خلق الله ﷻ توحيدًا وإخلاصًا لربه جل جلاله .

فإصلاح الباطن واتباع الآثار في الباطن هذا من طريقة أهل السنة ؛ ولهذا أعظم وصية يوصي بها أهل السنة من حولهم ومن معهم ومن وراءهم: الوصية بإخلاص الدين لله ﷻ ، وهي اتباع الآثار في الباطن ، واتباع الآثار في الظاهر بأن يعمل على نحو ما عمل ﷺ ، فيكون في هيئته ، وعبادته ، وسلوكه ، وأخلاقه ، وفي ملابسه ، وأكله ، ونومته ، وفي جميع أحواله على طريقة المصطفى ﷺ ، فأكملهم اتباعا من كان على اجتهاد في متابعة النبي ﷺ ، فمن كان أكثر اتباعًا كان أكمل .

قال : (واتباعُ سبيلِ السابقينَ الأولينَ منَ المهاجرينَ والأنصارِ) وهذه تميز بها أهل السنة والجماعة عن غيرهم ؛ لأن اتباع الكتاب والسنة هذه يدعيها الأكثرون ، كلٌّ يقول : الكتاب والسنة ، لكن أي تلك الدعاوى الصواب ؟ الجواب : هي قول من اتبع سبيل السابقين الأولين ، وهذا على نحو الكلمة المشهورة : بأن نفهم الكتاب والسنة على طريقة الصحابة رضوان الله عليهم ، أو على طريقة السلف الصالح . وهذا القيد مهم ؛ لأنه يميز أهل السنة عن غيرهم ، أما الأخذ بالكتاب والسنة ، أو طريقتنا طريقة الكتاب والسنة .. ونحو ذلك ، فهذه يشترك فيها الأكثرون ، لكن نفهم الكتاب بفهم السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، ونفهم السنة على طريقة السلف الصالح من الصحابة والتابعين ؛ ولهذا لابد من اتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار .

وتقييده بالسابقين الأولين ؛ لأنهم كانوا قبل حدوث الفتن ، ولم يحصل من أحد منهم افتتان ﷺ وأرضاهم ؛ لأن الله ﷻ أحل عليهم رضوانه ؛ كما قال ﷻ : ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة : ١٠٠] ، وقال ﷻ : ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح : ١٨] .

وقوله : (السابقينَ الأولينَ) ، من هم السابقون الأولون ؟

هذا فيه خلاف بين أهل العلم على أقوال :

الأول : أن السابقين الأولين هم الذين صلّوا القبلتين .

الثاني : السابقون الأولون هم من أسلم قبل الحديبية .

الثالث : هم أهل بدر من المهاجرين والأنصار .

والصواب في ذلك أن السابقين الأولين هم الذين أسلموا قبل صلح الحديبية ، وأما بعد ذلك فكثر الذين دخلوا في الإسلام ، وذلك لقول الله ﷻ : ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد : ١٠] ، وأما الأقوال الأخرى

فكلها فيها ما فيها ، وقد رد شيخ الإسلام رحمه الله على تلك الأقوال في كتابه « منهاج السنة النبوية » ، وقد عَرَضْنَا لبعضها فيما سبق من الكلام عن الصحابة .

قوله : (مِنَ المهاجرينَ والأنصارِ) المهاجرون اسم لمن هاجر من مكة إلى المدينة ، والأنصار هم الذين ناصروا المهاجرين ، والأنصار إما من الأوس وإما من الخزرج ، وهذان الاسمان (المهاجرون والأنصار) اسمان شرعيان ، والله ﷻ هو الذي سمى هؤلاء المهاجرين وسمى من نصرهم الأنصار ؛ كما في قوله الله ﷻ : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة : ١٠٠] ، فهذا يدل على أن الأسماء التي في التعريف تجوز ، شرط ألا يُتَعَصَّبَ لها من دون اسم الإسلام والإيمان ، فإحداث الأسماء في الإسلام غير اسم المسلم والمؤمن جائز بشرط ألا يُتَعَصَّبَ له ، لأن التعصب للأسماء من الجاهلية .

ويدل على ذلك أنه لما نادى أحد المهاجرين في خصومة بينه وبين الأنصار قال : يا لَلمهاجرين - يندبهم لنصرته - وقال الأنصاري : يا لَلأنصار - يندبهم لنصرته - فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : « أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم »[1]، مع أن التعصب جاء على اسم شرعي سمى الله ﷻ به أهله ، وكان الاسم - وهو اسم المهاجري أو الأنصاري - للتعريف والوصف ، فلما تحول إلى اسم للتعصب عليه والنداء والنخوة به ، ذمه النبي ﷺ وجعله من دعوى الجاهلية .

وهذا فيه دليل على وجوب لزوم الاسم الأول الذي هو اسم المسلم واسم المؤمن الذي سمانا الله ﷻ به ، وسمانا به رسوله ﷺ ، ونادى الله الناس في القرآن به : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [التوبة : ٣٨] ، ونحو ذلك ، فإنما ناداهم باسم الإيمان دون غيره من الأسماء أو الصفات .

وهذا من جنس الأسماء المحدثة في الإسلام مثل : الحنابلة ، والشافعية ، والمالكية ، والحنفية ، والظاهرية ، ومن مثل المدارس السلوكية ونحو ذلك ، فهذه الأسماء إذا كانت للتعريف فلا بأس بها ، أما إذا تُعُصِّب لها أو اعتُقِد أن من هذا اسمه فهو على الحق وغيره على الباطل ؛ فإن هذا ليس من طريقة أهل السنة بل رَدُّوا ذلك ، حاشا التسمية بما كان عليه صحابة رسول الله ﷺ من اسم أهل السنة والجماعة ، وأتباع السلف الصالح ، وأهل الأثر ، وأهل الحديث .. ونحو ذلك ؛ فإن هذه الأسماء نصرتُها والتعصب لها بمعنى التعصب لما اشتملت عليه من العقيدة الصحيحة ، هذا تعصبٌ لأصل الإسلام ، وليس تعصبًا لمحدث ، فإذا تُعصب لعقيدة أولئك فقد تُعصب للحق .

أما إذا تُعصب لاسم دون ما تميز به ذلك الاسم فإن ذلك باطل ولا يجوز ، مثل ما يحصل في هذا الزمن في بعض البلاد الإسلامية من أنهم يتعصبون للأسماء هذه ، وقد لا يكونون من أهل الاعتقاد الصحيح على وجه الكمال ، مثل ما يتعصب في بعض البلاد أهل الحديث ضد السلفيين ، واسم أهل الحديث في الأصل بمعنى أهل السنة والجماعة ، واسم أتباع السلف الصالح بمعنى أهل السنة

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥١٨) ، ومسلم (٦٢/٢٥٨٤) من حديث جابر بن عبد الله .

والجماعة ، فهما بمعنى واحد .

لكن في هذا الزمن حصل هناك التعصب للأسماء دون ما احتوت عليه الأسماء ؛ لأنها صارت لها شبه أحوال أحزاب ، أو تنافس ، ونحو ذلك .

فالواجب أن تكون مثل هذه الأسماء للتعريف ، وأما الاجتماع فهو على العقيدة الصحيحة التي كان عليها أهل السنة والجماعة ، فهي التي يُتَعَصَّبُ لها ، وهي التي تُنصر ويُدافَع عنها ويُدافَع عن أسماء أصحابها وأهلها .

وإذا كان الدفاع أو التعصب لاسم دون الحقيقة فإن هذا نوع من أنواع الجاهلية .

فهذه الأسماء المحدثة تكلم عنها شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه « اقتضاء الصراط المستقيم » وفي غيره ، فالواجب أن تُعْرف شروط جواز التسمي بهذه الأسماء .

وإذا كان الاسمان الشرعيان الأولان - المهاجرون والأنصار - قد صارا نوعًا من الجاهلية لما تُعُصِّبَ لهما ، مع أن الله ﷻ هو الذي سماهم بذلك ، دل على أن التسمية بغير ذلك إذا تُعصب له يكون من باب أولى نوعًا من أنواع الجاهلية .

إذا تبين ذلك فإننا نقول : إن التسميات الحادثة في هذه الأمة بأنواعها ، سواء كانت لنسب ، أو قبيلة ، أو بلد ، أو جنس ، أو مذهب ، أو طريقة ، فإن الأحوال فيها ثلاثة :

الحال الأولى : أن تكون ممدوحة .

والحال الثانية : أن تكون مذمومة .

والحال الثالثة : أن تكون مباحة .

أما الحال الأولى : وهي أن تكون ممدوحة ، فهي إذا كانت التسميات مما تُمَيِّزُ المسلمين بما نُصَّ في الكتاب والسنة على حسنه وعلى اعتباره ، فالله ﷻ سمى المسلمين باسم الإسلام والإيمان ، وكذلك وصْف المتقين مع أن فيها تزكية ، ووصف بالأبرار مع أن فيها تزكية ، ونحو ذلك ؛ فهذه تسميات هي من قبيل الأوصاف لاسم المسلم واسم المؤمن ، وكل مسلم لديه تقوى بحسبه ، وكل مؤمن لديه تقوى وبر بحسبه . وكذلك ما جاء بالوصف كلزوم السنة والجماعة ، فاسم السنة واسم الجماعة هذه من الأسماء التي جاءت في الأحاديث وأصلها في القرآن ؛ ولهذا يسمى خاصة أهل الإسلام أهل السنة والجماعة ؛ لأنهم لزموا سنة النبي ﷺ ولزموا الجماعة ، والنبي ﷺ هو الذي أذن في هذه التسمية بقوله في حديث الافتراق لما قالوا : من هم ؟ قال : « هي الجماعةُ »[1] ؛ ولذلك فإن أئمة السلف وأهل الحديث أقاموا هذا الاسم مقام الأسماء المحدثة ، فلما تفرقت الأسماء وتعددت رجعوا إلى الاسم الذي يميز أهل الإسلام المتمسكين بالأمر الأول عما عداهم ؛ لأنهم بين أمرين :

---

(١) تقدم تخريجه .

* إما أن يسلبوا اسم الإسلام عن أصحاب الأهواء المحدثة ، وهذا ليس بصحيح لأنهم مسلمون .

* وإما أن يصفوا من كان على الإسلام الأول باسم يُخَصُّون به ويكون منصوصًا عليه في الأدلة ، فهذا يكون سائغًا .

وهذا إجماع منهم على أن من كان على الأمر الأول فإنه يُسمى مثلًا أهل السنة والجماعة ، أو قد يُقال : أهل الحديث ؛ لأن السنة هي الحديث ، أو يُقال : أهل الأثر ، أو أتباع السلف .. ونحو ذلك ، هذه كلها في معنى واحد ؛ لأنها ترجع بالأمر إلى ما كانت عليه الجماعة الأولى التي نص النبي ﷺ على أنها ناجية ، فهذه تسمية ممدوحة .

الحال الثانية : الأسماء والدعاوى المذمومة ، وهذه مما حدث في الأمة من الأهواء المختلفة التي اتخذت لنفسها اسمًا يخالف الاسم الذي كان عليه الصحابة ؛ كالخوارج ، والمرجئة ، والمعتزلة وأشباه ذلك ؛ لأنهم يدعون إلى ذلك ويرون أنهم على صواب فيه ، وربما سموا أنفسهم أهل السنة والجماعة بأحد الاعتبارات ، فكل تسمية فيها إشارة لمذهب يشتمل على باطل في العقيدة أو باطل في السلوك فإن التسمية في نفسها مذمومة ، ولو لم يقترن بها شيء آخر ، فكيف إذا اقترن بها التعصب ؟ أو اقترنت بها بدع أخرى أو أهواء أخر ؟ لهذا فإن الأصل ألا يخرج عن دعوى الإسلام ؛ كما قال شيخ الإسلام : (كل ما خرج عن دعوى الإسلام والقرآن من نسب أو بلد أو جنس أو مذهب أو طريقة فهو من عزاء الجاهلية) ، إلا ما أُذن به مما ذكرت أو سنذكر .

فإذن هذه التسمية كلها باطلة وتكون من عزاء الجاهلية ؛ لأنها تفرّق ، مثل : الطرق الصوفية المختلفة الأسماء ، ويدخل فيها أيضًا الأسماء المحدثة للجماعات الإسلامية بأنواعها ، التي جعلت لها اسمًا يصدق عليه أنه اسم لحزب يميز هذا الحزب عن غيره ، كحزب التحرير مثلًا ، وكحزب الإخوان المسلمين ، وكجماعات أُخر تظهر في بلد دون بلد ، فهذه تسميات محدثة ، وهي مذمومة ؛ لأن الاسم في نفسه مشتمل على دعوى تفرّق المسلمين ، وتنصر من كان في هذا الحزب دون غيره .

ولهذا نقول : إن هذه الأسماء المحدثة . - الجماعات الإسلامية مثلًا ، والأحزاب - على نوعين :

فما كان منه للتعريف فالأصل في باب التعريف في الأسماء أنه واسع ، مثل ما سيأتي تفصيله في الأسماء المباحة إن شاء الله تعالى .

وأما ما كان من قبيل التنظيم ، وأنه يُوالي فيه ويُعادي ، ويُتعصب له دون غيره ، ويُنصر صاحبه دون غيره ، فهذا لاشك أنه من عزاء الجاهلية ، وأعظم مما رغبوا فيه انتصار المهاجري باسم شرعي وهو (المهاجرون) ، وانتصار الأنصاري لاسم شرعي وهو (الأنصار) ، ومع ذلك لما انتصر لاسم ولأهله دون غيرهم صار من دعوى الجاهلية بنص كلام النبي ﷺ .

فإذا كان الأمر في الأسماء المحدثة وانتُصر لها ودُوفع عنها دون غيرها ؛ بل ربما حُورب غير من كان

معهم من المسلمين مع أنهم على طاعة وعلى خير ؛ فإن هذا يدخل في دعوى الجاهلية وعزاء الجاهلية من باب أولى .

والمتأمل اليوم ينظر إلى أن واقع الجماعات الإسلامية بعامةٍ في الأسماء أنَّ هذه التسميات لو كانت للتعريف فقط لكان الأمر أسهل ، لكنها ليست للتعريف ؛ بل هي للدلالة على الحزب أو التنظيم ، ولكي يتعارف أصحابها فيما بينهم ، فتجد أن المسلم مثلا يذهب اليوم إلى بلد من البلاد فتجد أن أصحاب الحزب المعين يسألون هذا من أي فئة أو أي جهة .. إلى آخره ، فإذا أُثني عليه لأنه كان من هذه الجماعة المعينة ، أو من أهل الحزب ، أو أنه متعاطف معهم تبنوه ، وإذا لم يكن بذاك - وإن كان عالمًا جليلًا وليس من تلك الفئة - فإنهم يرفضونه ويتواصون برفضه ، مع أنه قد يكون عنده علم كبير بكلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ ، وإذا جاءت مشكلة أو جاءت منافَسة على شيء فإنهم يجتمعون على ذلك الاسم ، ويتعصبون له دون غيره .

من نظر فيما أحدثته الحزبيات والأسماء في أقرب شيء إلينا - وهو ما حصل في أفغانستان في العشرين سنة الماضية - وجد ذلك ماثلًا في أن وجود الأحزاب والأسماء فيه لم تكن للتعريف ، وإنما كانت للاجتماع عليها والتعصب لها دون غيرها ، فلما خرج العدو ونصر اللّٰه عباده ظهرت المفاسدُ الأخرى للتعصب المذموم للحزبيات هذه ، فأوقَعت المسلمين فيما بينهم .

وهذا كله يدل على أن كل مخلص للّٰه ﷻ ولرسوله ﷺ ، وكل مخلص لدين الإسلام ، وكل راغب في رفع راية الإسلام ، يجب ألا يتعصب لاسم دون اسم الإسلام ، بل يكون التعامل مع المسلمين على اسم الإسلام ما داموا على التوحيد ، ولم يكونوا من أهل الشرك الأكبر ، فإذا كان كذلك قَرُبت .

ومن المتقرر عند أهل السنة والجماعة أن كل مسلم يُوالَى بحسب ما عنده من الإسلام ، وبحسب ما عنده من الإيمان ، فوَلاية المسلم للمسلم تتبعض بقدر ما عنده من تحقيق الإسلام وتحقيق الإيمان ، وهذا هو نظر السلف في الشرع فيما تعاملوا به مع الناس ، أما الولاء والبراء ، والحب والبغض ، والمكايد ، ونحو ذلك مما يحصل ، فهذا كله من فعل الجاهلية ، وأثر من آثار التسميات التي لا يُقرها أهل الحق البتة .

فإذن نصل من ذلك إلى أَنَّ الأسماء المذمومة هذه في الجماعات أو في غيرها يجب على كل مخلص أن يسعى إلى ألا تبقى في الناس ، بل أن يبقى المؤمنون إخوة يبحثون عن الحق في كتاب اللّٰه ﷻ ، وفي سنة رسوله ﷺ ، وفي هدي السلف الصالح ، ولو زالت هذه الشعارات وهذه الأسماء لزالت الشحناء من النفوس ، ولاجتمع هذا العدد الكبير من المؤمنين على كلمة سواء ، وجاهدوا في اللّٰه حق جهاده ، ولحصل أشياء يمنّ اللّٰه ﷻ بها إذا اجتمع العباد على كلمته .

أما إذا رضينا بعزاء الجاهلية ، وبهذا الموجود ، فاللّٰه المستعان ، وهذا ظاهر في أحوال كثير من

المسلمين الآن ، وقل من يتخلص منه ، وواجب على العبد أن يكون الأمر بينه وبين ربه ﷻ ، وأن يُخلّص نفسه من الهوى ، وأن ينظر لكل مؤمن بميزان اسم الإسلام والإيمان ، وأن يكون ميزانه هو ميزان أهل السنة والجماعة في ذلك ، وألا يكون الميزان ميزان أحزاب أو تنظيمات ، أو أن هذا من هؤلاء أو ليس منهم ، ونحو ذلك من الأسماء .

كذلك مما يجب على عباد الله المؤمنين ، ألا يُحدثوا أسماء تزيد من الافتراق ، وهذا حصل ويحصل في كل زمن ، من أنه إذا تباغضت فئتان لمز هؤلاء باسم ، وسمّى الآخرون أولئك باسم ، فنشأت فرق جديدة ، أو نشأت جماعات ، أو نشأت مذاهب أو أفكار جديدة زادت من فُرقة المسلمين .

ومن قواعد أهل السنة والجماعة : أنَّ البدعة لا تُرد ببدعة ، والغلط لا يُرد بغلط ، بل يُصبر ، والإنسان نفسه إذا اعْتُدِي عليه ونيل منه يصبر ويحتسب عند الله ﷻ ، ولا يقابل الباطل بباطل ، أو يقابل التسمية بتسمية ، أو يقابل البدعة ببدعة ؛ لأن هذا يُفرق أكثر وأكثر ولا يجمع النفوس ، وقد جُرِّب ذلك ووُجد أن انتصار الناس للأسماء أعظم من انتصارهم للحق ، وقَلَّ من ينتصر للحق المجرد ، ولكنه إذا جاء الاسم فإنه يتحرك أكثر وأكثر ، وجُرِّبَ هذا في أنه إذا ذُكر اسم أحد من المعظمين عند أي فئة من الفئات – مثلًا – بشيء مما قد لا يليق أن يُذكر به ، فستجد أنه يُتعصب له ويُنتصر له أعظم مما لو خولفت مسألة شرعية ، أو وقع الناس في منكر أو في باطل ، وهذا من استيلاء عزاء الجاهلية على النفوس ، وهذا كثير في كل بلاد المسلمين بلا استثناء ، والله المستعان .

لهذا فإن الواجب على كل مخلص أن يسعى إلى أن يجمع الناس على كلمة سواء ، فيها تحكيم الكتاب والسنة ، واتباع طريقة السلف ، وإلغاء الأسماء ، وعدم إحداث التعصبات التي قد تثير الناس وتفرق عن الاجتماع ، وكل ناصح لابد أن يسعى في ذلك ، وأما إذا أقررنا في أي بلد كان هذه التسميات وسعينا فيها ، أو أن أهلها رضوا بها ، فإن الواقع لن يكون سارًّا لنا ، وأمامنا تجارِب كثيرة دلت على أن الفرقة لا تأتي بخير ؛ كما قال ﷺ : « في الفُرقَةِ عذابٌ »[1] .

والآن الناس في سعة ، لكن لا ندري ما المستقبل ، وربما تحول التراشق بالكلام إلى تراجُم بغيره ؛ كما حدث في بعض البلاد .

لهذا أُوصي طلاب العلم أن يجمعوا الناس على تقوى الله ﷻ ، وعلى لزوم الكتاب والسنة وطريقة السلف الصالح ، وأنَّ إلزام الناس أو دعوتهم إلى الكتاب والسنة وطريقة السلف الصالح يجب أن تكون متخلصة من التنابز بالألقاب والقدح ، ومما يجعل النفوس تثور فيها ثوائر الجاهلية ، ويثور فيها الغضب الباطل وحمية الجاهلية بعد أن أذهب الله ﷻ عنا ذلك ، وإذا رضينا بما نحن عليه فإننا نرضى بغير الحق ،

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٤٤٩، ١٨٤٥٠، ١٩٣٥٠، ١٩٣٥١) ، والبزار (٣٢٨٢) ، والبيهقي في الشعب (٤١٠٥) من حديث النعمان بن بشير . وحسن إسناده الألباني في الصحيحة (٦٦٧) .

وواجب أن يُبرئ الإنسان ذمته تجاه ذلك، وألا يخوض فيما لا يحبه الله ولا يرضاه.

النوع الثالث: التسميات المباحة، هي كل اسم أُحدث وكان للتعريف، وليس للموالاة والمعادلة فيه أو للتعصب عليه، وأصل الإباحة في ذلك من الله ﷻ لما سمى المهاجرين مهاجرين وصار هذا الاسم باقيًا عليهم، وسمّى الأنصار كذلك، والنبي ﷺ نادى قريشًا باسمها، ونادى القبائل باسمها، بل جعل في الحروب كل قبيلة لها جناح من الجيش ليكون ذلك أدعى لاجتهادهم وجهادهم لأعداء الله جل جلاله. وهذا كله للتعريف، فإذا كانت الأسماء للتعريف فلا حرج في التعريف، سواء كانت هذه النسبة أو الأسماء لنسب القبائل أو لأسماء القبائل، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحجرات: ١٣]، فالتعريف لا بأس به بأي صفة كانت.

وكذلك إذا كانت النسبة لمذهب من المذاهب مما لا يشتمل في نفسه على باطل؛ يعني أن يكون مؤسَّسا على باطل، كالنسبة مثلا للمذهب الحنبلي، والشافعي، والمالكي، والحنفي، ومذهب الظاهرية، ونحو ذلك، فهذه مذاهب للتعريف.

كذلك ما نسب إلى مكان معين - إلى بلد أو إقليم أو نحو ذلك - أو النسبة إلى جنس، هذا كله للتعريف والأمر فيه واسع.

كذلك الطرق المختلفة والجمعيات أو الجماعات إذا كانت للتعريف فلا بأس بذلك.

ومثال ذلك: جماعات تحفيظ القرآن الكريم في هذه البلاد المباركة، موجودة باسم الجماعة، ولا تشتمل على موالاة لمن فيها ومعاداة لمن ليس فيها؛ وذلك أن الاسم للتعريف ليس إلا، ولتنظيم العمل، وهذا أمر سائغ؛ لأن الله ﷻ أذن بالأسماء خلاف اسم المسلمين والمؤمنين.

وهذه الأسماء في نفسها إذا تحوّلت إلى تعصب وموالاة ومعاداة، فإنه يجب إبطال هذا التعصب وهذه الموالاة والرجوع إلى الأصل في ذلك. فإذا أتى - مثلًا - أتباع المذهب الشافعي وأتباع المذهب المالكي وتعصبوا لأنفسهم ضد مذهب آخر لينتصروا لمذهبهم، كان هذا من عَزاء الجاهلية.

وكذلك إذا أراد أهل قبيلة ما أن ينتصروا لقبيلتهم ضد قبيلة أخرى، وكان هذا بمجرد الاسم كان هذا من عزاء الجاهلية.

كذلك كل ما يتصل بهذه الأسماء المباحة لو أرادوا أن ينتصروا للاسم، وأن يوالوا ويعادوا عليه، وأن يُضعفوا اسم الإسلام أو أثر الإسلام والإيمان، هذا كله من آثار الجاهلية في ذلك.

قال: (واتباعُ وصيةِ رسولِ اللهِ ﷺ، حيثُ قالَ: « عليكمْ بسنتي وسنةِ الخلفاءِ الراشدينَ المهديينَ منْ بعدي »).

هذا الأمر منه ﷺ يدل على تعظيم سنة الخلفاء الراشدين، وأهل العلم في فهم هذا على قولين:

الأول: أن سُنة الخلفاء الراشدين ما اجتمع عليه الأربعة. وهذا قول كثيرين من أهل العلم.

الثاني : أن سُنة الخلفاء الراشدين هو ما سنه واحد منهم وقَبِلَهُ الصحابة في زمنه ، فتكون سُنَّة له أمضاها ، والنبي ﷺ أمر باتباع سُنَّتِه وسُنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده .

وهذا القول الثاني هو الصواب ؛ لأن القول الأول وهو ألا تُتبع إلا السُّنة التي اجتمعوا عليها يُفضِي القول به إلى تعطيل هذا الأمر في زمن أبي بكر ، وفي زمن عمر ، وفي زمن عثمان ، وفي زمن علي حتى تنقضي الخلافة الراشدة ، وهذا لا شك أنه باطل ؛ لأن هذا الأمر واجب الامتثال منذ تولي أبي بكر الخلافة ، ففي عهد أبي بكر يجب اتباع سنة الخلفاء الراشدين ، وأبو بكر أولهم فتُتبع سنته ، وهذا الذي كان يفهمه الصحابة فيطيعون الخليفة فيما سنَّه ؛ لأن وصية النبي ﷺ بذلك .

فلهذا أخذ أهل السنة بكثير من سُنَن الخلفاء وأقرُّوها ، مع أنها لم تكن في زمن النبي ﷺ ، وخاصةً ما كان في زمن عمر وعثمان رضي الله عنهما ، فإنه في زمن عمر رضي الله عنه جمع المسلمين على إمام واحد في صلاة التراويح ، وأحدث الدواوين ، ونحو ذلك ، وإن كانت هذه من قبيل المصالح المرسلة لكنها داخلةٌ في سنة الخلفاء الراشدين ، كذلك ما كان في زمن عثمان رضي الله عنه من إحداث الأذان الأول في الجمعة ، وتزيين المساجد ، وجمع المصاحف على حرف واحد ، وترك بقية الأحرف ، فهذه كلها سنن يلزمُ اتباعها ولا يجوز تعطيلها ؛ لأن النبي ﷺ أمر باتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده .

وقوله ﷺ : « وإياكمْ ومحدثاتِ الأمورِ ؛ فإنَّ كلَّ بِدعةٍ ضلالَةٌ » يعني : أحذركم محدثات الأمور ، والمحدثات هنا المراد بها البدع ، لأن المحدثات قسمان :

الأول : محدثات ليست من الدين - يعني من أمر الدنيا - وهذه لا بأس بإحداثها ؛ كما أحدث عمر الدواوين ، وترتيب الأرزاق ، ونحو ذلك .

الثاني : محدثات في الدين ، وهذه هي التي تكون من البدع .

وتقسيم المحدثات إلى قسمين قد أُثِر عن الشافعي رحمه الله ، وهذا ليس هو المقصود بالمحدثات في هذا الحديث ، فالشافعي رحمه الله لا يُفسر الحديث بتقسيمه المحدثات إلى هذين القسمين ، وإنما يُقسم المحدثات من حيث هي ، والذي في هذا الحديث هو المذموم - أي البدع - لا غير ، ومن ترك سنة فقد أحدث حدثًا ؛ كما قال بعض السلف : (ما ترك قوم سنة إلا أحدثوا بدعة) ، يعني بذلك الترك .

قال : (فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ) ، وهذا العموم ظاهر ، فإن لفظ « كل » يدل على الظهور في العموم ، والبدعة في اللغة هي ما أُحدِثَ على غير مثالٍ سابق ، ومنه قول الله ﷻ : ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة : ١١٧] ، يعني : من أحدث السماوات والأرض دون مثال سابق ، ومنه قوله ﷻ : ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف : ٩] ، يعني : لست بدعًا من الرسل ؛ بل سبقني رسل ولست برسولٍ ابتدعت القول بالرسالة ، فهذا هو معنى البدعةِ في اللغة ، ومنه قول عمر رضي الله عنه لمَّا رآهم يصلون التراويح وقد اجتمعوا على إمام واحد واكتظَّ المسجد بذلك : (نِعْمَ البدعةُ هذه) ، وفي رواية : « نِعْمَتِ البدعةُ

هذه »[1] ، يعني هذه البدعة اللغوية ؛ لأن هذا عمل على غير مثالٍ سابقٍ في عهده ﷺ ، وليست بدعة في الشرع ؛ لأن النبي ﷺ صلّى بهم ليالي من رمضان ، واجتمع الناس معه ؛ كما روى ذلك أصحاب « السنن » .

وأما البدعة في الاصطلاح فإنها تُعَرَّفُ بتعاريف ، ومنها :

الأول : هي ما كان على خلاف الدليل الشرعي .

الثاني : هي طريقة في الدين مخترعة تُضَاهى بها الطريقة الشرعية ، يُقصَدُ بالسلوك عليها المبالغة في التعبد للَّه تعالى ؛ كما هو تعريف الشاطبي في « الاعتصام » .

الثالث : هي ما أُحْدِثَ على خلاف الحق المُتَلَقى عن رسول اللَّه ﷺ في اعتقادٍ ، أو علمٍ ، أو حالٍ ، وجُعِلَ ذلك صراطًا مستقيمًا وطريقًا قويمًا .

هذه تعاريف مختلفة للبدعة ، وتعريف الشاطبي مشهور ، والتعريف الثالث أيضًا جيد ، ويظهر لنا من تعريف الشاطبي للبدعة أن البدعة طريقة في الدين مخترعة ، فمعنى (الطريقة) أنها صارت مُلتَزَمًا بها ، ومعنى كونها (مخترعة) أنها لم تكن في عهده ﷺ ، ولا في عهد الخلفاء الراشدين .

وهذا القول يعطينا فرقًا مهمًّا بين البدعة ومخالفة السنة ، وهي أن البدعة مُلتَزَم بها ، وأما ما فُعِل على غير السنة ولم يُلْتَزَمْ به فيقال : إنه خلاف السنة . فإذا التزم به صار بدعة ، وهذا الفرق نبه العلماء على أنه فرق دقيق مهم بين البدعة ومخالفة السنة ، فالضابط بين العمل المبتدع وبين العمل المخالف للسنة أن ينظر للعمل ، هل هو ملتزم به أو غير ملتزم به ؟ فإذا عَمِلَ على خلاف السنة بأن تَعَبَّدَ بذلك مرة أو مرتين ولم يلتزم به من جهة العدد ، أو من جهة الهيئة ، أو من جهة الزمن ، أو من جهة المكان ؛ فإنه يُقال : خلاف السنة .

أما إذا عمل عملًا يريد به التقرب إلى اللَّه ﷻ والتزم به عددًا مخالفًا للسنة ، أو التزم به هيئةً مخالفةً للسنة ، أو التزم به زمانًا مخالفًا للسنة ، أو التزم به مكانًا مخالفًا للسنة صار بدعةً ، هذه أربعة أشياء : في العدد ، والهيئة ، والزمان ، والمكان ، فمن أخطأ السنة وتعبد ولم يلتزم يقال له : هذا خالف السنة . وأما إذا التزم بطريقته وواظب عليها ؛ فإنه يقال : هذا صاحب بدعة ، وهذا العمل بدعة .

مثال ذلك : مَن رَفَعَ يديه بعد الصلاة المكتوبة ليدعُوَ ، أو سَلَّمَ ثم رَفَعَ يديه بعد الصلاة المفروضة ليدعُوَ .

نقول : هذا الفعل منه خلاف السنة ؛ لأن السنة أنه بعد السلام يَشرَع في الأذكار ، وأما رفع اليدين بالدعاء بعد السلام فليس مشروعًا ، وليس من السنة ، فإذا رأيته يفعل ذلك ، تقول : هذا خلاف السنة ، وسُنَّةُ النبي ﷺ أن يبتدئ بالأذكار بعد السلام . فإن كان ملازمًا لها بأن يفعل هذا بعد كل صلاة ، صار

---

(1) أخرجه البخاري (٢٠١٠) من حديث عبد الرحمن بن عبد القاري .

بدعةً ، أو كان ملتزمًا عددًا من التسبيح في وقت ما من اليوم لا يتركه ، أو يجعل له بعد الصلاة - مثلًا - مائة تسبيحة ومائة تهليلة ومائة تكبيرة ومائة تحميدة ، فهذا خلاف السنة ، لكن إن فعلها مرة أو نحو ذلك فهذا نقول : إنه خلاف السنة . وقد يكون له حاجة في تكفير ذنب أو نحو ذلكِ هو أدرى به ، لكن إن التزمه صار بدعةً .

والتقييد بالأعداد مقصود شرعًا ، فلابد من التَّقَيُّد ، وهذه هي السنة ، فإذا تعدى الشرع وأراد أن يحوز فضلًا في شيء قد قُيِّدَ بالشرع في وقته ، أو زمانه ، أو عدده ، أو مكانه ؛ فإن الزيادة تكون نوعًا من الاعتداء .

وهناك تقسيم آخر للبدع ، وهو :

أولًا : أن تكون البدع كبيرة من الكبائر قد تصل إلى الكفر .

ثانيًا : أن تكون صغيرة من الصغائر ، يعني : مما يُغفر لصاحبها إذا زاحم عمله هذا عمل صالح يُكفِّر عنه به ، لكن ليس معنى ذلك أنها تشترك مع صغائر الذنوب التي تكفرها الصلاة إلى الصلاة ، ورمضان إلى رمضان ، والجمعة إلى الجمعة ، بل البدعة شرها أعظم ، وإن كانت صغيرة من حيث تقسيم الذنب ، فهي وإن كانت صغيرة لكن شرها أعظم من صغائر الذنوب ، قال الإمام مالك -رحمه اللّٰه تعالى - : (من ابتدع بدعة فقد زعم أن اللّٰه ﷻ لم يكمل لنا الدين ، وأن النبي ﷺ قد خان الرسالة وقد كتم بعض الدين) ، لماذا ؟ الجواب : لأن المبتدع يفعل هذه الأفعال وهو يعتقد أنها من الدين ، واللّٰه ﷻ يقول : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة : ٣] ، فهل الكامل يحتاج إلى زيادة ؟ الجواب : لا ، وكلام الإمام مالك -رحمه اللّٰه تعالى - هذا متين واضح .

إذا تبين ذلك فالبدع كلها مذمومة ؛ كما قال النبي ﷺ : « وإياكم ومحدثاتِ الأمورِ ؛ فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ » . وهذا يعني أن هذه كلية لا يخرج عنها شيء ، فكل بدعة يصدق عليها أنها ضلالة ، فما هذه البدع ؟ الجواب : هي البدع التي عَرَّفْنَاها : بأنها طريقة في الدين مخترعة تضاهي بها الشرعية يُقصد بالملازمة عليها المبالغة في التعبد للّٰه ﷻ بها ، هذا هو المراد .

بعض أهل العلم لم يفهم هذا وقال : إن البدع منها ما هو حسن ومنها ما هو قبيح ، كيف ؟ قالوا : البدعة هي كل ما لم يكن على عهد النبي ﷺ ، فيدخل في ذلك مثلًا : جمع القرآن ؛ فإن القرآن في عهد النبي ﷺ لم يُجمع في كتاب فجمع ، فيقولون : هذا من جنس البدع ، لكن هذه بدعة واجبة يجب على الأمة أن تسعى في ذلك .

ويقولون : هناك بدع مستحبة ، وهناك بدع مباحة ، وهناك بدع مكروهة ، وهناك بدع محرمة .

والجواب : أن هذا الذي قالوه فيه مناقضة لقول النبي ﷺ : « فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ » . فهذه كلية ، فيجب أن يُفْهم منها أن قوله : « كلَّ بدعةٍ » . أنها البدعة في الشرع ، وهذه الأشياء التي مثلوا أنها واجبة أو

أنها مباحة أو أنها مستحبة لا تدخل في البدع الشرعية حتى تكون داخلة في قوله : « فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ » . فإنه لا يتصور أن جمع القرآن يدخل في قوله : « فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ » ولا يدخل في ذلك الردود والتصانيف التي صنفها العلماء لحفظ السنة ودحض البدعة ، وتصنيف الكتب لم يكن في عهد النبي ﷺ ، إلا أنه قد يكون مستحبًا ، وقد يكون واجبًا بحسب الحاجة .

إذا تبين ذلك فإن قوله : « فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ » . المراد هنا البدعة في اصطلاح الشرع ، وليست البدعة في اللغة .

وتعريف البدعة بأنها :(كل ما أحدث بعد رسول اللّه ﷺ ....) هذا التعريف قال أصحابه : البدعة منها ما يكون بدعة حسنة . وهذا هو الذي مال إليه بل ابتدعه ونصره العز بن عبد السلام المعروف ، وأوقع الأمة في بلاء تحسين البدع بعد أن قال هذا في كتابه « القواعد » ، وتبعه عليه تلميذه القرافي في « الفروق » المشهورة له ، وقد رد عليهما الشاطبي رحمه الله في كتاب « الاعتصام » ، وكذلك شيخ الإسلام وعلم الأعلام ابن تيمية رحمه الله ، وابن القيم ، وجماعات من أهل العلم ، ولكن تبع العز بن عبد السلام على تعريفه وتقسيمه جماعات ، فلا تكاد تجد أحدًا ممن شرح الحديث بعد العز بن عبد السلام إلا وقد وقع فيما ذكره ، وهذا ولا شك وقعت الأمة من جرائه في وبال .

وقد جاء عن النبي ﷺ في البدع ما يحذر منها بأبلغ تحذير ، فكيف تدخلون أمثال هذه فيها ؟ والنبي ﷺ لم يفصل ولم يبين أن بدعة دون بدعة لها حكم ، بل قال : « فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ » . وهذا كله يعني أنها عامة ، فـ « كل » من ألفاظ العموم كما هو مقرر عند الأصوليين ، فإذا جعل من البدع منها ما هو واجب ومنها ما هو مستحب ومنها ما هو مباح ، فهو باطل وغلط ، والسبب في الغلط الحاصل هو في أمرين :

الأمر الأول : هو أنهم جعلوا البدعة اللغوية هي المرادة ، أو جعلوا البدع تضم ما كان بدعًا في اللغة ، ولم يجعلوا للبدع تعريفًا شرعيًا جامعًا مانعًا ، فقولهم في تعريف البدع : هي كل ما لم يكن على عهد النبي ﷺ ، هذا يعني البدعة اللغوية ، فكل ما أُحدث بعد النبي ﷺ يجعلونه بدعة ، ويدخل في هذا - مثل ما مثل به الشاطبي وغيره - : المناخل ، وأنواع الأطعمة ، وأنواع الأكسية ، وأنواع البيوت ، والمراكب ، إلى آخره ، كلها داخلة ، لكنها ليست مرادة ، فالنبي ﷺ نهى عن البدع أشد النهي وذم أصحابها ، بل وجعلهم لا يردون عليه حوضه ، وهذا لا شك أنه لا يدخل فيه البدع التي هي بدع في اللغة وليست بدعًا في الشرع .

الأمر الثاني : العلاقة بين البدع والتبديع ، اعلم أنه لا ملازمة بين كون الرجل يأتي بالبدعة وكونه مبتدعًا ، فإنه قد يعمل ببدعة ولا يُطلق عليه لفظ المبتدع ؛ لأن هذه الثنائية لا تلازم بينها ، فلا تلازم بين البدعة والتبديع ، ولا تلازم بين الكفر والتكفير ، ولا تلازم بين الفسق والتفسيق ، فقد يعمل الرجل بالفسق

ولا يسمى فاسقًا ، وقد يعمل بالبدعة ولا يسمى مبتدعًا ، وقد يعمل بالكفر ولا يطلق عليه أنه كافر ؛ وذلك لأن من شرط هذه الأسماء أن تقام الحجة على من قام به أحد تلك الأعمال .

- *إذا قامت الحجة على من عمل ببدعة ، وصدف عنها ، ولم يتبع الحجة التي قال بها أهل العلم ، وأعلمه إياها أهل العلم ، فإنه يصبح مبتدعًا .

* كذلك الفسق لا يلزم من كون الرجل يعمل كبيرة أن يكون فاسقًا ، فالفاسق هو من يعمل الكبيرة ، أما الصغائر فلا يسمى فاعلها فاسقًا حتى تُقام عليه الحجة ، ويُبين له ، ثم لا يأبه لذلك .

* كذلك الكفر قد يقوم الكفر بأحد ، يعني : يعمل عملًا شركيًا ، أو عملًا كفريًا ، لكن لا نسميه مشركًا أو كافرًا حتى تقوم عليه الحجة .

وهذه قاعدة مهمة بينها الأئمة في غير ما موضع ، لكن كيف تقام الحجة ؟ هذا له بحث آخر .

لما ذكرنا تعريف البدعة ذكرنا لفظ الملازمة وزدناه على تعريف الشاطبي ، وهذا مهم قد نبه عليه شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره ؛ وذلك لأن من عمل عملًا لم يلتزمه فإنه يكون عمل عملًا على خلاف السنة ، ولكن لما لم يلتزمه ولم يجعله طريقة تُطْرَقُ وتُتَّبَعُ وتُسْلَكُ ، وإنما فعله مرة أو مرتين ، فإنه يعد مخالفًا للسنة في هذا العمل ويقال : أخطأ فلان في كذا وكذا ، ونحو ذلك ، أما إذا لازمه فيكون بملازمته لهذا العمل أو العمل الملازم عليه ليضاهي به المشروع يكون بدعة ، فليس كل مخالفة للسنة تعد بدعة ، فمن أخطأ فقد خالف السنة ، لكن لا يعد مبتدعًا إلا إذا لزمه ، وكذلك يكون عمله خلاف السنة لكن لا يعد مبتدعًا .

وفي هذا المقام لابد من إيضاح الفرق ما بين البدعة والمصلحة المرسلة : والبدعة فهمنا معناها وتعريفها ، أمّا المصلحة المرسلة فهي مُختلفٌ فيها في التعريف :

فمِن أهل العلم من يعد العبادات التي أحدثها الخلفاء الراشدون من المصالح المرسلة ، ومنهم من يُقيد المصلحة المرسلة بالدنيا .

وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وعدد من المحققين على القول الأول يجعلون المصلحة المرسلة ما لم يقم المقتضي لفعله في زمن النبي ﷺ ، ولم يفعله ﷺ ، يعني لم يقم المقتضي للفعل في عهده ثم فُعِلَ من العبادات ، فهذا يُعَدُّ مصلحةً مرسلة ، مثل الأذان الأول ، ونحو ذلك ، فهي عند شيخ الإسلام من المصالح المرسلة ، يعني : في عهده ﷺ لم يَقُمِ المقتضي للفعل ، وإنما قام المقتضي للفعل بعد ذلك من أمور العبادات . وكذلك من أمور الدنيا ما لم يقم المقتضي لفعلها في عهده ﷺ ، وقام بعد ذلك ، فتسمى مصلحةً مرسلة ؛ لأن الشارع أرسل العمل بها ، ولم يُقيد العمل بما كان في وقته ﷺ .

والثاني من الأقوال : أن المصلحة المرسلة ما كان من أمر الدنيا ، وما كان فيه تيسير العمل وتيسير أمور الناس في دنياهم .

فتكون المصلحة المرسلة مفارقة للبدعة من جهتين :

الأولى : أن البدعة في الدين في العبادة ، وأما المصلحة المرسلة فهي في الدنيا .

الثاني : أن البدعة تقصد لذاتها - كما قال ذلك الشاطبي في تعريفه - فيُقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد ، وأما المصلحة المرسلة فهي لأمر الدنيا لا يُقصد بها المبالغة في التعبد ، والمصلحة المرسلة وسيلة لتحقيق كلي من كليات الشريعة ، وأما البدعة فهي ليست وسيلة وإنما هي مقصودة ذاتًا .

هذا هو الفرق بين البدعة والمصلحة المرسلة ، والذي يظهر لي ويترجح هو القول الثاني ، أما قول شيخ الإسلام ابن تيمية فكأنه لا ينضبط في بعض المسائل من المحدثات فيما يظهر لي .

وما أُحدِثَ في عهد الخلفاء الراشدين ندخله ضمن قول النبي ﷺ : « عليكمْ بسنتي وسنةِ الخلفاءِ الراشدينَ المهديينَ منْ بعدِي » . فهي سنة الخلفاء وليست مصلحة مرسلة ، والخلاف من جهة اللفظ ، أما من جهة التطبيق فيتفق الجمهور مع قول شيخ الإسلامرحمه الله تعالى .

قوله : (ويعلمونَ أنَّ أصدقَ الكلامِ كلامُ اللهِ ، وخيرَ الهديِ هديُ محمدٍ ﷺ ، ويؤثرونَ كلامَ اللهِ على غيرِهِ منْ كلامِ أصنافِ الناسِ ، ويقدِّمونَ هديَ محمدٍ ﷺ على هديِ كلِّ أحدٍ ، ولهذا سمُّوا أهلَ الكتابِ والسنةِ ، وسُمُّوا أهلَ الجماعةِ ؛...) .

قال : (ويعلمونَ أنَّ أصدقَ الكلامِ كلامُ اللهِ) ، وكلام الله جل جلاله هو القرآنُ الذي هو صفته سبحانه وتعالى ليس مخلوقًا ، منه بدأ وإليه يعود .

قال : (وخيرَ الهديِ هديُ محمدٍ ﷺ) ، فلا هدي أحد يكون أحسن من هديه ، وهدي النبي ﷺ هو : ما كان من أفعاله وأقواله في العبادات ، أو في المعاملات ، أو في أحواله وسائرِ يومه .

وفي هذا الزمن أصبح الناس في الداخل والخارج يأخذون هديًا غير هدي النبي ﷺ ، ومنهم من يُسَمُّونَ بالإسلاميين ، وإذا نظرت إلى حقيقة حالهم وجدتهم يستنكفون من بعض هدي النبي ﷺ ، أو يرون أنه لا يناسب العصر ، أو لا يناسب هذا الزمان ، والنبي ﷺ بيّنَ لنا أن خير الهدي هَدْيُه ﷺ ، فلا يكون هدي أحد - مهما كان - أكملَ من هديه ﷺ ، سواءً في الأكل ، أو الشرب ، أو في الدخول والخروج ، أو في المعاشرة ، أو في الهيئات العامة ، أو في العبادة ، أو في النظر ، أو في الحكم ، أو في الوصية ، أو في التعامل ، أو في التواضع ، أو في الأخلاق ، أو غير ذلك ، فأكملُ الهدي هديُه ﷺ وخير الهدي هدي محمد ﷺ .

فإذا اختلف الزمان وتغير فيبقى خير الهدي هدي محمد ﷺ ، إذا اختلفت العقول واختلفت الأنظار وتوسع الناس فيبقى خير الهدي هدي محمد ﷺ ، وهذه تحتاج إلى قوة قلب ، وأهل السنة والجماعة أتباع آثار السلف الصلاح قويةٌ قلوبهم بذلك ولله الحمد ، وهم بين الناس كالشامة ؛ لأنهم على الأمر الأول وعلى خير الهدي هدي محمد ﷺ .

قال : (ويؤثرونَ كلامَ اللَّهِ على غيرِهِ منْ كلامِ أصنافِ الناسِ ، ويقدمونَ هديَ محمدٍ ﷺ على هديِ كلِّ أحدٍ) ، وهذا ظاهر ، فإن لهم من العناية بالقرآن وتلاوته وتَدَارُسِهِ ما تميزوا به عن غيرهم ، وكذلك عندهم من معرفة السنة والنظر فيها والفقه فيها ما ليس عند غيرهم ، فهم أهل الكتاب والسنة ، فلهم عناية بالقرآن من جهة تلاوته ، وتدبره ، وحفظه ، وتدارسه ، والقيام به ، والصلاة به ، وكذلك هم أهل سنة ينظرون في السنة ويكثرون الورود عليها ويتفقهون فيها .

قال : (ولهذا سمُّوا أهلَ الكتابِ والسنةِ) ، فأهل الكتاب والسنة - أهل القرآن والسنة - هم أهل السنة والجماعة ، وهم أهل الأثر إذا كانوا أهل الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح .

قال : (وسُمُّوا أهلَ الجماعةِ) ، والمقصود بالجماعة ما كان في زمن الخلفاء الراشدين ﷺ ؛ فإنهم كانوا مجتمعين ، وإنما حصل الخلاف بعدهم .

قال : (لأنَّ الجماعةَ هيَ الاجتماعُ ، وضدهَا الفُرْقَةُ) ، وقد سبق بيان معنى الجماعة في أول شرح هذه الرسالة المباركة ، وأن الجماعة والفرقة لفظان متقابلان ، وسبق بيان أقوال السلف الصالح في تفسير الجماعة والفرقة ، وجِماعُ أقوالهم أن الجماعة نوعان :

* جماعةٌ في الأبدان ، أي : اجتماعٌ في الأبدان .
* جماعة في الدين ، أي : اجتماعٌ في الدين .

فاللَّه ﷻ أمر بأن نجتمع في أبداننا وألا نتفرق فقال : ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران : ١٠٣] ، وأمر كذلك بالاجتماع في الدين فقال ﷻ : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى : ١٣] ، فالتفرق في الدين فيه بعدٌ عن الاجتماع ، وهذه صفة فرق الضلال ، صفة الثنتين والسبعين الفرقة ، كذلك من سعى في التفريق في الأبدان وفي الدين فهو ليس على طريقة أهل الجماعة الذين ذكرهم شيخ الإسلام ﷺ هنا ، وقد سبق بيان ذلك مفصلًا بما يغني عن إعادته .

لكن هنا نكتة لطيفة أو قاعدة ، وهي : أن الاجتماع نوعان ويقابله الفرقة نوعان : فرقة في الأبدان ، وفرقة في الدين ، وكلٌّ منهما تئول إلى الأخرى ، فمن سعى إلى الاجتماع في البدن يسعى إلى الاجتماع في الدين ، ومن سعى إلى الاجتماع في الدين سعى إلى الاجتماع في البدن ، وكلٌّ منهما ملازمة للأخرى ، فلا يُتَصَور الاجتماع في الدين مع التفرق في الأبدان إلا تفرق أهل الضلالة ، فمن سعى في أن يجتمع الناس في الدين فقد سعى في أن يجتمع الناس في أبدانهم .

ولهذا من أعظم الفرية أن يُقالَ عمن كان على طريقة السلف الصالح والداعين إلى الحق والهدى : إنهم يسعون إلى التفريق . لأنهم إذا دعوا إلى توحيدِ اللَّه ، وإخلاص الدين له ، وإلى الاجتماع في الدين ، وألا نفرق بين أوامر اللَّه ﷻ ، فهم في الحقيقة دعوا إلى الاجتماع ، ومن دعا إلى

الاجتماع في البدن فهو يدعو إلى الاجتماع في الدين، وإنما يؤتى الناس من جهة عدم معرفة الضابط بين هذا وهذا، وهذه من المسائل العظيمة؛ لأن مسألة الجماعة والاجتماع من أعظم نعم الله ﷻ على عباده إذا منَّ عليهم بالاجتماع ونبذ الفرقة، وكلٌّ منهما لها صلةٌ بصاحبتها، فمن سعى في اجتماع الناس في الدين فقد سعى في اجتماع الناس في أبدانهم، وكذلك مقابله من سَعَى لاجتماع الناس في الأبدان سعى لاجتماع الناس في الدين؛ لأن به يمكن أن يُرشَد الناس دون تفرق، والفرقة عذاب؛ كما قال ﷺ في الحديث الحسن: «الجماعةُ رحمةٌ والفرقةُ عذابٌ»(١)، يعني: الاجتماع في البدن وفي الدين رحمة، والفرقة في البدن وفي الدين عذاب؛ يُعذب الله ﷻ به من شاء.

قال: (وإنْ كانَ لفظُ الجماعةِ قدْ صارَ اسمًا لِنَفْسِ القومِ المُجْتَمِعينَ)، هذا من باب الأصل يُقال: هذه جماعة بني فلان؛ لأنهم مجتمعون، أما في الشرع فالجماعة أعم من ذلك.

قال: (والإجماعُ هوَ الأصلُ الثالثُ)، الإجماع بعد الكتاب والسنة، فأهلُ السنة والجماعة عندهم ثلاثةُ أصول: الكتابُ، والسنة على فهم السلف الصالح، ثم الإجماع.

لكن الإجماع لم ينضبط، فكثيرون ادَّعوا الإجماع على أشياء لا يصح فيها الإجماع؛ ولهذا قال الإمام أحمد رحمه الله في مسائل ادُّعِي فيها الإجماع: (من ادَّعى الإجماع فهو كاذب)، يعني: في مسائل معينة، وإلا فثَمَّ مسائل أُجْمِعَ عليها.

قال: (والإجماعُ هوَ الأصلُ الثالثُ الذي يُعتمدُ عليهِ في العلمِ والدينِ) لا شك أنَ الإجماع أصل من الأصول الثلاثة التي عليها أهل السنة والجماعة، ودليلُه قول الله ﷻ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، فقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا هو الإجماع. وقد جاء رجل إلى الشافعي رحمه الله، فقال له: ما الحجة في دين الله؟ فقال الشافعي: كتاب الله، قال: وماذا؟ قال: سنة رسول الله ﷺ، قال: وماذا؟ قال: اتفاق الأمة، قال: ومن أين قلت: اتفاق الأمة من كتاب الله؟ فتدبر الشافعي رحمه الله ساعة، فقال الشيخ: أجلتك ثلاثة أيام، فتغير لون الشافعي، ثم إنه ذهب إلى بيته فلم يخرج أيامًا، ثم خرج من البيت في اليوم الثالث، فجاءه الرجل وقال: حاجتي؟ فقال الشافعي رحمه الله: نعم، قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾. فصارت هذه الآية دليلًا للإجماع.

قال: (الإجماعُ الذي ينضبطُ هوَ ما كانَ عليهِ السلفُ الصالحُ؛ إذْ بعدهمْ كَثُرَ الاختلافُ، وانتشرَ في الأمةِ)، والإجماع بحثٌ أصولي معروف في كتب الأصول، ويُتَصَوَّر إجماع أهل السنة في غير زمن

---

(١) تقدم تخريجه.

السلف الصالح ، ولكنه لا ينضبط ؛ لأنه قد يكون ثمّ من يخالف في مكان من الأرض ، لكن بما اشتهر يكفي الإجماع .

والإجماعُ المقصود به : إجماع من هم من أهل الفقهِ في الدين الذين يفقهون معاني الكتاب والسنة ، أما أهل الرواية ، وأهل الأثر من جهة معرفة الحديث ومخارجه ، ونحو ذلك ، فالأصوليون نصُّوا على أن من كان من أهل الرواية ولم يكن من أهل الدراية فلا يُعتَد به في الإجماع ، فلو خالف لا يكون مخالفًا للإجماع .

ولهذا ذكر عددٌ من أهل السنة أن ثمّ مسائل انعقد الإجماع عليها ، ولا عبرة بخلاف الظاهرية فيها ؛ لأنهم لم يكونوا على طريقة الأئمة ، أئمة الحديث في الفقه ؛ كمالك ، والشافعي ، وأحمد ؛ إذ هم أئمة الحديث ، وهم أئمة الفقه عند أهلِ السنة والجماعة .

فالإجماع ينضبط في عهد السلف الصالح ، وما بعده فيه عدم انضباط وكثرة اختلاف ، لكن المقصود به إجماع أهل الفقه والدراية بالكتاب والسنة ، ويُتَصَوَّر بعدهم أن يُجمِعوا إذا أجمع الفقهاء المعروفون بالكتاب والسنة ، ولم يُعرف مخالف لهم .

قال : (وهمْ يَزِنُونَ بهذه الأصولِ الثلاثةِ جميعَ ما عليهِ الناسُ منْ أقوالٍ وأعمالٍ باطنةٍ أوْ ظاهرةٍ مما لهُ تعلُّقٌ بالدينِ) لا شك أن هذه الأصول الثلاثة يوزن بها الناس ، وتوزن بها الفئات والطوائف والأشخاص ، من جهة العناية بالسنة ، والاستدلال بها ، واعتماد ما دلت عليه ، وأنها تفيد العمل وتفيد العلم ، سواءٌ كانت متواترة أو كانت آحادًا ، فإفادة السنة للعلم يُشْتَرط له ثبوت السنة ، فإذا ثبتت السنة أفادت العلم ، وأفادت العمل أيضًا بعد ذلك .

وأما ما ذكره بعض الأصوليين من المعتزلة وغيرهم من أتباع المذاهب من أن حديث الآحاد لا يفيد العلم وإنما يفيد العلم الظني ، فهذا مخالفٌ لطريقة السلف الصالح ، بل نقول : يفيد العلم ، ولا نقول : يفيد العلم الظني أو العلم اليقيني .

لكن كثيرٌ من أهل العلم يُعَبِّر بأن حديث الآحاد يفيد العلم الظني ، وقد يفيد العلم اليقيني بشروطه ؛ وذلك إذا احتفت به القرائن ، أو كان مُخَرَّجًا في « الصحيحين » ، ونحو ذلك ، أو تلقته الأمة بالقبول ؛ كما ذكر ذلك الحافظ ابن حجر حيث قال : (وخبرُ الآحاد إذا احتفت به القرائن أفاد العلم اليقيني)

وهناك لفظان هما :

* قطعية الدلالة .

* وقطعية الثبوت .

قطعية الثبوت : يعني أن يكون ثبوت السنة قطعيًا ، أو ثبوت ما كان من القرآن قطعيًا ، فالقرآن ثابتٌ بالقطع ، يعني : الروايات المنقولة بالتواتر ، أما الرواية التي لم تُنقل بالتواتر - يعني : الروايات الشاذة ونحو

ذلك - فهذه عند أهل السنة والجماعة موقوفة على صحة السند ، فإذا صح السند إلى القارئ فإنها مُعْتَبَرَة إذا لم تخالف القراءة المتواترة ، وتفيد العلم وتفيد العمل ، وذلك بخلاف طريقة القراء ؛ فإن عندهم القراءات الشاذة هذه ليست معتمدة .

لكن طريقة أهل السنة : أنه إذا صحت القراءة بأن صح سندها ولو لم تكن متواترة ؛ فإنها تفيد العلم والعمل .

والقطعية راجعة إلى ثبوت ذلك من جهة صحة الإسناد في الشاذ ، والتواتر معروف في القراءات العشر أو ما هو أكثر من ذلك ، فالسنة تكون قطعيةَ الثبوت إذا كانت متواترة ، أما إذا كانت غير متواترة فيقال : إنها ظنية الثبوت .

وهذا اصطلاح ، يعني : أن طريقة إثباتها لم تكن على وجه القطع بل مظنونة ؛ لأنها لم تُنقل بالتواتر .

يُقابل ذلك قطعية الدلالة بالكتاب والسنة ، وهذا نادر ، وأغلب نصوص الأحكام ليست قطعية الدلالة ؛ بل فيها مجال للاجتهاد ، وأما الأخبار : خبر عن الله ﷻ أو عن صفاته ، أو عن الغيبيات ، أو عن قصص الأنبياء ، فهذه قطعية الدلالة من جهة حصول اليقين بما دلت عليه . قد يكون هناك ألفاظ تحتمل كذا وكذا ، وهذا يكون فيه مجال للفهم والدلالة ، أما الأحكام فإنها قد تكون نصًّا من الكتاب أو السنة قطعي الدلالة وقد لا يكون .

وعند الأصوليين النص يكتسب القطعية إذا سلم من اثني عشر أمرًا ، وهي موجودة في كتب الأصوليين .

المقصود أن هذه الأصول يزن بها أهل السنة والجماعة الناس .

ولم يذكر شيخ الإسلام رحمه الله القياس هنا ؛ لأن القياس مُختلف فيه حتى عند السلف الصالح ، فمنهم من لم يقس ولم يرض بالقياس .

والقياس نوعان :

الأول : قياس القواعد ، وهو من جهة عموم المعنى ، وهذا لا خلاف فيه بين السلف ؛ بل كان السلف يُعملونه كثيرًا ، وهو من العلم النافع العظيم .

الثاني : قياس الفروع هو المعروف عند الأصوليين بالقياس ، وهو : إلحاق فرعٍ بأصلٍ لعلةٍ جامعةٍ بينهما ، ويقصدون بالفرع الحكم المسكوت عنه ، وبالأصل الحكم المنصوص عليه .

وأما القياس قياس القواعد فهذا هو الذي يُسمى عموم المعنى ، هو الذي تكلم عنه ابن القيم في أوائل « إعلام الموقعين عن رب العالمين » ، وأطال الكلام فيه وفي تقريره ، وهو الذي يسمى تحقيق المناط ، وهو الذي يكون من الفقهاء في العبادات .

وبعض طلاب العلم لا يُفرق بين القياس وبين القواعد ، تجد أنه في باب العبادات يرى أنه ألحق شيئًا

بشيء ، فقال : هذا قياس ، والقياس في العبادات ممتنع .

وهذا ليس بجيد ؛ بل الصحابة ألحقوا بعض العبادات ببعض من جهة عموم المعنى ؛ من جهة قياس القواعد ، وهذا مقبول عندهم باطراد ، وأما قياس الفروع فهذا الذي فيه بينهم خلاف ، وما كان منه جليًا فقد اعتمده أئمة السنة ؛ كمالك والشافعي وأحمد ، وما كان منه خفيًا فهو عرضة للأخذ والرد .

على العموم توجد مباحث طويلة في ذلك لكن هذه أصول تَجْمَعُ هذا الموضوع في طريقة ومنهج أهل السنة والجماعة .

قال رحمه الله : (يَزِنُونَ بهذه الأصولِ الثلاثةِ جميعَ ما عليهِ الناسُ منْ أقوالٍ وأعمالٍ باطنةٍ أوْ ظاهرةٍ مما لهُ تعلُّقٌ بالدينِ) يعني : هذه الأصول لا يُوزَنُ بها ما له تعلق بالدنيا ؛ لأن هذا الأصل فيه التوسع ، أما ما له تعلق بالدين فيزنون الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة ، فأحوال الناس - الأفراد والطوائف - تُوزن ، وأقوالهم تُوزن بهذه النصوص ، فمن كان متبعًا طريقة السلف الصالح فهو على طريقة أهل السنة والجماعة .

فهذه الأصول توزن بها الأقوال والأعمال ، وتوزن بها المقاصد ، وتوزن بها النيات ، ويوزن بها ما ظهر وما بطن ، ولا شك أنه ميزانٌ عظيم ، لكن لا يُحسن تطبيقة إلا الراسخون في العلم ؛ لأن تطبيقه يحتاج إلى دقة ، خاصةً في الأمور الباطنة ، أما الأعمال الظاهرة فهذه قد يشترك فيها الكثيرون من جهة الوزن بهذه الأصول .

❁ ❁ ❁

الأسئلة

❁ **قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان رحمه الله :**

□ آثار النبي ﷺ :

س١- ما هي آثار النبي ﷺ ؟ وما موقف أهل السنة والجماعة حولها ؟ وضح مع ذكر الأدلة والتقاسيم .

ج- آثاره نوعان : قسم هو ما يؤثر عنه ؛ أي : يروى عنه من الأقوال والأفعال والتقريرات ، فهذا القسم يجب الأخذ به والتمسك به .

والقسم الثاني : آثاره الحسية ؛ وهي مواضع أكله ، ونومه ، وجلوسه ، ومشيته ، ومواضع أقدامه في الأرض ، ونحو ذلك ؛ فهذه لا يجوز تتبعها ، ولا اتخاذها معابد ؛ لأن ذلك وسيلة إلى الغلو والشرك ، ولهذا أمر عمر بقطع الشجرة التي وقعت البيعة تحتها خوف الفتنة ؛ لما قيل له : إن بعض الناس يذهب إليها ، وقال : إنما هلك من كان قبلكم بتتبع آثار أنبيائهم .

ونهى عن تتبع آثار النبي ﷺ الحسية ، وبقوله أخذ جمهور الصحابة وأهل السنة ، وهو الحق الذي لا يجوز غيره ، والله أعلم .

□ آثار أصحاب النبي ﷺ :

س٢- متى تتبع آثار الصحابة وضح ذلك ، وما له من أدلة ؟ وما حول ذلك من مسائل ؟

ج- عند موافقتها لسنة الرسول ﷺ ، وعند خفاء سنة رسول الله ؛ أما إذا وجد نص من الكتاب أو السنة ، فإنه يجب تقديمه على رأي كل أحد قال تعالى : ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء : ٥٩] ، وأفتى عمر السائل الثقفي في المرأة التي حاضت بعد أن زارت البيت يوم النحر : ألَّا تنفر ، فقال له الثقفي : إن رسول الله ﷺ أفتاني في مثل هذه المرأة بغير ما أفتيت به ، فقام إليه عمر يضربه بالدرة ، ويقول له : لم تستفتني في شيء قد أفتى فيه رسول الله ﷺ .

وكان ابن مسعود أفتى بأشياء فأخبره بعض الصحابة عن النبي ﷺ بخلافه ، فانطلق عبد الله إلى الذين أفتاهم فأخبرهم أنه ليس كذلك .

وقال ابن عباس : يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ، أقول قال رسول الله ﷺ ، وتقولون : قال أبو بكر وعمر .

وعن ابن شهاب : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال وهو على المنبر : يا أيها الناس إن الرأي إنما كان من رسول الله ﷺ مصيبًا إن الله كان يريه ، وإنما هو منا الظن والتكليف .

وقال الشافعي : أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد . وقال مالك : ما منا إلا راد ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر ﷺ .

وكلام العلماء في هذا المعنى كثير ، والله أعلم .

س٣- ما هي وصية رسول الله ﷺ نحو الخلفاء الراشدين ؟

ج- هي قوله ﷺ : «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة» .

وقال : «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر» .

ولو لم تقم الحجة بقولهم لما أمرنا باتباعهم وهذا هو الحق المتبع .

س٤- لم سموا أهل السنة والجماعة : أهل السنة ، وأهل الجماعة ، وأهل الكتاب ؟

ج- أما تسميتهم أهل الكتاب : فلاتباعهم كتاب الله الذي ، قال فيه : ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف : ٣] ، وقال : ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه : ١٢٣] الآيتين .

وأما تسميتهم : أهل السنة فلاتباعهم لسنة رسول الله ﷺ ؛ عملًا بقوله ﷺ : «عليكم بسنتي» ...الحديث ، وتقدم قريبًا .

وأما تسميتهم أهل الجماعة : فللاجتماع على آثار النبي ﷺ ، والاستضاءة بأنواره ، والاهتداء بهديه ، وتقديمه على هدي كل أحد كائنًا ما كان .

□ الأصول التي تعتمد عليها أهل السنة :

س٥ - ما هي الأصول التي يعتمد عليها أهل السنة في العلم والدين ؟ ويزنون بها جميع ما عليه الناس من أعمال وأفعال باطنة أو ظاهرة مما له تعلق بالدين ؟

ج- هي ثلاثة : أولها : كتاب الله ﷻ الذي هو خير الكلام وأصدقه ، الذي فيه الهدى والنور ، فلا يقدمون عليه كلام أحد . والأصل الثاني : سنة رسول الله ﷺ ، وما أثر عنه من هدى وطريقة فيتمسكون بها ولا يعدلون بها غيرها . الأصل الثالث : الإجماع ، وهو لغة : العزم والاتفاق ، واصطلاحًا : اتفاق مجتهدي الأمة في عصر واحد على أمر ديني ؛ وهو حجة قاطعة ، والإجماع الذي ينضبط : هو ما كان عليه السلف الصالح ؛ إذ بعدهم كثر الاختلاف ، وانتشرت الأمة في أنحاء الأرض .

□ طرف من محاسن أهل السنة :

س٦- اذكر شيئًا من محاسن أهل السنة والجماعة ؟

ج- الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والإدانة بالنصيحة ، والتناصر ، والتعاون ، والتراحم ، والحث على مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، والإحسان إلى اليتامى والمساكين ، والأمر بالصبر على البلاء ، والشكر عند الرخاء ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام وحسن الجوار ، ونحو ذلك .

« فصلٌ » في بيانِ مُكمِّلاتِ العقيدةِ من مكارِمِ الأخلاقِ ومحاسنِ الأعمالِ التي يَتَحَلَّى بها أهلُ السنةِ

ثم هم مع هذه الأصولِ يَأْمُرُون بالمعروفِ، ويَنْهَوْن عن المنكرِ، على ما تُوجِبُه الشريعةُ، ويَرَوْنَ إقامةَ الحجِّ والجهادِ والجُمَعِ والأعيادِ مع الأمراءِ، أبرارًا كانوا أو فُجّارًا، ويُحافِظون على الجماعاتِ، ويَدِينون بالنصيحةِ للأمةِ، ويَعْتَقِدون معنى قولِه ﷺ: « المؤمنُ للمؤمنِ كالبُنْيانِ، يَشُدُّ بعضُه بعضًا ». وشبَّك بينَ أصابعِه. وقولِه ﷺ: « مَثَلُ المؤمنين في تَوَادِّهم وتَراحُمِهم وتَعاطُفِهم، كمَثَلِ الجسدِ، إذا اشْتَكَى منه عُضْوٌ تَدَاعَى له سائرُ الجسدِ بالحُمَّى والسَّهَرِ ».

ويأمُرُون بالصبرِ عندَ البَلاءِ، والشكرِ، والرِّضا بمُرِّ القضاءِ، ويَدْعُون إلى مكارمِ الأخلاقِ، ومحاسِنِ الأعمالِ، ويَعْتَقِدون معنى قولِه ﷺ: « أكملُ المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خُلُقًا ».

ويَنْدُبون إلى أن تَصِلَ مَن قَطَعَك، وتُعْطِيَ مَن حَرَمَك، وتَعْفُوَ عمَّن ظلَمَك، ويَأْمُرُون بِبِرِّ الوالدَيْنِ، وصلةِ الأرحامِ، وحُسْنِ الجِوَارِ، والإحسانِ إلى اليَتَامَى والمساكينِ وابنِ السبيلِ، والرِّفْقِ بالمَمْلوكِ، ويَنْهَوْن عن الفخرِ والخُيَلاءِ والبَغْيِ والاستطالةِ على الخَلْقِ بحقٍّ، أو بغيرِ حقٍّ، ويَأْمُرُون بمعالي الأخلاقِ، ويَنْهَوْن عن سَفْسَافِها.

وكلُّ ما يقولونه ويفعلونه مِن هذا وغيرِه، فإنما هم فيه مُتَّبِعون للكتابِ والسنةِ، وطريقتُهم هي دينُ الإسلامِ، الذي بعَث اللَّهُ به محمدًا ﷺ.

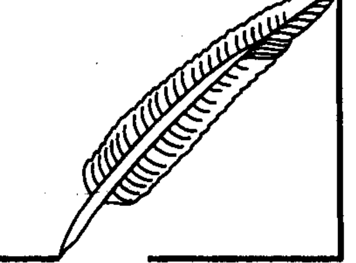
لكن لمَّا أخبَر النبيُّ ﷺ أن أُمَّتَه سَتَفْتَرِقُ على ثلاثٍ وسبعينَ فرقةً، كلُّها في النارِ إلا واحدةً، وهي الجماعةُ. وفي حديثٍ عنه أنه قال: « هم مَن كان على مثلِ ما أنا عليه اليومَ وأصحابي ». صار المُتَمَسِّكون بالإسلامِ المَحْضِ الخالصِ عن الشَّوْبِ، هم أهلَ السنةِ والجماعةِ، وفيهم الصِّدِّيقُونَ، والشُّهَداءُ، والصالحون، ومنهم أعلامُ الهُدَى، ومَصابِيحُ الدُّجى، أُولُو المَناقِبِ المأثورةِ، والفضائلِ المذكورةِ،

وفيهم الأبدالُ ، وفيهم أئمةُ الدِّينِ ، الذين أجْمَع المسلمون على هدايتِهم ، وهم الطائفةُ المنصورةُ ، الذين قال فيهم النبيُّ ﷺ : « لا تَزَالُ طائفةٌ مِن أُمَّتي على الحقِّ منصورةً ، لا يَضُرُّهم مَن خالَفَهم ، ولا مَن خذَلَهم ، حتى تقومَ الساعةُ ».

نَسأَلُ اللَّهَ أن يَجْعَلَنا منهم ، وأن لا يُزِيغَ قلوبَنا ، بعدَ إذ هدانا ، وأن يَهَبَ لنا مِن لَدُنْهُ رحمةً ، إنه هو الوَهَّابُ ، واللَّهُ أعلمُ .

وصلَّى اللَّهُ على محمدٍ وآلِه وصَحْبِه ، وسلَّمَ تَسْليمًا كثيرًا .





الشـــرح

❁ قال الشيخ فيصل بن عبد العزيز آل مبارك رحمه الله :

قوله : « وفيهم الأبدال الأئمة ، الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم » :

قوله : « وفيهم الأبدال الأئمة » ؛ أي : العلماء الزهاد . قال في « النهاية » : في حديث علي رضي الله عنه : « الأبدال بالشام »[1] هم الأولياء والعباد ، والواحد : بدل وبدل ، سموا بذلك ؛ لأنهم كلما مات واحد منهم أبدل آخر » .

وقال في« القاموس » : « والأبدال : قوم بهم يقيم الله عز وجل الأرض ، وهم سبعون ، أربعون بالشام ، وثلاثون بغيرها ، لا يموت أحدهم إلا قام مكانه آخر من سائر الناس » .

وقال شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله : « أما الأبدال فقد روي فيهم حديث شامي منقطع الإسناد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرفوعًا إلا النبي ﷺ أنه قال : « إن فيهم – يعني أهل الشام – الأبدال الأربعين ، كلما مات رجل أبدل الله تعالى مكانه رجلًا »[2] . وهذا الجنس ونحوه من علم الدين قد التبس عند أكثر المتأخرين حقه بباطله – ولا بد أن يقيم الله فيهم من تقوم به الحجة خلفًا عن الرسل ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ، فيحق الله الحق ويبطل الباطل ولو كره المشركون– وليس من شرط أولياء الله أهل الإيمان والتقوى ، ومن يدخل فيهم من السابقين المقربين لزوم مكان واحد في جميع الأزمنة ، ولا تعيين العدد – إلى أن قال – : فأما الحديث المرفوع فالأشبه أنه ليس من كلام النبي ﷺ ، فإن الإيمان كان بالحجاز واليمن قبل فتوح الشام ، وكانت الشام والعراق دار كفر ، ثم لما كان في خلافة علي رضي الله عنه قد ثبت عنه عليه السلام أنه قال : « تمرق مارقة من المسلمين يقتلهم أولى الطائفتين بالحق »[3] . فكان علي وأصحابه أولى بالحق ممن قاتلهم من أهل الشام ، فكيف يعتقد مع أن الأبدال الذين هم أفضل الخلق كانوا في أهل الشام ، هذا باطل قطعًا ، وإن كان قد ورد في الشام وأهله فضائل معروفة ، فقد جعل الله لكل شيء قدرًا .

والكلام يجب أن يكون بالعلم والقسط ، فمن تكلم في الدين بغير علم دخل في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء : ٣٦] ، ومن يتكلم بقسط وعدل دخل في قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء : ١٣٥] ، وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام : ١٥٢]

---

(١) أحمد (١١٢) من حديث علي رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (٢٢٦٦) .

(٢) أحمد (١١٢) من حديث علي رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (٢٢٦٦) .

(٣) مسلم (١٠٦٥/١٥٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

والذين تكلموا باسم البدل فسروه بمعان منها : أنهم أبدال الأنبياء ، ومنها أنه كلما مات منهم رجل أبدل اللَّه تعالى مكانه رجلًا ، ومنها أنهم أبدلوا السيئات من أخلاقهم وأعمالهم وعقائدهم بحسنات ، وهذه الصفات كلها لا تختص بأربعين ولا بأقل ولا بأكثر ولا بأهل بقعة من الأرض .

فالغرض أن هذه الأسماء تارة تفسر بمعان باطلة ، مثل قولهم : إن الأبدال الأربعين رجال الغيب بجبل لبنان . انتهى ملخصًا .

والمقصود أن لفظة الأبدال يراد بها حق وباطل : فمراد شيخ الإسلام وغيره من العلماء : أنهم العلماء العاملون الداعون إلى دين اللَّه المتبعون لسنة رسول اللَّه ﷺ ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

وأما الجهال وأهل الغلو فمرادهم أن أهل الأرض يطلبون منهم أن يقضوا حوائجهم ، ويكشفوا ضرهم ، ويشفعوا لهم عند ربهم ، وهذا هو دين المشركين الذي أنزلت الكتب وأرسلت الرسل للنهي عنه ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر : ٢، ٣] .

وقال تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف : ٩] ، وقال تعالى : ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر : ٦٦] ، وقال تعالى : ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧] .

❁ قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله :

قوله : « ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة » :

أي : باليد ثم باللسان ثم بالقلب تبع القدرة والمصلحة ، ويسلكون أقرب طريق يحصل به المقصود بالرفق والسهولة ، متقربين بنصيحة الخلق إلى اللَّه ، قاصدين نفع الخلق وإيصالهم إلى كل خير ، وكفهم عن كل شر ، ساعين في ذلك بحسب وسعهم .

قوله : « ويرون إقامة الحج والجهاد والجمع والأعياد مع الأمراء أبرارًا كانوا أو فجارًا » :

وذلك لأن غرضهم الوحيد : تحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد أو تقليلها .

فلا يمتنعون من إعانة الظالم على الخير وترغيبه فيه قولًا وفعلًا ، فيشاركون الولاة الظلمة في الخير ، ويفارقونهم في الشر ، ويحرصون على الاتفاق وينهون عن الافتراق .

قوله : « ويحافظون على الجماعات ...» :

وهذا كلام جامع ، واضح ، نادر ، جمعه في موضع واحد ، لا يحتاج إلى شرح وإيضاح .

والحمد للّه رب العالمين ، وصلى اللّه على محمد وسلم .

قال ذلك وكتبه معلقه عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي ، غفر اللّه له ولوالديه ولجميع المسلمين .

وقع الفراغ منه في ٨ جمادى الأولى عام ١٣٦٩ هجرية ، والحمد للّه على نعمه الظاهرة والباطنة .

۞ قال الشيخ عبد العزيز بن محمد بن مانع رحمه الله :

قوله : « سفسافها » : « السفساف » : الأمر الحقير ، والرديء من كل شيء ، وهو ضد المعالي والمكارم .

قوله : « الأبدال ...» : قال ابن الأثير في حديث عن الأبدال بالشام : « هم الأولياء والعباد ، الواحد بدل ، كحمل وأحمال ، وبدل كجمل ، سموا بذلك ؛ لأنهم كلما مات واحد منهم أبدل بأخر » . اهـ .

ولو قيل : إن الأبدال هم الذين يجددون الدين كما في الحديث ؛ لما كان بعيدًا ، وليس مراده بالأبدال : ما اشتهر على لسان عباد القبور ؛ حيث يقولون : الأقطاب ، والأوتاد ، والنجباء ، والأبدال ، والغوث ، فيضلون بهذه الأسماء الجهال ، زاعمين أن لها حقيقة ، وما هي واللّه إلا خرافات لا حقيقة لها سوى العقائد الفاسدة الزائغة الشركية . نسأل اللّه الشفاعة والعافية من كل بدعة وضلالة ، وأن يثبتنا على الصراط المستقيم بمنه وكرمه .

۞ قال الشيخ محمد خليل هراس رحمه الله :

قوله : « ثم هم مع هذه الأصول يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » :

جمع المؤلف فى هذا الفصل جُمَّاع مكارم الأخلاق التى يتخلق بها أهل السنة والجماعة من الأمر بالمعروف ، وهو ما عرف حسنه بالشرع والعقل ، والنهى عن المنكر ، وهو كل قبيح عقلًا وشرعًا ، على حسب ما توجبه الشريعة من تلك الفريضة كما يفهم من قوله عليه السلام : « من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » . ومن شهود الجمع والجماعات والحج والجهاد مع الأمراء أيًا كانوا ؛ لقوله عليه السلام : « صلوا خلف كل بر وفاجر » .

ومن النصح لكل مسلم لقوله عليه السلام : « الدين النصيحة » . ومن فهم صحيح لما توجبه الأخوة الإيمانية من تعاطف وتواد وتناصر كما فى هذه الأحاديث التى يُشَبِّه فيها الرسول المؤمنين بالبنيان المرصوص المتماسك اللبنات أو بالجسد المترابط الأعضاء ، ومن دعوة إلى الخير وإلى مكارم الأخلاق ، فهم يدعون إلى الصبر على المصائب والشكر على النعماء والرضا بقضاء اللّه وقدره ، إلى غير ذلك مما ذكره .

وأما قوله : (وفيهم الصديقون) إلخ : فالصديق صيغة مبالغة من الصدق ؛ يراد به الكثير التصديق ،

وأبو بكر رضي الله عنه هو الصديق الأول لهذه الأمة .

وأما الشهداء فهو جمع شهيد وهو من قتل في المعركة .

وأما الأبدال فهم جمع بدل ، وهم الذين يخلف بعضهم بعضًا في تجديد هذا الدين والدفاع عنه ، كما في الحديث : « يبعث اللَّه لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها » . واللَّه أعلم .

وصلى اللَّه على محمد وآله وصحبه وسلم .

۞ قال الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ رحمه الله :

« ثم هم » ؛ يعني : أهل السنة والجماعة « مع هذه الأصول » العظيمة والهامة ، وعملهم بهذه الأصول والعقائد القيمة المتقدم ذكرها « يأمرون بالمعروف » ؛ فإنه أصل عظيم وعبادة عظمى من أجل الطاعات ، كما أنها مفتقرة أن تفعل ابتغاء وجه اللَّه الكريم ، والمعروف ، هو ما عرف بالشرع أنه ينبغي سواء من الواجب أو المندوب .

« وينهون عن المنكر » والمنكر : اسم لكل شيء عرف من الشرع والعقل قبحه .

فكل ما أنكره الشرع والعقل فهو منكر ، وكل ما استحسنه الشرع والعقل فهو معروف ، والمعروف : اسم لكل شيء عرف من الشرع والعقل حسنه .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باب عظيم كبير من أبواب الجهاد ، فهو من الدين بمكان ، ولهذا في النصوص شرعية الأمر به . وقيل : إنه ركن سادس من أركان الدين ؛ لأثر ورد .

والمعروف : كلمة شاملة ، وهو : كل ما جاء به الشرع ، وأعظمه التوحيد .

والمنكر :اسم لكل ما نهى عنه الشرع ، وأعظمه الكفر ، فما أنكرته العقول السليمة والفطر المستقيمة والشرائع المنزلة فهو منكر ، والمعروف بعكسه .

فأعلى المعروف التوحيد ، وأدناه المستحبات ، فإن بكلها مما يأمر به أهل السنة والجماعة ، فبعضها- مما يأمرون به- حتم ووجوب ويقاتلون عليه ، ومنها ما يأمرون به أمر حتم ووجوب ، ولكن ليس مثل الأول ، ومنها ما يأمرون به أمر ندب لا وجوب .

فالأمر بالمعروف عند أهل السنة درجات - طبقات- منها مما هو من أركان الدين ؛ كالأمر بالتوحيد ، ومنها ما هو من واجبات الدين ، ومنها ما هو من المندوبات ، فهو درجات منه ما هو مندوب ؛ كالأمر بالمندوبات ، وفوقه الأمر بالواجبات ، وفوق ذلك الذي يفتقر الدين إلى صحته .

فأهل السنة والجماعة يأمرون بالمعروف الذي أعلاه وأعظمه التوحيد ، ويفرضون الفرضيات ويأمرون بالمستحبات ، وينهون عن الشرك أصغره وأكبره وينكرونه ، وينهون عن الكبائر ، وينهون عن المكروهات والمحرمات والصغائر .

والمنكرات يكفي معرفتها جملة ، بخلاف الواجبات ؛ فإنها جملة وتفصيلًا .

وقوله : « على ما توجبه الشريعة » فإن قومًا يرونه ، لكن لا على ما توجبه الشريعة ، كالذي عليه الخوارج والمعتزلة الذين يرون الخروج على الأئمة ، وقتال الأئمة على شيء من المعاصي التي لا تنافي الدين .

« على ما توجبه الشريعة » قيد ؛ يعني : لا مطلقًا ، فإن قومًا تصدوا له وزعموه ، ولكن خرجوا عن حد الشريعة ، فإن منهم من رأى الخروج على المسلمين على غير ما توجبه الشريعة ، فالخوارج أمروا بالمعروف حتى جوزوا الخروج على الأئمة ، وأما أهل السنة والجماعة فهم على ما توجبه الشريعة .

والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر لا بد له من أمرين : الإخلاص والمتابعة . فمن لم يخلص أمره ونهيه ؛ فهو مشرك .

ومن أخلص ولكن ما تابع ؛ فهو مبتدع كالمعتزلة والخوارج ، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أحد أصولهم ، لكنهم لم يتابعوا في ذلك ما جاء به الرسول ويفرطون في ذلك ؛ حتى جوزوا الخروج على الأئمة العصاة ، وسموا قتالهم ولاة المسلمين أمرًا بالمعروف ، والمصنف احترز بهذا القيد فقال : « على ما توجبه الشريعة » ، فإن كثيرًا ممن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر خارج عن هذا القيد ، فلا يزاد في ذلك فيدخل في سلك هؤلاء ، ولا ينقص فيدخل في سلك الإباحية أو أهل الشهوات .

« ويرون » ، كذلك أهل السنة يرون « إقامة : الحج » ، فإنهم في ذلك كالأئمة للناس ؛ يعني : مع ولاتهم المسلمين ، بأن يكونوا هم المتولين منهم أعمال الحج ، واتباع المسير فيها ، والذهاب إليها ، وتدبير أمرها ، أو من يقوم مقامهم ، كنوابهم الذين يتولون إقامة الحج بالمسلمين في سيرهم ونزولهم ، وظعنهم وإقامتهم ، ونحو ذلك .

« والجهاد » كما في الحديث : « الجهاد واجب عليكم مع كل أمير ؛ برًا كان أو فاجرًا »[1] . والجهاد جهاد الكفار أعداء الله ؛ يعني : مع ولاة الأمور ، فإنهم الذين يتولون إقامة الجهاد في سبيل الله ، كما أنهم يتولون فيئه وخمسه ، ونحو ذلك ، فكذلك يتولون إقامته وتدبيره وأمره وشئونه ، فلا ينازعون فيه ، فإنه لا جماعة إلا بإمامة ، ولا إمامة إلا بسمع وطاعة .

« والجمع » إقامة الجمع مع الأئمة والصلاة خلفهم واجبة ، ولو كانوا عصاة فجارًا ، فإنه تصح الصلاة خلفهم ، والمراد إذا كان مسجد واحد يصلي به إمام فاجر ، فإن الصلاة خلفه أهون من ترك الصلاة مع الجماعة ، وهذا بخلاف الصلوات الخمس ؛ فإنها لا تجب في مسجد واحد ، وأما الجمعة فتجب في مسجد واحد على قول من لا يرى التعدد إلا لمسوغ شرعي « والأعياد » مع الأئمة ، فيصلى « مع » الأئمة « الأمراء » ؛يعني : كون الأئمة هم الذين يتولون إقامة ذلك .

---

(١) أبو داود (٥٩٤) ، والدارقطني في « سننه » (١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (٢٦٧٣) .

« أبرارًا كانوا أو فجارًا » فإن أهل السنة يرون إقامة ذلك ، سواء كانوا تقاة فلهم وللناس ، إن كانوا أبرارًا فهذا من فضل اللّه وبرحمته ، وإن كانوا فجارًا فهو من ذنوب المسلمين أن ولوا عليهم من فجارهم ، والفجار فجورهم على أنفسهم ، فإن قاموا بأمر دين وإسلام فيجب القيام به معهم ، فالشرع يقيمونه ومعصيتهم عليهم ، فإن هذه طاعات تفعل للّه ، فيشاركون فيها ، فهذا اتباع للدين ولو على أيدي الفجار .

فالمسلمون يشاركونهم في الطاعة ، في برهم وصلاتهم وأعمالهم الصالحة ، ولا يشاركونهم في المعاصي ، فما كان من فجور وفساد فعليهم ، ولا يشاركون فيه .

وأما الصلاة خلف المبتدع ، فإن كانت بدعته توصله إلى الكفر ، وكان يخاف من سطوته صلى وراءه وفارقه في النية .

« ويحافظون على » الجمع و« الجماعات » ، هذا مما عليه أهل السنة ، الصلوات الخمس مع الجماعة وكذلك الجمع ، وقد هم النبي ﷺ بإحراق من لم يشهد الجماعة ، والجمعة أهم وآكد .

« يحافظون على الجماعات » ؛ يعني : وراء كل مسلم بخلاف الروافض ، فإنهم لا يرون إقامتها إلا وراء معصوم ، وينتظرون محمد العسكري – وقيل : إنهم معدون له بغلة وفرسًا – متى خرج صلوا وراءه ، وهذا أصل فاسد ومردود عليهم ، فإنهم أنفسهم غير معصومين ، بل تقع منهم المعاصي ، بل والكفر ، فكيف يرون ألَّا يصلوا إلا وراء معصوم ؟ !

« ويدينون بالنصيحة للأمة » كذلك أهل السنة والجماعة : يدينون بالنصيحة لجميع الأمة المحمدية . والمراد بالنصيحة : خلوص السريرة للمؤمنين من قولهم : « ذهب ناصح » .

وخلوصها : سلامتها ، وخلوها من غل أو حقد أو دغل ، فهي صافية طاهرة نقية ، ساعية في الخير للمسلمين ، ساعية في دفع الضر عنهم .

فهي تعتمد شيئين : السلامة من الغش ، وبذل المجهود .

فمن كان مدخول القصد للمسلمين فهذا عادم النصيحة ، ومن كان سالم القصد وقصر فهذا غير ناصح ، فهي بذل المجهود مع خلوص السريرة للمسلمين ، بحيث يحب لهم الخير والدخول فيه ، ويكره لهم الشر ، ويؤثر ذلك فيه .

فأهل السنة يدينون بالنصيحة للأمة المحمدية كلهم ، خاصتهم وعامتهم في دينهم وإرشادهم وهدايتهم وإنقاذهم من المهلكات ، وكذلك السعي لهم في ذلك ، ومحبته لهم ، وفي معاشهم ومصالحهم كلها ، ولهذا في الحديث : « الدين النصيحة » . قلنا :لمن ؟ قال : « للّه ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم »[1] .

---

(١) مسلم (٥٥) من حديث تميم الداري رضي الله عنه ، والترمذي (١٩٢٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

« ويعتقدون معني قوله ﷺ : « المؤمن للمؤمن » » ويعملون بمقتضى ما اعتقدوه ، فمتى تخلف العمل بموجب ما اعتقدوه دل على تخلف الاعتقاد ، ومتى ضعف دل على ضعف الاعتقاد ، فكل من اعتقد شيئًا حقيقة ولم يكن على ذلك مكدر لا غبار شبهة ولا شهوة ، فإنه لا يتخلف عنه بحال عن أي عمل .

وهذه مسألة : هل العلم يستلزم الهداية أم لا ؟ قولان لأهل العلم :

طائفة من أهل العلم : ذهبوا إلى أنه يستلزم الهداية .

وقوم قالوا : لا يستلزم الهداية ، واستدلوا بقصة بلعام ، وعلماء اليهود ، وغيرهم ممن علم وتخلف منه العمل ، وفصَّل المسألة شيخ الإسلام وابن القيم ، فقالا : العلم التام السالم من مكدر - شبهة أو شهوة - لا يتخلف عنه العمل أبدًا .

« كالبنيان ، يشد بعضه بعضًا » ؛ يعني : أن اتفاق المؤمنين بعضهم ببعض كالبنيان ، وهذا في أمور دينهم ودنياهم ، بحيث يستقيم ويثبت ، فإذا كان هذا شأن البنيان بعضه مع بعض ؛ كان واجبًا على المسلم أن ينصح أخاه ، فإن هذا كالبنيان يشد بعضه بعضًا في دينه ودنياه ، يشد قويه ضعيفة ، فإن البنيان منه القوي ، ومنه الضعيف ، فإذا تماسك وشد بعضه بعضًا ولصق بعضه ببعض ؛ استقام كله ؛ فإن من المؤمنين من ليس كامل الإيمان قوية ، فلو ترك وحده ؛ لسقط ، فإذا كان مع جماعة المسلمين تقوى بهم وصار منهم ومثلهم ، وتقوى من ضعفه بجماعتهم .

ومنهم من هو ضعيف الإيمان لا يستقيم استقامة تامة .

« وشبك بين أصابعه » الكريمة ؛ إشارة إلي حقيقة ذلك ، وأن المؤمنين كالأصابع المتداخل بعضها في بعض .

« و » يعتد أهل السنة معنى « قوله ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم » » ، فإنه من أعظم الأصول العظيمة : الحب في الله . « توادهم » : تحابهم ، و« توادهم » أصله : توادُدهم ، وهو التحاب ، فالتوادد : هو التحاب ، وفي الحديث : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان ... - إلى قوله - : وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله »[1] ؛ يعني : المحبة الدينية التي هي لله .

«وتراحمهم » : التراحم هو : رحمة بعضهم بعضًا ، كما وصف الله المؤمنين في قوله : ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ .

« وتعاطفهم » والتعاطف يعني : عطف بعضهم على بعض بالمنافع والمصالح ، ويلجأ إليه ، ونحو ذلك من رجوع بعضهم على بعض ، ورفق بعضهم ببعض .

« كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو ؛ تداعى له سائر الجسد » رجع بعضه إلى بعض ، ووجع من

(١) البخاري (١٦) ، ومسلم (٤٣) من حديث أنس رضي الله عنه .

أجل ما اشتكى ، فينعطف عليه الجسد ويتداعى ؛ يعني : ينادي بعضه بعضًا هلم نحمل معه الألم ، بل ونكون معه بالسوية نحمل كما حمل ، ولو كان الألم في بضعة من الجسد ؛ سهر ذلك الجسد كله ، « بالحمى » وهي شدة الحرارة ، « والسهر » : عدم النوم ، فمثلًا الوجع يكون في الأصبع الواحد ، فيتألم منها سائر الجسد ويشتكي ، وينالُه من الوجع - وهو في طرف الأنملة - فيسهر .

« ويأمرون بالصبر عند البلاء » ، أهل السنة والجماعة : يحثون على الصبر ، والصبر ثلاثة أقسام : صبر على الطاعات . وصبر عن المعاصي . وصبر على المصائب .

« والشكر عند الرخاء » كذلك أهل السنة والجماعة : يأمرون به .

والشكر : هو الاعتراف بها في الباطن ؛ كون اللَّه أنعم بها ، وهو أعم من القول باللسان ، وأركانه ثلاثة : اعترافه بنعمة اللَّه عليه ، والثناء عليه بها ، والاستعانة بها على مرضاته .

والصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء ؛ هما الإيمان .

الصبر نصف الإيمان ؛ وذلك أن العبد متقلب بين نعم يجب عليه شكرها ، وبين صبر عن المعاصي يجب عليه اجتنابها ، والدين كله في هذين الشيئين : فعل المأمور ، وهو العمل بطاعة اللَّه ، وهو حقيقة الشكر ، وترك المحظور ، وهو الصبر عن المعاصي .

وهذان الأمران من الدين بمكان ؛ بل الدين أمران : صبر ، وشكر ؛ فإذا قام عند المصائب بالصبر ، وعند النعم بحقها وهو الشكر ؛ صار عابدًا للَّه حقًّا ، وأعظم أنواع الصبر ، الصبر عن المعاصي وهو أشقها ، وعلى المصائب ، ويفهم من كلام ابن القيم أن الصبر على الطاعات أفضل ؛ وذلك أن الطاعات مرادة بالذات ، أما المعاصي فليست مرادة بالذات ، وإنما هو الطاعة للَّه ، والصبر على الطاعة : إلزام النفس على فعل .

« و » من أصول أهل السنة : « الرضا » ، والرضا : قد يكون بمعنى التسليم ، وربما أنه أشهر معنى من التسليم ، فهو من الكلمات التي هي أقرب إلى الذهن من التسليم .

« بمر القضاء » هذا يرجع إلى الصبر ، ولكنه غيره .

حالة الرضا : أن يستوى عنده البلاء وعدمه .

والرضا مرتبة أعلى من مرتبة الصبر ، وهذه المرتبة المندوبَ فيها أفضل من الواجب ، وهذا من المراتب التي المندوبات فيها أفضل من الواجبات ، وإلا فالأصل أن الواجب أفضل من المندوب إلا في أمور ؛ منها هذا ، كما في الحديث : « وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه »[1] ، فإنه دالّ على أن الفرض أفضل من المستحب ، فالرضا هنا أفضل من الواجب وهو الصبر ، والصبر عند المصائب عزيز في الناس ، ثم الرضا عزيز .

---

(١) البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وللعبد عند المصيبة أربعة أحوال ممكنة :

١- الجزع .

٢- الصبر .

٣- الرضا .

٤- الاستشعار بأنها نعمة ، وهذه تكاد أن تكون تذكر ولا توجد .

فالصابر قليل ، وأقل منه الرضا ، وأقل منه الشكر .

« ويدعون إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال » ؛ يعني : خلق كريم ، وعمل حسن ، وفي الحديث عن النبي ﷺ : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[1] ؛ أي : لِمَا رُكز في القلوب استحسانه .

فكل خلق وفعل حسن دَلَّ على حسنها الشرع والفطرة والعقل ، فأهل السنّة يعتقدون حسنه ، ويعملون به ، ويأمرون به ، وكل خلق وفعل يستنكر في الفطر والعقول يكرهونه وينهون عنه .

فهم يدعون إلى كل خلق عالٍ نفيس ، وعمل حسن .

« وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ : « أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقًا » » ويقبلونه ويعملون بموجبه ، ويُحسّنون أخلاقهم مع إخوانهم المسلمين ، ويسعون ويَجِدُّون في تحسين أخلاقهم مهما أمكنهم ، ويحثون الغير على ذلك ، فهو يجد في أن يكون حسن الخلق ويوصي غيره .

والخُلُق : هو صورة الإنسان الباطنة . والخَلْق : هو صورته الظاهرة .

« وَيَنْدُبُونَ إِلَى أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ » من الأرحام ، لا تقطعه حين يقطع ؛ ليبوء بإثم الذي مَنْ قبله ، وتنجو من تلك القطيعة ، فلا تقابله ، فمن كان ذا رحم فلا تقطعه كما قطعك ، وقد سأل رجل النبي ﷺ فقال : إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني ، وأحسن إليهم ويسيئون إلي ، وأحلم عنهم ويجهلون علي . فقال : « لئن كنت كما قلت ؛ فكأنما تسفهم الملّ ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك »[2] ، وقال : « ليس الواصل بالمكافئ ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها »[3] ، وقطيعة الأرحام ليس فيها انقسام .

وتمام الصلة الحقيقية : بأن تكون أنت الواصل ولو لم يصلك ، فإذا فعلت الخير ، فالخير ما يجر إلا إلى خير ، وهو أن يتقي الله فلا يقطعك .

« وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ » الذي له حق عليك أن يعطيك ، يندبون إلى ألّا تقابله بمثل ما فعل ، فإن أهل

---

(١) الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٦٧٠) ، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (٤٥) .

(٢) مسلم (٢٥٥٨) ، وأحمد (٢/ ٣٠٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) البخاري (٥٩٩١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

السنَّة يندبون إلى خير الأمرين ، فمن عاملك بالحرمان فيما ينبغي أن يعطيك ، فأنت لا تقابله بالحرمان ، بل ابذل له حقه ، ولا تقابله بما قابلك به .

« وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ » وكذلك من أساء إليك وتعدَّى عليك وظلمك ، تعفو عنه ولا تقابله بمثل فعله ، وإن كان جائزًا ، وهو من باب القصاص ؛ قال تعالى : ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ لكن الأفضل أن تعفو عنه فدرجة العفو درجة عليا .

والظالم له عند أهل السنة مرتبتان : المقاصة والعدل . والمسامحة والفضل ؛ قال تعالى : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ ، ثم قال : ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ .

« وَيَأْمُرُونَ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ » وهو فعل الجميل معهما ، وضده العقوق وهو من المحرمات ، وبر الوالدين من الواجبات ، والأمر ببرهما جاء قرنه بحق الله تعالى فإنه أعظم حق بعد حق الله وحق الرسول ﷺ ، فالوالدان أصلك ، وهما سبب إيجادك ، فأعظم حق عليك حق الذي خلقك ، ثم بعد ذلك حق النبي ﷺ ؛ لأنه سبب نجاتك ، وبعد ذلك حق الوالدين ؛ كما في الآيات التي فيها قرن حق الوالدين بحقه تعالى .

ومن بر الوالدين بعد الوفاة : الدعاة والصدقة ، وهذا ثوابه لهما ، وأن توقف وتجعل المثوبة لهما ، ومودة أصدقائهما ؛ ففي الحديث : هل بقي من بر أبويَّ شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : « نعم ، الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما »[1] . فبين ﷺ فعل بعض هذه الأوجه ، وحديث : « من بر الرجل والديه أن يبر ما يود » ، أو ما هذا معناه[2] .

« وَصِلَةِ الأَرْحَامِ » بأن تصل الأرحام ؛ أي : القرابات ، بأن تفعل معها الخير .

فالصلة من الوصل ؛ بأن تبقى بعضها منضم مع بعض بالخير والنصح ، هذا واجب لكل مسلم ، فإن كان رحمًا فهو أولى ، وفي الحديث : « ليس الواصل بالمكافئ »[3] .

« وَحُسْنِ الْجِوَارِ » ويأمرون أيضًا : بحسن الجوار ؛ يعني : معاملة الجار بالجميل بالمعاملة الحسنة ، بكفِّ الأذى ، وإيراد الخير له ، والصفح والستر عما يصير منه إن صار ، فحقه كبير عظيم ، فإذا كان مسلمًا اجتمع له حق الإسلام وحق الجوار ، فإن كان قريبًا فهو آكد ، وفي الحديث : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه »[4] ، وحسن الجوار حتى مع الذمي إذا تُصُوِّر أن يكون في دار ذمة .

---

(١) أبو داود (٥١٤٢) من حديث أبي أسيد الساعدي رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في « ضعيف سنن أبي داود » (٥١٤٢) .

(٢) مسلم (١١/٢٥٥٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٣) تقدم تخريجه .

(٤) البخاري (٦٠١٤) ، ومسلم (٢٦٢٥) من حديث عائشة رضي الله عنها .

« وَالإِحْسَانِ إِلَى الْيَتَامَى » ، اليتيم : الذي مات أبوه قبل بلوغه ، وما بعد البلوغ فليس بيتيم ، فاليتيم فَقَدَ مَن يعوله ويقوم به ، فالإحسان من حيث هو له محله ، ولكن من آكد محالِّه اليتامى ، وجاء في حق اليتيم أحاديث ، منها : « كافل اليتيم أنا وهو كهاتين في الجنة »[١] .

« وَ » الإحسان إلى « الْمَسَاكِينِ » : المحاويج ، ودخل فيهم المحاويج سواء كان يجد بعض الكفاية أو لا ، فأهل السنَّة والجماعة يأمرون بالإحسان إليهم بما يدفع مسكنتهم .

« وَابْنِ السَّبِيلِ » ؛ يعني : المسافر ؛ فإنه مَحلٌّ للإحسان ، وذلك أنه في سفر قد فارق أهله ووطنه ، فهو بحاجة إلى مَنْ يُحسن إليه .

« وَالرِّفْقِ بِالْمَمْلُوكِ » النصوص جاءت في الرفق بالمملوك ومواساته ، وأنه لا يُكلَّف ما شَقَّ ، وفي الحديث : « إخوانكم خَوَلُكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم »[٢] .

فهو إنسان آدمي مثلك ، فجعل لك عليه الرق نعمة لك وابتلاء وامتحانًا ، فمتعين عليك الرفق به عند جهله وغشمه ، فجاء في الشرع الرفق به ؛ لكونه تحت يدك ، ولهذا هو ليس بمملوك من كل جهة .

فيرفق بهم وفي معاملتهم وطعامهم وشرابهم ، وسائر ما يحتاجون إليه .

كل هذا مما يأمر به أهل السنَّة والجماعة ، وأدلته ومكانته وفضله من الكتاب والسنَّة معلوم .

« وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْفَخْرِ » ؛ أي : الافتخار ؛ وذلك بذكر الفضيلة مفتخرًا بها على غيره ، والفخر لا ينبغي ، فإذا كان لدين فهي نعمة يستعين بها على شكر الله .

« وَالْخُيَلاءِ » : هي الكبر والتعاظم ، فإن المتكبر يتخيل نفسه أعظم مما هي عليه ، ويراها أكبر مما هي عليه .

« وَالْبَغْيِ وَالاسْتِطَالَةِ عَلَى الْخَلْقِ » : الارتفاع عليهم بيده ، أو بكلام ، أو نحو ذلك ، والتعالي عليهم سواء « بِحَقٍّ » عند أسباب ذلك « أَوْ بِغَيْرِ حَقٍّ » .

الترفع والزيادة عليهم سواء بحق أو بغير حق ، ولاسيما إذا صار فخرًا بغير مفخر ، فلا توجب نعم الله معصية الله بها ، بل توجب طاعة الله بها ؛ وفي الحديث : « إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا ؛ حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغي أحد على أحد »[٣] ، ولما بيَّن ﷺ ما هو عليه من السيادة قال : « ولا فخر » ، بل على وجه التحدث بنعمة الله ، وفي الحديث : « لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا ، إنما هم

---

(١) البخاري (٦٠٠٥) من حديث سهل رضي الله عنه ، ومسلم (٢٩٨٣/٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) البخاري (٣٠) من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

(٣) مسلم (١١٤) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

فحم جهنم ، أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخرء بأنفه »[1] ، وفي الحديث الآخر : « إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية ، إنما هو مؤمن تقي ، وفاجر شقي ، الناس كلهم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب »[2] .

والكبر على قسمين : قسم يكون له ملك . وقسم عائل ؛ كما في الحديث[3] ، فهو محرم على كل أحد .

« وَيَأْمُرُونَ بِمَعَالِيَ الأَخْلاَقِ » المعالي : جمع عالي ؛ يعني : العالية الرفيعة مطلقًا التي جاء من الشرع حسنها وأعلاها ، وقد قال ﷺ : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ، فيأمرون بكل خلق عالٍ جميل .

« وينهون عن سفسفافها » ورذائلها ؛ أي : مراذل الأخلاق وسفالات الأخلاق ، فهم ينهون عن كل خلق دنيء رذيل . الخُلُق : - بضم الخاء - هو في الصورة الباطنة ، - وبفتحها - في الصورة الظاهرة .

« وَكُلُ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ مِنْ هَذَا » الذي تقدم « وَغَيْرِهِ » مما هو من أنواع الحق من أصولهم وعقائدهم .

« فَإِنَّمَا هُمْ فِيه مُتَّبِعُونَ لِلْكِتَابِ والسُّنَّةِ » معولهم ومستندهم الكتاب والسنّة .

كل ما تقدم إيضاحه وشرحه عن أهل السنة ، إنما هم أبدًا متبعون فيه للكتاب والسنة ، وحبل القياد في يد الكتاب والسنة ، يسيرون حيث سار الكتاب والسنة ، استحسان منهم لشيء ، ولا نظر لشيء .

« وَطَرِيقَتُهُم » ؛ يعني : كثير من الناس سلكوا طرقًا - كالتيجانية وغيرها- فعندما يكون للناس طرائق ، فإن أهل السنة طريقتهم شيء واحد : و« هيَ دِيُن الإسْلاَمِ الَّذِي بعثَ الله بِهِ مُحَمَّد ﷺ » ظاهرًا وباطنًا ، فكأن المصنف بَيَّنَ لهم طريقًا ، لكن لا كطريق أهل الطرائق ، فقط طريق واحد وهو دين الإسلام ، فأهل السنّة ليس لهم دين غير دين الإسلام هذه طريقتهم ظاهرًا وباطنًا .

« لكِنْ » استدراك مما تقدم وهو قوله : « وطريقتهم هي دين الإسلام » ، وهذا الاستدراك إنما هو لإرادة شيء مقدر ، وجه قول « أهل السنّة » .

« لَمَّا أَخْبَرَ ﷺ أَنَّ أُمَّتُهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً » ، فهو واقع بكل حال « كُلُّهَا فِي النَّارِ ؛ إلاَّ وَاحِدَةً ، وَهِيَ : الْجَمَاعَةُ ، وَفِي حَدِيثٍ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « هُمْ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي » ، صَارَ الْمُتَمَسِّكُونَ بِالإِسْلامِ الْمَحْضِ الْخَالِصِ عَنِ الشَّوْبِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجماعَةِ » هذا جواب لما ذكر .

---

(١) الترمذي (٣٩٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وحسنه الألباني في « مشكاة المصابيح » (٤٨٩٩) .

(٢) أبو داود (٥١١٦) ، والترمذي (٣٩٥٥) ، وأحمد (٢/٣٦١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وحسنه الألباني في « صحيح سنن أبي داود » (٥١١٦) .

(٣) مسلم (١٠٧) ، والنسائي (٢٥٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

كأن قائلًا قال : إذا كانت طريقتهم هي الكتاب والسنة فلم لم يقل : المسلمون ؟ .

قيل : لما تفرق الناس إلى ثلاث وسبعين فرقة ، ولما لم يكن متمسكًا بالكتاب والسنَّة سوى فرقة واحدة ، وهم أهل السنَّة والجماعة ؛ لقبوا أهل السنَّة والجماعة ؛ يعني : أنهم تمسكوا واتحدوا في هذا الطريق ؛ يعنيْ : أنه ليس شيئًا خفيًا ، ولا من الطرق ، بل هو هذا الطريق البين الواضح .

« عبارة أخرى » :

قيل : لما أخبر النبي ﷺ أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ، المحض فقط من الثلاث والسبعين هي فرقة واحدة ، وهم أهل السنة والجماعة ؛ صار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب هم أهل السنَّة والجماعة ، فكأنهم قيل لهم : هم على ما كان عليه النبي ﷺ وأتباعه ، فإن من انتسب إلى الإسلام فيهم بدع ؛ منها ما تخرجهم عن الإسلام ، ومنها ما لا تخرجهم من الإسلام ، ليس كل من انتسب إلى الإسلام فهذه عقيدته ، لا ، بل هذه عقيدة فرقة واحدة ، وهم أهل السنَّة والجماعة .

« وَفِيهِمُ الصِّدِّيقُونَ ، وَالشُّهَدَاءُ » ، وهؤلاء طبقاتٌ من الخلق ، وهم أفضل الخلق بعد الأنبياء ، فإنهم طبقات بعد الأنبياء ، وهذه المذكورة في الآية على الترتيب من الأعلى إلى الأدنى ، وفيها أربع طبقات ، وهي قوله تعالى : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ . وأفضل هذه الأصناف : الأنبياء ، ثم الصديقون ، ثم الشهداء ، ثم الصالحون ، فالأنبياء مكانتهم شيء معروف ، وما سواهم كلهم من هذه الأمة ، فطبقات المكلفين المؤهلين للشرع ثمانية عشر مذكورة في مُصنَّف .

المقصود : أنه في أهل السنَّة والجماعة من فيهم هاتان الصفتان .

والصديقون : جمع صِدِّيق ، والصديق : فعيل من صيغ المبالغة ؛ يعني : كثير وعظيم التصديق بالحق ، وهم في هذه الأمة كثير ، ورئيسهم وأفضلهم صديق هذه الأمة : أبو بكر الصديق رضي اللَّه عنه ، وهو أعظمهم وأكبرهم .

وفي أهل السنة والجماعة : الشهداء : جمع شهيد ، وأفضل الجهاد القتل في سبيل اللَّه .

فكلهم موجودون في هذه الأمة ؛ يعني : أهل السنَّة والجماعة موجود فيهم الصديقون والشهداء .

« وَفِيهِم » وفي أهل السنة - « أَعْلامُ الْهُدَى » المعنوي ، الأعلام : جمع علم ، وهو في لغة العرب : الجبل الكبير العظيم على الطريق ، سمي علمًا ؛ لأنه علم على الطريق التي يعلم به الجهات والطرقات .

يعني : في أهل السنَّة أئمة كبار يُهتدى بهم في الدين كما يُهتدى بالجبال الكبار .

« وَ » في أهل السنَّة « مَصَابِيحُ الدُّجَى » ، المصابيح : جمع مصباح التي تستضيء بنورهم الأمة ، وذاك العلماء الكبار ، وهم الذين يضيء علمهم ويزول الجهل بضيائها ، وقيل لهم ذلك ؛ لأنه يُهتدى بهم في ظلمات الجهل ، وهم كالسرج في الظلم يستضاء بهم ؛ وذلك لما أوتوه من العلم الموروث .

كلهم في أهل السنّة موجودون .

« أُولو » ؛ يعني : أصحاب « الْمَنَاقِبِ الْمَأْثُورَةِ ، وَالْفَضَائِلِ الْمَذْكُورَةِ » .

« وَفِيهِمُ الأَبْدَالُ » الأبدال : هم أناس صلحاء في الأمة ، تُجاب دعواتهم ، فيدفع اللّٰه بدعواتهم عن المسلمين ، فبوجودهم في الناس يرحم اللّٰه بدعائهم الناس ، وسموا أبدالًا ؛ لأنهم كلما مات واحد أُبدل بآخر ، أخذه بعض الناس من قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ .

يعني : في أهل السنّة رجال أهل صلاح وخير ، لا يزالون في الناس ، يرحم اللّٰه بسببهم المسلمين ببركة دعائهم ، والمصنف ذكر هذه ؛ لأحاديث جاءت في هذا ولكنها ضعيفة ، فالمصنف ذكرها يعضد بعضها بعضًا : « لا يزال في أمتي أبدال »[(١)] .

« وَفِيهِمْ أَئِمَّةَ الدِّينِ » مثل الأئمة الأربعة أئمة المذاهب وغيرهم من الأئمة قبلهم بأزمان وبعدهم ، ووجود الأئمة فيهم دليل أنهم من أهل السنّة وليسوا من أهل البدعة ، وصاحب البدعة لا يُثْنَى عليه ، بل يُذَمُّ .

« الَّذِينَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَدِرَايَتِهِمْ » من شأنهم طلب الهدى واتباعه ، والأئمة ليسوا محصورين في الأربعة ، لكن الأربعة اشتهروا أكثر .

فإن الأئمة الأربعة كونهم أهل هدى وخير وعلم ، لا نزاع بين المسلمين أنهم أئمة ، وليسوا معصومين في جميع أقوالهم ، فإن المعصومين الرسل ، فإنه ليس شرطًا ألَّا يوجد في أحد زلة ، لا .

« وَهُمْ » - أي : أهل السنّة والجماعة - « الطَّائِفَةُ » الباقية وجودها في الناس « الْمَنْصُورَةُ » وهم الفرقة الثالثة والسبعون معنى « ظاهرين » : عالين منصورين ، عالين ؛ كما في الآية : ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ، فإن الشيء كلما كان منصورًا ؛ صار جليًا ، فالظهور تبع للنصر والتأييد ، وكلما كان أقلّ نصرة ؛ صار أقل ظهورًا .

« لاَ يَضُرُّهُم مَّنْ خذلهم » ؛ يعني : ترك نصرتهم ، « وَلاَ مَنْ خالفهم » وضادهم وعاداهم « حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ » ، فإن اللّٰه سبحانه وتعالى من عنايته أن تلك الطائفة يحفظ اللّٰه بهم الدين ، وتقوم بهم الحجج على الأمة .

« فَنَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ » ؛ يعني : من تلك الطائفة المنصورة ظاهرًا وباطنًا ، هذا دعاء من المصنف أن يجعله اللّٰه منهم وأصحابه ، ومن أراد صار حريصًا على هداية الناس .

« وَأَنْ لاَ يُزِيغَ » يميل « قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا ، وَأَنْ يَهَبَ » يعطي « لَنا مِن لَّدُنْهُ رَحْمَةً » ؛ يعني : من عنده ؛ منًّا منه وفضلًا ؛ « إِنَّهُ هُوَ الوَهَّابُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَآلِهِ وَصَحْبِهِ ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا » .

---

(١) أحمد في « مسنده » (١/١١٢) من حديث علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (٢٢٦٦) .

۞ قال الشيخ زيد بن عبد العزيز آل فياض رحمه الله :

فصل في محاسن أهل السنة :

قوله : «ثُمَّ هُم مَّعَ هَٰذِهِ الأُصُولِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَى مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ .....» :

كما دل القرآن والسنة على ذلك قال تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ ، وقال النبي ﷺ : «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ...»[1] . الحديث .

وإذا كان جماع الدين وجميع الولايات هو أمر ونهي ، فالأمر الذي بعث الله به رسوله هو الأمر بالمعروف ، والنهي الذي بعثه به هو النهي عن المنكر ، وهذا نعت النبي ﷺ والمؤمنين .

وهذا واجب على كل مسلم قادر وهو فرض على الكفاية ، ويصير فرض عين على القادر الذي لم يقم به غيره ، والقدرة هو السلطان والولاية فذوو السلطان أقدر من غيرهم وعليهم من الوجوب ما ليس على غيرهم ، فإن مناط الوجوب القدرة فيجب على كل إنسان بحسب قدرته ، قال تعالى : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ، وجميع الولايات الإسلامية مقصودها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وإذا كان هو من أعظم الواجبات فالواجبات والمستحبات لابد وأن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة ؛ إذ بهذا بعثت الرسل ونزلت الكتب ، والله لا يحب الفساد ؛ بل كل ما أمر الله به فهو صلاح ، وقد أثنى الله على الصلاح والمصلحين ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات ؛ وذم المفسدين في غير موضع ، فحيث كانت مفسدة الأمر والنهي أعظم من مصلحته لم تكن مما أمر الله به ، وإن كان قد ترك واجبًا وفعل محرمًا ؛ إذ المؤمن عليه أن يتقي الله في عباده وليس عليه هداهم ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ ، والاهتداء إنما يتم بأداء الواجب ، فإذا قام المسلم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كما قام بغيره من الواجبات لم يضره ضلال الضلال ، وذلك يكون بالقلب تارة ، وباللسان تارة ، وتارة باليد ، فأما القلب فيجب بكل حال إذ لا ضرر في فعله .

ومن لم يفعله فليس بمؤمن ، كما قال النبي ﷺ : «وذلك أدنى أو أضعف الإيمان» . وقال : «وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل» ، وقيل لابن مسعود : من ميت الأحياء؟ فقال : الذي لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا .

وهنا خلط فريقان من الناس : فريق يترك ما يجب من الأمر والنهي تأويلًا لهذه الآية : ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ ، كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : إنكم تقرأون هذه الآية : ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ ، وإنكم تضعونها في غير موضعها ، وإني

(١) تقدم تخريجه .

سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه ، أوشك أن يعمهم اللَّه بعقاب منه »[١] .

والفريق الثاني : من يريد أن يأمر وينهي إما بلسانه ، وإما بيده ، مطلقًا من غير فقه وحلم وصبر ، ونظر فيما يصلح من ذلك وما لا يصلح ، وما يقدر عليه وما لا يقدر عليه ، كما في حديث أبي ثعلبة الخشني : سألت عنها رسول اللَّه ﷺ فقال : « ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيتم شحًا مطاعًا وهوى متبعًا وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، ورأيت أمر الناس لا يدان لك به ، فعليك بخاصة نفسك ردع عنك أمر العوام ، فإن من ورائك أيامًا الصبر فيهن على مثل قبض على الجمر ، للعامل فيهن أجر خمسين رجلًا يعملون مثل عمله »[٢] . فيأتي بالأمر والنهي معتقدًا أنه مطيع في ذلك اللَّه ورسوله وهو معتد في حدوده ، كما انتصب كثير من أهل البدع والأهواء كالخوارج والمعتزلة والرافضة وغيرهم ممن غلط فيما أتاه من الأمر والنهي والجهاد على ذلك وكان فساده أعظم من صلاحه .

ولهذا أمر النبي ﷺ بالصبر على جور الأئمة ، ونهى عن قتالهم ما أقاموا الصلاة وقال : « أدوا إليهم حقهم وسلوا اللَّه حقوقكم »[٣] .

ولهذا كان من أصول أهل السنة والجماعة لزوم الجماعة وترك قتال الأئمة ، وترك القتال في الفتنة ، وأما أهل الأهواء كالمعتزلة فيرون القتال للأئمة من أصول دينهم ، وجماع ذلك داخل في القاعدة العامة فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد والحسنات والسيئات ، أو تزاحمت فإنه يجب ترجيح الراجح منها فيما إذا ازدحمت المصالح والمفاسد وتعارضت ، فإن الأمر والنهي وإن كان متضمنًا لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة فينظر في المعارض ، فإن كان الذي يفوت من المصالح أو يحصل من المفاسد أكثر لم يكن مأمورًا به ، بل يكون مُحرّمًا إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته ، لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة ، فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها ، وغلا اجتهد برأيه لمعرفة الأشباه والنظائر ، وقل أن تعوز النصوص من يكون خبيرًا بها وبدلالتها على الأحكام ، وعلى هذا إذا كان الشخص أو الطائفة جامعين بين معروف ومنكر بحيث لا يفرقون بينهما ؛ بل إما أن يفعلوهما جميعًا أو يتركوهما جميعًا ، لم يجز أن يأمروا بمعروف بل ولا أن ينهوا عن منكر ، بل ينظر فإن كان المعروف أكثر أمر به ، وإن استلزم ما هو دونه من المنكر ولم ينه عن منكر يستلزم تفويت معروف أعظم منه ، بل يكون النهي حينئذ من باب الصد عن سبيل اللَّه والسعي في زوال طاعته وطاعة رسوله وزوال فعل

---

(١) أحمد (٢/١) ، وابن ماجه (٤٠٠٥) ، وابن حبان (٣٠٥) ، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (١٥٦٤) .

(٢) أبو داود (٤٣٤١) ، وابن ماجه (٤٠١٤) ، وابن حبان (٣٨٥) ، وضعفه الألباني في « السلسلة الضعيفة » (١٠٢٥) عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

(٣) البخاري (٧٠٥٢) عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه .

الحسنات ، وإن كان المنكر أغلب نهي عنه ، وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف ويكون الأمر بذلك المعروف المستلزم للمنكر الزائد عليه أمرًا بمنكر وسعيًا في معصية الله ورسوله ، وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان لم يؤمر بهما ولم ينه عنهما ، فتارة يصلح الأمر ، وتارة يصلح النهي ، وتارة لا يصلح أمر ولا نهي ، حيث كان الأمر والنهي متلازمين ، وذلك في الأمور المعينة الواقعة .

وأما من جهة النوع فيؤمر بالمعروف مطلقًا وينهى عن المنكر مطلقًا ، وفي الفاعل الواحد والطائفة الواحدة يؤمر بمعروفها وينهى عن منكرها ، ويحمد محمودها ويذم مذمومها بحيث لا يتضمن الأمر بالمعروف فوات أكثر منه أو حصول منكر فوقه ، ولا يتضمن النهي عن المنكر حصول أنكر منه أو فوات معروف أرجح منه ، وإذا اشتبه الأمر استبان المؤمن حتى يتبين له الحق ، فلا يقدم على الطاعة إلا بعلم ونية ، وإذا تركها كان عاصيًا فترك الأمر الواجب معصية وفعل ما نهى عنه من الأمر معصية .

ومن هذا الباب إقرار النبي ﷺ لعبد الله بن أبي وأمثاله من أئمة النفاق والفجور لما لهم من أعوان ؛ فإزالة منكره بنوع من عقابه مستلزمة إزالة معروف أكثر من ذلك بغضب قومه وحميتهم ، وبنفور الناس إذا سمعوا أن محمدًا يقتل أصحابه » .

وقال ابن القيم : وقد شرع النبي ﷺ لأمته إيجاب إنكار المنكر ؛ ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله ، فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله ، فإنه لا يسوغ إنكاره وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله .

وهذا كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم ، فإنه أساس كل شر وفتنه إلى آخر الدهر ، وقد استأذن الصحابة رسول الله ﷺ في قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها ، وقالوا : أفلا نقاتلهم ؟ فقال : « لا ما أقاموا الصلاة » . وقال : « من رأى من أميره ما يكرهه ، فليصبر ولا ينزعن يدًا من طاعة »[1] .

ومن تأمل ما جرى على الإسلام في الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل وعدم الصبر على منكر ، فطلب إزالته فتولد منه ما هو أكبر منه فقد كان رسول الله ﷺ رأى بمكة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها ، بل لما فتح الله مكة وصارت بلد إسلام عزم على تغيير البيت ورده على قواعد إبراهيم ، ومنعه من ذلك مع قدرته عليه خشية وقوع ما هو أعظم منه ، فإنكار المنكر أربع درجات :

الأولي : أن يزول ويخلفه ضده .

الثانية : أن يقل وإن لم يزل بجملته .

الثالثة : أن يخلفه ما هو مثله .

الرابعة : أن يخلفه ما هو شر منه .

---

(١) البخاري (٧٠٥٤) ، ومسلم (١٨٤٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

فالدرجتان الأوليان : مشروعان . والثالثة : موضع اجتهاد . والرابعة : محرمة .

فإذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة ، إلا إذا نقلتهم منه إلى ما هو أحب إلى اللّٰه ورسوله ، كرمي النشاب وسبق الخيل ونحو ذلك .

وإذا رأيت الفساق قد اجتمعوا على لهو ولعب أو سماع مكاء وتصدية ، فإن نقلتهم عنه إلى طاعة اللّٰه فهو المراد ، وإلا كان تركهم على ذلك خيرًا من أن تفرغهم لما هو أعظم من ذلك ، فكان ما هم فيه شاغلًا لهم عن ذلك ، وكما إذا كان الرجل مشتغلًا بكتب المجون ونحوها ، وخفت من نقله عنها انتقاله إلى كتب البدع والضلال والسحرة فدعه وكتبه الأولى ، وهذا باب واسع .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيميه قدس اللّٰه روحه ونور ضريحه يقول : مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر فأنكر عليهم من كان معي ، فأنكرت عليه وقلت : إنما حرم اللّٰه الخمر ؛ لأنها تصد عن ذكر اللّٰه وعن الصلاة ، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال فدعهم . اهـ .

« ومن أصول أهل السنة والجماعة أنهم يصلون الجمع والأعياد والجماعات ، لا يدعون الجمعة والجماعة ، كما فعل أهل البدع من الرافضة وغيرهم ، فإن كان الإمام مستورًا لم يظهر منه بدعة ولا فجور ، صَلّى خلفه الجمعة والجماعة باتفاق الأئمة الأربعة وغيرهم من أئمة المسلمين .

ولم يقل أحد من الأئمة أنه لا تجوز الصلاة إلا خلف من علم باطن أمره ، بل ما زال المسلمون من بعد نبيهم يصلون خلف المسلم المستور ، ولكن إذا ظهر من المصلى بدعة أو فجور وأمكن الصلاة خلف من يعلم أنه مبتدع أو فاسق مع إمكان الصلاة خلف غيره ؛ فأكثر أهل العلم يصححون صلاة المأموم ، وهذا مذهب الشافعي وأبي حنيفة ، وهو أحد القولين في مذهب مالك وأحمد .

وأما إذا لم يمكن الصلاة إلا خلف المبتدع أو الفاجر ؛ كالجمعة التي إمامها مبتدع أو فاجر وليس هناك جمعة أخرى ، فهذه تصلى خلف المبتدع والفاجر عند أهل السنة والجماعة ، وهذا مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة أهل السنة بلا خلاف عندهم ، وكان بعض الناس إذا كثرت الأهواء يحب ألّا يصلى إلا خلف من يعرفه على سبيل الاستحباب ، كما نقل ذلك عن أحمد أنه ذكر لمن سأله ، ولم يقل أحد أنه لا تصح إلا خلف من عرف حاله ، فالصلاة خلف المستور جائزة باتفاق علماء المسلمين ، ومن قال إن الصلاة محرمة أو باطلة خلف من لا يعرف حاله فقد خالف إجماع أهل السنة والجماعة ، وقد كان الصحابة رضوان اللّٰه عليهم يصلون خلف من يعرفون فجوره ، كما صلى عبد اللّٰه بن مسعود وغيره من الصحابة خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيط وقد كان يشرب الخمر ، وصلى مرة الصبح أربعًا وجلده عثمان بن عفان على ذلك ، وكان عبد اللّٰه بن عمر وغيره من الصحابة يصلون خلف الحجاج بن يوسف ، وكان الصحابة والتابعون يصلون خلف

ابن أبي عبيد، وكان متهمًا بالإلحاد إلى الضلال».

وكذلك إقامة الجهاد مع الأئمة وإن فسقوا؛ لأن المصلحة الحاصلة بالقتال معهم في سبيل الله أعظم من مفسدة فسقهم، وقد خالف في ذلك الرافضة فقالوا: لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج الإمام المنتظر. ويشترطون أن يكون الإمام معصومًا وقولهم في غاية البطلان.

وطريقة أهل السنة أنهم يدينون بالنصيحة للأمة؛ لقوله ﷺ: «الدين النصيحة قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم»[1] رواه مسلم.

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم؛ إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمور، ولزوم جماعة المسلمين»[2]. وفي الصحيحين عن معقل بن يسار عن النبي ﷺ قال: «ما من عبد يسترعيه الله رعية، ثم لم يحطها بنصيحته إلا لم يدخل الجنة»[3]. قال الخطابي: النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة: هي إرادة الخير للمنصوح له.

قال: وأصل النصح في اللغة: الخلوص، يقال: نصحت العسل إذا خلصته من الشمع، والنصيحة لعامة المسلمين إرشادهم إلى مصالحهم. اهـ. وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ – وفي آخره.

وكان النبي ﷺ جالسًا إذ جاءه رجل يسأل حاجة أو يطلب حاجة، أقبل علينا بوجهه فقال: «اشفعوا تؤجرا، ويقضي الله على لسان رسوله ما شاء»[4].

قوله: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ»: اللام فيه للجنس، والمراد بعض المؤمنين لبعض وقوله: «يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»: بيان لوجه التشبيه. قال ابن بطال: والمعاونة في أمور الآخرة، وكذا في الأمور المباحة من الدنيا مندوب إليها. وقد ثبت حديث أبي هريرة: «والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه»[5]. قوله: «ثم شَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِه»؛ هو بيان لوجه التشبيه أيضًا – أي يشد بعضهم بعضًا مثل هذا الشد.

وفي الحديث الحض على الخير بالفعل وبالتسبب إليه بكل وجه، والشفاعة إلى الكبير في كشف كربة ومعونة ضعيف؛ إذ ليس كل أحد يقدر على الوصول إلى الرئيس ولا التمكن منه ليلح عليه، أو يوضح له مراده ليعرف حاله على وجهه، إلا النبي ﷺ فقد كان لا يحتجب.

---

(١) مسلم (٥٥) عن تميم الداري.

(٢) أحمد (٣/٢٢٥).

(٣) مسلم (١٤٢)، والبخاري (٧١٥٠).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) البخاري (١٤٣٢) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

وقال القرطبي : هذا تمثيل يفيد الحض على معاونة المؤمن ونصرته ، وأن ذلك أمر متأكد ، فإن البناء لا يتم ولا تحصل فائدته إلا بأن يكون بعضه يمسك بعضًا ويقويه ، وإن لم يكن ذلك انحطت أجزاؤه وخرب بناؤه ، وكذلك المؤمن لا يستقل بأمر دنياه ودينه إلا بمعاونة أخيه ومعاضدته ومناصرته ، فإن لم يكن ذلك عجز عن القيام بكل مصالحه وعن مقاومة مضادة ، فحينئذ لا يتم انتظام دنياه ولا دينه ولا آخرته » .

وفي الصحيحين عن النعمان بن بشير أن النبي ﷺ قال : « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ ، كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ ؛ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى » . وفي رواية لمسلم : « المسلمون كرجل واحد إن اشتكى عينه اشتكى كله ، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله »[1] .

ويأمرون بالصبر عند البلاء قال الله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ . « وقد ذكر الله الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعًا مرة أمر به ، ومرة أثنى على أهله ؛ ومرة أمر نبيه ﷺ أن يبشر أهله ، ومرة جعله شرطًا في حصول النصر والكفاية ، ومرة أخبر الله أنه مع أهله ؛ وأثنى به على صفوته من العالمين ، وهم أنبياؤه . وقد ورد في السنة في غير ما موضع ذكر الصبر ، وعن سعد بن أبي وقاص قال : قال رسول الله ﷺ : « واعجبًا للمؤمن إن أصابه خير حمد الله وشكره ، وإن أصابته مصيبة حمد الله وصبر ، فالمؤمن يؤجر في اللقمة يرفعها إلى فيّ امرأته »[2] . وفي الصحيحين : « ما أعطى أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر »[3] . وقال عمر رضي الله عنه : وجدنا خير عيشنا بالصبر . وقال علي رضي الله عنه : إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ثم رفع صوته فقال : ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له » .

وأصل هذه الكلمة : هو المنع والحبس ، فالصبر حبس النفس عن الجزع ؛ واللسان عن التشكي ، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ونحوهما » .

« والصبر في اللغة : الحبس والكف . ومنه قتل فلان صبرًا إذا أمسك وحبس . ومنه قوله تعالى : ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ . أي : احبس نفسك معهم . فالصبر حبس النفس عن الجزع والتسخط ، وحبس اللسان عن الشكوى ، وحبس الجوارح عن التشويش ، وهو ثلاثة أنواع : صبر على طاعة الله ، وصبر عن معصية الله ، وصبر على امتحان الله .

فالأولان صبر على ما يتعلق بالكسب ، والثالث صبر على ما لا كسب للعبد فيه . وكان شيخ

---

(١) مسلم (٢٥٨٦) .

(٢) أحمد (١/١٨٢) ، ومصنف عبد الرزاق (١١/١٩٧) ، وعبد بن حميد في « مسنده » (١٣٩) ، وصححه الألباني في « مشكاة المصابيح » (١٧٣٣) .

(٣) البخاري (١٤٦٩) ، ومسلم (١٠٥٣) عن أبي سعيد رضي الله عنه .

الإسلام ابن تيميه - قدس الله روحه - يقول : الصبر على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل ، فإن مصلحة فعل الطاعة أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية ، ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية » . فالصبر على طاعته والصبر عن معصيته أكمل من الصبر على أقداره » .

« والصبر عن المصائب واجب باتفاق الأئمة ، ولا يلزم الرضا بمرض وفقر وعاهة ، وهو الصحيح من المذهب » . « والمصائب نعمة ؛ لأنها مكفرات للذنوب وتدعو إلى الصبر فيثاب عليها ، وتقتضي الإنابة إلى الله والذل له ، والإعراض عن الخلق إلى غير ذلك من المصالح العظيمة ، فنفس البلاء يكفر الله به الذنوب والخطايا ، وهذا من أعظم النعم ، فالمصائب رحمة ونعمة في حق عموم الخلق ، إلا أن يدخل صاحبها بسببها في معاص أعظم مما كان قبل ذلك فيكون شرًا عليه من جهة ما أصابه في دينه ، فإن من الناس من إذا ابْتُلِيَ بفقر أو مرض أو وجع حصل له من النفاق وجزع القلب ومرضه والكفر الظاهر ، وترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات ما يوجب له الضرر في دينه .

فهذا كانت العافية خيرًا له من جهة ما أورثته من المعصية لا من جهة نفس المصيبة ، كما أن من أوجبت له المصيبة صبرًا وطاعة كانت في حقه نعمة دينية ، فهي بعينها فعل الرب ﷻ ورحمة للخلق ، والله تعالى محمود عليها ، فمن ابتلى فرزق الصبر كان الصبر عليه نعمة في دينه ، وحصل له بعد ما كفر من خطاياه رحمة ، وحصل له بثنائه على ربه صلاة ربه عليه قال تعالى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾ . وحصل له غفران السيئات ورفع الدرجات ، فمن قام بالصبر الواجب حصل له ذلك »

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة ابْتُلِيَ على قدر ذلك ، وإن كان فيه رقة هون عليه ، فما يزال البلاء بالرجل حتى يدعه يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة »[1] .

وسئل الإمام الشافعي : أيما أفضل للرجل أن يمكن أو يبتلى ؟ فقال : لا يمكن حتى يبتلى ، فإن الله ابتلى نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا ﷺ ، فلما صبروا مكنهم ، فلا تظن أن أحدًا يخلص من البلاء البتة .

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى »[2] . وقد اختلف في الصبر على الطاعة والصبر عن المعصية أيهما أفضل « وفصل النزاع في ذلك أن هذا يختلف باختلاف الطاعة والمعصية ، فالصبر على الطاعة المعظمة أفضل من الصبر عن المعصية الصغيرة الدنية ، والصبر عن

---

(١) أحمد (١/١٨٥) ، وابن حبان (٢٩٠٠، ٢٩٠١) ، والترمذي (٢٣٩٨) عن سعد بن أبي وقاص ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٩٢٢) .

(٢) البخاري (١٢٨٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، ومسلم (٩٢٦) .

المعصية الكبيرة أفضل من الصبر على الطاعة الصغيرة .

وصبر العبد على الجهاد - مثلًا - أفضل وأعظم من صبره على كثير من الصغائر ، وصبره عن كبائر الإثم والفواحش أعظم من صبره على ركعتي صلاة الصبح وصوم يوم تطوعًا ونحوه ، فهذا فصل النزاع في المسألة » .

« والصبر واجب باتفاق العلماء ، وأعلى من ذلك الرضا بحكم اللّٰه ، والرضا قيل : أنه واجب ، وقيل هو مستحب ، وهو الصحيح ، وأعلى من ذلك أن يشكر اللّٰه على المصيبة لما يرى من إنعام اللّٰه عليه بها ؛ حيث جعلها سببًا لتكفير خطاياه ورفع درجاته وإنابته وتضرعه إليه وإخلاصه له في التوكل عليه ورجائه دون المخلوقين » .

وكان من دعاء النبي ﷺ : « أسألك الرضا بعد القضاء »[1] . وقال ابن مسعود : إن اللّٰه بقسطه وعدله جعل الروح والفرح في اليقين والرضا ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط .

وقال ابن القيم في الرضي : وقد أجمع العلماء على أنه مستحب مؤكد استحبابه . واختلفوا في وجوبه على قولين : وسمعت شيخ الإسلام ابن تيميه- قدس اللّٰه روحه - يحكيها قولين لأصحاب أحمد ، وكان يذهب إلى القول باستحبابه . قال : ولم يجيء الأمر به كما جاء الأمر بالصبر ، وإنما جاء الثناء على أصحابه ومدحهم ، واختُلِفَ فيه هل هو مكتسب أو موهوب ؟

والتحقيق في المسألة أن الرضا كسبي باعتبار سببه موهبي باعتبار حقيقته ، فيمكن أن يقال بالكسب لأسبابه ؛ فإذا تمكن في أسبابه وغرس شجرته اجتنى منها ثمرة الرضي ، فإن الرضي آخر التوكل ، فمن رسخ قدمه في التوكل والتسليم والتفويض حصل له الرضا ولابد ، ولكن لعزته وعدم إجابة أكثر النفوس له وصعوبته عليها لم يوجبه اللّٰه على خلقه رحمة بهم وتخفيفًا عنهم ، لكن ندبهم إليه وأثنى على أهله ، وأخبر أن ثوابه رضاه عنهم الذي هو أعظم وأكبر وأجل من الجنان وما فيها ، فمن رضي عن ربه رضي اللّٰه عنه ، بل رضي العبد عن اللّٰه من نتائج رضي اللّٰه عنه ، فهو محفوف بنوعين من رضاه عن عبده رضي قبله أوجب له أن يرضى عنه ورضا بعده وهو ثمرة رضاه عنه .

وليس من شرط الرضى ألّا يحس بالألم والمكاره ، بل ألا يعترض على الحكم ولا يتسخطه ، ولهذا أشكل على بعض الناس الرضى بالمكروه وطعنوا فيه .

وقال : هذا ممتنع على الطبيعة وإنما هو الصبر ، وإلا فكيف يجتمع الرضى والكراهة وهما ضدان ؟ والصواب أنه لا تناقض بينهما ، وأن وجود التألم وكراهة النفس له لا ينافي الرضى ؛ كرضى المريض بشرب الدواء الكرية ، ورضى الصائم في اليوم الشديد الحر بما يناله من ألم الجوع والظمأ ، ورضى

---

(١) النسائي (٣/٦٢) ، وأبو يعلى في « مسنده » (١٦٤٢) عن عمار بن ياسر ، والطبراني في « الكبير » (٤٨٠٣ ، ٤٩٣٢) عن زيد بن ثابت ، وصححه الألباني في « الكلم الطيب » (١٠٥) ، وفي « ظلال الجنة » (١٢٩) .

المجاهد بما يحصل له في سبيل الله من ألم الجراح وغيرها . اهـ .

والصواب التفصيل في مسألة الرضى بالقضاء ، وأن الفعل غير المفعول والقضاء غير المقضي ، وأن الله لم يأمر عباده بالرضى بكل ما خلقه وشاءه « فالرضى بالقضاء الديني الشرعي واجب ، وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان ، فيجب على العبد أن يكون راضيًا به بلا حرج ولا منازعة ولا معارضة ولا اعتراض ، قال تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ .

والرضى بالقضاء الكوني القدري الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه من الصحة والغنى والعافية واللذة أمر لازم بمقتضى الطبيعة ؛ لأنه ملائم للعبد محبوب له ، فليس في الرضى به عبودية ؛ بل العبودية في مقابلته بالشكر والاعتراف بالمنة ووضع النعمة مواضعها التي يحب الله أن توضع فيها ، وألّا يعصى المنعم بها وأن يرى التقصير في جميع ذلك .

والرضى بالقضاء الكوني القدري الجاري على خلاف مراد العبد ومحبته مما لا يلائمه ، ولا يدخل تحت اختياره مستحب ، وهو من مقامات أهل الإيمان ، وفي وجوبه قولان وهذا كالمرض والفقر وأذى الخلق له والحر والبرد والآلام ونحو ذلك .

والرضى بالقدر الجاري عليه باختياره مما يكرهه الله ويسخطه وينهى عنه ، كأنواع الظلم والفسوق والعصيان حرام يعاقب عليه ، وهو مخالفة لربه تعالى فإن الله لا يرضى بذلك ولا يحبه ، فكيف تتفق المحبة ورضى ما يسخطه الحبيب ويبغضه ، فعليك بالتفصيل في مسألة الرضى بالقضاء . اهـ .

ويأمر أهل السنة بالشكر عند الرخاء ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ .

« فمنزلة الشكر من أعلى المنازل ، وهي فوق منزلة الرضى وزيادة ، فالرضى مندرج في الشكر ؛ إذ يستحيل وجود الشكر بدونه وهو نصف الإيمان ، فإن الإيمان نصفان :

نصف شكر ونصف صبر ، وقد أمر الله به ونهى عن ضده ، وأثنى على أهله ،ووصف به خواص خلقه ، وجعله غاية خلقه وأمره ، ووعد أهله بأحسن جزائه ، وجعله سببًا للمزيد من فضله وحارسًا وحافظًا لنعمته .

وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته ، واشتق لهم اسمًا من أسمائه ، فإنه سبحانه هو الشكور وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره ؛ بل يعيد الشاكر مشكورًا ، وهو غاية الرب من عبده ، وأهله هم القليل من عباده ، وسمى نفسه شاكرًا وشكورًا ، وسمى الشاكرين بهذين الاسمين فأعطاهم من وصفه وسماهم باسمه ، وحسبك بهذا محبة للشاكرين وفضلًا ، وإعادته للشاكر مشكورًا كقوله : ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ ، ورضى الرب عن عبده كقوله : ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ ، وقلة أهله في العالمين

تدل على أنهم خواصه كقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قام حتى تورمت قدماه، فقيل له: تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»[1]. وأصل «الشكر» في وضع اللسان: ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان ظهورًا بينًا، يقال: شكرت الدابة تشكر شكرًا على وزن سمنت سمنًا: إذا ظهر عليها أثر العلف، ودابة شكور؛ إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تأكل وتعطى من العلف.

وفي صحيح مسلم: «حتى إن الدواب لتشكر من لحومهم». أي: لتسمن من كثرة ما تأكل منها، وكذلك حقيقته في العبودية، وهو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناء أو اعترافًا، وعلى قلبه شهودًا ومحبة، وعلى جوارحه انقيادًا وطاعة.

والشكر مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه بها، وألَّا يستعملها فيما يكره. فهذه الخمس هي أساس الشكر وبناؤه عليها، فمتى عدم واحدة منها اختل من قواعد الشكر قاعدة، وكل من تكلم في الشكر وحده فكلامه إليها يرجع وعليها يدور».

والشكر يكون في مقابلة نعمة ويكون باليد واللسان والقلب، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

«ومذهب أهل السنة: أن الشكر يكون بالاعتقاد والقول والعمل، قال الله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾، وقد صرح من شاء الله من العلماء المعروفين بالسنة: أن الشكر يكون بالاعتقاد والقول والعمل، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة، ومن قال: أن الشكر يكون بالاعتقاد فقط ونسبه إلى أهل السنة. فقد أخطأ والنقل عن أهل السنة خطأ، فإن القول إذا تبين ضعفه كيف ينسب إلى أهل الحق».

«وتكلم الناس في الفرق بين الحمد والشكر أيهما أعلى وأفضل؟ وفي الحديث: «الحمد رأس الشكر، فمن لم يحمد الله لم يشكره»[2]. والفرق بينهما: أن الشكر أعم من جهة أنواعه وأسبابه، وأخص من جهة متعلقاته.

والحمد أعم من جهة المتعلقات وأخص من جهة الأسباب، ومعني هذا أن الشكر يكون بالقلب خضوعًا واستكانة وباللسان ثناء واعترافًا، وبالجوارح طاعة وإنقيادًا، ومتعلقة النعم دون الأوصاف الذاتية، فلا يقال: شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه، وهو المحمود عليها، كما هو محمود على إحسانه وعدله، والشكر يكون على الإحسان والنعم.

فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس، وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير

---

(١) البخاري (٤٨٣٦)، ومسلم (٢٨١٩) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٢) مصنف عبد الرزاق (١٠/٤٢٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٣٩٥)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٧٩٠).

عكس ، فإن الشكر يقع بالجوارح والحمد يقع بالقلب واللسان » .

« وقد تنازع الناس أيما أفضل الفقير الصابر أو الغني الشاكر ؟ والصحيح أن أفضلهما أتقاهما لله ، فإن استويا في التقوى استويا في الدرجة ، فإن الفقراء يسبقون الأغنياء إلى الجنة لخفة الحساب ، ثم إذا دخل الأغنياء الجنة ، فكل واحد يكون في منزلته على قدر حسناته وأعماله » .

وكذلك أهل السنة يدعون إلى مكارم الأخلاق ؛ لقوله ﷺ : « أَكْمَلُ الْمُؤمنينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا » . ورواه ابن حبان .

وقال النبي ﷺ : « إن حُسن الخلق أثقل ما يوضع في الميزان ، وإن صاحبه أحب الناس إلى الله ، وأقربهم من النبيين مجلسًا »[1] .

وأخرج ابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا : « ألا أخبركم بأحبكم إلى الله وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة ؟ قالوا : بلى . قال أحسنكم خلقًا »[2] . ولأحمد والترمذي وصححه عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن »[3] .

« فقد جمع النبي ﷺ بين تقوى الله وحسن الخلق ، فتقوى الله يصلح ما بين العبد وبين ربه ، وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه ، فتقوى الله توجب له محبة الله ، وحسن الخلق يدعو الناس إلى محبته » .

وروى البيهقي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[4] . وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا ، وكان يقول : « إن من خياركم أحسنكم أخلاقًا »[5] .

قوله : « أَحَسَنُهُمْ خُلُقًا » . أي : ألينهم وألطفهم وأجملهم . والخلق بضم الخاء واللام بمعنى طبيعة الإنسان وسجيته ، قال الجوهري : الخلق والخلق السجية ، وفلان يتخلق بغير خلقه أي : يتكلف ، قال الشاعر :

---

(١) « ضعيف الجامع » للألباني (٢١٤٠) .

(٢) أحمد (٥/١٥٣) ، والترمذي (١٩٨٧) ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » (٩٧) .

(٣) البخاري في « الأدب المفرد » (٢٧٢) ، وابن حبان (٤٨٥) ، وأحمد (٢/١٨٥) ، وصححه الألباني في « صحيح الأدب المفرد » (١/١٢٢) .

(٤) الحاكم في « المستدرك » (٢/٦٧٠) ، والبيهقي في « الكبرى » (١٠/١٩١) ، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (٤٥) .

(٥) البخاري (٣٥٥٩) ، ومسلم (٢٣٢١) .

يـا أيهـا المتحلـي غير شيمته إن التخلق يأتي دونه الخلق

وفي نهاية ابن الأثير : الخلق بضم اللام وسكونها : الدين والطبع والسجية ، وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة ، وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها ولها أوصاف حسنة وقبيحة ، والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة ، ولذا تكررت الأحاديث في مدح حسن الخلق وذم سوئه » . اهـ . قال الحسن وقد سئل : ما أحسن الخلق ؟ قال : بذل الندى وكف الأذى وطلاقة الوجه . وقال مرة : حسن الخلق : الكرم والبذل والاحتمال .

قوله : « وَيَنْدُبُونَ إِلَى أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ » إلخ : قال في المصباح المنير : ندبته إلى الأمر ندبًا من باب قتل دعوته ، والفاعل نادب والمفعول مندوب والأمر مندوب إليه والاسم الندبة مثل غرفة ، ومنه المندوب في الشرع والأصل المندوب إليه ، لكن حذفت الصلة منهم لفهم المعنى ، وندبته للأمر فانتدب يستعمل لازمًا ومتعديًا . اهـ .

وفي البخاري من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : « ليس الواصل بالمكافئ ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها »[1] . وفي المسند عن معاذ بن أنس الجهني عن النبي ﷺ قال : « أفضل الفضائل أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتصفح عمن شتمك »[2] . وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن أُبَيّ قال : لما أنزل الله على نبيه ﷺ : ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ . قال رسول الله ﷺ : « ما هذا يا جبريل ؟ قال : أن تصل من قطعك ، وتعفو عمن ظلمك ، وتعطي من حرمك » .

وروى نحو ذلك من حديث علي وأبي هريرة وأم سلمة وجابر وعقبة بن عامر وقيس بن سعد بن عبادة ﷺ . وقد قال تعالى : ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ . والفخار هو الافتخار وَعَدُّ المآثر القديمة تعظمًا ، قال في المصباح . المفاخرة : المباهاة بالمكارم والمناقب من حسب ونسب وغير ذلك ، إما في المتكلم أو في آبائه . اهـ .

والخيلاء بضم الخاء المعجمة وفتح الياء ممدودًا هو : الكبر والإعجاب واحتقار الناس ، والبغي : العدوان والظلم . وكل ذلك مما نهى الله ورسوله عنه ، كما قال تعالى : ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ ، وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال : « الكبر بطر الحق

---

(١) البخاري (٥٩٩١) .

(٢) أحمد (٤٣٨/٣) ، والطبراني في « الكبير » (١٨٨/٣٠) ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (١٠٣٣) .

وغمط الناس »[١] . وفي صحيح مسلم أيضًا عن عياض بن حمار المجاشعي قال : قال رسول الله ﷺ : « إنه أوحي إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغي أحد على أحد »[٢] .

« فنهى سبحانه على لسان رسوله ﷺ من نوعي الاستطالة على الخلق وهي الفخر والبغي ؛ لأن المستطيل إن استطال بحق فقد افتخر ، وإن كان بغير حق فقد بغى فلا يحل لا هذا ولا هذا » .

« وأمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق ، وإن لم تشترك في إثم ، ولهذا قيل : إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة . ويقال : الدنيا تدوم مع العدل والكفر ، ولا تدوم مع الظلم والإسلام . وقد قال النبي ﷺ : « ليس ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم »[٣] . فالباغي يصرع في الدنيا وإن كان مغفورًا له ؛ مرحومًا في الآخرة ؛ وذلك أن العدل نظام كل شيء ، فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت ، وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق ، ومتى لم تقم بعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة .

وروى الخلال عن سهل بن سعد مرفوعًا : « إن الله كريم يحب الكرم ومعالي الأخلاق ويكره سفسافها »[٤] . قال ابن الأثير في النهاية : السفساف : الأمر الحقير والرديء من كل شيء ، وهو ضد العالي ، وفيه : « إن الله يحب معالي الأخلاق ويبغض سفسافها » . وأصله ما يطير من غبار الدقيق إذا نخل والتراب إذا أثير . اهـ .

قوله : « وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ مِنْ هَذَا أَو غَيْرِهِ ؛ فَإِنَّمَا هُمْ فِيهِ مُتَّبِعُونَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَطَرِيقَتُهُم : هِيَ دِينُ الإِسْلاَمِ الَّذِي بَعَثَ اللَّه بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ ... » :

* « اعلم أن أهل السنة والجماعة هم أهل الإسلام والتوحيد ، المتمسكون بالسنن الثابتة عن رسول الله ﷺ في العقائد والنحل والعبادات الباطنة والظاهرة ، الذين لم يشوبوها ببدع أهل الأهواء وأهل الكلام في أبواب العلم والاعتقادات ، ولم يخرجوا عنها في باب العمل والإرادات ، كما عليه جهال أهل الطرائق والعبادات ، فإن السنة في الأصل تقع على ما كان عليه رسول الله وما سنه أو أمر به من أصول الدين وفروعه حتى الهدي والسمت ، ثم خصت في بعض الإطلاقات بما كان عليه أهل السنة من إثبات الأسماء والصفات ، خلافًا للجهمية المعطلة النفاة ، وخصت بإثبات القدر ونفي الجبر خلافًا للقدرية

---

(١) مسلم (٩١) عن ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) مسلم (٢٨٦٥) .

(٣) أحمد (٣٨/٥) ، وأبو داود (٤٩٠٢) ، والترمذي (٢٥١١) ، وابن ماجه (٤٢١١) ، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (٩١٧) .

(٤) مصنف عبد الرزاق (١٤٣/١١) (٢٠١٥٠) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (١٩١/١٠) عن طلحة بن كريز الخزاعي .

النفاة وللقدرية الجبرية العصاة ، وتطلق أيضًا على ما كان عليه السلف الصالح في مسائل الإمامة والتفضيل ، والكف عما شجر بين أصحاب رسول اللّٰه ﷺ ، وهذا من إطلاق الاسم على بعض مسمياته ، وهم يريدون بمثل هذا الإطلاق التنبيه على أن المسمى ركن أعظم وشرط أكبر ، كقوله : « الحج عرفة »[(١)]. أو لأنه الوصف الفارق بينهم وبين غيرهم ؛ ولذلك سمى العلماء كتبهم في هذه الأصول كتب السنة ، ككتاب السنة للالكائي ، والسنة لأبي بكر الأثرم ، والسنة للخلال ، والسنة لابن خزيمة ، والسنة لعبد اللّٰه بن الإمام أحمد ، ومنهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهم » .

وروى أبو داود والترمذي وصححه عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « افترقت اليهود على إحدى – أو ثنتين – وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة »[(٢)]. وروى الإمام أحمد عن أبي عامر عبد اللّٰه بن يحيى . قال : حججنا مع معاوية بن أبي سفيان ، فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر فقال : إن رسول اللّٰه ﷺ قال : « إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة – يعني الأهواء – كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة ، وإنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه ، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله – واللّٰه يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم ﷺ لغيركم من الناس أحرى ألَّا يقوم به »[(٣)]. ورواه أبو داود وغيره « فبين النبي ﷺ أن عامة المختلفين هالكون من الجانبين إلا فرقة واحدة ؛ وهم أهل السنة والجماعة » .

وفي حديث عبد اللّٰه بن عمرو عند الترمذي قالوا : من هي يا رسول اللّٰه ؟ قال : « ما أنا عليه اليوم وأصحابي »[(٤)]. وقد روى معنى ذلك عن جماعة من الصحابة منهم : ابن مسعود وأنس وسعد بن أبي وقاص وشداد بن أوس وعمرو بن عوف قوله : المتمسكون بالإسلام المحض ، المحض الخالص من كل شيء ، ومنه سمي اللبن الخالص الذي لم يخالطه ماء محضا ، ومنه : أمحض فلان فلانًا الود ومحضه أخلصه الود والشوب المخالط ، وكل ما خلط بغيره فهو مشوب ، فأهل السنة تمسكوا بالإسلام الخالص من شوائب البدع وطرق الضلال .

وفيهم الصديقون والشهداء والصالحون فقال تعالى : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ

---

(١) أحمد (٤/٣٠٩) ، والترمذي (٨٨٩) ، والنسائي (٥/٢٨٢) ، وابن ماجه (٣٠١٥) ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٣١٧٢) .

(٢) أحمد (٢/٣٣٢) ، وأبو داود (٤٥٩٦) ، والترمذي (٢٦٤٠) ، وابن ماجه (٣٩٩١) ، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (٢٠٣) .

(٣) أحمد (٣/١٠٢) ، وأبو داود (٤٥٩٧) ، وحسنه الألباني في « صحيح الترغيب » (٥١) .

(٤) الترمذي (٢٦٤١) عن عبد اللّٰه بن عمرو ، والطبراني في الأوسط (٤٨٨٦) عن أنس رضي الله عنه .

أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَآءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ . وقال : ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ . والصديق كثير الصدق والتصديق ، وأفضل الصديقين هو أبو بكر رضي الله عنه .

« ومرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء ، ولهذا قدمهم عليهم في الآيتين هنا وفي سورة النساء ، وهكذا جاء ذكرهم مقدمًا على الشهداء في كلام النبي ﷺ في قوله : « اثبت أحد فإنما عليك نبي أو صديق أو شهيد »[1] . ولهذا كان نعت الصديقية وصف لأفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين أبو بكر الصديق ، ولو كان بعد النبوة درجة أفضل من الصديقية لكانت نعتًا له » .

ومنهم أعلام الهدى ومصابيح الدجى تشبيه لعلماء السنة المهتدين ، وأهل الخيرات من المصلين في الأمة بالجبال الشاهقة والعلامات الواضحة التي يعرف بها الفلاح والفوز ، وبالمصابيح النيرة التي تضيء السبيل للسالكين .

قال الراغب : العلم : الأثر الذي يعلم به الشيء ، كعلم الطريق وعلم الجيش ، وسُمي الجبل علما كذلك وجمعه أعلام ، وقرئ « وإنَّهُ لعِلم الساعة » . وقال : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَٰمِ﴾ ، والشق في الشفة العليا علم وعلم الثوب ، ويقال : فلان علم . أي : مشهور يشبه بعلم الجيش ، وأعلمت كذا جمعت له علمًا ، ومعالم الطريق والدين الواحد مَعْلَم ، وفلان معلم للخير . اهـ .

وقالت الخنساء :

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وروى ابن عبد البر من حديث معاذ بن جبل عن النبي ﷺ : « إن العلم حياة للقلوب من الجهل ، ومصابيح الأبصار من الظلم » . وروى ابن عبد البر من حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ : « وإن فضل العالم على العابد ، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر »[2] .

وروى عن عبد الله بن أبي جعفر أنه كان يقول : العلماء منار البلاد منهم يقتبس النور الذي يهتدى به ، وما أحسن ما قال العلامة ابن القيم رحمه الله في وصف العلماء :

ولولا هموا كادت تميد بأهلها ولكن رواسيها وأوتادها هموا

ولولا هموا كانت ظلامًا بأهلها ولكن هموا فيها بدور وأنجم

والمناقب : جمع منقبة وهي الخصلة الحميدة والخلق الجميل . والفضائل : جمع فضيلة وهي المزية والدرجة الرفيعة ضد الرذيلة والنقيصة .

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) أبو داود (٣٦٤١) ، وابن ماجه (٢٢٣) ، وصححه الألباني في « صحيح ابن ماجه » (٢٢٣) .

قوله « وفيهمُ الأبدالُ » : الأبدال جمع بدل وهم قوم صالحون .

قال ابن الأثير : قوله في حديث علي ؛ الأبدال بالشام هم أولياء الرحمن الذين أخلصوا له العبادة ، والواحد بدل كحمل ، وبدل كجمل سموا بذلك ؛ لأنه كلما مات واحد منهم أبدل بآخر ، وقال الراغب : الأبدال قوم صالحون يجعلهم الله مكان آخرين مثلهم ماضين ، وحقيقته هم الذين بدلوا أحوالهم الذميمة بأحوالهم الحميدة ، وهم المشار إليهم بقوله تعالى : ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ﴾ . اهـ .

وروى ابن مردويه عن ثوبان عن النبي ﷺ قال : « لا يزال فيكم سبعة بهم تنصرون ، وبهم تمطرون ، وبهم ترزقون حتى يأتي أمر الله » . وروى ابن مردويه أيضًا عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « الأبدال في أمتي ثلاثون بهم ترزقون ، وبهم تمطرون ، وبهم تنصرون »[1] . قال قتادة : إني لأرجو أن يكون الحسن منهم .

وقد قال تعالى : ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ ، وروى الإمام أحمد في مسنده عن شريح بن عبيد قال : ذكر أهل الشام عند علي ابن أبي طالب وهو بالعراق فقالوا : العنهم يا أمير المؤمنين . قال : لا ؛ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الأبدال يكونون بالشام ، وهم أربعون رجلًا ، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلًا يسقى بهم الغيث ، وينتصر بهم على الأعداء ، ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب »[2] ، وإسناده منقطع وسئل الإمام أحمد عن الأبدال ؟ فقال : هم أهل الحديث . وكان يقول في إبراهيم بن هاني النيسابوري : إن كان في هذا البلد رجل من الأبدال فأبو إسحاق .

« وأما الأسماء الدائرة على ألسنة كثير من النساك والعامة ، مثل الغوث الذي يكون بمكة والأوتاد الأربعة والأقطاب السبعة والأبدال الأربعين والنجباء الثلاثمائة ، فهذه الأسماء ليست موجودة في كتاب الله ، ولا هي أيضًا مأثورة عن النبي ﷺ لا بإسناد صحيح ولا ضعيف محتمل إلا لفظ الأبدال ، فقد رُوي فيهم حديث شامي منقطع الإسناد عن علي بن أبي طالب مرفوعًا إلى النبي ﷺ أنه قال : « إن فيهم - يعني أهل الشام - الأبدال أربعين رجلًا ، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلًا » . ولا توجد هذه الأسماء في كلام السلف كما هي على هذا الترتيب ، ولا هي مأثورة على هذا الترتيب والمعاني عن المشايخ المقبولين عند الأمة قبولًا عامًا ، وإنما توجد على هذه الصورة عن بعض المتوسطين من المشايخ وقد قالها إما آثرًا لها عن غيره ، أو ذاكرًا وهذا الجنس ونحوه من العلم الذي قد التبس على أكثر المتأخرين حقه بباطله ، فصار فيه من الحق ما يوجب قبوله ، ومن الباطل ما يوجب رده ، فإن هذه الأسماء على هذا

---

(١) ضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (٢٢٦٧) .

(٢) أحمد (١/١١٢) ، وضعفه الألباني في « مشكاة المصابيح » (٣/٣٦٩) .

العدد والترتيب والطبقات ليست حقًا في كل زمان ؛ بل يجب القطع بأن هذا على عمومه وإطلاقه باطل ، فإن المؤمنين يقلون تارة ويكثرون أخرى ، ويقل فيهم السابقون المقربون تارة ويكثرون أخرى وينتقلون في الأمكنة ، ليس من شرط أولياء الله أهل الإيمان والتقوى ، ومن يدخل منهم في السابقين المقربين لزوم مكان واحد في جميع الأزمنة .

ولفظ البدل جاء في كلام كثير منهم ، فأما الحديث المرفوع فالأشبه أنه ليس من كلام النبي ﷺ فإن الإيمان كان بالحجاز واليمن قبل فتوح الشام ، وكانت الشام والعراق دار كفر ، ثم في خلافة علي قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « تمرق مارقة على حين فرقة عن المسلمين ، يقتلهم أولى الطائفتين بالحق »[1] . فكان علي وأصحابه أولى بالحق ممن قاتلهم من أهل الشام ، ومعلوم أن الذين كانوا مع علي من الصحابة مثل عمار وسهل بن حنيف ونحوهما كانوا أفضل من الذين مع معاوية ، وإن كان سعد بن أبي وقاص ونحوه من القاعدين أفضل ممن كان معهما ، فكيف يعتقد مع هذا أن الأبدال جميعهم الذين هم أفضل الخلق كانوا في أهل الشام ؟ هذا باطل قطعًا ، وإن كان قد ورد في الشام وأهله فضائل معروفة ، فقد جعل الله لكل شيء قدرًا .

والذين تكلموا باسم البدل أفردوه بمعان :

منها : أنهم أبدال ، ومنها أنهم كلما مات منهم رجل أبدل الله مكانه رجلًا .

ومنها : أنهم أبدلوا السيئات من أخلاقهم وأعمالهم وعقائدهم بالحسنات .

وهذه الصفات كلها لا تختص بأربعين ولا بأقل ولا أكثر ، ولا تحصر بأهل بقعة من الأرض ، وبهذا التحرير يظهر المعنى باسم النجباء ، فالغرض أن هذه الأسماء تارة تفسر بمعان باطلة بالكتاب والسنة وإجماع السلف ، مثل تفسير بعضهم بأن الغوث هو الذي يغيث الله به أهل الأرض من رزقهم ونصرهم ، فإن هذا نظير ما تقوله النصارى في الباب وهو معدوم العين والأثر وتشبيه بحال المنتظر .

وكذلك من فسر الأربعين الأبدال بأن الناس إنما ينصرون ويرزقون بهم ، فذلك باطل بل النصر والرزق يحصل بأسباب من أوكدها دعاء المسلمين المؤمنين وصلاتهم وإخلاصهم ، ولا يتقيد ذلك لا بأربعين ولا بأقل ، وقد يكون للنصر والرزق أسباب أخر .

وفيهم أئمة الدين الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ، ومنهم الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المقلدين وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة والشعبي والزهري وأصحاب الصحاح والسنن والمسانيد ، وكشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه العلامة ابن القيم والشيخ المصلح محمد بن عبد الوهاب ، وكثيرون غيرهم من أئمة الهدي الذي حفظ الله بهم دينه ، وجعل لهم في الأمة لسان صدق .

وقد روى عن النبي ﷺ من وجوه متعددة وطرق كثيرة أنه قال : « يحمل هذا الدين من كل خلف

---

(١) مسلم (١٠٦٤) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » .

« فأخبر ﷺ أن العلم الذي جاء به يحمله عدول أمته من كل خلف حتى لا يضيع ويذهب .

وهذا يتضمن تعديله ﷺ لحملة العلم الذي بعث به ، وهو المشار إليه في قوله : هذا العلم فكل من حمل العلم المشار إليه لابد وأن يكون عدلًا ، ولهذا اشتهر عند الأمة عدالة نقلته وحملته اشتهارًا لا يقبل شكًّا ولا امتراء ، ولا ريب أن من عَدَّلَهُ رسول اللّه ﷺ لا يسمع فيه جرح ، فالأئمة الذين اشتهروا عند الأمة بنقل العلم النبوي وميراثه كلهم عدول بتعديل رسول اللّه ﷺ ، ولهذا لا يقبل قدح بعضهم في بعض ، وهذا بخلاف من اشتهر عند الأمة جرحه والقدح فيه ، كأئمة البدع ومن جرى مجراهم من المتهمين في الدين ، فإنهم ليسوا عند الأمة من حملة العلم ، فما حمل علم رسول اللّه ﷺ إلا العدل .

ولكن قد يغلط في مسمى العدالة فيظن أن المراد بالعدل من لا ذنب له وليس كذلك ، بل هو عدل مؤتمن على الدين ، وإن كان منا ما يتوب إلى اللّه منه فإن هذا لا ينافي العدالة كما لا ينافي الإيمان والولاية . وإذا وجد لأحد من الأئمة قول قد جاء حديث صحيح بخلافه ، فلابد له في تركه من عذر ، وجماع الأعذار ثلاثة :

أحدهما : عدم اعتقاده أن النبي ﷺ قاله .

الثاني : عدم اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول .

الثالث : اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ ، فلهم الفضل على من بعدهم بالسبق والحفظ لهذا العلم وغير ذلك ، وإذا اجتهد أحدهم فأخطأ فله أجر واحد لاجتهاده ، وإذا اجتهد وأصاب فله أجران ، أجر لاجتهاده وأجر لإصابته ، كما في قوله ﷺ : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد »[1] . فتبين أن المجتهد مع خطئه له أجر ، وذلك لأجل اجتهاده وخطؤه مغفور ؛ لأن درك الصواب في جميع أعيان الأحكام إما متعذر وإما متعسر » .

قوله : « وهم الطائفة المنصورة الذين قال فيهم النبي ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة »[2] . هذا الحديث خرجاه في الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة ومعاوية بن أبي سفيان ، وأخرجه مسلم وغيره من حديث ثوبان وجابر بن سمرة وجابر بن عبد اللّه رضي الله عنهم .

وفي رواية : « لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ، حتى يأتي أمر اللّه وهم على ذلك » . وفي رواية : « حتى يقاتلوا الدجال » . وفي رواية : « حتى ينزل عيسى بن مريم وهم ظاهرون » . وكل هذه روايات صحيحة ولا تعارض بينها .

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) تقدم تخريجه .

وقوله : « حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون » أي : على من خالفهم - أي : غالبون ، والمراد بالظهور أنهم غير مستترين بل مشهورون . والأول أولى .

وقد وقع عند مسلم من حديث جابر بن سمرة : « لن يبرح هذا الدين قائمًا تقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة »[1] . وله في حديث عقبة بن عامر : « لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله ، قاهرين لعدوهم لا يضرهم مَن خالفهم حتى تأتيهم الساعة »[2] .

وقد اختلف في الطائفة المنصورة ما هي ؟ قال البخاري في صحيحه : هم أهل العلم : « وقال يزيد بن هارون وأحمد بن حنبل : إن لم يكونوا أهل الحديث ، فلا أدري من هم ؟ ! وقال ابن المبارك وعلي بن المديني وأحمد بن سنان والبخاري وغيرهم : إنهم أهل الحديث . وعن ابن المديني رواية : هم العرب . واستدل برواية من روى : هم أهل الغرب .

وفسر الغرب بالدول العظيمة ؛ لأن العرب هم الذين يستقون بها ؛ وقال النووي : فيه أن الإجماع حجة ، ثم قال : يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين ؛ ما بين شجاع وبصير بالحرب وفقيه ومحدث ومفسر وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وزاهد وعابد ، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد وافتراقهم في أقطار الأرض ، ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد وأن يكونوا في بعض دون بعض منه ، ويجوز إخلاء الأرض من بعضهم أولًا فأولًا إلى ألَّا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد ، فإذا انقرضوا جاء أمر الله . انتهى ملخصًا مع زيادة فيه . ونظير هذا ما نبه عليه ما حمل عليه بعض الأئمة حديث : إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »[3] . أنه لا يلزم أن يكون في رأس كل مائة سنة واحد فقط ، بل يكون الأمر فيه كما ذكر في الطائفة وهو متجه ، فإن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر في نوع من أنواع الخير ، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد إلا أن يدعي ذلك في عمر بن عبد العزيز ، فإنه كان القائم بالأمر على رأس المائة الأولى باتصافه بجميع صفات الخير وتقدمه فيها ، ومن ثم أطلق أحمد أنهم كانوا يحملون الحديث عليه . فعلى هذا كل من كان متصفًا بشيء من ذلك عند رأس المائة هو المراد سواء متعدد أم لا » .

وفي الصحيح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس حول ذي الخلصة »[4] . وكانت صنمًا تعبدها دوس في الجاهلية بتبالة .

---

(١) مسلم (١٩٢٢) .

(٢) مسلم (١٩٢٤) .

(٣) تقدم تخريجه .

(٤) البخاري (٧١١٦) ، ومسلم (٢٩٠٦) .

قال ابن بطال : هذا الحديث وما أشبهه ليس المراد به أن الدين ينقطع كله في جميع أقطار الأرض حتى لا يبقى منه شيء ؛ لأنه ثبت أن الإسلام يبقى إلى قيام الساعة إلا أنه يضعف ويعود غريبًا كما بدأ . ثم ذكر حديث : « لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ...» . الحديث . قال : فتبين في هذا الحديث تخصيص الأخبار الأخرى ، وأن الطائفة التي تبقى على الحق تكون ببيت المقدس إلى أن تقوم الساعة . قال : فبهذا تأتلف الأخبار . قال الحافظ : ليس فيما احتج به تصريح ببقاء أولئك إلى قيام الساعة ، وإنما فيه حتى يأتي أمر اللَّه ، فيحتمل أن يكون المراد بأمر اللَّه ما ذكر من قبض من بقي من المؤمنين ، وظواهر الأخبار تقتضي أن الموصوفين بكونهم ببيت المقدس أن آخرهم من كان مع عيسى عليه السلام .

ثم إذا بعث اللَّه الريح الطيبة فقبضت روح كل مؤمن لم يبق إلا شرار الناس ، وقد أخرج مسلم من حديث ابن مسعود رفعه : « لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس »[1] . وذلك إنما يقع بعد طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة وسائر الآيات العظام ، وقد ثبت أن الآيات العظام مثل السلك إذا انقطع تناثر الخرز سرعة .

وقد أورد مسلم عقب حديث أبي هريرة من حديث عائشة ما يشير إلى بيان الزمان الذي يقع فيه ذلك ولفظه : « لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى ، فيه : يبعث اللَّه ريحًا طيبة فتوفى كل من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم »[2] . وعنده في حديث عبد اللَّه بن عمرو رفعه : « يخرج الدجال في أمتي ...» . الحديث . وفيه فيبعث اللَّه عيسى ابن مريم فيطلبه فيهلكه ، ثم يمكث الناس سبع سنين ، ثم يرسل اللَّه ريحًا باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال حبة من خير أو إيمان إلا قبضته ، وفيه يبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا ، فيتمثل لهم الشيطان فيأمرهم بعبادة الأوثان ، ثم ينفخ في الصور »[3] . فيظهر بذلك أن المراد بأمر اللَّه في حديث : « لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ » . وقوع الآيات العظام التي يعقبها قيام الساعة ، ولا يتخلف عنها إلا شيئًا يسيرًا ، ويؤيده حديث عمران بن حصين رفعه : « لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل أخرهم الدجال »[4] . أخرجه أبو داود والحاكم ، ويؤخذ منه صحة ما تأولته ، فإن الذين يقاتلون الدجال يكون بعد قتله مع عيسى ، ثم يرسل عليهم الريح الطيبة فلا يبقى بعدهم إلا الشرار كما تقدم .

ووجدت في هذا مناظرة لعقبة بن عامر ومحمد بن مسلمة ، فأخرج الحكم من رواية عبد الرحمن بن

---

(١) مسلم (٢٩٤٩) .

(٢) مسلم (٢٩٠٧) .

(٣) مسلم (٢٩٤٠) .

(٤) تقدم تخريجه .

شماسة أن عبد الله بن عمرو قال : لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق هم من أهل الجاهلية . فقال عقبة بن عامر : عبد الله أعلم ما تقول ، وأما أنا فسمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك ؟ » . فقال عبد الله بن عمرو : أجل . ويبعث الله ريحًا ريحها ريح المسك ومسها مس الحرير ، فلا تترك أحدًا في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته ، ثم يبقى شرار الناس فعليهم تقوم الساعة »[1] . فعلى هذا المراد بقوله في حديث عقبة :حتى تأتيهم الساعة ساعتهم هم ، وهي وقت موتهم بهبوب الريح ، والله أعلم .

ولا يأبى هذا كل الإباء ما ورد في بعض الروايات مكان أمر الله يوم القيامة ؛ لأن ما قارب الشيء يعطى حكمه .

فهذا الوقت لقربه من القيامة وجمعه هنا أحسن من جمع غيره ، بأن يكفر بعض الناس ويبقى بعضهم لمنافاته للكليات الواردة كما لا يخفى .

وجوز الطبري أن يضمر في كل من الحديثين المحل الذي يكون فيه تلك الطائفة ، فالموصوفون بشرار الناس الذين يبقون بعد أن تقبض الريح من تقبضه يكونون مثلًا ببعض البلاد كالشرق الذي هو أصل الفتن ، والموصوفون بأنهم على حق يكونون مثلًا ببعض البلاد كبيت المقدس لقوله في حديث معاذ أنهم بالشام ، وفي لفظ ببيت المقدس ، وما قاله وإن كان محتملًا يرده قوله في حديث أنس في صحيح مسلم : « لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله .....»[2] . إلى غير ذلك من الأحاديث التي تقدم ذكرها في معنى ذلك ، والله أعلم .

فعلى هذا فهذه الطائفة قد تجتمع ، وقد تتفرق ، وقد تكون في الشام ، وقد تكون في غيره ، فإن حديث أبي أمامة وقول معاذ لا يفيد حصرها بالشام ، وإنما يفيد أنها تكون في الشام في بعض الأزمان لا في كلها .

قوله : « فَنَسْأَلُ اللَّهَ العَظِيمَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ ، وَأَلا يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا ، وَيَهَبَ لنَا مِن لَّدُنْهُ رَحْمَةً إِنَّهُ هُوَ الوَهَّابُ » :

ختم المؤلف ﷺ هذه العقيدة المباركة بدعاء الراسخين في العلم الذين يقولون : « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ؛ وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » . وهو من أنفس الدعاء وأجله ؛ وكل الناس محتاجون له .

وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت : دعوات رسول الله ﷺ يدعو بها : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ، قالت : فقلت : يا رسول الله ، إنك تكثر أن تدعو بهذا الدعاء . فقال : « إن قلب الآدمي بين

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) مسلم (١٤٨) .

أصبعين من أصابع اللّٰه فإذا شاء أزاغه ، وإذا شاء أقامه »[1] .

وروى الإمام أحمد أيضًا عن شهر سمعت أم سلمة تحدث أن رسول اللّٰه ﷺ كان يكثر في دعائه يقول : اللهم مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك . قالت : فقلت : يا رسول اللّٰه ، أو أن القلوب تقلب ؟ قال : « نعم ، ما خلق اللّٰه من بشر من بني آدم إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع اللّٰه ﷻ ، فإن شاء أقامه وإن شاء أزاغه »[2] ، فنسأل اللّٰه ربنا ألّا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة ، إنه هو الوهاب ، قالت : فقلت : يا رسول اللّٰه ، ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي ؟ قال : بلى ، قولي : اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرني من مضلات الفتن ما أحييتني .

فنسأل اللّٰه ربنا أن يثبت قلوبنا وأن يهدينا صراطه المستقيم ، وصلى اللّٰه على خير خلقه محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا .

□ هذه العقيدة :

تسمى بالعقيدة الواسطية نسبة إلى بلد واسط ، وذلك لأن الذي سأل الشيخ أن يكتب له هذه العقيدة السلفية رجل من أهل واسط ، والمسمى بواسط بلدان كثيرة أهمها واسط الحجاج ، ويقول ياقوت الحموى : وسميت واسطًا ، لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة ، لأنها منها إلى كل واحدة منهما خمسين فرسخًا ، ونقل عن يحيى بن مهدي بن كلال قوله : شرع الحجاج في عمارة واسط في سنة (٨٣) ، وفرغ من عمارتها في سنة (٨٦) ، فكان عمارتها في عامين اهـ .

وقد جرت في هذه العقيدة مناظرات بين الشيخ وبعض معاصريه ، وانتهت بموافقة خصومه على صوابه فيما ذكره ، وقد ذكر ذلك ابن كثير في تاريخه ، وابن عبد الهادي في العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية ، وكتبها الشيخ إجابة لمن طلب منه ذلك ، وذكرها غير واحد .

□ المناظرة في العقيدة الواسطية :

كان نصر المنبجي والقاضي ابن مخلوف وغيرهما قد تكلموا عند السلطان في مصر في عقيدة الشيخ ، وقد استعانوا بركن الدين بيبرس الجاشنكير ، وأرسل السلطان محمد بن قلاوون مرسومًا لنائب السلطنة الأفرم في دمشق لإحضار الشيخ وجماعة من الفقهاء والقضاة لذي نائب السلطة ليتناظروا في العقيدة .

وفي يوم الاثنين ثامن رجب سنة (٧٠٥) حضروا ، وكان من بين الحاضرين تقي الدين الهندي والشيخ كمال الدين ابن الزمكاني الذين ناظروا الشيخ ، وبعد ثلاث جلسات اتفق المجتمعون على قبول العقيدة الواسطية والرضا بما جاء فيها ، ويقول الشيخ : أما بعدُ ، فقد سُئلت غير مرة أن أكتب ما حضرني

(١) أحمد (٦/ ٩١، ٢٥٠) ، ويُنظر « سنن ابن ماجه » للألباني (١٩٩) .

(٢) أحمد (٦/ ٢٩٤، ٣١٥) ، والترمذي (٣٥٢٢) ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٤٨٠١) .

مما جرى في المجالس الثلاثة المعقودة للمناظرة في أمر الاعتقاد ، بمقتضى ما ورد من كتاب ذي السلطان من الديار المصرية إلى نائبه أمير البلاد لما سعي إليه قوم من الجهمية والاتحادية والرافضة وغيرهم من ذوي الأحقاد ، فأمر الأمير بجمع القضاة الأربعة قضاة المذاهب الأربعة وغيرهم من نوابهم والمفتنين والمشايخ ممن لهم حرمة ، وبهم اعتداد وهم لا يدرون ما قصد بجمعهم في هذا الميعاد ؛ وذلك يوم الاثنين ثامن رجب المبارك عام خمس وسبعمائة ؛ فقال لي : هذا المجلس عقد لك ؛ فقد ورد مرسوم السلطان بأن أسألك عن اعتقادك ، وعما كتبت به إلى الديار المصرية من الكتب التي تدعو بها الناس إلى الاعتقاد ، وأظنه قال : وإن أجمع القضاة والفقهاء ويتباحثون في ذلك . فقلت : أما الاعتقاد فلا يؤخذ عني ولا عمن هو أكبر مني ، بل يؤخذ عن الله ورسوله ﷺ ، وما أجمع عليه سلف الأمة ، فما كان في القرآن وجب اعتقاده ، وكذلك ما ثبت في الأحاديث الصحيحة مثل صحيح البخاري ومسلم إلى أن قال : ثم قلت للأمير والحاضرين : أنا أعلم أن أقوامًا يكذبون عليَّ كما قد كذبوا علي غير مرة ، وإن أمليت الاعتقاد من حفظي ربما يقولون كتم بعضه أو داهن وداري فأنا أحضر عقيدة مكتوبة من نحو سبع سنين قبل أن يجيء التتار إلى الشام ، وقلت بعد حضورها وقراءتها ما ذكرت فيها فصلًا إلا وفيه مخالف من المنتسبين إلى القبلة ، وكل جملة فيها خلاف لطائفة من الطوائف ، ثم أرسلت من أحضرها ومعه كراريس بخطي من المنزل ، فحضرت العقيدة الواسطية وقلت لهم : هذه كانت سبب كتابتها أنه قدم علي من أرض واسط بعض قضاة نواحيها شيخ يقال له : رضي الدين الواسطي من أصحاب الشافعي قدم علينا حاجًا ، وكان من أهل الخير والدين والعلم ، وسألني أن أكتب له عقيدة تكون عمدة له ولأهل بيته .

فاستعفيت من ذلك وقلت : قد كتب الناس عقائد متعددة ، فخذ بعض عقائد أئمة السنة فألح في السؤال وقال : ما أحب إلا عقيدة تكتبها أنت . فكتبت له هذه العقيدة ، وأنا قاعد بعد العصر وقد انتشرت بها نسخ كثيرة في مصر والعراق وغيرهما ، فأشار الأمير بألّا أقرأها أنا دفعًا للريبة وأعطاها لكاتبه الشيخ كمال الدين فقرأها على الحاضرين حرفًا حرفًا والجماعة الحاضرون يسمعونها ويورد المورد ما شاء ، ويعارض فيما شاء ، والأمير أيضًا سأل عن مواضع فيها . انتهى ما أردنا ذكره هنا .

وقد اقتطفنا من هذه المناظرات ما رأينا لذكره فائدة ، وذكرناها في مواضعها من الكتاب بحمد الله تعالى .

❁ قال الشيخ عبد العزيز الناصر الرشيد رحمه الله :

قوله : « ثُمَّ هُم » :

أي : أهل السنة والجماعة ، قوله : « مع هذه الأصول المتقدمة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » ، كما وصفهم الله بذلك فقال تعالى : ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة : ٧١] . وقال : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ

﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [آل عمران : ١١٠] . وقال تعالى : ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٤] . وفي « صحيح مسلم » والترمذي وغيرهما عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان »[1] . فما تقدم دليل على عظم شأن الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأنهما من أعظم الواجبات ، وأصل عظيم من أصول الشريعة ، ولولا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لهدم بنيان الشريعة وتداعى ، وعمت الفوضى وساءت البلاد ، نسأل الله العافية ، والأدلة على الحث على الأمر بالمعروف والترغيب فيه والوعيد الشديد في إهماله والتساهل فيه كثيرة جدًا . انتهى .

والمعروف : اسم جامع لكل ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح ، والمنكر : اسم جامع لكل ما يكرهه الله ونهى عنه . انتهى « اقتضاء الصراط المستقيم » ، وقد تطابق على وجوبهما الكتاب والسنة والإجماع ، وهما - أيضًا - من النصيحة ، ولم يخالف في ذلك إلا بعض الرافضة كما ذكره إمام الحرمين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية مختصان بأهل العلم والدين ، والذين يعرفون كون ما يأمرون به وما ينهون عنه من الدين ، فإن كان الذي علم بالمنكر واحد تعين عليه الإنكار ، أو كانوا جماعة ، لكن لا يحصل المقصود إلا بهم جميعًا تعين عليهم .

ويشترط في وجوب الإنكار : أن يأمن المنكر على نفسه وأهله وماله ، فإن خاف على نفسه السيف أو السوط أو النفي أو نحو ذلك من الأذى سقط عنه أمرهم ونهيهم ، فإن خاف السب أو سماع الكلام السيئ لم يسقط عنه الإنكار بذلك ، نص عليه أحمد ، فإن احتمل الأذى وقوي عليه فهو أفضل ، نص عليه أحمد - أيضًا - وقيل له : أليس قد جاء عن النبي ﷺ أنه قال : « ليس للمؤمن أن يذل نفسه »[2] . أي : يعرضها من البلاء ما لا طاقة له به ؟ قال : ليس هذا من ذلك .

وهل يجب إنكار المنكر على من علم أنه لا يقبل منه ؟ فيه روايتان عن أحمد ، وصحح القول بوجوبه ، وهو قول أكثر الصحابة كما ذكره ابن رجب ، والمنكر الذي يجب إنكاره ما كان مجمعًا عليه ، أما المختلف فيه فمن أصحابنا من قال : لا يجب إنكاره على من فعله مجتهدًا أو مقلدًا لمجتهد تقليدًا سابقًا ، واستثنى القاضي في الأحكام السلطانية ما ضعف فيه الخلاف ، ومراتب الإنكار ثلاث - كما تقدم - من حديث أبي سعيد ، وفيه دليل على أن إنكار المنكر يجب بحسب القدرة عليه ، وأن إنكاره بالقلب لا بد منه بخلاف الذي قبله ، وأفاد وجوب تغيير المنكر بكل طريق ، فلا يكفي الوعظ إن أمكنه

---

(١) مسلم (٤٩) ، والترمذي (٢١٧٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) الترمذي (٢٢٥٤) ، وابن ماجه (٤٠١٦) من حديث حذيفة رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٧٧٩٧) .

إزالة المنكر باليد، ولا يكفي بالقلب إذا أمكن باللسان.

قوله: «عَلَى مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ»:

أي: أنه يجب أن يكون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر متبصرًا عالمًا بما يأمر به، وأنه مطابق للأمر، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨]، قال الشيخ تقي الدين في «المنهاج»: ولا بد من العلم بالمعروف والمنكر والتمييز بينهما، ولا بد من العلم بحال المأمور والمنهي، ولا بد في ذلك من الرفق، ولا بد أن يكون حليمًا صبورًا على الأذى، فإنه لا بد أن يحصل له أذى، فإن لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح، فلا بد من هذه الثلاثة: العلم والرفق والصبر، العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه، والصبر بعده. اهـ. وقال سفيان الثوري: لا يأمر بالمعروف ولا ينهي عن المنكر إلا من كان فيه ثلاث خصال: رفيق بما ينهى، عدل فيما يأمر عدل فيما ينهى، عالم بما يأمر عالم بما ينهى. انتهى.

وقال ابن القيم رحمه الله في «الأعلام»: وقد شرع النبي ﷺ لأمته إيجاب إنكار المنكر؛ ليحصل بإنكاره ما يحبه الله ورسوله، فإذا كان المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله فإنه لا يسوغ إنكاره، وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله، وهذا كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم فإنه أساس كل شر وفتنة إلى آخر الدهر، وقد استأذن الصحابة رسول الله ﷺ في قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها، فقالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: «لا ما أقاموا الصلاة»[(١)]، وقال: «من رأى من أميره ما يكرهه، فليصبر ولا ينزعن يدًا من طاعة»[(٢)]. إلى أن قال: فإنكار المنكر أربع درجات:

الأولى: أن يزول ويخلفه ضده.

الثانية: أن يقل وإن لم يزل بجملته.

الثالثة: أن يخلفه ما هو مثله.

الرابعة: أن يخلفه ما هو شر منه.

فالدرجتان الأوليان مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرمة، فإذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج كان إنكارها عليهم من عدم الفقه والبصيرة إلا إذا نقلتهم منه إلى ما هو أحب إلى الله ورسوله، كرمي النشاب وسبق الخيل ونحو ذلك. انتهى ملخصًا، وقال بعضهم:

ومن أزال منكرا بأنكرا كغاسل الحيض ببول أغيرا

وقال النووي رحمه الله: ثم أنه ويأمر وينهى من كان عالمًا بما يأمر به وينهى عنه، وذلك يختلف باختلاف الشيء، فإن كان من الواجبات الظاهرة والمحرمات المشهورة، كالصلاة والصيام والزنا

---

(١) أحمد (٢٨/٣)، وأبو يعلى (١٣٠٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) مسلم (١٨٥٥)، وأحمد (٢٤/٦) من حديث عوف بن مالك الأشعري رضي الله عنه.

ونحوها فكل المسلمين علماء بها ، وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال وما يتعلق بالاجتهاد لم يكن للعوام مدخل فيه ولا لهم إنكار بل ذلك للعلماء . انتهى .

قوله : « ويرون » : أي : ويعتقدون ، ومن رآه وارتآه إذا اعتقده ، أي : من أصول أهل السنة والجماعة أن الصلاة التي تقيمها ولاة الأمور تُصلى خلفهم على أي حالة كانوا ، كما يحج معهم ويُغزى ، ولا يرون الخروج عليهم وقتالهم بالسيف إذا كان فيهم ظلم ، خلافًا للمبتدعة من الخوارج والمعتزلة ، والرافضة الذين يرون جواز الخروج على ولاة الأمور إذا فعلوا ما هو ظلم أو ما ظنوه هم ظلمًا ، ويرون ذلك من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقولهم باطل ترده أدلة الكتاب والسنة ، قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩] الآية ، وفي « الصحيحين » عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إنكم سترون بعدي أثرة وأمورًا تنكرونها » ، قالوا : فما تأمرنا ؟ قال : « تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم »(1) .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ، ومن يعص الأمير فقد عصاني »(2) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا : « الجهاد واجب عليكم مع كل أمير برًا كان أو فاجرًا »(3) . رواه أبو داود .

وفي الصحيح : « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر »(4) . وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : « إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع ، وإن كان عبدًا حبشيًا مجدع الأطراف »(5) .

وروى مسلم في « صحيحه » عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من خلع يدًا من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة الجاهلية »(6) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من خرج من الطاعة وفارق الجماعة ، ثم مات ميتة جاهلية »(7) . رواه مسلم ، وفي « الصحيحين » عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من رأى

---

(١) البخاري (٦٦٤٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) أحمد (٢/٢٥٢) ، وابن حبان (٤٥٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « ظلال الجنة » (١٠٦٥) .

(٣) أبو داود (٢٥٣٣) ، والدارقطني (٢/٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (٢٦٧٣) .

(٤) البخاري (٢٨٩٧) ، ومسلم (١١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٥) مسلم (٦٤٨) ، وأحمد (٥/١٦١) من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

(٦) مسلم (١٨٥١) ، وأحمد (٢/٨٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنه .

(٧) مسلم (١٨٤٨) ، والنسائي (٤١١٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

من أميره شيئًا يكرهه فليصبر عليه ، فإن خرج من السلطان شبرًا مات ميتة جاهلية »[(1)] . إلى غير ذلك من الأدلة الدالة على وجوب طاعة ولاة الأمور ، فإذا أمروا بطاعة الله وجبت طاعتهم ، وإذا أمروا بمعصية الله فلا سمع ولا طاعة ، كما في الصحيح أنه قال : « إنما الطاعة في المعروف »[(2)] . وصح عنه ﷺ أنه قال : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »[(3)] . إلى غير ذلك من الأدلة الدالة على الحث على السمع والطاعة لولاة الأمور ؛ إذا أمروا بطاعة الله ، فإن في طاعة ولاة الأمور من المنافع والمصالح ما لا يحصى ، ففيها سعادة الدين وانتظام مصالح العباد في معاشهم ويستعينون بها على إظهار دينهم وطاعة ربهم ، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إن الناس لا يصلحهم إلا إمام بر أو فاجر ، إن كان فاجرًا عبد المؤمن ربه ، وحمل الفاجر فيها إلى أجله .

وقال الحسن في الأمراء : هم يلون من أمورنا خمسًا : الجمعة والجماعة والعيد والثغور والحدود ، والله ما يستقيم الدين إلا بهم وإن جاروا أو ظلموا ، والله لما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون ، وروي : « ستون سنة مع إمام جائر خير من ليلة واحدة بلا إمام » . وروي أن عمرو بن العاص أوصى ابنه فقال : إمام عادل خير من مطر وابل ، وأسد حطوم خير من إمام ظلوم ، وإمام ظلوم غشوم خير من فتنة تدوم ، وقال عبد الله بن المبارك :

إن الخلافة حبل الله فاعتصموا ... منه بعروته الوثقى لمن كانا
كم يدفع الله بالسلطان معضلة ... عن ديننا رحمة منه ودنيانا
لولا الخلافة لم تأمن لنا سبيل ... وكان أضعفنا نهبًا لأقوانا

وأجمع العلماء على أنه يجب على المسلمين نصب خليفة ووجوبه في الشرع ، وأدلة ذلك كثيرة ، ونصبه يكون بأحد أمور : إما باستخلاف من قبله له ، كما فعل أبو بكر الصديق في استخلافه عمر رضي الله عنهما ، أو باتفاق أهل الحل والعقد على عقدها لصالح ، أو يجعلها شورى بين جماعة ، كما فعل عمر رضي الله عنه ، أو قهر الناس حتى دانوا له ودعوه ، أما ما قال أحمد في رواية عبدوس بن مالك العطار : ومن غلب عليهم بالسيف حتى صار خليفة ، وسمي أمير المؤمنين فلا يحل لأحد يؤمن بالله يبيت ولا يراه إمامًا برًا كان أو فاجرًا ، وقد أفردت أحكام الإمامة بمصنفات فارجع إليها .

قوله : « أَبْرَارًا كَانُوا أَوْ فُجَّارًا » :

* البر بكسر الباء أصله : التوسع فيفعل الخير ، وهو اسم جامع للخيرات كلها ويطلق على العمل

---

(1) مسلم (٦٦٤٦) ، ومسلم (١٨٤٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنه .

(2) البخاري (٦٧٢٦) ، ومسلم (١٨٤٠) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(3) أحمد (٥/٦٦) ، والطبراني (١٨/١٧٠) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٧٥٢٠) .

الصالح الدائم ، والفجور يطلق على الميل إلى الفساد والانبعاث في المعاصي ، وهو اسم جامع للشر ، فتجب طاعة ولاة الأمور في الطاعة ، وتحرم مخالفتهم والخروج عليهم ، سواء كانوا أبرارًا أو فجارًا ، فلا ينعزل الإمام بالفسق والظلم وتعطيل الحقوق ، ولا يخلع ، ولا يجوز الخروج عليه ، بل يجب وعظه ؛ وذلك لما يترتب على ذلك من الفتن وإراقة الدماء وفساد ذات البين ، فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقائه ، والشريعة جاءت بجلب المصالح ودفع المضار .

قال الشيخ تقي الدين كَلَلهُ : ولعله لا يكاد يعرف طائفة خرجت على ذي سلطان إلا وكان في خروجها من الفساد أكثر من الذي في إزالته ، وقال - أيضًا - في أثناء كلام له : ونهى الرسول ﷺ عن قتال أئمة الجور ، وأمر بالصبر على جورهم ونهى عن القتال في الفتنة ، فأهل البدع من الخوارج والشيعة والمعتزلة وغيرهم ، يرون قتلهم والخروج عليهم إذا فعلوا ما هو ظلم أو ظنوه هم ظلمًا ، ويرون ذلك من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . اهـ .

وقال النووي كَلَلهُ في « شرح مسلم » : وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين ، وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته ، وأجمع أهل السنة على أن الإمام لا ينعزل بالفسق ، وقال العلماء : وسبب عدم انعزاله وتحريم الخروج عليه ما يترتب على ذلك من الفتنة وإراقة الدماء وإفساد ذات البين ، فتكون المفسدة أكثر من المفسدة في بقائه . انتهى .

قوله : « وَيُحَافِظُونَ عَلَى الجَمْعِ الْجَمَاعَاتِ » :

* لأنها من أوكد العبادات ومن أجلّ الطاعات ومن أعظم شعائر الإسلام الظاهرة ، وقد تكاثرت الأدلة في الحث علي حضور الجمع والجماعات والترغيب في ذلك ، وتحريم التخلف عنهما إلا لعذر ، هذا ما عليه أهل السنة خلافًا للمبتدعة من الرافضة وغيرهم الذين لا يرون الجهاد ولا حضور الجماعة إلا مع الإمام المعصوم ، وإمامهم هذا الذي يزعمون هو معدوم ، وهم ينتظرونه من مدة طويلة ، ولم يقفوا له على عين ولا أثر ، إن هي إلا مجرد أوهام وأماني وظنون كاذبة ، وأن الظن لا يغني عن الحق شيئًا ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة : ١١١] .

قال الشيخ تقي الدين كَلَلهُ : ومن ظن أن صلاته وحده أفضل من أجل خلوته أو غير ذلك فهو مخطئ ضال ، وأضل منه من لم يرى الجماعة إلا خلف معصوم فعطّل المساجد وعمّر المشاهد . انتهى . وصلاة الجماعة فرض عين ، وهذا هو المشهور عن أحمد وغيره من أئمة السلف وعلماء الحديث ، وقال بعض العلماء : إن صلاة الجماعة شرط لحديث : « لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد »[1] . واختاره الشيخ تقي الدين وابن عقيل وغيرهم ، وقال الشيخ تقي الدين كَلَلهُ : ومن قال : لا تجوز خلف من لا

---

(١) الحاكم (٩٨٩) ، والدارقطني (١/ ٤٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (٦٢٩٧) .

تعرف عقيدته ، وما هو عليه فهو قول لم يقله أحد من المسلمين ، فإن أهل الحديث والسنة كالشافعي وأحمد وإسحاق وغيرهم متفقون على أن صلاة الجمعة تصلى خلف البر والفاجر ، حتى إن أكثر أهل البدع كالجهمية الذين يقولون بخلق القرآن ، وأن اللَّه لا يرى في الآخرة ، ومع أن أحمد ابتلى بهم وهو أشهر الأئمة بالإمامة في السنة ، ومع هذا لم تختلف نصوصه إنه تصلى الجمعة خلف الجهمي والقدري والرافضي ، وليس لأحد أن يدع الجمعة لبدعة في الإمام ، لكن تنازعوا هل تعاد ؟ على قولين : هما روايتان عن الإمام أحمد ، قيل : تعاد خلف الفاسق ، ومذهب الشافعي وأبي حنيفة : لا تعاد . ا.هـ .

وهذا هو الصحيح فإن الصحابة كانوا يصلون الجمعة والجماعة خلف الأئمة والفجار ولا يعيدون ، كما كان عبد اللَّه بن عمر يصلي خلف الحجاج بن يوسف ، وكذلك أنس ، وكذلك عبد اللَّه بن مسعود ﷺ ، وغيرهم يصلون خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيط وكان يشرب الخمر .

وأخرج الدارقطني من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا : « صلوا خلف كل بر وفاجر »[1] . وقال : لم يلق مكحول أبا هريرة ، وفي إسناده معاوية بن صالح متكلم فيه ، وقد احتج به مسلم في « صحيحه » ، وخرج الدارقطني - أيضًا - وأبو داود عن مكحول عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « الصلاة واجبة عليكم مع كل مسلم برًا كان أو فاجرًا ، وإن عمل بالكبائر ، والجهاد واجب عليكم مع كل أمير برًا كان أو فاجرًا وإن عمل بالكبائر »[2] . انتهى .

قوله : « وَيَدِينُونَ بِالنَّصِيحَةِ للأُمَّةِ ...» :

* « وَيَدِينُونَ » ؛ أي : يتعبدون ، يقال : دان بالإسلام دينًا بالكسر : تعبد به وتدين به كذلك ، أي : أن أهل السنة يدينون : أي : يتعبدون بالنصيحة لجميع الأمة ، كما تكاثرت الأخبار في الحث عليها والترغيب فيها ؛ ولأن عليها مدار الدين ، كما في « الصحيحين » من حديث تميم الداري أن رسول اللَّه ﷺ قال : « الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، الدين النصيحة » . قالها ثلاثًا ، قلنا : لمن يا رسول اللَّه ؟ قال : « للَّه ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم »[3] . فقد حصر الدين فيها .

قال الخطابي : النصيحة كلمة جامعة معناها : حيازة الحظ للمنصوح له ، وقال ابن بطال : والنصيحة تسمى دينًا وإسلامًا ، والدين يقع على العمل كما يقع على القول ، وقال : وهي فرض كفاية يجزئ فيه من قام به ويسقط عن الباقين ، وقال : والنصيحة لازمة على قدر الطاقة إذا علم الناصح أنه يقبل منه وأمن على نفسه المكروه ، فإن خشي على نفسه أذى فهو في سعة . انتهى .

---

(١) الدارقطني (٢/٥٧) ، والبيهقي (٤/١٩) من حديث أبي هريرة ﷺ ، وضعفه الألباني في الإرواء (٥٢٠) .

(٢) أبو داود (٢٥٣٢) ، والدارقطني (٢/٥٦) من حديث أبي هريرة ﷺ ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (٢٦٧٣) .

(٣) مسلم (٥٥) ، وأبو داود (٤٩٤٤) من حديث تميم الداري ﷺ .

وأخرج الطبراني من حديث حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ أنه قال: «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، ومن لم يمس ويصبح ناصحًا لله ولرسوله ولكتابه ولإمامه ولعامة المسلمين فليس منهم»[1]. قال الخطابي: فمعنى النصيحة لله: صحة الاعتقاد في وحدانيته وإخلاص النية في عبادته، والنصيحة لكتابه: الإيمان به والعمل بما فيه، والنصيحة لرسوله: التصديق بنبوته وبذل الطاعة فيما أمر به ونهى، والنصيحة لعامة المسلمين: إرشادهم إلى مصالحهم.

وفي «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حق المؤمن على المؤمن ست». فذكر منها: «وإذا استنصحك فانصح له»[2]. وفي «المسند» عن حكيم بن أبي يزيد عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «إذا استنصح أحدكم أخاه فلينصح له»[3].

قوله: «ويعتقدون معنى قوله ﷺ: المؤمن للمؤمن ...» إلخ. هذا الحديث رواه البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري. أي: المؤمن الإيمان الكامل، في هذا الحديث الحث على التناصر والتناصح والتعاون، وقد تكاثرت الأحاديث بمعنى هذا الحديث، وقال القاضي رحمه الله: هو تمثيل وتقريب للفهم يريد الحث على التعاون والتناصر، فيجب امتثال ما حث عليه، وقال ابن بطال: والمعاونة في أمور الآخرة، وكذا في الأمور المباحة من الدنيا مندوب إليها، وقد ثبت في حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»[4].

قوله: «وشبك بين أصابعه»: يستفاد منه أن الذي يريد المبالغة في بيان أقواله يمثلها في حركاته، وليكون أوقع في النفس. ذكره في «الفتح».

قوله: «مثل المؤمن»: هذا الحديث أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث النعمان بن بشير، وفي رواية لمسلم: «المسلمون كرجل واحد إذا اشتكى عينه اشتكى كله، وإذا اشتكى رأسه اشتكى كله»[5]. والمراد بـ «المؤمن» الإيمان الكامل.

قوله: «كمثل الجسد الواحد»: أي: بالنسبة على جميع أعضائه، ووجه التشبيه فيه التوافق في التعب والراحة.

قوله: «في توادهم»: بتشديد الدال: مصدر توادد، أي: تحابب، وتراحمهم، أي: تلاطفهم.

---

(١) الطبراني (٧٤٧٣) من حديث حذيفة رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٣١٠).

(٢) مسلم (٢١٦٢)، وأحمد (٢/٣٧٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أحمد(٣/٤١٨)، والطحاوي في شرح معاني الآثار(٥١٠٩) من حديث حكيم بن أبي يزيد عن أبيه، وحسنه الألباني في «غاية المرام» (٣٣٣).

(٤) مسلم (٢٦٩٩)، وأبو داود (٤٩٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) مسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

قوله : « تعاطفهم » : عطف بعضهم على بعض .

قوله : « إذا اشتكى » : أي : تألم عضو من أعضاء جسده ، « تداعى » أي : دعا بعضه بعضًا إلى المشاركة في الألم .

قوله : « سائر » ؛ أي : باقي ، « والحمى » هي المرض المعروف ، « والسهر » عدم النوم في الليل ، قاله « القاموس » ، فهذان الحديثان دلا على أن من صفات المؤمنين التعاطف فيما بينهم والتراحم ومحبة بعضهم لبعض الخير ، وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « المؤمن مرآة المؤمن ، المؤمن أخو المؤمن يكف عنه ضيعته ويحوطه من ورائه »[1] . رواه أبو داود وخرجه الترمذي بلفظ : « إن أحدكم مرآة أخيه ، فمن رأى به أذى فليمطه عنه »[2] . وفيهما دليل على أن المؤمن يسره ما يسر أخاه المؤمن ، ويسوءه ما يسوؤه ، ويحب له ما يحب لنفسه من الخير ، وهذا كله مما يدل على سلامة القلب من الغش والحسد والحقد ، وفيها أن من صفات المؤمنين الاجتماع والاتفاق والتعاضد ومساندة بعضهم لبعض في غير إثم ولا مكروه ، قال النووي رحمه الله : هذه الأحاديث صريحة في تعظيم حقوق المسلمين بعضهم على بعض ، وحثهم على التراحم والملاطفة والتعاضد في غير إثم ولا مكروه ، وفيه جواز التشبيه وضرب الأمثال لتقريب المعاني إلى الأفهام .

قوله : « وَيَأْمُرُونَ بِالصَّبْرِ عَلَى الْبَلاءِ ... » :

* « وَيَأْمُرُونَ » : الأمر استدعاء الفعل بالقول على وجه الاستعلاء ، قال بعضهم :

أمر مع استعلاء وعكسه دعا ... وفي التساوي فالتماس وقعا

وهذه الثلاثة المذكورة في المتن من صفات المؤمنين ، وهي عنوان السعادة وعلامة الفلاح ، أخرج الطبراني بسند حسن عن سنجرة مرفوعًا : « من أعطى فشكر وابتلى فصبر وظلم فاستغفر وظلم ، فنفر أولئك لهم الأمن وهم مهتدون »[3] ، والصبر معناه لغة : الحبس ، قال ابن القيم رحمه الله : هو حبس النفس عن الجزع ، وحبس اللسان عن التشكي والتسخط ، وحبس الجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ، وقد تكاثرت الأدلة في الأمر بالصبر والحث عليه ، قال تعالى : ﴿وَبَشِّرِ الصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة : ١٥٥] . وقال : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر : ١٠] . وقال النبي ﷺ : « الصبر ضياء »[4] . وقال علي رضي الله عنه : « إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ثم رفع صوته فقال : ألا إنه لا

---

(١) أبو داود (٤٩١٨) ، والبيهقي في الشعب (٧٦٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » (٦٦٥٦) .

(٢) الترمذي (١٩٢٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (١٣٧١) .

(٣) الطبراني (١٣٨/٧) من حديث سخبرة رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في « ضعيف الترغيب والترهيب » (١٩٨٤) .

(٤) مسلم (٢٢٣) ، والترمذي (٣٥١٧) .

إيمان لمن لا صبر له ». وقد تقدم الكلام في الصبر فلا نطيل بإعادته.

أما الرضا فهو من أجلِّ الطاعات وأشرف منازل السائرين إلى الله سبحانه، وهو مستحب بالإجماع، وقال بعض العلماء بوجوبه لقوله ﷺ: « فمن أرضى الله فله الرضا، ومن سخط فعليه السخط »[(١)]. والأدلة على فضله والحث عليه كثيرة جدًّا، قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾ [التغابن: ١١]. وكان من دعاء النبي ﷺ: « وأسألك الرضا بعد القضاء »[(٢)]. وجاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله أن يوصيه وصية جامعة موجزة، فقال: « لا تتهم الله في قضائه »[(٣)]، وفي « صحيح مسلم » عن العباس بن عبد المطلب عن النبي ﷺ قال: « ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا »[(٤)]. فالرضا بربوبيته يتضمن الرضا بعبادته وحده لا شريك له، والرضا بتدبيره للعبد واختياره له، وقد تقدم الكلام على الرضا على قوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ﴾ [البينة: ٨]، والشكر هو فعل ينبئ عن تعظيم المنعم لكونه منعمًا، وهو شرعًا: صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه لما خلق لأجله، ويتعلق بالقلب واللسان والجوارح كما قيل:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

والشكر من أجلِّ الطاعات وأفضلها، ومن أشرف منازل السائرين إلى الله وأرفعها وهو مؤذن بالمزيد، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْۖ﴾ [إبراهيم: ٧]. قال ابن القيم رحمه الله: منزلة الشكر أعلى المنازل وهو فوق منزلة الرضا، فالرضا مندرج في الشكر؛ إذ يستحيل وجود الشكر بدونه وهو نصف الإيمان، والإيمان نصفان: نصف شكر ونصف صبر، إلى أن قال: وأهله هم القليل، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]. وقال: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]. انتهى. والتحدث بالنعمة شكر كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، وأما حكم الشكر فواجب لما تقدم، وهو مبني على ثلاثة أركان: التحدث بالنعمة ظاهرًا، والاعتراف بها باطنًا، وصرفها في طاعة موليها ومسديها وهو الله. ذكره ابن القيم بتصرف.

قوله: « وَيَدْعُونَ إِلَى مَكَارِمِ الأَخْلاقِ ...»:

* المكارم: جمع مكرمة بضم الراء، وهي من الكرم، وكل فائق في بابه يقال له: كريم.

---

(١) الترمذي (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠٣١) من حديث أنس رضي الله عنه، وحسنه الألباني في « ضعيف الجامع » (٢١١٠).

(٢) النسائي (١٣٠٥)، وابن حبان (١٩٧١) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه، وصححه الألباني في « الاحتجاج بالقدر » (ص٩٠).

(٣) أحمد (٥/٣١٨)، والبيهقي في الشعب (٩٧١٤) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وحسنه الألباني في « صحيح الترغيب والترهيب » (١٣٠٧).

(٤) مسلم (٣٤)، والترمذي (٢٦٢٣) من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

قوله : « ومحاسن الأعمال » : أي : جميلها ، وقال الراغب : الحسن : عبارة عن كل مرغوب فيه ، أي : أن أهل السنة والجماعة يحثون ويرغبون في مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، كالكرم والشجاعة والصدق والأمانة ونحو ذلك لما تكاثرت به الأدلة من الحث على ذلك والترغيب فيه ، وأن ذلك من صفات المؤمنين بل من أخص علامات الإيمان ، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا : « خصلتان لا يجتمعان في منافق : حسن سمت ، وفقه في الدين »[١]. ورواه الترمذي ، قال تعالى في نبيه : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. قالت عائشة رضي الله عنها : كان خلقه القرآن يأتمر بأوامره ، وينزجر عن زواجره ، ويرضى لرضاه ، ويغضب لغضبه ، أي : كان متمسكًا بآدابه وأوامره ونواهيه ، وما يشتمل عليه من المكارم والمحاسن والألطاف ، قال ابن القيم رحمه الله في « المدارج » : وقد جمع الله له مكارم الأخلاق في قوله : ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف : ١٩٩] . قال جعفر بن محمد : أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق ، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية . انتهى .

وفي الصحيح أن أبا ذر رضي الله عنه قال لأخيه لما بلغه مبعث النبي ﷺ : اركب إلى هذا الوادي فاسمع من قوله . فرجع فقال : رأيته يأمر بمكارم الأخلاق[٢]. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[٣]. رواه أحمد والبزار ، ورواه مالك في « الموطأ » ، ولفظه قال : بلغني أن رسول الله ﷺ قال : « بعثت لأتمم حسن الأخلاق »[٤]. قال القرطبي في « المفهم » : الأخلاق أوصاف الإنسان التي يعامل فيها غيره ، وهي محمودة ومذمومة ، فالمحمودة على الإجمال أن تكون مع غيرك على نفسك ، فتنصف منها ولا تنصف لها ، وعلى التفصيل : العفو ، والحلم ، والجود ، والصبر ، وتحمل الأذى ، والرحمة ، والشفقة ، وقضاء الحوائج ، ونحو ذلك ، والمذموم ضد ذلك . انتهى .

وقال الحسن : حقيقة حسن الخلق : بذل المعروف ، وكف الأذى ، وطلاقة الوجه . رواه الترمذي عن عبد الله بن المبارك .

قال ابن القيم رحمه الله في الـ « مدارج » : الدين كله خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين ، وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان : الصبر ، والعفة ، والشجاعة ، والعدل ، فالصبر يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ والحلم والأناة والرفق وعدم الطيش ، والعفة تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل ، والشجاعة تحمله على عزة النفس وقوتها على إخراج المحبوب وتحمله على كظم

---

(١) الترمذي (٢٦٨٤) ، والطبراني في الأوسط (٨٠١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٣٢٢٩) .

(٢) البخاري (٣٦٤٨) ، ومسلم (٢٤٧٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) تقدم تخريجه .

(٤) مالك في الموطأ (١٦٠٩) .

الغيظ والحلم ، والعدل يحمله على اعتدال أخلاقه وتوسطه بين طرفي الإفراط والتفريط ، فمنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة ، ومنشأ جميع الأخلاق السافلة وبناؤها على أربعة أركان : الجهل ، والظلم ، والشهوة ، والغضب . انتهى .

قوله : « وَيَعْتقدُونَ مَعْنَى قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ : « أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا ...إلخ » :

* هذا الحديث رواه أحمد والترمذي وقال : حسن صحيح من حديث أبي هريرة . وتمامه : « وخياركم خياركم لنسائهم »[(١)] . واقتصر أبو داود على قوله : « أكمل المؤمن إيمانًا أحسنهم خلقًا » ، وأخرجه أبو يعلى عن أنس ، فهذا الحديث كغيره فيه : الحث على حسن الخلق ، وإنه من صفات المؤمنين ، فحُسن الخلق هو احتياز الفضائل واجتناب الرذائل ، وقال النووي ﷺ : حسن الخلق كلمة جامعة للإحسان إلى الناس وكف الأذى عنهم . انتهى . وتقدم كلام الحسن في حقيقة حسن الخلق .

والخلق بالضم : صورة الإنسان الباطنة ، وبالفتح صورته الظاهرة ، وقد تكاثرت الأحاديث في مدح حسن الخلق وذم سوء الخلق ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا أنه سئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال : « تقوى الله وحُسن الخلق »[(٢)] . رواه جماعة منهم الترمذي وصححه ، ولأبي داود من حديث عائشة مرفوعًا : « إن الرجل ليبلغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم »[(٣)] . وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، ولكن سعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق »[(٤)] . أخرجه أبو يعلى وصححه الحاكم .

وأخبر النبي ﷺ : « أن حسن الخلق أثقل ما يوضع في الميزان ، وأن صاحبه أحب الناس إلى الله وأقربهم من النبيين مجلسًا »[(٥)] . فخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي من حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « ما من شيء يوضع في ميزان العبد أثقل من حسن الخلق ، وأن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة »[(٦)] .

---

(١) أبو داود (٤٦٨٢) ، والترمذي (١١٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (١٢٣٠) .

(٢) الترمذي (٢٠٠٤) ، وأحمد (٢/٤٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وحسنه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (٩٧٧) .

(٣) أبو داود (٤٧٩٨) ، وأحمد (٦/٦٤) من حديث عائشة رضي الله عنها ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (١٦٢٠) .

(٤) أبو يعلى (٦٥٥٠) ، وابن أبي شيبة (٥/٢١٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وحسنه الألباني في « صحيح الترغيب والترهيب » (٢٦٦١) .

(٥) ابن حبان (٤٨٦) من حديث أسامة بن شريك رضي الله عنه .

(٦) الترمذي (٢٠٠٣) ، وأبو داود (٤٧٩٩) ، وأحمد (٦/٤٤٢) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٥٧٢٦) .

وأخرج ابن حبان في «صحيحه» من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ: «ألا أخبركم بأحبكم إلى الله، وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة؟». قالوا: بلى. قال: «أحسنكم أخلاقًا»[1]. انتهى

وفي الحديث المذكور فوائد؛ منها: مدح حسن الخلق والثناء على أهله، والحث على التخلق بأحسن الأخلاق، وفيه: أن حسن الخلق من خصال الإيمان، وفيه: دليل على أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، وفيه: تفاضل الناس في الإيمان والرد على من زعم أن الإيمان لا يتفاضل وأن الناس فيه سواء.

قوله: «وَيَنْدُبُونَ إِلَى أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ ...»:

* أي: يدعون ويحثون ويرغبون في صلة من قطعك، والندب لغةً: الدعاء، والمنتدب: المدعو، كما قيل:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانًا

واصطلاحًا المندوب: هو ما أثيب فاعله ولم يعاقب تاركه، ويسمى المندوب: سنةً، وتطوعًا، ومستحبًا ونفلًا ومرغبًا فيه وإحسانًا، أي: أن أهل السنة يندبون إلى أن تصل من قطعك إلخ، لما روى الإمام أحمد في «مسنده» من حديث معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الفضائل أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتصفح عمن شتمك»[2].

وخرج الحاكم من حديث عقبة بن عامر الجهني قال: قال رسول الله ﷺ: «يا عقبة، ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة؛ تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك»[3].

وروي أن جبريل قال للنبي ﷺ حين نزل: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، قال في تفسير ذلك: أن تعفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك، وتعطي من حرمك.

قوله: «تعفو عمن ظلمك». العفو هو: الصفح والتجاوز عن الذنب، أي: تصفح عمن ظلمك وتتجاوز عن ذنبه ولا تؤاخذه بما نال منك؛ فإن ذلك من خصال الإيمان، وسبب للرفعة والعزة، كما روى ابن عمر مرفوعًا: «ابتغوا الرفعة عند الله، تحلم عمن جهل عليك وتعطى من حرمك»[4]. أخرجه ابن عدي. وعن أنس الجهني عن أبيه: أن رسول الله ﷺ قال: «من كظم غيظًا، وهو يستطيع أن ينفذه

---

(١) أحمد (٢/١٨٥)، وابن حبان (٤٨٥) من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٦٥٠).

(٢) أحمد (٣/٤٣٨)، والطبراني (٢٠/١٨٨) من حديث معاذ بن أنس رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (١٤٩٧).

(٣) أحمد (٤/١٤٨)، والحاكم (٧٢٨٥) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٥٣٦).

(٤) ابن عدي (٧/٩٦٩ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، ويُنظر: «ضعيف الجامع» (٣٢)، و«السلسلة الضعيفة» (١٥٧٥).

دعاه الله على رءوس الخلائق حتى يخيره في أي الحور شاء »[1] . رواه أبو داود والترمذي .

قوله : « وتصل من قطعك » : أي : تصل رحمك وإن قطعك ، كما في الصحيح : « ليس الواصل بالمكافئ ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها »[2] . وروى عبد الرازق عن عمر موقوفًا : « ليس الواصل أن تصل من وصلك ذلك القصاص ، ولكن الوصل أن تصل من قطعك »[3] . وفي حديث أبي ذر : « وأوصاني أن أصل رحمي وإن أدبرت »[4] .

قوله : « وتعطي من حرمك » : أي : منعك ما هو لك ؛ لأن مقام الإحسان إلى المسيء ومقابلة إساءته بإحسان من كمال الإيمان .

قال الشيخ تقي الدين رحمه الله : وجماع حسن الخلق مع الناس أن تصل من قطعك بالسلام والإكرام والدعاء له والاستغفار والثناء عليه والزيارة له ، وتعطي من حرمك من التعليم والمنفعة والمال ، وتعفو عمن ظلمك في دم أو مال أو عرض ، وبعض هذا واجب وبعضه مستحب . انتهى . ففي هذه الأحاديث الحث على العفو والصفح ، وأن ذلك من أفضل الأعمال وأشرف الأخلاق ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران : ١٣٤] . وقال : ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى : ٣٧] .

وروى الحاكم من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعًا : « إن الله عفو يحب العفو »[5] . وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه »[6] . أخرجه مسلم ، وفيها الحث على الصلة للأقارب والأرحام ، وإن عاملوك بالقطيعة ، فلا تقطع عنهم الصلة مجازاةً لهم للأدلة الحاثة على ذلك ، والمصرحة بتحريم القطيعة ، وأنها من كبائر الذنوب ، وأن هذا من أشرف أخلاق المؤمن .

قوله : « وَيأْمُرُونَ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ » :

* أي : طاعتهما والإحسان إليهما بما لا يخالف الشرع وخفض الجناح لهما والشفقة عليهما والتلطيف بهما ؛ وذلك لعظم حقهما ؛ ولذلك قرن - سبحانه - حقه بحقهما ، قال الله تعالى : ﴿وَقَضَىٰ

---

(١) أبو داود (٤٧٧٧) ، والترمذي (٢٠٢١) من حديث معاذ بن أنس رضي الله عنه ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » (٦٥٢٢) .

(٢) البخاري (٥٦٤٥) من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما .

(٣) عبد الرزاق (١٠/٤٣٨) موقوفًا على عمر رضي الله عنه .

(٤) أحمد (٥/١٧٣) ، وابن حبان (٤٤٩) من حديث أبي ذر رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (٢١٦٦) .

(٥) الحاكم (٨١٥٥) ، وعبد الرزاق (٧/٣٧٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، وحسنه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (١٦٣٨) .

(٦) مسلم (٢٥٨٨) ، والترمذي (٢٠٢٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. وقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤].

وفي «الصحيحين» من حديث عبد الله بن مسعود أنه قال: قلت: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: «الصلاة في أول وقتها». قال: قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله». قال: قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين»[١]. والبر بكسر الراء: هو التوسع في فعل الخير.

وروى الإمام أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «رغم أنف ثم رغم أنف رجل أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة»[٢].

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأكبر الكبائر»؟ قال: قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «الإشراك بالله وحده، وعقوق الوالدين». وكان متكئًا، ثم جلس فقال: «ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور»[٣]. فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت. رواه البخاري ومسلم.

قوله ﷺ: «وعقوق الوالدين»: قال العلقمي: يقال: عق والده عقوقًا فهو عاق؛ إذا آذاه وعصاه وخرج عليه، وهو ضد البر بهما، والآيات والأحاديث في الأمر ببر الوالدين وتحريم عقوقهما كثيرة جدًّا.

قوله: «وَصِلَةِ الأَرْحَام»:

* أي: الإحسان إلى الأقربين من ذوي النسب والأصهار والتعطف عليهم والرفق بهم ورعاية أحوالهم، وضد ذلك قطيعة الرحم، والأرحام: جمع رحم وهو من المرأة الفرج. قال الراغب: ومنه استعير الرحم للقرابة لكونهم خارجين من رحم واحدة، وصلة الأرحام واجبة وقطيعتها حرام، والأدلة من الكتاب والسنة تشهد لذلك، قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣]. وفي هذه الآية وأشباهها أعظم وعيد في قطيعة الرحم، وفيها أصرح دلالة على حرمة قطيعة الرحم، وأنها كبيرة من الكبائر.

وفي «الصحيحين» من حديث جبير بن مطعم عن أبيه مرفوعًا: «لا يدخل الجنة قاطع»[٤]. يعني: قاطع رحم. انتهى. والقطيعة: الهجر والصد، والرحم: الأقارب كما تقدم.

---

(١) البخاري (٥٠٤)، ومسلم (٨٥) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أحمد (٢/٣٤٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٥١٠).

(٣) البخاري (٢٥١١)، ومسلم (٨٧) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٤) البخاري (٦٥٣٨)، ومسلم (٢٥٥٦) من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.

وفي « الصحيحين » عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « من أحب أن يبسط له في رزقه ، وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه »[1] . يقال : وصل رحمه يصلها وصلًا كأنه بالإحسان إليهم وصل ما بينه وبينهم من علاقة القرابة . قال في « فتح الباري » : قال القرطبي : الرحم التي توصل خاصة وعامة ، فالعامة رحم الدين ، وتجب مواصلتها بالتودد والتناصح والعدل والإنصاف والقيام بالحقوق الواجبة والمستحبة ، وأما الرحم الخاصة فبمزيد النفقة على القريب وتفقد أحوالهم والتغافل عن زلاتهم ، وتتفاوت مراتب استحقاقهم في ذلك . انتهى .

قوله : « وَحُسْنِ الْجِوَارِ » :

* بإيصال ضروب الإحسان إليهم بحسب الطاقة ، كالهدية والسلام وطلاقة الوجه عند لقائه ومعاونته فيما يحتاج إليه ، إلى غير ذلك ، وكف أسباب الأذى عنه على اختلاف أنواعه ، وقد تكاثرت الأدلة في تعظيم حق الجار ، وأن حفظ الجار من كمال الإيمان ومن أعظم مكارم الأخلاق ، قال تعالى : ﴿وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ [النساء : ٣٦] .

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره »[2] .

وفي « الصحيحين » عن عائشة رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه »[3] .

وأخرج الترمذي بسند صحيح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره »[4] ، وفي « صحيح البخاري » عن أبي شريح عن النبي ﷺ قال : « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن » . قيل : من يا رسول الله ﷺ ؟ قال : « من لا يأمن جاره بوائقه »[5] . إلى غير ذلك من الأدلة الدالة على عظم حق الجار والحث على إكرامه واحتمال أذاه ، وأن ذلك من صفات المؤمن ، وفيه النهي عن أذى الجار والدلالة على تحريمه ، وأنه من كبائر الذنوب ، فإن الأذى بغير حق حرام لكل أحد ، ولكن في حق الجار أشد تحريمًا ، كما في « الصحيحين » من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ : أي الذنب

---

(١) البخاري (١٩٦١) ، ومسلم (٢٥٥٧) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) البخاري (٥٦٧٢) ، ومسلم (٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) البخاري (٥٦٦٩) ، ومسلم (٢٦٢٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٤) الترمذي (١٩٤٤) ، وأحمد (١٦٧/٢) من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٣٢٧٠) .

(٥) البخاري (٥٦٧٠) ، ومسلم (٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله ندًا وهو خلقك » . قال : قلت : ثم أي ؟ قال : « أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك » . قال : قلت : ثم أي ؟ قال : « أن تزاني حليلة جارك »[١] . والجار له مراتب بعضها أعلى من بعض ، فيعطى كل بحسب حاله ، كما وردت الإشارة إلى ذلك في الحديث المرفوع الذي أخرجه الطبراني من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعًا : « الجيران ثلاثة : جار له حق واحد وهو المشرك له حق الجوار ، وجار له حقان وهو المسلم له حق الجوار وحق الإسلام ، وجار له ثلاثة حقوق وهو المسلم القريب له حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم »[٢] .

وقال النووي وغيره : الجار يقع على أربعة : الساكن معك في البيت ، قال الشاعر :

أجارتنا في البيت إنك طالق

ويقع على من لاصق بيتك ، ويقع على أربعين دارًا من كل جانب ، ويقع على الساكن في البلد ، قال الله تعالى : ﴿لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب : ٦٠] .

قوله : « وَالإِحْسانِ إِلَى الْيَتَامَى » :

* اليتيم لغةً : المنفرد ، وشرعًا : من مات أبوه قبل بلوغه ، والإحسان إلى اليتامى : رعاية أحوالهم ، والتلطف بهم ، وإكرامهم ، والشفقة عليهم ، وفيه فضل عظيم ، كما في « الصحيحين » من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا » . وقال بأصبعيه السبابة والوسطى[٣] ، وفي حديث آخر : « من مسح على رأس يتيم ولم يمسح إلا لله كان له الجنة كهاتين »[٤] . وقرن بين أصبعيه ، وروي أنه ﷺ قال : « إذا أردت أن يلين قلبك ؛ فأطعم المسكين وامسح على رأس اليتيم »[٥] .

قوله : « وَالْمَساكِينِ » :

* جمع مسكين وهو الذي يركبه ذل الفاقة والفقر فتمسكن لذلك ، وإذا أطلق المسكين دخل فيه الفقير وبالعكس ، وإذا ذكرا معًا فسر كل واحد منهما بتفسير ، كالإسلام والإيمان إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا ، والفقير في الاصطلاح : من وجد أقل من نصف كفايته أو لم يجد شيئًا أصلًا ، والمسكين من وجد نصف كفايته فأكثر ، فالفقير أشد حاجة من المسكين عندنا ، خلافًا لأبي حنيفة ومالك ،

---

(١) البخاري (٤٢٠٧) ، ومسلم (٨٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) الطبراني في « مسند الشاميين » (٢٤٥٨) من حديث جابر رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (٢٦٧٤) .

(٣) البخاري (٤٩٩٨) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه .

(٤) أحمد (٥/٢٥٠) ، والطبراني (٨/٢٠٢) ، وضعفه الألباني في « ضعيف الترغيب والترهيب » (١٥١٣) .

(٥) عبد الرزاق (١١/٩٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٧/٤٧٢) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٨٠) .

والمراد بالإحسان إلى المسكين: رعاية أحوالهم وتقريبهم والتلطف بهم وإكرامهم، قال تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [النساء: ٣٦]. وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله». وأحسبه قال - يشك القعنبي -: «كالقائم لا يفتر، والصائم لا يفطر»[١]. رواه البخاري ومسلم.

قوله: «وَابْنِ السَّبِيلِ»:

* وهو المسافر المنقطع به، والسبيل: الطريق، وسمي بذلك لملازمته السفر، كما يقال: ابن الليل، لمن يكثر الخروج في الليل، وقال بعض العلماء: المراد بابن السبيل: الضيف يمر بك فتكرمه وتحسن ضيافته. وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»[٢]. وفيهما عن أبي شريح العدوي قال: سمعت رسول الله ﷺ أذناي وأبصرت عيناي حين تكلم النبي ﷺ فقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته». قالوا: وما جائزته؟ قال: «يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، وما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»[٣].

قوله: «وَالرِّفْقِ بِالْمَمْلُوكِ»:

* الرفق بكسر الراء وسكون الفاء وهو: لين الجانب بالقول والفعل والأخذ بالأسهل، وهو ضد العنف، وقد تكاثرت الأدلة في البحث على ذلك، كما أوصى - سبحانه - بذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦]، وكذلك أوصى النبي ﷺ بهم كثيرًا وأمر بالإحسان إليهم، وروي أن آخر ما أوصى به عند موته: «الصلاة وما ملكت أيمانكم»[٤]. فروى الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه وابن حبان عن أنس، ومالك وأحمد وابن ماجه عن أم سلمة زوج النبي، والطبراني عن ابن عمر بأسانيد صحيحة مرفوعة أن النبي ﷺ قال: «الصلاة وما ملكت أيمانكم»[٥]. فجعل يرددها في مرض موته حتى ما يفيض بها لسانه، وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة سيئ

---

(١) البخاري (٥٠٣٨)، ومسلم (٢٩٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) ابن ماجه (١٦٢٥)، وأحمد (٦/ ٢٩٠) من حديث أم سلمة رضي الله عنها، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٢٨٥).

(٥) تقدم تخريجه.

الملكة »(١) . أخرجه الترمذي .

قوله : « وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْفَخْرِ » :

* أي : المباهاة بالمكارم والمناقب من حسب ونسب وغير ذلك ، سواء كان فيه أو في آبائه ، ذكره في « المصباح » ، قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان : ١٨] . المختال : هو المتكبر العظيم في نفسه الذي لا يقوم بحقوق النَاس ، والفخور : هو الذي على الناس ويعدد مناقبه تكبرًا وتطاولًا على من دونه ، وينظر إلى غيره نظر ازدراء واحتقار ، وقال تعالى : ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم : ٣٢] .

وروى مسلم في« صحيحه » من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « إن اللّه أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ، ولا يفخر أحد على أحد »(٢) .

قال الشيخ تقي الدين في « اقتضاء الصراط المستقيم » على هذا الحديث : فنهى - سبحانه - عن نوعي الاستطالة على الخلق وهو الفخر والبغي ؛ لأن المستطيل إن استطال بحق فقد افتخر ، وإن كان بغير حق فقد بغى ، قال ابن القيم رحمه الله في « المدارج » : والافتخار نوعان : محمود ، ومذموم ، فالمذموم : إظهار مرتبته على أبناء جنسه ترفعًا عليهم ، والمحمود : إظهار الأحوال السنية والمقامات الرفيعة لا على وجه الفخر ، بل على وجه التعظيم للنعمة والفرح بها وذكرها والتحدث بها والترغيب فيها ، من المقاصد في إظهارها ، كما قال ﷺ : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر »(٣) . وقال سعد : « أنا أول من رمى بسهم في سبيل اللّه » . انتهى .

قوله : « وَالْخُيَلاءِ » :

* قال تعالى : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان : ١٨] . قوله : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ﴾ أي : تميله وتعرض عن الناس تكبرًا . وقوله : ﴿مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي : ذي خيلاء يفخر على الناس ولا يتواضع لهم .

قال المنذري : الخيلاء بضم الخاء المعجمة وكسرها : الكبر والعجب ، والمخيلة بفتح الميم وكسر المعجمة من الاختيال ، وهو الكبر واستحقار الناس . انتهى . وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال

---

(١) أحمد (١/١٢) ، والترمذي (١٩٤٦) من حديث أبي بكر رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (١١٨٨) .

(٢) أبو داود (٤٨٩٥) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٤٢٨) من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » (١٧٢٥) .

(٣) مسلم (٢٢٧٨) ، وأبو داود (٤٦٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

رسول الله ﷺ : « لا ينظر الله إلى من جر ثوبه خيلاء »[(١)] . متفق عليه ، وفي البخاري معلقًا عن ابن عباس رضي الله عنهما : « كُلْ ما شئت واشرب ما شئت ، ما أخطأتك اثنتان سرف ومخيلة »[(٢)] . وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا ينظر الله إلى من جر إزاره بطرًا »[(٣)] . متفق عليه ، وعنه أن رسول الله ﷺ قال : « بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه ، مرجل جمته ، يختال في مشيته إذ خسف الله به فهو يتجلجل إلى يوم القيامة »[(٤)] .

قوله : « وَالْبَغيِ » :

* وهو العدوان على الناس ، قال العلقمي : أصل البغي مجاوزة الحد . قال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس : ٢٣] ، أي : أن إثم البغي وعقوبة البغي على الباغي إما عاجلًا وإما آجلًا ، وفي هذه الآية : شؤم البغي وسوء مصرع الباغي ، قال تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الشورى : ٤٢] . والفخر والخيلاء كلها خصال مذمومة وردت الأحاديث بالنهي عنها والتحذير منها ، ووردت أحاديث في سرعة عقوبة الباغي ، فعن أبي بكر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من ذنب أجدر – أو أحق – من أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر الله له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم »[(٥)] . رواه الترمذي والحاكم وصححاه .

قوله : « وَالاسْتِطَالَةِ عَلى الْخَلْقِ بحقٍّ أَوْ بِغَيرِ حَقٍّ » :

* أي : الترفع عليهم واحتقرهم والوقيعة فيهم ، قال العلقمي : طال عليه واستطال وتطاول إذا علاه وترفع عليه .

قوله : « وَيَأْمُرونَ بِمَعَالِيَ الأَخْلاَقِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنْ سَفْسَافِهَا » :

* أي : يأمر أهل السنة بمعالي الأخلاق ؛ لأنها من أخلاق المؤمنين بل من أخص علامات الإيمان ، كما تقدم حديث : « أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم أخلاقًا »[(٦)] . الحديث ، أي : يأمرون بأعالي مراتب الخلق الحسن ، كالسخاء والصدق والأمانة والشجاعة والحلم ونحو ذلك ، مشتق من علا في المكان من باب قعد علاء بالفتح والمد .

« وينهون عن سفسافها » : أي : رديئها وحقيرها ، كالبخل والجبن والكذب والغيبة والنميمة ونحو

---

(١) البخاري (٥٤٤٦) ، ومسلم (٢٠٨٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) رواه البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما . وينظر : « مشكاة المصابيح » للألباني (٤٣٨٠) .

(٣) البخاري (٥٤٥١) ، ومسلم (٢٠٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) البخاري (٥٤٥٢) ، ومسلم (٢٠٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٥) أبو داود (٤٩٠٢) ، والترمذي (٢٥١١) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « مشكاة المصابيح » (٤٩٣٢) .

(٦) تقدم تخريجه .

ذلك ، كما روى الخلال عن سهل بن سعد مرفوعًا : « إن اللّٰه يحب الكريم ومعالي الأخلاق ويكره سفسافها »[١] . وروي - أيضًا - عن جابر مرفوعًا : « إن اللّٰه يحب مكارم الأخلاق ويكره سفسافها »[٢] . وأخرج البيهقي في « شعب الإيمان » عن طلحة بن عبيد اللّٰه مرفوعًا : « إن اللّٰه جواد يحب الجود ، ويحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها »[٣] . وأخرجه أبو نعيم في « الحلية » عن ابن عباس . قال في « النهاية » : السفساف : الأمر الحقير والرديء من كل شيء ، وهو ضد المعالي والمكارم ، وأصله : ما يطير من غبار الدقيق إذا نخل ، والتراب إذا أثير ، وفي الحديث : « إن اللّٰه يحب معالي الأمور ويبغض سفسافها »[٤] . انتهى .

قوله : « وَ كُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ ... » :

* أي : كل ما يقول أهل السنة ويفعلونه ويأمرون به وينهون عنه مما تقدم ذكره في هذه الرسالة وغيره ، فإنما فيه متبعون للكتاب والسنة فهم متبعون لا مبتدعون ، مقتدرون لا مبتدون ، فأقوالهم وأفعالهم واعتقاداتهم كلها مقيدة بالكتاب والسنة ؛ ولذلك سموا أهل الكتاب والسنة لاتباعهم للكتاب والسنة وتقيدهم بما جاء فيهما ، وتحكيمهما في الكثير والقليل ، ونبذهم كل ما خالفهما ، فهم يَزِنُون أقوالهم وأعمالهم واعتقادهم بالكتاب والسنة ؛ إذ لا نجاة إلا باتباعهما ، ولا طريق موصل إلى السعادة في الدنيا والآخرة إلا بسلوك الصراط المستقيم الذي أوصانا اللّٰه بسلوكه ، وهو ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ، قال اللّٰه تعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام : ١٥٣] . فأهل السنة يجعلون كلام اللّٰه وكلام رسوله هو الإمام الذي يجب اتباعه والرجوع إليه عند التنازع ، قال اللّٰه تعالى : ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء : ٥٩] الآية ، فكما يجب إفراد اللّٰه - سبحانه - بالعبادة يجب توحيد الرسول ﷺ بالتحكيم ، فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب اللّٰه إلا بهما ، توحيد المرسل وتوحيد متابعة الرسول ، فلا يحاكم إلي غيره ولا يرضى بحكم غيره ، فمن أعرض عن الكتاب والسنة ورغب عن تحكيمهما أو زعم حصول السعادة والفلاح بالاستغناء عنهما ، والتحاكم إلى غيرهما كائنًا من كان فقد نبذ الإسلام وراء ظهره ، قال تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء : ٦٥] الآية .

---

(١) الحاكم (١٥١) ، والطبراني (٦/١٨١) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (١٨٠١) .

(٢) ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (١٠) ، ويُنظر : « صحيح وضعيف الجامع الصغير » (١٨٠٠) .

(٣) البيهقي في « الشعب » (٧/٤٢٦) من حديث طلحة بن عبيد اللّٰه رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (١٧٤٤) .

(٤) تقدم تخريجه .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»[١]. قال النووي: حديث حسن صحيح رويناه في كتاب «الحجة» بإسناد صحيح. وتقدم ذكر معنى الاتباع وهو الاقتفاء والاستنان، وذكر ابن القيم رحمه الله الفرق بين الاتباع والتقليد ليس معدودًا من أهل العلم، ثم قال بعد كلام: فإن الاتباع سلوك طريق المتبع والإتيان بمثل ما أتى به، وذكر كلام ابن خريز أن التقليد معناه في الشرع: الرجوع إلى قول لا حجة لقائله، وذلك ممنوع في الشريعة والاتباع ما ثبت عليه حجة، وذكر في «الكوكب المنير شرح مختصر التحرير» الفرق بين التأسي والموافقة،، فقال: التأسي برسول الله ﷺ فعلك كما فعل لأجل أنه فعل، وأما التأسي في الترك: فهو أن تترك ما تركه لأجل أنه تركه، وأما التأسي في القول فهو امتثاله على الوجه الذي اقتضاه وإلا أي، وإن لم يكن كذلك في الكل فهو موافقة لا متابعة؛ لأن الموافقة المشاركة في الأمر، وإن لم يكن من أجله، فالموافقة أعم من التأسي؛ لأن الموافقة قد تكون من غير تأسي. انتهى.

قوله: «وَطَرِيقَتُهُم: هِيَ دِينُ الإِسْلاَمِ ...»:

* أي: سبيلهم ومذهبهم وصراطهم المستقيم الذي لا طريق إلى الله - سبحانه - إلا هو نجاة إلا بسلوكه، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. هو دين الإسلام الذي بعث الله به محمدًا وهو دينه - سبحانه - الذي لا يقبل دينًا سواه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]. وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

قوله: «لكِنْ لَمَّا أَخْبَرَ ﷺ أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ... إلخ»:

* هذا الافتراق مشهور عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة ومعاوية وعمرو بن عوف وغيرهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»[٢]. رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه مختصرًا، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وعن معاوية رضي الله عنه أنه قام فقال: إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال: «ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة، وأن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين كلها في النار إلا واحدة في الجنة وهي الجماعة»[٣]. رواه أبو داود، وفي رواية الترمذي: «كلهم في النار إلا واحدة». قالوا: من

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

هي يا رسول الله ؟ قال : « من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي »[1] . وقال : هذا حديث غريب مفسر لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، والأمة هي الجماعة ، قال الأخفش : في اللفظ واحد وفي المعنى جمع ، والمراد هنا : أمة الإجابة لا الدعوة .

قوله ﷺ : « ستفترق أمتي ... إلخ » : أي : أمة الإجابة ، وقد وقع هذا الافتراق كما أخبر النبي ﷺ ؛ فافترقت هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة كل فرقة تضلل الأخرى ، وأصول هذه الفرق قيل : خمس ، وقيل : ست ، وقيل غير ذلك ، وهم المعتزلة وهم عشرون فرقة ، الثانية : الشيعة وهي اثنتان وعشرون فرقة ، الثالثة : الخوارج افترقوا إلى سبع فرق ، الرابعة : المرجئة وهي خمس فرق ، والخامسة : الجبرية الذين يقولون : إنا مجبورون على أعمالنا ، ويسندون الأعمال إلى الله سبحانه وتعالى ، السادسة : المشبهة الذين شبهوا الله بخلقه ، وهذه الأحاديث فيها إخبار منه ﷺ بما يقع في أمته من الافتراق في أصول الدين وفروعه ، فوقع كما أخبر ﷺ ، وهذا علم من أعلام نبوته ، وفيه ذم التفرق ، فإن الخبر خرج مخرج الذم للاختلاف ، والأدلة على ذمه من الكتاب والسنة كثيرة ، كما قال تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران : ١٠٥] . وقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام : ١٥٩] الآية ، وفيه عامة أن المختلفين هالكون إلا فرقة واحدة وهم أهل السنة والجماعة .

قال الشيخ تقي الدين رحمه الله : وهذا الحديث وما قبله يفيد أن الفرقة والاختلاف لا بد من وقوعهما في هذه الأمة وتحذير أمته من الخلاف ، إلى أن قال : فأفاد من ذلك شيئين : أحدهما : تحريم الاختلاف في مثل هذا ، الثاني : الاعتبار بمن كان قبلنا من مشابهتهم . انتهى .

قال الخطابي في « معالم السنن » : فيه دلالة على أن هذه الفرق كلها غير خارجة من الدين ؛ إذ جعلهم النبي ﷺ كلهم من أمته ، وفيه أن المتأول لا يخرج من الملة وإن أخطأ . انتهى .

قال الشيخ تقي الدين رحمه الله بعد كلام : والنبي ﷺ لم يخرج الثنتين والسبعين فرقة من الإسلام ، بل جعلهم من أمته ، ولم يقل : إنهم يخلدون في النار ، فمن كفر الثنتين والسبعين فرقة كلهم فقد خالف الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان . انتهى . وفيها الرد على من زعم أن الفرقة الناجية هم الأشعرية والماتريدية وأهل الحديث ، فإن الحديث ليس فيه فرقة ناجية إلا واحدة ، فهو ينافي التعدد ، وفيه وصف الفرقة الناجية بأنها المتبعة للكتاب والسنة ، وإنها من كان على مثل ما عليه النبي وأصحابه ، وفي رواية فسر الفرقة الناجية بأنهم الجماعة ، وهم المجتمعون الذين ما فرقوا دينهم و كانوا شيعًا ، وبهذا يعلم أنه وصف الفرقة الناجية باتباع سنته التي كان عليها هو وأصحابه وبلزوم جماعة المسلمين ، فمن عدا هؤلاء فليس من الفرقة الناجية .

---

(١) تقدم تخريجه .

قوله : « بِالإِسْلامِ الْمَحْضِ الْخَالِصِ عَنِ ...» :

* أي : الاستسلام لله وحده بطاعته والانقياد لأمره ، والمراد هنا : الإسلام والإيمان ؛ لأنه كما تقدم إذا أطلق أحدهما دخل فيه الآخر ، « والمحض » هو : الخالص الذي لم يخالطه غيره ، « والخالص » هو السالم ، يقال : خلص الشيء صفاه وميزه عن غيره ، والشوائب هي الأقذار والأدناس ، وأصل الشوب : الخلط .

لما ذكر المصنف ﷺ ما تقدم من الأحاديث التي فيها ذكر افتراق هذه الأمة وفيها ذكر الفرقة الناجية ، وإنهم الجماعة ومن كان على مثل ما كان عليه الرسول وأصحابه ، فاتضح مما تقدم أن أهل السنة والجماعة هم المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوائب البدعية والطرق المخالفة لما كان عليه ﷺ ، فهم المعتصمون بالإسلام المتمسكون به بالأقوال والأعمال والاعتقادات الذين لم يشوبوه بالبدع والخرافات ، فهؤلاء هم أهل السنة والجماعة الذين انطبقت عليهم الصفات المذكورة في الأحاديث المتقدمة ، وأما من عداهم من سائر الفرق فقد حكموا المعقول وخالفوا المنقول عن رسول الله ﷺ فسطوا على النصوص بتخطئة الروايات وتكذيبهم ، فإن لم يجدوا سبيلًا إلى ذلك سطوا على معانيها بالتحريف والتأويل ، وأصل فساد هذا العالم وخرابه إنما نشأ من تقديم الرأي على الوحي والهوى على النقل ، وما استحكم هذان الأصلان الفاسدان في قلب إلا استحكم هلاكه ، ولا في أمة إلا مرج أمرها واختل نظامها وانعقد سبب هلاكها ، وبسبب ذلك انفتح باب الجدل واتسعت شقة الخلاف ، فكل فريق يرى أنه على الحق وأن غيره ضال ، فهم كما قال الله تعالى : ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون : ٥٣] ، قال الشاعر :

وكلا يدعي وصلا لليلى ... وليلى لا تقر لهم بذاكا

إذا اشتبكت دموع في خدود ... تبين من بكى ممن تباكى

وكل ما وقع هو بسبب إعراضهم عن الكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالح ، فلا نجاة إلا باتباع ذلك كما قال بعضهم :

تخالف الناس فيها قد رأوا ورووا ... وكلهم يدعون الفوز بالظفر

فخذ بقول يكون النص ينصره ... إما عن الله وإما عن سيد البشر

وقال آخر :

فخير الأمور السالفات على الهدى ... وشر الأمور المحدثات البدائع

ولا شك أن من لم يعتصم بالكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالح ، فمآله إلى الحيرة والاضطراب وعدم الوصول إلى نتيجة كما قال الرازي :

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
وأرواحنا في وحشة من جسومنا وغـايـة دنـيـانـا أذى ووبـال

وقال الشهرستاني :

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعًا كف حائر على ذقن أو قارعا سن نادم

إذا عرفت ما وصل إليه هؤلاء مع ما لديهم من الذكاء والعلم ؛ عرفت أن النجاة والسعادة هو بالاعتصام بالكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالح ، قال تعالى : ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه : ١٢٣] .

قال ابن عباس رضي الله عنه : « تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألَّا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة » . ثم قرأ هذه الآية .

قوله : « وَفِيهِمُ الصِّدِّيقُونَ ، وَالشُّهَدَاءُ ... إلخ » :

* الصديقون : الذين صدقوا أقوالهم بأفعالهم ، المبالغون في الصدق والتصديق ، قال في « المختار » : الصديق بوزن السكيت : الدائم التصديق وهو - أيضًا - الذي يصدق قوله بالعمل . انتهى . وقد تقدم الكلام على هذا .

قوله : « أَعْلَامُ الْهُدَي » :

قوله : « أَعْلَامُ » : من علم بفتحتين : العلامة ، وهو ما يهتدي به إلى الطريق من جبل أو غيره على قول الخنساء في أخيها صخر :

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وسمي العالم عالمًا ؛ لأنه يهتدي الناس بعلمه ، كما يقال : فلان جبل في العلم ، و« الهدي » : هو الدلالة والإرشاد ، والهادي : هو الدال والمرشد ، فالعلماء هم الهداة ؛ أي : المرشدون إلى طريق الخير ، هداية دلالة وإرشاد وتوضيح وبيان ، وأما الهداية المذكورة في قوله سبحانه : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص : ٥٦] ؛ فالمراد بها : هداية التوفيق والإلهام ، فالرسل وأتباعهم هم الأدلة حقًا ، والله هو الموفق الملهم الخالق للهدى في القلوب .

قوله : « وَمَصَابِيحُ الدُّجَي » :

قوله : « مصابيح » : جمع مصباح وهو السراج ، « والدجى » : الظلمة ، أي : يستضاء بهم في ظلمات الجهل ، كما يُجلى ظلام الليل بالسراج المنير ويهتدى به فيه ، أي : من أهل السنة والجماعة أئمة الإسلام وهداة الأنام ، والدالون للأمة على نهج الرسول والكاشفون لهم عن معاني الكتاب والسنة ، والمستضاء بهم في ظلمات الجهل وسواد الشرك والخرافات والوثنية ، والذابون عن الشريعة المدافعون

عنها تحريف الغالينَ وانتحال المبطلين وتأويل الظالمين ، الذين بهم قام الكتاب وبه قاموا .

وعن أنس مرفوعًا : اتبعوا العلماء فإنهم سرج الدنيا ومصابيح الآخرة ، أخرجه في « مسند الفردوس » بسند ضعيف ، وفي مسند أحمد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن مثل العلماء في الأرض ، كمثل النجوم في السماء يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة »(١) .

قوله : « أُولو الْمَنَاقِبِ الْمَأْثُورَةِ ، وَالْفَضَائِلِ الْمَذْكُورَةِ » :

* أي : أصحاب المناقب ، وهي جمع منقبة ضد المثلبة ، قال في « القاموس » : المنقبة : المفخرة ، والمأثورة ، أي : المذكورة ، ومنه أَثَرَ الحديث ، أي : نقله عن غيره ، « والفضائل » جمع فضيلة ، وهي ضد النقيصة ، والفضل : الخير (المذكورة) ، أي : الذائعة الصيت المترددة على الألسن ، والذكر هو الصيت والشرف ، قال تعالى : ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزخرف : ٤٤] . وهذا الذكر عمر ثان وحياة أخرى ، وذلك أحق ما تنافس به المتنافسون ورغب به الراغبون ، ومن تأمل أحوال أئمة الإسلام كيف هم تحت التراب ؟ وهم في العالمين كأنهم أحياء بينهم لم يفقدوا منهم إلا صورهم ، وإلا فذكرهم والثناء عليهم غير منقطع ، علم أن هذا الحياة حقًّا كما قال المتنبي :

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته ... ما فاته وفضول العيش إشغال

وقال ابن زيد :

وإنما المرء حديث بعده ... فكن حديثًا حسنًا لمن وعى

وقال آخر :

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله ... فأجسامهم قبل القبور قبور

وأرواحهم في وحشة من جسومهم ... وليس لهم حتى النشور نشور

وقال آخر :

أخو العلم حي خالد بعد موته ... وأوصاله تحت التراب رميم

وذو الجهل ميت وهو يمشي على ... الثرى يعد من الأحياء وهو عديم

وفي حديث علي رضي الله عنه أنه قال : « مات خُزَّان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة » .

قوله : « وَفِيهِمُ الأَبْدَالُ » :

* أي : في أهل السنة والجماعة الأبدال ، قال في « النهاية » : هم الأولياء والعباد ، سموا بذلك ؛ لأنهم كلما مات منهم واحد أبدل بآخر . انتهى .

قال في « الآداب الشرعية » : ونص أحمد رحمه الله على أن لله أبدالًا في الأرض ، قيل : من هم ؟ قال : إن

---

(١) أحمد (١٥٧/٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (١٩٧٣) .

لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أعرف لله أبدالًا . وقال - أيضًا - عنهم : إن لم يكونوا هؤلاء فلا أدري من الناس . انتهى .

وقد ورد في الأبدال عدة أحاديث وكلها متكلم فيها ، وصنف السيوطي مصنفًا في الأبدال وذكر الأحاديث الواردة فيهم ، وقال الشيخ تقي الدين - رحمه اللّه تعالى- : كل حديث يروى عن النبي ﷺ في عدة الأولياء والأبدال والنقباء والنجباء والأوتاد والأقطاب ونحو ذلك فليس من ذلك شيء صحيح عن النبي ﷺ ، ولم ينطق السلف بشيء من هذه الألفاظ إلا بلفظ الأبدال ، روي فيهم حديث أنهم أربعون وأنهم في الشام ، وهو في « المسند » من حديث علي[1] ، وهو حديث منقطع ليس بثابت . انتهى . إذا عرفت ما تقدم فما يزعمه المخرفون من أن مدد الخلائق ونصرهم ورزقهم يكون بواسطة هؤلاء لا شك في بطلانه ، وأنه ليس من دين المسلمين ، بل من دين المشركين ، وقد ذكر الشيخ الإجماع على أن من جعل بينه وبين اللّه واسطة يدعوه ويتوكل عليه أنه كافر ، قال اللّه - تعالى - حاكيًا عن المشركين أنهم يقولون : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر : ٣] . وقال عنهم أنهم يقولون : ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس : ١٨] .

قال ابن القيم في « النونية » :

والشرك فهو توسل مقصوده الزلفى إلى الرب العظيم الشان

وقال الشيخ تقي الدين رحمه الله بعد كلام : والذين تكلموا باسم البدل أفردوه بمعاني ، منها أنهم كل ما مات منهم رجل أبدل بآخر ، ومنها أنهم أبدلوا السيئات بأخلاقهم وأعمالهم وعقائدهم بالحسنات ، وهذه الصفات كلها لا تخص بأربعين ولا بأقل ولا أكثر ولا تحصر بأهل بقعة من الأرض ، إلى أن قال : فالغرض أن هذه السماء تارة تُفسر بمعانٍ باطلة بالكتاب والسنة وإجماع السلف ، مثل تفسير بعضهم بأن الغوث هو : الذي يغيث اللّه به أهل الأرض من رزقهم ونصرهم ، فإن هذا نظير ما تعتقده النصارى في الباب ، وهو معدوم العين والأثر وتشبيه بحال المنتظر ، وكذلك من فسر الأربعين الأبدال بأن الناس إنما ينصرون ويرزقون بهم فذلك باطل ، بل النصر والرزق يحصل بأسباب من أوكدها دعاء المسلمين والمؤمنين وصلاتهم وإخلاصهم ، ولا يتقيد ذلك لا بأربعين ولا بأقل ، وقد يكون للنصر والرزق أسباب أخر . انتهى بتلخيص .

قوله : « الأئمة الَّذِينَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَدِرَايَتِهِمْ » :

* أي : في أهل السنة والجماعة أئمة الدين ، أي : المقتدى بهم فيه كالإمام أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وسفيان الثوري ، وغيرهم كالشيخ تقي الدين وابن القيم وكإمام هذه الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وغيرهم من أئمة الهدى الذين اشتهرت إمامتهم ، وأجمع المسلمون على

(١) أحمد (١/١١٢) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (٢٢٦٦) .

هدايتهم ودرايتهم ، فلا يقبل فيهم قول جارح ولا طعن طاعن ؛ إذ من ظهرت عدالته واشتهرت إمامته فلا يلتفت فيه إلى قول قائل .

وقد روي عن النبي ﷺ بأنه قال : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عن تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين »[1] . قال ابن القيم رحمه الله : « وهذا يتضمن تعديله ﷺ لحمله العلم الذي بعث به ؛ فلهذا اشتهر عند الأمة عدالة نقلته اشتهارًا لا يقبل شكًّا ولا امتراءً ، ولا ريب أن من عدَّله الرسول ﷺ لا يسمع فيه جرح جارح ؛ فلهذا لا يقبل قدح بعضهم في بعض ، وهذا بخلاف من اشتهر عند الأمة جرحه والقدح فيه كأئمة البدع ، ومن جرى مجراهم من المتهمين ، فإنهم ليسوا عند الأمة من حملة العلم . انتهى بتصرف . وقد اشتهر عن هؤلاء الأئمة النهي عن التقليد والحث على اتباع الكتاب والسنة ، كما روي عن الإمام أحمد أنه قال : عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان ، والله تعالى يقول : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور : ٦٣] . أتدري ما الفتنة ؟ الفتنة : الشرك ، لعله إذا ردَّ قوله أو بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك .

وقال مالك رحمه الله : كل يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر . وقال الشافعي رحمه الله : أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد ، إلى غير ذلك من كلام الأئمة في الحث على الاتباع وذم التقليد ، قال الشيخ تقي الدين رحمه الله : قد اتفق الأئمة يقينًا على وجوب اتباع الرسول ، وعلى أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ ، وإذا جُدَّ لواحد منهم قول قد جاء الحديث الصحيح بخلافه ، فلا بد له من عذر في تركه ، وجمع الأعذار ثلاثة أصناف : أحدها : عدم اعتقاد أن الرسول ﷺ قاله ، والثاني : عدم اعتقاده إرادة تلك المسألة بذلك القول ، الثالث : أن ذلك الحكم منسوخ . انتهى من كلام « رفع الملام عن الأئمة الأعلام » .

قوله : « وَهُمُ الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ ...إلخ » :

* « المنصورة » ؛ أي : بالحجة والبيان أو بالسيف والسنان ، فعلى الأول هم أهل العلم ، وبه قال البخاري وغيره ، وقال ابن القيم : هم أهل العلم والمعرفة بما بعث الله به رسوله .

قوله : « الذين قال فيهم النبي ﷺ ...» : الحديث رواه مسلم من حديث جابر بن سلمة ، وجابر بن عبد الله ، وثوبان ، وأخرجاه في « الصحيحين » من حديث المغيرة بن شعبة ، ومعاوية بن أبي سفيان .

قوله ﷺ : « ظاهرين » : أي : غالبين ، والظهور : الغلبة .

قوله ﷺ : « حتى تقوم الساعة » : أي : ساعة موتهم بهبوب الريح تقبض روح كل مؤمن ، وهي

---

(١) الطبراني في « مسند الشاميين » (٥٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « مشكاة المصابيح » (٢٤٨) .

الساعة في حق المؤمن ، وإلا فالساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق ، وقد تقدم ذلك ، وفي هذا الحديث فوائد منها : أن فيه عَلَمًا من أعلام نبوته ﷺ ، ومعجزة ظاهرة للنبي ، فإن هذا الوصف ما زال - بحمد الله - من زمن النبي ﷺ إلى الآن ولا يزال ، وفيه دليل لكون الإجماع حجة ، وقال القرطبي : وهو أفصح ما استدل به من الحديث . أما حديث : « لا تجتمع أمتي على ضلالة »[1] . فضعيف ، وفيه الآية العظيمة إنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا مَن خالفهم ، وفيها البشارة أن الحق لا يزول بالكلية ، قاله الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتاب « التوحيد » ، واحتج به أحمد على أن الاجتهاد لا ينقطع ، وأن هذه الطائفة موجودة ، واستدل به - أيضًا - على أن الأمة لا تجتمع على ضلالة ولا ترتد جميعها ، بل لا بد أن يُبقي الله من المؤمنين من هو ظاهر إلى قيام الساعة ، فإذا مات كل مؤمن فقد جاءت الساعة .

قوله : « فَنَسْأَلُ اللَّهَ العَظِيمَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ ...» :

* أي : نطلبه ونفرده بالمسألة سبحانه ، قال تعالى : ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء : ٣٢] .

وفي حديث ابن عباس : « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله »[2] .

وعن أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال : « من لم يسأل الله يغضب عليه »[3] . رواه الترمذي ، وعن ابن مسعود ﵁ مرفوعًا : « سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل »[4] رواه الترمذي ، وقد وردت أحاديث كثيرة في النهي عن مسألة المخلوقين ، وقد بايع النبي ﷺ جماعة من أصحابه على ألَّا يسألوا الناس شيئًا ، منهم أبو بكر وأبو ذر وثوبان ، وكان أحدهم يسقط سوطه فلا يسأل أحدًا أن يناوله إياه .

قوله : « أن يجعلنا منهم » : أي : من الفرقة الناجية المتمسكة بما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه ، وهي الطائفة المنصورة إلى قيام الساعة .

قوله : « ألَّا يزيغ قلوبنا ...» : أي : يميلها عن الحق والهدى بعد إذ هدانا ، أي : وفقنا وألهمنا ، فإنه - سبحانه - الهادي « من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له »[5] ، وقد ورد أن النبي ﷺ كان أكثر يمينه « لا ومقلب القلوب »[6] . وكان ﷺ يقول في دعائه : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) الترمذي (٢٥١٦) ، وأحمد (٢٦٦٩) من حديث ابن عباس ﵁ ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٧٩٥٧) .

(٣) الترمذي (٣٣٧٣) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٦٥٨) من حديث أبي هريرة ﵁ ، وحسنه الألباني في « صحيح الترمذي » (٢٦٨٦) .

(٤) الترمذي (٣٥٧١) ، وأحمد (٢/٣٠٦) من حديث ابن مسعود ﵁ ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٦١١) .

(٥) تقدم تخريجه .

(٦) البخاري (٦٢٤٣) من حديث ابن عمر ﵄ .

دينك » . قيل : يا نبي اللّه ، آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ؟ فقال : « نعم ، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف شاء »(١) . خرجه أحمد والترمذي من حديث أنس ، وورد أن قلب ابن آدم كريشة ملقاة في فلاة تفيئها الرياح ؛ ولذا قيل : إن القلب سمي قلبًا لتقلبه ، كما قال بعضهم :

ما سمي القلب إلا من تقلبه فاحذر على القلب من قلبًا وتحويل

وقال آخر :

وما سمي الإنسان إلا لنسيه وما سمي القلب إلا أنه يتقلب

قوله : « وأن يهب لنا » : أي : يعطينا .

قوله : « من لدنه » : أي : من عنده .

قوله : « الوهاب » : أي : كثير الهبات والعطايا فلا خير إلا خيره ولا إله غيره .

قد تم ما أردنا في هذه العجالة ، والحمد للّه رب العالمين وصلى اللّه على سيد المرسلين وآله وصحبه أجمعين ، وكان الفراغ من تعليقه على يد جامعة الفقير إلى اللّه عبد العزيز بن ناصر بن عبد اللّه بن عبد العزيز الرشيد سنة ١٣٧٧ في أول من ذي الحجة ، والعصمة للّه ولكتابه ، والعاقل من اغتفر قليل خطأ المرء في كثير صوابه .

❁ قال الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله :

قوله : « ثم هم مع هذه الأصول يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » :

قوله : « ثم هم » : أي : أهل السنة والجماعة .

« مع هذه الأصول » : السابقة التي ذكرها قبل هذا ، وهو اتِّباع آثار الرسول عليه الصلاة والسلام ، واتباع الخلفاء الراشدين ، وإيثارهم كلام اللّه وكلام رسوله على غيره ، واتباع إجماع المسلمين ، مع هذه الأصول : يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

« المعروف » : كل ما أمر به الشرع ، فهم يأمرون به .

« المنكر » : كل ما نهى عنه الشرع ، فهم ينهون عنه .

لأن هذا هو ما أمر اللّه به في قوله : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

وكذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام : « لتأمرون بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذُن على يدِ الظالم ، ولتأطرنَّه على الحق أطرًا »(٢) .

(١) الترمذي (٢١٤٠) ، وأحمد (١١٢/٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٧٩٨٧) .

(٢) ضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (١٨٢٢) .

فهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ولا يتأخرون عن ذلك .

ولكن يشترط للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أن يكونا على ما توجبه الشريعة وتقتضيه .

ولذلك شروط :

الشرط الأول : أن يكون عالمًا بحكم الشرع فيما يأمر به أو ينهى عنه ، فلا يأمر إلا بما علم أن الشرع أمر به ، ولا ينهى إلا عما علم أن الشرع نهى عنه ، ولا يعتمد فى ذلك على ذوقٍ ولا عادةٍ . لقوله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة : ٤٨] .

وقوله : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء : ٣٦] .

وقوله : ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل : ١١٦] .

- فلو رأى شخصًا يفعل شيئًا الأصل فيه الحل ، فإنه لا يحل له أن ينهاه عنه حتى يعلم أنه حرام أو منهى عنه .

- ولو رأى شخصًا ترك شيئًا يظنه الرائى عبادة ، فإنه لا يحل له أن يأمره بالتعبد به حتى يعلم أن الشرع أمر به .

الشرط الثاني : أن يعلم بحال المأمور : هل هو ممن يوجه إليه الأمر أو النهى أم لا ؟ فلو رأى شخصًا يشك هل هو مكلف أم لا ، لم يأمره بما لا يُؤمَر به مثله حتى يستفصل .

الشرط الثالث : أن يكون عالمًا بحال المأمور حال تكليفه ؛ هل قام بالفعل أم لا ؟ .

- فلو رأى شخصًا دخل المسجد ثم جلس ، وشك هل صلى ركعتين [أم لا ؟] ، فلا ينكر عليه ، ولا يأمره بهما حتى يستفصل .

ودليل ذلك أن النبى ﷺ كان يخطب يوم الجمعة ، فدخل رجل ، فجلس ، فقال له النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « أصليت ؟ » . قال : لا . قال : « قم فصل ركعتين وتجوز فيهما »[1] .

- ولقد نقل لى أن بعض الناس يقول : يحرم أن يسجل القرآن بأشرطة ؛ لأن ذلك إهانة للقرآن على زعمه ؛ فينهى الناس أن يسجلوا القرآن على هذه الأشرطة ؛ لظنه أنه منكر ! !

فنقول له : إن المنكر أن تنهاهم عن شيء لم تعلم أنه منكر ! ! فلابد أن تعلم أن هذا منكر فى دين الله .

وهذا فى غير العبادات ، أما العبادات ؛ فإننا لو رأينا رجلًا يتعبد بعبادة ؛ لم يعلم أنها مما أمر الله به ،

---

(١) أخرجه البخارى (٩٣٠) ، ومسلم (٨٧٥) .

فإننا ننهاه ؛ لأن الأصل فى العبادات المنع .

الشرط الرابع : أن يكون قادرًا على القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بلا ضرر يلحقه ، فإن لحقه ضرر ، لم يجب عليه ، لكن إن صبر وقام به فهو أفضل ؛ لأن جميع الواجبات مشروطة بالقدرة والاستطاعة ؛ لقوله تعالى : ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن : ١٦] . وقوله : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

فإذا خاف إذا أمر شخصًا بمعروف أن يقتله ؛ فإنه لا يلزمه أن يأمره ؛ لأنه لا يستطيع ذلك ، بل قد يحرم عليه حينئذٍ . وقال بعض العلماء : بل يجب عليه الأمر والصبر ، وإن تضرر بذلك ما لم يصل إلى حد القتل . لكن القول الأول أولى ؛ لأن هذا الآمر إذا لحقه الضرر بحبس ونحوه ؛ فإن غيره قد يترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر خوفًا مما حصل ، حتى فى حال لا يخشى منها ذلك الضرر .

وهذا ما لم يصل الأمر إلى حد يكون الأمر بالمعروف من جنس الجهاد ؛ كما لو أمر بسنة ونهى عن بدعة ، ولو سكت لاستطال أهل البدعة على أهل السنة ، ففى هذه الحال يجب إظهار السنة وبيان البدعة ؛ لأنه من الجهاد فى سبيل اللّٰه ، ولا يعذر من تعين عليه بالخوف على نفسه .

الشرط الخامس : ألَّا يترتب على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مفسدة أعظم من السكوت ، فإن ترتب عليها ذلك فإنه لا يلزمه ، بل لا يجوز له أن يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر .

ولهذا قال العلماء : إن إنكار المنكر ينتج منه إحدى أحوال أربعة : إما أن يزول المنكر ، أو يتحول إلى أخف منه ، أو إلى مثله ، أو إلى أعظم منه .

- أما الحالة الأولى والثانية ؛ فالإنكار واجب .
- أما فى الثالثة ؛ فهى فى محل نظر .
- وأما فى الرابعة ؛ فلا يجوز الإنكار ؛ لأن المقصود بإنكار المنكر إزالته أو تخفيفه .

مثال ذلك : إذا أراد أن يأمر شخصًا بفعل إحسان ، لكن يستلزم فعل هذا الإحسان ألا يصلِّى مع الجماعة ؛ فهنا لا يجوز الأمر بهذا المعروف ؛ لأنه يؤدى إلى ترك واجب من أجل فعل مستحب .

وكذلك فى المنكر لو كان إذا نهى عن هذا المنكر تحول الفاعل له إلى فعل منكر أعظم ، فإنه فى هذه الحال لا يجوز أن ينهى عن هذا المنكر دفعًا لأعلى المفسدتين بأدناهما .

ويدل لهذا قوله تعالى : ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام : ١٠٨] . فإن سب آلهة المشركين لا شك أنه أمر مطلوبٌ ، لكن لما كان يترتب عليه أمر محظور أعظم من المصلحة التى تكون بسب آلهة المشركين ، وهو سبهم للّٰه تعالى عدوًا بغير علم ، نهى اللّٰه عن سب آلهة المشركين فى هذه الحال .

ولو وجدنا رجلًا يشرب الخمر ، وشرب الخمر منكر ، فلو نهيناه عن شربه لذهب يسرق أموال الناس ويستحل أعراضهم فهنا لا ننهاه عن شرب الخمر ؛ لأنه يترتب عليه مفسدة أعظم .

الشرط السادس : أن يكون هذا الآمر أو الناهي قائمًا بما يأمر به منتهيًا عما ينهى عنه ، وهذا على رأى بعض العلماء ، فإن كان غير قائم بذلك ؛ فإنه لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر ؛ لأن اللّه تعالى قال لبنى إسرائيل : ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة : ٤٤] .
فإذا كان هذا الرجل لا يصلي ، فلا يأمر غيره بالصلاة ، وإن كان يشرب الخمر ، فلا ينهى غيره عنها ، ولهذا قال الشاعر :

لا تَنْهَ عَن خُلُقٍ وَتَأتِيَ مِثْلَهُ عَارٌ عَلَيكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

فهم استدلوا بالأثر والنظر .

ولكن الجمهور على خلاف ذلك ، وقالوا : يجب أن يأمر بالمعروف وإن كان لا يأتيه ، وينهى عن المنكر وإن كان يأتيه ، وإنما وبخ اللّه تعالى بنى إسرائيل ، لا على أمرهم بالبِرّ ، ولكن على جمعهم بين الأمر بالبر ونسيان النفس .

وهذا القول هو الصحيح ؛ فنقول : أنت الآن مأمور بأمرين : الأول : فعل البر ، والثاني : الأمر بالبر . منهى عن أمرين : الأول : فعل المنكر ، والثاني : ترك النهى عن فعله . فلا تجمع بين ترك المأمورين وفعل المنهيين ؛ فإن ترك أحدهما لا يستلزم سقوط الآخر .

فهذه ستة شروط ؛ منها أربعة للجواز ، وهى الأول والثانى والثالث والخامس ؛ على تفصيل فيه ، واثنان للوجوب ، وهما الرابع والسادس .

– ولا يشترط ألّا يكون من أصول الآمر أو الناهى كأبيه أو أمه أو جده أو جدته ، بل ربما نقول : إن هذا يتأكد أكثر ؛ لأن من بر الوالدين أن ينهاهما عن فعل المعاصى ويأمرهما بفعل الطاعات قد يقول : أنا إذا نهيت أبي غضب عليّ وهجرني ، فماذا أصنع ؟

نقول : اصبر على هذا الذى ينالك بغضب أبيك وهجره ، والعاقبة للمتقين ، واتبع ملة أبيك إبراهيم عليه السلام ، حيث عاتب أباه على الشرك ؛ فقال : ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ . إلى أن قال : ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا قَالَ﴾ ؛ أي : أبوه : ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مريم : ٤٢ – ٤٦] .

وقال إبراهيم أيضًا لأبيه آزر : ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام : ٧٤] .

الأبرار : جمع بَرّ ، وهو كثير الطاعة ، والفجار : جمع فاجر وهو العاصى كثير المعصية .

فأهل السنة رحمهم الله يخالفون أهل البدع تمامًا ، فيرون إقامة الحج مع الأمير وإن كان من أفسق عباد الله .

وكان الناس فيما سبق يجعلون على الحج أميرًا ، كما جعل النبى ﷺ أبا بكر أميرًا على الحج فى العام التاسع من الهجرة ، وما زال الناس على ذلك ، يجعلون للحجة أميرًا قائدًا يدفعون بدفعه ويقفون بوقوفه ، وهذا هو المشروع ؛ لأن المسلمين يحتاجون إلى إمام يقتدون به ، أما كون كل إنسان على رأسه ، فإنه يحصل به فوضى واختلاف .

فهم يرون إقامة الحج مع الأمراء ، وإن كانوا فُسّاقًا ، حتى وإن كانوا يشربون الخمر فى الحج ، لا يقولون : هذا إمام فاجر ، لا نقبل إمامته ؛ لأنهم يرون أن طاعة ولى الأمر واجبة ، وإن كان فاسقًا ، بشرط ألّا يخرجه فسقه إلى الكفر البواح الذى عندنا فيه من الله برهان ؛ فهذا لا طاعة له ، ويجب أن يزال عن تولى أمور المسلمين ، لكن الفجور الذى دون الكفر مهما بلغ ؛ فإن الولاية لا تزول به ، بل هى ثابتة ، والطاعة لولى الأمر واجبة فى غير المعصية .

- خلافًا للخوارج الذين يرون أنه لا طاعة للإمام والأمير إذا كان عاصيًا ؛ لأن من قاعدتهم : أن الكبيرة تخرج من الملة .

- وخلافًا للرافضة الذين يقولون : إنه لا إمام إلا المعصوم ، وإن الأمة الإسلامية منذ غاب من يزعمون أنه الإمام المنتظر ، ليست على إمام ، ولا تبعًا لإمام ، بل هى تموت مِيتةً جاهلية من ذلك الوقت إلى اليوم ، ويقولون : إنه لا إمام إلا الإمام المعصوم ، ولا حج ولا جهاد مع أى أمير كان ؛ لأن الإمام لم يأت بعد .

لكن أهل السنة والجماعة يقولون : نحن نرى إقامة الحج مع الأمراء سواء كانوا أبرارًا أو فجّارًا ، وكذلك إقامة الجهاد مع الأمير ، ولو كان فاسقًا ، ويقيمون الجهاد مع أمير لا يصلى معهم الجماعة ، بل يصلى فى رحله .

فأهل السنة والجماعة لديهم بُعد نظرٍ ؛ لأن المخالفات فى هذه الأمور معصية لله ورسوله ، وتجر إلى فتن عظيمة .

فما الذى فتح باب الفتن والقتال بين المسلمين والاختلاف فى الآراء إلا الخروج على الأئمة ؟!

فيرى أهل السنة والجماعة وجوب إقامة الحج والجهاد مع الأمراء ، وإن كانوا فجارًا .

ولكن هذا لا يعنى أن أهل السنة والجماعة لا يرون أن فعل الأمير منكر ، بل يرون أنه منكر ، وأن فعل الأمير للمنكر قد يكون أشد من فعل عامة الناس ؛ لأن فعل الأمير للمنكر يلزم منه زيادة على إثمه محظوران عظيمان :

الأول : اقتداء الناس به وتهاونهم بهذا المنكر .

والثاني : أن الأمير إذا فعل المنكر سيقل فى نفسه تغييره على الرعية أو تغيير مثله أو مقاربه .

لكن أهل السنة والجماعة يقولون : حتى مع هذا الأمر المستلزم لهذين المحظورين أو لغيرهما ؛ فإنه يجب علينا طاعة ولاة الأمور وإن كانوا عصاة فنقيم معهم الحج والجهاد ، وكذلك الجُمع ؛ نقيمها مع الأمراء ، ولو كانوا فجّارًا .

فالأمير إذا كان يشرب الخمر مثلًا ، ويظلم الناس بأموالهم ، نصلى خلفه الجمُعة ، وتصح الصلاة ، حتى إن أهل السنة والجماعة يرون صحة الجمعة خلف الأمير المبتدع إذا لم تصل بدعته إلى الكفر ؛ لأنهم يرون أن الاختلاف عليه فى مثل هذه الأمور شرٌ ، ولكن لا يليق بالأمير الذى له إمامة الجمعة أن يفعل هذه المنكرات .

وكذلك أيضًا إقامة الأعياد مع الأمراء الذين يصلون بهم ، أبرارًا كانوا أو فجارًا .

وبهذه الطريق الهادئة يتبين أن الدين الإسلامى وسط بين الغالى فيه والجافى عنه .

فقد يقول قائل : كيف نصلى خلف هؤلاء ونتابعهم فى الحج والجهاد والجمع والأعياد ؟ !

فنقول : لأنهم أئمتنا ، ندين لهم بالسمع والطاعة : امتثالًا لأمر الله بقوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء : ٥٩] . ولأمر النبى ﷺ بقوله : « إنكم سترون بعدى أثرة وأمورًا تنكرونها » . قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : « أدوا إليهم حقهم ، وسلوا الله حقكم »[(١)] .

وحقهم : طاعتهم فى غير معصية الله .

وعن وائل بن حُجرٍ ؛ قال : سأل سلمة بن يزيد الجعفى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فقال : يا نبى الله ، أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ويمنعونا حقنا ؛ فما تأمرنا ؟ قال : « اسمعوا وأطيعوا ؛ فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم »[(٢)] .

وفى حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه ؛ قال : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره ، وألا تنازع الأمر أهله . قال : « إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم فيه من الله برهان »[(٣)] .

ولأننا لو تخلفنا عن متابعتهم ؛ لشققنا عصا الطاعة الذى يترتب على شقه أمور عظيمة ، ومصائب جسيمة .

والأمور التى فيها تأويل واختلاف بين العلماء إذا ارتكبها ولاة الأمور ؛ لا يحل لنا منابذتهم ومخالفتهم ، لكن يجب علينا مناصحتهم بقدر المستطاع فيما خالفوا فيه ؛ مما لا يسوغ فيه الاجتهاد ،

---

(١) أخرجه البخارى (٧٠٥٢) ، ومسلم (١٨٤٣) .

(٢) أخرجه مسلم (١٨٤٦) .

(٣) أخرجه البخارى (٧٠٥٦) ، ومسلم (١٧٠٩) .

وأما ما يسوغ فيه الاجتهاد ؛ فنبحث معهم فيه بحث تقدير واحترام ؛ لنبين لهم الحق ، لا على سبيل الانتقاد لهم والانتصار للنفس ، وأما منابذتهم وعدم طاعتهم ؛ فليس من طريق أهل السنة والجماعة .

أي : يحافظ أهل السنة والجماعة على الجماعات ؛ أي : على إقامة الجماعة فى الصلوات الخمس ؛ يحافطون عليها محافظة تامّة ؛ بحيث إذا سمعوا النداء ؛ أجابوا وصلوا مع المسلمين ؛ فمن لم يحافظ على الصلوات الخمس ؛ فقد فاته من صفات أهل السنة والجماعة ما فاته من هذه الجماعات .

وربما يدخل فى الجماعات الاجتماع على الرأى وعدم النزاع فيه ؛ فإن هذا ما أوصى به النبى صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم معاذ بن جبل وأبا موسى حين بعثهما إلى اليمن ، فقال : « يسّرا ولا تعسرا ، وبشّرا ولا تنفرا ، وتطاوعا ، ولا تختلفا »(١) .

« يدينون » . أي : يتعبدون للَّه ﷻ بالنصيحة للأمة ، ويعتقدون ذلك دينًا .

والنصح للأمة قد يكون الحامل عليه غير التعبد للَّه ؛ فقد يكون الحامل عليه الغيرة ، وقد يكون الحامل عليه الخوف من العقوبات ، وقد يكون الحامل عليه أن يتخلق بالأخلاق الفاضلة التى يريد بها نفع المسلمين . . . إلى غير ذلك من الأسباب .

لكن هؤلاء ينصحون للأمة طاعة للَّه تعالى وتدينًا له ؛ لقول الرسول عليه الصلاة والسلام فى حديث تميم بن أوسٍ الدّاري : « الدين النصيحة ، الدين النصيحة » . قالوا : لمن يا رسول اللَّه ؟ قال : « للَّه ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم »(٢) .

– فالنصيحة للَّه صدق الطلب فى الوصول إليه .

– والنصيحة للرسول عليه الصلاة والسلام صدق الاتباع له ، ويستلزم ذلك الذود عن دين اللَّه ﷻ الذى جاء به رسوله ﷺ ، ولهذا قال : « ولكتابه » .

– فينصح للقرآن ببيان أنه كلام اللَّه ، وأنه منزل غير مخلوق ، وأنه يجب تصديق خبره وامتثال أحكامه ، وهو كذلك يعتقده فى نفسه .

– « وأئمة المسلمين » . كل مَن ولاه اللَّه أمرًا من أمور المسلمين ؛ فهو إمام فى ذلك الأمر ؛ فهناك إمام عام كرئيس الدولة ، وهناك إمام خاص ؛ كالأمير والوزير والمدير والرئيس وأئمة المساجد وغيرهم .

– وعامتهم ؛ يعني : عامة المسلمين ، وهم التابعون للأئمة .

– ومن أعظم أئمة المسلمين العلماء ، والنصيحة لعلماء المسلمين هى نشر محاسنهم ، والكف عن مساوئهم ، والحرص على إصابتهم الصواب ؛ بحيث يرشدهم إذا أخطئوا ، ويبين لهم الخطأ على وجه لا يخدش كرامتهم ، ولا يحطُّ من قدرهم ؛ لأن تخطئة العلماء على وجه يحط من قدرهم ضرر على عموم

(١) أخرجه البخارى (٣٠٣٨) ، ومسلم (١٧٣٣) .

(٢) أخرجه مسلم (٥٥) .

الإسلام ؛ لأن العامة إذا رأوا العلماء يضَلّل بعضهم بعضًا سقطوا من أعينهم وقالوا : كل هؤلاء رادٌّ ومردود عليه ، فلا ندرى من الصواب معه ! فلا يأخذون بقول أى واحد منهم ، لكن إذا احترم العلماء بعضهم بعضًا ؛ وصار كل واحد يرشد أخاه سرًّا إذا أخطأ ، ويعلن للناس القول الصحيح ؛ فإن هذا من أعظم النصيحة لعلماء المسلمين .

وقول المؤلف : « للأمة » . يشمل الأئمة والعامة ؛ فأهل السنة والجماعة يدينون بالنصيحة للأمة ؛ أئمتهم وعامتهم .

وكان مما يبايع الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه : « والنصح لكل مسلم »[1] .

فإذا قال قائل : ما ميزان النصيحة للأمة ؟

فالميزان هو ما أشار إليه النبى عليه الصلاة والسلام بقوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[2] . فإذا عاملت الناس هذه المعاملة ؛ فهذا هو تمام النصيحة .

فقبل أن تعامل صاحبك بنوع من المعاملة فكر ؛ هل ترضى أن يعاملك شخص .. ؟ فإن كنت لا ترضى فلا تعامله ! !

شبه النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم المؤمن لأخيه المؤمن بالبنيان الذى يَشدُّ بعضه بعضًا ، حتى يكون بناء محكمًا متماسكًا يشد بعضه بعضًا ، ويقوى به ، ثم قرب هذا وأكده ، فشبك بين أصابعه .

فالأصابع المتفرقة فيها ضعف ، فإذا اشتبكت قوّى بعضها بعضًا فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا ، فالبنيان يمسك بعضه بعضًا ، كذلك المؤمن مع أخيه إذا صار فى أخيه نقص ، فإن هذا يكمله ، فهو مرآة أخيه إذا وجد فيه النقص كمله ، إذا احتاج أخوه ساعده ، إذا مرض أخوه عاده . . . . وهكذا فى كل الأحوال . فأهل السنة والجماعة يعتقدون هذا المعنى ويطبقونه عملًا .

« قوله » : هنا معطوف على : « قوله » فى الحديث السابق .

أي : مودة بعضهم بعضًا .

أي : رحمة بعضهم بعضًا .

أي : عطف بعضهم على بعض .

أي : أنهم يشتركون فى الآمال والآلام ، فيرحم بعضهم بعضًا ، فإذا احتاج أزال حاجته ، ويعطف بعضهم على بعض باللين والرفق وغير ذلك .. ويود بعضهم بعضًا ، حتى إن الواحد منهم إذا رأى فى قلبه بغضاء لأحد من إخوانه المسلمين ، حاول أن يزيله وأن يذكر من محاسنه ما يوجب زوال هذه البغضاء .

فالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو ، ولو من أصغر الأعضاء ، تداعى له سائر الجسد ، فإذا أوجعك

---

(١) أخرجه البخارى (٥٧) ، ومسلم (٥٦) .

(٢) أخرجه البخارى (١٣) ، ومسلم (٤٥) .

إصبعَك الخنصر الذى هو من أصغر الأعضاء ؛ فإن الجسد كله يتألم ، إذا أوجعتك الأذن ؛ تألم الجسد كله ، وإذا أوجعتك العين ؛ تألم الجسد كله ، وغير ذلك .

فهذا المثل الذى ضربه النبى عليه الصلاة والسلام مَثَلٌ مصور للمعنى ومقرب له غاية التقريب .

« يأمرون » . قد يقال : إن هذه الكلمة تشمل أمر نفوسهم ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ [يوسف : ٥٣] . فهم يأمرون حتى أنفسهم .

الصبر : هو تحمل البلاء ، وحبس النفس عن التسخط بالقلب أو اللسان أو الجوارح .

والبلاء : المصيبة ؛ قال اللَّه تعالى : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة : ١٥٥، ١٥٦] .

فالصبر يكون عند البلاء ، وأفضله وأعلاه الصبر عند الصدمة الأولى ، وهذا عنوان الصبر الحقيقي ؛ كما قاله النبى ﷺ للمرأة التى مرَّ بها وهى تبكى عند قبرٍ ، فقال لها : « اتقى اللَّه واصبري . قالت : إليك عنى فإنك لم تصب بمصيبتى ولم تعرفه ، فقيل لها : إنه النبى ﷺ ، فأتت النبى ﷺ فلم تجد عنده بوابين ، فقالت : لم أعرفك . فقال : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى »[1] . أما بعد أن تبرد الصدمة ؛ فإن الصبر يكون سهلًا ، ولا ينال به كمال الصبر .

فأهل السنة والجماعة يأمرون بالصبر عند البلاء وما من إنسان ؛ إلا يبتلى إما فى نفسه وإما فى أهله ، وإما فى ماله ، وإما فى صحبه ، وإما فى بلده ، وإما فى المسلمين عامة . ويكون ذلك إما فى الدنيا وإما فى الدين ، والمصيبة فى الدين أعظم بكثير من المصيبة فى الدنيا .

فأهل السنة والجماعة يأمرون بالصبر عند البلاء فى الأمرين :

– فأما الصبر على بلاء الدنيا ؛ فأن يتحمل المصيبة كما سبق .

– وأما الصبر على بلاء الدين ؛ فأن يثبت على دينه ، ولا يتزعزع عنه ، ولا يكون كمن قال اللَّه تعالى فيهم : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت : ١٠] .

الرخاء : سعة فى العيش ، والأمن فى الوطن ، فيأمرون عند ذلك بالشكر .

وأيهما أشق الصبر على البلاء ، أو الشكر عند الرخاء ؟

اختلف العلماء فى ذلك ؛ فقال بعضهم : إن الصبر على البلاء أشق ، وقال آخرون : الشكر عند الرخاء أشق .

والصواب : أن لكل واحد آفته ومشقته ؛ لأن اللَّه ﷻ قال : ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ

---

(١) أخرجه البخارى (١٢٨٣) ، ومسلم (٩٢٦) .

نَزَعْنَهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود : ٩، ١٠] .

لكن كل منهما قد يهونه بعض التفكير : فالمصاب إذا فكر وقال : إن جَزَعى لا يرد المصيبة ولا يرفعها ؛ فإما أن أصبر صبر الكرام ، وإما أن أسلو سلو البهائم ، فهان عليه الصبر ، وكذلك الذى فى رخاء ورغد .

لكن أهل السنة والجماعة يأمرون بهذا وهذا ؛ بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء .

الرضا أعلى من الصبر . ومر القضاء : وهو ما لا يلائم طبيعة الإنسان ، ولهذا عبر عنه بـ : « المر » .

فإذا قضى الله قضاء لا يلائم طبيعة البشر ، وتأذى به ؛ سمى ذلك مر القضاء ؛ فهو ليس لذيذًا ولا حلوًا ، بل هو مر ؛ فهم يأمرون بالرضا بمر القضاء .

واعلم أن مُرَّ القضاء لنا فيه نظران :

النظر الأول : باعتباره فعلًا واقعًا من الله .

والنظر الثاني : باعتباره مفعولًا له .

فباعتبار كونه فعلًا من الله يجب علينا أن نرضى به ، ألا نعترض على ربنا به ؛ لأن هذا من تمام الرضا بالله ربًا .

وأما باعتباره مفعولًا له ؛ فهذا يسن الرضا به ، ويجب الصبر عليه .

فالمرض باعتبار كون الله قدره ، الرضا به واجب ، وباعتبار المرض نفسه يسن الرضا به ، وأما الصبر عليه ، فهو واجب ، والشكر عليه مستحب .

ولهذا نقول : المصابون لهم تجاه المصائب أربعة مقامات : المقام الأول : السخط ، والثاني : الصبر ، والثالث : الرضا ، والرابع : الشكر .

فأما السخط ؛ فحرام ، بل هو من كبائر الذنوب ؛ مثل أن يلطم خده ، أو ينتف شعره ، أو يشق ثوبه ، أو يقول : واثبوراه ! أو يدعو على نفسه بالهلاك وغير ذلك مما يدل على السخط ؛ قال النبى ﷺ : « ليس منا من شق الجيوب ولطم الخدود ودعا بدعوى الجاهلية »[1] .

الثاني : الصبر : بأن يحبس نفسه قلبًا ولسانًا وجوارحَ عن التسخط ؛ فهذا واجب .

الثالث : الرضا : والفرق بينه وبين الصبر : أن الصابر يتجرع المر ، لكن لا يستطيع أن يتسخَّط ؛ إلا أن هذا الشىء فى نفسه صعب ومُر ، ويتمثل بقول الشاعر :

والصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ مُرٌّ مَذَاقَتُهُ   لَكِنْ عَوَاقِبُهُ أحْلَى مِنَ العَسَلِ

لكن الراضى لا يذوق هذا مرًا ، بل هو مطمئن ، وكأن هذا الشىء الذى أصابه لا شىء .

---

(١) أخرجه البخارى (١٢٩٤) ، ومسلم (١٠٣) .

وجمهور العلماء على أن الرضى بالمَقْضِي مستحب ، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية ، وهو الصحيح .

الرابع : الشكر : وهو أن يقول بلسانه وحاله : « الحمد لله » ، ويرى أن هذه المصيبة نعمة ، لكن هذا المقام قد يقول قائل : كيف يكون ؟!

فنقول : يكون لمن وفقه الله تعالى :

فأولًا : لأنه إذا علم أن هذه المصيبة كفارة للذنب ، وأن العقوبة على الذنب في الدنيا أهون من تأخير العقوبة في الآخرة صارت هذه المصيبة عنده نعمة يشكر الله عليها .

وثانيًا : أن هذه المصيبة إذا صبر عليها أثيب ؛ لقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر : ١٠] .

فيشكر الله على هذه المصيبة الموجبة للأجر .

وثالثا : أن الصبر من المقامات العالية عند أرباب السلوك ، لا ينال إلا بوجود أسبابه ، فيشكر الله على نيل هذا المقام .

ويُذْكَر أن بعض العابدات أصيبت في إصبعها ، فشكرت الله ، فقيل لها في ذلك ، فقالت : إن حلاوة أجرها أنستني مرارة صبرها .

فأهل السنة والجماعة رحمهم الله يأمرون بالصبر على البلاء ، والشكر عند الرخاء ، والرضا بمر القضاء .

تتمة :

القضاء يطلق على معنيين :

أحدهما : حكم الله تعالى الذى هو قضاؤه ووصفه ، فهذا يجب الرضا به بكل حال ، سواء كان قضاء دينيًا أم قضاء كونيًا ؛ لأنه حكم الله تعالى ، ومن تمام الرضا بربوبيته .

– فمثال القضاء الديني قضاؤه بالوجوب والتحريم والحل ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء : ٢٣] .

– ومثال القضاء الكوني : قضاؤه بالرخاء والشدة والغنى والفقر والصلاح والفساد والحياة والموت ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ [سبأ : ١٤] . ومنه قوله تعالى : ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء : ٤] .

المعنى الثاني : المقضي ، وهو نوعان :

الأول : المقضى شرعًا ، فيجب الرضا به وقبوله ، فيفعل المأمور به ، ويترك المنهى عنه ، ويتمتع بالحلال .

والنوع الثاني : المقضى كونًا :

- فإن كان من فعل الله ؛ كالفقر والمرض والجدب والهلاك ونحو ذلك ، فقد تقدم أن الرضا به سنة ، لا واجب ، على القول الصحيح .

- وإن كان من فعل العبد ؛ جرت فيه الأحكام الخمسة ؛ فالرضا بالواجب واجب ، وبالمندوب مندوب ، وبالمباح مباح ، وبالمكروه مكروه ، وبالحرام حرام .

قوله : « ويَدْعُون إلى مكارمِ الأخلاقِ » : أي : أطايبها ، والكريم من كل شيء هو الطيب منه بحسب ذلك الشيء ، ومنه قول الرسول ﷺ لمعاذ : « إياك وكرائم أموالهم »[1] ؛ حين أمره بأخذ الزكاة من أهل اليمن . والأخلاق : جمع خلق ، وهو الصورة الباطنة فى الإنسان ؛ يعني : السجايا والطبائع ، فهم يدعون إلى أن يكون الإنسان سريرته كريمة ، فيحب الكرم والشجاعة والتحمل من الناس والصبر ، وأن يلاقى الناس بوجه طلق وصدرٍ منشرح ونفس مطمئنة ؛ كل هذه من مكارم الأخلاق .

« محاسن الأعمال » ؛ هى مما يتعلق بالجوارح ، ويشمل الأعمال التعبدية والأعمال غير التعبدية ؛ مثل البيع والشراء والإجارة ؛ حيث يدعون الناس إلى الصدق والنصح فى الأعمال كلها ، وإلى تجنب الكذب والخيانة ، وإذا كانوا يدعون الناس إلى ذلك ، فهم بفعله أولى .

هذا الحديث[2] ينبغى أن يكون دائمًا نُصب عينى المؤمنِ ، فأكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا مع الله ومع عباد الله .

- أما حسن الخلق مع الله ؛ فأن تتلقى أوامره بالقبول والإذعان والانشراح وعدم الملل والضجر ، وأن تتلقى أحكامه الكونية بالصبر والرضا وما أشبه ذلك .

- أما حسن الخلق مع الخَلْق ؛ فقيل : هو بذل الندى ، وكَفُّ الأذى ، وطلاقةُ الوجه .

بذل الندى ؛ يعني : الكرم ، وليس خاصًا بالمال ، بل بالمال والجاه والنفس ، وكل هذا من بذل الندى .

وطلاقة الوجه ضده العبوس .

وكذلك كف الأذى لا يؤذى أحدًا لا بالقول ولا بالفعل .

قوله : « ويَنْدُبون » : أي : يدعون .

« أن تصل من قطعك » . من الأقارب ممن تجب صلتهم عليك ، إذا قطعوك ؛ فصِلْهم ، لا تقل : من وصلني وصلته . فإن هذا ليس بصلة ، كما قال النبى عليه الصلاة والسلام : « ليس الواصل بالمكافئ ،

---

(١) أخرجه البخارى (١٤٩٦) ، ومسلم (١٩) .

(٢) صححه الألبانى فى « صحيح الجامع » (١٢٣٠- ١٢٣٢) .

إنما الواصل من إذا قطعت رحمه وصلها »[1]. فالواصل هو الذى إذا قطعت رحمه وصلها .

وسأل النبى ﷺ رجلٌ ، فقال : يا رسول اللَّه ، إن لى أقارب أصلهم ويقطعونني ، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ ، وأحلم عنهم ويجهلون علي . فقال النبى ﷺ : « إن كنت كما قلت ، فكأنما تسفهم المل ، ولا يزال معك من اللَّه ظهير عليهم ما دمت على ذلك »[2] .

« تسفهم المل » ؛ أي : كأنما تضع التراب أو الرماد الحار فى أفواههم .

فأهل السنة والجماعة يندبون إلى أن تصل من قطعك ، وأن تصل من وصلك بالأولى ، لأن من وصلك وهو قريب ، صار له حقان : حق القرابة ، وحق المكافأة ؛ لقول النبى عليه الصلاة والسلام : « من صنع إليكم معروفًا ، فكافئوه »[3] .

قوله : « وتُعْطِيَ مَن حَرَمَك » : أي : من منعك ، ولا تقل : منعني فلا أعطيه .

قوله : « وتَعْفُوَ عمَّن ظلَمَك » : أي : من انتقصك حقك : إما بالعدوان ، وإما بعدم القيام بالواجب .

والظلم يدور على أمرين : اعتداء وجحود : إما أن يعتدى عليك بالضرب وأخذ المال وهتك العرض ، وإما أن يجحدك فيمنعك حقك .

وكمال الإنسان أن يعفو عمن ظلمه .

ولكن العفو إنما يكون عند القدرة على الانتقام ، فأنت تعفو مع قدرتك على الانتقام .

أولًا : رجاء لمغفرة اللَّه ﷻ ورحمته ؛ فإن من عفا وأصلح فأجره على اللَّه .

ثانيًا : لإصلاح الود بينك وبين صاحبك ؛ لأنك إذا قابلت إساءته بإساءة ؛ استمرت الإساءة بينكما ، وإذا قابلت إساءته بإحسان ، عاد إلى الإحسان إليك ، وخجل ، قال اللَّه تعالى : ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت : ٣٤] .

فالعفو عند المقدرة من سمات أهل السنة والجماعة ، لكن بشرط أن يكون العفو إصلاحًا ؛ فإن تضمن العفو إساءة ؛ فإنهم لا يندبون إلى ذلك ؛ لأن اللَّه اشترط فقال : ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ [الشورى : ٤٠] . أي : كان فى عفوه إصلاح ، أما من كان فى عفوه إساءة ، أو كان سببًا للإساءة ؛ فهنا نقول : لا تعف . مثل أن يعفو عن مجرم ، ويكون عفوه هذا سببًا لاستمرار هذا المجرم فى إجرامه ؛ فترك العفو هنا أفضل ، وربما يجب ترك العفو حينئذ .

قوله : « ويَأْمُرُون بِبِرِّ الوالدَيْن » : وذلك لعظم حقهما .

ولم يجعل اللَّه لأحد حقًّا يلى حقه وحق رسوله إلا للوالدين ، فقال : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ

---

(١) أخرجه البخارى (٥٩٩١) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٥٨) .

(٣) صححه الألبانى فى « صحيح الجامع » (٦٠٢١) .

﴿شَيْـًٔا وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦].

وحق الرسول فى ضمن الأمر بعبادة الله، لأنه لا تتحقق العبادة حتى يقوم بحق الرسول عليه الصلاة والسلام، بمحبته واتباع سبيله، ولهذا كان داخلًا فى قوله: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾. وكيف يعبد الله إلا من طريق الرسول ﷺ، وإذا عبد الله على مقتضى شريعة الرسول، فقد أدى حقَّه.

ثم يلى ذلك حق الوالدين؛ فالوالِدان تعبا على الولد، ولا سيما الأم، قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: ١٥]. وفى آية أخرى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤]، والأم تتعب فى الحمل، وعند الوضع، وبعد الوضع، وترحم صبيها أشد من رحمة الوالد له، ولهذا كانت أحق الناس بحسن الصحبة والبر، حتى من الأب.

قال رجل: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك». ثم قال فى الرابعة: «ثم أبوك»[1].

والأب أيضًا يتعب فى أولاده، ويضجر بضجرهم، ويفرح لفرحهم، ويسعى بكل الأسباب التى فيها راحتهم وطمأنينتهم وحسن عيشهم، يضرب الفيافى والقِفار من أجل تحصيل العيش له ولأولاده.

فكل من الأم والأب له حق، مهما عملت من العمل لن تقضى حقهما، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]؛ فحقهم سابق؛ حيث ربياك صغيرًا حين لا تملك لنفسك نفعًا ولا ضرًّا؛ فواجبهما البر.

والبر فرض عين بالإجماع على كل واحد من الناس، ولهذا قدمه النبى ﷺ على الجهاد فى سبيل الله؛ كما فى حديث ابن مسعود؛ قال: قلت: يا رسول الله، أى العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد فى سبيل الله»[2].

والوالدان هما الأب والأم، أما الجد والجدة؛ فلهما بر، لكنه لا يساوى بر الأم والأب؛ لأن الجد والجدة لم يحصل لهما ما حصل للأم والأب من التعب والرعاية والملاحظة؛ فكان برهما واجبًا من باب الصلة، لكن هما أحق الأقارب بالصلة، أما البر؛ فإنه للأم والأب.

لكن؛ ما معنى البر؟

البر: إيصال الخير بقدر ما تستطيع، وكف الشرِّ.

إيصال الخير بالمال، وإيصال الخير بالخدمة، وإيصال الخير بإدخال السرور عليهما؛ من طلاقة الوجه، وحسن المقال والفعال، وبكل ما فيه راحتهما.

---

(١) أخرجه البخارى (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤٨).

(٢) أخرجه البخارى (٥٢٧)، ومسلم (٨٥).

ولهذا كان القول الراجح وجوب خدمة الأب والأم على الأولاد ، إذا لم يحصل على الولد ضرر ، فإن كان عليه ضرر ؛ لم يجب عليه خدمتهما ، اللهم إلا عند الضرورة .

ولهذا نقول : إن طاعتهما واجبة فيما فيه نفع لهما ولا ضرر على الولد فيه ، أما ما فيه ضرر عليه ، سواء كان ضررًا دينيًا ؛ كأن يأمراه بترك واجب أو فعل محرم ؛ فإنه لا طاعة لهما فى ذلك ؛ ، أو كان ضررًا بدنيًا ؛ فلا يجب عليه طاعتهما . أما المال ؛ فيجب عليه أن يبرهما ببذله ، ولو كَثر ، إذا لم يكن عليه ضرر ، ولم تتعلق به حاجته ، والأب خاصة له أن يأخذ من مال ولده ما شاء ، ما لم يضر .

وإذا تأملنا فى أحوال الناس اليوم ؛ وجدنا كثيرًا منهم لا يبر بوالديه ، بل هو عاقٌّ ، تجده يحسن إلى أصحابه ، ولا يمل الجلوس معهم ، لكن لو يجلس إلى أبيه وأمه ساعة من نهار ؛ لوجدته متململًا ، كأنما هو على الجمر ؛ فهذا ليس ببارٍّ ، بل البار من ينشرح صدره لأمه وأبيه ويخدمهما على أهداب عينيه ، ويحرص غاية الحرص على رضاهما بكل ما يستطيع .

وكما قالت العامة : « البر أسْلاف » . فإن البر مع كونه يحصل به البار على ثواب عظيم فى الآخرة ؛ فإنه يجازى به فى الدنيا . فالبر والعقوق كما يقول العوام : « أسلاف » . أقرض ؛ تستوف ، إنْ قدمت البر ؛ برك أولادك ، وإن قدمت العقوق ؛ عقك أولادك . . .

وهنا حكايات كثيرة فى أن من الناس من بر والديه فبر به أولاده ، وكذلك العقوق فيه حكايات تدل على أن الإنسان عقه أولاده كما عق هو آباءه .

فأهل السنة والجماعة يأمرون ببر الوالدين .

وكذلك يأمرون بصلة الأرحام .

ففرق بين الوالدين والأقارب الآخرين ، الأقارب لهم الصلة ، والوالدان لهما البر ، والبر أعلى من الصلة ؛ لأن البر كثرة الخير والإحسان ، لكن الصلة ألا يقطع ، ولهذا يقال فى تارك البر : إنه عاق ، ويقال فيمن لم يصل : إنه قاطع ، فصلة الأرحام واجبة ، وقطعها سبب للعنة والحرمان من دخول الجنة ، قال اللَّه تعالى : ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد : ٢٢، ٢٣] ، وقال النبى عليه الصلاة والسلام : « لا يدخل الجنة قاطع »[1] ؛ أي : قاطع رحم .

والصلة جاءت فى القرآن والسنة مطلقة .

وَكُلُّ ما أتى وَلَمْ يُحَدَّدِ ... بِالشَّرْعِ كَالحِرْزِ فَبِالعُرْفِ احْدُدِ

وعلى هذا يرجع إلى العرف فيها ، فما سماه الناس صلة فهو صلة ، وما سماه قطيعة فهو قطيعة ، وهذه تختلف باختلاف الأحوال والأزمان والأمكنة والأمم .

(١) أخرجه البخارى (٥٩٨٤) ، ومسلم (٢٥٥٦) .

- إذا كان الناس فى حالة فقر وأنت غني ، وأقاربك فقراء ، فصلتهم أن تعطيهم بقدر حالك .
- وإذا كان الناس أغنياء ، وكلهم فى خير ؛ فيمكن أن يعد الذهاب إليهم فى الصباح أو المساء صلة .

وفى زماننا هذه الصلة بين الناس قليلة ، وذلك لانشغال الناس فى حوائجهم ، وانشغال بعضهم عن بعض ، والصلة التامة أن تبحث عن حالهم ، وكيف أولادهم ، وترى مشاكلهم ، ولكن هذه مع الأسف مفقودة ، كما أن البر التام مفقود عند كثير من الناس .

قوله : « وحُسْنِ الجِوَارِ » : أى : ويأمرون ؛ يعني : أهل السنة والجماعة بحسن الجوار مع الجيران ، والجيران هم الأقارب فى المنزل ، أدناهم أولاهم بالإحسان والإكرام : قال اللّٰه تعالى : ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ [النساء : ٣٦] ، فأوصى اللّٰه بالإحسان إلى الجار القريب والجار البعيد .

وقال النبى ﷺ : « من كان يؤمن باللّٰه واليوم الآخر فليكرم جاره »[١] . وقال : « إذا طبخت مرقة ؛ فأكثر من مائها ، وتعاهد جيرانك »[٢] .

وقال : « ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه »[٣] .

وقال : « واللّٰه لا يؤمن ، واللّٰه لا يؤمن ، واللّٰه لا يؤمن » . قيل : من يا رسول اللّٰه ؟ قال : « الذى لا يأمن جاره بوائقه »[٤] . إلى غير ذلك من النصوص الدالة على العناية بالجار والإحسان إليه وإكرامه .

والجار إن كان مسلمًا قريبًا ؛ كان له ثلاثة حقوق : حق الإسلام ، وحق القرابة ، وحق الجوار .

وإن كان قريبًا جارًا ؛ فله حقان : حق القرابة ، وحق الجوار .

وإن كان مسلمًا غير قريب وهو جار ؛ فله حقان : حق الإسلام ، وحق الجوار .

وإن كان جارًا كافرًا بعيدًا ؛ فله حق واحد ، وهو حق الجوار .

فأهل السنة والجماعة يأمرون بحسن الجوار مطلقًا ، أيًا كان الجار ، ومن كان أقرب فهو أولى .

ومن المؤسف أن بعض الناس اليوم يسيئون إلى الجار أكثر مما يسيئون إلى غيره ، فتجده يعتدى على جاره بالأخذ من ملكه وإزعاجه .

وقد ذكر الفقهاء رحمهم اللّٰه فى آخر باب الصلح فى الفقه شيئًا من أحكام الجوار ؛ فليرجع إليه .

كذلك يأمرون ؛ أي : أهل السنة والجماعة بالإحسان إلى هؤلاء الأصناف الثلاثة .

اليتامى : جمع يتيم ، وهو الذى مات أبوه قبل بلوغه .

---

(١) أخرجه البخارى (٦٠٩١) ، ومسلم (٤٧) .
(٢) أخرجه مسلم (٢٧٢٥) .
(٣) أخرجه البخارى (٦٠١٥) ، ومسلم (٢٦٢٥) .
(٤) أخرجه البخارى (٦٠١٦) ، ومسلم (٤٦) .

وقد أمر اللَّه تعالى بالإحسان إلى اليتامى ، وكذلك النبى ﷺ حث عليه فى عدة أحاديث .

ووجه ذلك أن اليتيم قد انكسر قلبه بفقد أبيه ، فهو فى حاجة إلى العناية والرفق .

والإحسان إلى اليتامى يكون بحسب الحال .

والمساكين : هم الفقراء ، وهو هنا شامل للمسكين والفقير .

فالإحسان إليهم مما أمر به الشرع فى آيات متعددة من القرآن ، وجعل لهم حقوقًا خاصَّة فى الفىء وغيره .

ووجه الإحسان إليهم أن الفقر أسكنهم وأضعفهم وكسر قلوبهم ، فكان من محاسن الإسلام أن نحسن إليهم جبرًا لما حصل لهم من النقص والانكسار .

والإحسان إلى المساكين يكون بحسب الحال : فإذا كان محتاجًا إلى طعام ؛ فالإحسان إليه بأن تطعمه ، وإذا كان محتاجًا إلى كُسوة ؛ فالإحسان إليه بأن تكسوه ، وإلى اعتبار بأن توليه اعتبارًا ، فإذا دخل المجلس ترحب به ، وتقدمه لأجلِ أن ترفعَ من معنوياته .

فمن أجل هذا النقص الذى قدره اللَّه ﷻ عليه بحكمته أمرنا ﷻ أن نحسنَ إليهم .

ابن السبيل ، وهو المسافر ، وهو هنا المسافر الذى انقطع به السفر ، أو لم ينقطع ؛ بخلاف الزكاة ؛ لأن المسافر غريب ، والغريب مستوحش ، فإذا آنسته بإكرامه والإحسان إليه ، فإن هذا مما يأمر به الشرع .

فإذا نزل ابن سبيل بك ضيفًا ؛ فمن إكرامه أن تُكرم ضيافته .

لكن قال بعض العلماء : إنه لا يجب إكرامه بضيافته إلا فى القرى دون الأمصار ! .

ونحن نقول : بل هى واجبة فى القرى والأمصار ؛ إلا أن يكون هناك سبب ؛ كضيق البيت مثلا ، أو أسباب أخرى تمنع أن تضيف هذا الرجل ، لكن على كل حال ينبغى إذا تعذر أن تُحسن الردَّ .

قوله : « والرِّفْقِ بالمَمْلوكِ » : يعني : أن أهل السنة والجماعة يأمرون بالرفق بالمملوك .

وهذا يشمل المملوك الآدمى والبهيم :

- فالرفق بالمملوك الآدمى أن تطعمه إذا طعمت ، وتكسوه إذا اكتسيت ، ولا تكلفه ما لا يُطيق .

- والرفق بالمملوك من البهائم سواء كانت مما تركب أو تحلب أو تقتنى ؛ يختلف بحسب ما تحتاج إليه ؛ ففى الشتاء تجعلها فى الأماكن الدافئة إذا كانت لا تتحمل البرد ، وفى الصيف فى الأماكن الباردة إذا كانت لا تتحمل الحر ، ويؤتى لها بالطعام وبالشراب إن لم تحصل عليه بنفسها بالرعي ، وإذا كانت مما تحمل ، فلا تحمل ما لا تطيق .

وهذا يدل على كمال الشرع ، وأنه لم ينسَ حتى البهائم ، وعلى شمولية طريقة أهل السنة والجماعة .

الفخر بالقول ، والخيلاء بالفعل ، والبغي العدوان ، والاستطالة الترفع والاستعلاء .

فينهون عن الفخر : أن يتفاخر الإنسان على غيره بقوله ، فيقول : أنا العالم ! أنا الغني ! أنا الشجاع ! .

وإن زاد على ذلك أن يستطيل على الآخرين ويقول : ماذا أنتم عندي ؟ فيكون هذا فيه بغي واستطالة على الخلق .

والخيلاء تكون بالأفعال ؛ يتخايل في مشيته وفي وجهه وفي رفع رأسه ورقبته إذا مشى ، كأنه وصل إلى السماء ، والله ﷻ وبّخ من كان هذا فعله ، وقال : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء : ٣٧] .

فأهل السنة والجماعة ينهون عن هذا ، ويقولون : كن متواضعًا في القول وفي الفعل ، حتى في القول ، لا تثنِ على نفسك بصفاتك الحميدة ؛ إلا حيث دعت الضرورة أو الحاجة إلى ذلك ؛ كقول ابن مسعود رضي الله عنه : « لو أعلم أحدًا هو أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل ؛ لركبت إليه »(١) ؛ فإنه رضي الله عنه قصد بذلك أمرين :

الأول : حث الناس على تعلم كتاب الله تعالى .

والثاني : دعوتهم للتلقي عنه .

والإنسان ذو الصفات الحميدة لا يظن أن الناس تخفى عليهم خصاله أبدًا ، سواء ذكرها للناس أم لم يذكرها ، بل إن الرجل إذا صار يعدد صفاته الحميدة أمام الناس سقط من أعينهم ؛ فاحذر هذا الأمر .

والبغي : العدوان على الغير ، ومواقعه ثلاثة بينها الرسول ﷺ في قوله : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام »(٢) .

فالبغي على الخلق بالأموال والدماء والأعراض .

– في الأموال ؛ مثل أن يدعي ما ليس له ، أو ينكر ما كان عليه ، أو يأخذ ما ليس له ، فهذا بغي على الأموال .

– وفي الدماء : القتل فما دونه ؛ يعتدي على الإنسان بالجرح والقتل .

– وفي الأعراض : يحتمل أن يراد بها الأعراض ؛ يعني : السمعة ، فيعتدي عليه بالغيبة التي يشوه بها سمعته ، ويحتمل أن يراد بها الزنى وما دونه ، والكل محرم ؛ فأهل السنة والجماعة ينهون عن الاعتداء على الأموال والدماء والأعراض .

وكذلك الاستطالة على الخلق ؛ يعني الاستعلاء عليهم بحق أو بغير حق .

فالاستعلاء على الخلق ينهى عنه أهل السنة والجماعة ، سواء كان بحق أو بغير حق ، والاستعلاء هو

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٠٢) ، ومسلم (٢٤٦٣) .

(٢) أخرجه البخاري (٦٧) ، ومسلم (١٦٧٩) .

أن الإنسان يترفع على غيره .

وحقيقة الأمر أن من شكر نعمة الله عليك أن الله إذا مَنَّ عليك بفضل على غيرك من مال أو جاه أو سيادة أو علم أو غير ذلك ، فإنه ينبغى أن تزداد تواضعًا ، حتى تضيف إلى الحسن حُسنى ؛ لأن الذى يتواضع فى موضع الرفعة هو المتواضع حقيقة .

ومعنى قوله : « بحق » . أي : حتى لو كان له الحق فى بيان أنه عالٍ مترفع ؛ فإن أهل السنة والجماعة ينهون عن الاستعلاء والترفع . أو يقال : إن معنى قوله : « الاستطالة بحق » . أن يكون أصل استطالته حقًّا ؛ بأن يكون قد اعتدى عليه إنسان ، فيعتدى عليه أكثر . فأهل السنة والجماعة رحِمهم الله ينهون عن الاستطالة والاستعلاء على الخلق ، سواء كان ذلك بحق أو بغير حق .

قوله : « ويَأْمُرُون بمعالى الأخلاقِ » : أي : ما كان عاليًا منها ؛ كالصدق والعفاف وأداء الأمانة ونحو ذلك .

قوله : « ويَنْهَوْن عن سَفْسَافِها » : أي : رديئها ؛ كالكذب والخيانة والفواحش ونحو ذلك .

قوله : « وكلُّ ما يقولونه » : أي : أهل السنة والجماعة .

قوله : « ويفعلونه » : من هذا وغيره .

قوله : « فإنما هم فيه مُتَّبِعون للكتابِ والسنةِ » : وهذه حال ينبغى أن يتنبه لها ، وهو أننا كل ما نقوله وكل ما نفعله نشعر حال قوله أو فعله أننا نتبع فيه الرسول عليه الصلاة والسلام ، مع الإخلاص للّه ؛ لتكون أقوالنا وأفعالنا كلها عبادات للّه ﷻ ، ولهذا يقال : إن عبادات الغافلين عادات ، وعادات المنتبهين عبادات .

فالإنسان الموفَّق يمكن أن يحول العادات إلى عبادات ، والإنسان الغافل يجعل عباداته عادات .

فليحرص المؤمن على أن يجعل أقواله وأفعاله كلها تبعًا لكتاب اللّه وسنة رسول ﷺ ؛ لينالَ بذلك الأجرَ ، ويحصل به كمال الإيمان والإنابة إلى اللّه ﷻ .

« أن أمته » . يعني : أمة الإجابة ، لا أمة الدعوة ؛ لأن أمة الدعوة يدخل فيها اليهود والنصارى ، وهم مفترقون ؛ فاليهود إحدى وسبعون فرقة ، والنصارى على اثنتينِ وسبعين فرقة ، وهذه الأمة على ثلاث وسبعين ؛ كلها تنسب نفسها إلى الإسلام واتباع رسول اللّه ﷺ .

قوله : « كلها فى النار إلا واحدة » . لا يلزم من ذلك الخلود فى النار ، وإنما المعنى أن عملها مما تستحق به دخول النار .

وهذه الثلاث والسبعون فرقة ؛ هل وقعت الآن وتمت أو هى فى المنظور؟

أكثر الذين تكلموا على هذا الحديث قالوا : إنها وقعت وانتهت ، وصاروا يقسمون أهل البدع إلى خمسة أصول رئيسية ، ثم هذه الخمسة الأصول يفرِّعون عنها فرقًا ، حتى أوصلوها إلى اثنتين وسبعين

فرقة ، وأبقوا فرقة واحدة ، وهى أهل السنة والجماعة .

وقال بعض العلماء : إن الرسول عليه الصلاة والسلام أبهم هذه الفرق ، ولا حاجة أن نتكلم فنقسم البدع الموجودة الآن إلى خمسة أصول ، ثم نقسم هذه الأصول إلى فروع ، حتى يتم العدد ، حتى إننا نجعل الفرع أحيانًا فرقة تامة من أجل مخالفتها فى فرعٍ واحدٍ ؛ فإن هذا لا يعد فرقة مستقلة .

فالأولى أن نقول : إن هذه الفرق غير معلومة لنا ، ولكننا نقول : بلا شك أنها فرق خرجت عن الصراط المستقيم ؛ منها ما خرج فأبعد ، ومنها ما خرج خروجًا متوسطًا ، ومنها ما خرج خروجًا قريبًا ، ولا نلزم بحصرها ؛ لأنه ربما يخرج فرق تنتسب للأمة الإسلامية غير التى عدها العلماء ؛ كما هو الواقع ؛ فقد خرج فرق تنتسب إلى الإسلام من غير الفرق التى كانت قد عدت فى عهد العلماء السابقين .

وعلى كل حال ؛ فالرسول عليه الصلاة والسلام أخبر أن أمَّته أمة الإجابة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها ضالة ، وفى النار ؛ إلا واحدة ، وهي :

« الجماعة » ؛ يعني : التى اجتمعت على الحق ولم تتفرق فيه .

الذين كانوا على ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه هم الجماعة الذين اجتمعوا على شريعته ، وهم الذين امتثلوا ما وصى اللّه به : ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى : ١٣] ؛ فهم لم يتفرقوا ، بل كانوا جماعة واحدة .

جملة « صار » جواب الشرط قوله : « لكن لما » .

فإذا سئلنا : من أهل السنة والجماعة ؟

فنقول : هم المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب .

وهذا التعريف من شيخ الإسلام ابن تيمية يقتضى أن الأشاعرة والماتريدية ونحوهم ليسو من أهل السنة والجماعة ؛ لأن تمسكهم مشوب بما أدخلوا فيه من البدع .

وهذا هو الصحيح ؛ أنه لا يعد الأشاعرة والماتريدية فيما ذهبوا إليه فى أسماء اللّه وصفاته من أهل السنة والجماعة .

وكيف يعدون من أهل السنة والجماعة فى ذلك مع مخالفتهم لأهل السنة والجماعة ؟ !

لأنه يقال : إما أن يكون الحق فيما ذهب إليه السلف ؛ لأن السلف هنا هم الصحابة والتابعون وأئمة الهدى من بعدهم . فإذا كان الحق فيما ذهب إليه السلف ، وهؤلاء يخالفونهم ؛ صاروا ليسوا من أهل السنة والجماعة فى ذلك .

قوله : « وفيهم » . أي : فى أهل السنة .

« الصديقون » : جمع صدِّيق ، من الصّدق ، وهذه الصيغة للمبالغة ، وهو الذى جاء بالصدق وصدق به ؛ كما قال تعالى : ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر : ٣٣] .

فهو صادق فى قَصْدِه ، وصادق فى قوله ، وصادق فى فعله .

- أما صدقه فى قصده ؛ فعنده تمام الإخلاص للّٰه ﷻ ، وتمام المتابعة للرسول عليه الصلاة والسلام ، قد جرد الإخلاص والمتابعة ، فلم يجعل لغير اللّٰه تعالى شريكًا فى العمل ، ولم يجعل لغير سنة الرسول ﷺ اتباعًا فى عمله ؛ فلا شرك عنده ولا ابتداع .

- صادق فى قوله ، لا يقول إلا صدقًا ، وقد ثبت عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال : « عليكم بالصدق ؛ فإن الصدق يهدى إلى البرّ ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند اللّٰه صدّيقًا »(1) .

- صادق فى فعله ؛ بمعنى : أن فعله لا يخالف قوله ، فإن قال فعل ، وبهذا يخرج عن مشابهةِ المنافقين الذين يقولون ما لا يفعلون .

- وأيضًا يصدق بما قامت البينة على صدقه ؛ فليس عنده ردٌّ للحق ، ولا احتقار للخلق .

ولهذا كان أبو بكر أول من سمى الصديق من هذه الأمة ؛ لأنه لما أسرى بالنبى عليه الصلاة والسلام وجعل يتكلم أنه أسرى به إلى بيت المقدس وعرج به إلى السماء ؛ صار الكفار يضحكون به ويكذبونه ويقولون : كيف تذهب يا محمد فى ليلة وتصل فى ليلة إلى ما وصلت إليه فى السماء ، ونحن إذا ذهبنا إلى الشام نبقى شهرًا لم نصله وشهرًا للرجوع ؟ ! فاتخذوا من هذا سُلَّمًا ليكذبوا الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولما وصلوا إلى أبى بكر ، وقالوا : إن صاحبك يحدث ويقول كذا وكذا ؟ قال : إن كان قال ذلك ؛ فقد صدق . فمن ذلك اليوم سمى الصديق ، وهو أفضل الصديقين من هذه الأمة وغيرها .

« الشهداء » جمع شهيد ، بمعنى : شاهد .

فمن هم الشهداء ؟

- قيل : هم العلماء ؛ لأن العالم يشهد بشرع اللّٰه ، ويشهد على عباد اللّٰه بأنها قامت عليهم الحجة ، ولهذا يعد العالم مبلغًا عن اللّٰه ﷻ ورسوله محمد ﷺ ، فيكون شاهدًا بالحق على الخلق .

- وقيل : إن الشهيد من قتل فى سبيل اللّٰه .

والصحيح أن الآية عامة لهذا وهذا .

الصالح ضد الفاسد ، وهو الذى قام بحق اللّٰه وحق عباده ، وهو غير المصلح ؛ فالإصلاح وصف زائد على الصَّلاح ؛ فليس كل صالح مصلحًا ؛ فإن من الصالحين من همه هم نفسه ، ولا يهتم بغيره ، وتمام الصلاح بالإصلاح .

الأعلام : جمع علم ، وهو فى الأصل الجبل ؛ قال اللّٰه تعالى : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الشورى : ٣٢] ؛ يعني : الجبال ، وسمى الجبل علمًا ؛ لأنه يهتدى به ويستدل به .

---

(١) أخرجه البخارى (٦٠٩٤) ، ومسلم (٢٦٠٧) .

« أعلام الهدى » : الذين يستدل الناس بهم ويهتدون بهديهم ، وهم العلماء الربانيون ؛ فإنهم هم الهداة وهم مصابيح الدُّجى .

المصابيح : جمع مصباح ، وهو [ما] يستصبح به للإضاءة .

الدجى : جمع دجية ، وهى الظلمة ؛ أي : هم مصابيح الظلم ، يستضيء بهم الناس ، ويمشون على نورهم .

« المناقب » : جمع منقبة ، وهى المرتبة ؛ أي : ما يبلغه الإنسان من الشرف والسُّؤدد .

« الفضائل » . جمع فضيلة ، وهى الخصال الفاضلة ، التى يتصف بها الإنسان من العلم والعبادة والزهد والكرم وغير ذلك ؛ فالفضائل سُلَّمٌ للمناقب .

« الأبدال » : جمع بدل ، وهم الذين تميزوا عن غيرهم بالعلم والعبادة ، وسموا أبدالًا : إما لأنهم كلما مات منهم واحد ، خلفه بدله ، أو أنهم كانوا يبدلون سيئاتهم حسنات ، أو أنهم كانوا لكونهم أسوة حسنة كانوا يبدلون أعمال الناس الخاطئة [أعمالًا مصيبة] ، أو لهذا كله وغيره .

الإمام : هو القدوة ، وفى أهل السنة والجماعة أئمة الدين الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ؛ مثل : الإمام أحمد ، والشافعي ، ومالك ، وأبى حنيفة ، وسفيان الثوري ، والأوزاعي ، وغيرهم من الأئمة المشهورين المعروفين ؛ كشيخ الإسلام ابن تيمية ، وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب .

وقوله : « أئمة الدين » : خرج به أئمة الضَّلال من أهل البدع ؛ فهؤلاء ليسوا من أهل السنة والجماعة ، بل هم على خلاف أهل السنة والجماعة ، وهم وإن سموا أئمة ؛ فإن من الأئمة أئمة يدعون إلى النار ، كما قال تعالى عن آل فرعون : ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص : ٤١] .

قوله : « وهم الطائفةُ المنصورةُ » : يعني : أهل السنة والجماعة هم الطائفة المنصورة التى نصَرها اللّٰه ﷻ ؛ لأنهم داخلون فى قوله تعالى : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر : ٥١] . فهم منصورون ، والعاقبة لهم .

ولكن لا بد قبل النصر من معاناة وتعبٍ وجهاد ؛ لأن النصر يقتضى منصورًا ومنصورًا عليه ؛ فلا بد من مغالبةٍ ، ولا بد من محنةٍ ، ولكن كما قال ابن القيم رحمه الله :

الحَقُّ مَنصورٌ وَمُمتَحَنٌ فَلا ... تَعجَبْ فَهذى سُنَّةُ الرَّحْمَنِ

فلا يلحقك العجز والكسل إذا رأيت أن الأمور لم تتم لك بأول مرة ، بل اصبر و كرر مرة بعد أخرى ، واصبر على ما يقال فيك من استهزاء وسخرية ؛ لأن أعداء الدين كثيرون .

لا يثنى عزمك أن ترى نفسك وحيدًا فى الميدان ؛ فأنت الجماعة وإن كنت واحدًا ، ما دمت على الحقِّ ، ولهذا ثق بأنك منصور إما فى الدنيا وإما فى الآخرة .

ثم إن النصر ليس نصر الإنسان بشخصه ، بل النصر الحقيقى أن ينصر اللّه تعالى ما تدعو إليه من الحق ، أما إذا أصيب الإنسان بذل فى الدنيا ؛ فإن ذلك لا ينافى [النصر] أبدًا ؛ فالنبى عليه الصلاة والسلام أوذى إيذاءً عظيمًا ، لكن فى النهاية انتصر على من آذاه ، ودخل مكة منصورًا مؤزَّرًا ظافرًا بعد أن خرج منها خائفًا .

هذا الحديث أخرجه البخارى ومسلم بنحو ما ساقه المؤلف عن عدد من الصحابة عن النبى ﷺ .

قوله : « لا تزال » : هذا من أفعال الاستمرار ، وأفعال الاستمرار أربعة ، وهي : فتئ ، وانفك ، وبرح ، وزال ، إذا دخل عليها النفى أو شبهه .

فقوله : « لا تزال طائفة من أمتى على الحق » . يعني : تستمر على الحق .

وهذه الطائفة غير محصورة بعدد ولا بمكان ولا بزمان ، يمكن أن تكون بمكان تنصر فيه فى شيء من أمور الدين ، وفى مكان آخر تنصر فيه طائفة أخرى ، وبمجموع الطائفتين يكون الدين باقيًا منصورًا مظفرًا .

وقوله : « لا يضرهم » : ولم يقل : لا يؤذيهم ؛ لأن الأذية قد تحصل لكن لا تضر ، وفرق بين الضرر والأذى ، ولهذا قال اللّه تعالى فى الحديث القدسي : « يا عبادي ، إنكم لن تبلغوا ضرى فتضروني »[1] . وقال سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأحزاب : ٥٧] ، وفى الحديث القدسي : « يؤذينى ابن آدم ؛ يسب الدهر ، وأنا الدهر »[2] .

فأثبت الأذى ونفى الضرر ، وهذا ممكن ، ألا ترى الرجل يتأذى برائحة البصل ونحوه ، ولا يتضرر بها .

وفى قوله : « حتى تقوم الساعة » . إشكال ؛ لأنه قد ثبت فى « الصحيح » أنها « لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض : اللّه ، اللّه »[3] ؛ أي : حتى يمحى الإسلام كله ، ولا يبقى من يعبد اللّه أبدًا ؛ فكيف قال هنا : « حتى تقوم الساعة » ؟!

وأجاب عنه العلماء بأحد جوابين :

١- إما أن يكون المراد حتى قرب قيام الساعة ، والشيء قد يعبر به عما قرب منه إذا كان قريبًا جدًّا ، وكأن هؤلاء المنصورين إذا ماتوا فإن الساعة تكون قريبة جدًّا .

٢- أو يقال : إن المراد بالساعة ساعتهم .

ولكن القول الأول أصح ؛ لأنه إذا قال : « حتى تقوم الساعة » . فقد تقوم ساعاتهم قبل الساعة العامة

---

(١) أخرجه البخارى (٢٥٧٧) .

(٢) أخرجه البخارى (٤٨٢٦) ، ومسلم (٢٢٤٥) .

(٣) أخرجه مسلم (١٤٨) .

بأزمنة طويلة ، وظاهر الحديث أن هذا النصر سيمتد إلى آخر الدنيا ؛ فالصواب أن المراد بذلك إلى قرب قيام الساعة . والله أعلم .

بهذا الدعاء الجليل ختم المؤلف رحمه الله هذه الرسالة القليلة اللفظ الكثيرة المعنى ، وهي تعتبر خلاصة مذهب أهل السنة والجماعة ، وفيها فوائد عظيمة ، ينبغي لطالب العلم أن يحفظها .

والحمد لله رب العالمين على الإتمَام ، ونسأل الله أن يتم ذلك بالقبول والثواب ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين .

قمت بمراجعة الكتاب وإضافة ما تدعو الضرورة إليه وحذف ما لا يحتاج إليه في يوم الجمعة السابع عشر من شعبان سنة ١٤١٤هـ ، وقمت بمراجعته مع المضاف مساء يوم الخميس السابع والعشرين من صفر سنة ١٤١٥هـ .

۞ قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك حفظه الله :

قوله : « ثُمَّ هُم مَّعَ هَٰذِهِ الأُصُولِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ... » :

* عقد الشيخ رحمه الله هذا الفصل الذي ختم به هذه العقيدة ؛ لبيان منهج أهل السنة في معاملة الناس ، وفي سلوكهم ، في أنفسهم ، وهم مع هذه الأصول المتقدمة كلها من : إيمانهم بالله ، وصفاته مما جاء في الكتاب والسنة على التفصيل المتقدم ، وإيمانهم باليوم الآخر بكل ما أخبر الله به في كتابه ، وأخبر به رسوله ﷺ .

وإيمانهم بالقدر ، وقولهم في الإيمان ، وقولهم في أصحاب الرسول ﷺ على التفصيل المتقدم ، واعتمادهم في الاستدلال على الكتاب والسنة والإجماع ، واقتفاء آثار السلف الصالح من الصحابة رضي الله عنهم .

مع هذه الأصول يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، فهم مصلحون ، ومنهجهم ليس علميًّا وعقديًّا فقط .

قوله : « عَلَى مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ » :

* لا على ما يوجبه الهوى والرأي المجرد ، فالمعتزلة من أصولهم : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لكنهم يُدخلون فيه الخروج على الأئمة ، ومن الناس مَن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر دون أن يتقيد بحدود الشريعة ؛ فَيُفسد أكثر مما يُصلح .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل من أصول الدين ، والأدلة عليه كثيرة من نصوص الكتاب والسنة ، فهو واجب عظيم ، به قِوام الدين وقِوام أمر المسلمين ، وما حل بهم من فساد في دينهم ودنياهم إلا بتفريطهم فيما أوجب الله عليهم ، وتفريطهم في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

كما أن من طريقة أهل السنة والجماعة : أنهم يقيمون شرائع الإسلام : الحج ، والجهاد ، والجُمَع ، والأعياد مع الأمراء أبرارًا كانوا أو فجارًا ، إذا كان القائد ، أو أمير الحج فاجرًا ، لا يعطلون شعائر الإسلام

من أجل فجوره ، فهم يتعاونون مع كل مَن أمرهم بالخير ، فكل مَن قادهم بكتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ اتبعوه ، خلافًا لأهل البدع كالروافض الذي يرون أنه لا جهاد إلا مع إمام معصوم ، والإمام المعصوم الذين يدّعونه معدوم .

كما أن أهل السنة يحافظون على الجماعات : صلاة الجماعة التي استخف بها كثير من المسلمين ، والنصوص من الكتاب والسنة الدالة على وجوبها ، وعظيم فضلها – كثيرة مشهورة مذكورة .

ويعتقدون معني قوله ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا »(١) أي : يؤمنون بالرابطة الإسلامية ، هذه الرابطة التي قد وهنت في نفوس كثير من المسلمين .

وهذه الرابطة تعني : الشعور بآلام وآمال المسلمين « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم ، كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر »(٢) .

وجماع هذا قوله سبحانه : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات : ١٠] هذه الأخوة لها حق ، وتقتضي المحبة والمواساة ، والمشاركة في الآلام والآمال ، وإن اختلفت وتباعدت أوطانهم ، واختلفت أنسابهم ، فلا يجوز الولاء والبراء على أساس الأرض ، هذا سعودي ، وهذا مصري ، وهذا يمني ...

والمحزن : أن تعامل أكثر الناس الآن على أساس الروابط الجاهلية : التراب ، والوطن ، والوطنية ، وهي التي يُشَاد بها وتُذْكر ويُنَوَّهُ عنها .

والواجب : أن تكون العلاقة التي يبنى عليها الولاء والبراء ، والحب والبغض – هي علاقة الدين ؛ فتحب المؤمنين ممن كانوا ، وأين كانوا ، وتبغض الكافرين ممن كانوا ، وأين كانوا ، قال تعالى : ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة : ٢٢] الآية .

قوله : « وَيَأْمُرُونَ بِالصَّبْرِ عَلَى الْبَلاءِ ....» :

* وهذه الجملة هي نوع تفصيل لما تقدم ؛ أن من طريقتهم الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فالمعروف : اسم جامع لكل ما أمر الله به من الواجبات ، أو المستحبات ، فيأمرون بالواجبات على وجه الإلزام ، ويأمرون بالمستحبات على وجه الندب والترغيب .

فمن ذلك : أنهم « يأمرون بالصبر على البلاء » يأمرون بالصبر على المصائب والأقدار المؤلمة ؛ لأن هذا الذي أمر الله به عباده : ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال : ٤٦] ، وقال تعالى : ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران : ١٤٦] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم : ٥] .

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) تقدم تخريجه .

فأثنى الله في كتابه على الصابرين والشاكرين ، وهذا شأن المؤمن ، قال الرسول ﷺ : « عجبًا لأمر المؤمن ؛ إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له »(١) .

ويعتقدون معنى قوله ﷺ : « أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم أخلاقًا » ، فهم يتخلقون بالأخلاق الفاضلة ، ويأمرون بها غيرهم ، ومكارِم الأخلاق : الأخلاق الكريمة ، والأعمال الحسنة الجميلة .

ويأمرون ببر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والإحسان إلى اليتامى ، والمساكين كما أمرهم الله بذلك : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦] .

فمن منهجهم وأخلاقهم : الإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل ، والرفق بالمماليك ، والرفق بالخدم والعمال ، والخدمُ والعمالُ من جنس المماليك من حيث إنهم مُسْتَخْدَمُون ، فيجب الرفق بهم ، والإحسان إليهم ، وعدم تكليفهم ما لا يطيقون ، وأداء حقوقهم ، وقد كثر الخدم عند الناس ، وكثيرًا ما يتعرضون للظلم ممن هم تحت ولايته وكفالته ، فيجب الائتمار بالرفق بهم ، والإحسان إليهم .

قوله : « وَيَنْهَوْنَ : عَنِ الْفَخْرِ ، وَالْخُيَلَاءِ ، وَالْبَغْيِ ، وَالاسْتِطَالَةِ عَلَى الْخَلْقِ بِحَقٍّ أَوْ بِغَيْرِ حَقٍّ » :

* ينهون عن التفاخر والتعاظم ، قال النبي ﷺ : « إن الله أوحى إليَّ تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغ أحد على أحد »(٢) .

فأهل السنة ينهون عن الفخر ، والخيلاء ، والبغي على الخلق ، والبغي عليهم يعني : بظلمهم في أنفسهم ، أو أموالهم ، والاعتداء عليهم في ذلك .

والاستطالة : التطاول ، والتعاظم على الخلق بحق ، أو بغير حق ، حتى وإن كان لك حق على أحد فلا تتطاول عليه ، ولا تتسلط عليه ؛ فالتطاول فيه تعاظم وتسلط بسبب أنك تزري عليه .

قوله : « وَيَأْمُرُونَ : بِمَعَالِيَ الأَخْلَاقِ » :

* هذا قريب من الذي تقدم ، يعني : بالأخلاق العالية ، فالأخلاق الكريمة عالية فاضلة ، فيأمرون بالصدقة ، وبذل المعروف ، وطلاقة الوجه ، والسلام ، وعيادة المريض وغيرها .

قوله : « وَيَنْهَوْنَ عَنْ سَفْسَافِهَا » :

* رديء الأخلاق ، وحقيرها ، كالبخل ، والجبن .

قوله : « وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ مِنْ هَذَا أَوَ غَيْرِهِ ؛ فَإِنَّمَا هُمْ فِيهِ مُتَّبِعُونَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ » :

---

(١) مسلم (٢٩٩٩) ، وأحمد (٤/٣٣٢) من حديث صهيب رضي الله عنه .

(٢) مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه .

* يأمرون بما أمر اللّه به ، وبما أمر به رسوله ﷺ ، وينهون عما نهى اللّه عنه ، ورسوله ﷺ ، فهم في كل ذلك متبعون ، لا مبتدعون ، ولا متبعون لأهوائهم .

قوله : « وَطَرِيقَتُهُم : هِيَ دِينُ الإسْلاَمِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ » :

* هذا إجمال تام لما سبق ، فطريقة أهل السنة والجماعة هي دين الإسلام الجامع لكل العقائد الصحيحة ، والعلوم النافعة ، والأعمال الصالحة ، كما قال تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة : ٣٣] طريقتهم هي دين الإسلام ، والمنتسبون للإسلام كثير .

وقد أخبر ﷺ : « أن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار ...» . كما صح بذلك الحديث عن النبي ﷺ قال : « كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة » . وفي لفظ : « قيل : من هي يا رسول اللّه ؟ قال : هي من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي »[1] .

فكل هذه الفرق تنتسب للإسلام ، فمن الفرقة الناجية ؟

هي : المستمسكة بالإسلام المحض الخالص ، وفي هذا علم من أعلام نبوته ﷺ ، فقد أخبر عن افتراقها ، ووقع كما أخبر .

قوله : « صَارَ الْمُتَمَسِّكُونَ بِالإسْلامِ الْمَحْضِ » :

* الإسلام الخالص الذي لم يخلط بالبدع الاعتقادية ، أو العملية ، فالمتمسكون بالإسلام المحض خالصًا عن الشوب ، وعما وقعت فيه الفرق المنحرفة - هم أهل الكتاب والسنة ، هم الفرقة الناجية المنصورة .

وهذه الفرقة أهلها درجات ليسوا على مرتبة واحدة ، بل هم على مراتب كثيرة .

طبقات الأولياء إجمالًا طبقتان :

مقربون ، وأصحاب يمين ، أو سابقون ، ومقتصدون .

فالمقربون السابقون : هم الذين فعلوا الواجبات ، والمستحبات ، وتركوا المحرمات والمكروهات ، وفضول المباحات .

والمقتصدون : هم الذين أدوا الواجبات ، واجتنبوا المحرمات .

فأهل السنة والجماعة مراتب ، فيهم : الصديقون ، والشهداء ، والصالحون ، والصديقون هم أعلى طبقات الأولياء بعد الأنبياء ، كما قال سبحانه : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء : ٦٩] .

والصديق : هو المبالغ في الصدق ، أو هو كثير الصدق والتصديق ، والصِّديق المطلق في هذه الأمة

---

(١) تقدم تخريجه .

هو أبو بكر ، وصار هذا الوصف ملازمًا له وعَلَمًا عليه وإلا فالصديقية ليست مقصورة عليه .

« ومنهم أعلام الهدى » يعني : فيهم الأئمة الذين يُهتَدَى بهم ، يُشبَّهون بالأعلام ، أي : الجبال ، وعلامات الطريق التي يُهتدَى بها .

« ومصابيح الدجى » التي يستضاء بها في حنادس الظلام .

ففي أهل السنة أئمة هداة يهتدى بهم في علمهم وعملهم ، على مراتب ، ففيهم : أئمة متبوعون وعباد صالحون تابعون .

فالصحابة سبق الحديث عنهم ، وأنهم مفضلون تفضيلًا مطلقًا على مَن بعدهم ، والتابعون لهم بعد ذلك هم أهل السنة والجماعة ، الذين لزموا الأصول المتقدمة ، واقتفوا واتبعوا آثار السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، فهؤلاء على مراتب : التابعون ، وتابعوهم وتابعوهم إلى يوم القيامة .

وله : « وَفِيهِمُ الأَبْدَالُ » :

* وهذا اللفظ ورد في بعض الأحاديث ، ولكن ذكر شيخ الإسلام وغيره أنه لم يصح حديث الأبدال .

لكن معنى الأبدال صحيح واقع ، والمراد بالأبدال : العلماء العاملون ، والعُبَّاد الصالحون ، الذين يخلف بعضهم بعضًا ، كلما مات عالم قام بدله ، وكلما مات عابد خلفه من بعده ، هؤلاء أبدال ، وجاء في الحديث : « لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسًا يستعملهم في طاعتهم »[1] .

فالصالحون والأئمة لا يزالون ، وإن كان في آخر الزمان يقلُّ العلم ويثبت الجهل ، و« الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من صدور الرجال ، وإنما يقبض العلم بقبض العلماء »[2] ، ولكن هذا لا يعني أنه ينقطع وينصرم وإن قل ، فحجة الله قائمة على عباده إلى أن يأتي أمر الله تبارك وتعالى .

ولهذا نبه الشيخ إلى هذا المعنى بقوله : إن هذه الطائفة لا تزال كما أخبر الرسول ﷺ .

وعندي أن مفهوم أهل السنة والجماعة أوسع من مفهوم الفرقة الناجية ، فالفرقة الناجية المنصورة هم أهل السنة والجماعة ، لكن في أهل السنة السابقون ، والمقتصدون وفيهم الظالم لنفسه ، كما قال تعالى : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر : ٣٢] .

لكن المتمسكون بالإسلام المحض علمًا وعملًا ظاهرًا وباطنًا - هم الفرقة الناجية المنصورة ، التي

---

(١) ابن ماجه (٨) ، وأحمد (٤/ ٢٠٠) من حديث أبي عنبة الخولاني رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (٢٤٤٢) .

(٢) البخاري (١٠٠) ، ومسلم (٢٦٧٣) من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما .

أخبر بها الرسول ﷺ ، وأخبر أنها لا تزال في قوله : « لا تزال طائفة من أمتي على الحق »[1] لا تزال : هذا يدل على الاستمرار ، والمقصود : جنس هذه الطائفة ، وإلا فهي أجيال تنقرض ويَخلفهم آخرون « لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين ، لا يضرهم مَن خذلهم ولا مَن خالفهم حتى تقوم الساعة » . وفي لفظ : « حتى يأتي أمر اللّٰه تبارك وتعالى » .

والساعة هنا فُسرت بقبض أرواح المؤمنين في آخر الزمان عند قرب قيام القيامة الكبرى ، فإنه تعالى يرسل ريحًا فتقبض أرواح المؤمنين ، فتخلو الأرض من الخير ، ولا يبقى في الأرض إلا شرار الخلق ، وعليهم تقوم الساعة .

فهذه الطائفة مستمرة إلى أن يأتي أمر اللّٰه تبارك وتعالى ويأتي الأجل الذي قدَّره اللّٰه لبقاء هذا الدين ، وبقاء حَمَلته .

فنسأله سبحانه وتعالى أن يجعلنا بمَنّه وكرمه من هذه الطائفة ، وأن يثبتنا على دينه ، وأن يرزقنا الاستقامة على الحق ، وأن يجعلنا هداة مهتدين ، غير ضالين ولا مضلين ، ونسأله تعالى أن يعصمنا من مضلات الفتن ، ما ظهر منها ، وما بطن ، وصلى اللّٰه وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد ، والحمد للّٰه رب العالمين أولًا وآخرًا .

❁ قال الشيخ صالح بن فوزان الفوزان حفظه اللّٰه :

قوله : « ثم هم مع هذه الأصول يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » :

هذا الفصل كالمتمم للفصل الذى قبله ، فيه بيان لصفات أهل السنة ، التى هى من مكملات العقيدة .

فقوله : (ثم هم) ؛ أهل السنة .

(مع هذه الأصول) ؛ أى : التى مر ذكرها ؛ أى : مع قيامهم بها علمًا وعملًا ، يتحلون بصفاتٍ هى من مكملاتها وثمراتها فهم :

(يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) كما وصفهم اللّٰه بذلك فى قوله : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ .

والمعروف هو اسم جامع لكل ما يحبه اللّٰه من الإيمان والعمل والصالح ، والمنكر اسم جامع لكل ما يكرهه اللّٰه وينهى عنه .

(على ما توجبه الشريعة) ؛ أى : باليد ، ثم باللسان ، ثم بالقلب ، تبعًا للقدرة والمصلحة ، خلافًا للمعتزلة الذين يخالفون ما توجبه الشريعة فى هذا ، فيرون أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو الخروج على الأئمة .

(١) تقدم تخريجه .

قوله : (ويرون إقامة الحج والجمع والأعياد مع الأمراء ، أبرارًا كانوا أو فجارًا) ؛ أى : ويعتقد أهل السنة وجوب إقامة هذه الشعائر مع ولاة أمور المسلمين .

(أبرارًا كانوا أو فجارًا) ؛ أى : سواء كانوا صالحين مستقيمين ، أو فساقًا فسقًا لا يخرجهم عن الملة .

وذلك لأن غرض المسلمين من ذلك هو جمع الكلمة والابتعاد عن الفرقة والخلاف ؛ ولأن الوالى الفاسق لا ينعزل بفسقه ، ولا يجوز الخروج عليه ؛ لما يترتب على ذلك من ضياع الحقوق وإراقة الدماء .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : ولعله لا يكاد يعرف طائفة خرجت على ذى سلطانٍ ، إلا وكان فى خروجها من الفساد أكثر من الذى فى إزالته . اهـ .

وأهل السنة يخالفون فى ذلك أهل البدع من الخوارج والمعتزلة والشيعة الذين يرون قتال الولاة والخروج عليهم ، إذا فعلوا ما هو ظلم ، أو ظنوه ظلمًا ، ويرون ذلك من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وقوله : (ويحافظون على الجماعات) ؛ أى : ومن صفات أهل السنة أنهم يحافظون على حضور صلاة الفريضة مع الجماعة ؛ جمعةً أو غيرها ؛ لأن ذلك من أعظم شعائر الإسلام وطاعة لله ورسوله فى ذلك . خلافًا للشيعة الذين لا يرون الصلاة إلا مع الإمام المعصوم .

وخلافًا للمنافقين الذين يتخلفون عن صلاة الجماعة ، وقد وردت أحاديث فى فضل صلاة الجماعة ، والأمر بها ، والنهى عن تركها ، ليس هذا موضع ذكرها .

قوله : (ويدينون بالنصيحة للأمة) ؛ أى : يرونها من الدين ، وأصل النصح فى اللغة : الخلوص .

وشرعًا : هى إرادة الخير للمنصوح له ، وإرشاده إلى مصالحه ، فأهل السنة يريدون الخير للأمة ، ويرشدونها إلى ما فيه صلاحها .

ومن صفات أهل السنة التعاون على الخير ، والتألم لألم المصابين منهم .

فهم (يعتقدون معنى قوله ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان ، يشد بعضه بعضًا » وشبك بين أصابعه) رواه البخارى ومسلم[١] .

وقوله ﷺ : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، كمثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » . رواه البخارى ومسلم وغيرهما[٢] .

فالحديثان يمثلان ما ينبغى أن يكون عليه المسلمون ، من تعاونٍ ، وتراحمٍ ، وأهل السنة يعملون بمقتضاهما .

---

(١) أخرجه البخارى (١٨٨٢) ، ومسلم (٢٩٣٨) .

(٢) رواه أحمد (٤/٢٧٠) (١٨٢٨٧ ، ١٨٢٩٣) ، والبخارى (٦٠١١) ، ومسلم (٤/١٩٩٩) (٢٥٨٦) .

وقوله : (المؤمن للمؤمن) ، وقوله : (مثل المؤمنين) المراد بالإيمان هنا الإيمان الكامل .

(كالبنيان) هذا التمثيل يقصد منه التقريب للفهم .

(يشد بعضه بعضًا) بيان لوجه الشبه .

(وشبك بين أصابعه) تمثيل آخر ، يقصد منه التقريب للفهم .

(توادهم) ؛ أى : محبة بعضهم لبعضٍ .

(تعاطفهم) ؛ أى : عطف بعضهم على بعضٍ .

قوله : (كمثل الجسد الواحد) ؛ أى : بالنسبة إلى جميع أعضائه من حيث الشعور بالراحة أو التعب .

(إذا اشتكى) تألم .

(تداعى) شارك بعضه البعض الآخر فى الألم .

(سائر الجسد) باقيه .

(بالحمى) ما ينشأ عن الألم من حرارة الجسم .

(والسهر) عدم النوم .

وهذا الحديث خبر ، معناه الأمر ؛ أى : كما أنه إذا تألم بعض جسده سرى ذلك الألم إلى جميع جسده ، فكذا المؤمنون ؛ ليكونوا كنفسٍ واحدةٍ ، إذا أصاب أحدهم مصيبة يغتم جميعهم ، ويعملون على إزالتها . وفى هذا التشبيه تقريب للفهم ، وإظهار للمعانى فى الصور المرئية . ومن صفات أهل السنة ثباتهم فى مواقف الامتحان .

(يأمرون بالصبر عند البلاء) الصبر لغةً : الحبس ، ومعناه هنا : حبس النفس عن الجزع ، وحبس اللسان عن التشكى ، والتسخط ، وحبس الجوارح عن لطم الخدود ، وشق الجيوب .

(البلاء) الامتحان بالمصائب والشدائد .

(والشكر عند الرخاء) الشكر : فعل ينبئ عن تعظيم المنعم ؛ لكونه منعمًا ، وهو صرف العبد ما أنعم الله به عليه فى طاعته .

(الرخاء) اتساع النعمة .

(والرضا بمر القضاء) الرضا ضد السخط ، والقضاء لغةً : الحكم .

وعرفًا : إرادة الله المتعلقة بالأشياء على ما هى عليه .

ومر القضاء : ما يجرى على العبد مما يكرهه ؛ كالمرض ، والفقر ، وأذى الخلق ، والحر ، والبرد ، والآلام .

يهتم أهل السنة بالأخلاق ، فيتحلون بالأخلاق الفاضلة ، ويرغبون فيها غيرهم ، فهم (يدعون إلى

مكارم الأخلاق) ؛ أي : أحسنها ، والأخلاق : جمع خلق - بضم الخاء واللام - وهو الصورة الباطنة ، والخلق - بفتح الخاء ، وسكون اللام - هو الصورة الظاهرة ، وهو الدين والسجية والطبع .

ويدعون إلى (محاسن الأعمال) كالكرم والشجاعة والصدق والأمانة .

(ويعتقدون معنى قوله ﷺ) ؛ أي : يؤمنون به ، ويعملون بمقتضاه .

(أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا) رواه أحمد والترمذى ، وقال : حسن صحيح[1] .

وقوله : (أحسنهم خلقًا) ؛ أي : ألينهم وألطفهم ، وأجملهم .

ففى الحديث الحث على التخلق بأحسن الأخلاق ، وفيه : أن الأعمال تدخل فى مسمى الإيمان وأن الإيمان يتفاضل ، وأهل السنة يدعون إلى التعامل مع الناس بالتى هى أحسن ، وإلى إيتاء ذوى الحقوق حقوقهم ، ويحذرون من أضداد تلك الأخلاق من الكبر والتعدى على الناس .

فهم (يندبون) ؛ أي : يدعون .

(إلى أن تصل من قطعك) ؛ أي : تحسن إلى من أساء إليك .

(وتعطى من حرمك) ؛ أي : تبذل العطاء ، وهو التبرع والهدية ونحوها لمن منع عنك ؛ لأن ذلك من الإحسان .

(وتعفو عمن ظلمك) ؛ أي : تسامح من تعدى عليك فى مالٍ ، أو دمٍ ، أو عرضٍ ؛ لأن ذلك مما يجلب المودة ، ويكسب الأجر والثواب .

(ويأمرون) ؛ أي : أهل السنة بما أمر اللّه به من إعطاء ذوى الحقوق حقوقهم .

(ببر الوالدين) ؛ أي : طاعتهما فى غير معصية ، والإحسان إليهما بالقول والفعل .

(وصلة الأرحام) ؛ أي : الإحسان إلى الأقربين ، والأرحام جمع رحمٍ ، وهو من تجمعك به قرابة .

(وحسن الجوار) ؛ أي : الإحسان إلى من يسكن بجوارك ببذل المعروف وكف الأذى .

(والإحسان إلى اليتامى) جمع يتيم ، وهو لغةً : المنفرد .

وشرعًا : من مات أبوه قبل بلوغه .

والإحسان إليهم هو برعاية أحوالهم وأموالهم ، والشفقة عليهم .

(والمساكين) ؛ أي : والإحسان إلى المساكين ، جمع مسكينٍ ، وهو المحتاج الذى أسكنته الحاجة والفقر ، والإحسان إليهم يكون بالتصدق عليهم ، والرفق بهم .

(وابن السبيل) ؛ أي : والإحسان إلى ابن السبيل ، وهو المسافر المنقطع به ، الذى نفدت نفقته ، أو ضاعت ، أو سرقت . وقيل : هو الضيف .

---

(١) رواه أحمد (٢/٢٥٠) (٧٣٩٦) ، وأبو داود (٤٦٨٢) ، والترمذى (٢٦١٢) ، وقال الألبانى فى « صحيح الجامع » (١٢٣٠) : صحيح .

(والرفق بالمملوك) ؛ أى : ويأمرون بالرفق بالمملوك ، وهو الرقيق ، ويدخل فيه المملوك من البهائم ، والرفق ضد العنف ، وهو لين الجانب .

(وينهون عن الفخر) وهو المباهاة بالمكارم والمناقب ، من حسبٍ ونسبٍ .

(والخيلاء) - بضم الخاء - : الكبر والعجب .

(والبغى) وهو العدوان على الناس .

(والاستطالة على الخلق) أى : الترفع عليهم ، واحتقارهم ، والوقيعة فيهم .

(بحقٍّ وبغير حقٍّ) لأن المستطيل إن استطال بحقٍّ فقد افتخر ، وإن استطال بغير حقٍّ فقد بغى ، ولا يحل ، لا هذا ، ولا هذا .

(ويأمرون بمعالى الأخلاق) ؛ أى : يأمر أهل السنة بالأخلاق العالية ، وهى الأخلاق الحسنة .

(وينهون عن سفسافها) ؛ أى : رديئها وحقيرها .

والسفساف : الأمر الحقيرَ والردىء من كل شىءٍ ، وهو ضد المعالى والمكارم .

وأصله ما يطير من غبار الدقيق ، إذا نخل ، والتراب إذا أثير .

(وكل ما يقولونه ويفعلونه من هذا وغيره فإنما هم فيه متبعون للكتاب والسنة) ؛ أى : كل ما يقوله ويفعله أهل السنة ، ويأمرون به ، وينهون عنه مما تقدم ذكره فى هذه الرسالة ، وما لم يذكر ، فقد استفادوه من كتاب ربهم وسنة نبيهم ، لم يبتدعوه من عند أنفسهم ، ولم يقلدوا فيه غيرهم .

فقد قال اللّه تعالى : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء : ٣٦] .

والأحاديث فى هذا كثيرة ، منها ما ذكره الشيخ .

يواصل الشيخ رحمه الله بيان مزايا أهل السنة والجماعة ، فيبين مزيتهم العظمى ، وهى : أن (طريقتهم دين الإسلام) ؛ أى : هو مذهبهم وطريقهم إلى اللّه ، وأنهم عند الافتراق الذى أخبر النبى ﷺ عن حدوثه فى هذه الأمة ثبتوا على الإسلام ، وصاروا هم الفرقة الناجية من بين تلك الفرق .

وهم الجماعة الثابتة على ما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه ، وهو الإسلام المحض الخالص من الشوائب ، ولذلك فازوا بلقب أهل السنة والجماعة .

وصار فيهم (الصديقون) المبالغون فى الصدق والتصديق .

(والشهداء) القتلى فى سبيل اللّه .

(والصالحون) أهل الأعمال الصالحة .

(وفيهم أعلام الهدى . . . إلخ) ؛ أى : وفى أهل السنة العلماء الأعلام المتصفون بكل وصفٍ

حميدٍ ؛ علمًا وعملًا .

(وفيهم الأبدال) وهم الأولياء والعباد ، سموا بذلك ، قيل : لأنهم كلما مات أحد أبدل بآخر ، وفى روايةٍ عن أحمد : أنهم أصحاب الحديث .

(وفيهم أئمة الدين) ؛ أى : فى أهل السنة العلماء المقتدى بهم كالأئمة الأربعة وغيرهم .

(وهم الطائفة المنصورة) ؛ أى : وَأهل السنة هم الطائفة المذكورة فى الحديث : « لا تزال طائفة من أمتى » الحديث . رواه البخارى ومسلم[1] .

قوله : « فنسأل اللّٰه العظيم أن يجعلنا منهم ، وألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا » :

ثم ختم الشيخ رسالته المباركة بالدعاء ، والصلاة والسلام على النبي ﷺ ، وهو خير ختام ، والحمد للّٰه رب العالمين ، وصلى اللّٰه على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

قال الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه اللّٰه :

قوله : « ثم مع هذه الأصول يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة » :

هذه الجملة من كلام شيخ الإسلام رحمه الله في هذه العقيدة المباركة بيّن فيها أصول مذهب أهل السنة والجماعة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفي أنواع التعاملات مع ولاة الأمور الذين ولّاهم اللّٰه ﷻ على المسلمين ، فهذا الأصل – وهو الأمر والنهي – من الأحكام العملية ، وإدخاله في العقيدة جاء من جهة أن الفرق الضالة – كالخوارج ، والرافضة ، والمعتزلة – خالفوا في هذا الأصل وتركوا ما كانت عليه الجماعة الأولى ، فخالفت الخوارج طريقة الصحابة ، وخالفت الشيعة والرافضة طريقة الصحابة والتابعين في هذا الأصل ، وكذلك خالفت المعتزلة أهل السنة في هذا الأصل ، فذكر شيخ الإسلام – كغيره من أئمة الإسلام والسنة – مسألة الأمر والنهي ؛ لأنها من المسائل الكبيرة التي خالف فيها أهل السنة أهل الضلالة .

ومسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من المسائل العظيمة في الدين ؛ لأن الصلاح في الدين سببه الأمر والنهي والدعوة إلى الخير ، والفساد في الدين أو في حياة الناس سببه ترك ما توجبه الشريعة في مسائل الأمر المعروف والنهي عن المنكر ؛ لهذا صار من المسائل العظام ، وَعَدَّه طائفة من أهل العلم من أصول الدين ومبانيه العظام .

قال رحمه الله : (ثمَّ هُم مَعَ هذهِ الأصولِ) يعني : أهل السنة والجماعة مع هذه الأصول التي سلفت (يأمرونَ بالمعروفِ وينهونَ عنِ المنكرِ ، على ما تُوجِبُهُ الشريعةُ) ، والأمر والنهي جاء في الكتاب والسنة في مواضع كثيرة منها : قول اللّٰه ﷻ : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، ومنها قوله ﷻ : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ

(١) البخارى (٣٦٤١) ، ومسلم (١٠٣٧) .

﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ومنها قوله ﷻ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]، ومنها قول الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]، والآيات في هذا الأصل كثيرة.

ومن السنة قول النبي ﷺ فيما رواه مسلم وغيره من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَن رأى منكمْ منكرًا فليغيرهُ بيده، فإنْ لَم يَستطعْ فبلسانِهِ، فإنْ لم يستطعْ فبِقَلْبِهِ، وذلكَ أضعفُ الإيمانِ»(١)، وفي «صحيح مسلم» أيضًا أنه ﷺ قال: «ما من نَبِيٍّ بعثهُ اللَّه في أمةٍ قبلي إلا كان له من أمتِهِ حواريونَ وأصحابٌ يأخذونَ بسنتِهِ ويقتدونَ بأمرِهِ، ثمَّ إنها تخلفُ من بعدهمْ خلوفٌ، يقولونَ ما لا يفعلونَ، ويفعلون ما لا يؤمرونَ، فمنْ جاهدهُمْ بيده فهوَ مؤمنٌ، ومنْ جاهدهُمْ بلسانِهِ فهوَ مؤمِنٌ، ومَنْ جاهدهمْ بقلبِهِ فهو مؤمنٌ، وليسَ وراءَ ذلك من الإيمانِ حبةُ خردلٍ»(٢).

وجاء في «السنن» وفي «المسند» من حديث أبي بكر رضي الله عنه؛ إذ خطب الناس فقال لهم: أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية فتضعونها في غير موضعها، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «إنَّ الناس إذا رأَوُا الظالمَ فلم يأخذوا على يديهِ أوشكَ أن يَعُمَّهُمْ اللَّه بعقابٍ»(٣). والآيات والأحاديث في هذا الباب كثيرة معلومة يضيق المقام عن ذكرها وبسطها، وقد أجمعت الأمة أيضًا على هذا الأصل وهو وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهذه الجملة لا شك أنها مبهمة وتحتاج إلى تفصيل وبيان؛ لأن شيخ الإسلام أجمل أحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قوله: (على ما تُوجِبُهُ الشريعةُ)، فهذه الكلمة فيها تفاصيل كثيرة: تفاصيل أقوال أهل السنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيما يأتي نذكر بعض المسائل التي فيها إيضاح لهذه الجملة، منها:

المسألة الأولى: في تفسير (المعروف) و(المنكر)؛ فإن المعروف في النصوص الذي جاء الأمر به هو: ما عُرف حسنه في الشرع، والمنكر هو: ما عُرف قبحه في الشرع، وقال بعض أهل العلم: المعروف اسم جامع لكل ما يحبه اللَّه ﷻ ويرضاه من أمور الخير، والمنكر اسم جامع لكل ما يسخطه اللَّه ﷻ ويأباه من أمور الشر. فدخل في المعروف الواجبات والمستحبات، ودخل في المنكر

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩/٧٨)، وابن ماجه (٤٠١٣).

(٢) أخرجه مسلم (٥٠/٨٠) من حديث عبد اللَّه بن مسعود.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨، ٣٠٥٧)، وابن ماجه (٤٠٠٥) من حديث قيس بن أبي حازم عن أبي بكر. وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٣٦).

المحرمات ، وأعظم المعروف توحيد الله جل جلاله ، وأبشع المنكر وأقبحه وأردؤه الشرك بالله جل جلاله ؛ ولهذا قال أبو العالية في قول الله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [الحج : ٤١] ، قال : (كان أمرهم بالمعروف أنهم دعوا إلى الله وحده وعبادته لا شريك له ، وكان نهيهم عن المنكر أنهم نهوا عن عبادة الشيطان وعبادة الأوثان) .

وكل معروف في القرآن فهو التوحيد ، وكل منكر في القرآن فهو الشرك ؛ ذلك أن الطاعات وأبواب الخير كلها من فروع التوحيد ومن آثار التوحيد ، والمعاصي من آثار الشرك ؛ فلهذا أعظم ما يؤمر به التوحيد ، ويؤمر بفروعه ومسائله ومستلزماته من الطاعات ، وكذلك أعظم ما يُنهى عنه ويُنكر الشرك بالله جل جلاله .

والمعروف درجات والمنكر أيضًا درجات ؛ ولهذا كان من قواعد أهل السنة أنه إذا تزاحم معروفان يُطلب ما كان أعلى ، وإذا تزاحم منكران يُدفع ما كان أعلى ، فيترك الأقل لما هو أعلى ، ويُنكر الأعلى ؛ لأن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح ودرء المفاسد .

المسألة الثانية : حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتفصيل الكلام على أحواله :

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مأمور به في النصوص ، وهو واجب ، وهذا الوجوب هل هو وجوب عيني أم كفائي ؟

الجواب : في المسألة تفصيل ، وهو أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب على المعين إذا رآه ؛ كما جاء في الحديث : « من رأى منكمْ منكرًا فليغيرهُ بيده ، فإنْ لم يستطعْ فبلسانِهِ ، فإنْ لم يستطعْ فبِقَلْبِهِ ، وذلكَ أضعفُ الإيمانِ » . فيجب على من رآه عينًا مع القدرة ، وإنكار المنكر له مراتبه التي سيأتي بيانها ، ويجب إنكار المنكر على الأمة على وجه الكفاية .

والمنكرات قسمان والواجبات قسمان ، فهناك واجبات يشترك في معرفتها الجميع ، ومنكرات يشترك في معرفة أنها منكرة جميع المسلمين ، مثاله في الواجبات : الصلاة ، والزكاة ، وصلة الأرحام ، وقراءة القرآن ، وما شابه ذلك . ومثاله في المنكرات : شرب الخمر ، والزنى ، والسرقة ، وأخذ الرشوة ، وشهادة الزور ، ونحو ذلك ؛ فهذا الذي يشترك في معرفته الجميع يجب الإنكار فيه على الجميع ، لا يختص الإنكار فيه بأهل العلم .

وأما ما كان من المسائل التي تحتاج لبيان الأدلة ، واستدلال من أهل العلم ولا يشترك في معرفتها الجميع ، مما لا يعلمه إلا الخاصة ، أو طلبة العلم ؛ فهذه يُشترط فيها لمن أنكر أن يكون على علم ، وأما المسائل التي يكون المورد فيها مورد اجتهاد فإن العلم فيها منوط بأهل العلم الراسخين فيه ، وما كان من المسائل يتعلق بالفرد ؛ فإن الإنكار يكون فيه بحسب علمه ، يعني : إذا علم شيئًا أنكر بحسب العلم ؛

كما ذكر ذلك النووي وغيره .

فتفصيل المقام في هذا لابد منه ، وهو أنه يُشترط لوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر العلم قبل الأمر والنهي ، فلا يأمر ولا ينهى إلا عالم ، وهناك مسائل العلم بها مشترك ، هذه يأمر بها كل أحد ، فكل مسلم يجب عليه أن يأمر بالصلاة ، وينهى عن الزنى ؛ لأن هذه مشتركة ، وأما المسائل الاجتهادية ، أو المسائل الخفية ، أو المسائل التي تحتاج إلى نظر ورعاية مصالح ونحو ذلك ، فهذه لابد فيها من علم ، لكن علم أهل العلم الراسخين فيه ؛ لأن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها ، ودرء المفاسد وتقليلها .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه اللّه تعالى - : (إن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر يجب عليه أن يكون عالمًا قبل أن يأمر وينهى ، وأن يكون متيقنًا بحصول المصلحة في أمره ونهيه ودرء المفسدة ؛ فإن دخل في الأمر والنهي بظن ولو كان ظنًّا راجحًا أثم ؛ لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح) .

فهذه القاعدة أظنها مجمعًا عليها فيما ذكره شيخ الإسلام أن الأمر والنهي المقصود منه تحصيل المصالح ودرء المفاسد ، فإذا كان الآمر والناهي على علم بأن المصلحة من الأمر ستكون برجحان ، وأن المفسدة لن تكون عنده برجحان ، فهذا إذا تيقن ذلك دخل في الأمر والنهي ولم يأثم ، وأما إذا كان مظنونًا أن إنكار المنكر قد يكون معه مصلحة ؛ فإنه يأثم بالأمر والنهي ؛ لأنه لابد فيه من العلم والتيقن ، لأن الظن لا يُكتفى به ، فتحصل من هذه المسألة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الجملة واجب ، وقد يكون واجبًا عينيًا ، وقد يكون واجبًا كفائيًا ، إذا قام به طائفة من الناس كفى البقية ، والمسائل العامة العظيمة الأمر فيها والنهي يكون لأهل العلم لا يدخل فيه العامة أو من لم يكن راسخًا في العلم .

المسألة الثالثة : قول شيخ الإسلام هنا : (علَى مَا تُوجِبُهُ الشريعةُ) فيه أن من أمر ونهى دون رعاية لأحكام الشريعة في الأمر والنهي ، فهو ليس على طريقة أهل السنة ، فأهل السنة يأمرون وينهون على ما توجبه الشريعة لا على ما توجبه الأهواء أو الآراء ، فلابد أن يكون عند الآمر والناهي معرفة بالحكم الشرعي ولديه دليل يعتمده ، وإلا فإنه يكون أمر على غير ما توجبه الشريعة ، وهذا لأجل مخالفة الخوارج والرافضة والشيعة والمعتزلة في هذه المسألة .

وقوله : (علَى مَا توجِبُهُ الشريعةُ) أخرج طوائف المبتدعة ؛ لأنهم غلوا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حتى إنهم جعلوا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الخروج على ولاة الجور ، أو الفجار من الولاة ، وهذا باطل ومخالف لطريقة أهل السنة والجماعة ، ويقابل هؤلاء منْ ترك الأمر والنهي أصلًا ؛ كحال المتصوفة ، وحال الذين يرون القدر ماضيًا في الناس ، فلا يُحتاج إلى أمر ونهي .

وبسبب هؤلاء المتصوفة دخل أعداء الملة والدين وأعداء الإسلام بلاد الإسلام ، وقد يشابههم غيرهم ممن يتركون الأمر والنهي بحجج واهية ، فكان من أسباب دخول الفرنجة والصليبيين بلاد الإسلام كثرة المتصوفة في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس ؛ لأنهم أقعدوا الناس عن الأمر والنهي ، وأحبطوا في النفوس الجهاد ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

وأهل السنة وسط بين هاتين الطائفتين : فقوم غلوا كالخوارج ومن شابههم ، وقوم جفوا وهم الصوفية ومن شابههم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ما توجبه الشريعة يتطلب - كما سبق بيانه - علمًا وغَيْرَةً ، لابد أن يجتمع هذا وهذا ، فالعلم فات الخوارج والمعتزلة ومن شابههم ، والغيرة على دين اللّه فاتت الصوفية ومن شابههم ، فمن فاتته الغيرة وكان عنده علم فإنه لن يأمر ، ومن كانت عنده غيرة وليس عنده علم بما توجبه الشريعة في الأمر والنهي أفسد ، ومن جراء هذين الفريقين حصل الفساد ، وحصل إضعاف الشريعة في عصور الإسلام من أوائل الزمن إلى زماننا هذا ، فأناس دخلوا بغيرة دون علم ، وأناس علموا ولكن لم يغاروا على دين اللّه ﷻ ، وهدَى اللّهُ من تمسك بأصول أهل السنة ، فغاروا على حرمات اللّه ، وأمروا ونهوا ، لكن على ما توجبه الشريعة ، فحققوا المصالح ودرءوا المفاسد .

المسألة الرابعة : في قوله ﷺ : « من رأى منكمْ منكرًا فليغيرهُ بيده ، فإنْ لم يستطعْ فبلسانِهِ ، فإنْ لم يستطعْ فبِقَلْبِهِ ، وذلكَ أضعفُ الإيمانِ » . هذا فيه الأمر بتغيير المنكر عند رؤيته ، وفقه هذا الحديث مهم ؛ وذلك أن كلمة « رأى » جاءت في الشرط « من رأى منكم منكرًا فليغيره » ، فهذا الحديث فيه مسائل :

أولًا : الشرط ، وهو شرط الرؤية لوجوب التغيير .

ثانيًا : وجود المنكر .

ثالثًا : التغيير .

والمنكر سبق بيان معناه ، وهو : ما عُلم قبحه بالشرع ، أو أن نكارته كانت بالشرع ، لا بمقتضى الهوى أو مقتضى ما يكون من اجتهاد ناقصي العلم .

ففي قوله : « من رأَى مِنْكُمْ مُنكَرًا » ، ليس معنى « رأى » هنا « علم » ، وإنما معناها رؤية البصر ؛ لأنه عداها إلى مفعول واحد ، و« رأى » إذا تعدت إلى مفعول واحد كانت رؤية بصرية « من رَأَى مِنْكُمْ مُنكَرًا » . فتفسيرها بـ « علم » ليس بصحيح ، فالرؤية هنا التي علق عليها وجوب الإنكار هي الرؤية البصرية ، فيجب أن تنكر باليد فإن لم تستطع فباللسان ؛ وذلك إذا رأيت المنكر بعينيك مع شرط القدرة .

أما إذا لم تره ولكن سمعته سماعًا محققًا ؛ كأن سمعت امرأة تصرخ ، أو سمعت بسماع محقق رجل يراود امرأة ، أو سمعت سماعًا محققًا ملاهي .. ونحو ذلك ، فهذه ألحقها أهل العلم بالرؤية ؛ لأنها متيقنة بحاسة السمع كتيقن المرئي بحاسة الرؤية ، وأما غير ذلك مما يُخبر به المرء ، فليس المجال فيه مجال

إنكار ، وإنما يجب الإنكار على من رأى أو سمع سماعًا محققًا ، أما من أُخبر فمجاله مجال النصيحة ، والنصيحة غير الإنكار ، فالنصيحة عامة ، ومن النصيحة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ فإن الأمر والنهي ما كان نصيحةً لها شروطها ولها أحوالها بما جاء في الشريعة ، أما النصيحة فهي عامة ؛ كما جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال : « الدينُ النصيحةُ » ثلاثَ مراتٍ ، قال : قيلَ : يا رسولَ اللَّهِ لمنْ ؟ قالَ : « للَّهِ ولكتابِهِ ولأئمةِ المسلمينَ »[1] . فالدين كله نصيحة ، والنصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم تشمل الأمر والنهي ، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعض النصيحة لكن له شروط خاصة ، فهو كالمخصص من العام ، والتخصيص من العموم بشروطه هذا له أحكامه المعروفة ، فليست كل أحكام النصيحة جارية على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وليست كل أحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جارية على النصيحة ؛ بل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نصيحة لعباد اللَّه ولأئمة المسلمين ولعامتهم ولكن بشروطه الشرعية .

ومن الفروق بين النصيحة وبين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : أولًا : أن النصيحة تكون سرًا وتكون مجملة بدون تحديد ، هذا الأصل فيها كما قرره أهل العلم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يكون في بعض أحواله سرًا ، ولكن الأصل فيه أن يكون علنًا ، فيكون الأمر والنهي إذا رئي المنكر أو سُمع سماعًا محققًا ، والنصيحة تكون بأوسع من ذلك ؛ بما إذا رئي أو سُمع أو أُخبر أنه حصل كذا وكذا ، فالأمر بالمعروف يكون فيما إذا حصل المنكر أمامك ، أما إذا حصل في غيبة عنك فإنه يعود إلى الأصل العام وهو النصيحة ؛ لأن النبي ﷺ قيد وجوب الإنكار بقوله : « من رأَى منكمْ منكرًا » ، فمن رأى وجب عليه ، ومن لم ير بل سمع أو قيل له : حصل كذا وكذا . فالمجال فيه مجال نصيحة .

ثانيًا : أن النصيحة تحتاج إلى تثبت واستفصال ، والأمر والنهي بما أنه بما حصل أمامك فإنك متيقن منه ، يعني : أن النصيحة لمن يحتاج النصيحة تكون بما علمته وتَثَبَّتَ منه ، وأما الأمر والنهي فهو لابد فيه من اليقين ؛ كما قال شيخ الإسلام وغيره : من الفروق بينهما أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متعلق بالمنكر ، وأما النصيحة فهي متعلقة بمن ينتفع من الأمر أو النهي عن المنكر ، فقوله : « من رأَى منكمْ منكرًا » متعلق بالمنكر وليس فيه ذكر لفاعل المنكر .

قال : « من رأَى منكمْ منكرًا فليُغَيِّرْهُ » ، يعني : ليغير المنكرَ، أما الواقع في المنكر فهذا مقامه فيه تفصيل :

الحالة الأولى : أن يكون المنكر الذي رآه من أهل الحسبة ، يعني : من نواب الوالي في الإنكار ، فهؤلاء حالهم غير حال عامة الناس ، فهذا له أن يُعاقب بتخويل السلطان أو ولي الأمر له ، فإذا رأى الفاعلَ للمنكر يستحق أن يعاقب فله أن يعاقب بحسب ما جُعل له من السلطة في ذلك ، أما عامة الناس – يعني :

(١) أخرجه مسلم (٥٥/٩٥) ، وأبو داود (٤٩٤٤) ، والنسائي (٤٢٠٨، ٤٢٠٩) من حديث تميم الداري .

غير أهل الحسبة - فهؤلاء في حقهم لابد أن يفرقوا بين المنكر وفاعل المنكر ، فالمنكر يجب إنكاره ، وأما من قام به المنكر فهذا المقام فيه مقام نصيحة ، قال تعالى : ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل : ١٢٥] .

مثال ذلك : إذا رأيت مع أحد المسلمين أمرًا منكرًا أو رأيته يمارس أمرًا منكرًا ، فإنكار المنكر بتغييره باليد إن أمكنك أو باللسان ، أما صاحب المنكر الواقع فيه فهذا تستعمل معه الرفق والأناة ، وما هو أنفع وأصلح له .

ولهذا قال العلماء : إن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر يشترط له ثلاثة شروط :

الأول : قبل أن يأمر وينهى ، وهو العلم .

الثاني : حين يأمر وحين ينهى ، وهو الرفق .

الثالث : بعد أن يأمر وبعد أن ينهى ، وهو الصبر .

فثم ثلاثة شروط : علم قبله ، ورفق مقارن ، وصبر بعده ؛ كما قال تعالى : ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان : ١٧] ، فلابد من الصبر بعد الأمر والنهي ؛ لأن الآمر والناهي يخالف ما يشتهيه الخلق ، فأكثر الناس ولو من المسلمين تبع لأهوائهم ، فيحتاج من يأمر وينهى إلى الصبر ، ولابد من رفق مقارن بمن عمل المنكر ، والإنكار للمنكر نفسه هذا لابد فيه من قوة « من رأى منكمْ منكرًا فليُغَيِّرْهُ » ، فلا يكون فيه مثل ما يقول أهل العصر مجاملة في المنكر نفسه ، أما فيمن فعله فهذا تهاديه وتدعوه بالتي هي أحسن ، وتحجز بينه وبين المنكر بحسب ما تقضي المصلحة .

إذا كان كذلك فتعلق المنكر بفاعل المنكر يحتاج أيضًا إلى تفصيل ؛ ذلك أن المنكر مع فاعله تارة يكون منفكًا ، وتارة يكون ملازمًا ؛ فإن كان منفكًا بمعنى أن المعصية منفكة عن فاعلها أو المنكر منفك عن فاعله ، مثل أن تدخل على أحد - نسأل الله لنا وللمسلمين العافية والسلامة والهداية - فتجد أمامه كأس خمر ، أو تجده يسرق ، أو تجده ينظر إلى صورة عارية أمامه .. ونحو ذلك ، فهذه الجهة فيها منفكة ؛ لأن كأس الخمر منفصل عمن يريد أن يشربه ، والصورة العارية منفصلة عمن يريد أن يشاهدها ، والمال الذي يريد أن يسرقه منفصل عنه ، فإنكار المنكر هنا بأن تغير هذا الذي بين يديه بيدك ، فإن لم تستطع فبلسانك ، بمعنى : تحجزه عن ذلك باللسان ، وأما من كان مريدًا لإتيان هذا المنكر فهنا إذا كان منفكًا فيكون معه النصيحة والرفق والأناة ، فالمنكر نفسه لا تكن رفيقًا به ، وأما من وقع فيه فلابد فيه من الرفق ؛ لأن النبي ﷺ قال : « إنَّ الرفقَ لا يكونُ في شيءٍ إلا زانَهُ ، ولا يُنْزَعُ من شيءٍ إلا شانَهُ »[1] ، هذا بحسب تحقيق المصلحة ؛ فإن كانت المصلحة هنا في أن تكون رفيقًا في إنكار المنكر ، ورفيقًا أيضًا في

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٤/٧٨) من حديث عائشة .

تعليم أو دعوة أو نصيحة من فعل هذا المنكر أو من يريد أن يواقعه ؛ فإن تحقيق المصلحة ودرء المفسدة في هذا المقام لابد منها ، ولكن الأصل أن الإنكار يكون بقوة إلا إذا كان ثم مفسدة ستكون ، فتكون رفيقًا في الأمر والنهي وفي إنكار المنكر والإنكار على من واقعه .

الحال الثانية : أن يكون المنكر ملازمًا لصاحب المنكر ، مثل أن يكون حالقًا للحيته ، أو يكون مسبلًا لإزاره ، أو يكون لابسًا لذهب ، أو يكون سكرانَ ، أو ما شابه ذلك ، فهذه الأشياء اختلط فيها المنكر بفاعله فلا تستطيع أن تغير فتجعل الحليق ملتحيًا ، ولا أن تجعل المسبل مشمرًا ، هذا ليس مستطاعًا ، فيكون هنا الإنكار باللسان ، ويكون الإنكار باليد لأهل الاختصاص لمن له ولاية أو باللسان ، ويكون هنا الرفق والأناة في الأمر والنهي .

وفي قوله ﷺ : « من رأى منكم منكرًا فليُغَيِّرْهُ بيده » عرفنا معنى « رأى » وأن الرؤية هنا بالبصر أو بالسماع المحقق ، أما الخبر غير المتيقن فلابد فيه من التثبت ثم النصيحة ، والنصيحة تكون سرًّا ، والأمر والنهي يكون بحسب الأحوال التي سبق بيانها .

وفي قوله : « منكرًا » المنكر المراد هنا هو ما عُلم نكارته بالشريعة ، وهذا يدخل فيه صورتان :

الأولى : ما كان مجمعًا عليه .

الثانية : ما كان مختلفًا فيه ولكن الخلاف فيه ضعيف ، فهذا يُنكر .

فما أُجمع عليه واضح ، مثل : الزنى والسرقة والرشوة .. إلى آخره ، فهذا يُنكر ، وما اختُلف فيه ولكن الخلاف فيه ضعيف أيضًا يُنكره وما اختُلف فيه والخلاف فيه قوي هذا لا يُنكر ، بل لا يجوز إنكاره ، ولكن يُناظر فيه ويجادل فيه ويبحث فيه .

مثال ما كان الخلاف فيه ضعيفًا : النبيذ الذي تبيحه الحنفية ويبيحه بعض الأوائل ، أو العصير الذي اشتد وصار مسكرًا ، يعني : بقي ثلاثة أيام في حر حتى صار مسكرًا ، فإن طائفة من أهل العلم يبيحونه .

وكذلك من الأمثلة : إباحة الفوائد الربوية ، يعني : إباحة الفوائد البنكية والعمولات ، والمنفعة من وراء القرض ، أو تفصيل أنواع القروض من قروض صناعية وقروض استهلاكية ، ونحو ذلك ، هذه فيها خلاف ، ولكن الخلاف فيها عندنا ضعيف ؛ لأنه ليس لمن خالف في هذه المسائل حجة واضحة ؛ فهذه تُلحق بالمسائل المجمع عليها فتُنكر ، ولا تدخل في قول من قال : لا إنكار في مسائل الخلاف .

أما ما كان الخلاف فيه قويًّا ، فهذا لا يُنكر ، مثل : قراءة المأموم للفاتحة في الصلاة ، فإن الخلاف في ذلك قوي : هل تجب قراءة الفاتحة على المأموم أم يتحملها عنه الإمام ؟ فهذا خلاف قوي معروف ، وكذلك من المسائل التي فيها الخلاف القوي : زكاة الحلي ، وإعفاء اللحية بعدم أخذ شيء منها أو بما زاد عن القبضة ، ونحو ذلك من المسائل ، هذه المسائل اختلف فيها العلماء ، ومذاهب الأئمة فيها معروفة ، فما كان من هذه المسائل الخلاف فيها قويًّا ؛ فإن الباب فيها باب دعوة ومجادلة لا باب إنكار .

وقال بعض أهل العلم : لا إنكار في مسائل الخلاف ، وهذا القول يحتاج إلى تفصيل ، فقد تبين لنا – بما سبق – أن هذا القول على إطلاقه غلط ، بل الصواب فيه تفصيل القول في مسائل الخلاف ؛ وذلك بأن نقول : مسائل الخلاف تنقسم إلى قسمين :

* مسائل الخلاف فيها ضعيف ، فهذه يُنكر فيها .

* ومسائل الخلاف فيها قوي ، فهذه لا إنكار فيها ، بل يُناظر ويُناقش المخالف .

ولهذا قَيّد طائفة من أهل العلم هذا القول ، فقالوا : لا إنكار في مسائل الخلاف إذا كان الخلاف قويًا ، أما ما كان الخلاف فيه ضعيفًا فإنه يُنكر .

وتشابهها عبارة قول من قال : لا إنكار في مسائل الاجتهاد .

ومسائل الاجتهاد غير مسائل الخلاف ، مسائل الاجتهاد التي اجتهد فيها أهل العلم في نازلة من النوازل ، ويكون الاجتهاد فيها في إلحاق النازلة بالنص ، أما مسائل الخلاف فهي ما كان الاجتهاد فيها راجعًا إلى فهم النص ، فإذا كان الفهم راجعًا إلى النص – مثل المسائل التي ذكرناها آنفًا – فهذه تسمى مسائل الخلاف ، فيُقال : لا إنكار في مسائل الخلاف إذا كان الخلاف قويًا ، وأما مسائل الاجتهاد فلا إنكار فيها مطلقًا بدون تفصيل ؛ لأنه اجتهد ، وما دام أنه اجتهد في النازلة ليلحقها بالنصوص ولا نص فيها ، فليس لأحد المجتهدين أن يُنكر على الآخر اجتهاده ، إلا إذا كان اجتهاده في مقابلة النص ، أو في مصادمة القواعد الشرعية على ما هو معلوم في أصول الفقه .

قال : « فليُغَيِّرْهُ بيده » هنا أوجب تغيير المنكر ، وهو إيجاب مشروط بعلمه بأن هذا منكر ، وبأن المصلحة متيقنة ، فإذا غلب على ظنه أن الإنكار لا ينفع فهل يجب الإنكار أم لا يجب ؟

اختلف العلماء في هذه المسألة على قولين :

الأول : قالت طائفة : يجب الإنكار ؛ لأنه هو الأصل ، ولا دليل يخرج هذه المسألة عن أصلها . وهذا أصح الروايتين عن الإمام أحمد رحمه الله ، وهو قول أكثر أهل العلم .

الثاني : أن رائي المنكر إذا غلب على ظنه عدم الانتفاع بإنكاره ؛ فإنه يستحب له أن ينكر ولا يجب . ومال إلى هذا فيما يُفهم من كلامه : شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، واستدل لهذا بقوله ﷻ : ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى : ٩] ، قال : معنى الآية : إن نفعت الذكرى فذكر ، فأوجب التذكير . ويدخل فيه الأمر والنهي إذا غلب على ظنه الانتفاع به .

ومفهوم الآية أنه إذا لم يغلب على ظنه الانتفاع فإنه لا يجب عليه ، ويكون الحال إذن على الاستحباب ، وهذا القول أظهر عندي وأصح ، وهو قول جماعة كثيرة من أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم ، ويؤيده أن الصحابة رضوان الله عليهم دخلوا على ولاة بني أمية ، ودخلوا على بعض الأمراء في زمنهم ، فوجدوا عندهم منكرات فلم ينكروا ، فحُمل ذلك على أنه غلب على ظنهم عدم الانتفاع بالأمر

والنهي ؛ لأنه أولى من أن يُحمل على أنهم تركوا واجبًا .

وإذا قلنا : إنه لا يجب . يبقى الاستحباب حماية للشريعة ، وصيانة لهذا الواجب الشرعي ، وكما جاء في الحديث : « إنَّ أوَّلَ ما دخل النَّقْصُ على بني إسرائيلَ كان الرجلُ يلقَى الرجلَ فيقول : يا هذا اتقِ اللّٰه ودعْ ما تصنعُ فإنه لا يحلُّ لك . ثمَّ يلقاهُ من الغدِ فلا يمنعهُ ذلك أنْ يكونَ أكيلَهُ وشريبَهُ وقعيدَهُ ، فلما فَعَلُوا ذلك ضربَ اللّٰه قلوبَ بعضهِمْ ببعضٍ »[1] .

فيبقى هذا على جهة الاستحباب دائمًا إذا غلب على الظن أنه لا يُنتفع بإنكار المنكر ، مثل ما يُرى اليوم من وجود النساء كاشفات الوجه في المستشفيات ، أو في بعض الأسواق ، أو في المطارات ، أو السيارات ؛ فإن هذا منكر ، لكن يغلب على الظن أن بعض أولئك النسوة لا ينتفعن بالإنكار ، فمن غلب على ظنه أن المرأة التي رآها على ذلك لا تنتفع بالإنكار ؛ فإنه لا يجب عليه الإنكار ، بمعنى : لا يأثم إن ترك الأمر والنهي .

وعمل أكثر أهل العلم على هذا ، ولكن القول قول أكثر أهل العلم - كما ذكرنا - هو الإيجاب مطلقًا .

وتأثيم المسلمين فيه حرج سيما مع ظهور الدليل في قوله : ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى : ٩] ، وما ذكرنا من عمل الصحابة وأهل العلم .

وشيخ الإسلام في قوله : (على ما توجِبُهُ الشريعةُ) يستحضر هذه المسائل ؛ كما فصلها في كتابه « منهاج السنة النبوية » وغيره من كتبه ﷺ ، فهذه كلمة عظيمة تميز بها أهل السنة عن غيرهم ، فلابد من تفصيل المقام في ذلك .

قوله : « فليُغيِّرْهُ » وذلك إذا تيقن أن المصلحة راجحة ، ولا يكفي أن يغلب على ظنه حصول المصلحة ؛ بل لابد أن يتيقن أن المصلحة راجحة ، وأن المفسدة زائلة أو مهملة ، تحقيقًا للقاعدة المعروفة : « درء المفاسد مقدم على جلب المصالح » ، وضابطها أنه إذا استوت المصلحة والمفسدة فدرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة ، ولا نقول : درء المفاسد مقدم . وأما إذا كانت المصلحة راجحة والمفسدة مرجوحة ضعيفة ، فهنا لا نقول : درء المفاسد مقدم على جلب المصالح . بل تحصيل المصلحة راجح ؛ لأنه ما من مصلحة يُراد تحصيلها إلا وتكون مخالفة لأهواء الخلق ، فلابد أن يكون ثم نوع مفسدة ، فقد تأمر بالمعروف أو تنهى عن المنكر فيغضب ذلك الذي تأمره أو تنهاه ، لكن تحققت المصلحة بإزالة المنكر ، وقد تكون هناك فتنة أو قطيعة رحم أو اختلاف في القلوب ، لكن المفسدة الحاصلة بغضبه وما شابه ذلك لا تُقابل بالمصلحة الراجحة .

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٣٦) ، والترمذي (٣٠٤٧) ، وابن ماجه (٤٠٠٦) من حديث عبد اللّٰه بن مسعود . وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (٨٦٧) .

فقول من يقول من أهل العلم : « درء المفاسد مقدم على جلب المصالح » هذه قاعدة صحيحة فيما إذا تقاربت المصلحة والمفسدة ، أو تساوت المفسدة والمصلحة ، أما إذا كانت المصلحة راجحة بيقين ، والمفسدة مرجوحة وضعيفة جدًّا بيقين ؛ فإن هذا لا يُقال فيه : درء المفاسد مقدم على جلب المصالح . لأنه ما من مصلحة يُراد تحقيقها إلا ولابد أن يحصل شيء من مفسدة بتحقيقها ؛ لأن الشريعة لم تأت على موافقة أهواء الخلق .

قوله : « فليُغَيِّرْهُ » هذا اللفظ لا يساوي « فليزله » . فالتغيير في الشرع لا يساوي الإزالة ، ويدل عليه أنه قال : « فإنْ لم يستطعْ » ، يعني : إن لم يستطع أن يغيره بيده فليغيره « بلسانِهِ » ، ومعلوم أن تغيير المنكر باللسان قد يكون معه إزالة وقد لا يكون ، وهذا من توسعة الله ﷻ على هذه الأمة ، فيجب التغيير ولكن الإزالة لا تجب ، إلا إذا كانت مستطاعة .

فمن أنكر منكرًا بلسانه فإنه يكون قد غير ، والأمة إذا كانت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتغير المنكر باللسان ولا تقره ولا تسكت عليه ؛ فإنها تكون مغيرة لا يلحقها الوعيد الذي جاء في قول الله ﷻ : ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة : ٧٨، ٧٩] فمن غير باللسان وأنكر المنكر ونهى عنه ؛ فإن هذا يكفيه ، ويحصل به التغيير إلا إذا استطاع التغيير باليد ؛ فإنه يكون مخاطبًا بتغييره باليد ، أما التغيير بالقلب فله ضوابط ، منها :

الأول : أن يكره المنكر ويبغضه .

الثاني : ألا يرضى بحصوله .

الثالث : أن يفارق المكان إن كانت مفارقته راجحة من حيث المصلحة .

هذا بعض ما يتعلق بالأحكام المهمة في هذا الحديث .

المسألة الخامسة : وهي مسألة مهمة تتعلق بالفرق بين نصيحة الولاة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للولاة ؛ بل لعامة الناس .

وقد سبق بيان أن النصيحة تكون سرًّا ، وأن إنكار المنكر الأصل فيه أن يكون علنًا ، وقد جاء في بيان هذا الأصل قوله ﷺ في الحديث الصحيح : « من كانت عندهُ نصيحةٌ لذي سلطانٍ فلا يكلمهُ بها علانيةً ، وليأخذْ بيده فليخلُ بهِ ، فإنْ قبِلها قبِلها ، وإلا كان قد أدّى الذي له والذي عليه »[(١)] ، وهذا الحديث إسناده قوي ولم يصب من ضعف إسناده وله شواهد كثيرة ذكرها الهيثمي في « مجمع

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٨٧٦) ، والطبراني ١٧/٣٦٧ (١٠٠٧) ، والبيهقي في الكبرى ٨/١٦٤ من حديث عياض بن غنم . وصححه الألباني في ظلال الجنة (١٠٩٨) .

الزوائد »[1]، ويؤيده ما جاء في « الصحيحين » من أنه قيل لأسامة بن زيد : ألا تدخل على عثمان فتكلمه ؟ فقال أسامة : « إنكم لترونَ أنّي لا أكلمهُ إلا أُسمعكم ، إني أُكلمهُ في السرِّ دونَ أنْ أفتحَ بابًا لا أكونُ أولَ من فتحهُ »[2]، وهذا موافق لهذا الأصل ، وهو أنه ما يقع في ولاية الوالي من مخالفات للشرع فهذا بابه النصيحة ؛ لأنه لا يتعلق برؤية له أو سماع محقق ، أما من رأى السلطان بنفسه يفعل منكرًا فإنه مثل غيره يأمره وينهاه ، وأمر ونهي السلطان يكون عنده ولا يكون بعيدًا عنه ؛ كما جاء في الحديث : « سيدُ الشهداءِ حمزةُ بنُ عبدِ المطلبِ ، ورجلٌ قامَ إلى إمامٍ جائرٍ فأمرهُ ونهاهُ فقتلهُ »[3].

فأمر ونهي السلطان يكون فيما رأيته منه بنفسك أو سمعته منه سماعًا محققًا ، فتنكر بحسب الاستطاعة ، وبحسب القدرة ، بحسب ما يتيسّر علنًا أو غيره .

وأهل العلم فرقوا في هذا المقام - بما سبق بيانه - بين النصيحة فيما يقع في الولاية ، وبين ما يكون منكرًا يفعله السلطان بحضرة الناس ، وقد ورد كثير من الآثار والأحاديث أنكر فيها الصحابة وأنكر فيها التابعون على ذوي السلطان علنًا ، وكلها بدون استثناء يكون فيها أن المنكر فُعل بحضرتهم ، ورأوه أو سمعوه سماعًا محققًا .

مثال ذلك : ما أنكر الرجل على مروان في تقديمه خطبة العيد على الصلاة ، فهذا شيء سُمع منه ، فأنكره عليه علنًا ، فإن السلطان إذا فعل منكرًا فإنه يُنكر عليه ولو كان بحضرة الناس ، بشرط أن يؤمن أن يكون ثم فساد أعظم منه ، مثل مقتلة ، أو فتنة عظيمة ، أو نحو ذلك .

وكذلك ما حصل من الإنكار على عمر رضي الله عنه في لبسه الثوبين ، وكذلك ما حصل من الإنكار على معاوية ، وأشباه ذلك كثير ؛ فإن باب النصيحة غير باب الإنكار ، باب الإنكار يكون برؤية سواء كانت رؤية المنكر من السلطان أم من عامة الناس ، أما باب النصيحة فهو فيما يقع في الولاية .

وقد أفاض ابنُ رجب رحمه الله في تحقيق هذه المسائل في شرحه لحديث « من رأى منكم منكرًا » ، وكذلك ابن النحاس في كتابه « تنبيه الغافلين » ، وقد جاء رجل لابن عباس - رضي الله عنهما - فقال له : آمر أميري بالمعروف ؟ قال : « إنْ خِفت أنْ يقتُلك فلا تُؤَنِّبِ الإمامَ ، فإنْ كنتَ لابدَّ فاعلًا فيمَا بينك وبينهُ »[4].

وكلام السلف إذا تأملته يدور على هذا الفرق بين النصيحة والإنكار ، فباب الإنكار شيء وباب النصيحة شيء آخر .

المسألة السادسة : في هذا الباب المهم : أن الأمر والنهي يجب على العين أو على الكفاية ، بشرط أن

---

(١) مجمع الزوائد ٥/ ٢٢٩، ٢٣٠.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٦٧) ، ومسلم (٢٩٨٩/٥١) .

(٣) أخرجه الحاكم ٢/ ١١٩، ٣/ ١٩٥، ١٩٩ من حديث جابر بن عبد الله . وصححه الألباني في الصحيحة (٣٧٤) .

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٨٤٦٢) .

يأمن أن يؤذى أذى لا يناسبه : يأمن أن يقتل ، أو يضرب ، أو يجلد ، أو يسجن ؛ فإن خاف على نفسه القتل أو السجن ، أو خاف على نفسه قطع الرزق ، أو نحو ذلك ؛ فإنه لا يجب عليه ، ويبقى باب الاستحباب .

وهذا نص الإمام أحمد -رحمه الله تعالى - يشترط في الوجوب أن يأمن على نفسه ؛ فإن خشي فتنة فإنه لا يجب عليه ؛ بل يُستحب إن قوي على البلاء ، وليس كل أحد يقوى على البلاء ، وليس من الإيذاء الذي يُسقط وجوب الأمر والنهي السب ، أو الشتم ، أو إشاعة الإشاعات الباطلة على الآمر والناهي ، هذا لا يُعذر به ، بل يجب عليه أن يأمر وينهى ولو قيل في عرضه ما قيل ، إلا إذا كان ثم إيذاء لا يتحمله في نفسه ، أو في رزقه ، أو ما شابه ذلك .

المسألة السابعة : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما يحصل في هذه الأزمان في بعض البلاد من قتل أو تفجير أو نحو ذلك ، أو خروج على ولاة الكفر ، أو على الدول الكافرة ، هذه المسألة مهمة ، ومن المعلوم أنه ما دام أصل الإسلام باقيًا على أئمة المسلمين ولم يرتدوا عن الإسلام ؛ فإنه لا يجوز الخروج عليهم ، ولا الإعانة بالخروج عليهم ، ولا التثبيط عنهم ، هذا أصل عند أهل السنة والجماعة ، وسيأتي تفصيله في الجملة التي بعد ذلك من كلام شيخ الإسلام رحمه الله .

وأما دول الكفر أو ولاة الكفر فإن الخروج عليهم جائز ، لكن جوازه مع القدرة وتحقيق المصلحة ودرء المفسدة ، والمصلحة والمفسدة في ذلك منوطة بقول الراسخين في العلم - كما سبق بيان ذلك - وليست منوطة باجتهاد المجتهد ؛ ولهذا ذكرنا من كلام شيخ الإسلام أن من دخل في هذا الأمر غير متيقن أن المصلحة ستكون وتزول ، وغير متيقن بأنه سيكون بعد المنكر خير ؛ فإنه لا يجوز له ذلك .

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أن مراتب إنكار المنكر أربع فقال :

(الأولى : أن يزول ويخلفه ضده .

الثانية : أن يقل وإن لم يزل بجملته .

الثالثة : أن يخلفه ما هو مثله .

الرابعة : أن يخلفه ما هو شر منه .

فالدرجتان الأوليان مشروعتان ، والثالثة موضع اجتهاد ، والرابعة محرمة) .

فما يحصل من الأمر المعروف والنهي عن منكر بتفجير ونحوه في بعض البلاد يقول أصحابه : فيه إنكار منكر . ولا يُشترط في إنكار المنكر عندهم الشروط التي ذكرنا ، ويقولون : فيه تحقيق مصلحة ودرء مفاسد ، ونحو ذلك .

فنقول : إن قاعدة أهل السنة أن تحصيل المصلحة في هذه المسائل ودرء المفسدة منوطة باجتهاد أهل العلم ؛ لأن هذه مسائل متعلقة بالعامة ، وهي مسألة يتبعها قتل وأذى على الغير ، والمنكر إذا كان

إنكاره بسبب أذى على غيره لم يجز أن ينكره إلا برضا الآخرين ؛ لأنه قد تعلق بهم ، وأما إذا كان سيناله الأذى على نفسه فقط بإنكاره المنكر ، مثل من يقوم إلى سلطان جائر فيأمره وينهاه فيقتله ، فنقول : لا بأس إذا رضيت بذلك لنفسك ، وهذا خير الشهداء ؛ كما قال النبي ﷺ ، أما إذا كان بإنكاره المنكر سيؤذى غيره من الناس ، أو ستنتهك أعراض ، ويكون هناك بلاء ؛ فإنه لا يجوز الإنكار باتفاق أهل العلم .

فإذا كان الإنكار بمثل هذه المسائل فإنه لا يجوز باتفاق أهل العلم ؛ لأنه قد تعدى الضرر ، وإذا تعدى الضرر فإنه لا يجوز إنكاره بمثل هذه الأمور التي فيها الإنكار بأبلغ ما يكون من أنواع الإنكار باليد .

فتحصلنا من ذلك أن المصلحة والمفسدة منوطة بفهم أهل العلم ، وأن أهل العلم هم الذين يقدِّرون المصالح والمفاسد ، فلا يجوز لأحد أن يدخل في مثل هذه المسائل أصلًا إلا بفتوى من أهل العلم ، وأهل العلم لا يفتون في هذه الأمور بالجواز ؛ لأن تحريمها معلوم من أصول الشريعة بتعدي الضرر ؛ ولأن مفسدتها أعظم بكثير من المصالح التي تُظن ؛ بل كثير من أبواب الخير وكثير من الأذى حصل بسبب اجتهادات أو بسبب عمل من لم يأمر وينه على ما توجبه الشريعة ، والعباد يؤاخذون بذنوبهم .

ومقام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحتاج إلى تفصيلات ؛ لكن لعل فيما أسلفنا كفاية ، ومن نظر في كتب أهل العلم في هذا وجد الضوابط ؛ لأن من نفائس العلم معرفة ضابط هذا الحكم ، وألا تؤخذ المسائل بإجمال ، وألا تكون العاطفة هي الغالبة في الحكم على المسائل ، فلابد أن يكون هناك توازن بين الغيرة والعلم ، خاصة في مسائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى يكون فهمنا للنصوص موافقًا لطريقة ونهج أهل السنة والجماعة .

(ويرونَ إقامةَ الحجِّ والجهادِ والجُمَعِ والأعيادِ معَ الأمراءِ ، أبرارًا كانوا أو فجّارًا ، ويحافظونَ على الجماعاتِ) .

هذا الفصل ابتدأه شيخ الإسلام بالكلام عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وما تلا ذلك من المسائل شمل قسمين من الأقسام التي يُدخلها جمعٌ من أهل السنة في العقيدة ، وهذان القسمان هما : منهج التعامل ، والأخلاق ، أو ما يُسمى : المنهج بعامة ؛ حيث إنهم خالفوا طرق أهل الضلال في سلوكهم في أنفسهم ، وفي سلوكهم مع غيرهم ، فاتبعوا في ذلك نصوص الكتاب والسنة ، واقتفوا أثر الرعيل الأول ، وهذا هو الذي سماه بعض المعاصرين : (المواجهة) ، فكلمة (التعامل) ، أو (طريقة المواجهة) ، أو (طريقة الدعوة) ، أو (الأخلاق) ، وما شابه ذلك ، هذه الألفاظ وما دل عليها من المعاني كلها داخلة في عقيدة أهل السنة ، فالعقيدة - كما مر معنا من أول الكتاب إلى هذا الموطن - اشتملت على مباحث متنوعة ، منها مباحث أصلية في شرح أركان الإيمان الستة ، ومنها متممات لذلك ، ومنها الكلام على منهج التلقي والاحتجاج ، والكلام عن النصوص والتسليم لها ، والإجماع ، وحجية ذلك ، وما ينضبط به الأمر والنهي ، وما يتصل بهذه المسائل .

ثم ذكر هنا ﷺ أصول أهل السنة في مسائل التعامل ، فعقيدة أهل السنة والجماعة أتباع السلف الصالح فيها طريقتهم في التعامل مع الخلق من المسلمين والمنافقين والكافرين ، وكذلك في أصناف المسلمين : تعاملهم مع ولاتهم ، وعلمائهم ، وخاصة المسلمين وأتقيائهم ، وتعامله مع بقية أهل الإسلام من المطيعين ، وتعاملهم مع عصاة أهل الإسلام .

فهذه الأنواع من أصناف الناس كِلها لأهل السنة والجماعة ضوابط في مواجهتهم وأمرهم ونهيهم وما ينضبط به الأمر ؛ لأن هذه المسائل دخل فيها أهل الابتداع والضلال من الخوارج والمعتزلة والرافضة ومن شابههم من الفرق القديمة والحديثة ، دخلوا فيها بأهوائهم ، فكان من مميزات أهل السنة والجماعة أن لهم منهجًا واضحًا في التعامل مع الناس ، وهذا من صلب العقيدة ، ودليل ذلك ظاهر في كتب أهل السنة القديمة والحديثة والمتوسطة ؛ ككتاب شيخ الإسلام الذي بين أيدينا « العقيدة الواسطية » ، وغيره .

فهذه المسائل من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإقامة الحج مع الأمراء ، والجهاد مع الأمراء ، وإقامة الجمع والجماعات مع الأمراء أبرارًا كانوا أو فجارًا ، والدعوة بالنصيحة للأمة وما شابه ذلك ، هذه كلها منهج لأهل السنة والجماعة تميزوا به عن غيرهم .

ومسائل الأمر والنهي سبق تفصيلها فيما مضى ، وذكر بعدها ما يتعلق بالأمراء وولاة الأمر ، فقال :
(ويرونَ إقامةَ الحجِّ والجهادِ والجُمَعِ والأعْيادِ معَ الأُمَرَاءِ أبرارًا كانوا أو فجارًا) هذه هي السنة الماضية ؛ فإن النبي ﷺ روي عنه – كما في « السنن » – أنه قال : « الجهادُ واجبٌ عليكمْ مع كل أميرٍ ، برًّا كان أو فاجرًا »[(١)]، وفي إسناده بحث .

وأجمع أهل السنة على هذا الأصل لما قر القرار ، وأنه لا يجوز الخروج على الولاة ، ولا يجوز التخلف عن حضور الجماعات معهم ولو أخروا الصلاة ، فقد قال النبي ﷺ : « إنه ستكونُ عليكمْ أُمراءُ يؤخرونَ الصلاةَ عن ميقاتِها ، ويخنقونهَا إلى شرقِ الموتى ، فإذا رأيتموهمْ قد فعلوا ذلك فصلُّوا الصلاةَ لميقاتِها واجعلوا صلاتَكُمْ معهمْ سُبْحَةً »[(٢)]، وكذلك يرون أن الجهاد ماضٍ معهم ؛ لأن بر الأمير أو فجوره هذا يرجع إلى نفسه .

وقد قال ابن المبارك –رحمه الله تعالى – في الأبيات المشهورة :

إن الجماعة حبل الله فاعتصموا ... منه بعروته الوثقى لمن دنا
كم يرفع الله بالسلطان مظلمة ... في ديننا رحمة منه ودنيانا
لولا الخلافة لم تؤمن لنا سبل ... وكان أضعفنا نهبًا لأقوانا

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٣٣) من حديث أبي هريرة . وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٤٣٨) .

(٢) أخرجه مسلم (٥٣٤/٢٦) من حديث عبد الله بن مسعود .

وقال النبي ﷺ: «سَيَلِيكُمْ أمراءُ يفسدونَ وما يُصلحُ اللَّهُ بِهِمْ أكثرُ، فمنْ عملَ منهمْ بطاعةِ اللَّهِ فلهُ الأجرُ وعليكمُ الشُّكْرُ، ومنْ عملَ منهمْ بمعصيةِ اللهِ، فعليهِ الوزرُ وعليكمُ الصبرُ»(١). وهذا الأصل عام عند أهل السنة والجماعة في كل أمير ووالٍ ما دام أنه لم يخرج عن الإسلام، فإذا خرج عن الإسلام وكفر بالله ﷻ كان البحث بحثًا آخر، فما دام أن اسم الإسلام باقٍ عليه ولو كان ليس معه منه إلا القدر الذي يصح معه بقاؤه على الإسلام؛ فإن الحج ماضٍ معه، والجهاد ماضٍ معه، وكذلك الجمع والجماعات والأعياد، سواء أكان صالحًا أم طالحًا، فاسقًا معلنًا للفسق أم مستترًا بالفسق، الأمر عندهم واحد في ذلك، والنصوص الدالة على هذا الأصل كثيرة جدًّا في أن طاعة ولاة الأمور واجبة، وهذا هو طريق أهل السنة والجماعة، فقد روى البخاري في «صحيحه» أن ابن عمر - ﷺ - كان مفتيًا في الحج من جهة أمير المؤمنين من ولاة بني أمية، فكان الذي في إمرة الحج الحجاج بن يوسف الظالم المبير، وكان ابن عمر - ﷺ - يدخل عليه ويستشيره ويبحث معه أمور الحج والفتوى، وكان ابن عمر - ﷺ - يصلي خلفه، فعن سالمٍ قال: كتبَ عبد الملكِ إلى الحجاجِ ألا تُخالفَ ابن عمرَ في الحجِّ. فجاءَ ابن عمرَ ﷺ وأنا معه يوم عرفةَ حين زالتِ الشمسُ فصاحَ عندَ سرادقِ الحجاجِ فخرجَ وعليهِ مِلْحَفَةٌ مُعَصْفَرَةٌ فقال: ما لك يا أبا عبد الرحمن؟ فقال: الرواحَ إن كنتَ تريدُ السنةَ. قال هذه الساعةَ؟ قال: نعم(٢). فشهد معه الخطبة، وصلى خلفه.

فالصلاة خلف الظالم، وخلف المفسد، وخلف المقاتل لأولياء الله؛ كالحجاج ونحوه، هذا من سمة أهل السنة، فلا يتخلفون عن الاجتماع العام في الصلاة وما شابهه لأجل ظلم الأمير، أو لأجل فسقه في نفسه، أو ظلمه للأمة، أو تقتيله الصالحين، وما شابه ذلك؛ فإن بقاء الهيبة وبقاء اتباع الأمر؛ فيه من المصالح عند أهل السنة والجماعة ما هو راجح على مصلحة ترك الظالم والبراءة منه والبعد عنه، فلا يُتابع في ظلمه، ولكن يُتعاون معه على ما أمر الله ﷻ من البر والتقوى، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]. والسلف - رضوان الله عليهم - كان لبعضهم في مسألة الخروج على الإمام في أول الأمر اجتهاد خالف فيه النصوص، وهذا الاجتهاد منه لا يُتبع فيه؛ بل يُنسب إليه، هكذا فعل الصحابي فلان أو التابعي فلان، أو هكذا فعل تبع التابعي فلان فيما خرجوا به على الوالي لتأويل نظروا فيه.

والذين يخرجون على الولاة بالسيف قسمان:

القسم الأول: البغاة، وهم الذين يخرجون على الإمام بتأويل سائغ لهم، إما في المال، أو في الدين، ونحو ذلك، فهؤلاء يسمون البغاة - كما قال الفقهاء في تعريف البغاة - فإن كانوا خرجوا بتأويل

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٦٩٨٣) من حديث ابن مسعود. وضعفه جدًّا الألباني في الضعيفة (١٣٥٢).
(٢) أخرجه البخاري (١٦٦٠).

غير سائغ، فهم المحاربون الذين جاء فيهم حد الحرابة.

القسم الثاني: الخوارج الذين يتبعون عقيدة الخوارج الأولى، فليس كل من خرج على ولي الأمر المسلم يكون خارجيًا؛ بل قد يكون باغيًا له تأويله، ويقاتل حتى يفيء إلى أمر الله ﷻ، وقد يكون خارجيًا، والخارجي له أحكام الخوارج المعروفة، وهم الذين يخرجون على الإمام لأجل معتقدهم في ذلك.

والنصوص الدالة على وجوب السمع والطاعة كثيرة معروفة مشهورة؛ كقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، وكما ثبت في «الصحيح» أن النبي ﷺ قال: «منْ يُطِعِ الأميرَ فقدْ أطاعني، ومنْ يعصِ الأميرَ فقدْ عصاني، وإنما الإمامُ جُنَّةٌ يُقاتَلُ من ورائِهِ ويُتَّقى بِهِ، فإنْ أمَرَ بتقوى اللهِ وعدلَ فإن له بذلكَ أجرًا، وإن قال بغيرِهِ فإن عليه منه»[١]. وثبت عنه أيضًا ﷺ أنه قال: «مَن كرِهَ مِن أميرِهِ شيئًا فليصْبِرْ، فإنه من خرجَ من السلطانِ شِبْرًا ماتَ ميتةً جاهليَّةً»[٢]. وهذا فيه عموم.

قال أهل السنة: إن هذا يشمل الأقوال والأعمال والاعتقادات، فمن رأى من أميره شيئًا يكرهه من الأقوال المخالفة للحق، أو الأعمال المخالفة للحق، أو الاعتقادات المخالفة للحق بأن سلك سبيل المبتدعة؛ فإنه يجب عليه الصبر، ولا يجوز نزع اليد من الطاعة؛ وذلك كما فعل الإمام أحمد مع ولاة بني العباس مع أنهم كانوا في شر مقالة، أخذوا الناس بها، ودعوا الناس إليها، وقتلوا وحبسوا فيها من حبسوا، فكانت طريقة الإمام أحمد أنه لم ينزع يدًا من طاعة؛ بل نهى ابن نصر الخزاعي في طريقته ورغبته في الخروج على الوالي، حتى قتل الخزاعي في ذلك، ولما قيل للإمام أحمد: ألا ترى ما الناس فيه؟ ألا ترى هذه الفتنة؟ يعني: فتنة الابتلاء بخلق القرآن، قال: (هذه فتنة خاصة، وإذا وقع السيف وسالت الدماء صارت فتنة عامة، إياكم والدماء، إياكم والدماء، إياكم والدماء) وجعل ينفض يديه كالكاره لذلك أشد الكراهية.

وقوله ﷺ: «مَن رأى مِن أميرِهِ شيئًا يكرهُهُ فليصبرْ». كما هو معلوم في الأصول أن كلمة «شيئًا» نكرة جاءت في سياق الشرط، فتعم الأشياء التي تُكره؛ بل قال النبي ﷺ في ولي الأمر الجائر: «تسمعُ وتطيعُ للأميرِ وإنْ ضُرِبَ ظهركَ وأخذَ مالكَ، فاسمعْ وأطعْ»[٣]، وهذا يدل على إطلاق السمع والطاعة في هذا المقام، وذلك لأن ضرره يكون محدودًا، أو الفتنة التي تحصل به أو الظلم الذي يحصل منه

(١) أخرجه البخاري (٢٩٥٧)، ومسلم (٤٣/١٨٤١)، والنسائي (٤٢٠٧) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٥٣، ٧٠٥٤، ٧١٤٣)، ومسلم (٥٦/١٨٤٩) من حديث ابن عباس.

(٣) أخرجه مسلم (٥٢/١٨٤٧) من حديث حذيفة بن اليمان.

يكون محدودًا ، أما إذا عم ونزعت اليد من طاعة فإن ذلك يكون مسببًا لأنواع من الفساد .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض كلام له قال : « ولم تخرج طائفة على ولاة الأمر إلا وكان ما أفسدوا بالخروج عليه أعظم مما ظنوه من الصلاح » .. وهذا جربه من جربه في عصر التابعين ومن بعدهم فما نفع ؛ ولهذا ذكر بعضهم - كالحافظ ابن حجر - أن الخروج على الوالي كان فيه قولان عند السلف ثم استقر أمر أهل السنة والجماعة على أنه لا يجوز الخروج على الولاة ، وذكروا ذلك في عقائدهم .

وهذا القول - من أنه ثم قولان فيه السلف - ليس بجيد ؛ بل السلف متتابعون على النهي عن الخروج ، لكن فعل بعضهم ما فعل من الخروج ، وهذا يُنسب إليه ولا يُعد قولًا ؛ لأنه مخالف للنصوص الكثيرة في ذلك ؛ كما أنه لا يجوز أن ننسب إلى من أحدث قولًا في العقائد ولو كان من التابعين بأن نقول : هذا قول للسلف ، فكذلك في مسائل الإمامة لا يسوغ أن نقول : هذا قول للسلف ؛ لأن من أحدث القول بالقدر كان من التابعين ، ومن أحدث القول بالإرجاء كان من التابعين - من جهة لُقيّه للصحابة - لكن رُدت تلك الأقوال عليه ، ولم يُسَوِّغ أحدٌ أن يقول : كان ثم قولان للسلف في مسألة كذا . فكذلك مسائل الإمامة أمر السلف فيها واحد ومن تابعهم ، وإنما حصل الاشتباه من جهة وقوع بعض الأفعال من التابعين أو تبع التابعين أو غيرهم في ذلك ، والنصوص مجتمعة عليهم لا حظ لهم منها .

قال : (ويرونَ إقامةَ الحجِّ والجهادِ) ، أهل السنة والجماعة لم يتخلفوا عن الجهاد في أي فترة من فترات تاريخ الإسلام ما دام أن الوالي الذي أمر بالجهاد أو حث عليه مسلم ، أو كان في زمنه ، فهم لا يتخلفون عن الجهاد ولو كان الوالي فيه ما فيه من الظلم والطغيان ونحو ذلك ؛ كما كان من بعض ولاة بني أمية ، وبعض ولاة بني العباس ، فمن بعدهم .

قال : (والجمعِ والأعيادِ) ، كذلك الجمع والجماعات ماضية مع الأئمة ، وقد ذكر النبي ﷺ - كما جاء في « صحيح مسلم » وغيره - قال : « إنه ستكونُ عليكم أمراءُ يؤخرونَ الصلاة عن ميقاتها ويخنقونَهَا إلى شَرَقِ الموتى ، فإذا رأيتموهُمْ قد فَعلُوا ذلك فصلُّوا لميقاتها ، واجعلوا صلاتكم معهم سبحةً »[١] . وقد ذكر ابن عبد البر في « التمهيد » أن بعض ولاة بني أمية كانوا يحبسون الناس في صلاة الجمعة فلا يخرجون إلا قريب العصر ، وكان الصحابة في الناسَ ، وكان التابعون وسادة التابعين وعلماء التابعين في الناس ، وكان الشُّرَط يقفون على الرءوس ألا يصلي أحد قبل إتيان الأمير ، فكانوا يلقون من ذلك عنتًا وشدة ، قال ابن عبد البر : (فكان بعضهم يصلي إيماءً خشية ذهاب الوقت) .

فكانت هذه المسائل في الزمن الأول شديدة في مسائل الصلاة والعبادة ، وكان الأمر ما يراه الأمراء في ذلك الزمان ، ومع ذلك كانت طريقة أهل السنة واحدة ؛ لأن النصوص دلت على شيء عام ، ونهت

(١) تقدم تخريجه .

عن شيء محدد ، فلزموا ذلك ولم يختلفوا فيه مع تغير الأحوال في الأزمنة المختلفة .

قال : (معَ الأمراءِ ، أبرارًا كانوا أو فجارًا) ، والأمير يشمل ولي الأمر ، ويشمل الأمير الذي جعله ولي الأمر أميرًا ، سواء كانت إمارة حضر أم إمارة سفر ، فالأمير هو من جعل أميرًا على من عنده ، فهذا إذا كان أميرًا بالولاية العامة ، أو كان أميرًا بالولاية الخاصة : فإنه ينعقد له الأمر برًا كان أو فاجرًا ، وقد صلى ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره مع بعض ولاة الكوفة لعثمان ، وكان منهم من يشرب الخمر ، وكان يُصلي بهم الفجر أربعًا ، ونحو ذلك .

المقصود من ذلك أن بر الأمير أو فجوره هذا ليس له نظر من جهة الطاعة ، فيطاع الأمير سواء كان صالحًا أو فاسدًا ، وقد ثبت أن النبي ﷺ قال : « إنَّ اللَّهَ ليؤيِّدُ هذا الدينَ بالرجلِ الفاجرِ »[1] .

والإمارة أو الولاية أو الإمامة تنعقد عند أهل السنة والجماعة بأحد أمرين :

الأول : ولاية الاختيار ؛ وذلك باختيار أهل الحل والعقد له ثم بيعتهم له ، وهذه أفضل أنواع الولاية ، لو حصلت لا يعدل عنها إلى غيرها ، فلا يكون على الأمة إلا من يُختار لها ، وولاية الاختيار هذه منها : ولاية الخلفاء الراشدين - أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، وكذلك ولاية معاوية بن أبي سفيان لما تنازل له الحسن بالخلافة ؛ فإنها كانت ولاية اختيار ، ثم بعد ذلك لم يصر ولاية اختيار إلا في أزمنة محدودة وفي أمكنة متفرقة ليست عامة ولا ظاهرة .

الثاني : ولاية الإجبار ، وهي أن يتغلب أحد على المسلمين بسيفه وسنانه ، ويدعو الناس إلى بيعته ؛ فإن هذا تلزم بيعته ؛ لأنه تغلب ، وهذه تُسمى : ولاية تغلب ، قال العلماء : (وهذا النوع من الولاية تلزم به الطاعة وجميع حقوق الإمامة) . لكن ليس هذا هو الأصل ، وليس مختارًا ، بل هو لدرء الفتنة وللالتزام بالنصوص ؛ فإن النصوص أوجبت طاعة الأمير وعدم الخروج عليه ، وهذا تغلب على الناس ودعاهم إلى طاعته ، فلا يجوز أن يُتخلف عن مبايعته مهما حصل .

وتنوعت الولاية في زمن الخلفاء :

* فكانت ولاية أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بنص من رسول الله ﷺ وبالاجتماع عليه .
* وولي عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بنص من أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثم بالاجتماع عليه .
* وولي عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأن جعل عمر الولاية في ستة نفر اختاروا عثمان من بينهم ، ثم بايعه الناس .
* وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يجتمع الناس عليه ، وإنما بايعه من كان في المدينة .

وهذا فيه أن الولاية الشرعية تحصل بالتنصيص عليه من الوالي قبله ، وهو الذي أخذه معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين عقد البيعة ليزيد بن معاوية في حياته ولاية للعهد ، فلزمت ذلك في حياته واستمرت بعده .

فولاية التنصيص هذه إن كان بعدها اختيار من أهل الحل والعقد صارت ولاية اختيار ، وإن كانت

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٦٢، ٤٢٠٣، ٦٦٠٦) ، ومسلم (١١١/١٧٨) من حديث أبي هريرة .

من جهة الغلبة بأن لا يستطيع أحد أن يخالف وإلا فُعل به وفُعل صارت ولاية تغلب ؛ ولهذا يعدون ولاية يزيد بن معاوية من ولاية التغلب وليست ولاية الاختيار ، بخلاف معاوية رضي الله عنه فإنه خير ملوك المسلمين ، وولايته كانت بالاختيار ؛ لأن الحسن رضي الله عنه تنازل له عن الخلافة وعن إمرة المؤمنين ، فاجتمع الناس على معاوية سنة إحدى وأربعين ، وسُمي ذلك العام عام الاجتماع أو عام الجماعة ، فالمقصود من ذلك أن حصول الولاية الشرعية يكون بولاية الاختيار أو ولاية الإجبار والتغلب .

والولاية فيها أفضل وفيها الجائز ، أما الأفضل فأن تجتمع في ولي أمر المسلمين الشروط الشرعية التي جاءت في الأحاديث ، وهي كونه مكلفًا ، مسلمًا ، عدلًا ، حرًا ، ذكرًا ، عالمًا ، مجتهدًا ، شجاعًا ، ذا رأي وكفاية ، سميعًا ، ناطقًا ، قرشيًا ، ونحو ذلك من الشروط المعتبرة العامة التي تكلم عليها الفقهاء .

وهذه الشروط في ولاية الاختيار ، أما ولاية التغلب فإنما هي لدرء الفتنة ، يُقر الوالي ولو كان عبدًا حبشيًا ؛ كما في حديث أبي ذر رضي الله عنه الذي في « الصحيح » ، قال : « إنَّ خليلي أوصاني أنْ أسمعَ وأطيعَ وإنْ كان عبدًا مُجدَّعَ الأطرافِ »[1] ، وهذه عامة في ولاية التغلب ، وفي الرواية الثانية : « اسمعوا وأطيعوا وإنِ استُعمِلَ عليكمْ عبدٌ حبشيٌّ كأنَّ رأسهُ زَبيبةٌ »[2] . وهذه فيها بيان أن اجتماع الشروط المعتبرة – أن يكون قرشيًا عالمًا ونحو ذلك – يكون في ولاية الاختيار ، أما في ولاية التغلب فلا يُنظر إلى هذه الشروط ؛ لأن المسألة غلبة بالسيف .

فينبغي تحرير هذا المقام ، وظهور الفرق بين ولاية الاختيار وولاية التغلب ، وكل منهما ولاية شرعية عند أهل السنة والجماعة يجب معها حقوق الأمير كاملة ، فالنصوص أوجبت طاعة ولاة الأمر كما جاء في قول الله ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء : ٥٩] ، قال ابن القيم رحمه الله وغيره : (لم يأمر الله ﷻ بطاعة أولي الأمر استقلالًا ، بل حذف الفعل وجعل طاعتهم في ضمن طاعة الرسول ، إيذانًا بأنهم إنما يُطاعون تبعًا لطاعة الرسول ، فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجبت طاعته ، ومن أمر بخلاف ما جاء به الرسول فلا سمع له ولا طاعة) ، فليس لهم الحق في أن يحلوا حلالًا ، ولا أن يحرموا حرامًا ، ولا أن يأمروا بما لم يبحه الله ﷻ ؛ فإن أمروا بمعصية فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، يعني : أن طاعة ولاة الأمور طاعة واجبة في غير المعصية ، وهذا الذي دلت عليه النصوص أن الأمير يطاع في غير معصية ، والنصوص لم تُفرّق بين ولاة العدل وولاة الجور ؛ فإنها عامة في كل أمير وولي أمر المسلمين .

وهكذا عقائد أهل السنة يُطلقون ويقولون : (برًا كان أم فاجرًا) ، فيرون حقوقه كاملة ، سواء كان برًا

---

(١) أخرجه مسلم (٦٤٨/ ٢٤٠، ١٨٣٧/٣٦) من حديث أبي ذر .

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٣، ٧١٤٢) ، وابن ماجه (٢٨٦٠) من حديث أنس بن مالك .

أو فاجرًا ، يعني : سواء كان عادلًا أم ظالمًا ، فالنصوص أوجبت الطاعة وحرمت الخروج ، وحرمت أيضًا طاعة الأمير في المعصية ؛ لأن حق الله ﷻ واجب ، فإذا أمر بمعصية فلا يُطاع . ويُفهم من ذلك أن أهل السنة والجماعة جعلوا طاعة الأمراء في أربعة أشياء من الحكم التكليفي : الواجبات ، المستحبات ، المباحات ، المكروهات .

وهذه الأربعة جارية أيضًا في حقَ ولاية الوالد على ابنه ؛ فإنه يُطاع في الواجب ، والمستحب ، والمباح ، والمكروه ، إذا قال لابنه : افعل كذا . وهو مكروه ؛ فإن طاعته واجبة ، وفعل المكروه لا إثم فيه ، فيرجح جانب الواجب ؛ لأنه أرجح من جهة الحكم .

يبقى الحكم التكليفي الخامس وهو ما نُهي عنه نَهْي تحريم ؛ فإنه لا يُطاع فيه ؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وبعض أهل العلم فرق ، وقال : الولاة قسمان :

* ولاة عدل .
* وولاة جور .

فولاة العدل يُطاعون في غير المعصية ، وأما ولاة الجور فلا يطاعون إلا فيما يُعلم أنه طاعة ، أما ما لا يُعلم أنه طاعة فإنهم لا يُطاعون فيه ؛ لأنه لا يؤمن أن يأمروا العبد بمعصية ، فلابد أن يعلم أن هذا طاعة حتى يطيع .

وهذا القول فيه مخالفة للنصوص ، وهو موجود في بعض كلام شيخ الإسلام ابن تيميةرحمه الله تعالى .

وشيخ الإسلام حين ذكر هذا الكلام أراد به ما قيل في منعه حين مُنع من القول بعقائد السلف الصالح ، ومنع شيخ الإسلام رحمه الله إذ ذاك فيه معصية ؛ إذ لا أحد في وقته قام بنشر عقيدة السلف الصالح مثله ، فلو مُنع واستجاب للمنع مطلقًا فإن ذلك يكون انطفاء لعقيدة السلف الصالح ، وقد رأى في وقته أنه لا أحد يقول بعقيدة السلف الصالح وينشرها بين الناس ؛ فلهذا ذكر شيخ الإسلام هذا التفريق ، وهو من اجتهاداته ، وأكثر أهل العلم على خلافه ، وشيخ الإسلام معذور فيما قال ؛ لأنه رأى ما تشتد الحاجة إليه في وقته ؛ بل هو من الضروريات ، فبيان عقيدة السلف الصالح أعظم من حاجة الناس إلى الأكل والشرب والمسكن والملبس ، وليس ثَمّ من يقوم بها في وقته ؛ بل منذ انتهاء القرن الرابع الهجري لا أحد يقوم بعقيدة السلف الصالح بظهور وتفصيل إلا ما كان من أفراد ليس لهم جهد وجهاد ، يعني : ليسوا بمرتبة شيخ الإسلام في الظهور والبيان .

والنبي ﷺ وعد هذه الأمة بأنها لا يزال طائفة منها ظاهرة على الحق ، وهذا التفريق بين طاعة الإمام العدل في غير المعصية ، وطاعة إمام الجور والظلم فيما يُعلم أنه طاعة ، هذا التفريق غير صحيح ؛ لأنه

مخالف للنصوص إلا في حالة معينة ، وهي ألا يوجد من يقوم ليبين الناس الواجب عليهم من جهة الاعتقاد ومن جهة العبادة ، فإذا كان ليس ثم من يقوم بتبيين ما يصحح للناس عقيدتهم وعبادتهم ؛ فإنه يقال : إنه لا يُطاع في ذلك . لأن طاعته في ترك بيان العقيدة المتعينة على هذا الفرد ، أو بيان العبادات المتعينة على هذا الفرد ، هذه معصية ، فرجع الأمر إلى الحال الأولى ، وصارت المسألة بما دلت عليه النصوص أن الولاة يُطاعون في غير المعصية في الأحكام الأربعة التكليفية ، وإذا أمروا بمعصية فلا يطاعون .

قال في وصف أهل السنة والجماعة : (ويحافظونَ على الجماعاتِ) ، وهذا الوصف لهم منهج من منهجهم وطريقتهم وسلوكهم ، أنهم يحافظون على الجمع والجماعات مخالفين في ذلك طوائف الضلال ، ومن هذه الطوائف :

الأولى : طائفة المنافقين ؛ فإن المنافقين لا يحضرون الجماعات ، ولا يحضرون الجمع إلا مع من اشتهوا .

الثانية : الروافض الذين يقولون : لا جمعة ولا جماعة إلا مع الإمام المعصوم .

الثالثة : الخوارج ؛ لأن الخوارج لا يصلون إلا خلف من كان على مثل عقيدتهم .

الرابعة : الذين لا يصلون إلا خلف من يعلمون عقيدتهم في الباطن .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في موضع : (ومن أصول أهل السنة والجماعة أنهم يصلون الجمع والأعياد والجماعات ، لا يدعون الجمعة والجماعة - كما فعل أهل البدع من الرافضة وغيرهم - فإن كان الإمام مستورًا لم يظهر منه بدعة ولا فجور صُلّي خلفه الجمعة والجماعة باتفاق الأئمة الأربعة وغيرهم من أئمة المسلمين ، ولم يقل أحد من الأئمة : إنه لا تجوز الصلاة إلا خلف من عُلم باطن أمره ؛ بل ما زال المسلمون من بعد نبيهم ﷺ يصلون خلف المسلم المستور) .

وهذا موجود في الزمن الأول وموجود في هذا الزمن ممن يسمون : (جماعة الوقف) الذين يجعلون الناس لا تُعلم عقائدهم - أي أنهم : مستورون - إلا من ظهر أنه موحد ، أو ظهر أنه مشرك ، ومن لم يظهر توحيده أو شركه فهذا موقوف أمره ، فلا يُصلى خلفه حتى تُعلم عقيدته في الباطن .

وهذا قول مبتدع مخالف لطريقة أهل السنة ؛ فإن أهل السنة والجماعة يجعلون الأصل في المسلم الإسلام ، ما دام أنه لم يظهر منه مكفر ، ولم يظهر منه مخرج من الملة ؛ فإن الأصل فيه الإسلام ، فلا يُشترط في الذي يُصلي أن تُعلم عقيدته في الباطن ، ولا نقول : هذا لا ندري عنه فلا نصلي خلفه حتى نعلم حاله في الباطن واعتقاده في الباطن . فهذه مقولة باطلة ؛ بل نصلي خلفه ، ونحافظ على الجمع والجماعات .

وقد صلى أئمة السلف خلف الجهمية في الجمع ، وصلوا خلف بعض المعتزلة ، وصلوا الجمعة

والجماعة خلف بعض غلاة المرجئة ، ونحو ذلك ؛ كما ذكره الأئمة - منهم ابن تيمية وغيره - عن السلف ، وهذا القدر متفق عليه بين السلف في أنهم يصلون خلف الإمام الذي يصلي بالناس الجمع والجماعات ، وإنما تنازع السلف في مسألة هل تُعاد الصلاة أم لا ؟ هذه مسألة أخرى ، يعني : يُصلي خلف من يصلي بالناس ولا تُفارق الجماعة ، ولكن هل تعاد الصلاة خلف من ظهر منه عقيدة مكفرة - كالجهمية والمعتزلة - أم لا تُعاد الصلاَة ؟ على قولين عند الإمام أحمد وغيره .

لكن من جهة الأفضلية إذا كان ثم من سيتقدم بدون ولاية للصلاة ، ثم من يتقدم وهو لا تُعلم عقيدته ، وهناك من يُعلم أنه صحيح العقيدة متابع لطريقة السلف الموحد ؛ فإنه يُقدم على من تُجهل عقيدته ؛ لأنه لا يجوز الصلاة خلف مبتدع إذا كان المجال مجال اختيار ، أما إذا كانت المسألة إمامة بولاية ، يعني : الذي عينه هو الإمام ؛ فإنه يُصلى خلفه محافظة على الجمع والجماعات والأعياد .

هذه مسألة اجتهاد ، وقد عرض علينا أسئلة في هذا من بعض مناطق أفريقيا ونحو ذلك ، يكون الكثرة الكاثرة فيها لا يكفرون بالطاغوت ، فما العمل في مثل ذلك ، هل يُحافظ على الصلاة أم تُترك الصلاة معهم ؟ فالظاهر من الحال أنهم إن تمكنوا من مسجد يؤمون فيه بعضهم بعضًا فهذا أفضل ، ولكن إذا كانوا في منطقة أكثرهم مشركون ، والغالب فيهم أنهم لم يحققوا التوحيد ولم يكفروا بالطاغوت ، فإنه يصلي خلفهم وللإمام صلاته وللمأموم صلاته ، وارتباط صلاة الإمام بالمأموم فيها خلاف ، والصواب أن المأموم له صلاته والإمام له صلاته .

وقد سُئل في ذلك سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ، فقال : اجتهدوا في الأمر لعلكم تجدون مكانًا تصلون فيه ، وتكون إمامة المسجد لكم ، فإذا لم تجدوا فصلوا خلفهم وصلاتكم لله مقبولة إن شاء الله .

وهذه مسائل عملية يختلف فيها الوضع ؛ لأنه في بعض الأحيان يكون هناك إحراج شديد في هذه المسألة ، فقد يعلمون أن هذا يحضر الموالد التي يُذبح فيها لغير الله ، ولا يغار ، أو كان من المنفرين إذا عرضت مسائل التوحيد ، وقد يكون من العلماء أو من القراء ، فتكون الفتنة أعظم مما لو كان من العامة ، وهذا الذي يحصل فيه الإشكال .

وعلى أية حال إذا عرض من ذلك شيء فيحصل فيه استفتاء للمفتين فيجيبون بالصواب إن شاء الله تعالى .

(ويدينونَ بالنصيحةِ للأمةِ ، ويعتقدونَ معنى قولِهِ ﷺ : « المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيانِ المرصوصِ ؛ يشدُّ بعضهُ بعضًا » . وشبَّكَ بينَ أصابعِهِ[1] ، وقولِهِ ﷺ : « مثلُ المؤمنينَ في توادِّهِمْ وتراحُمِهِمْ وتعاطفِهِمْ كمثلِ الجسدِ ؛ إذا اشتكَى منهُ عضوٌ تداعَى لهُ سائرُ الجسدِ بالحمَّى والسهرِ »[2]) .

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١، ٢٤٤٦، ٦٠٢٦) ، ومسلم (٢٥٨٥/٦٥) ، والترمذي (١٩٢٨) ، والنسائي (٢٥٥٩) من حديث أبي موسى الأشعري .

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١) ، ومسلم (٢٥٨٦/٦٦) من حديث النعمان بن بشير .

لا زال كلام شيخ الإسلام ﷺ في بيان منهج أهل السنة والجماعة في التعامل مع المسلمين ، فبيَّن فيما سبق منهجهم مع ولاة الأمور ومع من يلي الإمامة ، وطريقتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع العصاة والمبتدعة وغيرهم .

وننبه هنا على كلمة انتشرت في هذا الزمن وهي قول بعضهم : إنا نحتاج في هذا الزمن إلى عقيدة سلفية ومواجهة عصرية .

وهذه الكلمة قالها بعض المعاصرين ، وهي غلط على السلف الصالح وعلى عقيدة السلف الصالح ؛ لأن كلمة مواجهة عصرية هذه كلمة مجملة ، ماذا يُراد بكون المواجهة عصرية ؟ إن كان المراد بها الوسائل ، يعني : الشريط الدعوي ، والمطويات ، والردود ، ومكاتب الدعوة التي تُفتح ، ونحو ذلك ، فهذا صحيح ، هذه وسائل قد يتوسع الناس فيها .

أما إذا كان المُراد بعصرية المواجهة أن تحدث أنواع من الإنكار ليست على منهج عقيدة السلف ، أو أن يوجه الولاة بطرق جديدة ليست على منهج السلف ؛ فإن هذا مخالف لطريقة السلف ، وعقيدة أهل السنة والجماعة أحد أجزائها طريقة التعامل مع العصاة والمبتدعة ، ومع الولاة والعلماء ، ومع الناس كافة ، فالواجب أن يُقال : عقيدة سلفية . لأن عقائد السلف شملت جميع ما نخالف به عقائد أهل الضلال والبدع ، فلا حاجة إلى شيء عصري في المواجهة يخالف طرق الأولين ؛ لأن قول القائل : مواجهة عصرية . هذه قد تدخل فيها صور جديدة في هذا الزمان مما يُحدثه بعض المجتهدين في هذا الأمر ، فيكون هذا غالطًا على السلف وعلى الأئمة ؛ فإن العقيدة تشمل : مسائل الإيمان ، ومسائل القدر ، ومسائل الصفات والأركان كلها ، والكلام في الصحابة وأمهات المؤمنين ، والكلام في كرامات الأولياء ، والكلام في بقية المسائل العلمية ، وكذلك في مسائل منهج التلقي من الكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح ، ونبذ العقل ، وكذلك في مسائل المواجهة والتعامل ، كذلك في مسائل الأخلاق .

هذه خمسة أشياء عند أهل السنة والجماعة لابد من رعايتها ، وإخراج المواجهة من عقيدة السلف الصالح هذا لم يسبق إليه أحد قبل هذا الزمان ، فيكون من جملة المحدثات .

قال شيخ الإسلام : (ويدينونَ بالنصيحةِ للأمةِ) ، الدينونة يعني التعبد بكذا ، فهم يتعبدون بالنصيحة للأمة ، يعني : يتقربون إلى الله ﷻ بنصح الأمة ؛ كما جاء في حديث تميم الداري ﭬ أن النبي ﷺ قال : « الدينُ النصيحةُ »[1] . قالها ثلاثًا ، قال الصحابة : لمن يا رسول الله ؟ قال : « للهِ ولرسولِهِ ولكتابه ولأئمة المسلمينَ وعامتهمْ » . النصيحة لله بإخلاص : العمل لله ، ولكتاب الله : بتلاوته وتحكيمه ، وتحليل حلاله ، وتحريم حرامه ، والنصيحة لأئمة المسلمين بطاعتهم في غير المعصية ، وبترك الخروج عليهم ، والنصيحة لعامة المسلمين بالسعي في إرشادهم للحق والهدى ، ومحبة الخير لهم ، والسعي فيما

(١) تقدم تخريجه .

يُصلحهم ، والتعاون معهم على البر والتقوى . فكلمة (النصيحة) هذه كلمة جامعة تشمل أصول الدين ، وتشمل فروعه ، وتشمل التوحيد ، وتشمل المعاملات ؛ ولهذا قال ﷺ : « الدينُ النصيحةُ » . فجعل الدين محصورًا في النصيحة ؛ لأن حقيقة النصح إخلاص القول والعمل لله ﷻ ، وإخلاص العمل لله ﷻ يتضمن أن يُخلص العبدُ المتابعة ، ويُخلص اتباع الكتاب ، ويكون دائنًا بالطاعة وبمحبة الخير للأمة ، فالنصح هو خالص الشيء ، فيقال : هذا شيء نصيح ، أي : خالص لم تشبه شائبة ، والنصيحة للأمة أن تحب لهم الخير لئلا يشوب تلك المحبة شائبة .

وقد قال شيخ الإسلام هنا : (ويعتقدونَ معنَى قولِهِ ﷺ : « المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيانِ المرصوصِ ؛ يشُدُّ بعضهُ بعضًا » . وشبَّكَ بينَ أصابعِهِ) .

قوله ﷺ : « كالبنيانِ يشدُّ بعضهُ بعضًا » . فـ « المؤمن » الأولى المراد بها الإيمان المطلق ، والثانية المراد بها مطلق الإيمان ، فالمؤمن كامل الإيمان للمؤمن الذي معه أصل الإيمان « كالبنيانِ يَشُدُّ بعضُه بعضًا » . فإن كملةَ الإيمان يدينون بالنصيحة للأمة ، ويسعون في ذلك ، ويرشدونها ، ويصبرون على ما أصابهم ، ولو سبوهم وآذوهم ولمزوهم بما يلمزون به ؛ فإنهم يحبونهم وينصحون لهم .

وقد قال أحد السلف : (وددت أن جسدي قرض بالمقاريض ، وأن هذا الخلق أطاعوا اللّٰه) ، يعني : لو كان جسده قطع بالمقصات الكبار والناس أطاعوا اللّٰه لكن الأمر هينًا ، وهذا من عظيم محبته لهم ، وقد كان الإمام أحمد رحمه الله يدعو في سجوده بقوله : (اللهم إن قبلت من عصاة أمة محمد ﷺ فداءً فاجعلني فداءً لهم) ، وهذه أعظم ما يكون من المحبة للخلق والنصح لهم ؛ فإنه يود أنهم جميعًا دخلوا الجنة ، ولو كان هو أصابه ما أصابه ، وهذا من شدة المحبة التي تغلب على النفس ، وهذه هي المرادة هنا ، فالمؤمن كامل الإيمان يحب الخير لإخوانه ، ويصبر لنفسه ؛ كما جاء في الحديث الآخر الذي في « الصحيح » : « لا يؤمنُ أحدكم حتى يحبَّ لأخيهِ ما يُحبُّ لنفسهِ »[1] ، والمراد هنا : لا يؤمن أحدكم الإيمان الكامل ؛ لأن محبة المؤمن الخير لإخوانه المؤمنين واجبة أو مستحبة بحسب الحال ، لكنها من كمالات الإيمان وليست شرطًا في صحته .

قال : (وقوله ﷺ : « مثلُ المؤمنينَ في توادِّهِمْ وتراحُمِهِمْ وتعاطُفِهِمْ كمثلِ الجسدِ ؛ إذا اشتكَى منهُ عضوٌ تداعَى لهُ سائرُ الجسدِ بالحمَّى والسهرِ ») . قوله ﷺ : « مثلُ المؤمنينَ » يعني : الذين كمل إيمانهم « في توادهِمْ وتراحمهِمْ وتعاطفهِمْ كمثلِ الجسدِ » . أما ناقصو الإيمان فإنهم ليسوا بهذه المثابة ؛ فإن ناقص الإيمان يكون عنده بغض لأخيه المؤمن ، وربما سعى فيما يضره ، ونحو ذلك ، لكن كامل الإيمان هو مع إخوانه في توادده وتراحمه وتعاطفه كمثل الجسد الواحد ؛ لأنهم شيء واحد .

---

(١) أخرجه البخاري (١٣) ، ومسلم (٤٥/٧١) ، والترمذي (٢٥١٥) ، وابن ماجه (٦٦) ، والنسائي (٥٠٣١، ٥٠٣٢، ٥٠٥٤) من حديث أنس بن مالك .

قوله : (ويأمرونَ بالصبرِ عندَ البلاءِ ، والشكرِ عندَ الرَّخاءِ ، والرضا بِمُرِّ القضاءِ ، ويدعونَ إلى مكارمِ الأخلاقِ ، ومحاسنِ الأعمالِ ، ويعتقدونَ معنى قولِهِ ﷺ : « أكملُ المؤمنينَ إيمانًا أحسنُهمْ خُلُقًا »[1]) .

فهذه خاتمة هذه الرسالة المباركة التي سميت بالعقيدة الواسطية ، وفيها بيان أخلاق أهل السنة والجماعة ، فأهل السنة تميزوا عن غيرهم بأنهم أثرت فيهم المتابعة ، وأثر فيهم الاعتقاد ، فهم أهل اتباع للنبي ﷺ في المسائل العلمية ، وفي المسائل العملية .

أما أهل البدع فقد جعلوا المسائل العملية والأخلاق في مرتبة ليست بمهمة ، وقالوا : إن هذه من قشور الدين .

وأهل السنة من جهة اعتنائهم وفقههم واتباعهم للنبي ﷺ تابعوا في المسائل العلمية والمسائل العملية ، والمسائل العملية منها الأحكام الفرعية ومنها الأخلاق ؛ فلذلك هم في السلوك أهل اتباع لسبيل المؤمنين ؛ لطريقة المصطفى ﷺ ، وطريقة الصحابة – رضوان الله عليهم – منْ بعده .

والفِرَق المخالفة لطريقة أهل السنة في باب الأخلاق تنوعت ، منهم من لم يهتم بهذا أصلًا وإنما يهتمون بالأمور الكلية ، فهم في سلوكهم وعملهم وأخلاقهم ودياناتهم لا يهتمون بذلك ، لا من جهة حقوق الله ﷻ ، ولا من جهة حقوق الخلق : من الواجبات والمستحبات ، فهم مفرطون في ذلك كله ، وقد أخذوا الاعتقاد من جهة العقليات فصارت عندهم مباحث أشبه ما تكون بمباحث اللاهوت عند النصارى ، وليست بمباحث عقدية تؤثر في القلب عقدًا فتستجيب لها الجوارح فعلًا وسلوكًا وحركة ، فالمتكلمون أقسى قلوبًا مع أنهم يثبتون وجود الله ﷻ بما يثبتونه به ، ويثبتون البعث ، ويثبتون أشياء مما هي معلومة في العقيدة ، ويخالفون فيما يخالفون ، لكنهم ليسوا بذوي ذكاء في قلوبهم .

ولهذا قال شيخ الإسلام –رحمه الله تعالى – في وصف أئمتهم : (أوتوا ذكاءً وما أوتوا زكاءً ، وأعطوا فهومًا وما أعطوا علومًا) ، وهذا واقع ؛ فإن كثيرين دخلوا في مباحث الاعتقاد من جهة عقلية بحتة ولم يستفيدوا منها في تعظيم الله ﷻ كما ينبغي ، ولا في تعظيم رسوله ﷺ التعظيم الذي أذن الله ﷻ به لرسوله ﷺ من جهة محبته وطاعته واتباع ما جاء به ، فهذه الفئة – المتكلمون ومن شابههم – لم يعتنوا أصلًا بالأخلاق ولا بالعمل ، ومثلهم الفلاسفة الإسلاميون كذلك لم يهتموا بالعمل ، وهؤلاء أصناف متنوعة .

يقابلهم جهة أخرى غلت في الأخلاق حتى جاوزت المأذون به وجاوزت السنة في ذلك ، وهم المتصوفة ، والصوفية فرقة نشأت في أواسط القرن الثاني للهجرة ، وكان لنشوئها أسباب منها :

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٨٢) ، والترمذي (١١٦٢) من حديث أبي هريرة . وقال الألباني في صحيح أبي داود (٣٩١٦) : حسن صحيح .

مخالطتهم للنصارى خارج الأمصار وخارج البلاد المتأهلة بالسكان - مثل بغداد ودمشق ونحو ذلك - وقد كان النصارى يميلون إلى الرهبنة وينعزلون ، فلما خالطهم طائفة من جهلة المسلمين قلدوهم في ذلك حتى غلوا في جانب الأخلاق ، فصاروا مخالفين لطريقة السلف الصالح فيه .

وهؤلاء الذين غلوا - وهم الصوفية - نسبوا إلى لبسهم الصوف تقليدًا للنصارى ، وهناك أقوال أخر في سبب تسمية الصوفية ، لكن هذا هو أظهرها ، في المقامات والأحوال لم يتابعوا ما جاء عن النبي ﷺ ، وإنما دخلوا بالذوق ، وهذا له سبب ؛ وذلك أن كتب اليونان لما ترجمت في أوائل القرن الثالث ، أُتي بها إلى بلاد المسلمين ، كانت كتب أولئك فلسفية ، والفلسفة معناها طلب الحكمة ، والحكمة تارة تكون في العقليات وتارة تكون في الروحانيات ، والفلاسفة اليونان على هاتين الفرقتين ؛ منهم من عنوا بالعقليات ؛ كأرسطو ، وأفلاطون ، وجماعة من كبارهم ، فحققوا المسائل الفلسفية بحسب ظنهم بطلب معرفة الأشياء الطبيعية على ما هي عليه ، وكذلك معرفة ما وراء الطبيعة على ما يظهر عليه البرهان العقلي عندهم ، هذا ليس مهمًّا عندنا في هذا الموضع ، لكن الذي يهمنا هنا القسم الثاني ، وهم الفلاسفة الذين اعتنوا بطلب الحكمة عن طريق إصلاح النفس ، وقالوا : طلب الحكمة لا يكون إلا عن طريق إصلاح النفس ، وإصلاح النفس بأن تتجرد من العلائق الأرضية وتنطلق في الأجواء السماوية ، وإذا كان كذلك فلابد لها من رياضة ، وهذه الرياضة معتمدة عندهم على فصل الروح عن الجسد ، فلا يُنظر إلى الجسد البتة ، بل يُنظر إلى الروح فتخلص الروح من تعلقها بالجسد ، يعني : من تعلقها بالأرض .

وهؤلاء في الفلاسفة يسمون أهل الإشراق ، أو أصحاب نظرية الفيض ، هؤلاء لهم كتب يمثلهم أفلوطين - وهو غير أفلاطون - الذي كان يعيش في الإسكندرية ، وصار صاحب نظرية الفيض .

والبحث في هذا متشعب ، والمقصود أن هذه الأقوال وهذه النظريات وصلت إلى المسلمين لما تُرجمت كتب اليونان في العقليات وفي الروحانيات ، يعني : في إصلاح العقل وإصلاح الروح .

وهؤلاء يُعَرِّفونَ المنطق بأنه قوانين تضبط العقل عن الخطأ ، وقوانين الروح عندهم تضبط الروح عن الدنس ، فدخلت هذه وهذه عن طريق الكتب التي تعتني بالعقليات ، فنشأت الفلسفة وظهرت الفلاسفة - والفلاسفة غير المتكلمين - الذين اعتنوا بفلسفة الأوائل ؛ كالفارابي من المتقدمين وأشباهه ، وابن سينا ونحو هؤلاء .

والجهة الثانية : الذين غلوا في إصلاح النفس وتأثروا بالنصارى وبالكتب الإشراقية ، وكتب نظرية الفيض التي تُرجمت عن اليونانية .

إذن صار إصلاح النفس مخالفًا لطريقة السلف ، فأهل السنة رأوا كلام الذين بدأ فيهم الزيغ ، فتكلموا في الأخلاق وفي إصلاح النفس بغير ما دلت عليه النصوص ، مثل جماعة ممن كانوا في عصر الإمام أحمد وقبله ، كانوا يتكلمون في هذه المسائل على غير طريقة السلف ، وصنفوا فيها مصنفات معروفة

وموجودة ؛ ولهذا قابلهم السلف بتأصيل الأخلاق ، ومخالفة أهل الضلال فيها عن طريق كتب الزهد والرقائق ، فتصنيف كتب الزهد والرقائق كان مقصودًا لمخالفة هذه الطائفة التي غلت في الأخلاق والسلوك وتركت طريق النبي ﷺ ، وأيضًا للرد على الذين نظروا إلى الدنيا ، وأخذوا بالعقليات ، ونسوا يوم الحساب ، فهؤلاء وهؤلاء رد عليهم السلف بكتب الزهد والرقائق بما كان عليه صلوات اللّه وسلامه عليه من الزهد ، وبما كان عليه أصحابه ، وبما كان عليه الأنبياء عليهم صلوات اللّه وسلامه ، وهكذا ، فصار أهل السنة في باب إصلاح النفس مخالفين للجفاة الذين لم يعتنوا بإصلاح الأخلاق ، وللذين غلوا فابتدعوا طرقًا في إصلاح النفس والأخلاق .

وكلمة الأخلاق هذه كلمة عامة ، والمقصود منها الصورة الباطنة ؛ لأن الخلق من : خلق يخلق خلقًا هو الإيجاد ، وهذا المخلوق له صورتان : صورة ظاهرة وهي الخلق وخلقته ، وصورة باطنة وهي خُلُقه .

ولهذا عَظَّم النبي ﷺ حسن الخلق في أحاديث كثيرة متعددة يأتي بعضها إن شاء اللّه تعالى ، وقد قال اللّه ﷻ لنبيه ﷺ : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم : ٤] ، وفي « صحيح مسلم » من حديث عائشة في حديث طويل في سؤال بعضهم عائشة - رضي الله عنها - عن خلق النبي ﷺ فقالت : « كان خُلُقَهُ القرآنَ »[1] .

فأهل السنة ذكروا في تصانيفهم ما يتعلق بالزهد والأخلاق ، وإصلاح العمل ، والصورة الباطنة المتابعة للظاهر ، وإصلاح الصورة الباطنة من مكارم الأخلاق ، ونهوا عن كل ما يخالف طريقة السلف في هذا الأمر ؛ ذلك لأن مسألة التربية والأخلاق وإصلاح النفس قد تكون على غير طريقة السلف الصالح ؛ فلهذا ذكروا أصول ما هم عليه في باب إصلاح الخلق ، وإصلاح الصورة الباطنة ، وإصلاح النفس ، مما أشار إليه شيخ الإسلام -رحمه اللّه تعالى - في هذه الجملة .

المقصود من هذا البيان أن ذكر الأخلاق في كتب أهل السنة والجماعة مقصود ، وهو من جملة ما تميزوا به عن غيرهم ، فغيرهم في هذا الباب ما بين جاف وغال .

وإذا نظرت إلى تصانيف الغزالي - مثلًا - وجدت أنه غلا في هذا الباب ، فخالف طريقة أهل السنة ، ومشايخه أخف منه ؛ كمكي بن أبي طالب في كتاب « قوت القلوب » ، والقشيري ، ونحوهم ، لكن عندهم أيضًا بلاء ، وهكذا كلما مضى الزمن وَجدت أن المتأخرين في هذا الباب لسعة الانفراج يزيدون على من قبلهم انحرافًا ، فمن المهم أن يُوصل كلام أهل السنة في باب الأخلاق ، والكلام في الزهد والرقائق والخلق ليس أمرًا ثانويًا - كما يقوله من لم يفهم - أو أمرًا شكليًا أو قشورًا وليست بلباب ، فالدين كله لباب وكله قول ثقيل ؛ كما قال ﷻ لنبيه ﷺ : ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل : ٥] .

---

(١) أخرجه مسلم (٧٤٦/١٣٩) ، والنسائي (١٦٠٠) .

وقد سُئل الإمام مالك -رحمه الله تعالى- عن مسألة فقال : لا أدري ، فقال له السائل : إنها مسألة خفيفة ، فغضب وقال : (ليس في العلم شيء خفيف ، العلم كله ثقيل ، أما سمعت قول الله ﷻ : ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾) ، فنأخذ بما أمرنا الله ﷻ به ، وبما أمر به المصطفى ﷺ ، والكل حق وهدى ، نأخذه ونخالف بذلك أهل الضلال .

فإذن الدعوة إلى هذه الأخلاق هي من خصائص أهل السنة ، ومن أثر العقيدة على النفس ، ومَنْ تَمَثَّلَ العقيدة الصحيحة فهو الصالح ، فالصالح من عباد الله هو الذي صلَح باطنه وظاهره ، وصلاح باطنه بالاعتقاد الصحيح والأخلاق الفاضلة ، وظاهره بأن يكون مقيمًا لحقوق الله وحقوق الخلق ، فالصالح عند أهل العلم هو القائم بحقوق الله وحقوق الخلق ، فمن جمع القيام بهذا وهذا فهو صالح ، ومن فرط في شيء من هذين فهو ينقصه من الصلاح ويدخله شيء من ضده بحسب ما فرط وترك .

قال شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى- في وصف أهل السنة : (ويأمرونَ بالصبرِ عندَ البلاءِ) ، يأمرون بذلك لأنه جاء الأمر به ، والصبر عند البلاء هذا يشمل صبر القلب وصبر الجوارح ؛ لأن الصبر في اللغة : الحبس . قُتل فلان صبرًا يعني حبسًا ، حُبس وربط في شيء حتى قتل ، يعني : من غير قتال ، وهو في الشرع حبس القلب عن التسخط ، وحبس اللسان عن التشكي ، وحبس الجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ، ونحو ذلك . فإذا أتى بلاء فإنهم يصبرون إذا ابتلو بشيء في أنفسهم ، أو في أهليهم ، أو في أولادهم من نقص في الأنفس ، أو نقص في الأموال ، أو ما شابه ذلك ؛ فإنهم يصبرون عند البلاء .

والصبر واجب من الواجبات وليس بمستحب فقط ، فيُحبس القلب عن التسخط على فعل الله ﷻ ، ويحبس اللسان عن شكوى الله ﷻ إلى الخلق ، وتُحبس الجوارح عن إظهار الجزع من لطم وشق وعويل وما شابه ذلك ، وجاء في الحديث الصحيح الذي في مسلم وغيره أن النبي ﷺ قال : « والصبرُ ضياءٌ »[1] ، وهذا من أعظم ما يكون عند الصابرين ؛ فإن الصبر حبس ولكنه يضيء القلب ويضيء الطريق ، فالصبر واجب ، والأجر على البلاء هذا يكون بالصبر ، والبلاء في نفسه مكفر للسيئات ، والصبر عليه يؤجر به العبد ، فصار البلاء للمؤمن له جهتان :

* جهة تكفيره للسيئات .
* وجهة إثابته على هذا البلاء .

فالبلاء يُكفر ، ولكن الإثابة تكون على الصبر ؛ فإن فقد الصبر هل يقع التكفير أم لا ؟ هذا فيه خلاف بين أهل العلم ، والظاهر في ذلك أن الصبر لا يُشترط لتكفير السيئات بالمصيبة ، بل وقوع المصيبة في نفسها فيه تكفير للسيئات رحمة من الله تعالى ؛ كما قال ﷻ : ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣/١) ، والترمذي (٣٥١٧) ، وابن ماجه (٢٨٠) ، والنسائي (٢٤٣٦) من حديث أبي مالك الأشعري .

كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠]، وفي «الصحيح»: «من يُرِدِ اللَّه بِهِ خيرًا يُصِبْ منه»[1]، فبالمصيبة يكون الخير للمسلم، ولا شك أنه إذا صبر عليها فإنه يؤجر وتكفر عنه السيئات، وتفاصيل الكلام على الصبر في «كتاب التوحيد»، وفي «مدارج السالكين» في منزلة الصبر.

قال: (والشكرِ عندَ الرخاءِ)، والشكر عام يدخل فيه عبادات كثيرة، وهو مما يؤمر به العباد؛ لأن اللَّه ﷻ أمر به في مثل قوله: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ [لقمان: ١٤]، ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، ﴿كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥ﴾ [سبأ: ١٥]، ونحو ذلك من الآيات، فالشكر مأمور به وهو واجب.

والشكر له أركان ثلاثة واجبة كلها:

الأول: أن يقوم في القلب أن النعمة من عند اللَّه ﷻ، فيكون القلب منطويًا على أن الفضل من اللَّه ﷻ لا من غيره، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

الثاني: التحدث بهذه النعمة.

الثالث: استعمالها فيما يحب من أنعم بها لا فيما يسخط ويكره، وإذا قلنا: استعمالها فيما يحب. فإنه يشمل ما أذن به من جهة التغليب، يعني: يشمل المباح من جهة التغليب، وإلا فالأولى أن يُقال: استعمالها فيما أذن به، فيدخل فيه المباح؛ لأن من استعمل نِعَم اللَّه ﷻ في الواجبات أو في المستحبات أو في المباحات فإنه شاكر، بخلاف من استعملها في المحرمات.

والشكر – كما هو معلوم – له تعلق بالقلب وتعلق بعمل الجوارح، فالشكر متعلق بالقلب واللسان والجوارح جميعًا، بخلاف الحمد؛ فإن الحمد ليس له تعلق بالعمل، والشكر له تعلق بالعمل، والحمد ثناء على من اتصف بالصفات الحسنة، سواء أكان منعمًا أم غير منعم، فليس الحمد في مقابلة النعمة؛ بل الحمد في مقابلة الصفات الحسنة، وأما الشكر فهو في مقابلة نعمة؛ ولهذا قال هنا: (والشكرِ عندَ الرخاءِ)، فإذا أصاب العبدَ رخاءٌ شَكرَ، أي: يشكر بقلبه بأن ينسب النعمة للَّه، ويشكر بلسانه بأن يتحدث بهذه النعمة، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ [الضحى: ١١]، فلا يكتم نعمة اللَّه عليه، بل يشكر بعمله بأن يستعملها فيما يأذن المنعم؛ كما قال ﷻ: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

فإذن صار الشكر غير الحمد، فالحمد ثناء والشكر فيه عمل، والشكر على نعمه، وأما الحمد فعلى أوصاف الكمال، فتحمد من لا تحب من جهة الإنصاف، وتثني عليه بما هو أهله، واللَّه ﷻ هو المحمود بكل لسانٍ سبحانه وتعالى.

والصبر والشكر هذان متقابلان؛ كما جاء في الحديث: «الإيمانُ نِصْفانِ: فنِصفٌ في الصبرِ،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٥) من حديث أبي هريرة.

ونصفٌ في الشكرِ»[1] ؛ لأن العبد لا يخلو في أي أحواله من أن يكون في شيء يستوجب شكرًا ، أو في شيء يستوجب صبرًا ، لا يخلو من هذا وهذا جميعًا ، فلابد من هذا وهذا ، فيكون إذن متعبدًا بالصبر وبالشكر .

قال : (والرضا بمُرِّ القضاءِ) الرضا مقام من المقامات العظيمة للقلب ، والله ﷻ رضي عنه عباده الصالحون ، قال تعالى : ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ [المائدة : ١١٩] ، فما يأتي من الله ﷻ شيء إلا والمؤمن يعلم أنه خير له ، فيرضى ويسلم فيما يأتيه من الخيرات وما يأتيه من غيرها .

والشكر لا يمكن أن يكون إلا برضا ، فمرتبة الشكر أرفع ؛ لأن الرضا منطوٍ تحت الشكر ، فكل شاكر راضٍ ، والراضي بالنعمة يشكرها ، وهنا في قوله : (والرضَا بمرِّ القضاءِ) تخصيص أحد وجهي الرضا ، وهو الرضا عما يصيب العبد . والرضا مختلف عن الصبر ، فالصبر حبس ، وأما الرضا فهو التسليم لهذه واستئناس القلب لها .

ولهذا كان الرضا قسمين :

* الرضا الواجب .
* الرضا المستحب .

وتحقيق المقام في ذلك أن الرضا تختلف جهته : تارة يكون واجبًا ، وتارة يكون مستحبًا ، فالرضا الواجب أن يكون النظر إلى جهة فعل الله ﷻ ، فإذا نظر العبد إلى فعل الله ﷻ وجب عليه أن يرضى به ، وألا يتسخط فعل الله ﷻ ، فهذا قدر واجب ، أما المصيبة في نفسها فهذه الرضا بها مستحب ، فإذا نظر إلى المصيبة وأنها شر بالنسبة إليه فقد لا يرضى بذلك من جهة ؛ كمن فقد ولده ، أو فقد مالًا ، أو أصابه مرض ، لكن المستحب له أن يرضى بذلك ، أما من جهة فعل الله ﷻ فيجب عليه أن يرضى ، وألا يتهم الله ﷻ في فعله ولا في قضائه ، فالرضا بالقضاء واجب ، والرضا بالمقضي مستحب . وهذا تحقيق القول في هذه المسألة التي اختلف فيها أهل العلم .

والصبر – كما هو معلوم – غير الرضا ، الرضا شيء والصبر شيء آخر ؛ لأنه قد يصبر من لم يرض ، فإذا رضي عن الله ﷻ ورضي بالمصيبة التي جاءته صار ذلك كمالًا في حقه وزيادة على الصبر .

قال : (والرضَا بمرِّ القضاءِ) القضاء معروف ، وهو ما قدره الله ﷻ ، والقدر قد يسمى قضاءً قبل أن يقع باعتبار نهايته وأنه سيقع لا محالة ؛ لهذا اختلف أهل العلم هل القدر والقضاء متفاوتان أم معناهما واحد ؟ فمنهم من قال : معناهما واحد . باعتبار أن القدر لابد أن يقع ، فهو قضاء ولو كان قبل أن يحصل ؛ لأن ما قدر الله ﷻ كائن لا محالة . ومنهم من فرّق بين القدر والقضاء بأن القدر ما يسبق وقوع المقضي ، فإذا وقع المقدر وانتهى قضي وصار قضاءً . والمعنيان متقاربان يئولان إلى شيء واحد .

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٩٢٦٤) من حديث أنس بن مالك . وضعفه الألباني في الضعيفة (٦٢٥) .

قال : (ويدعونَ إلى مكارمِ الأخلاقِ) ، (يدعون) يعني : يأمرون بذلك ، فهم يدعون الخلق إلى مكارم الأخلاق ، والأخلاق جمع خلق ، والخلق الصورة الباطنة للإنسان ، يعني : ما يكون عليه في الباطن ويفصح عنه الظاهر من إصلاح حاله مع ربه ، وإصلاح حاله مع الخلق ، فيدخل في الخلق الإخلاص ، ويدخل فيه مقامات الإيمان من الصبر ، والرضا ، واليقين ، والعلم ، والعفة ، والشجاعة ، ونحو ذلك . ويدخل فيه أيضًا الخلق الظاهر ، يعني : ما فيه صلاح ما بينه وبين الخلق بأداء الأمانة ، وصدق الحديث ، ونصرة المظلوم ، وإغاثة الملهوف ، وترك التعدي على الخلق ، والنصفة من العالم ونحو ذلك .

قال بعض أهل العلم : عماد حسن الخلق وكرم الخلق أن تكون منصفًا الخلق على نفسك ، وأن تكون مع الخلق على نفسك . يعني : إذا كان بينك وبين الخلق معاملة فتكون معهم عليك ، وهذا يجعلك تأخذ لنفسك القدر الذي أُذن به ولا تتجاوزه ، فتكون معهم على نفسك - كما جاء في الأثر - وذلك من أخلاق أهل الإيمان ، فلا تكون عليهم متسلطًا ، بل إذا اختلفت معهم على نفسك تكون مثبتًا للحق رادًّا لما ليس بحق .

والمكارم جمع مكرمة ، وهي مأخوذة من الكرم ، والكرم في الأقوال والصفات والأعمال الكامل منها ، والكريم هو الذي فاق غيره في صفات الكمال المناسبة ، فكريم الرجال من فاق غيره في صفات الكمال ، هذا من جهة عموم اللغة ، فيقولون للجواد : إنه كريم . وذلك لأن من أعظم ما يحتاج إليه الناس في ذلك الزمن الأكل والشرب والإكرام بالضيافة ، وإلا فإن لفظة الكريم هو أن يفوق غيره في صفات الكمال ، ويدخل فيه أن يفوق غيره في الجود ، وفي الإحسان ، وفي صدق الحديث ، وفي أداء الأمانة ، وفي البعد عن الظلم .. إلى آخر ذلك .

ولهذا وصف الله ﷻ الملائكة بأنهم كرام : ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار : ١١] ، ووصف الزرع بأنه كريم : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء : ٧] ، فالنبات كريم باعتبار أنه فاق غيره مما يتصور مما يخرج من الأرض ، فاق غيره في الحسن والبهاء في صفاته ، فلو تأملت هذا النبات لوجدته في صفاته عجبًا .

ومن أسماء الله ﷻ الكريم ؛ لأنه ﷻ فاق غيره في صفَات الكمال ، فالخلق لهم صفات قد يشتركون فيها مع الله ﷻ في أصل المعنى ، لهم منها ما يناسب ذاتهم الحقيرة الوضيعة ، لكن الله ﷻ له من هذه الصفات الكمال الأعظم المطلق الذي لا يعتريه نقص ولا يتطرق إليه عيب بوجه من الوجوه .

فقوله : (مكارمِ الأخلاقِ) يعني : الأخلاق التي فاقت غيرها ، فالخلق الكريم هو الذي فاق غيره ، فأهل السنة يدعون في معاملتهم مع ربهم ﷻ وفي تعاملهم مع الخلق إلى الخلق الذي فاق غيره ، فإذا كان للعبد أن يختار بين ثلاثة أنواع من التصرفات مع الخلق ، ثم تصرف بأحسنها وأكلمها وأرقها وأبلغها صلة

بالخلق ؛ فإن هذا هو الخلق الكريم ، وهو الخلق الحسن ؛ كما جاء في الحديث الصحيح : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[١] ، وفي رواية في « الموطأ » : « إنما بعثت لأتمم حسن الأخلاق »[٢] ، فمكارم الأخلاق كانت موجودة فبُعث النبي ﷺ ليتمم مكارم الأخلاق ، فيدخل في مكارم الأخلاق الصورة الباطنة من الإخلاص ، والأخلاق الباطنة والظاهرة في التعامل مع الخلق .

فقوله : (ويدعونَ إلى مكارمِ الأخلاقِ) يعني : يأمرون بكل خلق حسن ، فكلما كان العبد أحسن خلقًا كلما كان مع صحة العقيدة أقرب إلى طريقة السلف الصالح رضوان الله عليهم ، وإذا تأملت طريقة الإمام أحمد ، وسفيان ، ووكيع ، ومالك ، والشافعي مع الناس وجدتها عجبًا ، فهم الخيرة ، فإذا قرأت تراجمهم وجدت أنهم صلحوا في عباداتهم ، وصلحوا مع الخلق ، فأدوا ما يجب عليهم تجاه الله ﷻ وتجاه عباده .

قال : (ومحاسِنِ الأعمالِ) ، يعني : في العمل الذي هو مع الله ﷻ ، أو مع الخلق .

قال (ويعتقدونَ معنى قولِهِ ﷺ : « أكملُ المؤمنينَ إيمانًا أحسنهمْ خُلُقًا ») . ولهذا نقول : من كمل خلقه الحسن وسعى في إكمال أخلاقه الظاهرة والباطنة ؛ فإنه يكون أكمل إيمانًا ممن لم يكمل ذلك « أكملُ المؤمنينَ إيمانًا أحسنُهُمْ خُلُقًا » . وهذا يدل على أن حسن الخلق من أعظم أعمال الإيمان ؛ ولهذا كتب فيه جماعة منهم البيهقي في كتابه « شعب الإيمان » ، فهو مبني على ذكر شعب الإيمان ، وأكثرها من جهة الأخلاق .

قوله : (ويندبونَ إلى أنْ تصلَ مَنْ قَطَعَكَ ، وتعطيَ منْ حرمكَ ، وتعفوَ عمنْ ظلمكَ ، ويأمرونَ ببِرِّ الوالدينِ ، وصلةِ الأرحامِ ، وحُسْنِ الجوارِ ، والإحسانِ إلى اليتامى والمساكينِ وابنِ السبيلِ ، والرفقِ بالمملوكِ ، وينهونَ عنِ الفخرِ ، والخُيَلاءِ ، والبغيِ ، والاستطالةِ على الخلقِ بحقٍّ أو بغيرِ حقٍّ ...) .

قال : (ويندبونَ إلى) أي : يحضون ويأمرون بذلك على جهة الدعوة والحض والأمر بذلك ، (أنْ تصلَ مَنْ قَطَعَكَ) ، والذي يصل من قطعه هو الواصل ، وأما الذي يصل من وصله وقطع من قطعه ، فهذا قد عامل بالعدل ولم يصل ؛ كما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال : « ليس الواصلُ بالمكافئ »[٣] ، يعني : الذي يعمل مثل ما عُمِلَ له ، فيقول : إن جاءني أذهب إليه ، وإن ذكرني بكلام طيب ذكرته بمثله ، وإن ذكرني بكلام قبيح ذكرته بمثله . هذا يُسمى مكافئًا ؛ لأنه يرد الشيء بمثله ، قال : « ليس الواصلُ بالمكافئ ، ولكنِ الواصلُ الذي إذا قَطَعَتْ رحمُهُ وصلهَا » . وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول

(١) أخرجه البزار (٨٩٤٩) ، والبيهقي في الكبرى ١٩١/١٠ من حديث أبي هريرة . وصححه الألباني في الصحيحة (٤٥) .

(٢) أخرجه مالك ٢/ ٩٠٤.

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٩١) من حديث عبد الله بن عمرو .

اللَّه إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني ، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ ، وأحلم عنهم ويجهلون علي ، فقال : « لئِنْ كنتَ كما قُلتَ فكأنّما تُسفُّهُمُ الملَّ ، ولا يزالُ معكَ من اللَّهِ ظهيرٌ عليهم ما دُمتَ على ذلك »[1] ، أي : تسفهم الرماد الحار في وجوههم ، وقد قال ﷻ : ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النور: ٢٢] ، وهذا في قصة أبي بكر رضي الله عنه مع قريبه[2] الذي قطعه ، وقال تعالى : ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣] .

والمقصود من ذلك أن صلة الرحم واجبة ، وصلة الرحم تكون بصلة من قطعك ، وقد جاء في مسلم وفي غيره أن النبي ﷺ قال : « تُفْتَحُ أبوابُ الجنةِ يوم الاثنين ويومَ الخميسِ فيُغفرُ لكلِّ عبدٍ لا يشركُ باللَّهِ شيئًا إلا رجلًا كانت بينهُ وبينَ أخيهِ شحناءُ فيقالُ : انظروا هذينِ حتى يصطلحا ، انظروا هذينِ حتى يصطلحا ، انظروا هذين حتى يصطلحَا »[3] ، فكل خير في الصلة ، وكل شر في القطيعة ، والوصل يكون بصلة الرحم وصلة المسلم بعامة ، فتصل من قطعك ولا تحرمه حقه ، وإعطاؤك حق أخيك المسلم ليس مبنيًا على أن ذاك يعطيك حقك ؛ بل تعطيه حقه لأن اللَّه أوجب ذلك ولو حرمك حقك .

ولهذا ذكر العلماء في كتب الفقه المسألة المعروفة بـ (مسألة الظفر) ، وهي : إذا ظفر صاحب الحق بحقه هل يجوز له أن يأخذه ؟ مثل رجل أخذ منك مبلغًا من المال ظلمًا ، وجئته في بيته ووجدت عنده مالًا بقدر المبلغ الذي أخذه منك ظلمًا ، فهل تأخذ منه بمثل ما أخذ ، بأن تسرقه وتأخذه وتضعه في جيبك ؟ قال النبي ﷺ : « أدِّ الأمانةَ إلى منِ ائتمنكِ ولا تخُنْ من خانكَ »[4]، فالأمانة تؤدى ، وإذا ظفرت بمال لك فإن العلماء اختلفوا في ذلك : هل تأخذه أو لا تأخذه ؟ على أقوال ، والتحقيق منها أن ما كانت دلائله ظاهره بينة لا إشكال في ذلك جاز أخذه ، وأما إذا كان الأمر خفيًا فإنه لا يجوز أخذه إلا عن طريق القاضي ؛ لأن الحقوق تقطع القطيعة وتثبت الصلة .

قال : « وتعفُوَ عمَّنْ ظلمكَ » . لأن العفو عمن ظلم مستحب ، ومن أخذ بالقصاص فلا بأس ، وهذا عدل ، ولكن الإحسان في العفو عمن ظلم ؛ كما قال ﷻ : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] ، وقال : ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى : ٤٣] ، وهذا هو الأفضل أن يصبر المرء ، وأن يعفو عمن ظلمه ، وأن يعفو عمن أساء

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢/٢٥٥٨) من حديث أبي هريرة .

(٢) هو مسطح بن أثاثة .

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٥/ ٣٥، ٣٦) ، وأبو داود (٤٩١٦) من حديث أبي هريرة .

(٤) أخرجه أبو داود (٣٥٣٥) ، والترمذي (١٢٦٤) من حديث أبي هريرة . وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٠١٩) .

إليه ، وهكذا كان ﷺ ، والظلم قد يكون في البدن ، وقد يكون في العرض ، وقد يكون في المال ... ونحو ذلك .

وهنا مسألة ينبغي الانتباه إليها ؛ لأنها تتعلق بالعفو عمن ظلم ، وهي فيمن اغتاب إخوانه ، أو اغتاب أحدًا من أصحابه وأحبابه ، أو أحدًا من المسلمين من أئمتهم أو عامتهم من أهل العلم أو من غيرهم ؛ فإنه يُستحب له ويتأكد عليه أن يطلب أن يُحلل ، وهذه من السنن المغفول عنها ، وقد جاء في البخاري أن النبي ﷺ قال : « من كانت له مظلِمةٌ لأحد من عرضه أو شيءٍ فليتحللْهُ منه اليومَ قبل ألا يكونَ دينارٌ ولا درهمٌ »(١) ، فالمستحب أن تتحلل من ظلمته في عرضه أو ماله ، فتقول له : أنا أخطأت في حقك حللني . ويستحب لمن طُلب منه التحليل أن يعفو عمن ظلمه ، ولا يستفصل منه عما قاله في حقه أو تعدى به عليه ، ويستحب أن يقول له : حللك الله وأباحك مما عملت ، والله ﷻ يتولى جزاء من عفا عمن ظلمه .

فهذه من صفات المؤمنين ، أما من مات من أهل التوحيد ، فيستحب أن يقال في حقه : اللهم حلِّله . لعله ينجو بذلك ويخفف عليه الحساب .

والمؤمنون يحب بعضهم بعضًا ، وإن كان المؤمن قد يخطئ ، ويعصي ، ويظلم ، لكن قلب المؤمن مع إخوانه ، فلا يحب أن تكثر عليهم الذنوب ، وأحيانًا يكون الظلم عظيمًا ، ورد القول السيئ بمثله جائز ، لكن ليس هو الأفضل ؛ كما قال ﷻ : ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾ [النساء : ١٤٨] ، يعني : من ظلم فإن الله ﷻ أباح أن يجهر له بالسيئ من القول من جهة الجزاء ، لكن ليس هو الأفضل ، إنما الأفضل أن يعفو الرجل عمن ظلمه . وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « وما زادَ اللَّه عبدًا بعفوٍ إلا عِزًّا »(٢) ، فالذي يعفو لا يظن أنه ينقص بل هو يعتز ، يظهر الله ﷻ له منارًا ؛ لأنه تخلص من حظ نفسه وفعل ما نَدبَه الله ﷻ إليه .

قال : (ويأمرونَ ببرِّ الوالدينِ) ، وبر الوالدين فرض ، وقطيعة الوالدين كبيرة من كبائر قُرنت بالشرك ؛ كما في قوله تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء : ٢٣] ، والآيات في ذلك كثيرة معلومة .

قال : (وصلةِ الأرحامِ) ، ذكرنا بعض ما فيها ، و(حُسْنِ الجوارِ) أي : تُحسن إلى جارك ، والإحسان إلى الجار يشمل مرتبتين :

الأولى : أن تؤدي له حقه .

الثانية : أن تكف الأذى عنه .

والجيران الذين لهم حق حسن الجوار على مراتب .

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٩) من حديث أبي هريرة .

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٨/٦٩) من حديث أبي هريرة .

المرتبة الأولى : الجار الملاصق ، وهو أعظمهم حقًّا ، وقد جاء في الندب إلى حسن الجوار معه أحاديث كثيرة ، منها : قول النبي ﷺ : « ما زالَ جبريلُ يُوصيني بالجارِ حتى ظننتُ أنهُ سَيُوَرِّثُهُ »(١) .

المرتبة الثانية : الجار الجنب ، يعني : البعيد ، واختلف السلف في حد الجنب ، وهو ما ذُكر في آية النساء : ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ [النساء : ٣٦] ، قال بعضهم : حده سبعة بيوت من كل جهة ، هؤلاء يعتبرون جيران جنب ، أمر اللّٰه ﷻ ووصى بهم . وقال آخرون : حده أربعون دارًا من كل جهة . وقد جاء فيها حديث ، ولكنه ضعيف(٢) .

المرتبة الثالثة : جيران البلد ، أي : من يساكنك في البلد التي أنت فيها ولو كان في طرف البلد وأنت في الطرف الآخر ؛ فإنه يُسمى جارًا ؛ كما قال ﷻ : ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب : ٦٠] ، فالذي يسكن معك في نفس البلد يُعتبر جارًا ، فله حق حسن الجوار .

وهذه المراتب أولها أعظمها ، والثاني - الجار الجنب - متوسط وله حق عظيم أمر اللّٰه به ، والثالث من باب العموم وحسن الجوار للعامة .

والمرتبة الأولى والثانية تنقسم أيضًا إلى مراتب بحسب الحق ، فإذا كان جارًا وصاحب رحم ومسلمًا صار له ثلاثة حقوق : حق الجوار ، وحق الإسلام ، وحق الرحم ، وإذا كان جارًا مسلمًا وليس بذي رحم صار له حقان ، وإذا كان جارًا وليس بمسلم ولا بذي رحم صار له حق الجوار ، وقد كان النبي ﷺ يزور بعض جيرانه اليهود ، ويرسل لهم من بعض الطعام ونحو ذلك فهذا فيه حق الجوار .

قال : (والإحسانِ إلى اليتامى والمساكينِ وابنِ السبيلِ) ، وهذه تفاصيلها معروفة وواضحة ، فاليتامى هم من دون سن الاحتلام ممن مات من يعيلهم ، والمساكين يدخل فيهم الفقراء من لم يجد حاجته ، وابن السبيل المنقطع .

ولا شك أن من أهم المهمات أن يطلب طالب العلم ما به يكون عمله مع الخلق على بينة ، وإلا فما الذي يُفرق بين طالب العلم وبين غيره ؟ غير طالب العلم قد يعمل الشيء بمقتضى سماعه ، وبمقتضى طبيعته ، وبمقتضى عادته ، لكن طالب العلم يعمل الشيء وهو يتعبد به ، ويعرف أنه مأمور به ، ويعرف ما فيه من الدليل ، ويتذكر ما فيه من كلام أهل العلم ، فيعمله وهو على بينة من أمره ، فلا شك أنه لا يستوي هذا وذاك .

لهذا تُطلب مكارم الأخلاق وأنواعها مما في يكون في الباطن ، ومما يكون في التعامل مع الخلق ، وأحكام ذلك وتفاصيل المقام فيها .

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٤) ، والترمذي (١٩٤٢) ، وابن ماجه (٣٦٧٣) من حديث عائشة ، والبخاري (٦٠١٥) ، ومسلم (٢٦٢٥/١٤١) من حديث عبد اللّٰه بن عمر .

(٢) ينظر السنن الكبرى للبيهقي ٦/٢٧٦ من حديث عائشة . وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٤٤٤) .

قال : (والرِّفقِ بالمملوكِ) ، المملوك هو الخادم ، يعني : العبد الرقيق ، يُرفق به ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق ، ويُعان عليه ، ويُطعم مما يطعمه الإنسان ، ويُكسى مما يكتسي منه ... ونحو ذلك .

قال : (وينهونَ عنِ الفخرِ ، والخُيَلاءِ ، والبغيِ) هذا جانب المنهيات ، (الفخرِ ، والبغيِ) متقاربان ، لكن (الفخر) يكون بذكر ما أنت عليه بحق ، يعني : أنك تفتخر بما يكون فيك ، فتفخر بما أنت عليه بصدق ، أما (البغي) ففيه افتخار بالباطل ، أي : شيء لست أنت عليه .

والفخر نوعان :

* ما هو مأذون فيه . * ما هو مذموم .

والمذموم هو الذي أراده شيخ الإسلام في هذه الموضع ، قال : (وينهونَ عنِ الفخرِ) يعني : الفخر المذموم ، وأما الفخر المحمود بأن تذكر ما أنت فيه على جهة بيان الأمر وذكر ذلك للناس ؛ كما قال ﷺ : « أنا سيدُ ولدِ آدمَ يوم القيامةِ ولا فخرَ »[1] ، وقال سعد : « أنا أول العرب رمى بسهم في سبيل الله »[2] ، ونحو ذلك مما يُذكر فيه الأعمال الصالحة على جهة بيانها للخلق ، هذا إذا لم يكن على جهة الاستطالة على الخلق والترفع عليهم بفساد الباطن ؛ فإنه يكون محمودًا ، ولا يصير من الفخر المذموم .

والضابط في الفرق بين الفخر المذموم والفخر المحمود ، أن من صفات الفخر المحمود :

الأول : أن يذكر الشيء تحدثًا بنعمة الله عليه .

الثاني : أن يذكر الشيء لأجل أن يُقتدى به .

الثالث : أن يذكر ذلك ليشجع الناس على العمل .

فإذا ذكر ذلك لأجل هذه الأسباب ، وباطنه منطو على كراهة الفخر والاستطالة على الخلق ، فهذا لا بأس به ؛ كما ذكر ذلك العلامة شمس الدين ابن القيم وغيره .

أما الفخر المذموم فهو أن يذكر ذلك استطالة على الخلق وترفعًا عليهم ، وجاء في الكبر أنه : « بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ الناس » ، والاستطالة عليهم ، وقال ﷻ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦] . قال بعض أهل العلم : الفخر بالاستطالة والترفع والاختيال ليس محمودًا إلا في حالين :

الأولى : الجهاد ، فالاختيال في الجهاد بأن يمشي بين الصفوف مختالًا ، ويقابل العدو باختيال ، هذا مأذون فيه ؛ كما جاء في الحديث : أن أبا دجانة يوم أحد أعلم بعصابة حمراء ، فنظر إليه رسول الله ﷺ وهو مختال في مشيته بين الصفين ، فقال : « إنَّها مشيةٌ يبغضها الله إلا في هذا الموضعِ »[3] .

---

(١) أخرجه مسلم (٣/٢٢٧٨) ، وأبو داود (٤٦٧٣) من حديث أبي هريرة ، وليس عندهما قوله : « ولا فخر » .

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٢٨ ، ٦٤٥٣) ، ومسلم (١٢/٢٩٦٦) ، والترمذي (٢٣٦٦) ، وابن ماجه (١٣١) .

(٣) أخرجه الطبراني (٦٥٠٨) ، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٢٢٢٠) من حديث خالد بن سليمان بن عبد الله بن خالد بن سماك بن خرشة عن أبيه عن جده .

الثانية : الصدقة ، فإن الفخر بالصدقة والفرح بها وإظهارها هذا ممدوح عند طائفة من أهل العلم .

قال : (والاستطالةِ على الخلقِ بحقٍّ أو بغيرِ حقٍّ) . الاستطالة على الخلق مذمومة ؛ بل الواجب على العبد أن يلين مع الخلق ، وأن يعتبر نفسه - إن لم يرحمه اللـه ﷻ - أهون الخلق ؛ فلهذا لا يستطيل ، وينصف من نفسه .

قال : (ويأمرونَ بمعالي الأخلاقِ ، وينهونَ عنْ سفسافِهَا) السفساف الرذيل منها ، (وكلُّ ما يقولونهُ ويفعلونهُ منْ هذا وغيرهِ ؛ فإنما همْ فيهِ متبعونَ للكتابِ والسنةِ ، وطريقتُهُمْ هيَ دينُ الإسلامِ الذي بَعثَ اللّهُ بهِ محمَّدًا ﷺ) ، هذا فيه التنبيه على ما سبق من أن أهل السنة والجماعة في طريقتهم في باب الأخلاق إنما يتابعون فيه ما بعث اللّه به نبيه ﷺ ، وهذا ليفارقوا به أهل الضلال من الجفاة والغلاة .

قوله : (لكنْ لما أخبرَ النبيُّ ﷺ أنَّ أُمتهُ ستفترقُ على ثلاثٍ وسبعينَ فرقةً ؛ كُلُّهَا في النّارِ إلا واحدةً ، وهيَ الجماعةُ ، وفي حديثٍ عنهُ أنَّهُ قالَ : « همْ منْ كانَ على مثلِ ما أنا عليهِ اليومَ وأصحابِي »)[1] . صارَ المتمسكونَ بالإسلامِ المحضِ الخالصِ عنِ الشَّوْبِ همْ أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ) .

هذا المقطع فيه عدة مباحث :

الأول : أن حديث الافتراق المراد به أمة الإجابة لا أمة الدعوة ، فهذه الفرق الثنتان والسبعون فرقة من أمة الإجابة ، وهم الفرق التي خالفت الجماعة الأولى ، وأخرج أهل السنة منها بالإجماع الجهمية ؛ لأن الجهمية الغلاة أتباع جهم بن صفوان هؤلاء ليسوا من الثنتين والسبعين الفرقة أصلًا ، وأخرج طائفة من أهل العلم من المتقدمين ومن المتأخرين الرافضة الغلاة أيضًا من الثنتين والسبعين الفرقة ، وهذه الفرق الثنتان والسبعون ليست بكافرة خارجة عن الملة ، وقوله ﷺ : « كُلُّهَا في النار » . يعني : متوعدة بالنار ، وليس محكومًا لها بالخلود في النار .

قال شيخ الإسلام وغيره من أئمة أهل الإسلام : من ظن أن هذه الفرق خالدة مخلدة في النار كافرة فقد خالف إجماع السلف الصالح ، والسلف الصالح لم يحكموا على هذه الفرق بأنهم كفار خارجون عن الملة .

ولهذا يغلط بعضهم ويصف الفرق فيقول : هذه الفرق النارية . وهذه تسمية محدثة ، صحيح « كُلُّها في النار » لكن كلمة النارية تحتمل أن تكون مخلدة في النار أو غير مخلدة ، فقد يكون ظاهر اللفظ لأنهم مخلدون في النار ؛ ولهذا لا يصلح أن تُقال هذه الكلمة ؛ بل يقال : هذه الفرق متوعدة بالنار ، وخارجة عن طريق أهل السنة ، وضالة ، ومبتدعة ، وبدعهم مختلفة متفاوتة .

قال ﷺ : « كُلُّها في النار إلَّا واحدةً ، وهيَ الجماعةُ » ، الجماعة من هي ؟ جاء تفسيرها في الحديث الآخر ، قال : « همْ منْ كانَ علَى مِثْلِ ما أنَا عليهِ اليومَ وأصحابِي » المثلية هنا في العلميات وفي

---

(١) تقدم تخريجه .

العمليات ، يعني : من جهة الاعتقاد ومن جهة السلوك والعبادة .

قال رحمه الله : (صارَ المتمسكونَ بالإسلامِ المحضِ الخالصِ عنِ الشوبِ همْ أهلُ السنةِ والجماعةِ) ، فأهل السنة والجماعة فئة واحدة ، وفرقة واحدة ، وطائفة واحدة ، وهم أهل الحديث ، وهم أهل الأثر ، وهم أتباع السلف الصالح رضوان الله عليهم ، وهذا شبه إجماع من السلف على أن أهل السنة والجماعة هم أهل العلم وأهل الحديث وأهل الأثر ، وما شابه ذلك من الكلمات الدالة على المراد .

وقد غلط طائفة من أهل العلم من الحنابلة وغيرهم فقالوا : الفرقة الناجية عبارة عن ثلاث فئات:

الأولى : أهل الحديث .

والثانية : الأشاعرة .

والثالثة : الماتريدية .

كما قال ذلك السفاريني في « لوامع الأنوار البهية » ، وغيره من المتأخرين ، قال : (اعلم أن أهل السنة والجماعة ثلاث طوائف : أهل الحديث والأثر ، والأشاعرة ، والماتريدية) ،وهذا قول باطل وغلط كبير ؛ لأن الأشاعرة والماتريدية من الفئات التي عليها الوعيد ؛ لمخالفتهم أهل السنة في منهج التلقي ، وفي تقديم النصوص على العقل ؛ لأنهم يقدمون العقل على النصوص ، وكذلك في الصفات ، وفي الإيمان ، وفي القدر ، وفي مسائل أخر خالفوا أهل السنة ، فليسوا من أهل السنة والجماعة أتباع السلف الصالح ؛ بل هم من المبتدعة الضلال .

قوله : (وفيهمُ الصديقونَ ، والشهداءُ ، والصالحونَ ، ومنهمُ أعلامُ الهدى ، ومصابيحُ الدُّجى ، أُولو المناقِبِ المأثورةِ ، والفضائلِ المذكورةِ ، وفيهمُ الأبدالُ ، وفيهمُ أئمةُ الدينِ ، الذينَ أجمعَ المسلمونَ على هدايتهمْ ودرايتِهمْ) .

قال : (وفيهمُ الصديقونَ ، والشهداءُ ، والصالحونَ) ، ذكر هؤلاء الثلاثة ؛ كما في قوله ﷻ : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء : ٦٩] ، فالصديقون من أهل السنة والجماعة ، والشهداء الذين ماتوا على السنة لا على البدعة ، هؤلاء من أهل السنة والجماعة ، والصالحون القائمون بحقوق الله وحقوق الخلق ، هؤلاء من أهل السنة والجماعة .

وفي لفظ الصالحين ما يشمل القيام بحقوق الله ، ومن حقوق الله أن تكون في العلميات – أي في الأمور الاعتقادية – على ما أمر الله ﷻ به على ما جاء به في النصوص ، فيخرج المبتدعة من وصف الصلاح ، ولو كانت جبهة المبتدع فيها ثفنة قد أثّر فيها السجود ، أو كان يصوم النهار ويقوم الليل ، ما دام أنه على اعتقاد بدعي في الله ﷻ ، فقلبه ليس بسليم ؛ فإن العمل الصالح القليل مع اعتقاد سليم هذا أعظم ما يتقرب به إلى الله ﷻ ؛ ولهذا جاء في أثر أبي الدرداء المعروف قال : (يا حبذا نوم الأكياس وإفطارهم ،

كيف يغبنون سهر الحمقى وصومهم ؟ ولمثقالُ ذرةٍ من برٍّ معَ تقوى ويقينٍ ، أعظمُ وأفضلُ وأرجحُ منْ أمثالِ الجبالِ عبادةً مِنَ المغترين) ، يعني أنه يقول : إن العبد قد يكون ينام في الليل ويُفطر في النهار ، يعني : ليس يكثر صيام نفل ولا يكثر صلاة ليل ، بل يستمتع بالليل نومًا ويستمتع بالنهار إفطارًا ، فيما كتب اللَّه ﷻ له من النوافل ، ولا يشق على نفسه في أنه مثلًا يصوم يومًا ويفطر يومًا ، بل يكفي أن يصوم مثلًا ثلاثة أيام من كل شهر أو الاثنين والخميس من كل أسبوع ، أو على ما جاء ، وفي الليل يأخذ القليل ولا يطيل ، لكنه مع ذلك معه تقوى وخوف من اللَّه ﷻ ويقين ، وإيمان صادق قوي ، والتزام وعقيدة صحيحة متيقنة لا شبهة فيها ولا شك ، يقول : إن هذا أفضل ممن يأتي بأمثال الجبال عبادة ولكنه من المغترين بكثرة عبادته بأنواع العبادة ، أو من المغترين بجهاده ، أو بأمره بالمعروف ، أو بنهيه عن المنكر ، ومغتر ببذله ، أو بدعوته ، أو بحركته .. إلى آخره ، لكنه ليس على سبيل وسنة ؛ فإن الأول فاق هذا الآخر ؛ لهذا وصف النبي ﷺ الخوارج بأنهم « يَحْقِرُ أحدكم صلاتَهُ مع صلاتِهِمْ ، وصيامَهُ مع صيامهمْ ، يَمْرُقُونَ من الدِّينِ كمُرُوقِ السَّهْمِ من الرَّمِيَّةِ »[1] ، فليست العبرة بكثرة العبادة ، أو بكثرة الجهاد ، أو بكثرة كذا وكذا ، أو بكثرة الدعوة ، إنما العبرة : هل هذا موافق للسبيل والسنة أم ليس موافقا ؟ فإن كان غير موافق فإنه ولو كان أمثال الجبال فلا نفع فيه ، أو أن غيره أنفع منه .

فالقصدَ القصدَ مع صلاح القلب في العقيدة ، ومتابعة السلف الصالح ، ونفي الزغل والدغل عنه ، وأن يحب لإخوانه المؤمنين ما يحب لنفسه ، وأن يسلم لسانه ، وتسلم يده ، ويكون في عقيدته وعمله موافقًا للسلف الصالح ؛ فإن هذا يزكو معه عمله ولو كان قليلًا ، واللَّه ﷻ أكرم الأكرمين وأجود الأجودين ، لكن العمل مع بدعة وضلال هذا لا شك أنه على خطر .

قال : (ومنهم أعلامُ الهدى ، ومصابيحُ الدُّجَى) ، يعني : من أهل السنة أعلام الهدى ومصابيح الدجى ، ويقصد بـ (أعلام الهدَى) الذين يُقتدى بهم من الأئمة ، (ومصابيح الدجى) الذين يؤخذ قولهم ، وصارت أقوالهم محفوظة في الأمة ، فصاروا مصابيح في الظلم يُهتدى بأقوالهم ، ويُنظر في سيرهم فيقتفى أثرهم ، فلهم الأثر في الأمة في ذلك .

قال : (أولو المناقبِ المأثورةِ ، والفضائلِ المذكورةِ) يعني : مما هو مسطر في كتب أهل العلم ؛ كما في ذكر مناقب الشافعي ، ومالك ، وسفيان بن عيينة ، وسفيان الثوري ، وأبي حاتم ، وأبي زرعة ، وابن أبي حاتم .. إلى آخر الأئمة والحفاظ : البخاري ، ومسلم ، وأبي داود ، والنسائي ، وأمثال هؤلاء الأعلام ، فهؤلاء هم (أولو المناقبِ المأثورةِ ، والفضائلِ المذكورةِ) ، وهكذا أئمة السنة والإسلام ، فمن نظر في سيرهم حقر نفسه معهم ، والنظر في سير الصالحين وأئمة أهل السنة يعطي طالب العلم رغبة في الاقتداء بهم ، وأن ينهج على نهجهم ، ولو لم يكن في هذا إلا واحدٌ ، فإذا نظر في سيرهم ولو خالفه

---

(١) تقدم تخريجه .

الأكثرون فإنه يكون على برد ويقين ؛ لأنه سبقه أئمة سنة وحق وهدى ، فقالوا ما قالوا ، فيتمسك بأقوالهم وآثارهم فإن فيها النجاة ؛ لأنهم تابعوا من قبلهم .

ومن خصائص أهل السنة أنهم لا يتكلمون إلا بما أثروه عمن قبلهم ، فطريقتهم طريقة مأثورة يأخذها الخالف عن السالف ، يأخذها المتأخر عن المتقدم ، ليس فيها ابتداع ولا استئناف ، وإنما هي منقولة بالإسناد ، هذا ينقل عن هذا عمله ، وهكذا حتى وصل إلينا اليوم الدين غضًّا طريًّا ؛ كما علمه الصحابة والتابعون ، فلم يذهب شيء من الدين بل هو محفوظ .

قال : (وفيهم) يعني : في أهل السنة (الأبدالُ) ، والأبدال جمع بدل ، وهو لفظ جاء في بعض الأحاديث ، لكن لم يصح حديث في الأبدال على الصحيح ، وإن كان بعض أهل العلم صحَّح بعض هذه الأحاديث .

والأبدال هم أهل الحديث ، وأهل الأثر ، وأهل السنة ، إذا ذهبت منهم طائفة أبدل اللَّه بهم طائفة أخرى ، فمفهوم كلمة (الأبدال) هو معنى قوله ﷺ : « لا تزالُ طائفةٌ منْ أمتي ظاهرينَ على الحقِّ لا يضرهمْ منْ خذلهمْ حتَّى يأتيَ أمرُ اللَّهِ وهمْ كذلكَ »[1] ، هذه الطائفة هم الأبدال ، وقيد بعض أهل العلم (الأبدال) بأنهم بعض الفرقة الناجية الطائفة المنصورة ، وهم الصديقون والصالحون ، وهم الأولياء المتقون ، فلفظ (البدل) إما أن يكون عامًّا في الطائفة المنصورة ؛ الفرقة الناجية ، وإما أن يكون مخصوصًا به أهل التقى والزكاء ، وهم : الأولياء ، والصديقون ، والصالحون .

وهناك ألفاظ مقارنة أيضًا ظهرت في الأمة ، مثل : الأقطاب ، والأوتاد ، والنقباء .. ونحو ذلك ، وهذه كلها ألفاظ محدثة ، وإحداثها كان في أول الأمر ليس مرادًا به ما تشتمل عليه من المعاني الباطلة ، ثم استُخدمت في المعاني الباطلة ، فعُبد غير اللَّه ، واستُغيث بغير اللَّه بهذه الألفاظ : القطب الأكبر ، والغوث الأكبر .. ونحو ذلك مما فيه توجيه للعامة للشرك باللَّه جل جلاله وتقدست أسماؤه .

قال : (وفيهمْ أئمةُ الدينِ ، الذينَ أجمعَ المسلمونَ على هدايتِهِمْ ودرايتِهِمْ) في قوله : (أجمعَ المسلمونَ على هدايتِهِمْ)إخراج من كان من أئمة الدين ولم يجمع عليه المسلمون في هداية في أبواب السنة والاعتقاد ، فأئمة الدين كُثر ، منهم : أئمة أهل الحديث ؛ كأصحاب الكتب الستة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد ، والسفيانين ، ووكيع ، والأوزاعي ، وحماد بن سلمة ، وابن شهاب ، وأشباه هؤلاء الأئمة ، فهؤلاء هم أئمة الدين .

وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن القيم ، وأئمة هذه الدعوة من لدن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وأبنائه وتلامذته ، ومن أخذ بدعوته وأخذ بطريقته إلى زماننا ، هؤلاء أئمة الدين (أجمعَ المسلمونَ على هدايتهمْ) ، يعني : أجمع أهل الحق على هدايتهم ، وإلا فإن لفظ المسلم المتصف

---

(١) تقدم تخريجه .

بالإسلام ليس مرادًا هنا ؛ لأن المعتزلة ابتلوا الإمام أحمد ، فالإمام أحمد ليس مجمعًا عليه بين الفرق الثلاث والسبعين ، وإنما هو مجمع عليه بالنسبة للفرقة الناجية ؛ كذلك الشافعي ومالك ، فأهل الاعتزال وأهل الضلال لهم خلاف في ذلك ، وهم منتسبون إلى الإسلام وباقون على اسم الإسلام ، فعُلم بهذا أن قوله : (أجمعَ المسلمونَ على هدايتِهِمْ) المقصود هنا الخصوص ؛ لأن اللفظ العام قد يُطلق ويُراد به الخصوص ، هذا هو الظاهر .

قوله : (وهمُ الطائفةُ المنصورةُ الذينَ قالَ فيهمُ النبيُّ ﷺ : « لا تزالُ طائفةٌ منْ أمتي على الحقِّ منصورةً ، لا يضُرُّهمْ منْ خالفهمْ ، ولا مَنْ خذلهمْ ، حتَّى تقومَ الساعةُ »[١] ...) .

يعني : أن الفرقة الناجية ، وأهل السنة والجماعة ، والطائفة المنصورة ، هذه ألفاظ اختلفت ولكن المعنى واحد ، والمسمى واحد ليس مختلفًا ، فأهل السنة والجماعة هم الفرقة الناجية وهم الطائفة المنصورة ، ولفظ الفرقة الناجية ما جاء في النصوص ، وإنما فُهم من قوله ﷺ : « كلُّها في النَّارِ إلا واحدةً » ، قيل لهذه الواحدة : فرقة ناجية . باعتبار الفهم ، وإلا فإن لفظ (الفرقة الناجية) لم يرد في النصوص ، وأما الذي ورد فهو الطائفة المنصورة : « لا تزالُ طائفةٌ منْ أمتي على الحقِّ منصورةً »[٢] .

والمنصورة والناجية طائفة واحدة بإجماع السلف الصالح فمن بعدهم من أهل السنة والجماعة بلا خلاف بينهم في ذلك ، وإنما هذه خيارات متنوعة ، قيل لهم : فرقة ناجية باعتبار أنهم في الآخرة نجوا من النار ، وقيل لهم : طائفة منصورة باعتبار الدنيا والآخرة في أنهم نصروا في الدنيا وسينصرون في الآخرة ، قال ﷻ : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر : ٥١] فهم منصورون في الحياة الدنيا ، ومنصورون يوم يقوم الأشهاد ، وهم يوم القيامة ناجون .

فهذه أسماء اختلفت لكن المسمى واحد ، مثل أسماء السيف ، ومثل أسماء المطر ، وأسماء الأسد ، تختلف الأسماء باعتبار اختلاف الصفات .

فيقال : سيف صارم ، مصلت ، وهو شيء واحد من جهة المسمى ، لكن اختلفت الصفة التي عنيت بتغير الاسم .

كذلك الأسد أسماؤه مختلفة والمسمى واحد ، وهو الحيوان المعروف .

كذلك المطر إذا قلت : مطر ، أو غيث ، أو طل ، أو نحو ذلك ، كل هذه الأسماء يُقصد بها ما ينزل من السماء ، لكن اختلفت باختلاف صفته .

كذلك اسم الفرقة الناجية ، الطائفة المنصورة ، أهل السنة والجماعة ، أهل الحديث ، أهل العلم ، كل هذه أسماء لشيء واحد ، يُراد به من كان متبعًا في الاعتقاد ما كان عليه صحابة رسول الله ﷺ ،

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) تقدم تخريجه .

وخرج في صغير الأمر وكبيره عن قول المخالفين للجماعة الأولى .

قال في آخر هذه الرسالة العظيمة المختصرة الجامعة : (نسألُ اللَّهَ أنْ يجعلَنَا منهُمْ) ، وهذا فيه عدم التزكية للنفس ؛ فإن شيخ الإسلام مع ما قرر من هذه العقائد ، ومع ما هو معلوم من جهاده وعظم مقامه في هذا الدين ، ونشر اعتقاد السلف الصالح ، لكنه يرجو ، وهذا هو الواجب على المسلم المؤمن الموحد أن يسعى في أسباب النجاة ، في أسباب الاعتقاد الصالح ، ويسأل اللَّه ﷻ أن يجعله من الطائفة المنصورة ، ومن الفرقة الناجية ، مع سعيه في أسباب ذلك ، ولا يزكي نفسه ؛ فإن اللَّه ﷻ أعلم بالمتقين ، قال تعالى : ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم : ٣٢] . فنسأل اللَّه ﷻ أن يجعلنا منهم ، وأن يُلزمنا كلمتهم ، وأن يبصرنا بأقوالهم ، وأن يمن علينا بالاهتداء ، اللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى ، وبصفاتك العلا ، وباسمك الأعظم الذي إذا دُعيت به أجبت ، وإذا سُئلت به أعطيت ، أن تميتنا على اعتقاد الصحابة رضوان اللَّه عليهم ، وألا تميتنا إلا وأنت راضٍ عنا ، اللهم من كان منا مقصرًا فاغفر له ، واهده سبيل الرشاد ، ومن كان منا فيه قصور من جهة اعتقاده أو من جهة عمله ، اللهم فهيئ له أسباب كماله ، اللهم إنا نسألك وأنت الكريم الجواد ألا تجعلنا من الخائبين ، ولا من الذين يكون آخر عملهم أقبح من أوله ، وأن تجعل آخر أعمالنا خيرًا من أوائلها ، ونسألك أن تمن علينا بتوبة نصوح من كل شيء لا يرضيك قبل الممات ، اللهم إنا نسألك ثباتًا على الاعتقاد ، ومتابعة لسلف هذه الأمة ، وأن تخلص قلوبنا من الغش ، وأن تخلص أعمالنا من الرياء ، وأن تجعلنا راغبين في الآخرة متجانبين عن دار الغرور .

قال -رحمه اللَّه تعالى - : (نسألُ اللَّهَ أنْ يجعلنَا منهمْ وألا يزيغَ قلوبنَا بعدَ إذْ هدانَا ، وأنْ يَهَبَ لنَا مِنْ لدنهُ رحمةً إنَّهُ هوَ الوهابُ) ، اللهم لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ، لا خير إلا خيرك ، ولا حول لنا ولا قوة إلا بك ، نحمدك والحمد لك ، والفضل والنعمة لك ، على أن تفضلت علينا بسماع هذا العلم وبإفادته ، وبالبذل فيه ، فأنت ولي ذلك والقادر عليه ، اللهم تقبل ذلك منا ، واغفر لشيخ الإسلام الذي أفادنا بذلك ، اللهم صل وسلم على معلِّم الناس الخير محمد بن عبد اللَّه كفاء ما علَّم ، وكفاء ما أرشد ، اللهم وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته ، اللهم وارض عن صحابة نبيك ﷺ ، اللهم ارض عنهم وارض عنا معهم ، اللهم واغفر لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلًّا للذين آمنوا ، ربنا إنك رءوف رحيم ، وصلى اللَّه على نبينا محمد ، وآله وصحبه ، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين .

تم بحمد اللَّه ، والحمد للَّه الذي بنعمته تتم الصالحات

❁ ❁ ❁

الأسئلة

❁ قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان رحمه الله :

☐ المعروف والمنكر :

س١- ما هو المعروف ؟ وما هو المنكر ؟ وما الأصل في وجوبهما ؟ وهل وجوبهما كفائي ؟

ج- المعروف : اسم جامع لكل ما يحبه الله من الإيمان ، والعمل الصالح .

والمنكر : اسم جامع لكل ما يكرهه الله ، وينهى عنه ، والأصل في وجوبهما قوله تعالى : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة : ٧١] . وقال عن بني إسرائيل : ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة : ٧٩] .

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » . ووجوبهما وجوب كفائي يخاطب به الجميع ، ويسقط بمن يقوم به ، وإن كان العالم به واحدًا تعين عليه ، وإن كانوا جماعة لكن لا يحصل المقصود إلا بهم جميعًا تعين عليهم .

س٢- هل للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من شروط ؟

ج- قال شيخ الإسلام : لابد من العلم بالمعروف والمنكر والتمييز بينهما ، الثاني : لابد من العلم بحال المأمور ، والمنهي ، ومن الصلاح : أن يأتي بالأمر والنهي بالصراط المستقيم ، وهو أقرب الطرق إلى حصول المقصود ، ولابد في ذلك من الرفق ، ولابد أن يكون حليمًا صبورًا على الأذى ، فإنه لابد أن يحصل له أذى ، فإن لم يحلم ويصبر ، كان ما يفسد أكثر مما يصلح ، فلا بد من الحلم ، والرفق ، والصبر ، والعلم قبل الأمر والنهي ، والرفق معه ، والصبر بعد . انتهى .

ويشترط في وجوب الإنكار : أن يأمن على نفسه ، وأهله ، وماله ؛ فإن خاف على نفسه سوطًا ، أو عصًا ، أو أعظم من ذلك ؛ كالسيف أو نحوه سقط عنه ، أمرهم ونهيهم ؛ فإن خاف السب أو سماع الكلام السيئ لم يسقط عنه الحزم ألَّا يبالي لما ورد : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » . وقوله : « لا يمنعن أحدكم هيبة الناس » . ومقام الأنبياء ، واتباعهم بالصدع بالحق ، معلوم مشهور ، فمن أراد الاقتداء بهم وجده ، والله الموفق .

☐ درجات إنكار المنكر :

س٣- ما هي درجات إنكار المنكر ؟

ج- قال ابن القيم رحمه الله : فإنكار المنكر له أربع درجات :

الأولى : أن يزول ويخلفه ضده .

الثانية : أن يقل ، وإن لم يزل من جملته .

الثالثة : أن يخلفه ما هو مثله .

الرابعة : أن يخلفه ما هو شر منه .

فالدرجتان الأوليان مشروعتان ، والثالثة موضع اجتهاد ، والرابعة محرمة .

س٤- ما رأي أهل السنة والجماعة في إقامة الحج ، والجهاد ، والجمع مع الأمراء ؟

ج- يرون إقامة الحج والجهاد والجمع مع الأمراء أبرارًا كانوا أو فجارًا ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩] ؛ وفي الصحيح : « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » .

وعن أبي هريرة مرفوعًا : « الجهاد واجب عليكم مع كل أمير برًا كان أو فاجرًا » . رواه أبو داود .

وفي الحديث الآخر : « الجهاد ماض منذ بعثني الله ﷻ حتى يقاتل آخر أمتي الدجال لا يبطله جور جائر ، ولا عدل عادل ، والإيمان بالأقدار » رواه أبو داود[(١)] .

وقد كان الصحابة ﷺ يصلون خلف من يعرفون فجوره ؛ كما صلى عبد الله بن مسعود وغيره من الصحابة خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وقد كان يشرب الخمر ، وصلى مرة أصبح أربعًا ، وجلده عثمان بن عفان على ذلك ، وكان عبد الله بن عمر ، وغيره من الصحابة ، يصلون خلف الحجاج بن يوسف ، وكان الصحابة والتابعون يصلون خلف أبي عبيد وكان متهمًا بالإلحاد وداعيًا إلى الضلال .

□ النصيحة :

س٥- ما معنى النصيحة ؟ وما معنى الإدانة بها ؟ ولمن هي ؟

ج- قيل : هي حيازة الحظ للمنصوح له ، وقيل : إخلاص النية من الغش للمنصوح له ، ومعنى إدانتهم بها التعبد بها ، وأما الذي هي له فكما في الحديث في جوابه ﷺ : « لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » .

س٦- ما معنى حديث « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا » إلخ ؟

ج- الحديث يفيد أن المؤمنين من شأنهم التناصر ، والتكاتف ، والتظاهر على مصالحهم الخاصة والعامة ، وأن يكونوا متراحمين متحابين متعاطفين ؛ كما في الحديث الآخر الذي رواه البخاري ومسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . ويفيد أن يكونوا على هذا الوصف ، فكما أن البنيان المجموع من أساسات وحيطان تحيط بالمنازل ، وسقوف ، وعمد ، كل نوع من ذلك لا يقوم بمفرده قيامًا تامًا قويًا حتى ينضم بعضها إلى بعض ، وإن قام فهو قيام ضعيف عرضه للعواصف ، والعوامل التي تزلزله أو تطرحه ، فيجب على المؤمنين أن يراعوا قيام دينهم وشرائعه ، وما يقوم ذلك ويقويه ، ويزيل

---

(١) تقدم تخريجه .

موانعه وعوارضه ، متساعدين يرون الغاية واحدة ، وإن تباينت الطرق والمقصود واحد ، وإن تعددت الوسائل ، ومثّل ﷺ اتحاد المسلمين وتعاونهم بالتشبيك بين الأصابع ، وهو إدخال بعضها في بعض ، وذلك يزيد في قوة كل من اليدين والأصابع ، ويفيد الحديث النهي عن التفرق والاختلاف ، والتخاذل والتعادي .

□ الحث على التوادد والتراحم والتعاطف :

س٧- ما معنى قوله ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » ؟

ج- التوادد والتراحم والتعاطف كلها من باب التفاعل الذي يستدعي الجماعة في أصل الفعل ، فالتراحم رحمة بعضهم بعضًا بسبب الأخوة الإيمانية ، والتواد والتواصل: الجالب للمحبة كالتزاور ، والتهادي .

والتعاطف : إعانة بعضهم بعضًا كما يعطف الثوب على الثوب ، تقوية له ؛ فالنبي ﷺ يمثل المؤمنين ، وأنهم كالجسد الواحد ، فكما أن الجسد إذا مرض منه عضو تألم له جميع البدن ، فكذلك المؤمنون حقيقة إذا ناب واحد منهم نائبه ، شعر بألمها الباقون ، فسعوا حسب طاقتهم لإزالة ما أصابه ، فهم كشخص واحد ، وكل فرد بالنسبة للمجموع كالعضو بالنسبة للشخص ، قال تعالى : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح : ٢٩] ، وفي الحديث : « من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » إلخ . وفي الحديث الآخر : « المؤمن أخو المؤمن ، يكف عن ضيعته ويحوطه من ورائه » . ففي الحديث : دليل على عظم حق المسلم على أخيه ، والحث على ما يكون سببًا للثلاث المذكورة في الحديث .

س٨- بين معاني ما يلي من الكلمات (الصبر - البلاء - الرخاء - الشكر - الرضى) .

ج- الصبر : حبس النفس على ما تكره تقربًا إلى الله ، وأقسامه ثلاثة : صبر على طاعة الله ، وصبر عن معاصي الله ، وصبر على أقدار الله المؤلمة .

والبلاء : الغم والتكليف ، والبلاء يكون منحة ، ويكون محنة .

والشكر : عرفان الإحسان ، ونشره .

والرخاء - بالفتح - وسعة العيش ، والرضى ضد السخط .

المكارم : جمع مكرمة ، وهي كل فائق في بابه ، يقال : كريم .

ومحاسن الأعمال : جميلها .

فأهل السنة يدعون إلى كل خلق فاضل ، ويحثون على ذلك .

س٩- ما معنى قوله ﷺ : « أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم أخلاقًا » ؟

ج- الخلق يطلق على كل صفة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال بسهولة من غير تكلف ، وهو صورة الإنسان الباطنة ، وورد في الحث على حسن الخلق أحاديث كثيرة ، ومن جملتها هذا الحديث ، ومما يثمره حسن الخلق تيسير الأمور لصاحبه ، وحب الخلق له ، ومعونتهم له ، والابتعاد عن أذاه ، وقلة مشاكله في الحياة مع المعاملين والجالسين له ، واطمئنان نفسه ، وطيب عيشه ، ورضاه به .

ومن محاسن الأخلاق : الصدق ، والشهامة ، والنجدة ، وعزة النفس ، والتواضع ، والتثبت ، وعلو الهمة ، والعفو ، والبشر ، والرحمة ، والحكمة ، والشجاعة ، والوقار ، والصيانة ،والصبر ، والورع ، والحياء ، والسخاء ، والنزاهة ، وحفظ السر ، والقناعة ، والعفة ، والإيثار ، ونحو ذلك . وفي الحديث : دليل على أن الأعمال داخلة في الإيمان .

وفيه : تفاضل الناس في الإيمان ، والرد على من زعم أن الإيمان ، لا يزيد ولا ينقص ، فمما و د في مدح حسن الخلق ، والحث عليه قوله ﷺ : « ألا أخبركم بأحبكم إلى الله ، وأقربكم منى مجلسًا يوم القيامة » . قالوا : بلى ، قال : « أحسنكم أخلاقًا » .

وقوله : « لن تسعوا الناس بأموالكم ، ولكن سعوهم ببسط الوجه ، وحسن الخلق » .

وقوله : « ما من شيء يوضع في ميزان العبد أثقل من حسن الخلق » .

وقوله ﷺ ؛ لما سُئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة : « تقوى الله وحسن الخلق » .

□ صلة الرحم :

س١٠- ما هي الرحم ؟ وبأي شيء تكون صلتها ؟ وما معنى العفو والظلم ، والحرمان ؟ وما دليل أهل السنة على حثهم على هذه الخصال وعملهم بها ؟

ج-الرحم : القرابة ؛ لأنها داعية التراحم بين الأقرباء ، وتكون بزيارتهم ، ومعونتهم بالنفس ، وبالمال هدية ، وصدقة إن كانوا فقراء ، وهدية إن كانوا أغنياء ، ويعمل كل ما يستطيع من جر نفع ودفع ضر .

ومعنى العفو : الصفح والتجاوز عن الذنب ، ومعنى الظلم : وضع الشيء غير موضعه ، وأما الحرمان ، فمعناه : المنع ؛ أما دليلهم على صلة الرحم ، فلما ورد عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « الرحم معلقة بالعرش تقول : من وصلني وصله الله ، ومن قطعني قطعه الله » . متفق عليه .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا قال : يا رسول الله ، إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني ، وأحسن إليهم ويسيئون إلي ، وأحلم عنهم ويجهلون علي ، فقال لئن كنت كما قلت ، فكأنما تسفهم المل ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك » . رواه مسلم .

وأما الدليل على العفو ، فقوله تعالى : ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ [النور : ٢٢] ، ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

وفي حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم : « وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا » .

وأما دليلهم على إعطاء من حرم ، فحديث أبي هريرة ، قوله : « إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني ...» الحديث .

□ بر الوالدين :

س١١- ما معنى بر الوالدين؟ وبأي شيء يكون برهما؟ وما الدليل على ذلك؟

ج- البر : الصلة ، والخير ، والاتساع في الإحسان ، وبر الوالدين يكون بطاعتهما بما لا يخالف الشرع وبالإحسان إليهما ، وبإكرامهما ، وبالتواضع لهما ، والشفقة عليهما ، والتلطف بهما ؛ بأن يقول لهما : قولًا حسنًا ، وكلامًا طيبًا مقرونًا بالاحترام ، والتعظيم ، مما يقتضيه حسن الأدب ، وغير ذلك مما يجب لهما عملًا بقوله تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] الآية ، والآيات الأخر ، والأحاديث .

□ الإحسان إلى الجار :

س١٢- من هو الجار؟ وبأي شيء يكون الإحسان إليه؟ وما هو الدليل على ذلك؟

ج- الجار : يطلق على الداخل في الجوار ، والساكن مع الإنسان ، وعلى المجاور في البيت الملاصق بيته لبيتك ، وعلى الساكن في البلد ، وعلى أربعين دارًا من كل جانب .

وعنه ﷺ : « الجيران ثلاثة : جار له حق واحد وهو المشرك ، له حق الجوار ، وجار له حقان وهو المسلم ؛ له حق الجوار وحق الإسلام ، وجار له ثلاثة حقوق ، وهو المسلم القريب ؛ له حق الجوار ، وحق الإسلام ، وحق الرحم » .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله : « وما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » . رواه البخاري ومسلم .

والإحسان يكون بعمل ما يستطيع معه من أنواع الخير بإهداء ما تيسر ، وبداءته بالسلام ، وإظهار البشر له وإعانته ، والتوسيع له في معاملة وقرض ، وعيادته وتعزيته عند المصيبة ، وتهنئته بما يفرحه ، ويستر ما انكشف له من عورة ، ويغض بصره عن محارمه ، ومنع أولاده من أذى أولاد جاره ، ولا يرفع عليه الراديو إن كان ممن قد ابتلي به في أوقات راحتهم ؛ لأنه ينشأ عنه سهرهم وأطفالهم وأذيتهم لا سيما إذا كان مفتوحًا على أغاني والعياذ بالله ، ولا يلقي حول بابه ما يتأذى به جاره ، ولا يطلّ عليهم من سطح أو نافذة ، ويتلطف لأولاده ، ويصفح عن زلته ، ونحو ذلك من أعمال الخير ، ودفع ما يؤذي .

□ الإحسان إلى اليتيم :

س١٣- من هو اليتيم؟ وبأي شيء يكون الإحسان إليه؟ وما الدليل على ذلك؟

ج- اليتيم من مات أبوه ولم يبلغ ، والإحسان إليه يكون بكفالته ، وتعليمه ، ورعاية حاله ، والتلطف

به ، وإكرامه ، والشفقة عليه ، والعناية بأموره ، وتنمية ماله ، ونحو ذلك من أنواع الإحسان إليه ، وقد ورد في الحث على الإحسان إليه آيات وأحاديث .

أما القرآن : فقوله تعالى : ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة : ٢٢٠] ، وقال : ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى : ٩] ، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام : ١٥٢] ، وقال : ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ [البلد : ١١- ١٥] .

وأما الأحاديث فمنها : حديث سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا » . وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما . رواه البخاري .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن نبي الله ﷺ قال : « من قبض يتيمًا من بين المسلمين إلى طعامه ، وشرابه أدخله الله الجنة البتة إلا أن يعمل ذنبًا لا يغفر » . رواه الترمذي ، وقال : حسن صحيح .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا شكا إلى النبي ﷺ قسوة قلبه ، فقال : « امسح رأس اليتيم ، وأطعم المسكين » . رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

□ الإحسان إلى المسكين وابن السبيل :

س١٤- من المسكين ؟ ومن ابن السبيل ؟ وما معنى الإحسان إليهما ؟ وما معنى الرفق بالمملوك ؟ وما هو الدليل على ذلك ؟

ج- أما المسكين : فهو الساكن لما في أيدي الناس لكونه لا يجد شيئًا ، وإذا أطلق دخل فيه الفقير وبالعكس ، وإذا ذكرا معًا كما في أصناف الزكاة ، فقال بعض المفسرين لآية الزكاة : إن الفقير هو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئًا ، والمسكين هو الذي يسأل ويطوف يتتبع الناس .

وقيل : الفقير من به زمانة ، والمسكين : الصحيح الجسم .

وأما ابن السبيل : فهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفر ، ويكون الإحسان إلى المساكين ، وأبناء السبيل بأنواع الإحسان من صدقة فريضة ونافلة ، وإعارة ، وهدية ، وتقريبهم ، والتلطف بهم ، وإكرامهم ونحو ذلك ، وقد حث الله على الإحسان إلى المساكين ، وأبناء السبيل في عدة آيات ، قال تعالى : ﴿يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة : ٢١٥] .

وكما في آية الحقوق العشرة : ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء : ٣٦] الآية ، وآية براءة : ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة : ٦٠] الآية .

وأما الأحاديث : فعن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ : « الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله » الحديث .

وثبت عن النبي ﷺ أنه جعل يوصي أمته في مرض الموت يقول : « الصلاة الصلاة ، وما ملكت إيمانكم » . والرفق بالمملوك بأن لا يكلفه ما لا يطيق ، ويلين له الجانب ، فورد عنه ﷺ : أنه قال : « لا يدخل الجنة سيئ الملكة » .

وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « هم إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتوهم فأعينوهم » . أخرجاه ، والله أعلم .

س١٥- بين معاني ما يلي من الكلمات ، وأدلة أهل السنة على النهي عنها ؟ الفخر - الخيلاء - الاستطالة ؟

ج- الفخر : التمدح بالخصال . والخيلاء : الكبر ، والاستطالة على الخلق والتعدي ، والترفع عليهم ، واحتقارهم والوقيعة بينهم ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان : ١٨] ، وقال : ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف : ١٤٦] الآية ، وقال : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف : ٤٠] الآية ، ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر : ٦٠] ، والآيات في القرآن كثيرة في ذم الكبر .

وأما السنة : فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « بينما رجل ممن كان قبلكم يجر إزاره من الخيلاء فخسف به ، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة » . رواه البخاري والنسائي .

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة » . فقال أبو بكر : يا رسول الله إن إزاري يسترخي إلا أني أتعاهده ، فقال رسول الله ﷺ : « إنك لست ممن يفعله خيلاء » . رواه مالك والبخاري .

وعن عياض بن حماد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أوحي إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد » . رواه مسلم وأبو داود .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أربعة يبغضهم الله : البياع الحلاف ، والفقير المختال ، والشيخ الزاني ، والإمام الجائر » . رواه النسائي وابن حبان في صحيحه .

وعن أبي بكر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في خطبة الوداع : « إن دماءكم وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا هل بلغت » . رواه البخاري .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كل المسلم على المسلم حرام ؛ دمه وعرضه وماله » رواه مسلم والترمذي .

□ نماذج من معالي الأخلاق ونماذج من سفسافها :

س١٦- اذكر شيئًا من معالي الأخلاق وشيئًا من سفسافها ، ودليل أهل السنة على الأمر بمعالي الأخلاق ، ودليلهم على النهي عن سفسافها ؟

ج- أما مثال معالي الأخلاق : العفة ، الأمانة ، الشجاعة ، السخاء ، الحياء ، التقى ، والتواضع ، العدل والحلم والصدق وحسن الخلق ، وسائر الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة ، وأما مثال سفسافها : الظلم ، البخل ، الشح ، الخيانة ، المكر ، الكذب ، الحسد ، الغيبة ، النميمة ، الجبن ونحو ذلك ، قال اللّٰه تعالى : ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف : ١٩٩] . وقال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل : ٩٠] . وقال ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء : ٩] . ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى : ٥٢] . ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل : ٧٩] . وقال أبو سفيان حينما قال له هرقل : فماذا يأمركم ؟ قلت : يقول : اعبدوا اللّٰه وحده ، ولا تشركوا به شيئًا ، واتركوا ما كان يعبد آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة ، والصدقة ، والعفاف ، والصلة . وعن سهل بن سعد مرفوعًا : « إن اللّٰه كريم يحب الكرم ، ومعالي الأخلاق ويكره سفسافها » . وعن جابر مرفوعًا : « إن اللّٰه يحب مكارم الأخلاق ويكره سفسافها » .

□ طريقة أهل السنة وعلاقتهم الفارقة :

س١٧- ما هي طريقة أهل السنة والجماعة ؟ وهل لهم من علامة تميزهم عن غيرهم ؟

ج- طريقتهم دين الإسلام الذي بعث به اللّٰه محمدًا ﷺ ، قال اللّٰه تعالى : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران : ٨٥] ، وعلامتهم الفارقة هي المشار إليها بقوله ﷺ : « من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي » .

س١٨- من الصديق ؟ ومن الشهيد ؟ ومن المراد بأعلام الهدى ، ومصابيح الدجى ؟

ج- الصديق : هو الذي صدق في قوله وفعله ، الكثير الصدق .

والشهيد : هو من قتل في المعركة ، والمراد بأعلام الهدى : العلماء ، وسمي العالم علمًا ؛ لأنه يهتدى بعلمه ، وكذلك مصابيح الدجى ، وهذا تشبيه لعلماء السنة المهتدين ، وأهل الخيرات من المصلحين في الأمة بالجبال الشاهقة ، والعلامات الواضحة التي يعرفون بها طريق الفلاح ، والفوز وبالمصابيح النيرة التي تضيء الطريق للساكنين .

س١٩- ما هي المناقب ؟ وما هي الفضائل ؟ ومن هم الأبدال ؟ ومن المراد بأئمة الدين ؟

ج- المناقب : المفاخر والفضائل ؛ جمع فضيلة ، وهي ضد النقيصة .

وأما الأبدال ، قيل : هم الأولياء والعباد . وقيل : هم الذي يجددون الدين يخلف بعضهم بعضًا في

الذب عنه ؛ كما في الحديث يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها ، وأما الأئمة في الدين ، فهم العلماء المقتدى بهم قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة : ٢٤] . قال بعض العلماء : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين . أخذًا من الآية الكريمة . والله أعلم .

وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم

وكان الفراغ من هذه الأسئلة والأجوبة ضحوة الأربعاء

في الساعة الواحدة والنصف في محرم ٣٠ /١٣٨١هـ

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾

[الإسراء : ١١١]

فهرس موضوعات الجزء الثالث

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

❁ ❁ ❁

من إصدارتنا :

شرحُ
الأربعينَ النَّوَوِيَّة

شرحها العلماء الأجلاء :

الإمام العلامة محيي الدين النووي

الإمام العلامة ابن دقيق العيد

العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

العلامة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين

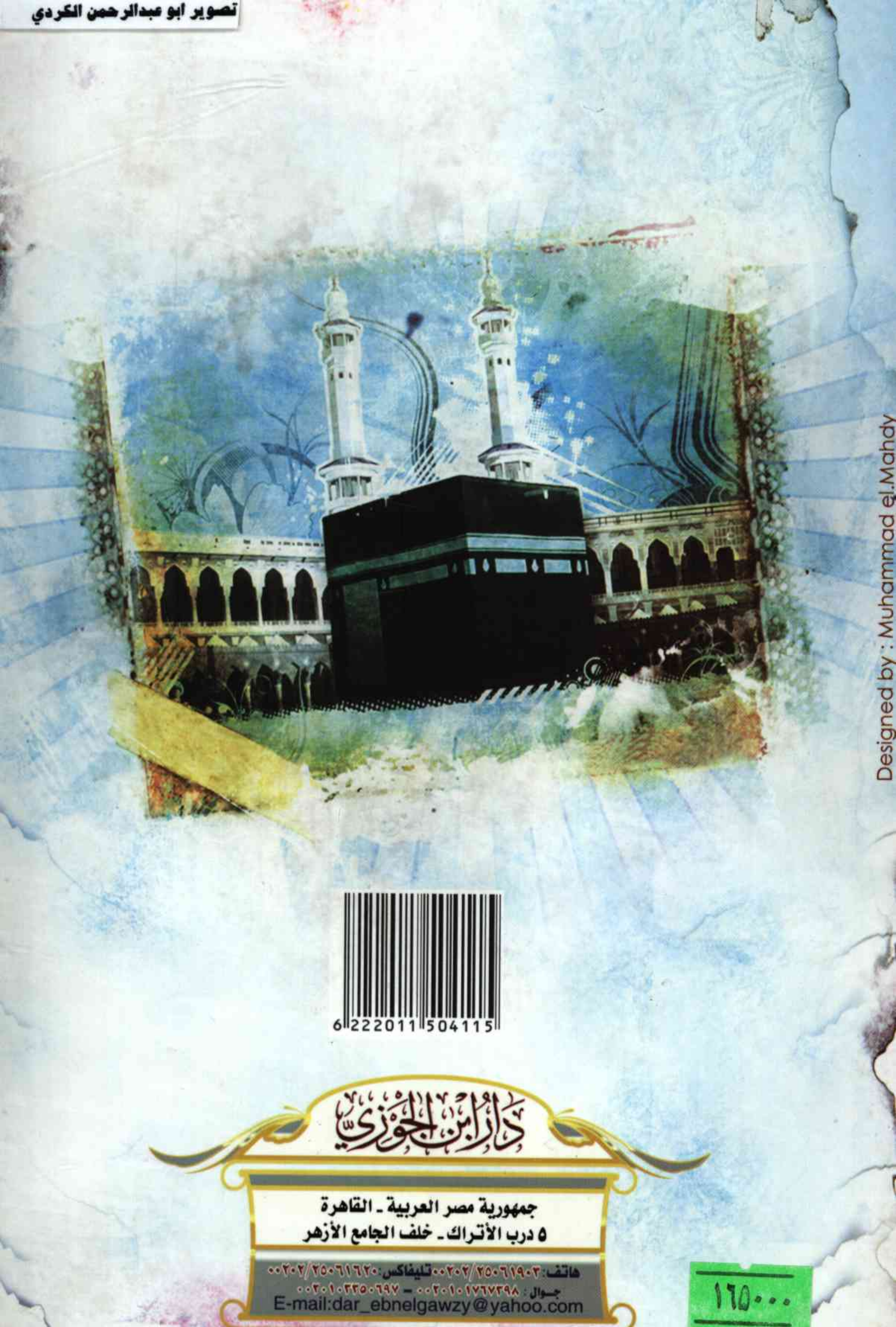
الناشر
دار ابن الجوزي

من إصدارتنا :

مجموعة دروس وفتاوى الحرم المكي

لفضيلة الشيخ
محمد بن صالح العثيمين

الناشر
دار ابن الجوزي


تصوير ابو عبدالرحمن الكردي
Designed by : Muhammad el.Mahdy
6 222011 504115
دار ابن الجوزي
جمهورية مصر العربية ـ القاهرة
٥ درب الأتراك ـ خلف الجامع الأزهر
هاتف: ٠٠٢٠٢/٢٥٠٦١٩٠٣ تليفاكس: ٠٠٢٠٢/٢٥٠٦١٦٢٠
جوال: ٠٠٢٠١٠١٧٦٧٣٩٨ - ٠٠٢٠١٠٣٣٥٠٦٩٧
E-mail:dar_ebnelgawzy@yahoo.com
١٦٥٠٠٠